المملكة العربيه السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة ام القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

٣٠١٠٢٠٠٠٠٢٧٦٥

أسباب سقوط الشيوعية
(الماركسية)

رساله مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

إعداد الطالب
أحمد بن عبد الله بن جمعان آل سرور الغامدي

٥١٤٠٠٠

إشراف الدكتور
سليمان بن عبد الله السلومي

المجلد الأول
١٤١٦هـ - ١٤١٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أحمد بن عبد الله بن جمعان بن سرور الغامدي **كلية** : الدعوة وأصول الدين **قسم** : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير **في تخصص** : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((أسبـــــاب سقـــوط الشيوعيـــــة " الماركسيـــــة "))

==========

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ...

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه – والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤١٨/٢/٩هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الداخلي
الاسم : د. سليمان بن عبدا لله السلومي	الاسم : د. محمود محمد مزروعه	الاسم : د. عبد الله بن عمر الدميجي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم :

التوقيع :

١٤٢٨/١/١٧

يوضع هذا النموذج امام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : {فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون}(١)

قال تعالى : {سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا}(٢)

قال صلى الله عليه وسلم : [كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه](٣)

---

(١) سورة الروم : (٣٠) .
(٢) سورة الأحزاب : (٦٢) .
(٣) متفق عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

ملخص رسالة ماجستير مقدمة من الطالب أحمد بن عبد الله بن جمعان بن سرور الغامدى بعنوان : "**أسباب سقوط الشيوعية (الماركسية)**"

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبى بعده ، وبعد :

تتكون الرسالة من مقدمة وثلاثة أبواب وتحت كل باب عدة فصول .

المقدمة تحدثت فيها عن فساد أوروبا ودور الكنيسة فى ذلك وعوامل قيام الشيوعية

والفصل الأول تحدثت فيه عن مراحل الإشتراكية عبر التاريخ .

وفى الفصل الثانى تحدثت عن أهداف ومبادىء الشيوعية وعرضتها كما جاءت عند الشيوعيين دون الرد عليها .

وفى الفصل الثالث تحدثت عن الشيوعية وعلاقتها بالصهيونية وبينت الرابطة الوثيقة بينهما .

وفى الفصل الرابع تحدثت عن المادة وقوانينها وأقسامها .

أما الباب الثانى فكان بعنوان أسباب سقوط الشيوعية الداخلية وفيه خمسة فصول

الفصل الأول مصادمة الشيوعية للفطرة ، فطرية التدين وفطرية التملك وفطرية الزواج وفطرية التجمع والانتماء .

الفصل الثانى : القضاء على الحريات كحرية الدين والفكر والسياسة والتعليم ، وأثر ذلك فى سقوط الشيوعية .

الفصل الثالث : فشل النظام الاقتصادى الشيوعى ، وبينت فيه أهم المرتكزات الاقتصادية الشيوعية وبينت أثر ذلك الفشل فى السقوط .

الفصل الرابع : فساد تنبؤات الماركسية ، وضربت الأمثلة على ذلك ثم بينت أثر ذلك التصادم والعدولات التى سجلها زعماء الشيوعية .

الباب الثالث : أسباب سقوط الشيوعية الخارجية ، وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الحرب الباردة وتحدثت فيه عن أبرز وسائلها بين الدولتين الكبريين ثم بينت أهم آثارها .

الفصل الثانى : الوفاق الدولى ، وبينت فيه معنى الوفاق وأهدافه ونتائجه وأثره فى سقوط الشيوعية .

الفصل الثالث : الجهاد الأفغانى ، تحدثت فيه عن علاقة الاتحاد السوفييتى بأفغانستان ثم غزو السوفييت لها وأثر ذلك فى سقوط الشيوعية .

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات .

	الطالب	المشرف	العميد
الاسم :	أحمد عبد الله سرور الغامدى	د. صالح عبد الله السلوم	د. محمد عبد محمد
التوقيع :			

شكر وتقدير

الحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا ، والشكر له جل وعلا على توفيقه وتسخيره وإنعامه ، شكرا يليق بجلاله على مايسره لى من إتمام هذه الدراسة فله الحمد والشكر من قبل ومن بعد .

ثم أتقدم بالشكر للمشرف على هذه الرسالة فضيلة الشيخ الدكتور سليمان بن عبد الله السلومى والذى تحمل معى مشاق ومتاعب البحث وفتح لى صدره وبيته ، وأفدت من توجيهاته وتصويباته ، فأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك كله فى ميزان حسناته .

كما أتقدم بالشكر لفضيلة الشيخ الدكتور عبد الله بن عمر الدميجى الذى أشار على بالموضوع ورعانى بتوجيهه وفتح لى بيته ، ومكتبته ، ثم تفضل مشكورا بالموافقة على مناقشة الرسالة ، فأسأل الله تعالى أن يجزل له المثوبة ، وأن يعظم له الأجر .

كما أتقدم بالشكر لفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور محمود محمد مزروعة على تفضله بالموافقة على مناقشة الرسالة رغم ضيق وقته وانشغاله ، فأسأل الله تعالى أن يجزل له الأجر والمثوبة .

ولايفوتنى أن أتقدم بالشكر لجامعة أم القرى ممثلة فى كلية الدعوة وأصول الدين والتى يسرت لى طلب العلم الشرعى ومواصلة الدراسة ، فجزى الله القائمين عليها خير الجزاء .

كما أتقدم بالشكر لكل من قدم لى عونا أو مساعدة فى كتابة هذه الرسالة سواء كان ذلك بكتاب ، أو توجيه ، أو مشورة ، أو نصيحة فلهم منى جميعا جزيل الشكر والعرفان .

وأسأل الله تعالى أن يعظم لهم الأجر والمثوبة ، إنه سميع مجيب الدعاء وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلامضل له ومن يضلل فلاهادى له .

وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . **{يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون}**[1].

{يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا}[2].

{يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما}[3][4].

أما بعد .. خلق الله تبارك وتعالى الخلق ورزقهم ، ولعبادته أوجدهم وعلى محبته والاعتراف بوحدانيته فطرهم ، وبكل خير أمرهم ، وعن كل شر حذرهم ، وعلى سائر المخلوقات فضلهم ، وجعل مافى الكون مسخرا لهم ليحققوا مافرض عليهم من توحيد ربهم . فأراد تعالى أن يمحص مافى قلوبهم وأن يبلو أخبارهم ، فاقتضت حكمته جل وعز أن يجعل من مخلوقاته عدوا لهم ، ليبتليهم وليميز الخبيث من الطيب منهم ، وليعلم من يصبر على أمره ، ويجتنب نهيه ، ممن يرتكب ماحرم عليه ويتجاوز حده ، لتنال طائفة منهم وعده ، ويحق على الأخرى وعيده ، وتمضى فى الطائفتين سنته .

---

(١) سورة آل عمران : (١٠٢) .
(٢) سورة النساء : (١) .
(٣) سورة الأحزاب : (٧٠-٧١) .
(٤) خطبة الحاجة . رواه أبو داود (٢/٤٧٠-٤٧١) الحديث (٢١١٨) ، كتاب النكاح ، باب فى خطبة النكاح ، والترمذى (٣/٤١٣) الحديث (١١٠٥) ، كتاب النكاح ، باب فى خطبة الكناح .

ومن هنا كان الصراع بين الحق والباطل منذ أن خلق الله تعالى آدم وأسجد له ملائكته ، وزادت حدة الصراع بعد أن أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض . ثم كان الصراع الدائم بين الحق والباطل ، فضعفت نفوس فريق من الناس ، وتعلقت بالدنيا وزخارفها ، فانتكست فطرها وتمردت على خالقها ، وارتكبت مالايرضى ربها حيث أشركت به تعالى . حين ذلك أرسل الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتب ليصححوا ذلك الانحراف ، ويعيدوا الفطر إلى صفائها وعهدها الأول .

فاستجاب لهم من استجاب وبقى الآخرون فى غيهم .

وعلى قدرالتمسك بمنهج الله تعالى يكون الثبات على الحق ، وعلى قدر البعد عن منهجه جل وعلا يحدث الانحراف فى تصوراتهم وأفكارهم ومناهجهم .

وبسبب البعد عن منهج السماء وجدت الأفكار المنحرفة ، والآراء المعوجة ، والمذاهب المختلفة ، وكل ذلك بسبب التخبط فى ظلمات الجهل ، والبعد عن نور السماء ، ومنهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وكان من حكمته تعالى أن تكون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم آخر الرسالات وأشملها وأعمها ، حيث أرسل عليه السلام للبشرية كافة ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وكانت رسالته ناسخة لكل الشرائع السماوية السابقة ، ولايسع أحد الخروج عليها أو البقاء على ديانة أخرى ـ سواء كانت ديانة محرفة أو وضعية ـ مع وجودها .

واختار المولى جل وعلا لرسوله صلى الله عليه وسلم صحب كرام ، قدموه على أنفسهم وأهليهم ، وحبوه أكثر من آبائهم وأمهاتهم . فأصبح ذلك الجيل خير قرن بشهادة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، حيث حملوا لواء التوحيد ، ونافحوا عنه ، وتصدوا لأهل الضلال والطغيان ، ثم جاء من بعدهم ، التابعون لهم وأتباعهم وكانوا قرونا خيرة على نهج صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . تصدوا لفرق الضلال ، وأصحاب البدع والأهواء فكشفوا أباطيلهم ، وأبانوا انحرافهم وضلالهم ... ثم تعاقبت

الأجيال ، وتتالت القرون وكلما زاد الابتعاد عن القرون الأول ، زاد البعد عن منهج الله تعالى ومنهج رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بسبب التخاذل والانغماس فى ملذات الدنيا وشهواتها ، والتقاعس عن حمل الرسالة المنوطة بهم من أجل تبليغها . فدب الانحراف فى جسم الأمة سواء فى الأمور العقدية أو التشريعية . فأدى ذلك إلى ضعفها وتفككها ، وانقسامها إلى فرق وأحزاب ، وتصارعها مع بعضها بعضا . فوجد الأعداء تلك الفرصة فاستغلوها أيما استغلال ونفذوا من خلال هذه الثغرة لينفثوا سمومهم وليحققوا مآربهم وأهدافهم . وذلك حين فقدت الأمة الكثير من عزها وأصالتها ، بسبب بعدها عن دين ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم ، وكل مايحفظ لها ثباتها ونصرها على أعدائها ، فأصبحت تابعة بعد أن كانت قائدة .

ومن هناولج الأعداء ، وتستروا بشعارات براقة ، ودعاوى كاذبة ، اتخذوها مطية لهم فى تحقيق أهدافهم ونشر أباطيلهم فانخدع بها المسلمون - إلا من رحم ربك - فى ظل غياب الفهم الصحيح لعقيدة التوحيد ، وعرفت الأمة هذه الدعاوى منذ تاريخها الأول ، إلا أنها اتخذت فى الأزمان اللاحقة أساليب أكثر خطورة وأشد خداعا وتمويها ، ففسرت الإسلام بأنه يخدم تلك الأفكار ، ويدعو إليها ، فانطلت تلك المزاعم على كثير من المسلمين - خاصة إذا ماوضعنا فى اعتبارنا التخاذل والركون إلى الدنيا وزخارفها - فسهل تقبلها وعدم رفضها رغم تعارضها مع نصوص الإسلام وتشريعاته ، ومن تلك الدعاوى (الشيوعية) التى هى مسخ لكل عقيدة تقر بالله تعالى ربا .

ومن فضل الله تعالى على هذه الأمة أن كثيرا من علمائها ومفكريها وساستها تنبهوا لهذا الفكر وخطورته فقاموا بمحاربته ، وتبيين ضلاله وإنحرافه ، وخطورته على المسلمين . فتصدى كثير من الكتاب لدراسة هذا المذهب ، وكشف زيفه ، وبيان بطلانه ، وهتك أستاره وكشف آرائه الإلحادية .

هـذا فى حين ، وجد من أبنـاء المسلمين من انخدع بهـذا الفكـر وتبناه ودافع عنه ، وأخذ يقايس بين ماجاء فيه وماجاء فى تشريعات الإسلام وذلك بسبـب الضعف والانهزام النفسـى الذى منى به أولئـك . ومـاذلك إلا بسبب البعد عن دين ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم .

ومـاكان ذلـك الدفاع ، لامـن أصحاب الفكر ولامـن الأتبـاع ليغنى ، حيـث إن الله تعالى بالغ أمـره ، وقدرته نافذة ، وسنتـه ثابتـة ، فأراد تعالى لذلك الفكر أن يسقط ، ولذلك النظام القائم عليه أن ينهار ، كما هى سنته تعالى فى الذين ظلموا من قبل .

وفـاجأ ذلك السقوط الكثير مـن مسلمين وغيرهم ، لأنه كـان سقـوطا مفاجئا لأكبر دولة فى العالم ، أو ثانى أكبر دولة على أقـل تقدير ، من حيث الحسابات المادية ـ غير أن من عرف ذلك المذهب وأصوله كان يعتقد سقوطه وإنهياره ولو بعد حين .

ومـن فضـل اللـه تعـالى على أن التحقـت بجامعـة أم القـرى لمواصلـة دراستى العليـا بقسم العقيدة . وقدر الله عز وجل فى هـذه الأثناء أن يسقط ذلـك الفكـر ، وتنهـار تلـك الـدولة الـدكتاتورية ، ولكـون الشيـوعية (الماركسيـة) مـذهبا فكريا معـاصرا ، وكان الحدث هـو الطـاغى على الساحة العالمية ، أشار على بعض الأساتذة الفضلاء باختيار (أسباب سقوط الشيوعية) موضوعا أتقدم به لنيل درجة الماجستير فى العقيدة .

وبعـد استشارة كثير من الأسـاتذة أبانوا لى أهميـة الموضـوع وجدارته بالـدراسة . وعنـدها أعددت خطـة البحث وتقدمت بها وتمت الموافقـة عليهـا بفضـل مـن الله تعالى . ومـن ثم بدأت فى جمـع المادة العلميـة ، فـوجدت الكثير ممـا كتب عن الشيـوعية من حيث نشأتها ، وفكـرها كمـا وجدت فى هذه الكتابات الإشارة إلى أن مصير ذلك الفكر السقوط نظرا لمصادمته للفطرة الإنسانية ، ولقضائه على الحرية ، فكانت الدراسات السابقة متنوعة وإن كان جل تركيزهـا على بيان فساد النظـرية ، ومصادمة الفطرة الإنسـانية ، والقضاء على الحرية .

ثم بعد سقوط الفكر الماركسى وإنهيار النظام السوفييتى ، وجدت كثيرا من الدراسات التى تناولت ذلك الحدث ، وقد اختلفت هى الأخرى فى توجهاتها .

وعلى هذا يمكننى أن أصنف الكتابات والدراسات السابقة كما يلى :

أولا : الكتب التى ألفها المفكرون والكتاب المسلمون وقد وجد فيها الحديث عن فساد الفكر وكون مصيره الزوال ، ومن ذلك باختصار :

سقوط الماركسية : وحيد الدين خان

حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون : د. عبد الحليم خفاجى

نقض أوهام المادية الجدلية : د. محمد سعيد رمضان البوطى

نقض الإشتراكية الماركسية : غانم عبده

الماركسية بين النظرية والتطبيق : د. عبد المنعم النمر

نقد النظرية الماركسية : هادى المدرسى

موقف الإسلام من نظرية ماركس : د. أحمد العوايشة

هذا بالإضافة إلى الكتب التى تحدثت عن الفكر المادى عامة وأبانت بطلانه ومن ذلك :

الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى : د.محمد البهى

الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه : د.محمد عتمان

تهافت الفكر المادى : د. محمد البهى

الفكر المادى فى ميزان الإسلام : د. صابر طعيمة

عصر الإلحاد : تقى الدين الندوى

نقد الثقافة الإلحادية : د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم

ثانيا : الكتب التى ألفها بعض من اعتنق الفكر الشيوعى ثم تركه بعد أن اتضحت له الحقيقة وعرف زيف وكذب ذلك الفكر ومن ذلك :

المعبود الذى هوى : مجموعة من المؤلفين
الطبقة الجديدة : ميلوفان دجيلاس
حقائق عن نظام الحكم الشيوعى : ليونهارد
تجربة عربى فى الحزب الشيوعى : قدرى قلعجى
تجربتى مع الماركسية : طارق حجى

ثالثا : الكتب والدراسات التى ألفت بعد إعلان جورباتشوف عن السياسة الجديدة فى الاتحاد السوفييتى ، وهى كثيرة وإن اختلفت فى عرضها وطريقة تناولها للموضوع . ومن ذلك :

مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية : أنور الجندى
سادات الماركسية : حسين أحمد صبرا
البرسترويكا من منظور إسلامى : فتحى يكن ومنى حداد
الإنهيار : سامى محمد صالح الدلال
إنهيار إمبراطورية شيوعية : ممدوح لطفى
وسقطت الماركسية : عبد القادر العمارى
عملية إعادة البناء : ميخائيل غورباتشوف
نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية : ميشيل هيلير
الفشل الكبير : بريجنسكى
مجدد الأمم : هيليس كاريروانكوس
غورباتشوف صانع القرار وضحيته : غيردروغ
الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف : آرنست ماندل
النار والجليد : مجموعة من المؤلفين

هذا من حيث الدراسات السابقة وليس مقصودى هنا حصر مارجعت إليه .

على أن الكتابات التى تحدثت عن السياسة الجديدة فى أغلبها خلطت بين أسباب السقوط وآثاره ، كما أنها فى عمومها لايوجد فيها دراسة أفردت الأسباب التى أدت إلى سقوط الشيوعية . هذا بالإضافة إلى أن هذه الدراسات والكتابات وغيرها مما وقعت عليه عينى ليس فيها دراسة جامعية

ومن هنا ولمشورة بعض الأساتذة الفضلاء آثرت الكتابة فى هذا الموضوع دون غيره . بالإضافة إلى الأسباب التالية :

أولا : أن هذا المذهب تتبناه دول متعددة وملايين من الشعوب ، وفجأة سقط .

ثانيا : انتشار هذا الفكر فى المجتمع الإسلامى والعربى والانبهار به ، والدعاوى الباطلة فى جدواه ، والدفاع عنه ، حتى بعد أن سقط فى معقله .

ثالثا : الغفلة والجهل بالواقع ، ومايحيكه الشرق والغرب ضد المسلمين فى ظل تقاربهم (الوفاق الدولى) لاتحاد الأعداء فى معسكر واحد لضرب المسلمين وإبعادهم عن دينهم .

رابعا : إظهار أثر الجهاد الأفغانى فى سقوط الشيوعية وأثر ذلك على الدول الرأسمالية فى تخوفها من الإسلام والمسلمين .

خامسا : استخلاص السنن الربانية فى بقاء الحق واستمراره وزهوق الباطل وإنهياره .

وعنوان البحث (**أسباب سقوط الشيوعية**) .

ويشتمل على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة .

وبيان ذلك مفصلا كالآتى :

المقدمة :

تحدثت فيها عن أهمية الموضوع ، والأسباب الدافعة لاختياره ، وأشرت فيها إلى بعض الدراسات السابقة ، كما ضمنتها خطتى التى سأسير عليها فى كتابة الموضوع .

أبواب الرسالة :

قسمت الرسالة إلى ثلاثة أبواب ، وكل باب إلى عدة فصول ، وكل فصل إلى عدة مباحث .

فالباب الأول : الشيوعية (الماركسية) نشؤها وفكرها .

ويشتمل على تمهيد ، وأربعة فصول .

التمهيد : تحدثت فيه عن الشيوعية كمذهب من المذاهب الفكرية المعاصرة ، نشأ فى البيئة الأوربية التى كانت تساعد على نشوء هذه الأفكار ، حيث الدين المحرف ، وفساد الكنيسة وطغيان رجالها . كما ضمنت هذا التمهيد الحديث عن العوامل التى أدت إلى قيام الشيوعية وانتشارها .

الفصل الأول : الحركات الإشتراكية عبر التاريخ .

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث :

التمهيد : وبينت فيه مختصرا أن الفكر الشيوعى ليس وليد هذا العصر بل يضرب بجذوره إلى أزمان متطاولة فى الماضى .

المبحث الأول : أفلاطون .

المبحث الثانى : المزدكية .

المبحث الثالث : القرامطة .

المبحث الرابع : الإشتراكيون الطوباويون .

المبحث الخامس : ماركس .

المبحث السادس : الشيوعيون بعد ماركس .

الفصل الثانى : الأهداف والمبادىء الأساسية للشيوعية .

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد : وبينت فيه مختصرا أن لكل أمة عقيدة تؤمن بها وإن كانت فاسدة .

المبحث الأول : القضاء على الملكية الفردية .

المبحث الثانى : إلغاء الطبقات وإقامة طبقة البروليتاريا .

المبحث الثالث : كفالة الدولة لجميع المواطنين .

المبحث الرابع : المساواة فى الأجور .

المبحث الخامس : مبدأ من كل حسب كفاءته ولكل حسب عمله .

المبحث السادس : مبدأ من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته.

المبحث السابع : إلغاء الدين .

المبحث الثامن : تأميم وسائل الإنتاج .

المبحث التاسع : الأممية .

المبحث العاشر : إلغاء الدولة .

الفصل الثالث : الماركسية وصلتها بالصهيونية .

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد : ألمحت فيه عن الحياة الأوربية والبيئة التى نشأ فيها ماركس واستغلال اليهود للأحداث ودورهم فى الإفساد .

المبحث الأول : حياة كارل ماركس .

المبحث الثانى : مصادر الماركسية .

المبحث الثالث : الشيوعية وليدة الصهيونية .

المبحث الرابع : البراهين الدالة على أن الشيوعية وليدة الصهيونية .

الفصل الرابع : المادة .

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد : تحدثت فيه عن الإتجاه المثالى والمادى وضربت الأمثلة بالفلاسفة من الإتجاهين ، وأفردت بالدراسة كل من فيشتة وهيغل وفيورباخ نظرا لتأثر ماركس بأفكارهم أكثر من غيرهم .

المبحث الأول : مادية ماركس .

المبحث الثانى : المادية الجدلية .

المبحث الثالث : أزلية المادية وأبديتها وقوانينها .

المبحث الرابع : المادية التاريخية .

المبحث الخامس : التفسير المادى للدين والأخلاق والأسرة .

الباب الثانى : أسباب سقوط الشيوعية (الداخلية) .

ويشتمل على تمهيد وخمسة فصول .

التمهيد : تحدثت فيه عن السنن الربانية ومفهومها ، وعرفت بها فى اللغة والإصطلاح ، ثم بينت مفهوم السقوط ، والأسباب التى أدت إليه وقسمتها إلى قسمين : الأسباب الداخلية ، والأسباب الخارجية ، وبينت مفهوم كل منهما .

الفصل الأول : مصادمة الشيوعية للفطرة .
ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .
التمهيد : تحدثت فيه عن معنى الفطرة لغة وإصطلاحا وبينت القول الراجح فى معناها وأنه مقتضى الأدلة الشرعية والتاريخية .
المبحث الأول : مصادمة الشيوعية لفطرية التدين .
المبحث الثانى : مصادمة الشيوعية لفطرية التملك .
المبحث الثالث : مصادمة الشيوعية لفطرية الزواج والحياة الأسرية .
المبحث الرابع : مصادمة الشيوعية لفطرية التجمع والإنتماء .
الفصل الثانى : القضاء على الحريات .
ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .
التمهيد : تحدثت فيه عن معنى الحرية ومفهومها وأهميتها ، وبينت أنها مقيدة وليست مطلقة .
المبحث الأول : الحرية الشخصية :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا
المبحث الثانى : الحرية الدينية :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا
المبحث الثالث : الحرية الفكرية :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا
المبحث الرابع : حرية التعلم والتعليم .
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا
المبحث الخامس : الحرية السياسة :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا
المبحث السادس : حرية العمل .
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا
المبحث السابع : حرية التنقل :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

الفصل الثالث : فشل النظام الإقتصادى الشيوعى .

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد : تحدثت فيه عن الإهتمام بالإقتصاد ، وأن ماركس أول من فسر أحداث التاريخ تفسيرا إقتصاديا ، وذكرت فيه بعض النظريات الإقتصادية فى روسيا والأوضاع التى ساعدت على انتشار الفكر الماركسى فيها.

المبحث الأول : المذهب الإقتصادى الشيوعى ومرتكزاته .

المبحث الثانى : النظام الإقتصادى الشيوعى بين النظرية والواقع .

المبحث الثالث : نظرية القيمة وفائض القيمة .

المبحث الرابع : مميزات النظام الإقتصادى الإسلامى .

الفصل الرابع : فساد تنبؤات الشيوعية وبطلان نظرياتها .

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد : بينت فيه أن الماركسية قامت فى فكرها على عدد من التنبؤات غير أن الواقع أبطلها وكشف زيفها .

المبحث الأول : فساد نبؤات الماركسية ، وأثر ذلك .

المبحث الثانى : إبطال العلم للأفكار الماركسية .

المبحث الثالث : إبطال قوانين الجدل .

المبحث الرابع : بطلان المادية التاريخية .

الفصل الخامس : مصادمتها للواقع والتغيير فى مبادئها .

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد : تحدثت فيه عن مصادمة الفكر الشيوعى للواقع ثم بينت أثر ذلك التصادم .

المبحث الأول : التراجع والتغيير زمن لينين .

المبحث الثانى : التراجع والتغيير زمن ستالين .

المبحث الثالث : التراجع والتغيير زمن خروشوف .

المبحث الرابع : التراجع والتغيير زمن بريجنيف .

المبحث الخامس : التراجع والتغيير زمن اندروبوف .

المبحث السادس : التراجع والتغيير زمن تشرنينكو .

المبحث السابع : التراجع والتغيير زمن غورباتشوف .

الباب الثالث : أسباب سقوط الشيوعية (الخارجية) .

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول .

التمهيد : تحدثت فيه عن الأسباب الخارجية وبينت أنها أسباب مساعدة فى إنهيار الشيوعية ، كما ألمحت فيه عن الحرب ومفهومها وأساليبها قديما وحديثا .

الفصل الأول : الحرب الباردة .

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد : تحدثت فيه عن الحرب الباردة ومفهومها وأساليبها واستخدامها قديما وحديثا تحت مسميات عديدة ، ثم عرفت بمصطلح الحرب الباردة وبداية استخدامه .

المبحث الأول : أسباب الحرب الباردة ومقدماتها .

المبحث الثانى : الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وأبرز أساليبها .

المبحث الثالث : آثار الحرب الباردة .

المبحث الرابع : إنهاء الحرب الباردة وآثار ذلك .

الفصل الثانى : الوفاق الدولى .

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد : تحدثت فيه عن الوفاق ، ومفهومه ، وتطرقت لدراسة بعض المصطلحات المستخدمة فى العلاقات السوفيتية الأمريكية كالإنفراج ، والتعايش السلمى .

المبحث الأول : بداية الوفاق وفكرته .

المبحث الثانى : أهدافه ونتائجه .

المبحث الثالث : أثر الوفاق فى تنازل الاتحاد السوفييتى عن كثير من مبادئه .

المبحث الرابع : الموقف من الوفاق .

الفصل الثالث : الجهاد الأفغانى .

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد : تحدثت فيه عن فضل الجهاد وأهميته وغايته ، بالإضافة إلى لمحة تاريخية عن أفغانستان .

المبحث الأول : دراسة تاريخية موجزة عن العلاقة بين حكومة الاتحاد السوفييتى وأفغانستان .

المبحث الثانى : التدخل الروسى فى أفغانستان ، وإعلان الجهاد .

المبحث الثالث : الخسائر الفكرية والسياسية والإقتصادية للاتحاد السوفييتى وأثر ذلك فى سقوطه .

المبحث الرابع : موقف الدول الرأسمالية من الجهاد الأفغانى .

الخاتمة : واشتملت على أهم النتائج والتوصيات .

وأود أن أشير إلى بعض المسائل المهمة والتى تعتبر ضوابط عامة فى البحث .

أولا : أن حديثنا هنا ينصرف بالدرجة الأولى إلى الاتحاد السوفييتى (البلد الأم للشيوعية) والموطن الأول للتطبيق العملى للأفكار الماركسية .

ثانيا : نظرا لضخامة المادة العلمية وغزارتها وتشعبها رأيت بالتشاور مع فضيلة المشرف أن يكتفى بالحديث عن الاتحاد السوفييتى دون الدخول فى تفصيلات أحداث أوروبا الشرقية إلا مادعت الحاجة إليه ، مع أن العاصفة بدأت فى بعض دولها قبل إعلان غورباتشوف عن سياسته الجديدة . ومما دفعنى أيضا لاستبعاد أحداث أوروبا الشرقية هو قناعتى التامة بأن كل باب من أبواب هذه الرسالة يصلح أن يكون رسالة علمية مستقلة ، ولاأرانى مبالغا لو قلت إن كل فصل من فصولها يصلح لذلك أيضا .

ثالثا : وإمعانا منى فى عدم تضخم المادة العلمية ، وطولها استبعدت من هذه الدراسة ، الدراسة الميدانية ـ على أهميتها ـ وذلك خشية الإطالة بسرد الحقائق والنتائج الإحصائية ـ هذا فضلا عن جدارة تلك الدراسة وأحقيتها بأن تكون رسالة علمية مستقلة ـ بالإضافة إلى أن عامل اللغة الروسية يشكل عقبة أمام الباحث الميدانى خاصة إذا ماوضعنا فى الاعتبار أن من يتكلم العربية من سكان الجمهوريات مازال الخوف يتملكهم نتيجة للسياسة السابقة مما قد يجعل الدراسة لاتعطى نتائجها العلمية الدقيقة الآن .

رابعا : أن حديثى هنا سيكون مقتصرا على الأسباب التى أدت إلى سقوط الشيوعية وليس عن آثار سقوطها ، لأن بعض الكتاب قد خلط بين الأمرين . على أنى قد جمعت مادة علمية كبيرة فيما يتعلق بآثار تفكك الاتحاد السوفييتى ، تصلح أن تكون بحثا مستقلا ، وحال بينى وبين إبرازها طول الرسالة والفترة الزمنية المحددة لإعدادها .

خامسا : من المسلم به أن عوامل سقوط الشيوعية وآثار ذلك السقوط ونتائجه مازالت مستمرة ومتلاحقة ، الشيشان ، أحداث أفغانستان ، إنضمام بعض دول أوروبا الشرقية لحلف الناتو .

سادسا : أن حديثنا هنا لن يتناول الدول التى بقيت على شيوعيتها (السياسية) مثل الصين وكوبا وفيتنام الشمالية ، حيث إن ذلك يصلح أن يكون بحثا مستقلا لذكر أسباب عدم انهيار الشيوعية فى تلك البلدان وخاصة الصين .

سابعا : نظرا لورود بعض المصطلحات والشخصيات بصورة مستمرة ، فإن من منهجى إذا مر بى مصطلح أو شخصية داخلة فى صلب البحث أرجىء التعريف بذلك لحين الحديث عنه تفصيلا .

ثامنا : لاأود الإشارة إلى الصعوبات التى واجهتنى فى إعداد هذه الرسالة ، سواء من حيث قلة المراجع المرتبطة بالحدث مباشرة وبموضوع الرسالة خاصة . مما اضطررت معه إلى السفر بحثا عن المادة العلمية إلى عدد من الدول وعلى نفقتى الخاصة ، بالإضافة إلى كثرة الخلافات والتفسيرات فيما

يحدث على الساحة السوفيتية ودول أوروبا الشرقية ، وكذلك تسلسل الأحداث وترابطها إلى هذه اللحظة .

هذا وأسأل المولى جل وعلا أن أكون قد أوجدت بعملى هذا لبنة صالحة يبنى عليها ، وحسبى أن هذا جهدى فما كان فيه من صواب فهو من الله تعالى وماكان فيه من خطأ فهو منى ، وأسأله تعالى العفو والغفران كما أسأله جل وعلا أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يعلمنا ماجهلنا **{ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين}**[1].

---

(١) سورة البقرة : (٢٨٦) .

الباب الأول
الشيوعية (الماركسية)

ويشتمل على تمهيد ، وأربعة فصول .

التمهيد

الفصل الأول : الحركات الإشتراكية عبر التاريخ .

الفصل الثانى : المبادىء الأساسية للشيوعية .

الفصل الثالث : الماركسية وصلتها بالصهيونية .

الفصل الرابع : المادة .

الباب الأول
الشيوعية (الماركسية)
نشؤها وفكرها

تمهيد :

إن الباحث حين يدرس مذهبا من المذاهب الفكرية المعاصرة يتعين عليه ، دراسة البيئة التى نشأ فيها ذلك المذهب والعوامل التى أدت الى قيامه وساعدت على بقائه ، وإذا كانت المذاهب المادية والتى وجدت فى أوروبا قد درست ، وكتب فيها كثيرا الا أن دراسة مايتعلق بمذهب منها يجعل الدارس يعرج على تاريخ الفكر الأوروبى ليصل من خلاله الى الأسباب التى أدت الى قيام ذلك الفكر ، أو المذهب الذى تتجه الدراسة إليه .

وإن المتتبع لتاريخ أوروبا وحضارتها المادية ، يجد أنها كانت مسرحا لكثير من الفلسفات والخلافات المذهبية بين الطوائف ، بل بين الطائفة الواحدة ، التى كانت بمثابة المقدمات فى الأعم الأغلب لنشوء تلك المذاهب ومن هنا رأيت أنه يتعين على التقديم بلمحة تاريخية عن أوروبا وحضارتها المادية .

ومن المسلم به أن الحضارة الغربية (المادية) ليست وليدة هذا العصر بل هى امتداد لما سبقها من حضارات قديمة (مادية) أعنى الحضارة اليونانية والرومانية (الماديتين) .

حيث أخذت الحضارة الأوربية الحديثة عنهما ، واستقت منهما كثيرا وتأثرت بهما تأثرا بليغا ـ أضحى ذلك واضحا فى فكرها واقتصادها ، وإن كانت فى صورة تختلف عن سابقتها ، فهى سلسلة واحدة تجمعها أفكار عدة ، وتنفرد بعضها ببعض أفكار حسب زمانها وبيئتها .

يقول أبو الحسن الندوى : (ليست الحضارة الغربية فى القرن العشرين المسيحى وليدة هذه القرون المتأخرة التى تلت القرون المظلمة فى أوروبا أو حديثة كما يتوهم كثير من الناس ، بل يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين

فهى سلسلة الحضارة اليونانية والحضارة الرومية ، قد خلفتهما فى تراثهما السياسى والعقلى والمدنى ورثت عنهما كل ماخلفتا من ممتلكات ونظام سياسى وفلسفة اجتماعية وتراث عقلى وعلمى وانطبعت فيهما ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما بل انحدرت اليها فى الدم فقد كانت الحضارة اليونانية أول مظهر رائع ـ حفظه التاريخ ـ للعقلية الأوربية وأول حضارة سجلها التاريخ ـ قامت على أساس الفلسفة الأوربية تجلت فيها النفسية الأوربية وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومية تحمل روحا واحدة هى الروح الأوربية ، وظلت الشعوب الأوربية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها ، وارثة لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها حتى برزت بها فى القرن التاسع عشر[١] فى ثوب براق يوهمك ـ بطلاوته وزهو ألوانه ـ أنه جديد النسيج ولكن لحمته وسداه من نسيج اليونان والرومان)[٢].

وحيث إن الحديث عن الشيوعية كمذهب من المذاهب التى انتشرت فى أوروبا الشرقية خاصة ، وفى أوروبا عامة ، فلابد من الحديث عن حضارتين وديانتين .

أما الحضارتان فهما الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية ، وأما الديانتان فهما اليهودية والنصرانية .

---

(١) يعتبر عام ١٨١٥م هو المدخل الطبيعى لأوربا القرن التاسع عشر لاعام ١٨٠٠م حيث كانت الصدمات التى أحدثت التصدع فى صرح الأنظمة القديمة الجامدة .
انظر الحضارة الأوربية فى القرن التاسع عشر ١٨١٥-١٩١٤ تأليف جيفرى برون (١٥) ، ترجمة عبلة حجاب ، منشورات المكتبة الاهلية ، بيروت ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، بيروت ، نيويورك ١٩٦٣م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، (١٥٦-١٥٧) ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

أولا : بعض خصائص الحضارة اليونانية :

ان لكل حضارة خصائص تميزها عن الحضارات الاخرى رغم ماقد تشترك فيه معها .

والحضارة اليونانية (إذا نظرنا فيها نظرة تحليل وانتقاد وصرفنا النظر عما تشترك فيه مع الحضارات من مظاهر وظواهر وبحثنا عن طبيعتها وخصائصها وجدنا من المزايا التى تمتاز بها عن المدنيات الاخرى ـ خصوصا المدنيات الشرقية ـ مايلى :

(١) الايمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لايقع تحت الحس .

(٢) قلة الدين والخشوع .

(٣) شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها .

(٤) النزعة الوطنية)[١].

(٥) تمجيد الإنسان واعتباره سيد الخلق[٢].

ويمكن ان نحصر هذه المظاهر المتعددة فى كلمة مفردة وهى (المادية) فكان شعار الحضارة اليونانية (المادية) وهى التى تظهر فى كل مايتصل باليونان من ثقافة وعلم وفلسفة وشعر ودين[٣].

وليس ذلك أمرا مستغربا اذا علمنا أن اليونان قد صوروا آلهتهم (كأنهم بشر ورسموهم فى صورة الإنسان شكلا وقواما وإن تميزوا كلهم تقريبا بالقوة الخارقة والقوام البديع والجمال الرائع . وكانوا كالبشر يحتاجون إلى النوم ويأكلون ويشربون وإن اقتصر طعامهم على الامبروسيا ، وشرابهم على النكتار ، وهما طعام وشراب مقصوران على الآلهة دون سواهم ، وكانوا يحبون ويكرهون ويفرحون ويحزنون ، كانت بالإجمال

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (١٥٧-١٥٨) .

(٢) انظر التاريخ اليونانى ، الدكتور عبد اللطيف أحمد على (١٩٦) ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٣) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (١٥٨) .

تساورهم نفس المشاعر التى تساور بنى الإنسان ويتزوجون وينجبون أولادا ويعقدون علاقات مشروعة وغير مشروعة مع الآلهة ومع البشر . وقد يستبد بهم الغضب الجنونى وتنهش قلوبهم الغيرة العمياء ، بل كانوا لايتورعون أحيانا عن النفاق والمداهنة والكذب والختال . ويسود الوئام بينهم أحيانا وأحيانا أخرى يشيع الخصام . لكنهم كانوا يتميزون عن البشر فى شىء جوهرى وهو أنهم كانوا يعيشون أبدا فى شباب دائم فلاتتقدم بهم السن ولايهرمون . كانوا خالدين لايذوقون طعم الموت وكان زيوس[١] أكثرهم قوة وهيبة وأعلاهم شأنا ومكانا بوصفه ربا للآلهة والناس ولذلك كان بقية الآلهة يدينون له بالطاعة ويمتثلون لأوامره ويخشون بأسه وبطشه ومع هذا فإن ذلك لم يمنع من أن يتبع كل إله هواه وينساق وراء ميوله الخاصة وقد يتمرد على زيوس نفسه أحيانا أو يتملقه أو يداهنه أحيانا أخرى ...)[٢].

هذا شىء من صورة الآلهة عند اليونان .

---

(١) Zeus كبير الآلهة اليونانية مشتق من لفظ بمعنى الضياء واللمعان أو السماء ، أو يسكن السماء التى يرسل منها البرق والرعد . وهو الإله الأعلى عند اليونان ، فهو المسيطر على الظواهر الجوية وعلى الطقس كله . وبقية الآلهة المشهورة هى :
هيرا : اسمها يعنى السيدة راعية النساء وكل مايتصل بحياتهن من زواج وولادة ورضاعة وغيرها وهى زوجة زيوس . انظر التاريخ اليونانى (٢٢٤-٢٣٢) .
هاديس = بلوتون وهو إله العالم السفلى حيث كانت تذهب أرواح الموتى ومعنى الاسم غير المنظور أو الخفى الذى لاتراه العين . واللقب الآخر معناه الغنى ولقب به لأنه مالك باطن الأرض وثرواتها . انظر المرجع السابق (٢٣٢-٢٣٩) .
ديمتير : وهو اسم للربة ومعناها (أم الأرض) أو (ربة الأرض) ومعنى دى مختلف فيه قيل الأرض وقيل نوع من القمح وميتير معناه الأم . انظر المرجع السابق (٢٣٩-٢٤٦) .
بوسيدون : وكان إله البحر . (٢٤٦-٢٦٠) .
هستيا : وهى ربة الموقد . انظر المرجع السابق (٢٦٣ ومابعدها) .
وغيرها من الآلهة المتعددة التى عرفها أهل اليونان . انظر انظر المرجع السابق (٢٦٠-٢٦٢) .

(٢) التاريخ اليونانى (١٩٥-١٩٦) .

وقد عرف عنهم قلة الخشوع . ولاغرابة فى ذلك إذ أنهم صوروا الإله بهذه الصورة التى تجعل الإذعان والخضوع له فى درجة متاخرة من مراعاة أهواء النفس ولذائذ الشهوة .

كما عرف عن اليونانيين كثرة لهوهم وغنائهم ، بل كانوا يتقربون لآلهتهم بالرقص والغناء .

أما حب الوطن عندهم فكان يتعدى فضائل الأخلاق وقد قال ارسطاليس : (ان اليونانيين ينبغى لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم)[١].

ثانيا : خصائص الحضارة الرومانية :

عندما كانت الحضارة الرومانية فى ترتيبها الزمنى بعد الحضارة اليونانية فقد تأثرت بها ، إلا أنها فاقتها فى قضية التنظيم الإدارى والسياسى[٢].

أما من ناحية التعليم والتأليف والأدب ، فانهم تبعوا اليونان فلم يستطيعوا الخروج عما جاءوا به بل تأثروا بهم لدرجة أن لغة التأليف عندهم كانت فى بداية الأمر باللغة اليونانية .

يقول ليكى عن الرومان : (لم يزالوا مأخوذين بسحرهم فى كل قسم من أقسام العلم فكان المؤرخون الأقدمون فى الروم يؤلفون كتبهم باليونانية واستمرت اليونانية لغة التاليف والعلم بعدما بدأ شعراء الروم ينظمون الشعر فى اللاتينية)[٣].

فانتقلت الفلسفة اليونانية إلى الرومان مع ثقافتهم المادية . ومن هنا لم تفرق كثيرا النفسية الرومانية عن اليونانية من حيث الخصائص التى تمس

---

(١) ماذا خسر العالم باخطاط المسلمين (١٦١) .

(٢) ولمزيد عن ذلك انظر الإمبراطورية الرومانية ـ النظام الامبراطورى ومصدر الرومانية ، د. مصطفى العبادى (١١-١٢) ١٩٨١م ، دا ر النهضة العربية للطباعة والنشر .

(٣) نقلا من كتاب ماذا خسر العالم باخطاط المسلمين (١٦٢) .

العقيدة الدينية (بل هناك شبه عظيم بين الأمتين ، إيمان بالمحسوس ، وغلو فى تقدير الحياة ، وشك فى دين ، وضعف فى يقين ، واضطراب فى العقيدة ، واستخفاف بالنظام الدينى وطقوسه ، واعتزاز بالقومية وتعصب لها ، وحب مفرط للوطن . زد إلى ذلك كله اعتدادا بالقوة واحتراما زائدا لها يبلغ العبادة والتقدس ...) . زد على ذلك (أن النظام الدينى الوثنى الخرافى الذى كان سائدا فى رومه يقتضى بطبيعته الشك والاضطراب وضعف الإيمان ، فكلما تقدموا فى العلم وتنورت أفكارهم ، ازدادوا استخفافا به ، وقد قضوا من أول يوم أن الآلهة لادخل لهم فى السياسة وأمور الدنيا)[١].

يقول (سيسرو) :

(لما كان الممثلون ينشدون فى دور التمثيل أبياتا معناها أن الآلهة لادخل لهم فى أمور الدنيا يصغى إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة)[٢].

ومما تقدم عرضه يتضح أن الحضارتين (الماديتين) قد قامتا على شفا جرف هار ، وكانت الأصل الذى ترجع إليه الحضارة الأوربية المادية الحديثة.

فهى وليدة لها ، مطبقة لأفكارها ، وإن زادت عليها فى محاولة البرهنة على اثبات صحة ماتذهب إليه .

فجاءت حضارة لادينية تعظم المحسوس وترفض غير المشاهد وسيظهر لنا ذلك جليا إذا قمنا بدراسة المادية فلاتكاد تختلف الأفكار إلا فى الصياغة التعبيرية ... وعلى كل فإن هاتين الحضارتين أنتجت مايلى :

أولا : تعظيم المادة والايمان بالمحسوس دون غيره .

ثانيا : الانغماس فى ملذات الدنيا وزخارفها والشك فى الوعود الدينية وتكذيبها (على مافيها من انحراف) .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (١٦٢-١٦٣) .

(٢) تاريخ أخلاق أوروبا ، نقلا من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (١٦٣) .

ثالثا : فصل الدين عن الحياة . واتخذ فى الحضارة الأوربية الحديثة شكلا واضحا فى الدعوة لذلك (العلمانية) .

رابعا : القوميات والاعتداد بالوطنية كثيرا .

خامسا : العنف والقوة والتسلط على الآخرين . ولأجل ذلك نجد النزعات الاستعمارية الغربية التى عانت منها الشعوب وخاصة الشعوب المسلمة إلى الآن ، وخاصة الحضارة الرومانية التى اهتمت بالسياسة والنظم الإدارية كثيرا ، ورغبت فى توسيع نطاق رقعتها بالاضافة إلى تمييزها للفرد الرومانى عن غيره .

وهكذا كانت الحضارة الرومانية مادية بحتة ، ووثنية واضحة ورثتها أوروبا المعاصرة ، فى ظل غياب العقيدة الصحيحة عنها ، فقد وجد فى بلاد الرومان ثلاثة أديان : (الوثنية الرومانية ، واليهودية ، والمسيحية الناشئة)[١].

الا أن هاتين الديانتين اليهودية والمسيحية حرفتا ، وبالتالى فعندما أخذت الدولة الرومانية بالنصرانية أخذت بدين محرف . فانتقلت من وثنية الى وثنية أخرى تتلبس بالدين وهو منها براء . قال تعالى : {**يحرفون الكلم عن مواضعه**}[٢]. ونلقى نظرة على هاتين الديانتين .

ثالثا : اليهودية :

لقد تحدث القرآن الكريم عن اليهود وفضح حقائقهم ، وأبان مواقفهم مع أنبيائهم عليهم السلام ، ثم كشف عن أخلاقهم وأساليبهم . وكان التاريخ اليهودى طويلا ولأجل ذلك كثرت طوائفهم ، وتعددت أساليبهم ، وقلما خلا مجتمع من مكرهم وخداعهم منذ أن بدأ تاريخهم زمن يعقوب

---

(١) محاضرات فى النصرانية (٣٦١) ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م .

(٢) سورة المائدة : (١٣) .

عليه الصلاة والسلام ، وقد لقى اليهود بسبب شخصيتهم وسلوكهم الاضطهاد والتشريد . ولن نذهب بعيدا فى فضح شخصية اليهود فإن الله تعالى قد أخبرنا عنهم الخبر اليقين فنورد بعضا من الآيات عن حقيقتهم وأخلاقهم .

أولا : عبادتهم غير الله تعالى ، مع أن أنبياءهم دعوهم إلى عبادته تعالى دون سواه .

قال تعالى : {**قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون**}(١).

يقول أحمد شلبى : (لم يستطع بنو اسرائيل فى أى فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحد الذى دعا له الأنبياء)(٢).

ثانيا : تكذيبهم للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقتلهم لهم .

قال تعالى : {**أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون**}(٣).

ثالثا : كثرة مزاعمهم وقد أبطلها الله تعالى .

(أ) ومن ذلك : زعمهم أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه .

قال تعالى : {**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق**}(٤).

(ب) زعمهم أن العزير ابن الله :

قال تعالى : {**وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون**}(٥).

---

(١) سورة الأعراف : (١٣٨) .

(٢) اليهودية (١٨٦) ، أحمد شلبى ، الطبعة الحادية عشرة ١٩٩٣م ، مكتبة النهضة المصرية .

(٣) سورة البقرة : (٨٧) .

(٤) سورة المائدة : (١٨) .

(٥) سورة التوبة : (٣٠) .

(ج) زعمهم أنهم لايعذبون فى النار إلا قليلا :

قال تعالى : {**وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده؟ أم تقولون على الله مالاتعلمون**}(١).

(د) زعمهم قصر الجنة عليهم :

قال تعالى : {**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم . قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**}(٢).

(هـ) زعمهم أن إبراهيم كان يهوديا :

قال تعالى : {**أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى؟ قل أأنتم أعلم أم الله؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ومالله بغافل عما تعملون**}(٣).

رابعا : كذبهم ، وحسدهم ، وحقدهم ، وتربصهم بالأنبياء الذين أرسلوا من بعد موسى عليهم السلام (عيسى عليه السلام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم)(٤). وحاول اليهود أن يتسللوا بين المسيحية بالأفكار الوثنية لأن (اليهودية نفسها أصيبت بالتأثيرات الوثنية من فارس وبابل وخضعت لنفوذهما عندما كان اليهود فى المنفى)(٥).

ونأتى الآن للحديث عن النصرانية .

---

(١) سورة البقرة : (٨٠) .

(٢) سورة البقرة : (١١١) .

(٣) سورة البقرة : (١٤٠) .

(٤) انظر هذا كله وغيره فى كتاب الشخصية اليهودية من خلال القرآن (١٣٣) ومابعدها ، د. صلاح عبد الفتاح الخالدى ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق .

(٥) الأصول الوثنية للمسيحية (٢٠) ، تأليف إدغار ويند ، كارل غوستاف يونغ ، ترجمة سميرة عزمى الزين ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، منشورات المعهد الدولى للدراسات الإنسانية .

رابعا : النصرانية :

بعد أن فشل اليهود فى القضاء على النصرانية أخذوا يعملون على الإساءة إلى نبى الله عيسى عليه السلام وأمه ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل حاولوا قتل نبى الله عيسى عليه السلام ونجاه الله تعالى منهم . قال تعالى : {**وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم إلا إتباع الظن ، وماقتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما**}(١).

وهذه عادة اليهود مع كل من يخالفهم ، القتل ، وانتهاك الأعراض ، والإتهام فى الشرف والطهر(٢)، ثم قاموا بتحريفها وادخال الأفكار الغريبة عنها ليتسنى لهم إدخال الأباطيل فيها فوجد فى القوم من اعتنق هذه الديانة نفاقا وخداعا لبث الأفكار الوثنية ، فجاء بعقائد لم تكن معروفة لدى معتنقيها الذين أخذوها كما أنزلها الله تعالى على نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام ، ومن أخطر من حرف فيها بولس(٣)اليهودى الذى عرف فى أول أمره باضطهاد المسيحيين ثم فجأة تحول إلى شخصية نصرانية وقطبا كنسيا معظما فحرف فى المسيحية وأدخل اليها عقائد وثنية لم تعرفها من قبل (وهو

---

(١) سورة النساء : (١٥٦-١٥٨) .

(٢) انظر الشخصية اليهودية من خلال القرآن (١٨٦) ، وقد ذكر صفاتهم وشخصيتهم وموقفهم من الأنبياء عليهم السلام مما هو جيد فى موضوعه .

(٣) يذكر سارلز جنيبير أن بولس ولد فى أسرة يهودية أقامت بمدينة طرسوس ، وكانت المدينة مليئة بأصحاب المذهب الرواقى ، وقد عاش فى هذا الوسط المطبع بالتراث اليونانى ، وقد تلقى العلوم الخاصة بأصول اليهودية واستوفاها ، وكان فى بداية حياته عنيفا على المسيحيين ، وانتهى به الأمر أن تحول إليهم ، مع الإشارة إلى أن بولس لم يلتق بالمسيح مدة حياته ، وكان فكره مزيجا من الأفكار اليهودية والوثنية اليونانية ، ومن الذكريات الانجيلية .
انظر المسيحية نشأتها وتطورها (٩٩) ، ترجمة د. عبد الحليم محمود ، المكتبة العصرية ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

أول من ابتدع فى شأن المسيح اللاهوت والناسوت وكانت النصارى قبله كلمتهم واحدة أنه عبد رسول مخلوق مصنوع مربوب لايختلف فيه اثنان منهم ، فقال بولس هذا ـ وهو أول من أفسد دين النصارى ـ إن سيدنا المسيح خلق من اللاهوت إنسانا كواحد منا فى جوهره وأن ابتداء الابن من مريم ، وأنه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسى صحبته النعمة الإلهية فحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى ابن الله)[١].

وقد تحدث بعض كتاب المسيحية عن مراحل تحول بولس إليها واعتبروا أن السبب المباشر والحقيقى فى طى المجهول ، فيقول شارل جينبير بعد أن ذكر المراحل التى مر بها بولس : (وبذلك تصبح مراحل إتمام هذا التحول واضحة لنا كل الوضوح وإن ظل سببه الحقيقى المباشر فى طى المجهول)[٢].

ويقول درابر : (ودخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوما من الأيام وكذلك كان قسطنطين ، فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره سنة ٣٣٧م)[٣].

وحصل التقارب فحرفت المسيحية لما كان فى نفوس اليهود ، وللبيئة الوثنية ، ولوجود دعاة النصرانية المحرفين الذين رغبوا فى الحصول على تأييد الناس لهم ، وعلى رأسهم بولس ، وقبل ذلك كله أن الله تعالى قد جعل حفظها على القائمين بها لحكمة منه جل وعلا .

---

(١) هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى (٢٠٣) ، للإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها (٩٩) .

(٣) نقلا من كتاب مذاهب فكرية معاصرة (١٠) ، محمد قطب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

التحريف :

إن التحريف فى المسيحية ، ثبت بنص كتاب الله تعالى {**يحرفون الكلم عن مواضعه**}[١]. واتخذ التحريف طريقين :

الأول : التحريف العقدى .

الثانى : فصل العقيدة عن الشريعة .

أولا : التحريف العقدى :

ونقصد به التغيير والتبديل فى الأصول التى كانت عليها المسيحية الحقة التى أوحى الله تعالى بها لنبيه عيسى عليه الصلاة والسلام .

ولو نظرنا فى المسيحية كما صورها القرآن العظيم ، لوجدنا أنها تقوم على التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة ، واثبات نبوة عيسى عليه السلام وأنه رسول الله تعالى ونفى أن يكون إلها أو ابنا لله تعالى ، ونفى أن تكون أمه مريم عليها السلام إلها ، أو أن تكون حملت من أحد بل بكلمة الله تعالى ، ورد قضية الصلب ، أما جوهر عقيدتهم هم فقد جاء فى كتاب سوسنة سليمان ، لنوفل بن نعمة الله ابن جرجس النصرانى أن (عقيدة النصارى التى لاتختلف بالنسبة لها الكنائس ، وهى أصل الدستور الذى بينه المجمع النيقاوى ، هى الايمان باله واحد ، أب واحد ، ضابط الكل خالق السماء والأرض ، كل مايرى ومالايرى ، وبرب واحد ، يسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله . إله حق من إله حق مولود غير مخلوق . مساو للأب فى الجوهر ، الذى به كان كل شىء والذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء تأنس وصلب عنا على عهد بيلاطس وتألم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم الثالث على مافى الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب وسيأتى بمجد ، ليدين الأحياء والأموات ، ولافناء لملكه والإيمان بالروح بالقدس الرب المنبثق من الأب ، الذى هو الابن يسجد له ، ويمجد الناطق بالأنبياء)[٢].

---

(١) سورة المائدة : (١٣) .

(٢) نقلا من كتاب محاضرات فى النصرانية (١٠١) .

وعند التتبع لعقائد النصارى التى جاءت بعد التحريف يمكن جعل أبرزها فى الآتى :

أولا : تأليه المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام والقول بأنه ابن الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

ثانيا : القول بالتثليث .

ثالثا : تأليه مريم وروح القدس عليهما السلام .

رابعا : استحلال الحرام وتحريم الحلال وطاعة الرهبان فى ذلك .

وقد رد الله تعالى على هذه العقائد وأبان بطلانها ومخالفتها لحقيقة الرسالة التى بعث الله تعالى بها نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام ، وبين كذبهم فى دعواهم .

قال تعالى : {**ماكان لله أن يتخذ من ولد سبحانه**}(١).

وقال عز وجل : {**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحد**}(٢).

وقال تبارك وتعالى : {**وإذ قال الله ياعيس ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولاأعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب ماقلت لهم إلا مأمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد**}(٣).

وقال تعالى : {**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ومأمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لاإله إلا هو سبحانه عما يشركون**}(٤).

---

(١) سورة مريم : (٣٥) .
(٢) سورة المائدة (٧٣) .
(٣) سورة المائدة (١١٦-١١٧) .
(٤) سورة التوبة : (٣١) .

وبهذا يثبت بطلان العقائد النصرانية التى وضعها بولس ومن معه وكلها تخالف ماأخبر به الحق جل وعلا عن عيسى عليه السلام وأمه وكفاهم كفرا ماجاء عنهم من عقائد لايمكن أن يتصورها الإنسان صاحب الفطرة السوية . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وقولهم : فالإله واحد ، خالق واحد ، رب واحد ، هو حق فى نفسه ، لكن قد نقضوه بقولهم فى عقيدة إيمانهم [نؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، مساو الأب فى الجوهر] فأثبتوا هنا إلهين ، ثم أثبتوا روح القدس إلها ثالثا . وقالوا إنه مسجود له ، فصاروا يثبتون ثلاثة آلهة ، ويقولون : إنما نثبت إلها واحدا ، وهو تناقض ظاهر ، وجمع بين النقيضين : بين الاثبات والنفى . ولهذا قال طائفة من العقلاء : إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى ، وذلك إن الذين وضعوها لم يتصوروا ماقالوا ، بل تكلموا بجهل ، وجمعوا فى كلامهم بين النقيضين ، ولهذا قال بعضهم : لو اجتمع عشر نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولا . وقال لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولا ، وامرأته قولا آخر ، وابنه قولا ثالثا)[١].

ومما نراه فى الوقت الحاضر هو إسلام كثير من النصارى ورجوعهم إلى دين الله تعالى الحق (الإسلام) خاصة بعدما تبين لهم بطلان العقيدة النصرانية .

وفى كثير من لقاءاتهم مع بعض المجلات أو الصحف أو عبر وسائل الإعلام الأخرى نجد أن من الأسباب الرئيسية التى تدفعهم لترك النصرانية هو مافيها من تناقضات كثيرة ومغالطات للحقائق الفطرية . ناهيك عن أن الإسلام قد صور المسيحية تصويرا دقيقا وإنها ديانة من عند الخالق جل

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١٦٥/٢) ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق مجدى قاسم ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، توزيع مكتبة البلد الأمين . ولمزيد عن عقائد النصارى الوثنية انظر كتاب الأصول الوثنية للمسيحية (٣١) ومابعدها .

وعلا ورسولها المسيح عليه الصلاة والسلام . ولد من أم بغير أب بل بكلمة من الله وروح منه تعالى .

فآمن هؤلاء وزالت الغشاوة عن أعينهم .

{ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين}[١].

الثانى : فصل العقيدة عن الشريعة :

ونعنى بذلك عدم تحكيم العقيدة فى شئون الحياة العامة ، بل تستمد الأحكام والتشريعات من أقوال الرهبان ومايرضى السلطان .

يقول الشيخ محمد قطب : (على أن التحريف الذى وقع فى العقيدة من جعل الإله الواحد ثلاثة أقانيم وتأليه عيسى عليه السلام وإدعاء بنوته لله تعالى ، وتأليه مريم وروح القدس جبريل عليه السلام ، واختراع قصة الصلب والفداء وعبادة الصليب وعبادة التماثيل والأوثان ...الخ هذا التحريف على بشاعته لم يكن هو التحريف الوحيد الذى أدخلته الكنيسة والمجامع المقدسة على دين الله المنزل بل أضافت الكنيسة إنحرافا آخر لايقل سوءا ولاتشويها للدين المنزل من عند الله وذلك بعزل العقيدة عن الشريعة واتخاذ الدين عقيدة فقط ، وترك القانون الرومانى يحكم الحياة)[٢].

ولاشك أن دين الله تعالى يؤخذ كاملا عقيدة وشريعة ولايترك منه شيئا **{أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب}**[٣].

وقد رددت الكنيسة مقولة نسبتها إلى عيسى عليه السلام وهى قوله (أعطوا إذن مالقيصر لقيصر ومالله لله)[٤]. وذلك مشكوك فيه وعلى افتراض أن المسيح عليه السلام قالها فلايفهم منها ماأرادته الكنيسة بفصل الدين أو

---

(١) سورة آل عمران : (٨٥) .
(٢) مذاهب فكرية معاصرة (١٣) .
(٣) سورة البقرة : (٨٥) .
(٤) متى ، الاصحاح ٢٢:١٨-٢٢ .

العقيدة عن الحياة . بل قصد بذلك أن الوقت لم يحن بعد لمقاتلة القيصر وفى معرض رده على الفريسيين عندما سألوه عن اعطاء الجزية له . وهذا يذكرنا بعلمانية العصر الحديث فى أوروبا والتى انتقلت إلى البلاد الإسلامية ، وتعمل على نشر ذلك الفكر الالحادى بفصل الدين عن شئون الحياة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية وغيرها . وهذا يدلنا على أن الحضارة الأوربية المادية الحديثة ماهى إلا امتداد لتلك الأفكار التى حظيت بها الامبراطورية الرومانية واليونانية!!

وكانت حياة الناس فى الغرب محكومة بالديانة المحرفة سواء فى المعاملات أو العلاقات الإجتماعية أو الإقتصادية أو أنها خليط من الأفكار الوثنية والديانة المحرفة ، فكانت تفرض على الناس تلك الأفكار بالقوة من قبل الأباطرة الرومان ، وكان اضطهاد النصارى قد بلغ مبلغا كبيرا فى عصر الدولة الرومانية إلا أن حدة ذلك الاضطهاد خفت فى زمن قسطنطين[١] الذى اعتنق النصرانية[٢] (وكان أول عمل قام به هذا الامبراطور هو الاعتراف الرسمى بالمسيحية ، وبذلك بدأت عهدا وتاريخا جديدا يختلف كل الاختلاف عن سيرتها السابقة ، فمنذ ذلك الوقت بدأ المسيحيون يعملون فى حرية واطمئنان ، وكان لذلك نتائجه السيئة أيضا . ففى عصر الخوف والترقب السابق لم يجرؤ المسيحيون على إظهار خلافهم وانقسامهم فى الرأى ، لأنهم فى ذلك الوقت كانوا فى أشد الحاجة إلى تماسكهم وتساندهم ، وربما أدى أى إنقسام بينهم بالحركة كلها ... ولكن ماأن أمن المسيحيون على أنفسهم الاضطهاد وضمنوا الدولة إلى جانبهم حتى وجدناهم يظهرون ماكانوا يضمرون من التشيع والانقسام ويهمنا من ذلك انقسامان حدثا فى مصر .

---

(١) أول إمبراطور مسيحى للإمبراطورية الرومانية ، تولى الحكم عام ٣٢٣-٣٣٧م ، اعترف بالمسيحية وخفف الوطأة على أهلها فى فترة حكمه .

(٢) عن المسيحيين وبعض مالاقوه فى عهد الرومان انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١٢/٣ ومابعدها) .
وانظر هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى (١٩٩ ومابعدها) .

الأول وهو ظهور الدعوة الاريوسية فى الاسكندرية ، والثانى هوموقف ميلتيوس من المرتدين فى عصر الاضطهاد .

أما عن الدعوة الاريوسية فهى نسبة الى اريوس (Arius) الذى كان من أصل ليبى وتعلم فى انطاكية ، وأصبح أحد رجال الكنيسة فى الإسكندرية ... ونظرا لتعلمه فى مدرسة أنطاكية المسيحية التى كانت تسود فيها فلسفة أوريجنيس الدينية التى كانت مشبعة بالفلسفة الأفلاطونية فقد بقى محافظا على تعاليم هذه المدرسة وأخذ يطبقها ويمارسها فى الاسكندرية بصورة متطرفة ، وسرعان ماصاغ آراء مستقلة فى العقيدة المسيحية تختلف عن العقائد السائدة مما أوقعه فى صدام عنيف مع أسقف كنيسة الاسكندرية فى ذلك الوقت المسمى اسكندر . وتتلخص عقيدة اريوس فى أنه ابتدأ بموقف أفلاطونى[١] وهو أن الإله وجود دائم ولايمكن إدراكه ، ثم استنتج من ذلك نتيجة منطقية فى أن (الابن) لايمكن أن يكون إلها بنفس المعنى ، ولذلك يلزم منطقيا أن وجوده كان لاحقا لوجود الإله ، وبعبارة أخرى أن (الابن) له بداية فى حين أن الاله (الأب) قديم ودائم . وأخيرا بما أن الاله (الأب) لايقبل الانقسام فلابد أن الابن خلق من العدم ، مثل هذه الآراء صدمت كثيرين من رجال الكنيسة فى الاسكندرية الذين كانوا يعتقدون أن الابن مثل الأب قديم دائم وأنهما من طبيعة واحدة ، وقد تحرج الموقف كثيرا نتيجة لذلك حتى اضطر الأسقف اسكندر إلى عقد مجمع من القساوسة فى مصر وليبيا وأصدروا استنكارا لعقيدة أريوس وأعلنوا حرمانه وأتباعه من الكنيسة . ولكن خطر دعوة اريوس لم يقتصر على مصر بل انتشر خارجها فى فلسطين وليبيا وآسيا الصغرى ، ولم يمكث اسكندر مكتوف الأيدى بل راح يعمل بنشاط جم بين أساقفة الكنائس فى الولايات الشرقية يحضهم على مقاومة دعوة اريوس فى مناطقهم بكل قوة ، فى ذلك الوقت حاول قسطنطين

---

(١) الأفلاطونية نسبة إلى أفلاطون وكانت تقوم على الاعتراف بوجود الإله لهذا الكون ، وأفلاطون فيلسوف يونانى ، ولد فى أثينا ٤٢٧ق.م وتوفى سنة ٣٤٧ق.م وله عدة مؤلفات ومن أشهرها (الجمهورية) .

أن يتدخل فى الأمر ويصلح بين أريوس واسكندر بدون جدوى ، فقرر عقد مجمع دينى عالمى يشترك فيه أساقفة الكنائس المختلفة فى الشرق والغرب لوضع حد للانقسامات العقائدية التى انتشرت فى ذلك الوقت ، وأرسلت الدعوة للإجتماع فى نيقيا فى آسيا الصغرى فى سنة ٣٢٥م(١).

أما عن المسألة الثانية وهى موقف ميليتوس من معاملة الكنيسة للمرتدين فتتلخص فى ان ميليتيوس كان يدعو إلى اتخاذ موقف متطرف متزمت من الذين ضعفوا أمام الاضطهاد وارتدوا عن المسيحية فى حين أن الأسقف اسكندر كان يؤثر موقفا متسامحا ، يبيح العفو بعد التوبة .

ورغم عدم خطورة موضوع الانقسام وبقائه مصريا الا أن ميليتيوس كان عنيدا متعصبا ، فلم يتزحزح عن آرائه قيد أنملة ، وشجعه على ذلك كثرة أتباعه ، حتى اضطرته الكنيسة المصرية إلى نفيه إلى فلسطين . وقد بلغ به التعصب أن بنى له ولأتباعه كنيسة خاصة أطلقوا عليها اسم كنيسة الشهداء حتى لايشاركون المسيحيين الآخرين كنيستهم الكاثوليكية ورفع الأمر إلى قسطنطين الذى قرر عرضه على مجمع نيقيا أيضا)(٢).

مجمع نيقية ٣٢٥م :

بعد دعوة قسطنطين لعقد المجمع حضره عدد كبير من الأساقفة والبطاركة ، فاجتمع فى مدينة نيقيا ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة وكانوا مختلفين فى كثير من القضايا التى طرحت فى المجمع(٣).

---

(١) وهو مجمع نيقية المشهور وسيأتى الحديث عنه بشىء من التفصيل .

(٢) الإمبراطورية الرومانية (٢٤٧-٢٥٠) ، وانظر محاضرات فى النصرانية (١٢٦-١٢٧) ، وانظر هداية الحيارى (٢٠٦) .

(٣) انظر محاضرات فى النصرانية (١٢٧-١٢٨) ، وذكر بعضا من الاختلافات الواقعة بينهم . وانظر الإمبراطورية الرومانية (٢٥٠) وانظر كواشف زيوف (٣٢-٣٣) عبد الرحمن الميدانى ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، وانظر هداية الحيارى ، ابن القيم (٢٠٦-٢٠٧) .

(وسمع قسطنطين مقال كل فرقة من ممثليها ، فعجب أشد العجب مما رأى وسمع ، فأمرهم أن يتناظروا لينظر الدين الصحيح مع من[١]، وأخلى دارا للمناظرة ولكنه جنح أخيرا إلى رأى بولس ، وعقد مجلسا خاصا للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأى وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة)[٢].

وقد اختلفوا كثيرا فى أى العقائد يأخذون .

فمنهم من قال المسيح ومريم إلهين من دون الله .

ومنهم من قال بأن ربنا المسيح وهى العقيدة التى قال بها ثلاثمائة وثمانية عشرا أسقفا[٣].

العقيدة التى أقرها المجمع :

ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية تلك العقيدة فقال : (إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لاشىء . أو من يقول إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير الأب ، وكل من يؤمن أنه خلق ، او من يقول أنه قابل للتغيير ، ويعتريه ظل دوران)[٤].

---

(١) ولعل هذا يؤيد أن دخول قسطنطين فى النصرانية لم يكن إلا لمصلحة سياسية حفاظا على دولته وكسبا لود هولاء . فالعقيدة المنتصرة صاحبة الأغلبية سيأخذ بها ليضمن استمرار ملكه .

(٢) محاضرات فى النصرانية (١٢٨) .

(٣) انظر هداية الحيارى (٢٠٧) . وذكر بعض الأقوال والآراء التى وردت فى مجمع نيقية .

(٤) نقلا من كتاب محاضرات فى النصرانية (١٢٩) .

أهم قرارات المجمع :

أولا : تأليه عيسى عليه السلام والقول بالتثليث .

ثانيا : اختيار الكتب المقدسة المؤيدة للقرارات وحرق الأخرى[١].

ويظل هنا تساؤل لماذا تم اختيار هذا الرأى رغم أنه لم يقر إلا من قبل ثلاثمائة وثمانية عشر بطريق؟

وللاجابة على ذلك التساؤل نقول :

أولا : بالنظر فى قرارات المجمع نجدها وثنية وبالتالى لاتعارض مالدى قسطنطين فلاحرج فى قبولها من قبله وتأييدها ، ثم مامقدار معرفة قسطنطين بالمسيحية حتى يحكم على الرأى الصحيح علما بأنه لم يتنصر إلا فى آخر حياته .

يقول المؤرخ أبو سيبوس الذى تقدس كلامه الكنيسة ، وتسميه سلطان المؤرخين : (إن قسطنطين عمد حين كان أسير الفراش ، وان الذى عمده هو ذلك المؤرخ نفسه ، وقد كان له صديقا) .

والتعميد اعلان دخول المسيحية ، إذن فقسطنطين ماكان مسيحيا فى ابان انعقاد ذلك المجمع ، وماكان من حقه أن يحكم بفلج هؤلاء وليسوغ لنا أن نقول أنه كان له فى هذا ارب خاص ، وهو تقريبها من وثنية أو على الأقل عندما رجح رأى فريق كان يرجح ماهو أقرب إلى وثنيته ، وأدنى إلى مايعرفه من عقيدة ، فلم تكن الحجة القوية فى جانب ترجيحه على هذا الاعتبار ، أوكان متهما فى ترجيحه بناء على الاعتبار الأول ، وسواء أكان هذا أم ذاك فهو قد رجح ماهو أقرب إلى الوثنية لوثنيته)[٢].

---

(١) انظر محاضرات فى النصرانية (١٢٩،١٣١) ، وانظر هداية الحيارى (٢٠٧) وذكر أنهم (وضعوا له أربعين كتابا فيها السنن والشرائع وفيها مايصلح أن يعمل به الأساقفة ومايصلح للملك أن يعمل بما فيها).

(٢) محاضرات فى النصرانية (١٣٢) .

ثانيا : سكوت البقية وقبولهم للأمر الواقع خوفا من التنكيل والرغبة فى الحصول على شىء من السلطان المتاح لهم ، فقد صرح قسطنطين بذلك بعد إن نزع خاتمه وسيفه ودفعهما إليهم وقال : (قد سلطتكم اليوم على المملكة فاصنعوا مابدالكم)[١].

أما مايتعلق بالأمر الآخر وهو فتنة ميليتوس فصدر قرار طابعه الرحمة[٢].

ثم تعاقبت المجامع بعد ذلك ورفضت بعضها ماجاء فى مجمع نيقية مثل مجمع صور .

إلا أن كثيرا من هذه المجامع أقرت الوثنية والشركيات فى العقيدة النصرانية[٣].

حتى إنها لو عرضت على أحد لايعرف له إلها أصلا لما قبل النصرانية.

يقول الامام ابن القيم رحمه الله : (لو أن قوما لم يعرفوا لهم إلها ثم عرض عليهم دين النصرانية ، هكذا لتوقفوا عنه وامتنعوا عن قبوله . فوازن بين هذا وبين ماجاء به خاتم الأنبياء والرسل صلوات الله عليه وسلامه تعلم علما يضارع المحسوسات أو يزيد عليها إن الدين عند الله الإسلام)[٤].

نعم إن صاحب الفطرة السليمة والعقل الرشيد (لايستطيع ان يعتنق المسيحية إلا إذا ألغى عقله ، وأسلم قياده لهواه وعاطفته ، حيث إن كل

---

(١) هداية الحيارى (٢٠٧) ، وانظر محاضرات فى النصرانية (١٣٠) .

(٢) انظر الحضارة الرومانية (٢٩٧) .

(٣) انظر فى هذه المجامع : هداية الحيارى (٢٠٨-٢١٨) ، محاضرات فى النصرانية (١٣٣ ومابعدها) ، الامبراطورية الرومانية (٢٥٥-٢٥٩) .

(٤) هداية الحيارى (٢١٨) .

العوامل الفكرية تنأى به عن المسيحية ، والا فكيف يقوده عقله الى الايمان بدين تعتور كتابه الشكوك ، وتضج صفحاته بالأباطيل والخزعبلات؟ كيف يقوده العقل - فى عصر العقل - إلى دين يقر مالايقره العقل ، ويقول بما لايتفق مع العلم الحديث ، كيف يقوده العقل الى الإيمان بدين عقيدته مستوردة من غيره ، وعباداته لاتمت إليه بأدنى وشيجة؟ كيف يقوده العقل إلى الإيمان بدين لم يقدم الله منه إلا الجزء الضئيل والقسط الأكبر منه من صنع الإنسان؟)[1].

النتائج :

وكان لهذا المجمع ومن قبل اعتلاء قسطنطين السلطة وجعله النصرانية دينا للدولة نتائج سيئة أثرت فى الفكر الأوروبى الحديث بأكمله وذلك للآتى:

أولا : مسخت الوثنية الرومية العقيدة الدينية واقرت فيهما مبادىء الانحراف واعتبرتها الدين الصحيح وكان لذلك أثره البالغ فى اقرار الأفكار المنحرفة .

ثانيا : كسب النصارى سمعة دنيوية وذلك بكون صاحب السلطة الأول قد تنصر غير أنهم فقدوا دينهم .

ثالثا : كان ذلك بداية فقدان رجال الدين والبابوات تقدير الناس أو السماع لهم حيث أعقب ذلك ادعاءات كنسية نظرا لعدم استقرار الأفكار الدينية فى أذهان الناس مما أدى برجال الكنيسة أن يبدأوا بطغيانهم ظنا منهم ان ذلك الخلاص الوحيد من الاشكالات التى تواجههم .

رابعا : عندما دمجت الوثنية بالعقيدة النصرانية ، باركت الكنيسة ذلك وبالتالى (فتحت على نفسها ثغرة واسعة ليستطيع أعداؤها أن ينفذوا من خلالها إلى هدم الدين البولسى الكنسى بسهولة وكانت هذه العقيدة

---

(١) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١٦-١٧) ، محمد على يوسف ، ١٩٦٦م ، دون ذكر لرقم الطبعة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

واضرابها المقومات الأساسية للفكر اللادينى الذى تستر بستار النقد التاريخى للكتب المقدسة إبتداء من القرن السابع عشر)[١].

واستغلت الكنيسة ذلك المزج بين العقيدة الصحيحة ، والعقيدة الوثنية لصالحها ، فبعد أن غدت المفاهيم مختلطة ، ادعت الكنيسة تفردها بمعرفة أسرار تلك المفاهيم ، ثم فرضت من خلال هذا الإنفراد سيطرتها على العقول والأفكار ، وبسطت سلطانها على جوانب الحياة كلها واستغلت ذلك لصالح رجالها ومطامعهم . ففسد رجالها واستغلوا الناس استغلالا بشعا ، فافتقر الناس للقدوة التى كان يجب توفرها فى (رجال الدين) ، بل بالغ هؤلاء فى الانحراف لدرجة الطغيان ، فانعكس ذلك على مفاهيم الناس وتصوراتهم ، ولم تدع الكنيسة للناس مجالا أو جانبا يختصون به (دون أن تمسكه بيد من حديد وتغله بقيودها العاتية فهيمنت على المجتمع من كل نواحيه الدينية والسياسية والإقتصادية والعلمية وفرضت على عقول الناس وأموالهم وتصرفاتهم وصاية لانظير لها البتة وإن التاريخ ليفيض فى الحديث عن طغيان الكنيسة ويقدم نماذج حية له فى كل شأن من الشئون)[٢].

وكان لهذا الطغيان آثاره فى الحياة الأوربية ، من عداء للدين وتأليه للعقل والعلم ، وعدم الإيمان إلا بالمحسوس لكثرة الأسرار الكنسية ، التى كانت تفيض فيها للناس دون أن تجيب على أبسط التساؤلات القائمة فى أذهانهم .

وقد يعجب الإنسان من كثرة الآراء والمذاهب التى وجدت فى أوروبا إلا أن ذلك العجب يزول شيئا فشيئا إذا عرف ماكانت عليه الكنيسة من فساد وطغيان وهى التى تمثل الفكر الدينى ذلك الوقت ، مما جعل ردود الأفعال على أفعال الكنيسة عنيفة وصلت إلى المادية الإلحادية .

---

(١) العلمانية (٤١-٤٤) ، د. سفر الحوالى (٤١-٤٤) ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، مطابع جامعة أم القرى .

(٢) المرجع السابق (١٢٧) .

طغيان الكنيسة[١]:

أضحت الكنيسة صاحبة السلطة السياسية بعد تمكنها باقرار قسطنطين ، فاستغلت تلك السلطة فى زيادة طغيانها وتحقيق مصالح رجالها ، ونوعت فى ذلك الطغيان حتى غدت المهيمنة على حياة الناس هيمنة فعلية سواء سياسيا أو إقتصاديا أو فكريا ، ويمكن جعل الطغيان الكنسى ممثلا فى الآتى :

أولا : الطغيان الاستعبادى[٢].

ثانيا : الطغيان السياسى .

ثالثا : الطغيان المالى .

رابعا : الطغيان العلمى .

ونوجز الحديث عن كل مما ذكرنا .

---

(١) يقول جينبير : (إن فكرة الكنيسة نشأت عند انتقال الأمل المسيحى من فلسطين إلى ربوع العالم اليونانى ، وأيضا اذا شئنا عند تطور هذا الأمل إلى العالمية) . المسيحية نشأتها وتطورها (١٣١) ، شارل جنيبير ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت .

(٢) يعبر بعض المفكرين والدعاة والباحثين عن ذلك بالطغيان الروحى . ولعل ماذكرناه أقرب حيث ان الروحانية دعت اليها المسيحية ، ثم ان حال رجال الكنيسة بالنسبة للناس أقرب الى الاستعباد منه الى الروحانية ، بل ان رجال الكنيسة مسخوا الروحانية المسيحية الى ملذات واسراف على أنفسهم فكانوا مستعبدين للناس فكريا وسياسيا وماليا .

أولا : الطغيان الاستعبادى :

كانت الكنيسة ترقب مصالحها الخاصة فى كل أفعالها ، وكانت سلطة رجالها تكاد تكون مطلقة ، والذى دفعهم إلى هذا الطغيان هو مارآه رجال الكنيسة من تصدع الايمان بالنصرانية فى نفوس الناس فأرادوا أن يصلوا إلى حفظ شىء من الدين حتى ولو كان محرفا . يقول الدكتور عبد الرحمن حبنكة : (ومع الرغبة بانقاذ الدين من حالة الضياع والنسيان ، التى مست أحكامه وشرائعه ، المنزلة على لسان عيسى [عليه الصلاة والسلام] وقبله ، وجد رجال الكنيسة هذه السلطة المطلقة تحقق لهم ربوبية على شعب الكنيسة وبها يصلون الى مايهوون ويشتهون)[١].

وعندما كانت النصرانية قد لقحت بالوثنية الرومية لم تستطع أن تغير من واقع الحياة شيئا ، فاضطرت إلى ابتداع الرهبانية وجن جنونها وتخطى حدود القياس[٢].

فادعت لنفسها القداسة ، وأحاطت عقائدها بالسرية[٣] التى لايمكن فك رموزها إلا من قبل رجالها ، وعلى الناس التسليم والإذعان . (فهناك الأسرار التى لايعلم تأويلها الا الراسخون لافى العلم ولكن فى الكهنوت)[٤].

واستتبع ذلك الإدعاء بالعصمة لرجال الكنيسة حتى لايتردد الناس فى قبول مايجىء عن طريقهم من تفسيرات ولكى يحللون ويحرمون حسب مايشتهون . يقول الميدانى : (ومنح رجال الدين هؤلاء أنفسهم العصمة عن الخطأ فيما يقررون من أحكام ، فكانوا بذلك أربابا من دون الله ، يحللون

---

(١) كواشف زيوف (٤٣) .

(٢) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (١٦٧) ، وانظر شيئا من عجائب الرهبان (ص١٦٨) .

(٣) مثل الاستحالة والعشاء الربانى والثالوث ومن جادل فى تلك الأمور وغيرها من الأسرار فمصيره الحرمان .

(٤) مذاهب فكرية معاصرة (٣٢) .

ويحرمون لشعب الكنيسة بحسب آرائهم وأهوائهم ومايرون من مصالح لأنفسهم ...)[١].

ونخرج من ذلك بالآتى :

أولا : أن الكتاب المقدس الذى يفترض فيه أن يكون بين يدى الناس ليقرأوه ويعملوا بما فيه قد استأثر به رجال الدين .

ثانيا : أن رجال الدين بحكم عصمتهم ، واطلاعهم على خفايا المقصود بألفاظ الكتاب المقدس أخذوا صفة المشرعين من دون الله تعالى .

ثالثا : أن هذا الاستعباد جعل الإنسان الأوروبى ينظر إلى الدين وإلى الإله الذى تسلطت باسمه الكنيسة نظرة ازدراء وذلك للتمييز الذى وجد فيه من قبل ذلك الاله .

رابعا : نتج عن ذلك بحث الناس بجدية فى حقيقة الدين الذى تدعيه الكنيسة وبدأت علامات السخط والتذمر منه ومنه الإله الذى يؤمر وينهى باسمه مما كان لذلك أكبر الأثر فى ردة فعل الإنسان الأوروبى تجاه الدين ظنا منه أن كل الأديان كذلك ، فعمم حكمه وحصل الرفض للدين بسبب أفعال رجال الكنيسة .

---

(١) كواشف زيوف (٤٣) .

ثانيا : الطغيان السياسى :

عندما أصبح التحريف سمة من سمات النصارى لم يكن ذلك التحريف فيما نزل من عند الله فحسب بل تجاوز الى الأقوال التى ترد عليهم فيجعلون لها معان تتفق مع مصالحهم . ومما اتخذوه ذريعة لهم فى فصل العقيدة عن الشريعة مقولة نسبوها إلى المسيح عليه الصلاة والسلام وهى (اذن اعطوا مالقيصر لقيصر ومالله لله) . وقد مر معنا مفهومها الحقيقى إن كان قالها عليه السلام .

وإذا كان من المسلم به أن يكون لرجال الدين سلطة سياسية فى الأمة التى تدين بدينهم ويكون زمام الأمر فى يد نخبة مؤمنة صالحة وهذا هو الأصل لكن الواقع هو ظهور هذه الفئة بطابع الاستبداد والطغيان أصحاب مصالح شخصية . فبعد وصول هذه الفئة (عنيت رجال الكنيسة) إلى السلطة السياسية استغلوها فى تحقيق مصالحهم وفرضت الكنيسة سلطانا قاسيا على كل أمر (ولم ينج حتى الملوك من طغيانها ، فقد كان انقسام الدولة الرومانية الغربية إلى ممالك مختلفة ، واعتبار كل مملكة وحدة سياسية لاتتصل بالأخرى إلا اتصال محبة وسلام ، أو حرب وخصام ـ كان ذلك سببا فى أنصار البابا لاسلطان لأحد من ولاة الأمر عليه ، وقد تقرر هذا من بعد كما صار تعيين البابوات باختيار المجامع ، لابتعيين ملك أو أمير ، مهما تكن قوته وسطوته ، وصار البابوات بعد تعيينهم غير خاضعين بأى نوع من أنواع الخضوع لأى ملك من الملوك ، وعلى النقيض من ذلك لهم هم السلطان الذى لايرد على كل مسيحى ، مهما تكن مكانته ، فيستوى فى ذلك الأمير والحقير ، والراعى والرعية ، فليس لأى ملك سلطان على البابا ، والبابا له سلطان على كل ملك ، لأنه مسيحى ، وله السلطان الكامل على كل المسيحيين ، ولأن البابا خليفة لبطرس الرسول وبطرس الرسول أقامه المسيح رئيسا على الحواريين من بعده ، فالبابا على هذا الأساس خليفة للمسيحيين ينطق باسمه ويتكلم بخلافته ، وينفذ بسلطانه ، ومن خرج عن

طاعته فقد خرج عن طاعة المسيح ، وحارب دينه)[١]. بل (بلغت سلطة البابا الدينية المهيمنة على ذوى السلطة الادارية والسياسية أوجها حتى كان باستطاعة البابا أن يتوج الملوك والأباطرة ، وأن يخلع تيجانهم إذا نازعوه ورفضوا أوامره ، وأن يحرمهم من الدين ، وأن يحرم شعوبهم الذين يوالونهم ، ولايستجيبون لأوامر الخلع البابوية حتى أعلن البابا (جريجورى) السابع : أن الكنيسة بوصفها نظاما إلهيا خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ، ومن حق البابا وواجابه بصفته خليفة الله فى أرضه ، أن يخلع الملوك غير الصالحين ، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام ، أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال)[٢]. فاستطاعت الكنيسة أن تخضعهم لسلطانها وتسيرهم فى خدمة مصالحها وأغراضها وأصبحوا يتلمسون العفو والغفران منها وهذه الحادثة التى سنذكرها تدل على مدى ماوصل إليه الحال يقول وليز : (ثم يجىء هلدبراند العظيم الذى ختم حياته تحت اسم جيرجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م) والذى فعل الشىء الكثير بتقريره العزوبة على رجال الدين وتشبثه بسيادة الكنيسة على الملوك والأمراء لكى يركز قوة الكنيسة فى روما البابوى على الأمراء و(خير مايلخص آراء البابا جريجورى الخاصة بعظمة الوظيفة البابوية وسموها وسلطانها الروحى العالمى ، فهى المجموعة التى تنسب إلى ذلك البابا والتى جمعت بعد وفاته بقليل (حوالى سنة ١٠٨٧م) وتعرف هذه المجموعة باسم الارادة الابابوية أو الأوامر البابوية .

وأهم موادها :

* البابا وحده هو الذى يتمتع بسلطة عالمية .
* البابا وحده يمتلك سلطة تعيين الأساقفة أو عزلهم .

---

(١) محاضرات فى النصرانية (١٧٢-١٧٣) .
(٢) كواشف زيوف (٥٠-٥١) .

* جميع الأمراء العلمانيين يجب أن يقبلوا قدم البابا وحده .
* للبابا الحق فى عزل الأباطرة .
* لايجوز عقد أى مجمع دينى عام الا بأمر البابا .
* ليس لأى فرد أن يلغى قرارا بابويا ، فى حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات بقية الناس .
* لايسأل البابا عما يفعل ولايحاكم على تصرفاته .
* للبابا أن يجيز لرعايا أى حاكم علمانى التحلل من العهود وأيمان الولاء التى أقسموها لحكامهم)[١]. وحدث نزاع عظيم بين هلد براند والإمبراطور المنتخب هنرى الرابع على مسألة التعيينات فحاول أن يخلع البابا فرد البابا بخلعه وأحل البابا أتباعه والأمراء من ولائهم له ، فاضطر الإمبراطور إلى أن يذهب تائبا إلى البابا وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام متدثرا بالخيش حافى القدمين فى الثلج فى فناء القلعة[٢].

ولعل فى هذا كفاية لمعرفة مدى تسلط رجال الكنيسة السياسى . الا أن هذا السلطان كان أثره السيء أكبر من نفعه حيث لم يستغل فى تصحيح الانحراف العقدى وتنقية المسيحية من الوثنية بل كان الهدف الأسمى منه تحقيق المصلحة الشخصية .

---

(١) Thompson. op. cit Vol 1 pp. 439-440 .
نقلا من كتاب تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى (٣٠٤-٣٠٥) ، الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة (٤٦) .

ثالثا : الطغيان المالى :

كانت الوثنية السابقة على مجىء عيسى عليه السلام غارقة فى الملذات والشهوات وعبادة المال وضرب اليهود المثل الأعلى فى حب المال واكتنازه فتمسكوا بالحياة الدنيا وكانوا من احرص الناس على الحياة حتى ولو كانت فى الرذيلة ، وبلغ السيل الزبى من قبل اليهود فبعث الله تعالى عيسى عليه السلام يدعو إلى التوحيد ويرغب فى الآخرة ويزهد فى الدنيا .

يقول عبد الله التل : (وفى العصر الذى سبق مجىء المسيح عليه السلام عم الفساد بينهم[1] وتفشت الرذيلة وعبادة الذهب وانحرفوا عن جادة الصواب فقضت ارادة الله العلى القدير أن يرسل نبيه الكريم عيسى بن مريم ليعيد للإنسانية كرامتها التى أهدرها اليهود بردهم الى الحق ويهذب من أخلاقهم ويعلمهم كيف يحبون الناس ويبتعدون عن التعصب والغدر والوحشية وعبادة الذهب والفسق والظلم)[2].

واذا نظرنا فى الأناجيل الموجودة الآن رأيناها تحذر من الانغماس فى الدنيا وملذاتها ، وحب المال والافتتان به ، ويرد ذلك فيها كثيرا . هذا من حيث ماهو مكتوب فيها ، ولكن حقيقة الامر وواقع الناس يخالف ذلك ، ولعل واقع الكنيسة التى كانت عليه كان من أسباب ذلك الإعراض عن توصيات الأناجيل حيث كان رجالها يبتعدون عن ذلك المفهوم النظرى بل ويبالغون فى مخالفته . وتضن رجال الكنيسة فى تنويع مصادر دخولهم ومواردهم وانخدع الناس بتلك الطرق والأساليب خاصة أنها تزامنت مع الوعود والامتيازات التى أعطتها الكنيسة لنفسها منكشف الأسرار وأحقية فهم الكتاب المقدس وامتلاك حق الغفران والحرمان وقبول التوبة ، مما جعل الناس يتنازلون عن كثير من حقوقهم رغبة منهم فى الحصول على رضاء

---

(١) يعنى اليهود .

(٢) جذور البلاء (٨٤) ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

الرب ، ويظهر ذلك جليا فى أسلوب (صكوك الغفران) وكانت تدعى الكنيسة أن الأموال تنفق لخدمة دينهم فـ(أخذوا يجمعون الأموال الطائلة باسم خدمة المسيحية والتبشير بها ، وباسم المشروعات التى يريدون انشاءها ، من كنائس وأديرة وغير ذلك)[١].

فكان الأتباع يغدقون عليها بغير حساب حتى أصبحت أكثر ثراء من كبار ملاك الإقطاع وأثرياء اليهود واتخذت الكنيسة عدة أساليب فى تنويع مصادرها المالية مما حقق له اطغيانا ماليا كبيرا ومن هذه الأساليب :

أولا : الأملاك الاقطاعية .

ثانيا : الأوقاف .

ثالثا : العشور .

رابعا : الهبات والعطايا .

خامسا : العمل المجانى (السخرة) .

سادسا : صكوك الغفران .

ونلمح عن كل أسلوب باختصار .

أولا : كان رجال الكنيسة أبعد الناس عن تطبيق تعاليم الإنجيل الداعية إلى احتقار الدنيا وملذاتها حيث أصبحوا ينافسون أكابر ملاك الإقطاع . فأصبحت الكنيسة أكثر المالكين وبلغت ممتلكاتها فى انجلترا الثلث من الأراضى [٢].

---

(١) كواشف زيوف (٥١) .

(٢) انظر كواشف زيوف (٥٢) ، وللمزيد انظر : حرب الفلاحين فى المانيا (٣٦) فردريك انجلز ، تعريب محمد أبو خضور ، دار دمشق للطباعة والنشر دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، تاريخ الحضارة الإسلامية (٥٧) ، تأليف ف.بارتولد ، ترجمة حمزة طاهر ، الطبعة الخامسة ١٩٨٥م ، دار المعارف ، القاهرة .

ثانيا : الأوقاف :

كانت الكنيسة تدعى أن المساحات الشاسعة التى تمتلكها من الأراضى الزراعية انما هى أوقافا من أجل استغلالها لسكان الأديرة وبناء الكنائس فجعلت عائداتها فى الانفاق على مصالح رجالها لاكما كانوا يصورونه للناس حتى أصبحت تملك ثلث أراضى انجلترا ، يقول ويكلف : (إن الكنيسة تملك ثلث أراضى انجلترا وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقى)[١].

ثالثا : العشور :

ومن أساليب الكنيسة فى تحصيل الموارد فرضت ضريبة مقدارها العشر على أتباعها فى كل سنة . يقول محمد قطب : (كما فرضت الكنيسة على أتباعها أن يدفعوا لها عشر أموالهم ضريبة سنوية لايملكون التملص منها تحت وطأة التهديد بالحرمان وغضب الرب)[٢].

رابعا : الهبات والعطايا :

ومن طرق الكنيسة فى تنمية مواردها المالية ، وزيادة دخولها المادية ماكانت تحصل عليه عن طريق الهبة والعطية من أتباعها إلا أن ذلك لم يكن عن طواعية واختيار بل كان ذلك عن طريق الترهيب والترغيب أحيانا (وفى الواقع فى حالة وهب الكنيسة ملكية خاصة ، لم تكن الكنيسة تترك للواهب حق استغلال ملكيته ، فى مقابل ضريبة (إقطاعية) فحسب ، بل كانت علاوة على ذلك ، توكله مديرا على جزء من الأملاك الكنسية وهذه الهبات كانت تتم فى شكلين : إما أن يحتفظ الواهب لنفسه باستغلال الأطيان (الوقفية)

---

(١) تاريخ أوروبا (٣٦٢/٢) ، نقلا من كتاب مذاهب فكرية معاصرة (٤٢) .

(٢) مذاهب فكرية معاصرة (٤٢) ، وانظر : الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، د. جمعة الخولى (٣٩-٤٠) ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، حرب الفلاحين فى المانيا (١٠٨) الحاشية .

مدى عمره بحيث لاتغدو هذه الأطيان ملك الكنيسة الا بعد وفاته (Donatio post obitum) وفى هذه الحالة كانت العادة كما تشهد القرارات الملكية العالية ، أن يتلقى الواهب من الكنيسة ، كمدير صفة الوقف الموهوب ، وإما أن تصبح الهبة منقولة على الفور (Cessi adie prgesente) وعندئذ يتلقى الواهب علاوة على عقاره الخاص (الموقوف) ثلاثة أضعاف من أراضى الكنيسة ، بواسطة ماكان يسمى حيازة مؤقتة ، أى بمستند من الكنيسة يثبت أن هذه الأراضى قد نقلت اليه اما لأجل طويل ، الى هذا الحد أو ذاك ، واما فى أكثر الأحيان مدى العمر وهكذا يتوضح نشوء طبقة من الناس الأحرار بلاأطيان ...)[١].

خامسا : العمل المجانى (السخرة) :

بعد أن أضحت أملاك الكنيسة الإقطاعية مترامية الأطراف استوجب ذلك وجود الأرقاء والعمال الذين يقومون باصلاح تلك الأراضى وافادة الكنيسةمنها . ولكن لم يظل الأمر عند هذا الحد بل أرغمت الكنيسة أتباعها على القيام بالعمل لصالحها يوما فى الأسبوع دون مقابل . يقول الأستاذ محمد قطب : (أما السخرة فقد كانت الكنيسة تفرضها على رعاياها بالعمل يوما واحدا فى الأسبوع بالمجان فى أراضى الكنيسة الواسعة ، فيعمل التعساء ستة أيام فى الأسبوع ليجدوا خبز الكفاف لهم ولأسرهم ، ثم يعملون اليوم السابع - يوم الراحة سخرة فى أراضى الكنيسة لكى توفر الأخيرة أجور العمال التى كان المفروض أن تدفعها لقاء زراعة إقطاعياتها الواسعة وجنى حاصلاتها وتزداد بذلك اكتنازا وضراوة فى طلب المزيد من المال)[٢].

---

(١) وضعية الدين عند ماركس وانجلز (١٠٦،١٠٨) ، ميشال برتران ، ترجمة صلاح كامل ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، دار الفارابى ، بيروت ، لبنان .

(٢) مذاهب فكرية معاصرة (٤٣) ، وانظر : كواشف زيوف (٥٢) ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٣٩) .

سادسا : صكوك الغفران :

قلنا إن الكنيسة اتخذت عدة أساليب لتنويع مواردها ودخولها المالية ، فمنها المباشر كالضرائب ومنها غير المباشر (أى لايظهر منه بادىء الأمر أنه استغلال ونهب) بل يظهر متسترا بستار الدين يرجى من ورائه تحقيق مصلحة (هكذا يعتقد) ولكن حقيقة أمره أنه طريق من طرق الكسب وتجميع الثروة ، وذلك الأسلوب هو ماعرف (بصكوك الغفران) .

(وهى ضريبة غير مباشرة انطوت على جمهور المؤمنين ، من العامة لتكون موردا ماليا سهل المنال)[1].

فهذه المهزلة أسلوب كنسى لزيادة دخل الكنيسة المالى فتستر بستار دينى

وفى نظرى أن هذه المهزلة وطغيان الكنيسة العلمى هما من أكثر العوامل التى ساعدت على انتشار الفكر اللادينى فى أوروبا . فهذه المهزلة أطلقت العنان للانسان بأن يفعل مايشاء اذا امتلك صك الغفران .

والآخر جعل الناس يثقون بالعلم ويقدسونه حيث وجدوا فيه متنفسا لهم من سلطان الكنيسة الذى يحجر على العقول أن تفكر أو تأتى بشىء لم تأت به الكنيسة . وسيأتى بيان ذلك باذن الله .

فأما صكوك الغفران فكانت تعد المذنب بغفران ذنوبه وآثامه التى ارتكبها ، فراجت بين الناس ، فكل ذنب مغفور . ومن هنا لايستغرب اقبال الناس على شرائها اذ أنها وافقت كثيراً منهم على مايريدون فعله فى حياتهم ، فانغمس الناس فى الشهوات وفعل المحرمات ، ولم يقف الأمر بالكنيسة أن تملك حق الغفران للأحياء بل وأعلنت أن الأموات ستصلهم الرحمة ، وماعلى الأحياء الذين يرغبون فى تقديم المعروف للأموات إلا أن يدفعوا مالا ليحصلوا على الصك باسم الميت الذى يرغب فى تحقيق الغفران له ويكون بذلك قد اشترى له مكانا فى الجنة وأصبح مغفورا له ماتقدم من ذنبه وماتأخر .

---

(١) مدخل لدراسة التاريخ الأوروبى ، د. محمد مخزوم (١٢٨) ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس ، لبنان .

أصل هذه البدعة :

تقوم على إعطاء الكنيسة نفسها حق الوراثة عن عيسى عليه الصلاة والسلام فى منح حق الغفران[١](كما زعموا) .

وقامت هذه البدعة على عدة أسس منها :

(أ) الفكرة الوثنية فى كون رجال الكنيسة وسطاء وشفعاء فى قبول التوبة.

(ب) جشع رجال الكنيسة .

(ج) استغلال هذه المهزلة فى ترغيب الناس فى قتال المسلمين بعد أن فشلت الوعود الكلامية[٢].

وحققت الكنيسة من وراء هذه الصكوك أموالا طائلة كعادتها فى استغلال الناس ونهب أموالهم وللجهل الذى كان متفشيا ، ولتفرد الكنيسة بمعرفة حقائق الأمور ، دفعت إليها الأموال رغبة فى الجنة رغم كل مايفعله الإنسان ويقترفه من شرور وآثام[٣].

---

(١) انظر : محاضرات فى النصرانية (١٧٥) ، مدخل لدراسة التاريخ الأوربى (١٢٨) .

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة (٦٥) .

(٣) وصيغة صك الغفران كالتالى : (ربنا يسوع المسيح يرحمك يافلان ، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة ، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات ، والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها ، وأيضا من جميع الافراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة ، وان كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا ، والكرسى الرسولى ، وأمحو من جميع أقذار المذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى الطهر وأردك حديثا الى الشركة فى أسرار الكنيسة وأقرنك فى شركة القديسين ، وأردك ثانية الى الطهارة والبر اللذين كانا عند معموديتك ، حتى انه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاه الى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى الى فردوس الفرح ، وان لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة ، حتى تأتى ساعتك الأخيرة باسم الأب والابن والروح القدس) . محاضرات فى النصرانية (١٧٦) .

وقد كان لهذه المهزلة سلبيات كثيرة كما كانت ايجابياتها محصورة على رجال الكنيسة ، ومن هذه الايجابيات :

(١) ارتفاع مكانة رجال الدين فى نظر السذج والجهلة .

(٢) ازدياد ثروات الكنيسة .

(٣) تدعيم سلطة الكنيسة السياسية[١].

أما الآثار السلبية :

(١) الفتور فى الطلب بعد كثرة العرض وقلة السعر .

(٢) تنافس القساوسة فى بيع صكوك الغفران ، فقلت قداستهم فى نفوس الناس ، بالإضافة إلى شكهم فى مصداقية هذه الصكوك حيث تبوأ الأشرار والطغاة مقاعد عالية فى الملكوت ببركتها .

(٣) سوء العلاقة بين رجال الدين والملوك بسبب ماوصلت إليه الكنيسة من زيادة فى الاستحكام نظرا لزيادة أرباحها[٢].

(٤) فتح باب العصيان على مصراعيه لاطمئنان الإنسان على غفران ذنوبه السابقة واللاحقة .

يقول عبد الله التل : (وواضح أن هذا الغفران يشمل ماتقدم من ذنب المشترى وماهو مقدم على اقترافه من ذنوب ، لأن الذى يطمئن إلى أن جميع ذنوبه السابقة واللاحقة قد مسحت عنه فإنه لايتورع عن الإقدام على فعل المعاصى والمنكر)[٣].

(٥) ساهمت فى هدم تعاليم الدين المسيحى[٤].

---

(١) انظر العلمانية (١١٦-١١٧) .

(٢) انظر المرجع السابق (١١٧-١١٩) بتصرف واختصار .

(٣) الأفعى اليهودية فى معاقل الاسلام (٥٦) ، الطبعة الثانية ، المكتب الاسلامى ، بيروت دون ذكر لتاريخ الطبعة ، وانظر : محاضرات فى النصرانية (١٧٦) ، كواشف زيوف (٤٥) .

(٤) انظر العلمانية (١١٩-١٢٠) .

الطغيان العلمى :

إن الحقيقة التى لاجدال فيها أنه لاتعارض بين العلم ودين الله تعالى ، أما إذا حرف ذلك الدين ، ودخلت فيه أفكار البشر فيكون عرضة للتعارض مع أبسط الحقائق العلمية وأقلها . وعندما فرضت الكنيسة سلطانها على كل شىء فإنها لم تدع الفكر وشأنه بل قيدته وحجمته وهى فى كل ذلك تدعى أن الدين يطلب ذلك . ونتيجة لهذه السلطة (فقد رأت أن أى مصدر من مصادر العلوم والمعرفة ، لابد أن يكون صادرا عنها ، وأن أى رأى يخالف رأيها فهو باطل يجب مقاومته بكل مايستطاع)[١].

وهكذا كان لزاما من العداء بين الكنيسة والنظريات العلمية التى وجدت وكانت تخالف العقيدة المسيحية المحرفة .

وحقيقة الأمر أنه لايمكن أن يقع الصراع أو التصادم بين العلم والدين لأنهما كلاهما من عند الله تعالى (فالدين بدأ مع آدم أبى البشرية ، والعلم بدأ معه أيضا ، كما تجمع على ذلك كل الكتب المقدسة التى هى المصدر الوحيد للتاريخ ، لهذه الفترة المبكرة جدا من حياة البشرية)[٢].

ولاشك أن العلم يحتاج إلى حراسة الدين كيلا يزهق روحه فى مستنقع الحس والتجسيد[٣].

---

(١) موقف الاسلام والكنيسة من العلم (١٠٠) عبد الله المشوخى ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، مكتبة المنار .

(٢) لانزاع بين الدين والعلم (٧) د. عبد الحليم عويس ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م دار النفائس ، بيروت .

(٣) انظر المرجع السابق (٤٢) .

الصراع بين العلم والكنيسة (بروزه فى رد النظريات العلمية) :

إن سياسة الكنيسة تجاه العلم والعلماء كانت حمقاء ، حيث فصلت الدين عن العلم ، واعتبرت أن العلم لايوصل إلى الحقيقة ، ورأت أن القضايا التى يطرحها العلم ليس من حق أحد أن يتحدث فيها إلا الكنيسة ، فحاربت العلم باسم الدين ، فكان العداء ، وبدأ الهروب من إله الكنيسة وكان نتيجة طبيعية لأفعالها وتصوراتها ، ووجدت النظريات العلمية القائمة على التجربة وحدث مالم تكن تحسب له الكنيسة حسابا ، فقد هرب الناس منها ومن الإله ـ الذى تسلطت باسمه ـ إلى الإيمان بذلك العلم .

يقول محمد قطب : (ولم يكن ثمة شك ، حين يقوم الصراع على هذه الصورة ، بين الكنيسة وبين العلم التجريبى أن يؤمن الناس بما يثبته العلم ، ويكفروا بما تقوله الكنيسة ، وأن ينتهزوا هذه الفرصة السانحة فيقفوا فى وجه طغيان الكنيسة ودكتاتوريتها الفظيعة ، وقد أمسكوا بأيديهم السلاح الذى يحطمون به أوهامها ، ويزلزلون به كيانها ، ويتزعون قداستها من نفوس المؤمنين بها ، وكان ذلك السلاح الجبار هو العلم)[1].

النظريات العلمية وردها :

كبحت الكنيسة جماح العقول وقيدتها وفرضت الحصار على الأفكار ولجمتها ، وردت النظريات العلمية ورفضتها لاخوفا على الدين بل حفاظا على مصالحها الذاتية من قدسية وخصوصية ، وخوفا من هتك أستارها على يد هذه النظريات فينهار بنيانها ، ويزول طغيانها فرفضت كل ماجاء عن غير طريقها وخالف معارفها ، واعتبرت أن قمة (الضلال هو البحث عن الحقيقة

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام (١٥-١٦) الطبعة الحادية عشرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، دار الشروق ، القاهرة ، بيروت .

فى غير الكتاب المقدس)[١].

ومن هنا لقى العلماء والفلاسفة أصحاب النظريات العلمية الاضطهاد من الكنيسة ، واحراق كتبهم ، بل واحراق بعضهم ، وأنشئت محاكم التفتيش لتكون لهم بالمرصاد .

محاكم التفتيش :

بعد أن قررت الكنيسة استخدام القوة والعنف ضد المخالفين أنشأت لذلك محاكم التفتيش لتقوم بمراقبتهم ومن ثم سجنهم وتعذيبهم .

وظهرت عام ١٣٩٥م ، وقد تقرر فى عدة مجامع عقدت استخدام هذه المحاكم لكل من يتهم فى عقيدته ويقصدون بذلك من عدا المسيحيين[٢]

وتعرض كثير من العلماء أصحاب النظريات لاضطهاد الكنيسة وتعذيبها واحراقها لهم[٣]، فبذلت الكنيسة جهودا جبارة فى معاقبة المفكرين والعلماء والمصلحين ، وحرمت الكتب وفرضت القيود عليها .

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب (٣٦١) ، زيغريد هونكه ، ترجمة فاروق بيضون كمال دسوقى ، راجعه مارون عيسى الخورى ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

(٢) انظر : مذابح وجرائم محاكم التفتيش فى الأندلس (٧٠) ، محمد على قطب ، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، مدخل لدراسة التاريخ الأوربى (١٧٠) ، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى (٤٥) عصر الإلحاد (٣٨) محمد تقى الأمينى الندوى ، ترجمة د. مقتدى حسن ياسين ، مراجعة د. عبد الحليم عويس ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) انظر مثلا : كتاب عصر الإلحاد (٣٨) ، موقف الاسلام والكنيسة من العلم (١٣٩-١٤٠) ، محاكم التفتيش (٨٧-٩٢) ، وعن جرائم الإحراق (٩٤) ومابعدها .

يقـول بول هازار : (فى كل مكان كانت فيه المسيحيـة مرتبطة بالدولة كانت تهب لمناصرتها ففى أسبانيا كان نشر الكتب المتزندقـة بل إذاعتها عسير بصـورة خاصة ، لأن محاكم التفتيـش إلى جانب السلطة الملكيـة ، بل فـوقها كانت ساهرة)[١].

إن الكنيسة لايمكن لها أن تحافظ على ماوصلت إليـه من طغيان إلا إذا استمرت تبعية الناس لها .

وقد رأت أن هذه النظريات هدم لكيانها ، ونبذ لفكرها الذى بثته بين النـاس فخشيت عليه منها فقـامت بمحاربتها . وهذا دليـل على عـدم ثقتها فى عقيـدتها ، وإذا كان هذا حال محاكم التفتيش مع بعـض من أرادوا الخروج على الكنيسة فكيف هو حال هذه المحاكم مع المسلمين .

---

(١) الفكـر الأوروبى فى القرن الثامن عشر (٩٢/١) ، ترجمة د. محمـد غلاب ، راجعه د. ابراهيم مدكور ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، وانظـر جهـود المفكرين المسلمين المحـدثين فى مقـاومة التيـار الإلحادى (١١٩) ، د. محمـود عبـد الحليم عثمـان ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، مكتبـة المعـارف ، الـرياض ، المملكـة العربية السعودية .

المسلمون ومحاكم التفتيش :

أما المسلمون فهم أصحاب الجرم الأكبر وقد ذاقوا ويلات هذه المحاكم وأصلوا نيرانها ، وإن كانت أحداث المحاكم مع المسلمين لم تذكر كما هو الحال ضد النصارى وغيرهم ، وأكثر ماعانى المسلمون منها فى بلاد الأندلس وأنشئت فيها المحاكم عام ١٢٩٠م وكما ذكرت فقد تجاهل كثير من الكتاب هذه المحاكم فى اسبانيا لأن المعذبين من المسلمين .

يقول الشيخ محمد قطب : (وينبغى أن نلاحظ هنا أن الكاتب الذى يتفطر قلبه أسى على ضحايا محاكم التفتيش من المسيحيين لايذكر كلمة واحدة عن الفظائع البشعة التى ارتكبتها محاكم التفتيش فى الأندلس وهى تطارد المسلمين لتطرد الإسلام نهائيا من اسبانيا وقد كانت تلك الفظائع أفظع ماعرفه التاريخ كله من ألوان الوحشية البربرية التى تعد أعمال محاكم التفتيش فى أوروبا المسيحية على شناعتها هينة لينة بالنسبة اليها وبالنسبة لأدوات التعذيب الخاصة التى استخدمت فيها فى الوقت الذى كانت أوروبا تعلم أنها مدينة للأندلس الإسلامية بكل ماكان فى حوزتها يومئذ من علم يعتد به بل مدينة بنهضتها كلها إلى القيم والمبادىء الحضارية التى تعلمتها من هناك)[1].

صور من العذاب وآلات التعذيب :

كانت الكنيسة فى الأندلس تقوم بدور بارز فى اضطهاد المسلمين وتعذيبهم ، وذلك لعلمها بتأثر النصارى بالمسلمين لما يرون لديهم من عقيدة ثابتة البنيان لايتطرق إليها الشك والاحتمال واضحة فى معانيها ميسرة فى تشريعاتها فاطلع هؤلاء على مالدى المسلمين (من عقيدة وشريعة وحرية فكر واطلعوا على حث الإسلام على العلم وظهرت لهم القرابة بينهما وأنه

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة (٦٨) .

لاخصومة بين دين الاسلام والعلم بكل صنوفه . ورأوا الفوارق الكبيرة بينهم وبين علماء المسلمين فهؤلاء يفكرون تفكيرا حرا ومتقدمون حضاريا وعلميا وهم ـ أى المسيحيون ـ متخلفون متأخرون وكان أعظم مالفت أنظار العلماء المسيحيين الأوربيين الفوارق الكبيرة بين الدينين والعقيدتين الاسلامية والمسيحية وموقف كل منهما من الدنيا والجسد والمرأة والثروة وموقف كل منهما من العلم واحتكاره أو التسامح فيه ومابين أصحاب الديانتين من فرق شاسع فى الحضارة والتقدم والحرية والتسامح)[١].

فكان لابد والحال هكذا من أن تقوم الكنيسة باضطهاد المسلمين وتعذيبهم .

وهذا الحال المذكور آنفا ليس فقط فى بلاد الأندلس بل التأثر كان فى كل مكان وصل إليه المسلمون سواء كان الوصول حربيا أم تجاريا . ونعود إلى محاكم التفتيش .

البناء :

عبارة عن أبنية قديمة غريبة فى هندستها وشكلها إذا ولج بها من الخلف بها عدة غرف صغيرة يوصل بينها ممر ضيق والنور يصل إليها من كوة صغيرة فى سقف كل غرفة . ويرى الزائر فى أرض الممر فتحات صغيرة وخصصت هذه الفتحات للمسجونين فى الغرف السفلى تحت الممر ـ أى الغرف التى بالدور الأسفل ـ ومن تحته طبقات أخرى عديدة تحت الأرض وهى سجون سرية لايهتدى إليها إلا رجال المحكمة والسجانون وكانت تطلى الغرف بالشحم لمنع السجين من تسلق الجدران وترى آلات التعذيب فى كل مكان[٢].

---

(١) الشيوعية خلاصة كل ضروب الكفر والموبقات والشرور والعاهات (٤٣) ، أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) انظر محاكم التفتيش (٧٢-٧٣) .
وعن أنظمة السجن وقوانينه والمأكل والمشرب فيه انظر (٧٧-٨٠) .

شاهد عيان على محاكم التفتيش ومابداخلها :

كتب الكولونيل (ليمونسكى) وهو أحد ضباط الحملة الفرنسية فى أسبانيا وبعد أن ذكر شيئا من الأحداث التى واجهها من اضطهاد واغتيال من قبل النصارى وصل إلى مهاجمة دير ديوان التفتيش ثم ذكر ماحصل مع حارس الدير ثم تبادل اطلاق النار إلى أن وصل الجيش إلى الدير ويقول عن نفسه بأنه كان من أول الداخلين مع مجموعةمن الضباط[1].

ثم بعد ذلك يذكر دخوله ونظرا لأهمية النص سأنقل أكثره .

يقول بعد دخول الدير : (أسرع رهبان اليسوعيين للقائنا مرحبين بوجوه باشة ، مستفهمين عن سبب قدومنا على هذه الحال ..!! كأن لم يكن من شىء بيننا!! ولم تكن موقعة!! ولم يكن قتال بين جنودنا وجنودهم!! ثم انهالوا على جنودهم تعنيفا وتأنيبا لمقاومتهم لنا ، وقالوا لهم : إن الفرنسيين أصدقاء لنا ، فمرحبا بهم!!

ولكن لم تنطل حيلتهم على ، بل أمرت الجنود بالقبض على أولئك القساوسة المنافقين ، وعلى جنودهم ، لتقديمهم لمجلس عسكرى . وأخذنا نبحث عن قاعات التعذيب المشهورة التى كان بها من صنوف التعذيب ماتقشعر من ذكره الأبدان وتتقزز منه النفوس . وطفنا بغرف الدير فرأينا مابها من أثاث فاخر ثمين ، ورياش وكراسى هزازة ، وسجاجيد فارسية ، ولوحات ثمينة نادرة ، ومكاتب كبيرة ... وقد صنعت أرض تلك الغرف من خشب (الموجنة) المصقول المدهون بالشمع ، وبطريقة عجيبة ، وكان شذا العطور يعبق فى أرجاء تلك الغرف ، فهى أشبه بأبهاء القصور الفخمة الكبيرة التى لاتكون إلا للملوك وأعيانهم على الترف واللهو ، وعلمنا أن تلك الروائح العطرية كانت تنبعث من شمع موقد دائما أمام صور رجال تلك (العصابة) اليسوعية ، ويظهر أن الشمع قد عجن بماء الورد .

---

(١) انظر محاكم التفتيش (١٠٣-١٠٥) .

وكان مجهودنا يذهب سدى فى محاولة العثور على قاعات التعذيب ، بعد أن فحصنا كل غرف الدير وممراته وأقبيته ، ولم نجد شيئا يدل عليها ... فعزمنا على الخروج من الدير ، وكدنا نقنع بتقديم أولئك اليسوعيين أمام المجلس العسكرى فقط بتهمة المقاومة ، وكانوا يقسمون ويؤكدون أن وجود مايشاع عنهم من أمور فى ديرهم ليس إلا تهمة كاذبة باطلة ، وأنها حديث خرافة ، ولكنهم يتحملون ذلك فى سبيل الله!!

وصار زعيمهم يؤكد لنا مايقول بصوت خافت وهو خاشع الرأس ، وعيناه مغرورقتان بالدمع الهتون ، وهى - ولاشك - دموع التماسيح ، وكادوا يخدعوننا ، فأعطيت الجنود الأوامر بالاستعداد لمغادرة الدير ، فاستمهلنى (الليفتنانت - دى ليل) وقال أتسمح لى ياحضرة (الكولونيل) أن أقول لك أن مهمتنا لم تنته حتى الآن .

فقلت له : ألم نفتش كل الدير ولم نعثر على شىء؟ ففيم ترغب؟ قال : أجل قد فتشنا ... ولكنى أرغب فى فحص أرض هذه الغرف ، وأدقق فى فحصها وامتحانها ، فإن قلبى يحدثنى بأن السر هو فى الأرض!! وأن هذه الغرف الفخمة تستر تحتها ماجئنا نبحث عنه . وعندها نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات ذات معنى وأذنت للضابط بالبحث .

فأمر الجنود - عندئذ - برفع الأبسطة والسجاجيد عن الأرض فرفعت ، ثم أمرهم بأن يصبوا ماء بكثرة فى أرض كل غرفة على حدة ، ففعلوا ، وكنا نرقب الماء فإذا بالأرض تبتلعه فى إحدى الغرف ، وإذا به يتسرب إلى أسفل فصفق الضابط (دى ليل) من شدة الفرح . وقال هاهو ذا الباب ، انظروا ، فنظرنا ، وإذا الباب قد ظهر ، وهو قطعة من أرض الغرفة يفتح بطريقة شيطانية بواسطة حلقة صغيرة وصنعت إلى جوارها رجل مكتب الرئيس .

وأخذ الجند فى تكسير ذلك الباب العجيب بأعقاب بنادقهم ، وأحاطت فرقة من الجند بعصابة اليسوعيين الذين اصفرت وجوههم وعلتها غبرة ، وخارت قواهم من الفزع والهلع .

وفتح الباب ، فظهر لنا سلم يؤدى إلى باطن الأرض ، فأسرعت وأخذت شمعة كبيرة ، أطول من متر ارتفاعا ، أنيرت أمام صورة أحد أولئك الرؤساء لمحاكم (التفتيش) ورؤساء (الديوان المقدس) ، ولما هممت بالنزول وضع أحد اليسوعيين يده على كتفى متلطفا ، وقال لى :

أرجوك يابنى أن لاتحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال ، لأنها شمعة مقدسة!!

فأجبته : هذا حق ـ ياهذا ـ .. فإنه لايليق بيدى أن تتنجس بلمس شمعتكم الملوثة بدماء الأبرياء ، وسنرى الآن من هو النجس منا ، ومن منا القاتل السفاك ؟! وهبطت على السلم يتبعنى بقية الضباط والجنود شاهرى سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج ، فإذا بنا فى غرفة كبيرة مربعة كانت تسمى عندهم بقاعة المحكمة ، فى وسطها عمود من الرخام ، به حلقة حديدية ضخمة ربطت بها سلاسل كانوا يقيدون فيها فرائسهم التى تكون رهن المحاكمة . وأمام ذلك العمود (عرش الدينونة) كما كانوا يسمونه هم وكان عبارة عن مصطبة (منصة) عالية يجلس عليها رئيس (ديوان التفتيش) وإلى جانبى ذلك المقعد المرتفع أماكن لجلوس جماعة القضاة ، وكانت أوطأ قليلا من المقعد .

ثم توجهنا لغرفة آلات التعذيب وتمزيق الأجساد البشرية وقد امتدت كل تلك الغرف إلى مسافات كبيرة، وكانت كلها تحت الأرض ، وقد رأينا بها مايستثير النفس ويدعوها أن تتقزز ماعاشت ، وامتد بها العمر .

رأينا غرفا صغيرة بحجم الإنسان ، بعضها عمودى ، وبعضها أفقى ، فيبقى سجين العمودية فيها واقفا على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه ، ويبقى سجين الأفقية مجمدا حتى يموت ، وتبقى الجثة فى السجن الضيق حتى تبلى ويسقط اللحم عن العظم ، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد البالية فتحت كوة صغيرة إلى الخارج . وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية لاتزال فى أغلالها سجينة مقيدة ، أما السجناء فرجال ونساء ، تتفاوت

أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين . وقد يفسر لنا فكاك بعض السجناء الأحياء من أغلالهم وهم على آخر رمق من الحياة ، وقد جن بعضهم خوفا وهلعا .. لكثرة مالاقوا من عذاب ، وكان السجناء عرايا زيادة فى النكاية بهم ، وقد اضطر الجنود أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها النساء السجينات وأخذ السجناء إلى النور تدريجيا لئلا تؤثر مفاجأة النور على أبصارهم .

وقد أخذ السجناء يبكون فرحا وأخذوا يقبلون أيدى الجنود وأرجلهم لأنهم أنقذوهم وأعادوهم إلى الحياة بعد الموت المحقق والعذاب الأليم .

ولما انتهينا من ذلك توجهنا إلى غرف آلات التعذيب ، فرأينا هناك ماتقشعر لهوله الأبدان .

فقد عثرنا على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم ، وكان يبدأ بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين ، كل ذلك على سبيل التدريج حتى تأتى الآلة على كل الجسد فيخرج من الجانب الآخر لها كتلة واحدة . وعثرنا على صندوق فى حجم رأس الإنسان تماما ، توضع فيه الرأس بعد أن تربط أيدى وأرجل صاحبها بالسلاسل ، فلايقوى على الحراك ، وتقطر على رأسه من ثقب فى أعلى الصندوق نقط الماء البارد ، فتقع على رأسه بانتظام ، فى كل دقيقة نقطة ، وقد جن الكثيرون بسبب ذلك اللون من العذاب ، قبل الاعتراف ، ويبقى المعذب على حاله هذه حتى يموت .

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى (السيدةالجميلة)!! وهى عبارة عن تابوت تنام فيه صورة امرأة جميلة ، مرسومة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة ، وكانوا يطرحون المعذب الشاب فوق هذه الصورة ويطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه - بعنف - فتمزق السكاكين جسم الشاب وتقطعه اربا اربا ...

كما عثرنا على عدة آلات لسل اللسان ، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب حديدية حادة ، ومجالد من الحديد الشائك لجلد المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم من العظم .

وصل خبر هذا الهجوم على دير (ديوان التفتيش) إلى (مدريد) فهب ألوف من الناس ليروا ماحدث ، وخيل إلينا أنه يوم الحشر . ولما شاهد الناس صنوف التعذيب وآلاته الجهنمية ورأوها رأى العين ،، جن جنونهم ، واشتعلوا بنيران الغيظ ، وكانوا كالذى مسه الجن ، فأمسكوا برئيس أولئك اليسوعيين ووضعوه فى آلة تكسير العظام ، فلم نشفق عليه ، ودقت عظامه دقا وسحقتها سحقا ، وأمسكوا كاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين تمزيقا .

ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بباقى طغمة اليسوعيين وبقية الرهبان مافعلوه أولا .

ولم يمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على ثلاثة عشر راهبا من تلك العصابة الآثمة، ثم أخذ الشعب ينهب باقى الدير ، وقد عثرنا على أسماء ألوف من الأغنياء فى سجلات (الديوان) السرية ، وهم السراة الذين قضوا عليهم لابتزاز أموالهم ، وكانوا يضطرونهم إلى كتابة اقرارات تحول بموجبها أموالهم إلى اليسوعيين ، فاذا ماتم لهم ذلك عذبوهم وقتلوهم بآلاتهم ...) .

(والحق أقول إن القلم واللسان يعجزان عن وصف مارأينا فى ذلك الدير من الفظاعة والبربرية التى لاتخطر على عقل بشر سوى الشياطين الذين قد يعجزون هم أيضا عن الاتيان بمثل هذه الأعمال)[1].

وهكذا كانت الكنيسة فى طغيانها وجبروتها ضد من لاينصاع لرغباتها ويسير وفق مصالحها .

هذا بعض مما فعلته الكنيسة بالآخرين ولكن ماهو حال رجالها فى صلاحهم وتقواهم طالما أنهم يخشون على عقيدتهم إلى هذا الحد؟

لقد ابتدعوا لأنفسهم رهبانية ماكتبها عليهم الخالق جل وعلا والرهبانية بعيدة عن (طبيعة الإنسان الإجتماعية فليس من الدين فى شىء أن

---

(١) محاكم التفتيش (١٠٣-١١٢) .

يبتعد الفرد عن اخوانه من بنى الإنسان ليعيش وحيدا وسط الهوام يقضى أيامه فى جوع وحرمان أو يأكل ماتيسر له من طعام فاسد دون أن يرتدى شيئا سوى أسمال بالية ويحرم نفسه حتى من نظافة الجسد)[١].

ويرى بعض الكتاب أن هذه الرهبانية كان (لها اليد الطولى باذلال الأحرار واضطهادهم ومقاومة الروح الجديدة والفلسفة المبنية على البرهان وبمعاكسة كل نهضة علمية وقتل كل من خرج عن طاعة الكنيسة الكاثوليكية وزيادة على ذلك كنت ترى ظل هذه الرهبنة يلوح فى كل مكان وكانت تتداخل فى كل الأمور سياسية كانت أم دينية تجارية أم أدبية)[٢].

اما الأديرة وفضائحها فأكثر من أن تحصى ولكن لنا أن نتخيل بأن كل أنواع الشذوذ والإنهماك فى المآكل والمشارب كانت تمارس فيها .

---

(١) Thompson, : op. cit. Vol. 1 . pp. 219-220 .
نقلا من كتاب تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى (١٢٨-١٢٩) .

(٢) الأعمال العربية الكاملة (٢٨٣) ، أمين الريحانى ، المجلد السادس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

آثار الكنيسة على الحياة الأوربية :

إن الكنيسة بأفعالها تلك قد أثرت فى الحياة الأوربية سلبيا الى أبعد درجة يمكن أن يتخيلها الإنسان .

ومن الآثار التى خلفتها الكنيسة من جراء حماقاتها التى ارتكبتها كما أوضحناه سابقا الآتى :

أولا : رفض الناس للدين بسبب أفعال الكنيسة الاستعبادية التى استأثرت بمعرفة كل شىء وتسلطت على كل شىء باسم الإله الذى خولها ذلك التسلط .

ثانيا : الشك فى صحة النصرانية لما فيها من تناقض ومعتقدات محرفة ولهذا السبب وسابقه (اتجهت أوروبا اتجاها ماديا علمانيا ، ورفضت الكنيسة والدين كله ، وأصبح معظم النصارى يعتبرون المسيحية تحفة أثرية ، وعقيدة عتيقة دخلت متحف التاريخ ولاتستحق اضاعة الوقت فى تعلمها ومناقشتها ، ولم يبق منها فى حياتهم إلا الأسماء والكنائس والأديرة وإلا الإنتماء التاريخى الذى يذكرهم بالماضى ويؤجج فى قلوبهم نار الصليبية والتعصب المقيت ضد المسلمين .

فالأوربيون متعصبون لنصرانيتهم لالعقيدتهم وتعاليمها وأخلاقها ، لأن وجودهم تاريخيا وأصول حضارتهم مرتبطة بالدولة الرومانية المسيحية والفكر اليونانى الوثنى وليس لهم رصيد روحى يلجأون إليه إلا النصرانية التى توحد كلمتهم فى وجه العالم الإسلامى الذى كانوا يرون فيه خطرا على وجودهم كما يرون فى التحكم فيه وإذلاله متنفسا لأحقادهم وتحقيقا لمطامعهم المادية وعلوهم فى الأرض)[1].

ثالثا : الخروج على الدين بسبب أفعال الكنيسة تجاه العلم والعلماء . حيث (نجم عن موقف الكنيسة العدائى من العلم عداء العلم للكنيسة دون أن

---

(١) قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٧-١٨) ، محي الدين حسن القضمانى ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م المكتب الإسلامى .

يظهره مخافة بطشها فأضمر الحقد والعداء للكنيسة يتحين الفرصة ليضربها فى صميمها ويتزع عنها أردية القداسة والالوهية فلما خرجت أوروبا على الكنيسة بسبب تقدمها العلمى تنفس العلماء الصعداء وخرجوا على الكنيسة ومرقوا من دينها واستكبروا عليها حتى اضطرت الكنيسة إلى رفع راية الفصل بين الدين والعلم ، وأن يعطى ماالله لله ومالقيصر لقيصر ويستقل كل منهما عن الآخر فى دولته)[١].

رابعا : نتج عن ذلك أن العلم انفصل عن الدين عند الأوربيين بسبب أفعال الكنيسة ومواقفها فكان العلم ضد الدين ، وأصبحا عدوين لايلتقيان ، فسار العلم (منذ البدء فى طريق غير طريق الدين ، لأن الدين - كما تمثله الكنيسة يومئذ - لم يكن فى طوقه أن يمد العلم بشىء إلا بمذهب - كالمذهب التجريبى الذى أمد به الإسلام التفكير العلمى - ولابمعلومات صحيحة تفيده ولابتشجيع من أى نوع . بل كان العكس هو الحاصل . فالكنيسة تشجع الجهل وتحارب العلم وتنكل بالعلماء . ومنتجات العلم - بعضها على الأقل - تتجه نحو الكسب قبل أن تتجه نحو الفائدة ، مدفوعة بشهوة رأس المال وذلك مخالف لروح الدين . ولكن الدين هناك ليس له قوة التوجيه ولاالخبرة بالتوجيه فى ذلك المجال .. ورويدا رويدا أحس الفرد العادى أن حياته تصوغها الأشياء (المتطورة) ولايصوغها الدين)[٢].

---

(١) الشيوعية (٤٥) ، وانظر (٤٤،٤٦) .
حيث ذكر المؤلف تأثر النصارى بما رأوه عند علماء المسلمين ورأوا أن الحكومات الاسلامية تعرف للعلماء قدرهم وحقهم العظيم وتساعدهم ولاتحجر عليهم رأيا ولاتقف فى طريق العلم أو أبحاثهم وكذلك رأوا مااستخدمه علماء الاسلام من مناهج البحث العلمى فتأثروا بذلك غاية التأثير فى الهروب من دين الكنيسة وسلطتها القائمة على القهر والاستعباد .

(٢) التطور والثبات فى حياة البشرية (٣١-٣٢) ، محمد قطب ، الطبعة الخامسة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الشروق ، وانظر (١٦) عن حفاظ الكنيسة على الجهل ليستمر لها الحفاظ على سلطتها .

خامسا : إن طغيان الكنيسة المالى أدى إلى مناهضة الدين من قبل الناس فى اوروبا لأنها (أى الكنيسة) إنما تسلطت باسم الدين على تلك الأموال فكان لابد من مناهضته . يقول انجلز : (الكنيسة الكاثوليكية الرومانية كانت المركز الأممى الأكبر للإقطاعية . كانت تجمع أوروبا الإقطاعية الغربية كلها ، رغم حروبها الداخلية فى منظومة سياسية كبيرة مناوئة للروم المنشقين مثلما هى مناوئة للبلدان الإسلامية فكانت تتوج المؤسسات الإقطاعية بهالة تكريس إلهى . وكانت قد قوبلت مراتبها الخاصة على مراتب الإقطاعية وانتهت بأن أصبحت السيد الإقطاعى الأكثر قدرة تملك ثلثا ثابتا على الأقل فى أراضى العالم الكاثوليكى . وقبل الاقتدار على الاغارة على الإقطاعية فى كل بلد على حده كان لابد من تعويض هيئتها المركزية المقدسة)[١].

سادسا : وقفت الكنيسة بأفعالها هذه أمام كل تقدم فى حين كان العلم يكشف عن حقائق جديدة مما أدى الى اقبال الناس عليه ورفض الدين . ولعل الكنيسة كانت تخشى على كتابها المقدس أن يخضع للدراسة والبحث فيحصل مالاتريده الكنيسة[٢].

سابعا : أدت تلك الأمور مجتمعة الى الكفر بالكنيسة وبتعاليمها وكل ماجاء فى انجيلها فخلت الكنائس من العباد نظرا لما حققه العلم من تقدم[٣].

اضافة لعدم وجود السند التاريخى الذى يربط الأناجيل الحاضرة والانجيل الذى نزل على عيسى عليه الصلاة والسلام ، وهذه الأناجيل إنما وجدت بعد رفع عيسى عليه السلام بعشرات السنين[٤].

---

(١) وضعية الدين عند ماركس وانجلر (١٠٨) .
(٢) انظر عصر الالحاد (٣٣) .
(٣) انظر الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١١) .
(٤) انظر المرجع السابق (١٣) .

يقول اللورد هدلى : (ليس الإنجيل إلا مجموعة كتب كتبت فى أوقات متباعدة عن بعضها)[١].

ثامنا : إن الطقوس الدينية الموجودة الآن والمعمول بها لاتمت لسيدنا عيسى عليه السلام بصلة .

يقول ولز : (إن بعض الكتاب يرى أن السيد المسيح لاتربطه بالمسيحية الحاضرة أية صلة)[٢].

---

(١) The Affinity Between the original church of Christ and Islam (15) .

نقلا من كتاب الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١٣) .

(٢) انظر :. The Outline of History (524)

نقلا من كتاب الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١٤) .

وانظر مزيدا من الأقوال (١٥-١٦) .

حركات الإصلاح

إن من سنن الله تعالى أن لايدوم الظلم والطغيان وإن طال أمده . ويقيض المولى جل وعلا مايضاد الظلم ويعاديه .

وعندما كانت الكنيسة بالطغيان السابق ، وظهر ذلك جليا فى أفعالها وماقترفته من آثام باسم الدين فثار الناس فى وجهها وتعالت صيحات عديدة من أقطار متباعدة تدعو إلى اصلاح الوضع المتردى الذى وصل إليه حال الكنيسة ورجالها .

وماظهرت هذه الدعوات والحركات المنادية بالإصلاح إلا رد فعل على مارتكبته الكنيسة من رزايا وفضائح باسم الدين .

ودون أدنى شك أن هناك أمور ساعدت على ظهور هذه الحركات الإصلاحية ، وهى :

أولا : الاحتكاك مع المسلمين وكان ذلك عن طريقين فى الغالب هما :

(أ) الطريق العلمى .

(ب) الطريق الجهادى .

ثانيا : وضع رجال الكنيسة والفساد المتفشى بينهم وفضائح الأديرة والمفاسد الأخلاقية التى ظهرت فيهم .

ثالثا : استغلال الشعب ونهب أمواله من قبل الكنيسة ورجالها عن طريق الضرائب المفروضة والعشور المأخوذة من أموال الناس .

رابعا : صكوك الغفران وإن كانت داخلة فى الأمر الثالث من حيث انها أسلوب من أساليب النهب والاستغلال غير أنها من أكثر العوامل التى اثارت الناس ودعاة الاصلاح على الكنيسة . يقول الدكتور محمد مخزوم : (تعتبر بدعة صكوك الغفران التى روجها البابوات عن طريق رجال الدين من العوامل التى أثارت استياء جميع المصلحين الدينيين)[١].

---

(١) مدخل لدراسة التاريخ الأوربى (١٢٨) .

خامسا : دور الأباطرة ورغبتهم فى الفكاك من سلطة الكنيسة حيث كانت السلطة السياسية فى يد رجال الكنيسة حقيقة[١]. فعندما ظهرت هذه الحركات الإصلاحية أيدها الأباطرة ودعموا أصحابها ببعض القوة الموجودة لديهم .

المسلمون وحركات الاصلاح :

قلنا بأن المسلمين كان لهم أثر فى حركات الإصلاح عن طريقين :

(أ) الجانب العلمى .

(ب) الجانب الجهادى .

ولأهمية هذا الأثر نوجز بكلمة عنه :

بدأت حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا خلال القرن الرابع عشر الميلادى وامتدت إلى القرن السادس عشر ، ويرى الباحثون أن الفضل فى نشأة هذه الحركة يرجع إلى المسلمين وتعاليم الإسلام إلى حد كبير . فقد استفادت أوروبا كثيرا من الحروب الصليبية ومن مراكز الأندلس العلمية ، وبعد ذلك تميز كيان حركة الاصلاح الدينى .

يقول جان ديون يورث :

(إن علوم الطبيعة والنجوم والفلسفة والرياضيات التى انتشرت فى أوروبا منذ القرن الرابع عشر كانت قد اقتبست من المدارس العربية ، ومن هنا تكون الاندلس الإسلامية هى المؤسسة للفلسفة الأوربية)[٢].

وتأثير المسلمين فى الحضارة الأوربية واضح لكل ذى بصيرة وتأثيرهم كان فى جوانبها الإيجابية ، واعتبر بعض المفكرين زوال حضارة المسلمين خسارة أصيبت بها أوروبا نفسها .

---

(١) مر معنا حادثة استعطاف الإمبراطور للبابا ومدى سيطرة الأخير عليه (٣١) .

(٢) عروج وزوال كالهى نظام (١٧٢) لمحمد تقى الأمينى الندوى بالأردية ، نقلا من كتابه عصر الالحاد (٣٥) .

يقـول المؤرخ الشهير (ا.ج.جرانت) : (ليس هنـاك حادث فى تاريخ أوروبا كلـه أكثر إيلامـا مـن زوال حضـارة المسلمين فى الأندلـس ، فـإنهم أضـافوا كثيرا إلى حضـارة أوروبا ، ولـو لم ينته ملكهـم فى اسبـانيا لأضافوا اضافات كثيرة أخرى)[١].

هـذا بالنسبة لأوروبا كلها أما بالنسبة لحركات الاصلاح فـإنه يمكن لمن (يطـالع تاريخ أوروبا الـدينى وتاريخ الكنيسـة النصـرانية أن يتلمـس تأثير الاسلام العقلى فى نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفى السائد أما دعـوة لـوثر الإصلاحية التى ظهـرت فى القـرن السادس عشـر المسيحـى فقـد ظهـرت فيهـا انعكاسات خفيفـة لتعـاليم الإسلام ودورهـا فى الإصلاح ...)[٢].

أمـا الجانب الآخر وهو الجانب الجهادى فقد عكسـت الحروب الصليبية مدى مايتمتع به المسلمون من حريات واتصال مباشر بالاله جل وعلا اضافة إلى القـواعد الجهـادية التى تفـرض على المحارب المسلم أن يعـرف مـن يقاتل ومن الذى يجب قتله ، ومن يترك ، وكيف يعامل الأسرى إلى غير ذلك مما جاء به الإسلام من أحكام الجهاد ومقاتلة الأعداء ، فعندما رأى الأعداء تلك الأخلاق اخذوا فى المنـاداة باصلاح الـوضع والعـودة إلى التعـاليم الإنجيليـة وترك مـايدعيه رجال الكنيسـة لأنفسهـم إلى غير ذلك ممـا أثارته الحركـات الإصلاحية .

ونعـرض الآن لبعض حركـات الإصلاح دون استقصـاء لهـا بل ضرب أمثلة عليها .

---

(١) تاريخ أوروبا (٤٣٦) ، نقلا من كتاب عصر الالحاد (٣٦) .

(٢) الإسلام أثره فى الحضارة وفضله على الإنسانية (٢٩) ، أبو الحسن الندوى ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، دار المنارة للنشر والتوزيع ، جدة ، السعودية ، .

حركة مارتن لوثر[١]: (Martin Luther)

أشهر الحركات وأقواها وكانت الانطلاقة من المانيا حيث حمل لوثر لواء العصيان على البابا ونادى باصلاح الكنيسة .

وكان أساس الخلاف بينه وبين الكنيسة حول قضية النجاة هل تتوقف على الايمان أم صكوك الغفران ، ولم تشعر الكنيسة بخطورة أفكار لوثر إلا عندما تصدى لراهب أرسلته البابوية إلى المانيا لبيع صكوك الغفران وكان ذلك سنة ١٥١٧م وكان يدعى يوحنا تتزل (John Tetzel) وكانت بحاجة لمال تصرفه فى اصلاح كنيسة القديس بطرس ، فاستنكر عملية بيع صكوك الغفران وكان هذا الاستنكار بصورة علنية .

واستغل وجود الناس فى كنيسة فتبزغ سنة ١٥١٧م وعلق على بابها اعلانا يتألف من ٩٥ بندا ذكر فيه موقفه من هذه القضية وغيرها ، وكانت هده نقطة البداية فى المواجهة بين لوثر والكنيسة الكاثوليكية ونادى لوثر بأن البابا ليس من حقه احتكار تفسير الكتاب المقدس[٢]، وكانت حركته (ترفض أن يكون فهم الانجيل على رجال الكنيسة بل ترى أن لكل قادر الحق فى فهمه)[٣].

ويقول د. محمد البهى : (فحارب صكوك الغفران ونظر إليها كوسائل للرق والعبودية وألقى الأضواء على عقيدة التثليث كما حارب سلطة البابا وجعل السلطة الوحيدة فى المسيحية هى الكتاب المقدس وكلمة الله النص وطالب بالحرية فى بحث الكتاب ولكن ليست أى حرية على العموم .. ومع

---

(١) مارتن لوثر : ولد سنة ١٤٨٣م بالمانيا ، من أبوين فقيرين ونشأ فى بيئة دينية ، انتشرت فيها الخرافات والمعتقدات الزائفة ، وقد رغب فى مقابلة رجال الدين فذهب إلى روما وبمجرد وصوله غير فكرته عنهم وقام بالدعوة ضدهم ، ومما زاد نقمته عليهم مهزلة صكوك الغفران .
انظر موقف الإسلام والكنيسة من العلم (١٥١-١٥٢) .

(٢) انظر عصر الالحاد (٣٧) ، وانظر حرب الفلاحين فى المانيا (٩٣) ، حاشية رقم (١) .

(٣) قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٦) .

ذلك جعل الكتاب المقدس نفسه هو مصدر الحقيقة فيما يتصل بالايمان ثم جعل الايمان فى الاعتبار والقيمة مقدما على أى شىء آخر عداه من العقل أو الطبيعة)[١].

وأمام دعوة لوثر الاصلاحية وماحملته من أفكار جديدة تخالف ماعليه الكنيسة ورجالها .

بادر البابا ليو العاشر بإصدار إعلان يندد فيه بأفكار لوثر ويهدده بالحرمان فماكان من لوثر الا أن رد باحراق المنشور علنا يوم عيد الميلاد من عام ١٥٢٠م مما أدى إلى صدور قرار بابوى بالحرمان . ورغم هذا أخذت حركة لوثر فى الإتساع فطالب البابا باعتقاله ومحاكمته فعقد الامبراطور شارل الخامس مجمع سنة ١٢٥١م فى مدينة ورمز (Warms) يحضره لوثر ليبرر تصرفاته وأفكاره وعندما كان لوثر قد حظى بعطف وحماية بعض الامراء الألمان[٢]فقد نجا من القرار المتخذ بشأنه وهو إهدار دمه . وساعده على النجاة فردريك سيد سكسونيا الذى أعطاه الحماية فى قلعة وارتبرنج (Wartburg) لمدة سنة تفرغ خلالها لترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية .

وانتشرت آراء لوثر وأفكاره انتشارا واسعا فى ألمانيا واصبح لها دعاة بين أفراد الشعب بصورة كبيرة . وكانت الضغوط على شارل الخامس مثمرة من قبل الكاثوليك المتدينين والبابوية إلا أنه كان يرى عدم التعجل فى القضاء على لوثر وأتباعه وذلك للاستفادة منهم فى صد ومقارعة الخطر العثمانى الذى كان يهدد أوروبا . وعقد مجمع امبراطورى فى سبير (Speir) حيث جاء فيه أنه من حق كل أمير أن يختار المذهب الذى يريده مما وضع أتباع لوثر فى وضع قانونى . فاضطر الكاثوليك لعقد مجمع امبراطورى آخر

---

(١) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٥٠) ، الطبعة الحادية عشرة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الناشر مكتبة وهبة .

(٢) قلنا إن من الأمور المساعدة على انتشارها (حركات الإصلاح) حماية الامراء لأصحابها .

سنة ١٥٤٩م ألغى فيه مامنحه للأمراء من حرية اختيار المذهب الذى يريدونه وأعلن تمسكه بمقررات ورمز . غير أن اللوثريين لم يقبلوا بهذه القرارات واحتجوا عليها فمن ذلك الوقت أطلق عليهم البروتستانت[١].

وفتحت المواجهة بين الكاثوليك والبروتستانت الا أن هذا التصادم لم يقض على اللوثريين ولعل ذلك يرجع إلى :

(١) الحماية التى تتلقاها الحركة اللوثرية من قبل بعض الأمراء .

(٢) أن الحركة قد أخذت فى الانتشار حتى وصلت إلى الدول الاسكندنافية وعندما وصلت إلى هناك اعتنق الزعيم السويدى أفكار هذه الحركة سنة ١٥٢٣م .

وملك الدانمرك أخذ بالمبادىء اللوثرية ، وفرضها على النرويج وايسلندا التابعة لسيادته[٢].

ولكن ماهى الدوافع وراء الأخذ بالمبادىء اللوثرية من قبل هؤلاء الأمراء؟

يمكن إرجاع ذلك إلى :

(١) الرغبة فى الابتعاد عن سلطان الكنيسة فى روما .

(٢) الاعتبارات الإقتصادية[٣].

(٣) الوضع المتردى لرجال الكنيسة فى كل مكان (الطغيان الذى كانت تمارسه حتى على الأمراء) .

(٤) المد الإسلامى وأثره فى كثير من البلدان .

(٥) وجود الاتباع والدعاة لهذه الحركة فى تلك البلاد .

---

(١) انظر أوروبا فى بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة (٥٦-٦١) ، د. عبد المجيد نعنعى ١٩٨٣م ، دون ذكر لرقم الطبعة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، وانظر عصر الالحاد (٣٧) .

(٢) المرجع السابق (٦٤) .

(٣) المرجع السابق (٦٤) .

وهـذا يدل على أن الحركـة قـد وصلـت الى بلـدان كثيرة واستهـوت مجمـوعة من الناس فقامت فى تلك الأوطان دعوات مماثلـة متأثرة بها مؤيدة لهـا فى أشياء مخالفة لها فى أخرى ومـن ذلك الحركة الإصلاحيـة فى فـرنسا .

حركة جون كالفن[١]: (John Calvin)

تأثرت الحركات الإصلاحية بعضها ببعض فقد التقى كالفن مع لوثر فى مجموعة من آرائه ولم يؤيده فيها جميعا .

فمثلا :

(١) كـان يرى أن الغفران هبة من الله يقدرها فى الأزل بغـض النظر عن أعمالهم .

(٢) اختلـف معه فى مسألة خضـوع الدولة للكنيسة فكـان يرى أن تخضـع الـدولة والسلطـات لتلك الفئـة العاملة فى سبيل المسيحيـة واستهـوت النظـرية (الكـالفينية) أنصـار الاصلاح الـذين كـانوا شـديدى التدين فاجتمعوا حوله فى جنيف حيث لجأ إليها بعد أن اضطهـده ملك فرنسا وأسـس حكـومة دينية وفرضـت رقابة شديدة على النـاس ... وأصبـح للحـركة نشـاطات متعددة حتى تمكـن اصحـابها مـن إقـامة أول مجمـع لكنيستهم الكالفينية الفرنسية فى باريس سنة ١٥٥٩م تحددت فيه بصورة علنية معتقداتهم وفق تصورات كالفن وآرائه[٢].

ويرى بعض الكتاب أن حركة كالفن امتازت بالعناصر الآتية :

---

(١) لاهـوتى ، كـان والـده وكيلا لمجلـس الـرهبان ، أراد أن يوجهـه ليصير كـاهنا ، ودرس الفلسفـة والمنطق وتعلم العبرية ، تأثر بحركة لوثر كثيرا ، لـه عدة مؤلفات منهـا إحياء النصرانية ، الرد على شيعـة الزنادقة الخياليـة ، ولد عام ١٥٠٩م ومات سنة ١٥٦٤م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٢/٢٣٥) ومابعـدها رقم ٩٣٢ ، إعداد الأستـاذ رونى ايلى ألفا ، مراجعة د. جورج نخل ، الطبعـة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

(٢) انظر : أوروبا فى بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة (٦٥ ومابعدها) ، موقف الاسلام والكنيسة من العلم (١٥٧-١٥٨) .

(١) انهـا ركزت بدرجة معقولة على الضبط الخلقى وأنشـأت محكمة للرقابة الخلقية .

(٢) قـامت حكومة الكنيسة فى ظل الحركةالكالفينية على أيدى جمـاعة من القساوسة والشعب معا ، فالجماعة الحاكمة كانت تتضمـن ستة قساوسة واثنى عشـر شخصا من كبار رجال الأمـة فالحكومة كـانت دينية مدنية معا .

(٣) وقد كان توجيه كالفن نفسه يقوم على التفريق بين الحكـومة والكنيسة دون أن تكـون الحكـومة مخولـة لأن تتـدخل فى شئـون الكنيسـة)[١].

وكـان كالفن مدرسا لمادة الـدين فى جامعة اكسفورد فى القـرن الـرابع عشر الميلادى ، وانتقد النصرانية المعاصرة نقدا لاذعا فعزل عن التدريس عن طريق البابا[٢].

وقد أثرت هذه الحركة والتى قبلها تأثيراكبيرا فى المسيحيـة وأصابها بما قدمته من آراء للجدل بين الناس على أن هناك مجمـوعة أخرى من الحركات الإصلاحية .

إلا أن هـاتين الحركتين قد أثرتا تأثيرا كبيرا فى مـاحدث بعد ذلك من جدل فكـرى حول المسيحية . يقـول الدكتور محمد البهـى : (وبحركـة لوثر وكـالفن الإصلاحيـة تعرضـت المسيحية للجدل الفكـرى وأصبحـت موضوعا للنقاش العقلى والمذاهب الفلسفية والمسيحية التى تعرضت لذلك هى المسيحية التى تناولها لوثر باصلاحه أى الكاثوليكية البابوية)[٣].

وقـد وجدت الشعـوب متنفسـا فى هـذه الحركـات فـدعمتها وتبعـت اصحـابها ، ولاقت رواجا بين شعـوب أوروبا فهذه افكـار كالفن وإصلاحاته انتشـرت فى فـرنسا . (وأصبحـت ـ العقيـدة الكلفنيـة ـ الـدين الـرسمى فى

---

(١) تاريخ الأخلاق فى أوربا (١٣) ، نقلا من كتاب عصر الالحاد (٤٤-٤٥) ..

(٢) انظر عصر الالحاد (٣٨) .

(٣) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٥٠) .

اسكتلندا كما امتدت إلى القطاعات بسويسرة بالإضافة إلى اعتناق معظم سكان المجر لها . وهذا يدل دلالة واضحة على سرعة استجابة الناس للخروج على الكنيسة ومعارضتها وماكان ذلك ليحدث بهذه السرعة ـ لولا تلك الأعمال القاسية التى كانت تقوم بها الكنيسة ، واحساس الناس بالظلم والمساوىء التى ارتبطت بالكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها قداسة البابا)[١].

وغيرهما من الحركات الاصلاحية كحركة وكليف[٢]وهس[٣].

حقائق عن حركة الإصلاح اللوثرية :

إن أهم الحركات الإصلاحية هى حركة لوثر ولكن لابد من التنبيه على بعض الأمور :

أولا : إن من أهم الأمور التى تم استيرادها فى حركة الإصلاح الدينى من الحضارة الرومانية واليونانية حرية الفكر ، والإتجاه المادى وتربية الذوق الجمالى ، وهذه وإن كانت مهمة إلا أنها خطيرة .

ثانيا : كان ينبغى لحركة الإصلاح أن تتجه إلى دين حى سام يلائم حقائق الحياة ولاسيما فى مجال الفكر والتطبيق[٤].

---

(١) موقف الاسلام والكنيسة من العلم (١٥٨) .

(٢) ويكليف عالم انجليزى من دعاة الإصلاح الأوائل ، دعا إلى إصلاح الكنيسة من داخلها ، انتقد النصرانية انتقادا لاذعا وهاجم رجال الدين وانغماسهم فى الملذات وقف الشعب والملك وبعض الأمراء ضد الكنيسة من أجل منع محاكمته لاتهامها إياه بالهرطقة وهو (يهودى) كما ذكر ذلك عبد الله التل ، وقد قام بترجمة التوراة إلى اللغة الانجليزية .
انظر عن حركته : كتاب أوروبا فى بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة (٥٢-٥٣) ، عصر الإلحاد (٣٧) ، الأفعى اليهودية (٥٦) ، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبى (١٤٣-١٤٩) .

(٣) هس : وهو (يهودى) كان واعظا (حارب الفساد وناوأ تعاليم الكنيسة التى تساعد على ذلك الفساد) . الأفعى اليهودية (٥٦) .
اتهم بالهرطقة وأحرق ، وقد نادى هس بالعودة إلى (الكتاب المقدس باعتباره المصدر الأساسى للنصرانية) . أوروبا فى بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة (٥٣) .

(٤) انظر عصر الإلحاد (٥٠-٥١) .

ثالثا : افتقار حركة الإصلاح لليقين ، والقيادة القادرة على توجيهها الوجهة الصحيحة[١].

عدم نجاح حركات الإصلاح :

مما لاشك فيه أن هذه الحركات كان لها أثر على الحد من طغيان الكنيسة ولكنها لم تنجح النجاح الكامل .

ويمكننا أن نرجع ذلك إلى عدة أسباب :

أولا : تأثرها بالاتجاه المادى المأخوذ من الحضارات المادية السابقة .

يقول محمد تقى الندوى :

(إن حركة الإصلاح الدينى (النشأة الثانية للدين) مدينة للمسلمين إلى حد كبير وذلك مع وجود عناصر من الحضارة الإغريقية والرومانية فى تكوينها .

وبما أن الاتجاه المادى كان ساريا فى أساس حضارتى الإغريق والرومان فقد دخل هذا الاتجاه المادى فى حركة الإصلاح مع تأثير خفيف للعناصر الروحية)[٢].

ثانيا : فساد الدين الذى حاولت حركات الإصلاح تعديله حيث كان الانحراف فى أسسه العقدية موجودا وهذا جعل أثرها ضعيفا وشكليا فى جوانب منه .

يقول الندوى : (إن الحركة الإصلاحية الثورية الجذرية فى ديانات أصيبت بتحريف أو انحراف جذرى ـ مهما بلغ القائمون بها والدعاة إلى هذه الحركة من الإخلاص والجهد ـ إذا لم تقم بانفصال واضح عن هذه الديانات المنحرفة أو المحرفة والتبرؤ منها وبقيت هذه الفرقة مندمجة فى مجتمعها الدينى الكبير الذى أنكروه على عقائده الدينية الأساسية وأخذت بمبدأ التسامح الذى

---

(١) انظر عصر الإلحاد (٥٢-٥٣) .

(٢) المرجع السابق (٤٨) .

لامساغ له كان مصير هذه الفرق والدعوات الذوبان فى هذه الديانة أخيرا وذهبت كل المساعى والجهود التى قام بها زعماء هذه الحركات الإصلاحية الثورية ادراج الرياح وهذا شأن الحركات الثورية فى الديانة المسيحية)[١].

ثالثا : أن حركات الإصلاح كانت ذات أمد واسع بينما كانت الديانة النصرانية ممثلة فى الكنيسة ورجالها ضيقة جدا .

وأدى ذلك إلى (تعذر ضمها إلى دين ضيق مظلم هو النصرانية الكنسية)[٢].

رابعا : لم تكن الدعوات الإصلاحية فى مستوى الإصلاح الحقيقى فلم تستعد (قوتها الضائعة وتقوم بالتوجيه والارشاد ففشل الدينان معا القديم والجديد)[٣].

خامسا : (أن هذا الإصلاح كان قاصرا على بعض العادات والسلوكيات ولم يصلح دستورا واضحا للحياة ، كما أنه لم ينجح فى تحديد مستوى للأعمال والأخلاق يقوم على التغير الداخلى)[٤].

سادسا : الشبه التى كانت حول رجال حركات الإصلاح أى فقدان القدوة الحقيقية فى التطبيق الصحيح للدين فـ(لم يتميز الدعاة الدينيون بالصدق الخلقى ...)[٥].

سابعا : الخلافات والحروب التى حدثت بين مؤيدى حركات الإصلاح وأتباع الكنيسة ، فكان لذلك الأثر السيء على كلا الفريقين .

---

(١) الاسلام أثره فى الحضارة وفضله على الإنسانية (٣٠-٣١) .
(٢) عصر الإلحاد (٤٨) .
(٣) المرجع السابق (٤٨) .
(٤) المرجع السابق (٤٣) .
(٥) المرجع السابق (٤٨) .

بعض ايجابيات حركات الإصلاح وأسباب نجاحها :

ورغم ماذكرنا من أسباب للفشل فى حركات الإصلاح الا أن هناك مقومات ايجابية تستحق أن تذكر ، وأسباب ساعدت على وجود بعض الجوانب الايجابية . فمن ذلك :

أولا : من أسباب نجاح حركات الإصلاح إلى حد ما (ضعف الدين وفشله)[١] فى تلبية حاجات ورغبات الناس .

ثانيا : (أن حركة الإصلاح الدينى وسعت نطاق الفكر وأذكت فى القلوب عاطفة الشغف العلمى ، ولكنها استهدفت الحياة الدنيوية ، ووضعتها فى الوضع الرئيسى وهذا جعل الكثير من الطموحين وعباد العقل والشئون الدنيوية يلتفون حولها) .

ثالثا : (لم يكن رجال العصور الوسطى يعرفون كثيرا عن حرية اليونان وحبهم للجمال وترفهم ودعتهم ولكن حينما اتسعت المعلومات عن علوم اليونان القديمة وتاريخهم بسبب هذه الحركة تنبه الناس إلى ذلك وحاولوا إعادة عصر الترف اليونانى السابق) .

رابعا : (ولقد حدث تحول كبير فى اتجاه الفنون الجميلة ، وبدأ الميل إلى تماثيل اليونان والرومان القدامى ، فصار الرسامون يتتبعون كل ماهو جميل ولطيف وفق الطراز الكلاسيكى القديم ، وبرزت صور ذوى الجمال من الرجال والجميلات من النساء بحيث استغرقتهم عاطفة الجنس ومظاهر الترف فى هذه الدنيا) .

خامسا : (خلق زوال قطاع الإقطاع حياة مدنية خاصة ولون النظام الإجتماعى بلون معين فظهرت صور مختلفة للاختلاط المشين ، مثل حفلات الشاى ومجالس الرقص والغناء والعروض السافرة للفنون الجميلة) .

---

(١) عصر الإلحاد (٤٥) .

سادسا : (كما كانت قد نمت دراسة عالم الطبيعة فى عصر لم يوجد فيه دستور واضح لبناء الشخصية وفق مثال أو نموذج عال يهدف إلى هدف سام وكذلك لم يوجد اتجاه لوضع حدود صحيحة للفكر والعمل من شأنها أن تجنب الناس الغلو فى عبادة الهوى الجامح والعقل الهائم) .

سابعا : (تم إبراز التراث العلمى للعصر القديم بجهد بالغ كما تم تطويره فى صورة مدهشة فانجذب الناس إليه وأصبح مقوما من مقومات حركة الإصلاح الدينى) .

ثامنا : (شملت الدراسة والبحث كل ماتصل بالنفس الإنسانية بينما انحصرت الدراسة سابقا فى العلوم الدينية) .

تاسعا : (تشكلت أساليب جديدة للصناعات والمهن والتجارة واكتشفت أسواق جديدة للتجارة بجهود الملاحين المغامرين مما لم يكن يتصوره أحد) .

عاشرا : (بدأت اختراعات جديدة تظهر على الناس كما تم بحث نواح جديدة فى العلوم والفنون . هذا فيما كانت دراسة علم الطبيعات فى العصور الوسطى تعلم السحر ، وكان الدارسون ينسبون إلى الجن ، لكن فى عصر الاصلاح ظهرت العناية بجميع هذه العلوم على أسس علمية) .

الحادى عشر : (حدث انقلاب عظيم فى الحياة الإجتماعية بسبب استخدام المطابع والبارود ، فانتشر بذلك العلم كثيرا ، ووصلت إلى الشعب المعلومات التى كان قد استأثر بها قبل ذلك العلماء والأغنياء ، وكان استخدام البارود قد أفسح المجال للوظائف العسكرية ولم تبق الحاجة ملحة إلى حيث الأمراء المستبدين مثلما كان فى السابق) .

الثانى عشر : (وفى ظل حركة الإصلاح بدأت سلطة الملوك والأغنياء تضعف يوما بعد يوم وذلك بعد أن كانت قائمة بسبب الجيش والأرض (وهى وسيلة الحصول على الثروة) ولم تبق للأرض أهميتها السابقة بتوفر وسائل الدخل الأخرى . وقد فقدت جيوش المرتزقة مكانتها بسب ظهور الوظائف العسكرية الدائمة) .

الثالث عشر : (أيضا فى ظل حركة الإصلاح بدأت الرحلات البحرية وحركة الكشوف الجغرافية كما تأسست المستعمرات الأوربية إلى غير هذا من مقومات نجاح حركات الإصلاح التى لايسهل حصرها)[١].

وقفة أخيرة مع حركات الإصلاح الدينى :

وبعد هذا العرض السريع نصل إلى الآتى :

أولا : لم يكن الدافع لحركات الإصلاح دينياً بحت .

ثانيا : كانت محاولة الخروج عن طغيان الكنيسة ووجود النزعات القومية من أهم دوافع تلك الحركات .

ثالثا : لم يتم التغيير فى العقيدة الفاسدة التى كانت تنادى بها الكنيسة .

رابعا : اهتم المصلحون بفساد رجال الكنيسة وسيطرتها المادية وأهملوا الجانب الأهم وهو قضية العقيدة التى كان فسادها ظاهرا .

خامسا : فى رأيى أن حركات الإصلاح أثرت فى نفوس الناس من حيث محاولة تخلصهم من طغيان الكنيسة ، والخروج عليها ، وفك الحصار الذى ضربته عليهم ، أكثر من أى أثر آخر .

سادسا : رأت الكنيسة أن تعيد النظر فى معتقداتها أو بتعبير أدق فى المآخذ التى لاحظها المصلحون . غير أنها رفضتها جملة وتفصيلا ، وأقرت ماهى عليه .

سابعا : تفتحت آفاق علمية وتطورات إجتماعية من حركات الإصلاح الدينى ، مما يجعلنا نقول مطمئنين أن الأثر كان أبعد من أن يمس المعتقد فلم تثمر ثمرتها المرجوة .

---

(١) تاريخ أوروبا الميوزثيجر ، نقلا من كتاب عصر الإلحاد (٤٥-٤٧) .

هـذا وبعد عجز الإصلاح الـدينى عن التغيير الجذرى بقيـت الحالـة فى أوروبا متـأثرة بالمادية قابلة بالإصلاح الدينى الشكلى فـأثر هذا الإصلاح سلبا وجعـل الناس ينفرون من الـدين سواء شعر المصلحون بذلـك أم لم يشعروا فلـو أن المصلحين صفوا العقيدة من الشرك والوثنية لما نبـذت أوروبا الدين بعـد ذلك بهذه الصورة . والتى كـان لحركات الإصلاح دور بارز فى الخروج على دينهـا ولكنهـم خرجوا على ذلـك الـدين البـاطل دون أن يجدوا دينـا صحيحـا يتلقفهم فكان لفشل حركـات الإصلاح الدينى أثر فى تردى الـوضع الأوربى بعـامة . ولكـن الـوضع ظـل مضطـربا حتى قـامت ثورات أخرى فى أوروبا كان لها أثر فكرى ومادى فى سير الحياة وتغيرهـا ، ومن ذلك الثورة الفرنسية .

وهكذا من جحيم إلى آخر ومن إنحراف إلى آخر أشـد منه ، ومافتئت أوروبا تنتقـل بين هذه الأفكار والمذاهب تتلمس فيها الفكـاك مما هى فيه ، الا أنهـا لم تخرج عن الأفكـار الأرضية ولذلك عاشت فى ذلـك الخواء وعاش العمال تحت ذلك الظلم والاضطهاد ولاتزال أوروبا حتى الآن تفتقر الى الدين الذى عماده الوحى الالهى ليحقق الناس هناك سعادتهم الدنيوية والأخروية وكلنا نتطلع لذلك اليوم وماذلك على الله بعزيز .

وخرجت الجماهير تنشد الفكاك من ظلم الرأسماليـة فوقعت فى أحضان الشيـوعية ذلك الفكر الذى بدأ يأخذ حيزا لابأس به مـن جهود المفكرين فى أوروبا فقامت الشيوعية .

ولايعنى ذلـك أن الفكـر الشيـوعى لم يكن موجودا مـن قبـل بل كان موجودا فى فترات مختلفة من التـاريخ الإنسانى ، ومنهـا تلك الفترة ، إلى أن اتخذ طابعا منظما يطغى عليه التوجه السياسى وذلك بتفجير الثورة فى روسيا.

الشيوعية وبعض العوامل التى أدت إلى قيامها

إن الحال الذى كانت عليه أوروبا فكريا وسياسيا واقتصاديا ـ كما ألمحنا الى ذلك سابقا ـ شكل تربة خصبة لنشوء المذاهب المختلفة والأفكار المنحرفة لما فيه من تناقضات وصراعات ، وكان لفساد رجال الكنيسة وطغيانها ، وعداءها للنظريات العلمية أثر فى كثرة المذاهب وتنوعها خاصة التى ناصبت الدين العداء . وكان الظلم مستشريا ونتيجة لذلك ثارت الطبقات المضطهدة فى وجه الأنظمة الجائرة الاقطاعية الموجودة حينذاك ، ولعل الثورة الفرنسية من أبرز الأحداث فى مواجهة الإقطاع والقضاء عليه . وظهر من خلالها مصطلح الرأسمالية المناهضة لذلك النظام ووعد رواد الرأسمالية الطبقة المضطهدة بتحقيق المساواة والحرية والعدل لهم ، ورفع الظلم عنهم ، غير أن هدا كان مجرد خداع للوصول إلى تحقيق الأهداف فالظلم لم يزل ، والطبقات يئن المجتمع بها ، بل لقد استبدت الطبقة الجديدة بكل شىء . يقول ماركس وانجلز : (أما المجتمع البرجوازى الحديث الذى نشأ على أنقاض المجتمع الإقطاعى فإنه لم يقض على هذا التناحر بين الطبقات بل أقام طبقات جديدة بدلا من القديمة وأوجد ظروفا جديدة للاضطهاد وأشكالا جديدة للنضال)[١].

فقد كان واقع الحياة الأوربية واقع الصراعات والظلم ، والتميز الطبقى ، فبينما تكون فى المجتمع طبقة محتكرة مسيطرة ، إلا وتأتى أخرى تعارضها مستغلة اندفاع الشعب وسخطه من النظام السابق ، فتبث أفكارها الجديدة وتروج لها فتعطى الوعود والعهود على نصرة المظلومين شريطة أن ينفذوا

---

(١) البيان الشيوعى (٣٧) ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ، لبنان .
وهذا الكلام قد يكون تحاملا من ماركس وانجلز بحكم العداء للبرجوازية وإثارة الآخرين ضدها ولكنه فى إعتقادى لم يخالف الحقيقة .

لها مخططاتها ويسيرون حسب ماترغب تلك الفئة . وسرعان ماينكشف الزيف ويأتى من ينادى بالانتقام من النظام الجديد حيث إن الظلم كما هو .

وتكاد تكون طبقة العمال هى الطبقة المضطهدة كما هو الحال فى نظام الإقطاع والنظام الرأسمالى ، فالثورة الفرنسية اتخذت من سخط العمال والمضطهدين ستارا لتحقيق أهداف فئة معينة ، وعندما ظهر فساد ماوعدت به الفئة القائمة وراء الثورة الفرنسية استغل هؤلاء تذمر الناس فوعدوهم بنظام آخر ليحقق أهدافا أخرى .

وهذا النظام ادعى تحقيق مطالب الجماهير وأن يعيشوا فى بحبوحة من العيش والأمن والعدل والحرية والمساواة ...الخ ذلك النظام هو الإشتراكية . فما هى العوامل التى أدت إلى قيامها .

عوامل قيام الشيوعية :

يمكن ارجاع قيام الشيوعية فى نظرنا إلى الأسباب الآتية . ولايعنى ذلك عدم وجود أسباب أخرى إلا أن هذه العوامل أكثرها وضوحا وتأثيرا .

أولا : افتقار أوروبا بشقيها إلى الدين .

ثانيا : قيام الرأسمالية فى أوروبا الغربية وظهور النزعة الفردية .

ثالثا : فساد أوروبا الشرقية سياسيا واقتصاديا (وساعدت الكنيسة فى ذلك) .

رابعا : سبات الشرق الإسلامى وتخليه عن الرسالة المنوطة به .

خامسا : الثورة الصناعية .

سادسا : تخطيط اليهود (دورهم فى الثورة البلشفية) .

سابعا : النظريات العلمية والآراء الفلسفية (خاصة عندما عارضتها الكنيسة) .

ونحن نعتقد أن اليهود كانوا وراء الثورة البلشفية ، حيث عملوا على نشر الإلحاد وإخراج الناس من الدين إلى الكفر ليصلوا الى مآربهم ، وقد

(تآمر اليهود على العالم كله تمهيدا للسيطرة عليه فاليهود ـ كما هو معروف ـ سبب شقاء العالم ، وماشقى العالم بشعب فى التاريخ الإنسانى مثل شقائه باليهود فهم وراء كل فتنة خطيرة أو حرب كبيرة أو أزمة إقتصادية أو أخلاقية أو إجتماعية أو مالية ...)[١].

فهم يعمدون إلى افتعال الثورات ، أو استغلالها وتوجيهها ـ إذا حدثت ـ لمصالحهم . وقد اتخذوا من الطبقة العاملة ستارا قويا لتحقيق مخططاتهم وأهدافهم . ولايغيب عنا أن اليهود شعب حقود يرون أن غيرهم إنما خلقوا لخدمتهم وأنهم بمثابة الحيوانات التى تركب من أجل تحقيق الغايات .

(ومعتقدهم هذا فى بنى البشر دفعم الى أن يديموا التفكير فى ابتكار كل مافيه الاضرار بالناس جميعا دون استثناء أحد منهم ...) . ومن ذلك ـ وكما قال أحد الكتاب ـ (أن اليهود ابتكروا مختلف مذاهب الهدم ـ هدم المعتقدات والأديان والأخلاق والقيم والآداب والعلوم والفنون)[٢].

فكانوا وراء الفكر الرأسمالى ، وعندما انكشف أمرهم ، وافتضح مكرهم ، وظهرت غضبة العمال عليهم ، اتجهوا إلى مكان آخر ، وإلى أسلوب ثان ليكسبوا به الجماهير الكادحة من جديد ، فوقت اليهود (لميلاد الماركسية فظهرت فى عصر غربت فيه شمس الحق والخير والروح ...)[٣].

فاستغل اليهود سخط العمال والكادحين فى روسيا ، فقاموا للإعداد من أجل تفجير ثورتهم الجديدة فيها ، ولعبوا فى الأحداث دورا بارزا وهذا يدعونا للحديث عن الثورة البلشفية بشىء من التفصيل لنتبين من خلال ذلك دور اليهود فيها والتخطيط لها .

---

(١) الشيوعية (٣١) .
(٢) المرجع السابق (٣٥) .
(٣) المرجع السابق (٣٨) .

الثورة البلشفية[١]

إن المخططات اليهودية اتخذت عدة أساليب فى سبيل تحقيقها فتارة بالنظام الرأسمالى وأخرى بالاشتراكى وهكذا .

وكل الثورات التى كانت تطالب بنظام جديد للخروج من النظام الظالم السابق كان وراءها اليهود خاصة فى العصر الحديث لأنهم كانوا يرون التذمر من وجههم السابق ويعرضون وجها آخر يتضمن بعض مطالب الجماهير .

يقول سيبريدوفيتش (إن كل الثورات والفوضى العالمية نظمها وستنظمها الحكومة اليهودية السرية العالمية ذاتها)[٢].

ولأهمية هذه الثورة فى قيام الفكر الإشتراكى فى روسيا فى الوقت الحاضر نعرض لهذه الثورة من خلال النقاط التالية :

(١) الحركات الممهدة لقيام الشيوعية داخل أوروبا الشرقية والثورات السابقة على الثورة البلشفية .
(٢) اليهود وراء النظام الرأسمالى والإشتراكى معا .
(٣) اتفاق المذهبين فى حرب الإسلام .
(٤) حال اليهود فى روسيا إبان حكم القياصرة .
(٥) إيجاد العملاء داخل روسيا .
(٦) إنهاك روسيا حربيا وإضعافها سياسيا .
(٧) إعلان الثورة .
(٨) التمويل اليهودى للثورة .
(٩) الثورات الإشتراكية خارج روسيا .

---

(١) (بولشفيك مشتقة من كلمة "بولشنستفو" أى الأكثرية والمنشفيك مشتقة من كلمة "منشنستغو" أى الأقلية" . لينين (١١٩) مصطفى طلاس ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر .
(٢) حكومة العالم الخفية (٨٠) .

وقبل الحديث عن هذه العناصر أشير إلى قضية مهمة وهى لماذا تم اختيار روسيا لإقامة الثورة البلشفية فيها؟

يمكن أن نلخص أسباب ذلك فى الآتى :

أولا : تحطيم القيصرية الروسية التى تمثل المحافظة على الكنيسة الأرثوذكسية بعد أن حطموا الكنيسة الكاثوليكية فى غرب أوروبا .

يقول لينين : (كان ماركس وانجلز يريان بوضوح أن الثورة السياسية فى روسيا ستكون لها أهمية عظيمة بالنسبة للحركة العمالية فى أوروبا الغربية أيضا فان روسيا الأوتوقراطية كانت دائما حصن الرجعية الأوربية كلها)[١].

ثانيا : وجود أعداد كبيرة من اليهود فى روسيا ، وقد حاولوا اغتيال القيصر مرارا عديدة.

ثالثا : القتل والتشريد الذى كان يلاقيه اليهود فى روسيا بسبب تصرفاتهم ومؤامراتهم المتعددة لقتل القيصر الروسى .

رابعا : إقامة الثورة الشيوعية فى روسيا يمثل نوعا من الصراع الظاهرى بين شرق أوروبا وغربها ، ويساعد اليهود على تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ بين الشرق والغرب .

خامسا : خلق نوع من العداء بين المعسكر الشرقى والغربى أى بين الشيوعية والرأسمالية ، ليصبح العالم بين يدى اليهود فمن لايريد الغرب الرأسمالى فليلجأ إلى الشرق الشيوعى ، والكل تحت سلطان اليهود[٢].

وبهذا يزول الاختلاف الظاهر بين الشيوعية والرأسمالية الذى قد ينطلى على السذج من الناس ويظنون أن الشرق فى عداء مع الغرب حيث التباين فى نظام كل منهما ، ولكن حقيقة الأمر أنه إختلاف ظاهرى ويظهر ذلك عندما يكون الإسلام هو الخصم .

---

(١) مصادر الماركسية الثلاثة (٦٩) .

(٢) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٥٨-٥٩) ، د. سعد الدين صالح ، ١٩٨٩م ، دار الأرقم ، وانظر (١٧٠-١٧١) ، وانظر الحقيقة الكاملة عن سقوط الثورات الإشتراكية (١١٤) ، إعداد محمد عبد الرؤوف ، محمد نصيرات ، سعيد كامل ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

ونتحدث الآن بشيء من التفصيل عما أجملناه سابقا .

أولا : الحركات الممهدة لقيام الشيوعية :

كان اليهود خلف الحركات التى مهدت لقيام الشيوعية فهم الذين أوجدوا الحركة (الهلستية)[١].

وعندما قامت الحكومة القيصرية للوقوف فى وجه الحركة التخريبية رد النهلست اليهود بأعمال إرهابية واغتيالات عديدة ضد حكام المقاطعات وضد ضباط الشرطة ولم ينته القرن التاسع عشر إلا وحركة الهليست قد غدت نواة الثورة الشيوعية التى قامت فى أكتوبر سنة ١٩١٧م[٢].

---

(١) وهى (الحركات الثورية الفوضوية التى قامت لتحارب الدين والأخلاق ، والتقاليد ونظام الأسرة ، والملكية الشخصية ، والإدارة المركزية) .
تاريخ الحركات السرية (٦) نقلا من كتاب جذور البلاء (٢٨) ، وانظر الشيوعية فى موازين الإسلام (١٤) ، د. لبيب السعيد ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) انظر الأفعى اليهودية (٢٨) .

ثانيا : اليهود وراء النظام الإشتراكى :

إذا كان اليهود وراء الرأسمالية من أجل السيطرة على العالم والقضاء على الأديان والأخلاق فانهم لايفتأون فى استخدام كل الأساليب والوسائل التى تمكنهم من الحصول على غاياتهم فهم يوجهون المطالب ثم يستغلونها لتحقيق أهدافهم ، وقد اعترف اليهود بأنهم وراء الرأسمالية وكذلك الاشتراكية .

يقول أوسكار ليفى : (العناصر اليهودية أساس الرأسمالية والشيوعية نحن الذين اخترعنا حكاية الشعب المختار والذين نصبنا أنفسنا مخلصين للعالم ونتباهى بخروج المسيح منا لسنا اليوم سوى مفسدين فى العالم ومخربين له ومدمرين نحن الذين وعدنا أن نقودكم إلى الجنة والسعادة نقودكم فعلا إلى الجحيم الجديد ...)[١].

وهذا أمر أصبح ملموسا مشاهدا حيث النشابة والأساليب التى يستخدمها اليهود بالإضافة إلى أن الماركسية كلما ارتفعت وعلت عند أصحابها وبمفهومهم هم استفاد اليهود أكثر وأكثر . يقول ادريان أركان فى خطاب ألقاه يوم ٣٠ تشرين الاول سنة ١٩٣٧م فى نيويورك بعنوان (اليهودية الفعالة) :

(ليست الشيوعية عقيدة ، ولامجموعة مبادىء إنها مخطط إجرامى وحشى قذر . إن الشيوعية جريمة كبرى ضد الله والإنسانية وكما نفعل بالنسبة لأية جريمة أخرى ، يتحتم علينا أن نتساءل هنا : من يستفيد من جريمة الشيوعية؟ إنه اليهودى) .

فليس من قبيل المصادفة أن اليهود فقط هم مخترعو الشيوعية وأبناؤها العظام : كارل ماركس ، انجلز ... وليس كذلك من قبيل المصادفة أنه كلما

---

(١) الأفعى اليهودية فى معاقل الإسلام (٣٠) .

قفزت الماركسية الى السلطة والحكم قفز معها اليهود فورا إلى السلطة والحكم ففى روسيا السوفيتية من أصل ٥٥٠ مسؤولا رسميا هناك ٨٨ بالمئة منهم يهود ...)[١].

بل إن صاحب الفكرة الشيوعية ، كان من صنع المؤسسات اليهودية السرية (جاء فى بيان المشرف الأعظم الفرنسى الماسونى لعام ١٩٠٤م فى الصفحة (٢٣٧) مايلى :

(إن الماركسية واللاقومية هما وليدتا الماسونية ، لأن مؤسسيها (كارل ماركس) ، و(انجلز) هما من ماسونى الدرجة الحادية والثلاثين ، ومن منتسبى المحفل الانجليزى ، وأنهما كانا من الذين أداروا الماسونية السرية ، وبفضلها أصدرا (البيان الشيوعى) المشهور ...)[٢].

كما (نشرت مجلة افريكان هبيرو كبرى المجلات اليهودية فى أمريكا فى ١٠ سبتمبر ١٩٢٠م تقول : إن الشيوعية فى روسيا كانت من تصميم اليهود وأنها قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعامل وأن ماتحقق فى روسيا كان بفضل العقلية اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ولسوف تعم الشيوعية العالم بسواعدهم)[٣].

واعترفت الصحف الماسونية بأهمية الأفكار الإشتراكية والاستفادة منها فقد جاء فى المجلة الماسونية الألمانية (لاتونيا) : (إن الماسونية قد وجدت فى المبادىء الإشتراكية ، خير معوان لها فلابد لنا من معاضدتها)[٤].

---

(١) اليهود (٦٥-٦٦) زهدى الفاتح ، نقلا من كتاب حقيقة المواقف الشيوعية من القضية الفلسطينية (٥٨-٥٩) ، عابد سليمان المشوخى ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، مكتبة المنار ، الأردن ، الزرقاء .

(٢) نقلا من من كتاب الكيد الأحمر (٦٢) ، عبد الرحمن الميدانى ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار القلم ، دمشق ، بيروت .

(٣) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٢٩) .

(٤) الكيد الأحمر (٦٤) .

وبالفعل استغل اليهود العمال ووظفوهم لخدمة مصالحهم ، وقد يتبادر إلى الذهن سؤال كيف يكون اليهود وراء الرأسمالية ثم خلف الإشتراكية وهما نظامان متناقضان؟

نقول إن هذا التناقض ظاهرى ولكن من عرف حقيقة اليهود ومكرهم وخداعهم وحسدهم كما وصفهم البارىء جل وعلا زال عنه هذا التعارض فالغاية هى المقصودة دون النظر إلى الوسيلة الموصلة إليها فطالما أن الغاية السيطرة ، والقضاء على الدين ، وإفساد الأخلاق . فليكن الأسلوب رأسماليا أو شيوعيا فالاختلاف فى الأسماء وحقيقة الأمر أنها أسماء لعملة واحدة كتب عليها تحقيق أطماع وآمال اليهود . ومما يدل على ذلك بروتوكولات حكماء صهيون والاعتراف من قبلهم بأنهم وراء الرأسمالية والإشتراكية .

ثالثا : اتفاق المذهبين فى حرب الاسلام :

ومما يؤكد الأمر السابق وهو أنه لاتناقض حقيقى بين الرأسمالية والشيوعية اتفاق المذهبين واتحادهما على حرب الإسلام ، وقد يصل الأمر أن يدعو أحد النظامين للآخر فى الأرض التى يرى سرعة ويسر انتشار ذلك النظام فيه دون غيره[١]. فإذا كان النظام الشيوعى أجدى وأنفع فى مكان ما فليكن وليبارك ذلك الرأسمالى ، والعكس صحيح فإذا قام أحد الأنظمة فى بلد ما أصبح الأمر سهلا لقلب ذلك النظام إلى النظام الذى يرغبه اليهود وذلك بالطعن فى الآخر ليترك ويستبدل بغيره كما يريده اليهود .

أما العدو الذى يجب القضاء عليه فهو الإسلام .

يقول الميدانى : (فالإشتراكيون الذين يسيرون فى طريق معاكس تماما للرأسماليين يتخوفون من نظام الإسلام أكثر من تخوفهم من الرأسمالية بل قد يشجعون الرأسمالية المفرطة فى البلاد الإسلامية لتكون مناخا ملائما لانتشار الإشتراكية العلمية والرأسماليون كذلك يتخوفون من نظام الإسلام أكثر من تخوفهم من الإشتراكية العلمية بل قد يشجعون إقامة النظم الإشتراكية فى بلاد المسلمين لكشف عيوبها بشكل واقعى ولينفر الناس منها نفرة نهائية ثم يرتعوا فى أحضان الإستغلال الرأسمالى)[٢].

وكلا النظامين يهوديان ويخدمان أهداف اليهود مهما كان تلونهما .

يقول سيبريدو فيتش :

---

(١) ولعل هذا ظاهر فى الأحداث الأخيرة عندما سقطت الشيوعية ، حيث أصبحت فكرتها مرفوضة لدى كثير من الناس وخاصة فى بلدان العالم الاسلامى فعلموا على ابقاء نظام واحد يستند إلى القوة العسكرية خاصة ولوجود بعض ضعاف النفوس الذين يتطلعون إليه . وهذه القوة وراءها اليهود .

(٢) أجنحة المكر الثلاثة (٤٤٠) ، عبد الرحمن حبنكة ، الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

(ويجب أن لايغرب عن بالنا أيضا أن اليهودى يكون شيوعيا أو رأسماليا أمريكيا أو يوغسلافيا أو .. ولكنه يبقى فوق كل ذلك وقبل كل ذلك يهوديا)[١].

---

(١) حكومة العالم الخفية (٣٣) .

رابعا : حال اليهود فى روسيا إبان حكم القياصرة :

كانت روسيا تحت حكم الاسكندر الأول وقد أخذ على عاتقه إعادة تنظيم البلاد وأصدر عددا من الأوامر التى ترفع بعض القيود التى وضعت على اليهود لتتم مراقبتهم والسيطرة عليهم ، وعدم تمكينهم من القضاء على المسيحية فى روسيا . يقول وليام غاى كار : (هزت حملة نابليون عام ١٨١٢م روسيا هزة عنيفة تاركة إياها مثخنة بالجراح فأخذ الاسكندر الأول على عاتقه إعادة تنظيم بلاده وأصدر لهذه الغاية عددا من القوانين الهادفة نحو إصلاح وتوحيد صفوف الشعب وكان بينها قوانين ألغت الأحكام الزجرية التى كانت مطبقة على اليهود منذ عام ١٧٧٢م والتى كانت تحدد إقامتهم فى أمكنة معينة وبذل القيصر جهده لحمل اليهود على العمل فى الزراعة وغيرها وتشجيعهم على الامتزاج الكامل بالمجتمع الروسى)[١].

ولكن ماهو سبب هذا الحجر على اليهود؟ إن هذا راجع إلى ماقترفوه من جرائم وآثام ومؤامرات على القياصرة من أجل تحقيق أهدافهم المنشودة.

يقول سنقرط : (حددت روسيا بعد أن كثرت جرائم اليهود بحق الشعب الروسى أماكن سكنهم وإقامتهم حتى يسهل على الدولة مراقبتهم مع إعطائهم إدارة شئونهم المحلية بما فيها فرض الضرائب وإقامة محاكمهم الخاصة بهم ولم يكن ليسمح لهم بمغادرة هذه الأماكن إلى غيرها إلا بإذن خاص من السلطة المحلية وبقيود مشددة)[٢].

فالجزاء من جنس العمل وهذا ماستحقه القوم الذين غضب الله عليهم ولعنهم . وقد بذل الاسكندر الأول جهودا من أجل التيسير على

---

(١) أحجار على رقعة الشطرنج (١٤٩) .

(٢) اليهود فى المعسكر الشرقى (٩) ، داؤد سنقرط ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع .

اليهـود وسمح لهم ببعض ماكـان ممنوعا عليهم وماذلـك إلا لإتقـاء شرهم ، ومحاولـة إذابتهم فى المجتمـع الروسى كى تسلم البلاد مـن مكرهم وخداعهم ولكن دون جدوى . (فهذا التطور نحو الديموقراطية المتـدرجة الصحيحة كان يعرقل أعمال الثوريين ، وإذا دام فإن (الطليعة) لن تصل إلى الحكم ، ولن يتـاح لها بناء (الإشتراكية العلميـة) فى المجتمع الـروسى ، وجعلـه وطنا أما للدعوة الإشتراكية الثورية فى العالم)[١].

(ب) **عهد نيقولا الأول (١٧٩٦-١٨٥٥م)** :

خلـف الاسكنـدر الأول نيقـولا الأول وقـد سـاءه تغلغـل اليهـود فى الاقتصـاد الـروسى ، وحفـاظهـم على بعـض مايميزهم عـن العنـاصر الأخرى كالزى واللغة والتراث وقـد حاول محو فكـرة الاضطهـاد لليهـود وكـذلك إذابتهـم فى المجتمع الروسى وإزالـة مابقلوبهم تجاه القيـاصرة وأدى ماقام به من جهود إلى إفادة اليهود ، مما زادهم عنادا واستغلالا وإن كـان نيقولا قد ارتكب خطأ فى اهتمامه بأطفال اليهود دون أطفال الروس . يقول وليام كار (وفى محاولـة منـه لإذابة العنصـر اليهودى فى المجتمـع الـروسى ككل أصدر نيقولا الأول عام ١٨٣٤ قوانين تجبر اليهود على إرسال أولادهـم إلى المدارس الحكـومية ظنـا منـه أن الأطفـال اليهـود اذا مـاأقنعوا بأن أبواب المجتمـع الروسى متفوحة لهم فستزول الكثير من العقبات ويمحـى سوء التفاهم وكان هدفه من وراء ذلك محو فكرة معـاناة الاضطهـاد الـدينى التى كـانوا يشـربون إياهـا فى الطفـولة غير أن النتيجـة جاءت عكـس المتوقـع لأن التعليم أصبـح الـزاميا لأطفال اليهود ولم يكـن كذلك لأطفال الروس مـن غير اليهـود مما أدى إلى جعل اليهود الفئة الأكثر ثقافة فى روسيا)[٢].

---

(١) دور الماركسيـة فى الإشتراكية العـربية (١٧-١٨) ، د. عمر حليـق ، الطبعـة الأولى ١٩٦٥م ، دار الكتاب الجديد .

(٢) أحجار على رقعة الشطرنج (١٤٩-١٥٠) .

(ج) **عهد الاسكندر الثانى :**

تعاقب القياصر على عرش روسيا فجاء بعد نيقولا الأول الاسكندر الثانى عام ١٨٥٥م فعمل على تحسين أوضاع الفلاحين والطبقة الكادحة وكذلك أوضاع اليهود وعندما كان أبناء اليهود قد حصلوا على التعليم الإلزامى السابق وتخرجوا منه كان له أثر عليهم مقارنة بالفئات الأخرى فأصبح أبناء اليهود أكثر ثقافة من غيرهم . ووجدوا بادىء الأمر مصاعب فى قبولهم فى المراحل التعليمية فأصدر القيصر أوامره بقبول هؤلاء اليهود فى المناصب الحكومية وأعطاهم حرية الإقامة فى أى مكان من روسيا . وعندما أحس قادة اليهود أن هذا التقارب سيفسد عليهم مخططهم بداوا بتأليب الجماهير العاملة والثورة ضد القيصر فحاولوا اغتيال القيصر عدة مرات ولم ينجحوا إلا فى المرة الثالثة حيث كانت المحاولة الأولى عام ١٨٦٦م ، والثانية عام ١٨٧٩م ، وكانت المحاولة الناجحة عام ١٨٨١م[١].

(د) **عهد الاسكندر الثالث :**

وجاء من بعد الاسكندر الثانى الكسندر الثالث . وأصدر حكما بذم اليهود والقاء المسئولية على عاتقهم فى حالة الفوضى والاضطراب الاقتصادى فى الإمبراطورية فأصدر قانونا يحث على استخدام القوة والعنف ضد اليهود بتخليص الشعب الروسى من اضطهادهم . و(فى الثالث والعشرين من أيار عام ١٨٨٢م طلب وفد يهودى برئاسة البارون جينزبيرغ[٢]مقابلة القيصر الكسندر الثالث للاحتجاج على القوانين ...) وبالفعل وعد بالتحقيق فى

---

(١) انظر أحجار على رقعة الشطرنج (١٥٠-١٥١) .
وانظر : حكومة العالم الخفية (١٥٠) ، حقيقة الشيوعية (١٨) ، إعداد أمين شاكر ، سعيد العريان ، على أدهم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر ، دون ذكر لتاريخ الطبعة .

(٢) جينزبيرغ الممثل الرسمى لمؤسسة روتشيلد فى روسيا .

الأزمة بين سكان روسيا واليهود (وفى الثالث من أيلول أصدر البيان الآتى : (منذ مدة والحكومة تولى بالغ العناية لليهود ومشاكلهم ولعلاقاتهم مع سائر سكان الإمبراطورية مع الانتباه للأوضاع المحزنة للسكان المسيحيين الناشئة عن الطرق التى يستعملها اليهود فى قضايا العمل والمال . خلال العشرين سنة الماضية لم يكتف اليهود بالسيطرة على كل التجارب والأعمال بفروعها بل سيطروا أيضا على أجزاء كبيرة من الأراضى إما بشرائها أو بزراعتها . وباستثناء القليل ، كرس اليهود جهودهم كمجموع ، ليس لإثراء الدولة ولفائدتها بل لخداع الشعب الروسى بحيلهم الملتوية ، وقد قاسى الفقراء بنوع خاص من هذا . وقد تسبب ذلك فى تصاعد الاحتجاجات من الرعايا وتجلى ذلك فى أعمال العنف التى قام بها الشعب ضد اليهود . وقد سعت الحكمة لتخليص اليهود من الاضطهاد والمذابح لكن لايسعها تحت ضغط ملح إلا أن تتبنى القوانين القاسية لتخليص الشعب الروسى من اضطهاد اليهود وأعمالهم الشريرة التى يمارسونها على بقية السكان والتى كانت السبب الأصلى لأعمال العنف ضدهم)[١].

وبعد أن أصدر الاسكندر الثالث هذا البيان وألقى المسئولية على عاتقهم فى حالة الفوضى والاضطراب الإقتصادى فى البلاد قامت قيادات الحركة الثورية بإنشاء الحزب الإشتراكى الثورى وبدأت شخصيات الحزب بمحاولة اغتيال القيصر ففشلت[٢]فكان لابد من إيجاد العملاء لتسهيل المهمة .

---

(١) أحجار على رقعة الشطرنج (١٥٢) .

(٢) انظر المرجع السابق (١٥٤) .

خامسا : إيجاد العملاء داخل روسيا لتسهيل مهمة الثورة :

بعد مقتل الكسندر اولياف[١]قام فلاديمير بنذر نفسه لمسألة الثورة ولمع نجمه وأصبح الحاكم المطلق للاتجاه الإشتراكى السوفييتى وفلاديمير هذا هو (لينين) العميل الأول لليهود فى روسيا . يقول وليام كار : (واقضت المحاولة الثورية المجهضة عام ١٩٠٥م لينين بأن الطريق الوحيد للقيام بثورة ناجحة هو تنظيم لجنة دولية لتولى أولا التخطيط ثم الإعداد لتنفيذ الخطة التى يتفق عليها وهكذا أوجد لينين الكوفنترن وهى اللجنة المركزية الدولية للتخطيط الثورى واختاره الصيارفة العالميون عميلهم رقم واحد فى روسيا[٢].

وكان لينين ممن ضبط فى تنفيذ الاغتيالات للقياصرة وتم نفيه ثم سافر إلى سويرسا . وكان يقوم بالتخطيط والتنظيم ومراقبة الوضع فى الأراضى الروسية ويقوم بالقاء الخطابات ويعقد المؤتمرات من أجل الثورة وإنجاحها[٣].

وكانت القوى الخفية تعمل على إثارة الجماهير خصوصا أن بعض الاصلاحات قد وجدتفى المجتمع ونالت رضاء الفلاحين ، وكان اليهود يرون أن هذه الاصلاحات تعوق عملية الثورة الكبرى التى يعملون لها ، بل كانت الجموع العمالية تخرج فى تنظيمات تقام ضد الشكوك التى تبثها القوة الخفية فى نفوس العمال والفلاحين ، وكانت هذه التنظيمات تحمل الشعارات المؤيدة للقيصر وسياسته ومن أشهر قواد هذه التنظيمات أحد الرهبان الأرثوذكس الذى قام بتنظيم مسيرة سلمية ووصلت المسيرة إلى ساحة القصر وكانت القوى الثورية بالمرصاد فأطلقوا النار على الجموع التى تردد الولاء

---

(١) أخو للينين وكان مقتل أخيه دافعا قويا لنذر نفسه لقضية الثورة .
(٢) أحجار على رقعة الشطرنج (١٥٨) .
(٣) لمزيد من التفصيل انظر لينين (٢٥٨-٢٧١) .

للقيصر فظن هؤلاء أن تلك الطلقات من القيصر وتلا ذلك توهج الثورة الشاملة وانضم عشرات الآلاف إلى الحزب الإشتراكى الثورى ومنح القيصر بعد ذلك عفوا لكل السجناء بالإضافة إلى التحقق فى الحادثة وتم تشكيل مجلس تشريعى ديمقراطى عرف بعد التأسيس بالدوما ، وعاد لينين ومن معه إلى روسيا ، وزاد الاضطراب والفوضى رغم ماقدمه القيصر من عفو .

وممن اشتهر فى هده الاضطرابات تروتسكى[١] فقبضت عليه القوة العسكرية سنة ١٩٠٥م وثلاثمائة من أعضاء الحزب الا أنه لم يكن من الموقوفين رجل واحد من المشهورين وهذا كما يقول وليار كار (يثبت أن لينين كان محميا من قبل القوى الخفية التى كانت تعمل من وراء الحكومة).

وفى عام ١٩٠٧م عقد مؤتمر الحزب العمل الاشتراكى الديمقراطى ناقش فيه أسباب فشل ثورة ١٩٠٥م وظهر فى هذه الفترة ستالين تلميذ لينين فأراد اختياره ليرى مدى الثقة فيه فطلب منه سرقة مصرف (تيفليس) ونفذ العملية وأثبت ستالين وجود قدرة قيادية كافية[٢].

وبهذا يتبين أن الثورات التى حدثت فى روسيا قبل إعلان الثورة الشاملة كانت من رجال معروفين لم يصل أحد منهم أى أذى ولم يوقف من المشهورين رجل واحد مما يدل على أن هؤلاء القواد الذين حملوا لواء الفكر الاشتراكى لرفعه فى روسيا القيصرية كانوا عملاء لليد الخفية اليهودية لتحقيق رغباتهم فى روسيا القيصرية . يقول سبيريدوفيتش : (ومجوعة الرعب اختارت لينين وأرسلته ليكون عميلا لها بعد أن زوده واربورغ بعشرة ملايين دولار)[٣].

---

(١) تروتسكى : أحد قواد الثورة البلشفية ، اختلف على زعمائها وكان له تصورات خرج بها عن الفكر الماركسى وأصبح له تيار سياسى مستقل عرف عند الشيوعية بالتروتسكية ويعرفونها بالتالى : (تيار سياسى ـ فكرى انتهازى برجوازى صغير معاد للماركسية ـ اللينينية يتستر على جوهره الانتهازى بالجمل الراديكالية اليسارية) . المعجم (١٣٢) .

(١) انظر أحجار على رقعة الشطرنج (١٥٤-١٦٦) .

(٢) حكومة العالم الخفية (١٥١) .

كما أنشئت فرقة فى عام ١٨٨٣م أطلق عليها فرقة (تحرير العمل) ومهمتها نشر أفكار ماركس وانجلز وآرائهما وحققت انجازا مهما حتى أن لينين وستالين اعتبرا أن ماحققته هذه الفرقة كان النواة الأولى وأنها أدت مهمة خطيرة جدا[١].

---

(١) انظر المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١١٠) ، عبد الرحمن عميرة ، الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض .

سادسا : إنهاك روسيا حربياً واضعافها سياسياً :

عمل اليهود على إنهاك روسيا حربيا وذلك بجرها إلى الحروب ضد بعض الدول فأثاروا مابينها وبين اليابان فقامت الحرب بينهما إنهزم فيها الروس بعد تعهد مؤسسة روشتيلد بتمويل الجانب الروسى ، ومؤسسة كوهن لوب بتمويل اليابان ، وكانت الخطة تقوم على أن تسحب مؤسسة روتشيلد مساعداتها فجأة حينما يكون الروس بأمس الحاجة إليها ، ومن ذلك أيضا خلق الفوضى والاضطراب فى صفوف الجيش الروسى فى الشرق الأقصى عن طريق تدمير المواصلات فى سيبريا(١).

وأيضا إثارتهم الحرب بين بريطانيا وروسيا حرب القرم(٢).

وهم وراء الحرب العالمية الأولى .

وهم الذين أدخلوا فى أذهان العمال والفلاحين أنها حرب رأسمالية .

وألقوا اللوم على الحكومات فى كل القضايا الشائكة فكانت الأجواء مملوءة بالقلق والشك من قبل العمال الروس بل وحتى بين الجنود .

وكان يهدف اليهود من إثارة هذه الحروب جر روسيا القيصرية إليها من إنهاكها والقضاء على قياصرتها لأن روسيا تشكل خطرا على اليهودية ومصالحها .

وكانوا يرددون أن روسيا الكبرى خطر (وهى كذبة رددتها اليد الخفية حتى تدمر روسيا ، وقد حققت هدفها فى سنة ١٩١٧م وقد نظم اليهود مذابح حتى يستثيروا الأمم الأخرى ضد روسيا)(٣).

أما داخليا : فقد قام اليهود بإثارة الفوضى والاضطراب وإقامة الثورات وزعزعة الثقة بين الشعب وقياصرته وقد عمل بعض القياصرة

---

(١) انظر أحجار على رقعة الشطرنج (١٥٥) .
(٢) انظر حكومة العالم الخفية (١٣٧-١٤٠) .
(٣) المرجع السابق (١٣٩-١٤٠) .

جاهـدا فى محاولة كسب ود اليهود داخل روسيا فجاءت بعـض القرارات التى تعفـو عنهم وتحاول مزجهم بشعـب روسيا إلا أنهم مازادوا بهـذا إلا طغيـانا وتخطيطـا لإزالة الحكم القيصـرى والدين المسيحى من روسيـا . يقـول كار : (وفى العام ١٩١٣م فتحت حكومة القيصر عفوا شاملا لكل السجناء السياسيين وفـور إطلاقهـم من السجن شـرع هؤلاء فى التآمر والتخطيـط لقلـب الحكومة الروسية ودعا الإرهابيون إلى تصفية أفراد العائلة المالكة)[١].

وهـذا حال اليهـود فى كـل زمـان ومكان حيث الغـدر وتحين الفـرص ومقابلة الإحسان بالإساءة .

---

(١) أحجار على رقعة الشطرنج (١٦٧) .

سابعا : إعلان الثورة :

مضت ست سنوات من عام ١٩١١-١٩١٦م فى الدعوة والتنظيم والتحضير للثورة وكانت الأجواء مملوءة بالشك والقلق فى روسيا لدى العمال والفلاحين والجنود وكان ذلك فى الفترة من ١٩١٤-١٩١٦م بعد أن حملت القوة الخفية النظام الملكى الروسى ونظام الرأسمالية مسئولية الحروب وكذلك الوضع الذى يعيشه العمال والفلاحون وكانت المؤامرة تتم فى تخطيط رهيب .

فلينين : فى سويسرا البلد الذى توضع فيه المخططات والمؤتمرات العالمية .

وتروتسكى : مشغول بتنظيم المئات من الثوريين الروس السابقين الذين لجأوا إلى الولايات المتحدة وبعض القواد يمارسون نشاطهم التخريبى فى روسيا حتى جاءت الفرصة فى أكتوبر عام ١٩١٧م وقررت الحكومة اليهودية تدمير المسيحية فى روسيا والقضاء على القيصرية فيها(١).

وعاد لينين وصحبه من سويسرا ومعه ٢٢٤ ثائرا من ثوار البولشفيك منهم ١٧٠ يهوديا .

وكان تروتسكى ينتظره داخل حدود روسيا مع آلاف اليهود الفارين من الجيش الروسى ، ورجع ستالين وصحبه من سيبريا فتجمع بذلك زعماء الثورة وكان تحت إمرتهم تسعين ألفا من الأعضاء المدربين المستعدين للموت من أول إشارة تصدر إليهم من زعمائهم . واعتمدوا على التنظيمات الطلابية التى نظموها من قبل فأقاموا ثورتهم فى ٧ تشرين الأول اكتوبر سنة ١٩١٧م وسقطت روسيا فريسة للبلشفية وتم القضاء على حكومة كيرنسكى واستلم لينين الحكم فى روسيا(٢).

---

(١) انظر أحجار على رقعة الشطرنج (١٧٥) ومابعدها للتفصيل التاريخى للثورة .
(٢) انظر اليهود فى المعسكر الشرقى (٢٥) .

وبعد هذا فلاغرابة من تقريرنا هذا الأمر وهو أن اليهود خلف الإشتراكية فقد (مارسوا دورا كبيرا فى تنظيم الحزب الشيوعى الروسى وتفجير الثورة ولهذا لم يكن غريبا أن تتشكل القيادة من اليهود ، إذ كان لينين وزينوفيف وكاباييف وتروتسكى وباكوف وسفردلوف جميعهم من اليهود باستثناء لينين الذى لم يكن يهوديا ولكن زوجته كانت يهودية إرهابية - وقد أشار إلى ذلك تروتسكى فى كتابه عن ستالين ليبرهن على أن خصمه غير اليهودى - ستالين - لم يكن شيئا مذكورا فى فجر الثورة وبدايتها والواقع أن مؤسسى الحركة الشيوعية وقادتها فى روسيا ، لم يكونوا من طبقة البروليتاريا والعمال فحسب وإنما كانوا من اليهود المثقفين بالثقافة الاشتراكية (الماركسية) وقد ظهر ذلك واضحا منذ البداية ، ففى مؤتمر لندن ١٩٠٧م الذى عقده حزب العمال الروسى الاشتراكى الديمقراطى حضره (٣١٢) مندوبا كانوا جميعا يهودا - ماعدا ثلاثة منهم ، هم لينين وبيلخانوف وستالين[١]. ولهذا فعندما تفجرت الثورة وصدر تصريح (حقوق شعوب روسيا) عاد من سيبريا (٩٠) ألفا من اليهود الإرهابيين الذين كانت الحكومة القيصرية قد أبعدتهم إلى روسيا ، وشكل هؤلاء عصب الثورة الشيوعية ، فنجم عند ذلك وضع لايطاق إذ تحكم هؤلاء اليهود بالشعوب الروسية التى

---

(١) ولاغرابة ولاتناقض بين ماقررناه من أن اليهود وراء الاشتراكية اذ أن المهم عندهم هو البحث عن الرجل المناسب الذى يسد الفراغ ويحقق أهدافهم حتى ولو كان صاحب ديانة أخرى . ومالمنظمات السرية اليهودية عنا ببعيد فى تنوع رجالاتها واختلاف مذاهبهم .

كان عدد مواطنيها يومئذ (١٥٠ مليونا) وعينوا يهوديا مفوضا - قوميسيرا - على كل مصنع وكل مدرسة وكل وحدة عسكرية وكل دائرة حكومية ، لاتعمل إلا بإشارة من هذا المفوض اليهودى الإرهابى)[١].

يقول المسيو دويه قنصل بلجيكا العام فى روسيا : (إن الذين يحكمون روسيا ليسوا من أبناء روسيا ، بل إنهم قبضة من اليهود الدوليين الإرهابيين)[٢].

وكان كل أعضاء الحزب الشيوعى الذى حكم روسيا من اليهود وإذا لم يكن كذلك فعميل وخادم لهم[٣].

ومما يدل على أن اليهود وراء الثورة البلشفية هى تلك الإمتيازات التى منحت لليهود مما يدل على أن زعماءها كانوا يهودا أو همهم مصالح اليهود وأهدافهم .

فقد (منح اليهود فى روسيا حماية تامة ، وإمتيازات لم تعط لغيرهم ، وإطلاقا كاملا لأيديهم ، منها مايلى :

(ا) قرار أصدره لينين بتحريم العداء لليهود والمعاقبة عليه قانونا .

(ب) إطلاق أيدى اليهود فى اقامة مؤسساتهم والمؤسسات التى تخدم مصالحهم فمن ذلك :

* مدارس تعلم لغة اليهود فى روسيا .

* مسارح يهودية بلغت ١٦ مسرحا .

* ثلاث صحف يومية تصدر باللغة اليهودية فى روسيا ، وقد بلغ عدد نسخ المطبوعات منها (١,١٣٥,٠٠٠) نسخة .

---

(١) ستالين (٦٢-٦٣) ، بسام العسلى ، الطبعة الثانية ١٩٨٦م ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر .

(٢) المرجع السابق (١٦٣-١٦٤) .

(٣) انظر النار والجليد (٢٢٣) ، مجموعة من المؤلفين ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، دار الحسام للطباعة والنشر والتوزيع .

* مجالس وطنية يهودية بلغت (٢٧) مجلسا عام ١٩٣٢م فى روسيا البيضاء ، و(١٦٠) مجلسا فى اوكرانيا ، وتألفت فروع يهودية انبثقت عن منظمات الحزب ، سيطر الفكر اليهودى ، والفن اليهودى ، على مختلف جوانب الأفكار والثقافة والفن فى أنحاء روسيا ، ثم الاتحاد السوفياتى)[١].

وقد (اندلعت الثورة فى بطرسبرج عاصمة القياصرة (١٢ آذار ١٩١٧م) وانفجرت الفئات الشعبية مطالبة بالمواد الغذائية والفحم والحطب ، وتألفت لجنة تنفيذية وحكومة مؤقتة يراقبها مجلس ثورى قوامه الجنود والعمال وانتهى الأمر بازاحة آل رومانوف عن الحكم .

وبعد فترة سيطر الاشتراكى كبرنسكى على الحكومة المؤقتة ، فاستبد وأعلن الجمهورية ١٥٠ أيلول) ، ولم يستقم الأمر له لسببين :

أولهما الصبغة البرجوازية الملازمة للحكومة .

وثانيهما مواصلة الحرب فانقلب عليه البولشفيك بقيادة لينين وتروتسكى العائدين بمساعدة المانيا من منفاهما بسويسرا)[٢].

و(استولى لينين على السلطة وأقال الحكومة المؤقتة ، وأعلن قيام "حكم بولشفى سوفياتى")[٣].

---

(١) الكيد الأحمر (٨٩-٩٠) .
(٢) النار والجليد (٢٥) .
(٣) المرجع السابق (٢٥) .

ثامنا : التمويل اليهودى للحركة الإشتراكية :

كان المد المالى يأتى لهؤلاء الثوار من قبل اليهود وقد أنفقوا عليها كثيرا فى سبيل اتمامها وانجاحها فهم وراءها تخطيطا وتنظيما ودعما . وهذه المبادرة المالية من اليهود ليس لرفع الظلم عن المضطهدين بل من أجل تحقيق غاياتهم .

يقول ابراهيم الحلو : (لقد أنفقت الرأسمالية على الثورة الشيوعية بدون حساب ، وقد اعترف اليهود بتمويلهم للحركة الاشتراكية حيث (أعلن المليونير اليهودى الصهيونى يعقوب شيف سنة ١٩١٧م على رؤوس الأشهاد أن الثورة الشيوعية فى روسيا قد نجحت بفضل مساعداته المالية) وفى سنة ١٩٤٩م نشر اعتراف أدلى به جون شيف وهو حفيد اليهودى الصهيونى يعقوب شيف جاء فيه أن ماقدره الخبراء من أن مادفعه جده لتغذية الثورة الشيوعية بلغ عشرين مليون دولار غير صحيح والصحيح أن جده قد دفع أضعاف أضعاف هذا المبلغ)[١].

وأضحى تمويل اليهود للثورة البلشفية أمرا مكشوفا تناقلته وسائل الإعلام المقروءة وجلسات الهيئات السياسية المعتبرة فى العالم المادى فـ(فى جلسات الاستماع التى عقدها الكونغرس بعد انتصار الثورة البلشفية فى الاتحاد السوفييتى تبين أن الملياردير الأمريكى المصرفى جاكون شيف ومصرف كوهين لوى وغيرهما من المصارف الأمريكية اليهودية دعمت الثورة البلشفية منذ لحظتها الأولى بمبالغ ضخمة جدا . وجاء فى إحدى الجلسات : أن المصرفيين اليهود فى الولايات المتحدة يعرفون زعماء الثورة البلشفية كما يعرفون نبؤة ميشيل ماير . ومشيل ماير هو مؤسس أسرة روتشيلد اليهودية العريقة وكان يرفع فوق مصرفه علما أحمر اللون فوق درع . ومن هنا جاء

---

(١) الشيوعية والصهيونية توأمان (٢٩) ، نقلا من كتاب الشيوعية منشأ ومسلكا (٢٦) دندل جبر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن .

اسم روتشيلد أى الدرع الأحمر . ويذكر الكاتب الفرنسى جان دراك أن مشيل ماير كان يقول للذين يترددون عليه فى مصرفه ، يوما ما سيحكم هذا العلم العالم[١].

وقد أعدت المخابرات الأمريكية تقريرا تضمن أسماء الأشخاص الذين مولوا الثورة البلشفية فكانوا كلهم من اليهود[٢].

وتقول احدى الصحف الفرنسية : (المعروف أن الحركة البلشفية ليست سوى حركة يهودية سرية يربطها ويوجهها التمويل اليهودى فضلا عن القيادات اليهودية فكرا وتنظيما)[٣].

كما جاء فى سجل مؤتمر المشرق الأعظم الماسونى لسنة ١٩٢٣م مايلى : (إن النضال بين الرأسمالية والطبقة العاملة آخذ بالازدياد فى مختلف مناحى الحياة ، وعلى الماسونية أن تختار بعزم وتصميم أحد طرفى النضال ، يجب العمل على تأميم كافة الصناعات بشتى الوسائل والطرق . إن المحفل الماسونى فى امريكا الذى يدير الماسونية الكونية (وكل أعضائه من كبار زعماء اليهود وحدهم) ، قد عقد فى أوائل القرن العشرين مؤتمرا صدر عنه قرار تعهد بتنفيذه خمسة من اليهود أصحاب الملايين ، وهو يتضمن خراب روسيا القيصرية ، بإنفاق مليار دولار وتضحية مليون يهودى لإثارة الثورة فى روسيا ...)[٤].

وبهذا يتبين لنا أن اليهود كانوا وراء الثورة البلشفية الاشتراكية تخطيطا وتنظيما وتنفيذا وتمويلا .

---

(١) لعلها كلمة أصابت فى وقتنا الحاضر .

(٢) انظر : الإنهيار (١٦٥-١٦٦) ، سامى محمد الدلال ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، دار المؤتمن للنشر والتوزيع ، ، موسكو واسرائيل (٢٩) ، د. عمر حليق ، الطبعة الأولى ١٩٦٧م ، الدار السعودية للنشر ، جدة ، ستالين (٦٤-٦٦) ، وعن التمويل اليهودى للثورة انظر أيضا أحجار على رقعة الشطرنج (١٨٠-١٨١) .

(٣) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١١٢) .

(٤) الكيد الأحمر (٦٣) .

واليهود الخمسة هم اسحاق مولتيمر ، وشيستر ، وليفى ، ورون ، وشيف .

تاسعا : الثورات الإشتراكية خارج روسيا وراءها اليهود :

ومما يدل على أن اليهود وراء الثورة البلشفية ، أن الدعوات الإشتراكية خارج روسيا كان وراءها اليهود وذلك تحقيقا لأطماعهم وسعيا فى القضاء على الدين والسيطرة التامة على العالم .

فـ(قامت ثورة شيوعية فى رومانيا بقيادة اليهودية أنابوكر . وكذلك حدث فى كل من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وبعد الحرب العالمية الثانية اتسعت رقعة الشيوعية العالمية فشملت بلغاريا ويوغسلافيا والمجر والبانيا وبولندا وتشيكوسلوفكيا ودول البلطيق لتوانيا واستونيا ولاتفيا ونصف المانيا والصين وكوريا الشمالية وفيتنام الشمالية)[١].

كما أن (أول حزب شيوعى أنشىء فى البلاد العربية هو الحزب الشيوعى الفلسطينى ، فقد تأسس عام ١٩١٩م ، وجميع عناصره من اليهود الروس القادمين إلى فلسطين ، تمهيدا لإقامة الدولة اليهودية والقيام بالأعمال التى تحقق أهداف اليهودية العالمية ...)[٢].

وهذا يؤكد أن من أهداف الشيوعية إقامة وطن قومى لليهود فى أرض فلسطين المسلمة ، وبالتالى يدعم ماقررناه بأن اليهود وراء الثورة البلشفية تخطيطا وتنظيما وتمويلا ، وقد حقق من ورائها بنى يهوذا الشىء الكثير ، وإلى وقتنا الحاضر . وبهذا تبين لنا أن الفكر الإشتراكى الذى أقيم فى روسيا كان من تخطيط اليهود لتحقيق أطماعهم وأهدافهم العدوانية .

---

(١) الأفعى اليهودية (٥٠) ، ولمزيد من التفصيل عن الحركات الشيوعية خارج روسيا انظر الشيوعية منشأ ومسلكا (٢٩-٤٠) .

(٢) الكيد الأحمر (١١١) .

سابعا : النظريات العلمية والمذاهب الفلسفية الإلحادية التى سبقت ماركس :

ان أوروبا كانت تشكل أرضا خصبة لنشوء الفلسفات والنظريات المختلفة وليست هذه الدراسة لاستعراض كل المذاهب والنظريات التى وجدت هناك لأن هذا يحتاج إلى دراسة مستقلة متخصصة .

والذى دفعنى إلى اعتبارها عاملا من عوامل قيام الشيوعية هو الآتى :

(١) أثر هذه النظريات والمذاهب فى إيجاد الفكر الالحادى فى أوروبا .

(٢) أن بعض هذه النظريات استغلت فى حرب الدين وذلك بإدعاء التناقض بينها وبين ماجاء به .

(٣) اعتماد المذهب الذى نحن بصدده على بعض هذه النظريات والفلسفات بل اتخاذها مصادر له .

(٤) أن بعض هذه النظريات والفلسفات قد جعلت من العلم قوة قادرة على تفسير كل الظواهر وأنه لاحاجة لغيره فى معرفتها .

(٥) أدت هذه النظريات والفلسفات إلى الثقة بالمحسوس وعدم التسليم إلا بما هو مشاهد وخاضع للتجربة العملية ولعل هذا كان رد فعل لسياسة الكنيسة وطغيانها .

(٦) استمرار أثر هذه النظريات والفلسفات فى الحياة الأوربية إلى وقتنا الحاضر وتأثر السياسة والاقتصاد فيها بها ، وقد أخذت النظريات بعضها من بعض .

ونبين الآن بعض النظريات العلمية وموقف الكنيسة منها ، وكون ذلك الموقف أدى إلى نبذ الفكر الدينى وانتشار الفكر المادى .

وسبق أن أوضحنا موقف الكنيسة من النظريات العلمية ، وكيف أدى ذلك الموقف إلى نبذ الدين ومعاداته بسبب أفعالها . فقامت النظريات المعادية للدين بسبب الكنيسة ، ونادى بعض الفلاسفة بالسخرية من كل العقائد المضادة لخبرة الإنسان وملاحظته التجريبية كما سخروا من النبؤات ،

والمعجزات وكل الشعائر الدينية واعتبروها خرافة[١].

إن سياسة الكنيسة تجاه العلم والنظريات العلمية أدى إلى انتشار الأفكار الإلحادية ، والوثوق فى النظريات العلمية ، ومما زاد الحال سوءا وجود المخترعات الحديثة ، والاكتشافات العلمية الجديدة . فظن الناس أنهم لم يعودوا بحاجة إلى الدين حيث أصبح الإله عندهم فكرة لاتقوم على أساس.

وقد كانت نظرية كوبرنيكوس[٢]من أوائل النظريات التى واجهتها الكنيسة ومفادها أن الأرض تدور حول الشمس . وقد ردت الكنيسة ذلك لأنها تعتبر أن الأرض مركز الكون الثابت لأن المسيح تجسد فيها[٣]، كما أن التوراة ورد فيها (جيل يمضى وجيل يأتى . الأرض قائمة أبد الدهور والشمس تشرق والشمس تغرب ثم تسرع إلى مكانها موضعه تطلع)[٤].

وزعمت الكنيسة أن هذا الزعم لوضح ـ وهو القول بدوران الأرض (لوجب أن يمضى المسيح إلى سكان الوجه الآخر من الأرض ويموت مصلوبا هناك من أجل خلاصهم)[٥].

إنها ظلمات بعضها فوق بعض ، إذ أن محاربة الكنيسة لهذه النظرية ليست لأسباب علمية وإنما لئلا تنتقض العقيدة المسيحية (المحرفة) . ثم جاء من بعد كوبرنيكوس عدة مفكرين وأيدوه فى نظريته منهم برونو[٦]، وقد

---

(١) انظر نقد الثقافة الإلحادية (١٩) . د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان .

(٢) عالم فلكى بولندى درس فى جامعة كراكوف ثم أصبح كاهنا ، درس القانون الكنسى ، واستحوذ الفلك على اهتمامه ، ولد عام ١٤٧٣م ومات سنة ١٥٤٣م . انظر بنية الثورات العلمية (٢٩٢) ، توماس كون ، ترجمة شوقى جلال ، سلسلة عالم المعرفة ١٦٨ ، الكويت .

(٣) انظر : قصة النزاع بين الدين والفلسفة (٢٠٥) ، نقلا من كتاب العلمانية (١٥١) .

(٤) العهد القديم ، ص ج(٥-٦) سفر الجامعة (١٣٦٣) .

(٥) العلمانية (١٥٢) .

(٦) فيلسوف إيطالى ، تحدى اللاهوتيين ، اعتقد أن لكل إنسان وجهة نظر خاصة فيه وأن الحق المطلق فوق إدراك الإنسان ، اتهم بالزندقة وأحرقته الكنيسة ، ولد عام ١٥٤٨م ، ومات سنة ١٦٠٠م . انظر عصر الإلحاد (٣٢) .

أحرقته الكنيسة[١]،ومنهم جاليليو[٢]عذب ثم تاب عندما خاف الموت[٣]. حينها (ثار العلماء ودعاة التجديد مطالبين بتقديس العقل واستقلاله بالمعرفة بعيدا عن الوحى ، ولم يجرؤ دعاة المذهب العقلى أول الأمر على إنكار الوحى بالكلية بل جعلوا لكل من الطرفين دائرة خاصة يعمل فيها مستقلا عن الآخر)[٤].

ومن النظريات التى قابلتها الكنيسة ورفضتها نظرية اسحاق نيوتن[٥] (قانون الجاذبية العام . وواجهت الكنيسة هذه النظرية كعادتها وكانت تشكل طرفا مناقضا لأصحاب النظرية وكلا منهما على خطأ فالكنيسة ترى أن هذا يعنى أن الأشياء تعمل بذاتها دون عناية الله تعالى ، وأصحاب النظرية يرون أن ماأمكن معرفته فلاحاجة لافتراض تدخل العناية الإلهية فيه . ونسيت الكنيسة أن الله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها . وقد أثرت هذه النظرية على الحياة الأوربية تأثيرا كبيرا . يقول د. سفر : (ولاشك أن نظرية نيوتن من أعظم النظريات العلمية أثرا فى الحياة الأوربية فهى التى وضعت أساس الفكر المادى الغربى وإليها يعزى الفضل الأكبر فى نجاح كل من المذهب العقلى والمذهب الطبعى ...)[٦].

---

(١) انظر : عصر الإلحاد (٣٢) ، العلمانية (١٥٠) ، الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه (٤٥) ، د. محمود عتمان ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، الدار الإسلامية للطباعة والنشر .

(٢) عالم فلك ورياضيات ، ايطالى اخترع الميزان المائى ، واخترع أول تلسكوب عام ١٩٠٦م للأرصاد الفلكية ، ويرى أن التجربة والمشاهدة هما نقطة الانطلاق المأمونة للمعرفة . انظر بنية الثورات العلمية (٢٩١-٢٩٢) .

(٣) انظر : بنية الثورات العلمية (٢٩٢) ، عصر الإلحاد (٣٢-٣٣) .

(٤) العلمانية (١٥٢-١٥٣) .

(٥) عالم انجليزى فى الفيزياء والرياضيات ، والفلسفة ، والطبيعة . من أهم كتبه الفلسفة والطبيعة ، وأساس الرياضيات ، وضع قانون الجاذبية ، ولد عام ١٦٤٢م ، ومات سنة ١٧٢٧م . انظر بنية الثورات العلمية (٢٩٣) .

(٦) العلمانية (١٥٦) .

وعلى هـذا الأساس يمكن إعتبـار الحياة الأوربيـة مرت بمراحل ثلاث : مـرحلة ساد فيها الدين . ومـرحلة ساد فيها العقل . ومـرحلة ساد فيها الحس .

ونتحدث بشيء من التفصيل عن هذه المراحل

أولا : سيادة الدين :

ونقصد به الدين النصرانى ، وقد ساد فى القرون الوسطى وكانت العودة إليه فى كثير من الأمور ، رغم العقائد الباطلة التى يحملها من جراء التحريف ، وقد كانت حركات الإصلاح تدعو إلى العودة والرجوع إلى الكتاب المقدس ، ونبذ العقائد الحادثة ، وإزالة السيطرة الكنسية وإدعاءها العلم بأسرار الكتاب المقدس لوحدها . وفى هذا العصر كان ينظر إلى الكتاب المقدس على أنه فوق العقل . وكان من حق العقل البحث ولكن تظل الكلمة الأخيرة للدين فيما يرى العقل ويحكم .

كما أن الفلاسفة الذين ناصروا الدين اعتبروا أن الألوهية المرجع الأخير للوجود والمعرفة(١).

---

(١) انظر الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٥٠-٢٥١) .

ثانيا : سيادة العقل :

عندما كان اعتماد الكنيسة فى دينها على الوحى وأمور الغيب إدعاء ـ وكانت هذه الأمور تخالف بعض ماعليه العقل ـ كان العقل هو البديل الذى لجأ اليه الناس واعتبروا العلم الذى يصلون إليه عن طريق عقولهم هو مايوثق فيه ويعتمد عليه وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كان العصر الذى يسمى بعصر التنوير لم يعد الدين المرجع الأخير للمعرفة فى الحياة الأوربية فوجدت بعض الحلول التى تجعل الدين فى اتجاه والعلم فى اتجاه آخر.

فيعمل كل واحد منهما فى مجاله الخاص به ليتم التوفيق وعدم التناقض بينهما فالعلم يعمل فى الطبيعة وأمورها والدين يكون له استقلاله فلاإلتقاء بينهما ولاتعارض ودون أدنى شك كانت هذه خطوة إلى إبعاد الدين ورفضه وتقديم العقل والوثوق به حيث وصل الأمر فى نهايةالمطاف الى تأليهه ووجدت فكرة الدين الطبيعى والتأليه العقلى .

وكان فلاسفة عصر التنوير يرون أن العقل له الحق فى الإشراف على كل اتجاهات الحياة .

بما فى ذلك الدين ويكون العقل مصدرا للمعرفة دون غيره من المصادر التى كانت تنازعه حين ذاك وهو الدين .

وباختصار أن خاصية المذهب العقلى التاليهى هى تجريد الدين من كل عناصره الفطرية المميزة له وتصيره قاصرا على عدة قواعد نظرية جافة هى أقدر على اشباع رغبة التعقل منها على إرضاء النفس الإنسانية[١].

ويتميز ذلك العصر الفكرى بالآتى :

أولا : نمو شعور العقل واحساسه بنفسه وأن فى مقدرته الأخذ بمستقبل الإنسانية وإزالة العبودية السابقة التى ورثها من قبل (يعنى عن طريق الكنيسة) .

---

(١) الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه (٦١) .

ثانيا : إخضاع الأحداث التاريخية بكل جرأة لامتحان العقل .

ثالثا : الإيمان بتعاون جميع المصالح والمنافع وبالأخوة فى الإنسانية على أساس من الثقافة العقلية وحدها[١]، وهذا إدعاء باطل .

فقام هذا العصر على (وجوب سيادة العقل - كمصدر للمعرفة - على غيره وغيره الذى ينازعه السيادة فى ذلك الوقت هو الدين .. أى المسيحية (الكاثوليكية) أولا . وقد تكون معها (البروتستانتية) كمذهب عرف للاصلاح الدينى هناك[٢].

وقد كان لهذا المذهب فلاسفته ودعاته ومنهم :

كانت[٣] ١٧٢٤-١٨٠٤م

يقول عنه بوشنسكى (أخذ على نفسه انقاذ العقل والعلم والأخلاق والدين بدون أن يتنكر فى نفس الوقت لأى من المبادىء الأساسية للفكر الأوربى الحديث)[٤].

---

(١) انظر الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٥٢) .

(٢) المرجع السابق (٢٥٢) .

(٣) كانت : ولد فى كونسبرج ، أخذ عن والدته البروتستانتية ، أنهى دراسته الثانوية سنة ١٧٤٠م ، ثم التحق بالجامعة فعين معيدا بها ونال شهادة الدكتوراه وعين أستاذا فى الجامعة نفسها ، ثم عين عميدا لكلية الفلسفة ، ثم رئيسا لها . له عدة مؤلفات من أهمها : نقد العقل الخالص ، نقد الحكم ، الدين فى حدود العقل البسيط ، المقدمات . ولد عام ١٧٢٤م ، ومات سنة ١٨٠٤م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٢/٢٤٤) ومابعدها رقم (٩٣٨) .

(٤) الفلسفة المعاصرة فى أوروبا (٢٦) ، ترجمة د. عزت قرنى ، سلسلة عالم المعرفة ١٦٥ الكويت .

ويرى كانت أن العقل لايخضع للقوانين الرياضية والطبيعة لأن العقل الربانى من العالم الحسى بل هو بالأحرى مشرع له وهو منبع القوانين التى تحكمه[١].

وهذه دعوة واضحة فى أن العقل هو المشرع وأن غيره يأخذ منه القوانين التى تحكم حياته ويصبح خاضعا لها .

ومن هؤلاء فيشتة وهيغل .

وكان فيشته يعظم العقل الإنسانى ويرجع الأمر إليه .

وهيغل استخدم ماجاء عن فيشتة ولكنه جعل العقل مسيطرا على كل شىء باعتبار أن الله عقل كلى[٢].

ومن أبرز من نادى بالمذهب العقلى الفيلسوف الفرنسى ديكارت[٣] دعى إلى تطبيق المنهج العقلى فى الفكر والحياة وهو ممن قال إن ميدان العلم الطبيعية واستغلال القوى الطبيعية ، وتكون علاقة الدين بالمصير والعالم الآخر فيعمل هذا فى اتجاه ، والآخر فى اتجاه وهذا الحل الذى وضع لإزالة الإشكال والتناقض بين العلم والدين الكنسى هو ماعرف بالمذهب الازدواجى ولم يكن سوى مرحلة نحو الغاء الدين . يقول د. سفر : (والواقع أن المذهب الازدواجى ليس إلا مرحلة طبيعية فى سلم التدرج من الإيمان المطلق بالوحى إلى الإنكار المطلق له)[٤].

---

(١) الفلسفة المعاصرة فى أوروبا (٢٦) .

(٢) وسيأتى الحديث عنهما فى فصل مصادر الماركسية لأن ماركس تأثر بفكرهما وأخذ بجدلية هيغل خاصة وترك مثاليته التى يعترف فيها بوجود الاله (على طريقته) .

(٣) فيلسوف فرنسى وعالم رياضيات وفيزياء عرض آراءه الفلسفية فى ثلاثة كتب (مقال فى المنهج) ، (تأملات ميتافيزيقية) ، (أسس الفلسفة) ، وقام رجال الدين باضطهاده ، ويعتبر مؤسس النزعة العقلانية . ولد عام ١٥٩٦م ، ومات سنة ١٦٥٠م انظر بنية الثورات العلمية (٣١٩-٣٢٠) .

(٤) العلمانية (١٥٣) .

وأخذ ديكارت بنظرية كوبرنيكوس واضطهده رجال الدين فرحل إلى السويد وأراد ان يؤلف كتابا يعبر فيه عن رأيه ولكنه أحجم بعد أن عرف ماأصاب جاليليو .

ويعتبر ديكارت مؤسس النزعة العقلانية إذ يرى أن المرء لايؤمن بشىء إلا بعد أن يثبت له بالبرهان ويطمئن إليه على أساس من اليقين(١).

وكثر أتباعه الذين يأخذون بآرائه حتى ساد هذا المذهب وهو مذهب تأليه العقل أو الدين الطبيعى . وتعتبر التجربة أساسية فى تكوين هذا المذهب وكان بلوك يرى أن وجود الإله يستدل عليه عن طريق التجربة وإذا أردنا تحديد مذهب التأليه العقلى فهو المذهب الذى يقول إن الإنسان يستطيع أن يعرف كل عناصره الدينية والأخلاقية من تجاربه وتعقلاته(٢).

وخاصية هذا المذهب العقلى التألهى هى :

تجريد الدين من كل عناصره الفطرية المميزة له وتصييره قاصرا على عدة قواعد نظرية جافة هى أقدر على إشباع رغبة التعقل منها على إرضاء النفس الإنسانية(٣).

والخلاصة :

أنه (كانت فى عصر التنوير اذن خصومة فكرية بين الدين والعقل واتجه التفكير فيه إلى اخضاع الدين للعقل ولذلك عد زمن هذا العصر فترة سيادة العقل)(٤).

وكانت هذه المرحلة مرحلة تدرج فى إبعاد الدين بالكلية ورفضه ، حيث مالم يثبت عن طريق البرهان والتجربة الحسية لايمكن أن يؤمن به العقل وهذا يجعلنا نذكر بموقف الكنيسة التى رفضت المعارف العقلية واعتبرتها هرطقات وزندقة ولو كان دين الكنيسة صحيحا لما تعارض مع

---

(١) انظر بنية الثورات العلمية (٣٢٠) .
(٢) انظر الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه (٦٠) .
(٣) انظر المرجع السابق (٦١) .
(٤) المرجع السابق (٦٣) .

العقـل فإنه لاتعارض بين دين سمـاوى نزل من عند اللـه تعـالى وبين العقل الذى هو من مخلوقاته جل وعلا ، فالمصدر واحد فلايمكن أن يقع التعارض . أمـا عندما كانت العقيدة أرضيـة لاتخرج عن عقول أصحـابها القاصرة حصل التصـادم بين الـدين والعقـل . فقدم الناس مايأتى عـن طـريقه ورفضوا ذلك الـدين الـذى لم يكن دينا صحيحـا بل أفكـارا كنسيـة تهـدف لخدمة مصالح رجالها وإشباع نهمهم وشهواتهم .

ثالثا : سيادة الحس :

ساد فى القرن التاسع عشر فلسفة تقوم على تقديم الطبيعة وتقديسها على الدين والعقل معا ، وذلك العصر هو الذى أعقب عصر التنوير الذى انتهى بانتهاء القرن الثامن عشر ، وهذا العصر هو عصر الوضعية .

وهى (نظرية فلسفية نشأت فى دائرة (المعرفة) ، وقامت فى جو معين وعلى أساس خاص . أما جوها المعين : فهو أولا وبالذات سيطرة الرغبة على بعض العلماء والفلاسفة فى معارضة الكنيسة ،والكنيسة تملك نوعا خاصا من المعرفة ، وكانت تستغله فى خصومة المعارضين فترة من الزمن ...) .

(واذن الغاية الأولى للمذهب الفلسفى الوضعى هى معارضة الكنيسة وبالتالى معارضة معرفتها ...) .

(وأما الأساس الخاص الذى قامت عليه الفلسفة الوضعية : فهو تقدير الطبيعة وتقييمها وحدها كمصدر للمعرفة . والطبيعة ، أو الحقيقة أو الواقع ، أو الحس كلها تدل على معنى واحد فى نظر الوضعيين . وتعد هذه الفلسفة الطبيعية ، لاكمصدر مستقل فحسب للمعرفة ، بل كمصدر فريد للمعرفة اليقينية أو المعرفة الحقة ...)[١].

وكان من أبرز شخصيات هذا المذهب ودعاته :

كومت[٢]

الذى يعتبر المؤسس الأول للمذهب الوضعى[٣]

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٦٥-٢٦٧) .

(٢) فيلسوف فرنسى تربى على الدين الكاثوليكى ، تتلمذ على يد سان سيمون وعمل أمينا لسره ست سنوات ثم انفصل عنه ليستقل بفكره ، عين معيدا فى كلية العلوم التقنية وطالب بإنشاء كرسى للعلوم الوضعية ولكن لم ينجح فى مسعاه ، له عدة مؤلفات منها التقويم الوضعى ، محاضرات فى الفلسفة الوضعية ، التعليم المسيحى الوضعى ، المذهب الذاتى . ولد عام ١٧٩٨م ، ومات سنة ١٨٥٧م .
انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٣٠١/٢) ومابعدها رقم (٩٩٢) .

(٣) انظر الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٣٥،٢٦٨) ، وانظر الفلسفة المعاصرة فى أوروبا (٣١) .

يقول البهى : وهذا الاتجاه (فى تفكير الغرب فى القرن التاسع عشر ، الذى تسرب نفوذه إلى الشرق فى صوره (التجديد) فى الفكر الاسلامى الحديث أيضا ـ فهو التفكير (الوضعى) أو (المادى) الذى انتهت قمته أو انتهى غلوه إلى تفكير (الشيوعية) ... وهو تفكير انبثق فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، أصبح بعد الحرب العالمية الثانية يتصارع فى عنف مع الديمقراطية الغربية من جانب ، والأديان جميعا من جانب آخر)[١].

وقد اعتمد كومت على المدرسة التجريبية وهى المصدر المباشر للوضعية النقدية الألمانية[٢].

وبعد أن استخلص كومت (المذهب الوضعى) من (المذهب التجريبى)[٣]رأى أن الفلسفة يجب أن تجتاز ثلاث مراحل وتنتقل من واحدة الى أخرى لتصل إلى المرحلة الأخيرة .

فـ(يجب أن تمر فى المرحلة الأولى : وهى المرحلة التى يشرح فيها الانسان الشىء الطبيعى ، ويعلل وجوده ومظاهره من القوى الخارجة عن الطبيعة ، وهى القوى الإلهية ، أى من دائرة الدين ... وتنتقل الفلسفة إلى المرحلة الثانية ، وهى المرحلة التى يشرح فيها الإنسان الحياة الإنسانية وقوانينها وأعرافها ، من عبارات نظرية تصورية إنسانية ، أى من دائرة الميتافيزيقا أى من العقل النظرى الخالص ... ثم تنتقل الفلسفة إلى المرحلة الثالثة : وهى المرحلة الوضعية أو الواقعية وهى التى يقف فيها الإنسان على علاقات الظواهر الطبيعية بعضها ببعض ، من طريق الملاحظة والتجربة وحدها . وفى هذه المرحلة الأخيرة يجب أن تستهلك الفلسفة ، وينتهى

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٢٨) .

(٢) الفلسفة المعاصرة فى أوروبا (٩٣) .

(٣) المذهب التجريبى هو الذى يدعى أن المعرفة مقصورة على التجربة الظاهرية والباطنية ، وعلى الفلسفة أن تقتنع بما يدرك عن طريق الملاحظة والاستقراء فحسب . انظر الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه (٥١) .

وضعها فى التوجيه ، ويفنى أمرها فى العلوم المختلفة التى تنشأ على أثرها ، وتكون نتيجة التجارب وحدها)[١].

فكومت يرى أن الفلسفة فى بدايتها تتخذ الطريق الدينى ، ثم ماتلبث أن تنتقل إلى تحكيم العقل فيما يعن لها وتصل فى نهاية المطاف إلى إنكار كل شىء إذا لم يخضع للتجربة ويكون مشاهدا محسوسا ، وهذه لاشك خطوات نحو التحلل من الدين إلى الإلحاد وإنكار أن يكون لهذا الكون خالق . وقد تأثر بهذه الأفكار عدة فلاسفة منهم فيورباخ الذى استمد ماركس منه كثيرا من أفكاره المادية كما سيأتى معنا إن شاء الله تعالى .

وممن نادى بهذه الأفكار :

بيكون[٢]

قال بيكون إن مهمة العلم دعم سيادة الإنسان على الطبيعة إلى ذلك هو التعليم الذى يكشف عن الأسباب الواقعية وصولا إلى نتائج صحيحة وقال إن المعرفة اليقينية ممكنة شريطة إصلاح منهجنا فى المعرفة وحدد ذلك بثلاثة سبل :

(١) تقدم التعليم وذلك بالثورة لتغيره .

(٢) منهج البحث .

(٣) التخلص من الأوثان التى تحكم فكرنا وكأنها نسيج العنكبوت نعيش فى أسارها ونصنع منها عالما زائفا حولنا هو من نسج خيالاتنا أو أفكارنا الذاتية وموروثاتنا ولاعلاقة له بعالم الواقع[٣].

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٣٥-٢٣٦) .

(٢) رجل سياسة وفيلسوف طبيعى انجليزى اشتهر بمنهج بحث اقترن باسمه (منهج بيكون) منهج البحث الاستقرائى ، عمل سفيرا لانجلترا فى فرنسا ، له عدة مؤلفات منها محاولات فى الأخلاق والسياسة ، بحث فى قيمة وتطور العلوم ، ولد عام ١٥٦١ ، ومات سنة ١٦٢٦م .
انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٣٠٥/١) رقم (٣٧٤) .

(٣) انظر بنية الثورات العلمية (٣٠٦-٣٠٧) .

ولأجل هذا قال عنه اندرسون : (ان أعظم مآثر بيكون الفصل بين العلم البشرى والوحى الالهى)[١].

فبيكون يعتبر العقائد وأمور الدين أوهام وخيالات زائفة لاأساس لها ولاحقيقة فى عالم الواقع .

ومن هؤلاء جون لوك[٢]

وقد طالب جون لوك عندما تعارض العقل مع الوحى بإخضاع الأخير له وقال : (من استبعد العقل ليفسح للوحى مجالا فقد أطفأ نور كليهما وكان مثله كمثل من يقنع إنسانا بأن يفقأ عينيه ويستعين عنهما بنور خافت يتلقاه بواسطة المرقب من نجم سحيق)[٣].

واتخذت الفلسفة طابعا آخر وتنوعت بين المانية وفرنسية وانجليزية وكانت كلها تصب فى معين واحد وهو التدرج نحو الالحاد والغاء الدين فسيطر المذهب الوضعى على الدين والعقل على حد سواء فأصبح الإيمان بالمحسوس دون غيره .

ومن العرض السابق يتضح لنا أن أوروبا مرت بمراحل عدة من التفكير كان آخرها الخروج من الدين والإستعداد التام لتقبل الأفكار المادية والإلحادية ، فى حين كانت الكنيسة مهتمة بالحفاظ على قدسيتها ومصالحها ولم تهتم بما وصل إليه تفكير الناس إلا فى معارضتها الشديدة لبعض النظريات العلمية دون أن تستبدلها بأمر آخر فيه الإجابة عن تساؤلات الناس وإستفساراتهم .

---

(١) العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة (١٩) ، اميل بوترو ، نقلا من العلمانية (١٥٣)

(٢) جون لوك : فيلسوف ومنظر سياسى انجليزى ، درس الطب ، والكيمياء ، والسياسة ، كانت فلسفته تقوم على تقديس الحس . له عدة مؤلفات من أهمها : المسيحية العاقلة ، أفكار فى التربية ، رسائل حول التسامح . ولد عام ١٦٣٢م ، ومات سنة ١٧٠٤م .
انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٣٧٩/٢) ومابعدها رقم (١٠٥٨) .

(٣) قضية النزاع (١٤) نقلا من كتاب العلمانية (١٥٤) .

فزاد عناد المفكرين وفزعوا من الكنيسة وأفعالها فنبذوا فكرها بل ودينها .

وخرجت الآراء التى تنادى باستبدال إله آخر بالدين عنادا فى الكنيسة ونفورا منها ومن أفعال رجالها .

وهذا العرض السابق (المختصر) لبعض الآراء والفلسفات التى نشأت فى أوروبا واكتوت بنيرانها وعاشت تحت وطأتها كانت ممهدة لقيام الفكر المادى الإلحادى الذى لايؤمن إلا بالمحسوس .

ولهذا وجدنا ماركس يأخذ من هؤلاء الفلاسفة والمفكرين نظرياتهم وآرائهم ليخرج بمذهبه المادى الذى يمثل منتهى المادية الإلحادية .

ومن هنا كانت هذه النظريات والآراء الفلسفية المختلفة دافعا وعاملا قويا فى وجود وانتشار الأفكار الشيوعية .

فهذه هى أهم العوامل التى أدت إلى قيام الإشتراكية . وبقى لنا أن نشير إلى أن هناك عوامل أدت إلى انتشارها وتطورها ومن ذلك :

(١) قيام الشيوعية فى أعقاب الحرب العالمية بعد أن أصبح لكل دولة كيانها وبرزت بعض الدول على الساحة .

(٢) الحرب العالمية الثانية حيث حصل الاتحاد السوفيتى على شىء كبير من النصر العسكرى والسياسى والاجتماعى الذى دعم قوة النشاط الشيوعى ، ويظهر ذلك فى قوة الاتحاد السوفييتى والتقدم فى الفضاء ومنافسة أمريكا ووقوفها بعد الحرب فى صف الدول المظلومة (ولو كان ظاهرا)[١].

---

(١) انظر نقد اصول الشيوعية (٤٢) ، صالح اللحيدان ، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م مكتبة الحرمين ، الرياض .
وانظر الماركسية بين النظرية والتطبيق (٣٥-٣٦) .

(٣) ماحصل فى الغرب من أخطاء كثيرة لحل المشاكل المتعددة الناجمة عن فقدان الدين فقوى هذا نشاط المذهب الشيوعى .

(٤) ماتقوم به اليهودية العالمية من استغلال لنشر هذا المذهب عبر وسائل إعلامية حديثة .

(٥) الاستعمار وكبت الشعوب المستعمرة وإذلالها الأمر الذى فسح المجال لانتشار الشيوعية .

(٦) قوة وسائل الإعلام المنتشرة هنا وهناك التى تخدم هذا الفكر .

(٧) البحث الجاد فى محاولة الوصول إلى أن الدين خرافة من قبل الشيوعيين مما جعل الناس يتطلعون إلى معرفته .

(٨) تفرق كلمة المسلمين وانقسامهم على أنفسهم فضعفت العقيدة وتذبذب المسلمون[١].

(٩) سوء توزيع الثروة فيستغل الشيوعيين سوء توزيع الثروة واختلال التوازن فى الدخول وارتفاع مستوى المعيشةمما يثير النفوس ويدفع الساخطين إلى تقبل أى شىء يخرجهم مما هم فيه .

واختلال موازين العدل فى المجتمع فأصحاب السيطرة والقوة والنفوذ الحكومى أو المالى يفعلون مايشاؤون دون خوف من القانون بل إنهم يطوعون القانون لصالحهم ويفلتون من العقوبات على الجرائم التى يرتكبونها ويحاكم الموظف الصغير على قروش طفيفة تفقد منه ويحرم الوظيفة بينما ملايين الجنيهات والريالات تذهب فى غير طريقها[٢].

فهذه الأوضاع تساعد على انتشار الفكر الشيوعى ، ذلك أن دعوتهم تقوم على العدل والمساواة ، وتحقيق الكفاية من العيش مما يجعل المضطهدين يحاولون الفرار من تلك الأنظمة وجحيمها لتصل إلى تلك السعادة التى تنسجها الشيوعية[٣].

---

(١) انظر نقد أصول الشيوعية (٤٢-٤٤) .

(٢) انظر الماركسية بين النظرية والتطبيق (٣٧-٣٨) .

(٣) انظر المرجع السابق (٣٨) .

(١٠) التقليد : إن حب محاكاة الأقوياء موجود فى النفس البشرية (ويزداد إذا كان الوازع الدينى مفقودا) فتسر تلك الأفكار لحب التقليد[١].

(١١) أن الشيوعية تبشر بالقضاء على الفساد وتدعى تجريد أهل الأموال من ثرواتهم ، فى حين أن المجتمعات مليئة نفوسها على الأغنياء بالإضافة إلى أن النظام القائم فى المجمعات العربية صورة لما فى الغرب والشيوعية نظام جديد .

(١٢) الأمة العربية لقيت الويلات من الغرب ، والشيوعية تدعى وقوفها مع المظلومين والمضطهدين ولم يسبق لها أن استعمرت تلك الدول[٢].

وبعد هذا فقد يظن ظان أن الفكر الاشتراكى إنما هو وليد هذه الفترة ولكن حقيقة الأمر غير ذلك .

حيث وجدت الأفكار الشيوعية فى فترات متفاوتة من تاريخ البشرية وإن كانت قد تميزت فى الفترة الأخيرة على يد ماركس بظهورها وتبنى الدول لها ، ودفاعها عن هذا الفكر ، وهذا يجعلنا نتحدث عن بعض الحركات الإشتراكية عبر التاريخ لنستبين من خلال ذلك وجود تلك الأفكار منذ زمن بعيد فى تاريخ الإنسانية .

---

(١) ولمزيد من التفصيل انظر الماركسية بين النظرية والتطبيق (٣٩-٤٣) .

(٢) انظر المرجع السابق (٤٥-٤٦) .

الفصل الأول
الحركات الإشتراكية عبر التاريخ

ويشتمل على تمهيدة وعدة مباحث .

التمهيد .

المبحث الأول : أفلاطون .

المبحث الثانى : المزدكية .

المبحث الثالث : القرامطة .

المبحث الرابع : الإشتراكيون الطوباويون .

المبحث الخامس : ماركس .

المبحث السادس : الشيوعيون بعد ماركس .

الفصل الأول
الحركات الإشتراكية عبر التاريخ

ويشتمل على تمهيدة وعدة مباحث .

التمهيد .

المبحث الأول : أفلاطون .

المبحث الثانى : المزدكية .

المبحث الثالث : القرامطة .

المبحث الرابع : الإشتراكيون الطوباويون .

المبحث الخامس : ماركس .

المبحث السادس : الشيوعيون بعد ماركس .

الفصل الأول
الحركات الإشتراكية عبر التاريخ

تمهيد :

اقتضت مشيئة الله تعالى وإرادته أن يخلق الخير والشر لحكم أرادها المولى جل وعلا ، وأن يقع الصراع بينهما منذ خلقهما ، وإن كانت الغلبة للحق ، ولكن ليميز الله تعالى الخبيث من الطيب فيجعل الخبيث فى نار جهنم قال تعالى : {**ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون**}(١).

وقد اتخذ الباطل أساليب متنوعة ، وسلك أهله سبلا شتى فى تحقيق أهدافهم ونشر باطلهم .

فما من طريق إلا وضرب أصحاب الباطل بسهامهم فيه .

وعندماكان الكفر أعظم الذنوب ، فان أصحابه أكثروا من الأباطيل وجعلوا لها صورا شتى وسبلا عدة ، ومن ذلك الأفكار الإباحية والدعاوى المنحرفة لشيوعية الأموال والنساء بين الناس .

ووجدت هذه الدعوات فى أوقات متفرقة وفى مجتمعات مختلفة قديمة وحديثة .

غير أنها فى العصر الحديث اتخذت طابعا منظما وفكرا مخططا . وأفكار هذه الدعوات متقاربة وأحيانا تكاد تكون واحدة . إلا أن الأخيرة منها فاقت السابقة بأشياء من تخطيط وتنظيم مدروس يتناسب مع جاهلية القرن الذى وجدت فيه . بالإضافة إلى تناسبها مع نفسيات الأيدى الحقيقية المحركة لها ، التى ترغب فى تحقيق أهدافها من ورائها . والأفكار الشيوعية التى وجدت فى العصر الحديث كانت موجودة فى الأزمان السابقة وإن تميزت عند بعض مجتمعات دون غيرها ولدى بعض شخصيات دون سواها . وإذا أردنا

---

(١) سورة الأنفال : (٣٧) .

أن نضع تاريخا لبدء هذه الأفكار فيمكن أن نصنفها فى أدوار تاريخية مرت بها وإن لم يكن بالضرورة أن هذه الأدوار محددة بصورة دقيقة لجميع الأزمنة والشخصيات المنادية بتلك الأفكار .

وإنما المقصود يكمن فى إعطاء لمحة تاريخية عن أزمان متفرقة من تاريخ البشرية ، ـ ولعلها أشهر الفترات الزمنية ـ التى راجت فيها المبادىء الإشتراكية إضافة إلى بيان أن الجاهلية الحديثة عامة والجاهلية الماركسية خاصة قد أخذت مما سبقها من جاهليات وإنحرافات .

ويمكن جعل المراحل التى مرت بها الدعوة الإشتراكية حيث المناداة بها والدعوة إليها كما يلى :

المرحلة الأولى : عصر أفلاطون .

المرحلة الثانية : المزدكية .

المرحلة الثالثة : بعض الفرق الباطنية فى التاريخ الإسلامى .

المرحلة الرابعة : الإشتراكيون الطوباويون .

المرحلة الخامسة : ماركس الشيوعية العلمية .

المرحلة السادسة : الشيوعيون بعد ماركس :

(أ) المنقحون .

(ب) الفابيون .

ونتحدث عن تلك المراحل بشىء من التفصيل .

المبحث الأول
المرحلة الأولى : أفلاطون[١]

يعتبر أفلاطون من أول من قال بالفكر الإشتراكى بل اعتبر بعض الاقتصاديين والكتاب أن إشتراكية ماركس ترجع إلى الأفكار الأفلاطونية[٢].

يقول هنرى ده مان : (إن كل تاريخ للإشتراكية يبدأ على الأقل بأفلاطون)[٣].

ويقول معروف الدواليبى :

(من المعروف أن أفلاطون كان أول من أدخل المفهوم الاشتراكى فى نطاق البحث الفلسفى ولكنه فى كتابه (النواميس) الذى أصدره فى شيخوخته وبعدما تمرس بعمق البحث والدرس والتجربة ، عاد عن كثير من أفكاره الإشتراكية ، ومنها إشتراكية الأملاك والنساء)[٤].

فهذه دعوة قديمة ولكن أفلاطون (قصرها على الحكام والجند ثم أجرى عليها تعديلا فى آخر كتبه (القانون) بقصد إقامة مدينة فاضلة ، وعلى الرغم من هذا فقد ثبت لأفلاطون نفسه كما ثبت لغيره أن مدينته الفاضلة التى

---

(١) ولد فى أثينا حوالى عام ٤٢٧ق.م واتصل بسقراط فى سن العشرين وصار من تلامذته المخلصين له .
انظر فى تاريخ الفلسفة اليونانية (٨١) ، عوض الله حجازى ، محمد السيد ، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ ، المطبعة المنيرية بالأزهر ، له مؤلفات عديدة منها الجمهورية الكتاب الذى أودع فيه أفكاره الإشتراكية ودعوته إشاعة النساء والأولاد والقضاء على الملكية الفردية .

(٢) من هؤلاء الإقتصاديين البرفسور (هارى ليدر) والكاتب الإشتراكى المعروف هـ.ج.كول صاحب المؤلفات العديدة فى تاريخ الفكر الإشتراكى . انظر النظم الإقتصادية المعاصرة (١٤٣) .

(٣) الإشتراكية البناءة (١٩) ، هنرى ده مان ، ترجمة غياث حجار ، ١٩٦٢م ، دار الاتحاد ، بيروت .

(٤) إشتراكيتهم وإسلامنا (٩٦-٩٧) .

تخيلها بناء على نظامه الذى وصفه ثبت تماما أنها ممتنعة التحقيق)[١].

ويصور كانط جمهورية أفلاطون وصاحبها بما يلى : يقول :

(لقد أصبحت جمهورية أفلاطون مثلا بارزا يضرب على الكمال المتوهم الذى لايمكن أن يجد مستقره إلا فى رأس مفكر خالى الأشغال ...)[٢].

إشتراكية أفلاطون :

إن دعوة أفلاطون للإشتراكية فى جمهوريته لم تكن على مستوى المجتمع كله ، بل تأتى على فئات دون أخرى حسب المصلحة التى تصورها أفلاطون .

فقال عن الحكام يجب عليهم أن يعيشوا عيشة شظف وتقتير ساكنين الخيام لاالبيوت معتمدين على تبرعات الأهالى وأخيرا يجب أن لايمتلكوا ملكا خاصا وإلا انقلبوا ذئابا بدل كونهم كلابا حارسة[٣].

فينفى هنا الملكية الفردية عن طبقة الحكام فقط ، لأنهم سيوظفونها لمصالحهم الشخصية .

وقال عن شيوعية النساء والأطفال ، بعد أن تحدث عن مشاركة المرأة للرجل وقدرتها على القيام بما يقوم به قال : (وينحصر الفرق بين الجنسين فى الدرجة دون النوع ، وسببه ضعفها إذا قيست بالرجل فالنساء اللاتى يبدين ميلا إلى الفلسفة أو الحرب يجب أن يصحبن الحكام أو المساعدين ويشاركنهم فى واجباتهم ويصبرن أزواجا لهم ...) . و(تكون أولئك النساء بلااستثناء مشاعا لأولئك الحكام ، فلايخص أحدهم لنفسه بإحداهن . وكذلك

---

(١) كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٥) ، محمود عبد الوهاب ، دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، وانظر الشيوعية فى موازين الإسلام (١١) .

(٢) نقد العقل المحض (١٩٥) ، عمانويل كانط ، ترجمة موسى وهبة ، مركز الإنماء القومى ، بيروت ، وانظر النظم الاقتصادية المعاصرة (١٤٤) .

(٣) انظر جمهورية أفلاطون (٧٦) ، نقلها إلى العربية حنا خباز ، دار أسامة ، دمشق بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

أولادهن يكونون مشاعا ، فلايعرف والد ولده ولاولد والده)[١].

وجاء عنه أيضا : (ومتى بلغ الجنسان السن القانونى ، أبحنا للرجال من شاؤوهن ، إلا بناتهم وأمهاتهم وجداتهم وحفيداتهم . كذلك يباح للمرأة كل رجل إلا آباؤها وأولادها وسلفها وخلفها . وذلك بعد أن نوصيها بفعل الأفضل وهو : إذا حبلت إحداهن عرضا (فى غير الحالة المقررة) فلايرى جنينها النور وإذا لم تتمكن من ذلك فيلزم التخلص من الطفل على أساس أن ثمرة إجتماع كهذا لاتجوز تربيتها ...)[٢].

ويقول عن شيوعية الأولاد : (يجب فصل كل الذين تجاوزوا العاشرة وإرسالهم إلى الأرياف ، ويجب تربية أولادهم بعيدين عن تأثيرات السجية الشائعة التى يتصف بها آباؤهم أتراب آبائهم ...)[٣].

ويقول : (ويفصل الأولاد عن والديهم ويربون فى معاهد خاصة تنشئها الحكومة فبهذه الوسيلة وحدها يمكن الحكام ومساعديهم أن يتحرروا من كل ميل للملكية ، ويرغبون فى الاشتراك بالمصلحة التى تضم الفئتين معا وتقرن أفرادهما بعضهم ببعض ...)[٤].

وهذه الفكرة عينها التى نادى بها ماركس فى شيوعيته هو وانجلز كما ذكرا ذلك فى بيانهم الشيوعى .

إن أفلاطون قد خصص كتابه الجمهورية عن بيان بنيان دولته تلك كيف ينبغى أن تكون . فأعلن مشاعية النساء ، واشتراكهن مع الرجال فى مهام الحياة ، وكان يرى أن يخص الشباب المبرزين فى الحرب بالاختلاط بالنساء كمكافآت لهم ، وكذلك إنجاب الذرية منهن ، فإذا ماأنجبوا منهن حمل أولاد هؤلاء إلى المراضع العامة ، تحت عناية مرضعات بمعزل عن

---

(١) جمهورية أفلاطون (١٦٢) .
(٢) المرجع السابق (١٥٧) .
(٣) المرجع السابق (٢٣٢) .
(٤) المرجع السابق (١٤٦) وانظر مابعدها .

الناس ، حتى لاتعرف والدة طفلها[١].

كما اعتبر أفلاطون (أن شيوعية نساء الحكام وأولادهم هى سبب خير الدولة الأعظم ...)[٢].

ونادى بأن يكون كل شيء مشاعا قدر الاستطاعة[٣].

الأسرة فى جمهورية أفلاطون :

جاءت أنظمة الجمهورية داعية إلى القضاء على الأسرة وعدم قيامها داخل المجتمع ، وذلك بإعلان الاختلاط ومشاعية النساء وانتزاع الأطفال من أمهاتهم وتربيتهم ورضاعتهم فى محاضن خاصة تشرف عليها الدولة . فكل الروابط الأسرية أضحت مقطعة فلايمكن أن تقوم الأسرة وحال مؤلفيها كذلك . فأراد أفلاطون أن (تنتزع من نفوسهم عواطف الأسرة وشواغلها فيحظر عليهم أن يكونوا أسرة وإنما يكونون جميعا للجميع ويختلط الرجال بالنساء إختلاطا جنسيا ويتصل بعضهم ببعض ولكن لاإتفاقا بل يقيم الحكام فى كل سنة فى أحسن الأوقات وأسعد الطوالع حفلات دينية يعقدون فيها لكل كفء على كفئه من الجنسين زواجا مؤقتا الغرض منه الانسال على حسب حاجة الدولة ويوضع الأطفال فى مكان مشترك يعنى بهم فيه أناس خصيصون وتأتى الأمهات فيرضعنهم دون أن يعرفنهم فلاتوجد بين الحراس قرابة معروفة ولكنهم جميعا أسرة واحدة يعتبر بعضهم بعضا قريبا له ولما كان الزواج بين أفراد ممتازين فالغالب أن يكون النسل ممتازا هذه هى

---

(١) انظر جمهورية أفلاطون (١٦٠-١٦١) وقارن ماجاء عن ماركس وانجلز .

(٢) المرجع السابق (١٦٣) .

(٣) المرجع السابق (١٦٦) ويمكن الرجوع إلى الصفحات التالية للاستزادة (١٤٨-١٤٩، ١٥٧-١٥٩، ٢٣٥-٢٣٨) .

إشتراكية أفلاطون أو شيوعيته وهى قائمة على الإشتراك فى المال والأولاد والنساء ...)[١].

(كذلك أراد أفلاطون أن لاتنصرف الدولة إلا إلى شئونها وأن تتفرغ لها بكل قلبها ولكى لاتنشأ بين أعضائها الغيرة والمنافسة إشترط أفلاطون أن تسود الشيوعية حياتهم)[٢].

فأراد أفلاطون أن يحقق فى جمهوريته :

(١) شيوعية النساء واباحتهن .

(٢) القضاء على الملكية الفردية .

(٣) القضاء على الأسرة.

ورأى أفلاطون أن الجمهورية إنما تقوم عليها ووجد من ينادى بهذه الأفكار فى المجتمع اليونانى حيث جاء الرواقيون حوالى ٣٠٠ق.م - ٢٠٠م فنددوا بالملكية الفردية واعتبروا الناس أحرارا متساوين فى كل شىء وهذا شاعرهم فرجيل يمجد هذا المبدأ فيقول :

(لاأسوار تفصل بين الحقول
لاعلامات هناك ولاحدود
نقسم الأرض المتنازع عليها الى وحدات
فكل شىء دائما مشاع)[٣].

ووجدت بعض الآراء التى تنبذ الملكية الفردية وترى أنها سبب الفقر ولكن (لما لم يكن الناس فى زمن أفلاطون على درجة واحدة من المعرفة والتمييز لم يحاول أحد منهم أن يثير هذه المسألة . الأمر الذى دعا ذلك

---

(١) فى تاريخ الفلسفة اليونانية (٨١) .

(٢) قصة الفلسفة اليونانية (١٤٠) ، أحمد أمين ، زكى نجيب محمود ، الطبعة السابعة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، دون ذكر لتاريخ الطبعة .

(٣) خلاصة الفكر الإشتراكى (١٦١) ، عز الدين فودة ، نقله من الحركات الإشتراكية هارى ليدر نقلا من كتاب الفكر الماركسى (٨-٩) ، دراسة تحليلية دكتور صفوت حامد مبارك ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، الناشر عالم الكتب ، القاهرة .

المذهب أن يخمد ويتوارى عن العيون ولكن لما كانت كلمات فلاسفة اليونان مدونة فى كتب فقد حفظ هذا تلك الأمثلة عن الإشتراكية وجعلها تعيش القرون لتجد بالتالى مرتعها الخصيب فيما تلى من قرون)[١].

وينبغى أن نلاحظ أن أفلاطون قد قصر إشتراكيته على فئة من الناس دون غيرها .

---

(١) نقد أصول الشيوعية (١٩) .

المبحث الثانى
المرحلة الثانية : المزدكية[١]

والمزدكية من الفرق المجوسية التى تقول بأصلين النور والظلمة (إلا أن مزدك كان يقول إن النور يفعل بالقصد والاختيار ، والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق ، والنور عالم حساس والظلام جاهل أعمى ، وأن المزاج كان على الاتفاق والخبط لابالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص انما يقع بالاتفاق دون الاختيار)[٢].

وليس المقصود هنا دراسة العقيدة المزدكية ومذهب صاحبها فى الأصول وإنما نقتصر على الذى يخص دراستنا وهو وجود الأفكار الإباحية والدعوة إلى الإشتراكية فى الأموال والنساء ، ولاشك أن فساد الأصول أفسد ماانبثق عنها ولأجل ذلك دعا مزدك إلى الإشتراكية بين الناس واعتبر الخلاف والبغضاء بينهم إنما هى بسبب النساء والأموال[٣]فطالب بإشتراكهم فيها ليزول العداء بينهم .

يقول الشهرستانى : (وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ...)[٤].

---

(١) أصحاب مزدك الموبذ بن مداد ظهر أيام قباذ بن نيروز والد انوشروان وقد ولى فى أواخر القرن الخامس عام ٤٨٧م.
الموبذ عندهم العالم القدوة . انظر إغاثة اللهفان (٢٤٧/٢) ، ابن القيم ، دار الفكر دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) الملل والنحل (٢٥٠) ، الشهرستانى ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) وهكذا كان ماركس فى دعوته .

(٤) الملل والنحل (٢٥٠) .

وركز جهده على قضية الملكية[١] والمال وبذل مازاد عن الكفاية منه ومن النساء للغير .

وذكر ابن جرير الطبرى رحمه الله عنه وعن أتباعه أنهم قالوا : (إن الله إنما جعل الأرزاق فى الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتآسى ولكن الناس تظالموا فيها وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ويردون من المكثرين على المقلين وأنه من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره فافترص السفلة ذلك واغتنموه وكانفوا[٢] مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لايستطيع الامتناع منهم)[٣].

ويقول ابن النديم : (وهؤلاء أهل مجوس فى الأصل ثم حدث مدهبهم وهم ممن يعرف باللقطة وصاحبهم مزدك القديم أمرهم بتناول اللذات والانعطاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمساواة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض لهم مشاركة فى الجرم والأهل لايمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولايمنعه)[٤].

ويقول ابن الجوزى فى معرض حديثه عن المجوس : (ويستحلون فروج الأمهات قالوا الابن أحرى بتسكين شهوة أمه[٥] وإذا مات الزوج فابنه أولى بالمرأة فإن لم يكن له ابن اكترى رجل من مال الميت ، ويجيزون للرجل أن يتزوج بمائة وألف .

---

(١) انظر تاريخ الحضارة الاسلامية (٤٩) .

(٢) عاونوا .

(٣) تاريخ الأمم والملوك (٢/١٨٥-١٨٦) ، ابن جرير الطبرى ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

(٤) الفهرست (٤٧٩) ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

(٥) قارن ماجاء عند الباطنية وفى أشعارهم مما يدل على أن الأصل واحد .

وإذا أرادت حائض أن تغتسل دفعت دينارا إلى الموبذ ويحملها إلى بيت النار ويقيمها على أربع وينظفها بسبابته ، وأظهر هذا الأمر مزدك فى أيام قباذ وأباح النساء لكل من شاء ونكح نساء قباذ لتقتدى به العامة فيفعلون فى النساء مثله ...)[١].

ويقول الامام ابن القيم رحمه الله : (وهؤلاء[٢] يرون الإشتراك فى النساء والمكاسب كما يشترك فى الهواء والطرق وغيرها)[٣].

ويقول مزدك : (إن الناس ولدوا سواء ، فليعيشوا على قدم المساوة) وكان يقول : (أهم ماتجب فيه المساواة : المال والنساء)[٤].

والذى ساعد على انتشار مذهب مزدك وقبوله :

(١) جعل دعوته دينية والنفوس تقبل مااصطبغ بصبغة دينية إذا كانت تلك النفوس منحرفة .

يقول د. النمر : (ولما كان مزدك صاحب دعوة دينية عرفت باسمه فقد أخذت تعاليمه الإشتراكية هذه الصبغة الدينية التى تمكنها فى النفس وتجعلها عقيدة من العقائد التى يدافع أصحابها عنها ، ويستمسكون بها بالإضافة لشهوات النفس ، ولذلك استمرت هذه الفكرة عند بعض الناس حتى فى عهد الدولة الإسلامية ، رغم تنكيل (قباذ) بمزدك وأصحابه حين تمكن منهم)[٥].

ويقول نولدكه : (إن الذى يميز مزدك عن الإشتراكية الحديثة مالتعاليمه من الصبغة الدينية)[٦].

---

(١) تلبيس ابليس (٨٨) ، ابن الجوزى ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

(٢) أى المزدكية .

(٣) اغاثة اللهفان (٢٤٧/٢) .

(٤) اشتراكيتهم واسلامنا (١٣-١٤) .

(٥) الماركسية بين النظرية والتطبيق (١١) .

(٦) نقلا من كتاب فجر الإسلام (١١٠) ، أحمد أمين ، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٥م ، شركة الطباعة الفنية .

(٢) ساعد أيضا على انتشار فكره ماكان بدعوته من دعوة إلى الزهد ومساواة الفقراء بالأغنياء فسار خلفه كل من رأى أن هذه الدعوة تحقق له مايصبو إليه دون عناء .

يقول أحمد أمين : (وكانت له تعاليم روحية أخرى ، فقد كان يعلم القناعة والزهد وحرمة الحيوان فلايذبح وقد اعتنق مذهبه آلاف من الناس ...)[١].

(٣) ومما ساعد على كثرة أتباعه ماكان فى دعوته من إباحية فهى تسهل طريق البغاء وتشيعه بالحرام حيث كانت أفكار الإباحية التى نادى بها ميسرة (السبيل للظلمة الى الظلم وللعهار إلى قضاء نهمتهم وشمل الناس بلاء عظيم لم يكن لهم عهد بمثله وصاروا لايعرف الرجل منهم ولده ولاالمولود أباه ولايملك الرجل شيئا مما يتسع به)[٢].

فعم الظلم وانتشر الفساد من أثر دعوة مزدك فـ(قد وجد لدعوته أنصارا أشداء أثاروا الفتن والقلاقل ، ونشروا الرعب والفساد وسرعان ماأخمدت ، ولكن بعدان تركت آثارا وبيلة)[٣].

الا أن سنة الله تعالى لاتمهل الظالم ولاتبقى على الظلم وان طال أمده كما لايدوم حاله فى نشر شروره وآثامه . بل يقيض الله تعالى لهذا الظالم من يقمعه ويرد الله سبحانه وتعالى بسببه الحقوق لأهلها وقد يكون هلاك الظالم على يد ظالم آخر لحكمة منه جل وعلا وهذا ماحدث لمزدك . فبعد أن عم شره وشر قومه كل مكان . جاء كسرى أنوشروان فرفع ماكان بالناس من شر وكتب أربعة كتب بعث بها إلى أمرائه ، وذكرهم بما وقع للناس فى

---

(١) فجر الإسلام (١١٠) .

(٢) وجاء دور المجوس (٢٧) ، عبد الله محمد الغريب ، الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

(٣) كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٦) .
وانظر الشيوعية فى موازين الاسلام (١٢) .

أموالهم ونسائهم . وأبطل تلك الدعاوى وقتل من تمسك بها وامتنع عن الرجوع عنها[١].

يقول الشهرستانى : (اطلع أنو شروان على خزيه وافترائه فطلبه فوجده فقتله)[٢]وكان قتله سنة ٣٢٥م[٣]. ونكل قباذ به وبقومه ودبر لهم مذبحة سنة ٣٢٥م وكاد أن يستأصلهم بها[٤].

الا أن قتل مزدك لم يقض على الفرقة المزدكية حاملة الأفكار الشيوعية فبدأ أصحابها واتباع مزدك يعملون فى نشر مبادئها وآرائها فى السر ، فأصبحت فرقة سرية تعمل فى الخفاء إلى أن ظهرت مرة أخرى فى العصر الإسلامى . يقول أحمد أمين :

(وبعد كسرى عاشت المزدكية فرقة سرية عاشت على هذا الجو أيام الدورة الساسانية ثم عادت إلى الظهور من جديد فى بداية العصور الإسلامية)[٥].

وليس المقصود من هذه اللمحة ، الدراسة التفصيلية لما كانت عليه المزدكية من أفكار شيوعية إباحية وإنما الغرض إثبات وجود تلك الأفكار ثم تأثير تلك الطوائف المجوسية فى تاريخ المسلمين فى كيد عظيم قام به أعداء الدين منذ اللحظة الأولى لانطلاق الدعوة إلى التوحيد ، فبذل الأعداء جهودهم فى سبيل الوصول إلى المسلمين ونشر الفساد والرذيلة بينهم وإبعادهم عن دين ربهم ، فوجدت الفرق فى تاريخ المسلمين وكان وراءها ومؤثرا فيها اليهود والنصارى والمجوس . ويظهر ذلك فى تقارب عقائدها

---

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك (١٩١/٢-١٩٢) .
(٢) الملل والنحل (٢٥٠) .
(٣) انظر نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام (١٩٧/١) ، د. على النشار ، الطبعة السابعة ١٩٧٧م ، دار المعارف ، القاهرة .
(٤) فجر الإسلام (١١٠) .
(٥) فجر الإسلام (١٣٧/١) .

وأفكارها ، وخير دليل على ذلك وجود الفرق التى تسترت بالإسلام وإدعاء حب آل النبى صلى الله عليه وآله وسلم . حيث تعود أصولها إلى المجوسية فالاتصال مستمر بين أهل الباطل والضلال وعندما تحدثنا عن وجود الأفكار الشيوعية فى الطائفة المزدكية نعرض لبعض الفرق التى وجدت فى التاريخ الإسلامى حاملة تلك الأفكار متصلة بتلك الطائفة متممة لما بدأه أصحاب ذلك الفكر الإباحى وهذا يجعلنا نذكر الدور الثالث وكان فى عصر الإسلام .

بتأثير من الأعداء والمنافقين المندسين بين صفوف المسلمين وهم متسترين بالدين من أجل تحقيق أهدافهم وشهواتهم العدائية فى القضاء على دين الله تعالى ولكن هيهات فإن الله عز وجل بالغ أمره وناصر دينه ولو كره الكافرون .

المبحث الثالث
المرحلة الثالثة : القرامطة

إن أعداء الله تعالى سيظلون فى عداء مستمر لهذا الدين وأهله ، وقد وجد فى عصر الإسلام الأول من اندس بين صفوف المسلمين وتظاهر بحبهم ، وحب نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، فأبطن هؤلاء الكفر ، وأظهروا الحب للإسلام وأهله . وشكل هؤلاء فرقا شتى جمعهم الانتساب إلى الأديان المحرفة ، والعقائد الوثنية ، والأفكار المجوسية . وهؤلاء هم الباطنية .

يقول ابن الجوزى : (الباطنية قوم تستروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة ، فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات ، وإنكار البعث ، ولكنهم لايظهرون هذا فى أول أمرهم بل يزعمون أن الله (تعالى) حق وأن محمدا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والدين صحيح ، لكنهم يقولون لذلك سر غير ظاهر وقد تلاعب بهم إبليس فبالغ وحسن لهم مذاهب مختلفة ولهم ثمانية أسماء)[١].

وقد عددها رحمه الله وهى :

(١) الباطنية :

سموا بذلك لأنهم يدعون أن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن . ومن قنع بهذه الظواهر كان تحت أغلال التكاليف الشرعية . ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه ، ويرون انهم هم المقصودون بقوله تعالى : {**ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم**}[٢].

(٢) الإسماعيلية :

نسبة إلى زعيمهم كما يدعون محمد بن اسماعيل بن جعفر ويزعمون أن دور الإمامة انتهى إليه لأنه سابع واحتجوا بأن السموات سبع وأيام الأسبوع سبعة فدل أن دور الأئمة يتم بسبعة .

---

(١) تلبيس ابليس (١١٩) .
(٢) سورة الأعراف : (١٥٧) .

(٣) السبعية :

ولقبوا بهذا لأمرين :

احدهما : اعتقادهم أن دور الأئمة سبعة سبعة وأن الانتهاء إلى السابع هو آخر الأدوار وهو المراد بالقيامة وأن تعاقب هذه الأدوار لاآخر له .

الثانى : لقولهم إن تدبير العالم السفلى منوط بالكواكب السبعة زحل ثم المشترى ثم المريخ ثم الزهرة ثم الشمس ثم عطارد ثم القمر .

(٤) البابكية :

وهم الذين تبعوا بابك الخرمى[١] وكان من الباطنية ظهر فى بعض الجبال بناحية أذربيجان .

(٥) المحمرة :

سموا بذلك لأنهم صبغوا ثيابهم بالحمرة فى أيام بابك ولبسوها .

(٦) القرامطة :

لقبوا بهذا نسبة لرجل يقال له حمدان قرمط .

(٧) الخرمية :

وخرم لفظ أعجمى ينبىء عن الشىء المستلذ المستطاب الذى يرتاح الإنسان له ومقصود هذا الاسم تسليط الناس على اتباع اللذات وطلب الشهوات وطى بساط التكليف وحط أعباء الشرع عن العباد .

---

(١) بابك الخرمى : كان يسمى الحسن أبو الحسين ، أصاب المسلمين بأفظع الضربات فى تاريخهم ، وكاد أن يقضى على الدولة العباسية فى الوقت الذى كان الروم يخططون للقضاء على الدولة الإسلامية . يقول عنه ابن النديم : (كان يقول لمن استغواه إنه إله وأحدث فى مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة) . الفهرست (٤٨٠) .

وقد حارب المأمون عشرين عاما ، ثم حارب المعتصم حتى قضى الافشين قائد المعتصم على جيوش بابل عام ٢٢٠هـ .

انظر نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام (١/٢٠٨-٢٠٩) .

(٨) التعليمية :

سموا بذلك لأن مذهبهم يقوم على إبطال الرأى وإفساد تصرف العقول ودعاء الخلق إلى التعلم من الإمام المعصوم ولاتدرك العلوم إلا بالتعليم[١].

هذه أسماء الباطنية . وقد حملت أفكارا إباحية ودعاوى باطلة تدعوا إلى التحلل من الدين وأوامره ، وتشجع على الرذائل وتنبذ الفضائل .

ولاغرابة إذا فسد المعتقد أن يكون حالهم كذلك .

ومما نادت به هذه الطوائف الأفكار الإشتراكية وقد ارتبطت بالأفكار المجوسية وأخذت منها فى أصولها وفروعها وكان من أشهر هذه الطوائف القرامطة والبابكية ، وقد استغلت هذه الطوائف الأوضاع الإقتصادية المتردية.

إذ أننا (لو تتبعنا الوسط الذى نمت وترعرعت فيه حركة القرامطة لأمكننا التعرف على بعض العوامل التى استغلها القرامطة واستفادت منها فى اصطياد الناس والتغرير بهم ، فكما نعلم أن المناطق التى ظهرت فيها القرامطة كانت من سواد الكوفة وبادية الشام ومنطقة الأحساء ، والبحرين فى الجزيرة العربية ، فسواد الكوفة كان يغص بالفلاحين والمزارعين الفقراء ، وأما البادية والأحساء فكانت مناطق معروفة لقبائل البدو ، لذافقد استغلت القرامطة وضع الفلاحين والبدو الإقتصادى ، واستفادت منه فى اصطيادهم والتغرير بهم ، أما الفلاحون فقد كان أكثر سواد الكوفة منهم ، وهم من الفقراء الذين تركوا أهاليهم وزوجاتهم ، وجاءوا للعمل عند ملاكى أراضى سواد الكوفة)[٢]. ونلمح الآن بشىء من التفصيل عن هاتين الطائفتين .

---

(١) انظر تلبيس ابليس (١١٩-١٢٣) .

(٢) الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى (١٦٧) ، د. محمد أحمد الخطيب ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، مكتبة الأقصى للنشر والتوزيع .

القرامطة :

واحدة من فرق الباطنية والسبب فى تسميتهم على قولين :

(١) القول الأول :

أن رجلا من ناحية خوزستان قدم الكوفة وأظهر الزهد ودعا إلى إمام من آل البيت ونزل على رجل يقال له كرميته لقب بهذا لحمرة عينيه وهو بالنبطية حاد العين فأخذه أمير تلك الناحية وحبسه وأخذ مفتاح البيت تحت رأسه ونام فرقت جارية له فأخذت المفتاح وأخرجته ثم ردت المفتاح إلى مكانه فلما طلب ولم يوجد زاد افتتان الناس به فخرج إلى الشام فسمى كرميته باسم الذى نزل عليه ثم خفف فقيل قرمط ثم توارث مكانه أهله وأولاده .

(٢) القول الثانى :

أن القوم لقبوا بهذا نسبة إلى رجل اسمه حمدان قرمط كان أحد دعاتهم بداية فاستجاب له جماعة فسموا قرامطة وقرمطية[١].

وقيل فى سبب تلقيب حمدان بهذا اللقب لقرمطة فى خطه أو فى خطوه[٢].

فظهرت القرامطة فى الكوفة سنة ٢٧٨هـ ، وفى البحرين سنة ٢٨٦هـ .

ومن عرف تاريخ هذه الطائفة تبين له مدى تلبسها وتسترها بالدين وحب آل النبى صلى الله عليه وسلم ولكن الله تعالى أظهر حقيقتهم وكشف عوارهم وماأرادوه من استحلال للمحارم وانتهاك للأعراض ، حيث كان لهم فى تاريخ الإسلام ويلات اكتوى بها المسلمون من قتل ، ونهب[٣]، ونشر للفساد والرذائل ، ومهاجمة للحجاج وانتهاك حرماتهم وأخذ أموالهم

---

(١) انظر تلبيس ابليس (١٢١) ومابعدها .

(٢) الفرق بين الفرق (٢٨٢) ، عبد القاهر البغدادى ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (١٣/٤٧٥-٤٧٦) ، الإمام الذهبى ، الطبعة السابعة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، وانظر تاريخ الأمم والملوك (١٠/٦٢٥) الحاشية الجزء (١٣/١٣١-١٣٢) .

ونسائهم[١]، وانتهاك حرمة مقدساتهم حيث ردموا زمزم ، وأخذوا الحجر الأسود ، وذهبوا به إلى الأحساء وبقى عندهم نيفا وعشرين سنة[٢].

وبعد أن طغوا وأفسدوا فى الأرض قيض الله تعالى من يسومهم سوء العذاب كما هى سنته تعالى فى أخذ الظالمين وقضى على دولتهم سنة ٤٧٠هـ[٣].

فمن وصل حالهم إلى هذا الحد فلاغرابة إن وجدت عندهم الإباحية والانحلال ، ومن هنا كانت الأفكار الإشتراكية جزءا مما نادوا به فى مذهبهم.

وأوجز الآن مانحن بصدده من وجود الأفكار الإشتراكية والدعاوى الشيوعية فى الأموال والنساء ولاشك أن القرمطية قد أفادت من الطوائف السابقة على الإسلام هذا الفكر الإباحى وارتبطت أفكارها بأفكارها ، وكانت الصلة وثيقة بين القرامطة والمزدكية ، فأخذ القرامطة الفكر المجوسى أصلا لهم ، يقول ابن القيم رحمه الله : (ومنهم الخرمية أتباع بابك الخرمى وهم شر طوائفهم لايقرون بصانع ولامعاد ولانبوة ولاحلال ولاحرام وعلى مذهبهم طوائف القرامطة والاسماعيلية والنصيرية)[٤].

وأفاد القرامطة من المزدكية ومر معنا أن المزدكية عملت سرا فى ايجاد الخلايا لها ومن هنا اعتبر بعض المفكرين أن وجود أصحاب الفكر الباطنى إنما كان امتدادا للمزدكية والمجوسية . يقول د. النشار : (وقد بقيت آراء مزدك الإشتراكية فى العصر الأموى كامنة ، ... وفى العصر العباسى الثانى نفذت إلى أعماق المذهب الاسماعيلى عامة والقرمطى خاصة)[٥].

---

(١) انظر الكامل فى التاريخ (٨٠/٥) ابن الأثير ، تحقيق على شيرى ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٩م ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٣٢٠/١٥-٣٢١) .

(٣) ولمزيد عن بعض ماجاء عن هؤلاء من أباطيل وإعتقادات خارجة عن الملة انظر سير أعلام النبلاء (٣٢٣/١٥-٣٢٤) .

(٤) إغاثة اللهفان (٢٤٧/٢-٢٤٨) .

(٥) نشأة الفكر الفلسفى (٣٢٤/٢) .

وبهـذا يتبين لنا أن الاسماعيلية والقرمطية كانت لديها الأفكار الإشتراكية الإباحية المأخوذة من المزدكية (ذلك لأن القرامطة غصن من غصون شجرتهم الخبيثة التى غرسها (مزدك) وجاء أبو حامد القرمطى من بعده ليتعهدها ويرعاها)[١].

فقامت دعوة حمدان قرمط ونادى بشيوعية النساء والأموال[٢].

وكانت من المبادىء الهامة التى انطلق منها دعاة القرامطة (بين أتباعهم لعلهم بذلك يستميلون إلى مذهبهم دعاة الشهوة واللذة البهيمية من عوام الناس ، ويؤثرون بها أيضا على المراهقين من الشباب والشابات ، وكان اول من فعل ذلك حمدان القرمطى عندما فرض على أتباعه (الألفة) ، وهى أن يجمعوا أموالهم فى موضع واحد وأن يكونوا فيه كلهم أسوة واحدة ، لايفضل أحد من أصحابه على صاحبه ولااخيه فى ملك يملكه بشىء البتة ، ولما استقام الأمر لحمدان ، أمر أتباعه بأن يجمعوا النساء فى ليلة عينها ويخلطهن بالرجال حتى يتراكبن ، وزعم ان هذا من صحة الود والالف)[٣].

وقد كانت الاباحية منتشرة بين أتباع القرامطة بل كانت من أهدافهم النهائية من أجل (هدم كل القيم والأخلاق الفاضلة ، وبالتالى التخلى عن كل الروابط الأسرية . ويؤيد هذا ماأمر به الجنابى أتباعه فى دولة البحرين باقامة ليلة سماها ليلة الإفاضة ، يجتمع خلالها الرجال والنساء ، وتطفأ الأنوار ، ويمارسون الجنس دون تمييز بين المحللات والمحرمات)[٤].

---

(١) وجاء دور المجوس (٢٢٢-٢٢٣) .

(٢) انظر : الشيوعية فى موازين الاسلام (١٢-١٣) ، الموجز فى الأديان والمذاهب المعاصرة (٩١) ، ناصر القفارى ، ناصر العقل ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، دار الصميعى للنشر والتوزيع ، الرياض .

(٣) تاريخ أخبار القرامطة ، ابن سنان وابن العديم (٩٩-٩١٠٠ ، نقلا من الحركات الباطنية فى العالم الاسلامى (١٦٥-١٦٦) .
وانظر وجاء دور المجوس (٧٠-٧١) .

(٤) الاسماعيليون فى المرحلة القرمطية ، سامى العياش (٢٣٩) ، نقلا من الحركات الباطنية فى العالم الاسلامى (١٦٥-١٦٦) .

والمؤمن (عند القرامطة لايكمل إيمانه إلا إذا رضى التشريق وهو أن يدخل الرجل إلى حليلة جاره فيطأها وزوجها حاضر ينظر إليه ، ثم يخرج فيبصق فى وجهه ، ويصفع قفاه ، ويقول له : تصبر ، فإذا صبر عد كامل الإيمان وسمى من الصابرة)[١].

ومما يدل على فساد معتقدهم وكذلك إباحيتهم تلك الرسالة التى أرسلها عبيد الله بن الحسين القيروانى[٢]إلى سليمان بن سعيد الجنابى (أوصاه فيها بأن قال له : ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن آنست منه رشدا فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا ، وأنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء ، وعلى القول بقدم العالم ، لولا مايخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبرا لانعرفه ...) .

وقال : (أكرم الدهرية فإنهم منا ونحن منهم ...) .

وقال : (أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والانجيل وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور ، وإبطال الملائكة فى السماء ، وإبطال الجن فى الأرض ، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم ...)[٣].

ثم قال فى آخر رسالته : (وماالعجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حسنها فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبى ، وماوجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات ، وخوفهم بغائب لايعقل وهو الإله الذى يزعمونه ،

---

(١) القرامطة (١٣٠) ، ميكال دى خوية نقلا من كتاب الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى (١٦٥-١٦٦) .

(٢) الملقب بالمهدى والد الخلفاء العبيدين وكان يظهر الرفض ويبطن الزندقة .

(٣) قارن بين هذا وبين ماجاء عند ماركس والشيوعيين من بعده ، عن الدين ، والقرآن ، والرسول صلى الله عليه وسلم .

وأخبرهم بكون مالايرونه أبدا من البعث من القبور والحساب والجنة والنار حتى استعبدهم بذلك عاجلا وجعلهم له فى حياته ولذريته بعد وفاته خولا واستباح بذلك أموالهم بقوله {**لاأسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى**}(١) فكان أمره معهم نقدا وأمرهم معه نسيئة وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لايكون ، وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا مافيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج؟)(٢).

وبهذا يظهر كفرهم وكذلك إباحتيهم وشيوعيتهم التى ينادون بها ، ومما كانت ترده القيان فى اليمن وهن يلعبن بالدف :

خذى الدف ياهذه والعبى ... وبثى فضائل هذا النبى
تولى نبى بنى هاشم ... وقام نبى بنى يعرب
فما نبتغى السعى عند الصفا ... زورة القبر فى يثرب
إذا القوم صلوا فلاتنهضى ... وإن صاموا فكلى واشربى
ولاتحرمى نفسك الراغبين ... من أقربين ومن أجنبى
فكيف حللت لذاك الغريب ... وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن غرسه ... ورواه فى عامه المجدب
ومالخمر إلا كماء السحاب ... طلق فقدست من مذهب)(٣)

فأصبحت الأخت حلالا لأخيها ، حلالا لابنها عندهم .

---

(١) سورة الشورى : آية ٢٣
(٢) الفرق بين الفرق (٢٩٤-٢٩٨) .
(٣) بيان مذهب الباطنية وبطلانه (٨٢-٨٣) ، وانظر كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٧) .

وأما النظام المالى الذى سنه حمدان قرمط فهو :

(فرض على كل من الرجال والنساء درهما سماه (الفطرة) ، ثم فرض (الهجرة) وهى دينار على كل شخص بالغ ، ثم فرض عليهم (البلغة) وهى سبعة دنانير ... وقال : هذا بلاغ من يريد الإيمان والدخول فى السابقين ، فكان من أدى سبعة دنانير عن البلغة أطعمه شيئا حلوا لذيذا فى قدر البندقة وقال له : هذا طعام أهل الجنة نرل إلى الإمام ، وصار يبعث إلى كل داع منها مائة بلغة ويطالبه بسبعمائة دينار عن كل واحدة سبعة دنانير . ثم فرض عليهم الخمس من كل مايملكونه ومايكتسبونه ... فبادروا إلى ذلك وقوموا سائر مايملكونه من ثوب وغيره ، وأدوا منه الخمس ... ثم فرض عليهم الألفة ، وهى أنهم يجمعون أموالهم فى موضع واحد ، وأن يكونوا فيه كلهم أسوة واحدة ، لايفضل أحد من أصحابه على صاحبه ولاأخيه من ملك يملكه بشىء البتة ... وقال لهم : لاحاجة بكم إلى الأموال ، فإن الأرض بأسرها ستكون لكم دون غيركم . وقال لهم هذه محنتكم التى امتحنتم بها ليعلم كيف تعملون ، وألزمهم بشراء السلاح فى سنة ست وسبعين ومائتين . وأقام فى كل قرية رجلا مختارا من الثقات ، فجمع عنده أموال قريته من غنم وبقر وحلى ومتاع وغير ذلك ... ثم لما استقام له ذلك كله أمر أن تجمع النساء فى ليلة عينها ويخلطهن بالرجال حتى يتراكبن ، وقال : هذا من صحة الود والإلف ، ففعلوا ذلك ثم أفشى فيهم إباحة الأموال والفروج والاستغناء عن الصوم والصلاة وجميع الفرائض ، وقال : هذا كله موضوع عنكم ، ودماء المخالفين وأموالهم حلال لكم ، ومعرفة صاحب الحق تغنيكم عن كل شىء ولاتخافون معه إثما ولاعذابا ...)[١].

إن شيوعية القرامطة ليست شيوعية إقتصادية أو إجتماعية فحسب (بل جعلوها أيضا شيوعية إلحادية ، على نفس المنهج الذى سار عليه كارل

---

(١) تاريخ أخبار القرامطة ، ابن سنان وابن العديم (٩٨-١٠٠) .
نقلا من كتاب الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى (١٤١) .

ماركس وتلاميذه بعد تسعة قرون من ظهور القرامطة فقد ثبت أنه لم يكن للقرامطة دين أو شعائر دينية)[١].

لقد كان دعاة القرامطة فى كل مكان يقومون بنشر الإباحية والرذيلة فهذا منصور اليمن القرمطى قد انهمك فى تحليل المحرمات وإباحة المحظورات ، وكان يأمر بإلقاء النساء فى الماء فمن أعجبته اجتذبها وافتضها وبنى دارا واسعة ويجمع الرجال والنساء فيها ثم تطفأ الشموع ويضع كل واحد يده على أى امرأة فيقع عليها حتى ولو من محارمه[٢].

إن القرمطية فرع من فروع الإسماعيلية امتازت بنزعتها الإشتراكية التى زعموا أنها تحقق العدل والمساواة بين الناس . ويعتقد المؤرخون أن حركتهم (حركة ثورية إشتراكية) قادها حمدان قرمط فى ضواحى واسط بين الكوفة والبصرة وهى منطقة خصبة للدعاوى الثورية لأن سكانها خليط من العرب والأنباط والزنج المستعبدين ، فتبع حمدان خلق كثير وصل بهم الأمر إلى أن جعلوا كل مايملكون (مشاعا بين الجميع) ولم يعد أحد يملك إلا سيفه وسلاحه[٣].

ثم إن هنا تساؤل :

(هل من المصادفات أن يرجع البويهيون والقرامطة والعبيديون إلى أصول فارسية؟

هل من المصادفات أن تتشابه عقائدهم وأن تكون هى نفسها عقائد

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (١٨) .

(٢) لمزيد انظر الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى (٦٤-٦٦) .

(٣) إشتراكيتهم وإسلامنا (١٥-١٦) .

مزدك ومانى[١] وزرادشت؟[٢]... وهل من الصدف أيضا أن يتقاسموا العالم الاسلامى؟ وهل من المصادفات أن يلج هؤلاء جميعا من باب التشيع؟ وهل من المصادفات أن يكون المسلمون السنة العدو اللدود لهؤلاء الضالين ، وأن يتعاونوا مع كل عدو للإسلام والمسلمين؟)[٣]

إن دعاوى الباطل تتحد فى حرب دين الله تعالى الحق وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإن خادعت وحاولت التلبس بأساليب ماكرة وهذا حالهم فى كل زمان ومكان . بما فى ذلك القرامطة والإسماعيلية فقد دعوا إلى المحبة والإخاء والألفة والمساواة فى القسمة[٤].

وليست هذه الدعاوى لذاتها حقيقة ، وإنما للوصول من ورائها إلى الهدف والغاية المرجوه وهى إبعاد الدين وإحلال الإباحية مكانه وكان هذا فعل حمدان قرمط عندما فرض على أتباعه الألفة وهى أن يجمعوا أموالهم فى موضع واحد وأن يكونوا فيه كلهم أسرة واحدة لايفضل أحد من أصحابه على صاحبه ولاأخيه فى ملك يملكه وتلا قوله تعالى {**واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**}[٥].

---

(١) مانى : فارسى الأصل ، مؤسس الديانة المانوية تقوم ديانته على القول بأصلين هما النور والظلمة ، من مؤلفاته الرسائل ، الفصول ، كتاب المزامير والصلوات . ولد ٢١٦م ومات عام ٢٧٣م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٤٤٨/٢-٤٤٩) رقم (١١٠٤) .

(٢) زرادشت : مصلح دينى إيرانى ، كان له مذهب مستقل حاول نشره فى أذربيجان واصطدم مع الكهنة وقيل أنه مات مقتولا ، من مؤلفاته الآفستا . اختلف فى ولادته فقيل ٧٠٠ أو ٦٣٠ أو ٦٠٠ ق.م - ٥٨٣ ق.م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٥٢٣/١) رقم (٦١٥) .

(٣) وجاء دور المجوس (٧٧) .

(٤) دعوة متكررة يرددها ويقف من ورائها غالبا اليهود وأعداء الله ظهرت منذ القدم فى بعض الدعوات الإشتراكية ، وكذلك فى الثورة الفرنسية والبلشفية .

(٥) سورة آل عمران : (١٠٣) .

وتلا عليهم قوله تعالى : **{لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم}**[١].

وعرفهم أنه لاحاجة بهم إلى أموال تكون معهم لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم فلما استقام لحمدان الأمر ومال الناس إليه أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ليلة معروفة ويختلطن بالرجال وقال إن ذلك من صحة الود والألفة بينهم[٢].

إن هذه الاباحية وإبطال شرع الله تعالى هى الغاية التى يرجوها أصحاب تلك الدعوات الإباحية .

---

(١) سورة الأنفال : (٦٣) .

(٢) انظر نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام (٣٢٣/٢) .
وانظر الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى (١٦٥) .

ثانيا : البابكية (الخرمية) :

حملت هذه الطائفة فكرا إشتراكيا ولاغرابة فى ذلك إذا عرف تاريخ زعيمها وعرفت أفكاره والأصول المستمدة منها .

يقول ابن الجوزى بعد أن ذكر أن من أسماء الباطنية البابكية : (هو اسم لطائفة منهم تبعوا رجلا يقال له بابك الخرمى وكان من الباطنية وأصله أنه ولد زنى فظهر فى بعض الجبال بناحية أذربيجان سنة إحدى ومائتين وتبعه خلق كثير واستفحل أمره واستباح المحظورات وكان إذا علم أن عند أحد بنتا جميلة أو أختا جميلة طلبها فإن بعثها إليه وإلا قتله وأخذها وملك على هذا عشرين سنة فقتل ثمانين ألفا وقيل خمسة وخمسين ألفا وخمسمائة إنسان ...)[١].

وقد حارب المسلمين كثيرا حتى تمكنت جيوش المسلمين من القضاء عليه عام ٢٢٣هـ[٢].

ورابطتهم بعقائد المزدكية رابطة واضحة مما يدل على تأثرهم بهم وامتداد أصولهم إليهم . فقد أرجع البغدادى أصول الخرمية إلى المزدكية فاعتبر أن الخرمية صنفان وهم المزدكية والصنف الثانى الخرمدينية وهم فريقان البابكية ومازيارية[٣].

وقد عملت الخرمية سرا واتصلت بالحركات الشيعية واتخذت من التشيع ستارا لها لبث أفكارها كما اتخذت القرامطة من المزدكية شيوعيتها كذلك الخرمية ، وهذه الدعوة الإباحية وجد لها دعاة زمن الدولة العباسية ومن أوائل الدعاة لها الداعى العباسى عمار بن بديل المقتول عام ١١٨هـ وغرس غرسا متينا للخرمية على الإباحية والتملك من الدين ومحاربة الاسلام مع التستر فى ذلك كله بالتشيع[٤].

---

(١) تلبيس ابليس (١٢٠-١٢١) .
(٢) انظر المرجع السابق (١٢١) .
(٣) انظر الفرق بين الفرق (٢٦٦) .
(٤) انظر نشأة الفكر الفلسفى (٢٠٥/١) .

إن هـذه الحركات وغيرها قـد اتخذت من حب آل البيـت ستارا تنفث من خلفه سموم الإباحية والإلحاد ، وقد اتخذت من الفكـر المزدكى أساسا لها تسير عليـه فجاءت بالأفكار الإشتراكيـة ، وبهذا اعتبرناهـا الـدور الثالث من مراحلها التاريخية ، على أن ذلك لاينفى وجود بعض الأشخاص فى فترة تلت ذلـك التاريخ تدعو لنفس الأفكـار وتصارع من أجلها ولكنهـا تميزت فى هذه الفترة عـن غيرهـا مـن الفترات إلى أن راجت فى زمـن آخر وتبنـاها دعـاة آخرون .

المبحث الرابع
المرحلة الرابعة : الإشتراكيون الطوباويون

ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى قسمين :

القسم الأول : الطوباويون الأوائل .

القسم الثانى : أساتذة ماركس (الطوباويون الأواخر) .

ولعل لهذا التقسيم مايبرره :

أولا : أن هؤلاء الأساتذة مثلوا تحولا فى الفكر الإشتراكى وأثروه أكثر من غيرهم .

ثانيا : أن زعيما الشيوعية العلمية ماركس وانجلز قد اتخذا من هؤلاء أصولا لأفكارهم وتأثروا بهم فى وضع أصول شيوعيتهم .

ثالثا : قرب الزمن بين هؤلاء الأساتذة وماركس ولاشك أن لذلك أثره فى فكره واصطباغه بطابع تفكيرهم .

رابعا : أن هؤلاء عاصروا الثورات التى قامت فى وجه الأنظمة الإستغلالية مما زاد فى نشر أفكارهم ودعواتهم الإشتراكية والتأثر بها أكثر من غيرهم .

فأولا : الإشتراكية الطوباوية يجدر بنا ان نعرف ماذا يقصد الإشتراكيون أنفسهم بالإشتراكية الطوباوية فهى كما يعرفونها (مجموع النظريات الإجتماعية التى تجلى منها بشكل غير ناضج بعد السعى لإقامة مجتمع من طراز جديد لاوجود فيه لاستغلال الإنسان للإنسان ولجميع الأشكال الأخرى لعدم المساواة الإجتماعية)[١].

ويظهر من التعريف أن الإشتراكية الطوباوية مجرد نظريات وضعت لتحقيق الحياة الإشتراكية فى المجمعات الانسانية وتعتبر الإشتراكية الطوباوية الشكل الأول لنفى الظلم سواء كان قبل الإقطاع او الرأسمال لتحقيق النظام الإجتماعى .

---

(١) المعجم (٣٩) .

ويرى بعض الباحثين أن هذه الإشتراكية وجدت منذ زمن سحيق غير أنها بلغت أوجها فى أوروبا الغربية على يد توماس مور[١] الذى حلم باقامة ملكوت الرب على الأرض الذى كان يقصد به المجتمع الخالى من الفوارق الطبقية والخاصة وبدون سلطة الدولة المنعزلة الغريبة[٢].

وقامت دعوة توماس مور فى وسط الاضطراب الاجتماعى والفلسفى ويعتبر (من أئمة الشيوعيين الخياليين فى العالم والذى أسهم بقدر كبير من الآراء التى أثرت فى الفكر الشيوعى بعد ذلك فأكسبته مزيدا من الذيوع والانتشار . ولقد تأثر (مور) بالظروف الإقتصادية الجارفة التى كانت تمر بانجلترا فى أوائل القرن السادس عشر حينما كان يلقى بأغلال العهد الاقطاعى لتتحول إلى دولة من التجار . وقد رآها بالفعل وهى تتحول من طابع الاقتصاد الريفى إلى الإقتصاد النقدى ومن تنظيم الدولة لأموال العمل والنشاط الصناعى إلى الإقتصاد الرأسمالى الفردى الحر . فبدأ يشعر بأنه لابد من القيام بعمل يكون من شأنه إدخال تعاليم أخلاقيةمثالية على هذا النظام الإقتصادى والإجتماعى المتغيرين ، ووضع كتابه (تيوبيا) فى ظل هذا الاعتقاد)[٣].

(وكان ذلك عام ١٥١٦م وهاجم النظام الإجتماعى الذى كان قائما عندئذ وموقف النبلاء الذين كانوا يعيشون على غيرهم . وقال بأن المجتمع العادل يقوم على أساس يختلف أساسا عن الملكية الفردية وقياس قيم الأشياء بالنقود)[٤].

---

(١) لاهوتى ألزاسى ، جال أخاء فرنسا وأوروبا الوسطى ، كان معاديا لفكر لوثر ، من مؤلفاته مؤامرة المجانين ، المجنون اللوثرى الكبير ، ولد عام ١٤٧٥ ومات عام ١٥٣٧ . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٢/٤٧٩-٤٨٠) رقم (١١٤٥) .

(٢) انظر المعجم (٤٠) ، وانظر الشيوعية فى موازين الاسلام (١٩) .

(٣) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٤٦) .

(٤) دراسات فى الإقتصاد السياسى (١/١٣٨) ، عيسى عبده ، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م ، وانظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٦١) .

ويقول توماس مور عن الملكية الخاصة التى يرى أنها سبب الظلم والاضطهاد (حيث تكون الملكية خاصة يصعب بل يستحيل أن تحكم الدولة حكما عادلا أو أن ينشر فيها الرخاء) .

وقال : (لقد أصبحت مقتنعا بأن لاسبيل إلى التوزيع العادل لكل شىء أو الاستفادة الكاملة من الثروة إلا بإلغاء الملكية الخاصة ، أما وهى لاتزال قائمة فسترزح الغالبية الكبرى للسكان تحت عبء الفقر الثقيل)[١].

ومع ذلك بقيت أفكار توماس مور أفكارا خيالية إلا أنها حملت فكرا شيوعيا ولعل الوضع الذى كانت تعيشه أوروبا دعى مور وغيره إلى إبراز هذه الأفكار علها تحسن من الوضع شيئا . جاء فى كتاب النظم الإقتصادية : (ان أبلغ وصف عنها[٢]أنها ليست أكثر من خيال جذاب صدرت عن رجل إنسانى خير آلمه مارآه من شرور نتجت عن حدوث بعض التقدم فى النواحى الإقتصادية البريطانية ، ذلك التقدم الذى أسفر عن الكثير من التناقضات الإجتماعية التى أثرت فى نفسية الرجل وخياله الخصب فكتب ماكتب دون أن يكون وراء ذلك حصيلة علمية عميقة)[٣].

ومن هنا فكان لهذه الإشتراكية أسباب للظهور فى أوروبا الغربية منها الرأسمالية وتفشى الظلم والاستغلال فى المجتمع فكانت هذه الآراء ردود أفعال للأوضاع القائمة هناك رغبة فى إصلاح الوضع[٤].

يقول د. النمر : (فى عهد النهضة الأوربية وفى ظلام الإقطاع الأوروبى للطبقات العاملة وأمام العجز عن مجابهته مع هذا الظلم وفى هذا الظلام اتجهت أفكار بعض الكتاب والفلاسفة إلى كتابة قصص يصورون فيها المجتمع المتكافىء الذى ينشدونه وكأن ذلك كان تعويضا لهم عما يفتقدونه ويعجزون عن تحقيقه فى عالم الواقع ... ولكن كانت تلك الكتابات على كل

---

(١) يوتوبيتا ومحاوره الراحة (٤٣-٤٤) ، نقلا من كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة (١٤٦-١٤٧) .

(٢) أى آراء توماس مور .

(٣) (١٤٧) .

(٤) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٣٩) .

حال تمهيدا لما ظهر بعد ذلك)[١].

ومن هؤلاء الإشتراكيين :

مورلى[٢]ونجد أنه قدم (فى كتابه "قانون الطبيعة" مشروعا كاملا للشيوعية مبرزا بصورة متقنة الأسس التى يقوم عليها المذهب الشيوعى ، ولكن أهمية الكتاب تتركز فى تأكيد تفوق الشيوعية على الفردية من الناحية الأخلاقية)[٣]. وقد اعتبر مورلى أن الملكية الفردية أفسدت الإنسان وسببت له الشقاء[٤].

واعتبر أن هذه الملكية السبب الحقيقى وراء الاجحاف والظلم وضمن كتابه النظام الإجتماعى القائم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج باسهاب وكانت هذه إحدى الدعوات التى انطلقت فى سبيل تحقيق الإشتراكية والمناداة بها .

ومن هؤلاء :

كامبانيلا[٥]من ايطاليا نادى بالأفكار الإشتراكية فى كتابه (مدينة الشمس) أوضح فيه النظام الاشتراكى لمدينته هذه وأصدر هذا الكتاب عام ١٦٢٣م وإن كانت مدينته مزيجا من جمهورية أفلاطون ، والمدينة الخيالية ، وكاثوليكية العهد الإقطاعى وجعل مدينته هذه قائمة على شيوعية الأموال

---

(١) الماركسية بين النظرية والتطبيق (١٨) .

(٢) فيلسوف فرنسى ، تأثر بالأفكار الإشتراكية الفابية ، من مؤلفاته قانون الطبيعة ، محاولة فى الذهن البشرى ، ولد عام ١٧٥٠م . موسوعة أعلام الفلسفة (٤٧٩/٢) رقم (١١٤٤) .

(٣) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٤٨) .

(٤) انظر دراسات فى الاقتصاد السياسى (١٣٨/١) ، وانظر الفكر الماركسى (١٧٨) .

(٥) فيلسوف ايطالى ، اتهم بالهرطقة وهرب إلى روما ، أمرت محكمة التفتيش بمصادرة كتاباته . من مؤلفاته ملكية المسيح ، الميتافيزيقا ، ولد عام ١٥٦٨م ومات عام ١٦٣٠م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٢٤١/٢-٢٤٢) رقم (٩٣٦) .

والنساء وإغفال الملكية الفردية والزواج[١].

ومن هؤلاء :

مابلى[٢]: و(جعل فكرة المساواة شغله الشاغل ، فصمم على ضرورة إيجاد نظام من المساواة الاقتصادية يعلو كافة النظم الاقتصادية السائدة وعلى الدولة ، بوصفها المالكة لعوامل الانتاج ، أن ترى مسألة التوزيع المتساوى بين المواطنين ، ولكن (مابلى) لايعرف شيئا عن الطريقة التى يحدث بهاالتغير فالثورة ـ فى رأيه ـ قد تكون ضرورية ، إلا أن عملية التغير الحتمى البطيئة (أو بمعنى أصح التطور الهادف) هو الوضع الأسلم)[٣].

ومن أصحاب الأفكار الإشتراكية :

جان جاك روسو (١٧١٢-١٨٧٨م) .

شنع روسو على الملكية الفردية كغيره من دعاة الإشتراكية ، ونادى بالمساواة والحرية ليزول القلق والازعاج الذى يعيشه الناس واعتبر الملكية الفردية من صنع الإنسان وفعله[٤]حيث (أعلن روسو أن الملكية الخاصة سرقة ولم يكن لها وجود فى حالة الطبيعة)[٥].

---

(١) انظر : الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٦١) ، دراسات فى الاقتصاد السياسى (١٣٨) الشيوعية فى موازين الإسلام (١٤) ، الفكر الماركسى (١١) ، الماركسية بين النظرية والتطبيق (١٩) .

(٢) مابلى : فيلسوف ومؤرخ فرنسى ، كان معاديا للملكية الفردية ، وكان يؤمن بالتسامح بين الأديان ، من مؤلفاته ملاحظات حول الرومان ، ملاحظات حول تاريخ فرنسا ، ولد عام ١٧٠٩م ومات عام ١٧٨٥م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٤١٢/٢-٤١٣) رقم (١٠٨١) .

(٣) النظم الاقتصادية المعاصرة (١٤٨) .

(٤) كذلك فكر ماركس مؤداه لذلك الأمر .

(٥) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٨٢) ، جورج سول ، ترجمة راشد البراوى ، وانظر الفكر الماركسى (١٧٨) .

ومن الحركات التى طالبت بتطبيق الإشتراكية والملكية الجماعية : حركة بابيف[١].

وهو مفكر إشتراكى ، ظهر فى أعقاب الثورة الفرنسية (آمن بالمساواة وتحمس لها أشد التحمس . ولما تبين له أن الثورة توقفت بعيدا عن تحقيق مثله العليا ، بل تراجعت ونكصت أمام الرجعية ، قرر مع جماعة صغيرة من أعوانه ، القيام بعمل حاسم وهذا هو سبب تأليفه كتابه المشهور (مؤامرة المتساوين) ، الذى دعا فيه ، بجرأة ، إلى الشيوعية الكاملة هدفا ، وإلى الثورة وسيلة)[٢].

وقد ركز كثيرا على قضية المساواة وقال : (لقد وهبت الطبيعة الناس جميعا حقوقا متساوية فى التمتع بكل الطيبات)[٣].

وقال : (نحن نطالب بحقنا فى أن نعيش ونموت كما ولدنا متساوين نحن نريد المساواة الحقيقية أو الموت . إن الثورة الفرنسية ليست إلا بشيرا بثورة أخرى أقوى تكون هى الثورة الأخيرة . إن الأرض ليست ملكا لأحد ، وإنما هى ملك للجميع)[٤].

وقام بابيف بمحاولة فرض دعوته هذه بالفعل فثار على النظام الذى يقتصر على فئة معينة من الناس فى حق الانتخاب وغيره ودبر المؤامرة

---

(١) فيلسوف فرنسى ، كانت له آراء إشتراكية ، أصدر هو وجماعة مجلة "منبر الشعب" فسجن لآرائه المتطرفة ، وعقب الافراج عنه أنشأ جمعية أسماها "جميعة الأكفاء" وحاول وأتباعه الإنقلاب على الحكم وإسقاطه ، فقبض على بابيف ، وحكم عليه بالإعدام . ولد عام ١٧٦٠م ، ومات عام ١٧٩٧م . انظر الدراسة عن بابيف فى كتاب الإشتراكية العربية (٨٢) ومابعدها .

(٢) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٥٨) .

(٣) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٨٣) .

(٤) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٥٨) .

للقضاء على الأنظمة التى كان يرى أنها تقف فى طريق تحقيق ماينادى به من إشتراكية . يقول جورج سول : (ويعتبر فرنسوا اميل بابيف ابن الثورة ونصير عهد الإرهاب وقد دبر مؤامرة لقلب حكومة الإدارة وإقامة مجتمع شيوعى "[١].

وقد سميت هذه المؤامرة بمؤامرة الاكتفاء ، او مؤامرة المتساوين لأنها كانت تهدف إلى المساواة بين الناس . وأصدر مجلة بعنوان منبر الشعب يعبر فيها عن آرائه ، غير أنه سجن وبعد خروجه من سجنه أعاد الكفاح وأسس جمعية اسماها (جمعية الأكفاء) وأعدت هذه الجمعية بيانا جاء فيه (إن الطبيعة منحت كل إنسان حقا متساويا فى التمتع بكل المنتجات ياأبناء فرنسا اعترفوا بجمهورية الأكفاء وأعلنوا معنا قيامها)[٢].

ونادت حركة بابيف بعدة أمور :

أولا : تأميم جميع المؤسسات والثروة .

ثانيا : إلغاء الميراث .

ثالثا : من لم يقم بعمل نافع يحرم من الحقوق السياسية .

رابعا : يكون الغذاء والكساء واحدا للجميع .

خامسا : يجب أخذ الأطفال من أهاليهم وتنشئتهم على أساليب المجتمع الجديد[٣].

وهذه الأمور التى نادت بها حركة بابيف نجد أن دعوة ماركس قد أخذتها ، وأضافت عليها ، مما يدل على أن ماركس قد تأثر بهولاء غاية التأثر وقد اعترف هو وانجلز والشيوعيون من بعد بأن الإشتراكية الطوباوية عموما قد أسهمت إسهاما كبيرا فى نضج الأفكار الماركسية .

---

(١) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٨٣) .

(٢) انظر الإشتراكية العربية (٨٣-٨٤) .

(٣) انظر المذاهب الإقتصادية الكبرى (٨٣) .

ثانيا : أساتذة ماركس (الطوباويون) :

كان لهولاء الإشتراكيين أثر كبير فى فكر ماركس ، وقد اعترف الشيوعيون بذلك ، وامتدحوا هؤلاء الطوباويين السابقين لماركس وهم شارل فورييه وسان سيمون ، روبرت أوين[١].

وكان اهتمام الشيوعيين بهم - كما يزعمون هم - لأنهم انتقدوا وبلا رحمة (مفاسد وعيوب المجتمع الرأسمالى ، ورسموا خططا جريئة لنظام إنسانى منسجم للمستقبل خال من الإستغلال والاضطهاد ، ولكن مهما كان عطفهم على العمال الفقراء والتعساء حتى ذلك الحين عظيما ، ومهما كان وصفهم لتوقان الشغيلة إلى مجتمع خال من الإستغلال صادقا فإن نظرياتهم كان يعوزها أساس علمى موضوعى . لقد كانوا يناشدون الحكام والملاك الشفقة والتفهم ، ولم يدركوا القوة لدى البروليتاريا نفسها . وبالتالى فإن تعاليمهم كانت مشربة بإنسانية عميقة ولكنها بقيت أفكاراً خيالية ، أحلاما مبنية على الرغبة بمجتمع إنسانى مثالى)[٢].

وقد استفاد مؤسسا الماركسية من هؤلاء فى بناء إشتراكيتهم باعترافهم .

يقول انجلز : (إن الاشتراكية النظرية لن تنسى قط أنها قامت على أكتاف سان سيمون وفورييه وأوين ثلاثة رجال رغم كل مفاهيمهم الخيالية وكل طوباويتهم يقفون بين أعظم المفكرين فى كل العصور والذين تنبأت عبقريتهم بالكثير مما نثبت نحن الآن صحته علميا)[٣].

ويقول : (كانت إشتراكية أوروبا الغربية أحد مصادر الماركسية الثلاثة انتقد الإشتراكيون الطوباويون كلود هنرى ، سان سيمون ، شارل فورييه فى فرنسا وروبرت أوين فى انجلترا فوضى الإنتاج التى كانت سائدة فى عهد الرأسمالية وكذلك تناقض الملكية الخاصة مع المصالح العامة وخضوع

---

(١) انظر سيرة حياة كارل ماركس (٣٨) ، مجموعة من المؤلفين السوفييت ١٩٧٨م ، دار الفارابى ، بيروت .

(٢) المرجع السابق (٣٨) .

(٣) حرب الفلاحين (٢٢) .

الجموع المشتغلة لسلطة رأس المال والنقود)[١].

ومع ذلك يرى مؤسسا الماركسية أن هؤلاء لم يتمكنوا (من إيجاد الطرق الصحيحة للإنتقال إلى المستقبل الجديد للمجتمع ، لانهم لم يفهموا الرسالة التاريخية للبروليتاريا ، لقد ارادوا الوصول إلى الإشتراكية بدون صراع طبقى وعن طريق العقل والمنطق وربطوا الانتقال إلى النظام الإجتماعى العادل فقط بتطور الوعى واعتبار الرأسمالية نظاما غير أخلاقى ولذا فقد وزعوا مؤلفاتهم على عظماء العالم . القياصرة وأصحاب البنوك وغيرهم ، محاولين إقناعهم باستخدام سلطاتهم ووسائلهم لإقامة مجتمع عادل كذلك الذى رسموه فى مؤلفاتهم وسعوا لتدعيم أفكارهم بالعمل عن طريق إقامة الكومونات[٢]التى أرادوا أن يروا فيها صورة مصغرة للمجتمع الآتى ، غير أن هذه البدايات لم تعط فى ظل الرأسمالية النتائج المرجوة منها)[٣].

وهذه لمحة عن أهم أفكارهم الإشتراكية .

أولا : سان سيمون[٤]:

كثيرا ماوجه سان سيمون إنتقاده للنظام الرأسمالى واحتل هذا الأمر مكانة خاصة فى مؤلفاته . واهتم بالعوامل الإقتصادية إهتماما كبيرا وكان يرى أن العصر الذهبى للمجتمع لم يأت بعد وإنما يتحقق فى المستقبل حيث إن الرأسمالية لاتحقق شيئا للجماهير ولاللعمال و(اعتبر عيبها الأساسى فوضى الإنتاج والتوزيع وكذلك التنافس وإفقار الجماهير الواسعة والوضع المزرى للعمال)[٥].

---

(١) نقلا من كتاب تاريخ النظريات الإقتصادية (١٤٠) ، وانظر المعجم (٤١-٤٢) .

(١) الكومونة من الكلمة اللاتينة (Communis) مشترك عام . انظر المعجم (٣٤٨) .

(٣) تاريخ النظريات الإقتصادية (١٤٠-١٤١) .

(٤) اشتراكى طوباوى فرنسى ترك ثروة أدبية غنية منها رسائل إلى المعاصرين ، الصناعة أو المناقشات السياسية والأخلاقية والفلسفة ـ حول النظام القيادى ـ تعاليم رجال الصناعة ـ المسيحية الجديدة ، ولد عام ١٧٦٠م ومات عام ١٨٢٥م . ولمزيد من المعلومات عنه وعن حركته انظر الإشتراكية العربية (٨٦) ومابعدها .

(٥) تاريخ النظريات الإقتصادية (١٤١) .

وطرح سان سيمون أنظمة جديدة تتفق مع أهداف المجتمع الجديد التى تختلف جذريا عن أهداف المجتمع القديم ، واعتبر أن أهم أهداف المجتمع الجديد إنتاج الأشياء الضرورية والمفيدة وعلق الآمال على أن تطور الإنتاج سيؤدى إلى الرفاه لجميع الناس مما سيسمح لهم بالإرتقاء فى تطورهم العقلى ولكن اعتبر سان سيمون أنه لاكتمال سعادة البشر وتأمين حاجاتهم الفيزيائية والروحية لابد من سيادة علاقات المودة المتبادلة بين البشر(١).

ودعا سان سيمون إلى القضاء على التنافر والصراع والحروب واعتقد أنه بهذا النظام الجديد يؤدى إلى قيام الملكية العامة للصناعة مع بقاء الملكية الخاصة لإدراك الاستهلاك ودعا إلى حصول كل فرد على الدخل الذى يتناسب مع مايؤدى من خدمات كما أنه فى ظل هذا النظام لامكان للخاملين أغنياء كانوا أم فقراء(٢).

وهذا هو مبدأ الشيوعية القائل من كل بحسب طاقته ولكل حسب عمله .

إن أثر سان سيمون فى الحركة الإشتراكية العالمية واضح بلاشك فقد كان رائدا حينما أكد أهمية العمل فى نمو الإنسان وتطوره وحينما جدب الاهتمام لمعالجة مايترتب على الملكية ، من فساد لاحد لها)(٣).

وبعد هذا العرض يمكن تلخيص الأسس التى قامت عليها فلسفة أتباع سان سيمون كما أوضحوها فى البيان فى ثلاث نقاط هى :

(أولا : يجب أن تتجه كل المذاهب والنظم الإجتماعية إلى تحقيق الرفاهية للطبقة الأكثر عددا والأشد فقرا .

ثانيا : يجب أن تزول جميع المزايا التى تؤول إلى الشخص عن طريق الوراثة دون أى إستثناء فى ذلك .

---

(١) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٤٢) .
(٢) انظر المذاهب الإقتصادية الكبرى (٨٤-٨٥) .
(٣) النظم الاقتصادية المعاصرة (٢٦١) .

ثالثا : يجب أن يجازى كل شخص وفقا لقدرته وأن تكافأ كل مقدرة تبعا لإنتاجها)[١].

وبالعموم فـ(إن سان سيمون وأتباعه كانوا أصحاب مذهب فكرى إشتراكى وليس هناك من ينكر أن المدرسة السان سيمونية قد أثرت فى أفكار الكثيرين ومنهم كارل ماركس نفسه الذى اتصل بهم وتعلم منهم الكثير أثناء اقامته فى باريس)[٢].

وقد أثنى ماركس على سان سيمون فى فكره ، لأنه اعتبر الإقتصاد طاغيا على السياسة ، وأن التحكم السياسى بالناس سيتحول إلى تحكم بالأشياء[٣]. وهذا يخدم فكرة ماركس التى تقوم على أن العامل الإقتصادى يتحكم بكل شئون الحياة .

ثانيا : شارل فوريه (١٧٧٢-١٨٣٧م)[٤]

قام فكر فورييه على نقد الرأسمالية وصب جام غضبه عليها . وألمح إلى مسألة استغلال الرأسمالى فى القيمة التى تؤخذ دون مقابل .

و(كان محور اهتمام فورييه منصبا على وضع الشعب الكادح الذى كان على حد قوله عبدا للأغنياء مادام سائدا نظام الحضارة وأشار بامتعاض أنه فى ظروف الرأسمالية ينظرون إلى الفقراء وكأنهم حيوانات مسخرة لتحمل كافة الاهانات ...) .

---

(١) نقلا من كتاب الإشتراكية العربية (٨٩) .

(٢) الإشتراكية العربية (٩٠) .

(٣) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٣٠/١) .

(٤) فيلسوف فرنسى درس الفيزياء والفلك ، وفلسفة قدماء الاغريق ، انتقد الرأسمالية بعنف . من مؤلفاته الرابطة الزراعية والمنزلية ، الحركات الأربع والمصير المشترك . ولد عام ١٧٧٢م ومات عام ١٨٣٧م .
انظر : تاريخ النظريات الإقتصادية (١٤٣) ، إصلاح إجتماعى أم ثورة (٩٧-٩٨) روزا لوكسمبورغ ، دار دمشق للطباعة والنشر ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها

و(تصور فوريه المجتمع عادلا منسجما مكونا من روابط قائمة دون إكراه على أساس التحقيق الواسع لمتطلبات كافة الناس ويعتقد أن الانسجام الاجتماعى يؤدى إلى إقامة (وحدة شاملة) على الأرض وإلغاء الحروب والظلم والفقر وافترض فوريه أنه سيتم فى المستقبل اندماج كافة الطبقات وسيقوم مجتمع لاطبقى على أساس احترام الانسان ...)[١].

وقد لقيت أفكار فوريه تقديرا بالغا من ماركس وانجلز وأثرت على الفكر الإقتصادى والإجتماعى فى فرنسا وانجلترا والمانيا وايطاليا[٢].

واستفاد منها ماركس حتى غدت الإشتراكية الفرنسية من الخطوات الأولى فى تحول ماركس إلى الشيوعية[٣].

ثالثا : روبرت أوين[٤]:

كانت حياة أوين الخاصة ممهدة لظهور الفكر الاشتراكى من قبله . (فقد كان يملك مصنعا كبيرا للنسيج فى اسكتلنده ، يعمل فيه أكثر من خمسمائة عامل وجمع فى شبابه ثروة مكنته من أن يكون ضمن أثرياء مجتمعه . إلا أن روحه الاجتماعية الإنسانية ونظرته الواقعية إلى الأمور دفعته إلى فقد النظام الرأسمالى ، وماترتب عليه من مساوىء ، وإلى المطالبة بتغييره تغييرا عميقا ، وفى سبيل تحقيق هذا الهدف كرس جانبا كبيرا من جهده وماله للدعاية لأفكاره ففى ثلاثة عشر عاما ألقى ألف محاضرة ، ووجه خمسمائة نداء ، وكتب ألفى مقالة وأسس إحدى عشرة جريدة وكان يجوب المدن الصناعية يتحدث ويخطب ويناقش مدافعا بحماس مستمر ، عن

---

(١) تاريخ النظريات الإقتصادية (١٤٤-١٤٥) .

(٢) المرجع السابق (١٤٦) .

(٣) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٣٠/١) .

(٤) إشتراكى طوباوى ، ولد فى ويلز ، لقب بأب الإشتراكية البريطانية ، وانتقد المذهب الرأسمالى بشدة ، له عدة مؤلفات منها : حول تغيير الطابع البشرى ، ملاحظات حول تأثير النظام الصناعى . ولد عام ١٧٧١م ، ومات عام ١٨٥٨م .
انظر : تاريخ النظريات الإقتصادية (١٤٧) ، الإشتراكية العربية (٩٤) ومابعدها .

مفهوم مجتمعه)[١].

وقد عامل العمال فى مصنعه معاملة حسنة واعتبر أن الاهتمام بهم مقدم على الألات .

حيث لاحظ أن العمال من أسوأ الناس حالا رغم عملهم إلى درجة الإعياء فساءه ذلك فقام بخفض الساعات للعمل وزاد الأجور وبنى بيوتا نموذجية وأدخل التعليم المجانى والحق جميع الأطفال بالمدارس دون سن العاشرة والذين لاحاجة إليهم فى الخدمة ، ووفر الغذاء والملبس بأثمان مخفضة كما ألغى نظام فرض الغرامات على من أفسد العمل[٢].

ويرى أنه لابد من تحقيق السعادة وأن الفرد لابد أن يتيح الفرصة أمام الآخرين ليكونوا سعداء فلابد من المشاركة ، فيقول : (إن الغرض الأساسى من الوجود هو أن تكون سعيدا ولكن السعادة لاتتحقق بشكل فردى ولافائدة من توقع سعادة منعزلة عن المجتمع فالكل يجب أن يشارك فيها وعلى ذلك فإن الإنسان لايستطيع أن يكون له سوى اهتمام واحد حقيقى وجوهرى وهو إتاحة الفرصة أمام كل فرد من الجنس البشرى على أن يكون سعيدا ، بقدر مايسمح به التكوين الأصلى لطبيعته)[٣].

ويقول : (إن الطبيعة خيرة فى حد ذاتها ، بيد أن المجتمع سىء وأنانى ... والشر يكمن فى المؤسسات الاجتماعية التى أنشأها الإنسان لافى الانسان نفسه . ومن هنا فاذا أردنا تطوير الوجود الإنسانى والارتقاء به فعلينا بتعديل هذه المنشآت الإنسانية وتلك البيئة التى يعيش فيها الإنسان وصحيح أن المجتمع الرأسمالى سىء التكوين ويرتكز على أسس مجافية للعقل ومنافية لقوانين الطبيعة ، إلا أن أمره يصبح سهلا هينا لمهندس ماهر ، يستطيع بناءه وفقا لخطة يجلها العقل وتستمد منهجها من الطبيعة المليئة بالخير) .

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٦١-٢٦٢) .

(٢) انظر المذاهب الإقتصادية الكبرى (٨٩-٩٢) ، وذكر أن عدد عمال المصنع يبلغ قرابة الألفين .

(٣) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٦٢) .

ويقول : (لقد منحتنا الطبيعة التربة الصالحة القادرة على أن توفر لنا كل مانحتاجه ، ولكننا بجهلنا زرعنا الشوك بدلا من الكروم) وهنا نجد أوين كأغلب الإشتراكيين الخياليين ، فى فرنسا وانجلترا يبنى نظريته على أخلاقيات ميتافيزيقية)[١].

ويرى أوين أن العمل من أهم مايدفع روح الشيوعية ويعتبره مصدر الثروات المادية والروحية حيث (سيصبح واجبا حتميا على كل فرد سليم الجسم ويجب أن يعمل فى هذا المجتمع مبدأ : من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله واعتبر أوين أنه من الضرورى تنظيم العمل بحيث تتعاقب أعمال الزراعة والصناعة وأما تربية الجيل الجديد فكانت تفترض نشاطا متعدد الجوانب للشبيبة واعتقد أنه من الضرورى تربية أعضاء المجتمع الجديد فى روح الشيوعية)[٢].

ويمقت أوين النظم الإقتصادية القائمة على الحرية والمنافسة ويعتبرها سبب الشقاء بيد أصحاب رؤوس الأموال وزيادة فى بؤس العمال ، جاء فى كتاب الإشتراكية العربية للجمل : (والفكرة الأساسية الأولى لدى روبرت أوين هى مقته الشديد للنظم الإقتصادية القائمة على مبدأ الحرية والمنافسة . وفى هذا يقف أوين على النقيض من الإقتصاديين الكلاسيكيين الذين كانوا يؤمنون بتلقائية القوانين الإقتصادية ويدعون إلى عدم تدخل الدولة اطلاقا وإلى ترك الحياة الإقتصادية حرة من كل قيد وكانوا يؤمنون فى نفس الوقت بأن المنافسة بين المشروعات هى سبيل تحقيق الصالح العام .

وقد رفض روبرت أوين ذلك كله رفضا شديدا فهو لم يكن يؤمن بالحرية الإقتصادية المدعاة وكان يدعو إلى ضرورة تنظيم هذه الحياة الإقتصادية على أسس تغاير الفكر التقليدى تمام المغايرة وكان يحمل المنافسة بين أصحاب رؤوس الأموال وزاد شقاء العمال وبؤسهم . يقول أوين معلقا

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٦٢-٢٦٣) .

(٢) تاريخ النظريات الإقتصادية (١٤٨-١٤٩) .

على مبدأ الحرية الإقتصادية (إن المبدأ الذى يدعو إليه هؤلاء الإقتصاديون بدلا من أن يؤدى إلى زيادة الثروة كان هو نفسه السبب الوحيد للفقر)[١].

وروبرت أوين كغيره من الإشتراكيين يرى أن المصائب إنما تقع بسبب الرأسمالية ووجود الملكية الخاصة وقال عنها : (إنها نظام غير عقلانى وفوضوى ومتناقض ... واعتبر أسوأ ظواهر الرأسمالية مثلث المصائب الملكية الخاصة ، الدين ، والزواج على أساس الملكية .

وكانت الملكية الخاصة ولاتزال سببا فى الجرائم العديدة والفقر الذى يعانيه الإنسان ... إنها تحمل أضرارا لاتحصى للطبقات الدنيا والوسطى والعليا)[٢].

ويقول انجلز عنه (لقد كان يتراء له أن ثمة ثلاث عقبات كبرى تسد - بالخاصة - الطريق إلى الإصلاح الإجتماعى ، ألا وهى الملكيةالخاصة ، والدين ، وشكل الزواج الحاضر)[٣].

وقد تميزت الإشتراكية الطوباوية فى انجلترا بعدة خصائص عنها فى فرنسا ومن ذلك نفيها الملكية الخاصة فى كافة أشكالها .

ولم يكن لها إنحناء سان سيمون أمام مجتمع رجال الصناعة أو مبالغة فورييه فى تقدير دور التجارة الرأسمالية ، وقد ميز ماركس أوين عن بقية الاشتراكيين الطوباويين بأنه كان يتميز بالنظرة التاريخية إلى الإنتاج الرأسمالى وأنه اعتبر تطور رأس المال شرطا لازما لتحويل المجتمع إلى روح شيوعية[٤].

ولم تكن الإشتراكية الطوباوية لترضى الشيوعيين لأنها تختلف فى بعض مبادئها عن فكرهم ولأجل هذا وجهوا لها النقد ، يقول لينين : (الإشتراكية الطوبوية لم تكن بقادرة على الإشارة إلى مخرج حقيقى .

---

(١) نقلا من كتاب الإشتراكية العربية (٩٥-٩٦) .

(٢) تاريخ النظريات الإقتصادية (١٤٧) .

(٣) انتى دوهرنغ (٣١٦) ، ترجمة فؤاد أيوب ، الطبعة الخامسة ١٩٨١م ، دار دمشق للطباعة والنشر .

(٤) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٤٧) .

ولم تكن لتعرف كيف تفسر طبيعة العبودية المأجورة فى ظل النظام الرأسمالى ، ولاكيف تكتشف قوانين تطور الرأسمالية ولاكيف تجد القوة الإجتماعية القادرة على أن تصير خالقه المجتمع الجديد)[١].

---

(١) مصادر الماركسية الثلاثة (٨-٩) ، وانظر نفس كلامه بشىء من التغيير فى الألفاظ فى كتاب تاريخ النظريات الإقتصادية (١٥١) .

المبحث الخامس
المرحلة الخامسة : ماركس

إن اعتبار ماركس مرحلة مستقلة من مراحل الشيوعية لاغرابة فيه بل إنى أعتبره أهم المراحل وأخطرها حيث أخذ من الأفكار السابقة عليه ، كما أخذ من جاء بعده من فكره وإن كانوا فى بعض الأحيان اختلفوا معه . ولعل من أهم مايميز هذه المرحلة هى أن ذلك الفكر اتخذ تنظيما وتنظيرا لم يكن موجودا من قبل إضافة إلى استغلاله من قبل اليهود لتحقيق أهدافهم ومخططاتهم ، وزعموا أنها شيوعية علمية لقيامها على قواعد ونظريات فلسفية وبالغ الإشتراكيون فى تقديس ماركس وأفكاره واعتبروه هو وصاحبه من تقدم بالفكر الإشتراكى خطوات كبيرة إلى الأمام .

وسيأتى الحديث عن ماركس وأفكاره تفصيلا ان شاء الله تعالى[١].

---

(١) الفصل الثالث من الباب الأول .

المبحث السادس
المرحلة السادسة : الشيوعيون بعد ماركس

إن المبادىء التى قامت عليها الشيوعية ونادت بها لقيت لدى أتباع ماركس قبولا غير أن بعض دعاة الإشتراكية ، اعتبروا العنف والثورة وتحكم البروليتاريا وغيرها من المبادىء التى نادى بها ماركس وصاحبه لاتؤدى إلى نتيجة إيجابية فى تحقيق الإشتراكية ، ومن هنا فسوف نتناول الحديث فى هذه الفترة عن إتجاهين مخالفين لماركس وإن كانا يرميان فى النهاية إلى تحقيق الشيوعية ، ولكن بغير طريق ماركس :

الأول : (التيار الاصلاحى)[١](المنقحون)[٢](التصحيحيون)[٣].

الثانى : الإشتراكيون الفابيون .

أولا : التيار الاصلاحى :

تعريفه : يعرفه الشيوعيون بالآتى : (تيار سياسى داخل الحركة العمالية ينكر ضرورة الصراع الطبقى والثورة السياسية . والسلطة السياسية للطبقة العاملة وينادى بتعاون الطبقات ويسعى إلى تحويل الرأسمالية إلى مجتمع الرخاء العام عن طريق سلسلة من الإصلاحات المطبقة فى إطار الشرعية البرجوازية)[٤].

ويبدأ تاريخ النزعة الإصلاحية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومن أشهر الشخصيات الإشتراكية التى قامت بهذه الإصلاحات إدوارد برنشتين[٥]ودعت الحركة الإصلاحية إلى إعادة النظر فى المبادىء والأسس التى

---

(١) كما فى المعجم (٤٧) .

(٢) كما ورد فى بعض الكتب مثل الإشتراكية العربية (١٤٥) .

(٣) كما فى كتاب الماركسيات بعد ماركس (٢٠) بيار فافر ، ترجمة انطوان نجيم ، المنشورات العربية ١٩٨١م دون ذكر لرقم الطبعة .

(٤) المعجم (الشيوعية العالمية) (٤٧) .

(٥) اشتراكى ألمانى ، تأثر بفكر الأستاذ دوهرنج ، إلى أن ظهر كتاب انجلز ضد دوهرنغ ، وانحاز إلى الفلسفة الماركسية ، وظل مؤمنا بها إلى أن نفى إلى لندن =

قامت عليها الماركسية .

وألف برنشتين كتابا أودع فيه أفكاره التى دعا بها لتنقيح الماركسية وكان عنوان الكتاب (الاشتراكية التطورية)[١].

وشكلت هذه الأفكار حربا ضد الشيوعية حربا على مبادئها بل إن الاصلاحية تعتبر مذهبا قائما على معارضة الشيوعية العلمية والماركسية اللينينية[٢].

وكان برنشتاين مؤمنا بالماركسية (إلى أن نفى من المانيا واستقر به المقام فى لندن من سنة ١٨٨٨م إلى سنة ١٩٠١م وهناك احتك بالحركة العمالية التى كانت مازالت فى أوائل أطوارها واتصل بالمفكرين الفابيين وشاهد النظام الرأسمالى والتطورات التى تحدث بداخله فى أقدم البلاد الصناعية الرأسمالية ونتيجة لذلك كله بدأ برنشتين طورا فكريا جديدا . وهذا الطور الفكرى الجديد هو الذى دعا فيه برنشتين إلى ضرورة إعادة النظر فى المبادىء والأسس التقليدية للماركسية ، تمهيدا لتنقيحها ومن هنا سمى برنشتين ومن نحا نحوه باسم (المنقحين"[٣].

وكانت الدعوة الإصلاحية ترمى إلى الوصول إلى تحقيق العدل والمساواة دون الثورة ومع الإبقاء على الملكية الخاصة وقد حظيت هذه الدعوة بالقبول لدى العمال فى كثير من البلدان (باعتراف أصحاب الشيوعية العلمية المعادية لدعاة الإصلاح حيث قالوا (لايجوز الإنكار بأن الأحزاب السياسية الإصلاحية والنقابات الإصلاحية قد لعبت دورا فى النضال من أجل تحسين حياة الطبقة العاملة وانها تحظى بتأييد الشغيلة فى العديد من البلدان)[٤].

= من سنة ١٨٨٨-١٩٠١م واحتك بالحركة العمالية هناك ودعا إلى إعادة النظر فى أفكار ماركس ، وعمل محررا لجريدة "الإشتراكى الديمقراطى" .
انظر : الإشتراكية العربية (١٤٦-١٤٧) ، إصلاح إجتماعى أم ثورة (٩٧) .

(١) انظر الإشتراكية العربية (١٤٧) .
(٢) المعجم (٤٨) .
(٣) الإشتراكية العربية (١٤٦) .
(٤) المعجم (٤٨) .

وكان هؤلاء المنقحون قد خالفوا الماركسية فى جوهرها فلايمكن اعتبارهم ماركسيون بكل ماتعنيه هذه الكلمة ومن الخطا (أن يقال أنه كان منقحا للفكر الماركسى مع الإبقاء عليه فى جوهره فقد انتهى برنشتين إلى مخالفة الفكر الماركسى فى نقطة البدء المادية الجدلية وانتهى الى مخالفته فى كثير من أهم التحليلات التى قامت عليها النظرية الماركسية)[١]. هذه الفئة الأولى من الإشتراكيين بعد ماركس .

أما الفئة الثانية : فهم أصحاب الإشتراكية الفابية[٢].

ويرجع تأسيس الجمعية الفابية إلى أواخر سنة ١٨٨٣م وأوائل سنة ١٨٨٤م وقد أسسها عدد غير قليل من المثقفين البريطانيين الذين ينتمون فى غالبيتهم إلى الطبقة المتوسطة وبعد إجتماعات غير كثيرة قررت هذه الجمعية فى ٤ يناير ١٨٨٤م أن يكون اسم جمعيتهم الجمعية الفابية .

ويمكننا أن نضع الخطوط العريضة للحركة الفابية ونتبين من خلالها مفارقتها عن الماركسية فى مبادئها .

---

(١) الإشتراكية العربية (١٥١) .

(٢) والفابية (نسبة إلى القائد الرومانى "فابيوس" الذى كان يؤمن بنوع من التكتيك الحربى الذى يعتمد على المعارك الصغيرة المتتالية وينفر من دخول معركة واحدة حاسمة بدعوى أنه بتلك المعارك الصغيرة المتتالية يمكن إرهاق الخصم ثم دحره فى النهاية)
الإشتراكية العربية (١٥٢) ، وانظر : التضليل الإشتراكى (١٩) ، د. صلاح المنجد ، الطبعة الأولى ١٩٦٥م ، دار الكتاب الجديد ، إفلاس الأممية الثانية (٨٤) ، لينين دار التقدم ، موسكو ١٩٧٠م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

الخطوط العريضة فى مبادىء الإشتراكية الفابية :

أولا : يتقدم المجتمع بخطى ثابتة عن طريق التغيرات البطيئة فى وظائفه وتكوينه أكثر من تقدمه بالوثبات الثورية . وكل إصلاح يوسع نطاق الملكية العامة أو الإشراف العام يعتبر تطبيقا للإشتراكية ، وبذلك يمكن الوصول إلى الدولة الإشتراكية بالتدرج فالتغير التدريجى هو ضرورة وأساس.

ثانيا : الفابية خصم للإنقلاب والتمرد والعصيان .

ثالثا : تنكر الفابية تأميم الأرض وتعتبره سرقة .

رابعا : تسعى الفابية إلى توحيد المجتمع فى طبقة واحدة . وإخفاء تنوع الطبقات بالتحول التدريجى إلى الديمقراطية الإشتراكية ويتم ذلك على دفعات .

خامسا : تختلف الفابية عن الماركسية فى فائض القيمة . فالماركسية ترى أن العمال هم الذين يقدمونه . أما الفابيون فيرون أن كل دخل يحصل عليه مالك الأرض أو صاحب العمل إنما هو من الإيجار الذى يحصلان عليه من ملكيتهما لوسائل الإنتاج .

سادسا : لايوجد فاصل واضح بين المجتمع الرأسمالى والمجتمع الإشتراكى عند الفابيين وبالإمكان أن يتحول أحدهما إلى الآخر خطوة خطوة عن طريق الإجراءات التشريعية بينما الماركسية ترى وجوب إحلال الإشتراكية بسرعة محل الرأسمالية ولو انحدر المجتمع إلى الهاوية .

سابعا : تحويل الملكيات إلى ملكية الدولة بالطرق السلمية لدى الفابيين بعكس الماركسيين .

ثامنا : الدولة عند الفابيين قوة محايدة ليست أداة فى يد طبقة معينة للتسلط والتحكم .

تاسعا : الفابية ترى الاهتمام بالإصلاح الداخلى قبل النظر إلى الخارج قبل اتجاه الثورات إلى الخارج . أما الماركسية فلا والأمثلة على ذلك كثيرة (عدن ، مصر)[١].

وبهذا نرى أن الفابيين يقتربون من أفكار المصلحين أو المنقحين بقيادة برنشتين ، ولعل هذا التفكير الفابى (جاء فى وقته كرد فعل على محاولة الماركسية إقامة نظرية شمولية ثورية من ناحية ، كما جاء من ناحية أخرى متسقا مع تقاليد الديمقراطية البرلمانية التى كانت أسسها قد بدات تضرب بجذورها فى دول أوروبا الغربية فى تلك المرحلة من الزمان)[٢].

إضافة إلى ذلك فالفابية تعتبر (نتاج طبيعى للمجتمع البريطانى الذى ينفر من التجريد والتنظير الشامل ويتجه أساسا إلى الواقع يستوحيه حلول المشاكل فى غير تعلق بالهياكل النظرية)[٣].

ولأجل ذلك إعتبرها لينين (ينبوع من ينابيع عقلية العماليين البريطانيين)[٤].

---

(١) انظر الحقيقة الكاملة (٢٥-٢٧) ورجع فى ذلك لكتاب برنارد شو (مقالات فى الاشتراكية الفابية) ، وانظر أيضا : الإشتراكية العربية الجمل (١٥٤-١٥٦) ، التضليل الاشتراكى (١٩-٢٣) .

(٢) الإشتراكية العربية (١٥٨) .

(٣) المرجع السابق (١٥٣) .

(٤) إفلاس الأممية الثانية (٨٤) .

الفصل الثانى
الأهداف والمبادىء الأساسية للشيوعية

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد .

المبحث الأول : القضاء على الملكية الفردية .

المبحث الثانى : إلغاء الطبقات وإقامة طبقة البروليتاريا .

المبحث الثالث : كفالة الدولة لجميع المواطنين .

المبحث الرابع : المساواة فى الأجور .

المبحث الخامس : مبدأ من كل حسب كفاءته ولكل حسب عمله .

المبحث السادس : مبدأ من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته

المبحث السابع : إلغاء الدين .

المبحث الثامن : تأميم وسائل الإنتاج .

المبحث التاسع : الأممية .

المبحث العاشر : إلغاء الدولة .

الفصل الثانى
الأهداف والمبادىء الأساسية للشيوعية[١]

إن لكل أمة من أمم الأرض عقيدة تؤمن بها ، وتجعلها قاعدة لأفكارها ومبادئها ، وعلى ضوء العقيدة تحل مشكلات الأمة وقضاياها ، ومنها تستمد أنظمتها وقوانينها . فكل نظام له عقيدته التى تميزه عن غيره وهذه العقيدة هى التى تتحكم فى حياة الأمة فإذا صلحت العقيدة صلح النظام وإذا فسدت فالنظام من باب أولى لأنه صادر ومنبثق عنها ، ولاشك أن أصحاب كل فكر ومذهب يجعلون لهم مبادىء يرغبون تحقيقها ، ويجعلون لها قوانين وأنظمة ، ويعتبرونها دينا لهم أو عقيدة يدافعون عنها ، ويقيمون الحجج على صلاحها . ومامن نظام أرضى إلا وقد ابتدع أصحابه له أفكارا تشكل المنطلق الأساسى لذلك المذهب أو تلك الدعوة. ثم تكون بعد ذلك الأنظمة المندرجة تحت تلك الأصول والقواعد الأساسية التى يعتبرها أصحابها عقيدة ينضوون تحت لوائها غير أن العقيدة إذا كانت (فاسدة أو خاطئة فإن ماانبثق عنها من أنظمة ومابنى عليها من أفكار تكون فاسدة وخاطئة لأن ماقام على الفاسد فاسد)[٢].

ومن الأنظمة الأرضية المبتدعة النظام الشيوعى الذى قام على عقيدة إلحادية للقضاء على الدين الصحيح ومحاربته ، ففساد الفكر الشيوعى ظاهر

---

(١) الشيوعية : يعرفها انجلز بقوله (مجموعة التعاليم حول ظروف تحرير البروليتاريا) . تعاليم الماركسية (١١) .
وعلى هذا فإن الشيوعية تعنى تطبيق المبادىء الأساسية التى تقوم عليها الشيوعية من أجل الإبقاء على طبقة واحدة هى طبقة العمال .
والماركسية كما يعرفها لينين هى : (منهج أفكار ماركس ومذهبه) . مصادر الماركسية (١٩) . وعلى هذا فإن الماركسية والشيوعية مترادفتان ، والإشتراكية مرحلة سابقة على الشيوعية .

(٢) حكم الإسلام فى الإشتراكية (٣٤) ، عبد العزيز البدرى ، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة .

بين ، فلاغرو بعد ذلك أن ظهرت مبادئها وأنظمتها فاسدة لأن فساد الأصل لاينتج إلا فرعا فاسدا ، ففسدت الأنظمة لفساد مابنيت عليه . والنظرية الشيوعية كغيرها من النظريات جعل له أصحابها عدة مبادىء تقوم عليها ويمكن تلخيصها فى الآتى :

علما بأن بعض النصوص الواردة معنا هنا قد أثبت بعضها دون الآخر والعكس صحيح . فانجلز يحددها فى رسالة بعث بها إلى لجنة التراسل الشيوعى ببروكسل فى ٢٣ تشرين الأول ١٨٤٦م :

(١ ـ إعلاء شأن مصالح البروليتاريين فى مواجهة مصالح البورجواريين .

(٢ ـ الوصول إلى ذلك عن طريق إلغاء الملكية الخاصة واستبدالها بمشاع الأملاك .

(٣ ـ عدم الاعتراف بأى وسيلة أخرى لتحقيق هذه الأهداف غير الثورة الديمقراطية بواسطة العنف)[١].

ونجد الكاتب الشيوعى جيرفوف يقول :

(ولو اخذنا باعتبارنا الخصال الرئيسية للإشتراكية التى تم بناؤها لوجدنا أن كل بلد إشتراكى يتسم بما يلى :

(١) كون السلطة فى يد الشغيلة مع اضطلاع الطبقة العاملة بالدور الطليعى .

(٢) عملية التطور الإجتماعى توجه من قبل حزب ماركسى ، لينينى .

(٣) وسائل الإنتاج ملك للمجتمع .

(٤) وعلى أساس هذه الملكية يتم تطوير الإقتصاد الوطنى تطويرا مخططا يعتمد على المستويات التقنية وفى صالح رفاه الشعب .

(٥) تحقيق مبدأ (من كل حسب طاقته ، ولكل حسب عمله) .

---

(١) مراسلات ماركس انجلز (١٦) ، ترجمة جورج طرابيشى ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .

(٦) تربية الشعب بروح أيديولوجية الشيوعية العالمية وروح الصداقة مع شعوب البلدان الشقيقة وشغيلة العالم كله .

(٧) سياسة خارجية قائمة على مبادىء الأممية الإشتراكية البروليتارية)[١].

وعلى هذا يمكن القول بأن مبادىء الشيوعية الأساسية هى :

(١) القضاء على الملكية الفردية .

(٢) القضاء على الطبقات وإقامة دكتاتورية البروليتاريا .

(٣) كفالة الدولة لجميع المواطنين فى مقابل مايقدمون من عمل .

(٤) المساواة فى الأجور بين العمال .

(٥) القضاء على الدين ونشر الإلحاد .

(٦) تطبيق مبدأ من كل بحسب طاقته ولكل حسب عمله .

(٧) تطبيق مبدأ من كل بحسب طاقته ولكل حسب حاجته .

(٨) تأميم وسائل الإنتاج .

(٩) الدعوة إلى الأممية .

(١٠) إلغاء الدولة (الحكومة)[٢].

ونتناول هذه المبادىء بالتفصيل وسيكون طرحها عاريا عن المناقشة تاركين ذلك إلى وقته ، وإن كانت بعض المبادىء أحلاما حاول أصحابها تحقيقها ولكنهم فشلوا .

وسيكون التركيز على أقوال الماركسيين وكتبهم حتى نعلم بأن هذه المبادىء قد وردت عنهم وأجلبوا عليها بخيلهم ورجلهم ، من أجل تحقيقها ونشرها فى المجتمعات .

---

(١) خرافة الإشتراكية الجيدة والإشتراكية الرديئة (٦٧) .

(٢) انظر : مذاهب فكرية معاصرة (٤١٤) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠١-٢٠٢) حكم الإسلام فى الإشتراكية (٥٨-٥٩) ، إفلاس الماركسية (١٤) ، الماركسية بين النظرية والتطبيق (١٩) ، هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٢٠) ، نظرات فى الإشتراكية الثورية (٢٩-٣٠)

المبحث الأول
القضاء على الملكية الفردية

تنظر الشيوعية للملكية الفردية على أنها سبب الشرور والظلم الذى تتعرض له الشعوب ، كما أنها سبب الأحقاد ، وإيجاد الاضطرابات فى المجتمع البشرى ، فاذا أرادت البشرية أن تعيش فى مأمن من تلك الصراعات والاضطرابات فيتعين عليها التخلص من الملكية الخاصة وجعل وسائل الإنتاج فى ملكية إجتماعية لكى تنتزع الملكية من مغتصبيها ، وقد أكثر الشيوعيون من الحديث عن الملكية ، وماتسببه من صراع ، واعتبروا القضاء عليها من أصول نظريتهم فجاء فى البيان الشيوعى : (باستطاعة الشيوعيين أن يلخصوا نظريتهم بهذا الصدد فى هذه الصيغة الوحيدة وهى القضاء على الملكية الخاصة)(١).

ويقول لينين : (ينبغى إلغاء الملكية الخاصة بوجه عام ، أى أنه ينبغى ألا يعود حق الملكية على جميع الأراضى إلا للشعب بأسره والمؤسسات الديمقراطية المحلية هى التى ستتصرف بالأرض)(٢).

رأى ماركس فى تطور الملكية :

يرى أنها تتطور حسب العلاقات التى توجد فى كل مجتمع فهى متطورة حسب تطور المجتمع .

يقول ماركس : (فى كل مرحلة تاريخية تطورت الملكية تطورا مختلفا وفى مجموعة من العلاقات الإجتماعية المختلفة إختلافا كليا)(٣).

---

(١) البيان الشيوعى (٥٦) .

(٢) التحالف بين العمال والفلاحين (٢٥١) ، دار التقدم ، موسكو ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) بؤس الفلسفة (١٤٦) ، نقله إلى العربية حنا عبود ، دار دمشق للطباعة والنشر ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

إن الشيوعيين ينظرون للملكية الخاصة على أنها مجرد ورث من المجتمعات السابقة كالإقطاعية والرأسمالية حيث كانت الظروف تساعد على قيامها بالإضافة إلى الثقافة التى ساعدت على انتشارها فى ذلك الوقت . أما الأصل الذى كانت عليه حياة الإنسان السابق لهذه الأنظمة فهى الملكية الجماعية ويستدلون على هذا الزعم بالشيوعية الأولى (الشيوعية البدائية) التى تعتبر المرحلة الأولى من تاريخ الإنسانية وعلى هذا فالملكية الخاصة ليست فطرية فى الإنسان وإنما مكتسبة بتغير الأحوال والظروف التى كانت عليها المجتمعات الأولى . إذا لابد من إعادة الحالة الأولى التى كانت عليها الإنسانية ـ حيث لاصراع ولاأحقاد ـ وذلك بجعل الملكية ملكية جماعية وتكون فى يد الدولة التى تكون طبقة البروليتاريا هى المسيطرة فيها . ووضع الشيوعيون عدة تدابير ونقاط أرادوا من البروليتاريا إستغلالها فى ضرب الملكية الفردية والقضاء عليها .

يقول فردريك انجلز : (لاجدوى من الديمقراطية بالنسبة للبروليتاريا إلا إذا استخدمتها فورا لاتخاذ إجراءات تسدد ضربات مباشرة للملكية الفردية وتكفل ضمان وجود واستمرار البروليتاريا وأهم هذه الإجراءات كما تظهر كنتيجة حتمية للوضع مايلى :

(١) تقليص الملكية الفردية بواسطة ضريبة الدخل التصاعدية وفرض الضرائب المرتفعة على الإرث وإلغاء حق الوراثة غير المستقيم الأخ وأبناء الأخ الأخت وأبناء الأخت ...الخ .

(٢) مصادرة أملاك الملاك العقاريين والصناعيين وأصحاب سكك الحديد وأصحاب مصانع الأسلحة والذخيرة إما بواسطة منافسة صناعة الدولة لهم ، وإما بالمصادرة المباشرة لقاء تعويضات .

(٣) مصادرة أملاك جميع المهاجرين وأعداء الشعب .

(٤) تنظيم العمل وتشغيل العمال على أراضى الدولة وفى المصانع والمشاغل الوطنية بعد إلغاء المنافسة بينهم وإجبار من تبقى من الرأسماليين على دفع الأجر المرتفع المساوى لما تدفعه الدولة .

(٥) إلـزامية العمل لجميع أفراد المجتمع الى حين القضاء نهـائيا على الملكية الفردية . إنشاء الجيوش الصناعية وبخاصة بالنسبة للزراعة.

(٦) احتكـار الدولة لنظام النقـد والتسليف عن طريق إنشـاء مصرف وطنى برأس مال تقدمه الدولة بعد إلغاء كل المصارف الخاصة .

(٧) زيادة عـدد المصانع الوطنيـة والمشاغل وسكك الحديد والنقـل البحرى واستصلاح الأراضـى وتحسين الأراضـى المزروعة بالقـدر الذى يسمح فيه تراكم رؤوس الأموال ونمو القوى العاملة فى الأمة .

(٨) تعليم جميع الأطفال فى المؤسسات الوطنية على حساب الأمة حالما يمكن انتزاعهم من أحضان أمهاتهم (التعليم والصناعة) .

(٩) بناء القصور الضخمة على الأملاك العامة لاسكان المواطنين العاملين فى الصنـاعة والزراعة ، بحيث يجمع نمط حياتهم أفضل مـافى حياة المدينة والريف ، ويتخلص من كل سيئات هذه وذاك .

(١٠) تهديم كل المساكن والأحياء التى لاتتوافر فيها شـروط المتانة والصحة.

(١١) حق الإرث المتساوى للأطفال الشرعيين وغير الشرعيين .

(١٢) احتكار الدولة لكل وسائط النقل)[١].

ولكن كيف يتم القضاء على الملكية الفردية وهل تطبق هذه الإجراءات دفعة واحدة؟

يجيبون على ذلك بأنه من غير الممكن تطبيقها دفعة واحدة ، بل خطوة خطـوة ، حتى يمكـن الـوصول إلى الهـدف المنشـود فى القضـاء على الملكيـة الفـردية وإحلال الملكية الجماعية مكانها ، وبالتالى الـوصول إلى النتائج التى رتبوها على القضاء على الملكية الفردية ويمكن جعلها فى نقاط :

---

(١) تعاليم الماركسية (٣١-٣٢) .
وانظر البيان الشيوعى (٦٦-٦٧) حيث وردت فيه باختصار .

أولا : تطبيق الإجراءات السابقة خطوة خطوة للوصول إلى الهدف النهائى .

يقول انجلز : (لايمكن تطبيق كل هذه الإجراءات دفعة واحدة لكن كل واحدة منها تستجر التالية بالضرورة فما أن تسدد البروليتاريا أول ضربة قوية للملكية الفردية حتى تضطر للتقدم خطوات جديدة الى الأمام وتعزيز احتكار الدولة لكل رأس المال ولكل الزراعة والصناعة والنقل والمبادلات هذا هو الهدف الذى ترمى إليه كل هذه الاجراءات ..)[١].

ويقول فى موضع آخر : (كذلك يتعذر إلغاء الملكية الفردية دفعة واحدة والأرجح أن الثورة البروليتارية سوف تحول المجتمع الراهن تدريجيا وهى لن تتمكن من إلغاء الملكية الفردية كليا إلا بعد تأمين الملكية الضرورية من وسائل الإنتاج)[٢].

ثانيا : لن يقضى على الملكية الفردية نهائيا أو أن تنهار من تلقاء نفسه إلا إذا تمركز رأس المال والإنتاج فى يد الدولة .

يقول انجلز : (عندما يتمركز كل رأس المال والإنتاج والمبادلات بيد الدولة تنهار الملكية الفردية من تلقاء نفسها ويمسى المال عديم الجدوى ويتضاعف الإنتاج ويبلغ البشر درجة من التطور تسمح لهم بالقضاء على آخر العلاقات المتبقية من المجتمع القديم)[٣].

ثالثا : أوكل الشيوعيون مهمة القضاء على الملكية الفردية (ممثلة فى الرأسمالية) إلى البروليتاريا ، فهى القوة الإجتماعية القادرة على تحقيق ذلك (وأن الوسيلة التى يتوجب عليها استخدامها هى الاستيلاء على السلطة بالثورة)[٤].

---

(١) تعاليم الماركسية (٣٢-٣٣) .
(٢) المرجع السابق (٣٠) .
(٣) المرجع السابق (٣٣) .
(٤) فلسفة الأنوار (٤٧) .

ولكن لم هذا الجهد الذى يبذله الشيوعيون فى سبيل القضاء على الملكية الفردية؟

يرون أن هناك نتائج سوف تتحقق من القضاء عليها وقد أوضح انجلز هذه النتائج وجعلها فى نقاط حسب ماوردت فى نص انجلز .

أولا : (إن انتزاع كل القوى الإنتاجية ووسائط النقل وتبادل وتوزيع السلع من يد الرأسماليين الأفراد وتسييرها وفق خطة مرسومة بالاعتماد على الموارد والحاجات المشتركة يسمح للمجتمع أولا بأول القضاء على كافة الآثار السلبية الناجمة عن الصناعة الكبيرة) .

ثانيا : (يسير المجتمع قدما على طريق التقدم دون أن تعصف به الاضطرابات كما كان يحصل سابقا) .

ثالثا : (بعد أن تحرر الصناعة الكبيرة من يد الملكية تشهد توسعا من الضخامة ، بحيث إن توسعها الراهن سيبدو أمامه بتفاهة المانيفاتورة إذا ماقيست بالصناعة الكبيرة الحديثة) .

رابعا : (أن الزراعة التى تعذر عليها الإستفادة من التطويرات والاكتشافات العلمية فى ظل نظام الملكية الفردية والتعنت سوف تشهد حقبة تطور جديدة وتمد المجتمع بما يحتاجه من منتجات) .

خامسا : (وهكذا ينتج المجتمع مايكفى من المنتجات لتنظيم توزيعها على نحو يسد حاجات أفراده جميعا) .

سادسا : (يصبح انشطار المجتمع إلى عدة طبقات متناحرة أمرا بلامعنى).

سابعا : (أن الانتاج الجماعى يتطلب بشرا مختلفين عن البشر الحاليين المشدود كل منهم إلى فرع مخصوص من فروع الإنتاج والمقيد به

والعاجز بالتالى عن تنمية أكثر من مقدرة واحدة من مقدراته على حساب المقدرات الأخرى وعن معرفة أكثر من فرع واحد من فروع الإنتاج أو حتى أكثر من جزء من هذا الفرع ، إن الصناعة فى وضعها الراهن قد تدنت حاجتها لمثل هؤلاء البشر . فالصناعة الجماعية المبرمجة تفترض بشرا نميت مقدراتهم وكفاءاتهم فى شتى الاتجاهات فباتوا ملمين بمجمل نظام الإنتاج) .

ثامنا : (يوجه التعليم بحيث يؤهل الشباب لأن يحيطوا بمجمل نظام الإنتاج بسرعة وأن ينتقلوا من فرع إنتاجى لآخر وفق حاجات المجتمع أو وفق ميولهم الشخصية) .

تاسعا : (أن المجتمع المنظم على أساس شيوعى يتيح لأفراده المجال لكى يوظفوا مقدراتهم المصقولة على نحو فعال فى جميع الاتجاهات فتكون النتيجة زوال جميع الفوارق الطبقية) .

عاشرا : (مع الغاء الملكية الفردية سيزول أيضا التناقض بين المدينة والريف . ذلك أن ممارسة مجموعة من البشر للصناعة والزراعة فى آن معا بدلا من أن تقوم بذلك طبقات متعددة يشكل لأسباب محض مادية شرطا ضروريا من شروط التنظيم الشيوعى) .

ويلخص انجلز بعض ماذكره سابقا بقوله :

(إن تعاون جميع أفراد المجتمع على الاستعمال الجماعى والعقلانى للقوى الإنتاجية وزيادة الإنتاج بحيث يستطيع سد حاجات الجميع . وإلغاء التنظيم الإجتماعى حيث تشبع حاجات البعض على حساب البعض الآخر ، وإزالة الطبقات وتناقضها ، والتنمية الشاملة لمؤهلات وكفاءات جميع أفراد المجتمع .

عن طريق إلغاء قسمة العمل كما عرفناها حتى الآن على الأقل ، وعن طريق التعليم المرتكز الى العمل ، وتنويع النشاطات التى يساهم فيها البشر ، وإشراك الجميع فى الرفاه الذى يخلقه الجميع . تلك هى النتائج الرئيسية لإلغاء الملكية الفردية)[١].

---

(١) تعاليم الماركسية (٣٤-٣٧) .

فهذا أول مبادىء الشيوعية وقد أولوه إهتماما كبيرا ، لأن الملكيـة فى نظرهم ، مصدر الظلم ، أوجدته الأنظمة القائمة على الاستغلال وحب التملـك وهـذا المبدأ يستتبعه مبدأ آخر ألا وهـو القضاء على الطبقـات فالملكية سبب لوجودها ، والقضاء عليها يزيلها من المجتمع .

ولنأخذ المبدأ الثانى .

المبحث الثانى
إلغاء الطبقات وإقامة دكتاتورية طبقة البروليتاريا[١]

من المبادىء الأساسية للشيوعية إلغاء الطبقات الموجودة فى المجتمع وجعل طبقة البروليتاريا هى الطبقة المسيطرة . ويعلل الشيوعيون وجود الطبقات بوجود الملكية الفردية حيث ينقسم الناس إلى مالكين وغير مالكين فالطبقة غير المالكة هى الطبقة المنتجة (طبقة العمال) والأخرى هى المستفيدة فلابد من الإبقاء على الأولى دون غيرها ويكون ذلك بثورتها وإقامة دكتاتوريتها .

إذ أن زعيما الماركسية يعتقدان أن تاريخ كل مجتمع يقوم على النضال الطبقى . جاء فى البيان الشيوعى :

(إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات)[٢].

فطبقة البروليتاريا تقوم بالنضال ضد الطبقات الأخرى ليكون الأمر لها دون سواها ويعبرون عنه (بدكتاتورية البروليتاريا) .

فما هى دكتاتورية البروليتاريا؟

هى (السيادة السياسية للطبقة العاملة وهذه السيادة تقيمها الطبقة العاملة فى سياق الثورة الإشتراكية ، بغية قمع مقاومة المستثمرين وبناء

---

(١) يعرفها انجلز بقوله : (البروليتاريا طبقة من طبقات المجتمع تعتاش كليا من بيع عملها ولاتجنى الأرباح من أى نوع من أنواع رأس المال ، وتتوقف حياتها أو موتها ، لابل وجودها بأسره ، على طلب عملها وترتهن بالتالى بتعاقب الأزمات مع فترات الإزدهار الصناعى وبتقلبات المنافسة المنفلتة من عقالها . البروليتاريا ، أو طبقة الشغيلة ، هى الطبقة العاملة المعاصرة) .
تعاليم الماركسية (١١-١٢) .
ودكتاتورية البروليتاريا هى : (السيادة السياسية للطبقة العاملة ، وهذه السيادة تقيمها الطبقة العاملة فى سياق الثورة الإشتراكية بغية مقاومة المستثمرين وبناء الإشتراكية وتوطيدها) . المعجم (٢٢٧) .

(٢) (٣٦) .

الإشتراكية وتوطيدها . وهى تتحقق بواسطة الدولة والحزب الشيوعى والنقابات والجبهة الشعبية وسائر منظمات الشغيلة التى تشكل بالإجمال نظام دكتاتورية البروليتاريا)[١].

بل ويعتبرون أن مبادىء الشيوعية تتلخص فى هذا المبدأ .

يقول لينين : (إن مبادىء الشيوعية تتلخص فى إقامة دكتاتورية البروليتاريا وفى إستعمال إكراه الدولة فى المرحلة الإنتقالية هذه هى مبادىء الشيوعية)[٢].

وسيادة البروليتاريا هذه هى سيادة سياسية فى المقام الأول . إذ أنها ستساعد على تحقيق مبادىء الشيوعية بل سيكون تحقيقها منوطا بها .

يقول انجلز : (إن البروليتاريا تستولى على السلطة السياسية وتحول وسائل الإنتاج كضرورة أولية الى ملكية الدولة)[٣].

وهذه السيادة تتم عن طريق القوة والثورة المسلحة . يقول لينين (إن تعاليم النضال الطبقى التى طبقها ماركس على مسألة الدولة وعلى مسألة الثورة الإشتراكية تفضى لامحالة إلى الاعتراف بسيادة البروليتاريا السياسية بدكتاتوريتها . أى بسلطتها التى لاتقتسمها مع أحد ، والتى تستند مباشرة إلى قوة الجماهير المسلحة ، إن إسقاط البرجوازية لايمكن أن يتحقق عن غير طريق تحول البروليتاريا إلى طبقة سائدة قادرة على قمع ماتقوم به البرجوازية حتما من مقاومة مسعورة وعلى تنظيم جميع الجماهير الكادحة والمستثمرة من أجل النظام الإقتصادى الجديد)[٤].

ويرى الشيوعيون أن الصراع الطبقى ديدن كل مجتمع منذ زمن بعيد ولأجل ذلك وجد من المفكرين من اكتشف ذلك الصراع واعترف ماركس

---

(١) المعجم (٢٢٧) .

(٢) رسائل حول التكتيك (٥٧-٥٨) ، ترجمة الياس شاهين ، دار التقدم ١٩٧٣م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٣) انتى دوهرنغ (٣٣٨) .

(٤) الدولة والثورة (٢٧) ، ترجمة الياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

بذلك فقال (وفيما يخصنى ليس لى لافضل اكتشاف وجود الطبقات فى المجتمع المعاصر ، ولافضل اكتشاف صراعها ، فقد سبقنى بوقت طويل مؤرخون برجوازيون بسطوا التطور التاريخى لصراع الطبقات هذا واقتصاديون برجوازيون بسطوا تركيب الطبقات الإقتصادى ، ومأأعطيته من جديد يتلخص فى إقامة البرهان على مايأتى:

(١) أن وجود الطبقات لايقترن إلا بمراحل تاريخية معينة من تطور الإنتاج.

(٢) أن النضال الطبقى يفضى بالضرورة إلى دكتاتورية البروليتاريا .

(٣) أن هذه الدكتاتورية نفسها ليست غير الانتقال إلى القضاء على كل الطبقات ، وإلى المجتمع الخالى من الطبقات ...)[١].

وهذا الصراع الطبقى شرط ضرورى من أجل تحقيق الإشتراكية .

يقول هنرى ده مان : (إن الصراع الطبقى كتعبير عن مجهود خاص تكيفه وضعية الطبقات لمحاربة الاستغلال والسيطرة التى تقاسى منها الطبقات الكادحة فى الوقت الحاضر ، هذا الصراع شرط ضرورى واجب لكل مطلب اشتراكى لاحق لأنه الاستغلال السياسى والإقتصادى والإجتماعى يفترض إلغاء تسلسل الطبقات ولكن ولكى يؤدى صراع الطبقات هذا إلى أهداف إشتراكية يجب أن تكون دوافع المصلحة والرغبة فى السلطة التى تنتج عن وضع الطبقة العاملة الخاص يجب أن تكون خاضعة من الناحية المبدئية والعملية إلى دوافع ومحركات إنسانية تستند إلى حكم أخلاقى وإحساس بالحق)[٢].

---

(١) الدولة والثورة (٣٥) ، وانظر مراسلات ماركس انجلز (٤٠) .
وذكر ذلك فى رسالة بعث بها الى ج.وبدماير تيويدرك فى ١٥ آذار ١٨٥٢م .
وبدماير مناضلا فى الحرية العمالية الألمانية والأمريكية عضو (رابطة الشيوعيين) ، شارك فى ثورة ١٨٤٨-١٨٤٩م فى المانيا . كولونيل فى جيش الشماليين أثناء حرب الإنفصال ، كان أول داعيا للإشتراكية فى الولايات المتحدة ، صديق ورفيق سلاح لماركس وانجلز ، عاش مابين ١٨١٨-١٨٦٦م .
انظر مراسلات ماركس انجلز (٢٤٦) فهرس الأعلام .

(٢) الإشتراكية البناءة (١٤) .

ظهور البروليتاريا وصراعها الطبقى :

ولعل الثورة الصناعية أبرزت هذه الطبقة بصورة واضحة فى القرن الثامن عشر فأدى اكتشاف الآلات وإمتلاكها إلى وجود طبقتين الأولى الرأسماليين المحتكرين ولهم الآلات والمصانع والمواد الأولية .

والطبقة المعدمة لايملكون شيئا فيبيعون عملهم للبرجوازيين مقابل المعاش اللازم لابقائهم على قيد الحياة .

وبالتالى فإن هذه الطبقة لابد وأن تثور ضد الطبقة الأخرى ولكن يرى الشيوعيون أنه لابد من تنظيمها وإعدادها لتكون هذه الثورة مخطط لها لتعطى ثمارها على أكمل وجه . وهذا بدوره يوجب أن يكون العمال يدا واحدة فى كل مصنع أو جهة بل وفى كل دولة ، حتى يصبح نضالا طبقيا ضد البرجوازية .

يقول لينين : (إننا متفقون جميعا على أن مهامنا تتلخص فى تنظيم النضال الطبقى البروليتارى ولكن ماهو هذا النضال الطبقى؟ عندما يشتبك عمال مصنع واحد أو فرع صناعى واحد فى النضال ضد رب العمل أو أرباب العمل ، ايكون هذا صراعا طبقيا؟ كلا إن هذا ليس سوى حالة جنينية منه ، إن نضال العمال لايصبح صراعا طبقيا إلا عندما يعى كل الممثلين الطليعيين لكامل الطبقة العاملة فى البلد كله أنفسهم على أنهم طبقة عاملة واحدة ، ويشنون نضالا موجها لا ضد أرباب عمل منفردين ، بل ضد كل طبقة الرأسماليين وضد الحكومة التى تدعم هذه الطبقة ، وعندما يدرك العامل أنه أحد أعضاء الطبقة العاملة ككل ، وعندما يدرك أن نضاله اليومى الجزئى ضد أرباب العمل المنفردين ، وضد الموظفين الحكوميين الأفراد هو نضال ضد كل البرجوازية ، والحكومة برمتها . عندها فقط يصبح نضاله صراعا طبقيا ، (إن كل صراع طبقى إنما هو نضال سياسى) إن كلمات ماركس الشهيرة هذه ينبغى أن لاتفهم على أنها تعنى أن كل نضال عمالى ضد أرباب العمل ينبغى أن يكون دائما نضالا سياسيا . بل ينبغى أن تفهم معناها على أن نضال العمال ضد الرأسمالية يكون بالضرورة نضالا

سياسيا بقدر مايصبح نضالا طبقيا . إن على الإشتراكيين ـ الـديمقراطيين ـ عبر تنظيم العمال ، عبر القيام بالدعاية والتحريف فى صفوفهم . أن يحولوا نضال العمـال العفوى ضد مضطهديهـم إلى نضال للطبقة بأكملهـا إلى نضال حزب سياسى بعينه من أجل مثل سياسية وإشتراكية بعينها وهذا أمر لايمكن تحقيقه بالنشاط المحلى وحده)[١].

فصـراع الطبقـات يفضى إلى أن تصـل طبقة البروليتـاريا إلى السلطـة وبالتـالى تقضى على كل الطبقـات الموجودة فى المجتمـع وتحقق دكتاتوريتها .

فمـا معنى الدكتاتورية لهـذه الطبقة؟ وكيف تتحقـق هذه الدكتاتورية؟

معنى الدكتاتورية :

كتـب لينين سنة ١٩١٧م فى بداية كراسته (الثورة البروليتـارية والمرتد كاوتسكى)[٢]:

(إن الـدكتاتورية الثـورية للبروليتـاريا هـى سلطـة ... لاتقيـدها أية قوانين)[٣].

وأمـا كيفية الوصول إلى هـذه الديكتاتورية والسيطـرة ووصـولها إلى السلطـة السيـاسية يكـون ذلـك بالصـراع مـع البرجوازية ويصـل الأمـر إلى الاصطـدام الجسـدى الـدمـوى ليقضـى على كـل الطبقـات وتبقـى طبقـة البروليتاريا.

---

(١) حول الصحـافة (٥٥) ، جمـع جولـوفانوفا ، أو فسيبيان ، أعـدها للعـربية فخرى كريم ، دار الفارابى ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) كـاوتسكى : أحد زعماء الإشتراكيـة الديمقراطية الألمانية ، كـان مـاركسيا ثم ارتد عنها ، وقف علنا ضد الثورة الشيوعية وضد السلطة السوفيتيـة . ولد عام ١٨٥٤م ومات سنة ١٩٣٨م . رسائل حول التكتيك (١٣٠) .

(٣) دفـاعا عـن الماركسيـة ردا على مختلـف منتقـديها (٣٣٥) ، مـوريس كـورنفورث ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م ، دار الفارابى ، بيروت .

يقول ماركس : (إن طبقة مضطهدة هى الشرط الحيوى لكل مجتمع يقوم على صراع الطبقات . ولهذا يتضمن تحرر الطبقة المضطهدة بالضرورة خلق مجتمع جديد . ومن الضرورى للطبقة المضطهدة حتى تكون قادرة على تحرير نفسها أن لاتتمكن القوى المنتجة الحاصلة سابقا ، والعلاقات الإجتماعية القائمة ، الاستمرار فى الوجود جنبا الى جنب ...) .

ويقول : (ومادام الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية هو صراع طبقة ضد طبقة فإن الصراع الذى يصل إلى أعلى تعبيره هو الثورة الشاملة . والحقيقة هل من المدهش أن مجتمعا قائما على تناحر الطبقات لايصل فى تناقضه المرير إلى اصطدام الجسد بالجسد ، كنهايته الأخيرة)[١].

ويقول لينين : (الإشتراكية إنما هى محو الطبقات ، وقد قامت ديكتاتورية البروليتاريا بكل مافى وسعها من أجل محو الطبقات بيد أنه من المستحيل محو الطبقات دفعة واحدة . فالطبقات ماتزال باقية وستبقى فى عهد دكتاتورية البروليتاريا وعندما تزول الطبقات تصبح الديكتاتورية عديمة الجدوى ، ولكن الطبقات لن تزول بدون ديكتاتورية البروليتاريا .

إن الطبقات ماتزال باقية ، ولكن مظهر كل منها قد تغير فى عهد ديكتاتورية البروليتاريا كذلك تغيرت العلاقة بين الطبقات ، إن النضال الطبقى لايزول فى عهد ديكتاتورية البروليتاريا ، بل يرتدى أشكالا أخرى)[٢].

---

(١) بؤس الفلسفة (١٦٧) .

(٢) التحالف بين العمال والفلاحين (٤٠٨) .

فالعنف أساس الثورة . جاء فى المعجم الشيوعى (وفى مضمون دكتاتورية البروليتاريا الطبقى يجب تميز جانبين قمع الطبقات الإستغلالية ، والتحالف مع الجماهير الكادحة غير البروليتارية ولاسيما مع الفلاحين .

الجانب الأول إنما هو الدكتاتورية بحد ذاتها أى مكافحة جميع القوى المعادية والعاملة ضد الثورة الإشتراكية باتخاذ التدابير القسرية حيالها بشكل العنف المسلح المباشر ونشاط هيئات الدولة للقمع والتأديب وأخيرا بشكل إصدار الوثائق التشريعية ، والأوامر الإدارية التى تحد من حقوق الطبقات الإستغلالية فى الملكية وكذلك بشكل الإكراه الإقتصادى أن دولة ديكتاتورية البروليتاريا تلجأ إلى وسائل متنوعة للقمع)[١].

ووجود هذه الطبقة المضطهدة فى المجتمع هى أساس الصراع ، والذى يوجد الطبقات هو الملكية الفردية ، ولولاها لما حدث هذا الصراع ولما وجدت هذه الطبقات .

وقد اعتبر ماركس وانجلز انتقال وسائل الإنتاج فى يد البروليتاريا أمرا مهما و(لايتم ذلك طبعا فى بادىء الأمر إلا بخرق حق التملك وعلاقات الإنتاج البرجوازية بالشدة والعنف)[٢].

فإزالة الطبقة البرجوازية ضرورى من أجل إبقاء البروليتاريا وتكون السلطة السياسية بيدها لأنها الطبقة المنتجة فى المجتمع وكل نضال يصدر عن البروليتاريا فهو نضال سياسى .

يقول لينين : (إن نضال البروليتاريا ضد البرجوازية الذى يتخذ أشكالا مختلفة ومحتوى يغتنى باستمرار يصبح حتما نضالا سياسيا يرمى إلى إستيلاء البروليتاريا على الحكم السياسى (ديكتاتورية البروليتاريا) ولابد لعملية جعل الإنتاج إجتماعيا من أن تجعل وسائل الإنتاج ملكية إجتماعية وأن تؤدى إلى انتزاع الملكية من مغتصبيها)[٣].

---

(١) (٢٢٧) .
(٢) البيان الشيوعى (٦٦) .
(٣) مصادر الماركسية (٤٧) .

ويقول : (إن كل نضال طبقى هو نضال سياسى)[١].

وبين لينين أن الدكتاتورية لاتتحقق إلا عند الوصول إلى الحكم ووصولها بالعنف ولكن وهذه استثناءات لينين قد تتنازل البرجوازية وتسلم الأمر للبروليتاريا بطرق سلمية .

فقال : (ننشر الدعاية لديكتاتورية البروليتاريا ونحقق ديكتاتورية البروليتاريا عندما نصل إلى الحكم . بالرغم من أن التطور يسير بأكمله فى اتجاه القضاء على سيطرة قسم من المجتمع بالعنف على قسمة الآخر فالديكتاتورية هى سيطرة قسم من المجتمع على المجتمع كله وهى فوق ذلك سيطرة تستند مباشرة إلى العنف . إن ديكتاتورية البروليتاريا ، بوصفها ديكتاتورية الطبقة الوحيدة الثورية حتى النهاية ، هى أمر لابد منه لإسقاط جانب من الأهمية بحيث لايمكن لمن لايعترف بها بتاتا أو لايعترف بها إلا قولا أن يكون عضوا فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، بيد أنه من غير الجائز أن ننكر أن من الممكن فى حالات معينة استثنائية مثلا فى دولة من الدول الصغيرة تحققت الثورة الإجتماعية فى جارتها من الدول الكبيرة أن تتنازل البرجوازية عن السلطة بصورة سلمية إذا اقتنعت بأن مقوماتها أمر لاجدوى منه ، وإذا كانت تفضل الإبقاء على رؤوسها سليمة)[٢].

وعندما كانت روسيا هى المنطلق لإعلان النظام الشيوعى وثورة الطبقة الكادحة تحدث لينين عن النظام السوفييتى كثيرا وأبان أن الهدف منه القضاء على الرأسمالية وإزالة الطبقات من المجتمع وجعل البروليتاريا هى الطبقة الوحيدة صاحبة السلطة السياسية (دكتاتورية البروليتاريا) كما أن نضال هذه الطبقة سيجعل الجمهورية السوفيتية منتصرة بانتصارها .

---

(١) مصادر الماركسية (٥٩) .

(٢) استيقاظ آسيا (٥٣-٥٤) .

فقال : (إن السلطة السوفياتية فى روسيا لم تبرهن فقط من خبرة مايقرب من العامين بأن ديكتاتورية البروليتاريا ممكنة حتى فى بلد فلاحى وأنها قادرة عن طريق خلق جيش قوى (أفضل برهان سيادة التنظيم والنظام) على الصمود فى أكثر الظروف الإستثنائية التى لاتصدق صعوبتها .

لقد فعلت السلطة السوفياتية ماهو أكثر ، لقد حققت معنويا فى العالم كله لجماهير العمال فى كل مكان ورغم أن هذه الجماهير لاتحصل إلا على نتف ضئيلة من الحقيقة عن السلطة السوفياتية . ورغم أنها تسمع الآلاف وملايين التقارير الكاذبة عن السلطة السوفياتية ، فإنها لن تقف إلى جانب هذه السلطة . إن بروليتاريا العالم كله تفهم الآن أن هذه السلطة هى سلطة الشغيلة وأنها وحدها التى تعود إلى سلم دائم وهذا هوسبب أن هزائم الجمهوريات السوفياتية كلا على انفراد على يد الامبرياليين ممكنة ولكن الانتصار على الحركة السوفياتية العالمية للبروليتاريا مستحيل . مع تحياتى الشيوعية)[١].

ويبين لينين أن انتصار هذه الطبقة سيحقق الديمقراطية لأصحابها فقال:

(إن النظام السوفييتى على وجه الدقة من التأكيدات أو الظاهرات الساطعة لهذا التحول تحول ثورة إلى أخرى فإن النظام السوفييتى هو الحد الأقصى من الديمقراطية للعمال والفلاحين وهو يعنى فى الوقت نفسه القطيعة مع الديمقراطية البرجوارية وظهور طراز جديد من الديمقراطية فى التاريخ العالمى عنيت الديمقراطية البروليتارية أو دكتاتورية البروليتاريا)[٢].

ويقول : (إن انتصار السلطة السوفيتية فى العالم كله قضية مؤمنة . والمسألة مسألة وقت ...)[٣].

---

(١) حول الصحافة (٣١٠) .

(٢) مقالات وخطابات لمناسبة أعياد ثورة اكتوبر (٦٨) ، ترجمة دار التقدم ، موسكو دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها وانظر تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٧٦) .

(٣) مقالات وخطابات بمناسبة أعياد أكتوبر (٣٨) .

ويرى ماركس أن طبقة البروليتاريا هى بانية المجتمع الإشتراكى[١].

كما أفصح ماركس عن حقيقة هذه الطبقة ودكتاتوريتها بأنها ستقضى على جميع الفوارق فى المجتمع ، وكذلك الأفكار النابعة من العلاقات الاجتماعية القائمة .

فهو يهدف إلى توظيف هذه الطبقة فى تحقيق أهداف ومبادىء أخرى خاصة أنه اعتبرها صاحبة الحق فى السلطة السياسية فقال : (هذه الإشتراكية - إنما هى إعلان الثورة المستمرة الدكتاتورية الطبقية للبروليتاريا بوصفها درجة ضرورية للانتقال إلى القضاء على جميع علاقات الإنتاج التى تقوم عليها هذه الفوارق إلى القضاء على جميع العلاقات الإجتماعية المطابقة لعلاقات الإنتاج هذه إلى اجراء انقلاب فى جميع الأفكار النابعة من هذه العلاقات الإجتماعية)[٢].

ويقول ماركس : (بين المجتمع الرأسمالى والمجتمع الشيوعى تقع مرحلة تحول المجتمع الرأسمالى تحولا ثوريا إلى المجتمع الشيوعى وتناسبها مرحلة انتقال سياسية أيضا لايمكن أن تكون الدولة فيها سوى الدكتاتورية الثورية للبروليتاريا ...)[٣].

الأهداف التى يرغب الشيوعيون فى تحقيقها من وراء هذا المبدأ مأخوذة من ثنايا كلام الشيوعيين أنفسهم التى مرت معنا وملخصها مايأتى :

(١) القضاء على كافة الطبقات الموجودة فى المجتمع وإبقاء هذه الطبقة (البروليتاريا) . يقول ماركس : (إن هذه الدكتاتورية لاتمثل هى نفسها سوى انتقال نحو إلغاء الطبقات كافة ونحو مجتمع بلاطبقات)[٤].

(٢) جعل السلطة السياسية فى يد طبقة البروليتاريا والصراع الطبقى يؤدى إلى ديكتاتوريتها . يقول ماركس : (إن صراع الطبقات يفضى

---

(١) الماركسية والنزعة التحريفية (٢٩) ، منشورات مكتبة عائد ، دمشق ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
(٢) النضال الطبقى فى فرنسا (١٤٦) .
(٣) الدولة والثورة (٩٢) .
(٤) مراسلات ماركس انجلز (٤٠) .

بالضرورة إلى دكتاتورية البروليتاريا)[١].

(٣) إن دكتاتورية البروليتاريا ضرورية من أجل القضاء على جميع علاقات الإنتاج التى تقوم عليها هذه الفوارق بالإضافة إلى القضاء على جميع العلاقات الاجتماعية المطابقة لتلك العلاقات وكذلك الانقلاب على جميع الأفكار النابعة من هذه العلاقات الإجتماعية[٢].

(٤) تحقيق الرفاهية لطبقة العمال وإزالة الأغلال المفروضة عليهم وكذلك الوصول إلى الاتحاد التام بين العمال فى كل بلدان العالم وذلك لأن هذه الطبقة منهم وتشعر بما هم فيه ، فآلامهم وآمالهم واحدة . يقول ماركس وانجلز : (والخلاصة أن الشيوعيين يؤيدون فى كل قطر من الأقطار كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعى والسياسى القائم . ويترفع الشيوعيون عن إخفاء آرائهم ومقاصدهم ويعلنون صراحة أن أهدافهم لايمكن بلوغها وتحقيقها إلا بدل النظام الإجتماعى القائم بالعنف فلترتعش الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية فليس للبروليتاريا ماتفقده فيها سوى قيودها وأغلالها وتربح من ورائها عالما بأسره ياعمال العالم اتحدوا)[٣].

يضاف إلى ذلك :

(٥) كسب ود العمال والطبقة الكادحة نظريا للوصول إلى الأهداف التى يرغب الشيوعيون فى تحقيقها .

فهذا هو المبدأ الثانى من مبادىء الشيوعية الأساسية وهو شديد الصلة بالمبدأ الأول ، فإن سبب وجود الطبقات هو وجود الملكية ، فلابد من القضاء عليها ليخلو المجتمع منها ثم بجعل الأمر بيد طبقة البروليتاريا فيصلون عن طريق هذا المبدأ إلى التالى :

---

(١) مراسلات ماركس وانجلز (٤٠) .
(٢) انظر النضال الطبقى فى فرنسا (١٤٦) .
(٣) البيان الشيوعى (٨٦) .

أولا : إقامة طبقة واحدة فى المجتمع بيدها السلطة السياسية .

ثانيا : تقوم هذه الطبقة بالقضاء على الملكية الفردية وعلاقات الإنتاج والنظم القائمة عليها .

ثالثا : القضاء على الأفكار النابعة من علاقات الإنتاج الموجودة فى ذلك الوقت .

رابعا : أن هذه الطبقة لن تصل إلى الأمر إلا بطريق العنف والثورة لابطريق السلم والإصلاح .

خامسا : أن هذه الطبقة أحق من غيرها بخيرات المجتمع لأنها هى التى تعانى فتوجب الإبقاء عليها .

سادسا : أن الديمقراطية لن تتحقق إلا بسيطرة هذه الطبقة على زمام الأمور قاطبة .

المبحث الثالث
كفالة الدولة لجميع المواطنين

بعد أن تصبح السلطة السياسة فى يد الطبقة الحاكمة ستقوم هذه الطبقة برعاية وكفالة حقوق المواطنين السياسية والإقتصادية والتعليمية والإجتماعية.

أولا : الجانب السياسى :

عندما كان النظام البرجوازى (الرأسمالى) القائم على الملكية الفردية هو سبب الظلم ومصادرة الحريات فإن أصحاب الفكر الشيوعى كثيرا مايعقدون المقارنات عن أحوال الشعب فى ظل الرأسمالية وكذلك فى ظل الشيوعية وماسيحصلون عليه من حقوق وحريات .

فهم يرون أن النظام الرأسمالى إنما هو لخدمة المستثمرين فقط أى لأصحاب ذلك النظام والقائمين عليه دون غيرهم وأن الشعارات التى رفعها ذلك النظام كانت خالية عن الحقيقة وأن ديمقراطيته ليست ديمقراطية حقيقية كما أن أعلى نموذج يمكن أن تصل إليه الديمقراطية إنما يكون بوصول البروليتاريا إلى السلطة السياسية وأن غير هذا النظام يعد رجعية . يقول لينين :

(فاليوم بعد الفوز بالسلطة السياسية من قبل البروليتاريا ووجود نموذج أعلى للديمقراطية يطبق فى الجمهورية السوفيتية كل خطوة إلى الوراء نحو النظام البرلمانى البرجوازى ونحو الديمقراطية البرجوازية تعنى بالضرورة خدمة رجعية لصالح المستثمرين)[١].

ثم يعقد لينين مقارنة بين النظامين الشيوعى والرأسمالى وبين ماتحققه السلطة السوفيتية لمواطنيها من الأمور السياسية ، معتبرا كلا النظامين ديمقراطيا ولكن أحدهما صادق فى مبادئه والآخر مدعيا . فيقول :

---

(١) ماهى سلطة السوفييت (١٢) ، دار التقدم ، موسكو ١٩٧٠م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(إن الجمهورية البرجوازية الديمقراطية كانت تقبل على أكثر حد تنظيم الجماهير المستمثرة بالمعنى الذى تصفه أنه حر ولكنها كانت فى الواقع تضع دوما عراقيل حقيقية لاتحصى أمام تنظيمها عراقيل مرتبطة إرتباطا لاينفصم بملكية وسائل الإنتاج الخاصة ، ولأول مرة فى التاريخ لاتسهل سلطة السوفييت من جميع النواحى تنظيم الجماهير المضطهدة من قبل الرأسمالية فحسب ، ولكنها تضعه أيضا اساسا دائما واجباريا لكل جهاز الدولة من القاعدة إلى القمة ، ومحليا ومركزيا ، وعن هذه الطريق فقط تتحقق الديمقراطية عمليا لأكثرية السكان أى إشتراك أغلبية الشعب الساحقة وعلى وجه الدقة الشغيلة ، إشتراكا نشيطا فى إدارة الدولة بدلا من أن تكون هذه الإدارة بالفعل وفى الغالب فى أيدى ممثلى الطبقات البرجوازية مثلما هى الحال فى الجمهوريات البرجوازية الأكثر ديمقراطية)[١].

وأما عن المساواة يقول : (إن الديمقراطية البرجوازية إذ تعلن بأبهة المساواة بين جميع المواطنين تخفى فى الحقيقة برياء سيطرة المستثمرين الرأسماليين فهى تخدع الجماهير بالفكرة القائلة إن المساواة ممكنة فى الحقيقة بين المستثمرين والمستثمرين ان التنظيم السوفييتى للدولة يدحض هذا الكذب وهذا الرياء فهو يحقق الديمقراطية الحقيقية أى المساواة الحقيقية) .

ويقول : (وبالجملة إن الفرق بين الديمقراطية البرجوازية ونظام البرلمانية من ناحية وبين الديمقراطية السوفيتية أى الديمقراطية البروليتارية من ناحية أخرى ينحصر فى أن الأولى تنقل مركز الثقل إلى إعلان كل الحريات والحقوق بصورة مفخمة بليغة دون أن تتيح فى الواقع على وجه الدقة لأكثرية السكان للعمال والفلاحين أن يستفيدوا منها بقدر كاف إلى حد ما . وعلى النقيض من ذلك تنقل الديمقراطية البروليتارية أى الديمقراطية السوفيتية مركز الثقل لاإلى إعلان حقوق الشعب بأسره وحرياته ولكن إلى

---

(١) ماهى سلطة السوفييت (١٣) .

الضمانة الفعلية التى تتيح للجماهير الكادحة على وجه الدقة التى كانت مضطهدة ومستثمرة من قبل الرأسمال أن تصل بالفعل إلى إدارة الدولة وأن تستخدم بالفعل أحسن الأبنية والقاعات من أجل الإجتماعات والمؤتمرات وأحسن المطابع وأكبر مستودعات إحتياطى الورق من أجل تثقيف هؤلاء الذين كانت الرأسمالية تخبلهم وتبلدهم وضمان الإمكانية الفعلية لهذه الجماهير على وجه الدقة من أجل أن تحرر شيئا فشيئا من نير الأوهام الدينية ...الخ) .

وعن حق الانتخاب يقول : (إن أصول الانتخابات وإمكانية ممارستها على نطاق واسع وكذلك شروط إعادة الانتخابات وسحب النواب هى أسهل للغاية وفى متناول عمال المدن والقرى أكثر مما هى عليه فى أحسن أشكال الديمقراطية البرجوازية)[١].

وأما عن حقوق المرأة السياسية فيقول لينين : (كان النشاط السياسى فى المجتمع البرجوازى السابق يتطلب إعدادا معقدا وهذا لم يكن فى منال المرأة ولكن الجمهورية السوفيتية تعتبر مهمتها الرئيسية فى حقل النشاط السياسى النضال ضد الاقطاعيين والرأسماليين من أجل القضاء على الاستثمار ولهذا ينفسح المجال فى الجمهورية السوفيتية أمام النساء العاملات للقيام بنشاط سياسى يكون قوامه أن تساعد النساء الرجال بمهارتهن التنظيمية)[٢].

فهذا الجانب الأول الذى ستقوم السلطة السوفيتية برعايته فهو يضمن:

أولا : ضمان الحقوق السياسية فعلا لاإدعاء كما هو حال البرجوازية .

ثانيا : ممارسة الطبقة العاملة الحقوق السياسية بكل حرية وبصورة لم يشهدها التاريخ من قبل .

ثالثا : ضمان الحقوق السياسية للمرأة .

---

(١) ماهى سلطة السوفييت (١٣-١٧) .

(٢) المرجع السابق (٣٠) .

ثانيا : حق التربية والتعليم :

جاء فى التدابير التى ينبغى للدولة أن تتخذها للقضاء على الملكية الفردية واستمرار الطبقة البروليتارية جعل التربية عامة ومجانية على حساب الأمة . جاء فى البيان الشيوعى : (جعل التربية عامة ومجانية لجميع الأولاد ومنع تشغيل الأحداث فى المصانع كمايجرى اليوم والتوفيق بين التربية وبين الإنتاج المادى ...)[١].

وكتب انجلز يقول : (يعلم جميع الأطفال فى المؤسسات الوطنية على حساب الأمة حالما يمكن إنتزاعهم من أحضان أمهاتهم)[٢].

والتربية عند الشيوعيين أربعة أقسام :

(أ) التربية الإلحادية .

(ب) التربية البدنية .

(ج) التربية الجمالية .

(د) التربية الشيوعية .

أما التربية الإلحادية : فهى قائمة على انتزاع الإيمان من النفوس ممثلة فى مبدأ إلغاء الدين وسيأتى الحديث عنها إن شاء الله تعالى .

وأما التربية البدنية : فيهدفون من ورائها ، جعل الإنسان على قدر كبير من القوة وتنمية القدرة العملية لديه وبالتالى يكون عضوا فعالا فى تحقيق وخدمة الأهداف الشيوعية .

وقالوا فى تعريفها : (تطوير هادف للقدرات الجسدية للإنسان يسهم فى اكتماله الجسدى بوصفه سمة لاتتجزأ للفرد المتطور من كل النواحى والاكتمال الجسدى هو بالدرجة الأولى الصحة القوية والعمر المديد الخلاق

---

(١) (٦٧) .

(٢) تعاليم الماركسية (٣٢) .

والتطور الشامل للسمات والملكات التى تتضمن القدرة العالية الجسدية والذهنية على العمل لدى الإنسان)[١].

وأصبح الاهتمام بهذا منصوصا عليه فى الدستور السوفييتى[٢] .

ويرون أن هذه التربية تزيد من أواصر الجماعية والتلاحم والمساعدة المتبادلة[٣].

أما التربية الجمالية : فهى (تكوين وتطوير مقدرة الإنسان على استيعاب نتاجات الفنون والخواص الجمالية لظواهر الواقع ، أى المهارة فى تقييمها كنتاجات رائعة أو قبيحة ، سامية أو متدنية ، مأسوية أو كوميدية)[٤].

وكعادة الشيوعيين فى ربطهم كل أمورهم بالعمل قالوا عن التربية الجمالية : (وإن أساس التربية الجمالية هو العمل ، ليس فقط لأنه يخلق كافة الخيرات المادية والروحية للمجتمع ، بل ولأنه تتكون فى عملية العمل أيضا القدرات الجمالية التى يستحيل بدونها تطور الثقافة الجمالية الروحية للإنسان)[٥].

أما التربية الشيوعية : فهى (تكوين أناس مخلصين للشيوعية متطورين من جميع النواحى وبصورة متناسقة ويتميزون بتبنى العقائد الشيوعية وممارسة النشاط الرامى إلى بناء المجتمع الشيوعى تكوينا هادفا منتظما منهاجيا)[٦].

(والجوانب الأساسية من التربية الشيوعية هى التالية : تكوين العقيدة الشيوعية العلمية ، تربية الموقف الشيوعى من العمل ، التربية الأممية

---

(١) المعجم (١٢٥) .
(٢) انظر المرجع السابق (١٢٦) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٢٦) .
(٤) المرجع السابق (١٢٦) .
(٥) المرجع السابق (١٢٨) .
(٦) المرجع السابق (١٢٨) .

والوطنية ، تربية الأخلاقية الشيوعية ... التربية الجمالية ، التربية البدنية ، ومن أكبر مهام التربية الشيوعية ، تربية الموقف الشيوعى من العمل أى تكوين موقف من العمل ، بوصفه الحاجة الأولى فى الحياة)[١].

ولكن أى علم تريده الشيوعية لأصحابها وتضمنه لهم ، وتربيهم عليه؟

أجابوا عن ذلك بقولهم : (إن عملية تكوين العقيدة العلمية تشمل التربية الإلحادية ، وتذليل رواسب الماضى فى وعى الناس وسلوكهم ، وتربية الصلابة الفكرية . والاخلاص الشورى لأفكار الحزب الشيوعى والحساسية الطبقية الحادة والتشدد حيال الأيديولوجية البرجوازية والأيديولوجية البرجوازية الصغيرة والقدرة على معرفة جوهر الأفكار الغريبة عن الشيوعية ، أيا كانت الأردية التى تتستر بها ، وعلى شن نضال هجومى لاهوادة فيه ضدها ...)[٢].

هذا بعض ماجاء عن المبدأ الثالث فى كفالة الدولة للأفراد وتعليمهم وتربيتهم وضمان حقوقهم السياسية ، عرضته كما يحلو لأصحاب الفكر الشيوعى أن يتحدثوا عنه ويفاخروا به ، ونجدهم دوما يعقدون المقارنة بين نظام الرأسمال ومافيه من ظلم وبين نظامهم ومافيه من تحقيق للعدل والمساواة والحرية ، أى من تطبيق للديمقراطية على أعلى درجاتها .

---

(١) المعجم (١٢٩) .
(٢) المرجع السابق (١٢٩) .

المبحث الرابع
المساواة

من المبادىء التى يدعى أصحاب الفكر الشيوعى تحقيقها مسألة المساواة ويقصدون بها (توفر ظروف وفرص متكافئة للتطوير الحر لمؤهلات كل أفراد المجتمع وتلبية حاجاتهم والمكانة المتماثلة للناس فى المجتمع)[١].

ويرى أصحاب الفكر الشيوعى أنهم يدعون إلى المساواة والحرية حقيقة لادعوى مجردة عن التطبيق الفعلى كما هو حال البرجوازية . وهذه المساواة يشعر بها كل فرد يعيش فى ظل هذا النظام ـ هكذا قالوا ـ .

ويرون أن هذه المساواة ليست قصرا على الحقوق السياسية أو إشراك المرأة مع الرجل ومساواتها به فى العمل ، بل يكونون سواسية فى كل شىء حتى يزول من نفوسهم استغلال بعضهم بعضا لا كما هو حال المجتمع الرأسمالى ، فالمساواة تدعو إلى الوحدة التامة بين العمال فى جميع المجتمعات .

يقول لينين : (إن العمال الواعين يريدون الوحدة التامة بين عمال جميع الأمم فى جميع منظمات العمال التثقيفية والنقابية والسياسية ...الخ . فالعمال من أبناء جميع الأمم يذودون معا يذودون متضافرين فى منظمات مشتركة عن الحرية التامة والمساواة التامة بوصفها ضمان الحضارة الحقيقية...)[٢].

ولكن هذه المساواة لن تتحقق إلا إذا قضي على الملكية الفردية فأصحاب الفكر الشيوعى كثيرا مايربطون المعضلات والتحولات بقضية التملك التى أفرزت الطبقات . فالفرد فى ظل النظام الرأسمالى يعاني من الظلم والاستغلال الشىء الكثير وذلك راجع إلى سيادة الملكية الفردية فيه .

---

(١) المعجم (٣٧٦) .
(٢) استيقاظ آسيا (٢٧) .

فيتعين إزالة هذه الملكية الخاصة والتى أدت إلى قيام النظام الطبقى ، يقول لينين : (إن المساواة تبقى عبارة جوفاء إذا لم يقصد بالمساواة إزالة الطبقات . إننا نريد تصفية الطبقات ، ونحن من هذه الناحية ننادى بالمساواة)[١].

وقد ركز الشيوعيون على المساواة الإجتماعية بين الأفراد لأنها من أهم مصادر تطوره ، جاء فى برنامج الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى : (لقد نشأت الظروف لنمو الفرد نموا شاملا بفضل المكتسبات الإجتماعية التاريخية ، الخلاص من الاستثمار ومن البطالة والبؤس ومن التميز الناشىء عن الجنس والأصل والقومية والعرق وقد منحت كل عضو من أعضاء المجتمع فرص متساوية للعمل الخلاق والتعليم) .

إن الإشتراكية تهيىء كل الظروف لأجل تعاظم الدور الإجتماعى للفرد فى جميع ميادين حياة المجتمع وفى توسيع وظائف الفرد الإجتماعية لاتسهم عملية تطوير العلاقات الاجتماعية وحسب بل وكذلك تطبيق أحدث منجزات العلم والتكتيك فى الإنتاج والتنظيم العلمى للعمل وإشراك جميع الشغيلة فى إدارة الإنتاج)[٢].

والمساواة التى نادى بها أصحاب الفكر الشيوعى لم تكن حصرا على الرجال بل أدخلوا النساء فيها وجعلوها صاحبة حقوق مساوية للرجل سواء سياسيا أو إجتماعيا أو عمليا ، وفرقوا بين حال المرأة فى النظام الرأسمالى وبين حالها فى ظل النظام الشيوعى وبرروا تبعية المرأة للرجل فى النظام الرأسمالى بأنها تبعية لأسباب إجتماعية وإقتصادية ، أدت إلى حرمانها من حقوقها السياسية والإقتصادية وعزلها عن المجتمع وقصر نشاطها على المنزل فقط فكان لابد من النضال بداية من أجل تحريرها ضد استغلال الرأسماليين لها وسلبهم لحقوقها ، وبالتالى فإن المرأة تشارك فى نضال العمال

---

(١) المعجم (٣٧٧) .
(٢) المرجع السابق (٣٣٣-٣٣٤) .

والكادحين ضد الإستغلال من أجل بناء المجتمع الجديد ، ويفخر الشيوعيون بأن (دستور الاتحاد السوفييتى لعام ١٩٧٧م لايعلن حقوقا متساوية للرجال والنساء وحسب بل يضمن كذلك تحقيق هذه الحقوق بمنح النساء فرصا مساوية لفرص الرجال فى الحصول على التعليم ، والإعداد المهنى ، وفى العمل والمكافأة على العمل ، وفى الترقى فى العمل ، وكذلك بإجراءات خاصة لحماية عمل النساء وصحتهن وتوفير ظروف تتيح للنساء الجمع بين العمل والأمومة)[١].

وبعد ذلك المساواة فى الأجور وتوزيع المواد الاستهلاكية بالتساوى بين أفراد المجتمع - دون النظر إلى مايسهم به كل فرد فى العمل ويسمونه بالتوزيع السوائى ويعرفونه بأنه (شكل لتوزيع الخيرات الإستهلاكية بين أعضاء الجماعية بالتساوى بغض النظر عن القسط الذى يسهم به كل منهم فى العمل)[٢].

وكان للتوزيع السوائى هذا دعاته وخاصة الإشتراكيين الطوباويين .

ويرى الشيوعيون (أن الإشتراكية خطوة حاسمة على طريق إزالة اللامساواة الإجتماعية فهى تزيل اللامساواة إزاء وسائل الإنتاج وتصفى الملكية الخاصة فتخلص كل أفراد المجتمع من الاستغلال .. إن المساواة الإشتراكية تتضمن واجبا متساويا على الجميع كى يعملوا حسب قابلياتهم وكذلك حقا متساويا للجميع فى الكسب حسب العمل . إلا أن هذا الحق المتساوى لايزيل قدرا معينا من اللامساواة الفعلية وفى سياق تطور الإشتراكية وتحولها إلى شيوعية يتحقق تعادل تدريجى فى الرفاه المادى والمستوى الثقافى للشغيلة وتمحى الفوارق الإجتماعية الطبقية ويجرى التعادل اللاحق فى مستويات تطور الأمم والأقوام وتذليل مخلفات اللامساواة الفعلية بين المرأة والرجل وتعنى المساواة الشيوعية كما يؤكد برنامج الحزب

---

(١) المعجم (٣٧٤) .
(٢) المرجع السابق (١٦٠) .

الشيوعى السوفييتى ، أن جميع الناس سيتمتعون بمكانة متساوية فى المجتمع وموقف متماثل إزاء وسائل الإنتاج وظروف متساوية للعمل والتوزيع ، وسوف يشاركون فى تصريف شؤون المجتمع . وستترسخ علاقات متناسقة بين الفرد والمجتمع على أساس وحدة المصالح الإجتماعية والشخصية ، وسيتحقق المبدأ الأساسى للشيوعية : (من كل حسب كفاءاته ولكل حسب حاجته)[١].

ويظهر جليا أن المساواة تكاد تكون فى قضية الأجور وتوزيع المواد الإستهلاكية أبرز فيها من الجوانب الأخرى وهم يريدون بهذا أن يوجدوا الدخل المناسب لكل فرد حسب حاجته ولايطمع فى شىء آخر ، لأن الكل متساوين يحصلون على مايغطى كل احتياجاتهم . ومن هنا ننتقل الى المبدأ الخامس ألا وهو (من كل حسب كفاءته ولكل حسب عمله) حيث إن هذا المبدا يسبق المبدأ السابق ذكره .

وقبل الحديث عن المبدأ الخامس نوجز ماذكروه عن المساواة فى الآتى :

أولا : تحقيق المساواة بين أفراد الشعب حقيقة لاإدعاء .

ثانيا : المساواة بين المرأة والرجل فى كل شىء سواء فى الدخول أو التكليف .

ثالثا : المساواة فى الأجور حتى لايحس أحد أنه ظلم فى أجره .

رابعا : المساواة بين الناس فى توزيع السلع الإستهلاكية .

---

(١) المعجم (٣٧٧-٣٧٨) .

المبحث الخامس
مبدأ [من كل حسب كفاءته ولكل حسب عمله]

وهـذا المبدأ هو المبدأ الأسـاسى للإشتراكية اذ أن الإشتراكيـة[١] مرحلة سابقة على الشيوعية ، والشيـوعية ترمـى إلى تحقيـق المسـاواة فى كـل شـىء وهذا المبدأ يتناسب مع هذه المرحلة .

ويعكـس هذا المبدأ خصائص التـوزيع فى المجتمـع الإشتراكى وكذلك مايقدم كل فرد فى ظل هذا النظام وطبقا لهذا المبدأ فإن جميع أفراد المجتمع ملـزمون بالتكافؤ بالعمل ، ومضاعفة الثروة الإجتماعيـة ، وهم يتمتعون بحق متسـاو فى أن يحصلـوا من المجتمـع على وسائل العيـش طبقـا لكمية ونوعية العمل المبذول . وإذ ينادى المجتمع الإشتراكى بالزامية العمل لكل من يقدر عليه ، فإنه يكفل قانونيا توفير العمل لكل منهم[٢].

ويقـول لينين : (المبدأ الأول الأسـاسى ، الجذرى للإشتراكيـة : (مـن لايشتغل ، لايأكل) .

ويضيـف لينين ـ بعد أن يرى أن تسعـة أعشار سكـان روسيا يؤمنون بهـذه الحقيقـة ـ (كيف العمـل على تطبيـق هذا المبـدأ؟ إنه لـواضح وضوح النهار إنه ينبغى لهذا الغرض فى بادىء الأمر أن يكون هناك احتكار الدولة للحبـوب ، أى منـع كل تجارة خاصـة بالحبـوب منعا مطلقـا ، وإلـزام تسليم جميـع فـوائض الحبوب إلى الـدولة ، بالأسعـار الثابتـة ، وكـذلك منـع أى إمـرىء منعـا مطلقا من الاحتفـاظ بفـوائض الحبوب وإخفـائها وينبغـى ثانيا إجراء حسـاب صـارم لجميع فـوائض الحبـوب والقيام كمـا ينبغـى وبصورة لاعيـب فيهـا ، بنقـل الحبوب من المنـاطق التى تفيـض فيها إلى المنـاطق التى

---

(١) يعرف انجلز الإشتراكية بقوله : (إن الإشتراكية الحديثة هى ، فى جوهرها ، النتاج المبـاشر للإعتراف من جهة واحدة بالتناحرات الطبقية القائمة فى المجتمـع الحالى بين الملاكين وغير الملاكين ، بين الـرأسماليين والعمـال المأجورين ، ومـن جهـة ثانية بالفوضى القائمة فى الإنتاج) . انتى دوهرنغ (٢١) .

(٢) انظر المعجم (٣٦٢) .

تنقصها وخزن الحبوب الضرورية للاستهلاك ، والتكيف والبذر ، وينبغى ثالثا القيام بتوزيع الخبز بين جميع مواطنى الدولة تحت مراقبة دولة العمال ، دولة البروليتاريا على أن يكون هذا التوزيع سديدا ، عادلا ، لايمنح الغنى أى إمتياز أو أية أفضلية)[١].

وفى ظل الإشتراكية للفرد الحق فى اختيار العمل الذى يرغب فيه حسب ميوله ومؤهلاته ويكون الأمر حسب كمية العمل ونوعيته . جاء فى الدستور السوفييتى لعام ١٩٧٧م المادة (٤٠) :(لمواطنى الاتحاد السوفييتى الحق فى العمل أى فى الحصول على عمل مضمون ومدفوع الأجر حسب كمية العمل ونوعيته على أن لايقل الأجر عن الحد الأدنى الذى أقرته الدولة . بما فى ذلك الحق فى اختيار المهنة ونوع الاشتغال والعمل حسب الميول والمؤهلات والإعداد المهنى والتعليم ومع أخذ حاجات المجتمع بعين الاعتبار)[٢].

وتلبية الاحتياجات فى النظام الإشتراكى ـ كما يدل على ذلك منطوق المبدأ ـ تتحدد بكمية العمل ونوعيته ، ومدى النشاط المبذول من العامل وعلى هذا فالقاعدة عندهم (من يعمل أكثر يحصل أكثر فى ظل الإشتراكية) ، جاء فى المعجم : (ويتحدد معيار تلبية الاحتياجات فى ظل الإشتراكية بكمية العمل ونوعيته . وتتناسب تلبية احتياجات كل شغيل مع نشاطه فى العمل وإسهامه فى إغناء الثروات الإجتماعية . فمن يعمل أكثر يحصل أكثر فى ظل الإشتراكية)[٣].

وهذه القاعدة عندهم تحقق لهم أمورا :

(١) المصلحة المادية الذاتية للعامل .

(٢) تنمية كفاءاته وقابلياته .

---

(١) التحالف بين العمال والفلاحين (٢٨-٢٨٩) .

(٢) المعجم (٣٦٢) .

(٣) (٣٦٢) .

(٣) إسهامه النشط فى الإنتاج وزيادة كمية المنتوج وتحسين نوعيته[١].

وعندما كان العامل فى ظل النظام الإشتراكى لايعمل منفردا فإن اسهامه العملى وبالتالى معيار تلبية متطلباته يتوقفان إلى حد كبير على مساهة جماعة الإنتاج ككل وبالتالى يحقق المبدأ الأساسى للإشتراكية الآتى :

أولا : يكفل المصلحة المادية الجماعية وليس الفردية فحسب .

ثانيا : إيجاد الحوافز المعنوية علاوة على الحوافز المادية للعمل .

ثالثا : الشعور بالواجب إزاء المجتمع والجماعة والاعتراف الإجتماعى بالعمل .

رابعا : تعزيز الانضباط والتنظيم الإشتراكيين ، وهو أداة هامة لمحاربة التقاعس[٢].

كما أن مبدأ الإشتراكية هذا يجسد منجزات المجتمع الإشتراكى الهائلة كما يقول الشيوعيون .

فأولا : هيمنة الملكية العامة .

ثانيا : غياب الاستغلال .

ثالثا : تساوى فرص وواجبات جميع أفراد المجتمع فى العمل .

رابعا : الحصول على أجر متكافىء لقاء العمل المتكافىء[٣].

هذا المبدأ نادى به الإشتراكيون فى طريقهم إلى الوصول إلى المبدأ الآخر الذى اعتبروه المبدأ الأساسى للشيوعية ، الذى يحقق المساواة ، ويلبى الرغبات والحاجات لكل فرد مهما كانت قدرته ، وكفاءته ، فله بقدر حاجته بصرف النظر عن مقدار عمله ونشاطه فيه . وهذا المبدأ هو (من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته) .

---

(١) انظر المعجم (٣٦٢) .

(٢) انظر المرجع السابق (٣٦٢) .

(٣) انظر المرجع السابق (٣٦٣) .

المبحث السادس
مبدأ [من كل حسب كفاءاته ولكل حسب حاجته]

وهـذا المبـدأ من المبادىء الأسـاسية للشيـوعية يتحقـق فى فترة لاحقـة للإشتراكية .

ويعتبرونه مجسدا للمساواة الإجتماعية التامة واعتبروا هـذا المبدأ معبرا عما يتطلبه المجتمع من أفراده .

وعن طابع توزيع الخيرات المادية والروحية قال الشيوعيون : (يتطلب المبـدأ الأساسى للشيوعيةمـن كل فرد فى المجتمع أن يعمـل بكـل مالديه من كفـاءات ، وأن يسهم بنشاط فى تصريف شؤون المجتمـع ، ويعمل باستمرار على النهـوض بمستـواه الثقـافى والنظرى وأن يراعى بطـواعية قـواعد العيش الشيـوعى ، ويغدو تنفيذ هذه المتطلبات ممكنا لأن العمـل فى ظل الشيوعية لايعود إلزاما ومجرد وسيلة للاعتياش ، بل يصبح الحاجة الحيـاتية الأولى)[١].

وبالمقابل فإن المجتمع الشيوعى سيكفل للفرد حقـوقه ويوفر له الفرص جاء فى المعجم (وسيكفل المجتمع الشيوعى المساواة الإجتمـاعية لجميع أفراده لذا سيوفر فرصا متكافئة ليس لتكوين شخصية كل فرد فحسب بل ولتوظيف واستخدام قابليات وطاقات كل منهم على النحو الأمثل لما فيـه خير المجتمع والفـرد وقد أشار انجلز إلى أن الشيوعية "تتيح لجميع أفـراد المجتمع إمكانية تنمية قابلياتهم وتغذيتها وإظهارها على أشمل نحو ممكن")[٢].

والشيوعيون عندما جعلوا هذا المبدأ أساسا لشيوعيتهم فإنهم يرون أن تحقيقه يؤدى إلى الآتى :

أولا : إزالة التخصص الضيق للعامل ويصبح تغيير مجال النشاط بحرية أمرا ممكنا .

---

(١) المعجم (٣٦٤) .
(٢) (٣٦٤) .

ثانيا : اشتمال قابليات الفرد كمواطن ووجه إجتماعى .

ثالثا : وجود الإدارة الذاتية الإجتماعية الشيوعية ، التى ستحل محل الدولة .

رابعا : لن يعد الإنسان بحاجة إلى إرهاق ذهنه بالتفكير فى الأجور والمنفعة المادية الذاتية مما سيؤدى إلى ازدهار فى قابلياته .

خامسا : حصول الإنسان على وقت فراغ من المشاغل المادية اليومية المضنية والتى تتطلب جهدا كبيرا حيث سيحصل على وقت فراغ للمساهمة فى نشاطات الحياة اليومية من علم ، وتكنيك وأدب وفن وللتنمية الذهنية والبدنية ، والأخلاقية .

سادسا : ستتنامى بشكل منقطع النظير كرامته كإنسان ، كمبدع لقيم مادية وروحية لم يسبق لها مثيل ، وكمشيد لعلاقات إجتماعية جديدة .

سابعا : أن هذا المبدأ ينص على التأمين المقام لحاجات البشر المادية والروحية[١].

هذا بعض ماجاء فى كلام الشيوعيين عن مبدأ من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته فالمرء فى الشيوعية يعمل حسب استطاعته وجهده وإن كان قليلا ، وسيجد الإنسان أن المجتمع يحقق له كل احتياجاته فليس المردود على الفرد بقدر المبذول من قبله فى عملية الإنتاج ، بل المشاركة حسب الكفاءة التى يجدها فى نفسه وفى أى مجال كفيلة بأن تحقق له مايسد حاجته .

---

(١) انظر المعجم (٣٦٤) .

المبحث السابع
إلغاء الدين

إن القضاء على الدين من أهم المبادىء الشيوعية ، وقد أجلبوا بخيلهم ورجلهم فى مسألة إلغائه والقضاء عليه ، وتفسيره حسب أهوائهم وآرائهم ، واعتبروه وهم وخرافة ورثتها الأجيال بعضها عن بعض . والدين عندهم مرتبط بظروف قائمة تدعو لوجوده فإذا زالت أسباب وجوده تحقق زواله .

ويرون أن الأفكار والآراء تتبدل وتتغير من مجتمع إلى آخر وتكون أفكار وآراء وأخلاق الطبقة السائدة فى كل مجتمع هى السائدة فى ذلك المجتمع فهم يرون أنه عندما (كان العالم القديم على أعقاب السقوط والزوال انتصر الدين المسيحى على الأديان الأخرى القديمة وحينما تركت الأفكار المسيحية محلها فى القرن الثامن عشر لأفكار الرقى الجديدة كان المجتمع الإقطاعى يقوم إذ ذاك بمعركته الأخيرة ضد البرجوازية التى كانت حينذاك ثورية ولم يكن ظهور الأفكار القائلة بحرية المعتقد والحرية الدينية إلا إيذاناً بسيطرة المزاحمة الحرة فى ميدان العقائد ...)[١].

ويرى الشيوعيون أن الدين أمرا عارضا ، وفكرا من الأفكار التى ظهرت فى فترة من الزمن كان الناس بحاجة اليها فى ذلك الوقت ، واعتبروه أفكارا تقليدية ، حيث قال انجلز فى اجابة على سؤال وضعه لنفسه مفاده (ماهو موقف النظام الشيوعى من الدين؟)

فأجاب (هل من حاجة لنفاذ بصيرة لكى يدرك المرء أن تغير معاش البشر وعلاقاتهم الإجتماعية ووجودهم الإجتماعى يستتبع تغيرا فى تمثلاتهم ومفاهيمهم وأفكارهم باختصار فى وعيهم .

---

(١) البيان الشيوعى (٦٤) .

عندما كان العالم القديم يحتضر تمكنت الديانة المسيحية من الانتصار على الديانات القديمة[٢] وعندما تقهقرت الأفكار المسيحية أمام هجمة الأفكار التقدمية فى القرن الثامن عشر كانت آخر قلاع الإقطاع تهوى تحت ضربات البرجوازية الرافضة التى كانت تشكل طبقة ثورية آنذاك ذلك أن شعارات حرية الفكر وحرية المعتقد الدينى لم تكن إلا إيذانا بحلول ملكوت المنافسة الحرة فى حقل المعرفة إن الثورة الشيوعية سوف تعلن القطيعة الكاملة مع علاقات الملكية القديمة .

فما العجب إذا إن هى أعلنت القطيعة الجذرية الكاملة فى سياق تطورها مع الأفكار التقليدية)[١].

فيظهر أن الدين كانت له ظروفه المساعدة لقيامه أما فى المجتمع الشيوعى وبعد التطور فلاحاجة للمجتمع فيه ، وذكر دعاة الشيوعية العلمية أن المشاعية الأولى التى تحققت فيها المساواة كانت خالية من الدين ، وأنه ماظهر إلا بعد أن اكتشفت الزراعة ووجدت الطبقات المالكة وغير المالكة فأرادت الطبقة المالكة السيطرة والاستغلال فابتكر الإنسان فكرة الدين وخصوصا الطبقة المالكة لتقوم بتبرير ماهى عليه من استغلال وظلم للطبقات الأخرى وقد صرح ماركس بأن الدين من صنع الإنسان فقال : (ليس الدين هو الذى يصنع الانسان إنما الإنسان هو الذى يصنع الدين)[٢].

فإذا كان الدين من صنع الإنسان فإذا ليس هناك خالق أو مدبر لهذا الكون تصدر الأوامر الدينية من عنده .

ولهذا أولى الشيوعيون التربية الإلحادية اهتماما كبيرا ومر معنا أنهم قسموا التربية التى تكفلها الدولة الى أقسام أربعة ومنها التربية الإلحادية . وذلك تسهيلا لإلغاء الدين والقضاء عليه .

---

(١) قارن ماجاء فى البيان ، ولأجل ذلك اعتبر البعض أن أصل البيان هو كتابات انجلز هذه (تعاليم الماركسية) .

(٢) تعاليم الماركسية (٣٩) ، وانظر البيان الشيوعى (٦٥) .

(٣) الماركسية قضايا أساسية (٦٠) ، بليخانوف ١٩٨٣م ، دار التقدم ، موسكو ، دون ذكر لرقم الطبعة .

إذن فما هى التربية الإلحادية؟

وللإجابة على ذلك نجد أن الشيوعيين عرفوها بأنها : (التأثير الهادف فى الناس لأجل تكوين العقيدة العلمية المادية عندهم ، وتذليل الأوهام والخرافات الدينية)[١].

ومن خلال التعريف السابق يتضح أن المقصود بها غرس العقيدة الإلحادية وإزالة الآثار الدينية التى وصموها بأنها أوهام وخرافات . وهذه التربية تضطلع بدور مهم فى تربية الإنسان حيث تسلحه بالأيديولوجية الماركسية الإلحادية وتزيل عنه رواسب الماضى . وتساعد فى بناية معتقداته الإلحادية بصورة وطيدة ، وذلك بجوار العمل التربوى والتحولات الإجتماعية والإقتصادية التى تشكل عاملا مهما فى تذليل الدين وزواله .

يقول ماركس : (إن الدين سيزول بقدر ماتتطور الإشتراكية . وينبغى أن يتم زواله بنتيجة التطور الإجتماعى الذى يعود فيه إلى التربية دور كبير)[٢].

الاتحاد السوفييتى والتربية الإلحادية :

عندما كان الاتحاد السوفييتى معقل الشيوعية العلمية الأول فقد عملت السلطات السوفيتية على تطوير هذا القسم من أقسام التربية بين السكان واهتمت به أكثر من غيره ، إذ أنه يسهل مهمتهم ويقربهم من تحقيق أهدافهم .

فاتخذت عدة إجراءات منها :

أولا : فصل الدين عن الدولة وفصل المدرسة عن الدين .

ثانيا : رفع المستوى الثقافى للشغيلة (لأن الأفكار الدينية تخلف وجهل) .

---

(١) المعجم (١٢٣) .

(٢) المرجع السابق (١٢٣) .

ثالثا : الاسترشاد بالتوجيهات اللينينية بشأن سبل التغلب على الأوهام الدينية .

رابعا : إصدار برنامج من قبل الحزب الشيوعى السوفيتى للنضال الفكرى ضد الدين .

خامسا : الدعاية العلمية الإلحادية ، وتطوير الحركة الإلحادية الجماهيرية ، والدعاية الواسعة للإلحاد التى تقوم بها دور النشر والمجلات والجرائد وسائر وسائل الإعلام الجماهيرى .

كل هذا أسهم فى ابتعاد الأغلبية من سكان الاتحاد السوفيتى عن الدين[١].

وأكد لينين على أهمية التنويع واستخدام مختلف الأساليب فى إيقاظ الناس من السبات الدينى! فقال :

(ينبغى إعطاء الجماهير مادة متنوعة للغاية فى الدعاية الإلحادية واطلاعها على وقائع من شتى ميادين الحياة ، والاقتراب منها بهذا النحو أو ذاك لإثارة اهتمامها ، وإيقاظها من السبات الدينى ، وهزها من شتى الجوانب وبشتى الأساليب ، وماإلى ذلك)[٢].

وهذه التربية الإلحادية التى ينعم بها الفرد فى ظل النظام الشيوعى ، يرافقها الآراء القائلة بأن الدين من اختراع الإنسان ، وأن الذى حمله على اختراعه التبرير لظلمه وجعل المظلومين يرضون بهذا الظلم لأنه قدرهم الذى رضيه لهم خالقهم . علاوة على إيهامهم بأن الدار الآخرة لهم إذا صبروا بقسمتهم فى هذه الحياة . ومن هنا ولج ماركس فى إعلانه أن الدين هو مصدر الهلاك والتثبيط والتخدير للمظلومين وإعلان تحسرهم فقال : (إن الشدة الدينية هى فى جزء منها التعبير عن الشدة الواقعية وفى جزء آخر الاحتجاج على الشدة الواقعية . الدين هو تحسر الإنسان المضطهد ، حرارة

---

(١) انظر المعجم (١٢٤) .
(٢) المرجع السابق (١٢٤) .

عالم عديم الشفقة مثلما هو روح الأوضاع الإجتماعية التى لامكان للروح فيها إنه أفيون الشعب)[١].

فاذا كان الدين بهذه المثابة من صنع البشر ، وسبب الشقاء والوهم فلابد من نقده والقضاء عليه .

فقال ماركس : (ان نقد الدين يجرد الإنسان من أوهامه حتى يفكر ويعمل ويصوغ واقعه الذاتى كإنسان أضاع أوهامه وبلغ سن الرشد وذلك كى يدور حول نفسه أى حول شمسه الواقعية)[٢].

وأخذ يكثر ماركس من أقواله حول إلغاء الدين ونقده وإرجاع الاضطهاد الذى وقع على الطبقات الكادحة بسببه .

وقال : (إن إلغاء الدين بما هو سعادة وهمية للشعب يعنى المطالبة بسعادته الحقيقية والمطالبة بتخليه عن الأوهام فى وضعه ، تعنى المطالبة بتخليه عن وضع يحتاج إلى أوهام ومن ثم فإن نقد الدين هو أصلا نقد وادى الدموع هذا ، الذى يشكل الدين هالته)[٣].

وبذل الشيوعيون قصارى جهودهم فى حرب الدين ومحاولة القضاء عليه ، بل وأعلنوا الإلحاد وأنكروا أن يكون هناك خالق واعتبروا المادة هى الأصل وإليها يرجع الأمر ، وعقد الشيوعيون مؤتمراتهم لحرب الدين واعتبروا القضاء عليه من أهم أعمال الثورة من أجل رفع الظلم والاضطهاد الذى وقع على الانسان حتى أصبح فى هذه الدنيا بائسا مضطهدا وهذا المجتمع أصبح كواد من الدموع . يقول جورج بوليتزر : (والإنسان بحاجة إلى الأوهام مادام فى هذه الحالة والدين يقدمها له فهو يحيط وادى الدموع بهالة يحجب عن الأنظار وسلاسل الأزهار الخيالية ، يعزى الإنسان بما يقدمه له من تحقيق وهمى لكينونته)[٤].

---

(١) وضعية الدين عند ماركس وانجلز (٣٨) .
(٢) مساهمة فى نقد فلسفة الحقوق الهيغلية نقلا من فلسفة الأنوار (١٢) .
(٣) وضعية الدين عند ماركس وانجلز (٣٩) .
(٤) فلسة الأنوار (١٠) .

ونتيجة لهذا التفسير للدين فإن الآلهة عند الشيوعيين مخلوقة من مخلوقات الإنسان يقولون : (إن الإنسان هو الذى خلق الآلهة الإنسان ، الموجود فى شروط حياتية محددة والدين طريقة معينة فى انعكاس العالم فى وجدان الإنسان)[١].

ومما سبق يمكننا استخلاص الآتى :

أولا : أن المادة خالقة هذا الكون والتصرف فيه إنما هو لها دون غيرها باعتبارها الأصل الأزلى الأبدى[٢].

ثانيا : أن الدين ابتكار واختلاق من قبل الطبقة الظالمة تبريرا لأفعالها وتسكينا للطبقة المظلومة لكى ترضى بنصيبها ، أو أن الدين من اختراع الطبقة المظلومة .

ثالثا : الربط بين الظلم الصادر من الطبقة المالكة على الطبقة المملوكة باسم الدين واعتباره السبب المباشر فى هذا الظلم ليتم القضاء عليه .

رابعا : أن أى محاولة للخروج من هذا الظلم فيلزم قبل ذلك إزالة السبب الذى أدى إليه وهو الدين ، ومن هنا كانت الدعوة لإلغاء الدين واعتباره أفيون الشعوب والمثبط للإنسان عن مطالبته بحقوقه .

خامسا : أن الدين هو من الأفكار التى تتناسب مع علاقات الإنتاج الموجودة فى كل مجتمع ، وبالتالى فهو متطور فما كان صالح لزمان لم يعد كذلك لزمان آخر .

سادسا : أن الشيوعية تقطع كل الصلات مع الماضى بما فى ذلك الدين الذى يعتبر من الأوهام والخرافات السابقة . بل إن تطور الإشتراكية يزيل الدين .

سابعا : أن الدين يخالف العلم ويناهضه والإشتراكية قائمة على أصول علمية فهو مخالف لها ، لابد من زواله .

---

(١) فلسفة الأنوار (٩-١٠) .

(٢) وسيأتى الحديث عنها إن شاء الله تعالى فى الفصل الرابع من هذا الباب .

ثامنا : أن وجود الدين سبب شقاء الإنسان وهو وادى الدموع الذى يسبب له الحزن والكآبة .

تاسعا : الاهتمام الكبير من قبل الشيوعيين بمسألة التربية الإلحادية وغرسها فى نفوس الشعب وانتزاع مايوجد فى النفوس من مشاعر إيمانية .

المبحث الثامن
التأميم

من المبادىء الأساسية للشيوعية التأميم الذى يجعل وسائل الإنتاج وفروع الإقتصاد ملكاً للدولة وعرف أصحاب الفكر الشيوعى ذلك المبدأ بقولهم :

(إحالة المؤسسات الإنتاجية أو فروع الإقتصاد التى تشكل ملكا خاصا إلى حوزة الدولة)(١).

فالتأميم هو جعل وسائل الإنتاج فى ملكية إجتماعية مشتركة ، ووجوده إنما هو بانتصار ثورة البروليتاريا بسحق الإقطاعيين والرأسماليين وانتزاع الملكية منهم ، وجعلها فى يد الشعب بأسره وقد (أشار مؤسسو الشيوعية العالمية إلى أن تأميم وسائل الإنتاج هو سنة عامة للثورات الإشتراكية)(٢).

وطريقة التأميم تختلف تبعا لاختلاف الظروف ، جاء فى المعجم : (وطرائق التأميم قد تختلف تبعا للظروف التاريخية الملموسة . وعلى حزب الطبقة العاملة السياسى أن يحدد هذه الأساليب والطرائق)(٣).

ويلحق التأميم بوسائل الإنتاج والمرافق الأخرى داخل الدولة كالصناعة والمصارف وغيرها ، ففى الاتحاد السوفييتى حدث فى كانون الأول ديسمبر ١٩١٧م تأميم المصارف الخاصة وفى حزيران (يونيو) ١٩١٨م جرى تأميم الصناعة الكبيرة ومع تأميم الصناعة جرى فى الوقت نفسه تأميم فروع الإقتصاد الوطنى الأخرى والأسطول التجارى والتجارة الخارجية والسكك الحديدية . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٠م أحيلت إلى ملكية الدولة جميع المؤسسات الإنتاجية التى يعمل فيها أكثر من ٥ عمال ويوجد فيها

---

(١) المعجم (١١١) .
(٢) المرجع السابق (١١١) .
(٣) المرجع السابق (١١١) .

محرك ميكـانيكى ، أو يعمـل فيهـا ١٠ عمـال دون أن يكـون لـديها محرك ميكانيكى ، وقد كانت هذه الاحالة آخر إجراء أنجز تأميم الصناعة)[١]. ومن أهم الأشياء التى تخضع للتأميم الأرض

يقـول لينين : (إن تأميم الأرض ليـس فقط الوسيلـة الـوحيدة لتصفية عادات القرون الوسطى فى الـزراعة تصفيـة تامـة بل هـو أيضـا خير نظـام زراعى ممكن فى ظل الرأسمالية)[٢].

ويقول : (إن تأميم الأرض كلها سيتم بوصفه الحد الأقصـى من الثورة الديمقراطية البرجوازية ، بوصفه خطوة طبيعية ضرورية إلى الأمام فى الطريق التى تنطلـق من انتصار الديمقـراطية البرجوازية حتى البـدء بنضال حقيقى فى سبيل الإشتراكية)[٣].

ويقـــول : (ان تأميم الأرض وهـــو تدبير برجوازى ويفترض أكبر مايكون من الحرية الممكنة والمعقـولة فى المجتمـع الـرأسمالى وحرية النضـال الطبقـى والتمتـع بالأرض خاليـة من جميع الذيول غير البرجوازية ، وتأميم الأرض ، بالغائه الملكية الخاصة للأرض ، من شأنه فضلا عـن ذلك أن يسدد ضربة جبارة للملكية الخاصـة لجميع وسائل الإنتاج بوجه عـام ، إلى حد أنه ينبغى على حزب البروليتاريا أن يساهم بجميع الوسائل فى هذا الإصلاح)[٤].

الأهداف التى يطمحون إلى تحقيقها من وراء هذا المبدأ :

أولا : مصـادرة أملاك الإقطـاعيين والرأسماليين وجعلهـا ملكـا للشعب بأسره .

ثانيا : أن التـأميم يحول الطبقـة العـاملة من طبقة مستهلكـة إلى سيـدة للإنتاج[٥].

---

(١) المعجم (١١٢) .
(٢) التحالف بين العمال والفلاحين (٢١٩) .
(٣) المرجع السابق (١٧٤) .
(٤) المرجع السابق (٢٤١) ، وانظر المعجم (١١٣-١١٥) .
(٥) انظر المعجم (١١١) .

ثالثا : أن التأميم عامل مهم من عوامل بناء العناصر الإشتراكية فى الإقتصاد المتعدد الأنماط وأن إيرادات هذه البلدان من القطاع المؤمم وخاصة من بيع البترول ومشتقاته تستعمل لأجل تسريع التطور الوطنى(١).

رابعا : تخلص الفلاح من ضرورة إنفاق أموال طائلة على شراء الأرض وعلى دفع بدلات الإيجار للملاكين العقاريين(٢).

خامسا : أن انتقال الأرض إلى ملكية الدولة يعنى تقويض احتكار الملاكين الفرديين ، ويعنى أيضا حرية فى المزاحمة أكثر انسجاما واكتمالا فى الزراعة(٣).

وهكذا يربط الشيوعيون بين سعادة العامل وتحقيق رغباته وبين ملكية الدولة لوسائل الإنتاج ، ويصورون ذلك بأنه يخفف على العامل مايبذله من جهد ومال فى سبيل الحصول على قطعة الأرض .

فهل وصل العامل الى تلك الراحة فى ظل النظام الشيوعى؟

---

(١) انظر المعجم (١١٣) .

(٢) انظر المرجع السابق (١١٤) .
وهذه النقاط أخذت من ثنايا الكلام من الصفحات المشار إليها .

(٣) انظر مصادر الماركسية (٤٢) .

المبحث التاسع
زوال الدولة

بعد أن تتحقق الشيوعية على الوجه الذى نظروه فإنه - على حد زعمهم - لاحاجة إلى الحكومة ، وهذا المبدأ لن يتم تحقيقه دفعة واحدة بل يكون بالانتقال من وضع لآخر حتى يكون على الوجه المحدد له .

فيسعى الشيوعيون بداية إلى أن تكون وسائل الإنتاج بأكملها فى حوزة الدولة ويكون تمركز جميع الأدوات فى يدها[١].

وبالتالى ستحقق العدل الذى يزيل التناحر والعداء لأن مهمة الحكومة الأخذ بحق الطبقة المظلومة والقضاء على الطبقات الاحتكارية الظالمة . فإذا أزيل سبب الظلم وهو وجود الطبقات - القائم على الملكية الفردية - فلاداعى لبقاء الحكومة .

يقول انجلز : (فحالما لايعود ثمة أية طبقة إجتماعية ينبغى إبقاؤها فى حالة الاستعباد طالما يتم القضاء على الحكم الطبقى وعلى الصراع الفردى من أجل الوجود القائم على أساس الفوضى السائدة فى إنتاجنا الحاضر ، مع التصادمات والتطرفات الناجمة عنها ، فإنه لايتبقى شىء يتوجب اضطهاده ، بالتالى لايعود ثمة ضرورة من أجل قوة قامعة خاصة هى الدولة . إن أول عمل تشكل الدولة به بصورة فعلية كممثلة للمجتمع بأسره - الاستيلاء على وسائل الإنتاج باسم المجتمع - هو فى الوقت نفسه آخر أعمالها المستقلة بوصفها دولة . إن تدخل الدولة فى العلاقات الإجتماعية يصبح عديم الضرورة فى ميدان إثر آخر ومن ثم يتلاشى من تلقاء ذاته ، إذ يستعاض عن حكومة الأشخاص بإدارة الأمور ، وبتوجيه عمليات الإنتاج . فالدولة لم (تلغ) بل هى تضمحل)[٢].

---

(١) انظر البيان الشيوعى (٦٦) .

(٢) انتى دوهرنغ (٣٣٨-٣٣٩) .

وبعد ان أورد لينين ذلك المقطع من كلام انجلز فى كتابه الدولة والثورة علق بقوله (هنا يتحدث انجلز فى الواقع عن (قضاء) الثورة البروليتارية ، على دولة البرجوازية فى حين أن ماقاله عن الاضمحلال يخص بقايا الدولة البروليتارية بعد الثورة الاشتراكية . الدولة البرجوازية لا(تضمحل) برأى انجلز ولكن تقضى عليها البروليتاريا فى الثورة . تضمحل بعد هذه الثورة الدولة البروليتارية أو شبه الدولة)[١].

ويقول لينين تعليقا على قول انجلز (إن الدولة هى (قوة خاصة للقمع) .

إن انجلز قد أعطى هنا بأتم الوضوح تعريفه الرائع هذا والعميق منتهى العمق . ويستنتج منه أن القوة الخاصة لقمع البرولتاريا من قبل البرجوازية لقمع الملايين من الشغيلة من قبل حفنات من الأغنياء لابد أن يستعاض عنها بـ(قوة خاصة لقمع) البرجوازية من قبل البروليتاريا (دكتاتورية البروليتاريا) وفى هذا كنه (القضاء على الدولة بوصفها دولة) وفى هذا كنه عملية تملك وسائل الإنتاج باسم المجتمع ومن الواضح بداهة أن مثل هذه الإستعاضة عن (قوة خاصة) (برجوازية) بـ(قوة خاصة) أخرى (بروليتارية) لايمكنها بتاتا أن تتم بشكل (اضمحلال)[٢].

وقد أكثر لينين فى مسألة أن المقصود بالاضمحلال إنما يكون للدولة البرولتارية وأما الدولة البرجوازية فلابد من الثورة العنيفة ضدها .

فقال : (يتكلم انجلز عن (الاضمحلال) أو حتى وهو تعبير أبرز وأجمل عن الجنوح قاصدا بأتم الوضوح والجلاء مرحلة مابعد (تملك الدولة لوسائل الإنتاج باسم المجتمع كله) أى مرحلة مابعد الثورة الإشتراكية ، ونحن جميعا نعلم أن الشكل السياسى (للدولة) فى هذه المرحلة هو

---

(١) الدولة والثورة (١٩) .
(٢) المرجع السابق (٢٠) .

الديمقراطية الأتم ولكن لم يدر فى خلد أحد من الانتهازيين الذين يشوهون الماركسية ، دونما خجل أن الحديث يدور هنا عند انجلس بالتالى عن (جنو) و(اضمحلال) الديمقراطية ، ويبدو دلك لأول وهلة فى منتهى الغرابة ولكن لايستطيع أن يفهم ذلك غير الذين لم يصل بهم تفكيرهم إلى أن الديمقراطية هى أيضا دولة وأن الدولة البرجوازية لايستطيع (القضاء) عليها غير الثورة والدولة بوجه عام أى الديمقراطية الأتم يمكنها أن (تضمحل) وحسب)[١].

والدولة عند الشيوعيين هيئة للظلم والتسلط .

فهى عند ماركس (هيئة للسيادة الطبقية هيئة لظلم طبقة من قبل طبقة أخرى هى تكوين (نظام) يمسح هذا الظلم بمسحة القانون ، ويوطده ملطفا اصطدام الطبقات)[٢].

وعلى هذا الأساس فالدولة أنشئت من أجل الظلم وتكميم الأفواه لامن أجل المصلحة .

يقول انجلز : (إن الدولة قد نشأت من الحاجة إلى لجم تضاد الطبقات وبما أنها قد نشأت فى الوقت نفسه ضمن الاصطدامات بين هذه الطبقات فهى كقاعدة عامة دولة الطبقة الأقوى السائدة إقتصاديا ، والتى تصبح عن طريق الدولة الطبقة السائدة سياسيا أيضا وتكتسب على هذه الصورة وسائل جديدة لقمع الطبقة المظلومة واستثمارها ...)[٣].

واعتبر انجلز أن الدولة إنما وجدت لحالة من التطور فى المجتمع اقتضى وجودها كحالهم مع بقية الأمور من دين وأخلاق فقال : (الدولة ليست بحال قوة مفروضة على المجتمع من خارجه والدولة ليست كذلك (واقع الفكرة الأخلاقية) (صورة وواقع العقل) كما يدعى هيغل . الدولة

---

(١) الدولة والثورة (٢٠) ، وانظر (٢٣) .
(٢) المرجع السابق (٨) .
(٣) المرجع السابق (١٤) .

هى نتاج المجتمع عن درجة معينة من تطوره ، الدولة هى إفصاح عن واقع أن هذا المجتمع قد تورط فى تناقض مع ذاته لايمكنه حله وانه قد انقسم إلى متضادات مستعصية هو عاجز عن الخلاص منها . ولكيلا تقوم هذه المتضادات هذه الطبقات ذات المصالح الإقتصادية المتنافرة بالتهام بعضها بعضا وكذلك المجتمعات فى نضال عقيم ، لهذا اقتضى الأمر قوة تقف فى الظاهر فوق المجتمع ، قوة تلطف الاصطدام وتبقيه ضمن حدود (النظام) ، إن هذه القوة المنبثقة عن المجتمع والتى تضع نفسها مع ذلك فوقه وتنفصل عنه أكثر فأكثر هى الدولة)[١].

وسبب وجود الدولة وبقاؤه إنما يكمن فى الطبقات ، وإذا زالت سوف تزول الدولة بالضرورة .

يقول انجلز :

إن (الدولة لم توجد منذ الأزل فقد وجدت مجتمعات فى غنى عن الدولة ولم يكن لديها أية فكرة عن الدولة وسلطة الدولة ، وعندما بلغ التطور الإقتصادى درجة اقترنت بالضرورة انقسام المجتمع إلى طبقات غدت الدولة بحكم هذا الإنقسام أمرا ضروريا ونحن نقترب الآن بخطوات سريعة من درجة فى تطور الإنتاج لايكف عنده وجود هذه الطبقات عن أن يكون ضرورة وحسب بل يصبح عائقا مباشرا للإنتاج ، ستزول الطبقات بالضرورة كما نشأت فى الماضى بالضرورة . ومع زوال الطبقات ستزول الدولة بالضرورة . والمجتمع الذى ينظم الإنتاج تنظيما جديدا على أساس اتحاد المنتجين بحرية وعلى قدم المساواة سيرسل آلة الدولة بأكملها إلى حيث ينبغى أن تكون حينذاك إلى متحف العاديات بجانب المغزل البدائى والفأس البرونزية)[٢].

---

(١) الدولة والثورة (٧) .

(٢) المرجع السابق (٦٨) .

وعندما كانت مهمة القضاء على الطبقات تقع على عاتق البروليتاريا وهى منتصرة لامحالة ـ كما يراه الشيوعيون ـ لم يعد هناك حاجة لوجود الدولة أو الحكومة التى كانت تأخذ على عاتقها الدفاع عن الفكر الشيوعى ونشره ، حيث عمت الشيوعية جميع أرجاء المعمورة . خاصة إذا علمنا أن من مهمات الدولة الملقاه على عاتقها إيصال الفكر الشيوعى إلى كل الشعوب ، فزال المعارض للفكر الشيوعى فلاحاجة لبقاء الدولة . إضافة إلى أن جميع أفراد المجتمع سينعمون بتحقيق رغباتهم واحتياجاتهم . وسيقضى على سبب النزاع والخصومة وهو الملكية الفردية ، ومن هنا فليس لوجود الحكومة أى معنى فالعالم كله يرفل بالمحبة وعدم الطمع!!

يقول لينين : (إن هدفنا النهائى هو القضاء على الدولة أى على كل عنف منظم دائم كل عنف حيال الناس بوجه عام . نحن لانتوقع حلول نظام إجتماعى لايراعى فيه مبدأ خضوع الأقلية للأكثرية . ولكننا نطمع إلى الإشتراكية ، ونحن موقنون من أنها ستصير إلى شيوعية فتزول نظرا لذلك كل ضرورة إلى استخدام العنف حيال الناس بوجه عام إلى خضوع إنسان لإنسان قسم من السكان لآخر ، لأن الناس سيعتادون مراعاة الشروط الأولية للحياة فى المجتمع بدون عنف وبدون خضوع)[١].

ويعترف بوجود المخالفات والتجاوزات التى تحتاج إلى قمع ولكنه يبرر كالآتى فيقول : (إن الشيوعية هى وحدها التى تجعل الدولة أمرا لالزوم له البتة لأنه لايبقى عندئذ أحد لينفى قمعه (أحد) بمعنى الطبقة بمعنى النضال المنتظم ضد قسم معين من السكان نحن لسنا بطوبويين ، ونحن لاننكر أبدا امكانية وحتمية وقوع تجاوزات من أفراد كما لاننكر ضرورة قمع مثل هذه التجاوزات ، ولكن هذا الأمر لايحتاج أولا إلى آلة خاصة للقمع ، فالشعب المسلح نفسه يقوم ببساطة ويسر كما تقوم كل جماعة من الناس المتمدنين حتى فى المجتمع الراهن بتفريق متشاجرين أو بالحيلولة دون الاعتداء على

---

(١) الدولة والثورة (٨٧-٨٨) .

امرأة . وثانيا نحن نعلم أن السبب الإجتماعى الجذرى للتجاوزات التى تتجلى فى الاخلال بقواعد الحياة فى المجتمع هو استشمار الجماهير وعوزها وبؤسها وعندما يزول هذا السبب الرئيسى تأخذ التجاوزات لامحالة بالاضمحلال نحن لانعلم بأية سرعة وبأى تدرج ولكننا نعلم أنها ستضمحل ومع اضمحلالها تضمحل الدولة أيضا)[1].

ثم إن لينين يجعل القضاء على الدولة من المهام التاريخية التى تضطلع بها السلطة السوفييتية ويكون ذلك بالوصول إلى إشراك جميع الكادحين فى إدارة الدولة وتسيير أمورها فيقول عند حديثه عن الدولة السوفيتية التى تمثل نوعا جديدا يؤدى فى النهاية إلى إزالة الدولة (إن المهمة التاريخية التى تقع على عاتق الجمهورية السوفيتية - وهى نوع جديد من الدولة - فى طريق الانتقال نحو محو الدولة التام تنحصر فيما يلى :

أولا : التنظيم الشامل بطبقة البروليتاريا وإشراكهم فى نشاط الدولة ليتمتعوا بحقوقهم الديمقراطية .

ثانيا : دمج العمال بعضهم ببعض الذين فى المدن منهم والأرياف .

ثالثا : تحقيق المساواة حقيقة لاإدعاء .

رابعا : تحقيق الشكل الأمثل والأعلى من الديمقراطية بخصوص الانتخابات والنواب .

خامسا : الروابط الوثيقة بين السلطة السوفيتية وجماهير البروليتاريا يتيح تحقيق ديمقراطية أعلى .

سادسا : إتاحة الفرصة لإنشاء قوة مسلحة للعمال والفلاحين .

سابعا : دمج السلطة التشريعية بالسلطة التنفيذية .

ثامنا : ضرورة استمرار النضال من أجل إحراز النجاح فى البناء الإشتراكى .

تاسعا : أن الجهد الذى ينبغى بذله فى هذا الاتجاه والذى يرتبط بصلة لاتنفصم بانجاز مهمة سلطة السوفييت التاريخية الرئيسية وهى الانتقال إلى

---

(١) الدولة والثورة (٩٧) .

القضاء على الدولة قضاء كاملا ، إنما هو أولا ينحصر فيما يلى :

(١) كل عضو من السوفييت ينبغى عليه إجباريا أن يقوم بعمل ما فى ميدان إدارة الدولة .

(٢) هذه الأعمال تتغير بالتوالى وتشمل مجموع القضايا المرتبطة بإدارة الدولة وبكل فروعها .

(٣) ينبغى أن يدعى كل السكان الكادحين دون استثناء أحد منهم إلى الإشتراك المستقل فى إدارة الدولة ، وذلك بعدد من التدابير المتتابعة والمنتقاة بحذر والمطبقة مع ذلك بدأب وثبات .

عاشرا : أن الضمانة الفعلية التى تحققها الإشتراكية الديمقراطية هو أن تصل الجماهير الكادحة إلى إدارة الدولة[١].

هذه هى المهمات التى جعلها لينين مناطة بالسلطة السوفيتية من أجل تحقيق مبدأ إلغاء الدولة لعدم الحاجة إليها حيث سادت الشيوعية الأرض . وحصلت الطبقة المظلومة على حقوقها فلم يعد هناك نزاع ولاخلاف ولاخصومات تستدعى وجود حكومة للفصل فيها .

وعلى هذا فخلاصة الأمر فى هذا المبدأ :

أولا : أن تحصل البروليتاريا على السلطة السياسية وتقضى على بقية الطبقات . فزوال الطبقات شرط ضرورى لزوال الحكم .

ثانيا : القضاء على الدولة البرجوازية بالعنف أما دولة البروليتاريا فإنها سوف تضمحل تلقائيا .

ثالثا : أن الظروف الإقتصادية أو المعيشية هى التى أوجدت فكرة الدولة ، فهى كبقية الأفكار والقيم والأخلاق التى وجدت حسب الظروف الإقتصادية التى دعت إليها .

رابعا : أن انتشار الفكر الشيوعى فى أرجاء المعمورة سيزيل الحاجة إلى الدولة . فالفكر الشيوعى انتشر والظلم والطبقات زالت فلاحاجة لها .

---

(١) انظر ماهى سلطة السوفييت (١٣-١٨) .

المبحث العاشر
الأممية

قلنا فى المبدأ التاسع بأن العالم سينعم بالفكر الشيوعى الذى يمثل الفكر الصالح للبروليتاريا ، ومن هنا فهم يرغبون فى تحقق تجمع العمال على خط واحد ودعوتهم كانت واضحة (ياعمال العالم اتحدوا) وكانت هناك عدة محاولات ودعوات من أجل جعل العمال فى اتحاد واحد فهم جعلوا الأممية عدة أقسام :

(١) الأممية الإشتراكية الأولى .
(٢) الأممية الثانية .
(٣) الأممية الشيوعية .
(٤) الأممية البروليتارية .

أولا : الأممية الأولى (الإشتراكية) :

هى (اتحاد عالمى للأحزاب الإشتراكية ـ الديمقراطية التى تسير على خط إصلاحى فى الحركة العمالية)[١].

والأممية الأولى من عام (١٨٦٤-١٨٧٦م) .

ويعتبرونها (أول اتحاد عالمى للعمال اضطلع بدور بالغ الشأن فى نشر أفكار الشيوعية العلمية وفى تنظيم الأحزاب العمالية الوطنية وإرساء أسس تنظيم العمال على نطاق عالمى بغية تحضير هجومهم الثورى على الرأسمال)[٢].

ويرى الشيوعيون أن الأممية الأولى حققت الآتى :

أولا : أرست الأسس النظرية والتنظيمية للحركة العمالية العالمية .

---

(١) المعجم (٥٥) .
(٢) المرجع السابق (٥٧) .

ثانيا : اشتركت بنشاط فى تنظيم نضالات البروليتاريا الإقتصادية والسياسية .

ثالثا : عملت الكثير لأجل تأسيس الأحزاب الماركسية الوطنية .

رابعا : بددت أوهام الإشتراكية الطوباوية السابقة للماركسية .

خامسا : بينت بطلان الإشتراكية البرجوازية الصغيرة .

سادسا : مهدت لقيام أحزاب عمالية إشتراكية جماهيرية .

يقول لينين إن الأممية الأولى أنجزت (مهمتها التاريخية مفسحة المجال لمرحلة من النمو فى الحركة العمالية فى جميع البلدان نموا أقوى وأشد مما مضى الى مالاحد له ـ مرحلة تطور هذه الحركة من حيث الاتساع مرحلة تأليف أحزاب عمالية إشتراكية جماهيرية ، على أساس شتى الدول القومية)[١].

الأممية الثانية :

وحدد تاريخها من قبل الشوعيين من عام (١٨٨٩-١٩١٤م) وهى تمثل اتحاد عالمى للأحزاب الإشتراكية .

واصلت القضية التى بدأت بها الأممية الأولى . وهى قضية وحدة العمال ، غير أن هذه الأممية منيت بالفشل والإفلاس كما ذكر ذلك لينين[٢].

وعقدت المؤتمرات والإجتماعات لهذه الأممية غير أن الخلاف كان محتدما بين أعضاء المجلس العام وراد الحال سوءا بأن العالم كان على عتبات الحرب العالمية الأولى ، حيث إن الأحزاب الإشتراكية الديمقراطية قد وقفت بجوار حكوماتها أثناء الحرب مما أدى إلى إفلاس الأممية الثانية .

يقول لينين : (إن افلاس الأممية الثانية قد تجلى بأبلغ الوضوح فى خيانة أغلبية الأحزاب الإشتراكية الديمقراطية)[٣].

---

(١) مصادر الماركسية (١٨) .

(٢) ألف كتابا أسماه (إفلاس الأممية الثانية) .

(٣) إفلاس الأممية الثانية (٧٠) .

وكان الحزب الألمانى وهو أكثر الأحزاب تأثيرا فى الأممية الثانية قد وقف إلى جانب حكومته وغيره من الأحزاب كان كذلك .

يقول لينين : (إن معظم الأحزاب الإشتراكية ، الديمقراطية وعلى رأسها وفى المقام الأول منها الحزب الأكبر والأكثر تأثيرا فى الأممية الثانية الحزب الألمانى قد وقفت إلى جانب هيئة أركانها العامة وحكومتها وبورجوازيتها ضد البروليتاريا)[١].

ولم يبق من الأحزاب إلا الحزب السوفييتى الثورى الذى أخذ على عاتقه إعادة التنظيم والدعوة الى اتحاد عمال العالم .

نتائج الأممية الثانية كما يراها الشيوعيون رغم إفلاسها الذى منيت به :

أولا : وسعت أبعاد الحركة العمالية المنظمة .

ثانيا : استطاعت أن تنتزع من الرأسماليين تنازلات عديدة لتحسين ظروف عمل العمال ورفع مستوى حياتهم[٢].

يقول لينين : (ان الأممية الثانية قد قامت بنصيبها فى العمل التحضيرى النافع المتعلق بتنظيم الجماهير البروليتارية التمهيدى خلال عهد سلمى مديد من العبودية الرأسمالية الأشد قساوة ومن التقدم الرأسمالى الأسرع فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين)[٣].

الأممية الثالثة (الشيوعية) :

(وهو اتحاد عالمى للأحزاب الشيوعية من مختلف البلدان .

---

(١) إفلاس الأممية الثانية (٤) .
(٢) انظر المعجم (٦٢) .
(٣) المرجع السابق (٦٢) .

وقد أملت تأسيسها الحاجة الموضوعية الى تطهير الحركة الثورية للبروليتاريا من التحريفية[١] والإنتهازية[٢] وانشاء منظمة سياسية عالمية للطبقة العاملة فتجاوب مع ظروف العهد الثورى والعمل على أساس ماركسى منسجم كوريثة تاريخية للأممية الأولى ، ووريثة لخبرة تقاليد الأممية الثانية)[٣].

فهذه الأممية امتداد للسابقات وقد أفادت منها كثيرا حيث غدت الأممية الشيوعية تحقق دكتاتورية البروليتاريا . يقول لينين :

(الأممية الأولى ارست أسس النضال البروليتارى ، العالمى ، فى سبيل الإشتراكية . والأممية الثانية سجلت مرحلة تمهيد السبيل من أجل انتشار الحركة فى عدد من البلدان على نطاق واسع ، جماهيرى .

والأممية الثالثة ورثت ثمار نشاطات الأممية الثانية ، ونبذت دنسها البرجوازى الصغير ، الانتهازى والإشتراكى - الشوفينى ، وأخذت تحقق ديكتاتورية البروليتاريا)[٤].

---

(١) التحريفية : كما يعرفها الشيوعيون (تيار فكرى سياسى معاد للماركسية اللينينية ، ظهر داخل الحركة العمالية والشيوعية تحت راية "انتقاد" النظرية الماركسية ، اللينينية ، و"إعادة النظر فيها" ، و"تمحيصها" بل وحتى "تطويرها" وهى أحد أنواع الإنتهازية) . المعجم (١١٩) .

(٢) تيار سياسى ينكر ضرورة نضال البروليتاريا الطبقى والثورة الإشتراكية ، ويعلق إمكانية الإنتقال التدريجى من الرأسمالية إلى الإشتراكية عن طريق الإصلاحات فقط . انظر الدولة والثورة (١٢٩) .

(٣) المعجم (٦٢) .

(٤) المرجع السابق (٦٢) .

وقد جاءت الدعوة لهذه الأممية الشيوعية بعد ثورة أكتوبر وزيادة الحركة الثورية وعقد فى ٢ آذار مارس ١٩١٩م المؤتمر الشيوعى العالمى فى موسكو وكان يمثل خمس وثلاثون منظمة من إحدى وعشرين دولة .

واتخذ المؤتمر قرارا بأن تتخذ الأممية الجديدة اسم الأممية الشيوعية[١].

وقد قدمت الأممية الشيوعية الآتى :

أولا : بعثت الأممية الشيوعية ووطدت التضامن الأممى بين العمال الثوريين .

ثانيا : سهلت إنشاء أحزاب كفاحية حقا للطبقة العاملة .

ثالثا : ربت ملكات ماركسية ـ لينينية مخلصة لقضية الثورة .

رابعا : أن خبرة الأممية الشيوعية تشكل جزءا لايتجزأ من تلك الخبرة الثورية التى تعتمدها الحركة الشيوعية العالمية المعاصرة[٢].

الأممية البروليتارية :

وتمثل (إدراك وحدة وتطابق مصالح بروليتارى جميع البلدان ، وشعور كل فصيلة وطنية من فصائل الحركة الشيوعية العالمية بالمسؤولية عن نشاطها إزاء حركة التحرر العالمية)[٣].

وتقوم الأممية البروليتارية على التضامن بين العمال والنضال المشترك ضد الطبقات الظالمة ، وذلك بين طبقة العمال فى كل المجتمعات ، وتكون المساعدات فيما بينهم بجمع التبرعات المالية والأطعمة والملابس ، ويكون التنظيم فيما بينها فى الاضرابات والمظاهرات التى تؤيد العمال وواضع مبدأ أممية البروليتاريا هو ماركس ومعه انجلز ، وأخذت أممية البروليتاريا مكانة من الاهتمام حيث كانت أهم منظمة للعمال الواعين من مختلف البلدان

---

(١) انظر المعجم (٦٤) .
(٢) انظر المرجع السابق (٦٤) .
(٣) المرجع السابق (٦٤) .

ولقى الشعار الوارد فى البيان الشيوعى ياعمال العالم اتحدوا صدى واسعا لدى البروليتاريين ، وقد عملت المنظمة البروليتارية على مساندة الثورة فى كل البلدان وارتقت الأممية البروليتارية إلى أممية اشتراكية[١]وقد اعتبر الشيوعيون أن أممية البروليتاريا تسعى إلى الآتى :

أولا : تعزير الروابط بين الأمم الإشتراكية وبين الطبقة العاملة فى البلدان الرأسمالية وحركة التحرر الوطنى العالمية وتوطيد وحدة قوى التحرر كافة .

ثانيا : تنبذ الأممية البروليتارية أى هيمنة سواء كانت هيمنة لبلد ما أو حزب ما أو هيمنة كتلة بلدان أو أحزاب .

ثالثا : أن الأممية البروليتارية تعنى المساواة التامة والتكافؤ والتحالف الأخوى وتنسيق السياسة بين جميع البلدان الإشتراكية ، وكل الأحزاب الماركسية اللينينية .

رابعا : أن الأممية البروليتارية تناضل ضد نزعات ضيق الأفق القومى وتقوقع الأمم فى أطرها الضيقة وتنمية العادات والأخلاق البالية[٢].

وبالتالى فإن القومية والقوميات تمثل عدوا لدودا للشيوعيين هكذا أرادوا أن يقضوا عليها ، لأنها تقضى على مصالح الأممية . يقول انجلز : (الأمر الجوهرى هو الحفاظ على الروح الأممية الحقة التى لاتسمح بأى شوفينية[٣]قومية والتى ترحب بكل تقدم جديد للحركة البروليتارية أيا كانت الأمة التى تحرزه ...)[٤].

ويعتبر الشيوعيون أن الهدف الأسمى للوصول إلى التحالف بين العمال وتحقيق الإشتراكية ، هو الوصول إلى الأممية العامة .

---

(١) المعجم (٦٤) .
(٢) المرجع السابق (٦٦) .
(٣) شوفينية : تيار سياسى إشتراكى لايعادى البرجوازية يعمل أصحابه وفق مصالح أوطانهم . انظر الدولة والثورة (٣-٤) .
(٤) حرب الفلاحين فى المانيا (٢٣-٢٤) .

جاء فى كتاب الإشتراكية لبورجان : (إن بناء الإشتراكية ، إذا ، هو الهدف الذى يجب الوصول إليه لمنع المجتمع من الضياع فى غياهب البربرية والحرب ، والطبقة العاملة هى القوة الإجتماعية الوحيدة التى تستطيع تحقيق هذا الهدف . إن العمال الذين لايملكون سوى قوة عملهم يشكلون الطبقة الوحيدة فى المجتمع التى تتناسب وظيفتها الإقتصادية مع الطابع العالمى للإنتاج . لذلك فإن الشرط الأول والذى لاغنى عنه لتحقيق التحالف العالمى بين الشعوب هو الوحدة الأممية للطبقة العاملة . هذه الوحدة دون سواها تستطيع تجميع وتدريب كافة الجماهير الشعبية فى النضال من أجل الإشتراكية)[١].

والأممية كلها مصلحة ، ومحققة لآمال العمال ، وقاضية على الظلم . يقول لينين : (إن العمال يخلقون فى العالم كله حضارتهم الأممية التى مهدوا لها منذ زمن بعيد دعاة للحرية وأعداء الظلم . والعمال يعارضون العالم القديم ، عالم الظلم القومى عالم الشحناء القومية أو العزلة القومية بالعالم الجديد ، عالم وحدة الشغيلة من أبناء جميع الأمم ، بعالم لايتسع لأى إمتياز لايتسع لأقل ظلم لانسان من قبل إنسان)[٢].

ويقول : (إن الطبقة العاملة وحزب العمال الإشتراكى الديمقراطى فى روسيا قد أعد كل تاريخهما للتكتيك "الأممى" اى للتكتيك الثورى حقا والثورى إلى النهاية)[٣].

وبهذا فالأممية تحقق الآتى :

أولا : اتحاد العمال فى جميع أنحاء العالم تحت لواء واحد (ياعمال العالم اتحدوا) .

---

(١) (١٥٠-١٥١) .
(٢) استيقاظ آسيا (٢٧-٢٨) .
(٣) إفلاس الأممية الثانية (٧٤) .

ثانيا : أن القوميات لاقيمة لها ولاأساس ولايمكن اعتبارها ، فالشيوعية تعادى القومية .

ثالثا : أن الدعوة الأممية إنما هى لصالح العمال فهم سيقضون على الظلم والاستغلال .

رابعا : أن الأممية ستحقق الإشتراكية وتزيد فى قوتها .

هذه أهم المبادىء الشيوعية وقد توخيت أن أعرضها كما يراها أصحاب ذلك الفكر دون اشتمال هذا العرض على أى نقد أو نقض بل نترك ذلك إلى حينه إن شاء الله تعالى .

الفصل الثالث
الماركسية وصلتها بالصهيونية

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد .

المبحث الأول : حياة كارل ماركس .

المبحث الثانى : مصادر الماركسية .

المبحث الثالث : الشيوعية وليدة الصهيونية .

المبحث الرابع : البراهين الدالة على أن الشيوعية وليدة الصهيونية .

الفصل الثالث
الشيوعية وصلتها بالصهيونية

لعب اليهود دورا كبيرا فى الأحداث والمتغيرات التى شهدتها أوروبا وكان دورا إفساديا يحصل اليهود من ورائه إلى تحقيق أهدافهم فى استعباد الناس والقضاء على الأديان وتحقيق أحلامهم .

واتخذوا عدة أساليب فى تحقيق المآرب والوصول إلى الغايات .

وانضوى بنى يهوذا تحت عدة مسميات فأنشأوا الجمعيات السرية والمؤسسات المنظمة ، التى تقوم على رعاية خطط اليهود وتنفيذها ، ومن المنظمات التى عمل الأخطبوط اليهودى على إيجادها الحركات الصهيونية الهادفة إلى العودة إلى أرض فلسطين ، وهى حركات يهودية اتخذت لها عدة أوجه لتحقيق مصالح اليهود . ومن الأوجه التى ظهرت واستغلتها الصهيونية الفكرة الشيوعية ، فعملت على التخطيط لها ، وقامت على تنفيذها وتمويلها واختيار المكان المناسب لها لإعلانها ، وذلك لتقوم بخدمة الصهيونية والسعى فى تحقيق أهدافها .

وهذا ماحصل بالفعل فى السنوات اللاحقة لقيام الفكر الشيوعى ونشره خاصة فى روسيا القيصرية . وقبل الحديث عن الصهيونية ودورها فى إخراج الشيوعية والدفاع عنها أشير إلى أن الحديث هنا سيكون عن الحركة الصهيونية التى تنسب إلى تيودور هرتزل وعن الشيوعية العلمية كما يسميها أصحابها التى تنسب إلى ماركس ، ومن الأهمية بمكان معرفة شخصية ماركس ومن ثم استغلال الصهيونية لفكرة تفجير الثورة فى روسيا ، ولابد من التنبيه لحقيقة وهى : أن الأفكار الشيوعية من حيث هى دعوة قديمة كما مر معنا فى ذكر مراحلها ، ولكن فى المرحلة التى وجد فيها ماركس اتخذت شكلا آخر من حيث التنظيم والتخطيط لهذا الفكر ولأجل ذلك اعتبرت شيوعية

ماركس الشيوعية العلمية عند أصحابها ، لأنها قامت على أصول علمية وبنيت على جذور فلسفية وقواعد منظمة ـ كما زعموا ـ مما ساعد على تبنى روسيا لهذه الفكرة ونشرها . ولاشك أن البيئة الأوربية كانت ممهدة لظهور الأفكار والمذاهب المنحرفة ، وصبغ هذه المذاهب والمناهج بالصبغة المنتشرة فى تلك البيئة . ولاغرابة وقد افتقدت أوروبا للدين الصحيح ، حيث إن ذلك سبب ظهور كل فكر ضال ومنهج متخبط وشخصية منحرفة . فالشاهد أن كل شىء فى أوربا كان يمهد لانتشار الأفكار الشيوعية سواء كان الدين المحرف أو الإقتصاد القائم على الاستغلال أو الفلسفة القائمة على الإلحاد . ومن الشخصيات التى عاشت فى هذه البيئة ماركس الذى تنسب إليه الأفكار الشيوعية العلمية . التى تبنتها الصهيونية ونفخت فيها من أباطيلها لتحقق أهدافها ومآربها التوسعية والإباحية فى العالم كله .

ومما زاد الطين بله أن هذه البيئة التى نشأ فيها ماركس :

أولا : (لم تتجاوب مع النهضة الفكرية بل حاربتها) .

ثانيا : لأنها تحالفت مع السلطات الحاكمة ومع الإقطاعيين والرأسماليين وانغمس رجالها معهم فى الترف والملذات ، والشهوات ، وتركوا الشعوب تئن تحت وطأة الظلم الواضح الفادح ، ولم يعرف عن أحد منهم أنه طالب بانصاف الكادحين ، أو حاول معالجة الفساد والحرمان والجهل التى تفشت فى جميع ربوع الدولة فى هذه الأجواء ، ظهر كارل ماركس وكان يعانى من آلام البؤس والحرمان مما ترتب عنده عقدة نفسية كان لها أثرها البالغ فى تفكيره[1].

(لقد عاصر ماركس فترة المخاض الحضارى التى مرت بها أوروبا حيث تنسلخ صيحة الحياة من صرخة الألم ، وينسلخ ضوء النهار من ظلمة الليل البهيم ... وهى فترة حرجة بطبيعتها تسمح بالرؤية الفكرية والرؤية النفسية

---

(١) انظر كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٨-٩) .

فى أكثر من اتجاه ، بل وأكثر من ذلك حرجا أنها قد تدفع الرؤية النفسية فى اتجاه مضاد للرؤية الفكرية ، وينقلب الحرج إلى مأساة عندما تكون الغلبة للرؤية النفسية القليلة فلاترى الحق والخير من خلال موازينهما وإنما تراه من خلال صداها وعلى ضوء مصالحها وتحت ضغط مشاعرها المكبوتة وآلامها الدفينة التى خلفتها عصور الظلم والحرمان قبل أن ترى لها حقا فى الحياة الكريمة)[١].

فالحياة الأوربية أثرت على ماركس كثيرا .

فالتحكم الطبقى ، والإقطاع ، وسطوة رأس المال كانت الأنظمة المألوفة للبشر . بالإضافة إلى الثورات التى شهدتها أوروبا حيث عاش ماركس حمى الثورات[٢].

فشكلت هذه الأوضاع التربة الخصبة لنشوء مثل الأفكار الماركسية .

ومن هنا كان لابدمن دراسة حياة ماركس حتى نتبين معاناته وكيف كانت سببا من الأسباب فى توجهه الفكرى . وأود أن أشير هنا أن الدراسات عن ماركس كانت تقع فى طرفين

أحدها : التهجم على ماركس فى ذاته وشخصه[٣].

وثانيها : من رأى أن دراسة حياته الأولى ليست مهمة لأن الشخص لم يبلغ درجة الاهتمام بدراسة حياته[٤].

وفى نظرى أن كلا الرأيين جانب الصواب .

وذلك لأهمية معرفة الشخص فى بداية حياته ، ومعرفة علاقاته الشخصية ، وسيرة أسرته ، ومدى أثرها على شخصيته ، فإن هذه الفترة مهمة جدا فى صقل أفكاره بالإضافة إلى البيئة التى نشأ فيها .

---

(١) حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون (٤١) ، عبد الحليم خفاجى ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، دار القلم ، الكويت ، دار الأنصار ، القاهرة .

(٢) انظر إشتراكيتهم وإسلامنا (١٩-٢٠) .

(٣) انظر مثلا الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (٤٥) ، د. عبد الباقى عطا الله ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، دار المنار للنشر والتوزيع .

(٤) انظر مثلا نقد أصول الشيوعية (٢٩) .

وأما التهجم على ذاته بأحواله الشخصية ، فلعله لايعنينا لأنه لو لم يكن صاحب فكر منحرف لما تطرقنا إلى دراسة شخصيته من حيث أحوالها الشخصية فغيره على هذه الشاكلة كثيرون . ولو كان فى شخصيته العكس من ذلك لما شفعت له من نقدنا إياه .

المبحث الأول
حياة كارل ماركس

ولد كارل ماركس فى الخامس من أيار (مايو) عام ١٨١٨م فى مدينة ترير من أعمال مقاطعة الراين الألمانية[١].

(وقد كان الجزء الأكبر من سكان ترير يعانى فى سنى طفولة ماركس وشبابه حالة من الفقر المدقع ، فكان أن ترك الفرز الطبقى الحاد والجور الإجتماعى ، أعمق الأثر فى نفس ماركس الشاب)[٢].

والداه :

هنريك ماركس ، تأثر كثيرا بفلسفة عصر التنوير ، وابتعد عن التعصب الدينى[٣].

وكان يهوديا من الدعاة إلى الإسرائيلية ، عمل فى المحاماة ثم اعتنق البروتستانتية وقد تحولت أسرة هنريك إلى المسيحية للمصلحة المادية . وكانت أمه هولندية هاجرت فى القرن ١٧ إلى البلاد المجرية وهى يهودية[٤].

وعن يهودية ماركس وأسرته يقول ولسون : (لقد تركز فى عروق (كارل ماركس) دم سلالات مختلفة من حاخامات اليهود ، وظهر الحاخامات فى أسرة أمه على مدى قرن من الزمان على الأقل ، وأنتجت أسرة والدى أبيه كليهما تسلسلا غير منقطع من الحاخامات ، وكان بعضهم من المعلمين المرموقين فى القرن الخامس عشر والثامن عشر ، فكان جد (كارل ماركس) لأبيه حاخام (تدبير) وأصبح أحد أعمامه الحاخام من بعده هناك ..)[٥].

---

(١) انظر : سيرة حياة كارل ماركس (٩) ، الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٤٠) ، مصادر الماركسية الثلاثة (١٣) ، حقيقة الشيوعية (١٦) .

(٢) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٤٠) ، وانظر : الشيوعية (٤٢) ، إفلاس الماركسية (٢١) .

(٣) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٤٠) .

(٤) انظر : الشيوعية وموقف القرآن منها (٤١) ، إفلاس الماركسية (٢١) ، التضليل الاشتراكى ، مصادر الماركسية الثلاثة (١٣) .

(٥) نقلا من كتاب الكيد الأحمر (٦٩-٧٠) ، وانظر موسكو واسرائيل (٢٠) .

وقد تأثر ماركس بتصرفات أبيه حيث عاش حياة قاسية ساعده أبوه فيها فوالده كان يهوديا وغير ديانته كما قلنا إلى المسيحية وأدى موقف أبيه ذلك إلى فقدان ثقة ماركس فى الأديان

(وحاول أن يسقط تصرفات أبيه على الأديان فيتهمها - زورا - بما كان يراه فى والده ...)[١]

وقيل إن سبب تغيير أبيه لديانته أنه هروبا من الإزدراء الذى كان يعانيه اليهود .

وقيل إن ذلك بسبب التحرر الفكرى والإجتماعى الموجود حينذاك .

(وأيا كان تفسير هذا العمل ، فقد أثر ولاشك على تفكير وعقلية ماركس ... الذى نشأ من نعومة أظافره فوجد أهله يغيرون ديانتهم بغير ماسبب ظاهر ولم يكن غريبا أن ينمو وتنمو معه آراء متطرفة عن الأديان عموما)[٢].

كما إن ماركس عاش (وعائلته تحت وطأة الفقر المدقع ولولا المساعدة المالية الدائمة المخلصة التى كان يقدمها له انجلز لما استحال على ماركس انجاز كتاب (رأس المال) وحسب ، بل لكان هلك حتما من البؤس)[٣].

ثم إن من الأمور المؤثرة فى حياة ماركس موت عدة (أبناء له ومايزالون أطفالا ، فى لندن حيث كانت عائلته تعانى بؤسا مدقعا وكانت بناته الثلاث متزوجات من اشتراكيين من انجلترا وفرنسا وهن : ايليونور ايفيلنغ ، ولورا لافارغ ، وجيني لونغى ، وابن هذه الأخيرة عضو فى الحزب الإشتراكى الفرنسى)[٤].

---

(١) مرض نفسى اسمه الشيوعية (١٦) ، نبيل خالد ، مطبعة دار الوفاء ، المنصورة ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٥٠-١٥١) .

(٣) مصادر الماركسية الثلاثة (١٧) .

(٤) مصادر الماركسية (١٨-١٩) ، وانظر مرض نفسى اسمه الشيوعية (١٧) .

زد على ذلك أن علاقة ماركس بأسرته كانت تسوء وتتفاقم .

(فوالدته التى كانت غارقة فى عالم مشاغل الأسرة الضيق لم تغفر لابنها انجرافه فى الحياة السياسية فحرمته بالتالى من حقه فى الميراث ، ليصبح العوز من الآن فصاعدا رفيق دربه الدائم فى حياته وقد كتب ... سنة ١٨٤٢م (إن السعادة الحقيقية تكمن أيضا فى أن منغصات الحياة الإجتماعية تحصن الإنسان ذا الشخصية القوية ...)[١].

تقول ابنته : (كان فى طفولته يحلو له أن يبطش باخواته البنات ، يسومهن العذاب ، ويسوقهن أمامه كما يسوق المدرب الخيل والجياد)[٢].

فهذا مايتعلق بماركس من حيث الولادة والنشأة والأسرة التى عاش فى كنفها ، ويؤخذ من ذلك الآتى :

أولا : تذبذب الأسرة الدينى ، واستغلال الدين فى الخداع والغش للناس من قبل أبيه .

ثانيا : أثر ذلك فى ماركس ، وأصيب بردة فعل تجاه الدين عموما ولم يقتصر الأمر على ذلك الدين الذى كان يعتنقه أبوه .

ثالثا : أن ماركس ولد من أبوين يهوديين وأثرا فيه بيهوديتهما ، ثم غيرا ديانتهما ظاهرا بينما بقى ماركس على يهوديته .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : "مامن مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء"[٣].

رابعا : أن ماركس عاش حالة بؤس شديدة مما كان له أكبر الأثر فى حياته وانعكاس تلك الحياة على أفكاره .

---

(١) نقلا من كتاب الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٥٨) .

(٢) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (٢٥) ، رمسيس عوض ، مكتبة الأنجلو المصرية ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٢١٩/٣) ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبى الإسلام؟ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ومسلم بشرح النووى (٢٠٧/١٦) ، كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م ، المطبعة المصرية بالأزهر

خامسا : الموت الذى لقيه أطفاله ، والحرمان الذى وجده من أمه فى الميراث ، كل ذلك زاد من حدة طبعه ونفوره من الآخرين .

نشأته العلمية[١]:

عندما بلغ ماركس سن الثانية عشرة أرسله أبوه إلى مدرسة ثانوية (جمنازيوم) سنة ١٨٣٠م .

وفى سنة ١٨٣٥م تخرج ماركس وكان عمره سبعة عشر عاما[٢].

وفى نفس العام غادر إلى بون لدراسة القانون حسب رغبة أبيه[٣].

وكانت تشهد أعمالا كثيرة من العنف والاضطهاد والقمع والتجسس من قبل الشرطة بسبب دعاة الإصلاح الوطنى ، والوحدة الوطنية.

وانضم ماركس إلى أبناء بلده وانهمك فى الدراسة والتحصيل بجوار السكر وتناول الكحول ، وقد عاقبته سلطات الجامعة فى عام ١٨٣٦م باحتجازه يوما لتعكيره السكينة ليلا وسكره . ولم يمنع عنه زيارة زملائه مما أدى إلى تناول المشروبات فى الحبس المدرسى[٤].

وبعد علم أبيه بذلك أرسل إلى الجامعة يخبرها أن ابنه سيواصل دراسته فى برلين .

غادر ماركس بون إلى برلين سنة ١٨٣٦م وكانت الحياة خلاف ماكانت عليه فى بون حيث كانت جامعة برلين مركز الصراعات الفكرية أفكار هيغل

---

(١) سيكون الاعتماد بداية على ماكتبه الشيوعيون عن ماركس حتى لايكون هناك تحاملا عليه ، بل سنحاول عرض حياته كما يراها اصحابه وأتباعه ففيها من النقد الشىء الكثير شعروا أو لم يشعروا .

(٢) انظر سيرة حياة ماركس (١٢-١٣) .

(٣) انظر : المرجع السابق (١٥) ، موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (٢٦) لمحات من تاريخ العالم (١٥٩) ، جواهر لال نهرو ، نقله إلى العربية مجموعة من الأساتذة الجامعيين ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، دون ذكر لرقم الطبعة ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، إشتراكيتهم وإسلامنا (٢٠) .

(٤) انظر سيرة حياة ماركس (١٥-١٧) .

وكانت ، وفيشته ، وقد أفسحت دراسة ماركس للقانون المجال أمامه للانشغال بالفلسفة فتأثر بالأفكار المثالية ، وأفكار التنوير الثقافى الفرنسى ، أفكار فولتير ، وروسو[١].

فأثرت هذه الفلسفات فى فكر ماركس وأنتج ماعرف عنه فيما بعد من فلسفته التى كانت خليطا من مجموعة فلسفات ، وبعد تأثر ماركس بالأفكار المثالية انتقل إلى البحث فى الذات الحقيقية وأرسل إلى أبيه يخبره بذلك حيث قال : (لقد انتقلت بالمناسبة من المثالية التى قارنتها وغنيتها بأفكار كانتيه وفيشتة إلى البحث عن الفكرة فى الذات الحقيقية وإذا كانت الآلهة قد عاشت فى السابق فوق الأرض فقد أصبحت الآن مركزها بالضبط) . وهذه الرسالة عام ١٨٣٧م وأصبح ماركس بهذا تلميذا لهيغل ، وكانت هذه نقطة تحول فى حياته كما قال ذلك هو عن نفسه وتحرر من الفلسفة المثالية الذاتية بأسلوب هيغل الديالكتيكى ، وفى عام ١٨٣٨م توفى والد ماركس وتردت أوضاعه المادية وفى نفس العام أعفى من الخدمة العسكرية لضعف فى صدره وداء فى عينه .

فأخذ يعمل فى أطروحة الدكتوراه وكان عنوانها (الاختلاف بين الفلسفة الطبيعية الديمقراطية والأبيقورية) ، وانتهى من الأطروحة عام ١٨٤١م وفى العام نفسه حصل على الدكتوراه[٢].

واعترف ماركس بأن الجدلية الهيغلية هى التى تمثل المنهج الأكثر عمقا واتساقا لتحليل ودراسة الواقع مقارنة مع غيرها من النظريات[٣].

بعد ذلك عاد إلى مسقط رأسه وبدأ فى كتابة المقالات ونشرها فى ذم الطبقات ، وذكر العمال وأحوالهم .

---

(١) انظر : سيرة حياة ماركس (١٩) ومابعدها ، النظم الاقتصادية المعاصرة (١٥١) .
(٢) انظر : المرجع السابق (١٩-٢٩) ، مصادر الماركسية الثلاثة (١٣) .
(٣) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٩،٤٢) .

وفى عام ١٨٤٢م أصدر ملك بروسيا قرارا بمراقبة المطبوعات فكتب ماركس مقالا بعنوان (ملاحظات حول أحدث نظام بروسى للرقابة على المطبوعات) وكتب يقول إن العلاج الوحيد للرقابة هو إزالتها . وشارك ماركس بإعداد المقالات فى عدة صحف عام ١٨٤٢م منها روغه ، والرينانية تسايتونغ ، وعين ماركس محررا فيها ، وأخذ يعمل بكل حماس وخاصة فى المعركة مع الرقابة . ووصفت هذه الصحيفة بأنها صحيفة شيوعيين بروسين ورد ماركس بأحقية الأفكار الشيوعية فى الوجود وإن كانت إلى ذلك الوقت طوباوية .

وعكف ماركس فى هذه الأثناء على دراسة مؤلفات الإشتراكيين السابقين مثل شارل فورييه ودى سان سيمون وروبرت أوين ثم عين ماركس رئيسا لتحرير تلك الصحيفة ، وكان يقوم بدور المحامى للفقراء واستنكار التدابير الوحشية من قبل ملاك الأراضى ضد الجماهير الغفيرة التى كانت بدون حقوق سياسية أو إجتماعية .

واستمر الشد بين ماركس والرقابة الروسية فقررت الحكومة منع صدور صحيفة راينشيه تسايتونغ اعتبارا من ٣١ مارس آذار عام ١٨٤٣م[١].

فى باريس :

بعد أن منعت الصحيفة من الصدور ولم يعد لماركس الحرية فى إظهار آرائه توجه إلى باريس سنة ١٨٤٣م وكان العداء بين البرجوازية والبروليتاريا قد أصبح المظهر الأساسى للحركة الإجتماعية فى فرنسا ، وأعجب ماركس بذلك وبرغبة الشعب فى البحث عن الطريق إلى الحرية رغم الضربات التى وجهت لهم[٢].

---

(١) انظر : سيرة حياة ماركس ، النظم الاقتصادية المعاصرة (١٥١-١٥٢) ، مصادر الماركسية الثلاثة (١٣-١٤) .

(٢) انظر سيرة حياة كارل ماركس (٤٩-٥١) .

وفى باريس حدث اللقاء بين ماركس وانجلز وكان الأخير متبرما من الحالة الاجتماعية القائمة آنذاك ، وكان يفكر لإيجاد حل للفقراء والاستغلال الذريع ، وتأثر بأفكار روبرت أوين ومحاولته الإصلاحية ، وعندما اجتمع بكارل ماركس تغيرت أفكاره وأصبحت مع أفكار ماركس وكان سنهما متقاربا ، وتعاونا فيما بينهما لدرجة أن معظم الكتب التى أصدراها حملت اسميهما معا(١).

وكانت باريس مكان التقاء الديمقراطيين من أمم عديدة حيث كانت وطن الثورة ١٧٨٩م ومنها دخلت عالما جديدا حيث منيت الإقطاعية بهزيمة شنيعة .

وبدأ ماركس فى إعداد ونشر المقالات فظهر العدد الأول من الحولية الألمانية الفرنسية عام ١٨٤٤م وفيه مقالين لماركس (حول المسألة اليهودية) ومقدمة (نقد فلسفةالقانون الهيغلية) وترك مثالية هيغل وأعلن موقفه المادى وتأثره بفيورباخ ، يقول الشيوعيون : (إن مقالات ماركس نقد فلسفة القانون الهيغلية تظهر نهاية الحقبة التى كان فيها هيغليا شابا فى الفسلفة ونهاية حقبته كثورى ديمقراطى فى السياسة كما أنها تسجل بداية حقبة جديدة طور فيها ماركس الذى أصبح الآن ماديا وشيوعيا خطوة فخطوة نظرة البروليتاريا إلى العالم ألا وهى الشيوعية العلمية . وقد عملت الدولة البروسية ضد الحولية الألمانية الفرنسية ، وأصدر الملك أمرا يمنع دخول الصحيفة بكل الوسائل وأمرا آخر باعتقال ماركس ومن معه إذا ماوضعوا أقدامهم فى الأراضى البروسية(٢).

واصل ماركس انتقاده للأنظمة القائمة فما كان من الحكومة البروسية إلا أن طردته من فرنسا إلى بروكسل عام ١٨٤٥م .

وحرمت الشرطة على ماركس نشر أى شىء عن السياسة الراهنة ، وتلقت الوزارة البلجيكية ضغوطا من حكومة بروسيا لطرد ماركس وحينها

---

(١) انظر : لمحات من تاريخ العالم (١٥٩) ، النظم الاقتصادية المعاصرة (١٥٢) .
(٢) انظر : سيرة حياة ماركس (٥١-٥٤) ، مصادر الماركسية الثلاثة (١٥) .

رأى ماركس أن الحل هو التخلى عن الجنسية البروسية التى لم ينل منها إلا مطاردته من قبل حكومته .

وفى عام ١٨٤٥م سافر فى رحلة علمية إلى لندن مع انجلز ثم عاد إلى بروكسل وعكفا على تأليف الأيديولوجية الألمانية وبدأوا بتطبيق الطريقة المادية لفهم الأشياء خلافا لفيورباخ والماديين السابقين لاعلى الطبيعة فحسب بل وبنفس المستوى على التجمع البشرى وتاريخه ، وركزا على قضية الأكل والشرب والعيش قبل الأمور الأخرى .

وفى عام ١٨٤٦م انتهى العمل من الأيديولوجية الألمانية ووضعا بذلك الأسس الجوهرية للشيوعية العلمية .

وفى نفس العام أنشأ ماركس وانجلز لجنة المراسلات الشيوعية لإقامة الروابط بين الإشتراكيين الألمان والفرنسيين والإنجليز واطلاع الألمان على تقدم الإشتراكية ، ولأجل التغلب على ضيق الأفق الوطنى . وكان يتطلع ماركس لليوم الذى يهب فيه شعبه ضد الظالمين الإقطاعيين ، وفى عام ١٨٤٧م كرس ماركس جهده لتأسيس حزب ثورى فانتمى ماركس وانجلز إلى جمعية سرية للدعاية (عصبة الشيوعيين) من عدة أعضاء ، وشاركا فى المؤتمر الثانى لهذه العصبة المنعقد فى لندن . وكان هدف العصبة الإطاحة بالبرجوازية ، وتأسيس مجتمع بدون طبقات ودون ملكية خاصة .

وفى السنة نفسها عهد إلى ماركس وانجلز بإعداد برنامج مفصل للحزب نظرى وتطبيقى وكتب النص فى ألمانيا عام ١٨٤٨م(١).

وكان ماركس يراقب الوضع فى المانيا ويرى أن الوقت قد حان لعودة الثوريين الألمان فوضع برنامج مطالب الحزب الشيوعى فى ألمانيا ، وذكر أن البرجوازية فى المانيا قد خانت وبدون حياء الفلاحين ، ولولاهم لكانت

---

(١) انظر : البيان الشيوعى (مقدمة الطبعة الانجليزية) (١٣-٢٠) ، مصادر الماركسية الثلاثة (١٦) ، إشتراكيتهم واسلامنا (٢٠-٢٢) ، الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٩١) ، حقيقة الشيوعية (١٦) .

عاجزة أمام الاقطاعيين واطلع ماركس العمال الألمان على النضال الذى خاضه ٤٠,٠٠٠ بروليتارى فى باريس ، وأخبرهم أن الإشتراكية لن تكون إلا بالإطاحة بالبرجوازية واستيلاء البروليتاريا على السلطة .

وضيقت السلطة البروسية الخناق على ماركس فى كولن فذهب إلى برلين ومنها إلى فيينا وكان الحدث الأهم هناك هو إزالة وزير العمل والوزارة البورجوازية فكانت فرصة لأن يعبر ماركس عن بعض أفكاره ويشارك بنشر مبادئه فاختلفوا هل يوجه الأمر إلى القيصر أو إلى مجلس النواب النمساوى فقال ماركس (لقد كان المرء يتكلم حتى الآن عن قوتين كبيرتين وحسب هما المجلس النيابى والقيصر تلك القوانين التى يريد المرء الالتجاء إليها ليطلب عزل الوزراء إلا أن المرء نسى الشعب الذى شكل أعظم قوة)[١].

ثم عاد ماركس إلى برلين ومن ثم إلى كولن ، وفى عام ١٨٤٨م وجه إلى كافة الروابط والمنظمات فى مقاطعة الراين يدعوها إلى عزل الموظفين المعادين للثورة وتعبئة قوات الحرس الوطنى ضد الوحدات الموالية للملك ومقابلة العنف بالعنف ولكنها فشلت ، وفى عام ١٨٤٩م عاد إلى نشر المقالات وكثرت خطاباته الموجهة إلى البروليتاريا ، وعمل هو وصديقه فى يناير ١٨٤٩م بعد أن كان فى سويسرا وكانت مقالاته تنشر فى صحيفة (رانيشيه تساتيونغ) وأمر بطرد ماركس من بروسيا وأصدرت الصحيفة عددها الأخير باللون الأحمر .

وكانت صحيفة فى غاية الأهمية لماركس عبر لينين عنها بقوله (صحيفة تعبر عن آراء البروليتاريا الثورية على أفضل وجه وبصورة لاتضاهيها أية صحيفة أخرى) .

وسافر ماركس وانجلز إلى فرانكفورت ثم سافر ماركس إلى باريس وبقى انجلز فى بنجن .

---

(١) سيرة حياة ماركس (١٤١) ، وانظر مصادر الماركسية الثلاثة (١٦) .

وفى هـذه الأثناء قامت السلطة العسكرية باجراءات القمع والإرهاب الدموى وخمد الانتفاضات العمالية وتوالت هزيمة الثوار وسلم ماركس خطابا وهـو فى باريس يطلب منه مغادرتها إلى أراضى المستنقعـات التابعة لبريتاغنة ولم يلب ذلك الطلب واستطاع الذهاب إلى لندن(١).

ومن هذه المرحلة نأخذ الآتى :

أولا : تنـاول ماركس للمسكـرات والإكثار من السلـوكيات المنحرفة .

ثانيا : انتقاله إلى برلين وكانت تعج بالفلسفات المختلفة .

ثالثا : تأثره بمثالية هيغل وأخذه بها ثم تركه لها والتحول إلى الفكرة المادية .

رابعا : انهمـاكه فى الأعمال الصحفيـة والكتابات لصـالح طبقة العمال وأوضاعهم المتردية .

خامسا : كثرة المطاردات التى حصلت له ، واحساسه بالتشـرد ، وزيادة حقـده على الأنظمـة وبالتالى على الأفكـار التى تقـوم عليهـا هـذه الأنظمة أو الهيئـات الموجودة فيهـا كالكنيسـة ، والملكية الفردية ممثلـة فى البرجوازية .

فى لندن :

بعـد أن طـرد من باريس توجه إلى لنـدن وعاش فيهـا سنـوات عديدة قضـاها فى مطالعة الكتب الموجودة فى المتحـف البريطـانى ، وكـان يشارك فى القـاء المحـاضرات والحركـات والتنظيمـات الإشتراكيـة والعمـالية ، وكـانت المنظمـات العمالية فى كولن تعمل ولكن دون جدوى فقـد كثرت الاعتقالات والإبادة ومحاربة أفكار ماركس وانجلز فى المانيا .

وأعلن حل منظمة العصبة فى لندن ، وكان يعمل فى صحيفة نيويورك دبلى تريبيـون وزاد من اهتمـامه بطبقة البروليتاريا ووسـع من دائرة الحديث حتى وصل إلى الصين والهند . وقد اشتغل فى هذه الأثناء بتأليف كتابه رأس

---

(١) انظـر : سيرة حيـاة مـاركس (٧٢-١٦٧) ، النظـم الإقتصـادية المعـاصرة (١٥٣) ، مصادر الماركسية الثلاثة (١٧) .

المال مع انشغاله بالأحداث السياسية والتنظيمات العمالية ، وكان يتابع أوضاع ألمانيا مع صديقه انجلز ونشر أفكارهما حول طريق الشعب الألمانى نحو الوحدة الوطنية وحول الخطوات اللازم اتخاذها على هذا الطريق ورأى ماركس أنه لابد من إيجاد صحيفة فى المانيا فسافر إلى برلين عام ١٨٦١م .

وتكون هذه الصحيفة متحدثة باسم البروليتاريا ، ولم يفلح فى تأسيس صحيفة إلا أنه رأى أن الثورة بدأت تنضج فى المانيا وفى عام ١٨٦٢م انبثقت من صفوف العمال نية الدعوة لعقد مؤتمر للعمال الألمان ولاسيما فى برلين ولايبرخ ، وفى عام ١٨٦٣م تم تأسيس الاتحاد العام للعمال الالمان ولأول مرة بعد عقد من الزمن ظهرت منظمة عمالية مستقلة عن البرجوازية وترعرع الأمل من جديد فى قلوب العمال والمثقفين الذين وقفوا بجانب الحركة العمالية .

وفى عام ١٨٦٤م عقد اجتماع فى لندن كان يضم جماعات متفرقة وحضر الاجتماع مئات من العمال والمهاجرين والديمقراطيين والفرنسيين والألمان والبولونيين والطليان والسويسريين وكان يرأس الاجتماع ماركس .

وفى عام ١٨٦٥م جاءت الأنباء إلى ماركس أن العمال أخذوا فى الانضمام إلى اتحاد العمال العالمى ووحدوا صفوفهم فى فروع محلية وكانت تأتيه الأنباء من برلين وسولنجن وغيرها .

وعقد فى عام ١٨٦٦م أول مؤتمر لاتحاد العمال العالمى وذلك فى جنيف ولم يحضره ماركس لانشغاله بالجزء الأول من مؤلفه رأس المال .

وفى عام ١٨٦٧م صدر الجزء الأول منه وعدد النسخ المطبوعة ١٠٠٠ نسخة واصل ماركس فى مؤلفه هذا تطوير الأجزاء المختلفة للشيوعية العلمية وهى الإقتصاد السياسى والمادية الدياتيكية والتاريخية ، والتعاليم المتعلقة بالثورة الإشتراكية ، ودكتاتورية البروليتاريا .

وكانت الاضرابات العمالية على أوجها - (ولاشك أن هذا من الأساليب التى دعت إليها الشيوعية من أجل الحصول على المطالب) - .

ففى عام ١٨٦٧م ، و١٨٦٨م ، و١٨٦٩م حدثت مظاهرات واضرابات فى بلجيكا قام بها عمال المناجم ضد إلغاء وتخفيض الأجور وضد اختصار أوقات العمل .

وفى عام ١٨٦٨م أضرب حوالى ٣٠٠٠ عامل من عمال البناء فى سويسرا لتخفيض الساعات وزيادة الأجور .

وفى عام ١٨٦٧م أضرب حوالى ١٥٠٠ من عمال صناعة البرونز فى باريس وكانوا يطالبون بحقهم فى تشكيل نقابة أو اتحاد لهم .

وفى عام ١٨٧٠م تلقى ماركس نبأ توحيد صفوف الروس الذين كانوا فى جنيف فى فرع روسى يعود لاتحاد العمال العالمى وتتالت مؤتمرات اتحاد العمال العالمى ومن أهمها المؤتمر الذى عقد فى عام ١٨٦٩م وأكد المؤتمر أن المجتمع له الحق فى إلغاء الملكية الخاصة للأراضى وتحويلها إلى ملكية إجتماعية .

وكذلك المؤتمر الذى عقد فى ١٨٦٩م حيث تأسس حزب العمال الإشتراكى الديمقراطى ، وفى عام ١٨٧٢م عقد مؤتمر لاهاى الذى عقده إتحاد العمال العالمى .

بعد هذا المؤتمر أخذ ماركس يعانى من اضطرابات صحية ، وفر له انجلز إمكانية السفر للمعالجة فى عامى ١٨٧٥-١٨٧٦م .

وبدأت اهتمامات ماركس تقل بالسياسة وأوكل المهمة لرفيقه انجلز ، وفى هذا الوقت ازداد تشكيل الأحزاب الثورية العمالية .

فى النمسا ١٨٧٤م ، الدانمارك ١٨٧٦م ، بوهيميا ١٨٧٨م ، بلجيكا/ اسبانيا ١٨٧٩م ، أحزاب أخرى فى فرنسا وهنغاريا ١٨٨٠م ، انجلترا ١٨٨١م بولونيا وايطاليا ١٨٨٢م .

زاد ألم ماركس عام ١٨٧٨م وقل عمله ، واشتد عليه الألم عام ١٨٨١م وفى العام نفسه ماتت زوجته ، ولأجل الراحة والاستجمام ذهب إلى مينتور الواقعة فى جزيرة وايت ، وفى ربيع ١٨٨٢م سافر إلى الجزائر ولم يتحسن من سفرياته تلك ، وفى ١٨٨٣م ماتت ابنته الكبرى ورجع ماركس إلى لندن

واشتد عليه الألم فى مارس آذارا ١٨٨٣م وفارق الحياة ودفن إلى جانب زوجته فى مقبرة هايفات فى لندن(١).

وحيث كان انجلز رفيق دربه وكذلك صاحب الأعطيات الجمة لرفيقه يحسن بنا أن نلمح بشىء عن حياته .

ولد فردريك انجلز فى ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٢٠م فى مدينة فوبرتال (Wuppertall) فى أسرة ثرية وكان بكر أبيه الذى يرى فيه وريث مؤسسته (غاسبار انجلس وشركاه) فنشأة انجلز والجو الذى عاش فيه يختلف عن ماركس .

وكانت أسرته متدينة مقرون ذلك بما يشبه التعبد للمعدن الأصفر . وقد أرسله والده سنة ١٨٣٨م إلى مدينة بارمن لدراسة الفن التجارى وكان يقبل على قراءة المؤلفات الطليعية عن الدين والفلسفة والسياسة(٢).

كانت حياة انجلز تختلف عن حياة رفيقه ماركس . فانجلز نشأ (فى عائلة ألمانية بروتستانتية متدينة تملك المصانع ولاتخفل - على عكس عائلة ماركس - بالفنون والآداب ، وكان والده يؤمن بالتقوى والورع(٣)وضرورة الامتثال لأوامر الدين ونواهيه وبطبيعة الحال ترك هذا الجو الدينى فى نفس الغلام فردريك بصماته الواضحة ، فالقصائد التى نظمها فى يفاعته تشبه فى ايقاعها واستعاراتها بترانيم الكنيسة الألمانية البروتستانتية ولكنه وقع فيما بعد تحت تأثير فيرباخ ... فأشاح بوجهه عن الدين)(٤).

وشارك انجلز ماركس فى كثير من الأعمال الكتابية وكذلك واجه معه بعض مالقيه ماركس فى حياته إضافة إلى إمداد ماركس بالمال وكانت المراسلة

---

(١) انظر : سيرة حياة ماركس (١٧١-٣٦٦) مقتطفات منها ، لمحات من تاريخ العالم (١٥٩-١٩٣) ، مصادر الماركسية الثلاثة (١٨-١٩) ، النظم الإقتصادية المعاصرة (١٥٣-١٥٤) .

(٢) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٥٩) .

(٣) وذلك حسب تعاليم الكنيسة .

(٤) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (٨٤) .

تكاد تكون بينهما يوميا ، وفى سنة ١٨٧٠م اجتمعا مع بعضهما فى لندن حتى عام وفاة ماركس ١٨٨٣م[١]. وعكف انجلز على إتمام كتاب رأس المال الذى بدأه ماركس[٢].

(وفى ٥ أغسطس (آب) ١٨٩٥م توفى فردريك انجلس فى لندن)[٣].

ومن خلال كلام الشيوعيين عن ماركس يمكن الوقوف على المراحل التى مر بها فى حياته :

المرحلة الاولى : تنتهى فى خريف سنة ١٨٣٧م ، وهى المرحلة التمهيدية لتشكيل آرائه الخاصة ، ويمكن اختصار مضمون هذه المرحلة بكلمة واحدة : البحث الدؤوب والخلاق عن حلول للمسائل الفلسفية المهمة[٤].

المرحلة الثانية : (مع خريف سنة ١٨٤٢م تبدأ مرحلة جديدة من مراحل تطور أفكار ماركس وانجلس الفلسفية والسياسية - الإجتماعية ، ارتبط فيها تطورهما النظرى على نحو وثيق ومتفاعل بتنامى مستوى نضوجهما السياسى الفعلى . وفى سياق نضالهما من أجل مصالح الكادحين يتناول ماركس وانجلس بالتحليل الدقيق دائرة واسعة من المسائل السياسية كما يحتكان للمرة الأولى بالمشكلات الإقتصادية ويطلعان على النظريات الشيوعية المعروفة حتى ذاك . وفى هذا الوقت بدأت تبرز العناصر الأولى للمادية فى طريقة تحليلهما للمشكلات الإجتماعية وكما أشار لينين فقد بدأت تستشف من المقالات المنشورة فى (الجريدة الرينانية) (ملامح تحول ماركس من المثالية إلى المادية) ، (ومن الديمقراطية الثورية إلى الشيوعية) (٣ مجلد ٢٦ ص٨٢) . وينطبق ذلك تماما على انجلس الذى كانت تحليلاته الفلسفية والسياسية تتشابك فى عقدة محكمة شأنه فى ذلك شأن ماركس)[٥].

---

(١) انظر مصادر الماركسية الثلاثة (٦٥،٦٦) .
(٢) انظر المرجع السابق (٦٧) .
(٣) المرجع السابق (٥٨) .
(٤) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٤٣/١) .
(٥) المرجع السابق (٦٣/١) .

المرحلة الثالثة : (لقد كان نشاط ماركس ، وكذلك نشاط انجلس إلى حد كبير مرتبطين فى هذه المرحلة بـ(الجريدة الرينانية) التى بدأت تصدر منذ الأول من كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٤٢م ، وكانت فى بدية عهدها جريدة ليبرالية معتدلة ولكنها تحولت إلى جريدة أكثر راديكالية مع التحاق الهيغلين الشباب بهيئة تحريرها بيد أن ماركس وحده أصبح أحد أكثر العاملين نفوذا إثر نشر مقالاته الأولى ، ورئيسا لتحريرها منذ ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٤٢م فقد استطاع أن يجعل منها منبرا حقيقيا للديمقراطية الثورية ومدافعا عن (مصالح الجماهير الفقيرة والمحرومة إجتماعيا وسياسيا) [١ ، مجلد ١ ، ص١٢٥])[١].

أما المرحلة الرابعة : فهى التحرر من الدين .

(لقد ذاد ماركس قبل كل شىء عن حق الجريدة فى التطرق إلى شتى المواضيع : السياسية والدينية والفلسفية وهو إذ يعارض رأى (جريدة كولونيا) الرجعية يبرهن مستخدما مواد أطروحة الدكتوراه الحتمية التاريخية لشيوع الفلسفة المتطورة بين أوسع فئات المجتمع . وبين أن تصور كتاب (جريدة كولونيا) حول أن بناء الدولة يجب أن يقوم على الدين هو تصور مغرق فى الجهل . فمن مميزات الفلسفة الحديثة أنها تنظر إلى الدولة باعتبارها جهازا ضخما ينبغى أن تتحقق فيه الحرية السياسية والمعنوية والحقوقية ، علما أن خضوع المواطن لقوانين هذه الدولة إنما هو خضوع للأحكام الطبيعية لعقله الخاص العقل الإنسانى [مجلد ١ ، ص١١٢])[٢].

وأما المرحلة الخامسة والأخيرة : (تبدأ المرحلة الجديدة فى تكون آراء ماركس وانجلس الفلسفية التى وصفها لينين بمرحلة التحول النهائى إلى المادية والشيوعية فى صيف سنة ١٨٤٣م)[٣].

---

(١) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٦٤/١) .
(٢) المرجع السابق (٦٤/١) .
(٣) المرجع السابق (٧٤/١) ، وانظر كذلك ص(٨٦) .

ونلاحظ أن أكبر فترة قضاها ماركس إنما كانت فى المادية فلاغرابة أن يخرج بهذه الأفكار .

ومن خلال العرض السابق عن شخصية ماركس يتبين لنا أنه رجل صاحب فكر مستقل وخاصة فيما نسب إليه (المادية الجدلية ، والمادية التاريخية) ولاينفى ذلك تأثره بمن سبقه وأخذه عنهم حتى أصبحت لديه أفكارا مختلطة شكلت فكرا نسب إليه ، حيث كان يأخذ من كل فيلسوف أو مفكر مايروق له ويتفق مع آرائه ، ويدع بقية أفكاره إذا لم تخدمه . ومن الجدير بالذكر هنا هو أن شخصية ماركس حظيت بما لم تحظ به شخصية أخرى مما يدل على أن هناك أصابع خفية تحركها ، وتعمل على إظهارها وإبرازها فكان لها مالها من الشهرة وذيوع الصيت ..

هذا فى حين أن هناك فلاسفة ومفكرين - كانوا بمثابة المصادر والأساتذة لماركس ولكن - لم يلقوا مالقيه ماركس . ولعل نظرياتهم لم تكن بكل أجزائها تخدم تلك الأصابع التى حركت ماركس ووجهته ، ولأجل ذلك ماترك ماركس - فى الغالب - أحدا أخذ عنه إلا وانتقد جانبا من فلسفته لأنها فى ذلك الجانب تتعارض مع فلسفته .

المبحث الثانى
مصادر الماركسية

كانت الحياة الأوربية تعج بالمتناقضات والصراعات فى ظل غياب الدين سواء الدين الصحيح أو المحرف ، فأنتجت الحياة الأوربية ماأنتجته من الأفكار الإلحادية ، والفلسفات والنظريات المخالفة لما هى عليه الطبيعة الإنسانية فكانت المذاهب شتى ، والمصادر متنوعة ، والأفكار الشيوعية واحدة من هذه المذاهب التى تأثرت بالنظريات والفلسفات الموجودة فى أوروبا فأفاد ماركس ممن قبله ووافقهم فى أمور وخالفهم فى أخرى . فجاء بمذهب خليط من أفكار مجموعة من الفلاسفة السابقين ، ويمكن إرجاع مصادره التى استقى منها أفكاره إلى أربعة مصادر أثرت فى فكره أكثر من غيرها رغم أنه إستفاد من أكثر آراء الفلاسفة الذين سبقوه وأخذ منهم مايوافق رغبته ورفض مالايخدم فكره .

والمصادر هى :

أولا : الإشتراكية الفرنسية .

ثانيا : الفلسفة الألمانية .

ثالثا : الإقتصاد السياسى الانجليزى .

رابعا : نظرية التطور .

واعتبر الشيوعيون أن هذه المصادر الوريث الشرعى لفلسفات القرن التاسع عشر فقالوا :

(إن الوريث الشرعى لخير مأأبدعته الإنسانية فى القرن التاسع عشر الفلسفة الألمانية والإقتصاد السياسى الانجليزى والإشتراكية الفرنسية)[١].

ولنعرض لهذه المصادر بشىء من التفصيل :

---

(١) مصادر الماركسية (٤) ، وانظر : تاريخ النظريات الإقتصادية (١٩٣) ، الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٨/١) .

أولا : الفلسفة الألمانية :

كانت الفلسفة الألمانية ذات إتجاه مثالى وخصوصا لدى [كانت] وتعاقب الفلاسفة من بعده الذين أخذوا بالمبدأ المثالى .

وعلى رأس هؤلاء هيغل الذى أخذ عنه ماركس منهجه الجدلى غير أنه رفض مثاليته . وجدلية هيغل قادت ماركس إلى مادية فيورباخ حيث كان هدا الأخير تلميذا لهيغل وبالعموم فقد اعترف بتأثير الفلسفة الألمانية فى الإشتراكية ، يقول انجلز : (إن الإشتراكية العلمية فى معظمها عبارة عن ثمرة إبداع ألمانى لم يكن بوسعها أن تنضج إلا لدى أمة حافظت فلسفتها الكلاسيكية على تقاليدها الحية فى الجدلية الواعية أى فى المانيا)[١].

ويرى الشيوعيون أن أهمية فلسفة هيغل تأتى من كونها (تنبذ التصورات حول الطبيعة النهائية لنتائج التفكير والنشاط الإنسانيين فكل ماهو موجود فى حياتنا وتفكيرنا على السواء يتحول على نقيضه وكل واقع يتحول إلى لاواقع وكل معقول إلى لامعقول وإن ماكان فى السابق معقولا وواقعيا وضروريا تبطل ضرورته مع الوقت كما يفقد حقه فى البقاء ويضيع معقوليته ويشمخ مكان الواقع المتلاشى واقع جديد مفعم بالحياة)[٢].

وعندما كان هيغل محافظا معترفا بالحقيقة المطلقة ، مخالفا بهذا ماتذهب إليه الماركسية انتقدت فلسفته . يقول انجلز : (هذه الفلسفة لاتعد أى شىء نهائيا مطلقا مقدسا إنما تكشف الغطاء عن الصبغة المؤقتة لكل شىء وفى كل شىء لايستطيع الثبات والصمود أمامها إلا عملية متصلة من الصيرورة

---

(١) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٩) .
(٢) المرجع السابق (٢٠) .

والـزوال أى عمليـة الإرتقـاء الـدائمة مـن الأخفض إلى الأرفـع ومـاالفلسفة الديالكتية ذاتها إلا مجرد انعكاس لهذه العملية فى المخ المفكـر ولهذه الفلسفة بطبيعـة الحال جانبهـا المحـافظ فهـى تعترف أن مـراحل محدودة مـن المعـرفة والمجتمـع لها مايبررها من العصر والظروف ولكن يقـف الأمر عند هذا الحد فى الطابع المحافظ فى هذه النظرية نسبى أما الطابع الثورى فمطلق وهو المطلق الوحيد الذى تعترف به)[١].

واعترف ماركس بأن هيغل مثالي ، ولأجل ذلك يختلف عنه حيث قال فى رسالة بعث بها الى ل.كوجلمان هانوفر[٢]فى ٦ آذار ١٨٦٨م :

(إن منهجـى فى العرض ليـس هو منهج هيغل ، مـادمت مـاديا وهيغل مثاليا . إن جدل هيغل هو الشكل الجوهرى لكل جدل . لكـن هذا فقط بعد تخليصه من شكله الصوفى وهذا بالضبط مايميز منهجى)[٣].

فماركس أخذ من هيغل جدليته وخالفه فى مثاليتـه وأخذ من فيورباخ ماديته وطورهما .

يقـول لينين : (ولكن ماركس لم يتوقف عند مادية القـرن الثامن عشر بل دفـع الفلسفـة خطوات إلى الأمـام فـأغناه بمكتسبات الفلسفـة الكلاسيكيـة الألمانيـة ولاسيما بمكتسبات مـذهب هيغل الذى قام بدوره إلى مـادية فورباخ

---

(١) لودفيج فيورباخ وانتاج الفلسفة الألمانية الكلاسيكسية (٣٢-٣٣) ، نقلا من كتاب الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه (٢٤٤) .

(٢) كـوجلمان لـودفيغ طبيـب ألمانى شـارك فى ثورة ١٨٤٨-١٨٤٩م عضـو فى الأممية الأولى ، لـه مـراسلات منتظمـة مـع ماركس بين ١٨٦٢ و١٨٧٤م كـان يطلعـه من خلالهـا على الـوضع فى ألمانيـا عاش مابين (١٨٣٠-١٩٠٢م) . مـن صفحـات فهرس الأعلام ، مراسلات ماركس انجلز (٢٣٩) .

(٣) مراسلات ماركس انجلز (١١٥-١١٦) .

وأهم هذه المكتسبات الديالكتيك إى نظرية التطور بأكمل مظاهرها وأشدها عمقا وأكثرها بعدا عن ضيق الأفق نظرية نسبية المعارف الإنسانية التى تعكس المادة فى تطورها الدائم ... وقد عمق ماركس المادية الفلسفية وطورها فانتهى بها إلى نهايتها المنطقية ووسع نطاقها من معرفة الطبيعة إلى معرفة المجتمع البشرى)[١].

وقد اختلف ماركس فى ماديته عن فيورباخ حيث كانت مادية فيورباخ ميتافيزيقية [٢]أما ماركس وانجلز فكانت ماديتهما خلافا لمن سبقهما واستخدماها فى (تفسير الظاهرات الإجتماعية التى عالجاها وفقا لمقتضيات المنهج الديالكتيكى)[٣].

ومع ذلك فقد اعترف انجلز بفضله وقال : (بدا لى كأن علينا دينا لم نقم بأدائه نحو فيورباخ مما يستوجب أن نعترف إعترافا كاملا بما أحدثه ـ خلال أزمتنا الفكرية ـ ذلك الرجل من أثر فاق كل أثر لسواه من المدرسة الهيجلية)[٤].

ولايفوتنا هنا التنويه بأن الهيغليين إنقسموا إلى قسمين : الجناح الهيغلى اليمينى وبقى أصحابه متمسكين بفكر هيغل ، والجناح اليسارى (الهيغليين الشباب) ورفع هذا الجناح راية الأفكار الإلحادية المستخلصة من المذهب الهيغلى ، وكان داعية هذا الجناح فيورباخ[٥].

لقد شكلت الفلسفة الكلاسيكية الألمانية مصدرا مهما من مصادر ماركس وانجلز فى تكوين أفكارهما . يقول انجلز : (إن المثالية الألمانية

---

(١) مصادر الماركسية (٤-٥) .
(٢) المتيافيزيقية : أى تؤمن بماوراء الطبيعة .
(٣) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢٤/١) .
(٤) نقلا من كتاب الفكر المادى الحديث وموقف الاسلام منه (٢٤٣) .
(٥) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢١/١) .

الكلاسيكية كانت شرحا منهجيا مهما للإشتراكية العلمية)[١].

وهكـذا غدت الفلسفة الكلاسيكيـة الألمانية مصدرا مـن مصادر ماركس وانجلز ، وقد أخذا منها مايؤيد أفكارهما ، ورفضا مايتعارض معها .

---

(١) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٠/١) .

المصدر الثانى : الإشتراكية الفرنسية :

يعتبر الفيلسوف الفرنسى أوجست كونت[١](أحد الفلاسفة البارزين فى الدعوة إلى الأفكار الإشتراكية فى العصر الحديث وقد اتجه فى فلسفته إلى القضاء على النزعة الفردية الذاتية وإقامة النزعة الإنسانية العامة التى تجعل الفرد ترسا فى آلة المجتمع كما اعتبر كونت الملكية مجرد وظيفة لخدمة المجتمع لاخدمة أصحاب الملكيات الخاصة)[٢].

وتعد آراء فولتير وجان جاك روسو عن الدين المنبع الأساسى الذى اعتمد عليه ماركس[٣].

ويمكن اعتبار فرنسا فى أربعينات القرن التاسع عشر كما يقول الشيوعيون : (مختبرا حقيقيا للفكر الثورى .. ذلك من حيث وفرة أشكال الصراع الطبقى وتنوع الطبقات والأحزاب ووسائلها الإعلامية ومن حيث حجم الخبرة الثورية ووضوحها ، وفى هذا الصدد كتب انجلس : (إن فرنسا هى تلك الدولة التى كان الصراع الطبقى التاريخى فيها يقترب كل مرة ، أكثر منه فى أى مكان آخر من نهايته الحاسمة . وفى فرنسا أيضا تجلت على نحو أكثر بروزاملامح تلك الأشكال السياسية المتغيرة التى كان يجرى فى إطارها هذا الصراع ، وتنعكس فيها نتائجه) .

---

(١) أوجست كونت : فيلسوف فرنسى ، تربى على الدين الكاثوليكى ، التقى بسان سيمون وأصبح أحد تلامذته ، وعمل أمينا لسره لمدة ستة أعوام . ثم انفصل عنه وكون له فكرا مستقلا ، أصيب بانهيار عقلى ، ثم شفى منه وعمل فى حقل التدريس وعين معيدا فى كلية العلوم التقنية ، وله عدة مؤلفات منها التقويم الوضعى ، المذهب الذاتى ، التعليم المسيحى الوضعى . ولد عام ١٧٩٨م ومات عام ١٨٥٧م .
انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٣٠١/٢) ومابعدها .

(٢) فلسفة كونت (٣١٥) ليفى بريل نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٧٥) .

(٣) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٧٥) .

فهنا بالذات دفنت سنة ١٧٨٩م الإقطاعية وأقيمت (السيطرة الخالصة للبرجوازية بكل وضوحها الكلاسيكى) . كما لم يحدث فى أى بلد آخر...)[١].

وقد أغنت التجربة الفرنسية ماركس كثيرا ولاغرابة فقد وجد فيها الأفكار الثورية وكذلك الآراء الإشتراكية والطوباوية بالإضافة إلى المناهج المختلفة التى تمهد للمادية الإلحادية حيث يرى الشيوعيون (أن تجربة فرنسا التاريخية قد أعطت ماركس مادة حية لأفكاره حول الدور التاريخى العالمى للبروليتاريا ، حول الثورة وأهمية الديكتاتورية الثورية فى عملية دفع الثورة نحو نهايتها المظفرة ، حول دور الحزب الثورى فى هذه العملية وحول مواقف مختلف الطبقات وأحزابها فى مسار الثورة . إن كل هذه الطروحات التى تم إثباتها وصوغها النظرى كمبادىء أساسية للشيوعية العلمية قد أغنت بدورها الماركسية ، باعتبار كونها عقيدة فلسفية متماسكة للبروليتاريا)[٢].

وكان فلاسفة فرنسا كفولتير ومن معه يرون أن البشرية عاشت فى حياة مادية خالصة قبل تفكيرها فى الدين والدين إنما هو من اختراع الناس للوصول من ورائه إلى أهداف أرادوا تحقيقها ، وهذا ماذكره ماركس وانجلس فى تقريرهما أن الدين من صنع الإنسان وذكر ماركس السبب فى اختراع الدين .

كما ذكر من قبل جان جاك روسو (إن الدين ونظم الأخلاق والمجتمع هى مجرد اختراع من ملاك الارض الذين حدا بهم جشعهم وحرصهم والحفاظ على ملكيتهم إلى أن يأتمروا بينهم على وضع تلك النظم والقوانين ليخدعوا بها الناس ويضلوا بها الفقراء)[٣].

---

(١) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٣١/١-٣٢)
(٢) المرجع السابق (٣٢) .
(٣) الدين والبناء العائلى (٦٢) ، نبيل السمالوطى نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٧٦) .

كما كانت فرنسا مسرحاً للصراعات والثورات المتعددة ضد الإقطاعية ، ومن ثم ضد البرجوازية ، وكان للعمال الفرنسيين دور كبير فى تاريخ أوروبا جاء فى كتاب الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (إن المساهمة الفعالة للعمال الفرنسيين فى الحركة الثورية فى بلدهم وبحثهم الدؤوب عن النظرية الإشتراكية قد وضعهم فى طليعة البروليتاريا الأوربية)[١].

وأثرت هذه الثورات فى معتقدات وأفكار الشعب الفرنسى وجعلته ينتقل من فكر إلى آخر ويؤمن بالأفكار الإشتراكية ، وقد عبر ماركس عن ذلك بقوله : (لقد ولدت الثورات التى حدثت بحدة تقليدية بالغة فى فرنسا ، معتقدات ديمقراطية وشيوعية أكثر جذرية)[٢].

ويمتدح لينين فرنسا باعتبارها المنبع لمعادات الدين والعبودية فى القرون الوسطى فيقول : (برزت المادية فى فرنسا ـ حيث كانت تدور المعركة الحاسمة ضد ركام القرون الوسطى وضد العبودية فى المؤسسات والأفكار ـ بوصفها الفلسفة المبدئية الوحيدة والأمينة لكل مذاهب العلوم الطبيعية ، والمعادية للخرافات وماشابه من أشكال النفاق والرياء ، ولذا ، فقد راح أعداء الديمقراطية يحاولون "دحض" المادية وزعزعتها وتلطيخ سمعتها ، ويدافعون فى الوقت نفسه عن مختلف أشكال المثالية الفلسفية)[٣].

وقد اعترف ماركس أن مادية فرنسا تصب مباشرة فى الإشتراكية والشيوعية[٤].

ويثنى انجلز على هذا المصدر فيقول :

---

(١) (٢٨/١) .
(٢) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢٨/١) .
(٣) انظر المرجع السابق (٢٨/١) .
(٤) انظر المرجع السابق (٢٨/١) .

(ومن المصادر الأخرى التى غذت هذا الفكر الطليعى هناك الأفكار الإشتراكية والشيوعية التى نالت القسط الأكبر من التطور فى فرنسا خلال الثلاثينات والأربعينات ، ففى أثناء ثورة أواخر القرن الثامن عشر البرجوازية الفرنسية كان بوسع الجماهير الكادحة أن تقتنع بأن العالم البرجوازى الذى استبدل شكلا من أشكال الإستغلال بآخر هو أيضا غير معقول كالإقطاعية وغيرها من الأنظمة الإجتماعية السابقة فالتناقضات بين الأغنياء والفقراء ازدادت حدة وبات تحرير الملكية من قيود الإقطاعية بالنسبة إلى الكثير من الفلاحين والبرجوازيين الصغار تحريرا من الملكية وأصبح الدفع عدا ونقدا هو الرابط الوحيد فى المجتمع البرجوازى الذى يحكم على الكادحين بالفقر والمعاناة ، لقد أصبحت المذاهب المختلفة تبرز على الفور بوصفها انعكاسا لهذا النير واحتجاجا عليه)[١].

ومر معنا عند حديثنا عن الإشتراكية الطوباوية بعض المفكرين الفرنسيين الذين أفاد منهم ماركس كما ذكرنا ، واعتبر أفكار سان سيمون (أجنة كافة الأفكار الإقتصادية تقريبا للاشتراكيين المتقدمين)[٢].

وقد اعتمد ماركس على التجربة التاريخية للصراع الطبقى فى فرنسا ، والثورات التى حصلت فيها بالدرجة الأولى وبنى بعض أفكاره على ذلك كالصراع الطبقى ، والإنتاج وأسلوبه ، وأثر الوضع الإقتصادى فى هذا الصراع .

جاء فى كتاب الماركسية فى القرن التاسع عشر :

(إن تجربة فرنسا التاريخية قد أعطت ماركس مادة حية لأفكاره حول الدور التاريخى العالمى للبروليتاريا حول الثورة وأهمية الدكتاتورية الثورية فى عملية دفع الثورة نحو نهايتها المظفرة حول دور الحزب الثورى فى هذه

---

(١) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢٩/١) .

(٣) المرجع السابق (٣٠/١) .

العملية وحول مواقف مختلف الطبقات وأحزابها فى مسار الثورة ، إن كل هذه الطروحات التى تم اثباتها وصوغها النظرى كمبادىء أساسية للشيوعية العلمية قد أغنت بدورها الماركسية باعتبار كونها عقيدة فلسفية متماسكة للبروليتاريا)[١].

ومن هذا النص ومما سبق يظهر لنا جليا أن الفلسفة الإشتراكية الفرنسية قد أثرت فى ماركس وفلسفته ، ولعبت دورا كبيرا فى تشكيل أفكاره الإشتراكية .

ولايفوتنا هنا التذكير بأن فرنسا كانت الإنطلاقة للثورات فى أوروبا فقد دشنت الثورة الفرنسية عهدا جديدا كما اعترف زعماء الماركسية بذلك بالإضافة الى الأفكار الإشتراكية للطوباويين الفرنسيين والتى اعتمد ماركس عليها كثيرا بل وأثنى عليها واعتبرها أكثر نضوجا من غيرها رغم طوباويتها .

---

(١) (٣٢/١) .

المصدر الثالث : الإقتصاد الانجليزى :

إن ماركس أولى الإقتصاد إهتماما كبيرا ، وألف فى مسائله كتبا كثيرة ومن أشهر كتبه فى هذا الإتجاه رأس المال ، وتحدث فيه عن مسائل الإقتصاد وعلاقات المجتمع فى ضوئها ، وقال عنه ماركس : (إن الهدف النهائى لهذا الكتاب أن يكشف عن القانون الإقتصادى لحركة المجتمع الحديث)[١]. وجاء ماركس بعدة نظريات إقتصادية كان من أبرزها نظرية القيمة ، وفائض القيمة[٢]. وقد استفاد ماركس فى توجهاته الإقتصادية من فلاسفة الإقتصاد الانجليزى . يقول لينين : (لقد تكون الإقتصاد السياسى والكلاسيكى ماقبل ماركس فى انجلترا وكانت أكثر البلدان الرأسمالية تطورا ، فقد درس آدم سميث ، ودافيد ريكاردو[٣]النظام الإقتصادى فسجلا بداية نظرية القيمة ـ العمل . وواصل ماركس عملهما فأعطى هذه النظرية أساسا علميا خالصا وطورها بصورة منسجمة إلى النهاية ، وبين أن قيمة كل بضاعة مشروطة بوقت العمل الضرورى إجتماعيا لإنتاج هذه البضاعة)[٤].

وقد استقى بعض أتباع ريكاردو الأفكار الإشتراكية من نظريته . يقول ماركس : (قام أتباع ريكاردو اليساريون فى بريطانيا العظمى باستخلاص بعض الاستنتاجات الإشتراكية ، من نظريته الخاصة بقيمة العمل)[٥].

ويضاف لهذا أن ماركس قد استفاد من الإشتراكيين الطوباويين الإنجليز وعلى رأسهم روبرت أوين . غير ماأحدثته الثورة الصناعية فى انجلترا .

---

(١) نقلا من كتاب مصادر الماركسية (٣١) .

(٢) سيأتى الحديث عنها إن شاء الله تعالى فى المذهب الإقتصادى الشيوعى .

(٣) عالم إقتصادى انجليزى ، من كبار ممثلى الإقتصاد السياسى البرجوازى الانجليزى ، قال بنظرية القيمة . ولد عام ١٧٧٢م ومات سنة ١٨٢٣م .
انظر مراسلات ماركس انجلز (٢٣٣) .

(٤) مصادر الماركسية (٦) .

(٥) نقلا من كتاب الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢٦) .

هـذا مـايتعلق بالمصادر الثلاثة الأولى . وقـد صـرح مـاركس بأثر هذه المصـادر على بروليتاريا أوروبا كلهـا فقال : (ينبغى الإقـرار بأن البروليتـاريا الألمانيـة هـى المنظـر الأيديولـوجى للبروليتـاريا الأوربيـة تماما . ككـون البروليتـاريا الانجليزية منظـرها الإقتصـادى والبروليتـاريا الفـرنسية منظـرها السياسى)[1].

---

(١) نقلا من كتاب الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢٧-٢٨) .

المصدر الرابع : نظرية التطور :

إن النظريات الفلسفية فى الأعم الأغلب التى وجدت فى أوروبا قامت على محاربة الدين ولأجل ذلك اتخذها أصحاب الأهواء مصادر لهم يرجعون إليها ، ويأخذون بما جاء فيها ، ويتخذون من أفكار أصحابها دعامة يرتقون من عليها لبث أفكارهم وخدمة أهدافهم .

وعندما كان من مبادىء الشيوعية الأساسية القضاء على الدين . وهذه النظريات تدعم ذلك وقامت أصلا على مخالفة الدين وادعت بطلانه فقد تمسك ماركس صاحب الشيوعية العلمية بهذه النظريات ومن أخطر النظريات وأكبرها أثرا فى مذهب ماركس نظرية التطور ، التى ظهرت آثارها واضحة فى مذهبه ، وهذه النظرية تنسب إلى تشارلز داروين . ومما تجدر الإشارة إليه هو أن هذه النظرية أثرت فى كثير من المذاهب والأفكار الموجودة فى أوروبا وقد اتخذها ماركس مصدرا أساسيا من مصادر فكره .

ولابد من التعرض لهذه النظرية بشىء من الدراسة وبيان أثرها فى مذهب ماركس .

نظرية التطور

تنسب لتشارلز دارون[١] (Charles Darwin) وإن كانت الفكرة قد وجدت منذ القدم ، غير أنها اتخذت على يديه ، صفة النظرية العلمية المؤصلة ، التى قامت على البراهين كما يراه مؤيدو النظرية . وقد ذكر دارون كثيرا من الفلاسفة والمفكرين الذين سبقوه فى هذا القول ، وإن اختلف مع بعضهم فى أشياء ووافقهم فى أخرى[٢].

لقد شكلت آراء العلماء السابقين مادة خصبة لدارون ولكن إتخذت النظرية على يديه نوعا من التأصيل والتعليل فارتبطت باسمه .

حيث أصل لهذه النظرية ، وذكر الأسباب والعوامل التى تؤدى إلى التطور والنشوء والإرتقاء وذكر خمسة عوامل طبيعية تؤدى لذلك :

(١) الوراثة :

أى أن صغار كل نوع تشابه آباءها .

(٢) التحول :

فأفراد كل نوع تتشابه ولاتتماثل .

(٣) التوالد :

إن مايقدر له البقاء أقل مما يولد من النبات والحيوان فالطبيعة تسرف فى الإيجاد كما تسرف فى الإفناء فينشأ :

---

(١) عالم طبيعى انجليزى صاحب النظرية ، من أهم كتبه غير أصل الأنواع تباين الحيوانات ، والنباتات بفعل الاستدجان . ولد سنة ١٨٠٩م ومات سنة ١٨٨٢م . انظر بنية الثورات العلمية (٣٠٧-٣٠٨) ، وانظر الدراسة التى قدمها المترجم لأصل الأنواع (٦٢-٩٨) عن حياة داروين

(٢) انظر أصل الأنواع (١٠٣) ومابعدها ، داروين ، ترجمة اسماعيل مظهر ، مكتبة النهضة ، بيروت ، بغداد ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها . كذلك انظر المقدمة التى كتبها المترجم فقد اشتملت على دراسة تاريخية جيدة عن النظرية (١-٦٢) .

(٤) التناحر على البقاء :

فكل نبات أو حيوان يبرز فى الوجود ينبغى له أن يسعى فى الرزق ويجاهد غيره وينشأ عن هذا .

(٥) بقاء الأصلح :

فالأفراد التى تكون أكثر قدرة على مقاومة الأفاعيل الطبيعية تكون أكثر قابلية للبقاء[١].

ونرى من هذه العوامل إسناد الأمر إلى الطبيعة وبيان أنها تخبط خبط عشواء دون أن يكون هناك أصولا تتمشى عليها!!

وعرفت هذه النظرية بنظرية (النشوء والإرتقاء) أو (الإنتخاب الطبيعى) ، وأفادت النظرية أن الأمر يعود إلى الطبيعة ، وأن التطور هو الذى أوصل الإنسان إلى هيئته الحالية ، ومن هنا ولج ماركس واستند على النظرية وعممها على كل شىء ، من الأفكار ، والمعتقدات ، والأخلاق ، وربط تطورها بتطور وسائل الإنتاج ، وكما أثرت النظرية فى فكر ماركس ، فإن آثارها قد حقت على جوانب متعددة فى الحياة الأوربية .

---

(١) انظر أصل الأنواع (٣٨-٣٩) .

أثر نظرية داروين فى الفكر الأوروبى :

أثرت النظرية الداروينية على شتى مجالات الفكر الأوربى وتأثرت بها أفكار الفلاسفة والمفكرين هناك ولاشك أن اليهود قد لعبوا دورا هاما فى نشرها وغيرها من النظريات التى تعارض الدين ، إذ أن هذه النظريات قد جعلت الإنسان هملا فى هذه الدنيا فلايدرى من أين أتى ولايدرى إلى أين سيذهب ، فتجده لايعرف للعقاب والثواب بابا ، ولايقيم للدين والأخلاق قدرا جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون (لاتتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ولاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل والأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى سيكون واضحا لنا على التأكيد)[١].

وبالفعل لقد (بذل اليهود جهود الجبابرة لتوسيع الهوة التى قامت بين الدين وبين الداروينية على أمل تحطيم الدين فى النهاية تحقيقا لحقدهم القديم ضد غير اليهود عامة وحقدهم فى أوروبا على المسيحيين بصفة خاصة ، من أجل مالاقوه منهم من اضطهاد واستغلت اليهودية العالمية نظرية داروين أبشع استغلال ...)[٢].

فأعطت النظرية ثمارها حسب ماأراده اليهود لها فكانت آثارها عقدية وأخلاقية .

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون (١٦) ، ترجمة محمد خليفة التونسى ، الطبعة السابعة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان .

(٢) التطور والثبات فى حياة البشرية (٣٤) .

الآثار العقدية :

تحدثنا عن واقع أوروبا ووضع الشعوب فيها التى كانت تحت سلطة الكنيسة وطغيانها الذى أحاطته بالدين فكان الناس يبحثون عن مهرب لهم للخروج من ذلك الظلم والطغيان بل والهروب من دين الكنيسة ، فكانت النظريات العلمية تشكل بابا حقيقيا للهروب من نيرها وخاصة أن النظريات كانت تعارض ماهى عليه من أفكار وتنقض أكثر مايأتى عن طريقها .

فاعتقد الناس فى النظريات العلمية ووثقوا بها دون دين الكنيسة .

ومن أكثر النظريات مخالفة لأفكار الكنيسة نظرية التطور حيث قامت الكنيسة برفضها ومحاربتها .

فوقف الناس مع الكنيسة بداية (فى نظرى) لما لها من سلطة (أى خوفا من سلطتها وطغيانها) إضافة إلى أن داروين أخرج الناس عن إنسانيتهم[١].

ولكن سرعان ماوجد الناس أن فى هذه النظرية وغيرها مخرجا لهم فتدافعوا من خلالها سخطا على الكنيسة وأفعالها .

وزادت هذه النظرية فى زعزعة عقيدتهم رغم مالديهم من إنحراف فجعلت الإنسان ينغمس فى اللذة والشهوة طالما أن الطبيعة تخبط خبط عشواء ولاغاية لها . وكانت (نقطة تحول فى تاريخ العلوم ... أثرت فى التفكير البشرى بحيث يمكن تتبع آثارها فى كل ماأنتجه العلماء فى العهد الأخير)[٢].

فالأثر الأول : زيادة زعزعة النفسية الأوربية وإنحرافها وتجرأها على نبذ الدين ومعادته بل وإنكاره وإنكار كل ماجاء فى معتقداته (الإلحاد) .

ثانيا : نفى الغاية والقصد فى هذه الحياة .

وهو أثر بدهى يظهر للوهلة الأولى من النظر إلى شجرة التطور التى مر بها الإنسان حتى وصل إلى حاله الذى هو عليه الآن فنجد أن أصله

---

(١) انظر التطور والثبات فى حياة البشرية (١٩-٢٠) .

(٢) الفكر المادى وموقف الإسلام منه (١٨١) .

جرثومة حقيرة ، والطبيعة تخبط خبط عشواء . ونتيجة لعشوائيتها وقع الإختيار على الإنسان من قبلها . وكان بالامكان أن يقع إختيارها على غيره ليكون سيدا لها .

إذا فلاداعى لأن يفكر الإنسان فى الغاية التى خلق من أجلها وأصله جرثومة .

ولاداعى للبحث فى القصد من خلقه والغاية من وجوده طالما أن الطبيعة اختارته عن غير قصد وإنما عن طريق الصدفة والعشوائية . فليعش الإنسان لهم واحد هو قضاء الشهوة والغريزة .

فأسدت هذه النظرية للإنسان معروفا فى تعلقه بالحيوانية ولم تطلب منه شيئا أكثر من الاهتمام بماديته وحيوانيته .

ثالثا : أفادت هذه النظرية أن التطور المطلق هو المبدأ المعتبر فى هذه الحياة .

ويلزم من ذلك التطور فى كل الثوابت العقدية والأخلاقية فبعد الحاجة إلى الإله نظرا لقصور الانسان فى المعرفة وعدم تمكنه من الوصول إلى تفسير الأحداث أصبح الآن يعرف ماكان يجهله والمعرفة تزداد لديه إذا فلاحاجة لهذا الشعور بوجود خالق . وكذلك الأخلاق من حياء وغيره لاداعى لبقائها بل لابد من تطورها . وهكذا .

كسرت النظرية الداروينية ماكان سائدا فى المجتمع الأوربى من فكرة الثبات والجمود المطلق الذى غذته الكنيسة .

فقالت بالتغيير فى كل شىء وعدم ثباته سواء الدين أو الأخلاق أو القيم الثابتة ، وكان لها آثار إجتماعية وأخلاقية .

أثر الداروينية فى الفكر الشيوعى :

إن النظرية التى جاء بها داروين أثرت فى أفكار ماركس كثيرا بل عدها هو مصدرا من مصادره . حيث ذهب الى أن التطور لايقف عند كون الإنسان متطورا بل إن المجتمعات البشرية بأكملها متطورة وهذا التطور يصاحبه تطور فى علاقات الإنتاج ووسائله ، كما أن الأفكار والمعتقدات والقيم والأخلاق تتبدل وتتغير ففى كل مرحلة من مراحل التاريخ تكون الأفكار الدينية والأخلاقية وغيرها من العلاقات مرتبطة بتلك المرحلة متناسبة معها ، وفى المرحلة التى تليها كذلك وهكذا إلى أن يصل ماركس إلى المرحلة التى لم تعد بحاجة إلى الدين والأخلاق لأن المجتمع البشرى بلغ من التطور مايجعله فى غير حاجة إلى هذه الأوهام والخرافات ، ولعل فكرة القضاء على الدين وهى من أهم المبادىء الشيوعيةجاءت من أن الدين يتطور ويتبدل وكان مناسبا لعصر سابق ولايتناسب مع عصر آخر .

وبالعموم يمكن إرجاع أثر الداروينية فى الشيوعية إلى ثلاث نقاط :

أولا : إلغاء الإله والقول بالطبيعة .

ثانيا : القول بأن الكائنات الحية تتبع فى تطورها خلقا حتميا ينشأ من ضغط البيئة الخارجية على الكائن الحى ومحاولة الكائنات أن تكيف حياتها مع هذه البيئة وفى أثناء عملية التطور تنقرض أعضاء أو وظائف معينة لأنها لم تعد تلائم البيئة وتنمو بدلا منها أعضاء ووظائف جديدة اكثر منها تعقيدا ولكن الكائنات لاإرادة لها فى هذا التطور ولاقصد وإنما هو مفروض عليها فرضا من الخارج أرادت أم لم ترد ولاتملك هذه الكائنات أن تبطىء به أو تسرع أو تحوله عن طريقه فالأمر فى ذلك كله متروك (للطبيعة) ، وقد طبق الشيوعيون هذه النظرة تطبيقا كاملا على التطور الإقتصادى والإجتماعى وزعموا أن مايصلون إليه من النتائج صحيح لأن الأساس الذى يبنون عليه صحيح .

ثالثا : النظرة المادية الحيوانية إلى الإنسان تلك النظرة التى تنفى الجوانب الروحية والمثل العليا وتؤمن بعالم الجسد وحده وبالواقع الذى تدركه الحواس فحسب شأنهم فى ذلك شأن بقية أوروبا المادية .

ومن هنا كانت الشيوعية هى التطور الأخير للحضارة المادية الأوربية ولم تكن شيئا جديدا كما يريد دعاتها أن يفهموا الناس فى الشرق والغرب(١).

يقول د. عمارة نجيب : (وتبنى هده النظرية وتحمس لها كثير من العلماء والفلاسفة وأضافوا إليها وطوروها ، واستخدموها فى التدليل على عدم وجود شىء وراء الطبيعة وأسندت عملية الخلق والتطور إلى الطبيعة ذاتها وكان (ماركس) أحد الذين استفادوا من هذا الإستنتاج ووضع فلسفته المادية الإلحادية انطلاقا من هذا المبدأ . ووسع مضمونها فى التطور حتى طبقه على النظام الإجتماعى الإنسانى وتاريخ الإنسان السياسى . مكونا فلسفته الماركسية ، التى اشتهرت بالشيوعية أو بالإشتراكية العلمية . ومن هنا كان الإنسان فى نظرهم هو مصدر الدين ، فهو صانع الدين وخالقه ومبتدعه وهو الذى تدين بتصرفه وفكره دون أن يكون هناك قوى خارجة عن بيئة الإنسان والإنسانية ، أو بمعنى آخر دون أى تأثر بقوى خارج الطبيعة ، التى أعطيت فى نظرهم كل قدرة على الخلق والإبداع والتدبير)(٢).

---

(١) انظر : الإنسان بين المادية والاسلام (٦٣-٦٥) ، الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه (١٨٤).

(٢) الإنسان فى ظل الأديان (٢٩-٣٠) ، د. عمارة نجيب ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م ، مكتبة المعارف ، الرياض .

موقف العلم من النظرية :

تعرضت النظرية للنقد من كثير من العلماء والفلاسفة ، وذلك لكونها لم تقم على أصول علمية ، ومن هنا اعتبرها بعضهم خرافة علمية . ولاشك أن النظرية مردودة أصلا بكتاب الله تعالى ، فهى تخالف القواعد التى يقوم عليها الكون وخلق الإنسان التى ذكرها الخالق جل وعلا فقال تعالى : {**لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم**}(١).

وقال تعالى : {**ولقد كرمنا بنى آدم**}(٢).

فالأصل خلق الإنسان فى أحسن تقويم فهل القرد كذلك؟!

هذا من ناحية أصل الإنسان .

أما الجانب الآخر ، فإن دارون نفى الحكمة فى خلق هذا الكون وأسند الأمر للطبيعة التى تخبط خبط عشواء ، (أى للمصادفة) ، والكون بنظامه البديع المتكامل المترابط يمنع من إرجاعه إلى الصدفة . وقد كثرت أقوال العلماء والفلاسفة فى نفى المصادفة عن خلق الكون .

ومما يضاف إلى هذين الأمرين وهما (نقض كتاب الله تعالى لهذه النظرية ، ونفى القول بالمصادفة) أن داروين قد اعترف بوجود الإعتراضات عليه . وأورد بعض ماجاء عنه فيقول : (أنا لاأنكر أن هناك إعتراضات خطيرة وكثيرة يمكن أن توجه ضد نظرية التطور عن طريق الإنتخاب الطبيعى ...)(٣).

ويذكر كثيرا من الاعتراضات الواردة على نظريته . ومن ذلك قيام أشكال مختلفة تربط بين كل الأنواع فى كل مجموعة بتدرجات وهى مجهولة

---

(١) سورة التين : (٤) .
(٢) سورة الإسراء : (٧٠) .
(٣) أصل الأنواع (٧٤٦) .

فيقول : (وعلى أساس هذا المذهب القائل بانقراض أعداد لاتحصى من الحلقات الرابطة بين السكان الحاليين والمنقرضين فى العالم وبين الأنواع المنقرضة فى كل فترة والأنواع الأقدم منها فى فترة سابقة لماذا لايخص كل تكوين جيولوجى بمثل تلك الحلقات؟ لماذا لاتزودنا كل مجموعة من البقايا الحفرية بشواهد واضحة على التدرجات والطفرات فى أشكال الحياة ، إننا لانصادف تلك الشواهد وهذا هو أوضح وأقوى كل الاعتراضات التى يمكن أن توجه ضد نظريتى ...) .

ويقول : (لايمكن أن أجيب على تلك الأسئلة والاعتراضات الخطيرة إلا على فرض السجل الجيولوجى أبعد مايكون عن الكمال أكثر ممايعتقد معظم الجيولوجيين ولايمكن أن يوجه اعتراضه بأنه لم يكن هناك رمن كاف لأى قدر من التغير العضوى ذلك لأن الزمان كان طويلا جدا بالدرجة التى يقصر العقل البشرى عن تقدير طوله أو تفهمه ...)[١].

وبدورنا نقول إذا كان علم الجيولوجيا لم يسعف داروين لأن يجعل الحلقات مكتملة متصلة فكيف أسعفه إلى أن يصل إلى هذه النتائج التى يرجع بعضها إلى أزمان أقدم من زمن تلك الحلقات المفقودة؟!!

ثم إن داروين اعترف بجهله لتلك المسائل فقال :

(إن الاعتراضات الأكثر أهمية تتعلق بمسائل نجهلها دون إنكار بل إننا لانعرف حتى مدى جهلنا بها نحن لانعرف كل التدرجات الانتقالية بين أبسط الأعضاء وأكثرها كمالا ولايمكن الإدعاء بأننا نعلم كل الطرق المختلفة للتوزيع خلال الزمن الطويل من السنين)[٢].

فإذا كان الأمر كذلك فمن أين لتشارلز داروين أن يثبت أن ماذهب إليه وأثبته فى غابر الأزمان حقيقة طالما أنه اعترف بجهله فى أمور كثيرة وعجزه عن الإجابة على تساؤلات مطروحة من قبله وهو صاحب النظرية؟!!

---

(١) أصل الأنواع (٧٤٩-٧٥١) .
(٢) المرجع السابق (٧٥٢) .

إن الاعتراض والنقد لهذه النظرية قد صدر من الذين أخذوا بها وعلى رأسهم ماركس رغم اعتباره أنها مصدرا له(١).

وبهذه النظرية والعرض لها نختم حديثنا عن المصادر والأصول التى اتخذها ماركس فنجد أنها أصول لم تتجاوز وقتها ، ودعاوى كانت ترفع لتحقيق الأهداف من ورائها ، ونظريات باطلة شهد أصحابها بقصورها بل ووقوفها حائرة أمام حقائق العلم وتساؤلاته ، فإذا كان هذا حال الأصول فما هو حال البناء الذى قام عليها؟!

إن النتيجة واضحة نتيجة حتمية لكل ماقام على فاسد فمصيره الزوال ليبقى الحق الذى سيظهره الله تعالى ولو كره المشركون . وعندما كان اليهود وراء هذه النظريات والنفخ فيها ومن ثم تسخيرها واستغلالها لمصلحتهم ، وكون إحدى هذه النظريات هى نظرية التطور والتى تدعو إلى التحرر من الدين ، ولكونها إحدى مصادر الفكر الشيوعى فقد سخر اليهود هذا الفكر بأكمله لخدمة أهدافهم عن طريق منظماتهم السرية وحركاتهم الصهيونية .

---

(١) انظر مثلا مراسلات ماركس انجلز (١٤٨-١٥٢) .
وانظر ديالكتيك الطبيعة (٣٠٢) ، فردريك انجلز ، ترجمة توفيق سلوم ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، دار الفارابى ، بيروت ، لبنان .
وانظر كتاب الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (٤٥) ومابعدها وجاء فيه (إن العلماء لم يقبلوا نظرية التطور لأنها صحيحة فى ذاتها أو لأنها يمكن البرهان على صحتها بطرق صحيحة سليمة منطقية علمية وإنما قبلوها لأنهم لم يجدوا أمامهم إلا واحدة من اثنين إما قبولها على علاتها أو رفضها وقبول فكرة الخلق المباشر فآثروا الأولى ورفضوا الثانية) .
وقد ذكر النص باللغة الإنجليزية كاملا ثم ترجم (٥١) .

المبحث الثالث
الشيوعية وليدة الصهيونية

إن اليهود عملوا كثيرا لخدمة عقيدتهم - رغم بطلانها - ولايزالون كذلك حتى وقتنا الحاضر وسيظلون إلى أن يشاء الله تعالى ، والمتتبع للتاريخ يعلم مدى حرص بنى يهوذا على نشر عقيدتهم ، والقضاء على الأديان المخالفة لهم ، كما جاء فى بروتوكولاتهم (يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان)(١).

وعمل هؤلاء المفسدون على إيجاد الشعارات والطرق المختلفة المنضوية تحت أسماء عديدة من أجل تحقيق مآربهم الخبيثة فأنشأوا المنظمات والحركات السرية التى تعمل لخدمة أهدافهم وتحقيق رغباتهم . ومن هذه الحركات - القائمة بتخطيط من اليهود - (الحركة الصهيونية) التى اتخذت من المذاهب المنحرفة مطية لها للوصول إلى غاياتها وتحقيق مخططاتها التى صاغتها فى بروتوكولات حكماء صهيون . إن حركة العودة إلى فلسطين واخضاع أمم الأرض للهيمنة اليهودية ليست دعوة حديثة كما يعتقده بعض الناس ، بل دعوة قديمة لها جذورها التاريخية .

ولكن لم تحقق الجزء الأكبر من أهدافها إلا عن طريق الصهيونية الحديثة وذلك فى اعتقادى يرجع إلى :

(١) تميزها عن غيرها من الدعوات بالتخطيط الدقيق وبذل الجهد الكبير من أجل تحقيقها والسهر على تنفيذ ماجاء فيها .

(٢) تواطؤ اليهود والنصارى فى حربهم ضد المسلمين واعتبار الإسلام هو العدو اللدود ، ولايعنى هذا عدم اتفاقهم من القديم فى حربه ولكن اتخذ هذا التواطؤ المكر والخداع والتلبيس وتيسير كل منهم للآخر مايريد الوصول إليه .

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون ، البروتوكول الرابع عشر (١٥٢) .

(٣) تخاذل المسلمين وبعدهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم ، ونكوصهم على أعقابهم ، وتخاذلهم فى جهاد أعدائهم وعدم استغلال مواردهم فى الضغط على عدوهم .

فهذه بعض العوامل التى منحت هذه الدعوة الصهيونية الحديثة على يد تيودور هرتزل[1] سمة تحقيق كثير من الأهداف على أن صهيونية هرتزل ليست إلا مرحلة من المراحل التى جاءت فى الدعوة إلى العودة إلى أرض فلسطين . يضاف إلى ذلك :

(٤) سيطرة اليهود على أكبر المنظمات الدولية التى أصبح الناس يلجأون إليها ويتحاكمون إلى قراراتها ، ومن ثم سيطرتهم على أكبر الدول عالميا من حيث التصرف فى شئون العالم ودوله عنيت ماتسمى (بالولايات المتحدة الأمريكية) .

---

(١) مؤسس الصهيونية الحديثة ، تلقى دراسة الحقوق فى فيينا ، نال شهرة واسعة كصحفى أدبى وكاتب مأساوى ، ولكن عمله على تأسيس الحركة الصهيونية الحديثة طغى على الانجازات الأخرى . ولد عام ١٨٦٠م فى بودابست ، ومات سنة ١٩٠٤م .

انظر الأخوة الزائفة (٧٢) ، جاك تنى ، ترجمة أحمد اليازورى ، الطبعة الخامسة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

العودة إلى (صهيون) بفلسطين عقيدة يهودية :

وردت النصوص التوراتية المحرفة الدالة على أن العودة إلى أرض فلسطين من صلب عقيدة اليهود ، وقد وردت قدسيته فى العهد القديم . فهذا الجبل هو الذى وعد الإله بنى إسرائيل به .

فمن ذلك (إنى مسحت ملكى على جبلى المقدس صهيون)[١].

وجاء أيضا (ليرسل من مقدسة إليك نصره وليكن لك من صهيون عضدا)[٢].

وجاء فى كتابهم المقدس أيضا (تفتدى صهيون بالحق والراجعون فيها بالبر)[٣].

وكذلك (اللهم فى صهيون يجدر بك التسبيح وإليك يوفى بالنذور)[٤].

(الرب يؤثر أبواب صهيون على جميع مساكن يعقوب)[٥].

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التى تبرهن على أهمية هذا الجبل وقدسيته وعلاقته بإله اليهود .

ولم يكن الامر مقصورا على التوراة أو علمائها فى الحديث عن هذا الجبل والعودة إليه فهذا هرتزل يقول (ستكون عاصمتنا ، كنزنا الثمين ، فى موقع تحيط به الجبال وعليها قلاع فوق قممها ، وعلى شاطىء نهر جميل مع قلاع أخرى على الجوانب)[٦].

---

(١) المزامير ١١٢٠/٦/٢ .
(٢) المزامير ١١٤٠/٣/٢٠ .
(٣) اشعيا ١٥٣١/٢٧/١ .
(٤) المزامير ١١٩٩/٢/٦٥ .
(٥) المزامير ١٢٣٤/٢/٨٧ .
(٦) اليوميات الكاملة ، تيودور هرتزل ٢٣/١ ، ١٨٩٥م نقلا من كتاب تكوين الصهيونية (٥٩) .

ومما يدل على أن قضية العودة إلى أرض فلسطين قضية عقدية هو أنه عرض على اليهود فى العصر الحديث عدة (مناطق مختلفة فى الأرجنتين وافريقيا الشرقية وقبرص وأذربيجان (فى الاتحاد السوفيتى) ، وفشلت جميعا فى استثارة اليهود للهجرة إليها ، وعندما قبل هرتزل بالمشروع البريطانى لإقامة وطن قومى يهودى فى أوغندا ، كاد قبوله يخرق الحركة الصهيونية برمتها ، ويصف المؤرخون مشاهد الأسى والهلع بل والبكاء بين يهود أوروبا الشرقية عندما قرر المؤتمر الصهيونى قبول الاقتراح فى ١٩٠٣م بإيعاز من هرترل وسرعان مانقض القرار فى المؤتمر الثانى فى ١٩٠٥م عندما تقرر تكريس الجهود كليا نحو فلسطين)[١].

وكانت المناسبات الدينية عند اليهود مليئة بالتغنى بالعودة إلى أرض فلسطين والتعلق بها (وعلى مر الأجيال عبر اليهود عن هذا التعلق بحصيد من الأقوال والأمثال والسنن والتقاليد . ومن ذلك الكلمة التى طالما استشهد بها الصهاينة (فى أورشليم فى العام القادم) كدعاء ونخب يقال فى إحتفالات عيد الفصح ونهاية عيد الكفارة ...)[٢].

ويختم الحاخامات والوعاظ خطبهم بكلمة (اللهم ابعث بالمخلص إلى صهيون)[٣].

فقضية العودة إلى فلسطين قضية عقدية ، وكانت تعنى الحركات الصهيونية المنادية بالعودة إلى أرض بيت المقدس إعادة مجد بنى اسرائيل - كما زعموا - وبناء هيكل سليمان عليه الصلاة والسلام بعد إزالة المسجد الأقصى وهذا هو الهدف الأسمى للصهاينة فى العودة الى أرض فلسطين .

ونأتى الآن إلى التعريف بالصهيونية .

---

(١) تكوين الصهيونية (٦١) .
(٢) المرجع السابق (٦١-٦٢) .
(٣) المرجع السابق (٦١-٦٢) .

تعريف الصهيونية :

يعرفها هرتزل بأنها (حركة الشعب اليهودى فى طريقه إلى فلسطين)[١].

وسميت بالصهيونية نسبة إلى جبل صهيون الواقع جنوب القدس .

ويمكننا أن نعرفها بالتالى :

حركة سياسية دينية تهدف إلى السيطرة على العالم والتحكم فى خيراته متخذة من جبل صهيون مقرا لها حيث ينتظرون مسيحهم ليخلصهم من العذاب .

وقد تذرع هرتزل واليهود فى جعل هذه الحركة أكثر خدمة لأهدافهم بمسألة معاداة السامية ، وأن اللاسامية آخذه فى الانتشار .

والسامية : نسبة إلى سام بن نوح حيث يرجع اليهود إليه فى نسبهم .

ومعاداة السامية : هم أولئك أعداء اليهود .

ومن هنا اعتبر بعض الكتاب أن هذه الدعوة كانت بداية الانطلاق لإعلان الحركة الصهيونية الحديثة ، وقام اليهود بإثارة هذه القضية وهى معاداة السامية ووصل بهم الخداع والمكر أن يرسلوا البعثات إلى دول العالم من أجل القيام باضطهاد اليهود وتعذيبهم لإجبارهم على العودة إلى أرض فلسطين وذلك كله تحت شعار معاداة السامية[٢].

وزاد اليهود من إثارة شعوبهم وبنى جنسهم بالمكر والخديعة بأن اللاسامية ستقضى على اليهودية ، وكان من بين هؤلاء تيودور هرتزل حيث

---

(١) الصهيونية وربيبتها اسرائيل (٢٨) ، عمر رشدى ، الطبعة الثالثة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، دار القلم ، الكويت .

(٢) ولمزيد انظر تكوين الصهيونية (١٣٩-١٤٠) .

أخذ (يثبت هذه الشكوك عند اليهود عندما يقوم بإعلامهم عن سياسة كارل ريتر اللاسامية وكيف أنها تنتشر بسرعة بين الشعب الألمانى . واقترح هرتزل إقامة منظمة يهودية تدعى حركة العودة إلى إسرائيل (Jewish Back to Israel Movement) باسم المحافظين من اليهود وكانت تلك بداية الحركة الصهيونية)[١].

---

(٢١) أحجار على رقعة الشطرنج (١٥٣) .

الحركة الصهيونية الحديثة :

إن هذه الحركة لم تكن هى الوحيدة فى تاريخ اليهود بل سبقها حركات عديدة كانت جميعها تهدف إلى العودة إلى أرض فلسطين[١]. والذى يهمنا منها هنا الحركة الصهيونية الحديثة التى ارتبطت بتيودور هرتزل .

إن أخطر ماتمخضت عنه حركة هرتزل هو وجود المؤتمرات التى تعقد كل سنة ، وكان أول مؤتمر سنة ١٨٩٧م فى مدينة بال بسويسرا ، وقد وضع فيه (القواعد الدائمة لتنظيم الصهيونية ، وسمى المؤتمر نفسه ، جورا ، "الأمة اليهودية" ، وأنشأ اليهود تنظيما سياسيا عالميا)[٢].

و(نقل هذا المؤتمر الحركة الصهيونية من مجرد أحلام وأمانى إلى حقيقة واقعة تمثلت فى مقررات مؤتمر بال حيث رسمت الخطوط العريضة للاستراتيجية الصهيونية ، فبعد أيام قليلة من المؤتمر كتب هرتزل فى مذكراته يقول : (لو أردت أن ألخص أعمال مؤتمر بال فى كلمة واحدة وهذا مالاأقدم على الجهر به لقلت فى بال أوجدت الدولة اليهودية ولو جهرت بذلك اليوم لقابلنى العالم بالسخرية ، فى غضون خمس سنوات ربما فى غضون خمسين سنة بالتأكيد سيراها الجميع ، وإن الدولة قد تجسدت فى إرادة الشعب فى إقامتها)[٣].

(وكان من نتائج المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى بال عام ١٨٩٧م هو نقل الجهد الصهيونى وعلى صعيد عالمى إلى مرحلة جديدة هى مرحلة العمل والإنشاء والإنجاز المتكامل لترسيخ الوجود الصهيونى فى فلسطين بالتعاون مع الدول الاستعمارية ، وكان لابد من الاعتماد على الدول الكبرى لتحقيق هذه الغاية فأجرى الزعماء اليهود الإتصالات مع الدولة العثمانية

---

(١) انظر عن هذه الحركات كتاب خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية (١٥٧-١٥٨) ، عبد الله التل ، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، المكتب الإسلامى .

(٢) الأخوة الزائفة (٧٣) .

(٣) الاستراتيجية الاسرائيلية (٢٧٥/١) ، وانظر (٣٥/١-٣٦) ، د. غازى إسماعيل ربابعه ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، مكتبة المنار ، الأردن ، الزرقاء .

صاحبة السيادة على فلسطين فى ذلك الوقت من أجل تحقيق إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين فخيبت الحكومة التركية ممثلة فى السلطان عبد الحميد[١] آمالهم ، ثم اتجهوا نحو بريطانيا فكانت خير معين لهم فى اقامة دولتهم وأمدتهم بكل أسباب القوة والمنعة وأعطت لهم بموجب وعد بلفور حق إقامة وطن قومى لهم فى فلسطين بحكم خضوع فلسطين آنذاك للانتداب البريطانى ، وقدر مخططوا الإستراتيجية الصهيونية أن بريطانيا لابد وأن ترحل عن فلسطين فاتجهوا نحو أمريكا باعتبارها الدولة الأقوى فى العالم والتى تمثل الجالية اليهودية فيها قوة ضغط كبيرة فى توجه سياسة الولايات المتحدة الخارجية والتى أمدتهم بدورها بكل مايساعد الكيان الصهيونى فى فلسطين على البقاء والتوسع ، وقد أخذت الصهيونية بعين الاعتبار أن إقامة دولة يهودية فى قلب الوطن العربى سيقابل بالتحدى والمقاومة المسلحة من قبل العرب ، ومن هنا كان لزاما أن تكون القوة هى الوسيلة لفرض الأمر الواقع ، كما تمخض عنه خروج (حركتان يهوديتان قدر لهما أن يغيرا مسار التاريخ فهذا تيودور هرتزل يترأس "المؤتمر الصهيونى" الأول ، وتلك "الجمعية الإشتراكية اليهودية" تلتقى فى "المؤتمر الشيوعى" الأول فى منسك)[٢].

---

(١) من سلاطين الدولة العثمانية ، تولى الخلافة عام ١٨٧٦م وعمل على إصلاح الدولة وقام بأعمال جليلة فى مجال التعليم والثقافة ، رغم أن ديون الدولة حينذاك كانت تقدر بـ٢٥٢,٨٠١,٨٨٥ ليرة عثمانية ، وحين أراد اليهود أن يحصلوا على وطن قومى لهم فى فلسطين حاولوا استغلال وضع الدولة العثمانية المادى فأرسل هرتزل إلى السلطان عبد الحميد يطلب اعطاء فلسطين لليهود وعرض عليه رشوة مقدارها ٥ ملايين ليرة فرفضها وطرد مندوب هرتزل من قصره .
انظر أسرار الانقلاب العثمانى (٣٥-٤٨) ، مصطفى طوران ، ترجمة كمال خوجه الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة .

(٢) الأخوة الزائفة (٨٠) .

واتخذ المؤتمر عدة قرارات منها ماهو علنى ومنها ماهو سرى ، فمن العلنية تأسيس دولة لليهود فى فلسطين ، وشراء الأراضى الفلسطينية ، وتنمية موارد الأموال اليهودية ، وإنعاش الثقافة العبرية والاستعانة بأموال الأغنياء من اليهود لتحقيق الأهداف والمشاعر الوطنية لدى اليهود .

أما المقررات السرية لمؤتمر بال فهى تلك التى سميت بمقررات حكماء صهيون[١].

كيف ظهرت البروتوكولات؟

نترك الاجابة عن هذا التساؤل لمن قام بنشرها لأول مرة باللغة الروسية وهو سرجى نيلوس حيث قال فى مقدمته : (لقد تسلمت من صديق شخصى[٢]ـ هو الآن ميت ـ مخطوطا يصف بدقة ووضوح عجيبين خطة وتطورا لمؤامرة عالمية مشؤومة موضوعها الذى تشمله هو جر العالم الحائر إلى التفكك والانحلال المحتوم . هذه الوثيقة وقعت فى حوزتى منذ أربع سنوات (١٩٠١م) وهى بالتأكيد القطعى صورة حقة فى النقل من وثائق أصلية سرقتها سيدة فرنسية من أحد الأكابر ذوى النفوذ والرياسة السامية من زعماء الماسونية الحرة . (Freemasoary)

وقد تمت السرقة فى نهاية اجتماع سرى بهذا الرئيس فى فرنسا حيث ذكر المؤتمر الماسونى اليهودى (Jewish Masonie Conspiracy)[٣].

ويصف هذه المقررات والبروتوكولات فيقول :

---

(١) انظر خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية (١٦٤) .

(٢) أليكس نيقولا نيفتش كبير جماعة أعيان روسيا الشرقية أيام القيصرية .

(٣) بروتوكولات حكماء صهيون (٩٧) .

(وللذين يريدون أن يروا ويسمعوا أخاطر بنشر هذا المخطوط تحت عنوان (بروتوكولات حكماء صهيون) وبالتفرس المبدئ خلال هذه المذكرات قد تشعرنا بما نشعر به أمام مانسميه عادة (الحقائق المسلمة) Truisms إنها تظهر فى هيئة الحقائق المألوفة كثيرا أو قليلا ، وإن عبر عنها بحدة وبغضاء لاتصاحبان عادة الحقائق المألوفة ، فبين سطورها تتأجج بغضاء دينية ، وعنصرية عميقة الغور متغطرسة قد خبئت بنجاح أمدا طويلا ، وإنها لتجيش وتفيض ، كما هو واقع من إناء طافح بالغضب والنقمة ، مدرك تمام الإدراك أن نصره النهائى قريب ...)[١].

ثم حذر بعد ذلك المسيحيين فى روسيا وأبان لهم أن الخطر يقترب منهم فمن هذه المخططات يقصد اليهود تحطيم القيصرية فى روسيا والقضاء على الدين المسيحى فيها . وذكرهم بأن اللحظة القادمة من التاريخ أعظم وعيدا والأحداث القادمة أشد هولا[٢].

كما تنبأ بأن اليهود يسعون لإزالة الأنظمة الملكية والإفساد الأخلاقى وخاصة عن طريق النساء اليهوديات واعتبر أن الأفعى اليهودية تتجه نحو موسكو وكييف وأودسا واعتبر القسطنطينية كأنها المرحلة الأخيرة لطريق الأفعى قبل وصولها إلى أورشليم (أى تحطيم الخلافة الإسلامية) ولم تبق أمام الأفعى الا مسافة قصيرة حتى تستطيع إتمام طريقها بضم رأسها إلى ذيلها .

ولكى تتمكن من الزحف بسهولة فى طريقها اتخذت صهيون الاجراءات الآتية من أجل قلب المجتمع وتأليب الطبقات العاملة[٣].

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون (٩٧-٩٨) .

(٢) وبالفعل كانت نبؤاته التى اعتمد على البروتوكولات فيها قد تحققت أو على الأقل أكثرها .

(٣) انظر بروتوكولات حكماء صهيون (١٠١) من مقدمة سرجى فيولس .

وقد شكل نشر هذا الكتاب ذعرا لدى اليهود وحاولوا اخفاءه وحرق نسخه وحبسها ولكن دون القضاء عليها قضاء مبرما ، ولأن اليهود يملكون توجيه وسائل الإعلام فى أغلب بلدان العالم حاولوا عن طريقها نفى أن تكون البروتوكولات منسوبة إليهم وهذا إدعاء وكلام نظرى .

أما الواقع العملى والأحداث التى تشهدها الساحة العالمية كلها تؤكد صحة نسبة هذه المخططات إليهم .

ويقال لهم (أى لليهود) ولمن (يشكك فى نسبتها لهم) إن اليهود يسيرون حسب هذه المخططات ويقومون بتنفيذها بدقة حسب ماجاء فيها مما يدل دلالة واضحة أنها من نسج العقلية اليهودية الصهيونية .

ومما يدل على ذلك ذعرهم الشديد ومصادرة النسخ وغير ذلك من أحداث تزامنت مع نشر البروتوكولات[١].

جاء فى كلمة نشرت فى جريدة صوت المرأة فى شيكاغو سنة ١٩٤٥م للمحامى هنرى كلين :

(إن البروتوكولات وهى الخطة التى وضعت للسيطرة على العالم أمر حقيقى ثابت وإن زعماء الصهيونية يكونون مجلس سانهدرين الأعلى الذى يرمى إلى السيطرة على حكومات العالم ، ولقد طردنى اليهود من صفوفهم لأنى أنكرت عليهم خططهم الشريرة)[٢].

فالصهاينة هم وراء هذه البروتوكولات وهم من اليهود ولخدمة أهداف اليهودية الدينية والسياسية .

---

(١) فيما يتعلق بموقف اليهود من البروتوكولات (حرقا ومصادرة) وخوفا منها لأنها تكشف نواياهم وخفايا قلوبهم المريضة .
انظر بعض ماجاء فى مقدمة محمد خليفة التونسى للبروتوكولات (٣٤-٥٠) ، وانظر الاستراتيجية الإسرائيلية (٣٩/١) ، التوراة تاريخها وغاياتها (٧٠-٧٢) ، لم يذكر اسم المؤلف ، ترجمة سهيل ديب ، الطبعة الخامسة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار النفائس بيروت .

(٢) الحكومة السرية فى بريطانيا ، جورج سكوت نقلا من كتاب خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية (١٦٥) .

الصهيونية واليهودية :

قد يتبادر للذهن أنهما مصطلحين مختلفين ولكن حقيقة الأمر أن اليهود هم الصهاينة والصهاينة من اليهود .

والتنبيه على هذا الأمر حتى لايظن أحد بأن ماذكرناه سابقا من أن اليهود وراء الثورة البلشفية يتعارض مع مانقرره هنا من أن الشيوعية وليدة الصهيونية .

فالعلاقة وثيقة بين اليهودية والصهيونية بل إن العودة إلى فلسطين (جبل صهيون) من المعتقدات اليهودية المقدسة . يقول تيودور هرتزل : (العودة إلى صهيون يجب أن تسبقها عودتنا إلى اليهودية)[١].

فهى دعوة واضحة إلى التعاليم اليهودية أولا ، ثم العودة إلى صهيون ثانيا . فتعاليم اليهودية المقدسة تعظم صهيون والصهيونية تدعم هذا التقديس بالعودة إليه .

بل إن الكهنة اليهود يختمون عظاتهم بقولهم (اللهم أرسل المخلص إلى صهيون)[٢].

وأوضح المفكر اليهودى سولمن شيختر (١٨٤٧-١٩١٥م) وحدة الصهيونية واليهودية وترابطهما بقوله : (حيثما يكون الصهيونيون عاملين نشطين تكون اليهودية حية فعالة) .

ويؤكد ذلك التلازم هرتزل فيقول : (إن يهوديتنا وصهيونيتنا متلازمان متلاصقان ولايمكن تدمير الصهيونية دون تدمير اليهودية)[٣].

يقول الشيخ عبد الرحمن الدوسرى رحمه الله : (فالصهيونية من ضروريات دينهم ولكنهم يخادعون جميع الشعوب بالتفريق بين الصهيونية واليهودية ليعيشوا بأمان وليصطادوا فى الماء العكر مايريدون ويعبثوا فى

---

(١) الصهيونية وربيبتها إسرائيل (٢٢) .
(٢) الإستراتيجية الإسرائيلية (٢٧٥/١) .
(٣) الصهيونية وربيبتها إسرائيل (٢٢) .

الظلام بجميع مقدرات العالم تحت هذا الستار إيهاما وتضليلا لأطفال العقول وماأكثر أطفال العقول ...)[١].

ويقول فى بيان عدم التعارض بينهما : (ألا فاعلموا أن التفريق بين الصهيونية واليهود خداع صادر من مكر اليهود ومن المستحيل أن يوجد يهودى لايعمل لصالح دولة اسرائيل المزعومة . ولكن ياللعقول وزيغة الأذهان .

إن اليهودية سرطان قد فتحت بيدها جمعيات سرية وجواسيس محنكين يتقمصون أسماء وأعمالا ووظائف شتى فى أغلب ربوع العالم ليستعينوا بواسطتهم ببعض الناس على بعض ويضربوا بعضهم ببعض ، ويتخذوا منهم دروعا زمنية أو مسوحا دينية أو دثارا إنسانيا ولفيفا من وكلائهم وعملائهم فى كل بلد منهم جماعة لاتدين بالولاء إلا لهم وتتنكر لمن سواهم مهما تفيأوا من ظليل النعمة . إن اليهودى يردد فى كل عام دعواته الملعونة المأفونة فى أعياده السنوية كعيد الحاقوكا وعيد الغور قائلا ياإله إسرائيل كما أعنتنى على إلحاق الأذى بالحيوانات الناطقة فى العام الماضى أكمل نعمتك على وألحق بيدى الأذى لتلك الحيوانات فى العام الآتى . فأى فرق بين اليهودى والصهيونى بعد هذا؟)[٢]

وأمر آخر وهو أن الثورة البلشفية التى قامت ومن ورائها اليهود - دعما وتنظيما وتخطيطا من داخل روسيا وخارجها - كان القصد منها تحقيق الأهداف والغايات اللاحقة ففجر اليهود الثورة لتحقيق أطماعهم العقدية الصهيونية ومن ذلك العودة إلى أرض فلسطين .

---

(١) يهود الأمس سلف سىء لخلف أسوأ (١٥٣) ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، مكتبة السوادى للتوزيع .

(٢) المرجع السابق (١٥٣) .

فاليهود الصهاينة كانوا خلف الفكر الإشتراكى ونشره فى روسيا من أجل تحقيق الأطماع المستقبلية التالية لهذه المرحلة .

فأولا اخضاع روسيا والقضاء على النصرانية ثم الانطلاق منها إلى تحقيق أهداف أخرى فى إيجاد الوطن القومى لليهود ودعمه وتحقيق المصالح من خلاله وهذا ماسوف يظهر لنا عند حديثنا عن البراهين والأدلة التى سنسوقها فى إثبات هذه الحقيقة وهى أن الشيوعية كانت وليدة للمخططات الصهيونية.

وإن كان هناك من انخدع بهذا الزيف وهو الاختلاف بين المصطلحين إلا أنه بعد تكشف الأمور له تراجع عن رأيه القائل بالفصل بين اليهودية والصهيونية .

ومن هؤلاء سامى يوسف[1] وهو يسارى قديم ولكنه بعد اتضاح الأمر لديه تراجع عن ذلك ، فقال :

(كنت أؤمن سابقا بالفصل بين اليهود والصهيونية ولكن حدث أنى وقد مررت بالاتحاد السوفييتى يتسلط اليهود عليها تماما ويتم هناك تبادل المعلومات والأخبار ...) .

(وفى الكليات الشرقية (التى تدرس اللغات والآداب العربية والإسلامية) أكثر الأساتذة يهود صهاينة حاقدون . وفى أكبر الأقسام الشرقية فى الوزارات نجد اليهود ومن هنا كانت مؤلفاتهم مليئة بالحقد والتشويه والدس على العرب وعلى الإسلام أيضا ...) فبعد أن علم حقيقتهم وحقيقة خططهم ومايبتغون فعله ومايقولونه عن الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم تراجع عن فكرته[2]. وقال : (إن هؤلاء الصهاينة طابور خامس لكل من إسرائيل والعرب الاستعمارى معا وستكشف الأيام مصداق هذه النبؤة

---

(١) حيث كان ينكر ذلك ويقول عن نفسه (كنت ومازلت أول الداعين إلى فصل اليهودية عن الصهيونية) واعتبر ذلك خطأ وقع فيه كثير من الكتاب والصحفيين . انظر كلامه ص٨،٧ من كتابه تكوين الصهيونية .

(٢) دور الماركسية فى الإشتراكية العربية (١١٣) ومابعدها .

والقضية قضية وقت)[١].

وعلى العموم من يجهل حقيقة الأمر هو الذى يدهش لهذا القول . يقول الجندى : (إن الصهيونية والشيوعية من منبع واحد . وإن الشيوعية وليدة الصهيونية بدت الدهشة على وجوه الذين لايتعمقون الأمور والواقع أن الصهيونية والشيوعية من أصل واحد وهما يتآمران على الإلحاد وبلشفة العالم الإسلامى وإن اليهود هم أول من أسس الأحزاب الشيوعية فى البلاد العربية)[٢]. وسيظهر ذلك جليا من خلال المبحث التالى .

---

(١) دور الماركسية فى الإشتراكية العربية (١١٧) ، ونقول هى نبؤة بالنسبة لك وإلا حقيقة الأمر واضحة من قبل .

(٢) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٢٣) .

المبحث الرابع
البراهين الدالة على أن الشيوعية وليدة الصهيونية

كان اليهود خلف الثورة البلشفية كما قلنا سابقا فى دعمها والتخطيط لها وذلك ليحققوا غاياتهم من ورائها .

وبعد أن تم لهم إعلانها وسارت الأمور هناك حسب مايريدون لها انتقلوا إلى الخطوة التى كانوا يعدون لها من وراء الشيوعية ألا وهى الوصول إلى بيت المقدس ، وإقامة الوطن القومى ، والقضاء على بقايا الخلافة الإسلامية .

ومن هنا يتوجب إثبات هذه الحقيقة وهى أن الشيوعية فكرة صهيونية قامت لخدمة الأهداف اليهودية .

وسيكون ذلك الإثبات ذا شقين :

(أ) البراهين الدالة على أن الشيوعية وليدة شيطانية للأفكار الصهيونية من حيث الصلة الفكرية والتبنى والدعم وشخصيات الحركتين .

(ب) دعم الدولة الشيوعية للمخططات الصهيونية والمشاريع اليهودية بعد أن جعلها اليهود القطب الثانى لهذا العالم وسيكون العرض فى نقاط .

(أ) البراهين الدالة على أن الشيوعية وليدة الصهيونية :

أولا : اتفاق الحركتين فى أصولهما المادية من نشر للإلحاد ، قضاء على الدين ، وإفساد للأخلاق وتاريخ اليهود المخزى قد ورد ذكره فى كتاب الله تعالى وماجاء من أفعالهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى كتب التاريخ وصف لأحوالهم قبل الإسلام وبعده .

وأما الشيوعية فقد مارست ذلك وأظهرته وأرغمت الناس عليه . بل إن التشابه وصل إلى ماتوعد به الشيوعية اتباعها واليهود أتباعهم وأذنابهم (فالشيوعية التى انطلقت تاريخيا وأيديولوجيا من فكرة المشاعية الإبتدائية ، لتصل بالإنسان فى المستقبل إلى ماتسميه الإشتراكية العلمية ، قد التقت على صعيد الفكر بمتاهة (الفردوس الموعود) بعد ضياع (الفردوس المفقود) الذى لاتفتأ الصهيونية العالمية تذرف عليه الدموع . وهكذا نرى أن الفكر الهدام الذى تبناه الشيوعية الدولية يلتقى مع الفكر الخبيث الذى تجرى ضمنه الصهيونية العالمية ، وإن الإلحادية المنهجية ذات النزعة الطوباوية تتعانق مع الميول اليهودية المسرفة فى ماديتها)[١].

ويبذل علماء اليهود (مافى وسعهم لهدم الأديان عن طريق استحداث المذاهب السياسية والفكرية كالشيوعية والوجودية والماسونية ومذهب التطور ... ويقومون على دراسة علم الأديان المقارن لغاية نشر الالحاد ونسف الإيمان من النفوس)[٢]. كما نصوا على ذلك فى بروتوكولاتهم[٣].

يقول جاك تنى : (إن للفلسفة الماركسية والفلسفة الصهيونية أصل واحد ، فكلاهما أداة لهدم الدين ، وأزميل لتفريق الشعوب وتشتيت مواطنيها)[٤].

---

(١) تجربة عربى فى الحزب الشيوعى (١٢٧-١٢٨) ، قدرى قلعجى ، الطبعة السادسة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار الكتاب العربى ، بيروت .

(٢) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (٢٦) ، فتحى يكن ، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

(٣) انظر البروتوكول الرابع عشر (١٥٢-١٥٤) .

(٤) الأخوة الزائفة (١٨) .

ثانيا : إن الاختلاف بينهما فى الأسماء مابين شيوعية وصهيونية لايدل على أنهما يختلفان فى حقيقتهما فغايتهما واحدة ووراءهما قوة واحدة توجه كل حسب ماتقتضيه مصلحة هذه القوة الخفية ، ومايحصل الآن من ظن بأن هناك تعارض بينهما إنما هو لمصلحة إقتضاها الوقت .

يقول فرنك بريتون : (تختلف الصهيونية عن الشيوعية فى ثلاثة أمور :

أولها : التسمية ففى التسمية الصهيونية تخصص وفى الشيوعية تعميم يختار المرء بينهما بحسب مزاجه .

والثانى : مركز النشاط فمركز نشاط الصهيونية مااصطلح على تسميته بالغرب وتتزعمه امريكا (واشنطن) ومركز نشاط الشيوعية الشرق وتتزعمه روسيا (موسكو) .

الثالث : الأسلوب فى العمل فالصهيونية تتاجر بالمال تدعمه الدعاية عند اللزوم والشيوعية تتاجر بالدعاية يدعمها المال لدى الإقتضاء ، وأما الحقيقة الراهنة فهى أن الصهيونية والشيوعية صنوان منبعهما واحد وغايتهما واحدة وجوهرهما واحد والفئة التى تقوم عليها من وراء الستار واحدة ومااختلافهما الظاهر سوى ترتيب مؤقت اقتضاه النجاح فى السعى إلى الغاية الواحدة حتى إذا تحققت الثقة بالنجاح الكامل اتحدتا معا للسيطرة على العالم)[١].

ويقول : (ولاعبرة بهذا الفرق الظاهر بين الشيوعية والصهيونية ، فكون اليهودى شيوعيا أو صهيونيا أو كليهما معا وكثير منهم كذلك ، لاينفى كونه يهوديا وليست الشيوعية والصهيونية سوى مظهرين لقومية واحدة هى القومية اليهودية التى لاتفتأ تناوىء سائر العالم غير اليهودى)[٢].

---

(١) الصهيونية والشيوعية ، فرانك ل.بريتون ، تعريب نهاد عيسى ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤م . نقل ذلك عنه أنور الجندى فى كتابه المخططات التلمودية (٦٩) ، دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، وكتاب الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (٣١-٣٢) ، وكتاب كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٤٩) ، وكتاب الكيد الأحمر (٦٥) .

(٢) نقلا من كتاب الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (٣٢) .

والشيوعية واليهودية يشتركان فى مخطط واحد وهـدف واحد والدليل على ذلـك أنهمـا (فى الاتحاد العـام للحـزب الاشتراكـى الـديمقراطى اليهودى حزب البند)[١].

يقول الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله :

(إن الشيوعية والصهيونية لايتيحان الفرصة لتحقيق أهدافنا من التقدم والاستقـرار ، وعندما نقول الصهيونية والشيوعية نذكـر اسمين ولكن الحقيقة أن الشيـوعية وليدة الصهيونية وهدفها الأساسى هـو التخريب والتحطيم)[٢].

فـاختلاف الأسماء لايدل على اختلاف المسميـات بل هـى عـدة أسماء لمسمى واحد ولخدمة أهداف جهة واحدة هى (اليهودية العالمية) .

ثالثا : اتفـاقهما فى الأساليب فهما حركتان تقومان على القـوة والعنف والثورات واستغلال الشعوب وقهرها والغاية عندهم تبرر الوسيلة .

يقـول روبرت وليـامز : (الصهيـونية هـى صنـو الشيـوعية وحاميتهـا ومـرضعتها وكلتـاهما تهدف إلى إشعـال ثورة عـالمية والشيـوعية التى وضـع تعـاليمها يهودى عريق هو مـاركس ونفذت فى روسيا بفضـل اليهود هى من نتاج العقل اليهودى)[٣].

وهـذه المشابهة لاتأتى من فراغ حيث إن هذه الأسـاليب هى التى يرى اليهـود بسـط سلطانهم عن طـريقها . يقـول طارق حجـى : (أمـا الأسـاليب فواحدة عدوان على الشعوب ، ودفـع للأفـراد الى حمـامات الـدم ، وصلب للإنســانية على صليـب الأنانيـات ، وجر للعـالم إلى الأهــوال والمآسـى التى لاتزال تنزف منها الدماء وشعور بالتفوق والأفضلية والكمال يبرر لنفسه كل وسيلـة محرمـة فى سبيل الوصول إلى الغـاية المنشودة . والصهيـونية العـالمية

---

(١) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١٠٨) .

(٢) المرجع السابق (١٠٨) ، وانظر فتاوى عن الشيوعية (١٩) ومابعدها ، د. عبد الحليم محمود ، الطبعة الثانية ، دار المعارف .

(٣) الشيـوعية والصهيونية توأمان (١٨-٢٠) ، نقلا من كتاب الشيــوعية منشأ ومسلكا (١٧) .

المعاصرة هى رديف للنزعة الاستعمارية لدى الدول الرأسمالية ، كشريكين على مائدة واحدة سواء أكان ذلك لاقتسام الثروات أو لاقتراف الجرائم ، والشيوعية الدولية هى بدورها رديف مماثل للنزعة الاستعمارية التى يمثلها الاتحاد السوفييتى . ولكن بأساليب أكثر مكرا وأبلغ دهاء ، فهى تعمل بصمت وتحت شعارات مضللة لتستأثر بخيرات العالم ماديا ولتعبر الإنسانية إلى تبعية مروعة من الظلم الفكرى والتقت الشيوعية والصهيونية حول مشرب واحد كشقيقين حميمين تحت ضغط الفوارق الموضوعية فى مجرى الإستراتيجية العامة لكل منهما ، نتيجة للمخططات التى وضعت بيارقها على رقعة شطرنج السياسة البعيدة المدى بكيفية تحول اليد الحديدية ذات القفاز الحديدى لعب لعبتها فى اللحظة المواتية وتوجيه ضربتها فى المكان المناسب)[١].

ومن ذلك إشتراكهما فى نزعة السيطرة على العالم (فالشيوعية تهدف إلى غزو العالم والسيطرة عليه وقد كشفت الشيوعية ، عن هذا الغرض من ظهور بيان ماركس وانجلز المشهور فى تاريخ الشيوعية .

يقول ماركس : (أمامكم العالم ويمكن أن تكسبوه) .

كذلك طغت فكرة السيطرة على العالم منذ زمن بعيد على العقلية اليهودية ودونها اليهود فى قوانينهم السرية لاعتقادهم بأنهم شعب الله المختار وان بقية الناس قد خلقوا ليسخروا فى خدمة بنى إسرائيل)[٢].

كما جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون الحرص على العنف والقوة وأن خير النتائج فى حكم العالم ماينتزع بالعنف والإرهاب[٣].

---

(١) تجربة عربى فى الحزب الشيوعى (١٢٨) .

(٢) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (٢٥) .
وانظر : عاجلا أو آجلا ستزول اسرائيل (٥٢) بقلم ١٥ كاتبا فرنسيا ، ترجمة ريمون نشاطى ، منشورات دار الآداب ، دار العلم للملايين ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، حقيقة الشيوعية (١٧١-١٧٢) .

(٣) انظر البروتوكول الأول (١٠٣-١١٢) .

ولأجل هذا يهدفون لزيادة قوتهم وتسليح جيشهم من أجل تحقيق الخطط التى وضعتها البروتوكولات ، جاء فيها (وبايجاز من أجل أن تظهر استعبادنا لجميع الحكومات الأممية فى أوروبا سوف نبين قوتنا لواحدة منها متوسلين بجرائم العنف وذلك هو مايقال له حكم الإرهاب وإذا اتفقوا جميعا ضدنا فعندئذ سنجيبهم بالمدافع الأمريكية أو الصينية أو اليابانية)[١].

وكذلك الشيوعية لم تقم إلا بالقوة والعنف والإرهاب بل من أساليب الشيوعية فى تحقيق أهدافها العنف والثورة كما مر معنا ذلك عند دراسة مبادىء الشيوعية فلاتتحقق دكتاتورية البروليتاريا إلا بطريق العنف وبعد قيام الثورة البلشفية أخضعت الشيوعية بلدان أوروبا الشرقية لسيطرتها بالقوة .

ويقرر هومر تلك الحقيقة فيقول : (ان البلشفية والصهيونية ليست فى الحقيقة سوى وجهين لعملة واحدة وسيلتين لغاية واحدة ، سلاحين فى معركة واحدة ، تمسك بها أيدى القوة اليهودية العالمية الرامية فى مساعيها ونشاطاتها للسيطرة الإقتصادية والدينية والسياسية على العالم)[٢].

إن (بين الشيوعية والصهيونية آصرة قربى وحلف لاينفصم ، فقد وحدت بينهما الأهداف وتسلطت عليهما فكرة السيطرة على العالم والبشر جميعا)[٣].

فالشيوعيون (فى العالم بأسره يتعاونون مع يهود العالم فى دعم الشيوعية واليهود يتخذون الشيوعية وسيلة للتغلب على العالم والوصول إلى السيطرة وتسخير الموارد العالمية وفق أهوائهم ...)[٤].

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون البروتوكول السابع (١٢٨) .
(٢) اليهودية والبلشفية (٢-٣) نقلا من كتاب حقيقة المواقف الشيوعية من القضية الفلسطينية (٥٧) .
(٣) حقيقة الشيوعية (١٧١) .
(٤) المرجع السابق (١٧٨) .

رابعا : التقاء تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية الحديثة ، وماركس صاحب الشيوعية العلمية فى أصل واحد أخذا عنه ، ألا وهو موسى هس وكان سابقا على هرتزل فى أفكاره .

فقد دعا إلى العودة إلى فلسطين وهو صاحب كتاب روما والقدس الذى وضعه عام ١٨٦٢م واقترح قيام دولة يهودية فى فلسطين تساعد على قيامها فرنسا ، وأخذ منه تيودور هرتزل أفكاره الأساسية التى ضمنها كتابه الدولة اليهودية .

أما ماركس فقد امتدح موسى هس وتعرف عليه عام ١٨٤١م وأعجب به كثيرا(١).

فكان موسى هس صديقا لكارل ماركس وزميله انجلز ونتيجة لاعجاب ماركس به قال عنه : (لقد اتخذت هذا العبقرى مثالا وقدوة بسبب مايتحلى به من دقة التفكير ونظرا لاتفاق آرائه مع عقيدتى ومبادئى إنه رجل نضالى فى تفكيره وسلوكه)(٢).

بل لقد تعاونا معه بين عامى ١٨٤٤-١٨٤٥م وكان موسى هس من المروجين للإشتراكية الطوباوية وعتبوا عليه لوجود الأفكار المثالية لديه(٣).

(وكان الأساس فى تفكير (هس) معلم ماركس هو : (أن مالايستطيع اليهودى الفرد أن يحصل عليه بسبب يهوديته فإن الشعب اليهودى يستطيع الحصول عليه بسبب قوميته)(٤).

---

(١) انظر الشيوعية منشأ ومسلكا (١٦) .

(٢) المسيح الأحمر الدجال (٣٦) ، فؤاد كرم ، ١٩٧٠م ، دون ذكر لرقم الطبعة أو دار النشر .
وانظر : الكيد الأحمر (٧٢) ، (٦٤) ، موسكو واسرائيل (٣٠-٣١) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٢٠) .

(٣) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢٣٠/١) .

(٤) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٢١) .

ويقول جاك تنى : (ولاعجب أن يحتل "موسى هس" الذى سماه ماركس "الحبر الشيوعى" مكانة هامة فى التاريخ . فهو فى وقت واحد المناصر الخبيث لحركتين خبيثتين ، تبدوان لأول وهلة متعارضتين تماما ـ الصهيونية السياسية والشيوعية العالمية)[١].

ويقول : (وقد أقيمت الأولى لتدمير جميع الحكومات المسيحية ، والثانية لاغتصاب فلسطين (وبالتالى ضرب العالم الإسلامى فى الصميم وتفتيت القوة العربية)[٢]. وهذا دليل واضح على مايكنه الأعداء لهذه الأمة المسلمة ومايخطط له اليهود وماالسلام المزعوم إلا تمييع لعقيدة الولاء والبراء وترك سنة الجهاد .

ومما سبق (يتضح لنا أن رائد الفلسفة الصهيونية وداعيها هرتزل ورائد الشيوعية وفلسفتها كارل ماركس رضعا من ثدى واحد وشربا من منبع واحد واستلهما مبادئهما من فكر واحد ومن عقل واحد)[٣].

فدل ذلك على الأصل الذى يجمع هاتين الحركتين اللتين تعملان لخدمة اليهود . وهذا يؤكد أن التعارض الظاهرى (الطارىء) بين الشيوعية والصهيونية إنما هو تضليل وإيهام ليخفى اليهود حقيقة أمرهم وفساد مآربهم.

خامسا : أن الفكر الشيوعى كان فى خدمة الصهيونية اليهودية فالشيوعية هى الضمانة التى تبقى على أوروبا الشرقية بعيدة عن المسيحية وبالتالى استغلال هذه القوة فى تحقيق أهدافها فى منطقة الشرق الأوسط عن طريق استغلال هذه القوة والضغط على هذه المنطقة وجعل اليهود يحصلون على مايخططون له من الوصول إلى المسجد الأقصى وإقامة ملك سليمان عليه السلام على أنقاضه ، وذلك لأن اليهود (كانوا ينظرون إلى روسيا على أنها

---

(١) الأخوة الزائفة (٨٠) .
(٢) المرجع السابق (٨٤) .
(٣) الشيوعية منشأ ومسلكا (١٥) .

حصن من حصون المسيحية نظرا لأن اليهود لم يتمكنوا من التغلغل فى كيان الحكم آنذاك فضلا عن أنه لم يسمح لليهود بالسيطرة على مقدرات الشعب الروسى بل إن اليهود كانوا يواجهون باستمرار عمليات قمع مستمرة كلما بدرت منهم بادرة لمحاولة تخريب الإقتصاد الروسى أو التسلل إلى مركز من المراكز الحساسة والواقع أن الصهيونية العالمية كانت تنظر إلى روسيا القيصرية باعتبارها حصنا من أعتى حصون المسيحية نظرة عداء مستمر وكان تخطيطها مبنيا على ضرورة الإطاحة بالنظام القيصرى وإحلال نظام آخر محله تستطيع الصهيونية العالمية أن تتحرك فيه بلون من الحرية ولم يكن هناك من فرصة أسنح لهم من قيام الثورة الروسية فى عام ١٩١٧م التى كان وراءها فى الواقع مجموعة من عتاة اليهود والصهيونية)[١].

واليهود يعملون على استخدام كافة السبل للوصول إلى غاياتهم فإذا ماأحسوا بان أسلوبا أو نظاما لم يعد قادرا على تحقيق الأهداف بالصورة التى أرادها له بنى يهوذا لجأوا إلى أسلوب آخر .

(فبعد أن أفلست الصهيونية فى تنفيذ مخططات الحاخامات ابتدعت المذهب الماركسى وقامت بنشره فى أوروبا بأسلوب فلسفى ثورى إجتماعى بغية هدم معالمها الروحية والنظم القائمة فيها لتتمكن من السيطرة عليها ثم الانطلاق إلى الشرق لتتحكم بمقدراته وتحقق مطامعها فى ربوعه)[٢].

وعلى هذا (فالشيوعية ليست إلا اختراعا يهوديا ، تماما كما اخترعوا الرأسمالية وقد استخدم الاختراعان ، وسيتواصل استخدامهما لنفس الأهداف اليهودية)[٣].

---

(١) الصهيونية والنازية دراسة مقارنة (٤٦-٤٧) ، د. محمد الدسوقى ، عبد التواب سلمان ، ١٩٦٨م ، دار المعارف بمصر ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) تاريخ الحركة الصهيونية ، الصهيونية والثورة البلشفية سانتينى نقلا من كتاب دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (١٥) ، إبراهيم الشريقى ، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

(٣) الأخوة الزائفة (٢٠٠) .

لقد أراد اليهود من إقامة الثورة البلشفية الحصول على وطن قومى فى أرض فلسطين حيث كانوا يسيطرون على الغرب وبقى عليهم الشرق المسيحى حيث ذكرت مجلة فرنسا القديمة فى عددها ١١٥ الصادر فى عام ١٩١٩م :

(إن إقامة دولة يهودية فى فلسطين كان الهدف الأول والأخير لاشعال الثورة البلشفية)[١].

ثم إن (الماركسية فى جذورها اجتهاد يهودى . هذه حقيقة يعتز بها اليهود أنفسهم ويعلمها كل مطلع على أصول الفكر الماركسى وعلى تاريخ حركاته فى كل مكان)[٢].

سادسا : اعترافهم فى البروتوكولات بأنهم وراء الدعوات الشيوعية والمبادىء المنادية إلى الأخوة والمساواة والعدل بين الناس التى يرغب اليهود من ورائها كسب ود الناس والطبقات المضطهدة ذات الدخول المحدودة لأن هذه الدعوات بمثابة الأحلام التى يتمنون أن تتحقق فى حياتهم ، وذلك من أجل تحقيق أهداف اليهود .

جاء فى البروتوكول الثالث : (إننا نقصد أن نظهر كما لو كنا المحررين للعمال ، جينا لنحررهم من هذا الظلم ، حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الإشتراكيين والفوضويين والشيوعيين . ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعا لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية ، وهذا ماتبشر به الماسونية [٣]

---

(١) المسيح الأحمر (٣٦) .

(٢) موسكو وإسرائيل (١٧) .

(٣) الماسونية (منظمة دولية ، تعرف باسم جماعة (البنائين الأحرار) وهى ذات شعارات ومبادىء بعضها منشور ومتداول ، وبعضها يحيط به الإبهام أو السرية إلا بالنسبة لأعضائها ، وللخاصة من هؤلاء الأعضاء . فضلا عن الرمزية التى تحيط بطقوسها واجتماعاتها) .
الماسونية (٩) .

الإجتماعية)[١].

سابعا : إعترافهم بأن الحركة الشيوعية فى روسيا إنما كانت معركة الجماهير اليهودية حقيقة حيث صرحت دائرة المعارف اليهودية بأن الإشتراكية فى روسيا أصبحت حركة الجماهير اليهودية[٢].

ويقول رورفلت[٣]: (إن الإشتراكية أسس قواعدها فلاسفة من اليهود الأوربيين)[٤].

ثامنا : أن الشخصيات الماركسية إما يهودية أو ترجع أصولها إلى اليهودية والحركة الصهيونية منظمة يهودية ، ولولا اليهود لما انتصرت الثورة البلشفية .

فصاحب الفكرة الشيوعية ماركس هو يهودى وابن حاخام يهودى وكتاب رأس المال له يحظى بمكانة مرموقة لدى الشيوعيين وكأنه كالتوارة عند اليهود[٥].

= كما عرفها المستشرق الهولندى دوزى : (جمهور من مذاهب مختلفة يعملون لغاية واحدة) . "وهى إعادة الهيكل إذ هو رمز دولة إسرائيل" .
الماسونية فى العراء (٢٢) ، د. محمد على الزعبى ، الطبعة الخامسة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

(١) الماسونية (مسوى أو ماسونى نسبة الى الماسونية ويقصد بها البناؤون الأحرار أو البناء الحمر والبناؤون الأحرار هم الذين بنوا هيكل سليمان) .

(٢) انظر الاخوة الزايفة (٨٢) .

(٣) روزفلت : أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية ، من الحزب الديمقراطى ، بنى شهرته منذ أن كان حاكما لنيويورك ،كان مساعدا لوزير البحرية فى عهد الرئيس ويلسون ، ورشح لمنصب نائب الرئيس فى سنة ١٩٢٠م ، ورشح نفسه للانتخابات عام ١٩٣٢م وفاز بها ، وأعيد انتخابه مرة أخرى عام ١٩٣٦م .
انظر موجز تاريخ الولايات المتحدة ، ألان نيفينز ، هنرى ستيل كوماجر ، ترجمة محمد بدر الدين خليل ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الكويت ، لندن .

(٤) دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٨٣) .

(٥) انظر حقيقة اليهود (٨١) ، فؤاد سيد الرفاعى ، دار صلاح الدين ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

كمـا أن أشهر أعضاء المكتب السياسى الأول الذى تشكـل بعد الثورة كان من اليهود أو تربية يهودية أو تربطه بهم صلات حميمة .

فلينين[١] ربيب اليهودى ونصف يهودى .

ستالين : متزوج من يهودية .

تروتسكى : يهودى .

كامينيف : يهودى[٢]، وكذلك بقية الأعضاء[٣].

وكـانت نسبة اليهود فى الـدولة الروسية نسبة ساحقـة مقارنة بغيرهم ، فأول مجلس شيوعى كان عـدد أعضـائه ٥٤٧ منهـم ٤٤٧ مـن غلاة اليهـود واللجنة المركزية وعدد أعضائها ٣٨٨ منهم ٣٧١ من اليهود .

وأول حكومة بعد الثورة كانت مكونة من ٢٢ وزيرا منهـم سبعة عشر وزيرا يهوديا[٤].

وكانت المناصب العليا فى الدولة بأيديهم[٥].

---

(١) تقـول دائرة معارف الماسون حنـا أبو راشد ص٢١٠ إن لينين نيقـولا يهودى غذت مـؤلفاته زعمـاء الحركـة الشيـوعيـة وغـدت بعـد الانقلاب ١٩١٧م دستـور الاتحاد السـوفييتى فالماسونية مهدت لـه الزعامة . نقلا من كتاب الأفعى اليهودية (٤٤) .

(٢) كامينيف : إنتسب إلى الحزب البلشفى فى ١٩٠١م ، وقف ضد لينين فيما بعد ، طرد من الحزب بوصفه معارضا نشيطا ضمن التروتسكية . عاش مـابين ١٨٨٣-١٩٣٦م . انظر رسائل حول التكتيك (١٢٩) .

(٣) ولمزيد عن ذلك انظر : الأفعى اليهودية (٤٤) ، حقيقة اليهود (٨٠) ، فوق أطلال الماركسية (١٧٧-١٧٩) ، محمد عبد الله الخطيب ، الطبعـة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، دار المنار الحديثة ، هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١٠٦-١٠٧) ، إنهيـار الشيوعية أمام الإسلام ١٤٦٠-١٤٧) .

(٢) انظـر الأفعى اليهودية (٤٥) ، المسيـح الأحمر الدجال (٣١) ، مـوسكو وإسرائيل (٢٦) .

(٣) انظر حقيقة الشيوعية (١٧٣) ، وانظر موسكو وإسرائيل (٤١٨) .

وإذا كنا قد أثبتنا أن لينين هو عميل اليهود الأول فى تفجير الثورة البلشفية حيث قام بتنفيذ المخططات الصهيونية ويسرت له السبل للإطاحة بالحكومة القيصرية واعتبروا لينين قائد الشيوعية الأول فإن ماركس وهو منظرها ولينين وهو مطبقها كانا يعملان لخدمة أهداف اليهود ، يقول ديسمانتين رئيس القسم اليهودى فى الحزب السوفييتى (إن لينين موسى اليهود الجديد سيحطم الأصنام وسيحول تركيا إلى جمهورية سوفيتية ويحرر فلسطين من الانتداب البريطانى ليقيم على أرضها دولة اليهود)[١].

ولولا اليهود العملاء داخل روسيا وأثرهم فى الاضطرابات التى حصلت بداخلها ودعم اليهود من الخارج لما انتصرت الثورة البلشفية حيث لم تنتصر الا لأن اليهود (كسبوا كثيرا بفضل الاضطرابات التى شهدتها روسيا فى عامى ١٩٠٥-١٩٠٦م)[٢].

وقد صرح الصهاينة بأن اليهود فى أمان مابقيت هذه القيادة فى أيدى أولئك العملاء والقواد ، فقال الكاتب الاسرائيلى م.كوهين : (يمكن القول دون أية مبالغة أو رغبة فى التجنى أن الثورة الاجتماعية الروسية الكبرى كانت من صنع اليهود الذين قادوا الثورة ودعموا البولشفيك السوفييت وعن اليهود يمكن أن نعيش باطمئنان كبير مادامت قيادة الجيش الأحمر تكمن فى أيدى تروتسكى)[٣].

---

(١) المسيح الأحمر (٤٢-٤٣) .
(٢) المرجع السابق (٤) .
(٣) الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط نقلا من كتاب المسيح الأحمر (٤٠) .

ويقول جاك تنى : (كانت "الجمعية الإشتراكية اليهودية" زمن تأسيسها وكذلك ظلت لعدة سنوات تالية ، أكبر وأقوى خلية فى الحركة الشيوعية الروسية . وعمل قادتها دون توقف على نشر الماركسية بين عمال القطاعات الصناعية فى الإمبراطورية ، مؤسسين خلايا سرية حيثما وجدوا ثلاثة مؤيدين أو أكثر . ثم أعيد تنظيم القيادة اليهودية فى الحركة الثورية فى كل مكان)[١].

وعن مدى تغلغل اليهود فى الاتحاد السوفييتى انظر إلى الآتى :

(أ) فى إحصاء عام ١٨٩٧م كان تركيب اليهود الوظيفى كالتالى :

٣١,٦٪ يشتغلون بالتجارة .

٣٧,٩٪ يشتغلون بالحرف والصناعات اليدوية .

٦,٦١٪ يشتغلون كخدم منازل وعمال يومية .

٥٪ بدون وظيفة محددة .

(ب) سيطر اليهود على تجارة السكر والفرو والجلود والماشية والمنتجات الزراعية وانخرطوا فى أكثر المشاريع الصناعية .

(ج) فى عام ١٩٢٦م كان التوزيع الوظيفى لليهود كما يلى :

١٩,١٪ فى التجارة حوالى ثلث المحلات فى موسكو كان يملكهااليهود .

٣٤,٣٪ فى الصناعة والحرف .

٩,٢٪ فى الزراعة .

١٠,٢٪ وظائف إدارية ومهنية .

٢٧٪ غير مصنفين وظيفيا .

---

(١) الأخوة الزائفة (٨٥) .

(د) التوزيع الوظيفى لعام ١٩٣٩م :

٣٠,٦٪ عمال .

١٠,١٪ حرفيون .

٥,٨٪ فلاحون .

٤٠,١٪ أعمال كتابية وتضم مؤلفين علماء مثقفين وموظفين حكوميين .

٢,٩٪ وظائف أخرى[١].

وكذلك اليهود يمثلون ٦٠٪ من هيئة التدريس فى معاهد العلم العليا . وحوالى ٨٠٪ من مسئولية التوجيه العقائدى فى حلقات الحزب الحاكم[٢].

وكما سيطر اليهود على الاتحاد السوفييتى داخليا فحاولوا كذلك السير به فى السياسة الخارجية لخدمة مصالحهم . فـ(اهتم اليهود أيما اهتمام بتأسيس أحزاب شيوعية تابعة للحزب الشيوعى الأم فى موسكو وكانت عينهم على فلسطين فكان الحزب الشيوعى اليهودى هو أول حزب شيوعى فى المنطقة العربية ، وأسس عام ١٩١٩م وقد أوكل إليه إنشاء أحزاب شيوعية أخرى فنجح عام ١٩٢١م فى تأسيس أول حزب شيوعى مصرى على يد (روزنبرغ) صاحب مخزن مجوهرات فى الاسكندرية ، فى حين كان (شامى) اليهودى يوافى قيادته فى موسكو بالتقارير اللازمة عن سوريا ثم توج ذلك بإنشاء أول حزب شيوعى فى سوريا عام ١٩٢٤م)[٣].

---

(١) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (١٨٦-٩١٨٧ .

(٢) انظر موسكو وإسرائيل (٤١٨) .

(٣) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠١) .

والحزب الشيوعى الفلسطينى بدأ يهوديا وطرح مشروع تعريبه عام ١٩٢٩م بقرارمن الكونترن وعلى الرغم من ذلك فقد بقى العرب أقلية فيه ودبت الخلافات سنة ١٩٣٩م لتنتهى سنة ١٩٤٣م بانفصال العرب عن الحزب وأنشأوا (عصبة التحرر الوطنى) . وبعد سنة ١٩٤٨م تغير الوضع إذ اندمجت بقايا تلك العصبة فى فلسطين المحتلة مع الحزب الشيوعى الإسرائيلى[١].

وقاموا ببث الشعارات وتشكيل المؤسسات الداعية إلى الفكر الشيوعى ولو بطريقة غير مباشرة لأنها قد تكون اكثر فائدة من الدعوة المباشرة خاصة فى بعض الدول فيتسترون بالدعاوى والجمعيات الوطنية التى تخدم أهدافهم فأنشئت المراكز والمجمعات والمؤسسات التى ترعى الفكر الشيوعى وتقوم بالدعاية له فى كل بلد حسب الشعارات التى قد ينخدع بها أهل ذلك البلد .

فـ(تنوعت هذه المراكز التى شكلها اليهود فى الأحزاب الشيوعية فى البلدان العربية ومنها القيادة العامة فى فلسطين بل يمكن القول بكل يقين بأن الحركة الشيوعية فى العالم العربى قد أنشأها اليهود الذين يتسربون إليه عن طريق فلسطين تنفيذا لأوامر الشيوعية الدولية فى موسكو ومازال الحزب الشيوعى فى إسرائيل يضم عناصر متنوعة من عرب ويهود)[٢].

إن اليهود وراء الحركات الشيوعية فى العالم العربى كله فموقفهم من قضية فلسطين يدل على الولاء الحميم الذى يربط بين الحركات الشيوعية فى أى مكان ـ وبين اليهود[٣].

---

(١) انظر تجربة عربى فى الحزب الشيوعى (٥١) .
ونقل ذلك من كتاب الماركسية والمسألة اليهودية (٦٣-٦٤) .

(٢) المصدر السابق (١٣١) .

(٣) وللمزيد انظر هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٣٥-٤٣) ، (٥٣-٥٤) .

ومن الإحصاء الذى أجرته السلطات الأمريكية تبين أن معظم أنصار الشيوعية فى العالم أنصار للصهيونية (وظهر لهامنه أن تسعين فى المائة من أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى من غلاة الصهيونيين وأن الموظفين الذين فصلوا من الخدمة بتهمة الشيوعية كان من بينهم ١١٨ يهودى من ١٣٠ ..)[١].

كما أن معظم الذين اتهموا بالجاسوسية الشيوعية فى كندا من اليهود وحكم بالسجن على اليهودى الشيوعى روز دكار منظم الحزب الشيوعى فى كندا لاتهامه ببيع أسرار القنبلة الذرية لروسيا . وفى الهيئة التنفيذية للحزب الشيوعى الفرنسى أربعة من اليهود ، والشيوعى الأول فى جنوب أفريقيا اليهودى سام كوهى[٢].

كما أن الأحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفييتى يسيطر عليها اليهود ، وتحت القيادة اليهودية كما فى بولندا ، والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا ، ورومانيا ، وأكرانيا[٣].

ومن هنا يتبين لنا أن اليهود كانوا وراء الشيوعية ، واختاروا لقيادة الأحزاب الشيوعية المنتشرة فى دول العالم شخصيات يثقون فيها ليضمنوا تنفيذ مخططاتهم .

وإذا كان اسم لينين قد أصبح الأكثر شهرة خلف الثورة البلشفية فى روسيا ، فإن الصهيونية حقيقة خلف هذه الدعوة الإباحية .

يقول سانتينى : (أخفت الحركة الصهيونية الإشتراكية فى إشعال ثورات فى أوروبا الصناعية واللاتينية على غرار ثورتها البلشفية فى روسيا القيصرية ضحية أكبر مؤامرة نفذت فى عام ١٩١٧م ـ يعتقد الشعب الروسى كما

---

(١) حقيقة الشيوعية (١٧٢) .
(٢) المرجع السابق (١٧٥) ومابعدها .
(٣) انظر المرجع السابق (١٧٣،١٧٥) .

صوروا له وبالأخص طبقة العمال والفلاحين أن بطل الثورة الأوحد هو لينين .. والواقع أن أبطالها هم زعماء الحركة الإشتراكية اليهود بقيادة تروتسكى)[١].

ويؤيد ذلك روبرت وليامز فيقول : (إن الصهيونية ليست شقيقة الشيوعية فحسب بل هى أمها)[٢].

تاسعا : سلسلة الاجتماعات التى كانت تعقد بين دعاة الشيوعية وزعماء الصهيونية فقد كشفت الوثائق عن الاجتماعات التى عقدت بين لينين وحايم وايزمان زعيم الحركة الصهيونية سنة ١٩١٦م[٣](ففى مدينة زيوريخ السويسرية وبحضور كارل راديك اجتمع لينين بالزعيم الصهيونى حايم وايزمن وزميله فى الحركة الصهيونية الكاتب المعروف جاك ليفى ، والبروفسور اليهودى النمساوى مولير فاندسيم العضو فى الحركة الإشتراكية ، والبروفسور اليهودى البولندى دافيد هارن . وعقدت سلسلة من الاجتماعات بين لينين ووايزمن فى منزل الصناعى اليهودى دانيال شوين (أيار ١٩١٦م) بحث فيها المخطط الثورى الاشتراكى الماركسى (P.R.S.M) قوامه هدم القيصرية فى روسيا وقيام على أنقاضها دولة ماركسية . وبحث أيضا المخطط اليهودى للشرق (P.J.O) الذى وضعته لجنة شكلت من زعماء الإشتراكيين اليهود الأوربيين فى مدينة النمسا عام ١٩٠٨م ويهدف إلى فتح أبواب الشرق للشعب اليهودى ليستقر فى فلسطين ويؤسس فيها دولة إشتراكية تكون قاعدة

---

(١) نقلا من كتاب دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (١٨) .
(٢) نقلا من كتاب كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٥٠) .
(٣) لاحظ التاريخ قبل تفجير الثورة بسنة واحدة .

لنشر الفلسفة الماركسية فى أقطار الشرق الأوسط)[١].

وقد سجل وقائع تلك المناقشات جاك ليفى الذى كان عميلا للمخابرات الفرنسية وقال لينين لوايزمن (على نجاح الثورة فى روسيا يتوقف تحرير اليهود من كابوس ملوك أوروبا وحكامها ورفعهم إلى أسمى المراتب فى الدولة وفرض احترامهم وشخصيتهم . وسوف تحقق الثورة للشعب اليهودى المشتت ماعجزت عن تحقيقه لهم الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) ـ وبعد أن تزول القيصرية وكنيستها من روسيا تقام الدولة الماركسية الاشتراكية على الأسس التى خطط لها لتحقق أهدافها البعيدة المدى فى الغرب والشرق).

واقتنع وايزمن بالفكرة وقال للينين (إن فتح أبواب الشرق واستقرار اليهود فى فلسطين يتوقف بالدرجة الاولى على تدمير الإمبراطورية العثمانية .

وبتدميرها تزول الحواجز والعقبات التى تعترض المسيرة إلى أرض الميعاد ... عمرها أصبح محدودا وانهيارها وشيكا . لابد من إنشاء دولة يهودية فى فلسطين على أسس إشتراكية بعد أن تحقق الثورة الروسية الإشتراكية أهدافها)[٢].

فتخطيط اليهود إزالة القيصرية من روسيا .

ثم القضاء على الخلافة العثمانية .

والاستيلاء على بيت المقدس وإيجاد الوطن القومى لليهود ، وقد تحقق ذلك كله وآخر المطاف الاعتراف الرسمى بدولة إسرائيل فى عملية السلام الأخيرة وتطبيع العلاقات . ولاشك سيعقب ذلك أحداثا أخرى ولو بعد حين.

كما أفاد كلام لينين أن الثورة الفرنسية من ورائها اليهود ولكنها فشلت فى تحقيق الأهداف البعيدة لليهودية العالمية .

---

(١) دور الدول الاشتراكية فى تكوين إسرائيل (١٦-١٧) .

(٢) المرجع السابق (١٧) .

عاشرا : ومما يدل على أن الشيوعية خدعة يهودية ومخطط صهيونى . ان اليهود حصلوا على عدة إمتيازات فى روسيا بعد قيام الثورة البلشفية ، ومنها :

(أ) الإبقاء على الديانة اليهودية دون الديانات الأخرى . وإن كان ورد أن لينين اعتبر أن دينهم خرافات إلا أنه قال لابد من الإبقاء عليه حتى يتسنى لليهود البؤساء الحصول على حقوقهم لأنهم إذا نبذوا دينهم فسوف يضيعون بين الأقوام المجاورة فالمحافظة على الدين اليهودى أمر ضرورى لحياة الشعب اليهودى حتى يصلوا إلى حقوقهم(١).

(ب) جعل السلطة فى أيديهم أو فى يد من قام على تنفيذ مخططاتهم مثل لينين وتروتسكى .

(ج) السماح لهم بامتلاك أرض فى المقاطعات اليهودية فى كريما وخرسان وبيروبيدجان .

(د) انتساب أعداد كبيرة من اليهود إلى أجهزة الدولة المختلفة واحتلوا مناصب حساسة .

(هـ) تمكينهم من الجامعات السوفيتية بحيث أصبح عدد الأساتذة الجامعيين من اليهود أكثر من ٢٥ ألفا .

(و) أجيز لليهود فى مطلع الثورة إنشاء أحزاب يهودية مستقلة مع أن لينين قام بحل جميع الأحزاب ليتسنى لحزبه البولشفيكى السيادة(٢).

(ز) نشر الصحف والمجلات والكتب اليهودية يقول اسحاق دويتشر : (قاد البولشفيك ، أيام لينين ، سياسة دقيقة حازمة ضد الحركات القومية والوطنية والدينية باستثناء اليهود الذين سمحوا لهم بإحياء نزعتهم الدينية والقومية ونشر عدة صحف ومؤلفات)(٣).

---

(١) انظر هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٢٥) .

(٢) ومر معنا ذكر مدى تغلغل اليهود فى الحزب الشيوعى البرهان رقم (٨) .

(٣) انظر المسيح الأحمر (٣٣) .

(ح) تدريب الشباب اليهودى والسماح لهم بالهجرة إلى أرض فلسطين مع أن الخروج من أرض الاتحاد السوفييتى يكاد يكون محرما على مواطنيها[١].

(ط) تخصيص مليون ليرة ذهبية من الذهب القيصرى الذى استولى عليه اليهود لشراء أراضى لليهود الروس الإشتراكيين فى فلسطين وبعثت لجنة عام ١٩٢١م لدراسة موضوع شراء الأراضى وطافت البعثة جميع المناطق ودرست أوضاعها دراسة متكاملة وأخذت البعثة تقاريرها إلى لينين وتروتسكى مع مجموعة من الخرائط[٢].

(ى) مطالبة بعض القادة السوفييت بدفع التعويضات للشعب اليهودى نظير مالقيه هذا الشعب من ألمانيا حيث ذكر جون سوريك (أن الرئيس السوفييتى ستالين طلب مضاعفة التعويضات التى ستفرض على المانيا لليهود لإنفاقها فى انشاء مستعمرات فى فلسطين لثلاثة ملايين يهودى من الاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية)[٣].

هذا غير الامتيازات التى حصلوا عليها والعطايا من المؤسسة الشيوعية التى عملوا على إيجادها وتمويلها لتحقق أهدافهم حيث أصبحت الدولة الشيوعية بل الكتلة الإشتراكية بكاملها تمد يد العون للدولة اليهودية الصهيونية (اسرائيل) فى أرض فلسطين سواء كان دعما ماليا أم عسكريا أو التصويت لصالحها فى المحافل الدولية أو غير ذلك مما يحقق مصلحة إسرائيل (وكل ذلك حدث بعد الثورة البلشفية) .

وباختصار يمكن القول أن الثورة الشيوعية قد حافظت على اليهود (منذ اندلاعها فى روسية على قوميتهم الصهيونية فى الوقت الذى حاربت فيه القوميات . وحافظت على ديانتهم فى الوقت الذى حاربت فيه بقية الأديان

---

(١) انظر المسيح الأحمر (١٩) .

(٢) انظر : الى أرض الميعاد ، البرفسور زاندا نقلا من كتاب دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٢٧) .

(٣) نقلا من كتاب دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٣٧) .

ومع أنهم يعدون مواطنين سوفييت وفى دولة الاتحاد السوفيتى فإنه يسمح لهم دون غيرهم من بقية المواطنين السوفييت بالخروج والهجرة إلى إسرائيل باسم يهود بل ولكونهم يهودا وفى الوقت الذى يعتبر فيه الاتحاد السوفييتى بالنسبة لغيرهم كالستار الحديدى ...)[١].

ثم إن الحكومة البلشفية فى الأيام الأولى من استلامها السلطة أصدرت قرارين .

(القرار الأول : صدر فى الأسبوع الأول لحكم لينين سنة ١٩١٧م وقد ورد فيه : العداء لليهود جريمة يعاقب عليها القانون .

القرار الثانى : جاء تنفيذا لاتفاق لينين وايزمن الموقع بينهما عام ١٩١٦م وورد فيه :

إن الحكومة البلشفية برئاسة لينين تعلن تأييدها الكامل لحق اليهود فى وطن قومى لهم فى فلسطين .

وهذان القراران يدلان على عدة حقائق منها :

أولا : ارتباط الشيوعية منذ قيامها ارتباطا عضويا بالصهيونية ، بل إن الصهيونية هى التى أنشأت الشيوعية لتنفيذ مخططاتها ، وهذه حقيقة يعتز بها اليهود ، فقد صاغ كارل ماركس نظريته ووضع برنامج العمل الثورى ويعتبر ماركس فيلسوف الشيوعية ومؤلف النظرية المادية - من بيت يهودى محافظ كان جده حاخاما معروفا وكذلك والده)[٢].

الحادى عشر : الاعتراف والتصريحات من قبل اليهود فى وسائل إعلامهم وعلى ألسنة قوادهم وبعض من يعمل لمصلحتهم حيث تضخمت هذه التصريحات والكتابات التى تبين العلاقة الوثيقة بين الصهيونية والشيوعية ودور اليهود فى إيجاد النظام الشيوعى وتمويله للوصول إلى تحقيق الغايات من ورائه فجاء فى مجلة افريكان هيبرو[٣]تقريرا يفيد (إن الثورة الشيوعية فى

---

(١) الشيوعية منشأ ومسلكا (١٠٦-١٠٧) .

(٢) حقيقة المواقف الشيوعية من القضية الفلسطينية (٢٣-٢٥) .
وانظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠٠) .

(٣) من كبريات المجلات اليهودية الأمريكية فى ١٠ سبتمبر ١٩٢٠م .

من ورائه فجاء فى مجلة افريكان هيبرو[٣]تقريرا يفيد (إن الثورة الشيوعية فى روسيا كانت من تصميم اليهود ، وأنها قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم ، وأن ماتحقق فى روسياكان بفضل العقلية اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ، ونتيجة لتدبير اليهود ، ولسوف تعم الشيوعية العالم بسواعدهم)[١].

ويقول الزعيم الإسرائيلى موسى سنيه أحد زعماء اسرائيل : (كل يهودى يعلم فى أعماق نفسه من كان أعظم أصدقائه وأحرصهم على صداقته إنه الجمهورية السوفيتية .

ويقول رينولد : (لاأستطيع أن أتصور يهوديا يقوم بدور العدو للاتحاد السوفييتى ومثل هذا اليهودى شىء شاذ غير طبيعى ، وتشويه لكل شىء لائق وحق)[٢].

وفى بيان يهودية ماركس وخدمته لأهداف اليهود وكون الصهيونية وراء الشيوعية وتفجير الثورة البلشفية ماذكره الحاخام (لويز برونس) الذى يؤكد فى كتابه (أغرب من الخيال) مايلى :

(إن كارل ماركس حفيد الحاخام مردخاى كان فى روحه واجتهاده وعمله ونشاطه وكل ماقام به أو أعد له من فكر وأسلوب أشد اخلاصا لاسرائيل من الكثيرين الذين يتشدقون اليوم بأدوارهم فى مولد الدولة اليهودية)[٣].

ويقول جاك تينى : فـ(هناك الكثير من الأشياء فى حقيقة البلشفية نفسها فى حقيقة أن الكثير من البلشفيك يهود وفى حقيقة أن مثاليات البلشفية تتفق فى وجوه عديدة مع أسمى المثاليات اليهودية)[٤].

---

(١) حقيقة الشيوعية (١٧٢) ، وانظر كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٤٨) .

(٢) حقيقة الشيوعية (١٧٣) .
وانظر : فوق أطلال الماركسية (١٧٩) ، هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٩) .

(٣) موسكو وإسرائيل (٣١) ، والمسيح الأحمر (٣٦) ، وانظر (٣٨) .

(٤) مجلة التاريخ اليهودى (جوريشن كرونكيل ١٤ ابريل ١٩١٩م) نقلا من كتاب الأخوة الزائفة (١) .

وقد ذكر عبد الله التل أن أوجه الشبه بين اليهودية والشيوعية كثيرة ذكر منها عشرين وجها[١].

فهذه بعض الأقوال والتصريحات الدالة على الرابطة بين اليهودية ممثلة فى الصهيونية وبين الشيوعية . كما أن فيها الاعتراف الواضح بفضل ماركس وخدمته لأهداف إسرائيل .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك :

(أ) التشابه فى الأساليب ومن ذلك تشكيل الخلايا السرية لنشر المبادىء الشيوعية ولتعويض القيادات والأنظمة وإفسادها لتحقيق أهدافهم[٢]. يشترك فى ذلك الشيوعيون والصهاينة ، فالصهيونية إن هى إلا منظمة يهودية تعمل لمصلحة إسرائيل والشيوعية إنما فجرت ثورتها فى روسيا عن طريق الخفاء والتستر والعمل فى السر .

(ب) من أوجه الشبه أن الصهيونية تقوم عليها فئة من عتاة اليهود وكذلك الشيوعية أى أن السلطة فى يد أقلية ، الحاكمون قلة والمحكومين أغلبية . وهم اليهود ، أى القلة الحاكمة .

(ج) إيمان كل من الطائفتين بإراقة الدماء كحلول للمسائل[٣].

(د) التشابه فى الإباحية وذلك كما ورد فى التلمود أن من رأى رؤيا بأنه يرتكب الفاحشة مع خطيبته له أمل كبير فى الحصول على صداقة الشريعة ومن يحلم أنه ارتكب الفحشاء فى شقيقته له أمل كبير بإدانة

---

(١) انظرها فى كتاب الأفعى اليهودية (٤٧-٥٠) .

(٢) ولمزيد من معرفة ذلك :
انظر : تجربة عربى فى الحزب الشيوعى (١٨-٢٢) ، لينين (١٥٠،١٥٨،١٥٩،٢٤٨، ٢٤٩،٣١٢) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٢١) .

(٣) انظر : شهادتى للتاريخ (٢٦٤-٢٦٥) ، عبد القوى مكاوى ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م دون ذكر لدار النشر ، حاضر العالم الإسلامى (٣٩) ، د. على جريشة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، جدة .

نفسه ومن يحلم أنه ارتكب الفحشاء مع امرأة قريبة يحصل على السعادة الخالدة .

ثم إن التلمود يشرح أن جمهورا من الحكماء الأوائل كانوا إذا نزلوا مدينة وليس لهم فيها امرأة نادوا (من من النساء تريد أن تكون امرأة لهم بضعة أيام)[١].

وجاء فى البيان الشيوعى الدعوة الى مشاعية النساء . وجاء فى كتاب (اليهود يجب أن يعيشوا) لمؤلفه صموييل روث (ان كتاب الصلاة اليهودى يعتبر سفاح القربى ولاجتماع للزنا الجماعى من الذنوب المغفورة لديهم إذا تم ذلك فى يوم 'كيبور")[٢].

وقد ألف ليون بلوم[٣]كتابا اسمه (الزواج) دعى فيه إلى الفسق والفجور ، وكان ليون هذا من أبواق الماسونية ، وقد دعى فى كتابه إلى :

(أ) دعوة الشباب والفتيات إلى الانغماس فى حمأة الرذيلة .

(ب) طالبهم بتعجيل قضاء رغبتهم الجنسية اذا أحسوا بها لاعن طريق الزواج بل بالمشاعية الوقحة .

(ج) تهوينه من شأن الأخلاق والعفة والفضيلة وطالبهم بالتخلص من قيودها .

(د) السخرية بالأديان والرسل والدعوة إلى الإلحاد .

(هـ) تهوين العلاقات الزوجية وتحطيم الرباط الأسرى عن طريق دعوة الزوجات لاتخاد الأخدان وطالب الرجال بإغواء النساء العفيفات .

(و) الدعوة إلى العقم الاختيارى بتنفير النساء عن الحمل والولادة وتربية الأطفال[٤].

---

(١) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (٩٠) .

(٢) ص١٣٦ نقلا من المرجع السابق (٧٩) .

(٣) ليون بلوم يهودى ولد فى بلغاريا ، تولى رئاسة الوزارة الفرنسية سنة ١٩٣٦م ، وهلك سنة ١٩٥٠م . نقلا من المرجع السابق (٧٣) .

(٤) نقلا من المرجع السابق (٧٢،٧١) .

فهذا غيض من فيض فى تتبع البراهين التى تدل وتثبت أن الشيوعية إنما كانت دسيسة يهودية تظهر فى روسيا لتحقق بعد ذلك غايات أخرى وعلى رأسها القضاء على المسلمين وإبعادهم عن دينهم وإقامة الدولة اليهودية فى أرض فلسطين ، وقد تحقق ذلك .

ومما يزيد من إثبات هذه الحقيقة هو التقارب بين إسرائيل والدولة الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ، والدول الشيوعية فى المعسكر الشرقى بالعموم وهنا نأتى إلى الجانب الثانى وهو ماقدمته الدولة الشيوعية التى بناها اليهود لدولة إسرائيل ذلك الكيان الذى جعلت له الأرض الإسلامية وطنا . وسيكون ذلك زيادة على ماذكرناه .

(ب) **دعم الشيوعية لدولة إسرائيل** :

أولا : اعتراف الاتحاد السوفييتى بإسرائيل بعد قيامها مباشرة حيث كانت دولة السوفييت ثانى دولة تعترف بإسرائيل بعد الولايات المتحدة الأمريكية مع أن الاتحاد السوفييتى هو الذى اعترف اعترافا صريحا ومباشرا وكاملا فى حين جاء الاعتراف الأمريكى بإسرائيل مجرد اعتراف بالأمر الواقع)[١].

بل إن الاتحاد السوفييتى أعلن عن طريق مندوبه اندريه جروميكو قبل عشرة أيام من إعلان قيام دولة إسرائيل بالتحديد فى ٤ مايو ١٩٤٨م أعلن أنه توجد دولة يهودية بالرغم من محاولات بلاد معينة لاعاقة تنفيذ التقسيم ، فكان اعتراف السوفييت قانونيا فيكونون أول من إعترف بإسرائيل فى العالم كله[٢].

وقال ف.ب.لوتسكى المؤرخ السوفيتى المشهور فى كتابه الامبريالية البريطانية والأمريكية فى الشرق الأدنى (موسكو ١٩٤٨) ، (إن الاعتراف السوفياتى باسرائيل هو اعتراف "حقوقى" ، فى حين أن الاعترافين البريطانى

---

(١) السوفييت وقضية فلسطين (١٧-١٨) ، د. محمد نصر المهنا ، دار المعارف ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) المرجع السابق (١٤-١٥) .

والأمريكى ليسا سوى اعتراف "واقعى" وقال إن الاتحاد السوفييتى كان يدعم إسرائيل دعما حقيقيا ومخلصا ...)[١].

والاعتراف الأمريكى لايستدعى التبادل الدبلوماسى فهو غير رسمى Defacto اعتراف بالأمر الواقع وتستطيع واشنطن سحبه فى اقل العنا والاتحاد السوفييتى اعترف قانونيا Deturi وكذلك فعلت الدول الإشتراكية[٢].

وإذا اعتبرنا أن أمريكا اعترفت بإسرائيل بعد قيامها بعشر دقائق وكان فى ١٤ أيار ١٩٤٨م حيث بعث الرئيس الأمريكى ترومان[٣]برقية الاعتراف فإنه بعدها بأربع دقائق اعترف ستالين باسم الاتحاد السوفييتى بالدولة اليهودية وانهالت الاعترافات من قبل الدول الشيوعية بالدولة اليهودية فى أرض فلسطين[٤].

وأخذت بعد ذلك التصريحات تظهر من مسؤلى البلدين بما يكنه كل طرف للطرف الآخر ، فأرسل بن غوريون رسالة شكر لستالين بتاريخ ٦ تشرين الثانى من عام ١٩٤١م قال فيها ان الأمة الاسرائيلية لن تنسى العون والتأييد الذى أعطتهما إياه روسيا[٥].

ويقول (كوسيجين)[٦]فى لقائه مع مندوب مجلة "اللايف" الأمريكية : (نحن لايوجد لدينا نيات معادية ضد إسرائيل فى الماضى كنا البادئين فى خلقها ولانزال نؤمن بأن إسرائيل لابد أن تبقى كدولة)[٧].

---

(١) نقلا من كتاب النار والجليد (٢٣٦) .
(٢) انظر موسكو واسرائيل (٢٢٩-٢٣٠) .
(٣) خليفة روزفلت ، تدرج فى الأعمال الخاصة حتى أصبح سياسيا فى مدينة كنساس ، إلى قاض (مسئول إدارى) إلى عضو بمجلس الشيوخ آخر الأمر رشح بعد ذلك لمنصب نائب الرئيس ، ورشح عام ١٩٤٥م رئيسا للبلاد .
انظر موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٣٩) ومابعدها .
(٤) انظر دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٥٢-٥٣) .
(٥) الحقيقة الكاملة (٨٧) .
وانظر الشيوعية منشأ ومسلكا (٨٩) .
(٦) أول رئيس للاتحاد السوفييتى بعد الإطاحة بالقيصرية .
(٧) مجلة اللايف العدد الصادر فى شباط فبراير سنة ١٩٦٨م ونقلته أيضا مجلة "التايمس" الأمريكية فى ص٢٣ بتاريخ ٢ شباط سنة ١٩٦٨م نقلا من كتاب الكيد الأحمر (١٤٩) .

(وبتاريخ الخامس عشر من شباط من عام ١٩٦٨م ألقى الكسى كوسيغين خطابا فى مدينة (مدينسك) السوفياتية جاء فيه : (نحن لسنا أنصار حرب جديدة فى الشرق الأوسط ، بل على العكس ، نريد سلاما مستقرا فى المنطقة ، وهناك بعض الدول العربية تؤيد هذا الموقف إننا نرفض تصفية إسرائيل ، بل نؤيد استمرار إسرائيل كدولة)[١].

وهكذا يظهر مدى ماوصل إليه الاتحاد السوفييتى فى مسألة الاعتراف بدولة إسرائيل وكذلك التأييد المطلق لبقائها كدولة فى أرض فلسطين العربية.

ثانيا : المساعدات العسكرية التى تلقتها إسرائيل من الدول الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتى ، فمعظم أفراد القوات الإسرائيلية من الروس واليوغسلافيين والرومانيين والبولنديين الذين استقروا فى فلسطين ، بالإضافة إلى الأسلحة التى كانت تحصل عليها إسرائيل من هذه الدول فى حروبها ضد المسلمين العرب يقول د. إبراهيم الشريقى : (إن الأسلحة التى حصل عليها اليهود وحاربوا فيها العرب عام ١٩٤٧م وعام ١٩٤٨م كانت من دول أوروبا الشرقية التى استولى عليها الشيوعيون فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بمساندة الجيش الأحمر وبأمر من موسكو سمح للبعثة اليهودية برئاسة موسى شاريت أن تشحن مايلزمها من معدات حربية على بواخر رومانية ويوغسلافية إلى ميناء حيفا حيث بلغت أرقام صفقات الأسلحة نقلا عن مصادر أوربية رسمية والوكالات الدولية مايلى :

طائرات تشيكوسلوفاكية	٢٤
دبابات متنوعة	١٢٥
سيارات مصفحة	٤٠٠
مدافع ثقيلة	٧٠

---

(١) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (٣٠) .

مدافع متنوعة	٣٥٠
بنادق ورشاشات	١٠٠ ألف
قذائف يدوية	١٥٠ طن
ذخائر	٣٠٠٠ طن
سيارات نقل	١٠٠٠ سيارة

والواقع لولا مؤازرة الدول الشيوعية لإسرائيل وتزويدها بالأسلحة الثقيلة والطائرات لما استطاعت فى المرحلة الثانية تموز ١٩٤٨م أن تثبت أقدامها فى مناطق شاسعة لم يقرها مشروع التقسيم كالنقب ويافا والخليل...الخ)[١].

وأكد بن غوريون فى مقابلة أجراها معه التلفزيون الإسرائيلى دعم الاتحاد السوفييتى ودوره البارز فى إيجاد إسرائيل فقال : (إن الاتحاد السوفييتى عمل أكثر من الولايات المتحدة من أجل ولادة إسرائيل والأسلحة الوحيدة التى سمحت لهذا البلد من دفع الغزو العربى والتى خلصته جاءت من العالم الإشتراكى بينما كانت الولايات المتحدة ترفض أى مساعدة عسكرية)[٢].

وفى ٢٥ تشرين الثانى من عام ١٩٥٢م وقف عضو الكنيست الإسرائيلى (بيرتربر نشتاين) فى أحد إجتماعات الكنيست فقال : (إن تشيكوسلوفاكيا مدت لنا يد المساعدة العسكرية أكثر من أية دولة أخرى فى أثناء قتالنا مع العرب ...)[٣].

ولابد لنا من وقفة مع قضية بيع الاتحاد السوفييتى السلاح للعرب لنتبين حقيقة الأمر لاكما يزعم دعاة الباطل ورواد الأضاليل من أن الاتحاد السوفييتى صديق حميم للعرب وأنه يدعم القضية الفلسطينية ولنقف على حقيقة هذه الأسلحة وبيعها ومقدرتها .

---

(١) دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٣٤-٣٥) ، وانظر الحقيقة الكاملة (٩١) .

(٢) إسرائيل الى أين (٦٥) ، ناحوم غولدمان ، ت د. نسيم الخورى ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م/١٤٠٥هـ ، دار المشرق العربى الكبير ، بيروت ، دمشق .

(٣) الحقيقة الكاملة (٨٧) .

فى ٢٢ حزيران ١٩٦٤م أدلى الملحق العسكرى فى باريس لمراسل صحيفة معاريف بتصريح جاء فيه : (لقد أعربنا عن تأييدنا لإسرائيل بالسلاح والعتاد والرجال فى أقسى ظروف الأزمة الفلسطينية فما قدمناه ونقدمه للبلاد العربية من سلاح هو لأغراض دفاعية ولمكافحة الرجعية العربية فقط ، ولايمكن أن نسمح باستعماله للعدوان على إسرائيل فنحن نريد سلامة إسرائيل بل نعمل من أجل سلامتها ... ثم هل تظنون أننا جاهلون لأهمية إسرائيل بالنسبة إلينا؟ وهل تظنونا لانعلم ماهو نوع الحكم الإشتراكى السليم الذى تبنونه فى إسرائيل بأيديكم؟ وهل من المعقول أن نكون طرفا فى هدم التجربة الإشتراكية التى حققتها إسرائيل؟ هل تظنون أننا مهملون أهمية الوجود الإسرائيلى فى الشرق الأوسط ، تلك المنطقة المهمة؟ اطمئنوا ... اطمئنوا ... إن الاتحاد السوفييتى مع إسرائيل وسيؤيدها اليوم وغدا كما أيدها ورعاها بالأمس ونحن نرعى الإشتراكية العربية لأن فى ذلك تعزيزا لمصلحة إسرائيل أيضا؟؟)[١].

وبتاريخ الرابع عشر من شباط سنة ١٩٦٥م نشرت صحيفة (ها آرتس) الإسرائيلية تصريحا للمستشار الأول فى السفارة السوفيتية فى إسرائيل جاء فيه (لم نقدم السلاح لبعض الدول العربية إلا بما يكفى لحاجات الدفاع لاالهجوم وعلى الشعب فى إسرائيل أن يتذكر أن الاتحاد السوفياتى كان أول من دعا إلى حظر توريد السلاح إلى الشرق العربى عام ١٩٥٧م ونحن مستعدون لحظر السلاح عن المنطقة العربية ، لكن حركات التحرير اليسارية فى العالم العربى تحتاج إلى السلاح لتكافح الرجعية العربية ويقضى عليها وعلى كل من يساعدها أن القضاء على الرجعية العربية سيزيل خطر العدوان العربى على إسرائيل لأن الأنظمة والحركات التقدمية اليسارية فى البلاد العربية لاتريد العدوان على إسرائيل ...)[٢].

---

(١) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (٢٩) .
وانظر موسكو واسرائيل (٤٢٢) .

(٢) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (٢٩-٣٠) .

وجاء فى عدد ١٠ يونيه ١٩٦٥م فى جريدة "كول ها عام" - وهى وثيقة الصلة بالاتحاد السوفييتى - : (قد لايعلم الكثيرون بأن الاتحاد السوفييتى لايدع أى فرصة تمر دون أن يؤكد على أصدقائه من النظم والحركات الإشتراكية العربية بأن التعايش السلمى بين العرب وإسرائيل جزء جوهرى من السياسة السوفياتية وأن تزويد موسكو للإشتراكيين العرب بالسلاح مقيد تقييدا كاملا بهذا الاعتبار السياسى الهام بالنسبة لسلامة إسرائيل)[١].

وفى ٢٢ يونيه ١٩٦٤م أجرى مراسل جريدة معاريف التى تصدر فى تل أبيب حديثا صحفيا مع الملحق العسكرى السوفياتى فى باريس ومما جاء فى الحديث :

(فنحن نبيع للجمهورية العربية المتحدة ولغيرها من الدول التى تبحث عن السلاح .. وليس فى تعاملنا التجارى بالسلاح مع مصر أى التزام بالنسبة للمشكلة الفلسطينية ، فنحن على أتم الصلات مع إسرائيل .. ولم يصدر ولن يصدر عنا أى عمل أو معونة أو تواطؤ مع مصر أو مع غيرها للاضرار بالكيان السياسى المستقل لإسرائيل .. هذه هى القاعدة الحقيقية فى السياسة السوفيتية نحو الشرق الأوسط . إننا نشارك العرب فى مكافحة الاستعمار والرجعية فقط ، ولانشاركهم ولايمكن أن نشاركهم فى العدوان على إسرائيل...) .

وقال : (فما دمنا ومانقدمه للجمهورية العربية المتحدة اليوم من سلاح هو لأغراض دفاعية فقط .. ولايمكن أن نسمح باستعماله للعدوان على إسرائيل .. ليس لدى موسكو أى رغبة أو أى تفكير فى منع السلاح السوفياتى عن إسرائيل إذا احتاجت إليه ...) . وقال : (إننا نريد سلامة إسرائيل بل نعمل لسلامتها ، فلاتتزعجوا من السياسة السوفيتية فى المنطقة العربية ، هذه السياسة متممة بل ضرورية لسلامة إسرائيل)[٢].

---

(١) موسكو وإسرائيل (٤٢٣-٤٢٤) .

(٢) المرجع السابق (٤٢١-٤٢٢) .

وقالت صحيفة (الهامشمار) لسان حزب المابای الإشتراكى عدد ٧ أكتوبر ١٩٦٤م عن النظم العربية الإشتراكية (فهذه النظم وهى تعيش على السلاح السوفياتى والذخيرة والمعونات والقروض السوفياتية وعلى العقيدة السوفياتية أيضا فانها (أى النظم الإشتراكية العربية) عاجزة عن حرية التصرف فى أى عدوان عسكرى على إسرائيل ونحن نميل إلى تصديق القول السوفياتى الرسمى عندما يؤكد لحكومة إسرائيل بأنه ليس فى علاقات الاتحاد السوفياتى مع مصر أو مع الدول العربية الأخرى فى مسألة بيع السلاح والقروض المالية والتعاون العقائدى مايؤذى إسرائيل فى المرحلة النهائية ، بل إن المرحلة النهائية سيكون فيها كل الخير والأمن والسلامة لإسرائيل...)[١].

ويقول يعقوب ريفتين بعد أن تحدث عن مسألة حظر السلاح فى الشرق الأوسط (يجرى ترديد هذه النداءات التى هى أيضا مبادىء أصيلة فى سياسة إسرائيل .. نحن نريد السلاح والتعايش السلمى وفض المنازعات بالطرق السلمية ... ولهذا فسياسة السوفيات فى الشرق العربى عظيمة النفع والفائدة لنا . وستظهر ثمارها على أطيب لون وقالب لصالح إسرائيل)[٢].

وأحيانا ينادى الاتحاد السوفياتى بأن تكون منطقة الشرق الأوسط خالية من السلاح النووى ولكن كما يقول البروفسور غاييل شتاين[٣] (فإن موسكو قادرة على أن تخدم إسرائيل والسلم العالمى أجل الخدمات ...) .

ويضيف (فلاتعبئوا بكل مايقوله الإشتراكيون العرب فى تهديدات إسرائيل ، فذلك بضاعة سياسية ودعاية مالوفة ، والعلم بالحقائق يدفعنا إلى القناعة بأن السوفيات سيخدمون إسرائيل وسلامتها أكثر من أى طرف أجنبى آخر ... أنا مع الصداقة السوفيتية الإسرائيلية إلى أبعد حد ... والسوفيات حريصون حرصا فى إسرائيل على هذه الصداقة ، فهى ضرورية لهم ولولا

---

(١) موسكو وإسرائيل (٤٢٨-٤٢٩) .
(٢) المرجع السابق (٤٤٤-٤٤٥) .
(٣) عالم فيزيائى فى إسرائيل من المشرفين على التجارب الذرية هناك .

ذلك لما ساهموا فى توطيد سلامة إسرائيل يوم ولادتها بالسلاح والرجال والعمل الدبلوماسى لانكترث للقول والدعاوى الذى يوجهه السوفيات للعرب . فالسوفيات قوم يعلمون مواطن الضعف والقوة فى الدول الضعيفة وإسرائيل ليست جاهلة ولامتجاهلة للسياسة السوفياتية .. ونحن نعلم أتم العلم بأن هذه السياسة مؤيدة أشد التأييد لسلامة إسرائيل)[١].

وفى عدد فبراير ١٩٦٥م نشرت جريدة (هآرتس) كبرى الصحف اليهودية فى الأرض المحتلة تفاصيل محاضرة ألقاها المستشار الأكبر للسفارة السوفيتية على طلاب وأساتذة فى الجامعة العبرية واقتبست الجريدة على لسان المستشار السوفييتى (لم نقدم لمصر من الأسلحة إلا مايكفى لحاجات الدفاع لاالهجوم ... وعلى الشعب فى إسرائيل أن يتذكر بأن الاتحاد السوفييتى كان أول من دعا إلى حظر توريد السلاح على دول المشرق العربى ١٩٥٧م ونحن مستعدين لحظر السلاح عن المنظمة العربية ولكن حركات التحرر الوطنى اليسارية فى العالم العربى تحتاج إلى السلاح لكى تكافح الرجعية العربية وتقضى عليها وعلى من يساعدها من الاستعمار .

فالقضاء على الرجعية العربية سيزيل عن إسرائيل خطر العدوان العربى ... النظم التقدمية اليسارية مثل الجمهورية العربية المتحدة لاتريد العدوان على إسرائيل ... نحن نعلم ذلك تمام العلم) .

إن (الجمهورية العربية المتحدة لايمكن أن تقوم بعدوان على إسرائيل ... ولايمكن أن تستعمل السلاح والعتاد السوفياتى لمثل هذا العدوان ... نحن فى الاتحاد السوفياتى أدرى من غيرنا بطاقات الإشتراكية المصرية ونوايا الإشتراكية المصرية ، وليس فى ذلك أى ضرر على إسرائيل أو خوف عليها)[٢].

---

(١) موسكو واسرائيل (٤٤٥) .
(٢) المرجع السابق (٤٢٢-٤٢٣) .

بل إن السلاح الذى أعطاه السوفييت لمصر بعد ضربة ١٩٦٧م إنما كان بعد أن حققت اسرائيل أهدافها فأراد السوفييت (تغطية التواطؤ السوفياتى ضد العرب ومحاولة لتطويق تدهور سمعة الاتحاد السوفياتى فى المنطقة العربية أى خوفا على مصالحه الاستعمارية وأهدافه الشريرة فى بلاد العرب)[١].

فالدعم للعرب كان مشروطا ، بل إن الاتحاد السوفييتى كان متسلطا على طاقات العرب العسكرية فى النظم الإشتراكية فهى أسيرة ورهينة بمشيئة السوفييت[٢]، كما أنها تستخدم فى زعزعة النظم بالإضافة إلى استخدام الأتباع فى نشر الماركسية وحركات البعث الثورية كما استغلت الثورة الناصرية[٣].

ومما سبق نصل إلى الآتى :

أولا : أن مصلحة إسرائيل وحاجتها مقدمة على مصالح العرب والمسلمين بل مقدمة على الدول الإشتراكية العربية التى تنافح عن موسكو .

ثانيا : أن الاتحاد السوفييتى يعتبر الحفاظ على إسرائيل من أسس سياسته فى الشرق الأوسط .

ثالثا : أن السلاح الذى يباع للدول العربية سلاحا دفاعيا فقط .

رابعا : أن هذا السلاح لايمكن استخدامه ضد إسرائيل فهو سلاح مشروط .

خامسا : يصل الاتحاد السوفياتى بهذا إلى أن تظل الدول العربية خاضعة له تسير فى فلكه وتنفذ خططه ولاتسير إلا حسب الطريق الذى يرسمه لها .

---

(١) المخطط السوفياتى لهزيمة حزيران (١٩) ، د. محمد عزت نصر الله ، الطبعة الأولى ١٩٧٠م ، مؤسسة دار فلسطين للتأليف والترجمة .

(٢) موسكو واسرائيل (٣٦٤) .

(٣) انظر المرجع السابق (٣٩٣) .

سادسا : يتمكن الاتحاد السوفياتى بهذا من ابتزاز الأموال العربية فى أسلحة مشروطة دفاعية فقط وقد تكون مما عفى عليه الدهر وأصبح فى دولته قديما لايؤدى الغرض الذى تنشده تلك الدول فيصدر للدول العربية .

سابعا : أن الاتحاد السوفييتى لن يسمح بالتفوق العربى على إسرائيل بل العكس هو الذى يحرص عليه الاتحاد السوفياتى .

ثامنا : أن هذا السلاح يستخدم لضرب الصحوة الإسلامية التى يعبرون عنها (بالرجعية) وبالفعل قد تم هذا واستخدمت هذه القوات ضد المسلمين فى تلك الدول والأيام الماضية وأيامنا هذه تشهد بأن الاتحاد السوفييتى نجح أيما نجاح فى إعطاء السلاح والإمداد بالقوة لضرب المسلمين عن طريق تلك الدول التى أرادت تطبيق الإشتراكية .

تاسعا : أن الامداد بالسلاح الجيد (إذا صح أنه جيدا) لايكون إلا بعد أن تكون القوة السابقة قد قضى عليها فما فائدة السلاح عندما يعطى لدولة خاسرة فى الحرب عالمة بأن هذه الأسلحة لن تحقق لها شيئا .

عاشرا : أن إمداد الدول العربية الإشتراكية المنافحة عن الشيوعية فيه مصلحة لإسرائيل لأنه يبقى هذه الدول فى فلك الاتحاد السوفييتى ، وبالتالى يؤمن جانب هذه الدول بالنسبة لإسرائيل .

ثالثا : انتشار الفكر الإشتراكى داخل إسرائيل وارتباط الحزب الإشتراكى فيها بالأحزاب الإشتراكية فى المعسكر الشرقى . وبالمقابل نشر الأفكار الصهيونية بين الحركات الإشتراكية واستخدام الحزب الإشتراكى فى إسرائيل لنشر الإشتراكية فى العالم العربى .

وقد (أوفدت الحكومة البلشفية اثنين من اليهود جاك شابيليف وراوول كارنبورغ لتأليف الحزب الماركسى ليكون قاعدة لنشر المبادىء الإشتراكية العلمية فى الشرق الأوسط تحت شعار مكافحة الإقطاع والرجعية والاستعمار وقد تالف الحزب الماركسى اليهودى فى فلسطين سنة ١٩١٩م ومنها تسللت تعاليم كارل ماركس إلى الأقطار العربية المجاورة بوساطة المبشرين اليهود الإشتراكيين وفى غضون سبع سنوات تم تأليف أربعة أحزاب ماركسية الأول فى مصر سنة ١٩٢١م ، والثانى فى سورية سنة ١٩٢٤م ، والثالث فى لبنان سنة ١٩٢٥م ، والرابع فى العراق سنة ١٩٢٧م)[١].

ومن المهم معرفة أن الحزب الإشتراكى العمالى هو الذى يحكم إسرائيل وهو معروف باسم مابای أنشأته جماعة اليهود الذين ينتمون إلى الحركة الإشتراكية فى أوروبا الشرقية وحزب احدوث هافودا يسارى إشتراكى.

والحزب الذى أسسه المنشقون عن حزب مابای والمعروف باسم رافى وكان زعيمه بن غوريون والحزب اليسارى (حيروت) ويليه حزب عمال اغودات الدينى ثم حزب مرزاحى وبين قواد هذه الأحزاب وزعماء الأحزاب الإشتراكية الماركسية الحاكمة فى دول المعسكر الشرقى رابطة المنبت والجنس والأهداف والمصالح المشتركة[٢].

---

(١) دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٢٥-٢٦) .
ولمزيد من معرفة شخصيات اليهود التى عملت فى نشر الفكر الماركسى فى البلاد العربية انظر المسيح الأحمر (٤٣-٤٨) .

(٢) انظر دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل ٥٩٠-٦٠) .

(ولم يتردد (حايم وايزمان) السياسى اليمينى النزعة فى الإشادة فى مؤتمر المجلس التنفيذى الصهيونى لعام ١٩٢٠م بأهمية (ترويج الصهيونية فى عموم الحركة الإشتراكية)[١].

رابعا : الاتفاقيات التى وقعت بين إسرائيل والدول الإشتراكية وفى مقدمتها الاتحاد السوفييتى حيث يعتبر الدولة الأولى التى وقعت معها إسرائيل اتفاقية وكان ذلك فى عهد ستالين .

ثم تلا ذلك الاتفاقيات فى عهد خروتشوف وكانت اتفاقيات تجارية وثقافية وسياحية بالإضافة إلى الاتفاق على العلاقة التجارية التى تنص على استخدام الموانىء الإسرائيلية من قبل السفن السوفيتية ، واستخدام الأولى سفن الثانية لنقل بضائعها للأسواق الآسيوية والأمريكية وبلدان أوروبا الشرقية ، وفى عام ١٩٦٤م وقعت ثلاث اتفاقيات بين روسيا وإسرائيل :

الاتفاق الأول تجارى : وذلك بتوسيع التبادل التجارى بشراء الفوسفات والمنتجات الإسرائيلية كالمنسوجات والكيماويات واستيراد إسرائيل الآلات الكهربائية والموتورات والفرو ثم بيعه بواسطة المؤسسات التجارية اليهودية .

الاتفاق الثانى سياحى : وضع برامج سنوية لتبادل الزيارات بين فنانى وعمال وكتاب البلدين وقد دخل إسرائيل بضعة آلاف من السواح الروس سنة ١٩٦٤م وزار الاتحاد السوفييتى أفواج من الشباب والعمال اليهود[٢].

الاتفاق الثالث : للنقل البحرى حيث تستخدم الموانىء الإسرائيلية من قبل السفن الروسية واستخدام سفن الأخيرة لنقل المنتجات الإسرائيلية ووقعت إسرائيل عدة اتفاقيات مع الدول الشيوعية الأخرى :

---

(١) تكوين الصهيونية (٢٥٨) ومابعدها .

(٢) مع ملاحظة الحظر الذى كانت تفرضه الدولة الشيوعية على شعبها ، وهذا لاغرابة فيه فقد قلنا أن اليهود حصلوا على امتيازات كثيرة بعد الثورة البلشفية مباشرة ومنها الهجرة وسيأتى إيضاح ذلك إن شاء الله تعالى .

فمع يوغسلافيا : أربع اتفاقيات .
ومع تشيكوسلوفاكيا : خمس اتفاقيات .
ومع رومانيا : أربع اتفاقيات .
ومع بلغاريا : ثلاث اتفاقيات .
ومع بولنده : ثلاث اتفاقيات .
ومع المجر : ثلاث اتفاقيات[١].

وقد نفذ ماجاء فى الاتفاق من قضية استخدام السفن فوصلت إلى لينغراد أول باخرة يهودية ليستعملها الاتحاد السوفييتى لنقل الفحم البريطانى إلى الاتحاد السوفييتى ، واسم الباخرة (عمال) وحمولتها ٢٤ ألف طن وهى تابعة لشركة (عتيد) الإسرائيلية الحكومية . كما إن إسرائيل تستفيد بخدمة السفن فى تجارتها ، والبواخر الإسرائيلية تدخل الموانىء السوفيتية وتخرج منها دون ضجيج حتى لايعلم العرب بذلك ...[٢].

الاتفاق التجارى :

جاء فى صحيفة (لامرحاف) اليهودية اليسارية عدد ١٢ أكتوبر ١٩٦٤م عن المعاهدة التى وقعها السفير السوفياتى فى تل أبيب الرفيق (ميخائيل بودرف) مع جولدا مائير وزير خارجية إسرائيل وتشمل المعاهدة أمران :

(أولهما تسليم الاتحاد السوفييتى كل ممتلكات الكنيسة الأرثوذكسية الروسية فى القدس والناصرة وحيفا وأماكن فلسطينية أخرى لحكومة إسرائيل .

وتقدر كل هذه الممتلكات بحوالى ٤,٥ مليون دولار ، وهو مبلغ تافه بالقياس إلى أهمية هذه الممتلكات التاريخية وبعضها يقع فى أهم مناطق القدس مما لو بيعت تجاريا لجلبت أضعاف ذلك المبلغ كما تقول هذه

---

(١) انظر دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٥٤-٥٥) .
(٢) انظر موسكو وإسرائيل (٤٣٠) .

الجريدة اليهودية وسوف لن تدفع إسرائيل هذا المبلغ نقدا وإنما فى شكل صادرات يهودية للاتحاد السوفييتى ، وألقى السفير السوفياتى بهذه المناسبة خطابا رسميا قال فيه : إن هذه الاتفاقية تعد بمثابة اعتراف راسخ من جانب الحكومة السوفياتية بأن إسرائيل كيان سياسى مستقل كل الاستقلال ، وله كل الحق فى وراثة أى ممتلكات أو نفوذ تقليدى لأى طرف أجنبى كان له فى الماضى بعض المزايا فيما يعرف بالأراضى المقدسة ...)[١].

كما قام الاتحاد السوفييتى بتشجيع الصناعة الإسرائيلية وشراء منتجاتها.

فجريدة (لامرحاف) فى عدد ١١ أغسطس ١٩٦٠م تعلمنا بما يلى :

(منحت الحكومة السوفياتية شركة (مسوليل بونيه) الإسرائيلية عقدا سخيا لتقوم هذه الشركة بموجبه ببناء دار ضخمة للسفارة السوفياتية فى (لاجوس) عاصمة نيجيريا ، وتبلغ تكاليف البناء مايزيد على ٨٠٠ ألف دولار سيدفعها السوفيات بالعملة الصعبة) .

وذكر راديو إسرائيل فى إذاعته يوم ١٠ أكتوبر ١٩٦٥م بأن الحكومة السوفياتية قد عقدت اتفاقية تجارية خاصة باستيراد المنسوجات الإسرائيلية والأدوية الطبية المصنوعة فى إسرائيل بمبلغ يزيد على مليون ونصف المليون دولار وسيكون الدفع بالعملة الصعبة أيضا ...)[٢].

وجاء فى عدد ١٠ نوفمبر ١٩٦٤م من جريدة (لامرحاف) (بأنه أصبح من الضرورى الآن أن نشير إلى تزايد التبادل التجارى بين إسرائيل والاتحاد السوفياتى والدول الإشتراكية فى أوروبا الشرقية للدلالة على أن ازدياد النفوذ السوفياتى ورواج الماركسية فى البلاد العربية يفيد إسرائيل أكثر من أى لون آخر من السياسات)[٣].

---

(١) موسكو وإسرائيل (٤٢٦-٤٢٧) .
(٢) المرجع السابق (٤٣٦) .
(٣) المرجع السابق (٤٣١-٤٣٢) .

(وفى ١٥ أكتوبر ١٩٦٥م ذكرت مجلة (جويش كرونيكل) بأن المكتب التجارى فى سفارة السوفيات فى تل أبيب قد بدأ المفاوضات مع السلطات الإسرائيلية لشراء منتجات إسرائيلية صناعية تبلغ أثمانها مليون و٧١ ألف دولار ...)[١].

أما السياحة : فمن المعلوم أن الاتحاد السوفييتى يمنع على رعاياه الخروج من أراضيه ، غير أن اليهود مسموح لهم بذلك وهو أحد الامتيازات التى أعطوها .

فقد جاء فى جريدة(لامرحاف) اليسارية (بأن دفعة جديدة من السياح السوفيات قد وصلت ميناء حيفا وعلى ظهرها ١٢٠٠ شخصا وهذه أول دفعة سياحية سيعقبها دفعات أخرى تزداد شهرا بعد شهر ، فإسرائيل هى من البلدان القلائل التى يأمن الاتحاد السوفييتى على مواطنيه زيارتها والتجول فيها لأن التجربة الإشتراكية فى إسرائيل أمر يستفيد السائح السوفياتى فى الاطلاع عليه وخصوصا فى المزارع الجماعية (كيديويم) وفى منظمات الشباب ونقابات العمال اليهودية (هستدروك) وصرح المندوب السوفياتى السياحى الحكومى الذى يرافق هذا الفوج من السياح السوفيات بأن البرنامج السوفياتى السياحى لمواطنيه يعتبر إسرائيل فى رأس البلدان التى يجب الاطلاع عليها . وأن التجربة الإشتراكية الإسرائيلية ليست أمثولة للبلدان العربية فحسب بل أيضا لدول إشتراكية أخرى أحدث عهدا بالتطبيق الإشتراكى من إسرائيل حسب التطبيق الإشتراكى عريق ودقيق . وقال هذا المتحدث السوفييتى بأن اللغة الروسية واسعة الانتشار والتداول فى إسرائيل مما يسهل على الزوار السوفيات التخاطب مع الشعب الإسرائيلى وكانت أوائل الهجرة اليهودية إلى فلسطين غالبها من العناصر السلافية السوفياتية وهذا أمر نعتز به ونحرص على تعزيزه فى كل النواحى . وقال هذا المتحدث

---

(١) موسكو وإسرائيل (٤٣٦) .

أيضا بأن عدد الزوار اليهود من إسرائيل للاتحاد السوفياتى يفوق عدد الزوار العرب عدة أضعاف ... فالعلاقات بين السوفيات وإسرائيل أقوى وأوسع بكثير مما يحسبه الجهلاء وخصوم الأمتين ...)[١].

وكان السياح السوفييت يقابلون بحفاوة بالغة فى إسرائيل .

كما أن فى إسرائيل والاتحاد السوفياتى بضعة عشر مكتبا وهيئة ومنظمة رسمية وشبه رسمية متفرغة كليا لتعزيز الصلات السوفياتية ـ الإسرائيلية .

كما أن إسرائيل حكومة وشعبا تعلم بأن زيادة النفوذ السوفييتى فى الوسط العربى واعتماد العرب على السوفييت سياسيا وإقتصاديا وعسكريا هو فى المرحلة النهائية ، وفى المرحلة الراهنة يعزز سلامة إسرائيل تعزيزا أكيدا متواصلا[٢].

وقالت جريدة (دافار) تعليقا على هذه الاتفاقيات الجديدة بين موسكو وتل أبيب (عدد ٦ أكتوبر ١٩٦٤م) مايلى :

(إن استعداد الاتحاد السوفياتى لقبول المدفوعات الإسرائيلية فى شكل بضائع ومنتجات إسرائيلية هو فى حد ذاته دلالة عمدية على عودة السوفيات إلى سابق الجهر بمودتهم لإسرائيل . هذه المودة التى بلغت ذروتها يوم احتضنت موسكو القضية الصهيونية فى الأمم المتحدة أكثر من حضانة الأمريكان فى ساعات الحرج الصهيونى يوم ارتدت الولايات المتحدة عن فكرة التقسيم وقالت بإيقاف تنفيذه فى مشروع الوصاية . بينما ظل الاتحاد السوفييتى يناضل حثيثا من أجل صيانة مكاسب حرب التحرير الوطنى اليهودية ضد العدوان العربى ... ولئن اعترى العلاقات السوفياتية ـ الإسرائيلية لون من الصمت بعد حرب سيناء عام ١٩٥٦م واتجه الروس إلى

---

(١) موسكو وإسرائيل (٤٣٢-٤٣٣) .

(٢) كتبت ذلك جريدة (كول هاعام) فى عدد ١٨ أغسطس ١٩٦٥م وذلك قبل زيارة عبد الناصر لموسكو تذكر الإسرائيليين بأن لهم نصيب الأسد من الاتحاد السوفييتى. انظر موسكو وإسرائيل (٤٣٣-٤٣٤) .

تثبيت نفوذهم فى المنطقة العربية وفى قلبها بالذات فى مصر فإن عودة السوفيات إلى التعاون المستمر مع إسرائيل اليوم لدليل على أن موسكو قد وضعت أركان النفوذ فى المنطقة العربية بحيث أصبحت لاتخشى كثيرا عودة السياسة السوفياتية إلى العمل العلنى مع حكومة إسرائيل) .

(ولقد أحسنت موسكو فى أنها قد استبدلت سفيرها فى إسرائيل بسفير جديد بلغ النشاط عنده حدا جميلا لتعريز العلاقات السوفياتية ـ الإسرائيلية مع هذا السفير هو الرفيق (ميخائيل بودرف) صاحب الفضل فى الاتفاقية الجديدة)[١].

وقد كانت هذه الاتفاقيات فى تفاصيلها سرية بناء على رغبة الاتحاد السوفييتى وهذا يدل على أنه كان يرغب فىكسب ود العرب وبالفعل استطاع الوصول إلى ذلك .

فقد (نشرت جريدة (جروزاليم بوست) فى نفس الوقت تعليقا أدلت به (جولدا مائير) بشأن هذه الاتفاقية فقالت :

(الواقع أننا عقدنا ثلاث اتفاقيات مع الاتحاد السوفييتى خلال بضعة الأيام الماضية . وأنا لاأحب أن أدخل فى التفاصيل حرصا على رغبة الاتحاد السوفييتى فى أن لانذيع التفاصيل ... ولكنى أحب أن أؤكد للشعب الإسرائيلى بأن إسرائيل فى أمن وسلام على الأقل من جانب السياسة السوفياتية فى المنطقة العربية)[٢].

وقالت جريدة (الهامشمار) لسان حزب المابای الإشتراكى أكبر وأهم الأحزاب السياسية فى إسرائيل (عدد ٧ أكتوبر ١٩٦٤م) مايلى :

(هذه الاتفاقيات الجديدة مع الاتحاد السوفييتى تتجاوز المألوف فى العلاقات التجارية ولها معان بليغة ...)[٣].

---

(١) موسكو وإسرائيل (٤٢٧-٤٢٨) .
(٢) المرجع السابق (٤٢٧) .
(٣) المرجع السابق (٤٢٨) .

وقالت جريدة (أومير) لسان حال نقابات العمال الإسرائيلية (الهستدروت) فى عدد ٨ أكتوبر ١٩٦٤م مايلى :

(سواء اطلع العرب أم لم يطلعوا على هذا التعاون الوثيق بين الاتحاد السوفياتى وإسرائيل ، فإن الحقيقة التى تؤكدها هذه الاتفاقيات الجديدة هى أن حكومة السوفيات ترفض رفضا كليا أن تنساق مع الموقف العربى فى المقاطعة الإقتصادية لإسرائيل ...)[١].

خامسا : المساعدات النفطية والقروض المالية التى كانت تحصل عليها إسرائيل من قبل الدول الشيوعية وإن كانت الأقوال متضاربة فى كيفية حصول إسرائيل على النفط . فهناك قول يرى : أن إيران تمون إسرائيل بالنفط .

والقول الثانى : أنها تحصل على النفط من أمارات الخليج العربى .

والثالث : أن الشركات الأمريكية والبريطانية وحدها هى التى تمول إسرائيل بالبترول .

يقول د. الشرقاوى : (إن إسرائيل بعد أن انقطع عنها ـ فى سنة ١٩٤٨م ـ البترول العراق الذى كان يمر فى أنابيب تمتد من الكركوك إلى حيفا استعانت ببترول رومانيا الغنية بحقول النفط ، وهى تعتبر صديقة لإسرائيل التى تربطها بها علاقات قوية ، واتفاقات إقتصادية ، وتجارية ، وثقافية ، وفنية ، وبموافقة موسكو استمرت رومانيا فى المرحلة الأولى تمون صديقتها بالبترول .

وفى عام ١٩٥٥م منح الاتحاد السوفييتى إسرائيل قرضا قدره ٥٠ مليون دولار لشراء ماتحتاجه من البترول الروسى ومشتقاته ، وكان أول قرض من نوعه تمنحه موسكو لدولة أجنبية دولة الصهاينة .

وفى عام ١٩٦١م حصلت إسرائيل على صفقات ضخمة من البترول للتخزين بواسطة شركة إينى الإيطالية المؤسسة الوحيدة فى أوروبا الغربية

---

(١) موسكو وإسرائيل (٤٢٩) .

التى تستورد البترول السوفييتى وتبيعه فى إيطاليا وبعض الأقطار الإفريقية)[١].

ويظهر لنا جليا أن إسرائيل إنما تمون بالنفط عن طريق الاتحاد السوفييتى أو إحدى الدول الإشتراكية ، ويتم ذلك إما بطريق مباشر أو غير مباشر مما يدل على أن إقتصاد إسرائيل مدعوم من قبل الدول الشيوعية التى كان لليهود الدور الأكبر فى إنشائها على أرض روسيا القيصرية فأخذوا يستثمرون ذلك الجهد الذى بذلوه فى السابق .

سادسا : مواقف الاتحاد السوفييتى فى الهيئات الدولية من إسرائيل ، ودفاعه عنها بكل قوة ، وتبنيه القرارات لصالحها ، مما يدل على رعاية الدولة الشيوعية للمصالح الإسرائيلية وذلك منذ صدور وعد بلفور[٢] الذى يقضى بإعطاء فلسطين وطن قومى لليهود .

ولو تتبعنا مواقف مندوب الاتحاد السوفييتى فى الأمم المتحدة الدالة على دفاعه عن إسرائيل ومطالبته بما فيه مصلحتها لطال بنا المقام ولكن نأخذ بعض المواقف والأقوال الدالة على تبنى الاتحاد السوفييتى الدفاع عن دولة إسرائيل فى الاجتماعات التى عقدت بين ردهات الأمم المتحدة (تلك المنظمة اليهودية) ، ومما دفعنا لذلك أيضا أن كثيرا من المسلمين يجهلون حقيقة مواقف الاتحاد السوفييتى تجاه القضايا الإسلامية عامة ، وقضية فلسطين خاصة.

يقول د. الشرقاوى : (هنالك ٩٩ بالمئة من الشعوب العربية تجهل حقيقة موقف الاتحاد السوفييتى وكتلته الشيوعية من قضية فلسطين فى هيئة

---

(١) دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٦٦) .
ورجع الدكتور لتقرير مكتب الدراسات الإقتصادية روما (١٩٤٩) ، وتقرير المؤسسة العامة للتجارة الخارجية بروكسل (١٩٥٥) ، وتقرير مكتب البحوث الإقتصادية باريس (١٩٦٣) .

(٢) وزير خارجية بريطانيا حينذاك .

الأمم المتحدة ووراء كواليس الهيئة الدولية وخارجها البعيد عن أنظار ساسة العرب . وبكل صراحة أقول وأؤكد ماأقوله إعتمادا على ملفات هيئة الأمم المتحدة وسجلاتها . إن موقف موسكو منذ أن عرضت قضية فلسطين على المنظمة الدولية فى عام ١٩٤٧م حتى قيام إسرائيل وبعد قيامها كان لصالح اليهود)[١].

وإذا كنا نعلم بأن فلسطين كانت واقعة تحت الانتداب البريطانى ، وأن العرب طالبوا بانهائه وإعلان الاستقلال ، فإن الاتحاد السوفييتى ممثلا فى مندوبه لدى الأمم المتحدة لم يرض عن هذا الطلب[٢]. وقال : (هنالك شعب يهودى فى فلسطين يجب مراعاة شعوره وإسماع صوته فى هيئة الأمم التى لايستطيع أحد أن يرغمها على اتخاذ قرار يؤيد مطلب العرب المتمثل بإعلان استقلال الشعب الفلسطينى)[٣].

وتوالت الأقوال والتصريحات من مندوبى الدول الإشتراكية فى الدفاع عن الحقوق اليهودية المزعومة فى فلسطين ، فقال التشيكى سلوفاكى جان بابانك : (إن مطالب الشعب اليهودى هى حق وعدل واليهود ابتدأوا بتعمير فلسطين قبل الانتداب البريطانى عليها بزمن طويل وحقهم فى فلسطين تاريخى وشرعى)[٤].

---

(١) دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٤٢-٤٣) .

(٢) وكذلك المندوب البولندى وذكر أن هذا الطلب يتجاهل الحاجة الملحة لمعرفة رأى من هم أبرز وأهم طرف فى المسألة الفلسطينية وهم اليهود .
انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠٥) .

(٣) دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٤٤) ، وانظر : اليهود فى المعسكر الشرقى (٤٨) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠٥) ، تجربة عربى فى الحزب الشيوعى (١٤٢) ، موسكو وإسرائيل (٦١-٦٢) ، وأضاف قول مندوب تشيكوسلوفاكيا وجاء فيه (إن الدول العربية تسألنا أن نجد للمشكلة حلولا نحن على استعداد لأن نسمع منهم ولكنا لسنا على استعداد للموافقة على مايشاؤون) .

(٤) دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٤٦) ، وانظر موسكو وإسرائيل (٧٨).

وقال : (لقد استمعت إلى أقوال المندوبين العرب الذين يطالبون بالحق العربى لإعلان دولة مستقلة فى فلسطين ، فصلة اليهود بفلسطين أقدم من عهد الانتداب البريطانى فقد باشرت الحركة الصهيونية فى تعمير فلسطين منذ عام ١٩٠٨م وتنميتها تنمية حديثة فقد أنشأت الحركة الصهيونية فى ذلك العام "مكتب فلسطين" الذى أصبح فيما بعد يعرف باسم "الوكالة اليهودية" ولذلك فللشعب اليهودى حق فى المسألة الفلسطينية)[١].

وقال مندوب بولندا : (إن قصدنا الوحيد هو التعبير عن أعمق مشارعنا نحو مآسى اليهود . فاليهود فى حاجة إلى كل ألوان العطف والعون ... وعلينا أن نستذكر بأنه ليس هناك خلاف بين العرب واليهود وكل مافى الأمر أن السلام والتعايش السلمى سيجعل من الطرفين أخوة حين يزول الاستعمار والرجعية العربية)[٢].

وقال المندوب البولندى : (إن تقرير قضية فلسطين لايمكن أن يبحث بدون منح الوكالة اليهودية حق المشاركة فى أعمال الجمعية العمومية والحكومة البولندية تحيط مصالح الشعب اليهودى ومصيره العناية ...)[٣].

ويؤكد ذلك غروميكو زاعما حق الشعب اليهودى فى أرض فلسطين وتاريخهم وحضارتهم فيها فيقول : (إن الشعب اليهودى خلق ليعيش أسوة بالشعوب التى تكافح لتعيش حرة ، لقد أصاب اليهود نكبات وتشريد واضطهاد وعلى هيئة الأمم أن تحقق لهم رغباتهم المتمثلة فى الاعتراف بحقوقهم فى فلسطين التى لهم فيها حضارة تاريخية عميقة الجذور وعلى لجنة التحقيق الدولية أن تأخذ بعين الاعتبار الحق المكتسب والحق التاريخى للشعب اليهودى فى فلسطين)[٤].

---

(١) موسكو وإسرائيل (٧٦) .
(٢) المرجع السابق (٧٨) . وانظر (٧٩) قول لمندوب تشيكوسلوفاكيا .
(٣) المرجع السابق (١٢٩) .
(٤) دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٤٦) .

وقال المندوب السوفييتى "سيمون تسارابكين" فى جلسة ٣ أكتوبر ١٩٤٧م فى الأمم المتحدة : (إن الاتحاد السوفييتى يدعو ويؤيد ويعمل من أجل إقامة الدولة اليهودية وضمانتها . وفى فترة الانتقال فإن الاتحاد السوفييتى يلح على الأمم المتحدة بأن تتحمل مسؤولية ضمان الدولة الجديدة والاتحاد السوفييتى سيساعد على ذلك بكل الوسائل)[١].

إلى غير ذلك من الأقوال والمواقف التى صدرت من مندوبى الاتحاد السوفييتى والدول الإشتراكية التى لم تخل من الإلحاح على تأييد إسرائيل فى إقامة دولة لها فى أرض فلسطين ونادوا بأحقية اليهود بهذه الأرض وعارضوا كل الأقوال التى طرحت وكان فيها جزء لايكاد يذكر من الحفاظ على أبسط حقوق الشعب الفلسطينى فى أرض الإسراء[٢].

واحتلت القضية الفلسطينية القسط الأكبر من أعمال هيئة الأمم المتحدة طوال عامين من ١٩٤٧-١٩٤٩م ، وكان الاتحاد السوفييتى والدول الإشتراكية حينها الأبرز نشاطا ودعما وتأييدا لإسرائيل . ومن الخطوات التى قدمها الاتحاد السوفييتى من أجل تثبيت إسرائيل طرح فكرة التقسيم من قبل غروميكو وهو أول مندوب لدى هيئة الأمم المتحدة تكلم عن التقسيم من على منبرها[٣].

و(عندما جرى التصويت على قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧م كان من بين الدول التى أيدت المشروع روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء وهى من جمهوريات الاتحاد السوفييتى التى لها ممثلون فى الأمم المتحدة ، كما أيد المشروع دول الكتلة الشرقية الممثلة فى الأمم المتحدة فى ذلك الحين وهى

---

(١) ملخص محاضر جلسات اللجنة السياسية (٦٩-٧٠) نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠٩) .

(٢) انظر مزيدا من هذه الأقوال كتاب موسكو وإسرائيل على سبيل المثال (٧٦،٧٧، ١٢٦،١٢٨،١٣٠،١٣٢،١٣٤-١٣٥،١٦٢،١٦٤) .

(٣) انظر : اليهود فى المعسكر الشرقى (٤٩) ، حقيقة المواقف الشيوعية من القضية الفلسطينية (٣٨) .

بولنـدا وتشيكـوسلوفاكيا ، ولم يتـوقف تأييـد الاتحاد السـوفييتى للعـدوان الصهيـونى على الدول العربيـة عند حد التصويت بل تجاوزه إلى مـاهو أهـم فكان أساس نجاح قيام إسرائيل ...)[١].

قرار تقسيم فلسطين :

إن هـذا القرار يحمل مفارقـات غريبة : منها الدعـوة إلى الإقـرار ولو بجزء مـن أرض فلسطين لليهود رسميـا ، ومنها رفض الـولايات المتحدة لقرار التقسيم (الحاضنـة الأولى لإسـرائيل) . فلأول مـرة جهـر المنـدوب الأمريكى المستر أوستن بأن قـرار التقسيم خاطـىء ، وألقى خطابين مطـولين عبر فيهمـا عن رأى الحكومة الأمريكيـة وطالب بوضع فلسطين تحت الـوصاية الدولية ، شريطة الإبقاء على وحدة البلد الفلسطينى[٢].

وهل كان هذا الموقف من الولايات المتحدة سيرضى الاتحاد السوفييتى؟ الإجابة عنـد غروميكو حيث قال : (لقد تدخل مندوب الـولايات المتحدة فى أول لحظـة عقدها مجلس الأمـن (للنظر فى الطوارىء العـربية) فـاقترح إعادة النظـر فى الجمعية العامة الـداعى إلى التقسيم ، واقترح العـدول عنـه وإيجاد حلول أخرى ، إنى أؤكد وألح على أنه ليس من حق مجلس الأمن أن يبدل من قرار الجمعية العامة ، فقرار التقسيم يجب أن يظل ، ولايمكن استبداله أو إهماله أو العدول عنه)[٣].

وقـال : (إننـا نلقـى تبعيـة المسئولية كلهـا على الـولايات المتحـدة الأمريكية فى أى عرقلة لمشروع التقسيم .

إن الـولايات المتحـدة الأمـريكية قـد غيرت مـوقفهـا بدافـع المصـالح البترولية وبسبب الأهمية الإستراتيجية التى للشرق الأوسـط . إن على أعضاء

---

(١) النـار والجليـد (٢٩٧) ، وانظر حقيقـة المواقـف الشيوعية من القضيـة الفلسطينيـة (٣٨) ومابعدها .

(٢) انظر دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٥٠) .

(٣) مـوسكو وإسـرائيل (١٥٢) ، وانظـر : تجربة عـربى فى الحزب الشيـوعى (١٤٦) ، السوفييت وقضية فلسطين (١٢-١٣) .

مجلس الأمن جميعهم أن يدركوا بأن هذا التطور الجديد الذى تقوم به الولايات المتحدة فى مصلحة العرب مرجعه البترول والإستراتيجية)[١].

وقال : (إن رجوع حكومة الولايات المتحدة عن موقفها المؤيد لقرار التقسيم قد خلق وضعا جديدا للقضية الفلسطينية مما يستوجب على الوفد السوفييتى استنكاره أشد الاستنكار فموقف السوفييت نحو التقسيم هو موقف المؤيد المناصر له والعازم على تنفيذه ، إن الولايات المتحدة فى موقفها الجديد لاتكتفى بمعارضة مشروع التقسيم فحسب بل تريد الإبقاء على وحدة فلسطين ، وترفض إرغام المعارضين (العرب) على قبول أى حل آخر . إن أمريكا بموقفها هذا إنما تعارض إرادة الأمم المتحدة التى أقرت التقسيم وأقرت معونة اليهود على خلق وطن قومى لهم فى ديارهم بفلسطين . إن المندوب الأمريكى يصر على أن مشروع التقسيم غير منصف للعرب وغير قابل للتنفيذ هذا المنطق الأمريكى هراء طبخوه قبل أسبوعين أو ثلاثة لترضية العرب . إن الموقف الأمريكى الجديد مخالف للحقائق ومخالف للإنصاف ، ومن المنصف أن تؤيده دول أخرى فى هذا المجلس . إن الذين يدعون بأن مشروع التقسيم غير قابل للتنفيذ مخطئون ، ففى استطاعتنا تنفيذه والتغلب على معارضيه (العرب) إننا سنلجأ إلى مختلف الوسائل فى سبيل تلك الغاية ، والرأى العام العالمى سيجد نفسه مؤيدا لوجهة نظرنا وحرصنا على معونة الشعب اليهودى . إننا سنكافح الوصاية الدولية على فلسطين إذا كان القصد منها عرقلة تقسيم فلسطين وترك العصابات العربية العسكرية تفسد حق الشعب اليهودى فى وطنه واستقلاله)[٢]. وكان هذا حال الدول الإشتراكية أيضا فى موقفها من قرار التقسيم وتأييدها له[٣].

---

(١) تجربة عربى فى الحزب الشيوعى (١٤٦) ، موسكو وإسرائيل (١٥٢-١٥٣) ، دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٥٠) .

(٢) تجربة عربى فى الحزب الشيوعى (١٤٦-١٤٧) ، موسكو وإسرائيل (١٦١-١٦٢) .

(٣) انظر : دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٤٧) ، موسكو وإسرائيل (١٢٩) .

وقد أفاض غروميكو كثيرا فى الدفاع عن حقوق اليهود فى فلسطين ورفضه التأخر فى إعطاء اليهود أرضا لهم ، ورفض الاتحاد السوفييتى كثيرا من الحلول التى وضعت لإزالة الإشكال القائم فى منطقة الشرق الأوسط وإن كانت فى الأصل تصب فى معين واحد ، العداء للمسلمين ، ونشر الأفكار الإلحادية الإباحية ، وخدمة الأهداف اليهودية ، وقد تراعى أحيانا ردود الأفعال العربية والإسلامية فتخفف من حدتها . وطالب غروميكو بحق المشاركة لليهود فى فلسطين فقال : (إن قضية فلسطين بحد ذاتها فى طابعها التاريخى تحتم منح اليهود حق المشاركة فى معالجة هذه القضية التى تعتبر قضية الشعب اليهودى)[١].

كما اعترف غروميكو بأهمية هذه القضية لليهود والاتحاد السوفييتى على حد سواء فقال : (إن قضية فلسطين تهم اليهود ... ولاتهمهم فحسب بل تزعجهم وتزعجنا نحن السوفييت أيضا كلما علت شوشرة العرب)[٢].

وقال فى خطاب آخر بتاريخ ١٩٤٧/٥/١٤م : (نحن هنا نسأل الأمم المتحدة باسم الشعب اليهودى المشرد بأن تراعى آماله ، فتقر له وطنا وحقوقا ، وأنه لمن المنكر أن تمنع عن الأمة اليهودية الحق)[٣].

فكان الاتحاد السوفييتى ينظر على أن حق اليهود فى فلسطين أمر لايمكن التراجع فيه .

ومن المفارقات التى حدثت بشأن قضية فلسطين موقف بريطانيا حيث قال مندوب بريطانيا لدى الأمم المتحدة الكسندر كادوغان : (إن الحل السليم هو الذى ترضاه الفئتان العرب واليهود لافئة واحدة وعلى هيئة الأمم أن تجد الحل المقبول وتؤكد الحكومة البريطانية بأنها لن تستخدم قواتها العسكرية لمساعدة هيئة الأمم فى عملية قرار التقسيم) .

---

(١) دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٤٤) .
(٢) موسكو وإسرائيل (٧٩) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠٧) .
(٣) نقلا من كتاب اليهود فى المعسكر الشرقى (٦٠) ، وانظر السوفييت وقضية فلسطين (١١-١٢) .

وهنا يهاجمه المندوب السوفييتى ويؤكد ماقلناه سابقا من أن الشيوعية ماوجدت إلا لتحقيق أطماع اليهود فى إيجاد الوطن القومى لهم بأرض فلسطين . فقال مندوب السوفيتت (سيمون تسارابكين) : (إن موقف بريطانيا يعقد الأمور ويعيق تنفيذ قرار هيئة الأمم ، وإذا كانت بريطانيا عاجزة عن المساعدة فنحن غير عاجزين عن تنفيذ قرار التقسيم ومستعدون لتنفيذه)[١].

وهكذا نافح الاتحاد السوفييتى عن اليهود بداية بالامتيازات التى منحتها الثورة البلشفية لهم ، ثم التنازلات لهم بالهجرة إلى فلسطين ، إلى تبنى الدفاع عن قيامها واستحقاقها لأرض فلسطين ، إلى أن أصبحت إسرائيل دولة يرعاها الاتحاد السوفييتى واليهود عامة .

سابعا : إن المؤتمرات التى عقدت من قبل الأحزاب الشيوعية لم يوجد فيها مايدل على شجب أفعال اليهود أو تصرفاتهم ضد المسلمين العرب ، أو المطالبة بالحفاظ على حقوق الشعب الفلسطينى[٢]. بل إن السوفييت عملوا على إيجاد الدولة اليهودية ، وسعوا فى تحقيق ماتريد . يقول غروميكو : (إن الاتحاد السوفييتى قد ثبت منذ البدء فى الإصرار على خلق الدولة اليهودية وتأييدها والاعتراف الكامل بها وحمل الأمم المتحدة على تنفيذ ذلك وجعل الدولة اليهودية حقيقة ثابتة ...)[٣]. ولم تكن الدولة الشيوعية الأم هى الوحيدة التى عملت لمصلحة إسرائيل ، بل إن الدول الإشتراكية سواء منها العربية أو الأجنبية كانت تحذو حذو موسكو فى موقفها من إسرائيل دعما وتأييدا[٤].

---

(١) دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٤٨) ، موسكو وإسرائيل (١٣١) . ولمزيد عن هذه الأحداث والمواقف داخل الأمم المتحدة وكثير من القرارات التى اتخذت بشأن فلسطين انظر كتاب موسكو وإسرائيل على سبيل المثال (٩٥-٩٧، ١٠٥، ١١١-١١٢، ١١٤-١١٦) .

(٢) انظر إسرائيل إلى أين (٧٣) .

(٣) موسكو وإسرائيل (٢٢٤) .

(٤) انظر : الإشتراكية فى التجارب العربية (١٦٥-١٦٦) ، طائفة من المفكرين ، الطبعة الأولى ١٩٦٥م ، دار الكتاب الجديد ، حقيقة المواقف الشيوعية من القضية الفلسطينية (١٠) ، الكيد الأحمر (١٤١) .

ومما يدل على إقرار السوفييت للوجود الإسرائيلى وأحقيته ، وموقف السوفييت من طلب اليهود حق العضوية فى الأمم المتحدة ، واعتبر السوفييت أن وجود إسرائيل عنصر خير وسلام وأمثولة للجماهير العربية التى تطمح فى التخلص من الاستعمار والرجعية . ورغم محاولات بعض الوفود العربية تأجيل قبول إسرائيل فى الأمم المتحدة إلا أنها ذهبت أدراج الرياح ، وأصبحت إسرائيل عضوا فى الأمم المتحدة فى يوم ٣ مارس ١٩٤٩م[١]. ولولا موقف اليهود وقوتهم لما تم قبولها ، وكان للاتحاد السوفييتى دور كبير فى ذلك .

وقد تنبه بعض العرب لتلك المواقف منه[٢]، ولكن ذلك لم يقدم للقضية أى شىء جديد .

ثامنا : اعتراف إسرائيل بالأنظمة الإشتراكية وتأييدها لها ، وامتداح الاتحاد السوفييتى وأنظمته ، وربما يظهر ذلك أو بعضه فى الآتى :

(أ) لم تدخل إسرائيل فى أى حلف عسكرى أو سياسى غربى يعادى دول الكتلة الشرقية بزعامة موسكو .

(ب) اعتراف إسرائيل بالنظام الشيوعى فى الصين رغم معارضة أمريكا ولكن تلك رغبة الاتحاد السوفييتى .

(ج) اعتراف إسرائيل بالتخطيط لحدود بولنده الذى يفقد ألمانيا المقاطعات الشرقية وتصبح بولندية .

---

(١) انظر : إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢١٨) ، دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٤٣) .

(٢) انظر الكيد الأحمر (١٤١-١٤٢) وذكر قول المندوب السورى فارس الخورى وفيه : (إن موقف الاتحاد السوفييتى من تطور القضية الفلسطينية شىء مخيف ، فموسكو لاتريد العدل والإنصاف ولاالسلام ولامبادىء الأمم المتحدة ، إن كل ماتريده هو زرع استعمار جديد فى القلب من العالم العربى ، فإذا كان هذا هو حال السياسة السوفيتية هنا فلالوم علينا ولاتثريب إذا نحن كفرنا بكل شىء بالغرب والشرق معا) .

(د) تؤيد إسرائيل سياسة موسكو بشأن قضية برلين ومعارضة فكرة وحدة الشعب الألمانى[١].

(هـ) اشتراك الأحزاب اليسارية والنقابات العمالية الإسرائيلية فى كل المؤتمرات التى تعقد فى موسكو وبراغ وصوفيا وبلغراد وبودابست ووارسو تحت شعار التعايش السلمى ومكافحة الاستعمار والرجعية[٢].

تاسعا : أن الزعما الإسرائيليين فى الأعم الأغلب تعود أصولهم إلى الدول الإشتراكية إما من الاتحاد السوفييتى ، أو دول أوروبا الشرقية ، مما جعلهم على علاقة وطيدة بتلك الدول وتربطهم بها روابط غير رابطة المصلحة . يقول كيربيشنكو : (إن جميع الإسرائيليين من الجيل الأقدم وصلوا إلى فلسطين ولديهم معرفة جيدة عن روسيا جاءوا إلى فلسطين لإقامة دولة إشتراكية كدولتنا ...)[٣].

ويقول إسحاق دوشتير : (لقد ولدت إسرائيل بدعم رئيسى من يهود أوروبا الشرقية وخصوصا روسيا وبولندا وليتوانيا ومن أوساط هؤلاء تحدر جميع قادة الصهيونية وخطبائها وسياسييها وأقطابها ، وعندما ظهرت دولة

---

(١) سيأتى الحديث معنا عن قضية برلين تفصيلا فى فصل الحرب الباردة إن شاء الله تعالى .

(٢) انظر دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٦٦-٦٧) .

(٣) النار والجليد (٢٧٤) .
وعن أصول بعض الزعماء الإسرائيليين نجد (أن تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية ولد فى بودابست ، وناحوم غولدمان الأديب اليهودى العالمى ولد فى روسيا . وديفيد بن غوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل ولد فى بلدة بنسك على الحدود البولندية الروسية . وأما غولدا مائير رئيسة الوزراء الإسرائيلية السابقة وموشى شاريت فقد ولدا فى روسيا . وشمعون بيريز بولندى ويقال روسى . وكذا مناحم بيغن رئيس الوزراء السابق ولد فى مدينة برست ليتوفسك البولونية).
إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (١٣٤) .
ومن هنا فلانستغرب الدعم الكبير الذى تتلقاه إسرائيل من الدول الإشتراكية الشرقية .

إسرائيل على مسرح الوجود الدولى فى عام ١٩٤٧م كانت العلاقة بإسرائيل وطيدة ، ويدل على هذا وضع العلماء تحت تصرف إسرائيل ...)[١].

ومن هنا فلاغرابة أن تستخدم اللغة الروسية فى اجتماعات مجلس الوزراء الإسرائيلى[٢]، كما أنه لاغرابة أن يكون قادة الدول الإشتراكية على مصالحة دائمة مع إسرائيل[٣]. إن كون هؤلاء الزعماء يأتون على قيادة إسرائيل لايمكن أن يكون كله مصادفة ، وإن حصل لبعضهم فلايمكن قبوله فى مجموعهم ، مما يدل على العلاقة الوثيقة بين قيام الثورة البلشفية والصهيونية .

عاشرا : أن الأموال اليهودية التى غذت الثورة البلشفية وقامت بدعمها ، هى الأموال التى عملت على توطيد اليهود والصهاينة فى فلسطين ، فأسرة روتشيلد التى دعمت الثورة البلشفية قامت بدعم إسرائيل ، فقصر برلمان تل أبيب (هدية من هذه الأسرة)[٤]. كما قام روتشيلد فى إحدى المرات بتبرع سخى لإسرائيل قوامه نصف مليار دولار[٥]. ومن هنا فإن القائمين على الثورة البلشفية هم أولئك القائمون على دعم دولة إسرائيل مما يدل على أن الشيوعية فكرة يهودية وظفت لها الأموال اليهودية ، وكذلك الصهيونية التى دعمها اليهود .

فالدعم كان متبادلا حيث عمل (خبراء اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية لصالح الاتحاد السوفييتى الذى حصل بعد أن مهدوا له الطريق وأفسحوا له المجال على معونات ضخمة من واشنطن بلغ مجموعها مليار دولار نقدا وثلاث مليارات مواد غذائية وطبية وكيماوية وآلات زراعية وموتورات ...الخ . وكانت هنالك خطة صهيونية قوامها تمويل الاتحاد

---

(١) إسرائيل إلى أين (٧٤) .
(٢) انظر النار والجليد (٢٧٤) .
(٣) انظر إسرائيل إلى أين (٥٥) .
(٤) عاجلا أو آجلا ستزول إسرائيل (٦٤) .
(٥) المرجع السابق (١٨٩) .

السوفييتى من خزينة الحكومة الأمريكية والمؤسسات المالية والشركات لإنشاء صناعات عصرية ضخمة .. واكتشفت واشنطن أسرار الخطة وخطرها التى كانت تهدف من ورائها الحركة الصهيونية كسب ثقة موسكو ودعمها لتنفيذ مخططها الكامل فى فلسطين)[١].

الحادى عشر : أن بقاء إسرائيل وسيطرتها فى منطقة الشرق الأوسط يحقق أهدافا كبيرة لليهود بعموم سواء فى الولايات المتحدة أم الاتحاد السوفييتى .

وقد حرص السوفييت على بقاء إسرائيل لأمور كثيرة منها :

(أ) أن إسرائيل قامت على أساس إشتراكى وأكثر سكانها من البلدان الإشتراكية فقرابة ١,٥٦٠,٠٠٠ من الاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشرقية ، ليقوموا بنشر الفكر الإشتراكى حيث تعتبر إسرائيل النموذج الأول فى الشرق الأوسط للإشتراكية العلمية .

(ب) أن وجود إسرائيل يرغم العرب الذين يرفضون الإشتراكية ، على الاستمرار فى التعاون مع الكتلة الشرقية وربط أسواقهم التجارية فيها بها[٢]. إذ أن (موسكو تأمل وتعتقد - ولها مايؤكد ذلك الإعتقاد - بأن بقاء إسرائيل فى قلب العالم العربى سيعطى للسوفييت قاعدة تستعملها موسكو يوما ، إذا أفلت من يد السوفييت زمام السيادة والحضانة لحركات اليسار العربى ونظمه فى وسط عربى إسلامى رفض فى كل تاريخه الطويل - عاجلا أم آجلا - أن يهضم أو يرضى أو يقتنع بأى بيعة أو عقيدة غير بيعة العروبة والعقيدة الدينية السماوية)[٣].

---

(١) نقلا من كتاب دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٣٩) .

(٢) انظر : دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٦٠-٦١) ، الكيد الأحمر (١٤٣) ، الحقيقة الكاملة (٩٣) .

(٣) موسكو وإسرائيل (٤٠٣-٤٠٤) .

فالانحسار لليسار أصبح واضحا على مستوى الدول العربية (فإسرائيل إذا (احتياطى) للسوفييت يحتفظون بها ليوم الحاجة)[١].

ولأجل ذلك فالاتحاد السوفييتى يحتضن إسرائيل ويؤيد الإشتراكية العربية ويهدف من ذلك إلى نقطة إلتقاء بين اليهود والعرب هى الإشتراكية الثورية[٢].

ومن هنا فهم يرون أنه لابد أن تكون النظرة لقضية فلسطين من خلال معرفة مالدى إسرائيل .

وقد وجه سؤال لخروشوف (ماهى الطريقة التى يراها السوفييت لإعادة فلسطين لأصحابها الشرعيين؟)

أجاب (إن الحل يقوله لك رئيس الحزب الشيوعى فى بلدك العربى فليجمعك برئيس الحزب الإسرائيلى وتفاهما)[٣].

وهكذا تلتقى مصالح اليهود والإشتراكيين ، بل إن مصالحهم واحدة لأنهم يهدفون لشىء واحد . ونرى كذلك أنهم يرغبون فى المحافظة على الود بين الأحزاب الإشتراكية العربية ودولة إسرائيل .

(ج) إن وجود إسرائيل يشكل طمأنينة للقوى الكبرى .

يقول العقاد : (إن "حيلة الساعة" لاتعطى المستعمرين طمأنينة إلى الشرقين الأوسط والأدنى يستقرون عليها . فغاية مافى حيلة الساعة أن تعطيهم طمأنينة ساعة ، وكأنهم بحثوا عن حيلة طويلة الأجل تسعفهم عند الحاجة بطمأنينة مثلها فلم يجدوا أنفع لهم من دولة يصنعونها بأيديهم ، ولايزالون على ثقة من حاجتها إليهم فهم يعطونها قرارها وهى تعطيهم مايفتقرون إليه من قرار وكانت دويلة إسرائيل ...)[٤].

---

(١) موسكو وإسرائيل (٤٠٤) .

(٢) انظر الحقيقة الكاملة عن سقوط الثورات الإشتراكية (٩٣) .

(٣) المرجع السابق (٩٠) .

(٤) لاشيوعية ولااستعمار (١٣٢-١٣٣) ، دار الهلال دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها.

(د) إن وجود إسرائيل يحقق المصالح الأيديولوجية للشرق والغرب معا .

فـ(نجد المصالح السوفيتية الأيديولوجية والمصالح الأمريكية الحضارية تلتقى معا فى الشرق الأوسط على محاربة الإسلام واقتلاعه من جذوره فيما نجد الاختلاف الأمريكى السوفييتى فى المنطقة ينصب على الناحية الاستراتيجية فقط ... وقد استطاعت الحركة الصهيونية أن تقنع الغرب الرأسمالى والشرق الإشتراكى (الشيوعى) أن إسرائيل تقوم بعبء محاربة الإسلام لمصلحتهما المشتركة ، كما رتبت إسرائيل أمورها بحيث أصبحت تبدو مناسبة للمصلحة الاستراتيجية لكل من الشرق والغرب . يتبين لنا إذن أن إلتقاء الشرق والغرب حول ضرورة استمرار الوجود الإسرائيلى وحمايته يعود إلى عدة أسباب أيديولوجية ذات هدف نهائى واحد هو القضاء على الإسلام فى الشرق الأوسط ، بعد أن تمكن الاستعمار الشرقى والغربى من تعطيل الإسلام فى مناطقه الأخرى ، فهى تهدف إلى ضرب الإسلام والمسلمين والقضاء على أية قوة قد تظهر فى المستقبل ، فأوجدوا إسرائيل لضرب المسلمين بها حتى لاتقوم لهم قائمة ، وحتى تصبح بلاد العرب والمسلمين نهبا مشاعا بين الشرق الشيوعى والغرب الرأسمالى[١].

ويشغلون أهلها (عن التفكير بما يضمن لهم العودة إلى ماكانوا عليه قرونا طويلة حيث أسدوا إلى الحضارة الإنسانية الأمجاد والمفاخر فيعيدوا سيرتهم الأولى فى قيادة العالم سياسيا وفكريا . ووقفت قوى الاستعمار عليها فى العالم مؤيدة وجود إسرائيل . بريطانيا ، الولايات المتحدة ، فرنسا مع بلدان المعسكر الشرقى ...)[٢].

إن أطماع إسرائيل واليهود لن تقف عند حد ، والصهيونية لاتخفى حقدها وأطماعها حتى فى أرض الحرمين الشريفين[٣].

---

(١) انظر المخطط السوفييتى لهزيمة حزيران (٤٣) .

(٢) الحقيقة الكاملة (٨٣) ، وانظر (٨٨) .

(٣) انظر المخطط السوفييتى لهزيمة حزيران (٤٨-٤٩) .

ونختم هذه الفقرة ببعض ماجاء عن السفير الروسى فى إسرائيل (ديمترى شوفاخين) سنة ١٩٦٦م فى المؤتمر اليهودى العالمى حيث قال : (إننى أناشدكم هنا فى إسرائيل وفى الوسط اليهودى فى كل مكان أن تؤيدوا بكل قلوبكم سياسة الاتحاد السوفييتى فى الشرق العربى لأنها سياسة فيها كل النفع وكل الخير لإسرائيل ولليهودية العالمية .

إننا نحارب الحلف الإسلامى ، ونجند لذلك كل الأصوات العربية الإشتراكية القومية لمكافحته ، فانهزام العصبية العربية الدينية والقومية مفيد جليل الفائدة لإسرائيل ولأنصارها من اليهود فى كل مكان ، وفى الاتحاد السوفييتى بصفة استثنائية .

إننا نحن السوفييت قد بذلنا أعظم الجهد لضمان الاتجاه العربى نحو الإشتراكية التقدمية ، وهذا الإتجاه هو العامل الأساسى الوحيد الذى سيصون إسرائيل .. وسوف لن نسمح للنعرات العربية الأخرى أن تستيقظ بنفسها أو بمعونة الاستعمار لكى تحطم مابنيناه ومازرعناه من قواعد إشتراكية قومية فى المنطقة العربية ، فهناك تجانس واتفاق كلى فى المصلحة السوفيتية وفى مصلحة إسرائيل ...)[١].

الثانى عشر : التصريحات التى جاءت على ألسنة الرؤساء والقواد فى أن وجود إسرائيل يشكل مصلحة حقيقية للاتحاد السوفييتى ، وأن الاتحاد السوفييتى عمل على إبقائها تحقيقا للمصالح ، وكذلك من مصلحة إسرائيل بقاء سياسة السوفييت . يقول ناحوم غولدمان : (إن للاتحاد السوفيتى مصلحة حقيقية خاصة به فى وجود إسرائيل ، إذ بدونها فإن الأكثرية العظمى من بلدان العالم العربى التى هى بطبيعتها وعقيدتها وتقاليدها ضد الشيوعية وبعضها معاد لها بعنف ستصبح موالية للغربيين والأمريكيين ضد السوفييت ، وقد قال لى ذات يوم رجل دولة روسى مهم وبصراحة كلية خلال لقاء معه إذا لم توجد إسرائيل لوجب علينا إنشاءها)[٢].

---

(١) الكيد الأحمر (١٤٧) .
(٢) إسرائيل إلى أين (٦٨) .

ويقول دافيدها كوهين : (إسرائيل فى حاجة إلى الاتحاد السوفييتى مثل حاجة الاتحاد السوفييتى لإسرائيل . هذه قاعدة قديمة وراسخة فى العلاقات بين البلدين ولاننسى أن موسكو كانت أول من اعترف بإسرائيل وأيدها تأييدا كاملا قبل أن تولد وإبان الولادة ...)[١].

وقد كثرت وتتالت الاعترافات الإسرائيلية بهذه العلاقة الحميمة والتى تحقق لهم المصلحة الكبيرة ، وكذلك رضاهم عن السياسة السوفيتية فى الشرق الأوسط . يقول "موشه كول" وهو عضو فى البرلمان : (المعرفة الدقيقة هى أساس الصداقة والتعاون ونحن نعرف الاتحاد السوفييتى وسياسته - وهم يعرفون حاجتنا وسياستنا - ولذلك فلاخوف على إسرائيل أبدا . بل لها كل المصلحة فى أن لاتعرقل المعنى الجميل الذى تحققه موسكو فى الأقطار العربية)[٢].

الثالث عشر : تطوير الصناعة الإسرائيلية والإهتمام بها من قبل الدول الإشتراكية ، وتظهر هذه الإحصائية - أن مساهمة الكتلة الشرقية كانت أكثر من مساهمة الدول الغربية ، مما يدل على العلاقة الوطيدة بين دولة إسرائيل والدول الإشتراكية وهى من عام ١٩٥٠-١٩٦٥م .

---

(١) موسكو وإسرائيل (٤٤٣-٤٤٤) .

(٢) المرجع السابق (٤٤٤) .

ولمزيد من الأقوال انظر (٤٣٨،٤٤٣،٤٦٢،٤٦٤) وقد أجاد الكاتب فى موضوعه . وانظر حقيقة المواقف الشيوعية من القضية الفلسطينية (٥٩-٦٠) .

العدد	الكتلة الشرقية	الكتلة الغربية
معامل السكر	٣	٢	١
معال الألبان	١٢٥	٩٠	٣٥
معاصر	١٤	٨	٦
مصافى الزيوت النباتية والكحول	١٠	٦	٤
مطاحن	٥٠	٣٠	٢٠
معامل النسيج والأقمشة	٩	٥	٤
معامل الأحذية	٢٦	٩	١٧
معامل الأسمدة الكيماوية	٢	١	١
معامل الكيماويات المتنوعة	٧	٣	٤
معامل المواد الطبية	٥	٢	٣
معامل الأدوات الكهربائية	٨	٣	٥
موتورات لمحطات الكهرباء	٧٠٠	٥٠٠	٢٠٠
معامل النجارة	٥٠	٣٥	١٥
معامل الأسمنت	٤	٣	١
معامل الزجاج	٣	٢	١
معامل تكرير البترول	٢	٠	٢
جرارات زراعية	٢٠٠٠	١٥٠٠	٥٠٠
حصادات ودراسات	٣٠٠٠	٢٠٠٠	١٠٠٠[١]

ولايفوتنا هنا أن نذكر أن العلماء اليهود هم الذين أفشوا أسرار الذرة إلى الاتحاد السوفييتى ، ويقوم يهود العالم فى تطوير الصناعات الصهيونية مقام الرأسمال اليهودى العالمى وخاصة الأمريكى بدور مشهور فى

(١) انظر دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٥٤-٥٥) .

المجال الصناعى والزراعى ، وأدت موجات الهجرة من الاتحاد السوفييتى خاصة إلى تزويد الآلة الصناعية الصهيونية بمئات الألوف من العمال المهرة(١).

الرابع عشر : البعثات التى أوفدها الاتحاد السوفييتى إلى إسرائيل وكذلك الهجرات اليهودية التى سمح بها لليهود من أجل الوصول إلى أرض فلسطين .

وكانت تهدف هذه البعثات إلى تدريب الشباب اليهودى وتشكيل الفرق التى تقوم على حمايتهم ، كما كانت البعثات تكتب التقارير عن تلك المنطقة ثم ترسلها إلى لينين وتروتسكى .

وأما الهجرات فكانت ميسرة من روسيا إلى فلسطين ففى المرحلة الأولى بلغ عدد اليهود الذين وفدوا على فلسطين من عام ١٩٢١-١٩٣٩م نحو ١٦٥ ألف يهودى ، وكانت الأموال تتدفق على اليهود لشراء الأراضى وإنشاء المستعمرات والقرى النموذجية لتوطيد أقدام اليهود فى أرض فلسطين من قبل السوفييت(٢).

وكانت الهجرة فى غالبها من الدول الإشتراكية ، مما زاد القوة البشرية للصهيونية داخل الأراضى الفلسطينية(٣)، وفى هذا دعم للكيان الصهيونى بالرجال والخبراء والفنيين(٤)، زد على هذا أن هؤلاء القادمين يحملون الأفكار الإشتراكية التى عرفوها فى بلادهم وبالتالى العمل على

---

(١) انظر السياسة الصناعية لمجتمع الحرب الصهيونى (٢٣) ، إعداد قسم الدراسات ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م/١٤٠٢هـ منشورات فلسطين المحتلة .

(٢) انظر دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل (٢٩) .

(٣) انظر : النار والجليد (٢٩٧-٢٩٨) ، حقيقة المواقف الشيوعية من القضية الفلسطينية (٣٣-٣٤) .

(٤) انظر : إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٢٢) ومابعدها ، حقيقة المواقف الشيوعية من القضية الفلسطينية (٣١-٣٢) ، النار والجليد (٢٤١-٢٤٢) .

نشرها[١].

والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة وعن طريق الكونغرس قامت بتهديد الاتحاد السوفييتى إذا لم يلغ الضريبة التى فرضها على المهاجرين المتعلمين . وبالفعل تم إلغاؤها وحصل الاتحاد السوفييتى على بعض الاتفاقيات التجارية[٢].

ومما يؤسف له أن منظمة التحرير الفلسطينية كان موقفها سلبيا من هذه الهجرة ولايتعدى الخطب الباهتة ، والمواقف الباردة ، وكانت حرارته فى تبرير موقف الاتحاد السوفييتى ، وسهلت المنظمة لإسرائيل مالم تستطع أن تحققه فى حروبها ، فعمالة الحكومة للشيوعية فى الاتحاد السوفييتى واضحة ، وهى منسجمة مع الفكر العلمانى الذى تنتهجه المنظمة ، ويتجلى ذلك بالنظر فى موقفها من الاتحاد السوفييتى ودعمه لإسرائيل ، وموقفها من حركة حماس ففى الوقت الذى يفيض فيه حديثها عن الاتحاد السوفييتى عذوبة ، تراها تتربص بـ(حماس) الدوائر وتعتبرها خارجة عن الشرعية الفلسطينية[٣].

---

(١) انظر المسيح الأحمر (٥٥) .
كانت نسبة الهجرة من الاتحاد السوفييتى :
عام ١٩٧١م ٤٥٪
عام ١٩٧٢م ٤٨٪
عام ١٩٧٣م ٦٧٪
انظر كتاب الشيوعية منشأ ومسلكا (١٠٦-١٠٧) .

(٢) انظر النار والجليد (٢٤٣) .

(٣) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٦٣-٢٦٤) .
وقد شكلت الهجرة دافعا لبعض الأنظمة لتشكل من خلالها بعض أهدافها منها :
١ ـ ظهور بعض الدول أمام شعوبها بمظهر الحريص على حرياتها .
٢ ـ إعادة بعث التيار القومى .
٣ ـ خوف بعض الأنظمة من السقوط .
انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٦٧) .

الخامس عشر : يضاف إلى ذلك أهمية منطقة الشرق الأوسط والأدنى وهى مهمة للشرق والغرب على حد سواء فهى منطقة حيوية وبها ثروات هائلة ، وكذلك تكمن قوة المسلمين فيها . فالاهتمام بها لأمور عديدة منها :

(أ) نشر الإشتراكية الإلحادية فى العالم الإسلامى والعربى وهذا أحد أهم الإغراءات لغزوه[١].

وبالفعل انتشرت الأحزاب فى البلدان الإسلامية والعربية وبعد التنبيه لخطرها وحقيقة أمرها اتخذت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية التى اجتمعت فى لبنان أوائل سنة ١٩٤٨م قرارا بتوحيد الأساليب فى القضاء على الشيوعية والحركات الثورية فى دول الجامعة العربية[٢]. على الأقل اتخذ قرار بغض النظر عن تطبيقه!!

(ب) (لأن الشرقين الأوسط والأدنى لازمان لحماية الطريق إلى الشرق الأقصى) .

(ج) (لأنهما فى أول الأمر كانا قبلة الطامعين لم يبحثوا عن قبلة غيرهما إلا لعجزهم عن الاستيلاء عليهما فلما تألبت مطامع الاستعمار على الشرق كله عادت إليهما أنظار الناظرين من قديم وجديد ولاسيما المتأخرين فى سباق الاستعمار ...) .

(د) (لأن أقطار الشرق الأدنى وبعض أقطار الشرق الأوسط كانت كلها بقايا تابعة للدولة العثمانية التى اصطلحت الدول الكبرى على تسميتها باسم "الرجل المريض" المتفق على تقسيم تركته ، حلا لما سموه يومئذ بالمسألة الشرقية" .

(هـ) (لأن بلاد الشرقين الأوسط والأدنى أسواق صالحة لترويج المصنوعات الحديثة ، مذ كانت بلادا عمرتها الحضارة عدة قرون وعودت أهلها

---

(١) انظر دور الماركسية فى الإشتراكية العربية (٦٠) .

(٢) انظر الماركسية بين النظرية والتطبيق (٣١-٣٢) .

اقتناء اللوازم والكماليات من مطالب الأمم المتحضرة ، فهى بهذا الاعتبار أنفع لدول الصناعة من مستعمراتها فى القارة الأفريقية وبعض مستعمراتها فى القارة الآسيوية) .

(و) (لأن الحصول على خامات المواد الصناعية ميسور فى بلاد الشرقين الأوسط والأدنى ، وتشاء المصادفات[1] أن تظهر فى هذه البلاد ينابيع النفط الذى يعول عليه أصحاب المصانع وأدوات المواصلات) .

(ز) (لأن الدول التى تنتحل الدفاع عن مذهب من المذاهب تجد الذرائع ممهدة لديها للتدخل فى شئون الشرق الأدنى باسم الدفاع عن أبناء مذهبها أو الدفاع عن الأماكن المقدسة ..) .

(ح) (أن الرقعة الوسطى بين القارات الثلاث موقع من أخطر مواقع الدفاع والهجوم فى الحروب الكبرى ، وهذا هو الموقع الذى تقيم فيه أمم الشرقين الأوسط والأدنى وتتألب حوله كل تلك المطامع والتعلات)[2].

وبعد هذا العرض للبراهين الدالة على أن الشيوعية إنما هى مطية صهيونية ، من جملة المطايا التى اتخذها اليهود لتحقيق أهدافهم ، وتنفيذ مخططاتهم . علينا أن نعلم بأن السوفييت لم يكونوا فى يوم من الأيام فى خدمة المصالح الإسلامية أو العربية ، بل الذى كان يحدد سياستهم هو المصلحة التى تصب أساسا فى مصلحة اليهود .

---

(١) بل قدرة الله تعالى وحكمته .

(٢) لاشيوعية ولااستعمار (١٣٠-١٣١) . وانظر السوفييت وقضية فلسطين (١٩٣-١٩٤) ولمزيد عن دور الاتحاد السوفييتى والدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل انظر الإنهيار (٢١٨/١-٢٢٠) .

ومن العرض السابق وماتقدم من نصوص أصل إلى الحقائق التالية :

أولا : تحكم اليهودية العالمية بسياسة الدولتين الكبريين فى العالم أمريكا والاتحاد السوفييتى (سابقا) وجعل هاتين الدولتين تسيران فى فلكها وترعيان مصالحها وتخدمان أهدافها .

ثانيا : تنوع الأساليب والوسائل التى يتخذها اليهود فى تحقيق أهدافهم وامتطائهم عدة حمير ليصلوا لغاياتهم حتى لو سارت بهم فى طرق متناقضة على الأقل أمام الرأى العام العالمى ، ولكن حقيقتها أنها تصب فى مصلحة اليهود .

ثالثا : أن الشيوعية وليدة الصهيونية وقامت بالتخطيط لها اليهودية العالمية ، وحققت من ورائها أهدافها فى إقامة الوطن القومى لها فى أرض عربية إسلامية .

رابعا : غفلة المسلمين وضعفهم (بسبب بعدهم عن دينهم) وعدم معرفتهم بما يدار حولهم من مكر وخداع ، وماتنسجه لهم القوى الكبرى من حيل ، ولأجل ذلك لجأوا إليها طالبين المعونة منها على عدوتها الصهيونية ونسوا أنها هى التى تدير تلك القوى الكبرى . وفوض المسلمون أمرهم إلى هيئات ومنظمات دولية هى يهودية أصلا - وإن لم تكن كذلك فلاتخرج عن خدمة مصالح اليهود - وأخذوا (يتحاكمون إليها) .

خامسا : إن مصلحة إسرائيل وأمنها لايمكن أن يمسا بسوء طالما أن القوة الأولى فى العالم خلفها وبقية الدول تمتلىء أجهزتها بعيون إسرائيل ودعاتها .

سادسا : أن القضاء على المسلمين ونشر الإلحاد والسيطرة على موارد الأمة الإسلامية والعربية وثرواتها هى الغاية من هذه الألعوبة التى أوهمت الناس أن العالم ينقسم إلى قسمين متنافسين متصارعين ، ولكن الحقيقة والواقع يشهدان بخلاف ذلك ، ويدلان على أن اليهود يحكمون المعسكرين

حقيقة لاإدعاء . وقد إتخذ اليهود من الأفكار الإلحادية ، والمذاهب الأرضية سندا لهم فى نشر أباطيلهم ، وتخرصاتهم التى يرغبون من ورائها الوصول إلى تحقيق أهدافهم ومن ذلك الأفكار المادية التى نادى بها بعض الفلاسفة ، وصاغها ماركس فى مذهب جديد جاء به استغله اليهود فى العمل على تحقيق مآربهم من ورائه . ذلك المذهب هو المادية والمادية التاريخية . ونعرض له بدون إطالة .

الفصل الرابع
المادة

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد .

المبحث الأول : مادية ماركس .

المبحث الثانى : المادية الجدلية .

المبحث الثالث : أزلية المادية وأبديتها وقوانينها عند الماديين .

المبحث الرابع : المادية التاريخية .

المبحث الخامس : التفسير المادى للدين والأخلاق والأسرة .

الفصل الرابع
المادة

بعد المقدمات السابقة التى أثبتنا من خلالها أن اليهود قاموا بنشر الإباحية والرذيلة تحت مسميات عديدة ، وأن أوروبا كانت تعيش فى انحراف عقدى وخلقى ، وأن الإنسان هناك أصبح هاربا من الدين بسبب أفعال الكنيسة ، فإن النتيجة الطبعية لهذا كله هو الانغماس فى تحقيق الرغبات الشهوانية ، والملذات الجسدية ، فأصبح مايحسه الإنسان ويشاهده هو الغاية عنده ، وماعدا ذلك فلااعتبار له ، ولم يقف الأمر عند الشذوذ الأخلاقى ، والانهماك فى الشهوات ، بل تعداه إلى اعتبار أن ماليس بمحسوس ومشاهد مما أخبرت به الرسالات السماوية غير صحيح ، ومطعون فيه ، فانتشرت الأفكار المادية والتى تعنى أنه لايوجد إلا مايمكن أن يشاهد ويحس ، وعرف أصحاب هذا الاتجاه بالماديين ، ولايعنى ذلك عدم وجود أصحاب هذا الفكر فيما مضى من الأزمان . غير أنه أخذ فى هذا الوقت الإدعاء بأنه يقوم على أصول علمية وبراهين عقلية ، وحقا غدت هذه الجاهلية أعتى من الجاهليات السابقة لإدعائها العلم وهو منها برىء . وكردة فعل لهذا المذهب وجد المذهب المعاكس له وهو المثالى والذى يعتبر مناقضا له تماما . ورغم كثرة الفلسفات والمذاهب فى أوروبا إلا أن هذين المذهبين كان لهما بروزا خاصا عن سواهما . وذلك منذ عهد الاغريق والرومان وحتى العصر الحديث . فما هى المسألة التى كانت تعرض على المذهبين وماهو سبب الخلاف؟

منشأ الخلاف :

يرجع الخلاف إلى قضية فى غاية الأهمية وهى أيهما أسبق العقل أم الطبيعة؟

وبعبارة أخرى هل العالم مخلوق؟ أم أنه غير مخلوق؟ فالذين قالوا بالأمر الأول أطلق عليهم أصحاب النزعة المثالية ، دون النظر بالطبع فى حقيقة هذا الخالق أو هذه القوة التى أوجدت الكون (كما صوروها) .

وأما القائلون بالرأى الآخر فهم أصحاب النزعة المادية ، فهم لايؤمنون إلا بما هو مشاهد محسوس .

واعترف بهذا التقسيم أصحاب الفكر المادى الحديث . يقول انجلز : (إن المسألة الأساسية العظمى فى كل فلسفة ، ولاسيما الفلسفة الحديثة ، هى مسألة علاقة الفكر بالكائن، أو علاقة العقل بالطبيعة .. أيهما يسبق الآخر ، العقل أم الطبيعة؟ ... وكان الفلاسفة تبعا لإجابتهم على هذا السؤال قد انقسموا إلى معسكرين كبيرين : فأولئك الذين كانوا يؤكدون تقدم العقل على الطبيعة ويقبلون على هذا النحو ، فى آخر تحليل ، بخلق العالم ، أيا كان نوع هذا الخلق ... ألفوا معسكر المثالية . والآخرون ، الذين كانوا يقررون تقدم الطبيعة ، انتموا إلى مختلف مدارس المادية وكل مفهوم آخر للمثالية والمادية (بالمعنى الفلسفى) ليس من شأنه إلا خلق البلبلة)[١].

إن هذا الخلاف ليس وليد العصر الحديث فى أوروبا بل انقسم الفلاسفة منذ القدم إلى هذين الفريقين فكانت الإجابة على هذا التساؤل هى

---

(١) مصادر الماركسية الثلاثة (٢١) ، وانظر : المثالية والمادية وأزمة العصر (٣٣-٣٤) د. عبد المنعم الحفنى ، الطبعة الثانية ١٩٧٧م ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، المادية والمثالية (٣-٤) مهدى الحافظ ، ١٩٧٤م دون ذكر لرقم الطبعة ، دار الفارابى ، بيروت ، معالم الاشتراكية العربية (١٨٩) ، حسين أبو الحسن ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م ، دار المسير للصحافة والطباعة والنشر ، الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه (٢٤٥) .

السبب فى نشوء الخلاف[١]. فمن قال بأن الروح فوق الطبيعة فهم مثاليون (Idealists) والذين اعتبروا أن الطبيعة هى الأصل فهم الماديون (Materialists)[٢].

وقد وجد لكل مذهب دعاته وفلاسفته قديما وحديثا .

فمن المثاليين القدماء أفلاطون . واستدل على إثبات وجود الله تعالى أو وجود إله (على طريقته) بوجهين :

(أ) الحركة.

(ب) النظام .

---

(١) وإذا كنا نعتقد أن الصواب مع ماذهب إليه المثاليون إلا أنهم أخطأوا فى تصويرهم لهذا (الإله) ، والإخبار عنه وعن صفاته وكيفيتها التى لايعلمها إلا هو سبحانه وتعالى . وتصوير المثاليين للإله بهذه الصورة قياسا لما يراه الماديون من نظام بديع للكون ومن أمور عجزوا عن فهمها جعلهم يترددون بل ينكرون ماجاء به المثاليون فلم يسلموا بوجود الإله الذى صوروه بصورة جعلت الماديين يستمرون فى غيهم ويتطاولون فى رفضهم أن يكون هناك خالق لهذا الكون وفى نظرنا أن هناك أسباباً ساعدت على انتشار الفكر المادى الإلحادى الحديث منها :
أولا : الفكر المثالى الذى انحرف بحقيقة الإله إلى تصورات وخيالات لاحقيقة لها .
ثانيا : الكنيسة ونبذها للآراء العلمية وردها للنظريات باسم الإله واقترافها كل طغيان باسمه أيضا .
ثالثا : دور اليهود واستغلالهم لكل مايبعد الناس عن الدين ليسهل عليهم نفث سمومهم وتحقيق أهدافهم حيث (فرحت اليهودية العالمية أيما فرحة بقيام النهضة الأوربية الحديثة علىأساس لادينى (Secalar) فذلك نصف الطريق نحو تحطيم المسيحية خصمهاالقديم وقامت تنفخ فى هذا الاتجاه من وراء الستار) . التطور والثبات فى حياة البشرية (٣٣) .
رابعا : العداء للاسلام وأهله فى الغرب ، وتشويه حقائقه ، ونقلها بصورة مغلوطة حتى لاتتضح الحقيقة .

(٢) انظر : سقوط الماركسية (٢٤) ، وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ، دار الصحوة للنشر ، الفكر الماركسى (٨) .

(أ) الحركة :

يقرر أن الحركات سبع : حركة دائرية وحركة من يمين إلى يسار ، ومن يسار إلى يمين ، ومن أمام إلى الخلف ، ومن خلف إلى أمام ، ومن أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى ، وحركة العالم دائرية منظمة لايستطيعها العالم بذاته فهى معلولة لعلة عاقلة وهذه العلة هى الله أعطى العالم حركة دائرية على نفسه وحرمه الحركات الست الأخرى وهى طبيعية فمنعه من أن يجرى بها على غير هدى .

(ب) التنظيم :

يرى أن العالم آية فنية فى غاية الجمال ولايمكن أن يكون النظام البادى فيما بين الأشياء بالاجمال وفيما بين أجزاء كل منها بالتفصيل نتيجة علل إتفاقية ولكنه صنع عقل كامل توخى الخير ورتب كل شىء عن قصد(١).

وهاجم أفلاطون المادية بكل قوة ، ودافع عن المثالية ووحدانية الخالق ولو بشكل مبهم ، ونفى أن يكون الكون وخصوصا الإنسان والحياة قد تألف من المادة وحدها ، وأنه لايمكن إرجاعه إلى المادة وهى نوع من الوجود . بل أحط وأصغر حد للوجود(٢).

ثم تعاقب الفلاسفة الذين ينادون بهذا الرأى ، كل على طريقته وحسب فهمه ، ومن هؤلاء الفلاسفة فى العصر الحديث فيشته وهيغل ونعرض لهما بشىء من التفصيل نظرا لأن ماركس أخذ عنهما .

---

(١) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية (٩٩-١٠٠) ، يوسف كرم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م دون ذكر لرقم الطبعة ، الفلسفة الاغريقية (٢٧١) ، محمد غلاب ، الطبعة الأولى ١٩٣٨م ، القاهرة .

(٢) انظر موقف الدين من العلم (٤٠-٤١) ، د. على فؤاد باشكيل ، ترجمة أورخان محمد على ، ١٩٨٥م ، دار الوثائق ، الكويت ، وانظر نقد العقل المحض (١٩٤) .

فيشته[١] Fichte

وتقوم فلسفته على استخدام مبدأ النقيض والذى يصل من خلاله إلى اثبات الحقيقة المطلقة . وهذا ماعرف فى فلسفته بالأنا المطلق

يقول الخفاجى : استخدم فيشته (مبدأ النقيض ، للتدليل على أصالة العقل الإنسانى وأسبقيته فى الوجود ، وأنه الوجود الحقيقى الذى لايتوقف وجوده على غيره ، وأن له القدرة على الخلق ، وأن حريته مطلقةلايحدها شاهد ولاحس ولاوحى ، وأن المجتمع الانسانى والقانون والدولة والخلقية من آثاره ، وأن هدفه الأخير إقامة الروابط الأخوية بين الناس فى ظل دولة عالمية .

وكان هدف "فيشته" هو التخلص من إله الكنيسة فأقام العقل إلها لاسدنة له ولاكهنة ولاكرادلة ولاباباوات .. وهو الأمر الذى هدف إليه التيار الثانى للفلسفة المثالية الذى نادى بسيادة العقل على النص والطبيعة معا...)[٢].

ويمكن اعتبار فيشته مثاليا إلا أنه وجد فى بعض أفكاره فهما ماديا . ومن هنا أخذ عنه أصحاب الفكر المادى الماركسى . يقول انجلز عن فيشته إنه كان ينظر (إلى تاريخ الإنسانية باعتباره نتاجا لنشاطها الخاص فيها ولايعود ذلك فقط إلى أن الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم . بل ولأنهم يخلقون الظروف التى تحدد فيما بعد أهم ملامح كل عصر تاريخى ، كما أكد المفكرون التقدميون السابقون لفيشتة . وهذه المقولة ـ بصرف النظر عن مقدماتها المثالية الذاتية ـ تتضمن بذور الفهم المادى للتاريخ ، الذى فسر ضمن الامكانيات المتاحة له ولأول مرة كيف أن الناس يصنعون تاريخهم

---

(١) فيلسوف ألمانى ، عاش فى أسرة فقيرة ، درس اللاهوت وعمل معلما فى سويسرا وبولونيا ، ودرس فى جامعة برلين ، وعين رئيسا لها سنة ١٨٠٧م ، له عدة مؤلفات منها مذهب العلم ، نظرية التقاليد ، مصير الإنسان . ولد عام ١٧٦٢م ومات سنة ١٨١٤م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٢/١٥٣-١٥٤) .

(٢) حوار مع الشيوعيين (١٣٠) ، وانظر : الفكر المادى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٦٢) ومابعدها ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٢٩) .

بأنفسهم ، على الرغم من أن الطبيعة الخارجية هى كطبيعتهم البشرية أيضا ليست من صنعهم بل هى مستقلة عن وعيهم وإرادتهم)[١].

وبهذا يظهر لى أن فيشته كان مثاليا وجد فى فلسفته أفكارا مادية .

هيغل :

دراسة مختصرة عن حياته : ولد بمدينة اشتوتجارت الألمانية عام ١٧٧٠م كان أبوه موظفا حكوميا ، أرسله إلى المدرسة الألمانية ، وتولت أمه رعايته ، وزودته بقواعد اللغة الألمانية ، والتحق بالمدرسة اللاتينية وعمره خمس سنوات ثم بالمدرسة الثانوية وهو فى العاشرة ، وبقى فيها إلى سن الثامنة عشرة[٢].

التحق هيغل بمعهد توبنجن عام ١٧٨٨م وذلك لدراسة البروتستانتية بمنحة حكومية من الدوق كما كانوا يسمونها فى ذلك العصر .

وكان المعهد ذائع الصيت فى تخريج القساوسة الإنجيليين .

وفى عام ١٧٩٣م تخرج هيغل من المعهد ، وأعلن عدم رغبته فى ممارسةمهنة القسيس ، مفضلا ممارسة مهنة التعليم واستكمال دراسته للفلسفة والآداب .

وظل يدرس حتى عام ١٧٩٦م فى مدينة برن عاصمة الاتحاد السويسرى وفى عام ١٨٠١م انتقل إلى "إيينا" وجدد صداقته مع (شيلنج)[٣]هناك وتعاون الاثنان فى إصدار جريدتهما الفلسفية النقدية التى ظل هيغل يكتب فيها إلى أن توقفت عن الصدور عام ١٨٠٣م عندما غادر شيلنج تلك المدينة .

---

(١) تاريخ الديالكتيك الفلسفة الكلاسيكية الألمانية (١٣) ، مجموعة من المؤلفين ، ترجمة د. نزار عيون السود ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م ، دار دمشق للطباعة والنشر .

(٢) انظر فى سبيل موسوعة فلسفية (هيغل) (١١) د. مصطفى غالب ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م ، دار مكتبة الهلال ، بيروت .

(٣) شيلنج : فيلسوف ألمانى ، كان والده قسا ، درس شيلنج اللاهوت وحاز على الأستاذية فيها ، عمل أستاذا فى جامعة (إيينا) ، وعين سكرتيرا لأكاديمية الفنون الجميلة فى ميونخ ، من مؤلفاته مذهب المثالية المتعالية ، الفلسفة والدين ، ولد عام ١٧٧٥م وتوفى عام ١٨٥٤م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٣٢/٢) ومابعدها .

ثم توالت الأحداث على مسرح الحياة السياسية والإجتماعية بصورة متزايدة وبشكل عنيف ، ولم يكن أمام (هيغل) إلا أن يرحل إلى "بامبرج" سنة ١٨٠٧م ليتولى هناك رئاسة صحيفة يومية محدودة الانتشار ، ورأس تحريرها لمدة سنة . رحل بعد ذلك إلى "نورمبرج" ، حيث عين ناظرا لمدرسة "نورمبرج" الثانوية ، وظل فى هذا المنصب ثمان سنوات درس خلالها الفلسفة والطبيعة والرياضيات ، وهى الدروس التى جمعها فى كتابه (المدخل إلى الفلسفة) ، وسنة ١٨١١م تزوج وأنجب طفلين .

وفى الفترة من ١٨١٢-١٨١٦م أكمل هيغل نشر كتابه عن المنطق فى ثلاثة أجزاء وهو الكتاب الذى يعتبر بمثابة حجر الزاوية فى بناء المذهب ، وفيه عرض للمعانى الأساسية .. الميتافيزيقية والمنطقية التى يدور عليها مذهبه المثالى .

وبعد صدور هذا الكتاب حصل هيغل على كرسى الفلسفة فى جامعة هايدلبرج ، وعندما خلا كرسى الفلسفة فى جامعة برلين بوفاة فيشته عرض هذا المنصب على هيغل عام ١٨١٧م فقبله وأخذ فى القاء المحاضرات ولقى اهتماما بالغا سواء من طلابه الذين كانوا يحضرون من جميع أنحاء البلاد ، أو على مستوى الدولة التى أوشكت أن تتخذ من الهيغلية عقيدة رسمية لها أو على مستوى الأساتذة الذين تحمسوا للفلسفة الهيغلية وبدأوا يدرسونها فى الجامعة .

وبعد انجازاته وزياراته إلى خارج بلاده عين مديرا لجامعة برلين . وظل يشغل هذا المنصب من عام ١٨٢٩م حتى ١٨٣١م ، وفى صيف عام ١٨٣١م انتشر وباء الكوليرا لأول مرة فى برلين ، وأصيب هيغل بالعدوى فى ١٠ نوفمبر ومرض فى ١٣ نوفمبر وتوفى فى ١٤ من الشهر نفسه عام ١٨٣١م[١].

كان له مؤلفات كثيرة منها : الإيمان والمعرفة ، حياة يسوع ، المنطق الكبير ، فلسفة الروح ، روح المسيحية ومصيرها ، الدين القومى والمسيحية فلسفة الدين[٢].

---

(١) انظر : فى سبيل موسوعة فلسفية (١٤-٢٢) ، موسوعة أعلام الفلسفة (٥٦٩/٢) .
(٢) انظر : فى سبيل موسوعة فلسفية ، موسوعة أعلام الفلسفة (٥٦٩/٢-٥٧٠) .

فلسفته : تقوم فلسفة هيغل على استخدام مبدأ النقيض . (وأراد هيغل باستخدام مبدأ النقيض هذا ألا يجعل الطبيعة غاية أخيرة للإنسان ، إذ هى ستنتقل إلى العقل المجرد الذى يتمثل فى القانون والأخلاق والدولة ، وكلها تعتبر موجودات إلهية على الأرض .. ولذا يتحدث عن الدولة كصورة من صور العقل المجرد بأنها : الإرادة العاقلة الإلهية ، وبأنها الإله على الأرض . ويرى لذلك أن لها مطلق الحق قبل الأفراد ، وأن على الأفراد بطريق الالزام المطلق ، أن يكونوا أعضاء فى الدولة وأن يطيعوها طاعة عمياء ، وبهذا دعم هيغل حكم الامبراطور المطلق ولذلك كان يسمى بفيلسوف البلاط . وأراد هيغل باستخدام مبدأ النقيض كذلك بل فى الدرجة الأولى أن يؤكد سيادة العقل على الطبيعة لاعلى الدين وهذا هو الفرق بينه وبين "فيتشه" ...)[١].

وعلى هذا الأساس اعتبر هيغل أن الله تعالى (عقل) ، والمجال الذى استخدم هيغل فيه مبدأ النقيض هو مجال الفكرة ، وقال بوجود فكرة مطلقة أسماها العقل المطلق ، واستخدم مصطلحات خاصةبه :

(١) الدعوى . (٢) مقابل الدعوى .

(٣) جامع الدعوى ومقابلها .

فالعقل المطلق له وجود ذاتى أزلى قبل خلق الطبيعة ، وقبل خلق العقل المحدد . وهذا العقل المطلق هو (الله) . وهذه الدعوى . والطبيعة مقابل الدعوى ، وانتقلت الفكرة التى هى العقل المطلق إلى ماوجوده محدد مقيد ، ثم انتقلت من النقيض إلى جامع يلتقى فيه الشىء ونقيضه ، وهو (العقل المجرد) . وعلى هذا فالله فى نظره عقل مطلق أزلى سابق على وجود الطبيعة وظهورها ، فالفكرة أو العقل هو أساس الوجود الطبيعى ، وليست المادة . فالمادة تابعة ولاحقة لوجود الفكرة أو العقل[٢]. فتقوم فلسفته على

---

(١) حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون (١٣٢) وانظر (١٣٠) ، وانظر : الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٧٢) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٢٩) .

(٢) انظر الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٩٠-٢٩٢) .

استخدام مبدأ الجدلية ذلك المبدأ الذى عول عليه ماركس كثيرا فى ماديته وبناء فلسفته .

ثناء الماركسيين على هيغل :

رغم مافى فلسفة هيغل من مثالية إلا أن الماركسيين اعتبروه ذروة كامل تاريخ الديالكتيك الذى سبق الماركسية حيث قالوا : (لقد كان هيغل وسيبقى ، فى كثير من الجوانب ، ذروة كامل تاريخ الديالكتيك السابق للماركسية ، ومهما شوهت المثالية ديالكتيكة ، فقد كان هناك مستقبل عظيم أمام اكتشافاته الديالكتيكية والهواجس والأفكار القائمة عليها . بيد أن هذا المستقبل لم يكتسبه الديالكتيك دفعة واحدة ، وكان يمر الطريق إليه عبر عقبات كبيرة)[١].

يقول ماركس : (إن ديالكتيك هيغل يعتبر "شكلا أساسيا" لديالكتيك العصر الحديث)[٢].

ويقول انجلز : (لقد شكل ديالكتيك هيغل أحد المصادر النظرية الأساسية الثلاثة لفلسفة الماركسية)[٣].

وجاء فى كتاب تاريخ الديالكتيك الفلسفة الكلاسيكية الألمانية : (تعتبر فلسفة هيغل أعلى انجاز للديالكتيك فى الفلسفة الكلاسيكية الألمانية فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وتتميز فلسفته باتساع أفقها الفريدة وبعمق مضمونها ، كما تمتاز بأهمية وتنوع المسائل التى تطرحها . فقد اكتشف هيغل قوانين الديالكتيك الرئيسية ...)[٤].

ورغم هذا الثناء على هذه الفلسفة ، إلا أن هيغل أنتقد فيها وذلك بسبب مثاليته التى لم تكن تروق لماركس الذى يقول : (إن طريقتى الديالكتيكية لاتختلف عن الطريقة الهيغلية من حيث الأساس فحسب ، بل

---

(١) تاريخ الديالكتيك الفلسفة الكلاسيكية الألمانية (٣٣٤) .
(٢) المرجع السابق (٣٣٦) .
(٣) المرجع السابق (٣٣٦) .
(٤) المرجع السابق (٢٢١) .

هى ضدها تماما ، فحركة الفكر ، هذا الفكر الذى يشخصه هيغل ويطلق عليه اسم (الفكرة) هى فى نظره خالق الواقع وصانعه ، فما الواقع إلا الشكل الحادث للفكرة ، أما فى نظرى فعلى العكس ، ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية منقولة إلى دماغ الإنسان ومستقرة فيه ...) .

ويقول : (ولكن على الرغم أنه بسبب ضلاله ، يشوه الديالكتيك بالصوفية ، فهو على كل حال أول من عرض حركة الديالكتيك الشاملة : الديالكتيك عند هيغل يسير على رأسه ، ويكفى إعادته على قدميه لكى نرى له هيأة معقولة تماما)[١].

وبالعموم فإن هيغل وقع فى مغالطات . فكيف تحمل الفكرة الواحدة عدة تناقضات تتصارع باستمرار لتنشأ فكرة جديدة متطورة . وهذه تنطوى على تناقضات متصارعة ينشأ عنها فكرة جديدة أكثر تطورا ، وهكذا فى سلسلة غير متناهية من التطورات والتصاعد نحو الكل المطلق؟!!

والحقيقة أن جدل الأفكار ليس قائما فى ذاتيتها من خلال تصارع تناقضاتها وإنما قائم فى تناظر الأفكار فيما بينها.

فالفكرة هى وحدة قائمة بحد ذاتها متكاملة لها هوية ثابتة تنطلق فى تناظرها مع فكرة أخرى خارجة عنها من منطلق إثباتها لنفسها وتصارعها مع الأخرى حتى إذا وضعت كل فكرة نظريتها وأسسها وأثبتت صحتها فتناقضت فى ذلك مع الأخرى فحينئذ تثبت إحداهما فتعمد ، وتنهار الأخرى فتنفى ، أو أن يتمخض عن ذلك تولد فكرة جديدة[٢].

وكل فلسفة أو مذهب وضعى (من قبل الفكر البشرى) تجد الخلاف يدب فيه وعدم الرضا به أو التسليم بكل مقولاته أمور واردة ، وهذا ماحصل لفلسفة هيغل حيث دب الشقاق والخلاف بين تلاميذ هيجل وأتباعه وانقسموا إلى فريقين اليسار واليمين وتركز الخلاف بينهما على السياسة

---

(١) رأس المال (١/٢٢-٢٣) ، ترجمة محمد عيتانى ، ١٩٨١م ، مكتبة المعارف ، بيروت وانظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٥١) .

(٢) انظر معالم الاشتراكية العربية (١٤٤) .

والدين ، فاليمين كان محافظا ، واليسار كان متحمسا للأفكار المادية[١]. واعتبر الماركسيون أن ماركس وانجلز أسهما إسهاما كبيرا فى هذا الاتجاه اليسارى المتشدد فى رفض الدين واعتبروا نشاطهما (بداية لنشوء النهج الفكرى الهيغلى اليسارى)[٢].

وقبل الانتقال إلى هذا الجانب المادى نشير إلى أن الفلسفة المثالية قد أثرت سلبا رغم توصلها إلى نتيجة إيجابية أثبتت من خلالها وجود الخالق جل وعلا . فبعد أن أثبتوا الوجود كلا بطريقته ، وحسب تخيله ، واصلوا حديثهم عن هذا الإله ، ومن هناكان المزلق الذى انحدر فيه هؤلاء ،لأن مايتعلق بالإله الذى هو الخالق جل وعلا وصفاته وأفعاله ليس للعقل والتخمين فيه مجال ، بل هو متروك لما جاء عنه جل شأنه أو بلغته الرسل عنه عليهم الصلاة والسلام .

نعم (فى مقدور الفلسفة أن تتكلم كثيرا عن الطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات قبل أن تنفصل عنها وتصبح علوما مستقلة ، وكان فى مقدورها أن تتكلم فى الأخلاق والسياسة وتخطىء فى كل ذلك وتصيب ، فالمخاطر من وراء ذلك محدودة غايته أنها مازالت تجهل .. أما أن تجيب هى على كل التساؤلات الخاصة بالألوهية ومتعلقاتها ، فهذا ماتردت فيها بالتخمينات والشطحات ، ذلك أن هذه القضايا لاتخضع بطبيعتها لموازين الإنسان ...)[٣].

وأدى ذلك التصور النابع من مخيلة الإنسان عن الإله إلى ردود أفعال من قبل الآخرين ؛ لأنهم رأوا أن هذا الإله إنما هو من نسج هؤلاء ولاحقيقة له وإذا كان موجودا حقيقة فلابد من رؤيته أو مشاهدته ، فإن

---

(١) انظر موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (١٨) .

(٢) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٦٢/١) .

(٣) حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون (٤٤) وانظر (٤٦) وذكر فيها بعض تصورات هؤلاء عن الإله . وقال : (إن للعقل دوره فى الاستدلال على الله تعالى فقط ولايتجاوز هذه المنطقة وإلا دخل فى دائرة الظنون والتخمينات) .

التجارب المعملية لم تثبت ذلك ، فكان تقديس المحسوس والمشاهد هو أبلغ رد على هؤلاء المثاليين الذين أغرقوا فى الخيال حتى وصفوا الإله بما هو منزه عنه .

فجاءت الأفكار المادية مخالفة ومعارضة للأفكار المثالية ، وتعاقب فلاسفتها منذ القدم إلى العصر الحاضر .

وإن اختلفت أساليبهم فى عرض آرائهم وتصوراتهم عن الخالق والكون والإنسان والأخلاق ...الخ ومؤدى ذلك أن لاإله ، وأن المادة هى العلة الأولى ، وهى أزلية أبدية ، وأن الأحداث الكونية والتقلبات الطبيعية تكون بصورة عشوائية مفتقرة للحكمة والعدل ، أى أن الصدفة هى سلطان تلك الأحداث والتقلبات ، ويجدر بنا القاء الضوء على بعض أولئك الذين حملوا فكرا ماديا لنتبين أن حضارة أوروبا الحديثة إنما قامت على تأثرها بأفكار الفلاسفة الأقدمين من اغريق ورومان ، وأنها امتداد لها . كما ذكرنا ذلك فى المقدمة عند حديثنا عن أوروبا . فيصدق على هؤلاء الفلاسفة المحدثين قول الخالق جل وعلا : {**إناوجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون**}[١]، وقوله تعالى : {**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**}[٢].

المادية وبعض فلاسفتها :

إن الفكر المادى هو الآخر يضرب بجذوره إلى الاغريق والرومان ، وكان من أشهر الفلاسفة الماديين :

(أ) **ديموقريطس الابديرى**[٣]: Democrite D'Abdere

وتقوم فلسفته على :

---

(١) سورة الزخرف : (٢٢) .

(٢) سورة الزخرف : (٢٣) .

(٣) فيلسوف يونانى ، أسس مدرسة أبديرا حوالى سنة ٤٢٠ق.م سافر إلى مصر وقضى بها خمس سنوات ، له عدة مؤلفات منها فى الأفلاك ، فى طبيعة الانسان ، مسائل فى السماء . ولد عام ٤٦٠ق.م ومات ٣٧٠ق.م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٤٥٥/١) رقم(٥٥٥) .

(١) أبدية المادة وعدم تبدلها .

(٢) مبدأ الحتمية فى الطبيعة .

(٣) مشابهة الآلهة للبشر إلا أنها أطول عمرا وأن هذه الآلهة تفنى[١].

(ب) **أبيقور**[٢]: Epicure

وتقوم فلسفته على :

(١) تقديس الحس وعدم الإيمان إلا بما هو محسوس وأن الحس هو أساس المعرفة .

(٢) ترك الإيمان بالمعتقدات الدينية أسلم من الإيمان بها وأن الدين مصدر الشر .

(٣) أن مقياس الخير هو فى الاحساس باللذة ومفارقة الألم .

(٤) انكار البعث ومافى الآخرة من نعيم وثواب[٣].

ثم تتابع فلاسفة ذلك المذهب قديما وحديثا وكان من أشهر المحدثين :

(ج) **هوبز**[٤] : Hobbes Thomus

وتقوم فلسفته على :

---

(١) ولمزيد من المعلومات عنه انظر : موسوعة أعلام الفلسفة (٤٥٥/١-٤٥٦) ، كواشف زيوف (٤٢٠-٤٢١) ، تاريخ الفلسفة اليونانية (٥٢) ، موقف الدين من العلم (٣٨-٣٩) . ولقد أشار القرآن الكريم إلى وجود هؤلاء الماديين منذ القدم . قال تعالى : {وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر} . سورة الجاثية : (٢٤) .

(٢) فيلسوف اغريقى ، أنشأ مدرسة عرفت باسم (حديقة أبيقور) فى أثينا ، وزاول التعليم فيها ست وثلاثين سنة ، وله عدة مؤلفات منها : الرسائل ، شذرات القانون ، مقالة فى الطبيعة ، ولد عام ٣٤١ق.م ومات سنة ٢٧١ أو ٢٧٠ق.م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٥٢/١) رقم (٤٥) .

(٣) انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٥٢/١-٥٣) رقم (٤٥) ، وانظر : كواشف زيوف (٤٢٢-٤٢٨) ، موقف الدين من العلم (٣٩) .

(٤) فيلسوف انجليزى ، تخرج من جامعة اكسفورد ، سافر إلى ايطاليا ، ثم إلى فرنسا ، ثم عاد إلى بلاده ومالبث أن غادرها إلى باريس واستقر بها أحد عشرة سنة ثم عاد إلى بلاده ، وأصدر فيها قانونا يدين الالحاد فخاف على نفسه فحماه الملك شريطة أن لاينشر شيئا من كتبه، وله عدة مؤلفات منها: فى المواطن فى الجسم ، فى الإنسان ، ولد عام ١٥٨٨م وتوفى عام ١٦٧٩م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٥٤٩/٢) رقم (١٢٣٨) .

(١) إنكار وجود الإله .
(٢) أن المعرفة لاتأتى إلا عن طريق الحس ، وبالتالى إبطال ماعدا ذلك[١].

(د) **دافيد هيوم**[٢]: Hume David

وتقوم فلسفته على :

(١) إنكار وجود الإله.
(٢) أن ماوراء الحس والمشاهد كله من ضروب التخمين .
(٣) القول بالمصادفة[٣].

(هـ) **شوبنهاور**[٤]: Schopenhauer

وفلسفته تقوم على :

(١) القول بالمصادفة فى الكون .
(٢) أن الحياة تفتقر إلى المصدر وبالتالى فهى حادثة .
(٣) وبهذا ينكر وجود الإله[٥].

---

(١) انظر : الإسلام والحضارة الإنسانية (٨٧) ، إسلام لاشيوعية (٦٣) ، د. عبد المنعم النمر ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) فيلسوف ايرلندى ، مؤرخ وإقتصادى ، درس القانون والتجارة والفلسفة ، له عدة مؤلفات منها التاريخ الطبيعى للدين ، تاريخ انجلترا ، محاورات فى الدين الطبيعى ولد فى أدنبره عام ١٧١١م ، ومات سنة ١٧٧٦م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٥٧٤/٢) رقم (١٢٤٨) .

(٣) انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٥٧٤/٢-٥٧٦) .

(٤) فيلسوف ألمانى ، طاف أوروبا وسجل ملاحظاته عنها وعن الناس فيها ، درس الفلسفة ، ونال شهادة الدكتوراه ، من مؤلفاته : العالم كإرادة وكتصور ، عن الإرادة فى الطبيعة ، أساس الأخلاق . ولد عام ١٧٨٨م ومات سنة ١٨٦٠م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٤٢/٢-٤٣) رقم (٧٣٦) .

(٥) انظر : موسوعة أعلام الفلسفة (٤٢/٢) ومابعدها ، كواشف زيوف (٤٣٢) ومابعدها .

وغير هؤلاء كثير مثل نيتشه[١]، وهربرت سبنسر[٢]، وتقوم فلسفة نيتشه على إنكار الإله، وعدم تصديق أولئك الذين يتحدثون عن آمال تتجاوز الأرض وتعلو فوقها[٣]، أما سبنسر فأهم مايميز فلسفته بعد إلحاده ، القول بالتطور للأشياء وأن هذا تطور حتمى[٤].

فهؤلاء من أشهر الفلاسفة الذين يمثلون الفكر المادى وإلا هناك غيرهم سواء فى القديم أو الحديث من الذين اصطبغوا بهذه الصبغة المادية الإلحادية ولاشك أن بعضهم تأثر بأفكار بعض ومنهم من زاد على الآخر ومنهم من خالف وهكذا إلا أن هذه الفلسفات والآراء كلها تكاد تصب فى بوتقة واحدة ألا وهى : إنكار الإله ، وجعل المادة هى الخالقة ، وعدم الاعتراف إلا بما هو محسوس ومشاهد .

وعلى هذا يمكن أن نقول بأن هذه الآراء والفلسفات تقوم على التالى :

أولا : تتفق تلك الفلسفات على إنكار الخالق جل وعلا لهذا الكون .

ثانيا : أن هذا الكون أزلى أبدى وأن المادة هى التى أوجدته فهى إذا الأصل .

ثالثا : رفض كل ماهو غيبى واعتباره من الأمور الوهمية وكل أمور الغيب ليست إلا وهما ويترتب على هذا إنكار النبوات .

---

(١) فيلسوف ألمانى ، كان والده قسيسا ، فقد إيمانه فى الثامنة عشرة من عمره، عاش فترة الشك والتشتت ، مما أدى به بعد أن اختلف مع بعض معاصريه إلى فقدان عقله ، والعيش فى اختلال عقلى تام استمر إحدى عشرة سنة ، له عدة مؤلفات منها : أصل المأساة ، غروب الآلهة ، هكذا تكلم زرادشت . ولد عام ١٨٤٤م ومات عام ١٩٠٠م . موسوعة أعلام الفلسفة (٢/٥١٢-٥١٣) رقم (١٢٠١) .

(٢) فيلسوف انجليزى ، عمل فى المجال الصحفى ، وترأس تحرير مجلة الايكونوميست له عدة مؤلفات منها مبادىء علم النفس ، المبادىء الأولى ، معطيات الأخلاق ، ولد عام ١٨٢٠م ومات عام ١٩٠٣م . موسوعة أعلام الفلسفة (١/٥٤٥-٥٤٦) رقم (٦٣٩) .

(٣) ولمزيد انظر : موسوعة أعلام الفلسفة (٢/٥١٢-٥١٥) ، كواشف زيوف (٤٤٢-٤٥٠) .

(٤) لمزيد انظر موسوعة أعلام الفلسفة (١/٥٤٥-٥٤٧) .

رابعا : أن الدين شر ومهمة الفلسفة تكمن فى القضاء عليه ، بالإضافة إلى أنه اختراع من قبل الناس .

خامسا : أن اشباع الغريزة والوصول إلى اللذة الجسدية هو أساس كل شىء واشباع هذه الغريزة هو مايرمى إليه الانسان بل إن اللذة هى مقياس الخير .

سادسا : حرية الانسان فى فعل مايشاء . يرى أنه يحافظ على حياته .

سابعا : أن هذا الكون وجد صدفة ، وأنه يسير بدون عناية ولاحكمة.

وهكذا (انصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها ، وبكل ماتتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر ونفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم ، وكان ذلك تدريجيا ، وكان أولا ببطء وعلى مهل ، ولكن بقوة وعزيمة ، فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون فى الكون نظرا مؤسسا على أنه لاخالق ولامدبر ولاآمر ، وليس هناك قوة وراء الطبيعة والمادة تتصرف فى هذا العالم الطبيعى ، وتحكم عليه وتدبر شئونه ، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعى ، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكى بحت وسموا هذا نظرا علميا مجردا وسموا كل بحث وفكر يعتقد بوجود إله ويؤمن به طريقا تقليديا لايقوم عندهم على أساس العلم والحكمة ، واستهزأوا به واتخذوه سخريا ، ثم انتهى بهم طريقهم الذى اختاروه وبحثهم ونظرهم إلى أنهم جحدوا كل شىء وراء الحركة والمادة ، وأبوا الإيمان بكل مالايأتى تحت الحس والاختيار ، ولايدخل تحت الوزن والعد والمساحة ، فأصبح - بحكم الطبيعة وبطريق اللزوم - الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة ، من قبيل المفروضات التى لايؤيدها العقل ولايشهد بها العلم)[1].

وكان من أشهر هؤلاء القائلين بالمادة ، والذين أخذ المذهب المادى على يديهم صفة التنظير والبرهنة كارل ماركس .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (١٧٨) .

المبحث الأول
مادية ماركس

شكل ماركس علامة بارزة فى مادية العصر الحديث وذلك لأنه دمج بين عدة فلسفات وخرج بفلسفة خاصة به ، وقد قلنا بأن ماركس أخذ من هيغل جدليته كما أنه أخذ من فيورباخ ماديته ، ومن هنا نلمح أولا عن أستاذ ماركس باختصار .

فيورباخ[١]: Feuerbach

كان تلميذا لهيغل ، ثم تخلى عن فلسفته ونقدها ، وقد مر معنا القول بأن أنصار هيغل انقسموا إلى يمين ويسار ، وكان فيورباخ من قواد الاتجاه اليسارى ، حيث اعتبر فلسفة هيغل عاجزة عن حل مشكلة الخلاف بين الإنسان وتجاربه حيث كانت بعيدة عن عالم الواقع ، وقال إن هيغل لاهوتى تستر بزى فيلسوف ، فكان مذهبه الذى يقول بأن الله خلق الطبيعة ... واعتبر فيورباخ الفلسفة النظرية أنها لاتوصل إلى فهم حقيقى للواقع ، وبعد نقده لهيغل حدد مبادىء فلسفته التى التزم فيها بالحسية وانتقاد الدين .

وأكد فيورباخ أن الحواس التى احتقرها الفلاسفة هى التى تؤدى إلى بلوغ الحقائق الفلسفية ... ثم تحدث عن الإنسان وعلاقاته ، ورأى أن العلاقات الإنسانية تستخلص بشكل خاص من الحب الجنسى ... وعندما يدرك الرجل وجود كائن آخر يختلف عنه ويكلمه ويساهم فى تحديده وهو المرأة فالانسان ليس كائنا مستقلا بل هو بطبيعته كائن مرتبط بكائن آخر وتشكل

---

(١) فيلسوف وعالم اجتماع ألمانى ، درس الابتدائية والثانوية فى مدرسة انسباخ ، ودرس اللاهوت وتتلمذ على يد هيغل ، حصل على الدكتوراه من جامعة ايرلنغن سنة ١٨٢٨م ، وعمل بها أستاذا ، ثم انضم إلى جماعة اليسار الهيغلى وله عدة مؤلفات منها : نقد الفلسفة الهيغلية ، ماهية المسيحية ، ماهية الدين ، نسب الآلهة ولد عام ١٨٠٤م ومات عام ١٨٧٢م . انظر موسوعة أعلام الفلسفة (٢٠٧-٢١٢) رقم (٨٩٨) .

هذه الوحدة أساس الحياة الاجتماعية ، ويرى فيورباخ أن وجود الآخر شرط ضرورى لكل معرفة .

أما النقد الدينى : فهو يرى أن الإيمان بالعناية الإلهية يدفع إلى احتقار التقدم المادى . وكذلك الإرادة إذا ماسلمت إلى كائن أسمى فإنها تؤدى إلى خضوع كلى أعمى . كما أن الدين أساء إلى الحب حيث إن الإنسان الذى استعبده الحب الإلهى يتخلى عن تعرفه إلى ذاته فى اتحاده مع الآخرين ، ويضع كل قواه فى خدمة إيمان أعمى يحرض بعضهم على بعض فالدين يشكل عقبة فى سبيل التقدم المادى والأخلاقى .

ويقول إن على الإنسان أن يسعى فى استرداد ماهيته ويملك جوهره من جديد ، فالانسان والإنسان وحده كائن عام جماعى أى الإنسانية هو الله بالنسبة للإنسان(١).

وقد أثنى ماركس على فيورباخ ورأى أن الفضل الأكبر يرجع إلى فيورباخ فى :

(١) (فضح المثالية كعقيدة دينية مهذبة) .

(٢) (مناقضة المثالية بالمادية الحقيقية)(٢).

وكالعادة فإن ماركس وانجلز ينقدان فيورباخ (لأنه لم يطبق المادية إلى النهاية ، لأنه جحد المادية بسبب أخطاء بعض الماديين ، لأنه حارب الدين بقصد تجديده أو بقصد صنع دين آخر ، لأنه لم يعرف كيف يتخلص من

---

(١) انظر : موسوعة أعلام الفلسفة (٢/٢٠٧-٢١٢) ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٧٢) ، الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٦٦) وجاء فيه : (إن العالم الذى نعرفه عن طريق حواسنا هو الحقيقة الوحيدة وإن شعورنا وتفكيرنا مهما بدا أنهما فوق المحسوسات إن هما إلا من نتاج مادة وعضو من أعضاء الجسم وذلك هو المخ فليس المادة وليدة العقل بل العقل نفسه لايعدوكونه أعلى وأرقى ماتنتجه المادة وتولده) .

(٢) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٣٨) .

التعابير المثالية فى حقل علم الإجتماع ويصبح ماديا)[١].

ومن هنا يمكن القول إن فلسفة فيورباخ تقوم على التالى :

أولا : إنكار الإله .

ثانيا : أن الشعور بوجود الإله إنما يتولد من فكر الإنسان وأمانيه[٢].

ثالثا : ذوبان الفرد فى المجتمع فلاكيان له إلا من خلاله .

رابعا : أن المجتمع يمثل الإله بالنسبة للإنسان (الإنسانية) .

خامسا : إن الإله هو الإنسان نفسه.

سادسا : أن الدين محصول للعقل الإنسانى وليس موحى به من الخارج أى أن الإنسان هو الذى اخترع الدين[٣].

تعريف المادة والمقصود بالمادية :

المادة (كل شىء يكون مددا لغيره ... والإمداد أن يرسل الرجل للرجل مددا تقول : أمددنا فلانا بجيش)[٤].

ومادة الشىء : الأصل الذى يتكون منه الشىء . فمادة السرير الخشب ومادة الثوب الصوف ، ومادة الورق القطن .

والمادة : كل شىء يكون مددا لغيره ، ومادة الشىء أصله وعناصره التى يتركب منها ، حسية كانت أو معنوية كمادة البناء أو مادة البحث .

وهذه المادة المكونة غيرها ترجع إلى مادة هى أصلها وهكذا . ولابد من أن ينتهى هذا التسلسل إلى مادة أساسية وهى المادة التى لايمكن أن يوضع لها مادة بدورها[٥].

---

(١) الماركسية والنزعة التحريفية (٢١) لينين ، منشورات مكتبة عائد بديره ، دمشق ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) قارن مايقوله الشيوعيون عن منشأ فكرة الإله .

(٣) انظر عن الفقرة (الخامسة والسادسة) الفكر المادى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٧٢-٢٧٣) .

(٤) لسان العرب (٣٩٨/٣) حرف الدال ، فصل الميم .

(٥) انظر فلسفتنا (٣٤٧-٣٤٨) ، محمد باقر الصدر ، الطبعة الثانية عشر ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م التعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .

وقد كثرت تعاريف المادة فى معناها الاصطلاحى :

فمن ذلك (أنها كل ماتقع عليه الحواس)[١].

أو (ذلك المجهول الذى يلد منه كل ماهو معلوم)[٢].

ويقول ستالين عنها : (المادة عنصر أول لأنها منبع الاحساسات والتصور والإدراك بينما الإدراك هو عنصر ثان مشتق لأنه انعكاس المادة انعكاس الكائن وأن الفكر هو نتاج المادة لما بلغت فى تطورها درجة عالية من الكمال أو هو بتعبير أدق أن الفكر هو نتاج الدماغ والدماغ هو عضو التفكير فلايمكن بالتالى فصل الفكر عن المادة دون الوقوع فى خطأ كبير)[٣].

ويعرفها الماركسيون أيضا بأنها (الوجود الموضوعى خارج الذهن)[٤].

ويعرفها لينين بقوله : (المادة هى كل مايحدث الإحساس بفعله فى حواسنا) .

أو (المادة هى الواقع الموضوعى المعطى لنا فى الإحساس)[٥].

ويظهر من هذه التعريفات أن المادة هى أصل هذا الوجود وأنها الخالقة وماعداها مخلوق . وباختصار شديد فهى (الإله) إلا أن العلم لم يمهلهم حيث تفجرت الذرة ولم تعد للمادة تلك القدسية ، فقد أصبحت مكونة من عدة أجزاء لاتشكل وحدة مستقلة بذاتها .

يقول ادنجتون : (إن المادة مركبة من بروتونات والكترونات أى شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء)[٦].

---

(١) حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون (٧١) .

(٢) النظرية المادية فى المعرفة (٣٨) ، روجيه جارودى ، تعريب إبراهيم قريط ، دار دمشق للطباعة والنشر ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (٢٩) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ (١٢٤) ، د. أحمد العوايشة ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، الأردن .

(٤) حوار مع الشيوعيين (٧١) ، وانظر النظرية المادية فى المعرفة (٣٨) .

(٥) نقلا من كتاب النظرية المادية فى المعرفة(٣٨) .

(٦) نقلا من كتاب حوار مع الشيوعيين (٧٢) .

ويقول هولفيغ : (هل المادة موجودة؟ هاهى الذرة مجردة من المادة إن المادة تتلاشى)[١].

ويقول جارودى أين هى المادة؟ (إن الذرة ، هذا "الكنه المادى" غير القابل للتحطيم يتبخر إلى كهرباء ، وأين هى "كتلة" الالكترون؟ إنها تنعدم عندما يقرب من السكون وعندما يسافر تجد نفسها متمددة بشكل ساحة مغناطيسية فى الفضاء المحيط بها كله أما يزال لها "جسم"؟ وكتلتها ، هذا التعبير الرياضى لكنه المادى ، أما تزال ثابتة؟ لا . فالمادة تزول إذن ويتطاير الواقع كله بشكل دخان جبرى ولاتبقى سوى معادلاتنا ونبقى وحدنا مع إحساساتنا وفكرنا لكى ننظمها)[٢].

ويقول د. الجمل : (لقد انتهت المادة إلى ذرة . وانتهت الذرة إلى إشعاع أو إلى طاقة ليس لها من خواص المادة التى كان يعرفها الماديون شيئا قط . فقد انتهى الحجم وانتهى الوزن وانتهى اللون وانتهى كل شىء كانت تعرف به المادة . انتهت المادة إلى أن تصبح أمرا هو أقرب مايكون إلى الأفكار وأبعد مايكون عن المحسوسات .

والذى نريد أن نصل إليه من هذا أن جوهر المادة ليس شيئا من البساطة والوضوح بحيث يقال عنه ماكانت تقوله الفلسفة الماركسية فى أواخر القرن الماضى وأن وضع المادة فى مقابل الفكرة وجعلها نقيضين يصبح الآن من الأمور التى لايستطيع العقل الفلسفى أن يتقبلها بقبول حسن...)[٣].

وهكذا ثبت أن الأصل المزعوم إنما هو مكون من جزئيات وذرات عديدة ، بل إنه غير مشاهد ولامحسوس . ونأتى إلى تعريف المادية عند الماركسين وهى مبنية على القول فى المادة .

---

(١) نقلا من كتاب المادية والمثالية (٥٩) . ولمزيد من الأقوال عن المادة وتفجرها وتحولها إلى عدة أجزاء وتلاشيها انظر : حوار مع الشيوعيين (٧٢-٧٣) ، العلوم الطبيعية فى القرآن (٢٢٤) ، يوسف مره ، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م ، دار مكتبة الهلال ، بيروت .

(٢) النظرية المادية فى المعرفة (١٧) .

(٣) الإشتراكية العربية (١٣٩-١٤٠) .

يقـول لينين : (المادية هـى التسليم بالقـوانين الموضـوعية للطبيعـة ، وترجمة هذه القوانين فى رأس الإنسان ترجمة صحيحة)[١].

ويقـول : (إن المادية متفقـة تمام الإتفاق مع العلـوم الطبيعيـة ، تعتبر المادة معطـى أوليـا ، والـوعى والفكـر ، والإحسـاس ، معطـى ثانويا لأن الحسـاسية لاترتبـط بشكل واضـح ، إلا بأشكال عليا من المادة ، لايمكننـا أن نفترض فى أسس بناء المادة ، وجود خاصة مشابهة للحساسية)[٢].

والمادية هـى لب الفلسفة الماركسية ، وماقامت إلا عليهـا ، لنبذ الدين وتحطيم أفكـار القـرون الوسطـى ، لأن هـذه المادية هـى المنسجمـة مع تعاليم العلوم الطبيعية .

يقول لينين : (إن المادية هى فلسفة الماركسية ففـى غضون كل تاريخ أوروبا الحديث ، ولاسيمـا فى أواخر القـرن الثامن عشـر ، فى فرنسا ، حيث كان يجرى نضال حاسم ضد كل نفايات القرون الوسطى ، ضد الاقطاعية فى المؤسسات وفى الأفكار ، كانت المادية الفلسفة الوحيدة المنسجمـة إلى النهاية والأمينـة لجميع تعاليم العلـوم الطبيعية ، والمعادية للأوهـام ولتصنـع التقوى ...الـخ ، ولـذا بذل أعـداء الـديموقراطية كـل قـواهم "لـدحض" ، المادية ، لتقـويضها للافتراء عليهـا ، ودافعـوا عـن شتى أشكال المثـالية الفلسفيـة التى تؤول أبدا ، على نحو أو آخر ، إلى الـدفاع عـن الـدين أو إلى نصـرته .

وقـد دافع ماركس وانجلز بكل حزم عن المادية الفلسفيـة ، وبينا مرارا عديدة مافى جميع الانحرافات عن هذا الأساس من أخطاء عميقة)[٣].

وكـانت المادية عنـد ماركـس تتشكـل نضالا ضد المؤسسـات السيـاسية القائمة آنذاك وضد الدين واللاهوت ، بل أيضـا ضد كل ميتافيزية[٤]، وكان

---

(١) نقلا من كتاب النظرية المادية فى المعرفة (٤٥٥) .

(٢) المادية والتجـريبية الانتقـادية (٢٤) ، نقلا مـن كتـاب النظـرية المادية فى المعـرفة (١٦٣-١٦٤) .

(٣) مصادر الماركسية الثلاثة (٤) .

(٤) انظر مصادر الماركسية (٢٠) .

يؤكد على السخرية من كل مايرجع إلى المثالية[١].

ومن هنا (تؤكد المادية :

(١) أن حوادث العالم هى الأوجه المختلفة للمادة المحركة ، باعتبار أن المادة هى ماهو موجود خارج روحى وخارج كل روح والتى لاتحتاج لأية روح لكى توجد .

(٢) أن المادة هى ، بالتالى ، الواقع الأول وليست إحساساتنا وفكرنا سوى إنتاج هذا الواقع وانعكاسه .

(٣) يمكن للمعرفة المثبتة بالتجربة وبالممارسة العملية أن تنفذ نفاذا تاما إلى العالم وإلى قوانينه)[٢].

ومؤدى ماتذهب إليه الماركسية أن المادة هى الأصل ولاتحتاج إلى غيرها . وبالتالى فهم يرون أنه لايمكن الإيمان إلا بما هو محسوس مشاهد وخاضع للتجربة . ومن هنا جاء ثناؤهم على الفكر الحسى ، واعتبروه هو الذى سدد الضربة القاضية لكل التصورات الدينية . يقول بوليتزر : (إن الفكرة القائلة إن جميع المعارف تأتى من العالم الحسى ، عبر الحواس ، فكرة لها أهميتها العظيمة . فهى تمثل ، أولا ، قطيعة مع التصورات الصوفية بصدد أصل المعرفة . فقد كانت إحدى الحجج التى يتذرع بها لإثبات وجود الله القول بأن الإنسان يملك فى داخله فكرة الله الفطرية) .

ويقول : (كانت البرهنة على أن جميع أفكارنا تأتى من التجربة بمثابة دحض وتفنيد لنظرية الأفكار الفطرية ، وضربة قاصمة تسدد إلى اللاهوت والميتافيزيا)[٣].

---

(١) انظر المادية والمثالية (٤٦) .

(٢) النظرية المادية فى المعرفة (٥-٦) .

(٣) فلسفة الأنوار (٢٠-٢١) .

وإذا كانت البيئة الأوربية تشكل أرضا خصبة لنشأة الأفكار الإلحادية فإنها كذلك قد شكلت أساسا قويا لماركس وانجلز فى قيام ماديتهما . يقول بوليتزر نتيجة لما وصل إليه الفكر الأوربى فقد (تهيأت العناصر للمعركة الكبرى الفاصلة والنهائية التى ستشنها فلسفة الأنوار ضد كل ماتبقى من الأيديولوجيا القروسطية . هذه المعركة تمتد من النضال ضد المبادىء النظرية التى كان يستلهمها المجتمع الاقطاعى إلى النضال ضد مؤسساته . إنه نضال ضد اللاهوت ، ضد الميتافيزياء ، ضد مجمل المعتقدات الدينية ، ضد النظريات الاجتماعية والسياسية التى كانت تلك المبادىء بمثابة تبرير لها . إن فلسفة الأنوار بدحضها اللاهوت والميتافيزياء ، قضت على "هالة التكريس الإلهى" التى كانت الكنيسة قد أحاطت بها المؤسسات الاقطاعية)[١].

ومن مادية القرن الثامن عشر انطلق ماركس وانجلز فوضعا أصولهما المادية وأفكارهما الإلحادية . يقول لينين إن (ماركس لم يتوقف عند مادية القرن الثامن عشر ، بل دفع الفلسفة خطوات إلى الأمام . فأغناها بمكتسبات الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ، ولاسيما بمكتسبات مذهب هيغل ، الذى قاد بدوره إلى مادية فورباخ . وأهم هذه المكتسبات ، الديالكتيك ، أى نظرية التطور بأكمل مظاهرها وأشدها عمقا ، وأكثرها بعدا عن ضيق الأفق ، نظرية نسبية المعارف الإنسانية التى تعكس المادة فى تطورها الدائم)[٢].

ومن هنا فإن الفضل يرجع إلى ماركس وانجلز فى اكتشاف المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية حيث طبقا هذه النظرة المادية على جميع شئون الحياة الإنسانية . يقول بولتيزر : (كان ماديو القرن الثامن عشر قد تركوا هم أنفسهم مهمة يتوجب انجازها : تطبيق وجهة النظر المادية تطبيقا منطقيا متماسكا على التاريخ ، على دراسة تطور المجتمع . هذه المهمة المزدوجة هى

---

(١) فلسفة الأنوار (٢٣) .
(٢) مصادر الماركسية (٥) .

التى أنجزها ماركس وانجلز . انجاز المهمة الأولى هو المادية الجدلية ، وانجاز المهمة الثانية هو المادية التاريخية . كيف أنجز ماركس وانجلز هاتين المهمتين؟ كيف استخلصا (النواة العقلية) من جدل هيغل؟ ماالسمات الأساسية للمادية الجدلية والمادية التاريخية؟ هذا مايتيح "تاريخ الحزب البلشفى" لكل فرد اليوم أن يعلمه .

إن ماركس وانجلز هما اللذان تابعا تطوير مأثرة مادية القرن الثامن عشر . لهذا ألح لينين على كون المادية الجدلية الشكل الحديث للمادية . لكن ماركس وانجلز طورا فلسفة الأنوار جدليا ، أى بتجاوزها . لقد تجاوزا بالمنهج الجدلى الماركسى ، ضيق أفق مادية القرن الثامن عشر الذى كان نتيجة محتومة لوضع العلوم فى تلك الحقبة . وأبدعا فى الوقت نفسه المادية التاريخية . هكذا جرى لأول مرة تطبيق وجهة النظر المادية تطبيقا منطقيا متماسكا .

ولأن الماركسية هى وحدها التى أنجزت تلك المهام ، فإنها الوريثة والمتابعة الوحيدة لفلسفة الأنوار ، وهى وحدها التى يمكن أن تكون وريثتها ومتابعتها : فالمادية لايمكن أن تكون على مستوى العلوم الحديثة إلا إذا كانت جدلية ، ولاوجود لتصور علمى آخر للتاريخ سوى المادية التاريخية وهذه الأخيرة (تسحب مبادىء المادية الجدلية على دراسة ظاهرات الحياة الإجتماعية على دراسة الحياة الاجتماعية ، على دراسة تطور المجتمع)[١].

وعلى هذا وكما قلنا فإن جديد ماركس الذى جاء به ليس الجدلية ، ولاالمادية بحد ذاتها بل (المادية الجدلية) .

---

(١) فلسفة الأنوار (٤٠-٤١) .

المبحث الثانى
المادية الجدلية [الديالكتيك]

ينسب هذا المصطلح إلى كارل ماركس ، وقد مر معنا إيضاح معنى المادية فما المقصود بالجدلية (أو الديالكتيكية) .

كلمة ديالكتيك أخذت (من الكلمة اليونانية (ديالغو) ومعناها المحادثة والمجادلة)[١].

فالكلمة اغريقية ولها عدة معان منها الحوار[٢]، المحاجة ، فن النقاش[٣].

والجدل عند أفلاطون يعنى (علم الاستدلال الذى يكون بالفكر الصحيح والقياس المؤدى إلى علم حقيقة الشىء)[٤].

ويعرفه زينون الأيلى بقوله : (الجدل وسيلة لدحض رأى الخصم وذلك بالتسليم جدا لهذا الرأى ثم ارغام الخصم على أن يسلم بأن رأيه يؤدى إلى نتائج متناقضة)[٥].

---

(١) حكم الاسلام فى الاشتراكية (٣٨) ، ولمزيد من التفصيل حول هذه الكلمة انظر : نقض الإشتراكية الماركسية (٨) ، غانم عبده ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م ، دار الإيمان ، بيروت ، كواشف زيوف (٥٤٠-٥٤١) ، إنهيار الشيوعية أمام الاسلام (٣٧) ، الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٦٨) ومابعدها .

(٢) انظر موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (٢٩) .

(٣) انظر المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٢٧) .

(٤) أفلاطون فى الإسلام (٣٢٧) ، د. عبد الرحمن بدوى ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع .

(٥) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٢٧) . ولمزيد من التعريفات انظر : نفس المرجع (١٢٨) ، الكيد الأحمر (٣٤٨-٣٤٩) ، نقض أوهام المادية الجدلية (٢٣) د.محمد سعيد رمضان البوطى ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، دار الفكر ، دمشق سوريا .

ومن خلال عرض هذه التعريفات نجد أن الجدل لايخرج عن إثبات الحقيقة من خلال المحاورة والمجادلة مع الخصم وبيان التناقض فى أدلته . أو نبذ الأدلة الخاطئة والإبقاء على الأدلة الصحيحة(١).

ولكن هل استمر الديالكتيك بهذا المفهوم فى العصر الحديث؟

يقول الصدر : (إن الجدل الجديد ، لم يعد منهجا فى البحث وأسلوبا لتبادل الآراء بل أصبح طريقة لتفسير الواقع ، وقانونا كونيا عاما ينطبق على مختلف الحقائق وألوان الوجود فالتناقض ليس بين الآراء ووجهات النظر فحسب بل هو ثابت فى صميم كل واقع وحقيقة فمامن قضية إلا وهى تنطوى فى ذاتها على نقيضها ونفيها)(٢).

فالجدلية لم تأخذ طابعها الذى يخدم الماركسيين إلا فى الآونة الأخيرة ، وخاصة على يد العلماء الألمان الكلاسيكيين وعلى رأسهم هيغل رغم أنه لم يستخدمها كما استخدمها ماركس ، ولأجل ذلك اعتبرها ماركس مقلوبة لابد من إيقافها على قدميها . وعن فلسفة هيغل يقول : (يذهب الديالكتيك الهيجلى إلى أن لكل حجة حجة مضادة وأن الحجة والحجة المضادة تلتحمان وتكونان تركيبة جديدة تجمع بين الحجتين . ولأن الديالكتيك لايتوقف فإن هذه التركيبة الجديدة تصبح بدورها حجة تصدم بها حجة مضادة ليكونا أيضا حجة جديدة أو تركيبا جديدا . وهكذا دواليك . سلسلة لاتنتهى (إلا بالوصول إلى المطلق) من المركبات المتولدة والتى تجمع أبدا بين الأشياء ونقائضها . واستخدم هيجل الديالكتيك ليثبت به تطور الفكر الإنسانى نحو المطلق فى حين طبق ماركس الديالكتيك على الظواهر المادية)(٣). وقد أثنى

---

(١) انظر ماذكره الصدر بشأن ذلك فى كتابه فلسفتنا (٢٢١) .

(٢) فلسفتنا (٢٢١) .

(٣) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (٢٩) ، وانظر : نقض أوهام المادية الجدلية (٢٤-٢٦) ، فلسفتنا (٢٢٢) ، الكيد الأحمر (٣٤٨-٣٤٩،٣٥٢) ، ضمانات الحرية (٧٨) ومابعدها .

ماركس وانجلز على هيغل ولكن لم تكن نظريته تخدم كل توجهاتهم فاعتبروها بداية لما جاء عنهم فيما بعد .

واعتبر انجلز أن الديالكتيكية لها شكلان:

الأول : (الفلسفة اليونانية . وهنا لايزال الفكر الديالكتيكى يظهر فى بساطته البدائية ...) .

الشكل الثانى : (الشكل الأقرب إلى العلماء الطبيعيين الألمان ، فهو الفلسفة الكلاسيكية الألمانية من كانط إلى هيغل . هنا أرسيت بداية ما)[١].

فيرى انجلز أن فلسفة هيغل أرست البداية حتى إذا ماجاء ماركس أخرج الجدلية إلى النور . يقول انجلز : (إن مأثرة ماركس تقوم فى أنه ، على النقيض من "المقلدين الصاخبين ، المتصنعين والتافهين ، الذين يتبجحون فى ألمانيا اليوم" ، كان أول من انتشل المنهج الديالكتيكى من غياهب النسيان وأظهره إلى النور ، وبين ارتباطه بالديالكتيك الهيغلى ... وقام فى الوقت نفسه بتطبيق هذا المنهج فى "رأس المال" على وقائع علم تجريبى ، هو الإقتصاد السياسى . وقد تم له ذلك بنجاح باهر)[٢].

ومن هنا يقول انجلز (الديالكتيك ، بالذات ، يمثل اليوم أهم طرائق التفكير بالنسبة لعلوم الطبيعة ، إذ أنه الوحيد ، الذى يقدم النظير ، وبالتالى منهج التفسير ، لعمليات التطور التى تجرى فى الطبيعة ، وللروابط الشاملة فيها ، وللانتقالات من ميدان بحث إلى آخر)[٣].

---

(١) ديالكتيك الطبيعة (٥٠) .
(٢) المرجع السابق (٥١) .
(٣) المرجع السابق (٤٧-٤٨) .

المادية الجدلية (الماركسية) :

قلنا إن ماركس أخذ من هيغل جدليته ، وأخذ من فيورباخ ماديته ، فأنشأ جدلية مادية خاصة فيه ، وقد تأثر ماركس بهيغل وأخذ عنه الكثير . يقول لينين : (لقد كان ماركس وانجلز يريان فى ديالكتيك هيغل أوسع مذهب من مذاهب التطور وأوفرها مضمونا وأشدها عمقا وأثمن اكتساب حققته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية)[١]. ويرجع الفضل إلى ماركس وانجلز فى اخراج المادية الديالكتيكية وفصلها عن المثالية . يقول انجلز : (كان ماركس وأنا الوحيدين تقريبا اللذين خلصنا الجدلية الواعية من الفلسفة المثالية الألمانية وطبقناها فى المفهوم المادى عن الطبيعة والتاريخ)[٢].

ويقول بوشنسكى : (المادية الجدلية عبارة عن تركيبة تجمع بين الجدل الهيجلى وبين مادية القرن التاسع عشر الميلادى فى أوروبا)[٣].

وبهذا نلاحظ إدخال الطبيعة والتاريخ البشرى تحت الجدل ودراسته من خلال هذه الجدلية . يقول لينين : (فى أيامنا دخلت فكرة النمو ، فكرة التطور ، على نحو كلى تقريبا ، فى الوعى الإجتماعى ولكن عن طريق فلسفة هيغل بيد أن هذه الفكرة كما صاغها ماركس وانجلز ، بالاستناد إلى هيغل ، هى أوسع جدا وأغنى جدا فى محتواها من الفكرة الشائعة عن التطور . تطور يبدو وكأنه يستنسخ مراحل مقطوعة سابقا ولكن على نحو آخر وعلى درجة أرفع "نفى النفى" ، تطور على نحو لولبى ، إذا صح التعبير ، لاعلى نحو خط مستقيم ، تطور بقفزات وكوارث وثورات ، "انقطاعات فى التدرج" تحول الكمية إلى كيفية ، اندفاعات داخلية نحو التطور يثيرها التضاد والتصادم فى القوى والاتجاهات المتمايزة التى تعمل فى جسم معين أو فى حدود ظاهرة

---

(١) مصادر الماركسية (٢٣) .
(٢) انتى دوهرنغ (١٢) ، وانظر مصادر الماركسية (٢٣) .
(٣) الفلسفة المعاصرة فى أوروبا (١٠٦) .

أوفى قلب مجتمع معين ، تبعية متبادلة وصلة وثيقة لايمكن فصمها ، بين جميع جوانب كل ظاهرة (والتاريخ يكشف دائما عن جوانب جديدة وجديدة) ، صلة تحدد مجرى الحركة الوحيد ، المشروع ، الكلى : هذه هى بعض مميزات الديالكتيك بوصفه مذهبا للتطور أغنى من المذهب الشائع)[١].

يقول ميخايلوفسكى[٢]: (أطلق ماركس وانجلز تسمية الطريقة الديالكتيكية على عكس الطريقة الميتافيزيقية على الطريقة العلمية فى علم الاجتماع التى تقضى بأن المجتمع كالكائن الحى فى تطور دائم ... والذى لابد لدراسته من تحليل موضوعى لعلاقات الانتاج التى تكون مجمل التشكيلة الإجتماعية ودراسة قوانين عملها وتطورها)[٣].

فالمادية الجدلية الماركسية هى (علم القوانين العامة للحركة ، سواء أفى العالم الخارجى أم فى الفكر البشرى)[٤].

وبالتالى فالجدلية الماركسية ترى أن كل شىء متطور وغير ثابت سواء فى المجتمعات البشرية ، أو الأفكار أو الأخلاق ، فكل ذلك أخضعته الجدلية الماركسية لفكرة التطور . وأعلنوا أن جدليتهم أخرجت الجدل إلى واقع الممارسة العملية فيقولون : (إن ظهور المادية التاريخية والمادية الجدلية كان بمثابة الإعلان عن ظهور الفلسفة التى ستحدث انقلابا فى فهم العلاقة بين النظرية وبين الممارسة ، والتى ستعطى النظرية الفلسفية لأول مرة فى تاريخ البشرية طابعا اجتماعيا واقعيا حقا ، كما ستدخل "الممارسة" فى الفلسفة ، باعتبار كونها مقولة مثبتة علميا)[٥].

---

(١) مصادر الماركسية (٢٥) .

(٢) كاتب روسى ، زعيم الحركة الشعبية الليبرالية ، ولد عام ١٨٤٢م ومات عام ١٩٠٤م . انظر الماركسية قضايا أساسية ، فهرس الأعلام (١٢٤) .

(٣) نقلا من كتاب تاريخ النظريات الإقتصادية (٣١٤) .

(٤) مصادر الماركسية الثلاثة (٢٤) .

(٥) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٣-١٤) .

فقاموا بتطبيق الفكر الجدلى على المجتمع الإنسانى ، وكل مجالات الحياة من أخلاق وأفكار وأنظمة أى أنهم - وكما يزعمون - قاموا بتطبيقه عمليا ، وإذا كان ماركس قد أخذ من هيغل جدليته فإن هيغل توصل من خلالها إلى إثبات وجود (الله) وهو مايعبر عنه بالمطلق . أما ماركس فإنه استخدم هذا النهج لإلغاء هذه الفكرة ومن هنا كان بين الفيلسوفين فروقا عديدة من أهمها :

أولا : أن نظرية هيغل لاتستبطن إلحادا بل تؤكد على وجود الإله الخالق وأن هذه المخلوقات من صنعه . أما النظرية الماركسية فتقول بتأليه المادة وتنكر بالتالى وجود الخالق(١).

ثانيا : جعل ماركس العامل الإقتصادى فى ديالكتيكه هو المسيطر وهو الذى يفسر التاريخ البشرى ولم يجعل الفكرة شيئا مستقلا عن سائر العوامل الأخرى الواقعية والمتعارضة معه بل أدمج كلاً من الفكر والإجتماع والدين والسياسة معا وردها كلها إلى أسسها الإقتصادية باعتبارها هى أسس المادية المحركة عداها من نزعات البشر وهى التى تشكل العلاقات بين البشر وبالتالى فوسائل الإنتاج وطرقه هى المهيمنة على روابط الجماعة وهى التى تحدد شكل المجتمع ونظامه وتطوره .

وهذا التطور فى المجتمع إنما ينشأ كأثر للصراع بين الطبقات التى يحركها هذا العامل المادى(٢).

ثالثا : أن ماركس وانجلز لم يكتفيا باستخدام المادية وتطبيقها على قوانين الطبيعة بل طبقاها على المجتمع البشرى وعلى الدين والأخلاق والأفكار(٣).

---

(١) انظر : نقض أوهام المادية الجدلية (٤١-٤٢) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٨٨-٨٩) .

(٢) انظر ضمانات الحرية (٧٨-٧٩) .

(٣) انظر ماجاء فى كتاب سيرة حياة ماركس (٧٤-٧٥) .

وبعد هذا العرض نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن الماديين يرون أن المادة هى أصل الوجود ، وأن كل الموجودات انبثقت منها .

ثانيا : أن الماديين يرون أن المادة تطورت تطورا ذاتيا حتى وصل الكون عن طريقها إلى ماهو عليه الآن .

ثالثا : لايعترف الماديون إلا بالكون المادى ويعتبرونه هو الحقيقة الوحيدة لأنها تخضع للإدراك الحسى .

رابعا : يرى الماديون أن فكرة الإله من اختراع الإنسان متوهما وجود قوة تعينه وتساعده .

خامسا : يرى الماديون أن هذا الكون وجد مصادفة فهو ليس بحاجة إلى قوة أو هيمنة ترعاه .

سادسا : أن المادية حاربت كل فكر يقر بوجود قوة قادرة تسيطر على هذا الكون وبالتالى اتخذت من الفكر المثالى عدوا لدودا لها .

سابعا : أن الماركسية قامت بتطبيق الفكر المادى الجدلى على الطبيعة ، والمتغيرات الكونية . وبالتالى على المجتمع البشرى وعلاقاته لينفذوا من خلال ذلك لهدم الدين ، والأخلاق ، والقيم ، وكل الثوابت (وعبثا فعلوا).

ثامنا : بعد أن أعطوا المادة هذه الهالة كان لابد أن يمنحوها صفة الألوهية ، لأنها هى الخالقة . فقالوا بأزليتها وأبديتها . ونعرض لبعض من أقوالهم تلك .

المبحث الثالث
أزلية المادة وأبديتها وقوانينها عند الماديين

يقوم مذهب الماديين على تأليه المادة وإضفاء الصفات الإلهية عليها .

فهم يعتبرونها سابقة فى الوجود على الفكر فى الأصل الذى يتفرع منه غيره فحكموا لها بأنها أزلية ومن ثم فهى أبدية لاتفنى . ونظرتهم للكون أنه ليس له بداية حتى يكون له نهاية . فالمادة هى الخالقة (بل إنها عندهم غير قابلة للخلق) .

يقول انجلز : (نظرا لما نعرف نحن لايمكن خلق المادة والحركة أو الطاقة كما يقال فى الوقت الحاضر ولايمكن إبادتها بيد أنه ليس لنا أى دليل على أنها لم تخلقا فى وقت من الأوقات نجهله نحن ...)[١].

وقد أعطوا المادة السرمدية من دون كل شىء ، ولو تأثرت المادة أو تحولت فهى باقية على ماهى عليه من كونها الأصل الأول .

يقول انجلز : (إن القول بتعاقب العوالم ، الذى يتكرر أبدا ودائما فى الزمن اللامتناهى ، ليس إلا إضافة منطقية إلى القول بعوالم ، لامتناهية العدد ، توجد فى آن واحد فى الفضاء اللامحدود ... هذا هو دوران المادة السرمدى ، دوران لاينجز سبيله إلا فى حقبات من الزمن ، لايمكن أن تقوم سنتنا الأرضية بدور وحدة قياس كافية بالنسبة لها ، دوران ، كان فيه زمان التطور الأعلى ، زمان الحياة ـ ناهيك عن زمان حياة الكائنات التى تعى ذاتها وتعى الطبيعة ـ ضئيلا ضآلة المكان ، الذى ضمن حدوده توجد الحياة والوعى ، دوران ، يكون فيه عابرا أى شكل محدود لوجود المادة ـ سواء أكان الشمس أم السديم ، حيوانا منفردا أم نوعا حيوانيا ، تركيبا كيمائيا أم تحليلا دوران ، لاشىء سرمدى فيه سوى المادة ، المتغيرة أبدا والمتحركة

---

(١) المادية والمثالية (١٧-١٨) .

أبدا ، وكذلك قوانين حركتها وتغيرها . ولكن مهما تكرر هذا الدوران فى الزمان وفى المكان ، ومهما اشتدت ضراوته ، ومهما نشأ وهلك من ملايين الشموس والأراضى ، ومهما امتد الزمن قبل أن تظهر فى إحدى المنظومات الشمسية ، وفى كوكب واحد فقط ، الشروط الملائمة للحياة العضوية ، ومهما كثرت الكائنات العضوية ، التى لابد أن تنشأ وتزول قبل أن تنبثق وتتطور من بينها حيوانات ، تملك دماغا قادرا على التفكير ، وتجد لفترة قصيرة ، الظروف الملائمة لحياتها ، لكى يقضى عليها ، فيما بعد ، دونما شفقة ولارحمة ، فإننا على يقين بأن المادة رغم كل تحولاتها ، تبقى هى هى إلى الأبد ، وأنها لايمكن أن تفقد أبدا أيا من خواصها ، وأنه لابد لها ، لهذا السبب من أن تبعث من جديد ، فى مكان آخر وفى زمان آخر ، أسمى زهراتها ـ الروح المفكرة ، وذلك بنفس الضرورة الصارمة ، التى ستبيد بها ، ذات يوم هذه الزهرة من على سطح الأرض)[١].

فالمادة عند الماركسيين هى الخالقة ، وهى بالتالى أزلية فى وجودها ، وكذلك أبدية فلانهاية لها . يقول مالك بن نبى : يرى الشيوعيون أن المادة (هى العلة الأولى لذاتها وهى أيضا نقطة البدء فى ظواهر الطبيعة وبديهى أنه لايحق لنا أن نعد المادة شيئا عرضيا "حادثا" إذ أنها حينئذ ستكون منبثقة عن بعض الأشياء ، أى سبب خالق مستقل وهذا يتنافى مع الغرض وإذن وبكل بساطة هى موجودة وهى أيضا غير مخلوقة)[٢].

فذهب الماديون (إلى أن المادة وجدت أولا وأن الفكر وجد تاليا لها وأنها فى رأيهم أزلية لم يخلقها أحد وأنها أبدية ولاتوجد قوة فوق الطبيعة أو خارج العالم ...)[٣].

---

(١) ديالكتيك الطبيعة (٤٢-٤٣) .

(٢) الظاهرة القرآنية (٧١) ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) المرجع السابق (١٧-١٨) .

فالمادة هى الإله وجاءت مقولتهم المشهورة (لاإله والحياة مادة) وقد جعلوا لهذه المادة قوانين أربعة .

قوانين المادة :

(١) الترابط .
(٢) الحركة .
(٣) التطور .
(٤) التناقض[١].

وهذه لمحة عن كل قانون من هذه القوانين .

أولا : الترابط :

يرى الماديون أن الطبيعة وحدة متماسكة مترابطة الأحداث فلايمكن أن يفهم حدث أو طور بمعزل عن الأحداث والأطوار الأخرى المحيطة به .يقول انجلز : (إن كل الطبيعة ، التى بمتناولنا ، تشكل منظومة ، كلا مترابطا من الأجسام)[٢].

وقد تحدث ستالين عن هذا القانون فقال : (إن الديالكتيك خلافا للميتافيزيقية لايعتبر الطبيعة تراكما فرضيا للأشياء ، أو حوادث بعضها منفصل عن بعض أو أحدها منعزل مستقل عن الآخر بل يعتبر الطبيعة كلا واحدا ومتماسكا ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطا عضويا ويتعلق أحدها بالآخر ويكون بعضها شرطا لبعض بصورة متقابلة لذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية : أن أى حادث من حوادث الطبيعة لايمكن فهمه إذا نظرنا إليه منفردا بمعزل عن الحوادث المحيطة به إذ أن أى حادث فى أى

---

(١) انظر : نقد النظرية الماركسية (١٥-١٦) ، هادى المدرسى ، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، وانظر ديالكتيك الطبيعة (٦٥) ، الإشتراكية العربية (١١٤) ، الفكر الماركسى (٣٢) .
(٢) ديالكتيك الطبيعة (٧٤) .

ميـدان من ميادين الطبيعة يمكن أن ينقلب إلى عبث فارغ لامعنى لـه إذا نظر إليـه بمعزل عن الشروط التى تكتنفه ، وعلى العكس ، يمكـن فهم أى حادث من الحوادث وتبريره ، إذا نظـر إليـه مـن حيـث ارتبـاطه ارتبـاطا لاينفصـم بالحوادث المحيطـة به ، أى إذا نظـر إليـه كمـا تحدده وتكيفـه الحوادث التى تحيط به)[١].

فهـذا القـانون يهـدفون مـن ورائه إلى القـول بأن أى حادث يقـع فى الكون لايمكن فهمه أو تفسيره إلا من خلال النظر للحوادث الأخرى لوجود الترابط بينهـا ، وهم بهذا يريدون أن يجعلـوا للحوادث والمتغيرات الكـونية تفسيرا مـن داخلهـا ، أو مـن داخل هذا الكون حتى لايقـال بأن هنـاك قوة تهيمن عليه وتسيطر على أحداثه .

يقول بوشنسكى : (يرى الماديون الجدليون أنه ينبغى أن نتصور العالم على هيئـة كل موحد وعلى خلاف الميتـافيزيقا التى تجد فى العـالم على مايقول الماركسيون موجودات متعددةلارباط بين بعضها والبعض فإن الماديين الجدليين يعلنـون مـذهب الـواحدية وذلـك بمعنى مـزدوج فالعالم عنـدهم هـو الحقيقـة الـوحيدة فلاشـىء خارج العـالم وعلى الأخص (الإلـه) ومبـدأه متجـانس فى جوهره فينبغى رفض القول بالثنائية أو بالتعددية على أنه خطأ)[٢].

ثانيا : قانون الحركة :

يعتبر الماديون أن الحركـة صفـة ملازمة للمادة ولايمكـن فصـل الحركـة عنها ، ولايمكن السؤال من أين اكتسبت المادة هذه الحركة لأن المادة أزلية ، والحركة شكلا من أشكال وجودها .

---

(١) المادية الـديالكتيكية والمادية التاريخية (١٥-١٦) نقلا مـن كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (١٣٥) .

(٢) الفلسفـة المعاصرة فى أوروبا (١١١-١١٢) ، وانظر الشيوعيـة والأديان(١٧) ، طارق حجى ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، مطبوعات الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية .

يقول انجلز : (إن الحركة هى شكل وجود المادة ، وبالتالى فهى أكثر من مجرد إحدى خصائصها فلامادة دون حركة ، ولايمكن أنها كانت فى أى يوم من الأيام .. الحركة فى الفضاء الكونى ، والحركة الميكانيكية للكتل الصغرى على أى جرم سماوى معين ، واهتزاز الجزئيات على اعتباره الحرارة أو التوتر الكهربائى أو الاستقطاب المغناطيسى أو التحلل والتركيب الكيمائيين ، والحياة العضوية حتى منتجها الأعلى الذى هو الفكر - إن كل ذرة مفردة من المادة فى كل لحظة معينة هى فى هذا الشكل أو ذاك من أشكال الحركة .. وإن أى توازن إما أن يكون سكونا نسبيا أو حتى حركة فى حالة التوازن ، كما هى حال الكواكب ، ولايمكن تصور السكون المطلق إلا فى حالة إنعدام المادة ، وهكذا فإنه لايمكن للحركة بحد ذاتها أو لأى شكل من أشكالها أن تنفصل عن المادة أو تتعارض معها على اعتبارها شيئا منفصلا أو غريبا دون أن يؤدى ذلك إلى السخف والعبث)[١].

ويقول : (إن المادة لاتعقل بدون حركة)[٢].

ثالثا : قانون التطور فى الطبيعة :

وهذا من أهم القوانين التى اعتمد عليها الماركسيون ومن عداهم من الماديين ، والمقصود منه الانتقال من وضع إلى آخر ، ويعبرون عن ذلك الانتقال التحول من الكم إلى الكيف ، وهذا التحول يحدث بشكل مفاجىء وعلى شكل قفزات حتمية وضرورية ، ومما يذكر هنا أن ماركس قد جعل من نظرية داروين مصدرا له . يقول انجلز : (قانون تحول الكم إلى كيف ، وبالعكس يمكن ، تبعا لما نتوخاه ، أن نعبر عن هذا القانون بقولنا : إن التحولات الكيفية فى الطبيعة - هذه التحولات المحددة بدقة فى كل حالة

---

(١) انتى دوهرنغ (٤١١) .

(٢) ديالكتيك الطبيعة (٧٤) وانظر مابعدها ، فقد أفاض انجلز فى الحديث عن هذا القانون .

فردية ـ لاتحدث إلا بإضافة كمية ، أو طرح كمى للمادة أو الحركة "المدعوة طاقة")[١].

والماركسيون يهدفون إلى أن هذا التغيير هو القضاء على القديم وإقامة الجديد مقامه .

وقد ضرب انجلز أمثلة كثيرة فى كتابه انتى دوهرنغ[٢]، ومنها قوله بعد ضربه عدة أمثلة :

(وإن الأمر سواء فى التاريخ أيضا[٣]. إن سائر الشعوب المتحضرة تبدأ بالملكية الجماعية للأرض . وأن هذه الملكية الجماعية لتصبح ، مع سائر الشعوب التى تجاوزت مرحلة بدائية معينة ، قيدا يعوق الانتاج فى سياق تطور الزراعة . وهكذا فهى تلغى ، تنكر ، وتحول بعد سلسلة تطول أو تقصر من المراحل المتوسطة إلى الملكية الخاصة . بيد أن الملكية الفردية للأرض تصبح على العكس من ذلك ، فى مرحلة عليا من التطور الزراعى تم بلوغها بفضل الملكية الخاصة للأرض نفسها ، إلى قيد يعوق الانتاج ، كما هى الحال فى الوقت الراهن بالنسبة إلى الملكية العقارية الصغيرة والكبيرة على حد سواء . وينشأ بالضرورة المطلب الذى ينادى بإنكارها هى الأخرى ، بضرورة تحويلها مرة أخرى إلى ملكية جماعية . بيد أن هذا المطلب لايعنى إرجاع الملكية الجماعية الأولية ، بل إقامة شكل للملكية الجماعية أعلى وأكثر تطورا بما لايقاس ، شكل هو أبعد مايكون عن القيام . عقبة كأداء فى سبيل الإنتاج ، بل على النقيض من ذلك سوف يحرر الإنتاج من سائر الأغلال ويمكنه من أن يستخدم على أكمل صورة الاكتشافات الكيمائية والاختراعات الآلية الحديثة)[٤].

---

(١) ديالكتيك الطبيعة (٦٦) .
(٢) انظر الحديث عن هذا الموضوع (١١٥-١١٧) وبعض الأمثلة .
(٣) أى أن هذا التطور يقع .
(٤) انتى دوهرنغ (١٦٥) .

وهكـذا يوظفون القانون فى خدمة مذهبهم ، وقد جعلـوا هذا القانون يعمل فى كل الاتجاهات .

يقـول بوشنسكى : (يرى الماركسيون أن المادة فى تحول وتطـور دائمين وبسبـب هذا التطور تتكون دوما موجودات جديدة أكثر تعقيـدا من سابقاتها الـذرات الجزئيـات الخلايا الحيـة النبـاتات الإنسـان المجتمعـات . ولايتصـور الماديون الجدليـون التطور على الشكل الدائرى بل هـو تطور خطى أو طولى وهـو بهذا يعد بمعنى ما من المعـانى تطورا تفاؤليا ، ذلـك أن آخر حلقـة منه هى دائمًا أكثر تعقيدا وتركيبـا ويوازى الماركسيـون بين الأكثر تعقيـدا والأفضـل أو الأعلى وهكـذا نجد الماديين الجدليين لايزالـون متشبعين تمامـا بالاعتقاد الذى كان سائدا فى القرن التاسع عشر الميلادى فى الفكر الغربى بأن التطور يؤدى بالحتم إلى التقدم)[١].

وهـذا التطـور يكـون على هيئـة سلسلـة من الطفرات ، فحين تتراكـم مجموعة من التغيرات الكمية الصغيرة فى داخل وجود الشـىء فإنه ينتج عنها نوع مـن التـوتر ومن الصراع حتى لتصبـح هـذه العناصـر الجديدة فى لحظـة معينة قوية إلى درجة تجعلها قادرة على كسر التوازن السابق فى وجود الشىء وفجـأة تظهر كيفية جديدة فـالصراع هو القوة الدافعـة للتطـور ويحدث هذا عن طريق قفزات مايسمونه بالتطـور الجدلى[٢]. وهذا التطور يقع حسب خط مرسوم يسير فيه لايمكن بحال من الأحوال تغيره أى أن ذلـك التطور حتمى يستحيل الوقوف فى طريقه فـ(المجتمع متغير بالضرورة ولكنـه يسير فى طريق

---

(١) الفلسفة المعاصرة فى أوروبا (١١٠-١١١) .

(٢) انظر فلسفة أوروبا المعاصرة (١١٠-١١١) ، ولمزيد انظر : الفكر الماركسى (٣٥-٣٦) الاشتراكية العربية (١١٦-١١٧) ، فلسفتنا (٢٨٢) ، الفكر المادى فى موازين الإسلام (٥٢) ، د. صـابر طعيمة ، الطبعـة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مـؤسسة جواد للطباعة والتصـوير ، بيروت ، لبنان ، جهود المفكرين المسلمين المحـدثين فى مقاومة التيار الإلحادى (٢٠١) .

مرسوم لايمكن أن يتغير ويمر بمراحل عينتها من قبل ضرورة لاتلين)[١].

يقول ماركس : (إذا مااكتشف مجتمع من المجتمعات قانونه الطبيعى الذى يعين حركته فلن يمكنه ذلك من تخطى المراحل الطبيعية لتطوره أو حذفها من الوجود بجرة قلم)[٢].

إن الهدف الأكبر الذى يرغب هؤلاء الجدليون فى الوصول إليه من وراء هذا القانون هو أنه ليس هناك شىء ثابت ، لاالدين ، ولاالأخلاق ، ولاالمجتمعات الإنسانية . يقول بوشنسكى عن مؤدى هذا القانون : (لايوجد شىء ثابت فالعالم كله وكافة عناصره فريسة للتطور الجدلى ، والقديم يموت وينشأ الجديد دائما ، وفى كل مكان فليس هناك من جواهر دائمة ولامن مبادىء خالدة . الذى يبقى وحده دائما خالدا فى الحركة الكونية هو المادة من حيث هى مادة وقوانين تحولاتها)[٣].

رابعا : قانون التناقض فى الطبيعة :

يقوم الجدل على فكرة وجود التناقضات فكل ظاهرة تشتمل على تناقضات داخلية لأن فيها السلب والإيجاب ، ولها ماض وحاضر ، وتوجد الحرارة والبرودة ، ويوجد النور والظلام . ومن هنا يقع الصراع وينشأ وضع جديد .

واعتبر لينين أن الجدلية وحقيقتها تكمن فى هذا القانون فقال : (إن المعنى الدقيق للجدلية هو دراسة التناقضات داخل ذات جوهر الأشياء)[٤]. وهذا الصراع ينتج جديداً يحمل التناقض من داخله وهكذا .

---

(١) عقم المذهب التاريخى (٦٧) كارل بوبر ، ترجمة عبد الحميد صبره ، ١٩٥٩م ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) المرجع السابق (٦٧) .

(٣) الفلسفة المعاصرة فى أوروبا (١١١) .

(٤) نقلا من كتاب حوار مع الشيوعيين (١٢٩) ، وانظر فلسفتنا (٢٥٤) .

ويطبق الماركسيون فلسفتهم على أساس هذه القوانين فيرون أنه من خلال هذا القانون ستصل البروليتاريا إلى مبتغاها . يقول د. صفوت : (إن الصراع حتم بين البرجوازية والبروليتاريا لأن مصالح الطبقتين متعارضة تماما البرجوازية تعمل بكل جهدها على الإبقاء على نفوذها وسيطرتها السياسية والإقتصادية والإجتماعية . بينما تحاول البروليتاريا التحرر من الاستغلال السياسى والإقتصادى والإجتماعى ، هذا الصراع الحتمى بين هاتين الطبقتين المتعارضتين يؤدى بالضرورة إلى الثورة الإشتراكية ، وهى وحدها القادرة على حل التناقضات العدائية للرأسمالية)[١].

فهذه قوانين الجدلية (أوقوانين المادة) فأين مكان تطبيقها؟

يجيب انجلز على هذا التساؤل فيقول : (الطبيعة هى محك الجدلية ، ويجب أن نعترف للعلم الحديث بأنه قدم لهذا المحك حصادا غنيا جدا من الحقائق المتزايدة يوميا ، وبذلك بين أن الطبيعة ، فى آخر تحليل ، تعمل جدليا لاميتافيزيائيا [إنها لاتتحرك فى الرتابة الأبدية لدائرة متكررة بصورة متواصلة ، بل تجتاز تطورا تاريخيا حقيقيا .

ولابد فى هذا المضمار من الاستشهاد بدارون قبل سواه ، إذ وجه إلى المفهوم الميتافيزيائى عن الطبيعة اللطمة الأشد وطأة حين برهن على أن سائر الكائنات العضوية ، من نبات وحيوان بما فى ذلك الانسان نفسه ، هى نتاج عملية من التطور استمرت ملايين السنين ...) .

ويقول : (لايمكن الحصول على تصوير مضبوط للكون ، ولتطوره ، ولنمو الجنس البشرى ، ولانعكاس هذا التطور فى أذهان البشر ، إلا بواسطة طرق الجدلية باعتبارها المتصل لأفعال الحياة والموت وردود أفعالها التى لاتحصى ، وللتغيرات التقدمية والتخلفية)[٢].

---

(١) الفكر الماركسى (٣٣-٣٤) . وانظر : جهود المفكرين المسلمين المحدثين فى مقاومة التيار الإلحادى (٢٠٠-٢٠١) ، الإشتراكية العربية (١١٥) ، الفكر المادى فى ميزان الاسلام (٥٢) ، وانظر مصادر الماركسية (١٦-١٧) .

(٢) انتى دوهرنغ (٢٩) .

ومن هنا قاموا بتطبيق تلك القوانين على تاريخ المجتمع البشرى وكان ذلك الاكتشاف ـ إن صح التعبير ـ يعد ماركسيا . جاء عن الماركسيين قولهم (لأول مرة فى تاريخ البشرية تتحقق الوحدة الداخلية بين المادية الجدلية فى إطار مذهب متكامل . وقد تحققت هذه الوحدة نتيجة تكوين الجدلية العلمية واستخدام المادية الجدلية فى تحليل تاريخ البشرية . لقد أشار لينين إلى أن صوغ الجدلية المادية ، المقرونة بواقع الحياة من كافة جوانبها ، كان القضية الرئيسية فى نشاط ماركس وانجلز الفلسفى ، أما النتيجة المهمة التى توصلا إليها فكانت الفهم المادى للتاريخ ، ذلك أن (مادية ماركس التاريخية هى أعظم مكتسبات الفكر العلمى)[١].

وهذه المادية بقوانينها قام الماركسيون بتطبيقها على المجتمع البشرى ، والتاريخ الإنسانى ، والأفكار والقيم والأخلاق الموجودة فيه ، فجاؤوا ببدعة جديدة وهى التفسير المادى للتاريخ . أو (المادية التاريخية) .

---

(١) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٤) .

المبحث الرابع
المادية التاريخية

يعتبر الماركسيون أن محيط اختبار قوانينهم الجدلية إنما هو الطبيعة ، وعلى هذا الأساس قاموا بتطبيقها على التاريخ الانسانى بكل مافيه . يقول انجلز : (الطبيعة هى محك الجدلية ويجب أن نعترف للعلم الحديث بأنه قدم لهذا المحك حصادا غنيا جدا من الحقائق المتزايدة يوميا ...)[١].

ولكن ماالذى حمل ماركس على تطبيق هذه القوانين على المجتمع البشرى ؟

(١) أراد تعميم فكرة المادية على كل شىء .

يقول لينين : (أدرك ماركس خلو المادية القديمة من المنطق ، وعدم اكتمالها ، وطابعها الوحيد الجانب . فاقتنع بأنه يجب جعل علم المجتمع منسجما مع الأساس المادى ، وإعادة بنائه استنادا إلى هذا الأساس)[٢].

(٢) أراد الوصول إلى إنكار الثوابت من الأفكار الدينية والقيم الأخلاقية موهما الآخرين بأن هذه القوانين حقائق علمية لايمكن ردها .

فقامت الماركسية بتطبيق قوانينها (على حركة التاريخ وتطور الشعوب وبنت نظريتها تلك على أساس أن المجتمعات البشرية تمر فى مراحل حياة تطورها بصورة تراتبية حتمية من البدائية الشيوعية (المشاعية) إلى مرحلة العبودية ، فالمرحلة الإقطاعية ، فالمرحلة الرأسمالية ، فالمرحلة الإشتراكية التى تعتبر أهم مرحلة تمهد لمجىء مرحلة التكامل الإنسانى فى الشيوعية المثالية . وأن كل مرحلة من هذه المراحل تحمل فى طياتها تناقضات واقعها وصراع الأضداد فيها بين طبقة مصالح الملكية القائمة وبين طبقة مصالح القوى المنتجة

---

(١) انتى دوهرنغ (٢٩) ، انظر مصادر الماركسية (٢٣) .
(٢) مصادر الماركسية (٢٥) .

أى بين الطبقة الإجتماعية التى تتفق مصلحتها مع علاقات الملكية القائمة وبين الطبقة الإجتماعية التى تتفق مصلحتها مع متطلبات القوى الفاعلة والمنتجة ومستلزماتها فى تطور أوضاعها الإجتماعية والإقتصادية)[١].

ويرى لينين أن مفهوم المادية التاريخية التى جاء بها ماركس قضت (على عيبين رئيسيين فى النظريات التاريخية السابقة : أولا : لم تكن هذه النظريات تأخذ بعين الاعتبار ، فى أحسن الحالات ، غير الدوافع الفكرية لنشاط الناس التاريخى ، دون أن تبحث عما يولد هذه الدوافع ، دون أن تدرك القوانين الموضوعية التى تسير تطور نظام العلاقات الإجتماعية ، دون أن ترى جذور هذه العلاقات فى درجة تطور الإنتاج المادى .

ثانيا : كانت النظريات السابقة تهمل ، على وجه الضبط ، عمل جماهير السكان بينما مكنت المادية التاريخية ، لأول مرة ، من دراسة الظروف الإجتماعية لحياة الجماهير ، ومن دراسة تغيرات هذه الظروف بدقة العلوم الطبيعية . لقد كان "علم الإجتماع" وعلم التاريخ قبل ماركس يكدسان فى أحسن الحالات وقائع خام ، مجموعة كيفما اتفق ، ويعرضان بعض الجوانب من حركة تطور التاريخ . لقد شقت الماركسية الطريق أمام دراسة شاملة لعملية نشوء تشكيلات المجتمع الإقتصادية وتطورها وإنهيارها ، وذلك بتحليلها مجموعة الميول المتناقضة وردها إلى ظروف المعيشة والإنتاج ، الواضحة المعالم ، لمختلف طبقات المجتمع ، وبابعادها اختيار الأفكار "القائدة" أو تأويلها على نحو ذاتى واعتباطى ، وبكشفها عن جذور جميع الأفكار وجميع الميول المتباينة فى أوضاع القوى المنتجة المادية دون استثناء إن الناس هم صانعوا تاريخهم)[٢]. فما هى المادية التاريخية؟

---

(١) معالم الاشتراكية العربية (٤٧) .

(٢) مصادر الماركسية الثلاثة (٢٧-٢٨) .

المادية التاريخية :

هى تطبيق قوانين الجدل على المجتمعات الإنسانية من خلال التطورات الإقتصادية . يقول انجلز : (إن المفهوم المادى للتاريخ ينطلق من الموضوعة القائلة إن الانتاج [إنتاج وسائل دعم الحياة الإنسانية] ، ومن بعد الإنتاج مبادلة الأشياء المنتجة ، هو أساس كل البنية الإجتماعية ، وأن الطريقة التى يتم بها توزيع الثروة وانقسام المجتمع إلى طبقات أو فئات ترتبط ، فى كل مجتمع ظهر فى التاريخ ، بالأشياء المنتجة ، وكيفية إنتاجها ، وكيفية مبادلة المنتجات . ومن وجهة النظر هذه ، فإنه ينبغى البحث عن الأسباب الأخيرة لسائر التبدلات الإجتماعية والثورات السياسية ليس فى أدمغة البشر ، ليس فى فهمهم النامى للحقيقة والعدالة الأبديتين ، بل فى التبدلات الطارئة على أساليب الانتاج والمبادلة ، إنه ينبغى البحث عن هذه الأسباب ليس فى الفلسفة ، بل فى إقتصاديات كل فترة تاريخية معينة)[١].

وقد تعددت التعاريف للمادية التاريخية وكلها تجمع على أن الهدف منها أى المادية التاريخية تفسير الأفكار والأخلاق وأمور السياسة والاجتماع تفسيرا إقتصاديا ، حيث عرفت المادية التاريخية بأنها : (علم قوانين الإنتاج فى تطوره ونموه ونتائجه الإجتماعية فى مختلف الحقول الإقتصادية والسياسية والفكرية) .

أو (هى علم الاقتصاد الماركسى ، الذى يفسر التاريخ كله تفسيرا اقتصاديا فى ضوء القوى المنتجة)[٢]. فهى تعنى (أن العلاقات الإقتصادية فى

---

(١) انتى دوهرنغ (٣٢١) .

(٢) اقتصادنا (٢١٣) ، محمد باقر الصدر ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دون ذكر لرقم الطبعة ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، وانظر فلسفتنا (١٥٩-١٦٠) .

أى عصر من العصور والوسائل التى يستمد بها الناس وسائل إنتاجهم وتبادلهم للسلع وبالتالى طرائق حياتهم معاشهم - تؤثر أعظم الأثر فى صياغة شكل المجتمع وفى تشكيل العلاقات السياسية والإجتماعية بين الناس)[١].

وتشكل المادية التاريخية الأساس الثانى الذى تقوم عليه الفلسفة الماركسية ، بل هى تطبيق للقوانين الجدلية على أحداث التاريخ الإنسانى وتفسيرها حسب العلاقات الإنتاجية . ومن هنا كان العامل الإقتصادى عندهم هو العامل المؤثر فى الحياة الإنسانية وتخضع كل الحوادث لهذا العامل وتفسر بناء عليه .

فاهتم الماركسيون بها اهتماما كبيرا ، واعتبروا أن العلمية ماتحققت فى الماركسية إلا بعد أن تم الكشف عن هذه المادية . يقول انجلز : (إننا لندين لماركس بهذين الاكتشافين العظيمين ، ألا وهما المفهوم المادى للتاريخ وكشف سر الانتاج الرأسمالى بواسطة القيمة الفائضة . ولقد أصبحت الإشتراكية علما بفضل هذين الاكتشافين . وأضحت المهمة التالية هى إيضاح سائر تفاصيلها [وعلاقاتها])[٢].

ومن هنا فسرت الماركسية المجتمع الإنسانى والأحداث التاريخية على هذا الأساس (فهى ترى أن التناقض الطبقى فى صميم المجتمع تعبير عن قانون التناقضات فى الديالكتيك القائل أن كل شىء يحتوى فى أعماقه على تناقضات وأضداد وتنظر إلى التطور الإجتماعى بوصفه حركة ديناميكية منبثقة عن التناقضات الداخلية طبقا لقانون الحركة الديالكتيكية العام القائل

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٥٥) . ولمزيد من التعريفات انظر : الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٨٥) ، الإشتراكية العربية (١١٨) ، الكيد الأحمر (٣٥٦) ، الفكر المادى فى موازين الإسلام (٩) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٧) ، نقض الإشتراكية الماركسية (١٤٥) ، موقف العلم من الدين (٤٨) .

(٢) انتى دوهرنغ (٣٥) .

إن كل كائن يتطور لابحركة ميكانيكية وقوة خارجية تدفعه من ورائه بل بسبب التناقضات التى تنمو فى صميمه وتنفجر وتؤمن بتراكم التناقضات الطبقية شيئا فشيئا حتى تحين اللحظة المناسبة لتتفجر عن تحول شامل فى بناء المجتمع ونظامه وفقا للقانون الديالكتيكى القائل إن التغيرات الكمية التدريجية تتحول إلى تغير كيفى آنى ، وهكذا حاولت الماركسية أن تجعل من المجال التاريخى عن طريق ماديتها التاريخية حقلا خصبا لقوانين الديالكتيك العامة)[١].

ومن هنا فالترابط قائم بين الماديتين كيف لا والأخيرة (وهى المادية التاريخية) ليست إلا تطبيقا عمليا لقوانين الأولى (المادية الجدلية) على المجتمع البشرى . بل إن المادية التاريخية (من أخطر النتائج المترتبة على المادية الديالكتيكية المتعلقة بالطبيعة وأحكامها)[٢].

الأسس التى يقوم عليها التفسير المادى للتاريخ :

أولا : أن الانتاج المادى هو أساس الحياة البشرية وأساس التاريخ الإنسانى .

ثانيا : أن قوى الإنتاج هو المقياس الذى يقاس به كل شىء .

ثالثا : أن العمل الذى يؤدى إلى الإنتاج هو محور الحياة .

رابعا : أن علاقات الإنتاج هى التى تشكل المجتمع البشرى والفكر الانسانى ويعول عليها الشيوعيون كثيرا .

وعلى ضوء هذه الأسس فإن الأفكار والأخلاق والأنظمة الإجتماعية من أسرة وغيرها تخضع لهذه الأسس .

يقول ماركس : (ماهو المجتمع مهما كان شكله؟ إنه نتاج عمل الناس المتبادل هل الناس أحرار أن يختاروا لأنفسهم هذا الشكل أو ذاك من

---

(١) إقتصادنا (٥٤) .

(٢) نقض أوهام المادية الجدلية (٥٥) ، وانظر جهود المفكرين المسلمين المحدثين فى مقاومة التيار الإلحادى (٢٠٥) .

أشكال المجتمع ، كلا مطلقا افترض حالة من التطور خاصة فى القوى المنتجة للإنسان وعندها سوف تحصل على شكل خاص للتجارة والاستهلاك ، افترض مراحل خاصة من التطور فى الإنتاج وعندها سيكون للتجارة والاستهلاك دستور إجتماعى مماثل وتنظيم للأسرة وأنظمة للطبقات وبكلمة مجتمع مدنى مماثل افترض مجتمعا مدنيا خاصا وسوف تحصل على شروط سياسية خاصة هى التعبير الرسمى فقط عن المجتمع المدنى ...) .

(إن من نافلة القول أن نضيف أن الناس ليسوا أحرارا فى اختيار قواهم المنتجة ـ التى هى قاعدة كل تاريخهم لأن كل قوة انتاج إنما هى قوة حاصلة ، هى نتاج فعالية سابقة القوى المنتجة هى نتيجة الطاقة البشرية العملية ، ولكن هذه الطاقة نفسها مشروطة بالظروف التى يجد فيها الناس أنفسهم ، مشروطة بالقوى المنتجة الحاصلة سابقا ، مشروطة بالشكل الإجتماعى الذى يوجد قبل أن يفعلوا هم شيئا ، الذى لايخلقونه ، الذى هو نتاج الجيل السابق ، وبسبب هذه الحقيقة البسيطة وهى أن كل جيل لاحق يجد نفسه يملك قوى منتجة حاصلة من الجيل السابق التى تخدم كمادة أولية للإنتاج الجديد ، فإن مطابقة نقوم فى التاريخ البشرى فتاريخ البشرية يتخذ شكلا هو تاريخ البشرية كقوى منتجة للانسان ، ولذلك فإن علاقاته الاجتماعية تطورت أكثر . ويتبع ذلك بالضرورة أن التاريخ الإجتماعى للناس ليس شيئا آخر سوى تاريخ تطورهم الفردى ، سواء وعوا ذلك أم لم يعوا ، وعلاقاتهم المادية هى أساس كل علاقاتهم . هذه العلاقات المادية هى الأشكال الضرورية فقط التى تتحقق فيها مادتهم ونشاطهم الفردى)[١].

ويقول : (إن الناس ، أثناء الانتاج الاجتماعى لحياتهم ، يقيمون فيما بينهم علاقات ضرورية ، مستقلة عن إرادتهم . وتطابق علاقات الإنتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية . ومجموع علاقات الإنتاج هذه

---

(١) بؤس الفلسفة (١٧٢-١٧٣) .

يؤلف البناء الاقتصادى للمجتمع ، أى الأساس الواقعى الذى يقوم عليه بناء فوق حقوقى وسياسى وتطابقه أشكال معينة من الوعى الإجتماعى . إن أسلوب انتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الإجتماعى والسياسى والفكرى ، بصورة عامة فليس إدراك الناس هو الذى يعين معيشتهم بل على العكس من ذلك ، معيشتهم الإجتماعية هى التى تعين إدراكهم . وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها ، تدخل فى تناقض مع علاقات الانتاج الموجودة أو مع علاقات الملكية ـ وليست هذه سوى التعبير الحقوقى لتلك ـ التى كانت إلى ذلك الحين تتطور ضمنها . فبعد ماكانت هذه العلاقات أشكالا لتطور القوى المنتجة ، تصبح قيودا لهذه القوى وعندئذ ينفتح عهد الثورة الإجتماعية . ومع تغير الأساس الإقتصادى يحدث انقلاب فى كل البناء الفوقى الهائل ، بهذا الحد أو ذاك من السرعة . وعند دراسة هذه الانقلابات ينبغى دائما التمييز بين الانقلاب المادى لشروط الإنتاج الإقتصادية ـ هذا الانقلاب الذى يحدد بدقة العلوم الطبيعية ـ وبين الأشكال الحقوقية ، والسياسية ، والدينية ، والفنية ، والفلسفية ، أو بكلمة مختصرة ، الأشكال الفكرية التى يتصور فيها الناس هذا النزاع ، ويكافحونه فكما أنه لايمكن الحكم على فرد وفقا للفكرة التى لديه عن نفسه ، كذلك لايمكن الحكم على عهد انقلاب كهذا ، وفقا لوعيه . فينبغى تفسير هذا الوعى بتناقضات الحياة المادية ، وبالنزاع القائم بين قوى المجتمع المنتجة وعلاقات الإنتاج" ... "إن أساليب الإنتاج ، الأسلوب الآسيوى ، والقديم ، والاقطاعى ، والبرجوازى الحديث ، مرسومة بخطوطها الكبرى ، يمكن اعتبارها بمثابة عهود متصاعدة من التكون الإجتماعى الإقتصادى ...)[١].

فهم يرون أن طريقة الناس فى المعيشة هى التى تحدد طريقة تفكيرهم فكلما تغيرت وسائل الإنتاج تغير النظام الإجتماعى ، وهم بهذه الفلسفة يصلون إلى أن الأفكار المتعلقة بالإله ، والدين ، والأخلاق والاسرة كلها تكون خاضعة للظروف الإنتاجية فى وقتها .

---

(١) مصادر الماركسية الثلاثة (٢٦-٢٧) .

يقول ماركس : (مادام الناس يطورون قواهم المنتجة ، أى ، ماداموا يعيشون ، فإنهم يطورون علاقات معينة كل مع الآخر ، وأن طبيعة هذه العلاقات يجب أن تتغير بالضرورة مع تغير القوى المنتجة ونموها . إنه لم يفهم أن المقولات الإقتصادية هى فقط تعبيرات مجردة لتلك العلاقات الفعلية وتبقى هذه التعبيرات صحيحة مادامت هذه العلاقات موجودة ...)[١].

ويقول : (إن هؤلاء الناس ، طبقا لإمكاناتهم ، ينتجون أيضا العلاقات الإجتماعية ، وقلما فهم أن الناس ، الذين ينتجون العلاقات الإجتماعية المتطابقة مع إنتاجيتهم المادية ينتجون أيضا الأفكار ، المقولات ، أى التعبير العقلى المجرد لتلك العلاقات الإجتماعية نفسها . وهكذا فإن المقولات ليست أكثر أبدية من العلاقات التى تعبر عنها . إنها منتجات انتقالية تاريخية ...)[٢].

فالمادية التاريخية تبين أن العلاقات الإجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بالقوى المنتجة ، وعندما يتبدل وضع الناس ويكتشفون قوى إنتاجية جديدة فلاشك أن أساليب إنتاجهم تتغير . فإذا تغيرت هذه غيروا علاقاتهم الإجتماعية وكذلك الفكرية والأخلاقية ، حسب ذلك التغير والتطور ، ومن هنا طبق الماركسيون القوانين المادية كما قلنا على كل مايقع فى تاريخ البشرية ولأجل ذلك قسموا التاريخ البشرى إلى خمسة أطوار ، وجعلوا لكل طور أفكاره التى تتناسب مع وسائل انتاجه مع ملاحظة أن علاقات الإنتاج (علاقات إجتماعية للملكية بالدرجة الأولى) .

هذا من حيث تطبيق قوانين الجدل على المجتمع البشرى ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد بل أخذوا فى تطبيق قوانينهم تلك على الدين والأخلاق والأسرة وفسروها تفسيرا ماديا كما هو حال التاريخ الإنسانى .

---

(١) بؤس الفلسفة (١٧٧) ومابعدها .

(٢) المرجع السابق (١٧٩) وانظر مابعدها .

التفسير المادى للتاريخ البشرى :

يرى الشيوعيون أن هناك مراحل عديدة وأشكالاً مختلفة مرت بها البشرية فى تاريخها ، وهذه المراحل اختلفت فى وضعيتها الإجتماعية والفكرية حسب وسائل الإنتاج المختلفة من مجتمع لآخر .

(وأول هذه الأشكال هو : الملكية القبلية الملائمة للإنتاج البدائى ، حين كان الناس يمارسون القنص وصيد الأسماك والزراعة إلى حد ما لقد كانت تلك ملكية جماعية) .

الشكل الثانى : العبودية (أو الشكل القديم) .

(إن التطور اللاحق للقوى المنتجة ، وتزايد السكان والحاجات ، واتساع العلاقات الخارجية (التجارة التبادلية ، الحروب) قد ولدت جميعا العلاقات الإنتاجية العبودية ، الملائمة للشكل الثانى من أشكال الملكية ، والذى يكتفى ماركس وانجلز حتى الآن بتسميته "الشكل القديم" (Fromancient) .

الشكل الثالث : هو الملكية الإقطاعية أو الطبقية .

(وميزة ظهور العلاقات الإقطاعية فى أوروبا "من خلال الغزو البربرى للإمبراطورية الرومانية والتدمير الجزئى للقوى المنتجة والتدمير المؤقت للمدن والتجارة وغير ذلك" ، لايمكنها أنه تحجب حقيقة أساسية ، وهى أن علاقات الإنتاج الجديدة ، كما تبين لاحقا ، كانت أكثر ملاءمة لتطور القوى المنتجة من العلاقات التى كانت سائدة فى المجتمع العبودى) .

الشكل الرابع : الرأسمالية .

(إن تقدم الإنتاج فى ظروف المجتمع الإقطاعى يفضى حتما إلى تفسخ الأشكال الجماعية والمشاعية للملكية ، ويضعف فى الوقت ذاته تبعية المنتجين الشخصية للطبقة المستغلة (بكسر العين) فتظهر علاقات الإنتاج الرأسمالية ، وتصبح الملكية الخاصة هى العلاقة الإقتصادية المسيطرة دون منازع ، ويستتب

بالتالى ، الشكل الرابع ـ البرجوازى ـ لأشكال الملكية)[١].

الشكل الخامس : الشيوعية[٢].

(وهى الشكل الأسمى ، الذى لايقتصر على بلد معين ، من أشكال التعامل الاجتماعى بين الناس ، وبأنها مجتمع لاطبقى يخلو من وجود الدولة)[٣].

يقول ماركس وانجلز : (ليس التاريخ سوى تعاقب الأجيال التى يقوم كل منها باستخدام المواد ، والرساميل ، القوى المنتجة التى خلفتها له الأجيال السابقة ، وبحكم ذلك ، فإن الجيل الحاضر يتابع ، من ناحية ، النشاط الموروث فى ظل ظروف متغيرة تماما ، ويغير من ناحية أخرى الظروف القديمة بواسطة النشاط المتغير كليا)[٤]. ولم يكتف الشيوعيون بتفسير التاريخ البشرى حسب قوانينهم الجدلية بل أضافوا لذلك ـ ولعل هذا من أهم ماأرادوا الوصول إليه ـ تفسير الدين ، والقيم الأخلاقية ، والإجتماعية كذلك حسب تطور وسائل الإنتاج . ونعرض لذلك باختصار .

---

(١) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢١٤/١-٢١٥) ، وانظر : التطور والثبات فى حياة البشرية (٧٧-٧٩) ، نقض أوهام المادية الجدلية (٥٦-٥٨) ، بؤس الفلسفة (١٠٣) ، الإشتراكية على مشارف القرن الواحد والعشرين (٢٤٢) ، مجموعة من المؤلفين ، ترجمة منير غانم ، حسن خضر ، وليد الهليس ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م ، دار البراق للنشر ، تونس .

(٢) مع ملاحظة أن هناك مرحلة تسبق هذه الشيوعية هى الإشتراكية المهدة لقيامها .

(٣) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢١٨/١) .

(٤) نقلا من كتاب الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢١٠/١) .

المبحث الخامس
التفسير المادى للدين والأخلاق والأسرة

التفسير المادى للدين :

إن موقف الشيوعيين من الدين ليس به خفاء ، فلاغرابة إن اعتبروه وهما ، أو انعكاسا لأحد العوامل . يقول انجلز : (مهما يكن من شىء ، فليس الدين إلا الانعكاس الوهمى فى أذهان البشر لتلك القوى الخارجية التى تسيطر على حياتهم اليومية ، وهو انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق طبيعية)(١).

والأفكار الدينية عندهم إنما وجدت لوجود مقتضيها ، من حيث وسائل الإنتاج ، والمستوى الإقتصادى الموجود فى كل مجتمع

(أ) الدين فى عهد الرق والإقطاع :

وفى هذه الفترة وجد السيد والعبد . أى أن المجتمع انقسم إلى طبقات وحدث الاستقلال وظهرت الملكية الخاصة .

وكان لابد والحال هذه من إيجاد وازع دينى فى نفوس الطبقة المستغلة من أجل أن يصبروا فى هذه الدنيا على الاستغلال وينالوا الثواب فى الآخرة فكانت فكرة وجود الإله تطمينا لهؤلاء المضطهدين .

ويرون أن الحروب التى حصلت وكانت دينية وثارت ضد الكنيسة إنما تنبع من الأساس الإقتصادى ، فالعامل الإقتصادى عندهم صاحب الأثر الأقوى دون غيره فى الحياة البشرية .

يقول انجلز : (إن مايسمى بالحروب الدينية فى القرن السادس عشر كانت تتضمن مصالح طبقية مادية إيجابية ، فقد كانت هذه الحروب حروبا طبقية تماما تمثل الصدامات الداخلية التى وقعت بعد ذلك فى انجلترا وفرنسا . ورغم أن الصراعات الطبقية كانت عندئذ مغلفة بشعارات دينية ورغم أن

---

(١) انتى دوهرنغ (٣٨١) .

مصالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مختفية خلف ستار دينى فلم يبدل هذا شيئا من الأمر ويمكن تفسيره ببساطة من واقع ظروف تلك الأيام)[١].

ثم ظهرت الرأسمالية ، وكانت الأفكار الدينية فى عهدها مواكبة لما كانت عليه وسائل الإنتاج فى عصرها ، وكان ظهورها فى عصر النهضة الأوربية التى قامت على أسس غير دينية بالإضافة إلى حماقات الكنيسة التى كانت ترتكبها باسم الدين فبدأ نبذ الدين والإله الذى تدعيه الكنيسة وسارت أوروبا تدريجيا نحو الإلحاد ، وحل الإنسان محل الله فى قلوب الأوربيين بإنتهاء عصر الإقطاع حيث جاء عصر الآلة الصناعية ـ وكان أهل الريف ينطلقون بعواطفهم ووجدانهم إلى الله فى إنبات الحب والزرع وحفظ الأرض من الصقيع والآفات ـ وأصبح أهل المدن الصناعية لايرتبطون بالله ذلك الارتباط لأن الإنسان هو الذى يقوم بعملية الإنتاج فى المدينة وليس الله .

الإنسان هو الذى عرف خواص المادة حين تعلم واخترع الآلة التى تنتج والإنسان هو الذى يدير الآلة ويوقفها متى شاء ، وهو الذى يضع فى الآلة المادة الخام فتخرج مصنعة لذلك يجب أن يعبد الإنسان الصانع وصار كثير من الناس فى أوروبا يعتبرون عبادة الله وعبادة قوة غيبية لاتدركها الحواس والأخذ من هذه القوة الغيبية التى لم يروها ـ ولن يروها ـ أخلاقهم وأفكارهم وعقيدتهم ومشاعرهم ـ عيبا يقلل من شأنهم فى المجتمع المتحضر هذه الصورة كانت تعيشها أوروبا فى بداية ظهور الرأسمالية .

أضف إلى ذلك تأثير القوى الهدامة على زلزلة العقيدة وتحطيم الأخلاق باحتكار الصناعة عن طريق القروض الربوية[٢].

---

(١) حرب الفلاحين فى المانيا (٤٦) .

(٢) انظر جاهلية القرن العشرين (٦١) ومابعدها ، محمد قطب ، الطبعة الثانية عشرة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار الشروق .

ففى مرحلة الرأسمالية ضعف الدين فى أوروبا وذلك نتيجة وعى الإنسان واطلاعه على أسرار الطبيعة وتحرره من الأوهام والخيالات التى كانت تسيطر عليه سابقا ، فتحرر الإنسان من الدين وأخذ يفكر فى ذاته ويؤمن بالعقل والعلم ويكفر بكل عيب نظرا لتقدم الإقتصاد فى ذلك الوقت .

يقول جورج سول : (وأصبح البحث ينصب على تفسير النتائج والأسباب بالنسبة إلى السلوك البشرى ـ سواء أكان مرغوبا فيها أم غير مرغوب ـ عن طريق قوانين الطبيعة بدلا من البحث عنها فى إرادة الله كما قالت الكتب المقدسة والمذاهب الكنسية ، ومعنى هذا ـ بتعبير آخر ـ إن علينا أن نسترشد فى أعمالنا وتصرفاتنا بالعقل دون سلطة القدامى)[١].

ثم يواصل الشيوعيون تصوراتهم عن الدين حسب قوانينهم الجدلية ، فيصلون إلى مرحلة الشيوعية وبالتالى يصبح الدين من الموروثات القديمة .

يقول انجلز : (وإنه لصحيح بعد أننا نحن فى التفكير والله فى التدبير (والله يعنى السيطرة الغربية لأسلوب الانتاج الرأسمالى) . وأن المعرفة المجردة ، حتى إذا ذهبت أبعد وأعمق مما يذهب إليه علم الإقتصاد البرجوازى ، لاتكفى من أجل وضع القوى الإجتماعية تحت سيطرة المجتمع إن مايلزم قبل كل شىء من أجل ذلك هو عمل إجتماعى . وحين يتحقق هذا العمل ، حين يستولى المجتمع على سائر وسائل الإنتاج ويستخدمها على أساس منهج فيتحرر ويحرر سائر أعضائه من العبودية التى تفرضها عليهم وسائل الإنتاج هذه ، وهى التى أنتجوها هم أنفسهم لكنها تجابههم على اعتبارها قوة غريبة لاسبيل إلى مقاومتها ، وبالتالى حين لايعود الإنسان فى التفكير فحسب ، بل فى التدبير أيضا ـ عندئذ فقط تتلاشى القوة الأخيرة التى لاتبرح منعكسة فى الدين ، ويتلاشى معها أيضا الانعكاس الدينى نفسه ، وذلك لهذا السبب البسيط ، ألا وهو أنه لم يتبق وقتذاك شىء ينعكس)[٢].

---

(١) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٤٩-٥١) .

(٢) انتى دوهرنغ (٣٨٣) .

وهكذا كان الدين عرضة للتغيير والتبديل من مجتمع لآخر حسب وسائل الإنتاج وظروف الإقتصاد . إلى أن يصل المجتمع إلى الشيوعية وبالتالى تلغى فكرة الدين ، ويصلون من تفسيرهم ذلك إلى التالى :

(١) إنكار الإله .

(٢) أن الدين ليس أصلا ثابتا فى النفس الإنسانية فالإنسان غير مفطور عليه.

(٣) أن الدين من اختراع الطبقات وبتعبير آخر من اختراع الإنسان ، شجعه على ذلك العامل الإقتصادى .

وهم بهذا يريدون تحقيق مبدأهم فى القضاء على الدين . فهل صحت قوانينهم تلك ، وهل حققوا مبدأهم ذلك؟

التفسير المادى للأخلاق :

فسر الشيوعيون الأخلاق حسب تطور وسائل الإنتاج ، وبالتالى فإن لكل مجتمع أخلاقه التى تتناسب مع وسائل إنتاجه فالأخلاق غير ثابتة بل متطورة .

يقول انجلز : (إننا نرفض كل محاولة لالزامنا بأية عقيدة أخلاقية مهما كانت على اعتبارها شريعة أخلاقية أبدية ، نهائية ، وثابتة أبدا ، بحجة أن للعالم الأخلاق أيضا مبادئه الدائمة التى تنهض فوق التاريخ وفوق الفوارق بين الأمم . إننا ننادى على النقيض من ذلك بأن سائر النظريات الأخلاقية قد كانت حتى هذا التاريخ ، فى آخر تحليل نتاجا لأوضاع المجتمع الاقتصادية السائدة فى زمنها)[١].

ويقول : (إن الأخلاق قد كانت على الدوام أخلاقا طبقية ، فهى إما أن تبرر سيطرة الطبقة الحاكمة ومصالحها ، وإما أن تمثل ، حالما تحوز الطبقة المضطهدة مايكفى من القوة ، التمرد على تلك العقيدة ومصالح المضطهدين المقبلة فى الوقت نفسه)[٢].

---

(١) انتى دوهرنغ (١١٤-١١٥) .

(٢) المرجع السابق (١١٥) .

فالعصر البدائى الشيوعى نظرا لكون علاقات الإنتاج جماعية فقد وجدت عادات وتقاليد جماعية ، وعندما تطورت وسائل الإنتاج تطورت آراء الناس وعاداتهم وأخلاقهم وأصبحت الملكية الشخصية لبعض الأشياء موجودة ، ومن هنا غدت الملكية معتادة بعد أن كانت لاأخلاقية .

ثم كان مجتمع الرق ووجد فيه نظام الطبقات ووقع الظلم على الطبقة المضطهدة ووجدت الأخلاق التى تسمح بظلمه ومعاملته بوحشية .

ثم كان بعد ذلك المجتمع الإقطاعى ، وقام أيضا على ظلم الفلاحين واحتقارهم وتسخيرهم لخدمة الطبقة الممتازة .

ثم المجتمع الرأسمالى : وفيه تم النضال ضد الإقطاعيين والبرجوازيين ووجدت الأخلاق البرجوازية التى تخفى استغلال العامل ، وتقيده الإقتصادى من قبل الرأسمالى ، فالأخلاق البرجوازية طابعها النفاق[1].

أما الأخلاق عند الشيوعيين : فإنها منصبة على العمل فمن يعمل فهو صاحب خلق وإلا فلا . والعمل هذا يكون للشيوعية ومن أجلها . ويرون أن الأخلاق إنما كانت بسبب ظروف اقتضت وجودها ، وفى الشيوعية لاحاجة إليها .

يقول انجلز : (نحن نرفض أن نذعن لأية عقيدة خلقية باعتبارها قانونا خلقيا خالدا وغير قابل للتبديل والتغير ، ونرفض أن نعتبر بأن هناك مبادىء خلقية أبدية تتجاوز عصور التاريخ وتتجاوز كل اختلاف بين الشعوب . وعلى العكس من ذلك نقرر أن جميع التعاليم الخلقية القديمة إنما هى عند تحليلها ليست إلا ناتجا اصطنعه المستوى الإقتصادى الذى بلغه المجتمع فى عصر معين ولما كان المجتمع الإنسانى إلى اليوم لايزال يخوض غمار حرب الطبقات فالأخلاق التى يعترف بها المجتمع ليست إلا النظام الخلقى الذى تعتز به طبقة معينة ، نظاما كان طورا يبرر طغيان الطبقة الحاكمة ويذود عن

---

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة (٢٩٨-٣٠٠) .

مصالحها أو يبرر طغيان الطبقة التى كانت مغلوبة على أمرها حتى وصلت إلى الحكم ولايمكن وجود نظام أخلاقى وإنسانى شامل إلا بعد أن ينتهى حرب الطبقات)[١].

ويقول لينين : (يجب على المناضل الشيوعى الحق أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل ، فالكفاح من أجل الشيوعية ، يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية)[٢].

ويقول ستالين أن الأخلاق الفاضلة هى : (تلك التى تدعم النظام الشيوعى ولاشىء غير هذا يمكن أن يسمى أخلاقا فاضلة)[٣].

وبعد هذا فهم يرون أن الأخلاق ليست إلا انعكاسا للوضع الإقتصادى القائم ، وكل طبقة تسود فى مجتمع ما تكون أخلاقها هى السائدة والمسيطرة على ذلك المجتمع ، وهم بتطبيق هذه القوانين على الأخلاق يصلون إلى إنكار ثبات الأخلاق ،وبالتالى إنكار الدين لأن الأخلاق إنما تنبع منه ، والدين يكون مصدره الإله ،و من ثم فليس هناك إله كما هو زعمهم .

التفسير المادى للأسرة :

لايخرج تفسير الشيوعيين للأسرة عن تفسيرهم للدين والأخلاق من كونها متطورة اقتضتها الظروف الإقتصادية الموجودة فى كل مجتمع .

يقول جان فريفبل : (لاتشكل الأسرة كيانا اجتماعيا خالدا ، ولقد طرأت عليها تبدلات عديدة عبر القرون ، وهذا التطور يتحدد فى التحليل الأخير بالعامل الإقتصادى)[٤].

---

(١) نقلا من كتاب هزيمة الشيوعيين فى عالم الإسلام (٩٣) .

(٢) نقلا من كتاب اشتراكيتهم وإسلامنا (٣٧) .

(٣) إشتراكيتهم وإسلامنا (٣٨) ، ولمزيد من أقوالهم عن الأخلاق فى المجتمع الشيوعى انظر : نفس المرجع (٣٦-٣٧،٣٩) ، هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٩٣-٩٤) .

(٤) المرأة والاشتراكية (١٧) ترجمة جورج طرابيشى ، نقلا من كتاب مذاهب فكرية معاصرة (٣٠٢) .

وهم يرون أن الأسرة مرت بأطوار :

(أ) أسرة الجيل : والعلاقة فيها مباحة بين جميع أبناء الجيل بين الأخوة والأخوات ، ومحرمة فقط بين الآباء وجيل الأبناء .

(ب) أسرة الشركاء : وفيها يتم الحرمان من زواج الاخوة والأخوات ، وهذه صورة نشأت بسبب اختراع المحرم الذى لم يكن موجودا .

(ج) الأسرة الزوجية : وفيها يعيش الرجل الواحد مع امرأة واحدة ، وفى هذه المرحلة يكون تعدد الزوجات ، والخيانة ، وكذلك يمكن حل الزواج من قبل أحد الطرفين .

(د) الأسرة الوحدانية : مبنية على سيطرة الرجل ، وهدفها إنتاج أولاد لايشك فى صحة أبوتهم ، وتفترق هذه الأسرة عن الأسرة الزوجية أن حل رابطة الزواج تكون فى يد الرجل[١].

أما الأسرة عند الشيوعيين : فيقول انجلز عنها : (إن النظام الشيوعى سوف يحول العلاقات بين الجنسين إلى مجرد علاقات شخصية تخص المعنيين بالأمر ولايحق للمجتمع أن يتدخل فيها . ويتحقق هذا التحول عند إلغاء الملكية الفردية والبدء بالتربية الجماعية للأطفال الأمر الذى يطيح بالدعامتين الرئيسيتين لمؤسسة الزواج الحالية : تبعية المرأة للرجل وتبعية الأطفال للأهل)[٢].

فهذه بعض أقوال الشيوعيين عن أفكارهم فى قضايا الدين والأسرة والأخلاق وغاياتهم من هذا التفسير الجدلى لهذه القضايا هى :

أولا : أن الدين والأخلاق والأسرة قضايا متغيرة حسب العوامل الإقتصادية التى توجد فى كل عصر . وبالتالى القضاء على كل الثوابت (إنكار الأمور الفطرية) .

---

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة (٣٠٢-٣٠٤) .

(٢) تعاليم الماركسية (٣٧) .

ثانيا : جعل العامل الإقتصادى هو العامل الوحيد المؤثر فى حياة البشرية ولأجل ذلك ربطوا به كل تغير .

ثالثا : أن الأصل الذى كانت عليه البشرية هو الشيوعية أو المشاعية الأولى التى ترغب الشيوعية الأخيرة فى العودة إليها فلادين فيها ، ولاأخلاق ولارابطة أسرية بل كل شىء له حكم الحل .

رابعا : أن الغاية عند الشيوعيين تبرر الوسيلة حتى ولو كانت فاسدة كما رأينا أقوالهم فى الأخلاق فالخلق الفاضل عندهم هو مايؤدى إلى نصرة الفكر الشيوعى دون اعتبار للأخلاق الموجودة .

خامسا : أن فى هذه الأقوال دعوة صريحة لفصم الروابط الأسرية ، وإحلال الإباحية والرذيلة مكان العفاف والفضيلة . فيدعون صراحة إلى أن تهب المرأة نفسها لمن تشاء ، ويريدون بذلك أن لاتخشى المرأة أو الفتاة مما تفعل إذا رفض المجتمع فعلها هذا . كما يدعون إلى تسليم الأطفال للمحاضن من أجل التربية الجماعية ليقضوا على إنتماء الأطفال لآبائهم .

فهذا عرض سريع لمواقف الشيوعية من الدين والأخلاق والأسرة ، عرضت آراءهم دون أن أرد عليها وسيأتى ذلك فى حينه بإذنه تعالى وتقديره إذ أن هذه الآراء والأفكار كانت من أهم الأسباب التى عجلت بزوال ذلك الفكر ودولته ، حيث صادموا بها الفطرة الإنسانية . ومن البدهى أن الفطرة ترفض كل مايعارضها أو يصادمها ، والفكر الشيوعى قام على مصادمتها ، وبهذا التصادم حكم الفكر الشيوعى على نفسه بالهلاك وعدم البقاء وإن ظل باقيا فترة من الزمن بتأثير القوة والتسلط .

إن مصادمة الشيوعية لمسائل الفطرة فى النفس الإنسانية كان أحد الأسباب التى أدت إلى إنهيار بنيانها ، وعدم الوثوق بها ، وكفر كثير من البشر بمبادئها ، وكان هذا الصدام للفطرة أعظم الأسباب التى عجلت بالانهيار ، بل إنه السبب الأقوى والأول الذى أدى إلى سقوط الشيوعية وتفتت دولتها . وهذا ماسنعرض له فى الباب الثانى ضمن أسباب سقوط الشيوعية .

الباب الثانى
أسباب سقوط الشيوعية (الداخلية)

ويشتمل على تمهيد وخمسة فصول .

التمهيد .

الفصل الأول : مصادمة الشيوعية للفطرة .

الفصل الثانى : القضاء على الحريات .

الفصل الثالث : فشل النظام الإقتصادى الشيوعى .

الفصل الرابع : فساد تنبؤات الشيوعية وبطلان نظرياتها .

الفصل الخامس : مصادمتها للواقع والتغيير فى مبادئها .

الفصل الأول
مصادمة الشيوعية للفطرة

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد

المبحث الأول : مصادمة الشيوعية لفطرية التدين .

المبحث الثانى : مصادمة الشيوعية لفطرية التملك .

المبحث الثالث : مصادمة الشيوعية لفطرية الزواج والحياة الأسرية .

المبحث الرابع : مصادمة الشيوعية لفطرية التجمع والإنتماء للوطن والسلالة .

تمهيد
عن السنن الربانية ومفهوم السقوط

إن من الأمور المسلم بها أن هذا الكون كله لله تعالى {**ألا له الخلق والأمر**}(١).

فلايغزب عنه سبحانه وتعالى مثقال ذرة فيه ولاأصغر من ذلك ولاأكبر إلا ويعلمها جل وعلا .

وأمره تعالى شامل للأمر الكونى ، بتدبيره وتسييره حسب نظام بديع لايتبدل ولايتغير إلا بإرادته جل وعلا . فكل أفلاك هذا الكون ونجومه وأحداثه إنما تسير بإرادته جل شأنه وقدرته {**وكل فى فلك يسبحون**}(٢).

كما أن أمر الله تعالى شامل للأمر الشرعى ، وذلك بإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وإنزال الكتب ، وفرض الشرائع التى تصلح أحوال الناس وتحميهم من الفساد والانحراف .

فإن هم ابتعدوا عنها ، ولم يعملوا بما فيها ، ضلوا الطريق ، وتخبطوا فى الظلمات حتى يهتدوا بنور الله تعالى ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخير والشر لحكمة يريدها العزيز الحكيم .

ومن حكمته أن الظلم والشر قد يظهران ، وتكون للظالم أيامه التى ينتصر فيها بالقوة والقهر والجبروت الذى يحمل الناس على التسليم والإذعان كارهين .

ويزداد الخضوع إذا اقترن ذلك الوعيد بشىء من الوعود التى تحمل بين ثناياها شعارات براقة ، وضعت عمدا تحقيقا للهدف ووصولا للغاية ،

---

(١) سورة الأعراف : (٥٤) .
(٢) سورة يس : (٤٠) .

دون أى اعتبار للوسيلة والطريق الذى يسلكه ذلك الظالم فى الوصول إلى مبتغاه .

وكل ذلك يصدق على الأنظمة الأرضية التى قامت على تحقيق المصالح الذاتية والنزعات المادية ، وكانت غايتها ومبلغ علمها . ومن أكثر الأنظمة زيفا وخداعا وإسرافا فى الطغيان واستخداما للقوة فى فرض مبادئه وحمل الناس عليها قسرا النظام الشيوعى الماركسى ، القائم على تحكم فئة قليلة العدد بمصير شعوب عديدة من قوميات مختلفة ، هذا النظام وإن قامت له دوله ، واستمرت نيفا وسبعين سنة بالقوة والجبروت ، إلا أنها لاتذكر مقارنة بدولة الحق والمنهج الربانى الذى سيظل إلى قيام الساعة ، فإن دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة .

ومن هنا فكما أراد الله تعالى أن يخلق الخير والشر لحكمة ويجعل للظالمين أيامهم وسطوتهم ، فإنه تعالى جعل سننا لهذا الكون يسير عليها وذلك من حكمته جل وعلا أيضا .

ومن سننه تعالى أخذ الظالمين وإهلاكهم أو خذلانهم وتشتيتهم وهذا ماحصل للنظام الشيوعى ، حيث حقت عليه السنة الإلهية {**ولن تجد لسنة الله تبديلا**}[١].

السنن الإلهية :

إن لله تعالى سننا ثابتة فى هذا الكون لاتتبدل ولاتتغير .

ومن ذلك بقاء الحق والعدل ، وزوال الظلم والطغيان واندحارهما وإن طال أمدهما .

وأعظم أنواع الظلم الشرك بالله تعالى . قال عز من قائل : {**إن الشرك لظلم عظيم**}[٢].

---

(١) سورة الأحزاب : (٦٢) .

(٢) سورة لقمان : (١٣) .

ومن سنن الله تعالى فى الأمم أخذها إن هى أشركت به ، أو كفرت أو ضلت عن أمره .

وهذه سنة جارية على كل أمة أو دولة وجدت فيها أسباب أخذها وهلاكها وقد أكثر العلماء فى حديثهم عن السنن الإلهية ومتى تقع ، وأسباب وقوعها ، وسنقتصر هنا على تعريفها وذكر الأمثلة عليها من كتاب الله تعالى وبعضا يسيرا مما جاء عن أهل العلم عنها .

السنة فى اللغة :

جاء فى اللسان : (السنة : السيرة ، حسنة كانت أو قبيحة . وسنة الله أحكامه وأمره ونهيه)[١].

ومنه قوله تعالى : {**إلا أن تأتيهم سنة الأولين**}[٢].

أى (معاينة العذاب)[٣].

السنة فى الاصطلاح :

عرفها شيخ الإسلام بالآتى : (السنة هى العادة التى تتضمن أن يفعل بالثانى مثل مافعل بنظيره الأول . ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال : {**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب**}[٤]. والاعتبار أن يقرن الشىء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه)[٥]

---

(١) لسان العرب (٢٢٥/١٣) حرف النون ، فصل السين ، الطبعة الأولى ، دار صادر ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) سورة الكهف : (٥٥) .

(٣) القاموس المحيط (١٥٥٨) ، الفيروز آبادى ، باب النون ، فصل السين ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

(٤) سورة يوسف : (١١١) .

(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/١٣) شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م دون ذكر لرقم الطبعة .

وقال فى موضع آخر : (وسنته عادته التى يسوى فيها بين الشىء وبين نظيره الماضى وهذا يقتضى أنه سبحانه يحكم فى الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة)[١].

ومن التعريفات الواردة فيها أنها (منهج الله فى تسيير هذا الكون وعمارته وحكمه وعادة الله فى سير الإنسانية وعادته فى إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلى على مقتضى حكمته وعدله)[٢].

ويعرفها د. أحمد كنعان بأنها (مجموعة القوانين التى سنها الله عز وجل لهذا الوجود وأخضع لها مخلوقاته جميعا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها)[٣].

فالسنة الإلهية هى : العادة التى يجريها الله تعالى فى خلقه ثوابا للطائعين على قدر مافيهم من امتثال ، وعقابا للعاصين على قدر مايقترفونه من ضلال ، يحدث كل منهما متى توافرت شروط حصوله أو بعضها .

وعلى هذا (تبقى سنة الله التى لاتتبدل ولاتتغير تعمل عملها فى حركة التاريخ ، وتتخذ من المترفين أداة تسوق بها القرى والدول والجماعات والأمم نحو مصائرها المفجعة)[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/١٣) .

(٢) السنن الإلهية فى الحياة الانسانية (٩/١) ، رسالة دكتوراه ، شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

(٣) أزمتنا الحضارية فى ضوء سنة الله فى الخلق (٥٢) ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ ، طبع رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر .

(٤) مقال فى العدل الاجتماعى (٤٠) ، د. عماد الدين خليل ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

خصائص السنن الربانية :

الشمولية ، والثبات ، والإطراد .

(١) الشمولية :

يقول د. أحمد كنعان : (إن كل مافى هذا الكون من جماد وحيوان ونبات وانسان يخضع لسنن ربانية محكمة .. وأنه لاشىء فى هذا الوجود خارج عن سنة الله .. بل الكل خاضع له سبحانه)[١].

(٢) الثبات :

والمقصود بذلك أن سنن الله باقية على حالها منذ خلق الله السموات والأرض وهى مستمرة على هذه الحال من الثبات إلى أن يشاء الله .. وفى هذا مافيه من دلائل بالغة توحى برحمة الله عز وجل بالعباد .. فلولا ثبات السنن على هذه الشاكلة لما أمكن للبشر أن يسخروها أو يستفيدوا منها ولما كان استخلاف البشر فى الأرض ممكنا إذ كيف يمكن أن يستخلفوا فى عالم هلامى لايثبت على حال؟ وكيف يمكن أن يسخروا مثل هذا العالم الذى لايحكمه قانون ولاتضبطه سنة؟

ومن جهة ثانية لو لم تكن سنن الله ثابتة على هذا الحال ، لما كان فى هذا الوجود توازن ولااستقرار ولكانت الفوضى حينئذ هى سمة الخلق كله .. وهذا مايتنافى مع الواقع المشهود ، الذى تدلنا كل صغيرة وكبيرة فيه على آيات التوازن والاستقرار كما قال تعالى فى وصفه : {**وكل أمر مستقر**[٢]}[٣].

وقال تعالى : {**سنة الله فى الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**}[٤].

(٣) الإطراد :

ومعنى ذلك استمرار وقوعها ماوجدت أسباب حصولها .

---

(١) أزمتنا الحضارية (٦٥) .

(٢) سورة القمر : (٣) .

(٣) انظر أزمتنا الحضارية (٦٨-٦٩) .

وانظر سنن الله فى المجتمع من خلال القرآن (١٥-١٦) ، محمد الصادق عرجون ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .

(٤) سورة الأحزاب : (٦٢) .

يقول د. أحمد كنعان : (إطراد السنة تتابع حصولها ، أو تكرار آثارها على الوتيرة نفسها كلما توافرت شروطها ، وانتفت الموانع التى تحول دون تحقيقها ...)[١].

يقول الإمام ابن القيم : (فطر الله سبحانه عباده على أن حكم النظير حكم نظيره وحكم الشىء حكم مثله ، ... لذلك كان الجزاء مماثلا للعمل من جنسه فى الخير والشر)[٢].

الأمم السابقة والسنن الربانية :

إن سنن الله تعالى كائنة منذ بدء الخليقة ، وستظل كذلك إلى ماشاء الله تعالى لها البقاء ، وقد أخبرنا المولى جل وعلا عن الأمم السابقة وتاريخها مع أنبيائها عليهم السلام ، كما أخبرنا جل وعلا عن ذنوبهم التى ارتكبوها ، مما جعل السنن الربانية تحق عليهم ونعرض الآن لبعض هذا القصص لأن فيه العبرة والعظة ، وبيان أنه متى ماتوافرت شروطها فإنها تقع وذلك لكونها مطردة لاتعرف وقتا دون آخر .

أولا : قوم نوح عليه الصلاة والسلام :

قال تعالى : {**لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ[٣] من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين . قال ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العلمين . أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالاتعلمون . أوعجبتم أن جاءكم**

---

(١) أزمتنا الحضارية (٧٦) وانظر (٣٤) .

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٩٦/١) ، راجعه طه عبد الرؤوف سعيد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) فئة قليلة من الناس وهم أعلاهم أصحاب الحل والعقد فيهم وكذلك كان الحزب الشيوعى .

ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون . فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين}[١].

فهذه دعوة نوح عليه السلام والأنبياء من بعده عليهم الصلاة والسلام من ربهم .

والملأ من الأقوام هم الذين كانوا يتولون كبر المعارضة والمعاندة والصد عن سبيل الله تعالى لأنهم هم السادة والكبراء والقادة منهم[٢].

وهذا يذكرنا بالحزب الشيوعى وإنفراده بالسلطة والاستحواذ عليها وجعل الأمر بيد قلة من الناس ليس للبقية إلا الانصياع لهم وإتباعهم فيما يريدون . فإذا لم يكن ذلك بالرضا منهم فليكن بالقوة والتعذيب كما سيأتى معنا فى قصص بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[٣].

وقد ذكر الله تعالى قصته مع قومه فى عدة مواضع من كتابه الكريم[٤] فدعا قومه إلى عبادة الله تعالى وترك الشرك وتلك دعوة الأنبياء جميعا ، وقص الله تعالى ماكان بينه وبين قومه وأمره جل وعلا له أن يصنع الفلك وسخرية قومه منه لذلك ، ثم أمره أن يحمل فيه من كل زوجين اثنين ، ثم قص الله تعالى ماكان بينه عليه السلام وبين ابنه ، ثم إغراق القوم أجمعين إلا من آمن وماآمن معه إلا قليل .

فكان ذنبهم : كفرهم بالله تعالى ، وعدم استجابتهم لدعوة التوحيد .

---

(١) سورة الأعراف : (٥٩-٦٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٢٣/٢) للحافظ ابن كثير ، دار الدعوة ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) كما هو حال فرعون مع قومه عليه من الله تعالى مايستحق ، وكذلك أصحاب الفكر الشيوعى فى فرضهم على الناس قبول أفكارهم بالقوة وإن لم يتقبلوه يكون مصيرهم القتل أو النفى .

(٤) كما فى سورة يونس (٧١-٧٣) ، وسورة المؤمنون (٢٣-٣٠) ، وسورة الشعراء (١٠٥-١٢٢) ، وكذلك سورة نوح .

قال تعالى : {ومكروا مكرا كبارا وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسرا}(١).

العقوبة : إهلاكهم بالغرق .

قال تعالى : {فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين}(٢).

وقال عز وجل : {ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون}(٣).

وأبان سبحانه وتعالى بأنه جعل فى ذلك آية للاتعاظ فقال تعالى : {ولقد تركنها آية فهل من مدكر}(٤).

ثانيا : قوم هود عليه الصلاة والسلام :

قال تعالى : {وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسلات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم مانزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وماكانوا مؤمنين}(٥).

---

(١) سورة نوح : (٢٢-٢٣) .
(٢) سورة الشعراء : (١١٩-١٢٠) .
(٣) سورة المؤمنون : (٢٧) .
(٤) سورة القمر : (١٥) .
(٥) سورة الأعراف : (٦٥-٧٢) .
ووردت قصته عليه السلام فى عدة مواضع من القرآن الكريم منها سورة هود : (٥٠-٦٠) ، سورة الشعراء (١٢٣-١٤٠) .

فذنبهم : الكفر بالله تعالى وتكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام .

{ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود}(١).

العقاب : أخذهم وإهلاكهم كما هى سنة الله تعالى فى المكذبين .

قال تعالى : **{كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر}**(٢).

وقال تعالى : **{وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية}**(٣).

ثالثا : قوم صالح عليه الصلاة والسلام :

قال تعالى : **{وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذى ءامنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين}**(٤).

---

(١) سورة هود : (٦٠) .
(٢) سورة القمر : (١٨-٢١) .
(٣) سورة الحاقة : (٦-٨) .
(٤) سورة الأعراف : (٧٣-٧٩) . وكذا وردت القصة فى سورة الشعراء (١٤١-١٥٩) وسورة النحل : (٤٥-٥٣) .

فذنبهم : الكفر وعدم الإيمان برسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام .

قال تعالى : {**كذبت ثمود المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون**}(١).

العقاب : الإهلاك والتدمير .

قال تعالى : {**فانظر كيف كان عقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون**}(٢).

رابعا : قوم لوط عليه السلام(٣):

وكان ذنبهم تكذيبهم للوط عليه الصلاة والسلام .

قال تعالى : {**كذبت قوم لوط المرسلين**}(٤).

وقال عز وجل : {**أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر**}(٥).

العقوبة : {**فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد**}(٦).

---

(١) سورة الشعراء : (١٤١-١٤٢) .

(٢) سورة النمل : (٥١-٥٣) .

(٣) وردت قصته مع قومه فى عدة مواضع من كتاب الله تعالى :
سورة الشعراء : (١٦٠-١٧٥) .
سورة الأعراف : (٨٠-٨٤) .
سورة هود : (٦٩-٨٣) .
سورة العنكبوت : (٢٨-٣٤) .

(٤) سورة الشعراء : (١٦٠) .

(٥) سورة العنكبوت : (٢٩) .

(٦) سورة هود : (٨٢-٨٣) .

وهنا لفتة لسنة الله تعالى فى خلقه حيث أبان سبحـانه وتعالى أن سنة الأخذ والإهلاك ليست سنة فى زمن مضى ولاتعود ، بل إن من اقترف ووقع فيمـا وقع فيه أولئك يكون مصيره كمصيرهـم ، فالله تعـالى لايعجزه شىء ، وسنتـه ثابتة لاتتبدل ولاتتغير فـالهلاك والعذاب يكـون لكل من وجدت فيه أسبابه {**وماهى من الظالمين ببعيد**}(١).

خامسا : قوم شعيب عليه الصلاة والسلام(٢):

ذنبهم : تكذيبهم لرسولهم عليه السلام .

قال تعالى : {**وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخسرون**}(٣).

العذاب : التدمير والإهلاك .

قال سبحانه وتعالى : {**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين**}(٤).

سادسا : قوم موسى عليه السلام(٥):

ذنبهم : الكفـر باللـه تعـالى وتكـذيبهم نبيهـم عليه الصلاة والسلام .

قال تعالى : {**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**}(٦).

---

(١) سورة هود : (٨٣) .

(٢) من المواضع التى وردت فيها قصته فى كتاب الله تعالى :
سورة الأعراف : (٨٥-٩٣) .
سورة هود : (٨٤-٩٥) .
سورة الشعراء : (١٧٦-١٩١) .

(٣) سورة الأعراف : (٩٠) .

(٤) سورة الأعراف : (٩١) .

(٥) وردت قصـة مـوسى عليه السلام فى مـواضع عديدة من كتـاب اللـه تعالى منها :
سورة الأعراف : (١٠٣-١٤١) .
سورة طه : (٤٩-٨٢) .
سورة الشعراء : (٢٣-٦٨) .

(٦) سورة النمل : (١٤) .

عقابهم : قال جل علا : {**فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**}(١).

فهذه الآيات وغيرها إخبار من الله تعالى عن أقوام وأمم بوأهم فى الأرض فاتخذوا من سهولها قصورا ، ونحتوا من الجبال بيوتا فلم يشكروا الرب ، ولم يعرفوا حق الغير ، فطغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، وظلموا وتمادوا فى الترف والبطر ، ولقد أملى الله لهم ، وأمهلهم ، لكنه لم يهملهم . وأرسل إليهم الرسل عليهم السلام ، فكذبوهم وآذوهم ولم يؤمنوا بهم(٢)فحقت سنة الله تعالى عليهم ، وستحق على من يسير فى طريقهم ، ومن الأقوام المتأخرة التى توفرت فيها أسباب أخذها وتفريق جمعها ، وذهاب ريحها (الشيوعيون) أولئك القوم الذين طبقوا فكر ماركس فى روسيا وماأشبه العصبة الشيوعية هناك ، بفرعون وعصبته حيث جمعهم الكفر والإلحاد وإنكار وجود الإله حيث قال فرعون كما أخبر الله تعالى عنه {**ماعلمت لكم من إله غيرى**}(٣).

وقال ماركس : لاإله والحياة مادة .

وعندما كانت الشيوعية التطبيق العملى للفكر الماركسى فإن سنة الله تعالى ثابتة لاتتبدل ولاتتغير فحقت سنة المولى جل وعلا على الشيوعية فتفرق جمعها وذهب ريحها {**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد**}(٤).

---

(١) سورة الأعراف : (١٣٦) .
(٢) انظر الإسلام وحقوق الإنسان (٣٥١-٣٥٢) .
(٣) سورة القصص : (٣٨) .
(٤) سورة هود : (١٠٢) .

السنة الإلهية بالنسبة لمن تقع عليهم :

(١) إما إهلاكهم ، واستئصال شأفتهم ، كما مر معنا من ذكر للأمم السابقة التى أخذها الله تعالى بكفرها وتكذيبها وفعلها للفواحش .

(٢) وإما بذهاب ريحها وتمزيقها وعدم تمكينها ، واضمحلال المجتمع وتفككه وذهاب ريحه .

إذ أن أثرها قد يكون (جزئيا فى جانب من جوانب المجتمع فى زمن معين بسبب العوامل الانحلالية التى جعلها الله فى سننه التى تحكم تطورات المجتمع معاول هدم لبناء أى مجتمع من المجتمعات التى قام بناؤها فى أصل وجودها على دعائم اجتماعية سليمة ، ثم انحرف بها قادتها وسائقوها فى قافلة الحياة عن سنن الله البنائية والقرآن الكريم ينبه إلى سنة من سنن الله فى تصوير الآخذين بزمام المجتمع والانحراف به إلى منحدرات الرذائل الخلقية ، وحمله بالقدوة السيئة على الانحراف معهم تقليدا - إذا أراد الله أخذهم استئصالا أو خذلهم تأديبا - فتقودهم شهواتهم إلى مزالق الخبائث كفرا وإلحادا ، أو إلى الخبائث الإجتماعية رذائل وانحدارا مع أحط الشهوات...)[١].

ولاشك أن هذا الأمر قد يقع فى دولة الإسلام ، ودولة الكفر ، ومن الدول التى حق عليها أمر الله تعالى دولة الاتحاد السوفييتى أم الفكر الشيوعى ، حيث حقت عليها سنة الله تعالى فسقطت وسقط فكرها وجاء سقوطها (علامة تاريخية على صدق سنن الله تبارك وتعالى وفساد المنهج البشرى مهما تحصن بالقوة والسلطان والنفوذ فى سبيل تثبيت وجوده على أرض الواقع ...)[٢].

---

(١) سنن الله فى المجتمع (٣٥-٣٦) .

(٢) مستقبل الاسلام بعد سقوط الشيوعية (٥) .

(إن انتقال المجتمع من حال إلى حال لايحصل عشوائيا بل يحصل وفق سنن ربانية تحكم مساره وتضبط جهته)[١].

ولقد جاء سقوط الشيوعية مذهلا ومروعا لكثير من المراقبين والمحللين من غربيين وشرقيين ، إلا أن الذى يعلم سنة الله تعالى فى خلقه لم يفاجأ بما حدث ، وذلك أن الزبد يذهب جفاء ولايمكث فى الأرض إلا ماينفع الناس . قال تعالى : {**فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض**}[٢])[٣].

وسنة الله تعالى التى حقت على النظام الشيوعى هى واحدة من السنن الكثيرة التى جعلها الله سبحانه وتعالى على كل نظام وفكر مخالف لمنهجه وطريقه المستقيم .

فزوال النظام الفاسد والفكر الباطل وتصدع بنيانه وإنهيار أفكاره ليس بالأمر الغريب فطريق الله تعالى هو الطريق الحق والصراط المستقيم .

ويؤخذ مما حل بالفكر والنظام الشيوعى أن القوة والجبروت التى صاحبت قيامه وقامت على تنفيذه وتطبيقه لم تكن كافية لاستمراره وبقائه ، فإن فرعون وجنوده قد علوا فى الأرض ، واستضعفوا الناس ، وقتلوا الأبناء واستحيوا النساء ، ومع ذلك كانت نهايتهم الغرق وللآخرة أشد وأبقى ، وكذلك هؤلاء رغم مافعلوه بالناس من قتل ونفى واعتقال وتعذيب إلا أن ذلك لم يثنهم عن المطالبة بحقوقهم ولم يستسلموا لهذا الفكر الباطل والنظام الظالم بل ثاروا عليه رغم البطش الشديد ، وتحت وطأة الضغط الجماهيرى تراجع علية القوم عن مبادئهم وأدخلوا التعديلات على مناهجهم ليرضوا شعوبهم وماذلك إلا لعدم صلاح ماقامت عليه الدعاية الشيوعية وخرجت

---

(١) أزمتنا الحضارية (٦٠) .
(٢) سورة الرعد : (١٧) .
(٣) الإنهيار (٩/١) .

الشعوب التى عاشت نيفا وسبعين سنة تحت الحكم الشيوعى تطالب بالحرية ، فما كان منها إلا أن داست تماثيل الزعماء الذين قادوا الثورة البلشفية وكانوا يعبدونها من قبل ، وهذا لايعنى دخولهم فى دين الله تعالى غير أنهم أثبتوا لأولئك الضعاف الذين يرون فى الشيوعية فكرا صالحا لإسعاد البشرية أثبتوا لهم أن الحق خلاف مايعتقدونه ويدعون إليه . كما أنهم بفعلهم هذا أعطوا صورة لاخفاء بها أن المبادىء التى قام عليها الفكر الشيوعى لم تحقق للفرد ماكان يرجوه بل صادمت فطرته وصادرت إنسانيته .

فجاء سقوط الشيوعية ليؤكد (الحقيقة الأزلية القائمة على أن أى منهج يقوم على غير الأصول الربانية فلابد أن يهوى ويسقط مهما تذرع بشتى الحيل فى سبيل البقاء والاستمرار ، وقد اعتمدت الشيوعية المقاييس الزائفة والنظريات الباطلة واستعملت الوسائل المضللة فلم يغنها ذلك عن إنهيار كل منهج لايستقيم على سنن الله تبارك وتعالى وقوانينه .

وقد جاء فى سقوط الماركسية الشيوعية قبل الموعد الذى حددته بروتوكولات صهيون دليلا على الهزيمة التى ستمنى بها الليبرالية والصهيونية جميعا فى الوقت القريب مادام المسلمون قد أصروا على الثبات والاستمساك بدينهم ...)[1].

فسنن الله تعالى لاتحابى أحدا ، ولاتتبدل ، ولاتتغير ، يوقعها على الظالمين ، فيما مضى ، وفيما لحق ، وفيما سيأتى ، إذا توافرت شروط حصولها ، فالكون كله يخضع لسنن الله تعالى لأنه جل شأنه حكيم فى فعله عظيم فى إرادته ، فجعل لهذا المجتمع سننا وأبان فى آياته جل وعلا عوامل البقاء التى تحفظه من معاول الهدم والانحلال وتصونه من التفتت والإنهيار ،

---

(١) مستقبل الاسلام بعد سقوط الشيوعية (١٢٦-١٢٧) .
وانظر السرطان الأحمر (١٠٧) ، د. عبد الله عزام ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، مكتبة الجيل الجديد ، صنعاء ، دار ابن حزم ، بيروت ، الجمهورية العربية اليمنية .

وتباعد بينه وبين الفناء المفاجىء[١].

ومن سنن الله تعالى التى قررها القرآن الكريم من أجل أن يتحقق بها التوازن الاجتماعى :

(أن الله تعالى ينتقم من الظالمين بظالمين مثلهم أو أطغى منهم ، فإذا استشرى الفساد فى أمة من الأمم ، وعجز العامة عن الأخذ على يدى الخاصة من الطغاة الظالمين سلط الله تعالى على هؤلاء الظلمة بعضهم على بعض {**وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون**}[٢])[٣].

ونحن إذا نظرنا إلى النظام الشيوعى ، نرى أن سقوطه لم يكن بالقوة العسكرية حيث لم تستخدم القنابل الذرية ولاالصواريخ العابرة للقارات فى إسقاطه ، وكذلك لم يستطع الاتحاد السوفييتى نفسه من استخدام صواريخه ودباباته وقنابله فى منع هذا السقوط ، إنها السنة الإلهية التى حقت {**فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا**}[٤].

لقد (سقط النظام الشيوعى الجبار العاتى العنيد على أرض أكبر إمبراطورية شيوعية وتوابعها فى شرق أوربا .. وأنهار كالعملاق الأجوف بدون أن تطلق عليه رصاصة واحدة وبدون أن يتلقى ضربة واحدة من سيف أو خنجر أو حتى من سكين! وبعد صراخ وضجيج وطبل وزمر أضجر العالم كله طوال أعوام عمره السبعين ، هدأت الأصوات فلاتسمع إلا همسا ولم يبك عليه إنسان ، فى غمرة هذا الزلزال الصامت ، وبين أنقاض قلعة الأوهام المحطمة ، لم يقف عاقل من جهابذة وصناع ذاك النظام ليسأل ماذا فعلت تلك الآلاف المؤلفة من الصواريخ والرءوس والغواصات الذرية التى كدسوها على مدى السنين وأرهبوا بها العالم ، وهم الآن فى حيرة كيف

---

(١) لمزيد من التفصيل حول الآيات والسنن الكونية انظر كتاب سنن الله فى المجتمع (٢٦) ومابعدها .

(٢) سورة الأنعام : (١٢٩) .

(٣) سنن الله فى المجتمع (٤٥) .

(٤) سورة فاطر : (٤٣) .

يفككونها ويدمرونها ويتخلصون منها؟؟ كم أنفق عليها من ملايين ومليارات كانت شعوبهم بها أولى ، وإعمار بلادهم وإثراء حياتهم بها أحرى؟ لماذا هذا الهوس الضال المضل ، الذى يعشعش فى أدمغة بعض القادة والمتسلطين يدفعهم إلى حب السيطرة على العالم ، أو مناطق وقارات بأكملها من العالم ، والاستمتاع بنشوة الزعامة والجاه والسلطان ، على حساب ملايين الضحايا والواهمين والأبرياء ، حتى ولو كانوا من شعوبهم ورعاياهم ...)[١].

إن النظام الشيوعى قام على مصادرة إنسانية الفرد وحريته ، وانعدمت العدالة فى واقع الاتحاد السوفييتى وانتشر الظلم والاضطهاد . وكل هذه الأمور متصادمة مع سنن الله تعالى فى الكون . وقبل هذا فإن الأصل الذى يقوم عليه النظام هو الإنكار للإله وللتشريع ، فكان لابد من وقوع السنة الربانية على ذلك النظام (إن الأحزاب الشيوعية التى حكمت وتحكم الاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشرقية والصين وغيرها قد صادرت مصالح أساسية للجماهير ، وبهذه المصادرة اصطدمت مع السنن ولذلك كان لابد أن يحدث الذى حدث)[٢].

وقد اصطدم النظام الشيوعى بالسنن الربانية عندما قضى على العدالة ، وأحل الظلم مكانها ، وقضى على الحرية وصادرها ، والإنسان لايستطيع أن يعيش إلا بها ، لأنها متناسبة مع فطرته وبالتالى إذا كبتت وفرض عليها الحصار فإن مصيرا لحرية الانتصار ، ومصير الكبت وذلك النظام الإندحار ، فـ(الأحزاب الشيوعية كانت تقود أممها فى اتجاه مضاد للسنن الربانية ، وسنة الله فى خلقه أنهم أحرار فى اختيارهم . فعندما حصل الصدام مع الحرية كان لابد للحرية فى النهاية أن تنتصر . إن انتصار الحرية من حيث الأصل موافق للسنن الربانية ثم تكون المرحلة الثانية وهى توجيه هذه الحرية وفق

---

(١) كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٤-٥) ، فؤاد شاكر ، الطبعة الأولى دون ذكر لتاريخها ، مكتبة التراث الاسلامى .

(٢) الإنهيار (٥٦/١) .

منهاج الرسل ، فإذا لم يعمل بهذا التوجيه فإن صداما مروعا آخر سيقع مع السنن الربانية)[١].

إن سنة الله تعالى حقت على من كان عونا للينين وستالين على إيصالهم إلى سدة الحكم .

يقول عبد الرحمن الميدانى : (إن قاعدة "من أعان ظالما سلط عليه" هى من سنن الله فى خلقه ، وهى تنطبق كل الانطباق على كل الشيوعيين الذين عذبوا أو أبيدوا على أيدى قادتهم أنفسهم ، وتنطبق على كل الذين نفذوا أوامر "ستالين" الطغيانية الدموية المتوحشة. لقد ذبحهم "ستالين" بمثل السكين التى أمرهم أن يذبحوا بها خصوما منافسين له ، ومن يمكن فى المستقبل أن يكونوا منافسين له ، مع أنصار لهم وأقرباء وأصدقاء ، وكذلك من يمكن أن يكونوا أنصارا لهم ولو على سبيل الظن الضعيف . ومع هؤلاء جميعا حشد كبير من الذين لايصح أن يوضعوا فى الحساب لامن قريب ولامن بعيد . ومعظم هؤلاء الأصناف برءاء من التهم التى نسبت إليهم ، وإن اعترفوا بها تحت ضغط التعذيب الذى لايحتمل ، أو الوعد الكاذب بالعفو عن عقوبة الإعدام)[٢].

ومن سننه تعالى أخذه للظلمة ، وأهل الطغيان وأنه تعالى لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ، فجرت سنته (تعالى فى عباده أن يصلح أحوالهم إذا صلحت قلوبهم ، واستقامت أعمالهم ، وأن ينزل عليهم بأسه وعذابه إذا فسدت قلوبهم وأعمالهم!!)[٣].

قال تعالى : {**إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم**}[٤].

---

(١) الإنهيار (٤٣/١) .

(٢) الكيد الأحمر (٣٢١) .

(٣) صوت المنبر (٣٤٣) ، محمد الحجار ، الناشر دار الصابونى ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ دار مصر للطباعة .

(٤) سورة الرعد : (١١) .

فما من شيء يحدث في هذا الكون إلا بأمره تعالى ووفق سننه جل وعلا فـ(لاشيء يحدث جزافا ، لافي الكون المادى ، ولافى حياة البشر . إنما يجرى كل شيء بنظام . بسنن .. وهذه السنن لاتتبدل ولاتتحول ولاتحابى ولاتجامل...)[١].

وقد تكون السنن ضد مايريده الإنسان حتى لو كان مسلما إذا لم يعمل بمقتضاها . فانتصار النظام الشيوعى وبقاؤه هذه الفترة إنما حصل بسنة من سنن الله تعالى ، وذلك بتخلف الأمة ، وركونها إلى الدنيا ، وتكاسلها عن أداء رسالتها ، مما جعل الأعداء يبسطون سلطانهم وفكرهم . قال تعالى : {**فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**}[٢].

ومايمكن الله تعالى هؤلاء الأعداء إلا بسنة جارية ألا وهى ضعف المسلمين وتركهم أمر الله تعالى والجهاد فى سبيله لإعلاء كلمته جل وعز .

غير أن هذا التمكين للكافرين وعلوهم أحيانا الذى إنما تم بسنة من سنن الله تعالى لايغنى عنهم شيئا يوم القيامة ، قال تعالى : {**ولايحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين**}[٣].

وإذا كان من السنن الربانية قيام تلك الأنظمة المخالفة لمنهج الله تعالى إذا تقاعس أهل الحق عن تبليغ مالديهم وتخلوا عنه ، فإن من سنته تعالى زوال تلك الأنظمة وعدم استمرارها واندحارها لما تحمله من كفر وباطل ، هذا بالإضافة إلى أن المسلمين دبت فيهم صحوة إسلامية ورجعة حقيقية إلى

---

(١) دروس تربوية من القرآن الكريم (٨٤) ، محمد قطب ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م ، المجموعة الإعلامية ، التوزيع مكتبة المأمون .

(٢) سورة الأنعام : (٤٤-٤٥) .

(٣) سورة آل عمران : (١٧٨) .

دين الله تعالى ، ومن هنا ولتوفر أسباب تحقق السنة الربانية بالأخذ والتفريق وذهاب الريح فى المجتمع الشيوعى ، حقت عليه السنة الربانية ، وتفرق جمعه ، وسقط فكره ، وكفر به أهله ، وهذا ليس أمرا مستغربا ، إذ أن الشيوعية منهج أرضى لايحقق إلا المصالح الشخصية ، والرغبات المادية ، وإشباع النزعات الحيوانية ، ويحمل الأفكار الكفرية ، فحقت عليه السنة الربانية ، فتهاوت أفكاره ، وتصدع بنيانه ، وذهبت قوته وأصبحت فى عداد الماضى ، لأن الفكر الشيوعى يحمل أسباب التفرق والتشرذم ، ومن هنا حقت على أصحابه السنة الربانية ، كما حقت على من قبلهم ، وستحق على من بعدهم ماتوفرت شروط حصولها . فما هى السنة التى حقت على الشيوعية ؟

هل هى الإهلاك والإبادة ؟

أم ذهاب الريح وحصول الفرقة واضمحلال المجتمع وتراجعه عن مبادئه وأفكاره التى كان يتبناها ؟

ثم ماذا يعنى السقوط ؟ ومامفهومه ؟

وماهو الذى سقط من الشيوعية ؟

وهل كان هذا السقوط مفاجئا أم لا ؟

إن هذه التساؤلات سنجيب عليها فى الصفحات التالية بحول الله وقوته .

مفهوم السقوط

كثرت الكتابات التى تتحدث عن سقوط الشيوعية ، وإن كانت مختلفة فى تفسير مايحدث فى الاتحاد السوفييتى .

وقد كان الخلاف حول السقوط هل هو متعدد الجوانب أو من جانب واحد؟ ـ أما فئة فقد رفضوا إطلاق مصطلح السقوط على مايحدث فى الاتحاد السوفييتى ، وهذا الفريق وباختصار هم أهل الفكر الشيوعى وأتباعهم[١] ـ .

فمن قصره على جانب واحد نظر إلى زوال الدولة الشيوعية من على الخارطة السياسية وتلاشى السيطرة على المعسكر الشرقى واستقلال الجمهوريات التى كان يتألف منها . وهذا يتعلق بالجانب السياسى أو السقوط السياسى .

ومن أضاف إلى ذلك الفكر اعتبر أن الفساد الذى حمله الفكر الشيوعى فى مبادئه أدى إلى إنهياره ، وعدم الوثوق به وبالتالى المطالبة بعدم تطبيقه وفرضه على الناس .

وعند النظر فى هذه الآراء نجد أن الرأى الأول : يرفضه الواقع ، وهو توجه عاطفى فى نفوس أصحاب الفكر الشيوعى يشتته ويقطعه إربا إربا واقع الاتحاد السوفييتى .

ويتبقى لدينا الرأيان الآخران والخلاف هذا قد يكون له مايبرره . ومن ذلك :

أولا : الاختلاف فى مدى انطباق لفظ السقوط ودلالاته على مايحدث فى الاتحاد السوفييتى .

---

(١) انظر كتاب هل تعود الشيوعية ، حميدى العبد الله ، قدم له زاهر الخطيب ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، شركة الحقيقة للصحافة والإعلام .
وقد أجلب المؤلف بخيله ورجله فى بيان صلاح الفكر الشيوعى وأنه لم يطبق فى الاتحاد السوفييتى كما ينبغى وأن سعادة البشرية فى تحققه .

ثانيا : التناقض الكبير الذى جاء عن غورباتشوف وهو يشرح نظرياته الجديدة التى فجرها فى الاتحاد السوفييتى ، فتارة يعلن أن التغيير جذرى ويطول كل شىء ، وتارة يعلن الإبقاء على الفكر الاشتراكى ، فمن نظر إلى الأمر الأول قال بزوال الفكر والنظام ، ومن نظر إلى الأمر الثانى قصر السقوط على النظام[١]. وقبل الحديث عن السقوط ومفهومه وبيان مايترجح من خلال الأحداث والوقائع يجدر بنا أن ننبه على الآتى :

أولا : يتجه حديثنا بادىء ذى بدء عن البلد الأم للفكر الشيوعى ، إذ أنه يعتبر الأصل الذى خرجت منه الشيوعية التى صدرت إلى أوروبا الشرقية.

ثانيا : هذا لايعنى تناسى بلدان أوروبا الشرقية ولكن إذا ثبت ووقع على الأصل أمر ، فعلى الفرع من باب أولى ، فانهدام الأصل هدم للفرع . بل إن بعض الدول بدأت فى التمرد على الفكر الشيوعى من قبل أحداث الاتحاد السوفييتى .

ثالثا : أن بقاء بعض الدول على شيوعيتها حتى الآن لايعنى بقاء الفكر الشيوعى كما هو . بل لقد بقى لأنه رفض كثيرا من مبادىء ماركس ، والمثال الحى على ذلك الصين .

وبعد هذا نأتى إلى تعريف السقوط من حيث اللغة ، وبالتالى تحديد مفهومه على واقع الاتحاد السوفييتى .

السقوط فى اللغة :

جاء فى اللسان : (السقطة : الوقعة الشديدة . سقط يسقط سقوطا ، فهو ساقط وسقوط : وقع ، وسقط الشىء من يدى سقوطا .. وسقط الشىء ومسقطه : موضع سقوطه ... وتساقط الشىء : تتابع سقوطه . وساقطه مساقطة وسقاطا : أسقطه وتابع إسقاطه ...)[٢].

---

(١) لو تركنا أقوال غورباتشوف جانبا ، ونظرنا إلى الواقع لاتضحت الحقيقة مهما قيل

(٢) لسان العرب (٣١٦/٧) باب الطاء ، فصل السين ، وانظر القاموس المحيط (٨٦٦)

(والسقطة : العثرة والزلة)[١].

وهذه الاستخدامات وغيرها من جنسها ينصرف إلى المحسوسات وقد يستخدم لفظ السقوط ولايقصد به الشيء المحسوس فيقال : (سقط فى يد الرجل : زل وأخطأ وقيل ندم .. وفى التنزيل العزيز {**ولما سقط فى أيديهم**}[٢]... وقد قرىء سقط فى أيديهم ، كأنه أضمر الندم أى سقط الندم فى أيديهم كما تقول لمن يحصل على شيء وإن كان مما لايكون فى اليد : قد حصل فى يده من هذا مكروه ، فشبه مايحصل فى القلب وفى النفس بما يحصل فى اليد ويرى بالعين)[٣].

(والساقط والساقطة : اللئيم فى حسبه ونفسه ، وقوم سقطى وسقاط ... ويقال للمرأة الدنيئة الحمقى : سقيطة ، ويقال للرجل الدنىء : ساقط...)[٤].

وبعد هذا العرض لتعريف السقوط من حيث اللغة نصل إلى التالى :

أولا : أن السقوط يطلق على الشيء المحسوس المشاهد كسقوط الشيء بشدة وتهاويه أو سقوط ماهو ماثل للعيان ، كسقوط المتاع ، وسقوط الرجل وعثرته ونحوها .

ثانيا : أن السقوط يطلق على ماليس بمحسوس أى سقوط معنوى كما يقال للأحمق أو لصاحب الخلق الدنىء ساقط ، أى إقامة ماليس بمحسوس مقام المحسوس .

ثالثا : قد يكون السقوط بداية معنويا ، ثم يتلوه سقوطا حسيا ، والعكس صحيح فإذا سقطت الأفكار والمبادىء ، فقد يلحق بذلك سقوط الدولة أو الأمة التى تأخذ بها ، كما أن سقوط الدولة قد يستتبعه سقوط فكرها ومبادئها ولكن ذلك ليس بالضرورة وخاصة إذا كان الفكر صحيحا .

---

(١) لسان العرب (٣١٨/٧) ، وانظر مختار الصحاح (٢٢٨) ، محمد بن أبى بكر الرازى ، المركز العربى للثقافة والعلوم ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) سورة الأعراف : (١٤٩) .

(٣) لسان العرب (٣١٨/٧) حرف الطاء ، فصل السين .

(٤) لسان العرب (٣١٩/٧) حرف الطاء ، فصل السين .
وانظر : القاموس المحيط (٨٦٦) ، مختار الصحاح (٢٢٨) .

رابعا : أن سقوط الأفكار والمبادىء سقوط معنوى وليس من الضرورى أن يكون سقوطها تلاشيها واختفاؤها نهائيا بل يكفى فى ذلك السقوط أن يتحقق التالى أو بعضه (وذلك فى المذاهب الأرضية) .

(أ) كون الفكر باطلا ، حتى لو قام فإنه ساقط أصلا .

(ب) التخلى عنه ومخالفته .

(ج) مصادمته للفطرة الإنسانية المنضبطة .

(د) الرجوع إلى فكر آخر مناقض له .

(هـ) الاعتراف من قبل أصحابه أنه لم يحقق لهم ماكانوا يخططون له بل العكس هو الذى حصل .

وبعد هذا نقول إن الخلاف قد وقع فى تحديد ماهية مايحدث فى الاتحاد السوفييتى ، ولاشك أن الناظر فى أقوال غورباتشوف وتصريحاته يجد تناقضه فى سياسته الجديدة ، وأعرض ذلك باختصار من خلال هذه النقاط ، مع التدليل على ذلك من كلام غورباتشوف .

أولا : وجوب التغيير وعدم التراجع فيه .

يقول غورباتشوف : (إن بلدنا كبير وواسع للغاية وتراكمت فيه مشاكل عديدة ، ولن يكون حلها سهلا إلا أن التغيرات قد بدأت ومن المستحيل لذلك عودة المجتمع إلى مرحلة السبات)[١].

ثانيا : التغيير الجذرى فى كل مجالات الحياة تغييرا حقيقيا لامجرد ترقيع.

يقول غورباتشوف : (لقد وجد الحزب القوة والشجاعة لتقييم الوضع بوعى والاعتراف بضرورة الاصلاحات والتحولات الجذرية)[٢].

---

(١) عملية إعادة البناء والتفكير السياسى الجديد لنا وللعالم أجمع (٨) ، مجموعة من المترجمين ، الطبعة الثانية ١٩٨٩م ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن.

(٢) المرجع السابق (٢٢) .

ويقول : (أصبحنا على يقين من عدم جدوى الاصلاحات التجميلية ومحاولات الترقيع ، وأن المطلوب هو إعادة تصنيع جدية تماما)[١].

ويضيف أن الهدف الأخير من السياسة الجديدة الوصول إلى أشكال جديدة لم يعهدها المجتمع السوفييتى يقول : (أن الهدف النهائى لإعادة البناء واضح لنا . أنه التجديد العميق لكل جوانب الحياة فى البلاد ، وإضفاء أحدث أشكال التنظيم الإجتماعى على الإشتراكية والكشف التام عن طبيعتها الإنسانية فى كل المجالات الحاسمة الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والأخلاقية)[٢].

ثالثا : التغير فى الفكر بالإضافة إلى التغيرات الأخرى .

يقول غورباتشوف : (إننا باشرنا قضية لاسابق لها ـ إعادة تنظيم السياسة والإقتصاد والمجتمع والأيديولوجيا . إلا أننا ، إذا كنا راغبين فى تنفيذ مخططنا فى الحياة ، فعلينا تنفيذ عمل سياسى وإجتماعى وإقتصادى وأيديولوجى لاسابق له على الصعيدين المحلى والخارجى ، وأن نتحمل قبل كل شىء مسئولية لم يسبق لها مثيل ونحن نأخذ فى اعتبارنا ضرورة العمل وضخامته وجرأته وخاصة فى المرحلة الأولى)[٣].

ويقول : (لقد تعهدنا بتنفيذ عملية إعادة البناء الضخمة إننا نغير مداخلنا وتفكيرنا ، كما نغير الحياة ...)[٤].

رابعا : إعلان الثورة على كل قديم .

إن عملية إعادة البناء عملية ثورية تأتى على كل قديم من أجل التمكين للبناء الجديد .

يقول غورباتشوف : (إن إعادة البناء عملية ثورية ذلك أنها قفزة فى تطور الإشتراكية ، فى تجسيد خصائصها الجوهرية . لقد أدركنا منذ البداية

---

(١) عملية إعادة البناء (٢٥) .
(٢) المرجع السابق (٣٤) .
(٣) المرجع السابق (٦٥) .
(٤) المرجع السابق (٥٨) ، وانظر (٤٤) .

لاوقت لدينا للتردد . ومن المهم جدا أن لانؤجل لحظة الانطلاق ، أن لانتخلف ، وأن ننطلق من مستنقع العقلية المحافظة ، وأن نحطم قوة استمرار الركود . فلايمكن إنجاز ذلك بأسلوب الخطوة خطوة واللجوء إلى الإصلاحات الزاحفة ببطء)[١].

ويقول : (إن إعادة البناء هى ثورة . فالتسريع الحاسم لعملية التطوير الإجتماعية ـ الإقتصادية والروحية للمجتمع السوفييتى يفترض تحولات جذرية باتجاه حالة نوعية جديدة . وهذه بالتأكيد مهمة ثورية)[٢].

ويقول فى بيان هدم القديم ، وإقامة الجديد مقامه :

(الثورة كما نفهمها ، بناء ولكنها أيضا وبالطبع تهدم دائما . وهى توجد لأنها تحطم كل ماانتهى عهده ، وكل ماتعفن ، وكل مايعيق حركة التقدم . وبدون الهدم لن نتمكن من تنظيف الموقع لإقامة بناء جديد عليه . وهكذا فإعادة البناء تعنى الإزالة الجذرية الحاسمة للعوائق التى تعترض التطور الإجتماعى الإقتصادى .

وبديهى أن الهدم لايتم بدون صراعات . فالصراعات تنشب ولاتتم إلا بالصدام بين الجديد والقديم ...)[٣].

ثم جاء عن غورباتشوف مايدل على أنه سيبقى على الإشتراكية ، ولكن ربما ألبسها ثوبا جديدا وهذا تناقض مع ماذكرناه سابقا ، ونعرض لبعض ماجاء عنه فى هذا الجانب[٤].

---

(١) عملية إعادة البناء (٥٠) .

(٢) المرجع السابق (٤٩) .

(٣) المرجع السابق (٥١) .

(٤) نرى غورباتشوف هنا يستخدم الجدل ، ولم يتوقف هذا الجدل عند الشيوعية المرحلة الأخيرة فى المجتمع البشرى ، بل جاء غورباتشوف بحالة جديدة سوف تنشأ ولكن ليست حسب قانون التطور والذى لايرجع إلى الوراء . إن هذا الذى جاء به غورباتشوف عودة إلى الوراء حسب رأى ماركس وزعماء الثورة البلشفية الأسبقين ، وبهذا بطلت الحتمية الماركسية .

أولا : التمسك بالإشتراكية وتطويرها .

وهذا تناقض صارخ مع التغير الجذرى الذى قال به ، ونزيد على ذلك أنه تناقض فى تحديد المدى الذى يريد أن يبقى عليه من الإشتراكية . ويبين ذلك :

(أ) الإصرار على الإشتراكية :

يقول: (إن أية آمال بأننا سنبدأ بإقامة مجتمع غير إشتراكى والتحول إلى معسكر آخر ، ليست سوى آمال واهية وقائمة على رمال . ولسوف نخيب آمال كل الذين يراهنون فى الغرب على نكوصنا عن الإشتراكية)[١].

(ب) الإبقاء على الإشتراكية ولكن فى حدود الديمقراطية :

يقول : (كل مايوطد الإشتراكية سنصغى إليه باهتمام شديد وسنأخذه فى اعتبارنا ، وكل ماهو غريب عن الإشتراكية سنكافح ضده ، ولكن ، وأكرر ، ضمن أطر العملية الديمقراطية)[٢].

(ج) الإبقاء على الإشتراكية مع وجود الحرية :

يقول : (نحن السوفييت مع الاشتراكية غير أننا لن نفرض معتقداتنا على أى كان فليختر كل فرد بنفسه ...)[٣].

(د) الإبقاء على الإشتراكية مع مطالبة الناس التخلى عنها :

يقول : (من بين كل خمسة عشر مواطنا سوفيتيا هناك أربعة عشر ولدوا بعد الثورة . ومع ذلك يستمرون فى دعوتهم لنا للتخلى عن الإشتراكية والسؤال الذى يطرح نفسه هو : لماذا ينبغى ، فجأة ، أن يبادر الناس السوفييت الذين نشأوا وترعرعوا فى ظل الإشتراكية ، إلى التخلى عن نظامهم؟ إننا سنوطد ونطور الإشتراكية على كل صعيد ...)[٤].

---

(١) عملية إعادة البناء (٣٥-٣٦) ، وانظر (٨٧) .
(٢) المرجع السابق (٥٧) .
(٣) المرجع السابق (٣٦) .
(٤) المرجع السابق (٤١) .

ثانيا : أقلمة الإشتراكية ، حتى تتساير مع الواقع ، وعدم الجمود على فكر ثابت ، فكل مرحلة ينبغى أن تكون الإشتراكية فيها حسب ماتقتضيه المصلحة .

يقول : (لقد ترك لنا كلاسيكيو الماركسية اللينينية ، فى آثارهم ، المواصفات الجوهرية الأساسية للإشتراكية . وهم لم يغوصوا فى التفاصيل ، ولم يحاولوا تقديم صورة مفصلة عن الإشتراكية ، بل اكتفوا بمناقشة المراحل المرئية نظريا . أما تبيان كيفية مايجب أن تكون المرحلة الراهنة فهى من مهمتنا نحن ... وتستمد هذه المهمة قيمتها من كوننا لم نتبع أفكار لينين فى كل شىء بعد وفاته . إن أشكال وأساليب البناء الإشتراكى ، التى فرضتها الأوضاع والتى عكست فى حينه الظروف التاريخية الملموسة لبلادنا ، قد أحيطت بهالة من القداسة وتحولت إلى مثل ملهمة ورفعت إلى مرتبة العقائد التى لايمكن المساس بها . وتكونت نتيجة لذلك صورة للإشتراكية وكأنها قانون جامد ومحدود مصحوب بتضخيم مركزية الإدارة والتقليل من شأن تنوع وغنى اهتمامات الناس ، ودورهم الفعال فى الحياة الإجتماعية ، وظهور اتجاه المساواة فى المداخيل بغض النظر عن الجهد المبذول فى العمل ، بشكل واضح للعيان)[1].

ومن العرض السابق لبعض تصريحات غورباتشوف نصل إلى الآتى :

أولا : أن بعض تصريحاته جاءت واضحة فى دلالتها على التحول الجذرى فى جميع نواحى الحياة فى الاتحاد السوفييتى فكريا وسياسيا وإجتماعيا.

ثانيا : من خلال العرض السابق وجد مايدل على نفى أن يكون التغيير جذريا بل وجد مايدل على المحافظة على الإشتراكية ، ورد المزاعم التى قالت بأن مايجرى فى الاتحاد السوفييتى هو أزمة حادة بسبب الفكر الشيوعى .

---

(١) عملية إعادة البناء (٤٤) .

ثالثا : جاء عنه مايدل على التوسط بين الأمرين . وهو مزيد من الحرية والديمقراطية مع الاحتفاظ بالإشتراكية ، حيث إن جوهر إعادة البناء دمج الإشتراكية بالديمقراطية . فكأن غورباتشوف يريد تطوير الإشتراكية لتتناسب مع الحياة العصرية ، ولعل لهذا التوسط دوافعه :

(أ) خشية غورباتشوف من الأزمة الحادة التى ستقوم لو أعلن بكل وضوح ذهاب الشيوعية والأفكار الإشتراكية لوجود التيار الشيوعى الذى أشرب هذا الفكر بالقوة . وبالفعل أراد ذلك التيار الإطاحة بزعماء إعادة البناء .

(ب) لعله أراد بذلك الإبقاء والاحتفاظ بشىء من الكرامة وحفظ ماء الوجه لأسلافه خشية الشماتة بهم وبالتالى بالفكر الذى عاش عليه الاتحاد السوفييتى نيفا وسبعين سنة ، فأراد التغيير الجذرى بالفعل ولكن بشىء من الحياء والتمسك بالكلمات الجوفاء والشعارات الخارجية فقط .

(ج) ثم إن غورباتشوف فضح الستالينية ، وندد بأفعالها وماقترفته من آثام فلم يبق إلا التجربة اللينينية . فلو حصل منه مايدل على نبذه حتى فكر لينين بالكلية فإن ذلك يعنى انتقاد العهد الشيوعى كله تقريبا ، وهذا سيجر إلى عواقب وخيمة ، ومن هنا أعلن غورباتشوف إن إعادة البناء قائمة ومتصلة باللينينية وتمثل الإنعاش لها .

رابعا : بالنظر فى الجوانب التى سيطرأ عليها التغير والنقاش فى عملية إعادة البناء . نجد إنها لم تترك شيئا إلا وجاءت عليه . وهذه الجوانب هى :

(١) الإصلاح الإقتصادى .

(٢) الأحوال الإجتماعية .

(٣) الدقرطة السياسية .

(٤) دور الحزب .

(٥) العقيدة ، الدين ، الثقافة .

(٦) تاريخ الستالينية .

(٧) المشاكل القومية الداخلية .
(٨) القلق المحلى من الحرب فى أفغانستان (عندما كانت قائمة) .
(٩) السياسة الخارجية والدفاعية .
(١٠) الكتلة السوفياتية والحركة الشيوعية العالمية[١].

وبناء على ماذكرناه سابقا فلاغرابة إن اختلفت الآراء حول ماهية السقوط ومفهومه ، ومن ذلك :

أولا : أن هذا السقوط يمثل (تفككا للقيم الإشتراكية والشيوعية ، ومن ثم تلاشى المعسكر الإشتراكى كقوة منافسة على الصعيد الدولى)[٢].

وهذاالتفسير يتسق مع ماجاء عن غورباتشوف فى سياسته الجديدة التى أعلن فيها أن التغير سيكون جذريا ولكل شىء .

ولكن غورباتشوف يرد مثل هذا التفسير (وهو لايملك إلا ذلك) فيقول (يجتهدون فى الغرب ، سيما فى الولايات المتحدة ، لتفسير عملية إعادة البناء بطرق متباينة . ومن بين الاجتهادات مايدعى أن عملية إعادة البناء نتجت عن كارثة ألمت بالإقتصاد السوفييتى وعكست خيبة أمل فى الإشتراكية ، وأزمة فى أفكارها ، وأهدافها النهائية . لاشىء أبعد عن الحقيقة من هذه التفسيرات أيا كانت وجهة النظر التى أفضت إليها)[٣].

ثانيا : أن هذا السقوط (عملية هجومية ينفذها الأمين العام للحزب الشيوعى السوفييتى ميخائيل غورباتشوف للتخلص من ثغرات النظام الإشتراكى والقضاء على عيوبه والتخلص من حالة الركود)[٤].

وهذا يتجه صوب الأفكار الإشتراكية وسد الثغرات التى توجد فيها ، وهذا له مايبرره من أقوال غورباتشوف السابقة حيث الإبقاء على الإشتراكية مع تطويرها وأقلمتها لتناسب الواقع .

---

(١) انظر الفشل الكبير (٨٨) ، زبينجو بريجسنكى ، ترجمة ميشيل سليمان ، مركز الكتب الأردنى ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
(٢) هل تعود الشيوعية (١٥) .
(٣) عملية إعادة البناء (٩) .
(٤) هل تعود الشيوعية (١٦) .

وإن كان غورباتشوف قد صرح أن الإشتراكية لاتعيش هذا الوضع فقال : (هناك فى الغرب من تحدوهم الرغبة فى أن يفرضوا علينا صيغة تزعم أن الإشتراكية تعيش أزمة حادة ، وتقود المجتمع إلى طريق مسدود ... ومن أجل وضع حد للأقاويل الملتوية والمضاربات حول هذا الموضوع التى كثر ترديدها فى الغرب ، أود أن أؤكد من جديد ، أننا نجرى التغير فى بلادنا بالتطابق مع الخيار الإشتراكى ...)[١].

ثالثا : إن هذه السياسة رفض للإشتراكية .

يقول بريجنسكى : (إن هذه العملية هى مساوية لرفض التجربة الماركسية اللينينية)[٢].

رابعا : إن هذه العملية مجرد تحسين للفكرة الإشتراكية .

يقول غيردروغ : (إن غورباتشوف لم يكن يرغب فى تغيير النظام بشكل جذرى بل يأمل فقط فى تحسين أدائه وضبط أجهزته ـ تلك الأجهزة ذاتها التى تعيق التقدم الإقتصادى)[٣].

خامسا : أن هذه العملية تغيير حقيقى للفكرة الإشتراكية مع التمسك بالشعارات الخارجية لها فقط ، وأن هذه العملية ستحقق بعض النجاحات مما يجعل الشيوعيين يبتعدون عن هذا الفكر .

يقول بريجنسكى : (إن الإنحلال الشيوعى التاريخى والذى لايمكن إصلاحه ، سوف يجعل فى القرن القادم من الممارسات والعقيدة غير ملائمة ولاتناسب الظروف البشرية ، وعندما تتخلى عن الجوهر الداخلى فقط سوف تحقق بعض النجاح وحتى وإن تمسكت فى الشعارات والإطار الخارجى ،

---

(١) عملية إعادة البناء (٣٤-٣٥) .

(٢) الفشل الكبير (٢٣) .

(٣) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٦٩) ، تعريب يوسف ضومط ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، مكتبة بيسان ، بيروت ، وانظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٤٠٠) ، ميشيل هيلير ، ترجمة د. نظير جاهل ، حسن الصنيقة ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م/١٤١٢هـ ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، لبنان . وقال إن الإشتراكية تبدل جلدها ، وأن هذا تقديم للمبادىء بطريقة أخرى .

وسوف تذكر الشيوعية بشكل واسع على أنها أكثر سياسات القرن العشرين غرابة وانحرافا للعقل والمنطق)[١].

وهـذا يعنى أن التغير الحقيقـى الفعلى لايتم إلا بالتغير فى الأفكـار والمعتقدات . ثم إن ظهور التشقق فى جدار الامبراطورية السوفيتية والهبوط العميق للأساس الأيديولوجى دل على الإنهيار[٢].

وملخص هذه الأقوال :

(أ) أن الدولة والفكر قد سقطا .

(ب) أن الدولة سقطت وبقى الفكر ولكن بإدخال التطوير عليه .

ونأتى الآن لبيان مفهوم السقوط الذى نعنيه .

وقبل بيان ذلك أضع هذه المقدمات التى سيبنى عليها المفهوم :

أولا : إما أن السقوط يعنى الزوال والإهلاك التام . وإما أنه يعنى تحول وتبدل فى درجة التمسك بالفكر الشيوعى ، فحقت عليه السنة الإلهية بالتفرق وذهاب الريح .

ثانيا : إما أن يكون السقوط بمعنى تطوير الإشتراكية لكى تتناسب مع الوقت الحاضر وهكذا دواليك فى تطور مستمر إلى أن تترك أصولها نهائيا لاتطويرا فى سبيل الوصول إلى الشيوعية بل تراجعا إلى الوراء على خلاف قانون التطور الذى تشدق به ماركس وانجلز .

ثالثا : أن الفكر يكون ساقطا إذا كان بخلاف الحق حتى ولو كان قائما.

رابعا : أنه لايلزم من ترك الفكر أو تبديله زواله وذهابه نهائيا . فالمشرك قد يترك شركه إلى التوحيد ولايعنى ذلك أنه لم يعد هناك شرك أو مشركين . ولكنه يعنى أن ذلك الأمر باطل وأن مارجع إليه هو الحق ، ويخرج من ذلك ماهو حق أساسا .

وبعد هذا نأتى لتحديد المفهوم الذى نريده من السقوط .

---

(١) الفشل الكبير (٩) .

(٢) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٦٦) .

إن الحديث عن سقوط الشيوعية يحتاج إلى تفصيل فنقول :

السقوط ينقسم إلى قسمين :

(أ) سقوط النظام (الدولة) .

(ب) سقوط الفكر (باعتبار المفهوم الذى نريده) .

فسقوط الدولة أمر لاخلاف فيه .

أما سقوط الفكر فمختلف فيه .

(١) إما أن يكون الفكر قد زال نهائيا .

(٢) إما أن يكون قد استبدل بفكر آخر .

(٣) إما أن يكون تطويرا للفكر الإشتراكى .

(٤) إما أنه لم يسقط نهائيا .

والأمر الأول : غير متحقق لأنه لايلزم من ترك فرد أو مجموعة معينة فكرة معينة أن تزول نهائيا .

والأمر الثالث : يناقضه الواقع ويرفضه بشدة ، ويتمسك به بعض الشيوعيين لأن التناقض واضح ظاهر . فإما إلحاد وإما اعتراف وإقرار ، وإما مصادرة للملكية وإما اعتراف بها .

وأما الأمر الرابع : فإن الواقع كذلك يرفضه ولايصدقه .

ويبقى لدينا الامر الثانى وهو استبدال الفكر بآخر ، مع بقاء بعض أصحاب الفكر السابق على فكرهم .

وعلى هذا فالسقوط شامل للأمرين السياسى والفكرى . وهنا جملة من الحقائق تدل على ذلك .

(أ) الاعتراف بالدين واحترام ذوى العقول الروحانية .

(ب) التراجع والسماح بما يخالف المبادىء الشيوعية .

(ج) مطالبة الشعب بترك الفكر الشيوعى ، والقاؤه فى مزبلة التاريخ ودوس

تماثيل أقطاب الماركسية بالنعال بعد الهالة التى كانت لهم[١]. وقد كان الشعب القوة التى استخدمها غورباتشوف فى سياسته .

يقول شيفرنادزه[٢]: (لم يخش غورباتشوف السباحة ضد التيار مستعينا بالشعب الذى أيده ، وقد ساعده هذا على إعداد مبادىء التفكير الجديد وعلى تطبيق تلك المبادىء بمزيد من الجرأة ...)[٣].

(د) انتصار أنصار سياسة الانفتاح وإعادة البناء على أولئك الذين يريدون الإبقاء على الفكر الشيوعى .

(هـ) حل البرلمان الشيوعى ، وماصاحب ذلك من أحداث انتهت بفشل الشيوعيين ، مما يدل على أن رغبة الشعب كانت أقوى من رغبتهم .

(و) أن الشيوعيين المتشددين الذين يحاولون الظهور كل مرة لم يعودوا مؤمنين بأفكار ماركس كما هى . بالإضافة إلى حرصهم على الإصلاحات السياسية والإقتصادية فى البلاد .

وبعد هذا نقول أن سقوط الفكر هو :

تراجع الشيوعيين عن تطبيق المبادىء الماركسية اللينينية التى تمثل الأسس الجوهرية للفكرة الشيوعية واستبدالها بمبادىء أخرى مناقضة لها .

أو : تراجع الشيوعيين عن تطبيق بعض المبادىء الماركسية اللينينية التى تتعارض مع الفطرة الإنسانية والحقائق العلمية والاعتراف بما يناقض تلك المبادىء وإقرارها بطريقة رسمية .

---

(١) لقد طالب ستالين بوضع الدين والأخلاق فى متحفة التاريخ بجوار الآثار القديمة ، ولكن هيهات . وقد وضع أخيرا فكره الذى نافح عنه بطلب من الشعب الذى عاش تحت ظله .

(٢) ادوارد شيفارنادزة : شغل منصب وزير الخارجية السوفيتية من ١٩٨٥-١٩٩١م وقدم استقالته نظرا للأوضاع الدولية الصعبة حينذاك .
انظر مذكرات شيفرنادرزة (١٩٨-١٩٩) ، ترجمة مازن محمد نفاع ، دار معد للنشر والتوزيع ١٩٩٢م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٣) مذكرات شيفرنادزة (١٩) .

أو : هو ضعف مستوى التمسك بالأفكار الماركسية إلى درجة استبدالها بما يناقضها لاقتناع الشيوعيين بعدم الجدوى من الاستمرار فى التمسك بها وتطبيقها .

ولايعنى هذا أن الفكر الشيوعى حين قيامه كان صحيحا لأن الفكر المخالف لكتاب الله تعالى ساقط أصلا قبل قيامه ، وحال قيامه .

وسقوط الدولة لاخلاف فيه حيث تلاشت الامبراطورية السوفيتية من خارطة العالم السياسى . **فسقوط النظام** يعنى :

زوال القوة السياسية التى كانت تتبنى الفكر الماركسى اللينينى وتنافح من أجله وتقوم بنشره ، وتدعو إليه وتغير نظرتها فى مفهوم ذلك الفكر سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا .

ويمكن القول بأن سقوط الدولة (النظام) :

تخلى القوة السياسية عن المبادىء الماركسية ، مما أفقدها زعامة المعسكر الشرقى وتفككها إلى مجموعة من الولايات المستقلة التى تنتهج كل منها السياسة التى تتفق واتجاهها .

يقول نيكسون : (بدأت امبراطورية متعددة الجنسيات تتكون من اثنى عشرة دولة أو أكثر فى الإنهيار وهى فى قمة مجدها ، لقد كانت الإمبراطورية عبارة عن مجموعات الدول الصغيرة مجتمعة مع بعضها البعض)[١].

إن مايحدث فى الاتحاد السوفيتى هو (الزلزال بكل ماتحمله الكلمة من معنى ومغزى ، إنه بكل الاختصار للحدث نهاية امبراطورية عظمت وكبرت وتربعت على عرش الكرة الأرضية منفردة فى بعض الأحيان ومشاركة لطرف آخر فى زعامة العالم دون منازع فى أحيان أخرى)[٢].

---

(١) الفرصة السانحة (٣٤) ، ترجمة أحمد صدقى مراد ، دارالهلال دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) النار والجليد (٩) .

هل كان السقوط مفاجئا؟

نظرا لكبر الحدث وخطورته ، اعتقد كثيرون أن هذا السقوط كان مفاجئا ، وذلك لأنهم نظروا إلى قوة الدولة التى كانت تتبنى ذلك الفكر وتدافع عنه ، ولكن حقيقة الأمر أن السقوط لم يكن مفاجئا ولامستغربا ، لأن تلك الدولة الكبرى كانت قائمة على شفا جرف هار فسرعان ماانهارت . وقد وجدت كتابات عدة مؤكدة سقوط ذلك الفكر سواء منها الإسلامية أم الغربية ، فالإسلامية منها كانت منصبة فى أغلب أحوالها على قضايا إنكار الألوهية ، والغيبيات ، ومصادمته للفطرة الانسانية ، والحقائق العلمية . وهى أسباب جوهرية بل فى مقدمة الأسباب التى أدت إلى انهيار ذلك الفكر.

كما أن بعض الكتاب الغربيين ومن أصحاب الفكر الشيوعى قد تنبأوا بسقوط ذلك الفكر لما رأوا فيه من مصادمة للفطرة الإنسانية ومصادرته للحرية البشرية ، ومخالفته للحقائق العلمية ، ومن الأقوال الواردة فى ذلك ماكان فى عام ١٩٧٠م حيث أصدر أندريه المريك كتابا تنبأ فيه بإنهيار الاتحاد السوفييتى عام ١٩٨٤م وكتب فيه : (إن الشيوعية التى ولدت على أنقاض الأرثوذكسية كعقيدة بها يهتدى المجتمع تشق سبيلها إلى الانهيار فالقيم الحسنة الوحيدة التى تسود المجتمع حاليا هى القومية وعبادة الشعب لنفسه وقوته وسلطته على الشعوب المحيطة به) .

وأضاف يقول : (إن السلطة الحاكمة فى الاتحاد السوفييتى تفقد انسجامها وسلطتها فتوقف المؤسسات عن العمل مما يؤدى إلى التدهور التام)[١].

وقد قوبلت نبوة اندرى المريك فى الغرب بـ(دهشة مهذبة أو ساخرة ، أما فى بلاده فقد قوبل بالصمت والإهمال المخصصين (للخونة) الذين فقدوا كل حق حتى فى الوجود نفسه .

---

(١) مجلة البعث الاسلامى العدد (٦/٨) المجلد ٣٦ ربيع الثانى ١٤١٢هـ .
وانظر : مجد الأمم (٦) ، هيلين كاريردانكوس ، ترجمة يوسف شلب الشام ، دار الحقيقة دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، كارل ماركس وداعا أم خداعا (٧) .

والخلاصة أن السؤال بدا يومذاك فريدا فى نوعه لأن الاتحاد السوفييتى كان فى ذلك الوقت قوة قاهرة تعادل الولايات المتحدة الأمريكية .

وأتى عام ١٩٨٦م فلم يخطىء أندرى أمالريك إلا بعامين . لقد اكتشف الاتحاد السوفييتى البالغ القوة يومئذ وبلمحة واحدة أن هذه القوة لم تكن سوى أسطورة وأن النجاحات الدؤوبة التى كان يباهى بها لم تكن تغطى إلا فشلا عاما)[١].

ومثال آخر ماجاء عن عضو الأكاديمية زخاروف والمؤرخ السوفييتى موفديف ، والعالم السوفييتى تورتشين حيث وجه هؤلاء (رسالة إلى اللجنة الثلاثية الحاكمة فى الاتحاد السوفييتى أشاروا فيها إلى خطر الدكتاتورية الشيوعية ودعوا إلى مزيد من ادخال الديمقراطية على الحياة الإجتماعية) .

وأضافوا فى الرسالة (أن دلائل الاضطراب والجمود برزت فى اقتصادنا كما أن معدل الدخل القومى يتدلى باستمرار وأخطاء عديدة تبرز فى بناء السياسة التقنية والاقتصادية وفى الصناعة والزراعة كما يبرز تباطؤ فاضح فى معالجة القضايا الملحة)[٢].

ويقول ريتشارد نيكسون : (منذ حوالى اثنين وثلاثين عاما قال لى خروتشوف فى موسكو بشىء من الصلف : سوف يعيش أحفادك فى ظل الشيوعية فأجبته قائلا : سوف يعيش أحفادك فى حرية وقد كنت متأكدا فى ذلك الوقت من خطأ ماقاله خروتشوف ولكن لم أكن متأكدا من صحة ماقلته أنا ، وقد كان من نتائج الانقلاب الذى حدث فى الاتحاد السوفييتى أن تحقق ماتنبأت به أنا وأصبح أحفاد خروتشوف يعيشون الآن فى حرية)[٣].

---

(١) مجد الأمم (٦-٨) .
(٢) البعث الاسلامى (٩١/٨) مجلد ٣٦ ربيع الثانى ١٤١٢هـ .
(٣) الفرصة السانحة (٧) .

هل السقوط خاص بالفكر الشيوعى؟

إن عقيدة المسلم توجب عليه أن يعلم بأنه لن يظل هناك منهج أو فكر مخالف لمنهج الله تعالى إلا ومصيره الزوال والإنهيار ، بل إن كل نظام قام على غير هدى الله تعالى فهو ساقط قبل قيامه وأثناء القيام **{وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا}**[1]. فما من نظام باطل إلا وهو زاهق وإن كان له أيام يقدر الله تعالى له فيها السطوة والقوة لسنة ربانية إلا أنه يأخذه تعالى بسنة ربانية أخرى ومسألة بقاء النظام الظالم الباطل مسألة وقت وإلا زواله لامحالة كائن سواء كان شيوعيا أو رأسماليا أجنبيا أم عربيا ، وإن الدولة التى تتبجح الآن بأنها تقود العالم سيكون سقوطها غير بعيد .

وهذه سنة الله تعالى فى كل منهج منحرف عن الصراط المستقيم . كما حقت على الشيوعية ستحق على غيرها من الأفكار الباطلة ، وإن من أعظم ماإقترفته الشيوعية هو عدم اعترافها بالخالق جل وعلا ومايتفرع عن ذلك كالإيمان بالنبؤات والغيبيات وماجاء عنه سبحانه وتعالى من تشريعات سواء فى الإقتصاد أو الإجتماع أو السياسة أو أى جانب من جوانب الحياة البشرية ، فوقعوا فى المهلكات واقترفوا الذنوب والآثام فكان أمر الله تعالى واقع لامحالة . وكان هذا الكفر من أعظم ماعجل بسقوط ذلك النظام وفكره وذلك لمصادمته الفطرة البشرية . فنفرت النفوس منه غير أنها أجبرت على السكوت وقبوله بالقوة والقهر وإراقة الدماء والتطهير الجماعى .

ووجد بجوار ذلك الصدام بعض الأسباب الأخرى التى ساعدت وعجلت بزوال ذلك الفكر ونظامه .

ومن هذه الأسباب مايعد داخليا من البيئة السوفيتية ومن الفكر ذاته.

ومنها مايعد أسبابا خارجية وعلى هذا فالأسباب التى أدت إلى إنهيار الإمبراطورية السوفيتية يمكن تقسيمها إلى قسمين :

(أ) الأسباب الداخلية .

(ب) الأسباب الخارجية .

---

(١) سورة الإسراء : (٨١) .

أولا : الأسباب الداخلية :

إن الفكر الشيوعى حمل بين جوانبه أسباب إنهياره وزواله . ولأجل ذلك اعتبر بعض الكتاب أن زوال ذلك النظام الذى يتبنى الفكر الشيوعى لن يحتاج إلى قوة خارجية لتزيله بل سيزول بالمؤثرات من داخل الاتحاد السوفييتى .

يقول الكاتب السوفييتى سولجتين : (إن الشيوعية لن تغلبها قوة مضادة من الخارج لأن الخلاص منها سوف يأتى من داخل المجتمع السوفييتى نفسه لأن الشعب نفسه هو الذى يشعر بما يعانيه تحت ستار التعاليم الماركسية وهو الذى يملك فى يده مفتاح الخلاص لإبطال هذه التعاليم الزائفة)[١].

فماذا نعنى بالأسباب الداخلية؟

الأسباب الداخلية هى : تلك العوامل والمؤثرات التى كانت تنخر فى البناء الشيوعى داخل المجتمع السوفييتى سواء كانت فكرية أو سياسية أو إجتماعية أو إقتصادية مما كان لها أكبر الأثر فى سقوط النظام وتداعى أركانه .

فهى العوامل التى تنبع من الواقع السوفييتى من البيئة الداخلية التى كانت تزيد الشكوك فى صلاح الفكر الماركسى يوما بعد يوم إلى أن أصبح غير قادر على الثبات والمقاومة فانفجرت الجموع ضده مطالبة بحقوقها وحرياتها التى سلبها الفكر الشيوعى منها .

ثانيا : الأسباب الخارجية :

وهى تلك العوامل التى ساعدت على تداعى بنيان الشيوعية من خارج الستار الحديدى سواء فكريا أم سياسيا أم عسكريا .

ونأتى الآن لتفصيل تلك الأسباب ، ونبدأ بالأسباب الداخلية .

---

(١) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١٤-١٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أحمد بن عبد الله بن جمعان بن سرور الغامدي **كلية** : الدعوة وأصول الدين **قسم** : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير **في تخصص** : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((أسبـــــاب سقـــوط الشيوعيـــــة " الماركسيـــــة "))

==========

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ...

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه – والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤١٨/٢/٩هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الداخلي
الاسم : د. سليمان بن عبدالله السلومي	الاسم : د. محمود محمد مزروعه	الاسم : د. عبد الله بن عمر الدميجي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم

الاسم :

التوقيع :

١٧

يوضع هذا النموذج امام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة

المملكة العربيه السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة ام القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

٣٠١٠٢٠٠٠٠٢٧٦٥

أسباب سقوط الشيوعية
(الماركسية)

رساله مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

٠٠٠٤١٦

إعداد الطالب
أحمد بن عبد الله بن جمعان آل سرور الغامدي

جامعة أم القرى / مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

إشراف الدكتور
سليمان بن عبد الله السلومي

المجلد الثاني
١٤١٦هـ - ١٤١٧هـ

الفصل الأول
مصادمة النظام الشيوعى للفطرة

تمهيد :

حمل الفكر الشيوعى أسباب إنهياره وزواله فى أفكاره ومبادئه ونظرياته وتطبيقاته .

وأعظم ماعجل بسقوطه مصادمته للفطرة الإنسانية التى أودع الله تعالى فيها مايصلحها ، ويحقق لها سعادتها فى الدنيا والآخرة .

ولاشك أن هذه الفطرة قد تنحرف ويطرأ عليها التغيير والتبديل ، ولكن سرعان ماتعود إلى أصلها خاصة إذا عاش الإنسان فاقدا لما تطلبه فطرته ، وهذا ماحدث فى النظام الشيوعى حيث صادر الفطر بالقوة والقهر والحديد والنار . صادرها ظاهراواستجاب الناس لتلك المصادرة محافظة على ناحية أخرى فطرية وهى حب البقاء والخوف من الهلاك ، فأراد الله تعالى أن يهتك أستار هذا الفكر ويكشف عواره حيث إن الخلق تحت وطأته لم ينعموا بما فطروا عليه ونسى أصحاب هذا الفكر (أن كل منهج يخالف الفطرة ويعارض التوحيد لابد أن ينهار مهما امتد به الزمن أو حاول السيطرة والبقاء . وتلك حقيقة قد أثبتتها الأيام وسجلها التاريخ وهى تظهر ... هذه الأيام على نحو واضح صريح حيث نرى أن الشيوعية تنهار بعد سبعين سنة وتعلن عجزها عن العطاء ومعنى هذا أنه لاتوجد نظرية بشرية تعيش إلى الأبد ولكن الشىء الذى يستطيع أن يبقى إلى الأبد هو المنهج الربانى الذى لاتستطيع أن تجتاحه المتغيرات أو يعجز عن العطاء وهكذا يتكشف للبشرية أن الانسان مهما سما عقله وعلا شأنه وتفتحت أمامه أبواب العلم فإنه لايستطيع أن يقيم منهجا لحياته مما يحتم أن تؤمن البشرية وتخضع للمنهج الوحيد الذى رسمه لها صانع الحياة فالمنهج الربانى وحده هو القادر على البقاء وسوف تتساقط المناهج الوضعية كأوراق الخريف حتى لايبقى إلا منهج الله الذى يجب على البشرية أن تسلم وجهها له ولكن سقوط المنهج

البشرى (الشيوعية) لم يحدث مفاجأة ولكنه كان متوقعا منذ وقت بعيد فقد كشفت الدراسات عن مجافاته للفطرة والعلم وحقائق الأشياء وأنه لم يكن إلا محاولة زائفة لاستغلال نصوص من التاريخ وأساليب من عصور التسلط والقهر لإيجاد نظام يحمل كل سموم التلمودية الطامعة فى السيطرة على العالم والتى تجعل أول أهدافها إلغاء الدين وتحطيم النبوّات ورسائل السماء . وقد خدعت العالم كله بالدعوة إلى استعادة حقوق الفقراء المظلومين وإقامة العدل الإجتماعى فى مواجهة الرأسمالية التى سيطرت على العالم كله من خلال النهب العالمى للمواد الخام واستغلال الانسان وتكديس الثروات لصالح فئة محدودة)[1].

ونأتى لتفصيل ذلك :

---

(١) مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (١٨) .

المبحث الأول
مصادمة الشيوعية لفطرية التدين

وسيكون منهج الطرح كما يلى :

أولا :

إثبات فطرية التدين شرعا وتاريخا ، وتعريف الفطرة لغة واصطلاحا ، وبيان المقصود بالفطرة ، والقول الراجح فى ذلك .

ثانيا :

مصادمة الشيوعية لفطرية التدين وتحته عدة أمور :

(أ) إنكارهم وجود الخالق جل وعلا .

(ب) أقوالهم فى الدين .

(ج) تفسيرهم لنشأة الدين .

ثالثا :

بيان بطلان مزاعمهم وأقوالهم وتفسيراتهم للدين .

أولا : إثبات فطرية التدين شرعا وتاريخا :

(أ) **فطرية التدين شرعا :**

أخبر جل وعلا أنه فطر عباده على الدين والإيمان به جل جلاله ، وهذا الأصل فيهم غير أنه قد ينحرف لعوامل ومؤثرات خارجية تكون سببا فى تغيرها وصرفها عن مسارها الذى ارتضاه لها خالقها تبارك وتعالى ، وقد وردت لفظة الفطرة فى الكتاب والسنة فماذا تعنى الفطرة فى اللغة والشرع؟

الفطرة لغة :

فطر الشىء يفطره فطرا فانفطر وفطره شقه وتفطر الشىء تشقق وأصل الفطر الشق ، ومنه قوله تعالى : {**إذا السماء انفطرت**}[١]، والفطرة الابتداء والاختراع[٢].

ولفظ الفطرة ورد فى كتاب الله تعالى وله معنيان أحدهما لغوى والآخر شرعى .

(١) اللغوى :

بمعنى الخالق أو المبتدىء ، ابتداء الخلقة ومنه قوله تعالى {**الحمد لله فاطر السموات والأرض**}[٣].

وقوله تعالى : {**فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة**}[٤].

قال ابن كثير فى تفسيرها : (أى خلقكم ولم تكونوا شيئا)[٥].

(٢) المعنى الشرعى :

وهو المعنى الذى دلت عليه بعض الآيات والأحاديث الشريفة وهو أن الفطرة هى الإسلام .

---

(١) سورة الانفطار : (١) .
(٢) انظر لسان العرب (٥٦/٥) حرف الراء ، فصل الفاء ، القاموس المحيط (٥٨٧) .
(٣) سورة فاطر : (١) .
(٤) سورة الإسراء : (٥١) .
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤٤/٣) .

بعض الآيات والأحاديث الدالة على المعنى الشرعى للفطرة (الدين) :

الآية الأولى : قال تعالى : {**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون**}(١).

يقول ابن كثير فى تفسير الآية : (فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية ملة ابراهيم الذى هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك التى فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لاإله غيره)(٢).

وقال الشوكانى : (الفطرة فى الأصل الخلقة والمراد بها هنا الملة وهى الإسلام والتوحيد)(٣).

وقد قال بعض الناس أن فاطر فى كلام العرب تعنى الخالق وهذا حق لالبس فيه أن فاطر تعنى الخالق والمبتدىء ، ولكن فى هذه الآية جاء لفظ الفطرة بمعنى الإسلام أو الدين .

وعن هذا الإشكال والإجابة عنه يقول الإمام الشوكانى : (والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب جمهور السلف . وقال آخرون : هى البداءة التى ابتدأهم الله عليها ، فإنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة ، والفاطر فى كلام العرب هو المبتدىء وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة وإهمال معناها شرعا . والمعنى الشرعى مقدم على المعنى اللغوى كقوله تعالى : {**الحمد لله فاطر السموات والأرض**}(٤)أى خالقها ومبتدئها ...)(٥).

---

(١) سورة الروم : (٣٠) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٣٢/٣) .
(٣) فتح القدير (٢٢٤/٤) ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها.
(٤) سورة فاطر : (١) .
(٥) فتح القدير (٢٢٤/٤) .

الآية الثانية : قال تعالى : {**وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**}(١).

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما سئل عن الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون) فقال رجل : يارسول الله ، ففيم العمل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار)(٢).

الآية الثالثة : قال تعالى : {**هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذاكنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين**}(٣).

ففى هذه الآية دليل صريح على أن كل إنسان يؤمن بوجود الله تعالى وإن تجاهل هذه الحقيقة . فالفطرة مغروس فيها هذه الحقيقة ولكن انحرافها وزيغها جعلت صاحبها يحيد عن الطريق المستقيم لعوارض ومؤثرات خارجية

---

(١) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٢) رواه أبو داود (٤/٢٢٧) كتاب السنة ، باب القدر ، حديث (٤٧٠٣) مراجعة محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة .
وانظر عن الحديث وبعض رواياته كتاب الرد على الجهمية لابن منده (٤٩-٦٧) تحقيق د. على ناصر الفقيهى ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، مكتبة الغرباء الأثرية المدينة النبوية .

(٣) سورة يونس : (٢٢) .

ولكن سرعان ماتعود الفطرة إلى صفائها حين يقع الإنسان فى ضائقة أو ينزل به كرب فيعلم أنه لاينفع من دون الله تعالى أحد ، وهنا تعود فطرته إلى أصلها فيلجأ الإنسان إلى الخالق لكشف ضره فإذا نجاه الله وأصبح مطمئنا كما يظن إذا هو راجع إلى شركه ونكرانه السابق ، فدلت هذه الآية والتى قبلها على أن الانسان مفطور على الإيمان بالله والاعتراف بوجوده ، ولو حصل النكران لهذا الإله فكل دلك إنما هو جحود واستكبار وعناد فى الظاهر ليس إلا . أما حقيقة مايبطن فهو الاعتراف به تعالى ربا وخالقا ومتصرفا فى هذا الكون . وأشهر من عرف بانكار الرب والخالق لهذا الكون هو فرعون ، قال الله تعالى عنه وعن قومه :

{**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا**}(١).

وأخبر تعالى أن المشركين يقرون بوجود الله تعالى ولاينكرون ذلك ، قال جل شأنه : {**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**}(٢).

وقال تعالى : {**ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**}(٣).

فتبين أن الإيمان بوجود الله تعالى حقيقة ثابتة فى النفس البشرية ، حتى وإن أعلن صاحبها الجحود فسرعان ماتنزل به الشدة والكرب فيدعو الله لكشفه حينها تعود الفطرة إلى صفائها ونقائها .

يقول سيد قطب : (عجيب هذا المخلوق الإنسانى لايذكر الله إلا فى ساعة العسرة ولايثوب إلى فطرته وينزع عنها ماغشاه من شوائب وانحرافات إلا فى ساعة الكربة فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة فى كل آن مجلوة دائما بجلاء الإيمان)(٤).

وعن أولئك الذين يشركون بالله ثم يعودون إليه حال الشدة والكرب يقول : (عندئذ فقط فى هذا الهول المتلاطم تتعرى فطرتهم مما ألم

---

(١) سورة النمل : (١٤) .
(٢) سورة لقمان : (٢٥) .
(٣) سورة يوسف : (١٠٦) .
(٤) فى ظلال القرآن (١٧٧٣/٣) ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، دار الشروق ، بيروت .

بهـا من أوشاب وتنفض قلوبهم ماران عليها من تصورات ، وتنبـض الفطرة الأصيلة السليمة بالتوحيد واخلاص الدينونة لله دون سواه)[١].

ثانيا : الأحاديث :

الحديث القـدسى الذى يرويه الـرسول صلى الله عليـه وسلم عـن ربه تعـالى أنه قـال : (كل مال نحلتـه عبـدا حلالا ، وإنى خلقـت عبـادى حنفاء كلهـم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمـت عليهم ماأحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا)[٢].

معنى الحنيفيـة فى اللغة : الميل وإنما يقال للمائل الـرجل أحنف تفاؤلا بالإستقامة .

والحنيفيـة فى الإسلام الميـل إليـه والإقـامة على عقـده والحنيـف المسلم الذى يتحنف عن الأديان أى يميل إلى الحق .

والحنيف هو الذى يستقبل البيت الحرام .

وقيل هو المخلص ، وقيل هو من أسلم فى أمر اللـه فلم يلتو فى شىء .

وتحنف الرجل أى عمل عمل الحنيفية .

ويقال اختتن ،و يقال اعتزل الأصنام وتعبد[٣].

وعلى هـذا فـالحديث يدل على أن النـاس خلقوا على دين اللـه تعـالى وأن هذا هو الأصل فيهم ، ولولا تعرض الشياطين لهم ، وإبعادهم لهم عن أصلهم ذلك لبقوا على هذا الإيمان الذى فطروا عليه .

الحديث الثـانى : قـوله صلى اللـه عليه وسلم : (كـل مـولود يولد على الفطـرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أويمجسانه كما تنتـج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء إلا أن تجدعونها أنتم .

---

(١) فى ظلال القرآن (١٧٧٤/٣) .

(٢) صحيـح مسلم بشرح النووى (١٩٧/١٧) كتـاب الجنة وصفة نعيمهـا وأهلهـا ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

(٣) انظر لسان العرب (٥٥/٩-٥٦) حرف الفاء ، فصل الحاء .

قال أبو هريرة رضى الله عنه اقرؤا إن شئتم قول الله تعالى : {**فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون**}[(١)][٢].

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فى المقصود بالفطرة فى هذا الحديث ، وكان لاستدلال بعض الفرق المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة به أثر فى هذا الاختلاف حيث أرادوا الرد على أهل الباطل ففسرت الفطرة هنا بغير الدين[٣].

ويمكن القول أن هذه الأقوال والاختلافات لاتخرج عن التالى :

(أ) أنها العهد والميثاق الذى أخذه الله تعالى عليهم .

(ب) ابتداء الخلق فى بطن الأم .

(ج) أن معناها المعرفة التى يولد بها .

(د) أن معناها الخلقة .

(هـ) أن الله تعالى فطرهم على الإنكار والمعرفة وعلى الكفر والإيمان .

(و) أن المقصود بالفطرة السلامة خلقة وطبعا وبنية ليس معها كفر ولاإيمان ولامعرفة ولاإنكار .

(ز) أن الفطرة هى الإسلام .

---

(١) سورة الروم : (٣٠) .

(٢) متفق عليه وسبق تخريجه (٢٧٢) .

(٣) انظر شفاء العليل (٥٧٥-٥٧٦) تأليف ابن قيم الجوزية ، دار التراث ، القاهرة ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

وقد عرض شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم رحمهما الله تعالى لهذه الأقوال وبينوا أن المقصود بالفطرة فى الحديث القول الأخير(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (الصواب أنها فطرة الله التى فطر الناس عليها هى فطرة الإسلام وهى الفطرة التى فطرهم عليها يوم قال {**ألست بربكم قالوا بلى**}(٢)وهى السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة)(٣).

ويقول : (الدلائل الدالة على أنه أراد على فطرة الإسلام كثيرة ، كألفاظ الحديث التى فى الصحيح ، مثل قوله "على الملة" ، "وعلى هذه الملة" ومثل قوله فى حديث عياض بن حمار : "خلقت عبادى حنفاء كلهم" ، وفى لفظ "حنفاء مسلمين" ومثل تفسير أبى هريرة وغيره من رواة الحديث ذلك ، وهم أعلم بما سمعوا .

وأيضا ، فإنه لو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام ، لما سألوا عقب ذلك "أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير؟" ، لأنه لو لم يكن هناك مايغير تلك الفطرة لما سألوه . والعلم القديم ومايجرى مجراه لايتغير ، وكذلك قوله : "فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" ، بين فيه أنهم يغيرون [الفطرة] التى فطر [الناس] عليها .

---

(١) عن القول الأول ورده انظر : درء تعارض العقل والنقل (٣٥٩/٨) لابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، دار الكنوز الأدبية ، شفاء العليل (٥٦٨) ، الرد على الجهمية (٥٧-٥٨) .
عن القول الثانى انظر : درء تعارض العقل والنقل (٣٦٠/٨-٣٦١) ، شفاء العليل (٥٦٩-٥٧٠) .
وعن القول الثالث انظر : الدرء (٣٨٤/٨-٣٨٥) ، شفاء العليل (٥٧٩-٥٨٠) .
وعن القول الرابع انظر : الدرء (٣٨٦/٨-٣٨٨) ، شفاء العليل (٥٨١) .
وعن القول الخامس انظر : الدرء (٤١٣-٤١٤) ، شفاء العليل (٥٨٨) .
وعن القول السادس انظر الدرء (٤٤٤/٨-٤٤٧) .

(٢) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢٤٥/٤) ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل (٣٦٧/٨-٣٦٨) شفاء العليل (٥٧٢-٥٧٣) .

وأيضا ، فإنه شبه ذلك بالبهيمة التى تولد مجتمعة الخلق لانقص فيه ، ثم تجدع بعد ذلك ، فعلم أن التغيير وارد على الفطرة السليمة التى ولد العبد عليها .

وأيضا ، فإن الحديث مطابق للقرآن ، لقوله تعالى : {**فطرة الله التى فطر الناس عليها**}(١)، وهذا يعم جميع الناس ، فعلم أن الله فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة ، وفطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لاإضافة ذم ، فعلم أنها فطرة محمودة لامذمومة)(٢).

ويقول الإمام ابن القيم : (والمقصود أن الله فطر عباده على فطرة فيها الإقرار به ومحبته والاخلاص له ، والإنابة إليه وإجلاله وتعظيمه . وأن الشخص الخارج عنها لايحدث فيها ذلك ويجعلها فيها بعد أن لم تكن وإنما يذكرها بما فيها وينبهها عليه ويحركها له ويفصله لها ويبينه ويعرفها الأسباب المقوية والأسباب المعارضة له والمانعة من كماله . كما أن الشخص الخارج لايجعل فى الفطرة شهوة اللبن عند الرضاع والأكل والشرب والنكاح ، وإنما تذكر النفس وتحركها لما هو مركوز فيها بالقوة)(٣).

وقد دلت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على ذلك وهو أن المقصود بالفطرة دين الله تعالى ، يقول الإمام ابن القيم : لقد جاءت (دلالة الكتاب والسنة والآثار واتفاق السلف على أن الخلق مفطورون على دين الله الذى هو معرفته والإقرار به ومحبته والخضوع له ، وأن ذلك موجب فطرتهم ومقتضاها ، يجب حصوله فيها إن لم يحصل مايعارضه ويقتضى حصول ضده وأن حصول ذلك فيها لايقف على وجود شرط ، بل على انتفاء المانع . فإذا لم يوجد فهو لوجود منافيه لالعدم مقتضيه . ولهذا لم يذكر النبى صلى الله عليه وسلم لوجود الفطرة شرطا ، بل ذكر مايمنع موجبها حيث قال : "فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" فحصول هذا التهويد والتنصير موقوف على

---

(١) سورة الروم : (٣٠) .
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣٧١-٣٧٢) .
(٣) شفاء العليل (٦٠٣) .

أسباب خارجة عن الفطرة . وحصول الحنيفية والإخلاص ومعرفة الرب والخضوع له لايتوقف أصله على غير الفطرة ، وإن توقف كماله وتفضيله على غيرها ...)[١].

وإذا كانت الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة ، قد أثبتت هذه الحقيقة وهى أن الفطرة هى الإسلام ، فإن دلالة العقل كذلك تؤيد هذا الرأى وتدعم أن المقصود بالفطرة الإسلام[٢].

(ب) **الدلالة التاريخية على أن البشر مفطورون على التوحيد** :

بعد حديثنا عن بيان أن التوحيد هو الأصل فى البشر بنص الكتاب والسنة نعرض الآن للدلالة التاريخية على ذلك .

أولا : إجماع الأمم على الإقرار بالربوبية .

إن المشركين فى اتخاذهم للآلهة من دون الله تعالى لم يكونوا يساوون بين الله تعالى وبين من أشركوه معه تعالى ، وأخبر سبحانه أنهم لايعبدون تلك الأصنام إلا لتقربهم إلى الله زلفى {**ومانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**}[٣].

ويبين تعالى أنهم يقرون بوجوده سبحانه فيقول : {**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**}[٤].

وقد أجمع الباحثون والمختصون فى علم الأديان والحضارات على أن الفطرة الدينية والاعتراف بوجود الإله حقيقة ثابتة منذ وجود الإنسان فى أقدم العصور وهو يتعبد ويؤمن بوجود الإله ، حيث (وجدت فى التاريخ

---

(١) شفاء العليل (٦٠٤) .
(٢) انظر هذه الأدلة فى درء تعارض العقل والنقل (٨/٤٥٦-٤٦٨) .
وانظر شفاء العليل (٦٠٥-٦١١) .
(٣) سورة الزمر : (٣) .
(٤) سورة لقمان : (٢٥) .

مدن بلاقصور ، ولامصانع ، ولاحصون ، ولكن لم توجد مدن بلامعابد)[١].

وإن كان هذا الإنسان قد ينحرف فى تصوره عن هذا الإله إلا أن الدين كان (هو أساس الأسرة والحياة الإجتماعية فى المدينة القديمة ...)[٢].

ومما يدل على هذا الإقرار هو أن أولئك المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة لم يجعلوا الآلهة سواء بل جعلوا أحدها أفضل من سائرها فإن الثنوية من المجوس وهم (القائلون بالأصلين ، النور والظلمة ، وأن العالم صدر عنهما متفقون على أن النور خير من الظلمة وهو الإله المحمود ، وأن الظلمة شريرة مذمومة وهم متنازعون فى الظلمة هل هى قديمة أو محدثة فلم يثبتوا ربين متماثلين)[٣].

ومن القائلين بتعدد الآلهة كما أخبر الله تعالى عنهم النصارى القائلين بالتثليث . ومع ذلك فهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض بل متفقون أن العالم له صانع واحد ويقولون باسم الابن والأب وروح القدس إله واحد وقولهم بالتثليث متناقض فى نفسه وقولهم بالحلول أفسد منه ، ولهذا كانوا مضطربين فى فهمه وفى التعبير عنه فيقولون هو واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم ، والأقانيم تارة يفسرونها بالخواص وتارة بالصفات وتارة بالأشخاص ، وقد فطر الله تعالى العباد على فساد هذه الأقوال . وبالجملة فهم لايقولون باثبات خالقين متماثلين[٤].

---

(١) الإيمان والحياة (٩٩) ، نقلا من كتاب العقيدة الإسلامية سفينة النجاة (١٠٧) ، د. كمال محمد عيسى ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة .

(٢) الإنسان ذلك المجهول (١٥٧-١٥٨) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (١٨) ، على بن أبى العز الدمشقى ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، دار البيان ، دمشق .

(٤) انظر المرجع السابق (١٧-١٨) .

ويذكر أفلاطون : أن الآلهة صنفان منها ماهو سماوى والآخر أرضى فالسماوى يعبد ، والأرضى تبجل ولاتعبد ويرتب لكل آلهة ماينا سبها[١].

وهكذا كان الاعتراف ، والإقرار بوجود الإله الذى يستحق التميز عن سائر الآلهة ، وماعرف عن أحد أنه أنكر الربوبية لله تعالى إلا استكبارا وعنادا فى الظاهر مع الإقرار بهذه الحقيقة واستيقانها فى النفس ، ومن أشهر هؤلاء فرعون قال الله تعالى عنه وعن قومه : {**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا**}[٢].

ثانيا : إن دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأقوامهم لم تكن لإثبات وجوده تعالى والاعتراف به . فإن هذه الحقيقة كانت موجودة فى النفس البشرية مفطورة عليها منذ أخذ الله تعالى الميثاق عليهم .

بل كانت دعوتهم لتصحيح الانحراف الذى حصل لهذه الفطر فى توحيدها وعبادة ربها . فكانت دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعهم لهذه الغاية اخلاص التوحيد لله بإفراده جل وعلا بالعبادة .

وهذا أول الأنبياء عليهم السلام يقول الله تعالى عنه : {**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**}[٣].

وكذلك دعوة الأنبياء عليهم السلام من بعده كانت لهذه الغاية إفراد الله تعالى بالعبادة . فهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم كانت دعوتهم لتوحيد العبادة .

قال تعالى : {**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**}[٤].

---

(١) انظر أفلاطون فى الإسلام (٧٦) .
(٢) سورة النمل : (١٤) .
(٣) سورة الأعراف : (٥٩) .
(٤) سورة النحل : (٣٦) .

وقال سبحانه وتعالى : {**وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون**}(١).

فكانت دعوتهم لعبادة الله تعالى وحده ، ولم يدعوهم إلى الاعتراف بوجوده جل وعلا ، أو الإقرار بالربوبية فإن هذه الحقيقة كانت أكبر من أن يتطرق إليها الشك أو النكران .

فإرسال الرسل كان لإعادة الفطر إلى أصلها الاول الذى خلقت عليه(٢).

ثالثا : لجوء الانسان إلى قوة خفية تسيطر عليه يفزع إليهاعند حاجته ، وقد أخبر جل وعلا بذلك فقال سبحانه : {**هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين**}(٣).

فهنا لجأ الانسان إلى الخالق جل وعلا لعلمه أنه هو كاشف الضر وأن من دونه لايستطيعون شيئا ، ومن هنا عادت الفطرة إلى أصلها وهو الإقرار بربها وإفتقارها إليه جل وعلا ، فشعور الإنسان بوجود قوة مهيمنة على الكون يتجه إليها ويستمد منها العون شعور فطرى فى النفس البشرية .

يقول الأستاذ كريسى موريسون : (إن كون الإنسان فى كل مكان ومنذ بدء الخليقة حتى الآن قد شعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم يدل على أن الدين فطرى فيه . ويجب أن يقر العلم بذلك)(٤).

---

(١) سورة الأنبياء : (٢٥) .

(٢) انظر الإسلام وأزمة الغرب (٢١-٢٢) لرجاء جارودى ، ترجمة د. رفيق المصرى ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع .

(٣) سورة يونس : (٢٢) .

(٤) الانسان لايقوم وحده (٢٩٠) نقلا من كتاب روح الدين الإسلامى (٨٣) ، عفيف عبد الفتاح طباره ، توزيع دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

فالشعور الديني احساس طبيعي يجده الإنسان في حياته حيث يشعر (بأن من فوقه قوة عليا توجهه ، وتسدده في طريقه ، وتعصمه من اليأس في ساعات الحرج والشدة وتمنحه العزيمة والقوة على اقتحام المصاعب ، وتمنعه من الاستسلام لنزعات الشر والسوء أو للشهوات والنزوات والمطامع الفردية وتربط البشر بعضهم إلى بعض بروابط تجمعهم على الأخوة الإنسانية المتعاونة من غير انتظار لجزاء مادي أو غير مادي يلقاه الانسان على الأرض)[١].

(إن هذه الأحاسيس والغريزة الفطرية ومايشعر به الانسان من إلهام مصدره خارج الإنسان لهي سبل وصول الإنسان إلى معرفة خالقه والتمسك بعبادته .. كما أن حاجة الإنسان إلى الإيمان بوجود قوى خارجية يفزع إليها عند حاجته .. لتنصره إذا بغى عليه وترد إليه حقه إذا سلب منه .. يتضرع إليها إذا أصابه الداء .. ويشكرها إذا نال الشفاء .. ولابد أنه في تصوره لهذه القوى إنما يتخيل أنها أكبر مما يستطيع أن يسعفه به التخيل .. فهي أكبر من كل ظروفه لأنه يلجأ إليها .. وأكبر من كل مافي الحياة لأنها هي الله تهب له حياته وحياة الآخرين .. وهي أقوى من كل ماعرف ومالم يعرف من القوى لأن كل قوة أحسها أو عرفها .. كثيرا ماوجد أكبر منها .. فالدين بذلك فطرى في الإنسان أودعه الله سبحانه وتعالى فيه منذ أن خلقه)[٢].

بعد هذه المقدمات نصل إلى الآتي :

أولا : أن كل مولود يولد على الفطرة الصحيحة وهي دين الله تعالى سواء كان من أبوين كافرين أو مسلمين .

---

(١) الإسلام في وجه الزحف الأحمر (٥٣-٥٤) محمد الغزالي ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، صيدا .
وانظر الدين أو اللادينية (٤٠) ومابعدها ، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .

(٢) بين الدين والعلم (٣٨-٤٠) ، عبد الرزاق نوفل ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، دون ذكر لتاريخ الطبعة .

ثانيا : أن فى إثبات هذه الحقيقة أبلغ رد ونقد لمزاعم الشيوعية فى إنكارها للدين واعتباره من اختراع البشر . وهو أول أمر يرد به على الفكر الشيوعى .

ثالثا : أن الفطرة السليمة قد تنحرف بفعل المؤثرات الخارجية سواء من الأبوين أو من المجتمع والبيئة التى يعيش فيها الإنسان .

رابعا : أن واقع التاريخ الإنسانى منذ آدم عليه السلام وحتى الآن إلى قيام الساعة يدل على هذه الحقيقة وهى أن الناس يعترفون بهذا الأمر وهو وجود الخالق جل وعلا .

خامسا : أن كل إنكار لهذا الأمر قديما أو حديثا إنما هو من الشيطان واتباع للهوى وتحقيق لمآرب شخصية وإشباع لمطالب شيطانية . وهذا ماحمل الشيوعية على موقفها من الدين وإنكارها للألوهية مطلقا . ولو تركت النفوس البشرية على أصلها لاختارت طريق الهدى والصلاح على طريق الضلال والإلحاد . ونعرض الآن لمصادمة الشيوعية لهذه الفطرة الربانية وهل نجحت فى تحقيق ذلك أم لا؟

على أن العداء للدين من قبل الشيوعية يعتبر أمرا بدهيا لأنه يأتى على بنيانها من أساسه ، ولأجل ذلك ناصبوه العداء واعتبروا القضاء عليه وإنكاره من الأولويات التى يقوم عليها فكرهم .

ثانيا : مصادمة الشيوعية للفطرة الدينية فى النفس البشرية :

قامت الشيوعية على عدد من المبادىء والأسس ومن أهمها مبدأ القضاء على الدين ، ونصوا على هذا فى كتاباتهم ، وتوجيهاتهم كما طبقوا ذلك عن طريق أفعالهم وكان جام غضبهم على المسلمين ، وذلك لكونهم شديدى التمسك بدينهم ، ولكون هذا الدين هو الذى ارتضاه المولى سبحانه وتعالى لنفسه ، ومن هنا كان لابد من شدة العداء بين الحق والباطل ، ولم تكن الأفكار الماركسية ـ منذ أن كانت نظرية وبعد أن أصبحت مطبقة فى دولة شيوعية ـ صديقة للإسلام أو المسلمين .

يقول د. صفوت : (إن عداء الماركسية للإسلام هو أشد وأقسى من عدائها لأى دين من الأديان ولعل السبب فى هذا ماتراه الماركسية من تمسك المسلمين القوى بعقيدتهم وماتعلمه من أن الشعار الذى ترفعه والذى يدعو إلى إنصاف الفئات الكادحة المطحونة قد سبقها إليه الإسلام منذ قرون وأن العدالة الإجتماعية فى الإسلام هى أتم وأكمل مماتدعو إليه (الماركسية) ، وأن تطبيقها يتم بدون عنف ومن غير إراقة للدماء ولاإثارة للحقد والشحناء هذا بالإضافة إلى أن الإسلام بعيد عن الكهنوت وصكوك الغفران برىء من اضطهاد العلم والعلماء ...)[1].

وقولنا هذا لايجعلنا ننكر حربهم للنصرانية ومحاولة القضاء عليها غير أنها لم تكن قادرة على المقاومة لما أصابها من تحريف وتبديل . ولما فى رجالها من فساد ومنكرات ترتكب باسم الإله مما ساعد على حدة العداء والحقد من قبل الشيوعيين على الإسلام . فاتخذ الشيوعيون من أفعال الكنيسة وفساد الدين فى أوروبا ذريعة فى حربهم للإسلام . واعتبروا الأديان سواء فى الاستغلال والطغيان . وليت ماركس وانجلز حددا فى أفكارهما الدين

---

(١) الفكر الماركسى (٩٤) .

النصـرانى وبحثا عن الحق ولكنهما قصرا نفسيهما على دراسـة الواقع النصرانى ثم عممـا حكمهمـا على كل الأديان وهـذا يتعارض مع أبسـط قـواعد المنهج العلمـى . ومنذ الأيام الأولى لقيام الثورة البلشفية أعلـن الشيوعيون حربهم للدين ، تطبيقا للمبادىء التى جاءت عن ماركس وانجلز .

وكـانت روسيا القيصرية نصـرانية فى دينها ، وتمثـل الكنيسـة ورجالها قوة واضحة فيها ، وعندما قـامت الثورة البلشفية اتخذت نهجـا عدائيا تجاهها ووزعـت السفـارة السـوفيتيـة فى إحدى عـواصم الـدول العـربية كتـابا باللغـةالعربية وعنوانه (حرية الدين فى الاتحاد السوفييتى) ، (وقـد أرادت به تبرئة الحكومة السوفيتية فى اضطهادها للدين وأصحابه .. وقـد جاء كل مافيه أدلة اتهام لاأدلة قراءة ، ورد بالكتاب فى الفصل الأول تحت عنـوان (الدين فى روسيا قبل الثورة) مانصه : (وفى زمن الثورة الأولى فى روسيا كتب لينين يجب ألاتشتغل الدولة بالدين ، ويجب ألا تكون للجمعيـات الدينية أية صلة بسلطة الدولة ، يجب أن يصبح كل فرد حرا تماما فى اعتنـاق أى دين يرضيه أو مـن عـدم الإيمان على الاطلاق ، ولايمكـن التسـامح بشـأن أى تمييز بين المواطنين فى حقـوقهم على أسـاس معتقـداتهم الدينية . ويجب أن تحذف أية إشـارة إلى معتقدات المواطنين من جميع الوثائق الرسميـة بلاقيد أو شرط ، ويجب ألاتقدم أية منحة حكومية للكنيسة ، والجمعيات الدينية التى يجب أن تصبح هيئات حرة كلية ومستقلة تماما عن الدولة) .

ويلى هذا باب بعنوان : تشريعات الدولة السوفيتية بشأن الدين ، ورد به : (قضـت ثورة أكتـوبر الإشتراكيـة الكبرى على العلاقـات القـديمة بين الكنيسـة والـدولة فـأصدرت الحكـومة السـوفيتية فى ٢٣ ينـاير سنـة ١٩١٨م مرسوما سوى مسألة حرية الـدين ومـوقف الـدولة السـوفيتية تجاه الـدين والجمعيات الدينية ، وقد أعلن هذا المرسوم التاريخى مايلى :

(١) الكنيسة منفصلة عن الدولة .

(٢) محظـور إصدار أى قوانين محلية أو لوائح فى أراضـى الجمهورية يكون من شأنها عرقلة أو تقييـد حرية الضمير أو إيجاد أية امتيـازات أو ميزات على أساس معتقدات المواطنين الدينية .

(٣) لكل مواطن أن يعتنق أى دين[١]، أو لايعتنق أى دين على الإطلاق .

(٤) لن تجرى أية مراسم أو احتفالات دينية فى أى عمل من أعمال الدولة أوفى أى احتفال رسمى عام أو إجتماعى .

(٥) حرية القيام بالطقوس الدينية مكفولة إلى الحد الذى لاتؤدى فيه إلى اضطراب النظام العام ، وإذا كانت غير مصحوبة بالتعدى على حقوق المواطنين فى الجمهورية السوفيتية ، وللسلطات المحلية الحق فى اتخاذ جميع التدابير اللازمة فى هذه الأغراض لضمان المحافظة على النظام العام والأمن .

(٦) لايستخدم أحد معتقداته الدينية كعذر للتنصل من واجباته المدنية .

(٧) يلغى عمل قسم أو عهد دينى وفى الأحوال الضرورية يكتفى فقط بالوعد الصادق .

(٨) تقوم السلطات المدنية ـ وحدها بجميع أعمال التسجيل عن طريق مكاتب تسجيل الزواج والميلاد .

(٩) المدرسة مفصولة عن الكنيسة والتعليم الدينى محظور فى جميع المدارس العامة والخاصة ، ويتعلم المواطنون الدين على انفراد)[٢].

وبالنظر فى هذه البنود نجد أنها تمس مبادىء الإسلام مباشرة بينما لايمس النصرانية منها إلا قضية الفصل بين العلم والدين ، وقد ألمحنا أن النصرانية لاتستطيع أن تقاوم فالهدف من هذه التوصيات والبنود هو الإسلام ومبادئه .

---

(١) لو بقى الأمر على هذا القانون لكان ذلك جيدا إلى حد ما ، ولكن كانت هذه الخطوة تمهيدا لما بعدها ، وكسبا لود أغلب السكان فى تلك المناطق .

(٢) حقيقة الشيوعية (١٩٤-١٩٦) .
وانظر الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٢٦-٢٧) .

فالإلحاد مسموح به ، والتفرقة على أساس الدين ليس مسموحا بها . وتعلم الإلحاد ودراسته تنال الاهتمام والتعليم الدينى يمنع فى المدارس الخاصة والعامة . وليس من حق العامل القيام بواجباته الدينية وهو على رأس عمله (وهل المسيحى يفعل ذلك) فالمقصود المسلم وكل الأمور التى يتبين منها ميولها الدينية أو تعبيرها دينى تمنع فلاأذان ولاصلاة ولادعوة فكل ذلك يتنافى مع النظام . فكانت الحرب منذ اللحظة الأولى على الإسلام وأهله . ذلك الدين الذى فطر الناس عليه .

وهذا وضع طبيعى تمارسه الشيوعية ، كيف لا وهى التى قامت على إنكار الإله ، ويمكن إبراز مصادمة هذا النظام للفطرة الإنسانية فى الأمور التالية :

أولا : إنكارهم وجود الإله .

ثانيا : أقوالهم فى الدين من حيث تفسيره ، نشأته ، تطوره .

ثالثا : واقعهم مع المسلمين[1].

أولا : إنكارهم وجود الخالق جل جلاله :

قامت الشيوعية على الفكر الإلحادى ولم تعترف إلا بما هو محسوس مشاهد ، وإذا نظرنا إلى أصول ماركس وأفكاره نجد أنها اصطبغت بالصبغة المادية فلاغرابة أن جاء عنه وعن أتباعه أن لاإله والكون مادة ، وعمل الشيوعيون على نشر هذه العقيدة بين الناس بل ودرسوها فى مدارسهم وجامعاتهم . واعتبروا أن الفرد الصالح النافع للحزب هو ذلك الفرد الذى يتربى على الأفكار الماركسية اللينينية ولأجل ذلك اعتبروا التربية الإلحادية أحد أنواع التربية التى لابد وأن يتلقاها الفرد فى ظل النظام الشيوعى فصدرت هذه العقيدة من ماركس ومن بعده لينين وأتباعهما وحدداها بقولهم

---

(١) وهذا سيتضح لنا من خلال حديثنا عن الحريات الدينية فى الاتحاد السوفييتى إن شاء الله تعالى .

(لاإله والحياة مادة)[١].

ويقول انجلز : (لامحل مطلقا لوجود خالق أو حاكم فى هذا الزمان الذى ظهرت فيه نظرية التطور التى يقوم عليها الكون)[٢].

ويقول ماركس : (أنا أكره كل الآلهة)[٣].

وصرح لينين بأن الإلحاد الذى هو الإنكار للإله جزء طبيعى من الماركسية ، فقال : (الإلحاد جزء طبيعى من الماركسية لاينفصل عنها)[٤].

وينكر لينين صراحة وجود الإله فيقول : (ليس صحيحا أن الله هو الذى ينظم الأكوان ، وإنما الصحيح هو أن الله فكرة خرافية اختلقها الإنسان ليبرر عجزه ، ولهذا فإن كل إنسان يدافع عن فكرة الله إنما هو شخص جاهل وعاجز ...)[٥].

ويقول لينين : (كل إله وإن تناهى فى المظهر وبلغ الذروة من الجودة والجمال هو أكذوبة يتذرع بها الأسياد . أما نحن فلسنا ملاحدة وحسب . بل نحن ملاحدة مجاهدون ، ولانكتفى ببذر الأفكار ، بل نشعلها فتنة بين الطبقات ارادة أن نصل إلى القضاء على جرثومة الدين)[٦].

وماأكثر ماسفه زعماء الشيوعية أحلام كل أحد يفكر فى قضية الإله أو الاعتراف بأن هذا الكون له مدبر واعتبروا ذلك من سقط الأخلاق والدناءة

---

(١) شهادتى للتاريخ (٢٥٤) .
وانظر : الشيوعية فى موازين الإسلام (٢٠) ، الشيوعية والأديان (٢٣) .

(٢) الشيوعية فى موازين الإسلام (٢٠) .

(٣) الفروق بين فلسفة الطبيعة عند ديموقريط وفلسفة الطبيعة عند أبيقور ماركس ١٨٤١-١٨٤٢ ، نقلا من كتاب تجربتى مع الماركسية (١٥٣) .

(٤) شهادتى للتاريخ (٢٥٥) ، وانظر حقيقة الشيوعية (١٨٩-١٩٠) .

(٥) الحقيقة الكاملة (١٩) ، وانظر : حركات ومذاهب (١٥) ، إشتراكيتهم وإسلامنا (٥١) ، قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (٣٢) حاشية رقم (١) ، معالم الإشتراكية العربية (١٧٠) .

(٦) الحقيقة الكاملة (٣٧) .

فى النفس . يقول لينين : (إن كل فكرة دينية وكل معتقد بالله لابل إن مجرد التفكير بالله دناءة كامنة فى النفس)[١].

ويقول لينين : (إننا لانؤمن بالإله ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والاقطاعيين والبورجوازيين لايخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالا ومحافظة على مصالحهم . إننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التى صدرت عن طاقات وراء الطبيعة غير الإنسان ، والتى لاتتفق مع أفكارنا الطبقية ، ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال ، لصالح الاستعمار والإقطاع ، ونعلن أن نظامنا لايتبع إلا ثمرة النضال البروليتارى ، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية)[٢].

ويقول : (إن تهذيب الشبان وتعليمهم يجب أن يتوخى تلقيحهم بالأخلاق الشيوعية ، ولكن هذه الأخلاق ليست مستمدة من وصايا إلهية لأننا لانؤمن بالله)[٣].

وعندما غاب مكسيم جوركى وهو كاتب روسى شهير عن جلسات الحزب افتقده لينين فأرسل إليه من يحضره ، واعتذر وقال بأنه يبحث عن الإله فأرسل إليه لينين برسالة يقول فيها : (إن البحث عن الله لافائدة منه ... ومن العبث البحث عن شىء لم يخبأ، وبدون أن تزرع لاتستطيع أن تحصد ... وليس لك إله لأنك لم تخلق بعد .. والإله لايبحث عنه وإنما

---

(١) حركات ومذاهب (١٦) .

(٢) نقلا من كتاب الإسلام يتحدى (٤٠) وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، د. عبد الصبور شاهين ، الطبعة الأولى ، المختار الإسلامى .
وانظر حقيقة الشيوعية (١٩١) .

(٣) حركات ومذاهب (١٦) .

يخلق)[١].

وقد حرص لينين على الدعوة إلى الإلحاد سرا فى أول الأمر فقال سنة ١٩٠٥م :

(لماذا لانعلن فى براجنا إننا ملحدون؟ إننا نفعل ذلك لكى لانزود خصومنا بسلاح يهاجموننا به ، فعدد المؤمنين بالله لايزال يفوق عدد الملحدين)[٢].

ثم خرج عن هذه السرية وقال :

(إننا نقوم بالدعوة ضد الدين الآن لأننا أقوى من أن ينال خصومنا منا عن طريق التشهير بالحادنا ، ولقد كنا نحرص فى الماضى على عدم إعلان إلحادنا لأننا لم نكن أقوياء ، أما الآن فإننا نعلن بصراحة أننا ملحدون وأننا نرى فى الأديان خطرا على الحضارة والانسان فالاديان أفيون مخدر)[٣].

وعلى نفس الخطى وفى نفس الطريق سار الرفيق ستالين فى طريق أسلافه فى هذا الإنكار فقال : (إن العالم يسير دون أن يكون له مسير) .

ويقول : (العالم يسير ويتطور وسيره وتطوره يتبع قوانين حركة المادة وهو ليس بحاجة لأى عقل كلى يسيره)[٤].

ويقول : (نحن ملحدون ... ونحن نؤمن بأن فكرة الله خرافة ... ونحن لانريد أن نجعل الدين مسيطرا علينا لأننا لانريد أن نكون سكارى)[٥].

---

(١) شهادتى للتاريخ (٢٣٠) .
وانظر : حقيقة الشيوعية (١٩١) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٤١) ، الكيد الأحمر (٤١) ، كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (١٦-١٧) ، الماركسية بين النظرية والتطبيق (٦٤) ، فتاوى عن الشيوعية (٩٢-٩٣) .

(٢) إشتراكيتهم وإسلامنا (٤٩) .

(٣) المرجع السابق (٥٠) ، وانظر الحقيقة الكاملة (١٥) .

(٤) شهادتى للتاريخ (٢٤٦-٢٤٧) .
وانظر الماركسية بين النظرية والتطبيق (٦٤) .

(٥) إشتراكيتهم وإسلامنا (٥٠) ، وانظر الحقيقة الكاملة (١٩) .

ويقول بوليتزر : (الماركسية هى فى آن واحد الإلحاد الأكثر تماسكا ومنطقية وتجاوز الإلحاد المبتذل الذى يخيل إليه أن كل شىء يسوى على الوجه المطلوب عند "نقد السماء" . فمادام الدين انعكاسا خياليا للعالم الواقعى ، فلابد من تبيان أن الدين وهم)[١].

كما أن صحف الحزب ووسائل إعلامه قد عملت على ترويج هذه الفكرة وأن الكون ليس له خالق .

ففى عام ١٩٥٤م نشرت صحيفة البرافدا (أن الإعتقاد بالله هو تراث القدامى الجهلة)[٢].

ونشرت باكنسكى بايوش فى ١٧ كانون الأول ١٩٥٨م : (لو كان الله موجودا لما سمح أن ننبذ الدين)[٣].

ونشرت البرافدا بتاريخ ٢٦ نيسان ١٩٤٩م على لسان أحد قادة الحزب الشيوعى مايلى : (نحن نؤمن بثلاثة أشياء هى : ماركس ولينين وستالين ، ونكفر بثلاثة أشياء هى الله والدين والملكية الخاصة)[٤].

ونشرت صحيفة العلم الأحمر بتاريخ آذار ١٩٥٩م : (من الطبيعى أن الصراع بين الإلحاد والإيمان بالله لم ينته بعد ولابد من توجيه الجماهير نحو استئصال جذور الإيمان بالخرافات والجن والآلهة بصورة أعمق مما حدث حتى الآن)[٥].

إن دعوة الشيوعيين إلى الإلحاد لم تكن فقط على مستوى رؤساء الحزب كما أنها لم تكن فقط كلمات تصدر ، أو خطابات تلقى ، بل جعلوا أعضاء

---

(١) فلسفة الأنوار (١١) .
(٢) حركات ومذاهب (١٦-١٧) .
(٣) المرجع السابق (١٦-١٧) .
(٤) الحقيقة الكاملة (١٩) .
وانظر : إشتراكيتهم وإسلامنا (٥١) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٤٣) ، الكيد الأحمر (٤١) .
(٥) حركات ومذاهب (١٦-١٧) .

حزبهم ومفكريهم والقائمين على التعليم فى جامعاتهم يلقنون النشء الإلحاد ويمنعونهم من كل فكر دينى ، لقد فرضوا الإلحاد بالقوة . وجعلوا التربية الإلحادية أحد الأسس المهمة فى تربية الفرد الشيوعى .

يقول أحد أعضاء الحزب فى فترة من فترات حياته[١]: (لقد تربينا دون أن نتلقى درسا دينيا فعقولنا خاوية من هذا الجانب لم يمسها أى تيار دينى وبهذا لم نشغل فكرنا اطلاقا بهذا الجانب ...)[٢].

وقال : (إننى لم أقابل فى مدة العشر سنوات التى عشتها فى الاتحاد السوفييتى إنسانا واحدا من جيلى ليس ملحدا)[٣].

فهذه بعض أقوالهم التى جاءت عنهم فى إنكار الإله والدعوة إلى الإلحاد بكل وسيلة أمكنهم استخدامها ، فهذا الأمر الأول الذى صادموا به حقيقة مغروسة فى النفس الإنسانية ألا وهى الاعتراف بوجود الإله ، فأظهر الناس الإلحاد ، وأبطنوا الإيمان ، ومارس المسلمون بعض شعائرهم سرا وبعيدا عن أنظار الحزب وحراسه .

ثانيا : موقفهم من الدين وأقوالهم فيه ، نشأته وتطوره :

بعد أن مر معنا أن الشيوعية تقوم على إنكار الإله ولاتؤمن إلا بالمادة فإن النتيجة الطبيعية لذلك أن يكون موقفهم من الدين بحكم أنه موجود فى النفوس البشرية موقف العداء والتفسير الذى يتفق مع مبادئهم . ويمكن جعل موقفهم من الدين قد مر بمرحلتين :

المرحلة الأولى : من سنة ١٩١٧م إلى ١٩٥٥م .

والمرحلة الثانية : مابعد سنة ١٩٥٥م .

---

(١) ليونهارد الألمانى .

(٢) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١١٧) ، نقله للعربية محمد شامه ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، مكتبة وهبة .

(٣) المرجع السابق (١١٧) .

ويمكن تسمية المرحلة الأولى (مرحلة الرفض جوهرا ورداء) .
والثانية (مرحلة الرفض جوهرا مضمرا ، والقبول رياء)[١].

وقد جاء فى مجلة الشباب السوفييت فى عددها الصادر ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٧م : (نحن لانستطيع أن نقف من الدين موقفا محايدا)[٢].

اتسمت المرحلة الأولى بالحرب على الدين واعتباره خرافة وأوهام واعتبروه حجر عثرة فى طريقهم وفى طريق تحقيق مبادئهم ، فمن تفسيراتهم له يقول انجلز :

(ومهما يكن من شىء ، فليس الدين إلا الانعكاس الوهمى فى أذهان البشر لتلك القوى الخارجية التى تسيطر على حياتهم اليومية ، وهو انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق طبيعته)[٣].

ويقول ماركس إن الدين (هو نفثة المخلوق المضطهد وشعوره بالدنيا التى لاقلب لها ، إنه أفيون الشعوب) .

كما قال : (إنه الأفيون الذى يخدر الشعب لتسهل سرقته) .

وقال : (إن الدين كان وسيلة الإخضاع الروحى كما كانت الدولة وسيلة الإخضاع الاقتصادى)[٤].

ويقول لينين : الدين (أحد أشكال المظالم الروحية التى يئن منها الناس فى كل مكان . فالدين يعلم "العامل الفقير المستغل" الاستسلام والصبر

---

(١) الشيوعية والأديان (٣٤-٣٥) .
(٢) إشتراكيتهم وإسلامنا (٥١) .
(٣) انتى دوهرنغ (٣٨١) وانظر مابعدها .
(٤) الشيوعية والأديان (٢٣) .
وانظر : تجربتى مع الماركسية (١٥٥) ، شهادتى للتاريخ (٢٤٦) ، كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (١٦) .

فى الحياة على هذه الأرض ، ويعزيه بأمله فى الجزاء فى الحياة الآخرة)[١].

ويقول : إن الدين (ليس إلا طائفة من الخرافات ابتكرها المستغلون بما أوتوا من دهاء ليفرضوا العبودية الأبدية على من يستغلوهم)[٢].

ويقول : (الدين هو أفيون الشعوب فالدين ورجل الدين يخدران أعصاب المظلومين والفقراء ويجعلانهم يرضخون للظلم)[٣].

وفى بيان أهمية حرب الدين وأنه من أساسيات عمل الثورة قال لينين (الحرب ضد الدين ـ أفيون الشعوب ـ تشغل مكانا هاما بين أعمال الثورة الثقافية ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة منظمة)[٤].

والإشتراكية لن تقوم إلا بالتحرر من الدين . يقول لينين : (كلما تحررنا من نفوذ الدين ازددنا اقترابا من الواقع الاشتراكى ، ولهذا يجب علينا أن نحرر عقولنا من خرافة الدين)[٥].

ويقول لينين : (إن الدين هو أفيون الشعوب وإن الدين نوع من الخمر الروحية يغرق فيها عبيد الرأسمالية صورتهم الإنسانية ودعواهم إلى حياة انسانية كريمة)[٦].

وبين ماركس من قبل أهمية حرب الدين والقضاء عليه فقال : (لاغنى فى الوقت الحاضر عن شن أشد الحرب على تعاليم الدين وأوهامه وخزعبلاته)[٧].

---

(١)،(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٦٥) ، كاونتس ، ترجمة محمد بدران ، مكتبة الأنجلو المصرية ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

وانظر : حقيقة الشيوعية (١٨٩-١٩٠) ، الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٣٩-٤٠) .

(٣) إشتراكيتهم وإسلامنا (٤٩) .

(٤) حركات ومذاهب (١٧) .

وانظر : حقيقة الشيوعية (١٩١) ، الكيد الأحمر (٤٢) ، فتاوى عن الشيوعية (٩٢-٩٣) ، الماركسية بين النظرية والتطبيق (٦٥) .

(٥) إشتراكيتهم وإسلامنا (٤٩) .

(٦) شهادتى للتاريخ (٢٥١) .

(٧) المرجع السابق (٢٣٠) .

ويقول لينين : (علينا محاربة الدين هذه هى ألف باء الماركسية ، وينبغى أن ترتبط محاربة الدين مع الممارسة الفعلية للصراع الطبقى بإزالة الجذور الإجتماعية للدين)[١].

وجاء عن الشيوعيين قولهم : (الدين كشراب الفودكا الرخيص يضعف النفوس ويشوش العقل) .

ويقولون : (الشعوب ليست فى حاجة إلى معونة المعجزات والإيمان بالله) .

ويقولون للأطفال : (إن الدين هو التركة التى خلفها لنا العجائز)[٢].

ويقول ماركس عن المسيحية : (إن المسيحية تقرظ الجبن واحتقار النفس وإذلالها وتحبذ الخضوع والخسة وكل صفات الكلب الطريد)[٣].

كما نشرت مجلة أوزباكستان ماديناى يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٥٨م مانصه:

(إن من شأن الدين أن يحول بين المواطن السوفييتى وبين أن يكون بناء فى صرح المجتمع الشيوعى ، والإسلام بصفة خاصة هو بحكم تقاليده ، وعاداته عدو للإشتراكية ، وأنه لمما يؤسف له ألا نكون قد قضينا حتى الآن على بعض آثار الدين فى حياة المواطنين . كذلك كان الواجب على الحزب الشيوعى وعلى تنظيمات الشباب واتحادات العمال والمعلمين والمحاضرين ورجال الأدب والمشتغلين بالسينما والصحافة والفن أن يحملوا على الدين حملة شعواء ، حتى لايتركوا له أثرا ، وألا يهادنوه حتى يقضوا عليه قضاء مبرما)[٤].

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط العدد ٨/٣٨٨٣ الأحد ١٩٨٩/٧/١٦م .
(٢) كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (١٧) .
(٣) الشيوعية والأديان (٢٤) .
(٤) كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٢٢-٢٣) .

وبالفعل عمل الشيوعيون فى هذه المرحلة الأولى على تنفيذ تلك الأقوال ونشر الإلحاد بكل قوة ، فهدمت المساجد والكنائس ، وحرمت تعليم الدروس الدينية ، وأنشأت بالمقابل المعاهد والمدارس المهتمة بالتربية الإلحادية وبذلوا جهدهم فى القضاء على كل مايمت إلى الدين بصلة .

يقول كاونتس : (إن البلاشفة ماكادوا يتسلمون زمام الحكم ، حتى أخذوا يهاجمون الدين بكل مظاهره ومذاهبه ، سواء كان هو المذهب الأرثوذكسى أو الكاثوليكى الرومانى أو البروتستنتى أو الدين الإسلامى ، أو اليهودى[1]، أو غير هذه كلها من المذاهب والأديان . ومنعوا معونة الدولة عن الكنيسة ، وأمموا أملاكها ، وحرموا رجال الدين من جميع المناصب ، وألغوا تعليم الدين من المدارس ، وحرموا بقوة القانون تعليم الدين للأطفال الذين تقل سنهم عن الثامنة عشرة إذا كانوا جماعات تزيد على ثلاثة أفراد . وشعر القساوسة والكهنة ، فى الكفاح الذى حدث بعدئذ بين الدولة الثورية والكنيسة ، بوطأة الإرهاب الأحمر كاملة ، وصودرت الكنوز الفنية التى كانت فى الكنائس واستخدمت فى الأغراض الدنيوية ، وفرضت رقابة شديدة على الصلات الثقافية بين رجال الدين والشعب . وأغلقت بتأثير ضغط الدولة المباشر أو غير المباشر كثير من الكنائس ، والأديرة ومعابد اليهود ، ومساجد المسلمين ، وحولت إلى نواد ، ومدارس ، وبيوت للحضانة ، ودور الكتب ، بل إن منها ماحول إلى متاحف للأغراض المضادة للدين . ثم وجهت كل الهيئات التعليمية ووسائل الدعاة لنشر "النظرة الإلحادية ـ العلمية" ، وتكونت منظمة خاصة هى جمعية (من لايؤمن بالله) لإعداد الزعماء القائمين بحملة واسعة ضد الدين تمتد إلى جميع أطراف البلاد . وظل البلاشفة على العموم يسيرون على هذا النهج لايحيدون عنه حتى وقتنا هذا ، وإن تبدلت النقط التى يؤكدونها فيه وتغيرت أساليبهم

---

(١) ولعل ذلك فى الظاهر حتى لايكشف الأمر من أول لحظة وإلا فإن الحفاظ على اليهودية والميزات التى أعطوها لليهود تدل على أنه الدين الوحيد الذى لم يلق مالقيته بقية الأديان الأخرى وخاصة الإسلام .

من آن إلى آن . ويظهر هذا النهج فى صورة يكتنفها بعض الغموض فى المادة ١٢٤ من دستور عام ١٩٣٦م . فقد جاء فيها "ولكى نحقق للمواطنين حرية الضمير تفصل الكنيسة عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة فى اتحاد جمهوريات السوفييت الإشتراكية ، ويعترف لجميع المواطنين بحرية العبادة الدينية ، وحريتهم فى نشر الدعاوة المعارضة للدين والنقطة التى لابد من ملاحظتها هنا هى أن الدستور لايضمن حرية الدعوة الدينية)[١].

ويقول لينين : (نصر على اعتبار الدين مسألة خاصة فيما يختص بالدولة ولكننا لانستطيع أبدا أن نعتبر الدين مسألة خاصة بالنظر إلى حزبنا)[٢].

ولقد كانت الشيوعية فى هذه الفترة أكثر ماتكون اهتماما بالتربية الإلحادية وانشاء المعاهد اللادينية ، لأنهم يرون أن الأفكار الدينية لابد وأن تقابل بأساليب تربوية هادفة من أجل القضاء عليها ، جاء فى معجم الشيوعية (فى ظل الإشتراكية ، تتقوض أعمق جذور الدين الإجتماعية الناجمة عن النظام المتناحر طبقيا وعن مختلف أشكال الاضطهاد الإجتماعى والقومى وبذلك تنشأ الظروف والشروط الموضوعية لأجل التغلب على الدين ولكن هذا لايعنى أن التغلب على الأوهام الدينية يجرى عفويا وتلقائيا . ذلك أن الأوهام الدينية والعقائد الدينية تتميز بحيوية كبيرة . وهى تبقى بفعل التقاليد ، وتدعمها الهيئات الدينية والكنيسة والطائفية ، كما يضطلع المستوى الثقافى المنخفض عند قسم من السكان بدور معين فى بقائها . ولهذا يصبح العمل التربوى الهادف ، إلى جانب التحويلات الإجتماعية والإقتصادية ، عاملا مهما لتذليل الدين . كتب ماركس يقول : (إن الدين سيزول بقدر ماتتطور الإشتراكية وينبغى أن يتم زواله بنتيجة التطور

---

(١) التعليم (٦٥-٦٦) ، وانظر حاضر العالم الإسلامى (١٣٦) .
(٢) الشيوعية والأديان (٥٧-٥٨) .

الإجتماعى الذى يعود فيه إلى التربية دور كبير)[١].

واهتم الشيوعيون بالتربية الإلحادية ووجدت عدة منظمات فى الاتحاد السوفييتى لخدمة الشيوعية .

ومن هذه المنظمات "اتحاد اللادينيين" وغير اسمها عام ١٩٢٩م إلى "اتحاد المجاهدين اللادينيين" ، وكانت السن المقررة للقبول فيه هى الثامنة عشرة ثم خفضت إلى السادسة عشرة ثم إلى الرابعة عشرة . ثم أنشىء قسم خاص للأطفال سمى "اتحاد شباب المجاهدين اللادينيين" والسن المقررة للقبول فيه مابين الثامنة وحتى الرابعة عشرة . وقد قامت هذه المنظمات بالدعوة ضد الدين ، وإعداد البرامج اللادينية ، واستخدمت المرافق المتعددة للدعوة ضد الدين[٢].

ويرى الشيوعيون : (إن التربية الإلحادية تشتمل على تطبيق شتى أشكال وطرائق التأثير فى الناس . والمقصود هنا الأشكال الجماهيرية لنشر المعارف الإلحادية (المحاضرات ، الأحاديث ، أمسيات الأسئلة والأجوبة ، المناقشات فى مواضيع معينة) ، والعمل الفردى مع المؤمنين ، واستعمال وسائل الإعلام الجماهيرى والدعاية الجماهيرية (السينما ، الراديو ، والتلفزيون ، الصحافة) وكذلك استعمال المؤسسات الثقافية التنويرية (قصور الثقافة ، النوادى ، المكتبات)[٣].

وهذا ماأكده لينين ودعا إليه حيث قال : (إنه ينبغى اعطاء الجماهير "مادة متنوعة للغاية فى الدعاية الإلحادية ، واطلاعها على وقائع من شتى ميادين الحياة ، والاقتراب منها بهذا النحو أو ذاك لإثارة اهتمامها ، وإيقاظها من السبات الدينى ، وهزها من شتى الجوانب ، وبشتى الأساليب ، وماإلى ذلك)[٤].

---

(١) آراء ماركس وانجلز فى الدين (٢٠) نقلا من المعجم (١٢٣) .
(٢) انظر التعليم (١٥٧-١٥٨) .
(٣) المعجم (١٢٤) .
(٤) المؤلفات الكاملة الجلد (٢٦/٤٥) نقلا من المعجم (١٢٤) .

إن هـذا الاهتمام بالتربيـة الإلحادية والعداء للـدين هـو الذى سيمكن الإشتراكيـة من القيام . يقول لينين : (كلمـا تحررنا مـن نفوذ الدين ، إزددنا اقترابا مـن الواقع الإشتراكى ، ولهذا يجب علينا أن نحرر عقـولنا من خرافة الدين ، فالدين هو أفيون الشعوب)[١].

إن الـدين يمثـل عقبة كؤوداً فى طـريق تحقق الإشتراكيـة . وقـد عمل الشيـوعيون على جعـل التربيـة الإلحادية متنـوعة وشاملـة لكـل الاتجاهـات ، واستبـدلوا الطقوس الدينيـة ، بطقوس أخرى لادينية فجـاء عنهـم : (وفضلا عن نقد الأيديولوجية الدينية نقدا مسبها ومقنعا وعن ترويج العقيدة العلمية المادية ، لتشمـل التربية الإلحادية مختلـف وسائل التأثير الانفعـالى النفسانى فى الناس وفى عدادها يأتى فى المقام الأول تكوين طقوس مدنية جديدة وتطبيقها فى المعيشـة ، طقوس من شأنها أن تسهم فى إزاحة الأعيـاد والطقوس الدينية وأن تلبى حاجات الإنسان الأخلاقية والمعنوية والنفسانيـة والجمالية ، وتؤكد المثل العليا الشيوعية . أن فعالية التربية الإلحادية تتوقف على طابعها المنسجم والمنتظـم والهادف والهجومى ، على إجتماعها مع أشكـال أخرى من العمل التربوى ومـع تنويع مخاطبـة مختلف فئات السكان . إن الموقـف الشـامل من التربيـة الإلحادية هو الذى يحدد فعـاليتها . ناهيك بأن هـدف التربية الإلحادية ليـس نقد الأيديولوجية الدينيـة والعقائد الدينية وحســب ، بل أيضا تأكيد النظـرات والتصورات العلميـة المادية ، وقواعد الأخلاق الشيـوعية ، الأمـر الـذى يتطلب ضرورة الاستفادة فى التربيـة الإلحادية مـن جميع منجزات العلم المعـاصر ، كمـا يتطلب الصلة الـوثيقة بين التربية الإلحادية وممـارسة البنـاء الشيوعى)[٢].

هـذا باختصار ماكان فى المرحلـة الأولى وقبله من عـداء للدين وتفسير له . وقد تركز العداء فى الظـاهر والباطن وبكل ماأوتى الشيـوعيون من قوة وفعلـوا ذلك سواء بنشر الإلحاد أو بحرب الأديان وقتـل أهلهـا أو بتشريدهم

---

(١) الحقيقة الكاملة (١٦) .
(٢) المعجم (١٢٤-١٢٥) .

وتعذيبهم ، وبعد أن أحسوا بأن الأمر قد يفلت من أيديهم ظلوا على معتقدهم الإلحادى ولكنهم سلكوا طريقا آخر من أجل الوصول إلى غاياتهم وكان ذلك الطريق يقوم على الخداع ومدى المصلحة التى سيجنيها الحزب من هذا الأسلوب الجديد .

المرحلة الثانية من سنة ١٩٥٥م : مرحلة الرفض جوهرا مضمرا والقبول رياء .

لاهم للشيوعيين إلا الوصول إلى غاياتهم وتحقيق أهدافهم فالغاية تبرر الوسيلة عندهم ، كيف لا وهم فى خدمة اليهود .

فإذا رأوا المصلحة فى طريق سلكوه ، وإن كان ذلك السبيل يتعارض مع أصول دعوتهم فالمهم تحقيق الغاية .

ومر معنا شيئا من أقوالهم فى الدين ونكرانهم للإله أصلا مما يدل على معاداتهم له ظاهرا وباطنا . ولكن إذا اقتضت المصلحة اللين قليلا فى الظاهر فلا يمنع ذلك أن يختط الشيوعيون لهم طريقا يسلكونه للوصول إلى تحقيق رغباتهم .

وبدأ السوفييت أول تعامل جدى لهم مع العالم الثالث بصفقة السلاح المصرية التشيكوسلوفاكية .

وكانت الأخيرة مجرد واجهة للاتحاد السوفييتى ، وقدم حاكم مصر حينها أكبر فرصة فى تاريخهم المعاصر فقد كان هذا العمل بمثابة مخرج للسوفييت من عزلتهم وراء قضبان السور الحديدى ومن برودة العزلة التى طالت لأربعة عقود من الزمان إلى دفء العالم الثالث حيث مصادر الطاقة والأسواق الواسعة . فتح زعيم مصر أمام الدب الروسى الشيوعى طاقة واسعة لم يحلم بها من قبل ، ودلف منها إلى العوالم الجديدة ، وقد كانت غنية بثرواتها الطبيعية وظمأى لمنتجات العصر المصنعة وماهى إلا فترة وجيزة حتى كانت قدم روسيا فى بلدان عديدة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الوسطى ، وبدأ يتعامل السوفييت مع شعوب جديدة ولكن هذه الشعوب كانت ذات أقدام راسخة فى التربية الدينية فى لعالم الإسلامى حيث توجد مصر وسوريا والعراق والجزائر وليبيا شعوب شديدة التمسك بعقيدتها الإسلامية .

وفى أمريكا الوسطى والجنوبية - حيث تبذل الأحزاب الشيوعية قصارى جهدها - توجد شعوب شديدة التمسك بالكاثوليكية ، وفى آسيا يوجد أعداد كبيرة من المسلمين شديدو التمسك بعقيدتهم[١].

وبعد هذه المقدمة وإذا عرفنا أن الشيوعية ترغب فى نشر فكرها وعقيدتها التى تتعارض مع عقائد هؤلاء وأفكارهم ، فهل يظهرون بالوجه الحقيقى؟ إن هذا بالطبع سيجعل الشعوب تزداد كراهية للماركسية ، ويؤدى ذلك إلى صراع تعجز الشيوعية عن مواجهته فى غالبية بلدان العالم لما لديها من دين حتى ولو كان محرفا ، لأن الماركسية تقوم على مصادمة فطرهم .

يقول طارق حجى : (وماهى إلا شهور قليلة حتى أدرك الساسة الشيوعيون أن الوجه الشيوعى القديم[٢]لايمكن بحال من الأحوال أن يقبل لدى شعوب تلك البلدان بسبب معرفة أبناء هذه الشعوب بعدائه التقليدى السافر للدين . وقد أدرك هؤلاء الساسة أن تقديم النعيم المطلق لهذه الشعوب على صحن العداء للدين يجعلهم لايترددون هنيهة فى لفظه ورفضه أيا كانت المغريات أو المقبلات ...) .

ويضيف قائلا لقد (تغير المسلك الشيوعى الصدامى إلى موقف آخر تماما وهو محاولة التحالف مع الفكر الدينى ، تحالفا لايمكن أن ينتهى إلا بانتصارهم وبإلحاق الهزيمة الماحقة بالفكر الدينى . فهو تحالف يقوم على إبراز نقاط وهمية للالتقاء بين الشيوعية أو الاشتراكية وبين الدين "وخاصة الإسلام" ، ولكنه فى نفس الوقت تحالف "مصحوب" بحرب جانبية غير واضحة . فهناك أولا التشويه المطلق لسمعة رجال الدين أو القائمين بالدعوة والعمل فى مجالات دينية . وهناك ثانيا ترك الجانب العقائدى فى الدين ... وهناك ثالثا : طامة إلحاق الدين بالشيوعية أو الإشتراكية فى نقاط الاتفاق الوهمية المصطنعة ... فإذا كانا يتفقان فى كذا وكذا ، فذلك نصر للإشتراكية

---

(١) انظر الشيوعية والأديان (٣٧-٣٨) .

(٢) يقصد المرحلة الأولى العدائية ، فى الظاهر والباطن .

وحدها باعتباره مدعاة لقبولها بعد أن كانت ملفوظة ومرفوضة ومستهجنة والأمر لايخرج عن كونه تكتيكا خبيثا)[١].

وجاء فى مجلة (العلم والدين) السوفيتية مانصه : (من اللازم أن نحبذ بعض رجال الدين وبعض النصوص الدينية لمثل هذه الدعوة الإشتراكية إن أمكن ذلك ، ولامانع أن يظهر الإشتراكيين وهم يمارسون الفروض الدينية علانية ، ليسيطروا على زمام المعاقل الدينية لئلا تتحداهم ، وقد لجأنا إلى هذا الأسلوب فى مناطقنا الإسلامية وساعدنا ذلك على مرحلة التحول الإشتراكى ، واليوم يلجأ إليه بعض أقطاب الحزب الشيوعى فى ايطاليا الكاثوليكية ، ولكن من الضرورى أن يأتى وقت تقرر فيها القيادة الإشتراكية إنهاء هذه الهدنة مع الميراث الدينى حتى لايؤدى إلى بعث دينى يكون خطرا على التجربة الإشتراكية)[٢].

ويقول لينين : (علينا أن نكون مستعدين لكل لون من ألوان التضحية وإذا استلزم الأمر فإننا نمارس كل شىء ممكن فالحيل وفنون المكر وكل الأساليب غير الشرعية جميعها مباحة وكذلك السكوت واخفاء الحق ، وموجز القول إننا نستخلص الآداب من مصالح حرب الطبقات)[٣].

وهم يرون أن الحكمة تقتضى عدم استخدام الأساليب المباشرة فى حرب الدين وإعلان الإلحاد . فهذا باكونين[٤]أصر على ماركس حين كتابة الميثاق الشيوعى على (أن يصدر باعلان الالحاد) ، فقال ماركس وهو أشد إلحادا من الأول : "إنها سياسة غير حكيمة" ...)[٥].

---

(١) الشيوعية والأديان (٣٨-٣٩) .

(٢) نقلا من كتاب كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (١٢٤) ، وانظر (٢٧،٣٠-٣١) .

(٣) حقيقة الشيوعية (١٩٠) .

(٤) أيديولوجى فوضوى ، انضم إلى الأممية الأولى حيث عمل كعدو لدود للماركسية ، أنكر دكتاتورية البروليتاريا ووقف ضد انشاء حزب سياسى مستقل للطبقة العاملة . انظر لينين الدولة والثورة (١٤٦) .

(٥) نظرات فى الإشتراكية الثورية (٢٧) .

(ولاشك لو أن ماركس كان حيا ، لقال اليوم مع المتربصين من وراء القادة الإشتراكيين الثوريين العرب المؤمنين : "أن إعلان التمسك بالإيمان بالله أحكم ، ولو إلى حين ...)[١].

وهذا لايعنى المهاودة الدائمة للدين وأفكاره ، ولكن مؤقتالتحقيق الهدف ثم العودة فى عدائه وحربه ، فهم حسب مصلحتهم وماتقتضيه سياستهم الخارجية[٢]. وكانت سياسة ستالين أثناء الحرب العالمية من خير الأمثلة على هذا التقلب فى مهادنة الدين حسب الحاجة ، فحين هاجمت القوات الألمانية الاتحاد السوفييتى عام ١٩٤١م (لمس ستالين آنذاك أثر الدعاية الألمانية ضد الشيوعية بأنها تحارب الدين وتعاديه، ووجد أن ثلث أهل المدن وثلثى أهل القرى الروسية متدينون وكذلك الأمم التى تفتحها روسية مما حولها هى متدينة واحتاج ستالين إلى تملق الدول المتدينة ومعونة الشعور الدينى والوطنى معا حتى يستمد من الفلاح الروسى أقصى مايقوى عليه من تضحية لمقاتلة الألمان فسمح بممارسة الشعائر الدينية حينذاك ، إلا أن هذا الأمر والمواقف التى تتخذ أمثاله وهى مغايرة بواقعها لحقيقة الشيوعية هى إجراءات مؤقتة فيها الكثير من الحيلة والخداع للشعوب ، تتخلى عنها فى الوقت الذى ترى عدم حاجتها إليها ...)[٣].

ولكن هذا الأسلوب قد فتح بابا على السوفييت مااستطاعوا غلقه بعد ذلك وتأثر الناس بالأفكار الدينية مما أفزع الشيوعيين . يقول كاونتس : (خفف الهجوم على الدين إلى حد ما فى أثناء الحرب الوطنية الكبرى تحقيقا

---

(١) نظرات فى الإشتراكية الثورية (٢٨) .
(٢) انظر الشيوعية منشأ ومسلكا (١٩٧) .
(٣) الشيوعية منشأ ومسلكا (١٩٣-١٩٤) .
وانظر كتاب غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٤٧) حين ذكر أن جد غورباتشوف كان يصطحبه إلى الكنيسة كلما خفت حدة الاضطهاد الدينى زمن ستالين خلال الحرب ، لأن ستالين بحاجة لحشد القوى الحية فى روسيا للدفاع عن الاتحاد السوفييتى .

للتضامن القومى ، لكن الحملة التى شنت فى السنين التالية ، وبخاصة بعد موت ستالين ، (لإصلاح) التعليم اللادينى فى المدارس قد اشتدت واتسع نطاقها اتساعا كبيرا ، حتى لقد أفسحت صحف وزارة الثقافة فى الاتحاد العام وصحف وزارات التربية فى الجمهوريات فى صيف عام ١٩٥٤م صدرها لهذه الحملة ، مثال ذلك أن صحيفة الثقافة السوفيتية (Sovtsuaia Kultura) نشرت فى عددها الصادر فى ٢٨ أغسطس نتائج بحوث ندوة عقدت فى لينجراد ودامت خمسة أيام فى "موضوع الدعاوة العملية الإلحادية التى قامت بها اللجنة الأولمبية للحزب الشيوعى" وكانت الموضوعات الآتية من بين الموضوعات التى دارت حولها أقوال الباحثين :

"علاقة الحزب الشيوعى والدولة السوفيتية بالدين والكنيسة" .

"مايقوله العلم والدين عن أصل العالم" .

"ماللمخلفات الدينية من أثر رجعى فى مدارك الشعب" .

"نجاح العقائد الخاصة بخلق الكون فى الوقت الحاضر" .

و"طريقة الدعاوة العملية الإلحادية" .

ويقول : (لقد وصفت الحالة التى يرثى لها فى المدارس التى شنت فيها تلك الحملة لإصلاحها وصفا صادقا فى مقال عنوانه "قسم ضعيف" نشرته صحيفة اتشيتل اسكايا غازيتا Uchitel-Skaia Gazeta فى عدد أول سبتمبر سنة ١٩٥٤م يوم بداية السنة المدرسية الجديدة . فقد قال الكاتب بصريح العبارة فى معرض وصف الأحوال السائدة فى مدارس يوغسلافيا ، إن نوع (التدريب العلمى ـ الإلحادى للتلاميذ لايطاق) ، وإن (كثيرين من المدرسين لايقومون بالكفاح الواجب ضد تغلغل البقايا الدينية والخرافات بين الأطفال) .

ويقول كاتب المقال فى خلاصة الموضوعات الواردة فيه : (إن بعض التلاميذ يشتركون فى الحفلات الدينية ، وقد سرت إليهم عدوى كثير من الخرافات المختلفة الأنواع ، وإن تلميذا فى الفرقة الرابعة يدعى إيجور ،

وأختا له فى الفرقة الثالثة تسمى جاليا "يحملان صليبين ويترددان على الكنيسة بانتظام ، ويتلوان الأدعية والصلوات ، ويجمعان المال لحاجات الكنيسة" ، وإن ثمة شواهد على تعميد الأطفال فى هذا الإقليم وأن "المدرسين يعلمون هذه الأشياء ، ويسمحون بها ، وينظرون إليها دون مبالاة" . ويبدو أيضا "أن بعض المدرسين أنفسهم قد استعبدتهم الأوهام الدينية فتراهم يحافظون على مراسم الكنيسة وأعيادها" . وقد عرف أن مدرسة تدعى الرفيقة نيقولا بيفا فى المدرسة رقم ١٤ تحتفظ فى بيتها بصورة مقدسة تضيؤها مصابيح" وعرف أيضا عن طالبة فى إحدى الفرق العليا بالمدرسة رقم ٢١ ، أنها تركت صفوف الكمسومول[١] وأخذت تقضى وقتها فى الصلوات ، لكى ترفع بذلك مقدرتها العلمية . ويختم المقال بأن التعليم اللادينى يجب أن يكون منظما فى نوعه ممتازا بروح الجهاد والهجوم ، وأن (من أهم واجبات المدرسين أن يظهروا مابين العلم والدين من تناقض تام ، وأنه لايمكن التوفيق بينهما بحال من الأحوال)[٢].

ويظهر من هذا النص أن فطر أولئك الناس تنزع إلى الإيمان بالإله ووجوده وتتعبد حتى ولو كانت على باطل ، ومن هنا عجزت الشيوعية فى تحقيق مبدئها ذلك حيث كانت تصبو من وراء القضاء على الدين تحقيق مآربها وخططها والإسراع فى تنفيذها ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، لأن الدين أمر فطرى فى النفس البشرية فلم يملكوا إلا الحملة الشعواء على الدين بنشر الالحاد وتدريسه وفرضه بالقوة ، جاء فى صحيفة البرافدا : (إن واجبنا يقضى بأن توجه حملة كفاح عقائدى صحيحة ضد الدين)[٣].

---

(١) الكومسومول Komosomol تعبير مختصر عن اتحاد عصبة الشباب اللينينى الشيوعى تجربتى مع الشيوعية (١٦٦) الحاشية رقم (١) .

(٢) التعليم (١٥٨-١٥٩) .

(٣) نقلا من كتاب حركات ومذاهب (١٦) .

وأختم حديثى عن نظرتهم للدين وموقفهم منه ومحاولة القضاء عليه بهذه الوثيقة السرية المهمة التى أنقلها كاملة رغم طولها حيث يظهر منها الموقف جليا مابين عداء مستمر وتراجع للمصلحة وغيره من أهداف .

تقول الوثيقة : (برغم مرور خمسين سنة تقريبا على الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى وبرغم الضربات العنيفة التى وجهتها أضخم قوة إشتراكية فى العالم إلى الإسلام ، فإن الرفاق يراقبون حركة الدين فى الاتحاد السوفييتى صرحوا كما تذكر مجلة (العلم والدين) الروسية فى عددها الصادر فى أول يناير سنة ١٩٦٤م بما نصه : "إننا نواجه فى الاتحاد السوفييتى تحديات داخلية فى المناطق الإسلامية وكأن مبادىء لينين لم تتشربها دماء المسلمين" . "وبرغم القوى اليقظة التى تحارب الدين فإن الإسلام مايزال يرسل إشعاعا ومايزال يتفجر قوة بدليل أن ملايينا من الجيل الجديد فى المناطق الإسلامية يعتنقون الإسلام ويجاهرون بتعاليمه مع أن قادة الشعوب ومفكرى المذهب لايغيب عنه خطر يقظة الإسلام فى المناطق الإسلامية بالاتحاد السوفييتى الذى أشار فى (دائرة معارف الثقافة الشيوعية) إلى خطر الإسلام ووصفته على حقيقته إذ ذكرت "دائرة معارف الثقافة الشيوعية" أن الإسلام أخطر الأديان الرجعية ، ويبذل "أى الإسلام" أقصى جهده ليكون فى خدمة المستغلين والإقطاعيين والرأسماليين ، ويقدم كل العون للاستغلال ، وهو دين جامد حقود على الحضارة والتقدم ، وخصم عنيد للإشتراكية ، ويناهض الحركات التحررية) .

(ومن هذا المخطط أن يتخذ الإسلام نفسه أداة لهدم الإسلام نفسه، وقد قررنا مايلى :

(١) مهادنة الإسلام لتتم الغلبة عليه ، والمهادنة لأجل حتى نضمن أيضا السيطرة ونجتذب الشعوب العربية للإشتراكية .

(٢) تشويه سمعة رجال الدين والحكام المتدينين واتهامهم بالعمالة للاستعمار والصهيونية .

(٣) تعميم دراسة الإشتراكية فى جميع المعاهد والكليات والمدارس فى جميع المراحل .. ومزاحمة الإسلام ومحاصرته حتى لايصبح قوة تهدد الإشتراكية .

(٤) الحيلولة دون قيام حركات دينية فى البلاد مهما كان شأنها ضعيفا ، والعمل الدائم بيقظة لمحو أى انبعاث دينى ، والضرب بعنف لارحمة فيه لكل من يدعو إلى الدين ولو أدى إلى الموت .

(٥) ومع هذا لايغيب عنا أن للدين دوره الخطير فى بناء المجتمعات ، ولذا وجب أن نحاصره من كل الجهات وفى كل مكان ، وإلصاق التهم به وتنفير الناس منه بالأسلوب الذى لاينم عن معاداة الإسلام .

(٦) تشجيع الكتاب الملحدين واعطاؤهم الحرية كلها فى مهاجمة الدين والشعور الدينى والضمير الدينى والعبقرية الدينية والتركيز فى الأذهان أن الإسلام انتهى عصره ، وهذا هو الواقع ، ولم يبق منه اليوم إلا العبادات الشكلية التى هى الصوم والصلاة والحج وعقود الزواج والطلاق وسنخضع هذه العقود للنظم الإشتراكية .

أما الصوم والصلاة فلاأثر لهما فى الحياة الواقعية ولاخطر منهما ، أما الحج فمقيد بظروف الدولة ، ويمكن استخدام الحج فى نشر الدعوة الإشتراكية بين الحجاج القادمين من جميع الأقطار الإسلامية ، والحصول على معلومات دقيقة عن تحركات الإسلام لنستعد للقضاء عليها .

(٧) قطع الروابط الدينية بين الشعوب قطعا تاما ، وإحلال الرابطة الإشتراكية محل الرابطة الإسلامية التى هى أكبر خطر على إشتراكيتنا العلمية .

(٨) إن فصم روابط الدين ومحو الدين لايتمان بهدم المساجد والكنائس لأن الدين يكمن فى الضمير ، والمعابد مظهر من مظاهر الدين الخارجية ، والمطلوب هو هدم الضمير الدينى ، ولم يصبح صعبا هدم الدين فى ضمير المؤمنين به بعد ، أن نجحنا فى جعل السيطرة والحكم والسيادة للإشتراكية ، ونجحنا فى تعميم مايهدم الدين من القصص والمسرحيات والمحاضرات والصحف والأخبار والمؤلفات والتى تروج للإلحاد وتدعو إليه وتهزأ بالدين ورجاله ، وتدعو للعلم وحده وجعله

الإله المسيطر[١].

(٩) مزاحمة الوعى الدينى بالوعى العلمى ، وطرد الوعى الدينى بالوعى العلمى .

(١٠) خداع الجماهير بأن يزعم لهم أن المسيح إشتراكى وإمام الإشتراكية ، فهو فقير ، من أسرة فقيرة ، وأتباعه فقراء كادحون ، ودعا إلى محاربة الأغنياء .

وهذا يمكننا من استخدام المسيح نفسه لتثبيت الاشتراكية لدى المسيحيين .

ونقول عن محمد إنه إمام الإشتراكيين فهو فقير وتبعه فقراء وحارب الأغنياء المحتكرين والإقطاعيين والمرابين والرأسماليين ، وثار عليهم وعلى هذا النحو يجب أن نصور الأنبياء والرسل ، ونبعد القداسات الروحية والوحى والمعجزات عنهم بقدر الإمكان لنجعلهم بشرا عاديين حتى يسهل علينا القضاء على الهالة التى أوجدوها لأنفسهم وأوجدها لهم أتباعهم المهووسون .

(١١) فى القرآن والتوراة والأناجيل قصص ، ولئلا نصطدم بشعور الجماهير الدينى ونثيرهم على الإشتراكية يجب أن نفسر تلك القصص الدينية تفسيرا ماديا إشتراكيا ، فقصة يوسف ـ على سبيل المثال ـ يمكن تفسيرها تفسيرا ماديا تاريخيا ، ومافيها من جزئيات يمكن أن نفيد منها فى تعبئة الشعور العام ضد الرأسماليين والإقطاعيين والنساء الشريفات والحكام الرجعيين .

(١٢) إخضاع جميع القوى الدينية للنظام الإشتراكى ، وتجريد هذه القوى تدريجيا من وجدانها ...إلخ .

---

(١) قارن هذا مع مخططات اليهود تجدها تنبع من عين واحدة هى الحقد اليهودى الدفين على الإسلام والمسلمين وهذا دليل على أن الفكر الشيوعى نسج من خيوط اليهود .

(١٣) إشغال الجماهير بالشعارات الإشتراكية وعدم ترك الفرصة لهم للتفكير وإشغالهم بالأناشيد الحماسية والوطنية والأغانى الوطنية والشئون العسكرية ، والتنظيمات الحزبية والمحاضرات المذهبية والوعود المستمرة برفع الإنتاج ومستوى المعيشة وإلقاء مسئولية التأخر والإنهيار الإقتصادى والجوع والفقر والمرض على الرجعية والإستعمار والصهيونية والإقطاع ورجال الدين .

(١٤) تحطيم القيم الدينية والروحية بإظهار مافيها من خلل وعيوب وتحذير للقوى الناهضة .

(١٥) الهتاف الدائم ليل نهار وصباح ومساء بالثورة ، وأن الثورة هى المنقذ الأول والأخير للشعوب من حكامها الرجعيين ، والهتاف للإشتراكية بأنها هى الجنة الموعود بها جماهير الشعوب الكادحة .

(١٦) نشر الأفكار الإلحادية ، بل نشر كل فكرة تضعف الشعور الدينى والعقيدة الدينية ، وزعزعة الثقة فى رجال الدين فى كل قطر إسلامى.

(١٧) لابأس من استخدام الدين لهدم الدين ، ولابأس من أداء الزعماء الإشتراكيين بعض الفرائض الدينية الجماعية للتضليل والخداع على ألا يطول زمن ذلك ، لأن القوى الثورية يجب ألاتظهر غير ماتبطن إلا بقدر ، ويجب أن تختصر الوقت والطريق لتضرب ضربتها فالثورة قبل كل شىء هدم للقديم والمواريث الدينية جميعها .

(١٨) الإعلان بأن الإشتراكيين يؤمنون بالدين الصحيح لابالدين الزائف الذى يعتنقه الناس لجهلهم والدين الصحيح هو الإشتراكية ، والدين الزائف هو الأفيون الذى يخدر الشعوب لتنساق وتسخر لخدمة طبقة معينة ، والصاق كل عيون الدراويش وخطايا رجال الدين بالدين نفسه ، وترويج الإلحاد وإثبات أن الدين خرافة ، والخرافة تكمن فى الدين الزائف لاالدين الصحيح الذى هو الإشتراكية .

(١٩) تسمية الإسلام الذى تؤيده الإشتراكية لبلوغ مآربها وتحقيق غاياتها بالدين الصحيح والدين الثورى والدين المتطور ودين المستقبل حتى

يتم تجريد الإسلام الذى جاء به محمد من خصائصه ومعالمه ، والإحتفاظ منه بالاسم فقط ، لأن العرب إلا القليل مسلمون بطبيعتهم فليكونوا الآن مسلمين اسما ، إشتراكيين فعلا حتى يذوب الإسلام لفظا كما ذاب معنى .

(٢٠) أخذنا بتعاليم لينين ووصيته بأن يكون الحزب الإشتراكى خصما عنيدا للدين ، ويحارب فكرته فى المنتظر مابعد الموت بالفردوس الذى تحققه الإشتراكية العلمية التى تحقق العدالة الإجتماعية التى هى الفردوس ، وإذا وجدنا من الضرورى مهادنة الدين وتأييده ، وجب أن تكون المهادنة لأجل ، والتأييد بحذر على أن يستخدم التأييد والمهادنة لمحو الدين .

(٢١) الاهتمام بالإسلام مقصود منه :

أولا : استخدام الإسلام فى تحطيم الإسلام .

ثانيا : استخدام الإسلام للدخول فى شعوب العالم الإسلامى .

ومع أن القوى الرجعية فى العالم العربى والإسلامى قوى يقظة إلا أن الخطة التى اتخذناها ستضعف هذه القوى حتى تجردها من عناصر احتفاظها بمقوماتها فتذوب على مر الأيام .

(٢٢) وباسم تصحيح المفاهيم الإسلامية وتنقيته من الشوائب ، وتحت ستار الإسلام يتم القضاء عليه بأن نستبدل به الإشتراكية .

(وفى المحيط العربى كله يعمل أنصارنا بجد ، وقد استطاعوا أن يثبوا إلى المناصب الرئيسية فى الوزارات والإدارات الحكومية والشركات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية ، ووفقوا حسب تعليماتنا للسيطرة التى وإن كانت فردية إلا أن توفيقهم للوصول إلى تلك المناصب يعد من الأعمال الناجحة ، كما أن لقاء الأفراد بعضهم مع بعض يجعل اللقاءات فى صور اللقاء الجماعى) .

(ولئن كان من المتعذر جدا توقيت التحرك الثورى إلا أن التمهيد له ينتهى فى وقت غير بعيد ، ويزداد على مر الأيام عدد أنصارنا الذين يتولون المناصب ذات الأثر الفعال فى خلق الجو الصالح للتحرك الثورى وحسب تعليماتنا لهم جعلوا من الوزراء والمسئولين الذين لايشك فى إخلاصهم للنظام الرجعى الحاكم المعادى للإشتراكية واجهة يقفون وراءها ويعملون تحت ستارها مايريدون من أمن وطمأنينة مع اليقظة والحذر دون أن تحوم حولهم الشكوك لأنهم يتسترون بأولئك المسئولين .

وأنصارنا منبثون فى كل الوزارات والإدارات والقطاعات الحكومية والعسكرية والشعبية والرسمية والأهلية ، واتسعت دائرة نفوذهم التى تزداد إتساعا ويزداد تغلغلهم على مر الأيام) .

ويعلق طارق حجى على ذلك بقوله : (كانت تلك الوثيقة التى تفضح حقيقة آراء الشيوعيين ونواياهم تجاه الدين ، وهى حقيقة ماكانت تحتاج منا للدليل عليها ، فما من دارس للشيوعية متابع لأصولها ولسيرتها فى مجال التطبيق والنشاط العلمى ، إلا ويدرك - إدراكا كاملا - تلك الحقيقة بكل أبعادها ولكن ركون الشيوعيين للأقنعة وأخذهم - فى السنوات الأخيرة - فى إعلان غير مايضمرون ، واسترسالهم فى الكذب والبهتان ، مع الإعادة والزيادة المعهودة فى فنون الدعاية الشيوعية ، كل هذا أوجد جيلا جديدا أمكن خداع بعض اليافعين فيه وغير ذوى الدراية والتعمق فى معرفة حقيقة الشيوعية ، فتسربت لعقول هؤلاء قناعة - لاأساس لها من الصحة - بأن من الممكن التعايش بين الدين - وخاصة الإسلام - وبين الإشتراكية! وهى قناعة تبرهن على نجاح المخطط الشيوعى الراهن فى خداع وتضليل البعض ليساق فى النهاية إلى حتفه ، وأى حتف أسوأ وأحط هوانا وعبودية وذلا وفقرا

ونكدا من حتف الشيوعية ؟!!)[١].

ثالثا : تفسيرهم لنشأة الدين :

بعد أن علم الشيوعيون أن الدين لامحالة موجود فى النفوس الإنسانية وأن مايذكرونه عنه مغالطات ليس إلا . كان لابد والحال هذه من إيجاد تفسير لوجوده لتناسب ذلك مع عقيدتهم وفكرهم ، فاختلفوا فى تفسير نشأته بل تناقضوا فى ذلك .

نشرت مجلة (سوفتسكى كازاخستان فى عدد مايو سنة ١٩٥٨م "من الذى اخترع الآلهة نحن الذين اخترعناهم بخيالنا ، وإذا كنا نحن الذين خلقناهم فإن من حقنا أن نهدمهم ، بل الواجب يقتضينا أن نهدمهم على الفور)[٢].

فالرأى الأول : يقول إن الدين من اختراع الطبقة المستغلة ، طبقة الأغنياء ليسيطروا على الضعفاء ، ومن هنا جاءت مقولة (الدين أفيون الشعوب) وذلك لتنسى الطبقة المضطهدة واقعها السىء ، وهو على هذا أحبولة تنسجها الطبقة الحاكمة للعبيد وإغراء الكادحين والبائسين صنعها بعض الناس ليستعبدوا كل الناس فهو وسيلة استغلال وحيلة يتذرع بها المخادع[٣].

يقول ماركس : (الدستور والدين والأخلاق خدعة برجوازية يتستر وراءها البرجوازيون من أجل مطامعهم ، إن الدين هو أفيون الفقراء ، وهذا هو حجر الزاوية فى الفلسفة الماركسية ، وإن جميع الأديان والكنائس والمنظمات الدينية إنما هى تخدير للطبقة العاملة . إن رسالة "البروليتاريا" هى القضاء على الدين والداعين إليه)[٤].

---

(١) نقلا من كتاب الشيوعية والأديان (٤٤-٥٠) .
(٢) نقلا من كتاب كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (١٧) .
(٣) انظر : وسقطت الماركسية (٥٣) ، إقتصادنا (١٠٨) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٥٤) ، حقيقة الشيوعية (١٨٦-١٨٧) .
(٤) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٦٣) ، وانظر حقيقة الشيوعية (١٩١) .

ويقول : (إن المبادىء الاجتماعية المسيحية قد بررت العبودية القديمة ومجدت السخرة فى العصور الوسطى وتستطيع عند الحاجة منح الموافقة على اضطهاد البروليتاريا .

إن هذه المبادىء تبشر بضرورة وجود طبقة مسيطرة وطبقة خاضعة وهى تودع فى السماء الجزاء على كافة المظالم ، ومن ثم فإنها تبرر ارتكاب المظالم على الأرض إلى الأبد إما باعتبارها العقاب العادل على الخطيئة الأولى وإما باعتبارها اختبارا فرضه الله على عباده ، إن هذه المبادىء إنما تبشر بالجبن واحتقار الذات والخضوع والخنوع والذل وبالاختصار كل صفات القلب الذليل ...)[١].

ويقول لينين : (الدين هو أفيون الشعوب ، فالدين ورجل الدين يخدران أعصاب المظلومين والفقراء ويجعلانهم يرضخون للظلم)[٢].

ويقول : (الدين يعلم هؤلاء الذين يكدحون طوال حياتهم فى الفقر الاستسلام والصبر فى هذه الدنيا ويغريهم بالأمل فى المثوبة بالعالم الآخر)[٣].

وفكرة اختراع الدين من قبل الإنسان لاستغلال الآخرين قال بها عدة فلاسفة ومن أبرزهم فيورباخ حيث يرى (أن الدين من اختراع الإنسان ، وأن الله لم يخلق الإنسان بل الإنسان هو الذء خلق الله ، وأن أحكام الدين وأوامره ليست إلا أفكار الإنسان المثالية ، وبتقدم العلم سيستيقظ الإنسان وسيصبح سمعه إلى العلم لاإلى الدين)[٤].

الرأى الثانى : أن الدين من اختراع الطبقة المضطهدة .

يقول ماركس : (إن الشدة الدينية وهى فى جزء منها التعبير عن الشدة الواقعية ، وفى جزء آخر الاحتجاج على الشدة الواقعية ، الدين هو

---

(١) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٣٦) .
(٢) معالم الإشتراكية العربية (٩٦) ، وانظر الإنسان بين المادية والإسلام (٥٨) .
(٣) حقيقة الشيوعية (١٩١) .
(٤) موقف الدين من العلم (٣١) .

تحسر الإنسان المضطهد ، حرارة عالم عديم الشفقة ، مثلما هو روح الأوضاع الإجتماعية التى لامكان للروح فيها إنه أفيون الشعب)[١].

فالدين من اختراع الطبقة المضطهدة نابع من أعماقها نتيجة اليأس والبؤس اللذان يملآن نفوس أصحابها فينسجون هذه الأفكار ليجدوا فيها السلوة ويستشعروا فى ظله الأمل فهو من صنع الفقراء[٢].

الرأى الثالث : وجد الدين بسبب جهل الإنسان وضعفه .

يقول انجلز : (إن الدين قد ولد فى عصور بدائية من تخيلات الناس الجاهلة الغامضة البدائية عن طبيعتهم ذاتها وعن الطبيعة الخارجية التى تحيط بهم إن الاعتقاد بإله واحد فى المسيحية الذى خلف الاعتقاد بتعدد الآلهة كان نتيجة توحيد الأمم المختلفة فى الإمبراطورية الرومانية)[٣].

ويقول ماركس : (إن العجز والجهل هما المصدر المزدوج للأخلاق والدين)[٤].

ويقول انجلز : (أى دين ليس إلا الانعكاس الخيالى فى دماغ الناس للقوى الخارجية التى تسيطر على حياتهم اليومية فى انعكاس تأخذ فيه قوى أرضية شكل قوى علوية)[٥].

فوجد الدين بسبب عجز الإنسان البدائى حيث كان يقف عاجزا أمام الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق والعواصف والفيضانات وجهله بها يجعله يردها إلى إرادة عليا فسعى إلى كسب عطفها والتماس أسباب الزلفى إليها بتقديم القرابين واصطناع ألوان العبادات فنشأ الإيمان بالقوى غير المنظورة

---

(١) نقلا من كتاب وصفية الدين عند ماركس وانجلز (٣٨) ، وانظر : فلسفة الأنوار (٩-١٠) ، إقتصادنا (١٠٨) .
(٢) انظر : إقتصادنا (١٠٩) ، وسقطت الماركسية (٥٣) .
(٣) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٤٤) .
(٤) المرجع السابق (٩٨) .
(٥) نقلا من كتاب وضعية الدين عند ماركس وانجلز (٥٣) .

ثم أفاق الإنسان وأنارت الكشوف العلمية بصيرته[١].

فيرى الشيوعيون أن الجهل سبب فى قيام الدين ووجوده ، فإذا انتشر العلم فإنه سيأتى على الدين ويجتثه من جذوره ، ولأجل هذا (تواترت التصريحات على أفواه زعماء الشيوعيةكلهم إن الدين لامكان له فى العالم الذى يبنونه وأن الأولين إذا كانوا من الغباء بحيث قبلوه فإن التقدم العلمى جدير فى هذا العصر بأن يأتى عليه من القواعد ...)[٢].

وأصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى عدة قرارات منها : (إن العلم يساعد الانسانية على التعمق أكثر فأكثر فى القوانين الموضوعية لتطور الطبيعة . وبالعكس فإن الدين يعدم وعى الإنسان ويسلمه إلى السلبية أمام قوى الطبيعة وذلك بعمله على شل مبادرته ونشاطه الخلاق ...)[٣].

وبناء على هذه الآراء كان رأيهم فى الآلهة أنها مخترعة ومصنوعة من قبل الإنسان ، وبالتالى فإن الدين من اختراعه أيضا ، فقال ماركس : (الإنسان هو الذى يصنع الدين والدين لايصنع الإنسان)[٤].

ويقول بولتيزر : (إن الإنسان هو الذء خلق الآلهة ، الإنسان الموجود فى شروط حياتية محددة والدين طريقة معينة فى انعكاس العالم فى وجدان الإنسان ، وإذا كان بصفته انعكاسا عبثيا ، فهذا لأن العالم المعكوس فيه هو نفسه عبثى . هذا العالم هو المجتمع ، والإنسان فيه بائس ومضطهد ، إنه عالم بلاقلب لايتمتع فيه الإنسان بـ"واقعية حقة"، لأن المجمع ليس مصنوعا لامن أجله ولامن أجل إسعاده ، إنه عالم لايستطيع فيه الإنسان أن يحقق كينونته ، وليس فيه له فى الحقيقة ، سوى الشقاء . إنه بالفعل "واد من الدموع" والإنسان بحاجة إلى الأوهام مادام فى هذه الحالة والدين يقدمها له ، فهو يحيط وادى الدموع بهالة يحجب عن الأنظار سلاسل (الأزهار الخيالية) يغرى

---

(١) انظر حقيقة الشيوعية (١٨٨-١٨٩) .
(٢) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٣٥) .
(٣) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٣٧) .
(٤) فلسفة الأنوار (٩) .

الإنسان بما يقدمه له من تحقيق وهمى لكينونته)[١].

ويقول ماركس : (حقا بأن الدين هو من استنباط الإنسان ، فالإنسان هو الذى يصنع الدين ، وليس الدين هو الذى يصنع الإنسان)[٢].

ولايوجد الدين إلا بوجود خلل ما ، وذلك ماذكره ماركس عن المسوغ الموضوعى للمسيحية حيث قال : (إن وجود الدين هو وجود اختلال ما)[٣].

ومن هنا كان لابد من نقد الدين لأنه وهم ، فقال ماركس : (نقد الدين يجرد الإنسان من أوهامه حتى يفكر ويعمل ويصوغ واقعه الذاتى كانسان أضاع أوهامه وبلغ سن الرشد ، وذلك كى يدور حول نفسه ، أى حول شمسه الواقعية)[٤].

الرأى الرابع : إن الدين متطور على أساس إقتصادى . وعلى هذا فهو متطور ومتغير ويكون فى كل فترة حسب فكر الطبقة المسيطرة فى ذلك العصر (فكل شعب حين تطورت ظروفه الإقتصادية وأتاحت له إقامة مجتمع قومى كانت الآلهة التى يعبدها قومه الهة قومية ، لاتتجاوز سلطتها حدود الأراضى القومية المدعوة إلى حمايتها وبعد أن تلاشت قوميات هذه الشعوب بالاندماج فى إمبراطورية عالمية هى الإمبراطورية الرومانية ظهرت الحاجة إلى دين عالمى أيضا وكان هذا الدين العالمى هو المسيحية التى أصبحت دينا رسميا للدولة بعد مرور ٣٢٥ عاما على نشأتها وتكيفت المسيحية بعد ذلك بالظروف الاقطاعية وحين بدأت تتعارض بشكلها الكاثوليكى مع القوى البورجوازية المتنامية ظهرت حركة الإصلاح الدينى البروتستانتية)[٥].

---

(١) فلسفة الأنوار (٩-١٠) .

(٢) نقلا من كتاب وضعية الدين عند ماركس وانجلز (٣٩) .

(٣) K.Marx orvres philosophigure, costes tome I,p. 171 .
نقلا من كتاب وضعية الدين عند ماركس وانجلز (٣٧) .

(٤) فلسفة الأنوار (١٢) .

(٥) انظر لوديح فيورباخ (١٠٣-١٠٥) نقلا من كتاب إقتصادنا (١١٠-١١١) .

ويقول انجلز : (إن مايسمى بالحروب الدينية فى القرن السادس عشر كانت تتضمن مصالح طبقية مادية إيجابية فقد كانت هذه الحروب حروبا طبقية تماما تمثل الصدامات الداخلية التى وقعت بعد ذلك فى انجلترا وفرنسا ، ورغم أن الصراعات الطبقية كانت عندئذ مغلفة بشعارات دينية ، ورغم أن مصالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مختفية خلف ستار دينى فلم يبدل هذا شيئا من الأمر ، ويمكن تفسيره ببساطة من واقع ظروف تلك الأيام)[١].

فالطبقة التى تمتلك زمام السلطة تبسط فكرها ، وبالتالى فالدين هو دين تلك الطبقة يقول انجلز : (إن من له السلطة الدنيوية يمتلك السلطة الدينية أيضا)[٢].

ففسروا نشأة الدين تفسيرا اقتصاديا طبقيا[٣].

ويقولون عن الإسلام إن (العرب أرادوا أن يقووا مركزهم التجارى بين الشعوب الأخرى فابتدعوا الإسلام فتطور المدنية حملهم على ذلك وأن الضعفاء فى مكة أرادوا الثورة على الأغنياء فاعتنقوا الإسلام وأن الفقراء تسلحوا به ، والأغنياء تسلطوا بسببه ، فعامل ظهور الإسلام هو تطور المدنية عندهم)[٤].

بيان بطلان مزاعمهم :

أولا : إنكارهم وجود الخالق جل وعلا :

مر معنا بعض أقوال الشيوعيين فى إنكار وجود الإله ، وهذه مسألة يبطلها كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم لايؤمنون كما صرحوا إلا بالمحسوس والمشاهد ، فكان لابد من الإشارة إلى

---

(١) حرب الفلاحين (٤٦) .
(٢) حرب الفلاحين (١٦٨) .
(٣) انظر : وسقطت الماركسية (٥٣) ، حقيقة الشيوعية (١٨٨-١٨٩) .
(٤) وسقطت الماركسية (٥٣) .

الأدلة والبراهين العقلية ، وذلك من باب خطاب القوم بما يفهمون أو يعتقدون ، هذا بالإضافة إلى أن البراهين العقلية تتفق مع كل مافى كتاب الله تعالى ، وماصح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الزعم الشيوعى باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : دلالة الشرع : إن الكتب السماوية كلها نطقت بهذه الحقيقة ، وهى أن الله تعالى موجود ، وأنه الخالق لهذا الكون ولكل مخلوق من انسان ونبات وجماد ، وقد وردت عدة آيات من ذلك قوله تعالى : **{ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلاتجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون}**(١)

وعندما كان كتاب الله تعالى قد نطق بهذه الحقيقة ، فإن بعض الكتاب قد اعتبر أنه من العبث الدخول فى جدال مع الآخرين لإثباتها لأنها ثبتت بالنص القرآنى يقول محمد على يوسف : (إذا كان وجود الله عز وجل فى نظر القرآن حقيقة لاتقبل الشك ، والإيمان به فطرة جبلت عليها النفوس والبرهان عليه أكبر من أن يحصره حد من المنطق ، أو العبارة ، والإنكار لوجوده لاينهض به دليل ، إذا كان كل ذلك كذلك ، كان من العبث - فى حدود هذه المفاهيم - محاولة البرهان على وجود الله ، واقتضى المقام أن يتجاهل من ينكر وجود الله ، أو يطلب منه الدليل على إنكاره)(٢).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (والإقرار به سبحانه وتعالى لايحتاج إلى دليل بل هو أرسخ المعارف ، وأثبت العلوم ، وأصل الأصول)(٣).

---

(١) سورة البقرة : (٢١-٢٢) .

(٢) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١٤٢) .
من أقوال عطا الله : (إلهى متى غبت حتى تكون الآثار هى التى تدل عليك . ومتى بعدت حتى يكون جميل صنعك هو الهادى إليك . كيف تخفى وأنت الظاهر أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر) .
حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون (٧٩) .

(٣) مجموع الفتاوى (٧٢/٢) .

الوجه الثانى : دلالة الفطرة .

سبق وأن بينا أن الفطرة هى الإسلام[١]، وأن كل مولود ولد على الاعتراف بالخالق جل وعلا ، والإقرار له بالربوبية ، فالإيمان به تعالى شعور فطرى ، ومن القضايا البدهية التى لاتحتاج إلى دليل ، وهو شعور موجود فى كل مخلوق . يقول د. يوسف الأحمد : (المخلوقات جميعها من حيوان ونبات وجماد مفطورة على المعرفة بخالقها وكل فى ذلك بحسبه ، ولهذا فقد أثبت لها القرآن الكريم أنواعا من الطاعة والعبودية لله تعالى ، من تسبيح وسجود وغير ذلك مما يستلزم بالضرورة معرفتها بخالقها ، وإلا فكيف تسبح بحمده وتسجد له وتصغى إليه من غير معرفة سابقة بوجوده)[٢].

فالإيمان بالخالق جل وعلا حقيقة بدهية وشعور فطرى وجدانى فى الإنسان . وهذه الحقيقة أظهر للعقول من وجود النهار وطلب الدليل على البدهيات إفساد لكل القضايا الأولية التى يؤمن بها العقل . كالكل أكبر من الجزء ، والواحد نصف الاثنين ، وهذاالإيمان موجود فى النفس الإنسانية دون سابق تفكير أو تعليم ، ولهذا كان معتقد أهل السنة والجماعة عدم القول بوجوب النظر والاستدلال الذى ادعى وجوبه بعض أهل الكلام[٣].

وإن التاريخ الإنسانى يشهد بهذه الحقيقة ، حيث كان الإنسان يشعر بوجود الإله ، ويقيم المعابد ليعبد هذا الإله أو ذاك ، مما يدل على اعترافه بوجوده . يقول مالك بن نبى :(كلما أوغل المرء فى الماضى التاريخى للإنسان فى الأحقاب الزاهرة لحضارته ، أو فى المراحل البدائية لتطوره الإجتماعى

---

(١) راجع (٥٢١-٥٢٣) .

(٢) منهج المتكلمين والفلاسفة المنتسبين للإسلام فى الاستدلال على وجود الله تعالى ، عرض ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة (٢٢/١) ، رسالة دكتوراه اشراف د. أحمد المهدى ١٤١٠-١٤١١هـ/١٩٩٠-١٩٩١م .

(٣) انظر : العقيدة الإسلامية سفينة النجاة (١٠١) ، مناهج المتكلمين والفلاسفة (٢٥) ، الأدلة والقواطع والبراهين فى ابطال أصول الملحدين (١٢-١٣) ، عبد الرحمن الناصر بن سعدى ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

فإنه يجد سطورا من الفكرة الدينية ، ولقد أظهر علم الآثار دائما ـ من بين الأطلال التى كشف عنها ـ بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية ، أيا كانت تلك الشعائر ، ولقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة فى العصر الحجرى ، إلى عهد المعابد الفخمة ، جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية ...)[١].

ويقول محمد العجوز : (ويدل على ذلك الشعور ماتخذته الأمم والأجيال المتعاقبة فى غابر الزمان إلى وقتنا هذا من أديان مختلفة وعقائد متباينة ومعبودات شتى ، كل ذلك يدل على الشعور بالخالق وإن أخطأوا فى تصوره وضلوا فى تحديده)[٢].

لقد أصبح الاعتراف بهذه الحقيقة وتقريرها أكبر من أن تحصره ورقات معدودة وأقربها حتى من لايؤمن بالله تعالى ، ونضرب الأمثلة على ذلك . فهذا اللورد هربرت يقول : (توجد فينا ملكات وعواطف لاتجد مجالا للتجربة وفق ارادتها وكذلك لاتسكن هذه العواطف بهذه التجربة المحدودة ، وعلى هذا لاتحصل لنا الطمأنينة الكاملة إلا بوجود كامل أزلى غير محدود والملجأ الوحيد لهذه العواطف هو الله . ولذا توجد فى جميع من سمت فطرته هذه الملكة الدينية بطريقة مختلفة كما أنها لاتظهر فى العبادات والطقوس الخارجية فقط)[٣].

ويقول ماكس هولكر: (إن الإنسان مفطور على الدين الحق)[٤].

ويقول الدكتور رينان : (إن الغريزة الدينية طبيعية فى الإنسان كما أن بناء العش طبيعى فى الطيور)[٥].

---

(١) الظاهرة القرآنية (٦٨) ، مالك بن نبى ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق دون ذكر تاريخ الطبعة .

(٢) مناهج الشريعة الإسلامية (٦/١) أحمد محي الدين العجوز ، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م ، مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان .

(٣) عصر الإلحاد (٦٦) .

(٤) العلوم الطبيعية فى القرآن (٢٤٦) ، يوسف مروة ، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م منشورات مروة العلمية ، مطابع الوفاء ، بيروت .

(٥) عصر الإلحاد (٤٠) .

وبعد إثبات هذه الحقيقة وهى أن الإنسان مفطور على الإيمان بالله ، فإن التنظيمات البشرية تعجز عن تحقيق رغبات هذه الفطرة إذا لم تقم على الأخذ بما جاء عن بارئها ، وهذا الذى حصل مع كل الأنظمة الأرضية التى ابتعدت عن المنهج الربانى ورفضت الأخذ به ، لم تستطع القيام بتلبية حاجيات الإنسان وتهذيب غرائزه مع المحافظة عليها بل صادمتها فكان ماكان من صراع هذه الشعوب مع هذه الأنظمة الوضعية ، ولاشك أن الانتصار سيكون حليف الفطرة لأنها فطرة الله تعالى ولايمكن تبديلها أو تغييرها مهما بلغت القوة فى مصادمتها ومحاولة مصادرتها ، ومع ذلك تظل هذه الفطر على الإيمان بهذه الحقيقة وإن أنكرتها ظاهرا ، جحودا واستكبارا للوصول إلى غايات وأهداف مادية حيوانية ، والاعتراف بوجود الخالق جل وعلا متناسق مع مافى الفطرة كيف لا وهى من عند الله تعالى .

ثم إن الشرائع مرتبة على استقرار هذه الحقيقة فى النفس الإنسانية . يقول ابراهيم الجبالى : (يدعو الدين الإسلامى إلى الاعتقاد أن لهذا العالم خالقا واحدا ، وهو واجب الوجود[١]، ولايقبل العدم[٢]، ولايحتاج إلى شىء[٣]، وليس كمثله شىء ، منزه[٤]عن كل نقص ، متصف بصفات الكمال التام ، والجلال العام ، فهو حى عليم ، قدير مدبر ، حكيم سميع بصير ، متكلم بكلامه القديم[٥]أرسل الرسل بالهدى ، ودين الحق ، ليرشد الناس ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

ولقد ترى جليا أن الاعتقاد بوجود إله لهذا العالم ، مهيمن عليه ، عليم بما يجرى فيه ، قدير على تصريفه حسب مشيئته ، غالب على أمره ، يصح أن يأمر فتجب طاعته ، وينهى فلاتجوز مخالفته ، هذا الاعتقاد يجب أن

---

(١) أى وجوده أمر يوجبه العقل السليم .
(٢) لايطرأ عليه الموت والفناء .
(٣) مستغن عن كل ماسواه .
(٤) مترفع ومتباعد عن كل نقص .
(٥) غير مخلوق لأن الكلام صفة من صفات الله تعالى ، وصفات الله تعالى غير مخلوقة وهو وإن كان نوعه قديما إلا أن أفراد كلامه تعالى تبع لمشيئته عز وجل .

يكـون سابقا على النظر فى شـريعة بعينها أصحيحة هى؟ فيـذعن لها ، أم غير صحيحـة؟ فيهمل أمرها ، أجل إنه لـو لم يسبق إلى نفسـك الشعـور بأن لك خالقـا خلقك فسواك ، وأنعـم عليك ورباك ، ثم تقوم الأدلـة على أن هـذا الـذى تشعر به حقيقة لاشك فيها ، وأمر ثابت لامناص منـه ، ولامفر ، وأنه إذا قـدر على الإنعام عليك فهـو قادر على السلب منـك ، وإذا أنعـم بالفضل فلايؤمن منه البطش ، وإنك بين نعمته وبطشه عبد لـه ، وهو سيدك ، يصح أن يأمـرك فيجـب عليـك أن تطيعـه ، وينهـاك فلايجوز أن تخالفـه ، وأنت بطاعته تستحق رضاه وبمعصيته تعرض لغضبه ، وأنه مطلـع على مايكون منك وإنه بكـل شـىء عليم ... نقـول : لو لم يسبق إلى نفسـك هـذا الشعور يتلوه الاعتقـاد الجازم الذى تتجلى معـالمه ، وتظهر دلائله ، مـاكان لـك أن تفكرفى شريعة تجب طاعتها ، ودين يلـزم الإذعان له ، فما كـان لنفس أن تذعن إلا لمن تعلم أنه غامرها بنعمته ، وقاهرها بقدرته ، فترجو رحمته ، وتخاف عذابه من أجل هذا كانت الدعوة إلى الشريعة مسبوقة أو مبـدوءة بتوجيه النفوس إلى الاعتراف بخالقها الذى تشعر به فى وجدانها ...)[١].

الوجه الثالث : دلالة العقل .

يدعـى الشيـوعيون أن مذهبهـم يقـوم على البراهين العقليـة والحجـج المنطقيـة ، ويرون أن العقـل يدعـوهم لعـدم الإيمان إلا بما هـو محسـوس أو مشاهد ، ونقول لهؤلاء إن العقل يدل دلالة واضحة على وجود الخالـق جل وعلا ، وهذه الدلالة من وجهين :

(١) أن هـذه المخلوقات لايمكن أن توجد نفسهـا بنفسها لكـونها مفتقـرة فى ذاتها إلى موجد يوجدها .

(٢) أن هذه المخلوقات لايمكن أن تكون وجدت صدفة .

---

(١) الإسلام دين الفطـرة (١٥-١٧) ، الطبعـة الأولى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، مكتبـة الهدى ، حلب .

فالأمر الأول : وهو كون المخلوقات لاتوجد نفسها بنفسها فإن (الوجود المعلوم إما ممكن ، وإما واجب ، والممكن لايوجد إلا بواجب فثبت وجود الواجب على التقديرين)[١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (إن ثم وجودا وهو إما مصنوع أو غير مصنوع ، أو مخلوق أو غير مخلوق ، أو مفطور أو غير مفطور ، والمصنوع أو المخلوق أو المفطور لابد له من صانع وخالق وفاطر ، فثبت وجود ماليس بمصنوع ولامفطور ولامخلوق على التقديرين)[٢].

ويقول : (من المعلوم بالمشاهدة والعقل وجود موجودات ، ومن المعلوم أيضا أن منها ماهو حادث بعد أن لم يكن كما نعلم أنا حادثون بعد عدمنا وأن السحاب حادث ، والمطر والنبات حادث ، والدواب حادثة ، وأمثال ذلك من الآيات التى نبه الله تعالى عليها بقوله : {**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ومأأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**}[٣].

وهذه الحوادث المشهودة يمتنع أن تكون واجبة الوجود بذاتها ؛ فإن ماوجب وجوده بنفسه امتنع عدمه ، ووجب قدمه ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت فدل وجودها بعد عدمها على أنها يمكن وجودها ويمكن عدمها ، فإن كليهما قد تحقق فيها ، فعلم بالضرورة اشتمال الوجود على موجود محدث ممكن.

فنقول حينئذ : الموجود والمحدث الممكن لابد له من موجود قديم واجب بنفسه ؛ فإنه يمتنع وجود المحدث بنفسه كما يمتنع أن يخلق الإنسان

---

(١) مجموع الفتاوى (٧٥/٢) .
(٢) مجموع الفتاوى (٧٥/٢) ، وانظر (٤٤٤/١٦) ومابعدها .
(٣) سورة البقرة : (١٦٤) .

نفسه ، وهذا من أظهر المعارف الضرورية ؛ فإن الإنسان بعد قوته ووجوده لايقدر أن يزيد فى ذاته عضوا ، ولاقدرا ، فلايقصر الطويل ولايطول القصير ولايجعل رأسه أكبر مما هو ولاأصغر ، وكذلك أبواه لايقدران على شىء من ذلك .

ومن المعلوم بالضرورة أن الحادث بعد عدمه لابد له من محدث ، وهذه قضية ضرورية معلومة بالفطرة ...)[١].

وقد جاءت الآيات الكريمة تبين ذلك الدليل فهى أدلة شرعية عقلية بينها الله تعالى فى إثبات هذه الحقيقة . قال تعالى : {**أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون**}[٢].

يقول شيخ الإسلام : (إن هذا تقسيم حاصر ذكره الله تعالى بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لايمكن جحدها ، يقول : {**أم خلقوا من غير شىء**} أى : من غير خالق خلقهم : أم هم خلقوا أنفسهم؟ وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل : فتعين أن لهم خالقا خلقهم سبحانه وتعالى)[٣].

ويقول الجبالى : (هذا الذى وجد بعد أن لم يكن ، قد وجد على أدق صنع وأبدع وجه ، فاشتمل على مايكفل نموه ، ويحفظ شخصه من غوائل وعواد على مايحفظ نوعه ، بتجديد مواليده ، ولكل من هذه الأعمال التى يحتاج إليها فى حفظ شخصه ونوعه ، أجهزه هى غاية فى الإتقان ، تؤدى أعمالها بلاشعور منه ولاإرادة بل ولادراية له بها ، حتى إذا كان من أهل الدراية كشخص الإنسان ، فهو يبحث عن تفاصيلها ، فلايصل بعد الجهد إلا لمعرفة القليل منها ، وكلما ازداد تأملا فيها ، ازداد إعجابا بها ، وإكبارا لها

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٣٥٧-٣٥٨) ، وانظر العقيدة الإسلامية سفينة النجاة (١٠١) . وعن واجب الوجود وأحكامه انظر الإسلام دين الفطرة (٣٨-٤٠) .

(٢) سورة الطور : (٣٥-٣٧) .

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٣٥٩) .

فبديهة العقل قاضية فى مثل هذا ، أنها ليست من صنعه ، إذ كيف يصنع مالادراية له به ، بعد وجوده ، وكيف وقد كان عدما صرفا ، فكيف يقدر حال عدمه ، على إيجاد مالايستطيع استبقاءه بعد وجوده ، والاستبقاء أسهل من الإيجاد ، وهو بعد الوجود أقوى بالبداهة منه حال العدم وكذلك لايقبل العقل : أن هذا النظام والإحكام والإتقان ـ الذى لايختل له ميزان ـ أن يكون قد وجد فى تلك الكائنات بلاموجد ، مع أن وجودها ليس مقتضى ذاتها ، وإلا لم يفارقها ، فلم يسبقه عدم ، ولم يلحقه عدم ، والمشاهد خلافه)[١].

إن علماء الطبيعة والفلك وغيرهم قد اعترفوا بأن العقل يقر بهذه الحقيقة . يقول جان لاك : (إن العقل هو الذى يرشدنا إلى وجود الخالق ، ذلك لأننا نوقن بوجودنا ونوقن بأن وجودنا حادث ولم نكن موجودين قديما ونرى أن العقل يحكم أن ليس للعدم أن يوجد شيئا ، إذن نجزم يقينا أن ذاتا أخرى قد أوجدتنا وكونتنا ، وهذه الذات ، وهى ذات البارى ، كانت موجودة بصورة دائمية ، أى أن الخالق أزلى سرمدى)[٢].

إن المنطق العقلى والعلمى (لم يسلم لامن قبل ولامن بعد بأن موجودا عجيبا فى دقته ونظامه وإحكامه ـ كالصاروخ الروسى مثلا إلى القمر والمريخ فضلا عن عظمة الكون بمجموعه بصورة عامة ، وكل ذى حياة بصورة خاصة يمكن أن يكون قد وجد من غير صانع مبدع!!)[٣].

ثم إن هذاالكون يشهد بوجود الله تعالى من دون الحاجة إلى الاستدلال بعجز الماديات عن خلق نفسها، وقد جاءت آيات كثيرة تدل على أن هذا الكون لابد له من خالق ومدبر وكلها مرتبطة بالأدلة العقلية ونضرب على ذلك أمثلة دون استقصاء لكل ماورد فى الكتاب الكريم ، فقد

---

(١) الإسلام دين الفطرة (٢٠-٢١) .
(٢) العلوم الطبيعية فى القرآن (٢٥٢) .
(٣) نظرات فى الإشتراكية الثورية (٣٠-٣١) .

دعا الخالق جل وعلا إلى التدبر ، والتأمل ، والتفكر فى خلق الله تبارك وتعالى ، لأن فى ذلك مدعاة ولفت انتباه لهذه الحقيقة ، التى لايمكن أن تغيب عن أصحاب العقول السوية .

قال تعالى : {**وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتبصرون**}(١).

وقال جل وعلا : {**أفرأيتم ماتمنون ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون**}(٢).

وقال تعالى : {**أفرأيتم ماتحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون**}(٣).

ثم خلق هذا الإنسان وأطواره ومراحل نموه يصورها المولى جل وعلا فيقول : {**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**}(٤).

ومن ذلك هذه الآيات الكثيرة التى يمر عليها الناس ويرونها فلو أعملوا عقولهم لعلموا بأن هذا الكون يسير بإرادة خالق عزيز حكيم . يقول تعالى : {**ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوةمن الأرض إذا أنتم تخرجون ، وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ، وهو**

---

(١) سورة الذاريات : (٢٠-٢١) .
(٢) سورة الواقعة : (٥٨-٥٩) .
(٣) سورة الواقعة : (٦٣-٦٤) .
(٤) سورة المؤمنون : (١٢-١٤) .

الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم}[١].

(إن الدين الإسلامى جاء فى باب الخلق ، بما يوافق الفطرة السليمة ، ويقرر مايقتضيه النظر الصحيح ، ويهدى العقل إذا ضل حتى تذعن النفس ، ويطمئن القلب)[٢].

فهذا الجانب الأول ، وهو أن هذا الكون لايمكن أن يكون أوجد نفسه بنفسه لأن أصله العدم وماكان أصله كذلك افتقر إلى موجد يوجده وهو المولى جل وعلا ، ثم نقول لهؤلاء الماركسيين الشيوعيين ، إن لديكم من المخترعات الحديثة ، ومن الأسلحة المدمرة ماتستطيعون به القضاء على العالم بإرادة الله تعالى ، فهل تقبلون منا أن نقول بأن هذه المخترعات قد أوجدت نفسها بنفسها؟!! إن الجواب معلوم!! فإذا لم توجد نفسها على صغر حجمها فهل بالإمكان أن يكون هذا الكون وهو بهذا النظام قد وجد من غير خالق إن هذا محال .

أما الجانب الآخر : فهو أن هذا الكون لايمكن أن يكون قد وجد صدفة . إن الملحدين ينكرون بوجود الإله ، ويرون أن هذا الكون قد وجد صدفة ، أو أنشأته الطبيعة أو المادة[٣].

ويقال لهؤلاء القوم : بالنظر فى هذه المخلوقات نجد النظام البديع ، والتناسب والارتباط بين أجزائها والعلاقة بين الأسباب ومسبباتها ، وعلاقة الكائنات بعضها ببعض ، وسير هذا الكون فى نظام مطرد . قال تعالى : **{لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولاالليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون}**[٤].

---

(١) سورة الروم : (١٩-٢٧) .
(٢) الإسلام دين الفطرة (٣٢) .
(٣) ستأتى مناقشة قضية المادة فى نقض العلم للنظرية الماركسية إن شاء الله تعالى .
(٤) سورة يس : (٤٠) .

فكل هذا يمنع أن يكون هذا الكون قد وجد صدفة أو وجد بغير موجد (إذ الموجود صدفة ليس على نظام فى أصل وجوده فكيف يكون منتظما حال بقائه وتطوره؟)[١]

يقول الفلكى لابلاس : (إن القدرة التى شكلت الأجرام السماوية ، وحددت كثافتها ، وأقطارها ومداراتها ، بنظام مستمر إلى الأبد ، لايمكن أن تنسب إلى المصادفة)[٢].

لقد كثرت أقوال العلماء على مختلف مشاربهم وتوجهاتهم فى نفى الصدفة عن هذا الكون لأنه لايتأتى لأبسط الأمور أن تكون وجدت صدفة فكيف بهذا الكون الفسيح الذى يسير فى دقة متناهية .

ومن هذه الاقوال ماجاء عن نيوتن حيث قال : (لاتشكوا فى الخالق ، فإنه مما لايعقل أن تكون المصادفات وحدها ، هى قائدة هذا الوجود)[٣].

ويقول فولتير : (إن الموجودات برمتها تنادى برفيع صوتها أن لها بارئا قد برأها وصانعا قد أتقن صنعها)[٤].

ويقول واين أولف : (بغض النظر عن الاعتبارات الدينية عامة ، نجد أن فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة المصادفة ولاشك ، بل إن ذلك النظام البديع الذى يسود هذا الكون يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء)[٥].

---

(١) رسائل فى العقيدة (١٢) ، فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ، الرياض .

(٢) العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم (٢٥٦) .

(٣) الإسلام دين الفطرة (٦٠) .

(٤) العلوم الطبيعية فى القرآن (٢٤٦) .

(٥) الله يتجلى فى عصر العلم (١٣٨) ، مجموعة من العلماء الأمريكان ، ترجمة د.الدمرداش عبد المجيد سرحان ، دار العلم ، بيروت ، لبنان .

إن العلم الحديث الذى يتشدق الشيوعيون الماركسيون بأن شيوعيتهم تقوم على أسسه وأطلقوا على إشتراكيتهم الإشتراكية العلمية ، قد أثبت وجود الإله ونفى أن يكون هذا الكون وجد صدفة، فهذا د. لستر بعد أن تحدث عن النباتات وأوجه الخلاف والتمايز بينها أخذ يتساءل فقال : (فمن الذى قدر وأوجد تلك القوانين العديدة التى تتحكم فى وراثة الصفات وفى نمو النبات ، وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيدا وأكبر عمقا وهو من أين جاءت النباتات الأولى؟ أو بعبارة أخرى كيف خلق النبات الأول ونحن لانستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعى ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها أونشأت هكذا بمحض المصادفة ، ولابد لنا من البحث عن خالق مبدع ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمرا بديهيا تفرضه عقولنا علينا)[١].

إن هذاالكون بنظامه البديع وسيره على هذا النسق يمنع أن يكون وجد مصادفة ، يقول سقراط : (هذا العالم الذى يظهر لنا على هذا النحو لم يترك فيه شىء للمصادفة ، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية وتلك الغاية متجهة نحو غاية أعلى منها . وهكذا يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة والجلال من كافة نواحيه ...)[٢].

ولكن ماالذى حمل الشيوعيون الملاحدة على هذا التفسير؟ إنه عجزهم عن فهم الحقيقة وذلك أمر طبيعى ، ممن صد عن آيات الله تعالى المتلوة ، والمشهودة . يقول محمد يوسف : (كل ماعجز العقل عن تعليله فمرده إلى المصادفة وكل ماخفى عن الإدراك سببه ، فسببه المصادفة ، وكل منطق يؤدى فى نهايته إلى التسليم بوجود خالق مدبر حكيم عند المؤمنين ،

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم (١٢٩-١٣٠) .
(٢) كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٦٦) .

ينتهى عند الملاحدة بوجود شيء لاوجود له ، هو المصادفة ، وكل ماكان ، وكل مايكون ، وكل ماهو كائن فعلته الأولى هى المصادفة وأساسه الحقيقى هو المصادفة ، منها صدر ، وعليها يقوم ، وبها يتخذ ماشاء ، أو ماشاءت له المصادفة ، من شكل أو كيف ، أو اتجاه ...)[١].

وإذا أحسنوا قالوا إن المادة هى التى أوجدته وهذه المادة باختصار بحاجة إلى أن تدب فيها الحياة من مصدر آخر غير المادة فكيف تبعث على الحياة وهى مفتقرة فى ذاتها إليها (ولايمكن القول بأن الحياة خاصية من خواص المادة الكامنة فيها .. وإلا فكيف ظلت كامنة فيها مالايحصى من السنين لتظهر فى وقت معلوم دون مدبر وراءها ودون قصد مرسوم؟!)[٢].

لقد أثبتت الحقائق العلمية ، والاكتشافات الحديثة ، أن مجال الصدفة محال فى إيجاد هذا الكون[٣]، ومن هنا يبطل إدعاء الشيوعية فى انكار الإله ،

---

(١) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (٣٤-٣٥) .

(٢) خصائص التصور الإسلامى (١٥٩-١٦٠) ، سيد قطب ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٣) كثرت الاعترافات والإثباتات لهذه الحقيقة بالنظر فى جزئيات صغيرة من هذا الكون ، فمثلا العنكبوت ونسجها المحكم ، انظر فى ذلك العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم (٢٠٩-٢١٠) .
وكذلك المخ البشرى وتكوينه وتركيبه ووظائفه كمثال آخر على الإتقان والإبداع الذى ينفى المصادفة . انظر العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم (٢١٠-٢١١) .
وكذلك النمل وطرق حياته وتخزينه لطعامه وتأمين غذائه ومسكنه والنحل وتنقلاته كل ذلك يمنع المصادفة . انظر كتاب الإسلام يقينا لاتلقينا (١٣-٢٧) د. صابر طعيمة .
يقول كريس فورسون رئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك فى كتابه العلم يدعو للإيمان : (إن الأكسجين والهيدروجين وثانى أكسيد الكربون والكربون سواء أكانت منعزلة أم على علاقاتها المختلفة مع بعضها هى العناصر البيولوجية الرئيسية ، وهى عين الأساس الذى تقوم عليه الحياة ، غير أنه لاتوجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضى بأن تكون كلها فى وقت واحد وفى كوكب سيار واحد بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة ، وليس لدى العلم إيضاح لهذه الحقائق . أما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية) .
نقلا من كتاب الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (٣٧) .

والقول بأن العالم وجد صدفة بالعقل . وتلخيص ذلك :

(أ) أن هذا الكون مفتقر إلى موجد فى ذاته .

(ب) أن المعدوم لايمكن أن يوجد نفسه فكيف يوجد غيره .

(ج) أن الإبداع والنظام الذى يسير عليه الكون يمنع أن يكون الكون وجد صدفة .

(د) أن المادة التى يدعى الشيوعيون أنها أصل كل شىء معدومة فكيف توجد غيرها ، وميتة فكيف تبعث الحياة فى غيرها .

(هـ) أن العلم والعقل يرد فكر الشيوعية الزاعم بإنكار الإله أوإسناد الخلق إلى الطبيعة أو الصدفة .

الوجه الرابع : دلالة الحس .

إن الواقع يشهد ببطلان الزعم المادى المنكر لوجود الإله جل وعلا . ودلالة الحس على وجوده تعالى من جانبين :

(أ) إجابة دعو الداعين ، وإزالة الكرب عن المكروبين مما يدل دلالة واضحة على جود الخالق جل وعلا مجيب الدعوات .

(ب) المعجزات التى أمرها الله تعالى على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تصديقا لهم على نبوتهم وأنهم مرسلون من قبل الخالق جل وعلا .

فعن الأمر الأول يقول تعالى : {**ونوحا إذا نادى ربه من قبل فاستجبنا له**}[١].

وقال تعالى : {**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم**}[٢].

ومازالت إجابة الدعوة أمرا مشهودا يحققه الله تعالى على يد من صدق معه جل وعلا وجاء بشرائط الإجابة[٣].

---

(١) سورة الأنبياء : (٧٦) .

(٢) سورة الأنفال : (٩) .

(٣) انظر رسائل فى العقيدة (١٢-١٣) .

أما الجانب الثانى : فهو المعجزات[١]: وهى تدل على أن الله تعالى موجود وفى ذلك رد على المنكرين المكذبين لنبوات الرسل عليهم السلام ، وقد كان لهم عليهم الصلاة والسلام معجزات كثيرة ، جاء ذكرها فى كتابه تعالى ، وجاء فى سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم الشىء الكثير من معجزاته عليه السلام . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (إن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة ، وذلك ، لأن المعجزة ـ التى هى فعل خارق للعادة ـ تدل بنفسها على ثبوت الصانع ، كسائر الحوادث ، بل هى أخص من ذلك ، لأن الحوادث المعتادة ليست فى الدلالة كالحوادث الغريبة ، ولهذا يسبح الرب عندها ، ويمجد ويعظم مالايكون عند المعتاد ، ويحصل فى النفوس ذلة [من ذكر] عظمته مالايحصل للمعتاد ، إذ هى آيات جديدة فتعطى حقها ، وتدل بظهورها على الرسول وإذا تبين إنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله فتقرر بها الربوبية والرسالة)[٢]. فهذه الآيات (مما يصدق به رسله فيما أخبرت به فلاتزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى فى الأرض إقامة للحجة ...)[٣].

فكانت المعجزات آيات لإثبات وجود الإله، وأدلة حسية على ذلك ، وبيان لصدق الرسل عليهم الصلاة والسلام . وكانت آثارها واضحة فى إيمان الناس بسببها ، كذلك فإن مايراه الإنسان ويشعر به فى هذا الكون يدل دلالة واضحة على أن لهذا الكون موجد[٤].

الوجه الخامس : الاستدلال بالآيات ، وخلق السماوات والأرض والإنسان على وجود الخالق جل وعلا .

---

(١) المعجزة أمر خارق للعادة يظهر على مدعى النبوة ، مع التحدى لكل من يعارض أو ينكر ومعنى التحدى طلب المعارضة أى الإتيان بمثل ماأتى به إذا كان هناك من ينكر عليه معجزته . الإسلام دين الفطرة (٧٨) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٧٩/١١) .

(٣) التبيان فى أقسام القرآن (١٨٩) ، ابن القيم ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٤) انظر العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم (٢٤٩) .

(أ) من الآيات الكريمة :

قوله تعالى : {سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق}(١).

وقال تعالى : {أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وماخلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون}(٢).

وقوله جل وعلا : {ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد}(٣).

قال تعالى : {أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض اءله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين}(٤).

وقوله جل وعلا : {قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين}(٥).

(ب) افتقار هذه المخلوقات لله تعالى من سماء وأرض ومافيهما .

قال تعالى : {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا}(٦).

وقال سبحانه : {الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها}(٧).

وقال عز من قائل : {أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير}(٨).

إلى غير ذلك من الآيات التى تثبت احتياج وافتقار هذه المخلوقات إلى الله تعالى وافتقارها هذا لذواتها لالشىء خارج عنها جعلها مفتقرة إليه .

---

(١) سورة فصلت : (٥٣) .
(٢) سورة الأعراف : (١٨٥) .
(٣) سورة إبراهيم : (١٩) .
(٤) سورة النمل : (٦٤) .
(٥) سورة فصلت : (٩) .
(٦) سورة فاطر : (٤١) .
(٧) سورة الرعد : (٢) .
(٨) سورة الملك : (١٩) .

يقـول شيخ الإسلام : (وأما فقـر المخلوقات إلى الله بمعنى حاجتهـا كلها إليه وأنه لاوجود لهـا ولاشـيء مـن صفـاتها وأفعـالها إلا به فهـذا أدل درجات الافتقار .

وهـو افتقارها إلى ربوبيتـه لها وخلقه وإتقانه ، وبهـذا الاعتبـار كانت مملـوكة له وله سبحانه الملك والحمد . وهذا معلوم عنـد كل من آمن بالله ورسلـه الإيمان الواجب ، فـالحدوث دليل افتقار الأشيـاء إلى محدثهـا وكذلك حاجتها إلى محدثها بعد إحداثه لها دليل افتقارها فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق) .

ويقـول (الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها لالأمـر آخر جعلها مفتقرة إليه بل فقرها لازم لها لايمكن أن تكون غير مفتقرة إليـه كما أن غناء الرب وصف لازم له لايمكن أن يكون غير غنى فهو غنى بنفسـه لابوصف جعله غنيا وفقر الأشياء إلى الخالق وصف لها ...)[١].

(ج) **عنـاية اللـه تعـالى وحكمتـه وتدبيـره وتسخيره لهـذا الكـون ، كـل ذلك يدل على وجوده جلت قدرته .**

قال تعالى : [**ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات مـاء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا**][٢].

وهـذه الآيات تشير إلى الكـون إلى أرضـه وسمـائه وجبـاله وسحـابه ومائه وثماره وليله ونهاره وذكوره وإناثه ، وتشير إلى عناية الله تعالى بخلقه حيث جعل جميع الموجودات موافقة للإنسان ، وهذه الموافقة لابد أن تكون من حكيم عليم قادر على كل شيء[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤٦/١) .
(٢) سورة النبأ : (٦-١٦) .
(٣) انظر العقيدة الإسلامية سفينة النجاة (١٢٣) .

وقد امتدح الله تعالى أولئك الذين يتفكرون فى خلق الله تعالى قال تعالى : {**ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك**}(١).

يقول محمد قطب : (إن النظر الدقيق فى هذا الكون يملأ القلب بهذه الحقيقة أنه لايمكن أن يكون خلق هذا الكون باطلا .. الكون بعظمته المعجزة .. الكون بدقته المعجزة .. بأجرامه التى تبلغ ملايين الملايين .. لايصطدم اثنان منها {**وكل فى فلك يسبحون**}(٢)والدقة المعجزة فى جريان هذا الفلك بكل أجرامه التى لم يحصها حص من البشر .. الكون بعظمته تلك ودقته المعجزة تلك .. يخلق باطلا؟! يخلق عبثا؟! إنما يهدى الإيمان العقل البشرى إلى أن هذا الكون لم يخلق باطلا إنما خلق بالحق ...)(٣).

(د) **آيات الله تعالى فى السماء والأرض وكذلك خلق الإنسان كلها تدل على وجوده جل جلاله .**

يقول تعالى : {**إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ومأأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**}(٤).

وإذا كان الماديون لايؤمنون إلا بما هو محسوس ومشاهد ، فماذا يقولون عن الكون وأحواله ، وأفلاكه وأنجمه ، ومايعرض لهم فيه ، وإذا كانت القضايا لاتثبت إلا بالحواس للزم من ذلك إنكار أشياء كثيرة يؤمن بها الشيوعيون الماديون ، ونوجه لهم هذه الأسئلة ، ماهى المادة؟ ومامكوناتها؟ وكيف هو شكلها؟ وصفوا لنا الالكترونات؟ والكهرباء؟ إلى غير ذلك مما تؤمنون به ولم تروه ، فإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذا الكون بأجرامه وأفلاكه يدل على وجود خالق له مدبر لشئونه حيث يسير فى نظام متسق

---

(١) سورة آل عمران : (١٩١) .
(٢) سورة يس : (٤٠) .
(٣) دروس تربوية من القرآن الكريم (١٥-١٦) .
(٤) سورة البقرة : (١٦٤) .

مطرد . وقد أكثر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى ذكر هذه الآيات وبيان دلالتها على وجود الخالق واستحقاقه للوحدانية دون سواه . وأعرض لبعض كلامه .. ففى قوله تعالى : {**والسماء ذات البروج**}[١]قال وهى (من آيات قدرته وشواهد وحدانيته ، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء والشكل الكرى لايتميز فيه جانب عن جانب بطول ولاقصر ولاوضع بل هو متساوى الجوانب ، فجعل هذه البروج فى هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر ولاعالم ولامريد ولاحى ، ولاحكيم ولامباين للمفعول ، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة ، والفلاسفة الذين لايثبتون للعالم ربا بائنا قادرا فاعلا بالاختيار عالما بتفاصيله حكيما مدبرا له)[٢].

وعن السحاب والرياح فى قوله تعالى {**والذاريات ذروا**}[٣]إن الله تعالى (أقسم بالسحاب ، وهو من أعظم آيات الله فى الجو .. فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه؟ وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد؟ ومن أغاث بقطره العباد ، وأحيا به البلاد ، وصرفه بين خلقه كما أراد ، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم ، وأنزله منه ، وأفناه بعد الاستغناء عنه ، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا ، ولو شاء لأمسكه عنهم فلايجدون إليه وصولا ، فإن لم يجبك طورا أجابك اعتبارا .

وسل الرياح ، من أنشأها بقدرته؟ وصرفها بحكمته ، وسخرها بمشيئته وأرسلها بشرا بين يدى رحمته ، جعلها سببا لتمام نعمته ، وسلطانا على من شاء بعقوبته؟ ومن جعلها رخاء وذارية . ولاقحة ، ومثيرة ، ومؤلفة ، ومغذية لأبدان الحيوان ، والشجر ، والنبات ، وجعلها قاصفا ، ومهلكة

---

(١) سورة البروج : (١) .

(٢) التبيان فى أقسام القرآن (٥٦) .
وعن الرياح وأنواعها وكون فيها دلالة باهرة على ربوبيته وعظيم قدرته انظر نفس المرجع (١٧٥) .

(٣) سورة الذاريات : (١) .

وعاتية؟ إلى غير ذلك من صفاتها . فهل ذلك لها من نفسهـا وذاتها أم تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيتـه ، وأقـرت المصنـوعـات بوحدانيتـه ، بيـده النفع والضر ، وله الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين)[١].

وقال عن السفن : (وسل الجاريات يسرا من السفـن : من أمسكها على وجه الماء ، وسخـر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التى تسـوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها فى مجراهـا ومرساها من طغيان الماء وطغيـان الريح؟ فمن الـذى جعل الريح لها بقدر لـو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنها لعاقها ...)[٢].

وعـن الأرض يقـول : (ومـن آياتهـا أن جعلهـامختلفـة الأجنـاس ، والصفـات والمنافع مع أنها قطع متجاورات ، متلاصقـة . فهذه سهلة ، وهذه حزنة ، تجاورهـا وتلاصقها . وهـذه طيبة تنبت ، وتلاصقهـا أرض لاتنبـت . وهذه تربة ، وتلاصقها رمال . وهذه صلبة ، ويلاصقها ويليها رخوة . وهذه سوداء ، ويليها أرض بيضاء . وهـذه حصـى كلها ، ويجاورهـا أرض لايوجد فيها حجر ... وهذه لاينفعها المطر ، بل لاتصلح إلا على سقى الأنهار ، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة ، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض . فلـو سـألتها من نوعها هذا التنـوع؟ ومن فرق أجزاءهـا هـذا التفريق؟ ومن خصـص كل قطعة منها بما خصهـا به؟ ومن ألقى عليها رواسيهـا ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى .. ومن يبدأ الخلق منها ، ثم يعيده إليها ثم يخرجه منهـا؟ ومـن جعلهـا ذلـولا غير مستصعبـة ولاممتنعـة؟ ومـن وطـأ منـاكبها ، وذلل مسالكها ... وشـق أنهارها وأنبت اشجـارها ، وأخرج ثمارها ... ومن بسطها ، وفرشها ومهدها وذللها ، وطحاها ، ودحاهـا وجعل ماعليها زينة لها ...

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن (١٧٦-١٧٧) .

(٢) المرجع السابق (١٧٧) .

وعن الكواكب وأحوالها ودلالاتها انظر (١٧٧-١٧٨) وقـال : (إذا تأملت أحوال هـذه الكـواكب وجدتها تدل على المعـاد كما تدل على المبـدأ ، وتدل على وجود الخالق وصفات كماله وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة) .

ومن الذى جعل باطنها بيوتا للأموات وظاهرها بيوتا للأحياء؟ ومن الذى يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس ، فتأخذ فى الحبل ، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع ، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج فسبحان من جعل السماء كالأب ، والأرض كالأم ، والقطر كالماء الذى ينعقد منه الولد .. فيالها من آية تكفى وحدها فى الدلالة على وجود الخالق ، وصفات كماله وأفعاله ، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه ، بإخراج من فى القبور ليوم البعث والنشور)[1].

الوجه السادس : الإقرار بتوحيد الربوبية .

حيث كانت جميع الأمم تقر بهذا التوحيد ولم يعرف أن أحدا أنكره إلا استكبارا وعنادا ، ولأجل ذلك ماوجدت جماعة إنسانية إلا ولها ديانة وإن كانت ضالة . يقول هنرى برجسون : (لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة)[2].

ومن هنا فإن دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانت لتوحيد الألوهية ، أما توحيد الربوبية فكان حقيقة ثابتة فى النفس الإنسانية ، ولأجل ذلك لم تكن الدعوة إليه ، وعلم من هذا أن الدين والإقرار بالإله موجود فى النفس الإنسانية لاكما يقول الملاحدة الشيوعيون فـ(الإيمان بإله قادر عليم صانع حكيم مما دلت عليه الفطرة وهدى إليه العقل فقالت به العامة والدهماء بمقتضى فطرهم وسذاجتهم كما قال به الحكماء والفلاسفة على مقتضى أدلتهم ومقدماتهم ... وهكذا يتفق جميع العقلاء إلا من

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن (١٨٦-١٨٨) ، وانظر الأدلة القواطع والبراهين فى إبطال أصول الملحدين (٨٥-٨٦) .

(٢) الدين (٨٤-٨٥) محمد عبد الله دراز ، نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٤٨٥) .

اجتالتهم الشياطين على إله مدبر لهذا الكون متصف بالكمال كله ومنزه عن النقص)[١].

الوجه السابع : إقرار العلم والعلماء بأن لهذا الكون خالقا واحدا .

إذا كانت الشيوعية تدعى أنها إشتراكية علمية تقوم على الحجة والبرهان والمنطق العلمى ، فإن العلم والعلماء قد شهدوا بوجود الخالق وأقروا به . وقد سئل أفلاطون (عن العالم أمحدث هو أم غير محدث فقال إن اسم العالم يدل على صفته وحاله وذلك أن تفسير العالم باليونانية "المقدر ، المتقن" فلايكون التقدير إلا من مقدر ولاالإتقان إلا من متقن)[٢].

ويقول : (إن للنفس حياة وموتا وصحة وسقما فحياتها بأن تعرف خالقها وتتقرب إليه بالبر والشكر وموتها بأن تجهل خالقها وتباعد منه بالفجور والكفر وصحتها بالحكمة وسقمها بالجهل)[٣]. ويقول : (الله بالعدد الفرد لاآلهة بالعدد المكثر)[٤].

ومن الأقوال الدالة على ذلك قول بركلى : (إن التحقق من إدراك وجود الله لأكبر جدا من تحقق وجود الإنسان)[٥].

ويقول الدكتور رسك تشارلز آرنست : (إننى أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها ، وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق ، ولذلك فإننى أؤمن بوجود الله إيمانا راسخا)[٦].

---

(١) الإسلام والحضارة الإنسانية (٥٧) .
(٢) أفلاطون فى الإسلام (٢٩٠) .
(٣) المرجع السابق (٣٠٥) .
(٤) المرجع السابق (١٣١) .
(٥) نقلا من كتاب الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١٢٢) .
(٦) الله يتجلى فى عصر العلم (٨٣) .

وقد كثرت الأقوال والإقرارات من قبل المفكرين والفلاسفة والتى كلها تصب فى الاعتراف بتلك الحقيقة البدهية وهى وجود المولى جل وعلا . انظر مثلا كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ، وانظر كتاب العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم .

إن قانون السببية (وهو من أعم قوانين الكون يقضى باستحالة وجود شىء من لاشىء ، فلكل موجود لابد من علة وسبب ، ولكن لابد أن يكون هناك مبدأ وبداية لحلقة هذه الأسباب وإلا لدخلنا إلى دائرة مفرغة ، وهذا المبدأ يجب أن يتصف بالعلم وبالإرادة المطلقة ، ذلك لأننا نحدس عند مشاهدة أية ذرة فى هذا الكون ـ الذى هو نتيجة لعلة ـ بأن وراءها عقلا وذكاء وإرادة مطلقة . والخلاصة أن سلسلة الأسباب والعلل لابد أن تنتهى إلى سبب ليس له سبب ولابد أن تنتهى إلى خالق غير مخلوق ، وهذا المبدأ النهائى والعلة الأولية والخالق الذى لم يخلق هو الله تعالى الذى يخبرنا عنه الدين)[1].

وهكذا ينقض العلم مقولة الملاحدة الشيوعيين الذين أنكروا وجود الخالق جل وعلا ، وبهذا نجد أن زعمهم ذلك باطل بالشرع ، والعقل ، والحس ، والعلم ، واعتراف العلماء والفلاسفة ، ولم يبق بعد ظهور الحق إلا الضلال ، إن هذه الدعوى عارية عن الدليل ، مفتقرة لأصل سليم تقوم عليه وإنما كان الهدف منها تحقيق المصالح الشخصية ، والمطامع اليهودية فى القضاء على الأديان وسيطرة الأفكار التلمودية ، ولكن إرادة الله تعالى فوق كل شىء . والله تعالى متم نوره ولو كره الكافرون .

ونأتى الآن لإبطال مزاعمهم فى الدين .

---

(١) موقف الدين من العلم (٧٢) .

ثانيا : إبطال مزاعمهم فى الدين وأنه أفيون الشعوب :

مر معنا أن الشيوعيين قالوا بأن الدين هو أفيون الفقراء وماقام إلا لتسلية هذه الطبقة واستغلالها ، والتهجم على الدين من قبل الشيوعيين نتيجة طبيعية للأصل الذى وضعوه فى مبادئهم (وهو القضاء على الدين) وليحققوا مقولتهم أن (لاإله والحياة مادة) ، وزعم أن الدين أفيون الشعوب باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن هذا القول قد يصدق على الدين المحرف الذى تسلطت باسمه الكنيسة واستغلت الناس وطغت على جميع جوانب الحياة هناك ، وأعطت الوعود للمساكين والمضطهدين بأن الآخرة هى لمن صبر فى هذه الدار باسمه أيضا .

الوجه الثانى : أن هذا الحكم على الدين بأنه أفيون الفقراء حكم عام يفتقر إلى أصول المنهج العلمى فى البحث . لأن الحكم العام لايتأتى إلا عن طريق الاستقراء لجميع الأديان ، وبالتالى الخروج بحكم عام عنها . وهذا مالم يفعله ماركس حيث إنه لم يستقرىء جميع الأديان ، وإذا فإن النتيجة التى توصل إليها إما خاطئة وإما أن فيها مغالطة ، لأن الواقع يشهد بخلافها .

وإن لم يستقرئها وهذا هو الحق فإن الحكم الذى توصل إليه بشأن الدين لايدعمه دليل ولابرهان علمى . وبالتالى افتقرت الدراسة إلى أبسط قواعد منهج البحث العلمى[1].

---

(١) لمزيد عن ذلك انظر موقف الإسلام من نظرية ماركس (٥٠٤-٥٠٥) .

الوجه الثالث : أن واقع الأديان السماوية يكذب هذه المقولة حيث كانت الأديان باعثة على العمل ، داعية إليه ، مرغبة فيه ، محرمة ظلم العامل ونعنى بذلك أصل الدين كما أنزله الله تعالى . وقد اعترف أقطاب الماركسية بشيء من ذلك يقرر انجلز أن مطالب الفلاحين كانت ترمى إلى الدين والمطالبة به لعلمهم أنه يحقق لهم مطالبهم فيقول : (أما الهرطقة التى عبرت مباشرة عن مطالب العمال والفلاحين والتى ارتبطت غالبا بالعصيان فى كل مكان فكانت ذات طبيعة مختلفة تماما . ورغم أنها كانت تشترك مع الهرطقة البرجوازية فى كافة المطالب المتعلقة برجال الكنيسة والبابوية وإحياء دستور الكنيسة المسيحية الأولى ، إلا أنها هدفت إلى أبعد من ذلك فطالبت بعودة المساواة المسيحية الأولى بين أعضاء الجماعة والاعتراف بهذه المساواة كقاعدة من قواعد العالم البرجوازى . واعتمدت على "المساواة بين أبناء الرب" لتصل إلى المساواة فى الحقوق المدنية بل وإلى المساواة فى الملكية بشكل جزئى)[1].

الوجه الرابع : لو سلمنا مع ماركس وانجلز أن الدين المسيحى (المحرف) كان مضطهدا للعمال وأفيونا مخدرا لهم ، فلماذا لم يبحث ماركس ورفيقه عن دين غير ذلك الدين؟! وأين التجرد من الهوى والتعصب الأعمى؟ ولكنها النفسية اليهودية التى كانت ملازمة لماركس وإلا ففى دين الله تعالى الرأفة والرحمة والعدل لهؤلاء العمال .

الوجه الخامس : أن الماركسية وقعت فيما وصمت به الدين فهى تصف (الدين بأنه "مخدر" لأنه يدعو إلى تأليه غير المحدود فى الوجود ، وهى تقف عند المحدود الذى هو الحس . وبأنه يدعو إلى تقديس علة عامة للوجود وراء الحس والشاهد وهى تنكر وجود ماعدا الحس والشاهد ، وبأنه يدعو إلى "القيم الأخلاقية" و"المثل العليا" الثابتة ، وهى لاترى نباتا لشيء على الاطلاق! كما لاترى قيما ولامثلا فيما عدا مايوحى به الحس ومايقدمه للإنسان من متع حسية ، ومايسد به حاجة بدنه فقط . إذ المتع العقلية عندها

---

(١) حرب الفلاحين (٥٠) .

ظواهر ، أو صدى للمتع الحسية ، ولعلاقات الإنسان الطبيعية التى يعيش فيها!!

تصف الدين عامة بأنه مخدر،لأنه يقف فى طرف مقابل لما تؤمن هى به

وتصف المسيحية الأرثوذكسية على الخصوص بأنها (سلطة) تعوق "الانتقال" أو "التقدم" فى سير العالم ، كلازمة لمبدأ "النقيض" فى الوجود ، لأن لهذه الكنيسة نفوذا سياسيا وروحيا استخدمته فى تأييد الوضع السابق على الثورة الحمراء ضد القيصرية ، فكانت تؤيد "الرجعية" ولاتؤيد "التقدم" الذى يدعو إليه "التطور" بوجه خاص! وهى لاتعيب الدين عامة لأنه لايدعو إلى الاعتقاد والإيمان ، ويحمل أتباعه على تقديس مايراه أهلا للتقديس من الموجودات لاتعيب الدين بذلك ، لأنها نفسها تدعو إلى "الاعتقاد" و"الإيمان" ، وتحمل فى عنف وإصرار - لاعن اقتناع - على "تقديس" ماتراه أهلا "للتقديس" و"العبادة"!! هى نفسها تدعو إلى عبادة "الدولة" وتدعو إلى الصلاة فى محراب "العلم" وتأخذ على الكنيسة المسيحية الأرثوذكسية نظام "الكهنة" ، و"المجمع المقدس" وعقيدة "عصمة" البابا ، وهى ذاتها تضفى على "الحزب" الشيوعى ، و"رئاسة" هذا الحزب لونا سميكا من "القداسة" و"الاعتبار" لايتردد فى قيمته فضلا عن أن يناقش فيه!! هى تدعو إلى "عبادة" و"معبودها" هو الدولة ، وتدعو لذلك عن طريق الفلسفة فهى "وثنية" باسم الفكر!! ثم إذا هى تنكر إله الكنيسة لأنه فيما وراء الطبيعة لايحس ، تدعو فى الوقت نفسه إلى عبادة مالايحس ولايشاهد ، وهو الدولة ، أو المجتمع . وإلا فأين مكان الدولة ومكان المجتمع فيما وراء التصور الذهنى؟!)[1].

الوجه السادس : أن الدين الإسلامى ينقض وينفى هذه الفرية من أساسها ، إذ أن دين الله تعالى لم يكن فى يوم من الأيام ، أو فى مرحلة من مراحله داعيا إلى التكاسل والتخاذل مما يدل على أن الأفكار الشيوعية متهافتة ومصيرها الخذلان ، أمام أصول الإسلام وتشريعاته الصالحة لكل

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث (٢٨٨) .

زمان ومكان . وظهر فى دين الله تعالى مايرد على هذه الفرية (أن الدين أفيون الفقراء) ، ومن ذلك :

(أ) الجهاد فى سبيل الله تعالى :

حيث قام المسلمون الأوائل بنشر الإسلام والدعوة إليه ولقوا فى سبيل ذلك الشىء الكثير من الصعاب وبذلوا فى سبيل نشره النفس والنفيس فكيف يكون الدين مخدرا وأفيونا وهو الذى جعل هؤلاء الحفاة الرعاة سادات العالم وقواده ، وكيف يكون الدين مخدرا وهو الذى يطلب من الإنسان المسلم منذ لحظة دخوله فيه أن يبدأ العمل ويطبق الفرائض ، ويتقرب بالنوافل ، ويبحث عن الرزق ، ويسعى فى الأرض للجهاد والكسب إن واقع الدين الإسلامى يأتى على هذه الفكرة من أساسها فيجعلها متهالكة متهافتة لاتنهض ولايقوم لها بنيان ، هل تصدق هذه الفرية (على محمد [صلى الله عليه وسلم] وهو الذى رفع السيف مع من معه من العمال والفقراء المستضعفين فى وجوه كسرى وقيصر وأبى لهب وأبى جهل وغيرهم من أئمة الجور والطغيان)[1].

(ب) كيف يكون الإسلام أفيونا أو مخدرا والله تعالى أمر العباد بالعمل ، وحثهم عليه، كما أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم به والآيات والأحاديث فى هذا الجانب أكثر من أن تحصى ، بل بين تعالى فضل العاملين ، وامتدح رسوله صلى الله عليه وسلم أولئك المتكسبين من أعمال أيديهم ، ونهاهم عن تكفف الناس ، وأبان أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وشارك صلى الله عليه وسلم فى العمل بيده ، وكانت شرائع الإسلام كلهاتقوم على العمل ولاتتم إلا به فكيف يكون الدين مخدرا سبحانك هذا بهتان عظيم .

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (١٥٤) ، البهى الخولى ، دار الفتح ، دون ذكر لتاريخ الطبعة أو رقمها .
وكذلك كان معه صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما وهما من أثرياء المسلمين .

(ج) يعتبر الشيوعيون أن الدين أفيونا مخدرا مسكنا للطبقة الفقيرة للعمال والمضطهدين ، فهلا نظروا فى دين الله تعالى كيف حرم الظلم ، وحرم كل مايلحق الضرر بالآخرين ، وخاصة الفقراء والضعفاء والأجراء ، وحرم تكديس الأموال فى يد الطبقة الغنية ، وفرض للفقراء حقا فيها وحرم الربا والاحتكار والغش بأنواعه ، وسوى بين الفقير والغنى ، والأمير والحقير فى حدود الله تعالى ، فالدين الإسلامى لم يخدر الطبقة العاملة أو الفقيرة بل جعل لها الحقوق المفروضة على الأغنياء ، وماذلك إلا ليحيي هذه الطبقة ويجعلها تتطلع إلى الأمام فأين المخدر من تشريعات الإسلام؟!!

(د) أن أغلب الدعوات والحركات التى قامت فى فترات متفرقة من الزمن إنما كانت بدافع دينى ، تدعو إلى حياة القلوب بعد موتها ، وإلى العلم بعد الجهل ، وإلى العمل بعد الكسل ، والأمثلة على ذلك كثيرة فدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب[1] رحمه الله كان الباعث عليها الدين ، وغيرهامن الدعوات الإصلاحية فى العالم العربى والإسلامى ، وكذلك الدعوة الإصلاحية فى الغرب ضد أفعال الكنيسة الدافع لها الدين . لقد كان (الدين قوة دافعة حقيقية فى عصور النهضة ، فالثورة على الخضوع لغير الحق إنما هى هدف الدين وهى تتجدد فى عصور نهضات

---

(١) الإمام المصلح المجدد ، ولد بالعيينة وكان مولده فى بيت علم ودين ، ورحل فى طلب العلم ، وحارب الشرك والجهل الذى كان متفشيا بين الناس ، وباشر إزالة الشركيات من أحجار وأشجار بيده ، له مؤلفات عديدة منها : كتاب التوحيد ، كشف الشبهات ، الأصول الثلاثة وأدلتها ، تفسير سورة الفاتحة ، مختصر زاد المعاد ، وغيرها . ولد عام ١١١٥هـ ، ومات سنة ١٢٠٦هـ رحمه الله .
انظر الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه فى مباحث العقيدة (٢٧) ومابعدها ، د. آمنة محمد نصير ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة .

لخلق تغيرات جذرية فى أسلوب الحياة إذا تخلفت حياة الناس عن تحقيق هذا الهدف ، حيث تعتبر العقيدة الدينية قوة دافعة نحو التطور الإجتماعى المأمول)[١].

ثم إن كثيرا من حركات التحرر من الاستعمار الباعث عليها الدين ، وكان من هذه الحركات حركة الجهاد الأفغانى ضد الشيوعية .

(هـ) أن هذه الدعوة يبطلها ماجاء فى كتاب الله تعالى من التحذير بأنه جل وعلا مطلع على كل صغيرة وكبيرة وأنه يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور فـ(هل الدين إلا ذروة اليقظة والانتباه وماذا يكون حال المسلمين الذين يقول لهم ربهم : {**إن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**}[٢].

ماذا يكون حال مثل هؤلاء المسلمين إلا الخوف الدائم واليقظة الدائمة والانتباه الدائم لكل خاطر يخطر فى القلب .. فهذا هو الله يحاسبهم على مواطن النيات ، كما يحاسبهم على شواهد الأعمال فأين لهم النوم .. وأين هم من سكرة الأفيون . إنما المساطيل حقا وأهل الغفلة الذين يعيشون فى خدر الأوهام الباطلة هم أهل المذاهب المادية من شيوعيين وغيرهم . ممن تصوروا أن لاشىء وراء هذه الحياة ولاشىء بعدها فإن غنموها غنموا كل شىء ، ولو بالقتل وسفك الدماء فلاحسيب من بعد ولارقيب . هؤلاء هم الذين يعيشون فى خدر الأفيون حقا .. هؤلاء هم الذين خدرتهم أطماعهم وأهواؤهم وشهواتهم .. وهؤلاء هم الذين أعمتهم أحقادهم وأضغانهم فتصوروا أنه لاوجود لأى شىء وراء هذه الأحقاد والأطماع حسب لحظتهم .. فليعيشوها.. أو فليسرقوها .. ثم لايعبأوا بشىء بعد ذلك)[٣].

---

(١) الفكر الدينى فى مواجهة العصر (١٠٤) ، د. عفت محمد الشرقاوى ، الطبعة الثانية ١٩٧٩/١/١م ، دار العودة ، بيروت .

(٢) سورة البقرة : (٢٨٤) .

(٣) حذار لاهم تقدميون ولاعلميون ولاموضوعيون (١١-١٢) ، مصطفى محمود ، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .

(و) مما يرد به على الشيوعيين فى هذه الفرية أن يقال لهم لماذا قامت ثورتكم؟!! وماهو الدافع لها؟!! إن مايدل عليه واقع الثورة البلشفية والأحداث التى تلت أنها ماقامت إلا بدافع مذهبى وظف لتحقيق أطماع اليهود فى العودة إلى صهيون بأرض فلسطين ، ثم يقال لهم أليست الأفكار الماركسية واللينينية معتقدات ترغبون فى إيمان الناس بها ، بل وتفرضونها عليهم بالقوة ، إن الدافع الدينى كان وراء ثورتكم ، فكيف تنكرون أمرا وأنتم ماقمت وماعملتم إلا من أجله؟!! وكيف يصبح لكم دافعا ولغيركم أفيونا؟!! إن اختلال موازين الشيوعيين جعلتهم يجازفون فى إصدار أحكامهم ثم ألم يعد الشيوعيون العمال بجنة الفردوس إن هم صبروا ضد الظلم ، وكافحوا فى سبيل الإشتراكية ، إن هذا العمل يعد أفيونا على معتقد الماركسية ، وعلى هذا الأساس فإن تناقض الشيوعيين يطغى على كل آرائهم وأفكارهم .

(ز) لقد جاء الاعتراف بأن الدين ليس مخدرا ولاأفيونا بل باعثا على العمل من قبل الأعداء وبعض المفكرين . يقول جارودى : (إن فكرة الدين ليست أفيونا ولامخدرا ويجب أن نقف كشيوعيين الموقف الإيجابى بالنسبة للدين لأنه حركة ثورية لها فلسفتها الإجتماعية والإقتصادية العلميتين ، ولو أدرك ماركس مفاهيم الدين بكل موضوعية ووعى لما وقف ذلك الموقف الرافض والمنكر)[1].

ويقول لامارتين بعد أن أثنى على الإسلام وانتشاره (إذا كانت عظمة الهدف ، وحقارة الوسائل ، وسعة النتيجة هى المعيار الوحيد لتقدير مهارة الإنسان ، فمن يتجرأ منكم - وعن طريق الإنسانية - على مقارنة أى عظيم من عظماء التاريخ بمحمد؟ إن أكابر العاملين ماحركوا إلا عساكر ، وقوانين ودولا ... ومأسسوا عندما أرادوا تأسيس شىء ، إلا قوات مادية قد

---

(١) مجلة الطليعة آب ١٩٦٩م نقلا من كتاب معالم الإشتراكية العربية (٩-١٠) .

اضمحلت قبل وصولهم إلى الغاية ... ولكن محمدا حرك عساكر ، وحكاما ، ودولا ، وشعوبا ، وممالك ، وملايين من الناس فى أطراف العالم المسكون ، بل حرك ـ مع ذلك ـ آراء ، وعقائد ، وأرواحا ... وأسس ، على كتاب واحد ـ ثبت أن كل حرف منه يقابل قانونا مستقلا . أسس على هذا الكتاب الجنسية الروحية التى تحيط بالشعوب فى جميع اللغات وفى جميع الأنواع...)[١].

فهل النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه كانوا بدينهم مخدرين عاطلين بعد أن بلغوا مشارق الأرض ومغاربها؟!! أين هو الأفيون فى دين الله تعالى الذى صنع هؤلاء الرجال؟! إن هذا الدين ينقض الرأى القائل بأن الدين أفيون الشعب بل هو حياة القلوب والشعوب .

وأخيرا نقول إن الإسلام ملىء بالأدلة الواقعية على أن الدين كان دافعا قويا للعمل ، فأين الأفيون من عقيدة الإسلام التى هى حياة القلوب وسر الانتصار على الأعداء كما جاء فى كتاب الله تعالى .

أين الأفيون من تشريعات الإسلام ، تلك التشريعات التى أحيت الأرواح والأجساد وجعلت الإنسان يبذل روحه وماله فى سبيل إبلاغ دعوة الحق إلى الناس .

إن دين الله تعالى لم يكن أفيونا ، وإذا صدق هذا على دين محرف قام على الظلم والطغيان واستغلال الإنسان (بعد تحريفه) فلايعنى ذلك أن الوصف ينطبق على كل دين ، وخاصة الإسلام دين الله الذى ارتضاه لنفسه وأوجبه على عباده {**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين**}[٢].

---

(١) الإسلام فى السنغال (٩٨-٩٩) ، الشيخ أحمد التيجانى سى ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) سورة آل عمران : (٨٥) .

ثالثا : رد مزاعمهم فى نشأة الدين :

اضطرب الشيوعيون فى تحديد نشأة الدين إلى أقوال عدة :

(أ) أنه من اختراع الضعفاء "الطبقة المستغلة".

(ب) أنه من اختراع الأقوياء "الطبقة المستغلة".

(ج) أن الإنسان اخترعه بسبب الجهل .

(د) ربط نشأة الدين بالعامل الاقتصادى .

ويجمع هذه الأقوال إن الدين من اختراع الإنسان ، وهذه مزاعم باطلة .

أولا : قولهم أن الدين من اختراع الإنسان :

هذا زعم باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : ثبت إن كل مولود يولد على الفطرة التى هى دين الله تعالى (الإسلام) ومامن أمة إلا ولها دين بصرف النظر عن هذا الدين إن كان حقا أم باطلا ، وقد اعترف الشيوعيون بوجود الدين لدى القبائل البدائية ، تلك القبائل التى كانت خلوا من الطبقات الاجتماعية فكيف يفسرون الدين فيها . ثم كيف يقولون بأنه نشأ من الطبقات الموجودة فى المجتمع مع اعترافهم بأنه وجد فى مجتمع غير طبقى ، إن هذا تناقض ظاهر ودليل على فساد اختراع الإنسان للدين .

وبهذا إما أن يقولوا بعدم وجود هذه المرحلة التى خلت من الطبقات وبالتالى تكون فكرة المشاعية البدائية التى حققت السعادة للبشرية غير موجودة ويلزم من ذلك أن تنهار القاعدة التى عول عليها الشيوعيون كثيرا وهى المجتمع البدائى . وإما أن يقولوا بوجودها مع اعترافهم بأن لها دين خاص بها وبالتالى يكون هذا أحد التناقضات التى وقع فيها الشيوعيون ويبطل الزعم الذى جاءوا به .

الوجه الثانى : أن الدين وجد منذ وجد الإنسان على هذه الأرض فكيف يكون الإنسان هو الذى اخترعه . فقد وجد مع آدم عليه السلام بمجرد هبوطه من الجنة ، وقد اتفقت الأديان السماوية على ذلك (ولايزال دليل الأديان كلها على صدق دعوى نشأة الدين مع وجود أول إنسان على هذه الأرض وهو "آدم" فقد قدم القرآن قضية هبوط آدم من الجنة وتلقيه الوحى وعبادته للخالق فى صورة لاتناقض العلم ولاتتناقض مع العقل بل هى أدعى إلى الاستنارة بهما وتحكيمهما لاللتدليل على صحة القضية بل لتأكيد إيمان المؤمنين ...)[١]. ويظل هنا قضية ننبه عليها وهى أن كون الإنسان يتخذ له آلهة يعبدها وينحرف بفطرته إلى الشرك ويتخذ إلها يعبده من شجر أو حيوان أو كوكب فإنه يطلق عليها آلهة لذلك الإنسان تجوزا ، وهذه مصدرها الإنسان ولكن لايصح الحكم بها على الدين الصحيح .

وإذا كانت اليهودية والنصرانية حرفت ، وقامت الشيوعية فى نقدها للدين مستدلة على دين محرف وأكثر طقوسه من وضع الرهبان ، فإن من رحمة الله تعالى بالناس أن جعل دينا خاتما لايتطرق إليه الاحتمال أو الشك وهو الدين الإسلامى الذى كان عليه آدم عليه السلام ، وكتابه القرآن الكريم الذى قال تعالى عنه : {**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**}[٢][٣]. ونبيه خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الإنسان فى ظل الأديان (٤٣-٤٤) .
(٢) سورة الحجر : (٩) .
(٣) موقف الدين من العلم (٣٢) .

(ولقد أثبتت الأبحاث والتدقيقات التى جرت فى ميدانى علم الإجتماع والتاريخ خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين أثبتت أن الدين وجد منذ وجود الإنسان كشعور عميق وكسند معنوى ، وإن جميع الحضارات والمدنيات الأولية وآثارها كانت نتيجة ووليدة هذا الشعور ، فالسياسة والأخلاق بل حتى التكنيك والفنون الجميلة مدينة فى نشوئها وفى تقدمها إلى هذا الشعور والتفكير الدينى ، وأن نواة هذه المؤسسات وجدت وتكونت منذ البداية فى ظل الدين وتقدمت معه جنبا إلى جنب واستمر هذا حتى زمن قريب حيث انفصلت عن الدين أصبحت كل منها مؤسسة مستقلة عن الأخرى)[١].

الوجه الثالث : لابد من التفريق بين الإنسان الذى يعنيه الشيوعيون وهو البدائى ، وبين الإنسان الأول الذى كان على دين الله تعالى وهو آدم ، فالشيوعيون يعولون على الإنسان البدائى وهى فترة لم يحددها هؤلاء الشيوعيون ، والمعلومات عن هذه الفترة وحقيقتها ، وطرق تفكيرها وغير ذلك من أمورها فى طور الجهل وماجاء عنها مبنى على التخمين والظن[٢]. وهل يبنى على فترة لم تعرف حقيقتها ، ولاتتوفر عنها المعلومات الكافية مذهب من المذاهب؟!! إن هذا لم يصح إلا عند أصحاب الفكر الإشتراكى العلمى!! وإذا كان الإنسان البدائى هو آدم عليه السلام فإن الدين قد وجد معه فى هذه الأرض ، وأخبر تعالى بذلك عنه منذ أن كان فى الجنة . فدل ذلك على أن الدين وجد فى النفس الإنسانية ووجد مع أب البشر عليه السلام ، فأين هو الاختراع؟ ومتى تم هذا الاختراع؟ فالدين (ولد بولادة الإنسان ويؤكد هذا الرأى التاريخ والآثار والبرهان العلمى)[٣].

الوجه الرابع : إن واقع الشيوعية فى تعاملها مع الدين وأصحابه ، يدل على بطلان قولهم ذلك ، حيث يعترفون وبطريق غير مباشر أن الدين

---

(١) موقف الدين من العلم (٣٢) .
(٢) انظر الإنسان فى ظل الأديان (٥٣-٥٦) .
(٣) العلوم الطبيعية فى القرآن (١٦) .

أمر ثابت فى أصل الخلقة ، وذلك بحربهم التى لاهوادة فيها على الدين وأهله عسكريا ، وفكريا ، وبالقتل والتعذيب ، ولو كان الشيوعيون الملاحدة يعتقدون أن الدين ليس موجودا أصلا فى النفس الإنسانية ومستقر فيها لما هاجموه بهذه الطريقة الوحشية ، ولحاولوا إيجاد البديل عن طريق تلقين الفكر الإلحادى أو اختراع أفكار أخرى أكثر عمقا من الدين ، وأشد أثرا فى النفس الإنسانية . زد على هذا ماذا يقول الشيوعيون لأولئك الذين تركوا إلحادهم ورجعوا إلى الله تعالى؟!! إن هذه العودة هى عودة إلى الأصل الذى هو ثابت مستقر فى النفس البشرية ، ولو كان الدين أمرا مخترعا ولم يكن فى نفوس هؤلاء الملاحدة أساسا فكيف رجعوا إليه؟!

الوجه الخامس : ومما يبطل قولهم - فى أن الإنسان هو الذى اخترع الدين - الاضطراب الشديد فى تحديد الطبقة التى اخترعت الدين والسبب الذى أدى إلى وجوده ، وهذا الاضطراب دليل على أن الإنسان ليس هو مخترع الدين ، وإلا لو كان الأمر كذلك لاخترعت كل طبقة ماينا سبها من أفكار وأحكام تخدم مصالحها على حساب الطبقات الأخرى ، ولكن الذى نجده فى الدين المخترع كما يزعمون أنه يحتوى على أفكار تتعارض مع مصالح الطبقة المخترعة ، فكيف يقال إن الإنسان يخترع شيئا يعادى رغبته ، ويفرضه على نفسه ، وفيه مصلحة لغيره ، ويلزم نفسه بأشياء لارغبة له فيها إن العقلاء يرفضون القبول بذلك ومن هنا يتبين فساد مايذهب إليه الماركسيون من القول بأن الإنسان هو الذى اخترع الدين، ويتبين خطل هذا الرأى وفساده لأنه يتعارض مع أبسط مسوغات القبول له ، سواء من الناحية الشرعية أو العقلية أو العلمية أو واقع الشيوعية .

ثانيا : بطلان زعمهم أن الدين من اختراع الطبقة المالكة :

وهذا الزعم باطل من وجوه مع ملاحظة أن نقض الزعم الأول يستدل به هنا على اعتبار أن الدين ليس من اختراع الإنسان سواء كان مالكا أو مملوكا .

الوجه الأول : إن الواقع الذى نشأت فيه الأديان يبطل هذا الزعم . وواقع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ينقض هذه الفرية ، فقد وقفوا فى وجه الطغاة والمتسلطين على الناس بسبب أموالهم وقوتهم ، فهل تصدق هذه الفرية على ابراهيم عليه السلام فى وقوفه ضد أعدائه؟ وهل تصدق على موسى عليه السلام الذى نازل فرعون؟ أم هل تصدق على عيسى عليه الصلاة والسلام وهو الذى تآمر عليه القوم ليصلبوه؟[٢]أم هل تصدق على محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذى رفع السيف ومعه المؤمنون به ومنهم الفقراء المستضعفين فى وجه أهل الطغيان[٣].

الوجه الثانى : أن هذا الزعم القائل بأن الدين من اختراع الطبقة المالكة لايصمد أمام ماجاءت به الأديان من فرائض وتشريعات ، حيث جاء فيها تحريم كثير من الأساليب والطرق التى كانت ترغب الطبقة المالكة فى سلوكها من أجل زيادة ربحها أو استثمارها ، كتحريم الربا ، والاحتكار ، وكذلك منع احتقار الفقراء أو التنقص منهم ...الخ ماهنالك من شرائع دينية كانت تحرم على الطبقة المالكة ماترغب فيه ، فكيف تخترع الدين ، ثم تجعله يفرض عليها مايخالف مصالحها ، إن هذا زعم باطل ، يقول الصدر : (إذا كان يحلو للماركسية ، أن تؤمن بأن الطبقة المالكة المسيطرة ، وهى التى تصنع الدين لحماية مصالحها ، فمن حقنا أن نتساءل : هل كان من مصلحة هذه الطبقة ، أن تجعل من هذا الدين أداة فعالة فى القضاء على الرأسمال الربوى ، الذى كان يدر عليها أرباحا طائلة فى المجتمع المكى ، قبل أن يحرمه الإسلام تحريما باتا؟! أو هل كان من مصلحتها ، أن تتنازل عن كل مزاعمها الارستقراطية ، فتسخر الدين للدعوة إلى المساواة بين الناس ، فى الكرامة الإنسانية ، بل إلى الاستهانة بالأغنياء ، والتنديد بتعاظمهم دون حق

---

(١) إقتصادنا (١٠٨-١٠٩) .
(٢) انظر الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (١٥٣) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٥٥) .

...)[١]. إن هـذا لايقبل به عاقـل فكيف بمن يدعى العلم والسير على الأسـس العلمية الصحيحة!!

الوجه الثالث : إذا كـان الأغنياء والملاك هم الذين اخترعـوا الدين ، وأغـروا العمال بالخضوع له ، وعدم المطالبة بحقوقهم فى الـدنيا ، ووعدوهم بالآخرة ـ كمـا زعم الشيوعيون ـ فإن الأنسب لهؤلاء كـى يصلوا إلى تحقيق أهدافهم أن لايتخذوا الدين وسيلة لهذا الإغراء وذلـك لأنه ليس هناك دين حق يغـرى أصحـابه بترك الحق والاستكـانة للمخلـوقين ومـامن دين حق إلا وهو قوة إيجابية تدفع المتدينين إلى العمل وشحذ العقول والنقمة على الطغاة العصاة حتى يؤمنـوا[٢]. وبهـذا يتبين أن هـذه الفرية باطلة ينقضهـا الـواقع الـذى قام فيه الدين ، كما تنقضها التشريعات والفرائض الـدينية التى كانت تفرض على الأغنياء والمالكين البذل والعطاء .

ثالثا : بطلان زعمهم أن الدين من اختراع الطبقة المضطهدة :

وهذا زعم باطل من عدة وجوه :

الوجه الأول : أن الدين مستقر فى النفس الإنسانية ، وموجود من قبل وجود الطبقات الإجتماعية ، كما تقدم تقريره .

الوجه الثانى : إذا كـان الدين مـن اختراع الطبقة المضطهـدة (فكيف يمكن أن نفسر وجود العقيدة الدينية ، منفصلة عن الواقع السيء ، وظروف المضطهدة الإقتصادى؟! وكيف أمكن لغير المضطهدين ، أن يتقبلـوا من الطبقة المضطهـدة ، إيديولوجيتها التى نبعـت من واقعها الإقتصـادى ، ودينهـا الذى تبشـر به؟! إن الماركسيـة لايمكنهـا أن تنكـر وجود العقيـدة الـدينية ، عنـد أشخاص لايمتون إلى ظروف الاضطهاد الإقتصادى ، بصلـة وصلابة العقيدة فى نفـوس بعضهم ، إلى درجة تدفعهـم إلى التضحية بنفوسهـم فى سبيلها . وهذا يبرهن ـ بوضوح ـ على أن المفكر لايستوحى فكرة إيديولـوجية ـ دائمًا ـ من

---

(١) اقتصادنا (١٠٩) .

(٢) انظر المرجع السابق (٨٥) .

واقعه الاقتصادى ، لأن الفكرة الدينية عند أولئك الأشخاص ، لم تكن تعبيرا عن بؤسهم ، وتنفيسا عن شقائهم ، وبالتالى لم تكن انعكاسا لظروفهم الإقتصادية وإنما كانت عقيدة تجاوبت من شروطهم النفسية والعقلية ، فآمنوا بها على أساس فكرى)[١].

الوجه الثالث : إذا كان الدين من اختراع الطبقة المضطهدة بسبب الظروف السيئة الواقعة عليهم فلماذا وافقهم أصحاب رؤوس الأموال الأغنياء فى الدخول فيه؟

ولماذا عملوا بالأفكار والمبادىء النابعة منه؟!

وكيف يوافقونهم فى مطالبتهم إياهم بالعدل والانفاق عليهم وعدم الاستكبار والمساواة فيما بينهم فى أمور العبادة وغيرها؟!!

إن المنطق يقول لو كان الدين من اختراع المضطهدين لطالبوا بما يعلمون بأنهم سيحصلون عليه ، لأن هذه المطالب لو كانت من عندهم لاستكبرها الأغنياء ، بل إن أمر الدين وصل إلى المطالبة بالمساواة فدل ذلك على أن الدين لم يكن صادرا منهم بل هو من عند الله تعالى ، ومن هنا دخل فيه الأغنياء مع الفقراء دون تردد {**وقالوا سمعنا وأطعنا**}[٢].

رابعا : بطلان زعمهم أن الدين يتطور تبعا لتطور العامل الإقتصادى :

وهذا باطل للوجوه التالية :

الوجه الأول : إن زعم الماديين أن الأديان تتطور لتطور العامل الإقتصادى ويكون فى البلدان المتطورة أكثر منه تطورا فى غيرها باطل يرده واقع الأديان حيث كانت تظهر فى أماكن لم تكن الظروف الإقتصادية تساعد على وجوده فيها . يقول الصدر : (ونلاحظ فى هذا المجال ، أن المسيحية أو البروتستانتية ، لو كانت تعبيرا عن الحاجات الموضوعية المادية ، التى تشير إليها الماركسية ، لكان من الطبيعى أن تولد المسيحية وتنمو فى قلب

---

(١) إقتصادنا (١١٠) .

(٢) سورة البقرة : (٢٨٥) .

الإمبراطورية الرومانية ، الآخذة بزمام القيادة العالمية ، وأن تنشأ حركة الإصلاح الدينى ، فى أكثر المجتمعات الأوروبية ، تطورا ونموا من الناحية البورجوازية ، مع أن الواقع التاريخى ، يختلف عن ذلك تماما . فالمسيحية لم تنشأ فى نقاط التمركز السياسى ، ولم تولد فى أحضان الرومان الذين بنوا الدولة العالمية ، وكانوا يعبرون فى نشاطاتهم عنها ، وإنما نشأت بعيدة عن ذلك كله ، فى إقليم من الأقاليم الشرقية المستعمرة للرومان ، ونمت بين شعب يهودى مضطهد ، لم يكن ... يحلم إلا بالاستقلال القومى ، وتحطيم الأغلال التى تربطه بالمستعمرين ، الأمر الذى كلفه كثيرا من الثورات ، وعشرات الألوف من الضحايا ، خلال تلك العقود الستة ، فهل كانت ظروف هذا الشعب المادية والسياسية والإقتصادية جديرة بأن تتمخض عن الدين العالمى الذى يلبى حاجات الإمبراطورية المستعمرة؟!)[١].

الوجه الثانى : أن حركات الإصلاح الدينى لم تكن وليدة لتطور الأوضاع الاقتصادية وإلا لكان ظهورها يتحتم فى أماكن دون أخرى . إلا أن الواقع نقض ماذهب إليه أصحاب الفكر الشيوعى ، وفى ذلك يقول الصدر : (وحركة الإصلاح الدينى ، التى نشأت من طلائع التحرير الفكرى فى أوروبا هى الأخرى لم تكن وليدة القوى البرجوازية ، وإن حصلت منها البورجوازية على مكاسب ، غير أن هذا لايعنى أنها بوصفها أيديولوجية معينة قد نشأت عن مجرد التطور الإقتصادى البورجوازى . وإلا لكانت انجلترا أجدر بها من البلاد ، التى انبثقت عنها حركة الإصلاح ، لأن البروجوازية فى انجلترا ، كانت أقوى منها فى أى بلد أوروبى آخر . ، والتطور الإقتصادى والسياسى ، الذى أحرزته خلال ثورات ، منذ عام (١٢١٥) ، جعلها فى موضع لاتصل إلى مستواه البلدان الأخرى ، وبالرغم من ذلك لم يظهر "لوثر" فى انجلترا استجابة للوعى البورجوازى فيها ، وإنما ظهر بعيدا عنها ، ومارس نشاطه ودعوته فى المانيا ، كما ظهر فى فرنسا الزعيم

---

(١) إقتصادنا (١١١) .

الثانى للحركة فى شخص (كالفن) البروتستانتى العنيد ...)[١]. فلو كان الإقتصاد هو السبب فى ظهور الدين لكانت حركات الإصلاح الدينى سارت على هذه القاعدة .

الوجه الثالث : أن العقيدة الدينية موجودة عند أشخاص لايمتون للاضطهاد الإقتصادى بصلة ، وصلابة العقيدة فى نفوسهم ثابتة إلى درجة تدفعهم إلى التضحية بنفوسهم وأموالهم فى سبيلها ، ومثال ذلك امرأة فرعون[٢]، وعثمان بن عفان[٣]، وعبد الرحمن بن عوف[٤]رضى الله عنهما وكثير من المسلمين الأغنياء لم يكن لهم علاقة بالاضطهاد الإقتصادى ودخلوا فى دين الله تعالى رغبة فيما عنده جل وعلا[٥].

الوجه الرابع : إن قيام الإسلام فى أرض الجزيرة العربية ، أعظم دليل على فساد النظرية الماركسية ، التى ربطت قيام الدين بالوضعية الإقتصادية .

---

(١) إقتصادنا (١١١-١١٢) .

(٢) وهى آسية بنت مزاحم رضى الله عنها آمنت بالله تعالى ، وعلم فرعون بذلك وأمر جنده أن يأخذوا صخرة ويلقوها عليها إذا لم ترجع عن إيمانها ولكنها بقيت صامدة وبنى الله تعالى لها بيتا فى الجنة . انظر تفسير القرآن العظيم (٣٩٤/٤) .

(٣) عثمان بن عفان : ذى النورين ، أمير المؤمنين ، أسلم فى أول الإسلام على يد أبى بكر الصديق رضى الله عنهم وكان يقول إنى لرابع أربعة فى الإسلام، تزوج اثنتين من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية وأم كلثوم رضى الله عنهما أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو أحد الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم . قتل رضى الله عنه يوم الجمعة من شهر ذى الحجة سنة ٣٥هـ . انظر أسد الغابة (٤٨٠/٣) ومابعدها .

(٤) عبد الرحمن بن عوف : ولد بعد الفيل بعشر سنين ، أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر رضى الله عنه ، شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى ، كان كثير الإنفاق فى سبيل الله تعالى ، أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبدا ، مات بالمدينة سنة ٣١هـ .
انظر أسد الغابة (٣٧٦/٣-٣٧٧،٣٨٠) .

(٥) انظر موقف الإسلام من نظرية ماركس (٤٩٥) .

ويرى الإشتراكيون أن سبب ظهور دعوة محمد صلى الله عليه وسلم (آراؤه الإشتراكية لاآراؤه الدينية)[١].

يقول الدكتور الصدر : (وإذا أخذنا فكرة الماركسية ، عن التطور التاريخى للأديان لنطبقها على الإسلام ، الدين العالمى الآخر ، لوجدنا مدى التناقض الفاضح ، بين الفكرة والواقع . فلئن كانت أوروبا دولة عالمية ، تتطلب دينا عالميا ، فلم تكن فى جزيرة العرب دولة عالمية كذلك ، بل لم تكن توجد دولة قومية ، تضم الشعب العربى ، وإنما كان العرب موزعين فئات متعددة ، وكان لكل قبيلة الهها الذى تؤمن به ، وتتذلل إليه وتصنعه من الحجر ، ثم تدين له بالطاعة والعبودية ، فهل كانت هذه الظروف المادية والسياسية ، تدعو إلى انبثاق دين عالمى واحد ، من قلب تلك الجزيرة المبضعة ، وهى بعد لم تعرف كيف تدرك وجودها كقوم وشعب ، فضلا عن أن تعى وحدة من نمط أرقى ، تتمثل فى دين يوحد العالم برمته؟! . وإذا كانت الآلهة الدينية تتطور من آلهة قومية إلى إله عالمى ، تبعا للحاجات المادية والأوضاع السياسية فكيف طفر العرب من آلهة قبلية يصنعونها بأيديهم إلى إله عالمى دانوا له بأعلى درجات التوحيد؟!)[٢].

الوجه الخامس : إن ربط ذلك بالعامل الإقتصادى تحكم بغير دليل ، حيث إن هذا العامل يعمل بجانب العوامل الأخرى التى لاتقل فى الأهمية عنه بالنسبة لحياة الإنسان ككل ، فهم جعلوا العامل الإقتصادى المحرك لجوانب الحياة بما فى ذلك وجود الدين ، ويكفى أن انجلز قد اعترف بأنه هو ورفيقه ماركس أعطوا العامل الإقتصادى أكثر من حقه واهتموا به مما جعلهم يغفلون عن الجوانب الأخرى المؤثرة فى مجرى التاريخ . يقول انجلز : (ينبغى علينا ماركس وأنا أن نتحمل جزئيا مسئولية كون بعض الشبان

---

(١) نقلا من كتاب آراء غربية فى مسائل شرقية (٩٩) ، عمر فاخورى ، الطبعة الثانية ١٩٥٥م ، بيروت ، وانظر غير ذلك من الأقوال والآراء التى تفسر مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الظروف الإقتصادية . المرجع نفسه .

(٢) إقتصادنا (١١٢) ، وانظر وسقطت الماركسية (٥٣) .

يعلقـون فى بعض الأحيان وزنا أكبر ممـا ينبغى على النـاحية الإقتصادية فقد كان علينا إزاء خصومنا أن نؤكد المبدأ الأساسى الذى كانوا ينكرونه ، وفى هذه الحالة لم نكن نجد لاالـوقت ولاالمكان ولاالمناسبـة لتحديد مكانة العوامل الأخرى التى تسـاهم فى الفعـل المتبـادل أن العـامل المحـدد فى التـاريخ هـو التحليـل الأخير وفى منظور التفسير المادى عن التاريخ إنتـاج الحياة الواقعية وإعـادة إنتـاجها ولم نؤكد قـط لامـاركس ولاأنا أكثر مـن هـذا وإذا مـاشوه أحدهـم هـذا الموقف وصرفه بمعنى أن العـامل الإقتصـادى هـو وحدة العامل المجرد فإنه يكون بذلك قد حوله إلى جملة فارغة مجردة لاغية .

إن الوضع الإقتصادى هو الأساس ولكن مختلف عنـاصر البنية الفوقية الأشكـال السيـاسية للصـراع الطبقـى ونتـائجه والأشكـال الحقـوقية بل حتى انعكـاسات هـذه الصراعات الـواقعية فى دمـاغ المساهمين فيهـا مـن نظـريات سيـاسية وحقوقية وفلسفية ودينيـة تمارس أيضا تأثيرهـا على مجرى الصراعات التاريخية وتحدد فى الكثير من الحالات وبصورة قاطعة شكلها)[١].

وهـذا الاهتمام يتفق مع الأصـل الذى قامت عليه الماركسيـة ، عنيـت المادية التـاريخية . إلا أن اعتبـار العامل الاقتصادى هـو السبب الذى يتحكم فى وجود الأفكـار المتناسبة مـع كل وضع اقتصادى لايمكـن التسليم به ، لأنه (يكشـف جانبـا من الحقيقة ويخفـى سائر جوانبها فممـا لاشـك فيه أن هناك قوى أخرى غير إقتصادية تؤثر فى التاريخ وتشكله وفق إرادتها بل لعل هذه القوى الأخيرة تأتى فى المقام الأول قبل القوى المادية البحتة التى ركز عليها ماركس)[٢].

الـوجه السادس : أن الـدين الإسلامـى يرد على ذلك الـزعم فلـو كان الـدين نتاجا للأوضاع الإقتصادية لكان الدين الإسلامـى (دينا متخلفا جاهلا يعبر فعلا عن واقع علاقات الإنتاج وأدواتها وفعالياتها آنذاك . والحقيقة أن

---

(١) الماركسيـة والأيديولـوجيا (٩٣) ، نقلا عـن المؤلفات المختـارة (م٢، ٥٣٥-٥٣٧) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٤٤٩-٤٥٠) .

(٢) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٨٥) .

الإسلام مثل دور الثورة التحررية من العلاقات الإنتاجية والإجتماعية الفاسدة وقضى على الإقتصاد المبنى على الربا وهو أهم قواعد الربح والكسب للقوى المسيطرة على الإنتاج ، وهدم البنيان الإجتماعى المتخلف المتمثل بالتعصب القبلى والأمية والجهل والغزو ، وقضى على وجود الاستغلال الطبقى والاستعمارى حينما حرر الإنسان العربى من ربقة السيطرة الإقطاعية البدائية والسيطرة الاستعمارية الأجنبية ، فمهد بذلك إلى توحيد الشعب العربى ، وبناء دولته السياسية الواحدة .

ومن يطلع على الإسلام فى قوانينه وتشريعاته الإقتصادية والإجتماعية والتربوية ...الخ يرى أنه فعلا جاء بثورة على الواقع المتخلف الذى نزل فيه مصطحبا نظرية بناءة مستقبلية لاتحد بمكان أو زمان ، أما النبى محمد صلى الله عليه وسلم ذلك الأمى الذى لايقرأ ولايكتب يأتى بقرآن فيه من البلاغة والفصاحة والحكمة والموعظة والأحكام ...الخ فإنه هو الاعجاز لوحده .

فكيف يمكن للأمى أن يأتى بقرآن كريم فيه خبر كل مامر على البشرية وعلى ماسيصيبها ، وفيه نظام إقتصادى إجتماعى شامل وفيه أحكام وتشريعات وقوانين صيغت بأبلغ العبارات وأفصحها وأقربها إلى القلب والعقل .

وهل يمكن لشعب جاهل ممزق تسوده علاقات إنتاج إقطاعية زراعية وتجارية بسيطة وعلاقات إجتماعية مفككة لايحسد عليها شىء أن يفرز من تناقضات واقع علاقات إنتاجه وأدواتها مع القوى المنتجة فتكون الظروف الإجتماعية والأفكار والمشاعر ويكون الدين الإسلامى مثلا؟ إذا كان هذا هو التفسير الوحيد لوجود الدين فالأحرى أن يكون الإسلام دين الجهل والتخلف والأمية والغباء؟ مع أن الواقع والحقيقة أثبت أن الإسلام يتكلم بلغة العلم والنظام والحضارة الراقية ، وكم تكلم العلماء والفلكيون والرياضيون والأطباء وغيرهم عن أمور علمية واكتشافات مهمة كان قد تكلم عنها الإسلام منذ ألف وأربعمائة عام فهل يعقل أن يكون ظهور الإسلام

وأى دين سماوى آخر نتيجة للظروف الإجتماعية الإقتصادية السائدة؟)[١].

الوجه السابع : أن زعمهم أن الأفكار ومنها الأفكار الدينية تكون نابعة من الواقع الموضوعى القائم فى الإقتصاد والإنتاج والتبادل ، وأن الفكر الإنسانى يكون متناسباً مع واقعه الإجتماعى والإقتصادى أن هذا الزعم يكذبه واقع بعض رواد الفكر الشيوعى . فهذا انجلز مع شيوعيته كان والده يمتلك مصانع وصاحب أعمال (لماذا لم يكن وجوده انعكاسا لواقعه الموضوعى فبقى ارستقراطيا متعاليا غنيا عدوا للعمال وواقعهم؟ ولماذا تمرد على واقعه الموضوعى فناصر ماركس وآواه وأطعمه وانخرطا سويا ضمن حلقة طبقة البروليتاريا وأسسا المذهب الشيوعى بكل مقولاته المادية الجدلية والمادية التاريخية؟ ثم لماذا يتمرد تشى غيفارا[٢]على واقعه الموضوعى الرأسمالى وهو ابن الصناعى الرأسمالى الملاك الكبير ، فينخرط مع الشيوعيين ويحارب ضد واقعه حتى النصر؟ فلو كان فكر الإنسان انعكاسا لواقعه الموضوعى لكان الأجدر بانجلز وغيفارا أن يكونا مع طبقة الرأسماليين والأرستقراطيين ، فلماذا تحيزا ضد واقعهما؟ أليس هذا التحيز عملا رجعيا مخالفا لقوانين الديالكتيك؟)[٣].

الوجه الثامن : دعوى أن الدين نشأ بسبب الظروف الإقتصادية دعوى يبطلها ماكانت عليه البشرية فى سابق عهدها زمن أبينا آدم عليه السلام حيث أهبط من الجنة وهو مؤمن بالله تعالى ، وكان الدين مستقرا فى نفسه ولم تكن الظروف الإقتصادية هى التى أوجدته بل وجد فى النفس الإنسانية قبل وجود الطبقات والخلافات التى توجب تنوع الإقتصاد ، وبالتالى الحاجة إلى اختراع الدين ، وبهذا فإن إدعاء ذلك الأمر يفتقر إلى الدليل ، ويرده

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (٩٧-١٠٠) ، وانظر الإنسان بين المادية والإسلام (٦٥) .

(٢) إقتصادى برجوازى ترك ذلك وانخرط فى الشيوعية وألف كتابا عنوانه الطريق الروسى نحو الإشتراكية (١٨٧١-١٩٤٤) .
انظر الماركسية قضايا أساسية (١١٨) .

(٣) معالم الإشتراكية العربية (١٦١-١٦٢) .

الواقع الحقيقى لبداية التاريخ البشرى وبداية وجود الدين فى هذه الأرض .

خامسا : بطلان زعمهم أن الإنسان اخترع الدين بسبب جهله :

صرح الشيوعيون (أن الدين لامكان له فى العالم الذى يبنونه وأن الأولين إذا كانوا من الغباء بحيث قبلوه فإن التقدم العلمى جدير فى هذا العصر بأن يأتى عليه من القواعد)[١]. فالإنسان - كما يزعم الشيوعيون - لايلجأ إلى الإله إلا ليحقق مصالحه ولكى تصرف عنه الشرور والآفات . وهذا زعم باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : ثبت بما لايدع مجالا للشك أن الدين من عند الله تعالى وأن الناس خلقوا على ذلك وآمنوا بالله تعالى . وعلى هذا فيمكن قبول تفسيرهم ذلك لو كان الدين من اختراع الإنسان ، وعندما لم يكن كذلك فزعمهم ذلك غير وارد .

الوجه الثانى : على ضوء ماقرره الماركسيون زعموا أن العلم يتعارض مع الدين ، ويؤدى إلى عدم الإيمان ، لأن الدين ماقام إلا بسبب الجهل ، وهذا زعم يرده كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإن العلماء هم أكثر الناس خشية لله تعالى ، قال عز من قائل : {**إنما يخشى الله من عباده العلماء**}[٢]، ومن المعلوم أن الدين لايتعارض مع الحقائق العلمية ، وأن مصدرهما من الله تعالى فكيف يتعارضان ، وقد ثبت توافق الآيات القرآنية ، والأحاديث الصحيحة ، مع الحقائق العلمية الثابتة كما أن النصوص الشرعية لاتتعارض مع البراهين العقلية ، وبالتالى فزعم الشيوعية أن الدين يتعارض مع العلم يبطله الواقع والمشاهد .

الوجه الثالث : مما يبطل زعم الشيوعيين أن العلم يتعارض مع الدين كثرة الاعترافات الواردة عن علماء الطبيعة والفلك وغيرهم بأن العلم يوصل إلى الإيمان بالله ، ولايتعارض مع الدين . ونضرب الأمثلة على أقوالهم .

---

(١) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٣٥) .

(٢) سورة فاطر : (٢٨) .

يقول المطران غريغورا حداد : (إن الدين والعلم هما من جهة واحدة لايمكن أن يتصارعا ، إذ هما من جهة الحقيقة ، والحقيقة واحدة لايمكن أن تتناقض وتتنافى أجزاؤها)[١].

ويقول هربرت سبنسر : (العلم يناقض الخرافات ، ولكنه لايناقض الدين نفسه ...)[٢].

ويقول العلامة الفلكى (فاى) : (من الخطأ القول بأن العلم يفضى بصاحبه إلى نكران وجود الله)[٣].

ويقول ادمون هربرت : (العلم لايمكن أن يؤدى إلى الكفر ولاإلى المادية ولايفضى إلى التشكيك)[٤].

ويقول باستور : (لاتنافى بين العلم والإيمان بالله ، وكلما زاد علم الإنسان زاد إيمانه بالله)[٥].

فهذه الأقوال تدل على فساد ماذهب إليه الماركسيون ، حيث إن العلم يدعو إلى الإيمان ويدعمه ويوصل إلى الدين والإقرار به ، يقول محمد قطب (التقدم العلمى ليس عدوا للدين وكذلك تنظيم الحياة على الأرض ، قد يكون هذا أو ذاك عدوا للمفهوم الكنسى أو لرجال الدين والكنيسة . ولكنه ليس عدوا (للدين) ذاته ليس عدوا لدين الله . فدين الله لايمكن أن يقف فى سبيل البشر وهو الذى نزل لإصلاح البشرية والدليل هو الإسلام . فالحركة العلمية الكبرى التى نشأ عنها المذهب التجريبى ، أو العلم الحديث فى أوروبا قد نشأت فى ظل الإسلام ، بل نشأت من وحى الإسلام وتوجيه الإسلام)[٦]. وعلى هذا فليس هناك تعارض بين العلم والدين بل إن العلم يدعو إلى الدين والإيمان بالله تعالى .

---

(١) العلوم الطبيعية فى القرآن (٢٤٧) .
(٢) الإسلام دين الفطرة (٦٢) .
(٣)،(٤) روح الدين الإسلامى (٨٥) ، وانظر مزيدا من هذه الأقوال فى كتاب العلوم الطبيعية فى القرآن (٢٥٥) ومابعدها ، وكتاب الله يتجلى فى عصر العلم .
(٥) العلوم الطبيعية فى القرآن الكريم (٢٤١) .
(٦) التطور والثبات فى حياة البشرية (٢٨٣) .

سادسا : بطلان زعمهم بأن الدين متطور :

وهذا زعم باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن فكرة التطور قد استخدمها ماركس بعد أن جعل نظرية داروين مصدرا له فى فكره ، وهذه الفكرة باطلة فى ذاتها ، كماأن تطبيقها على الدين واعتباره متطوراً حسب العوامل الإقتصادية مردود بما قلناه من إثبات أن التوحيد هو الأصل فى البشر ، وأن عقيدة الإقرار بالربوبية مغروسة فى النفس البشرية ، كما أن عقيدة التوحيد هى الأصل الذى كان عليه آدم عليه السلام ، وأن الشرك طارىء . ولايعقل أن يكون التطور فى الإنسان من التوحيد إلى الشرك .

الوجه الثانى : أن هذه الفكرة وهى فكرة تطور الأديان استخدمها أعداء الدين من أجل القضاء عليه ، فالتوحيد هو الأصل وهو الأكمل فهل يتطور إلى الأدنى وهو الشرك والوثنية . ثم إن الديانات السابقة وجد فيها التوحيد ، فعلى سبيل المثال الهند وهى مرتع الديانات المختلفة وجد التوحيد فيها فى فترات من زمانها ، ومع ذلك يشكك البعض فى وجود التوحيد هناك وذلك التشكيك هو منهج القائلين بتطور الأديان (وهذه مغالطات علمية مكشوفة فالتوحيد المنزه وجد لدى الهنود وغيرهم ، لأنه يكون وحيا أو قاعدة لدين صحيح أو اقتباسا منهما يصل إلى الناس فى أى وقت ومع أى ظروف بيئية أو ثقافية ، ولايخضع أبدا لقاعدة التطور العقائدى التى وضعها علماء مقارنة الأديان ...)[1].

كذلك العرب قبل الإسلام وجد من كان فيهم موحدا مع وجود المشركين وغير ذلك من الديانات التى وجد فيها من يوحد الله تعالى[2]، مما يدل دلالة واضحة أن التوحيد من عهد آدم هو ذلك التوحيد لم يتغير ولم

---

(١) الإنسان فى ظل الأديان (١٩٠-١٩١) .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٢٥-٢٢٦،٢٤٦-٢٤٧) .

يتبـدل وأن الذى تغير وتبـدل هو ماحرفه الناس وغيروه وأعملـوا عقولهم فيـه ، بل مااخترعوه من باطـل . فالتطور لايلحق الـدين الصحيح لأنه ثابت يقـوم على التـوحيد والعبـودية للـه تعـالى . وأمـا الـدين المخترع والأفكـار الموضوعة من قبل الإنسان فيلحقها التطور والتغير(١).

الوجه الثالث : أن هدف الشيوعيين من القول بالتطـور ، هو الوصول إلى غـايتهم من إلغاء الدين والقضاء عليه ، وذلك بإفهـام الآخرين أنه ليس هنـاك ثوابت لاللأفكار ولاللأخلاق فهى متغيرة متطـورة حسب تطور وسائل الإنتاج وعلاقاته ، فنقول لهم هل وصل الناس إلى هـذه المرحلة من التطور بحيـث لم يعودوا بحاجة إلى الدين؟! فهذه وسائل الإنتـاج قد تطورت وبلغت تعقيـدا كبيرا فى تكنولوجيتهـا ، ومع ذلك ظل الإنسان محافظـا على دينه حتى داخل الأراضـى السـوفيتية التى فجـرت فيهـا الثـورة البلشفيـة . إن القـول بالتطـور للأخلاق والأفكار يعنى انهيار الأساس الذى تؤخذ منـه وهو الدين ولكن لقد عجز الشيوعيون عن ذلك وبقيت الشعوب التى يحكمها الشيوعيون على دينهـا فدل ذلك على بطلان زعـم تطور الأديان بتطـور وسائل الإنتاج . ثم هل التطور إلى أدنى أم إلى أعلى؟ إن الشيوعيين يرون أن التطـور يكون إلى أعلى فيقال لهم إن أعظم مايرتجيه الإنسان العاقـل أن يكون حرا لايملكه أحد ، ولايتحكم بأمره أحد ، فإذا حصل له أن أستعبـد ضاقت عليه الأرض وهـو بهـذه العبـودية (لغير اللـه تعـالى) يكون مسلـوبا للحـرية ، ومصـادر الإنسـانية ، بينما إذا لم يكـن كذلك إنما يعبد من خلقـه ، وصدق الله تعالى **{ضـرب الله مثلا رجلا فيه شـركاء متشاكسون ورجلا سلمـا لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون}**(٢).

---

(١) لمزيد مـن التفصيـل فى هـذه المسـألة انظـر الإنسان فى ظـل الأديان (١٠٧-٢٠٨) .
(٢) سورة الزمر : (٢٩) .

ومن هنا علم أن الإنسان إذا كان موحدا فإن ذلك مايتطلع إليه ، وحينها يكون التوحيد هو الأعلى منزلة والشرك هو الأدنى ، فكيف ينتكس القانون التطورى ويتراجع إلى الوراء ، إن هذه انتكاسة للفكر الشيوعى برمته من قضية بدهية أصولية وهى الاعتراف بوجود الإله ، ومن ثم وجود الدين فى النفس الإنسانية ، إن الدين لايخضع للعوامل الإقتصادية ، إلا أن الشيوعيين أرادوا تحقيق أهدافهم والعمل على إنجاح مخططاتهم ، فصادموا العقائد وصادموا الفطرة فكانت إرادة الله تعالى وسنته التى حقت على ذلك الفكر وذلك النظام بسبب ذلك الصدام .

الشيوعيون والفطرة :

بعد ماقلناه سابقا عن الفطرة وحقيقة الدين فأين يقف الشيوعيون من هذه الحقيقة فى ذواتهم .

هل هم من البشر المخلوقين فيقع عليهم ماقلناه أم أنهم ليسوا كذلك؟

إن الشيوعيين بشر ممن خلق الله تعالى ويدخلون تحت هذه الحقيقة فرغم الإلحاد الذى يدعون إليه ويبرهنون بأقوالهم أنهم عليه ، ورغم مابذلوه من جهود مضنية فى هذا الجانب إلا أن الفطرة فى قلوبهم وقلوب شعوبهم كانت أقوى من أن تزعزعها تلك الأفعال والأساليب الفكرية والعسكرية ، فكلما سنحت الفرصة لهؤلاء الشيوعيين أو استطاعوا الخروج من الحصار الحديدى انطلقت ألسنتهم تلهج بهذه الحقيقة ، وإن كانوا على دين محرف ، فهذا تولستوى[١] يقول : (لقد نبذت تلك العقائد[٢] أول الأمر ووجدتها عديمة المعنى ثم قبلتها الآن وألفيتها مليئة بالمعانى ، ذلك لأنى كنت مخطئا وأدركت سبب الخطأ وهذا السبب ليس ناشئا عن تفكيرى السيء فحسب بل لأنى عشت فى بيئة سيئة ، وذلك أشد السببين خطأ ، ماالحياة وماالموت؟

---

(١) فيلسوف روسى .

(٢) يقصد العقائد الدينية .

انني لاأعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله ولولا أننى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد ، إننى أحيا وأحيا حقيقة حينما أحس به .

وأبحث عنه فقط ويصيح من داخلى صوت يقول عن أى شىء تبحث بعد هذا هذا هو .

إنه ذلك الذى لايستطيع المرء بدونه أن يعيش إنه الله .. وعندما اعتقدت فى وجود الله اعتقدت فى الكمال الخلقى وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة)[١].

وهذا لينين حين حضرته الوفاة (واشتدت عليه سكرات الموت ، وقد أحاط به زعماء الحزب الشيوعى لم يتمالك نفسه من أن يصيح من الأعماق صيحة البائس المضطر قائلا : "أى يوه" أى "ياالله" فلما أحس دهشة المحيطين به من الزعماء تدارك الأمر وقال : "إن هذا من تأثير المرض")[٢].

وهذه قصة أخرى تدل على أن الإنسان مفطور على الإيمان وبأن لهذا الكون إله ، قادر على كل شىء ، وقد وقعت هذه الحادثة لأحد علماء السوفييت الذين تربوا على الإلحاد ولكن إذا أزيلت القيود والأغلال والحديد والنار عن رقاب الناس ليعبروا عن آرائهم ويظهروا حقيقة خفاياهم نجد أنهم ينطقون بهذه الحقيقة التى تربوا على إنكارها .

يقول الأستاذ محمد قطب : (وتكفى هذه الحادثة لتثبت أن الشيوعيين ليسوا استثناء من القاعدة فجاجارين رائد الفضاء الأول شاب ربى فى الشيوعية والإلحاد منذ مولده إلى يوم انطلاقه إلى الفضاء فى داخل الصاروخ

---

(١) الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها(١٩٨-١٩٩) ، عبد الباقى أحمد عطا الله ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، وانظر : الماركسية بين النظرية والتطبيق (٧٠) ، الإسلام يرفض الشيوعية (١٣-١٤) ، د. محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، بدون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، دار المنار للنشر والتوزيع .

(٢) الدين والشيوعية (٧٠) ، مبشر الطرازى ، نقلا من كتاب الماركسية بين النظرية والتطبيق (٧٠) .

ومع ذلك فقد اهتزت فطرته حين نظر إلى الكون من خلال الصاروخ ، لأنه رأى صورة لم يشهدها من قبل ، وكان أول تصريح له حين هبط إلى الأرض (حين صعدت إلى الفضاء أخذتنى روعة الكون فمضيت أبحث عن الله!) .

تلك هى استجابة الفطرة التلقائية إزاء الكون الهائل الذى خلقه الله تعالى لم تستطع الشيوعية التى تفرضها الدولة ، وكل الإلحاد الذى تبثه فى الدروس أن تحول دون انطلاقها حين هزتها روعة الكون! ولكن الشيوعية لم يرضها ذلك الاعتراف ، وغضبت من هذا التصريح ، الخطير (فأضاف إليه فى القراءة الثانية "أخذتنى روعة الكون فمضيت أبحث عن الله فلم أجده" ونشرت وكالات الأنباء هاتين القراءتين المختلفتين للتصريح الواحد .. بغير تعليق!)[١].

وهذه فتاة عاشت فى بيت يقوم على الإلحاد - وهى ابنة ستالين - بعد أن غادرت الاتحاد السوفييتى وخرجت من سيطرة الارهاب اللادينى قالت : (لقد نشأت فى بيت لايعرف الله ولاتذكر فيه كلمة الله أبدا ، ولكنى بعد أن كبرت ونضجت عرفت أن الحياة صعبة وقاسية بغير الإيمان بالله)[٢].

وقد مر معنا أن مكسيم جوركى كان يعتزل جلسات لينين ويريد البحث عن الله كما يقول ، وهذا فيه دليل على أن الشيوعية لم تستطع أن تلغى مسألة الدين أو الاعتراف بوجود الإله ، وعلى أقل تقدير فإن مثل هذه الأحداث تدل على أن أصل الدين مغروس فى فطرة الإنسان .

وهذه حادثة أخرى تدل على مدى تأثر الفرد فى الاتحاد السوفييتى بقضايا الدين التى جاء العلم الحديث يؤيدها ، كما تدل على خشية القائمين على الإلحاد أن يؤمن أولئك حيث ذهب طبيب مصرى إلى الاتحاد السوفييتى ليرى المعاهد الطبية التى يمكن أن يتدرب بها الطلاب ، ويحاضر عن بعض

---

(١) دراسات قرآنية (٢٧-٢٨) ، الطبعة السادسة ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار الشروق ، وانظر التطور والثبات فى حياة البشرية (٣٠١) .

(٢) صحيفة الاخبار ١٩٦٧/٥/١٠م نقلا من كتاب الماركسية بين النظرية والتطبيق (٧٠).

النظـريات الطبية ، وأثنوا عليه غير أنهم أسفوا لأنه متـدين ويؤمن بالخرافة التى هـى الله ـ كما يزعمـون ـ ثم أخذ بضرب الأمثلـة لهـم ، وذكر بعض الآيات القرآنية التى جاء العلم الحديث يؤيدها ، فبدأوا بالسـؤال والاستفسار إلا أن رئيس الأكاديمية لم يكن ليرضى أن يستمر هـذا الوضع حيث فوجىء بعضهـم بأن الدين على خلاف مـاكان يتصور وقال منفعلا : (مـع احترامـى لضيفنا العربى لابد من أن أوقف هذا السيل من الكلام الفارغ ، وإنى أقول لكم بكل قوة أن كل ماقاله كلام فارغ .. والنصر للشيـوعية وأن ثلثى العالم شيـوعيون ، وسيصير الثلـث الثـالث شيوعيا إن قريبا وإن بعيـدا .. لابد أن أنهى هذه الجلسة)[١].

وممـــا يدل على أن الإنســان مفطــور على الإقــرار به تعـــالى ، أن التساؤلات كانت قائمة فى نفوسهم عن وجود الإله ، وهل العلم يؤيد ذلك أم ينكره ، ثم اعتراف بعضهم بأن هناك قوة عليا تدبر العالم[٢]مما يدل على أن الفطرة أقوى من أن تصادرها الشيوعية أو الفكرة البشـرية أيا كانت ، فهذه بعـض الأحداث التى تدل على أن الفـرد الشيـوعى الـذى نشـأ وترعـرع فى الإلحاد وتربى عليـه ، ولم ير فى مـراحل تعليمـه إلا إياه ، ومـع ذلـك كانت فطـرته تنزع لهـذه الحقيقـة ناهيـك عـن المسلمين الـذين كـانوا تحت الحكـم الشيـوعى وجبروته ، فقد حافظـوا على هويتهم الإسلاميـة وبقـوا على شعائر كثيرة من دينهم ، وإن كان طول العهد عن ممارستها والقيام بها قد جعلهم بحاجة مـاسة إلى تعليمهـم أمـور دينهم حتى يعبدوا اللـه تعـالى على بصيرة ، ولو كانت الفطرة تنتزع أو تزال بالقوة لما بقى انسان هناك يذكر الله تعالى ولكـن واقـع الاتحاد السوفييتى فيـه أبلغ رد على من أنكـر فطـرية التدين من

---

(١) شهـادتى للتاريخ (٢٥٢-٢٥٤) باختصار وتصرف فى غير المنصـوص عليه، وقد نقلها من جريدة الأخبار عددها الصـادر بتاريخ ١٩٧٥/٥/٤م عـرض الـدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) انظـر الإسلام والمناهج الإشتراكيـة (٢٦٦-٢٦٧) ، محمد الغـزالى ، الطبعة الثانية ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، دون ذكر لتاريخ الطبعة .

الشيوعيين . ولكن رغم مااستخدمته الشيوعية فى حربها على الفطرة والدين ماذا كانت النتيجة؟ . أفعال الشيوعيين تدل على أنهم يوقنون بهذه الفطرة ، ويعترفون بهذه الحقيقة ، ولأجل ذلك بذلوا كل ماوفى وسعهم لمصادرتها فمن تربية إلحادية ، وأقوال وتفسيرات للدين عديدة ، واستخدام للقوة العسكرية كل ذلك وغيره ، دل على الخوف الشديد من هذه الفطرة أن تأتى على بنيانهم فيخر عليهم ، وعلينا أن نتذكر بأن الفطر قد تكون منحرفة أصلا إلا أنها تشكل خطرا على الشيوعية . لقد استبعد الشيوعيون كل مادة عن الدين ، وجعلوا الإلحاد هو أساس التربية منذ اللحظات الأولى فى التعليم يقول محمد قطب : (إن إصرار الدولة على تدريس الإلحاد فى المدارس لهو ذاته دليل على خشيتهم من العقيدة المفطورة فى الفطرة وإن ضلت ـ وكثيرا ماتضل ـ فهم يلاحقونها دائما بالتوجيه المضاد فى برامج الدراسة خشية أن تظهر تلقائيا فتفسد عليهم ـ برغم كونها ضالة ـ أصلا هاما من أصول مذهبهم الشرير المخطط لإفساد البشرية)[١].

إن الحديد والنار والدعوة إلى الإلحاد ومعاداة الأديان لم تستطع كلها أن تلغى الإيمان والكيان الروحى للإنسان (إنها لم تستطع إلغاء النزعة الأصلية التى تلح على الإنسان من داخله بأن لكون إله وإن أظهر عكسها خوفا من الحديد والنار ...)[٢].

نعم إن الفطرة حين تصطدم (بوضع من الأوضاع أو بنظام من النظم قد تغلب فى أول الأمر لأن وراء هذا الوضع أو هذا النظام قوة مادية تفرضه فرضا ولكن الذى لاشك فيه أن الفطرة أقوى وأثبت من كل وضع

---

(١) دراسات قرآنية (٢٧) .

(٢) الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (١٩٨) .

طارىء عليها ، ومن كل قوة تسند هذا الوضع الطارىء ولابد لها من أن تغلب فى النهاية وبخاصة حين يقودها منهج طبيعته من طبيعتها ...)[١].

(إن الفطرة الإنسانية لاتهزم أمام الأنظمة البشرية ؛ لأنها دخيلة عليها لاصلة لها بأعماقها . إن القوانين البشرية لاتملك أن تشبع الإنسان ولاأن تروى ظمأه ، لأنه لايستطيع أن يملأ النفس إلا منهاج خالقها ...) .

ولأجل ذلك فشلت الأنظمة الأوربية كلها بل فشلت النظم البشرية برمتها لأن (الوصفات التى تعطى لإسعاد الإنسان ، وصفات جهال بهذا الإنسان ، يريدون إسعاد الروح التى لايعرفونها . يخاطبون الروح بلغة لاتفهمها ، ويناجونها بكلمات لاتدركها)[٢].

(إن معارضة الفطرة لاتستطيع أن تثبت طويلا وسرعان ماتجتاحها طبيعة الإنسان الأصيلة)[٣].

وهذا ماحصل من الشيوعية حيث (خالفت فطرة الإنسان وركبت الصعب فى تقرير ماذهبت إليه ولايمكن الإنسان مهما أوتى من علم وذكاء أن يحاول إدعاء مالايكون أن الشيوعية قد خالفت الفطرة ثم خالفت نفسها فى واحد من الوقت)[٤].

إن الشيوعية بهذا العداء السافر للدين وللفطرة الإنسانية ظنت بأنها ستقضى على آثاره وترفعه إلى متاحف التاريخ ونسى هؤلاء الشيوعيون أنه

---

(١) هذا الدين (٤٥) ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
(٢) السرطان الأحمر (٩٧) .
(٣) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٦٣) .
(٤) نقد أصول الشيوعية (٦٨) .

(عندما يصطدم مذهب من المذاهب بالفطرة الإنسانية ، ويحاول أصحاب هذا المذهب الاعتماد على القوة فى فرضه على البشرية تبقى هناك مقاومات نفسية داخلية حتى فى أنفس القائمين على هذا المذهب ، الذين يحاولون فرضه ، هذه المقاومات الداخلية أشبه برفض جسم المريض لكل الأجسام الغريبة التى لاتناسبه ، ولاتنسجم معه .. الماركسية هى جسم غريب بالنسبة للمجتمعات البشرية ، ولذلك نرى هذا التراجع والتخلى عنها فى معاقلها ، لأنها لاتتفق مع فطرة النفس البشرية ، فقد فرضها على الشعوب من هيمنوا على الحكم من الماركسيين الثوريين ، الذين استغلوا الثورات الوطنية ، وركبوا موجاتها حتى تمكنوا بالخداع والغدر ، والمساعدات الخارجية من السيطرة على القيادة ، والتخلص من الوطنيين ، وفرضوا مذهبهم بالحديد والنار ، وأمعنوا فى اضطهاد شعوبهم)[١].

إن مصادمة هذه الحقيقة وهى (أن الإيمان بالخالق المدبر فطرى فى كل انسان)[٢]، كان بمثابة المسمار الأول فى نعش الشيوعية إذ لايستطيع الإنسان الحياة بمعزل عن ممارسة هذا الحق وإن كان قد يظل الإنسان فيه فيتخذ له ماشاء من حجر أو شجر أو حيوان ويظن أنه إلهه . فهذه الفطرة فى النفس البشرية لايتأتى لأحد أن يصادرها أو يصادمها وإلا يكون قد خسر أولئك الناس وإن استعبدهم بالقوة ردحا من الزمن ، ولكن سيأتى اليوم الذى تنفجر فيه تلك الرغبة ، وتطالب بحقها فى هذه الفطرة ، التى حرمت منها وبالتالى بكل ماجاء مرتبا عليها أو متفرعا منها ، وهذا ماحدث للنظام الشيوعى حيث كانت فلسفته (عودة بالإنسان إلى الرق وعود بالفكر والإيمان إلى الجبر وعود بالإنسانية إلى الوثنية ، وبالأخلاق والقيم إلى الانطلاق فى الحيوانية)[٣].

---

(١) وسقطت الماركسية (٥٨-٥٩) .
(٢) الإسلام والحضارة الإنسانية (٥٥) .
(٣) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٩٢) .

لقد عجل الفكر الشيوعى بما حمل من مبادىء وأفكـار أسباب إنهياره وفشلـه ، وماحدث له من نكبات وصدامات وهزات وضعـف إنما كان بسبب الخواء الـروحى الـذى افتقـده الفـرد بالقـوة تحت ذلـك النظـام ، والفطـرة الإنسـانية (فى أصلها متناسقة مع ناموس الكون .. فحين يخرج الإنسـان بنظام حياته عن ذلك الناموس فإنه لايصطدم مع الكون الهـائل فحسب بل يصطدم أيضـا بفطرته التى بين جنبيـه فيشقى ويتمزق ويحتار ويقلـق ويحيـا كما تحيا البشـرية اليـوم فى عـذاب نكـد على الـرغم من جميع الانتصـارات العلميـة وجميع التيسيرات الحضارية المادية)[١].

لقـد كـانت هـذه المصـادمة أول الأسبـاب التى أدت وعجلـت بإنهيـار الشيوعية وجاء سقوطها فى هذا الوقت ليثبت (أن الفطـرة لايعدلها شىء كما أن دين الفطرة هو الدين الحق الذى لاتستقيم البشرية إلا به ولاتسعد إلا فى رحابه . وأكـدت الأيام أن مـاتتفتق عنـه قرائح البشـرية المعـوجة مـن نظم و"أيديولـوجيات" تنحرف عن مسار الفطرة إنما يكون مـآلها الفشل ومصيرها الإهمـال والتخلى عنها رويدا رويدا ولـو على استحيـاء حتى تصبح فى زاوية النسيـان بقعـة سـوداء فى جبين مـن ابتـدعها وأظـل بهـا وظلم وعتى عتـوا شديدا)[٢].

وبالحرب التى شنتها الشيوعية على الدين وإنكار الإله ومصادمة الفطرة تكـون قطعـت شـوطا كبيرا نحو الهـاوية كيـف لا وهـى قـد صـادمت أعظم الحقـائق ومـن ثم جنت على نفسهـا وحكمـت على بنيانهـا بالـزوال والإنهيار حيث كان أصلها فاسداً فليس بعد إنكار هذه الحقيقة من فساد .

لقـد خالفت الشيوعية الحقيقـة الربانية فحقت عليهـا السنة الإلهية كما حقـت على الكافرين من قبل . نعم (فشلت الشيوعية ... فى كـل ميدان لأنها

---

(١) هذا الدين (٢٤) .

(٢) صحيفـة أخبار العالم الإسلامى العـدد (٨/١١٤٣) ٨ ربيع الثـانى ١٤٠٩هـ الموافـق ٦ نوفمبر ١٩٨٩م .

تصطدم بالفطرة التى فطر الله الناس عليها ...)[١].

نعم لـ(قد افتضح أمرها ، وفشلت فكرا وتطبيقا ، لأنها مصادمة للفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها ، ولأنها مخالفة للسنن والنواميس التى أجرى الله الحياة على وفقها ، كما أنها بنيت على التعسف والظلم والجبروت وكل ذلك لايدوم)[٢].

لقد كانت مصادمة الفطرة الإنسانية وإعلان الإلحاد أعظم ذنب ارتكبته وكان لابد من إحقاق السنة الإلهية لوجود مقتضيها ، وتمت كلمة الله تعالى وسقط ذلك الفكر ، وكان لأصله الفاسد أكبر الأثر فى سقوطه ، وإن استمر تلك الفترة الزمنية فإن الله تعالى بالغ أمره ، قال تعالى : {**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكم موعدا**}[٣].

وبعد هذا فإن أحفاد الطغاة وأصحاب ذلك الفكر الإلحادى يعترفون بالدين ويقرون تلك الحياة الروحية التى عادت إلى شعوب الاتحاد السوفييتى السابق ، وإن كانت ضالة فى بعض المجتمعات فتراجعت الشيوعية عن ذلك العداء ، وأعلنت اعترافها الرسمى بالدين ، واحترام أصحاب الاتجاه الروحى {**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**}[٤].

وبعد هذا نصل إلى التالى :

أولا : أن مصادمة الفطرة الدينية كان من أعظم الأسباب التى أدت إلى إنهيار الشيوعية .

ثانيا : أن فكر ماركس والشيوعيين من بعده عن الدين لم ينهض أمام الأدلة الشرعية والعقلية ، ولاالبراهين العلمية بل كلها كانت تكذبه وتنقضه.

---

(١) فوق أطلال الماركسية والالحاد (٣٠٧) .
(٢) وسقطت الماركسية (٥) .
(٣) سورة الكهف : (٥٩) .
(٤) سورة الإسراء : (٨١) .

ثالثا : أن واقع الاتحاد السوفييتى يدل دلالة واضحة على وجود هذه الفطرة فى النفس الإنسانية ، فقد اعترف بهذا بعض رواد الحزب غصبا عنهم كما وجد من المفكرين الشيوعيين من أقر بهذه الحقيقة وسأل عنها منذ قيام الثورة البلشفية ، كما أن كثيرا ممن خرج من سجن الفكر الماركسى أعلن كفره بهذا المذهب .

رابعا : أن إنهيار الاتحاد السوفييتى ليدل دلالة أكيدة بأن مصادمة الفطرة ومخالفة السنن الربانية يفضى إلى هذه النتيجة لأن ذلك مقتضى السنة الإلهية {**ولن تجد لسنة الله تحويلا**}[1]، وعندما صادمت الشيوعية هذه الفطرة فإنها حتما ولابد أن تصادم مايتفرع عنها ومن ذلك مصادمتها لفطرية التملك.

---

(١) سورة فاطر : (٤٣) .

المبحث الثانى
مصادمة الشيوعية لفطرية التملك

بعد أن قامت الشيوعية بمصادمة فطرية التدين فى النفوس البشرية ، فإنه من البدهى أن تصادم بقية الفطر والغرائز الإنسانية خاصة وأنها تتفرع أو تأخذ فطريتها من الأصل السابق وهو الدين ، ومن هذه الأمور الفطرية التى قامت الشيوعية بمصادمتها ومصادرتها (فطرية التملك) ، وقد أعلن الشيوعيون أنهم يكفرون بثلاثة أشياء : الله ، والدين ، والملكية الفردية ، بل إن أقطاب الماركسية أعلنوا أنه يمكن تلخيص الشيوعية بأنها (القضاء على الملكية الخاصة)[١]. ومن هنا قامت الشيوعية بمحاربتها ومحاولة القضاء عليها بالقوة . وسيكون حديثنا عن الملكية كالتالى :

أولا : تعريف الملكية ، وفطريتها فى النفس الإنسانية ، والملكية فى الإسلام .

ثانيا : مصادمة الشيوعية لهذه الفطرة .

أولا : تعريف الملكية :

الملكية فى اللغة : (الملك والملك والملك احتواء الشىء والقدرة على الاستبداد به ، ملكه يملكه ملكا وملكا وملكا ... وتملكا ، وماله ملك وملك وملك وملك أى شىء يملكه ... وأملكه الشىء وملكه إياه تمليكا جعله ملكا له يملكه ...)[٢].

الاصطلاح : كثرت تعريفات الملكية فى الاصطلاح ومن ذلك أنها (حكم شرعى مقدر فى العين أو المنفعة يقتضى تمكين من يضاف إليه من

---

(١) البيان الشيوعى (٥٦) .

(٢) لسان العرب (١٠/٤٩٢-٤٩٣) حرف الكاف فصل الميم ، وانظر القاموس المحيط (٢٣٢) باب الكاف فصل الجيم .

انتفاعه بالمملوك والعوض عنه من حيث هو كذلك)[١].

ومن التعاريف المحدثة : (اختصاص إنسان بشيء يخوله شرعا حق الانتفاع والتصرف فيه أو بانابته ابتداء إلا لمانع)[٢].

ويظهر من هذين التعريفين أن الملكية هى أحقية التصرف من قبل المالك بما يملك ضمن الضوابط الشرعية كسبا وإنفاقا .

فطرية التملك :

إن حب التملك أمر فطرى فى الإنسان ولله الحكمة البالغة فى ذلك ، إذ من خلال هذه الغريزة يحافظ الإنسان على بقائه ويقوم بعبادة ربه فـ(كانت غريزة التملك نعمة منحها الله عباده ومنة منه حتى يستقيم الكون وتعمر الأرض)[٣].

ومن هنا أقر الإسلام بهذه الفطرة كيف لا والله تعالى الذى فطر الخلق عليها وا(قرار الإسلام للملكية الفردية كان تقريرا للواقع الإنسانى ، واستجابة لما أودعه الله تعالى فى نفوس البشرية من الغرائز والقوى ومنها غريزة التملك وحب المال)[٤].

(إن حب التملك غريزة أصيلة هيهات أن تستأصل وهذا الحب حافز على الكدح والإنتاج ، وهذا كله ماراعاه الإسلام فعلا إذ أحل الملكية الفردية)[٥].

---

(١) الفروق (٢٠٨/٣) ، القرافى ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، وانظر الأشباه والنظائر (٣١٦) السيوطى ، الطبعة الأخيرة ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى وأولاده ، مصر .

(٢) ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (١٥) ، عدنان خالد التركمانى ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار المطبوعات الحديثة للطباعة والنشر ، المملكة العربية السعودية .

(٣) التملك فى الإسلام (٢٣) .

(٤) الملكية ونظرية العقد فى الشريعة الإسلامية (٢٥) ، د. أحمد فراج حسين ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الثقافة الجامعية دون ذكر لرقم الطبعة .

(٥) الشيوعية فى موازين الإسلام (٤٣) .

فاعتراف الإسلام بهذه الملكية موافقا للغريزة المركبة فى جبلة الإنسان وطبيعته ، وهى حبه للتملك كحافز على مايبذل من جهد نتيجة للعمل الذى يمارسه ، إنها سنة إلهية موافقة للغريزة الإنسانية فالمحسن يجازى بإحسانه والمسىء يعاقب باساءته ، قال تعالى : {**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون**}(١)(٢).

ولكون هذه الفطرة فى النفس الإنسانية فإن الإسلام نظمها وأقرها وجعل لها أحكامها الخاصة بها حتى لايطغى جانب فيها على جانب آخر(٣)، وقد وجدت عدة آيات تدل على إقرار الإسلام لها ، وبيان أن الإنسان فطر عليها ، ومن ذلك قوله تعالى : {**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب**}(٤).

وقال تعالى : {**وأحضرت الأنفس الشح**}(٥).

وقوله تعالى : {**والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**}(٦).

إلى غير ذلك مما جاء فى كتاب الله تعالى دالا على ملكية الإنسان للمال والأنعام ، آمرا لهم بأداء حقها ليديمها عليهم ، وفى هذا إقرار بها حيث لم يغفل الإسلام عن الشح الذى يلازم النفس الإنسانية ، وحبها للاستحواذ والتملك . يقول د. التركمانى : (وعندما يضع الإسلام نظمه وتشريعاته وعظاته وتوجيهاته لايغفل ذلك الحب الفطرى للذات ولاينسى ذلك الشح العميق ولكنه يعالج الأثرة ويعالج الشح بالتوجيه الفطرى والتشريع فلايكلف الإنسان إلا وسعه ، ولايغفل فى الوقت ذاته حاجات

---

(١) سورة النحل : (٩٧) .
(٢) الشيوعية وموقف القرآن منها (١٠٤-١٠٥) ، وانظر الدين أواللادينية (٧٩) ، الفرد والمجتمع فى الإسلام (٦٩) .
(٣) انظر حكم الإسلام فى الإشتراكية (٧٠-٧١) .
(٤) سورة آل عمران : (١٤) .
(٥) سورة النساء : (١٢٨) .
(٦) سورة المعارج : (٢٤-٢٥) .

الجماعة ومصالحها على توالى العصور والأجيال ، ولأن الحياة لاتستقيم إذا ذهب فيها كل فرد إلى الاستمتاع بحريته المطلقة إلى غير حد فللمجتمع مصلحة عليا لابد أن تنتهى عندها حرية الأفراد)[١].

والملكية فى الإسلام منسجمة ومحققة لمتطلبات فطر الإنسان التى فطره الله عليها[٢].

كذلك كانت سنة المصطفى تدل على إقرار هذه الملكية بل وحمايتها من الإعتداء عليها .

قال صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله فمن قال لاإله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله"[٣].

إلى غير ذلك من النصوص الشرعية التى جاءت تثبت حق الملكية للإنسان ، مما يدل على التوازن الذى تميزت به الشريعة الإسلامية ، حيث أعطت النفس الإنسانية ماتطلبه وجعلت ذلك ضمن ضوابط محددة معينة ، ومن هنا لم يقر الإسلام الملكية - وهى أمر تطلبه الفطرة الإنسانية - دون أن يجعل لها حدودا تقف عندها حتى لايحصل بسببها الضرر ، وعندما أقرت الملكية فى الإسلام فإن هناك طرقا وضعها تكتسب الملكية من خلالها ، كما جعل طرقا تصرف فيها تلك الملكيات فهى (شرعت لاشباع حاجات الناس فى الحدود المشروعة والحصول على ماينفعهم فى معاشهم دون أن يكون فى ذلك إضرار بالغير أو انحراف بالملكية عما شرعت له من أغراض)[٤].

---

(١) ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (٩٥) .

(٢) انظر الملكية ونظرية العقد (٢٦) ، وانظر الملكية وضوابطها فى الإسلام (٩٦) ، د. عبد الحميد البعلى ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلى .

(٣) البخارى بفتح البارى (٢٥٠/١٣) ، كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة ، باب الإقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤) دوام حق الملكية (١٦) د. عبد الرزاق فرج ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، دون ذكر لرقم الطبعة أو دار النشر .

الملكية فى الإسلام :

خلق الله تعالى الإنسان لحكمة بالغة وهى عبادته جل وعلا ، وفطره على ذلك ، كما فطره على حب مامن شأنه أن يكون محتاجا إليه معينا له . ومن ذلك الأموال فكان حب الإنسان لها شديدا ، قال تعالى : {**وتحبون المال حبا جما**}[1]ففطر الله تعالى الإنسان على حب المال وتملكه وماكان ليفطره على أمر ثم يمنعه منه . وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حب ابن آدم للمال وقال : "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولايملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب"[2].

فاعترف الإسلام بهذه الغريزة وأقرها ، وجعل الإنسان حرا فى ملكيته إذا سار بها ضمن الحدود المرسومة لها .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن المجتمعات الإنسانية عرفت الملكية وأقرتها ، ووجدت فيها صور متعددة لها .

ومن خلال ماذكرناه سابقا نصل إلى التالى :

أولا : أن حب التملك أمر فطرى فى النفس الإنسانية .

ثانيا : إقرار الإسلام لهذه الملكية والعمل على الحفاظ عليها .

ثالثا : أن الأمم القديمة عرفت الملكية الخاصة كما عرفت بعض القبائل والمجتمعات بجوارها الملكية الجماعية ، وقد تكون إحدى هاتين الملكيتين طاغية فى مجتمع دون غيره .

ومع الإقرار بهذه الغريزة فإن الإسلام لم يطلق لها العنان فكانت هناك ضوابط وقواعد لهذه الملكية ، وطرق مشروعة لكسبها ، وطرق محرمة لايجوز إتيانها من أجل تحقيق مطلب هذه الفطرة ، وهذا يجعلنا نعرج ولو بصورة مختصرة على تلك الضوابط والقيود ليتبين لنا أن الإسلام حقق للإنسان

---

(١) سورة الفجر : (٢٠) .

(٢) متفق عليه ، البخارى بفتح البارى (٢٥٣/١١) كتاب الرقاق ، باب مايتقى من فتنة المال ، ومسلم بشرح النووى (١٣٨/٧-١٣٩) كتاب الزكاة ، باب كراهة الحرص على الدنيا .

ماتطلبه فطرته ، ولكن دون إضرار بالآخرين أو احتيال عليهم . ولاشك أن قضية الملكية والأموال والأعيان فى الفقه الإسلامى قد أشبعت بحثا منذ القدم وإلى وقتنا الحاضر ولأجل ذلك فإن لنا العذر فى الاختصار الشديد لبيان ذلك .

شروط التملك وقيود الملكية :

عندما أباح الإسلام التملك فإنه جعل لهذا الملك شروطا يتحقق بها ومن ذلك :

(١) أن يكون التملك قائما على طرق مشروعة .

(٢) أن يكون أساس المال حلالا كذلك الربح بطريق مشروع[١].

فإذا حصل التملك بطرقه المشروعة فإن هناك قيودا مفروضة عليه وهذه القيود هى (مجموعة الضوابط الناظمة لأحكام الملكية ...)[٢].

ومن هذه القيود التى وضعتها الشريعة الإسلامية على الملكية :

(١) إحسان الانتفاع والتصرف فى الأموال فى الحدود التى بينها الخالق جل وعلا[٣].

(٢) ضرورة الاستثمار للأموال وعدم جواز تعطيلها[٤].

(٣) وجوب الالتزام بقواعد الشريعة فى الاستثمار والاستغلال .

(٤) أن تكون حرية المالك مقيدة بعدم إضراره بالغير[٥].

(٥) المسئولية لكل فرد عما يقع تحت يده من ملك عن حق الجماعة فيه ثم جعل ولى الأمر مسئولا عن حق الجماعة فيما يخص الأفراد من هذا المال[٦].

---

(١) انظر : الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٢٢٠) ، مناهج الشريعة الإسلامية (١٧٣/٢) .
(٢) ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (٩٢) .
(٣) انظر الملكية ونظرية العقد (٢٨) .
(٤) انظر المرجع السابق (٦٢) .
(٥) انظر : الملكية فى الفقه الإسلامى (١٤١) ومابعدها ، النظام الإقتصادى فى الإسلام (٥٧) ، الملكية ونظرية العقد (٦٤) .
(٦) انظر الملكية ونظرية العقد (٢٨) .

(٦) أن تكون الملكية ، على مافيه نفع فلايجوز امتلاك الأعيان التى لامنفعة فيها لأن الملك شرع للانتفاع به فقيامه على أعيان لامنفعة فيها عبث لايقبله شرع ولاعقل ، ولأن الملك يدور مع حل الانتفاع ، فما حل الانتفاع به صح ملكه وماحرم الانتفاع به لم يصح تملكه[١].

وهكذا تكون هذه القيود بمثابة حماية مصلحة الفرد والجماعة ، ومنع الضرر ، وعدم استغلالها فى ظلم الآخرين[٢]، وهذه القيود ليس المقصود منها إلغاء الملكية ، بل ضبطها والارتقاء بها[٣].

خصائص الملكية فى الإسلام :

لقد تميزت الملكية فى الشريعة الإسلامية عن الملكيات فى الأنظمة الإقتصادية الوضعية بعدة خصائص ، ومن أهمها :

أولا : أن الله تعالى هو المالك الحقيقى لكل شىء .

فالإسلام يعلم (المسلم أنه مادام خلق السموات والأرض لله فإن الملكية الحقيقية للمال جميعا لله رب العالمين)[٤].

وأبان القرآن الكريم (أن سلطتهم عليها محدودة وهم ليسوا إلا مستخلفين فيها فلايظلمون ولايطغون)[٥]. وإذا نظرنا فى كتاب الله تعالى وجدناه يأمر الناس أن ينفقوا من مال الله تعالى ورزقه الذى رزقهم إياه[٦]. قال تعالى : {**وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو شاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين**}[٧]، وقوله تعالى : {**وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت**}[٨].

---

(١) انظر الملكية ونظرية العقد (٣١-٣٢) .
(٢) انظر : النظام الإقتصادى فى الإسلام (٤٢) ، الملكية ونظرية العقد (٥٩) ، أسس الإقتصاد (١٣٠) ، أبو الأعلى المودودى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع دون ذكر لرقم الطبعة .
(٣) انظر الفكر الدينى فى مواجهة العصر (٢٦٣) .
(٤) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (١٣٩) .
(٥) ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (٩٢) ، وانظر الإسلام وأزمة الغرب (٢٤-٢٥).
(٦) انظر مقال فى العدل الإجتماعى (٦٣) .
(٧) سورة يس : (٤٧) .
(٨) سورة المنافقون : (١٠) .

يقول البهى الخولى : (فإذا جاء الشرع يقرر أن المال مال الله ، فهى قضية قائمة على أسس إقتصادية واقعية سليمة .. وإذا جاء المستهلكون يضعون أيديهم باسم العمل على هذه الثروات فإنهم يضعون أيديهم على مال الله .. وإذا كان حق العمل يمنحهم هذه الملكية فهى ملكية عارضة طارئة ، لاتنسخ أبدا ملكية الله [تعالى] ...)[١].

ثانيا : الأصل فى الملك إنما هو الاستخلاف الإلهى ، قال تعالى : {**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**}[٢]، وهذه الخلافة لابد وأن تكون منضبطة بقواعد الشرع التى وضعها الخالق جل وعلا .

ثالثا : أن المصدر لهذه الحقوق هو الله تعالى ، وهذا الحق إنما استحقه الإنسان بمنح الله تعالى له إياه . يقول الإمام الشاطبى : (إن مصدر الحقوق هو الله سبحانه وتعالى إذ كان لله أن لايجعل للعبد حقا أصلا)[٣].

رابعا : الملك فى الإسلام موجه بأوامر الله تعالى ونواهيه[٤].

خامسا : الانتفاع بالملك .

سادسا : حرية التصرف فيه[٥].

سابعا : عدم الإضرار بالغير عند التصرف فى الملك[٦].

ثامنا : التوازن فى الانفاق والابقاء فلاإسراف ولاتبذير ، ولابخل ولاشح وإنما عملا بقول الله عز وجل : {**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**}[٧].

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٣٣) .
(٢) سورة الحديد : (٧) .
(٣) الموافقات (٣١٦/٢) .
(٤) انظر : الملكية وضوابطها فى الإسلام (١١٣-١١٤) ، الرأسمالية وموقف الإسلام منها (٧٤) ، د. حمود بن أحمد الرحيلى ، النشرة الأولى ١٤١٥هـ ، دار العاصمة للنشر والتوزيع ، الرياض ، وانظر (٩٧) .
(٥) انظر : الملكية وضوابطها فى الإسلام (١١٤-١١٧) ، الملكية ونظرية العقد (٥٦-٥٧).
(٦) انظر الملكية وضوابطها فى الإسلام (١٣٥) .
(٧) سورة الفرقان : (٦٧) .

وهذا التقييد ليس للإضرار بل فيه مراعاة مصالح العباد[١].

تاسعا : شمول الملكية ومنفعتها .

عاشرا : دوام الملك وتأبده[٢].

الحادى عشر : أن هذه الملكية الخاصة لاتنزع من صاحبها إلا إذا أخرجها هو .

الثانى عشر : جواز نزع الملكية الخاصة تحقيقا للمصلحة العامة مع دفع العوض المكافىء حيث (تجيز الشريعة الإسلامية نزع الملكية للمنافع العامة مقابل تعويض يقدره أهل الخبرة ...)[٣]. ولابد أن تكون المصلحة متحققة حين نزعها ، وإذا كان للدولة أن تتدخل فى نزع الملكية تحقيقا للمصلحة العامة[٤]، فإنه ليس من حقها (أن تمنع الفرد حقا من حقوقه لأن حقها ليس أقوى من حق الفرد لأن كلا من الدولة والفرد يتلقيان الحق من الله تعالى)[٥].

الثالث عشر : (أن الإسلام يراعى معانى الأخلاق الفاضلة فى جميع جوانب أنشطة الإنسان الإقتصادية)[٦].

---

(١) انظر : منهاج السنة النبوية (٣١/٢) ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، إعلام الموقعين (٢/٣) ، أوضاعنا السياسية (٢٣٢) عبد القادر عوده ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

(٢) الملكية ونظرية العقد (٥٦-٥٧) .

(٣) الملكية والحقوق العينية (٥٦٠) ، محمد كامل مرسى بك ، وانظر نظرية العقد (٨١-٨٢) .

(٤) انظر دوام حق الملكية (٢١) .

(٥) الملكية فى الفقه الإسلامى (٩٣) .

(٦) الرأسمالية وموقف الإسلام منها (٩٨) .

الرابع عشر : أن الإسلام يحث على العمل ويباركه ويكره البطالة والكسل . كما يقرر حق التكافل الإجتماعى ويقرر مصلحة الفرد والجماعة ، ولايقول بالندرة ولابالوفرة المطلقة بل كل شىء فيه بمقدار(١).

الخامس عشر : أن النظام الإسلامى اشتمل على كل مافى الأنظمة البشرية من مزايا وزاد عليها بل إن المزايا الموجودة فى الأنظمة البشرية من شيوعية ورأسمالية قد جاء بها الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنا(٢).

فهذه أبرز خصائص الاقتصاد الإسلامى .

التصرف فى الملكية :

إن الإنسان المسلم يملك كامل الحرية فى التصرف بملكه إذا أعطى حق الله تعالى فيه وحق العباد ، حيث أوجب الإسلام على صاحب الملك حقوقا(٣)للآخرين حتى لاتتكدس الثروة فى يد طبقة دون أخرى .

ومن هذه الواجبات والتصرفات :

(١) الزكاة . قال تعالى : {**وآتوا الزكاة**}(٤).

وأوضح الخالق جل علا الأصناف التى تجب لهم الزكاة فقال عز من قائل : {**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**}(٥).

(٢) حقوق الآدميين كالدين ، والمهر ...

(٣) مايتعلق بالكفارات التى تجزىء فيها الأموال .

(٤) الانفاق على من تجب نفقته عليه .

---

(١) انظر الرأسمالية وموقف الإسلام منها (٩٨) .
(٢) انظر المرجع السابق (٩٧) وذكر الرأسمالية فقط .
(٣) انظر : الفرد والمجتمع فى الإسلام (٦٩) ، الدين أو اللادينية (٧٩) .
(٤) سورة البقرة : (٤٣) .
(٥) سورة التوبة : (٦٠) .

(٥) أعمال البر فى سبيل الله تعالى .
(٦) عدم الإضرار بالآخرين حين التصرف .
(٧) عدم اعطاء العدو المال ليتقوى به ضد المسلمين .
(٨) المنع من الوصية والهبة حال مرض الموت .
(٩) منعه من الإسراف والتبذير حال الإنفاق .
(١٠) فرض الحجر عليه إن كان سفيها .
(١١) منعه من التقتير على نفسه أو على من يعول[١].

إن الإسلام يراعى فى تصرفات المالك تحقيق مبدأ التكافل الإجتماعى الذى افتقرت إليه الأنظمة الأرضية بكاملها . يقول د. النمر : إن الإسلام (لم يطلق للمالك العنان ليتصرف فى ملكه كما يشاء بل جعل فيه حقوقا لغيره يجب عليه أداؤها وقيد هذه الحرية بقيود فى مصادر الملكية ، أولا ، ثم كيفية التصرف فيها ، بحيث تصبح مصدر خير له وللآخرين من حوله ، لامصدر شر وضر وتحكم فى مصالح الآخرين)[٢].

فليس من حق المالك أن يتعسف فى استعمال حقه فى الملكية ليلحق الضرر بنفسه أو بغيره .

أنواع الملكية فى الإسلام :

امتاز الإسلام بأنه جمع بين أنواع الملكيات الخاصة منها والعامة ، وبهذا يتبين أن الملكية فى الإسلام ليست من وضع البشر واختلاقهم ، بل هى وحى ربانى . ودل ذلك على أن الإسلام حقق الوسطية بين الأنظمة الوضعية التى أفرطت فى اتجاهاتها .

---

(١) انظر حكم الإسلام فى الإشتراكية (٧٧) .
(٢) إسلام لاشيوعية (٢٧٤) .

فالنظام الرأسمالى أفرط فى قضية الملك حتى أعطى صاحبه الحق فى أن يتصرف فيه كيف شاء ولو أدى ذلك إلى هلاكه وهلاك الآخرين ، بل لو أوصى بماله لتربية الحيوان لكان ذلك تصرفا سائغا مقبولا فى ذلك النظام .

وبالمقابل جاء النظام الإشتراكى فأفرط فى منع الملكية حتى حرم على الإنسان أن يملك مايخصه من أدوات يتقوى بها على ممارسة حياته ، وجاء الإسلام الدين الإلهى المحفوظ ، وعلم ماتطلبه النفس الإنسانية ، وماتحتاج إليه فأقر لها حق الملكية الشخصية ولها الحق فى أن تعمل وتملك ثمار عملها ذلك ، بل وحافظ الإسلام على هذه الملكية واحترمها وحرم التعرض لها بسرقة أو غصب أو نهب .

ومامضى معنا من عرض لإقرار الإسلام لهذه الملكية ودفاعه عنها واعتبارها غريزة فى النفس الإنسانية فيه كفاية متواضعة لإثبات الملكية الخاصة . ويتبقى علينا عرض الملكية العامة باختصار .

الملكية العامة :

إن الملكية العامة فى الإسلام (هى الملكية التى يكون صاحبها مجموع الأمة دون النظر لأشخاص أفرادها على التعيين بحيث يكون الانتفاع بالأموال التى تتعلق بها لهم جميعا دون أن يختص به واحد دون المجموع)[١].

خصائصها :

(١) أنها مسبوقة بملكية الخالق جل وعلا قائمة عليها .

(٢) أن الحق فى تلك الملكية مقرر للجماعة باعتبارها مؤلفة من أفراد ذوى أنصبة سابقة فيها .

(٣) أن تكون تلك الملكية محققة للمنفعة وذات نفع ضرورى لكل أحد[٢].

---

(١) ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (٥١) ، وانظر إسلام لاشيوعية (٢٦١) .

(٢) انظر الثروة فى ظل الإسلام (١٠١-١٠٦) .

من صور الملكية العامة فى النظام الإسلامى :

أولا : ملكية المرافق العامة .

ثانيا : الحمى .

ثالثا : الأراضى الموقوفة على جماعة المسلمين(١).

رابعا : أموال الفيء(٢).

خامسا : الماء والكلأ والنار(٣).

ومن صور الملكية الجماعية : الأراضى المفتوحة ، وقد اختلف الفقهاء فيما فتح عنوة . فمنهم من ذهب إلى أنها تقسم ، ومنهم من منع ، ومنهم من قال يرى الإمام أين يكون الأصلح فيفعله(٤).

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن ملكية الماء والكلأ والنار : (المسلمون شركاء فى ثلاث فى الكلأ والماء والنار)(٥).

وكذلك الأمر بالنسبة للمعادن وغيرها اختلف فى ملكيتها إذا كانت فى أرض مملوكة ، أما إذا كانت فى أرض غير مملوكة فلاخلاف أن ملكيتها للدولة أى ملكية عامة . أما إذا كانت فى أرض مملوكة فقيل بأنها ملكية عامة ، وقيل بأنها خاصة . يقول ابن قدامة : (والمعادن الجامدة تملك بملك الأرض التى هى فيها لأنها جزء من أجزاء الأرض فهى كالتراب والأحجار الثابتة)(٦).

---

(١) انظر : الملكية فى الشريعة الإسلامية (٢٥٢/١) ، الأحكام السلطانية (١٦٣) الماوردى ، دار الفكر دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، الملكية وضوابطها فى الإسلام (٩٣) .

(٢) انظر الملكية فى الشريعة الإسلامية (٢٥٣/١) .

(٣) انظر ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى (٥٢-٥٤) .

(٤) انظر مجموع الفتاوى (٤٩٢/١٧) ، وذكر شيخ الإسلام أقوال العلماء فى ذلك فى الجزء (٥٨١/٢٨-٥٨٢) .

(٥) رواه أبو داود (٢٧٨/٣) ، كتاب البيوع ، باب فى منع الماء ، وابن ماجه (٨٢٦/٢) ، كتاب الرهون ، باب المسلمون شركاء فى ثلاث ، وفى رواية أخرى عنده "الماء والملح والنار" ، طبعة محمد فؤاد عبد الباقى .

(٦) المغنى (٢٨/٣) ، مكتبة الجمهورية العربية ، مصر ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

فحقق الإسلام التوازن بين الملكيتين ، وتوسط بين النظم المجحفة كالرأسمالية والإشتراكية ، ووقف ضد افراط الرأسمالية فى تحقيق مبدأ الملكية الخاصة المطلقة[١]. كما تجنب ماوقعت فيه الشيوعية من مصادرة للملكية الفردية التى هى نزعة فطرية فى النفس الإنسانية تدفعه إلى العمل والانتاج[٢]. وعلى هذا فإن الشيوعية والماركسية ، والرأسمالية الغربية طرفان كلاهما شر ، وكلاهما باطل فى تصوره حيث اكتفى كل منهما بنوع واحد من الملكية ، إلا أنهما قد اضطرا إلى التراجع عن ذلك الموقف .

يقول الصدر : (وليس هناك أدلة على صحة الموقف الإسلامى من الملكية ، القائم على أساس مبدأ الملكية المزدوجة من واقع التجربتين الرأسمالية والإشتراكية ، فإن كلتا التجربتين اضطرتا إلى الاعتراف بالشكل الآخر للملكية ، الذى يتعارض مع القاعدة العامة فيهما لأن الواقع برهن على خطأ الفكرة القائلة بالشكل الواحد للملكية ، فقد بدأ المجتمع الرأسمالى منذ أمد طويل يأخذ بفكرة التأميم وينزع عن بعض المرافق إطار الملكية الخاصة وليست حركة التأميم هذه إلا إعترافا ضمنيا من المجتمعات الرأسمالية ، بعدم جدارة المبدأ الرأسمالى فى الملكية ، ومحاولة لمعالجة مانجم عن ذلك المبدأ من مضاعفات وتناقضات ، كما أن المجتمع الإشتراكى من الناحية الأخرى وجد نفسه - بالرغم من حداثته - مضطرا أيضا إلى الاعتراف بالملكية الخاصة قانونيا وبشكل غير قانونى أحيانا أخرى ...)[٣].

ومع ذلك فهذه الأنواع من الملكيات الأصل فيها عدم الضرر ، وتحقيق المصلحة . وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن حب التملك غريزة فى النفس البشرية .

ثانيا : أن المالك الحقيقى لكل شىء هو الله تعالى .

---

(١) انظر معالم الاشتراكية العربية (١٧) .

(٢) انظر إسلام لاشيوعية (٢٧٤) .

(٣) إقتصادنا (٢٨١-٢٨٢) ، وانظر : الملكية الخاصة فى الشريعة الإسلامية (١٨٥) ، الملكية فى الشريعة الإسلامية (١١٠/٢) .

ثالثا : أن الأمم السابقة عرفت الملكية الخاصة ، وعرفت بجانبها الملكية العامة .

رابعا : أن النظام الإسلامى للملكية اشتمل على أنواع التملك التى وجدت فى الأنظمة الأرضية الوضعية وهو سابق عليها .

خامسا : أن الملكية لها ضوابطها وحدودها ووسائلها فهى ليست مطلقة بل مقيدة حفاظا لها .

سادسا : أنه لاتعارض بين الملكيتين الخاصة والعامة ، فلكل منهما ضوابطها وحدودها .

سابعا : أن المدار الحقيقى للملكيات هو حصول المنفعة منها سواء للأفراد أو الجماعات .

ثامنا : أن النظام الذى يتصادم مع الفطرة أو يقر نوعا دون آخر فمصيره إلى الزوال ، كما هى سنة الخالق جل وعلا . وبهذا نعرض للفكر الشيوعى ومصادمته لهذه الفطرة .

الشيوعية ومصادمة فطرية الملكية الخاصة :

قام الفكر الشيوعى على مصادمة الفطرة الإنسانية فى كل جوانبها ، بداية بالأصل الأول وهو الإيمان بالله تعالى ، ثم بكل مايتفرع عن هذه الحقيقة .. وإذا كان الإنسان قد فطر على حب التملك ، فإن الشيوعية عملت على مصادرة هذه الفطرة ، واعتبرت أن الملكية الفردية سبب الشرور والآثام وسبب الظلم الذى يقع على الإنسان من أخيه الإنسان ، وأن الطبقات فى المجتمع ماوجدت إلا بسبب وجود هذه الملكية ، ومن هنا لابد من القضاء عليها كى يعيش الناس سعداء ويزول عنهم الشقاء ، فبدأت الشيوعية عملها باقتلاع تلك الغريزة من النفس الإنسانية وجعلت من مبادئها الأساسية القضاء عليها ، وعندما لم يسعفها فكرها فى تحقيق ذلك بالسلم ، لجأت إلى العنف كعادتها فى فرض أفكارها ومبادئها ، فأصبح الفرد فى الاتحاد السوفييتى مسلوب الحقوق بقوة الحديد والنار ، وفرض التأميم بالقوة ، وصودرت الممتلكات ، فأصبح الفرد الشيوعى يعيش كالآلة الموجهة . وعملت الشيوعية

على ارضاء العمال والأفراد هناك بالشعارات الجوفاء التى لم تستطع أن تحقق شيئا منها ، وزعموا أن سعادة العمال تكمن فى القضاء على الملكية الفردية التى قسمت المجتمع إلى مالكين وغير مالكين ، وبالتالى وقع الصراع لشعور الإنسان بعدم المساواة ، وظلت الشيوعية فى تزييف الحقائق راجية أن تصل إلى اقتلاع هذه النزعة من القلوب البشرية ، إما سلما وإما بالقوة ، ونسيت أنها كانت تقوم بالعمل على تعويض نفسها بفرضها هذه المبادىء المصادمة لفطرة الإنسان ، فجرت لنفسها مضارا فادحة ، ونكبات واضحة ، وجنت من وراء موقفها ذلك التعجيل فى النفور من فكرها ومحاولة الخروج منه بالإضافة إلى المفاسد التى وقعت فيها البلاد بسبب الغائها للملكية الفردية.

ملخص أقوال الشيوعيين فى الملكية الفردية ثم بيان بطلانها :

يمكن ابراز ملخص أقوال الشيوعيين عن الملكية الفردية فى التالى :

أولا : أن الملكية الفردية من اختراع البرجوازية من أجل استغلال العمال ، ولم تكن معروفة فى بداية التاريخ وليست من الأمور الفطرية .

يقول بوليتزر : (من المفيد أن نلاحظ أن البرجوازية ستعود إلى تبنى نظرية الأفكار الفطرية لتدعيم الملكية الرأسمالية . يقول الناطقون بلسانها أن لكل إنسان فكرة فطرية عن الملكية ، غريزة ملكية . ويترتب على ذلك أن الملكية الرأسمالية طبيعية ، ومادامت طبيعية فلايمكن ولايجوز أن تمس ...)[1].

ثانيا : أن تطور قوى الإنتاج أدى إلى وجود هذه الملكية . يقول انجلز (إن كل تحول فى النظام الإجتماعى وكل تغيير فى علاقات الملكية . إنما هو نتيجة ضرورية لظهور قوى إنتاجية جديدة باتت متعارضة مع علاقات الملكية القديمة . هكذا ظهرت الملكية الفردية ذاتها ، ذلك أنها لم تكن موجودة منذ بدء التاريخ . ففى نهاية القرون الوسطى ، ظهر نمط انتاج جديد فى الصناعة أخذ يتعارض باطراد مع الملكية الإقطاعية والملكية الجزئية السائدتين فى تلك

---

(١) فلسفة الأنوار (٢١) .

الحقبة . وبما أن هذا الإنتاج المانيفاتورى لم يعد يتوافق مع علاقات الانتاج القديمة ، فقد أدى إلى ولادة شكل جديد للملكية الفردية والشكل المجتمعى)[١].

كما أن هذه التطورات لقوى الإنتاج أدت إلى تقسيم العمل بين الناس وأدى ذلك إلى تقسيم وسائل الإنتاج باعتبارها ملكيات لهذا الشخص أو تلك الجماعة[٢].

ثالثا : أن الملكية الفردية هى السبب فى عدم المساواة وإذا أزيلت فسوف تتحقق المساواة ، ويرى أعداء الملكية الفردية أنها الحجر الذى لايمكن تخطيه (لأن قانون الملكية هو بالضرورة متناف مع المساواة)[٣]. كما أنها سبب الشقاء والظلم . يقول مابلى : (إننى لاأتردد فى أن أنظر إلى تلك الملكية التعسة على أنها السبب الأول للتفاوت فى الحظوظ والحالات وبالتالى لجميع الآلام) ، ويقول : (هل تعرف ماهو المنبع الأساسى لكل التعاسات التى تحزن الإنسانية؟ إنه هو الملكية)[٤].

رابعا : أن وجود الملكية هو سبب وجود الطبقات فى المجتمع ، وبالقضاء عليها يتم القضاء على النظام الطبقى لأن الملكية قائمة على استغلال الإنسان للانسان ، فيوجد فى المجتمع طبقتين مختلفتين يقع بينهما الصراع .

يقول غورباتشوف : (الملكية الخاصة هى ، كما هو معلوم أساس استغلال الإنسان للانسان وقد تمت ثورتنا تحديدا من أجل تصفيتها وتحويل كل شىء إلى ملكية للشعب)[٥].

---

(١) تعاليم الماركسية (٢٧-٢٨) .
(٢) دفاعا عن الماركسية (٢٠٤) .
(٣) نقلا من كتاب الفكر الأوروبى (٢٢٢/١) .
(٤) نقلا من المرجع السابق (٢٢٤/١) .
(٥) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٩٥) ، وانظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٠٢) .

خامسا : أن القضاء على الملكية الفردية سيحرر الإنسان ويجعله يحس بانسانيته[١].

بيان بطلان مزاعم الشيوعية عن الملكية الفردية ومصادمتها للفطرة الإنسانية :

وقعت الشيوعية فى عدة مغالطات كبيرة ، ومضار جسيمة من جراء مناداتها بهذا المبدأ الذى يصادم أمرا مستقرا فى النفس البشرية ، وكانت مزاعمهم عن الملكية الفردية فاسدة ، كما كانت الآثار السلبية لتطبيق المبدأ واضحة نتج عنها ضربة قاصمة وجهت للفكر وللدولة حيث أدت بدورها مع الأسباب الأخرى إلى الإنهيار ، ونأتى الآن إلى إبطال مزاعمهم عن الملكية .

أولا : زعمهم أن الملكية من اختراع البرجوازية وهذا زعم باطل ، وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن حب التملك فطرة فى النفس الإنسانية وشىء غريزى فيها وثبت ذلك بنص كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وكفى بهما مصدرين كريمين فى إبطال هذا الزعم .

فمصادرة الملكية أمر (مناقض للفطرة البشرية ومخالف للأحكام الشرعية القطعية ...)[٢].

ولنا أن نتخيل ماهى النتيجة لكل أمر خالف كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفطرة الإنسان؟ إن مصيره الزوال والإنهيار كما هى سنة العزيز القهار .

الوجه الثانى : أن الشيوعيين قالوا بأن البرجوازية إنما وجدت لظروف اقتضتها من التطور ، بينما الملكية الفردية كانت موجودة من قبل قيام هذه الطبقة وبالتالى يقال لهم كيف تكون من اختراعها وهى سابقة عليها؟!

---

(١) انظر : الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١/١٣٣-١٣٤) ، النظرية المادية فى المعرفة (٣٩١) .

(٢) حكم الإسلام فى الإشتراكية (٧٢) .

ثانيا : زعمهم بأن المجتمع البدائى كان على الشيوعية العامة وأن الملكية ماعرفت إلا مؤخرا قول لايقوم عليه دليل(١).

ويذكر الدكتور العبادى أن كثيرا من العلماء بنوا أقوالهم على الحدس والظن والافتراض عن الحياة البشرية الأولى(٢).

فالحكم على تلك الفترة بذلك النوع من الملكية لايسنده دليل وإنما هو ضرب من الظنون من أجل أن يكون لهذا المبدأ مستند لديهم . ويحلل الأستاذ محمد قطب ذلك بقوله : (نزعة فطرية ـ رغم جدل الشيوعية ـ يثبتها اضطرار الشيوعية إلى إباحة الملكية الفردية فى بعض الأمور ، ولكن صورة الملك تتغير . فى فترة من الفترات لم يكن هناك مايمتلك ، لم يكن الصيد الذى يصيده الإنسان ملكا لفرد بعينه لأنه لايستطيع أن يمتلكه وهو لايصيده بجهده وحده من ناحية ولايستطيع أن يحتفظ به من ناحية أخرى لأنه ينتن ويفسد ، ولكن حتى فى ذلك الحين كان يثور الصراع على (امتلاك) إمرأة ، فيتصارع من أجلها الرجال ثم صار هناك (إنتاج) يمكن أن يمتلك ، فامتلك الإنسان الأدوات البسيطة التى أنتجها ثم امتلك المحاصيل حين تعلم الزراعة وامتلك حيوان الزراعة المستأنس حين تعلم كيف يستأنسه ، وامتلك الأرض التى تغل المحاصيل ثم امتلك المصانع ، واليوم يمتلك القنابل والصواريخ! وقد يمتلك الكواكب فى الغد القريب أو البعيد .. ماالذى تغير؟! نزعة الملك أو صورة التملك؟)(٣).

ثالثا : بطلان زعمهم أن الملكية وجدت بتطور قوى الإنتاج وتقسيم العمل . وبيان بطلانه من وجوه :

---

(١) انظر : قصة الملكية (٢٧) ، الملكية فى الشريعة الإسلامية (٥١/١) .
(٢) انظر الملكية فى الشريعة الإسلامية (٤٧/١-٤٨) .
(٣) التطور والثبات فى حياة البشرية (٩١-٩٢) .

الوجه الأول : أن الملكية الفردية غريزة فى النفس الإنسانية وليس لها دخل بقوى الإنتاج أو غيرها ،إذ أنها وجدت مع وجود الإنسان بل إن الطفل الذى يقع فى حوزته شيئا ويحس بأنه ملكه لو حاول أحد انتزاع ذلك الشىء منه لدافع عن حقه .

الوجه الثانى : أن الملكية وجدت عند القبائل البدائية التى لاتمثل فيها وسائل الانتاج شيئا يذكر على أنه قد يتنوع ذلك الملك من بيئة إلى أخرى ، ولكن الذى لايتغير ويبقى ثابت هو حق التملك .

الوجه الثالث : أن هذا الزعم من الشيوعية الهدف منه القضاء على كل الثوابت ، خاصة بعد أن أيقنت أن فكرها لن يصمد أمام الحقائق الفطرية ، والبراهين الواقعية فأرادوا أن يدخلوا فى أذهان العمال أن الملكية وجدت فى فترة كانت تقتضى وجودها حيث كانت تتناسب مع وسائل الإنتاج حينذاك أما الآن فلا ، ويقاس على ذلك بقية الأفكار الدينية والأخلاقية وحكمهم ذلك على المجتمع البدائى تحكم بغير دليل ولابرهان والعلم لايقوم على ذلك .

رابعا : بطلان زعمهم أن الملكية تتنافى مع المساواة وسبب فى وجود الطبقات وأن زوالها سيحرر الإنسان .

وهذه مزاعم باطلة وبيان بطلانها من وجوه :

الوجه الأول : أنه لابد من التفريق بين الاعتراف بحق الملكية ، وبين طغيان من يملك . فالاستغلال لامن وجود الملكية الفردية بل من الخطأ فى استغلال هذه الملكية ، فالبرجوازية ليسوا هم الذين جاؤا بفكرة الملكية ولكنهم أساؤوا استخدامها .

يقول البهى الخولى : (ومقاومة هذا الاستغلال الدنىء واجبة ، ولكنها لاتكون بالغاء الملكية ، بل بتجريد هؤلاء الأقوياء من كل جاه أو نفوذ أو سلطان يطوع لهم البغى الذى يبغون .. أى بإقامة السلطة العادلة التى تكف عدوان الأغنياء والاقوياء على حقوق الضعفاء ، ويقيم موازين العدل الدقيق

بين كافة الطبقات ، أما الملكية بذاتها فليس من طبيعتها أن تنتج مثل هذا العدوان فقد يملك الإنسان ولايظلم .. وقد يملك ويكون محسنا كريما وسمحا رحيما يغشى الخير والمواساة والسلم بين الناس .. فالملكية إذن ليست فى حاجة إلى علاج أو مقاومة إنما يحتاج إلى العلاج والتهذيب غرائز الناس ومافى نفوسهم من نوازع الطمع والأنانية وحب الذات)[١].

الوجه الثانى : دعوى أن الملكية تتنافى مع المساواة وسبب فى وجود الطبقات فهذين الأمرين يبطلان بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وواقع المجتمعات البشرية القديمة والحديثة ، بل وواقع الشيوعيين أنفسهم[٢].

خامسا : بطلان زعمهم أن القضاء على الملكية الفردية سيقضى على الانحطاط الإنسانى ـ وسيصبح الإنسان أكثر إحساسا بإنسانيته ـ وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : يقوم هذا المبدأ على مخالفة الفطرة الإنسانية وبالتالى إلى ضعف الإنتاج وانعدام الحافز الفردى الذى يعتبر أساس عملية الإنتاج فكيف سيكون الإنسان محققا إنسانيته؟!! يقول ابن خلدون : (اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلهم واكتسابها ، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم ، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب والعمران ووفور أسواقه إنما هو بالأعمال فإذا قعد الناس على المعاش ، كسدت أسواق العمران ، وانتقضت الأحوال ، وتفرق الناس فى الآفاق فى طلب الرزق فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره ، واختل باختلاله حال الدولة)[٣].

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (١٩) .

(٢) وسيأتى معنا بيان ذلك فى فساد نظام الشيوعية الإقتصادى إن شاء الله تعالى .

(٣) المقدمة (٣١٩) ، دار الجيل ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

فمن حيث نقص الإنتاج (إن أكبر نكبة تمنى بها الإنسانية هى موت الطموح نحو العمل فى نفس الإنسان ، ذلك لأن هذا سيعود بأفدح الأضرار على مستوى الانتاج العام وحين ينخفض مستوى الانتاج سيؤدى إلى نكبات اقتصادية لاحد لها ، وغنى عن البيان ... أن نقول إن الاتحاد السوفييتى ماكان ليعانى هذا النقص فى محصولاته الزراعية - التى اضطر معها إلى شراء حبوبه من البلاد الخارجية - لولا موت الطموح الفردى عند الفلاح الشيوعى مما حمل القادة السوفييت على الانكفاء عن كثير من نظرياتهم الجماعية لكى يعودوا إلى محاولات تشجيع الجهد الفردى ، بغية السعى وراء زيادة الإنتاج)[١].

وحال الدول الإشتراكية كذلك حيث أدى هذا المبدأ (إلى إحباط الهمم وإلى التكاسل ولهذا السبب نجد الدول الإشتراكية وفى مقدمتها الاتحاد السوفييتى تعانى من تقهقر الإنتاج كما ونوعا)[٢].

وإذا كانت روسيا القيصرية سابقا كانت تصدر القمح الزائد عن حاجتها فالاتحاد السوفييتى أصبح يستورده (فى ظل النظام الإشتراكى ، بالإضافة إلى أن الإنتاج الصناعى للدول الإشتراكية الأوربية هو أسوأ بكثير من إنتاج الدول الأوربية الأخرى)[٣].

فالعامل فى النظام الشيوعى يهدر قدرا كبيرا من مجهوده ولايجد مقابله شيئا ، فثمرة العمل الذى يؤديه تكون ضئيلة بالنسبة له ، فانعدم الحافز الفردى الذى يسارع بالتطور الإقتصادى نحو الأفضل .

يقول أبو الأعلى المودودى : (فحرمان الأفراد من الملكية الشخصية وجعلهم خداما عاملين للمجتمع لايقف ضرره عند القضاء على الاقتصاد فحسب بل هو مبيد على نطاق أوسع لحياة الإنسان المدنية قاطبة فإنه يزهق فى

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (١١٣) ، وانظر نظرات فى الإشتراكية الثورية (٣٢) .
(٢) النظام الإقتصادى فى الإسلام (٢٩) .
(٣) الفكر الماركسى (٧٦-٧٧) .

شئون الإنسان الإقتصادية وأوضاعه المدنية روحها وقوتها الحقيقية الباعثة على الجد والإجتهاد وذلك أن الذى يبعث الفرد على استنفاد قوته فى السعى والجد فى مضمار التمدن والإقتصاد إن هو فى الحقيقة إلا مصلحته الشخصية إن هذه إثرة فطرية أودعها الإنسان ومافى وسع فلسفة من الفلسفات أن تنزعها من سويداء قلبه وأعماق فكره ، وبصرف النظر عن الشذاذ (Dbnonmuls) نجد أنه لايبذل ولايستطيع أن يبذل رجل من عامة الرجال قواه القلبية والفكرية واليدوية كلها إلا فى عمل يجد من نفسه ميلا إليه ورغبة فيه لمصلحته الذاتية أو يرى أنه سيعود على نفسه أو مصالحه بشىء من النفع ، فإن فقد من نفسه هذه الرغبة وعلم أنه مهما استنفد من جهود فلن يحصل على شىء فوق ماحدد له من المنافع والفوائد اضمحلت قواه الفكرية والعملية ولم يشتغل بعمله إلا كما يشتغل الأجير الذى لاتكون رغبته فى العمل إلا بقدر مايعين له من الجعالة)[١].

ثم إن التكوين البيولوجى للانسان توجد فيه تلك النزعة الفردية فمحاولة القضاء عليها واستئصالها سوف يؤدى إلى آثار سيئة على الفرد والجماعة . يقول سيد قطب : (والكارثة الفادحة فى الأنظمة الجماعية ، التى عرفتها أوروبا فى الشرق وفى الغرب ـ على اختلاف مسمياتها وأشكالها ـ هى محاولة إلغاء وجود الفرد ، فى حين أن الفردية عميقة فى التكوين البيولوجى وبالتالى فى التكوين العقلى والنفسى للإنسان . واستخدام هذه الفردية بأقصى طاقتها فى إطار يوجهها إلى خير المجموع هو النظام المناسب لفطرة الإنسان ، أما محاولة كبحها وقتلها بشتى الوسائل ، فى تلك الأنظمة ، فهى عملية تدمير تامة للجهاز الإنسانى)[٢].

---

(١) أسس الإقتصاد (١٨-١٩) .

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة (١٠٦) ، سيد قطب ، الطبعة التاسعة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار الشروق .
شجع الإسلام الحوافز الفردية بتملك صاحب العمل ثمرة عمله كاملة حقا وعدلا إذ لامسئولية من غير حرية وملكية لثمرة السعى ، ولاحرية فى الإضرار بالآخرين ولابالمصلحة الفردية ، ولذلك حجر على السفيه فكيف بالذى ليس لمصلحة غيره . انظر نظرات فى الإشتراكية الثورية (٤٠) .

الوجه الثانى : أدى تطبيق هذا المبدأ الذى تصادم مع الفكر الدينى والحقائق الفطرية ، أدى إلى نبذ الأخلاق والفضيلة ، كما أدى إلى احتكار الحكومة وسيطرتها على ثروات البلاد الإقتصادية مما زاد من تفشى الخيانة والارتشاء وإيذاء الناس والغبن والاستغلال .

وكان عمال الحكومة أنفسهم قد وقعوا فى هذا الفساد ونشوء مثل هذه الأمور فى مجتمع كالمجتمع الروسى ليس غريبا بل الغريب لو لم تظهر فيه هذه المفاسد .

ولايمكن أن يكون النظام صالحا إذا سار بدون أخلاق ، حيث تكمن أهميتها فى مراقبة الإنسان لأعماله(١).

ثم إن مصادمة النفس الإنسانية وسلبها حقها فى الملكية يحمل هذا الإنسان إلى إيجاد الطرق المنحرفة من أجل تحقيق هذه الرغبة والوصول إليها.

الوجه الثالث : يلزم من تطبيق هذا المبدأ انعدام الحرية فى قضية الملكية وكذلك فى كل مايوصل إليها من حيث العمل الذى يريده ، والسلعة التى يرغب فى إنتاجها ، والسلعة التى يرغب فى الاستفادة منها ، فالفرد فى النظام الشيوعى ترس فى الآلة الكبيرة التى تدور فى ذلك المجتمع و(الفرد الذى تسلب حريته إلى هذا الحد ماهو إلا عبد بل فى مستوى العبيد فى العصور القديمة إن لم يخرج من عداد الإنسانية ويصبح مجرد آلة بشرية يلقى بها فى غمار الانتاج قسرا وفقا للخطة المرسومة من قبل المسئولين ، ويشحن بالغذاء والوقود على قدر الخطة المرادة تماما كآلته التى أمامه)(١).

الوجه الرابع : أن تطبيق هذا المبدأ لايؤدى إلى تحرير الإنسان فكيف يكون الإنسان حرا وهو لايستطيع أن ينتج مايريد ، ولايستطيع أن يأكل مايريد .. ثم لو كان هذا المبدأ كذلك سيحقق انسانية الإنسان فلماذا ترفضه

---

(١) التملك فى الإسلام (١٣٦) ، وانظر النظام الإقتصادى فى الإسلام (٧٤) .

الشعوب؟ لماذا رفضه شعب روسيا؟ وكيف طبق التأميم هناك إنه بالقوة فأى إنسانية بقيت للإنسان؟! لقد قيل إن عدد من قتل من أجل تنفيذ مبدأ التأميم مايقارب ١٩,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، وحكم على نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ بعقوبات فادحة مختلفة ونفى عن البلاد نحو ٤,٠٠٠,٠٠٠ أو ٥,٠٠٠,٠٠٠[١].

الشيوعية وفطرية التملك[٢]:

لقد بذل الشيوعيون جهدا كبيرا فى القضاء على الملكية الفردية ، ونصوا على أن الإشتراكية تتعارض معها ، وقد طبقوا هذا العداء عمليا بالقوة وكذلك جعلوه من أسس فكرهم ومواد دستورهم ، فجاء فى المادة الرابعة من الدستور السوفييتى الصادر عام ١٩٣٦م إن (الأساس الاقتصادى لاتحاد الجمهوريات الإقتصادية الإشتراكية السوفيتية هو النظام الإشتراكى فى الإقتصاد والتملك الإقتصادى لأدوات الإنتاج ووسائله اللذان رست دعائمها على أثر تصفية النظام الرأسمالى فى الإقتصاد وإلغاء التملك الفردى لأدوات الإنتاج ووسائله والقضاء على استغلال الإنسان للإنسان)[٣].

وجاء فى المادة العاشرة : (يحمى القانون للمواطنين حقهم فى الامتلاك الشخصى للدخل الناتج من عملهم ومن المنازل التى يقطنونها وأثاث البيوت والأمتعة والأدوات المخصصة للاستعمال الشخصى ولتوفير الراحة ... وحقهم فى وراثة الملكية الشخصية)[٤].

وقد اضطرب الدستور السوفييتى فى تحديد موقفه من الملكية فتارة ينفيها ، وتارة يثبتها أو بعضا من جوانبها ، وقد أدت هذه القوانين وكذلك الأفعال التى صدرت عن الشيوعيين إلى مفاسد كبيرة ، حيث كبتت الإنسان وحرمته من حقوقه ، وأدى ذلك إلى انعدام الرغبة فى العمل وبالتالى تردى

---

(١) انظر أسس الإقتصاد (٧٨-٧٩) .
(٢) سيأتى معنا بيان واقع الشيوعية مع تلك الفطرة فى فصل الإقتصاد .
(٣) الإسلام وحقوق الإنسان (٢٣٣) ، وانظر الإسلام والمناهج الإشتراكية (١٢٦) .
(٤) الإسلام والمناهج الاشتراكية (١٢٦-١٢٧) ، وانظر : الإسلام وحقوق الإنسان (٢٣٣) ، إسلام لاشيوعية (٧٧) .

المنتجات ، كما أدت هذه المصادرة للملكية إلى تفشى الأخلاق السيئة من غش وخداع ورشوة ... لقد أدى نزع الملكية الفردية ولكونه يتصادم مع الفطرة الإنسانية إلى آثار سلبية فى المجتمع ، حيث إن الملكية الفردية تعتبر حافزا قويا للإنسان لكى يعمل . يقول كوسيغين : (إن السبب الوحيد لتدهور الإنتاج الزراعى يعود إلى فقدان المصلحة الخاصة بالفلاح ...)[١].

ويقول خروشوف بعد أن زار المزارع الدنماركية إنه (على استعداد لتمزيق هويته الشيوعية إذا لم تستطع الشيوعية اللحاق بالنظام الحر فى انجازاتها)[٢].

لقد قامت الشيوعية بمصادمة الفطرة الإنسانية فى التملك ، ولكنها فشلت فى تحقيق غايتها ، ولم يكن واقعها دالا على ماقررته نظريا ، وعندما كان القضاء على الملكية مبدأ أساسيا من مبادىء الإقتصاد الشيوعى فسوف نتبين ذلك الفشل عند عرضنا للمذهب الإقتصادى بين النظرية والواقع ، كما سنتبين آثار ذلك المبدأ ومحاولة تطبيقه بالقوة وهل نجح الشيوعيون فى ذلك أم لا؟ ونصل إلى الحديث عن فطرية الزواج والحياة الأسرية .

---

(١) نظرات فى الاشتراكية الثورية (٩٥) .

(٢) الإشتراكية فى التجارب العربية (٦٨) .

المبحث الثالث
مصادمة الشيوعية لفطرية الزواج والحياة الأسرية

إن الله تعالى ماأباح أمرا إلا والخير فيه ، وماحذر من أمر إلا والشر من ورائه .

وأحل الله تعالى الطيبات وأباح للناس ماتطلبه فطرهم ومماركبه الخالق جل وعلا فى نفوسهم .

ومن هذه الغرائز والشهوات التى وجدت فى النفوس البشرية الميل من قبل الرجال إلى النساء والعكس ، وجعل الله تعالى لهذا طريقا تلبى فيه النفس احتياجاتها ، وينظم تلك الفطرة ويهذبها . فميل الرجل إلى المرأة وسكونه النفسى إليها ورغبته فى أن يكون له ذرية من بعده وأسرة ينتمى إليها ، مما فطر الله تعالى الخلق عليه ، وأخبر جل وعلا حب الإنسان للشهوة والزينة فى هذا حيث قال تعالى : {**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب**}(١).

فحب الإنسان لهذه المذكورات لاشىء فيه ، إذا لم يشغل عن الآخرة ويبعد الإنسان عن عبادة ربه أو القيام بفرائضه ، ثم إن حكمة الله تعالى وعدله تأبى أن يخلق الإنسان ويفطره على أمر ثم يحرم عليه ذلك الأمر . ولكنه جل وعلا جعل السبل التى يحقق من خلالها الإنسان غرائزه بصورة منضبطة ، وهذا ماتميز به شرع الله تعالى عن المذاهب الوضعية والآراء الجاهلية التى وقفت من قضايا الفطرة بين إفراط وتفريط . فكان دين الله تعالى وسطا لم يكمم الفطر ، ولم يطلق لها العنان ، بل إقرار وتوجيه ، ليحقق لها رغبتها ، ويسير فى مصلحتها ، وإن مما فطر عليه الإنسان ميل الرجل إلى المرأة والعكس ، وجعل المولى لذلك الميل طريقا شرعيا تتحقق من خلاله تلك الرغبة وهو الزواج .

---

(١) سورة آل عمران : (١٤) .

وقد كانت تلك النزعة موجودة فى أبينا آدم عليه السلام ، قال تعالى **{هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين}**(١).

بعض الآيات والأحاديث الدالة على فطرية الزواج وسكن الإنسان إليه :

قال تعالى : **{يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا}**(٢).

وقال تعالى : **{ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لأيات لقوم يتفكرون}**(٣).

وقال عز من قائل : **{والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون}**(٤).

ونلاحظ من هذه الآيات ذكر الزواج وكونه سكناً للإنسان وكذا ارتباطه بالطيبات الأخرى من مال وبنين مما يدل على ترابط هذه الأمور وكونها مما فطر الإنسان على الرغبة فيها والوصول إليها .

ومن الأحاديث الشريفة الدالة على الترغيب فى الزواج وبيان أنه الفطرة السوية ، وأنه يدفع إلى الخير ويمنع عن الشر وأن الأسرة هى الموطن الأساسى للحنان بالنسبة للولد :

قوله صلى الله عليه وسلم : "يامعشر الشباب ، من استطاع الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"(٥).

---

(١) سورة الأعراف : (١٨٩) .
(٢) سورة النساء : (١) .
(٣) سورة الروم : (٢١) .
(٤) سورة النحل : (٧٢) .
(٥) متفق عليه ، البخارى بفتح البارى (١١٢/٩) كتاب النكاح ، باب من لم يستطع الباءة فليصم ، ومسلم بشرح النووى (١٧٢/٩-١٧٣) ، كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة .

وقال عليه الصلاة والسلام : "خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات يده"(١).

وأبان صلى الله عليه وسلم أن من سنته الزواج .

وقال صلى الله عليه وسلم : "فمن رغب عن سنتى فليس منى"(٢).

وهكذاكانت شريعة الإسلام فى تحقيق كل ماتصبو إليه فطرة الإنسان ، وذلك على خلاف المذاهب الأرضية ، والفلسفات الوضعية التى أنكرت الأمور الفطرية ، وحاربتها وأعلنت أنها سبب الشقاء ، ومن هنا لابد من القضاء عليها ومن أشد الفلسفات التى عادت الفطرة ونادت بالغائها الشيوعية وقد مر معنا مصادمتها لفطرية التدين والملكية ، فلاغرابة إن هى صادمت فطرية الزواج والحياة الأسرية لأن بقاء الأسرة ، ووجود الزواج سيؤدى إلى فشل الفكر الشيوعى ، فالزواج سيمنع الانحلال الخلقى وهذا مالاتريده الشيوعية وهى التى تنادى بالإباحية الجنسية ، كما أن وجود الأسرة سيعمق الروابط بين الأبناء والآباء وهذا مالاتريده الشيوعية فالانتماء يكون فقط للشيوعية ، وقد تسترت الشيوعية بدفاعها عن المرأة وحقوقها وإعطائها حريتها حالها كحال أصحاب الأهواء والآراء المنحرفة والديانات المحرفة فى استغلال المرأة أو إباحتها أو اضطهادها ، ولو ذهبنا نتتبع وضع المرأة فى الأمم السابقة على الإسلام لوجدنا أنها كانت من سقط المتاع تورث ، وتوهب ، وتباع وتشترى(٣).

---

(١) البخارى بفتح البارى (١٢٥/٩) ، كتاب النكاح ، باب إلى من ينكح وأى النساء خير .

(٢) البخارى بفتح البارى (١٠٤/٩) ، كتاب النكاح ، باب الترغيب فى النكاح .

(٣) فعن المرأة عند اليونان : انظر تاريخ اليونان (٥٧-٥٩) ، الحجاب (١٦-٢٠) ، أبو الأعلى المودودى ، الطبعة الخامسة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، بطولة المرأة المسلمة (٢١١-٢١٢) ، بنت الهدى ، دون ذكر لدار النشر أو رقم الطبعة أو تاريخها ، المرأة بين الفقه والقانون (١٤) ، المرأة ومكانتها فى الإسلام (١٤-١٥) . =

وكانت تعانى من نظرة الازدراء والاضطهاد ، ومع ذلك بقيت مسألة الزواج قائمة ولم يخل منها مجتمع مما يدل على أن الناس فطروا على ذلك الأمر . وهكذا ظلت المرأة محتقرة ذليلة أداة للفساد والإغواء ، إلى أن جاء الإسلام وحررها من كل عبودية إلا لله تعالى ، وأكرمها وحافظ على إنسانيتها ، وجعلها فى مستوى يليق بأن تتلقى أوامر ربها ، وجعل لها الحرية فى اطار ماشرعه تعالى وجعل لها قيودا فيها حفاظا عليها وصونا لشرفها ، راعى فيها فطرتها وتركيبتها النفسية والخلقية ، فلم تكن تشريعات الإسلام ضد المرأة ولاهضما لحقوقها ، وماختلفت فيه عن الرجل فهو

= وعند الرومان : انظر المرأة بين الفقه والقانون (١٥-١٦) ، المرأة ومكانتها فى الإسلام (١٥-١٦) أحمد الحصين ، الطبعة الرابعة دون ذكر للتاريخ ، مكتبة الصحابة الإسلامية ، السالمية ، الكويت ، الحجاب (٢٠) ، المرأة فى التصور الإسلامى (٣٥٧) ، عبد المتعال ، الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، بطولة المرأة المسلمة (٢١٢-٢١٣) .

وعند الهنود : انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٥١-٥٢) ، المرأة بين الفقه والقانون (١٨) ، الحجاب (٢٢٣) ، المرأة ومكانتها فى الإسلام (١٦) ، المرأة (١٣٥) .

وعند الصين : انظر المرأة فى التصور الإسلامى (١٣٤) .

عند البوذيين : انظر المرأة بين الفقه والقانون ، المرأة ومكانتها فى الإسلام (١٦-١٧) .

عند اليهود : انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (١٧١-١٧٢) ، الحجاب (٢٧-٢٨) .

عن المرأة فى أوروبا الحديثة : انظر الحجاب (٢٩-٣٠) ، بطولة المرأة المسلمة (٢١٣-٢١٤) ، خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية (١٤٦) ، المرأة ومكانتها فى الإسلام (٩-١٠) .

عن المرأة فى النصرانية : انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٥٩-٦١) ، المرأة بين الفقه والقانون (٢٢) ، أجنحة المكر الثلاثة (٥٦٧-٥٦٨) ، الإنسان وحريته فى الإسلام (٩٤) .

لمصلحتها أولا ثم لتناسب ذلك الأمر المختلف فيه مع فطرتها ، ولو تتبعنا ماأعطاه الإسلام للمرأة من حقوق وماشرفها به من واجبات ، وماحافظ عليها به من تشريعات لطال بنا المقام .

لقد حافظ الإسلام على المرأة بنتا تحت رعاية أبيها ، وزوجة تحت ظل زوجها ، وأما فى بر أبنائها ، وأرملة منقطعة تحت رعاية بيت مال المسلمين للحصول على كفايتها فأى إكرام بعد هذا ، وأى حفاظ بعده؟

فنشأت المرأة فى ظل الإسلام محفوظة العرض ، مصونة الشرف مع حصولها على كل حقوقها .

وراعى الإسلام طبيعة المرأة وفطرتها وقدرتها فجعل تشريعاته متفقة مع ماهو صالح لها ومحافظ عليها ، كيف لا وهو دين رب العالمين . وأوجز بعض هذه المميزات التى أعطيتها المرأة فى الإسلام فى نقاط :

أولا : الاعتراف بإنسانية المرأة . قال تعالى : {**يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء**}(١).

فالمرأة كالرجل ليست ذات روح شيطانية ولاحيوانية(٢).

ثانيا : أن الله تعالى خاطب الرجال والنساء سواسية فجعل الثواب والعقاب على حسب ماقدم كل منهما من عمل ، قال تعالى : {**إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات**}(٣). فسوى الإسلام فى المسئولية بين الذكر والأنثى ، وكذلك سوى بينهما فى الجزاء(٤).

ثالثا : أن المرأة كالرجل فى قضايا الإيمان والعقيدة والتشريعات(٥).

---

(١) سورة النساء : (١) .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى كتاب بطولة المرأة المسلمة (٢٠٩-٢١١) ، وانظر : ندوات علمية (١٣٣) ، أجنحة المكر الثلاثة (٥٦٦) .

(٣) سورة الأحزاب : (٣٥) .

(٤) الإنسان وحريته فى الإسلام (٩٥) ، وانظر المرأة فى التصور الإسلامى (٥٤) .

(٥) انظر : أجنحة المكر الثلاثة (٥٧٥) ، المرأة ومكانتها فى الإسلام (٢٩) .

رابعا : منح الإسلام المرأة بعض الحقوق التى كانت محرمة عليها من قبل ظلما وعدوانا ، ومن هذه الحقوق :

(أ) الميراث .

(ب) اقرار حق التملك .

خامسا : حرم الإسلام ماكان يقع عليها من ظلم وعذاب ، ومن ذلك :

(أ) حرم أن تورث كرها .

(ب) حرم قتلها خوفا من الفقر أو العار .

(ج) حرم نكاح زوجة الأب بعد وفاته حيث كانت الجاهلية تجعل المرأة من ضمن المتاع للورثة .

(د) حرم اكراه الإماء على البغاء من أجل الحصول على الأجر .

سادسا : حرم الإسلام بعض الأنكحة التى لم يكن الهدف من ورائها إلا تحقيق مصالح شخصية ، كما حرم نكاح الأقارب من الأخوات والعمات والخالات .

سابعا : جعل الإسلام المرأة كالرجل فى تبليغ الدعوة إلى الله تعالى وإنكار المنكر والأمر بالمعروف .

ثامنا : حرم الإسلام الاختلاط وكشف العورات ، وأمر بغض البصر وحفظ الفرج ، إكراما للمرأة وحفاظا عليها .

تاسعا : منح الإسلام المرأة الحق فى التصرف فى مالها بالطرق المشروعة وأوجب النفقة لها على زوجها حتى ولو كانت موسرة .

عاشرا : حث الإسلام الآباء على التبكير بزواج البنات حفاظا عليهن وتقديرا لمشاعرهن وحتى لاتكون فتنة وفساد كبير من جراء منعهن من حقوقهن .

الحادى عشر : جعل الإسلام للمرأة حقوقا كما جعل عليها حقوقا .

الثانى عشر : جعل الإسلام للمرأة حق التعلم والتعليم ، ومنها ماهو فرض عليها كتعلم أمور دينها ، وجعل لها حق العمل إذا كان مما يتفق مع تركيبتها وفطرتها ، شريطة أن لايكون ذلك على حساب أوامر ربها والتهاون فيها ، وضياع حق زوجها وأسرتها .

الثالث عشر : اهتم الإسلام بالمرأة والحفاظ عليها وإكرامها ، بنتا فى كنف أبيها ، وزوجة فى مودة زوجها ، وبرا من أبنائها ، وجعل لها الحلول والمخارج من المعضلات التى قد تواجهها فى حياتها مع زوجها حتى لاتبقى تحت الظلم أو المهانة أو التجريح .

الرابع عشر : اهتمام القرآن الكريم بالمرأة وشئونها ، وقد كثرت الآيات التى تحدثت عن المرأة ووجدت سور بأكملها عن النساء وشئونهن .

فأى دين أكمل من هذا الدين؟ وأى شريعة جمعت هذا الخير كله للرجال والنساء على حد سواء ، وأين هى دعوات المغرضين لتحرير المرأة؟ هل وصلت المرأة فى دعواتهم لمثل ماأعطى الإسلام لها من حرية وكرامة؟ يقول وريمان : (إن إعطاء الحرية للمرأة فى الإسلام هو وحده السبب فى نهوض العرب وقيام مدنيتهم ...)[١]. وهذه الحرية التى أعطيت للمرأة المسلمة إنما هى حفاظا لها ولكرامتها وعفتها ، وليست الحرية التى هى الانفلات من كل فضيلة كما هى حقيقة دعوات أنصار المرأة والمطالبين بحقوقها وحرياتها من اليهود والعلمانيين وأذنابهم .

وبعد هذا نصل إلى الحديث عن الشيوعية وموقفها من فطرية الزواج والحياة الأسرية .

الشيوعية وفطرية الزواج والحياة الأسرية :

إن الحديث عن موقف الشيوعية من المرأة والحياة الأسرية تلك الغريزة الفطرية التى يتطلع إليها الإنسان ، يذكرنا بالوضع الذى كانت عليه أوروبا من الفساد ، إذ أن الإنسان يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها ، وعمل اليهود على افساد هذه البيئة ليصلوا إلى غايتهم استخدموا المرأة فى مخططاتهم كما استخدموا النظريات العلمية فى إفسادها .

ومن أخطر النظريات التى استخدموها فكرة التطور التى قال بها داروين واستخدمها ماركس وطبقها فى نظريته على مختلف نواحى الحياة ، ومن ذلك الفكر والأخلاق والزواج والأسرة ، وقال بأنها غير ثابتة بل

---

(١) المرأة ومكانتها فى الإسلام (٢٢) .

متطورة . وماكانت إلا بسبب الوضع الإقتصادى الموجود فى ذلك العصر فكل عصر له نظامه الذى يوازيه من الأخلاق والنظام الأسرى ، ومن هنا ولج أعداء الدين فأخرجوا المرأة لإفسادها وتحررها من قيود الفضيلة والتمرد عليها .

فالحياء والأخلاق والأسرة كانت موجودة حينما كانت وسائل الإنتاج وظروف الإقتصاد تتناسب معها ، أما الآن وبعد تطور أسباب وجودها فلابد أن تتطور وتتغير . فدأبت الماركسية بنشر فكرها الإباحى من هنا ، والمطالبة بإشاعة النساء ، واعتبار الأسرة وتربية الأطفال فى كنفها أثر من الآثار القديمة التى دعت إليها الظروف الإقتصادية . يقول جان فيريفيل : (لاتشغل الأسرة كيانا إجتماعيا خالدا ، ولقد طرأت عليها تبدلات عديدة عبر القرون وهذا التطور يتحدد فى التحليل الأخير بالعامل الإقتصادى)[١].

الأسرة عند الشيوعيين :

يرى انجلز أن هناك خمسة أنواع للأسرة :

النوع الأول : أسرة الأقرباء بالدم أو أسرة الجيل . يقول انجلز عنها : (فى هذه المرحلة تصنف المجموعات الزواجية تبعا للأجيال جميع الأجداد والجدات ضمن حدود الأسرة هم أزواج وزوجات بالتبادل ، وكذلك الأمر مع أولادهم الآباء والأمهات كما أن أولاد هؤلاء يؤلفون هم أيضا حلقة ثالثة من الأزواج والزوجات المشتركين ، ويؤلف أولاد هؤلاء أعنى أولاد الأحفاد للأجداد والجدات حلقة رابعة وهكذا فى هذا الشكل من الأسرة يحرم السلف والخلف فقط الآباء والأولاد من حقوق وواجبات زواج أحدهم بالآخر ، وفى هذه المرحلة تتضمن علاقة الأخ بأخته أن يمارس أحدهما مع الآخر الوصال الجنسى بصورة طبيعية ، إن أسرة الجيل قد انقرضت وحتى أخشن الشعوب التى يتحدث عنها التاريخ لاتمدنا بأمثلة على هذا الشكل يمكن التثبت منها)[٢].

---

(١) المرأة والإشتراكية (١٧) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٤٨) .

(٢) أصل الأسرة (٥٦-٥٧) ، نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٤٩)

النوع الثانى : أسرة الشركاء . وعن هذا النوع يقول انجلز : (إذا كان التقدم الأول يتألف الآباء والأولاد من العلاقات الجنسية المتبادلة ، فإن التقدم الثانى يتألف من حرمان الاخوة والأخوات منها ، وقد حدثت هذه الخطوة بالتدرج مبتدئة فى أقرب الاحتمالات بحرمان الاخوة والأخوات الطبيعيين أى من جهة الأم - من العلاقات الجنسية وذلك فى حالات متفردة فى أول الأمر ثم أصبح حرمانهم ، بالتدريج هو القاعدة وتنتهى هذه الخطوة بتحريم الزواج حتى بين الاخوة والأخوات الأباعد) .

ويقول : (وفى جميع أشكال الأسرة الجماعية لايعرف من هو والد الولد معرفة أكيدة أما والدته فتعرف معرفة أكيدة)[١].

النوع الثالث : الأسرة الزوجية . يقول انجلز : (فى هذه المرحلة يعيش الرجل الواحد مع امرأة واحدة لكن تعدد الزوجات والخيانة الزوجية يظلان من امتيازات الرجال ، وإن لم يكن تعدد الزوجات يمارس إلا نادرا لأسباب إقتصادية فقط ،وفى الوقت ذاته يطلب من المرأة الاخلاص التام طوال فترة العيشة المشتركة ، فإذا زنت عوقبت بقسوة غير أن رباط الزيجة يمكن حله من قبل أى من الطرفين فيرجع الأولاد إلى أمهم فقط كما كان الأمر فى السابق) .

ويقول : (فبينما كان الرجال لاتعوزهم النساء فى ظل الأشكال السابقة للأسرة وكانوا على النقيض يملكون منهن عددا فوق الكفاية إذا بالنساء الآن يصبحن نادرات مطلوبات ونتيجة لذلك بدأ ظهور الزيجة الزوجية اختطاف النساء وبيعهن)[٢].

النوع الرابع : الأسرة الوحدانية . يقول انجلز : (إن الأسرة الوحدانية مبنية على سيطرة الرجل وهدفها الصريح إنتاج أولاد لايشك فى صحة أبوتهم ، هذه الأبوة التى لابد منها ، لكى يرث الأولاد فى يوم ما

---

(١) أصل الأسرة (٧٢) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٥٠-٢٥١)

(٢) المرجع السابق (٧٢-٧٣) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٥١-٢٥٢) .

ثروة أبيهم بوصفهم ورثته الطبيعيين ، وتختلف الأسرة الوحدانية عن الأسرة الزوجية فى أن رباط الزواج أمتن جدا منها ولايعود حله الآن رهنا برضى أى من الطرفين ، بل يصبح الرجل كقاعدة عامة هو وحده الذى يستطيع الآن حل هذا الرباط وتستريح زوجته) .

ويقول : (إن أول تقسيم للعمل هو تقسيم العمل بين الرجل والمرأة من أجل انجاب الأطفال واليوم أستطيع أن أضيف أن أول تضاد طبقى ظهر فى التاريخ بشأنه التضاد بين الرجل والمرأة فى الزيجة الوحدانية وأول اضطهاد طبقى يطابق اضطهاد جنس الإناث من قبل جنس الذكور) .

ويضيف (كانت الزيجة الوحدانية تقدما تاريخيا عظيما لكنها فى الوقت ذاته دشنت هى والرق والثروة الخاصة ذلك العهد القائم إلى اليوم الذى يكون فيه كل تقدم تقهقرا نسبيا أيضا ، العهد الذى يدرك فيه بعض الناس مصلحتهم وتطورهم بشقاء الناس الآخرين واضطهادهم)[١].

وسبب ظهور هذا النوع من أنواع الأسرة كما يقول انجلز هو الملكية الفردية حيث قال : (كانت الزيجة الوحدانية أول شكل للأسرة مبنى لاعلى أحوال طبيعية بل على أحوال إقتصادية أى على انتصار الملكية الخاصة على الملكية العامة البدائية الطبيعية النشأة)[٢].

والمتتبع لهذه النصوص الواردة عن انجلز يلمس منها مايود الشيوعيون أن يصلوا إليه .

فمن المشاعية الأولى ، وزواج المحارم ، إلى التقليص من ذلك ، إلى طلب النساء الزواج بهن وبالتالى وجود زوجة للرجل تشكل نواة الأسرة ، وأصبحت هذه الزوجة بمثابة الملك الشخصى ، وهو بهذا يريد أن يقول بأن الأسرة ماوصلت إلى هذه الحال إلا مع تطور العامل الإقتصادى ، وأن المشاعية هى الأصل فى المجتمعات السابقة ، حيث خلو ذلك المجتمع من

---

(١) أصل الأسرة (٩٥-١٠٢) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٥٥-٢٥٦) .

(٢) المرجع السابق (١٠١) نقلا من كتاب موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٥٦) .

الملكية ، وبالتالى فإن النتيجة الطبيعية لهذه الآراء أن مسألة المحارم والغيرة لاأصل لها بل هى مخترعة من قبل الإنسان .

الأسرة فى الإشتراكية :

نظرا لتغير الملكية فى مرحلة الإشتراكية ، فإن الأسرة ووضع المرأة سيأخذ شكلا آخر ، فالشيوعيون يعتبرون وجود الأسرة مرتبط بالملكية الفردية ، فإذا ماتحولت إلى ملكية جماعية فسيتغير وضع المرأة والأسرة حين ذلك ، وستهب الفتاة نفسها لمن تشاء دون خجل أو تردد ، وسيهدم كيان العائلة ، يقولون عن ارتباط الأسرة بالملكية الفردية : (هدم العائلة حتى أشد الراديكاليين تطرفا تسخطهم نية الشيوعيين هذه الفاضحة المرذولة .

ولكن على أية قاعدة ترتكز العائلة البرجوازية فى الوقت الحاضر؟ إنها ترتكز على الرأسمال والربح الفردى وهى بكامل كيانها وتمام بنيانها ليست موجودة إلا عند البرجوازية فقط ، ولكن تتمتها هى الإلغاء القسرى للعائلة بالنسبة للبروليتارى ثم البغاء العلنى ، إن العائلة البرجوازية تضمحل طبعا باضمحلال تتمتها هذه وكلتاهما العائلة البرجوازية وتتمتها تتلاشيان بتلاشى الرأسمال)[١].

فإذا ماسقطت الرأسمالية ، فإن الأسرة الفردية سوف تتلاشى .

نظرتهم للمرأة :

إن المرأة عند الشيوعيين ليست إلا بضاعة يتناقلها الرجال وتشاركهم فى زيادةالدخول فأباحوا لها الاختلاط ، ومن ثم الزنا وجعلوه أمرا مشاعا ، ولاغرابة فى ذلك حيث إن نظرتهم للعائلة والأسرة أنها نتيجة أوضاع إقتصادية معينة ، وقد أعلنوا صراحة بأنهم يريدون جعل المشاعية الجنسية أمرا مكشوفا للمجتمع كله .

---

(١) البيان الشيوعى (٦١) .

جاء فى البيان الشيوعى : (والآن اسمعوا البرجوازية تصيح من كل جانب انكم أيها الشيوعيون تريدون إشاعة المرأة ، ليست امرأة البرجوازى عنده سوى أداة انتاج بسيطة وهو يسمع أن أدوات الإنتاج يجب أن تكون مشتركة فيستنتج من ذلك بالطبع أن النساء أنفسهن سوف يسرى عليهن ذلك ولايدخل فى وهم البرجوازى أن المسألة هى على العكس تماما وأننا نريد إعطاء المرأة دورا غير هذا الدور الذى تقوم به الآن كأداة إنتاج بسيطة ، ولشد مايضحكنا هذا الذعر فوق الأخلاق الذى توحيه إلى البرجوازيين إشاعة النساء الرسمية التى يزعمون أن الشيوعيين يدعون إليها .

ليست بالشيوعيين حاجة إلى إدخال إشاعة النساء فهى تقريبا كانت دائما موجودة، ولايكتفى البرجوازيون بأن تكون تحت تصرفهم نساء البروليتاريين وبناتهم ، هذا عدا البغاء الرسمى بل يجدون لذة خاصة فى إغواء بعضهم لنساء بعض)[١].

وقد اعتبر الشيوعيون أن الزواج هو مشاعية للنساء . جاء فى البيان الشيوعى : (ليس الزواج البرجوازى فى الحقيقة والواقع سوى إشاعة النساء المتزوجات فقصارى مايمكن أن يتهم به الشيوعيون إذن هو أنهم يريدون كما يزعم الاستعاضة عن إشاعة النساء المستترة بالرياء والمغطاة بالمداجاة بإشاعة صريحة رسمية)[٢].

ولأجل هذا قال ماركس : (إن الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة يجب تيسيره دائما ، ومن حق كل شيوعى أو شيوعية أن يشبع رغبته الجنسية دون تقيد بأى قيد ، فهذه الرغبة ـ ككل رغبة بشرية ـ لاحرج من إشباعها بأى طريقة يختارها الإنسان)[٣].

---

(١) (٦٢) .
(٢) (٦٣) .
(٣) نقلا من كتاب الشيوعية فى موازين الإسلام (٩٨-٩٩) .

وعـن العلاقـات بين الجنسين يوضـح انجلـز ذلك فى إجابة على سـؤال يقول ماهو موقف النظام الشيوعى من الأسرة؟

فقـال : (إن النظـام الشيـوعى سـوف يحول العلاقات بين الجنسين إلى مجرد علاقات شخصية تخص المعنيين بالأمر ولايحق للمجتمع أن يتدخل فيها ، ويتحقـق هـذا التحول عند إلغـاء الملكيـة الفردية والبـدء بالتربيـة الجمـاعية للأطفـال ، الأمـر الذى يطيح بالـدعامتين الرئيستين لمؤسسـة الـزواج الحالية تبعيـة المرأة للـرجل ، وتبعيـة الأطفـال للأهل ، هـذا هـو الجواب على كل تخرصات فلاسفة الأخلاق البرجوازيين الذين ينسبون للشيـوعيين عزمهم على اطلاق مشاعية النساء .

إن مشـاعية النساء علاقة لايعرفها إلا المجتمع البرجوازى وهـى تتمثل حاليـا بالبغـاء ، إن البغـاء يرتكـز إلى الملكيـة الفـردية ويزول بزوالهـا)[1].

تربية الأطفال :

بعد أن أعطت الشيوعية المرأة حق المشاعية الجنسية والوصال بمن تشاء أوجبـوا على الـدولة الاهتمـام بالأطفال الشرعيين بالطبـع وغير الشـرعيين ، وهم بهذا العمل يزيلون كل الحواجز التى قد تعترض الفتـاة فى القدوم على هذا العمل خاصة فى ظل غياب الرادع الدينى .

وكـذلك هم بهذه العملية يفصمون العرى الأسرية بأخذ الأطفـال من أهاليهم وتربيتهم فى محاضن جماعية.

يقول البيان الشيوعى : (أتأخذون علينا أننا نريد القضاء على استثمار الأبنـاء مـن قبـل أهلهم وذويهـم؟ إن كـان ذلك فنحن نعترف بهـذه الجريمة وتزعمـون أننـا نحطم أقدس الأواصـر والصلات بإبدالنـا التربيـة فى العـائلة بالتربيـة فى المجتمع ، ولكـن تربيتكم أنتم أليس المجتمـع هـو الذى يحددها . أليسـت تحددها العلاقات الإجتمـاعية التى تربون فيها أولادكـم ، ألا يحددهـا تدخل المجتمع بصورة مباشرة أو غير مباشرة بواسطة المدرسة ...الخ؟

---

(١) تعاليم الماركسية (٣٧-٣٨) .

إن تدخل المجتمع فى التربية ليس من ابتكار الشيوعيين فكل مايفعله الشيوعيون أنهم يغيرون طبيعة التربية ويحورون صفتها وشكلها وينتزعونها من تأثير الطبقة الحاكمة ونفوذها)[١].

والشيوعيون لايقرون ولايعترفون بتلك الأواصر والروابط بين أفراد الأسرة وبين الأطفال وأهاليهم . فلاهم لهم إلا خدمة أهدافهم حتى من وراء الأطفال واعتبروهم سلعا تجارية تعد للمستقبل وأدوات عمل . جاء فى البيان الشيوعى : (إن تشدق البرجوازيين الفارغ عن العائلة والتربية وعن الأواصر والصلات العذبة التى تربط الولد بأهله أصبحت تقز منها النفس أكثر فأكثر إذ أن الصناعة الكبرى تهدم كل صلة عائلية عند البروليتاريا وتحول الأولاد إلى مواد تجارية بسيطة وأدوات عمل صرف)[٢].

وهذه التربية الجماعية تتيح للنساء الأمهات الاشتراك بفعالية فى الإنتاج وفى الحياة الإجتماعية ، والعامل الأخير شرط مهم لمساواتهن مع الرجال فى جميع ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية ...)[٣].

وقد اتخذ الشيوعيون من هذا الباب طريقا إلى إخراج المرأة ، والإدعاء بأن ذلك يحقق لها حريتها ويمنحها المساواة مع الرجل ، وقاموا بتحقير العمل المنزلى ، واعتبروه سببا فى ذل المرأة واستعبادها ، ومهانة واحتقاراً لها . وقد أفصح قائد الثورة البلشفية عن كل ذلك فى كلماته التى كان يلقيهاعلى رفيقاته . وهذه مقتطفات من خطابه الذى ألقاه فى مجلس العاملات العام اللاحزبى الرابع لعموم مدينة موسكو فى ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩١٩م يقول : (أيتها الرفيقات إن مسألة وضع المرأة قد طرحتها السلطة السوفيتية منذ بادىء بدء ويخيل إلى أن مهمة كل دولة عمالية تنتقل إلى

---

(١) البيان الشيوعى (٦١-٦٢) .

(٢) (٦٢) ، وانظر : المعجم (٣٨١-٣٨٢) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٣٤) ، سقوط الماركسية (٥٠) .

(٣) المعجم (٣٨١) .

الإشتراكية ستكون مزدوجة النوع ، والقسم الأول من هذه المهمة بسيط وسهل نسبيا وهو يتعلق بتلك القوانين القديمة التى وضعت المرأة فى وضع غير متساو مع وضع الرجل)[١]. وبين أن هذه القوانين لم توفق (لأنه حيثما توجد الرأسمالية حيثما تدم الملكية الخاصة للأرض الملكية الخاصة للمصانع والمعامل حيثما تدم سلطة الرأسمال هناك تبعد الامتيازات للرجال ...)[٢].

ثم يتندر بوضع المرأة فى الدولة البرجوازية وعدم تحقيقها مساواتها بالرجل ، ويعلن أن الدولة السوفيتية هى الوحيدة التى كفلت ذلك فيقول : (فى وسعنا أن نقول الآن بكل اعتزاز ودون أى مبالغة أنه لايوجد فى العالم عدا روسيا السوفيتية بلد تقوم فيه المساواة التامة للمرأة ولاتعانى فيه المرأة حالة الاذلال المحسوسة بخاصة فى الحياة اليومية العائلية ، وقد كانت تلك مهمة من مهامنا الأولى ومن أعظمها شأنا)[٣].

وإذا كان من أهداف الشيوعية إخراج المرأة من منزلها واختلاطها بالرجال وإزالة مابقى لديها من حياء فإن أصحاب الفكر الشيوعى يرون أن بقاء المرأة فى منزلها وعملها فيه من أحقر الأمور ، وإليك بعض ماألقاه لينين على مسامع رفيقاته :

(إن وضع المرأة نظرا لانشغالها بالإقتصاد المنزلى لايزال بعد مقيدا فلأجل تحرير المرأة كليا ولأجل مساواتها فعلا بالرجل ينبغى أن يتوفر إقتصاد إجتماعى عام وأن تشترك المرأة فى العمل الإنتاجى العام ... وآنذاك سيكون وضع المرأة مماثلا لوضع الرجل ...) .

(وأنتن جميعكن تعرفن أنه حتى فى ظل المساواة التامة فى الحقوق يبقى على كل حال ذلك التقييد الفعلى للمرأة لأنهم يحملونها شئون الإقتصاد المنزلى كله ، وهذا الإقتصاد المنزلى هو فى أغلبية الحالات أقل الأعمال التى

---

(١) ماهى سلطة السوفييت (٢٣-٢٤) .
(٢) المرجع السابق (٢٤) .
(٣) المرجع السابق (٢٥) ، وانظر (٢٧) .

تقوم بها المرأة انتاجية ، وأكثرها وحشية وأشدها وطأة وارهاقا ، وهذا العمل فى منتهى الحقارة والصغر ولاينطوى على أى شىء من شأنه أن يسهم بقدر ما فى تطوير المرأة) .

ويقول : (ونحن الآن نستعد جديا لتمهيد التربة من أجل البناء الإشتراكى والحال لن يبدأ بناء المجتمع الإشتراكى إلا متى عمدنا ، وقد توصلنا إلى مساواة المرأة التامة وانكببنا على عمل جديد مع المرأة المحررة من هذا العمل التافه المخبل غير المنتج ...) .

(نحن ننشىء مؤسسات نموذجية أى مطاعم نهارية ودور حضانة من شأنها أن تحرر المرأة من الإقتصاد المنزلى ، وهنا يوضع على عاتق المرأة بالذات هذا العمل الهادف إلى تنظيم وتسيير جميع هذه المؤسسات ينبغى الاعتراف بأن أمثال هذه المؤسسات التى من شأنها أن تساعد المرأة على التخلص من وضعها كعبدة بيتية هى الآن قليلة جدا فى روسيا ...) .

(ولكنه يجب القول مع ذلك أن هذه المؤسسات التى تنقذ المرأة من وضع العبدة البيتية تظهر حينما تتوافر لذلك أصغر إمكانية)[١].

واعتبر لينين أن القوانين فى الدول البرجوازية وغيرها (قوانين تتسم بحقارة لامتناهية وقذارة منفرة وفظاظة ووحشية حول عدم مساواة المرأة حقوقيا فيما يخص الزواج والطلاق ، وعدم مساواة الأبناء ـ الشرعيين ـ وغير الشرعيين وامتيازات الرجل واستذلال المرأة وإهانتها)[٢].

وهذا الفكر يخرج من مشكاة واحدة هووفكر اليهود القائم على إفساد المرأة . لقد اعتبر الشيوعيون أنفسهم مسئولين عن تحطيم الأسرةحتى لايتم الانتماء إلا للفكر الشيوعى . يقول لينين : (نحن لانؤمن بالأفكار المثالية عن الأسرة فهذه الأفكار المثالية تنادى بجعل الأسرة مجتمعا ذا كيان خاص له استقلاله ، ونحن لانؤمن بمثل هذه المثالية ...)[٣].

---

(١) ماهى سلطة السوفييت (٢٨-٢٩) ، وانظر المعجم (٣٨٢) .
(٢) ماهى سلطة السوفييت (٣٥) .
(٣) نقلا من كتاب إشتراكيتهم وإسلامنا (٤٧) .

ويقول ستالين : (دعونى أذكر لكم بصراحة ، أنه من الخطر على حياتنا السياسية تشجيع ذلك المفهوم الخاطىء للأسرة ، وأقصد بذلك الآراء القائلة بأن هناك مايسمى الولاء للأسرة ، فالولاء الوحيد المسموح به فى مجتمعنا هو الولاء للدولة)[١].

ويقول : (كل القداسات زائفة قداسة الأسرة ، وقداسة الزواج ، قداسة الأبوة والبنوة)[٢].

وبعد هذا العرض فإن مجمل أقوال الشيوعيين عن الأسرة والزواج وتربية الأطفال يمكن جعله فى النقاط التالية :

أولا : أن الزواج من امرأة واحدة ، ووجود الأسرة الفردية يعتمد على وجود الملكية الفردية ، أى أن العامل الإقتصادى هو الذى أوجدها وبالتالى إنكار فطرية هذا الجانب فى النفس الإنسانية .

ثانيا : أن المشاعية النسائية هى الأصل الأول الذى كانت عليه البشرية .

ثالثا : أن العمل المنزلى وبقاء المرأة فى بيتها يؤدى إلى استعبادها وإذلالها .

رابعا : أن تربية الأطفال فى المحاضن الجماعية سيريح الأمهات من زيادة أعباء المنزل ، وسيؤدى إلى آثار إيجابية على الأطفال .

خامسا : دعوى مساواة المرأة بالرجل .

إبطال مزاعم الشيوعية وبيان مصادمتها للفطرة الإنسانية :

أولا : إبطال زعمهم أن الميل إلى الزواج وتكوين الأسرة إنما كان بسبب العامل الإقتصادى .

يرد على هذا الزعم بالوجوه التالية :

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (٤٧) .
(٢) المرجع السابق (٤٨) .

الوجه الأول : أن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ينقضان هذا الزعم من أساسه إذ أن الزواج ، وميل الرجل إلى المرأة ، والرغبة فى إقامة الأسرة وإنجاب الأطفال أمور فطر عليها الإنسان . وقد تبينا أن آدم عليه السلام كان مفطورا على ذلك ، فاعلا له ، وإذا كانت هذه الغريزة موجودة فى الرجل والمرأة كان لابد من وضع تنظيم لها حتى لاتفسد ، فأحل الله تعالى الزواج . يقول د. سعد الدين صالح إن (الإسلام دين الفطرة يلائم دائما طبيعة الإنسان وغرائزه ويلبى هذه الغرائز بوضعها فى اطار مشروع وغريزة الجنس من أقوى الغرائز البشرية لذلك اهتم بها الإسلام ووضع لها الطريق الطبيعى والأمثل للتنفيس عنها وهو الزواج فهو الطريق الوحيد لبناء المجتمع الفاضل والعلاقة الوطيدة المشروعة بين الرجل والمرأة)(١).

إن كثرة الرجال والنساء ، ووجود هذه الغريزة الفطرية تقتضى وجود نظام دقيق حتى لايحدث الخلل والفساد ولن ينضبط ذلك إلا بالزواج . (لقد استلزم وجود رجال كثيرين ونساء - لارجل واحد وامرأة واحدة - تنظيم صور "التجاذب" الذى يحدث حدوثا فطريا بين الرجال والنساء ، لكى لايصبح فوضى تصطدم فيه مختلف "التجاذبات" فتؤدى إلى ضياع "السكن" المرجو لكل نفس من جهة ، وتؤدى إلى فساد روابط المجتمع من جهة أخرى)(٢).

وهكذا وجد الميل إلى المرأة فى النفس الإنسانية ، وكان لابد من إيجاد الطريق لهذه الغريزة وهو الزواج .

الوجه الثانى : أن الطريق الوحيد الذى يخلو من الفوضى لتلبية هذه الفطرة هو الزواج ، وهذا مالايريده الشيوعيون حيث إن ذلك سيؤدى إلى نسف آرائهم ومعتقداتهم الداعية إلى أن تكون المرأة مشاعة بين الرجال ،

---

(١) احذروا الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام (٢٠٩) ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م ، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) التطور والثبات فى حياة البشرية (١٩٧-١٩٨) .

والخالق جل وعلا عندما خلق هذه الفطرة فى النفس الإنسانية ماكان ليحرمها من إشباعها أو تحقيقها فجعل سبحانه لها طريقا (لاكبت ولاحرمان ولكن تنظيم . تنظيم يشمل الفرد والمجتمع فى ذات الوقت)[١]. فإذا ثبت هذا الميل من الرجل تجاه المرأة ، وهذا لانزاع فيه ، فإن الدين لايقبل لقاء المرأة بالرجل (إلا بعقد تستحل فيه الفروج بكلمة الله وإذنه ...)[٢]. ومن هنا تنشأ الأسرة ، وتكون الذرية ، وهذا مالايريده الشيوعيون ، إن ترك هذه الغريزة بدون ضابط وبدون إيجاد مخرج لها سيؤدى إلى فساد كبير ، فهذا الزعم الشيوعى يتعارض مع فطرة الإنسان وإذا أقر به وأطلق له العنان كان الشر الذى يهلك الأوطان .

الوجه الثالث : أن هذه الفطرة التى تقوم على التجاذب بين الرجل والمرأة من دواعيها الرغبة فى الخصوصية لاالمشاعية . ثم إن المجتمع الشيوعى بذاته يرد على هذا الزعم القائل بالمشاعية ، ويؤيد القول بالفطرة فى الميل إلى المرأة والاختصاص بها دون الآخرين ، فواقعهم يكذب نظرياتهم يقول محمد قطب : (إن المجتمع الغربى ـ أو الشيوعى ـ لم يصل بصورة الفوضى الكاملة فما زال فيه أفراد فاضلون "بل متطهرون" بل "متزمتون" يحافظون على التقاليد وينظرون بتقزز عنيف لتلك الفوضى الجنسية الضاربة بأطنابها هناك ...)[٣].

ويقال لهؤلاء إن الفطرة التى غرس فيها الميل إلى المرأة ، غرس فيها أيضا حب الإنسان ألا يشاركه أحد فى زوجته ، بل إن الحيوان وهو الذى لايعقل وجدت فيه هذه الغريزة فقد أثبت العالم وستر مارك وجود شكل

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية (٢٠٧) . ولمزيد عن هذه المعانى انظر (٢٠٥-٢٠٦، ٢١٣-٢١٥) ، وانظر الحجاب (٢٥٢-٢٥٣) .

(٢) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٣٥) .

(٣) التطور والثبات فى حياة البشرية (٢٠١-٢٠٢) .

الأسرة الأحادية عند بعض أنواع القردة العليا حيث يغار الذكر على الأنثى ، ويدافع عنها ولايسمح لاى ذكر آخر بالاقتراب منها)[١].

الوجه الرابع : أن هذه الأمور التى فطر عليها الإنسان من ميل إلى المرأة ، ورغبة فى الاقتران بها ، ثم أن تكون خاصة له دون غيره ، وجد معها فطرة أخرى جعلها الله تعالى فى نفسه وهى رغبته فى أن يعيش ضمن أسرة يكتنفها السكن والرحمة ، قال تعالى : {**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها**}[٢]، فهذا السكن شعور فطرى بداخل الإنسان يطمح إليه ويرغب فى تحقيقه ، ولو لم يكن موجودا ويجده فى الزواج وإقامة الأسرة لاكتفى بفعل الحرام . يقول محمد قطب : (هذا السكن وهذه السكينة عنصر هام فى نشأة الأسرة واستمرارها مدى التاريخ البشرى كله ، وهو سبب نابع من "الفطرة" التى تحب هذا السكن وهذه السكينة بصرف النظر عن الدافع الجنسى الذى يمكن أن يتحقق بأية وسيلة ...)[٣].

إن الأسرة (هى الصورة المثلى للحياة المطمئنة التى تلبى رغائب الإنسان وتفى بحاجات وجوده ، وهى الوضع الفطرى الذى ارتضاه الله سبحانه لحياة البشر منذ فجر الخليقة {**ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية**}[٤])[٥].

(إن المشاعر والعواطف التى تنمو فى جو الأسرة غذاء لاتستغنى عنه النفس ولايكفيها سواه ، مما يجعل الأسرة نعمة ورحمة تقى التعاسة والشقاء ...)[٦]. ولأجل ذلك اهتم الإسلام بها اهتماما كبيرا (باعتبارها اللبنة الأساسية

---

(١) الدين والبناء العائلى (١٢) نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤٦) .
(٢) سورة الروم : (٢١) .
(٣) مذاهب فكرية معاصرة (٣٥٢-٣٥٣) .
(٤) سورة الرعد : (٣٨) .
(٥) الأسرة فى الإسلام (١٣) ، د. مصطفى عبد الواحد ، الطبعة الرابعة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م دار البيان العربى ، جدة ، وانظر صوت المنبر (١٩٣-١٩٤) .
(٦) الأسرة فى الإسلام (١٤) .

فى بناء المجتمع)[١]، و(حرص على صيانتها من عوامل الفساد ، وطوارىء الانحلال ، وخصها من التشريع بما يحمى كيانها ، ويضمن سعادتها ، ووضع لها أقوم الوسائل لمعالجة مشكلاتها)[٢]. إن هذا الاهتمام بالأسرة من قبل الإسلام الذى هو دين الله تعالى خالق الأولين والآخرين ليدل دلالة واضحة على أن الإنسان فطر على هذه الأمور وأن هذه السبل هى التى تحقق له غايته دون خلل أو زلل .

الوجه الخامس : أن الرغبة فى الذرية أحد الأمور الفطرية التى تلحق بما ذكرناه سابقا ، وبالتالى فإن بقاء هذه الذرية فى كنف الأب والأم هو الأصل ، وأن انتزاع هذه الذرية منهما سيخلف الشرور والمفاسد للآباء والأبناء . وقد أثبت تعالى فطرة الإنسان فى حب الذرية ، وهذا لن يكون إلا عن طريق التقاء المرأة بالرجل . قال تعالى : {**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين** ...}الآية[٣].

كما أن الله تعالى أخبر عن بعض الناس تمنيه لهذه النعمة فقال تعالى عن زكريا : {**رب لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين**}[٤].

وهكذا يظهر لنا التلازم القائم بين هذه الأمور بدءا من الميل إلى المرأة ثم الارتباط بها ، والسكن إليها ثم تطلعه إلى إنجاب الذرية منها وفى كل ذلك دليل على أن الإنسان مفطور على إقامة الرباط الزوجى والحياة الأسرية ، والسعادة بالذرية التى يقوم على تربيتها ، وفى هذا إبطال لزعم الشيوعية بأنها ليست من الأمور الفطرية .

ثانيا : إبطال زعمهم أن الأسرة لم يكن لها أصل فى المجتمعات القديمة وأن المشاعية النسائية هى الأصل ، وهذا زعم باطل وبيان بطلانه من وجوه:

---

(١) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية (١٦٣) .
(٢) مناهج الشريعة الإسلامية (٢/٢٣٩) .
(٣) سورة آل عمران : (١٤) .
(٤) سورة الأنبياء : (٨٩) .

الوجه الأول : أن هذا مجرد إدعاء يبطله كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالأخبار التى جاءت فيهما عن آدم وزوجته حواء عليهما السلام .

وأخبرنا تعالى أن أبا البشر هو آدم عليه السلام ، فهل يعلم الشيوعيون أن هناك أحدا قبل آدم فمن هم؟ وماهو تاريخهم؟ ومن أين لهم هذه الحقائق عن ذلك النظام؟

فإذا ماقالوا بأن المقصود بالمجتمعات القديمة فترة من التاريخ بعد آدم فيبطلون دعواهم بأنفسهم (بأن الأصل عدم وجود الزواج الأحادى والأسرة) لأنه لايلزم من وجود هذا النظام المشاعى أو غيره فى فترة من الزمن أنه هو الأصل فإن الفطر تنحرف عن الحق الذى خلقت عليه .

الوجه الثانى : أن آراء ماركس وانجلز عن المجتمعات القديمة لاتقوم على علم ودراية وبحث علمى دقيق ولكنها ضربا من التخمين وجر مجريات التاريخ حسب أهوائهم وآرائهم حتى يتأيدوا بها فيما يذهبون إليه ، فادعاء ماركس بأن المجتمع الإنسانى لم يعرف نظام الأسرة إلا متأخرا إدعاء (كل ماله من شبهة فى هذا المجال هى أبحاث بعض علماء الانثروبولوجيا التى تمت فى القبائل البدائية التى تعيش اليوم فى مجاهيل أفريقيا أو فى مناطق أخرى من العالم فتخيل ماركس أن البشرية قد بدأت حياتها بنفس الطريقة ، وتغافل ماركس عن أبحاث كثيرة أثبتت أن نظام الزواج والأسرة موجود فى مجتمعات بدائية أخرى كما هو واقع بين سكان جزر الاندمان فى المحيط الهندى ، ولكن ماركس يريد أن يأخذ من الظواهر مايؤيد نظريته وكعادته يتغافل عن الظواهر المعارضة)[١].

ومن المعلوم أن الانحراف قد وقع فى النفس البشرية حتى فى عبادة ربها فإن ماعدا ذلك من باب أولى ، هذا إذا سلمنا بوجود هذه المجتمعات

---

(١) الدين والبناء العائلى (١١٣) ، نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤٦) .

التى يرى ماركس أنها قامت على المشاعية المطلقة بين الرجال والنساء ، وإلا حقيقة الأمر أن ماركس لايملك دليلا واحدا قاطعا على أن الشيوعية المطلقة كانت موجودة فى أى مجتمع من المجتمعات السابقة .

الوجه الثالث : أن ماركس اعتمد على بعض النظريات القائلة بعدم وجود قضايا الفطرة فى النفس الإنسانية ، هذا بالإضافة إلى بعض ماجاء عن أصحاب الفكر الإشتراكى السابقين عليه كأفلاطون وغيره ، وكان يظن أن هؤلاء قد اعتمدوا على أصول أو حقائق علمية بينما الحقيقة كانت مجرد آراء وتصورات لهم يرون أنها أولى بالتطبيق من غيرها ، فأخذ هذه الآراء الشخصية فجعل منها فكرا نسبه لنفسه ادعى فيه أن الشيوعية هى الأساس الذى كانت عليه البشرية ، فأنزل ماركس الآراء الشخصية والأفكار النظرية منزلة الحقيقة الواقعية ، وهذا بعيد عن المنهج العلمى ، والتثبت ، واستخدام المقايسة ، ولكن لاغرابة فى ذلك لأن هذه الأفكار السابقة عليه تتوافق مع هواه وتخدم فكره ، فهو أنكر الإله ، فلابد أن ينكر كل ماجاء عنه تعالى من أخبار عن الحقائق الفطرية سواء عن الملكية أو الحياة الأسرية.

ثالثا : إبطال زعمهم أن التربية الجماعية للطفل أكبر أثرا ونفعا من التربية الخاصة أى تربية الأطفال فى أحضان أسرهم .

وهو قول باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن الأسرة هى المكان الطبيعى الذى ينشأ فيه الطفل ليكون إنسانا سويا فيما بعد ، وذلك لأن الأسرة تعطيه الحنان فينمو نموا طبيعيا ، وقد فطر الإنسان على أن يعيش فى كنف الأسرة .

(فالطفل لابد له من النشأة فى أسرة وإلا نما مبتور العواطف ، شاذ السلوك ، وحاجته إلى أمه وأبيه حاجة أصيلة ، لايغنيه عنها حياة أخرى أو تعهد ، كذلك يحتاج الإنسان إلى الأسرة شابا ورجلا وكهلا لايجد رعاية فى غيرها ولاترضى فطرته بديلا عنها ، فيظل مفتقرا أبدا إلى حمايتها متعطشا إلى عواطفها ومشاعرها ...)[1].

---

(١) الأسرة فى الإسلام (١٤) ، وانظر الإنسان بين المادية والإسلام (١٨٧) .

الوجه الثانى : لقد ثبت بما لايدع مجالا للشك أن الأطفال الذين ينشأون فى محيط أسرهم يكونون أكثر طمأنينة وراحة نفسية من الآخرين ، بل إن المدارس والمحاضن لايمكنها أن تعطى ماتعطيه الأسرة للطفل وبقيادة الأم ، يقول اليكس كاريل : (لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبداله تربية الأسرة بالمدرسة استبدالا تاما ، ولهذا تترك الأمهات أطفالهن بدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن أو مطامعهن الإجتماعية ، أو مباذلهن أوهوايتهن الأدبية أو الفنية أو للعب البريدج ، أو ارتياد دور السينما ، وهكذا يمضين أوقاتهن فى الكسل .. انهن مسئولات عن إختفاء وحدة الأسرة وإجتماعاتها التى يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أمورا كثيرة .. إن الكلاب الصغيرة التى تنشأ مع جراء من نفس عمرها فى حظيرة واحدة لاتنمو نموا متكاملا كالكلاب الحرة التى تستطيع أن تمضى فى أثر والديها .. والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكياء ، لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى للقوالب الموجودة فى محيطه ، إذ أنه لايتعلم إلا قليلا من الأطفال الذين فى مثل سنه ، وحينما يكون وحده فقط فى المدرسة فإنه يظل غير مكتمل ولكى يبلغ الفرد قوته الكاملة فإنه يحتاج عزلة نسبية واهتمام جماعة إجتماعية محددة تتكون من الأسرة)[١].

الوجه الثالث : إن نتائج التربيتين لتدل دلالة واضحة أن التربية فى أحضان الأسرة يفيد منها الطفل الشىء الكثير فى سلوكياته وأخلاقه ، وفى عواطفه وتوجهاته ، فالإحساس بالاطمئنان والاستقرار النفسى ينعكس على الشخص فى مستقبل أيامه ، وتظل التربية خارج محيط الأسرة تربية ناقصة ينجم (عنها خسارات كبيرة يتجرعها الطفل وأبواه أولا ، ثم يجنى المجتمع

---

(١) الإنسان ذلك المجهول (٣٠٥-٣٠٦) .

ثمارها حنظلا مريرا بعد ذلك ...)[١].

(إن التربية "بالجملة" فى المحاضن وماأشبهها تخرج أجيالا شاذة منحرفة ناقصة الآدمية ...)[٢].

الوجه الرابع : أن الرابطة التى بين الابن وأبيه رابطة فكرية لايمكن للشيوعية أن تستأصلها من النفس الإنسانية . وقد ضرب الله تعالى لنا قصصا كثيرة تدل على أن هذه الآصرة لايمكن التخلى عنها إلا بسبب واحد حال الكفر والإيمان ، فمن ذلك قصة نوح عليه السلام مع ابنه ، وقصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، وقصته مع ابنه إسماعيل عليه السلام عندما أمر أن يذبحه واستجابة ابراهيم عليه السلام لذلك ولو لم تكن تلك الآصرة من الفطرة لما كان الابتلاء بها ، وقصة أم موسى عليه السلام والقاءه فى اليم ، فكل هذه الأدلة دليل على أن هذه الآصرة مفطور عليها الإنسان ، فمن أين لماركس تاريخ كهذا يثبت من خلاله دعواه أن الزواج والحياة الأسرية ليست من الأمور الفطرية .

رابعا : إبطال زعمهم أن الحياة الأسرية ليست إلا انعكاسا للأوضاع الإقتصادية .

وهذا الزعم باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن الشيوعية دأبت على تفسير الأمور الثابتة بأنها متغيرة وأن تغيرها يتم حسب التطور الإقتصادى ومن ذلك الأسرة ، وهذا زعم يبطله ماقررناه سابقا من فطرية الزواج والحياة الأسرية ، وكونها سابقة على الأوضاع الإقتصادية التى يرى الشيوعيون أنها سبب فى وجود هذا النوع من الأسرة . هذا بالإضافة إلى أنهم قد بالغوا فى تقدير العامل الإقتصادى وأثره وقد اعترف انجلز أنه اهتم هو وصديقه ماركس بالعامل الإقتصادى وأهملا ماعداه .

---

(١) المرأة فى التصور الإسلامى (٦٤-٦٥) .

(٢) التطور والثبات فى حياة البشرية (٣٢٢-٣٢٣) .

الوجه الثانى : من المسلّم به أن الأشياء التى يخترعها الإنسان إنما يخترعها من أجل تحقيق مجموعة رغباته الفطرية فهو لم يخترع ثم يفكر بعد ذلك فيما يستخدم هذا الاختراع ، فوسائل الإنتاج عندما تطورت لايعنى أن الأسرة تغيرت وتبدلت ولو حدث خلاف ماكانت عليه فإنما هو (تحقيق للفطرة وليس تغييرا للفطرة ، تحقيق لها بتنمية إمكانياتها العملية على الدوام .. وهذا يزيد مساحتها ويعيد تشكيلها على الدوام فى أشكال جديدة ولكنه لايضيف إليها عنصرا لم يكن موجودا فى جوهرها .. وفرق بين التنمية والتشكيل فى حدود الاطار الموجود بالفعل وبين استحداث أمر فى ذلك الإطار ...)[١].

فليست وسائل الإنتاج والأدوات والأوضاع الإقتصادية هى التى أوجدت الرغبة فى النفس الإنسانية للزواج وإقامة الأسرة .

فلايقول عاقل أن إنشاء المصانع الكبيرة ووجود الأموال الكثيرة هى التى دفعت الرجال إلى الزواج وإقامة الأسرة والرغبة فى الإنجاب ، بل إن هذه الرغبات المتأصلة فى النفس الإنسانية هى الدوافع الحقيقية لإقامة المصانع والخروج إليها والعمل فيها لإيجاد الحياة الآمنة لنفسه ولأسرته واشباع غرائزه الأخرى من تملك وغيره .

(ومن ثم "فالتطور" الذى يحدثه الاختراع أو الاكتشاف الجديد فى نفس الإنسان هو التنمية الدائمة للرغبات الفطرية الموجودة من قبل فى حالة كامنة باعطائها فرصة التحقق الدائم على نطاق أوسع ، وأشمل وأدق وليس هو إنشاء الرغبات الفطرية من حيث لاتكون ، والتنمية والإنشاء شىء آخر ...)[٢].

إذا فتطور نظام الأسرة لايعنى عدم وجوده من قبل .

---

(١) التطور والثبات (١٠٩-١١٠) .

(٢) المرجع السابق (١٠٨-١٠٩) .

الوجه الثالث : أن المجتمعات التى عرفتها البشرية لم تخل من وجود الأسرة رغم اختلاف نمط الحياة الإقتصادية فيها . حيث (وجد فى مجتمع العبيد فى ظلمات التاريخ ووجد فى المجتمع الرعوى ، والمجتمع الزراعى ، والمجتمع الصناعى ، وعلى الرغم من الانهيار "الإنسانى" الذريع الذى يعانيه الناس فى القرن العشرين فيدمر فطرتهم تدميرا ... مازال الزواج والأسرة نظامين "طبيعيين" تحدث النظم الأخرى [الاباحية والتحلل] إلى جانبها كشذوذ يصيب البشرية بالدمار لا"كتطور" يهدف إليه العقلاء ، أو يرتاح إليه العقلاء!..)[١].

ثم إن ربط التبدل والتغير بتطور وسائل الإنتاج ليس دليلا علميا ولاواقعيا فنحن نرى روسيا قد استخدمت ماتم تصنيعه وإعداده فى فرض الفكر الشيوعى ، بينما نرى الغرب يسخر طاقاته ومخترعاته فى توطيد الفكر الرأسمالى فكيف اختلفت الأفكار مع توحد وسائل الإنتاج بل واتفاقها فى أكثر الأشياء؟!!

خامسا : إبطال زعمهم أن الأسرة والزواج واختصاص الرجل بامرأة واحدة إنما كان بسبب الملكية الفردية .

اعتبر الشيوعيون أن الملكية الفردية هى سبب كل الشرور ولن تسعد البشرية إلا إذا تم القضاء عليها ، ومن الأمور التى رتبوها على الملكية وأنها كانت سببا فى وجودها الحياة الأسرية وفطرية الزواج . وهذا زعم باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن نظام الزواج ورغبة الإنسان فى تكوين أسرة يعيش فى ظلها أمر فطرى دون أن يكون للملكية دخل فيه ، فهذه الحيوانات والطيور يوجد فيها نظام الأسرة . يقول الخفاجى : (إن نظام الأسرة نظام فطرى موجود حتى فى الطيور والحيوانات الراقية بغير سبب من الملكية ، وهى فى الإنسان له قدسيته الخاصة ويمثل وحدة حركية إنسانية ذات قيم ثابتة

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية (١١٥-١١٦) .

وذات دور كبير فى تنمية كل قدرات الإنسان ... ولم يستطيعوا هم أن يتخلصوا منه فى حياتهم برغم كل انحراف)[١].

الوجه الثانى : أن الملكية الفردية ليست السبب فى وجود النزعة الفطرية فى الزواج وإقامة الأسرة وإنجاب الذرية بل إن الملكية والرغبة فى الحياة الأسرية كلاهما من الأمور الفطرية فلاحبه للزواج هو الذى دفعه لحب التملك ، ولاالملكية الفردية هى التى دفعته لتلك الأمور .

بل هى من غرائزه التى يرغب فى تحقيقها كلها .

ثم لماذا لايكون الأمر معكوسا وهو أن الزواج وحب الإنفراد بالزوجة دون الآخرين هو الذى أدى إلى وجود الملكية الفردية؟!!

سادسا : إبطال زعمهم أن فى خروج المرأة إلى العمل تخفيف من أعباء الإقتصاد المنزلى وخروج من الإذلال المفروض عليها .

وهذا فساد كبير وزعم باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن بقاء المرأة فى بيتها ، وممارستها لعملها فيه ، لهو الشىء الذى يتفق مع طبيعة تكوينها ، ومن أصدق مايمكن أن يستدل به على هؤلاء القوم "الملحدين" الواقع الذى يعيشونه وتعيشه الدول التى أخرجت النساء من البيت فكم هى الصيحات التى أطلقتها النساء فى هذه الدول يطالبن فيها بعودة المرأة إلى بيتها واهتمامها بزوجها وأسرتها وأطفالها.

الوجه الثانى : يقال لهؤلاء : هل الأعمال التى خرجت المرأة لممارستها فى المصانع والمعامل الإنتاجية أيسر من تربية الأطفال والاهتمام بشئون الأسرة؟!!

ثم كم هى المفاسد التى ستقع من جراء خروج المرأة فى مجتمع يفتقر إلى الدين؟!!

---

(١) حوار مع الشيوعيين (١٥٤) .

ثم هل الأطفال سيجدون الرعاية والتربية التى كانوا سيجدونها فى أحضان أمهاتهم؟

ثم ماهو حال الأسرة إذا خرجت الأم للعمل وخرج الأب كذلك لطلب الرزق؟!!

إن الشيوعية قد أصمت آذانها عن ذلك كله ، وأغمضت عينيها ولاغرابة فى ذلك فإن القلوب قد عميت عياذا بالله[١].

الوجه الثالث : الجمهورية السوفيتية واجهت بنظرتها تلك إشكالات كبيرة حيث (كانت أول دول العالم التى أمسكت الورقة والقلم وبحسبة بسيطة اكتشفت الحقيقة التى كان فيها الحل الأمثل لمشكلة كانت تعانى منها كثيرا المشكلة هى إيواء الأعداد الهائلة من الأطفال أثناء دوام الأمهات العاملات - أى دور الحضانة لم يكن هناك مشكلة فى إيجاد دور الحضانة بل المشكلة كانت فى أن هذه الأعداد الهائلة من الأطفال كانت تحرم من الرعاية السليمة والتنشئة الطبيعية فى البيت وبين أحضان أمهاتهم ، وقد تبين لهم خطورة هذا الحرمان وتأثيره على نمو الطفل ولهذا بدأوا فى البحث عن حل .. وكان الحل فى الحسبة البسيطة التى أجروها فقد رأوا لو أعطوا الأمهات العاملات رواتبهن التى يتقاضينها من أعمالهن بالكامل ويتفرغن لتربية أولادهن فى البيوت ويعفين من أعمالهن الخارجية لكان مجموع تكاليف هذه الرواتب أقل بكثير من تكاليف ونفقات دور الحضانة التى توفرها الدولة ، فكان القرار الذى يحل المشكلة هو تفرغ الأمهات العاملات لتربية أولادهن ورعايتهم وعودة المرأة العاملة إلى بيتها من جديد)[٢].

---

(١) عن خطورة الاختلاط ، ومشاركة المرأة للرجال فى العمل والنواحى السياسية ، وسبب متاعب المرأة الغربية بسبب مشاركتها للرجل فى كثير من المرافق والنقولات عن علماء الغرب ومفكريهم . انظر المرأة بين الفقه والقانون (١٦٧-٢٠٥) .

(٢) نشرت ذلك مجلة (أسرتك) نقلا من دور المرأة فى المجتمع الإسلامى (٢٣٢-٢٣٣).

الوجه الرابع : أن إخراج المرأة إلى العمل قد أدى إلى مفاسد عديدة تتعلق بالمرأة فأصبح لاحق لها فى تربية أولادها ، وبالتالى لاحق لها فيما بعد فى حنانهم وبرهم ، وأصبحت المرأة كالآلة ، ولم يعد لها حق فى المحافظة على عرضها فالعرض والشرف عندهم مجرد قيم بائدة ، ولابد من إزالتها[١]، إن كل هذه الأمور تخالف الفطرة الإنسانية التى خلقت عليها المرأة ، وبالتالى فإن هذه المصادمة لابد وأن تزول وتنتصر الفطرة كما هى سنة الله تعالى .

الوجه الخامس : أن العقلاء من المفكرين الروس وغيرهم من الغرب أيقنوا أن مكان المرأة المتلائم مع فطرتها هو المنزل . يقول تولستوى : (على الرجل أن يكد ويشتغل وماعلى المرأة إلا أن تقيم فى البيت لأنها زوجة أو بعبارة أوضح لأنها إناء لطيف سريع الانكسار)[٢].

ويقول أرسطو : (إن المرأة أقل عقلا من الرجل ، ولذلك يجب أن يكون للرجل وحده أمور الدولة وللمرأة أمور المنزل والأولاد تحت عنايته وإشرافه)[٣].

وتقول (أنا رود) : (لأن تشتغل بناتنا فى البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاء من انشغالهن فى المعامل ، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد ، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين ، فيها الحشمة والعفاف رداء ... فمالنا لانسعى وراء مايجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية ، من القيام فى البيت وترك أعمال الرجال سلامة لشرفها)[٤].

---

(١) انظر انهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٣٧-٣٣٨) .
(٢) المرأة ومكانتها فى الإسلام (٩١) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (٤٣) .
(٤) نقلا من المرجع السابق (٩١) .

ويمكن الرجوع إلى الملاحق فى كتاب المرأة بين الفقه والقانون (٢٠٩-٣٣١) من أجل الاستزادة عن وضع الغرب بالنسبة للمرأة وضياع الأسرة وتفككها بسبب خروج المرأة ومخالطتها للرجال وكثرة الفساد وأقوال المفكرين فى العودة إلى التعدد ، ومطالبة المرأة الغربية به وعن الفساد بسبب الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل .

إن الفساد الذى عم البلاد والعباد بسبب خروج المرأة قد أرق العقلاء فى الدول الغربية والشرقية على حد سواء ، وهذه المطالبة دليل على أن الفطر تنزع إلى العودة إلى أصلها الذى خلقت عليه .

سابعا : إبطال زعمهم المساواة بين الرجل والمرأة .

وهذا أمر لايمكن تحقيقه وهو قول باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن الله تعالى قد أبان أن الرجل يختلف عن المرأة فى أمور ، وهذه الأمور ليس القصد منها نقصان فى المرأة بل التكريم لها والتكليف للرجل .

الوجه الثانى : أن كلا الجنسين مختلف عن الآخر فى تكوينه وفطرته . يقول اليكس كاريل : (الحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها وفوق كل شىء بالنسبة لجهازها العصبى ، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبى فليس فى الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها ، ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور ، فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة)[١]. ويقول : (يجب أن يبذل المربون اهتماما شديدا للخصائص العضوية والعقلية فى الذكر والأنثى وكذا لوظائفها الطبيعية فهناك اختلافات لاتنقضى بين الجنسين ، ولذلك فلامناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات فى إنشاء عالم متمدين)[٢].

الوجه الثالث : أن الحياة الواقعية تدل على الخلاف بين الجنسين إن فى ميولهما ، أو عواطفهما ، ولأجل ذلك حذر العقلاء والمفكرون من إسناد الأمور للنساء ، أو جعلها فى أيديهن لأن فى ذلك هلاكا للأمة ولايعنى

---

(١) الإنسان ذلك المجهول (١٠٨-١٠٩) .

(٢) المرجع السابق (١١٠-١١١) .

ذلك نقصا فى المرأة ، ولكن تكوينها لايتناسب مع الأمور الكبيرة التى تحتاج حزما وقوة ، وبعدا عن العاطفة ، ولأجل ذلك نجد الإسلام لم يفرض الجهاد على المرأة ، ونجد أغلب الدول الحديثة لاتوصل المرأة إلى قيادة الدولة . يقول هيغل : (إذا كانت النسوة فى رأس الحكومة فالدولة فى خطر لأنهن لايفعلن بحسب متطلبات الكلية بل تبعا للميول والآراء العرضية ...)[١].

الوجه الرابع : أن هذه المساواة ليست إلا دعوة فارغة عن الحقيقة لأن الفطرة ترفضها ، والواقع لايصدقها ، والعقل السليم يمقتها ، والدولة صاحبة الفكر الشيوعى تخالفها ، فلماذا لاتصل المرأة إلى القيادة العليا للحزب فيها؟! ولماذا لم يتخل لينين وأتباعه عن السيطرة لها ، فهى (مساواة جائرة أساسها إنهيار بناء الأسرة ونكول الرجل عن إعالة المرأة ، واضطرارها إلى أن تعمل مثله لتعيش)[٢].

ثامنا : بطلان زعمهم أن فكرة المحرم فكرة مخترعة .

إن هذه المقولة تنطبق عليهم إذ لادين يضبط حياتهم ولاأخلاق يسيرون عليها فى معاملاتهم . بل يدعون إلى الإلحاد والرذيلة ويأمرون بها ويرون أن السعادة فى زوال مامن شأنه أن يثير الحمية والاختصاص والأثرة ، ومن هذا القبيل الأسرة ووجود الأطفال لأنها تدعو إلى الاختصاص ، وظنوا أنهم سيصلون إلى تحقيق ذلك .

---

(١) مختارات هيغل (١١٠/٢) ، ترجمة الياس مرقص ، الطبعة الثانية ١٩٨٩م ، المكتبة الفلسفية .

(٢) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٧٦) .
إن الإسلام (يعترف بتكافؤ الجنسين لابتماثلهما ، لأن التماثل ليس حقيقة ، وهو لذلك يفرق بينهما فى بعض الحقوق والواجبات التى تنشأ من اختلاف طبائعهما ، واختلاف وظائفهما بعد أن سوى بينهما فى الأمور الأخرى التى تتصل بالإنسان من حيث هو انسان) . الإنسان بين المادية والإسلام (١٩٩) .

وبالعمـوم فـإن اللـه تعـالى أخبرنا أن الـزوجة سكـن ، وجعـل بين الـزوجين المودة والـرحمة ، ومـن هنـا يفترض فى كـل واحد منهمـا حرصه الـدائم على رضـاء الطرف الآخر والإبقـاء على هـذه المودة ومـن هنـا كانت الغيرة نتيجة طبيعية طالما أن الحال كذلك .

وأما المحرم فهو مخترع كما تراه الشيوعية .

ولاتملـك الشيوعية أكثر من هذا القول أمام الحقائق الفطـرية والحقائق التى يصـدقها الواقع ، وعداءهم للمحرم لأنه يمثل عائقـا حقيقيا فى وجوههم وطريق نشر الإباحية والمشاعية .

فوجود المحرم والغيرة سيجعل الإنسان يرفض ماتدعـو إليه الشيوعية .

ومـن هنا نجدهم حاربوا الملكيـة الفردية وكل مايدعـو إلى زيادة هـذا الشعور فى النفس الإنسانية .

وقـالوا بأن الشيوعية ستحقق للفتاة ماتتمناه من حرية فى هـذا الجانب وتهب نفسها لمن تشاء ولن يكون ذلك إلا إذا زال المحرم وزالت الغيرة من النفس البشرية .

ونقول لهم أيضا إن الحيوانات قد وجدت بينها الغيرة حيث إن بعض الـذكور تأخذه الغيرة على أنثـاه ، فإذا كان هذا الشعـور فى الحيـوانات التى لاتعقل فكيف لايكون موجودا فى الإنسان متأصلا فيه؟!!

مع أن وجود الملكية عند الحيوانات تكاد تنعدم إذا حصلـت على قوت يومهـا فى الغالب فكيف يفسـرون ذلك؟ إن هذا الذى قـالوه تخبط وظلمات بعضها فوق بعض ماتلبث أن تزول إذا عرف الحق وأشـرقت شمس الحقيقة .

وهكذا يتبين لنا فساد أقوالهم ومزاعمهم عن الأسـرة والحياة الزوجية وتربيـة الأطفال . ثم إن مـن أعظم مايمكن أن يرد به على مـزاعم الشيوعية هو واقع الاتحاد السوفييتى .

واقع الاتحاد السوفييتى ومصادمة فطرية الزواج والحياة الأسرية :

كان الاتحاد السوفييتى أشد الأمم محاربة للأسرة والقضاء عليها وكانوا يهدفون من ذلك أن لايكون هناك أدنى ولاء لغير الدولة ، ولاعتبارهم أن نظام الأسرة يزيد وينمى من مشاعر الملكية الفردية فالقضاء عليها ومصادرتها سيحقق المصلحة للشيوعية ، ومع ذلك لم تستطع أن تصل إلى ماسطرته فى فكرها . يقول محمد قطب : (إن روسيا الشيوعية لهى أشد الأمم محاربة للأسرة ودعاية للمحاضن ووراء هذه الحرب تكمن شهوة ملحة فى مقاومة الفطرة الطبيعية فى مسألة الملكية الفردية ، فهم يقولون إن نظام الأسرة هو الذى يربى مشاعر الأثرة وحب الملكية لتوريث الأولاد ، والنظام الشيوعى يقوم على إلغاء الملكية الفردية ، فلابد لمقاومة هذه المشاعر ونزع الميل إلى التملك من وجدانات البشر ـ من محاربة عواطف الأسرة ، وجعل الأولاد ملكا للدولة لالآبائهم الحقيقيين ، يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال ضمان إشراف الدولة على الأولاد ليخرجوا شيوعيين مضمونين! ولكن هذا يؤدى إلى ضررين محققين : أولهما عجز المحاضن عن إمداد الأطفال بحاجتهم النفسية مما يؤدى إلى تنشئتهم على الصراع المطلق لاعلى الحب والتعاطف ، أو تنشئتهم كالآلات لاقلب لهم ولاشعور .

والثانى أن علاقة الرجل والمرأة حين تنتزع منها عواطف الأسرة والأطفال تهبط إلى أن تكون علاقةجسد وشهوة وغريزة مما يؤدى حتما إلى النظر إلى الزواج على أنه قصاصة ورق ، فمادامت الدولة تستولى على الأطفال من أى طريق ، ومادام الزواج مجرد علاقة جنسية فما الفارق بين علاقة وعلاقة؟ ومالذى يلزم الزوج والزوجة بالاخلاص ، أو الوفاء ، الذى يجد من المتعة البهيمية الخالصة؟

ولكن بعض عقلائهم ينفون هذا كله ، ويقولون إن التربية فى المحاضن ضرورة لجأت إليها روسيا لتمنع الآباء الجهلاء من إفساد الأطفال بجهالتهم ، فعلى هذا الأساس قد تسلم لهم على أنها ضرورة لجأ إليها جيل

لاعلى أنها النظام الصالح الأصيل)[١].

ومع هذا كله فإن الشيوعية عجزت عن أن تصل إلى ماسطرته فكريا لأنه يتصادم مع الفطرة الإنسانية . ونوضح ذلك فى التالى :

أولا : أن أصحاب الفكر الشيوعى لم يستطيعوا أن يتخلصوا من هذه الغريزة فبنوا حياتهم بالزواج وإقامة الأسرة وانجاب الذرية .

يقول الخفاجى : (عندما تكلم ماركس وانجلز عن المشاعية الجنسية كان كل منهما ماديا حقا . ولكن عندما يظل كل منهما أبا وزوجا لآخر يوم فى حياته فإنه يكون فى هذه الحالة خاضع لمنطق فطرى أقوى من كل مؤلفاته ألست ترى معى أن هذا التناقض بين النظرية والتطبيق هو من جهة دليل على عدم صحتها ومن وجهة أخرى سبب قوى من أسباب الصراع النفسى ... ألا يكفى برهانا على صحة الإسلام خلو المؤمنين به من هذا التناقض فى حياتهم ، وأنه لذلك دين الفطرة حقا ...)[٢].

ثانيا : واقع شعوب الاتحاد السوفييتى يرفض هذا الفكر ، فيقال لهم : (عندما يتحرق الواحد منكم شوقا إلى ابنه أو زوجته فإنما يكون بفطرته متناقضا مع كل ماتدعو إليه من مشاعية جنسية مستشهدين بزوال هذه الروابط الأسرية فى فجر التاريخ . وإن كان الهجوم المتواصل عليكم جعلكم تغلفونها فى عبارة جديدة لاتلفت الأنظار هى المعاشرة الاختيارية ... ومقتضى هذه العبارة أو تلك ألا يكون لك تعلق بواحدة بعينها ولابابن بعينه حتى لاينحدر حب الملكية الخاصة فى نفسك باعتبارها رجسا إجتماعيا اقتصاديا)[٣].

ثم إن الشيوعية برغم مافعلته (لم تستطع أن تجعل شعبها يتخلص من

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام (١٩٠) .
(٢) حوار مع الشيوعيين (١٠٢-١٠٣) .
(٣) المرجع السابق (١٠٢) .

هذا النظام الفطرى على الرغم مما فى حياتهم من انحراف أوجده هذا النظام)[١].

ثالثا : تراجعهم عن ذلك الفكر مما يدل على مصادمته للفطرة وكل ماصادم الفطرة فمصيره الزوال ومابقى فترة بقائه إلا بالقوة والقهر ، حيث مارست الشيوعية تطبيق هذا الموقف من الأسرة المشاعية (بعد قيام الثورة فى روسيا حتى عام ١٩٣٥م حيث تقرر الغاء ماأطلق عليه فى تلك الفترة اسم المعاشرة الاختيارية وتسليم الإنتاج من الأبناء للدولة .. بعد اتضاح المساوىء الإجتماعية من كثرة الاجهاض وانتشار الأمراض السارية مما هدد سير عجلة الإنتاج واضطرهم إلى إعادة تقييد اجراءات الزواج والطلاق بدعوى الإنسان لم تتطور داخلياته بعد إلى الحد الذى يصلح لممارسة هذه القيم الجديدة وأنه لذلك يلزم إرجاء التطبيق الحرفى لهذا الاعتقاد ضمن ماأرجىء من قضايا على مدار مرحلة الإشتراكية ريثما يحين عصر التطبيق الكامل للشيوعية)[٢].

رابعا : جاء فى المعجم ـ الاعتراف بأهمية العائلة وتربيتها للأطفال والرد على أن الماركسية تريد القضاء على العائلة حيث قالوا إن العائلة التى تريد الماركسية القضاء عليها هى العائلة القائمة على الملكية الخاصة ـ (فى الاتحاد السوفييتى توجد العائلة تحت حماية الدولة (دستور الاتحاد السوفييتى المادتان ٦٦،٥٣) فهى تحمى الحقوق المتساوية لأفراد العائلة وتقدم لها المساعدة فى تربية الأطفال وتنظيم المعيشة المنزلية ، وتلزم الوالدين بتربية الأطفال ، كما تلزم الأطفال بمساعدة الوالدين .

انتشرت انتشارا واسعا بين علماء الاجتماع البرجوازيين وجهة نظر تقول إن الشيوعية تفضى إلى القضاء على العائلة . لقد أشار كلاسيكيو الماركسية فى حينه إلى أن الشيوعية تطرح المسألة فقط حول القضاء على

---

(١) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٧٢) .
(٢) حوار مع الشيوعيين (١٥٤) .

العائلة القديمة القائمة على الملكية الخاصة والمصلحة الإقتصادية والتبعية الإقتصادية . وفى المستقبل سوف يضمحل الضبط الشرعى للعائلة ، فالعائلة الخالية من الحسابات المادية تفرد أسرة حقيقية لأناس متحابين تساعد على الترقى الروحى للفرد البشرى)[1].

ويقال لهم هنا كيف ستكون الأسرة إذا ، إذا قضى على الأسرة البرجوازية صاحبة الملكية؟

خامسا : أن فطرية الزواج والحياة الأسرية هى الأصل فى النفس الإنسانية ومهما حاولت الأنظمة الأرضية أن تنتزع هذه الحقيقة فلن تستطيع ولاأدل على ذلك من البلدان الشيوعية التى أعلنت الإلحاد دينا ، ونبذ الأخلاق والفضيلة منهاجا وشريعة ، فقد بقى الناس على فطرتهم هذه راغبين فى الزواج وإقامة الأسرة والحنين إلى ذلك السكن ،ذلك أمر الله تعالى فلاغالب له ، وتلك فطرة الله تعالى فلانازع لها ، وذلك قضاء الله تعالى فلاراد لقضائه جل وعلا .

ثم إن مصادمة فطرية الزواج والحياة الأسرية كان له أثر كبير فى سقوط الشيوعية . حيث إن هذه المصادمة تجعل الباب مفتوحا لهذه الشعوب باشباع غرائزهم وشهواتهم بالطرق المحرمة فتشيع الفاحشة ، وتنعدم الأخلاق ، وبالتالى تنهار الأمة ، وتسقط فى الحضيض ، حيث لاتبقى الأمم إلا بأخلاقها وتذهب حين تذهب أخلاقها .

ثم إن واقع القادة السوفييت ، والشعب السوفييتى يكذب هذه الأفكار النظرية كلها ، ويردون بأفعالهم على أقوالهم ، لأن الفطرة وأمورها أكبر من أن تنزع وتصادر من الإنسان ، ومصيرها أن تنتصر ولو بعد حين ، لأن بقاءها واستمرارها يتفق مع سنن الله تعالى فى خلقه وفى الكون وماخالفها من نظام إلا كان عليه أن يجهز نفسه للاحتضار وهذا ماجنته الشيوعية على نفسها حين صادمت الفطرة الإنسانية ، ولم تقف فى صدامها ذلك عند حد معين بل أرادت أن تستأصل من النفس الإنسانية كل ولاء أو إنتماء لغير الشيوعية ، فكانت الدعوة إلى الأممية ، والتخلى عن الوطنية لأن العالم كله وطن للعمال . فهل استطاعت الشيوعية أن تزيل من قلب الإنسان حبه لوطنه وإنتمائه إليه . هذا ماسنتعرف عليه فى المبحث التالى .

---

(١) (٢٩٩) .

المبحث الرابع
مصادمة الشيوعية لفطرية التجمع والإنتماء

عملت الشيوعية على القضاء على كل رابطة ، إلا رابطة الإنتماء للحزب والقيادة الشيوعية .

ورفع ماركس وانجلز شعار ياعمال العالم اتحدوا ، وهذا الاتحاد ليس فقط فى المطالب والأهداف بل ليكون العمال كلهم فى العالم كالجسد الواحد وتكون الأرض والأوطان لهم جميعا .

فإذا حدث حادث فى موسكو ثار العمال فى أسبانيا ، وهكذا .

ومن هنا طلبوا التخلى عن كل رابطة تربط الإنسان ببلده الذى يعيش فيه ، لأن الإنتماء للوطن وحبه سيؤدى إلى التقصير فى حق الحزب ووجود الأنداد الذين يتخذون من دونه فى نظر الماركسيين!! فقطعوا كل صلة للانسان بوطنه وقامت دعوتهم للأممية وتناسى الشيوعيون فطرة الإنسان فى انتمائه لوطنه وحبه لأرضه التى نشأ فيها ، ولكن هذا كله لم تقم له الشيوعية أى اعتبار فلم يكن يهمهم إلا مصلحة الحزب الشيوعى ليس إلا . ونعرض الآن لإثبات فطرية الإنتماء وحب التجمع فى الفطرة الإنسانية .

فطرية التجمع والإنتماء :

إن الله تعالى أثبت حب الإنسان للانتساب إلى أصله وموطنه وليس فى ذلك مايضر إذا كان ذلك فى حدود الفطرة التى أوجدها الخالق جل وعلا فى النفس الإنسانية .

قال تعالى : {**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**}(١).

يقول ابن كثير رحمه الله : (أى يحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته)(٢).

---

(١) سورة الحجرات : (١٣) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢١٧/٣) .

فهـذا دليـل على وجود القبـائل والشعـوب واختلافهـا ، ولاحرج أن ينتسـب كل إلى قبيلته أو قومه أو وطنه . ويمكن بيان أن الإنسـان فطر على هذا الإنتماء فى النقاط التالية :

أولا : أن اللـه تعـالى خلق الخلـق وجعلهم شعوبا وقبـائل ، ولايمكـن بحال ألا يكـون فى قلوب الشعـب الواحد رابطة فيما بينهـم ، وولاء بعضهم لبعـض ، كونهم يدا واحدة فى تحقيق مصالحهم والحفاظ عليهـا من الأعداء . وحفـاظهم على أرضهم من الأعـداء ، وقد أثبت التاريخ تلـك الحقيقة وهى اجتمـاع القبيلة الواحدة فى الدفاع عن مصالحها وأرضهـا أو الشعب الواحد وحتى وقتنا الحاضر .

ثانيا : امتـدح اللـه تعالى الـذين هـاجروا فى سبيلـه وتركـوا ديارهم وأموالهم ، فدل ذلك على أنهم تركوا ماتتعلق به نفوسهم وأصبح من دلائل الإيمان وقـوته الهجـرة من الأرض التى عـاش فيها الإنسـان إلى أرض أخرى وترك الأهل والأموال فيها .

ثالثا : أن التشريعات الإسلامية تراعى مصلحة الجماعة بالدرجة الأولى وهـذا دليل على أن الحياة فى مجتمـع ينتمى إليه الإنسـان هـى الأصل فحكم القصـاص المصلحة الأولى فيه للمجتمع ، وإقامة حد الـزنا والسرقة كذلك ، وتحريم الـربا وغيرهـا لمصلحـة المجتمـع فـدل على أن التجمـع والحيـاة بين مجموعة من الناس هو الأصل الذى فطر عليه الإنسان .

رابعا : أن المجتمـع البشرى منذ آدم عليه السلام وهـو فى تجمع وبدأ المجتمـع ذلـك فى أضيـق نطـاق وأبسـط صـورة ممكنـة ، الأسـرة ، الـزوج والـزوجة ، الأبنـاء فهـذه تدل على تغلـب النزعـات الجمـاعية على النزعـات الفردية المستقلة وتخضعها لسلطانها بأى طريق[1].

خامسا : أن الواقع والمشاهد يدل على أن الحنين إلى الأرض التى نشـأ فيهـا الإنسان شعور فطرى يظـل ملازم له حتى ولو ابتعـد عنهـا وتراه يدافع عنهـا بكل قوة . إن حب الأرض التى نشـأ فيها الإنسـان (شعور فطرى يدفع

الإنسان إلى الدفاع عن محضنه الذى نشأ فيه وترعرع . والحنين إلى هذا المحضن شعور غريزى فى الإنسان ويبقى هذا الشعور ملازما الإنسان سواء درج فى أطوار حياته كلها بين مرابع هذا المحضن أم أن الظروف اضطرته إلى أن يعيش غريبا عن محضنه الأساسى وفى هذه الحال يشتد الحنين فى نفس هذا الإنسان فيدفعه للقيام بالكثير من الخدمات لمحضنه وهو عنه بعيد)[٢].

وبهذا نتبين أن الإنتماء للوطن وحبه أمر فطر عليه الإنسان ، كما أن الإنسان يميل بطبعه إلى أن يعيش ضمن مجتمع يقول وليام هاولز : (لن نستطيع أن نفهم العلاقات الإنسانية حق الفهم إلا إذا أدركنا أن نظمنا الاجتماعية الأساسية تقوم على مجموعة قوية من الميول الطبيعية - التى تكونت خلال تطورنا "البيولوجى" - لأن نتصرف بالشكل الذى نتصرف به فعلا . وقد بينت لنا الرئيات الأخرى نوع تلك الميول : حاجة الفرد إلى أن يعيش فى مجتمع وأن يقيم علاقات محددة ومعقدة ولكن دائمة ومؤكدة مع غيره من الأفراد)[٣].

ونأتى الآن إلى عرض موقف الشيوعية من فطرية التجمع والإنتماء .

الشيوعية ومصادمة فطرية التجمع والإنتماء :

عملت الشيوعية دائما على مصادمة الفطرة الإنسانية بكل توجهاتها ، ومن ذلك حب الإنسان لوطنه ، وأن يعيش فى مجتمع ينتمى إليه تربطه به رابطة الفكر واللغة ، وغير ذلك . واعتبر الشيوعيون أن الوطن الكبير لعمال العالم أجمع هو الاتحاد السوفييتى . ويعرفون الوطن بأنه (البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية التى يحيا ويعمل فيها الشعب)[٤].

---

(١) انظر الإنسان بين المادية والإسلام (١١٢-١١٣) .

(٢) الحقيقة الكاملة (٦٤) .

(٣) ماوراء التاريخ (٦٣) ، ترجمة د. أحمد أبو زيد ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دون ذكر لرقم الطبعة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر .

(٤) المعجم (٤٥٤) .

وهم يرون أن المجتمع البدائى كان كله وطن لجميع الشعب حيث كانت الملكية المشاعية لوسائل الإنتاج ، ثم تبدل الأمر بعد ظهور الطبقات ونشوء الدولة وتقسيم العمل[١]. وعلى هذا الأساس فالإنتماء للوطن والاحساس به يكون أمرا مخترعا من قبل البرجوازية . يقول لينين : (فى زمن "عصر" هذه الامبريالية الجموح لم يعد بالامكان حدوث حروب وطنية ، وما المصالح الوطنية غير وسيلة خداع غرضها تسخير جماهير الكادحين الشعبية لخدمة عدوها اللدود الامبريالية)[٢].

فهم يعتبرون الاتحاد السوفييتى بلاد الإشتراكية ، ووطن العمال الوحيد جاء فى الدستور الشيوعى : (يجسد الاتحاد السوفييتى وحده الشعب السوفييتى فى دولة واحدة ويجمع كل الأمم والأقوام من أجل بناء الشيوعية معا)[٣].

وقد شنع لينين وتهكم بأولئك الذين لم يمانعوا فى مدافعة الإنسان عن وطنه ، وقال إن هذه الفكرة تهكم تافه بالإشتراكية ، وقال على سبيل السخرية والتهكم بهؤلاء (الأممية الحقيقية .. تقوم فى تبرير اطلاق العمال الفرنسيين الرصاص على العمال الألمان واطلاق العمال الألمان الرصاص على العمال الفرنسيين دفاعا عن الوطن!)[٤].

واعتبر لينين أن هذه فكرة شوفينية[٥]، تماثل الفكرة الانتهازية[٦]،

---

(١) انظر المعجم (٤٥٤) .

(٢) نقلا من كتاب الماركسية وحرب العصابات (٤٩) ، مجموعة من المؤلفين ، ترجمة إبراهيم العابد ، ماهر كيالى ، الطبعة الأولى ١٩٧١م ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

(٣) المعجم (٣٠٩) .

(٤) إفلاس الأممية الثانية (٢٠) .

(٥) يعرفها لينين بقوله : (الإقرار بفكرة الدفاع عن الوطن فى الحرب الامبريالية ... وتبرير تحالف الاشتراكيين مع برجوازية وحكومات بلدان (هم) فى هذه الحرب ، ورفضهم القول بضرورة الأعمال الثورية البروليتارية ضد بورجوازيتهم ورفضهم مساندة هذه الأعمال) .

(٦) الانتهازية كما يعرفها لينين هى (تضحية المرء بمصالح سواد العمال الأساسية من أجل مصالح مؤقتة لأقلية تافهة من العمال) . إفلاس الأممية (٥١-٥٢) .

وهـذه الأفكار تتعارض مع الفكر الإشتراكى الذى لايرى الـدفاع عن الوطن ضد الاعتداء إذا كان العمال طرفا فيها . فالعامل لاوطن له .

هـذا بالنسبة للوطنية ونزعهـا من النفس الإنسانيـة ، واعتبـارها تصادم الفكـرة الإشتراكية . ويلحـق بذلك بداهة أن الإنسان لابد وأن يقطـع صلتـه بالقـوم الذين ينتمى لهم ومن هنا جاءت معاداة القوميـات أيضا ، وقد اهتم الشيوعيون بالقضاء عليها وأعلنوا أنها من المخلفات البرجوازية التى تتنـاسب مع الاستغلال ، ويعرفونها بقـولهم : (النزعة القوميـة ـ نفسيـة وأيديولوجية وعقيـدة وسياسة تفضل بعض الأمـم على بعضها الآخر ، تعظيم المرء لأمتـه ، إثارة النفور القومى والكره العرقى)[١].

ويرون أن نشـأة القـومية (مـن علاقـات الملكيـة الخاصـة والاستقلال والبرجوازية والبرجوازية الصغيرة همـا حاملتـاها . أمـا البروليتـاريا فهـى بوصفها حاملة للأممية براء بطبيعتها من القومية)[٢].

ويقـولون : إن الوطنية الإشتراكيـة الأممية ، معـادية لنزعـة التعصب القومى ، ومنافية لنزعات ضيق الأفق)[٣].

ويقـول مـاركس : (إن العمـال فى أكثريتهـم السـاحقة منزهـون عـن الأوهـام القـومية لأن ثقافتهـم وحضـارتهم فى الجوهر إنسـانيتان ومعـاديتان للقومية)[٤].

ويقـول لينين : (إن الماركسيـة لاتقف مع التعصـب القومى مهما كان عادلا وصافيا وناعما ومتمـدنا بل إنها تستعيض عن التعصـب القـومى ، أى تعصب بالأممية باندماج جميع الأمم فى وحدة عليا تتطور وتنمو)[٥].

---

(١) المعجم (٤٠٠) .
(٢) المرجع السابق (٤٠١) .
(٣) المرجع السابق (٤٥٧) .
(٤) القـومية العربية (٣٥) ، عفلق والبيطـار ، نقلا من كتاب الشيـوعية منشأ ومسلكا (١٣٩) .
(٥) قضـايا الخلاف فى الحزب الشيـوعى السـورى (٢٣٤) ، نقلا مـن كتـاب الشيوعية منشأ ومسلكا (١٣٩-١٤٠) .

إن القضاء على الوطنية والقومية كان من أهم الأهداف التى ترغب الشيوعية فى تحقيقها ، وإذابة الشيوعيين فى كل أنحاء العالم فى فكر وتوجه الاتحاد السوفييتى ، وهذه عادة الشيوعية فى القضاء على كل آصرة أو إنتماء لغير الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى ، وأصبحت قضية التبعية للاتحاد السوفييتى ورفض الولاء لغيره شعارا للأحزاب الشيوعية فى أنحاء العالم ، فأصبح الفرد الشيوعى يقدم مصلحة الاتحاد السوفييتى على مصلحة وطنه وشعبه .

(وفكرة التبعية للاتحاد السوفييتى أصبحت بالنسبة للشيوعى غير الروسى مبدءا من المبادىء التى يعتنقها ويلتزمها وبذلك تكون مصلحة الاتحاد السوفييتى مقدمة على أى مصلحة وطنية فى الوطن الذى يعيشه الشيوعى ، وقد عرف عن الشيوعيين خارج نطاق الاتحاد السوفييتى تقديم مصلحة الاتحاد السوفييتى وتسويغ مواقفه على المصلحة الوطنية التى توجب على المواطن أيا كان مذهبه ومنهجه الفكرى أن يلتزمها ويعمل من أجلها وقد تعلموا هذا وتشربته أفكارهم من خلال التعاليم الشيوعية ، فقد جاء فى محاضرة لستالين ألقاها فى موسكو عام ١٩٢٤م : (إن من واجب الشيوعى فى كل الأحوال أن يناضل ضد الوطنية الضيقة وأن لايحصر نفسه فى حركته المحدودة الأفق)[١].

وقد أثبتت الأحزاب الشيوعية إلى حد ما هذا الاتصال والقرب والاندماج مع الاتحاد السوفييتى ، ومن ذلك الأحزاب الإشتراكية فى البلاد العربية[٢]، ثم إن الشيوعيين قاموا بالدعوة إلى الأممية بل واعتبروها من المبادىء الأساسية التى يقوم عليها فكرهم وقالوا : (إن الماركسية عقيدة

---

(١) القضية الوطنية (٣٨) ، نقلا من كتاب الشيوعية منشأ ومسلكا (١٤٨) ، وانظر حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (٣٢) .

(٢) انظر الشيوعية منشأ ومسلكا (١٢٥-١٢٧) .

أممية ، من حيث مصادرها الاجتماعية والنظرية ، ومن حيث منشأها ومنهجها ، وهى تحمل طابعا عالميا حيث مضمونها وأهميتها وتأثيرها العلمى)[١].

وبعد هذا العرض المختصر نصل إلى التالى فيما يخص موقف الشيوعية من فطرية التجمع والإنتماء .

أولا : أن الولاء لايكون إلا للشيوعية وبالتالى فلااعتراف بالإنتماء للوطن أو القومية ، لأن ذلك يقف عائقا فى موالاة الحزب .

ثانيا : ربط هذه الميول إلى التجمع والإنتماء بالملكية الفردية .

ثالثا : دعوتهم للأممية ياعمال العالم اتحدوا .

غير أن موقف الشيوعية ذلك من هذه النزعات لم يبدل شيئا فيها ، بل بقيت على ماهى عليه فى النفس الإنسانية وبالتالى لم تفلح الشيوعية فى تحقيق مطالبها كما أثر موقفها ذلك عليها سلبا .

بطلان مزاعمهم هذه من عدة وجوه :

أولا : أن النفس الإنسانية تميل إلى التجمع وتنزع إليه بدون سبب من ملكية أو غيرها ، ثم تربطها بتلك المجموعة أواصر عديدة يستحيل انتزاعها من النفس البشرية .

(أ) أن الرغبة فى التجمع أمر فطر عليه الإنسان ، ووجدت هذه الرغبة فى نفسه وليس لمؤثرات خارجية .

(إن الرغبة ـ الفطرية ـ فى الاجتماع بالآخرين هى التى أنشأت "المجتمع" بادىء ذى بدء ـ فى أية صورة من صوره ـ لتلبية تلك الرغبة العميقة فى نفس الفرد . وحين نشأ المجتمع ـ فى أية صورة من صوره ـ تعددت حاجاته ونمت ، بحكم الفطرة التى أنشأته من قبل بما أودعها خالقها من طاقات واستعدادات واتجاهات {**وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**}[٢]، فنحو

---

(١) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٣/١) .

(٢) سورة الحجرات : (١٣) .

"الإنسان" إلى شعوب وقبائل هو العمل الحتمى الناشىء من إرادة الله . والمنفذ عن طريق الفطرة التى خلقها الله وأودعها هذا الميل والقدرة على تحقيقه ، وليس ناشئا من تطور أساليب الإنتاج ، ولاأى ضرورة أخرى "خارج" النفس البشرية ، وخاصية النمو التى تنمى الطفل حتى يبلغ أشده، وهى خاصية بيولوجية أى فى صميم الفطرة ، هى ذاتها التى تنمى المجتمعات الصغيرة إلى مجتمعات كبيرة فتنمى العشيرة إلى قبيلة والقبيلة إلى أمة ... وهكذا . وتنمى العلاقات بين الناس من علاقات بدائية صغيرة مباشرة إلى علاقات معقدة كبيرة غير مباشرة ، وفى أثناء ذلك تجىء أساليب الإنتاج المتطورة فتحتل مكانها من الصورة ، "وتلبس" فى حيزها قوة متفاعلة مع السياق كله آخذه ومعطيه فى ذات الوقت ومتجهة فى اتجاه الفطرة الكبيرة ، فى إتجاه النماء . ويتبادل تطور الإنتاج وتطور المجتمع علاقة السببية من طرفيها فتارة يكون تطور الإنتاج هو السبب فى تطور المجتمع ، وتارة يكون تطور المجتمع هو السبب فى تطور الإنتاج ، وفى النهاية يكون المصدر هو الفطرة المتصفة بخاصية النماء)[1].

(فالمجتمع إذن حاجة نفسية تنبض من نفس الفرد من رغبة ملحة فى ألا يعيش وحده سواء كان الخوف من الإنفراد ، أو الشعور بالوحشية أمام الحيوانات المفترسة أوقوى الطبيعة المجهولة أو كانت المصلحة ، حين وجد كل فرد أنه يستطيع أن يدرك بالإشتراك مع غيره، مالايستطيع أن يدركه وحده ، أو كانت غريزة الجنس ، أو نزعة القطيع ... فالنتيجة الأخيرة واحدة ، وهى أن نزعة لاتقهر هى التى أنشأت المجتمع من ضمير الفرد)[2].

(ب)أن حياة الإنسان ضمن مجتمع يحقق له مصالح كثيرة حيث الروابط بين أفراده مما يقلل العداء والظلم فيما بينهم ، فالإنسان يميل إلى التجمع بطبعه وفطرته . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (كل بنى آدم لاتتم

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية (١١٤) .
(٢) الإنسان بين المادية والإسلام (١١٢) .

مصلحتهم لافى الدنيا ولافى الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر ، فالتعاون على جلب منافعهم ، والتناصر لدفع مضارهم ، ولهذا يقال : الإنسان مدنى بالطبع ...)[١].

ويقول ابن خلدون : (إن الإجتماع الإنسانى ضرورى ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدنى بالطبع ، أى لابد له من الإجتماع)[٢].

فكان هذا التجمع نظرا لاحتياج الفرد إليه (لأنه لايستطيع أن يفى باحتياجاته كاملة بمفرده ، كما أن الميل الغريزى بين جنسه يدفع إلى الإجتماع ، وهذا من حكمة الله تعالى حتى يتحقق العمران فى الأرض وتستمر الحياة يانعة مورقة فى الأجيال المتعاقبة حتى يرث الله الأرض ومن عليها ...)[٣].

(ج) أن العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة وثيقة وثابتة ، حتى لو اتخذت أشكالا مختلفة فى عصر من العصور (والمجتمع جزء من الفطرة . الفطرة الثابتة .. والعلاقة بين الفرد والمجتمع كذلك ثابتة فى عمومها . وكونها تتقلب فى شتى العصور ذات اليمين وذات الشمال ، فأخذت صورة فردية حادة أو جماعية ، حادة لايعنى أنه ليس لها مقياس من الفطرة ولاأنه مقياس غير ثابت ، وإنما يعنى فقط أنها - ككل شىء فى الفطرة البشرية - قابلة للانحراف كقابليتها للاعتدال)[٤].

وبهذا نقول إن الإنسان يميل بفطرته إلى أن يعيش فى مجتمع ويندمج خلال مجموعة من الناس ، إذ أن هذا الشعور فطرى فى نفسه خلق عليه .

---

(١) الحسبة فى الإسلام (٤) ، دار الفكر ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
(٢) المقدمة (٤٦) .
(٣) نظام الحياة فى الإسلام (٧-٨) ، أبو الأعلى المودودى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، من مقدمة الناشر ، وانظر الفكر الأوروبى (١/٢٣٠-٢٣١) .
(٤) التطور والثبات فى حياة البشرية (٢٢٦) .

ثانيا : بطلان مزاعمهم والرد على أقوالهم بشأن القضاء على فطرية الإنتماء . وفى هذا نقض لمبدأ الأممية التى نادت بها الشيوعية .

لقد حاولت الشيوعية أن تقطع عن الإنسان كل إنتماء لغير الشيوعية والحزب الشيوعى فى موسكو ، غير أنها عجزت عن تحقيق ذلك ولم تستطع أن تقتلع هذه الفطرة وهى حب الوطن والإنتماء إليه من نفوس الشغيلة فى العالم ، وتعين بطلان ذلك الزعم وعدم تحققه بالوجوه التالية :

الوجه الأول : أن حب الإنسان لموطنه الذى ولد فيه ونشأ فيه أمر ليس بحاجة إلى دليل حيث إن واقع كل انسان يشهد بذلك فالفطرة تكذب إمكانية إبعاد الإنسان عن تعلقه بوطنه وإنتمائه إليه .

الوجه الثانى : اعتراف الشيوعيين بالوطنية وأثرها فى النفس الإنسانية وأنها السبب فى إفلاس مبدأ الأممية . ويعلن لينين أن هذه الدعوة العريضة (الأممية) إنما أفلست بسبب وقوف عمال كل بلد مع مصالح بلدانهم فيقول (إن إفلاس الأممية الثانية قد تجلى بأبلغ الوضوح فى خيانة أغلبية الأحزاب الإشتراكية ـ الديمقراطية الرسمية الأوربية ...)[١].

الوجه الثالث : أن لينين صاحب العداء للوطنية ، أصبح يرى ضرورة وحتمية الحروب الوطنية لانتصار الإشتراكية وذلك حينما اصطدم بالواقع فيقول : (إن الحروب الوطنية ضد الدول الامبريالية ليست ممكنة ومحتملة وحسب ، بل هى أمر محتوم تقدمى وثورى ...)[٢]، ويرى لينين أن سبب انتصار دولته فى الحروب التى خاضتها إنما هو بسبب الدفاع عن الوطن فيقول إن (وطنية الإنسان الذى يفضل أن يجوع ثلاث سنوات على أن يسلم روسيا للأجانب هى وطنية حقيقية ماكان لنا أن نصمد بدونها ثلاث سنوات ولولا هذه الوطنية لما تمكنا من حماية الجمهورية السوفيتية وإزالة الملكية الخاصة)[٣].

---

(١) إفلاس الأممية الثانية (٧٠) وانظر مابعدها .
(٢) نقلا من الماركسية وحرب العصابات (٥٤) .
(٣) المؤلفات الكاملة (المجلد ٤٢ ، ص١٢٤) ، نقلا من المعجم (٤٥٦) وانظر : لينين (٢١٤-٢١٥) ، الماركسية وحرب العصابات (٨٣) .

وهكذا أخل لينين بهذا المبدأ منذ السنوات الأولى لتطبيق الفكر الماركسى فى الاتحاد السوفييتى .

الوجه الرابع : أن دستور الاتحاد السوفييتى ينص على حقوق شعب الاتحاد السوفييتى وقومياته ، مما يدل على أن فكرة الأممية والقضاء على الوطنية كانت فكرا لايستند على حجة غير أنها أحلام وأوهام سطرها ماركس بفكره المختلط وعندما جاء أصحاب الثورة البلشفية ، وأرادوا تطبيقها ، كانت الفطرة الإنسانية أكبر من أن تنتزع من القلوب فتراجعوا عن مبادئهم وأقروا ماتطالب به الفطرة ، فبقى حب الوطن ، والإنتماء إليه ، وبقيت القوميات فى داخل الاتحاد السوفييتى[1]، ولم يستطيعوا أن يقضوا عليها داخل دولتهم ناهيك عن خارجها .

ويمكن القول بأن فترة لينين مرت بثلاث مراحل تجاه الوطنية والإنتماء

أولا : إنكار الحروب الوطنية واتهام أصحابها بالانتهازية والاستغلال .

ثانيا : تحت ضغط الواقع ، وجود الإنتماء كأمر فطرى داخل النفس البشرية أعلن عن امكانية الحروب الوطنية ضد الامبريالية .

ثالثا : الدفاع عن الوطن وامتداح الوطنية السوفيتية فى مقاومة الأعداء ، وبالتالى سدد لينين الضربة القاضية للأممية القائمة على مصادمة الفطرة الإنسانية فى حب الوطن والإنتماء إليه .

الوجه الخامس : أن ستالين يكاد يكون نسى هذا المبدأ حقيقة وتطبيقا أما نظريا وكلاميا فعادتهم أن لايستحيوا من تصريحاتهم المناقضة لواقعهم .

ومما يدل على موقف ستالين من قضية الأممية والدعوة إلى الوطنية ماحصل فى عهده من حرب ضد الماينا . فإنه ماأكثر من الحديث عن شىء كحديثه عن الوطنية وأهميتها فى دفع العدو . يقول دجيلاس : (ومما تجدر

---

(١) انظر : نشوء وإنهيار الامبراطورية الشيوعية (٣٤٩) ، الحرب العالمية الثالثة (٢٧٨) ومابعدها ، الجنرال فيكتور فرنر ، ترجمة د. هيثم الكيلانى ، الطبعة الثانية ١٩٨٨م ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

الإشارة إليه أنه لم يجر على لسان "ستالين" أى ذكر للحكومة السوفيتية ، أو للنظام الإشتراكى فى أحاديثه التى وجهها للشعب أثناء الحرب الروسية الألمانية ، بل كان جل ماوقف عليه دوره هو إثارة المشاعر الوطنية ، وضرورة التضحية فى سبيل الوطن الأم دون سواه ...)[١].

لقد (وجد ستالين أن الشعور الوطنى كان من أنجع الأسلحة النفسية التى اقتضتها مرحلة رد العدوان وانقاذ البلد الإشتراكى الأول ، مع ماترتب على ذلك من نتائج فى إذكاء روح الوطنية والقومية على حساب روح الأممية والإنسانية ...)[٢].

الوجه السادس : تراجع الشيوعيون تراجعا واضحا فى الاتحاد السوفييتى عن موقفهم من الأممية والدعوة إلى الوطنية السوفيتية وتنمية الشعور والإنتماء الوطنى ، وقد أجاد كاونتس فى عرض هذه القضية .

وقال نشر (بحث رسمى تحت إشراف اللجنة المركزية لاتحاد الشباب الشيوعيين فى عام ١٩٤٧م ، يؤكد التوجه الجديد للوطنية السوفيتية بالعبارات الآتية : (يقول كل منا فى فخر واعتزاز : إنى مواطن فى الاتحاد السوفييتى ، ونحن نحب بلادنا كما نحب أمهاتنا ، ونحن على استعداد لخدمتها دون أن نضن عليها فى سبيل ذلك بقوتنا أو حياتنا نفسها لأنه لايوجد شعب يبلغ من العظمة مايبلغه شعبنا أو بلد عظيم كبلدنا)[٣].

بل إن حب الوطن أصبح جزءا من الأخلاق التى يربى عليها الفرد الشيوعى ، ولاشك أن هذا مساير للفطرة الإنسانية . فجاء فى الكتب المقررة لتدريب مدرسى المرحلة الإبتدائية أن (غرس روح الوطنية السوفيتية فى

---

(١) الكيد الأحمر (٢١٥) .
فى حين أن ستالين قال عام ١٩٢٤م : (إن من واجب الشيوعى فى كل الأحوال أن يناضل ضد الوطنية العنيفة وأن لايحصر نفسه فى حركته المحدودة الأفق) .
القضية الوطنية (٣٨) ، ستالين ، نقلا من كتاب الشيوعية منشأ ومسلكا (١٤٨) .

(٢) تكوين الصهيونية (٢٦٢-٢٦٣) .

(٣) التعليم (١٥٧) .

الجيل الناشىء هو أهم واجبات التربية الأخلاقية فى بلادنا)[١]، وجاء فى كتب التدريب لتدريس المرحلة الثانوية أن (تربية الشباب السوفييتى حسب روح الأخلاق الشيوعية تعنى أولا تربيته حسب روح الوطنية السوفيتية)[٢].

وبعد أن أورد كاونتس ذلك قال : (وهذا التوكيد يحتاج منا إلى شىء من التعليق ، فنقول إن كلمة الوطن وموطن الآباء والأمهات ، والوطنية كانت محرمة من الأعوام الخمسة عشر الأولى من حياة الثورة فقد كانت هذه ألفاظا "برجوازية" مناقضة للماركسية يستخدمها الرأسماليون لتخدير العمال ودفعهم إلى الحروب التى نشبت لصالح الملكية الفردية والمكاسب الخاصة ، وظلت هذه هى الحال حتى ٩ يونيه سنة ١٩٣٤م حين نشرت صحيفة برافدا مقالا بعنوان "الوطنية" تدعو فيه جميع المواطنين السوفييت (الكفاح فى سبيل الوطن ، وفى سبيل شرفه وسمعته ، وقوته ، ورخائه" ، وأعلنت العقيدة القائلة إن (الدفاع عن الوطن هو أسمى قوانين الحياة) وليس ثمة فى تاريخ الدولة البلشفية كله حادثة أخرى تدل على نهاية عهد قديم وبداية عهد جديد بالوضوح الذى تدل عليه هذه الحادثة ...)[٣].

ومعنى الوطنية السوفيتية (حب الوطن ، والافتخار به ، والاخلاص له حبا وافتخارا وإخلاصا لايقف عند حد)[٤]. و(الشعور بالوطنية السوفيتية مفعم بالحقد المرير نحو أعداء المجتمع الشيوعى)[٥].

وهكذا كانت التربية تقوم على غرس حب الوطن والمجتمع الشيوعى فى نفس الإنسان السوفييتى .

الوجه السابع : أن الإنتماء للوطن غريزة فطرية والدفاع عنه كذلك ، وقد اعترف لينين بأن سبب فشل الأممية هو دفاع عمال كل بلد عن بلدهم كما أن الشيوعيين اعتبروا الحرب التى خاضوها ضد الألمان حرب وطنية

---

(١)،(٢) التعليم (١٧٣) .
(٣) المرجع السابق (١٧٣-١٧٤) .
(٤) المرجع السابق (١٧٥-١٧٦) .
(٥) المرجع السابق (١٧٩-١٨٠) وانظر مابعدها .

كبرى[١].

وقد أثبت الشعب السوفييتى بدفاعه عن أراضيه ، وسعيه الحثيث فى طرد الأعداء أن مبدأ الأممية باطل من أصله ، كما دللت تلك المقاومة على النزعة الفطرية فى الإنسان وحبه لوطنه[٢].

لقد كان الولاء للوطن وراء كثير من الانتصارات التى حققتها بعض الدول ، وقد قدمت التضحيات باسم الوحدة الوطنية (إنها قوة ثورية عظيمة)[٣].

الوجه الثامن : ثم يقال لهم لو كان الأمر كذلك فلماذا لم تترك أراضى الاتحاد السوفييتى دون حماية ولماذا لم يسمح لعمال العالم أن يهاجروا إليها ويشكلوا مع البروليتاريا هناك حزبا واحدا ، ولماذا هذا الحرص على الحدود ، وهل كانت ستسمح القوات السوفيتية وقيادتها الحزبية بالتدخل فى الأراضى الروسية من قبل العمال بحجة الأممية . إن المادة ١٣ من القانون السوفييتى بشان المسئولية الجزائية فى المخالفات العسكرية تنص على أن (رفض حمل السلاح يعاقب عليه بالحرمان من الحرية لمدة تتراوح بين ثلاث وسبع سنوات)[٤]. يقول فيكتور فرنر : (ذلك زمن السلم أما فى زمن الحرب فإن من الجائز فرض عقوبة الإعدام)[٥].

---

(١) انظر : الحرب النفسة (١٣٧/١) ، د. أحمد نوفل ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، المعجم (٤٥٦) .

(٢) انظر ماذكره الجنرال فيكتور فرنر عن ذلك الدفاع حتى من النساء فى كتابه الحرب العالمية الثالثة (٢١١-٢١٢) ، وانظر (٢٠١-٢٠٣) ، ولمزيد من دفاع الرجل والمرأة عن أوطانهم انظر (٢٠٦) ومابعدها .

(٣) انظر العالم فى القرن العشرين (١٤-١٥) ، دانييل ر.براور ، مركز الكتاب الأردنى ١٩٩٠م دون ذكر لرقم الطبعة .

(٤) نقلا من كتاب الحرب العالمية الثالثة (١٢٥) .

(٥) المرجع السابق (١٢٥) .

الوجه التاسع : إذا دخلت القوات السوفيتية إلى البلدان الأخرى عسكريا هل فكرت فى أن عمال تلك الدولة تربطهم مع عمال الاتحاد السوفييتى رابطة الأممية أم أن التدمير يقع على الجميع ودون سابق إنذار ، مما يدل على أن الشيوعية اصطدمت بالواقع والفطرة فكانت هذه المواقف تنخر فى جسمها والثقة تفقد فيها على مر الأيام بسبب مصادمتها للفطرة والشعور الإنسانى وقضايا الإنسان الحياتية .

الوجه العاشر : أن عالم الحيوان يعطى دليلا على تأصل هذه الفطرة فى النفس الإنسانية حيث (إن الحيوان يدافع بشجاعة وفعالية أكثر كلما إزداد قربه من مركز المكان الذى يقيم فيه)[١].

وهى نزعة غريزية حيث تقوم بالدفاع عن مكانها الذى تعيش فيه وتمنع الغرباء عنه[٢].

فإذا كان هذا حال الحيوان فإن الإنسان صاحب الأهداف الوقتية والمستقبلية فى حياته من باب أولى .

وبهذا نرى أن ذلك الزعم لم يقم وفشلت الشيوعية فى تحقيقه ، وبالتالى فشلت كما فشلت فى مصادمتها للفطرة الإنسانية فى جوانبها المتعددة .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن الإنسان فطر على حب التجمع والإنتماء .

ثانيا : أن الشيوعية فشلت فى تطبيق مبادئها القائمة على مصادرة تلك النزعات .

ثالثا : أن واقع الاتحاد السوفييتى يدل على فشل مثل هذه النظريات لأنها لم تطبق داخله فكيف يمكن تطبيقها خارجه .

رابعا : أن الشيوعية بهذا تكون أضافت أمرا خطيرا على الأمور السابقة فى مصادمة فطرة الإنسان وشكلت تلك المصادمة لهذه الفطرة أحد الأسباب الرئيسية فى سقوط وإنهيار الشيوعية .

---

(١) كتاب الحرب العالمية الثالثة (١٦٨) .

(٢) المرجع السابق (١٦٨) .

مصادمة الفطرة الإنسانية وأثر ذلك فى إنهيار الشيوعية :

كانت مصادمة الفطرةالإنسانية أقوى الأسباب التى أدت إلى انهيار الفكر الشيوعى وسقوطه ، وإن من أعظم مافطر عليه الإنسان الإقرار بوجود الخالق جل وعلا وأن العمل على إبعاد الإنسان عن هذه الحقيقة أو مصادمتها لن يكون بالأمر الميسور بل لايمكن بحال من الأحوال انتزاعه من النفس الإنسانية حتى ولو استخدمت القوة فى ذلك ، وهذا ماحاولت الشيوعية أن تصل إليه بعد أن فشلت فى طرقها الفكرية . فسكت الإنسان على هذه المصادرة ظاهرا ـ وكان قلبه يعترف بتلك الحقيقة رغم شيوعيته أومسيحيته ، فما بالك إذا كان مسلما ـ والذى أجبره على ذلك ، حرصه على تحقيق أمر آخر فطر عليه وهو حبه للدنيا وخوفه من الموت ... ثم عملت الشيوعية على مصادرة كل ماجاء عن ذلك الطريق الذى هو طريق الدين فحرمت الإنسان من ملكيته ، وجردته من شخصيته ، وأوهمته أن الأسرة والزواج والأطفال ليست إلا انعكاسا للأفكار الإقتصادية ، وأن العامل الإقتصادى وراء وجودها ، وتناسوا العوامل الأخرى ، ثم أرادوا أن ينتزعوا منه حبه لوطنه ومسقط رأسه ولكنهم فشلوا فى ذلك كله ، وبقى الشعب يوهم القيادة أنه قد استجاب لمبادئه تلك ، وذلك خوفا من الحديد والنار ، وماكان لما تصادم مع فطرة الله تعالى بقاء ، ثم أن سنن المولى جل وعلا تحق على كل من عاند واستكبر ، أو سار على غير هديه تعالى .

فتبجحت الشيوعية بإنكار الإله ، وصادمت الفطرة الإنسانية ، وسارت على خلاف الطريق الذى إرتضاه الخالق للبشرية ، ومن هنا حقت عليها السنة الربانية ، فأخذها الله تعالى وفرق جمعها ، وشتت أمرها ، ولم تكمل تلك الإمبراطورية قرنا من الزمن ... فإن نيفا وسبعين سنة ليست عمرا طويلا فى تاريخ الدول والإمبراطوريات . خاصة إذا وضعنا فى إعتبارنا أن ماركس وانجلز وزعماء الثورة البلشفية قد أعلنوا عن حتمية سقوط النظام الرأسمالى وحلول النظام الشيوعى مكانه ، ولكن هاهو النظام الشيوعى يسقط وهاهى الرأسمالية باقية ومابقاؤها دليل على صلاحها ولكنها ـ ورغم كفرها ـ تتمشى مع جوانب كثيرة فى النفس الإنسانية .

إن ماحدث فى الاتحاد السوفييتى ، كان صداما للفطرة التى خلق عليها الإنسان ، وسيرا فى غير الاتجاه الذى رسمه الرحمن ، لسير الخلائق فى هذا الكون ، فكان لابد من الإنهيار والسقوط ، وثبت بذلك أن الفطرة لايمكن القضاء عليها . فهاهى الشيوعية عجزت عن تحقيق ماترمى إليه ، فانهارت ، وبقى ماأرادت له الإنهيار ، وسقطت وبقى ماأرادت له السقوط ، وتراجعت وثبت ماأرادت له الفناء .

نعم إن الشيوعية عملت على هدم نفسها بنفسها ، عندما أنكرت وجود خالقها ، وصادمت فطر شعوبها التى فطرهم الله تعالى عليها ، فكان هذا أحد المعاول القوية التى حكمت على الشيوعية بالزوال ، وبقيت الفطرة الإنسانية تتطلع إلى تحقيق رغباتها ، وماتت الشيوعية قبل أن تحقق شيئا من أهدافها تجاه الفطرة الإنسانية . وبعد هذا العرض نسجل هذه الحقائق :

أولا : أن إنكار وجود الخالق جل وعلا من قبل الشيوعيين كان ظاهرا وقد صدر عن بعض قادتهم ومفكريهم مايدل على الاعتراف بالخالق جل وعلا فى بواطنهم .

ثانيا : أن مصادمة الفطرة الإنسانية ، والسير بخلاف السنن الإلهية ينتهى بصاحبه إلى ماانتهى إليه أمر الشيوعية ، وأن ذلك مصير كل نظام يخالف ماأراده الله تعالى .

ثالثا : أن بقاء الشيوعية هذه الفترة كان عن طريق القوة والقهر لاعن طريق الاقتناع بالفكر .

رابعا : أن واقع الاتحاد السوفييتى يرد على كل مزاعم الشيوعيين وأفكارهم سواء فى إنكار الإله ، أو التملك ، أو الحياة الأسرية ، أو الإنتماء ، وكفى بهذا دليلا على بطلان الفكر وكونه مزاعم ونظريات لايدعمها دليل ، ولايسندها واقع .

خامسا : أن الفرد الشيوعى يتساءل عن هذا التناقض بين النظرية والواقع ، ولأجل ذلك حدث أن كفر بالفكر الشيوعى نفر غير قليل منذ بداية تطبيقه فى الاتحاد السوفييتى ، أما بعد التباعد عن قيام الثورة فإن الهاربين من جحيمها أصبحوا كثيرا حتى من قوادها ودعاتها .

سادسا : أن الشيوعية لم تكتف بمصادرة الفطرة بل أرادت القضاء على الإنسان بالكلية فعملت على مصادرة حريته ، والتى يتطلع إليها من خلال فطرته أيضا فأضافت عاملا آخر فى هدم نفسها بنفسها ، وأظهرت تناقضها أكثر وأكثر بعد أن أعلنت أنها ماقامت إلا لتحقيق الحرية والمساواة والعدل ونأتى الآن للحديث عن القضاء على الحريات الفردية والتى ترتبط ارتباطا وثيقا بالفطرة الإنسانية .

الفصل الثانى
القضاء على الحريات

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد .

المبحث الأول : الحرية الشخصية :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث الثانى : الحرية الدينية :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث الثالث : الحرية الفكرية :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث الرابع : حرية التعلم والتعليم :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث الخامس : الحرية السياسية :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث السادس : حرية العمل :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

المبحث السابع : حرية التنقل :
(أ) فى النظام الشيوعى (ب) فى الإسلام مختصرا

الفصل الثانى
القضاء على الحريات

تمهيد :

إن الشيوعية لم تقم إلا بالقوة والقهر وهذا يتطلب سلب الناس حرياتهم ورغباتهم ، من أجل تقبل ذلك الفكر ، حتى لو تعارض مع نوازعهم الفطرية وتوجهاتهم الشخصية . وأعلن قادة الثورة البلشفية أن هلاك ثلاثة أرباع البشرية فى سبيل أن يبقى الربع الأخير إشتراكيا أمرا لاحرج فيه . ومن هنا لم يعر هذا النظام الإنسان أى اهتمام إلا من خلال زاوية واحدة أن يكون عضوا شيوعيا نافعا يخدم الفكر الشيوعى وأهله .

إن الشيوعية عملت على مصادرة الذات الإنسانية بكل ماتحمله من أمور فطرية وتطلعات إجتماعية .

ودون شك إن العلاقة وطيدة بين الفطرة والحرية ، فكل أمر فطرى يجد الإنسان تحقيق ذاته من خلاله .

فكون الإنسان فطر على الإقرار بوجود الخالق جل وعلا فهو حر فى عبادة ربه تعالى وبالتالى الانعتاق من كل عبودية لغيره جل وعلا ... وكونه فطر على حب التملك فهو حر فى سلوك الطريق الذى يحقق له رغبته تلك شريطة أن تكون منضبطة بضوابط الشرع .. وكونه كرم بالعقل فإنه يتطلع لممارسة الحقوق التى تتعلق بذلك التكريم من خلال منحه حرية الفكر والرأى والقول ، وهكذا ... إن الإنسان يرغب فى الحرية ولايرغب فى تقييدها وتقييد ماتطلبه نفسه وماهو حلال له . بل إن من أهم مايرغب الإنسان فى تحقيقه هو التمتع بحريته وإكرام إنسانيته وعدم سلبه هذه الكرامة.

ويظل الإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان وتحت كل نهج ، يأمل فى تحقيق نوازعه ودوافعه .

والأفراد الشيوعيون ليسوا إلا من خلق الله ومن أبناء آدم عليه السلام ، ففطرهم لاتخرج عن ماقدره الله وقضاه. ورغبتهم فى الحرية لاتخرج عن قضاء الله وقدره .

ولابد من القول هنا أن الإسلام بعقيدته وشريعته يرد على كل مذهب وضعى أو فكر مادى ، وإذا كنا بصدد الحديث عن الحريات فإن الإسلام قد جعل الحرية للإنسان فى كل أموره .. الحريةالشرعية المنضبطة بضوابط دين الله تعالى .

وقد أولى الإسلام الإنسان عناية خاصة فى المحافظة على حقوقه وتنظيم رغباته وشهواته(ويعتبر حق الحرية من أهم الحقوق الإنسانية التى أقرها الإسلام للإنسان ، لأن حرية الفرد مرتبطة بحياته وهى حاجة ملحة للإنسان والإنسان الذى يفقد حريته يفقد ذاته وبالتالى فهو مكبل بالأغلال وشعوره بهذا التضييق يشعره بالمهانة والذل ، ويحد من طاقته ونشاطه ، ولهذا فإن من أولى ثمرات الحرية تشجيع الطاقات البشرية الكامنة ، وتفجير القدرات التى لايمكن أن تؤتى ثمارها المرجوه إلا فى ظل حرية باعثة على العمل ، والجهد والإنتاج)[١].

وهذه الحرية (عامة شاملة تعم الحاكم والمحكوم ، وتشمل الشعوب الصغيرة والكبيرة ، ويطلقها الإسلام لكل مسلم ومسلمة ، وتتناول الشعب الفاتح والشعوب المغلوبة على أمرها على السواء)[٢].

إن هذه الحرية التى قررها الإسلام ملازمة للإنسان بوصفه إنسانا ، إذ أنه يولد بها فيجب احترامها وعدم المساس بها أو مصادرتها من الشخص[٣].

---

(١) المدخل للتشريع الإسلامى (٥٨) ، د. محمد فاروق النبهان ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م دار القمة ، بيروت ، وانظر الإسلام يرفض الشيوعية (٥٥) .

(٢) الإسلام يرفض الشيوعية (٥٥) .

(٣) انظر الإسلام وحقوق الإنسان (١١٦) .

وقد وقف الإسلام من الحريات موقفا وسطا بين المذهب الحر وهو الرأسمالية ، والمذهب الدكتاتورى الشيوعى القائم على مصادرة الحرية . فلا الرأسمالية حققت السعادة وسارت مع الفطرة ، ولا الشيوعية استطاعت القضاء على الحرية لأنها مطلب متعلق بالفطرة الإنسانية . وكان الإسلام محققا للحرية الفردية ، ضمن الضوابط الشرعية .

والحريات فى المذهب الفرد يمكن تلخيصها فى :

(١) (الحريات المقصورة على النشاط الفردى .

(أ) الحريات الشخصية والمدنية .

١ ـ الأمن والحماية من الإعتقال أو الحبس التعسفى .

٢ ـ حرمة المسكن .

٣ ـ حرية المراسلات .

٤ ـ حرية التنقل .

٥ ـ الحريات الأسرية كحق الزواج .

٦ ـ حرية التعليم .

(ب) الحريات الإقتصادية وتشمل :

١ ـ حق الملكية .

٢ ـ حرية المشروعات الصناعية والتجارية .

٣ ـ حرية التجارة والصناعة "المنافسة الحرة" .

٤ ـ حرية تداول المنتجات الوطنية والعالمية .

٥ ـ حرية تحديد الأسعار والأجور تبعا لظروف السوق .

(ج) حرية الفكر (دينية ، وفنية)[١].

(٢) الحرية السياسية[٢].

---

(١) الحريات العامة فى الإسلام (١٨٨-١٨٩) محمد سليم محمد ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) انظر المرجع السابق (١٨٨-١٨٩) .

لمحة عن الحقوق والحريات :

تعتبر الشرائع السماوية هى السباقة لذلك الحفاظ على الحريات والحقوق ، وليس ذلك غريبا لأن الله تعالى هو خالق الخلق وهو أعلم جل وعلا بما يحقق لهم مصالحهم وبما يكون سببا فى سعادتهم وشقائهم ، ومن هنا حافظت الشرائع السماوية على تلك الحقوق والحريات ، وكان الإسلام الدين الخاتم الذى رفع من قدر الإنسان ، وأعطاه كامل حريته ، ولم يقيد ذلك إلا بعدم الخروج على أوامر الله تعالى التى هى فى الأساس من أجل الحفاظ على هذه الحرية وصاحبها ، فكان الإسلام أسبق من هذه الدعاوى والقوانين التى جاءت تنادى بحقوق الإنسان وحريته .

وماظهرت هذه الدساتير(١)، والقوانين(٢)إلا متأخرة على ماجاءت به الشرائع السماوية . والقانون الدستورى هو : (مجموعة القواعد التى تنظم علاقة الدولة بالفرد من الناحية السياسية أى التى تحدد التنظيم السياسى فى دولة ما)(٣).

---

(١) عبر الغربيون عن الدستور بكلمة "كونستيو" Constitutio اللاتينية التى كانت تطلق فى القديم على أوامر الأباطرة الرومان ، ثم استعملت مؤخرا فى الإيطالية للدلالة على قسم القانون الأساسى وانتشرت منها إلى سائر اللغات الأوربية . أما كلمة الدستور فى العربية ، فهى كلمة دخيلة من الفارسية ومعناها فى الأصل مجموعة قوانين الملك وبهذا استعملها العثمانيون لمجموعة قوانينهم ، واستعملوا للقانون الأساسى كلمة "المشروطية" لأنها تقيد سلطة السلطان بشروط واردة فيها ... ولم تستعمل كلمة الدستور غالبا بمعنى هذا القانون الأساسى فى البلاد العربية إلا منذ أوائل هذا القرن .
انظر أركان حقوق الإنسان (٣٩) ، د. صبحى المحمصانى ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م دار العلم للملايين ، بيروت ، القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الأول (٢٠) ، د. عبد الحميد متولى ، د. سعد عصفور ، د. محسن خليل ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) القانون هو : (مجموعة القواعد التى تنظم الروابط الاجتماعية وتتوفر على جزاء يكفل اطاعتها واحترامها) .
القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الأول (٩) .

(٣) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الأول (٢٢) .

لمحة تاريخية عن القوانين والدساتير وحقوق الإنسان :

عرفت المجتمعات الإنسانية كثيرا من المواثيق والاتفاقيات الدولية وتهدف إلى تحقيق المصلحة الخاصة والعامة .

وصدر عن الدول الأوربية عدة قوانين فصدر عن الانجليز عدة وثائق كان أولها عام ١٢١٥م ثم لحقها عدة وثائق أوضحها وأبينها سنة ١٦٢٨م وسميت عريضة الحق ثم إعلان الحقوق سنة ١٦٨٩م ، ثم قانون التسوية سنة ١٧٠١م ، وقد اشتملت هذه الوثائق على الاعتراف بالحقوق لعامة الشعب وتثبيت الديمقراطية ، ومبدأ الشرعية ، وسيادة القانون ، ومايستتبع ذلك من مساواة وحريات ، وضمانات عملية(١).

وصدر القانون الأمريكى عام ١٧٨٧م وعدل مرارا ونص على حرية العقيدة ، حرمة النفس والمال والمنزل ، حرية التقاضى ، وعدم التجريم بدون محاكمة عادلة ، ضبط القوى المسلحة ، وشروط حمل السلاح ، ونصت تعديلات لاحقة على تحريم الرق ، وتحرير الأرقاء ، وعلى المساواة فى حق الانتخاب ، من دون تمييز لجهة العرق أو اللون أو الجنس(٢).

ثم كانت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م وصدر (إعلان حقوق الإنسان والمواطن)(٣)ونص على الحرية . ومما جاء فى مواده المادة الأولى (يولد

---

(١) انظر أركان حقوق الإنسان (٤٠) .

(٢) المرجع السابق (٤١) .
وانظر : صحيفة عكاظ العدد (١٠٧٣٥) (٩) ، نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمركية (١١-٣٩) ، بروسترك ، دينى ترجمة د. ودوده عبد الرحمن بدران ، مراجعة شويكار محمد زكى ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، مصر ، وفيه دراسة عن الدستور الأمريكى وأثره فى السياسة الأمريكية ، وكذلك مراعاته للحريات الدينية والصحفية وحرية الرأى ... (إن الكونجرس لن يصدر أى تشريع من شأنه المساس بوجود دين معين أو يمنع من حرية ممارسة هذا الدين أو يحد من حرية التعبير أو الصحافة ، أو حق الأفراد فى التجمع السلمى ، وتقديم التماس للحكومة للتعويض عن الضرر أو الأذى) (٣٥) .

(٣) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الأول (٥٥) ، وانظر (١٨٥) .

الأفراد ويعيشون أحرارا ويتساوون فى الحقوق) .

وجاء فى المادة الرابعة (إن الحرية ، هى القدرة على عمل كل مالايضر بالغير)[١].

كما نص الدستور على حرية الرأى ، والفكر ، وحرمة الملك ، وأن الأصل براءة الذمة ، ولايوقف أحد باتهام ، إلا حسب الأصول القانونية ، ولايجوز الحكم عليه إلا بعد محاكمة قضائية[٢].

وصدر القانون السوفييتى عام ١٩٣٦م وكانت مواده من ١١٣-١١٨ تكريس لحقوق الإنسان وتكرر ذلك فى دستور ١٩٧٧م ونص على المساواة ، والتعليم المجانى ، والحريات كحرية الفكر والتعبير والاجتماع والتظاهر والحرية الشخصية وحرية المراسلات ، بل وتوسع الدستور السوفييتى فى مسألة العدالة الإجتماعية فأكد حق المواطن فى العمل المكفول ، وحقه فى الراحة بواسطة الاجازات ، وتحديد ساعات العمل وحقه فى الضمانات الإجتماعية ضد الشيخوخة والمرض ، والعجز ، والبطالة[٣].

(وقد تعاقب الاهتمام على هذا الموضوع منذ ذلك الحين ، فنتج عنه اهتمام إقليمى ودولى صدرت عنه عدة وثائق ومعاهدات دولية ، لعل أبرزها الاعلان العالمى لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨م ، والاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان عام ١٩٥٠م ، والاتفاقية الدولية للقضاء على أشكال التمييز العنصرى عام ١٩٦٥م ، والاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان عام ١٩٦٩م ، والميثاق الافريقى لحقوق الإنسان والشعوب عام ١٩٧٩م ، ومشروع الميثاق العربى لحقوق الإنسان عام ١٩٨٦م ، ومشروع ميثاق حقوق الإنسان المسلم (المؤتمر الإسلامى) عام ١٩٧٩م)[٤].

---

(١) الحريات العامة فى الإسلام (١٩١) .

(٢) انظر : أركان حقوق الإنسان (٤٢) ، صحيفة عكاظ العدد (٩/١٠٧٣٥) .

(٣) انظر أركان حقوق الإنسان (٤٢-٤٣) .
وعن القانون الدستورى ومصادره وأقسامه انظر الدراسة الجيدة التى جاءت فى كتاب القانون الدستورى والنظم السياسية ـ القسم الأول ، بقلم د. سعيد عصفور.

(٤) عكاظ العدد ١٠٧٣٥ (٩) .

وقد رفعت أغلب المواثيق والدساتير شعارات الحرية ، والمساواة ، والعدالة ، ولنا هنا وقفة ، وهى أن الإسلام كان أسبق من هذه القوانين والدساتير التى تعمل بها كثير من الدول الآن . يقول المرصفى : (ادعت الأمم الديمقراطية الحديثة أن العالم الإنسانى مدين لها بتقرير حق المساواة ، وحق الحرية! فذهبت أمة إلى أنها أعرق شعوب العالم فى هذا المضمار! وزعمت أخرى أن هذه الاتجاهات جميعا كانت وليدة ثورتها! وأنكرت أمم أخرى على هذه وتلك هذا القول وادعته لنفسها! والحق أن الإسلام هو أول من قرر المبادىء الخاصة بحقوق الإنسان ، فى أكمل صورة ، وأوسع نطاق...)[١].

ومن أكثر المذاهب الأرضية التى تشدقت بالحرية والعدل والمساواة الشيوعية ، وقد أجلبت بخيلها ورجلها فى إنتقاد الفكر الرأسمالى واعتبرته بإقراره للملكية الفردية ، قد جلب الشرور وصنوف الآثام للبشرية ، ولأجل ذلك طالبوا بالغائها منعا لهذا الاستغلال الناجم عن وجودها ، وادعوا أنهم سيحققون الحرية والعدل ، وسيقضون على الظلم والجور ، وأعلنوا ذلك صراحة . إلا أن واقعهم كان لهم بالمرصاد كما سنتبين ذلك من خلال عرضنا للحريات ومصادرة الشيوعية لها . وأود الإشارة هنا إلى أننا سنتحدث بلمحة مختصرة عند حديثنا عن كل نوع من أنواع هذه الحريات عن موقف الإسلام منها وإقراره لها فى نهاية كل حرية ، وفى ذلك بيان للحق ، الذى وافق الفطرة ، ورد للباطل الذى يخالفها ونصل إلى تعريف الحرية .

تعريف الحرية :

فى اللغة : الحر : (نقيض العبد ، والجمع أحرار ، وحرار ، ... والحرة نقيض الأمة . والجمع حرائر ... وحرره أعتقه ... والحر من الناس : أخيارهم وأفاضلهم . وحرية العرب أشرافهم ...)[٢].

---

(١) المادية والروحية فى الميزان (٢٣-٢٤) .

(٢) لسان العرب (١٨١/٤-١٨٢) حرف الراء ، فصل الحاء .

فى الاصطلاح : إن مصطلح الحرية لم يرد فى كتاب الله تعالى . ولكن وردت الألفاظ التالية : الحر . ضد العبد ، محررا ، تحرير .

وتعددت التعاريف للحرية فى الاصطلاح منها أن الحرية (إرادة الإنسان وقدرته على ألا يكون عبدالغير الله)[١].

أو هى (استعمال حقك المشروع بحيث لايطغى على حقوق الآخرين)[٢].

أو هى (الإذن بإجراء عمل أو بالامتناع عن اجرائه . بدون التعدى على حقوق الآخرين ، ولامجاوزة حدود القانون)[٣].

ويعرفها صول بادوفر بقوله : (الحرية هى أن تكون للإنسان الخيرة فى أن يفعل مايريد بشرط عدم الإضرار بالآخرين)[٤].

ويعرفها البعض بأنها (مراكز قانونية للأفراد تمكنهم من مطالبة السلطة بالإمتناع عن القيام بعمل مافى بعض المجالات)[٥].

والحرية عند انجلز هى : (الهيمنة على الطبيعة وعلى الذات ، الهيمنة القائمة على إدراك الضرورة الطبيعية)[٦].

ويظهر من هذه التعريفات أن كل منها يميل إلى توجه قائله إلا أنها اشتركت غالبا (عدا تعريف انجلز) فى مسألة القدرة على الفعل أو الترك ، وعدم إلحاق الضرر بالآخرين .

وعلى هذا يمكن القول إن الحرية هى : أن يكون الإنسان مختارا فى فعله أو تركه ، وبمقدوره ممارسة رغباته وتحقيقها شريطة انضباطها بضوابط الشرع ولاشك أن الحرية تتعلق بالحق ، وحق الله تعالى أمره ونهيه ، وحق

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان (٢٩٦) .
(٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٨٢) .
(٣) أركان حقوق الإنسان (٧٢) .
(٤) معنى الديمقراطية (١٤١) نقلا من كتاب الإسلام وحقوق الإنسان (٢٩٦) .
(٥) ضمانات الحرية (٢٣) .
(٦) الماركسية ، قضايا أساسية (١٠١) .

العباد مصلحتهم ، ويعرف البعض الحق بأنه (مصلحة لايمنعها الشرع)[١].

ولكون الحرية تتعلق بالإنسان وكل أحد يرغب فى تحقيقها ، ولكون الإنسان يمثل العنصر الأساسى فى إنتشار أو بقاء أى مذهب نجد أن كل صاحب فكر أو مذهب يدعى تحقيق ذلك ، وأن دعوته تقوم من أجل رعايتها .

يقول هيغل : (الحرية والمساواة ، هاتان هما المقولتان اللتان فيهما يلخصون عادة مايجب أن يكون أساس كل تشريع وغايته الأخيرة ونتيجته)[٢].

يقول د. أحمد كنعان : (ربما كانت الحرية من أكثر المصطلحات التصاقا بحياة الإنسان وبمصيره ، وربما كان هذا هو السبب ، الذى من أجله يتعرض مفهوم الحرية لكثير من عمليات التشويه والتلبيس والتلاعب .. ولقد ظلت الحرية على مدار التاريخ عرضه لعمليات "تحجيم" ماكرة يراد منها أن تخدم مصالح بعض أصحاب القرار ، الذين لايؤمنون أصلا بالحرية إلا بمقدار ماتمنحهم هذه الحرية من "سلطات" إضافية تضاف إلى رصيدهم من التسلط والطغيان والجبروت!)[٣].

ومن هنا كان لابد من تحديد مفهومنا الذى نريده من لفظ الحرية .

مقصودنا بالحرية وأهميتها ، وبيان أنها مقيدة وليست مطلقة :

عند الحديث عن الحرية يلزمنا من التفصيل فى المعنى الذى نريده بالحرية ، فالإنسان حر فى أفعاله وتصرفاته ولكنها مقيده بأوامر الله تعالى ونواهيه . فهو حر فى عبادة ربه ولايكون عبدا إلا لله وحده . كما أنه حر فى أفعاله وأقواله إذا لم يتعد أوامر الله تعالى أو حدوده . حرا فى تنقلاته

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان (٨٦) .
(٢) مختارات هيغل (١٢٧/٢) .
(٣) أزمتنا الحضارية (١٠٧) .

وسلوك طرق كسبه منضبطا بقواعد الشريعة . إن الحرية فى الإسلام تعنى أن يمارس الإنسان حقوقه كاملة غير منقوصة من خلال قواعد الإسلام .

وعلى هذا فلانعنى بالحرية ماتعنيه الحضارات المادية (ففكرة الحرية فى الغرب كانت فى صميمها تحررا من سلطان الكنيسة ورجالها فى العصور الوسطى ، ومن سلطان الإقطاعيين فى تلك العصور أيضا)[١].

وإذا كانت الكنيسة تسلطت باسم الدين فإن من البدهى أن تعنى الحرية عند هؤلاء القوم الانفلات من كل تعاليم الكنيسة وبالتالى التحرر من دينها الذى تسلطت باسمه . فقامت الدعوة بفصل الدين عن سائر شئون الحياة الإقتصادية والسياسية والإجتماعية . ومن الغريب أن هذه اللوثة انتقلت إلى أبناء المسلمين وبدأ الفصل بين الدين ومظاهر الحياة المتعددة[٢] ونسى هؤلاء أن مفهوم الحرية فى الفكر الإسلامى (يستمد قداسته من إيمانه بكرامة الإنسان ويعقد الصلة بين الحرية وقيم الدين الكبرى ، لأنه يربط بينها وبين الجزاء الروحى ومصير الإنسان وغاية الوجود ، وهو ربط يرتفع بها إلى أن تكون فريضة اسلامية ، فما حاجة الحرية إذن إلى أن تناقض الدين أو تثور عليه؟ وكيف تثور عليه وهو صاحبها وواهبها خير ماتعتز به...)[٣].

إن الحرية فى المذاهب الوضعية الأرضية تعنى الانفلات من الرقابة ويدور الإنسان مع مصلحته الشخصية حيث دارت دون اعتبار للآخرين . فالمعول عليه هو تحقيق الرغبات الجسدية ، والوصول إلى الغايات الحياتية ، كما هو الحال فى المذهب الفردى الحر ، أما المذهب الشيوعى فإن الحرية لفئة من الناس لاتتعداهم . وهذه الحرية لاتمنح لأعداء الشعب وهذا شعار الشيوعيين و(يعنى فى الواقع : أنه لاحرية لغير الماركسيين (أى غير الشيوعيين) من المواطنين ، أى أنه لامساواة بين المواطنين فى مزاولة

---

(١) الفكر الدينى فى مواجهة العصر (١٤٠) .
(٢) انظر المرجع السابق (١٤٠) .
(٣) المرجع السابق (١٤٣) .

الحرية)[١].

إن الحرية فى الإسلام ليست عرضة للتبديل والتغيير حسب الأهواء والمصالح ، تعطى حينا وتمنع حينا آخر ، حسب ماتقتضيه مصلحة فرد أو جماعة ، فهى حق ثابت ، طالما أنها لاتتعارض مع أصل من أصول الإسلام المقررة فى الكتاب والسنة المطهرة . ومن هنا فهى تتصل بالعقيدة فليس لأحد سلبها أو إهدارها ، إذا سار بها صاحبها فى طريقها المقرر لها من قبل مانحها.

أهمية الحرية وتقييدها :

إن الإنسان باعطائه حرياته وتحقيقها له يشعر بذاته وكيانه ، ويصبح إنسانا فاعلا فى مجتمعه ، يبذل كل مافى وسعه لتحقيق مصلحته ومصلحة المجتمع الذى يعيش فيه ، ومن هنا اهتمها الإسلام .

وبالرغم من هذه الأهمية ، إلا أنها حرية مقيدة فى الإسلام (مقيدة بأحكامه ونظمه)[٢]، (حرية فى حدود القيم والفضائل وفى نطاق الأخلاق والدين الذى يقوم عليه بناء المجتمع .. وهى حرية تسمو بالإنسان وتصونه عن التدنى إلى أسفل)[٣]، (حرية تجد مجالها ... مادامت تؤدى ضمن حدود الآداب والأخلاق الإسلامية ، وتتوخى المصلحة العامة ...)[٤]. (وتقييد الحرية لايعنى شل حركة الإنسان ومنعه من التصرف ، وإنما يراد منه وضع الحدود التى يجب أن يقف عندها ، وهى عدم تجاوز حقوق الآخرين أو مصالحهم بالإضرار بهم ...)[٥]. كذلك كانت الدساتير تنص على هذا التقييد للحرية[٦].

---

(١) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٧٥) .
(٢) ضمانات الحرية (٢٢٨) ، وانظر (١٢٧-١٢٨) .
(٣) الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٨٤) .
(٤) الإنسان وحريته فى الإسلام (١٧٨) ، وانظر (١٤-١٥) د. محمود محمد بابللى ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة ، المملكة العربية السعودية ، الرياض .
(٥) الإنسان وحريته فى الإسلام (١٠٢) .
(٦) انظر : الإسلام وحقوق الإنسان (٣٠٥) ، أركان حقوق الإنسان (٧١) .

مصدر هذه الحرية :

إن مصدر الحرية التى هى حق للإنسان ليست هبة من انسان آخر . بل هو حق قرره الخالق جل وعلا فى كتابه الكريم حيث كرم ابن آدم ، وهذه الكرامة هى منهل حقوق الإنسان جميعا ومن أبرز هذه الحقوق الحرية.

والإسلام حين قرر مبدأ الحرية ممثلا فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا التقرير نسف لكل من صادر هذا المبدأ ، أو اقترف الآثام والظلم باسمه . وتقرير الله تعالى لذلك دل على أن بنى الإنسان كلهم سواسية تجاهه . فالفرد بفطرته سواء كان فى أرض الجزيرة أم فى جمهوريات الاتحاد السوفييتى الإشتراكية يظل هو الفرد صاحب النزعات الفطرية والتطلعات البشرية ، ولن يستقيم أمره إلا إذا حكم بأمر الله تعالى وشرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فـ(الإنسان هو الإنسان شيوعيا كان أو رأسماليا أو غير ذلك ، ولن يكون هذا الإنسان شيئا فاضلا أبدا إلا إذا غدا وجدانه محكوما لابقبضة القانون والإرهاب ، ولكن بسلطان المثل العليا وهيمنة فضائل العدل والمساواة والرحمة ...)[١].

وكان فى الشيوعية دليل على ذلك حيث عجزت رغم قوتها وجبروتها وتسلطها وبطشها ، من مصادرة ماغرس فى فطرة الإنسان ، ووهبه الله تعالى إياه ، ومأأن حانت الفرصة حتى عبر الفرد الشيوعى عن خفايا نفسه ، ومطالب فطرته . ومأأن تذوق الشعب الروسى (نسيم الحرية وطعم التغيير من ثقب الإبرة الذى أحدثه غورباتشوف حتى طالب بكسر الستار الحديدى كله والانعتاق من السجن الحديدى الرهيب إلى رحاب الحرية والديمقراطية ...)[٢] وهذا مايتفق مع الفطرة الإنسانية ، ويبين أن الحرية هبة إلهية لايمكن أن تؤخذ من الإنسان ولو بالقوة .

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (١٣٨) .

(٢) مجلة الحرس الوطنى العدد (١٠٩/١٢-١٣) ربيع الأول ١٤١٢هـ/١٩٩١م .

بقى أن نقول إن الحرية وحدة متكاملة تعيش بها النفس الإنسانية ولايمكن تحقيق جزء منها دون الآخر ، فلابد من توفر أجزائها كلها كى يشعر الإنسان بكيانه المتكامل .

وبعد هذه المقدمة يمكن القول أن هناك ضوابط عدة يمكننا أن نضعها للحرية وهى :

أولا : أن مصدر الحرية ـ أى إعطاء حق الحرية ـ هو الخالق جل وعلا.

ثانيا : أن هذه الحرية مقيدة وليست مطلقة ، والتقييد إنما يكون فى سبيل الوصول بها إلى أعلى درجات الخيرية والعلو .

ثالثا : أن الحرية التى يتحدث عنها الغربيون وغيرهم من أهل الانحلال ليست هى المقصودة بالحق الذى يحافظ عليه ولايمس .

رابعا : إن الحريات لاتتجزأ فكلها مرتبطة بعضها ببعض فلايمكن تحقيق حرية دون أخرى وذلك لأنها تشكل وحدة متكاملة لكيان الإنسان .

الحريات فى النظام الشيوعى

قامت الشيوعية وهى تعد العمال بالحرية ، والمساواة ، والعدل ، بل وأكثر زعماؤها المنظرين والمطبقين من الحديث عن هذه الشعارات ، ونعرض الآن لموقف الشيوعية من هذه الحريات ، ثم مدى توافق الواقع مع النظرية فى تحقيقها . وسيكون حديثنا عن أنواع الحريات كالآتى :

أولا : الحرية الشخصية .

ثانيا : الحرية الدينية .

ثالثا : الحرية الفكرية .

رابعا : حرية التعلم والتعليم .

خامسا : الحرية السياسية .

سادسا : حرية العمل .

سابعا : حرية التنقل .

والآن نتحدث عن هذه الحريات حسب أهميتها وذلك :

أولا : بعرضها من كتبهم ودساتيرهم وأنظمتهم ، ومن خلال العرض يتضح لنا التناقض العجيب بين النظرية والواقع .

وثانيا : عرض موجز عن موقف النظام الإسلامى من هذه الحريات مقرونا بالأدلة الشرعية .

المبحث الأول
الحرية الشخصية

(أ) الحرية الشخصية فى النظام الشيوعى :

ينص الدستور السوفييتى على احترام الإنسان وحرياته وحرمتها ، وعدم جواز التعرض لها . وقد ورد بالمادة السابعة والعشرين والثامنة والعشرين من الدستور السوفييتى مايفيد الحفاظ على الحرية الشخصية للمواطنين وهى حق الأمن ، وحرمة السكن ، وسرية المراسلات ، وعدم اعتقال أحد إلا بقرار من المحكمة(١).

هذه المواد وغيرها تنص على احترام الحرية الشخصية وعدم التعرض لها .

ولكن واقع الاتحاد السوفييتى وحياة الشعوب فيه تبطل ذلك وتنافيه ، إذ أننا إذا عرضنا ماجاء عنالشيوعية نظريا وجدنا أن أفعالهم تتناقض مع أقوالهم ويصدق عليهم حينئذ ماقاله أفلاطون : (امتحن المرء بفعله لابقوله)(٢).

فهذه القوانين كغيرها مجرد إدعاء وتلبيس على الناس . حيث إن هلاك البشر والقضاء عليهم فى سبيل الشيوعية لايعتبر أمرا مستغربا . يقول لينين : (هلاك ثلاثة أرباع البشرية ليس بشىء وإنما الشىء الهام أن يصبح الربع الباقى منهم شيوعيين)(٣).

فهذه حياة الفرد فى سبيل الشيوعية مهدرة فكيف يتمكن من الحفاظ على باقى حرياته الشخصية حيث فقد أعظم مايملكه الإنسان ويدافع عنه .

---

(١) انظر أركان حقوق الإنسان (٤٣) .
(٢) أفلاطون فى الإسلام (١٩٥) .
(٣) حقيقة الشيوعية (٢٥) ، وانظر الإسلام يقينا لاتلقينا (٢٥٤) د. صابر طعيمة ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار الجيل ، بيروت .

وقد تجلى ذلك بأبلغ صوره فى الأعمال الوحشية التى قامت بها الشيوعية من الاعتقالات وحركات التطهير الجماعية التى لم يكن لها مبرر حتى فى نفوس من عاش بين الشيوعيين وكان من أمناء الحزب الشيوعى ، فهذا ليونهارد يقول : (حاولنا مرارا وتكرارا تبرير حركة التطهير حتى نحافظ على نظرتنا المثالية ، واعتقادنا فى الاتحاد السوفييتى ، على أنه البلد الاشتراكى الوحيد . ربما ـ هكذا كنا نقول لأنفسنا ـ كانت هناك أسباب لانعرفها حتمت على السلطة ، اجراء هذه المحاكمات ، وأجبرتها على تنفيذ تلك الاعتقالات الجماعية ، ويحتمل أن يكون المتهمون التزموا السلبية ، فلم يكونوا خونة ، ولاجواسيس ، بل أعاقوا "بدون قصد" تطور الاشتراكية ، ألم يتحدث "ماركس" نفسه عن القوة ، فوصفها بأنها العامل المساعد على ميلاد مجتمع جديد؟ أليس ممكنا . أن بعض المقبوض عليهم كانوا حقيقة جواسيس ، وأنه يجب ـ طالما لم يكن هناك تقارير مضبوطة أن تطهر كل الوزارات والمصالح؟ وأخيرا ، ألم يتعلق الأمر بحماية الدولة الإشتراكية الوحيدة فى العالم؟

كان بعضنا ينظر إلى هذه الأحداث كحتمية تاريخية ، ربما اقتضتها أسباب ضرورية لانعرفها ، ولأهميتها البالغة لايجوز لأحد من المسئولين كشف النقاب عنها وإذاعتها)[١].

يقول بريجنسكى : (لم يعرف التاريخ الإنسانى كاملا ثمن بشرى دفع فى بناء إجتماعى أو أى تجربة أخرى مثلما دفعت البشرية فى مواجهتها مع الشيوعية فى القرن العشرين)[٢].

ولو ذهبنا نتتبع حركات الإزهاق للروح الإنسانية من أجل إقامة الشيوعية لطال بنا المقام ولكن نذكر هذه الحقائق التى تعطى الصورة الحقيقية عن مدى الحفاظ على الحرية الشخصية فى ظل الشيوعية .

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٦٤-٦٥) .
(٢) الفشل الكبير (٣٠٤-٣٠٥) .

أولا : حق الحياة والحفاظ على الروح :

لم تقم الشيوعية وزنا لحياة الناس بل اعتبرت أن تقديم ثلاثة أرباع البشرية فداء من أجل أن يبقى الربع الأخير إشتراكيا عملا مستحسنا .

ولو ذهبنا إلى مبادىء ماركس لوجدنا أن العنف والقتل أسلوبا يتحتم على البروليتاريا استخدامه لتصل إلى غاياتها وكان لينين مطبقا لهذه المبادىء ومن بعده الدكتاتور ستالين . يقول أنور الجندى :

(لو نظرنا إلى التجربة الشيوعية فى روسيا لوجدناها صورة مظلمة فإن آخر التقارير تقول أن ٥٢ مليونا لقوا حتفهم فى الاتحاد السوفييتى فى ٢٦ عاما بسبب المجاعات والاعتقالات والاضطهادات والحرب العالمية الثانية...)[١].

ولاغرابة فى ذلك إذا ماوضعنا فى اعتبارنا أن الشيوعية حركة ثورية . يقول دجيلاس : (إن القاسم المشترك بين كافة الحركات الثورية هو تميزها بالعنف والهمجية ، وقد كان للحركة الشيوعية فى هذا المضمار دورها البارز والمتميز فى التاريخ ، إن حركة "ثورية" تضع نصب أعينها تحويل كل من الإقتصاد والمجتمع بالأساليب والوسائل الاستبدادية ، لابد لها من أن تلجأ بشكل حتمى إلى أساليب العنف والوحشية)[٢].

وعلى هذا الأساس فلابد من العنف من أجل القضاء على المخالفين أو أعداء الثورة واستتباب الأمن لهذه الفئة ، وقد صرح زعماء الشيوعية بأنه يتوجب استخدام القهر والعنف والقتل من أجل فرض النظام الشيوعى ، كما صرحوا بأن الحرية الفردية أخطر مايهدد النظام الشيوعى .

يقول العوف : (ألم يستعمل الإشتراكيون الثوريون أقصى أسباب الشدة والعنف ضد الفئات السياسية الأخرى كما أوصى بذلك لينين عام ١٩٢٢م حيث قال : "إن نظم الحكم التى لاتستند إلى القهر وفرض السلطة

---

(١) مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (٤٢) .

(٢) الطبقة الجديدة (٢٠٠) ، ميلوفان دجيلاس ، دار الكتاب العربى للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

على الشعب ، مصيرها الإنهيار الكامل ، ولهذا فإننا نعتمد على القهر وفرض السلطة فى حماية نظامنا" .

بل إن ستالين نفسه قال أيضا عام ١٩٣٨م : "إن الشيوعى المخلص فى الدول غير الشيوعية هو ذلك الذى يعرف كيف يقضى على نظم الحكم غير الشيوعية بلاهوادة وبلارحمة أو شفقة ... وهو ذلك الذى يستعين بكل وسائل التضليل والخداع وسعة الحيلة لفرض النظم الشيوعية على البلاد التى يعمل فيها" .

ألم يكفر الإشتراكيون الثوريون بحرية الفرد؟ ألم ينتهكوها؟ طبقا لما قاله ستالين عام ١٩٣٧م إذ قال مانصه : "دعونى أوضح لكم بصراحة ، إن نظامنا الشيوعى لايؤمن بالحرية الفردية ، فالحرية الفردية تعنى القضاء على "الجماعية" وتعنى الخروج على طاعة القانون وتعنى الانحراف عن الماركسية ، وهذا النوع من الحرية ـ أى الحرية الفردية ـ هو أخطر مايهدد نظامنا)[١].

لقد أصبح التطهير ومصادرة الحرية الشخصية للإنسان سمة بارزة من سمات الشيوعية . يقول كاونتس : (أصبح هذا التطهير سلاحا بتارا فى يد الحكومة فى كل مكان استولى فيه الحزب على الدولة)[٢].

ويقول برزيرنسكى : (التطهير والحكم المطلق قد ارتبطا فى وحدة لاانفصام لها ، وفى وسعنا أن نسمى النظام السوفييتى بحق نظام التطهير الدائم الذى لاينقطع أبدا)[٣].

لقد جعلت هذه الحملات الإنسان فى الاتحاد السوفييتى يعيش فى هلع ورعب ، فكل فرد ينتظر أن يكون الدور عليه فى الاعتقال والمحاكمة بشبهة معاداة الشعب (الشيوعية) ، وأصبح الإنسان يحاسب على أبسط تصرفاته الشخصية[٤].

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (٧٤-٧٥) .
(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٤١) .
(٣) المرجع السابق (٣٤٢) .
(٤) انظر ماذكره ليونهارد عن ردود أفعال المواطن السوفييتى من حركة التطهير فى كتابه حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٦-٥٨) .

وحركة التطهير لم يسلم منها حتى أولئك الذين عملوا لخدمة الشيوعية حيث طالت المجتمع كله ، وأظهر الشيوعيون أن هؤلاء خونة ، عملاء ، جواسيس ، وماإلى ذلك من الألقاب التى وصموا بها كل من أرادوا التخلص منه حتى لايستغرب الشعب تلك الأفاعيل . فصور الشيوعيون أولئك الأعداء بأنهم أعداء للعمال وثورتهم . وفى الغالب أن هؤلاء - خاصة الذين عملوا على دفع الفكر الإشتراكى - كانوا على خلاف مع قواد الثورة البلشفية (لينين وستالين) لأنهم كانوا يخالفونهم الرأى فى بعض المبادىء الماركسية وتطبيقها فى عالم الواقع(١).

ثانيا : من مظاهر مصادرة الحرية الشخصية من قبل الشيوعية كثرة الاعتقالات والسجن والنفى ، ويلحق بذلك قرارات الإعدام والتى تمارس باسم العمال ومصلحتهم . يقول لينين : (أيهما أفضل الالقاء فى السجن بعشرات أو مئات من المتهمين مذنبين كانوا أم غير مذنبين أو فقد آلاف من الجيش الأحمر والعمال؟ لاشك أن الأول أفضل الأمرين وإنى لأرضى عن طيب خاطر أن أتهم بالخطيئة والاعتداء على الحرية فى سبيل مصلحة العمال)(٢).

ووظف الشيوعيون وسائل الإعلام والمدارس من أجل التأثير على الرأى العام السوفييتى بأن هذه الاعتقالات إنما هى لأولئك الخونة للقضية الشيوعية ، وأولئك الذين يريدون إعادة الرأسمالية فى الاتحاد السوفييتى . لقد أصبح الفرد السوفييتى يعيش حالة من الرعب والخوف(٣).

---

(١) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٧٣) ، وذكر أن الذين قاموا بالثورة مع لينين سبعة لم يبق منهم إلا ستالين حيث شملتهم حركة التطهير ، وكان أعضاء اللجنة المركزية العليا واحد وعشرون عضوا اختفى منهم فى حركة التطهير ستة عشر .

(٢) الشيوعية على حقيقتها (٩٨) عمر الاسكندرى ، نقلا من كتاب فوق أطلال الماركسية (١٦٣) . وسنتبين إن شاء الله تعالى مقدار اهتمام الشيوعية بالعمال ومصالحهم!!

(٣) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٤٣-٤٥) وانظر مابعدها .

يقول ليونهارد : (أطلق على من لم يعتقل اسم "الفضلات" ، ولم يكن حالهم أحسن من حال المعتقلين ، فقد أصيب معظمهم بلوثة نفسية نتيجة وقوعهم تحت تأثير الخوف المستمر ، وكانوا أقرب إلى الحيوان الوحشى الهائج من شدة الخوف من حلقة الصياد التى تضيق عليه الخناق شيئا فشيئا منهم إلى البشر ، وعجزوا عن الوسيلة الصحيحة التى تنقذهم من هذا الخطر الداهم ، ولكن أى الوسائل يمكن أن تؤدى إلى بر النجاة! تفاوتت آراؤهم فى تحديدها فبدت كما يلى : الصمت واجب الآن ، فإن أمكن الإنسان ألا يفتح فمه فليفعل ، وعلى الأخص فيما يمس السياسة ، فلاتبد رأيك اطلاقا ، حتى ولو كنت من المخلصين "للينين" ، الصمت ، والصمت فقط هو النصيحة الذهبية فى هذه الأيام . لايوجد اليوم أشد خطرا على المرء من الصمت ، لأنك بصمتك تشير للمخابرات أنك تحاول اخفاء أمر سرى ، أو تريد عدم اظهار أفكارك المعادية للنظام ، وسوف يقودك هذا إلى أن تصبح عندهم من أعداء الشعب ، فالأحسن فى الظروف الراهنة أن تكون نشطا ، ومتحدثا ، وداعيا بكل ماتملك للأفكار التى تنشرها جريدة برافدا)[1].

ولاشك أن هذه الاعتقالات قد أثرت فى نفوس كثير من أعضاء الحزب الشيوعى أنفسهم وإن كانوا لايستطيعون الإفصاح عنه ، وسبب هذا التأثير عدم وجود المبرر لهذه الاعتقالات التى لم ترع للإنسان حقا ولاحرية ، خاصة وأن بعض المعتقلين والذين وصموا بالخونة كانوا من أنصار الثورة ، فأثرت هذه التصرفات فى نفسيات أولئك الأعضاء سلبا وإن لم يظهر أثرها إلا فى وقت لاحق بعد الفترة الستالينية . يقول ليونهارد وهو أحد أعضاء الحزب الشيوعى ومن الذين كفروا بالنظام بعد رؤيته على حقيقته : (أرغمتنا الأفكار ال"ستالينية" على رفض النظام رفضا تاما ، لكن لم نتمنى سوى أن نستطيع العيش داخل هذا النظام ـ فلم يكن بوسعنا آنذاك أن نتخيل نظاما

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٦-٥٧) ، وانظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٢٨-٣٢٩) وذكر بعض من شملتهم الاعتقالات ومنهم أعضاء الشرطة المسلمة ، رجال الدين ، ملاك الأراضى ، أصحاب الممتلكات .

غيره - بشيء من الحرية ، وعدم الارهاب ، وأن ننفتح ثقافيا مع العالم الخارجى)[١].

لقد أصبح الإنسان فى ظل النظام الشيوعى بمثابة العبد الممتهن ماعدا أفراد الحزب ومن فى مستواهم ، وإذا أراد الإنسان أن يظل فى حياة الكفاف فعليه أن يخرس اللسان ، ويطيع الحزب فى كل صغيرة وكبيرة ، ليضمن بقاء حياته .

ولم يقتصر الشيوعيون على الأفراد بل إن مجموع السكان قد صودرت حرياتهم ، فلم تكن التضحية بالأفراد من أجل الجماعة .

لأن الجماعة أيضا كانت تعيش ذلك الوضع فقضية الشيوعية أن يسير الفرد والجماعة فى خدمة الحزب . فالمصير واحد ولم ينعم بالوعود - التى أعطيت للعمال ولأفراد الشعب المضطهدين - إلا أعضاء الحزب الشيوعى فقطعوا على أنفسهم الوعود وحققوها لأنفسهم دون غيرهم .

يقول محمد الخطيب : (تحت مطارق الشيوعية أصبحت حرية الفرد وصمة تعاب ، وتدعو إلى الاتهام بإنكار حق الجماعة . ثم إذا نظرنا إلى الجماعة التى تهتف بها أبواق الشيوعية نصدم بالدعوى العريضة . فالحقيقة أن الفرد والجماعة فى النظام الشيوعى إن هما إلا مجموعة من العبيد تسخر لمطامع حفنة من الأفراد)[٢].

ثالثا : ومن مظاهر مصادرة الحرية الشخصية فى الاتحاد السوفييتى هو استخدام العامل بالقوة وجعله يعمل للدولة بالمجان دون أن يكون له الحق فى المطالبة بشيء مقابل ذلك . ويلحق بهؤلاء من اعتقلهم الشيوعيون لأنهم أصحاب آراء أو أفكار أو توجهات دينية يعارضون بها الفكر الشيوعى .

يقول "نيكوليفسكى" : (إن فى روسيا أربعة عشر مليونا فرضت عليهم السخرة ويحيون كالبهائم فى حظائر تحيط بها حواجز مسيجة بالأسلاك

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٦٠) .
(٢) فوق أطلال الماركسية (٧٩-٨٠) .

الشائكة محروسة حراسة قوية بجنود يرابطون فى أبراج عالية لايغفلون ثانية عن المراقبة وزودت الأبراج بأنوار كاشفة قوية ، ويطوف آلاف الكلاب الضارية خارج الأسلاك فإذا نجا هارب من رصاص الحرس لم ينج من مطاردة الكلاب تفرى لحمه وهم يقومون بأشق الأعمال التى لايطيقها بشر وهؤلاء هم رجال الدين وأحرار الفكر والأدباء وكل معارضى الشيوعية والمشتبه فى أمرهم)[١].

رابعا : ومن مصادرة الحرية الشخصية فى ظل النظام الشيوعى أن الإنسان متهم حتى تثبت براءته . وهو نتيجة طبيعية لكونه نظاما دكتاتوريا لابد أن يغلب جانب سوء الظن على حسنه حتى يضمن البقاء والإستمرار . والمقياس عند الشيوعيين هو الاخلاص للحكومة الشيوعية فمن ظهر منه ذلك فهو برىء ومن شكوا فى أمره فهو المتهم المراقب طيلة حياته .

وقد تفنن الشيوعيون فى اتهام الأشخاص وتلفيق تلك التهم عليهم ، ووضع الأحكام المسبقة على بعضهم قبل محاكمتهم . ولامجال للسؤال عن الأدلة التى تدين المتهم . يقول لاتيس[٢]: (لاتبحثوا عن الأدلة التى تثبت أن المتهم يعمل بالفعل أو بالقول ضد السلطة السوفيتية ، بل إن السؤال الأول الذى يجب أن توجهوه له هو : إلى أى الطبقات ينتمى ، وماهو أصله ، وكيف تعلم وتدرب ، وماهى مهنته؟ هذا هو مايجب أن يقرر مصير المتهم . وهذا هومعنى الإرهاب الأحمر وجوهره)[٣].

فالدولةومصلحتها والحزب وسيطرته ، هما الغاية عند الشيوعيين ، وإن كانت المصلحة المقصود بها المصلحة لأفراد الحزب ولأجل ذلك فالناس عندهم لاقيمة لهم ولااعتبار إلا بمقدار سيرهم فى الطريق الذى يخطونه لهم . يقول لبيب السعيد : إن (فى الشيوعية نظرية مؤداها أن إرادة الحكومة

---

(١) نقلا من كتاب الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (١٩٧) .
(٢) وهو أحد كبار رجال المخابرات السوفيتية .
(٣) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٥٨) .

وصالحها فوق إرادة الفرد وصالحه)[١].

والغريب فى الأمر - وليس غريبا على الشيوعية - أنهم ابتكروا طرقا وأساليب عديدة من أجل انتزاع الاعتراف من المتهمين وذلك بتعذيبهم والتشديد عليهم ، أى أن وسائل الإكراه كانت على أوجها . وهذا مايدفع الإنسان إلى أن يعترف بما اتهم به بل يعترف بجرائم لم يرتكبها أبدا .

ويذكر خروشوف شيئا من ذلك فيقول : (إن الشخص كان يعترف بجرائم لم يرتكبها أبدا "لأن أساليب من الضغط البدنى والتعذيب كانت تصب عليه فتؤدى به إلى حال من عدم الوعى ، يحرم معها السيطرة على عقله ، وتسلبه كرامته الإنسانية)[٢]. فعندما يدخل السجين يطلب منه أن يعترف من فوره ، فإذا أبى اتبعت معه الإجراءات المألوفة ، فيجلسونه على مقعد عال ويسلطون على عينيه نورا كهربائيا قويا ، وتلقى عليه طائفة متتابعة من الأسئلة يفحص بها عن ماضيه بلارحمة ولاشفقة ، وتتضمن مسائل تتصل بالتهمة أو لاتتصل بها ، ولكنها كلها تهدف إلى تحطيم إرادته والقضاء على شخصيته . فإذا تبين أنه إنسان عنيد فقد تدوم هذه العملية دون انقطاع ليلا ونهارا عدة أسابيع . ومن العوامل المهمة فى هذا التحقيق مايوجه إليه من تهديد لشخصه وأفراد أسرته . وينتهى الأمر بأن يحيله السم الذى يتولد فى الجسم من فرط التعب وعدم النوم إلى "رجل جديد" مستعد للاعتراف ، ولكنه لايزال يجهل ماهى الجريمة التى يفترض أنه اقترفها فإذا ماسأل عن أى تهم معينة قد اتهم بها أجابه المحقق أنه هو يعرف حق المعرفة ماارتكبه ، وكل مايجده من المساعدة هو قلم رصاص ، وورق ، وأمر يتلقاه بأن يعمل . فإذا كان ذكيا ، عارفا ، واسع الخيال : شرع يدون اعترافاته بأعمال لم يرتكبها قط . ويحدث فى العادة أن يخفق مجهوده الأول فى هذا الشأن ويقال له إنه يخفى حقائق خطيرة كل الخطر ، وإن عليه ألا يحاول خداع الشرطة السياسية بهذه الطريقة . ويؤمر بأن يذكر أسماء

---

(١) الشيوعية فى موازين الإسلام (١٠٨) .

(٢) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٤٦) ، وانظر الطبقة الجديدة (٢٠٩) .

شركائه فى الجريمة ، فيحاول مرة أخرى . وقد يحاول مرة ثالثة ورابعة ، حتى يكتب اعترافا مقبولا فى مصلحة الحزب . والشعب ، ولعله هو نفسه يصدقه ... إن السجين بعد أن يجتاز محنة التحقيق الطويلة الأمد ، يقبل ، وهو يشعر حقا بالنجاة ، الحكم عليه بعدة سنين يقضيها فى معسكر العمل الإجبارى . وإذا لم يكن السجين مذنبا ، وإذا لم يؤت قدرا كافيا من الذكاء والمعرفة ، والخيال ، فقد يجد نفسه فى ورطة حقة . فقد يرغب فى النجاة من السجن بالاعتراف بذنبه ، ولكنه تعوزه موهبة الخلق والابتكار التى لابد منها لإعداد اعتراف طيب بحق ـ اعتراف بما يرغب فيه المحقق . ومن أجل هذا وجدت فى السجن ، كما يقول جودين[١] جماعة من الأخصائيين تساعد من هم أقل من سواهم موهبة على كتابة اعترافهم . وهذا الإخصائى يجب ألا يكون ذكيا واسع الخيال فحسب ، بل يجب أن يكون أيضا واسع المعرفة بالخطط والأساليب المتصلة بهذا العمل ، كما يجب أن يكون ملما بتاريخ الحزب وتفكيره ، عارفا بالحوادث الجارية . ويجب ـ أن يعرف بنوع خاص جميع "أعداء الاشتراكية" . فإذا لم يكن عارفا مثلا بتلك (الحقيقة الثابتة) وهى أن الولايات المتحدة تعاون شبكة واسعة من الجواسيس فى الاتحاد السوفييتى ، لالمانيا واليابان ، فإنه لن يساعد كثيرا على إعداد اعتراف يصمد للنقد أو يفيد الحزب . وإنا لنعرف ماللموهبة الحقة من قيمة فى هذه الحال ، إذا اطلعنا على قضية جوزف شولمر Joseph Scholmer وهو طبيب ألمانى اعتقل فى برلين الشرقية عام١٩٤٩م ، وحكم عليه أخيرا بالعمل الإجبارى فى فركوتا . وانتهى هذا الطبيب بأن اعترف للمحقق ، بعد أن وجه إليه هذا ماوجهه من الأسئلة ، بأنه كان جاسوسا انجليزيا وأمريكيا معا . ولكن هذا لم يكن كافيا ، فقد طلب إليه أن يذكر أسماء شركائه ، وأن يذكر آخر الأمر مكان المركز العام لهيئة الجاسوسية ، وتفاصيل بناء ذلك المركز . فيسر الأمر

---

(١) جودين : أستاذ روسى للتاريخ ، اعتقل ، وكتب اعترافا جيدا وبعد أن خرج من السجن التقى بكاونتس وأخبره أنه يجهل إلى هذه اللحظة سبب اعتقاله .

للمحقق بأن رسم صورة قطاع لمنزل فكر يوما فى بنائه ولكنه لم يبنه ، وكان هذا بالضبط هو عين المطلوب(١). ولأجل ذلك كان كثير من ذوى العقول قد كفروا بهذا النظام من التناقض الصارخ فيه . يقول لويس فيشر : (فلاعجب إذا بدت نقط سوداء تلوح فى خاطرى من ناحية السوفييت ونظامهم ...)(٢).

إن الشيوعية كفرت بالشرائع السماوية التى لاتكره أحدا على شىء ، كما أنها كفرت بالقوانين الأرضية التى طالبت بالحرية وعدم ايقاع العقاب دون النص على الجريمة ونوعها واستحقاق العقوبة لها .

فمن (المعروف فى أرجاء العالم الحر أن لاجريمة بدون نص فى القانون على مايرتكب من الأفعال لتكوين أركانها بعكس الحال فى القانون السوفييتى فإنه يكفى فيه لاعتبار أمر ما جريمة ، أن يكون من شأنه أن يجر خطرا على الدولة أو نظام المجتمع وإن لم يكن فى ذاته داخلا فى عداد الجرائم المنصوص عليها فى القانون بل يكفى للقبض على الأشخاص واعتبارهم مصدر خطر إجتماعى أن يكونوا ممن سبق لهم اتصال بنشاط قديم قضى عليه وإن لم تكن هناك جريمة من هذا الجانب)(٣).

إن مجرد الشبهة تكفى فى إيقاع العقاب بالفرد الشيوعى ، وإذا حاول مقاومة ذلك فإنه يكون عدوا ومناهضا للسوفييت(٤)، فأصبح الإنسان فى ظل هذا النظام مسحوقا لايستطيع أن يفكر ولايعمل إلا فى الإطار الذى يرسم

---

(١) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٤٦-٣٤٨) . ولمزيد عن هذه الأفاعيل والأساليب واستخدام وسائل التعذيب حتى لايطول بنا المقام انظر : الطبقة الجديدة (٢٠٩-٢١٠) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٦٨،٨٤،٢٠٠) .

(٢) المعبود الذى هوى (٢٧٢) بأقلام ستة من أعلام رجال الفكر والسياسة ، ترجمة عباس حافظ ، دار الكتب الحديثة دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٨٢) . جاء فى المادة ١١ من الاعلان العالمى لحقوق الإنسان (إن كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئا إلى أن تثبت إدانته قانونا فى محاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عن نفسه) . أركان حقوق الإنسان (١٠٧) .

(٤) انظر الحريات العامة فى الإسلام (٢٦٧) .

له[١]. لأن ذلك كان هدفا من أهداف الشيوعية الالحادية . وبعد هذا العرض فأين الشيوعية من تحقيق الحرية الذاتية ، وأين الشيوعية من تحقيق الأمن والعدل بين الرعية ، إن الإنسان تحت المظلة الشيوعية أصبح مسلوبا للحرية الشخصية لايملك إلا الانصياع للأوامر وتنفيذها ليحقق المصالح الحزبية .

خامسا : ومن مصادرة الحرية الشخصية إرهاب الافراد وهتك خصوصياتهم بالجاسوسية التى شهدها الاتحاد السوفييتى ، حيث كانت أعظم جاسوسية شهدها التاريخ . (وقد بلغ من شدة الرقابة والحد من الحريات والغاء شخصية الفرد أن أفراد الأسرة الواحدة لايأمن أحدهم الآخر . ولو كان ابنا أو ولدا ، حتى الخدم يعتبرون رقباء على مخدوميهم)[٢]، مما أشاع عدم الثقة والخوف والهلع فى نفوس الناس .

لقد حققت الشيوعية الجاسوسية بكل أبعادها وتفنن الاتحاد السوفييتى فى مراقبة الناس والتجسس عليهم فـ(بالإضافة إلى البوليس السرى السوفيتى م.ف.د. M.V.D. نرى شعبة سياسية فيها الاختصاصيون فى إيقاف الجماعات وكيفية عمليات التطهير ، والمستنطقون والمنفذون لأعمال التعذيب والارهاب والقتل . فالأحرف التى تدل عليهم وتعلنهم للملأ هى : ى.ب U.B فى بولونيا وس.ن.ب. S.N.B. فى تشيكوسلوفاكيا وأ.ف.و.A.V.O. فى هنغاريا م.ى.أ..M.I.A. فى رومانيا ، إلى غير ذلك .

الجيش السرى الداخلى : إن هذا الجيش مؤلف من جيش قوى يساعد البوليس السرى المجهز للقبض على الجماعات بأساليب الحيل الممنوعة ، ويعرف فى بولونيا باسم ك.ب.و..K.B.W وفى المانيا باسم س.ت.ب..B.T.S وفى رومانيا باسم ب.أ.ز.أ. P.A.Z.A. الخ .

---

(١) انظر الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام القسم الأول (١٥٣) ، إعداد د. على عبد الحليم محمود ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، أشرف على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(٢) فوق أطلال الماركسية (١١٩) .

ميليشيا الشعوب أو الوطنيون : تستخدم غالبا فى إدارة هذه الجماعات وملاحظتها أو مراقبتها أفراد الشرطة والدرك ، وهم دائمًا فى تصرف البوليس السرى .

حراس الجبهة : أنفار من الجيوش مجهزون بأسلحة الوحدات الثقيلة وواجبهم أن يحفظوا التخوم ويمنعوا المواطنين من مبارحة بلادهم)(١).

حراس قطر الحديد : (منتدبون لتفتيش كل مايختص بالشحن فى القطر الحديدية ، ولايستثنى من التفتيش أحد ما)(٢).

والبوليس السرى : مهمته (الاشراف والملاحظة وخدمة المبادىء الشيوعية ، وتقديم التقارير ونشر الخوف والرعب والارهاب فى قلب كل فرد ، وعلى الجملة فإننا نقول إن مهمة البوليس هو التدخل فى كل الأمور ومد اصبعه فى كل مرفق من مرافق الحياة)(٣).

يقول ليلاند : (لاننسى أن روسيا قد أصبحت منبت الجاسوسية ، فموظفو الفنادق والمنازل وسائقواالسيارات وسعاة البريد وكل عامل فى مرفق من مرافق الحياة هم جواسيس يقدمون تقاريرهم إلى دوائر الشرطة المكلفة باستقبال هذه التقارير السرية ، والقبض على من نظمت بحقهم وسجنهم أو نفيهم بدون سؤال أو جواب ، ويتبجح كثير من الكتبة الذين يحرقون البخور أمام أقطاب السوفييت فيزعمون أن الشيوعية السوفيتية هى نظام الحياة الحرة وقد نسوا أن يقولوا أو (يعلنوا جهرا ، أساليب البربرية والعبودية وخنق الحرية التى يستعملها السوفييت فى تدريب الشرطة السرية مما لاتتأتى معرفته للعالم أجمع)(٤).

وعندما كان هكذا حال البلاد فإن مايمارسه الإنسان من حريات شخصية أخرى كالمأوى والاتصالات والعلاقات داخل الدولة سيكون محط

---

(١) الفتح بالإرهاب (٢٧-٢٨) ، ليلاند ستاوى ، ترجمة عيسى سابا ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها أو دار النشر .
(٢) المرجع السابق (٢٩) .
(٣) المرجع السابق (٣٠) .
(٤) المرجع السابق (٢٦-٢٧) .

أنظار القوم وبالتالى فكل تلك الحريات رهينة بيد تسلط الشيوعية وزبانيتها .

يقول ليلاند : (إن مايضحك ويبكى معا ، من تضاد الأسماء فالستالينيون قد سلبوا البيوت كلها ولاأحد يراقبهم فقد نظفوا البيوت من كل شىء ثمين ، من الأدوات الذهبية والفضية والمجوهرات ذات القيمة الفعلية ومأأشبه ذلك من المقتضيات التى لايحق لأحد أن يقتنيها إلا الدولة . هم مجرمون بعرف القانون السوفييتى .

وأغرب من الغريب أنهم لايسمحون بالأسنان الذهبية وقد أخطر أطباء الأسنان فمنعوا من صياغة الأسنان الذهبية ومن خالف الأمر وفعل يعاقب . ويقدر المبلغ الذى سلبه السوفييت من رعاياهم الأغنياء والمتوسطى الحال بملايين الدولارات فالبوليس السرى قد تمكن من مصادرة كل ماهو ثمين حتى ولو كان ملك حزب شيوعى)(١).

لقد بلغ الأمر إلى أن الإنسان فى داخل داره لايأمن على نفسه ، فالاقتحام متوقع فى أى لحظة ، والرقابة لصيقة فالابن جاسوس على أبيه ، والأب كذلك ، والمسكن من أدنى المستويات . يقول أندريه جيد : (اتفق لى أن زرت مركزا إجتماعيا نموذجيا من أبدع المراكز التى من هذا القبيل فى الاتحاد السوفييتى وأكثرها نجاحا وتوفيقا ، ودخلت عدة بيوت فيه ، وليتنى أستطيع أن أصور لكم فكرة عن الأثر الأليم الذى أحدثه فى نفسى مشهد كل بيت منها ، ذلك الأثر المتشابه العام الذى قام فى خاطرى ، وأعنى به انتفاء الحرية الفردية كل الانتفاء ، والخلو التام من مظاهر الاستقلال الذاتى ففى كل بيت منها قطع الأثاث القبيح ذاته ، وصورة ستالين بعينها ولاشىء غير ذلك ؛ فلاحلية أخرى ، ولازينة من الزينات ، ولامتاع خاص من الأمتعة ، بل يصح تبادل بيت بآخر دون أن يشعر الساكن بأى تغيير ، وكان للسكان بالطبع أيضا مكان للتسلية المشتركة ، أو ندوة واحدة للهو والرياضة ، فكانوا ينفرون من بيوتهم لأنها أشبه شىء بالمغارات وأدنى إلى الكهوف ...)(٢).

---

(١) الفتح بالارهاب (٢٩-٣٠) .

(٢) المعبود الذى هوى (٢٣٦) .

بل وصل الأمر لدرجة أن (انتفاع الأسرة الواحدة بدورة مياه مستقلة أمرا عزيزا)(١).

إن الشيوعية عملت على منع الإنسان حقوقه المشروعة قانونا ، فرغم النص فى القوانين على حرية المسكن واختيار الإنسان المكان المناسب له(٢)، إلا أن الشيوعية قد اعتبرت هذا من مخالفة مبادئها والخروج عن طاعتها ، ولأجل هذاالتضييق على الفرد الشيوعى أصبح كل أحد يتطلع إلى العمل فى المخابرات ليأمن على نفسه ، وليحقق شيئا من رغد العيش . يقول جيد : (إن كنت فيها ... فقد أمنت شر البوليس ، وظفرت بحمايته مادمت فى خدمته ...)(٣).

ويقول فى بيان نتيجة الارهاب والتجسس : (أصبح كل امرىء مستريبا بالآخر ، حتى لتؤدى أبسط الملاحظات . ولو من أفواه الأطفال والصبية . إلى الدمار ، وتعجل بالخراب ، فلاغرو إذا رأيت كل إنسان فى حذر متوجسا لايطمئن إلى أحد . ويخشى أن يذهب فريسة الشبهات)(٤).

أما الرعاية الإجتماعية فماذا بعد أن الشخص الذى لايعمل لايأكل؟ والشخص الذى لايملك البطائق السوفيتية والوثائق الممنوحة له من قبل الحزب فهو محروم من أبسط الحقوق . وجعلوا لكل شخص ثلاث وثائق : (الوثيقة الأولى : تخوله أن يحصل على الطعام . الوثيقة الثانية : تخوله العمل ، وبدونها لايقدر أن يشتغل . الوثيقة الثالثة : تثبت وطنيته ، ينتفع بها فى مطلق الأعمال الحكومية)(٥). فأى حرية بقيت للشخص وهو لايأكل إلا ببطاقة ولاينتقل إلا بها ، وإذا لم يملك هذه البطائق فإن حيلته بيع مايقتنيه من أجل شراء مايحتاج إليه. وعلم الشيوعيون أنهم يستعبدون

---

(١) الشيوعية فى موازين الإسلام (١٢٣) .
(٢) انظر ضمانات الحرية (٣٥) .
(٣) المعبود الذى هوى (٢٤٠) .
(٤) المرجع السابق (٢٤٠) .
(٥) الفتح بالارهاب (٤٧) .

العمال بهذه الطريقة عندما يفرغ مالديهم(١). ولم يكتف الشيوعيون بهذا القدر ، بل وصل بهم الأمر إلى أن يوجبوا على الإنسان أحيانا إخفاء اسمه الحقيقى وهويته، وهذا من أبسط مايمكن أن يعد من الحرية الشخصية(٢). لقد أصبح الفرد الشيوعى يتطلع وينشد المحافظة على هذه الحرية . يقول ليونهارد : (لم يضايقنى التغيير - فيما يتعلق بالماديات ، بقدر ماضايقنى الحجر على حريتى الشخصية .. بأن أخضع خضوعا كاملا لهذه الأنظمة فلايسمح لى بأن أتجول فترة قصيرة للترويح عن النفس إلا بتصريح خاص!! وشاركنى فى هذا كل التلاميذ ، لدرجة أنهم كادوا يذرفون الدموع)(٣).

إن مصادرة الحرية الشخصية نتيجة طبيعية للدكتاتورية التى فرضتها القلة الشيوعية(٤). يقول هيغل : (لاحرية مع الإرهاب فالإرهاب نفى للحرية وهذا هو التناقض فى الثورة ، لأن الثورة تريد تحقيق الحرية لكنها كثورة تطلبها بالإرهاب ، والإرهاب ينفى الحرية)(٥).

واعترف لينين بهذه الحقيقة فقال : (وواضح أنه حيثما يكون القمع ويكون العنف ، فلاحرية ولاديمقراطية)(٦).

فأين هذا من واقع الاتحاد السوفييتى؟

نعم لقد استخدموا العنف والإرهاب والقمع وبالتالى صادروا كل الحريات بالنسبة للأفراد والجماعات . يقول دجيلاس : (إن الدولة الشيوعية لاتنفك تسعى إلى إلغاء شخصية كل من الفرد والأمة ، بل إنها لاتتوانى عن طمس شخصية ممثليها أنفسهم ...)(٧).

---

(١) انظر الفتح بالارهاب (٥١-٥٢) .
(٢) انظر ماذكره ليونهارد فى كتابه حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٣٠) .
(٣) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٨٠-٨١) .
(٤) وهى دكتاتورية تستخدم باسم الشعب ومن المسلم به أن الحرية لاتجتمع مع الدكتاتورية والإرهاب .
(٥) نقلا من كتاب المثالية والمادية (٧٦) .
(٦) الدولة والثورة (٩٥) .
(٧) الطبقة الجديدة (١٣٦) .

وقد أعلن لينين أن الثورة لن تتحقق إلا بالغاء شخصية الفرد فقال : (لكى تحقق الثورة الإشتراكية هدفها ، يجب القضاء على الخصائص الفردية والتشريعات التى تتيح الملكية الخاصة ، والحجر على الحريات التى تضيق العمل الثورى وتطبيقاته)(١).

وهكذا خنق النظام الشيوعى الشخصية الفردية ، وأصبح الفرد يعيش فى هلع دائم ، ولكن هل يظل الإنسان هكذا مسلوب الإرادة والحرية ، مسلوبا كل معانى الإنسانية؟ إن الإجابة على هذا التساؤل بدهية ، فخالق الخلق منحهم الإرادة وأعطاهم الحرية ، وفطرهم على ذلك فكيف يسكت الإنسان على سلبه حقه الطبيعى المغروس فى نفسه من خالقه؟!! من هنا كان لزاما أن يفكر الإنسان الشيوعى فى الخروج من دوامة هذا الفكر ونظامه ، ولأجل ذلك وجد من كفر بهذا الفكر وهذا النظام ممن عمل فى الحزب الشيوعى ، أو بلغ مناصب عالية فى الإدارات الشيوعية ، نظرا لما رأوه من مصادرة للحرية الشخصية ، وكانت هذه المصادرة تشكل تراكما خطيرا ضد الفكر والنظام على مر الأيام . يقول ترافتشنكو : (بدأت فى طوية نفسى وثنايا ضميرى فكرة أن أعتزل الحزب فالمفازع التى شهدتها فى الريف تركت فى نفسى جروحا هيهات أن تندمل)(٢). فكان الفرد الشيوعى أو المحكوم بالشيوعية قسرا يريد الخلاص ، لكن القوة والقهر كانت تجبره على السكوت ورغم هذا ، ولنزوع الفطرة إلى الحرية بدأ الفرد يحدث نفسه بالخلاص منذ زمن بل لو شئنا لقلنا منذ بدايات الحكم الستالينى وخاصة بعد حملات التطهير ، غير أنها لم تعبر عنه إلا بعد أن شعرت بالفجوة التى يمكنها الولوج منها ، فبعد أن حست الجماهير (أن عصا السلطة لن تضرب بشدة ، وأن أسلحة القهر والقمع والقوة لن تسحق وتحصد ، على نحو ماكانت تفعل من قبل ، وأن معسكرات الاعتقال والمصحات النفسية القاتلة لن تستقبل

---

(١) الإسلام وبناء الإنسان (٩٩) نقلا من كتاب انهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤١) .

(٢) نقلا من كتاب الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٧١) .

أفـواجا جديدة .. عندها ، علا صـوت الجماهير ، وتجاوز الأبعـاد التى كانت مقـدرة لـه ، فطالب بالمزيد ، فـوق "الحرية" المحـدودة الممنـوحة مـن جهـاز السلطة الجديد فى موسكو)(١). ونظرا لأن الكبت كان قويا ، ولكون الإنسان بقـى عمـرا لايستطيع أن يعبر عمـا بداخله كانت ثورة الجمـاهير ضـد النظام قوية وعنيفة ، بل وصل الأمـر إلى أن أصحـاب الفكـر الشيـوعى المتشددين حاولـوا ارجاع الأمور إلى أوضـاعها السابقة ، لكن كـانت الجمـوع البشرية لهم بالمرصاد ، إن ماحدث للنظام الشيوعى يعتبر أمـرا طبيعيا ، حيث خالف السنن الربانية ، وصادم الفطرة الإنسانية ، وقضى على الحرية الشخصية فكان لابد من سقوطه وإنهياره ، وانتصار الفطرة والإرادة البشرية .

وبهذه المصادرة للحرية الشخصية للفرد ، تكون الشيـوعية حكمت على نفسهـا بالموت ، فـإن المجتمـع الشيـوعى ليس إلا مجمـوعة مـن الأفـراد لهم نزعـاتهم الفطرية ، ورغباتهـم الشخصية ، فإذا ماصودرت منهـم ، فإنهم لن يسكتـوا ولابد مـن أن يثوروا طلبـا فى تحقيق توجهاتهـم البشـرية ، وتحقيقا لمتطلبـاهم الفطـرية ، فكـانت مصـادرة الحرية الشخصيـة - وهـى مـن أعظـم الحريات التى يرجوهـا الإنسـان - مـع بقيـة الحريات سببـا رئيسـا فى انهيـار الشيوعية .

وبعد هذا العرض نصل إلى الآتى :

أولا : أن الاتحاد السـوفييتى نص فى دستوره على الحرية الشخصيـة غير أن ذلك كان إدعاء ناقضه الواقع .

ثانيا : أن النظـام السوفييتى نظاما دكتاتوريا ولايمكـن أن تجتمع الحرية والدكتاتورية ، وخاصة إذا كانت مصادمة للفطرة البشرية .

ثالثا : أن الفـرد فى الاتحاد السـوفييتى ليـس له أدنى اعتبـار إلا بمقـدار السمـع والطاعة العمياء للحزب الشيوعى ولو خالف ذلـك فإن مصيره القتل أو النفى إلى مجاهل سيبريا .

---

(١) كارل ماركس وداعا ... أم خداعا (١١) .

رابعا : أن واقع الاتحاد السوفييتى لمصادرته هذه الحرية فيه أبلغ رد على فشل الشيوعية فى تحقيق السعادة للفرد أو تلبية متطلباته وتطلعاته .

وأخيرا ومن خلال عرضنا - ولو موجزا - عن الحرية الشخصية فى الإسلام يتضح لنا أكثر فشل الشيوعية وإفلاسها فيما يتعلق بهذا النوع من الحرية .

(ب) الحرية الشخصية فى الإسلام :

اهتم الإسلام بالإنسان إهتماما كبيرا ، وكرمه على سائر المخلوقات وفضله تفضيلا . قال تعالى : {**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**}(١).

فهذه شهادة الله تعالى عن هذا المكرم ، ومن هنا كانت نظرة الإسلام له نظرة تقدير واحترام لكيانه وانسانيته ، ولكل مامن شأنه الحفاظ عليه .

ولم يكن الإسلام متسلطا على الإنسان ولامتجبرا عليه ، فلايحمله مالايطيق ولايجبره ، على الاستجابة لشىء لايريده بل ترك له حريته انطلاقا من احترامه لانسانيته وعدم اهدار كرامته .

فحافظ على ذات الإنسان وحرم الإضرار به أو التعدى عليه فى دينه أوفى جسده أو ماله أو عرضه أو عقله . وبالمقابل حرم عليه الاعتداء على الآخرين ليصون لهم هذا الحق .

وليس هناك شريعة أو قانونا حافظ على الكيان الإنسانى وعلى ماتقوم به حياته كالشريعة الإسلامية ، حيث جاءت بحفظ الضرورات الخمس التى يتطلبها كل انسان وهى الدين والنفس والعقل والمال والعرض ، فإذا ماأمن الإنسان عليها فإنه يشعر بكيانه وحريته الذاتية . وتعتبر هذه الحرية أساس بقية الحريات لتعلقها بالإنسان ويندرج تحتها الآتى :

(١) حق الحياة حماية النفس الإنسانية .

(٢) براءة الذمة .

---

(١) سورة الإسراء : (٧٠) .

(٣) حرية المسكن .

(٤) حرية المراسلات والاتصال بالآخرين .

أولا : حق الحياة وحماية النفس الإنسانية :

اعتبر الإسلام النفس الإنسانية مقدسة ، فحرم إزهاقها بغير وجه حق . وكذلك اعتبر المن على الرقيق بالعتق من أعظم القربات وماذلك إلا للاهتمام بالإنسان والمحافظة عليه .

فحرم الإسلام القتل بغير حق فقال سبحانه وتعالى : {**ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق**}(١).

وقال عليه الصلاة والسلام : (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)(٢).

وكذلك عمل الإسلام على وضع الحواجز أمام قتل النفس وأوجب إقامة الحدود على مرتكب تلك الجريمة الشنعاء فقال سبحانه وتعالى : {**ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب**}(٣).

وليس بعد هذا اهتمام أعظم منه بالنفس الإنسانية وقدسيتها وتحريم قتلها وإزهاقها .

والإسلام بهذا التشريع يجعل الحياة الإنسانية فى غاية الأمن والاستقرار فيعلم كل أحد المصير الذى ينتظره إذا اعتدى على الآخرين ، وصدق الله تعالى {**ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب**}(٤).

---

(١) سورة الإسراء : (٣٣) .

(٢) رواه مسلم بشرح النووى (١٢١/١٦) ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله .

(٣) سورة البقرة : (١٧٩) .

(٤) سورة البقرة : (١٧٩) .

ويلحق بذلك بقية الحدود الشرعية التى فيها اسعاد للبشرية وتحقيق الأمن لها ، ليضمن كل إنسان أن تتحقق له حريته الشخصية على أكمل وجه دون أن يتعرض لها الآخرون . ويلحق بذلك الحفاظ على ماله وتحريم الاعتداء عليه أو أخذه بغير وجه حق قال تعالى : {**يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**}(١).

وقال صلى الله عليه وسلم : (من قتل دون ماله فهو شهيد)(٢).

فجعل صلى الله عليه وسلم الموت دون المال والعرض من الشهادة فى سبيل الله وماذلك إلا لحفاظ الإسلام عليها واعتبارها جزء لايتجزأ من الإنسان كى يحقق له الحرية الذاتية على أكمل وجه .

ومن ذلك حفاظه على العقل الإنسانى حتى يظل الإنسان حرا مختارا فيما يفعل فحرم على الإنسان أن يستخدم مايزيل عقله أو يذهب تمييزه حتى لايقترف الآثام فى حق نفسه وحق الآخرين فحرم الخمر ، قال تعالى : {**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه**}(٣).

إلى غير ذلك من النصوص الشرعية التى جاءت دالة على احترام الإنسان والحفاظ على ذاته وكيانه وعدم جواز المساس بحريته الشخصية وتحريم الاعتداء على روحه ، أو ماله ، أو التعرض لعرضه ، أو التسبب فى إزالة عقله (وهكذا حقق الإسلام لذات الإنسان حقه فى أن يكون آمنا على نفسه وعرضه وماله وشرع لذلك الحدود والقصاص ، والإثم على من اعتدى وظلم وتوقيع القصاص على كل معتد على حرية الإنسان وحرمة ذاته)(٤).

---

(١) سورة النساء : (٢٩) .

(٢) رواه أبو داود (٢٤٦/٤) ، كتاب السنة ، باب فى قتال اللصوص ، والترمذى (٤٣٥/٢) ، أبواب الديات ، باب ماجاء من قتل دون ماله فهو شهيد ، رقم الحديث (١٤٣٩) .

(٣) سورة المائدة : (٦٠) .

(٤) ضمانات الحرية (١١١) ، وانظر الإسلام والحضارة الإنسانية (٣٠) .

ومن الحفاظ على الحرية الشخصية تكليف الإمام أو ولى الأمر بالحفاظ على الأمن ورعاية الناس وأخذ الحقوق لهم إن كانوا مظلومين ، وحث ولاة الأمر على الرفق بالرعايا فقال عليه السلام : (اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به)[١].

وهذا دليل على المحافظة على الإنسان وتحقيق مطالبه دون ضرر ولاإضرار . وهذه الحرية التى منحها الإسلام للفرد لم يطلقها بل قيدها بعدم الإضرار وماعدا ذلك فهو حق له ليس لأحد أن يسلبه إياه .

إن (الحرية الشخصية تعبر عن تحرر الإنسان فى سلوكه الخاص من مختلف ألوان الضغط والتهديد ، فهو يملك إرادته وتطويرها وفقا لرغباته الخاصة ، مهما نجم عن استعماله لسيطرته هذه على سلوكه الخاص من مضاعفات ونتائج ، مالم تصطدم بسيطرة الآخرين على سلوكهم . فالحد النهائى الذى تقف عنده الحرية الشخصية لكل فرد : حرية الآخرين فما لم يمسها الفرد بسوء فلاجناح عليه أن يكيف حياته باللون الذى يحلو له ويتبع مختلف العادات والتقاليد والشعائر والطقوس التى يستذوقها لأن ذلك مسألة خاصة تتصل بكيانه وحاضره ومستقبله . ومادام يملك هذا الكيان فهو قادر على التصرف فيه كما يشاء)[٢].

والحرية الشخصية إذا تحققت للانسان فإن غيرها يسهل تحقيقه ويمكن حصوله ، لأن بقية الحريات تتفرع عنها وتصب فى تحقيقها .

ومن مراعاة الحرية الشخصية فى الإسلام :

ثانيا : براءة الذمة وعدم أخذ الناس بالظنة :

إن من أعظم ماحافظ به الإسلام على حرية الإنسان الشخصية هو عدم المساس به أو إقامة العقوبة عليه لمجرد الظن والوهم . بل وحرم الإسلام

---

(١) رواه مسلم بشرح النوى (١٢/٢١٢-٢١٣) ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق .

(٢) فلسفتنا (١٦-١٧) .

الظـن وأبان جل وعلا أنه لايغنى عـن الحق شيئـا فقـال سبحانه : {**إن الظن لايغنى من الحق شيئا**}(١).

وقال تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم**}(٢).

وقال تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين**}(٣).

ومـااشتراط الشهود ، أو الإقـرار ، أو القرائن التى تدل على ارتكـاب الخطأ إلا دليل على مراعاة الحرية الشخصية وعدم إهدار كرامة الإنسان بجرم لم يرتكبـه ، وعلى هـذا فإن الإنسـان المسلم المتهم فى نظـر الإسلام برىء حتى تثبت إدانته .

ويلحق بذلك أن الإنسان المسلم لايؤاخذ بما قاله أو فعلـه وهو مكره ، قال تعالى : {**إلامن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**}(٤).

وماذلك إلا احتراما للحرية الشخصية وتحقيقا لها .

ومن الحريات الشخصية التى حافظ عليها الإسلام :

ثالثا : حرية المسكن وحرمته :

حيث صانها الإسلام وحافظ عليها ، وأنزل الأحكام التى تبين الطـريق الأمثل فى استقرارها والرقى بها لتحقيق السعادة بين النـاس . فحرم التجسس وحرم دخول البيـوت إلا بعـد الاستئذان ، قـال تعالى : {**ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحدا فلاتدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم**}(٥).

---

(١) سورة يونس : (٣٦) .
(٢) سورة الحجرات : (١٢) .
(٣) سورة الحجرات : (٦) .
(٤) سورة النحل : (١٠٦) .
(٥) سورة النور : (٢٧-٢٨) .

ومن ذلك :

رابعا : حرية المراسلات وسريتها :

فقد جعل الإسلام للدولة بعض التنظيمات والاجراءات الإدارية التى تحفظ للإنسان المسلم حريته فى مراسلة من شاء وبث مافى داخله دون أن يكون فى ذلك محذور شرعى أو تجاوز يلحق الضرر بالآخرين .

وقد أنشأت الدولة الإسلامية البريد وضمنت حرية المراسلة ، وجعلت ذلك التنظيم فى غاية الدقة وكذلك أولته اهتماما كبيرا لما يحقق من مصالح عديدة . ويلحق بذلك فى الوقت الحاضر مااستجد من وسائل حديثة فى مجال الاتصالات(١).

ومن الأمور التى حافظ عليها الإسلام للشخص : رعايته الصحية والإجتماعية ، وجعل ولى الأمر أو الدولة مسئولة عن ذلك ، لأن الحياة لايمكن استقامتها واستقرارها بدون تحقيق هذين الأمرين(٢).

وبهذا يعلم أن الإسلام قد أقر الحرية الشخصية وحافظ عليها خير حفاظ ، وجعل لها الأحكام الخاصة بها ، ووضع الحدود الصارمة فى التعدى

---

(١) ولمزيد انظر ضمانات الحرية (٣٥-٣٦) .

(٢) ولمزيد انظر المرجع السابق (٤١-٤٢) .

عليها ليحفظ الكيان الإنسانى من الظلم والاستغلال ، وليحقق بينهم السعادة والأمن . وهذه المحافظة والرعاية كانت أسبق مما جاء فى القوانين الوضعية أو النظم الدستورية التى تنادى باحترام هذه الحريات نظريا وتفعل مامن شأنه أن يصادرها فعليا .

بل إن شعائر الإسلام كلها تدل على المقدار الذى يتمتع به الإنسان من الحرية وأولها كلمة التوحيد فهى حرية حقيقية انعتاق من كل عبودية إلا من العبودية لله تعالى المستحق لذلك وحده جل وعلا . وهكذا يبدأ الإنسان حياته بإعلان حريته من كل عبودية إلا لله تعالى ، ومن هنا يأتى الحفاظ على هذه الحرية الشخصية التى أعلنت القطيعة مع كل شىء إلا من العبودية لله جل جلاله .

وبهذا نختم حديثنا عن الحرية الشخصية وننتقل إلى نوع آخر من أنواع الحرية وبيان موقف الشيوعية منها فى المبحث التالى .

المبحث الثاني
الحرية الدينية

(أ) الحرية الدينية فى النظام الشيوعى :

إن النظام الشيوعى قام على عدة ركائز من أهمها إنكار الألوهية ، وعدم الإيمان إلا بما هو محسوس . ومن هنا كان موقفه من العقيدة الدينية موقفا عدائيا دكتاتوريا . قام بمصادرة الحقوق الإنسانية كلها ومن أعظمها حرية العقيدة . هذا فى الوقت الذى لايمكن للإنسان أن يعيش دون عقيدة ومبادىء ينطلق من خلالها بما فى ذلك النظام الشيوعى حيث كان يحمل عقيدة وينافح عنها وإلا لما احتاج الشيوعيون إلى هذه القوة كلها لتنفيذ مخططاتهم واقناع الناس بمبادئهم . وعلى كل فإن الشيوعيين قاموا بوضع القوانين والدساتير التى تحدثوا فيها عن الحرية الدينية وكفالتها للمواطنين .

يقول لينين : (ينبغى أن يكون لكل امرىء الحرية التامة باعتناق الدين الذى يريده ، كما ينبغى أن يكون له أيضا الحرية التامة بنشره أو باعتناق دين آخر)[١].

كذلك نص الدستور السوفييتى على كفالة حرية العبادة . كما يكفل حرية الدعوة ضد الدين[٢].

كما نص الدستور على السماح لرجال الشرطة بالقبض على رجال الدين فى الظروف السياسية المختلفة ، بالاضافة إلى أن تعليم الدين للأحداث فى المدارس أو المعاهد جريمة يعاقب عليها[٣]. وإذا ماضربنا الصفح عن معاداة الدين واعتبار تعليمه جريمة يعاقب عليها القانون .

---

(١) التحالف بين العمال والفلاحين (٧٤) .

(٢) انظر : كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٢٦) ، القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٥١) ، صحيفة المدينة المنورة (٧٢٤٣) ١٤٠٧/٦/٢٢هـ بقلم رحمة الله رحمى .

(٣) انظر كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٢٦-٢٧) .

فما هى الأفكار التى ضمنها النظام الشيوعى إنها الأفكار المادية الإلحادية .

ومن هنا فإن أى عقيدة تدعو لخلاف هذه الأفكار سيكون مصيرها الرفض مع قتل أهلها ومصادرة كل حقوقهم . وهذا ماحدث مع المسلمين وعقيدتهم حيث كان الإسلام العدو الأول لهذا النظام فذاق المسلمون من ويلاته الكثير والكثير رغم الوعود التى أعلنها قادة الثورة البلشفية بتحقيق الحرية الدينية والحفاظ على المقدسات الإسلامية لمواطنى الاتحاد السوفييتى . علما بأن المسلمين كانوا يسكنون هذه الأراضى من قبل النصارى ، وقد دخلها الإسلام فى القرن الثانى الهجرى ووحد بين قبائلها ، وأصبحت قوة متراصة مترابطة ، ولم يكن هذا النفوذ الإسلامى ليرضى أعداء الله تعالى ، فتعرض المسلمون هناك لهجمات صليبية متكررة حاقدة كان الهدف منها القضاء على المسلمين وابعاد الإسلام من تلك الأراضى[١]، فوقع المسلمون هناك ضحية لتعصب القياصرة النصارى قبل الثورة البلشفية ثم بعد انتصار الثورة كانوا ضحية للإلحاد الذى يكره الدين كله[٢].

وسيكون عرضنا هنا لوضع المسلمين منذ قيام الثورة البلشفية وماتلا ذلك ، إلا بعضا مما يتطلبه التقديم لوضع المسلمين فى بداية الثورة البلشفية وإن كان المسلمون قد لاقوا صنوفا من الاضطهاد والظلم والطغيان من النصارى الحاقدين على المسلمين[٣].

---

(١) انظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٨٢-٨٤) د. إحسان حقى ، الطبعة الخامسة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) انظر الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١١٠) .

(٣) وللوقوف على بعض ماكان يلاقيه المسلمون فى الأراضى الروسية انظر : المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٧٥-١١٠) ، شانتال ، بينيغش ، تعريب إحسان حقى ، مؤسسة الرسالة ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٤٣-٥٤) د. محمد على البار ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة ، جدة ، المسلمون أمام التحدى العالمى (٨٤-٨٩،٩١) ومابعدها ، المبين فى بعض أحوال المسلمين فى الاتحاد السوفييتى (١١-١٦) .

وقد جاءت الشيوعية بمثل ماكانت عليه القيصرية بل تفوقت عليها فى محاربة الإسلام والمسلمين لأنها ضمت إلى نفسيتها العداء لكل دين . ومن هنا اعتبر بعض الكتاب والمفكرين أن الشيوعية كانت أشد فتكا بالمسلمين وأكثر امتهانا لهم ولمقدساتهم من القيصرية الروسية السابقة . وإن هذا هو الحق الذى لامرية فيه وذلك ليس تقليلا من شدة مالقيه المسلمون من القياصرة سواء من قتل ، أو تشريد لهم ، أو امتهان لمقدساتهم ، أو مصادرة لأوقافهم . ولكن نعنى أن السوء ازداد حدة وحقدا وفى كل شر .

يقول العقاد : (إن الدولة القيصرية لم تبلغ فى عهد من عهودها المظلمة مبلغ الدولة الشيوعية فى كثرة البلاد التى تحكمها ورهبة الجبروت على محكوميها ...)[١].

ومما هو جدير بالذكر هنا أن المسلمين كانوا (متمسكين بدينهم تمسكا شديدا شأنهم فى ذلك شأن كل الجماعات الإسلامية المنعزلة فى وسط غريب والتى تزداد تضامنا وتمسكا بعقيدتها بقدر ماتلقاه من ضغط وعداء من غير المؤمنين وكانوا يجهرون بإسلامهم فى مقابلة المسيحيين ...)[٢].

وكان المجتمع الإسلامى هناك محافظا على قدر كبير من الأحكام الدينية تمثل فى مسائل الأحوال الشخصية وغيرها ، وإن كان ذلك متفاوتا من طائفة إلى أخرى . ولاشك أن القوميات كان لها أثر فى العلاقات بين هؤلاء المسلمين . وكذلك اللغة واختلافها إلا أنه رغم ذلك وجدت الألفة والمحبة وكذلك التلاقح بين اللغات ، ولم تشكل الفروق اللغوية كبير عقبة فقد كانت بعض الجماعات والقبائل تترك لغتها إلى لغة أخرى[٣].

ولاشك بأن حياة المسلمين هناك وبقاءهم ذلك الوقت قد أثر على بعضهم فى قضية الأخذ بشىء من المدينة الروسية ، إلا أن الأغلبية رفضوا

---

(١) لاشيوعية ولااستعمار (٢٩) .
(٢) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٤٥-٤٦) .
(٣) انظر المرجع السابق (٤٧-٥٤) .

ذلك (فقد رفضت الجماعة الإسلامية الروسية بمجموعها ، فى القرن التاسع عشر ، الأخذ بأى شىء من المدنية الروسية إلا ماكان فى المنزلة الدنيا أى فى الأرياف ، وانطوى المسلمون على أنفسهم باستثناء فريق ضئيل من النخبة ، الذين قبلوا أن يقلدوا الحياة الروسية وأن يندمجوا فيها بسرعة . غير أن هؤلاء المسلمين المقلدين للروس والذين قبلوا فى المجتمع الروسى أندادا للروس وعوملوا مثلهم قد اضطروا إلى قطع صلاتهم بالمسلمين الذين نبذوهم ، واعتنق آخرون منهم المسيحية ...)[١].

إن المسلمين عانوا من الحكم القيصرى الكثير والكثير ، وحاول قادة الجماعات الإسلامية ، وبعض دعاة الاصلاح أن يغيروا من الأمر شيئا ، ولكن دون جدوى نظرا لما كانوا يلاقونه من النصارى . وقامت عدة حركات إصلاحية كجواب إسلامى على الضغوط القيصرية . ومن ذلك الإصلاح الدينى والتعليمى والثقافى[٢].

ونتيجة لهذه الضغوط وللاضطهاد الذى كان يعانيه المسلمون فإنه من السهولة أن يتطلع المسلمون هناك إلى مايمكن أن يكون أقل خطرا وكذلك أرحم وضعا من الحكم القيصرى . وعندما كانت الأفكار الاشتراكية فى شعاراتها قد حملت مايحلم به كل انسان من قضايا أساسية كالعدل والحرية والمساواة . بالإضافة إلى أن الفكر ماقام - كما زعم أصحابه - إلا من أجل المضطهدين والمغلوبين على أمرهم ، فقد وجدت الأفكار الإشتراكية رواجا بين المسلمين الروس . وكذلك قدم المسلمون الكثير فى سبيل القضاء على القيصرية ظنا منهم بأنهم سيحققون مالم يحققوه فى ظل بقائها .

وقد وجد عدد من الاسباب ساعدت على إمكانية ظهور الإشتراكية منها:

(١) ظهور الفكر الماركسى وانتشاره فى أماكن كثيرة .

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٦١-٦٢) .

(٢) انظر : المرجع السابق (٦١-٧٥) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (١/٩٢-١٠٠) .

(٢) فشل بعض الحركات الوطنية التى قام بها المسلمون ، واقتناعها باستحالة تحقيق مطالبها[١].

(٣) الرغبة فى الخروج من الظلم الذى كانوا يعيشونه فى ظل القيصرية[٢].

الشيوعية وحرية العقيدة بين النظرية والواقع :

بعد العرض السابق السريع لوضع المسلمين قبيل الثورة البلشفية[٣]، وماأثبتناه من وجود للفكر الاشتراكى لدى بعضهم لأنهم وجدوا فيه مذهبا قد يحقق لهم ماعجزوا عن تحقيقه فى فترة من الزمن مضت ، جاء البلاشفة وزادوا الأمل فى نفوس المسلمين وأعطوهم العهود والمواثيق ، ومنوا المسلمين بالشىء الكثير فى سبيل الحفاظ على معتقداتهم ومقدساتهم ، فلم تكد تمضى أيام على استيلائهم على مقاليد الحكم فى روسيا حتى وجه لينين نداء إلى جميع المسلمين فى الأراضى الروسية بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩١٧م وكان يحمل الكثير والكثير مما يحلم به المسلمون هناك من احترام لدينهم وشعائرهم ومقدساتهم وحرياتهم . يقول لينين : (يامسلمى روسيا .. يامسلمى الشرق أيها الرفاق ... أيها الاخوة : إن أحداثا عظيمة تحدث الآن فى روسيا . إن العهد الدموى (الحرب العالمية الأولى) الذى بدأ بسبب أطماع الاستعماريين والامبرياليين فى أرضكم قد قارب النهاية .. وتحت ضربات الثورة الروسية فإن النظام الاستعبادى الاستبدادى يتقوض بناؤه الآن . وإن حكم الطغاة والمستبدين ومصاصى دماء الشعوب يقترب من أيامه الأخيرة الآن . وإن عالما جديدا يولد الآن . عالم العمال والأحرار وعلى رأس ثورة الفلاحين والعمال يقوم مجلس الشعب الممثل بالقوميسار الروس .. إن عهد الرأسماليين والامبرياليين يتداعى وإن الأرض تميد من

---

(١) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٩٤-٩٥) وقد ورد فيه اختلاف المسلمين الروس فى موقفهم من الاشتراكية انظر (٩٥-١١٠) .

(٢) انظر : المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (١/٥٥-٥٧) ، صحيفة أخبار العالم الإسلامى العدد (٨/٩٦٣) فى ١٤٠٦/٦/٢٢هـ .

(٣) كمقدمة مختصرة لابد منها .

تحت أرجلهم وتشتعل الثورة من تحت أقدامهم .. وفى خضم هذه الأحداث العظام نلفت إليكم يامسلمى روسيا والشرق الذين استرقكم الاستعمار واستلب أموالكم وأراضيكم .

يامسلمى روسيا ، ياتتار الفولجا والقرم ياأيها القرغيز وسكان سيبريا والتركستان ، ياسكان القوقاز الأبطال وقبائل الشاشان وسكان الجبال الأشداء .. أنتم يامن هدمت مساجدكم وحطمت معابدكم .. ومزق القياصرة الطغاة قرآنكم وحاربوا دينكم .. وأبادوا ثقافتكم وعاداتكم ولغاتكم .

ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم فى العبادة .. إننا هنا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم وإن عاداتكم وتقاليدكم حرة لايمكن المساس بها .. ابنوا حياتكم الحرة الكريمة المستقلة دون أى معوقات .. ولكم كل الحق فى ذلك .. واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة ورجالها والعمال والفلاحين والجنود وممثليهم .. لهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومساندتها لأنها تقوم من أجلكم ومن أجل حريتكم الدينية والمدنية.

يامسلمى الشرق .. يامسلمى ايران وتركيا وبلاد العرب والهند .. أنتم يامن تاجر مصاصوا الدماء الأوربوين المستعمرون بحياتكم وأوطانكم وحرياتكم لعدة قرون من الزمان .. أنتم يامن يتآمر عليكم هؤلاء اللصوص الذين يتقاسمون أرضكم ويشعلون نار الحرب لتكونوا أتونها ثم يستلبون بعد ذلك أرضكم وثرواتكم .

أما نحن فنعلن بأعلى صوتنا أن الاتفاقيات السرية التى أبرمت بين روسيا القيصرية وبين فرنسا وبريطانيا الاستعماريتين والتى بموجبها اقتسموا أراضيكم أيها المسلمون ، واستلبوا ثرواتكم ونهبوا خيراتكم ، نعلن أنها باطلة .. ونعلن أن خطط القيصر المخلوع وحكومته التى أزاحها الشعب للاستيلاء على القسطنطينية (عاصمة الخلافة الإسلامية) باطلة ولاغية .

إن حكومة جمهورية روسيا الثورية ومجلس الشعب الأعلى فيها يعلنون أنهم ضد احتلال أراضى الغير بالقوة .. ونعلن أن القسطنطينية ينبغى أن تبقى بيد المسلمين .. كما نعلن أن الاتفاقية السرية بين بريطانيا

وروسيا القيصرية لاقتسام إيران بينهما لاغية وباطلة .. ونعلن أننا سنسحب قواتنا من ايران بمجرد إنتهاء العمليات العسكرية .. ونضمن إستقلال إيران الكامل . وإننا نعلن أيضا إننا ضد تقسيم تركيا واقتطاع أرمينية منها وأن هذه الاتفاقيات السرية باطلة ولاغية .

ليس من روسيا أيها المسلمون سيأتى استعبادكم بل من الدول الأوربية الاستعمارية .. من هؤلاء اللصوص مصاصى الدماء الذين استعمروا أرضكم واستلبوا ثرواتكم وزجوا بأبنائكم فى أتون حرب لايأتيكم منها إلا الدمار ، وفى مقابل ذلك كله يقتسمون مابقى من أرضكم وثرواتكم وكأنكم وبلادكم غنائم الحرب المنتظرة .

ثوروا ضد هؤلاء الطغاة الكفرة الذين سرقوا ثروات بلادكم واستعبدوا أوطانكم .. نعم ثوروا الآن فى هذا الوقت الذى تشتعل فيه الثورة وينهدم فيه بنيان الطغيان والاستبادد ويتقوض فيه نظام الاستعمار .

ثوروا فإن أى شرارة الآن ستكون حريقا يلتهم بنيان الطغيان والاستبداد والاستعمار . إن الهنود المسلمين الذين ذاقوا الذل والاستعباد لقرون طويلة يثورون الآن ضد بريطانيا العظمى ، ويرفضون أن يبقوا حول أعناقهم الأغلال التى غلتهم بها بريطانيا لعدة قرون من الزمان .

اليوم لايمكن السكوت على هذا الظلم وعلى هذا الاستعباد .. إنه وقت الثورةضد المستعمرين الانجليز الغاصبين لأوطانكم المحاربين لدينكم المستبيحين لمقدساتكم الناهبين لثرواتكم .

الآن ياأيها الرفاق والأخوة هو الوقت المناسب للثورة ولصنع مستقبلكم الحر الباسم بأيديكم .

تقدموا أيها المسلمون لتحرير أوطانكم وارفعوا أعلام ثورتكم فإن أعلامنا وبنودنا قد رفعت من أجل حرية المستعبدين والمظلومين .

يامسلمى روسيا ويامسلمى الشرق هلموا إلينا .. إلى طريق الحرية والعدالة لنبنى هذا العالم من جديد على أسس الحق والخير والعدل .

التـــوقيع

جوزيف ستالين

فلادمير لينين)[١]

هذا النداء نداء الحرية والدفاع عن المعتقدات والمقدسات كان لغاية وهدف وهو جلب المسلمين ليعملوا مع الثورة وفى صالحها .

إن الناظر فى هذا النداء يعلم بأنه قادر على الخداع والاغراء ، ومن هنا كانت ظنون المسلمين حسنة فى هذه الثورة لما أعطته من الوعود والعهود . والمحافظة على الحرية والمقدسات فهل أعطت الشيوعية ماوعدت به؟

إن حال أعداء الإسلام فى كل زمان ومكان لايخرج عن الخديعة والغدر بالمسلمين فهم {**لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة**}[٢].

وهذا ماحدث للمسلمين فى الاتحاد السوفييتى بعد هذه الوعود والإدعاءات بكفالة الحريات ، وضمانة ممارسة الشعائر الدينية بكل حرية .

فبعد وصول هؤلاء للسلطة ، وامساكهم بزمام الأمور أخذوا فى الزحف على المسلمين وعلى دويلاتهم وسرعان ماتهاوت فى أيديهم نظرا للعداء المستمر من اليهود والنصارى لهذا الدين . قال تعالى : {**ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم**}[٣].

---

(١) The Soviet union and the muslim world من كتاب المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٥٧-٦٠) ، وانظر أيضا على تفاوت فى ذكر الخطاب بين الطول والقصر والألفاظ : المسلمون فى وجه الزحف الأحمر (١٢٤-١٢٦) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (١٣٨-١٣٩) ، هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٣١-٣٢) ، حاضر العالم الإسلامى (١٣٣-١٣٤) ، وسقطت الماركسية (١٢٣-١٢٤) .

(٢) سورة التوبة : (١٠) .

(٣) سورة البقرة : (١٢٠) .

وهكـذا سيظل العداء إلى أن يرث الله الأرض ومـن عليها. وقد كشر الأعداء عن أنيابهم وسيظلون كذلك ، فكان ذلك النداء شعاراً براقاً خدع به المسلمون حيث ظهرت الأفعال الشيوعية التى حطمت تلـك الوعود النظرية . ويمكن إبراز موقف الشيوعية من الحرية الدينية فى النقاط التالية :

أولا : الاستيلاء على منـاطق المسلمين ودويلاتهم كخطـوة أولى وبالتالى يكون ذلك النداء وتلك الحقوق التى قالوا بأنهم سيضمنـونها للشعوب داخل الاتحاد السـوفييتى شعارات وأوهام من أجل الخداع حتى يصلـوا إلى ماأرادوا وبعـد ذلك يفعلون ماكانوا يخططـون له من قبل . يقـول دحيلاس عـن بيان خداع الشيـوعية : (إن الحركة الشيوعية لاتسفر عن وجههـا الحقيقى إلا بعد أن تتسلم السلطة)[١].

وبالفعل بعد أن استتب لهم الأمر وبعد أربعة أشهـر من البيان السابق (أصـدر لينين أمرا بالزحف على البلاد الإسلامية دون سـابق إنذار ، فأخذت الـدبابات تحصد المدن ، وتدك الحصـون والقلاع، وفى سنـة ١٩١٩م استـولوا على جمهورية الإش أوردو)[٢].

وفى عـام ١٩٢٠م (احتلـوا القـرم وهجمـوا على أذربيجـان وحاصـروا جمهـورية جنوة التركمانية مـن ثلاث اتجاهات حتى سقطـت فى أيديهـم آخر عام (١٩٢٠م) بعد دفاع مستميت من أهلها)[٣].

وفى سنة ١٩٢١م هجموا على جمهورية بخارى واستمـر أهلها فى الدفاع عنها عشر سنوات[٤].

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٠٦) .

(٢) وسقطـت الماركسية (١٢٤) ، وانظـر : الإسلام فى وجه الـزحف الأحمـر (١٣٢) ، حاضـر العالم الإسلامى (١٣٤) ، صحيفـة أخبار العالم الإسلامـى العدد (٨/٩٦٣) ١٤٠٦/٦/٢٢هـ .

(٣) وسقطـت الماركسيـة (١٢٤) ، وانظـر : الإسلام فى وجه الزحف الأحمـر (١٣٣) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٦٧/١) .

(٤) انظـر : وسقطـت الماركسيـة (١٢٥) ، الإسلام فى وجه الـزحف الأحمـر (١٣٣) .

ثانيا : واقعهم مع المسلمين : لابد هنا من التنبيه على أن الإسلام عقيدة تنسف الشيوعية من جذورها ، ومن هنا كان العداء مستحكما ضد المسلمين وذلك لأنهم أصفى فطرا من غيرهم ، وأشد تمسكا بدينهم ممن سواهم . فوجد الشيوعيون فى الإسلام عقبة كؤودة (أمام مطامعهم ، ومحاولاتهم فى تقويض القيم الإنسانية ، ونشر الفوضى والكفر والإلحاد فى المجتمعات الإسلامية)[١]. ومن هنا كان العداء للاسلام أكثر شراسة وحقدا من بقية الأديان .

يقول شانتال وصاحبه : (إن الدين الإسلامى أشد خطرا من غيره من الأديان على النظام الشيوعى لأن عمل المسلمين بأحكام الإسلام الشرعية والأخلاقية يميز المسلمين عن غيرهم ...)[٢].

إن الإسلام أعظم قوة تجابه الشيوعية ، ويبين زيف أفكارها وكشف أباطيلها ، لأنه دين الله تعالى الذى ارتضاه لخلقه وفطرهم عليه . ولأجل ذلك بذلت الشيوعية - جاهدة وبشتى الوسائل - كامل مافى وسعها لإزالة الدين من نفوس الناس ، ولكن لم تجد تلك الطرق والأساليب شيئا . لأنه دين غرس فى أصل خلقة الإنسان ، فكيف ينفك عنه والله تعالى خلقه كذلك ومن هنا كان المسلمون عرضة للقتل ، والتعذيب ، والتشريد ، والنفى ، وليس ذلك فقط فى الاتحاد السوفييتى بل إن أوضاع المسلمين فى الدول الشيوعية كلها (سيئة للغاية وتحاول السلطات هناك أن تقوم أعمال استفزازية ضد المسلمين كما تحاول إرغامهم بالقوة على الارتداد عن الدين الإسلامى - كما تعمل جاهدة على إخفاء العدد الحقيقى للمسلمين فى تلك البلاد وتمارس ضدهم كثيراً من الأعمال غير الإنسانية وأهمها تحريم تكوين منظمات أو جماعات إسلامية وعدم السماح لهم بالتجمع فى المساجد بل وإغلاق تلك المساجد كلية حتى تحولت معظم المساجد فى تلك البلاد إلى

---

(١) وسقطت الماركسية (٣٩) ، وانظر حقيقة الشيوعية (١٩٣) .

(٢) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٢١) .

مجرد متاحف مغلقة للذكرى والتاريخ - والأنشطة الثقافية والدينية ممنوعة تماما فى الدول الشيوعية بالرغم من أن دساتير تلك الدول تنص على حرية العبادة ولكنها فى نفس الوقت تنص على أن للمواطنين كامل الحرية فى محاربة الأديان والمتدينين)[١].

وهكذا فإن الإسلام لكونه عقيدة راسخة فى نفوس أصحابه ، ولكونه خطرا كبيرا يهدد الشيوعية بنقض مبادئها كان العداء السافر من الشيوعيين له ولأهله ، وماتلك الأقوال فى كفالة حرية التدين ، وضمان ممارسة الشعائر الدينية وحفظها ، إلا خداع اقتضاه الوقت ، فـ(على الرغم من أن الشيوعيين الروس ينكرون عداءهم للمسلمين ويتظاهرون بالتودد إليهم فإن الوقائع وتاريخ الشيوعية ومآسيها وآثامها تكذبهم .

وكيف نستطيع أن نصدق أقوالا معسولة يبذلها الشيوعيون فى مناسبات خاصة ونحن نعلم علم اليقين أن الشيوعية عدوة الدين وأن أول هدف للشيوعيين هو مكافحة الدين والقضاء عليه وأن هذا العداء هو مبدأ من مبادىء الشيوعية الملحدة الذى لاتستطيع أن تتزحزح عنه وإلا فإنها لاتكون شيوعية ...)[٢].

وقد اعترف الشيوعيون بأن الإسلام يشكل عائقا كبيرا فى طريق انتشار الأفكار الشيوعية . يقول مولوتوف : (لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز وفلسطين)[٣].

وبعد هذا فيمكن تلخيص مصادرة الحرية الدينية للمسلمين خاصة فى التالى ، لندرك التناقض بين الإدعاء والحقيقة .

---

(١) المسلمون فى العالم أضواء على توزيعهم ومشكلاتهم (١٠٣) د. عادل طه يونس ، دارالبحوث العلمية ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) المسلمون أمام التحدى العالمى (٨٩) .

(٣) الإسلام يرفض الشيوعية (٢٣) ، وانظر الإسلام يقينا لاتلقينا (٢٦٩) .

(أ) القتل والاضطهاد والنفى :

مارس الشيوعيون جميع أنواع الاضهاد والقهر فى محاولة القضاء على الدين ،و مصادرة حرية التدين للمسلمين فى الاتحاد السوفييتى . فكان القضاء على المسلمين فى رأس القائمة التى ينوى الشيوعيون العمل عليها ، خاصة أن المسيحية لاتنهض أمام الفكر الماركسى ، ناهيك عن أنها فرع من اليهودية[١]. ومن هنا كانت الخشية من الإسلام تهز أركان وأعماق دولة الإلحاد ، فاستخدمت ضد المسلمين صنوفا من الأساليب من أجل تحقيق غاياتها والوصول إلى أهدافها ومن ذلك :

القتل الذى تعرض له المسلمون : بمجرد أن تسلم البلاشفة السلطة عملوا على اضطهاد المسلمين وحربهم . ففى سنة ١٩١٧م هاجم الجنود الشيوعيون مدينة خوقند وقتلوا آلافا من المسلمين ، وهدموا بيوتهم ، وصادروا أملاكهم وأموالهم[٢]، وفى عام ١٩١٨م هاجم الشيوعيون طاشقند فقضوا على جيش المسلمين (ونهبوا المدينة ودامت المذابح والنهب ثلاثة أيام متوالية ، وبعد أن هدموا المدينة وجعلوا عاليها سافلها أشعلوا فيها النار)[٣]. وفى العام نفسه قرر السوفييت القضاء على السلطة الإسلامية الموجودة فى سيمفيروبول ، وهزم الجيش الإسلامى فقتل من قتل منه ، وفر بعضهم إلى الجبال ، وبعضهم إلى تركيا[٤]. كما هاجمت القوات السوفيتية الفولغا[٥]، وباكو ودارت فيها مذابح رهيبة ، قتل فيها ثلاثة آلاف مسلم . وبالعموم (لم تأت نهاية ربيع ١٩١٨م حتى كانت جميع المنظمات الوطنية الإسلامية قد تلاشت فى طول البلاد الروسية وعرضها ، وقتل زعماؤها أو سجنوا أو فروا ...)[٦].

---

(١) انظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٩٠-٩١) .
(٢) انظر حقيقة الشيوعية (١٩٨) .
(٣) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (١٤٢-١٤٣) .
(٤) انظر المرجع السابق (١٤٤) .
(٥) انظر المرجع السابق (١٤٤) ومابعدها .
(٦) المرجع السابق (١٤٧) .

(وقد قدرت المصادر الروسية نفسها عدد ضحايا الحكم السوفييتى بين المسلمين فيما بين سنتى ١٩١٧ و١٩١٨ بثمانمائة ألف)[١].

واستمر اضطهاد المسلمين والتضييق عليهم)[٢]وماجاء خريف عام ١٩٢٠م حتى (أضحت بلاد الإمبراطورية كلها تحت سيطرة الحكومة السوفيتية ، ولكن البلاد كلها ، وخاصة ماكان منها على الحدود ، كانت خرابا يبابا وهى تنزف دما ، وبدت حالة المسلمين فى بؤس ليس وراءه بؤس)[٣].

وبعد أن أطمأن الروس ، رأوا أن العداء هذا قد لايؤدى إلى النتيجة التى يرغبون فى الوصول إليها . يقول سلطان غالييف : (إن مكافحة الدين أمر لازم للشيوعيين لأن الإسلام ، مثل غيره من الأديان ، سيظل عقبة فى طريق بناء الاشتراكية ، غير أن هذا الكفاح يجب أن يسير برصانة وحكمة لأن الإسلام ، وهو آخر الأديان الكبيرة ، هو أقواها وأكثرها ديمقراطية ، حتى من المسيحية ، وإن تعاليمه تدخل فى عمق حياة المسلمين الإجتماعية وتحمل عناصر تقدمية من الصعب القضاء عليها)[٤].

وقد واجهت القرم مجاعة كبيرة بسبب أن الروس نقلوا مافى الجزيرة من أقوات ليضطروا المسلمين على التسليم فبلغ عدد الذين أصابتهم المجاعة ٣٠٢٠٠٠ مات منهم ١٤٤١٣ ارتفع عددهم بعد ذلك إلى ٣٧٩٠٠٠ ، مات منهم ١٩٩٠٢ ، ثم ارتفع العدد إلى ٣٨٧٠٠٠ مات منهم ١٢٧٥٤ ، ثم ازداد العدد ووصل إلى ٣٩٢٠٧٢ . وقد كان سكان القرم ٥ ملايين حين قيام الثورة أصبحوا عام ١٩٤٠م ٤٠٠ ألف فقط[٥].

---

(١) حقيقة الشيوعية (١٩٨) .

(٢) انظر فى تلك الأحداث المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (١٤٧-١٦١) .

(٣) المرجع السابق (١٦١) .

(٤) المرجع السابق (٢٢٤) .

(٥) انظر : حاضر العالم الإسلامى (١٣٥) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٦٧-٦٨) ، الفكر الماركسى (٩٥) ، وقال إنهم قتلوا ١٠٠ ألف مسلم فى عام ١٩٢١م ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٣٥) .

وفى عاصمة داغستان (محج قلعة) حصدوا ٧٥٠,٠٠٠ نسمة اكتشفت مقابرهم الجماعية قبل أعوام قليلة[١]. وفى سنة ١٩٣٤م (قتلوا من التركستان وحدها مائة ألف مسلم بما فيهم من أعضاء الحكومة المحلية ، والعلماء والمثقفون والتجار والمزارعون وبين سنة (١٩٣٧م) وسنة (١٩٣٩م) ألقت الحكومة الروسية القبض على خمسمائة ألف مسلم وأعدمت فريقا منهم ، ووزعت آخرين فى مناطق أخرى من الاتحاد السوفييتى ، واستمر القتل والنفى والطرد من البلاد إلى سنة ١٩٥٠م)[٢].

ولاغرابةفى ذلك أليس لينين هو القائل (إن إبادة ثلث الجنس البشرى ليس بذى بال ، وإنما المهم أن تنجح الشيوعية بأية حال)[٣].

أما النفى : فقد كانوا ينقلون الجماعات تلو الأخرى وهم بهذا يهدفون إلى قطع صلة الإنسان بآبائه وأجداده ، وتنشئته حسب مايراد له لاكما يريد هو .

ففى سنة ١٩٢١م أرغموا ٥٠,٠٠٠ من المسلمين على الهجرة من القرم ، وفى عام ١٩٣٤م قاموا بنفى ثلاثمائة ألف مسلم من التركستان ، وفى سنة ١٩٣٧-١٩٣٩م ألقت روسيا القبض على ٥٠٠ ألف مسلم ، وعددا من الذين استخدمتهم فى الوظائف الحكومية ثم أعدمت فريقا وأرسلت فريقا آخر إلى مجاهل سيبريا . وفى عام ١٩٤٦م نفوا شعبين إسلاميين كاملين شعب جمهورية القرم وتشيس إلى مجاهل سيبريا . وفى سنة ١٩٤٩م هرب ألفان من التركستان الشرقية ومات منهم ١٢٠٠ وهم فى طريقهم إلى الهند . ونتيجة لقانون مزج الشعوب فى الاتحاد السوفييتى نفت روسيا ٤٠٠,٠٠٠ مسلم تركستانى إلى أوكرانيا

---

(١) انظر المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين فى الاتحاد السوفييتى (١٧) ، عبدالحميد داغستانى ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة .

(٢) وسقطت الماركسية (١٢٥) ، وانظر : الفكر الماركسى (٩٥) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٣٨) .

(٣) لاشيوعية ولااستعمار (٤٤) .

وأواسط روسيا فاندمجوا فى تلك الشعوب وفقدوا وطنهم الأصلى[١].

فأين هى المحافظة على الحرية؟

وماهو سبب نفى هؤلاء؟!! ومن قبل قتل غيرهم ليس لهم ذنب إلا أن يقولوا ربنا الله .

لقد قضى الشيوعيون على الحرية الدينية بكل قوة ، وعملوا على ذلك بشتى الوسائل . ومن وسائلهم الدالة على مصادرتهم لحرية التدين مافعلوه بمقدسات المسلمين .

(ب) هدم المساجد وامتهانها ومصادرة الأوقاف الإسلامية .

إن المسجد يمثل المكان الأول الذى يتعبد فيه الإنسان ويقيم فرائض ربه فيه ، وهو بيت كل تقى ومن هنا عملت الشيوعية على شن الحملات (على المساجد مطالبة باغلاقها فأغلقت الكثير منها وجعلت من بعضها نوادى للسمر ، ودورا للسينما ، وملاهى لاتزال كذلك بعد أن أزالت عنها معالمها الرئيسية ، وكان من نتائج هذه الحملات والإرهاب الذى رافقها أنه لم يبق من آلاف المساجد التى كانت موجودة فى الاتحاد السوفييتى غير ١٣١٢ مسجدا...)[٢].

وفى بعض الاحصائيات ، جاء أن عدد المساجد قبل قيام الثورة البلشفية بلغ ٢٦,٢٧٩ مسجدا باستثناء بخارى وجنوه ، ويقوم على هذه المساجد ٤٥,٣٣٩ رجلا من رجال الدين بين واعظ ، وإمام ، ومؤذن .

---

(١) انظر : الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٣٨) ومابعدها ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٣٣٥،٣٣٦/١) ، وذكر أن مجموع من فر من سكان التركستان الشرقية والغربية ثلاثة ملايين مفرقين فى مختلف أرجاء البلاد الإسلامية خاصة إيران ، أفغانستان ، المملكة العربية السعودية (٣٣٦) ، وانظر قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١١٠) .

(٢) المسلمون أمام التحدى العالمى (٩٨) . وانظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٢٩) وذكر أن ذلك العدد سنة ١٩٤٢م .

غير أنه فى مطلع الستينات بلغ عددها قرابة أربعمائة مسجد[١]. وقد حولت هذه المساجد إلى اصطبلات ومراقص[٢]، وحول كثير منها إلى مصانع أو مخازن ، أو زرائب للماشية ، وبقى قليل منها لمتاحف تمثل عهد الرجعية البائد[٣]. لقد قامت الشيوعية بالنيل من مقدسات المسلمين ، وامتهانها، وهم بهذا ينفذون أهدافهم فى القضاء على الدين ، ويعطون صورة حقيقية عن مدى تحقيقهم للحرية الدينية فى بلادهم[٤].

وأما الأوقاف الإسلامية : فإن الشيوعية قامت بمصادرتها ، وكانت تلك الأوقاف تمثل المصدر الأول فى الانفاق على المساجد وصيانتها ، وكذلك المدارس الدينية وغيرها كالمشافى الوقفية . وكانت تلك الأراضى تشكل ٨-١٠٪ من الأراضى الزراعية . وبين مد وجزر تجاه الأوقاف صدر فى عام ١٩٢٥م مرسوم (يقضى بأن تستملك مفوضية الشعب للزراعة ، كل الأوقاف الكائنة خارج المدن باستثناء البساتين والكروم ، وبعد ذلك بقليل صادرت أوقاف المدن وأوقاف المساجد .

---

(١) انظر : المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٣٦،٢٧٢) ، قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١١٠) ، فوق أطلال الماركسية (١٩٧) ، صحيفة أخبار العالم الإسلامى العدد (٨/٩٦٣) الاثنين ٢٢ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ .

(٢) حقيقة الشيوعية (١٩٣) .

(٣) المرجع السابق (١٨٧) .

(٤) ولمزيد عن هدم المساجد وطمسها انظر : الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٣٩-١٤٠) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٣٣٧/١) ، المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين فى الاتحاد السوفييتى (٢١) ، وانظر الدراسة التى أجريت عن طريق المؤتمر العالمى السادس للندوة العالمية للشباب الإسلامى بالرياض ، اعداد د. النقيب ، نشرت ذلك صحيفة المسلمون العدد ١٧٦٤ فى ٢٣ شعبان ١٤٠٦هـ الموافق ابريل/مايو ١٩٨٦م ، ونشرت فى أخبار العالم الإسلامى العدد (١٤،٩،٨/٩٦٣) ١٤٠٦/٦/٢٢هـ ، ونشرت صحيفة الجزيرة دراسة مختصرة عن بحث الدكتور النقيب العدد (٤٩٧١) فى ١٤٠٦/٩/١هـ .

وفى سنة ١٩٣٠م قضت حكومة موسكو عمليا ونهائيا على المؤسسات الوقفية الكائنة فى طول الاتحاد السوفييتى وعرضه وذلك بوعدها أن توزع الأرضين على الفلاحين وهكذا فقد قضى على هذه المؤسسة الإسلامية ، فى بضع سنوات ، من غير أن تثير أية مقاومة . ومنذ ذاك الحين حرم رجال الدين من أسباب رزقهم ، كما حرمت المساجد والمدارس من الوسائل المادية لدوام بقائها)[١].

(ج) منع المسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية .

إن الإسلام يتعارض مع الشيوعية فى عقيدته وشريعته ، ولأجل ذلك قام الشيوعيون بمنع المسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية واعتبروا ذلك جريمة لاتغتفر . بل إن من الجرائم العظمى (أن يضبط روسى متلبسا بجريمة الصلاة أو العبادة)[٢]. ولم يبق من شعائر الدين الإسلامى التى يمارسها المسلمون شيئا لايدخل فى هذا المنع والتحريم[٣].

فكلمة التوحيد : يقولها المسلمون (فى السر ولاتستطيع السلطات أن تراقب السرائر)[٤].

أما الصلاة : فلم يكونوا يستطيعون أداءها .

والزكاة : محظورة إلا بعض مايتبرع به المسلمون لصيانة أماكن العبادة[٥].

أما الصيام : فلم يمنع ولكن وضعت العراقيل الكثيرة فى سبيل منع المسلمين من أدائه ومن ذلك صرامة العمل ، والتشديد فى الحملات المعادية للدين[٦].

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٣٠) ، وانظر حقيقة الشيوعية (١٩٧) .
(٢) حقيقة الشيوعية (١٨٧).
(٣) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٨) .
(٤) المرجع السابق (٢٨٠) .
(٥) المرجع السابق (٢٧٩) .
(٦) انظر المرجع السابق (٢٧٩-٢٨٠) .

والحج : كان مستحيلا وذلك بسد الحدود فى وجوه الناس ، ثم فى سنة ١٩٤٥م بدأ السماح لهم ولكن لايتجاوز العدد عشرين أو ثلاثين فردا ، ويتم اختيارهم بما يحقق المصلحة للسوفييت(١).

إن الإنسان المسلم فى ظل الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى يعجز عن القيام بأداء شعائره الدينية ، ولاشك أن هذا قد أدى إلى آثار سلبية كبيرة ، وصلت فى بعض الأحيان إلى الشرك والوقوع فى المحاذير الشرعية ، فأصبح الإنسان لايعرف إلا أنه من أصول اسلامية ، ولايعى من شرائع الإسلام شيئا وهذا أمر بدهى فكيف يظل الإنسان على عقيدته ، وإيمانه ، وهو لايعرف كتاب ربه ، ولايسمح له باقتنائه أو تعلمه ، ولو حدث ذلك فإن مصيره الجزاء(٢).

لقد كان منع المسلمين من أداء شعائرهم التعبدية أكبر دليل على مصادرة الحرية الدينية فى الاتحاد السوفييتى ، وعدم تحقيق الوعود النظرية التى قطعها الشيوعيون على أنفسهم حين قيام ثورتهم .

(د) اضطهاد علماء الدين والسياسة وقتلهم وممارسة الضغوط عليهم .

لقى علماء الإسلام فى الاتحاد السوفييتى صنوفا عديدة من الاضطهاد والمضايقة . يقول شانتال : (إذا ماقسنا حالة الإسلام الرسمى بعدد علماء الدين الذين يعملون تحت سلطة المراكز الدينية فإنها تبدو حالة مظلمة جدا إذ كان يوجد ، قبل سنة ١٩١٧م ، مالايقل عن ٤٥٣٣٩ عالما باستثناء من كان يوجد منهم فى بخارى وخيوه ، فجاءت أعاصير الإبادة التى عصفت مابين سنتى ١٩٣٢م و١٩٣٨م وقضت على أكثرهم ولم ينشر ، بعد ذلك ، أى رقم رسمى عن عدد من يوجد ...)(٣).

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٩) .

(٢) انظر السرطان الأحمر (٥٣) ، وانظر بعضا من أقوالهم فى القرآن الكريم : المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٤٦-١٤٧) .

(٣) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٢-٢٧٣) .

وقد أمعن الشيوعيون فى التضييق على العلماء فصادروا فى عام ١٩٣٠م (ممتلكات الأوقاف التى كانت مصدر القوة الاقتصادية للعلماء التى تجعلهم لايخضعون للحكام . وقد فطن الأعداء إلى ذلك فقاموا بمصادرتها ، ومالبثوا عامين حتى مارسوا مع العلماء القتل والسجن والتشريد ...)[١].

ولكى يضمن ستالين السيطرة التامة قام بانشاء أربعة مراكز يخضع لها المسلمون[٢] ظاهرها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب (كان هدفها التجسس على المسلمين وتوجيههم لخدمة الشيوعية والاستفادة من هذه الإدارات لتحسين صورة الاتحاد السوفييتى بعد المآسى التى تعرض لها المسلمون)[٣].

وقد أدى هذا التضييق والإضطهاد إلى تناقص عدد العلماء حتى وصل إلى أقل من أربعمائة عالم ، وهذه نتيجة حتمية لما كان يلاقيه العلماء من ويلات الشيوعية[٤]. هذا عدا ماقام به الشيوعيون من تشويه لصورة العلماء ووصفهم بأقبح الصفات ، وتنفير الناس منهم .

(هـ) إغلاق المدارس الإسلامية ، واستبدال اللغة العربية ، وفصل الدين والعلم بعضهما عن بعض مع الحرية التامة فى نشر الأفكار الإلحادية .

وإمعانا فى اضطهاد المسلمين ومصادرة حريتهم التعبدية ومنع انتشار الفكر الإسلامى قاموا بإغلاق المدارس وجعلوا الهيئات الدينية منفصلة عن العلم . فـ(أمرت الحكومة السوفيتية باغلاق ثمانية آلاف مدرسة إسلامية بمقتضى مرسوم أصدرته وموهته بدعوى فصل المدارس عن المساجد

---

(١) المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين (٢١) .

(٢) انظر : المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٦٨-٢٦٩) ، قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١١٠-١١١) .

(٣) المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين (٢١) .
يقول الأديب الباكستانى راغب أحسن : (ليست مهمة هذه المراكز الروحية نشر الدين ولاإعطاء ثقافة دينية بل مهمتها مراقبة الدين وتنظيمه على هدى حكومة الاتحاد المركزية) . نقلا من كتاب المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٠) .

(٤) عن بعض الشخصيات التى قتلت انظر الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٤٠-١٤١) وانظر حاضر العالم الإسلامى (١٣٥-١٣٦) .

والكنائس . فأصابت به المسلمين . والمسيحيين جميعا . كذلك سحبت الحكومة الكتب العربية المتداولة فى روسيا حتى يتسنى لها أن تتم بلشفة المناطق الإسلامية فى جمهوريات الاتحاد السوفييتى بلشفة تبعد المسلمين عن الإسلام بهجرهم للغة القرآن ، ثم لم تعد الشريعة الإسلامية معترفا بها هناك وفى هذا المعنى قالت دائرة المعارف السوفيتية "لقد استؤصلت الآن شأفة الشريعة الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى")[١].

وقد كان لهذه المدارس تأثير قوى فى المجتمع الإسلامى ولولا أن البلشفيك دمروها لما استطاعوا أن يكيفوا المسلم فى شكل رجل سوفييتى[٢]. وقد قام السوفييت بإغلاق الآلاف من هذه المدارس .

كما أنهم أقاموا (اللغة الروسية مقام اللغات القومية فأغلب الجمهوريات الإسلامية كانت تكتب بالحرف العربى فحولوها إلى الحرف الروسى على مرحلتين :

الأولى : ألغوا الحرف العربى وحولوه إلى الحرف اللاتينى .

الثانية : تركوا الحرف اللاتينى وانتقلوا إلى الحرف الروسى)[٣].

وهذا سيؤدى إلى ضعف شديد فى اللغةالعربية ، وهى اللغة الدينية لهؤلاء[٤].

أما عن التعليم الدينى : فإن الشيوعية اهتمت كثيرا بالتربية ولكن أى تربية؟ إنها التربية الإلحادية المعادية لكل دين ، وعلى هذا فإن التعليم القائم على الدين يعتبر محرما شيوعيا . لأنه يتناقض مع السياسية الشيوعية وأهدافها ويرى الشيوعيون أن الدين يتعارض مع العلم وبالتالى لايتفق مع الشيوعية .

---

(١) مجلة الاعتصام ، عدد مارس ١٩٧٥م (٢٠) نقلا من كتاب فوق أطلال الماركسية (١٩٧) وانظر عن إغلاق المدارس : المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ (٣٣٧/١) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٣٩-١٤٠) .

(٢) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٣٤) .

(٣) المبين فى بعض أحوال الإسلام والسملمين (١٨) .

(٤) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٢) .

يقول شانتال ورفيقه : (يرى الزعماء السوفييت أن علم الدين والماركسية اللينيية والأيديولوجية الدينية لاتتلاءم ولايمكن التوفيق بينها ولذا فإن الحزب لايستطيع أن يقف من الإسلام موقف اللامبالى أو موقف الحيادى بل يجب عليه أن يكافحه حتى يقضى عليه ...)[١]. ولكن هذا الكفاح ينبغى أن يأخذ صورة الكفاح الأيديولوجى أيضا وذلك باعتبار الإسلام أفيونا للشعوب كحال غيره من الأديان ، بالإضافةإلى وسم الإسلام على وجه الخصوص بأنه دين خليط من اليهودية والنصرانية والوثنية ، وأنه دين يدعو إلى التخلف ، وإلى عدم المساواة بين الرجل والمرأة[٢].

فأصبح التعليم الدينى محرما ويمنع منعا باتا ، والعقاب لمن سولت له نفسه القيام بذلك[٣]. والنتيجة الطبيعية لهذا العداء للدين وخاصة الإسلام هى الاهتمام بالإلحاد ونشره ، وتربية النشء عليه .

الاهتمام بالتربية الإلحادية : عمل الاتحاد السوفييتى على غرس الإلحاد فى نفوس الأطفال ، وذلك كأحد الأساليب التى يواجهون بها الدين ، يقول ليونهارد ل(قد تربينا دون أن نتلقى درسا دينيا ، فعقولنا خاوية من هذا الجانب ، لم يمسسها أى تيار دينى ... إننى لم أقابل - فى مدة العشر سنوات التى عشتها فى الاتحاد السوفييتى - إنسانا واحدا من جيلى ليس ملحدا)[٤].

إن اهتما الشيوعية بالتربية الإلحادية ليس به خفاء ، حيث الاهتمام بالأطفال وإنشاء المدارس والمجمعات السكنية والتعليمية من أجلهم[٥]. وكذلك أخذهم من والديهم وتربيتهم فى المحاضن حسب الطريقة الشيوعية[٦]. وقد اتخذ الشيوعيون كافة السبل والطرق من أجل نشر الإلحاد وخاصة بين المسلمين ومن هذه السبل :

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٤) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٧٤-٢٧٥) .
(٣) انظر دور الماركسية فى الإشتراكية العربية (١٢٠) .
(٤) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١١٧) .
(٥) انظر المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين (١٩-٢٠) .
(٦) انظر الفتح بالارهاب (٤٥-٤٦) .

(أ) عن طريق أجهزة الحزب ومنظماته فهى فى طليعة المؤسسات التى تقوم بنشر الإلحاد .

يقول شانتال إن (مكافحة الإسلام والعناية بنشر الإلحاد يقعان ، من حيث المبدأ على عاتق كل منظمات الحزب وعلى الكومسومول وكذلك على الفروع الإقليمية لمؤسسة ماركس ـ انجلز ـ لينين ، وعلى كل وزارات الثقافة فى جميع الجمهوريات . وأما عمليا فهناك منظمة تعرف باسم : جمعية نشر المعلومات السياسية ، أنشئت أثر الحرب وصلاحياتها شبيهة بصلاحيات (اتحاد من لاإله لهم) ، هى التى تقوم بحملات الدعاية ضد الإسلام . والمركز الرئيسى لهذه المنظمة هو موسكو ولها فروع فى كل الجمهوريات)[١].

كما قامت هذه المنظمات باستغلال بعض ماألصق بالدين وهو منه براء ثم قامت بالتنفير من رجاله وإتهامهم بالجهل والدجل ، ثم بالضغط عليهم ومطاردتهم باعتبارهم أعداء الثورة[٢].

(ب) استخدام الندوات والمحاضرات والتأليف فى محاربة الدين والقضاء عليه ونشر الإلحاد .

اهتم الشيوعيون بالقاء الندوات والمحاضرات ضد الدين ، فقد ألقى خلال ثلاث سنوات من ١٩٤٦-١٩٤٨م ٣٠٥٢٨ محاضرة عامة منها ٢٣٠٠٠ ضد الإسلام ، وألقى فى أوزبكستان سنة ١٩٥١م أكثر من عشرة آلاف محاضرة ضد الإسلام ، وفى عام ١٩٦٣م ألقى فى تركمانستان أكثر من ٥٠٠٠ محاضرة ضد الإسلام .

نشر الكتب : طبع مابين ١٩٥٥-١٩٥٧م أربعة وثمانين كتابا فى ٨٠٠,٠٠٠ نسخة وزعت فى المناطق الإسلامية من الاتحاد السوفييتى[٣]. هذا عدا

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٦) ، وانظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٩٧-٩٨) .

(٢) انظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٩٧-٩٨) .

(٣) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٦-٢٧٧) ولمزيد عن ذلك انظر المرجع السابق (٢٧٨) .

النشـرات ، والمقالات الصحفية ، والأحاديث الإذاعية ، والبرامج التلفـزيونية التى تدعو إلى الإلحاد ونبذ الدين . وقد حاول المسلمـون مقاومة ذلك التيار ولكـن كانت القوات السوفيتية لهـم بالمرصاد[١]. ومما ينبه عليه هنا هـو أن السيـاسة السـوفيتية تجاه المسلمين تتبـدل أحيانا لمراعـاة المصلحـة كما حدث أثناء الحرب العالمية الثانية[٢].

(و) إلغـاء المحاكم الشرعية ومنع المسلمين من التمتع بالنظـم الإسلامية فى دائرة الأحوال الشخصية وإثارة النعرات فيما بينهم .

عملت الشيوعية على طمس الهوية الإسلامية بكل مـاأوتيت من قوة ، فرفضت أن يكون الإسلام حاكما لأحوال الناس فى الاتحاد السوفييتى حتى فى أبسط الأمور .

ففـى ٧ كـانون الأول ١٩١٧م صـدر مـرسوم يلغى النظـام التشـريعى القـديم ، فى روسيـا كلها ، وقـامت الشيـوعية بانشاء المحـاكم المدنيـة بجوار المحـاكم الـدينية واستمر ذلـك إلى سنة ١٩٢٠م ولكـن شـريطة أن لاتتعارض أحكـامها مـع التشـريع السـوفييتى الجديد ... ومنحـت المحـاكم الجديدة صلاحيـات النظر فى قضايا الزواج والطلاق ، والإرث ، والأمـور الجزائية ، ومن هنا لم تدم المحاكم الشرعية . زد على ذلك أن تكـاليف المحاكم الدينية ألقيـت على عـاتق المواطنين ممـا أدى إلى تناقصها ، ثم بدأت تسحـب منهـا الصلاحيات من عام ١٩٢٤م .

وفى سنـة ١٩٢٧م أبطـل التشـريع الإسلامـى والعـرفى ثم منعـت أى مساعدة مالية عن المحاكم الشرعية ، وسلبت كل صلاحيـاتها ولم يبق محكمة شرعية واحدة فى كل المناطق الإسلامية بالاتحاد السوفييتى[٣].

---

(١) انظر المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٧٧) .

(٢) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٥٨) .

(٣) انظـر : المرجع السـابق (٢٣١-٢٣٣) ، المبين فى بعـض أحوال الإسلام والمسلمين (٢٠) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (١٤١) .

إن إلغاء المحاكم الشرعية يدل دلالة واضحة على مصادرة كل شيء يربط الإنسان بالإسلام ، خاصة أن المحاكم الشرعية ربما كانت المظهر الوحيد البارز الذى يستطيع الإنسان المسلم إبراز هويته من خلاله ، فإذا ماألغيت فمعنى ذلك إبعاد كل مايربط المسلم بدينه عقيدة وشريعة .

كما عمل الشيوعيون على إثارة النعرات من أجل تمزيق وحدة المسلمين ، وخلق النزاعات العرقية ، والقومية فيما بينهم ، خاصة وأن الاتحاد السوفييتى يضم أكثر من مائة قومية[١].

وبعد هذا فهل بامكان أحد أن يقول بأن الفكر الشيوعى أو النظام الشيوعى حقق الحرية العقدية سواء للشيوعيين أنفسهم أم لغيرهم؟

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يسمح للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية ، وحقوقهم الشخصية المأخوذة منه؟ إن هذا كله يدل على أن حرية العقيدة كانت مفقودة . ولاغرابة فى ذلك لأنها تعادى الدين بل كل فكر يتعارض معها[٢]فهو عدو لها .

إن الشيوعية قضت على الحرية العقدية وصادرت مقدسات المسلمين واعتبرت الإسلام العدو اللدود لها ، لأن النصرانية كانت متهافتة وغير موثوق فيها عند كثير من أصحابها خاصة بعد ارتكاب الحماقات والطغيان . ويمكن القول إن حربهم ضد الإسلام والمسلمين واضطهاد العلماء وهدم المساجد ومنع إقامة الشعائر الدينية بما فى ذلك الانتقال إلى بلد الله الحرام ، وتلقين الإلحاد لأفراد شعبهم وفرضه فى المؤسسات التعليمية ، ومنع الشعب من حرية النظر والتفكر والتأمل فى الكون ، كل ذلك كان برهانا ساطعا على مافعلته الشيوعية تجاه حرية الدين أو المعتقد مهما نافح ودافع أهل الضلال والأذناب ونعقوا بضد ذلك . فهذه الحرية التى هى أعظم أنواع الحريات وأهمها صادرتها الشيوعية ولاننسى أنهامرتبطة بالفطرة الإنسانية فكانت

---

(١) انظر المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين (١٨) .

(٢) انظر حقيقة الشيوعية (١٩٣-١٩٤) .

مصادرتها ذات أثر سيء فى نفسية الفرد فى ظل الحكم الشيوعى ، لأن النفس الإنسانية تنزع إلى الإيمان بإله خالق لهذا الكون ، ومع ذلك يفرض الحكم الشيوعى عليه ماليس موافقا لما يعتقده أو لما هو فى معتقده .

إن هذا الوضع لابد وأن يأتى له نهاية ، لابد أن يثور الإنسان ضد هذا النظام الذى حرمه من ممارسة ماتهفو إليه نفسه ، وإن كانت الثورة ليست إلى الطريق الصحيح البحت فى صحته ، فمن كان يجيء الحق فهذا بداية طريقه ومن كان أساسا على باطل فهى بداية البداية بإذن الله تعالى .

إن القوة هى التى أجبرت الإنسان فى تلك البقاع على السكوت فترة من الزمن فـ(الناس يرضون عن الحكومة يوم تكون مصالحهم فى ظلها مكفولة نامية ، ويوم تكون عقائدهم وآراؤهم محترمة مصونة ، فإذا نظر انسان فرأى الحكم الشيوعى قد قلل دخله وضيق عيشه ، وإذا نظر فرأى أنه قد أهان دينه وصادر حريته فما الذى يحمله على الرضاء بذلك الحكم المشئوم)؟[١].

إنه القوة والقهر والنار ولكن بعد زوال تلك المؤثرات أو على الأقل الإقلال منها ، مالبث أن انفك الشعب من عقاله مكسرا تلك القيود والأغلال متجها إلى خالقه معترفا به سواء كان بطريق الحق أم بطريق الضلال .

إن الحكم الشيوعى عمل كثيرا من أجل القضاء على الدين ومصادرة حرية التدين ، ولكنه مازداد بذلك إلا إسراعا نحو السقوط والهلاك .

لقد ركلت الشيوعية هذه الحرية بقدمها ، وظنت بأنها ستتخلص من السبب الحقيقى الذى يهدد كيانها ، ولكنها أخطأت فى اعتقادها ، لأنه مامن أحد يستطيع أن يعيش دون عقيدة حتى ولو كانت فاسدة .

إن الشيوعيين أنفسهم قدموا تضحيات عديدة كما يذكرون فلماذا قدموها إذا لم يكونوا يعتقدون صلاح وانتصار ماقدموا أرواحهم من أجله ..

---

(١) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٦٤) .

ولم تقف الشيوعية عند هذا الحد بل زادت عنادا واستكبارا وواصلت مصادرتها للحريات الإنسانية لتحكم القبضة (فى نظرها) على الناس حتى يتسنى لها الوصول إلى غايتها .

إن من يفطن لحقيقة الحكم الشيوعى وخفاياه ويعيش واقعه نجد أنه يتنصل من ذلك الواقع ويفر منه ويعلم أن الخير فى تركه - بغض النظر عن ذلك الخير الذى يقدره ذلك الهارب من ذلك النظام - .

فهذا ليونهارد يقول فى مقدمة كتابه حقائق عن نظام الحكم الشيوعى : (لقد حاولت - وأنا مدرك تماما ماأقدمت عليه - أن أقدم صورة المقابلات والمناقشات والأحداث والتجارب التى عشتها ، كما رأيتها آنذاك . وتصورتها ، وكما شعرت بها ، وفكرت فيها . وأعتقد أن القارىء سيفهم من خلال هذا كله ، معنى الكفر بمذهب "ستالين" بالنسبة لانسان تربى على هذا المذهب ، فهو حكم فى قضية الشك التى اعترتنى سنين طويلة ، وسببت لى من الآلام ، والمضايقات ماناء به كاهلى . لقد كان صراعا داخليا بين الضمير المتألم ، والمبررات التى تحاول تهدئته ، ولكن عندما وصل المد والجزر بين الطرفين إلى ذروته ، أغلق باب التراجع وعجزت المبررات ، عن كبح جماح صاحب هذا الضمير عن التحرك تجاه الحد الفاصل - وإن كان فى أثناء ذلك يعانى من صداع داخلى حاد - الذى يصل من يعبره إلى تصور العالم الحر ، عالم لايسيطر عليه مذهب "ستالين")[١]. فهاهم أهلها كفروا بها ، وتبرأوا من أباطيلها فكيف يأتى بعض المسلمين وينادى باشتراكية الإسلام أو شيوعية الإسلام؟!!

إن (الإسلام دين والماركسية مذهب مخالف لهذا الدين ، ولذلك فإنه من الاستحالة بمكان الجمع بينهما ...)[٢].

---

(١) وغيره كثير ومن هؤلاء أصحاب كتاب الصنم الذى هوى .

(٢) شهادتى للتاريخ (٢٤٧) ، وانظر : هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١٢) ، لاشيوعية ولااستعمار (٦٤) .

إن الإسلام قائم (بذاته له جذوره وقواعده ، وشموله ومنطلقاته ، وله قانونه ودستوره وشرعه وقرآنه ... الإسلام ليس اشتراكية ، بل الإسلام اسلام ، وهو اسلام فقط . ففى الإسلام عدالة اجتماعية شاملة ، لاحقد فيها ولاضغينة ولاظلم ولااستئثار ، ولاتسويد طبقة ولاتذويب طبقة . وفى الإسلام حرب على الجشع والاحتكار واكتناز المال ، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان وفى الإسلام شمول اجتماعى روحى مادى متكامل لايدانيه مذهب مكتوب ، ولايرقى إلى مستواه نظام موضوع)[١].

والغريب أن الشيوعيين يعادون الدين ويعترفون أنه يمثل العدو اللدود لهم[٢]، ومع ذلك تظل هذه الإدعاءات ممن يدعى الإسلام إما بحسن نية ، أو لتحقيق رغبة . لقد أعلنت الشيوعية الحرب على الدين . يقول لينين : (لقد حاربنا الدين ونحاربه حقا)[٣].

ومع ذلك يبقى الإدعاء بوجود الإشتراكية فى الإسلام ، وماذلك إلا دليل على الانهزام الذى يعانيه بعض المسلمين .

وبعد فنقول : هذا غيض من فيض مما لقيه المسلمون تحت الحكم الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى البلد الأم للشيوعية فأين هى الحرية العقدية (الدينية) التى قال السوفييت بأنهم سيكفلونها للشعوب . لقد أصبحت هذه الأفاعيل منهم أكبر برهان على حقيقة قضائهم على حرية التدين . ولم يفلح الشيوعيون فى تحقيق مآربهم فرغم هذا الاضطهاد ومصادرتم لحرية التدين إلا أن المسلمين بقوا هذه الفترة على دينهم الذى فطروا عليه بغض النظر عن درجة التمسك لديهم به .

فالتأثر أمر بدهى فى ظل النظام الشيوعى ، ومع ذلك حافظوا على هويتهم الإسلامية وبقوا على دينهم ، رغم أن بعضهم كان يتظاهر بالشيوعية

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (١٣٤-١٣٥) ، وانظر (١٥٥،١٥٧) ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٦٧) ، الشيوعية والأديان (٦٣) .

(٢) انظر صحيفة اليوم العدد (٥٦٤٩) الجمعة ٢٣ ربيع الآخر ١٤٠٩هـ ٢ ديسمبر ١٩٨٨م

(٣) مقالات وخطابات بمناسبة أعياد ثورة أكتوبر (٦٦) .

خوفا على نفسه ، وضمانا لبقائها(١). وقد اعترف الشيوعيون أنفسهم بهذا الأمر(٢). هذا عدا الحفاظ على بعض الشعائر الإسلامية كالحفاظ على الحجاب لدى بعض نساء المسلمين ، وعدم خروجهن إلى أعمال المصانع وماشابه(٣). وكان الاختلاط مرفوضا فى الأسرة المسلمة وخاصة فى الأرياف(٤). كما أن شعيرة التعدد كانت موجودة وغالبا مايكون الزواج من الثانية على يد أحد رجال الدين(٥). كذلك من حفاظهم على بعض شعائر الإسلام تجنبهم أكل لحم الخنزير(٦).

ولأجل ذلك الإصرار على التمسك بشعائر الإسلام ، تنبأ شانتال ورفيقه بأن مسلمى الاتحاد السوفييتى سيكونون أحد المواضيع الكبيرة فى السياسة العالمية (بعد أن كانوا فيما مضى ، موضع تطور داخلى فى الاتحاد السوفييتى)(٧).

(إن الإيمان فى صفوف المسلمين لايزال يستعصى على كل موجات الإلحاد ومغريات الفساد)(٨). ونتيجة لهذا الكبت والعداء للدين مع نزوع النفس الإنسانية إليه كان لابد من الثورة على هذا النظام والمطالبة بالانفلات منه . لأن الفرد مهما كان انتماؤه الوطنى أو العرقى لابد له من عقيدة توجهه ويأنس بها حتى ولو كانت باطلة . ولقد ضرب الشيوعيون أمثلة

---

(١) انظر اللقاء بين أحمد عبد الغفور عطار وأحد المسلمين الذين يتظاهرون بالشيوعية وقد أعلن هذا المسلم أنه على عهد الله تعالى باق وسأل الله تعالى أن يغفر له تظاهره بالكفر والإلحاد . أورد ذلك اللقاء فى كتابه الشيوعية (١١-١٢) .

(٢) انظر : أجنحة المكر الثلاثة (٤٣٦) ، المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٨٥-٢٨٦) .

(٣) انظر المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (٢٩٩-٣٠١) .

(٤) انظر المرجع السابق (٣٠٢-٣٠٣) .

(٥) انظر المرجع السابق (٣٠١-٣٠٢) .

(٦) انظر المرجع السابق (٣١٥-٣١٦) .

(٧) المرجع السابق (٣٦١) .

(٨) الإسلام والمناهج الاشتراكية (٢٦٢) .

لبعض الشخصيات التى قدمت أرواحها فى سبيل الشيوعية فلماذا قدم هؤلاء أعز مايملكون ، إن ذلك فى سبيل عقيدة باطلة لاتصمد أمام الحقائق العلمية ولاالنوازع الفطرية فكيف بمن يملك عقيدة صحيحة ، أو جزء من عقيدة تحفظ للانسان كرامته وتعامله بالنظر إلى إنسانيته . إن ذلك الفعل من الشيوعية بمصادرة الحرية الدينية كان وبالا على الشيوعية منذ قيامها ، ظهرت آثاره على مر الزمن إلى أن ظهرت فى الآونة الأخيرة بصورة التمرد على الفكر المادى والإلحادى بصورة كبيرة ، حتى أصبح الشيوعيون الذين ينادون بالأفكار الشيوعية يرفضون الإلحاد ، وينكرون مبادىء ماركس ولينين عن الدين . وعندما كانت العقيدة الشيوعية أساسا لاتقدم شيئا للناس فإنهم بدأوا يبحثون عن خلاصهم عبر آفاق أخرى ومنها الدين[1]، وهو أقرب شىء لقلب الإنسان مهما كان تصوره وتفكيره ، وهكذا يظهر لنا أن الشيوعية قامت بمصادرة الحرية الدينية ، وبالتالى عملت على مصادمة الفطرة الإنسانية ، وتكون بهذا قطعت شوطا نحو الهاوية والسقوط .

ومن العرض السابق نصل إلى الآتى :

أولا : أنه لاالتقاء بين الإسلام والشيوعية بحال من الأحوال .

ثانيا : أن الشيوعية تعادى الأديان وخاصة الإسلام .

ثالثا : أن الشيوعية قامت بمصادرة حرية التدين (حرية العقيدة) رغم ماجاء فى دساتيرها من نص على حريتها وضمانتها .

رابعا : لو افترضنا أن الشيوعية حققت ذلك أى أقرت الحرية العقدية فمعنى ذلك أنها تجنى على نفسها وتعجل بإنهيارها ، فكان لابد من القضاء على الدين وعلى كل مظاهره وخاصة الدين الحق الإسلام .

خامسا : أن السياسة الشيوعية تجاه الدين تتبدل مع المصلحة أحيانا ، فقد تهادن المسلمين بناء على هذه المصلحة .

---

(١) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٥٢) ، ارنست ماندل ، ترجمة بولا الخورى ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، دار الواحة ، بيروت ، لبنان .

سادسا : رغم مابذلته الشيوعية فى سبيل منع المسلمين من ممارستهم شعائر دينهم إلا أنهم بقوا محافظين على هويتهم الإسلامية ، ولولا الكبت الذى يعيشه الإنسان داخل الاتحاد السوفييتى لعبر هؤلاء عما بداخلهم ولكن كانت الشيوعية تقوم بمصادرة حرية الرأى والتعبير وهذا ماجعلهم يمارسون مااستطاعوا من شعائرهم سرا .

ونعرض الآن لحرية العقيدة فى الإسلام ومن خلال ذلك يتبين لنا بجلاء ووضوح الفارق الكبير بين مصادرة الشيوعية لهذه الحرية ومحافظة الإسلام عليها .

(ب) الحرية الدينية فى الإسلام :

إن من أعظم مايتميز به الإسلام هو تحقيقه الحرية العقدية للناس . فليس لأحد أن يكره أحدا على ترك دينه أو عقيدته ويجبره على الدخول فى الإسلام (الدين الحق) والأصل فى ذلك كتاب الله تعالى حيث قال عز من قائل : {**لاإكراه فى الدين**}(١).

يقول ابن كثير فى تفسير الآية : (أى لاتكرهوا أحدا على الدخول فى دين الإسلام فإنه بين واضح جلى دلائله وبراهينه لايحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لايفيده الدخول فى الدين مكرها مقسورا)(٢).

ومن الآيات التى تدل على إثبات حرية العقيدة والدين حسب اختيار الإنسان قوله تعالى : {**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**}(٣).

وقوله جل وعلا : {**ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**}(٤).

فدلت هذه الآيات على ضمان الحرية الدينية للإنسان ، وهذا بالطبع يكون مندرجا تحت أحكام الإسلام التى قررها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فى معاملة من هم على غير دين الإسلام من أهل الذمة وأهل الحرب.

---

(١) سورة البقرة : (٢٥٦) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣١٠/١) .
(٣) سورة الكهف : (٢٩) .
(٤) سورة يونس : (٩٩) .

ومما يؤكد هذه الحرية هو أن الله تعالى عندما بعث رسوله صلى الله عليه وسلم لم يبعثه إلا من أجل دعوة الناس إلى التوحيد وعبادة الله تعالى دون اكراههم ومن ثم تذكيرهم ونفى الله تعالى أن يكون بيد المصطفى صلى الله عليه وسلم الحساب أو الهداية ، فقال تعالى : {**وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب**}(١).

وقال تعالى : {**فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر**}(٢).

فإذا كان هذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ليس لهم من الأمر شىء إلا تبليغ الدعوة ، فإن غيرهم من الناس من باب أولى . أى لايكرهون أحدا على الدخول فى دين معين ، حتى ولو كان حقا ، ولايجبرونه على الخروج منه وإن كان باطلا . ويمكن أن نتلمس تكفل الإسلام بهذه الحرية فى التالى :

أولا : أن هذه الحرية التى منحها الله تعالى للعبد هى غاية فى العدل والرحمة حتى لايكون لأحد حجة على الله تعالى(٣).

ثانيا : مما جعله الله تعالى للانسان حرية البحث عن الحقيقة ، ولأجل ذلك ذم المولى جل وعلا التقليد ، وهذا يدل على حرية الاختيار ، قال تعالى : {**وإدا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون**}(٤).

ثالثا : فصل الإسلام أحكام التعامل مع الأعداء حتى لو بقوا على دينهم وقد أعطى أهل الذمة حرية بقائهم على دينهم ، واحترامهم ومراعاتهم ، وعدم الاعتداء عليهم ، بل والدفاع عنهم إذا تعرضوا للاعتداء ووصل الأمر إلى ترك أماكن عبادتهم على ماهى عليه ، إذا لم يكن من

---

(١) سورة الرعد : (٤٠) .
(٢) سورة الغاشية : (٢١-٢٢) .
(٣) انظر عن ذلك العدل فريضة إسلامية (٦٩-٧٠) .
(٤) سورة البقرة : (١٧٠) .

بقائها ضرر على المسلمين[١].

رابعا : ومما يدل على مدى احترام الإسلام لهذه الحرية هو (تعايش المسلمين وغيرهم من قديم الزمان فى بلاد الإسلام دون أن يفرض المسلمون دينهم على أحد ، أو أن يتعرضوا لهم بشعائرهم الخاصة مهما كانت تتضارب وتختلف مع شعائر المسلمين)[٢].

مما جعل كثير من الكفار يدخلون فى دين الله تعالى لما وجدوا فيه من حرية وسماحة[٣]. (لقد بلغت الشريعة الإسلامية أعلى درجات السمو واحترام الإنسان حينما قررت حرية العقيدة للناس عامة . ثم تكفلت بحماية هذه الحرية لغير المسلمين فى بلاد الإسلام ...)[٤]. وعلى هذا فإن عقيدة الإسلام هى (العقيدة الوحيدة التى تسمح بقيام مجتمع عالمى لاعزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى ...)[٥].

خامسا : عندما منح الإسلام الحرية الشخصية للإنسان ، فإن من مكملاتها عدم إكراهه على الدخول فى دين محدد معين وهو مع ذلك لايجيزالدعوة إلى الشرك أو الفساد . يقول محمد سليم إن (كل فرد حر فى

---

(١) اختلف العلماء فى هدم الكنائس . ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (وفصل الخطاب أن يقال : إن الإمام يفعل فى ذلك الأصلح للمسلمين ، فإن كان أخذها منهم أو إزالتها هو المصلحة ـ لكثرة الكنائس أو حاجة المسلمين إلى بعضها وقلة أهل الذمة ـ فله أخذها أو إزالتها بحسب المصلحة . وإن كان تركها أصلح ـ لكثرتهم وحاجتهم إليها وغنى المسلمين عنها ـ تركها) .
أحكام أهل الذمة (٦٩٠/٢) . ولكن ليس لهم أن يبنوا كنائس جديدة فى بلاد المسلمين .

(٢) الإنسان وحريته فى الإسلام (٥٥) .

(٣) انظر المسلمون فى تاريخ الحضارة (٦١-٦٢) ، ستانوودكب ، ترجمة محمد فتحى عثمان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة.

(٤) فوق أطلال الماركسية (٦١) .

(٥) الفكر الدينى فى مواجهة العصر (١٦٤) .

أن يتبع مايشاء ويؤمن بما أراد ، وله أن يمارس حريته فى العبادة والإيمان الكامل ، شريطة ألا تمس هذه الممارسة لشعائر ملته ماتقتضيه صوالح المسلمين ومشاعر دينهم أو تكون هذه الممارسة دعوة لشرك أو فساد أو تعطيل لأداء المسلمين لشعائرهم أو طعنا فيها . فهى حرية مكفولة ومسئولة لامطلوقة)[١].

سادسا : أن الإسلام حينما شرع الجهاد لم يكن المقصود منه إكراه الناس للدخول فى الدين بل من أجل حماية حرية العقيدة[٢]. وتمكين كل إنسان أن يختار مايريده دون ضغوط بشرية[٣]. ومن هنا فإن مايثار حول الإسلام وكونه فرض نفسه بالقوة والسيف كلام باطل يدحضه كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وواقع الأمة فى تعاملها مع الأمم التى حاربتها . ونعرض لتلك الشبهة ونرد عليها باختصار .

شبهة وردها :

إن بعض الأعداء وبعض من خفيت عليهم حقائق النصوص قالوا إن هناك تعارض بين حقيقة حرية العقيدة التى كفلها الإسلام وبين الجهاد فى سبيل الله تعالى لنشر دينه جل وعلا فيقال لهم :

إن الله تعالى قد أبان فى كتابه العزيز أن القتال إما لدفع الظلم أو حماية الدعوة .

وقد شرع الله تعالى القتال للمسلمين بعد أن أمعن الكفار فى ايذائهم وتعذيبهم من أجل إرجاعهم عن دينهم .

وغاية هؤلاء الأعداء إخماد الدعوة ، وسد الطريق فى وجه الدعاة ، فكان القتال لنشر دين الله تعالى ورد كيد المعتدين .

---

(١) ضمانات الحرية (١١٥) ، وانظر الإنسان وحريته فى الإسلام (١٤) .
(٢) انظر الفكر الدينى فى مواجهة العصر (١٦٣) .
(٣) انظر الإسلام يرفض الشيوعية (٢١) .

قال تعالى : {**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**}(١).

وقال تعالى : {**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين**}(٢).

فالإسلام لم يجبر أحدا على الدخول فيه ولكن طلب من الأعداء ألا يعترضوا طريق الدعوة وإبلاغها إلى الآخرين وأن لايصدوا عن سبيل الله تعالى أحدا إذا رغب فى طريق الإسلام .

وإلا استخدمت القوة فى الدفاع عن الحرية التى اختارها الفرد . ثم إذا تأملنا مايقصه الله تعالى من أسباب القتال لعلمنا أنه لم يشرعه جل وعلا لأجل إراقة الدماء أو تيتم الأطفال وإنما شرعه تعالى مع علمه جل وعلا بما فيه من أضرار لدفع ضرر أشد(٣).

ويبقى الأصل أنه لاإكراه فى الدين (لأن الإكراه إنما يقع على ماتنفر عنه القلوب ويتنافى مع الحقيقة والحق أو لما تخفى براهينه وآياته)(٤).

ومن هنا فإن الجهاد لاحمل الناس على الدخول فى الدين بالقوة ، بل كان لنشر دين الله تعالى ، ولدفع اعتداء المعتدين . وعلى هذا فلامنافاة بين الآيات الواردة فى الجهاد ، وبين قوله تعالى {**لاإكراه فى الدين**}(٥)(٦).

وبالعموم فإن هذه شبهة تردها الحقائق التالية :

---

(١) سورة الحج : (٣٩) .

(٢) سورة البقرة : (١٩٠) .

(٣) انظر دعوة الرسل إلى الله تعالى (٤١٩) محمد أحمد العدوى ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٤) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان (٣١٦/١) ، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى ، ١٤١٠هـ ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .

(٥) سورة البقرة : (٢٥٦) .

(٦) انظر : فتح القدير (٢٧٦/١) ، تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان (٣١٧/١) .

أولا : أن الجهاد الإسلامى إنما شرع (من أجل إزالة العقبات التى تقف فى طريق القلب البشرى وتمنعه من الاستماع إلى كلمة الحق ... فإذا أزيلت فالناس أحرار بعد ذلك يختارون لأنفسهم ماشاءوا ، يدخلون فى الإسلام إن أحبوا ، أو يبقون على دينهم)[١]. يقول أحمد العدوى : (أذن الله لرسوله بالقتال حتى تكون الدعوة إلى الله حرة لايقف أحد فى سبيلها وحتى يكون الناس آمنين على أنفسهم وعقائدهم من سلطان الباطل وزلزلة الطغيان ولذلك جعل الله للقتال غاية وهى أن لاتكون فتنة للناس فى عقائدهم ويكون الناس أحرارا فيما يختارون {**وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله**}[٢]فلايقف شىء فى سبيل الدعوة إليه)[٣].

ثانيا : أن واقع البلاد التى دخلها الإسلام وحياة شعوبها يدل دلالة واضحة على عدم الإكراه فى تغيير عقائدهم طالما أنهم قد فعلوا واحدا مما طلب منهم . فهم باقون على دياناتهم ومحفوظ لهم أمنهم . والعدل محقق فيهم ، ويمارسون حياتهم وشئونهم الخاصة من تجارة وزراعة وقضايا إجتماعية وعلمية وصحية على أكمل وجه ، بل وأكثر طمأنينة من قبل ، وهذا الواقع شهدت به الدول التى دخل إليها الإسلام .

يقول كب : (لم يكن انتصار العرب مصابا لأسبانيا لقد قدم مزيدا من العدالة والفرص لجمهرة الناس ...)[٤].

وانتشرت الصناعة المعدنية ، ونشطت التجارة ، ونال العلم التشجيع فى كل مكان من الأندلس[٥].

ثالثا : أننا لو تتبعنا بعض أحكام الجهاد فى الإسلام لوجدنا حقائق كثيرة تدل على أن الإسلام لايأمر بقتل أولئك الذين لاحول لهم ولاقوة .

---

(١) دروس تربوية من القرآن الكريم (٤٧) .
(٢) سورة الأنفال : (٣٩) .
(٣) دعوة الرسل إلى الله تعالى (٤١٩-٤٢٠) ، وانظر ضمانات الحرية (٢٢٩) .
(٤) المسلمون فى تاريخ الحضارة (٦٣) وانظر (٦١-٦٢) ، وانظر دروس تربوية من القرآن الكريم (٤٧) .
(٥) انظر المسلمون فى تاريخ الحضارة (٦٤-٦٥) .

وأولئك الذين لايعترضون طريق الدعوة . إنما القتال لمن جعلوا أنفسهم عائقا فى تبليغ شرع الله تعالى إلى كافة البشر . ويظهر لنا ذلك فى بعض الحقائق منها :

(أ) اتفق جمهور المسلمين على أنه لايحل قتل النساء والصبيان والرهبان والشيخ الكبير . أى لايقتل من لم يشارك فى قتال المسلمين .
فلو أن القتال والجهاد فى سبيل الله تعالى كان لأجل الإكراه وحمل الناس على إجابة الدعوة حتى لايوجد مخالف فى الدين ماساغ استثناء هؤلاء ، فاستثناؤهم دل على أن القتال لمن يكون عائقا فى طريق الدعوة أو مقاتلا للمسلمين دفعا لعدوانه .

(ب) أن وسائل الإكراه والقهر ، ليست من طريق الدعوة إلى الدين ، فإن الدين أساسه الإيمان ومحله القلب ، وهذا الأساس تكونه الحجة لاالسيف .

(ج) السلوك الفعلى والواقعى الذى فعله النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده فلم يقاتلوا لغرض الدين على الناس أو إكراههم عليه[١].

(د) أن إرسال الرسل من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وبعثه البعوث إلى مختلف الأمصار ينفى أن يكون الجهاد لإكراه الناس من أجل الدخول فى دين الله تعالى[٢].

(هـ) كذلك كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعده أقروا حرية العقيدة لكل فرد . وكانت وصية الخلفاء لجنودهم وجيوشهم - التى يسيرونها للدعوة إلى الله تعالى - تقوى الله عز وجل ، وعدم

---

(١) انظر الحريات العامة فى الإسلام (٨٦-٨٧) .

(٢) انظر زاد المعاد (١/١١٩-١٢٤) حيث ذكر مجموعة من هذه البعوث الإمام ابن القيم تحقيق شعيب الأرنؤوط ، عبد القادر الأرنؤوط ، الطبعة الخامسة عشر ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

التعرض للعجزة ، والضعفاء ، والنساء ، والصبيان ، وأولئك الذين انقطعوا للعبادة فى صوامعهم .

وكذلك ماكان من إبرام الصلح ، وأخذ الجزية ، والدفاع عن أهل الذمة وهم على دينهم فهو دليل على بطلان هذه الدعوى ، وأن الإكراه للدخول فى الدين ليس من سبيل شريعة رب العالمين .

(و) ثم إن التخيير الذى يمنحه المسلمون لأعدائهم ، لدليل على أن الإسلام لايكره أحدا على تغيير دينه ولم يذكر (التاريخ شاهدا واحدا على أن المسلمين فرضوا على غيرهم اعتناق الإسلام بالقوة ، بمعنى أن من لايسلم يقتل)[١].

(وجملة القول أن القتال لم يشرع لحمل الناس على الإسلام بسلطان القوة ، فإن العقيدة ليس من شأنها أن تعتمد الإكراه ، وإنما تعتمد الاقناع ، ولو كان طريق الدعوة إلى الإسلام هو السيف كما يزعم خصوم الإسلام فليحدثونا أين كان ذلك السيف أيام إقامة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة وسيف التعذيب مصلت على رقاب أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ من قريش ، والناس تدخل فى دينه على الرغم من ذلك البطش القاهر .

وأين كان ذلك السيف وهو يمر بأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ وهم يعذبون فلايستطيع أن ينقذهم من العذاب ، ويأمرهم بالصبر ، ويعدهم الجنة .

نعم كان مع محمد صلى الله عليه وسلم فى ذلك الحين قوة فوق قوة السيف ، وسلطان لايعلوه سلطان ، ألا وهو قوة الحق الذى أتى به ، وسلطان الحجة والبرهان الذى تملك القلوب فاستخف بكل شىء ينالها فى ذلك السبيل ، فإن كان هناك إكراه على الدين فهو ذلكم الإكراه ، وإن كان فى يد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيف فهو ذلكم السيف الصارم الذى لاتستطيع قوة فى الأرض أن تقف فى سبيله)[٢].

---

(١) الإنسان وحريته فى الإسلام (١٥٣) .

(٢) دعوة الرسل إلى الله تعالى (٤٢٠) .

ومن العرض السابق نصل إلى الآتى :

أولا : أن الأصل فى الحرية العقدية فى الإسلام كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ثانيا : أن الإسلام كفل هذه الحرية حقا وأصبحت واقعا ملموسا لامجرد دعوى كما هو حال الأنظمة الأرضية والقوانين الوضعية .

ثالثا : أن الأمثل دعوة الناس ليدخلوا فى دين الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، فمن أبى الدخول فيه فعليه أن يعطى الجزية نظير مايقدمه المسلمون له من الحفاظ عليه من أعدائه .

رابعا : أن الجهاد فى سبيل الله تعالى ليس لإكراه الناس فى دخول الدين أو فرضه عليهم بالقوة ، بل هو لتحقيق هذه الحرية كى يعيش هذا الإنسان فى ظل الدين الذى يختاره مع الأحكام المترتبة على ضمان هذه الحرية له تجاه المسلمين(١).

خامسا : هناك ضوابط شرعية يجب مراعاتها عند الحديث عن هذه الحرية فهى ليست على إطلاقها ، كما أنه ليس من حق المسلم أن يغير دينه ، وكذا ليس من حق الكتابى تغيير دينه إلا إلى الإسلام . ويدخل أهل الكتاب فى الخيارات الثلاثة أما العرب فليس لهم إلا أحد الخيارين : الإسلام أو القتال .

سادسا : أن حرية العقيدة فى الإسلام من أهم الحريات وأجلها لإتصالها بالعلاقة بين الخالق عز وجل والمخلوق(٢).

ومن هنا أولى الإسلام هذا النوع من الحرية اهتماما كبيرا ومنح الإنسان هذه الحرية ، وفى ذلك دعم كبير وحفاظ على الحرية الشخصية للإنسان .

---

(١) انظر عن ذلك الأمر كتاب الإسلام يرفض الشيوعية (٣٤) .
(٢) انظر كتاب ضمانات الحرية (٣٣) .

المبحث الثالث
الحرية الفكرية

(أ) الحرية الفكرية فى النظام الشيوعى :

أكثر الشيوعيون من الحديث عن الحرية وضماناتها فى المذهب الشيوعى ، بل والأكثر من ذلك أن الشيوعية رفعت شعارات العدل والمساواة والحرية ، وهى نفس الشعارات التى رفعت من أجل الثورة على الإقطاع . وقد نص الدستور السوفييتى على هذه الحرية فجاء فى المادة ٢٥ : (أنه وفقا لمصالح الطبقة العاملة وتوطيدا للنظام الإشتراكى يضمن القانون لمواطنى الاتحاد السوفييتى حرية الكلام ، وحرية الصحافة ، وحرية عقد الإجتماعات الصغيرة والكبيرة ، وحرية السير فى مواكب والتظاهر فى الشوارع)(١).

ومع هذه النصوص المقررة لحق حرية الكلمة إلا أن واقع الاتحاد السوفييتى كان يرفض ذلك كله جملة وتفصيلا .

ومن هذه الحقائق التى سنذكرها يتضح لنا صدق مانذهب إليه .

أولا : لم يطبق الاتحاد السوفييتى مانص عليه دستوره بل صادر الحرية الفكرية وكمم الأفواه أن توجه أو تنتقد النظام ، واعتبر كل من حاول ذلك بأنه معاد للحزب وللتعاليم الماركسية واللينينية ، على أن النص السابق فى الدستور يفهم منه أن الحرية إنما هى للطبقة العاملة ، ويؤخذ ذلك من قولهم (وفقا لمصالح الطبقة العاملة) . كما يفهم من قولهم (وتوطيدا للنظام الإشتراكى) إن الرأى والقول الذى يقبل إنما هو ذلك الذى يشرف عليه الحزب الشيوعى ويؤيده فى أفعاله ويدافع عن سياسته . وإذا جاء عن أحد الكتاب أو المفكرين قولا يخالف النظام أو يدعو إلى تحرر الإنسان أو يفهم منه الحزب الشيوعى أنه يثير المواطنين ضده فإن مصيره إلى السجن أو

---

(١) نقلا من كتاب الحريات العامة (٢٦٠) .

الاعدام أو النفى . يقول عبد الحميد متولى : (إن حرية الرأى فى الاتحاد السوفييتى ومايتفرع عنها لاتمارس إلا عن طريق المنظمات التى تشرف عليها كالحزب الشيوعى والبوليس السرى . وبالتالى فإن المواطن الذى يباشرها بوصفه عضوا فى منظمة تخضع لإشراف الدولة وتوجيهها ، وهذا مايبدو واضحا فى عهد "ستالين" الذى كان يعاقب بشدة كل من ينتقد النظام ...)[١].

ولاشك أن كبت هذه الحرية وسلبها من الإنسان يؤدى إلى آثار سلبية خطيرة (بل هو دعوة إلى الإرهاب ونداء إلى الطغيان)[٢].

ثانيا : أقوال الشيوعيين فى المفكرين واضطهادهم لهم ، وهى تدل دلالة واضحة على مصادرة حرية الفكر والرأى .

فقد كان لينين مولعا على الدوام بالسخرية من رجال الفكر واتهامهم بأنهم عناصر من السكان مذبذبة غير موثوق بها فقال : (إن أحدا قط لايجرؤ على أن ينكر أن رجال الفكر وهم طبقة خاصة من المجتمعات الرأسمالية القائمة اليوم يتصفون جماعة وأفرادا اتصافا لاشك فيه بالنزعة الانفرادية ، وكان بينهم طبقة المتعلمين والمفكرين بالتراخى والكسل وذلك لميلهم إلى إحلال المناقشات محل الأفعال ووضع الأقوال مكان الأعمال) .

(ووصف لينين رجال الفكر المرة تلو المرة بأنهم "مخربون" ، "متزلفون للرأسماليين" ، "خدام لأصحاب النفوذ" ، "عمال للحرس الأبيض")[٣].

ولكن لماذا هذه الحملة على المفكرين من قبل الشيوعيين؟

إن المفكرين والمثقفين يهددون الحكم الشيوعى وفكره ذلك أن هؤلاء يشكلون خطرا حقيقيا عليهم بسبب أفكارهم ، ومايتوصلون إليه من حقائق خاصة إذا وضعنا فى الحسبان أن الحقائق العلمية ترفض الفكر الشيوعى . كذلك لأن هؤلاء المفكرين أقدر من غيرهم على كشف الباطل والزيف فى

---

(١) نقلا من كتاب الحريات العامة (٢٦١) .
(٢) المعبود الذى هوى (٢٤٤) .

النظرية الشيوعية ، ومن هنا دأب الشيوعيون على محاربتهم واعتقالهم بل واعدامهم ليستقيم لهم أمرهم . ناهيك عن الإشكال الأكبر لو اتصل هؤلاء المفكرين بالعالم الخارجى ، ومن هنا عمل الشيوعيون على إيجاد مفكرين من نوعية خاصة وتعمل بتوجيه من قبل الحزب الشيوعى .

يقول (Allen Wdulles) فى كلمة ألقاها فى جامعة كولومبيا فى أول يونيه عام ١٩٥٥م : (إن تعليم الشعب فى الاتحاد السوفييتى قد يصبح خطرا حقيقيا يهدد نظام الحكم الشيوعى فى تلك البلاد ... ذلك أن زعماء السوفييت الحيارى المضطربين حين أدخلوا فى البلاد التعليم الشعبى العام قد أطلقوا فيها قوى تهددهم بأعظم الأخطار ، وسيكون من أشق الأمور عليهم بعد الآن أن يحولوا بين شعبهم وبين إدراك مافى العالم الخارجى من حقائق)[١].

ويعترف خروشوف بأن الكتاب والمفكرين لايتركون شيئا إلا وتحدثوا عنه وهذا مالايريده الحزب الشيوعى ، فيقول : (إن الكتاب ينقبون دوما عن مسائل الفلسفة والأيديولوجيا تلك المسائل التى يود أى حزب حاكم ، وكذلك الحزب الشيوعى أن يحتكرها)[٢].

لقد أوجد الكاتب والشاعر والفنان والروائى وغيرهم مشكلة معقدة لزعماء الثورة البلشفية إذ أنهم لايرغبون فى نقدهم ، ولايرغبون فى إطلاع هؤلاء على ماعند غيرهم[٣].

ومن هنا ضيق الشيوعيون على الكتاب والمفكرين واضطروهم إلى أن يكتبوا مايريد الحزب ويفكروا كما يريد أيضا ، والكاتب المحظوظ هو الذى يمجد الماركسية واللينينية ، يقول خروشوف : (أحسن ستالين ، كسائر

---

(١) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٥-١٦) .

(٢) الوصية الأخيرة (٧٢) ترجمة زهدى جار الله ، ١٩٧٥م ، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٣) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٨٨-٢٨٩) ، وانظر (٢٠٨) .

الحكام المستبدين ، معاملة الكتاب إذا كانت كتاباتهم تملقا له ولحكمه)[1] وإذا لم يكن كذلك فإن مصيره إلى الاعتقال ، والفصل من عمله ، وبين جيد ذلك بصورة متكاملة فيقول : (لعل الكاتب هو فى روسيا أكثر المنتجين والصناع وأرباب المهن حظوة ، وأوفرهم قسطا من التدليل ، حتى لقد أدهشتنى المزايا التى عرضت على وروعت خاطرى ، وبت يومئذ أخشى أن أقع فريسة الإغراء ، وأن أذل للرشوة والفساد . وماذهبت إلى روسيا لأحظى بمزايا ، أو أظفر بمنافع وفوائد ، وكان ماشاهدته من مختلف صنوفها وعديد ألوانها فاتنا يسترق القلب ، ولكن هذا لم يمنعنى أن أنتقد ، لأن أشد الحظوة وأكبرها قدرا إنما يستمتع فى روسيا بها الكتاب أكثر من استمتاعهم بمثلها فى أى بلد آخر من بلاد العالم ، وإنما تعطى لقاء التفكير فى الحدود التى ترضى السلطات عنها ، والأفق الذى تجيزه . وكان هذا وحده كافيا لتنبيهى إلى الخطر ، وتبصرتى بالعاقبة ، فأخذت يومئذ حذرى ، وناديت حكمتى وصبرى لأن الثمن المطلوب نظيرها هو التخلى الكلى عن كل نقد حر ، أو معارضة صريحة . وتبين لى أن عضوا بارزا من أعضاء المجمع العلمى أفرج عنه أخيرا ، وكان قد زج به فى غيابة السجن ، لالذنب اقترفه سوى استقلال الرأى ، وحرية الحكم على الأشياء ، وكان العلماء الأجانب كلما حاولوا الاتصال به ، قيل لهم إنه مريض معتكف مع أنه فى السجن يومئذ مقيم .

وقيل أيضا إن آخر فصل من "أستاذيته" وحرم من كل تسهيلات كان من قبل يجدها فى المعمل ، لالشىء سوى أنه أبدى آراء علمية لاتجارى تيار العقيدة السوفيتية ، حتى لقد أرغم على أن يكتب خطابا مفتوحا إلى الرأى العام يتراجع فيه عنها اتقاء الإبعاد ، وخشية من التشريد . وأن تعلم أن من خواص الطغيان عجزه عن احتمال الاستقلال الفكرى ، ورضاه عن المهانة والاستضعاف والخنوع ، والويل للمحامى الروسى الذى ينهض فى ساحة القضاء للمرافعة عن متهم تريد الحكومة إدانته ، مهما تكن مرافعته من

---

(١) الوصية الأخيرة (٧٣) ، وانظر (٧٤) .

العدالة بمكان . إن ستالين لايسمح بغير المديح والاستحسان والتحبيذ ، ولن يلبث أن يجد نفسه محاطا بقوم لايملكون تبصرته بخطأ ، أو تنبيهه إلى ضلاله إذ ليست لهم آراء على الإطلاق . إن صورة ستالين أصبحت تشاهد فى كل مكان ، واسمه أمسى على كل شفة ، وإزجاء المديح إليه ظاهر فى كل خطبة أو كلام ...)[١].

إن المفكرين والكتاب فى الاتحاد السوفييتى كانوا يفكرون كثيرا قبل الإقدام على الكتابة والنقد ، أو المطالبة بالحقوق ، وإذا ماقدر لأحدهم أنه كتب شيئا لم يوقع عليه خوفا من المصير الذى ينتظره فإما أن يوضع فى أحد المصحات العقلية لأنه متخلف!![٢]أو أن يطبق عليه قانون الخيانة العظمى للفكر الشيوعى وهو الإعدام[٣]. وتبين فيما بعد أن هؤلاء الذين أعدموا من الكتاب والمفكرين والمبدعين لم يكونوا مجرمين ولاأعداء للشعب[٤]غير أنهم قد جاءوا بما لايريده الحزب الشيوعى ويتعارض مع عقيدته . ومع هذا الاضطهاد والإعدام إلا أن بعض المفكرين كانوا يصرون على آرائهم ، ويرفضون المغالطات التى يشاهدونها خاصة فى نهايات الحقبة الستالينية ومجىء خروشوف إلى رئاسة الحزب[٥]. وقد أدخل خروشوف كثيرا من التعديلات فى سياسة الاتحاد السوفييتى الداخلية والخارجية ومنها الإذن والبدء فى توجيه النقد لأعضاء الحزب . ثم جاء بريجنيف وكان الخوف والإرهاب أقل من ذى

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٤٧-٢٤٨) .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٨) .

(٣) انظر إسلام لاشيوعية (١٠٥) ، وانظر عن بعض الشخصيات التى أعدمت كتاب الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٦٥-٢٦٦) ، وانظر الوصية الأخيرة (٤٣) حاشية رقم (٢) . ولمزيد عن الكتاب وأوضاعهم وبعض القصص الذى وقع لهم انظر ماكتبه ستيفين سبندر فى كتاب المعبود الذى هوى (٣٣١-٣٣٥،٣٣٧-٣٤٠) وانظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤٢) .

(٤) انظر الوصية الأخيرة (٧٤) .

(٥) انظر : المرجع السابق (٦٦-٧٧) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٧-١٧٩) .

قبل ، إلا أن النفى والاعتقال والاعدام بقى ولو أنه بصورة أقل من السابق[١].

وهكذا عمل الشيوعيون على مصادرة حرية الكلمة والتضييق على المفكرين واعتبارهم أعداء الثورة والشعب إذا وجهوا أى نقد أو معارضة للحزب الشيوعى ورجالاته .

ثالثا : مصادرتهم للمؤلفات ومايكتبه المفكرون والانتقاص منه وإبقاء مايخدم الفكر الشيوعى .

وقد اعترف بعض الكتاب الذين قدر لهم الخروج من الاتحاد السوفييتى بذلك ، ومن هؤلاء الكاتب السوفييتى أناتولى كوزنتسوف[٢]حيث قال :

(١) (إن جميع ماكتبته قد تم تحريفه وتوجيهه لخدمة العقيدة الشيوعية .

(٢) إن الأدب والفكر هناك يخضعان لمراقبة الجهلة من أعضاء الحزب الشيوعى .

(٣) إن الحرية هناك هى حرية تمجيد النظام الشيوعى فقط ، فعلينا أن نمتدح ستالين عندما يكون ستالين هو الزعيم ، ونكتب فى موضوع زراعة الذرة عندما يريد الحزب من الشعب أن يزرع الذرة ، ونعرض جرائم ستالين إذا شاؤا هم أن يعرضوا هذه الجرائم)[٣].

ويظهر من هذا النص أن الكاتب هناك والمفكر يكون بمثابة الآلة توجه حيث يريد أصحابها لها ، فمهمته الكتابة وإنتاج مايطلب منه . أى يفرض عليه الموضوع ثم يتحدث فيه ولنا أن نتخيل كيف يكون مستوى تلك الكتابة؟ وكيف يؤثر ذلك على العطاء الفكرى؟ ويبين أناتولى بأن كتابات الأديب أو المفكر يحتفظ بها تحت الأرض خشية أن يصيبه بسببها القتل أو النفى ، غير أن مايخدم الفكر الماركسى وأهداف الحزب فإنه يظهر

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٤-١٧٥) .

(٢) أديب سوفييتى هرب إلى انجلترا .

(٣) الماركسية فى أبعادها المختلفة (٧٦) ، نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤٢) .

فيقول : (إن الكاتب الحر هناك لايحتفظ بما يكتب على مكتبه خوفا من المداهمة ، وإنما يحتفظ به فى مكان تحت الأرض ، وأما التى تظهر فهى المؤلفات التى يكتبها الكاتب رغما عنه وإرضاء للرقابة)[١].

ولأجل هذا فإن الكاتب الهارب تبرأ من كل ماكتب وقال : (أنا أعلن بحرية بأن كوزنتسوف هو مؤلف جبان وغير شريف وأنا أتخلى عن هذا الإسم . وجميع كتاباتى التى سأنشرها ابتداء من اليوم ستحمل اسما جديدا هو أناتولى)[٢].

وإذا كان الوضع لما يكتبه أعضاء الحزب سيئا فإن هؤلاء سيكون حالهم أسوأ ولاغرابة فى ذلك فى ظل الدكتاتورية حيث أن خروشوف كتب شيئا من ذكرياته فلم تتسرب إلا بالسرية إلى الخارج ، ومع ذلك دعى خروشوف وحقق معه واعترف بوجود المذكرات وصرح بأنه لم يسلم المذكرات إلى أحد وطلب منه أن يوقع على أن المذكرات ملفقة[٣].

إن سيطرة الحزب الشيوعى قد بلغت كل شىء يكتب ويذكر أندريه جيد بعضا من ذلك وعلى سبيل المثال عدم قبول عامل التلغراف الرسالة منه لأنها بصيغة المفرد وهى موجهة لستالين وأصر على إضافة عبارات أخرى ، وكذلك الحذف والتعديل فى النصوص الخطابية التى تلقى على الآخرين[٤].

ويقول : (ودعيت وأنا فى لينينجراد إلى إلقاء خطاب فى جمعية للطلاب وحملة الأقلام فعرضت مسودة الخطبة على اللجنة التى تتولى تنظيم الاجتماع ، ولكنها أبلغتنى أن ماسوف أقوله لن يبدو مقبولا ولامستحسنا لأنه يخالف تعاليم الحزب وسياسته . وقد أدى ذلك إلى متاعب وصعاب كثيرة

---

(١) الماركسية فى أبعادها المختلفة (٧٣) نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤٢) .

(٢) الماركسية فى أبعادها المختلفة (٧٦) نقلا من من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٤٢)

(٣) انظر الوصية الأخيرة (١٤) ، مقدمة بقلم جارولد شختر .

(٤) انظر المعبود الذى هوى (٢٤٩) .

حملتنى فى النهاية على العدول عن إلقاء الخطاب)[١].

وبالفعل يصدق على حال الاتحاد السوفييتى أنه (إذا تمكن الواحد أن يقول الصدق ، فإنه لايستطيع أن يقول الصدق كله)[٢].

رابعا : أن الشيوعية تخشى على نفسها من الإبقاء على هذه الحرية لأنها ستكشف عوارها ، بالإضافة إلى أن الإبقاء عليها سيؤدى إلى زيادة البحث والكشف عن الحقيقة التى لاترغب القيادة الشيوعية فى الوصول إليها حتى يستقيم لهم الأمر ويظل الناس على شيوعيتهم وولائهم للحزب الشيوعى . فحرص الشيوعيون على تفشى الجهل وبقاء الناس عليه إلا من الإلحاد ، وأفكارهم الباطلة .

وهكذا كان النظام الشيوعى يريد أن يجعل رعاياه فقراء من كل شىء إلا من العقيدة الشيوعية ، ففرضوا الإلحاد بالقوة وصادروا الحرية العقدية ، ومنعوا الإنسان من حرية التعبير والتفكير ، وأرادوا (تغليف العقل الإنسانى بغلاف النظرية الماركسية . فلايسمح له بالتفكير فيما سواها)[٣]. وإن منحت الحرية الفكرية أو توفرت فى الاتحاد السوفييتى فهى تلك الكتابات التى تمجد الماركسية ، وتؤيد نظرياتها وتتحدث عن السلطة السوفيتية وإنجازاتها . فإن العلم وحرية الفكر عدوان لدودان للشيوعية القائمة على القوة والقهر .

خامسا : ومن مظاهر مصادرة الحرية الفكرية والتعبير عن الرأى أن كل مايكتب أو يطبع يخضع خضوعا تاما لمراقبة الحزب .

قام الاتحاد السوفييتى بمنع الكتاب والمؤلفين من طبع ماتجود به قرائحهم على نفقاتهم الخاصة ، وذلك حتى لايطبع إلا ماتقره السلطة المختصة التى لها حرية القرار فيما يطبع ويترك[٤].

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٤٩-٢٥٠) . انظر الخطاب الذى أراد أن يلقيه (٢٥٠-٢٥٢) .
(٢) الإشتراكية فى التجارب العربية (١٨٠) .
(٣) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٥٢) .
(٤) انظر فوق أطلال الماركسية (١١٨-١١٩) .

وقد نص الدستور (على أن توضع - تحت تصرف "البروليتاريا" الحاكمة - المطابع وكل أدواتها ومستلزماتها)[١].

ويصل الامر إلى أن الكتب والمجلات والصحف والتى يستأثر بها أعضاء الحزب دون غيرهم كان يطمس منها كثير من العبارات والأفكار التى لاتتناسب وتوجه الحزب فى الاتحاد السوفييتى وخاصة فى الكتب والمجلات الوافدة من الدول الإشتراكية الأخرى ، وكأن الطمس يتم بطريقة فنية لايشعر بها القارىء[٢].

وعن الرقابة على الفن والأدب يقول دجيلاس : (إن العمل بمبدأ الرقابة على الأدب والفن فى الاتحاد السوفييتى وسواه من بلدان المعسكر الشيوعى ، قد دفع حتى الفنانين المبدعين إلى الانضباط تحت الرقابة الذاتية ، بسبب أوضاعهم الشخصية وعلاقاتهم الاجتماعية .. وهذه الرقابة الذاتية تمثل الطبيعة الأساسية للهيمنة المذهبية للحزب فى الدول الشيوعية .

إن الأوضاع القائمة حاليا فى بلدان المعسكر الشيوعى تشابه إلى حد كبير أوضاع القرون الوسطى ، حيث كان الناس يضطرون إلى تمثل أفكار الكنيسة والعمل على هديها ، أما اليوم فإن على المواطنين الخاضعين للسيطرة الشيوعية أن يحاولوا تفهم الدور المعطى لهم ، والعمل حسبما يفرضه عليهم الرأى العام الرسمى والتأكد من أن نشاطاتهم لاتتنافى مع ذوق رجال الحكم .

إلا أن المسئولين يعملون على إظهار الرقابة والرقابة الذاتية بمظهر اتجاه يرمى إلى تقديم المساعدة العقائدية للوصول إلى "الهدف الأسمى" الذى ترمى إليه الشيوعية فى تحقيق السعادة على الأرض ، وغالبا ماتجد الكثير من التعابير التى يستخدمها الشيوعيون بافراط كعبارة الشعب العامل بالرغم من كل ماتحمله هذه الكليشهات الكلامية من غموض ، فى مجالات الفنون .

---

(١) الشيوعية فى موازين الإسلام (١٠٩) .

(٢) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٣٩-٤٠) .

والجدير بالذكر أن كل أشكال الاضطهاد وبسط السيطرة على الآراء والأفكار والتحقير والإذلال ، وواقع تحكم البيروقراطيين الجهلاء بعباقرة العلم والفن ، إن كل هذه الأشياء تحدث باسم الشعب وفى سبيل عظمة الشعب)[١].

وإذا لم يوجه الكاتب أو الفنان إنتاجه إلى خدمة الفكر الشيوعى فإنه عرضة للامتهان والتعذيب وإنزال العقوبات عليه[٢].

بل إن الفنان إذا لم يكن يخدم بفنه العقيدة الشيوعية فإنه لايعتبر ولاينظر إليه ، ومع ذلك كان الفنان والمبدع يظل فى فنه مستمرا يرضى السلطات بعمله ، وهو يبطن خلاف ذلك ويسكت حفاظا على نفسه[٣].

إن الحزب الشيوعى سيطر على كل شىء وأصبح كل صغير وكبير تحت ملاحظته ومراقبته ، فوسائل الإعلام كلها بيده ولايعرض فيها شىء إلا بإذنه[٤]. ولم يكتف بالسيطرة الداخلية بل كان حالهم مع الكتب والصحف الأجنبية كذلك فمنعوا الفرد السوفييتى من الاطلاع على نتاج الفكر الخارجى وقيدوا ذلك تقييدا شديدا وجعلوه متفاوتا بين الناس تفاوتا طبقيا .

يقول أحد الأعضاء فى الحزب الشيوعى : (لايستطيع الإنسان الغربى أن يتصور صعوبة مناقشاتنا فقد كنا نعجز عن مواصلتها لأننا لانقرأ سوى مايكتب فى الصحافة عن قضايا الاتحاد السوفييتى . لم نسمع صوتا واحدا معارضا بل لم نقرأ مرة واحدة ملاحظة نقد فلانقرأ من الجرائد إلا برافدا . ولامن الكتب إلا تلك التى تسير مع الخط الاشتراكى السوفييتى ، وعلى هذا الأساس سمحوا بدخولها وليس لدينا امكانية سماع الاذاعات الأجنبية حيث يسمع المرء تحليلات وآراء حول هذا الموضوع[٥]. ولم نعلم أن كل الجرائد

---

(١) الطبقة الجديدة (١٩٠-١٩١) .

(٢) انظر : الشيوعية فى موازين الإسلام (١١٠) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر

(٣) انظر ماذكره جيد فى كتاب المعبود الذى هوى ولقائه مع أحد الفنانين فى الاتحاد السوفييتى (٢٤٥-٢٤٦) .

(٤) انظر إسلام لاشيوعية (١٠٥-١٠٦) .

(٥) يقصد الاعتقالات ومصادرة الكتب والنفى .

السيارة فى الخارج مهتمة بالقضاء ، وبالاعتقال الجماعى داخل الاتحاد السوفييتى ، وأن كثيرا من الكتب عالجت هذه الظاهرة ، وحللت النظريات المختلفة لهذه القضية . كنا ندور فى أفكارنا ، ومناقشاتنا حول أنفسنا ، وعلاوة على هذا ، لم نتكلم - حتى فى جلساتنا الخاصة التى لاتضم غير الأصدقاء - بصراحة ، بل أخذت أحاديثنا - بدون إرادة - طابع الرمز ، والإشارة)[١].

وسياسة الاتحاد السوفييتى تهدف من ذلك إلى عدم اطلاع الإنسان السوفييتى على مايكتب ويقال عن نظامهم أو الأنظمة الأخرى ومافيها من كفالة للحريات وتحقيق للرغبات ليبقى الشعب على ود مع النظام لأنه لايعرف غيره ، وبالتالى لايتوقع أن هناك نظاما أفضل منه فيرضى بواقعه ولايتطلع إلى غيره . يقول البهى : (تمنع السلطات الشيوعية دخول مختلف الكتب إلى بلادها ، حيث تتولى بنفسها اختيار قوائم الكتب التى تسمح بقراءتها ، وتحظر على شعبها حرية اختيار الكتب الممثلة للأفكار الأخرى . ومن الطبيعى فى مثل هذا الجو أن يرضى الشعب نسبيا بالنظام القائم لأنه لايعرف بديلا عنه)[٢].

تقول مجلة بالمين التشيكية : (ولما كان الطلاب لم يعرفوا أى نظام إجتماعى آخر ، فإنهم يعتبرون نظامنا طبيعيا للغاية ، بل ويعتبرونه عاديا أيضا)[٣].

فمنع الفرد الشيوعى من الدرجة (العادية) من (الاطلاع على الثقافة الأجنبية أو سماعها أو قراءتها)[٤]، فى حين كان أعضاء الحزب يطلعون على ماأرادوا وبصورة متدرجة بين الأعضاء كل بحسب نشاطه ونشأ عن ذلك (طبقات هرمية فى تلقى المعلومات)[٥].

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٦٤) .
(٢) لاللرأسمالية .. لاللماركسية ، نعم للإسلام (١٩٤) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (١٩٤) .
(٤) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٢١) .
(٥) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٥٥) ، وانظر (٢٥٤) .

بل إن الفرد الشيوعى حرم من الاستماع للإذاعات الأجنبية بل قد تسحب منه أجهزة الراديو كما فى بداية الحرب العالمية الثانية[١]. وإذا وجدت الأجهزة فالمتوفر منها أجهزة محلية لاتتمكن من إلتقاط أصوات الإذاعات الأخرى ، هذا عدا أن أجهزة التشويش تعمل بصورة كبيرة مستمرة[٢].

وكذلك الأمر بالنسبة لوسائل الإعلام المرئية تخضع خضوعا تاما للرقابة ولايشاهد بها إلا ماتقرره سلطة الحزب الشيوعى[٣].

سادسا : مصادرة حرية القول بالنقد أو التوجيه .

إن من أعظم مافرضته الدكتاتورية السوفيتية هو الجام الأفواه وعدم التجرؤ من الآخرين لنقد الحزب أو سياسته ، فأصبح الفرد السوفييتى يرتعد خوفا من أن يتكلم بكلمة بعيدة عما يدور فى خلد الحزب فتكون نهايته السجن أو القتل .

إن النقد أصبح من الجرائم التى لاتغتفر .

يقول الدكتور محمد البهى : (ليس من المساواة الإنسانية فى شىء حظرها النقد والمعارضة لأعضاء الحزب سواء فى الصحف أو الإذاعة أو فصول الدراسة أو فى قاعة المحاضرات بالكليات أو الجامعات بينما تجعل مقررات الحزب أشبه بتعاليم الكتاب المقدس وماتعلنه من أكاذيب واختلافات فيما يسمى بيانات الحزب تعتبر بمثابة سطور تتلى منه يجب تصديقها إنها إذ ترفع بعض أفراد المجتمع وهم عصابة الحزب الشيوعى فوق مستوى الإنسان فى القداسة والطاعة تعيد عبادة الأوثان وتمجيد الوثنية كطريق فى الحياة بينما تكفر بدين الله وتسخر من حملة رسالته)[٤].

---

(١) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٤٧-١٤٨) .
(٢) انظر لا للرأسمالية لا للماركسية ، نعم للإسلام (١٩٣-١٩٤) .
(٣) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٨٦) .
(٤) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٣٢٣) .

(يحكى أنه خلال تقديم خروتشوف تقريره أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى قوطع بصرخة من القاعة : "وأين كنت أنت عندما ارتكبت جميع هذه الجرائم؟" فما كان من خروشوف إلا أن استهجن السؤال وقال بلهجة متوعدة : "من المتكلم؟" وأعقب هذا الكلام صمت مطبق وأكمل : تفهمون الآن لماذا صمت أنا آنذاك)[١].

سابعا : مصادرة الحرية الصحفية[٢] وجعلها مقصورة على قضايا الحزب وتوجهاته ، واستخدامها فى نشر الالحاد .

يقول لينين : (الصحافة أقوى سلاح بيد الحزب)[٣].

ويقول : (إن الجريدة هى مانحتاج إليه بالدرجة الأولى فبدونها يستحيل القيام بتلك الدعاية والتحريض المنظمين الشاملين الثابتين ...) .

وبعد أن بين النقص الموجود فى حركته والتشتيت الذى تعانى منه فى أفكارها قال : (إن الخطوة الأولى لتصفية هذا النقص . وتحويل الحركات المحلية المتفرقة إلى حركة واحدة لعموم روسيا هى إيجاد صحيفة لعموم روسيا أخيرا . فإن مانحتاجه بالضبط هو صحيفة (سياسية) فبدون صحيفة سياسية ، لايمكن فى أوروبا الراهنة تصور وجود حركة جديرة بهذا الاسم . وبدون مثل هذه الصحيفة يستحيل كليا تحقيق مهمتنا ألا وهى تركيز جميع عناصر الاستياء والاحتجاج السياسى ونفخ الحيوية والنشاط فى الحركة الثورية للبروليتاريا . وقد خطونا الخطوة الأولى . وأيقظنا فى الطبقة العاملة الشغف بالفضح "الإقتصادى" المصنعى . وينبغى لنا أن نخطو الخطوة التالية : ينبغى لنا أن نوقظ بين جميع فئات السكان الواعية سياسيا شغفا بالفضح الاقتصادى ولاينبغى أن نتهيب حيال مانراه اليوم من ضعف وندرة ووجل

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٥٠) الحاشية ، وانظر مذاهب فكرية معاصرة (٤٢٢) .

(٢) وإفرادها هنا لاهتمام الشيوعيين بها .

(٣) نقلا من كتاب النار والجلد (٥٩) ، وعن الاهتمام بها قبل الثورة البلشفية انظر كتاب الصحافة (١٦٩) .

إزاء الفضح السياسى)[١].

وعـن الأهمية الصحفية للبروليتاريا يقول لينين : (يجب على الأحزاب الشيوعية أن تخلق نوعا جديدا من الصحافة الدورية للتـوزيع الجماهيرى بين العمـال : أولا ، مطبـوعات علنيـة يجب دون تسميـة نفسهـا شيـوعية ودون الإعلان عن ارتباطها بالحزب ، أن تتعلم الاستفادة من كل فرصة قانونية مهما كانت ضئيلة ، كما فعل البلاشفـة تحت ظـل القيصـر عـام ١٩٠٥م ، ثانيـا ، منشـورات سرية حتى أكثرها اختصـارا ، وتنشر فى فترات غير منتظمـة ولكن يعـاد طبعهـا فى مطـابع عديدة مـن قبـل عمال (بصورة سـرية أو إذا كـانت الحركـة قـد أصبحـت قوية مافيـه الكفـاية فبالاستيلاء الثـورى على المطـابع) وتزويد البروليتـاريا بمعلومـات ثورية صريحة وبشعارات ثورية . إن الإعـداد لدكتاتورية البروليتاريا مستحيـل بدون نضـال ثورى تزج فيـه الجمـاهير من أجل حرية الصحافة الشيوعية)[٢].

هـذا عن أهمية الصحافة للبروليتاريا ، فماذا عن الصحـافة البرجوازية فى نظر الشيوعيين؟

إن الشيوعيين غالبا مايقارنون بين فكرهم والفكر البرجوازى من أجل البرهنة على أن فكرهم يخلو مما هو فى البرجوازية . وقد قرر الشيوعيون أن الفرد فى ظل النظام البرجوازى يعانى من عدم تحقيق حرية الكلمة[٣]. واعتبر لينين الحرية الصحفية عند الرأسماليين حرية تجعل الأثرياء أكثر ثراء . وهى حرية خاصة بهـم[٤]، ثم اعتبر لينين أن البلاشفـة هـم الـذين سيحـررون الصحافة من المتاجرة . يقول لينين إن البلاشفة (أنشأوا أول صحافة متحررة من الرأسماليين وأنهم أقامـوا فى بلـد عملاق من أول مـرة صحـافة لاتعتمد

---

(١) الصحافة (٧٦) .

(٢) المرجع السابق (٣٢٠-٣٢١) .

(٣) انظـر فى الاستعمـار (٢٧٤) ومابعـدها ، كارل ماركس ، فردريك انجلـز ، ترجمـة د. فـؤاد أيوب ، دار دمشق للطباعة والنشر ، دون ذكر لـرقم الطبعة أو تاريخها .

(٤) انظر الصحافة (١٩٤-١٩٥) .

على حفنة من الأثرياء وأصحاب الملايين ـ صحافة مكرسة برمتها للنضال ضد رأس المال ، النضال الذى ينبغى أن نخضع له كل شىء . فقط بروليتاريا المصانع قادرة على قيادة جماهير الفلاحين غير الواعية طبقيا ، وحدها التى تستطيع أن تكون قائدة ، طليعة للشغيلة فى نضالها)[١].

ويقول : (النظام السوفييتى هو تحطيم ذلك الزيف البورجوازى المسمى "حرية الصحافة" ، أى حرية رشوة الصحافة وحرية الأثرياء)[٢].

ويقول : (إن حرية الصحافة فى نظر حكومة العمال والفلاحين تعنى تحرير الصحافة من الاضطهاد الرأسمالى وإقامة الملكية العامة لمعامل الورق ومطابع الصحف ...)[٣].

إن الشيوعيين أولوا الصحافة اهتماما كبيرا ويدل على ذلك مايصدره الاتحاد السوفييتى من صحف ، حيث يبلغ عددها ٨٠٠٠ صحيفة ، و٦٩٠٠ مطبوعة دورية ، وأهم هذه الصحف البرافدا الناطقة باسم الحزب يوزع منها ١٠,٦٠٠,٠٠٠ نسخة ولها أكثر من ٤٠,٠٠٠ مراسل . وهى تعنى بالقضايا الداخلية . ومن أشهرها أيضا الازفستيا الناطقة باسم الحكومة ويوزع منها ٨,٦ مليون نسخة وتعنى بالقضايا الخارجية[٤].

وبعد هذا الاهتمام بالصحافة لخدمة القضايا والفكر الشيوعى ، فهل من المعقول تركها فى أيدى الآخرين أو اعطاءهم الحرية فى استخدامها كيف يشاؤون؟

إن ماصرح به قادة الاتحاد السوفييتى ، ثم ماطبق فى عالم الواقع يدل على أن الحرية الصحفية قد تلاشت نهائيا فى ذلك المجتمع وإليك البراهين :

---

(١) الصحافة (١٩٧) .
(٢) المرجع السابق (٢٠٣) .
(٣) المرجع السابق (٢٠٦) .
(٤) انظر النار والجليد (٥٩) ، ولمزيد عن عدد الصحف والمجلات انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٢-٢٧٣) .

أولا : إخضاع هذه المؤسسات للحزب وجعلها تحت تصرفه .

يقول لينين : (إن الصحافة الدورية وغير الدورية ، وكافة مؤسسات النشر ، يجب ، وعلى المنوال ذاته ، أن تكون خاضعة تماما للجنة المركزية للحزب ... وينبغى عدم السماح لمؤسسات النشر باساءة استخدام استقلالها الذاتى وانتهاج أية سياسات لاتتفق اتفاقا تاما مع الحزب)(١).

ويقول ستالين : (يجب أن تخضع الصحافة ودور النشر خضوعا مطلقا لاتساهل ولاتسامح فيه للأجهزة الشيوعية)(٢).

ويقول : (نحن لانمنح حرية الصحافة إلا للطبقة التى تحكم باسمها)(٣).

وعلى هذا فإن الصحافة الشيوعية تسير (برأى جهة محددة معينة ، يرتبط بها برباط التبعية المذهبية أو السياسية .. ولايستطيع أن يخرج عن توجيهات هذه الجهة وإن كان محرر الصحيفة له رأى آخر ، لأنه غير حر فى عرض مايراه .. مادام موجها من قبل من له حق فرض مايراه عليه)(٤).

ومن هنا أصبح الشعب الشيوعى لايردد إلا مايقرأه فى الصحافة الموجهة من قبل الحزب (حتى يخيل للمرء أنهم يرددون نصوصا بأعيانها ، ويتلون قطعا إنشائية محفوظة)(٥).

ثانيا : أن أقوالهم فى ضمان الحرية الصحفية كانت تمويها وتهريجا لم ير النور كغيرها من الأقوال التى كذبتها الأفعال . يقول كاونتس : (مامن شىء يطبع فى الاتحاد السوفييتى صحيفة كان أو مجلة أو نشرة أو كتابا دون

---

(١) الصحافة (٣٢٥) .
(٢) نقلا من كتاب إشتراكيتهم وإسلامنا (٧٩) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (٨٠) .
(٤) الإنسان وحريته فى الإسلام (١٧٢) .
(٥) المعبود الذى هوى (٨٢) .

موافقة الحزب أولا)[١].

ثالثا : مما يدل على مصادرة الحرية الصحفية ، وبالتالى مصادرة الحرية الفكرية ، أن الصحافة السوفيتية لاتنشر إلا مايريده الحزب ويخدم الفكر الشيوعى .

جاء عن الحزب الشيوعى إن (للصحافة فى الظروف الحاضرة شأن عظيم غير عادى بوصفها سلاحا لتربية الجماهير وأن أهم أهدافها هو تربيتها بروح البلشفية وأنه لابد من أن يبدأ العمل بايجاد أدب خاص بالأطفال يشرف عليه الحزب أتم إشراف وينظمه أدق تنظيم)[٢].

كما أن رؤساء التحرير ليس من حقهم نشر أى شىء حتى تأتيهم الطرق التى ينشرون بها الموضوعات[٣].

ومن هنا كما يقول أندريه جيد : (إنه ليس ثمة غير رأى واحد فى أى موضوع مهما يكن شأنه ، أو وجه الحكمة فيه ، وأن هذا الرأى هو الصحيح ، حتى لقد دأبت جريدة "برافدا" على أن تبين للشعب فى كل يوم ماهم بحاجة إلى معرفته ، ومايتحتم عليهم تصديقه ، أو التفكير فيه ...)[٤].

ومما يدل على تحكم الحزب فى الصحافة إصداره المراسيم المختلفة من أجل احتكار المؤسسات الصحفية ، واغلاق مالايريدونه منها ، وتحويل هذه

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٧١) .
ومر معنا تندر الشيوعيين بالحرية الصحفية فى البرجوازية ، بينما الواقع يدل على خلاف ماذهب إليه الشيوعيون ويضرب الكتاب مثالا بعزل الرئيس الأمريكى نيكسون حيث اعتبروا أن الصحافة لعبت الدور الأكبر فى فضحه . انظر محاضرات فى الندوة الدبلوماسية الثامنة (٢٠) ، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م ، إشراف د. إبراهيم الغيص ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، وزارة الخارجية ، الإدارة العامة للشئون السياسية قسم البحوث والمعلومات .

(٢) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٧١) ، وانظر النار والجليد (٥٩) .

(٣) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى التعليم (٢٧٣) .

(٤) المعبود الذى هوى (٢٣٦-٢٣٧) .

المؤسسات وتوابعها لملكية الدولة[١].

رابعا : ومن مظاهر مصادرة حرية الرأى والقول ، السيطرة التامة على وسائل الإعلام والاتصال ، وتوظيفها لخدمة الإلحاد .

جاء فى المعجم إن (الصحافة والسينما والإذاعة والتلفزيون الإشتراكية ، هى وسائل قوية لتربية الشغيلة تربية فكرية سياسية وتكوين الأيديولوجيا والأخلاق الشيوعية فى نفوسهم)[٢].

فكل هذه المرافق توظف لخدمة الشيوعية ، وبالتالى لابد من السيطرة عليها لتعطى الثمرة المرجوة منها[٣]. وعن السيطرة على البرق ونظامه ووسائل الاتصال - وفى هذا دليل على مصادرة الحرية الشخصية وكذلك الفكرية - جاء فى قرار اللجنة المركزية لمندوبى سوفياتات العمال والجنود والفلاحين التالى :

(١) (استنادا إلى القرار ، السابق للجنة التنفيذية المركزية لسوفياتات عموم روسيا ومجلس قوميسارى الشعب القاضى بدمج المكتب الإخبارى للجنة التنفيذية المركزية لسوفياتات عموم روسيا ووكالة البرق فى بتروغراد ، قررت اللجنة التنفيذية المركزية لسوفياتات عموم روسيا أن يطلق على المؤسسة المراد تشكيلها (وكالة البرق الروسية) التابعة للجنة التنفيذية المركزية لسوفياتات عموم روسيا . ومختصرها (روستا).

(٢) تكون وكالة البرق الروسية التابعة إلى اللجنة التنفيذية المركزية لسوفياتات عموم روسيا جهاز الإعلام السوفييتى المركزى لعموم جمهورية روسيا الاتحادية الإشتراكية .

---

(١) انظر الصحافة (٢٠٧-٢٠٨) . ولمزيد انظر من أين نبدأ (١٣٩-١٤٠) حيث ذكرت صحيفة البرافدا بأنه لاتوجد حرية للكلمة ، ولاللصحافة ، ولالأعداء الشعب ، وإنما هى للحزب الشيوعى .

(٢) (٤٥١) .

(٣) وعن سيطرتهم على وسائل الإعلام انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٦٢) .

(٣) تندمج كافة مكاتب الأعلام التابعة لوكالة البرق فى بتروغراد السابقة والمكاتب الصحفية الإخبارية المتفرقة فى الأقاليم وفى الخارج لتشكل مجتمعة المكتب الإخبارى المحلى لوكالة البرق الروسية .

(٤) تصبح جميع مكاتب الأعلام فى الأقاليم والتى كانت تعمل حتى الآن بصورة مستقلة عن وكالة البرق فى بتروغراد والمكتب الإخبارى الصحفى تابعة إلى وكالة البرق الروسية وتكون بمثابة مكتبها الإخبارى المحلى . وتلغى الوكالة الصحفية للجنة الشمال الثورية فى بتروغراد لتصبح مكتب بتروغراد لوكالة البرق الروسية .

(٥) يكون العنوان البرقى لوكالة البرق الروسية كالآتى : موسكو ـ فستنك.

(٦) ينقل جميع المراسلين السابقين لوكالة البرق فى بتروغراد والمكتب الإخبارى إلى وكالة البرق الروسية .

(٧) يعدل النظام الداخلى لوكالة البرق الروسية بما يتفق والتعليمات الواردة فى محضر الاجتماع الذى حضره أعضاء المجلس والعمال التنفيذيين لوكالة البرق فى بتروغراد والمكتب الإخبارى الصحفى فى ٢٤ آب ١٩١٨م .

(٨) تحول كافة العقود التى أبرمت من قبل وكالة البرق فى بتروغراد والمكتب الإخبارى الصحفى مع الأطراف الأخرى إلى وكالة البرق الروسية ، وتنطبق نفس هذه الأحكام على الاتفاقيات التى وقعتها وكالة البرق فى بتروغراد مع وكالات البرق الأجنبية .

(٩) يحول كل النقد تحت اليد والحسابات الجارية فى البنوك وكذلك المخصصات المقررة لوكالة البرق فى بتروغراد والمكتب الإخبارى الصحفى إلى حساب وكالة البرق الروسية)[١].

---

(١) الصحافة (٢١٠-٢١١) .

وإذا كان التأليف والنشر والطباعة مرتبطة بالإعلام فإن الحزب كثيرا مايعدل ويحذف ويضيف فى الموسوعات والمؤلفات[١]، ولاغرابة فى ذلك فإن دور النشر كلها تحت سياسة اللجنة المركزية[٢].

خامسا : أن الشيوعية ادعت بأن الحرية الفكرية ستكون للعمال دون غيرهم .

ربطت الشيوعية بين قراراتها وأفعالها وبين مصالح العمال ، ولكن الحقيقة أن العامل هو الضحية فى كل الأحوال ، سواء كان ذلك نظريا لأن الأمر علق عليه ، أوفعليا ، لأن العامل كان الضحية الحقيقية فى ظل الأنظمة الشيوعية .

يقول آرثر كاستلر وهو شيوعى ألمانى : : (إن من القواعد الأساسية فى النظام الشيوعى أن أى انتقاد يوجه إلى قرار اتخذه الحزب تجاه مشكلة معينة يعتبر نزعة إلى الانحراف والتخريب . إنه من المسموح به من الناحية النظرية مناقشة أى موضوع قبل صدور القرار فيه ولكن لما كانت كل القرارات تفرض علينا من فوق من البرج العاجى دون استشارة أية هيئة تمثل عامة الناس فقد كان من نتيجة ذلك أنه لم يعد للعامل العادى أى أثر سياسى بل لم تعد له أية فرصة للتعبير عن رأيه فى أمر من الأمور ...)[٣].

أثر القضاء على هذه الحرية :

إن الحرية الفكرية من أهم الحريات المتعلقة بكيان الإنسان ، فإذا ماسلبت منه أصبح موجها حتى فى تفكيره وأقواله ، وهذا ماتأباه العقول السوية ، ومايتميز به البشر عن سائر الخليقة . غير أن الشيوعية لم يكن يهمها الفرد ، فكيف يهمها حريته الشخصية والفكرية ، وإن اهتمت بها

---

(١) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٧٧-٢٧٨) .
(٢) انظر النار والجليد (٥٩-٦٠) .
(٣) الصنم الذى هوى (٢٢٤) .

فلمصلحة الشيوعية . إلا أنه بعد أن شعر زعماء الحزب بتذمر الإنسان الشيوعى من ذلك بدأوا فى تخفيف حدة الخناق عليه كسبا لوده ، وخاصة فى الحقبة الخروتشوفية حيث قال خروشوف : (إن من الواجبات الكبرى التى تواجه الحزب أن يرفع مستوى الأعمال الفكرية فى جميع منظمات الحزب وتجاربه اتقانا يمكنهم من الخلق والانتاج)[١].

وإذا كانت هذه التحسينات والتطورات التى أدخلها خروشوف القصد منها خدمة الدعوة الشيوعية ،إلا أنها نقطة تحول على كل حال ، أقدم عليها خروشوف بسبب تردى الوضع الذى وصل إليه الاتحاد السوفييتى فى ظل غياب الحرية الفكرية والإبداع .

ويصور دجيلاس أهمية الحرية الفكرية وأن مصادرتها مصادرة للإنسان ككائن عاقل مفكر فيقول : (وأقسى ضروب الاستبداد هى التى ترمى إلى سحق الإنسان عن طريق الاستبداد بفكره ، بل يمكن القول أنه يشكل المنطلق والنهاية لكل أشكال الظلم الأخرى فحين يتجه الاستبداد للقضاء على مجموعة الآراء والأفكار الأخرى فإنه يتجه إلى فرض آرائه وأفكاره عن طريق البطش والارهاب .

إن الاستبداد بالفكر يشكل أخطر شكل من أشكال الطغيان والإرهاب الشموليين اللذين يصعب تصور شدة عنفهما . فالفكر هو القوة المبدعة والطاقة الخلاقة لدى الجنس البشرى ، فهو يشكل أداة الكشف عن كل ماهو جديد ، كما أن الإنسان لايستطيع أن يعمل وينتج إذا لم يفكر فى أوضاعه وطريقة حياته ، غير أن الشيوعيين يدأبون للقضاء على الفكر حين لايسمحون لأى فكر آخر غير فكرهم أن يحيا ويسود .

إن الإنسان قد يتخلى عن أشياء عديدة ويتنازل عنها مرغما ، إلا أنه فى جميع الحالات يجد نفسه بحاجة إلى التفكير والتعبير عن آرائه وأفكاره ، وأن أكثر الأشياء ضررا بحياته ، أن يرغم على السكوت فى الوقت الذى

---

(١) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٠٠) .

يشعر بحاجته الملحاح إلى التعبير عن آرائه . ولاريب فى أن أشد الاضطهاد وهو ارغام الناس على الكف عن التفكير كما يرغبون ، أو دفعهم للحديث عن آراء وأفكار لايؤمنون بها ولاتمت إليهم بأية رابطة أو صلة فكرية وحياتية فى ظل الارهاب والظلم ، أن الاعتداء على حرية الفكر لايشكل اعتداء على الحقوق السياسية والاجتماعية للفرد فحسب ، بل تعديا على الإنسان ككائن مفكر عاقل)[١].

ونظرا لكون هذه الحرية فى غاية الأهمية للإنسان ، نجد أن كل مافعلته الشيوعية من أجل كبتها ، ومنعها لم يولد إلا الحقد والبغضاء فى نفوس الشعب ، كما أن ذلك يولد الآثار النفسية السيئة التى قد تظهر فى وقت من الأوقات ضد أى نظام يصادرها أو يمنعها . يقول كاونتس : (نعم إن الحزب قد وضع يده على جميع الهيئات ، وسيطر على جميع العمليات المنظمة التى تعمل لتشكيل العقول . وإن الفنون التطبيقية قد زادت زيادة كبرى عدد هذه الهيئات والعمليات ، وضاعفت قوتها أضعافا كثيرة ، ولكن سلطة الحزب عليها لايمكن أن تكون مطلقة . فالذى لاشك فيه أن بعض مناحى الحياة وتجاربها ستكون حتما بعيدة عن متناول أقسى الدكتاتوريات فى العالم . ففى أعماق قلب المرء وعقله الخفية يكمن بعض الحنين ، وتكمن بعض الأفكار الإنقلابية المكبوتة ، التى لابد أن تثور فى يوم من الأيام . ومامن شك أيضا فى أن الناس سيلتقون فى جماعات ، على الرغم مما يعرفونه من العقوبات ، وبالرغم من أعين عمال الشرطة السياسية الساهرة ، وسيعبر هؤلاء الناس عن المناهضة للعهد القائم ، سواء استعانوا على ذلك بمشروب الفودكا أو لم يستعينوا به . فنحن نعرف مثلا معرفة أكيدة أن الشعب فى أنحاء البلاد - حتى فى أحلك أيام حكم ستالين - كان يتناقل فكاهات ضد السوفييت وضد ستالين ، ونحن نعرف أيضا أن طفلا فى مدرسة مفروضة عليها رقابة شديدة قد يسأل فى سذاجة الأطفال وبراءتهم سؤالا

---

(١) الطبقة الجديدة (١٩٦-١٩٧) ، وانظر الفكر الأوروبى (١/٤٤-٤٥) .

مربكا . ويثير فى عقل غيره سلسلة من الأفكار تولد الشك فى "الحقائق السوفيتية" الأساسية . يضاف إلى هذا أنه وإن كانت الدكتاتورية قد اتخذت التعليم سلاحا بتارا تسيطر به على العقول . فإن الشخص الذى يستطيع القراءة قد يقلب مصادفة أو عمدا صفحات كتاب مقرر فيعثر فيها على أفكار غريبة تفسد عليه تفكيره ، ولعل أهم من هذا ماعسى أن يكون للعقل المدرب من تأثير فى الحكم نفسه ، وهو أمر مرجح كل الرجحان ، ومع أن القوة التى يصيبها العقل فى ميدان من الميادين لاتنتقل من تلقاء نفسها إلى ميدان آخر فإن العقل المستنير الذى هذبته قوانين الحقائق العلمية ، سيترع إلى تطبيق هذه القوانين نفسها فى الميادين الإجتماعية والسياسية ، حتى ولو فعل هذا فى صمت وسكون)[١].

ومن هنا فإن الشيوعية بمصادرتها لهذه الحرية تكون جنت على نفسها ، وأعلنت لشعبها أنها غير واثقة فيما تقول أو تعد به ، فولد ذلك كرها شديدا لفكرها ، ورغبة جامحة فى الانفكاك من عقالها ، ولأجل ذلك تنازل زعماء الشيوعية عن هذا التسلط وخاصة منذ عهد خروشوف إلى أن فتح باب النقد والمعارضة على مصراعيه فى وقت لاحق ، فولج منه الناس يمارسون حرياتهم التى تتوافق مع فطرهم ، وكانت النتيجة الثورة على النظام الشيوعى واجتياحه بكل قوة من هذه الجموع التى كانت مكبوتة بالقوة والجبروت . وهكذا غدا القضاء على الحرية الفكرية أحد المعاول القوية التى كانت تشارك فى هدم وإزالة الفكر والنظام الشيوعى .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : قامت الشيوعية بمصادرة الحرية الفكرية بكل أبعادها سواء كان تأليفا ، أو كتابة ، أو نقدا . وهذا أمر مرتبط بالحرية الدينية فإن التوجهات كانت مختلفة فلو ترك الأمر هملا فى نظر الشيوعيين للزم منه الدعوة إلى الدين وهذا ماتأباه الشيوعية ، لأنه لايمكن بحال من الأحوال سلب الإنسان

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤٢١-٤٢٢) .

التفكير فى الدين[١].

ثانيا : أن مصادرة الحرية الفكرية جعلت الفرد الشيوعى يشعر بفقدان كرامته وإنسانيته ، ويشعر بعدم الثقة فى الفكر الذى وعده بتحقيق أمانيه ومطالبه ، كما يشعر بعدم صدق القائمين على النظام وزبانيته ، فولد ذلك الشعور فى نفسه الرغبة فى التخلص والانعتاق من ربقة ذلك النظام وفكره .

ثالثا : أن مصادرة الحرية الفكرية ولد وعلى المدى البعيد الحقد التام فى نفوس الشعوب السوفيتية مما كان له أثره الواضح فى الاندفاع الجارف الذى حصل فيما بعد فى الاتحاد السوفييتى .

رابعا : أن الشيوعية أبقت على الكتابات والآراء التى تخدم الفكر الشيوعى وتوجهات الحزب فقط ، ولأجل ذلك كانت هذه الكتابات إما غير صادقة ، وإما ناقصة ، فلم نر الابداع الفكرى الروسى يخرج لحيز الوجود نتيجة لذلك الكبت . يقول تفارشوفسكى : (الزور فى الكلمة كالخديعة فى الغزل ، كلاهما سيفضحه الزمن!)[٢].

خامسا : أن هذه المصادرة قد أثرت على أصحاب الفكر من الابداع والاختراع والاكتشاف ، لأن كل أحد كان يحتاط ألا يصدر منه أو عنه شىء حتى لايفسر بمعاداة الشيوعية وبالتالى يكون ذلك المبدع ، أو المخترع ، أو المكتشف الضحية . ومن هذا نصل إلى الحديث عن حرية الفكر والرأى فى الدين الإسلامى . وكما قال المثل بضدها تتميز الأشياء .

---

(١) انظر فلسفة الأنوار (٢٨-٢٩) .

(٢) الإشتراكية فى التجارب العربية (١٨٠) .

(ب) الحرية الفكرية فى الإسلام :

احترم الإسلام الإنسان وكفل له كامل حرياته وحقق له كافة رغباته الفطرية وجعلها تسير فى مسارها الصحيح ، وعندما منح الإسلام الإنسان حرية المعتقد ، فإنه جعل له حرية الفكر والرأى والتعبير ، حيث إن هذه الحرية مرتبطة بالحرية العقدية . فالإنسان من حقه التعبير عن معتقده وكذلك من حق الإنسان البحث عن الحقيقة ، ومن حقه الاستفسار عنها .

وليس غريبا أن يحترم الإسلام الفكر الإنسانى ويضمن له الحرية طالما أنه أكرم الإنسان إذ أن الفكر أثمن مواهبه (وأعظمها أثرا فى مظاهر مدنيته ، وانطلاقه دليل الحضارة ، وسبيل العلم والنور والهداية والحكمة . وهو من نتاج العقل وقوة التمييز ، ومن أدوات حرية الإرادة واختيار الأعمال والفضائل والرذائل ، ومايستتبع كل ذلك من جزاء ومسؤوليات ومن سعادة أو شقاء .

وقد كانت حرية الفكر ولاتزال من حقوق الإنسان الأساسية ، التى انتصرت ، بعد جهاد طويل ، على ماكان معروفا فى بعض العصور المظلمة القديمة من اضطهاد دينى وفكرى ...)[١].

(ولم يدخر الإسلام جهدا فى إعطاء هذه الحرية جل عنايته وإهتمامه باعتبارها الوسيلة المثلى لنشر الدعوة وإعلانها وإعلاء شأنها عن طريق تفهم جوانبها ومواجهة الناس بها ، يقول تعالى : {**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**}[٢])[٣].

إن هذه الحرية مرتبطة بحرية العقيدة ، وهى حرية (تنسجم مع الطبيعة الفطرية التى خلق الإنسان بها ، فالإنسان مخلوق يتميز بالعقل ، وقد ارتبط التكليف بالعقل ، ومن مقتضى الاعتراف بسيادة العقل وسلطانه أن

---

(١) أركان حقوق الإنسان (١١٩) ، وانظر ضمانات الحرية (٣٦) .
(٢) سورة آل عمران : (١٠٤) .
(٣) ضمانات الحرية (١١٨) .

يكـون هـذا العقـل حرا فى التجـول فى الآفـاق المحيطـة به والمشـاكل التى تواجهه)[١].

حرية الرأى والفكر فى الكتاب والسنة :

إن الإسلام كـرم ابن آدم على سـائر المخلـوقات ومما جعلـه سببا فى تكـريمه وتفضيله عقله وتفكيره الذى يتميز به عن كل مخلـوق ، قال تعالى : {**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**}[٢].

وقـد ذكر العلماء أسبابا كثيرة فى سبـب التكريم والتفضيـل وإن كان جماعها هو العقل الذى عن طريقه يتم التفكير .

يقـول الشوكانى فى تفسير هذه الآية : (هذا إجمال لـذكر النعمة التى أنعـم الله بها على بنى آدم أى كـرمناهم جميعا وهذه الكـرامة يدخل تحتهـا خلقهـم على هـذه الهيئـة الحسنـة وتخصيصهـم بما خصهـم به مـن المطـاعم والمشـارب والملابس على وجه لايوجد لسـائر أنواع الحيـوان مثله ... وأعظم خصال التكريم العقل)[٣].

وبهـذاالعقل يصـل الإنسان إلى أعلى درجات الإيمان وذلـك بتفكـره فى مخلـوقات الله عز وجل ، وتدبره فى آياته المتلـوة والمشهـودة . قـال تعالى : {**إن فـى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلـك التـى تجرى فى البحر بما ينفـع الناس ومأأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصـريف الرياح والسحاب المسخـر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**)[٤].

---

(١) المدخل للتشريع الإسلامى (٥٩) ، وانظر (٦٠) .
(٢) سورة الإسراء : (٧٠) .
(٣) فتح القدير (٣/٢٤٤) .
(٤) سورة البقرة : (١٦٤) .

كما ذم الله تعالى أهل التقليد أولئك الذين عطلوا إعمال فكرهم ، وقلدوا آباءهم وأجدادهم فى عبادتهم .

ويلحق بهذه الحرية الفكرية ويلازمها حرية القول والتعبير ، وأقرها شرع الله تعالى ، قال سبحانه : {**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**}(١). فأعطى الإسلام الحرية التامة فى قول الحق ، والأمر به ، ومنع تكميم الأفواه ، أو مصادرة الآراء ، فحقق للفرد حرية الرأى والتعبير على أكمل وجه .

ومما يؤيد هذه الأحقية ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"(٢).

وقوله صلى الله عليه وسلم : "الدين النصيحة"(٣)وذلك لايتأتى إلا لم بإقرار هذه الحرية والمحافظة عليها . وإلا كيف تقال كلمة الحق إذا كممت الأفواه؟ وكيف يقضى على الظلم؟ وكيف يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ وكل ذلك يكون بالطرق المشروعة ، والأساليب الحكيمة . ومما يدل على أن الإسلام أقر هذه الحرية هو جواز محاورة أهل الكتاب ومجادلتهم ، والنقد البناء الهادف ، الذى لايمكن ممارسته إلا مع حرية الرأى(٤).

---

(١) سورة آل عمران : (١٠٤) .

(٢) رواه مسلم بشرح النووى (٢٢/٢،٢٥) ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان ، والترمذى (٣١٧/٣-٣١٨) ، أبواب الفتن ، باب ماجاء فى تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب ، حديث رقم (٢٢٦٣) بألفاظ مختلفة .

(٣) رواه مسلم بشرح النووى (٣٦/٢-٣٧) ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة .

(٤) انظر : محاضرات فى الندوة الدبلوماسية (٢٢) ، الإسلام وحقوق الإنسان (٧٧-٧٨) ، تحت راية الإسلام (٨٩) ، نجيب الكيلانى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

واقع المسلمين وحرية الفكر والرأى :

إن الحرية الفكرية فى التعبير عن الرأى متممة للحرية العقدية إذ بدونها لايستطيع الإنسان أن يفصح عن رأيه ويعبر عن عقيدته التى فى صدره.

وبدون شك أن القضية الفكرية تمثل أيضا العقيدة التىفى نفس الإنسان ومن هنا قرر الإسلام هذه الحرية ، وطبقها المسلمون فى واقعهم منذ زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والأحداث والشواهد كثيرة .

فلم يحجر الرسول صلى الله عليهوسلم على أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول برأيه فى أسرى بدر ، وكذلك الحال مع عمر الفاروق رضى الله عنه ، ثم نزل الوحى مبينا ماهو أولى .

وكذلك ماكان من مشاورات بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى قضايا القتال وغيرها مما هو فى أمور الدنيا ، أو المصلحة المفضية إلى تحقيق مصلحة شرعية لم يرد فيها وحى . ثم كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم من بعده عليه السلام مطبقين لذلك المنهج ، مقرين بهذه الحرية ، تاركينها للرعية ، كما أقرها لهم خالقهم . والتاريخ الإسلامى ملىء بالحوادث التى تدل على ضمان هذه الحرية ، وإن وجد فى بعض الأزمنة التضييق عليها ، أو الحجر عليها نهائيا .

إن حرية التعبير والرأى منسجمة مع الفطرة الإنسانية(١)، تحتاجها العقول البشرية ، من أجل التفكر فى ملكوت الله تعالى للوصول إلى الإيمان ونبذ التقليد والأفكار الخرافية(٢). فهى متممة للحرية العقدية(٣)، وكثير من الأمور لاتتم إلا بها وعن طريقها كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإسداء

---

(١) انظر عن ذلك المدخل للتشريع الإسلامى (٥٩-٦٠) .
(٢) انظر عن ذلك : أوضاعنا السياسية (٢٦٦-٢٦٧) ، فوق أطلال الماركسية (٦٠-٦١)
(٣) انظر أركان حقوق الإنسان (١٤٢) .

النصيحة[١]. ومن هنا أقرها الإسلام ، ومنحها للانسان[٢]، واعتبر أن من صفات المؤمنين الجهر بالحق وعدم الخوف إلا من الله تعالى[٣].

إن كلمة الحق يجب إبلاغها ولايتم ذلك إلا عن طريق توفر هذه الحرية وإقرارها . فلابد من قولها وعدم كتمانها طالما أنها تفضى إلى الاصلاح ولايقصد صاحبها من ورائها إلا الحق والخير فليس لأحد أن يمنعه من أن يصدع بقول الحق والدعوة إليه بإحسان ، قال تعالى : {**وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن . إن الشيطان ينزع بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا**}[٤].

ومع هذا كله فهل أطلق الإسلام العنان لهذه الحرية؟ لا بل وضع القيود عليها لما يوجهها إلى الخير العميم كالعادة مع بقية الحريات ، فهى حرية (مقيدة بأن لايكون مايكتب أو يقال خارجا عن نصوص الشريعة وروحها)[٥].

فالإسلام منح الإنسان حرية الكلمة فى إعلان الحق ، سواء كان كتابة أو عن طريق الوسائل الحديثة ، من أجل النصح ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبذل النصيحة .

كما أنه لم يحجر على الكتاب أو يصادر كتاباتهم إذا لم تكن داعية إلى الشرك ، أو الإباحية ونشر الرذيلة .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن الحرية الفكرية أقرها الإسلام وطبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده رضى الله عنهم أجمعين ، وكان الأمر كذلك

---

(١) انظر : أركان حقوق الإنسان (١٤٣-١٤٤) ، أوضاعنا السياسية (٢٦٩) .
(٢) انظر عن ذلك الإنسان وحريته فى الإسلام (٥٦) .
(٣) انظر عن ذلك ضمانات الحرية (٢٣٠) .
(٤) سورة الإسراء : (٥٣) .
(٥) أوضاعنا السياسية (٢٦٩) .

فى الأزمان التالية من بعدهم وقد مارسها العلماء والدعاة رغم الضغوط والاضطهاد من أجل حرمانهم إياها .

ثانيا : مما يدل على احترام الإسلام لهذه الحرية وإقراره لها نعيه الشديد على المقلدين .

ثالثا : أن الحرية الفكرية فى الإسلام لم تكن (مجرد شعارات ترفع ، أو كلمات جوفاء يتشدق بها الناس ، وإنما كانت واقعا حيا ملموسا ، وسلوكا عمليا يراه الناس ويمارسونه، ولم تكن الحريات مجرد نصوص فى دساتير ومواثيق ، وإنما كانت تطبيقا مؤثرا ، ودافعا قويا للابداع والخلق ...)[١].

وهذا كله منضبطا بضوابط الريعة الإسلامية فهى حرية مقيدة وليست مطلقة .

وهكذا حافظ الإسلام على حرية الفكر والرأى وضرب المسلمون أروع الأمثال فى تحقيق هذه الحرية وخاصة إذا كان الفكر معمول به فى مجاله فإنه لاحجر عليه ، وإذا كان صاحبه يعرض مالديه من أفكار ويطرحها بغية الوصول إلى الحق فلاشىء عليه . ومن هنا عاش الفرد المسلم متمتعا بكل حرياته معبرا عنها دون أى تضييق عليه ولاغرابة فدين الله تعالى هو عتق للمسلم من كل عبودية وتحرر من كل الضغوط البشرية القائمة على النوازع الفردية المادية .

ونصل الآن إلى الحديث عن حرية أخرى لها صلة وثيقة بحرية الفكر وهى حرية التعلم والتعليم .

---

(١) تحت راية الإسلام (٩٢) .

المبحث الرابع
حرية التعلم والتعليم

(أ) حرية التعلم والتعليم فى النظام الشيوعى :

يفاخر الشيوعيون بأن الشيوعية التى ينتسبون إليها شيوعية علمية . وهذا مايميزها عن غيرها من الأفكار الإشتراكية ، ومن يستمع لهذا القول فإنه يسارع إلى الإعتقاد بأن هذا الفكر يحرص على العلم ، ويكفل للرعية حق طلبه بكل حرية ، وأنه لامجال للحجر على العقول أو تكميم الأفواه فيه .

وبالفعل اهتم الفكر من حيث التنظير بمسألة التعليم ، وكذلك كان واقع الاتحاد السوفييتى يولى التعليم اهتماما خاصا . وقد عرف الاتحاد السوفييتى ثلاثة أنواع من المدارس :

أولا : مدارس الشعب .

ثانيا : نظام المدرسة الوسطى .

ثالثا : المدارس العليا .

وهذه لمحة مختصرة عن كل نوع :

مدارس الشعب : يتبع فى تكوينها النظام الغربى وأخذت بطريقة السلم التعليمى مدارس الحضانة ، الملاجىء ، رياض الأطفال .

المدارس الوسطى : ونظامها يعلم النشء تعليما عاما مدة الدراسة عشر سنوات ، وأعمار طلابها من ٧-١٧ سنة ، وهى مدرسة ابتدائية ٤ سنوات ، مدرسة ثانوية صغرى ثلاث سنوات ، مدرسة ثانوية كبرى ثلاث سنوات .

المدارس العليا : مدة الدراسة فيها ٤-٦ سنوات[١].

ومدرسة الشعب تسترشد بأربعة مبادىء :

(١) مبدأ انعدام الطبقات .

(٢) مساواة الذكور بالإناث .

---

(١) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٨٢-٨٣) .

(٣) المساواة بين الشعوب والقوميات .
(٤) أن يجتث النفوذ الدينى بأكمله وبجميع أشكاله من المدرسة .
(٥) بذل كل الجهود لغرس النظرية المادية الإلحادية فى نفوس وأبناء الجيل الناشىء[١].

أما المدرسة الوسطى : فهى ذات نظام العشر السنين ويلقى عليها أكبر التبعات فى تشكيل عقل الرجل السوفييتى الجديد ، وغرضها الأساسى أن تلقن جميع أفراد الجيل الناشىء طائفة مشتركة من المهارات والمعلومات والأفكار والقيم وضروب الولاء[٢].

ومرت هذه المدرسة بدورين :

(١) من عام ١٩٢١-١٩٣١م الدور الأول .
(٢) من عام ١٩٣١-١٩٥٣م الدور الثانى .
(أ) دور التجربة أو الدور الابداعى فى الاتحاد السوفييتى .
(ب) استحواذ الشعب على المدرسة والتلميذ والمعلم[٣].

وبهذا العرض المختصر نجد أن المدارس تقوم على :

(١) إزالة الدين من النفوس .
(٢) غرس الإلحاد فى نفوس الطلاب .
(٣) الاختلاط بين الجنسين .
(٤) سيطرة الحزب على التعليم ، وجعله يسير حسب رغباته .

اهتمام الاتحاد السوفييتى بالتربية والتعليم :

من المسلم به أن الاتحاد السوفييتى قد اهتم بالتربية والتعليم ، وحقق أعلى درجات الحرية فى تعليم الناس وتربيتهم . ولكنها كانت حرية مقيدة بتعليم الإلحاد والتربية عليه .

---

(١) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٨٣) .
(٢) انظر المرجع السابق (٨٥) .
(٣) انظر المرجع السابق (٨٨-٨٩) .

ولأجل ذلك يرون أن التربية الشيوعية تعنى (تكوين أناس مخلصين للشيوعية ، متطورين من جميع النواحى وبصورة متناسقة ، ويتميزون بتبنى العقائد الشيوعية وممارسة النشاط الرامى إلى بناء المجتمع الشيوعى ، تكوينا هادفا ، منتظما ، منهاجيا)[١].

والتربية الإلحادية هى (التأثير الهادف فى الناس لأجل تكوين العقيدة العلمية المادية عندهم ، وتذليل الأوهام والخرافات الدينية)[٢].

مصادر التربية والتعليم فى الاتحاد السوفييتى وأهدافها :

إن المصدر الأساسى الذى يقوم عليه التعليم فى الاتحاد السوفييتى هو تعاليم ماركس ، وقد جاء فى تنظير ماركس : أن يفتح باب العلم للجميع ، وأن يشرف عليه الشعب ، وأن يكون العلم محررا من قيود الطبقات والحكومة والكنيسة ، وأن يكون مثله الأعلى هو الحرية الفكرية . وعمله تنمية مواهب الأفراد ، وغرس المبادىء الخالدة فى نفسه من حرية وعدالة ، مسترشدا فى ذلك بالحكمة القديمة التى هى أساس جميع ضروب المساواة وهى أن من لايعمل لايأكل[٣].

أما الأهداف الأساسية من التربية والتعليم ف ىلاتحاد السوفييتى فهى :

أولا : الاهتمام بالتربية الإلحادية فى كافة المستويات التعليمية .

ومن هنا نظر القادة الشيوعيون فى أهمية المدرسة واستخدامها كسلاح فى يد البروليتاريا فجاء فى المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى عام ١٩١٩م (تحول المدرسة من سلاح لسيطرة الطبقة البرجوازية إلى سلاح يستخدم للقضاء على انقسام المجتمع إلى طبقات سلاح لبعث المجتمع بعثا شيوعيا جديدا)[٤].

ولأجل ذلك اهتمت المدارس السابق ذكرها بالتربية الإلحادية ، فكانت المدرسة الدنيا والوسطى تهدفان إلى التربية الفلسفية الشيوعية[٥]. ومن أهم

---

(١) المعجم (١٢٨) .
(٢) المرجع السابق (١٢٨) .
(٣) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٣) .
(٤) المرجع السابق (٨٠) .
(٥) انظر المرجع السابق (٢٢٨-٢٢٩) .

أهداف التعليم العالى فى الاتحاد السوفييتى :

(١) (تربية الطلاب والمعلمين تربية أساسها تعاليم ماركس وانجلز ولينين) .

(٢) (القيام بالبحوث العلمية التى يقصد بها المساعدة على حل أهم مشاكل البناء الاشتراكى)[١].

ثانيا : تسخير التربية والتعليم ، والطالب والمعلم ، لخدمة الأهداف والأفكار الشيوعية وهذا لايتم إلا بالسيطرة التامة على التعليم ومرافقه .

يقول ستالين : (يجب أن تكون الآداب والفنون والعلوم ، أسلحة فى أيدى الحزب ، فعن طريق سيطرة الحزب على الآداب نستطيع أن نربى مشاعر الناس ، وعن طريق السيطرة على الفنون نستطيع أن نسيطر على سلوكهم ... يجب أن يكون الرأى العام مجرد انعكاس لمبادئنا وآرائنا وسلوكنا)[٢].

ويقول غورباتشوف : (وتمثلت المحنة بالنسبة للاتحاد السوفييتى فى أنهم علموا الناس القراءة والكتابة من أجل أن يفرضوا عليهم برنامجا مصطنعا للتطور وإثارة كراهيتهم لكل مالايتشابه مع هذا البرنامج وعزلهم عن العالم الخارجى وعن التقدم والحضارة . ونتيجة لذلك فقد أصبح الشعب سلاحا فى أيدى المغامرين السياسيين الذين كان هدف حياتهم يتلخص فى السلطة المطلقة واخضاع الناس لإراداتهم ، والتعسف الكامل بما لايتفق مع قواعد الأخلاق وحقوق الإنسان)[٣].

ويقول كاونتس : (إن هذا الحزب قد حشد جميع قوى التعليم النظامى أكثر مما حشدته أية دولة أخرى فى التاريخ كله كى ينال بها أغراضه ويتقدم نحو أهدافه المستقبلة البعيدة ...)[٤].

---

(١) التعليم (٢٣٣) ، وانظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١١٧) .

(٢) إشتراكيتهم وإسلامنا (٧٨-٧٩) .

(٣) الإنقلاب (١٣٤) ، ترجمة د. سامى عمارة ، الشركة السعودية للأبحاث والنشر ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٤) التعليم فى الاتحاد السوفيتى (٩) .

كما طالب الشيوعيون المعلم بأن يغرس الأفكار الشيوعية فى نفوس الطلاب من بنين وبنات[١]. ومن هنا فالتعليم لابد أن يكون تحت ملاحظة أعضاء الحزب ، وأن يصب فى تحقيق مصلحة بناء الإشتراكية[٢].

ثالثا : من أعظم الأهداف التى يرغب الشيوعيون تحقيقها غرس الأخلاق الإلحادية فى الشعب الروسى . يقول ألبرت ب.بنكفيتس : (إن الهدف الأكبر لنظام التربية السوفييتى هو تغيير أخلاق الشعب الروسى)[٣].

والشيوعيون لايقيمون للأخلاق أى اعتبار ، ويعتبرونها غير ثابتة ، وأن هناك ظروفا اقتصادية اقتضت وجودها ، وقد أكثر الشيوعيون من حديثهم عن الأخلاق ومفهومها فى الشيوعية ونأخذ أمثلة على ذلك .

يقول انجلز : (إن الأخلاق قد كانت على الدوام أخلاقا طبقية ، فهى إما أن تبرر سيطرة الطبقة الحاكمة ومصالحها ، وإما أن تمثل ، حالما تحوز الطبقة المضطهدة مايكفى من القوة ، التمرد على تلك العقيدة ومصالح المضطهدين المقبلة فى الوقت نفسه)[٤].

ويقول : (إن البشر يستقون بصورة واعية أو غير واعية ، أفكارهم الأخلاقية فى آخر تحليل من العلاقات العملية التى تقوم أوضاعهم الطبقية على أساسها ـ من العلاقات الاقتصادية التى يقومون فيها بالإنتاج والمبادلة)[٥].

وينكر الشيوعيون المصدر الإلهى للأخلاق . يقول لينين فى خطاب ألقاه عام ١٩٢٠م فى مؤتمر منظمة الشباب الشيوعى الثالث : (الحقيقة أننا ننكر ماتدعيه البرجوازية ، من أن مبادىء الأخلاق ، هى أوامر من عند الله فنحن لانؤمن بالله ، ونعلم بأن الملوك ورجال الدين والبرجوازية قد

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٣-١٤) .
(٢) انظر مسائل بناء الإشتراكية (٨٨-٨٩) ، دار التقدم ، موسكو ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
(٣) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٦٠) .
(٤) انتى دوهرنغ (١١٥) .
(٥) المرجع السابق (١١٤) .

نسبوا الأمور إلى اسم هو : الله ، لتحقيق مآربهم الاستغلالية .. وعندما يتكلم الناس أمامنا عن مبادىء الأخلاق ، نرد عليهم أن الأخلاق عندنا معشر الشيوعيين ليست سوى النظام الموحد أو التكتيل اليقظ ، لمكافحة الاستغلاليين . نحن لانعتقد بوجود أخلاق أزلية ، وكل القصص الخرافية التى ترمى إلى غرض أخلاقى لانقبلها لتربية النشء الشيوعى بالقاء الخطب الأخلاقية ، أو دروس الوعظ ، بل بإشراكه فى الميدان العلمى القائم لتشييد ودعم صرح الشيوعية ، بكل الوسائل ، ومهما بدا للمستغلين أنها أخلاقية فالأخلاق عندنا أن ننتصر)[١].

ويقول لينين : (إن كل مايساعد على بناء مجتمع شيوعى خير وصالح وكل مايعوق هذا البناء شر ومناف للأخلاق)[٢].

ويدعون بأن الأخلاق هى التى تحقق مصالح البروليتاريا حيث يقول لينين : (إن أخلاقنا خاضعة تماما لمصالح نضال البروليتاريا الطبقى)[٣].

وهذه الأخلاق تتحقق عن طريق الغش والخداع والكذب والحيل والمناورات[٤].

وعلى هذا الأساس فالأخلاق غير مستمدة من الدين ، وهى متطورة ، ومرحلة الشيوعية ليس فيها مايوجب بقاء هذه الأخلاق المصطنعة ، ومن هنا كان لابد من الاهتمام بالتربية الأخلاقية وغرس الأفكار الماركسية فى نفوس

---

(١) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٤٢) ، وانظر : الكيد الأحمر (٤٠-٤١) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٤٩) ، التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٦٠) .

(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٦٤) .

(٣) لينيننا (٥٨) ، دار التقدم ، موسكو ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
وحتى لايطول بنا المقام فى سرد أقوال الشيوعيين عن الأخلاق يمكن الرجوع إلى كتاب إشتراكيتهم وإسلامنا (٣٦-٣٧) ، الكيد الأحمر (٣١،٤٠-٤١) ، التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٥٤-٥٥،٤١٨-٤١٩) ، الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٤٦-٤٨) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٥٨) .

(٤) انظر : إشتراكيتهم وإسلامنا (٣٨) ، الكيد الأحمر (٤٠) ، حقيقة الشيوعية (١٩٠) .

النشء . ولأجل ذلك وتحقيقا لأفضل النتائج فى تربية الطفل على الخلق والثقافة التى تختار له اهتموا بالأطفال كثيرا لأنهم أيقنوا أن التأثير عليهم يكون بصورة أكبر وأسرع ممن عداهم[١]، من أجل غرس الأخلاق الشيوعية فى نفوسهم .

رابعا : من الأهداف الأساسية للتربية والتعليم فى الاتحاد السوفييتى غرس تعاليم الماركسية ، واللينينية فى نفوس الفلاحين ، واخراجهم من الجهل الذى هم فيه ، بالإضافة إلى تثقيفهم سياسيا ليتمكنوا من القيام بالمهمة التى ستوكل إليهم .

وأعلن لينين أنه يستحيل السير قدما إذا لم يكن هناك (درجة من الثقافة لدى الفلاحين [بل] ثورة ثقافية كاملة .. لكى تغدو بلادنا إشتراكية تماما)[٢].

وقال : (إن الشخص الأمى يقف خارج نطاق السياسة ولهذا يجب أولا أن يعلم الأبجدية)[٣].

يقول كاونتس : (لقد كان خلق طبقة جديدة من رجال الفكر تنتمى (إلى طبقة البروليتاريين لحما ودما) من أكثر مايشغل بال رجال الحزب خلال السنين العشرين الأولى من الحكم السوفييتى ، وكان هذا العمل من المبادىء اللينينية الخالصة فقد يبدو مؤسس البلشفية الذى ربط مصيره بمصير كفاح الطبقات ، كان يؤمن بأن نجاح الثورة موقوف إلى حد كبير على تدريب عمال الصناعة وفقراء الفلاحين لكى يصبحوا معلمين وأطباء ومهندسين ومديرى أعمال وفنانين وكتاب وعلماء . ذلك بأن هؤلاء وحدهم هم الذين

---

(١) انظر : التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٧٨) ، الحريات العامة فى الإسلام (٢٥٩) . وذكر أن مما جاء فى دساتير الشيوعية (التعليم الإلزامى لكافة الاطفال ، وربط تعليم الجيل الناشىء وتربيته بالحياة وبممارسة البناء الشيوعى) .

(٢) مسائل بناء الاشتراكية (٧٠-٧١) ، وانظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٥٤-٢٥٥).

(٣) نقلا من كتاب التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٦٢) .

يوثق بأنهم يخدمون المثل العليا للإشتراكية والشيوعية دونما تحفظ ويخدمون قضية الجماهير الكادحة ودولة البروليتاريا ، ومامن أحد ينكر أن مجهودا جبارا قد بذل فى هذه الناحية عن طريق مختلف الهيئات وبكافة الوسائل المستطاعة ...)[١].

خامسا : من أهداف التربية والتعليم فى الاتحاد السوفييتى إزالة مابين الجنسين من حياء حتى يتسنى لهم تطبيق مايريدون من مبادئهم . وقد وجدت قرارات متناقضة فى ذلك فتارة يفتخرون بأنهم طبقوا نظام التعليم المشترك بكل معانيه وكان الهدف من ذلك إعلان مبدأ التكافؤ بين الجنسين وتحرير المرأة من المجتمع البرجوازى ، وتارة يصدرون القرارات بالتفرقة بين الجنسين لاختلافهما فى التكوين الجسمى وخاصة من أجل الإعداد العسكرى[٢].

ومن هنا فإن الأهداف باختصار :

(١) استئصال جميع الأفكار المتعلقة بالدين ، والملكية ، والطبقات .
(٢) تكوين العقلية الشيوعية فى الميادين السابقة كما يراه ماركس وانجلز .
(٣) جعل الفرد فى غاية الولاء للحزب الشيوعى[٣].
(٤) رفع المستوى العلمى لدى الشعب السوفييتى[٤].
(٥) جعل التعليم والتربية سلاحا فى يد طبقة البروليتاريا[٥].
(٦) إزالة حواجز الخجل بين الجنسين .

لمحة عن مناهج التعليم فى الاتحاد السوفييتى :

ربط الشيوعيون بين مناهج التعليم ، والفكر الذى يرغبون فى نشره ووظفوا هذه المناهج كلها فى خدمة القضية الشيوعية ، والفكرة المادية .

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤١٩-٤٢٠) .
(٢) انظر المرجع السابق (١١٨-١١٩).
(٣) انظر فى هذا المعنى المرجع السابق (٦٨) .
(٤) انظر فى هذا المعنى المرجع السابق (٦٩) .
(٥) انظر فى هذا المعنى المرجع السابق (٧٠-٧١) .

فاللغة : لابد أن تكون اللغة الروسية ، حيث كتبت صحيفة الكتاب السوفييت تقول : (مامن أحد يستطيع أن يسمى نفسه عالما بالمعنى الحقيقى الكامل لهذا اللفظ إذا لم يكن يعرف اللغة الروسية ويدرس كتب المفكرين الروس بلغتها الأصلية)(١).

ولابد أن لايغيب عن أذهاننا أن الإشتراكية ستعم الأرض فلابد من أن تكون هذه اللغة لغة أهل الأرض كلهم .

الجغرافيا : ويتم فى هذا المنهج تسليح التلاميذ بالمعلومات المنظمة عن الموارد الطبيعية والسكان واقتصاديات الجمهوريات الإشتراكية ، والبلدان الرأسمالية وإظهار أثر النشاط الآدمى فى تبديل الطبيعة ، غرس حب الوطن وتنمية روح الوحدة الأخوية والصداقة بين الشعوب ، والكشف عن أحوال الشعوب المستعمرة وأحوالها ، والشعوب المحرومة من حقوقها والتى ترهقها وتستغلها الدول الاستعمارية(٢).

كما أن هذا المنهج يشمل رسوما تظهر حالة البؤس والحاجة فى البلدان الرأسمالية(٣).

التاريخ : يهتمون بالتاريخ اهتماما كبيرا . يقول كايروف : (التاريخ فى أرض الإشتراكية المنتصرة سلاح قوى من أسلحة التربية الشيوعية ، فهو يزود التلاميذ بأجوبة قائمة على أساس علمى عن الاتجاه الذى يسير فيه التطور البشرى ، وعن الوسائل التى يستطيع بها بنو الإنسان أن يعجلوا مولد مجتمع جديد وييسروا مولد هذا المجتمع ...) .

ويهدفون من دراسة التاريخ إلى :

* تزويد التلاميذ بمعلومات عن الحياة الاجتماعية والحوادث التاريخية .
* فهم القوانين الأساسية التى تطرح على المجتمع الإنسانى .

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٨٦-١٨٧) ، وانظر الفتح بالإرهاب (١٠٣).
(٢) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٣٩) .
(٣) انظر : الفتح بالإرهاب (١٠٣) ، حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٣) .

* الكشف عن أن جوهر الحركة التاريخية هو كفاح الطبقات .

* دراسة تاريخ الجمهوريات ، وماللأعمال المجيدة التى قامت بها الثورة الاشتراكية من قيمة عظمى حتى يقدروا ماقام به آباؤهم وأجدادهم فى سبيل الحرية .

* بث الحب فى نفوس التلاميذ بدراسة تاريخ لينين وستالين وكفاحهما الكبير فى انتصار الاشتراكية(١).

الدستور السوفييتى : كذلك الأمر بالنسبة لدراسة الدستور يوضح فيه ماحققته الإشتراكية من تحرير للعمال ، ومنحهم حقوقهم السياسية مما يجعل الشباب أكثر إيمانا بالفكر وتعلقا به(٢).

هذا بالإضافة إلى أن الشيوعيين قاموا باستغلال المدرسة والكتب والمكتبات فى الدعوة إلى الشيوعية .

فالمدرسة عندهم (لابد أن تغرس فى مدارك الجيل الناشىء المبادىء الشيوعية وتشكل التلاميذ حسب النظرة العالية الماركسية اللينينية وتغذيهم بروح الوطنية السوفيتية والمثل العليا البلشفية)(٣).

الكتب والمكتبات : إن ترتيب المكتبات والكتب التى توجد فيها أخذ أهمية قصوى عند الشيوعيين ، فسار الشيوعيون على خطة التطهير المستمر فى ميدان الكتب .

وكانت الكتب المعروضة عرضة لآراء الحزب فمتى تغيرت آراؤه رفعت الكتب ووضعت غيرها مكانها .

والكتب لايصح تداولها بين الجمهور ، توضع تحت تصرف طوائف خاصة من الشعب كأعضاء الحزب الذين وصلوا إلى درجة خاصة ، أو العلماء الموثوق بهم من قبل الشيوعيين ، وصدر فى عام ١٩٥٥م مقال فى

---

(١) انظر : التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٣٩-١٤٠) ، الفتح بالإرهاب (١٠٣) .
(٢) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٤٠) .
(٣) المرجع السابق (٦٨) ، وانظر (١٣٩) ، وانظر لينيننا (٨٣) .

صحيفة نادر هكستانا الشيوعية وكان عنوان المقال (لقد نبذت المكتبة السوفيتية النزاهة والموضوعية فى الفهارس) .

واحتوى المقال على الفقرة الآتية : (إن فهرس المكتبة السوفيتية أداة لتربية الجماهير الشيوعية ، ولهذا لابد من العناية الشديدة باختيار المواد التى توضع فى الفهارس ، وأن تنشر أرقى الآداب فى العالم وهو مؤلفات قادة العلم العظماء ماركس وانجلز ولينين وستالين ، وقرارات الحزب والحكومة ، وأكثر آراء العاملين فى ميدان الخدمة العامة تقدما . إن هذا النشر يتطلب الدقة فى اختيار الكتب التى تحتويها فهارس القراء ، وإذا كانت المكتبة عنصرا من عناصر النظام السوفييتى لتربية الشعب فقد أصبحت بهذا الوصف سلاحا سياسيا ، ولهذا فإنها لايمكن أن يجاز لها أن تنمو وتتطور وفقا لقوانينها الخاصة ، بل يجب أن تكون على الدوام فى قبضة الحزب)[١].

كما أن اختيار الكتب التى توضع على الرفوف فى المكتبات من أهم المسائل الحيوية التى عنى بها الحزب من ناحية تربية الشعب فتكون العناية خاصة بالقراءة السياسية (وهذا يدخل ضمن إطار الاهتمام بالتربية السياسية عند الشيوعيين) .

والماركسية واللينينية وتاريخ الحركة السياسية وحركات الشباب والرواد ومسائل العمال والنساء ومايكتب عن الحملات العسكرية والعلوم الطبيعية والدعاوى اللادينية[٢].

السينما : عمل الحزب الشيوعى على توظيف السينما فى الدعوة إلى العقيدة الشيوعية ، وقد جاء فى المؤتمر الثالث عشر الذى عقد عام ١٩٢٤م قرارا يقول : إن (السينما يجب أن تصبح أداة قوية فى أيدى الحزب يستخدمها فى التربية الشيوعية واستثارة الشعب ويجب أن تنفذ إلى أكبر طائفة من جماهير الدهماء وإلى منظمات الحزب والعمال)[٣].

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٨٦-٢٨٧) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٨٥) .
(٣) المرجع السابق (٢٨٨) .

استغلال الأدب والفن عموما فى نشر الفكر الشيوعى : جاء عنهم إن (الكتاب السوفييت يهتدون فى عملهم الابداعى بخطة الحزب البلشفى والدولة السوفيتية وهذا هو مصدر قوة الأدب السوفييتى)(١).

ولم يدع السوفييت شيئا إلا استغلوه فى سبيل الوصول إلى نشر مبادئهم وبسط سلطانهم ، فمثلا استغلوا المطبوعات حتى وصل الأمر إلى استخدام التقويم فى تحقيق أهدافهم .

يقول كاونتس : (قد يظن الإنسان أن التقويم يمكن أن يترك وشأنه ليكون غير سياسى فى محتوياته فيقتصر على ذكر الأسابيع والشهور وفصول السنة والأحوال الجوية والمعلومات الكلية وحركات الأجرام السماوية ، وهو فى الواقع يشمل هذه المسائل ولكن يبدو أنها مسائل عارضة جاءت فى سياق الهدف الرئيسى ، ذلك أنه يبذل عناية أكبر من التى يبذلها فى هذه الموضوعات إلى حركات الشيوعيين وإلى التفكير فى البرامج الشيوعية . والحق أن التقويم يعكس عكسا صادقا السياسة الداخلية والخارجية التى يعرضها الحزب على شعوب الاتحاد السوفييتى والعالم أجمع وقت نشره ...) .

وتمتلىء صفحاته (بالصور والمقتبسات والرسوم البيانية وذكريات الحوادث ويحتوى ألفى موضوع اختير كل واحد منها بحيث يخدم مصالح الحزب ...) .

(وهو التقويم الوحيد الذى يوزع على الجمهور باللغة الروسية ...) .

وهذا التقويم يحمل الذكريات لكل أفراد الشعب الذين يتكلمون الروسية ويملكون هذا التقويم لما فيه من ذكر للأشخاص وصور لهم ...الخ كما أن (عليهم أن يعرفوا أن كل مايظهر على صفحاتها يحمل طوابع الصدق لأنه مؤيد من أعلى سلطة فى ميدان الثقافة ، أو أن زعماء البلاشفة على أية حال يرجون بلاشك أن يكون هذا شأنه)(٢).

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٩٠) ، وانظر (١٩١) .

(٢) المرجع السابق (٢٨٠-٢٨١) .

وهكذا جعل الشيوعيون كل مرافق الحياة لخدمة أهدافهم الفكرية والسياسية ، ولأجل هذا اهتموا بالتربية والتعليم اهتماما كبيرا[١].

وبعد هذا ماهو موقف الشيوعية من الحرية العلمية؟

وللإجابة على ذلك نسجل النقاط التالية :

أولا : من العرض السابق يتبين لنا أن الدولة الشيوعية تبسط سلطانها ونفوذها على المؤسسات العلمية بكاملها . وكان الطالب فى مدرسته أوجامعته لايستطيع أن يتحرك إلا كما يراد له[٢]. تقول رايسا غورباتشوف : (كان كل شيء فى الكليات مسيطرا عليه سيطرة تامة . كل شيء مسموح به أو غير مسموح)[٣].

ثانيا : السيطرة التامة على المناهج الدراسية ، وجعل المادة العلمية فيها مليئة بالأفكار الشيوعية المأخوذة من ماركس ولينين ، كما أن كل مادة تربط بخدمة الفكر الإشتراكى وتسير فى فلكه .

ثالثا : كفلت الدولة حرية الدعاية اللادينية ، وأجلبت بخيلها ورجلها فى سبيل نشر الالحاد ، فى حين منعت تعليم الدين ، والدعوة إليه ، وضيقت على كل من اشتبهت فى أمره وبالتالى فإن أكثر المتضررين من سياسة الاتحاد السوفييتى تجاه العلم والعلماء هم المسلمون ، هذا فى حين أن اليهود قد منحوا الامتيازات العديدة من قبل الحكومة السوفيتية بما فيها المدارس الخاصة بهم[٤].

رابعا : التراجع عن مجانية التعليم .يقول ليونهارد : (بعد أن قالوا إن العلم مجانى جاء القرار فى ٣ أكتوبر ١٩٤٠م بالغاء المنح الدراسية وأخذ المرسوم فى التعليم العالى :

---

(١) انظر بعض ماذكره كاونتس فى كتابه التعليم فى الاتحاد السوفييتى على سبيل المثال (٩-١١،٧٢-٧٣،١٠٩-١١٧،١٩٦،٢٤٨) .

(٢) انظر ماذكره ليونهارد فى كتابه حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٨٧-٢٩٤) .

(٣) أملى (٧١) ، كتاب الشرق الأوسط ، الشركة السعودية للأبحاث والنشر .

(٤) انظر عن ذلك : إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (١٨٨-١٩٠) ، ستالين (٦٩) .

(أ) فى المعاهد العليا التى مقرها فى موسكو ، ولينينجراد ، والمدن الرئيسية فى الاتحاد السوفييتى ـ ٤٠٠ روبل فى السنة .

(ب) فى المعاهد العليا التى يكون مقرها فى مدن أخرى ، غير ماسبق ذكرها فى البند السابق ـ ٣٠٠ روبل فى السنة .

(ج) فى المعاهد العليا ، للموسيقى ، والفن ، والمسرح ـ ٥٠٠ روبل فى السنة .

وتدفع المصاريف فى المعهد الذى يدرس فيه الطالب على قسطين : الأول ١ سبتمبر ، والثانى ١ فبراير)[١].

كما أن المنح الدراسية ألغيت فحرم كثير من مواصلة دراستهم[٢].

خامسا : إن أعظم مايدل على أن حرية التعلم والتعليم كانت مفقودة ـ بغض النظر عن حرية التعليم اللادينى ـ هو مالقيه المسلمون من ويلات على يد الزعماء الشيوعيين وزبانيتهم ، فقد منعوا المسلمين من تعلم القرآن وامتلاكه ، وأغلقوا المدارس الإسلامية ، ودمروا المساجد وهى الانطلاقة الحقيقية للتعليم فى الإسلام ، واضطهدوا العلماء المسلمين ، وقاموا بنفى كثير منهم ، وقتل الكثير[٣].

سادسا : مما يدل على أن الحرية العلمية مفقودة فى الاتحاد السوفييتى هو ماكان يعانيه هذا البلد من التخلف التكنولوجى والعلمى ، وعدم بروز العلماء والمفكرين الروس ، رغم أننا نجزم بوجود الكثير منهم . والسبب فى ذلك ، الحجر على العلماء ومصادرة نتاجهم الفكرى .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٢٣) ، وانظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٢٢) .

(٢) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٢٤) .

(٣) ماذكرناه سابقا عن موقف الشيوعية من الحرية الدينية يرد به على إدعاء الشيوعيين تحقيق الحرية العلمية ، إذ أن العلم مرتبط بالدين .

أولا : انعـــدام حرية التعلم والتعليم فى الاتحاد الســـوفييتى إلا التعليم اللادينى .

ثانيا : أن أعظـم المتضررين بالسيـاسة السوفيتية تجاه العلم والتعلم هـــم المسلمون .

ثالثا : أن ماسبق تقريره من مصادرة الشيوعية لحرية العقيدة ، والحرية الفكرية ، يدل دلالة واضحة على أن حرية التعلم والتعليم لن تخرج عن ذلك لارتباطها بتلك الحريتين ، وهذا يؤكد ماذكرناه بأن الحريات لاتتجزأ .

وننتقل الآن إلى نظرة الإسلام إلى حرية التعلم والتعليم .

(ب) حرية التعلم والتعليم فى الإسلام :

إن شـريعة الإسلام أولـت العلم اهتمـاما مميزا وأثنـت على العلمـاء ورفعـت منزلتهم ، كما أقرت الشـريعة الحرية فى طلب العلم وسلـوك الطريق الموصل إليه شريطة أن تكون الوسيلة والغاية متسقـة مع النصوص الشرعية.

إن الإسلام لم يقر حرية التعلم وطلب العلم فحسب ، بل اعتبرها واجبا فى حق كل أحد فما كان ليوجب شيئا ثم يمنع الإنسان الحرية فيه . ولاغرابة فى اهتمـام الإسلام بالعلم وثنـائه على العلماء إذ أن ذلـك من مقاييس المدنية والحضـارة ، وهذه الحرية متصلة بما سبقها ، حيث تتم تنميـة المواهب وزيادة الإبداع والانتاج . ولو ذهبنا نتتبع الآيات والأحاديث الـواردة فى بيان فضل العلم وامتداح العلماء لطال بنا المقام ، ولكن هذه نماذج منها .

إن أول آية نزلـت فى كتاب اللـه تعالى تدعو إلى العلم والقـراءة قال تعالى : {**اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم**}(١).

وأقسم سبحانه وتعالى بالقلم {**ن . والقلم ومايسطرون**}(٢).

وأثنى المولى جل وعلا على العلمـاء وأبان أنهم أكثر النـاس خشيـة له تعالى ، قال سبحانه : {**إنما يخشى الله من عباده العلماء**}(٣)لأن من كان بالله أعرف كان منه أخوف .

وقـال جل جلاله فى رفـع أهل العلم : {**ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فـى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشـزوا فـانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير**}(٤).

---

(١) سـورة العلق (١-٥) . (وهى دعـوة إلى القراءة على أوسع مـدى ، والقراءة هى سبيل العلم ولاسبيل له إلا بها ...) . الإنسان وحريته فى الإسلام (١٢) .

(٢) سورة القلم : (١) .

(٣) سورة فاطر : (٢٨) .

(٤) سورة المجادلة : (١١) .

ويقول تعالى فى بيان عدم المساواة بين الجهال والعلماء : {**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون . إنما يتذكر أولوا الألباب**}(١).

هذا بالإضافة إلى الآيات التى دلت على امتداح التفكر والتدبر والتأمل وإعمال الفكر ومجملها تدور فى فلك العلم .

وقد جعل المولى جل وعلا للعقل حدودا يقف عندها ولايتجاوزها حتى لايضل وبالتالى يشقى(٢).

أما السنة النبوية : فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المعلم الأول لهذه الأمة ، وكان يحث أصحابه رضى الله عنهم على التعلم والتعليم وكثرت الأحاديث التى جاءت عنه عليه السلام فى بيان فضل العلم وطلبه ، والثناء على طالبه ، ومما جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله :

(من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، والحيتان فى جوف الماء . وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولادرهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)(٣).

والعلم فى الإسلام غير محجور عليه شريطة أن لايدعو إلى شرك أو كفر أو انحلال خلقى . أما ماعدا ذلك من أنواع المعارف المختلفة فإنه لايناصبها العداء ، ولايحكم على أصحابها بالزندقة ، وإن كانت تحقق المصلحة أقرها ، وإن كانت تدعو إلى مفسدة أو متعارضة مع حقيقة مقررة فى أصوله ردها ، وأبان سبب ذلك الرد . والعلم فى الإسلام يجمع بين الأصول والفروع .

---

(١) سورة الزمر : (٩) .

(٢) عن هذا المعنى انظر الإسلام دين الفطرة (١٣٩-١٤٢) .

(٣) رواه أبو داود (٣١٧/٣) ، كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم ، رقم الحديث (٣٦٤١) ، والترمذى (١٥٣/٤) ، أبواب العلم ، باب فى فضل الفقه على العبادة ، رقم الحديث (٢٨٢٣) .

يقول ابن عبد البر : (أجمع العلماء على إن من العلم ماهو فرض متعين على كل امرىء فى خاصيته بنفسه منه ماهو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع واختلفوا فى تلخيص ذلك والذى يلزم الجميع فرضه من ذلك مالايسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه نحو الشهادة باللسان والإقرار بالقلب بأن الله وحده لاشريك له لاشبه له ولامثل لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد خالق كل شىء وإليه مرجع كل شىء المحيى المميت الحى الذى لايموت ، والذى عليه جماعة أهل السنة أنه لم يزل بصفاته وأسمائه ليس لأوليته ابتداء ولاآخريته انقضاء وهو على العرش استوى . والشهادة بأن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه حق وأن البعث بعد الموت للمجازاة بالأعمال والخلود فى الآخرة لأهل السعادة بالإيمان والطاعة فى الجنة ، ولأهل الشقاوة بالكفر والجحود فى السعير حق وأن القرآن كلام الله ومافيه حق من عند الله يجب الإيمان بجميعه واستعمال محكمه وأن الصلوات الخمس فرض ويلزمه من علمها علم مالاتتم إلا به من طهارتها وسائر أحكامها ، وأن صوم رمضان فرض ويلزمه علم مايفسد صومه ومالايتم إلا به وإن كان ذا مال وقدرة على الحج لزمه فرضا أن يعرف ماتجب فيه الزكاة ومتى تجب وفى كم تجب ويلزمه أن يعلم بأن الحج عليه فرض مرة واحدة فى دهره إن استطاع إليه سبيلا إلى أشياء يلزمه معرفة جملها ولايعذر بجهلها نحو تحريم الزنا والربا وتحريم الخمر والخنزير وأكل الميتة والأنجاس كلها والغصب والرشوة على الحكم والشهادة بالزور وأكل أموال الناس بالباطل وبغير طيب من أنفسهم إلا إذا كان شيئا لايتشاح فيه ولايرغب فى مثله وتحريم الظلم كله وتحريم نكاح الأمهات والأخوات ومن ذكر معهن وتحريم قتل النفس المؤمنة بغير حق وماكان مثل هذا كله مما قد نطق الكتاب به وأجمعت الأمة عليه ثم سائر العلم وطلبه والنفقة فيه وتعليم الناس اياه وفتواهم به فى مصالح دينهم ودنياهم فهو فرض على الكفاية يلزم الجميع فرضه فإذا قام به قائم سقط فرضه على الباقين لاخلاف بين العلماء فى ذلك وحجتهم فيه قول

الله عز وجل : {**وماكان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**}(١))(٢).

(ولم تلق حرية من الحريات فى الفكر الحديث مانالته حرية التعليم فى الفكر الإسلامى من التمجيد والتمييز ومن الحث عليها ، كحرية التعليم)(٣).

(ولاغرو ، فإن العلم والمعرفة مدخل الإيمان ، ومفتاح كل تهذيب روحى)(٤).

واقع الأمة المسلمة مع حرية التعليم : ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أروع الأمثال فى تبليغ العلم وكيفية التعليم ، كما أنه لم يلزم أحدا بأن يتعلم شيئا محددا أو يمنعه من تعلم شىءيريده طالما أنه لايتعارض مع مافى كتاب الله تعالى ، أو ماجاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم . ثم سار الصحابة رضى الله عنهم من بعده صلى الله عليه وسلم على هذه الوتيرة فلم يمنعوا المسلمين من التعلم ، ولم يحجروا عليهم السفر والانتقال فى طلبه ، كما لم يحددوا لهم العلم الذى يتعلمونه .

وهكذا سارت الأمة المسلمة من بعد فوجد العلماء فى مختلف أنواع المعارف من طب ، وكيمياء ، وفيزياء ، ورياضيات ، وهندسة ، وفلك ...الخ وبهذا فإن الإسلام قد أقر هذه الحرية . ويظهر ذلك مختصرا فى التالى :

أولا : الحرية المطلقة للانسان فى أن يتعلم مايشاء شريطة عدم تعارضه مع كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : أباح الإسلام أخذ النظريات العلمية ودراستها والاستفادة منها بضابط عدم الخروج على مافى الكتاب والسنة .

---

(١) سورة التوبة : (١٢٢) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/١٠-١١) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) ضمانات الحرية (١١٩) ، وانظر الإسلام وأوضاعنا السياسية (٢٧١-٢٧٢) .

(٤) أركان حقوق الإنسان (١٩٦) .

ثالثا : أباح الإسلام للمخالفين ، ومن لديهم شبهات أن يعرضوها ثم يوضح لهم الحق . فحقق الإسلام الحرية لأهله بسماع هذه الشبهات وردها ، كما حقق الحرية للآخرين بعرض أقوالهم ونظرياتهم وشبهاتهم حتى لو كانت باطلة من أجل إظهار الحق ، وهذا يتمشى مع الحرية العقدية ، وكذلك حرية الرأى والتعبير .

رابعا : ومما يدل على الحرية العلمية فى الإسلام جواز ترجمة نتاج الفكر المخالف إذا وجد حق أو نفع ، أو كان القصد من ذلك توضيح بطلانه ، ورد زيفه، وكشف شبهته .

خامسا : جعل الإسلام التعليم مجانا ، وتكفلت دولة الإسلام بدفع أجور المعلمين لتعليم المسلمين .

أهمية هذه الحرية : تمثل هذه الحرية أهمية بالغة للانسان حيث من خلالها تنمى المواهب وتوجه فى سبيل الانتاج والإبداع(١). ومن هنا اهتمت الشرائع السماوية بالعلم والحرية فيه ، وكذلك الدساتير والقوانين نصت على الاهتمام بالعلم ومنح الحرية فى طلبه(٢).

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : اهتم الإسلام بالعلم والعلماء ، وحقق الحرية فى طلبه .

ثانيا : جعل الإسلام التعلم مجانا ، بل وطالب كل من لديه علم أن يبذله للآخرين ولايكتمه .

ثالثا : أن الإسلام لايحجر على البحث العلمى إذا كان ضمن الضوابط الشرعية .

رابعا : أن الإسلام حقق الحرية العلمية فى الواقع .

خامسا : أن الإسلام لم يجبر المخالفين على تسليم أولادهم للمسلمين من أجل تعليمهم الإسلام .

---

(١) انظر أركان حقوق الإنسان (١٩١-١٩٢) .

(٢) انظر : المرجع السابق (١٩٣-١٩٤) ، ضمانات الحرية (٤٠-٤١) .

المبحث الخامس
الحرية السياسية

(أ) الحرية السياسية فى النظام الشيوعى :

إن النظام السياسى الشيوعى مبنى على التصورات الفكرية لديهم "المادية التاريخية" .

فهم يرون أن تاريخ المجتمعات ليس إلا تاريخ الصراعات الطبقية بين الطبقة المستغلة والطبقة المستغلة - بالفتح - فكان الصراع بين العبيد وأسيادهم قد ولد نظاما إجتماعيا هو النظام الإقطاعى ، وعندما كان النظام يحمل أسباب إنهياره بين جنباته كذلك حدث الصراع بين المضطهدين وهم الأقنان الذين كانوا يعملون فى الأراضى وبين أصحاب الإقطاع ونتج عن ذلك وجود نظام جديد هو ظهور طبقة البرجوازيين الرأسماليين . وكذلك وحسب قوانين الجدل يحمل هذا النظام الجديد أسباب إنهياره وزواله بين جنباته (التناقض) نتيجة للصراع والتطور بين الرأسماليين وطبقة العمال المضطهدة من قبل هذا النظام ، ويحصل هذا الصراع فيطالب العمال بتحسين أحوالهم المعيشية ويرتقى إلى أن يكون صراعا أيديولوجيا أى بالقضاء على كافة الأفكار المنبثقة من ذلك النظام ، ثم فى نهاية المطاف يجعل الصراع السياسى من أجل القضاء على النظام الرأسمالى وإقامة النظام الإشتراكى مكانه . ومن هنا تقع السلطة فى يد هذه الطبقة من أجل تحقيق ذلك البناء الجديد "الإشتراكية" ، ثم ماتلبث هذه الدولة البروليتارية أن تضمحل وتتلاشى بسبب زوال الطبقات من المجتمع إذ لاحاجة لوجودها حيث عمت الشيوعية الأرض وأصبح الناس فى غير حاجة إلى الحكومة .

ومن هذا المنطلق فالدولة عندهم ليست إلا سلطة فى يد الطبقة المستغلة تقهر بها سائر الطبقات الاخرى . وعندما تصبح السلطة فى يد البروليتاريا ستتحقق الديمقراطية على أكمل وجه فى الانتخابات ، والترشيح ، وحق الاضراب وماإلى ذلك ، كما أنها ستحقق الحرية السياسية كاملة للعمال ، تلك الطبقة المضطهدة ، وستقضى على البرجوازية نهائيا .

ونعرض الآن لبعض الأفكار النظرية التى يراها الشيوعيون ، ثم نعرض باختصار لوضع التنظيم السياسى فى الاتحاد السوفييتى بحكم أنه الدولة التى فجرت فيها الثورة الشيوعية بداية ، وحاولت تطبيق تلك الأفكار النظرية ، ثم نرى هل كان الواقع كما قالوا وصوروه فى آرائهم النظرية أم لا؟

أولا : الهدف المباشر هو ظفر الطبقة العاملة بالسيطرة السياسية .

اهتم الشيوعيون اهتماما كبيرا بالمسألة السياسية ، بل إن المذهب فى آخر أيامه القديمة ـ أعنى النظرية ـ كان سياسيا أكثر منه فلسفيا أو إقتصاديا وقد أعلن ماركس وانجلز أن هدف الشيوعيين المباشر هو : (تنظيم البروليتاريين فى طبقة وهدم سيادة البرجوازية واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية)[١].

ويقول ماركس ورفيقه : (إن الخطوة الأولى فى ثورة العمال هى كما رأينا ، تحول البروليتاريا إلى طبقة سائدة ، والظفر بالديمقراطية . وستستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لأجل انتزاع الرأسمال من البرجوازية شيئا فشيئا ، ومركزة جميع أدوات الإنتاج فى أيدى الدولة ، أى فى أيدى البروليتاريا المنظمة فى طبقة حاكمة ، وزيادة كمية القوى المنتجة وإنمائها بأسرع مايمكن . ولايتم ذلك طبعا فى بادىء الأمر إلا بخرق حق التملك وعلاقات الانتاج البرجوازية بالشدة والعنف ...)[٢].

---

(١) البيان الشيوعى (٥٦) .

(٢) المرجع السابق (٦٥-٦٦) .

وكان ذلك إعلانا أوليا عن مهمة الفكر الشيوعى وهو إيجاد طبقة واحدة والإبقاء عليها وتسليمها زمام الأمور وعبروا عنه "بدكتاتورية البروليتاريا" . ويكون ذلك عن طريق العنف والثورة .

ومر معنا الأقوال العديدة عن دكتاتورية البروليتاريا وسيطرتها السياسية وأن المقصود بالدكتاتورية هو جعل السلطة السياسية فى يد طبقة العمال . وقد أكثر لينين من بيان مهام سلطة السوفييت وعلى عاتق من تقع مهمة نشر الفكر الإشتراكى وتطبيقه .

ثانيا : أن سلطة الدولة فى الاتحاد السوفييتى إنما قامت على يد العمال وهى لهم دون سواهم . يقول لينين عن جوهر السلطة السوفيتية : (إن جوهرها الذى يجتذب العمال من جميع البلدان أكثر فأكثر ، هو أن الدولة فيما مضى كان يحكمها الأغنياء أو الرأسماليون بهذا الشكل أو ذاك وأنها اليوم للمرة الأولى ، إنما تحكمها على نطاق جماهيرى ، تلك الطبقات بالذات التى كانت تضطهدها الرأسمالية ...) .

(ولأول مرة فى العالم ، بنيت سلطة الدولة عندنا فى روسيا ، بطريقة يؤلف فيها العمال وحدهم ، الفلاحون الشغيلة وحدهم ، باستثناء المستثمرين ، المنظمات الجماهيرية ، السوفيتات ، وهذه السوفيتات مخولة كامل سلطة الدولة . ولهذا رغم الافتراءات التى يلفقها ممثلوا البرجوازية فى جميع البلدان حول روسيا ، غدت كلمة "سوفيت" فى كل مكان من العالم ، لامفهومة وحسب ، بل أيضا شعبية وعزيزة على العمال ، على جميع الشغيلة ولهذا أيضا ، لابد أن تنتصر سلطة السوفييت فى العالم أجمع ، لامحالة ، وفى مستقبل قريب ، رغم جميع الاضطهادات ضد أنصار الشيوعية فى مختلف البلدان)[١].

---

(١) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٣٠) .

ثالثا : تحقيق الحرية السياسية للعمال ، وبالتالى تحقيق الديمقراطية على أكمل وجه .

اعتبر الشيوعيون أن النضال من أجل الحرية السياسية هو الهدف من الحركة العمالية الروسية فكتبت صحيفة "رابوتشا ياغازيتا" : (إن النضال ضد الحكم المطلق وفى سبيل الحرية السياسية هو هدف الحركة العمالية الروسية المباشر)(١).

ويبين لينين أن الديمقراطية السوفيتية تمثل حقيقة فى طبقة العمال ، وأن لهم الحرية فى الانتخابات والترشيح فيقول : (إن الطابع الإشتراكى للديمقراطية السوفيتية ، أى الديمقراطية البروليتارية ، فى تطبيقها الملموس ، الحالى ، ينحصر فيما يلى :

أولا : الناخبون هم الجماهير الكادحة والمستثمرة ، والبرجوازية مشطوبة .

ثانيا : كل الشكليات والقيود البيروقراطية فى حقل الانتخابات ملغاه ، الجماهير تحدد بنفسها طريقة الانتخابات ومواعيدها وتتمتع بكامل الحرية فى سحب منتخبيها .

ثالثا : يتكون خير تنظيم جماهيرى لطليعة الشغيلة ، لبروليتاريا الصناعة الكبيرة ، تنظيم يتيح لها قيادة أوسع جماهير المستثمرين واشراكها فى الحياة السياسية المستقلة ، وتربيتها سياسيا بتجربتها الخاصة ، وهكذا ، تبدأ للمرة الأولى الحملة من أجل أن يتعلم السكان بأسرهم حقا الحكم ويبدأوا الحكم . تلك هى العلائم المميزة الرئيسية للديمقراطية المطبقة فى روسيا ، وهى ديمقراطية من نموذج أرقى ، تقطع كل صلة بالتشويه البرجوازى للديمقراطية ، وهى انتقال إلى الديمقراطية الإشتراكية وإلى

---

(١) المختارات (٤٩٣/١) لينين ، ترجمة الياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ١٩٧٥م دون ذكر لرقم الطبعة .

الظروف التى يمكن أن تبدأ فيها الدولة بالاضمحلال)[١].

رابعا : تحقيق حق الاضرابات والتظاهرات للعمال . وقد أجلب لينين بخيله ورجله فى بيان أهمية الاضرابات فقال :

(١) (إن الحقيقة البارزة فى تاريخ حركة الطبقة العاملة والثورة الروسية خلال عام ١٩١٢م ، قد تمثلت فى التطور الملحوظ لحركة كل من الاضراب الإقتصادى والاضراب السياسى للبروليتاريا . فقد وصل عدد المضربين السياسيين إلى مليون مضرب .

(٢) إن طابع الحركة الاضرابية لعام ١٩١٢م يستحق منا انتباها خاصا . ففى عدد من الحالات ، تقدم العمال بمطالب إقتصادية وسياسية فى وقت معا ، وكانت تتبع فترة الاضرابات الإقتصادية فترة من الاضرابات السياسية ، والعكس صحيح أيضا . إذ أن النضال ضد الرأسماليين من أجل مكاسب ١٩٠٥م ، والتى سلبتها الثورة المضادة ، والارتفاع المتزايد لتكاليف المعيشة ، قد استثار قطاعات أوسع فأوسع من العمال ، مواجها إياهم بالمسائل السياسية فى أكثر أشكالها حدة . إن جميع هذه الأشكال من الترابط والتضافر بين النضال الإقتصادى والسياسى ، هى فى آن معا شرط من أجل قوة الحركة وعلامة على هذه القوة ، الأمر الذى يفضى إلى ظهور الاضرابات الجماهيرية الثورية .

(٣) إن بداية تفجرات السخط وحركات التمرد فى البحرية وفى الجيش ، التى ميزت عام ١٩١٢م ، قد ارتبطت ، بلاريب ، بالاضرابات الجماهيرية الثورية للعمال ، كما كانت مؤشرا على الغضب والسخط المتناميين بين القطاعات الواسعة من الديمقراطيين ، وخاصة بين الفلاحين ، الذين يشكلون الجانب الأعظم من القوات .

---

(١) ماهى سلطة السوفييت (٧) .

(٤) فى ظل هذه الظروف ، تكتسب الاضرابات الجماهيرية الثورية أهمية استثنائية أيضا ، إذ أنها تشكل وسيلة من أعظم الوسائل تأثيرا من أجل التغلب على اللامبالاة واليأس وعلى إنعدام الوحدة فى صفوف البروليتاريا الزراعية والفلاحين ، ومن أجل تحريضهم على الانخراط فى نشاط سياسى مستقل ومن أجل جذبهم إلى النشاطات الثورية الأكثر تماسكا وتزامنا واتساعا .

(٥) أن على تنظيمات الحزب ، وهى توسع من نطاق تحريضها وتزيده قوة من أجل المطالب الفورية لحزب العمال الإشتراكى الديمقراطى الروسى ـ جمهورية ديمقراطية ، يوم عمل من ثمان ساعات ، مصادرة الممتلكات الزراعية لصالح الفلاحين ـ عليها أن تضع ضمن أعمالها ذات الأولوية أن توفر الدعم بكافة صوره للاضرابات الجماهيرية الثورية ، وأن تطور وتنظم جميع أشكال النشاط الثورى للجماهير ، وبوجه خاص ، فإن من بين المهام الأساسية الراهنة ، تنظيم تظاهرات الشارع الثورية سواء فى ارتباطها بالاضرابات السياسية أو بوصفها أنواعا مستقلة من النشاط الجماهيرى .

(٦) وحقيقة أن بعض الرأسماليين يلجأون إلى إغلاق أبواب مصانعهم أمام العمال (الصرف الجماعى) لمقاومة المضربين ، تواجه الطبقة العاملة بمهام جديدة ، فمن الضرورى أن تدرس بعناية الظروف الإقتصادية للاضرابات فى كل منطقة ، وفى كل صناعة ، وفى كل حالة معينة ، وأن نتوصل إلى أشكال جديدة للنضال (الاضراب فى صورة اعتصام على سبيل المثال) لمواجهة إغلاق المصانع ، وأن نستبدل الاضرابات السياسية بالاجتماعات الثورية وتظاهرات الشارع الثورية .

(٧) تشن بعض الصحف الحزبية الشرعية حملة عنيفة ضد الاضرابات الجماهيرية الثورية ، بصرف النظر عما تبديه من تقدير لهذا الاضراب أو ذاك . فإلى جانب الصحافة الليبرالية ، يجرى شن هذه الحملة ، من جانب مجموعة دعاة التصفية ، على سبيل المثال ، على صفحات صحيفة

ليتش Luch ، ضد إرادة قطاع أساسى من أولئك العمال الذين يساندون تلك الصحيفة بصورة أو بأخرى . وفى هذا الصدد ، فإن مهمة المتعاطفين مع حزب العمال الديمقراطى الإشتراكى تتمثل فى الآتى :

١ ـ أن يخوضوا نضالا صلبا ضد تلك المجموعة .

٢ ـ أن يشرحوا للعمال ، شرحا منظما ومتمهلا ، أضرار الحملات السالفة الذكر ، وذلك بصرف النظر عن ميولهم الخاصة .

٣ ـ أن يحشدوا كل قوى البروليتاريا من أجل تعزيز التحريض الثورى ، والنشاط الثورى للجماهير)[١].

وبين لينين أن الترابط قائم بين الاضراب الإقتصادى والسياسى فيقول (إن كلا من الاضراب الإقتصادى والسياسى يدعم كل منهما الآخر ، ويمثل كل منهما مصدر تعزيز بالنسبة للآخر ...)[٢]. بل إن الاضراب فى بدايته يكون إقتصاديا ثم مايلبث أن يتحول ليكون اضرابا سياسيا . يقول لينين : (إن كثيرا من العمال خلال المرحلة الأولى ، يضعون النضال الإقتصادى فى المحل الأول بينما يتحولون ، عندما تبلغ الحركة قمتها ، فى الاتجاه الآخر)[٣].

وذكر أن هذه الاضرابات (تجتذب الجيش بطريقة لاتقاوم إلى الحياة السياسية)[٤].

---

(١) نصوص حول الاضرابات (١٣١-١٣٤) ، ترجمة إسماعيل محمود ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .
وقد أفاض لينين فى تقييم حركات الاضراب ودورها وعلاقة الإضرابات الإقتصادية بالسياسية والعكس ، وبعض الأسباب التى أدت إلى فشل بعض الاضرابات على سبيل المثال (١٣٥-١٣٨) ، وانظر فى بيانه الاضرابات السياسية ووجودها (١٠٧-١٠٨) ، ويكاد الكتاب أن لايخرج عن الاضراب وأحواله وأحقية العمال به.

(٢) المرجع السابق (٩٨) .

(٣) المرجع السابق (٩٩) .

(٤) المرجع السابق (٤٧) .

ولكـن مـاهى أسبـاب الاضـرابات؟ يقـول لينين : (السبـب هـو أن الـرأسمالية تؤدى بالضـرورة إلى الصـراع بين العمـال وأصحـاب العمـل ، وعنـدما يكون الإنتاج على النطاق الكبير يتخذ الصـراع ـ بالضرورة ـ شكل الاضرابات)[١].

ومن هنا يعتبر لينين أن الاضراب وسيلة (من الوسائل التى تناضل بها الطبقة العاملة من أجل تحررها)[٢].

وأفـاض لينين فى التنـدر بالـرأسمالية وظلمهـا للعمـال ، وبين أسبـاب نجاح الاضـرابات وجعل من ذلـك : الوعى الطبقى لدى العمـال ، والتربيـة الإشتراكيـة لهم ، والثورة ضد الحكـومات المستغلة[٣]. وامتدح لينين وأشـاد

---

(١) نصوص حول الاضرابات (٨) .

(٢) المرجع السابق (١٨) .

(٣) انظر المرجع السابق عن الرأسمالية والتندر بها (٨-١٠،١٦-١٧) ، وانظـر عن نجاح الاضـرابات (١٩-٢٠،٢٩-٣٠) ، ويقـول ستـالين فى المؤتمر التـاسع عشـر للحـزب الشيـوعى السـوفييتى : (كانت البرجوازية فيمـا مضى تسمح لنفسهـا القيام بدور الليبراليـة كـانت تدافع عن الحريات الـديمقراطية البرجوازية وتخلـف لنفسهـا بهذا شعبية ، أما الآن فلم يبق أى أثر لليبرالية . "فالحريات الشخصية" المزعومة لم يعد لهـا وجود وأصبح لايعترف بحقـوق الفرد الآن إلا لهؤلاء الـذين يملكـون رأسمالا أمـا بقية المواطنين فلايعتبرون أكثر من مادة بشرية حاميـة صالحة للاستثمار فقط . لقـد ديس مبـدأ المساواة بين النـاس والأمـم فى الحقوق ليقـوم على أنقـاضه مبدأ يعطـى القلة المستثمرة كل الحقوق ويحرمها على غالبية المواطنين المستثمـرين . لقد أطاحوا بعلم الحريات الديمقراطية وأظن أن عليكم أنتم يامثلى الأحزاب الشيـوعية والـديمقراطية أن ترفعـوا هـذا العلم وتسيروا به إلى الأمـام إذا كنتم تريدون أن تلتف غالبية الشعب حولكم ولايمكن لأحد غيركم أن يرفعه) .
شيوعيون أمام المحاكم (٥١) مجهول المؤلف .
ومما جاء عـن الشيوعيين قولهـم : (فتش عن الاستعمار فتـش عنـه تجده فى كل حرب عـدوانية ، فى كـل نظـام يستبـد بالشعـوب ، فى كـل سلطـة تخشـى الحرية والـديمقراطية ، فى كـل بيـت يحرم أطفـاله ونسـاءه وشيـوخه مـن الأمـن والدعة والسرور ، فى كل سجن يزخر بالأحرار ، فى كل مشنقة تختطف المؤمنين بشعوبهم فى كل أقبية التعذب والإرهاب) . المرجع السابق (١٧٣) .

بمطالب العمال التى تقدموا بها إلى القيصر سنة ١٩٠٥م وجاء فيها المطالبة بالتخفيف من بؤس الشعب ، اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة اضطهاد رأس المال للعمل المأجور ، الحفاظ على الحرية الشخصية ، حرية الكلام والاجتماع والرأى ، التعليم الالزامى على نفقة الدولة ، المساواة بين الجميع أمام القانون(١).

ويرى لينين أنه لايمكن أن يكون هناك حرية سياسية دون أن يكون هناك حقا فى الاضراب(٢).

ويبين الدكتور عبد الحميد متولى أن الانتقادات التى يوجهها الماركسيون للديمقراطية(٣)البرجوازية يمكن تلخيصها فى ثلاثة أمور يتصل بعضها ببعض :

الاول : أن (الديمقراطية الغربية ليست ديمقراطية كاملة ذلك لأنها ـ كما يقول الماركسيون ـ ديمقراطية سياسية فحسب ، ومن أجل أن تكون ديمقراطية كاملة كان يجب أن تكون كذلك ديمقراطية إقتصادية ـ إجتماعية ، أى أن يكون من خصائصها كذلك أن تكفل للفرد مايطلق عليه فى العصر الحديث "بالحقوق الاجتماعية" (Droits Sociaux) ويقصد بها تلك الحقوق التى تقرر للفرد لتحريره من الناحية الإقتصادية ، ولذلك يطلق عليها أحيانا "الحقوق الإجتماعية ـ الإقتصادية" ...)(٤).

الثانى : (إن الشعب ليس هو الذى يحكم فى الواقع فى مجتمع رأسمالى ـ فيما يرى لينين ـ لن تكون الديمقراطية إلا أداة خدمة الطبقة الحاكمة ، أو على حد تعبيره "ديمقراطية لصالح الأقلية" ، أى لطائفة أصحاب الأملاك :

---

(١) انظر نصوص حول الاضرابات (٣٧-٣٨) ، وانظر (٤٠) ومابعدها .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٨-٢٩) .

(٣) تتكون كلمة ديمقراطية من لفظتين يونانيتين هما (Demos) ومعناها الشعب و(Krates) ومعناها السلطة ويكون معنى الديمقراطية (سلطة الشعب) . القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٢٨) .

(٤) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٣٩) .

الأثرياء ، بعبارة أخرى أن السيطرة على شئون الحكم إنما هى لطبقة الرأسماليين)[١].

الثالث : أن (الحرية فى الديمقراطية الغربية مسألة صورية "شكلية" هذه الظاهرة تعد بمثابة نتيجة طبيعية لما تقدم بيانه "فى النقدين السالفين) ، فالحرية هنالك ـ فيما يقول الماركسيون ـ ماهى فى الواقع سوى مجرد سراب خداع فى أعين الطبقة العاملة ، فما هى مثلا قيمة حرية الفرد فى أن يرشح نفسه للانتخابات النيابية إذا لم تكن لديه ـ .. الثروة ولاالتعليم ولاالفراغ ولاغير ذلك من الوسائل التى تمكنه من منافسة المرشحين من أصحاب رؤوس الأموال ومن الوصول إلى المقاعد النيابية . وماقيمة حريةالصحافة مثلا إذا كانت كبريات الصحف فى أيدى أصحاب رؤوس الأموال ، وتحت سيطرتهم)[٢].

خامسا : التربية السياسية .

اهتم السوفييت كثيرا بالتربية السياسية لما تحققه لهم من راحة وعدم عناء فى فرض آرائهم وسلطانهم على الناس . وفكرة التربية السياسية (فكرة واسعة المدى ، فهى لاتعنى فقط تدريب الأهلين على أن يكونوا مواطنين تحت حكم دكتاتورى ، بل تتضمن لذلك الواجب السلبى ، واجب استئصال "آثار الرأسمالية من مدارك الشعب" ؛ ثم إنها تتضمن أيضا قبول أساليب الشيوعية وعقائدها فى صورتها التى تطورت إليها وظهرت بها فى الاتحاد السوفييتى ، وتطبيقها تطبيقا إيجابيا ، متسما بالحماسة ، مجردا من النقد . وتعنى بالإضافة إلى هذا كله أن يقبل المواطنون بلاتردد النظرة العالمية المعروفة بالعقيدة "المادية الجدلية" والنظرة التاريخية المعروفة بالعقيدة "المادية التاريخية" . ولعل أهم من هذا كله لسائر العالم أنها تعنى قبول أسطورتين عظيمتين عن "نحن وهم" ، أى عن الاتحاد السوفييتى ومايسمونه الديمقراطيات

---

(١) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٤٠) .

(٢) المرجع السابق (٤٠) .

الشعبية من جهة ، وجميع الأقطار الأخرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى)[١].

واهتم الشيوعيون بهذه التربية لأنها تحقق الانتصار وتدفع الجنود إلى الكفاح بالقوة[٢]، كما أنها تربط الجندى بالولاء للحزب ، وعدم الخروج عن أفكاره أو سياسته ، واتخذوا عدة تدابير لتحقيق ذلك :

(أ) الحذر فى عملية التجنيد فيختار فيه أعظم العناصر ثباتا .

(ب) إدخال مجموعة كبيرة من أعضاء الحزب فى التجنيد .

(ج) وضع نظام تربوى لكل طبقات الجيش .

(د) إنشاء رقابة داخلية لمتابعة عدم الولاء[٣].

ولأجل ذلك اعتبر لينين أن الولاء السياسى هو أهم مايسأل عنه بالنسبة للرفيق[٤]. وربط لينين بين قيام الإشتراكية وبين تعلم العمال أمور الحكم والسياسة فقال : (لايمكن للإشتراكية أن تتكون وتتوطد إلا عندما تتعلم الطبقة العاملة الحكم والإدارة ، عندما يترسخ نفوذ الجماهير العمالية وهيبتها . وبدون هذا ، تظل الإشتراكية مجرد أمنية)[٥].

سادسا : التصريح المباشر بوجوب إعطاء الحرية السياسية للمواطنين ، وخاصة العمال .

جاءت بعض مواد الدستور السوفييتى تنص على منح الشعب حق الحرية السياسية[٦]، وقال لينين عنها : (إن الحرية السياسية ، إنما هى حرية الشعب بتصريف شئونه المشتركة ، الشؤون العامة . إن الحرية السياسية ،

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (١٢٤) .

(٢) انظر المرجع السابق (٣٥٠) .

(٣) انظر المرجع السابق (٣٦٣) .

(٤) انظر لينيننا (٥٤،٥٦) .

(٥) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (١٣) .
كما أن الشيوعيين ربطوا بين شعارات الشيوعية وكل مايمارسه الطلاب فى مدارسهم أو نواديهم . انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٣٤) .

(٦) انظر سقوط الماركسية (١٤٢) .

إنما هى حق الشعب بانتخاب نوابه إلى دوما الدولة (البرلمان) . إن دوما الدولة هذا (البرلمان) الذى ينتخبه الشعب بنفسه ، هو الذى ينبغى له وحده أن يناقش ويسن جميع القوانين ، وأن يقر جميع الضرائب والرسوم إن الحرية السياسية ، إنما هى حق الشعب فى أن يختار بنفسه جميع الموظفين وأن ينظم شتى أنواع الاجتماعات لمناقشة جميع الشؤون العامة ، وأن يطبع دون إذن ، مايشاءه من الكتب والصحف)[١].

ويقول : (الحرية السياسية ضرورية بوجه خاص للعمال والفلاحين)[٢].

سابعا : لمحة عن الهيئات السياسية السوفيتية .

الحزب : ويعرفونه بأنه (منظمة سياسية للطبقة العاملة والشعب السوفييتى بأسره ، وطليعتهما الفكرية والسياسية ، والقوة القائدة والموجهة فى المجتمع الإشتراكى ، ونواة نظامه السياسى وجميع هيئات الدولة وجميع المنظمات الإجتماعية)[٣].

وعندما تطلق كلمة الحزب فإن المقصود بها "الحزب الشيوعى السوفييتى" فهو القلب بالنسبة لنظام الحكم هناك[٤]. ويهدف الحزب إلى خدمة مصالح الشيوعية ، وتوجيه سير حركة واسعة النطاق لتشمل العالم كله[٥].

وقد نص الدستور على اعتبار الحزب (قوة توجه وتقود المجتمع السوفييتى)[٦].

---

(١) التحالف بين العمال والفلاحين (٢٠) .
(٢) المرجع السابق (٦٦) .
(٣) المعجم (٢٠٥) .
(٤) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٣٠) .
(٥) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٥٧) .
(٦) مجد الأمم (١٤٩) ، وانظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٨٥) .

ويردد الشيـــوعيون أن الحزب الشيـــوعى وجد مـــن أجل الشعـــب وخدمتهم[١].

ويتكون الحزب من هيئتين :

(أ) مؤتمر الحزب . (ب) اللجنة المركزية .

(أ) مـؤتمر الحزب : (السوفييت الأعلى) هو الهيئة العليـا للحزب الشيوعى ويتكـون من مندوبين عن الهيئات السفلى للحزب . وتتركـز فيه كامل سلطة الدولة[٢].

(ب) اللجنـة المركزية : يجرى انتخـاب هذه اللجنة عـن طريق مؤتمر الحزب ومهمتها توجيه شئون الحزب فى الفترات مابين انعقاد مؤتمر وآخر[٣].

المبادىء التى يقوم عليها الحزب :

الأول : مبدأ يتعلق بتكوين الحزب (المركزية الديمقراطية) .

الثانى : الديمقراطية الداخلية فى الحزب .

والمبدأ الأول : وهو المركزية الديمقراطية يشمل مايلى :

(أ) انتخـاب جميـع هيئـات الحزب المختلفـة مـن القاعدة إلى القمـة . أى بشكل هرمى .

(ب) تقـديم اللجان الإدارية لكل هيئة حسابا عن أعمالهـا فى أوقات دورية إلى تلك الهيئة .

(ج) نظام صارم داخل الحزب بحيث تخضع الأقلية للأكثرية .

(د) القـرارات من الهيئات العليـا واجبة الاحترام مـن الهيئـات السفلى[٤].

---

(١) انظر المعجم (٢٠٦) .

(٢) انظـر : القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (١٣٣) ، النـار والجليد (٤٨،٦٠) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٦٢) .

(٣) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (١٣٣) .

(٤) انظر المرجع السابق (١٣٣-١٣٤) .

المبدأ الثانى : الديمقراطية الداخلية .

وهـذه الديمقراطية يعبر عنها بالمناقشة الحرة والجادة للمشـاكل السياسية داخل المنظمات المختلفة للحزب . وتشمل هذه المناقشات حق النقد ومايطلق عليه : النقد الذاتى (أى نقد الهيئة نفسها بنفسها) .

مهمة الحزب ومركزه فى الدولة :

(١) الحزب هيئـة كفـاح Organisme de combat أعضـاؤها شيـوعيون تربطهم فكرة واحدة هو مذهب ماركس ولينين .

(٢) الحزب هـو الممثـل للمـذهب وعلى ضـوئه يعمـل الحزب على تنظيم المجتمع السوفييتى .

(٣) الحزب هو الذى يتولى "قيادة الدولة" .

ولقـد أقـر الدستور لسنة ١٩٣٦م بهـذا المركز للحـزب حيـث قرر بأنه "طليعة الطبقة العاملة" .

(وأنه مـركز هيئة القيادة لجميـع منظمات الطبقة العـاملة سـواء كانت إجتماعية أو حكومية) .

وتبدو مظاهر مهمة القيادة هذه فيما يلى :

(أ) أن القـرارات الهـامة المتعلقـة بالشئـون السياسيـة والإقتصـادية تتخـذ بواسطة اللجنة المركزية للحزب ومجلس الوزراء مجتمعين .

(ب) اختيار الأفراد لأهم مناصب الدولة .

(ج) يراقب الحزب سير أعمال المصالح الحكومية .

(د) يقـدم الحزب التـوجيهات العـامة التى تساعد تلـك المصـالح على رسم مناهج أعمالها .

(٤) الحزب هـو الـذى يكفل الـوحدة بين مجمـوع أجزاء الإدارة الحكـومية السوفيتية . وتبدو مظاهر ذلك فيما يأتى :

(أ) يعمـل الحزب على أن يرشـح للانتخـاب (أى ينتخـب) بعبـارة أصـح بعضـوية مختلـف المجالس (السـوفييت) أكثر أعضـاء الحزب الشيـوعى نشاطا وإخلاصا .

(ب) يعمل الحزب على مراقبة نشاط هذه المجالس . عن طريق لجنة المراقبة (وهى إحدى لجان الحزب) وكذلك عن طريق لجان الحزب الفرعية (المحلية) والهيئات المحلية (الكمسمول Komsomol) .

(ج) يقوم الحزب بوضع مشروعات البرامج أو الخطط الإقتصادية ومشروعات التربية السياسية وتثقيف الجماهير[١].

والسوفييت الأعلى هو الهيئة التشريعية فى الاتحاد السوفييتى ، ويضم مجلسين : مجلس الاتحاد ، ومجلس القوميات .

ومجلس الاتحاد ينتخب أعضاؤه من بين ممثلى الجمهوريات المتحدة حسب عدد سكان كل جمهورية .

ومجلس القوميات : يضم ممثلى الجمهوريات ذات الحكم الذاتى ، وممثلى المقاطعات ذات الحكم الذاتى[٢].

ومن المسائل التى تقوم بها هذه المجالس (حق المبادرة التشريعية ومناقشة كافة المسائل المتعلقة بصلاحية السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى على نحو متساو فى جلسات كلا المجلسين وإقرار القوانين والأعمال القانونية الأخرى بالتصويت فى كلا المجلسين ، ووجود نظام موحد لعمل المجلسين ،

---

(١) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٣٥-١٣٨) ، النار والجليد (٤٦) .
وانظر الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٦٩-٢٧٠) بمراجعة د. يحي الجمل ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
ومما جاء فيه أن تنظيم الحزب يقوم على مبدأين أساسيين :
أولا : القيادة الجماعية التى تعنى عدم انفراد شخص واحد بالقيادة .
ثانيا : الديمقراطية المركزية التى تعنى الأمور الأربعة الآتية :
(أ) تكون كل تنظيمات الحزب من القاعدة إلى القمة بواسطة الانتخابات .
(ب) مسؤولية تنظيمات الحزب أمام التنظيمات الأعلى .
(ج) النظام الجديد وخضوع الأقلية للأغلبية .
(د) الخضوع الكامل من قبل أجهزة الحزب الدنيا لقرارات الأجهزة العليا .
المادة (١٩) من نظام الحزب (٢٦٩) .

(٢) النار والجليد (٤٨) ، وانظر : القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (١٣٨-١٣٩) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٦٢) .

وانتخاب كل من المجلسين هيئاته القيادية الداخلية وهيئاته المساعدة ، وإقرار نظام الرئاسة الدورية لرئيسى مجلسى الاتحاد والقوميات ونوابهما فى الجلسات المشتركة للمجلسين ، ينبغى أن تعقد دورات المجلسين مرتين على الأقل فى العام ، وعند الضرورة تستطيع هيئة رئاسة السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى أن تدعو إلى عقد دورة طارئة وهى ملزمة بالدعوة لعقد دورة طارئة حتى لو طلبت ذلك جمهورية متحدة واحدة . وتعقد الدورات فى قصر الكرملين الكبير)[١].

الرئيس : يقوم (السوفييت الأعلى) بانتخاب الرئيس ، ومع ذلك فإنه لايحكم بمفرده بل إن (مجلس الرئاسة) هو الذى يدير شئون الدولة وسياستها أى أن القيادة جماعية وليست فردية[٢].

ومجلس الرئاسة أو هيئة الرئاسة له عدة اختصاصات منها السلطة التنفيذية ، والتشريعية ، والقضائية ، ومنها حق منح الأوسمة ، ألقاب الشرف ، وحق العفو غير الشامل ، تعيين القادة فى الجيش ، وحل مجلس البرلمان ، إعلان الأحكام العرفية ، تفسير القوانين ، تعيين الوزراء وإقالتهم[٣].

ويقرر الدستور السوفييتى أن (اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية هو دولة إشتراكية للشعب بأسره ، تعبر عن إرادة مصالح العمال والفلاحين والمثقفين ... كل السلطة فى الاتحاد السوفييتى للشعب)[٤].

---

(١) النار والجليد (٤٨-٤٩) ، وانظر الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٦٣) .

(٢) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (١٤٣-١٤٤) .

(٣) انظر : المرجع السابق (١٤٤-١٤٥) ، التيارات السياسية المعاصرة (٢٦٣-٢٦٥) ، د. عبد الحميد البطريق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت .
ولمزيد من المعلومات عن الهيئات السياسية والتنظيم السياسى فى الاتحاد السوفييتى انظر النار والجليد (٤٩-٥٢) .

(٤) النار والجليد (٤٧) .

تقسيم الدولة عند الشيوعيين :

أولا : دولة البروليتاريا (دكتاتورية البروليتاريا)[١].

ثانيا : زوال الدولة (فى المرحلة الشيوعية) .

يقول الشيوعيون عن الدكتاتورية فى المرحلة الأولى بأنها :

(١) مؤقتة وهى فترة انتقال إلى المرحلة الثانية .

(٢) أنها دكتاتورية أغلبية (الطبقة العاملة) ضد أقلية وهى طبقة البورجوازية أو الرأسمالية .

(٣) لابد من ظلم الرأسماليين كما ظلموا العمال . ويقضى على مقاومة البرجوازية بالقوة[٢].

وأما المرحلة الثانية فإنه يستحيل الجمع بين الدولة والحرية . يقول لينين من السخافة (الجمع بين كلمتى "الحرية" و"الدولة" . فما بقيت الدولة لاوجود للحرية ، وعندما تحل الحرية تنعدم الدولة)[٣].

وبعد هذا العرض المختصر نصل إلى التالى :

أولا : أن العمال يؤلفون السلطة الحقيقية فى الاتحاد السوفييتى .

ثانيا : لكون السلطة السوفيتية فى يد طبقة العمال فإن انتصارها مؤكد كما صرح لينين .

---

(١) يقول لينين : (لابد للبروليتاريا من سلطة الدولة ، ومن تنظيم القوة المركزية ، ومن تنظيم العنف سواء أكان لقمع مقاومة المستثمرين ، أو لقيادة جماهير السكان الفقيرة ،من فلاحين وبورجوازية صغيرة أو أشباه بروليتاريين ، فى أمر ترتيب الإقتصاد الإشتراكى) .
وقال لينين : (إن تعاليم دكتاتورية البروليتاريا هى الشىء الرئيسى فى الماركسية). لينين (٢٥٣) . وانظر السرطان الأحمر(٨٦) عن ماركس ، وقوله إن البروليتاريا ضرورية لتصفية الرجعية والبورجوازية .

(٢) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٦٣) .

(٣) الدولة والثورة (١٠١) .

ثالثا : أن السلطة السوفيتية ستحقق الديمقراطية الحقيقية ، والحرية السياسية ، بكافة أشكالها من انتخاب واضراب ، وتشكيل الأحزاب ...الخ .

رابعا : أن الحكم فى الاتحاد السوفييتى باسم الشعب وللشعب ، والقيادة جماعية لافردية .

خامسا : أن الرأسمالية تقوم على الاستغلال والظلم ولم تحقق الديمقراطية للناس ، وقد أكثر الشيوعيون من انتقادهم لها .

سادسا : أن الدولة البرجوازية يقضى عليها ، ودولة طبقة العمال تضمحل وتزول حيث لم يعد المجتمع بحاجة للدولة لوجود الحرية .

وبعد هذا نأتى للتعرف على الحرية السياسية بين النظرية الشيوعية والواقع السوفييتى .

الحرية السياسية الشيوعية بين النظرية والواقع :

إن عرض واقع الاتحاد السوفييتى هو أكبر برهان فى بيان مصداقية هذه الأفكار والنظريات السياسية من عدمها ، وسوف نعرض لبيان بطلان المزاعم التى رددها ماركس وانجلز عن الدولة ومن بعدهما قادة الثورة البلشفية ، وذلك من خلال النقاط التالية :

أولا : قولهم بأن السلطة السياسية فى يد طبقة البروليتاريا ، وأنها صاحبة الدكتاتورية دون غيرها ، وأنها دكتاتورية أغلبية ضد أقلية .

فيقال لهم إن هذا شعار رخيص ، أخفيتم وجوهكم من خلفه لتصلوا إلى تحقيق مآربكم وأهدافكم . ونسلم معكم بأنه كان هناك طبقة دكتاتورية ، ولكنها ليست طبقة العمال أو الشغيلة ، بل هى أعضاء الحزب ، والذى وصل بهم الأمر إلى احتكار كل شىء مما كان يمثل دكتاتورية حقيقية . يقول دجيلاس : (تعتبر الحركة الشيوعية شكلا من أشكال الحكم الاستبدادى مؤلفا من ثلاثة عوامل أسياسية تخوله السيطرة الكاملة على الشعب . وهذه العوامل الثلاثة هى : السلطة والملكية والعقائدية . إلا أن الحزب المنفرد بالحكم هو الذى يحتكرها جميعها ، أو حسب ماسبق لى وأطلقت عليه تعريف "الطبقة الجديدة" .. وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن العوامل

الثلاثة تلك ، محتكرة فى عصرنا الراهن من قبل مجلس الكهنوت الحزبى أو الطبقة البيروقراطية الجديدة . ولم يسبق لأى نظام من أنظمة الحكم الاستبدادية فى التاريخ القديم والمعاصر - بإستثناء الشيوعية - ، أن سيطر على الشعب بمثل السيطرة الاستبدادية التى فرضها النظام الشيوعى)[١].

فمامن صغيرة ولاكبيرة فى دولة الاتحاد السوفييتى إلا ومرجعها إلى الحزب الشيوعى ، وربما يظهر ذلك ويزداد وضوحا فى الآتى :

(أ) أن الحزب الشيوعى هو المسئول عن التفسير لكل ماهو مقدس عندهم ونعنى بذلك العقيدة الماركسية اللينينية!!

يقول كاونتس : (ومما يزيد كثيرا فى الواجبات الملقاه على عاتق الحزب أنه هو الحامل ، والحارس ، والمفسر لطائفة من العقائد المقدسة عند البلاشفة[٢]. ونقول مقدسة لأنه مامن دولة فى التاريخ اللهم إلا الدول الدينية قد أظهرت من الاخلاص لتعاليم زعمائها وأنبيائها مثل ماأظهره البلاشفة لزعمائهم . ذلك أن العقيدة الشيوعية تقرر أن الماركسية اللينينية تراث لايستطاع تقدير قيمته ، لأنها هى التى قادت البلاشفة إلى النصر فى عام ١٩١٨م ، وإلى إقامة "دكتاتورية البروليتاريات" وهى التى تضع الأسس النظرية للمجتمع السوفييتى ، وتكشف عن القوانين العالمية الخاصة بالتطور الاجتماعى ، وتوضح كل الخطط والمناهج ، وتضمن النجاح فى داخل البلاد وخارجها ، وتهدى إلى الطريق المؤدى من الرأسمالية إلى الإشتراكية ، وتحقق النجاح النهائى للشيوعية فى جميع أنحاء العالم . فهى والحالة هذه (علم العلوم) و(الحقيقة التى تتراءى للجماهير الكادحة) فى جميع الأرض ، وهى سلاح بتار لايفل له حد فى يد من يستخدمونه بشجاعة وحسن إدراك . ومن ثم فإن من واجب كل عضو من أعضاء الحزب أن يعمل جاهدا وبلاانقطاع لإتقان هذا التراث . ولماكانت الماركسية اللينينية هى عبارة عن طائفة من

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٢٠-٢٢١) .

(٢) قارن ذلك مع فعل الكنيسة المذكور فى المقدمة العامة (٢٦) ومابعدها .

العقائد المجردة غاية التجريد ، ولما كانت مليئة بالمتناقضات ، فقد لايكون ماتعنيه من الأفكار لهداية معتنقيها فى عملهم فى وقت ما واضحا كل الوضوح . ولهذا وجب أن تقوم سلطة تخول حق تفسير هذه العقيدة تفسيرا لايتعرض للخطأ ، وهذه السلطة هى لجنة الحزب المركزية ، وخاصة الزعامة الجماعية ، أى اللجنة الدائمة التى تتولى رياستها ، بل قد يتولى هذه السلطة فرد قوى كما تولاها ستالين .

ولقد ابتعد لينين بطبيعة الحال عن تعاليم ماركس وانجلز الأولى حين كيفها لتتفق مع ماطبعت عليه بلاد أهلها من الفلاحين)[١].

وبناء على هذا الانفراد بمعرفة الأسرار القدسية للأفكار الماركسية اللينينية!! كانت هناك تبعات تلقى على عضو الحزب يقول عنها كاونتس بأنها (كثيرة مجهدة فمن واجبه أن يدأب جاهدا دون توقف لإتقان الماركسية - اللينينية فى ماضيها وحاضرها ، وعليه أن يكون قادرا على أن يجيب الجواب الصحيح عن جميع الأسئلة الهامة الخاصة بهذه النظرية حتى وإن لم يفهم لهذه الأجوبة معنى . ولابد أن يكون قادرا على تكرار الحجج النظرية التى تؤيد جميع خطط الحزب ولو لم يكن ممن يؤمنون بها . ويجب عليه طالما كان عضوا فى الصفوة الممتازة الحاكمة من المجتمع السوفييتى أن يعد نفسه جنديا فى صفوف الجيش السياسى الذى يسير بالاتحاد السوفييتى وبجميع بنى الإنسان إلى أرض الشيوعية الموعودة .

فإذا انضم إلى الحزب تخلى عن جميع المطالب الفردية المعارضة لمطالب الحزب ، وتعهد بأن يسير فى جميع الأمور على الخطة التى تضعها الزعامة ، بل إنه يجب أن يكون مستعدا للتخلى عن أعز العقائد عنده ، ماعدا العقيدة الأساسية القائلة إن الحزب على حق وأنه يقود البلاد إلى النصر . ومن واجبه أن يضع الولاء للحزب فوق كل ولاء سواه ، ولو أدى هذا إلى هلاكه وإذا ماطلب إليه أن يقوم بمهمة خطرة من مكان بعيد ، فليس له أن

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٨٣) .

يتردد أو يتملص ، وإن أدت إلى فراق أسرته وأصدقائه . ومن واجبه أن يقبل بهذه الروح نفسها كل تعديل وكل تخفيض فى درجته ، وكل عقاب يوقع عليه ، وكل إذلال يصيبه . وعليه أن يعترف بما وقع فيه من أخطاء فى التفكير والعمل ، وأن يكرر هذا الاعتراف المرة بعد المرة ، وأن يتعهد فى حماسة أن يصلح من شأنه . ذلك نظام صارم ، لاتحتمله بلاشك قوى الكثيرين من أعضاء الحزب . ولهذا إنهار ملايين من الأعضاء فى الطريق ، لهذا السبب أو ذاك ، أو ألقوا من حافة الهاوية . لكن هذا هو المثل الأعلى الذى يرتبط به العضو . ومن الحقائق الواضحة أن تربية الشيوعى من الأمور الهامة والأعمال الشاقة ، ولكنه يخالجه الأمل على الدوام بأنه سيدعى فى آخر الأمر ليعمل مع الصفوة المختارة الممتازة فى لجنة الحزب المركزية)[1].

وبهذا يظهر أن الحزب هو المتسلط لتفسير الأسرار البلشفية كما أنه متسلط على من يرغب الانضمام إليه ويحمله من التبعات ماقد يعجز عنه ، ويظل هؤلاء الأعضاء فى إرتقاء هرمى حتى مايصل الأمر بالرئيس أو المسئول الأول فى الحزب . وكل أحد من الأعضاء يخشاه ويحاول جاهدا الوصول إلى رضاه .

(ب) كما أن الحزب قد جعل من السير وفق مبادىء ماركس ولينين أسلوبا لايمكن مناقشته أو انتقاده . فسيطر الحزب بهذه الأفكار على الآخرين . يقول فارغا : (إن نظام المركزية البيروقراطية فى الحزب الذى هو أس الحياة السوفيتية كان لابد أن ينعكس على أيديولوجيته . فأيديولوجيا العهد القائم لامهمة لها بالفعل سوى تبريره فى نظر المجتمع عن طريق الإشادة بجوانبه الإيجابية والسكوت عن مظاهره السلبية . والأيديولوجيا فى الدولة السوفيتية

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٨٣-٣٨٤) .
وبالطبع فإن (من أيسر الأمور أن يكون المرء وزيرا فى الحكومة الشيوعية اليوم ثم يعزل غدا ، ثم يرمى فى السجن ثم يقتل لأنه خان الحزب) . المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٧٤) .

لاتصاغ وتذاع بين السكان إلا من قبل قيادة الحزب البيروقراطية التى تحكم البلاد بأساليب دكتاتورية قائمة على أساس نظام السرية فى كل مايمت بصلة إلى الإقتصاد والسياسة . المركزية الأيديولوجية هى السائدة إذن فى البلاد ، فهناك أيديولوجيا وحيدة تنفى وتقمع كل ماعداها . فالصحافة والرقابة محصورتان فى مجملهما بين يدى الحزب والدولة الموضوعة تحت تصرفه . وحق الاجتماع والإعلام العام مقصور عليه وحده ، وهو وحده الذى يتصرف به . وحرية الكلام مرفوضة فى جميع أشكالها . ولهذا السبب بالتحديد تجهل الأيديولوجيا السائدة مبادىء البحث والروح النقدية ، فالنقد لايمكن أن يوجه إلا إلى بعض الوقائع أو بعض الأشخاص المفردين، وهذا بشرط ألا يكونوا من ذوى المناصب العالية . ومن المحظور تحت طائلة العقوبة الصارمة ، انتقاد النظام القائم ومبادىء تنظيم السلطة وتسيير الحياة الإجتماعية . ولهذا السبب لم تجر قط أى مناقشة علنية لافى المجتمع ولاحتى فى الحزب . فعهد المناقشات السياسية كتلك التى دارت فى عام ١٩٢٠م يبدو الآن خرافيا تماما . وهذا كله يحول الأيديولوجية إلى عقيدة رسمية معصومة وإلى حد كبير لفظية شكلية ، مبنية على هوس الاستشهادات والرجوع إلى الثقات . لكن مؤلفات ماركس وانجلز ولينين لايختار منها إلا الأطروحات القمينة بتبرير الوضع القائم ، فى حين يضرب نطاق النسيان على الأطروحات الأخرى . وهذا الأسلوب يستخدم بوجه خاص مع مؤلفات لينين وتصريحاته بالرغم من أن التصور السائد يتسمى باسم "الماركسية ـ اللينينية" . وتاريخ الحزب يكتب بطريقة مغرضة جدا بغية نفع سلطة قيادة الحزب ونشاطها ، وتسويد صفحة كل معارضة وجميع خصوم تلك القيادة . وبسلوك هذا المسلك ، يسقط عدد كبير من الأحداث والأسماء فى بئر النسيان ، وتنسب إلى أولئك الذين يراد تشويه سمعتهم أفعال وأفكار لم يأتوها قط)[١].

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٧١-٧٢) ، ترجمة جورج طرابيشى ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .

وهكذا يظهر لنا أن الحزب قد استأثر بكل شيء ، ومنع الآخرين من كل شيء ، وحقق الدكتاتورية له ولرجاله . ولم تكن الطبقة العاملة إلا ستارا حقق من ورائه هؤلاء سيطرتهم ورغباتهم الذاتية .

ثانيا : تقسيمهم للدولة . زعم باطل ينقضه واقع الاتحاد السوفييتى ذاته.

فالمرحلة الأولى ثابتة ولم تتبدل ، كما أنها لم تكن فى يد الطبقة التى حددت لتكون صاحبة السلطة السياسية .

وإذا نظرنا لواقع الاتحاد السوفييتى الذى فجرت فيه الثورة البلشفية نجد أنه لم يأخذ فى التطور ومحاولة التخلص من الدولة بل على العكس من ذلك تماما ، فالمرحلة الستالينية ـ على سبيل المثال ـ كانت قمة فى الدكتاتورية الفردية ، بل اعتبر الشيوعيون أنفسهم أن فترة حكمه تمثل أحد عهود حكم الإرهاب(١). وبالتالى فإن الدولة السوفيتية بقيت على الحالة الأولى أكثر من سبعين عاما ثم زالت من على الخارطة السياسية نهائيا .

أما المرحلة الثانية : وهى زوال الدولة .

فإن هذا زعم باطل يرده التالى :

أولا : أن واقع الاتحاد السوفييتى يدل على أن هذه الفكرة كانت بمثابة الخيال ولايمكن تطبيقها ، ثم إن الوضع العالمى العام يأبى مثل هذا التنظير(٢). ومن هنا تغدو هذه الفكرة خرافة(٣)، بل حلما لايمكن تحققه(٤).

---

(١) انظر فى ذلك القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (٦٣-٦٥) .
(٢) لمزيد انظر المرجع السابق (٦٥-٦٦) .
(٣) انظر الطبقة الجديدة (٢١٤) .
(٤) انظر إسلام لاشيوعية (٩٩) .

ثانيا : أن هذه المرحلة يحوطها الغموض الشديد ، وقد اعترف لينين بذلك وقال : (يعوزه الوضوح ، وأنه لايوجد فى الواقع فى روسيا مايؤيده)[١].

كما أنهم عجزوا عن وصف كيفية هذا الذبول والزوال[٢]. وهم يرون أن زوال الرأسمالية سيكون بداية من التناقض الذى بداخلها ، وهنا نوجه إليهم هذا التساؤل ، هل هذه المرحلة هى النهاية؟ فإن أجابوا بالإيجاب ، قلنا لهم : وماذا عن قانون التطور والتناقض؟!! وهنا من حقنا أن نقول بأن التطور يقف عند حد معين لايتجاوزه وهذا يلزم منه بطلان مزاعمهم التى أثبتوا من خلالها تطور كل شىء .

وإن أجابوا عن التساؤل السابق : بأن هذه المرحلة ليست هى النهاية وأن التطور مستمر . قلنا لهم إذا ماهو نقيض الشيوعية ، وأنتم تعتقدون أنها نهاية المطاف .

وهكذا نجد أن نظرياتهم بعضها ينقض بعضا . وأن القول بزوال الدولة لايؤيده دليل ولايدعمه برهان .

ثالثا : أن تطبيق هذا المبدأ لايتأتى إلا إذا خلت التجمعات من كل أنواع الصراع والخلاف ، وهل بالإمكان خلو مجتمع إنسانى من هذه الصراعات والنزاعات . إن هذا أقرب إلى الخيال . ومن هنا تحتم وجود سلطة أو دولة لتساعد فى تخفيف ذلك الصراع . إن ماركس تخيل (البشر وقد تحولوا إلى ملائكة كل واحد منهم يؤدى واجبه دون تقصير ودون خروج على الأوامر وارتكاب للنواهى ، فلامنازعات بين الناس ولامشاكسات ولاغير ذلك مما يستدعى الدولة والقانون ، وهذا ضرب من الخداع والتمويه والضحك على عقول السذج لأنه والحالة هذه يتصور الإنسان قد تخلص من إنسانيته بما تحويه من ضعف وخطأ وقصور وتحول إلى ملاك طاهر

---

(١) نقلا من كتاب القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (٦٧) .

(٢) انظر المعبود الذى هوى (٣٤٢-٣٤٣) .

لايعرف الشر ولايرتكبه ولايعرف المعصية ولايقربها ، وبما أن الإنسان هو الإنسان بقصوره وخيره وشره هو الذى يعيش على هذه الأرض فلابد له من قوانين ونظم ودولة وحساب وعقاب)[١].

وإذا كان الإقتصاد السوفييتى يقوم على التخطيط والتنظيم فإن ذلك يتطلب هيئة معينة تقوم عليه لتسير به إلى ماينشده أصحابه[٢].

رابعا : اعترافهم بأنه لابد من وجود سلطة تقوم على الأمر ، وتعمل على تحقيق الإصلاح .

حيث أشار لينين إلى ضرورة سيطرة الحزب الواحد وأوحدية السلطة فقال : (لابد بطريقة أو بأخرى من الطاعة غير المشروطة لإرادة أوحدية...)[٣].

واعتبر لينين أن طبقة العمال غير قادرة على قيادة المجتمع ، إذ لابد من صقلها أولا وتعليمها ، ومن هنا كانت "دكتاتورية الصفوة الممتازة" كضرورة مؤقتة ولكن حقيقة الأمر أن هذه الصفوة ظلت مسيطرة على شئون الدولة[٤]، إلى أن انهارت نهائيا .

وكتبت إحدى الصحف السوفيتية فى شهر سبتمبر عام ١٩٥٥م تحت عنوان "خطة لينين لبناء الشيوعية فى إتحاد جمهوريات السوفييت الإشتراكية" (إن وحدة الحزب الشيوعى وقوته لهما الشرط الأساسى لاستقرار الدولة الإشتراكية ونجاحها فى أداء وظائفها داخل البلاد وخارجها . ذلك أن الحزب هو القوة الهادية الموجهة لدكتاتورية البروليتاريات "الدهماء" وهو الذى يقود الشعب السوفييتى ويعلمه)[٥].

---

(١) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٨٧) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٨٨) .
(٣) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٢) .
(٤) انظر التيارات السياسية المعاصرة (٢٤٦) .
(٥) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٥٦) .

وفى هـذا دليل على أن البروليتـاريا أساسا لاتسير إلا بتـوجيه الحزب . فأين دعوى تحقيق مطالبها ودكتـاتوريتها بعـد القضـاء على بقيـة الطبقـات؟!!

ذكـرت صحيفة برافدا فى ٦ يوليو ١٩٥٦م فى مقال لهـا بعنوان "الحزب الشيـوعى يلهـم الشعـب السـوفييتى وزعيمـه" : (أمـا فى بلادنا فـإن الحزب الشيوعى كان ولايزال وسيظل المسيطر الوحيد على العقول والمعبر عن أفكار الشعـب وآماله وقائده ومنظمه فى كفاحه الجامع من أجل الشيـوعية والحزب الشيوعى المسلح بالنظرية الماركسية اللينينية والقوى بوحدته وتضامنه ونظامه والذى لاتضارعه أى هيئة أخرى فى قدرته على تنظيم آلاف الآلاف من أفراد الجمـاهير وقيادتهم فى أعقد الظروف هذا الحزب الشيـوعى هو الذى يوجه - منـذ إستيلاء السـوفييت على زمـام الحكـم فى ثقة - سفينـة حيـاتنا السيـاسية والإجتماعية نحو الشيوعية)[١].

ويقول لويس فيشر : (وكان الحزب الشيوعى هو أبرز هيئـة فى روسيا السـوفيتية حتى ليشبه نظام "الأديرة" إذا ذكـرنا التقشـف ومطـالبه ، والتفانى المطلـوب من أعضائه وعترته ؛ فقـد جعلته تقاليده ، وهـى الطـاعة المطلقة ، والسرية ، والنظام المتين ، والضبط والربط ، أشبه مـايكون بهيئة "عسكرية" وكـان يبدو كأنه "الدينامو"المحرك أو الكلب الراصد الحارس المترقـب ، أو هو وحى النظام الجديد وإلهـامه ، وكـان مصدر كـل سيـاسة توضع ، وكل خطـة تنتهج ، والمظهر الأوحد للسلطة السياسية وإن لم يبـاشرها فى الظاهر ، أو يمارسهـا بالفعـل ، تاركـا قيـادها للحكـومة البيروقـراطية ذاتهـا ، مكتفيـا بالتـوجيه والرقابة والإشراف ؛ وذلـك لأن توزيع المهـام على هذا النحو من شأنه أن يمنع من إغراء المنـاصب الكبيرة ، وفتنـة السلطـان ؛ وكـان أكثر الموظفين فى الحكومة أعضاء فى الحزب ...)[٢].

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفيتى (٣٠) .

(٢) المعبود الذى هوى (٢٦١) وحتى لايطول بنا المقام فى نقل النصوص الدالة على أن الحزب الشيـوعى قد سيطر على كـل شىء وباعتراف أصحابه انظـر : المسلمـون فى الاتحاد السـوفييتى (٢١٦-٢١٧) ، الطبقـة الجديدة (١٩٢) ، فـوق أطلال الماركسيـة (١٦١) ، نشوء وإنهيار الامبراطورية الشيوعية (١٢) .

ثم إن (سيرة الأمناء السبعة تظهر أن همهم الأساسى يتمثل بالاستيلاء على السلطة)[١]. وأعلن ستالين (أن سلطان الدولة لايمكن ولايصح أن يضمحل أو يزول بل لابد من بقائه يحمى العدوان عليها)[٢]أى العدوان على الشيوعية من قبل الرأسمالية .

خامسا : ثم يقال للشيوعيين هل بإمكانكم ترك حزبكم السياسى ، وتسليم الأمر لأى حزب آخر ليقوم بالمهمة عنكم طالما أنه لن يكون هناك هيئة أو سلطة سياسية ؟!!

إن الجواب الفعلى لاالنظرى هو فى مأأقدم عليه الشيوعيون حيث أسقط هؤلاء جميع الأحزاب السياسية ، وهذا من أكثر الأمور مصادرة للحرية السياسية فى بلد يدعى الديمقراطية .

يقول كاونتس : أخذ الحزب (يعمل بسرعة فائقة لتدعيم سلطانه ، فتغلب على عدد كبير من الأحزاب الثورية المؤتلفة ، واستحوذ على جميع أدوات السلطة والنفوذ ومظاهرها ، وسيطر على جميع الإدارات الحكومية ، وأسقط حقوق "الأهلين السابقين" ، وحل جميع المنظمات المنافسة له ، وأعلن أنه هو الهيئة المشروعة الوحيدة فى ميدان النشاط السياسى ، ووضع نظاما لدولة ثورية تعمل فى غير تحفظ لخدمة الطبقة الحاكمة الجديدة ، وجعل المحاكم والقوانين أدوات للدكتاتورية التى تعمل على الدوام باسم "الكتلة العاملة الكادحة" ، وأنشأ الجيش الأحمر "لحماية الثورة" من أعدائها فى داخل البلاد وخارجها . وضمن الحزب ولاء هذا الجيش بإنشاء نظام متغلغل واسع النطاق من المندوبين السياسيين والجنود الحزبيين يعملون كلهم بروح "اليقظة الثورية" وأنشأ الحزب "التشيكا"[٣]"سيف الثورة المسلول"

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٢) .

(٢) نقلا من كتاب القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (٦٦) .

(٣) (التشيكا شرطة سياسية لم يكن هدفها القضاء على الأعداء الظاهرين فحسب بل وبث الرعب فى قلوب الطبقات الإجتماعية المعادية للإشتراكية حسب العقيدة اللينينية) . التعليم فى الاتحادالسوفييتى (٥٧-٥٨) .

للخلاص من معارضيه والقضاء على من يخرج عليه فى داخل الأقاليم التى يحكمها)[١].

سادسا : يتذرع الشيوعيون بأن المجتمع القديم لم يكن فيه دولة ، وهم يريدون العودة بالمجتمع إلى تلك المجتمعات البدائية .

فيقال لهم : إن المجتمعات تلك كانت صغيرة ، وهى لم تخل من سلطة يرجع إليها الناس لفض نزاعاتهم وخصوماتهم ، وكانت تتمثل فى رئيس القبيلة ، أو من يرشحه القوم ليكون مسئولا بينهم يرجعون إليه ، ثم إن واقع الاتحاد السوفييتى يرد على هذه الافتراءات كلها التى تتخذ من المجتمع القديم وسيلة لها لبث أفكارها وتأصيلها حيث تم الإبقاء على الملكية ، والدولة ، والطبقية . ونختم هذه الجزئية بقول لينين عام ١٩٢٠م (نحن لانستطيع أن نأخذ بآراء المجنونين والأغبياء الذين يطالبون بالحرية ، فنحن فى ظل ديكتاتورية البروليتاريا لانستطيع أن نمنح المواطنين حريتهم السياسية خشية أن يستخدم أعداء الشيوعية هذه الحرية فى القضاء علينا)[٢].

فكأنهم أرادوا أن تكون القوة السياسية والسيطرة الكاملة فى يد البروليتاريا ، ولكن حقيقة الأمر أن هذه الطبقة نحيت واستبدلت بالحزب وزعمائه أولئك الذين ماقاموا إلا على أكتاف المستضعفين .

لقد كانت مسألة حكم الحزب الشيوعى مستترة تحت نقاب الشرعية القانونية والعقائدية ، وتمارس جميع أنواع التسلط باسم طبقة العمال .

بالطبع والحال هذه لابد أن تظهر الدكتاتورية التى تحكم بكل قوة ، فكانت الدكتاتورية التى تحدث عنها الشيوعيون ولكن ليست لطبقة العمال بل دكتاتورية لسحق هذه الطبقة ، وكافة طبقات المجتمع ، إلا أصحاب هذه الدكتاتورية .

ونبين الآن بطلان زعمهم أنها دكتاتورية أغلبية ضد أقلية .

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٥٧-٥٨) ، وانظر شهادتى للتاريخ (٣١١-٣١٢) .
(٢) إشتراكيتهم وإسلامنا (٣٤) .

بطلان مزاعمهم فى الدكتاتورية :

أولا : قولهم أنها دكتاتورية أغلبية ضد أقلية .

وهذا زعم باطل من وجوه :

(أ) أن التاريخ لايعرف فيه أن الدكتاتورية حكم أغلبية ضد أقلية ، فكل دكتاتورية يرزح تحتها الشعب بمختلف طبقاته إلا أقلية من أعوان الحاكم . وواقع الاتحاد السوفييتى يدل على أن الطبقة العاملة لم تنج من نير الدكتاتورية .

(ب) أن الدكتاتورية تظل هى الدكتاتورية سواء صدرت من أكثرية أو من جماعة أو من فرد .

(ج) أن الحكم فى الاتحاد السوفييتى بيد أقلية وكذلك فى سائر بلدان أوروبا الشرقية[١].

ثانيا : زعمهم أنه لابد من تلك الدكتاتورية حتى يردون على ظلم الرأسمالية لها .

فيقال لهم : إن توقيع الجزاء بالقوة والعنف ، لايولد عدالة أو حرية ثم إن تحقيق العدالة والحرية لاتبيح ظلم الظالمين أو الاستبداد بالمستبدين ، إنما يتطلب محاكمتهم ومحاسبتهم وتوقيع العقاب عليهم . ولابد أن يكون ذلك العقاب عادلا ، وأن لايكون من قام بايقاع المحاسبة عليهم ظالم لهم ، وليس دين سماوى أو وضعى يقر بأن (ظلم الظالمين عدالة)[٢].

ثالثا : أن الدكتاتورية كانت موجودة بالفعل ، ولكن ليست فى الطبقة التى حددت الشيوعية أن تكون لها السلطة السياسية .

يقول فارغا : (منذ زمن بعيد والبلاد تعانى من دكتاتورية حلقة ضيقة من كبار قادة الحزب وتلبس هذه الدكتاتورية عادة بشكل دكتاتورية بعض

---

(١) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية القسم الثالث (٦٧-٦٨) .

(٢) انظر المرجع السابق (٧) .

شخصيات تحيط بهاماتها هالة سلطة مطلقة يسهل إساءة استعمالها...)[١].

إن الحزب الشيوعى هو الدكتاتور الأول ويقف على رأسه ويتزعمه الدكتاتور الفردى رئيس الحزب .

و(الشيوعية حين تسنم دست الحكم تصرف تجاه المجتمع الإنسانى بصورة مناقضة لمبدأ التسليم بالقوانين الموضوعية ، لتفرض أساليبها الإرهابية ونظريتها الخاصة . بينما يدعى الشيوعيون من جهة أخرى بأنهم محققون للآمال الموضوعية للمجتمع ، بذلك يتجاوزون بديكتاتوريتهم أشد الأنظمة الديكتاتورية المستبدة ، إرهابية)[٢].

وهذه الدكتاتورية من قبل الشيوعيين كانت تمثل لهم أسلوبا أساسيا من أجل الحفاظ على الشيوعية .

يقول دجيلاس : (فى تاريخ الثورات السابقة ، كانت القسوة واحتكار السلطة تدوم بقدر دوام الثورات نفسها . أما فيما يتعلق بمفهوم الثورة الشيوعية ، فإنه لايمكن لها أن توطد وتستمر إلا من خلال الأساليب الديكتاتورية وعبر السلطة الاستبدادية المطلقة للحزب ، وهذا مايجعل من العسير ، تقدير ديمومة التسلط على الحكم)[٣].

ويضيف : (ولقد اتجهت الثورات السابقة بما فيها سلطة الإرهاب "الثورى" فى فرنسا ، للقضاء على الخصوم السياسيين وقوى المعارضة الحقيقية ، إلا أنها لم تتجه البتة ـ كما يحدث فى الثورات الشيوعية ـ للقضاء على القوى التى يمكن أن تتحول إلى قوى معارضة للحكم الاستبدادى فى المستقبل القريب أو البعيد .

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٦٨) .
(٢) الطبقة الجديدة (٢١) .
(٣) المرجع السابق (٣٩) .

أما الشيوعيون فإنهم ينطلقون من خلال مفاهيم الحرب الطبقية إلى تشديد القتال مع كافة الطبقات والقوى السياسية والعقائدية الأخرى . فهم لايكتفون بمحاربة قوى المعارضة الراهنة وإنما يتجهون من خلال الأحقاد الطبقية إلى القضاء على كل القوى التى يفكرون بامكانية تحولها إلى قوى معارضة لهم فى المستقبل)[١].

ومن هنا بالغ الحزب فى القبضة على زمام الأمور ، حتى أصبح الفرد فى الاتحاد السوفييتى (يتجه دائما حيث يراد له، لاحيث هويريد)[٢]، ولأجل ذلك كانت القوانين التى يصدرها الحزب هى فى صالحه وتدعم نفوذه وتصطبغ بصبغة أنها موضوعة للجميع[٣].

تقول روزا لكمسبورغ : (وبكبت الحياة السياسية فى جميع أرجاء الدولة ، يزداد استرخاء الحياة عند السوفييت باضطراد مستمر ، فبدون الانتخابات العامة ، وحرية الإجتماعات والصحافة المطلقة ، ونضال الآراء الحرة ، تموت الحياة فى كل مؤسسة عامة ، وتصبح حياة ظاهرية ، تكون البيروقراطية فيها هى العنصر الوحيد الذى يعمل ، فتجمد الحياة العامة تدريجيا ، ويحكم ويوجه فيها حفنة من زعماء الحزب المتوقدين نشاطا ، الذين تستولى عليهم مثالية لاحد لها ، وتقود حفنة من بينهم - يتمتعون بذكاء خارق - جماهير العمال من وقت لآخر إلى المؤتمرات للتصفيق لخطب الزعيم ، وللتصويت بالإجماع على القرارات التى تعرض عليهم ، وفى الحقيقة هى مجموعة نفعية ، وهو ديكتاتور لاشك فى هذا ، ولكن ليس ديكتاتور البروليتاريا ، بل ديكتاتور حفنة من السياسيين)[٤].

---

(١) الطبقة الجديدة (٣٩) .
(٢) الإنسان بين المادية والإسلام (١٢٣) .
(٣) انظر فوق أطلال الماركسية (١٦٢) .
(٤) نقلا من كتاب حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٨٠-٥٨١) .

رابعا : أن أكثر الطبقات ضررا هى الطبقة التى قامت من أجلها الشيوعية ـ كما زعم أصحابها ـ فلاهى التى أصبحت دكتاتورية ، ولاهى التى سعدت بالحرية ، وإنما كانت الضحية ، وعاشت حقيقة الوعود الكاذبة ، وزيف الشعارات البراقة .

يقول دجيلاس : (إن دور الحزب الشيوعى ومعاركه الطويلة فى مرحلة الصراع على الحكم ، وبالرغم من قيادته للطبقة العاملة ، وترويجه الشعارات بأنه يسعى لتحقيق مصالحها التاريخية ، فدوره هذا لايعنى إلا شكلا من أشكال هجمته الصاعقة لاستلامه الحكم . ومع أن الحزب الشيوعى يدعى أنه يعمل لإرضاء الطبقة العاملة ، بيد أنه لايسعى إلا لتوطيد حكمه ، ودفع زعمائه إلى دست الحكم وتقوية الطبقة الجديدة التى تكون فى أطوارها الجنينية الأولى .

وماأن يصل الحزب الشيوعى إلى الحكم ، حتى يفرض سيطرته المطلقة على كافة السلطات ، ويضع يده على جميع مقدرات الأمة ، رافعا عبقريته بأنه يمثل مصالح الطبقة العاملة ، والجماهير الكادحة . على حين أن البروليتاريا لاتساهم فى هذا الأمر ـ باستثناء المعارك الدائرة فى إبان الثورة وأثناء الحرب الأهلية ـ كما أنها لاتقوم بأى دور أكبر من أدوار الطبقات الأخرى . وعلى الرغم من أن بعض الأفراد أو الفئات البروليتارية قد تساهم فى دعم سلطة الحزب ، تظل الحكومة بعيدة عنهم ، وليس لهم فيها أية نسبة تذكر ، يمكن لها أن تؤثر على سير حركة التطور الإجتماعى فى ظل الأنظمة الشيوعية . وفى الوقت نفسه ، لايبذل أى مجهود حقيقى فى سبيل تحقيق الشعارات الزائفة التى تفرض وصول الطبقة العاملة إلى الحكم ، واستخلاص حقوقها . فالطبقات الكادحة والجماهير الشعبية تظل أبعد ماتكون عن مزاولة السلطة ، ولكن يبقى من المفيد الإشارة إلى أن الحزب الشيوعى يمارس الحكم ويزاول السلطة باسمها ...)[١].

---

(١) الطبقة الجديدة (١١٢-١١٣) .

ولاشك أن الشيوعيين قد عملوا على الخداع وماقامت شوكتهم بهذه القوة إلا لكثرة الوعود والعهود التى قطعوها على أنفسهم وخاصة للعمال .

يقول دجيلاس : (لقد تأثر كارل ماركس بالأجواء العلمية ، وحمله طموحه الشخصى إلى تقديم قاعدة علمية ظاهريا لتضليل الحركة العمالية . بينما تأثر خلفاؤه بمناخ مغاير ، دفعهم إلى تحويل آرائه إلى مذهب عقائدى ، يرتبط مع الاحتياجات السياسية الكاذبة لحركة الطبقة العاملة الأوربية . واستطاعت هذه الفلسفة أن تبنى قوتها ليس على قوة الحقائق العلمية ، وإنما على قدرتها على تشويه الواقع وإثارة الطبقة العاملة وتضليلها . وهذا مايفسر ضعف نفوذها فى كل من بريطانيا وأمريكا ، لعدم توافر الظروف المناسبة التى تسمح لها بالقدرة على التضليل السياسى ، بينما استطاعت أن تشكل عقيدة للطبقات الجديدة المضطهدة ، فانتقلت من أوروبا إلى روسيا ، ومن ثم إلى آسيا لتكون أساسا لحركة سياسية جديدة ، وقاعدة لنظام إجتماعى إرهابى جديد)[١].

ويقول : (إذا مادرس المرء تاريخ الثورات الشيوعية ، فسرعان ماتبدو له فى معظمها سلسلة من الأضاليل والخدع التاريخية ...) .

ويضيف : (إن الزعماء الشيوعيين غير قادرين البتة على تحقيق مايعدون به ، بل إنهم عاجزون عن تنفيذ مايؤمنون به - هم أنفسهم - الإيمان المتعصب الأعمى .

وبطبيعة الحال فإن القادة الشيوعيين هم أعجز عن الإقرار بهذه الحقيقة حتى ولو وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تنفيذ سياسة جديدة مناقضة كل المناقضة للوعود التى قطعوها للجماهير قبل اندلاع الثورة ، وفى أثناء تأجيجها . فلو قام الشيوعيون بإقرار تلك الحقيقة السابقة فإنهم - ولابد -

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٢) .

سيجدون أن إقرارهم الجديد هذا سيكون بمثابة اعتراف واضح بعدم جدوى الثورة ، وبأنهم هم أنفسهم أضحوا من الأمور التى لالزوم لها ، ولاشىء يبرر - عندئذ - بقاءها فى الحكم . وطبيعى جدا ألا يقبلوا بمثل هذا الاعتراف)[١].

ويقول : (إن الثورة الشيوعية تروج لأعظم الأوهام ، وأكثرها استمرارا وديمومة ، وهى بذلك لايمكن أن تحقق أيا من هذه المثل العليا ، التى تكشف الأيام حقيقتها ، وإنها لم تكن سوى أسلوب من أساليب الخداع وتضليل الجماهير ، بأنها تضع الأسس المادية لبناء مجتمع جديد قائم على الحرية والعدل ، والذى لم يكن له من ترجمة عملية سوى وضوح الطابع الاستبدادى الرهيب للثورة الشيوعية)[٢].

فأين الحرية التى تحققت للعمال ؟!!

إن كانت (حرية التصفيق والتأييد لما يقرره الزعماء)[٣]فنعم .

إن الشيوعية عندما قامت نادت بأنها ستقضى على الدكتاتورية القيصرية ، فانساق العمال خلفها ينشدون الحرية والعدل ولكنها عندما قضت على تلك الدكتاتورية أقامت مكانها دكتاتورية من نوع جديد أشد وأنكى من سابقتها[٤]. وللحفاظ على هذه الدكتاتورية جعل الشيوعيون السلطة كلها فى أيديهم ، وجمعوا بين السلطات التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية[٥]. ولاشك أن الفصل بينها يحقق ميزات كثيرة منها :

* صيانة الحرية ودفع الاستبداد لأن تركيز السلطة فى يد واحدة يفضى إلى القضاء على الحريات .

---

(١) الطبقة الجديدة (٤٥-٤٦) .
(٢) المرجع السابق (٤٤-٤٥) ، ولمزيد انظر (١١٣-١١٤) .
(٣) الإسلام وحقوق الإنسان (٢٥٨) .
(٤) انظر : حقيقة الشيوعية (١٩) ، الطبقة الجديدة (٢١٦-٢١٧) .
(٥) انظر : الشيوعية فى موازين الإسلام (١٠٣) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٧٧)

* إتقان وظائف الدولة وحسن سير العمل .

* احترام القوانين وحسن تطبيقها ، على خلاف أن تكون السلطة مجتمعة فى يد واحدة ، فإن سن القوانين وتعديلها يكون طبقا للحالات الفردية لاطبقا لما ينبغى أن تتسم به القوانين من عمومية وتجريد(١). ولكن الشيوعيين إمعانا فى دكتاتوريتهم جعلوا الحزب الشيوعى هو الحزب الوحيد وبالتالى دعم ذلك من بقاء دكتاتوريتهم ، مما أدى إلى القضاء على الحريات ومنع العمال من أبسط الحقوق التى كانوا يتطلعون إليها من وراء الشيوعية يقول مكاوى : (نظام الحزب الواحد هو الوسيلة لبقاء الديكتاتورية ولكن تحت ستار ديمقراطى زائف ... فالحزب الواحد كما أثبتت كل تجاربه وهى مازالت تؤكد كل يوم ليس حزب الصفوة الممتازة بقدر ماهو طبقة مميزة ترتبط بالنظام وتتمسك به حفاظا على ماتتمتع به من مزايا مادية ومعنوية ، والاخلاص للحاكم الديكتاتورى هو جواز المرور إلى مراكز الحزب بغض النظر عن الكفاءة والمقدرة ... ونظام الحزب الواحد يقوم على قسر الآراء ويقوم على افتراض خاطىء باحتكارالسلطة لديكتاتورية طبقة العمال وتجاهل باقى الطبقات والواقع أن المجتمع اللاطبقى أى الذى يعيش بدون طبقات لم يوجد حتى الآن إلا فى مخيلة أنصار الفكر الماركسى ... وليس صحيحا مايزعمه مفكرو الاتحاد السوفييتى من أن المجتمع السوفييتى أصبح طبقة واحدة ، وإنما الصحيح أنه أقام ديكتاتورية الحزب الواحد ليقف حارسا يمنع ظهور الطبقات التى دمرها وقضى عليها من أن تعود ونظام الحزب الواحد يتنافى والديمقراطية ، فهو كالطريق ذى الاتجاه الواحد الذى لاينفذ لاتجاهه المضاد ، ومعنى إنفراد حزب واحد بالحكم ، استئثار نفسى بالسلطة وعدم قبول النقاش أو الجدل أو المعارضة .. وهكذا تصبح حرية الرأى وسائر الضمانات التى يكفلها شبحا وصورة بعيدة عن الواقع ، والواقع أن نظام الحزب الواحد يقضى على حريات الأفراد وحقوقهم ويخضع كل أنواع

---

(١) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (١٤٣) .

النشاط الضرورى لنشاط الحزب فلاحرية رأى ، ولاحرية إجتماع ولاحرية تكوين الجمعيات ولايسمح بوجود معارضة داخل الدولة ويقيد الحريات بقيود عنيفة تصل إلى درجة إلغائها ، ولايسمح إلا بقيام حزب واحد يكون سناد الديكتاتور وعماده فى تنفيذ سياسته ... ويلجأ أنصار النظام الواحد فى الأنظمة الديكتاتورية إلى اتباع وسائل معينة يقصد منها أن تنسى الشعوب آلامها وتتلهى عن حقوقها المهضومة وحالتها الأليمة إذ الحزب يعلن بين الحين والآخر عن مبادىء خلابة تؤجج حماس الأفراد وتزكى الحمية فى نفوسهم وتدفعهم إلى الالتفاف حول الحزب إلى أن تنكشف حقيقته ...)[١].

وبناء على هذا فإن مايدعونه من قولهم بأن العمال هم أصحاب الحكم لاأصل له . فلو نظرنا إلى من يحكم الاتحاد السوفييتى لوجدناه أحد خريجى المعاهد المتخصصة فى الدراسات الشيوعية ، فلم يكن لينين عاملا ولاستالين ولاخروشوف ولابريجنيف ولايتوقع أحد أن يأتى عامل من المصنع أو المزرعة إلى الحكم ، إنما هو استغلال لهم ودغدغة لأحلامهم وتكون الشيوعية بحق هى أفيون الشعوب[٢].

وهكذا يثبت أن هذا النظام كان دكتاتوريا ويمثل هذه الدكتاتورية الحزب الشيوعى ، وإن مادعوه من تحقيق دكتاتورية الطبقة العاملة كان خداعا وزيفا يرتقون من خلاله إلى تحقيق غاياتهم .

ومما يجدر بنا ملاحظته هو أن النظام الدكتاتورى لايمكن استمراره وبقاؤه وذلك لأن الناس لايمكن أن يسكتوا جميعا كل الوقت على الظلم والاعتداء على حرياتهم وحقوقهم التى فطروا عليها .

---

(١) شهادتى للتاريخ (٣١٣-٣١٤) ، وانظر المعبود الذى هوى (٢٤٠) .

(٢) انظر : فوق أطلال الماركسية (٥٢) ، أفكار ماركسية فى الميزان (٨٠-٨١) ، طارق حجى ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، مطبوعات الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية وقد أجرى استفتاء فى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٦٦م وكان السؤال (مصالح من يمثل الحزب الشيوعى حسب رأيك؟ فكان نصيب مصالح العمال ٢٪ ، والفلاحين ٢٪ ، والمثقفين ٢٪ ، ومصالح الجهاز ٨٥٪ . انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٤٢٨) ولاحظ أن تاريخ الاستفتاء كان متأخرا .

و(بانهيار هذه الفكرة تنهار السياسة الماركسية ، وينهار التنظير السياسى الأساسى الذى صاغه ماركس وانجلز ولينين وسائر الماركسيين لأكثر من قرن من الزمان ، فبدون دكتاتورية البروليتاريا لن تصفى الطبقات الأخرى ومن ثم لن تصل البشرية إلى عدم الطبقية)[١].

خامسا : أن النظام الدكتاتورى سواء كان فى يد الطبقة العاملة ، أو فى يد الحزب الشيوعى فإنه نظام فاسد نظرا لما يحمله بين جوانبه . ومن مفاسد هذا النظام :

(أ) استبداد الحاكم واغتصابه لإرادة الأمة . ويعتبر الاستبداد السياسى من أخطر الأمراض التى تصيب الأمم فى مقتلها وتقعدها عن التقدم والازدهار .

(ب) الحكم الاستبدادى يستمد قوته من نشاط وقوة البوليس السرى والعلنى مما يذهب ميزانية الدولة على مؤسسات خاصة يمكن الاستغناء عن كثير منها وانفاق مايوجه لها على مايعود بالنفع على الشعب[٢].

(ج) من مفاسده الظلم والطغيان والاجرام وارتكاب الحماقات وهذا ماحصل فى الاتحاد السوفييتى حيث إن ستالين قتل من كان مشاركا فى إنجاح الثورة ، كما قتل مجموعات كبيرة فى حركات التطهير فى الثلاثينات . كما أن هذا النظام لايعرف الأواصر ولاالروابط ويربى الإنسان فيه على خدمة هذه الدكتاتورية .

(د) أن الدكتاتورية ضد الديمقراطية ولايمكن أن يجتمعا . وبالتالى فإنه لاحرية مع دكتاتورية .

يقول لويس فيشر : (ولن تجد دكتاتورية فى العالم منطوية على شىء من الديمقراطية ، وليست فى الدكتاتوريات إطلاقا بذور الحرية ... إن الدكتاتورية السوفيتية ظلت مقفرة من البقول والأغذية ، لأنها قد ظلت

---

(١) أفكار ماركسية فى الميزان (٨٣) .

(٢) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٨٣).

مقفرة من الحريات ، إذ لاسبيل إلى ضمان مادى ، ولاإلى ديمقراطية إقتصادية مالم تتوافر الديمقراطية السياسية . وإن اعتقال ملايين من الخلق فى معسكرات السوفييت وسجونه عقب انصرام ثلاثين عاما على بداية الثورة لهو فى الحق سخرية من كل إدعاء بأنه توافرت فيه الديمقراطية السياسية والإقتصادية . وليس ثمة أيضا أقل بادرة على أن هذه الدولة "البوليسية" آخذة فى الذبول والفناء بل ، بالعكس ، كل تطهير فيها يخلق ساخطين جددا ، ويستوجب تطهيرا آخر ، وهكذا ينقلب التطهير غير المشروع سلاحا دائما فى يد الدكتاتور ضد الشعب .

ولاتتوافى الحرية فى ظل الدكتاتورية . إذ ليست هناك حقوق ثابتة لاتبديل فيها ولاتحويل . فإن للدكتاتور من كثرة القوة . وللفرد من ضآلتها مايبيح للأول أن ينزع أى حق يعطيه . ويسترد أى شىء هو واهبه ...)[١].

ويقول : (إن الدكتاتورية مستوية على بحر من الدماء ، واوقيانوس من الدموع ، وعالم من الآلام ، وهى كلها نتائج وسائلها القاسية فكيف إذن يتوافى لها أن تكفل الرغد أو الحرية أو الطمأنينة ظاهرة وباطنة.؟؟ بل كيف يتهيأ للخوف والإرغام والكذب والعسف أن تصنع إنسانا أحسن حالا ...؟؟

لقد علمتنى الأعوام التى قضيتها فى مناصرة السوفييت أنه لايصح لامرىء يحب الناس ويريد السلام أن يناصر دكتاتورية ما ، وأن قيام نظام إجتماعى ينادى بالحرية ولكنه مع ذلك يحد منها ليس سببا يبرر اعتناق مذهب يدمر الحرية تدميرا ، ويقضى عليها قضاء مبرما ...)[٢].

إن الدكتاتورية سبب مباشر فى مصادرة حرية الرأى والفكر ، والتعبير[٣]، وتكميم الأفواه ، وتؤدى إلى فقدان الثقة بين الشعوب

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٩٤) ، وانظر : الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٧٤) شهادتى للتاريخ (٢٥٩) .

(٢) المعبود الذى هوى (٢٩٥) .

(٣) انظر : سقوط الماركسية (١١١) ، ولمزيد عن ذلك انظر : إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٨٤) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٥٦) .

والحكام[١].

(هـ) فى ظل هذا النظام يشيع الخوف ، والذل ، والمهانة ، والخداع ، والخنوع[٢].

ولأجل ذلك لايستطيع أحد أن ينتقد السياسة أو القادة خشية البطش به . فمثلا لم يكن فى مقدور أحد أن يقوم بعزل ستالين (ولاتجرأ أحد على كشف أخطائه فى حياته بل ظلت أبواق الشيوعية تعرض مظالم عهده بأنها "العدل التاريخى العظيم" ونعتوه بأنه الملتزم الحقيقى بالماركسية الكلاسيكية ، ولكن الصحافة الإشتراكية نفسها اعترفت بعد مماته بأنه كان أكثر الناس ظلما فى تاريخ البشرية و(إن أنانيته كانت قد اكتسبت أبعادا منفرة فى أواخر عهده ، فظن أنه فوق الحزب وفوق الشعب ، ولم يعد يعبأ بآراء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وأخذ يحكم بالأسلوب الدكتاتورى)[٣].

(و) أن الدكتاتورية توغل الصدور بالأنانية الفردية وتقضى على كافة الفضائل الأخلاقية .

يقول عبد الرحمن حبنكة : (لما كانت الحركة الشيوعية تعتمد على عنصرى الاستبداد المطلق "الدكتاتورية المتناهية" والوسائل غير الأخلاقية ، فإنها غير مؤهلة بطبيعتها لأن تحقق أهدافا خيرة لصالح الإنسانية ، مهما طال بها العهد ، ومهما توطن لها الحكم ، هذا شأن الشيوعية حتى لو سار الشيوعيون بقناعة إلى تحقيق أهداف يتصورونها إنسانية نبيلة . فالاستبداد المطلق لايكون إلا خادما للأنانية الفردية ، وسلاحا فتاكا فى أيدى مصالح المستبدين الشخصية ، لاسيما إذا لم يكن لهم من الإيمان بالله والخوف من عقابه عاصم .

---

(١) انظر أوضاعنا السياسية (٢٠٤-٢٠٥) .

(٢) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٨٦) .

(٣) مجلة Soviet Land "الرسمية" عدد ١ يونيو ١٩٥٦م نقلا من كتاب سقوط الماركسية (١٢٢) ، وانظر الإسلام وحقوق الإنسان (٢٦٢-٢٦٣) .

واستخدام الوسائل غير الأخلاقية المناقضة للفضائل بالهمجية المجرمة تورث نفوس مستخدميها شراسة سوداء ، وتقتلع منها جذور الأهداف السامية والغايات النبيلة ، لأنها مناقضة لها ، فهى لاتجتمع معها بحال من الأحوال)[١].

(ز) أن الدكتاتورية تفضى إلى وجود الطبقات وإلى البذخ والإسراف والمبالغة فيه .

وهذا ماحدث فى الاتحاد السوفييتى حيث كان قادة الحزب فى برج عاجى بينما أفراد الشعب لايكادون يملكون قوت يومهم . وهم بهذا - أعنى الشيوعيين - يشكلون طبقة وبقية المجتمع ينقسمون إلى عدة طبقات.

يقول دجيلاس : (وقمين بالذكر أن الزعماء الشيوعيين يتزعون إلى الإسراف والبذخ ، والقابضين على أزمة الحكم يشعرون بالحاجة الدائمة للظهور بمظهر أصحاب السلطان ليميزوا بمكانتهم كنماذج للعظمة والذكاء . وهذا مايقود كنتيجة منطقية لنزعة الزعماء إلى الظهور والنفعية ، وحب السلطة ، وتفشى الفساد التى هى من الأمور الطبيعية فى الأنظمة الشيوعية . وهذا الفساد المستشرى ليس مرده فساد ذمم الموظفين نتيجة الفساد العام فحسب ، وإنما علته الكبرى تمركز سلطة الحكومة فى أيدى فئة سياسية معينة وإن هذه الحكومة هى صاحبة جميع الامتيازات ، ونتيجة لكون الحكومة والحزب متماثلين مع الدولة ، ويعنيان حق التمتع بالممتلكات ، فإن الدولة الشيوعية تنفسخ بصورة ذاتية ، وتفسد أجهزتها بشكل تلقائى ، لأنها تجد نفسها مضطرة لإنشاء امتيازات ومناصب لفئات طفيلية . هذا وقد وصف أحد الشيوعيين اليوغسلاف الجو الذى يعانيه الشيوعى النظامى بقوله : (إننى أجد نفسى مقطعا إلى ثلاثة أشلاء : إننى أسرح نظرى بمن لديهم سيارة أفضل من سيارتى ، فأجدهم ليسوا أكثر إخلاصا وتفانيا منى للحزب وللإشتراكية ، ولكن عندما أتطلع إلى أولئك الذين ليس بمقدورهم أن

---

(١) الكيد الأحمر (١٩) .

يقتنوا السيارات فأجد نفسى موفور الحظ بالسيارة التى أملكها)[١].

ولو نظرنا إلى خصائص الدكتاتورية لوجدناها إجمالا كما يلى :

(١) شخصية السلطة[٢].

(٢) نظام جديد مؤقت[٣].

(٣) تركيز السلطة[٤].

(٤) انعدام الرقابة والمسئولية[٥]على الجهة المتسلطة .

(٥) سياسة القوة والعنف[٦].

(٦) النظام الجماعى الموجه لصالح الدكتاتور[٧].

(٧) نظام الحزب الواحد[٨].

(٨) القضاء على حقوق الأفراد وحرياتهم[٩].

(٩) وترى الأنظمة الدكتاتورية أن الدولة هى القيمة الوحيدة المطلقة فى الحياة الإنسانية ، وهى إرادة الله تعالى فى الأرض وأوجز عبارة عن الدولة عندهم (لاشىء خارج الدولة ، ولاشىء ضد الدولة ، ولاشىء فوق الدولة)[١٠].

---

(١) الطبقة الجديدة (١١٥-١١٦) .

(٢) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (١٨-١٩) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٥) .

(٣) انظر المرجع السابق (١٩) .

(٤) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (١٩) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٥) .

(٥) انظر المرجع السابق (٢٠-٢١) .

(٦) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (٢١) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٨) .

(٧) انظر المرجع السابق (٢١) .

(٨) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (٢٢) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٧) .

(٩) انظر : القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثانى (٢٢-٢٣) ، الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٧) .

(١٠) الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٠-٢٣١) .

(١٠) من خصائص الدكتاتورية أنها تقوم على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة[١].

وهكذا يتبين فساد هذا النظام سواء كان فى يد أقلية أو أغلبية ، فى يد فرد أو فى يد الدولة .

بطلان مزاعمهم فى دعوى تحقيق حق الانتخاب :

ومما يدل على مصادرتهم حق الحرية السياسية أنهم ادعوا أن الأنظمة الأخرى الديمقراطية لم تحقق ذلك فعلا ، وإن ادعت تحقيقه ، بينما الشيوعية نصت على ذلك فى دستورها وطبقته فى واقعها ، غير أن هذا القول لايقوم عليه دليل ولايسنده واقع . ويمكن كشف زيفه وخداعه بالآتى :

أولا : أن الدستور ينص على أن الحزب هو الذى يمتلك حق الترشيح للانتخابات النيابية . (إذ أن المواطن هناك لايملك حق ترشيح نفسه بنفسه)[٢].

فالحزب هو صاحب السيطرة والكلمة فيما يتعلق بالترشيحات ، وقد مر أن الحزب الشيوعى قضى على سائر الأحزاب .

ثانيا : تصريحات القادة الشيوعيين وإجراء الانتخابات الصورية المغلوطة أو الموضوعة سلفا .

يقول لينين عام ١٩٢٢م : (يجب أن يعرف شعبنا ، أننا لن نسمح بقيام مجالس نيابية يستطيع خصومنا أن يجدوا لهم مكانا فيها ... فنحن لانمنح الحرية السياسية ، لخصومنا وأعدائنا)[٣].

ويقول ستالين : (إن دستورنا السوفييتى ينص على منح الحرية للمواطنين ولكن يجب أن يكون مفهوما ، أن هذه الحرية لاتعنى حق الوقوف فى وجهنا ، أو حق تقويض نظامنا ، أو حق الثورة ضد النظام الشيوعى ، أو حق انتقاد المبادىء الماركسية ، أو حق تكوين الهيئات المناهضة لنا ...

---

(١) انظر الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٣٨) .
(٢) القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٣٣) .
(٣) إشتراكيتهم وإسلامنا (٧٤) .

إن هذه الحرية التى ينص عليها دستورنا السوفييتى ، لاتعنى إلا شيئا واحدا ، هو حق "ديكتاتورية البروليتاريا" فى الاستمتاع بالحرية التى تكفل لها تحقيق الأهداف الشيوعية)[١].

وقد ثبت لنا أن الدكتاتورية قد تحققت فعلا ولكن لمن؟ إنها لأعضاء الحزب ، لاللعمال المستضعفين الذين قامت الشيوعية من أجلهم!!

ثالثا : عندما كان الحزب الشيوعى يقبض بيد من حديد على كل المنظمات السياسية وغيرها ، فإنه من المستحيل أن تكون هناك حرية ونزاهة فى الانتخابات ، ولأجل ذلك كانت الصحف السوفيتية تقوم بالاعلان للانتخابات وتطلب من المواطنين الإدلاء بأصواتهم ويختاروا مرشحيهم ، ولايدع أحد الفرصة تذهب عنه فى اختيار حكامه وتوجيه سياسة حكومته ، وفى يوم الانتخاب يدلى ٩٩٪ ممن لهم حق الاقتراح حسب ماتقول المصادر السوفيتية بأصواتهم ، ويدلون بها جميعا بلااستثناء تقريبا لمرشح واحد لأنه لاتوجد إلا قائمة واحدة أمام الناخبين ويتحول الانتخاب إلى عمل مسرحى يعرض على المواطنين[٢]. بل إن بعض حكومات الدول الإشتراكية تعلن أنها حصلت على مائة فى المائة من الأصوات فى الانتخابات ثم تزج بألوف مؤلفة من المواطنين فى غياهب السجون . وماذلك إلا دليل على أن تلك الدول قد قضت على حرية البشر وأن كل الأبواب القانونية والديمقراطية قد سدت فى وجه المواطن[٣].

ويصور فارغا ذلك الوضع فيقول : (إن هؤلاء النواب لايرشحون من قبل السكان أنفسهم ومنظماتهم الإجتماعية ومن قبل رأى الشغيلة العام ،

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (٧٦) ، وانظر (٧٣-٧٤) .

(٢) انظر : التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٣٠٥-٣٠٦) ، الحريات العامة (٢٦٥) ، سقوط الماركسية (١٤٠-١٤١) .

(٣) انظر سقوط الماركسية (١٤٥) .

وإنما يرشحون سرا من قبل هرم الحزب البيروقراطى ، أما السكان فيلزم عليهم أن يدعموهم وأن يصوتوا لهم . ولاتتألف السوفيتات من بيروقراطى الحزب فحسب ، وإنما أيضا من نواب آخرين ترشحهم الأرستقراطية مكافأة لهم على ماقد يكونون أدوه من خدمات للمجتمع وعلى استعدادهم للانصياع للسلطة وهؤلاء النواب أعضاء فى مختلف شعب اللجان التنفيذية ، وهم يشاركون فى مناقشة هذه أو تلك المشكلات التى تكون قد طرحتها وحلتها سلفا قيادة الحزب البيروقراطية التى على رأس تلك الشعب واللجان التنفيذية وأحيانا الدوائر الحاكمة العليا بنفسها ، والنواب العاديون عاجزون مطلق العجز عن تغيير أى شىء ، كائنا ماكان ، بمبادرتهم وفطنتهم ، ووظيفتهم الأساسية أن يكونوا صلة الوصل مع السكان ، وأن يتلقوا الطلبات والشكاوى ذات الطابع الشخصى فى غالب الأحيان ، وأن يرفعوها إلى السلطة البيروقراطية ، من دون أن تلبى أصلا بصورة آلية .

والشىء نفسه ينطبق على النواب المنتخبين لمجلس السوفييت الأعلى ، فهم يحضرون جلساته ويدلون بكلمات بصدد مشكلات مقدمة ومعدودة سلفا من قبل دوائر الحزب . ودورهم الدائم أن "يوافقوا دائما على رأى الآخرين" بصورة شكلية محضة أو أن يكيفوا القرارات مع حاجات مجالاتهم الإقليمية والمهنية ، هكذا تتحول انتخابات هؤلاء النواب بالذات إلى شكليات محضة ، خاوية من كل مضمون ، وإلى محاكاة سافرة للديمقراطية السوفيتية .

فالسكان ينتخبون مرشحين اختارتهم سلفا دوائر الحزب ، ثم إنهم ينتخبون نائبا واحدا عن مرشح ممكن واحد . ولما كان الشعب يفهم ذلك كله ، أو على الأقل يتحسسه ، تراه يذهب بكل وداعة إلى صناديق الاقتراع ليؤدى واجبا مدنيا شكليا من دون أن يكترث البتة بنتائجه)[١].

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٦٦-٦٧) ، وانظر (٦٨) ، وانظر ماذكره غورباتشوف فى كتابه الإنقلاب (٨٢) .

وعلى هذا فنتيجة الانتخابات كما أرادها ذلك الفرد أو أولئك الأفراد لاكما أراده الشعب .

رابعا : أن الشيوعيين لو سمحوا بحرية الانتخابات ، واختيار الشعب من يريد فمعنى ذلك أنهم يحكمون على أنفسهم بالزوال .

يقول عبد القوى مكاوى : (لقد حكمت الشيوعية روسيا نصف قرن من الزمان ، ولى خلاله جيل وترعرع جيل ، وتاح لها من الوقت والمال ماتستطيع أن تبنى به العالم الذى تريد .. فهل تقدر على إجراء انتخابات حرة يقول الناس فيهاكلمتهم ضد هذا النظام أو معه؟ كلا .. لأن النظام فى روسيا يفرض نفسه بالتشريعات القاسية والأوامر العسكرية ولو تم الاحتكام إلى مشيئة العمال والفلاحين لأيقن النظام زواله من الوجود!!)[١].

ويقول وحيد الدين خان : (إن القادة الروس الشيوعيين لايجدون فى أنفهسم الجرأة لإجراء انتخابات حرة ، وذلك لأنهم على يقين بأنهم لو سمحوا بالانتخابات الحرة ، فسوف يطيح بهم الشعب بإدلاء ٩٩٪ من الأصوات ضدهم)[٢].

خامسا : أن مما يدل على القضاء على الحرية السياسية فى الاتحاد السوفييتى هو أن الإنسان لايستطيع ترشيح نفسه (مقارنة بالأنظمة الديمقراطية) وإنما يرشح من إحدى الهيئات التابعة للحزب . وعلى هذا الأساس فلاوجود للمعارك الانتخابية[٣]. ثم إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الشيوعية ماقامت إلا من أجل قضية العمال ، فكم يمثل العمال من نسبة أعضاء الحزب؟!

سادسا : ومما يدل على أن الحرية السياسية كانت مفقودة فى الاتحاد السوفييتى ، هو رغبة كثير من معتنقيها الفكاك من أسرها والهروب إلى

---

(١) شهادتى للتاريخ (٢٣٢) .
(٢) سقوط الماركسية (١٢-١٣) .
(٣) انظر القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٤١-١٤٢) وانظر (٦٩).

دول أوروبا الغربية (الرأسمالية)[١]. وإذا وجد أن أحدا أثنى على ذلك النظام أوبقى فيه فإنما هوالحصوله على المصلحة ، أو الرغبة فى الحصول عليها.

يقول آرثر كوستلر : (وقد أعاننى عامل نفسى آخر على مواصلة العمل فى خدمة الشيوعية عقب عودتى من روسيا ، وهو الاعتقاد الذى كان يشاركنى فيه صفوة صحبى وخيرة أصدقائى الذين تركوا الحزب اليوم أو فصلوامنه فقد كنا معصوبى الأعين، ولكننا لم نكن عميانا ، ولم يكن أشد المتعصبين للشيوعية بيننا يستطيع أن يغفل عن الواقع الملموس أمامنا ، وهو أن حركتنا لم تكن تسير بخير ، ولكنا مع ذلك لم نحاول يوما أن نتناجى أو نتكاشف بما كان يخالجنا من الشعور بأن الحزب لايحتاج إلى تطهير من الخارج بل هو أحوج مايكون إليه من الداخل . وأنت قد تستطيع أن تستقيل من ناد أو من حزب عادى إذا لم تعد سياسته تروقك ؛ ولكن الحزب الشيوعى كان شيئا يختلف عن سائر الأحزاب كل الاختلاف ؛ فقد كان بمثابة المقدمة أوالطليعة من الطبقة الكادحة أو إرادة التاريخ ذاته مجسمة ماثلة ؛ فإن أنت خرجت عليه عددت طريدا أو منبوذا "خلف الأسوار" ، ولن يكون لأى كلام تقوله أو عمل تحاوله أمل ما فى تغيير مجراه أو إحداث أثر فيه ، فمن الخير لك أن تبقى فى حظيرته، مقفلا فمك مخفيا مضضك ، مرتقبا اليوم الذى تصبح فيه روسيا والكومنترن بعد دحر عدوهما وانتصار الثورة العالمية على استعداد لأن يصبحا "ديموقراطيتين" ؛ وعندئذ يصح أن يدعى الزعماء للمحاسبة على تصرفاتهم ، من هزائم كان ممكنا تجنبها ، وتضحيات لم يكن شىء يستوجبها ، وحملة دسائس ومكائد قضت على خيرة رفاقنا وذهبت بأرواح الصفوة من إخواننا .

أما قبل هذا اليوم المرتقب ، فما عليك إلا أن تؤدى لهذه اللعبة حقها ، فتؤكد وتنفى وتقول وتردد ، وتأكل كلامك أكلا ، وتلعق بصقتك

---

(١) انظر الفشل الكبير (٣٠١) .

لعقا ، فذلك هو الثمن الذى قضى عليك أن تدفعه لكى تظل تشعر بأنك النافع المجدى ، ولكى توفر على نفسك احترامها ...)[١].

ومن هنا فلاغرابة من اهتمام الشيوعيين بالتربية التى يريدها الحزب حتى يكون العضو والمسئول الشيوعى على قدر كبير من الولاء والاخلاص لتأمن الحفنة المتسلطة على نفسها من خروج الشعب عليها[٢].

الرد على زعمهم توافر حق النقد فى الهيئات السياسية ومايسمونه "الديموقراطية الداخلية" :

إن هذا زعم باطل يرده واقع الحزب ودكتاتوريته . والأحداث التى كان يشهدها الواقع العام لدولة الاتحاد السوفييتى فيقال لهم :

أولا : أن هذا كلام نظرى لم ير النور وإذا طبق فهو يطبق فى نطاق ضيق (فهناك مواضيع لايجوز له أن يتناولها : ذلك شأن موضوع نطاق

---

(١) المعبود الذى هوى (٩٠-٩١) .

(٢) عن التربية فى مجال الحفاظ والتضحية من أجل الحزب انظر كتاب شيوعيون أمام المحاكم ، حيث وردت به عدة أقوال واعترافات ممن تعرضوا للقبض عليهم ، أو محاكمتهم تدل على تفانيهم فى خدمة الحزب والسير وفق رغباته . انظر (١٩،٢٢،٣٨،٤٢-٤٤،٨١) ومابعدها .
ومن الاهتمام بالفكر الشيوعى وبجعل العضو يعمل لصالح الحزب وضع الحزب الشيوعى شروطا وقواعد يسير عليها الشخص إذا وقع فى قبضة العدو ، ومن ذلك :
عدم اخبار العدو بما يجهله عن الحزب . انظر شيوعيون أمام المحاكم (١١٣) .
لاتفضى بشىء ولاتعد إلى إنكار شىء . انظر المرجع السابق (١١٤) .
تقليل الكلام فـ(بقدر مانقلل من كلامنا تقل حماقاتنا) . انظر المرجع السابق (١١٧) .
عدم التجاوب مع الشرطة والمحققين . انظر المرجع السابق (١١٩) ومابعدها .
معرفة الاقنون والاتهام معرفة عميقة .
جعل طابع الدفاع سياسى . انظر المرجع السابق (١٢٣) ومابعدها .
رفض المحامى المسخر . انظر نفس المرجع (١٣٢) ومابعدها .
(من الخطأ والحماقة أن لانتحدث إلا بعبارات شيوعية وأن نشتم المحكمة ...) . المرجع السابق (١٣٥) .

الحكم ذاته والسياسة العامة للحكومة ، والزعماء ، فهذه المواضيع جميعا لايجوز أن يتناولها ذلك النقد . إن النقد ـ كما يقولون ـ يجب أن يكون "بناء" وهم يقصدون بذلك أن يكون مقبولا فى أعين الهيئات الحاكمة)[١].

ثانيا : ماهى الحادثة التى ثبت فيها الانتقاد لسياسة الحزب أو أحد زعمائه ولم يكن مصير صاحبها النفى أوالاعدام أو السجن أو الاضطهاد؟ لم يذكر تاريخ الاتحاد السوفييتى وبالذات فى سنواته الأولى وتحديدا فى حكم ستالين الدكتاتور أى مثال يدل على تحقيق هذه السياسة . وإذا ماقدر أن سمح بالنقد فإنه يكون لأمور تافهة لاتمت إلى السياسة بصلة فينفخ فيها حتى تنسى القضايا الكبار ، ثم يستنتج من تلك المسائل التافهة أمور يشيب لها الولدان[٢].

ثالثا : إذا كان الحزب الشيوعى يرى أحقية النقد ويعلن أنه يحققه للفرد ، فلماذا يعتبر الناقد لسياسة الحزب مخربا ، محرفا ، إنتهازيا .

يقول آرثر كوستلر : (كان من القواعد الأساسية فى روح النظام الشيوعى أن كل انتقاد يوجه إلى قرار اتخذه الحزب ، بشأن سياسة معينة ، أو تصرف من التصرفات ، فى مسألة من المسائل ، يعد "تخريبا" ، ويوصف الناقد بأنه من "المنحرفين" أو "المنشقين" ، وكانت المناقشة مسموحا بها جائزة قبل صدور القرار ، ولكن القرارات إنما تأتى من فوق ، وتهبط من السماء ، دون الاستئناس بآراء أية هيئة تمثل الدهماء ، أو عامة الأعضاء ، فليس لهؤلاء إذن نفوذ ما أو شأن فى السياسة وتكييفها ورسم خططها ولاأمل لهم فى التعبير عن آرائهم ، ولكن لاتنس أيضا أن الزعامة محرومة من الوسائل التى تستطيع بها أن تقيس نفسية الجماهير وتتعرف وجهتها ، حتى لقد أصبح من الكلام السائر قولهم "إن الخط الأمامى ليس مكانا للمناقشات" ، أو

---

(١) القانون الدستورى والنظم السياسية (٧٣) .

(٢) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٧٠-٢٧١) .

قولهم "أينما يقف شيوعى ، فهو أبدا فى الخط الأمامى")[١].

كما أن السلطات الشيوعية اعتبرت كل من يعارض أى أمر صادر عن الحزب يعد مصابا بمرض عقلى.[٢]

إبطال دعواهم فى دفاعهم عن أنفسهم بانتقادهم الديمقراطية الغربية[٣]:

انتقد الشيوعيون الديمقراطية الغربية ، وذكروا أنها ليست ديمقراطية حقيقية . ولكن وكما يظهر من الواقع أن الديمقراطية الغربية حققت لشعوبها أكثر مما حققته الشيوعية لرعاياها ، وبالتالى فإن انتقادهم ذلك ليس فى محله للتالى :

أولا : قولهم أنها ليست ديمقراطية كاملة بل سياسية فقط .

فيقال لهم : وماهى الديمقراطية التى حققتموها أنتم؟!! فعلى الأقل وجد نوع من الحرية تحقق للإنسان فى ظل النظام الرأسمالى ، أما أنتم فلم تحققوا لشعبكم ولاجزءا من حرية واحدة اللهم إلا الدعوة ضد الدين . فالديمقراطية الغربية حققت شيئا ونظامكم الشيوعى لم يحقق شيئا .

ثانيا : قولكم إن الديمقراطية الغربية الذى يحكم فيها هم طبقة البرجوازية المستغلة . هذا عين ماوقعتم أنتم فيه فإن طبقة الحزب أشد الطبقات سيطرة وظلما .

ثالثا : قولكم أن الديمقراطية البرجوازية كانت مجرد إدعاء ، فنحن نقول لكم إن واقعكم كان مناقضا لنظرياتكم بل إن الواقع دوما أحد الأسباب التى تبطل كثيرا من أفكاركم .

وعلى العموم فإن (الشيوعية بتطرفها والديمقراطية بعدم كفايتها عجزتا عن تحقيق الهدف ، حيث غاب عن كل منها ماتوصل إليه الآخر وتمسك

---

(١) المعبود الذى هوى (٦٩-٧٠) .

(٢) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٦٧) .

(٣) وهذا ليس دفاعا عن الديمقراطية ولكن لنتبين أن النظام المعاكس للشيوعية كان أكثر رحمة ورأفة بالناس من النظام الشيوعى الذى ماقام - كما زعم أصحابه - إلا لإزالة الظلم وتحقيق العدالة .

بموقفه من الحرية ومفهومه لها ، ووصل كلاهما إلى أحد جوانب الحرية دون الجانب الآخر ، مع أنه كان الواجب أن تراعى كل منهما أن الحرية لاتحقق إلا باحتواء المعنى السياسى والقانونى إلى الجانب المادى والإقتصادى معا)[١].

وبعد هذا نقول إن الدولة السوفيتية أصبحت شبحا مخيفا بعد الإدعاء بأنها ستكون حامية العمال والمدافع عنهم وعن حقوقهم[٢]، حيث أصبح الأمر بيد القلة والاضطهاد والظلم واقع على الكثرة ، والغريب أنه يقع عليهم باسمهم .

وإمعانا فى بيان مصادرة الحرية السياسية من قبل الشيوعية أبين هذه الجوانب المختصرة فى النظامين الشيوعى والإسلامى لنرى الفارق وعدم الالتقاء بين الإسلام والشيوعية .

أولا : أن الحاكم فى الإسلام هو الله تعالى وبيده الرزق والحياة والموت ، وماالإنسان الذى يقوم برعاية أمور الناس إلا عبد مأمور للقيام بتنفيذ أوامر الله تعالى وحكم الناس بها وتحقيق العدل الذى أراده المولى جل وعلا .

أما فى النظام الشيوعى فإن الحاكم والمعبود هو الحزب الشيوعى أو صاحب السلطة الدكتاتور إن كان استطاع كسر وقمع كل صوت قد يرتفع ضده كحال ستالين .

يقول د. السيد صالح : أما (الإنسان فى ظل الأنظمة الشيوعية ، فهو إنسان مهين ، لأنه يؤمن أن الأمور كلها بيد الحاكم ، رزقه وأجله وسعادته وشقاوته ، ومن هنا يتنازل عن حقوقه ، ويأخذ الحاكم فى نظره مكان الإله وماأتعس هذا الإنسان الذى يستذل نفسه لبشر مثله لايملك من أمر نفسه شيئا . ومن هنا فلامساواة بين الناس ، ولاكرامة لأحد سوى الحاكم وحكومته ، وأما سائر الناس فهم عبيد لسيدهم الذى يقرر لهم مايراه من حقوق ويسلب منهم مايريد من هذه الحقوق)[٣].

---

(١) ضمانات الحرية (٨٩) .
(٢) انظر عن هذه المعانى المزعومة ، التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤٠٩-٤١٠) .
(٣) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٠١-٣٠٢) .

ثانيا : اختيار الحاكم .

فى نظام الإسلام السياسى يكون الاختيار حسب ماقرره جل وعلا : {**وشاورهم فى الأمر**}(١).

وقوله تعالى : {**وأمرهم شورى بينهم**}(٢).

وأما فى النظام الشيوعى فالحاكم يفرض فرضا ومهمة الشعب أن يؤيد وينتخب ويوافق عليه إذ أنه ليس أمامهم غيره أصلا ، ولقد كانت تكاليف وصول الشيوعيين للسلطة كبير جدا ، وهذه التكاليف دفعتها الشعوب المظلومة المغلوبة على أمرها وكان للحزب الشيوعى الثمار ، ومن هنا نلحظ أن قيام الحاكم وحاشيته كان بالقوة والقهر والعنف والقتل والتشريد(٣).

---

(١) سورة آل عمران : (١٥٩) .

(٢) سورة الشورى : (٣٨) .

(٣) يقول بريجنسكى عن التكلفة البشرية للشيوعية : (لقد ضمت الكلفة البشرية الأصناف التالية :

١ ـ مجمل الاعدامات أثناء عملية الاستيلاء على السلطة ويمكن تقدير هذه الاعدامات ، بدون حساب لقتلة معارك الأعمال الحربية المدنية والثورية ، على الأقل بمليون شخص فى الاتحاد السوفييتى ، وعدة ملايين فى الصين ، وحوالى مائة ألف فى أوروبا الشرقية ، ومائة وخمسون ألف على الأقل فى فيتنام .

٢ ـ اعدامات المعارضين السياسيين والمقاومين بعد الاستيلاء على السلطة ، وتحدث هذه الاعدامات بالعادة خلال عدة سنوات أثناء تعزيز الشيوعيين سيطرتهم على البلاد . ويجب وضع تقدير تقريبى لهذه الأرقام على نفس مستوى الصنف الأول ، مقدمة مجموع على مركب للصنفين الأولين بحوالى ٥ مليون إنسان .

٣ ـ إعدام أشخاص ينتمون إلى أصناف مختلفة من المجتمع ويعتقد أنهم معادن للنظام داخليا ، وبصرف النظر عن المواقف الحقيقية لهؤلاء الضحايا . وتضم هذه المجموعات الضباط العسكريين السابقين ، والمسؤولين الحكوميين السابقين ، الأرستقراطيين ، أصحاب الأرض ، الكهنة ، والرأسماليين . فقد أعدم معظمهم ، ووضع آخرون فى معسكرات الاعتقال ، حيث اختفت أكثريتهم . ويجب أن تكون التقديرات كبيرة ، حتى أن الكشوفات السوفيتية والأوربية الشرقية والصينية تظهر أن المجموعات الاجمالية كانت ضخمة ، وبالتأكيد لاتقل عن ٣ ملايين إلى ٥ ملايين إنسان . =

.....

= ٤ ـ تصفية الفلاحين المستقلين . وكان هذا النوع من التصفية الجسدية للمزارعين الأغنياء المالكين فى الاتحاد السوفييتى من خلال الاعدامات ، والموت فى معسكرات الاعتقال . وأقل تقدير لهذا النوع من المصائب ، بالنظر إلى الأرقام السوفيتية والصينية والتى تصل إلى عدة ملايين ، والأرقام الكورية الشمالية والفيتنامية والتى تصل إلى عدة مئات من الآلاف يجب أن يزيد عن ١٠ ملايين إنسان .

٥ ـ المصائب المترافقة مع الترحيل الشعبى ، وإعادة الاستيطان القهرى . فلقد أفرزت هذه السياسات ، والتى أحدثت فى سياق عملية التجميع فى الاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية ، وخصوصا فى الصين أثناء الحملة ضد أصحاب الأراضى الزراعية ، وأثناء إنشاء الكنتونات الفلاحية فى سياق عملية الخطوة الكبيرة إلى الأمام ، المجاعات الكبيرة والأمراض الوبائية ، وكوارث أخرى مختلفة . ويجب أن يؤخذ أى تقدير فى الحسبان ، السياسة السوفيتية فى ترحيل الأشخاص المشبوهين من غير الروس ، مثل العديد من الليتوانيين والأيستونيين والاتفانيين ، من جمهوريات البلطيق ، والبولنديين من المناطق الغربية للاتحاد السوفييتى ، والتشاد من القرم ، وغيرهم إلى مناطق بعيدة من سيبريا . وتتراوح التقديرات السوفيتية الأخيرة لعدد الضحايا بين سبعة ملايين إلى عشرة ملايين انسان فى الاتحاد السوفييتى فقط ، بينما وضعت بعض التقديرات الأخيرة فى الصين الرقم الإجمالى بحوالى ٢٧ مليون إنسان ، ويمكن أن يصل المجموع إلى رقم حذر ولكن بنفس الوقت مرعب على الأقل ٣٠ مليون إنسان .

٦ ـ الاعدامات والموت فى معسكرات الاعتقال للشيوعيين غير المرغوب فيهم ، ويمكن تقدير عدد الشيوعيين المعتقلين فى الاتحاد السوفييتى فى مجال الصراعات على السلطة والتنظيفات المختلفة ، وبعد ذلك التصفيات الجسدية بين عامى ١٩٣٦م و١٩٣٨م بأكثر من مليون شخص دون شك . ولقد اعتقل وقتل عشرات الآلاف فى أوروبا الشرقية فى أواخر الأربعينات ، وبداية الخمسينيات . ولقد لقى عدة ملايين نفس المصير فى الصين ، وخصوصا أثناء الثورة الثقافية .

٧ ـ الفزع والذعر الجسدى والنفسى من الاعتقال والأشغال الشاقة الطويلة الأمد فقد أظهر العفو العام فى الاتحاد السوفييتى فى أواسط الخمسينيات اطلاق سراح عدة ملايين من الأشخاص الذين أمضوا فى بعض الحالات مددا تصل إلى عشرين سنة مسجونين تحت ظروف قاسية وأليمة . وقد حدثت اعفاءات عديدة فى أوروبا الشرقية بعد إدانة خروشوف لستالين عام ١٩٥٦م ، وكذلك حدث فى الصين بعد انتهاء الثورة الثقافية فى بداية السبعينيات . =

ثالثا : العقوبة .

إن النظـام السياسى الإسلامى ينظر إلى أفراد الشعـب أن الأصل فيهم براءة الذمة . وبهذا فالمتهم برىء حتى تثبت إدانته . وإذا ثبتت فالعقوبة على قدر الخطأ لاأكثر .

وقد أفاضت الشريعة الإسلامية فى تقدير الجنايات ووضع العقوبات لها لتستقيم حيـاة الناس . ومالم يرد فيه شىء فترك الأمر إلى القـاضى أو الإمام ليقيم العقوبة الرادعة (التعزير) .

أما فى النظام الشيوعى فالفرد مذنب حتى تثبت براءته . ويؤخذ الفـرد بالظنـة ويعاقب ، وبعد عقوبته يصبح مراقبا مطاردا . وإذا لم يعترف فـالويل له لأنه متهم معاند مصر . وإن اعترف فـالعقوبة والشبهـات تلازمـه مـاعاش وكل صغيرة أو كبيرة من فعل أو قول لابد وأن تفسر سياسيا ، وتفسر بأنها خيانة للحزب الشيوعى .

يقـول د. سيد الصالح فى ظل النظام السياسى الشيـوعى (المتهم مدان حتى تثبـت براءته ، وحتى بعـد ثبوت براءته يظل مطاردا ، يعـانى من تهمته البـاطلة حتى يقضى نحبه ، هذا على الرغم من أن العـدالة كانت هى الشعار الأساسى الذى نادى به ماركس وتغنت بها الثورة البلشفيـة ومازالت ترددها الأحزاب الشيـوعية المتـابعة لهـا فى كـل البلدان ، إلا أن الـواقع اليـوم فى روسيـا وسائر المجتمعات الشيـوعية هو نوع من الظلم السيـاسى والإجتماعى ولـذلك يقول الكاتب الآسيوى "مينوماسانى" (ونستطيـع القول أن الشيوعية

= ٨ ـ اضطهـاد عوائل ضحايا النظـام . فلقد كانت عائلات ضحـايا الأصنـاف الستة الأولى ، هـدفا للعقـوبات والتى تتراوح بين الاعـدام ، والسجـن ، الترحيـل ، والتمييز فى السكن ، والبطالة .

٩ ـ انتشار مناخ إجتماعى من الخوف والعزلة السياسية والشخصية .

لقد كانت الأصناف الإجتماعية ـ ماعدا العمال والفلاحين الفقراء ـ معرضة لمظاهر عدائية من طبقة المسؤولين خلال عهـد إعـادة بناء المجتمـع الشيـوعى القهرية) . الفشل الكبير (٣٠٥-٣٠٧) .

فى الوقت الحاضر قد أدارت ظهرها لكل فكره تمت عن التسامح والتقدم اللذين نادت بهما ثورة اكتوبر ، بل على العكس تماما نجدها قد استعاضت عن الحرية والمساواة الإجتماعية بنظام طبقى جديد يتميز بالبعد عن المساواة)[١].

رابعا : العدل .

النظام الإسلامى يوجب على الحاكم أو الوالى أن يحكم بالعدل بين الناس ولايفرق بين صغير ولاكبير ، ولاحقير ولاأمير . فكلهم سواسية لأنهم عند الله سواء لافضل بينهم إلا بالإيمان والتقوى .

أما النظام الشيوعى فإن الثورة البلشفية حملت فى شعاراتها تحقيق العدل ثم نصت عليه فى دساتيرها فهل حققت هذه العدالة للعمال؟!

إن واقع الاتحاد السوفييتى يرفض الإجابة بالإيجاب ، وكيف بالإمكان أن يتحقق العدل ، والفئة القليلة تتحكم بمصائر الخلق والدكتاتورية سبيلها والسيطرة وتحقيق الأهداف الذاتية غايتها؟! إن هذه التوجهات تمنع من قيام دولة عادلة ، ومن هنا غدت الشعارات التى رفعت أساليب خادعة ، وحيل ماكرة ، كان الهدف منها استنفاذ طاقات الطبقة العاملة ، لتحقيق الغايات للطبقة الحاكمة .

هذا بالإضافة إلى أنه من غيرالمنطق أن يوجد العدل فى دولة تسيطر فيها الطبقة الحاكمة على جميع السلطات سواء التشريعية أو التنفيذية ، أو القضائية .

إن الشيوعيين (زعموا أنهم إنما جاءوا لتطبيق العدالة الإجتماعية والقضاء على الظلم والاستغلال والاحتكار ، فإذا بهم يعيشون الظلم بأبشع أنواعه ، والاستغلال فى أسوأ صوره ، والاحتكار فى أردأ أقسامه)[٢].

---

(١) الماركسية من أبعادها المختلفة (٤٢) نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣١٢) .

(٢) وسقطت الماركسية (٢٠) .

لقد كانت العدالة الشيوعية تتمثل فيما تعتبره الدولة أو أجهزة الدولة[١]، فالعدالة ماأقره الحزب وأمر به دون النظر فى نتائجه .

إن انعدام العدالة فى الحكم الشيوعى كان نذير سوء لها فـ(إن الناس يرضون عن الحكومة يوم تكون مصالحهم فى ظلها مكفولة نامية ، ويوم تكون عقائدهم وآراؤهم محترمة مصونة .. فإذا نظر إنسان فرأى الحكم الشيوعى قد قلل دخله ، وضيق عيشه وإذا نظر فرأى أنه قد أهان دينه ، وصادر حريته فما الذى يحمله على الرضا بذلك الحكم المشئوم؟)[٢].

إن العدل فقد فى الاتحاد السوفييتى ، وأصبح الشعب يمثل مجموعة من العبيد يقومون بخدمة سيدهم[٣](الحزب) ، وكل أمر يصدر من هذا العبد يفسر سياسيا[٤]. فكيف سيكون حال هذا الشعب؟!

إن هذا الوضع الذى كان يعيشه الإنسان تحت النظام الشيوعى فى ظل انعدام العدالة ، جعله يتطلع دوما إلى البحث عن البديل ، فكما أنه بحث عن البديل بالنسبة للقيصرية الطاغية ، فكذلك كان حاله بعد أن انكشف زيف أفكار الشيوعية .

لقد كانت الأحلام تراود أفراد الشعب السوفييتى ولكن تبددت بالحقيقة والواقع المشاهد . وهكذا غدا واقع الاتحاد السوفييتى يدل على انعدام الحرية السياسية ، وزيف الأفكار والنظريات الماركسية ، وماكان الشعب ليصبر أكثر مما صبر ، أو أن ينتظر إلى أن يهلك فبدأ البركان يغلى من داخل هؤلاء وشعر القادة السوفييت بذلك فبدأوا بمنح شعوبهم شيئا من الحرية ، رغبة فى اسكاتهم ، والحصول على ودهم لتطول مدة بقائهم .

لقد كان القضاء على الحرية السياسية أحد الأسباب ـ مجتمعا مع بقية الحريات ـ التى أدت إلى تصدع البنيان الشيوعى ، بل ومن أكثرها ، لأن

---

(١) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٢) .
(٢) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٦٤) .
(٣) انظر العدل فريضة (٩) .
(٤) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٦٦-٢٦٧) .

الشيوعية عبرت عن نفسها بأنها السلطة السياسية فى يد الطبقة المضطهدة . ولكن كل ذلك تبدد وتبددت معه الأحلام ، فكان لابد من البحث عن مخرج من هذا الظلام الذى كان حالكا ، وفرض على الشعوب بالقوة والجبروت . فكان الهروب من المعسكرات الشيوعية ، والهمسات التى كانت تصدر هنا وهناك ، وقد استفحلت مما جعل قواد الدول الشيوعية يعيدون النظر فى أفكارهم ويعلنون التراجع والتغيير فيها تحقيقا لمصلحتهم وكسبا لشعوبهم .

وبعد هذا العرض أصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن الشيوعية اشتملت فى تنظيرها تحقيق الحرية السياسية ، وأن هذه الحرية ستتحقق عندما تصل البروليتاريا إلى سدة الحكم .

ثانيا : أن من المبادىء الأساسية للشيوعية القضاء على الطبقات وإقامة طبقة البروليتاريا (دكتاتورية البروليتاريا) .

ثالثا : أن الشيوعيين حكموا بأنفسهم على عدم تحقق مبادئهم وأهدافهم حيث كانت الدكتاتورية فى يد الطبقة الحاكمة من غير العمال .

رابعا : أن مبدأ الدكتاتورية سواء كان لطبقة العمال أو لغيرها نظام فاسد يقوم على التحكم والسيطرة .

خامسا : أن الديمقراطية الغربية التى تندر بها الشيوعيون حققت لشعوبها أكثر مما حققته الشيوعية لمواطنيها رغم أنها نظام فاسد .

سادسا : أن واقع الاتحاد السوفييتى يرد على زعم الشيوعيين تحقيق الحرية السياسية .

سابعا : أن الشيوعيين لو منحوا الحرية السياسية لشعوبهم لكان فى ذلك هلاكا لهم .

ثامنا : أن مما يدل على عدم تحقق الحرية فى الاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشرقية هو هروب كثير من الشيوعيين إلى بلاد أوروبا الغربية ، وكفر كثير من الشيوعيين بالشيوعية ، بعد انكشافها على حقيقتها .

تاسعا : أن الطبقة التى قامت من أجلها الشيوعية وهى طبقة العمال كانت أشد الطبقات اضطهادا فى الاتحاد السوفييتى ، ومما سيزيد ذلك إيضاحا فى فساد النظام السياسى الشيوعى عرضنا للنظام السياسى فى الإسلام باختصار .

(ب) الحرية السياسية فى الإسلام :

إن النظام الإسلامى نظام متكامل يحقق للفرد السعادة فى الدارين ، وعندما كان الإسلام قد منح الإنسان الحرية التامة المنضبطة بقواعد الشرع ، فإن من الحريات التى كفلها له الحرية السياسية . وهذه الحرية لاتخرج عن الإطار العام وهو أن تمارس فى الحدود الشرعية ، وأن تكون محققة للمصلحة بعيدة عن المفسدة . وقد اهتم الإسلام بأمور السياسة إهتماما كبيرا ، وأوضح تعالى أن الأمر لايستقيم إلا مع العدل ، ومن هنا كان لابد من الاهتمام بما يحقق ذلك ، ويرعى تطبيق شرع الله تعالى فى أرضه ، فكان لزاما من وجود من يقوم بهذا الأمر ، فجعل الإسلام ذلك من الأولويات التى تستقيم بها الحياة البشرية وهو اختيار الوالى أو الأمير للقيام بسياسة الناس حسب ماقرره جل وعلا وقرره رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونأتى لنبين أهمية ذلك وشرعيته . وسنجعل الحديث عن النظام السياسى فى الإسلام فى نقاط .

أولا : أن الإسلام أوجب إقامة الإمام .

جعل الإسلام إقامة من يقوم على أمر المسلمين أمرا واجبا ، ليقيم شرع الله تعالى فيهم ، ويأخذ للمظلومين بحقهم ، ليعم العدل ويستقيم الأمر.

وقد وردت الأدلة من القرآن والسنة التى توجب ذلك وتحث عليه ، فمن القرآن قوله تعالى : {**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**}(١).

وقوله تعالى : {**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولاتكن للخائنين خصيما**}(٢).

---

(١) سورة النساء : (٥٩) .

(٢) سورة النساء : (١٠٥) .

هـذا بالإضافة إلى الآيات الـواردة فى القصاص والحدود فـإنه لابد مـن وجود سلطة تقوم بتنفيذها .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : "من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"(١). والبيعة لاتكون إلا بوجود الإمام .

وقـوله صلى اللـه عليـه وسلم : "إذا خرج ثلاثة فى سفـر فليـؤمروا أحدهم"(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (فإذا كان قد أوجب فى أقل الجماعات وأقصـر الاجتماعات أن يولى أحدهم كان هذا تنبيهـا على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك)(٣).

ثم إن فعلـه صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك فقـد حكم بين الناس وأقام حدود الله تعالى ، واستعمل الصحابة رضى اللـه عنهم وعين الولاة ، وأرسل الجيوش وعقد الألوية .

ثانيا : فعـل الصحابة رضى اللـه عنهم حيث قاموا بتعيين الخليفـة بعد رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ليقوم بأمر الله تعـالى منهم ، ثم من بعد ذلـك التـابعين وأتبـاعهم ليقينهم بأن أمـور الـدولة(٤) لاتستقيم إلا بوجود الخليفة أو ولى الأمر .

ثالثا : الإجماع على وجوب إقامة الإمام .

يقـول الإمـام ابن حزم : (اتفـق جميـع أهل السنـة وجميـع المرجئـة

---

(١) رواه مسلم بشـرح النووى (٣٤٠/١٢) كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمـة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن .

(٢) رواه أبو داود (٣٦/٣) كتاب الجهاد ، باب فى القوم يسافرون يؤمرون أحدهم ، رقم الحديث (٢٦٠٨) .

(٣) الحسبة فى الإسلام (٥) .

(٤) الـدولة كلمة تطلق (على السلطـة الشرعية المكلفة بحماية المصـالح الاجتمـاعية عن طريق الالتزام بالقواعد والمبادىء والحقوق التى أقرها الإسلام للنـاس ، وهى بهذه الصفـة تعتبر الهيئـة التمثيليـة المكلفـة مـن الأمة تكليفا اختيـاريا لحمـاية المصـالح العامة...) . المدخل للتشريع الإسلامى (٥٥) .

وجميع المعتزلة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة وأن الأمة فرض واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التى أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم)[١].

وقال الماوردى : (الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وعقدها لمن يقوم بها فى الأمة واجب بالإجماع)[٢].

رابعا : أن الناس بفطرتهم يميلون إلى الاجتماع ، وهو أمر فطروا عليه ونظرا للاختلاف الواقع بينهم من حيث توجهاتهم ورغباتهم ، فإنه يلزم من وجود قوة أو جهة يحتكمون إليها ، تقيم العدل بينهم[٣]، ولأجل ذلك ماوجدت أمة أو قبيلة فى التاريخ ليس لها أحد يقودها ، بل وأحيانا يكون له عدد من القواد ، ووصل الأمر ببعض الطوائف إلى اعتبار الحاكم ابنا للآلهة أو أنه الإله نفسه[٤].

ومن هنا أولى الإسلام الحكم وشئون السياسة اهتماما خاصا فكانت له قواعده المستقلة ، وأحكامه الخاصة التى يتميز بها عن سائر الأديان والمذاهب ويتحقق من خلالها سعادة الشعوب دنيا وأخرى . ونوجز هنا بعض المبادىء والأصول التى يقوم عليها نظام الحكم فى الإسلام .

---

(١) الفصل فى الملل والنحل (٨٧/٤) .

(٢) الأحكام السلطانية (٥) .

(٣) انظر عن ذلك المعنى الحسبة فى الإسلام (٤-٥) .

(٤) انظر الأنظمة السياسية المعاصرة (٧١) ومابعدها .
يقول د. عبد الله الدميجى : (إن من الأدلة على وجوب الإمامة دفع أضرار الفوضى ، لأن فى عدم اتخاذ إمام معين من الأضرار والفوضى مالايعلمه إلا الله ودفع الضر وحماية الضروريات الخمس - الدين ، والنفس ، والعرض والمال ، والعقل - واجب شرعا ، ومن مقاصد الشريعة حفظها) . الإمامة العظمى (٦٠) ، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض .

الأصل الأول : يقوم الحكم فى الإسلام على عقيدة لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ذلك أنه لامعبود ولامشرع إلا الله تعالى . ويلزم من ذلك :

(أ) المساواة بين البشر جميعا .

(ب) أن الدولة الإسلامية دولة عقيدة وليست دولة جنس أو قوم أووطن أو تراب فالرابطة الأساسية بين المسلمين هى العقيدة .

(ج) الحفاظ على الكرامة الإنسانية . فالإنسان له حقوق ولايجوز أن تصادر منه(١).

الأصل الثانى : وجوب تعيين الحاكم ، واشتراط أهليته لذلك ، ومن الشروط التى ينبغى توفرها فيه : الإسلام ، البلوغ ، العقل ، الحرية ، أن يكون ذكرا ، العلم ، العدالة ، الكفاءة النفسية ، الكفاءة الجسمية ، عدم الحرص عليها ، القرشية(٢).

وقد أوجب الإسلام على الحاكم أمورا منها :

(أ) الحكم بما أنزل الله تعالى ، والتحاكم إلى الكتاب والسنة حال الخلاف .

(ب) الحفاظ على أوامر الله تعالى فى نفسه ، ثم نشرها بين الناس وتأديب من خالفها .

(ج) العدل فى كل أحكامه ومراقبة الله تعالى فيها .

(د) المساواة بين الرعية .

(هـ) كفالة وضمان حدود الكفاية لكل أفراد المجتمع الإسلامى .

(و) مشاورة أهل الحل والعقد فى سياسة الدولة وعدم الانفراد بالرأى(٣).

---

(١) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٠١-٣٠٣) .

(٢) ورد ذكر بعض من هذه الشروط فى : الفصل فى الملل والنحل (١٦٦/٤) ، الأحكام السلطانية للماوردى (٦) دار الفكر ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها . وانظر الإمامة العظمى . عن هذه الشروط بترتيبها أعلاه (٢٣٤-٢٩٥) فقد أجاد مؤلفه وأفاد .

(٣) انظر : أوضاعنا السياسية (١٦٨) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣١٤-٣١٥) .

ويجب على المحكوم أمورا منها :

(أ) طاعة ولى الأمر ماأطاع الله تعالى وأقام أمره .

قال تعالى : {**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا**}(١).

وقال صلى الله عليه وسلم : "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة"(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم : "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة"(٣).

(ب) الإبقاء على البيعة وعدم الخروج عليه إلا بما يوجب ذلك(٤).

كما ورد فى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه (بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لاننازع الأمر أهله قال إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان)(٥).

(ج) النصح لولى الأمر .

فعن تميم الدارى :

---

(١) سورة النساء : (٥٩) .

(٢) متفق عليه ، البخارى بفتح البارى (١٢١/١٣) ، كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية ، ونحوه عند مسلم بشرح النووى (٢٢٦/١٢) ، كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية .

(٣) متفق عليه ، البخارى بفتح البارى (١٢١/١٣-١٢٢) ، كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية ، مسلم بشرح النووى (٢٢٦/١٢) ، كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الامراء فى غير معصية .

(٤) انظر أوضاعنا السياسية (١٦٨) .

(٥) متفق عليه ، البخارى بفتح البارى (٥/١٣) ، كتاب الفتن ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم سترون بعدى أمورا تنكرونها ، مسلم بشرح النووى (٢٢٨/١٢) ، كتاب الأمارة ، وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية .

قال صلى الله عليه وسلم : "الدين النصيحة . قلنا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"(١).

ويلحق بذلك حق النقد والتوجيه ويشترك فى هذا الحاكم والمحكوم شريطة أن تكون الغاية الإصلاح لاالانتصار للنفس وبالوسائل المشروعة فى الإسلام .

الأصل الثالث : البيعة . يقول ابن خلدون : (اعلم أن البيعة هى العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين لاينازعه فى شىء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره ، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم فى يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشترى فسمى بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالأيدى هذا مدلولها فى عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد فى الحديث فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة)(٢).

قال تعالى : {**لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا** ...}(٣).

ومن السنة حديث عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه حيث قال دعانا النبى صلى الله عليه وسلم فبايعناه "فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لاننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان"(٤).

وهذه البيعة دلالة على الرضا من المبايع والقبول بمن بايع وهذا فيه أعظم الإقرار بالحرية السياسية ، فإن البيعة لاتؤخذ بالقوة .

---

(١) سبق تخريجه

(٢) المقدمة (٢٣١) ، دار الجيل ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها . وانظر عن البيعة وأنواعها وأدلتها الإمامة العظمى (٢٠٠) ومابعدها .

(٣) سورة الفتح : (١٨) .

(٤) سبق تخريجه (٩١٠) .

الأصل الرابع : الشورى .

(هى استطلاع رأى الأمة من خلال نوابها من أهل الحل والعقد فى أمر من الأمور الدنيوية التى تمس مصالح الناس بهدف الوصول إلى الرأى الصواب مما يساعد الحاكم على اتخاذ القرار النهائى بما لايخالف النصوص الشرعية وأحكامها ومقاصدها صراحة أو ضمنا)(١).

أو (هى وسيلة أو أسلوب أو كيفية تتبع فى التحرى عن الرأى الصائب)(٢).

والأصل فيها كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال سبحانه : {**وشاورهم فى الأمر**}(٣).

وقال تعالى : {**وأمرهم شورى بينهم**}(٤).

أما السنة فإن سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فيها الكثير من قضايا المشاورة مع أصحابه رضى الله عنهم سواء فى الجهاد أو غيره ، ثم كان الصحابة رضى الله عنهم من بعده عليه السلام حيث أقاموا هذا المبدأ وعملوا به ولاأدل على ذلك من اجتماعهم لأجل اختيار الخليفة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالشورى أصل من (الأصول الأولى للنظام السياسى فى الإسلام ، وفى هذا سبق المسلمون كل النظم الديمقراطية الحديثة فى الاعتراف بضرورة موافقة الجماعة على اختيار من يقوم على رعاية مصالحها ومن يوكل إليه تدبير أمورها وهنا تظهر قيمة وفاعلية الإجماع)(٥).

---

(١) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٢١) .

(٢) الديمقراطية والحرية (٦٨) ، حافظ صالح ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، دار الفتح ، بيشاور ، باكستان .

(٣) سورة آل عمران (١٥٩) .

(٤) سورة الشورى : (٣٨) .

(٥) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية (٣٧) ، ولمزيد من المعلومات عن الشورى والحكمة منها انظر الإمامة العظمى (٤٣٣) ومابعدها .

ومن المسلم به أن الشورى إنما هى فى مالم يرد فيه نص(١)، وإنما أقرت الشورى لتحقيق مصالح عديدة ومنها :

(١) إحراز الصواب غالبا .
(٢) التجرد من الهوى(٢).
(٣) التأليف بين قلوب المسلمين .
(٤) معالجة القضايا المستحدثة فى حياة الناس .
(٥) التوجيه نحو حرية الفكر والعقل .
(٦) الحد من دكتاتورية الحاكم حتى لايستبد بالأمر(٣).

وهكذا نتبين أن الإسلام قد اهتم بالسياسة وشئونها وجعلها من الدين وطالب الإسلام الدولة أو الإمام بإقامة العدل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتحقيق الحياة الحرة للأفراد ، وتنمية موارد الدولة واستثمارها(٤).

إن العدل من أعظم ماينشد الإنسان فى هذه الحياة فقد (قام الإجماع بين كل الأديان والمذاهب على أن المطلب الأساسى للعلم وللدين وللمذهب بل ولكل الأنشطة الإنسانية الإجتماعية هو "اسعاد الإنسان")(٥).

ولاشك أن العدل من أولويات مايحقق السعادة للانسان مجتمعا مع الحرية والمساواة ، إن العدل أمر إلهى ولأجل ذلك (مقت الله تعالى الظلم ، ومنعه عن نفسه ، وبذلك فهو حكما ممنوع بين العباد)(٦). والعدل متوافق

---

(١) من الغريب مانراه فى بعض الدول الإسلامية حيث يوضع شرع الله تعالى ـ هذا إن وضع ـ للتصويت عليه والتشاور فى : هل يحكم به أو لا ؟!
(٢) انظر الإمامة العظمى (٤٣٣،٤٣٥) .
(٣) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٢٢-٣٢٣) .
(٤) انظر عن هذه المعانى شهادتى للتاريخ (٢٤٩-٢٥٠) .
(٥) الإنسان فى ظل الأديان (٢٠) .
(٦) العدل فريضة اسلامية (٢٤) .

مع الفطرة البشرية (وهو عنوان الكرامة الإنسانية ، أمـا الظلم والبغى فإنهما يتعـارضان مع فطرة البشر وتطلعهم نحو حرية لاتستقيم حيـاتهم بدونها ، لذا نرى الإنسـان لا بل حتى الطـائر ينشـد حريته ، وقـد يسكـت على سجـن أو انتقـاص لحريتـه لكـن سكـوتا مقترنا بالتحضير مـن أجل تحطيم القيـود ، هـو سكوت أشبه مايكون بالانحناء أمام عاصفة هوجاء)(١).

يقـول شيخ الإسلام ابن تيميـة : (وأمور الناس تستقيم فى الـدنيا مـع العـدل الـذى فيـه الاشتراك فى أنواع الإثم ، أكثر ممـا تستقيم مـع الظلم فى الحقـوق وإن لم تشترك فى إثم ، ولهـذا قيل : إن الله يقيم الـدولة العـادلة وإن كانت كافرة ، ولايقيم الظالمة وإن كانت مسلمة . ويقـال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولاتدوم مع الظلم والإسلام ... فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها فى الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان مايجزى به فى الآخرة)(٢).

ومن هنا حرم الإسلام الظلم والاستبداد من قبل الحاكـم وأمره بالعدل بين النـاس ، وإقامة دين اللـه تعالى فيهم وتطبيق شـرعه عليهم جميعا دون تمييز بين حقير وأمير ، أو غنى وفقير فكلهـم سواسية كـأسنان المشط ولافضل لبعضهـم على بعـض إلا بالتقـوى ، تلـك المنزلـة التى يتفـاوت فيهـا النـاس ويتساوون فى بقية الأمور أمام شرع الله تعالى .

ولهـذا جاءت النصـوص القـرآنية (لتصحـح مفاهيم الحاكـم المستبـد ، وتعلمه بأن رئاسته على الناس أمانة ، فعليه أن يقوم بحقهـا خير قيام ، وإلا كانت له خزيا وندامة ساعة لاينفع الندم)(٣).

---

(١) العدل فريضة اسلامية (٣٤) .

(٢) الحسبـة فى الإسلام (٥٣) ، وعـن العـدل وفضلـه انظـر العـدل فـريضة اسلاميـة (٢٧-٢٨) ، وقـال إنه سنـة اللـه تعـالى فى خلقـه . وانظـر العـدالـة الإجتمـاعية (٨٠-٨١) ، سيـد قطـب ، الطبعـة الشـرعية الحادية عشـرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار الشروق .

(٣) العدل فريضة إسلامية (٢٨) .

وطالب الإسلام الحاكم بالرحمة واللين مع المؤمنين مع تطبيق شرع الله تعالى وعدم السكوت أو الرضا بمخالفته أو العمل ضده . وعليه أن يتقبل منهم النصح والإرشاد . وعلى هذا فالدولة فى الإسلام تقوم بأمر الله تعالى وليست دكتاتورا يتحكم برقاب الناس(١).

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن أمور السياسة داخلة فى دين الله تعالى ولايمكن فصلها عن الدين . فكثير من أحكامها مستمدة من الكتاب والسنة .

ثانيا : أن الإسلام بأصوله التى وضعها فى نظامه السياسى يكون حافظ على الحرية السياسية واحترم الإنسان وأكرمه .

ثالثا : أن النظام الإسلامى السياسى يرفض التسلط والاستبداد ، ويمقت الانفراد بالرأى ، ويجعل لأهل الحل والعقد الحق فى اختيار من يرونه مناسبا ليكون حاكما له إذا توافرت فيه شروط الإمامة .

رابعا : جعل الإسلام فى نظامه السياسى حقوقا وواجبات على كل من الراعى والرعية ، وماذلك إلا تحقيقا للمصلحة .

خامسا : حرص الإسلام أشد الحرص على إقامة العدل وعدم التفريق بين الناس على أساس ألوانهم أو أجناسهم فالكل سواسية .

سادسا : منح النظام السياسى الإسلامى الفرد حق الاعتراض على الإمام وتوجيه النصح والمشورة له ، ويتوجب ذلك إذا صدر منه مايخالف كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم(٢).

---

(١) انظر عن ذلك المعنى الشيوعية (٦٨) .

(٢) انظر عن ذلك : العدل فريضة إسلامية (٥٧) .

سابعا : أن النظام السياسى فى الإسلام نظام مستقل فلايطلق عليه بأنه نظام إشتراكى أو ديموقراطى ، وفيما ذكرناه دليل على فساد الشيوعية والأنظمة الأرضية عامة حيث إنها لن تحقق ماحققه الإسلام سواء فى الجانب السياسى أو غيره من الجوانب .

وبهذا نصل إلى الحديث عن حرية أخرى هى حرية العمل .

المبحث السادس
حرية العمل

(أ) حرية العمل فى النظام الشيوعى :

إن من الحقائق التى لاشك فيها اهتمام السوفييت بالعمل اهتماما كبيرا ولاغرابة فى ذلك الاهتمام إذا كنا علمنا أن نظامها إنما هو تطبيق فكر ماركس اليهودى الذى أولاه أكبر اهتمام وجعل حياة المجتمعات تترجم من خلال أنظمتها الاقتصادية . وأساس الاقتصاد العمل ، بل إن سعر السلعة إنما يتحكم فيه العمل ، فمن هنا اهتم الشيوعيون بالعمل والعمال وقامت دعوة تحريرهم من الاضطهاد والاستغلال وكان ذلك تنفيذا لأفكار ماركس الذى طالب بالسيطرة من قبل البروليتاريا ليتخلصوا من الاضطهاد الذى يمارسه عليهم أصحاب رؤوس الأموال ، وقد جاء الدستور ينص على حق العمل لكل فرد وتأمينه إلا أن هناك ماخرق ذلك الحق وهو أن (من لايعمل لايأكل) فكانت المعادلة صعبة جدا على الفرد خصوصا أن الدستور نص على أن جميع المواطنين لهم الحق فى العمل .

ويمكن إبراز اهتمام الشيوعيين بالعمل فى التالى :

أولا : أقوالهم فى أهميته .

يقول انجلز : (العمل كما يقول علماء الإقتصاد السياسى ، مصدر كل ثروة . وإنه كذلك فعلا ، إلى جانب الطبيعة ، التى تزوده بالمادة فيحولها إلى ثروة . ولكنه أيضا أكثر من ذلك بما لايقاس . إنه الشرط الأساسى الأول للحياة البشرية كلها ، وهو كذلك إلى درجة يترتب علينا معها أن نقول بمعنى ما : إن العمل قد خلق الإنسان نفسه)[1].

ويقول ستالين : ("العمل فى الاتحاد السوفييتى هو مسألة شرف وبسالة وبطولة" . وهى عبارة كانت تزين أبواب المعتقلات ، التى اعتبرت منذ

---

(١) ديالكتيك الطبيعة (١٦٣) .

ولادتها عام ١٩١٨م بمثابة "مدارس عمل")[١].

ثانيا : النص على أن لكل مواطن حق العمل .

حيث جاء فى الدستور السوفييتى : (العمل بالاتحاد السوفييتى هو بالنسبة لكل مواطن قادر على العمل واجب وقضية شرف ، حسب المبدأ القائل "من لايشتغل لايأكل" ويطبق فى اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية المبدأ القائل "من كل حسب مقدرته ، ولكل حسب عمله")[٢].

ثالثا : تحقيق الحرية للعمال (طبقة البروليتاريا) .

ومن قبل أعلن ماركس (أن الحرية إنما تكون لطبقة واحدة من طبقات المجتمع وهى طبقة العمال اليدويين ، أما سائر الطبقات الأخرى من صغار الزراع والتجار فضلا عن المثقفين والملاك فهم أعداء الثورة وعليهم جميعا أن يتخلوا عن وجهة نظرهم الخاصة ويتبينوا وجهة نظر البروليتاريا)[٣].

رابعا : انتقاد الأنظمة السابقة على الشيوعية حيث قامت على الاستغلال وظلم العامل .

أكثر الشيوعيون من بيان الظلم الذى كان يقع على الفلاح والعامل فى الأنظمة السابقة أو الأنظمة القائمة وكان هذا الانتقاد من مؤسسى الماركسية ، ثم من قادة الثورة .

يقول انجلز : (وأيا كان السيد الذى يستعبد الفلاح ... فقد كان الجميع يعاملونه باعتباره شيئا ، حيوانا لحمل الأثقال أو أقل . فإذا كان رقيقا فقد كان تحت رحمة سيده تماما ، وإذا كان قنا فإن الالتزامات القانونية المسجلة فى الاتفاق كانت كافية لسحقه ورغم ذلك فقد كانت تلك الالتزامات تزداد يوما بعد يوم . فكان عليه أن يعمل فى إقطاعية سيده معظم وقته ، ومما كان يكسبه فى الساعات القليلة الحرة كان عليه أن يدفع العشور والجمارك والإيجار والضرائب للطرق وضرائب (الحروب) والضرائب

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٧٦) .
(٢) الإسلام وحقوق الإنسان (٤٠٢-٤٠٣) .
(٣) مصادر الماركسية (٣٢) .

الإمبراطورية والمحلية ولم يكن يستطيع أن يتزوج أو يموت دون أن يدفع لسيده . وإلى جانب العمل الملتزم به قانونا عليه أن يجمع النفايات ويقطف التوت ويلتقط المحار ويسوق الكلاب عند الصيد ويقطع الأخشاب ..الخ لسيده .

وكان حق صيد البر والبحر من حقوق السيد فقط وكان الفلاح يتزوى جانبا فى هدوء ويرقب محصوله يدمر أثناء الصيد . وكان السادة يغتصبون مراعى وغابات الفلاحين العامة فى كل مكان . وكان السيد يفرض تحكمه على شخص الفلاح نفسه وعلى زوجته وبناته تماما كما يتحكم فى ممتلكاته . وكان له حق الليلة الأولى He has the right of the first night وكان يلقى بالفلاح فى سجن قلعته عندما يرى ذلك مناسبا . وكانت آلات التعذيب تنتظر الفلاح هناك تماما كما ينتظر المحقق المقبوض عليهم فى أيامنا هذه . وكان يقتله أو يقطع رقبته عندما يروق له ذلك . ولم يكن هناك فصل واحد من الفصول الملهمة فى "الكارولينا"[١]حول "قطع الأذن" ، و"جدع الأنف" ، و"خرق العين" ، و"قطع الأصابع والأيدى" ، و"حز الرأس" ، و"الشد على عجلة التعذيب" ، و"الحرق" ، و"أسياخ الحديد المحمى" ، و"التربيع" ، "أى قطع الجسم ٤ أجزاء" ...الخ . ومن يدافع عن الفلاح؟ لقد كان يجلس فى المحاكم القسس أو الأشراف أو القضاة الذين يعرفون جيدا لماذا يتقاضون أجورهم . لقد كانت كل الطبقات الرسمية فى الإمبراطورية تعيش على ذبح الفلاح)[٢].

يقول لينين : (نهب الفلاحون بصورة مزدوجة : فإنه لم يكتف بانقاص أراضيهم ، بل أجبروا أيضا على دفع "تعويضات" مقابل الأرض التى تركت لهم والتى كانوا يتمتعون بها على الدوام ، تعويضات أرفع بكثير من قيمتها الفعلية . حتى إن الملاكين العقاريين أنفسهم ، بعد عشر سنوات من إلغاء

---

(١) كتاب حول التعذيب .

(٢) حرب الفلاحين فى المانيا (٤٢-٤٣) .

القنانة ، أقروا للموظفين الذين كانوا يدرسون حالة الزراعة ، بأن الفلاحين أجبروا ، لاعلى دفع ثمن أرضهم وحسب ، بل على دفع ثمن حريتهم أيضا . وبالرغم من أن الفلاحين أجبروا على دفع ثمن حريتهم الشخصية ، إلا أنهم لم يصبحوا قط أناسا أحرارا ، فقد تركوا لمدة عشرين سنة "ملزمين مؤقتا" ، وقد ظلوا "ومايزالون الآن" فى منزلة دنيا ، يمكن معاقبتهم بالضرب والجلد ، ويدفعون ضرائب خاصة ، ولايحق لهم لامغادرة مشاعتهم شبه الإقطاعية بحرية ، ولاالتصرف بأرضهم بحرية ، ولاالإقامة بحرية فى أى محل من البلاد)[١].

وقد أكثر لينين من الحديث عن ظلم الفلاحين فى الأنظمة السابقة ، وكبت حريتهم ، ومنعهم من التنقل إلا بإذن[٢].

ولكن لماذا صبر الفلاحون على هذا الظلم النازل بهم ولم يقوموا بالثورة؟

يقول انجلز : (رغم أن الفلاحين كانوا يئنون تحت وطأة هذا العبء الثقيل فقد كان من الصعب دفعهم إلى الثورة . فقد كانوا موزعين على مساحات شاسعة مما يجعل من الصعب قيام أى اتفاق بينهم . وكان الخنوع المعتاد الموروث من جيل إلى جيل ، وانعدام اتقان استعمال السلاح فى كثير من المناطق ، واختلاف درجة الاستغلال التى كانت تتوقف على شخصية السيد كل هذه العوامل اجتمعت لتدفع بالفلاح إلى الهدوء) .

ويضيف (وفضلا عن ذلك فلم يكن الفلاحون يستطيعون وحدهم أن يبدأوا ثورة طالما كانت تواجههم القوة المتحدة والمنظمة للأمراء والنبلاء والمدن . وكانت فرصتهم الوحيدة فى النجاح هى التحالف مع الطبقات الأخرى ، ولكن كيف كان يمكن أن يتحدوا مع الطبقات الأخرى إذا كان

---

(١) التحالف بين العمال والفلاحين (٤) .

(٢) انظر : المرجع السابق (٣٢-١١٣) ، الإشتراكية على مشارف القرن الواحد والعشرين (٢٠٢-٢٠٣) .

الكل يستغلونهم على قدم المساواة؟)[١].

هـذا جزء يسير من كلام المنظـرين للمذهب فى ظلم العـامل واضطهـاد الفلاح بل إن المذهـب الماركسـى ماقام إلا لنصرة العـامل وإزاحة الظلم عنه ورفـع الاستغلال المضروب عليـه على حد زعمهم . وجاءت الثـورة البلشفية التى قـامت على فكـر ماركس . وقـد أكثر لينين من انتقـاد المذاهـب الأخرى خاصة البرجوازية وظلمها للعمال وعدم حصولهم على حرياتهم وحقوقهم فى ذلك النظـام[٢]. ومما جاء عنـه بعد هـذه الانتقادات (لقـد أطـاحت السلطة السـوفيتية بالاقطـاعيين والـرأسماليين ، وهى تدافع بثبـات عـن الشعب دون محاولات إعادة سلطتهم .

إن السلطـة السـوفيتية تقطـع الطريق على الغنى والمالـك والمضـارب ، على كل من يريد أن يغتنى دون أن يشتغل ، على كل من يريد أن يثرى من عوز الشعب وجوعه ، إن السلطـة السـوفيتية مع الشغيلـة ، ضـد المضـاربين والمالكين والرأسماليين والاقطاعيين . هنا يكمن ينبوع قـوة السلطة السوفيتية وثباتها ، ينبوع استحالة قهرها فى العالم كله .

إن عشـرات ومئـات الملايين مـن العمال والفلاحين فى العـالم كلـه قد عانوا من اضطهاد الاقطاعيين والـرأسماليين وتعسفهـم ونهبهـم . والـدولة القـديمة ، سـواء منهـا الملكيـات أو الجمهـوريات "الديمقـراطية" "الـديمقراطية المزعومة" ، ساعدت المستثمرين واضطهدت الشغيلة)[٣].

وبعد هذا العرض نجد التالى :

أولا : أن العـامل قبـل النظـام السـوفييتى كان مظلـوما مستغلا بأبشـع أنواع الاستغلال .

ثانيا : أن العامل لم يكن يتمتع بأى حرية من الحريات .

---

(١) حرب الفلاحين فى المانيا (٤٣) .

(٢) انظـر على سبيـل المثال مقالات وخطـابات بمناسبة ثورة أكتـوبر (٣٤) ومـابعدها ، لينين .

(٣) ماهى سلطة السوفييت (٣٩) .

ثالثا : أن العامل لايستطيع الانتقال إلى مكان آخر بحثا عن العمل إلا بإذن .

ونأتى لإيضاح موقف الشيوعية من حرية العمل والعمال .

النظام الشيوعى وحرية العمل والعمال :

حملت الأفكار الماركسية ، والآراء اللينينية الكثير والكثير ، ولو قدر أن التطبيق العملى تقارب مع ماجاء فى مجال النظرية لربما كان حال العامل فى الاتحاد السوفييتى أحسن منه بكثير من المآل الذى وصل إليه ، ويمكن إيجاز موقف الشيوعية من حرية العمل والعمال فى الاتحاد السوفييتى فى النقاط التالية :

أولا : أن الدستور السوفييتى ، والمراسيم التى صدرت من الحزب اشتملت على امتهان العامل واضطهاده صراحة . وبالتالى تكون الشيوعية وقعت فى عين ماانتقدت به الأنظمة السابقة عليها إن لم تكن فاقتها .

حيث صدر فى عام ١٩٣٠م مرسوم ينص على (أن العامل يجب أن يقبل أى عمل يعهد به إليه ، وفى أى بلد وفى أى مكان)[١].

وفى العام نفسه صدر مرسوم (يقضى بربط العمال بمصانعهم فلايتركونها إلا بإذن خاص)[٢].

وفى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠م و٩ أكتوبر ١٩٣٠م و١٠ أغسطس سنة ١٩٤٠م (صدرت مراسيم تحرم على العامل أن يتخلى من تلقاء نفسه عن أى عمل مسند إليه ، وإلا فإنه يعد هاربا ويحكم عليه بأن يقضى عشرة أعوام فى معسكرات العمل الاجبارى) .

وينص المرسوم الصادر فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٢م والمرسوم الصادر فى ٢٦ يونيو عام ١٩٤٠م (على أن العامل إذا غاب يوما واحدا أو تكرر تأخره عن مواعيد العمل ثلاث مرات فى شهر واحد فإنه يفصل من عمله ويحرم

---

(١) حقيقة الشيوعية (٣٦) .

(٢) المرجع السابق (٩٦) .

من بطاقة الاتحاد المثبتة لمهنته والتى تعطيه حق السكن والغذاء ويتعرض للحكم عليه بالسجن مدة تتراوح بين ستة أشهر وسنة) .

وينص المرسومان الصادران فى أوائل يونيو عام ١٩٣٢م و٢ يونيو عام ١٩٤٢م (على أن العمال مسئولون ماليا عن أى ضرر يحل بالمصنع أو بالأدوات بحسب تقدير مدير العمل فقط وقد يصل مايقتطع من أجر العامل إلى عشر أمثال ماأتلف أو أضاع) .

(وينص القانون السوفييتى الأعلى الصادر فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠م على أن من حق المدير أن يفرض عقوبة السجن على العامل لمدة أربعة أشهر دون تحقيق ولامحاكمة)[١].

على أن المدير ليس هو الرقيب الوحيد على العمال (بل لكل مصنع أو مؤسسة بوليس خاص يحصى على العمال أنفاسهم كما أن لمندوبى الحزب الشيوعى هذا الحق بالذات)[٢].

إن مثل هذه القرارات والمراسيم تجعل من العامل آلة تنتج ليس إلا فإذا ماتعطلت استبدلت بأخرى رغم أن الآلة الحقيقية قد تصلح ويبذل جهد فى الاستفادة منها أما العامل فهو بمثابة الآلة التى لاتصلح ومصيرها لو تعطلت ولو غصبا عنها أن تواجه مصيرها المؤلم . وبهذا فأى حرية يتحدث عنها الشيوعيون؟!! طالما أنهم قد وضعوا هذه القيود التى تنوء بها كواهل أولى القوة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ووضع الشيوعيون الشروط على من سيعمل وخاصة للرقابة على هؤلاء العمال حتى يكونوا على قدر كبير فى تفهم مايريده أعضاء الحزب ، ومن هنا أمكننا فهم بعض ماجاء فى المراسيم الصادرة عنهم من أن من حق مدير المصنع الفصل للعامل ولمدة أربعة أشهر دون محاكمة أو تحقيق ، ولأجل ذلك كان لابد من الاختيار الذى ترعاه عيون

---

(١) حقيقة الشيوعية (٣٦) .
(٢) المرجع السابق (٣٧) .

الحزب ، ومن هنا قال لينين : (إن العمال الذين نختارهم أعضاء فى اللجنة المركزية للرقابة يجب أن يكونوا شيوعيين لاعيب فيهم ، وأعتقد أنه لابد من بذل جهد طويل النفس لتعليمهم طرائق عملهم وأهدافه . وبعد ذاك ، يجب أن يكون ثمة عدد محدد من الأمناء ، بصفة معاونين فى هذا العمل ، ينبغى اخضاعهم لرقابة مثلثة قبل قبولهم فى العمل . وأخيرا ، ينبغى لأولئك المستخدمين الذين نقدم على تعيينهم فورا ، على سبيل الاستثناء ، فى مناصب التفتيش العمالى والفلاحى ، أن يستجيبوا للشروط التالية :

أولا ، أن يوصى لهم عدة شيوعيين ،

ثانيا ، أن يخضعوا لامتحان يثبت أنهم يعرفون جهاز دولتنا ،

ثالثا ، أن يخضعوا لامتحان يثبت أنهم يعرفون أسس النظرية المتعلقة بجهاز دولتنا ، العلم الإدارى ، وأصول تصريف الأمور الادارية ، الخ ؛

رابعا ، يجب أن يحققوا حسن التفاهم فى العمل مع أعضاء اللجنة المركزية للرقابة ، ومع أمانتهم بالذات ، بصورة نتمكن معها من تحمل المسؤولية عن حسن عمل هذا الجهاز بكليته)[١].

وهكذا كانت القرارات والمراسيم بشأن العمال تصب فى معين واحد هو معين الاضطهاد والاستغلال .

ثانيا : إجبار العمال على العمل المجانى (السخرة) مما يتنافى مع أبسط الحقوق فى حرية العمل .

وقد جعل الشيوعيون العامل يعمل لمصلحة الحزب أولا وأخيرا فبداية الأمر قالوا بأن الثورة لهم ومن أجلهم فخدعوا العمال وغرروا بهم ، رغم أن الأمر ماستتب لهم إلا عن طريقهم . ثم بعد أن أمسكوا بالسلطة كان جزاء العمال جزاء سنمار بل أدهى وأمر ومن أشد وأسوأ ماواجهه العامل فى الاتحاد السوفييتى هو العمل الاجبارى والعامل فى النظام الشيوعى هو ذلك الكادح المغبون فى أجره وفى توفير الخدمات الاجتماعية له ...[٢].

---

(١) مسائل بناء الإشتراكية (٩١-٩٢) .

(٢) انظر : تهافت الفكر المادى التاريخى (٨١) ومابعدها ، فوق أطلال الماركسية (٨٣)

يقول دجيلاس : (وعلى سبيل المثال : صدر فى الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٤٠م قانون يقضى بحظر حرية العمل وبإنزال أشد العقاب بمن يتركون أعمالهم ... على أن الأدهى من ذلك وأمر ، قد نما آنذاك وبالأخص فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ضرب من السخرة (العمل الاجبارى) وبما يسمى بمعسكرات العمل ، وشيئا فشيئا لم يبق هناك من فارق أو مميز بين العمل فى المصانع والمعامل ، وبينه فى تلك المعسكرات ، وكل ماهنالك أنه أضفى على العمل فى تلك المعسكرات طابع الطواعية والمبادرات الذاتية ، فى حين يساق إليها العمال بسوط منظور أو غير منظور ولايخفى أن التاريخ شهد ضروبا من أعمال السخرة هذه لكنها ـ وبكل الأحوال ـ ظلت متسمة بطابع العمل المؤقت ، فى حين أنها ببركة الماركسية ـ اللينينية اتخذت ظاهرة الديمومة . وقمين بالذكر أن طابع السخرة المشؤوم هذا لم يعمم على الأقطار الشيوعية الأخرى ، أو يتخذ نفس الدرجة من البشاعة والعنف ، إلا أن حرية العمل لم تتوفر البتة فى تلك الأقطار .

وفى الواقع ، أن نظام السخرة فى المجتمعات الشيوعية هو النتيجة المنطقية لاحتكار سائر الممتلكات وبالتالى وضع اليد على منابع الثروات القومية ، بحيث غدا العامل غير مضطرا لبيع عمله فحسب ، وإنما هو مجبر على بيعه بظروف خارجة عن إرادته ... لأنه أعجز من أن يرى من يستخدمه بشروط أفضل ... فالدولة هى المستخدم الوحيد ، وماعلى العامل "البرغى" إلا الرضوخ بل الانسلال فى هيكل تلك الملكية العملاقة .

ويمكن القول ، بأن أشر ضروب الرداءة والإيذاء التى مارستها الرأسمالية فى مطلع عهدها ، هى دون وطأة الطبقة الجديدة على كاهل العامل ... وكل مافى الأمر بوجهة نظر العامل أنه استبدل مستخدما فردا بمستخدم جماعى ... وكان له فى ظل المستخدم الأول حرية التعبير عن استيائه ـ إن استاء ـ وحرم هذا الحق فى ظل مستخدمه الجديد)[١].

---

(١) الطبقة الجديدة (١٤٨-١٤٩) ، وانظر : إسلام لاشيوعية (٧٨) ، الشيوعية فى موازين الإسلام (١١٤-١١٥) .

وكان يرى الشيوعيون أن هذه الأعمال الشاقة بالعموم عقوبة صارمة لكل من يعمل ضد السوفييت وسياستهم .

فجاء فى القانون الاجرامى المادة ٥٨ (إن كل صرف من شأنه أن يضر أو يضعف السلطة العمالية ، أو الفلاحية السوفيتية ... أو الاتحاد السوفييتى الروسى ، أو يضر أو يضعف الأمن للاتحاد السوفييتى الروسى أو جوهر الحياة الإقتصادية والسياسية أو الثورة العمالية العالمية أو إرتأى أن يكون ضدها يحكم عليه بعبودية الأشغال الشاقة مدة سنوات بقطع النظر عن حالته الصحية)[١].

ثالثا : ومما يدل على مصادرة الحرية فى العمل وعدم اعتبار العامل المبدأ القائل (من لايعمل لايأكل) حيث إن ذلك يلزمه بالعمل ، العمل الذى يجبر عليه إذ أنه لاخيار له أبدا . فيضطر الإنسان أن يعمل فى كل الأحوال .

وإذا كان الإنسان غير قادر على العمل ، إما لكبر ، أو ضعف ، أومرض ، فالأولى له أن يموت!!

وقد جر هذا المبدأ إلى مفاسد عديدة كان من أهمها إخراج المرأة وإفسادها . يقول القطب : (إن فلسفتهم تقوم على أساس "من لايعمل لايأكل ولكل حسب عمله" إذن فلابد أن تعمل المرأة حتى تأكل . ولكنهم بدلا من أن يجعلوا الأمر فى صورة واجب عليها طرحوه فى صورة حق يحققونه لها فرفعوا شعار مساواة الرجل بالمرأة فى كل شىء وتحت هذا الشعار أخرجوها من بيتها ، وسلبوا حقها فى الانفاق عليها ، وحقها فى الصداق ، وحقها فى الراحة ، وحقها فى المحافظة على عرضها ، نعم سلبوا منها كل هذه الحقوق تحت شعار المساواة والحرية . فأخرجوها من بيتها للاستفادة منها فى أى مجال فهى تعمل فى مصانع الحديد والصلب وأمام أفران النار وسائقة جرارات وقاطعة أخشاب وفى المزارع الجماعية ، وفى

---

(١) الفتح بالإرهاب (٣٨-٣٩) .

المناجم ، وفى كل الأعمال الشاقة التى لايقوى على ممارستها سوى الرجل فهل هذه حقوق أعطوها للمرأة أم أنها واجبات أثقلوا بها كاهل المرأة وسلبوا منها حقوقها التى شرعها الله؟؟)[١].

ومن ذلك وجود المفاسد الأخلاقية ، والإقتصاد المضاد لإقتصاد الدولة كرد فعل لتزمت الإقتصاد الموجه الذى اهتم بالطبقة العليا وذويها وترك الآخرين هملا ، ومن هنا بحثوا عن طرق أخرى يحققون بها متطلباتهم .

رابعا : الوضع العام للعامل فى الاتحاد السوفييتى حيث منع العامل من أبسط حقوقه السياسية ، وقضى على حريته فى اختيار العمل المناسب له ، والمكان الذى يريده، ومنع من الانتقال إلا بإذن[٢].

ولو شئنا لقلنا القضاء على جميع أنواع الحريات بالنسبة للعامل ، سواء مايتعلق بالسياسة ، أو الإجتماع ، أو الإقتصاد .

وهذه لمحة مختصرة عن بعض الجوانب تلك .

(أ) إلغاء اختيار أماكن العمل ، والعقوبة على تركه والاجبار على النقلة منه إذا رغب الحزب فى ذلك .

يقول ليونهارد : (لم يقتصر زعماء نقابة العمال على المطالبة بزيادة ساعات العمل ، وزيادة عدد أيام العمل الاسبوعية فقط ، بل اقترحوا أيضا إلغاء حرية اختيار أماكن العمل ، ونص هذا بالحرف الواحد : (ترى اللجنة المركزية لنقابات العمال السوفييت أن العمال مجندون فى إدارات الدولة ، وشركاتها ، ومؤسساتها الإشتراكية ، ولذا فلايجوز أن يترك العامل عمله ، أو ينتقل من شركة إلى أخرى ، أو من موقع عمل إلى آخر) ومن الطبيعى أنه كان واضحا أن الدولة ستضع "اقتراحات" اللجنة المركزية لنقابة العمال فى صورة تعليمات ـ وقوانين واجبة التنفيذ ، بل نشرت فى اليوم التالى التعليمات المطابقة لهذه الاقتراحات ، ثم جاءت بعدها "المظاهرة" المصطنعة التى وافق فيها الحاضرون على المقترحات بالاجماع ...) .

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان (٣٤٧) .

(٢) قارن ماذكره لينين من أن العمال قبل الشيوعية منعوا من التنقل إلا بإذن .

(فقد صاغت المادة الخامسة - مثلا - اقتراح تحريم ترك العمل على النحو التالى :

(يقدم العامل - أو الموظف - الذى يترك عمله بدون عذر قهرى ، إلى المحاكمة ، وتعاقبه محكمة الشعب بالحبس مدة لاتقل عن شهرين ولاتزيد عن أربعة أشهر)[١].

كما أنهم لم يكتفوا بالعقوبة والحبس لـ(لعمال فقط ، بل مديرو المؤسسات أيضا ، إذا لم يكونوا حازمين فى إدارة مايوكل إليهم ، أو أهملوا فى معاقبة من يخالف التعليمات)[٢].

يقول جيد : (إن العامل الروسى فى المصنع مربوط بمصنعه ، كما يربط العامل الزراعى بالمزرعة الجماعية سواء بسواء ، فإن هو يوما أراد أن يترك عمله لسبب خاص ، كأمل فى تحسين أحواله ، أو تعلل على الأقل بتخفيف بلاء عيشه ، أو من رغبة فى النقلة والتغيير لاأكثر ولاأقل ، فقد استهدف لخطر بالغ ، وهو ألا يجد عملا ما ، فى أى مكان آخر ؛ لأنه إنما يشتغل فى مصنعه كسجين ، بل إن هو ترك المصنع وبقى فى المدينة ، حرم من المسكن الذى يعطيه عمله فى المصنع الحق فيه ، ومن أشد المشقة عليه أن يجد مسكنا سواه ، مع أنه كان يدفع أجر المسكن الذى أعطى إليه ، وسيتبين له أيضا أنه بخروجه من المصنع سيخسر جزءا كبيرا من أجوره ومجموع الأرباح المتجمدة له فى المزرعة الجماعية) .

وعن إجباره على الانتقال يقول : (أما إذا رأت السلطات ذاتها أن لامندوحة من نقله فلن يستطيع رفض النقل ، فلاهو حر فى الذهاب حيث يشاء ولافى البقاء حيث تتركز علاقاته وصلاته ومصالحه)[٣].

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٠٨) ، وانظر الفتح بالإرهاب (٦٨) وذكر أن العامل الذى يسبب عطلا بتركه للعمل يكون عرضة للحبس مدة خمس سنوات .

(٢) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٠٩) .

(٣) المعبود الذى هوى (٢٤١-٢٤٢) ، وانظر الفتح بالإرهاب (٦٧-٦٨) .

(ب) التغيب عن العمل .

إن الإنسان يعتريه من عوارض الحياة ماقدر الله تعالى عليه ، وهذه العوارض قد يكون منها مايسقط التكليف الشرعى ، الأمر المفروض من قبل الله تعالى ناهيك عن أن يكون أمرا من أحد من البشر . أما الشيوعيون فلم يكن هذا يهمهم من قريب أو بعيد ، واعتبروا الإنسان كالآلة التى يجب أن تعمل دون كلل . وتناسوا إنسانية الإنسان وشعوره .

يقول ليلاند : (إن تربية العامل على تحمل المشاق هو إيحاء روسيا الحمراء لاستعباد الشعوب ، ولايحق للعامل المتعاقد مع معمل أن يلغى تعاقده وإن تغيب عن عمله يحسم من مرتبه ٢٥٪ مما يدعو العمال إلى التباطىء فى أعمالهم الشاقة ...)[١].

ولم تمض فترة قصيرة على هذا القرار حتى صدر قرار آخر وفيه (إن من يتأخر عن العمل عشرين دقيقة ، لايقبل له عذر فى هذا التأخير ، بل يعاقب طبقا لما جاء فى "لائحة نظام العمل" ، بخصم ٢٥٪ من مرتبه مدة قد تصل إلى ستة أشهر)[٢].

ولايمكن قبول عذر العامل إلا بسبب مرض خطير يشهد عليه أطباء المصنع أو موت أحد أفراد أسرته[٣].

وبالطبع فإن التأخر سيكون فى بلد كالاتحاد السوفييتى أمرا واردا جدا نظرا لظروف المواصلات والازدحام الشديد ، ناهيك عن الحرص من كل أحد أن يكون سباقا إلى إرضاء مسئوليه .

يقول ليونهارد إن (المواصلات كانت سيئة لدرجة أن بعض العمال كانوا يتأخرون عن أعمالهم أكثر من عشرين دقيقة ، ولم تنفعهم أى حجة فى رفع العقاب عنهم ، فمديرو المصانع أنفسهم يرتعدون خوفا من توجيه

---

(١) الفتح بالإرهاب (٧٢) .

(٢) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٠٩) .

(٣) انظر فوق أطلال الماركسية (١٠٩-١١٠) ، ولمزيد عن ذلك انظر الشيوعية فى موازين الإسلام (١١٢-١١٤) .

الاهمال إليهم فى تنفيذ قوانين العمل ، ولهذا قدم العمال بالجملة إلى المحاكمة ، وكان عدد من يعاقب طبقا "للائحة نظام العمل" مستمرا فى الارتفاع بشكل رهيب)[١].

(ج) إذا قمنا بمقارنة العمال بأعضاء الحزب فأين هؤلاء من أولئك؟

لقد تمتع أعضاء الحزب بكل موارد الدولة وثرواتها ، وكل مجهود بذله العمال إنما كان المستفيد الأول منه أعضاء الحزب فليس للعمال الحق فى التمتع بإنتاجهم أو أخذ المقابل لما يقومون به من عمل إلا - حتى نكون فى غاية الدقة والأمانة العلمية - مايأكلونه وليت ذلك على سبيل الدوام أو لكل أحد من أفراد العمال . علما بأن الثورة ماقامت إلا من أجلهم ولكن كانت وعودا ذهبت مع السلطة والسيطرة .

كتب الدبلوماسى السوفييتى السابق تيودور يوننكو قائلا : (لقد وعد البلشفيك العمال باعطائهم المصانع والمناجم وجعلهم سادة البلاد والواقع أن العمال لم يعانوا ضروبا من الحرمان كالتى ذاقوها فى العهد المسمى عهد الإشتراكية ، وقد ظهر فى مكان الرأسماليين السابقين طبقة بورجوازية جديدة كلها من اليهود وقد اصبحت الصناعات الضخمة والمصانع الحربية والسكك الحديدية والتجارة جميعها فى يد اليهود)[٢].

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٠٩) ، وانظر إسلام لاشيوعية (٩٦) .
ويذكر ليونهارد نكتة انتشرت بين أوساط الشعب تعبيرا عن هذا الوضع السيء رغم جدية الموقف وفظاعته وهى (هل سمعت أن المسرح الكبير قد شبت فيه نار التهمته عن آخره فأصبح رمادا؟
كيف حدث هذا؟ ألم تستطع المطافى أن تحصر النيران فتحول دون هذا الدمار؟
لا . فالمطافىء فى السجن .
فى السجن .
نعم لقد حضرت متأخرة عشرين دقيقة فلم يسمح لها بمباشرة إطفاء الحريق بل زج بها فى السجن تنفيذا لما جاء فى لائحة نظام العمل من عقوبة من يتأخر عن العمل) . إنها تحكى الواقع تماما وإن كانت مجرد نكتة .
انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٠٩-١١٠) .

(٢) حقيقة الشيوعية (١٧٧) .

إن من حق أعضاء الحزب السكن فى أفخم المنازل ، والأكل من أطيب أنواع المطاعم ، والركوب لأحدث ماأنتجته الدول الغربية من السيارات ، إلى غير ذلك من المميزات التى يحصل عليها عضو الحزب ، حتى أصبح أعضاؤه يمثلون طبقة برجوازية جديدة انطبقت عليها الأوصاف التى أطلقها أعضاء الحزب من قبل على البرجوازيين .

إن هؤلاء الأعضاء (خدعوا الناس بشعارات النزاهة والطهارة الثورية والانحياز للجماهير الكادحة ، حتى إذا تمكنوا من الهيمنة على كل مرافق الحياة ، سخروها لأغراضهم الشخصية ، ونسوا كل شعارات النقاء الثورى والعدل الإجتماعى!!)[١].

(د) أن أجر العامل ومايمس مسكنه وملبسه يكاد يكون من أردأ طبقات المجتمع بل هو كذلك .

ويزداد سوءا إذا ماقورن بالمجتمعات الأخرى التى ادعت الشيوعية ظلم العمال فيها .

يقول منشور سرى صدر فى موسكو (إن أجر العامل فى الاتحاد السوفييتى لايزيد على ثلث مايجب أن يكون عليه أجر العامل الحقيقى ، وأين تنفق هذه الأموال؟ ينفقها رجال الكرملين على حياتهم المترفة ، وعلى بيوتهم الريفية المكيفة ، وعلى سيارات الليموزين الفخمة ، وعلى استراحاتهم الخاصة ، ومستشفياتهم الخاصة ، إنهم يعيشون فى مستوى أرفع بكثير عن مستوى القياصرة) .

ويقول منشور آخر : (لماذا يأتى الشعب السوفييتى فى حساب درجة المعيشة فى الدرجة السادسة والعشرين بين شعوب العالم؟ ولماذا يتقاضى العامل فى الغرب أضعاف مايتقاضاه العامل الروسى؟)[٢].

---

(١) وسقطت الماركسية (٧٨) .

(٢) المرجع السابق (٧٨) .

ويقول خروشوف : (كيف نستطيع أن ندعو العامل الشيوعى للقيام بالثورة وهو لايحصل على لباسه الداخلى . بينما يرى هذا العامل ، زميله فى البلاد غير الإشتراكية ، لاحاصلا على اللباس الداخلى وحده بل وعلى المعاطف الأنيقة أيضا)[١].

وأما مساكنهم يذكر كاونتس قصة (المزارع صاحب الأسرة الكبيرة الذى كان يعيش فى بيت يتكون من حجرة واحدة ، ويضيق الرجل ذرعا بالحياة ، ويلجأ إلى الحاخام يستنصحه ، فيشير عليه هذا أن يأخذ صغار الدجاج إلى بيته ثم يعود ليتلقى تعليمات أخرى ، ويعود الرجل ليبلغ الحاخام أن نقل صغار الدجاج قد زاد الحالة سوءا ، ولكن الحاخام يطلب إليه أن ينقل إليه العنزة ثم البقرة . فيجن جنون الرجل . وبعدئذ يخبره الحاخام أن يبدأ بإخراج البقرة إلى المراعى ، ثم العنزة ، ثم يخبره آخر الأمر بإخراج الكتاكيت ، حتى إذا فرغ من هذا عاد إلى مشيره الروحى مغتبطا سعيدا ، وقد وجد أن كوخه الصغير قصر بحق ، ولايدرى لم كان فى بداية الأمر متذمرا مستاءا)[٢].

وذكرت رايسا غورباتشوف (إن مساكن الفلاحين تفتقر عمليا إلى التدفئة والماء ، ومجارى المياه القذرة ...)[٣].

ويقول أحد العمال السوفييت : (لم تكن لدينا بالطبع الأغطية والشراشف . كنا ننام بين القش وأرجلنا تمتد إلى الخارج . ونغفو على هذا النحو ساعتين أو ثلاثة ، قبل استئناف العمل . وبديهى القول أننا لانستحم إذ كيف لنا أن نفعل ذلك من دون مياه ساخنة؟ كنا نتمدد كما نكون ، وسخين ومنهكين من التعب . أما لجهة الغذاء ، فإن الفقر كان شديدا فى تلك الفترة . ففى الفطور الصباحى ، نتناول شوربة دقيق الشعير ، وعند

---

(١) إشتراكيتهم وإسلامنا (٨٧) .
(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤٣٣) .
(٣) نقلا من كتاب غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١١٤) .

الظهيرة ، شوربة الملفوف وفى المساء فطائر محشوة . كل ذلك كان يشكل بالطبع طعاما غير دسم على الاطلاق ، ولاتدخله اللحوم أبدا)[١].

إن العمال والفلاحين (فى روسيا هم الطبقة المستغلة الكادحة التى تعمل كثيرا وتأخذ قليلا ، وغيرهم من القادة والزعماء يتمتعون على حساب كدح هؤلاء وشقائهم . تماما كما فى الدول الأخرى ، وإن تفاوت مقدار الاستغلال فى الدول)[٢].

إن النظام الشيوعى يقوم أساسا على تجويع العمال وقتلهم واضطهادهم ليضمنوا الولاء منهم .

خامسا : أن التعاليم التى كانت تصدر للمصانع تدل بكل وضوح على مدى مصادرة هذه الحريات للعامل واعتباره جزءا مكملا للآلة ليس إلا . فمن التعاليم المقررة فى تلك المصانع :

(أ) الحصة هى كمية العمل التى يجب على العامل إنتاجها حتى يستطيع أن يتناول أجره العادى .

(ب) الفرقة كلها خاضعة لنضال المناقشة الإشتراكية فلايجوز الاقتراب من العامل أثناء تأديته عمله أو أخذ دقيقة واحدة من وقته .

(ج) منع العامل من تضييع دقيقة واحدة فى الحديث أو غيره غير متصل بما فى يده .

(د) إذا قدم مجموعة من العمال عملا فوق ماهو مقرر لهم طلب من الآخرين أن يعملوا مثلهم لأن مايستطيع أن يعمله بعضهم يجب أن يعمله الجميع ، وإذا لم يتحقق ذلك قاموا بخفض الأجر[٣].

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٥٧) ، وانظر (٤١) .

(٢) إسلام لاشيوعية (٨٧) .

(٣) قلت وهذا يتفق مع مبدئهم القائل بالمساواة وفى آخره يتناقضون فينقصون الأجر رغم إدعاء المساواة فيه ، وليس غريبا هذا التناقض إذ أنها (الماركسية) ليست إلا جملة من المتناقضات .

(هـ) الأجور عرضة دائمًا للنقص فليس لها حد أدنى تقف عنده .

(و) الأجر على زيادة العمل هو زيادة فى الطعام أو إجازة فى مصايف الحكومة .

(ز) وهذه المكافأة عرضة للنقص إذا لم يستطع العمال الممتازين من الحفاظ على مقدار إنتاجهم وإذا حدث ذلك فإنهم يتعرضون لخفض الأجور بل والعقاب(١).

(ح) هناك كتاب العمل وهو مجموعة من الأصفاد والسلاسل تشد عليه من جميع الجهات فيدون فى هذا الكتاب الاسم والعمر والدرجة العلمية والمهنة والأعمال التى زاولها وأسباب الفصل منها إن كان قد فصل وبيانات الأجرة وغيرها ، والعامل لايقبل لدى أى جهة إلا بهذا الكتاب(٢).

(ط) وهناك مايسمى بـ"الاتقان الجماعى السوفييتى" (وهو عبارة عن عقد إدارة اتحاد تمليه الحكومة وليس للعمال رأى فى ابرامه وإحكام الخطة التى تضعها الدولة لإنتاج مؤسسة معينة ويحتوى هذا الاتفاق على :
أولا : أن يتبع العامل بدقة حدود الإنتاج التى تضعها الحكومة .
ثانيا : أن يحافظوا على نظام العمل السوفييتى طول مدة وجودهم فى وظائفهم وإلا تعرضوا لأشد أنواع العقاب)(٣).

سادسا : أن المبادىء والقوانين التى وضعوها للعامل وكثرة الضغوط والمظالم عليه جعلته يتكاسل فى العطاء مما أضر ذلك بالإنتاج ، فلو أنهم أعطوا كل عامل مايستحقه تجاه عمله لازدادوا نشاطا وإقبالا ولكنهم حرموهم من الاستمتاع بحق إنتاجهم ولم يحصلوا - رغم مايبذلونه - إلا على لقمة العيش فكانوا يكتفون بأقل جهد طالما أن العائد واحد فى كل الأحوال

---

(١) انظر حقيقة الشيوعية (٣٨) .
(٢) انظر المرجع السابق (٣٩) .
(٣) المرجع السابق (٤١) .

ناهيك عن انعدام الحافز الفردى ، والمكافآت التشجيعية لمن يثبت مقدرة تفوق الآخرين . فإذا نظرنا إلى أن مبدأ لكل بقدر عمله وجدناه صالح للتطبيق إلا أن (البلاد الشيوعية لم تطبق ذلك لغياب الوازع الدينى الذى أوجد الهوة بين العامل وبين ماينتجه ، فالعامل يكاد يستنفذ أو استنفذ كل قواه فى عمله ولايكاد يحصل إلا على مايسد رمقه فواقع النظام تطبيقا يصد عنه نظريا)[١].

إن انعدام الحافز الفردى قد جعل العامل يهمل الأرض ، هذابالإضافة إلى الظلم الواقع عليه ، وبالتالى فإن النتيجة قلة الإنتاج ، وإن وجد فرداءته.

يقول ليلاند : (لكثرة مايرهق به الفلاح من المظالم قد أهمل كثيرا من الأراضى وجعلها بورا غير منتجة . لأنه لايتمتع بأتعابه ... وقد قاد هذا الظلم إلى كثير من حوادث العصيان والثورات ولاشك أن تهامل الفلاح ، وتركه العناية بالسائمة والطيور قد قلل إنتاجها ، فقد هلك منها عدد لايستهان به مما قضى على الحياة الإقتصادية وأوقع البلدان فى مجاعة شديدة)[٢].

وليت لينين عندما أثنى على التحسينات التى أدخلها الحزب الإشتراكى الديمقراطى فى روسيا ، والتى تتعلق بساعات العمل وتخفيضها وعدم تجاوزها ٨ ساعات وجعل يوم للراحة ، وتعليم الأطفال مجانيا إلى سنة ١٦ سنة ، وعدم تشغيل من لم يبلغ هذا السن ، وعدم تشغيل النساء فيما يضر بصحتهن ، وتعويض العمال إذا أصيبوا بطارىء فى أثناء تأدية عملهم ، ودفع الأجور أولا بأول ، وعدم الحسم على العمال بسوء الصنعة ، وعدم السماح لرب العمل بتخفيض أجور العمال بأية حجة كانت ، وكذلك

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان (٤٠٦) .

(٢) الفتح بالإرهاب (٦٣) .

ولمزيد عن هذه الأضرار انظر كتاب الإسلام وحقوق الإنسان (٤٠٦) .

وسيأتى معنا زيادة إيضاح عن الأضرار والمفاسد الناجمة عن منع الملكية الفردية فى فصل النظام الإقتصادى الشيوعى .

لايكون رب العمل قاضيا[١]. نقول ليت لينين بعد أن أعجب بهذه الإصلاحات قدم للعمال نصفها أو أقل من ذلك ، ولكن كان وضع العامل بل الفرد فى الاتحاد السوفييتى سيئا وكان الكلام النظرى حسنا جدا ، ومن هنا كان التناقض الفاضح (ومامن شك فى أن هذه الحقائق وغيرها من تناقض بين العقيدة وحقائق الحياة ، تثير الشكوك من حين إلى حين فى عقول أبناء الجيل الناشىء . ويزيد التواكل فى الوفاء بالوعود من حدة هذه المتناقضات)[٢].

ومن هنا فإن العامل لن يسكت طويلا ولو سكت تحت ضغط القوة فإنه لن يظل يكتم مافى نفسه كل وقته حتى تحين الفرصة المناسبة وإذا حانت له فإنه سيطالب بحقوقه غير منقوصة (إن مقاومة العمال وإستياءهم قد تناميا بالنسبة لمطالبهم كمنتجين ، وبالنسبة لهمومهم كمستهلكين فى آن واحد ، فهم يتطلعون إلى مستوى معيشى شبيه بمستوى معيشة البروليتاريا فى الدول الامبريالية وهو مستوى مازالوا بعيدين عنه كل البعد)[٣].

(ولابد للظلم من أن يصل إلى حده ، فتنفجر الحناجر عن ثورة دامية مروعة تقوم ضد السوفيات وعمالهم ، وكل ظلم مصيره للبلاء)[٤].

وحدث هذا للشيوعية فبعد أن فتحت أبواباً من الحرية وإن كانت ضيقة فى أول الأمر ، إلا أنهم تدافعوا إليها يريدون الولوج منها ، وبالفعل وسعوها بقوة إصرارهم وتنفسهم من الطغيان الذى كان جاثما على رقابهم ، فطالب العمال بحقوقهم وعلم القادة المتأخرون بقوة مطالبهم ومصداقيتها فما كان منهم إلا أن تخلوا قليلا قليلا عن حدة الضغوط على العامل وسمحوا

---

(١) انظر التحالف بين العمال والفلاحين (٧٦-٧٨) .
(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤٢٤) .
(٣) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٧٠) .
(٤) الفتح بالإرهاب (٦٤) .

له بامتلاك جزء يسير من إنتاجه ، وهكذا حتى أعطوا فرصة أكبر فثاروا على كل أفكار ماركس ولينين القديمة وتطبيقات ستالين الدكتاتورية ومن بعده حتى أصبحوا كغيرهم من عمال العالم[١]

وقد أدى اضطهادهم ومصادرة حريتهم إلى التشكيك الحقيقى فى صدق الماركسية اللينينية فيما وعدت به العمال ، ففقدت الشيوعية بريقها وظهر زيفها وبدأ العمال فى التنصل من أفكارها ومطالبها . وهذا ولاشك أمر فطر عليه الإنسان من رفض للظلم والطغيان ، وحب للتملك خاصة مايرى أنه أحق به من غيره ، وأن هذا المنتوج ثمرة جهده وعمله . ولكن ماالذى حمل الشيوعية على أن تبقى العامل فى هذا الوضع المتردى إنها تريد الاستمرار ، وبقاء العامل بهذا الوضع النكد يضمن تعلقه بتلك الوعود واستجابته لتلك المطالب التى تطلب منه . يقول العطار : (ولما كان وجود الشيوعية وبقاؤها وحياتها مرتبطة بانخفاض مستوى الكادحين من فلاحين وعمال وجنود فالشيوعية حريصة على بقاء مستواهم خفيضا إلى أبعد حد ضمانا لبقائها)[٢].

إن العمال الضحية الأولى للنظام الشيوعى ولو ملكوا أمرهم لأطاحوا بالنظام[٣] وماشهدته الساحة السوفيتية فى الثمانينات وبداية التسعينات لهو الدليل القاطع على أن الشعب بما فيهم العمال قد نفذ صبرهم فكان لابد من إزالة الأفكار التى استعبدتهم بالقوة والقهر .

ونختم الحديث عن وضع العمال عموما بما ذكره ليلاند ووحيد الدين خان عن وضع العمال عموما حيث قال ليلاند : (إن الفائدة التى جنوها هى حرمانهم من الحرية ، من النور ، من التصويت الحر ، من العمل الحر . فالحكم الشيوعى قدم للعامل المسكين الذل والفقر والحاجة والآلام المبرحة ،

---

(١) دون النظر إلى واقعهم الذى يعيشونه الآن فإنهم يعانون من آثار السياسة السابقة

(٢) الشيوعية (١٠٧) .

(٣) انظر شهادتى للتاريخ (٢٣٢) .

وبكلمة واحدة لقد حبب له الموت بسقيه إياه جرعة ، جرعة . إن النظام السوفييتى منعه من أن يشتغل فى المكان الذى يريده ويقوم بالعمل الذى يرغب فيه .

إن هذا النظام الجائر قد حدد له أجرة لاتساعده على عيش الكفاف . إن هذا النظام ، قضى عليه بأن يحمل "إجازة العمل" ، التى بدونها لايقدر أن يشتغل البتة ، وأجبره أن يشتغل بضعة أيام وساعات بدون أجر ، وذلك مايطلقون عليه ، "التبرع لمصلحة الولاية" . هذا ماجلبه النظام الشيوعى للعامل سواء فى ذلك الرجل والمرأة معا)[١].

ويقول وحيد الدين خان : إن الشيوعيين (غرروا بطبقة العمال وأوهموهم أن فى الماركسية إنصافا لهم من ظالميهم ، وإن أملاك الإقطاعيين والبرجوازيين ستؤول إليهم ، وستتحسن أحوالهم المعيشية ، وسيكون بيدهم زمام الأمور ، باعتبار أن الحكم هو حكم الطبقة العاملة ، ولكن بعد أن تم للماركسيين الأمر ، وسيطروا على الحكم ، فقد العمال حريتهم فى اختيار العمل ، وفى تحديد أجورهم ، وفى حق الاحتجاج على أى أمر من الأمور وأصبح المتمتعون بالامتيازات هم قادة الحزب الشيوعى فقط ، بعد أن صادروا الملكيات ، وخنقوا الحريات ، ولم يعد أحد ينبس ببنت شفه ، فقد توسعت السجون والمعتقلات ، وانتشر الجواسيس ورجال المباحث والمخابرات فى كل موقع ، وأقيمت محاكم خاصة قل أن تصدر أحكامها بغير الإعدام ، إلى جانب أولئك الذين يجهز عليهم فى السجون والمعتقلات ، فيلاقون حتفهم تحت التعذيب ، أو يعدمون بدون محاكمة . وجماهير الشعب تلهث وراء لقمة العيش التى أصبحت بيد المسؤولين فى الحزب ، إمعانا فى إذلال الناس الذين يقفون طوابير أمام مراكز التموين التى لاتكون عادة فى الدول الأخرى إلا فى حالة المجاعة والحرب ، وأصبح هم كل إنسان أن

---

(١) الفتح بالإرهاب (٦٧-٦٨) .

يفوز برغيف خبز ، أو نصف كيلو سكر ، من هذه المراكز ، وإذا تذكر العمال - الذين يعيشون فيما يزعم أنه جنتهم - الحال التى كانوا عليها قبل الثورة التى سميت باسمهم تأسفوا عليها ، وتمنوا العودة إلى ماكانوا عليه ، وكأن لسان حالهم يردد قول الشاعر :

رب يوم بكيت فيه فلما صرت فى غيره بكيت عليه)[١]

هذا بعض مما فى الاتحاد السوفييتى فهل كانت بقية الدول الإشتراكية فى تعاملها مع العمال دون هذه القسوة والطغيان؟ لا ، إن الحال كان كذلك وإذا كانت هذه الدولة الأم فإن الربيبة من باب أولى .

إذ أن أوروبا الشرقية بجملتها كانت خاضعة للاتحاد السوفييتى سياسيا وإقتصاديا فالعمال فيها مجبرون على تقديم جهودهم وكل إنتاجهم إلى المصلحة الروسية ، ونادى الاتحاد السوفييتى بمشروع مولوتوف لحجز المصالح فى بلدان أوروبا الشرقية للاتحاد السوفييتى لمدة خمس سنوات وهو نوع من ابتزاز إقتصاديات البلدان لمصلحة روسيا وإرسال المواد الأولية إليها لتتمكن من إرساء دعائم إمبراطوريتها الشرقية فتضافرت قوى العمال المحجوزة فى قبضة السوفييت تعمل فى مختلف القطاعات إرضاء لمطامع موسكو بغض النظر عن الإضرار بالناس أو العمال[٢].

ومن نتائج ذلك : (أن عشرة ملايين فى أوروبا الشرقية قد أجبروا أن يقضوا الشتاء القارس بدون فحم أو حطب ، وهم يقاسون الأمرين من المرض والجوع منذ بدء الحرب الكونية الثانية ، فقد صدرت الأوامر فى تشرين الأول من سنة ١٩٥١م فى تشيكوسلوفاكيا أن تقطع المجارى الكهربائية من الساعة التاسعة مساء إلى الساعة السادسة صباحا عن المنازل مطلقا ... وقد نزلت القوى الكهربائية فى المطاعم والمقاهى والمسارح إلى ٥٠٪ ،

---

(١) وسقطت الماركسية (٦٠-٦١) ، وانظر : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٣١٨) ، الشيوعية فى موازين الإسلام (١١٢) .

(٢) انظر الفتح بالإرهاب (٧٩-٨٢) .

والمراكز الرسمية فى رومانيا تقفل أبوابها فى الساعة الخامسة والنصف توفيرا للوقود وللقوى الكهربائية ، ولم يقصر هذا الأمر على رومانيا الغنية بالزيوت وحدها ، بل تناول كل البلدان الواقعة فى ضمان السوفييت ...)[١].

وأكثر من مليون شخص ومخيمات الاستعباد من المنفيين أو الفارين من أسر الظلم فى أوروبا الشرقية عام ١٩٥١م .

ففى الاتحاد السوفييتى أنشىء اثنان وأربعون مخيما للعمال المستعبدين وتضم نحو ٢٠٠,٠٠٠ عامل ، وقد ارتفع عدد المخيمات إلى سبعين مخيما ومازالت ضحايا العمال تتزايد كل سنة من خمسين ألف إلى مائة ألف[٢].

وفى بولونيا نحو خمسين مخيما فى شهر أيلول ١٩٥٠م ليقوم فيها العمال الذين حجزت قواهم لمصلحة الاتحاد السوفييتى وعددهم نحو ٤٠٠,٠٠٠ أو ٥٠٠,٠٠٠ .

وفى رومانيا نحو أربعين ألف مخيم للعمال الأسرى ويتراوح عددهم بين ٣٠٠,٠٠٠ ـ ٤٠٠,٠٠٠ شخص .

وفى هنغاريا وبلغاريا نحو عشرين أو ثلاثين مخيما تؤوى العمال الذين يرغمون على العمل إرغاما تحت الضغط الشديد[٣].

وفى سنة ١٩٤٥م أصدر قطاع بلغاريا قانون التعليم الشيوعى وهو يقضى على كل حاكم شيوعى أن ينفذ قانون العمل بالقوة ويجعله فى صلب التعليم المدرسى .

وفى إحدى مواد حكومة تشيكوسلوفاكيا الصادر فى تشرين الأول ١٩٤٢م يقضى على كل فرد من سن ال١٦ إلى ٦٠ سنة أن يصرف ثلاثة أشهر إلى سنتين في مخيمات العمل العائد إنتاجه إلى مصلحة الدولة وعلى المواطنين أن يقدموا ذلك لاسعاد بلادهم وإنمائها وتفويتها بدون مقابل سوى مايتناوله

---

(١) الفتح بالإرهاب (٨١-٨٢) .
(٢) انظر المرجع السابق (٨٤-٨٥) .
(٣) انظر المرجع السابق (٨٥) .

من الكفاف لحفظ الحياة[١].

وصدر فى براغ سنة ١٩٥١م عن (مركز منظمة العمل) الآتى : (على الحكومة أن تحصى عدد الأشخاص الذين يقدرون على العمل وتقويم قواهم العقلية والجسدية ، وحجزهم لمصلحة الدولة ، وعلى شعوب أوروبا الشرقية أن يساهموا بهذا العمل إن لم يكن اختياريا فبالشدة يساقون سوق الغنم إلى المناجم والمعامل وقطع الأخشاب وتعبيد الطرق وفلاحة الحقول وماشاكل ذلك)[٢].

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن حرية العمل قد فقدت تماما فى الاتحاد السوفييتى وليس للعامل أن يمارس إلا مايضعه له الحزب .

ثانيا : أن أكثر الطبقات اضطهادا هى طبقة العمال التى أصبحت تنتج وغيرها يملك ثمرة ذلك الإنتاج .

ثالثا : أن العامل بوضعه الذى كان يعيشه فى الاتحاد السوفييتى يكون أكثر معاناة مما كان عليه أخوه فى الدول الرأسمالية ، تلك الدول التى تندر قادة الشيوعية بوضع العمال فيها .

رابعا : أن واقع الاتحاد السوفييتى وكالعادة كشف عن التناقض بين النظرية والواقع كما أنه حكم على النظرية الماركسية بالبطلان .

خامسا : أن العامل فى الاتحاد السوفييتى كان بمثابة الآلة المنتجة وهو عرضة للموت فى أى وقت[٣]، كما أنه لم يجد إلا الفتات فى حين كان أعضاء الحزب يتقلبون فى ثمرات إنتاجه[٤].

---

(١) انظر الفتح بالإرهاب (٨٨-٨٩) .
(٢) المرجع السابق (٨٩) .
(٣) انظر المرجع السابق (٦٠) .
(٤) انظر الطبقة الجديدة (٩٥) .

(ب) حرية العمل فى الإسلام :

جعل الله سبحانه وتعالى هذه الدار دار عمل وكدح ، والدار الآخرة دار جزاء وحساب على مافى هذه الدار ، ليعلم الإنسان بأنه لم يخلق عبثا وأنه محاسب على أعماله صغيرها وكبيرها .

ويمكن القول بأن العمل فى الإسلام ذو شقين :

(١) العمل للآخرة : وهى تحقق المنفعة والمصلحة لصاحبها فى الدنيا والآخرة .

(٢) العمل للحياة الدنيا : وهى التى تكون محققة المنفعة لصاحبها فى الدنيا ومعينة له فى فعل الطاعة .

وكل عمل دنيوى يقصد به وجه الله تعالى والاحتساب والاستعانة على فعل الطاعة فهو عبادة . وقد جاءت الآيات الكثيرة الدالة على الترغيب فى العمل وأن الإنسان يجازى على قدر عمله ويكون الجزاء من جنسه . ومن تلك الآيات قوله تعالى : {**يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا**}(١).

وقال تعالى : {**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**}(٢).

وقوله تعالى : {**من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وماربك بظلام للعبيد**}(٣).

وقوله جل وعلا : {**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**}(٤).

---

(١) سورة آل عمران : (٣٠) .
(٢) سورة التوبة : (١٠٥) .
(٣) سورة فصلت : (٤٦) .
(٤) سورة الزلزلة : (٧-٨) .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى جاءت تبين أهمية العمل والجزاء عليه . بل إن الدنيا لاتقوم إلا بالعمل فـ(هو قانون الله لعمارة هذه الأرض ماديا وروحيا فعلى سطحها خيرات معروفة ، وفى جوفها خيرات كذلك غير مجهولة ، وفى صخور الجبال ، وأعماق البحار ، وفى الهواء وجو السماء فى هذا وغيره أرزاق مذخورة للإنسان ، ولكن لايفض خاتمها إلا أهل العمل)[١].

وعمارة الأرض التى أقرها الإسلام لاتكون إلا عن طريق العمل .

إن شريعة الإسلام كلها تقوم على العمل ولأجل ذلك كرم وامتدح العمال ، وأولئك الذين يبذلون جهدهم من أجل الاستغناء عن الآخرين ، وحث الإنسان على العمل حتى لايتكفف الناس ، ويستذل بذلك حفاظا على كرامته وإنسانيته .

وقد وردت عدة أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحث على العمل وترغب فيه منها قوله عليه الصلاة والسلام : "لأن يأخذ أحدكم أحبلا فيأخذ حزمة من حطب فيبيع فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطى أم منع"[٢].

وقوله عليه الصلاة والسلام : (ماأكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[٣].

والعمل فى الإسلام مقرون بالعبادة ، كيف لا والعبادة فى أغلبها عمل ولأجل ذلك اهتم به الإسلام سواء منه مايتعلق بالآخرة أو بدار الدنيا ، وأصبح حب العمل متأصلا فى النفس الإنسانية المسلمة نظرا لأمر الله تعالى وأمر رسول صلى الله عليه وسلم به .

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٤١) .

(٢) البخارى بفتح البارى (٤٦/٥) ، كتاب المساقاة ، باب بيع الحطب والكلأ .

(٣) رواه البخارى بفتح البارى (٣٠٣/٤) ، كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده .

كفالة الإسلام حق العمل وحريته :

ويمكن إبراز ذلك فى النقاط التالية :

أولا : اهتمام الإسلام بالعمل وتكليف الدولة بإيجاد الفرص لمواطنيها .

إن أحكام الإسلام قد راعت النفس البشرية ، وحققت لها ماتطلبه فطرتها ، ومايحقق سعادتها الروحية والجسدية ، وعندما كان الإنسان مخلوقا لله تعالى ، مأمورا بعبادته ، وهذه العبادة هى عمل فى ذاتها . فإن الإسلام أولى العمل اهتماما كبيرا ، وحث عليه وأثنى على العاملين ، الذين يبتغون بأعمالهم ثواب الله تعالى .

ولم يقتصر اهتمام الإسلام بالعمل للآخرة - والتى هى غاية كل مؤمن - بل أولى العمل لأمور الدنيا عناية خاصة لأن الأصل فيه أن يكون موصلا إلى مايرضى الله تعالى . ثم إنه يحقق للانسان ماتتطلبه حياته سواء الإجتماعية أو الإقتصادية . ومن هنا ضمن الإسلام للفرد حق العمل ، وحريته فيه ، تحقيقا لمصلحته ، وتلبية لنزعته ، وأوجب على الدولة أوالسلطة وكلفها أن توجد الفرص لرعاياها ، مع عدم التضييق عليهم فى ذلك ، أو حرمانهم من هذا الحق . يقول البهى الخولى : (ومن حقه أن تتاح له فرص هذا العمل ، وليس لأحد كائنا من كان ، أن يحرمه هذا الحق أو يحول بينه وبينه ...) .

و(على السلطة الممثلة للمجتمع أن تراعى هذا الحق وأن تمكن كل عامل من أن يعمل ، وأن تفتح له الأبواب إذا سدت ... عليها أن تزيل ماأمامه من العقبات المصطنعة وغير المصطنعة ولن تقدس أمة لاتقوم السلطة فيها على رعاية أمثال هذه الحقوق)[١].

إن الإسلام حقق للإنسان حرية العمل على أكمل وجه وأبلغه ، ويظهر ذلك جليا فى السماح له بتعاطى ماشاء من صنوف الأعمال كالزراعة والتجارة ، والصناعة أو غيرها ، وجعل سبل الكسب ميسرة متنوعة ،

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٧٠-٧١) .

ووضع القيود والشروط التى تضمن الحقوق بين العباد ، وأفاض الإسلام فى بيان مايحل ويحرم على الإنسان أن يأتيه من أجل الكسب ، وأبان طرق الكسب الحلال ، وكذا حذر من طرق الكسب الحرام .

ثانيا : ومما يدل على اهتمام الإسلام بالعمل وبيان أهميته وإقرار الحرية للفرد فيه ، أنه وضع قيودا عديدة على حرية العمل ليحقق لها الانضباط ويسير بها فيما يحقق المصلحة الخاصة والعامة ، ويمكن ابراز ذلك فى القواعد التالية :

(القاعدة الأولى : منع حرية العمل عن كل مافيه إضرار بالفرد أو عدوان على حق من حقوقه ، والإضرار المحظور هنا يشمل أنواع الإضرار بالنفس أو الجسم أو العقل أو المال أو العرض .

القاعدة الثانية : منع حرية العمل عن كل مافيه إضرار بالمجتمع أو عدوان على حق من حقوقه العامة ، والإضرار المحظور هنا يشمل أنواع الإضرار الذى يمس كيان وحدة المسلمين ، أو يمس مصالحهم ، أو حقوقهم العامة .

القاعدة الثالثة : منع حريةالعمل عن كل مافيه إضرار بالدولة الإسلامية ، أو عدوان على حق من حقوقها ، والإضرار هنا يشمل أنواع الإضرار السياسى أو الإدارى أو المالى أو العسكرى ، أو غير ذلك .

القاعدة الرابعة : منع حرية العمل عن كل مافيه إضرار أو إخلال بمبدأ من مبادىء الإسلام المتعلقة بالعقائد أو بالشرائع ، أو عدوان على شىء منها بأية وسيلة ظاهرة أو خفية ، كالأعمال التى من شأنها أن تفسد عقائد المسلمين ، أو أخلاقهم ، أو تميل بسلوكهم عن صراط الإسلام وأحكام الشريعة الربانية)[1].

ثالثا : مما يدل على احترام الإسلام للعمل وتحقيقه الحرية فيه اهتمامه بالعامل .

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة (٤٦٢) .

حيث جعل له حقوقا لم يضمنها دين سماوى سابق ، ناهيك عن مذهب وضعى سابق أو لاحق للاسلام . ونعرض لبعض هذه الحقوق :

(أ) حق العامل فى اختيار العمل المناسب لامكاناته وتوجهاته ، ولم يلزم الإسلام أحدا بعمل معين إلا إذا كان هناك فرد لايصلح لذلك العمل إلا هو تحقيقا للمصلحة العامة .

(ب)إعطاء العامل الأجر العادل ، وتقدير الأجر بما يتناسب والعمل ، ومعاملة الأجير معاملة حسنة ، وعدم تكليفه مالايطيق .

قال صلى الله عليه وسلم : (إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فما كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولاتكلفوهم مايغلبهم ، فإن كلفتوهم مايغلبهم فأعينوهم"[1].

يقول الدكتور عماد الدين خليل : (ولم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مسألة من أهم مسائل العمل ، تلك هى تكليف العامل أو الأجير بذل جهد أكبر من ذلك الذى تم الاتفاق عليه، أو قضاء ساعات أطول فى العمل أو إنجاز قطع أكثر من المتفق عليها ، وضرورة ضمان هذه الزيادة فى الجهد الذى تنبثق عنه قيمة أكبر لصاحب العمل . كما أنه لم يترك مسألة العلاقات الإنسانية التى يجب أن تسود بين الطرفين : العامل وصاحب العمل فى أى نشاط إجتماعى ، ويتقدم بها صلى الله عليه وسلم صعدا حتى يضعها فى مرحلة الاخوة الكاملة حيث يأمر أصحابه حينذاك : عمالا وأصحاب عمل أن يأكلوا سويا ويلبسوا سويا .. يقول : (إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولاتكلفوهم مايغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم" .

وليس ثمة نظام تعرض فيه مسألة "العمل" وفق هذا المثلث الصارم : منح حق العامل كاملا فى وقته المناسب ، وزيادة هذا الحق بما يتناسب

---

(١) رواه البخارى بفتح البارى (١٧٤/٥) ، كتاب العتق ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم (العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون) .

واتساع الجهد الذى يبذله العامل ، ورفع العلاقة بين العامل وصاحب العمل إلى مستوى الأخوة والتعامل المشترك فى الطعام واللباس .. ليس ثمة نظام كهذا يتاح فيه - لو نفذت تعاليمه فى عصر صناعى على سبيل المثال - أن تنمو وتترعرع الأخلاقية الرأسمالية الجائرة والطبقية المقيتة . ثم إن هذه التعاليم وغيرها كثير ، تعد فى الوقت نفسه سببا فى عدم وصول المجتمع الإسلامى إلى مرحلة الرأسمالية ، بمفهومها الكامل ، رغم ماقدمته له حضارته من معطيات فى ميادين التكنولوجيا والعلوم التطبيقية ، لأن أخلاقية المسلمين التى صنعها دينهم وصاغها رسوله صلى الله عليه وسلم تقف حائلا دون هذا المصير ...)[١].

ويقول الغزالى عن تحديد ساعات العمل : (إن الاستمرار فى الأعمال إلى حد الإرهاق أمر لايأذن به الشرع ولايرضى عنه الله سبحانه .

ومن هنا نعرف حكمة المطالبة بتحديد ساعات العمل وسبب استمساك العمال بها - فى الأحوال المعتادة - فإن الطبقات الكادحة لاتتكون من مردة وشياطين بل من أناس لهم مشاعر وعواطف تستحق الاحترام .

ولهم مطلق الحرية فى أن يستمتعوا بزينة الله التى أخرج لعباده ، وأن يتركوا جو العمل الجاد ليتنفسوا فى جو الحياة المرحة ومواطن اللهو المباح .

وينبغى أن يلقن المسلمون دينهم على هذا النحو السمح .. على أن تحديد ساعات العمل تشريع يناسب أوقات السلم خاصة .

أما أزمنة الحرب ومايشبهها من الفترات التى تحتاج الأمة فيها إلى أن يضاعف أبناؤها جهودهم ، وأن ينتموا جميعا فى كتائب العمل المتواصل ليلا ونهارا فإن لها لاريب قوانينها المؤقتة .

---

(١) مقال فى العدل الإجتماعى (٧٢-٧٣) ، وانظر إشتراكيتهم وإسلامنا (١٤٥-١٤٦).

وفى الحرب ترخص الدماء فلاجرم أن الجهود ترخص ولو استنزفت مالدى الإنسان من طاقة .

لكن الواجب أن يوزع هذا التعب على طبقات الأمة بنسبة عادلة حتى لاتستريح طبقة على حساب أخرى!)[١].

واهتم الإسلام بدفع أجره إليه ورفض (أن يراه ساخطا متبرما ، ويقرر له أن يعطى حتى يرضى ، وحتى يشعر بأنه مجدود فى حظه على قدر ماهو مكدود فى عمله)[٢].

(ج) حقهم فى المسكن ووسائل المواصلات .

(د) حق الضمان للعامل عند الحاجة .

فالإسلام يحقق الرعاية للعامل الذى عجز عن الكسب بسبب عدم الاستطاعة البدنية ، وكذلك العامل الذى لايكفى دخله مصاريفه ونفقاته ويكون عمله مستمرا حيث يكفل الإسلام الرعاية لكل عامل أصيب بنكبة فى صحته أو منزله أو مصدر عيشه[٣].

يقول البهى الخولى : (إن الدولة مسئولة عن الفرد فى جميع حالاته عاملا كان أم عاطلا . هذا هو حكم الشريعة الإسلامية : "كلكم راع ومسئول عن رعيته . فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ..."[٤].

---

(١) الإسلام والمناهج الإشتراكية (٢٣٧-٢٣٨) .

(٢) المرجع السابق (٢٣٤) .

(٣) الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية (٢٦١) نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٦٠-٢٦٤) .

(٤) متفق عليه . البخارى بفتح البارى (٦٩/٥) ، كتاب الاستقراض ، باب العبد راع فى مال سيده ولايعمل إلا بإذنه . مسلم بشرح النووى (٢١٣/١٢) ، كتاب الإمارة باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق .

ولست أفهم للمسئولة معنى إذا لم يكن الحاكم مسئولا عن أهل البطالة من رعيته ، مطالبا بتعهد أولئك العاملين الذين لايحصلون على الكفاية من أجورهم .. وأن معانى المسئولية تصبح كلها لغوا وخداعا إذا انسلخت مسئولية الراعى عما يهدد رعيته من الجوع والحرمان)[١].

والإسلام اهتم بغير القادرين على العمل وأمن الحقوق لهم ، ولم يعتبرهم كائنات غير إنسانية عليها أن تموت جوعا .

رابعا : أن (الفلاح فى نظر الإسلام انسان حر له كرامته وشخصيته وأهليته الكاملة ، ولاارتباط له بالأرض التى يعمل فيها - إن لم يكن مالكها - إلا ارتباط الحر بأى عمل يتعاقد عليه مع غيره)[٢].

فالإسلام حقق ماأراده العامل وجاءت به النصوص الشرعية فعلا لاإدعاء . فالحقوق التى أعطيها العامل أو الأجير فى الإسلام ليس لها نظير فى أى مذهب من المذاهب الإلحادية التى ادعت بأنها ماقامت إلا من أجل العمال وإصلاح أحوالهم[٣].

خامسا : يمنح الإسلام للعامل حقوقا عديدة أخرى مثل : (تعريفه بأجره قبل قيامه بعمله ، ويأبى على أصحاب الأموال إرهاقه أو الافتيات عليه ، ويمنحه فى الأعمال المالية حرية مناسبة ، ويتيح له العمل فى أموال غيره ، وفق نظم خاصة ، كالمضاربة التى هى شركة فى إنتاج الأرض بين صاحب الأرض والعامل ، والمساقاة ، وهى شركة فى الثمر بين صاحب الشجر والعامل ...الخ

والإسلام يعطى العامل الحق فى فسخ عقد العمل ، ويعطيه حقوق التعويضات المختلفة ، وحق الراحة الاسبوعية ، وهو فى كل ذلك يأخذ بأعراف الناس وتقاليدهم .

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٧٢) ، وانظر إشتراكيتهم وإسلامنا (١٤٧-١٤٨) .
(٢) الفرد والمجتمع فى الإسلام (٩٥) .
(٣) انظر الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٩٢) ومابعدها .

وهو يرعى العامل فى شيخوخته ويمنع من العمل الأطفال غير المميزين والمجانين ويصون للمرأة العاملة حياءها وأخلاقها ، وبهذه المبادىء يحبب الإسلام إلى العمال أصحاب الأموال ، ويزيدهم إخلاصا للعمل وقدرة عليه فيكثر الإنتاج ، وتزيد الثروة العامة)[١].

واجبات العمال :

بعد أن منح الإسلام العامل حريته وحقوقه التى تجب له ، فإن من العدل أن يجعل لرب العمل حقوقه الخاصة به ، والتى هى واجبات يتحتم على العامل القيام بها . ومن ذلك :

الأمانة : قال تعالى : {**يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**}[٢].

الإخلاص فى العمل وإتقانه ومراقبة الله تعالى فيه : قال تعالى : {**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**}[٣].

والنتيجة الطبيعية نظرا لوجود الحقوق والواجبات منع تفشى الأخلاق السيئة من كذب ، وخداع ، وغش ، وسرقة ، ولأجل ذلك كان واقع المجتمع الإسلامى يخلو من هذه الأمراض ، فإذا أصابه الانتكاس ببعده عن كتاب ربه وتعاليم نبيه صلى الله عليه وسلم وقعت وتفشت فيه هذه الأوبئة . وهذه لمحة عن واقع الأمة المسلمة مع العمال .

واقع الأمة المسلمة فى تحقيق الحرية للعمال :

كان سلف الأمة عليهم الرضوان من ربهم وعلى من سار على نهجهم خير من طبق النصوص الشرعية فى احترام العمل ، والإخلاص فيه ، وإعطاء العمال حقوقهم وحرياتهم ، والسماح لهم بممارسة ماشاءوا من تجارة أو زراعة أو أعمال أخرى يقتاتون بها .

---

(١) الشيوعية فى موازين الإسلام (٧٥-٧٦) ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٢٢٦) ، ضمانات الحرية (٤٢) .

(٢) سورة ألأنفال : (٢٧) .

(٣) سورة التوبة : (١٠٥) .

وقد امتلأت كتب التاريخ والسير عن أخلاق المسلمين مع العمال وأصحاب المهن حيث كانوا يؤاكلونهم ، ويخالطونهم ، ويكسونهم ، ويتقاسمون معهم ظهور الخيل فى الركوب فى الأسفار ولايثقلون عليهم ولايكلفونهم مالايطيقون . وإذا حصل أن جار أحدهم على رقيقه أو خادمه أو عامله فما كان يجد تكفيرا لتلك القسوة إلا أن يعتقه فى سبيل الله تعالى ليكون حرا وهكذا عاش المسلمون الأوائل . وستظل تلك الأخلاق وذلك الخلق إلى قيام الساعة ولن تعدم الأمة من يسير على نهج سلفها .

وبعد هذا العرض المختصر أصل إلى التالى :

أولا : أن الإسلام حث على العمل ورغب فيه سواء كان الدنيوى أو الأخروى .

ثانيا : اعترف الإسلام بالحرية للعامل فى اختيار عمله ومكانه وكسبه .

ثالثا : وضع الإسلام القيود على هذه الحرية كعادته فى جعل الأمور الفطرية والنوازع الإنسانية تسير فى تحقيق مصلحة الفرد والجماعة .

رابعا : تمتع العامل فى صدر الإسلام بكامل حقوقه كاملة غير منقوصة وسيظل كذلك مانمسك المسلمون بكتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام .

خامسا : أن التشريعات الإسلامية فى قضايا العمل والعمال وواجبات كل من العامل ورب العمل تجاه الآخر تجعل الإسلام يحقق السعادة والرضاء بين الأطراف فلاغل ولاحقد ولاتحاسد وكل راض بقسمته وقدره الذى قدره الله تعالى له . وذلك خلاف مافى الأنظمة الأرضية من رأسمالية وإشتراكية .

سادسا : بعد أن ثبت أن الدين يحث على العمل ويطلب من المسلم أن يكون كذلك تبطل فرية ماركس وأتباعه من أن الدين أفيون الشعوب ، بل هو محرك الشعوب وباعث روح العمل والنشاط فيهم . وهذه الحرية يرتبط بها حرية أخرى وهى حرية التنقل ، وهذا مانعرض له فى المبحث التالى .

المبحث السابع
حرية التنقل

(أ) حرية التنقل فى النظام الشيوعى :

لم ينص الدستور السوفييتى على حرية التنقل سواء فى داخل البلاد أو خارجها ، فأما فى داخل البلاد فلايسمح بالانتقال (إلا بتصريح وجواز مرور أما حرية الهجرة من المجتمع الشيوعى فهى تكاد تكون مفقودة تماما حيث تضرب الشيوعية حول مجتمعها ستارا ...)[١]. ووضع ستالين ورفاقه نظاما (لايسمح لأى مواطن سوفييتى أن يسافر إلى خارج البلاد دون أن يفحص أشد فحص ، وأن يعد لهذا الغرض أعظم إعداد ، ثم لايسافر بعدئذ إلا عضوا فى جماعة يجد نفسه فيها خاضعا لرقابة قوية . أما القادمون إلى بلاد الاتحاد السوفييتى من الأقطار الأجنبية فيجدون حركاتهم مقيدة بقيود محكمة يفرضها القانون السوفييتى ، ويشرف عليها مكتب السفر والسياحة ؛ ويطبق هذا المبدأ ذاته على الاتصال الشخصى بين الأفراد ، وفى ميدان الجرائد اليومية والمجلات الدورية ، والكتب والإذاعة . ثم عمدت الدولة السوفيتية فى عام ١٩٣٢م إلى وضع نظام لجوازات السفر داخل البلاد لتقيد به حركات المواطنين السوفييت ، وهو نظام كان الثوار الروس ، ومنهم لينين نفسه ، يرون أنه من أشد الأنظمة إرهاقا واستبدادا فى عهد القياصرة ...)[١].

ومما يدل على انعدام هذه الحرية تلك الأحداث التى وقعت لكثير من أفراد الشعب الروسى ، وحتى المفكرين منهم فقد منع سخاروف من السفر لاستلام جائزة نوبل للسلام[٢].

---

(١) يستثنى من ذلك اليهود وهجرتهم إلى إسرائيل .
(٢) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٧٢) ، وانظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٨٠) .
(٣) انظر : الإسلام وحقوق الإنسان (٩٤-٩٥) ، إسلام لاشيوعية (١٠٨-١٠٩) .

ومن هؤلاء الذين منعوا من السفر نظرا لتفوقهم وشهرتهم الأكاديمى (كابتزا)[١]بنى عام ١٩٣٩م جهازا لإنتاج الأكسجين بكميات كبيرة وبعد اختراع أمريكا القنبلة الذرية رفض التعاون فى المشروع السوفييتى فاتهم بعرقلة الدفاع الوطنى وطرد من إدارة معهد المشكلات الفيزيائية ، ثم أعيد إلى منصبه بعد موت ستالين ، وقد اعترف خروشوف بأنه منعه من السفر حفاظا على حماية الشعب والدولة والأمن الوطنى وقال : (والآن أسأل الأكاديمى كابتزا ، الذى احترمته دوما كعالم عظيم ، أن يسامحنى)[٢].

ومما يدل على منع الإنسان من الانتقال هو تلك الأسوار التى ضربوها بين مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرى .

فهذا جدار برلين الذى وضع ليفصل بين الألمانيتين إلا أن الشعب حاول اختراقه والهروب إلى المانيا الغربية وفى هذا دليل على أن الشيوعية أسوأ من الرأسمالية ، لأننا لم نجد عاملا أو إنسانا هرب من دولة رأسمالية إلى دولة شيوعية والعكس صحيح يؤيده الواقع . يقول د. عبد الله عزام : (كل الناس فى المجتمعات الإشتراكية يعيشون داخل سجن حديدى . فالفرد فى الاتحاد السوفييتى محروم من جواز السفر ومن التنقل ؛ ولو ملك الناس حرية السفر لما بقى فى روسيا إلا ثلاثة ملايين شيوعى . إن الشعب كله يعيش بين مطرقة اللجان المركزية للحزب وبين سندان قواعده . لقد قسمت برلين سنة ١٩٤٥م إلى قسمين : الغربى تحت حكم الغرب والشرقى تحت سيطرة الشيوعيين وفصل بينهما بجدار ؛ ولو اطلعت على هذا الجدار ومايسلط عليه من أضواء لعجبت وهلعت . وهناك شبكة من الأسلاك الكهربائية التى تصعق كل من يمسها أو يقترب منها ؛ وكم من الناس صعقوا على هذا الجدار وهم

---

(١) عالم فيزيائى ولد عام ١٨٩٤م فى روسيا ، له منزلة دولية رفيعة ، ذهب إلى انجلترا بعد الثورة حيث عمل فى فيزياء الحرارة المنخفضة فى كمبردج ، رجع إلى روسيا عام ١٩٣٤م زائرا ، ولم يسمح له بالخروج منها .

(٢) الوصية الأخيرة (٦٨) .
وعن المنع من التنقل انظر المسلمون أمام التحدى العالمى (٤٨) .

يحاولون الهرب من جحيم الشيوعية إلى برلين الغربية)[١].

ومما يدل على هذا المنع الحوادث المتكررة لهروب رجال السياسة والمخابرات السوفييت إلى الدول الغربية .

وقد ظنت الشيوعية أنها بجعل شعوبها تقيم الإقامة الجبرية سيطول عمرها لأنها حجبت عنهم الحقيقة ، وأوهمتهم بأنها الجنة الموعودة . ولكن الفطرة الإنسانية ، والتى خلقت على الاعتراف بالوحدانية ، تأبى العبودية والخضوع ، وتنزع دوما إلى حب الاستقلال وعدم الخنوع ، ومن هنا لم تستطع الشيوعية من الاستمرار فى سياستها القائمة على كبت الحرية ، ومصادرة النوازع الإنسانية ، ومن هنا أعلنت تراجعها وأعتقت شعوبها من عبوديتها التى فرضتها بالقوة . وبهذا العرض المختصر لحرية التنقل نصل إلى التالى :

أولا : أن الشيوعية عملت على مصادرة حرية التنقل حفاظا على استمرارها حتى لاينكشف زيفها وخداعها .

ثانيا : أن مصادرة هذه الحرية نتيجة طبيعية لتسلط الحزب ، ورغبته فى إحكام قبضته على جميع أفراد الشعب .

ثالثا : إذا كان الحق فى الشيوعية فلماذا هذا الحجر على الاتباع والمفكرين؟! ولماذا لم تكن أراضى الاتحاد السوفييتى مفتوحة ليذهب الناس ويشاهدوا النعيم الذى يعيشه الشعب هناك؟!!

---

(١) السرطان الأحمر (٨٧) .

(ب) حرية التنقل فى الإسلام :

إن الأرض كلها لله تعالى ، وكل مافيها مسخر للانسان ، ومن هنا أباح له الإسلام التنقل فيها ، والسير فى مناكبها بحثا عن الرزق ، وطلبا لكل مافيه مصلحة له دنيوية ـ منضبطة بضوابط الشرع ـ أو دينية . فأقر الإسلام هذه الحرية للانسان ، يظهر ذلك فى :

أولا : الضرب فى الأرض طلبا للرزق :

قال تعالى : {**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**}(١).

ثانيا : الانتقال من بلد لآخر حفاظا على الدين (الهجرة) .

حيث ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا واضحا لضمان الإسلام لذلك الحق ، فأذن للمسلمين الفرار بدينهم والانتقال من بلد إلى آخر كما حدث فى الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة المنورة .

وكذلك الجهاد فى سبيل الله والضرب فى الأرض نشرا لدعوة الله تعالى وإزالة العوائق من أمامها ، كل ذلك يدل على أن هذه الحرية كانت محفوظة لكل فرد .

فـ(من حق الإنسان أن يتنقل فى البلاد من مكان إلى آخر لتبديل أسلوب ومكان المواجهة مع الظالمين ، أو للانضمام إلى فئة أخرى تشاطره المصير)(٢).

---

(٢) سورة الملك : (١٥) .

(٢) العدل فريضة (٣٨) .

ثالثا : الانتقال من مكان لآخر من أجل الدعوة فى سبيل الله تعالى ، والجهاد لإعلاء كلمته جل وعلا ، وطلب العلم كل ذلك دل على الحرية التامة فى الانتقال .

رابعا : أباح الإسلام للانسان الانتقال بأى وسيلة أراد ، وعن أى طريق يختار ، شريطة عدم تعريض نفسه للأخطار ، أو مصالح الآخرين للإضرار .

خامسا : من اهتمام الإسلام بهذه الحرية وضع القيود عليها من أجل تحقيق مصلحة الفرد والجماعة .

سادسا : اشترط الإسلام على الإنسان حين الانتقال من مكان لآخر أن يكون آمنا على نفسه ، ودينه ، وعرضه .

مصادرة الحرية وسقوط الشيوعية :

اتضح لنا من العرض السابق أن الشيوعية قامت بمصادرة الحرية كاملة ومنعت الإنسان تحت سلطانها من ممارسة مافطر عليه ، وتتطلع نفسه إليه ، فمنعته من أن يمارس عبوديته لله وأرادت استخراج الإيمان والدين من قلبه لتغرس مكانه الإلحاد والمبادىء الماركسية ، ولكنها فشلت فى ذلك لأن الفطرة أقوى من أن تتغلب عليها قوة أرضية ، ثم أردفت الشيوعية ومنعت كل مايتفرع من هذه الحرية حيث حرمت على الإنسان حرية التعبير والرأى ، وحرمته القول بالتوجيه أو الانتقاد ، وأجبرته على الذلة والانقياد لأوامر الحزب وزبانيته ، ولكى تجعل الفرد أكثر جهلا بالحقائق ، منعته من حرية التعلم ، وأسقته كأسا واحدا هو الإلحاد والكفر بخالق الإنسان ، وأوهمته بأنها لم تقم إلا من أجله ، وأن القيادة ستكون فى يده ، وأن السلطة من نصيبه دون غيره ، ولكن سرعان ماأصبحت الأنظمة تطبق عليه دون سواه ، وصودرت منه كل حرية سياسية كان بالإمكان أن يعلن من خلالها رأيه ، أو يطلب عن طريقها حقوقه ، وعندما قامت قالت له أن الثورة لك أيها العامل ، وأن القصد منها أن تحيا حرا ، وأن تغدو وتروح حرا ، وبعد أن حقق القوم هدفهم منعوه من أقل شئون الحياة ، وأصبح لايملك إلا مايأكل ولايتمتع حتى بحريته الشخصية .

هكذا عاش الإنسان فى ظل النظام الشيوعى مسلوب الحرية ، مهدر الكرامة .

ولعل المرء يتساءل لماذا كثر الأتباع لها إذا كان هذا حالها مع الإنسان وحرياته .

فنقول لقد قامت الشيوعية على شعارات براقة ينخدع بها كل محب للحرية والعدالة والمساواة خاصة إذا كان ممن يعانى من فقدانها ، وقد ذكر ذلك بعض من أعجب بها أو أعجب بالاتحاد السوفييتى فى أول أمره وعند قيامه .

فهذا لويس فيشر يقول : (لقد أحببت السوفييت لأنهم كانوا "تجربة" فى سبيل مصلحة الجمهرة التعسة المنكودة الكادحة ومن أجل خيرها وإسعادها ، ولأنهم قضوا على اختصاصات الأقوياء المعدودين ، وامتيازات الصفوة القلال ، ولأنهم كانوا ضعفاء البأس ، مستهدفين لخصومة المحافظين فى مختلف أنحاء العالم ومعارضة الرجعيين والجامدين .

وكانت هذه العوامل المحببة والاعتبارات الجاذبة وليدة استعداد فى نفسى من البداية ، جعلنى ، وأنا لاأكاد أشعر ، نصيرا للاتحاد السوفييتى وأحد أشياعه الصادقين)[١].

ولكن سرعان ماينقلب هؤلاء فيكفرون بذلك الفكر ويعلنون براءتهم منه إذا انكشف زيفه ، وبان ظلمه[٢]. إن هذا الكفر نتيجة طبيعية لمن عرف حقيقة الشيوعية . وكونها أكاذيب وأوهام ، نصبت لاصطياد الناس والإيقاع بهم من أجل استغلالهم . لقد اتخذ الشيوعيون من خداع العمال واجهة لهم يصلون من خلالها وينحط غيرهم ، وقد بصر بهذه الحقيقة جمع من المفكرين .

يقول فيشر : (كنت فى ذلك الحين لاأزال أقرأ وأسمع الكثير عن روسيا السوفيتية ، وأعلم أن البلاشفة يمجدون الإنسان ويعززونه ، ويرثون له ، عارضين عليه الأرض والخبز والسلام والعمل والمسكن والطمأنينة والتعليم والصحة والفنون والسعادة ، وينـاصرون مبادىء الإخاء الدولى الذى يجمع أشتات الكادحين والمكدودين ، ويقولون إنهم سيقضون على التمييز العنصرى والاستغلال والظلم وقوة الثراء وحقوق الملكية والجشع الإقليمى ؛ وقد راحوا يفاخرون بأنهم حرروا بولونيا وفنلندة ودول البلطيق من حكم الروس ، وتخلوا عن امتيازات القيصر فى الصين ومناطق نفوذه وامتيازات الزيت الممنوحة فى إيران .

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٦٤) .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٤٣-٢٤٤، ٣٥٠-٣٥١) .

فلاغرو إذا مضى المظلومون فى هذا العالم وأنصارهم يرون فى السوفييت رسل عهد جديد فى التاريخ . لقد رأينا يومئذ دولة تشغل مساحتها سدس الكرة الأرضية تنضم إلى خطيب الشوارع فى أصائل الآحاد وتتكلم كلامه ، وتتحدث بلغته ولسانه ، وشهدنا لأول مرة فى التاريخ حكومة تحقق أحلام المصلحين ومحطمى الأصنام والرواد الأولين فى الأجيال الماضية . لقد سرت فى البشر هزة ، واستولى الرعب على نفوس أصحاب الامتيازات ، والتقاليد ، ورجال العسكرية ، والأباطرة ،و المزهوين بلونهم على سائر بنى البشر ، والجامدين على الأوضاع القائمة ، فلم تلبث مخاوفهم أن أثارت الآمال الكبار فى نفوس الآخرين . وكان أبدع مافى البلشفية "عموميتها" ، فهى لم تقترح إدخال تغييرات معينة فى روسيا فحسب ، بل رمت أيضا إلى ماهو أوسع نطاقا ، وأتم شمولا . رمت إلى إلغاء الحروب ، والقضاء على الفقر ، والآلام ؛ فلاعجب إذا رأينا صغار الناس فى كل بلد من عامل أجير ، وكاتب مفكر ، وذكى مستنير ، قد شعروا يومئذ بأن حدثا خطيرا جرى فى حياتهم ، حين بدأت جذور الثورة تتأصل فى أرض روسيا وتربتها . والواقع أن ذلك العطف العام الذى أحاط بالبلشفية فى تلك الأيام كان مرجعه إلى السخط على سير الأحوال فى البلاد الأخرى ، أكثر من مرده إلى معرفة حقائق الحال فى روسيا ذاتها ؛ فإن أكثر الناس كانوا يومئذ يجهلون ماحدث فيها ، ولايعرفون شيئا عما كان يجرى تحت النظام البلشفى الجديد ؛ وإن مضى كل إنسان يتحدث عنها بحرارة ، ويتحمس فى الحديث عنها كل الحماسة . ووقع ماكان منتظرا ، إذ جعل المنتمون إليها ، الداخلون فى حظيرتها ، يعتمدون فى الغالب على وعودها ، ويعتذرون عن "المتاعب" التى وجدتها فى طريقها ؛ بينما ذهب الناقمون منها المتربصون بها ينتقدونها على أنها لم تحقق من تلك الوعود شيئا . ولم يلبث هذا الجدل القائم بين أنصارها وخصومها أن أثار فى نفسى الرغبة فى الظفر بالحقائق من مواردها ، والعلم من مظانه ، فذهبت إلى موسكو من برلين فى شهر سبتمبر عام ١٩٢٢م وأنا لاأعرف كلمة واحدة من الروسية ، ولاأعلم إلا القليل من

أمـر النظام السوفييتى ، وإن كنـت أحنو على أمانيـه ، وأعـرف مع ذلك أن الأحوال فيه سيئة ، وأننى لست مسافرا إلى "المدينة الفاضلة" ولاأنا حاج إلى مكة المكرمة)[١].

إن من أعظم الآثار التى خلفها القضاء على الحريات بالنسبة للشيوعية:

أولا : زعـزعة الثقـة فى نفوس كثير مـن معتنقيهـا مـن طبقـة المفكرين والمثقفين ، بل فى نفوس بعض قوادها وزعماء حزبها .

يقـول آرثر كوستلر : (ولكن اليوم قد هوت فلسفـة ماركس إلى درك السفسطـاء البيزنطيـة ، وتحولـت كـل فقرة فى برنامجهـا مـن حيـث المعنى إلى نقيضهـا . فلم يعد من السهل استعـادة تلك الحماسة القـديمة التى كـانت لها ، والحميـة الأولى التى كان المرء يشعر بها ، واللذة الـذهنية التى كان يحسها .

لقد كنت مهيأ للتحول إلى الشيوعية كنتيجة لتاريخ حالتى الشخصية ، كمـا تهيـأ له ألوف آخرون غيرى مـن الشبـاب "المثقف المستنير" فى الطبقـة الـوسطى ، ذلـك الشباب الذى يتـألف منه الجيل الذى نشـأت فيـه ، نتيجة لتـواريخ حالاته الخاصة ، إذ مهما تباينت تلك الحالات فى ذاتهـا ، فقد كان يجمعهـا عامل مشترك عقب الحرب العالمية الأولى ، وهـو التدهور السريع فى القيم الأخلاقية ، وأساليب العيش التى كانت قائمة قبـل عام ١٩١٤م فى أوروبا كمـا كـانت تجمعها الفتنة المستحـوذة على الألبـاب التى اقترنت بهـا العقيـدة الجديدة القادمة من الشرق)[٢].

ثانيا : فقـدان الثقة فى الفكر الماركسى ، وكذلك فى الشيـوعية المطبقة عمليـا فى الاتحاد السوفييتى حيـث صودرت حرية الإنسـان ، وصودمت فطرته ومـاكان للإنسان وهو الحر فطريا ، والذى يميل إلى الحرية بطبعـه أن يسكت على ذلـك ، حيث (إن الإنسان الحر وبطبيعته الحرة يفضـل الموت ثمنا لحريته وكـرامته ، والشعوب لاتتنـازل عن حريتها طواعية ، ولاتقبـل أن تعيش فى

---

(١) المعبـود الـذى هـوى (٢٥٨-٢٦٠) ، وانظـر التعليم فى الاتحاد السـوفييتى (٤٢٤) .
(٢) المعبود الذى هوى (٣٠) .

قفص ولو من ذهب ، وكثيرا ماتخوض الحروب ، وتقوم بالثورات حفاظا على حريتها أو طلباتها ، وتدفع الثمن لذلك من عرقها ودمها وأرواحها الغالية .. والشعوب التى تعيش فى ظل الحكم الشيوعى ، لم يقدر لها أن تختار هذا الحكم أو تبدى فيه رأيها بل إنه فرض عليها فرضا ، من خلال تنظيم شيوعى انتهز الفرص ، وقفز إلى الحكم)[١].

ثالثا : أدت مصادرة الحرية إلى فتح المجال على مصراعيه من أجل التراجع عن الفكر وتطبيقاته وذلك لكون المطالبة الجماهيرية بدأت تظهر للعيان بالإضافة إلى وجود بعض المنشورات التى تطالب باعطاء العمال حرياتهم حيث وجد فى بعضها أن (العمال فى حاجة إلى الحرية ، إنهم لايريدون الحياة طبقا للوائح البلشفية ، إنهم يريدون أن يقرروا مصائرهم بأنفسهم)[٢].

وهذا أدى بدوره إلى أن يبدأ الساسة والقادة فى سياسة التراجع والتغيير .

رابعا : أن القضاء على الحرية فيه من المفاسد الشىء الكثير .

يقول السحرانى : (إن الظلم وقمع الحريات بالاستبداد والتسلط يعد فى رأس المخاطر التى تهدد المجتمعات والدول حيث تزرع فيها الانقسام والتخاذل والفساد والجهل ، وتسد أبواب التقدم إن قوة البلدان بشعوبها وبمدى ماتتمتع به من الحرية لتساهم إيجابيا فى صنع نهضتها ومستقبل أوطانها لأن المشارك فى رسم القرار يتمتع بقوة التنفيذ ، والمؤمن بالأهداف المرسومة التى تعبر عن طموحاته وآماله تراه يستصغر العظائم ، وتراه مستعدا للتضحية مهما غلت الأثمان)[٣].

---

(١) إسلام لاشيوعية (١٠٤) .
(٢) الشيوعية فى موازين الإسلام (١١٤) .
(٣) العدل فريضة (٣٩-٤٠) .

وعندما كانت الشيوعية قد قضت على الحرية فإن أفراد شعبها كانوا عرضة لتفشى هذه المفساد وقد ظهرت آثار ذلك فى تخلف الاتحاد السوفييتى تكنولوجيا ، وفى انتشار الجريمة ، حتى إن غورباتشوف جعل من الأولويات فى إصلاحه القضاء على الإدمان ، كذلك انتشرت الأخلاق السيئة من سرقة وخداع وكذب ليتمكن الإنسان من العيش تحت ذلك النظام .

خامسا : إن الفطرة الإنسانية ، والمصلحة الذاتية ، والسنة الربانية ، والبراهين العقلية كلها تؤيد وتؤكد رغبة الإنسان فى الحرية وتطلعه دوما فى البحث عنها ، وبالتالى فإن أى نظام أو مذهب يتصادم معها يكون حكم على نفسه بالزوال ، وكذلك كان الفكر الشيوعى .

إن الشيوعية بكبتها الحرية ومصادرتها للحقوق الإنسانية ومصادمتها للفطرة الإنسانية قد جنت على نفسها ، حيث صرخت جموع المواطنين بمختلف لغاتها وقومياتها واتجاهاتها السياسية وفوارقها الإجتماعية كلها مطالبة بإصلاح الوضع ولم يكن التذمر فى طبقة دون أخرى أو فئة دون ثانية .

وهذا له دلالته الواضحة على المطالبة بالتغيير والعودة إلى الفطرة وترك الاضطهاد والإذلال ومصادرة الحرية .

سادسا : أدى القضاء على الحريات من قبل السلطة السوفيتية إلى التشنيع على الشيوعية واستغلال ذلك فى التنفير منها ، واستخدم ذلك فى الحرب الباردة الدعائية ضدها ، وأدى هذا بدوره لفقد ثقة الأتباع فى الخارج .

وهكذا كان القضاء على الحريات أحد الأسباب التى أدت إلى زوال الحكم الشيوعى وإنهياره . إن مثل هذا النظام (مصيره الإنهيار مهما طال الأمد به ... لأنه فقد ماء الحياة وهو الحرية)[١].

لقد عاش الشعب السوفييتى محروما من أبسط الحقوق ، مسلوبا كافة الحريات ، ومن هنا كان لابد وأن يبحث الإنسان عن نظام يحقق له سعادته

---

(١) إسلام لاشيوعية (١٠٩) .

ويحترم فيه انسانيته ، وبدأ البحث عن البديل منذ قيام الشيوعية ، وتطبيقها عمليا . وإن كانت أكثر الأصوات قد كممت وحكم عليها بالاعدام أو النفى .. وحاول الزعماء بعد ستالين أن يحققوا للفرد شيئا فخلصوا (الدولة من الارهاب وحركات التطهير ولكن أعياهم دفعها فى انتظام ، لقد حرروا المواطن السوفييتى من الخوف ولكن لم يستطيعوا أن يوحوا إليه بالثقة ، وكذلك حرروه من الاضطهاد دون منحه الحرية ، وشجعوه على أن يفكر إلا أنهم لم يسمحوا له بالإعراب عن أفكاره)[١].

فظل الفرد مقتولا قتلا معنويا[٢]، ولكنه لم ييأس من المطالبة بحريته ، واحترام ذاته وشخصيته كلما سنحت له الفرصة أو وجد إلى ذلك سبيلا[٣]، إلى أن حانت الفرصة وأعلنها حرية لم تقف فى وجهها الصواريخ عابرة القارات ، ولاالقنابل المحرقة ، فكانت قوة الفطرة أكبر من كل قوة ، كما كانت إرادة الإنسان المتفقة مع السنن الربانية فى عدم الرضا بالظلم والاستغلال أقوى من الأفكار الشيوعية ، ومن هنا كانت انتفاضة الشعب السوفييتى وشعوره بالحرية قوة مدمرة اجتاحت البلاد ، ودمرت تماثيل لينين وستالين وداستها بالأقدام ، وذلك كله تعبيرا عن معاناة الإنسان تحت ظل الحكم الشيوعى الذى كبت حريته ، لقد كان لكبت الحريات ومصادرها أكبر الأثر فى محاولة الخلوص من وطأة ذلك الفكر ، وتسلط نظامه القائم عليه ، فكانت مصادرة الحريات سببا رئيسيا من أسباب سقوط الشيوعية ، هذا بالإضافة إلى أن الإنسان فى ظل ذلك النظام لم يجد قوت يومه ، وكان عليه أن يظل الساعات الطوال ينتظر دوره فى حصوله على بعض الضروريات والحاجيات . أى أن الفكر الشيوعى جمع مع مصادرته للحرية ، إقتصادا منهارا قام على مبادىء زادت من حقد الشعب وثورته ومحاولة الخلوص منه حيث إن الجوع أساسا هو الذى فجر الثورة ضد النظام الشيوعى ، ومن هنا تعين الحديث عن النظام الاقتصادى الشيوعى .

---

(١) فشل الخروتشوفية (٣٨) دو تشير ، نقلا من كتاب الحريات العامة (٢٦٩) .
(٢) العدل فريضة إسلامية (٣٣) .
(٣) انظر لا.. للرأسمالية لا .. للماركسية ، نعم للاسلام (١٩٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أحمد بن عبد الله بن جمعان بن سرور الغامدي **كلية** : الدعوة وأصول الدين **قسم** : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير **في تخصص** : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((أسبـــــاب سقـــوط الشيوعيـــــة " الماركسيـــــة "))

==========

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ...

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه – والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤١٨/٢/٩هـ – بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الداخلي
الاسم : د. سليمان بن عبدا لله السلومي	الاسم : د. محمود محمد مزروعه	الاسم : د. عبد الله بن عمر الدميجي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم : د. أحمد بن صالح الزهراني

التوقيع :

١٤١٨/٢/١٧

يوضع هذا النموذج امام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة

المملكة العربيه السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة ام القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

أسباب سقوط الشيوعية
(الماركسية)

رساله مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

إعداد الطالب
أحمد بن عبد الله بن جمعان آل سرور الغامدي

إشراف الدكتور
سليمان بن عبد الله السلومي

المجلد الثالث
١٤١٦هـ - ١٤١٧هـ

الفصل الثالث
فشل النظام الإقتصادى الشيوعى

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد

المبحث الأول : المذهب الإقتصادى الشيوعى وأهم مرتكزاته .

المبحث الثانى : النظام الإقتصادى الشيوعى بين النظرية والواقع .

المبحث الثالث : نظرية القيمة وفائض القيمة .

المبحث الرابع : مميزات النظام الإقتصادى الإسلامى .

الفصل الثالث
فشل النظام الاقتصادى الشيوعى

تمهيد :

إن الاهتمام بالغذاء وإيجاد الطريق للوصول إليه قديم قدم الإنسان ، ولاحرج أن يهتم الإنسان بما يحقق له رغد العيش والوصول إلى مايسد جوعته . إلا أن هذا المطلب قد اتخذ أشكالا عدة عبر العصور التاريخية ، حتى وصل إلى اعتباره المحرك الأساسى للمجتمع فى أفكاره ومعتقداته وأخلاقه وطريقة حياته كما صورته الحركة الشيوعية الماركسية .

وبدورنا نقول إن الاهتمام بالإقتصاد ليس أمرا مستغربا لأنه يتعلق بحياة الإنسان وتلبية متطلباته . وعلى قدر رقى الإقتصاد وتنوع موارده وتحقيقه للاكتفاء تكون سعادة الشعوب ، وعلى قدر تردى الوضع الإقتصادى على قدر ماتعانى . وإذا كانت الأنظمة المختلفة قد اهتمت بمسألة الإقتصاد فإن الشيوعية كانت كذلك ولكنها اهتمت به من أجل ربط الحياة الإجتماعية والأخلاقية والفكرية به ليخدم أهدافها .

ويفخر الشيوعيون بأن ماركس أول من فسر أحداث التاريخ تفسيرا إقتصاديا ، فقالوا : (هل كانت آراء ماقبل كارل ماركس تتجه هذا المنهج الفكرى فى تفسير التاريخ أم أن ماركس هو أول من فسر التاريخ كأسلوب إقتصادى ؟

والإجابة فى بساطة : أن ماركس كان بالفعل هو أول من فسر أحداث التاريخ على أسس إقتصادية)[١].

ويقول البروفسور سيلجمان فى هذا الصدد : (لاشك أن ماركس يجب أن يعتبر بحق أول من وصل إلى التفسير الإقتصادى للتاريخ)[٢].

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٦٣) .

(٢) التفسير الإقتصادى للتاريخ (٥٢) نقلا من المرجع السابق (١٦٣) .

وماركس : (إنطلق من أن ظروف الحياة المادية تمثل الأساس الحقيقى ، الذى يحدد فى النهاية طابع عقائد المجتمع وتطلعاته .. وبين ماركس أن النظريات الإقتصادية فى المجتمع الطبقى تحمل طابعا طبقيا ، وأوضح التناقض الجذرى بين الإقتصاد السياسى البروليتارى والبورجوازى .

كما أظهر ماركس أن النظريات الإقتصادية تعتبر سلاحا فكريا هاما فى الصراع الطبقى)[١].

ويرى الشيوعيون أن من سبق ماركس كان تفسيرهم للتاريخ حسب مايرد فيه من أحداث وقصص ورجال عظام ، أما الشيوعيون وبقيادة ماركس فقد فسروا التاريخ البشرى كله وقسموه على أساس العامل الإقتصادى وقوى الإنتاج . جاء فى كتاب التفسير الإقتصادى للتاريخ : (أما السابقون على ماركس من المفكرين والفلاسفة فكانوا يفسرون التاريخ على أساس وجود رجال عظماء أو قادة عسكريين أثروا فى الأحداث وشكلوها بالوجهة التى ارتضوها وحسبما يؤهلهم نجاحهم فى التغلب على الصعوبات والعقبات التى تعترض طريقهم . وقد يكون هناك تفسيرات أخرى للتاريخ على أساس التطور فى العقائد والأفكار أو فى تغيير النظم السياسية أو فى الظروف الطبيعية المحيطة كالجو والطعام والتربة)[٢].

وقد قام ماركس والشيوعيون من بعده بتقسيم المجتمعات البشرية إلى عدة مراحل تبعا للعامل الإقتصادى وعلاقات الإنتاج فيه ، فبدأوا بنظام الرق واعتبروه أقل تشكيلة إجتماعية وإقتصادية طبقية .

فقالوا : (يعتبر نظام الرق أول تشكيلة إجتماعية وإقتصادية وطبقية . ظهر الرق فى الشرق فى الألف الرابع قبل الميلاد ... يتصف الفكر الإقتصادى فى العالم القديم بالدفاع عن ملكية العبيد الطبقية والمهيمنة)[٣].

---

(١) تاريخ النظريات الإقتصادية (٤) .
(٢) نقلا من كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة (١٦٣-١٦٤) .
(٣) تاريخ النظريات الإقتصادية (١٥) .

ويرى الشيوعيون أن المجتمعات الإنسانية السابقة عرفت النظريات الإقتصادية المختلفة . كما يرون أن الأنظمة التى أقرت الملكية ودافعت عنها كانت أنظمة استغلالية ، ويرون أنه فى بابل كان المعتدى على الملكية الخاصة يعاقب بالإعدام ، وأن المجتمع البابلى كان منقسما إلى عبيد وملاك وذلك بسبب وجود الملكية الفردية(١).

كذلك كان المجتمع الصينى : إذ يرون أنه فى الفترة من القرن الثامن وحتى القرن السابع قبل الميلاد انتشرت فى الصين الوسائل والأدوات الحديدة التى تسرع تطور أعمال الأرض والحرف المختلفة . بالإضافة إلى اخلال المشاعية حيث حل محلها إقتصاد ملاك العبيد ، كما وجد فى الصين بعض المفكرين الذين دافعوا عن نظام الرق ، ويرون أن وجود الطبقات والملكية من صنع الإله والطبيعة وهو أفضل مما سواه(٢). ومن هنا اعتبر الشيوعيون أن العبيد كانوا فى ذلك المجتمع مظلومين ، بسبب وجود الملكية الفردية .

كذلك كان الأمر بالنسبة للهند حيث دعمت من سلطة ملاك العبيد(٣).

النظريات الإقتصادية فى اليونان القديم :

حملت الفلسفة اليونانية أفكارا إقتصادية لدى مفكريها ومن هؤلاء :

(أ) **أفلاطون** :

يرى أن الملكية المشتركة هى القاعدة العامة ، ومنع الملكية الخاصة عن بعض فئات المجتمع ، حتى لاينشغلوا بها عن المصلحة العامة.

(ب) **أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ق.م)** :

عاش فى عهد الرق ، وكان أكبر المفكرين الموجودين فى ذلك العصر ، وعزا انقسام المجتمع إلى عبيد وملاك للعبيد إلى فوارق طبيعية بين البشر .

---

(١) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٦) ، وعن وجود الأساليب الإقتصادية فى بابل انظر المذاهب الإقتصادية الكبرى (١٧) .

(٢) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٧) .

(٣) انظر المرجع السابق (١٨-١٩) .

ويفيد الشيوعيون أن عبقرية أرسطو تنكشف (فى اكتشافه لعلاقة المساواة فى التعبير عن قيمة السلعة) . أى أنه وقف على الطريق المؤدى إلى قيمة العمل)[١].

ومع ذلك فأرسطو على خلاف أفلاطون حيث يرى (أن الملكية الجماعية غير عملية وتتعارض مع ميول الناس ، لأنها تحول دون بروز المزايا الناجمة من فخر الملكية ، فضلا عن النوازع الكريمة)[٢].

الفكر الإقتصادى فى روما :

وجدت النظريات الإقتصادية عند الرومان كغيرهم وإن كانت أخذت عن الإغريق كثيرا ، ولم يختلفوا عنهم إلا قليلا وكان الفكر الإقتصادى الرومانى انعكاسا لما كانت عليه الحياة حينذاك[٣].

وانقسم المجتمع إلى ملاك وعبيد وقع عليهم الاستغلال ، وانفجرت فى روما أزمة إقتصادية وسياسية ، فاستغل الشيوعيون هذه الأوضاع وعلقوا عليها واعتبروا الأوضاع الإقتصادية المتردية التى ظلم فيها الرقيق أو العامل ذريعة يتوصلون بها إلى تطبيق فكرهم القائل بأن الدين إنما يظهر تبعا للوضع الإقتصادى والعلاقات الإنتاجية الموجودة فى المجتمع .

جاء فى كتاب تاريخ النظريات الإقتصادية : (وفى منتصف القرن الأول قبل الميلاد ظهرت أيديولوجية دينية جديدة ـ المسيحية ، التى كانت فى البداية أيديولوجية العبيد وكافة المضطهدين . لقد وعدت المسيحية المبكرة بالقضاء على الفقر عن طريق توزيع وسائل الإنتاج فى المشاعية المسيحية القديمة . وفى القرن الرابع أقرت المسيحية ديانة رسمية للدولة وتحولت

---

(١) تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٠) .
(٢) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٢٠) .
(٣) انظر المرجع السابق (٢٠) . وعن بعض الشخصيات التى وجدت فى روما انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (٢١-٢٢) .

الكنيسة تدريجيا إلى آلية كبيرة لتشغيل الجماهير الواسعة)[١]. فكانت المرحلة الأولى وهى مرحلة الرق .

العصور الوسطى :

كان نظام الإقطاع[٢]هو الشائع فى هذا الوقت .

وكانت (الزراعة الحرفة الأساسية ، وكان معظم الإنتاج يمارسه أتباع أمراء الإقطاع ...)[٣].

وقد أكثر الشيوعيون من الحديث عن نظام الإقطاع فى المجتمعات الإنسانية ، ومن ذلك :

الجزيرة العربية : وهم بهذا يريدون الوصول إلى أن الدين مخترعا بشريا ، وأن القرآن إنما هو من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو مايتفق مع أصول مذهبهم الإلحادى . فيرون أنه (فى نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع ، وبسبب ولادة العلاقات الإقطاعية فى شبه الجزيرة العربية ـ سعى الأعيان والتجار والإقطاعيون لتشكيل دولة واحدة فيها . وقد لاقى هذا السعى صداه فى الأيديولوجية الدينية الجديدة ـ الإسلام . كان

---

(١) تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٣) .

(٢) الإقطاع : تنوعت استخدامات هذاالمصطلح وتضاربت (ووجد مؤرخو الدستور روح الإقطاع فى الحقيقة الواقعة التى تقضى بأن ملكية الارض هى مصدر السلطة السياسية .

بالنسبة لرجال القانون فإن روح الإقطاع (تتحد عن طريق حيازة الأرض) ، أما المؤرخون الإقتصاديون فيرون أن الإقطاع يتمثل فى (زراعة الأرض عن طريق ممارسة حقوق معينة على الأفراد) .

. History. Vol. xxv, (1940-1) p.216

نقلا من كتاب دراسات فى تطور الرأسمالية (٤٩) وانظر مابعدها ، مورس دوب ، تعريب د. رؤوف عباس حامد ، دار الكتاب الجامعى دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٢١) .

مؤسس الإسلام تاجر من مكة وهو محمد ، الذى ألف القرآن (تلاوة) وقدمه على أنه وحى من الله إليه)[١].

وجاء عنهم : (كانت إرشادات الإسلام فى "تآخى" كافة المسلمين بمثابة أساس أيديولوجى فى النضال من أجل توحيد كافة القبائل العربية ، ومبررا للحروب التى وصفت بأنها مقدسة ضد الكفار ، لقد دعا القرآن إلى "قتال المشركين" واحتلال "أراضيهم وبيوتهم وممتلكاتهم" . وقد كرس القرآن باسم الله الطبقات أو علم الناس أنه لو لم يرفع الله بعض الناس على بعضهم الآخر "لاختل توازن الأرض" واهتم القرآن بالتجارة ، إلا أنه حرم الربا . وبغية تكريس استعباد الكادحين وإخماد الصراع الطبقى ، دعاهم القرآن "ألا يتمردوا فى الأرض" ودعاهم إلى العمل هنا لينالوا الثواب فيما بعد فى جنات "الخلود")[٢].

الإقطاع فى أوروبا :

ظلت الزراعة هى الحرفة الوحيدة المنتشرة تقريبا فى العصور الوسطى وقد لعبت الكنيسة دورا كبيرا فى الحياة الأوربية ، ومر معنا الحديث عن الكنيسة وطغيانها ، وشيئا من أحوال رجالها .

وبسطت الكنيسة سلطانها على أوروبا كلها تقريبا ، فكانت روسيا تقوم على نظام الإقطاع وهو نظام ظالم للعامل ، فقام الشعب بالمناضلة ضده منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر . وكان الفلاحون هم قواد الثورة ضد ذلك النظام فطالبوا برفع الظلم ، وإعطائهم الأراضى ، والسماح لهم باستخدام الغابات والمزروعات ، وإزالة القيود عنهم ، هذا عدا وجود بعض الشخصيات التى كانت تطالب بالإصلاح العام حيث لعبت الأفكار تلك دورا

---

(١) تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٥) .
(٢) المرجع السابق (٢٦) .

هاما فى صياغة الأفكار المناهضة للإقطاعية[١].

ومن أشهر المفكرين المناهضين للإقطاعية فى روسيا الديكابريين : وكانت أفكارهم تقوم على نقد الإقطاعية وتخليص الفلاح من العبودية ، بل ووصل الأمر إلى انتقادهم للرأسمالية ، ومن هنا أخذ الشيوعيون بآرائهم وأثنوا عليهم ، لأن أفكارهم كانت تخدم الفكر الشيوعى ، وإن كانت طوباوية[٢] حيث قال لينين عن أفكارهم : (من حيث الجوهر لم تكن تلك إشتراكية ، وإنما حلم طيب وعبارات منمقة)[٣].

وقد اعتبر لينين أن أهم مايميز هذه الأفكار وجود النضال الطبقى فيها[٤].

ونختم هذه اللمحة المختصرة فى بيان وجود الأفكار الإقتصادية فى العصور السابقة بما جاء عن جورج سول حيث يرى أن ماوصل إلينا من آراء العالم القديم الإقتصادية ، نجد توافرها فى الفكر الحديث ، ومن ذلك (أولوية الزراعة على أنها الأساس الذى تقوم عليه مقومات الحياة الأخرى كافة .

الفكرة القائلة بأن الأساليب والنظم الإقتصادية كانت وثيقة الصلة بوحدة إجتماعية يمكن إدارتها ، وقد تكون هذه الوحدة بيتا أو مدينة أو مزرعة إقطاعية أو مجموعة منظمة من المشتغلين بالتجارة وأرباب الحرف ، إن الإدارة الحكيمة المتزنة للعمليات الإقتصادية أمر مرغوب فيه .

---

(١) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٥٤-١٥٥) .
وعن بعض الشخصيات المناهضة للإقطاع فى روسيا انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٥٤) ومابعدها .

(٢) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٧١-١٧٤) .

(٣) المرجع السابق (١٧٤) .
ولمزيد عن الشخصيات المؤثرة فى الإقتصاد الروسى انظر المرجع نفسه (١٧٥) ومابعدها .

(٤) انظر المرجع السابق (١٧٥،١٨٤) .

ومشروعية الإنتاج والتبادل مادام المنتج معد للاستعمال فحسب . والتحذير الوارد بالكتاب المقدس بأن (حب المال أساس كل الشرور) الشعور بأن أنواعا من الحرف غير كريمة ولاتجعل الناس صالحين للاشتراك فى الحياة العامة أو الحكم ، ومن بينها العمل اليدوى بدون توافر الفراغ أو فرص التعليم ، وكذلك السعى إلى إقتناء المال لذاته .

الإعتقاد بأن من الضرورى تنظيم التوزيع والتبادل تنظيما عادلا ، وأن فى الإمكان بلوغ هذه الغاية عن طريق قيام مجتمع يسهم كل فرد فى ظله بما هو مؤهل له ، على أن يحصل لقاء ذلك على نصيب عادل أو (طبقا للعرف) من المنتج العام .

لم تكن هذه المذاهب موضوعا منفصلا تماما عن الملاحظات الأخرى بشأن السلوك الإنسانى ، ولكنها كانت أجزاء من قوانين أخلاقية عامة أو فلسفة تستهدف معالجة التجارب الإنسانية من مادية وروحية)[١].

لمحة عن الإقتصاد الروسى قبل الثورة البلشفية :

وجدت فى روسيا عدة تيارات إقتصادية ومن أهمها البرنامج الإقتصادى للشعوب الثورية (الديكابريين) .

وهى : (حركة المثقفين التى تعبر عن مصالح الفلاحين ومن أهم مميزات مذهب الشعوبيين سعيهم للقضاء على بقايا النظام القديم وخاصة الاستبداد الإقطاعى وإزالة آثار نظام الرق الإقطاعى (القنانة) وإنقاذ الشعب الروسى من النظام الإقتصادى الرأسمالى)[٢].

يقول لينين : (إن الحركة الشعوبية احتلت مكانة طليعية وسط التيارات التقدمية فى الفكر الإجتماعى الروسى)[٣].

---

(١) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٢٣-٢٤) .
(٢) تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٩٦) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (٢٩٧) .

وقد وجد عدة مفكرين لهذه الشعوبية وكانوا يمثلون تيارات مختلفة . ويمكن القول بأن أفكارهم تقوم على التالى[١]:

أولا : أن الملكية الجماعية ضرورة ، وأنها الشرط الأهم للثورة[٢].

ثانيا : حتمية الصراع فى المجتمع البرجوازى حتى الانتصار التام للثورة[٣].

ثالثا : اعتبار المشاعية المثل الأعلى للشعب الروسى إذا ماأراد تجنب المصير المؤسف للدول الرأسمالية الغربية[٤].

وقد اهتم الروس بأفكارهم ويرون (أن الأهمية التاريخية للديكابريين ، الثوار الروسيين ، الذين حاولوا خلع القيصر فى ثورة ١٤ كانون الأول ١٨٢٥ عظيمة جدا ، لقد باؤوا بالفشل نتيجة ابتعادهم عن الجماهير الواسعة واعتمادهم على النبلاء فقط . وكانوا بعيدين جدا عن الشعب بشكل مخيف ، كما أشار لينين ، غير أن تجربتهم الرائدة كانت درسا تاريخيا لطليعى حركة تحرير روسيا فيما بعد . وكان برنامج الديكابريين الإقتصادى والسياسى تقدميا رغم ماكان فيه من القصور والطوباوية ، فقد كان موجها مباشرة ضد الإقطاعية . وكان تطبيقه العملى يمكن أن يؤدى إلى خلق الظروف الجيدة لتطور القوى المنتجة ورفع مستوى حياة الشعب وطرح الديكابريون كل قضايا تطور روسيا الإقتصادى . وأعطوا للعديد منها الحلول المحددة وأثروا بذلك تأثيرا كبيرا على تطور الفكر الثورى الروسى والحركة التحررية عموما وقد أولى لينين أهمية كبرى لنشاط الديكابريين ...)[٥]، وذلك لنشاطها الثورى الذى أثر على سير الأحداث فيما بعد .

---

(١) أخذت هذه النقاط من ثنايا كلامهم عن بعض مفكرى الشعوبية فى روسيا .
(٢) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٩٧-٢٩٨) .
(٣) انظر المرجع السابق (٢٩٨-٢٩٩) .
(٤) انظر المرجع السابق (٢٩٩-٣٠٠) .
(٥) المرجع السابق (١٦٧) .

وبعد هذا العرض نصل إلى الآتى :

أولا : أن العمال والفلاحين فى أوروبا كانوا بمثابة العبيد والأرقاء ، مما جعلهم على استعداد لقبول أى فكر أو رأى يخالف واقعهم حتى ولو كان هذا الفكر المخالف مصوغا فى قوالب نظرية تعدهم التغيير والتبديل فى ظروفهم المعيشية سواء على المدى القريب أم البعيد .

ثانيا : أن العمال فى روسيا القيصرية لم يكونوا بأحسن حالا من سواهم هذا إن لم يكونوا أشد معاناة من غيرهم تحت وقع سلطان الكنيسة والقيصر .

ثالثا : ساعد وضع العمال على تمسكهم بكل فكر رأوا فيه أنه يخالف واقعهم، واستفاد دعاة الإشتراكية كثيرا من هذا الاندفاع ، فأصبح العمال الأداة الأولى التى استخدمت فى نشر ومحاولة تحقيق المبادىء الإشتراكية الماركسية .

رابعا : انخدع العمال بالوعود التى أعطيت لهم ، وبالتالى انجرفوا فى تشجيع ذلك الفكر والإرتماء فى أحضانه .

ونختم هذا التمهيد بلمحة عن الفكر الإقتصادى الماركسى وانتشاره فى روسيا .

الإقتصاد الماركسى :

أولت الماركسية الإقتصاد إهتماما كبيرا ، مما جعل بعض المفكرين والكتاب يعتبر الماركسية مذهبا إقتصاديا بحتا ، ولكن هذا لايسلم لهم لأن النظرية الماركسية نظرية شملت الإقتصاد والإجتماع والسياسة والدين . بل ليس من المبالغة القول بأن أفكار ماركس الإقتصادية إنما وجدت لخدمة الأفكار المادية الإلحادية لديه . فماركس يقدم المذهب الإقتصادى كأقوى دليل على صحة مذهبه الفلسفى والسياسى والإجتماعى . حيث يرى أنه مامن جانب من جوانب الحياة إلا والعامل الإقتصادى هو المتحكم فيه .

ومما يدل على ذلك هو أن الكتابات الماركسية عن الإقتصاد كانت متأخرة عن الحديث عن مذهبه الفلسفى وماديته التاريخية . يقول طارق حجى : (ونحن نجزم أن هذا الترتيب الزمنى لم يأت مصادفة ، ولكنه جاء نتيجة طبيعية لفكر ماركس . فشباب ماركس وثقافته الأولى ودراسته النظامية ورسالته للدكتوراه[١](عن فلسفة الطبيعة عند أبيقور) ومؤلفاته خلال مايقرب من عشرين سنة (١٨٤٠-١٨٦٠م) ونشاطه السياسى خلال تلك الحقبة ، ومقالاته وخطبه وأحاديثه ، كل ذلك ينبىء - بوضوح - بأن حجر الأساس فى مذهب ماركس هو (المادية التاريخية) ، وإن الماركسية فلسفة قبل أى شىء آخر ، وإن كارل ماركس إنما أراد لها أن تختلف عن (الفلسفات) الأخرى بأن تكون مذهبا علميا شموليا ، فعكف على إعطاء فلسفته بعدا سياسيا (بنظرياته عن الصراع الطبقى ، والعمل الثورى ، والثورة البروليتارية، ودكتاتورية البروليتاريا) ، وبعدا إجماليا بنظرياته التى لم تكتمل إلا بعد وفاته والتى تستهدف تشييد إقتصاد ماركس من مجموع نظريات العمل والقيمة وفائض القيمة والنظريات المتفرعة عن هاتين النظريتين الأساسيتين ، مثل قانون تجميع رأس المال ، وقانون تركيز رأس المال ، وقانون زيادة البؤس ...الخ)[٢].

يقول منيف الرزاز : إن (الإشتراكية مذهب للحياة ، لامذهب للإقتصاد ، مذهب يمتد فيمايمتد إلى الإقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والإجتماع والصحة والأخلاق والأدب والعلم والتاريخ . وإلى كل أوجه الحياة كبيرها وصغيرها ، وأن تكون إشتراكيا يعنى أن يكون لك فهم إشتراكى لكل هذا الذى ذكرت ، وأن يكون لك كفاح إشتراكى يضم كل هذا الذى ذكرت)[٣].

---

(١) ليست كالدكتوراه المتعارف عليها .

(٢) تجربتى مع الماركسية (١٢١) .

(٣) دراسات فى الإشتراكية نقلا من كتاب الإشتراكية فى التجارب العربية (٢١٦) .

ويقول : الإشتراكية (ليست وضعا إقتصاديا معينا ، وليست سعيا فى سبيل وضع إقتصادى معين فحسب ، بل هى فهم إشتراكى لكل نواحى الحياة ، وحين أقول بأننى إشتراكى فقد عينت موقفى لامن العلاقات الإقتصادية التى أعيش من خلالها فحسب ، بل لقد عينت موقفى من جميع نواحى الحياة التى تلامسنى وألامسها)[١].

وهكذا كانت فلسفة ماركس فلسفة شاملة لافلسفة إقتصادية فحسب . بل إننى أعتقد بأن الآراء الإقتصادية ماوضعت أساسا إلا لخدمة بقية الآراء من أجل التدليل على صحتها .

ودون شك أن ماركس نجح فى خداع الآخرين إلى درجة لابأس بها حيث جعل من فكره دعوة لمناصرة المظلومين والمضطهدين ورفع الاستغلال عنهم والمطالبة بحقوقهم ، ومنحهم حرياتهم ... وهذه الشعارات البراقة هى التى مكنت لآراء ماركس فى نفوس العمال والمضطهدين بما فى ذلك عمال وشعب روسيا[٢].

حيث رضى الشعب بما قسم له زمنا طويلا حتى إذا استهل القرن التاسع عشر ظهرت فى روسيا طبقات من المفكرين كانوا على اتصال دائم بما يجد فى أوروبا وعلى الأخص فرنسا من أفكار تقدمية ، فقرأوا هجوم فولتير على النظام الفرنسى القائم حينذاك واطلعوا على آراء جان جاك روسو فى حقوق الإنسان ، ومع ذلك فقد أغلقت القيصرية أبوابها فى سبيل الإصلاح والتجديد إلا جزئيات بسيطة لاتكاد تذكر فى حين أن شعوب أوروبا فى

---

(١) دراسات فى الإشتراكية ، نقلا من كتاب الإشتراكية فى التجارب العربية (٢١٩) . يقول تويني : (إن الشيوعية دين بكل تأكيد ، وهى دين خالص قديم رغم المظهر الأيديولوجى الجديد أنها كالقومية شكل من أشكال عبادة الإنسان لنفسه على طريقة جمع المتكلم ، إنها آخر تنوع لعبادة الآلهة ولآلهة قيصر فى الإمبراطورية الرومانية ، وعبادة الملك ـ الإله فى مصر الفرعون) . نقلا من كتاب هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٨٤) ، وانظر الطبقة الجديدة (٢١٩) .

(٢) عن أوضاع العمال والفلاحين فى روسيا القيصرية انظر حقيقة الشيوعية (٩-١٣).

القرن التاسع عشر تجاهد فى سبيل حريتها .

كان قياصرة الروس يتشبثون بنظمهم القديمة ويعملون على كبت حركات الإصلاح ، بالإضافة إلى أن السلطة المكملة للأتوقراطية تكره التجديد وتحارب الإصلاح ، لأن المبادىء الحرة الجديدة قامت لتحرم هؤلاء الإقطاعيين من الإثراء والتنعم على حساب الشعب ، لذلك قاموا بدورهم بالمعاونة على التجسس على الجماعات التى تطالب بالإصلاح وتنادى بالدستور وتهتف بالإشتراكية ، وبهذا تسربت الأفكار الإشتراكية الماركسية إلى روسيا فوجدت أرضا خصبة متعطشة[١] لمثل تلك المبادىء وظهر أول كاتب إشتراكى هو (باكونين) الذى كان يعتقد أن الثورة وحدها السبيل إلى تحقيق مبادىء الفيلسوف الإشتراكى الألمانى ماركس[٢].

انتشار الأفكار الإقتصادية الماركسية فى روسيا :

ومن هنا ولهذه الأوضاع كانت آراء المفكرين وتطلعاتهم لدراسة مامن شأنه أن يصلح الوضع ، وكان الاهتمام منصبا على الآراء والأفكار التى تقوم بمعالجة أوضاع الفلاحين ومهاجمة أصحاب الاستغلال . وكانت تلك التوجهات موجودة فى الفكر الامركسى الذى أولى العامل اهتمامه ، ومما ساعد على تفشيه ـ أى الفكر الماركسى ـ فى روسيا ترجمة البيان الشيوعى بالإضافة إلى التنويه بمؤلفات ماركس وانجلز فى المؤلفات الروسية ، وزادت شهرة ماركس وانتشار فكره بعد أن تم صدور المجلد الأول من رأس المال مطبوعا باللغة الروسية عام ١٨٧٢م[٣].

كما (كان لنشاط الجناح الروسى فى الأممية الأولى أهمية كبرى فى نشر الماركسية فى روسيا فقد تضمن برنامج ودستور الجناح الروسى دعوات للنضال ضد الطبقات المستغلة وفى ذات الوقت لم يتعمق أعضاء الجناح

---

(١) إن صح التعبير .

(٢) انظر حقيقة الشيوعية (١٤-١٦) .

(٣) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٩٤) .

الـروسى إلى جوهر الأفكار الإجتماعية والسياسية لـدى ماركس فقد حافظت نظـراتهم على الطابع الشعوبى وتجلى هذا فى الاعجاب بالمجتمـع الفلاحى أملا فى تجنـب تطور العلاقات الـرأسمالية كما حدث فى أوروبا الغـربية ، ولكـن رغـم وجود الأحكـام الخاطئـة فى برنامج الجنـاح الـروسى فقـد أولى ماركس أهميـة خاصة لنشاطه وربطه الأممية الأولى بالحركة الثـورية الروسية ، كما وسـاهم الجنـاح الـروسى فى الأمميـة الأولى فى تهيئـة الظـروف لظهـور المجمـوعات والزمر الماركسيـة الأولى التى لعبت دورا كبيرا فى نشـر الإقتصاد السياسى الماركسى فى روسيا)[١].

ومن هنا نصل إلى الحديث عن المذهب الإقتصادى الشيوعى .

---

(٢) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٩٥-٢٩٦) .

المبحث الأول
المذهب الإقتصادى الشيوعى وأهم مرتكزاته

قلنا بأن الشيوعية اهتمت بالإقتصاد كثيرا ، بل واعتبرته العامل الوحيد الذى يحرك الحياة - وأغفلت الجوانب الاخرى - وجعلته (متصرفا فى أقدار "الإنسان" بعيدا عن إرادة الإنسان وفطرته واستعداداته وطاقاته . فهى دائما خاضعة لحتمية العوامل الإقتصادية ، أو ناشئة من هذه العوامل ...)[١].

ومع ذلك وكما قلنا سابقا أن المذهب ليس مذهبا إقتصاديا بحتا (ذلك أنه لايوجد مذهب إقتصادى مجرد ، ليس له ارتباط بتصور شامل عن الكون والحياة والإنسان وقضية الألوهية!)[٢].

وبعد هذا التصور الشامل فهو (مذهب إقتصادى مبنى على هذا التصور ومرتبط به حيث لايمكن فصله عنه)[٣].

العامل الإقتصادى :

أوصل ماركس العامل الإقتصادى إلى درجة الإله حيث تصدر عنه الأشياء ويتحكم فيها ، ومامن فكر أو خلق إلا هو مصدره ، ولاشك أن هذا الاهتمام هو الذى دفع بالبعض إلى الإعتقاد بأن الشيوعية مذهب إقتصادى بحت .

إن ماركس أراد أن يحقق فكرته المادية الإلحادية من خلال إرجاع الأفكار الدينية والأخلاقية والأسرية إلى التطورات الإقتصادية حتى ينفى الألوهية ويحقق المبادىء التى يقوم عليها فكره .

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة (٩١) .
(٢) مذاهب فكرية معاصرة (٤١١) .
(٣) المرجع السابق (٤١٢-٤١٣) .

ونحن لانشك فى أهمية العامل الإقتصادى ودوره الكبير فى المجتمع الإنسانى ، ولكنه ليس هو العامل الأول أو الوحيد المحرك للحياة الإنسانية بل يسبقه العقيدة الدينية الصحيحة التى هى المحرك الأساسى للإنسان . ولأجل ذلك فإن خواء الروح من هذا الدافع الدينى ينعكس على كل العوامل بحيث تتراجع ولايكون لها ذاك التأثير فى الحياة الإنسانية وحسبنا هنا ماجاء من اعتراف عن انجلز بأنه هو ورفيقه قد بالغا فى تقدير العامل الإقتصادى فى حين أن العوامل الأخرى لها أهميتها ، وقد أرسل انجلز عددا من الرسائل لرفقائه وكانت كلها تدل (على أنه ابتعد بمرور الوقت عن الإيمان الصارم بالحتمية الإقتصادية ، وأنه كان فى طريقه إلى الوصول إلى موقف فلسفى مستقل لولا أن عاجلته المنية)[١].

كما أنه فى آخر أيامه : (أنكر أن يكون للإقتصاد أثر مباشر على النشاط الفكرى ، فالإقتصاد لايؤثر على نحو مباشر سوى فى المجالات الذهنية القريبة منه مثل السياسة ، ولكنه يعجز عن أن يمارس أى أثر مباشر فى المجالات البعيدة عنه مثل الفنون والآداب)[٢]

ويقول انجلز فى رسالته إلى بلوخ : (ماركس وأنا مسؤولان جزئيا عن حقيقة أنه فى بعض الأوقات قد أعطى أتباعنا أهمية العامل الإقتصادى أكثر مما يستحق ، ولقد اضطررنا إلى تأكيد صفته المركزية فى معارضتنا لخصومنا الذين كانوا ينكرونه ، ولم يكن هناك وقت ولامكان ولافرصة لإنصاف العوامل الأخرى فى الحركة التاريخية)[٣].

ويقول أحد المصلحين والمحترمين للنظرية الماركسية ، وهو جى.دى. أيج كول : (إن الأساس الإقتصادى للمجتمع عامل واحد فقط من عوامل

---

(١) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (١١٠) .

(٢) المرجع السابق (١١٤-١١٥) .

(٣) حقيقة الشيوعية (٣٠) . ولمزيد عن موقف انجلز وتراجعه انظر : هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٦٦-٦٧) ، حذار .. لاهم تقدميون ولاعلميون ولاموضوعيون (١٥) .

تصوير الشكل العام للحضارة ، حتى ولو كان أهم عامل)[١].

ثم نقول بأن الواقع التاريخى وحياة المجتمعات البشرية ، وماقام فيها من تحولات ومؤثرات تبطل مايدعيه الماركسيون بأن العامل الإقتصادى هو العامل الوحيد .

فهذا المجتمع الإسلامى ينقض مايذهب إليه الشيوعيون حيث كان قيامه والتغيير الذى حصل فى مكة المكرمة ليس بسبب التطورات الإقتصادية كذلك الحال فى كثير من المجتمعات البشرية حيث حدث فيها التغيير والتبديل لأسباب إجتماعية وسياسية كما فى الصين وفيتنام ودول أوروبا الشرقية ، هذا بالإضافة إلى أن الخلاف واقع بين كثير من الدول الشيوعية ذاتها ، وكذلك الأحزاب الشيوعية المتواجدة فى كل دولة ، وهذا يعنى أن المحرك ليس واحدا[٢].

(فالعامل الإقتصادى هو أحد العوامل الفعالة فى التاريخ ولكنه ليس هو العامل الفذ)[٣]. ثم إن مابناه ماركس على أساس إنفراد العامل الإقتصادى بكل شىء يبطله الواقع . فقوله إن التركيب الطبقى يقوم على أساس من العامل الإقتصادى إدعاء باطل ، لأن هناك عوامل أخرى تؤثر فى التراكيب الطبقية ، فهناك تركيبات طبقية قامت على أسس عسكرية أو سياسية ، أو دينية ، فالتركيبات الطبقية فى العقيدة الهندية قامت على أسس دينية لامادية .

والقضاء على الملكية الخاصة لايلزم منه القضاء على الطبقات الموجودة فى المجتمع ، فإن المجتمعات الشيوعية أوجدت ألوانا جديدة من التركيبات الطبقية ، وكذلك العداء ليس عاملا أساسيا فى التركيب الطبقى لأن العداوة توجد بين أفراد الطبقة الواحدة ، وهذاموجود ملاحظ فى عالم الواقع[٤].

---

(١) تفسير التاريخ (١٠٤) ، صديقى ، نقلا من كتاب السرطان الأحمر (٨٢) .
(٢) للاستزادة حول هذا الموضوع انظر معالم الإشتراكية العربية (٦٩-٧١) .
(٣) حقيقة الشيوعية (٣٠) .
(٤) انظر إقتصادنا (٢١٩) .

وخلاصة القول أن الأسباب الإقتصادية لها دور كبير فى التأثير على سير المجتمعات الإنسانية وتاريخها ، ولكن ليست هى الأسباب الوحيدة . يقول يحيى الجمل : (إن الأسباب الإقتصادية قوية التأثير فى سير المجتمع الإنسانى هذا صحيح لاشك فيه وإنكاره مغالطة علمية ، ولكن هذا القول شىء والذهاب إلى أن السبب الإقتصادى هو وحده دون سواه الذى يحرك مسار التاريخ الإنسانى شىء آخر ، إن السبب الإقتصادى سبب من أسباب كثيرة دينية وقومية وليس السبب الإقتصادى وحده هو دائما السبب الغلاب . وإذا كنا نؤكد أهمية الأسباب الإقتصادية فى حياة المجتمع الإنسانى وفى كل صورة تطور فإن الذى نريد أن نؤكده إلى جوار ذلك هو أن الاسباب الإقتصادية لاتنفرد وحدها بتفسير التاريخ الإنسانى وإلا كان معنى ذلك أننا نلتفت إلى جانب واحد من جوانب الحياة المتعددة المتشابكة .

ومن ناحية أخرى فإن البحث فى المجتمعات القديمة يوشك أن يجمع على أن المعتقدات البدائية الدينية كانت أقوى فى التأثير على تلك المجتمعات من كل ماعداها ، وأن السلطة ارتبطت بمن يزعمون لأنفسهم معرفة أسرار تلك المعتقدات قبل أن ترتبط بأصحاب القوة الإقتصادية ، حقا استغل هؤلاء أو بعضهم سلطته ليمكن لنفسه إقتصاديا ، ثم استغل القوة الإقتصادية ليمكن السلطة السياسية ، هذا صحيح ، ولكنه لاينفى أن البداية ارتبطت بالجانب الدينى فى حياة الإنسان قبل أن ترتبط بمعدته)[1].

أهم مرتكزات النظام الإقتصادى الشيوعى :

إن الشيوعية اهتمت بالإقتصاد اهتماما كبيرا وكان لها مجموعة مرتكزات فى إقتصادها يمكن إجمالها فى الآتى :

(١) إلغاء الملكية الفردية والقضاء على كافة صورها وأشكالها .

(٢) تأميم جميع وسائل الإنتاج وتحويلها إلى ملكية الدولة .

---

(١) الأنظمة السياسية المعاصرة (٩٧-٩٨) .

يقول ماركس : (ولابد لعملية جعل الإنتاج إجتماعيا من أن تجعل وسائل الإنتاج ملكية إجتماعية ، وأن تؤدى إلى "انتزاع الملكية من مغتصبيها")[١].

(٣) التوزيع حسب مبدأ :

من كل حسب طاقته ، ولكل حسب عمله فى المرحلة الأولى . ثم بعد ذلك يكون التوزيع على مبدأ من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته ، أى فى المرحلة الثانية .

(٤) الإشراف من قبل الحكومة على جميع مرافق الإنتاج وفق الخطة الموضوعة من قبلها لنوع السلطة المطلوب انتاجها (سيطرة الدولة على مجريات الإقتصاد) . الإقتصاد الموجه .

(٦) إلحاق جميع أفراد المجتمع بالخدمة للدولة لتحقيق مبدأ القضاء على الطبقات ، وذلك بتأمين العمل وكفالة العمال .

(٧) نظر القيمة وفائض القيمة .

وقد طبقت هذه المرتكزات فى روسيا بعد الثورة البلشفية ، ومن هنا اعتبر الشيوعيون أن الثورة البلشفية هى الفيصل بين القديم والجديد بالنسبة لروسيا حيث قالوا : (إن ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧م هى نقطة التحول الكبرى فى تاريخ روسيا السوفيتية السياسى والإجتماعى والإقتصادى . فقبل ثورة سنة ١٩١٧م كان النظام الإقتصادى والسياسى السائد رأسماليا إقطاعيا بحتا ، بل وممعنا فى الرأسمالية والرجعية ولكن بعد الثورة اتجهت البلاد إلى أقصى اليسار وطبقت النظام الماركسى بفلسفته الإقتصادية والسياسية ، ولأول مرة فى العالم وبشكل لم يسبق له مثيل . فالثورة إذن هى الحد الفاصل بين عهدين مختلفين متباينين فى روسيا السوفيتية : عهد رأسمالى إقطاعى رجعى ، وعهد بلشفى ماركسى متقدم)[٢].

---

(١) مصادر الماركسية (٤٧) .

(٢) نقلا من كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة (١٨٩) .

فهم يرون أن الإقتصاد السوفييتى يقوم بتنفيذ آراء ماركس ولينين ويسير حسب آرائهما حيث جاء عنهم : (لقد اعتمدت روسيا السوفيتية فى بناء إقتصادها القومى بعد الثورة على الأسس والتقاليد الماركسية الصميمة ، فبدأت بتأميم الصناعة الكبيرة والبنوك ووسائل النقل والأراضى وفرض الاحتكار على التجارة الخارجية وإقامة الصناعة الثقيلة وكهربة البلاد فى أسرع وقت ممكن . وكانت هذه الخطوات جميعها مجرد أهداف ومثل عليا رسمت أبعادها النظرية الماركسية أولا ثم طبقتها الثورة بعد ذلك ؛ مرسية بذلك أسس تنظيم الإقتصاد القومى على المبادىء الماركسية اللينينية)[١].

وإذا كانت النظرية الماركسية الإقتصادية طبقت فى الاتحاد السوفييتى فإن الذى يوضح هذه النظرية ويبين مصداقيتها وصلاحها من عدمه هو واقع تلك الدولة .

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٨٩) وانظر مابعدها .

المبحث الثانى
النظام الاقتصادى الشيوعى بين النظرية والواقع

أولا : إلغاء الملكية الفردية :

إن قاعدة المذهب الإقتصادى الشيوعى الأولى هى هدم الملكية الفردية وصرح البيان الشيوعى بذلك حيث جاء فيه : (باستطاعة الشيوعيين أن يلخصوا نظريتهم بهذا الصدد فى هذه الصيغة الوحيدة وهى : القضاء على الملكية الخاصة)[١].

ويذكرون أن الملكية البورجوازية هى التى يرغبون فى القضاء عليها[٢] واعتبروها سبب الشرور والظلم الواقع على بنى الإنسان وأنها كانت انعكاسا لأوضاع معينة اقتضتها وليست فطرية فى النفس الإنسانية .

وإذا قيل للشيوعيين إن عمل الإنسان لمنفعته الذاتية هو مما فطر عليه ولاتنشأ فى الأفراد عاطفة السعى والجد إذا سلبوا ملكيتهم قالوا : إن هذه من الكلمات الواهية التى تولى كبر وضعها الطبقة البرجوازية لأغراضها ومافى الإنسان من ميول واتجاهات إنما هى وليدة البيئة والمجتمع ، فإذا ماستبدلت بيئة بأخرى ومجتمع بآخر ، ذلك المجتمع أو تلك البيئة تخترع أفكارا جديدة لعواطف تلائمه ، فالناس فرديون مادام نظام الملكية الفردية قائما ، وستنقلب عقليتهم جماعية حينما يقوم نظام الملكية الجماعية[٣].

وملخص اعتقاد الشيوعيين عن الملكية كما يلى :

(١) إنكار فطريتها .

(٢) أن الأصل فى المجتمعات البشرية الملكية الجماعية (المشاعية) .

(٣) أن القضاء على الملكية الفردية سيؤدى إلى القضاء على الظلم والشرور.

---

(١) البيان الشيوعى (٥٦) .

(٢) انظر المرجع السابق (٥٦) .

(٣) انظر أسس الإقتصاد (٧٠-٧١) .

(٤) التأميم .
(٥) نتائج القضاء على الملكية :
(أ) زوال الطبقات .
(ب) المساواة .

ونأتى الآن لبيان بطلان هذه المعتقدات ، ونرى هل حقق الشيوعيون فى واقعهم شيئا منها أم لا؟!!

أولا : بيان بطلان زعمهم أن الملكية ليست من الأمور الفطرية . سبق القول فى إثبات فطريتها وبيان بطلان زعمهم ذلك(١).

ثانيا :استدلالهم بالمجتمع البدائى بأنه حقق السعادة ولم يكن للملكية الخاصة فيه مكان ، وإنما ظهرت الملكية فى المجتمعات الاستغلالية كالمجتمع العبودى والإقطاعى والرأسمالى ، وعلى هذا فلابد من العودة إلى الأصل الأول وهو جعل الملكية ملكية مشاعية أو جماعية . وهذا إدعاء باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن الأصل الأول الذى كانت عليه البشرية يرفض هذا الزعم ويبطله لأنه لم يكن هناك مشاعية لافى الأموال ولافى الأبضاع . وهذه عقيدة مسلّمة عندنا . ومن بعد نجادل القوم من خلال فهمهم .

الوجه الثانى : أن ماركس وانجلز قد اتخذا من التعميم فى الأحكام منهاجا لهما ، فهما لايترددان عن إعطاء حكم جزئية صغيرة لكل مايتفق معها فى الاسم ، وهذا مخالف لأبسط قواعد المنهج العلمى .

الوجه الثالث : يقال لهم ماهى الأشياء التى كانت موجودة فى ذلك العصر؟

وسيكون الجواب بأنها الحجارة وماتستخدم فيه من آلات وأوانى فيقال لهم : ماهو الدافع لكى يتقاتل الناس والأرض كلها على هذه الشاكلة؟ ثم ماأدرى ماركس وانجلز أنه لم يكن كل إنسان يمتلك أدواته وآلاته الخاصة(٢).

---

(١) عند حديثنا عن فطرية التملك فى الفصل الأول من هذا الباب (٦٣٤) ومابعدها .
(٢) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠٩) .

ثم إن المأكولات التى كانت موجودة فى ذلك العصر إذا لم تستهلك فلاشك أنها ستفسد خاصة مازاد عن حاجة الإنسان . وبالتالى فلاغرابة إن دفعها أو سمح لغيره بالمشاركة فيها .

إضافة على ذلك لو لم يكن هناك كم كبير من هذه المأكولات وكذلك الأدوات والآلات فلاشك أن كل إنسان سيكون حريصا على الاحتفاظ بما يقيم أمره والانفراد بذلك الشىء ، ولكن الأشياء التى كانت موجودة (أحجار يتخذون منها وسائل كبديل عن الكبريت والسكين

غابات شاسعة مليئة بالفواكه . حيوانات ، أسماك فى البحار .

فهل ينكر عاقل أنه لو لم يكن هناك إلا قطعة واحدة من اللحم لتقاتل الجميع على ملكيتها وطفت على السطح غريزة حب التملك واضحة؟

إذن فالغريزة موجودة ولكن لم يكن هناك مايستحق التملك ، مما جعل الناس يتركون الأمر مشاعا بينهم)[١].

الوجه الرابع : يقال لهم : هل ثبت لماركس أنه لم يحدث نزاع قط على ملكية شىء فى المجتمعات البدائية؟

قطعا لايستطيع الشيوعيون أن يجيبونا بنعم!! وإلا كان قولهم بلابرهان ولادليل لأنهم لم يشاهدوا هذه المجتمعات ولم يعيشوها ، وكل كلامهم قائم على الظن والوهم ، وعلى أساس قياس بعض المجتمعات البدائية فى القرن التاسع عشر أو العشرين على المجتمعات البدائية الأولى .

والقياس مع الفارق ، ألم يكن هناك صراع بين أفراد هذه المجتمعات على امرأة جميلة بعينها يراها أجمل من غيرها فيمتلكها وليكن شيخ القبيلة أو فتى قويا . ألم يكن شيخ القبيلة يميز نفسه ولو بريشةواحدة يضعها على رأسه ويمتلكها دون الآخرين ويحرم على غيره أن يضعها على رأسه[٢].

وهذا نوع من التملك لاتستطيع الشيوعية أن تنكره لوجوده حقيقة فى تلك البيئة .

---

(١) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠٩) .

(٢) انظر جاهلية القرن العشرين (١٢٧) .

الوجه الخامس : أن المجتمع البدائى بوصفه ساعد على أن لايمتلك الإنسان بعض الأشياء لايعنى أنه ليس صاحب غريزة ، أو أن حب التملك لايوجد فى نفسه ، لكن قد تتغير صورة الملك مع ثبات الغريزة .

ففى تلك الفترة البدائية (لم يكن هناك مايمتلك! لم يكن الصيد الذى يصيده الإنسان ملكا لفرد بعينه لأنه لايستطيع أن يمتلكه وهو لايصيده بجهده وحده من ناحية ، ولايستطيع أن يحتفظ به من ناحية أخرى لأنه ينتن ويفسد ولكن حتى فى ذلك الحين كان يثور الصراع على "امتلاك" امرأة . فيتصارع من أجلها الرجال . ثم صار هناك (إنتاج) يمكن أن يمتلك . فامتلك الإنسان الأدوات البسيطة التى أنتجها . ثم امتلك المحاصيل حين تعلم الزراعة . وامتلك حيوان الزراعة المستأنس حين تعلم كيف يستأنسه . وامتلك الأرض التى تغل المحاصيل . ثم امتلك المصانع . واليوم يمتلك القنابل والصواريخ . وقد يمتلك الكواكب فى الغد القريب أو البعيد . ماالذى تغير؟! نزعة الملك أم صورة التملك؟)[١].

يضاف إلى ذلك أن أبحاث علم الأنثروبولوجيا من خلال كتبها فى المجتمعات البدائية الموجودة اليوم جاءت النتائج مكذبة لكل ماادعاه ماركس فى مسألة الملكية ، حيث أكدوا أنه لم يخل عصر من العصور من الملكية الخاصة[٢]. فزعمهم ذلك وهو أن المجتمعات البدائية لم تعرف الملكية الخاصةلايقوم على دليل علمى .

الوجه السادس : أن واقع الشيوعية بعد أن فرضت بالقوة يرد على هذا الزعم ، حيث قامت الشيوعية الماركسية وقالت نظريا بأن الملكية الجماعية هى الأصل فى النفس البشرية ، وأرادت تحقيق ذلك فى المجتمع الإنسانى المعاصر فقامت الثورة البلشفية المستمدة أفكارها من مبادىء ماركس وانجلز ، ولم تترك الأمر للناس كى يرجعوا إلى أصلهم برغباتهم واختيارهم ، بل

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية (٩١-٩٢) .

(٢) انظر الشيوعية والإنسان (١٤٦) .

فرضت عليهم هذه العودة بالقوة والحديد .

وحسنا الآن نسلم بما قالوه عن المجتمع البدائى جدلا فما بال هذا المجتمع الذى بدأ فى تطبيق الكفر الشيوعى العلمى رفض هذا الأصل وعاند واستكبر على الانصياع له والعودة إليه؟!!

وكم هى الخسائر المادية والروحية التى لحقت بذلك الشعب من أجل فرض تلك العودة عليه بالقوة؟!!

وهل يعقل أن يطلب من إنسان أن يرجع إلى أصله الذى سلب منه وهو يتطلع إليه ثم لايرغب فى ذلك؟! وإذا كانت الملكية الخاصة هى انحراف وسوء ، شاع بسببها الظلم والطغيان لقرون عديدة فى المجتمع (فهل شفيت النفوس من الداء وسلمت من الانحراف ، وارتدت إلى أصلها الملائكى المزعوم؟!)[1] عندما استخدمت القوة والضغط من أجل إعادة الناس إلى أصلهم ونبذ ذلك الانحراف!!

إن واقع الاتحاد السوفييتى فيه أكبر برهان على رد هذه الفرية القائلة بأن الملكية الجماعية هى الأصل ، ذلك أن القوة والقهر لم تفلح فى إعادة الناس إليها .

إضافة إلى أن الواقع الذى يعيشه الفرد هناك خاصة منذ أواخر عهد ستالين يرد كذلك على هذه المقولة ، حيث أقرت الملكية الفردية ، وأحقية التملك الخاص ، وإن كان فى نطاق ضيق ، إلا أنه أخذ يتسع مع الأيام إلى أن عاد الناس بالفعل إلى الأصل الأول لهم والمناقض لما ذهبت إليه الشيوعية ، وفرضته الثورة الشيوعية بالقوة ، وهذه هى فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها .

ولو لم يكن حب التملك فطرة فى النفس البشرية ، لما اتخذت الثورات منها شعارا لها تريد تحقيقه لينضوى تحتها الناس ، ويكثر اتباعها ، ومعتنقى أفكارها[2].

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة (٤٢٦) .

(٢) انظر فلسفة الثورة الفرنسية (١٥٧-١٥٨) ، وانظر (٢١٨) .

والشيوعية نفسها عندما أرادت نشر أفكارها والدعوة إليها اتخذت من الأمور التى تتطلبها الفطرة الإنسانية شعارات لها حتى تضمن اندفاع الكل من ورائها ، فنادت بالحرية ، والمساواة ، والعدل ، وكل هذه الأمور تميل إليها الفطرة الإنسانية بطبعها .

وهكذا يبطل زعمهم أن المجتمعات البشرية كانت على المشاعية ، وأن هذا هو الأصل فى الإنسان ، فلاالعلم شهد لهم ، ولاالواقع أنقذهم بل أبان بطلان زعمهم .

ثالثا : بطلان زعمهم أن الملكية الفردية سبب الشرور والظلم فى المجتمع الإنسانى ومن هنا يتعين إزالتها ، وهذا مبدأ فاسد وزعم باطل وذلك للوجوه التالية :

الوجه الأول : المفاسد الكبيرة المترتبة على القضاء على الملكية الفردية .

إن الملكية الخاصة تعتبر حافزا قويا على العمل والإنتاج سواء كان زراعيا أم صناعيا ، وذلك لأن الفرد العامل يعلم بأن فائدة ومردود عمله ذلك سيكون له منه نصيب ، بل إن الأصل أنه له كله ، فينطلق فى العمل ويبدع فيه ويحقق نتائج لايمكن تحقيقها مع وجود الملكية الجماعية التى يشعر الإنسان بأنه لن يستفيد من عمله إلا بقدر مايشبع جوعه أو يسد رمقه . إذا فلن يعمل إلا بقدر مايرى أنه يحقق له تلك الكفاية من العيش . إضافة لذلك أن الإتقان والجودة ستكون مفقودة ، زد على هذا أن المحافظة على السلعة والشىء المنتج لن يكون بدرجة لو كانت الملكية الخاصة هى التى ستعقب ذلك الإنتاج ، وبالفعل فإن واقع الاتحاد السوفييتى الصناعى والزراعى قد أكد ذلك ، وأصبح تردى الوضع الإقتصادى وتأخر البلاد أكبر دليل يرد به على أن الملكية الجماعية هى الأصل أو أن الملكية الخاصة هى سبب الظلم وقسوة العيش .

جاء فى كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية أن السوفييت لايذهبون إلى العمل (وعندما يحضرون ، فإنهم يعملون ببطء وبشكل سىء ، ونستطيع اليوم أن نكون مكتبة كاملة من رسائل القراء ، وتقارير الصحفيين

وتحليلات الإعلاميين حول النوعية الرديئة للإنتاج السوفييتى)[١].

وهذه نتيجة بدهية لانعدام الحافز الفردى .

يقول الدواليبى : (إذا مانظرنا إلى أن القاعدة الأساسية فى الإشتراكية الثورية هى أن تنزع حق الملكية من أساسه لثمرة العمل والسعى ، وأن لاتعطيه إلا حاجته فقط ، أدركنا عندئذ مقدار الإساءة الكبرى إلى برامج زيادة الإنتاج ، ومقدار الإساءة العظمى إلى مصلحة المواطنين ...)[٢].

ويقول ميشيل هيلير : (إن الحافز الإقتصادى قد اختفى ، وتوقف عن فك وظائفه ، خاصة تلك المتصلة بتماسك أخلاقية العمل ، والرضى عن العمل المنجز بشكل جيد ، فسواء حسن العمل أو تدنت نوعيته فإن العائد هو نفسه ، ويبقى سيئا فى كل الأحوال)[٣].

الوجه الثانى : إن واقع الاتحاد السوفييتى الزراعى والصناعى دل على فساد ذلك المبدأ وأثره السيء .

ويجدر بنا أن نعرض لهذين الأمرين بشيء من التفصيل لأنهما متلازمان ويرتبط بهما أحداث كثيرة وقعت على الساحة السوفيتية .

أولا : الزراعة :

اهتم السوفييت بالمسألة الإقتصادية بل وجعلوا لها أكبر قدر من مذهبهم وادعوا أنه ماقام إلا لتحقيق الرفاهية ورغد العيش لكل فرد . وإذا كان لينين هو الذى قام بتطبيق الفكر الماركسى فى الاتحاد السوفييتى فإنه اصطدم بالواقع وجعل التعامل مع واقع الناس مقدما على الأفكار النظرية التى سطرها ماركس وانجلز ، ولأجل ذلك جاء بفكرة الإقتصاد الجديد[٤].

---

(١) (١٢٣) .

(٢) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٤٣) .

(٣) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٢٤) .

(٤) سيأتى الحديث عنها بشيء من التفصيل فى المبحث الأول من الفصل الخامس إن شاء الله تعالى .

ولكن (إلى أى مدى نجحت هذه الخطة ، وماهو تأثيرها على الإقتصاد القومى السوفييتى بعد ذلك؟ والإجابة - فى بساطة واقتضاب - إن الخطة فى وقتها قد نجحت لأنها حققت بعض الأهداف السياسية التى وضعت من أجلها وهى المساهمة فى تدعيم ثورة البروليتاريا وإقامة تنظيم ماركسى سليم . إلا أن الأهداف الإقتصادية التى وضعها لينين كمثل عليا ينبغى تحقيقها ؛ وخاصة ماتعلق بالتصنيع وإقامة القاعدة المادية التكتيكية للتطور الإقتصادى الإشتراكى - ماكان لها أن تنجح فى هذه الفترة الزمنية القصيرة وأمام الصعوبات والمعوقات الإقتصادية والسياسية الكبيرة التى واجهت البلاد فى السنوات العشرينية من القرن الحالى ، ولأسباب أخرى يمكن تلخيصها فيما يلى :

(١) التخلف الإقتصادى الذى ساد إبان العهود القيصرية السابقة للثورة ؛ وهو التخلف الذى وصفه لينين بأصعب وأعقد العقبات التى واجهت البلاد فى إرساء النظم الإشتراكية على أسس وقواعد سليمة .

(٢) الثورات السياسية المضادة التى حدثت بالفعل فى أعقاب ثورة ١٩١٧م - ولسنوات طويلة بعدها - والتى أدت إلى فقد مايقرب من مليونى رجل فيما بين سن السادسة عشر والخمسين .

(٣) ألاعيب الدبلوماسية الغربية والرأسمالية داخل روسيا نفسها فى محاولة منها لتفويض النظام الشيوعى وإعادة الحكم الرأسمالى مرة أخرى .

كانت هذه هى المعوقات السياسية والإقتصادية التى واجهت الخطة الإقتصادية اللينينة بعد ١٩٢٣م ، والتى ظلت آثارها المخربة حتى سنة ١٩٢٨م وهى السنة التى بدأ عندها مشروع السنوات الخمس الأولى الذى يعتبره الإقتصاديون الإشتراكيون المعاصرون نقطة الإنطلاق الأولى فى تاريخ التطور السوفييتى فى العصر الحديث)[١].

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٠٥-٢٠٦) .

ولاشك أن التنظيم السوفييتى كان يسير فى تطبيق نظام المزارع الجماعية والتأميم ، وزيادة الأراضى المزروعة . جاء فى كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة : (إن السمة الرئيسية البارزة فى التنظيم فى الزراعة السوفيتية بعد تحول البلاد عن الحكم الرأسمالى القيصرى القديم وانتقالها إلى الماركسية هى وجود محاولات دائمة ومستديمة من جانب الحكومة نحو توسيع رقعة المساحة المزروعة وزيادة إنتاجية الفدان الواحد . فهذا هو الهدف العام للتنظيم ، بل لعله هو الهدف العام لكل تنظيم زراعى فى العالم . ولكن الإشتراكية السوفيتية وهى تضع هذا الهدف العام فى اعتبارها تختلف فى وسائل تحقيقه عن أى تنظيم آخر فى أية دولة أخرى - وينبغى أن تختلف فهى تؤمن بأن الزراعة المجزأة الصغيرة لايمكنها أن تسد حاجة السكان المتزايدة للسلع والمنتجات الزراعية بل وحاجات التصدير إلى الخارج)[١].

ويرى الشيوعيون أن ملكية الأرض للفلاح يعيق بناء الإشتراكية[٢].

ويقوم التنظيم الزراعى السوفييتى على شكلين من أشكال الملكية الجماعية :

(أ) السوفخوزات :

وهى مزارع حكومية كبيرة (حيث تمتلك الدولة وسائل الإنتاج من أرض وعدد وآلات فضلا عن امتلاكها المنتجات الزراعية السنوية .

(ب) الكولخوزات :

وهى (مزارع تعاونية ينضم إليها الفلاحون بمحض إرادتهم ويمتلكون جماعيا وسائل الإنتاج الأساسية يستثمرونها لصالح الشعب بأسره)[٣].

ولكن هل حققت هذه الأنظمة ماأراده الشيوعيون منها؟ إن واقع الاتحاد السوفييتى الإقتصادى يكفى دليلا على بيان الفساد الذى حصل من

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢١٤) .

(٢) المرجع السابق (٢١٥) .

(٣) المرجع السابق (٢١٥) ، وانظر القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٤٧-١٤٨) .

جراء هذه السياسة . كما أن ماصاحب تطبيقها يكفى على ردها وعدم القول بنجاحها .

ولن نذهب بعيدا عما قاله بعض زعماء وقادة الشيوعية عن ذلك ، وعن تصوير الوضع الإقتصادى المتردى . يقول فارغا : (كان المفروض ، بالفعل ، أن يكون للتعاونيات الزراعية ملء الحق فى التصرف فى قواها المنتجة عملها التى يفترض أن تبيعها للدولة على أساس الاتفاق الحر وبأسعار مناسبة لكلا الطرفين . وكان من المفروض أيضا أن تتمتع بالتسيير الذاتى الحر ، القائم على أساس انتخابية الموجهين والمنظمين .

أما فى الواقع ، فقد بادرت القيادة الستالينية ، فور البداية بتنظيم الكولخوزات ، إلى تطبيق نظام الصادرات الجماعية والتسيير القسرى على هذه الكولخوزات بصورة دائمة . وقد أرغمت هذه الأخيرة على تعيين المناوبات الزراعية بحسب خطة (مفبركة) من قبل الشعب الزراعية للجان التنفيذية ، وتولى قيادتها رؤساء معنيون من قبل اللجان المنطقية ، وفرضت عليها الضرائب فى شكل تسليم عينى للبضائع بكميات تحددها الدولة وبأسعار مناسبة لها وحدها . وفى كثير من الأحيان كان حجم التسليمات العينية ضخما للغاية يتجاوز إمكانيات الكولخوزات ، مما يجعل جزاء العمل زهيدا . وأحيانا شبه معدوم . وعلاوة على ذلك ، وإبتداء من النصف الثانى من الثلاثينات ، قلصت تقليصا كبيرا قطع الأراضى الخاصة التابعة للكولخوزين . وحد من حق تربية المواشى والدواجن بصورة محسوسة ، وحظر على الكولخوزيين قسر الشعب لإطعام حيواناتهم فى أى بقعة من الأرض أينما كانت ، فلاغرو إن سعى سكان الكولخوزات ، فى هذه الشروط إلى كسب رزقهم بطرق أخرى ، وإلى التوطن فى المدن للعمل فيها ، وحتى يوضع حد لتزييف اليد العاملة هذا ، صارت جوازات السفر تسحب من الكولخوزيين ، وماعاد يؤذن لهم بمغادرة القرية بدون موافقة الرئيس والممثلين المحليين للسلطة.

وفى الواقع ، قضت القيادة الستالينية على الكولخوزات بالدمار ، ولاسيما فى الجزء الشمالى من روسيا الأوربية ، وجردت العديد من الكولخوزيين من كل اهتمام بالعمل . وماأمكن للكولخوزات أن تفلت من قبضة البؤس ، بل أن تزدهر فى بعض الأحيان ، إلا فى الجنوب والجنوب الشرقى من البلاد حيث تعوض الأرض عن العمل بمئة ضعف)[١].

وهكذا يظهر التضييق الشديد على أصحاب المزارع الجماعية ، ومن ثم بحثهم عن طرق أخرى يحاولون إيجاد مايرغبون فيه من خلالها . كما أدت هذه السياسة المتشددة من جديد إلى التأثير سلبا فى كمية الإنتاج ونوعيته .

هذا إذا ماوضعنا بجواره اهتمام ستالين بالصناعة ، وكان ذلك على حساب غذاء الشعب ، حيث انعدمت السلع الاستهلاكية والضرورية بشكل كبير .

ونكتفى هنا بهذا التصوير الجيد عن وضع الزراعة والفلاحين من أحد رؤساء الاتحاد السوفييتى حيث قال خروشوف :

(لماذا كانت زراعتنا متأخرة عن صناعتنا؟

لماذا تركنا تحت رحمة الطبيعة المتقلبة ، ومواسم الحصاد غير الثابتة؟

إن ستالين مسؤول عن ذلك لأسباب عديدة منها :

(١) أنه وضع الزراعة فى المرتبة الثالثة فى إقتصادنا .

(٢) كان يعتبر المزارعين حشالة المجتمع ، لايحترمهم ، ولايقدر عملهم . وظن أن الضغط هو الطريقة الوحيدة لحملهم على الإنتاج .

(٣) كان مايدفع للفلاحين لقاء محصولهم أقل من كلفته إلى حد أن فقدوا الدافع إلى العمل فى المزارع الجماعية .

(٤) فرض ضريبة على بساتين الفاكهة الخاصة التى كان المزارعون يعتنون بها حتى فقدوا أيضا الدافع إلى تلك العناية ، وفكر بعضهم فى قطع أشجارها . وبكلمة أخرى كان ستالين يعتبر الفلاحين كالأغنام التى يجز صوفها كلما كبر .

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٥٨-٦٠) .

(٥) أضاف إلى الاحتكار ضررا ، ففرض للمحصولات الزراعية أسعارا مخفضة .

(٦) عين للإشراف على المزارع الجماعية رجالا أرسلهم من المدن دون خبرة بالزراعة ، وخصص لهم رواتب معينة فلم يهتموا أكان الموسم جيدا أم سيئا .

أعتقد أن انعدام الدافع المادى أضر كثيرا بالزراعة . إن الذين يدعون أن الناس يجب ألايكون دافعهم المال بل الاعتبارات الأيديولوجية مخطئون . لكن ستالين رفض الاعتراف بهذه الحقيقة ، وكذلك بعض أعضاء القيادة . أن الشيء الأساسى فى الصراع فى سبيل الإشتراكية وهو إنتاجية العمل ، وكى تنتصر الإشتراكية فى بلد يجب أن تحصل من العامل على أكثر مايمكن ، ولاأعنى أن يتم ذلك بالقوة .

هناك سبب آخر وهو عجز الزراعة عن التمشى مع بقية إقتصادنا بعد الحرب بسبب البيروقراطية الزائدة ، لست ضد الإجراءات الإدارية على أن تكون معقولة وفعالة . ولكن وزارة الزراعة كانت تتدخل فى كل شيء ، وتقرر حتى مايبذر ، ومتى يكون البذار ، وكيف يكون ، ومتى يبدأ الحصاد وغير ذلك . وكثيرا ماتأتى الأوامر خلافا لمفاهيمنا ، ويكون فيها تضييع للوقت والجهد . ولاأعنى بهذا إنكار ضرورة الإدارة ، فقد قال لينين : "إن الإشتراكية إدارة")[١].

ثانيا : الصناعة :

دون شك أن السوفييت اهتموا بالصناعة كثيرا[٢]منذ زمن لينين غير أنها شهدت تحولا كبيرا زمن ستالين . وهذا التحول والاهتمام كان على

---

(١) الوصية الأخيرة (٩٠) .

(٢) انظر الدراسة التى وردت عن الصناعة السوفتيية فى كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٠٨) ومابعدها .

حساب الشعب وأدى إلى مفاسد كبيرة كان من أهمها تردى الزراعة ، وفقدان المواد الغذائية . يقول بسام العسلى : (ويمكن إيراد أرقام لاتعد ولاتحصى للبرهان على كثافة التصنيع واتساعه خلال فترة حكم ستالين (خاصة من سنة ١٩٢٨ حتى سنة ١٩٤١م) وربما كانت الحقيقة الوحيدة الأكثر وضوحا هى حركة السكان من الريف إلى المدينة ومن الزراعة إلى الصناعة فيما بين سنة ١٩٢٦م وسنة ١٩٣٩م . والذى حدده القسم الأكبر منها بعد الشروع فى الخطة الخمسية الأولى فى العام ١٩٢٨م ، وخلال عقد واحد من السنين تقريبا ازداد تعداد السكان الصناعيين فى الاتحاد السوفييتى من حوالى (١٦) بالمئة من المجموع العام إلى مايقارب ٤٦ بالمئة ، أى بمعدل ثلاثة أضعاف تقريبا . ولقد أمكن تحقيق ذلك بإنقاص المجموعات الزراعية من ٧٧ بالمئة من المجموع العام إلى أقل من ٤٧ بالمئة ولم يسجل مثل هذا التحول الشديد فى مركز الثقل الإقتصادى لأمة من الأمم فى مثل هذا الوقت القصير فى تاريخ البشرية كله ، وليس فى العصر الحديث على كل حال . وقد ساعد على هذا الإنجاز ، تحويل المزارع إلى تعاونيات ، مع الاعتماد على تصنيع الزراعة تقنيا للتعويض عن هجرة الفلاحين إلى المدينة . ورافق ذلك إكراه من أشد الأنواع من جانب الحكومة فى موسكو ، ولقد تسبب ذلك بمعاناة واسعة واضطراب إجتماعى ، بحيث ظهر واضحا أنه من المحال على أية دولة أخرى فى العالم أن تنهج سياسة مماثلة لهذه إزاء شعبها ، وأنه من المحال أيضا أن تتوافر لزعيم آخر فى الاتحاد السوفييتى ، خلا ستالين ، مثل هذه الإرادة الصلبة ، والعزيمة الحديدية التى تمكنه من التأثير على الإقتصاد المخطط المجرد من الإنسانية)[١].

(وخصصت نسبة عالية - وبصورة متزايدة - من الدخل القومى الضخم لتغطية نفقات القوات المسلحة ، وتحقيق ذلك كله ، وأكثر منه ، بتضحيات هائلة وقع عبؤها على المواطنين جميعا . حتى أن المانيا النازية لم تشهد تحويل (زبدة المدنيين) كلية إلى (مدافع للجيش) بمثل هذا الشكل . إن

---

(١) ستالين (٨٥-٨٧) ، وانظر النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٢٢-٢٢٣) .

اختبار أية سياسة من هذا النوع يكمن فى النتائج النهائية ، وليس هناك سوى الشعب السوفييتى يستطيع وحده القول فيما إذا كان انتصاره النهائى يعادل مادفعه من ثمن طوال الفترة من سنة ١٩٢٨م حتى سنة ١٩٤١م)[١].

ولكن هل يعنى هذا أن الصناعة السوفيتية كانت فى المستوى الذى أنفق عليها؟ إن الواقع والمشاهد يدل على الفارق الكبير بين ماأنفق وبين جودة الصناعات السوفيتية .

ومن أهم الأسباب التى أدت إلى هذا التخلف فى الصناعة السوفيتية ـ مقارنة بالإنفاق ـ هو القضاء على الملكية الفردية ، وانعدام الحافز الفردى ، والطابع الإجبارى على العمل ، والقمع البوليسى الرهيب ، والاهتمام بالكم لابالكيف[٢].

هذا بالإضافة إلى التخلف التكنولوجى الذى كان يعانى منه السوفييت فى مسألة التنقيب على النفط العصب المحرك للإقتصاد[٣].

وهكذا غدت الزراعة والصناعة ـ رغم الاهتمام بهما ـ متخلفتين وذلك نتيجة بدهية للقضاء على الملكية الفردية .

الوجه الثالث : نتيجةلكون هذا المبدأ يتعارض مع الفطرة الإنسانية فقد أدت محاولة تطبيقه إلى معاناة شديدة مما جعل الناس ينفرون منه . وفى هذا إقرار من الشيوعية بتأصل ذلك الأمر فى نفوس الناس وإلا لماوصل بهم الأمر إلى هذا الحد من الطغيان والجبروت فى محاولة فرض ذلك الفكر على المواطنين السوفييت .

يقول أحد الطلاب لصديقه ليونهارد : (لابد أن تفهم! لقد كانت أيام كفاح مرير ، لتحويلنا من حياة خاصة نتمتع فيها بالملكية الخاصة ، إلى حياة جماعية ، يسلب الإنسان فيها كل شىء حتى حريته . وكان بعض أعضاء

---

(١) ستالين (٨٩-٩٠) .

(٢) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٩٦) .

(٣) انظر : التحدى العالمى (٩٦) جان جاك شرايير ، ترجمة فيكتور سحاب ، إبراهيم العريس ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٩٥) .

الحزب الصغار ، يتصرفون معنا تصرفات مشينة ، ولكن استنكرت هذه الأعمال من الحزب فيما بعد . يحدث مثل هذه الأعمال فى التحويل الإجبارى إلى حياة جماعية!)[١].

لقد (كان تطبيق مبدأ الملكية الجماعية فى المحيط الشيوعى الحديث عسيرا واجتاز مراحل حرجة .

ففيما يختص بالأملاك الزراعية :

اغتصب الفلاحون الروس لحسابهم ، فى سنة ١٩١٧م ، أملاك الأشراف وكبار المزارعين ، ورفض هؤلاء الفلاحون النزول عن هذه الأملاك للحكومة بل أبوا أن يسلموها محاصيلها .

وفى سنة ١٩٢٢م تقرر ترك الأراضى ملكا للفلاحين ، فانتعشت الزراعة والتجارة .

وفى أعقاب ذلك ، شرعت الحكومة فى حمل الفلاحين على التخلى عن تلك الأراضى ، مرغبة بوعدها ، مهددة بوعيدها ، وبالفعل أزيلت الحدود بين الأراضى ، وزودت القرى بالآلات الزراعية الكبيرة التى تكفل زيادة الغلة ، وتحقق مايرجى من الإنتاج الكبير .

وفيما يختص بالأملاك الصناعية :

وضعت الحكومة يدها مبكرا - فى المدائن الصناعية - على المصانع والمناجم ، وصدر فى سنة ١٩٢٠م ، قانون بتأميم المصانع الآلية التى لايقل عدد عمالها عن عشرة . وفى سنة ١٩٣٤م ، بلغت الصناعة الحكومية ٩٩٪ من مجموع الصناعة الروسية ، وبلغت الزراعة والتجارة الحكومية نحو ٩٠٪ من المجموع .

وتنفيذا للمبادىء الشيوعية ، تدبر الدولة - بمعرفتها وبدون منافس لها - كل المرافق العامة ، ويستطيع الأفراد - بمقتضى القانون الروسى - النهوض بأعمال خاصة محدودة النطاق قوامها الجهد الشخصى دون استغلال مجهود الغير)[٢].

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٨٦) .

(٢) الشيوعية فى موازين الإسلام (٤١-٤٢) .

ويقول د. خفاجى : (إن مبدأ إلغاء الملكية الفردية إلغاء تاما ينافى الفطرة الإنسانية ، التملك فى الإنسان ، ويدعو إلى الخمول والكسل ، ويخالف تعاليم جميع الأديان ، وقد طبق ذلك فى المجتمع الشيوعى فى روسيا بقوة السلاح ...)[١]. ومع هذا لم يفلح ذلك النظام فى تحقيق ماأراد .

الوجه الرابع : رغم هذه القوة والجبروت إلا أن الشيوعية لم تصمد أمام الفطرة الإنسانية واضطرت إلى الاعتراف بالملكية الفردية ، فحصل التراجع وأبيحت الملكية فى عهد ستالين ، وكلما تقادم الزمن زاد التوسع فى هذه الملكية إلى أن أبيحت مطلقا كما لو أن النظام قد يئس من تطبيق ذلك المبدأ.

يقول الأستاذ محمد قطب : (لقد شاء المذهب الشيوعى أن يحول الفطرة عن طريقها فى مسألةالملكية الفردية ، واستخدم لذلك الضغط والإرهاب والحديد والنار ، والتجسس ، وكل وسائل الحكم البوليسى الشنيع ، التى اعترف بها خروشوف فى (اعترافاته) عن عهد ستالين (بعد وفاته بطبيعة الحال!) فماذا كانت النتيجة فى النهاية؟!

كان ذلك التراجع المستمر من قبل الحكم البوليسى ، خطوة خطوة نحو الفطرة البشرية . من إباحة التفاوت فى الأجور بين عمال الطبقة الواحدة والعمل الواحد ، وإباحة الملكية الفردية - فى المواد الاستهلاكية! - إلى اعتراف خروشوف بأن العمل فى المزارع الجماعية لايسير كما كان مقدرا له ، ولايعطى الغلة التى تعطيها المزارع الفردية ... إلخ؟!

كلا! إنها الفطرة فى النهاية - باعتدالاتها وانحرافاتها - تحدد حدود التطور الإجتماعى والإقتصادى والسياسى ، فى أثناء نموه الفطرى .. فتتركه - لسعتها ومرونتها - يتشكل فى أشكال شتى .. ولكن فى حدود الفطرة فى نهاية المطاف!)[٢].

---

(١) الإسلام يرفض الشيوعية (٧٧-٧٨) .

(٢) التطور والثبات فى حياة البشرية (١٢٤) .

لقد تراجعت الحكومة السوفيتية وسمحت بامتلاك أثاث البيوت والأمتعة والأدوات المخصصة للاستعمال الشخصى ، وأجازت امتلاك الحديقة للفلاح حول بيته(١).

ورغم أن هذه العودة كانت جزئية إلا أنها مالبثت أن أصبحت ملكية كاملة فى الآونة الأخيرة من حياة الدولة السوفيتية ، حسب ماغرس فى الفطرة البشرية .

الوجه الخامس : أن إقرار هذه الملكية جزئيا لم يكن ليحل الإشكال القائم من تذمر الناس تجاه هذا النظام . إضافة إلى أنه فتح الباب إلى المطالبة بإقرارها بصورة أكبر .

يقول البدرى : هذا التملك الجزئى يعنى : (تحديد التملك الفردى بالكمية والمقدار ، وهذا أيضا مناقض للفطرة البشرية ، ومخالف للأحكام الشرعية ، كما نفهم من نصوص الشرع ، حيث أن هذا التحديد ، والإلغاء الجزئء ، يحد من نشاط الفرد ويعطل جهوده ، ويقتل عبقريته ومواهبه ، فى حسن الإنتاج والإبداع فيه ، وبالتالى يقلل من إنتاجه ويوقفه عند نشاط معين لايتجاوزه ، وبذلك يحرم من مواصلة نشاطه الذهنى والجسمى ، وعند ذاك تخسر الأمة بمجموعها كفاءة الأفراد المجدين ، كل هذا ومثله يقع ويحصل ، مادام يمنع الفرد من تملك مايزيد عن المقدار المقرر له ، أو عن الكمية المخصصة لأمثاله ، وهذا من ناحية مناقضة الفطرة البشرية ، وهى وحدها كافية لبيان فساد وخطأ هذه القاعدة ، وفوق هذا فإنها مخالفة للأحكام الشرعية ، التى نفهمها من أدلة الشريعة الإسلامية ، وذلك أن منع الفرد من التملك إلا بمقدار معين ومصادرة مازاد عن هذا المقدار آثم ، لأنه اعتداء صريح على أمواله التى من الله تعالى بها عليه ، سواء أكان ذلك من جهوده الذهنية أو الجسمية كالعمل ، أم بهبة وهبت له ...)(٢).

---

(١) انظر الإسلام يرفض الشيوعية (٧٨) .

(٢) حكم الإسلام فى الإشتراكية (٧٢-٧٣) .

ولاشك أن هذا التمليك الجزئى قد فتح المجال أمام الشعب المتطلع إلى تحقيق ماتطلبه فطرهم ، ولم يف بالحاجة فثار الشعب يطالب بحقوقه ، ولم يعد يرضى الفلاح (أن يقلص وضعه ، وأن يرد إلى عامل بسيط مأجور)[١].

الوجه السادس : أن إلغاء الملكية الفردية يستوجب وجود جهة تملك تلك الوسائل والأموال وتوجهها ، ويكون لها حرية التصرف فيها . فهل قضى على الملكية الفردية فى الاتحاد السوفييتى وكان الناس شركاء فى كل الموجودات؟ إن واقع الدولة السوفيتية يكذب ذلك .

فبداية تلغى الملكية الفردية بدعاوى كاذبة ، (وتكوين مايسمى بملكية الدولة أو القطاع العام أو الملكية العامة ، أو بملكية الشعب والعمال وغير ذلك من الأسماء الخادعة) وهذا (ليس طريقا للإزدهار القومى أو دفع عجلة الإنتاج ، ولالرفع مستوى المعيشة بقدر ماهو طريق للسلبية والاتكالية والاستغلال الجماعى وهبوط الإنتاج ورداءته)[٢].

فالملكية أصبحت فى يد الدولة ، ومن هم الذين يقومون على هذه الدولة؟ إنهم أفراد الحزب القلائل ، أما الطبقة التى قامت الثورة البلشفية من أجلها فلاشىء لها .

يقول وحيد الدين خان : (وطرح ماركس شعار تحويل السلطات إلى ملكية شعبية إجتماعية لأجل القضاء على هذا التركيز فى السلطات ، ولكن هل يمتلك الشعب ـ حقا ـ هذه السلطات فى ظل النظام الذى يقترحه ماركس؟ وهل يتحرر مثل هذا المجتمع من لعنة المركزية؟

إن تغيير إسم شىء مالايغير من حقيقته ، فالنظام الجمهورى الرائج يزعم أنه حول كل السلطات السياسية إلى ملكية شعبية ، ولكن الإشتراكيين يرفضون قبول هذا الزعم ، بل يحللون النظام الجمهورى ليروا من الذى يملك السلطات فى حقيقة الأمر؟ وهكذا نحلل زعم الإشتراكيين فى ضوء

---

(١) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٩٥) .

(٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٢٠١) .

التجربة العملية لنرى ماهو الشكل الحقيقى العملى الذى يتخذه شعارهم القائل بملكية الشعب لوسائل الإنتاج؟

والحقيقة هى أنه لامناص من وضع وسائل الإنتاج فى أيدى عدد من (الرفاق) فى ظل النظام الإشتراكى ، تماما كما يتصرف فيها عدد من الرأسماليين فى ظل النظام الرأسمالى ؛ والفرق الوحيد بين هاتين الحالتين هو أن تركيز السلطات يتم فى الحالة الأولى تحت شعار "الملكية الفردية" ، بينما يتم عين هذا العمل فى الحالة الثانية تحت شعار "الإدارة الإجتماعية" ، وهذا هو الفرق الشكلى بينهما)[١].

ويقول يوجينا فارغا : (وبالرغم من أن شكلين اثنين للملكية : ملكية الدولة المسماة خطأ (بملكية الشعب) والملكية (الكلوخوزية الفلاحية والتعاونية) اللتين لكل منهما (مصالحه السياسية الخاصة) أقول بالرغم من أن هذين الشكلين من الملكية ، قد تعايشا حتى فى منتصف الثلاثينات ... فإن البلاد كانت ولاتزال محكومة فقط من قبل حزب سياسى منظم بيروقراطى . وقد أدى ذلك إلى انحطاط تام فى شكل "سلطة السوفييت" أو بتعبير أدق "سلطة نواب السوفيتات العمالية والفلاحية" .

إن بيروقراطيةالحزب المستندة إلى التسلسل التراتبى لأصحاب الامتيازات من أهل المرونة تحكم البلاد بواسطة مؤسسات الحزب لابواسطة السوفييت : اللجنة المركزية ، اللجان المنطقية ، لجان المحافظات ، وتحكمها أيضا بواسطة مؤسسات الدولة الموضوعة تحت تصرفها : مجالس الوزراء ، الوزارات ، اللجان التنفيذية فى المناطق والمحافظات وفروعها وشعبها وجميع أجهزة الدولة هذه تحمل صفة (السوفياتية) وهى تعد كذلك حقا كما تعد السلطة التى تمارسها سلطة (السوفيات) لمجرد أن المشرفين عليها من ممثلى أرستقراطية الحزب البيروقراطى يشغلون فى الوقت نفسه وظائف نواب

---

(١) سقوط الماركسية (١٠٢-١٠٣) ، وانظر (٣٠) ، وانظر أسس الإقتصاد (٨٦-٨٨) .

السوفييت ، المنتخبين من قبل مجمل السكان على أساس انتخابات (مباشرة ورسية ومتساوية)[١].

وكالعادة فإن الشيوعية وقعت فى التناقض هنا ، فهى حرمت الملكية الفردية وأعطت حلا أبشع من وجود الطغيان الرأسمالى . يقول وحيد الدين خان :

(ولاشك فى صحة قضية الماركسية حول النظام الرأسمالى الرائج ، إلا أن الحل الذى تتقدم به الماركسية لعلاج هذا المشكل هو أبشع من الداء الذى تدعى العمل على استئصاله ، فيمكنك أن تنزع الملكية الفردية من أيدى الناس (للقضاء على الاحتكار) ، إلا أنه لابد لك أن تنظم عمليات الزراعة والتجارة والإعلام والطباعة ...الخ .

ومن الطبيعى أنه لايمكن لكل سكان البلاد إدارة هذه المرافق مرة واحدة ، بل يجب أن يضطلع بها البعض ، وهذا البعض فى هذه الحالة هو عين الذى يمسك بزمام الحكم ؛ أى أنك تسلم زمام المعاش والإقتصاد إلى الذين يمسكون بزمام الحكم أيضا ، وهكذا ستجتمع سلطتان مختلفتان فى يد واحدة ، بينما كانتا موزعتين بين التجار والسياسيين من قبل وكيف يمكن الحيلولة دون ظهور احتكار أخطر وأعظم من ذى قبل حين تجمع كل السلطات فى يد واحدة تملك كل المفاتيح من توزيع الرزق إلى صياغة الأفكار؟!)[٢]

ويقال لهم إذا ألغيت الملكية الفردية :

(فمن هى "الجماعة" المالكة؟ أهى جماعة القرية ، أم جماعة المدينة ، أم الجماعة فى الدولة كلها؟؟

- وإذا كانت هى (جماعة الدولة كلها) فكيف يمكن إدارة هذه الأشياء من قبل الجماعة المجتمعة كلها ومن غير سلطة فوقها ، ومن غير حق أحد

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٦٥-٦٦) .
(٢) سقوط الماركسية (١٠٧) .

فى التمثيل للآخرين ، ومن غير تمييز بأى سبب كان لأحد فى السلطة والحقوق على الآخرين ، ومن غير اللجوء مجددا أيضا إلى أفراد يتمتع بعضهم بأفضلية على البعض الآخر فى الأجر والسلطان؟؟ وإذا كانت هى جماعة القرية فقد يصح هذا فى الأراضى ، ولكن كيف يصح هذا فى الأمور المشتركة مابين جماعات القرى ، أو مابين جماعات المدن بل ومابين جماعة الدولة كلها كما هو الشأن فى الخطوط الحديدية ، وفى الصناعات الثقيلة؟؟)[١].

إن دعوى إلغاء الملكية الفردية وجعلها ملكية جماعية يرفضه واقع الناس حيث لابد من الخلاف وتضارب الآراء وبالتالى إذا كانت ملكية للشعب كما ادعاه الشيوعيون فإن تحقيقها محال .

وإذا كانت ملكية فى يد طبقة العمال فمعنى ذلك أن هناك فئة تملك وأخرى لاتملك شيئا ، ويكونون بهذا وقعوا فيما فروا منه بطريق آخر .

وبالنظر فى واقع الاتحاد السوفييتى نجد أن الملكية سلبت من أفراد الشعب بالقوة ثم لم تعط العمال شيئا ـ الطبقة التى قامت من أجلها الثورة البلشفية إدعاء ـ وإنما أصبحت الملكية فى يد طبقة عليا تتمتع بكل ميزات التملك بل وبزمام الأمور كلها الفكرية والسياسية والإقتصادية فتفرض ماتشاء ، وتمنع ماتشاء . يقول دجيلاس : (إن السلطة الجديدة تحرز سيطرتها وامتيازاتها وتقاليدها ، تبعا لنوع جديد من الملكية يعرف باسم الملكية الجماعية أو الملكية التعاونية ، التى تديرها الطبقة الجديدة وتوزعها على هواها باسم الأمة والمجتمع)[٢].

فأين تحقيق ذلك المبدأ؟! وأين تمليك الطبقة المضطهدة؟! إن الفكر الماركسى المطبق فى الاتحاد السوفييتى صادم الفطرة الإنسانية ، ولم يعط أصحابها حتى ولو جزءا يسيرا مما وعد به .

---

(١) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٩٣-٩٤) ، وانظر تهافت الفكر المادى التاريخى (٦٦) ومابعدها .

(٢) الطبقة الجديدة (٦٤-٦٥) .

يقول دجيلاس : (تجهد الحركة الشيوعية نفسها لخلق جو كثيف من الأوهام والأحلام الكاذبة حول أهدافها ، بشكل أكثر شمولية ، وديمومة ، من الأوهام التى خلقتها الثورات السابقة للثورات الشيوعية)[١].

ثم إن هذه الفئة من الناس الممثلة فى الحزب الشيوعى غير قادرة لوحدها بتسيير الأمور الإقتصادية بالإضافة إلى أن هذه الفئة لن تنظر إلا إلى مصالحها دون الآخرين ، فهى صاحبة السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية ولم يبق لبقية الأفراد شيئا .

يقول المودودى : (إن طائفة صغيرة مهما كانت عليه من الكفاءة والأمانة والحرص على الصالح العام لاتستطيع أبدا أن تحيط علما بأموال ملايين ومئات الملايين من الناس وماهم عليه من المواهب والكفاءات الخلقية والنوازع والميول الفطرية المتنوعة حتى يكون من الممكن لها أن تقدرها تقديرا كاملا دقيقا وتعين الطريق لرقيها وتقدمها ونموها ...) .

(إن الناس ليسوا - على كل حال - بأعشاب أو أزهار فى الحديقة حتى يهذبها البستانى ويشذبها وينسقها كما يرى ، فلاتنمو إلا حسب خطته التى يضعها لنموها وكمالها ، بل إن لكل فرد من أفراد البشر شخصية تبغى النمو والكمال حسب سيرها الفطرى مهما كان فى وجهها من الموانع والعقبات)[٢].

وأيضا أن الملكية عندما تكون فى يد أفراد ويسيئون بها للآخرين يمكن أن يعاقبوا أو يفرض عليهم أمرا أو آخر ، أما عندما يكون من بيده الأمر هو الذى يصدر مثل هذه القرارات فلاشك أن الوضع سيختلف .

يقول وحيد الدين خان : (فالذى سيصدر قرار الاعتقال هو موظف لدى هؤلاء ، إذن من سيتجرأ أن يقوم بإجراء ضد هؤلاء؟!

والحقيقة هى أن الملكية الإجتماعية أبشع أشكال نظام النهب الفردى ، فلاتعنى إلا أن تمكن الناهبين - بقوة ثروتهم - من أن يمارسوا أعمالهم تحت

---

(١) الطبقة الجديدة (٤٢) .

(٢) أسس الإقتصاد (١٩٣-١٩٤) .

غطاء قانونى ، وأن ينهبوا بصورة أكثر تنظيما بمساعدة من الشرطة والعسكر)[١]. ومن هنا فإن إلغاء الملكية الفردية كان بنقلها عن أصحابها إلى آخرين لايستحقونها .

الوجه السابع : أن الملكية الجماعية ماظهرت فى مجتمع إلا وكانت تمثل الطغيان وكانت آخر صوره فى الاتحاد السوفييتى إذ أن هذا النظام مصادم للفطرة الإنسانية . ومن هنا فهو يخدم أهداف الطغاة ليس إلا ، لأن النفس الإنسانية بفطرتها ترفضه .

يقول دجيلاس : (الملكية الجماعية لم تظهر لأول مرة فى التاريخ فى ظل الأنظمة الشيوعية ، بل سبق لها أن قامت فى كل المجتمعات القديمة ، بل يمكن القول إن كافة الأنظمة العبودية التى قامت سالفا فى الشرق ، كانت ترتكز على أساس إعطاء الأولية لأملاك الدولة .

ففى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، كان نظام ملكية الدولة مطبقا فى مصر القديمة ، والدولة هى التى تقوم بتأجير الأملاك العامة إلى المستثمرين كما كان لها جهاز من الموظفين لإدارة المصالح الحكومية ولجبى الضرائب من مستثمرى الأراضى . كما كانت كافة الترع وأقنية الرى والمنشآت الضخمة والمشاريع الكبرى ، ملكا للدولة)[٢].

ويضيف : (إن الملكية الجماعية أو ملكية الدولة ، توضح أسباب ظهور ظاهرة بناء المعابد الضخمة والهياكل العظيمة للأباطرة . كما تفسر الأسباب الكامنة وراء شق الترع ومد الطرقات وبناء التحصينات .

ولقد اعتبرت الدولة الرومانية الأراضى التى احتلتها عن طريق الفتوحات ، ملكا للدولة ، كما كان للكنيسة فى القرون الوسطى أملاك جماعية مشتركة . ومما سبق يظهر بوضوح أن الشيوعيين لم يقوموا باختراع الملكية الجماعية ، إنما كانوا نسيج وحدهم ، بإضفائهم طابعها الشمولى على

---

(١) سقوط الماركسية (١٠٨-١٠٩) .

(٢) الطبقة الجديدة (٧٧) .

جميع جوانب المجتمع ومرافق الحياة ، متفوقة بذلك على كافة أشكال الملكية الجماعية فى العهود الغابرة ، متجاوزة فى طابعها الحاد والعنيف ، حتى على الملكية الجماعية التى سبق لها أن قامت فى مصر الفرعونية)[١].

قلت وهذا غير مستغرب فى فرض فكر يصادم الفطرة الإنسانية ، فلابد أن يكون طاغيا دكتاتوريا حتى يصل إلى أهدافه .

إلا أن الوقت كفيل ببيان بطلان ذلك الفكر من خلال واقعه ورفض الناس له .

وهذا ماحدث فى الاتحاد السوفييتى حيث لم تمض فترة من الزمن إلا وأعيد تقرير حق الملكية ونص عليه فى الدستور مما يدل على فساد ماتصادم مع الفطرة البشرية .

وبهذا يظهر جليا أن الفكرة القائلة بإلغاء الملكية الفردية غير صالحة للتطبيق لتعارضها مع الفطرة الإنسانية ، ويكفى أنها ماقامت ووجدت إلا مع الطغيان ، ومافرضت إلا بالقوة والنار .

ومع ذلك لم تصل لغايتها لأن البشر فطروا على خلاف ماأرادته الشيوعية بالإضافة إلى فشل الماركسية فى تحقيق ماوعدت به من جراء القضاء على الملكية الفردية . (مما ولد تراكما نفسيا مضادا لتلك المصادرة كبر عبر العقود حتى وصل إلى مرحلة عدم تمكن تلك النفوس من احتمال أكثر مما احتملت فانهارت الجدر المانعة ، وخرج الناس بالملايين يطالبون بمصالحهم الخصوصية المهدرة)[٢].

إن الماركسية اصطدمت بالواقع الإنسانى الذى أثبت أنها فلسفة طوباوية كما كان حال الفلسفات الإشتراكية السابقة .

فالشيوعية لم تستطع (أن تطبق نظامها عن الملكية الفردية حيث اضطرت إلى العودة عن كثير من أفكارها ليس فقط فيما يخص الملكية بل فى

---

(١) الطبقة الجديدة (٧٧) .

(٢) الإنهيار (١/٣٨-٣٩) .

أفكارها فى الجوانب الأخرى)[١].

ومما يدل على فساد هذا المبدأ هو التراجع الحقيقى الذى أحدثه زعماء الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ، وذلك بسماحهم للتملك الفردى . وكفى بهذا نسفاً لمبدأ القضاء على الملكية[٢].

وبهذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن القضاء على الملكية الفردية مصادمة للفطرة الإنسانية ، ولأجل ذلك لم تستطع الشيوعية تطبيق مبدأها ذلك لاصطادمها بواقع الناس .

ثانيا : أن واقع الاتحاد السوفييتى دل على أن هذا المبدأ لم يتحقق ولن يتحقق .

ثالثا : أن مفاسد القضاء على الملكية الفردية قد شهدها واقع الاتحاد السوفييتى .

رابعا : أن المبادىء التى رتبها الشيوعيون على مبدأ القضاء على الملكية الفردية لم تتحقق ولايمكن تحققها .

ثانيا : بيان فساد مبدأ التأميم الذى قام به الشيوعيون فى الاتحاد السوفييتى :

التأميم :

عملت الدولة على إيجاد الملكية الجماعية وسلب الملكية الخاصة ومصادرتها باعتبارها أساس الآثام والشرور والصراع الواقع فى المجتمع ، ولكن حقيقة الأمر أن التأميم لم يكن إلا عبارة عن سلب الملكيات الخاصة من الرأسماليين ووضعها تحت يد الطبقة الحاكمة ، أى أن المسألة هى مجرد إحلال طبقة مكان طبقة أخرى ، فالثروة التى كانت تسيطر عليها الرأسمالية

---

(١) الملكية فى الشريعة الإسلامية (٨٥/١) .

(٢) عن تراجع الشيوعيين عن تطبيق ذلك المبدأ انظر : سقوط الماركسية (١١٢) ، من أين نبدأ (١٥٠-١٥٢) .

تنتقل فى النظام الشيوعى إلى فئة محددة معينة فالأمر لايعدو أن يكون نقل الملكية من طبقة إلى طبقة أخرى .

والتأميم هو : (إحالة المؤسسات الإنتاجية أو فروع الإقتصاد التى تشكل ملكا خاصا إلى حوزة الدولة)[١].

و(انتصار الثورة البروليتارية هو المقدمة السياسية للتأميم الإشتراكى)[٢].

وهذا المبدأ يحمل مفاسد كبيرة وسلبياته عديدة . سواء على العمال أم على الإقتصاد . ومن ذلك :

أولا : أن التأميم فى حقيقة أمره لايخرج عن كونه ملكية ولكنها ملكية بصورة أخرى ، ملكية مغلفة بغلاف الإشتراكية ، حيث تنتقل من يد صاحبها الشرعى أو أصحابها الشرعيين إلى هيئة اعتبارية لاوجود لها هى كل أفراد المجتمع أو الدولة ، ولكن واقع الاتحاد السوفييتى يدل على أن المالك هم أفراد قلائل يحتلهم الحزب وليس من تحدث عنه الشيوعيون[٣]. وقد مر معنا تسلط الحزب وسيطرته التامة[٤].

ثم إذا كانت وسائل الإنتاج ستخضع للتأميم فإنها تحتاج إلى من يقوم بإدارتها ومراقبتها ، ومعرفة العمال ، وكيفية توجيهها واستخدامها إلى غير ذلك من اللوازم التى تقتضى وجود فئة تقوم على أمر هذه الوسائل ، وبالتالى كانت الوسائل فى يد الحزب ودهاقنته ، فأصبحوا يملكونها ويوجهونها حسب أهوائهم وشهواتهم .

نعم لقد (ألغيت الملكية الفردية من المجتمع الشيوعى ، ولكن السلطان والنفوذ الذى تركز فى "الحزب" قد جعل منه طبقة متميزة ، لها كل

---

(١) المعجم (١١١) .
(٢) المرجع السابق (١١١) .
(٣) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢١١) .
(٤) راجع (٨٦٦) ومابعدها .

سمات الطبقة ومميزاتها سواء فى نوع المعيشة ـ أى المتاع ـ أو فى النفوذ والسلطان)[١].

يقول دجيلاس : (فى الحقيقة أن الطبقة البيروقراطية الشيوعية الجديدة صاحبة الامتيازات الضخمة ، تستخدم جهاز الدولة كستار وأداة لتحقيق مآربها وأغراضها الخاصة .

وإذا ماعدنا لدراسة الملكية ، فإننا سنجدها ليست أكثر من حقوق الربح وحرية السيطرة ، وإذا ماالتجه المرء إلى تحديد ربح الطبقة من خلال هذه الحقوق وفى إطار تلك الحرية ، فإن الدولة الشيوعية تتجه فى النهاية ، إلى خلق شكل جديد من أشكال الملكية وخلق طبقة حاكمة مستثمرة جديدة ... إن الثورة الشيوعية قد أشعلت بهدف إلغاء الطبقات وإزالتها من المجتمع إلا أنها قد خلقت فى النتيجة طبقة جديدة بكل ماتحمله من إرهاب وطغيان ، عن طريق تركز الثروة والسلطة بين يديها الملطختين بالدماء)[٢].

وهذه الطبقة طبقة رأسمالية من نوع جديد ، ويؤكد ذلك دجيلاس فيقول :

(إن الثورة الشيوعية لاتخرج عن كونها شكلا من أشكال الثورة الرأسمالية . فمجموعة العلاقات التى تحدث أثر انتصارها هى بطبيعتها علاقات رأسمالية الدولة . وينطبق هذا القول تمام الانطباق مع الوقائع الثابتة لأسس العلاقات الجديدة للنظام الشيوعى ، الذى يقوم بتنظيم الكيانات العمالية والمؤسسات الحكومية ، كما إنه يذهب أكثر من ذلك ، حين يعمل على توزيع الدخل القومى والأرباح والسلع المادية ، بعد أن حولت بمجموعها إلى ملكية الدولة ...)[٣].

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة (٤٢٨) .
(٢) الطبقة الجديدة (٥١-٥٢) .
(٣) المرجع السابق (٤٩) .

ويقول : (وفى ظل هذا النظام ، فإن كل شىء يتم إنجازه باسم الدولة ومن خلال أنظمتها التشريعية ، بينما الحزب الشيوعى - بما فيه قيادته البيروقراطية المحترفة - يظل فوق الأنظمة وخلف جميع أعمال الدولة الصغيرة منها والكبيرة ، إن البيروقراطية الحاكمة ، هى التى تقوم - بصورة رسمية - بكافة الأعمال من استخدام إلى إدارة ومراقبة جميع الممتلكات المؤممة والمصالح التى أخضعت لسيطرة النظام الإشتراكى ، ولقد قاد الدور الذى تلعبه البيروقراطية الحاكمة ، من احتكار الموارد والمراقبة التى تفرضها على الدخل القومى قادها إلى مركز مرموق خاص . وهذا مايجعل الكيانات الإجتماعية مشابهة بالكيانات القائمة فى ظل نظام رأسمالية الدولة ، وذلك لأن حركةالتصنيع فى ظل النظام الأخير يتم عن طريق جهاز الدولة ، وليس بمساعدة القوى الرأسمالية)[١].

ثانيا : أن التأميم يؤدى إلى تدنى مستوى الإنتاج والقلة فيه ، وهذه نتيجة طبيعية لمصادرة الملكية الفردية ، حيث لم يعد أصحاب الشركات أو المصانع ، أو أصحاب الحرف يهتمون بالوفرة الإقتصادية أو الجودة فى الإنتاج وذلك لأن المردود واحد .

إن تردى الصناعة والزراعة ليس مستغربا فى ظل التأميم لكل الممتلكات . ناهيك عن الكسل والتواكل الذى يبعثه هذا المبدأ .

إذ إن الإنسان فطرعلى حب العمل الخاص الذى يرى أن مردوده سيكون له، وإذا لم يتوفر له ذلك ، فإنه سيبحث عن الطريق الذى من خلاله يحقق رغبته تلك[٢].

---

(١) الطبقة الجديدة (٥٠-٥١) ، وانظر الإشتراكية العربية (١٦٣) .

(٢) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٣٧) .

ثالثا : عندما كان التأميم ضد الفطرة الإنسانية ، ومصادرا لحرية التملك ومغتصبا لحقوق الآخرين ، كان لابد من بذل كافة الجهود واستخدام سائر الوسائل فى فرضه على الناس ، وتطبيقه عليهم بالقوة ، وهذا ماحدث فى الاتحاد السوفييتى ، فكم من الأرواح أزهقت ، وكم من الأسر شردت ، وكم من الأطفال والنساء ماتوا جوعا بحثا عن الغذاء والمأوى .

يقول لويس فيشر عن تأثير التأميم على الدولة : (إن مهمة واحدة من تلك المهام[١] التى اضطلعت بها تكفى لاستنفاد طاقة أى حكم واستنزاف جهد أى عهد من العهود ...)[٢].

وعن آثار التأميم يقول : (كان طبيعيا أن يلاقى التأميم الزراعى على هذا النحو مقاومة عنيفة موحشة مترامية المدى من معاشر الفلاحين ، وقد رأينا جميعا مافعلت الحكومة السوفيتية حيالها ، فقد نفت جموعا جامعة من (الكولاك) أو الزراع الموفقين من الأرض وألقت بهم فى معسكرات (السخرة) ؛ ولكن هذا النفى بالجملة لم يحطم المقاومة القائمة فى القرى فقد أبى الفلاحون الفقراء استياق ماشيتهم إلى المزارع (الجماعية) ، وعمدوا إلى ذبحها وأكلها ، أو بيعها ، قبل أن يستسلموا للضغط ويرتضوا الدخول فى حظيرة المزرعة الجماعية ، حتى لقد لبثت روسيا عدة أعوام تعانى نقصا فى الماشية ، وقلة فى الخيل ، واضطرت السلطات إلى الاستعانة بمختلف جميع وسائل القوة والإكراه على استياق الفلاحين إلى المزارع الجديدة ، وكثيرا ماكانت وحدات من الجيش الأحمر تغشى القرى ، وينتقل جنودها من كوخ إلى آخر لإكراه القوم على تكوين (كولخوز) أو مزرعة جماعية ، وتهديدهم بالنفى إلى سيبيريا أو التركستان إذا هم أصروا على الاستقلال بزراعة

---

(١) يقصد العمل على تأميم المزارع الجماعية .
(٢) المعبود الذى هوى (٢٧١) .

أرضهم . وبهذه الوسائل وأمثالها سيق بالكثرة الساحقة من الفلاحين الروس إلى هذه المزارع ، ولكن فريقا كبيرا منهم ماكادوا يدخلون حظائرهم حتى تململوا منها أو راحوا (يعرقلون) جهودها الجماعية احتجاجا على الإفراط فى فرض الضرائب عليهم ؛ أو لبقية أمل فى عدول الحكومة عن المزارع لإخفاقها)[١].

ويضيف فى بيان أن الآثار التى حققها التأميم لاتساوى مابذل فى سبيل تحقيقها وأهدر من أجلها ، فيقول : (وقد زرت عشرات من هذه المزارع فى أوكرانيا والقرم والقوقاز وشمال روسيا فى الفترة بين ١٩٢٩م و١٩٣٦م ، وكانت تبدو أكبر وأفضل كثيرا من تلك المزارع الصغيرة التى رأيتها قبل ذلك بعدة سنين ، فقد اختفت منها الأسوار المقامة من العوسج وتوارت الخيران والأخاديد ، وظهرت فيها الآلات الحديثة وأقيمت رياض الأطفال ومعاهد الحضانة ، وقال الموظفون إن غلة الأرض زادت ، وأن تجارب البذور ، وتحسين الإنتاج والحرث بالآلات الكهربائية وغيرها من المستحدثات العلمية التى لم تكن تخطر للفلاح يوما ببال أصبحت وفيرة متداولة . ولكن هل تساوت المحاسن والمساوىء؟ وهل يعدل الأمل الموعود والثمن المدفوع فى سبيله..؟؟

لقد بدأت أشعر بقلق ، وأخذتنى الحيرة من جميع جهاتى ، فمضيت أسائل نفسى أترانى رحت أمجد الصلب والكهرباء ، ونسيت الإنسان ذاته .

إن كل مافى العالم من أندية ومدارس وكتب وجرارات وأنوار كهربائية وطرق ودروب معبدة لن تزيد شيئا على العالم الذى كنت أحلم به ، إذا كان النظام الذى أثمرها فاسدا بعيدا من الخلق خاليا من البشرية)[٢].

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٧١) .
(٢) المرجع السابق (٢٧٢) .

لقد أوجد مبدأ التأميم التناقص الواضح فى عدد المزارع الصغيرة التى كانت تقدر بالملايين ، هذا بالإضافة إلى التناقص الرهيب الذى شهدته الثروة الحيوانية والزراعية حيث (كانت أول نتيجة لهذا الهجوم على الجبهة الداخلية ، أن تفشت المجاعة ، وهبط عدد الخيول من ٣٤ مليونا فى ١٩٢٩م إلى ١٦ مليونا فى ١٩٣٣م والبقر من ٦٨ مليونا إلى ٣٨ مليونا ، والغنم والماعز من ١٤٧ مليونا إلى ٥٠ مليونا والخنازير من ٢٠ مليونا إلى ١٢ مليونا واستولت الحكومة فى شتاء سنة ١٩٣٢-١٩٣٣م من أوكرانيا وكوبان ، رغم احتجاج الفلاحين ، على مقدار من الحبوب بلغ من وفرته أن مات من أهل الإقليمين عدد يتراوح بين ثلاثة ملايين وخمسة ملايين ، من جراء المجاعة التى أحكمت الحكومة تنظيمها ، ولكن ستالين استطاع بهذا الثمن الفادح أن يفرض نظام الملكيات الزراعية المشتركة . ولم يبق فى روسيا منذ ١٩٣٩م فلاح ينعم باستقلاله الخاص)[١].

وإذا كان التأميم القصد منه تحقيق الرخاء والاستقرار لأفراد الشعب فإن الذى حدث هو العكس تماما ، حيث اعترف خروشوف بأن الوضع بعد الثورة أسوأ حالا منه قبلها ، فقال : (كانت حالتنا بعد الثورة أسوأ منها قبلها ، فالرواتب قلت كثيرا ، والأسعار ارتفعت كثيرا ، ولكن الصعوبات المادية لم تقعدنا ، كنا مستعدين للتضحية بوقتنا وأنفسنا فى سبيل الإشتراكية والثورة والطبقة العاملة والمستقبل .

ذلك بأن رؤيانا للمستقبل لم تعرف حدودا . كانت رؤيا حسنة ، خلاقة ، وملهمة ، ألهمتنا بقبول حياة التقشف والتضحية ، وتكريس أنفسنا بقوة لتحسين أحوال مواطنينا المادية ، وهذا يعنى قبل كل شىء بناء المساكن غير أن بناءها لم يحظ من الأفضلية خلال الثلاثينات بما حظى به بعد الحرب وخلال السنوات التى كنت فيها على رأس الحزب والحكومة)[٢].

---

(١) نقلا من كتاب الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٩١-٩٢) .
(٢) الوصية الأخيرة (٨٤-٨٥) .

وهـذا اعتراف بأن السيـاسـة الإقتصـادية القـائمة على مصـادرة الملكيـة والاستمتـاع بالإنتاج لن تؤدى إلى إسعاد الإنسان لأنهـا تتعارض مع فطرته .

رابعا : أن مبـدأ التأميم يعمل على زيادة الفقراء فقـرا ويسلب الأغنياء حتى يصلوا إلى درجة الفقر ، فهذا المالك لهذا المصنع أو الشركة أو لوسائل الإنتاج تلك ستكون ذات مردود عليه ، وعلى قدر اتساعها سيحتاج إلى اليد العـاملة وعلى قدر إكرامه لهـا ، سيتحسن إنتاجه وكميتـه وهكذا فى حلقات متواصلة من النفع لصاحب المصنع ومن يعمل لديه . فكيـف إذا سلبت تلك الممتلكات من أصحابها وأصبحوا لايملكون إلا مايسد رمقهم ، فسينتقلون من الغنى إلى الفقر ، والعامل إذا كان يرى بأنه سيكون صـاحب الحق الأول فى ثمرة عملـه فـإنه يبذل من الجهـد مـايكون سببا فى جودة الإنتـاج ووفـرته ، وبالتـالى يزداد العـرض وبصـورة جيـدة ويقل السعر ممـا ينعكـس على حياة الشعـب وسعـادته . ولكن عنـدما طبق مبدأ التأميم حصـل العكـس من ذلك وعاش الاتحاد السوفييتى عقودا من الزمن وأبسط الضروريات تكاد تكون غير موجودة فى أسواقه ، وإن وجدت فـإن الحصـول عليهـا كـان مـن الصعـوبة بمكـان وعلى هـذا فإن سياسة التـأميم التى ادعـت تحقيـق المصلحـة والـرفاهية للعـامل لم تكن كذلك بل أضحـت هذه السياسة سببا فى تعـاسته وشقـائه بل وتعـاسة الشعـب بأكملـه ، ولم يجد الشعـب إلا الجوع والخوف والفقـر والعبودية .

خامسا : مـن أعظـم مفاسد التـأميم وجود الطبقات فى المجتمـع وهـذا تناقض صارخ بين دعوة الشيوعية العريضة بإلغاء الطبقات ، وبين العمل على إيجادها بل وشدة التمايز بينها .

إن الإشتراكيـة ترى أن زوال الطبقات يمثل ركنـا أساسيا فى قيامها[١]، ولأجل ذلـك اعتبر بعض الماركسيين أنه (إذا تطـرق الشـك إلى نظرية صراع الطبقـات فبان فسادها ، فـإن صرح النظرية الماركسيـة ينهـار من أساسه)[٢].

---

(١) انظر إقتصادنا (٢١٩-٢٢٠) .

(٢) هـزيمة الشيـوعية فى عـالم الإسلام (٨٢) ، وانظـر حوار مـع الشيـوعية فى أقبيـة السجون (٢٠٨) .

ونبين الآن فساد هذا المبدأ (إلغاء الطبقات) بالإضافة إلى بيان عدم تحقق مارتب عليه ، وبطلان زعمهم إلغاء الطبقات بالوجوه التالية :

الوجه الأول : أن الله تعالى أخبر بأن خلقه متفاضلين فيما بينهم ومختلفين ، بل إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ وهم الصفوة من الخلق ـ فضل الله تعالى بعضهم على بعض . قال تعالى : {**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**}(١)، وقال تعالى : {**ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**}(٢). كما أنه تعالى هو الذى يهب لمن يشاء رزقا ويمنعه عن من يشاء قال تعالى : {**قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء**}(٣).

فهذا دليل على أن المجتمع فيه الرفيع والوضيع ، الغنى والفقير ، وذلك كله لحكمة يريدها تعالى .

فيبطل هذا الأصل والمبدأ الشيوعى بكتاب الله تعالى.وماذا بعد هذا؟

الوجه الثانى : أن الصراع الطبقى حتمية كما يرى ماركس ، وأن تاريخ البشرية يقوم على الصراع الطبقى ، ومهمة زوال الطبقات من المجتمع تقع على عاتق طبقة البروليتاريا .

يقول ماركس : (صراع الطبقات يعود بالضرورة إلى دكتاتورية الطبقة العاملة ، وهذه الدكتاتورية لن تتاح إلا بإشعال نار الثورة العمياء والإنقلاب الشامل المبيد ، ولن تستطيع الطبقة العاملة التحرك ولاالنهوض بنفسها إلا بنسف جميع طبقات المجتمع المتراكمة فوقها ، بعد أن تصحو من الأفيون الذى خدرتها به الأديان حتى لاتفيق فتتحرك وتنهض وتبيد)(٤).

ويقول انجلز : (ورسالتنا : أن نثير الطبقة العاملة ، ونملأ قلوبها بالحقد والغيظ ، حتى نستطيع هدم المجتمع بإبادة الطبقات التى تتراكم عليه)(٥).

---

(١) سورة البقرة : (٢٥٣) .
(٢) سورة هود : (١١٨-١١٩) .
(٣) سورة آل عمران : (٢٦) .
(٤) الشيوعية فى موازين الإسلام (٨٦-٨٧) .
(٥) المرجع السابق (٨٧) .

ويقول لينين : (إن الثورات العاصفة التى رافقت سقوط الإقطاعية القنانة ، فى كل مكان من أوروبا وخاصة فى فرنسا ، بينت بوضوح متزايد على الدوام أن النضال الطبقى هو أساس كل التطور وقوته المحركة)[١].

ويقول ستالين : (تحرير الطبقة العاملة وقف على الثورة المدمرة ، ولن تثور الطبقة العاملة إلا إذا ملأنا صدورها بالمقت والحقد على الطبقات الأخرى والخوف منها ، فالمقت والحقد والخوف والضغينة هى بواعث الثورة ووقودها ، وعندما تبدأ الثورة نلقى فيها بالوقود حتى نلتهم كل من يناوئنا)[٢].

(ويفخر "خروشوف" بأن الشيوعيين حطموا مقاومة الأعداء الطبقيين وعملائهم .

والحكومة العمالية الشيوعية لاتترك للبقاء أى أثر لحكم الطبقات الأخرى ، بل تقضى - حماية للنظام الجديد - على كل ماعداه من نظم سياسية ، وإقتصادية ، وإجتماعية ، وقانونية ، ودينية ، متذرعة بالجرأة ، غير عابئة بمبدأ قانونى أو أخلاقى)[٣].

وهكذا تتابع أقوالهم فى هذه القضية التى ستفضى إلى تحقيق الكثير والكثير للشيوعيين .

وهذه الأقوال كذبها الواقع وبيان ذلك بالحقائق التالية :

(أ) كذب التاريخ دعاوى الصراع الطبقى حيث ثبت وجود مجتمعات وجدت فيها الطبقات ، ومع ذلك لم يقع الصراع الحتمى الذى ذكره ماركس بل نشأت بينهم المودة والرحمة والتضحية ، وأروع مثال لهذا هو واقع المسلمين ومافعله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وصل إلى المدينة من مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

---

(١) مصادر الماركسية (٩) .
(٢) الشيوعية فى موازين الإسلام (٨٧) .
(٣) المرجع السابق (٨٧) .

فأين هو الصراع الطبقى مع أن المجتمع الإسلامى كان يجمع بين الأغنياء والفقراء ومابينهما؟

(ب) أن الواقع الذى ذكر ماركس أن هذا المبدأ سيتحقق فيه قد أبطل ذلك فحتمية الصراع الطبقى فى ظل الملكية الفردية لوسائل الإنتاج الحديثة الذى قرره ماركس فى البلدان الأكثر تطورا - لم يقع حيث لم يقم ذلك الصراع فى انجلترا كما تنبأ ماركس وأراد أن يتخذ منها مركزا لقيادته . غير أنه (لم يمت حتى شاهد فشل نظريته العلمية هذه ، وأراد نقل مركزه إلى نيويورك بعد أن يئس من انجلترا ، ووجه بالفعل دعوة لعقد مؤتمر شيوعى هناك ، فلم يجبه أحد ، وهذا مااضطره إلى العدول عن الذهاب إلى مقر دعوته الجديد! وهكذا بطلت نظريته ولم يحدث الصراع الطبقى لافى انجلترا ولافى أمريكا حيث جزم بحتميته فيهما ...)[1].

(ج) هذا بالإضافة إلى أن ماركس قال بأن المجتمع طبقتين مالكين وأرقاء ، وأين هى الطبقة المتوسطة التى توجد فى المجتمع . وأشار ماركس أن هذه الطبقة ستزول أو تندمج فى طبقة العمال ، ولكن الواقع كذب هذه النبؤة ، حيث إن واقع الدول الرأسمالية أبطل هذه الفرية ، زد على هذا أن هذه المجتمعات مازالت إلى الآن وبواقعها الطبقى بل والموغل فى الطبقية ، فى حين أن المجتمع الذى كان آخذا فى طريقه إلى الشيوعية وحاول القضاء على الطبقية إنهار وتلاشت هذه الفكرة حيث كان الواقع أبلغ من النظرية .

الوجه الثالث : أن ماركس قال إن الصراع يكون من البروليتارى وتناسى الرأسمالى حيث سيكون منه هو أيضا صراع من أجل الحفاظ على مصالحه ومكانته التى هو فيها .

---

(١) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٣٣) .

يقول هنرى ده مان : (فلنسلم جدلا بفرضية ماركس التى تقول أن الصراع الطبقى بين البورجوازية والبروليتاريا هو نتيجة طبيعية لاختلاف المصالح الناتجة عن أسلوب الإنتاج الرأسمالى .

يستخلص ماركس من هذه الفرضية أن المعركة يجب أن تقوم ليتحقق مصير الرأسمالية بدمارها بيدها .

فلنسلم بهذا ، ولكن يجب أن يكون هناك خصمان لقيام أية معركة . من الواجب إذن أن لايقتصر الصراع على البروليتارى ، بل إن الرأسمالى يصارع أيضا . والتعليل الماركسى يخضع الخصمين للقانون نفسه .

الرأسمالى الذى يصارع فى سبيل إبقاء الاستثمار والاستغلال يتصرف حسب منطوق قانون الحتمية التاريخية الذى يخضع له العامل فى دفاعه عن المصالح المناقضة لمصالح الرأسمالى . فإذا لم يكن هناك دوافع أعلى وأسمى من هذه الحتمية التاريخية ، فإن تصرف الخصمين مبرر تماما فى موقفهما الطبيعى . ولهذا فإنه لايمكننا مطلقا بعد هذا أن نعطى أحد هذين الموقفين قيمة أكبر من القيمة التى نعطيها للموقف الآخر)[١].

الوجه الرابع : أن من أعظم مايرد به على هذا المبدأ هو واقع دولة الاتحاد السوفييتى حيث طبق فيها هذا المبدأ فإلى أى حد وصلوا فيه وهل حققوه؟

لقد كان المجتمع السوفييتى مقسم إلى عدة طبقات ، فمن ذلك :

(أ ـ **الطبقة العليا** : التى تضم رؤساء الحزب الشيوعى ، ورؤساء الجيش والنقابات ، والجمعيات التعاونية ، والمصانع ، والصحف الكبرى ، وأصحاب المراكز الرئيسية الأخرى فى الدولة .

ب ـ **والطبقة الوسطى** : وتضم الموظفين والضباط والمهندسين ، وأهل الفنون والتعليم والصحافة .

ج ـ **والطبقة الدنيا** : ويندرج تحتها عامة الشعب من عمال صناعيين وزراعيين وتجار صغار ...الخ)[٢].

---

(١) الإشتراكية البناءة (٤٩-٥٠) .

(٢) الشيوعية فى موازين الإسلام (٨٣) .

ويرى بعض الكتاب أن الشيوعيين جعلوا الطبقات الوطنية أربعة :

الطبقة الأولى : (هم الشيوعيون ، من الضباط والقواد وكبار الموظفين والكتبة والفنانين الذين هم من عمال موسكو فهؤلاء يتناولون احتياجاتهم متى شاؤوا ويأخذون الكميات التى يرغبون فى استهلاكها ، ولهم امتيازات خاصة فى الأكل والملبوس .

وطبقات العمال تشمل :

الطبقة الأولى : العمال الذين يقومون بأعمال شاقة .

الطبقة الثانية : الوطنيون ، وتشمل الموظفين والمعلمين وطبقة العمال من أى نوع ، فهؤلاء ينالون أيضا مايعينه لهم القانون الشيوعى ويراه كافيا لهم .

الطبقة الثالثة : الشيوخ والأطفال والمقعدون الذين لايقوون على العمل ينالون أيضا مايفرضه لهم القانون . وللبوليس الحق بأن يقبض أو يضرب كل من يصادفه يأكل بغير وقت الأكل المعين)[1].

وقد أكثر الكتاب والمؤلفين من الحديث عن الطبقات فى الاتحاد السوفييتى والتمايز بين أفراد الشعب ، وكذلك كان هذا الإقرار من بعض قادة الشيوعيين ، وأعضاء الأحزاب .

وسنرى الآن بعضا مما جاء عنهم وقيل عن وجود الطبقات وتفشيها فى المجتمع السوفييتى ، وبصورة أكبر منها فى الدول الرأسمالية القائمة على الطبقية . ويمكن الرد على هذا المبدأ من واقع الاتحاد السوفييتى بالآتى :

(أ) **واقع الاتحاد السوفييتى يدل على وجود الطبقات وتفشيها .**

يقول فارغا : (لقد كان من المتفق عليه ، ومازال من المتفق عليه الافتراض بأن سكان روسيا ينقسمون بوجه الإجمال إلى ثلاث طبقات غير متناحرة : العمال والفلاحين والكولخوزيين وموظفى الدولة .

---

(١) الفتح بالإرهاب (٤٨-٤٩) .

أما فى الواقع ، فإن هؤلاء الأخيرين لم يؤلفوا طبقة متجانسة فهناك من جهة أولى المستخدمون العاديون ، أعضاء الحزب غير المقلدين سلطة ما ، الذين لايسوسون شيئا أو إنسانا ، والذين لايستطيعون أن يملوا أوامر أو قرارات لها قوة القانون ، وهناك من الجهة الثانية ، الموظفون المنفذون الذين يشرفون على المنشآت والمؤسسات وفروع بكاملها من الصناعة ، وعلى السياسة والثقافة والحياة اليومية ، وأخيرا على الدولة كلها فى علاقاتها الداخلية والخارجية وعلى الحزب برمته وعلى نشاطه كحاكم ومنظم . ولهؤلاء الناس القدرة على إملاء أوامر وقرارات لها قوة القانون ، وهم يؤلفون الشريعة السائدة فى المجتمع الإشتراكى .

الشريعة التى توجه مختلف مجالات الحياة ، والمفوضة بمطلق السلطة وتمسك أرستقراطية الحزب البيروقراطية التى تخضع لها جميع (عتلات) جهاز الحرب والحكومة ، بقوة الحسم والفصل ، ويبدو أن ضرورة تأسيس نوع من السرية فى قلب الشريعة السائدة قد رأت النور فى مطلع الثلاثينات ، ولم يكن ذلك فى الواقع سوى خط فاصل بين قيادة الحزب البيروقراطية وبين سائر شرائع الشعب الأخرى . فهو يضمن لتلك القيادة البيروقراطية العزلة عن الخارج ، واستقرارا داخليا ، ويوفر للجهاز الحماية من كل حادث طارىء ، ومن كل تقلب ،و من كل تدخل من قبل عناصر غير موثوقة وغير مضبوطة . هذا الوضع المحيز للشريعة السائدة وجد تعبيره فى العودة إلى نظام المدونة القيصرى ، أى نظام وضع قوائم بأسماء المميزين من الأفراد الممنوحين ثقة الحزب السامية ، الذين يمكن أن يعهد إليهم بعمل مسؤول ضمن نطاق الحزب أو الدولة)[١]

وإذا كانت الشوعية تعتبر أن إلغاء الطبقات سيكون فى مرحلتها إلا أنه من المحال أن يتحقق ولعله فى مرحلة عليا منها . يقول آرنست ماندل :

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٥٢-٥٤) .

(أما الطبقات والشرائح الإجتماعية على اختلافها ـ الطبقة العاملة والفلاحون والانتليجنسيا (وهو الإسم الذى يطلق هنا على البيروقراطية) ـ فإنها ستظل قائمة .

لقد أتانا إذا من يخبرنا بهدوء أنه سيظل ثمة طبقات وشرائح مختلفة حتى فى ظل الشيوعية! أما (المجتمع المتجانس إجتماعيا) ، أى المجتمع الذى لاطبقات فيه ، فيبدو أننا لن نصل إليه إلا فى "مرحلة عليا من الشيوعية")[١].

وبدورنا نقول إذا لم تتحقق المرحلة الدنيا فكيف بالعليا؟

(ب) **من المسلمات أن طبقة الإقطاعيين قد زالت وحاولت الشيوعية منع ظهور الطبقة الرأسمالية وقامت بمعاداتها .**

ولكن الذى حدث بالفعل هو ظهور طبقة جديدة فى المجتمع وضعت يدها على كل صغيرة وكبيرة فيه ألا وهو الحزب[٢]. وظهرت الامتيازات الطبقية حتى أصبح الحزب يمثل جانبا منها مع أبنائه ، وكذلك بقية أفراد الشعب فى جوانب أخرى . فإذا كان هناك أمرا ، أستثنى منه الطبقة الممتازة وأبنائها ، وإذا كان هناك نهيا طبق على الطبقة العاملة دون غيرها .

يقول ليونهارد ـ وكان أحد طلاب المدارس السوفيتية ووصل إلى العمل الحزبى ـ بعد أن ألغيت المنح الدراسية وطرد كثير من الطلاب :

(لم يبق فى المعهد إلا أبناء وبنات الطبقة الحاكمة ، والضباط والموظفين الكبار)[٣].

ويقول : (لن يستطيع ـ بعد صدور القانون الجديد ـ الصعود فى سلم المناصب العليا فى الدولة إلا أبناء وبنات طبقة معينة ، ألا وهى الطبقة المهيمنة على الوظائف الكبرى فى الحزب ومؤسسات الدولة ، إذن فقد قفلت

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٦١) ، وانظر التضليل الإشتراكى (١١) وذكر أن الشيوعية عجزت أن توفى بما كانت تبشر به رغم مرور أربعين سنة عليها .

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة (٤٢٧) .

(٣) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٢٤) .

الدائرة : فالطبقة البيروقراطية الحاكمة التى تكونت منذ نهاية العشرينات ، وثبتت سلطتها بحركة التطهير - امتدت من ٣٦-١٩٣٨م - التى أطاحت "بالمجموعة القديمة" ، بدأت فى عام ١٩٤٠م فى اتخاذ تطبيق وسائل احتكار السلطة ، ومنع دخول "الطبقات الأخرى" لمشاركتها فى الحكم ، وبهذا خطت الخطوة الأولى نحو جعل السلطة والامتياز الطبقى ، وقفا على أبنائهم يرثونه من بعدهم)[١].

و(قد انقسم الشعب إلى طبقة القادة والحاكمين ، وطبقة العسكريين ، وطبقة العلماء والأكاديميين ، وطبقة العمال .. أضف إلى ذلك الامتيازات السياسية والدبلوماسية للحزب الحاكم ، كما أنها تمنح الطبقات المفكرة كالعلماء والأدباء والمخترعين امتيازات لاتمنحها لغيرهم من ذوى المواهب المحدودة من العمال والفلاحين ...)[٢].

مع أن الثورة الشيوعية ومن قبل الفكرة الماركسية كانت كلها من أجل العامل والفلاح ورفع الظلم عنهما فإذا بهما أردأ طبقة فى المجتمع .

ويبين ليونهارد تقسيم المجتع إلى درجات فيقول :

(الدرجة السفلى ، لايعرف أفرادها شيئا عما يدور فى وطنه ، ثم تزداد المعرفة مع ارتفاع الدرجة ، حتى تصل إلى مجموعة معينة ، تكون ملمة بكل شىء) .

و(نشاء عن طريق تقسيم الناس إلى درجات بالنسبة للحصول على معلومات ، نوع من الشعور بضرورة الانتماء إلى مجموعات ، لاتنفصل عن مراكز السلطة فى الاتحاد السوفييتى ، ومما لاشك فيه أن الالتفاف حول شخصيات بارزة فى الحزب هام جدا ، وخاصة فى الاتحاد السوفييتى ، حيث توجه جميع وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة ، وليس لجماهير الشعب أى منافذ للأخبار إلا النذر اليسير ، أى لايذاع إلا مايزعج السلطة الحاكمة)[٣].

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٢٥) .

(٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٩٠) .

(٣) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٠٣) ، وانظر الطبقة الجديدة (٦٣-٦٤) .

(ج) أن واقع الاتحاد السوفييتى قد جعل هذه الفكرة خرافة لايمكن تحقيقها وأكد فى الوقت ذاته أن الطبقات ووجودها فى المجتمع . خاصة فى الدخول والثروات . لايمكن تلاشيها .

جاء فى كتاب حقيقة الشيوعية : (أسطورة "إلغاء نظام الطبقات" التى تتغنى بها الشيوعية ، خرافة لم تحدث قط ولايمكن أن تحدث فى يوم من الأيام ، لأنها مخالفة لطبائع الأشياء ، ومادامت الناس تتفاوت فى القدرات والملكات فكيف يمكن أن يسوى بينهم فى الأقدار[١]،والدرجات والطبقات ، فاختلاف الطبقات مسألة باقية ، ودورة خالدة فى روسيا السوفيتية نفسها ، قد انمحت الطبقات ، لتأخذ طبقات أخرى جديدة فى الظهور ، وغاية مايمكن الوصول إليه فى ظل أحسن النظم الإجتماعية هو تحسين علاقات الطبقات بعضها ببعض ، بدون تعريض المجتمع للرجات العنيفة والانقلابات المدمرة ، والبلاد التى قطعت مرحلة لابأس بها فى هذا السبيل عن طريق الضرائب التصاعدية وضريبة الميراث قد أيأس تقارب الطبقات بها دعاة الشيوعية)[٢].

ونورد هذه النقول عن ليونهارد ذلك القائد الذى بقى فى الشيوعية ردحا من الزمن ومارسها فى واقع حياته وشهد شاهد من أهلها .

فعندما أراد ليونهارد الحزب شعر بأنه إنسان آخر يعيش بين عوالم شتى يقول عن العربة التى كانت ستقله إلى حيث طلب فى الحزب :

(خرجت من الباب ولازلت فى ذهول ، بل اشتد ذهولى ، فالعربة واقفة على استعداد لتوصيلى ، وأى نوع من العربات! ليست العربة العادية (Emmotschaka) (هكذا يسمون فى الاتحاد السوفييتى العربة الصغيرة (M-1) التى يستعملها أعضاء الطبقة المتوسطة فى قيادة الحزب) بل العربة الكبيرة الجميلة (SIS) عربة القياديين من أعضاء الحزب البارزين)[٣].

---

(١) أى القدر وليس القدر .

(٢) (٢٣-٢٤) .

(٣) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٢٤) .

ويتحدث ليونهارد عن اسكان العاملين فى أجهزة الأحزاب فيقول : (وزع هؤلاء الناس على أماكن السكن طبقا لطبقاتهم الحزبية ، وظهر الفرق واضحا بين طبقة وأخرى ، كذلك اختلفت معاملتهم بالنسبة للخدمات الأخرى . فكل الأعضاء الذين كان نشاطهم داخل الجبهة فى المقر الرئيسى كانوا يحصلون على ثلاث وجبات يوميا فى مبنى العمل وهو قصر الجوالة السابق . والزعماء الكبار الذين كانوا يقيمون فى الفندق الجميل (Baschkirija) كانوا يحصلون بالإضافة إلى الوجبات الثلاث ، على طرد كبير ، ملىء بأصناف الفواكه والحلوى ، ويرسل إلى محل إقامتهم . أما الباقون من أعضاء الجبهة فيحصلون على مايحتاجون إليه من أغذية ، من محل خاص بهم ، يوجد فى الدور الأرضى لفندق (Baschkirija) ويحصلون على الوجبات الثلاث ، وعلى مقدار مايأخذه عامل فى بطاقة التموين . وبين الحين والحين يوزع عليهم بعض المأكولات الخاصة . كان هذا وضع العاملين فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، كل على حسب قيمة مايقدمه فى العمل السياسى ، نظام التقسيم إلى طبقات فى كل شىء فى السكن ، والأكل ...الخ طبقة تعلو الأخرى حتى القمة)[١].

فالأكل يوزع على حسب الطبقة ، وإليك هذا اللقاء بين ليونهارد ورجل من الحزب الشيوعى الألمانى ، وأراد الحصول على الأكل . يقول له ليونهارد ـ بعد أن سأله ذلك الرجل عن نوعية الأكل المتوفرة ـ :

("هذا يتوقف على نوع الماركة التى معك" نظر إلى مندهشا ثم أطلعنى على نوع "ماركته" لقد كانت واحدة من الطبقة رقم (٣) ، وهو نوع يعطى "للعاملين غير المهمين" فشرحت له كيفية الوصول إلى مكان تناوله الطعام .

قل لى .. هل يوجد أنواع مختلفة من (الماركات)؟

(طبعا .. يوجد أربعة أنواع مختلفة من (الماركات) تبعا لعمل القيادى فالاثنان الأخيران هما للعمال الفنيين والمستخدمين) .

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٢٦-٢٢٧) .

(نعم! ولكن .. أليس الكل رفقاء)؟!

(طبعا ..

(نظر إلى فزعا ، ثم قال : "ماركات" مختلفة ، وطعام مختلف . ولكن الكل رفقاء)!

(أدار ظهره دون أن يجيبنى وذهب ، وبعد لحظات سمعت صرير الباب الرئيسى ، لقد غادر الرفيق مبنى اللجنة المركزية)[١].

بعد أن شعر ليونهارد بالانقباض ومر بحجرات الطبقتين ٤،٣ السفليتين يقول :

(عندما فتحت باب القسم الخاص بطبقتنا . فهنا .. على المناضد المغطاة بالمفارش البيضاء يتناول العاملون من الطبقة العالية طعامهم المكون من أصناف متعددة)[٢].

ويضيف : (كان نظام التفريق بين الطبقات مطبقا أيضا فيما كان يطلق عليه : Pajoks تلك الطرود الكبيرة من المأكولات ، والتبغ ، والمشروبات الكحولية ، والشيكولاتة التى كنا نحصل عليها بصفة مستمرة ، علاوة على بطاقات المواد الغذائية ، وتموين اللجنة المركزية . ولما كانت هذه الطرود غير مقصورة على القياديين الكبار والمتوسطين فقط ، بل كانت أيضا للقياديين فى الجهاز الإدارى والإقتصادى ، وللعلماء وللأخصائيين والشعراء والفنانين ، فقد تدرجت بدقة تامة ، ويحدد ذلك أهمية الحاصل على الطرد ، ونوع العمل الذى يقوم به)[٣].

وإذا نظرنا إلى قضية الأجر التى دعت الشيوعية إلى المساواة فيها نجد أنه (قد بلغ معدل الأجر الوسطى للعامل فى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٣٥م حوالى ١٨٠٠ روبل سنويا ، فى الوقت الذى بلغ فيه راتب الأمين العام للجنة

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٧٠) .
(٢) المرجع السابق (٥٧١) .
(٣) المرجع السابق (٥٧٣) .

الغزل والحرير الاصطناعى ٤٥٠٠٠ روبل سنويا . وإذا مارتفعت المعدلات فإن النسبة بين أجر العامل وراتب الموظف قد بقيت ثابتة فى جوهرها ، وهكذا يظهر للعيان مدى التناقضات القائمة بين أجور العمال ومعاشات الموظفين الحزبيين ، وقد أصبحت هذه التناقضات أمرا واقعا لايمكن إخفاءه ، ولاسيما عن أعين الذين قاموا بزيارة الاتحاد السوفييتى فى السنوات الأخيرة)[١].

وعندما يقع التساؤل لماذا كل هذا؟ يقول ليونهارد كان الجواب ببساطة : (حماة الدولة فالرفقاء مكلفون بعمل كثير ، ولذا من المسلم به أن يتخلصوا من الهموم المادية) .

ويعلق ليونهارد بقوله : (من الممكن أن يكون هذا صحيحا ، ولكنه لايفسر إطلاقا تدرج توزيع الطرود حسب الطبقات ، بعضها فوق بعض . وبالإضافة إلى ذلك ألم يكلف العمال فى المصانع والمناجم ، والقياديون من الطبقة الدنيا ، "الذين لايحصلون على طرود" أيضا بعمل شاق يؤدونه ببذل كل ماعندهم من طاقة)[٢].

وعن الإسكان الفاخر من الفيلات يقول :

(ثم فكرت فى "الفيلات" الفخمة فى "يندر شونهاوزن" ... وكنت أذهب إلى هناك زائرا كل أسبوع تقريبا . وأرى السور المضروب حول الحى كله ، وقد وقف على مدخليه حراس من الجنود السوفييت)[٣].

ويقول أندريه جيد : (ولما زرت سوتشى Sotchi تولانى العجب البالغ من كثرة المصحات "والاستراحات" التى كانت يومئذ تشيد للعمال فيها فقد بدت لى بهجة للغاية ذات حدائق فاخرة وحمامات خاصة متناثرة على الشواطىء الرملية . ولاريب فى أن تخصيص هذا المظهر من الترف لمعاشر العمال عمل جدير بالثناء . ولكن الواقع أن الذين يستمتعون به هم فى الأغلب من أهل الطبقة الجديدة الممتازة .

---

(١) ستالين فى الحكم ، أورلوف ، نقلا من كتاب الطبقة الجديدة (٦٦) .
(٢) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٧٣) .
(٣) المرجع السابق (٥٧١) .

ولست أنكر أن الذين يحتاجون إلى الراحة والعلاج مفضلون على سواهم ولكن على شرط أن يكونوا من المقربين إلى سياسة الحزب المؤمنين على خططه وبرامجه ، وإنه لمحزن أن يتبين المرء فى ذلك الموضع أن الذين يستخدمون فى بناء تلك الدور لايتقاضون غير أجور صغيرة ولايسكنون غير معسكرات حقيرة مظلمة .

وإذا كنت معجبا الإعجاب كله بالاستراحات التى رأيتها تبنى فى "سوتشى" فماذا عسى أن أقول عن الفندق الذى نزلت به فى (سينوب) ... فقد كان يفوق بمراحل كل بناء عداه حتى لايصح أن يقارن إلا بأفخم الفنادق فى الخارج وأوفرها راحة وترفا ونعماء ، فقد كان بكل غرفة فيه حمامها وشرفتها ، وكان الأثاث من أبدع الرياض شأنا والطعام لايقل عن مثله فى فنادق الدرجة الأولى فى أى بلد كبير .

وكانت بجواره مزرعة نموذجية تتولى إمداده بإنتاجها وتحوى مرابط للخيل ، ومداود للبقر وزرائب للخنازير وتقافيص للدجاج مزودة بأحدث الأجهزة)[1].

ويقول ليونهارد : (لم تكن الفيلات ، وتركيب الطبقات فوق بعضها فى توزيع الطعام هما فقط مميزات القياديين الكبار ، إذ لم يمض وقت طويل على تأثيث مبنى اللجنة المركزية فى شارع (فال) وافتتاحه ، حتى علمنا أن منزلا هيىء ليقضى فيه أعضاء جهاز اللجنة المركزية فترات استجمام ، ويوجد هذا المنزل فى (بيرنيكى) بالقرب من (بيرناو) وأثث - بالنسبة لذلك الوقت - تأثيثا فاخرا ، ويحيط به منتزه كبير ، وهو معزول تماما عن العالم الخارجى .

كان الطعام فاخرا بدرجة تجعل الطعام فى اللجنة المركزية - بالنسبة له - يبدو متواضعا جدا . هنا نقضى أيام الأجازات ، وأحيانا يرسل بعض القياديين بعد القيام بعمل خاص إلى (بيرنيكى) ، كى يسمنوا مرة أخرى .

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٣٩) .

ويجب ألا ينسى شيء هنا : كلما كانت الامتيازات كبيرة ، كلما كانت الأعمال التى يتطلبها الحرب من القيادى كبيرة أيضا ...)[١].

وهكذا فالتمييز الطبقى داخل الحزب نفسه فكيف بين الحزب وبقية أفراد الشعب؟!!

ويذكر ليونهارد ذلك التفاوت فيقول : (كان بيت الاستجمام فى "بيرنيكى" فى بادىء الأمر لكل القياديين فى جهاز اللجنة المركزية ، غير أنه حدث تفريق بينهم فيما بعد ، فقد جهز بيت استجمام على مستوى عال فى (زيهوف) للأعضاء الكبار فى سكرتارية اللجنة المركزية)[٢].

ويقول الأستاذ محمد قطب : (هناك فارق فى نوع المتاع ودرجته ، وفارق فى مشاعرك حين تكون هنا وحين تكون هناك .. ويتسع الفارق كلما صعد الإنسان الدرجات فى "الحزب" حتى يصبح عضوا فى اللجنة التنفيذية العليا أو من الأعضاء البارزين فى الحزب ، فينقلب نعيمه ترفا ماكان يحلم به بعض القياصرة فى زمانهم! والشعب فى "أكواخه" العصرية ، والأسرة كلها فى غرفة واحدة تجمع الأم والأب والأطفال ...)[٣].

ويقول دجيلاس : (إن توطيد ملكية الطبقة الجديدة ، قد تمثل فى مجموعة التطورات الطارئة على سيكولوجية أعضائها ، وعلى نمط حياتهم وعلى وضعهم المادى ، نتيجةللمراكز التى احتلوها فى نطاق السلم الحزبى .. ولقد حاز الأعضاء الكبار من أفراد النخبة الممتازة على أفضل المساكن والبيوت كما شيدت لهم الأحياء الخاصة ومنازل الاصطياف . وحصل أمناء سر الحزب ورؤساء البوليس السرى ليس على السلطة العليا ، وحسب ، إنما على أجمل المساكن ، وأفخم السيارات وسواها من مظاهر الأبهة والعظمة والامتيازات الخاصة . أما بقية الأعضاء من دونهم مرتبة فقد حازوا على امتيازات متناسبة مع مراكزهم الحزبية والإدارية .

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٧٣) .
(٢) المرجع السابق (٥٧٣) .
(٣) مذاهب فكرية معاصرة (٤٢٨) .

وبذلك تحول ميزانيات المقاطعات واعتمادات البناء والتعمير ومشاريع إعادة التعمير التى يتم تنفيذها لسد حاجات الدولة ، أصبحت جميع هذه الأمور موارد لاينضب لها معين ، تدر المنافع الهائلة على البيروقراطية السياسية)[١].

ويعترف (شيفشنكو) الروسى فى كتابه (الشقاق مع موسكو) بالامتيازات الطبقية فى الاتحاد السوفييتى . ويؤكد شيفشنكو هذا التمايز أن (هذه الطبقة هى طبقة الصفوة الذين يتمتعون بدرجات مختلفة من الامتيازات طبقا لمستوى مناصبهم فعضو هيئة المكتب السياسى مثلا لاحدود ولاقيود على الامتيازات التى تمنح له وبعده أعضاء اللجنة المركزية ثم أعضاء الحزب فالوزراء ثم أصحاب الوظائف الهامة المختلفة أما أعمال المصانع والفلاحون والمهندسون والمحامون والأطباء ومديرو المحال التجارية وباقى أصحاب المهن من المواطنين فهم بعيدون تماما عن أى امتيازات .

وامتيازات الصفوة كثيرة ، فهم يحصلون على الرواتب العالية والشقق الفاخرة كما أنهم يعاملون معاملات الأشخاص الذين يطلق عليهم أشخاص مهمون جدا فى المطارات والشواطىء والمستشفيات ولهم مدارس خاصة لأولادهم ، ولهم محلات خاصة يتعاملون معها بأسعار مخفضة ويحصلون منها على أى كميات يريدون من الأطعمة أو الملابس أو غيرها .. لقد سمعت الكثير حول هذا الموضوع قبل أن أنضم وأسرتى إلى طبقة الصفوة ، وعندما أصبحنا جزءا منها أى من طبقة الصفوة أصبحنا ننظر لهذه الرفاهية وهذه الامتيازات بشىء من الإعجاب والسعادة وسرعان ماأصبحنا نعتبر كل هذا حقا من حقوقنا الأصلية)[٢].

لقد أصبحت العضوية فى الحزب بعد الثورة (تعنى انتماء العضو الجديد إلى طبقة رفيعة المقام ذات امتيازات خاصة ، وهذا مايؤدى إلى أن ينمو الحزب على حساب مجموعة طفيلية من أعتى المستغلين وأشرس الأسياد .

---

(١) الطبقة الجديدة (٨٠-٨١) .

(٢) نقلا من كتاب كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٥٩) .

لقد استطاع النظام الشيوعى أن يخفى طبيعته الذاتية لمدة طويلة من الزمن ، قبل أن تنكشف هويته الحقيقية . وقد عمد إلى إخفاء واقع ظهور طبقة جديدة خلف ستار من الشعارات الإشتراكية الزائفة ، وتحت غطاء العمل على إقامة الملكية الجماعية ونظام التعاونيات الجماعية الجديدة . إن الملكية الإشتراكية ليست أكثر من ستار للملكية التى تمارسها البيروقراطية السياسية الحاكمة ، التى عملت بادىء ذى بدء على دفع عجلة التصنيع وعلى إخفاء واقعها الطبقى خلف هذا الستار)[١].

واستمع الآن إلى رجل حب الشيوعية من الأعماق ثم كفر بها كما كفر غيره عندما رأوها على حقيقتها من خلال واقعها :

(ومنذ بضع سنين كتبت عن حبى للاتحاد السوفييتى وإعجابى ، لما يجرى فيه من تجربة منقطعة النظير ألهب التفكير فيها مشاعرى وأثار فى صدرى أكبر الآمال ، إذ رجوت أن تسفر عن تقدم عظيم وخير كثير ، ودوافع تغمر العالم كله ، وتسرى فى الدنيا بأسرها ؛ وكان بديعا أن يحيا المرء فى هذه الآونة من الزمن ليشهد هذا الميلاد الجديد ويهب حياته كلها له ، فلاعجب إذا أنا مضيت فى أعماق جوانحى أربط مصيرى باسم الثقافة والأدب والفن بمصير ذلك الأتجاه .

وقد أعلنت بعد أربعة أيام من وصولى إلى روسيا ... أن مصير الثقافة مرتبط فى تقديرى بمصير الاتحاد السوفييتى ...)[٢].

وبعد أن امتدح الاتحاد السوفييتى قال : (ولم أبدأ أرى الأشياء على وضوحها إلا حين تنحيت عن الإستعانة بوسائل النقل الحكومية ومضيت أتنقل وحدى فى البلاد لكى أتمكن من الاتصال رأسا بالشعب ... وحين هربت من كبار الموظفين ومضيت أختلط بالعمال تبين لى أن أكثرهم يعيشون فى أبشع صنوف الفاقة فى الوقت الذى كنت أجلس فيه إلى مأدبة فاخرة كل

---

(١) الطبقة الجديدة (٦٧) .

(٢) المعبود الذى هوى (٢٢٩) .

ليلة ، وأرى الخوان حافلا بالأطايب ، ومختلف (المشهيات) حتى لتكفى لإشباع النفس قبل أن يبدأ الطعام ذاته ، وهو عشاء من ستة ألوان منوعة ، يستغرق المرء فى الجلوس إليها عدة ساعات ، ولم أترك ولامرة واحدة حرا أدفع قائمة حساب ، وليس فى إمكانى أن أقدر نفقات هذه المآدب ، ولكن صديقا لى أوتى علم الأسعار فى روسيا أنبأنى أن الشخص الواحد فى هذه الولائم يكلف مائتى روبل أو ثلاثمائة ، بينما كان العامل الواحد من العمال الذين لقيتهم لايتقاضى من الأجور أكثر من خمسة روبلات فى اليوم ، وهو القانع بالخبز الأسود والسمك المجفف ، ولم نكن فى مقامنا بها ضيوفا على الحكومة فى الواقع ، وإنما كنا فى ضيافة مؤسسة غنية تدعى جمعية المؤلفين السوفيتيين ، وكلما فكرت فيما أنفقت علينا ، وكنا ستة أضياف ، يصحبنا الأدلاء والمشرفون ، ويجالسنا مثل عددنا من كبار الموظفين ، أدركت أنهم كانوا ينتظرون منا لقاء المال الذى أنفقوه علينا غير ماوجدوه ، وأظن أن بعض هذا السخط الذى أبدته جريدة (البرافدا) مرجعه إلى هذا الكفران الذى كان منى بصنيعهم ، ولاريب فى أنه كان من الطبيعى أن يحسنوا وفادة الضيف مااستطاعوا ، وأن يشهدوه على أحسن مافى بلادهم ، ولكنى مع ذلك ذهلت وعجبت لما لمسته من الفارق البعيد بين هذا الوجه من الخير الذى يستمتع به الأكابر ، وبين نصيب الكافة وحظ العامة ، أو هذا البون الشاسع بين المناعم والامتيازات ، وبين الفاقة البالغة ، والفقر المدقع . فلاغرو إذا كان إعجابى بالاتحاد السوفييتى والعظائم التى حققها هو الذى سيجعل انتقادى شديدا ، ومؤاخذاتى قاسية ، لما كنا نرتقبه منه ، وماحملنا على التعلل به ، والأمل فى بلوغه ، فقد كنت مطمئنا إليه، معتمدا عليه ، فلم يكن أشد مافجعنى أن أرى الهدف لم يستكمل ، بل أن أشهد فيه كل ماكنت أجده فى وطنى ، وأحاول منه هربا ، تلك الامتيازات التى كنت أرجو أن أراها ملغاة

إلى الأبد)[١].

وعلاوة على هذه الطبقية الفاحشة فإن الدولة قد جعلت الإقتصاد ومسائله سرية للغاية حتى لايطلع عليها أفراد الشعب كى لايعرفوا الحقيقة التى تخفيها تلك الفئة المتسلطة ، والتى كانت متسترة بمصلحة العمال ، حتى لاينفضح أمرها ، وينكشف عوارها ، فتثور الجموع ضدها .

إن هذه الامتيازات للطبقة الحاكمة والسرية الملازمة للإقتصاد أدت إلى مزيد من التذمر فى أوساط العمال وأفراد الشعب نظرا لما يرون من سوء حال يعيشون فيه ، فى حين يتمتع هؤلاء وينعمون بكل مالذ وطاب .

فغضب الشعب بسبب الجوع الذى كان مفروضا عليهم وحلت البغضاء فى نفوسهم للحزب[٢].

ويقول دجيلاس : (إن التناقضات القائمة بين واقع الملكية التى تمارسها الطبقة الجديدة وبين مفهومها القانونى والعقائدى ، يمكن أن يدلنا على الأسباب الحقيقية الكامنة وراء الانتقادات الشعبية . فمجموعة هذه التناقضات لاتلعب دورها فى تحريض الآخرين وإثارة سخطهم وحسب ، بل إنها تعمل على نخر الحزب نفسه ، لكون القلة البيروقراطية الحاكمة هى التى تتمتع بمفردها بالامتيازات وتتصرف حسب هواها بمقدرات الأمة . وإذا ماتسعت رقعة هذه التناقضات وازدادت تضخما ، فإنها قد تقود إلى ظهور فرص فعالة لتغيير طبيعة النظام الشيوعى سواء جرى ذلك التبدل برغبة من الطبقة الحاكمة أو رغما عنها)[٣].

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٣٢-٢٣٤) .ولمزيد انظر المرجع نفسه (٢٣٤-٢٣٥) ، وانظر مرضى حكموا العالم (١٠٨-١١٠) وذكر التميز الطبقى فى العيادات الطبية بين أعضاء الحزب وبقية أفراد الشعب ، وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٨٧) عن التمايز فى الملابس النسائية .

(٢) انظر الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٦٢-٦٣) .

(٣) الطبقة الجديدة (٩٤) .

وحتى لايطول بنا المقام فى سرد الحقائق والآراء عن وجود الطبقية العاتية فى الاتحاد السوفييتى نقول إن هذا التمايز أدى إلى جعل طبقة العمال والفلاحين لايجدون إلا قوت يومهم ولايصل إليهم إلا بشق الأنفس وهؤلاء العمال ، أما من عداهم من أعداء الحزب فالموت لهم(١).

لقد كان على الإنسان السوفييتى أن يقضى وقتا طويلا فى طوابير الانتظار ليحصل على أبسط الحاجيات ، وقد قدرت خسائر (المجتمع السوفييتى سنويا ، بفعل اطضرار السكان للانتظار أو الوقوف فى طوابير أمام المتاجر بغية تلبية حاجاتهم ، حوالى خمسة وستين مليار ساعة عمل)(٢).

يقول غيرد : (لعل المسؤولين غير مطلعين على المصاعب التى تصيب قطاع التموين . فالعشرة أو العشرين ألفا من المسؤولين فى موسكو وأنسباؤهم وأصدقاؤهم ، يعيشون فى حلقة مغلقة من نظام تموينى ركيزته السوق السوداء ، ولايمت بصلة إلى حياة المواطن العادى . كان باستطاعة المحظوظين فى موسكو الحصول بصورة أسهل من قبل ، على السيارة والشقة السكنية . وسواها من السلع التى تشهد على مستوى معيشة مرتفع . وكانت عمليات الاستيراد تخفى وراءها فشل السياسة المتبعة فى الزراعة السوفيتية . وكان الخبز الروسى والفودكا يصنعان من القمح الامريكى . ونجحت القروض وعمليات الاستيراد من الغرب فى حجب الأزمة بصورة مؤقتة ، مع ذلك ، تنامت النقمة حتى فى الأوساط التى تساند النظام القائم . وازدادت الشكوى من تفاقم الفساد . ولم يعد بالإمكان خنق فورات الغضب التى يثيرها ظلم النظام . أكثر من ذلك ، عانت الفئة المثقفة فى صفوف المسؤولين من شعور الخيبة على الصعيد السياسى فقد بات واضحا للمطلعين على الوضع الفعلى السائد ، إن النظام الإقتصادى السوفييتى بلغ حده من التطور وصار يؤلف ، فى شكله الحالى المتحجر سدا منيعا فى وجه كل تقدم وإصلاح)(٣).

---

(١) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٣٢٣-٣٢٥) .
(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٣٧) .
(٣) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٣-١٧٤) .

ولاشك أن ذلك سيؤدى إلى سخط الشعب وتذمرهم ، ولو على المدى البعيد .

يقول ماندل : (ينبغى أن يبقى فى أذهاننا أنه فى نهاية حقبة بريجنيف كان قد ساد شعور بالاستياء الشامل بين الجماهير السوفيتية بفعل نقص التموين المعيشى ، "إنه شعب محبط يتحدث علنا عن الرازروخا Razrukho أو خراب الإقتصاد")(١).

إن مستوى المعيشة فى الاتحاد السوفييتى المتردى كان له أبلغ الأثر فى نقمة الشعب .

يقول هيلير عن تردى الوضع : (لايعتبر مستوى المعيشة فى الاتحاد السوفييتى من أدنى المستويات فى أوروبا وحدها ، بل فى العالم كله . فعلى قاعدة حجم المواد الغذائية والخدمات الموضوعة بتصرف المستهلك ، فإن بلد الإشتراكية الناضجة يحتل المرتبة الخمسين أو الستين .

وبإمكاننا أن نفهم شكل أفضل مايمثله متوسط الأجر السوفييتى ، إذا عرفنا أن عتبة الفقر فى الثمانينات ، أو (الرفاه الضعيف) وفق اللغة السوفيتية ، كان بحدود ٧٠-٨٠ روبل حسب الخطة وبأنه سيبلغ ١٠٠ روبل فى الشهر وللشخص الواحد فى المدى القريب . وتشير الأرقام الأكثر جدة إلى وجود (عشرات الملايين من الأشخاص) (لاوجود لرقم دقيق) الذين يحصلون على دخل أقل من ٧٥ روبل فى الشهر . وتضم البلاد ٨٥ مليون متقاعد . وينال العامل المتقاعد أوالمستخدم ٨٤ روبل فى الشهر ، أما فى حالة الكولخوز فإن الدخل يهبط إلى ٥٣ روبل . جميع هؤلاء يعيشون دون حافة الفقر ، أو فى أحسن الأحوال فى حدودها . وفى الأول من تشرين الأول عام ١٩٨٩م ، ارتفع المعاش التقاعدى من ٤٥ إلى ٦٠ روبل ، ووفقا للمعطيات الرسمية . فإن مانسبته ٤١ مليون شخص ، فى عام ١٩٨٩م من سكان الاتحاد السوفييتى ينالون أجورا شهرية أقل من الحد الأدنى الضرورى

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٥٣) .

(٧٨ روبل) . بالمقابل وفى الولايات المتحدة ، حيث تبلغ عتبة الفقر السنوية ١١٦١٢ دولارا لعائلة مؤلفة من أربعة أفراد فإن عدد الأشخاص الذين تشملهم هذه الوضعية بلغ عام ١٩٨٧م ، ماجموعه ٣٢,٥ مليون شخص)[١].

ويقول ماندل مصورا بعض أسباب التأخر الإقتصادى فى الاتحاد السوفييتى : إن (ثمة نقص فى سلع الاستهلاك ، سواء الزراعية منها أو الصناعية . وثمة نقص بشكل خاص بالمنتوجات المستوردة (لم يستورد الاتحاد السوفييتى سوى ١٩٧ غرام من البن للمواطن الواحد عام ١٩٨٦م ، مقابل ٥,١٢ كلغ بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ، و١٠ كلغ بالنسبة لألمانيا الشرقية و٣,٥ كلغ بالنسبة للمجر ، و٤ كلغ بالنسبة لألمانيا الغربية ، و٢,٨ كلغ بالنسبة لبريطانيا) . غير أن هذا النقص ليس السبب الوحيد ولاالسبب الاساسى فى أزمة التموين . ويمكن تلخيص هذه الأسباب الإضافية على الشكل التالى :

(اختلالات رئيسية بين التوظيفات فى القطاع المسمى منتجا من جهة ، والقطاع المسمى خدماتيا من جهة ثانية . فثمة تخلف صارخ فى سستام النقل وفى سستام التخزين ، وسستام التوزيع)[٢].

٢ ـ (خسائر ضخمة "تبذيرات" ناجمة عن هذه الاختلالات . ويقدر غورباتشوف أن نصف كمية الفواكه والخضار التى تصل إلى موسكو تفسد قبل وصولها إلى المتاجر ...) .

وأقر ليغاتشيف (أنه لايوجد فى موسكو سوى متجر واحد للفواكه والخضار لكل أربعة وعشرين ألف مواطن) .

وجاء فى البرافدا العدد الصادر فى نوفمبر ١٩٨٨م (أن مستودعات التبريد فى العاصمة السوفيتية لاتتسع إلا لحمولة ١٩ حاوية مبردة للحوم ، فيما تصل تلك المستودعات مئتا حاوية فى اليوم . وليس ثمة مايثير الدهشة

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٠٨-١٠٩).

(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٨٩) .

من ضياع جزء هام من اللحم . والحال هكذا ، إن هذا الوضع قائم منذ عشرات السنين ، من دون أن يكون فى المستطاع بناء مستودع تبريد إضافى واحد خلال عشرين عاما . والمثال الأكثر غرابة حول التبذير ، يتعلق بإنتاج البطاطا : فالاتحاد السوفييتى ينتج بقدر ماتنتج الولايات المتحدة الأمريكية والصين وبريطانيا وألمانيا الغربية مجتمعين ، لكن ، وبحسب فيكتور تيغونوف ، فإن ربع هذا الإنتاج فقط يصل إلى المستهلكين .. والنتيجة نقص حاد للبطاطا فى المتجر ...)[١].

٣ ـ (تأخيرات منهجية فى تنفيذ خطط الصناعة الخفيفة بما فيها الصناعة الزراعية الغذائية ...)

٤ ـ (احتكار وعيوب بيروقراطية ، نظرا إلى الفرق الكبير بين "الأسعار الرسمية" و"الأسعار الحرة" ...)[٢].

٥ ـ (الآثار الانحرافية "للأسعار المتعددة" . إن الأسعار فى الأسواق الكولخوزية والمتاجر التعاونية وبشكل عام فى السوق الحرة والسوق السوداء والرمادية هى بشكل عام ضعف أسعار متاجر الدولة على الأقل . وينتج عن ذلك تدفق "نصف شرعى" أو غير شرعى متواصل ومحتوم للسلع من قطاع الدولة إلى "القطاع" الحر . غير أن تكييف أسعار قطاع الدولة مع "الأسعار الحرة" سيؤدى إلى انخفاض كبير فى مستوى معيشة القسم الأكثر تواضعا من السكان ، مالم تصحبه إعادة توزيع جذرية للمداخيل ...)[٣].

(التأخر التكنولوجى ، النوعية السيئة للعديد من المنتجات الصناعية "وتؤدى الظاهرتان إلى "ضعف المنافسة التى تمتلكها المنتوجات السوفتييية ـ بما فيها الآلات ـ فى الأسواق العالمية" ، الضعف فى عائدات الاستثمارات المبالغ بها إلى حد بعيد وغير المنجزة على مدى طويل (مجمدة) ؛

---

(١) نقلا من كتاب الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٨٩-٩٠) .
(٢) المرجع السابق (٩٠) .
(٣) المرجع السابق (٩١-٩٢) ، وانظر الفشل الكبير (٣٠٣) .

التخطيط غير المتوازن والذى يزداد تفككا ، والهدر المتنامى للطاقة والمواد الأولية)[١].

والتأخر التكنولوجى يتفق مع سياسة الاتحاد السوفييتى الذى كان يحجر على الناس كل شىء لأن الأجهزة الحديثة قد تستخدم ضد ذلك النظام ويكون الاطلاع على ماعند الآخرين عن طريقها فكان التضييق عليها يخدم السياسة الدكتاتورية السوفيتية[٢].

لقد أصبحت الدولة فى الاتحاد السوفييتى تملك كل شىء أو على الأقل أكثر كل شىء .

حيث ١ ـ (أشارت إحدى الإحصائيات أن نسبة ٩٨٪ من مزارع البطاطا فى الاتحاد السوفييتى ملك للدولة ، وأن ٢٪ فقط تمثل ملكية خاصة ، وأن نسبة إنتاج هاتين الاثنتين فى المائة بلغت ٥٠٪ من إنتاج الاتحاد السوفييتى كله من هذا الغذاء .

٢ ـ أشار تقرير إحصائى آخر أنه درست نسبة إنتاج عدد معين من مهندسى الاتحاد السوفييتى وقورن بنسبة نفس العدد فى إحدى دول الغرب الرأسمالى فتبين أنه لايزيد على النصف ، الأمر الذى دفع مؤسسات الاتحاد السوفييتى من أجل أن يعطى أكثر!!

٣ ـ ليس اجراء لينين الشهير عام ١٩٢٤م ، بعد أقل من سبع سنوات على قيام الثورة الشيوعية ، والذى أعاد فيه نظام تمليك الأراضى ، بعد التدهور الشامل الذى شهده الاتحاد السوفييتى من جراء التأميم الكامل لوسائل الإنتاج ، ليس هذا الإجراء هو الأول والأخير بهذا الصدد .

٤ ـ عندما اتضح استحالة تحقيق الشعار الماركسى (من كل حسب طاقته) فى تجربة الماركسية ، فى روسيا وشرقى أوروبا استحدث النظام

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٣٥) ، وانظر (٣٧) .

(٢) انظر ماذكره ماندل عن ذلك الخوف مختصرا فى كتابه الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٣٨-٣٩) .

الشيوعى ماسماه بالحافز الفردى فى الإنتاج ، وهو نسبة فى زيادة العامل تعطى له سنويا حسب زيادته فى الإنتاج المقنن للمستوى المتوسط للعامل)[١].

وكذلك كان الوضع فى دول أوروبا الشرقية حيث تم السماح بالملكية الفردية بعد العجز عن تطبيق مبدأ القضاء عليها[٢].

إن الوضع السوفييتى كان مترديا مما يدل على أن القضاء على الملكية الفردية لن يحقق السعادة للناس . وهنا نقول لهؤلاء إن الملكية الفردية ليست هى سبب الشرور والآثام والاستغلال ، بل إن السبب فى الطريقة التعسفية التى استخدم بها الرأسماليون الملكية الفردية حيث جعلوها سببا فى احتكارهم واستغلالهم وظلمهم لطبقة العمال ، وهذا ليس لعيب فى الملكية ذاتها ، بل فى الفئة التى أساءت باسمها . والإسلام خير دليل على أن الملكية الفردية ليست سببا فى الظلم بل بالعكس داعية للعدل محققة له .

لقد أضحى مبدأ تطبيق الملكية الجماعية وكذلك النعيم الذى سيصل إليه الناس من خلال ذلك التطبيق كلاما نظريا لايصل حتى درجة الاهتمام به ، أو محاولة أخذه المأخذ الجدى للتطبيق ، وهذا فى كل المرتكزات الإقتصادية التى نادى بها الشيوعيون .

يقول الإقتصادى Ibenstein :

(إن الضعف الرئيسى والأكبر فى النظرية الماركسية أنها تحتوى على مبادىء ومثل عليا تتسم بالعدالة المطلقة وتكافؤ الفرص والفهم العميق لكبريات أو صغريات المشاكل التى تواجه الناس فى كل مكان . ومع ذلك فالنظرية نفسها ـ وكما ثبت فى كثير من الدول ـ تباعد بين هذه المثل العليا وبين الحقيقة)[٣].

---

(١) تهافت الفكر المادى التاريخى (٥٢-٥٣) ، د. محمد البهى ، الطبعة الثالثة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م ، مكتبة وهبة .

(٢) انظر مقال فى العدل الإجتماعى (٢٤-٢٥) .

(٣) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٨٣-١٨٤) .

رابعا : أقوال مشاهدى العيان الذين عاشوا فى ظل النظام الشيوعى حيث أوضحو التميز الطبقى الذى كان موجودا منذ اللحظة الأولى بعد تفجير الثورة البلشفية فهم أجدر الناس بوصف الوضع الذى عاشوه .

فذكر ليونهارد أن الأكل يكون حسب صنف البطاقة التى يحملها الفرد كما أن الإسكان كذلك ، بالإضافة إلى الطرود الخاصة لأعضاء الحزب[١].

تقول رايسا غورباتشوف : (خلال أعوامنا الأخيرة فى ستافروبول[٢] كان دخلنا الشهرى ستمائة روبل تدفع لزوجى بوصفه سكرتير اللجنة الإقليمية ، يضاف إليها ٣٢٠ روبلا تدفع لى بوصفى محاضرة ، وكان ذلك على وجه العموم دخلا جيدا فى تلك الأيام . أما حين أصبح سكرتير اللجنة المركزية فقد دفع له ٨٠٠ روبل شهريا ، وإذا لم أكن مخطئة فإن كل السكرتيرين والأعضاء المرشحين وأعضاء المكتب السياسى والسكرتير العام يتسلمون المبلغ نفسه فضلا عن ذلك كان هناك مبلغ يدفع لقاء الطعام مقداره ٢٠٠ روبل شهريا للسكرتيرين والأعضاء المرشحين و٤٠٠ روبل لأعضاء المكتب السياسى الثانى العضوية .

كان يسمح لنا باقتناء الكتب مجانا ، وكان رئيس الأسرة وزوجته يزودان بتنقلات مجانية على شكل سيارة وسائق . أما الشقة فكان إيجارها مجانا كما يمنح مبلغ معين لمصاريف الإجازات ، وقد سحبت كل هذه الامتيازات بما فيها استعمال البيوت الريفية التى تمتلكها الدولة .

وفقا لقرارات اتخذها مجلس ممثلى الشعب فى الاتحاد السوفييتى ، أصدر مجلس السوفييت الأعلى قرارا يتعلق بمرتبات رئيس جمهوريات الاتحاد السوفييتى وحمايته والخدمات اللازمة له ، وكذلك مرتبات رئيس مجلس السوفييت الأعلى ونائب الرئيس ورئيس الوزراء ، وقد خصصوا لرئيس الجمهورية راتبا يبلغ ٤٠٠٠ روبل شهريا ، فإذا أخذنا فى الاعتبار الضرائب

---

(١) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٧٠-٥٧٥) .

(٢) المدينة التى ولد بها غورباتشوف .

الحالية والمدفوعات الأخرى ، فذلك يعنى راتبا صافيا يبلغ ٢٥٠٠ روبل . وتقدم له أيضا مقرات إقامة فى منطقة موسكو والقرم وشقة رسمية فى موسكو ووسائل النقل الضرورية وطائرة معدة إعدادا خاصا مع هليوكوبتر . وعند تقاعد رئيس جمهوريات الاتحاد السوفييتى يتسلم راتبا تقاعديا يصل إلى ١٥٠٠ روبل شهريا ، كما يزود بداتشا تملكها الدولة مع الموظفين اللازمين والحرس الخاص ووسائل النقل)[١].

يقول ماندل : (لقد ذهبت فى العام ١٩٨٤م إلى موسكو كسائح عادى سعيا وراء إجابات ، وعام ١٩٨٥م ذهبت مجددا إلى لينينغراد ... وتبيليسى وسوخومى وموسكو (...) وماشاهدته هناك كان شديد الاختلاف عما وجدته فى رحلتى الأولى عام ١٩٧٠م خلال حقبة بريجنيف . لقد اتسعت التفاوتات الإجتماعية إلى حد لامثيل له فى السابق وظهرت بوضوح للعيان ، وبعلانية . كنت أسمع للمرة الأولى عن ال (Pogatye Lioudi) ـ رجال أغنياء ـ بل من أصحاب الملايين ، كما لو أن وجودهم فى بلاد السوفييت أمر طبيعى ، شبه ضرورى . وقد جاء لى من شرح لى ، بشكل جد طبيعى ، إن أبناء الأغنياء يدعون الأطفال المذهبون (Zolotyle Dietky) فيما يدعى أبناء غير الأغنياء (الفئران الرمادية) (Sieryie Kryssy) وكان لكل من المجموعتين محلات بيع اسطوانات مختلفة وبشكل خاص مستقبل مختلف محدد مسبقا)[٢].

وبعد هذا فليس من حق أحد أن يقول بأن هذا المبدأ ممكن التطبيق فإن ذلك يعد من إنزال المحال منزلة الممكن وأنى لهذه المعادلة أن تستقيم .

خامسا : أن الطبقة التى سيطرت على الأمر هى الحزب الشيوعى وأصبح الأعضاء يتميزون عن بقية أفراد الشعب فى كل صغيرة وكبيرة . وأصبحت مسألة إقامة طبقة البروليتاريا مكان كل الطبقات بعد القضاء عليها فرية .

---

(١) أملى (١٠٧-١٠٨) .

(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٤٤) .

(أ) **وجود الطبقة الأرستقراطية المتحكمة بالأمور كلها .**

يقول فارغا : (وبديهى أن هذه الأرستقراطية المتربعة على سدة السلطة بذلت كل مافى وسعها لتثبيت امتيازاتها الحقوقية الغير المقر بها ، بل حتى امتيازاتها المادية : وجود قانونى ضمنى يبيح لها استخدام ممتلكات شتى ، وبوجه خاص الممتلكات العائدة إلى الإدارة ، ويمكننا أن ندرج فى عداد هذه المزايا أجرا مرتفعا "ومغلفات" من اليد إلى اليد ، واقتناء سلع غذائية لايمكن العثور عليها فى المخازن والمتاجر ، ومطاعم خاصة ، وشققا واسعة ، وأحيانا مفروشة فرشا فخما ، وكذلك فيلات ريفية بحدائقها وأزهارها وملاعبها لكرة المضرب وأحواضها للسباحة ، علاوة على السيارات وسواق شخصيين ودارات استجمام فخمة)[١].

(ب) **كانت الطبقة الحاكمة تشكل فى الدولة الروسية طبقة بحد ذاتها سيطرت على مجريات الحياة .**

يقول دجيلاس : (كان من الطبيعى جدا ، أن تستخدم هذه الطبقة الجديدة أسلوب التضليل والخداع ، حين تدعى بأنها ستعمل ـ من خلال بسط سيطرتها ـ على توفير السعادة وتأمين الحرية لكافة المواطنين .. إلا أن مايميز الطبقية الجديدة للحزب الحاكم ، هو الأسلوب الجديد فى معالجة التخلف القائم فى المجتمع من خلال المنطلقات الوهمية لأفكارها ، من خلال الديكتاتورية والإرهاب على الشعب . ولقد أكدت هذه الطبقة الجديدة ، أنها أكثر تسلطا فى الحكم من أية طبقة أخرى ظهرت على مسرح التاريخ ، كما أثبتت فى الوقت نفسه بأنها تحمل أعظم الأوهام ، وأنها تكرس أعتى أساليب الظلم فى مجتمع طبيعى جديد .

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٥٤) ، وانظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف وذكر أن توزيع المغلفات ألغى عام ١٩٥٦م فى عهد خروشوف وأوجد نظاما آخر يجعل متاجر خاصة وموزعين متخصصين حتى يستطيع كبار الموظفين شراء السلع بأثمان زهيدة أو مجانا .

أما الطبقة الجديدة فهى البيروقراطية وبعبارة أوضح يمكن تعريفها ببيروقراطية السياسة الحاكمة ، وتضم هذه الطبقة الكثير من طبائع ومميزات الطبقات السابقة الأخرى ، بالإضافة إلى طبائعها ومميزاتها الذاتية الجديدة)[١].

ويقول : (إن الاعتقاد السائد لدى الطبقةالجديدة بأن أى خرق لسلطتها الاستبدادية ، قد يشكل خطرا على ملكيتها وامتيازاتها ، يجعلها تعارض بشدة أى شكل من أشكال الحرية ، بحجة الدفاع عن الملكية "الإشتراكية" وصيانتها .

إن توجيه الانتقادات إلى الطبقة الجديدة بسبب إدارتها مقدرات الأمة إدارة احتكارية ، يثير لديها بالغ الخوف من احتمالات فقدانها السلطة ، ولذا فإنها تنفعل بشدة من هذه الانتقادات والمطالب ، بقدر ماتسلط هذه الانتقادات الأضواء على مظالم الطبقةالجديدة وتفضح الطرق التى تتبعها فى الحكم ، والوسائل التى تعتمدها للاحتفاظ بالسلطة . ويبرز التناقض الهام والخطير فى نطاق الملكية ، فالممتلكات تعتبر من وجهة النظر القانونية أملاكا عامة قومية ، إلا أن فئة بيروقراطية صغيرة هى التى تقوم بإدارتها بما يتفق مع مصالحها الخاصة)[٢].

(ج) إن هذه الطبقة كان لها الامتيازات فى أدق الأمور الإجتماعية والمعيشية مما يدل على وجود الطبقية وتفشيها فى المجتمع السوفييتى .

وهذه الطبقات (مفضل بعضها على بعض فى الدخل وفى الحقوق ، على نحو شديد الوضوح ، بل إن من مظاهر هذا التفاضل الطبقى اختلافات فى الأزياء والشارات والرموز الحربية ، والملاحظ أن أفراد الطبقة الممتازة - فى المجتمع الشيوعى - يتمتعون بمزايا لايشاركهم فيها غيرهم من أفراد الطبقات الأخرى ... فهم - بما يملكون من سيارات ومغان (فيلات) خاصة ، وبما

---

(١) الطبقةالجديدة (٥٤-٥٥) .

(٢) المرجع السابق (٩١-٩٢) ، وانظر (٧٦-٧٧) .

لديهم من خدم وحشم وحرس مسلح ، ومايحصلون عليه من خدمات الأطباء الخصوصيين ، وبما يظفرون به من المزايا التعليمية لأولادهم - يتمتعون بمكانة خاصة وامتيازات مادية هى المكانة الخاصة والمزايا المادية التى تستأثر بها الطبقات الأرستقراطية فى البلاد الأخرى . وهم - على هذا الأساس - على بعد بعيد من أفراد الشعب ، ثم إنهم يعدون أنفسهم غير مسؤولين أمام المواطنين العاديين ، بخلاف الحال بالنسبة لنظرائهم فى البلاد الديمقراطية .

وهكذا يتأكد أن الدخول الحقيقية متفاوتة جدا فى الطبقات الشيوعية ويعضد هذا الاستنتاج أن أبناء الطبقة الدنيا من سكان المدن قل - فيما يردد بعض الدارسين - أن يروا اللحم والبيض ومنتجات الألبان التى هى جزء أساسى دائم من طعام الطبقة العليا .

على أنه من المسلم به إجتماعيا أن الطبقات ظاهرة إجتماعية لايمكن انعدامها ، وهى فى هذا كاللغة والدولة والنظام الإقتصادى ...الخ والواقع أن الناس ليسوا سواء فى قدراتهم الذهنية أو الجسدية أو النفسية ، وقد فرض الله العزيز الحكيم اختلافات بين الافراد لاقبل لأحد بمنعها ، وإنما الذى يجب مقاومته هو أن تصبح هذه الاختلافات ذريعة للتمييز والاحتكار وتحطيم العدالة ؛ بمعنى أن تستمتع طبقة معينة بفرص إحراز المال والجاه والعلم والمناصب وسائر أسباب الرفاهية لمجرد أنها طبقة عالية موسرة ، وتحرم - فى الوقت نفسه - طبقة أخرى من هذه الفرص ، لمجرد أنها طبقة خفيضة فقيرة والذى تجب إسلاميا مقاومته هو أن يحرم - لمجرد التفاوت الطبقى - الأفراد المتكافئون فى مختلف القدرات من الفرص المتكافئة التى تتيح استثمار الحياة إلى أبعد مدى)[1].

---

(١) الشيوعية فى موازين الإسلام (٨٣-٨٥) .

وكان لهذه السيطرة من قبل السلطة السوفيتية (الحزبية) آثارها السلبية الطبقية .

فكانوا يهتمون بتنمية المجالات التى يحصلون من خلالها على السلع والخدمات الاستهلاكية . أى مداخيلهم ومنافعهم الخاصة ، ويتناسون ولايهتمون برفع مداخيل المنشآت فيحصل بذلك تفشى السرقات والغش والسوق السوداء ...الخ[١].

٢ ـ يقول مارك بوبوفسكى :

(أصبحت الرتبة العلمية والوظيفة تحددان بصرامة مستوى حياة الباحث العلمى . وأدى ذلك إلى إنهيار فجائى للثقة بين الناس ، وراح العلماء الذين يميلون أصلا إلى الاتصال بزملائهم فى الفرع نفسه ، يحددون اتصالاتهم بالأفراد الذين ينتمون إلى مستواهم الإجتماعى وحسب ...)[٢].

٣ ـ وجود المحلات التجارية الخاصة التى تدل على وجود النظام الطبقى ، إذ أن هذه المحلات خاصة فى فئة من الناس .

يقول النمر : (وهناك محال أخرى خاصة لبيع الأطعمة بأسعار مخفضة مخصصة للمارشالات، والأدميرالات ، ولكبار العلماء ، ورجال القضاء ، والمديرين الإقتصاديين ، والأبطال الحاصلين على الأوسمة من العمال الإشتراكيين ، وللكتاب الحائزين على جائزة لينين ، والممثلين أو راقصى الباليه ، ولكبار الصحفيين فى (برافدا ، وازفستيا) أو غيرهما من المطبوعات الهامة ورجال الطبقة الحاكمة لمدينة موسكو .

ولجهاز اللجنة المركزية ثلاثة مستويات من المسئولين والموظفين ـ كما قال لى أحد من يتصل عملهم باللجنة ـ وهؤلاء يتسوقون مشترياتهم من ثلاثة محال مختلفة بثلاث درجات متفاوتة ، ويتناولون طعامهم فى (كافتيريات) بداخل مقر الحزب محددة بدقة حسب النظام المقرر .

---

(١) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٨٢) وانظر (٨٨) .

(٢) المرجع السابق (٩٦) .

أمـا أصحـاب المنـاصب المتـوسطة فى الحزب ، والـوزارات الـرئيسية والهيئات العامة للقوات المسلحة أو البوليس السرى فلـديهم محال (متوسطة المستـوى) نسبـة السلع الكمـالية فيهـا أقل ، لكن مايدفعـونه فيهـا أكثر مما يدفعه الرؤساء الكبار)[١].

(وفى كثير مـن الوكالات الحكومية يحصل كبار المسئـولين على مايعرف باسـم "توزيع خاص" وهو فى حقيقتـه بطاقات تمنحهم حق الشـراء مـن محال خاصـة مـوجودة فى مشارف العـاصمة . وقـد قال لى أحد البيروقـراطيين أن لكـل مسئول من هؤلاء المسؤولين حصة معينة من المال يمكنـه إنفاقها فى هذه المحلات ، وهـذه الحصـة مسجلـة فى بطـاقته الشخصية ، وتحدد قيمتهـا وفقـا لرتبته ، وتحاط قيمة هذه الحصص بالسرية بالنسبة للموظفين من أتباع هؤلاء المسئولين)[٢].

(وفى الطـابق الثـالث مـن مبنى (ج ر م) أكبر محلات بيـع البضـائع والسلع فى سوق موسكو التجارية قسم معروف باسم (القسـم ١٠٠) يتخصص فى بيع الملابس الأنيقة للطبقة المختارة) .

(وفى الطابع الأرضى من مبنى "الجيش والبحرية" فى شارع كالنين محل سرى لبيع سلع للضباط)[٣].

(ولطائفة أخرى من طوائف المجتمع السوفييتى المحظـوظة ثمانية محلات خاصـة تتعامل بالعملة الصعبة فى موسكو ، ويستطيع الـروس الذين يحملون (شهـادات الروبل) أن يشتروا منهـا البضائع المستوردة أو السلـع السـوفيتية النادرة بأسعار مخفضة .

(شهـادات الـروبل) هذه عملـة خاصـة تمنح فى العـادة لأولئـك الذين كسبـوا مـالا مـن عملهـم فى الخارج كـالدبلوماسيين أوالصحفيين المعتمـدين

---

(١) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٩٣) .
(٢) المرجع السابق (٩٣) .
(١) المرجع السابق (٩٣) .

والشعـراء وأمثالهم ، وهو مالابد لهم من أن يحولـوه إلى عملة سوفيتية)[١].

ومـن أبرز الرموز (للامتيـازات هى السيارات الليمـوزين التى يقودها السـائقون للزعماء ، بستائرها الرمادية المسدلة على نوافـذها لتحول بين المارة وبين معرفة من فيها من الشخصيات البارزة هذه السيـارات تجرى فى منتصف الشـوارع بينمـا رجال البوليـس يفسحـون لها الطريق ويشيرون إلى وسـائل النقل الأخرى بالتزام النواصى)[٢].

٤ ـ الخصـوصية حتى فى الأفلام التى يشـاهدها أعضـاء الحزب فلم تكـن تعـرض إلا لفئـة قليلة ، حتى أن ستـالين لم يكن يقضى نهمـه إلا فى الأفلام الأمريكية والأوربية وخاصة (الكاوبوى)[٣].

والفن الروسى لايخرج عن خدمة أفراد الحزب .

حيـث (يتضمن القيم الخاصة بطبقة ما . والفنانون المتمـردون الثائرون على قيم الطبقـة الحاكمـة قـد يتعـرضون للمصادرة والتشـريد . ومـن ثم فإن بعضهـم يلجأ أحيانا إلى برج عـاجى يمكنه من الامتنـاع عن التعاطف مع قيم الطبقة الحاكمة دون أن يتعرضوا لخطر القمع أو المصادرة)[٤].

٥ ـ ونظـرا لتمتع الطبقة الحاكمة بالنوعية الخاصـة من السيارات ، فقد وصـل الأمـر إلى أن يجعلـوا طـرقا خاصـة لاتسير فيهـا إلا سيـارات أعضـاء الحزب[٥].

٦ ـ يقول النمر : (نقلت لنا البرقيات حين احتفل ستالين بزواج ابنته كيـف كـان احتفالا مثل احتفـالات الملـوك والأباطرة ، كمـا نقـل لنا الذين زاروا روسيا أو تنقلوا فى أرجائها ، وعرفوا الحياة فيهـا كيف تتفاوت الحياة بين الروس تفاوتا كبيرا ، فالقادة والزعماء يعيشون فى ترف ومتعة وبذخ فى

---

(١) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٩٤) .
(٢) المرجع السابق (٩٧) .
(٣) انظر ستالين (٢٦٩) .
(٤) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (١٣٩) .
(٥) انظر الماركسية بين النظرية والتطبيق (٩٩) .

قصورهم ومصايفهم وربما لايحظى به كثير من قادة الدول الرأسمالية وزعمائها ، بل الفنانون هناك والأدباء يغرقون فى الترف إلى أذقانهم ، بل إلى أعلى رؤوسهم ، وأظن أن الأمر ليس كذلك بين العمال والفلاحين!! وربما ليس كأمثالهم فى الدول الرأسمالية)[١].

إلى غير ذلك من المميزات التى اختص بها رجال الحزب دون غيرهم فى جميع مرافق الحياة وبدون استثناء مما يدل على أن مبدأ إلغاء الطبقات أبطله الواقع السوفييتى وبالتالى حكم على النظرية الماركسية بالفساد .

سادسا : قامت فكرة إلغاء الطبقات من أجل الإبقاء على طبقة واحدة هى طبقة البروليتاريا ولكن واقع الاتحاد السوفييتى دل على أن أقل الطبقات استفادة من الفكر الشيوعى هى طبقة العمال ، وكانت المميزات الحقيقية لأفراد الحزب دون غيرهم .

ونلمح الآن بشىء عن الطبقة التى قامت من أجلها الشيوعية كما زعم أصحابها .

(أ) إن مايحدث فى الاتحاد السوفييتى يناقض هذا المبدأ ، ويوجه إلى الشيوعيين هذه التساؤلات .

(هل المجتمع الروسى اللاطبقى يسير وفق المنهج التدريجى ، أم هو سائر وفق قانون "القفزات"؟!

ولو كان أمرهم تدريجيا فما طول هذا التدريج؟ وإن كان الأمر (قفزا) ، فما هذا القفز الذى لايكاد يعبر بوابة الإرتقاء؟!

لقد قفزت روسيا من عصر الرأسمالية إلى عصر الجمهورية فى ثمانية أشهر لاغير ، أما مسيرتهاللتحول من المجتمع الطبقى إلى المجتمع اللاطبقى ، فلايكاد يكفيها قرن كامل ؛ ولعل هذا من أغرب وقائع التاريخ البشرى!!)[٢].

---

(١) إسلام لاشيوعية (٨٢-٨٣) .
(٢) سقوط الماركسية (٧٧) .

(ب) يقول جيد :

(إن معظم الطبقة الكادحة فى الأنظمة الشيوعية يعيشون تحت الفاقة وينظر إليهم من قبل أعضاء الحزب باشمئزاز وازدراء كأنهم يمثلون الفاحشة الأثيمة الناشئة فى أحضان الإجرام!!)[١].

(ج) إن (الواقع السوفييتى أثبت أن الطبقة المختارة الآن ، ليست طبقة العمال ، وإنما هى طبقة موظفى الحزب الشيوعى ، ورجال الإدارة وغيرهم من الأفراد الذين يتمتعون بحظوة عند الدولة . حتى أن المنتجعات ودور الاستراحة (المصايف) لايستطيع العمال أن يصلوا إليها إلا بدفع أثمان باهظة لاتساعدهم عليها ميزانياتهم الضئيلة ، أما الاستفادة من هذه الأماكن بالمجان فلايسمح بها إلا لحوالى واحد بالمئة فى العام الواحد عدا الطبقة ذات الحظوة طبعا طبقة موظفى الحزب الشيوعى)[٢].

سابعا : ثم يقال لهم إذا كان الصراع الطبقى يختفى من المجتمعات الإشتراكية فلماذا حدث (الصراع بين روسيا ويوغوسلافيا؟! ولماذا خرج عمال المانيا الشرقية على موسكو فداستهم الدبابات الإشتراكية؟! ولماذا يرفض الشعب البولندى والمجرى الإنضمام إلى (الأخوة الروسية)؟ ولماذا هذا

---

(١) نقلا من كتاب شهادتى للتاريخ (٢٣٤) .

(٢) إشتراكيتهم وإسلامنا (٥٨-٥٩) .

ولمزيد عن وضعية العمال والوضع الذى هم فيه نتيجة انفراد الحزب الشيوعى بكل شىء انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٨٣) ومابعدها .

(وفى وصف البيت الذى كان يعيش فيه خروشوف على ضفاف البحر الأسود ومافيه من حمام للسباحة لايتكرر فى أماكن أخرى فى العالم إلا قليلا ، وفى وصف عدد السيارات الفارهة الفاخرة التى كان يقتنيها بريجنيف فى كل ذلك رد على دعاوى الشيوعية الباطلة) . حاضر العالم الإسلامى (٦٥) .

ولمزيد من المعلومات انظر : شهادتى للتاريخ (٢٣١) ، الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٢١٣) ، لاللرأسمالية .. لاللماركسية .. نعم للإسلام (١١٥،١٨٢) ، وسقطت الماركسية (٢٠) .

الصراع بين الصين وروسيا؟! وهذا يدل على أن سحر الأخوة الإشتراكية ليس إلا عبودية حديدية ، وماأن ترتخى القبضة الحديدية حتى تجرى الشعوب المستعبدة للفكاك والفرار منها)[١].

ثامنا : أن هذا المبدأ يدل على تناقض الشيوعية فهم يقولون بإلغاء الطبقات ثم يبقون على طبقة واحدة يكون بيدها الأمر ، وهى طبقة العمال ومع ذلك سيظل هناك طبقة أخرى حيث ستكون معدمة حالها حال البؤس والشقاء وبالتالى يقع الصراع بينهما .

تاسعا : أن الصراع الطبقى يأخذ أشكالا أخرى ، فمثلا جميع طبقات مجتمع أو شعب تصارع ضد جميع طبقات شعب آخر ، وعلى هذا فإن الصراع الطبقى داخل المجتمع الواحد قد يتناسى أو يزول خاصة عندما يكون الصراع مع عدو خارجى ، ومع ذلك فإن زواله من هذا المجتمع لم يقم على الصراع والمواجهة بل اقتضت ضعفه الظروف .

يقول بودان : (إن ماركس قد غالى فى إبراز الصراع الطبقى داخل الأمة الواحدة ، وبذلك أهمل العوامل التى تلطف من حدة هذا الصراع وعلى رأسها اندماج أفراد الطبقات المتصارعة فى إنسانية واحدة)[٢].

عاشرا : أن هذا التفاوت بين أفراد الشعب السوفييتى وانقسامه إلى عدة طبقات كان له أكبر الأثر فى تدهور الأوضاع الإجتماعية ، وكذلك النقمة على هذا الفكر ومحاولة الخروج عليه . يقول ماندل :

(ثمة تداخل أكيد لا بل صلة سببية لامجال لإنكارها بين الأزمة الإقتصادية وتدهور الوضع الإجتماعى ، ونمو التفاوتات وشعور المواطنين بأنهم يتلقون نتائج الظلم الإجتماعى وانعدام شرعية البنى السياسية وفعاليتها)[٣].

---

(١) سقوط الماركسية (١٠٩) .
(٢) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٨٢) .
(٣) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٤٩) .

ويقول الدلال : (إن الشعب فى الاتحاد السوفييتى قسمان : (حزبى ولاحزبى . الأول له امتيازات لايحصل عليها الثانى . إذن اللاحزبى سيحقد على الحزبى ، والحزب أقسام كثيرة تبدأ من النصير إلى الملتزم مرورا بالتدرج الحزبى إلى اللجنة المركزية إلى رئاسة الحزب .

كل ذى رتبة حزبية له حق الآمرية على من هو دونه رتبة فى الحزب وفى كثير من الحالات يسخره له بما يشاء ، وترى كل مرتبة تحقد على من فوقها!! وهذا رأيناه بأم أعيننا ولم يحدثنا به أحد!! إن المحصلة لكل ذلك هى تعاظم الكبت الذى يؤدى إلى الانفجار ، حتى إذا مالاحت الفرصة للتعبير عن ذلك انطلقت الحمم فى كل اتجاه . داخل الحزب وخارجه ، ولكن انطلاقها خارج الحزب أشد لأنها أوسع شعبية ، ولأن الجماهير أكبر إحساسا وتألما بالظلم وعدم المساواة . لقد وقع ذلك فى الاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشرقية فسارت الجموع تصرخ بلاوعى وبوعى ، وكأنها خرجت من قمقم ، أين الضابط فى هذه المسألة؟ ماهى العدالة التى تحقق المساواة وترفع الظلم؟ إنها العدالة المتساوقة مع السنن الربانية)[١].

والنظام الذى يتساوق مع السنن الربانية هو الإسلام الذى لايضيره بقاء هذه الطبقات ، ولكنه لايجعلها مصدر ظلم أو تفاضل ، فالإسلام يحرص على المساواة والعدل ، ومنع الظلم ويقيم العلاقات الحسنة بين الحاكم والمحكوم ، والغنى والفقير ، والسيد والعبد ، والتفاضل إنما هو بالتقوى . قال تعالى : {**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**}[٢].

الحادى عشر : أن التفاوت الطبقى أمر واقع ملازم لطبيعة الإنسان لتفاوت هذه الطبيعة فى الإمكانيات والقدرات المادية والعقلية ، فالقضاء على هذا التفاوت أمر غير ممكن فتلك سنة الحياة ، فالبشر ليسوا كلهم سواء كما تفترض الشيوعية . فيتفاوتون فى المواهب والمزايا الخاصة ، ويتبع ذلك الثروة والمال قال تعالى : {**أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم**

---

(١) الإنهيار (١/٣١-٣٢) .
(٢) سورة الحجرات : (١٣) .

فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا}[١].

ومن هنا يبدو استحالة تحقق هذا المبدأ فى المجتمع[٢].

وهذا لايدل على أن الفروق الذاتية يعول عليها فى دين الله تعالى لا بل الإسلام يعتبر الناس سواسية وأكرمهم أتقاهم لله ، بغض النظر عن وضعه وثروته ، فالإسلام يقر هذا التفاوت ولايحكم على الفضل من خلاله .

فهم سواسية كأسنان المشط . يقول صلى الله عليه وسلم : "إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون على الشريف والذى نفسى بيده لو فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها"[٣].

ومع ذلك لايفرض المساواة الكاملة بين الناس فى الدخول ، كيف وهم لايتساوون فى الاستعدادات الجسمانية والعقلية والنفسية . قال تعالى : {**والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون**}[٤].

ثم إنه يجعل التمايز فى الدخول ابتلاء واختبارا {**وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم**}[٥])[٦].

الثانى عشر : ثم يقال ماهو الدافع الذى ذكره ماركس لتقسيم المجتمعات إلى طبقتين متصارعتين . إنه الإقتصاد مع أن هذا لايسلم فإن هذا الصراع الطبقى قد يكون سببه الإقتصاد ، وقد يكون سببه السياسة ، وقد

---

(١) سورة الزخرف : (٣٢) .
(٢) انظر : إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (١٨١) ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٨٩) .
(٣) البخارى بفتح البارى (٨٦/١٢) كتاب الحدود ، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع .
(٤) سورة النحل : (٧١) .
(٥) سورة الأنعام : (١٦٥) .
(٦) انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٨٩) .

يكون سببه الدين ، وقد يكون سببه الجيش[١].

الثالث عشر : أن ماركس قد اعتبر هذا الصراع صراعا ثوريا عنيفا بين العمال والرأسماليين ، ولكن هذا غير صحيح ، فإن الواقع المشاهد يدل على أن العامل فى النظام الرأسمالى قد حقق الكثير من حقوقه السياسية والإقتصادية والإجتماعية .

الرابع عشر : أن التاريخ عرف صراعا غير ماذكره ماركس ، فالتاريخ يبين لنا أن الصراع داخل الطبقات لايبدو دائما صراعا بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا . ففى بريطانيا مثلا نجد الطائفة العالية الماهرة من الطبقة العاملة Skilled Workmen كثيرا ماتقوم بمقاومة مطالب جمهور صغار العمال ، وكثيرا مايكون الصراع بين العمال وأرباب العمل من جهة ، وبين المستهلكين الذين يشكون ارتفاع أسعار الحاجيات من جهة أخرى ، كذلك الصراع بين القوميات أو مختلف الأمم[٢].

ويضاف إلى ذلك الصراع بين رجال الصناعات وأصحاب الأملاك الزراعية ، فهذا الصراع يبدو فى صورة نزاعات برلمانية بين حزب المحافظين والأحرار فى بريطانيا مثلا . فكل منهما يعمل على حمل البرلمان الانجليزى الموافقة على قوانين ضد مصالح فريق الحزب الآخر ، وذلك لصالح الطبقة العاملة ليكسب تأييدها ، وفات ماركس الصراع الشديد بين الدول الرأسمالية بسبب المنافسة الخارجية حول المستعمرات (مناطق النفوذ)[٣].

فهذا الأمر الأول المتعلق بإلغاء الطبقات وإقامة طبقة البروليتاريا وقد تبينا بطلانه وعدم تحققه ، بل إن الواقع السوفييتى كان من أكثر المجتمعات البشرية فى هذا العصر طبقية ولاغرابة لوجود الدكتاتورية والتسلط .

---

(١) انظر الإسلام ومبادىء نظام الحكم (٢٣٠) ، د. عبد الحميد متولى ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٣٣-٢٣٤) .

(٣) انظر المرجع السابق (٢٣٤-٢٣٥) .

وبذلك ينهار هذا المبدأ ويتبين فساد النظرية الماركسية ، لأن ماركس عول كثيرا على هذا المبدأ .

ويرى الشيوعيون أن القضاء على الطبقات سيؤدى إلى تحقيق المساواة بين الناس . ونأتى لبيان بطلان ذلك الزعم .

ثانيا : المساواة نقض دعواهم :

ومن الأمور التى قالت بها الشيوعية تحقيق المساواة ، فإذا زالت الطبقات من المجتمع عاش الناس سواسية ، ولن تتحقق هذه المساواة إلا إذا تم القضاء على الملكية الفردية التى هى سبب الشرور والظلم كما زعم الشيوعيون ، ويرون أن المساواة تنصرف بادىء ذى بدء إلى الأجور ، حيث أعلنوا أنه لابد من التساوى فيها ، وأشار لينين إلى أنه ينبغى أن ينظم الإقتصاد الوطنى : (على أن لاتزيد رواتب الخبراء الفنيين والمراقبين والمحاسبين ، شأنهم شأن جميع الموظفين ، عن "أجرة العامل" ، وذلك تحت رقابة وقيادة البروليتاريا المسلحة ـ هذا هو هدفنا المباشر)[١].

إن قضية المساواة فى الأجور وغيرها أمر يتعارض مع الفطرة الإنسانية وبالتالى فلايمكن تحققه وهو زعم باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن هذه النظرية تعارض الفطرة الإنسانية حيث إنها (تصادم الطبيعة البشرية المتفاوتة بين الناس فى الحلقة ، وفى القوى والخصائص ، التى ركب الله عليها الإنسان ، فإن الناس خلقوا مختلفين فى عقلياتهم ، وعواطفهم ، وإحساساتهم ، وتركيب أجسامهم ، والقوى المادية التى يتمتعون بها ، وإنتاجهم ، فكيف إذن نريد أن نسوى بينهم فى كل شىء وقد خلقهم الله متفاوتين؟)[٢].

---

(١) الدولة والثورة (٥٣) .

(٢) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٨٣) .

الوجه الثانى : أن فى هذه الدعوة فتحا لباب الكسل حيث يستلزم (إما تقليل جهود المجدين ، وإما اقتطاع الجزء الذى يزيدون به على الخاملين . وكلا الأمرين غير سليم ، لأن تقليل جهود المجدين يفوت على الأمة ربحا مؤكدا ، ويقلل الإنتاج فيها ، وأما اقتطاع الزائد من دخلهم فهذا يضعف رغبتهم فى العمل ، وليس هذا من العدل فى شىء)[١].

ونتيجة لمحاولة تطبيق هذا المبدأ شاعت روح الخمول والكسل فى الدولة السوفيتية (وشعر المسؤولون بنقص الإنتاج يهدد الدولة بالمجاعة والإنحلال ، ولم ينفع معه إشراف ولاإرهاب ، مما جعل ستالين يقرر هذا فى صراحة فى مؤتمر عقد سنة ١٩٣١م لرجال المال والإقتصاد المشرفين على الإنتاج فى البلاد ويقول : "إن سير التقدم قد تعثرت خطاه نظرا للطريقة التى يسير عليها العمال من إهمال وتكاسل" .

وأرجع ستالين ذلك إلى فكرة المساواة فى الأجور التى انقلب عليها بعد أن قامت الدولة على أساسها ويقول : "إذا أردنا المقدرة الصناعية فلابد أن يكون الأجر على درجات تحدد الفروق بين العامل الحاذق وغير الحاذق تحديدا دقيقا ، ويجب أن يرفع الأجر لابحسب حاجة العامل ، بل بحسب ماأتم من عمل" .

وفى سنة ١٩٣٤م قال : "إن هؤلاء القوم يحسبون أن الإشتراكية تستلزم المساواة فى مطالب العيش لكل فرد من أفراد المجتمع ، ألا ماأسخفه من رأى يخرج عن فكرة مهوش شتيت ، إن المساواة التى نادوا بها أضرت صناعتنا أكبر الأضرار)[٢].

لقد رأى العمال فى الاتحاد السوفييتى (أن نتيجة العمل واحدة ، فالمجتهد مثل الكسول فى الأجر والذى يفنى زهرة حياته وعصارة أفكاره ، كالذى يعمل عملا بسيطا لايبذل فيه أى مجهود . والنتيجة واحدة مادام

---

(١) حكم الإسلام فى الإشتراكية (٦٩) ، وانظر الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (١٧٣) .

(٢) نقلا من كتاب الماركسية بين النظرية والتطبيق (٨٤) .

الكل يأخذ حسب حاجته ، وإن لم يعمل مايتناسب مع هذه الحاجة!!

فهل ينتظرون من مثل هذا المجتمع الذى يظله هذا المبدأ أن يعمل ويجد؟! إن الذكى يجد نفسه كالغبى ، وربما أقل ، والعملاق كالقزم ، وربما أسوأ ، فهل تنتظر من الذكى أو العملاق أن يستغل ذكاءه وقوته فى خدمة الدولة؟ كلا!! إن الدولة كلها لتسير فى هذه الحالة بقوة أضعف وأغبى رجل فيها ، وسوف تفقد الكفايات ، وتفقد العمالقة ، ويموت فيها العباقرة . ولاغرابة فى هذا ، فالقانون الذى يصادم الطبيعة البشرية هو الذى يسود ويتحكم فى الناس)[١].

الوجه الثالث : أن واقع الاتحاد السوفييتى يدل على وجود التفاوت الشديد فى الدخول .

فمثلا (طبقة المفكرين وعددها نحو ١٣٪ من السكان ولها نحو ٣٢٪ من دخل الدولة وطبقة الصناع ولها من الدخل القومى ٣٢٪ وطبقة الزراع وعددها ٥٤٪ ، ولها من الدخل ٣٢٪ ، وطبقة المسخرين الذين لم يرضوا بالشيوعية وعددها ٩٪ ولها من الدخول ٣٪ . لقد عجز الشيوعيون عن تطبيق المساواة فى المال ومايزال الناس كما أراد الله لهم متفاوتين فى الدخول ، منهم الغنى والفقير والمكثر والمقل ...)[٢].

وبالتالى فإن الفوارق فى المجتمع الشيوعى موجودة كوجودها فى المجتمع البورجوازى أو أشد[٣].

ثم إن مبدأ المساواة لايمكن تطبيقه مع وجود الملكية الفردية!! والشيوعية ومنذ سنواتها الأولى أقرت جوانب عديدة منها ، وهذا الإقرار وإن كان جزئيا ينفى أن يكون مبدأ المساواة ممكن التحقق فى عالم الواقع .

---

(١) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٨٤) .

(٢) الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (١٧٢-١٧٣) ، وانظر : الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٥٦) ، الإنسان بين المادية والإسلام (١٣١) ، وذكر أن طبقة المهندسين لها امتيازات خاصة عن غيرها .

(٣) انظر أسس الإقتصاد (٨٥) .

الوجه الرابع : أن الواقع يرفض تطبيق هذا المبدأ نظرا لتفاوت الناس فيما بينهم فى أمور كثيرة فهى دعوى زائفة لايمكن تطبيقها .

يقول اليكس كاريل : (وهناك غلطة أخرى تعزى إلى اضطراب الآراء فيما يتعلق بالإنسان والفرد ، وتلك هى المساواة الديمقراطية ... إن هذا المذهب يتهاوى الآن تحت ضربات تجارب الشعوب ، ومن ثم فإنه ليس من الضرورى التمسك بزيفه . إلا أن نجاح الديمقراطية قد جعل عمرها يطول إلى أن يدعو للدهشة . فكيف استطاعت الإنسانية أن تقبل مثل هذا المذهب لمثل هذه السنوات الطويلة؟ إن مذهب الديمقراطية لايحفل بتكوين أجسامنا وشعورنا.. إنه لايصلح للتطبيق على المادة الصلبة وهى الفرد .. صحيح أن الناس متساوون ، ولكن الأفراد ليسوا متساوين ، فتساوى حقوقهم وهم من الأوهام .. ومن ثم يجب ألا يتساوى ضعيف العقل مع الرجل العبقرى أمام القانون ... كماأنه لاحق للأغبياء المجردين من الذكاء ، ومشتتى العقل غير القادرين على الانتباه أو بذل الجهد ، فى الحصول على التعليم العالى ... ومن خطل الرأى أن يعطوا قوة الانتخاب نفسها التى تعطى للأفراد مكتملى النمو ... كذلك فإن الجنسين لايتساويان ، فإهمال انعدام المساواة أمر خطر جدا .. لقد ساهم مبدأ الديمقراطية فى إنهيار الحضارة بمعارضته نحو الشخص الممتاز ... إذ من الواجب احترام مبدأ عدم تساوى الأفراد ، صحيح ، أن المجتمع العصرى بحاجة إلى القوى والصغير والمعتدل والمتوسط ولكن يجب ألانحاول تربية الطبقات الأسمى بنفس الوسائل التى نستخدمها فى تربية الطبقات الأسفل .. لقد أدت مساواة الناس طبقا للمثل الأعلى للديمقراطية إلى تغلب الضعفاء ففى كل مكان يفضل الضعفاء على الأقوياء ولهذا يتلقون كل مساعدة وحماية ، وكثيرا مايكونون موضع الإعجاب وهم ، كالمريض والمجرم والمجنون يستدرون عطف الجمهور .

إن مبدأ المساواة ، وحب الرمز ، واحتقار الفردية مسئولة إلى حد كبير عن إنهيار الفردية ، ولما كان من المستحيل الارتفاع بالطبقات الدنيا ، فقد كانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق المساواة الديمقراطية بين الناس هى

الانخفاض بالجميع إلى المستوى الأدنى . وهكذا اختفت الشخصية)[١].

إن التطبيق الفعلى لهذه المساواة ترفضه فطرة الإنسان إذ أن كل إنسان له من الرغبات والميول مايختلف عن الآخر . يقول الجنيدل : إن (هذه المساواة التى يلهجون بها لاوجود لها من الناحيةالتطبيقية ، بل هى مجرد أوهام زينتها أفكارهم الآسنة ، وذلك أن الله لما خلق البشر جعلهم يتفاوتون فى القوى الجسمية والاستعدادات العقلية ، وهم فى الوقت نفسه يتفاوتون فى إشباع حاجاتهم . فالمساواة بينهم مستحيلة الوقوع لوفرضنا جدلا أن الدولة تستطيع أن تساوى بين الأفراد فى حيازة المال والسلاح فإنها لايمكن أن تساوى بينهم فى فطرة كل منهم واستهلاكه فبعضهم يستنفده وبعضهم يختزنه وهكذا وهذه إرادة الله فى خلقه فى التفاوت بينهم)[٢].

الوجه الخامس : اعترافهم بأن من أسباب التأخر والتكاسل وقلة الإنتاج ورداءته مبدأ المساواة ، ومر معنا قول ستالين ورفضه لهذا المبدأ[٣].

وجاء فى كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة عن الشيوعيين قولهم :

(لاينبغى أن يفهم من ذلك أننا نهدف إلى خلق جيل من المواطنين يتساوون إقتصاديا فى كافة الأمور ، فالمساواة التامة تهدر الطبيعة بين الناس والناس مختلفون فى قدراتهم الإنسانية وبالتالى يختلفون فيما تعكسه هذه القدرات من آثار على كل منهم ، فالمساواة لاتهدف إلى طبع الناس جميعا بطابع واحد ، ورسمهم بصورة متشابهة تماما .

وإنما المساواة الحقة هى حماية الفوارق الطبيعية بين الناس ، ومصادرة الحواجز البيئية المصطنعة . ومعنى هذا أن تقوم الحياة المادية فى ظل الإشتراكية على أساس تذويب الفوارق المادية بين الطبقات وانعدام الإنقسامات الإقتصادية التى تحول دون إنطلاق القوى الفردية الخلاقة ،

---

(١) الإنسان ذلك المجهول (٣٠٦-٣٠٧) .
(٢) التملك (١٤١) .
(٣) راجع (١٠٥٩) .

وبروز الكفايات الطبيعية والاستعدادات الفنية والعقلية بين الجماهير)[١].

الوجه السادس : الاختلافات الشديدة بين الناس وكذلك ماحواليهم من أوضاع كلها دالة على أن قضية المساواة لاتستقيم . يقول برنارغروتويزن:

(إن الطبيعة تتحلل إلى تنوع غير متناه ، وهى أبدا متموجة ومختلفة فى كل لحظة عن نفسها "مامن ذرة تشبه ذرة أخرى ومامن ذرة تشبه نفسها لحظة واحدة" وكذلك الأمر فى حياة الناس ، "ففى كل قارة يختلف قطر عن الآخر ، وفى القطر الواحد اختلاف كل ولاية عن الأخرى ، ثم اختلاف كل مدينة عن أختها فى الولاية ، واختلاف أسرة عن أسرة فى المدينة الواحدة ، وفى الأسرة الواحدة يختلف كل فرد عن الآخر ، وفى الفرد نفسه يكون لكل لحظة سيماؤها وتعبيرها" وليس فى الجنس البشرى كله شخصان بينهما أدنى تماثل ، وفى الحقيقة لن يصل إنسان أبدا إلى تفهم إنسان آخر ، وإننا لنلاحظ بعض الفوارق بين أحكام الناس ، لكن هناك فروقا لانراها هى أكثر ألف مرة مما نرى ، فلكل امرىء طريقته فى الرؤية ، وكل إنسان يرى الأمور ويرويها بشكل يختلف فيه عن سواه ، وكل فرد يبدل وجهة نظره باستمرار . والنفس ذاتها لاتشبه نفسها فى مراحل الحياة المختلفة ، فكل شىء يتبدل باستمرار فى الشخص الواحد نفسه)[٢].

ويقول اليكس كاريل : (يميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوههم ، وإشاراتهم ، وطريقتهم فى المشى ، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة ... وكذلك فإن خطوط أطراف الأصابع مميزات قاطعة للفرد ومن ثم فإن بصمات الأصابع هى التوقيع الحقيقى للإنسان)[٣].

وبعد أن سرد الاختلافات وتميز كل إنسان عن الآخرين قال : (وهكذا فإن لكل إنسان تاريخا يغاير الآخرين جميعا)[٤].

---

(١) (٢٣٨-٢٨٤) ، وانظر نشوء وإنهيار الامبراطورية الشيوعية (١٢٤-١٢٥) .
(٢) فلسفة الثورة الفرنسية (٣٠-٣١) ، وانظر (٣٤-٣٥) .
(٣) الإنسان ذلك المجهول (٢٧٢) .
(٤) المرجع السابق (٢٧٦) ، وانظر (٧٧٧-٧٧٨) .

الوجه السابع : يدعون مساواة المرأة بالرجل ، فيقول لينين :

(إن وضع المرأة يبين بوضوح خاص الفرق بين الديمقراطية البرجوازية والديمقراطية الإشتراكية ، ويجيب بصورة واضحة عن السؤال المطروح إن المرأة لاتنال كامل الحقوق فى أية جمهورية بورجوازية "أى حيث تقوم الملكية الخاصة للأرض ، والمصانع ، والمعامل ، والأسهم ...الخ) حتى ولو كانت أوفر الجمهوريات ديمقراطية ولافى أى مكان فى العالم ، حتى ولافى أى بلد من أكثر البلدان تقدما . وهذا بالرغم من مضى أكثر من قرن وربع قرن على الثورة الفرنسية الكبرى (البورجوازية الديمقراطية) .

إن الديمقراطية البرجوازية تعد ، قولا ، بالمساواة والحرية . أما فعلا فإن أية من الجمهوريات البرجوازية ، حتى أكثرها تقدما ، لم تمنح نصف البشرية النسائى ، بحكم القانون ، المساواة التامة مع الرجال ، ولاالحرية من وصاية الرجال واضطهادهم .

إن الديمقراطية البورجوازية هى ديمقراطية التعابير المفخمة ، والأقوال المهيبة ، والوعود الطنانة ، والشعارات المضخمة عن الحرية والمساواة ، ولكنها تخفى ، بالفعل ، انعدام الحرية والمساواة للنساء ، وانعدام الحرية والمساواة للشغيلة والمستثمرين .

إن الديمقراطية السوفيتية ، أو الإشتراكية ، تكنس التعابير المفخمة والكاذبة ، وتعلنها حربا لاهوادة فيها على رياء (الديمقراطيين) ، الملاكين العقاريين ، الرأسماليين ، أوالفلاحين المتخمين الذين يسمنون من المضاربة على فوائض الحبوب ، على حساب العمال الجياع وفليسقط هذا الكذب الشنيع! فلايمكن أن تكون ، ولم تكن قط ، ولن تكون يوما(مساواة) بين المضطهدين ، والمضطهدين بين المستثمرين ، والمستثمرين ولايمكن أن تكون ، ولم تكن قط ، ولن تكون يوما (حرية) حقيقية طالما لم تتحرر المرأة من الامتيازات التى يكرسها القانون للرجل ، وطالما لم يتحرر العامل من نير الرأسمال ، طالما لم يتحرر الفلاح الكادح من نير الرأسمالى والملاك

العقارى والتاجر)[١].

فكما يظهر من هذا النص ، نرى أنهم يدخلون فى مبدئهم هذا حتى النساء ، ويساوون المرأة بالرجل وهذا يتعارض مع خلق المرأة وتكوينها مقارنة بالرجل .

(أ) الاختلاف فى التكوين الجسمانى ، بل وفى أدق جزئيات ذلك التكوين . يقول اليكس كاريل : (إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لاتأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أومن طريقة التعليم . إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك .. إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة يفرزها المبيض ، ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا ، وأن يمنحا قوى واحدة ومسؤوليات متشابهة ، والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ... والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . وفوق كل شىء ، بالنسبة لجهازها العصبى ، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبى ... فليس فى الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور ، فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال ، فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة)[٢].

(ب) **دعوى مساواة المرأة للرجل تأباه الفطرة السليمة والعقول السوية :**

وذلك لـ(تنوع الخصائص والاستعدادات الفطرية ومقتضياتها : على الرغم من كل الزوابع المصنعة ، التى يجلب رياحها وموادها ويثيرها أعداء الإسلام ، حول موضوع المرأة وحقوقها ومساواتها بالرجل مساواة تامة ، يجد الباحثون عن أحوال المرأة فى الإسلام صورا رائعة من صور العدل

---

(١) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٣٢-٣٣) .

(٢) الإنسان ذلك المجهول (١٠٨-١٠٩) .

والتكريم والإنصاف ، فلم يحرمها الإسلام حقا يقتضيه تكوينها الفطرى ، ولم يكلفها واجبا لاتطيقه ، ولم يبعدها عن دائرة المسؤولية الشخصية والمسؤولية الإجتماعية ، ولم يجعلها بمعزل عن التمتع بالحقوق المدنية التى تؤهلها لها استعداداتها الفطرية الذاتية ، وظروفها الإجتماعية .

إلا أنه لما كان للمرأة طائفة من الخصائص الجسدية والنفسية ، تخالف فيها من بعض الوجوه الخصائص الجسدية والنفسية الممنوحة للرجل بوجه عام ، كان من كمال نظام الإسلام أن يلاحظ هذه الخصائص ، ويقرر لها طائفة من الأحكام تناسبها ، لأن التسوية فى الأحكام من كل وجه مع الاختلاف فى الخصائص نقص لاترتضيه العقول السليمة ، فضلا عن أن تقبل به الشرائع الربانية الحكيمة . ومن يلتزم هذه التسوية من كل الوجوه طردا وعكسا ، يجب عليه حينما يضع الأنظمة الوضعية ، أن يقرر منح الرجل إجازة أبوة كما يقرر منح المرأة إجازة أمومة ، وأن يلغى فى التعليم مبدأ التخصص بحسب الاستعدادات الفطرية ، ويجعل النساء والرجال جميعا شركاء فى الفنون النسوية ، وفى صناعات الحدادة والنجارة والأعمال الثقيلة الشاقة ، وأن يحمل المرأة مسؤولية الكسب والنفقة كما يحمل الرجل ، ويحمل الرجل مسؤولية إرضاع الأطفال وتدبير شؤونهم ، وأن يهمل القوامة فى الأسرة ويجعلها نزاعا مستمرا بين الرجل والمرأة ، أو يجعلها على التناوب اليومى أو الأسبوعى أو الشهرى أونحو ذلك من الأمور التى تضطرب فيها الحياة ، ويفسد فيها نظام المجتمع الإنسانى وجماله .

إن فكرة التسوية التامة فى كل الأمور بين الرجل والمرأة ، قد يروج لها مضلل يحاول أن يفسد أوضاعا إجتماعية سليمة ، ولكن لايطبقها على نفسه أو أمته إنسان عاقل يفهم الخير ، ويريده لنفسه ولأمته)[1].

وقد اعترف بعض العلماء السوفييت بعدم تحقق تلك المساواة بين الرجل والمرأة رغم كل مابذلته الدولة من أجل ذلك حيث قال أنطون نميلاف Anton Nemilov وهو شيوعى خالص العقيدة ، من علماء الطبيعة :

(إذا قيل فى هذه الأيام : إن المرأة يجب أن تمنح فى دائرة التمدن حقوقا محدودة ، لم يؤيده من الرجال إلا الأقل . ونحن بأنفسنا ممن يخالفون

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة (٥٦٢-٥٦٣) .

هذا الرأى . ولكن ينبغى ألا نخدع أنفسنا بزعم أن إقامة الرجل والمرأة فى الحياة العملية أمر هين ميسور . الحق أنه لم يجتهد أحد فى الدنيا لتحقيق هذه المساواة بين الصنفين ، مثل مااجتهدنا فى روسيا السوفيتية . ولم يوضع فى العالم من القوانين السمحة البريئة من التعصب ، فى هذا الباب مثل ماوضع عندنا . ولكن الحق ، مع ذلك كله ، أن منزلة المرأة قلما تبدلت فى الأسرة...)[١].

ويقول : (لايزال تصور عدم مساواة الرجل والمرأة ـ ذلك التصور العميق ـ راسخا ، لافى قلوب الطبقات ذات المستوى الذهنى البسيط ، بل فى قلوب الطبقات السوفيتية العليا أيضا . بل النساء أنفسهن قد بلغ من تأثير هذا التصور فى نفوسهن ، أنهن إذا عوملن معاملة المساواة الكاملة مع الرجال ، يعددن ذلك حطا من مكانة أولئك ، ويجدن لهم فيه معانى التخنث ولو أننا نتتبع فى هذا الأمر أفكار عالم طبيعى أو مصنف أو طالب أو تاجر أو شيوعى خالص العقيدة ، لانكشف لنا عن غير بعد ، أنه لايرى المرأة كفئا له أو ندا يماثله ، وكذلك إن نظرنا فى رواية من الروايات العصرية ، مهما كان مبلغ كاتبها من حرية الفكر ، فلابد أن تقع فيها على عبارات تنم على هذا التصور بشأن المرأة ...

[و]السبب فى ذلك أن المبادىء الإنقلابية تصطدم فى هذا النظام بأمر واقع هام ، هو أنه لامساواة بين الجنسين باعتبار علم الأحياء (Biology) ولم تكلفهما الفطرة بأعباء سواء)[٢].

وقد قرر الإسلام فضل الرجل على المرأة . قال تعالى : {**بما فضل الله بعضهم على بعض**}[٣].

---

(١) The Biologicol Tragedy of Woman
وقد أثبت فى كتابه هذا فى حوالى مئتى صفحة منه عدم المساواة الفطرية بين المرأة والرجل بتجارب العلوم الطبيعية ومشاهداتها ونشرت ترجمة هذا الكتاب باللغة الانجليزية فى لندن ١٩٢٣م . نقلا من كتاب الحجاب (٢٢٩) .

(٢) نقلا من كتاب الحجاب (٢٢٩-٢٣٠) .

(٣) سورة النساء : (٣٤) .

وهـذا الذى قرره الإسلام ، وهو الفرق بين الرجل والمرأة تدل عليـه مختلف العلوم .

(فهذا علم الأحيـاء (Biology) قـد أثبتـت بحوثه وتحقيقـاته أن المرأة تختلف عن الرجل فى كل شىء من الصورة والسمت والأعضاء الخارجية إلى ذرات الجسـم والجواهـر الهيولينيـة (البروتينية) لخلاياه النسيجيـة فمـن لدن حصول التكوين الجنسى فى الجنين ، يرتقى التركيب الجسـدى فى الصنفين فى صورة مختلفة . فهيكل المرأة ونظـام جسمهـا يركـب كلـه تركيبـا تستعـد به لولادة الولد وتربيته . ومـن التكـوين البدائى فى الـرحم إلى سـن البلـوغ ، ينمـو جسم المرأة وينشأ لتكميل ذلك الاستعداد فيها . وهـذا هو الذى يحدد لها طريقها فى أيامها المستقبلة)[١].

وقد كانت القسمة بين الرجل والمرأة بما يتناسب مع تكوينهم :

فـ(١ إلى الـرجل تكون عيالة الأسـرة ورعايتها وحمايتهـا ، والقيـام بما هو عسير وشـاق مـن خدمات التمـدن فيكون تعليمه وتربيتـه على النحـو الذى يجعله أنفع مايكون لهذه المقاصد .

(٢) وإلى المرأة تكـون تربية الأولاد وواجبات البيـت ، والعمل على جعل الحيـاة المنزلية بحبوحة أمـن ودعة وراحة . فتحلى بأحسـن مايكون من التربية والتعليم لأجل قيامها بهذه الخدمات .

(٣) ولاستبقاء نظام الأسرة ووقايته من الفوضى والشتـات ، لابد أن يجعل لأحد أفـراد الأسـرة الحكـم والأمـر على سـائرهـم ، فى ضمـن حدود القـانون ، حتى لاتظل الأسـرة كقطيع من الغنم بلاراع . وذلـك الفـرد الآمـر لايمكـن أن يكون مـن غير صنـف الرجال . لأن عضـو الأسـرة الـذى تكون حالته العقلية والنفسية عرضة للتغير ، مـرة بعد أخرى ، فى أيام المحيض وفى زمان الحمل ، لايصلح أبدا لاستعمال سلطة الحكم والأمر .

---

(١) الحجاب (٢٠٣) .

(٤) يجب أن تقرر فى نظام التمدن التحفظات اللازمة لإدامة هذه القسمة والتنظيم فى وظائف أفراد الأسرة ، حتى لايستطيع السفهاء أن يخلطوا بحماقتهم بين دوائر أعمال الرجل والمرأة ، فيدخلوا الفوضى على هذا النظام التمدنى الصالح)[١].

وقبل هذا فإن الله تعالى هو الذى خلق الخلق ، وهو أعلم بما يصلحهم ويحقق لهم مصالحهم . فعدم المساواة بين المرأة والرجل (لايعد كسرا لمبدأ المساواة ، بل لكل امرىء - من الرجال والنساء وفق قدرته الجسدية وقدراته مكانة عند الله ، وهو مالايعد دليلا على عدم المساواة بينهما فى الحقوق والواجبات ، كما أن الضرورة القاضية باختلاف أفراد الأمة إلى حاكم ومحكوم لاتعنى نفى المساواة أيضا ، مادامت المساواة قائمة فى أصل الحرية والكرامة الإنسانية)[٢].

إن دعوة مساواة المرأة بالرجل دعوى مغرضة ، تنم عن نفسية حاقدة على كل فضيلة ، وفرق بين الدعوة إلى مساواتها فى العدل والتكريم والإنصاف ، وأمور الفطرة ، والدعوة إلى مساواتها فى كل شىء مع الرجل فقد جعل الله تعالى لكل واحد منهما مجال اختصاصه[٣].

وقد اعترف المفكرون السوفييت بأنه على الرغم مما فعله السوفييت من أجل تحقيق قضية المساواة لم يؤت ثماره[٤].

الوجه الثامن : تراجعهم عن هذا المبدأ ، وإعلان التفاوت فى الأجور وقد سجل ذلك الدستور السوفييتى حيث ينص على أنه : (يؤخذ من كل وفقا لكفايته إلى كل وفقا للعمل المنجز)[٥].

---

(١) الحجاب (٢١٧-٢١٨) .
(٢) ضمانات الحرية (١٢٤) .
(٣) انظر أجنحة المكر الثلاثة (٥٦٢-٥٦٣) .
(٤) انظر الحجاب (٢٢٨-٢٢٩) ، وانظر (٢٣٠،٢٦٠-٢٦١) .
(٥) الدستور السوفييتى (٤٤٨) ، فؤاد شبل ، نقلا من كتاب الماركسية بين النظرية والتطبيق (٨٥-٨٦) .

فانقلب الشيوعيون على هذا المبدأ نظرا لاصطدامه مع الواقع وإثارة السلبية على العملية الإقتصادية .

الوجه التاسع : أن الشيوعية حاولت فرض نظام المساواة بالقوة ، ومع ذلك فإن واقع النظام دلل على أن هذا مخالف للفطرة الإنسانية ، فلم يكن العامل يحصل على نفس أجر المهندس ، ولم يكن أجر الجندى كأجر الضابط (ثم جاء اليوم الذى انهارت فيه المساواة حتى فى صفوف العمال أنفسهم ، بعد أن كانت منهارة مابين العمال وغيرهم من العاملين)[١].

فكان واقع الاتحاد السوفييتى مكذبا لهذا المبدأ.

إذ أنه (فى سنة ١٩٤٣م كان يدفع للجندى الروسى ١٠ روبلات فى الشهر مقابل ١٠٠٠ روبل يتقاضها الملازم ، هذا بينما كانت نسبة راتب الجندى إلى الضابط فى الجيش البريطانى إلى ٤ ، وفى الجيش الأمريكى إلى ٣ ولكنها كانت فى الجيش الأحمر إلى ١٠٠ ، وهذه النسبة لم تتغير إلى يومنا هذا أما البزات العسكرية فمختلفة ، والجندى الروسى لايلبس مايلبسه الضابط ، بل إن مرسوم ٦ يناير/كانون الثانى ١٩٤٣م قد أعاد للضباط الشريط المقصب ـ اسبليطة ـ الذى كان يوضع على كتف السترة العسكرية للضباط فى العهد القيصرى ، والذى كان الشيوعيون قد ألغوه والضباط الروس بعد هذا تؤدى لهم التحية العسكرية من قبل الجنود ، كما أن لهم نواديهم الخاصة "والميسات" التى لايدخلها غيرهم ، ويقوم الجنود بخدمتهم أى أن مايسمى بنظام جنود المراسلة لايزال ساريا فى روسيا)[٢].

الوجه العاشر : أن النظام الشيوعى تراجع فى قضية مبدأ المساواة وأقر الفرق حسب العمل وأباح للعمال القادرين على زيادة عملهم بعمل إضافى مقابل أجر إضافى يستحقه ، وهذا الذى يتفق مع الفطرة الإنسانية ، فالذى يبذل جهدا أكبر ، لاشك أنه يرقب مردودا أعلى وهكذا ، فكيف يتساوى

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة (٤٣٤) .

(٢) الشيوعية منشأ ومسلكا (٢٠٥-٢٠٦) .

الناس فى الأجور وهم يتفاوتون فى مقدار مايبذلون ، إن هـذا لايرضى أدنى النـاس عقلا ، ناهيك عن من استنـار وعيا ومن قبل دينـا . يقول كاونتس : (لاجدال فى أن الطبقـة المستنيرة الجديدة تشغـل مـركـزا ممتـازا فى المجتمـع السوفييتى . فلقد ألغى الحزب منذ زمن طويل مبدأ المساواة فى الأجور ونبذه ووسمه بأنه "نزعة للمساواة فاسدة" ...)(١).

وهكـذا نرى أن هـذا المبـدأ لم يتحقـق ولايمكـن تحقيقـه . وبعـد هـذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن الإسلام أقـر مبـدأ المسـاواة ، كمـا أقـر التفـاوت فى بعـض الأمور نظرا لاختلاف الناس فيما بينهم .

ثانيا : أن الإسلام أقـر مساواة المرأة بالرجل إلا بعـض مايستثنى بسبب طبيعة المرأة وتكوينها .

ثالثا : أن مبدأ المساواة بالصورة التى أرادها الشيـوعيون لايمكن تحقيقه أبدا نظرا لأنه يخالف النصوص الشرعية والمسائل الفطرية ، والحقائق العلمية التى تثبت التفاوت بين الخليقة .

رابعا : أن الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل فى كل شىء ليس المقصود منه تكريم المرأة أو إعطائها حقوقها ، بقدر ماهى دعوة لإخراجها من دروب الفضيلة إلى الإنحطاط فى مسالك الرذيلة .

خامسا : أن الـدعوة إلى المسـاواة فى الأجور وغيرهـا التى نادت بهـا الشيوعية لم تتحقق فى الاتحاد السوفييتى فالواقع كذب ذلك المبدأ وحكم عليه بالبطلان . وبقـى التفاوت قـائما فى الأجور وغيرها . وهكـذا ينهار جزء مهم من أجزاء الإقتصاد الشيوعى ويتبين بطلانه وزيفه ومصادمته للواقع مما يدل على أن النظـرية الماركسيـة كـانت أفكـارا خيالية بينمـا كـانت سياط الواقع تدفعها بقوة نحو الزوال والإنهيار .

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٢٤) .

كفالة الدولة :

اشترطت الدولة السوفيتية لكى تحقق الرخاء للمواطن أن يعمل واستبعدت من حساباتها كل العاطلين أيا كان السبب فى ذلك ، وأقامت التوزيع على مبدأين كما جاء عن منظرى الماركسية ، هما :

(أ) فى المرحلة الإشتراكية :

(من كل حسب كفاءته ولكل حسب عمله)[١].

(ب) فى المرحلة الشيوعية :

(من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته)[٢].

(أ) المبدأ الإشتراكى :

من حيث الناحية النظرية فإن ذلك هو العدل . فكل أحد يبذل مايستطيع من الجهد فلاتكلف نفس إلا وسعها ، ثم بعد ذلك يكون الجزاء على قدر العمل .

والسمات الرئيسية للإنتاج الإشتراكى هى :

(**أولا** : أنه إنتاج جماعى يشبع حاجات المجتمع ككل ، أى إنتاج الحاجات المادية الضرورية للمواطنين ، دون تفرقة بين نصيب فئة من فئات المجتمع ، وفئة أخرى .

وثانيا : أنه إنتاج هادف وبناء على خطة مدروسة ، تضمن استخدام جميع الموارد القومية المادية والبشرية بطريقة عملية وعلمية ، لكى تحقق الخير لمجموع الشعب .

وثالثا : أن هناك أولويات فى القيام بالمشروعات الإنتاجية .

ورابعا : أن الإنتاج الإشتراكى لايهدف إلى تحقيق الربح ، بقدر مايهدف إلى إشباع رغبات المجتمع ، فى ظل الخطة الإشتراكية الموضوعة)[٣].

---

(١) المعجم (٣٦٢) .

(٢) المرجع السابق (٣٦٣) .

(٣) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٧١) وانظر مابعدها .

ونأتى الآن لبيان بطلان وفساد ذلك المبدأ من حيث الواقع الإشتراكى.

أولا : أن (هذا المبدأ يأخذ بالتناقض مع الطبيعة اللاطبقية للمرحلة الإشتراكية ، منذ أن يوضع موضع التنفيذ . فإن الأفراد يختلفون فى أعمالهم تبعا لاختلاف كفاءاتهم ، ولنوعية العمل ودرجة تعقيده . فهذا عامل لايطيق من العمل ست ساعات ، وذلك عامل أقوى منه بنية ، يستطيع أن يعمل عشر ساعات فى كل يوم ، وهذا عامل موهوب يملك من القريحة والنباهة مايجعله يدخل تحسينات على طريقة الإنتاج ، وينتج ضعف ماينتجه الآخرون وذلك عامل لم يواته الحظ ، قد خلق للتقليد لاللإبتكار . وهذا عامل فنى مدرب يمارس إنتاج الأجهزة الكهربائية الدقيقة ، وذاك عامل بسيط لايمكن أن يستخدم إلا فى حمل الأثقال ، وثالث يعمل فى الحقل السياسى ويتوقف على عمله مصير البلاد كلها .

واختلاف هذه الأعمال يؤدى إلى تفاوت القيم التى تخلقها تلك الأعمال .

وليست هذه الألوان الصارخة من التفاوت بين نفس الأعمال ، أو القيم الناتجة عنها ، مستمدة من واقع إجتماعى معين ، بل إن الماركسية نفسها تعترف بذلك ، إذ تقسم العمل إلى : بسيط ومركب ، وترى أن قيمة ساعة عمل مركب شديد التعقيد ، قد تفوق بأضعاف قيمة ساعة من العمل البسيط)[1].

(والمجتمع الإشتراكى إذ يواجه هذه المشكلة ، لايوجد أمامه إلا سبيلان للحل :

---

(١) إقتصادنا (٢٢٨-٢٢٩) .

أحدهما : أن يحتفظ بمبدأ التوزيع القائل : (لكل حسب عمله) ، فيوزع الناتج على الأفراد بدرجات مختلفة ، وبذلك ينشىء الفروق الطبقية مرة أخرى ، فيمنى المجتمع الإشتراكى بالتركيب الطبقى بأسلوب جديد .

والآخر : أن يستعير المجتمع الإشتراكى من الرأسمالى طريقته فى اقتطاع القيمة الفائضة ، على رأى ماركس ، فيساوى بين جميع الأفراد فى الأجور)[1].

وعلى هذا الأساس فإن الشيوعية إذا طبقت هذا المبدأ تكون قد اعترفت بالطبقات والتفاوت فى الأجور ، وبالتالى أبطلت كل المبادىء المبنية على زوال الطبقات .

وإن عملت على تطبيق مبدأ المساواة فى الأجور وسوت بين العمل البسيط والمركب ، وبين العامل الموهوب ومن عداه فإنها بذلك تكون قد انحرفت وكفرت بالنظرية الماركسية ، وكلا الخيارين ضد الشيوعيين ، وقد اعترفوا بهذه التناقضات والإشكالات الواردة على هذا المبدأ[2]. ومنها مسألة الأجور حيث قالوا : (إن المفهوم الصحيح لمبدأ المساواة فى البناء الإشتراكى هو إلغاء الفوارق غير الطبيعية بين الناس ، أى إلغاء فوارق الثروة والجاه بحيث يصبح الناس متساوين ، فى الحياة الإقتصادية . ثم حماية مايظهر من كفايات طبيعية فى الذكاء والخلق والإبتكار بل وتشجيع هذه الكفايات ماديا فى صورة اختلاف فى الأجور الممنوحة للعاملين ، دون أن يؤدى ذلك إلى وجود طبقة من المواطنين تعلو أجورها جدا عن أجور الباقين .

فمن المسلم به فى ظل المجتمع الإشتراكى أن يدفع للذين يرتفع مستوى مهارتهم فى العمل أجورا أعلى من غيرهم الذين يقلون عنهم مهارة وخبرة . بل من غير المعقول أن يدفع المجتمع الإشتراكى أجورا متساوية لجميع

---

(١) إقتصادنا (٢٢٩) وانظر مابعدها .

(٢) انظر النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٧٩-٢٨١) .

العـاملين ، حتى ولو اختلف مقـدار النفع العام من الخدمـة التى يؤديهـا كل منهم)[١].

ويظهر بهذا أنهم ينقضون مبدأ المساواة فى مرحلتهـم الأولى ويحكمون عليه بالبطلان لأنه لايحقق العدالة المطلوبة بين العمال لوجود الفارق بينهم .

ثانيا : أن هذا المبدأ لم يطبق فى واقع الحياة فى الاتحاد السـوفييتى فكان الواقع يناقضه .

يقـول فـارغا : (إن المبـدأ النظـرى للإشتراكيـة "مـن كـل فرد حسب امكاناته ولكل فرد حسب عمله" .

قـد أفسد منذ فترة طويلة فعمـل المواطنين العاديين لايكـافأ كمـا يجب ولـو أنهم أظهروا كفاءات غير عـادية ، وقاموا بمهـامهم على أفضـل شكل ، وبعكـس ذلك فإن عمل أصحاب الامتيـازات يكافأ بسخـاء ، وأحيـانا بتبذير حتى ولو أنهم لم يظهروا أى كفاءة خاصة ، أو أنهم كـانوا مخربين بمظاهرهم ومعـاملاتهم الـورقية البيروقـراطية وقـد أوجد هـذا كلـه تضـاربا فى حيـاة مجتمعنا)[٢].

بل إن العمـال يقومون بالعمـل دون مقابل خدمـة للحزب أو الدولة التى يمثلهـا الحزب . وبالتـالى فـإن مبـدأ الإشتراكيـة ينقضـه واقـع الاتحاد السوفييتى حيث إن العامل لايأخذ القدر الذى ينبغى تجاه مايقدمه من عمل.

ثالثا : أن هذا المبدأ يتجاهل بقية الطبقات أو الأفـراد الذين لايقدمون عملا ، وليتهـم استثنـوا المرضـى أو أصحاب البلايا ، أو الغير قـادرين على العمـل بسبـب العجز أو غيره . فـالمبدأ عنـدهم أن "مـن لايعمـل لايأكل" .

يقـول البهى الخولى : (خبرونا عـن ذلك المريض الـذى لايستطيـع أن يعمـل ، مـاذا سيكـون شأنه؟ أيضيـع حقـه لأنه مريض؟ أو بعبـارة أصـح ، أيموت من الجوع لالشىء إلا المرض أقعده عن العمل ...؟) .

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٨٤) .

(٢) الإشتراكيـة فى التطبيـق (١٠٥) ، نقلا مـن كتـاب إنهيـار الشيـوعية أمـام الإسلام (٢٢٧) .

(وذلك الشيخ الفانى الذى صيرته الشيخوخة إلى مثل حال المريض ماذا يكون أمره إنه غير قادر على العمل الذى هو قانون هذه المائدة ، وهو المسوغ الشرعى للأكل منها ، أيضيع حقه لأنه غير قادر على العمل الذى هو قانون هذه المائدة ، وهو المسوغ الشرعى للأكل منها ، أيضيع حقه لأنه غير قادر على العمل؟ وذلك اليتيم الضائع ، ذلك الذى نزلت به الجوانح فجأة ، فذهبت الآفات بزرعه ، أو الأوبئة بماشيته ، أو الظروف بماله وتجارته فوجد نفسه على التراب ، ماذا يكون من شأنه؟ إنها حالات تنزل صاحبها حتما فى منزلة المريض ، غيرا لقادر على شىء فما حكم هؤلاء؟)[1].

رابعا : أن هذا المبدأ يقوم على الخداع .

يقول د. البهى : إنه (شعار إنسانى جذاب وخادع .

أما أنه إنسانى جذاب : فلأن الفرد الذى يبذل أقصى جهده فى الإنتاج له ولغيره من المجتمع ، ولايأخذ منه بعد ذلك إلا بقدر مايحتاج منه فقط ، هو إنسان تمكنت فى نفسه (روح) المشاركة الجماعية ، وهى الروح الإنسانية .

وأما أنه خادع : فلأن الفرد الذى يطلب له ومنه أن يفكر بالله وبالمثل والقيم العليا ، ولايؤمن إلا بالمادة والمنفعة المادية ـ كما تطلب الماركسية اللينينية ـ يستحيل عليه أن ينتج حسب طاقته ولايأخذ مما ينتج سوى القدر الخاص بحاجته .

... يستحيل عليه أن ينتج حسب طاقته ، لأنه يعلم مسبقا أن عائد إنتاجه ليس له وحده ، وقد طلب إليه أن يؤمن بالمنفعة المادية وحدها .

وهو إذ يقدر له أجر من الدولة دون طاقته فى الإنتاج ، لايعطى إذن للدولة من العمل ومن طاقته فى الإنتاج إلا بقدر مايأخذ منها من أجر أو أقل .

---

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٢٦-٢٧) .

وهنا يكون شعار العامل العملى : (العمل على قدر الأجر ، أو الإنتاج حسب تقدير الأجر ...)[١].

(عندما اتضح خداع هذا الشعار الماركسى واستحال تحقيقه فى تجربة الماركسية فى روسيا وشرق أوروبا .. استحدث النظام الشيوعى ماأسماه "بالحافز الفردى فى الإنتاج" وهو نسبة زيادة أجر العامل ، تعطى له سنويا حسب زيادته فى الإنتاج المقنن للمستوى المتوسط للعامل ، والحافز الفردى يدل على أن العامل لم يستجب لشعار الشيوعية فى نظام الماركسية اللينينية : (من كل على قدر طاقته ...) إذ لديه طاقة متوفرة لم يستخدمها فى الإنتاج بعد ، ومن ثم قدر له حافز فردى مادى آخر يدفعه إلى استخدام تلك الطاقة المتوفرة - بعد أداء العمل فى نظير الأجر المقدر أولا - فى زيادة إنتاجه)[٢].

سادسا : أن هذا المبدأ لن يكون مثمرا إلا مع وجود الوازع الدينى[٣].

وهكذا يتبين أن مبدأ التوزيع فى المرحلة الإشتراكية لم يكن بالإمكان تحقيقه لاختلافه مع الفطرة الإنسانية ، لأن كل من يبذل جهدا يريد أن يكون المردود على قدر جهده ، كما أنه يشعر بالظلم إذا كان الأقل منه عملا أو موهبة يأخذ بنفس القدر الذى يأخذه . وبعد هذا نأتى إلى المبدأ الشيوعى .

---

(١) تهافت الفكر المادى التاريخى (٤٨) .
(٢) المرجع السابق (٤٩-٥١) .
(٣) انظر الإسلام وحقوق الإنسان (٤٠٤) .

المبدأ الثانى فى التوزيع

وهو المبدأ الذى سيطبق فى المرحلة الشيوعية :

(من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته) .

يقول ماركس : (فى الطور الأعلى من المجتمع الشيوعى ، بعد أن يزول خضوع الأفراد المذل لتقسيم العمل ويزول معه التضاد بين العمل الفكرى والعمل الجسدى ؛ وحين لايبقى العمل مجرد وسيلة للعيش بل يغدو الحاجة الأولى فى الحياة ، وحين تتنامى القوى المنتجة مع تطور الأفراد من جميع النواحى وحين تتدفق جميع ينابيع الثروة الجماعية بفيض وغزارة ، - حينذاك فقط ، يصبح بالإمكان تجاوز الأفق الضيق للحق البرجوازى تجاوزا تاما ، ويصبح بإمكان المجتمع أن يسجل على رايته : "من كل حسب كفاءته ولكل حسبا حاجاته")[١].

يقول كورنفورث : (والانتقال من الإشتراكية إلى الشيوعية يمكن صياغته على أبسط نحو بالقول أنه الانتقال من مجتمع يحكمه مبدأ "من كل بقدر قدرته ، ولكل بقدر عمله" إلى مجتمع يحكمه مبدأ "من كل بقدر قدرته ولكل قدر حاجته" ، فحين يتم عن طريق التطور العقلانى المخطط واستخدام التكنيك إنتاج وفرة كل شىء يحتاجه الناس ، يمكن تطبيق المبدأ الشيوعى)[٢].

وهذا مبدأ باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن المجتمع السوفييتى لم يصل لهذه الدرجة حيث انحرف قبل الوصول إليها وذلك لعدم إمكانية تطبيقها ، ناهيك عن أن المرحلة السابقة لها لم تطبق ، فكيف بهذه ، وهى مرحلة تكاد تكون خيالية بالنسبة لسابقتها .

---

(١) نقلا من كتاب الدولة والثورة (١٠١) .

(٢) دفاعا عن الماركسية (٣٠١) .

الوجه الثانى : أن هـذا المبدأ يعـارض الفطرة ويصادمهـا ، وذلك لأن الاختلاف وارد بين الناس فى العطاء من حيث العمل وكـذلك فى الأخذ لأن حاجيات الناس أيضا تختلف فمن يكون عنده أمر ضرورى قد لايكون كذلك عنـد غيره وهكـذا .. ولأجل هـذا اعترف الشيـوعيون بأن هـذه الاختلافـات ستبقى فى الشيوعية ، فجاء فى المعجم :

(إن مبدأ التوزيع الشيوعى بعيد كل البعد عن نزعـة التقشف والزهد وتعـادلية الاحتياجات والمصالح الحياتيـة للناس كما يزعم[١]خصوم الشيوعية العلمية ، فهو لايبشر بتكافؤ الاحتياجات ، بل بتكافؤ فرص وشروط تلبيتها ، فالناس يتباينون من حيث العمـر والجنس والعمل ومحل الإقـامة والخصائص البدنية والنفسية والقابليات والميول والاهتمامات .

وتظـل هذه الفروق قائمة فى ظـل الشيوعية أيضا ، لـذا فإن احتياجات الناس لايمكن أن تكون متطابقة)[٢].

الوجه الثالث : اعترافهم بأنهم يجهلون كيف ستسير البشـرية إلى تحقيق ذلك الهدف .

يقـول لينين : إن (الديمقراطيـة لاتعنى غير المساواة الشكليـة . فما إن تحقق مساواة جميع أعضاء المجتمع حيال تملك وسائل الإنتـاج ، أى لامناص من مسألة السير إلى أبعد ، مـن المسـاواة الشكليـة إلى المسـاواة الفعليـة إلى تحقيـق قاعدة : "من كل حسـب كفاءته ولكل حسب حاجاته" ونحن لانعـرف ولايمكننـا أن نعـرف عبر أية مـراحل . وعن طريق أية تدابير عمليـة ستسير البشـرية نحو هـذا الهدف الأعلى . ولكـن مـن المهم أن نتفهـم مـدى بطلان الفكـرة البرجوازية الشائعة التى تزعم أن الإشتراكيـة شىء ماميت ، جامد ، ثابت لايتغير ، فى حين أن حركـة التقـدم السـريع فى جميـع ميـادين الحيـاة

---

(١) لابد وأن يجعلوا هذا هو فكر المقترحين عليهم ، وهو كـذلك بالفعل لأنهم جعلوا ذلـك المبـدأ مبدأ أساسيا فى شيـوعيتهم ، فلمـاذا يعتبرون مـاتفضى إليـه أقوالهم مزاعم من الأعداء .

(٢) (٣٦٤-٣٦٥) .

الإجتماعية والفردية ، الحركة الجماهيرية فعلا وحقا التى تشترك فيها أكثرية السكان ثم جميع السكان لاتبدأ فى الحقيقة إلا مع الإشتراكية)[١].

الوجه الرابع : أن هذا المبدأ أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة ، فإن الإنسان لن يصل لدرجة أن يعمل ويبذل طاقته كلها ثم لايأخذ إلا جزءا يسيرا بقدر حاجته ، ثم يترك باقى مردود إنتاجه لغيره كى ينعم به .

يقول الأستاذ محمد قطب : (ومقتضى هذا المبدأ إن الناس فى ظل التطبيق الشيوعى سيرتفعون بمشاعرهم وسلوكهم إلى صورة مثالية تجعل كل إنسان يبذل أقصى مافى طاقته من جهد من تلقاء نفسه دون ضغط عليه ، ولاإلزام ولكن من جراء حبه للنظام وللمزايا التى يحققها له وشعوره بالاستقرار والطمأنينة والسعادة فى ظله ، وفى الوقت ذاته لايأخذ من الإنتاج الذى يشارك فيه الجميع ، كل بحسب طاقته - إلا بمقدار مايحتاج إليه فحسب فلايزيد عن الحاجة بدافع الجشع والطمع الناشئين أساسا من الحياة فى مجتمع طبقى يمارس الملكية الفردية والصراع الطبقى . فإذا زالت الأسباب زالت الأعراض .. أى أنه إذا ألغيت الملكية الفردية وألغيت الامتيازات الطبقية بإزالة الطبقات كلها إلا الطبقة الكادحة فإن الجشع والطمع يزولان من نفوس الناس بزوال الأسباب الدافعة إليهما ، وعندئذ يأخذ كل إنسان من الإنتاج العام بقدر مايحتاج إليه فحسب ويترك الباقى للمحتاجين غيره من الناس)[٢].

ولاشك أن هذا حلم جميل أن يصل الإنسان إلى هذه الدرجة حيث يعمل وينتج ثم يترك باقى إنتاجه لغيره من الناس لقناعته وعدم شحه ، ولكننا نتساءل ماالذى سيدفع الشيوعيين إلى ذلك هل هو مذهب دينى أم جزاء آخر ينتظرهم؟

---

(١) الدولة والثورة (١٠٥-١٠٦) ، وانظر : المعجم (٣٦٥) ، فوق أطلال الماركسية (٩٥) .

(٢) مذاهب فكرية معاصرة (٤٢١) ، وانظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٣-٣٤) .

إن الشيوعية لو استمرت فى إعطاء الوعود للإنسان الشيوعى لربما أمكن القول بأنه سيوجد فى المجتمع الشيوعى من يفعل ذلك ولكنها وقفت بالإنسان إلى هذه الدرجة ، فكيف يقوم الإنسان بعد ذلك بدفع مازاد عن حاجته وهو لايرقب وعدا آخر لهذا العطاء . ويمكننى القول مطمئنا بأن ذلك يقع من الإنسان المسلم عنيت أن يبذل مازاد عن حاجته لأنه يرقب جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

الوجه الخامس : بعد أن عجز الشيوعيون عن تطبيقه قاموا بالتبرير لذلك العجز ، وذكروا أن ذلك يكون فى مرحلة لاحقة لم يصل إليها الاتحاد السوفييتى بعد ، وقالوا بأنهم مشغولون عن تحقيقه بمقاتلة الأعداء وهذا يتطلب توجيه جزء من الإنتاج إلى إنتاج حربى لمنع الأعداء من الانتصار عليهم ، وهذا يؤثر فى زيادة الإنتاج الذى يكفى كل احتياجات الناس(١).

الوجه السادس : أن هذا المبدأ يقوم على التخيلات والأوهام حيث ظنت الشيوعية بأن الإنسان سيقوم بكل مافى وسعه وطاقته دون أن يكون هناك رقيب عليه ، كما أن الشيوعيين ظنوا أنهم سيقضون على نوازع الإنسان وفطرته فى حبه للاستزادة وخاصة فى مادياته .

لقد أضحى هذا المبدأ حلما ، ولم ير النور يوما ، ولن يراه لأنه مصادم للفطرة الإنسانية ، ولايمكن الوصول إليه إلا بعد أن تمر البشرية على رأى الشيوعية بمراحل عديدة . وهاهى الشيوعية تذهب إلى مثواها الأخير دون أن تحقق شيئا من هذه الأحلام .

وأين هؤلاء من مبدأ الإسلام وتشريعه فى توزيع الإنتاج ، فإن للعامل حقه الذى يرضيه ، ولصاحب رأس المال مايرضيه، وكل منهم له بقدر ماقدم لايظلم أحد ، ولايجحف فى حق أحد . فالعدالة متحققة وكل يأخذ قدر مايبذله . ذلك دين الله تعالى . ومن هنا لاينبغى أن ننظر لما يحدث من استغلال أو سوء تصرف أو اجحاف فى حق العامل أنه بسبب الملكية الفردية

---

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة (٤٢١) .

بل بسبب النفس الإنسانية التى جبلت على الطمع والجشع إذا لم تضبط بضوابط الشريعة .

وبسبب هذه النظرة من ماركس واعتقاده أن سبب الظلم هو الملكية الفردية صب جام غضبه عليها ، وأخذ فى التنظير لبيان استغلال الرأسماليين للعمال من خلالها ، وجاء بنظرية فائض القيمة ، والتى تعتبر من أهم مرتكزات النظرية الإقتصادية الماركسية .

المبحث الثالث
نظرية القيمة وفائض القيمة

من أهم الجوانب والمرتكزات فى المذهب الإقتصادى الشيوعى نظرية القيمة والقيمة الزائدة . وهذه النظرية رتب عليها ماركس قوانين عديدة تؤدى فى النهاية إلى زوال الفكر الرأسمالى . ومع أن النظرية قد ارتبطت بماركس ومذهبه الإقتصادى ، إلا أن هناك فلاسفة سبقوه إلى القول بها مثل ريكاردو ، وآدم سميث(١).

ويعرف ريكاردو قيمة العمل فيقول : (إن قيمة البضاعة .. ترتبط بمقدار العمل الضرورى من أجل إنتاجها ، وليس بمقدار المكافأة الأكثر أو الأقل ارتفاعا التى تدفع لقاء ذلك العمل)(٢).

وعلى هذا فإن قيمة السلعة تكون على قدر العمل المبذول فى إنتاجها كما يرى ريكاردو . وقد استفاد ماركس من هذه النظرية ـ وقلنا بأنه اعتمد الإقتصاد الانجليزى مصدرا له فى فكره ـ وطورها وغير فيها . يقول لينين :

---

(١) انظر : إقتصادنا (١٧٦) ، الإشتراكية العربية (١٢٥) ، النظم الإقتصادية المعاصرة (١٧٥-١٧٦) .
ويقول انجلز : (طالما أن الإشتراكية الحديثة على اختلاف اتجاهاتها تنطلق من الإقتصاد السياسى البرجوازى فإنها تربط نفسها ، ربطا محصورا بنظرية القيمة لريكاردو . إن الافتراضين اللذين خرج بهما ريكاردو عام ١٨١٧م فى بداية كتابه المبادىء وهما :
١ ـ أن قيمة أى سلعة تحددها ، فقط بشكل قاطع ، كمية العمل اللازمة لإنتاجها .
٢ ـ وأن منتوج العمل الجماعى الكلى مقسم بين طبقات ثلاث : طبقة مالكى الأرض ويمثلون (الريع) ، وطبقة الرأسماليين ويمثلون الربح ، وطبقة العمال ويمثلون (الأجور) ، فقد استخدما منذ ١٨٢١م فى انجلترا للوصول إلى نتائج إشتراكية وبغض النظر عن مثل هذه القطعية والحتمية ، فإن هذا الأثر الذى اختفى الآن تقريبا ، والذى كان ماركس أول من أعاد اكتشافه ظل دون أن يتجاوزه أحد حتى ظهور "رأس المال") . من مقدمة انجلز ، بؤس الفلسفة (٤-٥).
(٢) نقلا من كتاب انتى دوهرنغ (٢٣٣) .

(بعدما لاحظ ماركس أن النظام الإقتصادى يشكل الأساس الذى يقوم عليه البناء الفوقى السياسى ، أعار انتباهه أكثر ماأعاره لدراسة هذا النظام الإقتصادى .

ومؤلف ماركس الرئيسى (رأس المال) مكرس لدراسة النظام الإقتصادى فى المجتمع الحديث ، أى الرأسمالى .

لقد تكون الإقتصاد السياسى الكلاسيكى ماقبل ماركس فى انجلترا ، وكانت أكثر البلدان الرأسمالية تطورا . فقد درس آدم سميث ودافيد ريكاردو النظام الإقتصادى فسجلا بداية نظرية القيمة ـ العمل .

وواصل ماركس عملهما . فأعطى هذه النظرية أساسا علميا خالصا وطورها بصورة منسجمة إلى النهاية . وبين أن قيمة كل بضاعة مشروطة بوقت العمل الضرورى إجتماعيا لإنتاج هذه البضاعة وحيث كان الإقتصاديون البرجوازيون يرون علاقات بين الأشياء (مبادلة بضاعة ببضاعة أخرى) ، اكتشف ماركس علاقات بين الناس . إن تبادل البضائع يعبر عن الصلة القائمة ، بوساطة السوق ، بين المنتجين المنفردين . والمال (النقد) يعنى أن هذه الصلة تزداد وثوقا ، جامعة فى كل واحد لايتجزأ كل حياة المنتجين المنفردين الإقتصادية . والرأسمال يعنى استمرار تطور هذه الصلة : فإن قوة عمل الإنسان تغدو بضاعة . فالأجير يبيع قوة عمله لمالك الأرض ولصاحب المصنع وأدوات الإنتاج .

والعامل يستخدم قسما من يوم العمل لتغطية نفقات إعالته وإعالة أسرته (الأجرة) ؛ ويستخدم القسم الآخر للشغل مجانا ، خالقا للرأسمالى القيمة الزائدة ، التى هى مصدر ربح ، مصدر إثراء للطبقة الرأسمالية)[1].

---

(١) مصادر الماركسية (٦-٧) ، وانظر : إقتصادنا (١٧٨-١٧٩) ، الإشتراكية العربية (١٢٦) .

القيمة وفائض القيمة :

إن هذا القانون يشتمل على أمرين :

الأول : أن العمل هو أساس القيمة .

الثانى : أن فائض القيمة هو العمل الزائد الذى يكون من نصيب الرأسمالى .

يقول لينين : (إن نظرية القيمة الزائدة تشكل حجر الزاوية فى نظرية ماركس الإقتصادية)[١].

وهاتان النظريتان وضعتا لتدعيم مذهب ماركس الفلسفى .

فما هى نظرية القيمة عند ماركس؟

يقول ماركس : (إن السؤال الأول الذى ينبغى أن نطرحه هو : "أى شىء هى قيمة البضاعة وبماذا تحدد؟"

قد يبدو للوهلة الأولى أن قيمة البضاعة شىء نسبى تماما ، لايمكن تحديده إذا لم ينظر إلى البضاعة فى علاقاتها مع جميع البضائع . فنحن ، بالفعل ، حين نتحدث عن القيمة التبادلية لبضاعة ، إنما تكون فى ذهننا الكميات النسبية التى يمكن بها تبادل هذه البضاعة مقابل جميع البضائع الأخرى . ولكن يرد هنا هذا السؤال : كيف تحدد النسب التى يجرى بها تبادل البضائع بعضها ببعض؟ إننا نعلم ، بالتجربة ، أن هذه النسبة متنوعة تنوعا لانهاية له . فإذا أخذنا بضاعة ما ، كالقمح مثلا ، نجد أن مكيالا من القمح يبادل بمختلف البضائع الأخرى بنسب لاتكاد تكون لها نهاية ، بيد أنه لما كانت قيمته تظل هى هى فى جميع هذه الحالات ، بصرف النظر عما إذا كان التعبير عنها بالحرير ، أم بالذهب ، أم بأية بضاعة أخرى ، فإن هذه القيمة لابد أن تكون شيئا متميزا عن تلك النسب المختلفة التى بموجبها يجرى تبادله مقابل بضائع أخرى ، وشيئا مستقلا عنها . لابد أن تكون ثمة إمكانية للتعبير عنه بشكل متميز عن هذه المعادلات المختلفة بين مختلف البضائع .

---

(١) مصادر الماركسية (٧) .

وبعد : حين أقول إن مكيالا من القمح يبادل مقابل الحديد بنسبة معينة ، أو أن قيمة مكيال واحد من القمح يعبر عنها بكمية معينة من الحديد ، فإنما أقول بذلك أن قيمة القمح ومعادله من الحديد مساويان لشيء ثالث ما ليس قمحا ولاحديدا ، مادمت انطلق من أنهما يعبران عن مقدار واحد بعينه بشكلين مختلفين . ولذلك فإن كلا من هاتين البضاعتين ، سواء القمح أم الحديد ، لابد أن تكون ، بصورة مستقلة عن الأخرى ، آيلة إلى ذلك الشيء الثالث الذى يؤلف مقياسهما المشترك)[١].

ويقول : ("ماهو الجوهر الإجتماعى المشترك لجميع البضائع" "إنه العمل")[٢].

ويضيف : (إذن فكمية العمل وحدها ، أو وقت العمل الضرورى ، فى مجتمع معين ، لإنتاج صنف ما ، هى التى تحدد كمية القيمة) .

ويرى أن كل سلعة تنتج فى وقت متساو فقيمتها متساوية ، وحال التفاوت إنما هو بسبب التفاوت فى وقت العمل ، فيقول :

(البضائع التى تتضمن كميات متساوية من العمل ، أو التى يمكن إنتاجها فى وقت متساو ، لها بالتالى ، قيمة متساوية ، إن قيمة بضاعة ما ، بالنسبة إلى قيمة كل بضاعة أخرى ، هى على مثل نسبة وقت العمل الضرورى لإنتاج هذه ، إلى وقت العمل الضرورى لإنتاج تلك)[٣].

ويقول : (قيمة قوة العمل ، شأنها فى ذلك شأن قيمة أية بضاعة أخرى ، تحدد بكمية العمل الضرورى لإنتاجها)[٤].

ويقول : (إن مايبيعه العامل ليس عمله مباشرة ، بل قوة عمله التى يضعها مؤقتا تحت تصرف الرأسمالى)[٥].

---

(١) الأجور والأسعار والأرباح (٣٣-٣٤) ، دار التقدم ، موسكو ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
(٢) المرجع السابق (٣٤-٣٥) .
(٣) رأس المال (٥٠/١) .
(٤) المرجع السابق (٥١/١) .
(٥) الأجور والأسعار والأرباح (٤٦-٤٧) .

وعلى هذا الأساس فإن ثمن السلعة يقدر بمقدار مابذل فيها من عمل ، فكلما زاد الوقت فى إنتاج السلعة زاد ثمنها . وفى هذا مدخل على ماركس حيث إن العامل الكسول سيأخذ وقتا أطول من الآخر فى إنتاج سلعته ، وعلى هذا فإن السلعة المنتجة من قبله ستكون ذات مردود أكثر من السلعة التى أنتجها العامل النشيط قياسا على الوقت!!

يقول ماركس : (كيف تقاس كمية العمل؟)

ويجيب : (بالزمن الذى يستغرقه العمل ، بالساعات ، بالأيام ، ...الخ)[١].

نظرية فائض القيمة :

بعد أن عرض ماركس نظريته عن القيمة ، وأبان بأنها تحدد حسب العمل المبذول فى إنتاج السلعة ، قام بتوضيح الشق الثانى من نظريته وهى فائض القيمة ، ومفادها أن الرأسمالى يستغل العامل ويحصل على إنتاج لايأخذ العامل مقابله شيئا .

ونترك ماركس يتحدث عن نظريته هذه ، حيث قال : (إن قيمة قوة العمل تحددها كمية العمل الضرورية للإبقاء عليها أو لتجديد إنتاجها ، فى حين أن استخدام قوة العمل هذه ليس له من حدود غير طاقة العامل على العمل وقوته الجسدية . والقيمة اليومية أو الأسبوعية لقوة العمل هى شىء متميز كل التميز عن الإنفاق اليومى أو الأسبوعى لهذه القوة ، مثلما يتميز العلف الذى يحتاج إليه الحصان كل التمييز عن الوقت الذى يستطيع فيه حمل فارسه . فإن كمية العمل التى تحدد قيمة قوة عمل العامل لاتؤلف البتة حدا لكمية العمل التى يمكن أن تقوم بها قوة عمله . فلنأخذ ، مثلا ، غزالنا . لقد رأينا أنه ، من أجل تجديد إنتاج قوة عمله يوميا ، يجب عليه يوميا أن يجدد إنتاج قيمة قدرها ثلاثة شلنات ، وهو يحقق هذا باشتغاله ست ساعات كل يوم . ولكن هذا لايجعله عاجزا عن العمل يوميا ١٠ ساعات أو ١٢ أو أكثر . بيد أن الرأسمالى ، بدفعه القيمة اليومية أو الأسبوعية

---

(١) الأجور والأسعار والأرباح (٣٥) .

لقـوة عمل الغزال ، قد اكتسب حق استخدام قوة عملـه طيلة اليوم كله أو الأسبوع كله . وعلى هذا فإن الرأسمالى يرغم الغزال على الشغـل مدة لنقل هى ١٢ ساعة فى اليوم . فبـالإضافة إلى الساعات الست الضرورية للتعويض عن أجرته ، أو قيمة قوة عملـه ، سيشتغـل العامـل ست سـاعات أخرى ، أسميهـا ساعات العمل الزائد ، مـع العلم أن هذا العمـل الـزائد سيتجسد فى قيمـة زائدة ونتاج زائد . فإذا كان غزالنا ، مثلا ، يضيـف إلى القطن بشغله ست ساعات فى اليوم قيمة قدرها ثلاثة شلنات هى المعـادل المضبوط لأجرته فإنه بشغله ١٢ ساعة فى اليـوم يضيـف إلى القطن قيمـة قـدرها ستة شلنات ، وينتج كمية زائدة مناسبة من الغزول . ولما كان قد باع قوة عمله للرأسمالى فإن كل القيمة التى أوجدها ، أو كل النتاج الذى صنعـه ، ملك للرأسمالى الذى يملك Pro Tempore قوة عمله . وعلى هذا ، فإن الرأسمالى ، بتسليفه ثلاثة شلنـات ، سيحقق قيمة قدرها ستة شلنات ، إذ أنه بتسليفـه القيمة التى تتبلور فيها ساعات العمل الست ، سيحصل بالمقابل على قيمـة تتبلور فيها ١٢ ساعة عمل . وإذا ماكرر الـرأسمالى هـذه العملية يوميـا فـإنه سيسلف يوميا ثلاثة شلنات وسيحصل يوميا على ستة شلنات ، سيستخدم نصفها لدفع أجور جديدة ، ويؤلـف النصف الآخر القيمـة الزائدة التى لايدفـع الـرأسمالى أى معادل لها . على هذا النوع بالضبط من التبادل بين الـرأسمال والعمل يقوم الإنتاج الرأسمالى ، أو نظام العمل المأجور ...)[١].

ويقـول : (إن جزءا فقـط مـن العمل اليومى للعامـل يدفـع ثمنه بينما يظـل الجزء الآخر غير مـدفـوع الثمـن ، ومـع أن هذا العمـل بالـذات غير المدفـوع الثمن أو العمل الـزائد هو الذى يؤلف الأسـاس الذى تتكون منه القيمة الزائدة أو الربح ، فإنه يبدو كأن العمل كله عمل مدفوع الثمن)[٢].

ومن هنا فإن ماركس يضع لنا هذا التعريف للقيمـة الزائدة حيث قال

---

(١) الأجور والأسعار والأرباح (٤٩) .

(٢) المرجع السابق (٥١-٥٢) ، وانظر (٥٣-٥٤) حيث ضرب ماركس الأمثلة على ذلك الاستغلال من قبل الرأسمالى للعامل .

(يمكن أن يسمى العمل الزائد الذى يستمد منه القيمة الزائدة عملا لم يدفع ثمنه)[١].

ويقول : (إن سر قوة رأس المال السياسية كله قائم فى هذا الواقع البسيط ، وهو أن رأس المال يتصرف بكمية معينة من عمل الآخرين ، لايدفع ثمنها)[٢].

وقد أفاض ماركس ومن بعده من الشيوعيين فى شرح هذه النظرية ، ولاغرابة فى ذلك لأن فكرهم قائم أساسا على محاربة الرأسمالية ، وإسقاطها ، ومن هنا رتبوا عددا من القوانين بناء على هذه النظرية[٣]تدل على استغلال الراسمالى وهى :

(١) قانون تجميع رأس المال .

(٢) قانون تراكم رأس المال .

(٣) قانون زيادة البؤس والفقر[٤].

أولا : قانون تجميع رأس المال :

ومفاد هذا القانون كما يراه ماركس :

(أن زيادة رأس المال الثابت ، ونقص رأس المال المتغير يؤدى إلى نقص نسبة الربح ، لأن العمل أى "رأس المال المتغير" هو مصدر القيمة الوحيدة عنده . والمنافسة القائمة تؤدى إلى زيادة تشغيل الآلات التى توفر العمل ليضمن فائض قيمة نسبيا ، وبالتالى مزيدا من الربح .. ويدلل ماركس رياضيا على أن رأس المال المتغير هو وحده أساس القيمة ، حتى أنه إذا

---

(١) رأس المال (٧٥٧/٤) .

(٢) المرجع السابق (٧٥٧/٤) .

(٣) لمزيد عن هذه النظرية انظر : مصادر الماركسية الثلاثة (٣٥-٣٦) ، الإشتراكية (٢٨-٢٩) ، المذاهب الإقتصادية الكبرى (٩٦) ، الفكر الماركسى (١٤).

(٤) والقوانين الأساسية التى تحرك التطور الرأسمالى هى : السعى وراء الربح ، المنافسة ، التمركز ، الاتجاهات نحو انخفاض معدل الربح . انظر شرح هذه القوانين فى كتاب الإشتراكية (٢٣-٢٨) ، بورجان .

حدثت ابتكارات إلى توفير العمل ، فإن ذلك سيكون لـه نتيجة واحدة هى انخفاض فائض القيمة التى يحصل عليها الرأسمالى .. وكـل ماهنالك أن المنتج الـذى استخدم الابتكارات لأول مـرة تكون لزيادة التركيـب العضوى لرأس المال بالنسبة له نتائج تختلف عن آثارها فيما يتعلق بطبقـة المنتجين عموما ... فهـو ينتج كمية أكبر من السلـع بنفقات أقل من متوسـط النفقات السائد فى السـوق ، ويبيعها بالثمن الـذى ينبنى على نفقات المنتجين الآخرين ، ولهـذا يحصـل المنتـج على دخل احتكـارى يضاف إلى فائض القيمـة المستغـل أولا .

ولكـن سـرعان مـاتعمل المنـافسة على تعميم وسيلـة الإنتـاج الجديدة ، ومعنى ذلـك أن تنخفـض النفقـات عموما لدى جميع المنتجين ويصبـح كـل منتج فى نفس حالة المنتج الأول ، فتنخفض الأسعار إلى الحد الـذى تباع فيه السلـع بقيمـة مـابذل فيها مـن عمـل أى من رأس مال متغير .. ورأس المال المتغير قـد نقـص على مدار المجتمـع لأن الاختراعـات الجديدة وفـرت القـوة العـاملة ، ومعنى ذلك لديه أن فـائض القيمة الذى سيحصـل عليـه المنتجون سيقـل .. ولذلك يقرر ماركس وجود قـانون تميل نسبة الأرباح تبعـا لـه إلى الانخفـاض نتيجـة لزيادة التركيـب العضوى لرأس المال وتنـافس المشـروعات والتقدم الفنى ..)[١].

ثانيا : قانون التراكم الرأسمالى :

رغبة الرأسمالى فى زيادة ثروته وماينتج عن ذلك من تراكم هى رغبة أصيلة فى المجتمع الرأسمالى ، وتنبع من طبيعة تركيب هذا المجتمع .

يقول ماركس : (إن معنى التراكم عند الرأسمالى أن يغـزو عالم الثراء الإجتماعى ، وأن يزيد من كتلة البشر الذين يستغلهم ، وبذلك يوسع دائرة نفوذهم وسطوته المباشرة وغير المباشرة)[٢].

---

(١) حوار مع الشيوعيين (١٧٩) ، وانظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٩٩) .
(٢) الإشتراكية العربية (١٢٩) .

ومن هنا يحاول الرأسماليون أن يقضى كل منهم على الآخر ، إذ تقضى المشروعات الكبيرة على المشروعات الصغيرة مما يؤدى إلى زيادة التراكمات الرأسمالية لدى المشروعات الكبيرة . ووجود الأزمات - وهى ظاهرة ملازمة للنظام الرأسمالى - ومما تؤدى إليه من بطالة تجعل هناك دائما مايسميه ماركس (الجيش الاحتياطى للبضاعة) الذى يؤدى دائما إلى إبقاء أجور العمال منخفضة نتيجة هذا العرض الزائد المستمر لقوة العمل .

وانخفاض الأجور يساعد بدوره على زيادة فائض القيمة وبالتالى يؤدى إلى زيادة التراكم الرأسمالى(١).

ولاشك أنه بزيادة الآلية فى الإنتاج يتم الاستغناء عن عدد من العمال يضافون إلى جيش العاطلين .. وزيادة الآلية ، تخفض نفقات الإنتاج .. ونتيجة المنافسة الحرة ينخفض سعر السلعة عن ذى قبل ، ويترتب عليه انخفاض ربح الرأسماليين مما يحفزهم لتشغيل من لم يطردوا من العمل ساعات أكثر ، ويشغلون النساء والأطفال بأجور منخفضة ، وأخيرا يتكتلون لفرض أسعار احتكارية ، وللتحكم فى السوق ، وهذا كله يؤدى إلى تراكم رأس المال فى أيديهم(٢).

ويؤدى هذا بالطبع إلى بؤس طبقة العمال .

يقول ماركس : (إن التناقض المستمر فى عدد الرأسماليين الذين يستغلون ويحتكرون . جميع مميزات عملية التحويل هذه يقوم إلى جانبه نمو فى البؤس الجماعى والاضطهاد والاستعباد . والتحقير والاستغلال ، ولكن تنمو معه أيضا ثورة الطبقة العاملة ، وهى طبقة تتكاثر فى العدد على الدوام وينظمها ويوحدها النظام الآلى لعملية الإنتاج الرأسمالى نفسه)(٣).

---

(١) انظر : الإشتراكية العربية (١٢٩) ، حوار مع الشيوعيين (١٧٩) .
(٢) انظر حوار مع الشيوعيين (٣٢) .
(٣) المرجع السابق (١٨٠) .

ثالثا : قانون زيادة البؤس (الفقر) :

يقول ماركس : (كلما زادت الثروة الإجتماعية وزاد تشغيل الرأسمال وزاد نطاق نموه وطاقته ومن ثم كلما زاد عدد العمال وزادت إنتاجية عملهم زاد جيش الصناعة الاحتياطى ، فنفس الأسباب التى تدعم طاقة رأس المال وتوسعه تزيد أيضا من قوة العمل المتاحة له . لذلك يزداد الحجم النسبى لجيش الصناعة الاحتياطى ... وينبنى على ذلك إذن أنه بقدر مايتراكم فى رأس المال تزداد حالة العامل سوءا ... تراكم فى البؤس ليقابل التراكم فى رؤوس الأموال ، فتراكم الثروات فى قطب هو إذن فى نفس الوقت تراكم البؤس وآلام العمل والعبودية والجهل .. فى القطب المقابل)[١].

(وهكذا يرى كارل ماركس أنه فى الوقت الذى تتراكم فيه ثروات الرأسماليين يزداد بؤس العمال بصفة مضطردة ومنتظمة . ويرى ماركس أن قانون الإملاق أو الإفقار المطلق هو قانون عام فى النظام الرأسمالى)[٢].

الأزمات :

(يرى كارل ماركس أن طبيعة النظام الرأسمالى تؤدى حتما وبالضرورة إلى أن تعتوره أزمات دورية ناجمة عن طبيعة النظام نفسه ومايحمله من تناقض بين جماعية الإنتاج وفردية التملك ومايؤدى إليه من فوضى فى العملية إلى حدوث أزمات دورية تهز كيان النظام كله)[٣].

وبعد هذا العرض لنظرية القيمة وفائض القيمة نصل إلى التالى :

أولا : أن قيمة السلعة تقدر بكمية الوقت الذى تستغرقه فى إنتاجها .

---

(١) نقلا من كتاب الإشتراكية العربية (١٢٩-١٣٠) .

(٢) الإشتراكية العربية (١٣٠) ، وانظر : حوار مع الشيوعيين (١٣٣) ، الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١١٥) ، وانظر فى هذه القوانين مجتمعة : النظم الإقتصادية المعاصرة (١٧٠) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠٤-٢٠٥) ، إقتصادنا (٢٠٥-٢٠٧) .

(٣) الإشتراكية العربية (١٣٠) .

ثانيا : أن الأسعار المتفاوتة بين السلع إنما هو بسبب تفاوت كمية العمل .

ثالثا : أن النظام الرأسمالى يقوم على استغلال العمال وإذلالهم .

رابعا : أن الرأسمالى يحقق ربحا لايدفع مقابله شيئا وهو (القيمة الزائدة) .

خامسا : أن هذا الاستغلال من الرأسمالى وحصوله على ذلك الربح بدون مقابل ، يتولد عنه مجموعة من القوانين تؤدى فى النهاية إلى تقويض النظام .

بطلان هذه النظرية :

(أ) **القيمة** : وبيان بطلانها بالوجوه التالية :

الوجه الأول : إن الواقع يبطل هذه النظرية ، ولايمكن التسليم لما جاء به ماركس من أفكار حولها ، لأن كثيرا من الأمثلة تنقض هذا الفكر .

يقول الصدر : (لنأخذ الأرض مثالا لهذا التناقض ، بين القانون والواقع . فالأرض تصلح ـ دون شك ـ لإنتاج عدد كبير من الحاصلات الزراعية ، أى لعدد كبير من الاستعمالات البديلة فيمكن أن تستعمل الأرض فى زراعة الحنطة ، كما يمكن أن تستخدم ـ بدلا عن الحنطة ـ فى إنتاج القطن والرز وهكذا . ومن الواضح أن الأراضى ليست متشابهة فى كفاءتها الطبيعية ، فهناك من الأراضى مايكون أكثر كفاءة فى فرع معين من فروع الإنتاج الزراعى ، كإنتاج الرز مثلا . وهناك ماهو أكثر كفاءة لزراعة الحنطة أو القطن .

وهكذا تتمتع كل أرض باستعداد طبيعى ، يرشحها لفرع معين من فروع الإنتاج . ويعنى هذا أن كمية معينة من العمل إذا أنفقت على زراعة الأرض ، فى حالة تقسيمها على فروع الإنتاج الزراعى تقسيما صحيحا ، واستخدام كل أرض فيما هى أصلح له ... تنتج مقادير مهمة من الحنطة والرز والقطن ، بينما لو صرفت نفس تلك الكمية المعينة من العمل

الإجتماعى ، فى حالة توزيع سىء للأرض على فروع الإنتاج ، واستخدام كل أرض فى غير ماهى أجدر به .. لما أمكن الحصول إلا على جزء من تلك المقادير المهمة . فهل نستطيع أن نتصور أن هذا الجزء من الحنطة مثلا ، يساوى - من الناحية التبادلية - ذلك المقدار المضاعف ، الذى ينتج فى حالة توزيع الأرض - على فروع الإنتاج - توزيعا صحيحا .. لالشىء إلا لأنه يساويه فى كمية العمل الإجتماعى المتجسد فيه؟! وهل يسمح الاتحاد السوفييتى - القائم على أساس ماركسى - لنفسه أن يساوى فى التبادل بين هاتين الكميتين المختلفتين بوصفهما تعبيرا عن كمية واحدة من العمل الإجتماعى .

إن الاتحاد السوفييتى ، وأى دولة أخرى فى العالم ، تدرك عمليا - دون شك - مدى الخسارة التى تحيق بها من جراء عدم استخدام كل أرض فيما هى أكثر صلاحية له .

وهكذا نعرف أن الكمية الواحدة من العمل الزراعى قد تنتج قيمتين مختلفتين ، تبعا للطريقة المتبعة فى تقسيمها على الأراضى المتنوعة .

ومن الواضح - فى ضوء ذلك - أن القيمة المضاعفة ، التى تحصل من استخدام كل أرض فيما هى أكثر صلاحية له .. ليست نتيجة للطاقة التىأنفقت فى الإنتاج ، لأن الطاقة هى الطاقة ، لاتتغير ، سواء زرعت كل أرض بما هى أصلح له أم زرعت بغيره ، وإنما هى - القيمة المضاعفة - مدينة للدور الإيجابى الذى تلعبه الأرض نفسها فى تنمية الإنتاج وتحسينه)[1].

ومن الأمثلة على رد هذا الزعم وبيان أن القيمة لاتحدد من خلال كمية العمل .

١ - (أمضى كل من (أ) و(ب) وهما فنانان تشكيليان عشر ساعات فى وضع لوحتين ، بيعت الأولى منهما بثلاثين جنيها ، بينما بيعت الثانية بعشرة آلاف جنيه ، علما بأن عدد الساعات التى أمضاها الرسامان المذكوران آنفا

---

(١) إقتصادنا (١٨٤-١٨٥) .

هو نفس عدد الساعات التى أمضاها الرسام العالمى الشهير (x) فى رسم لوحة بيعت بمليون جنيه)[١].

٢ - (يعمل (أ) ، (ب) ، (ج) ، (د) منذ عشر سنوات على أربع آلات متماثلة - تماما - بأحد المصانع . ورغم أن سنهم واحدة ، وعدد سنوات خبرتهم واحدة ، وتلقوا جميعا برنامجا تدريبيا واحدا فإن المشرف عليهم فى المصنع يقول : إننا لو قدرنا إنتاج (أ) بمائة وحدة قياسية ، فإن إنتاج (ب) هو فى المتوسط تسعون ، وإنتاج (ج) ثمانون ، وإنتاج (د) سبعون . وهو يرجع ذلك لاختلاف فى درجة الانتظام والذكاء والقدرة البدنية ومدى الاستفادة من الخبرة المكتسبة)[٢].

٣ - (تقدر قيمة إنتاج مليون عامل سوفييتى يعملون فى صناعة البترول فى "باكو" والناجمة عن ساعات عمل مقدارها مائة وخمسون مليون ساعة شهريا بسبعين ضعفا بالمقارنة بإنتاج مليون عامل سوفييتى يعملون فى زراعة القطن والناجم عن ساعات عمل مماثلة تماما ، وذلك مع تحييد دور العمل الميت "الآلات وماشابهها")[٣].

ولو تأملنا هذه الأمثلة لوجدنا أنها تبطل زعمهم القائل بأن السلعة تحدد قيمتهامن خلال العمل المبذول فيها ، إذ أن القيمة ترجع أحيانا لعوامل أخرى غير العمل .

الوجه الثانى : من أكثر الأمور إبطالا للنظرية الماركسية عن القيمة (النفط) فقيمته أكثر من العمل المبذول فيه . يقول حجى : إن (قيمة النفط لايمكن أن تعود لمقدار أو كمية العمل المبذول فى استخراجه كما يقول

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٣١) .
(٢) المرجع السابق (١٣٢) .
(٣) المرجع السابق (١٣٢) وانظر مابعدها .

ماركس ، علما بأن "ماركس" يرفض بشدة اعتبار الطبيعة مصدرا للقيمة ، ويقول إن عمل الإنسان لابد أن يضاف لعمل الطبيعة لإعطائها (قيمة) . ولكن هل يتفق هذا التحليل مع واقع النفط؟ ... وهل ترجع قيمة النفط فى السوق العالمية لقانونى العرض والطلب والمحددين هنا بعامل الاحتياج الماس للنفط لاستمرار عجلة الحضارة الحديثة فى الدوران؟ أم أن هذه (القيمة) ترجع لعدد ساعات العمل الذى يبذله مستخرجو النفط فى استخراجه؟

لانظن أن بمقدور أحد أن يتبنى التعليل الأخير فى الفقرة السابقة ، فمن المؤكد أن "قيمة" النفط فى الأسواق تفوق - بمراحل عديدة - قيمة كل من العمل المباشر المبذول فى استخراجه والعمل الميت أو المتراكم والمتمثل فى الآلات المستعملة فى استخراجه . وسنضرب أمثلة تؤكد أن قيمةالنفط لاترجع مطلقا لمقدار العمل المباشر أو الميت المبذول فى استخراجه .

* يبذل عادة نفس العمل والجهد ، وتستعمل نفس الآلات فى حفر بئرين للنفط ، ولكن أحدهما تنتج عشرة آلاف برميل فى اليوم ، بينما لاتنتج الأخرى سوى خمسمائة برميل فى اليوم . فهل الدور الفعال فى إيجاد (القيمة) هنا منسوب للعمل أم للطبيعة؟

* قيمة برميل النفط الخام المستخرج من بحر الشمال (بين بريطانيا والنرويج) هى نفس (قيمة) برميل النفط الخام المستخرج من آبار النفط بالسعودية والكويت والإمارات العربية ، رغم أن تكلفة الأول والمستخرج من آبار بحرية (Off shore oil wells) تعادل خمسة أضعاف تكلفة استخراج الثانى والمستخرج من آبار أرضية (On shore) أيرجع التساوى فى القيمة هنا لتساوى الاحتياج فى السوق العالمية لكل منهما؟ ... أم يرجع للعمل المبذول فى كل منهما - رغم اختلاف كمية هذا العمل؟ ... لاريب أن الإجابة الأولى هى الإجابة الوحيدة الممكنة والمعقولة .

* يستخرج النفط فى بعض الحقول بولاية كالفورنيا الأمريكية وببعض مناطق الخليج العربى دون تدخل من الإنسان ، حيث يتواصل الإنتاج منذ

عشرات الأعوام بواسطة مضخة مثبتة على رأس البئر ، وذلك بسبب قوة الضغط التى يخرج بها النفط من مواسير الإنتاج ، بينما يكون هذا الضغط فى تكوينات جيولوجية أخرى ضعيفا جدا مما يحتم عمل عمليات حقن (Injection) لتحل محل الضغط الطبيعى فى الحالة الأولى (وهو ماحدث بعد سنوات قليلة بحقول خليج السويس المصرية مثل حقل مرجان وحقل يوليو بمنطقة رأس غارب) .

وفى الحالتين آنف ذكرهما لايوجد أى فارق بين قيمة برميل النفط المستخرج من هذه البئر أو تلك ، أفلا يعنى ذلك أن القيمة هنا ترجع لعوامل أخرى غير العمل المبذول ، وقد اختلفت ـ كما هو جلى ـ كميته من حالة لأخرى)[١].

(إن هذه الأمثلة والتى تدور حول (النفط) الذى لاجدال فى كونه عصب "الإنتاج" فى زمننا هذا ، إنما تؤكد أن تعاظم منفعة النفط والطلب عليه (بسبب تلك المنفعة) قد ألغيا دور "العمل المبذول فى استخراج النفط" فى تحديد قيمته)[٢].

الوجه الثالث : أن العمل عنصر غير متجانس ، فهو متفاوت حسب الجهود المختلفة والمواهب والاستعدادات الذاتية .

يقول حجى : (ومما لاشك فيه أن مجالات أخرى عديدة فى مجالات الأعمال الحديثة كالهندسة المعمارية والديكور والتصميمات الصناعية إنما تعتمد "القيمة" فى دوائرها على أشياء أخرى إلى جانب العمل ، بل وأكثر أهمية منه مثل الموهبة والاستعداد الذاتى والاستفادة الخاصة من

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٣٣-١٣٥) .
(٢) المرجع السابق (١٣٥) .

التدريب[١]. ومن أبرز هذه المجالات "مجال السياحة" فهل يمكن أن يفسر الدخل القومى من السياحة لدول مثل أسبانيا وايطاليا والمغرب وتونس ولبنان "قبل الكارثة" ومصر بالعمل؟ ... وماهو العمل الذى يكمن وراء دخل مصر من زيادة السياح العالميين لمعبد أبى سنبل وآثار الأقصر وأسوان وأهرامات الجيزة وأبى الهول والمتحف المصرى؟ ومن المصادفات الغريبة أن أى تعليل ماركسى للقيمة فى هذا المثال الأخير سيكون داحضا لذاته بذاته ، لأن "العمل الميت" الكامن فى هذه الآثار والذى ورثناه عن قدماء المصريين والذى قد يتمسك الإقتصادى الماركسى به كمصدر لقيمة هذه الآثار وماتجلبه من دخل ، هو من نوع "العمل الفنى" الذى لاينطبق عليه أصلا التنظير الماركسى للقيمة بالرجوع لكمية العمل المبذول فالمحك هنا ليس هو "كمية العمل" وإنما "نوع العمل")[٢].

ويقول الصدر : إن العمل (عنصر غير متجانس ، يضم وحدات من الجهود مختلفة فى أهميتها ، ومتفاوتة فى درجتها وقيمتها . فهناك العمل الفنى الذى يتوقف على خبرة خاصة ، والعمل البسيط الذى لايحتاج إلى الخبرة العلمية والفنية . فساعة من عمل الحمال تختلف عن ساعة من عمل المهندس المعمارى ، ونهار من عمل الصانع الفنى الذى يبذله لإنتاج محركات كهربائية يختلف ـ تمام الاختلاف ـ عن عمل العامل الذى يحفر السواقى الصغيرة فى الحديقة)[٣].

كذلك يقال : هناك (العوامل الذاتية الكثيرة ـ التى تؤثر على العمل ـ باعتباره صفة إنسانية ـ فتحدد أهميته ودرجة كفايته ، كما تحدد الجهد النفسى والعضوى الذى يتطلبه. فالاستعداد الطبيعى العضوى والذهنى للعامل

---

(١) الاستفادة من التدريب غير التدريب ، فالأولى (ذاتية) والثانية (موضوعية) ، بمعنى أنه وإن جاز اعتبار التدريب عملا ، فإنه لايمكن اعتبار الاستفادة الخاصة من التدريب كذلك بسبب جوهرها الذاتى أو الشخصى .

(٢) تجربتى مع الماركسية (١٣٥-١٣٦) .

(٣) إقتصادنا (١٨٨) ، وانظر معالم الإشتراكية العربية (١٢٣) .

ومدى رغبته فى النبوغ والتفوق على الآخرين ، ونوعية مايختلج فى نفسه من عاطفة بالنسبة إلى العمل ، يجعله يقبل عليه مهما بلغت مشقته ، أو يعرض عنه مهما خف عبؤه ، ومايشعر به من حيف وحرمان ، أو ماينعم به من حوافز تدفعه إلى التفنن والإبداع ، وماتحيط به من ظروف تدعه فريسة لعوامل السأم والضجر ، أو تبعث فى نفسه شيئا من قوة الأمل والرجاء ... كل هذه الأمور تعتبر من العوامل التى تؤثر على نوعية العمل وتحدد قيمته)[١].

الوجه الرابع : أن الأشياء ذات القيمة ليست نوعا واحدا بل مختلفة .

يقول العطار : (أما أن الأشياء ذات القيمة نوع واحد فهو خطأ كبير لأن الأشياء نوعان إن لم تكن أنواعا .

أول هذه الأنواع وأشيعها : هو ذلك الذى يعطيه المعطى فيفقده ، ويأخذه الآخر ويربحه ، ومثاله الذهب والفضة والعملة ، ومثاله الطيبات المادية من مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب .

والنوع الثانى على عكس النوع الأول ، يعطيه المعطى ويأخذه الآخذ فيزداد المعطى منه ، ويستفيد الآخذ الفائدة التى يربحها ، كالآداب والعلوم والفنون ، ومثل النصح والتوجيه)[٢].

(والنوع الثالث : ربما كان خفيا لايبدو إلا لعين المدقق ، وأعنى به ذلك النوع من القيمة الذى يعطيه المعطى فلايفقده ، بل يزداد رصيده منه بالإعطاء ، ويأخذه الآخر فلايربح بأخذه شيئا ، مثال ذلك خبرة الطبيب وعلمه فى علاج المريض أو فى جراحته ، يعطيها الطبيب مريضه فلاتنقص خبرته ، بل تزيد ، ويأخذها الآخذ المريض فلايأخذ شيئا من الخبرة والعلم ، وإن انتفع من نتيجتها شفاء من داء ، وربما استفحل الداء ، وربما مات

---

(١) إقتصادنا (١٨٨) ، وانظر مابعدها فقد ذكر بعض اعتراضات الماركسية ، وأبان بطلانها من خلال الواقع .

(٢) الشيوعية (٩٤) .

المريض ، فإن نتيجة الخبرة شيء مختلف عن الخبرة نفسها ، ولذلك نقول إن الطبيب يستفيد خبرة فوق خبرته، ولايستفيد المريض من خبرة الطبيب شيئا من نوع الخبرة وإن انتفع بنتيجتها حينما يغنم الشفاء .

فإذا كانت أنواعا ثلاثة تختلف فى اللباب والجوهر كل هذا الاختلاف المبين ، فكيف يقال أو يجوز أن يقال : إن مرد القيمة فيها جميعا واحد هو الجهد الإنسانى المبذول فيها؟ هذه واحدة .

والثانية أن ماركس يوحد بين الشيء القيم والجهد المبذول فيه ، وهما شيئان مختلفان أشد الاختلاف ، ولايلتقيان إلا فى حالات الإنسان السوى الذى لايعانى من العاهات والأمراض ، ولكن ، هب أن مجنونا يبذل جهدا كبيرا فى نقل الماء من النهر إلى النهر نفسه كساقية جحا المشهورة ، أو هبه يمزق ثوبه ثم يخيط مامزقه ، أيكون لجهده هذا قيمة؟ ثم هب هذا المجنون قد وقع على درة ثمينة وجدها لقى فى التراب ، أيقلل من قيمتها أنه وجدها لقطة بغير جهد بذله فيها؟ إن الشيء القيم والعمل المبذول فيه شيئان مختلفان والتوحيد بينهما خطأ مبين . ربما كان العمل عاملا من عوامل القيمة فى الشيء القيم ، فهذا شيء لانكران له مادام العمل من النوع القيم الذى يزيد فى قيمة الشيء المبذول فيه ، أما القول بأنه المرجع الوحيد للقيمة فخطأ واضح لامراء فيه)[1].

ومن هنا فهم يخلطون بين القيمة والثمن . فمثلا :

(الماء فى البحر أو النهر أو العين أو البئر لاثمن له إذا أخذته ، أما الماء الذى يستقه السقاء ويحمله إليك فلابد له من أجر عمله ، وأنت لاتعطيه ثمن الماء ، ولكن أجر عمله فى الإستقاء والنقل) .

(فأجر العمل شيء وثمن هذا الشيء شيء آخر ، وهما مختلفان ، يختلف أحدهما عن الآخر ، وهما يختلفان عن القيمة التى هى شيء ثالث غيرهما . ولهذا قد توجد القيمة حيث لاعمل ولاثمن مثل قناع أخناتون ،

---

(١) الشيوعية (٩٤-٩٥) .

وقد يوجد العمل ولاقيمة مثل هذيان المجنون ، وقد يوجد الثمن ويزداد وينخفض ولاقيمة هنا وهناك كتمائم السحرة ورق المشعوذين بين الأقوام المتخلفين)[١].

الوجه الخامس : إن النظرية هذه تغفل عن كثير من الأمور التى تدخل فى تحديد القيمة مع العمل .

ومن ذلك :

(١) تكاليف الإنتاج .

(٢) مدى منفعة السلعة وفائدتها .

(٣) شعور المستهلك بالحاجة لهذه السلعة .

(٤) مصادر الطاقة الطبيعية[٢].

الوجه السادس : أن النظرية عجزت عن تفسير بعض الأمور ومن ذلك:

(أ) (الأشياء التىلم ينفق فيها أى عمل كالذهب والمعادن الثمينة) .

(ب) (الفارق بين السلعتين مع التساوى فى العمل) .

(ج) (كذلك لاتفسر لنا اتفاق بعض السلع فى القيمة مع إختلاف قدر العمل المبذول فيها)[٣].

وبهذا يثبت بطلان زعم الماركسية فى أن قيمة السلعة تكمن فى مقدار العمل المبذول فيها .

(ب) **فائض القيمة** :

وبيان بطلانها من وجوه :

الوجه الأول : أن هذه النظرية تقوم على أساس أن الرأسمالى دائما يربح ، علما بأن ذلك أمرا ليس مطردا فالربح والخسارة واردان .

---

(١) الشيوعية (٩٦-٩٧) .

(٢) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢١٦) .

(٣) المرجع السابق (٢١٧) .

يقول حجى : (وفى اعتقادنا أن مافى هذا التنظير من "السياسة" أضعاف مافيه من "الإقتصاد" ، وهذه هى زلة الإقتصاد الماركسى برمته . فإذا كانت زلة نظرية القيمة الماركسية هى فى قصرها القيمة على العمل الإنسانى ونفيها لأى مصدر آخر كالطبيعة أو الموهبة أو المهارة أو التنظيم ؛ فإن زلة نظرية فائض القيمة هى فهمها الضيق لدور الرأسمالى أو رب العمل : فقد انطلق كارل ماركس من نقطة اعتبرها مسلمة من المسلمات الثابتة ، وحقيقةلاريب فيها ، وهى أن (الرأسمالى) لايعمل شيئا! ولاريب أن هذا القول يخالف المنطق والواقع معا : من جهة فإن نظرية فائض القيمة الماركسية قد بنيت على أمر يخالف الواقع تماما ، وهو افتراض ربح الرأسمالى دائما . وانطلاقا من هذا الافتراض جنح ماركس إلى اعتبار مايحصل عليه رب العمل - وهو مايزيد على مايدفعه للعمال مقابل شرائه لقوى عملهم - هو قيمة فائضة يحصل عليها باستغلاله للعمال الذين من خصائصهم ... أنهم ينتجون أكثر مما يأخذون ويستهلكون .

ولاريب أن هذا الافتراض ، افتراض خاطىء لأنه مبنى على تثبيت فرضية ربح الرأسمالى أو رب العمل ، وهو تثبيت لاأساس له من الصحة ، فمن المؤكد أن رب العمل قد يربح وقد يخسر ، فبماذا يفسر الإقتصادى الماركسى حالة خسارة رب العمل عند وقوعها؟ ولماذا لايفسر ربحه بأنه تطبيق لمبدأ مغانم الأعمال التجارية ومغارمها؟)[1].

الوجه الثانى : أن هذه النظرية نظرت إلى السلعة بحد ذاتها وكأنها موجودة تلقائيا فتناست صاحب العمل ودوره الفكرى والتنظيمى من حيث الإدارة والفهم لذلك المنتوج ، وتناست الآلات والأدوات التى تستخدم فى إنتاج تلك السلعة . والجهد الذى يبذله صاحبها فى صيانتها والمحافظة عليها وماإلى ذلك .

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٣٦-١٣٧) .

وقد تستقيم نظريتهم لو أن السلعة أوجدت نفسها بنفسها!! كما قالوا عن الطبيعة ، ولكن لن يقبل منهم ذلك لأنه مشاهد!! محسوس حسب نظرياتهم!!

يقول حجى : (وهل "العمل" هو فقط العمل اليدوى المباشر للشغيلة أما التنظيم والإدارة والعمل الذهنى فليسوا من قبيل العمل؟! .

لاريب أن نظرية فائض القيمة تفترض ـ بشكل لايقبل الجدل ـ نفى صفة العمل عن التنظيم والإدارة ، وهما جوهر دور رب العمل ، بالإضافة إلى دور العمل الميت "المحل والمكان والآلات" والذى وإن كان الماركسيون يقرون بمساهمته فى العملية الإنتاجية إلا أنهم لايوافقون عليه هنا ، لأنه فى نظرهم من قبيل عمل الغير الذى آل للرأسمالى بالميراث والذى يرفضه الماركسيون كما هو معلوم!) .

ويضيف : (ونحن نتساءل : هل يمكن لإنسان خبر التجارة والأعمال والصناعة فى مجالاتها المتقدمة أن ينكر دور التنظيم والإدارة والتسويق ، ومايلعبه الاستعداد الخاص والمهارة الذاتية فيها من فارق كبير بين يباعد مابين النجاح والفشل؟ ـ والإجابة عندنا ـ وعند كل دارسى علوم الإدارة والتنظيم ـ لايمكن أن تكون إلا بالنفى)[١].

ويقول حسين أبو الحسن : (وماركس فى نظريته هذه ، لم ينتبه ـ عن قصد أو غير قصد ـ إلى نقطتين مهمتين :

أولا : ضرورة تحديد قيمة عمل الآلات والأدوات التى تساهم فى الإنتاج والتى يصبح لها قيمة معينة عندما تنتج وتعمل . وعندها لابد من احتسابها من مجمل قيمة السلع المنتجة .

وثانيا : فيما يبذله صاحب العمل من قوة عمل "قد لاتكون جسدية ولكن عقلية ونفسية" تتمثل فى تسييره للعمل وإشرافه على إدارته وتصريف الإنتاج وتحضير المواد المحولة إضافة إلى تحضيره وتجهيزه لوسائل الإنتاج

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٣٧-١٣٨) .

وعناصره . وهنا لابد من أن تعطى هذه القوة من قيمة إنتاجية معينة يجب أن تحتسب من مجمل القيمة الزائدة)[١].

الوجه الثالث : أن علماء الإقتصاد رفضوا هذه النظرية وانتقدوها ، بل جاء ذلك حتى عن طريق الإشتراكيين أنفسهم ، فهذا مؤسس الحزب الإشتراكى الديمقراطى الألمانى برنتشين يقول : (إن نظرية فائض القيمة تعتبر بتأسيسها على نظرية ماركس فى القيمة صيغة تقوم على افتراض أثبت العلم الإقتصادى بطلانه)[٢].

ويقول برتراند راسل : (إن نظرية فائض القيمة ليست مساهمة فى النظرية الإقتصادية بقدر ماهى ترجمة الكراهية إلى تعبيرات مجردة وصيغ رياضية)[٣].

الوجه الرابع : أن الواقع التطبيقى يرفض هذه النظرية ويصادرها كما صادر بقية المبادىء الماركسية ، وإن كان فى أوقات مختلفة . وإذا كانت الرأسمالية استغلت العامل ، فإن الحزب الشيوعى قد بالغ فى ذلك الاستغلال ... فهل استطاعت الشيوعية - وهى تطبق الأفكار الماركسية بما فيها نظرية القيمة الزائدة الاستغلالية التى أرادوا القضاء عليها - أن تحقق للعامل ماوعدته به؟!! .

يقول فارغا : (إن كل ماصنعه النظام الشيوعى وسفك فى سبيله الكثير من الدماء هو أن فائض القيمة قد تحول من جيوب الرأسماليين إلى جيوب الأقطاب من رجالات الحزب ، وأما العمال فلم يأخذوا حتى الحد الأدنى من الأجور)[٤].

فيذهب فائض القيمة إلى أعضاء الحزب ، وإلى من يمد يده لمساندته

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (١١٦) ومابعدها ، وانظر (١٠٧-١٠٩) ، ولمزيد انظر تجربتى مع الماركسية (١٣٨-١٣٩) .

(٢) نقلا من كتاب تجربتى مع الماركسية (١٢٩) ، وانظر الماركسيات بعد ماركس (٢٤-٢٥) .

(٣) طرائق الحرية ، نقلا من كتاب تجربتى مع الماركسية (١٣٠) .

(٤) الإشتراكية فى التطبيق (١٧) ، نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٢٠).

والترويج لـه ، ويستخدم فائض القيمة فى السيطرة على المجتمع ونشر الفكر الشيوعى ، وإعداد الشيوعيين وتربيتهم على مبادىء ماركس ولينين .

يقول فارغا : (ولما كان من المتعذر الحصول على قروض من الخارج ، فقد كان لامناص من ابتزاز تلك الموارد المالية من السكان ، لاعن طريق القروض الداخلية فحسب ، وإنما أيضا وقبل كل شىء عن طريق الاستغلال المباشر لعمل العمال والفلاحين والمستخدمين . لقد اقتضى نشوء النظام الرأسمالى "تراكما شخصيا" ، كذلك اقتضى نشوء الإشتراكية فى بلد متأخر ومفلس مرحلة مماثلة . وقد كان لقانون تملك الدولة لفائض القيمة دوره المباشر فى الصناعة .

أكد ستالين عن خطل فى كراسته "الأسس الإقتصادية للشيوعية" أن مقولة القيمة لايعود لها من وجود فى ظل النظام الشيوعى . وكان يقصد "القيمة التبادلية" المتحققة فى العلاقات البضاعية . وفى الواقع ، ومهما تكن الطريقة التى تتظاهر بها قيمة الناتج ، فإنها تقاس بكمية قوة العمل المنفقة لإنتاجه ، وعليه ثمة ارتباط موضوعى تماما بين العمل وبين نتائجه المادية .

لهذا بالتحديد لايمكن البتة لفائض القيمة أن يزول ويضمحل ، فلو علم المجتمع فى ظل النظام الشيوعى عن حساب سعر كلفة إنتاج هذا الناتج أو ذاك ، لألقى بنفسه فى سديم من الفوضى الإقتصادية . ففى جميع مراحل الإنتاج الإجتماعى لاتظل القيمة التبادلية للناتج هى وحدها القائمة ، بل يظل قائما معها فائض القيمة المتولدة فى سيرورة الإنتاج . وكلما احتوى العمل الإنتاجى على المزيد من العمل الفكرى والعلمى والتقنى ، خلق المزيد من النواتج التى يتجاوز سعرها نفقات إعادة تكوين قوة عمل العامل ، وكذلك النفقات التى يعيد عن طريقها مالك المنشأة الإشتراكية ، إنتاج رأسماله ، وإذا كان الناتج يحظى بطلب مناظرة فى المجتمع ، ارتدت المسألة كلها إلى مايلى : فى أى أيد يبقى فائض القيمة؟ أفى يد العامل نفسه إذا كان هو المقاول الصغير أم فى أيدى زمرة الملاك الذين يشغلون العامل : روابط صغار من المنتجين ، أو المقاول الخاص الكبير فى الدولة البرجوازية ، أو أخيرا الدولة الإشتراكية؟

إن الحالة الأخيرة هى القائمة فى المجتمع السوفييتى ، فى صناعته الكبيرة . فالدولة الممركزة المساسة من قبل الحزب والبيروقراطية ، تتملك ، من خلال تحقيقها قيمة الناتج فى تجارة الدولة التابعة لها ، فائض القيمة الذى ينتجه عمل العمال وتستخدمه لسد حاجاتها ، أى فى المقام الأول لتطوير الإقتصاد القومى المشرك ، وكذلك لزيادة الامتيازات المادية لأرستقراطية الحزب والبيروقراطية ، على هذا يمكن لفائض قيمة الدولة أن يتحقق بطريقتين :

(أ) بضبط أجر العمال والمستخدمين ،

(ب)بضبط أسعار المنتجات المباعة فى مخازن الدولة . وفى كلتا الحالتين يتحقق ربح الدولة والفئة الحاكمة على حساب العمال والمستخدمين . فأسعار سوق الدولة محدد بمعدل الحد الأقصى المحقق ، وغير المحقق أحيانا ، والمضاعف عدة مرات ، والمتجاوز أحيانا على نطاق واسع جدا نفقات العمل الفعلية التى تكلفتها الدولة لإنتاج تلك المنتجات . ويتلقى الشغيلة من جانبهم أجر الحد الأدنى الذى لايكاد يسمح لهم بحكم أسعار المنتجات ، بأكثر من سد رمقهم . وكانت نتيجة ذلك إذلال الشغيلة معنويا ، ودفعهم فى كثير من الأحيان إلى البحث عن وسائل إضافية للعيش ، وإلى الجمع بين استخدامات متعددة ، وأحيانا إلى انتهاك القانون)[١].

وإذا كان الماركسيون يعتبرون الربح هو القيمة الزائدة التى يأخذها الرأسمالى فإن واقعهم قد دل على أنهم استغلوا أكبر قدر من الربح لمصالحهم فكيف يحرمونه على الرأسماليين ويبيحونه لأنفسهم ، إن الواقع فى الاتحاد السوفييتى قد دل على فساد الفكر وعدم إمكانية تطبيقه فى الحياة اليومية .

فمثلا (مصنع زيرزينسكى الذى يقع فى مدينة إيفانوفو Ivanovo معقل صناعة النسيج فى الاتحاد السوفييتى ، وهو يعتبر أكبر مصنع للغزل فى البلاد وتقول إحصائيات هذا المصنع لسنة ١٩٥٦م : أن الأرباح التى تحققت بعد

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٥٦-٥٨) .

دفع أجور العمال والمصاريف الأخرى بلغت أربعين مليون روبل ، ونقل جزء من هذا المبلغ إلى صندوق المديرين ، بينما نقل ٣٦ مليون روبل إلى الخزينة الحكومية ، أى : أن الحكومة حصلت على تسعين فى المائة من أرباح هذا المصنع وحده)[١].

ويقول وحيد الدين خان : (يأتى نحو خمسين فى المائة من الميزانية المركزية للاتحاد السوفييتى من أرباح المصانع والمنظمات الإقتصادية ، وقد حددت ميزانية ١٩٥٧م هذه الأرباح بمبلغ ١٥٦ بليون روبل ، ومثل هذه الدخول ضرورية فى نظرى لإدارة أى نظام حكومى ، ولكنه ليس إلا صورة جديدة للنهب الجارى فى البلاد الرأسمالية ، عندما ننظر إليه من منظار "القيمة الزائدة" وهذا النظام ليس إلا استبدال نظام استغلالى بآخر من منظور الماركسية)[٢].

الوجه الخامس : أن الاتحاد السوفييتى أضحى دولة رأسمالية فى فئة من الناس تحاول أن تطبق الشيوعية على غيرها ، ويصور أندريه جيد الاتحاد السوفييتى كيف أضحى دولة برجوازية ممثلة فى الحزب الشيوعى ، وأنه قد قام على خداع العمال والتغرير بهم ، فيقول :

(وإنى لأشهد اليوم فى الاتحاد السوفييتى بوادر "بورجوازية" جديدة تنمو وتتطور من بين صفوف هذه الجماهير التى لم تجرب بعد ، وأرى فيها العيوب والمساوىء ذاتها التى لدينا ، إذ لم تكد ترتفع فوق مستوى الفاقة حتى أضحت تحتقر الفقراء ودبت عقارب الغيرة فى نفوس أفرادها ، واستولت على المتع والمناعم التى كانت محرومة منها أمدا طويلا ، وأمست تعرف كيف تظفر بها ، وكيف تحفظها وتصونها ، فلاتفلت من أيديها ، فهل هؤلاء القوم حقا هم الذين صنعوا الثورة؟؟

---

(١) نقلا من كتاب سقوط الماركسية (١٦٦-١٦٧) .

(٢) المرجع السابق (١٦٧) .

كلا . وأيمن الحق ... إنهم فى الواقع معاشر الذين استغلوها لمنفعتهم ، وأحالوها إلى مصلحتهم ، بدوافع الأنانية وحب الذات ، وقد يكونون إلى الآن أعضاء فى الحزب الشيوعى ، ولكنهم لم يعودوا شيوعيين فى أطواء جوانحهم ، وأعماق قلوبهم .

ولست ألوم الاتحاد السوفييتى على أنه أخفق فى تحقيق أكثر مما قد حقق . لأنى أعتقد أنه لم يكن فى الإمكان أحسن مما كان ، لأن البلاد بدأت من درك سحيق ، وكانت قبل الثورة فى أعمق وهدة ، ولكنى ألومه على مدى الخدعة التى استمرأها ، والدعوى الضخمة بأن الحالة فى روسيا مما يحسد عليه ، وتطيب النفس له ، فإن زعما كهذا من البلد الذى كان مناط آمالى ، ومعقد إيمانى ، أليم لنفسى محزن لخاطرى .

وألوم الشيوعيين فى فرنسا، وفى كل مكان كذلك ؛ ولست بلائم أولئك الذين خدعوا لحسن نيتهم ، وسلامة طويتهم ، وإنما أنا لائم الذين كانوا يعرفون أكثر من سواهم ، أو الذين كان أولى بهم أن يعرفوا ، ولكنهم أبوا إلا أن يكذبوا على العمال فى الخارج ويغرروا بهم ، وإن ظلوا طيلة الوقت يلتمسون تحقيق أهداف سياسية .

ألم يئن للعمال خارج روسيا السوفيتية أن يدركوا أن الحزب الشيوعى أضلهم وغرر بهم ، كما أضل من قبلهم العمال فى روسيا ذاتها؟؟)[١].

ويقول : (ولن يحول بينى وبين الصراحة شىء ، ولاالولاء الحزبى ذاته لأنى ؛ أضع الحق فوق الأحزاب ، وأعلم حق العلم أنه ليس فى التعاليم الماركسية شىء يقال له "الحق" أو الحق المطلق على الأقل ؛ وإنما الحق فى تقديرها نسبى ، ولكنى أعتقد مع ذلك أنه من الإجرام فى أمر خطير كهذا تضليل الناس والتغرير بهم . ومن الأمور الواجبة بغير إبطاء أن ينظر الناس

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٥٢-٢٥٣) .

إلى الأمور كما هى ، لاكما يودون أن تكون ، وكما كانوا يرجون .

إن الاتحاد السوفييتى قد خدعنا فى أعز أمانينا ، وبين لنا كيف يمكن أن تزل بالثورة الصادقة البريئة القدم فى الرمال الخادعة . والسباسب اللينة الكاذبة .

إن المجتمع "الرأسمالى" قد عاد فاستقر ، وقام طغيان جديد مكانه ، طغيان رهيب ماحق مستغل توافرت فيه كل مافى العبودية من حقارة ومهانة وذل ...)"[١].

ويبين أندريه جيد أن اختفاء الرأسمالية من الاتحاد السوفييتى لم يعط العمال خيرا أو نفعا ، بل بالعكس ، فيقول :

(لم يعد اختفاء "الرأسمالية" من روسيا على العمال فيها بخير أو نفع ، ولم يسق إليهم الحرية التى كانوا لها ناشدين ، فلتدرك الطبقات الكادحة فى خارج الاتحاد السوفييتى هذه الحقيقة كل الإدراك . ولست أنكر أنهم لم يعودوا ألعوبة فى أيدى أصحاب رؤوس الأموال وحملة الأسهم والسندات يستغلونهم كيف يشاءون ، ولكن الواقع أن الاستغلال ، لايزال قائما ، وإنما أصبح مقرونا بأعجب الوسائل وأمكرها وأشدها التواء بحيث لم يعد القوم يعرفون من هم الملومون فيه ومن هم الذين يؤاخذون عليه ، فإن معظم أفراد الطبقة الكادحة يعيشون تحت مستوى الفاقة ، بينما أتاحت أجورهم التى لاتسمن ولاتغنى من جوع الفرصة لزيادة مكاسب العمال "الممتازين" أومعاشر الخانعين المسلمين بكل مايطلب منهم ، القائلين "نعم" فى كل شىء ، ولايسع المرء إلا الدهشة من فرط الاستخفاف الذى يبديه أهل السلطان نحو الذين من دونهم والخنوع والذل اللذين يظهرهما هؤلاء لأولئك ، أو دعنى

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٥٣-٢٥٤) .

أقل : اللذين يبديهما الفقراء ومعاشر المكدودين ، وأنا أسلم جدلا بأنه لم تعد فى روسيا طبقات ولافوارق ، ولكن الواقع أن فيها فقراء ، بل إنهم فيها الكثرة البالغة ، وكنت أرجو ألاأجد منهم أحدا ،أو بعبارة أصح ، لقد ذهبت إلى روسيا لكيلا أجد للفاقة فيها أثرا ... ولكن الفاقة هناك يعبس فى وجهها ، وتقابل بالإعراض والتجهم والإشمئزاز ، حتى ليخيل للمرء أنها الفاقة الأثيمة الناشئة فى أحضان الإجرام ، فلاتثير شفقة ، ولاتبعث على العطف والإحسان ، بل ينظر إليها بعين الإزدراء والإحتقار ، وماأولئك الذين يتراءون متكبرين مزهوين إلا الذين اشتروا كبرياءهم وتوفيقهم بثمن هذه الفاقة العامة ، وعلى حساب هذا الفقر الشامل)[١].

ويقول وحيد الدين خان : (إن روسيا الإشتراكية تزخر بكل الأشياء التى اعتبرها ماركس "نتيجة للمجتمع الرأسمالى")[٢].

الوجه السادس : أننا لو عقدنا مقارنة بسيطة بين عمال الاتحاد السوفييتى والعمال فى أوروبا الغربية تحت الأنظمة الرأسمالية لوجدنا الفارق الكبير واضحا .

فى احترام العامل والمحافظة على حريته الشخصية ، وتوفير الحاجيات له ، والإهتمام بمسكنه وحصوله على مقابل لجهده ، وحريته فى الإنتاج والتنقل ومشاركته الفعلية فى أحداث بلاده السياسية ، وإضرابه الفعلى عن العمل الذى تقره الأنظمة هناك . أما فى النظام الشيوعى ، فلايكاد العامل يجد مايسد رمقه رغم استهلاك قواه فى العمل من أجل الحزب والدولة ، فيذهب جهده لغيره ، وماعليه إلا أن يعمل ليأكل فقط وإلا مات جوعا ، والإقتصاد الماركسى يقوم على "سنفعل" ، "سيكون عندنا" ، "وعلى

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٣٧-٢٣٨) .
(٢) سقوط الماركسية (١٣) .

المشروعات الخماسية والسداسية المنتظرة" ، ولكنه لايقوم على أساس "إننا نفعل" أو "لدينا الآن"[١]. فالشيوعية تتحول إلى مخدر وأفيون للعمال والفلاحين حيث تعدهم بالغد المشرق والمستقبل الأفضل ، ولكن الغد لاياتى إلا بمزية البؤس والفقر .

إن الواقع التطبيقى للنظام الشيوعى يخالف كل ماجاء من ادعاءات تحقيق الحرية والمساواة والسعادة للعمال والموظفين والتشريعات الشيوعية أصبحت كنظام الإقطاع فى أوروبا حيث كان الفلاح ملكا لصاحب الأرض ، لايجوز أن يغادرها إلا بإذنه ولايحصل على أكثر من المأكل والمشرب[٢].

أما القوانين التى رتبها ماركس على ذلك ، فكذلك لايسندها الواقع ولاتستقيم نظرا لأن الأساس الذى بنيت عليه منهار فمثلا :

القانون الأول : تجميع رأس المال :

يرفضه الواقع .

يقول حجى : (إن السنوات التى تفصل بيننا وبين زمن ماركس قد أثبتت خطأ هذه القوانين بشكل بين لالبس فيه . فبينما تنبأ ماركس بأن تطور النظام الرأسمالى سيدفع الرأسمالى إلى الإعتماد على الآلات والإستغناء عن العمال ، فإن قرنا كاملا من الزمان أكد أن حاجة أرباب الأعمال ـ فى النظم الراسمالية ـ للعمال قد ازدادت عما كانت عليه عشرات المرات ، وأن فرص العمل التى يتيحها النظام الرأسمالى ـ الآن ـ للعمال هى أضعاف أضعاف ماكان يتيحها فى زمن ماركس .

أما ظاهرة البطالة فى المجتمعات الرأسمالية ، فهى ـ فى جوهرها ـ تسمية للأشياء بأسمائها ، فعوضا عن البطالة المقنعة المتفشية فى كل النظم

---

(١) من أقوال ريمون آر ، أفيون المثقفين (١١٤) ، نقلامن كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٢٢) .

(٢) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٢٢) .

الإشتراكية ، حيث يوفر مكان لكل إنسان فى أحد المكاتب أو المصانع أو مزارع الدولة ، دون أن يعنى ذلك مشاركة الكل فى العمل ؛ عوضا عن ذلك فإن النظم الرأسمالية تسمى الأشياء بأسمائها وتعترف بنسبة من البطالة وتحيط العاطلين عن العمل بضمانات قانونية وإجتماعية تكفل حدا أدنى من الدخل يربو على معظم العمال فى النظم الإشتراكية)[١].

إن حتميات ماركس تنهار أمام الواقع والتجربة فقانون تجميع رأس المال المتغير "العمل" هو وحدة أساس القيمة ، وأن نقصه نتيجة الابتكارات الحديثة يؤدى إلى نقص نسبة الربح فيشتد الصراع ويسرع المجتمع إلى نهايته المحتومة ، وهذا الاستنتاج منبثق من سلبية الإدارة الإنسانية وسيادة الظروف المادية . وقد كان الإنسان بواقعه قادرا على تفادى النهايات التى تنبأ بها ماركس فحيثما خيم شبحها على بعض المجتمعات نشطت الإرادة الإنسانية ووضعت شروطا أفضل للعمل وسنت قوانين إقتصادية وإجتماعية ، وأصبحنا نرى أمثلة لدول بلغت شأوا بعيدا فى تجميع رأس المال كألمانيا ودول اسكندناوه فلم تتحقق نبوءة ماركس فى طرد العمال وانخفاض الأرباح بل كانت النتائج خلاف ماصور ماركس ، فكانت تلك الدول بحاجة إلى الأيدى العاملة وبهذا يظهر واقع جديد خلاه نبوءة ماركس[٢].

انيا : قانون تراكم رأس المال :

لقد اعتبر ماركس أن عدد العمال سيأخذ فى الازدياد وينكمش عدد الرأسماليين ولكن الواقع كذب ذلك .

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٤٠) .

(٢) انظر حوار مع الشيوعيين (١٨٤) .

يقول حجى : (أما قانون تراكم رأس المال ، والذى مفاده ـ حسب قول ماركس ـ أن عدد الرأسماليين سيأخذ فى الإنكماش وسيأخذ عدد الأجراء فى التزايد ؛ فمردود عليه بأن الواقع يؤكد أن طبقة أرباب الأعمال أو الرأسماليين تزداد عددا واتساعا بشكل مطرد فى البلدان الصناعية الرأسمالية ، وأن الانتقال لايتم فى القمة للقاع ، وإنما من القاع للقمة .

والجدير بالذكر هنا أن البراهين على بطلان قانون تراكم رأس المال لم يتأخر ظهورها إلى مابعد وفاة كارل ماركس (سنة ١٨٨٣م) وفردريك انجلز (سنة ١٨٩٥م) ، ففى بريطانيا التى كان يقيم كارل ماركس فيها بصفة دائمة فى ذلك الوقت ، صدر فى سنة ١٨٦٢م قانون الشركات الانجليزى الذى أدى لتضاعف عدد الشركات والمشاريع الخاصة عشرات المرات ، وذلك بخلقه نمط الشركات المساهمة ، وهى شركات أوجدت فئة جديدة من الرأسماليين الذين لايديرون مشاريعهم وإنما يوكلون بهذه المهمة لخبراء يؤجرون على ذلك ؛ وهو ماأدى بالفعل إلى عكس مضمون قانون تراكم رأس المال)[١].

ثالثا : قانون زيادة البؤس والفقر :

ذكر ماركس أن العمال نتيجة ذلك الاحتكار وتجمع رأس المال فى يد طبقة واحدة سيؤدى إلى فقر الطبقة العاملة وزيادة بؤسها . غير أن الواقع الرأسمالى أبطل تلك المقولة وثبت فى ذلك المجتمع خلاف ماتنبأ به ماركس بينما حقت نبؤة ماركس على العامل فى ظل الأنظمة الشيوعية المعتمدة على الأفكار والمبادىء الماركسية .

وبالنظر لحال العمال فى المعسكرين الرأسمالى والشيوعى يظهر جليا أن هذه النظرية لم يكن لها حظ فى الصدق أو مجرد الاقتراب منه . حيث حصل العامل فى الدول الرأسمالية على كثير من الحقوق السياسية والإقتصادية

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٤١) ، وانظر حوار مع الشيوعيين (١٨٥-١٨٧) .

والإجتماعية ، بينما كان العامل فى الاتحاد السوفييتى يفتقر لأبسط الحقوق[١].

(٤) الصراع والثورة :

وبناء على ماسبق من قوانين ونتيجة لهذا القانون كان لابد من حدوث الصراع والتصادم بين العمال والرأسماليين[٢]. واعتبر ماركس أن الثورة أساسية فى قيام الدكتاتورية البروليتارية ، وأن السبب فى هذا الصراع هو الطبقة الرأسمالية .

حيث (نسج ماركس خيوط هذا الاتهام من نظرية فائض القيمة . ذلك أن فائض القيمة الذى يستولى عليه الرأسماليون بأكمله والذى كان يجب أن يذهب إلى العمال هو السبب الأصلى للصراع . فطالما استولت فئة صغيرة من المجتمع على خيرات هذا المجتمع "ممثلة فى فائض القيمة" ولم تجد فئة العمال التى تمثل الأكثرية إلا أجر الكفاف فلابد أن يكون هناك صراع ولابد أن تزيد الهوة التى تفصل بين الطبقتين نتيجة لهذا الصراع)[٣].

وعلى كل هل كانت الثورة هى العلاج الناجع لظلم الرأسمالية؟!! إن واقع الدول الغربية التى لم تأخذ بهذه السياسة أو الفكرة - بل إن واقع الأحزاب الإشتراكية ، الديمقراطية ، التى رفضت ذلك المسلك - قد حققت أكثر مما حققته الثورة ضد الرأسمالية .

ثم ننظر إلى الثورة البلشفية التى قامت ضد النظام الاستغلالى هل حققت للعامل ماكانت تدعيه؟

---

(١) انظر عن هذا القانون وبيان فساده وعدم مصداقيته : تجربتى مع الماركسية (١٤٢-١٤٣) ، حوار مع الشيوعيين (١٨٧-١٨٨) ، هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٨١) ، الكيد الأحمر (١٦٦-١٦٧) ، السرطان الأحمر (٩٢) ، الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٩٥-١٩٦) .

(٢) انظر ماذكره لينين فى كتابه إفلاس الأممية الثانية (١١-١٢) .

(٣) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٧٠) .

إن الواقع السوفييتى يبطل ماادعت الماركسية تحقيقه للعامل .

وأما قوله بعد ذلك أن الرأسمالية تطمح إلى الاستعمار فإن ذلك بالنسبة لنا يصدقه الواقع ، ولكن هل الشيوعية سلمت منه؟ فنحن لاننكر أن الراسمالية قائمة على المنفعة المادية البحتة ، وكذلك المذهب الماركسى إنما قام على المادة أساسا . بل واعتبرها الإله ، فالنتيجة إذا واحدة . أما أن تكون الماركسية ، أو النظرية الشيوعية تحارب الاستعمار فإنا نسأل ماهذا الذى قامت به الشيوعية منذ قيامها فى الاتحاد السوفييتى مباشرة ، بل بعد ذلك بأشهر معدودة؟ حيث ثم اضطهاد المسلمين والاستيلاء على أراضيهم ومصادرة ممتلكاتهم(١).

ثم اتجهوا بعد ذلك إلى أوروبا الشرقية فاحتلوا بولونيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وألمانيا والبانيا وبولندا ، ولم يكتفوا بذلك فسيطروا على اليمن الجنوبى وأثيوبيا وكانت نهاية المطاف الاحتلال لأفغانستان .. فكيف يقال بأن الرأسمالية استعمارية ، والشيوعية تريد القضاء على ذلك الاستعمار . إن هذا الفعل من الشيوعية دليل قاطع على أن النظرية الماركسية كانت أوهام وتخيلات فى ذهن ماركس ، وحق لنا أن نسميها "إشتراكية أو شيوعية طوباوية" لاعلمية كما قال أصحابها .

وفى خضم هذه النظريات الماركسية وكذلك الرأسمالية أصبح اختيار أصحابها لها وتمسكهم بها كما يذكر جورج سول مسألة ذوق ، نظرا لتناقضاتها الواضحة .

حيث قال : إن (المرء لايمكن أن يعتنق أو يتعلق بجميع هذه المذاهب فى وقت واحد ، ذلك أن الكثير من آرائها ومعتقداتها يناقض بعضه بعضا .

---

(١) راجع فصل الحريات (٧٦٣) ومابعدها .

ويبدو أن بعض المتحمسين يختارون نظرية أو أخرى كأنما الاختيار مسألة تتعلق بالذوق ...)[١].

ويقول : (ومن سوء الحظ أن الكثيرين من أتباع المذاهب يخطئون ، إذ ينظرون إلى النظم المنطقية على أنها تمثل حقيقة نهائية وشاملة ، كما يصرون على أن من الضرورى أن يطيع الغير المبادىء التى تستهويهم . وهم يخطئون كذلك إذ يظنون أن رأيا تتعلق به أذهانهم مهما بدا رائعا وجميلا ، يمكن أن يكون صورة للعالم الخارجى . إننا لانستطيع أن نقدر مبلغ الشقاء الإنسانى الذى أحدثه أولئك الذين ليس فى وسعهم أن يمدوا أبصارهم إلى أبعد من الآراء التى يؤمنون بها)[٢].

وهكذا فإن المذهب الماركسى لايخرج عن هذه المذاهب التى قامت على النظريات والتنبؤات التى لايدعمها دليل ولايصدقها واقع ، ومن هنا كان الانتقاد الشديد لهذه النظرية وكذلك للمؤلفات التى تحدث فيها ماركس عن نظرياته الإقتصادية[٣].

إن واقع الدول الإشتراكية يكذب النظريات الماركسية ويبطلها بكافة الوجوه التى جاءت بها ، فأوضاع العمال تحت الحكم الشيوعى أسوأ منها تحت النظام الرأسمالى . وكذلك الإنتاج فى الدول الراسمالية أكثر منه فى الدول الإشتراكية ، بل لو شئنا لقلنا وأكثر منه كفاءة فى مجال التصنيع . وكذلك الحريات فى الرأسمالية ، قد وجدت وتوفرت بقدر كبير فيما يخص النظام الإقتصادى (بل وصلت إلى درجة الإفراط المذموم) . كما يدل واقع البلاد الإشتراكية على الفشل الذريع الذى منيت به من جراء سياساتها الإقتصادية القائمة على الأفكار الماركسية .

---

(١) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٢١٧) .
(٢) المرجع السابق (٢١٧-٢١٨) .
(٣) انظر بعض مانقله حجى فى كتابه تجربتى مع الماركسية (١٤٤) .

يقول حجى : (مما لاشك فيه أن الوضع الإقتصادى فى البلدان الإشتراكية ، سواء تلك التى تطبق ديكتاتورية البروليتاريا على أساس النموذج أو النمط السوفييتى ، أو بلدان العالم الثالث ، مثل مصر الناصرية والدول التى حذت حذوها ـ لاينبىء إطلاقا بإمكانية تحقيق أية وفرة إنتاجية تكفل المجتمع الشيوعى الذى تخيله ماركس .

ولاريب أن (بؤس) الإقتصاد الإشتراكى لايعد بأى انفراج حاد مستقبلى ...

ولاريب أن الذين فرطوا فى "الحريات العامة" من أجل وضعية إقتصادية أفضل ، قد اكتشفوا أنهم فرطوا فى الأمرين معا وبدرجة واحدة . وإذا كان الإشتراكيون يتشدقون منذ سنوات بأن الحرية الحقيقية هى الحرية الإقتصادية والإجتماعية وليست الحرية السياسية ، فإن نماذج نظمهم تؤكد أنهم قد أقاموا نظما خالية من الحرية الإقتصادية والسياسية والإجتماعية معا)[١].

ويقول : (فلو كانت روايات الشيوعيين فى كل مكان عن نجاحات الإقتصاد الإشتراكى حقيقية فعلية ، فمن المؤكد أن الحرية الإقتصادية والإجتماعية التى يعتبرها الماركسيون الجوهر الحقيقى للحرية هى أمر متوفر فى المجتمعات الإشتراكية ، ومن المؤكد أن الحرية السياسية التى تتبع فى رأى الماركسيين الحرية الإقتصادية والإجتماعية هى أيضا أمر متحقق فى المجتمعات الإشتراكية . وإذا افترضنا جدلا صحة المقولتين آنف ذكرهما ، فبماذا نعلل ضرب النظم الإشتراكية للأسوار حول شعوبها ، وإحاطتهم بالقيود العديدة التى تحول بينهم وبين السفر والانتقال لرؤية العالم الآخر ، العالم الرأسمالى المتخم بالاستغلال والمظالم والطبقية؟ وهل يعقل أن تترك نظم الجحيم "الراسمالى" الرقيق البروليتارى فيها ينطلق ليرى العالم بأسره ، ويرى ـ فيما يرى ـ فردوس العمال فى الدول الإشتراكية ، وأن تفعل نظم الفردوس

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٤٦) .

العمالى النقيض : فلاتترك أبناءها ليروا بأعينهم مظالم وعبودية المجتمعات الرأسمالية ؟!!)[١].

إن الواقع الذى يعيشه العامل فى الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية يبطل مزاعم الماركسية ، ودعاوى الثورة البلشفية من أساسها . ذلك أنه لم يتحقق ولاجزء من نبؤة من نبؤات ماركس التى أقام فكره الإقتصادى عليها . وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن أفكار ماركس الإقتصادية إنما قامت على تنبؤات وخيالات كذبها الواقع ورفضها جملة وتفصيلا .

ثانيا : أن الأفكار الماركسية الإقتصادية التى قامت على حتمية زوال الرأسمالية لكونها تقوم على الاستغلال كذبها واقع الدول الرأسمالية وهذا لاينفى وجود الظلم الذى أشار إليه ماركس .

ثالثا : أن الأفكار الماركسية الإقتصادييية والتى قامت الثورة البلشفية بتطبيقها فى روسيا أدت إلى فشل الإقتصاد السوفييتى وتأخره مما أدى إلى عدم وثوق الناس فى النظريات والأفكار الماركسية ، خاصة وأن كل الوعود قد بددتها الحقيقة . وهكذا غدا النظام الإقتصادى الشيوعى أحد العوامل التى أدت إلى سقوط الشيوعية والتعجيل بإنهيار الاتحاد السوفييتى . حيث كان يرغب الشعب فى الحصول على أبسط مقومات الحياة من غذاء وكساء . وهذا يدعونا لإيجاز أهم أسباب فشل النظام الإقتصادى الشيوعى .

أولا: مصادمة هذا النظام للفطرة الإنسانية بقضائه على الملكية الفردية .

ثانيا : مصادمته للواقع وفساد نبوءات ماركس النظرية التى بناها على تصورات وخيالات كان لواقعه الأليم الذى عاشه أثرا فيها .

ثالثا : أن ماركس قصد بهذه النظريات الدعم لمذهبه السياسى والفكرى أكثر منه اهتماما بالجانب الإقتصادى لأنه لو أراد ذلك لكان هناك أفضل مما ذهب إليه .

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٤٧-١٤٨) .

يقول حجى : (فماركس ليس إقتصاديا بأى شكل من الأشكال ، وتسلسل كتابات ماركس تاريخيا يثبت أنه لم يتطرق للإقتصاد إلا تحت ضغط الضرورة التى كانت تلزمه بإضفاء صفة العلمية على مذهبه ، ودعمه بالشق الإقتصادى ، كيلا يظل طورا من أطوار الفلسفة التى أنتجها الهيجيليون اليساريون ...)[١].

رابعا : قام النظام الشيوعى بالقضاء على الفرد فى حريته الإقتصادية وحرمه من الحوافز الفردية ، ولم يطعمه إلا مايسد جوعته فى حين حرمه من أن يأخذ الحق الذى يوازى عمله ، مماأدى إلى تدنى مستوى الإنتاج والقضاء على ملكة الإبداع والاختراع .

خامسا : قامت الشيوعية بإيغال صدور العمال ضد الرأسماليين ، فقام مقام الحب والإخاء العداوة والبغضاء . ولاشك أن فى هذا فساد كبير يحطم العلاقات ويجعلها مبنية على الغش والخداع ، وعدم الإخلاص من قبل العامل لصاحب العمل .

وأراد الشيوعيون بذلك الإبقاء على موالاة العمال لهم .

سادسا : الأهمية الكبيرة التى أعطيت للعامل الإقتصادى وربطهم الأخلاق والأفكار ونظام الأسرة بالتطورات الإقتصادية (سلبا) . وهذا فيه مصادمة للفطرة الإنسانية ، ومخالفة للسنن الإلهية الشرعية .

وإذا كان النظام يقوم على هذا الأساس فإن إنهياره محتوم وزواله وذهاب ريحه سنة إلهية جارية ، كما أن الشيوعيين بإعطائهم هذا العامل كامل التصرف فى الحياة الإنسانية تناسوا العوامل الأخرى ، وفى هذا مغالطة للواقع البشرى . حيث وجدت العوامل المؤثرة الأقوى من الإقتصاد مثل المعتقدات الدينية[٢].

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٤٤-١٤٥) ، وانظر الشيوعية (٨٩) .

(٢) انظر عن أهمية العوامل الأخرى نظام الحكم فى الإسلام (٢١٨-٢١٩) وانظر (٢٢٠) ومابعدها ، وانظر (٢٧٩) .

سابعا : التخلف الزراعى والصناعى الذى كان يعيشه الاتحاد السوفييتى مما كان له أكبر الأثر فى سخط الشعب حيث كانت الزراعة السوفيتية متأخرة مما جعل السوفييت يستوردون القمح من الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك فى الأعم الأغلب لكل المستوردات(١).

ثامنا : أن الإقتصاد الموجه الذى انتهجه الاتحاد السوفييتى القائم على التأميم ومصادرة الملكية الفردية قد أخفق فى التطبيق مما جعل العمال مسحوقين تحت وطأة الحزب ونظامه فى حين كان أعضاء الحزب ومن لف لفيفهم يتنعمون بأطيب أنواع المأكولات والمساكن والمركوبات والمستشفيات . والعامل يكدح ولايلقى إلا اليسير بل الجزء القليل من اليسير وماتبقى من إنتاجه وعمله يذهب لقمة سائغة سهلة إلى الحزب ودهاقنته . فأصبح الاحتكار ديدن لهم ، والإسراف والتبذير شعار لهم ، ويفعلون كل مايريدون إذ لارقيب عليهم .

تاسعا : لقد كلف تطبيق الإقتصاد المدار الشىء الكثير ، فكم هم القتلى فى سبيل تطبيق المزارع الجماعية ، وكم هم الذين حملوا الحقد والكراهية للنظام منذ قيامه بعد أن صادر منهم ممتلكاتهم ، ورغم علم الماركسيين المنفذين للأفكار فى أرض الاتحاد السوفييتى بأن هذا النظام الإقتصادى مخالف لما فى قلوب الناس وتوجهاتهم بدليل أنهم فرضوه بالقوة وعاقبوا كل من وقف فى طريقهم ، إلا أنهم كانوا مصرين عليه وعلى تطبيقه ، وذلك ليضمنوا بقاءهم فى الحكم وليجعلوا الأمور بأيديهم ويسيرونها فى تحقيق مصالحهم .

عاشرا : أن المذهب الإقتصادى الشيوعى قام على فكرة أن من لايعمل لايأكل ، وفى هذا إجحاف كبير فى حق الإنسان العاجز والمريض . وفى ذلك

---

(١) انظر الفشل الكبير (٣٣٢-٣٤٨) . ولمزيد عن ذلك انظر : الإسلام وحقوق الإنسان (٤٠٩-٤١٠) ، لماذا رفضت الماركسية (١٧) ومابعدها ، مصطفى محمود ، دار العودة ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

إخراج للمرأة لمشاركة الرجال فى العمل ومايترتب على ذلك من كوارث أخلاقية ، وكذلك فواجع أسرية بسبب خروج الزوج والزوجة من المنزل ، وتسليم الأطفال للمحاضن والملاجىء التابعة للدولة .

وأين هذا من الإسلام؟ الذى اهتم بالإنسان حال مرضه وعجزه وأوجب النفقة له ، وكذلك حفظ المرأة ، ودعا إلى بقائها فى بيتها ووجوب النفقة عليها .. بل إن عبادتها فى بيتها خير لها من أن تعبد ربها فى المسجد ، وماذلك إلا للحفاظ عليها وصونها ، مع إيصال حقوقها إليها وهى مطمئنة فى بيتها لتحافظ على أسرتها وتربى النشء لكيونوا أسوياء خداما لدين الله تعالى .

الحادى عشر : الجوع الذى جعل من الفرد فى الاتحاد السوفييتى والبلدان الشيوعية يفرغ لنفسه ساعات يومية لكى يصطف فى الطوابير من أجل الحصول على أقل الضروريات والحاجيات ليأكل هو ومن يعول ، مما جعل الفرد فى هذه الأنظمة ينقم على الفكر كله ، ويتيقن بأن الإقتصاد لايفى حتى بحاجيات الإنسان وضرورياته ، فأثبت الإقتصاد الشيوعى بنظرياته الخرافية فشله الذريع فى عدم قدرته على توفير الطعام والشراب لمن يعيش فى ظله وهل بعد انعدام هذين الأمرين من حياة أو تطلع؟!!

إن هذا الجوع هو الذى فجر الثورة ضد النظام ، وهذا الجوع هو الذى أفقد النظريات بريقها ، وهذا الجوع هو الذى حكم على الإقتصاد الإشتراكى فى عالم الواقع بالإنهيار .

وقد مرت البلاد بويلات عديدة منها السيطرة القيصرية ، ثم الثورة البلشفية ، والحرب الأهلية ، والحرب العالمية الأولى والاهتمام بالتسليح الحربى على حساب الطعام ، والحرب العالمية الثانية ، ومن بعد الحرب الباردة وهكذا عاشت هذه الدولة فى أوضاع سيئة جعلت الشعوب التى تقطن الاتحاد السوفييتى لاتعرف للحياة الرغيدة سبيلا بل لاتعرف لحياة الكفاف طريقا .

فأدى ذلك الفشل ، وذلك التأخر إلى سخط الشعب ونقمته ونفوره من الفكر الماركسى ، والتطبيق اللينينى فكان لابد من الثورة ضده ، والعمل على إسقاطه واستبداله بما يحقق للشعب رغباته ، فكان إنهيار الإقتصاد وفشله أحد الأسباب فى سقوط الشيوعية .

أثر فشل الإقتصاد الشيوعى فى إنهيار الاتحاد السوفييتى وفكره :

إن ردة الفعل الطبيعية للظروف الإقتصادية المنهارة هى النقمة والخروج ضد هذا النظام والفكر ، وبالفعل حدث ذلك وأخذ الشعب يعبر عن حريته وإرادته التى سلبت منه عقودا من الزمن حيث بدأ (يرتفع صوت الأنين المكتوم فى النفوس طوال سنوات وسنوات لينطلق فى هتاف هادر فى أكبر ميادين موسكو : "لانريد الشيوعية ، ولانثق بالحزب الشيوعى"!!)(١).

وعبر الشعب عن سخطه على النظام وقادته ، حيث انكشفت الوعود وبان زيفها ، وكان لفشل الإقتصاد ، والجوع الناجم من أثر هذا الفشل أثر على جميع شعوب الاتحاد السوفييتى ويستثنى من ذلك أعضاء الحزب .

إن النظرية الماركسية الإقتصادية أبطلها الواقع ، ثم إن الواقع شهد على تناقضها وعدم مصداقيتها ، فقامت على الدعوة إلى المساواة ، وإلغاء الطبقات بعد القضاء على الملكية . فصادمت الفطرة الإنسانية بنظرياتها الإقتصادية ، ثم جاء الواقع وأراد أن يستأصل تلك الفطرة بالقوة ، فكان مصيره الفشل .

وادعت النظرية الماركسية بأنها ستلغى الطبقات .. غير أن الواقع التطبيقى كان أبلغ رد على بطلان ذلك الزعم وعدم تحققه ، لأن الله تعالى جعل التفاضل بين عباده ، وادعت النظرية الماركسية تحقيق المساواة .. إلا أن واقع الاتحاد السوفييتى قد جعل المساواة بعيدة المنال وكانت الفروق بين أفراد الشعب والتفاوت بارزة للعيان بل إن الفروق وعدم التساوى كانت موجودة حتى بين أعضاء الحزب .

ونظرا لفشل النظريات التى رتبت على القضاء على الملكية الفردية فإن كثيرا من المفكرين أعطوا التفسيرات لما يحدث فى الاتحاد السوفييتى من خلال تأخر وفشل النظام الإقتصادى وسوء الحالة المعيشية التى كان يعيشها الشعب السوفييتى . فالطوابير التى كان يراها الإنسان السوفييتى من أجل الحصول

---

(١) نقلا من كتاب كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٥٤) .

على أبسط مقومات الحياة جعلته يعتقد إفلاس النظرية الماركسية ، والسياسة السوفيتية القائمة عليها ، وسكت عقودا من الزمن ولم يكن باستطاعته الاستمرار على هذا الضغط والكبت وقلة العيش فثارت الجموع ضد الفكر والنظام القائم عليه فأعلن القادة التراجع كل بحسبه إلى أن جاء غورباتشوف ورأى أن زمام الأمور آخذ فى الإنهيار فطرح سياسته الجديدة . وقد ذكر فلاديمير بوكوفسكى أنه حتى بعد السياسة الجديدة فإن آثار السياسة القديمة كانت ذات آثار إلى وقتنا الحاضر .

(فالإقتصاد لديهم أقل إنتاجية .. طوابير الحصول على مواد الطعام الضرورية تزداد طولا وتدافعا .. البضائع تزداد ندرة . لقد أصبح واضحا أن "التعامل الجديد" للدولة يهدف إلى الحرص على إنقاذ "الإشتراكية" ، لكنه لم ينجح فى استثارة حماس الشعب الذى يقع عليه عبء تحسين الدخل . ومع ذلك ، فإن مايبدو غير كاف فى المجال الإقتصادى ، هو فى نفس الوقت دعامة للإبقاء على السياسة وقيادتها . فالإمبراطورية السوفيتية تواجه عاصفة مدمرة . إن شعوبها الممتدة من البلطيق إلى القوقاز ، ومن الدانوب إلى سيبيريا ، والتى ظلت حبيسة مقهورة طوال عشرات السنين ، بدأت تنهض مطالبة باستقلالها القومى . وحتى فى جمهورية روسيا ذاتها ، أظهرت الانتخابات الأخيرة - رغم كل المحاولات لتوجيهها أن الاتجاه الغالب عند الذين أعطوا أصواتهم ، يميل نحو رفض سيطرة الحزب الشيوعى)[١].

إن الشيوعية الماركسية فكرة أرضية ، سطرتها نفسية حاقدة ، وعقلية لم تتجاوز الحدود المادية .

ومن هنا جاءت قاصرة عن تحقيق السعادة للإنسان فى ظلها . وهذا مصير كل نظام أرضى حيث المحدودية ، والرغبات والتوجهات الذاتية تكون هى المسيطرة عليه .

---

(١) كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٨٤) .

وإذا كانت الشيوعية فاسدة فى أفكارها ومنها الأفكار الإقتصادية فإن النظام الرأسمالى هو الآخر يقوم على الاستغلال ، وبالتالى أخفقت الأنظمة الأرضية فى تحقيق السعادة للإنسانية . يقول فتحى يكن : لقد (أخفقت النظريات المستوردة - رأسمالية وإشتراكية - فى إيجاد مجتمع الكفاية والعدل وتأمين الاستقرار والرفاه لهذا الإنسان فى أية بقعة من بقاع العالم .. بل إن هذه المذاهب والنظم الوضعية زادت مشكلات البشرية تعقيدا ، ولم تقدم بين يدى تجاربها الكثيرة المتلاحقة تجربة واحدة يمكن اعتبارها ناجحة!!

فالدول التى تمارس تجارب "التطبيق الماركسى" مثقلة بالأزمات والتناقضات فى مجالى التخطيط والتنفيذ وفى كل مجال ؛ فمشكلات التأميم ومشكلات التموين ومشكلات الغلاء ومشكلات الطبقات وغيرها أصبحت من الظواهر البارزة فى تلك المجتمعات .. كذلك الدول التى تمارس تطبيق (النظام الحر) هى الأخرى غارقة فى طوفان مشاكلها الإجتماعية والإقتصادية كمشكلات الاحتكار والبطالة والربا والتسلط الفردى وغير ذلك من المشكلات التى لاحصر لها ولاعد .. ذلك أن هذه المذاهب والنظم الإجتماعية والإقتصادية لم تحاول الارتفاع بحلولها وتصوراتها فوق "الواقع المادى" لأنها جزء منه ومظهر من مظاهره وفاقد الشىء لايعطيه ...)[١].

إن كلا النظامين فيه مشكلات ومعضلات وذلك لوجود الانحراف فى التصور العقدى والتشريعى ، ولم يبق إلا الإسلام ونظامه الصالح لكل زمان ومكان ، ولكل أحد كائن من كان ، لأنه دين الله تعالى الذى ارتضاه لنفسه .

ولأن أحكامه كلها تتلاءم مع الفطرة الإنسانية ، وتسير مع السنة الربانية فلاغرابة بعد ذلك أن جاءت التصريحات على ألسنة علماء الإقتصاد والكتاب والمفكرين من شرقيين وغربيين والتى تعلن عن فشل النظامين الشيوعى والرأسمالى .

---

(١) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (٤) .

حيث عقد مؤتمر الاتحاد الدولى للكتاب من الفترة ١٥-٢٠ يناير ١٩٨٦م فى نيويورك وحضره سبعمائة كاتب ومفكر من خمس وأربعين دولة غربية وشرقية ، ويقال أنه لأول مرة يجتمع هذا العدد الضخم من الكتاب وهو المؤتمر الثامن والأربعون منذ أسس الاتحاد الدولى للكتاب سنة ١٩٢١م بلندن وكان الموضوع خيال الكاتب وخيال الدولة .

وقد جاء على لسان الكاتب الألمانى جونتز جراس :

(إن حياتنا المعاصرة تتميز بفشل الايديولوجية الحاكمة ، بإفلاس كل الوعود البراقة ، التى منتنا بها الحكومات ، ولقد أصبح واضحا الآن مدى الإرهاق والعنت الذى تعانيه الدول الشيوعية داخل أسوار السجن الرهيب الذى حبست نفسها فيه ، رغم أنها لاتزال تحتفظ بقوتها المادية فى تزايد مستمر ، كما أصبح واضحا من الجانب الآخر مدى ماتعانيه الرأسمالية المنهكةوهى تتخبط من أزمة إلى أزمة أخرى ، إن أى إنسان لايزال يعتقد أن أسلوب الحياة فى أمريكا هو الأسلوب الأمثل ، لابد أن يكون إنسانا غبيا أو منافقا أو أعمى ، حتى يتغابى عن الفقر المدقع الذى يطحن بعض أحياء أمريكا ، والمجاعة التى تهدد العالم)[١].

ويقول هاين مولر وهو كاتب من ألمانيا الشرقية :

(إن الحلم الأمريكى يبدو بعيدا عن الواقع مثل الحلم الشيوعى تماما ، أنتم تؤمنون بالمال ، ونحن نؤمن بالمذهب ، ولذا فإن كلينا يرزح تحت حلم ثقيل)[٢].

لقد شكل التخلف الإقتصادى شرخا فى البناء الشيوعى ولن يتم إصلاحه إلا بإصلاح الأصل الفاسد الذى بنيت عليه الأفكار الإقتصادية الشيوعية فـ(حين فشلت الثورة البلشفية الشيوعية الحمراء) فى تحقيق الغاية من قيامها ، وغدت (الجنة الموعودة) سجنا رهيبا لايطاق ، وحياة ضنكا

---

(١) وسقطت الماركسية (٤٧-٤٨) .

(٢) المرجع السابق (٤٨) .

ملؤها البؤس والشقاء .. وغدا (السلام والعدالة) شعارات حمراء ملطخة بالدماء ، شأنها شأن الشعارات الكاذبة المزيفة التى يرفعها (الغرب) لإخفاء حقيقته وتغطية جرائمه وخداع الرأى العام العالمى .. عند ذلك بدأ التشقق فى (الجسم الشيوعى) ، وانفجرت فى أنحائه القروح وعمت أجزاءه الجيوب والجروح .. وهذه هى النهاية المنتظرة والمصير المحتوم لكل الاتجاهات المادية والأنظمة الوضعية والفلسفات البشرية)[١].

هذا بالنسبة للاتحاد السوفييتى وكذلك كان الأمر فى الدول الشيوعية الأخرى حيث التخلف الإقتصادى والإنهيار فى مقوماته[٢].

وهكذا غدا إنهيار الإقتصاد الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى أحد الأسباب الرئيسية فى سقوط الشيوعية .

ولاغرابة فى ذلك حيث قام الفكر الشيوعى بمصادمة الفطرة الإنسانية ، وبمخالفة السنة الربانية ، فى كونه تعالى خلق الخلق وجعلهم متفاضلين فيما بينهم ، ومتنافسين فى إعمارها ، ومن هنا حقت السنة الإلهية فى تفريق جمعهم ، وذهاب ريحهم ، وتفرقهم ، وذلك جزاء الظالمين .

وبعد هذا العرض السابق نصل إلى التالى :

أولا : أن النظام الإقتصادى الشيوعى نظام بشرى قاصر صادم الفطرة الإنسانية ، وخالف السنن الكونية فكان لابد من زواله وزوال النظام القائم عليه .

ثانيا : أن تراجع زعماء الثورة البلشفية فى إقرار الملكية الفردية دليل على فساد النظرية الماركسية .

ثالثا : أن واقع الاتحاد السوفييتى كان يهدم الأفكار الماركسية برمتها بما فى ذلك مبادىء الإقتصاد .

---

(١) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (٣٧) .

(٢) انظر عن ذلك الإصلاح الإقتصادى فى الدول الإشتراكية (٢٩٩، ٣١٤، ٣٤٢، ٣٦٣-٣٦٤) .

رابعا : أن الشيوعية بنظريتها الإقتصادية ، وواقع الاتحاد السوفييتى التطبيقى لها كانا متناقضين مما أدى إلى عدم الثقة فيها .

خامسا : أن الواقع التطبيقى للأفكار الماركسية أبرز فساد نبؤاتها وتخرصاتها التى نادت بها ، حيث لم تحقق طبقة العمال شيئا مما وعدت به ، ولم تسقط الرأسمالية كما قررته الماركسية .

وزيادة فى بيان فساد النظام الإقتصادى الشيوعى نلمح بصورة مختصرة عن النظام الإقتصادى فى الإسلام .

المبحث الرابع
مميزات النظام الاقتصادى الإسلامى

إن من أعظم مايميز شرائع الإسلام شمولها لجميع جوانب الحياة ، سواء منها الإجتماعية أم السياسية أم الإقتصادية ، فليس هناك أمر صغير ولاكبير إلا والإسلام له حكمه فيه إما نصا أو إلحاقا ، يقول الإمام ابن القيم:

(إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها)(١).

ومن الجوانب التى اهتمت بها الشريعة الإسلامية ، القضايا الإقتصادية ومايتعلق بها من المكاسب والأرباح ، وكذلك المطاعم والمشارب . إذ أن الحياة لاتستقيم إلا بذلك ، والإعمار لايكون إلا به ومن هنا فإن الاهتمام به اهتمام بالإنسان ذاته ووصولا به إلى تحقيق سعادته . ولأجل ذلك حث الإسلام على العمل والاستزادة من الرزق للاستعانة به على طاعة الله تعالى وإقامة أوامره . ولايكون ذلك إلا بالعمل والمثابرة والصبر وبذل الجهد من أجل الوصول إلى تحقيق الرغبات فى إطار الحدود الشرعية من حيث العمل وماسينتج ذلك العمل . ولاشك أن النظام الإقتصادى الإسلامى يتميز عن غيره من الأنظمة الأخرى . ولاغرابة ، فإن هذا النظام هو من العالم بما يصلح أحوال الناس وبما يعود عليهم بالنفع وبما يحقق لهم مايطلبونه ، ولأجل ذلك تميز عن غيره وسيظل كذلك إلى قيام الساعة ، فهو شرع الله وحكمه {**ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**}(٢).

---

(١) إعلام الموقعين (٣/٣) .
(٢) سورة المائدة : (٥٠) .

مميزات الإقتصاد الإسلامى :

ويمكننا أن نوجز مميزات الإقتصاد الإسلامى فى التالى :

أولا : أن المالك الحقيقى للمال ولكل مامن شأنه أن يكون محركا ودافعا للإقتصاد هو الله تعالى . قال تعالى : {**ولله مافى السموات ومافى الأرض**}(١).

فالمال ملك لله تعالى والأفراد مستخلفون فى هذا المال(٢).

ثانيا : أن النظام الإقتصادى الإسلامى نظام ربانى له أصوله الثابتة المستمدة من الكتاب والسنة ولايمكن تبدلها أو تغيرها إذا كانت من نوع الأحكام الثابتة .

وبالتالى فإن (الإقتصاد الإسلامى جزء من نظام الإسلام الشامل : إذا كان الإقتصاد الوضعى ـ بسبب ظروف نشأته ـ قد انفصل تماما عن الدين فإن أهم مايميز الإقتصاد الإسلامى هو ارتباطه التام بدين الإسلام عقيدة وشريعة)(٣).

ثالثا : استقلال الإقتصاد الإسلامى وتشكيله وحدة قائمة بذاته ، فلايطلق عليه إلا الإقتصاد الإسلامى لارأسمالية الإسلام ولاإشتراكيته .

رابعا : ضمان حد الكفاية لكل فرد فى المجتمع الإسلامى .

وهو يضمن بهذا التكافل الإجتماعى .

(والأمة الإسلامية مسؤولة عن الفقراء ، والمساكين والجياع والمعسرين والمحرومين ، وقد أوجب القرآن الاهتمام بأمر هؤلاء وأولئك بالمساعدة المادية والأدبية والأخذ بيدهم ، فضلا عن أنه واجب لذاته بغض النظر عن أى اعتبار فإنه من شأنه أن يشعرهم بقيمة الحياة والحق والتضامن . وأن يجعلهم أعضاء يافعين فى المجتمع . كما أنه فى هذا مظهرا من مظاهر التعاطف والتراحم والتضامن الذى لاتوطد الوحدة الإجتماعية إلا به)(٤).

---

(١) سورة آل عمران : (١٢٩) .

(٢) انظر الفكر الماركسى (٧٩) ، التطور والثبات فى حياة البشرية (٢٤١) ومابعدها ، أوضاعنا السياسية (٤٥) ومابعدها .

(٣) النظام الإقتصادى فى الإسلام (١٨) .

(٤) الفرد والجمتمع فى الإسلام (٤٣) .

وقد اهتم الإسلام بتحقيق هذا الأمر بجوانب عديدة منها الزكاة والإرث حيث يستطيع الإنسان من خلال هذه الأبواب ضمان حد كفايته مضافا إلى هذا مايجب على الدولة من ضمان معيشة الأفراد .

ومبدأ التكافل يتحقق عن طريق الزكاة حيث (تضمن الدولة لكل فرد فيها مستوى لائقا للمعيشة، بحيث إذا حال الفقر أو المرض أو الشيخوخة دون تحقيق هذا المستوى تكفلت الدولة ـ عن طريق الزكاة ـ بتحقيقه . وهذا المستوى ـ اللائق للمعيشة هو ماأطلق عليه الفقهاء المسلمون "حد الكفاية" تمييزا عن "حد الكفاف")[١].

كما أن للزكاة آثارا عظيمة وفوائد جمة منها :

(١) التقليل من التفاوت الطبقى .

(٢) الحفاظ على أمن الدولة[٢].

(٣) الإحساس بالفقراء والعطف عليهم .

(٤) طلب الأجر والثواب من الله تعالى .

(٥) البركة والنماء فى المال .

ومن هنا حقق الإسلام مبدأ العدالة الإجتماعية على أكمل وجه حقيقة لاإدعاء ، يقول ليودوروش (لقد وجدت فى الإسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم ، الأولى قول القرآن {**إنما المؤمنون أخوة**}[٣]، فهذا أجمل مبادىء الإشتراكية ، والثانية "فرض الزكاة على كل ذى مال")[٤].

خامسا : ومما يتميز به الإقتصاد الإسلامى الواقعية والأخلاقية .

يقول الصدر : (فهو إقتصاد واقعى فى غايته ، لأنه يستهدف فى أنظمته وقوانينه الغايات التى تنسجم مع واقع الإنسانية ، بطبيعتها ونوازعها وخصائصها العامة ، ويحاول دائما أن لايرهق الإنسانية فى حسابه التشريعى ،

---

(١) النظام الإقتصادى فى الإسلام (١٠٠) ، وانظر إشتراكيتهم وإسلامنا (١٤٤) .

(٢) انظر النظام الإقتصادى فى الإسلام (١١٦-١١٧) .

(٣) سورة الحجرات : (١٠) .

(٤) نقلا من كتاب إشتراكيتهم وإسلامنا (١٣٦) .

ولايحلق بها فى أجواء خيالية عالية فوق طاقاتها وإمكاناتها .. وإنما يقيم مخططه الإقتصادى دائما على أساس النظرة الواقعية للإنسان ، ويتوخى الغايات الواقعية التى تتفق مع تلك النظرة)[١].

ويقول : (والصفة الثانية للإقتصاد الإسلامى ، وهى الصفة الأخلاقية تعنى ـ من ناحية الغاية ـ : أن الإسلام يستمد غاياته التى يسعى إلى تحقيقها فى حياة المجتمع الإقتصادية ، من ظروف مادية وشروط طبيعية مستقلة عن الإنسان نفسه ، كما تستوحى الماركسية غاياتها من وضع القوى المنتجة وظروفها .. وإنما ينظر إلى تلك الغايات ، بوصفها معبرة عن قيم عملية ضرورية التحقيق من ناحية خلقية)[٢].

سادسا : جمع الإقتصاد الإسلامى بين نوعين من الملكية : الملكية الخاصة ، والملكية العامة ، وبالتالى فلاحاجة للقول بأنه نظام إشتراكى أو رأسمالى ، وقد حقق غاية التوازن فى ذلك فلامصلحة الفرد ضد الجماعة ولاالجماعة ضد الفرد[٣].

وقد كانت هذه الإزدواجية من المسائل المهمة التى أشار إليها القرآن الكريم ، حيث إن الأمة الإسلامية تعتمد (على النشاط الفردى والجماعى ، وهذا النشاط الفردى هو الذى أدى إلى رقى العالم ، وإلى ظهور المخترعين . ويشير القرآن الكريم إلى النشاط الجماعى بقوله تعالى : {**وتعاونوا على البر والتقوى**}[٤]، والبر كل ماهو خير للفرد والجماعة ، وإلى النشاط الفردى تشير الآية الكريمة فى قوله سبحانه وتعالى : {**وأن ليس للإنسان إلا ماسعى**}[٥]، ويقول سبحانه : {**كل امرىء بما كسب رهين**}[٦])[٧].

---

(١) إقتصادنا (٢٨٨) .
(٢) إقتصادنا (٢٨٩) .
(٣) انظر : نحو إقتصاد إسلامى (٢١) ، النظام الإقتصادى فى الإسلام (٢٧) ، ضمانات ضمانات الحرية (١٢٢) .
(٤) سورة المائدة : (٢) .
(٥) سورة النجم : (٣٩) .
(٦) سورة الطور : (٢١) .
(٧) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٢٠٧) .

وقد فطر الإنسان على الأمرين ، فمن ذهب ليذهب بواحدة منها يكون قد أخطأ الطريق ، وحكم على نفسه مثل الآخرين بالهلاك[١]. وبإقرار الإسلام لنوعى الملكية يكون قد حقق التوازن ، وماتطلبه الفطرة الإنسانية ، وهو خير من كل المذاهب الأرضية[٢].

سابعا : تحقيق الحرية الإقتصادية بكل أبعادها مع منع الإضرار بالغير أو بالنفس ، أو أن يكون طريق الكسب حراما ، أو الإنفاق فى حرام .

كما جعل النظام الإسلامى للفرد الحرية المطلقة فى التعاقد شريطة أن لاتكون شروط العقود محرمة أو مخالفة لما فى كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ويدخل فى هذه الحرية حرية التملك والتصرف فيما يملك واختيار العمل الذى يريد ، وإنتاج السلعة التى يحتاجها أو يريدها تحقيقا للمصلحة الخاصة والعامة .

ومن هنا حث الإسلام على الكسب والعمل وهذا الطريق هو طريق الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، فنوح عليه السلام كان نجارا ، وإدريس عليه السلام كان خياطا ، وإبراهيم عليه السلام كان بزازا ، وداود عليه السلام كان يصنع الدروع وزكريا عليه السلام كان نجارا ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يرعى الغنم[٣].

وعلى هذا فإن الإسلام أباح الكسب وعدد طرقه، ونوع أساليبه ، وجعل لذلك قيودا حتى لايطغى جانب على آخر . (والمكاسب أربعة : الإجارة ، والتجارة ، والزراعة ، والصناعة . وكل ذلك فى الإباحة سواء عند جمهور الفقهاء رحمهم الله)[٤].

---

(١) انظر نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٧٠-٧١) .

(٢) وعن الملكية العامة انظر ماذكره الصدر فى كتابه إقتصادنا (٤٣٦-٤٣٨) .
وعن تطرف المذهبين الرأسمالى والإشتراكى فيها انظر (٥٢٧-٥٢٨) .

(٣) انظر الإكتساب فى الرزق المستطاب (١٩-٢٠) ، محمد بن الحسن الشيبانى ، تحقيق محمود عرنوس ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

(٤) الإكتساب فى الرزق المستطاب (٤٠) .

وبهذا نجد الإسلام يحقق التوازن فهو لايمنع التلمك ، ولايحرم الإنسان من السعى لأجل الاكتساب ، وفى الوقت ذاته لايعطى الفرد كافة التصرفات بل يقيدها بعدم الضرر بنفسه أو بالآخرين[١].

فأقر الإسلام الحرية واعتبرها ركنا أساسيا من أركان الإقتصاد[٢]، وأحاطها بقيم معنوية وخلقية تجعل من الحرية الإقتصادية أداه خير للإنسانية كلها[٣].

وهذا التقييد للحرية ومنع الإنسان من بعض الأساليب فى الاكتساب هو مما يتفق مع الفطرة الإنسانية .

ثامنا : مما يميز الإقتصاد الإسلامى ارتباط المعاملات فيه بمسألة الحلال والحرام ، والعقاب والثواب[٤]. فهو يرفض الظلم واستغلال الآخرين ، وبالتالى يحافظ على المجتمع فى تماسكه ووحدته ويحميه من عوامل الانقسام[٥].

تاسعا : يقوم النظام الإقتصادى الإسلامى بتأمين فرص العمل والتكافؤ فيها .

عاشرا : الحث على التنمية الإقتصادية الشاملة[٦].

الحادى عشر : أن النظام الإقتصادى يحرم تجمع المال فى يد طبقة واحدة دون أن يكون للأخرى حق فيه ونعنى بذلك الحق الشرعى ، حتى لايكون ذلك سببا فى اضطهادهم والتسلط عليهم ، لأن هذا الاحتكار وتجمع

---

(١) انظر من أين نبدأ (١٥٨-١٦٠) ، وتحدث عن أصل الحرية فى الإسلام واختلافها عن النظام الرأسمالى ، كما أبان مصادمة النظام الإقتصادى الشيوعى للفطرة الإنسانية بمنعه حق التملك .

(٢) انظر فلسفتنا (١٥) .

(٣) انظر إقتصادنا (٢١٣) .

(٤) انظر الاكتساب فى الرزق المستطاب (٣٨-٣٩) .

(٥) انظر الفكر الماركسى (٧٨-٨١) .

(٦) انظر نحو إقتصاد إسلامى (١٤) .

المال فى يد فئة دون أخرى يؤدى إلى الترف والانغماس فيه وبالتالى ظهور التمايز وانتشار الفساد(٢).

ويراعى الإسلام فى مسألة الإنفاق التوازن فلاإسراف ولاتقتير . وإذا روعيت الأصول الشرعية فى الانفاق والاكتناز فإنه ينتج عن ذلك المصلحة للفرد والجماعة . وقد وردت عدة آيات تدل على هذا التوازن .

قال تعالى : {**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**}(٣).

وقال تعالى : {**ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا**}(٤).

وقال تعالى : {**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين**}(٥).

فيحرم الإسلام السرف والتقتير لأن مضارهما كبيرة ، ومفاسدهما عظيمة(٦). وماحرم الإسلام شيئا إلا وفيه شر وماأمر بشىء إلا والخير فيه .

وعلى هذا فإن الإسلام قد تميز بما يصلح الإنسان ويوافق فطرته ويشبع غريزته ، على خلاف المذاهب الأرضية كلها . ومن هنا فلايستقيم لأولئك المفكرين أو المنخدعين بدعواهم أن الإسلام نظام إشتراكى أو رأسمالى

---

(٢) انظر الفكر المادى فى ميزان الإسلام (١٣٢) .
(٣) سورة الفرقان : (٦٧) .
(٤) سورة الإسراء : (٢٩) .
(٥) سورة القصص : (٧٧) .
وعن هذا التوازن وتحققه فى الإسلام انظر كتاب الإسلام دين الفطرة (١٤٨-١٥٧).
(٦) انظر النظام الإقتصادى فى الإسلام (٨٩) .

ونسى هؤلاء (أو تناسوا) حقائق كثيرة منها :

(١) أن الإسلام أقدم ظهورا وتطبيقا من هذه المذاهب الوضعية .

(٢) أن الإنصاف هو أن يقدم الإسلام بصورة متكاملة عند المقابلة مع غيره[١].

ويبين د. على جريشة فساد هذا القول وبطلانه فيقول :

(ودعوة هؤلاء وأولئك أو دعواهم مرفوضة غير مشكورة!

أولا : لأن طبائع الأشياء ترفض النقل الأعمى! فإن النبات يأخذ بالاختيار ، فيتخير النخيل من عناصر التربة مالايتخيره شجر البرتقال ، والإنسان ـ الذى تميز بالإرادة ـ أولى بذلك الاختيار ، ومن ثم كان النقل الأعمى مصادما لقدرة الاختيار لدى الإنسان !

ثانيا : لأن الأصالة ترفض النقل الأعمى! إن الأمم الأصيلة تعتز بتراثها ، وترفض أن تلقى به لتنقل عن غيرها مايمحو شخصيتها ويقضى على استقلالها ...

ثالثا : ماعندنا خير وأبقى بشهادة الكثيرين . ممن يريدون النقل عنهم وبتحقيق العالمين لنهضة أوروبا ينكشف الأمر ، وينجلى . إنهم أخذوا عنا الحضارة ، فبدأوا حيث انتهينا . وبنوا على ماأقمنا ، فارتفعوا ببنائهم ، ونحن وقعنا حيث انتهينا ، فتقدم الناس وتأخرنا ، ثم عدنا للوراء خطوات وخطوات ، وتركنا اللب الذى أخذوه ، وجرينا وراء القشور التى ابتدعوها فزاد الضلال ، وزاد الانحلال!!

رابعا : سراب الشيوعية قد انكشف ، بعد تراجعاتها الكثيرة فى مجال النظرية : فى صدد التفسير المادى للتاريخ وفى مفهوم المادة ذاته ، وبعد تراجعاتها الكثيرة فى مجال التطبيق ، بعدولها الجزئى عن إلغاء الملكية ، وبعدولها المرحلى عن إلغاء الأسرة ، وبعدولها المرحلى (التكتيكى) عن الهجوم على الدين بأخذها عن الراسمالية بالحوافز وبمهادنتها للرجعية فيما سمى بالوفاق ، ثم ببأسها الشديد فيما بينها .

---

(١) انظر الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٤-٦) .

ثم بما أحدثته فى البلاد التى دخلتها من تخلف تميزت به عن قريناتها : فألمانيا الشرقية غير ألمانيا الغربية ، والاثنتان شعب واحد ، لكن الأول حكمته الشيوعية ، والثانى حكمته الراسمالية ..!

ثم بما أحدثته فى البلاد التى فرضت نفسها عليها ، مثل بولندا سنة ١٩٥٦م ، وتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨م ، ومن قبل ذلك فى بلاد المسلمين التى ضمت قسرا وقهرا لسادة الكرملين)[١].

إن الإقتصاد الإسلامى يعطينا مافى الفكرة الإشتراكية وزيادة عليها ويعطينا مافى الراسمالية وأكثر منها مع أنه يتجنب المزالق والمهالك التى تقع فيها تلك المذاهب .

وإن مما يؤسف له أننا فى عالمنا الإسلامى إلا مارحم ربك وقليل ماهم لاينظرون إلا إلى تجربتين هما الرأسمالية والإشتراكية .

(ولانكاد نتصور أن هناك حلا آخر .. فإذا وجدنا أن كلا التجربتين لاتصلحان لنا ، بدأنا نبحث عن حلول وسطى بين المدرستين ، وبدأنا نصنع منهما تركيبة ملائمة .

ولو نظرنا إلى الإسلام لوجدنا فيه نبعا من الأفكار والحقائق تسبق النظامين تقدما ومعاصرة ، ولوجدنا كل ماحسبناه جديدا فى الإشتراكية العلمية هو أمر قديم ثلاثة عشر قرنا فى الإسلام ...)[٢].

ومما يزيد الطين بلة أن هذه الدعاوى التى ظهرت بإشتراكية الإسلام ورأسماليته ، ظهرت فى وقت يعترف الأعداء بأن النظام الإقتصادى الإسلامى هو الذى سيحل مشاكل العالم الإقتصادية وهو الإقتصاد الراجح حيث يقول أحد علماء الإقتصاد الفرنسى وهو جاك أوسترى : (إن طريق الإنماء الإقتصادى ليس محصورا فى المذهبين المعروفين الرأسمالى والإشتراكى ، بل

---

(١) الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام (٣٧٨-٣٨٠) .
(٢) الإسلام دين الفطرة (٦٧) .

هناك مذهب إقتصادى ثالث راجح هو المذهب الإقتصادى الإسلامى)[١].

ويؤكد المستشرق الفرنسى رايموند شارل (أن الإسلام رسم طريقا متميزا للتقدم فهو فى مجال الإنتاج يمجد العمل ويحرم كافة صور الاستغلال وفى مجال التوزيع يقرر قاعدتين لكل تبعا لحاجته كحق إلهى مقدس تكفله الدولة لكل فرد . ولكل تبعا لعمله مع عدم السماح بالتفاوت الشديد فى الثروات والدخول)[٢]. وهكذا شهد الأعداء بفضل نظام الإقتصاد الإسلامى ويظل هؤلاء على تصوراتهم وآرائهم .

إن النظام الرأسمالى والإشتراكى غير صالحين للتطبيق لتعارضهما مع الفطرة الإنسانية والمصلحة الخاصة والعامة .

ومن هنا فلالقاء بين الإسلام والمناهج الأرضية التى تستمد أصولها من الآراء البشرية والتصورات الأرضية . يقول د. على عبد الحليم : (فلا النظام الراسمالى أو الحر - كما يقولون - ومايعيش فى ظله من ديمقراطيات ، ولا النظام الشيوعى أو الإشتراكى ومايعايشه من حتميات وصراعات ، ولا الفلسفات القائمة على أساس المبالغة فى تقدير قيمة الإنسان وتفضيله على الدولة ولا نظيرتها التى تبالغ فى سحق الإنسان وإهدار حقوقه باسم الدولة ، لا هذه الأنظمة ولا تلك يمكن أن تتفق مع الإسلام ومنهجه العادل الحكيم فى تحقيق مصلحة الناس أجمعين وغرس الفضائل والآداب فى نفوسهم ووضع الإنسان والدولة كل منهما فى حجمه الصحيح ، ووضعه السليم . ومن هنا يكون العداء والصراع بين هذه النظم والنظريات وبين الإسلام)[٣].

---

(١) نقلا من كتاب النظام الإقتصادى فى الإسلام (١٣-١٤) .
وانظر : شهادتى للتاريخ (٢٣٦) ، هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١٠) ، نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (١٩) .

(٢) النظام الإقتصادى فى الإسلام (١٤) .

(٣) الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام (١٤٨) .

وبعد : أفلايعود أولئك المهزومون إلى تطبيق شرع اللـه تعالى وإبقائه بعيدا عن نوازع نفوسهم ومكامن ضعفهم التى يحاولون إحراز النصر من خلال إلحاق الأوصاف والألقاب بالنظام الإسلامى ككل - والإقتصادى خاصة - بالأفكار الوضعية ، فإن النظام الإقتصادى فى الإسلام نظام ربانى يحصل من تطبيقه كل ماترجوه البشرية من سعادة وفيه القضاء على كافة المعضلات والمشكلات الإقتصادية ، التى أثقلت كواهل دول العالم قاطبة لانتشار مايسخط الله تعالى ، فانتشر الربا وحل الحرام محل الحلال ، وأكلت الأموال ظلما ، وكان الاحتكار المذموم ، وكذلك الظلم الفاحش لكل من عجزت قوته فى أخذ حقه ، وكل هذا بسبب البعد عن صراط الله المستقيم .

وبهذا يتبين أن الخلاص للأمم هو فى أخذها بما شرعه الله تعالى لأنه جل وعلا عليم بما ينفعهم ويصلح لهم فى كل زمان ومكان .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن النظام الإقتصادى الإسلامى نظام إلهى يستمد أصوله وقواعده مما قرره الخالق جل وعلا .

ثانيا : أن الإقتصاد الإسلامى اشتمل على كل خير ورد فى المذاهب الإقتصادية الأرضية ، وابتعد عن كل شر فيها مهما صغر .

ثالثا : أن الإقتصاد الإسلامى إقتصاد مستقل له خصائصه ومميزاته التى ينفرد بها عن كل المذاهب والأنظمة الأخرى .

رابعا : إن من أهم مايميز الإقتصاد الإسلامى ارتباطه بمسألة الحلال والحرام .

خامسا : توافق المذهب الإقتصادى الإسلامى مع الفطرة البشرية .

وبهذه اللمحة المختصرة عن النظام الإقتصادى فى الإسلام يتبين لنا بوضوح فشل النظرية الإقتصادية الماركسية ، وعجزها عن تحقيق مايطلبه الإنسان ، لأنها قامت أساسا على مصادمة فطرته ، ومنعه من حقوقه ومع هذا وعدته بتحقيق ماتصبو إليه نفسه ، وتنبأت لهذا الإنسان بواقع شيوعى يحقق

فيه كل ماأراد غير أن الواقع أبرز فساد هذه النبؤة وغيرها ، حيث لم يحقق الإنسان تحت النظام الشيوعى شيئا مما وعد به ، فأصبح الواقع المحك الحقيقى لكشف زيف النبؤات والوعود الشيوعية . وهذا ماسنعرض له فى الفصل التالى بحول الله تعالى وقوته .

الفصل الرابع
فساد تنبؤات الشيوعية وبطلان نظرياتها

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد

المبحث الأول : فساد نبؤات الماركسية ، وأثر ذلك .

المبحث الثانى : إبطال العلم للأفكار الماركسية .

المبحث الثالث : بطلان القول بأزلية المادة وقوانينها الجدلية

المبحث الرابع : بطلان المادية التاريخية .

الفصل الرابع
فساد تنبؤات الشيوعية وبطلان نظرياتها

تمهيد :

إن النظرية الماركسية قامت على عدة تنبؤات وتصورات ، ولعل هذا الأسلوب هو الأسلوب الأمثل فى التأثير على الناس من أجل ازدياد عدد الأتباع وتطلعهم لهذه الآمال والأحلام التى رتبتها تلك النبؤات .

وقد أكثر ماركس من تنبؤاته بدء من تفجير الثورة إلى أن يعيش الناس بلادولة حيث ارتقى الإنسان إلى درجة لم يعد معها فى حاجة إلى وجود قوة توجهه أو تضبط تصرفاته . ولم تكتف الماركسية بأنها أقامت فكرها على مجموعة من التنبؤات ، بل وصادمت الحقائق العلمية ، وجاءت بالأفكار التى تردها البراهين العقلية ناهيك عن الأدلة الشرعية . ولأجل ذلك أعنى قيامها على النبؤات ، ومصادمتها للحقائق العلمية . كان الواقع هو المحك الأول لاختبار صدق هذه الأفكار من عدمه . ولو أن الواقع أثبت صدق هذه النبؤات لحققت الدولة الشيوعية (الاتحاد السوفييتى) الشىء الكثير من جراء تطبيق الفكر الماركسى فيها ، لأن تلك النبؤات حملت أحلاما ـ وخاصة لطبقة العمال والتى بالفعل كانت تعيش حالة سيئة نظرا لاضطهادها واستغلالها ـ لو تحققت لانتشرت الفكرة الشيوعية بدون إراقة دماء ، وبدون عناء فى حمل الناس على التصديق بها .

هذا بالإضافة إلى أن الأفكار المادية والقوانين الجدلية التى رتب ماركس كثير من أفكاره عليها قد صادمت هى الأخرى الحقائق العلمية . فأدى ذلك إلى تشكك الأتباع وخاصة المفكرين منهم . فى مصداقية ذلك الفكر وبدأ الخلاف بين لينين وبعض هؤلاء الذين رأوا أن الواقع يصادم تلك النبؤات ، ورد عليهم لينين واتهمهم بأصحاب النزعة التحريفية . ومن هنا أدى فساد النبؤات الماركسية ومصادمتها للحقائق العلمية إلى عدم

الـوثوق بهـا والتراجع من قبـل كثيرين عـن الإيمان بهـا حيـث ولـدت تلك المصادمة فى نفوس الأتباع التذبذب والشك ، كما شكلت مادة خصبة لأعداء الفكـر فى الإصـرار على عـدائهـم ، واستغلال ذلـك فى بيـان فسـاد النظـرية الماركسيـة ، وكذلك فى التنبؤ بفشل الشيوعية حيث قـامت على مجرد تنبؤات كذبها الواقع ، وأفكار صادمهـا العلم . ونعرض فى هـذا الفصـل لهذه الأمور بشىء من التفصيل .

المبحث الأول
فساد نبؤات الماركسية

قامت الماركسية على مجموعة من التنبؤات ، كان الواقع لها بالمرصاد حيث كذبها وصادمها وماكان للإنسان أن يؤمن بفكر نظرى ويكفر بواقعه المشاهد المحسوس (كما هى قاعدة الماركسية) . ومن أهم هذه النبؤات :

أولا : أن الثورة التى هى حتمية تاريخية ، ستكون فى إحدى الدول المتطورة صناعيا والتى بلغت فيها المرحلة الرأسمالية الدرجة الأخيرة من التطور والاستغلال ، ووقع اختيار ماركس وانجلز على بريطانيا أو فرنسا أو المانيا كى تنطلق منها الثورة وذكر أنه لايمكن أن تقع فى بلد متخلف .

يقول انجلز : (تسيطر البروليتاريا سياسيا بشكل مباشر فى انجلترا حيث يشكل البروليتاريون غالبية السكان . بينما تسيطر بشكل غير مباشر فى فرنسا والمانيا حيث غالبية السكان لاتقتصر على البروليتاريين وإنما تشتمل أيضا على الفلاحين الصغار والبرجوازيين الصغار الذين لم يستكملوا بعد عملية التحول إلى بروليتاريين)[١].

فكانت هذه النبؤة . غير أن الواقع كذبها وأبطلها ، حيث انفجرت الثورة فى بلد متخلف لم يصدق عليه من نبؤة ماركس شيئا .

يقول وحيد الدين خان : (وقعت الثورة الشيوعية فى روسيا ـ أول ماوقعت ـ بدلا من أن تقع فى البلدان الرأسمالية الراقية ، كانجلترا ، والمانيا وفرنسا . وكانت روسيا بلدا زراعيا متخلفا ، وكانت نسبة العمال بها قليلة ، بالمقارنة مع النسبة التى حددها ماركس لوقوع الثورة الإشتراكية فى بلد ما . وكان العمال لايشكلون إلا عددا ضئيلا من عدد السكان فى روسيا . فكانت غالبية السكان بها تملك قطعا أرضية صغيرة تزرعها . ولم يكن قد نشأ فى روسيا "التناقض الطبقى" الذى يقود إلى الثورة الإشتراكية ، فلم تكن روسيا

---

(١) تعاليم الماركسية (٣٠) .

قد تحولت - بعد - إلى دولة صناعية بمعنى الكلمة ، وكان بها إقطاعيون وصغار الفلاحين . وطبقا لهذا الواقع ، كانت روسيا تبعد عن الثورة الإشتراكية ، "مرحلة كاملة" ، فكانت روسيا لاتزال فى مرحلة "الإقطاع" بينما كان يجب عليها أن تعبر مرحلة "الرأسمالية" لكى تصل إلى مرحلة الإشتراكية .

وبعبارة أخرى : لم تكن نشأت فى روسيا الأحوال ، التى تدفع طبقتين إلى الصدام ، فتقع الثورة نتيجة هذا الصراع . ولذلك كان أعضاء "الدولية الثانية" يرون أنه (لايمكن للطبقة العمالية ولاينبغى لها أن تحصل على مقاليد السلطة ببلد ما ، مالم تشكل هذه الطبقة أكثرية به)[١].

ويقول العقاد إن ماركس (كان يقول إن أمم الصناعة الكبرى هى الأمم المعرضة لظهور الشيوعية فيها فإذا بالأمر ينقلب من النقيض إلى النقيض ، وإذا بالشيوعية تظهر بين الأمم على قدر خلوها من الصناعة الكبرى)[٢].

ومما يزيد فى بيان بطلان هذه النبؤة وزيفها أن الدول التى تنبأ ماركس بوقوع الثورة فيها يعتبر الأحزاب الشيوعية فيها أضعف الأحزاب الشيوعية فى دول أوروبا الغربية ، يقول حسين أبو الحسن : (يتنبأ ماركس ويحتم بأن الثورة الإشتراكية ستصيب أول ماتصيب واقع المانيا وثم بريطانيا وذلك لأن مجتمعهما قد وصلا إلى قمة المرحلة الرأسمالية وأن التناقض بين قوى علاقاتها الإنتاجية "الرأسمالية" وبين القوى المنتجة "العمالية" قد نضج تماما فأصبحت عملية انتقال هذين المجتمعين من المرحلة الرأسمالية إلى المرحلة الإشتراكية أمرا حتميا "شاء الشيوعيون ذلك أم أبوا" . فيمر أكثر من مائة وعشرين عاما على تنبؤ ماركس الحتمى ولما ينتقل مجتمعا المانيا وبريطانيا من مرحلتيهما الرأسمالية إلى المرحلة الإشتراكية ، بينما حدث العكس من ذلك ، إذ يعتبر حزبا الشيوعيين فى هذين البلدين من أضعف

---

(١) سقوط الماركسية (٦٧) ، وانظر الإشتراكية العربية (١٤٢-١٤٣) .
(٢) لاشيوعية ولااستعمار (١٧) .

أحزاب الشيوعية فى دول أوروبا الغربية . فلماذا لم تحدث معجزة ماركس الحتمية ويتحقق تنبؤه العلمى؟)[١].

وأما الجزء الشرقى من المانيا فإن الشيوعية فيه فرضت بالقوة ومن خارج أرض الدولة فلاتصدق عليها النبؤة الماركسية . ومما يزيد فى كشف بطلان هذه النبؤة ، وأن الماركسية اصطدمت بالواقع نظرا لأنها قامت على أوهام وتخرصات هو أن الثورة الشيوعية ماوقعت إلا فى بلد متخلف لايمكن بحال أن تنفجر منه الثورة حسب التنظير الماركسى . فسقطت "حتمية الوقوع" . يقول العطار : (كان من تكهنات ماركس الحتمية الوقوع كما يدعى أن الشيوعية تولد وتحيا وتسود فى الدول الصناعية . وكلمة "حتمية الوقوع" من لوازم الماركسية ، فكل ماتدعيه حتمى الصواب وكل ماتتكهن به حتمى الوقوع لامحالة ، فهى تتكهن بأن الشيوعية توجد حتما فى الدول الصناعية الكبرى مثل انجلترا وفرنسا والمانيا ونفى ماركس قيام الشيوعية فى الدول الزراعية والدول المتخلفة وكذب الواقع النظرية الماركسية ، وكهانة ماركس ...)[٢].

كما أن الثورة قامت على يد الفلاحين وليس على يد الصناعيين . يقول العوف : (فهو ـ أى ماركس ـ قد تنبأ بأن الدولة الشيوعية الأممية نتيجة للنضال الطبقى ، ستتأسس على أيدى العمال فى البلاد الألمانية ، وستنطلق منها إلى بلاد أخرى ، ولكن نبؤته هذه لم تتحقق بل تحقق ـ مبدئيا ـ عكسها إذ أن الدولة الشيوعية الأولى تحققت فى روسيا ، التى كانت أبعد ماتكون عن قبول الشيوعية فى ذهن ماركس كما أن الذين قاموا بها ، لم يكونوا عمالا صناعيين ، كما توهم بل كانوا فلاحين زراعيين ، وهم الفلاحون الروس لاالفلاحون الألمان أيضا)[٣].

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (٦٤) ، وانظر الفكر المادى فى ميزان الإسلام (١٣) .
(٢) الشيوعية (٧٧) .
(٣) إشتراكيتهم وإسلامنا (٢٣) ، وانظر : كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٢٩-٣٠) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٢٠) .

ثم إن الأمر لم يقتصر على الواقع السوفييتى فى رده على هذه النبؤة ، بل إن البلد الثانى فى الشيوعية وهى الصين . كان ظهور الفكر الشيوعى فيها تكذيبا لنبؤة ماركس وبيانا لفساد نظريته وحتمياته . ويصور أحمد حسين حدوث الثورة فى الصين - وأنه يبطل النبؤة الماركسية ، وأن الثورة قامت على يد الفلاحين وليس على يد العمال ، وأن الشيوعيين الصينيين قد انقسموا بسبب فساد تلك النبؤة - فيقول : (هذا هو الذى حدث فى الصين حيث بدأت الحركة الشيوعية بين صفوف الفلاحين . بزعامة ماوتسى تونج ، وظلت كامنة محصورة حتى واتتها ظروف معينة فانتصرت واستولت على مقاليد السلطة ، وكان الذى أعانها على ذلك فى الواقع هم الأمريكان "الرأسماليون" وليس الروس "الإشتراكيون" فقد غزت اليابان الصين واستولت على أهم أجزائها ، فراح الصينيون يقاومونها فى الداخل ، وحدث أن اعتدت اليابان على أمريكا واشتبكت الدولتان فى حرب طاحنة فأسرعت أمريكا تمد الشعب الصينى بكل مايساعده على القتال ، وأمدت الشيوعيين فيمن أمدت بالسلاح والمال ، وقرب نهاية الحرب كان الشيوعيون تحت زعامة ماوتسى تونج قد أصبحوا أكبر قوة فى الصين، فقد كان ماوتسى تونج يوزع الأرض على الفلاحين فى كل مكان يدخل إليه ، فالتفت حوله قلوب الملايين من الفلاحين ، وحاولت أمريكا أن توقف هذا المد ، فوقفت إلى جوار كاى شيك ، ولكن الأوان قد فات ، واستولى ماوتسى تونج على السلطة ودخلت جيوش الفلاحين إلى شنغهاى وغيرها من مدن الصين الصناعية الكبرى لتحرر البروليتاريا الصناعية ، ومن اللطيف أن زعماء الشيوعيين الصين الأوائل تمسكا منهم بالتعاليم الماركسية ، لم يتصوروا أبدا أن تبدأ الشيوعية فى صفوف الفلاحين فانقسموا على ماوتسى تونج ، وذهبوا إلى شنغهاى ليبدأوا منها الثورة الإشتراكية ، ولم ينظر ستالين إلى شيوعى الصين نظرة جديدة أبدا - وكان حليفا لكاى شيك ضدهم - إلا بعد أن انتصر ماوتسى تونج فاضطر ستالين للاعتراف به على مضض ، وقد رأينا كيف عاد فسحب خبراءه ومعوناته عن الصين . والذى يعنينا أن الأمور قد

سارت فى الصين كما سارت فى كل عصور التاريخ فى الاتجاه الذى يرسمه رجل موهوب يصل إلى السلطة عن أى طريق وبمساعدة عناصر متناقضة حتى إذا وصل إلى السلطة نظم الدولة طبقا لمعتقداته أو بالأحرى طبقا لمصلحته . وهكذا تكون حسابات ماركس قد أخفقت بالجملة)[١].

وهكذا يثبت الواقع (أن أكبر ثورتين إشتراكيتين فى النصف الأول من القرن العشرين ـ ثورة روسيا وثورة الصين ـ قامتا فى بلدين لايرشحهما التحليل الماركسى للثورة)[٢].

بل يمكن القول إن الدول المتطورة ترفض الفكر الماركسى ، بينما تحتضنه الدول أو المجتمعات المتخلفة والتى لم تنضج بعد ظنا منها أن فيه الخلاص مما هى واقعة فيه . يقول دجيلاس : (إن الماركسية لم تستطع أن تنفذ إلا إلى البلدان المتخلفة صناعيا ، مثل روسيا بادىء ذى بدء ، ومن ثم إلى الصين ، وذلك عن طريق هيمنة العقيدة الشيوعية . أما فى البلدان المتطورة المماثلة لألمانيا ، حيث بلغ سير التقدم السياسى والتطور الإقتصادى مرحلة مهمة ، فلم يكن هناك أى مبرر للثورة ، ولم تستطع الملاح الثورية للتعاليم الماركسية ، أن تجد لها مكانا ، فى وقت سيطرت فيه الأفكار الديمقراطية الإصلاحية . وعلى هذا الأساس نجد أن التقدم الإجتماعى الإقتصادى المشفوع بالتطور الفكرى قد أدى إلى إحداث انشقاق حاد فى قلب الحركة الإشتراكية الأوربية . فلقد قاد واقع التطورات فى الأوضاع السياسية والإقتصادية ـ بصورة تقريبية ـ إلى اختلاف فى آراء واضعى النظريات الإجتماعية ، انطلاقا من دراستهم وتفسيرهم للواقع بطريقة نسبية ، وكان لتحزبهم السياسى ونظرتهم الخاصة الدور الأكبر فى ذلك . وهكذا ، اختلفت آراء لينين فى روسيا وبرنشتاين فى المانيا ، كقطبين متباعدين ، نتيجة

---

(١) إفلاس الماركسية (٣٥-٣٦) ، وانظر : هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٦٩) ، المادية والروحية فى الميزان (٦٣-٦٤) ، حذار .. لاهم تقدميون ولاعلميون ولاموضوعيون (١٧-١٨) ، الفكر الماركسى (٧٥) .

(٢) الإشتراكية العربية (١٤٢) .

لاختلاف التطورات الإجتماعية والإقتصادية ، فى كل من بلديهما . ولم يبق بصورة تقريبية ، أى شىء من الماركسية الأصلية ، فقد انتهت فى الغرب أوهى أوشكت على لفظ أنفاسها الأخيرة ، أما فى الشرق فلم يبق منها سوى ملاح فلسفية ضئيلة ، مرتبطة بالمادية الجدلية وبنزعتها الحتمية ، نتيجة لإقامة الحكم الشيوعى فيه)[١].

ونظرا لكون نبؤة ماركس أخطأت فى مكان اندلاع الثورة ، ماكان من لينين إلا أن قام بتبرير تخلف تلك النبؤة عن الواقع[٢].

وكانت حجته أن الماركسية ليست شيئا جامدا ، ومن هنا افتتح لينين التراجع والتغيير فى تطبيق الأفكار الماركسية .

إن الثورة لاتقع حيث تطور وسائل الإنتاج ، وإنما تقع فى المكان الذى توجد فيه دواعى انفجارها حيث الاستغلال والظلم .

يقول العقاد : (إن حركات الثورة التى نشبت فى روسيا وماماثلها كانت تنشب فيها بعنوان من العناوين غير الشوعية لو لم يولد كارل ماركس ولم ينتشر بين أتباعه مذهب يسمى بالفلسفة المادية أو الإشتراكية العلمية ، فماكان حتما لزاما أن يشيع فى روسيا مذهب رجل ولد فى المانيا ودرس مذهبه فى انجلترا وجمع مؤتمراته فى سويسرا أو بلجيكا أو بلاد الشمال ، وكل عنوان صالح لالصاق اسمه بالحركة الثورية متى هزلت الحكومة وتجمع الثوار المتمردون فى مكان واحد ، فإذا كانت للشيوعية مزية فى هذا الباب على سائر الدعوات فمزيتها أنها غنية عن المجهود العقلى فى إقناع المتمردين المتذمرين بالاستماع إليها ، فإنه مامن مذهب من المذاهب الثورية إلا وهو فى حاجة إلى بعض المجهود العقلى لتعليم المبادىء وبث العقائد وتقرير الآراء إلا الشيوعية .. فهى على نقيض ذلك لاتحتاج إلى مجهود للإقناع بل إلى

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٤-٢٥) ، وانظر : نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٣٣-٣٤) ، المذاهب الإقتصادية الكبرى (١٠٤) .

(٢) انظر : الإصلاح الإقتصادى فى الدول الإشتراكية (٤٨) ، الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٩-١٠) .

إسقاط كل مجهود وإعفاء الذهن من كل إقناع ، فلاوازع ولاعرف ولارياضة للفكر أو للخلق على سنة متبعة ولامبدأ مرعى ولاصفة مطلوبة . بل المطلوب كله نكسة إلى حالة البهيمية السائمة أو إلى شر من حالة البهيمية السائمة ، لأن البهيم فى القطيع يدين ببعض الموانع ويحجم عن بعض الدوافع وليس للشيوعى مانع يمنعه ولادافع يحجم عنه ، إلا أن يكون مانع القيد ودافع السوط والعصا)[١].

ثم إن الدولة التى تنبأ ماركس بقيام الإشتراكية فيها بقيت رأسمالية إلى هذه اللحظة[٢]، بينما كان المد الشيوعى ينحسر قبل أن يصل إلى تحقيق شىء من نبؤاته[٣].

فهذه واحدة من التنبؤات ولربما كانت من أبلغ الردود على فساد فكر ماركس فى اعتقادى لأنها قد حكمت على الفكر من بداية أمره فلربما لو قامت الثورة الإشتراكية فى بلد متقدم صناعيا لحقق الفكر شيئا من النجاح ، ولكن قيامه فى بلد لم يكن يخطر على بال ماركس أن تقوم فيه الثورة لهو دليل على أن ماركس كان حالما ، وكفى بهذا إيغالا فى زيادة الشك لدى المفكرين وأصحاب العقول السليمة فى رد هذا الفكر ، وعدم الإذعان له نظرا لفساد نبؤته وتصادمها مع الواقع .

ثانيا : من النبؤات والحتميات التى قال بها ماركس : انتصار طبقة البروليتاريا كحتمية تاريخية . ولكن الواقع كذب ذلك حيث كان الأمر كله بيد الحزب ، وكانت الدكتاتورية كلها للحزب وأصبحت طبقة البروليتاريا (بعد الثورة مضطهدة ومستغلة من قبل طبقة جديدة لم يتنبأ بها ماركس أبدا هذه الطبقة تمارس الامتيازات التى للطبقة البرجوازية فى المجتمع

---

(١) لاشيوعية ولااستعمار (١٩) ، وانظر (١٨) ، وانظر الإشتراكية العربية (١٤٢-١٤٣).
(٢) انظر التطور والثبات فى حياة البشرية (١١٦) .
(٣) انظر وسقطت الماركسية (٦١-٦٢) .

الرأسمالى)[١].

بل إن الثورة البلشفية تنكرت للعامل وسلبته الحرية ، وسخرته للعمل والإنتاج وكأنه ترسا فى آلة[٢].

ثالثا : التنبؤ بازدياد حال العمال بؤسا وفقرا .

وهذه نبؤة كذبها الواقع من جانبين حال العمال فى روسيا ، وحالهم فى الدول الرأسمالية ، حيث إن حال العمال فى الدول الرأسمالية التى تقر الملكية الفردية لم يزدد سوءا بل بالعكس كان حالهم من أحسن إلى أحسن وخاصة إذا ماقورن حالهم بحال العمال فى البلاد التى تطبق الفكر الإشتراكى يقول دجيلاس : (أما فيما يخص نظريات ماركس حول تردى أوضاع الطبقة العاملة وإزدياد فقرها ، فإن التطورات اللاحقة للمجتمعات التى أوحت إليه بنظرياته هذه ، قد أثبتت بطلانها . إلا أنها أثبتت صوابها ، كما يقول هيوستون واتسون فى كتابه "من لينين إلى مالنكوف" : ليس فى أوروبا الغربية وإنما فى مجموعة بلدان أوروبا الشرقية ، فى ظل الشيوعية . فلقد اختلفت الصورة تماما : فالأوضاع المتردية التى كانت تعانيها انجلترا قد تبدلت تماما بعد ماركس وانجلز وأصبح الفقر مستشريا بشكل مروع ومثير للرهبة والفزع فى روسيا والبلقان وآسيا . فلقد أدت التطورات التكنولوجية فى الغرب ، وتطور القدرة الإنتاجية ، إلى تحسن أوضاع الطبقة العاملة ، واتجهت الأنظار للنضال من أجل الإصلاح الإجتماعى ولرفع مستوى المعيشة مع الأخذ بأنظمة الحكم البرلمانية . حتى باتت "المثل الإنقلابية" و"المبادىء الثورية" مجرد خرافة يثيرها أصحاب المخيلات المريضة والنوايا الخبيثة . بينما استطاعت الشيوعية أن تنفذ إلى قلب بعض البلدان غير المتطورة صناعيا مثل روسيا ، مستغلة تخبط هذه الدول فى سبيل حل مشاكلها

---

(١) من كلام سنتياجوجور بللو الشيوعى الأسبانى ، نقلا من كتاب مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (١٢٥) .

(٢) انظر هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١١٩) .

الإقتصادية ولاسيما فى مجال التصنيع السريع . وبذلك استطاعت جرثومة الماركسية أن تنتقل فى عهد الرأسمالية ، من الغرب المتطور صناعيا إلى بلدان الشرق المتخلفة فى تطورها الصناعى ، مثالها كل من روسيا والصين . ولقد حدث هذا فى وقت توحد الحركات الإشتراكية وارتباطها بجهاز مركزى باسم الأممية الثانية)[١].

إن الواقع كذب هذه النبؤة كغيرها من النبؤات ، وأدى ذلك إلى خطأ الأفكار المترتبة عليها ، يقول بوير : (إن أفكار ماركس عن الرأسمالية وتطورها خاطئة تماما ، وبالتالى ففكرته عن ضرورة القضاء على الرأسمالية وإحلال الإشتراكية محلها لابد أن تكون خاطئة لأنها تقوم على مقدمات خاطئة)[٢].

والذى دفع ماركس للاعتقاد ذلك هو الحالة العرضية التى شهدتها بعض الدول فى بداية التصنيع[٣]. حيث تضخمت الثروات فى يد أصحاب الأعمال ، وأدى ذلك إلى حالة من العوز والحرمان بالنسبة لطبقة العمال .

وهذه عادةماركس حيث يعمم الأحكام متى ماتوفرت فى جزئيات أو مراحل محددة . على خلاف أصول المنهج العلمى . هذا بالإضافة إلى أن النبؤة كانت فاسدة .

وهذا الفساد هو ماحدا ببرنشتين وغيره أن يعيدوا النظر فى الفكر الماركسى ، حيث لاحظ برنشتين أن المجتمع الرأسمالى كما هو ولم توجد الأزمات التى تعصف به ، كما لاحظ أن طبقة العمال لم تزدد بؤسا بل بالعكس تماما (هذان الأمران اللذان لاحظهما برنشتين واللذان يكذبان التحليل الماركسى استوقفا نظر برنشتين وجعلاه يعيد التفكير فى الأمر كله)[٤].

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٦) ، وانظر الفكر الماركسى (٧٥) .
(٢) نقلا من كتاب دفاعا عن الماركسية (١٧٠) .
(٣) انظر هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٦١) وانظر مابعدها .
(٤) الإشتراكية العربية (١٤٨) .

(ورأى أن الديمقراطية البرلمانية هى خير وسيلة للعمال نحو تحقيق أهدافهم)[١].. كما أنه اعتقد بأن (مذهب ماركس مازال يحتفظ فى جوهره بشىء من الخيالية)[٢].

إن فساد النبؤة وتكذيب الواقع لها قد جعل الإنسان الشيوعى - وخاصة المفكرين - يعيش فى إزدواجية من التفكير . وهذا ماجعل الفكر الماركسى يفقد بريقه فى نفوس الأتباع والمؤيدين .

رابعا : من نبؤاته :

أن الصراع سيقع بين البروليتاريا والبرجوازية فى الدول الرأسمالية . وينتهى هذا الصراع بالثورة الإشتراكية . ولكن الذى حدث فى الدول الرأسمالية هو التقارب بين الطبقات الإجتماعية . بينما كان الصراع على أوجه فى الدول الشيوعية ، وعلى سبيل المثال مابين روسيا والصين . ثم إن الصراع ليس بالضرورة أن يكون بين طبقتين مختلفتين ، بل قد يقع بين الرأسمالى ومن على شاكلته ، كما يقع الصراع بين القوميات المختلفة مما يدل على أن الإقتصاد ليس هو السبب الوحيد فى الصراع هذا علاوة على أن الواقع قد كذب النبؤة .

خامسا : من نبؤاته زوال الطبقات من المجتمع .

ولكن هذا لم يحدث ولن يحدث لمخالفته مقتضى الفطرة الإنسانية ، والسنن الربانية . هذا بالإضافة إلى أن واقع الاتحاد السوفييتى قد كذب هذه النبؤة وحكم عليها بالبطلان . حيث أصبح التمايز الطبقى فى المجتمع السوفييتى أكثر منه فى أى مجتمع آخر[٣].

يقول العقاد عن ماركس : (كان يقول إن إلغاء رأس المال يقضى على أسباب الاستبداد ويمنع تعدد الطبقات فإذا بالغاء رأس المال فى روسيا

---

(١) الإشتراكية العربية (١٤٩) .

(٢) إصلاح اجتماعى أم ثورة (٦١) ، وانظر (٨٨) .

(٣) ومر معنا إيضاح ذلك بالتفصيل فى فصل الإقتصاد (١٠٢٠) ومابعدها .

ينتهى إلى استبداد يتحكم فى السياسة والثروة العامة والخاصة ويتحكم فى الأرواح والأقدار ، ويخرج للمجتمع طبقة من الحكام أقوى من الطبقة المعاصرة لها فى كل أمة من أمم رأس المال)[١].

ويقول دجيلاس : برزت (فى صلب المجتمع الشيوعى طبقة جديدة لم يسبق للتاريخ أن رأى مثالا لها)[٢].

سادسا : من نبؤاته :

أن الفوارق ستزول بين المدينة والريف ، وبين العمل الفكرى والعمل اليدوى . غير أن الواقع أثبت بقاءها بل وتعمقها وتأصلها[٣].

سابعا : ومن نبؤاته : وجود المرحلة الشيوعية الأخيرة بعد مرحلة الإشتراكية ، وانتشارها فى جميع أرجاء المعمورة . يقول انجلز : (لم يعد بمكنة الثورة الشيوعية أن تكون ظاهرة محدودة بالحدود الوطنية . وإنما هى ستندلع فى كل البلدان المتمدنة فى آن واحد ، أى فى انجلترا وأمريكا وفرنسا والمانيا على الأقل)[٤].

ويقول لينين : (إن انتصار السلطة السوفيتية فى العالم كله قضية مؤمنة والمسألة كلها مسألة وقت)[٥].

إلا أن الواقع كان لهم بالمرصاد ، فلم تتحقق الشيوعية فضلا عن أن تعم أرجاء المعمورة .

ثامنا : ومنها زوال الدولة .

وهذه نبؤة يكذبها الواقع الشيوعى ، كما يكذبها الواقع الدولى . بل إن الشيوعيين أنفسهم لو لم يكن لهم دولة لما بقيت الشيوعية فى الاتحاد

---

(١) لاشيوعية ولااستعمار (١٧-١٨) ، وانظر : الطبقة الجديدة (٥٤) ، الفكر الماركسى (٧٤) .
(٢) الطبقة الجديدة (٥٤) .
(٣) انظر المرجع السابق (٥٣-٥٤) .
(٤) تعاليم الماركسية (٣٣) .
(٥) ماهى سلطة السوفييت (٣٨) .

السوفييتى هذه الفترة . ومما يذكر هنا أن الدولة الشيوعية الكبيرة أصبحت عدة دول!!!

هذا عدا المبادىء التى نادى بها ماركس ورأى أن بعضها سيتحقق نتيجة لحتميات تاريخية أو ظروف سابقة عليها غير أنها كلها كان الواقع بخلافها وسير الأمور بالاتجاه المعاكس لها . وواقع الاتحاد السوفييتى خير مثال على ذلك . فرغم مابذله قادة الثورة البلشفية من أجل تطبيق الفكر الماركسى فإنهم لم يفلحوا ، ولم يحققوا شيئا من ذلك نظرا لمصادمة الواقع لتلك النظريات والنبؤات[١] القائمة على خيال ماركس . فكان واقع الاتحاد السوفييتى هو المحك لهذه النبؤات وقد أبان ذلك الواقع بطلان الأفكار الماركسية .

يقول ماندل : (إن أزمة الستام التى تعصف بالاتحاد السوفييتى هى أفضل برهان على أن بناء الإشتراكية هو أبعد من أن يكون قد أنجز وذلك خلافا لتأكيدات ستالين)[٢]. والذى كان يرى أن الشيوعية تحققت فى عهده غير أن المفكرين الشيوعيين كانوا يرون عدم إمكانية تحقق الشيوعية على الأصول الماركسية ، نظرا لتناقضاتها ومصادمتها للواقع ، ومن هنا قال فارغا (إن الشيوعية لن ترى النور فى الاتحاد السوفييتى لافى عشرين سنة ولافى مائة سنة مادامت الأمور مستمرة على استمراريتها)[٣].

يقول دجيلاس : (لقد دلت الأحداث المتتالية على مدى بعد تنبؤات ماركس فى تطابقها مع الواقع القائم ، كما أثبتت ـ فى الوقت نفسه ـ وبشكل أكثر وضوحا ، خطل آراء لينين وكتاباته ، فى قضية خلق مجتمع لاطبقى ينعم بالحرية ، عن طريق الأساليب الإرهابية لديكتاتورية الحزب الشيوعى)[٤].

---

(١) انظر إشتراكيتهم وإسلامنا (٥٣-٥٤) .
(٢) الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٧٦) .
(٣) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٧) المقدمة .
(٤) الطبقة الجديدة (٤٨) .

وهكذا غدا الواقع يبطل كل النبؤات والأوهام الماركسية ، وقد أدى ذلك إلى آثار كثيرة وإن كان ظهورها قد تأخر قليلا ، بسبب التسلط من الحزب الشيوعى السوفييتى على رقاب شعوبه .

أثر فساد النبؤات :

كان لفساد النبؤات الماركسية ومصادمة الواقع لها آثارا كثيرة منها :

أولا : أصبحت العقيدة الشيوعية الماركسية فلسفة تجاوزها الزمن ، وباتت متخلفة بالنسبة لتطور الحياة ومعطيات العصر الحديث ، كما أن حتمياتها قد أبطلها الواقع مما كان له ردة فعل فى نفوس معتنقيها وأتباعها والمتحمسين لنشرها[١].

ثانيا : بعد أن أفلست الماركسية فى نظرياتها وأبطلها الواقع انقلبت الثورة البلشفية التى قامت على الفكر الماركسى إلى نظام دولة لها سياستها التى تخالف الأيديولوجية الشيوعية .

يقول قدرى قلعجى : إن (الشيوعية منذ قام الاتحاد السوفييتى لم تعد عقيدة فلسفية أو مذهبا فكريا ، بل انقلبت إلى نظام دولة تشرف على انتشار هذه العقيدة ، وتضع لها الخطوط التى تتفق مع أغراضها وترسم لها الحدود التى تتلاءم مع مصالحها . فلم يعد للمفكر الشيوعى وجود ، لأن الفكر أصبح أداة فى يد السلطة السوفيتية تكيفه أو يكيف نفسه وفقا لأهداف لاعلاقة لها بالفكر والعقيدة .

لقد تحولت الفلسفة إلى دولة ، وغدا معتنقوا فلسفتها جنودا لديها ، وتخلت هذه الفلسفة عن روحها : كانت تجادل فباتت تأمر ، وكانت تناقش لتقنع فغدت تأمر لتطاع ، لم تعد الشيوعية عقيدة فلسفية ونهجا للإصلاح ، وإنما غدت مفهوما للسلطة ، وسبيلا إلى الحكم ، وسلاحا يتذرع به الطغاة والمنحرفون والمرضى لاحتكار أسباب القوة ، وممارسة ألوان الاستبداد ، تحت ستار من العصمة العقائدية ، وفى ظل هالة من العلم المزيف)[٢].

---

(١) انظر عن التراجع فى الحتميات سقوط الماركسية (٩٠-٩١) .

(٢) تجربة عربى فى الحزب الشيوعى (٢٨) .

ثالثا : أن فساد النظرية الماركسية ومصادمتها للواقع نتيجة طبيعية ، لأنها من وضع العقلية البشرية القاصرة ، وهذا جعل الشكوك تتسرب إلى نفوس معتنقيها وبالتالى التراجع عن التشدد فى المطالبة بتطبيقها إلى أن كان فى نهاية المطاف ضمن أحد الأسباب التى عجلت بسقوطها .

يقول يكن ومنى حداد : (إن أول مايجب أن يدركه الشيوعيون وغير الشيوعيين أن وضعية الفلسفة الشيوعية ووضعية أنظمتها ونظرياتها تقع فى مقدمة الأسباب والعوامل التى أوصلتها إلى الفشل فالانهيار .. إن عامل "الوضعية" فى أية نظرية وفلسفة .. عامل "المحدودية" فى أى منهج أو تشريع .. عامل "البشرية" فى أى نظام أو قانون .. إن هذا العامل هو جرثومة فناء هذه الفلسفات والنظريات والمناهج والتشاريع والأنظمة والقوانين بدون إستثناء ...)[١].

رابعا : ومن الآثار التى نجمت عن ذلك الفساد اضطرار القيادة الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى إلى التراجع عن أفكار ماركس والإعلان أن أفكاره ليست عقيدة جامدة لايمكن الخروج عليها ، وأدى هذا بدوره إلى عمليات الترقيع للفكر والابتعاد عنه بقدر مايحقق المصلحة إلى أن أدى ذلك الفساد للنبؤات ومصادمة الواقع والحقائق العلمية مجتمعا مع بقية الأسباب إلى إنهيار الشيوعية .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن الفكر الماركسى قام على مجموعة من النبؤات والتخيلات .

ثانيا : أن الواقع التطبيقى للأفكار الماركسية ، قد خالف ماتنبأت به النظرية .

---

(١) البيريسترويكا من منظور إسلامى (٣٩) ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

ثالثا : أن واقع الدول الرأسمالية أبطل المزاعم الماركسية وفى ذلك دليل على فسادها وأنها ماقامت إلا على خيالات وأوهام كان لحياة ماركس وبيئته أثر فيها .

رابعا : أن النتيجة البدهية لقيام الماركسية على مجرد التنبؤات والتصورات أن تكون كذلك مصادمة للحقائق والبراهين العلمية لأن العلم لايبنى على مجرد التوهم وبالتالى كان العلم يبطل ويرد الفكر الماركسى ، وهذا ماسنعرض له فى المبحث التالى .

المبحث الثانى
إبطال العلم للأفكار الماركسية

قامت الفلسفة الماركسية على المذهب المادى الذى ينكر وجود الإله ، وكانت الحياة الأوربية تساعد على قيام مثل ذلك الفكر ورواجه(١)، كما أن الكنيسة قد ساهمت فى ذلك بفعالية كبيرة ، وفى هذه البيئة نشأ ماركس ، واستقى أفكاره منها فلاغرابة فى أن أصبح من أشهر الماديين فى العصر الحديث إن لم يكن أشهرهم . ويرى الماركسيون أن ماركس وانجلز قد مروا بفترة تقصى علمى وبعد نضجهما وصلا إلى المادية والإلحاد(٢). ومن هنا تميزت أفكار ماركس وانجلز بأنها علمية حيث اختلفت عن بقية الفلسفات جذريا(٣).

بل إن ماركس قام بنقد النظريات السابقة عليه ، لالإصلاحها بل لأنها قصرت فى خدمة أهدافه الإلحادية(٤). حيث كانت النظريات التى أخذ منها وتأثر بها فى بعض جوانبها تهدم أقواله وفكره الذى يقوم على إنكار الإله ، وعدم ثبات الدين والأخلاق ، وأن المجتمع يسير حسب قوانين محددة وحتميات تاريخية لايخرج عنها(٥). ومن هنا فإن الماركسية قامت فى هذا الجانب على التالى :

(١) إنكار وجود الخالق جل وعلا .

(٢) أن المادة هى الأصل وأنها أزلية أبدية .

---

(١) لمزيد عن ذلك انظر الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٨٥-٢٨٧) ، وانظر الإنسان بين المادية والإسلام (١٦،٢٥) .

(٢) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٣٧،٣٩) .

(٣) انظر المرجع السابق (٦٣) .

(٤) عن بعض هذا النقد انظر المرجع السابق (١٩١-١٩٢) .

(٥) انظر ماذكره د. محمد البهى عن مادية ماركس فى كتابه الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٧٩-٢٨١) .

وقبل أن نبين بطلان تلك المزاعم لابد من التذكير بأن الشيوعيين الماركسيين يعتبرون شيوعيتهم شيوعية علمية ، وبتطبيق الأفكار الماركسية وعرضها على الحقائق العلمية نجد البون الشاسع بين العلم والفلسفة الماركسية يقول د. رؤوف شلبى أن (تسمية الماركسية بالعلمية خطأ مقصود ، فالعلم لايعرف الحتمية .. وإلا لما تقدم العلم التجريبى على نظرية قديمة إلى نظرية أخرى تفوقها أو تكملها ...)[١].

هذا بالإضافة إلى أن علماء النقد العلمى يرون (أن كل نظرية يخالفها الواقع تصبح عندئذ غير علمية ، ويجب أن تطرح فى سلة المهملات)[٢].

وكلمة العلمية التى استخدمتها الماركسية (خداع شديد تعنى الواقع المادى وحده وليست تعنى العلمية فى المنهج الذى يقوم على استخلاص النتائج من التجربة الحقيقية)[٣].

وبعد هذا نأتى إلى بيان بطلان الأفكار المادية الماركسية .

---

(١) التضليل الماركسى (١٨٤) نقلا من كتاب الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٩٧) .
(٢) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٣٣) .
(٣) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١٠٢) .

أولا : وجود الإله .

إن هذه الحقيقة أكبر من أن يدلل عليها فشهدت بذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة . كما أن الأدلة العقلية والبراهين العلمية قد أثبتت وجود الخالق جل وعلا ومر معنا شيئا من ذلك(١).

وهو سبحانه وتعالى الأول الذى ليس قبله شىء والآخر الذى ليس بعده شىء ، قال تعالى : {**هو الأول والآخر والظاهر والباطن**}(٢)، كما أن العلم أثبت (أن المادة ليست وجودا قائما بذاته ومتحركا من ذاته وخالقا لذاته ومتطورا بذاته ، وإنما هى وجود مادى جامد غير متحرك بذاته ـ معلول لغيره فى حركته وتطوره ـ وإن كان يملك إمكانات تطورية غير متحققة بالفعل إنما يلزمه ذلك التأثير الخارجى أو العلة الخارجية التى تعمل على دفعه ليتحول إلى صورة جديدة ونوعية أخرى تتميز بخصائص ومواصفات جديدة .

وليس الكون فى النتيجة إلا مجموعة أشياء الطبيعة من حجر وشجر وحيوانات وجبال وأجرام وبحار وإنسان الخ ... وإن كل شىء من أشيائها محسوس فمحدود فمحدد فله بداية وله نهاية ، وطالما أن كل شىء محسوس له مقاييس طولية وعرضية وعامودية تحدد حجمه ، فيعنى أن له وجودا معينا يتمثل فى أن له أولا وله آخرا ، أى أن له بداية وله نهاية ، أى أنه محدث لم يكن ثم كان وسيزول . وبما أن لكل محدث محدث فالشىء ـ إذن ـ له محدث أحدثه وأوجده . فنقول إن الفخارى هو الذى أحدث صورة "الإبريق" . فالابريق محسوس ، له حجم معين ، وله أول وآخر ، فلم يكن ثم كان وسيزول . وبالتالى فإن له صانعا صنع صورته ونظمه بالشكل الذى أصبح عليه . وهكذا فالكون محدث مصنوع لم يكن ثم كان وسيزول ، طالما أن أشياءه محسوسة ملموسة خاضعة للمعرفة الحسية ، ومحدودة بأحجام معينة.

---

(١) راجع (٥٦٣) ومابعدها .

(٢) سورة الحديد : (٣) .

وعندما نعلم أن كل محدود هو محدث مصنوع فهو محتاج ناقص ـ أى أنه محتاج لمن يوجده ويصنعه وتنقصه إمكانات وجوده بالذات وإمكانات تطوره ذاتيا وإمكانات معرفته المطلقة ـ فيعنى أن الكون ناقص محتاج لغيره فى الوجود والتطور)[١].

ثانيا : أزلية المادة .

يعتقد الماركسيون أن المادة أزلية أبدية فهى أصل الوجود ، لاتفنى ولاتبيد ، يقول ماركس : (لايمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة فإن هذه المادة هى جوهر كل التغيرات)[١].

وهذا الاعتقاد باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن الله تعالى هو الخالق لهذا الكون المدبر لأمره ، وأن كل الموجودات مفتقره له جل وعلا ، وقد ثبتت هذه الحقيقة بنص كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بالبراهين العقلية والعلمية . هذا بالإضافة إلى واقع الشيوعيين فى الاتحاد السوفييتى ، وماآلت إليه دولة الشيوعية والإلحاد .

الوجه الثانى : ادعت الماركسية أنها لاتؤمن إلا بالمحسوس لأنه هو المشاهد ، ولأن العلم يثبته . وتوصلوا من خلال ذلك إلى إنكار وجود الإله لعدم خضوعه للمشاهدة .

فيقال لهم إن عدم إيمانكم بالإله لهذه الحجة ، يوقعكم فى الكفر بالمادة التى هى الأصل عندكم . فيقال لهم كيف هو شكل المادة؟! ومالونها؟! إن الماركسيين قد عجزوا عن الإجابة وسوف يعجز كل أحد اعتقد اعتقادهم ذلك .

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (١٧١-١٧٢) .
(٢) نقلا من كتاب فلسفتنا (٣٧١) .

ثم يقال لهم من أين لكم أن المادة أزلية فإن ذلك بحد ذاته إيمان بما ليس عليه دليل حسى أوبرهان ، وهذا يلزم الماركسيين بلوازم فى جوهر معتقدهم .

يقول نوفل : (إن العجز عن تصور الشىء أو تصور أزليته ، ليس فى حد ذاته برهانا على أن الشىء غير موجود . وإلا لأنكر الماديون أنفسهم وجود المادة لعجز العقل البشرى عن تصور أزليتها!)[١].

الوجه الثالث : أن مقولة أزلية المادة لاتستند على برهان علمى بل إن العكس هو الصحيح حيث إن الحقائق العلمية ترفضها .

كذلك الأدلة الحسية تمنع صدقها فمن ذلك :

(أ) (أن شمسنا هذه وهى من الشموس الطاعنة فى السن ، لايمكن أن يزيد عمرها عن خمسة آلاف مليون سنة ، حسب تقدير العلامة "ميلن" وربما كان ـ حسب مايقول العلماء ـ أقل من ذلك بكثير . فلماذا لم يكن عشرة آلاف ، أو مائة ألف مليون، مثلا؟

واحدة من اثنتين :

إما أن المادة التى تطورت حتى صارت إلى هذه الشموس محدثة ، غير أزلية ، فمن أحدثها؟

أو أن تطور المادة بدأ يحدث قبل مدة معينة من الزمان طالت ، أم قصرت ، فالانطلاقة الأولى لعملية التطور حادثة غير أزلية ، فمن أحدثها ، أو سبب حدوثها . الاحتجاج بالحركة الدفعية التى تقع من أجزاء المادة بطبعها ، كالدفع والجذب ، احتجاج فى غير موضعه ، فإن هذه الحركة مرتبطة بالمادة . فإذا كانت المادة أزلية ، فهى أزلية معها ، فلماذا تأخر تأثير هذه الحركة ـ الأزلية ، جدلا؟ إن شمسا من أقدم الشموس لم يمض على ميلادها أكثر من خمسة آلاف مليون سنة . أما الاحتجاج بما يسمونه

---

(١) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١٢٧) .

"المصادفة" هنا فى هذه الحالة وأمثالها ، فهو سذاجة ينكرها العلم ، وتحايل لايقره أكثر العلماء ،وافتراض بحت لايقوم على صحته دليل)[١][٢].

(ب)أن المادة لايتوقف وجودها على نفسها ، كما أنه لايمكن أن تتحول بذاتها بل لابد لها من مؤثر خارجى ، وهذا يبطل أن تكون المادة أساس كل شىء وبالتالى يبطل زعمهم القائل بأزليتها . يقول د .صابر طعيمة (والمادة حجر الزاوية فى المبادىء الماركسية . ومع أن المادة التى يعللون بها كل مايذهبون إليه . أعسر فهما وأغمض أمرا من معظم المسائل التى ينكرونها . فضلا عن إنكارهم لكل ماهو وراء المادة ، فإن الماركسيين لايجيبون بشىء أمام سؤال يوجه إليهم عن وجود المادة نفسها . فإذا ماقيل لهم ماتقولون فى أنه على ضوء ماتعتقدون . بالنقيض والصيرورة وبالانتقال من الكم إلى الكيف فإن المادة لايمكن أن يكون وجودها ذاتيا متوقفا على ذاتها مستغنية فى وجودها عن غيرها بدليل التغير وإذا فهى حادثة ، والقول بأزليتها باطل والقول بالنقيض أيضا باطل بدليل بعض مظاهر المادة التى يؤمنون بها ، فبعض العناصر . تتحد مع بعضها وتتفاعل مع غيرها . فذرتان من الأيدروجين الثقيل مع ذرة الأوكسجين تنتج ماء . والنار لاتحرق إلا إذا كانت مادة الإحراق قابلة للإحتراق . فالعناصر هنا تتكامل ولاتتناقض كما يزعمون؟ . هذا والقول بأن المادة تتحول بفعل التناقض من حالة إلى حالة يدل على أنه لابد من القول بمؤثر خارجى . وهذا يدل على حدوثها ونقض قولهم بالأزلية المادية)[٣].

---

(١) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١٢٨-١٢٩) .

(٢) وقد مر معنا الحديث عن اثبات وجود الخالق جل وعلا ونفى المصادفة عن خلق هذا الكون (٥٧٣-٥٧٧) .

(٣) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٧٤) ، وانظر حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (١٤) .

الوجه الرابع : أنه (لو صح أن المادة هى ينبوع الروح ومايتفرع عنها ، لقضى العقل ، بحكم البديهة ، أن يكون الإنسان أسبق إلى فهم الروح وعناصرها وأسرارها ، منه إلى فهم المادة وذراتها وجزئيات تلك الذرات وكهاربها . ذلك لأن العقل إذا أدرك أصل الشىء وحقيقته ، فهو أحرى أن يدرك ثمراته وفروعه ، بجهد أقل وطريقة أقصر . ولاريب أن أحدا من العقلاء لايستطيع أن يتصور أن رجلا من الناس أتيح له أن يفهم ذات الشجرة فى جذورها وطبيعتها وتحليل كل أجزائها ودخائلها ، حتى إذا رأى الثمر فى أعلاها ، استغلق عليه سبيل المعرفة به فلم يفهم منه ظاهرا ولاباطنا ، وبقى - وهو فرع للشجرة التى أدرك دخائلها - سرا غامضا لم يهتد منه إلى شىء!...

هل من العقلاء من يصدق هذه الفرضية العجيبة؟

إن الأعجب من هذا أنها ليست فرضية!.. إذ هى حال هؤلاء الماديين أنفسهم ... يقولون إن الروح وماتستتبعه من إحساس وفكر ، من ثمرات المادة ومعطياتها ؛ فيجب بمقتضى ذلك أن يدركوا من الروح قدر الذى أدركوه من المادة وذراتها ، على أقل تقدير . وهذا مالايرتاب فيه عاقل ، ولكنهم يعترفون بأنهم إلى هذه الساعة التى هم فيها لايعلمون شيئا عن الروح . بل يزيدون الأمر تأكيدا ، فيقررون أن العلم ذاته لايستطيع أن يقول شيئا عن الروح .

نعم ... إن أئمة المادية الديالكتيكية أنفسهم يقررون هذا الواقع ويعترفون به!...)[1].

وعلى هذا فهم آمنوا بشىء لم يروه ولم يستطيعوا وصفه . وهذا يتعارض مع عقيدتهم القائمة على عدم الإيمان إلا بما هو محسوس .

---

(١) نقض أوهام المادية الجدلية (١٠٩-١١٠) .

الوجه الخامس : أن العلم أثبت أن هذا الكون لايمكن أن يكون أزليا فمن ذلك ماجاء عن الدكتور ادوارد لوثر حيث قال أن (العلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لايمكن أن يكون أزليا ، فهنالك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ، ولايمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة . ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيموية أو طبيعية ، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون . ولما كانت الحياة لاتزال قائمة ، ولاتزال العمليات الكيموية والطبيعية تسير فى طريقها ، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لايمكن أن يكون أزليا ، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود . وهكذا توصلت العلوم - دون قصد - إلى أن لهذا الكون بداية . وهى بذلك تثبت وجود الله ، لأن ماله بداية لايمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولابد له من مبدىء ، أو من محرك أول ، أو من خالق ، وهو الإله)[١].

ويقول المهندس : جورج هربت بلونت George Herbert Blount :

(الأدلة الكونية تثبت : أن العالم متغير ، إذا فليس أزليا أبديا ، لذلك فالضرورة الكونية تلجئنا إلى الإعتقاد : أن هناك - وراء الكون المادى - حقيقة سرمدية عالية ، بإرادته وحكمته اللانهائية يتغير الكون على نظام بارع..).

ويقول : أوسكار لنوبرايونر Oscar Leo Brauer : (هناك فرضيتان بالنسبة للأجرام السماوية :

(١) إنها لابدء لها ، أى أزلية .

(٢) إنها مخلوقة حادثة .

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم (٣٣) .

وانظر الإسلام يتحدى (٧٤) ولمزيد من الأمثلة انظر مابعدها .

إن الفرضية الأولى ساقطة مردودة ، حيث المادة متغيرة ، تنمو وتتسع ثم العلوم الطبيعية ـ على دقة عميقة ـ تقدر بداية كل جسم .. إن العلوم باستطاعتها أن تثبت : أن الكون مخلوق طاقة وحكمة عالية ولكنها لاتستطيع أن تبين الكيفية العجيبة المرموزة والقوانين الطبيعية وعللها كما هى بحق...)[١].

الوجه السادس : أن هذه الدعوة مبنية على أوهام وخرافات وذلك لتتفق مع ماقامت عليه الشيوعية من محاربة الأديان ومعاداتها ، وخصوصا الإسلام .

فإن أزلية المادة وبالتالى الكون يعارضها ماجاء فى كتاب الله تعالى حيث أبان الحق سبحانه بداية هذا الكون وخلقه للسموات والأرض بما فيهن كما أن سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم تبطل ذلك الزعم حيث جاء الإخبار عن خلق الكون فى نهايته إذا شاء المولى جل وعلا .

الوجه السابع : أن العلم نقض الأقوال السابقة عن المادة فبعد أن كانت وحدة متكاملة جاءت الاكتشافات العلمية الحديثة وجعلت منها مجموعة ذرات حيث فجرت الذرة وأصبحت تتكون من عدة جزئيات .

يقول ادنجتون : (إن المادة مركبة من بروتونات والكترونات . أى شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء)[٢].

وعلى هذا فقدت المادة خواصها وفقدت قدسيتها التى كانت لها .

الوجه الثامن : الخلاف الذى وقع بينهم فى أيهما أسبق المادة أم الفكر ثم الحكم للمادة بالأسبقية دون علم ودون رؤية ، وهذا يخالف منطقهم القائل بأنهم لايؤمنون إلا بالمحسوس .

يقول د. صفوت : (ثم من أين أتاكم القول بأسبقية المادة فى الوجود على الفكر أنتم قوم لاتؤمنون إلا بالعلم القائم على الملاحظة والتجربة

---

(١) نقلا من كتاب الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٢٣٦-٢٣٧) .
(٢) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٩٧) .

والمشاهدة وقولكم بأسبقية المادة على الفكر رجما بالغيب وأنتم لاتعترفون بالغيب ...)[١].

وعلى هذا الأساس لايوجد دليل علمى على أسبقية المادة على الفكر فهم لم يشهدوا كيف بدأ الخلق حتى يحكموا هذا الحكم ويقطعوا هذا القطع ثم إنهم لايؤمنون إلا بما هو خاضع للتجربة العلمية القائمة على الحس والملاحظة والمشاهدة وهذا الموضوع لايخضع لذلك - بل هو غيب من الغيب الذى لايؤمنون به - فيقال لهم إما أن لاتؤمنوا بما هو غيب لايدرك بالحس فلامعنى إذا لأن تحكموا بأسبقية المادة على الفكر ، لأن هذا أمر لم تشاهدوه وإما أن تؤمنوا بما هو غيب لايدرك بالحس فعليكم أن ترفضوا إذا المذهب المادى الذى هو أساس مذهبكم الماركسى[٢].

هذا بالإضافة إلى أن العلم أثبت (أن هناك جانبا غيبيا وراء مقررات الذرة والكهربائية والجاذبية وغيرها لايستطيع العلم أن يصل إليه وليس له إلا أن يسلم به مما يؤكد أن وراء هذا العالم المادى عالما آخر أكبر وأعظم ، وأن مراجعات علماء التجريب ومقاييساتهم كلها تكشف وتؤكد أن وراء هذا العالم قوةكبرى تديره ساعة بعد ساعة وتحفظه لحظة بعد لحظة من أن ينفرط عقده وصدق الله العظيم حيث يقول : {**الله يمسك السموات والأرض أن تزولا**}[٣])[٤].

ثم ماهى المادة؟ وهل تشاهد أو يمكن أن تحس؟ إن المادة مجهولة لايمكن فهمها أو تفسيرها ، ومن هنا كيف تفسر ماعداها أو تكون مؤثرة فيه يقول العقاد : إن (المادة نفسها غير مفسرة وغير مفهومة ، فهى من باب أولى لاتفسر ماعداها ولاتزال سرا من الأسرار يتطلب منا الفهم ولايدنينا من فهم غيره . كان "المادى" قبل مائة سنة يخبط الأرض بقدمه ويقول"هذه الحقيقة

---

(١) الفكر الماركسى (٣١) .
(٢) انظر المرجع السابق (٦٥) .
(٣) سورة فاطر : (٤١) .
(٤) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١٠٠) .

التى تستند إليها وأما ماعداها من الآراء المثالية والعقائد الروحية فهى خيال أو ضلال" .

فاليوم يعلم أن مادة الأرض التى يخبطها بقدمه أبعد حقيقة وأعسر فهما من كل مايقال عن الروحيات والمثاليات . ماهى هذه المادة؟ هل هى لون؟ هل هى جسم؟ هل هى ثقل؟ هل هى امتداد؟

لا .. إن اللون عارض من عوارض النور والنظر يتغير على حسب الإضاءة وعلى حسب العين التى تراه .

والجسم كله ذرات تنشق فتتحول إلى اهتزاز فى الأثير ، ولايدرى أحد ماهو الأثير . لأنه شىء لاطعم له ولاجرم ولاحركة ولافرق فى المدلول عند عارفيه بين كلمة الأثير وكلمة الفضاء ، والثقل لاوجود له خارج نطاق الجاذبية ، والامتداد شىء لايفهم لأنه لايتناهى فى القصر ولايتناهى فى الطول سواء نظرنا إلى امتداد الزمن أو امتداد المكان ...) .

(والفيلسوف الذى يدق الأرض بقدمه ويتوهم أنه وضعها على حقيقة الحقائق ليس له رأس أصح من تلك القدم فى فهم حقائق الأشياء)[١].

ثم لو سلمنا بذلك وهى أن المادة أسبق من الفكر كما يقولون فكيف يتسنى للفكر أن يحيط بالمادة ويوضحها ويكتشف عملها وقوانينها . كيف يحيط المصنوع بصانعه . إن هذا يتعارض مع أبسط الحقائق العلمية والمنطقية يقول الخفاجى : (إن الحواس هى أبطأ أدوات المعرفة ، ولذلك يشترك فيها الحيوان وبعض النبات مع الإنسان فى إدراك البيئة المادية من حوله . ثم لم يكن مفر من العقل كأداة أرقى فى المعرفة حتى انتهت به رؤيته للمادة إلى حافة الأثير عندما خرج عن كل صفة معروفة من صفات المادة ولم يبق إلا حسبة رياضية لها دلالة كبرى وهى أن الإنسان ليس من صنع المادة لأن المصنوع لايحيط بصانعه ، والإنسان قد أحاط بصورة المادة وخرج بها إلى دائرة أوسع منها هى دائرة الأثير .. بل إلى عمليات رياضية فكرية فى قدرة

---

(١) لاشيوعية ولااستعمار (١٥-١٦) .

الإنسان أن يحتويها ، وهذا لايتأتى إلا إذا كان فى طبيعة الإنسان شىء يعلو على مكونات المادة .. شىء مفارق لكل خصائصها المعروفة .. وإذا تحولت المادة إلى حسبة رياضية يحتويها الفكر ، فإن ذلك يجعل المنطق القائل بأن المادة أسبق فى الوجود على الفكر فى مأزق علمى شديد التناقض مع معطيات العلم الجديد . وفى مأزق أشد حرجا مع مسلمات الماركسية التى قامت على أساس صحة هذا الافتراض ومارتبط به بعد ذلك من مصالح سياسية كبرى ، ومأشد محنة العالم حيث يقف حائرا بين دواعى السياسة وأمانة العلم)[١].

الوجه التاسع : التراجع بعد ذلك فى رأيهم القائل بأسبقية المادة خاصة بعد قولهم بنظرية التطور (ونسوا بذلك أن تنازلهم عن الإصرار على أن المادة أولا سيفقدهم المقدرة على أن المادة هى المؤثر الحاسم فى عملية التطور وأن ذلك مقدمة لمزيد من التراجع ...)[٢].

الوجه العاشر : أن اعتراف الماركسيين بوجود الفكر وهو عندهم يعنى النشاط المعنوى للإنسان الذى يشمل آراؤه ومعتقداته وعواطفه وانفعالاته وكل مالايخضع للتشريح المادى فى الإنسان يعتبر اعتراف بوجود ما هو مجرد عن المادة[٣]، وبالتالى يناقضون أنفسهم حيث آمنوا بما ليس محسوسا ولامشاهدا .

هذا بالإضافة إلى أن إنكار مالايدرك بالحس يتعارض مع النتائج العلمية ، والماركسية تدعى الإيمان بالعلم ونتائجه ، فالعلم أثبت وجود أشياء من حولنا لايدركها الحس ، فالميكروب لايرى إلا بالميكروسكوب ولم يكتشف إلا بعد اختراع هذا الجهاز فهل يعنى ذلك أن الميكروب قبل اكتشاف الجهاز غير موجود؟[٤]زد على هذا أن هناك حقائق علمية تم الكشف عنها مؤخرا

---

(١) حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون (٧٥) .
وانظر هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٩٨-٩٩) .
(٢) حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون (٧٦-٧٧) .
(٣) انظر الفكر الماركسى (٦٤) .
(٤) انظر المرجع السابق (٦٦) .

فهل يعنى هذا عدم وجودها قبل إدراكها أو اكتشافها؟!!

الوجه الحادى عشر : أن العالم له بداية ، وإذا لم يكن كذلك فسيكون هناك سلسلة لامتناهية يمنعها العقل .

يقول كانط : إن (للعالم بداية فى الزمان وهو أيضا محصور بحدود فى المكان . إذ لو سلمنا أن لابداية للعالم فى الزمان فسيكون ثمة أزلية منصرمة حتى كل لحظة معطاه ، وبالتالى سلسلة لامتناهية من حالات متتالية للأشياء فى العالم والحال ، أن لاتناهى السلسلة يقوم بالضبط على أن هذه السلسلة لايمكن أن تنجز البتة بتأليف متتال . فسلسلة لامتناهية منصرمة فى العالم هى إذن مستحيلة ...)[١].

الوجه الثانى عشر : أن هذا الكون بكل مافيه يدل على أنه ليس أزليا وأنه مفتقر إلى إله متصرف حكيم قادر . يقول غانم عبده : (على أن كون العالم ليس أزليا يكفى لاثباته مايشاهد فيه من ربيع وصيف وشتاء وخريف ومن تلبد غيوم وصفاء أجواء ، ومن برق ورعود وريح عاصف ونسيم عليل ومن موت وحياة ، ومن انتقال الحبة إلى زرع وإلى هشيم ، والغرسة إلى شجرة وإلى خشب وأحطاب ، والماء إلى بخار أو جليد ، ومن انتقال النطفة إلى جنين إلى طفل إلى شاب إلى شيخ هرم ، والبيضة إلى كتكوت إلى دجاج إلى طعام يأكله الناس ، إلى غير ذلك مما يحدث فى العالم ككل ومايحدث فى كل جزء من أجزائه . فإن هذا كاف للبرهان على أن العالم حادث بوصفه كلا ، وأنه حادث بكل جزء من أجزائه ، وكونه حادثا يعنى أنه ليس أزليا أى أن له أولا قد ابتدأ منه ، وهذا يعنى أنه مخلوق لخالق . فكونه له ابتداء معناه أنه كان معدوما ووجد ، وكونه قد وجد من عدم يحتم أن له موجدا أوجده . وهذا كاف لإثبات وجود الخالق ، لأن وجود مخلوق لخالق يعنى حتما وجود الخالق ، وبذلك ينقض ماذهب إليه بعض الناس فى العصر القديم من أن العالم أزلى قديم ، ويثبت أن العالم مخلوق لخالق ، وبذلك

---

(١) نقد العقل المحض (٢٢٧) .

يثبت وجود الخالق)[١].

الوجه الثالث عشر : أن مانشاهده الآن ونسمعه ونقرأه قد كذب هذا الزعم فإن الإقرار بوجود الإله جل وعلا أصبح أمرا لايقبل الجدال ولاالنقاش . وإن وجد شواذ فأين هم من هذا الخضم ـ على مختلف مشاربهم ـ الذى لم يعد يقبل تلك الآراء عن الإله أوالمادة .

وأخيرا نقول لهؤلاء إن واقع الاتحاد السوفييتى ـ الذى حاول حمل الناس على الإيمان بأن لاإله والمادة هى الخالقة ـ يدل على نسف هذه العقيدة وإبطالها جملة وتفصيلا[٢].

وبعد هذا العرض لرد زعمهم عن أزلية المادة والحكم المترتب عليها وهى أزلية الكون نصل إلى التالى :

أولا : بطلان زعمهم ذلك بالأدلة الشرعية والعقلية والعلمية .

ثانيا : أن سقوط الاتحاد السوفييتى القائم على المزاعم المادية قد حكم عليها بالبطلان والفشل .

ثالثا : أن واقع الشيوعيين الماركسيين وبعض أفكارهم الواردة عنهم تدل على إبطال ذلك الزعم وتبين أنه مجرد فكرة ظن ماركس وأتباعه أنها ستلقى القبول والرواج ولكن خيب ظنهم الواقع ومن قبل فطر الناس التى تؤمن بخالقها وتقر بوجود بارئها .

رابعا : ثبت بهذا أن الماركسية لاتقوم على أصول علمية وأن العلمية التى ادعو ليست إلا ستارا من أجل نشر أباطيلهم ومما يؤكد ذلك إبطال العلم لقوانين الجدل ، وهذا ماسنتعرف عليه فى المبحث التالى .

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (٣٦-٣٧) .

(٢) لمزيد عن إبطال مزاعم الماركسيين والماديين انظر نقض أوهام المادية الجدلية ، وعلى سبيل المثال (١٣٨-١٤٨) .

المبحث الثالث
إبطال قوانين الجدل

رتب ماركس كثيرا من أفكاره على أساس قوانين الجدل ، وقد أفاد ماركس ممن قبله بالنسبة لهذه القوانين وخاصة هيغل[١]، على أن الأخير لم يستخدمها كاستخدام ماركس لها الذى مسخ مثالية هيغل واستعاض عنها بمادية فيورباخ فأصبح مفكرا ماديا ديالكتيكيا[٢]. ومثلت الجدلية ركيزة أساسية فى الفلسفة الماركسية ولكنها جدلية تخدم الفكر الماركسى ومن هنا انتقد ماركس الفلسفات السابقة عليه ، ولأجل ذلك اعتبر الماركسيون أن الماركسية (انقلاب ثورى فى نظرية المجتمع وبداية لحقبة جديدة ومختلفة نوعيا فى الفلسفة)[٣]. وتقوم المادية الجدلية الماركسية على إنكار الإله ومايتفرع عن ذلك من أمور كالنبوءات والمعاد ...الخ ومر معنا عرض قوانين الجدل[٤]، ونأتى الآن لنبين بطلانها .

أولا : قانون التناقض :

والقصد منه كما يصوره ستالين (أن كل أشياء الطبيعة وحوادثها تحوى تناقضات داخلية . لأن لها جميعها ، جانبا سلبيا ، وجانبا إيجابيا ، ماضيا وحاضرا . وفيها جميعا عناصر تضمحل أو تتطور . فنضال هذه المتضادات هو المحتوى الداخلى ، لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية)[٥]، وهذا القانون يعتبره ماو (القانون الأساسى الأهم فى الديالكتيك المادى)[٦].

---

(١) انظر عن ذلك معالم الإشتراكية العربية (١٤١-١٤٣) .
(٢) انظر عن ذلك الإشتراكية على مشارف القرن الواحد والعشرين (٦٧) .
(٣) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١/٧-٨) .
(٤) راجع (٤٣٧-٤٤٥) .
(٥) نقلا من كتاب فلسفتنا (٢٥٤) ، وانظر الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٢٧) .
(٦) نقلا من كتاب فلسفتنا (٢٥٤) .

وهم بهذا القانون يريدون الوصول إلى تفسير المراحل التى مرت بها البشرية ووصلت إلى الرأسمالية ، حيث إن كل نظام كان يحمل تناقضا ذاتيا يؤدى فى النهاية إلى خلق مجتمع جديد وفكر جديد ، وهذا مايوجد فى الرأسمالية أيضا حيث يقول انجلز : (لما كان الإنتاج الرأسمالى مرحلة إقتصادية انتقالية فهو ملىء بالتناقضات الباطنة التى تتطور وتتضح بصورة مطردة مع تطورها)[١]. وهذا القانون باطل ، وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : بادىء ذى بدء نقول إنه من المسلمات بأن الصراع موجود . وهذه حقيقة ثابتة ، غير أنه يوجد فى بعض الجوانب دون غيرها لاكما زعمت الماركسية بأنه موجود فى كل شىء .

يقول المدرسى : (لاشك فى وجود صراع فى هذه الدنيا ، ولكنه ليس صراعا فى الوجود كله ، وإنما هو صراع الإرادات البشرية ، أى صراع الحق والباطل ، صراع الهوى والعقل . وهو صراع خاص بالبشرية . أما أشياء الحياة الأخرى ففيها التعاون وليس التناقض .

هل الشمس تتناقض مع القمر؟ مع بقية النجوم؟

هل الماء ، يتناقض مع التراب ويتصارع معه؟

هل النباتات تتصارع مع الهواء؟

إن كل مافى الكون يدل على تعاون عميق بين أجزائه من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة .

ضع نواة شجرة فى داخل التراب ، ثم لاحظ بالميكروسكوب ماذا تعمل الذرات الموجودة هناك ، وكيف تتعاون كل قوى الطبيعة مع بعضها البعض لإنمائها ، ترى أين هو الصراع ، والتناقض فى ذلك؟)[٢]

---

(١) فى الاستعمار (٣٦٢) .

(٢) نقد النظرية الماركسية (٢٧-٢٨) .

والأمثلة التى ترد على ذلك الزعم كثيرة ويضرب د. الصدر العديد منها ويبين أن كل نفى لايناقض أى إثبات كما أن كل إثبات لايتعارض مع كل نفى فيقول :

(إن كل نفى لايناقض أى إثبات ، وكل إثبات لايتعارض مع كل نفى ، وإنما يتناقض الإثبات مع نفيه بالذات لامع نفى إثبات آخر ، ووجود الشىء يتعارض بصورة أساسية مع عدم ذلك الشىء ، لامع عدم شىء آخر . ومعنى تعارضهما أنهما لايمكن أن يتوحدا أو يجتمعا . فالمربع ذو أربعة أضلاع ، وهذه حقيقة هندسية ثابتة ، والمثلث ليس له أربعة أضلاع ، وهذا نفى صحيح ثابت أيضا ، ولاتناقض مطلقا بين هذا النفى وذاك الإثبات ، لأن كلا منهما يتناول موضوعا خاصا ، يختلف عن الموضوع الذى يتناوله الآخر . فالأضلاع الأربعة ثابتة فى المربع ، ومنفية فى المثلث فلم ننف ماأثبتنا أو نثبت مانفينا . وإنما يوجد التناقض إذا كنا نثبت للمربع أضلاعا أربعة ، وننفيها عنه أيضا ، أو نثبتها للمثلث وننفيها عنه فى نفس الوقت .

وبهذا الاعتبار نص المنطق الميتافيزيقى ، على أن التناقض إنما يكون بين النفى والإثبات الموحدين فى ظروفهما . فإذا اختلفت ظروف النفى مع ظروف الإثبات ، لم يكن الإثبات والنفى متناقضين . ولنأخذ عدة أمثلة للنفى والإثبات المختلفين فى ظروفهما :

(أ) الأربعة زوج . الثلاثة ليست زوجا . فالنفى والإثبات فى هاتين القضيتين ، لاتناقض بينهما ، لاختلاف كل منهما عن الآخر بالموضوع ، الذى يعالجه . فالإثبات تعلق بالأربعة ، والنفى تعلق بالثلاثة)[١].

(ب) (الإنسان سريع التصديق حال الطفولة . الإنسان ليس سريع التصديق فى دور الشباب والنضج . فقد تعلق النفى والإثبات فى هاتين القضيتين بالإنسان . ولكن كلا منهما له زمانه الخاص ، الذى يختلف عن زمان الآخر ، فلايوجد تناقض بين النفى والإثبات)[٢].

---

(١) فلسفتنا (٢٥٩) .

(٢) المرجع السابق (٢٦٠) .

وكذلك الازدواجية لاتعنى التناقض والصراع والتصادم فالليل والنهار والذكر والأنثى ، والسالب والموجب ، تعنى التكامل والانسجام لاالتعارض والصراع والخصام أما عند الماركسيين فالأمر يختلف(١).

الوجه الثانى : أن الحقائق العلمية والأمثلة الواقعية تبطل هذا القانون يقول حسين أبو الحسن : (أما اعتبار "المادية الديالكتيكية" أن الشىء ينطوى على تناقضات فى داخله أى على إثباته كبذرة وعلى نفيه كنبتة غير صحيح بتاتا : فالبذرة إما أن تكون بذرة أو أن تكون نبتة ، أما أن يجتمع الوجودان والحركتان فى آن معا . فتكون بذرة ونبتة ، فهذا لايقبله أى عقل وخاصة "عقل الفلاح المزارع الذى رفضه ماركس فى أن تكون لديه القدرة الثورية التى يتميز بها العامل البروليتارى لوحده" .

فالتناقض إذن غير موجود بتاتا ، فالبذرة حركة موجودة بالفعل ، ولكن إمكانية تحولها إلى نبتة موجودة بالفعل ، وإنما هى ممكنة بالقوة . فإذا كان هنالك من تناقض ... فمع من ستتصارع البذرة؟ مع نفسها لتتفجر وتندثر؟ أم مع النبتة التى لم يظهر وجودها بعد؟

فلايمكننا أن نستسيغ فكرة التناقض الدائم داخل الشىء بين إثباته ونفيه ، والحركة ليست ترجمة للصراع الداخلى داخل الشىء . والحقيقة أن الحركة عبارة عن تطور أو سير تدريجى للوجود ، "ولذلك حدد المفهوم الفلسفى (الميتافيزيقى الإلهى) للحركة بأنها خروج الشىء من القوة إلى الفعل تدريجيا" ، بمعنى أن تحول أو تغير البذرة إلى شكل نبتة هو عبارة عن حركتها التى تمثلت فى انتقال صورتها الأولى إلى صورة ثانية جديدة .

وليس ضروريا أن يفنى وجود المادة الأولى لتظهر المادة الثانية والثالثة الخ ... حسب ماتراه الديالكتيكية من أن نفى النفى هو الذى ينفى الإثبات وينفى نفيه (نفى الإثبات) فيلغى الوجود الأول أو الصورة الأولى ليحل محله وجود ثانى أو صورة ثانية ...)(٢).

---

(١) انظر الفكر الماركسى (٧١-٧٢) .

(٢) معالم الإشتراكية العربية (١٥٣-١٥٤) ، وانظر إقتصادنا (٥٧-٥٨) .

الوجه الثالث : أن الأبحاث العلمية المتطورة تبطل المقولات المادية الجدلية .

ومن ذلك قضايا الذرة : حيث أثبت العلم أنها مركبة ، ومؤلفة من بروتونات ونترونات ، وإن الالكترونات كهارب ذات شحنات سالبة ، وأن البروتونات كهارب ذات شحنات موجبة ، وعدد الالكترونات فى أية ذرة يساوى تماما عدد البروتونات . أى أن الشحنة الموجبة فى أية ذرة تساوى الشحنة السالبة ، ولذلك فالذرة من وضعها الطبيعى وحدة متزنة ومستقرة خالية من الصراع والتناقض الباطنى[١].

ومن ذلك أن العلماء كانوا (يعتقدون أن الطبيعة قائمة على عنصرين هامين هما : الطاقة والمادة ، واعتبروا المادة شيئا خاملا ملموسا يمكن تمييزه بشىء اسمه "الكتلة" اعتبروا الطاقة شيئا نشيطا بدون كتلة . وبذلك أصبح السكون نقيض الحركة ، والمادة نقيض الطاقة . ثم أثبت العلم وحدة الطاقة والمادة ، وأن المادة ليست إلا طاقة مركزة ، وأن الطاقة مادة لاتحتاج لكى نقول عنها أنها طاقة إلا أن تسير بسرعة الضوء . وبذلك زال ماكنا نتصور أنه تناقض)[٢].

ومنه أيضا ماكان يعتقد بأن (المادة الخفيفة تعتبر نقيض المادة الثقيلة ، والسائل يعتبر نقيض الجامد ، والأبيض نقيض الأسود ، والحار يعتبر نقيض البارد ، ومايطفىء النار يعتبر نقيض مايزكيها ، ثم جاء العلم فأثبت أن المادة تتحول من الخفيف إلى الثقيل وبالعكس ومن السائل إلى الجامد وبالعكس ، وأن كل نوع من المادة يتحول إلى نوع ثان ، ولايتطلب هذا أكثر من تعديل عدد وترتيب عناصر الذرة من الكترونات وبروتونات)[٣].

---

(١) انظر معالم الإشتراكية العربية (١٦٥) .
(٢) المرجع السابق (١٦٧) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (١٦٧) .

(وإذا أثبت العلم ، وعرفنا أن الذرة خالية من التناقض الباطنى ، وأن الطبيعة فى كل أشكالها عبارة عن ذرات ، نكون قد عرفنا ـ علميا ـ أن الطبيعة أو المادة لاتنطوى فى باطنها على تناقضات ولايدور داخلها صراع ، وبذلك لم يعد من الممكن القول بأن حركة المادة جدلية . فتطبيق الجدل فى عالم الذرة يعنى أن الذرة ذاتها تحتوى على نقيضين متصارعين داخلها ، وهذا ماينفيه علمنا بتركيب وحركة الذرة . ولم نعد فى حاجة إلى الجدلية لتفسير تحول المادة من نوع إلى نوع ، لأن العلم أثبت أن تحول المادة إلى تركيبات مختلفة يتم عن طريق اندماج الذرات . ويتطلب ذرتين على الأقل تكون درجة تشبعها مختلفة لتندمجا فتصبح الذرتان ذرة واحدة من نوع ثالث ، ولابد من هذا التأثير الخارجى ، أى تأثير ذرة على ذرة أخرى لتتم عملية التحول . وهذا لايتفق مع قانون الجدل الذى يقوم على أساس التحول من الباطن) .

إذن ، لقد انتهت أسطورة التفسير الجدلى الماركسى للمادة وحركتها . وانتهى بذلك كل ماأقامته الماركسية من مقولات وحتميات فرضتها على المادة وعممتها على المجتمعات البشرية)[١].

الوجه الرابع : أن القول بهذا القانون يلزم الماركسيين بأن يحكموا على مجتمعهم الشيوعى بأنه ليس نهاية المطاف لأنهم يقولون بوجود الصراع والتناقض المستمر . إلا أنهم اعتبروا هذا المجتمع (الشيوعى) هو آخر المجتمعات وأعلاها ومن هنا أوقفوا هذا الصراع والتناقض فى المجتمعات ولاندرى كيف تم إيقافه!!! مما يدل على أن الماركسية تعج بالمتناقضات ولعله لتناقضها حكمت بالتناقض على كل شىء .

يقول الصدر : (إن طريقة الماركسية فى التحليل التاريخى ديالكتيكية ولكن مضمون الطريقة يناقض الديالكتيك . لأن الماركسية تقرر من ناحيتها أن التناقض الطبقى الذى يعكس تناقضات وسائل الإنتاج ، وعلاقات الملكية

---

(١) نقلا من معالم الإشتراكية العربية (١٦٨) .

هو الأساس الرئيسى الوحيد ، للصراع فى داخل المجتمع . وليست التناقضات الأخرى ، إلا نابعة منه . وتقرر فى نفس الوقت ، أن القافلة البشرية سائرة ـ حتما ـ فى طريق محو الطبقية ، من المجتمع إلى الأبد . وذلك حين تدق أجراس النصر ، للطبقة العاملة ، ويولد المجتمع اللاطبقى وتدخل الإنسانية فى الإشتراكية والشيوعية . فإذا كانت الطبقة وتناقضاتها ، ستزول فى تلك المرحلة من حياة المجتمع ، فسوف ينقطع عنه المد التطورى وتنطفىء شعلة الحركة الأبدية ، وتحصل المعجزة التى تشل قوانين الديالكتيك عن العمل . وإلا فكيف تفسر الماركسية حركة الديالكتيك فى المجتمع اللاطبقى ، مادام التناقض الطبقى قد لاقى مصيره المحتوم ، ومادامت حركة الديالكتيك لاتوجد إلا على أساس التناقض؟! ... فبإمكاننا أن نسأل ماركس : هل سوف تكف قصة الأطروحة ، والطباق ، والتركيب ، عن العمل ، بعد ذلك ، بالرغم من قوانين الديالكتيك العامة؟ أو أنها ستستأنف ثالوثا جديدا؟ وإذا كانت ستستمر ، فسوف تكون الملكية الإشتراكية هى الأطروحة فما هو النقيض الذى ستلده وتنمو بالاندماج معه؟ يمكننا أن نفترض أن الملكية الشيوعية هى النقيض ، أو النفى الأول للإشتراكية ، ولكن ماهو نفى النفى (التركيب)؟ إن الديالكتيك سوف يبقى حائرا ، بإزاء تأكيد الماركسية على أن الشيوعية هى المرحلة العليا من التطور البشرى)[١].

وهذا من أقوى مايرد به على الماركسيين فى زعمهم القول بالتناقض لأنه يلزمهم بلوازم كثيرة لايجد الشيوعيون لها جوابا .

الوجه الخامس : من القضايا التى أرادها الماركسيون من وراء هذا القانون هو القول بالوجود الذاتى ليبطلون الافتقار ليتناسب ذلك مع مذهبهم المادى الإلحادى علما بأن إيجاد الشىء نفسه بنفسه محال لافتقاره هو إلى

---

(١) إقتصادنا (٦٠-٦١) ، وانظر : نقد النظرية الماركسية (٢٨-٢٩) ، سقوط الماركسية (٦٢) ، الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٣٢٣) ، وانظر (٢٨٢-٢٨٣) ، وقال : (هنا يصمت المبدأ ، وتتحدث الرغبة ...) ، الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٧٩-٨٠) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٣٢) .

موجد . كما أن هذا الكون لايمكن أن يكون قد وجد صدفة لما فيه من علامات ظاهرة على الاتقان والإبداع . يقول أبو الحسن إن (الخلق الذاتى للشيء الذى ابتدعته المادية الديالكتيكية فى وجود التناقض الدائم والمستمر بين "الإثبات والنفى" ليس له أى وجود على الإطلاق . لأن الشيء لايخلق نفسه ولايطور ذاته بذاته ، وإنما تكمن فى مميزاته وخصائصه إمكانات وقوى تستطيع أن تنتقل إلى حيز الفعل والوجود المحقق إذا توفرت عوامل خارجة عنه)[١].

الوجه السادس : أن القول بالتناقض الحتمى يبطله الواقع ، ويحيله إلى مجرد نظرية لاتصدق . ويقال لهم إن هذه المقولة وهى التناقضات فى الطبيعة (مجرد فرض نظرى . إذ ثبت أنه ليس كل شيء يوجد فيه حياة وفناء معا . وهذا وحده يثبت أنه ليس كل شيء يحوى تناقضات ، وأيضا فإن كون الأشياء تولد وتموت وتفنى وتوجد لايعنى أن هذا تناقضا لازما لها . فالجسم الحى فيه خلايا تولد وخلايا تموت ، غير أن ذلك لايعنى وجود تناقض فى الجسم الحى ، ثم إن الأجسام غير الحية يحصل فيها فناء ولكنه لاتحصل ولادة ، أى لايحصل وجود . ولهذا فإن مايسمى بالتناقضات ليس ملازما للأشياء والحوادث . أما بالنسبة للأشياء فظاهر فى الأجسام غير الحية ، فإن الماء إذا ترك كما هو قد ينقص ولكنه لايزيد ، ولايحصل فيه لاسالب ولاموجب ، ولاتحصل فيه تناقضات . والرمل إذا ترك كما هو لايلاحظ عليه وجود تناقضات . وأما الحوادث فإن عمليات البيع تجرى دون حصول أى تناقض فيها أى فى إجراء العقد ، وعملية الصلاة تحصل دون أى تناقض فيها . فالإدعاء بملازمة التناقضات للأشياء والحوادث إدعاء باطل)[٢].

وهكذا يتبين بطلان القانون الأول من قوانين الجدل ، وقد أرادت الشيوعية من وراء هذا القانون تحقيق مصالحها وإيهام الناس أن الوصول

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (١٥٦) .
(٢) نقض الإشتراكية الماركسية (٩٥) .

إلى الشيوعية حتمية تاريخية ستتحقق ، وبفساد وإنهيار هذا القانون تكون القوانين الأخرى أسرع فى الانهيار وبالتالى ينهار البنيان الجدلى الماركسى ، ومن ثم مابنى عليه من فكر . ونأتى لبيان بطلان القانون الثانى من قوانين الجدل .

ثانيا : قانون التطور :

وهو مبنى على القانون السابق من حيث إن التناقض يوجد حالة جديدة متطورة ، وفكرة التطور هذه للأشياء ليست حديثة بل وجدت فى أزمان غابرة وإن كان التوجه فيها على مشارب مختلفة[١]. إلى أن اتخذ المذهب ـ إدعاء ـ صفة العلمية على يد داروين فى العصر الحديث . وأثرت هذه النظرية فى الحياة الأوربية تأثيرا بالغا خاصة بعد اصطدام الكنيسة مع النظرية[٢].

وقد اهتم ماركس بهذا القانون واعتبر أن كل مرحلة من مراحل التاريخ يكون فكرها مناسبا لوسائل إنتاجها . يقول ماركس فى رسالة بعث بها إلى ف.انتكوفا : (ماهو المجتمع ، مهما كان شكله؟ إنه نتاج عمل الناس المتبادل . هل الناس أحرار أن يختاروا لأنفسهم هذا الشكل أو ذاك من أشكال المجتمع؟

كلا مطلقا . افترض حالة من التطور خاصة فى القوى المنتجة للإنسان وعندها سوف تحصل على شكل خاص للتجارة والاستهلاك . افترض مراحل خاصة من التطور فى الإنتاج ، وعندها سيكون للتجارة والاستهلاك دستور إجتماعى مماثل وتنظيم للأسرة وأنظمة للطبقات ، وبكلمة ، مجتمع مدنى مماثل افترض مجتمعا مدنيا خاصا وسوف تحصل على شروط سياسية خاصة هى التعبير الرسمى فقط عن المجتمع المدنى)[٣] .

---

(١) انظر : نقد النظرية الماركسية (١٨) ، الفكر الماركسى (١٩) .
(٢) انظر التطور والثبات فى حياة البشرية (٦) .
(٣) بؤس الفلسفة (١٧٢) ، وانظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٦٤) .

ولايفوتنا هنا التنبيه على أن ماركس أخذ نظرية التطور مصدرا له ، ولم يقف بها عند الحدود التى انتهى إليها داروين ، بل طبقها على كل شىء[١].

ويهدف الشيوعيون من وراء هذا القانون إلى عدة أمور من أهمها :

أولا : نفى الحقيقة المطلقة ، لأن الحقيقة إذا كانت فى حركة ونمو دائمين فلاتوجد حقائق ثابتة بأشكال مطلقة وبالتالى تتهدم الحقائق الميتافيزيقية .

ثانيا : (نفى الخطأ المطلق فى سير التطور العلمى فالتطور العلمى فى عرف الديالكتيك لايعنى أن النظرية السابقة خطأ بصورة مطلقة ، بل هى حقيقة نسبية ، أى أنها حقيقة فى مرحلة خاصة من التطور والنمو)[٢].

ثالثا : من أهم ماأراد الماركسيون الوصول إليه من وراء هذا القانون هدم الأفكار الدينية والأخلاق والقيم ، واعتبارها متغيرة حسب وسائل الإنتاج .

وبعد هذا نصل إلى بيان بطلان ذلك القانون . وبيان بطلانه من وجوه:

الوجه الأول : تناقضهم حيث يثبتون أن الطبيعة كل واحد مترابط ويقولون بتغير قوانين المجتمع ومع ذلك فهناك القوانين التى لايطرأ عليها التغير كالماء والهواء .

يقول وحيد الدين خان : (والسؤال الذى نشأ هنا هو أن قوانين العلوم الطبيعية دائمة ثابتة على حالة واحدة ، فإذا كانت الطبيعة كلها واحدة - كما تقول به الماركسية - فلم تتغير قوانين المجتمع بينما لايطرأ تغير ما على قوانين الهواء والماء؟! إنه يجب أن تبقى قوانين المجتمع - أيضا - على حالة واحدة . إن هذا السؤال يكشف عن حقيقة لم يكن ماركس يرغب فى

---

(١) انظر : انتى دوهرنغ (١٦٨) ، جهود المفكرين المسلمين فى مقاومة التيار الإلحادى (٢٠١-٢٠٢) .

(٢) فلسفتنا (٢٥٢-٢٥٣) .

تعريفها أو الاعتراف بها ... فهى تعنى أن ماهو موجود فى الحاضر سيستمر فى المستقبل ، ولكن ماركس كان يرغب فى تغير الأحوال وإحلال النظام البروليتارى محل النظام الرأسمالى . ولذلك تقدم - بدون روية - بدعوى حتمية زوال الرأسمالية ، وحتمية صعود نجم البروليتاريا . وهنا ثار السؤال حول الوسيلة التى ستحقق هذا التحول ، وكيف يمكن تغير المجتمع البشرى فى حين لاتتغير قوانين الطبيعة الأخرى؟! فالأحرى أن نظام الملكية سيظل قائما باقيا تماما كما يضطر الإنسان إلى تنفس الهواء فى ظل قانون طبيعى لاسبيل إلى تغييره)[١].

الوجه الثانى : أن قانون التطور لايمكن إنكاره بالكلية . كما لايمكن اعتباره داخلا فى كل شىء حيث إن هناك الحقائق الثابتة التى لايمكن أن تتغير .

يقول المدرسى : (إن قانون التطور لاينكره المنطق الإلهى ، بل يؤكده وهو ينسجم مع العقل والتجربة ، ولكن بشرطين أساسيين :

الأول : أن يربط التطور بالإرادة البشرية . فالأمور سواء منها الإجتماعية أو السياسية ، أو العلمية تتطور إذا أراد الإنسان ذلك)[٢].

(وهنا محل اختلاف بيننا وبين الماركسيين : إنهم يلغون إرادة الإنسان ، ويعتبرون التغيير وفق مايقولون تغييرا جبريا ، حتميا ، لاإراديا .

وقد رأينا فى كثير من المناطق أن منطقهم تعرض لنكسة بسبب إرادة الإنسان .

إن ماركس تنبأ ، بالاعتماد على الحتمية التاريخية ، بأن الثورة الشيوعية لن تندلع من مجتمع متخلف ، وإنما من مجتمع صناعى رأسمالى ، فى انجلترا والمانيا . فكذبت نبوءته ، وخرجت الشيوعية من مجتمع زراعى متخلف مثل الصين .

---

(١) سقوط الماركسية (٦١) .

(٢) نقد النظرية الماركسية (١٨-١٩) .

وتنبأ أيضا باتساع شقة الخلاف بين البرجوازية والبروليتاريا فى الدول الرأسمالية بشكل مضطرد إلى أن يتفاقم الوضع إلى ثورة تقلب النظام الرأسمالى كله ، ولكن الذى حدث فى المجتمعات الرأسمالية كان العكس ، وهو مزيد من التقارب بين الطبقات . وتنبأ بأشياء كثيرة ولكنها لم تحدث ، لسبب بسيط هو أنه نسى العامل الإرادى ، وأن الإنسان لاتجوز فيه الحتمية لأن الناس ليسوا كرات بلياردو تتحرك بحتمية قوانين فيزيائية ولكنها مجموعة إرادات حرة تدخل فى علاقات معقدة يستحيل فيها التنبؤ بناء على قوانين مادية وأصدق مثل على كذب دعوى الحتمية ، هو ثورة الإنسان على واقعه ، بدل الخضوع له)[١].

هذا عن الأساس الأول وعن الثانى يقول : (إن التطور ليس فى كل شىء ، فالأفكار والمعرفة البشرية والحقائق العلمية ثابتة .

إن التطور محصور بالمادة ، فى حدود إرادة الله [ثم] إرادة الإنسان ، ولكن الماركسية تعممه على كل شىء حتى على الأفكار ... ربما وقعت الماركسية فى هذه الغلطة الكبيرة لكى تفسر ظهور الأديان وفق فلسفتها الطفولية .

ولكن الحقائق الدامغة ، كلها جاءت لتفند هذا الأمر وإليك بعضها :

أولا : هناك سلسلة من الأصول الفكرية الثابتة التى لايشكك فيها إلا صاحب عقلية الغاب ، وهى غير قابلة للتغيير والتبديل ، ككثير من المسائل الرياضية ، والفيزيائية ، وماشابه ذلك .

فهل يمكن أن تتغير المعادلة الرياضية التى تقول : إن حاصل جمع عددين متساويين يساوى ضعف أحدهما ، مثل : ٤ + ٤ = ٨ ؟ هل يمكن تبدل النتيجة إلى ١٢ مثلا؟

أم هل يمكن أن تتبدل قوانين انعكاس الضوء ، وقوانين انتشار النور وقوانين الجاذبية ، وقوانين تركيب الأوكسجين ، وقوانين الحرارة؟ ...الخ)[٢].

---

(١) نقد النظرية الماركسية (١٩-٢٠) .

(٢) المرجع السابق (٢٠-٢٢) .

ومن هنا يثبت أن هناك حقائق عديدة ثابتة لايمكن بحال تطرق التطور إليها .

الوجه الثالث : أن الماركسية تؤمن بأشياء ثابتة لايمكن أن تتغير فقالت بالحتميات التاريخية كما قالت بأن قانون التطور ذاته ثابت لايتغير ، وبالتالى يقعون فى تناقض واضح فى فكرهم .

يقول المدرسى : (إن الماركسية تعتمد على "قانون التطور" كأصل ثابت لايمكن أن يتغير .

إذن فهى تعترف بوجود قوانين ثابتة ، ويكون البحث حينئذ فى معرفة "ماهى القوانين الثابتة؟" لافى وجود القوانين الثابتة أى : هل هناك قوانين ثابتة؟ ولو اعتبرت الماركسية نفس "أصل التطور والحركة" خاضعا للحركة والتطور باعتباره نتيجة فكرية ، والنتائج الفكرية متطورة لأنها مادية ، فإنه يعنى أن أصل الحركة والتطور ليس أصلا ثابتا ، وأنه قد يتبدل إلى "أصل الثبوت الجمود" بدل "أصل التطور والحركة" ـ بحكم التطور إلى الضد ـ

وهذا يقتضى أن تكون الحقائق التى كانت متطورة بالأمس ثابتة اليوم .

وفى كلا الحالين تكون الماركسية مضطرة إلى الاعتراف بوجود حقائق ثابتة!.

والواقع فإن الماركسية حينما آمنت بهذا "الأصل" الواهى ، فإنما فعلت ذلك لكى تستند إلى "شىء ما" فى نسف القيم الدينية والأخلاقية ، لأنها فسرت الحقائق الدينية بأنها نتائج الفكر ، ومادام الفكر هو بحد ذاته نتيجة للمادة ، والمادة متطورة غير ثابتة ، فالحقائق الدينية يجب أن تتغير ، ولاتبقى ثابتة)[١].

وقد نسيت الماركسية (وهى تتبنى هذا الأصل ، أنها تضع مسمارا فى نعش نظريتها ، لأن الماركسية ـ بناء على هذا ـ أيضا يجب أن تتغير ،

---

(١) نقد النظرية الماركسية (٢٣-٢٤) .

وتتبدل ، لأنها هى الأخرى نتيجة فكرية ، والفكر نتيجة مادية ، والمادة متطورة . فكيف تطالبنا الماركسية بالكفر بالقيم ، والعقائد ، والقواعد الدينية وتطالبنا بالإيمان ـ حتى الأبد ـ بقيمها ، وعقائدها ، وقواعدها . هل تؤمن بأنها نتيجة "الوحى" الذى لايتغير ، وأن ماجاء به الدين هو نتيجة الفكر؟ أم ماذا؟

ثم إذا كانت الماركسية تؤمن بأن "القيم الأخلاقية" تتطور ، وعلينا أن لانؤمن بها دائما ، فهل تستطيع أن تقول لنا كيف نثق مثلا بالنظم التى تتبنى الماركسية فى علاقاتنا معها؟

إن "الصدق" و"الإلتزام بالحق" و"عون الضعيف" كلها خرافات ، أو نتائج فكرية قابلة للتطور فى رأى الماركسية ، فكيف نستطيع أن نعرف أن هذا الحزب الماركسى أو النظام الماركسى "صادق" فى موقفه وأنه "ملتزم" بمسؤولياته ، واتفاقياته ، وأنه مستمر فى دعم "الضعيف" ، وكيف نثق به؟)[١].

فكيف تكون العقائد والأفكار والقيم والأخلاق كلها متغيرة ، بينما تظل الأفكار والقوانين الماركسية ثابتة وهم يرون أن التطور يقع كل شىء؟!!! إن هذا تناقض مع الذات ، وتحكم بغير دليل .

الوجه الرابع : أن الماركسية وقفت فى تطبيق قانونها هذا إلى حد معين وهى بهذا تكون حكمت على نفسها بأحد أمرين إما بزوالها واستبدالها بنظام آخر ، وإما بفساد فكرها وتناقضه .

يقول د. جمعة الخولى : (حسب قانون التطور ـ واختفاء القديم ونشوء الجديد .. وأن الشيوعية ستحل محل الرأسمالية ، فإن الشيوعية ـ أيضا سوف تنهار ويسقط مجتمعها فى مجتمع مقابل له ، ويحل نظام آخر محلها وبذلك تسقط فكرة عمومية قوانين الجدل وحتميتها فهل توقع ذلك زعماء الماركسية وقالوا به ، أم أنهم طبقوا ذلك على غيرهم ونسوا أنفسهم إن

---

(١) نقد النظرية الماركسية (٢٣-٢٤) .

كانوا نسوه دل على فساد نظـــريتهم وإن كـــانوا أقـــروا به دل على خطـــأ نبؤتهم)[١].

وفى كلا الحالين الشيـوعيـة متهمة . فإما أن يوقفـوا القـانون عند حد معين وإمـا أن يقولوا به وبالتالى ماهو المجتمع الذى سيعقـب الشيوعية؟ إن الأحداث التاريخية أثبتت فساد هذا القانون وكان واقع الاتحاد السـوفييتى من أكبر البراهين الدالة على بطلانه فأين هى الشيوعية؟!!

الوجه الخامس : أن الماركسيـة لم تكتـف بتطبيـق مبـدأ التطـور على الأشيـاء الحسية بل تجاوزت إلى الأشيـاء المعنوية . ومـن هنـا كانت تنظر إلى عدم ثبات الأخلاق والقيم ، وهـذا يتمشـى مع مبادئهم القـائمة على الإباحيـة وإحلال الرذيلة مكان الفضيلة .

ومـن هنا يقال للشيوعيين ومـاذا عن الأخلاق الشيـوعية؟! هل ستقف عنـد حد معين أم أن المجتمع سيعرف أخلاقا غيرها؟!! ثم هـل الأخلاق التى ناديتم بها ـ من غش وخداع وكذب وهى أخلاق المرحلـة العليا التى تنشدها البشـرية ـ مسلمـة لـدى الناس؟ إنهـا عنـد كثير من العقلاء دون النظـر إلى دينهـــم ، تعتبر تراجعـا بالقيم والأخلاق إلى درك بعيـــد . فـــالناس بفطـرهم لايرون أنهـا أخلاقـا تطـورية بل هـى انحدار إلى مصـاف الأخلاق الحيـوانية البهمية . فأين التطور؟!!

وهو على رأى الماركسيين من الأدنى إلى الأعلى!!

هـــذا فى حال التسليم جدلا بوقـوع التطـور فى المعـــانى ، وإلا لايصـح وقـوعه فيها فإذا علمنا أن الكل أكبر من الجزء ، فهل تتغير تلـك الحقيقة فى يوم مـن الأيام؟!! وإذا علمنـا أن الواحد نصف الإثنين فهـل يمكن أن يلحق التطور بتلك الحقيقة وتختلف؟!! وإذا علمنا أن الصدق والعدل والحق صفات حميـدة فهـل تصبح فى يوم مـن الأيام صفـات قبيحة؟!! إن هـذا لايقـول به عاقل ، ولايصح إلا فى أذهان الشيوعيين إدعاء لاحقيقة .

---

(١) الاتجاهات الفكرية (١٨٨) .

الوجه السادس : أن الماركسية اعتبرت أن التطور يحدث بصورة مفاجئة وبطريق القفزات من حال إلى آخر وهذا أصل باطل تبطله الحقائق العلمية والبراهين الواقعية . والأمثلة على فساده كثيرة منها :

(أ ـ أن الماركسية تتجاهل فى هذا الأصل العلم والتجربة والواقع الملموس .

مثلا ـ مثال البيضة التى تتحول إلى فرخة ، والماء الذى يتحول إلى البخار : كلنا يعلم أن الحرارة الخارجية ، لاتناقضات المحتوى الداخلى ، هى السبب فى تحول البيضة إلى الفرخة ، ولولا الحرارة الخارجية لبقيت على حالها .. وكذلك فى الماء .. فإن الحرارة الخارجية هى سبب تحولها إلى بخار ، ولولاها لبقى الماء ماء ..

وبما أن فى إمكان الإنسان أن يمنع من قفزات التطور بمنع العوامل الخارجية المؤثرة ، فإن بإمكانه منع قفزات التطور الحتمية ، فلاتكون هذه القفزات إذن قانونا أساسيا فى الطبيعة .

ب ـ أن الثورة ـ وهى التغيير والتحول ـ فى الإنسان نفسه ـ وهو مصب الفكر الماركسى ـ ليس لسبب صراع داخلى فى اللاشعور ـ مثلا ـ بل بسبب صراع خارجى فى المجتمع الاستغلالى ..

فهل ياترى أن الذين يثورون على واقعهم يفعلون ذلك لوجود صراع نفسى فيهم ، أم لوجود صراع مع قول الاستغلال؟

ج ـ أن مشكلة الماركسية تكمن فى نقطتين أساسيتين :

الأولى : إنها تريد أن تكون شمولية تجارب على كل شىء ، وتفتى فى كل شىء ، من علم التاريخ ، إلى وجود الإنسان ، ومن قوانين الحرارة إلى حركة سير المجرة .

وهذا شمول مقصود فى النظرية ، حتى يكون تابعها ممثلا بكل غث وسمين ، فلايكون فيه فراغ لرأى مخالف ، أو وجهة نظر منافسة ، وبذلك يتم تعبئته بشكل كامل للأغراض المختلفة .

الثانية : إن الماركسية تأخذ مثالا واحدا من التاريخ ، أو من أشياء الحياة ، ثم تبنى عليه حكما كليا عاما شاملا فى كل شىء .

مثال البيضة والفرخة ، ومثال الماء والبخار ، فبالإضافة إلى أنهما كانا باطلين ، فهما مثالان فقط حدث فيهما انقلاب مفاجىء - حسب فهم الماركسية - ولايجوز أن نجعلهما مصدرا لحكم كلى ، ونبنى عليهما أمورا إجتماعية ، وفلسفية وإنسانية . لأن ذلك تجاهل لأكثر التحولات التى تقع بصورة تدريجية كالأمور التالية :

١ - "نمو الإنسان" من جنين ، إلى طفل ، إلى شاب ، إلى كهل ، إلى شيخ . كل ذلك يحدث بصورة تدريجية وليس قفزية .

٢ - التحولات الطارئة على الأشجار والنباتات وماشابه ذلك .

٣ - التحولات التى مرت بها العلوم التجريبية كالطب والهندسة وأمثال ذلك .

٤ - على فرض قبول نظرية الإنقلاب المفاجىء ، فإن قبولها عن طريق العوامل الداخلية تكذبه الحقائق التاريخية لنفرض أن تحولات حدثت فى "علم الفلك" ولكن حتما لم يكن ذلك بفعل التناقضات الداخلية ، بل لاختراع الآلات والمراصد الحديثة .

د - لاشك أن الماركسية إنما يعنيها فى هذا الأصل "الوجه الإجتماعى" لها ، فهى تريد أن تفسر حركة التاريخ على أساس التطور حسب التناقضات الطبقية . وتريد أن تقول : أن الماركسية تسعى لإذابة التناقضات وصنع مجتمع لاطبقى ، متساو ..

وهى بذلك تناقض "حركية الحياة" فالنتيجة الطبيعية لهذا التصور الخاطىء هو وصول البشرية إلى مرحلة السكون والجمود بعد القضاء على صراع الطبقات لأن هذا الصراع - حسب النظرية الماركسية - هو عامل التطور والحركة ، فإذا قضى على هذاالصراع وانعدمت الطبقية فلامبرر - بل ولاإمكانية - للتطور والحركة .

هـ ـ إذا كان التناقض الداخلى هو علة العلل فى التطور ، فلماذا جمدت الأنظمة الماركسية هذا التناقض فى المجتمعات التى تحكمها؟

لماذا تمنع من انتشار الفكر الإسلامى مثلا؟

إن أكبر خطأ ارتكبته الماركسية بحق البشرية ، هو أنها اتخذت الديالكتيك حقيقة مطلقة ولانهائية للعالم ، وتبنته الدولة مذهبا رسميا ، واعتبرته فوق كل جدال ، ومناقشة ، وجعلته المرجع الأعلى الذى يجب إخضاع كل علم ومعرفة له ، وضرب كل فكر وجهة لاينسجم معه ، ولاينطلق منه . وهكذا أصبحت المواهب ، هنالك أسيرة قنوات معينة ، لايجوز أن تنطلق منها .

وبذلك : قتل الفكر الإنسانى ، يوم قتلت الحرية فى إيمان الإنسان بما يراه صحيحا!)[١].

الوجه السابع : يرى الشيوعيون أن التطور يكون من الأدنى إلى الأعلى ومن الأسوأ إلى الأحسن ، ولكن هذه مقولة تبطلها الحقائق العلمية أيضا كما أنه ليس بالضرورة أن يكون الإنتقال من السىء إلى الأحسن والعكس صحيح . وقد يكون مجرد تغير ليس إلا . ويبين غانم عبده ذلك فيقول عن التغير : (قد يكون من حال إلى حال أحسن ، وقد يكون إلى حال أسوأ ، ففى غير الكائن الحى من الجمادات تختلف التغيرات . فتعفن الخبز انتقال من حال حسنة إلى حال سيئة ، وتفتت الأحجار إنتقال من حال حسنة إلى حال سيئة وفى الكائن الحى من إنسان وحيوان ونبات تختلف كذلك التغيرات ، ينتقل الطفل فى النمو من حال حسنة إلى حال أحسن ، ومثله نبتة الزرع ، وصغار الحيوان ، ولكن إنتقال الإنسان من الشباب إلى الهرم إنتقال من حال حسنة إلى حال سيئة فالتغير موجود فى

---

(١) نقد النظرية الماركسية (٣١-٣٥) .
وانظر شيئا من هذه الآراء فى كتاب نقد أصول الشيوعية (٧١-٧٣) ولعله رجع إلى المرجع السابق ولكن دون إشارة .

غير الكائن الحى وفى الكائن الحى ، ولكنه مجرد انتقال من حال إلى حال بغض النظر عن الإنتقال إلى الحسن أو إلى السىء . فما يقولونه أن الشىء يتطور بمعنى ينتقل إلى حال أحسن كلام باطل بالمشاهدة ، فإن الذى يحصل هو مجرد تغير ، إما إلى أحسن وإما إلى أسوأ ... والماء نفسه الذى جاؤا به للتدليل على نظريتهم هذه يكذب هذه النظرية ، فإن الماء عندما يتحول إلى بخار يمكن أن يكثف ويبرد ، وبذلك يرجع إلى كيفيته الأولى أى إلى الماء ؛ وهذا ليس تغيرا صاعدا ، ولاإلى أحسن بل رجوع إلى الصورة الأصلية . وعليه فإنه ليس دائما الجديد يكون حسنا ، كما أنه ليس دائما يكون سيئا . وليس القديم يكون دائما سيئا ، كما أنه ليس دائما يكون حسنا ، فكون الشىء جديدا لايعنى أنه حسن أو سىء ، وإنما يعنى أنه جديد ليس غير ، وكون الشىء قديما لايعنى أنه سىء أو حسن ، وإنما يعنى أنه قديم ليس غير ...)[١].

ويقول : (ثم إن التغير فى الأشياء ليس حتميا أن ينقلها إلى أشياء أخرى غير الأولى ، بل هو قد ينقلها إلى أشياء غير الأولى وقد تبقى رغم التغير هى عينها الأشياء الأولى لم تتغير ويستحيل أن تتغير مهما حصل فيها من عوامل التغيير ... فمثلا الحديد لايمكن لأية عملية أن تحوله إلى ذهب ، والحصان لايمكن لأية عملية أن تحوله إلى جمل ... وهكذا ملايين الأشياء التى يستحيل أن تتحول إلى شىء آخر غير ماهيتها . وعليه فإن القول إن النباتات والحيوانات وبالتالى الإنسان هى كلها نتاج تطور يجرى منذ ملايين السنين ، هذا القول قول فاسد يكذبه الواقع)[٢].

ومما يرد به عليهم واقع بعض الأمم ومن ذلك الأمة المسلمة حيث كانت فى أول أمرها فى غاية القوة ، لتمسكها بدين ربها تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد أن ابتعدت عن ذلك أصابها الهوان والذل

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (٨٩-٩٠) وانظر مابعدها .

(٢) المرجع السابق (٩٢-٩٣) ، وانظر (٩٤-٩٥) .

ووقعت فريسة سهلة لأعدائها . فلو كان الأمر يسير حسب قانون ماركس التطورى لما كان هذا التراجع . وبهذا يتبين لنا بطلان هذا القانون وعدم تحققه ، وإن صدق على جزئيات صغيرة لاتكاد تذكر فإن هناك من الكليات والبدهيات ماتجعله رمادا تذروه الرياح .

ثالثا : قانون الحركة :

والحركة عبارة عن صورة استمرارية الصراع والاستقبال بين الإثبات والنفى . والحركة داخلة فى كل شىء . يقول ماركس : (كل ماهو موجود ، كل ماهو حى على الأرض أو تحت الماء ، يوجد ويحيا بنوع من الحركة فقط وهكذا فحركة التاريخ تنتج العلاقات الإجتماعية ، والحركة الصناعية تقدم المنتجات الصناعية ...الخ)[١].

وهذا القانون يدين الماركسية وهو قانون باطل على تصورها .

ونوجز ذلك فى الوجوه التالية :

الوجه الأول : اعترافهم بالعجز عن فهم بداية هذه الحركة ـ مما يدل على أن الماركسية إنما قامت على ضرب من الأوهام والتخيلات وأنها بعيدة عن الحقائق العلمية ـ حيث جاء عنهم (من المتعارف عليه تقليديا أن علم الطبيعة الميكانيكى ، عامة ، عاجز عن تفسير نشوء وبداية الحركة)[٢].

الوجه الثانى : أن هذا القانون يستلزم الإيمان بالله تعالى أو الإيمان بالإله ـ وهذا مالاتريده الماركسية ـ لأن هذه الأشياء متحركة ، وعلى هذا الأساس فهى بحاجة إلى محرك لها . ولايمكن استمرار الوضع كذلك وإلا لزم منها لتسلسل الممتنع . فتعين وجود محرك لها قادر على كل شىء .

الوجه الثالث : أن قولهم بأن المادة تتحرك تعميم خاطىء لادليل عليه فلايمكن القول بأن المادة كلها تتحرك أو تتغير وإن كان فى المادة حركة

---

(١) بؤس الفلسفة (١٠٠) ، وانظر مصادر الماركسية (٢٠-٢١) .

(٢) تاريخ الديالكتيك الفلسفة الكلاسيكية الألمانية (٣٩) .

بلاريب إلا أن ذلك لايعنى أن كل مافيها يتحرك .

الوجه الرابع : أن الماركسيين يرون أن الحركة تحدث داخل المادة فهى معلولة لنفسها بنفسها وليست لعلة خارجة عنها . وهذا إدعاء يكذبه الواقع حيث إن كثيرا من الموجودات تأتى حركتها من الخارج ، وهم أرادوا بذلك القانون إنكار وجود الإله غير أن هذه الحقيقة وغيرها من الحقائق الواقعية والبراهين العلمية التى لايسع الماركسية أن تجابهها تبطل ذلك الزعم . ولكون هذا القانون شديد التلازم مع سابقه فإن ماقيل فى إبطال قانون التطور إبطال لهذا القانون . إذ أن التطور لايكون إلا عن طريق الحركة .

رابعا : قانون الترابط :

ويعنون به أن أجزاء الطبيعة ترتبط بعضها ببعض ، والحوادث التى تقع فيها مرتبطة ببعضها بعضا .

فـ(لديالكتيك لايعتبر الطبيعة تراكما عرضيا للأشياء ، أو حوادث بعضها منفصل عن بعض ، أو أحدها منعزل مستقل عن الآخر ، بل يعتبر الطبيعة كلا واحدا متماسكا ، ترتبط فيه الأشياء والحوادث ارتباطا عضويا ، ويتعلق أحدهما بالآخر ، ويكون بعضها شرطا لبعض بصورة متقابلة . لذلك يعتبرون أن أى حادث من حوادث الطبيعة لايمكن فهمه إذا نظر إليه منفردا بمعزل عن الحوادث المحيطة به)[١].

ويهدف الشيوعيون من وراء هذا القانون إلى إنكار الإله إذ أن أى حادث لايمكن تفسيره إلا من خلال الواقع .

كذلك رغبتهم فى ربط الحركات العمالية فى العالم بعضها ببعض . هذا بالإضافة إلى ربطهم بين مافى المجتمع من فكر دينى أو إقتصادى أو سياسى ، أوظلم واستغلال بالدين ليسهل عليهم الوصول إلى غاياتهم وتحقيق مآربهم فى القضاء عليه ، وهذا القانون يلزم منه لوازم لاتريدها الماركسية ، كما أن الحقائق العلمية تبطله حسب تصورها ، ونوجز ذلك فى الوجوه التالية :

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (٧٤-٧٥) ، وانظر نقد أصول الشيوعية (٧٣-٧٤) .

الوجه الأول : أن الماركسية ترى الترابط بين كل شيء لتدعم توجهها الفلسفى ، ولتبعد كل فكر قد يوصل إلى الإعتراف بوجود إله لهذا الكون . ونحن لاننكر وحدة الكون والحياة والإنسان وسيرها ضمن سنن إلهية قدرها المولى جل وعلا ولكن ورغم هذه الوحدة إلا أن لكل شيء قوانينه التى تحكمه وتخصه دون الآخر ، وكل هذه القوانين تخضع فى نهاية المطاف لتوجيه الخالق جل وعلا لها .

الوجه الثانى : أن القول بهذا القانون دليل قاطع على وجود الإله الخالق لهذا الكون . كما أن فيه نفى لمبدأ المصادفة فى الخلق ، حيث إن هذا الترابط والانسجام لايمكن أن يكون وجد صدفة ، من دون موجد حكيم قادر جعله فى هذا النسق من الترابط والإبداع .

الوجه الثالث : أن الواقع والحقائق العلمية تبطل هذا القانون وإن كان الكون كله يسير فى نظام بديع منتظم . يقول غانم عبده عن هذا القانون إنه مجرد فرض (فإن الطبيعة هى مجموع الأجرام ومجموع النظام الذى تسير عليه ، وبالنسبة لكوكب الأرض التى نعيش عليها هى عبارة عن القوانين التى تسير الأرض ومافيها من قابليات الحياة مع الأرض والأشياء التى عليها . فهذه الطبيعة أى الأشياء وقوانينها كل متماسك الأجزاء من حيث الكون كله ، ومن حيث الأرض كلها ، ومن حيث كل كوكب بوصفه كلا . أما من حيث كل كوكب ، ومن حيث الأرض بالذات ، فإنها فى أشيائها الخاصة بها وقوانينها الخاصة بها غير مرتبطة بغيرها ، بل هى من هذه الجهة منعزلة عن غيرها وتعيش فى وسط يتعلق بها وحدها من أشياء وقوانين وإن كان ذلك يجرى ضمن الإطار العام الجامع للكون . وكذلك الأشياء التى على الأرض مع قوانيننا فإنها من حيث كل شيء فيما يتعلق به منفردة عن غيرها ، ولكل شيء قوانين خاصة به ، وغير مرتبط بغيره ، وإن كان ذلك يجرى ضمن قوانين الأرض ثم ضمن قوانين الكون ، وهذا فيما يتعلق بالكوكب وبالأرض بالذات قد ظهر جليا بشكل ملموس بعد رحلات الفضاء حيث قد ثبت انقطاع الوزن عند وصول الشخص إلى مكان تعادل الجاذبيات

فلم تعد جاذبية الأرض تؤثر عليه ، إذ فى النقاط التى تتعادل فيها جاذبية كوكبين أو أكثر تنعدم الجاذبية فيكون الشخص كأنه خرج من جاذبية الأرض فلم تعد قوانينهم تؤثر عليه ، وهذا يعنى أن للأرض قوانين خاصة بها غير مرتبطة أى القوانين بغيرها أى بغير الأرض من الكواكب ، وتجرى بشكل منفرد ، وإن كان لها قوانين أخرى مرتبطة بغيرها من الكواكب . فكل كوكب مرتبط مع غيره بقوانين ، ومنفصل عن غيره بقوانين خاصة به غير مرتبطة بغيره . وهو فيما يتعلق بالأشياء والحوادث على الأرض واضح ملموس ، فالزلازل فى إيران لم يتأثر بها العراق ، والبراكين فى جهة لاتتأثر بها جهة أخرى لم يصل إليها تأثيرها . ومايجرى على الحيوان لايجرى على الإنسان ، فالحيوان يمشى على أربع ، ويفقد الإدراك العقلى ، ويعيش حسب الطاقة الحيوية من غرائز وحاجات عضوية ، والإنسان يمشى على رجليه ويستعمل يديه على خلاف استعمال رجليه ، ويملك الإدراك العقلى ، وسلوكه فى الحياة إنما هو حسب مفاهيمه وليس حسب غرائزه وحاجاته العضوية فحسب ، وماعليه الجمادات غير ماعليه الكائن الحى فالجمادات لاتحتاج إلى غذاء والكائن الحى يحتاج إلى غذاء ، والجمادات لاتحس وبعض الكائنات الحية تحس ، والجمادات ليست لديها طاقة حيوية من غرائز وحاجات عضوية . وبعض الكائنات الحيوية لديها طاقة حيوية من غرائز وحاجات عضوية . ثم إن الإنسان نفسه يسير فى الحياة من حيث الخلق على قوانين واحدة ولكنه يسير فى معيشته وعلاقاته على أنظمة مختلفة ، وهو يتمتع بالاختيار التام لما يريد من نظام ، ومن تفكير ومن عيش . وليس مرتبطا بالطبيعة ارتباطا جبريا ، وليست هى التى تسيره فى عيشه ، بل والذى يسير من نفسه مختارا . ومن هنا كانت هذه النقطة مجرد فرض . فإنهم لما رأو أن الكون متماسك الأجزاء من حيث سيره ضمن قوانين معينة ، وأن كوكب الأرض متماسك الأجزاء من حيث سيره ضمن قوانين معينة ، قالوا أن الطبيعة كل متماسك الأجزاء ، ونسوا أن هذه الكلية إنما هى فى الكلية أى من حيث الكون كله ، أى من حيث كليته أو من حيث كلية الشىء .

أما من ناحية الأمور الخاصة بالأشياء فإنها متميزة عن غيرها ، ومنفردة ، فالأرض متميزة عن الزهرة ومنفردة وغير مرتبطة ارتباطا حتميا بقوانينها الخاصة ، والحديد متميز عن الزئبق ومنفرد عنه وغير مرتبط به ارتباطا حتميا فى قوانينه الخاصة مع أن كلا منهما معدن ، والإنسان متميز عن الحيوان وغير مرتبط به ارتباطا حتميا فى قوانينه الخاصة مع أن كلا منهما حيوان وهكذا .. فالارتباط الحتمى فى كل شىء بين أجزاء الكون ومايحويه غير موجود ، بل الموجود هو الارتباط العام فقط ...) .

ويقول : (ثم إنه ليس كل مافى الوجود المدرك المحسوس مرتبطا بالآخر ، أى ليس الشىء محاطا بكل شىء فى الوجود ، فقد تكتنف الشىء أشياء ولاتكتنفه أخرى ، والأشياء التى تكتنفه ليس دائما وجودها شرطا فى بقائه ، فقد تكون شرطا لذلك وقد لاتكون . فالإنسان يكتنفه الضوء ويكتنفه الهواء ، ومن شروط حياته الماء والغذاء ولكن لاعلاقة له بالزهرة ولابالمريخ وليس معدن النحاس شرطا من شروط حياته ولاالزئبق شىء لايحيا بدونه . وبهذا يبرز أن الإنسان مرتبط بأشياء فى الكون وغير مرتبط بأشياء أخرى ، وأن الأشياء التى يرتبط بها منها مايكتنفه وضرورى لحياته ومنها مايكتنفه وليس ضروريا لحياته ، وقل مثل ذلك فى الحيوان والكواكب والجمادات وغير ذلك . وهذا يعنى أنه ليس كل مافى الوجود مرتبطا بعضه ببعض ، ومادام ليس مرتبطا به فليس هو جزءا من ذلك الشىء ، وبالتالى لايشكل وإياه كلا ، فيكون اعتبار الطبيعة كلا ، واعتبار كل جزء منها متعلقا بالآخر مخالفا لواقع ماعليه الأشياء فى العالم ومخالف لواقع الوجود المدرك المحسوس.

والإنسان وإن كان الماء شرطا من شروط حياته ؛ ولكنه أى الإنسان ليس شرطا من شروط بقاء الماء ماءا ، والهواء وإن كان يكتنف الإنسان ، ولكن الإنسان لايكتنف الهواء ووجود الإنسان وعدمه ليس شرطا من شروط بقاء الهواء ، وقل مثل ذلك فى الحيوان والشمس والجبل وغير ذلك ، فإنها فى الأشياء التى ترتبط بها ليس حتميا أن تكون تلك الأشياء مرتبطة بها أيضا ، فلايكون كل من هذه الأشياء المرتبطة متوقفا بقاؤه على الآخر .

وبالتالى لايكون فهمه متوقفا عليه بل يمكن أن يكون فهمه منعزلا عما هو مرتبط به ، فيمكن فهم الإنسان منعزلا عن الماء ولو ان يكتنفه ويمكن فهم الماء منعزلا عن الإنسان ، ويمكن فهم الشمس منعزلة عن الإنسان ويمكن فهم النبات منعزلا عن الهواء وهكذا ... وعليه يكون من الخطأ القول أنه لايمكن فهم الشيء إذا نظر إليه منفردا بمعزل عن الأشياء المحيطة به ...)[١].

وبهذا يتبين بطلان القانون القائل بالترابط الحتمى وغير المنفصل نهائيا.

وبعد هذا العرض لقوانين الجدل نصل إلى التالى :

أولا : أن هذه القوانين كما صورها ماركس والماركسية من بعده يبطلها العلم ، وإن صدقت فى بعض الجوانب فهى تلك الجوانب التى لاتريدها الماركسية منها .

ثانيا : أن الهدف من هذه القوانين خدمة الاتجاه الفلسفى المادى الماركسى القائم على إنكار الإله واعتبار الأفكار الدينية ، والقيم الأخلاقية ، انعكاسات لأوضاع محددة فرضتها العلاقات الإقتصادية .

ثالثا : أن هذه القوانين فيها إبطال لبعض مزاعم الماركسيين شعروا بذلك أم لم يشعروا .

رابعا : أن هذه القوانين زادت من بيان تناقض الفكر الماركسى ودلت فى الوقت ذاته على أنها مجرد خيالات ، أراد ماركس بها سوق البشرية إلى مزالق الإلحاد والإباحية .

خامسا : أن واقع الاتحاد السوفييتى فيه أبلغ دليل على بطلان هذه القوانين منذ قيام الثورة البلشفية إلى أن سقطت الشيوعية حيث لم يكن لهذه القوانين أى دليل يصدقها بل كان العكس من ذلك ، وفى هذا إبطال لمزاعم الماركسيين بصحة هذه القوانين وحتميتها .

سادسا : أرادت الماركسية أن تفرض هذه القوانين على كل شيء ولم تقتصر فيها على جانب دون آخر فأخضعت الحياة البشرية كلها لهذه القوانين فكانت الأحداث والوقائع والبراهين لها بالمرصاد مما زاد بيان كذبها وعدم تحققها ويظهر ذلك فى إبطال الجانب الآخر من الفلسفة المادية الماركسية وهى (المادية التاريخية) . وهذا ماسنعرض له فى المبحث التالى إن شاء الله تعالى .

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (٨٢-٨٧) .

المبحث الرابع
بطلان المادية التاريخية

تعتبر المادية التاريخية بيت القصيد فى الفلسفة الماركسية وذلك لأن قوانين الجدل أوالمادية الديالكتيكية طبقت على المجتمع البشرى وهذا ماكانت تهدف إليه الماركسية وهو إخضاع الحياة الإجتماعية والأفكار والقيم والأخلاق لهذه القوانين من أجل تحقيق الغايات ، والمادية التاريخية نتاج ماركس ، وإن كانت صورة المذهب قدوجدت منذ القدم كما ذكر ذلك بوير[١]، وهذا المذهب يقوم على الحتميات التاريخية التى يرى ماركس وجوب تحققها وعدم الخروج عليها حيث قال : (إذا مااكتشف مجتمع من المجتمعات قانونه الطبيعى الذى يعين حركته ، فلن يمكنه ذلك من تخطى المراحل الطبيعية لتطوره أو حذفها من الوجود بجرة قلم . ولكن فى استطاعته أن يفعل شيئا واحدا : هو التقليل من آلام الوضع والتقصير من مدتها)[٢].

ويعتقد ماركس أن هذه المادية التى جاء بها هى المادية الوحيدة الصحيحة ومن هنا أخذ ممن سبقه بقدر مايخدم مذهبه وانتقد بقية آرائهم التى تخالف فكره[٣].

ويرى ماركس والماركسيون من بعده أن المادية التاريخية لها ثلاث مقدمات وهى الأفراد الواقعيون ، نشاطهم ، الظروف المادية لوجودهم[٤]. ومن هنا كانت المادية التاريخية تطبيق لقوانين الجدل على تاريخ المجتمعات الإنسانية[٥].

---

(١) انظر كلامه فى كتابه عقم المذهب التاريخى (١٨٩-١٩١) .
(٢) نقلا من المرجع السابق (٦٧) ، وانظر (٦٨) .
(٣) انظر عن ذلك النظرية المادية فى المعرفة (٣٤٧) ومابعدها .
(٤) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢٠٧) .
(٥) انظر عن ذلك جهود المفكرين المسلمين المحدثين فى مقاومة التيار الإلحادى (٢٠٣-٢٠٤) .

واعتبر ماركس أن قوى الإنتاج وعلاقاته هى التى تحدد نمط التفكير والأخلاق فى كل مجتمع ، ولايمكن لأحد أن يقيم أفكارا أو أخلاقا من تلقاء نفسه بل هو محكوم بتلك القوى(١).

يقول بليخانوف : (إن الوضع الإقتصادى لشعب ما ، هو الذى يحدد وضعه الإجتماعى ، والوضع الإجتماعى لهذا الشعب يحدد بدوره وضعه السياسى والدينى ، وهكذا دواليك ...)(٢).

وعلى هذا الأساس فإن المجتمع من خلال تطبيق هذه القوانين عليه يسير نحو الإشتراكية سيرا حتميا نظرا لتطور وسائل الإنتاج ، ومن هنا صوروا المجتمع البشرى على أنه مر بمراحل عديدة وكانت كل مرحلة حسب ماوجد فيها من قوى الإنتاج ووسائله(٣). سواء فى الأفكار أو الأخلاق أو العلاقات الإجتماعية .

ولكن ماهى الأهداف التى يريد الشيوعيون الوصول إليها من وراء هذه المادية؟

إن أعظم مايمكن قوله هنا هو أنهم يريدون الوصول إلى إنكار الألوهية ، وأن الإله فكرة اخترعها الإنسان حسب الظروف التى كان يعيشها وإن الأخلاق والقيم والأفكار والمعتقدات كلها انعكاس للأوضاع الإقتصادية التى تكون سائدة فى مجتمع ما . فهى أهداف شيطانية تخدم أفكارا إلحادية وغايات إباحية تحتضنها فى حقيقة الأمر المؤسسات اليهودية الصهيونية .

ونصل الآن إلى بيان بطلان المادية التاريخية ومصادمتها للحقائق العلمية .

---

(١) انظر : الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٨) ومابعدها ، مصادر الماركسية الثلاثة (٦١-٦٢) .

(٢) نقلا من معالم الإشتراكية العربية (٤٩) .

(٣) انظر : النظم الإقتصادية المعاصرة (١٦٠-١٦٢) ، المذاهب الإقتصادية الكبرى (٩٨-٩٩) ، الإشتراكية العربية (١٢٠-١٢١) .
ولمزيد عن تطور كل مجتمع حسب نوعية الإقتصاد الموجود فيه انظر : النظم الإقتصادية المعاصرة (١٥٦-١٥٧) .

بطلان المادية التاريخية :

إن هذه الفلسفة الماركسية باطلة وبيان بطلانها من وجوه :

الوجه الأول : إفتقار الماركسية للدليل العلمى والبرهان العقلى الصحيح . وإذا كانت المادية التاريخية هى التطبيق الفعلى لقوانين الجدل على المجتمع البشرى فإن المراحل التى جعلها الشيوعيون للبشرية ليست إلا ضربا من التخمين والظن . أو التعميم بغير دليل . والتعميم يأباه المنطق العلمى . يقول حسين أبو الحسن : (فما هو الدليل العلمى على أن المجتمعات البشرية قد مرت وتمر بالمراحل التاريخية التى ذكرتها الماركسية؟ وعلينا أن نسأل أيضا ماهو الدليل العلمى المحسوس الملموس على صحة ظهور المجتمعات البشرية فى مرحلتها الأولى ، البدائية الشيوعية؟ فهل كان فقط استنادا لآراء بعض الرحالة الذين درسوا حالات بعض المجتمعات البشرية فى أمريكا أواستراليا أو غيرهما دون دراسة إجتماعية شاملة وكاملة؟

إن اعتبار الماركسية فى موافقتها على استنتاج ماتوصل إليه بعض البحاثة أنه دليل علمى ينطبق على واقع تطور كل المجتمعات البشرية فيه كثير من الاجحاف للعلم والتعدى على قواعده وقوانينه . فكيف يجوز أن نستنتج من الجزء قاعدة تطبق على الكل؟ فهذا خلاف للعلم ولقوانينه المعمول بها ، فمثلا ، إذا تطابقت معلومات دراسة تسعين مجتمعا بشريا من أصل مائة على أنها مجتمعات تتفق فى مزايا التملك العام للإنتاج والملكية ومايلى ذلك ، نستطيع أن نستنتج قانونا أو قاعدة علمية ثابتة تقول بأن كل المجتمعات البشرية المائة لها نفس تلك المزايا ، أما إذا اكتفى من دراسة مزايا خمسة مجتمعات بشرية دون الخمس والتسعين الباقية وتطابقت تلك المزايا للخمسة ، فلايمكن أن نعمم ذلك على ال٩٥ مجتمعا ونقول إن القانون أوالقاعدة العلمية تثبت بأن جميع المجتمعات البشرية لها نفس مزايا التملك العام للإنتاج والملكية ومايلى ذلك . فالجزء هنا لايمكن أن يعمم قانونه على الكل ، وإنما قوانين الكل تشمل أجزاءه ، ولهذا ، فإن إقتصار الماركسية لإثبات

نظريتها التاريخية تلك من خلال اعتمادها على آراء بعض البحاثة الذين درسوا مجتمعا بشريا أو خمسة من أصل آلاف المجتمعات لايمكن أن تكون قاعدة علمية تعمم أو تفرض تعميمها على الكل)[١].

ولنا هنا وقفة مع التفسير الشيوعى لهذه المراحل :

(أ) إذا كانت الشيوعية البدائية قد حققت الغاية القصوى من انعدام الطبقات والقضاء على الملكية الفردية . فكيف خرج من أحشائها المجتمع الذى يليها . حيث إن الماركسية ترى أن التناقض كامن فى كل شىء وأنه مامن شىء إلا ويحمل بين أحشائه تناقضا حتى يتولد منه شىء جديد . فما هو التناقض ، وكيف كان الصراع الذى سينتج عنه مرحلة جديدة فى تاريخ البشرية ، إن الماركسية لاتعطى على ذلك جوابا . ولو أجابت فإما أن تحكم على نفسها بالتناقض أو على أفكارها بالبطلان . وكلا الأمرين صعب فى حق الشيوعية العلمية!! ويصور الصدر ذلك الأمر بدءا من مسألة المجتمعات البدائية إلى مسألة خروج النقيض من الشيوعية البدائية فيقول :

(ولنسلم أن المعلومات التى اعتمدت عليها الماركسية ، عن تلك المجتمعات المعاصرة ، هى وحدها المعلومات الصحيحة فمن حقنا بعد ذلك أن نتساءل عن هذه المجتمعات : هل هى مجتمعات بدائية ، يمكن الإعتماد عليها فى تصوير البدائية الإجتماعية؟ وبالنسبة إلى هذا السؤال الجديد ، لاتملك الماركسية دليلا واحدا على بدائية هذه المجتمعات المعاصرة ، بالمعنى العلمى للفظ . بل إن قوانين التطور الحتمى للتاريخ ، التى تؤمن بها الماركسية ، تقضى بأن تلك المجتمعات قد شملتها عملية التطور الإجتماعى حتما فالماركسية حين تزعم ، أن الحالة الحاضرة لتلك المجتمعات ، هى حالتها البدائية ، تبطل قوانين التطور ، وتقرر الجمود عبر آلاف السنين)[٢].

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (٥٣-٥٤) .

(٢) إقتصادنا (١٤٩) .

أما كون المجتمعات البدائية عاشت فى ملكية جماعية مشاعية لأن الفرد كان يستطيع أن يأكل ويحصل على طعامه من جراء دخوله إلى أى منزل فى قريته فإن ذلك لايكون لأن علاقات الإنتاج كانت إشتراكية أو مشاعية ، حيث وجدت تلك الأخلاق فى مجتمعات لم تعرف تلك العلاقات الإنتاجية(١).

(ب) ثم يقال لهم كيف تولد النظام العبودى من النظام المشاعى الذى لايوجد فيه طبقات متصارعة؟!!

ويجيب الماركسيون على ذلك بقولهم إن الذى أدى إليه هو إحساس الفرد بأنه قادر على أن يجد مايحتاجه دون أن يبذل كل طاقاته فى العمل ، ومن هنا وجدت قوة إجتماعية ترغب فى الإستزادة من هذا الإنتاج وتعمل على إرغام العبيد على العمل المتواصل فكان لابد من نشوء المجتمع العبودى(٢).

ومن خلال هذا التفسير يتبين (أن المسألة هى مسألة الإنسان ، قبل أن تكون مسألة وسائل الإنتاج) . فالإنسان بطبعه يميل إلى أضمن الطرق لراحته وأقلها تكليفا له . فالميل الطبيعى هذا هو الذى جعل الإنسان يرغب فى استعباد الآخرين وليست قوى الإنتاج التى عملت على ذلك(٣).

(ج) ثم بعد ظهور المجتمع العبودى انقسم المجتمع إلى طبقتين . طبقة العبيد وطبقة الأسياد ، فبدأ الصراع الطبقى لأول مرة فى التاريخ . فيقال لهم هنا :

لماذا كانت (السيادة لأولئك وكتب على هؤلاء الرق والعبودية؟ ولماذا لم يقم السادة بدور العبيد ، والعبيد بدور السادة؟)(٤)

---

(١) انظر : معالم الإشتراكية العربية (٥٤-٥٥) ، إقتصادنا (١٥٠) .
(٢) انظر إقتصادنا (١٥١-١٥٢) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٥٢-١٥٣) .
(٤) المرجع السابق (١٥٥) .

وتجيب الماركسية على ذلك بقولها : (إن كلا من السادة والعبيد قد مثل الدور المحتوم ، الذى يفرضه العامل الإقتصادى ومنطق الإنتاج . لأن الجماعة التى مثلت دور السيادة فى المجتمع ، كانت على مستوى عال من الثروة نسبيا ، وكانت تملك بسبب ذلك القدرة على ربط الآخرين بها ، برباط الرق والعبودية)[١].

غير أن هذا ليس جوابا مقنعا وذلك لأن (هذه الثروات الضخمة نسبيا لم تهبط على الأسياد من السماء ، فكيف حصل عليها هؤلاء دون غيرهم ، واستطاعوا أن يفرضوا سيادتهم على الآخرين ، مع أن الجميع كانوا يعيشون فى مجتمع شيوعى واحد؟!)[٢].

وتجيب الماركسية على ذلك بأمرين :

أحدهما : أن الأفراد الذين كانوا يزاولون مهام الرؤساء والقادة استغلوا مراكزهم وأخذوا فى امتلاك الثروة والانفصال شيئا فشيئا عن أعضاء جماعتهم ، بينما كان أعضاء الجماعة يسقطون شيئا فشيئا تحت تبعيتهم الإقتصادية .

وثانيهما : تحويل أسرى الحرب إلى عبيد[٣].

ويبين الصدر خطل هذاالرأى وتعارضه مع الفكر الماركسى فيقول : (وكلا هذين الأمرين لايتفقان مع وجهة نظر المادية التاريخية ، أما الأول : فلأنه يؤدى إلى إعتبار العامل السياسى ، عاملا أساسيا ، والعامل الإقتصادى عاملا ثانويا منبثقا عنه ، لأنه يفترض أن المكانة السياسية ، التى كان القواد ورجال الدين والرؤساء يتمتعون بها فى المجتمع الشيوعى اللاطبقى ، هى التى شقت لهم الطريق إلى الإثراء ، وإيجاد ملكيات خاصة ، فالظاهرة الطبقية إذن وليدة الكيان السياسى ، وليس العكس ، كما تقرر المادية

---

(١) إقتصادنا (١٥٥) .

(٢) المرجع السابق (١٥٥) ، وانظر معالم الإشتراكية العربية (٥٥) ومابعدها .

(٣) انظر إقتصادنا (١٥٥-١٥٦) .

التاريخية ، وأما السبب الثانى ، الذى فسرت به الماركسية تفاوت الثروات : فهو لايتقدم فى حل المشكلة إلا خطوة واحدة ، إذ يعتبر أن إسترقاق السادة للعبيد من أبناء القبيلة ، قد سبقه تاريخيا إسترقاق أولئك السادة ، لأسرى الحرب ، وإثراؤهم على حساب هؤلاء الأسرى ، وأما لماذا هيأت الفرص لأولئك السادة بالذات ، دون غيرهم من أعضاء القبيلة ، إسترقاق الأسرى؟ فهذا مالاتحاول الماركسية تفسيره ، لأنها لاتجد تفسيره فى القوى المنتجة ، وإنما يمكن تفسيره تفسيرا إنسانيا ، على أساس الفوارق والكفاءات المتفاوتة : البدنية والفكرية والعسكرية ، التى يولد الناس وهم يختلفون فى حظوظهم منها ...)[١].

(د) أن الماركسية تقول بأنه لابد من تطور قوى الإنتاج من أجل أن يتغير الوضع الإجتماعى ، غير أن مجتمع العبودية والإقطاعية كانت أشكال الإنتاج فيها واحدة وحصل التغير ، وفى بيان وجوب التغير فى قوى الإنتاج ليتغير الوضع الإجتماعى يقول ماركس : (إن أى تكوين إجتماعى لايحدث أبدا قبل أن تتطور القوى المنتجة ، التى تستطيع أن يفسح لها المجال)[٢].

يقول الصدر بعد أن أورد هذا القول : (بينما تؤكد الماركسية هذا ، نجد أن شكل الإنتاج كان واحدا فى المجتمع العبودى والإقطاعى معا ، ولم تتغير العلاقات العبودية إلى إقطاعية نتيجة لأى تطور أو تجديد فى القوى المنتجة السائدة ، التى كانت لاتعدو مجالات الزراعة والخدمة اليدوية . ومعنى ذلك أن التكوين الإجتماعى والعبودى ، قد مات قبل أن تتطور القوى المنتجة ، خلافا لتأكيد ماركس الآنف الذكر .

وفى مقابل ذلك نجد : أن أشكالا متعددة من الإنتاج ودرجات مختلفة ، تخطتها القوى المنتجة خلال آلاف السنين ، دون أن يحصل أى تحول فى

---

(١) إقتصادنا (١٥٦) ، ولمزيد انظر (١٦١) ومابعدها .

(٢) فلسفة التاريخ (٤٧) نقلا من كتاب إقتصادنا (١٦٠) ، وانظر نقض الإشتراكية الماركسية (١٨٢) .

الكيان الإجتماعى باعتراف الماركسية نفسها . فالإنسان البدائى كان يستعين فى إنتاجه بالأحجار الطبيعية ، ثم استعان بأدوات حجرية ، وبعد ذلك استطاع أن يكتشف النار ، وأن يصنع الفؤوس والحراب ، ثم تطورت قوى الإنتاج فظهرت الأدوات المعدنية والسهام والأقواس ، ثم ظهر الإنتاج الزراعى فى حياة الإنسان وبعده الإنتاج الحيوانى . وقد تمت هذه التحولات الكبرى فى أشكال الإنتاج ، وتتابعت تطوراته فى المجتمع البدائى ، بالتسلسل الذى ذكرناه أو بتسلسل آخر دون أن تواكبها تحولات إجتماعية وتطورات فى العلاقات العامة ، باعتراف الماركسية نفسها ، إذ أنها تؤمن بأن النظام السائد فى المجتمع البدائى ، الذى حدثت خلاله كل تلك التطورات ، كان هو الشيوعية البدائية .

فإذا كان من الممكن أن تتطور أشكال الإنتاج ، والشكل الإجتماعى ثابت كما فى المجتمع البدائى مثلا ، وكان من الممكن أن تتطور الأشكال الإجتماعية ، وشكل الإنتاج ثابت ، كما رأينا فى المجتمع العبودى والإقطاعى . فما هى الضرورة التى تدعو إلى التأكيد على : أن كل تكوين إجتماعى يرتبط بشكل معين ودرجة خاصة من الإنتاج؟! ولماذا لاتقول الماركسية : إن النظام الإجتماعى إنما هو حصيلة الأفكار العملية ، التى يحصل عليها الإنسان خلال تجربته الإجتماعية للعلاقات التى يشترك فيها مع الآخرين . كما أن أشكال الإنتاج حصيلة الأفكار التأملية والعلمية التى يحصل عليها الإنسان خلال تجربته الطبيعية ، لقوى الإنتاج وسائر قوى الكون)[1].

(هـ) أن قولهم إن تطور الإنتاج وتغيراته تبدأ بتطور قوى الإنتاج يبطله الواقع والأحداث .

(فإن الإسلام حين جاء غير النظام الذى عليه الناس أى غير العلاقات وبعد أن قويت الدولة وصارت الفتوحات بدأ الرقى المادى فبدأت أدوات

---

(١) إقتصادنا (١٦٠-١٦١) .

الإنتاج تتغير وبدأت الخبرة الفنية أو مايسمى معارف الإنتاج تتغير)[١].

ثم إن واقع روسيا ينقض هذه المقولة .

فـ(حين استولى الحزب الشيوعى على الحكم بدأت الدولة تغير علاقات الناس وبعد ذلك صارت الدولة تحسن أدوات الإنتاج وتغيرها ، ويروى عن لينين أنه طلب منه شراء تراكتورات للحراثة من الغرب لتحسين الزراعة وتسييرها حسب العصر الحديث فرفض ذلك وقال يجب أن نصنع نحن التراكتورات ثم نستعمل من صناعتنا مايحسن زراعتنا . فهذان مثالان بارز فيهما أن التغيير بدأ فى العلاقات وجاء تغير القوى المنتجة بعد تغير العلاقات)[٢].

(و) أما قولهم بأن التاريخ سجل خمسة أنواع من علاقات الإنتاج وأدى تطور كل مرحلة إلى ولادة مرحلة جديدة فإنه باطل كذبه الواقع والتاريخ .

(فالواقع أن دول أوروبا الشرقية لاتختلف عن دول أوروبا الغربية من حيث أدوات الإنتاج ، ولكن علاقات الإنتاج فى دول أوروبا الشرقية غيرها فى دول أوروبا الغربية ، والنظام فى دول أوروبا الشرقية غيره فى دول أوروبا الغربية ، فما الذى جعله يتغير ، هل تطورت دول أوروبا الشرقية من الرأسمالية إلى الإشتراكية أو على حد تعبيرهم بشكل أدق إلى الديمقراطية الشعبية بتطور أدوات الإنتاج ، أم باستيلاء روسيا الشيوعية عليها؟ والواقع أن أدوات الإنتاج فى روسيا هى عينها التى فى انجلترا ، ومع ذلك فإن علاقات الإنتاج فى روسيا غيرها فى انجلترا ، ونظام المجتمع فى روسيا غيره فى أمريكا ، فلماذا لم تتطور العلاقات فى انجلترا تبعا لتطور أدوات الإنتاج؟ وهل تطورت أدوات الإنتاج فى روسيا أولا ثم تطورت العلاقات ، أم أن الحزب الشيوعى استلم الحكم فغير العلاقات ، ثم صار هو يحسن أدوات

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (١٨٢) ، وانظر (١٧٤) ومابعدها .

(٢) المرجع السابق (١٨٢-١٨٣) .

الإنتاج ، فغير العلاقات قبل أن تتغير أدوات الإنتاج)[١].

وبهذا يتبين أن أدوات ووسائل الإنتاج ليست هى المتحكمة فى العلاقات والأفكار والأخلاق وقرر ذلك واقع روسيا وقيام الثورة البلشفية فيها .

(وأما تكذيب التاريخ لقولهم أن العالم انتقل من المشاعية الإبتدائية إلى الرق ومن الرق إلى النظام الإقطاعى ، ومن النظام الإقطاعى إلى النظام الرأسمالى ، ومن النظام الرأسمالى إلى النظام الإشتراكى فإنه ظاهر فى إنتقال روسيا التى كانت أقرب إلى الإقطاعية منها إلى الرأسمالية الإشتراكية ، وعدم انتقال أوروبا الرأسمالية الصناعية من الرأسمالية حتى الآن . وكذلك إنتقال الصين الإقطاعية إلى الإشتراكية ، وعدم إنتقال أمريكا الصناعية حتى الآن . وإنتقال المانيا الشرقية إلى الإشتراكية بمجرد استيلاء الروس عليها ، وعدم إنتقال المانيا الغربية من الرأسمالية مع أنهما بلد واحد ، وهى أى المانيا كلها بلد رأسمالى صناعى)[٢].

(ز) يزعم الشيوعيون أن القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج التى تطابقها تنشأ فى أحضان النظام القديم لاخارجه ، ويعنون بذلك التناقض الداخلى غير أن هذا الزعم باطل يرده ويكذبه الواقع .

يقول حسين أبوالحسن : (إن المجتمعات البشرية ظهرت على جميع أنحاء الأرض ولم تكن محصورة فى مكان دون آخر ، فلماذا تطورت بعضها إلى مرحلة الرأسمالية مثلا بينما لم يزل بعضها الآخر فى مرحلة من البدائية المتخلفة مع أنه قد مرت آلاف السنين على وجود البشرية؟

ولماذا تستطيع تناقضات وصراعات القوى المنتجة مع العلاقات الإنتاجية السائدة أن تتمخض عنها ولادة مراحل جديدة من عبودية فإقطاعية فرأسمالية فإشتراكية مثلا فى أوروبا أوفى آسيا ، ولم تستطع تلك التناقضات

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (١٨٨) وانظر مابعدها .

(٢) المرجع السابق (١٩٠-١٩١) .

والصراعات أن تنقل مجتمعات كثيرة من واقع البدائية المتخلفة كما فى الاسكيمو أو بعض مجتمعات افريقيا واستراليا؟ وإذا كانت المجتمعات البشرية فعلا تتطور من مرحلة إلى مرحلة بفعل التناقضات الكامنة داخلها بين قواها المنتجة وعلاقاتها الإنتاجية ـ كما تقول الماركسية ـ فلماذا تطور بعضها فى أوروبا إلى الإشتراكية وبعضها إلى الرأسمالية وبعضها لم يزل فى المرحلة الإقطاعية ، وبعضها لم يزل فى مرحلة الخضوع للاستعمار ، وبعضها فى مرحلة البدائية المتخلفة؟ بينما المفروض أن تتطور جمعيها دفعة واحدة لأن محرك التطور كامن فى صراع التناقضات والأضداد بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج ...

والحقيقة فى ذلك ، أن ماتصورته الماركسية فى تطور المجتمعات البشرية ماهو إلا فرضيات خاطئة جدا وغير علمية ، بدليل ماهو ظاهر حاليا فى الاختلاف البائن بين المجتمعات البشرية فى تمايزها الإجتماعى والإقتصادى والسياسى والثقافى)[١].

ويقول غانم عبده فى رده على هذا الزعم (إن المجتمع الجاهلى القديم لم تنشأ فيه علاقات الإسلام الجديدة ، بل نشأت خارجه وجاء ومحته من الوجود ، ولم تكن مسألة مطابقة هذه العلاقات لأدوات الإنتاج ومعارف الإنتاج موجودة ولم تكن ملاحظة ، بل كانت غير واردة على الإطلاق)[٢].

وبهذا يتبين بطلان مزاعمهم فى إنتقال البشرية من طور إلى آخر حسب قوانين الجدل الحتمية والعلاقات الإقتصادية .

الوجه الثانى : إذا كانت المادية التاريخية هى التطبيق الفعلى للقوانين الجدلية . فإن العامل الإقتصادى فيها هو المحرك كما يتصور ذلك الشيوعيون بل إنهم اعتبروا الصراع فى المجتمع بسبب وجود الطبقات التى توجد وتزداد بسبب الملكية حيث ينقسم الناس إلى مالكين وغير مالكين فيقع الصراع ،

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (٥٦-٥٧) .

(٢) نقض الإشتراكية الماركسية (١٩٦) وانظر مابعدها .

ولكن اعتبار أن العامل الإقتصادى هو السبب الوحيد لايقوم عليه دليل ولايدعمه الواقع فى كل حين .

يقول الصدر : (إن التحليل الماركسى يفترض أن الواقع الإقتصادى ـ ملكية وسائل الإنتاج ، وعدم ملكيتها ـ هو الأساس الواقعى والتاريخى للتركيب الطبقى ، انقسام المجتمع إلى طبقة حاكمة لأنها تملك وطبقة محكومة لأنها لاتملك مع أن الواقع التاريخى ومنطق الأحداث يبرهن فى أكثر الأحايين على العكس ، ويوضح أن أوضاع الطبقات هى السبب فى الأوضاع الإقتصادية التى تتميز بها تلك الطبقات ، فالوضع الإقتصادى للطبقة يتحدد وفقا لكيانها الطبقى ، وليس كيانها الطبقى نتيجة لوضعها الإقتصادى)[١].

ثم إن إعتبار الملكية والعوامل الإقتصادية هى المؤثرة فى الحياة البشرية دون غيرها يبطله وجود بعض الطبقات المتميزة فى المجتمعات المختلفة دون أن يكون تميزها بسبب الملكية أو الخاصية الإقتصادية .

فكيف تفسر الشيوعية وجود الحدود الفاصلة بين طبقة الأشراف وغيرها فى المجتمع الرومانى مع وجود طبقات أخرى تضاهيها فى الملكية والثروات .

وكذلك كيف يفسرون وجود طبقة (الساموراى) فى المجتمع اليابانى والتى تتميز عن غيرها بحملها للسيف وفنون الفروسية ، ولم يكن تميزها من أجل الملكية[٢].

ثم كيف يفسرون التمايز الطبقى الشديد فى الهند ـ قبل التاريخ الحديث ـ والذى يقوم على أسس عسكرية ، ودينية ، وعنصرية[٣].

الوجه الثالث : يرى الشيوعيون أنه نتيجة لهذا الصراع بسبب الملكية وعدمها ، يكون التحول ثوريا أى إنتقال مفاجىء من طور إلى آخر وهذا

---

(١) إقتصادنا (١٣٤) .
(٢) انظر المرجع السابق (١٣٥) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٣٦) وانظر مابعدها .

مايعبرون عنه بقفزات التطـور حسـب قـوانين الجدل . وهـو صـراع ثورى يقضـى على القديم ليقيم محلـه النظام الجديد ، وهذا زعـم باطل حيث كذبته الأحداث التاريخية .

يقـول الصدر : (إن تحول المجتمـع الرومانى مثلا مـن نظـام الرق إلى نظـام الإقطـاع ، لم يكـن نتيجـة لثـورة طبقية ، فى لحظـة فـاصلة مـن لحظات التـاريخ ، بالـرغم مـن أن الثـورة قـانون حتمـى فى المادية التـاريخية لكـل التحـولات الإجتمـاعية ، وفقـا للقانون الديالكتيكى "قـانون قفـزات التطور" القـائل : بأن التغييرات الكميـة التدريجية ، تتحول إلى تغير كيفـى دفعـى ، وهكـذا عطـل هـذا القـانون الـديالكتيكى عـن العمـل ، ولم يؤثر فى تحويل المجتمـع العبـودى إلى إقطـاعى ، بشكـل ثورى آنى ، وإنما تحول المجتـمع ـ حسـب إيضـاحات الماركسية نفسهـا ـ عن طريق السادة أنفسهـم ، إذ أخذوا يعتقـون كثيرا مـن عبيدهم ، ويقسمـون الأملاك الكثيرة إلى أجزاء صغيرة ، ويعطـونها إليهم ، بعد أن أحسـوا بأن نظام الرق لايضمـن لهـم مصالحهم . فالطبقة المالكة ـ إذن ـ قـد حولـت المجتمع بالتدرج إلى النظـام الإقطـاعى ، دون حاجة إلى قـانون الثورات الطبقيـة ، أو قفزات التطـور ... وكـان غزو الجرمـان مـن الخارج ، عـاملا آخر فى تكـوين الإقطـاع ـ حسـب اعتراف الماركسية نفسها ـ وهو بدوره أيضا بعيد عن تلك القوانين)[١].

ثم إن المثـال الذى ساقه الشيـوعيون على التحول وكـونه فجـائيا هو تحول الماء إلى بخار ، وهـذا قياس فاسد . كما أنه ليـس بالضرورة أن يكون التحـول فجـائيا أو ثوريا وليـس بالضـرورة أن يكـون سبـب التحـول هـو الاضطهاد .

يقول غانم عبده : (وجه الخطأ فى قياس الكون والمجتمعات على تحول الماء إلى بخار أو إلى جليـد هـو أن الماء وإن كـان جسمـا وقـد أثرت فيـه الحرارة التى سلطـت عليه فـإن هذا لايعنى أن الحرارة تحول جميـع الأجسـام

---

(١) إقتصادنا (١٥٨) .

كما تحول الماء ، ولايعنى أن غير الحرارة يحول الأشياء من حال إلى حال كالحرارة . وكون الماء تحول فجأة حين وصل إلى نقطة الحرج لايعنى أن المجتمع يتحول فجأة بواسطة الثورات حين يصل إلى نقطة الحرج لأن المجتمع هو أناس وعلاقات وتحوله يحصل بتحول الأفكار ، وليس بالثورات والاضطرابات ، ومن الخطأ قياس طبائع الإنسان على طبائع الجمادات للاختلاف البين بينهما . وعلى ذلك فإنه لاضرورة لأن ينتقل المجتمع من حال إلى حال فجأة ، ولاضرورة لأن يحصل الإنتقال من جراء الاضطهاد ، فالنظام الرأسمالى وجد فى أوروبا وأمريكا بشكل تدريجى وليس بشكل فجائى ونظام الإسلام وجد فى جزيرة العرب بشكل فجائى . واضطهاد الأوربيين للسود فى أفريقيا استمر مئات السنين ولم يحصل أى إنتقال من جراء الاضطهاد ، بل لم تحصل ثورات ذات بال مع وجود الاضطهاد ، وماشوهد فى أفريقيا فى الأيام الأخيرة من محاولات مايسمى بالاستقلال جاءت من جراء الأفكار من دول كبرى مثل أمريكا وروسيا وليس من الناس أنفسهم ، فقد أخذت كل منهما تبث فى أفريقيا مفاهيم الاستقلال والتحرر وتقوم بأعمال دولية ضد المستعمرين الآخرين ، وعليه فإن ماحصل فى الماء من التغير لاضرورة لأن يحصل فى المجتمع إذا حصلت فيه ثورات . وتطبيق مابرهنت عليه العلوم الطبيعية من تغييرات فى بعض الأجسام على المجتمع خاطىء لأنه لايوجد أى شبه بينهما فضلا عن أن واقع المجتمع قد دل على أن منهاج التغير فيه - يعنى المجتمع - لايجرى على كيفية معينة ثابتة محتومة كما هى الحال فى الجمادات حين تتغير أى تنتقل من حال إلى حال . ومادام هذا التطبيق كله خطأ فالتغير من حيث هو لاضرورة لأن يحصل ، أى ليس حتمى الحصول ، لأن حصول الثورات ليس حتميا ، وكذلك حصول الإنتقال على فرض حصول الثورات ليس حتميا ، فقد تحصل ثورات وقد لاتحصل ، وعلى فرض حصولها قد يحصل الإنتقال وقد لايحصل ، وعلى ذلك فإن ماترتب على حتمية حصول الإنتقال من النشوء والإرتقاء ليس حتمى الحصول ، لعدم إنطباق مايجرى على الأجسام حسب العلوم الطبيعية على

المجتمع)[١].

الوجه الخامس : أن مـارتبه الماركسيـون من حتميات تاريخيـة أبطلتها الأيام وحكمت عليها بعدم المصداقية فكانت هذه الحتميـات والنبؤات أوهام وتخيلات . وقـد أثبت التاريخ الحديث فسـاد نبؤات مـاركس وعـدم تحققها . فهـو يرى أن كل مجتمع يوجد التنـاقض فيه ويولد ذلـك التنـاقض بناء على الصـراع حالـة جديدة وهكـذا إلا أن واقـع الـدول الغـربية وواقـع الاتحاد السوفييتى كذب ذلك .

يقـول حسين أبو الحسن : (اعتبر ماركس أن المجتمـع الألمانى هو أكثر المجتمعـات تطورا فى مرحلته الـرأسمالية ، وأن طبقة العمـال فيه قادرة على توحيـد صفها وتنظيمه بصورة جيـدة حيث تستطيع أن تقـود الثـورة وتتسلم زمـام سلطتهـا البروليتارية فتنقـل مجتمعهـا إلى المرحلة الإشتراكيـة المرتقبـة . وتنبـأ أيضا أن المجتمع البريطـانى سيلى المجتمع الألمانى فـورا فى إنتقـاله إلى المرحلـة الإشتراكية . بينما لايستطيـع المجتمع الروسى أن ينتقـل إلى المرحلة الإشتراكيـة كـون علاقات الإنتـاج الرأسمالية فيه لم تكتمـل شمـوليتها ، ولم تتكـون بعد الطبقة العمالية الصناعية القادرة على التغيير ، ولأن قسمـا كبيرا من علاقات إنتاجه وقواه المنتجـة لم تزل فى مرحلتها الإقطـاعية ، إضافة إلى مايمثله الحكم القيصرى من قـوة استبدادية رجعية رهيبـة تقف بحزم وصرامة ضد انطلاقة أية عملية تغيير قصرية .

إذن فمراهنة الماركسية فى تغيير المجتمع من مرحلة إلى مرحلة ، تعتمد على صـراع التناقضات فيه ، بينمـا تؤكد من جهة ثانيـة على ضـرورة وجود الطبقـة العمالية البروليتارية فى المرحلـة الرأسمالية لتعمـل على قيـادة مسيرة التغيير إلى المرحلة الإشتراكية .

ففـى الوقت الذى تكون تنـاقضات الأضداد وصراعـاتها بين علاقـات الإنتـاج وبين القوى المنتجة فى المراحل السابقة (المشاعيـة البدائية والعبودية

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (١٢١-١٢٢) .

والإقطاعية) هى العاملة الوحيدة والمحركة لإنتقال مجتمعها من مرحلة إلى مرحلة ، نراها قد انعدم وجودها فى المرحلة الرأسمالية ، إذا اعتمدت الماركسية هنا على وحدة الطبقة العاملة "فقط الصناعية منها" لتغيير الواقع وقيادة مسيرة التغيير بالوسائل الثورية وبواسطة سلطة البروليتاريا التى جوزت لها أن تكون سلطة ديكتاتورية . وذلك ، لأن قوى الثورة المضادة لابد وأن تسعى دائما لتنظيم صفوفها للانقضاض على الواقع الثورى الجديد ، فيقتضى على هذا الأساس أن تعمد الطبقة العمالية إلى التفرد بالسلطة فتحكم بديكتاتوريتها الفئوية كونها هى المخولة الوحيدة لفهم الواقع وهى القادرة على وعى أهمية المرحلة وأهمية دورها الطليعى الرائد وهى التى أبدا لاتخون الثورة وإنما تحافظ عليها وعلى إنجازاتها وعلى تأمين متطلبات جميع الفئات الأخرى العمالية الزراعية وعمال التجارة وعمال قطاع الخدمات العامة والخاصة فما الذى حصل بعد هذا؟ هل تحققت تنبؤات ماركس فى تحقيق المجتمعات الإشتراكية فى المانيا وبريطانيا مثلا؟ وهل استطاعت الحتمية التاريخية أن تقف حائلة دون إنتقال روسيا من واقعها الإقطاعى الرأسمالى إلى واقع الإشتراكية؟ وهل كان رهان الماركسية فى تغيير الواقع وتحمل مسؤولية الثورة وقفا على الطبقة العمالية الصناعية (البروليتارية) دون الطبقة العمالية الفلاحية أو طبقات العمال الأخرى فى التجارة وقطاع الخدمات العامة والخاصة والجنود والطلبة والمثقفين؟)[١].

الوجه السادس : أن الأوضاع المعاصرة التى ظهرت فى المجتمعات الصناعية كذبت ماتنبأ به ماركس من حيث إن الملكية الجماعية ستقع فى المصانع الثقيلة رضاء أم كرها لأنه لامجال للتربية أو الفكر فى نظام المجتمع . فهذه الصناعات (الثقيلة الكبرى قد نشأت فى البلاد الرأسمالية قبل الاتحاد السوفييتى ، ومع ذلك فإنها حتى الآن ، لم تتقبل فكرة الملكية الجماعية فى الأساس ، ولم ترض عن الملكية الفردية بديلا ، ولم يثر فيها العمال كما كان

---

(١) معالم الإشتراكية المعاصرة (٥٩-٦١) .

ماركس يتوقع ذلك عملا بنظريته بأن التطور المادى فى مكان ما هو وحده الذى يفرض نظام المجتمع ، لاالفكر ولاالتربية ، وعلى العكس من ذلك فإن فكرته كفكرة مجردة مااستطاعت أن تجد لها طريقا إلى الوجود إلا عندما وجدت من يتبناها فكريا ، وذلك : أولا فى روسية قبل تصنيعها الجديد ، وثم فى الصين قبل تصنيعها أيضا الحديث . ولذلك فإن نظرية ماركس فى إسقاط الفكر والتربية من عملية التطور فى المجتمع أصبحت فى الواقع والمحسوس لاتستحق الجد فى مناقشتها وإبطالها)[١].

الوجه السابع : عجز الماركسية عن تفسير بعض الأحداث التى وقعت فى التاريخ الإنسانى ، وإذا كان الأساس عند ماركس أن وسائل الإنتاج وملكيتها هى التى تحدد العلاقات الإجتماعية وتفسر هذه الأحداث ، فإن ماركس قد اختار (بعض وقائع من التاريخ لتدعيم نظريته وكانت ظروف الحياة فى أوروبا المعاصرة وتاريخها القريب يسعفه لتأييد وجهة نظره التحكمية ، ولكنه لو مد بصره إلى العالم كله وبخاصة فى آسيا وأفريقيا لما قال ماقال ، وهو لم يعبأ ولم يحاول أن يفسر لنا الحركات الكبرى فى التاريخ والتى لم تكن فى قليل أو كثير ، إلا تحقيقا لطموح أفراد لاأكثر ولاأقل ، مثل حروب الاسكندر المقدونى فى القديم ونابليون فى الحديث ، حيث لاتستطيع نظرية وسائل الإنتاج وملكيتها أن تفسر لنا هذه الحركات ، وإذا كان هذا مدى عجز النظرية فى تفسير حوادث محدودة كحوادث الاسكندر ونابليون ، فكم هى بالأحرى أكثر عجزا وإفلاسا فى تفسير الظواهر الكبرى كالدين البوذى ومأأحدثه من تأثير فى بيئته ، والمسيحية فضلا عن الإسلام حيث استطاع جماعة من بدو الصحراء ، استناروا بنور الإسلام وامتلأت قلوبهم إيمانا بحياة أخروية لاتمت إلى هذا العالم على الإطلاق ، أن يقوضوا امبراطوريتى الفرس والرومان ، وأن يغيروا مجرى التاريخ ومساره)[٢].

---

(١) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٣١-٣٢) .

(٢) إفلاس الماركسية (٢٤-٢٥) ،وكان المؤلف من دعاة الإشتراكية .

الوجه الثامن : يرى الشيوعيون أن الإشتراكية (ممثلة فى طبقة البروليتاريا) تخرج من أحشاء الرأسمالية نتيجة للصراع الذى يقع بينهما ، وهذا الاستنتاج حتمية تاريخية ، لايمكن بحال تغييرها أو العمل ضدها .

يقول لينين : (كان ماركس وانجلز أول من بينا أن الطبقة العاملة تولد بالضرورة ، مع مطالبها ، من النظام الإقتصادى الحالى الذى مع البرجوازية ، يخلق وينظم البروليتاريا بصورة حتمية)(١).

ويقول : (إن ماركس يخلص إلى أن المجتمع الرأسمالى سيتحول حتما إلى مجتمع إشتراكى ، وهو يستخلص ذلك استخلاصا تاما ، وعلى وجه الحصر ، من القانون الإقتصادى لحركة المجتمع الحديث)(٢).

وهكذا يرى الشيوعيون أن المجتمع الإنسانى يسير حسب هذه الحتميات ومنها خروج الإشتراكية من المجتمع الرأسمالى وذلك بعد أن يقع الصراع بين الرأسماليين وطبقة العمال . هذه نبؤة ماركس .

إلا أن الواقع الإنسانى كذبها فى كل أجزائها ، فمن حيث الصراع بين القديم والجديد ، نجد أن بعض المجتمعات الإنسانية لم تتحول عن طريق الصراع . فمثلا المجتمع الإقطاعى لم يكن نتيجة للصراع حيث وجد ذلك المجتمع وبقيت السيطرة الملكية فيه . يقول د. صابر طعيمة : (لم يتحول مجتمع الملوك ـ كما ادعى ماركس ـ إلى مجتمع إقطاعى نتيجة للصراع بين الملك والشعب وخاصة أن هذا الصراع لامعدل له ولانسبة تحكمه ، وإنما أقطع الملك بعض قواده ووزرائه تكريما لهم على ماقدموه له ولشعوبهم ... والدليل على ذلك أن المجتمع الإقطاعى لم يقم على أنقاض ماسبقه ، بل بقيت نظم التملك ولم يلغ فى المجتمع الإقطاعى النظام الملكى بل ظل قائما . وبقى الملك جالسا على عرشه . وهذا مايبطل أى تصور أو مزاعم حول مايسمى تاريخ الصراع الطبقى المدعى)(٣).

---

(١) مصادر الماركسية (٥٨) ، وانظر الدولة والثورة (٩٨) .
(٢) مصادر الماركسية (٤٦) .
(٣) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٧٧) .

ويقول : كما (ثبت عدم صحة ماذهب إليه ماركس من أن المجتمع تحول من إقطاعى إلى رأسمالى بضغط الصراع بين الأحرار والإقطاعيين - وإنما لأن الإقطاعيين رأوا أن الصناعة تدر ربحا أكثر من زراعة الأرض فباعوها للأجراء . وأقاموا المصانع سعيا وراء الربح الأكثر . ولازالت هذه الظاهرة تتكرر حتى اليوم وعلى مختلف المستويات ، فالكثيرون من أصحاب الإقطاعيات الكبيرة وملاك الأرض من الطبقة المتوسطة يبيعونها لمشاريع صناعية وتجارية . بل إن معظم الفقراء الزراعيين من أصحاب الحيازات الصغيرة يلجأون إلى نفس الأسلوب تقريبا ، وهذا مايؤكد عدم صحة ودقة القول بالصراع فى المرحلة مابين الإقطاع إلى رأس المال المدعاة)[١].

ويقال لهم أيضا إذا كان خروج البروليتاريا من أحضان الرأسمالية حتمية تاريخية فلماذا العمل؟ لماذا العنف؟ لماذا الصدام؟ لماذا الصراع؟ ولماذا الثورة الدموية التى أعلنها ماركس وطبقها لينين وستالين؟!!

ألم يقل لينين (إننا لم نكن قط طوبويين ولم نتخيل قط بأننا سنبنى المجتمع الشيوعى بأيد نظيفة لشيوعيين نظيفين ، سيولدون ويتربون فى المجتمع الشيوعى الصرف . تلك قصص للأطفال . ينبغى علينا أن نبنى الشيوعية على أنقاض الرأسمالية ، ولايستطيع القيام بهذه المهمة سوى الطبقة التى تمرست فى النضال ضد الرأسمالية)[٢].

أليس لينين هو القائل (فإلى التنظيم والتنظيم والتنظيم . فإن المستقبل لنا رغم جميع المحن)[٣].

إن عمل الماركسيين ، وبذلهم الجهد فى سبيل الوصول إلى تحقيق أهدافهم ومآربهم ، فيه أكبر دليل على بطلان الحتمية التاريخية ، وبالتالى المادية التاريخية ، إن تصريحات لينين تدل دلالة واضحة أن أفكار ماركس

---

(١) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٧٧-٧٨) .

(٢) التحالف بين العمال والفلاحين (٣٥٤-٣٥٥) .

(٣) بصدد الجملة الثورية (٦٣) ، ١٩٦٨م ، دار التقدم ، موسكو ، دون ذكر لرقم الطبعة .

كانت طوباوية ، كما تدل ضمنا على كفره بالمادية التاريخية وإلا كان ترك الأمور تسير حسب مقتضيات الحتميات التاريخية .

يقول الصدر : (لماذا تبذل هذه الجهود الجبارة من الماركسيين ، فى سبيل تكتيل أكبر عدد ممكن ، لشن ثورة فاصلة على الرأسمالية؟! ولم لايدع الماركسيون قوانين التاريخ تعمل ، فتكفيهم هذه المهمة الشاقة؟!)[١]

وأخيرا مما يدل على بطلان هذا الزعم هو اعتراف زعماء وفلاسفة وقادة الماركسية ، بالمبالغة فى الحتمية ، فهذا انجلز يصرح ("بأن المادية الجدلية يجب عليها أن تدخل الصدفة التاريخية فى اعتبارها" ، الأمر الذى يدل على نبذه للحتمية المطلقة ...)[٢].

ويقول هنرى ده مان : (إن خطأ الماركسية يكمن فى أنها أرادت أن تصوغ التأثير الثابت الذى تمارسه الأوضاع الإجتماعية ومصالح الطبقات على الأفكار المسيطرة ، أرادت أن تصوغه بقالب حتمى وأن تعتبره شيئا لايمكن إثباته والبرهان عليه ، ثم أن تجعل منه القانون العام الشامل الذى يكيف الثقافة ويجعلها نتيجة للوضع الإجتماعى وانقسام الطبقات . ولكن هذا القانون ليس صحيحا دائما ، وخصوصا فى فترات النهوض والإرتقاء ، ذلك أن غالبية الأفكار الإشتراكية إنما نشأت نتيجة لمقاييس وأفكار بورجوازية ، بل إن أفكار ماركس نفسها ليست بعيدة تماما عن هذا التقييم)[٣].

ويقول بولتزير : (إن المادية الجدلية ، فى تأكيدها للطابع الموضوعى لقوانين المجتمع ، تؤكد - فى نفس الوقت - الدور الموضوعى الذى تلعبه الأفكار ، يعنى النشاطات العلمية الواعية ، مما يتيح للناس أن يؤخروا أو يقدموا ، وأن يشجعوا أو يعرقلوا ، تأثير قوانين المجتمع)[٤].

---

(١) إقتصادنا (٩٨) .
(٢) نقلا من كتاب موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (١١٢) .
(٣) الإشتراكية البناءة (١٥٠) .
(١) نقلا من كتاب إقتصادنا (٩٩-١٠٠) .

ويقول ستالين : (إن المجتمع غير عاجز أمام القوانين ، وأن فى وسعه عن طريق معرفة القوانين الإقتصادية ، وبالاستناد إليها ، أن يحد من دائرة فعلها ، وأن يستخدمها فى مصلحة المجتمع ، وأن يروضها ، مثلما يجرى حيال قوى الطبيعة وقوانينها)[١].

وهكذا يتبين لنا أنه لابد من العمل[٢] ولابد من التنظيم ، كما أن الإنسان قادر على التغيير فى القوانين المحيطة به وبالتالى فليس هناك حتمية تاريخية كما صورها ماركس .

الوجه التاسع : أن المادية التاريخية قد جعلت مدارها على العامل الإقتصادى وتناست بقية العوامل رغم تأثيرها الشديد فى الأحداث ، ونحن بهذا لاننكر أهمية العامل الإقتصادى ودوره إلا أنه ليس السبب الوحيد أو الأكثر فعالية مما سواه .

وعلى سبيل المثال أين هذا العامل من العامل الدينى أو العقدى؟!!

يقول د. على باشكيل : (إن الماديين التاريخيين يخطئون عندما يفسرون التاريخ الإنسانى - وكذلك الدين وسائر المعتقدات - تفسيرا ماديا صرفا ويرونه تابعا للمؤثرات الإقتصادية والمادية لاغير . إن النظر إلى التاريخ وإلى المجتمع من هذه الزاوية المادية وحدها إنما هو معرفة جانب واحد أو استكشاف سر واحد من آلاف الأسرار التى تحيط بهذا الكائن الغامض المسمى بـ"الإنسان" وهو إهمال لجوانب متعددة كثيرة منه . إن الإنسان ليس آلة Robot متكونة من عضلات وعظام وأعصاب ، وليس مخلوقا ينحصر همه فى الأكل والشرب والمنام وفى إشباع سائر الضرورات المادية . إن الإنسان كائن ذو عقل وذو مشاعر ، يملك قدرة التفكير فى أموره وفى شؤونه ، وهو عندما يبقى وحيدا مع نفسه ومع ضميره يسائل نفسه : من أين أتى؟ وإلى أين سيذهب؟ وإلى أين ستنتهى هذه الحياة؟ وهو يبحث دائما عن جواب

---

(١) نقلا من كتاب إقتصادنا (٩٩) .

(٢) انظر ماذكره بوير فى كتابه عقم المذهب التاريخى (٦٥) ومابعدها .

تطمئن إليه نفسه فى مثل هذه المواضيع ، وهو لايجد هذا الاطمئنان إلا فى ظل الإعتقاد بقوة فوق قوة البشر Suprahumain يؤمن بها ويجد الأمن والسكينة فى رحاب هذا الإيمان وهذه العقيدة ، والدين وحده هو الذى يستطيع أن يمد الإنسان بمثل هذا الإيمان ، لذلك فإن الدين لم يكن وليد ظروف مادية وإقتصادية بحتة لأنه فى حقيقة الأمر تلبية لرغبة أصيلة كامنة فى فطرة الإنسان)[١].

ثم يقال لهم ، أنتم تقرون بأن الإشتراكية ممكنة الوقوع دون المرور بمرحلة الرأسمالية . وهذا إبطال للحتمية التاريخية ، أو على أقل الأحوال دليل على التناقض الشديد الذى تعيشه الأفكار الماركسية .

فإن القول بجواز قيام نظام لم يسبقه النظام الذى يحمله فى أحشائه ـ كما تقول الماركسية ـ يدل على أن العامل الإقتصادى ليس هو العامل الوحيد المؤثر بدليل الإنتقال من حال إلى آخر دون وجود الحال الذى يحمل التناقض ومن ثم الصراع بسبب إقتصادى ، الذى يكون مؤثرا فى حصول المرحلة التى تليها .

الوجه العاشر : أن الماركسية ـ وكالعادة ـ تتحكم فى مجريات الأمور كلها ، ومن ذلك قولها بحتمية حلول المجتمع الإشتراكى مكان الرأسمالى إذا ماانهار .

ونقول لهم هنا : لماذا لايكون هناك نظام آخر يحل محل الرأسمالية إذا سقطت؟ وعلى أى مستند اعتمد الشيوعيون فى تحكمهم ذلك؟!!

إن الشيوعية لاتملك دليلا واحدا يوجب حتمية خروج الشيوعية من الرأسمالية ، ولكنها الآراء والأهواء الشخصية . ومما يذكر هنا أن الشيوعية الأولى خرج بعدها مجتمع عبودى!! فكيف حدث ذلك؟!!

هذا بالإضافة إلى أن الواقع أبطل ذلك كله وهاهى الشيوعية تنهار فى الاتحاد السوفييتى ويحل محلها أو يطرح بديلا لها النظام الرأسمالى ، فما هى

---

(١) موقف الدين من العلم (٤٩-٥٠) .

الإجابة على مـايحدث هنـاك؟!! باختصـار شـديد هـى بطلان المادية التـاريخية وحتمياتها وانتصار الفطرة الإنسانية ، وبيان دور الإنسان فى صناعة الأحداث

الوجه الحادى عشر : زعـم الماركسيون أن الإنسان ليس لـه من الأمر شىء ، وأنه بمثابة الريشة فى مهب الريح أمام القوانين والحتميات التاريخية .

وهـذا الـزعم يبطله كتاب اللـه تعـالى حيث أثبـت جل وعلا الإرادة والمشيئة للإنسان ، قال تعالى : {**إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وماتشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما**}(١).

وقال تعالى : {**منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة**}(٢).

كمـا أن الشيوعيين يرون أن أسـاليب الإنتاج هى التى تصنـع الأفكار والأخلاق ، وعلى هـذا فإن العامل الإقتصادى هو الذى يحدد نوعيـة العلاقة بين النـاس فى كل مجتمـع(٣). وإذا كـان الإنسـان فى المادية التـاريخية بهـذه الشخصيـة التى لاحول لهـا ولاقـوة ، وأن وسـائل الإنتـاج هـى التى تصنـع أفكـاره وأخلاقـه ، فإنا نقـول كيف استطاع ماركس أن يأتى بهـذا الفكـر؟!! وهل كان فكره ذلك انعكاسا للوضع الذى يعيشه؟!!

إن أى إجابة على هـذا التسـاؤل ستلزم الماركسيين بإبطـال نظريتهم ، فإن قالوا إنها انعكاس للـوضع ، قيـل لهم إن الوضـع القـائم حينذاك كان رأسماليا . وهذه الأفكار تخالفه وتناقضه .

وإن قـالوا ليست انعكاسا للوضع القائم ، قيل لهـم إن هذا يدل على بطلان مـاتذهبون إليه من أن الأفكـار والأخلاق ليسـت إلا إنعكاسا للوضع الإقتصـادى القـائم . وبهذا يتبين أن المادية التـاريخيـة كـانت أحلاما راودت ماركس ، كشفت زيفها الأحداث التاريخية والبراهين العلمية .

---

(١) سورة الإنسان : (٢٩-٣٠) .

(٢) سورة آل عمران : (١٥٢) .

(٣) انظر التطور والثبات فى حياة البشرية (٤٠-٤١) .
وعـن كون الإنسان فاقد الإرادة أمـام التفسير المادى التـاريخى انظـر (٨٢-٨٣) .

يقـول الصدر : (إن المادية التاريخية تحكم على نفسهـا ، من ناحية أنها تعتبر كل نظرية انعكاسا محددا للواقع الموضوعى الذى تعيشه . ولاتعدو هى بدورهـا أيضا ، أن تكون نظـرية قد تبلورت فى ذهن إنسـانى ، عـاش ظروفا إجتمـاعية وإقتصادية معينة . فيجب أن تكون إنعكاسـا محددا لتلك الظروف ومتطـورة تبعا لتطورها ، ولايمكن أن تكون هى الحقيقـة الأبدية للتاريخ)[١].

الوجه الثانى عشر : زعم الشيوعيون أن المادية التاريخيـة نظرية علمية تؤيدها البراهين والوقائع والأحداث التاريخية .

وهـذا جعلهم يقعون فى التناقض ، كما أنه كشـف زيف فكرهم وأبان بطلانه ، ولو أنهم أبقوا عليها ـ المادية التاريخية ـ تأويلا للأحداث قد يصح وقـد يخطـىء لربما حقق الشيـوعيون شيئا من ورائها . ولايفـوتنا هنـا القول بأنهـم أرادوا مـن وراء المادية التـاريخية فـرض افكارهـم بالقـوة ليتسنى لهم التفريع على حسب مايخدم أهدافهم المادية الإلحادية .

إن الماركسيين قد جعلوا الأمور القابلة للتأويل نظريات وحقائق علمية بنـوا عليها مذهبهم ، وبالتالى فكيف يكون مذهبا علميـا؟!! يقول بوير : (إن المذهب التاريخى يفهم هذه التأويلات خطأ على أنهـا نظريات . وهذه إحدى مثـالبه الكبرى . فمـن الممكـن ، مثلا ، تأويل "التـاريخ" باعتبـاره تاريخ الصـراع بين الطبقـات ، أو تاريخ الصـراع بين الأجنـاس البشـرية من أجل السيـادة ، ومن الممكن تأويلـه باعتباره تاريخ الصراع بين الأفكـار الدينية ، أو بين المجتمـع "المفتـوح" والمجتمـع "المقفـل" ، أو باعتبـاره تاريخ التقـدم العلمـى والصنـاعى . وكل هـذه وجهات نظر تزيد أو تنقـص فى أهميتهـا ، ولااعتراض لنـا عليها من حيث هى تأويلات . ولكن التـاريخيين لايعرضونها من حيث هى كذلك ، ولايرون أن هنـاك بالضـرورة كثرة مـن التـأويلات المتسـاوية فى أسـاسها مـن حيـث قـدرتها على الإيحاء ، وكـذلك مـن حيـث إفتقـارها إلى الإلـزام (وإن تميز بعضهـا على البعـض بالخصـوبة ـ وهـذه نقطة جديرة بالإهتمام) .

---

(١) إقتصادنا (٦٢) ، وانظر الفكر الماركسى (٧٣) .

وإنما هم يعرضون هذه التأويلات على أنها مذاهب أو نظريات ، فيقررون أن "كل تاريخ فهو تاريخ الصراع بين الطبقات" ، أو ماإلى ذلك . وهم إذا اكتشفوا شيئا من الخصوبة فى وجهة النظر التى يأخذون بها ، فتبينوا أن كثيرا من الوقائع يمكن تنظيمها وتأويلها فى ضوئها ، فهموا ذلك خطأ على أنه تأييد لمذهبم ، بل برهان على صدقه .

ومن ناحية أخرى فالمؤرخون الكلاسيكيون الذين يعارضون بحق هذا الإتجاه قد يقعون فى خطأ من نوع آخر . فلأنهم يستهدفون الموضوعية فى أبحاثهم قد يشعرون بضرورة اجتنابهم كل وجهة نظر انتخابية ، ولكن لما كان ذلك أمرا مستحيلا ، فهم غالبا مايأخذون بوجهات نظر لايشعرون بها . وفى هذا مالابد أن يفسد عليهم سعيهم فى طلب الموضوعية . إذ لايمكن للمرء أن يقف من وجهة نظره موقفا نقديا يكشف له عن حدودها إلا إذا كان مدركا لها . ولامخرج لنا ، بالطبع ، من هذا المأزق إلا بأن نتبين ضرورة إتخاذنا وجهة نظر ما ؛ فيكون واجبنا أن نفصح عنها بوضوح ، ثم لايغيبن عن إدراكنا أبدا أنها ليست إلا وجهة واحدة من وجهات كثيرة غيرها ، وأنها حتى إذا بلغت إلى مرتبة النظرية ، فقد لايمكن اختبارها)[١].

الوجه الثالث عشر : أن المادية التاريخية جزء من المذهب التطورى الذى أخذ عينة فردية ثم عمم حكمها على بقية الأفراد .

وهذا خلط للمفاهيم العلمية ، وخروج عن الإلتزام بأصول المنهج العلمى ، كما أن وجود بعض مايؤيد النظرية أو المذهب فى عالم الواقع لايدل على صحتها وسلامتها . فما بالك إذا كان الواقع ملىء بالأحداث التى تصادم وتعارض تلك النظرية أو ذلك المذهب . وعلى هذا فإن المادية التاريخية تفتقد للمنهجية العلمية .

إن من أخطاء ماركس أنه يرجع إلى نزعة التعميم التى تجعله يتخذ من ملاحظة خاصة بحالة معينة مبدأ عاما يطبق ويسرى على جميع الحالات[٢].

---

(١) عقم المذهب التاريخى (١٨٠-١٨١) .

(٢) انظر : هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٦٥) ، الفكر الماركسى (٧٤) .

كما أن ماركس لنزعةالتعميم التى كانت تمتلك أفكاره جعل قوانين الجدل التى سبق باستخدامها مطبقة على المجتمع الإنسانى ولم يقصر استخدامها على جانب دون آخر[١]مثل من سبقه . والحكم بالتعميم دون الاستقصاء ودراسة العينات كلها لايقبله منهج البحث العلمى فكيف يدعى الماركسيون علمية أفكارهم؟!!

إن العلم يأتى على أفكارهم فيذرها قاعا صفصفا .

الوجه الرابع عشر : أن فكرةماركس التطورية فى المادية التاريخية هى واحدة من الأحلام التى أراد تحقيقها حيث إن ماتنبأ به من زوال للطبقات ، وذهاب للدولة وتعايش الناس فى عالم يخلو من حب الذات والتملك لم ير النور بل سارت الأمور عكسه وخلاف اتجاهه . هذا بالإضافة إلى أن واقع الاتحاد السوفييتى كذب تلك النبؤات فكان يعج بالطبقات ، وكانت الدولة تقبض بيد من حديد على كل شىء ، ثم إن سقوط الشيوعية دليل على تهافت المادية التاريخية وبطلان مزاعمها التى قامت عليها .

الوجه الخامس عشر : الاضطراب فى تحديد وسائل الإنتاج ماهى؟ فلو كانت الماركسية تقوم على أصول ثابتة لما وقع لها هذا الاضطراب والتناقض فى أصولها وأساسياتها التى تنطلق منها وتفرع عليها .

فمرة يقول ماركس : (إن طاحون الريح تعطيك مجتمعا يتولاه سيد الإقطاع ، وطاحون البخار يعطيك مجتمعا يتولاه صاحب رأس المال فى الصناعة) . وعلى هذا الأساس فوسائل الإنتاج هى التى تنتج الطبقة .

ومرة يقول : (إن الطبقة البرجوازية لايمكن أن توجد بغير تطور دائم فى أدوات الإنتاج)[٢].

---

(١) انظر ماذكره سيد قطب ـ عن تعميمه وعدم إقتصاره على من سبقه ممن استخدم مبادىء الجدل ـ فى كتابه خصائص التصور الإسلامى (١٣٤-١٣٥) .

(٢) نقلا من كتاب الكيد الأحمر (٣٨٨) .

وعلى هذا فإن الطبقة هى التى تنشىء وسائل الإنتاج .

الوجه السادس عشر : أن الماركسيين قد أغفلوا النظريات التى تنقض مايذهبون إليه ، أو قاموا بالرد عليها واتهام أصحابها ، فهم لاينظرون إلا بعين واحدة وإلى نظرية واحدة هى تلك المادية هذا بالإضافة إلى أنهم فرضوا نظريتهم بالقوة مما يدل على أن مسألة القناعة كانت مفقودة فى النظريات الماركسية بما فيها المادية التاريخية .

يقول دجيلاس : (ولامشاحة فى أن المادية التاريخية هى أكثر النظريات العالمية المعاصرة انطوائية فى نفوس معتنقيها ، إذ تجعل من المستحيل عليهم أن يولوا نظرهم أية نظرية ماعداها ، ولاسيما فى البلدان التى غدت فيها مذهب الدولة ، إذ غدت مرتبطة بوشائج معينة لأشكال من التملك والحكم ... مما يحدو القائمين على الجهاز الحكومى إلى غرسها غرسا فى نفوس المواطنين ، بضروب من التطبيق العملى ، لم يعرف له تاريخ الفكر البشرى نظيرا من الاضطهاد للفكر البشرى وسحقه)[١].

ويقول هادى المدرسى : (إن أولى المآخذ على الماركسيين أنهم لايطالعون - أولايريدون هم أن يطالعوا - أية أيديولوجية أخرى تتناول الحياة ، والتاريخ ، والإنسان ، سوى الأيديولوجية الماركسية)[٢].

وهم بهذا يدللون على تعصبهم وعدم منطقيتهم وعلميتهم ، حيث رفضوا النظريات الأخرى ، وفرضوا القبول بنظرياتهم وتفسيراتهم المادية التاريخية للإنسان والدين والأخلاق والأسرة بالقوة . وفى هذا دليل أيضا على الاعتراف ضمنا بأن العقول السليمة ، والفطر المعتدلة ، سترفض ماتدعو إليه الماركسية ، ولأجل ذلك كان أعداء الماركسية كثيرون حتى من الذين آمنوا بها فى أول أمرها ، بل وشاركوا فى قيادة الثورة البلشفية التطبيق العلمى للفكر الماركسى[٣].

---

(١) الطبقة الجديدة (١٧٠) .

(٢) نقد النظرية الماركسية (١٤) .

(٣) ألف لينين كتابا أسماه الماركسية والنزعة التحريفية .

الوجه السابع عشر : أن زعم الماركسية بأن تطور وسائل الإنتاج يؤدى إلى التغير فى الأفكار والأخلاق والأنظمة الإجتماعية القائمة من أسرة وغيرها يبطله الواقع وكثير من الحقائق ، ويصور الصدر ذلك ويبين أن هذا التطور لم يقع على كل شىء - رغم تطور وسائل الإنتاج - ومن ذلك الفكر واللغة ، حيث يقول : (كيف مارس الإنسان عملية الإنتاج ، ونشأت فى حياته ، ولم تنشأ فى حياة أى كائن حى آخر؟.

نحن نعلم من عقيدة الماركسية ، أنها تؤمن بالإنتاج قاعدة رئسية للمجتمع يقوم على أساسها الوضع الإقتصادى ، وتبتنى على الوضع الإقتصادى كل الأوضاع الأخرى . ولكنها لم تكلف نفسها أن تقف قليلا عند الإنتاج نفسه ، لتفسر : كيف وجد الإنتاج فى حياة الإنسان؟. فإذا كان الإنتاج يصلح لتفسير نشوء المجتمع ، وكل علاقاته وظواهره ، أفليس للإنتاج نفسه شروط تصلح لتفسير وجوده ونشوئه؟.

إن بالإمكان الجواب على ذلك ، إذا عرفنا ماهو الإنتاج . إن الإنتاج - كما تعرفه لنا الماركسية - عملية كفاح ضد الطبيعة ، يشترك فيها مجموعة من الناس ، لإنتاج حاجاتهم المادية ، وتقوم على أساسها كل العلاقات . فهى إذن عملية يقوم بها عدد من الناس ، لتغيير الطبيعة ، وجعلها بالشكل الذى يوافق حاجاتهم ويشبع رغباتهم . وعملية تغيير كهذه ، يقوم بها عدد من الناس ، لايمكن أن توجد تاريخيا ، مالم تسبقها شروط معينة ، يمكن تلخيصها فى أمرين جوهريين :

أحدهما : "الفكر" ، فإن الكائن الحى لايستطيع أن يغير من شكل الطبيعة بقصد إشباع حاجاته ، فيجعل الحنطة دقيقا ، أو الدقيق خبزا .. مالم يكن يملك فكرا عن الشكل الذى سوف يمنحه للطبيعة ، فعملية التغيير لايمكن أن تنفصل بحال ، عن التفكير فيما ستتمخض عنه العملية من أشكال وأوضاع للطبيعة لاتزال فى ابتداء العمل غيبية . ولأجل هذا لم يكن من الممكن للحيوان ، أن يقوم بعملية إنتاج ، عملية تغيير حاسم للطبيعة.

والأمر الآخر : هو اللغة بوصفها المظهر المادى للفكر ، الذى يتيح للمشتركين فى عملية الإنتاج أن يتفاهموا ، ويتخذوا موقفا موحدا خلال العملية فما لم يملك كل منتج أداة التعبير عن فكره ، وتفهم أفكار شركائه فى العمل لايستطيع أن ينتج . وهكذا نجد - بوضوح - أن الفكر - بأى درجة كان - يجب أن يسبق عملية الإنتاج ، وأن اللغة ليست نابعة من عملية الإنتاج ، كما تنبع كل العلاقات والظواهر الإجتماعية ، فى زعم الماركسية .. وإنما تنبع من الحاجة إلى تبادل الأفكار ، بوصفها المظهر المادى للفكر . فلم تنشأ اللغة - إذن - من القاعدة الرئيسية المزعومة ، من عملية الإنتاج ، بالرغم من أنها أهم ظاهرة إجتماعية على الإطلاق .. وإنما كانت هى الشرط الضرورى تاريخيا ، فى وجود هذه القاعدة المزعومة وأكبر دليل يمكننا أن نقدمه على ذلك ، هو استقلال اللغة فى تطورها عن الإنتاج وقواه .. فلو كانت اللغة وليدة الإنتاج ، وليدة القاعدة المزعومة ، لتطورت وتغيرت ، تبعا لتطور أشكال الإنتاج وتغيرها ، كما تتغير تبعا لذلك جميع الظواهر والعلاقات الإجتماعية . فى رأى الماركسية ، ولايوجد ماركسى واحد - وحتى ستالين - يجرأ على القول : بأن اللغة الروسية - مثلا - تغيرت بعد الثورة الإشتراكية ، وتبدلت إلى لغة جديدة ، أو أن الآلة البخارية التى غيرت القاعدة الأساسية للمجتمع ، وأحدثت ثورة كبرى فى أسلوب الإنتاج قد جاءت بلغة جديدة للانجليز ، غير اللغة التى كانوا يتكلمون بها قبل ذلك فالتاريخ يؤكد - إذن - أن اللغة مستقلة عن الإنتاج ، فى استمراريتها وتطورها . وليس ذلك إلا لأنها لم تنبع من هذا الشكل أو ذاك ، من أشكال الإنتاج ، وإنما نبعت عن فكر وحاجة هما أعمق وأسبق من كل ممارسة للإنتاج الإجتماعى مهما كان شكلها)[١].

---

(١) إقتصادنا (١٠٣-١٠٥) .

الوجه الثامن عشر : من الأمور التى تعجز الماركسية عن تفسيرها تطور القوى المنتجة (التى يتطور التاريخ تبعا لتطورها . كيف تتطور هذه القوى؟ وماهى العوامل التى تسيطر على تطورها وتكاملها؟ ، ولماذا لاتكون هذه العوامل هى القوة العليا التى تتحكم فى التاريخ ، بدلا عن القوى المنتجة الخاضعة لتلك العوامل ، فى نموها وتكاملها؟)[١].

وبعدأن أورد الصدر هذه التساؤلات يقول : (إن التجارب الطبيعية ، لاتقدم إلى الإنسان إلا المواد الخام ، ولاتتحفه إلا بالتصورات الحسية لمضمون التجربة . وهذه المواد والتصورات تبقى غير ذات معنى ، لو لم تصادف فى ذهن معين ، الشروط الطبيعية والسيكولوجية الخاصة ، وهو ذهن الإنسان ، الذى يملك - دون سائر الحيوانات التى تشترك معه فى التصور والإحساس - قدرة عقلية على الإستنتاج والتحليل ، ومعارف ضرورية لاتخضع للتجربة ، يأخذ الإنسان بتطبيقها على المواد الخام التى يستوردها عن طريق التجربة ، فينتهى إلى نتائج جديدة . وكلما تكررت عمليات الإستنتاج وتكامل رصيدها إزدادت خصبا وثراء . فلم تكن قوى الطبيعة المنتجة ، هى التى تشق - بمفردها - طريق تكاملها ونموها ، أو تولد عوامل تطورها واغتنائها ، وإنما تولد الإحساسات والتصورات فحسب . فليس تطورها - إذن - ديالكتيكيا ذاتيا ، وليست القوة الإيجابية التى تطورها منبثقة عنها وهكذا تصبح قوى الإنتاج محكومة لعامل أعلى منها درجة فى تسلسل التاريخ)[٢].

الوجه التاسع عشر : من أعظم مايرد به على المادية التاريخية وأصحابها وبيان فسادها ، وأنها قامت على أساس خال من البرهان هو الواقع الذى قامت فيه الثورة الإشتراكية ، فقيامها فى الاتحاد السوفييتى ذلك البلد المتخلف يقضى عل مسألة أن التغير لايقع إلا مع تطور وسائل الإنتاج وقيامها بإراقة الدماء والعنف يقضى على مسألة الحتمية التاريخية ، وهكذا فإن الواقع

---

(١) إقتصادنا (١٠٣) .

(٢) المرجع السابق (١٠٢-١٠٣) .

يصادر كل ماجاءت به النظرية الماركسية مخالفا للحقائق العلمية وليست الماركسية إلا نظريات وأوهام بنيت على مجموعة من الأحلام .

إن الماركسية ترى أن التحول والتغير لايكون إلا بالتغير فى البناء التحتى . يقول حجى : (كيف تبرر الثورة الروسية على ضوء أساسيات المادية التاريخية التى تفترض أن تغيرات البناء العلوى ماهى بأى شكل من الأشكال ـ الامحض ترجمة لتغيرات جذرية ـ سابقة ـ فى البناء التحتى "قوى علاقات الإنتاج"؟)[١].

ودل ذلك على عدم إطراد قواعد المذهب التاريخى فى المجال النظرى ، فضلا عن أنه فشل فى التطبيق ، هذا عدا أن الدول الرأسمالية الغربية مازالت على نظامها فى حين أن الأحزاب الشيوعية بها تراجعت وتخلت عن كثير من توجهاتها السياسية المأخوذة من الفكرة المادية الماركسية[٢].

ويتوجب علينا أن نضع فى الحسبان أن الإشتراكيين يرون أن التطبيق هو اختبار صحة النظرية .

يقول ماو : (إن نظريةالمعرفة فى المادية الديالكتيكية تضع التطبيق فى المقام الأول) .

ويقول بولتزير : (من المهم إذن أن نفهم معنى وحدة النظرية والتطبيق)[٣].

وعلى هذا فإن قيام الثورة البلشفية فى روسيا دل على بطلان النظرية الماركسية التاريخية جملة وتفصيلا[٤].

كما أن قيام الإشتراكية ـ فى بلدان أوروبا الشرقية دل على بطلان الحتمية التاريخية بكل أبعادها . حيث لم تنفجر الثورة من داخل تلك البلاد بل فرضت عليها من الخارج وبالقوة . ويذكر طارق حجى عدة أمور تبطل

---

(١) أفكار ماركسية فى الميزان (٦٠) .
(٢) انظر : الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٧٨-٧٩) ، إفلاس الماركسية (٢٥-٢٦) .
(٣) نقلا من كتاب إقتصادنا (٩١) .
(٤) لمزيد عن ذلك انظر المرجع السابق (٩١) ومابعدها .

المادية التاريخية من جراء قيام الإشتراكية فى بلدان أوروبا الشرقية وهى :

(* أن تحول هذه البلدان للإشتراكية لم يأت منطبقا ولامتسقا مع التنظير الماركسى لكيفية التحول ـ الموضوعى ـ للإشتراكية .

* أن تحول هذه البلدان للإشتراكية جاء نتيجة مباشرة لعامل خارجى أساسى ، هو الوجود العسكرى السوفييتى بتلك البلدان عند نهاية الحرب العالمية الثانية .

* أن بقاء النظام الإشتراكى ـ إقتصاديا وسياسيا وإجتماعيا ـ بتلك البلدان أمر مرهون بالهيمنة السوفيتية ـ العسكرية فى المقام الأول)[١].

ثم إن الأحداث اللاحقة تبرهن على فساد النظرية الماركسية ، فبعد تطبيق الأفكار الماركسية فى الاتحاد السوفييتى بالقوة زمن لينين وستالين ، جاء من بعدهم وندد بفساد الحكم ، والظلم ، والاستغلال وخاصة أيام ستالين[٢]. مما يدل على أن الفكر لم يحقق ماكان يعد به ، وكذبه الواقع وبطلت نبؤات ماركس أمام التطبيق الفعلى لأفكاره . وجاءت التصريحات على ألسنة القادة السوفييت بعدم صلاح الفكر الماركسى للتطبيق إما مباشرة ، أو بطريق غير

---

(١) أفكار ماركسية فى الميزان (٦٠-٦١) .
وقد ذكر المؤلف تلك الأمور بشىء من التوسع فى الصفحات التالية : الأمر الأول (٦١-٦٢) ، الأمر الثانى (٦٢-٦٤) ، الأمر الثالث (٦٤-٦٥) .
وانظر إقتصادنا (٩٢-٩٣) حيث ذكر مؤلفه أن الدول الإشتراكية انقسمت إلى قسمين و(جاء التطبيق فى كل منهما بعيدا عن النظرية ونبؤاتها العلمية ، وماحددته من قوانين لمجرى التاريخ وتياراته الإجتماعية) .
فالقسم الأول : البلاد التى فرض عليها الفكر الإشتراكى بالقوة كدول أوروبا الشرقية .
والقسم الثانى : قيام الثورات الإشتراكية فيها ولكن دون أن تجسد فيها القوانين الماركسية .
كذلك كان قيام الثورة الإشتراكية فى الصين لايمت إلى النظرية الماركسية بصلة . انظر إقتصادنا (٩٤) .

(٢) انظر الفكر الماركسى (٧٦) ومابعدها .

مباشر وذلك بإجراء العدولات عن المبادىء الماركسية التى أقام عليها فلسفته المادية .

هذا بالإضافة إلى أن دول أوروبا الغربية وواقعها يبطل المزاعم الماركسية بشأن المادية التاريخية . حيث جاءت النتائج على خلاف ماذكره ماركس ، سواء فى قيام الثورة ، أو فى إنتشار الفكر المادى[١]، أو فى ربط الأخلاق بوسائل الإنتاج وتطورها[٢]، إلى غير ذلك من تنبؤاته .

وأيضا فإن دول العالم الثالث تبطل مزاعم المادية التاريخية حيث لم يعرف أن هذه البلدان التى قامت فيها الثورة كانت تعرف معلما من معالم النظام الرأسمالى[٣]. وهكذا يتضح أن المادية التاريخية ليست إلا مجموعة من الأوهام والتخيلات ، كانت فى ذهن صاحبها أراد تطبيقها على التاريخ الإنسانى إلا أن الواقع والأحداث التاريخية والبراهين العلمية أبطلتها وأبانت كذبها وزيفها[٤].

الوجه العشرون : أن الدين الإسلامى بعقيدته وتشريعاته ، وقيامه يبطل مزاعم المادية التاريخية ويأتى عليها من البنيان فيذرها قاعا صفصفا .

(أ) تحدى الإسلام المادية التاريخية فى مسألة المساواة - التى ترى الشيوعية بأنها ستتحقق إذا بلغت البشرية طورا تاريخيا محددا - حيث جاءت تشريعاته تدعو إلى المساواة دون أن تكون تلك الدعوة مستوحاه من وسائل الإنتاج البرجوازى والتى لم تظهر إلا بعد ألف سنة من إقرار الإسلام للمساواة والدعوة إليها .

(ب) كما تحدى الإسلام منطق المادية التاريخية وحساباتها حينما بشر بمجتمع عالمى يجمع الإنسانية كلها على صعيد واحد ، يحمل على ذلك فى بيئة كانت تعج بالصراع القبلى ، والمجتمعات العشائرية المتناقضة فقفز بها إلى

---

(١) انظر إقتصادنا (١١٧-١١٩) .
(٢) انظر موقف الدين من العلم (١٥١) .
(٣) انظر أفكار ماركسية فى الميزان (١٧٦) .
(٤) لمزيد عن بيان بطلان المادية التاريخية انظر إقتصادنا (٦٨-٩٠) .

وحدة إنسانية كبرى . وتسامى بالمجتمع القبلى الذى تحده حدود الدم والقرابة والجوار ، إلى فكرة المجتمع الذى لايخضع لشىء من تلك الحدود ، فأى أداة إنتاج حولت أولئك إلى أمة المجتمع العالمى فى فترة قصيرة .

(ج) كذلك تحدى الإسلام منطق المادية التاريخية فيما أقامه من علاقات التوزيع - والذى لم يكن بمقدور الإشتراكية أن تحققه إلا بعد أن يبلغ المجتمع درجة معينة من المرحلة الصناعية - حيث هذب مفهوم الملكية الفردية ، ووضع لها الحدود والقيود ، وفرض عليها كفالة الفقراء[١].

ثم إن حدوث الإنقلاب فى مكة - علما بوجود غيرها من البلاد أقرب لهذا الإنقلاب لو أخذنا الاعتبارات الماركسية فى الإنقلابات والتغييرات التى تحصل فى المجتمع بناء على تطوره ، وتطور وسائل إنتاجه - يبطل مزاعم المادية التاريخية من أساسها . ولم يكن الإقتصاد الجاهلى أو علاقات الإنتاج الموجودة فى مكة هى السبب فى نزول القرآن الكريم .

الوجه الحادى والعشرون : أن النظريات الماركسية ، والآراء التى نادى بها دعاة الشيوعية ، من عدم اعتراف إلا بما هو محسوس وإنكار كل أمر غيبى ، وبالتالى إنكار وجود الإله لم يعد ينهض أمام الحقائق العلمية والبراهين العقلية والاعترافات حتى من دعاة من عاش ردحا من الزمن تحت وطأة الأفكار الإلحادية[٢].

كما أن تقديس المادة ، والقول بأبديتها وأزليتها أصبح أمرا منهارا أمام المكتشفات الحديثة مما يجعل مهمة نقد المادية أمرا سهلا حيث لم يعد الواقع والمشاهد يصدق شيئا من الآراء التى قيلت عنها ، والأكبر من ذلك هو إنهيار الاتحاد السوفييتى ذلك الكيان الذى قام على الفكر الماركسى مما يدل على بطلان تلك الفلسفة وتهافتها .

---

(١) انظر إقتصادنا (٣٢١-٣٢٣) .

(٢) انظر نقد العقل المحض (٤٠٤) .

وبهذا نختم البراهين التى ينتقض بها المذهب المادى التاريخى على أننا لم نكن نقصد الاستقصاء حول نقضه ولكن أردنا أن نبرهن على أن الأساس الفلسفى الذى قامت عليه الأفكار الإشتراكية لايستقيم فكان لابد من أن ينهار البناء الذى قام عليها لأن ماكان أساسه فاسدا فإن مايبنى على هذا الأساس أكثر فسادا .

إن الحصيلة التى خرجت بها النظرية من جراء تطبيقها موت مئات الآلاف من الناس وهروب الكثير من جحيم الشيوعية إلى البلاد المجاورة . والتأخر التكنولوجى والصناعى والزراعى ، وتفشى الفقر والفاقة ، وعدم حصول الإنسان على أبسط حقوقه المادية والمعنوية ، كما تفشت الطبقية بشكل لم يسبق له مثيل ، ومورست الدكتاتورية بكل ماتعنيه من معانيها وتفكك الشعب بسبب الأفكار المادية الإلحادية ، والنظريات الشيوعية فيما يتعلق بالأسرة والأطفال . ويصور فارغا تفكك الشعب ووجود الطبقات فيه بسبب المادية فيقول : (إن أخلاق المجتمع تتولد فى خاتمة المطاف عن المبادىء المادية والأيديولوجية التى تسير البلاد . فالأخلاق الدينية القديمة التى كانت تحث على عمل الخير وعلى إحقاق العدالة لكسب الحياة الأبدية فقدت اعتبارها فى نظر غالبية أعضاء المجتمع الجديد ، بالرغم من أن الدعاية الأيديولوجية الرسمية بتجريدها البارد ، تدفع ببعضهم إلى الخضوع لإغراء منظومة الرموز الدينية القديمة . وبالمقابل فإن الأخلاق الجديدة المادية النزعة غير محللة ومعمقة على الصعيد النظرى ، وغير مبنية على أسس سليمة من وجهة النظر الفلسفية والتاريخية ... وفى كثير من الأحيان تشجع العلاقات المتحكمة بالمجتمع السوفييتى على انبعاث مخلفات أو أفعال لاأخلاقية . فمن جهة أولى ، تخلق البحبوحة المادية ورفاهية الحياة ، اللتان ترتع فيهما أرستقراطية الحزب البيروقراطية ، لدى أصحاب الامتيازات من أهل المدونة وبوجه خاص لدى أعضاء أسرهم ، الصلف والعجب بالذات فى كثير من الأحيان ، وكذلك الفساد والانحراف ، وتدفعان بهم إلى الرغبة فى الحصول

على المزيد دوما ، وإلى استغلال معدات الدولة واستهلاكها ، وإلى إطلاق العنان لشهواتهم الجامحة التى تقودهم أحيانا إلى الجريمة ، وقد تحدثت الصحافة عن "تعفن" بعض الشبان ، ممن أفسدهم وأضلهم فرط الغنى ، وقد تنهشهم الألسنة بين الحين والآخر ، وقد يدانون بين الفينة والأخرى ، لكن ذلك لايبدل شيئا فى الوضع .

ومن الجهة المقابلة ، كثيرا ماتدفع رقة الحال المادية بشغيلة المدينة والريف إلى تحسين مستوى حياتهم البالغ الانخفاض عن طريق السرقة ، وهذا مايؤدى أيضا إلى انحطاطهم الأخلاقى الذى يجد تعبيره فى العديد من الظاهرات المستهجنة : السكر ، إساءة معاملة الزوجات والأولاد ، المشاحنات العائلية ، رفض العمل ، الجنوح ، وأحيانا الإجرام الأرق . وليس الغريب فحسب أن ينغص رجال غارقون فى بؤس مدقع الحياة على أفراد أسرهم ، أو أن يقترفوا الجرائم ، بل الغريب أيضا أن يقدم رجال يشغلون وظيفة مناسبة ويتقاضون فى كثير من الأحيان أجورا طيبة على هجر الزوجات والأطفال ، وأحيانا على إشهار السكاكين لاعن عجز وإملاق وإنما عن ضعف تربية وحطة أخلاقية . وقد يصل الأمر أحيانا إلى تخوم الحيوانية والسادية ، فقد سمعنا على سبيل المثال بشخصين كانا يلعبان بالورق على حياة المرأة أو الزوار .

وقد يبدو أن الوضع ليس على هذا القدر من التدهور بالنسبة إلى الشرائح المتوسطة من المجتمع السوفييتى التى يظل مستوى حياتها متواضعا والتى تكسب فى الوقت نفسه مافيه الكفاية لتكفل لأسرها حياة لائقة ، والحال أنه إنما فى الوجدان الأخلاقى لهذه الفئة تتجلى بصورة ساطعة سمة سلبية أخرى من سمات الحياة السوفيتية : إنعدام الروح الديمقراطية الحقة والحس المجتمعين . وهذا مايحمل أولئك الناس على الانزواء فى عالم المصالح الخاصة ، العائلية، وعلى التطلع إلى حياةبورجوازية صغيرة . فالشاغل الأول للمواطن السوفييتى العادى ، فيما عدا عمله ، أن يشترى أقصى حد ممكن من السلع الاستهلاكية ، وأن تكون له شقة جميلة ، وفسحة من الأرض

لعزبته ، وجهاز تلفزيون ، وملابس ...الخ وهو يدخر المال ويتباهى بذلك أمام أقاربه وجيرانه ، والواقع أن أصحاب هذه العقلية هم الذين يمثلون البورجوازية الصغيرة السوفيتية)[١].

لقد عجزت النظرية الماركسية عند تطبيقها عن تحقيق مايصبو إليه الإنسان ولاغرابة فى ذلك العجز ، حيث إنها منعت الإنسان من أبسط حقوقه كما صادرت فيه الروحانية وأغرقته بالمادية ، والنفس الإنسانية تتوق إلى الروحانية ، ولأجل ذلك جاءت شريعة الإسلام تنظر إلى الإنسان على هذا الأساس المتناسق القائم على اعتبار الوجهين[٢].

إن الماركسية قامت على أساس مادى ، وعلى هذا الأساس فلايمكن اعتبارها الفلسفة الوحيدة الصحيحة[٣].

كما قامت الشيوعية وهى تهدف إلى القضاء على الدين ونشر الإباحية والرذيلة ومصادمة الفطرة بأنواعها ، ومعارضة الحقائق العلمية ظنا منها بأنها ستصل إلى تحقيق العالم الذى حلم به ماركس . يقول العوف : (إن الشيوعية تستهدف هدم الكيان الإجتماعى القائم على اختلاف أشكاله وألوانه وعلى تباين اتجاهاته ونماذجه ، هدما كليا ، يرمى إلى تحطيم كل ماتعرف عليه البشر ، أو توصل إليه من نظم وأفكار ومذاهب وعقائد ، بل هى أيضا تتعمد هدم القيم والمبادىء والفضائل والأخلاق ، زاعمة أنها ستقيم بعد ذلك مجتمعا مثاليا جديدا ، تذوب فيه الطبقات والأجناس والعروق والقوميات ، وتسود فيه طبقة واحدة ، هى طبقة البروليتاريا ، أى طبقة العمال والفلاحين ذات الطابع الإجتماعى ، الذى لايكون فيه سيد ومسود ، ولاحاكم ولامحكوم)[٤].

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٧٤-٧٦) .
(٢) انظر عن تلك المسألة : فلسفتنا (٣٨٩) ، الفكر الماركسى (٨٣) ، نظام الحياة فى الإسلام (٧٦-٧٧) .
(٣) انظر الإشتراكية العربية (١٣٩) .
(٤) إشتراكيتهم وإسلامنا (٣٠) .

غير أن هذه النبوأت كشف زيفها الواقع ، والبرهان العلمى والعقلى ، والحدث التاريخى ، فأضحت هذه النبؤات معلومة الفساد لقواد الثورة البلشفية قبل غيرهم وقد أدى ذلك الفساد إلى زعزعة الثقة فى الفكر الماركسى بأكمله مما كان له أثر بالغ فى النفوس ، وكان هذا الأثر يزداد يوما بعد يوم ، مما جعل النظرية تفقد بريقها ، ويخطئها أهلها ، ومع مرور الوقت غدا هذا الفساد أحد العوامل التى أدت إلى الإنهيار التدريجى فى بناء النظرية الماركسية ، وبالتالى الدولة الشيوعية التى قامت على تطبيقه .

أثر ذلك الفساد فى سقوط الشيوعية :

قامت الشيوعية على أكتاف العمال وبتضحياتهم بدون أدنى شك ، وكان جهدهم هذا نظير ماتلقوه من وعود براقة ، وأحلام تجاوزت الخيالات ومع ذلك فقد عملوا لها كثيرا وقدموا من أجلها جهدا كبيرا ، أملا فى تحقق تلك الوعود . فبدأ لينين بتطبيق ذلك الفكر النظرى على الطبيعة فى دولة روسيا فحصل الخلل منذ اللحظة الأولى ولولا شدة الاندفاع لماتت الشيوعية فى مهدها .

فلم تستجب الشعوب لكثير من الأفكار بسهولة فكان لابد من استخدام القوة .

تلك القوة التى جعلها ماركس تستخدم ضد الأعداء "الرأسماليين" لاضد الطبقة العاملة المضطهدة .

ففرض التأميم بالقوة ، وصودرت التوجهات الدينية بالإعدام والتشريد وانتشرت المجاعة بسبب الفكر الجديد ، فبدأت الصورة التى كانت مرسومة من قبل الثورة تتزعزع وخاصة فى صفوف المفكرين والمثقفين ومن هنا بدأ الانشقاق فى الصف الشيوعى ، وبدأت الظنون تساور الكثيرين وقام العداء بين الأيدى التى كانت واحدة فى تفجير الثورة . ففساد النبؤات الماركسية ، ومعارضة الواقع لهذه النظريات ، وعدم صلاح الأوضاع ، وبطلان كثير من

الحتميات ، أدى إلى فقدان الثقة فى صلاح هذه النظرية منذ السنوات الأولى ولكن كان السيف مصلتا ، والجلاد ينتظر ، ومجاهل سيبريا متعطشة لأعداء الثورة ، ومن هنا سكت كثير من الناس ، وألجمهم الخوف عن الإفصاح .. تهاوت الحتميات ، وفسدت النظريات ، وماتت النبؤات ، فكان لابد من فقدان الثقة فى الوعود التى أعطتها الشيوعية ، وكانت عمليات الترقيع للفكر لينسجم مع الواقع وماكان بالإمكان أن يتم ذلك إلا بالكفر ببعض أجزاء النظرية وعلى قدر مايشعر الزعيم بالخوف على قدر مايعلن تراجعه عن أكبر قدر من الفكر الماركسى ويتخذ فكرا جديدا يحقق شيئا من رضاء الشعوب فى الاتحاد السوفييتى .

إن القوة والتراجع ، هما اللذان أبقيا هذه السنوات على الشيوعية ، وإلا فإن الزعماء السوفييت داسوا النظرية الشيوعية (المادية الجدلية ، والتاريخية) بأقدامهم ، وإن لم يكن ذلك بطريق مباشر فإن أفعالهم دلت على كفرانهم بها .

لقد كان لفساد النظرية الشيوعية ، ومخالفتها للحقائق العلمية ، أثرا فى نبذها ومحاولة الخروج من أسرها ، ولأجل ذلك رأينا منذ السنين الأولى من أولئك الذين كانوا متعطشين للفكر الماركسى ومنافحين عنه يعلنون كفرهم به وماذلك إلا لأن الفكر النظرى عند التمحيص بالواقع أصبح بعيدا عن الحقيقة كما بعد مابين المشرقين .

فبدأ الصد عن الماركسية وفكرها ، وبدأ التمرد على الشيوعية وتطبيقها نظرا لكونها لم تحقق شيئا .

لقد كان الواقع مبطلا لأكثر الآراء الماركسية من عشية تفجير الثورة البلشفية ووقوعها فى روسيا ، حتمية الصراع مع الرأسماليين وكونها حدثت دون المرور بهذه المرحلة ، السلم مع الأعداء وعقد صلح بريست ، التراجع فى مسألة الإقتصاد ، القضاء على الملكية بالقوة لأنه أمر فطرى فى النفس البشرية - ولم يتنازل الناس عن ملكياتهم بل تمسكوا بها - وهكذا دواليك بقية الآراء التى حلم بها ماركس .

إن هـذا الفسـاد الفكرى هـو الذى حمل القادة الشيـوعيين منـذ زمن لينين على التعـديل والتراجع فيـه لأنهـم لم يستطيعـوا العمـل به فـأخذ كـل واحد منهم يعدل ويتراجع بالقدر الذى يرى أنه سيضمن له سكوت الشعب فترة مـن الزمن ، إلى أن نفـذ صبره ، فأعلن التمرد الكـامل على هذا الفكر الفـاسد . وإذا كانت الشيوعيـة بدأت بقوة وفرضت هذا الفكـر فى جامعاتها ومـدارسها فإنها فى فترة لاحقـة ألغت تدريس هذا الفكـر فى جامعـات الاتحاد السوفييتى ، وذلك (معناه الحكم على هذه الأيدلوجية بالتهافت والبوار وبأنها ـ على حد تعبير أحد البـاحثين ـ فلسفـة رجعية لم تعـد تلائم ظروف العصر وبأنهـا أفكار بالية لم تثبت صحتها أمام التجربة التى امتـدت أكثر من سبعين عاما فى شكل نظام سياسى قـام أسـاسا على هـذه الأفكـار ومعنى ذلـك أن العقيـدة التى جعلـت مـن الإلحاد ركيزة لهـا : عقيـدة فـاسدة حتى وإن تأخر إثبات فسادها كل هذه السنوات)[1].

لقـد استحال تطبيق هذا الفكر فى الواقع لتعارضه مـع الفطرة الإنسانية ومخالفتـه للسنن الـربانية ، وتصـادمه مع الحقائق العلميـة والحيـاة الواقعية ، ومـن خلال الفصـل القادم سيتبين لنـا أثر هذا الفسـاد فى سقـوط الشيوعية حيـث تراجع كل زعيم عن قدر من الفكر ، إلى أن حكـم عليه غورباتشوف بالبطلان تحت مطالبة الشعب وإلحاحه فى الخروج من نير هذا الفكر الباطل .

وبعد هذا العرض أصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن الماركسية قامت على أفكار نظرية ، وتخيلات سطـرها ماركس على أنهـا حقائق علمية ، بناها على جزئيات صغيرة لايتحقـق فى مجال البحث العلمى عن طريقها شيئا .

ثانيا : أن المادية الجدليـة ، والمادية التـاريخية قـد أبطلهـا الشـرع ، والعقل ، والعلم ، والواقع .

---

(١) مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (٢٥) .

ثالثا : أن واقع الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية يدل دلالة واضحة على بطلان النظريات الماركسية ، حيث لم تقم فيها الإشتراكية حسب التصور الذى رسمته النظرية .

رابعا : شدة التناقض فى النظرية الماركسية ، بين أفكارها وبين تطبيقاتها وهذا له أثر كبير على مقدار الإيمان بها والعمل من أجلها .

خامسا : أن مزاعم الماركسيين حول تقديس المادة ، وأزليتها وأبديتها وقوانينها ، أبطلها العلم الحديث ولم يعد لها ماكان فى نفوس الماركسيين وبالتالى فإن مابناه ماركس على أساسها مصيره البطلان والفساد ، فإن فساد الأصل فساد للفرع .

سادسا : أن سقوط الشيوعية الماركسية ، وإنهيار الاتحاد السوفييتى . فيه أبلغ دليل على فساد النظريات الماركسية وتهافتها ، وسقوط حتمياتها ، كما أن فيه أبلغ رد على المتمسكين بذلك الفكر ونظرياته فى الوقت الحاضر .

سابعا : أن فساد النبؤات الماركسية ، وكشف الواقع عن بطلانها ، وعدم سير التاريخ الإنسانى على حسب أفكارها ، ثم عدم تمكن القادة السوفييت من تطبيقها وإقناع الناس بها ، أدى إلى زعزعة الثقة فيها ، ثم التراجع من قبل القادة السوفييت فى مبادئها ، مما كان له أثر كبير فى إنهيارها وهذا ماستزيده إيضاحا من خلال حديثنا فى الفصل التالى عن تناقضها ومصادمتها للواقع .

الفصل الخامس
مصادمتها للواقع والتغيير فى مبادئها

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد .

المبحث الأول : التراجع والتغيير زمن لينين .

المبحث الثانى : التراجع والتغيير زمن ستالين .

المبحث الثالث : التراجع والتغيير زمن خروشوف .

المبحث الرابع : التراجع والتغيير زمن بريجنيف .

المبحث الخامس : التراجع والتغيير زمن اندروبوف .

المبحث السادس : التراجع والتغيير زمن تشرنينكو .

المبحث السابع : التراجع والتغيير زمن غورباتشوف .

الفصل الخامس
مصادمتها للواقع والتغيير فى مبادئها

تمهيد :

إن المحك الحقيقى لاختبار مصداقية أى فكر هو تطبيقه والعمل به فى عالم الواقع ، ثم قبول الناس له . ولانقصد بذلك ماكان حقا أصلا ورفضه الناس إتباعا لشهواتهم وأهوائهم ، أو ماكان باطلا وقبله الناس تحقيقا لرغباتهم .

والفكر الماركسى أول ماطبق عمليا فى روسيا ، وكانت التجربة الأولى له . وتبين من خلالها أن العقل البشرى قاصر جدا فى وضع مايحقق السعادة للإنسان فى حياته المستقبلية لأن نظرة العقل البشرى محدودة .

ومن هنا وعندما كان الفكر الماركسى فكرا بشريا ، فإن النتيجة البدهية حين تطبيقه أن تظهر عيوبه ومحدوديته وعدم ملاءمته للواقع الإنسانى ـ خاصة وأن الفكر الماركسى حمل فى ثناياه كل مايصادم الفطرة الإنسانية ، ويقضى على التطلعات البشرية ـ ومن هنا كان التناقض سمة بارزة فى ذلك الفكر . تناقضا بين الأفكار النظرية ذاتها ، وتناقضا بين النظرية والواقع عندما رغب القادة الشيوعيون تطبيقها فى روسيا .

إن النظرية الماركسية كانت من أشد النظريات وقوعا فى التناقض ، حتى إن الاختلاف بين الآراء النظرية والواقع أضحى بين لكل من اطلع على الفكر الماركسى .

فالحتميات التاريخية كانت تتهاوى تحت سياط الواقع ، والتطبيق الشيوعى كان يخالف النظريات العاجزة عن مسايرة مستجدات العصر . وقد وقعت الشوعية فى جملة من المتناقضات منذ اللحظة الأولى لتطبيقها فى عالم الواقع . ومن ذلك :

(أ) أن النظرية الماركسية ترى أن القوانين الإجتماعية تسير وتقضى بالتغير للوصول إلى الشيوعية ، ومفهوم ذلك أن قيام الشيوعية أمر حتمى سيصل الناس إليها دون أن يكون لهم فى ذلك اختيار .
ولكن بالنظر إلى واقع الشيوعيين التطبيقى نجدهم لايتركون هذه القوانين تعمل وتوصلهم إلى الشيوعية . بل قاموا بفرض ذلك الفكر بالقوة ، والقتل ، والإرهاب ، والنفى ، حتى غدت الشيوعية نظاما دكتاتوريا بل من أشد الدكتاتوريات التى مرت على الإنسانية فى فرض سلطانها بالقوة .

(ب) ومنها قولهم بالتغيير المفاجىء ، فإذا ماوصلوا إلى المرحلة الإشتراكية قالوا بالتدرج .
والسبب فى هذا التناقض هو الواقع الذى أبطل نبؤات ماركس . وهذا التدرج قال به لينين ليزيل الإشكال الذى علق بالأذهان عندما لم يحدث التغيير فى الأوضاع حتى بعد انفجار الثورة البلشفية .

(ج) ومنها إرجاعهم كل تغير يحدث فى المجتمع إلى العامل الإقتصادى ثم تراجعهم فى ذلك واعترافهم بأنهم بالغوا فى تقديره حتى نسوا العوامل الأخرى ، هذا بالإضافة إلى بطلان ذلك بالأحداث التاريخية السابقة واللاحقة .

(د) ومنها إعلانهم القضاء على الدين والملكية الفردية .
حيث كذب الواقع ذلك ولم تستطع الشيوعية أن تحقق شيئا منه رغم استخدامها القوة فى محاولة تحقيقه .

(هـ) ومنها قولهم بمبدأ إلغاء الطبقات وتحقيق المساواة .
إلا أن الواقع أبطل ذلك حيث كانت الطبقات متفشية ، والفوارق فى الأجور وغيرها قائمة .

(و) القول بزوال الرأسمالية ، وزيادة بؤس العمال ، وحلول الإشتراكية مكان النظام الرأسمالى .

غير أن الـواقع أثبت خلاف ذلك ، بل إن إنهيار الشيـوعية أثبت أن الصواب فى الاتجاه المعاكس لذلك الرأى تماما .

(ز) ومنها قولهم بزوال الدولة ، إلا أن واقع الاتحاد السوفييتى والشيوعية فيـه دل على أن الحفاظ على الـدولة وبقائها كان مـن أعظم اهتمامات الحزب الشيوعى .

إلى غير ذلك من المبادىء النظرية التى جاء بها مـاركس وكذبها الواقع حين اصطـدمت به حيـث أصبح الفـارق بين الفكر النظـرى والتطبيـق الفعلى واضحـا لاينكـره أحد . يقـول مـاندل : (لايزال ضعـف المصـداقية الكبير اللاحق بالشيوعية والإشتراكية والماركسية بعيد تحولهمـا إلى عقيدة دولة "بل حتى إلى دين دولـة" وكشف الحساب الإجمالى للحقبة الستـالينية والبريجنيفية والفـارق الشاسع بين الواقع والأيديولوجيا الرسمية التى تظهـر كاذبة كليا ـ يضرب عميقا فى المجتمع)[١].

إن هذاالتناقض لايستطيع أن ينكره أحد ، وذلك لكـونه متفشيا ظاهرا فى الأفكار الماركسية[٢]، وأثبتـت الأيام اللاحقة لماركس فساد مـاكان يزعمه ويعتقـده من أفكار . يقول هنرى ده مـان إن (النظرية التى نفـذ بها ماركس مهمته قد أصبحت الآن غير مناسبة تماما لحل مشاكل عصرنا)[٣].

وهـذه نتيجة بدهية لمحدودية العقـل البشرى وعجـزه ووقوفه عند حد معين . يقـول الجندى : (إذا نظـرنا إلى الماركسية نفسهـا كنظـرية تريد فرض وجودهـا على العالم كله نجدها وضعت من خلال عقل بشـرى قاصر محدود ، لايستطيع التحرك إلا فى دائرة ضيقة جدا هى دائرة عصره وبيئته)[٤].

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٥٢) .
(٢) انظر الشيوعية (٨٣-٨٤) .
(٣) الإشتراكية البناءة (٦٠) .
(٤) مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (٢٠) ، وانظر (١٢٤-١٢٥) .

ويقول موراوسكى : (إن الصواب يجانب ماركس فى بعض تصوراته للمستقبل)[١].

لقد كشف المستقبل ـ الواقع ـ فشل النظرية الماركسية وعدم تحققها ، ثم إن الثورة البلشفية كذلك عجزت عن تحقيق الفكر الماركسى الذى قامت عليه[٢].

ومما يدل على مصادمة الفكر الماركسى للواقع وتناقضه معه الخلاف الحاد الذى وقع بين الاتحاد السوفييتى والصين . وذلك باتهام كل طرف للآخر بأنه كفر بمبادىء ماركس ، لأن كل واحد منهما اختط لنفسه طريقا يطبق به أفكار ماركس حسب واقعه ، وبهذا يكونون (أقروا بأن ماتخيله ماركس وانجلز لم يستطع أن يطبقه أحد)[٣].

إن الواقع كان للماركسية بالمرصاد ، حيث حطم الحتمية التاريخية وأفسد النبؤة الماركسية[٤]، وكشف زيف الوعود البراقة ، وأيقنت الشعوب التى طبق فيها الفكر الماركسى بأنه لايصلح لإقامة حياة كريمة[٥]. كما أبطل الواقع كل المبادىء الماركسية لأنها تتعارض مع طبيعة الحياة الإنسانية[٦].

إن انفجار الثورة البلشفية فى روسيا كان أول ضربة يوجهها الواقع للنظرية الماركسية .

وحين جاء لينين قال : (إن انتصار السلطة السوفيتية فى العالم كله قضية مؤمنة . والمسألة مسألة وقت)[٧].

---

(١) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (١٣٨-١٣٩) .
(٢) انظر الإشتراكية على مشارف القرن الواحد والعشرين (٥٠) .
(٣) إشتراكيتهم وإسلامنا (٥٣) . ولمزيد عن تشرذم الشيوعية واختلاف أهلها إلى فرق ومذاهب شتى انظر الشيوعية (٧٩-٨١) .
(٤) عن تلك المعانى انظر الإشتراكية على مشارف القرن الواحد والعشرين (٥٩) .
(٥) انظر عن تلك المعانى الماركسية بين النظرية والتطبيق (١٦٨-١٦٩) .
(٦) انظر عن ذلك الشيوعية (٧٨-٧٩) .
(٧) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٣٨) .

وقال : (ستصل جميع الأمم إلى الإشتراكية ، إن هذا أمر محتوم)[١].

غير أن الواقع كذب هذه الحتمية ، وأين هى سلطة السوفييت الآن؟!!

لقد أثبتت الأحداث تناقض النظرية الماركسية ، وعجزها عن التطبيق لأنها قامت على أصول فاسدة ، وليس بعد الكفر وإنكار الإله فساد .

وحين اصطدمت النظرية بالواقع كان لابدمن إيجاد المخرج حفاظا على الكيان الشيوعى الذى بدأ يقوم فى الاتحاد السوفييتى ـ خاصة وأنه حمل الوعود البراقة من عدل ، وحرية ، ومساواة[٢]غير أن هذه الشعارات لم تر النور وأصبحت أحلاما تراود قادة الشيوعية وأتباعهم ـ وهذا المخرج كان بتراجع زعماء الشيوعية عن تطبيق الأفكار الماركسية نظرا لعدم إمكانية تطبيقها فى عالم الواقع لكونها تتصادم معه .

أثر ذلك التصادم :

كانت هناك عدة آثار نتجت عن مصادمة الماركسية للواقع ومن أهمها:

أولا : التراجع والتغيير فى تطبيق الأفكار الماركسية ، من قبل زعماء الشيوعية .

ثانيا : ظهور فساد النبؤات ، وتشكك كثير من الناس فى مصداقية الفكر ، واقتناعهم بعدم إمكانية تطبيقه .

ثالثا : حمل الناس على الإيمان بالأفكار الماركسية بالقوة ، حيث لم يصدق الواقع تلك الأفكار ، والماركسية كما نعلم تطلب من أتباعها أن لايؤمنوا إلا بما هو مشاهد محسوس!!!

رابعا : ضعف التمسك بالأفكار الشيوعية لدى القادة السوفييت أنفسهم وقد افتتح لينين ذلك .

وبالعرض الآتى لمباحث هذا الفصل سيزاد بيان أثر ذلك التصادم بين النظرية والواقع .

---

(١) استيقاظ آسيا (٥٤) .

(٢) انظر عن ذلك إشتراكيتهم وإسلامنا (٢٩) .

المبحث الأول
التراجع والتغيير زمن لينين

بعد أن مر معنا أن الشيوعية قامت على مصادمة الفطرة الإنسانية ومصادرة الحرية وكفى بهما سببين جوهريين فى التمرد على الفكر الشيوعى والخروج عليه . إلا أن الشيوعية لم تكتف بهذا بل صادمت بفكرها الحقائق العلمية ، وواقع الحياة الإنسانية فانهارت نظرياتها تحت سياط الواقع عندما بدأ تطبيقها فى الدولة السوفيتية ، مما جعل زعماء الشيوعية يتراجعون فى تطبيق مبادئها ، ويغيرون فيها حتى يتقبلها الناس ، مما أدى إلى فقدان النظرية الماركسية الهالة التى صورت بها ، وكذلك زعزعة الثقة فى نفوس العمال الذين كانوا شعلة الثورة ، حيث بطلت النبؤات ، وتبخرت الأحلام وعند ذلك افتتح لينين بوابة العمليات الترقيعية للفكر الشيوعى .

وقبل أن أعرض للتراجع والتغير زمن لينين أود أن أشير إلى الأمور التالية :

أولا : ستكون الإشارة هنا للقضايا التى نحن بصددها (التراجع والتغير) زمن كل زعيم بصورة مختصرة ، إلا إذا تطلب الأمر إيضاحا كما هو الحال بالنسبة لغورباتشوف . وليست هذه الدراسة سردا تاريخيا للشخصية أو سياستها ، بقدر ماهو تلمس لآثار التراجع والتغيير الذى وقع فى تلك الفترة.

ثانيا : أن التراجع والتغيير أحيانا لايكون كبيرا جدا ، ولكنه يعد بالمقارنة مع الأفكار الماركسية التى بدأتها الثورة البلشفية فارقا واضحا .

ثالثا : أن هذه التغيرات والتراجعات كانت فى بداية الأمر ـ كما يزعم الشيوعيون ـ خطوات من أجل تصحيح المسار حتى تتحقق الجنة الموعودة ، ومن هنا كان يعيش العمال على أمل فلم يصدر منهم مايدل على خروجهم على النظام بصورة جماعية . هذا بالإضافة إلى أنهم حديثى عهد بنظام كان يسومهم سوء العذاب إذا ماقورن بالوعود البراقة الجديدة .

رابعا : أن هـذه التراجعات والعدولات جعلت الشعـب السوفييتى يظل ساكنا فترة من الزمن ، وقبل ذلك بسبب القوة والقهـر خاصة زمن ستالين .

خامسا : أن كـل الـزعماء السـوفييت قـد أسهمـوا فى هـذا التغيير والتراجع مـابين مقل ومستكثر ، وقد تتحكم بعض الظـروف فى عدم وضوح الجانب السياسى لبعض الزعماء وخاصة إذا كانت فترة حكمه قصيرة .

سادسا : أن غـورباتشوف أكمل مـابدأه الزعماء من قبلـه فأعلن خاتمة تلـك السلسلة من التغيير والتراجع وذلـك بإنهاء الفكـر الماركسى وإسقاطه .

سابعا : أن التغيير والتراجع يعـد سيرا نحو السقوط بطـريقة تدريجية ، حيـث يتم ذلك باستبدال الأفكار الماركسية بأفكار أخرى ليتسنى قبـولها لدى الناس .

وبعد هذا نصل إلى دراسة التغيير والتراجع فى الفترة اللينينية .

لينين :

دراسة مختصرة عن حياته :

ولادته : (ولد فلاديمير ايليتش أوليانوف (لينين) فى ٢٢ نيسـان/ ابريل سنـة ١٨٧٠م فى مـدينة سيمبيرك "المسماة الآن أوليـانوفسك" الـواقعة على شاطىء نهر الفولغا)[١].

جده : كـان من أهالى روسيا الأصليين ، عمل فلاحا ، ومـات فى فاقة شديدة[٢]. وجدته لأبيه مسيحية[٣].

---

(١) لينين (٤٧) .
وانظـر : الشيـوعية وموقف القرآن الكـريم منهـا (٤٦) ، النـار والجليـد (٦٧) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٩٠) .

(٢) انظر لينين (٤٧) .

(٣) انظر سادات الماركسية (٣٩٠) .

والده : هو ايليانيكولايفتشى أوليانوف .

ذاق الفقر والعوز منذ نعومة أظفاره ، لم يستطع تحصيل تعليمه العالى إلا بمساعدة أخيه الأكبر منه سنا ، وبعد تخرجه من الجامعة عمل مدرسا ، ثم مفتشا ، ثم مديرا للمدارس الشعبية فى سيمبيرسك[١] و(كان عضوا فى مجلس صغير لنبلاء قريته ويعتبر من رجال الطبقة المتوسطة)[٢].

والدته : وهى ماريا الكسندر . نشأت لأب طبيب ، تجرى فى عروقها الدماء الألمانية ، وهى يهودية ، وعلى هذا فإن لينين من سلالة يهودية[٣].

جده لأمه : ألمانى يدعى الكسندر ديمتريفيتش بلانك .

وجدة لينين لأمه يهودية[٤].

بعض الأحداث التى أثرت فى حياة لينين ودفعته للعمل :

أولا : حياة البؤس والفقر التى كانت تعيشها أسرته .

ثانيا : وفاة والده فجأة عام ١٨٨٦م[٥].

ثالثا : إعدام أخيه بعد اشتراكه فى عملية اغتيال القيصر[٦].

وكانت هذه الأحداث مؤثرة فى شخصية لينين ، وولدت فيه حقدا ، فأخذ يبذل الجهد فى القراءة والتعلم ، وتخرج من الثانوية ، والتحق بجامعة قازان ، وأقام بها صلات مع الطلاب ذوى الميول الثورية ففصل من الجامعة

---

(١) انظر : لينين (٤٧-٤٨) ، النار والجليد (٦٧) ، كارل ماركس وداعا أم خداعا (٣٣) .

(٢) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٨٩) ، وانظر الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (٤٦) .

(٣) انظر : المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٨٩) ، سادات الماركسية (٣٩٠) ، وانظر (٤٠٩) ، الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (٤٦) .

(٤) انظر سادات الماركسية (٣٩٠) .

(٥) انظر : لينين (١٧) ومابعدها ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٨٩) .

(٦) لينين (١٧) ، وانظر النار والجليد (٦٧) .

واعتقل فى عام ١٨٨٧م[١]. ولأجل ذلك كانت القيصرية تنظر إليه على أنه شخص غير مأمون ، وقامت السلطات القيصرية بنفيه إلى قرية بقازان ، وبعد سنة سمح له بالعودة ، وحاول الالتحاق بالجامعة ، أو السماح له بالسفر إلى الخارج غير أن السلطات القيصرية رفضت ذلك[٢].

وفى عام ١٨٨٩م انتقل مع أسرته إلى سمارا ، وعكف لينين على دراسة كتب ماركس وانجلز ، وقام بترجمة "البيان الشيوعى" إلى اللغة الروسية[٣]، ثم درس برنامج الجامعة الموزع على أربع سنوات فى سنة ونصف وتقدم لامتحان كلية الحقوق وحصل على شهادة القانون من جامعة بطرسبرغ واشتغل فى المحاماة ولم تشغل باله كانشغاله بقراءة مؤلفات ماركس وانجلز[٤].

وفى عام ١٨٩٢م نظم لينين فى سمارا أول حلقة ماركسية كان أعضاؤها يدرسون مؤلفات ماركس وانجلز ، وينشرون الماركسية بنشاط[٥].

ونظرا للأعمال التى كان يقوم بها لينين ، ونشاطاته المشبوهة كان كثيرا مايعتقل ويراقب ، وسجن فى بطرسبرغ أكثر من أربعة عشر شهرا وكان يكتب المنشورات والرسائل من داخل السجن[٦].

وظل لينين فى نشاطه الثورى إلى أن (تمكن فى عام ١٨٩٥م من توحيد عدة مجموعات ماركسية تحت لواء "عصبة النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة" وهى التنظيم الذى يعتبر البداية الحقيقية للحزب الشيوعى الروسى وتكرر اعتقاله والإفراج عنه ثم نفى إلى سيبيريا)[٧]، معاقبة له على

---

(١) لينين (٥٣) .
(٢) انظر المرجع السابق (٥٣-٥٤) .
(٣) انظر المرجع السابق (٥٩) .
(٤) انظر : المرجع السابق (٦٢-٦٣) ، النار والجليد (٦٧) وفيه أنه حصل على الشهادة الجامعية بالمراسلة من جامعة سانت بطرسبرغ ، وانظر كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٣٣-٣٤) .
(٥) انظر لينين (٦٣-٦٥) .
(٦) انظر المرجع السابق (٨٤) .
(٧) النار والجليد (٦٧-٦٨) ، وانظر لينين (٨٩) .

نشاطه الثورى .

(ونظرا لوجوده تحت رقابة البوليس لم يستطع أن يحضر الاجتماع التأسيسى للحزب الإشتراكى الديمقراطى الروسى فى مدينة منسك عام ١٨٩٩م ، وبعد أن أفرج عنه فى عام ١٩٠٠م ذهب إلى سويسريا حيث التقى بليخانوف وغيره من الثوريين المنفيين وعمل معهم ، ثم إلى انجلترا حيث كان يقضى معظم وقته فى مكتبة المتحف البريطانى يقرأ ويكتب . وقام أيضا بزيارات للثوريين المنفيين فى المانيا وفرنسا . وكان أحد مؤسسى جريدة إسكرا "الشرارة" التى رأس تحريرها واتخذها هو وغيره من المهاجرين الماركسيين منبرا لنشر أفكارهم عن الثورة ، وكانت الجريدة تهرب بصفة منتظمة إلى داخل روسيا . وكان أهم أعماله فى هذه الفترة هو الكتيب الذى نشره فى عام ١٩٠٢م بعنوان "ماالعمل؟" والذى وضع فيه الأسس النظرية والتطبيقية لحزب ماركسى ثورى ، والتى ظل متمسكا بها إلى أن تحققت الثورة)[١].

و(فى بداية العام ١٩٠٢م عرف رجال المباحث مكان وجود صحيفة "الشرارة" . فكان من الضرورى مغادرة مدينة ميونيخ ، لأن البقاء فيها أصبح خطرا . فاختارت هيئة التحرير مدينة لندن مكانا جديدا لطبع الصحيفة . وإلى هناك انتقل لينين فى نيسان/ابريل عام ١٩٠٢م)[٢].

(وفى ربيع العام ١٩٠٣م انتقل لينين من لندن إلى جنيف ، التى نقلت إليها مطبعة صحيفة "الشرارة" . واستأجر مع أسرته بيتا صغيرا فى إحدى ضواحى جنيف)[٣].

---

(١) النار والجليد (٦٨) ، وانظر لينين (٩٩) وذكر أن الحكومة حظرت عليه الإقامة فى العاصمة أوالمراكز الصناعية من روسيا . وقرر الإقامة قرب بطرسبرغ فى بسكوف . وانظر المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٩٠) .

(٢) لينين (١١٤) .

(٣) المرجع السابق (١١٤-١١٥) .

وفى العام نفسه انعقد المؤتمر الثانى للحزب الإشتراكى الديمقراطى الروسى وحدث انقسام فى المؤتمر حول موضوع تنظيم الحزب وفاز لينين بأغلبية الأصوات وأصبح زعيما للأغلبية البلشفيك(١).

غير أن البقاء بعيدا عن الثورة والأوضاع الداخلية الروسية لم يكن يروق للينين ولأجل ذلك عاد إلى بطرسبرغ سنة ١٩٠٥م .

يقول طلاس : (أصبحت قيادة الحركة الثورية من الخارج أصعب فأصعب على لينين ، وكان يتلهف للعودة . وفعلا عاد إلى بطرسبورغ فى نهاية تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٠٥م ، وراح يقود الحزب والنضال الثورى بصورة مباشرة . وقام بعمل تنظيمى واسع : يقود اللجنة المركزية ، ولجنة بطرسبورغ للبلاشفة ، ويخطب فى الاجتماعات والمجالس العامة الحزبية ، ويجتمع بالعاملين الحزبيين القادمين من جميع أنحاء روسيا . وكان لينين يقود صحيفة "نوفاياجيزن" "الحياة الجديدة" البلشفية العلنية ، ويكتب كثيرا لها)(٢).

وكان لينين فى هذه الفترة نشطا فظل يؤلف الكتب(٣). وينتقل من بلد إلى آخر يقيم الندوات والاجتماعات فى الدعوة للثورة(٤)فسافر إلى لندن ، وعاد منها عام ١٩٠٧م وأقام فى فنلنده وكانت حينذاك جزءا من الإمبراطورية الروسية(٥)، وفى عام ١٩٠٨م سافر إلى جنيف(٦).

---

(١) انظر النار والجليد (٦٨) .

(٢) لينين (١٣٧) وانظر (٢٢) ، وانظر النار والجليد (٦٨) وذكر أنه بعد فشل ثورة ١٩٠٥م اضطر إلى العودة إلى المنفى فى سويسرا وفرنسا ، وانظر المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٩٠) وذكر أنه دخل روسيا عام ١٩٠٥م سرا ، وانظر كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٣٤) .

(٣) انظر النار والجليد (٦٨) .

(٤) انظر لينين (١٤٦) .

(٥) انظر المرجع السابق (١٤٩-١٥٠) .

(٦) انظر المرجع السابق (١٥٥) .

وفى عام ١٩١٠م سافر إلى استكهولم[١]، وفى العام نفسه سافر إلى باريس[٢]، وهكذا كان لينين نشطا فى الإعداد للثورة والتحضير لها .

وفى عام ١٩١٢م أسست صحيفة "البرافدا" وبدأ صوت الجماهير الغاضب على القيصر يظهر من خلالها[٣].

وفى العام نفسه نجح فى استبعاد المنشفيك من الإشتراك فى مؤتمر الحزب الإشتراكى الديموقراطى الروسى الذى انعقد فى براغ[٤].

وفى هذه الفترة كان لينين يكتب الكثير من المقالات فى صحيفة البرافدا بأسماء مستعارة ، ويتندر بوضع روسيا الإقتصادى المنهار ، ويفضح الطبقات المستغلة ، وأن الرأسمالية تعيق التطور خوفا على نفسها وكانت تلك المقالات فى الفترة مابين ١٩١٢-١٩١٤م حيث نشر لينين أكثر من ٢٨٠ مقالة[٥].

وفى عام ١٩١٤م اهتم لينين بالإشتراكية الأوربية ، وفى العام نفسه اعتقلته الشرطة النمساوية وأمرته بمغادرة البلاد ، فذهب إلى سويسرا وظل بعض الوقت مركزا على الكتابة ، وفى سنة ١٩١٥م عقد إجتماعا دعا إليه كل من استطاع حشده من الأوربيين الإشتراكيين لاستنكار الحرب التى يرى أنها لاتخدم إلا مصلحة البرجوازية ، ثم عكف على الكتابة والتأليف بعد ذلك[٦].

ثم دخلت سنة ١٩١٧م وكان العمل فيها على أوجه وحصلت الثورة التى كان يعد لها لينين ويخطط لها هو وأتباعه . وبدأ لينين يضع الخطط الجديدة والأفكار المتناسبة مع الحقبة الجديدة من تاريخ الثورة الإشتراكية وألف الكتب التى يحتاج إليها الأتباع فى تفسير الأوضاع الجديدة ، ومنها

---

(١) انظر لينين (١٧٢) .
(٢) انظر المرجع السابق (١٧٣) .
(٣) انظر : المرجع السابق (١٨٧) ، النار والجليد (٦٨) .
(٤) انظر النار والجليد (٦٨) .
(٥) انظر لينين (١٩٠-١٩١) .
(٦) انظر النار والجليد (٦٩) .

كتاب (الدولة والثورة) ، وتسلل لينين إلى بطرسبورغ سرا ، وقيل أن القوات الألمانية نقلته إلى الأراضى الروسية ، وعندما بدأ سياسته كان شعاره السلام ، والأرض ، والخبز ، وواجه عدة مصاعب منها تخلف الإقتصاد ، ولأجل ذلك اختط لنفسه سياسة جديدة[١]. كان يبتعد فيها عن الأفكار الماركسية التى حاول فرضها على الشعب الروسى عند قيام الثورة البلشفية .

نهاية لينين :

فى كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٢م أصيب لينين بنوبة قلبية[٢]، وفى بداية ١٩٢٣م ساءت صحته كثيرا[٣]، وفى ٢١ كانون الثانى/يناير ١٩٢٤م توفى لينين بنزيف فى الدماغ[٤]. ودفن بالساحة الحمراء وأصبح ضريحه مزارا للسكان السوفييت ورؤساء الدول الأجانب[٥].

بعض الأقوال عن لينين :

عمل لينين كثيرا على الظهور بسلوك فيه التودد للعمال من أجل الوصول إلى غاياته وتحقيق أهدافه .

يقول الشيوعى ف.أ.كاربينسكى : (إن إحدى الصفات النادرة كانت تجعل فلاديمير ايليتش رجلا من أبرز الرجال ، وهى حساسيته الخارقة ، وبشاشته ، وحسن أدبه ، وتواضعه ليس فقط مع الرفاق ـ سواء أكان الرفيق عضوا فى اللجنة المركزية أم عضوا عاديا فى الحزب ـ بل مع الناس

---

(١) انظر : لينين (٢٥٢-٢٥٣) ، النار والجليد (٦٩-٧٠) ، كارل ماركس وداعا أم خداعا (٣٤-٣٥) ، وذكر أن الألمان أرادوا منه التأثير على روسيا من أجل إقناع شعبها والقيادات فيها بمعارضة الحرب ضد المانيا . وانظر موسكو وإسرائيل (٣٥).

(٢) انظر لينين (٣٥٤) .

(٣) انظر المرجع السابق (٣٦٤) .

(٤) انظر : المرجع السابق (٣٦٥) ، النار والجليد (٧٠) .

(٥) انظر : النار والجليد (٧١-٧٢) ، لينين (٣٦٨) .

عموما ، سواء أكان شخصية مشهورة أو خادمة عادية)[١].

وقد كان يعيش فى حياته بسيطا ويقصد من ذلك كسب ود الناس ، حيث إن ذلك يجر إلى محبته ، وسماع أفكاره وموافقتها ، خاصة إذا وافقت مافى نفوسهم . وقد بذل لينين جهدا كبيرا فى سبيل الوصول إلى قلوب العمال وكسبهم فى صفه واعتبر أنهم القوة الحقيقية التى يمكن بناء الإشتراكية على سواعدها والأمثلة كثيرة فى حسن معاملته للعمال والتودد إليهم[٢].

وبعد هذا العرض المختصر لشخصية لينين نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : إن لينين يهودى وإن لم يكن فهو من سلالة يهودية ، وربيب لهم . ولولا هذه الحقيقة لما وصل الماركسيون إلى فرض سلطانهم بالقوة على روسيا . يقول د. عمر حليق : (هذه الميزة المزدوجة التى توفرت عند لينين وكونه روسيا ويهوديا فى آن واحد ، أعطت للبيعة الماركسية فى أوائل هذا القرن العشرين بعثا وانتفاضة هائلة . وبدون مساهمة (لينين) وأعوانه من اليهود الروس وغير الروس يشك أكثر المؤرخين فى أى احتمال لوصول الماركسيين فى أى مكان إلى سدة الحكم)[٣].

ثانيا : أن لينين مر بظروف قاسية منها مايتعلق بوضعه أو أسرته ، أو ملاحقة السلطة له مما ولد فى نفسه الحقد وحب الانتقام والثورة وكراهية الآخرين وحب السيطرة[٤].

وهذا يذكرنا بصاحب النظرية الأول ماركس .

---

(١) نقلا من كتاب لينين (٣١١) .

(٢) يمكن الرجوع إلى كتاب لينيننا ، انظر مثلا (١٤،١٥،٢٤،٣٢،٥٩-٦٢،٧٨،٨٠-٨١) ، وذكر فيه عدة أمثلة من القصص الدالة على اهتمامه الشديد بالعمال والفلاحين وأصحاب المهن والظروف القاسية ، ليتمكن من استخدام تلك الطاقات فى صفوف العمال ليحقق أهدافه . (٣٢-٣٦) .

(٣) موسكو وإسرائيل (٢٦-٢٧) .

(٤) ولبيان هذه الحقائق انظر كتاب لينين (٢٨) ومابعدها .

ثالثا : اهتمام لينين بتعليم نفسه وعكوفه على قراءة كتب ماركس وانجلز[١].

رابعا : حرصه الشديد على إتباع مبادىء ماركس والأخذ بها ، والإصرار على تطبيقها ، لولا أن الواقع أجبره على التراجع .

خامسا : أن المتتبع لتاريخ لينين يجد أنه قد استخدم الأساليب اليهودية ، والأفكار الصهيونية فى تحقيق أهدافه وغاياته فبدأ بنبذ الدين وحربه ، ثم السرية فى تنظيمه وقيادته الأعمال التى يقوض بها الأنظمة ويفسدها ليحقق غايته ، واعتبار أن الغاية تبرر الوسيلة ، وكذلك التلون والتشكل فى الأخلاق حتى ولو كانت داعية إلى الرذيلة ومحاربة للفضيلة من غش وخداع ونفاق وغير ذلك . إضافة لهذا اهتمامه بالعنصر النسائى لامن أجل حفاظها على بيتها وزوجها وأسرتها بل إخراجها إلى مشاركة الرجل والاختلاط به[٢].

وبعد هذا نصل إلى الحديث عن التراجع والتغيير إبان حكم لينين .

التغيير والتراجع الذى أحدثه لينين :

إن اصطدام الشيوعية بالواقع ورفضه لها جعل زعماء التطبيق الماركسى يتراجعون عن الأفكار النظرية ، ويعلنون مايخالفها من أجل السير قدما فى تحقيقها وتطبيقها .

وقد افتتح لينين هذه السلسلة التى كانت تستبعد تدريجيا الآراء والأفكار الماركسية . وأعلن لينين أن الماركسية ليست عقيدة جامدة بل مرشدا للعمل وعزا ذلك إلى ماركس وانجلز[٣].

---

(١) انظر لينيننا (٤٢-٤٤) .

(٢) انظر ماذكره طلاس فى كتابه لينين عن بعض الجوانب السرية فى حياة لينين وتنظيمه مثلا (١٥٠-١٥٨،١٥٩،٢٤٨،٢٤٩،٣١٤) .

(٣) انظر رسائل حول التكتيك (٦) .

كما أقر لينين بأن أفعاله تخالف ماكان عليه ماركس ، كما سلم الشيوعيون بذلك . وكان تبرير لينين والشيوعيين بأن ذلك التراجع فعلا يتطلبه الواقع . يقول دجيلاس : (إن آراء ماركس فى الثورة كانت مشفوعة بظروف سياسية معينة ، ومن غير الممكن تطبيقها عالميا . أما لينين فقد جاء ليحول آراء سلفه إلى مبادىء مطلقة ، مركزا عليها فى مؤلفه "اليسارية مرض الشيوعية الطفولى" . وبذلك يكون قد ابتعد كثيرا عن ماركس الذى كان يرى عدم ضرورة اشعال الثورة فى كل مكان .

ولقد أكد لينين فى مؤلفه المذكور ، بأنه لم يعد بالإمكان اعتبار بريطانيا العظمى دولة يمكن إبعاد شبح الثورة عنها ، لأنها تحولت فى ظروف الحرب العالمية الأولى إلى دولة عسكرية ، مما لايسمح للطبقة العاملة الانجليزية إلا أن تخوض غمار الثورة الدموية ، ضد النظام القائم .

ولقد وقع لينين فى تخبطه الفكرى ليس نتيجة قصوره فقط ، وعدم إدراكه أن الاتجاه العسكرى البريطانى الجديد ، لم يكن سوى ظاهرة مرحلية مؤقتة فرضتها التطورات السياسية الناجمة عن الحرب ، وحسب ، وإنما لعدم مقدرته كذلك على التنبؤ وتحليل آفاق التطور المقبل للديمقراطية الغربية ولطبيعة التقدم الإقتصادى فى دولة بريطانيا أو سواها من بلدان أوربا الغربية)[١].

ويقول لينين : (إننا لانعتبر أبدا نظرية ماركس شيئا كاملا لايجوز المساس به ، بل إننا مقتنعون ، على العكس ، بأنها لم تفعل غير أن وضعت حجر الزاوية لذلك العلم الذى يترتب على الإشتراكيين أن يدفعوه إلى الأبعد فى جميع الاتجاهات ، إذا شاؤوا أن لايتأخروا عن موكب الحياة)[٢].

لقد بدأت عملية التغيير منذ زمن لينين حيث اصطدم بالواقع وعجز عن التطبيق العملى للفكر الشيوعى . ومن هنا جاء بأفكار نسبت إليه دون

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٣-٢٤) .

(٢) نقلا من كتاب لينين (١٣) .

ماركس فى حين أنه كان ينبغى عليه أن لايخرج عن الفكر الماركسى كما أراده ماركس حتى ولو فرضه بالقوة . لأنه يقوم على الحتمية التاريخية!! ولكن إرادة الناس ، وإحساس لينين أن رغباتهم وميولهم لاتتفق مع قضايا الفكر الماركسى جعلته يقوم بالتعديل والتراجع فيها على قدر يسمح له بمواصلة ماكان قد بدأه من ثورة .

ويحصل هذا التراجع فى وقت لم يحن بعد الكشف الحقيقى عن زيف الأفكار الماركسية .

وفى إعتقادى أنه لولا هذا التراجع من لينين لما قامت للشيوعية قائمة ، بالإضافة إلى القوة والقهر مضافا إليه الوعود البراقة .

وكانت أفكار لينين تخالف وتناقض الأفكار الماركسية التى حددها ماركس فبدأ الترقيع من زمنه وسار من بعده على نهجه إلى أن جاء غورباتشوف وقام بآخر عملية جراحية وأسقط بها الفكر الشيوعى الذى تصادم مع الواقع والحقائق العلمية .

ومن الأفكار التى جاء بها لينين وخالف فيها ماركس :

أولا : مسألة الثورة .

فبعد أن كانت الشيوعية ترى أنه لابد من الثورة ضد الأفكار المخالفة للماركسية ، وأن الثورة ستؤدى إلى سيادة البروليتاريا ، نجد لينين يرى أن الإصلاح مقدم عليها .

وكان لينين فى بداية أمره يرى ماجاء عن مؤسسى الماركسية . وضرب مثالا بروسيا فقال : (قبل ثورة شباط ـ آذار (فبراير ـ مارس) ١٩١٧م ، كانت سلطة الدولة فى روسيا بيد طبقة قديمة واحدة ، هى طبقة النبلاء الملاكين الإقطاعيين ، وبعد هذه الثورة ، غدت السلطة بيد طبقة أخرى ، طبقة جديدة ، هى البرجوازية . إن إنتقال السلطة من طبقة إلى أخرى هو الدليل الأول ، الرئيسى ، الجوهرى على الثورة سواء بمعنى الكلمة العلمى الدقيق أم بمعناها السياسى والعملى)[١].

---

(١) رسائل حول التكتيك (٧) .

ويقول لينين : (إن الثورة مستحيلة دون وضع ثورى ولكن ليس كل وضع ثورى يؤدى إلى الثورة ...)

ويقول : (والواقع الجديد فى الوقت الحاضر بالنسبة لثورتنا هو ضرورة اللجوء ، فى قضايا البناء الإقتصادى الجذرية ، إلى طرائق العمل "الإصلاحية" ، التدريجية ، القائمة على الاحتراس واللف والدوران . إن هذا "الجديد" يثير جملة من الأسئلة ، والارتباكات ، والشكوك ، سواء منها النظرية أم العملية . مسألة نظرية : كيف نفسر الانتقال ، بعد سلسلة من أكثر الأعمال ثورية ، إلى أعمال "إصلاحية" فوق العادة ، فى الميدان نفسه وفى ظروف سير الثورة المظفر العام ، مأخوذة بمجملها؟ ألا يوجد ثمة "تخل عن المواقع" أو "إعتراف بالإفلاس" أو شىء ما مماثل ...)[١].

ويصل لينين إلى القول بأن الذين يظنون أن الثورة العالمية لاتقوم إلا عن طرق السبيل الثورى يكونون جانبوا الصواب وقد حكموا على قضيتهم بالفشل[٢]، حيث قال : (ماالذى يثبت أن الثورة "الكبرى" المظفرة العالمية لاتستطيع ولاينبغى لها أن تلجأ إلا إلى الطرائق الثورية؟ لاشىء يثبت ذلك هذا خطأ صريح إطلاقا . إن خطأ هذا الزعم واضح بحد نفسه ، إذا اعتمدنا على اعتبارات نظرية محضة ، ولم نترك ميدان الماركسية . وإن خطأ هذا الزعم لتؤكده أيضا تجربة ثورتنا)[٣].

ومما يدل على تراجع لينين فى مسألة الثورة عقده صلح بريست ، وهو دليل قاطع على تراجع لينين ، وعندما انتقد لينين فى صلحه ذلك أخذ يدافع عن سياسته ويبرهن أن الظروف تقتضى ذلك من أجل استغلال الهدنة والزحف ضد الأعداء[٤].

---

(١) رسائل حول التكتيك (٩٣) .
ثم ذكر لينين أن هذه إدعاءات من الرجعيين والمناشفة وغيرهم ولكنها حقائق دامغة تدل على فساد النظرية وعدم صلاحها وتراجع لينين فيها .

(٢) انظر المرجع السابق (٩٥) .

(٣) المرجع السابق (٩٦) .

(٤) انظر المرجع السابق (١٠١-١٠٢) .

وبالعموم فإن لينين بهذا الصلح أعلن التراجع عن مسألة الثورة ضد الأنظمة المخالفة .

واعترف بذلك السوفييت فقال ريابوف : (أثبتت الحكومة السوفيتية عمليا منذ أولى خطواتها طموحها إلى التعايش السلمى مع شعوب البلدان الأخرى . أنها وقفت دائما بحزم وإصرار إلى جانب الإعتراف دون قيد أو شرط بحق جميع الشعوب صغيرها وكبيرها ، بتقرير المصير والتطور السياسى المستقل . وألغيت المعاهدات غير العادلة ، الجائرة والتى عقدتها القيصرية والحكومة البرجوازية المؤقتة مع جملة من البلدان ...)[١].

وأين هذا من أقوال لينين وتصريحاته القائلة أنه لابد أن يكون الجميع إشتراكيون ، حتى ولو تم التضحية بثلاثة أرباع الشعب؟!!

لقد أضحت الثورة لدى لينين الاستعاضة بنمط جديد عن النمط القديم . ومن هنا جاء بأفكار جديدة حادثة تخالف النمط الذى كانت عليه النظرية الماركسية فقال بالإصلاح الزراعى والصناعى ، وأدخل بعض ماياقض الفكر الإشتراكى مثل الإعتراف فى هذا الإصلاح بالملكية والرأسمالية وغيرها[٢].

لقد كانت مسألة الثورة تمثل للينين أمرا مهما فى سبيل الوصول إلى تحقيق الإشتراكية ، فما باله تراجع عن ذلك ؟!!

ثانيا : إعلان لينين أن الثورة الإشتراكية يمكن أن تقوم فى بلد واحد وهذا على خلاف ماكان ينظره قادة الماركسية .

يقول طلاس : (عالج لينين بشكل جديد مسألة إمكان انتصار الثورة البروليتارية . فالماركسيون من قبله كانوا يرون أن انتصار الثورة الإشتراكية

---

(١) القوات المسلحة فى الاتحاد السوفييتى (٩-١٠) ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٥م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) انظر رسائل حول التكتيك (٩٤-٩٥) .

فى بلـد واحد غير ممكـن ، ويعتقـدون أن الثورة لايمكـن أن تنتصـر إلا فى وقت واحد فى جميع البلدان الرأسمالية الأكثر تطورا ، أو فى معظمهـا . أما لينين ، فعلى أســاس معطيـات التطـور الإجتمـاعى الجديدة ، استخلــص أن الثـورة الإشتراكية فى حقبة الإمبريالية ، يمكن أن تنتصـر فى بداية الأمر ، فى عدد قليل من البلدان الرأسمالية ، أو حتى فى واحد منها)[١].

ويضيـف إن لينين (أشار إلى أن الثـورة الإشتراكيــة لايجوز القيام بها بموجب توصيـة ، أو تنفيـذا لإرادة أحد . وإنما ستختمـر فى أوقـات مختلفة ، باختلاف البلـدان . وسيدخل كل بلد خصائصه فى هـذه أو تلك من أشكال التحويلات الإشتراكية ووتائرها . وكانت نظرية لينين هذه للثورة الإشتراكية تقـوى إيمان العمال بانتصار الثـورة الإشتراكية ، وتطـور بإرادتهـم وعزيمتهم الثورية . وسرعان ماأكدت الحياة كل التأكيد صحة تعاليم لينين العبقرية)[٢].

إنها عبقرية فى البعد عن تعاليم ماركس الإلحادية!!!

ومما يعتبر نتيجة لما سبق ، العدول عن تصدير الثـورة إلى الخارج ، والإكتفاء بدعم الأحزاب الشيوعية الموجودة فى تلك الدول[٣].

وعنـدما اصطدم لينين بالواقع رأى أن الثورة ستقـع ولكن بعد حين ، وأن المجتمعات تسير نحو الإشتراكية ولكن بالتدريج[٤].

---

(١) لينين (٢٢٦-٢٢٧) .

(٢) المرجع السابق (٢٢٧) .
ويظهـر انخداع المؤلف بالفكـر الإشتراكى واعتبر أن هذه عبقـرية وغـاب عنه أنه تراجع لعـدم إمكانية تطبيق الفكـر النظرى فى الحياة الواقعيـة ، ثم إنه من أبسط مايقال للينين ولطلاس وأمثالهما أن الدول الرأسمالية كما هى فى قوتها (المادية) بينما الإشتراكية فشلت وزالت فكيف يسمى أحدا من الزعمـاء الإشتراكيين عبقريا وكيف يعتبر هذا الفكر فكرا سويا .

(٣) انظر كارل ماركس وداعا أم خداعا (٣٧-٣٨) .

(٤) انظر مسائل بناء الإشتراكية (١٠٤-١٠٥) .

إن هـذه السيـاسة قد جعلـت لينين يقع فى تناقضـات مـع نفسه ، ومع الأفكار الماركسية(١).

ثالثا : مـن سمـات التغيير فى عصـر لينين ـ بعـد أن اصطـدم بالـواقع ورأى عـدم إمكانية توافق النبـؤات الماركسية مع انفجـار الثورة فى روسيا ـ القول بالوصول إلى الإشتراكية دون المرور بالرأسمالية .

وهذا إبطال للحتمية التاريخية التى نادى بها ماركس . ودليل على فساد النظـرية الماركسية . والذى حمـل لينين على القول بذلـك هو تخلف النظرية عن الواقع ، وقد اعتبر لينين أن هنـاك مرحلة إنتقالية معينـة بين الرأسمالية والشيوعية ، تمهد للثورة الشيوعية(٢).

وبدورنا نقـول للينين مـاهى هـذه المرحلـة؟!! وهـل وردت فى فكـر ماركس؟!! ثم هل كانت موجودة فى المجتمع السوفييتى قبل أن يصطدم لينين بالواقع؟!!

إن الإجابة الـوحيدة على ذلـك أن الأفكـار الماركسيـة تصـادم الفطـرة الإنسانية ، وترفضها الحقائق العلمية ، وتنقضها الظروف الواقعية .

رابعا : الإبقاء على الرأسمالية .

ومما عجز لينين عن تطبيقه وفرضه حتى بالقوة القضاء على الرأسمالية قضـاء نهائيا ، فقد كانت الفكـرة الماركسية ترى أن ثورة البروليتـاريا تقضى على كـافة الأنظمة الظالمة الـرأسمالية . أما لينين فقـد قـال برأسمالية الدولة وعمل على الإبقاء عليها بل وامتدحها واعتبرها خيرا مـن غيرها فقال : (إننا مولعون بالقول إن الرأسماليـة شر والإشتراكية خير ولكـن هـذا الإدعاء غير صحيـح فـالرأسمالية شـر إذا مـاقورنت بالإشتراكيـة ولكنهـا تعتبر خيرا إذا ماقورنت بأنظمة العصور الـوسطى التى كـانت فى منتهـى الـرجعية ...)(٣).

---

(١) انظر : رسائل حول التكتيك (٨) ، نشوء وإنهيار الإمبراطـورية الشيوعية (٤٠١) .

(٢) انظـر : التحـالف بين العمـال والفلاحين (٣٩٧-٣٩٨) ، الطـريق الـروسى إلى الإشتراكية (٢١-٢٢) .

(٣) نقلا من كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٠٢) .

ولـن نذهب بعيدا فى بيان حاجة السوفييت لهذه الفكـرة ـ واضعين فى أذهـاننا أنهـا تخالف فكر مـاركس ـ فقد كفانا لينين مـؤنة ذلـك . فيقول عن أهمية هذه الخطوة : (إن رأسمالية الدولة ستكون خطوة إلى الأمـام بالقياس إلى وضـع الأمور الراهن "أى آنذاك" فى جهـوريتنا السـوفيتية . فـإذا قامت رأسمالية الدولة عندنا بعد نصف سنة تقريبا ، فإن هذا سيكون نجاحا ضخما جدا وأوثق ضمانة بأن الإشتراكية سترسخ نهائيا عندنا بعد سنة وتصبح منيعة لاتقهر)[١].

ويقـول : (إن رأسمالية الـدولة كانت تمثل خطوة إلى الأمـام بالنسبـة لوضع الجمهورية السوفيتية الإقتصـادى آنذاك . إن هـذا الـرأى يبدو غريبا جدا ولـربما حتى أخرق لأن جمهـوريتنا كـانت ، حتى فى ذلـك الـوقت ، جمهورية إشتراكية ؛ فى ذلك الوقت ، كنا نتخذ كل يوم ، بأعظم التسرع ، ـ وأغلـب الظـن بنـافل التسـرع ـ مختلـف التـدابير الإقتصـادية الجديدة التى لايمكـن وصفهـا إلا بأنها إشتراكيـة . ومع ذلك ، رأيت آنذاك أن رأسمـالية الـدولة تمثـل خطـوة إلى الأمـام بالقيـاس إلى وضـع الجمهـورية السـوفيتية الإقتصـادى آنذاك . وقد أوضحت هذه الفكرة بعد ذلـك بمجرد تعداد عناصر النظام الإقتصادى فى روسيا . كانت هذه العناصر ، برأيى ، العناصر التالية :

(١ ـ الشكـل البطـريركى للـزراعة ، أى الأكثر بدائيـة ؛ ٢ ـ الإنتـاج البضـاعى الصغير (وهـو يشمـل كـذلك أغلبيـة الفلاحين ممـن يتـاجرون بالحبـوب) ؛ ٣ ـ الـرأسماليـة الخاصـة ؛ ٤ ـ رأسمـالية الـدولة ؛ و٥ ـ الإشتراكيـة . جميع هذه العنـاصر الإقتصادية كانت ممثلـة فى روسيا آنذاك . وقد أخذت على عاتقى آنذاك أن أوضح النسبة بين هذه العنـاصر . ثم أولا يجدر تقـدير أحد العنـاصر غير الإشتراكيـة ، أى رأسمـالية الـدولة ، تقديرا أعلى من تقدير الإشتراكية . وأكرر : أن هذا يبدو غـريبا جدا للجميع ، إذ

---

(١) مسائل بناء الإشتراكية (٤) .

يقدر عنصر غير إشتراكى تقديرا أعلى ، ويعتبر فى مرتبة أعلى من مرتبة الإشتراكية ، فى جمهورية أعلنت نفسها جمهورية إشتراكية . ولكن الأمر يتضح إذا تذكرتم أننا لم نعتبر اطلاقا النظام الإقتصادى فى روسيا شيئا متجانسا وعالى التطور ، بل أدركنا كامل الإدراك أن لدينا فى روسيا زراعة بطريركية ، أى أن لدينا الشكل الأكثر بدائية من أشكال الزراعة إلى جانب الشكل الإشتراكى . فأى دور إذن كان فى مستطاع رأسمالية الدولة أن تضطلع به فى وضع كهذا؟)[١].

ويرى لينين أن رأسمالية الدولة خير من النظام القائم فى دولته فيقول : (إن رأسمالية الدولة تكون بالنسبة لنا ولروسيا شكلا أكثر ملاءمة من الشكل الحالى رغم أنها ليست شكلا إشتراكيا . فماذا يعنى هذا؟ يعنى أننا لم نستعظم لاجنين الإقتصاد الإشتراكى ولامبادئه رغم أننا قد قمنا بالثورة الإجتماعية ؛ وخلافا لذلك ، أدركنا آنذاك إلى درجة معينة وقلنا : أجل ، كان من الأفضل لو أننا توصلنا أولا إلى رأسمالية الدولة ، ثم إلى الإشتراكية)[٢].

كما أن لينين اعترف بأن رأسمالية الدولة فكرة لم يتحدث أحد عنها ضمن المرحلة الإشتراكية ، وعلى هذا فهى فكرة زائدة على ماجاء به ماركس يقول لينين : (ليس هناك حتى ولاكتاب واحد تناول رأسمالية الدولة فى ظل الشيوعية . إذ لم يخطر حتى ببال ماركس أن يكتب كلمة واحدة عن هذا الموضوع)[٣].

وعندما كان لينين يعتقد مخالفة النظرية الماركسية ، بسياسته تلك فقد أكثر من الحديث عن رأسمالية الدولة وأهميتها وكونها خطوة لتحقيق

---

(١) مسائل بناء الإشتراكية (٤-٥) .
(٢) المرجع السابق (٥-٦) ، وانظر مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٩٥-٩٦) .
(٣) الصحافة (٣٦٧) .

الإشتراكية[١]، غير أن هذه السياسة تعتبر إبطالا للنظرية الماركسية فى جوانب عديدة منها كخروج الإشتراكية من الرأسمالية ، والحتمية التاريخية ، وانفجار الثورة بعد بلوغ المجتمع الذروة فى النظام الرأسمالى .

خامسا : بعد أن اصطدم لينين بالواقع ضرب بمبدأ دكتاتورية البروليتاريا عرض الحائط وهذا تراجع عن فكرة ماركس أو مخالفة النظرية للواقع لعجزها عن مسايرته . فإذا كان لينين قد استغل العمال ووعدهم بالأفكار النظرية الماركسية حتى ماإذا استقام له الأمر تخلى عن كل الوعود فهذا تراجع عن فكر ماركس .

وإذا كان أراد تطبيقه ولكنه لم يستطع ذلك نظرا لأن الواقع لم يكن ليستوعب هذا المبدأ فذلك دليل على فساد الفكر وكلا الأمرين أحدهما أسوأ من الآخر . وكان لينين يرى أن العمال لايستطيعون القيام بأعباء الحكم والدولة نظرا للجهل الذى هم فيه . فكيف إذا تسمى هذه الثورة ثورة العمال ؟!!

جاء فى كتاب حقيقة الشيوعية إن لينين (يرى العمال جهلة وغير مدربين وليس لهم أهلية للقيام بأعباء الحكم أو الاضطلاع بواجبات الدكتاتورية ، وقد أفسدتهم القرون الطويلة التى عاشوها فى ظل الرأسمالية وتركت رواسبها فى نفوسهم وفى أخلاقهم فجردتهم من كل أهلية للسلطة والتنظيم والإدارة الحازمة ومادامو كذلك فليس من المعقول أن يوكل الحكم إليهم فى هذه الفترة ... وإنما يجب أن تتولى هذه المهمة عنهم جماعة من الثائرين ذوى الوعى والأهلية ...)[٢].

وهذه الجماعة هى الحزب الشيوعى بدكتاتوريته .

---

(١) انظر على سبيل المثال : مسائل بناء الإشتراكية (٦٧-٦٨) ، رسائل حول التكتيك (١٠٢-١٠٣) ، تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٦) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٩٩) .

(٢) (٤٤) وانظر مابعدها .

إن الواقع الذى قابله لينين ، قد جعله يستبعد كثيرا من الأفكار الماركسية لمصادمتها الواقع ، ولرغبته هو وأفراد حزبه فى تحقيق الرغبات الذاتية والتوجهات الشخصية قبل أن يفكروا فى تطبيق أفكار ماركس التى لايمكن تطبيقها أساسا .

سادسا : من أبرز الأمور التى ظهر فيها تراجع لينين عن الأكفار الماركسية . إعلانه عن سياسته الإقتصادية الجديدة (N.E.B) .

وكانت الأحوال السوفيتية تتطلب مثل هذه السياسة خاصة بعد فشل النظرية الماركسية فى تحقيق ماكان معلقا بها . واعتبرت هذه السياسة ردة عن الفكر الماركسى . يقول لويس فيشر مبينا معنى السياسة الجديدة : (كانت ثورات الفلاحين واشتداد المجاعة وموات الإنتاج قد أرغمت الحكومة السوفيتية فى ربيع عام ١٩٢١م على وضع سياسة تدعى "السياسة الإقتصادية الجديدة" وهى خطة ترمى إلى إقرار الرأسمالية الأهلية ، وتبيح منح امتيازات لرؤوس الأموال الأجنبية)[١].

إن الأوضاع السيئة التى كانت تعيشها روسيا قد جعلت لينين يعلن عن سياسته الجديدة[٢]، حيث كان يتعين عليه (أن يفاضل بين العقيدة والواقع ، فاختار الواقع ، بعد أن اقتنع برفض الشعب لفكرة الشيوعية مالم تكن هناك مرحلة انتقالية يستطيع خلالها أن يتقبل أساليب تطبيق الإشتراكية)[٣].

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٦٠) ، وانظر : الإشتراكية العربية (١٧٦-١٧٧) ، العالم فى القرن العشرين (٧١-٧٣) .

(٢) لمزيد عن ذلك انظر : النار والجليد (٢٩) ، إفلاس الماركسية (٧١) .

(٣) النار والجليد (٢٩) .

وصرح لينين أن السياسة الإقتصادية الجديدة لم تقم إلا لتصحيح جملة من الأخطاء التى كانت موجودة[١].

ونحن لانعرف إلا الأفكار الماركسية موجودة حينذاك!!!

ونتيجة لهذه الآثار السيئة عمل لينين على التراجع والتغيير فى مبادىء الشيوعية .

(أ) (فرضت السياسة الإقتصادية الجديدة على القرى تسليم حصص محددة ، على طريقة فرض الضرائب ، ولاقت نجاحا باهرا ، إذ فى خلال فترة قصيرة نسبيا ، تراجعت المجاعة ، وإزداد الإنتاج واستعادت القرى هدوءها)[٢].

(ب) (أعطى الفلاحين حرية بفائض غلالهم واعترف لهم بحق الإرث . فنشطت التجارة الداخلية ، واستعادت المؤسسات الصناعية الصغيرة نشاطها . غير أنه أبقى على رقابة الدولة على المصانع الكبرى والتجارة الخارجية والمواصلات خوفا من عودة الطبقة البورجوازية إلى التسلط على إقتصاد البلاد)[٣].

(ج) (طلب قروضا من الخارج واستقدم الخبراء الأجانب من بريطانيين وفرنسيين وأمريكيين وألمان . فأمسى التنظيم الإقتصادى الجديد مزيجا من الشيوعية والرأسمالية ، عاد معه النشاط إلى مختلف القطاعات ...)[٤].

---

(١) انظر مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٧٢) .

(٢) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٤٢) .

(٣) النار والجليد (٣٠،٢٩) .

(٤) المرجع السابق (٣٠) ، وانظر الإشتراكية العربية (١٧٦) وذكر أن هذه السياسة الجديدة منحت بعض الشركات الأجنبية بعض الامتيازات وهى شركات رأسمالية ، كما يرى أن الإقتصاد أصبح خليطا من إشتراكية ونظام إقتصادى موجه ، ونظام رأسمالى .
وانظر العالم فى القرن العشرين (٧٤) .

(د) أعلن لينين سنة ١٩٢١م فى اجتماع الحزب العاشر إعادة الملكية الخاصة لبعض القطاعات الإقتصادية . كما سمح ببعض أنواع التجارة الخاصة[١]، واعترفت بقانون الربح ، والدوافع الذاتية من أجل تجاوز الأزمة التى حلت بالبلاد[٢].

ويرى لينين أن بداية السياسة الإقتصادية الجديدة تعود إلى رأسمالية الدولة ، فكتب يقول : (إن رأسمالية الدولة ستكون خطوة إلى الأمام بالقياس إلى وضع الأمور الراهن "أى آنذاك" فى جمهوريتنا السوفيتية . فإذا قامت رأسمالية الدولة عندنا بعد نصف سنة تقريبا[٣]، فإن هذا سيكون نجاحا ضخما جدا وأوثق ضمانة بأن الإشتراكية ستترسخ نهائيا عندنا بعد سنة وتصبح منيعة لاتقهر)[٤].

(هـ) أقر التعامل مع الرأسمالية ورؤوس الأموال الأجنبية . وهذا بحد ذاته اعتراف بالمذهب الرأسمالى ولعله يتضمن الإقرار بنجاح توجهه مقارنة بالإشتراكية فـ(فى ظل السياسة الإقتصادية الجديدة سمح بدخول رؤوس الأموال الأجنبية إلى البلاد تدعيما للاتصال التجارى مع الدول والمراكز الصناعية الغربية الرأسمالية وهى خطوة جريئة وخطرة ، إلا أنها - فى رأى لينين - كانت لازمة لتوفير العدد والآلات اللازمة لإقامة صرح الصناعة باعتبارها الهدف الأسمى للتنظيم الإقتصادى الذى ينبغى أن توفر كل السبل فى سبيل تحقيقه .

ويقول لينين فى هذا المعنى : (بدون الاستيراد من الخارج لن يتاح لنا إقامة صرح الصناعة ولذلك يجب علينا أن "نرشى" الرأسمالية بالأرباح التى

---

(١) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٧٧) ، أعده محرروا مجلة التايم الأمريكية ، قدم له ستروب ، ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م .

(٢) انظر : إفلاس الماركسية (٧١) ، تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٠-٣٨١،٣٨٢) .

(٣) كان هذا الكلام عام ١٩١٨م .

(٤) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٩٤) .

سوف تحققها منا وإننا لمضطرون إلى ذلك طالما أننا فى حاجة ماسة للوسائل المادية لإقامة إقتصادنا الصناعى بمعدل سريع للغاية)[١].

(و) ظهور اللامركزية . والاعتراف بالهيئات المستقلة .

إذ أنه (مع تطور السياسة الإقتصادية الجديدة تحول الإشراف الصناعى من المركزية إلى اللامركزية فانقسمت الصناعة إلى "هيئات مستقلة" كهيئة البترول وهيئة الفحم وغير ذلك من الهيئات . وارتبط بهذه الهيئات التى كانت عبارة عن وكالات للإنتاج منظمات سنديكالية تقوم بالشراء والبيع وتتولى التجارة الداخلية والخارجية . وحتى يمكن تنسيق نشاط الهيئات الاحتكارية اتسع المجلس الإقتصادى الأعلى ليضم ممثلين عن تلك الهيئات ، وبذلك أصبح يشبه مؤسسة عامة للصناعة)[٢].

(ز) الاعتراف بأهمية الحوافز الشخصية والمميزات الفردية ، وقد اعتبر الشيوعيون تلك التبدلات تطوير لفكر ماركس ولكنه تراجع عن فكره واستبداله بفكر آخر يتلاءم وفطر الناس ، حيث (كان لينين فى الفترة الأولى للسلطة السوفيتية قد طور وبرر نظريا مقولة أن نظام العمل فى ظل الإشتراكية يقتضى تلازم التشجيع المعنوى للعمل مع التشجيع المادى "وكذلك إلى حد ما عاصر القسوة مع الجزء القليل من عناصر المجتمع" لقد دعا إلى بناء الإشتراكية والشيوعية "لاعلى الحماس وحسب بل بمساعدة الحماس الذى ولدته الثورة العظمى . أو على المصلحة الشخصية ، والاهتمام الشخصى والحساب الإقتصادى ...")[٣].

(ح) قام لينين بالعمل ضد مبدأ المساواة ، وجعل التوزيع حسب الإنتاج ، ليرفع من القدرة الإنتاجية ، وعمل على التفاضل فى الأجور ، حسب العمل وأهميته ، ودرجة صعوبته ، وخطورته[٤].

---

(١) نقلا من كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٠٢) .

(٢) المرجع السابق (٢٠٤) .

(٣) ف.اى. لينين المؤلفات الكاملة المجد ٤٤ (١٥١) ، نقلا من كتاب تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٨) .

(٤) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٩-٣٩٠) .

(ط) أعلن لينين عدم إمكانية تطبيق دكتاتورية طبقة البروليتاريا ، وكذلك أعلن أنه (من المستحيل تحقيق الإشتراكية دفعة واحدة)[١]. وهذا ينافى التصور الماركسى القائل بالتغيير المفاجىء .

(ى) أعلن التراجع فى مبدأ إزالة الطبقات[٢].

وبعد هذا العرض فهل حقق هذا التراجع شيئا؟

إن الجواب على هذا التساؤل يقودنا إلى القول بأنه كل مابتعد لينين عن الفكر الماركسى كلما حقق نجاحا وثمارا عديدة ، وهكذا كل من جاء بعده . مما يدل على أن الفكر لم يكن صالحا للتطبيق لتصادمه مع الواقع الإنسانى . ومن ثمرات التراجع والتغيير الذى أحدثه لينين فى هذا الجانب التالى :

أولا : محاولة التخلص من الجمود والتأخر التكنولوجى[٣].

ثانيا : الاهتمام بالفلاح وتعليمه التعليم المهنى ، وتحسين وضعه المادى ليكون أكثر عطاء[٤].

ثالثا : الاهتمام بالصناعات الثقيلة والخفيفة ، مع العمل على تحسين أوضاع العمال فى هذين القطاعين[٥].

رابعا : الاهتمام بالنواحى الفردية للعمال فى الصناعة . يقول لينين : (يجب أن تكون الصناعة الإشتراكية منظمة على الصالح المادى الشخصى والعام وعلى مبادىء التعويض الذاتى والربح)[٦].

---

(١) التحالف بين العمال والفلاحين (٨٧) .
(٢) انظر النظم الإقتصادية المعاصرة (٣٨٦) .
(٣) انظر عن ذلك النظم الإقتصادية المعاصرة (١٩٩-٢٠١) .
(٤) انظر عن ذلك مسائل بناء الإشتراكية (٥٥-٥٦) .
(٥) انظر : مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (١٠٣-١٠٥) ، مسائل بناء الإشتراكية (١٤-١٥) ، لينين (٣٥٥-٣٥٦) ، تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٢-٣٨٤) .
(٦) نقلا من كتاب تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٢) .

سابعا : ومما يدل على تراجع لينين فى تطبيق الأفكار الماركسية هو إقراره القومية والوطنية قبل الثورة وبعدها . وجاء الاعتراف فى المؤتمر الذى عقد فى نيسان ١٩١٧م (إنه يجب الاعتراف لكل الأقوام ، التى هى جزء من روسيا ، بحق الانفصال عنها وإنشاء دول مستقلة ، وأن إنكار هذا الحق ورفض اتخاذ التدابير الكفيلة بتطبيقه عمليا يعنى تأييد سياسة الغزو والاستعمار ...)[١].

ثامنا : مما يدل على التراجع والتغيير زمن لينين كثرة الأقوال الواردة عنه وعن غيره فى هذه المسألة (التغيير والتراجع) ، وإن كانت تلبس أحيانا ثوبا آخر من التطوير ، وإقتضاء الظروف وماإلى ذلك غير أن حقيقتها أنها تراجع وعدول عن الفكر الماركسى بسبب عدم إمكانية تطبيقه . وأعلن لينين عن صعوبة تحقيق كثير من الأفكار الماركسية نظرا لعدم تقبلها[٢]، ومن هنا كان لابد من ارتكاب الحماقات . يقول لينين : (لاريب أننا ارتكبنا وسنرتكب جملة ضخمة من الحماقات . إن أحدا لايستطيع أن يحكم على هذا خيرا منى ويراه بجلاء خيرا منى . (ضحك) فلماذا نرتكب الحماقات؟ هذا مفهوم :

أولا : نحن بلد متأخر ،

ثانيا : التعليم فى بلدنا بمستوى الحد الأدنى ،

ثالثا : نحن لانلقى مساعدة من الخارج . فإن دولة واحدة من الدول المتمدنة لاتساعدنا . بل بالعكس . فإن جميعها تعمل ضدنا .

رابعا : بذنب من جهاز دولتنا . فقد أخذنا جهاز الدولة القديم ، وكانت تلك مصيبتنا)[٣].

ولاشك أن لينين قد حلم كثيرا كما كان المؤسس الأول للشيوعية الحديثة ماركس .

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (١١٦) ، وانظر العالم فى القرن العشرين (٧٧) .

(٢) انظر التحالف بين العمال والفلاحين (٢٥) .

(٣) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (١٠٧-١٠٨) .

وقد اعترف من سار على نهج لينين بأنه صاحب أفكار حالمة[١] وإن كانوا يقولونها على سبيل المدح إلا أن الواقع قد أثبت أن الحقيقة أبعد عنها كما بعد مابين المشرقين .

تاسعا : ومما يدل على فساد الأفكار الماركسية ، وعدم إمكانية تطبيقها وأن لينين استبدلها بغيرها ، هو التوتر داخل الحزب والخلاف الذى كان يحصل بين زعماء الثورة مما جعل بعضهم يترك الحزب الشيوعى .

ومما يزيد الأمر إيضاحا أن لينين جاء بأفكار جديدة نسبت إليه يطلق عليها اللينينية .

وبعد هذا العرض السابق أصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن التغيير والتبديل الذى أجراه لينين على الأفكار الماركسية كان عدولا عنها لعدم صلاحيتها للتطبيق ورفض الواقع لها . نظرا لما جرته من ويلات على الشعب .

ثانيا : فى إعتقادى أنه لولا هذه العدولات عن الأفكار الماركسية لما استطاعت الشيوعية أن تعيش هذه الفترة الزمنية رغم قصرها فى حياة الدول الكبرى ، زد على ذلك أن الناس فى بداية الثورة كانوا يتطلعون إلى الوعود التى منحت لهم فهم مندفعون فى تطبيق وتحقيق تلك الأفكار لينعموا بالجنة الموعودة فى ظل الشيوعية . ولولا هذا التطلع لاضطر لينين إلى الكفر النهائى بالماركسية . فجاءت هذه العدولات فى جوانب من الفكر دون غيره ، فالعمال مازالوا ينتظرون فهم فى أول الطريق!!

وعلينا أن نضع فى اعتبارنا ماكان يصرح به لينين من استخدام أقبح الأخلاق من أجل الوصول إلى الغايات .

ثالثا : ينبغى أن لاينخدع أحد بقولهم أو أقوال من تابعهم "أى الشيوعيين" بأن هذه الأفكار اللينينية أفكار تطويرية للماركسية ولو سلمنا جدلا بصحة ذلك فينبغى أن يستمر التطور حتى يطال الفكر الشيوعى بأكمله وهذا يتمشى مع قاعدة الشيوعية التى تقف عند المجتمع الشيوعى.!!

---

(١) انظر : لينيننا (٧٥) ، الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٤٢-٤٤) .

رابعا : ينبغى أن لايفهم من هذا التراجع ابتعاد لينين كليا عن الأفكار الماركسية بل كان مدافعا منافحا عنها رغم فسادها مبررا تراجعه فى بعض جوانبها .

خامسا : أن هذه العدولات والتراجعات قد ولدت الانشقاق فى صف الشيوعيين وأصبحت النظرية الماركسية قابلة للأخذ والرد ، والتفكير فى صلاحها وعدمه ، ومن هنا بدأت الثقة فى هذه النظرية تتزعزع مما حدا ببعض رجال الحزب إلى الكفر بها واعتبارها جحيما لايطاق والأمثلة على ذلك كثيرة(١).

سادسا : أن الشيوعيين اعترفوا بأن النظام الرأسمالى يحقق الرخاء الإقتصادى لأجل ذلك أعيد تطبيق بعض أفكاره حتى بعد قيام الإشتراكية ، وهذا تأباه الماركسية .

سابعا : أن تفجير الثورة البلشفية فى روسيا ثم مالحق ذلك من أحداث وتراجعات أمام سياط الواقع يأتى على الأفكار المادية ، والحتميات التاريخية فيجتثها من جذورها ، وهذا من أبلغ مايرد به على المادية الماركسية بشقيها .

ثامنا : أن لينين افتتح بوابة سقوط الشيوعية الماركسية بسياسته الجديدة وخاصة فى الإقتصاد ، كما أنه أزال القدسية عن الأفكار الماركسية ، وأدخل عليها التعديلات لتناسب الواقع ، وهذا بدوره فتح بابا لمن جاء بعده ليستمر فى الطريق ذاته خاصة بعد استبطاء تحقق النبؤات الماركسية ، وهذا يدعونا إلى الحديث عن التراجع والتغيير زمن ستالين .

---

(١) منهم من خالف فى بعض القضايا كتروتسكى ، ومنهم من كفر بها كلية كجيد ، وليونهارد ، ودجيلاس ، ومنهم من اختط لنفسه فهما فى تفسير آراء ماركس كما يشاء وأصبح له شيوعيته الخاصة به كماو .

المبحث الثانى
التراجع والتغيير زمن ستالين

جوزيف ستالين[١]:

واسمه الحقيقى فيسار بونوفيتش دجوغاشفيلى[٢]

لمحة مختصرة عن حياته :

ولد عام ١٨٧٩م فى مدينة غورى من جورجيا[٣]، وفى عام ١٨٨٨م انتقل إلى المدرسة الثانوية الدينية فى تفليس ، وبعد سنة عمل كاتبا فى تفليس وبدأ ممارسة العمل الثورى سنة ١٩٠٠م ، وفى سنة ١٩٠٣م انضم إلى جناح البلاشفة ضد المناشفة وكان تلميذ لينين ومكنه ذلك من أن يصبح عضوا فى اللجنة المركزية الأولى للحزب البلشفى سنة ١٩١٢م[٤].

ومع بداية الثورة البلشفية كان ستالين منفيا فى سيبريا حيث دامت فترة اعتقاله من ١٩١٣-١٩١٧م ونفى أكثر من سبع مرات[٥].

وقد مارس ستالين دورا كبيرا فى وصول البلاشفة إلى السلطة كما يرى ذلك العسلى حيث اعتقل أكثر من مرة ، وكان مصرا على أن يصل لغايته وكسب شهرة فى وسط العمال وشارك فى عدة مؤتمرات منها مؤتمر (تامرفورس) للإشتراكية الديمقراطية عام ١٩٠٥م وتبع ذلك مؤتمر استكهولم سنة ١٩٠٦م ، ثم فى لندن سنة ١٩٠٧م ، وعندما وجد أن الحزب بحاجة إلى الأموال قام بتنظيم عملية سطو على مصرف فى (تفليس) وأشرف على تنفيذها

---

(١) لقب مشتق من الكلمة الروسية (ستال) ومعناها الفولاذ وحمل هذا اللقب سنة ١٩١٣م . انظر : ستالين (١٣) ، النار والجيد (٧٣) .

(٢) انظر النار والجليد (٧٣) .

(٣) انظر المرجع السابق (٧٣) .

(٤) انظر ستالين (٢١) .

(٥) انظر : النار والجليد (٧٣) ، ستالين (٢٢) .

وكانت علاقاته مع لينين فى سويسرا تزداد ، وتزايدت علاقاته بالقواعد العمالية فتم انتخابه عام ١٩١٢م عضوا فى اللجنة المركزية الأولى للحزب الشيوعى ، وانتقل إلى (بترسبورغ) للعمل فى مكتب اللجنة المركزية وشارك فى تحرير صحيفة النجم والبرافدا . وفى هذه الأثناء لم تغفل أنظار الحكومة عن ستالين وأصدرت الحكم عليه بالنفى إلى سيبيريا من يوليو ١٩١٣م حتى آذار مارس ١٩١٧م ، وفى هذا العام عاد ستالين إلى (بترسبورغ) ليمارس نشاطه فى الثورة التى طالما عمل على النفخ فى رمادها حتى تتوهج ، وقد كثرت فى بداية الثورة الاجتهادات فى تطبيق نظريات ماركس ، فكان لابد من مجابهة المأزق فدعى إلى عقد المؤتمر السادس لحزب العمال الإشتراكى الديمقراطى الروسى فى (بتروغراد) وحضره ١٥٧ عضوا أساسيا ، يحق لهم التصويت ، و١١٠ أعضاء استشاريين ولم يحضر لينين حيث كان مختفيا فى مكان سرى ولم يحضره تروتسكى لأنه كان فى السجن ، ومثل لينين والبلاشفة ستالين ودارت مناقشات شديدة حين كان يعتقد بعضهم أن روسيا لم تنضج بعد لقيام الثورة الإشتراكية[١]، فى حين كان آخرون يعتقدون أن العمال قوة لايمكن الاعتماد عليها[٢]. ونجح[٣]جناح لينين فى وضع منهج لإقامة سلطة شعبية تمهد لانتقال السلطة للإشتراكيين ، وحمل المؤتمر اسم (مؤتمر التوحيد) وتم انتخاب لجنة مركزية ، من ٢١ عضوا ، و١٠ أعضاء احتياطيين وجاء ترتيب ستالين وفقا لعدد الأصوات التى نالها الخامس[٤].

---

(١) قلت لأن هذا خلاف نبؤة ماركس .

(٢) قلت فكيف إذا قامت الثورة باسمهم .

(٣) قلت وماتم هذا النجاح إلا بالابتعاد عن فكر ماركس .

(٤) انظر : ستالين (٤٧-٥٣) ، النار والجليد (٧٣) ، إلا أنه يرى أن دور ستالين فى التمهيد لقيام الثورة كان ثانويا .

أسرته :

(كان والده إسكافيا فقيرا[١]، بينما كانت والدته تعمل فى منظفة للثياب ، كانت أمنية والديه أن يكون كاهنا ، ألحق بأحد المعاهد الدينية إلا أنه سرعان مافصل من المعهد لأفكاره ونشاطاته وآرائه الثورية المناهضة لتعاليم الكنيسة)[٢].

بعض أقوال لينين فى ستالين :

لقد كان لينين صاحب نظرة فى ستالين نظرا لما عرفه عنه ، ولاشك بأنه أعرف به من غيره ، ويذكر لينين القوة التى وصل إليها ستالين ولكنه لايعرف كيف يستخدمها ، ولأجل ذلك طالب بإزاحته عن منصبه .

يقول لينين : (لقد جمع الرفيق ستالين فى قبضته قوة هائلة بعد أن أصبح أمينا عاما للحزب ، ولست متأكدا من أنه يعرف كيف يستخدم هذه القوة بالحذر الكافى)[٣].

ويقول عنه : (ستالين وقح جدا ، وعيبه هذا لايطاق إذا كان يحتل منصب السكرتير العام . لذا فإننى أقترح على الرفاق أن يجدوا طريقة من الطرق لإزاحته عن هذا المنصب ، وتعيين رجل آخر مكانه . رجل أكثر

---

(١) يذكر ستالين عن أبيه أنه (كان صانع أحذية وكان يشرب كثيرا ، حتى أنه اضطر إلى بيع نطاقه من أجل بعض الكحول ـ الشراب) .
ويقول : (باع والدى نطاقه مرات عدة ، وعندما كنت لاأزال فى المهد ، كان يغمس اصبعه فى كأس من النبيذ ويجعلنى أمصها ، كان يعلمنى الشراب وأنا لاأزال فى المهد) . ستالين (٢٧٧) .
ولاغرابة بعد ذلك أن بعض رفقاء ستالين (قد طلبوا من الخادمات أن يقدمن لهم مياه مصبوغة بدلا من النبيذ ، إذ لم يكن باستطاعتهم مجاراة ستالين فى الشراب) . ستالين (٢٧٥) .

(٢) النار والجليد (٧٣) .

(٣) ستالين (٣٣) .

صبرا ، وأوفر أدبا ، وأكثر اهتماما بالرفاق ، وأقل تقلبا)[١].

وقد شهد الاتحاد السوفييتى فى عهد ستالين توسعا كبيرا فى السيطرة على دول أوروبا الشرقية ، كما امتلك الاتحاد السوفييتى القنبلة الذرية ، وأصبح بلدا صناعيا[٢].

وكان ستالين متسلطا (عرف بالدكتاتور الأحمر حكم الاتحاد السوفييتى حكما فرديا مطلقا بعد إزاحته لكل رفاقه إما بالنفى أو بالاغتيال أو بخلع كل سلطاتهم)[٣].

ومن أبرز الأحداث التى شهدتها الحقبة الستالينية حركات الإبادة والتطهير فى الاتحاد السوفييتى ، وخاصة عام ١٩٣٦-١٩٣٧م[٤]، ولم تكن هذه الحركات ضد فئة معينة بل تجاوزت حتى عمت أفراد المجتمع بأكمله بما فيهم الجنرالات والقيادات العليا التى مكنت الزعماء الشيوعيين من الاستمرار فى القيادة[٥]، لقد (وصل أعداد ضحايا الحقبة الستالينية إلى أكثر من ١٢ مليون ضحية بحجة تطهير البلاد من المعادين للثورة...)[٦].

والذى حمل ستالين على ذلك هو دكتاتوريته ، وتسلطه ، ومحاولته الإنفراد الكلى بالسلطة ، هذا بالإضافة إلى شكه فى الآخرين وذلك نتيجة الحماقات التى كان يرتكبها ويعلم بأنها تثير الآخرين .

---

(١) الموسوعة العربية للدراسات والنشر (٣/٣١٣-١٣٦) ، نقلا من كتاب ستالين (٣٣) ، وانظر لينين (٣٦٢-٣٦٤) .

(٢) انظر النار والجليد (٧٤) ، ولمزيد عن سنوات ستالين انظر ستالين (٢١-٢٤) .

(٣) النار والجليد (٧٣) .

(٤) انظر عن ذلك : النار والجليد (٧٤،١١٧-١١٨) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٨٦) .

(٥) انظر عن ذلك : ستالين (٢٧٤) ومابعدها ، لاللرأسمالية لا.. للماركسية نعم للإسلام (٦٠-٦٢) .

(٦) ستالين (٢٩٦) .

فوقع ضحية الشك ، وضحى بالآخرين من أجل اطمئنانه . ووصل به الأمر فى الشك أنه لايتناول طعاما إلا إذا قام شخص آخر بتذوقه[١].

فرغم الدكتاتورية والقسوة إلا أن الزعيم الفولاذى كان يعيش فى جو من الخوف والهلع والرعب وذلك لتفشى الظلم وانعدام العدل .

وكان الرجل يقوم بحفظ نفسه بدرجة كبيرة فى الكرملين فالأقفال تزداد مرة بعد مرة ، البوابة الرئيسية مغلقة بأنواع من المزالج ، بالإضافة إلى الحواجز ، وثمة سوران وضعت بينهما كلاب الحراسة ، وأجهزة الإنذار الكهربائية[٢].

لقد أصبح ستالين يشك فى كل أحد حتى فى نفسه فقال : (انتهيت ، إننى لاأثق بأحد حتى ولابنفسى)[٣].

وإذا كانت الشرطة السرية ، هى التى ساعدت ستالين على تحقيق دكتاتوريته ، وقيام حركات الإبادة والتطهير ، فإن ستالين قام بتصفية قياداتها خوفا على نفسه[٤]. واستمر ستالين فى القيام بحركات الإبادة ، وفى ظل مرحلة جديدة منها وبالتحديد عام ١٩٥٣م فارق ستالين الحياة[٥].

---

(١) انظر ستالين (٢٧٤) ، ولمزيد عن حالة ستالين تلك انظر نفس المرجع (٢٨٥) ومابعدها .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٧٢) .

(٣) المرجع السابق (٢٨٣) .

(٤) انظر العالم فى القرن العشرين (١٥٨-١٦١) ، ولمزيد عن حياة ستالين الشخصية وانفراده بالأمر دون الآخرين انظر : ستالين (٢٥٧) ومابعدها ، العالم فى القرن العشرين (١٥٠-١٥١) ، وعن التصفيات وحركات الإبادة انظر : ميخائيل غورباتشوف ، سيرة ذاتية مفصلة (٤٨-٤٩) ، العالم فى القرن العشرين (١٨٩-١٦٠) .

(٥) انظر : ستالين (٧٤) ، النار والجليد (٧٤) .

وأختم هذه النبذة المختصرة عن حياة ستالين وشخصيته بهذا التصوير لأحد أعضاء الحزب الشيوعى اليوغسلافى ، بل الرجل الثانى فيه ، وهو ميلوفان دجيلاس حيث قال فى مقالة له سنة ١٩٤٠م : (هل هناك سعادة أكبر وشرف أعظم من شعورك بأن أقرب رفيق وأحب صديق إليك هو ستالين؟ لقد حقق ستالين ملحمة الحرية والاخوة بين الشعوب .. إنه رجل الدولة الوحيد الذى يهتم بمشاكل غيره قبل مشاكله . إنه مثالى : يعلم كل شىء ويرى كل شىء . وكل ماهو إنسانى قريب إلى قلبه ، عزيز عليه) .

وبعد هذا التمجيد المفرط لستالين يقول بعد أربع سنوات : (إنه كان واحدا من أقسى الحكام وأشدهم استبدادا فى تاريخ البشرية ، على أن ذلك لم يقلقه قط ، وذلك لاقتناعه بأن ينفذ حكم التاريخ . ولم يكن يزعج ضميره شىء رغم أن الملايين قد أهلكت باسمه وبالأوامر التى أصدرها . ورغم أنه أعدم الألوف من معاونيه بتهمة الخيانة . وماكان ذنبهم إلا عدم ثقتهم بأنه كان يقود الشعب إلى السعادة والحرية والمساواة ، لقد كان صراعه نحو السلطة طويلا ، غير أنه انتصر فى النهاية . والانتصار هو المقياس الوحيد للحق . إذا ماهو الضمير؟ هل هو موجود؟ لم يكن للضمير مكان فى فلسفته فكيف فى أعماله)[١].

---

(١) نقلا من كتاب النار والجليد (٧٥) .

التراجع والتغيير زمن ستالين :

بادىء ذى بدء نقول إن ستالين قد اختلف مع لينين فى بعض القضايا ومن هنا حذر لينين منه .

وحدثت فى الاتحاد السوفييتى فى عهد ستالين أحداث تدل دلالة واضحة على التراجع فى الفكر الماركسى تحت مطارق الواقع الذى يسير وفق السنن الربانية التى لاتتبدل ولاتتغير .

ويمكن إيجاز أبرز العدولات والتراجعات فى الحقبة الستالينية فى التالى:

أولا : اعتراف ستالين بأن الفكر الإشتراكى لايمكن أن يقوم فى بلد مثل روسيا فقال : (إنه من المحال بناء الإشتراكية فى بلد معزول ومتخلف مثل روسيا)[١].

ومعنى ذلك أن ماحصل من إدعاء لإقامة الفكر الإشتراكى فيها لايمكن أن يقبل باعتراف قواد الثورة البلشفية وزعماء الاتحاد السوفييتى . وهذا يؤكد أن النبؤات كان مصيرها الفساد ، وهذا حكم على الفكر فى الأسس التى قام عليها ، فما تفرع منه من باب أولى .

ثانيا : ورغم هذا الرأى لستالين إلا أنه اختلف مع تروتسكى فى مسألة قيام الإشتراكية فى بلد واحد . وزاد الخلاف بينهما حدة وعزل ستالين الاتحاد السوفييتى عن العالم الخارجى وراح يعمل لتكوين الإشتراكية[٢]. رغم أنه قال بعدم صلاحية هذه الدولة لقيام ذلك الفكر فيها ، ورغم أن النبؤة الماركسية تقول بعدم قيام الثورة الإشتراكية فى دولة واحدة .

ثالثا : الاعتراف بالملكية الفردية .

ولاشك أن الإقرار بهذه الملكية يعنى نسفاً للإشتراكية من أصولها ، لأن ماركس وانجلز اعتبرا الماركسية أو الشيوعية هى القضاء على الملكية الفردية ، فحينما يأتى النظام ويعترف بها فمعنى ذلك أنه كفران بالفكر ولايمكن أن يفسر هذا الإقرار إلا بذلك رغم ماجاء عن الشيوعيين .

---

(١) ستالين (٣٢١) .

(٢) انظر إفلاس الماركسية (٣٦-٣٧) .

وقد اعترف ستالين بثلاثة ألوان منها :

ملكية الدولة ، الملكية الجماعية (الكولخوز) ، الملكية الفردية .

فسمح ستالين بامتلاك البيوت وثلث فدان يلحق بالبيت أشبه بالحدائق.

وسمح للفلاحين بالتصرف بحرية فى منتجات هذه المزارع الصغيرة الخاصة .

والذى أذهل الروس هو أن المزارع أصبح ينتج من هذا القدر الضئيل الذى سمح له به أضعاف أضعاف ماينتجه فى المزارع التابعة للدولة أو المزارع الجماعية ، وذلك للحافز الفردى والرغبة فى الربح . ولكن ستالين أرهب من فى روسيا لكى لايتلفظوا بهاتين الكلمتين الربح والحافز الفردى[١].

وفى عام ١٩٤٥م نشرت صحيفة فيتسمان رسالة خاصة من موسكو جاء فيها (أعلن مجلس السوفييت الأعلى للجمهوريات الإشتراكية السوفيتية قانونا جديدا للميراث يهدف إلى حماية الملكية الفردية وحماية حق المالك ، ويقوى فى نفس الوقت الروابط الأسرية ، وقد وصف هذا التطور الأخير بأنه جزء من الاجراءات التى تتخذها الدولة السوفيتية لحماية حقوق المواطنين ، وقد قصرت القوانين السابقة حق الميراث على الأبناء المباشرين وأبناء التبنى والزوج والزوجة والمحتاجين ممن كان يعولهم الميت ، وأما القانون الجديد فإنه يتسع حتى يشمل الأبوين والأخوات ويعين طريقة جديدة لتوزيع الأملاك التى يوصى بها صاحبها ، فيقدم الأقرباء المباشرين على سواهم وهو كذلك يبيح للأفراد أن يهبوا أملاكهم لشخص أو أكثر أو للهيئات العامة بشرط ألا يحرموا الأطفال الصغار أوالورثة ممن لاعمل لهم من حقهم المقرر وعند عدم وجود أى وارث قانونى يكون للمالك الحق فى ترك ماله لأى فرد يشاء)[٢].

---

(١) انظر إفلاس الماركسية (٧٢-٧٣) .

(٢) الإسلام والإشتراكية (٢٢٣-٢٢٤) نقلا من كتاب الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٢٠٢) ، وانظر إسلام لاشيوعية (٧٧) .

ومما يدل على الاهتمام بالحافز الفردى وجود الحركة السخانوفية نسبة إلى سيخانوف ، حيث ابتدع طريقة جديدة لزيادة إنتاج الفحم بواسطة إعادة تنسيق عمل العمال فى المنجم ، فأخذت الدولة تكافىء العمال المتفوقين بالأوسمة والمكافآت . وضمهم إلى عضوية الحزب . وهذه الحركة ليست إلا عودة إلى الحافز الفردى . وإن لم يكن بالإمكان إعلان ذلك صراحة لأن هذا محرم فى الفكر الماركسى[١].

ولاشك أن لاهتمام ستالين بالصناعة والزراعة أثر واضح فى التراجع عن مبدأ القضاء على الملكية الفردية ، وقال ستالين عن هذا الاهتمام (نحن اليوم نحقق أمرا ، يمكنه إذا نجح ، أن يقلب العالم ويحرر كل الطبقة العاملة ... ويجب أن نتقدم بشكل تستطيع معه البروليتاريا العالمية أن تقول : هذه هى طليعتنا ، وهذا هو وطننا)[٢].

(لقد أولت الخطة الخمسية الأولى (١٩٢٨-١٩٣٣م) الصناعة الثقيلة كل اهتمام ؛ فاستقدم الخبراء الأجانب وجلهم من الأمريكيين . مما خلق نواة صناعة ثقيلة جاءت على غرار مثيلتها فى الولايات المتحدة ، وانتظمت ضمن مجموعات ضخمة (كومبينات) . وشجعت المعاهد لإعداد المهندسين والمعاهد الفنية لتهيئة العمال ، فارتفعت نسبة الأيدى العاملة إلى ٣٥ بالمئة بعد أن كانت ١٧ بالمائة قبل الحرب . وفى الخطة الخمسية الثانية تعززت الصناعة الخفيفة بغية رفع مستوى المعيشة وتنشيط المواصلات والتجارة . وكوفىء العمال المتفوقون بإعطائهم أجورا أعلى . واختفى المبدأ القائل (لكل حسب إنتاجه) ... وقفزت أرقام إنتاج الفحم والصلب والنفط والكهرباء بسرعة مذهلة ، وتعددت كل الحدود المرسومة لها فى الخطة الخمسية . وأعطيت المصانع مزيدا من الاستقلال والحرية ، وبات يديرها ثلاثة هم : المدير العام ، والمدير الفنى وممثل عن العمال)[٣].

---

(١) انظر : إفلاس الماركسية (٧٣-٧٤) ، النار والجليد (٣٢) .
(٢) النار والجليد (٣٢) .
(٣) المرجع السابق (٣٢) .

وهكذا يعترف بالاستقلالية فى الإدارة ، وإعطاء الحوافز الفردية مما يدل على رفضه لكثير من المبادىء بهذه السياسة منها المساواة ، ومبدأ التوزيع ، والإقرار بالطبقية .

رابعا : رفض ستالين مبدأ الأممية بصورة واضحة واستعاض عنه بمبدأ آخر يناقضه تماما وهو (الوطنية) .

وعندما كانت الأفكار الماركسية تتصادم مع الفطرة الإنسانية ، اضطر ستالين تحت وطأة الواقع وأثناء الحروب أن يلغى هذه الفكرة وأن يعلن بأن الوطن مقدم على كل شىء حيث قال : (على الجندى أن يتعلم فن الحرب ملء ضميره ، وأن يكون جنديا شريفا شجاعا انضباطيا وغيورا وأن يستجيب لأول نداء من أجل الدفاع عن الوطن واتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية برجولة وحكمة ، بنبل وشرف ، مضحيا بدمه وحياته من أجل النصر الكامل على العدو)[١].

وقال عن الحرب ضد المانيا عام ١٩٤١م بأنها (حرب تحرير) ، (حرب من أجل حرية بلادنا) ، وقال عام - ١٩٤٣م - عن ضحايا الحرب أنهم (الأبطال الذين سقطوا فى النضال من أجل حرية الوطن الأم) ، وأعلن ستالين (بأنه لن يتخلى عن شبر واحد من التراب السوفييتى للمعتدين النازيين)[٢].

وقد أطلق الاتحاد السوفييتى على الحرب ضد ألمانيا (الحرب الوطنية العظمى) ، وفى هذا إبطال لمبدأ الأممية ، وإقرار لفطرية الإنتماء . شعر القادة الشيوعيون بذلك أم لم يشعروا . وكانت الانتصارات التى حققها الاتحاد السوفييتى فى حروبه ضد أعدائه بسبب الاندفاع فى الدفاع عن الوطن[٣].

---

(١) نقلا من كتاب ستالين (٢٧-٢٨) .
(٢) نقلا من المرجع السابق (٩٨) .
(٣) انظر عن ذلك القوات المسلحة فى الاتحاد السوفييتى (٣٨-٤٠) .

خامسا : أن ستالين عارض جملة من الأفكار الماركسية واللينينية وحكم عليها بعدم الصلاحية وأعلن التراجع عنها إما قولا أو فعلا ، ومن هذه الأفكار التى تراجع عنها :

(أ) دكتاتورية البروليتاريا : حيث أصبحت الدكتاتورية لفرد واحد ، وتسلط ستالين وأصبح الأمر له دون غيره ، وفى هذه السياسة إبطال للزعم القائل بأن هذه الثورة ثورة للعمال وأن الدكتاتورية لهم . وإذا كانت النظرية قد قالت ذلك فإن ستالين قد أبطل بفعله مانسجته النظرية .

(ب) الاعتراف والإقرار بوجود الطبقات فى المجتمع السوفييتى بل وفى قيادة المجتمع من حزب وجيش ، وبهذا يبطل ستالين فكرة الشيوعية القائلة بالقضاء على الطبقات.

(ج) الاعتداد بالقومية والوطنية ، وهذا مما ترفضه الشيوعية حيث قالت بالأممية .

(د) اهتمام ستالين بالدولة وتقوية سلطتها وإبرازها ، وهذا يتعارض مع المبدأ القائل بزوالها كما جاء عن ماركس وانجلز .

(هـ) ويلزم من الإقرار بالطبقات إلغاء مبدأ المساواة .

ويتحدث ليونهارد عن هذه الأفكار التى جاء بها ستالين وخالف ماركس وانجلز ولينين فيها فيقول : (كنا فى الجانب العملى ، نؤيد الطريق السوفييتى ، وندعم الإجراءات السوفيتية .

كلما زاد الارتباط بسلطة الاحتلال السوفييتى ، وبالاتحاد السوفييتى وضوحا ، كلما اشتد ألم "المغص السياسى" ، واتسع الحديث حول هذا الموضوع بين "الأصدقاء المقربين" . آلمنا التفكير فى احتمال أن نتحول إلى الطريق ، الذى سلكه الاتحاد السوفييتى فى عهد "ستالين" ، ووجهت الأسئلة إلينا ـ نحن الذين شاهدنا الوضع فى الاتحاد السوفييتى بأعيننا ـ من بعض القياديين الآخرين ـ فى جلساتنا الخاصة ـ عن حقيقة الوضع فى الاتحاد السوفييتى . ولم ينقطع التقاء اللاجئين السياسيين السابقين ، مع المناضلين فى

الحركات السرية فى المانيا ، ومبادلة الأفكار التى تقلقهم حول بعض الاجراءات . هل كانت معاهدة "هتلر ـ ستالين" اتفاق ضرورى فى السياسة الخارجية فقط؟ ماذا كان الوضع بالنسبة لتحرير غرب "اوكرانيا" وروسيا البيضاء؟ ألم يمتنع تحقيق ذلك نتيجة الاتفاق مع المانيا الهترلية؟ ألم يكن ذلك ـ يخجل المرء من الحديث فى هذا الموضوع ـ فى حقيقته ، تقسيما استعماريا لبولندا؟ والحرب فى فنلندا؟ ألم يكن الاتحاد السوفييتى ، هو الذى هاجم هذه الدولة؟ ألم تكن عبادة الزعيم ، والتركيز المستمر على "قيادة ستالين العبقرية" و"عصمته من الخطأ" شيئا يتعارض مع الأفكار الأصلية لحركة إشتراكية حية؟ ألم يطالب "ماركس" عند انضمامه لـ"رابطة الشيوعيين" أن يزال من النصب كل مايوحى بسيطرة العقائد الخرافية؟

ألم تبين "روزا لوكمسبرج" ظهور الأخطاء "التى ترتكبها الحركات العمالية الثورية الحقيقية ، وهى من الناحية التاريخية أكثر خصوبة وأعلى قيمة من عصمة أحسن اللجان المركزية من الخطأ؟ ألم تتعارض النظريات ، التى يطبقها "ستالين" فى الحزب مع "أفكار ماركس" و"انجلز" عن حزب العمال؟ "كل الأعضاء اخوة متساوون ، ويجب عليهم مساعدة بعضهم فى كل المواقف" .

هذ ماجاء فى دستور رابطة الشيوعيين التى أسسها "ماركس" و"انجلز" . ولكنا نقرأ عند "ستالين" : (يوجد فى صفوف حزبنا ـ إذا نظرنا إلى طبقة القيادة ـ عدد يتراوح بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ زعيما كبيرا ، هؤلاء هم هيئة اللواءات فى حزبنا . ثم يأتى بعد ذلك عدد يتراوح بين ١٠٠,٠٠٠ و١٥٠,٠٠٠ تحت القيادة ، ويمكن أن نطلق عليهم هيئة مساعدى الضباط فى حزبنا) .

لم نستطع ـ فكريا ـ هضم هذا التعارض الواضح بين الرأى "الماركسى" القائل بالأخوة داخل الحزب ، وبين التقسيم "الستالينى" لأعضاء الحزب إلى ضباط ومساعدى ضباط .

ألم تتعارض أيضا دعوى زعامة الحزب الشيوعى السوفييتى الانفصال

عن "الدور السابق" للاتحاد السوفييتى تعارضا مباشرا مع أسس الحركة العمالية ومع مبادىء "ماركس" و"لينين"؟...

ألم يقل لينين فى ثورة نوفمبر سنة ١٩١٧م : (إنه لشرف كبير للبروليتاريا أن تبدأ .. سلسلة الثورات ، غير أن التزام أفكار البروليتاريا الروسية فى انتقاء البروليتاريا من بين عمال البلاد الأخرى غريب علينا) .

وسياسة "ستالين"؟!

ألم تكن المبالغة فى كل ماهو روسى ، وإظهار الشعب الروسى على أنه "زعيم كل الأمم" ابتعادا كليا عن مبادىء الإشتراكية فى السياسة الدولية؟ ناقشنا موضوع "التطهير" مرارا ، وخاصة حركة التطهير الكبرى فى الأعوام ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨م . مضى عليها عشر سنوات الآن ، ومع ذلك كنا نعود إلى مناقشتها بين الحين والآخر .

ألم يكونوا رفقاء "لينين" فى النضال ، وأبطال ثورة أكتوبر ، حصدتهم وزارة الداخلية الروسية؟

ألم يكن مئات الآلاف الذين وقعوا ضحايا حركة التطهير الكبرى ، من المناضلين فى الحرب الأهلية ، ومن قدامى البلشفيين؟ أيمكن أن يكون من المصادفة أن يحرم الاجتماع على البلشفيين القدامى قبل التطهير ، إذا رجعت اليوم بذاكرتى إلى "أحاديثنا الخاصة" فى ذلك الوقت ، فأعتقد أن "مغصنا السياسى" يتلخص فى النقاط التالية :

(١) خضوع الاتحاد الإشتراكى الألمانى ـ أو الحزب "الستالينى" فى بلد آخر ـ للاتحاد السوفييتى ، والحزب الشيوعى السوفييتى ، معارضا بذلك مساواة الحركات العمالية فى كل البلاد ، تلك المساواة التى طالب بها "ماركس" و"انجلز" .

(٢) الدعوى "الستالينية" بأن تقتفى البلاد الديمقراطية الشعبية ـ ويقصد بها الدول الشرقية ، الدائرة فى محور الاتحاد السوفييتى ـ طريق الاتحاد السوفييتى معارضة بذلك إعلان "ماركس"و"انجلز" بأن التطور إلى الإشتراكية فى كل بلد ، يجب أن يسير مطابقا للظروف الإقتصادية والسياسية والثقافية الخاصة بتلك البلد .

(٣) المبدأ الذى نادى به "ستالين" بتقوية سلطة الدولة فى الاتحاد السوفييتى وفى بلاد الكتلة الشرقية ، معارضا بذلك نظرية "ماركس" و"لينين" ، التى تقرر بأن التطور الإشتراكى ، يؤدى إلى إضعاف الدولة ، ثم فى النهاية إلى انزوائها .

(٤) السلطة المطلقة لمديرى مؤسسات الدولة فى الاتحاد السوفييتى ، وفى بلاد الكتلة الشرقية ، وهو أمر يتعارض مع ماطالب به"ماركس" و"لينين" من أن قيادة المؤسسات الصناعية الإشتراكية يجب أن تكون فى يد مجالس عمالية منتخبة .

(٥) دعوى عصمة الزعامة العبقرية من الخطأ ، وخرافة السيادة فى "الستالينية" التى تتعارض مع الاستعداد والنية الخالصة فى معالجة المشاكل بحرية تامة ، كما نجدها فى مؤلفات "ماركس" و"انجلز" ، وكذلك عند "لينين" .

(٦) اضطهاد حرية الرأى فى الحرب ، التى وضحت عندنا بصفة خاصة عندما قرأنا فى مؤلفات "لينين" عن المناقشات الحرة المفتوحة كما كانت العادة سابقا فى الحزب البلشفى .

(٧) التمييز الكبير بين القياديين فى الحزب والدولة ، وفى المجالات الإقتصادية ، وهو يعارض نظرية "ماركس" و"انجلز" و"لينين" التى تقضى بأنه لايجوز لأحد فى المجتمع الإشتراكى أن يتقاضى مرتبا أعلى من أجر العمل الذى يقوم به .

(٨) الإزدياد المستمر فى إجراءات الاضطهاد وكبت الحريات ، وهو يعارض المبادىء التى وضحها "ماركس" و"انجلز" بأن تحديد الحريات يجب أن يكون إجراء مؤقتا فقط ضد مستغلى الطبقات ، ثم يرفع بعد تجريدهم من سلطتهم ، ويستبدل بإجراءات تضمن الحرية الكاملة لكل العاملين فى الدولة)[١].

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٦٥-٥٦٩) ، وعن وجود الطبقات فى المجتمع السوفييتى زمن ستالين انظر حقيقة الشيوعية (٤٧-٤٨) ، وعن وجودها فى الجيش انظر (٤٩) ، وعن وجودها فى الحزب انظر (٥٠-٥١) .

ويبين آرثر كوستلر التحول فى سياسة الاتحاد السوفييتى وعقائده زمن ستالين حيث أبقاه ذلك التراجع فترة أكبر فى الحزب فيقول : (غادرت روسيا السوفيتية فى خريف عام ١٩٣٣م ، ولكنى بقيت فى الحزب أربعة أعوام أخرى ونصف عام حتى أوائل ربيع ١٩٣٨م حين تزلزل إيمانى زلزالا شديدا وإن بقيت بطيئا فى إدراك الأثر الذى حدث فى نفسى ، لكثرة الحواجز والاستحكامات التى كانت مقامة فى أطواء جوانحى ، لاستيعاب كل صدمة ، وامتصاص كل مفاجأة ، كما جاءت عدة أحداث خارجية ، وعرتنى جملة أحاسيس ، فأعانتنى على المضى فى طريقى والبقاء فى الحزب ، وأخرت الهزة الأخيرة ، والقطيعة الفاصلة . وكان أهم تلك الأحداث انعقاد المؤتمر السابع للكومنترن فى عام ١٩٣٤م ، فقد وضع المؤتمر سياسة جديدة تنافى السياسة القديمة على خط مستقيم ، ولكن تتولى الزعامة ذاتها مهمة التنفيذ ، كما هى العادة ، وكانت الخطة الجديدة تقضى بوضع العبارات القديمة والكليشيهات الثابتة ، وكل ماكان يشير إلى صراع الطبقات ، ودكتاتورية البروليتاريا وفى مخزن الأشياء البالية ، والمخلفات المهلهلة ، والاستعاضة عنها بواجهة طريفة مبتكرة مزدانة بالأزاهر والرياحين ، تدعى "الجبهة الشعبية للسلام ومناهضة الفاشية" ، وفتحت أبوابها على مصاريعها لكل الأخيار وسليمى النية من إشتراكيين وكاثوليك ومحافظين ووطنيين .

واقتضى المنهج الحديث الاستخفاف بالفكرة القائلة إن الشيوعيين ينادون بالثورة والعنف ، ووصفها بأنها كلام مزيف أريد به التخويف والتنفير منها ، ووشاية دسها على الشيوعية الرجعيون من طلاب الحرب والمحرضون على إثارة نيرانها .

وهكذا لم نعد ندعو أنفسنا "بلاشفة" ولا"شيوعيين" أيضا ، بل بدأ الحزب ذاته يعبس ويتجهم كلما سمع هذه الكلمة تجر على ألسنة العامة وأفواههم قائلا إننا لسنا إلا قوما صرحاء أمناء محبين للسلام)[١].

---

(١) المعبود الذى هوى (٨٦) .

التغيير على الصعيد الخارجى زمن ستالين :

يمكن اعتبار لينين هو الذى بدأ سياسة التراجع فى الفكر الماركسى على الصعيد الخارجى وذلك بعقده صلح بريست . ولكن اتضحت معالم هذا التراجع ورسمت له سياسة واضحة زمن ستالين . حيث باشر هذا التراجع بنفسه وجلس مع قادة وزعماء الدول الرأسمالية ـ التى ترى الأفكار الماركسية عدم الالتقاء معها بحال ـ للتفاوض حول عدد من القضايا التى شهدتها الساحة العالمية حينذاك ووقعت بين الاتحاد السوفييتى وتلك الدول عدة اتفاقيات مما يدل على التراجع الفعلى والمباشر فى الفكر الماركسى على صعيد العلاقات مع الأنظمة الأخرى ، ويمكن ابراز أهم ماأقدم عليه ستالين من تراجع مخالفا به الأفكار الماركسية ، فى التالى :

أولا : الاتجاه إلى سياسة التعايش السلمى[١].

اتجه ستالين إلى سياسة التعايش السلمى وعقد المعاهدات مع الدول الأخرى ومنها الرأسمالية ، وهذا يتنافى مع الثورة ضد البرجوازية ، ومع العمل على تقويضها ، وهو اعتراف ضمنى بأن الحتمية التاريخية قد بطل مفعولها نهائيا . بل إن ستالين أخذ يعمل جنبا إلى جنب مع الرأسمالية لتحقيق مصالحه . وكانت الأحداث على الساحة العالمية فى سنوات الحرب العالمية الثانية وماتلاها تدل على ذلك وتؤيده .

ثانيا : إقرار ستالين وتوقيعه ـ فى المؤتمرات التى كانت تعقد بينه وبينه زعماء الدول الرأسمالية ـ على بقاء الرأسمالية وسيطرتها على كثير من المناطق ، وبسط سلطانها على جزء كبير من دول العالم ، وهذا دليل على أن الفكر الماركسى القائل بإنهيار الرأسمالية وقيام الإشتراكية على أنقاضها فكر باطل مبنى على أوهام وتخيلات . كما دل على أن الواقع ينقض الفكر الماركسى من أساسه .

---

(١) سيأتى الحديث عن مفهوم ذلك المصطلح فى الفصل الثانى من الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

ثالثا : تصريحات ستالين المتعددة والمتكررة باحترام الولايات المتحدة حيث قال : (إننا نحترم الفعالية الأميركية التى تبرز فى كل الميادين : الصناعة ، التقنية ، الأدب ، الحياة)[١].

ويعلق ميشيل هيلر على ذلك بقوله : (إن السياسة الخارجية السوفيتية ماتزال بعد خمسة وأربعين عاما فى الوضعية التى وصفها ستالين : الاحترام للأميركيين والتعاطف مع الألمان)[٢].

رابعا : احترام القوى الأخرى والتى تتخذ من النظام الرأسمالى عقيدة لها ، أو لاتسير فى فلك الاتحاد السوفييتى حيث وافق ستالين على الحياد مع اليابان بعد أن ذكرت أن أهدافها العسكرية تكمن فى المحيط الهادى وجنوب شرق آسيا وليس فى شمالها الشرقى[٣]. كما وقع ستالين إتفاقية دفاع مع فرنسا عام **١٩٣٥م**[٤].

وبعد هذا العرض المختصر نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن ستالين فى فكره وتنظيره للفكر الماركسى قد تراجع كثيرا عما كان عليه حال لينين . فكان الأخير قد أكثر من التأليف والتنظير وشرح أفكار ماركس وتبريرها بينما كان ستالين بعيد جدا عن نهج لينين ، لأن ستالين اصطدم بالواقع أكثر من سلفه .

ثانيا : لولا القوة والهقر لما استطاع ستالين فرض بعض مبادىء الماركسية كالتأميم ، ومع ذلك فقد اعترف بما يناقضه وأقر الملكية ، وإن كان فى نطاق ضيق ، وعلى هذا لو سمح للشعب بالتعبير عن آرائهم وحرياتهم لكفروا بالمذهب الماركسى كله . ولكن كانت بعض التراجعات والعدولات التى تدخل على بعض الأفكار والمبادىء بمثابة التسكيت لثورة الشعب وسخطه.

---

(١) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٤٠٣) .
(٢) المرجع السابق (٤٠٣) .
(٣) انظر العالم فى القرن العشرين (١٦٣) .
(٤) انظر المرجع السابق (١٦٤) .

ثالثا : لقد امتد أثر الفكر الدكتاتورى الستالينى لمن جاء من بعده ولأجل ذلك كان الخوف يطارد الناس كلما تذكروا حملات الإبادة والتطهير مما كان له أثر واضح فى تأخر إنهيار الفكر الشيوعى الماركسى . علما بأن من جاء بعد ستالين (خروشوف) قد فضح شيئا من أفعاله وجرائمه ، وهذا بعد وفاة ستالين بالطبع .

رابعا : أن الحقبة الستالينية أفقدت الأفكار الماركسية كثيرا من معالمها ، مما جعل الصين يتهمون السوفييت بأنهم كفروا بمبادىء ماركس .

خامسا : ثبت من العرض السابق رجوع ستالين فى سياسته الداخلية والخارجية عن المبادىء الماركسية التالية :

(أ) الأممية .

(ب) إلغاء الطبقات .

(ج) الثورة ضد الرأسمالية (التعايش السلمى) .

(د) زوال الدولة .

(هـ) المساواة .

سادسا : أن ستالين فتح المجال على مصراعيه فى مسألة التعايش مع الرأسمالية ، رغم دكتاتوريته ، كما شكلت سياسته التسلطية مرتعا خصبا لخلفه من أجل انتقاد النظام الشيوعى . كما أدت سياسته تلك إلى تذمر الشعب وشدة شكهم فى النظام ، وصلاح الفكر القائم عليه . هذا بالإضافة إلى أن ستالين قد جوع الشعب حيث وجه موارد البلاد إلى التصنيع الحربى فى حين كانت الأسواق السوفيتية تفتقر إلى كثير من الحاجيات والضروريات الغذائية . وكل هذا أدى بدوره إلى أن يكون سلف ستالين أكثر تراجعا وابتعادا عن تطبيق الفكر الماركسى فى عالم الواقع ، وهذا ماسيظهر لنا من خلال المبحث التالى .

المبحث الثالث
التراجع والتغيير زمن خروشوف

لمحة تاريخية مختصرة عن حياته :

نيكيتا خروتشوف ، ولد عام ١٨٩٤م فى كالينوفكا بمقاطعة كورسك الواقعة على الحدود الفاصلة بين روسيا وأوكرانيا . عمل فى البداية راعيا ، ثم عمل فى مصانع الصلب والحديد .

وفى عام ١٩١٨م انتسب إلى الحزب الشيوعى ، وحارب إلى جانب الحرس الأحمر أثناء الحرب الأهلية ، وفى عام ١٩٢٢م انتسب إلى الجامعة العمالية وأصبح أمين سر الخلية الشيوعية فيها . وبعد الانتهاء من الجامعة العمالية عمل فى الحزب الشيوعى الأوكرانى .

وفى عام ١٩٢٩م أوفد إلى موسكو للدراسة فى أكاديميتها الصناعية .

وفى عام ١٩٣١م عاد إلى أوكرانيا وعمل سكرتيرا لعدة لجان حزبية .

وفى عام ١٩٣٢م انتخب عضوا فى الحزب الشيوعى .

وفى عام ١٩٣٧م انتخب عضوا فى اللجنة المركزية ، وفى عام ١٩٣٨م انتخب سكرتيرا أولا للحزب الشيوعى الأوكرانى .

وفى عام ١٩٣٩م اختير عضوا فى المكتب السياسى وهو منصب رفيع يعتبر صاحبه من القادة الفعليين فى الاتحاد السوفييتى .

وفى عام ١٩٤٣م منح رتبة فريق ، مع بقائه على العمل سكرتيرا أولا للحزب الشيوعى الأوكرانى .

وفى عام ١٩٤٩م انتقل إلى موسكو وأصبح أحد سكرتيرى اللجنة المركزية للحزب .

وفى عام ١٩٥٢م انتخب عضوا فى المجلس الرئاسى للجنة المركزية ولأمانة سر اللجان .

وفى عام ١٩٥٣م وبعد وفاة ستالين انتخب خروشوف أمينا عاما للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى[١].

وظل فى الحكم حتى الخامس عشر من تشرين الأول ١٩٦٤م وفى ساعة متأخرة منه صدر بيان جاء فيه إن (اللجنة المركزية ، استجابت لطلب الرفيق نيكيتا سرغيفيتيش خروتشوف باعفائه من مهامه كأمين عام للجنة المركزية للحزب الشيوعى وكعضو فى رئاسته المركزية ، وكرئيس لمجلس الوزراء السوفييتى بسبب تقدمه فى السن وتدهور حالته الصحية ، وانتخبت ليونيد ايلتيس بريجنيف وكان خروتشوف حينها يمضى أجازته فى جزيرة القرم)[٢].

و(بعد الإطاحة به مباشرة فى أكتوبر ١٩٦٤م أمضى نكيتا خروشوف بقية حياته فى بيت تملكه الدولة فى قرية تبعد عشرين ميلا إلى الغرب من موسكو تحت رقابة مخففة . كان حرا فى التجول فى حديقة البيت وحده ، وفى التسلل أحيانا من فتحة السياج والسير فى طريق الغاب المحيط بالقرية أو على ضفاف نهر موسكو القريب حيث يقابل المتقاعدين ، والقرويين المحليين ، والقادمين لقضاء إجازاتهم ، فيحادثهم ويتصور أحيانا معهم)[٣].

ومات سنة ١٩٧١م فى شهر أيلول/سبتمبر فى الحادى عشر منه[٤].

وتكاد تتفق الآراء على أن أبرز الأسباب التى كانت وراء تنحية خروتشوف هى :

---

(١) انظر النار والجليد (٧٩-٨٠) .
(٢) المرجع السابق (١٢٦) ، وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٢٩) .
(٣) من مقدمة كتبها جارولد شختر لكتاب الوصية الأخيرة لخروشوف (١٣) .
(٤) انظر النار والجليد (٨٣) .

(١ ـ إنفراده بالسلطة خلافا لمبدأ القيادة الجماعية الذى أقر بعد وفاة ستالين وفى المؤتمر العشرين للحزب .

٢ ـ فشل سياسته الزراعية .

٣ ـ الإساءة إلى هيبة الاتحاد السوفييتى إبان أزمة الصواريخ الكوبية .

٤ ـ الإساءة إلى هيبة منصبه الحزبى والحكومى بتصرفات مظهرية أفادت منها الدعايات الغربية ...

٥ ـ تفاقم الخلافات وتبادل الاتهامات مع قيادة الحزب الشيوعى الصينى)[١].

التراجع والتغيير زمن خروشوف :

يعتبر زمن خروشوف أكثر تغييرا وتبديلا فى العقائد الشيوعية ، حيث تنفس الشعب إلى حد ما الصعداء بعد العهد الستالينى . حتى أن دجيلاس اعتبر أن مجرد اختيار خروشوف للرئاسة بحد ذاته يعتبر تراجعا فى السياسة التى كان ينتهجها ستالين ، فيقول : (جاء خروتشوف إلى الحكم كرجل شعبى غير مثقف ، وتفسير ذلك أن الطبقة البيروقراطية الجديدة ، لم تعد بحاجة إلى الثوريين والعقائديين المتصلبين أمثال لينين وستالين . لذا فإنها باتت تكتفى باستقدام الشخصيات القيادية البسيطة ... الذين يستشف من أحاديثهم بأنهم ممثلين للفكر المحدود ، الذى يتسم به رجل الشارع . إن الطبقة البيروقراطية الجديدة الحاكمة قد شعرت بالتعب يمتد لأوصالها نتيجة عمليات التطهير العقائدية ، والدورات التثقيفية غير المحتملة ، وبدأت تطمع إلى العيش الهادىء . كما رأت أن من الضرورى بالنسبة لها ـ بعد أن توطدت أسسها وتعززت مكانتها ، أن تحمى ذاتها من الزعماء الكبار . إن الطبقة

---

(١) النار والجليد (٨٣) .

الجديدة لم تجرؤ على التحرك فى ظل الحكم الستالينى ، ولاسيما عندما كانت ضعيفة وتترعرع تحت حمايته ، بل وعندما كانت التدابير العنيفة أمرا ضروريا لمعالجة أولئك الذين يشكلون خطرا انحرافيا ، حتى بما فيهم أولئك الأعضاء الذين ينتمون للبيروقراطية السياسية ذاتها)[١].

ومن هنا يمكن إبراز أهم نقاط التغيير زمن خروتشوف فى الآتى :

أولا : إقرار الملكية الفردية ، والارتقاء بالحافز الفردى ، وتحقيق الحرية بصورة أكبر .

(أ) يقول الدكتور عمر حليق : (ففى السياسة الداخلية تعمد خروتشوف العزوف عن الصرامة القاسية التى مارسها "ستالين" ، وخاصة فى بطشه بالمجتمع الزراعى ، وتقييده الحريات العامة ، وتسليطه الأجهزة البوليسية على الناس . واهتم خروتشوف بالشئون الزراعية . فالمجتمع الروسى زراعى فى أغلبيته ، والعقيدة الماركسية لاتطمئن إلى ولاء المزارعين ، لأنهم أشد الناس حرصا على الملكية الفردية . وقد لقى ستالين أعنف المقاومة من المزارعين عند تطبيقه الملكية الجماعية ، وجعل الفلاح عاملا للدولة لاعاملا لنفسه . وبسبب سوء التصرف هذا ظل الاتحاد السوفييتى عاجزا عن تغذية نفسه ، رغم الأراضى الواسعة الفسيحة الهائلة التى يملكها فأدخل خروتشوف برنامج الإنتاج الكثيف من السماد ، وأطلق بعض الحريات العامة للمزارعين فى الملكية الفردية ، وأصر على تحسين الإنتاج الصناعى لسد حاجة الشعب من سلع الاستهلاك ، كالبرادات ، والسيارات ، وأجهزة المطبخ وكذلك اهتم بمشاكل الإسكان فى المدن والقرى ، كما أوصى بضرورة التوسع فى وسائل النقل وتحسين طرق المواصلات ، فالاتحاد السوفييتى متخلف تخلفا شنيعا بالقياس إلى الصناعة الثقيلة)[٢].

---

(١) الطبقة الجديدة (٧٣-٧٤) .

(٢) دور الماركسية فى الإشتراكية العربية (٣٨-٣٩) .

ويقول غيردروغ عن الإصلاح الزراعى وتخفيف الوطأة على الفلاحين ومنحهم مزيدا من الحرية زمن خروشوف : (أثر وفاة ستالين ، أخذت حياة الفلاحين بالتحسن شيئا فشيئا ، لم تكن لديهم بطاقة هوية ولايستطيعون كالاقنان مغادرة أرضهم فجرى تخفيض الحصص التى يتوجب على الفلاحين والعمال الزراعيين تسليمها سنويا إلى الدولة ، وبوشر بتطوير المكننة الزراعية ومنحوا مزيدا من حرية التقرير ، فلم تعد السلطات المركزية فى موسكو هى التى تقرر ماينبغى زراعته فى الأراضى الكولخوز ، بل سلطات المناطق المعنية . فى نهاية الخمسينات ، ألغيت محطات الآليات والجرارات وبيعت الآليات إلى الكولخوزات ، وقد شكل ثمن شرائها المرتفع عبئا جديدا على كواهلها . وتم تحسين نظام تدوين المحاصيل الزراعية . وأعلن عن توفر محاصيل جيدة فى أراضى كازاخستان ، التى جرى استغلالها بناء لتعليمات خروتشوف ، الأمر الذى خفف عن كاهل الزراعة فى المناطق الأخرى)[١].

(ب)الاهتمام بالحافز الفردى ومسألة الربح وعائد الإنتاج للعامل والتقليل من المركزية فى التخطيط ومنح مديرى المؤسسات الحرية فى إدارتها مع مراقبة هذه الحرية . وقد اعتبر التراجع فى الأمور المذكورة سابقا عودة إلى الرأسمالية . كما اعتبرها الصينيون ردة عن المبادىء الماركسية . وقد جاءت هذه التغيرات فى خطاب كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى فى أواخر شهر سبتمبر ١٩٦٥م أمام الاجتماع الموسع للجنة المركزية لحزب الشيوعى السوفييتى بعد أن انتقد المرحلة الماضية وذكر تردى الدخل وقلة الإنتاج وقلة التشجيع المادى[٢].

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٢٠-١٢١) .

(٢) انظر بعض ماجاء فى خطابه عن الفترة السابقة فى كتاب الإشتراكية العربية (١٧٩) ومابعدها .

(وبعد أن أبرز خطاب كوسيجين هذه النقائض انتقل إلى مااستقر عليه الرأى لتفاديها فى المستقبل وعرض الأمور الآتية التى تعتبر جوهر التطوير الجديد :

أولا : الاهتمام بالحوافز المادية على نحو أكثر فاعلية بحيث يشعر العمال بأثر العائد المادى فى حياتهم المعيشية مباشرة . ويجب أن يرتبط الحافز المادى بإنتاجية العامل الفعلية .

ثانيا : الاهتمام بعنصر الربح باعتبار أن الربح يشكل معيارا - فى حالات كثيرة - يقاس به نجاح المشروعات الصناعية .

ثالثا : ضمان وتأكيد مبدأ الإدارة الذاتية لكل فرع من فروع الصناعة واعتبار الإدارة الذاتية جزء لايتجزأ من التنظيم الإقتصادى .

رابعا : الاهتمام الجدى بحساب التكاليف تجنبا لما يحدث من ضياع وزيادة فى الكلفة الإنتاجية بغير مبرر .

خامسا : التقليل من مركزية التخطيط وعدم "إرباك" المؤسسات الصناعية بالقرارات الكثيرة التى تأتيها من الجهات المركزية والاكتفاء بأقل قدر ممكن من هذه القرارات ، مع ترك الحرية لمديرى هذه المؤسسات فى إدارتها ومحاسبتها عن هذه الحرية ؛ كل ذلك فى إطار نظام عام للتخطيط يسير على أساس خطط خمسية)[1].

ثالثا : ومن التراجع الواضح فى السياسة السوفيتية زمن خروتشوف فتح باب النقد وحرية الرأى والتعبير . ولكن لكون الشعب لم يعتد ذلك الأسلوب فقد ظل الخوف ملازما له فترة من الزمن .

وكان الرفيق خروتشوف هو الذى بدأ الولوج من هذا الباب عندما قام بالقاء خطاب سرى فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى ، ويقوم الخطاب على نقد ستالين وفضح كذبه وخداعه وغطرسته واستبداده (فضح

---

(١) نقلا من كتاب الإشتراكية العربية (١٨٠) .

الستالينية)[١].

ومما جاء فى هذا الخطاب قوله عن ستالين :

(شخص يدرك كل شىء ، ويرى كل شىء ، ويعرف كل فرد ، ولايخطىء أبدا ، إن الاعتراف بمثل هذه الصفات غير العادية فى شخص ما هو الاعتراف به إلها ولكن ظلت هذه عقيدتنا حول ستالين لسنوات طوال وقد نقضتها اللجنة المركزية بعد وفاته) .

ويقول : (ولم يكن ستالين يعرف التفاهم بل كان يفرض آراءه فرضا وكان يطالب الناس بالطاعة العمياء وكان يقضى للأبد على الذى لايطيعون أو يختلفون معه فى وجهات النظر وقد وقع كبار زعماء الحزب وعماله ضحايا دكتاتوريته فى أعقاب المؤتمر السابع عشر للحزب) .

ويقول : (ودكتاتورية فرد ما جعل الآخرين - أيضا - يمارسون الدكتاتورية فتم اعتقال مالايحصى من الناس وتم نفى الألوف ، وصدرت الأحكام بدون الإجراءات القضائية والتحقيقات ، وأدى هذا الأسلوب إلى نشوء حالة من انعدام الأمن وجعل الناس يفقدون الأمل) .

ويقول : (وقد اتضح أن الذين أطلق عليهم وصف "الأعداء" خلال سنتى ١٩٣٧-١٩٣٨م لم يكونوا أعداء فى حقيقة الأمر ، ولم يكونوا جواسيس ولاكانوا إرهابيين ، بل كان معظمهم من الشيوعيين المخلصين جدا ، لقد تم التشهير بهم وانتزعت منهم الإعترافات بجرائم خطيرة بواسطة تعذيبهم الجسدى المروع . وحدث فى تلك الأيام أن ألقى القبض على ٩٨ شخصا من مجموع ١٣٩ قياديا ، انتخبوا أعضاء باللجنة المركزية للحزب خلال المؤتمر السابع عشر وأعدموا بالرصاص ، ولم يكن هذا هو مصير أعضاء اللجنة المركزية وحدهم ، بل هكذا عومل مندوبو المؤتمر الثامن عشر للحزب ، فتم

---

(١) سنجد هذا الأمر يتكرر لدى غورباتشوف بل كان من الأمور التى ركز عليها فى حملته الإصلاحية .

القبض على أكثرهم أى ١١٠٨ أشخاص من مجموع ١٩٦٦ منـدوبا ، وذلك بتهمة "جرائم ضد الثورة"(١).

أثر خطاب خروشوف :

إن الخطاب الذى ألقاه خروشوف وركز فيه على فضح الحقبة الستالينية يعتبر حدثا غريبا على المجتمع الشيوعى . حيث لم يعتد الشعب على مثل ذلك النقد المباشر ولمن؟ لستالين الدكتاتور . هذا عدا أن خروشوف لم يعرض خطابه على مجلس رئاسة الحزب . ومن هنا يمكننا القول بأن الخطاب كان له آثارا عديدة من أهمها :

(أ) كسر حدة الخوف والسكوت إلى حد ما مما كان له أثره البالغ على حرية الرأى والتعبير والانتقاد والتوجيه .

(ب) كان له أثره على المدى البعيد حيث أصبح من أعضاء الحزب من يرى أهمية التراجع والتغيير وأنه سبب فى الخروج من المآزق التى يعيشها الاتحاد السوفييتى .

(ج) خفت حدة السيطرة الشيوعية السوفيتية على الأحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفييتى لأن الخطاب قد حذر من الدكتاتورية والتسلط .

(د) كذلك أدى الخطاب إلى نتيجة عكسية للنتيجة السابقة وهو تشدد بعض الأحزاب أو بعض الأنظمة الأخرى كنظام الصين الشيوعى حيث أصبح العداء أكثر علانية .

(هـ) أدى هذا التقرير إلى دعم سياسة الانفتاح على العالم الخارجى .

---

(١) نيويورك تايمز ، العدد (٥) يونيو ١٩٥٦م . نقلا من كتاب سقوط الماركسية (١٢٤) وعن الخطاب انظر : النار والجليد (٧٤-٧٥،٨٠-٨١،١٢١) ، ستالين (٣٣٨-٣٤٧) حيث ورد فقرات من هذا الخطاب موزعة بين تلك الصفحات ، العالم فى القرن العشرين (٤١٩) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٠١) .

(و) أثر هذا التقرير حتى فى أتباع ستالين ومؤيديه فهذا الأديب الأمريكى Hwand Fast وكان عضوا بارزا فى الحزب الشيوعى الأمريكى يقول : (لقد كنا أنا ، وآخرون من أعضاء الحزب الشيوعى ، قد أدركنا قبل وقت طويل من نشر خطاب خروشوف السرى ، أن هناك عيبا مؤلما فى الحركة الشيوعية العالمية ، وكان هذا الإدراك قد دفعنى وآخرين كثيرين إلى ميل نحو التغيير وبالرغم من هذا الإدراك ، لم نكن مستعدين للانكشافات النارية والجهنمية التى وردت فى تقرير خروتشوف السرى ، فقد فاقت حدود الدهشة وأوهامنا ، وفاقت أسوأ الاتهامات التى كان أعداء الاتحاد السوفييتى يوجهونها إليه ، فامتلأ قلبى نفورا وحقارة ، وكنت أشعر بكآبة عقلية لاحد لها من أننى كنت أؤيد هذه اللعبة الدموية الظالمة ، وشعرت ـ كالآخرين بأننى وقعت ضحية لخدعة فى التاريخ الحديث لاسبيل إلى وصفها)[١].

(ز) اختفت أو كادت موجات التطهير والتقتيل ، يقول فارغا : (قضى ستالين نحبه فى عام ١٩٥٣م ، وبعد هذا التاريخ كان يمكن للمرء أن يتصور أن ثمة تغييرات هامة طرأت على حياة المجتمع السوفييتى ، فقد استعادت الشرعية حقوقها ، وماعاد الأبرياء يشهر بهم على أنهم "أعداء للشعب" ، وماعادوا يعتقلون ويحاكمون فى جلسات سرية فيعدمون أو ينفون أو يحبسون فى معسكرات اعتقال)[٢].

وهكذا كان خطاب خروشوف ذا أثر بالغ على السياسة السوفيتية سواء فى الداخل أم الخارج . وفتح الباب بصورة لم تكن معهودة من قبل لمسألة النقد وذكر النقائص والمصائب التى تعترى النظام السوفييتى فى حين كان هذا أمرا غير مقدور عليه من قبل وضريبته القتل .

---

(١) من مجلة تحريك دهى عدد يونيو ١٩٥٧م نقلا من كتاب سقوط الماركسية (١٢٦) .

(٢) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٧٨-٧٩) ، وانظر : الأنظمة السياسية المعاصرة (٢٧١) ، الإشتراكية العربية (١٩٠-١٩١).

رابعا : من التراجع الواضح الذى سجلته فترة خروشوف إطلاق سراح السجناء ، وإخراجهم للعمل فى مصالح الدولة ، وعدم اعتبارهم أعداء للشعب . يقول خروشوف : (كان المساجين فى الماضى يعتبرون مجرمين ، ويعاملون بناء على ذلك ، ولكنهم عموما وجدوا منا معاملة إنسانية . اعتبرناهم نتيجة المجتمع الرأسمالى ، وشعرنا أن على مجتمعنا الإشتراكى أن يعيد تربيتهم لاأن يعاقبهم)[١].

وتم الإفراج عن عشرات الألوف ، وشهد الفلاحون تحسنا ملموسا فى مستوى معيشتهم ، وتنفست موسكو الصعداء إلى حد كبير[٢].

إن خروشوف هو الذى انتهك المحرمات التى أحيطت بأعمال الإرهاب والسجن والتقتيل[٣]. ومن هناكان عليه أن يتلافى كثيراً من الأخطاء التى وقع فيها سلفه .

خامسا : التراجع فى مبدأ دكتاتورية البروليتاريا حيث أعلن خروشوف أن ("دكتاتورية البروليتاريا" لم تعد ضرورة)[٤].

كما اعتبر خروشوف أن هناك (تغييرات جذرية يجب أن تطرأ على تطور الدولة ، فبانتصار الإشتراكية أصبحت "ديكتاتورية البروليتاريا" منظمة سياسية لكل الشعب . وبناء على هذا أعلن "خروتشوف" انتهاء "ديكتاتورية البروليتاريا" وحلول دولة - "كل الشعب" فى محلها ، كما قال : إن "ديكتاتورية البروليتاريا" ليست هى التى ستضمحل ، ولكنها دولة كل الشعب)[٥].

---

(١) الوصية الأخيرة (٨٤) .
(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٦) .
(٣) انظر المرجع السابق (٤٠) .
(٤) نقلا من كتاب أفكار ماركسية فى الميزان (٤٤) .
(٥) المرجع السابق (٤٤) ، وانظر شهادتى للتاريخ (٢٧٢) .

أما على الصعيد الخارجى :

فإن سياسة خروشوف حققت تقدما كبيرا سواء مايتعلق بالعلاقات مع الدول الأخرى ، أو مايتعلق بالأفراد داخل الاتحاد السوفييتى وصلتهم بالعالم الخارجى .

ويمكن القول بأن أبرز سمات هذا التراجع تظهر فى التالى :

أولا : التراجع فى مبدأ تصدير الثورة إلى الخارج ، وسحب القوات السوفيتية من بعض دول أوروبا الشرقية من أجل التعايش السلمى مع الغرب الرأسمالى . يقول خروشوف : (شعرت ، حين كنت رئيسا للحكومة والحزب ، بأن من المهم خفض عدد الجيش السوفييتى وبدء سحب قواتنا من البلاد الأخرى ، فحفضنا جيشنا الدائم إلى نصف ماكان عليه أيام ستالين ، وسحبنا قواتنا من فنلندا والنمسا ورومانيا . كذلك اقترحنا سحب حامياتنا من هنغاريا وبولونيا . لم يكن لنا جنود فى تشيكوسلوفاكيا أو بلغاريا ، أما جمهورية المانيا الديمقراطية فقد شعرنا بضرورة استمرار وجودنا العسكرى فيها ، فقد اتضح تماما للجميع أنه مالم يوافق حلفاؤنا السابقون ، الذين نظموا حلف "ناتو" على معاهدة سلام ستبقى جيوشنا فى مراكزها ، ذلك بأن الغرب أقام فى المانيا الغربية قوة كبيرة ، فكان لابد لنا من المحافظة على توازن القوى)[١].

ثانيا : عدم التدخل فى شئون الدول الأخرى من دول أوروبا الشرقية والاكتفاء بربطها بالاتحاد السوفييتى سياسيا وإقتصاديا دون التدخل فى شئونها عسكريا . يقول د. عمر حليق : (ولكى يضمن عهد "خروتشوف" هدوءا على الجبهة الأوربية ، بعد ثورة المجر سنة ١٩٥٦م وثورة المانيا الشرقية سنة ١٩٥٣م ، أطلق "خروتشوف" الحرية لنظم أوروبا الشرقية الخاضعة لنفوذه ، كى يعطى الحركات الإشتراكية الثورية فيها طابعا "قوميا" ، وأن تطلق بعض الحريات ، وأن تتعامل مع الغرب ، فى التبادل الثقافى وفى شؤون السياحة

---

(١) الوصية الأخيرة (١٣٨) .

وفى المعاملات التجارية . وقام الاتحاد السوفييتى نفسه بإذابة طرف من الجليد الذى اكتنف عزلة المعسكر السوفييتى كله فى علاقاته بالغرب الأوروبى والأمريكى أيام ستالين ، ونشط عهد "خروتشوف" لحضانة كل حركات اليسار الثورية الخارجية على أسلوب ستالين فى عدم المغامرة بالتدخل العسكرى السوفييتى المباشر ، واكتفى بربط الولاء العقائدى والسياسى والمصالح الإقتصادية لنظم اليسار القومية الأجنبية ربطا واسعا بالاتحاد السوفييتى وموارده وحضانته ، فى معاهدات ثنائية ، وفى القروض والهبات ، وفى المشورة السياسية ، وفى افتعال "جبهات" عدم الانحياز ، على أن يكون عدم الانحياز موجها ضد المعسكر الغربى ، أو ضد الصين الشيوعية أو ضدهما معا . وكان خروتشوف فيما فعله يتحسس بوجدانه القومى الروسى لابقميصه الماركسى الثورى . وهذا الإحساس القومى هو الذى جعل خروتشوف يقتبس اقتباسا سافرا بعض ماعند الأمريكيين من اجتهادات وأساليب ، ولم يخجل من ذلك)[١].

ثالثا : الانفتاح الكبير الذى شهده عصر خروتشوف على الدول الرأسمالية كان له أكبر الأثر فى وقت لاحق حيث حدث التقارب بصورة كبيرة بين الدول الغربية والاتحاد السوفييتى عامة ، وبينه وبين أمريكا خاصة.

كما انتهج خروشوف سياسة الانفتاح تلك مع دول العالم الثالث[٢].

رابعا : أما مايتعلق بالشعب وصلاته بالعالم الخارجى . فإن سياسة ستالين جعلت الشعب السوفييتى خلف سور حديدى يمنع عنه الاتصال بالعالم الخارجى بل وصل الأمر إلى منع الكتاب والمفكرين والفنانين من الذهاب إلى الخارج إمعانا من ستالين فى عزلهم حتى لايتأثروا بما فى البلدان الأخرى أما خروشوف فإنه اختط لنفسه طريقا آخر ، وأحدث فى هذا الجانب تحولا

---

(١) دور الماركسية فى الإشتراكية العربية (٤١-٤٢) ، وانظر موسكو وإسرائيل (٣٩٩-٤٠١) .

(٢) انظر : النار والجليد (٨١) ، إشتراكيتهم وإسلامنا (٥٤-٥٥) .

كبيرا فسمح بالسفر إلى الخارج للكتاب ، والفنانين ، والمفكرين (مع الحيطة والحذر) . وتحدث خروشوف عن اضطهاد المفكرين والكتاب والموسيقيين وقال : (يضاف إلى مايعانيه أرباب الفكر والفنانون من الوسائل غير الملائمة التى تستعمل أحيانا ضدهم أن بعضهم يلاقى صعوبة فى الحصول على إذن للقيام برحلة إلى الخارج . أود أن أشرح رأيى فى جدوى إقفال حدودنا . الكل يعرف أن الأبواب فتحت على مصراعيها بعد موت ستالين . كان علينا أن ندرك أنه ستكون هناك عناصر مختلفة وأناس لهم معتقدات سياسية مختلفة بعضهم غير مرغوب فيه وإننا حين نرسل فرقة من الممثلين إلى الخارج قد لايرجع بعضهم)[١].

وهكذا كانت فترة سياسة خروشوف قد حققت الكثير والكثير من التراجع والتغيير فى مبادىء الماركسية ، نظرا لأن الواقع يرفضها ، والأحداث والتغيرات لاتصدقها فكان لابد من استبدالها والنكوص عنها ليحقق الاتحاد السوفييتى السعادة لشعبه ، وليبعث فيه الأمل من جديد .

وبعد هذا العرض أصل إلى التالى :

أولا : أن خروشوف واصل الطريق فى التغيير والتجديد وفتح أبوابا كانت مغلقة من قبل ، بل لم يتجاسر أحد بفتحها على مصراعيها والولوج منها خوفا على حياته .

ثانيا : ينبغى لنا أن لانفهم أن خروشوف قد كفر نهائيا بالفكر الماركسى بل اعتبر بعض الكتاب أن سبب عدم نجاح تغيير خروشوف وعدم كونه أكثر جذرية هو بسبب اهتمامه بالعقيدة الماركسية[٢].

---

(١) الوصية الأخيرة (٨٠-٨١) وذكر بعض الأسماء التى سمح لها بالسفر إلى الخارج ، انظر (٨١-٨٢) .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٢٩) ، وانظر الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٧٩-٨٠) ، وذكر أن التغيير أصبح واضحا ملموسا غير أن آثار الحقبة الستالينية كانت ملازمة للناس .

ثالثا : من المسلّم به أن التراجع والتغيير وجد فى الحقبة الخروتشوفية وكان بالإمكان أن تكون أكبر بكثير من الصورة التى كانت عليها لولا وجود بعض العقبات حالت دون ذلك منها :

(أ) أن أعضاء الحزب شعروا بأنه يسحب منهم صلاحياتهم فوقفوا ضد التغيير[١].

(ب) آثار الحقبة الستالينية أثرت على تفكير الناس مما جعل كثير من أعضاء الحزب أو أفراد الشعب لايستجيبون بصورة كبيرة لهذه السياسة الجديدة .

رابعا : أدت سياسة خروشوف التراجعية إلى انحسار الإشتراكية الماركسية ، ووجود الخلاف بين الدول التى تقوم بتطبيق الفكر الماركسى[٢].

فغدت كثير من الدول تختط لنفسها أفكارا إشتراكية تتلاءم مع واقعها وحياتها ، فلم تعد أفكار ماركس وانجلز وتطبيقات لينين هى المصدر الذى يستقى منه الفكر الإشتراكى بل حصلت الخصومات وترامى الإشتراكيون بالألقاب وكفر بعضهم بعضا ، والكفر عندهم الخروج عن منهج ماركس .

خامسا : أن فترة خروشوف شهدت التغير :

على الصعيد الداخلى فى :

(أ) رفض الدكتاتورية .

(ب) إقرار الملكية الفردية والحوافز المادية .

(ج) تحقيق الحرية إلى درجة كبيرة لم تشهدها البلاد سابقا .

(د) حرية النقد والمعارضة ولاشك أن هذه الحرية فتحت المجال أمام المثقفين والمفكرين وأعضاء الحزب فى عدم السكوت ومحاولة التغيير .

---

(١) انظر العالم فى القرن العشرين (٤١٩-٤٢٠) .

(٢) انظر إشتراكيتهم وإسلامنا (٢٤-٢٥) .

أما على الصعيد الخارجى فقد شهدت الفترة الخروتشوفية :

(أ) التعايش مع النظام الرأسمالى .

(ب) عدم التدخل فى الشئون الداخلية لدول أوروبا الشرقية كما كان عليه الحال زمن ستالين .

وهذا نكوص عن الثورة ، والدكتاتورية .

سادسا : أن سياسة خروشوف تلك شجعت الشعوب السوفيتية على المطالبة بمزيد من الحريات والتغيير خاصة بعد انفتاح الشعوب السوفيتية على العالم الخارجى ، وهذا ماجعل بريجنيف (خلف خروشوف) يهتم بالتراجع والتغيير على المستوى الخارجى لسياسة السوفييت ليضمن إحدى الجبهتين على الأقل . وهذا ماسنعرض له فى المبحث التالى .

المبحث الرابع
التراجع والتغيير زمن بريجنيف

لمحة مختصرة عن حياته :

ولد بريجنيف فى بلدة تامنسكوى الأوكرانية . ولم يشارك فى الثورة ولافى الحرب الأهلية لصغر سنه ، أنهى دراسته عام ١٩٢٧م متخصصا فى الهندسة الزراعية.

وفى عام ١٩٣١م انتسب إلى الحزب الشيوعى فى موسكو ، وفى عام ١٩٣٧م ، عمل مساعدا مباشرا لخروشوف ولمع نجمه فى الإدارة الحربية المحلية.

وفى الفترة مابين ١٩٣٨-١٩٤١م شغل منصب المفوض السياسى فى فيروبتروفسك ، حيث تألق عسكريا خلال الحرب العالمية الثانية .

وفى عام ١٩٥١-١٩٥٣م شغل منصب سكرتير أول الحزب الشيوعى فى مولدافيا وأصبح بالتالى عضوا باللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى .

وبعد وفاة ستالين عزل عن كل مناصبه ، ونقل إلى وزارة الدفاع ، وبسبب ولاءه لخروتشوف عين سكرتيرا أولا للحزب الشيوعى لجمهورية قازاخستان .

وفى عام ١٩٥٧م أصبح عضوا فى سكرتارية الحزب الشيوعى السوفييتى.

وفى عام ١٩٦٠م شغل منصب رئيس سكرتارية مجلس السوفييت الأعلى ثم استلم منصب سكرتير أول الحزب عام ١٩٦٤م ، وفى عام ١٩٧٧م ساهم فى وضع أسس الدستور السوفييتى الجديد . وبقى بريجنيف يمارس كل صلاحياته سواء داخل الحزب أو الدولة أو الجيش حتى وفاته عام ١٩٨٢م[١].

---

(١) انظر النار والجليد (٩٠-٩١) .

التراجع والتغيير زمن بريجنيف :

يعتبر عصر بريجنيف عصر "ركود" مقارنة بما كان ينتهجه أسلافه ، وكذلك بمن جاء من بعده . يقول غيردروغ : (فى موسكو ، تطلق حاليا على سنوات حكم الأمين العام بريجنيف ، تسمية "زمن الركود" . ويذكر الروس أن الأوضاع كانت جامدة ولاشىء يتحرك ، حتى الإيمان بإمكانية التقدم بات على شفير الإنهيار . ولاينسحب هذا الحكم على كامل ولايته التى امتدت طيلة عشرين سنة ، اعتبارا من عام ١٩٦٤م ، حيث كان ليونيد بريجنيف على رأس الحزب والدولة . وتميز عهده بادىء ذى بدء بوعد الموظفين تأمين الهدوء والاستقرار لهم ؛ فالإجراءات التى اتخذت بحقهم فى عهد خروتشوف ، من خطط إصلاحية تتوالى بوتيرة عالية ، إلى التسرع فى التأنيب ، وإقالة المسؤولين وبعضهم فى منصبه منذ سنوات عدة ، كل ذلك أزعج الحزب . بالمقابل ، وجد بريجنيف سندا له فى القيادة الجماعية حوله وقدم نفسه بمثابة "أب للبلاد" يضمن لها الاستقرار . وبصفته رئيس الحزب ، شجع فى سنوات عهده الأولى ، وبمشاركة رئيس حكومته الكسى كوسيغين ، إصلاح النظام الإقتصادى . وحوالى عام ١٩٧٠م ، وفيما الشعب السوفييتى يعانى منذ سنوات طويلة من أجواء الخوف المصطنع الذى وضع فيها لجهة احتمال وقوع حرب عالمية جديدة ـ أعطاه بريجنيف بارقة أمل جديدة بإحلال الأمن مجددا فى أوروبا وإمكانية تحسين الوضع الإقتصادى وظروف المعيشة)[١].

ومع هذا الركود إلا أن عملية التراجع والتغيير كانت قائمة ، ويمكن إبراز ذلك فى النقاط التالية ـ على أن بريجنيف عمل على الاستمرار بسياسة خروشوف ـ :

أولا : الاستمرار فى إقرار الملكية الفردية ، والتوسع فيها ، بالإضافة إلى المرونة الفكرية حيث كان الناس فى عهد بريجنيف يفكرون على نحو ويتكلمون بخلافه ويفعلون شيئا آخر[٢].

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٢) ، وانظر النار والجليد (٨٨) .

(٢) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٠١) ومابعدها .

ثانيا : تقـريب العلماء والمفكرين والإستفادة من آرائهـم ولعل لسياسة خروشوف الانفتاحية وإقراره حرية الرأى والنقد أثر فى ذلـك . حيث أعلن بريجنيف هجومه على عدم الإستفادة من آراء العلماء(١).

ثالثا : خلـو خطـابات وكلمات بريجنيـف فى عمومها مـن ترديد أفكـار ماركس أو لينين . مما يدل على أن المسألة الأيديولوجية أخذت فى التراجع الحقيقـى القـولى والفعلى والاهتمـام بالمصالح السياسية وتقـديمها على الأفكـار الشيوعية .

رابعا : العمـل على زيادة عمليـة النقـد وكشف العيـوب والنقـائص .

أما على الصعيد الخارجى : فإن التراجع كان واضحا بصورة أكبر مـن ذى قبل . ويمكن إبراز ذلك فى التالى :

أولا : عمـل بريجنيـف على الاستمـرار فى سيـاسة السلم والتقـارب مـع الـدول الـرأسمالية وترجم ذلـك بعقـد الـوفاق مـع الـولايات المتحـدة الأمريكية(٢).

ثانيا : عمـل بريجنيف على تحسين العلاقة بينه وبين بعـض دول أوروبا الشرقية(٣)، وفى ذلك إقرار لعدم التدخل فى شئون تلك البلاد .

ثالثا : العمـل على جلب التكنـولوجيا الحديثة إلى مـوسكو خاصة بعد زيارته لفـرنسا وأمـريكا (حيـث استهوته السيارات السـريعة والالكترونيـات الحديثـة ، فـاقتنى العـديد مـن سيـارات السبـاق وكذلك الآلات الالكترونيـة المختلفة)(٤). وقد انعكس ذلك على التراجع فى بعض المبـادىء الأخرى حيث أقـر بريجنيـف بطريق غير مبـاشر الطبقية فى الاتحاد السـوفييتى ، حيـث كانت

---

(١) انظر حقوق الإنسان فى الإسلام (٤٠٨-٤٠٩) .

(٢) سيـأتى الحديث عن الوفاق الدولى فى الفصل الثانى من البـاب الثالث إن شاء الله تعالى .

(٣) انظر النار والجليد (٨٩) .

(٤) المرجع السابق (٩٠) .

الصناعات الفاخرة والتكنولوجيا الحديثة التى استقدمت من الخارج ينفرد بها برجنيف ورفقاؤه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل خصصت المحلات التجارية لبعض المحظوظين من الحزب بعد أن كانت السلع الغذائية متوافرة إلى حد ما زمن خروشوف فى المحلات التجارية[١].

وبعد هذا العرض المختصر نصل إلى التالى :

أولا : أن بريجنيف سار على خطى خروشوف ولأجل ذلك لم يكن زمنه قد سجل تغيرا كبيرا مقارنة مع غيره ولأجل ذلك أطلق على فترته (فترة الركود) .

ثانيا : يمكن اعتبار هذه الفترة وماحدث فيها من عدم التراجع والتغيير بصورة أكثر جذرية من الأسباب التى جعلت من جاء بعد بريجنيف لم يستطع الوقوف فى وجه التيار الشعبى المطالب بالتغيير وتحسين الأوضاع المتردية . ويظهر ذلك جليا أنه بعد قرابة أربع سنوات فجرت السياسة الجديدة لغورباتشوف .

ثالثا : سجلت الفترة البريجنيفية التراجع الواضح على مستوى السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى وانعكس ذلك على الدولة داخليا .

وهكذا انتهت هذه الفترة فى السياسة السوفيتية وكانت تزيد من حقد الشعب وضغنهم على النظام وعلى الفكر الشيوعى ، مما كان له أثره فى سياسة من جاء من بعد بريجنيف رغم قصر فترة حكمهم التى لاتساوى إلا جزءا يسيرا من سنى فترة حكم بريجنيف .

وبهذا نصل إلى الحديث عن فترة حكم اندروبوف فى المبحث التالى .

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٢-١٧٣) .

المبحث الخامس
التراجع والتغيير زمن أندروبوف

لمحة مختصرة عن حياته :

ولد أندروبوف عام ١٩١٤م ، فى جنوب مقاطعة ستافروبول . عمل فى إدارة البرق فى القوقاز ، ثم بحارا فى نهر الفولغا ، وتابع دراسة الملاحة فى أحد المعاهد العالية ، ثم التحق بالمعهد العالى للحزب فى موسكو .

ولم يكن ابن أحد الثوريين ، ولم يكن من الأبطال ، فكان عليه أن يصنع نفسه بنفسه فتدرج فى عدة أعمال مختلفة(١). ثم تقلد بعض المناصب فعين بسفارة بلاده فى (بودابست) كمستشار ثم سمى سفيرا مفوضا للاتحاد السوفييتى فى هنغاريا وكان له الفضل فى الأحداث التى عصفت بتلك البلاد ، حيث استدعى الدبابات السوفيتية لسحق أجسام الوطنيين والطلاب تحت جنازيرها لإخماد الثورة(٢).

وعمل سفيرا لبلاده فى المجر بعد سحق الانتفاضة المجرية ، وبعد سنة أى عام ١٩٥٨م تولى الإشراف مجددا على قطاع الأحزاب الشيوعية الأجنبية ، وعضوا فى اللجنة المركزية سنة ١٩٦١م ، وأحد أمناء السر للحزب عام ١٩٦٢م ، وسنة ١٩٦٧م تولى رئاسة لجنة الأمن الداخلى فى الاتحاد السوفييتى ، وفى عام ١٩٨٢م استقال من هذا المنصب ليتفرغ لوظيفة أمين السر للجنة المركزية وعضو المكتب السياسى . وربما أن ذلك من أجل تهيئة نفسه لأعلى المناصب فى الحزب والدولة ، وهذه المرحلة الانتقالية تفرض نفسها إذ لابد من تجنيب الشعب السوفييتى والعالم صدمة أن رئيس ال K.G.B تتسلم السلطة فى الكرملين(٣).

---

(١) انظر : غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٩٥) ، مرضى حكموا العالم (١٠٤-١٠٥) ، اقتباس رشاد جميل فياض ١٩٩٤م ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان دون ذكر لرقم الطبعة ، النار والجليد (٩٥) .

(٢) انظر مرضى حكموا العالم (١٠٥) .

(٣) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٩٥-١٩٦) .

تولى أندروبوف الحكم :

وصل أندروبوف إلى السلطة العليا فى الاتحاد السوفييتى مع وجود من هو أجدر منه بذلك ، وربما كان فى اختياره مخرجا من بعض الخلافات التى بدأت تدب فى الحزب بشكل ملحوظ حيث كانت صحة أندروبوف لاتساعده على تحمل المسئولية . ولأجل ذلك لم تدم فترة حكمه سوى ٤٥٤ يوما(١).

وكان هناك عدة آراء حول أسباب وفاته منها أن الصهيونية عملت على تسميمه نظرا لشدة عدائه لليهود ومواقفه المتشددة ضد الولايات المتحدة(٢). وقيل إن المرض كان وراء وفاته(٣). ولاغرابة أن يكون قد دس له السم وتفاقم المرض عليه بسببه .

نهاية أندروبوف :

ومع صراع المرض وكذلك عدم الالتزام بأقوال الأطباء فى الحمية لكونه كان يعانى من داء السكرى تفاقم عليه المرض ، ووجه أندروبوف رسالة إلى الهيئة العامة للجنة المركزية جاء فيها (حضرات الرفاق أعضاء اللجنة المركزية ، لم يعد باستطاعتى المشاركة بصورة نشيطة وفعالة فى تحمل مسئولياتى فى المكتب السياسى واللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى ، للأسباب التى تعرفونها ، وأرى من واجبى أن أقول لكم بكل صدق أن هذا الوضع قد يستمر طويلا . بناء عليه ، أرجو الهيئة العامة للجنة المركزية بحث هذه المسألة وتكليف الرفيق غورباتشوف ، ميخائيل سيرغيفيتش لتولى قيادة المكتب السياسى وأمانة اللجنة المركزية)(٤).

وفى ٩ شباط ١٩٨٤م أصيب بنوبة قلبية ففارق الحياة(٥).

---

(١) انظر مرضى حكموا العالم (١٠٣-١٠٤) .
(٢) انظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٨) ، د. رزق رزق ، دار بلال ، بيروت ، ١٩٩١م ، دون ذكر لرقم الطبعة .
(٣) انظر المرجع السابق (٩) .
(٤) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٠٥) .
(٥) انظر مرضى حكموا العالم (١١٣) .

التغيير زمن أندروبوف :

أولا : الإبقاء على الملكية الفردية والاهتمام بممتلكات الشعب وإقرار مبدأ النقد .

فقد (كان خطاب أندروبوف عند توليه القيادة السوفيتية يلامس مضمون المأزق السوفييتى .. فقد دعا إلى نبذ منطق "الإجراء الذاتى" ، والتعامل القوى مع "النقد الذاتى" القائم على المصارحة .. وفى معرض كلامه عن الازمة الإقتصادية الإجتماعية التى يمر بها الاتحاد السوفييتى أشار إلى ظاهرة هبوط معدلات النمو ، وركود التطور الإقتصادى ، انخفاض إنتاجية العمل ، وضعف التحديث التكنولوجى ، وقصور البحث العلمى وغيره .. ولقد رد أندروبوف أسباب كل ذلك إلى :

١ ـ الانحراف عن القاعدة الضرورية لإدارة الإقتصاد التى تمليها الإشتراكية ، والتى يتمثل جوهرها فى الحرص على ممتلكات الشعب ، وفى مضاعفة هذه الممتلكات .

٢ ـ الإخلال بمبدأ التوزيع حسب العمل ، حيث يؤدى الإخلال بهذا المبدأ إلى خلق الأجواء المواتية لحالات الكسب غير المشروع ، والتنقل من عمل لآخر ، والتغيب عن العمل بدون سبب ، والتراخى فى أداء العمل ، والمتسبب فى عيوب الإنتاج .

ويعتبر "أندروبوف" أن الدولة وقيادة الحزب هى المسؤولة بالدرجة الأولى عن كل مايحدث . فيقول بصراحة : (إننا كنا فى أحوال غير نادرة نقبل بالحلول الوسط ، ولم نتمكن من تجاوز الخمول المتراكم بالسرعة الكافية وكان هاجس أندربوف الأهم ، خلال فترة حكمه القصيرة ، تطهير قمة الدولة والحزب من العناصر الفاسدة ، وتحقيق الانضباط ، وتخفيف التسيب فى المجتمع السوفييتى على كل مستوياته ...)[١].

---

(١) البيريسترويكا من منظور إسلامى (٢٥-٢٦) .

ثانيا : الاهتمام بالإصلاح والتغيير وبيان فساد الأوضاع ومحاولة العمل على الإنماء الإقتصادى ، وهذا بدوره يتطلب التراجع عن مبادىء الماركسية ، ومن أهمها القضاء على الملكية ومبدأ المساواة(١).

ثالثا : العمل على فتح باب النقد زيادة على ماكان عليه فى السابق مما كان له أثر كبير فى السياسة التى انتهجها غورباتشوف . يقول د. رزق : (خلال الفترة الصغيرة التى تبوأ خلالها موقع زعامة الكرملين فتح نافذة المراجعة النقدية ، هذه المراجعة التى ستتحول لاحقا إلى تحول نوعى كبير فى إطار استراتيجية البيرويسترويكا "إعادة البناء" التى سيطلقها ميخائيل غورباتشوف)(٢).

رابعا : التندر بمبدأ المساواة والدعوة إلى التوزيع حسب العمل(٣).

خامسا : إدخال مزيد من الاستقلالية للمؤسسات الصناعية والزراعية(٤)، من أجل الإرتقاء بالإقتصاد .

أما على الصعيد الخارجى : فإن فترة رئاسة أندروبوف كانت قصيرة ، وبالتالى لم تتضح معالم سياسته الخارجية بشكل كبير . ومما يذكر هنا أن أندروبوف صعد بخطاباته الوضع مع الدول الغربية غير أن الوقت لم يمهله .

وبعد هذا العرض أصل إلى النتائج التالية :

أولا : أن أندروبوف قد عمل على زيادة الأنماط التغييرية التى جاء بها من سبقه ، وخاصة فيما يتعلق بالملكية والنقد الذاتى ، ومحاولة الإصلاح الإقتصادى والإجتماعى .

ثانيا : أن الشك قائم حول ماحدث لأندروبوف فى مسألة وفاته ولعل لعدائه الشديد لليهود "للسامية" أثر فى تلك النهاية .

---

(١) انظر : غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٤) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٩٩) .

(٢) غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٦) .

(٣) انظر المرجع السابق (٢٤-٢٥) .

(٤) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٩٩) .

ثالثا : نظرا لكون فترة رئاسة أندروبوف كانت قصيرة ، فإن الآثار لابد وأن تكون قليلةأو غير بارزة للعيان خاصة أن الرجل بدأ به المرض فى فترة مبكرة من حكمه . ولكن لاشك أن للجمود الذى كان زمن بريجنيف وللأحداث السريعة والتى تلاحقت زمن أندروبوف ومن بعده أثر فى السياسة التى أعلنها غورباتشوف . حيث أيقن أن الوقت قد حان وأصبح الرجل أكثر جرأة فى الإقدام على عملية التغيير .

رابعا : رغم أن أندروبوف كان رئيسا لK.G.B إلا أن المفكرين كانوا أكثر طمأنينة فى عهده من العهد البريجنيفى[١].

---

(١) انظر غورباشتوف صانع القرار وضحيته (١٩٦) .

المبحث السادس
التراجع والتغيير زمن تشرنينكو

إن المعلومات عن هذا الزعيم ليست متوفرة ولعل لفترة حكمه القصيرة الأثر فى ذلك . ونذكر الآن بعضا من جوانب حياته .

مولده :

ولد سنة ١٩١١م أى قبل الثورة البلشفية بسبع سنوات .

عمل كأترابه فى الحقول ، وعندما بلغ الثامنة عشرة من العمر أصبح عضوا فى الشبيبة الشيوعية التى تألفت حديثا . ثم أصبح مسئولا عن جهاز الدعاية والتحركات فبرع فى هذا الجانب ، شارك فى عملية فرض التأميم على الناس بالقوة . ثم أصبح عضوا فى الحزب الشيوعى . وعمل فى أمن الدولة لمدة عشر سنوات(١).

بعد وفاة أندروبوف وقع الاختيار على تشرنينكو وكان يعانى من المرض ، وكبر السن ، حيث كان عمره اثنتين وسبعين سنة ، ولم يمض ثلاثة عشر شهرا حتى فارق الحياة يوم الأربعاء فى الثالث عشر من شهر آذار ١٩٨٥م(٢).

وقد اختير تشرنينكو فى حين كان اسم غورباتشوف أكثر شهرة منه ، وكذلك كان الرجل الثانى فى فترة رئاسة أندروبوف . ويرى بعض الكتاب أن اختيار تشرنينكو كان من أجل محاولة القضاء على التوجه النقدى الذى أعلنه أندروبوف وأيده غورباتشوف(٣).

ولاشك أن لوفاة تشرنينكو ومن قبله زعيمين فى هذه المدة الزمنية القصيرة أثر على الاتحاد السوفييتى يقول ميشيل هيلر : (واحد تلو الآخر ،

---

(١) انظر مرضى حكموا العالم (١١٦-١١٧) .

(٢) انظر : المرجع السابق (١١٥-١١٦) ، ولمزيد عن ذلك انظر (١٢٣-١٢٥) ، غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٢-١٣) .

(٣) انظر عن ذلك غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٣-١٤) .

اختفى ثلاثة أمناء عامين : بريجنيف فى تشرين الثانى ١٩٨٢م ، أندروبوف فى شباط ١٩٨٤م ، وتشرنينكو فى آذار ١٩٨٥م . فهل من شهادة أفصح وأجلى عن الأزمة العميقة التى يمر بها النظام؟ لقد أصبح ملحا وحيويا إيجاد مرشد جديد يتمكن من إثبات أن هؤلاء العجز الذين يبدون بوجوههم الشمعية على شفير الموت والذين يزينون منابر المؤتمرات وشاشات التلفزيون ليسوا إلا أمارات تدل على أفول الدولة الإشتراكية الأولى فى العالم ، أو على سقوط آخر الإمبراطوريات فى عصرنا)[١].

التغيير زمن تشرنينكو :

سار تشرنينكو على الوضعية التى كان عليها سلفه من السياسة الداخلية والخارجية ونظرا لكون فترة رئاسته قصيرة جدا بالإضافة إلى حالته الصحية السيئة ، فقد تميزت فترة رئاسته بالهدوء .

إلا أن هذا الهدوء كان بمثابة التمهيد للعاصفة التى ستتبعه وبالفعل كان غورباتشوف وحصل التحول الأخير والتراجع النهائى .

وبعد هذا العرض نصل إلى الآتى :

أولا : أن تشرنينكو لم يغير كثيرا فى سياسة الاتحاد السوفييتى سواء الداخلية أو الخارجية حيث كانت فترة حكمه أشهرا معدودة وخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار حالته الصحية .

ثانيا : أن تشرنينكو كان المرشح بعد بريجنيف من قبل هذا الأخير[٢]، ولكن لم يتم تعيينه أمينا عاما ، ولأجل ذلك عاد تشرنينكو بالاتحاد السوفييتى إلى قبل عهد أندروبوف من سياسة الجمود[٣].

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٩) .
(٢) انظر المرجع السابق (١٣-١٤) .
(٣) انظر البيريسترويكا من منظور إسلامى (٢٦-٢٧) .

ثالثا : من الأمور التى عرف بهاتشرنينكو شدة معـاداته للغرب وخاصة الـولايات المتحـدة الأمـريكيـة حتى لقـد أثارت وفـاته كثيرا مـن علامـات الاستفهام[١].

وليس بعيدا أن يكون اليهود وراءها .

رابعا : أن اليهـود كانوا وراء الثـورة البلشفية كمـا أنهـم كانوا وراء إسقـاط المتعنتين فى علاقـاتهم مع الغرب خاصة وأن هـذه الفكـرة قد أعطت ثمارهـا لليهـود وحان إسقاط ذلـك المارد كى لايستفحـل شـره ويدمر من قام بإعداده وتمويله ، وكان غورباتشوف .

ونعرض لفترة رئاسته فى المبحث التالى .

---

(١) انظر النار والجليد (٩٦) .

المبحث السابع
التراجع والتغيير زمن غورباتشوف

يعتبر غـورباتشوف الحلقـة الأخيرة فى سلسلـة التغييرات التى أودت بالشيوعية ، وإن كان من جاء بعده سائراً فى الطريق الإصلاحى ولكن يعتبر غورباتشوف هو الذى فجر الأمر وأعلنه صراحة ، على أنه يجدر بنـا أن ننبه على قضيـة مهمة وهى أن غـورباتشوف لم يكن لوحده ، بل ليـس هو الذى أسقـط الشيـوعية بنفسـه وإنما كـان الأداة التى عبرت عـن رغبـات الشعـب وتطلعاته فى الخروج من ويلات هذه الأيديولوجية الأرضيـة ، التى لم تصمد منذ اللحظة الأولى فى تطبيقها أمام الواقع والميول الإنسانية .

لمحة تاريخية عن شخصية غورباتشوف :

اكتنف شخصية غورباتشوف غموض شديد ، بل إن بعض المحطات فى حيـاته تفتقـر إلى معلومات دقيقـة عنهـا . حتى قال بعضهـم عنـه بأنه يشكل لغزا[١].

يقـول هيلير : (إن المعلـومـات المتـوفرة تبدو غير كـافية لكتـابة سيرة حقيقيـة . فحياة غورباتشوف قبـل دخوله المسرح العالمى تبقـى مجهـولة أكثر بكثير مما كانت عليه سيرة لينين)[٢].

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٧) .

(٢) نشـوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١١) ، وانظر النار والجليـد (٩٩) ، وقال : إن شخصيـة غورباتشوف (فيها الكثير من الغموض والأسرار بحجـم الحدث الذى حصل بذاته) .

ولادته :

ولد غورباتشوف عام ١٩٣١م فى قرية بريفولنوى وكانت تابعة إداريا لمنطقة القفقاز الشمالية . وتميزت هذه المنطقة بشدة مقاومة التأميم(١).

ويعتبر غورباتشوف الزعيم السوفييتى الوحيد الذى قضى حداثته فى القرية والحقول قبل أن يترقى فى جهاز الحزب(٢).

وكانت نشأة غورباتشوف فى هذه المنطقة ذات تأثير على حياته المستقبلية ، وذلك لأنها لم تكن كغيرها فى الرق والعبودية بل كانوا أهلها يتطلعون إلى الحرية(٣).

أسرة غورباتشوف :

كانت أسرته ذات سمعة جيدة لدى سكان المنطقة التى يعيشون بها .

جده : كان بانتلى افيموفيتش غوبكالو ينحدر من القوقازيين (ويبدو ، على مايروى عنه ، إنه ورث عنهم حرية الفكر والحزم والحس بالمسؤولية . ويعتقد بعض أصدقاء غورباتشوف أن موقفه من الحياة نابع من تأثير التقاليد القوقازية ـ الفلاحية فيه . ويخبر القرويون أن بانتلى غوبكالو كان من أوائل الذين عملوا بعد الثورة على تنظيم الفلاحين فى تعاونية ، وأنشأ فى القرية مايعرف باسم "توز" وهى عبارة عن تعاونية تتيح للفلاحين التصرف الحر بأرضهم ، غير أنهم يستطيعون معا ، من خلالها ، تحسين طرق الزراعة والإنتاج . كان بانتلى غوبكالو شخصية مرموقة فى القرية ، وكان فلاحا ميسورا ، وتشيع للحركة الثقافية التى أقامها فلاحون فقراء فى معظم القرى . خلافا للكولخوز التى فرضها ستالين على الفلاحين فيما بعد ، كانت "التوز" تعاونية متطوعين ، هدفها تحسين ظروف معيشتهم وعملهم . وعندما أقدم

---

(١) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٢) .
(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٩) .
(٣) انظر عن ذلك المرجع السابق (٣٢) .

ستالين على تأميم الزراعة ، أدرك بانتلى غوبكالو ، كسواه من الفلاحين الواعين ، أنه لن يكون بمقدوره مواجهة هذا التطور . كان عضوا فى الحزب الشيوعى وتولى تنظيم الكولخوز التى أصبح رئيسا لها . ويروى المعمرون فى القرية أن بريفولنوى مدينة له لكونها تخطت فى مطلع الثلاثينات ، مرحلة المجاعة واضطهاد الفلاحين ، بشكل أفضل من معظم المجموعات الفلاحية فى روسيا)[١].

والده : سيرغى كان رجلا هادئا ، نشيطا يحترمه أبناء قريته ، لم يكن ذا ثقافة عالية . ولكنه اكتسب خبرة واسعة من خلال حياته اليومية ، وعمل ميكانيكيا ، وبقى أربعين عاما تقريبا أى أنه كان يقود الحاصدة والجرار كما كان مسئولا عن إصلاح الآلات الزراعية وصيانتها .

والدته : كانتماريا بانتيليفنا تعمل فى الحقوق ، وهى ذات شخصية حازمة فى الأسرة[٢].

التأميم وأثره :

فرض التأميم على المناطق السوفيتية بالقوة ومن هذه المناطق التى أرسلت إليها الكتائب العسكرية قرية بريفولنوى ، وضم ٩٠٪ من الفلاحين إلى مزارع جماعية ، ونظم جد غورباتشوف كولخوزا فى قريته. ومن هنا فإن غورباتشوف ولد فى أسرة كلخوزية[٣].

إن عمليات التأميم هذه أدت إلى القتل لمعارضيها والجوع لمنفذيها ، فكانت آثارها سيئة .

يقول غروسمان : (كان شبح المجاعة والموت يجوب القرية . فى البداية مات الأطفال ثم الشيوخ وأخيرا الكهول . وفى المرحلة الأولى دفنت

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٣-٣٤) .
(٢) انظر المرجع السابق (٣٥) .
(٣) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٢) .

الجثث ثم عدل الناس عن الأمر . كان الأموات يرقدون فى الشوارع والساحات ثم تركت ممددة فى البيوت الخشبية ... وخيم الصمت . لقد ماتت الأرياف . ولاأعلم من كان آخر الأموات . فلقد كنا من الذين قادتهم الإدارة إلى المدينة . وقد أطلقت السلطة على ذلك اسم "مقبرة المدرسة القاسية")[١].

وتسبب التأميم فى هلاك مئات الألوف من الناس حتى بلغ عدد من مات بسبب الجوع بين عامى ١٩٣٢-١٩٣٣م مليون إنسان[٢].

وفى هذه الأثناء كانت ولادة غورباتشوف وكان حينها طفلا ، فلربما شعر بشىء ، غير أن أسرته لابد وأنها قد أخبرته بما حدث فى هذه العملية - عملية التأميم - من قتل وإرهاب .

وضع أسرة غورباتشوف الدينى :

حافظت أسرة غورباتشوف على إيمانها بالدين النصرانى . وصرح غورباتشوف بذلك عن جده وجدته . أما والده فلم يكن يحمل شعورا كبيرا بالتدين . ووالدته على عكس ذلك تماما حيث بقيت على ديانتها ، وملازمة الكنيسة رغم كل الأحداث والإجراءات التى اتخذت ضد الدين فى الاتحاد السوفييتى .

ولأجل ذلك - وإن كان غورباتشوف أعلن فى مناسبات قليلة الحرب على العواطف الدينية - لم يطلق غورباتشوف الكلام المنمق لذم التدين كما فعل بعض أسلافه[٣].

---

(١) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٢-٢٣) .

(٢) انظر : المرجع السابق (٢٣) ، ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٥٢-٥٣) وفيه أن الدولة سيطرت على ٨٦,٤٪ من الممتلكات الريفية فى المنطقة .
كما بلغ عدد الضحايا حتى عام ١٩٣٠م عشرات الألوف من الناس الذين قاوموا عملية التأميم .

(٣) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٦٤-٦٥) .

غورباتشوف واليهودية :

هنـــاك عـدة دلائل تشير إلى أن غـورباتشوف تربطـه علاقـات وثيقـة بالديانة اليهودية :

(١) الشـك القـائم فى والد غورباتشـوف وكـونه من يهود الـدونمة الـذين هاجروا إلى روسيا .

(٢) أن زوجة غورباتشوف تعود فى جذورها إلى مملكـة الخزر اليهودية[١].

(٣) أن ابنـة غـورباتشوف وتدعـى ايرينا وهى طبيبة متزوجة مـن طبيـب يدعـى اناتولى فرغانسكى يعمـل فى المستشفى المدنى رقـم واحد التابع لمدينة موسكو وهو يهودى[٢].

وبعد هذا فإن من المجزوم به أن غورباتشوف وأسرته (زوجته وابنته) تربطهم علاقة نسب وثيقة مع اليهود .

دراسته :

إن المعلومات عن فترة دراسة غورباتشوف التى تسبـق المرحلة الجامعية قليلة جدا[٣]. ومـاوجدته مفصلا كـان حديثـا عـن سفره لمواصلـة الـدراسة الجامعيـة عـام ١٩٥٠م حيث توجه إلى مـوسكو ، وخلال رحلتـه تلـك شاهد الـــدمار الهـائل الـذى وقـع على كثير مـن المدن مـن جراء الحرب العـــالمية الثانية[٤].

وصـل غـورباتشوف إلى موسكـو وبدأ دراسة الحقـوق رغـم أن رغبته كانت تتجه إلى دراســة الفيزياء[٥]. ومـدة الدراسـة فى كلية الحقـوق خمس

---

(١) انظـر الإنهيار (١/١٣٣-١٣٤) ، ولمزيد عن توجه زوجة غـورباتشوف انظر سادات الماركسية (٢٧-٢٨) .

(٢) انظر : سادات الماركسية (٢٩) ، الإنهيار (١/١٣٤) .

(٣) وعلى الأقل فى المراجع التى وقعت عليها عينى .

(٤) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٧٣-٧٤) .

(٥) انظر المرجع السابق (٧٧-٧٨) .

سنوات . تحتل الماركسية اللينينية القسم الأعظم من برامج الكلية . (كما أن لدراسة العقيدة السوفيتية دورا هاما فى برامج كافة الدراسات الإنسانية . وقد استمع غورباتشوف إلى المحاضرات ، واشترك فى حلقات دراسية حول الديالكتيكية والمادية التاريخية والإقتصاد السياسى وأعمال ماركس وانجلز ولينين وستالين . فطالما أن العقيدة الماركسية ـ اللنينية هى النظرية المحورية التى أنشئت بموجبها الدولة السوفيتية وبالتالى القوانين السوفيتية ، فإن من الطبيعى أن تحتل مركز الصدارة فى كلية الحقوق . وكان على الطلبة أن يقرأوا باهتمام زائد أعمال ماركس ولينين بل وأن يتعمقوا فى فهم نصوصها ويتقنوا تفسيرها)[١].

المناصب التى تولاها :

بعد أن حصل غورباتشوف على الشهادة الجامعية فى الحقوق من جامعة موسكو عاد إلى ستافروبول و(اضطلع ببعض المهام فى إطار الشبيبة الشيوعية والحزب ، حيث شغل بين ١٩٧٠ و١٩٧٨م منصب السكرتير الأول فى لجنة المنطقة)[٢].

وكان هذا المنصب يتيح لصاحبه فى مدينة مثل ستافربول صلاحيات كبيرة (فهو أعلى من رئيس اللجنة التنفيذية للمدينة ، الذى يتولى مسؤوليات إدارية بحتة . وأمين السر الأول مسؤول عن كل شأن : عن المسرح والمدارس ، والصحف (غالبا ماناقش غورباتشوف المسؤولين عن تحرير الصحف فى العناوين الرئيسية والمقالات التى ستنشر فى الأيام التالية) والمستشفيات الحكومية والخاصة ، ووسائل النقل ، وبناء المساكن ، والمؤسسات الصناعية ، وقرارات المحاكم على صعيد المدينة . كان

---

(١) ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٨٤) ، وانظر عن محاضرات جامعة موسكو (٣٠٩) ، وانظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢١) .

(٢) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢١) ، وانظر النار والجليد (١٠٤) .

غورباتشوف رئيسا لمركز صناعى وتجارى وإدارى مهم ، فى منطقة يهتم بمحاصيلها الزراعية كل الاتحاد السوفييتى . كان هذا المنصب يعطيه فى الوقت عينه سلطة عملية ، إذ كان باستطاعة أمين سر الحزب منح الترقيات على سبيل المكافأة ، وإنزال العقوبات المسلكية لأسباب تأديبية ، كما يستطيع مساعدة صديق فى إيجاد مسكن أو مكان فى بيت للراحة)[١].

وتعترف زوجة غورباتشوف أن انتخابه كان غير عادى فنقول (كان انتخاب ميخائيل سكرتيرا أولا للجنة ستافروبول الإقليمية أمرا غير عادى فى تلك الأيام)[٢].

وتبرر ذلك بأن من كان قبله من السكرتيريين كانوا من خارج المنطقة أى غرباء عنها .

وكذلك لكون غورباتشوف شابا لم يتجاوز التاسعة والثلاثين من عمره[٣].

وقد اعتبر نيقولا دورحين أن شخصية غورباتشوف السياسية ظهرت من هذه اللحظة بل ذهب إلى أبعد من ذلك فاعتبر أن فكرته الجديدة "البيريسترويكا" بدأ حديثه عنها فى تلك الأثناء فيقول : (أستطيع التأكيد ، ومن دون أن أخشى الوقوع فى الغلط ، بأن شخصية ميخائيل ، كرجل سياسى عظيم بدأت تتأكد هنا فى ستافروبول . بعد تعيينه أمينا عاما تحدث عن موضوع فى غاية الأهمية : البيريسترويكا . لكنها لم تولد ، كفكرة ، وأمنية عند الشيوعيين ، فى تلك الجلسة حيث استعملت هذه الكلمة لأول مرة . فتلك الجلسة كانت فقط المناسبة التى شهدت التغيير غير أن الأفكار والأفعال التى أدخلت البيريسترويكا فى حيز حياتنا الإجتماعية ، وفى كافة قطاعات الحياة هى سابقة لكل ذلك . مثاله ، هنا فى منطقة ستافروبول وضعنا

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٣٢-١٣٣) .
(٢) أملى (٩٩) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٠٠) .

مع غورباتشوف برنامجا لمكننة الزراعة ومد شبكة الكهرباء ، فانتشرت الشبكة فى كل مكان من الكوخ الصغير حتى آخر مزرعة)[١].

وعلى هذا الأساس فإن فكرة البيريسترويكا كانت قديمة لدى غورباتشوف وتكاد الآراء تعتبر تعيينه أمينا أولا للسر هى بداية ذلك التفكير[٢].

إن اطلاق هذه السياسة لايمكن أن يكون فجأة ، بل لابد وأن يكون ذلك التوجه قد درس دراسة جيدة وأعد له إعدادا جيدا .

وفى بداية هذا التوجه لدى غورباتشوف انتخب عضوا فى اللجنة المركزية أى عام ١٩٧١م[٣].

وصول غورباتشوف إلى السلطة :

إن الغموض الشديد حول شخصية غورباتشوف لم يكن الوحيد . بل يكتنف هذا الغموض وصول غورباتشوف إلى السلطة كما أن هناك كثيراً من التساؤلات التى كانت قائمة حينذاك ومازالت إلى الآن ، حيث ترقيه فى المناصب بصورة سريعة ، مما أثار علامات استفهام كثيرة . ستجيب عليها الأيام القادمة نظرا لأن آثار الحدث لم تنته بعد ، وإن كانت هناك إشارات يتلمس من خلالها حقيقة ذلك الرجل ومن جاء به ، ولصالح من فجر سياسته الجديدة .

يقول محررو التايم : (بقيت حياته كتابا مغلقا ، ومحاولات التطفل عليها وفتحها لم تكن ناجحة تماما . والمؤلفات الحديثة حول غورباتشوف ،

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٤٥) ، وانظر مابعدها من أقوال حول إثبات أن فكرة السياسة التى فجرها غورباتشوف كانت موجودة لديه من قبل وصوله للرئاسة .

(٢) انظر : المرجع السابق (١٤٨) ، كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٩٢-٩٣) .

(٣) انظر : غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٤٠) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢١) .

بالرغم من أنها غالبا مهمة وذات رؤية ، اتجهت أكثر نحو فحص النظام السياسى والإجتماعى السوفييتى أكثر من اتجاهها نحو دراسة شاملة لحياة غورباتشوف . السبب الرئيسى لذلك الخلل فى السيرة الذاتية هو أن غورباتشوف ظهر من وضع مغمور تماما إلى السلطة والشهرة نسبيا ، فجأة ، تاركا القليل للذين فى الكرملين ، لاقتفاء أثره . فلم ينشر سوى القليل فى الاتحاد السوفييتى عن أصوله ، سيرته المهنية المبكرة ، وحياته الخاصة . وقد تجنب التطرق إلى الجوانب الشخصية فى مقابلاته وكتاباته . إنه يريد الابتعاد عن خلق الشخصية وعبادتها . وهو تعبير "ملطف" لتمجيد قائد ، له مطلق الصلاحية)[١].

وكان غورباتشوف بنفسه لايتكلم عن حياته وسيرته إلا فى النادر اليسير[٢].

ومع ذلك فقد وجدت عدة عوامل ساعدت على وصول غورباتشوف للسلطة منها :

(أ) وجود بعض الرجال الذين مهدوا لغورباتشوف الوصول إلى السلطة والتصويت له[٣].

(ب)ومن الأمور التى ساعدته على الوصول إلى السلطة أفكاره الجديدة ، وآراؤه الإقتصادية التى كان يطرحها ، وكانت بداية الاهتمام بغورباتشوف منذ أن ألقى كلمة اللجنة المركزية حول السياسة الزراعية .

وعمل غورباتشوف للتحضير لهذا الخطاب واستغرق فى ذلك قرابة شهر ونصف . وقد كان لهذا الخطاب أثر كبير فى حياته[٤]. حيث كان غنيا

---

(١) ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (١١-١٢) .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٠) .

(٣) من هؤلاء أندوروبوف ، والخبير الزراعى فيودر كولاكوف ، وسوسلوف أمين سر الحزب فى ستافروبول . انظر ماجاء عن هؤلاء وعلاقتهم بغورباتشوف فى كتاب غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٦١-١٦٤) .

(٤) انظر عن ذلك المرجع السابق (١٦٤-١٦٥) .

بالمعلومات والحقائق التى لم تعرض قبل ذلك الوقت بمقدار العمق الذى عرضت به . وقد كان غورباتشوف على ثقة كبيرة من كل ماقدم من إحصائيات ومعلومات ، كما كان متحفظا فى الاقتراحات وإعطاء الحلول(١).

(ج) أيضا مما يمكن ذكره هنا أن المناصب المتعددة التى شغلها غورباتشوف كان لها دور كبير فى وصوله إلى السلطة ، حيث كان نائبا فى مجلس السوفييت الأعلى ، ورئيسا للجنة المكلفة بشؤون الشبيبة فى الاتحاد السوفييتى ، ورئيسا للجنة القانون وهى هيئة ارتباط مهمة بين الحزب والحكومة . ثم عينه أندروبوف رئيسا للجنة الشئون الخارجية(٢).

(د) كذلك مما ساعد غورباتشوف على الوصول إلى السلطة شخصيته التى كان يتمتع بها حيث كان من السياسيين الموهوبين المحنكين . كما أنه كان صاحب خلق فى بيئته حيث لم يكن يشرب الكحول كما كان يعمل بجد ونشاط فى المراكز التى يشغلها(٣).

(هـ) كما أن المخابرات السوفيتية كان لها دور بارز فى إيصال غورباتشوف إلى السلطة(٤).

وبعد هذا فإن وصول غورباتشوف إلى السلطة وتدرجه فى المناصب القيادية واختياره فى هذاالسن كل ذلك مع ماصاحب اختياره من التغيير والتبديل فى سياسة الاتحاد السوفييتى الداخلية والخارجية يجعل التساؤل قائماً من وراء غورباتشوف ، ولماذا اختير هو بالذات؟!!

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن البيئة التى نشأ فيها غورباتشوف اكتوت بآثار تطبيق التأميم مما كان له أثر فى نفوس أسرته وبالتالى انعكاسه على غورباتشوف .

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٦٥) .

(٢) انظر المرجع السابق (١٧٠) .

(٣) انظر : الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٣) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٦٣) .

(٤) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٣) .

ثانيا : أن أسرة غورباتشوف حافظت على تمسكها بدينها إلى حد كبير ، وخاصة والدته .

ثالثا : أن غورباتشوف يرتبط بعلاقة وثيقة مع اليهود .

رابعا : الغموض فى شخصية غورباتشوف وترقيه فى بعض المناصب بشكل يدعو للتساؤل .

بعض المؤثرات فى حياة غورباتشوف والتى كان لها أثر واضح فى سياسته وتوجهه فيما بعد :

لاشك أن للبيئة التى نشأ فيها غورباتشوف أثر فى سياسته التى انتهجها فيما بعد ، ويمكن ابراز هذه المؤثرات فى الآتى :

أولا : الوضع القروى الذى كان يعيشه وماحدث به من قبل أهله ، وأهل قريته من أحداث دامية ، وقتل ونفى للمواطنين خاصة فى عمليات التأميم الإجبارى .

يقول غيرد : (إن جو العائلة القروية ونمط عيشها ، والعمل الذى كان يتقاسمه مع الكبار ، منذ نعومة أظفاره ، قد أثر ، من دون منازع ، فى تطور طباعه وفى نظرته إلى الحياة . كان لايزال صغيرا جدا كى يستطيع الحكم على التأميم الإجبارى والسنوات القاسية التى أعقبته . غير أن التجارب التى عاشها أهله وأجداده قد أثرت فيه وطبعته بطابعها ، حتى ولم يكن قد بلغ - فى مرحلة عمليات التطهير السياسى الكبرى - السادسة أو السابعة من عمره ...)[١]

ثانيا : الأحداث التى صاحبت التأميم من قتل وسجن وشملت أسرته وخاصة جده الذى كانت تربطه به علاقة وثيقة . حيث قال غورباتشوف لأحد رؤساء تحرير إحدى المجلات الكبرى (هل تعلم أن جدى قد سجن عام ١٩٣٧م لمدة سنة ونصف السنة ، وأن عائلتى قد اعتبرت "عدوة الشعب"؟) .

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٩) ، وانظر (٤٠-٤١) .

و(كان لابد للسجن من أن يترك آثاره ، فى كل حال ، على الفتى غورباتشوف الذى يكن الإعجاب لجده)[١].

ومن هنا اعتبر بعض الكتاب أن من أهم الدوافع التى وجهت غورباتشوف للاهتمام بالحقوق (القمع الرهيب الذى سببته سياسة التأميم ، والذى وصلت أخباره إلى مسامع الطفل عبر أهله)[٢].

ثالثا : تذمر غورباتشوف من سياسة ستالين حين كان فى جامعة موسكو إلا أن الخوف كان يمنعه هو ومن على شاكلته من التعبير عن مابدواخلهم أو الإفصاح عن أفكارهم .

يقول أحد أصدقاء غورباتشوف فى سنوات الجامعة (قيض لى أن أتحدث إليه ، بصورة سرية للغاية ، حول مسائل يمكننا طرحها معا وتتصل بالإشتراكية فى عهد ستالين . نحن ، أى أنا وهو ، لم نكن راضين عن هذا النظام البشع لأننا كنا نعيش فى جو من الخوف . تساءلنا بصورة سرية وحذرة حول الإشتراكية على طريقة ستالين : هل كانت جيدة أم سيئة؟ ولكن من غير الوارد أن نتطرق إلى هذا الموضوع علنا وأمام الغير ، كنا فى خوف شديد . وقد نتعرض لخطر الموت . كانت عبادة الدكتاتور قد بلغت درجة من اللإنسانية بحيث إن كل واحد منا قد يقع ضحية هذا المجنون ، هذا المريض العقل ، هذا القاتل الشرير وضحية حكمه الأحمق . بعد موت ستالين ، تحدثنا بصورة أكثر صراحة : هذه الإشتراكية ليست بإشتراكية . هذه الإشتراكية كانت سيئة . وتحدثنا أيضا عما كان يسمى القيادة الجماعية ، وهى عبارة عن ديكتاتورية مجموعة حمقاء تمارسها عصابة متوحشة)[١].

هذا بالإضافة إلى أن دراسة غورباتشوف سمحت له بالاطلاع على أوضاع الفلاحين وأحوال البلاد الإقتصادية[٣].

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٤٦-٤٧) .
(٢) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٦) .
(٣) نقلا من كتاب غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٨٩-٩٠) .
(٤) انظر المرجع السابق (١٣١-١٣٢) .

رابعا : علاقة غورباتشوف بالآخرين وخاصة الذين لهم آراء تخالف مبادىء الشيوعية ، أو سياسة الحزب ، مضافا إلى ذلك وقوفه إلى جانب المظلومين والمضطهدين بسبب آرائهم السياسية .

يقول سخاروف : (كان يقوم منذ عدة سنوات بنصرة أناس يتعرضون للتعذيب بسبب آرائهم السياسية ، وإيمانهم أو قوميتهم) .

هذا بالإضافة إلى استدعائه سخاروف ذاته حيث (عاش منعزلا وتحت الرقابة السياسية الدائمة ، إلى أن اتصل به غورباتشيف بالهاتف داعيا إياه إلى موسكو)[١].

خامسا : النزول إلى حياة الناس الواقعية ومعايشتهم ، والشعور بمتطلباتهم ، وسماع شكاواهم . مما جعله أكثر إيمانا بضرورة التغيير والرجوع عن هذا الفكر . وأوضح غورباتشوف أهمية سماع صوت الشعب والاستفادة من آرائه ، وتحقيق الديمقراطية له فقال : (إن الإشتراكية والديمقراطية لاتنفصلان . فمن خلال حصولهم على الحريات الديمقراطية ، يصل الشغيلة إلى السلطة ، كما أنهم لايستطيعون تحقيق هذه السلطة وترسيخها إلا فى ظروف إشاعة الديمقراطية) .

ويقول : (ينبغى أن نكون قادرين على تصويب السياسة لتتواءم مع الطريقة التى تريدها الجماهير ، وتنشيط عملية تلقى الآراء والأفكار من الجماهير لننهل من أفكار شعبنا ونصائحه . فالشغيلة يقترحون كثيرا من الأفكار المفيدة والمثيرة للاهتمام ، ولكنها أفكار لاترى دائما بشكل جيد من قبل الجالسين "فوق القمة" . ولهذا لايجوز التسامح بأى شكل مع مواقف الازدراء لما يصدر عن الشعب ، وفى النهاية ، نجد أن العامل الأساسى فى إنجاح عملية إعادة البناء ، هو موقف الشعب من هذه العملية ...)[٢].

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٣٨-١٣٩) .

(٢) عملية إعادة البناء (٣١) .

سادسا : انفتاح غورباتشوف على العالم الخارجى حيث قام بزيارة بعض الدول الرأسمالية ، واطلع على أوضاع الأمم هناك فكان لهذا الانفتاح فى شخصيته أثره على سياسته الداخلية دون شك . وتمت هذه الزيارات وغورباتشوف يعمل فى الحزب الشيوعى . هذا بالإضافة إلى أنه كان يذكر بعض الانتقادات للسياسة السوفيتية مما جعل بعض الكتاب والسياسيين يعدها سابقة فى قواد ومسئولى الحزب الشيوعى .

ففى عام ١٩٦٦م زار المانيا الشرقية ، وفرنسا ، وفى عام ١٩٦٩م ذهب إلى تشيكوسلوفاكيا . وفى سنة ١٩٧٢م ذهب إلى بروكسل ، وفى عام ١٩٧٥م ذهب إلى المانيا الغربية ، وفى عام ١٩٧٦م ذهب إلى فرنسا مرة أخرى(١).

وفى عام ١٩٨٣م ذهب إلى كندا وبعد أن رأى العمال وماهم عليه قال : (عندنا ، هذا لن يحدث قبل خمسين عاما)(٢).

وفى عام ١٩٨٤م قام بزيارة لايطاليا ، وقال رئيس قسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الايطالى : (إنه لأول مرة فى حياته يلتقى قائدا سوفيتيا يسمح لنفسه بأن يوجه ملاحظات نقدية تطال بلده)(٣).

وفى العام نفسه ذهب إلى بريطانيا وقالت عنه تاتشر : (السيد غورباتشوف يروق لى . يمكننا القيام ببعض المشاريع سويا)(٤).

سابعا : البساطة التى كان يعيشها غورباتشوف وأعضاء أسرته . حيث كانت أسرته تساير الناس فى حياتهم وشئونهم دون تميز عنهم ، وهذا على خلاف ماكانت عليه أسر قواد وزعماء الحزب الشيوعى(٥). يضاف إلى ذلك مستوى السكن الذى كان يعيش فيه غورباتشوف وأسرته حيث كان

---

(١) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٥٥) .
(٢) نقلا من المرجع السابق (٥٥) .
(٣) المرجع السابق (٥٥) .
(٤) المرجع السابق (٥٦) ، وانظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (١٩٧) .
(٥) انظر عن ذلك غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٤٣) .

متواضعا جدا مقارنة بإسكان أعضاء الحزب ومسئوليه[١].

ثم أثر زوجته عليه حيث كانت تربطها علاقات عديدة بكثير من مفكرى المجتمع مما جعلها تنقل تصورات هؤلاء إلى زوجها[٢].

هذا عدا ماتميزت به شخصية غورباتشوف من ضبط النفس وتحمل سماع الآخرين والاحتكاك بهم[٣]. كل ذلك كان له أثر على سياسته ، وأثر فى تقبل الناس لها ودعمها .

ثامنا : وجود مجموعة من المفكرين يرغبون فى التغيير والتعديل فى الفكر الماركسى والأفكار المنتشرة إلى أفكار أخرى تساير الواقع وتحقق السعادة للفرد والمجتمع . وقد انتقد هؤلاء سياسة ستالين ، وآثار التأميم السيئة ، ومصادرة الملكية الفردية ، وطالبوا بالتغيير من أجل انعاش الإقتصاد وترك التزمت العقائدى ، وعدم إنفراد جهة محددة بالأمور ، ومعالجة البيروقراطية المتفشية فى الحزب[٤].

ولاشك أن وجود هذه النخبة من المفكرين والقياديين بجوار غورباتشوف له أثره الكبير فى الإقدام على إعلان السياسة الجديدة لأن هؤلاء سيكونون درعا قويا فى وجه الأفكار الأخرى ـ خاصة إذا ماكان هؤلاء المفكرين وأمثالهم ممن لهم توجهات تساير غورباتشوف ـ وأصحاب تأثير فى الرأى العام .

تاسعا : وجود القادة السوفييت الذين سبقوا غورباتشوف وكان لهم أثر واضح فى التغيير والتبديل ، وخاصة من بداية عهد خروشوف يضاف إلى ذلك ماكان من تمرد فى الدول الشرقية على الإشتراكية وتذمرها (أى

---

(١) انظر عن ذلك : المرجع السابق (١٨٣،١٤٤) ، ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٤٠-٤١) .

(٢) انظر عن ذلك غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٨٦-١٨٧) .

(٣) انظر عن ذلك أملى (١٦٧) .

(٤) انظر عن ذلك غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢١٢،٢٢٣-٢٢٤،٢٣١-٢٣٢، ٢٧٢) .

الدول) من ذلك الفكر والوضع الذى كانت تعيشه .

هـذا بالإضـافة إلى أن غورباتشـوف كان يرغب فى تلافى الأخطـاء التى وقع فيها أسلافه[١].

ونعرض الآن للسياسة الجديدة التى جاء بها غورباتشوف .

السياسة الجديدة لغورباتشوف (النظرية الغورباتشوفية) :

إن هـذه النظرية تمثل الـرجعة الأخيرة عن الفكـرة الماركسيـة وحملت فكـرة التراجع هذه الإصلاحات التى اعتبرت بحق الحكـم النهـائى بالفشل على الفكر الماركسى .

يقـول آرنسـت مـاندل إن (إصلاحات غـورباتشوف وهـى الأخيرة فى سيـاق سلسلـة طويلة ، فتبين حيـوية الجسـم الإجتماعـى وصحتـه الأساسيين وسيغـدو مجرى الإصلاحات الجذرية وإضفـاء الـديمقـراطية مجرى لارجعـة فيه)[٢].

ويقـول حسين صبرا : (لم يقـف غورباتشوف فى "بيريسترويكيتـه" عند حد التراجع وإنما أخذ يتبرأ من كل السياسات التى انتهجها الاتحاد السوفييتى منذ قيامه فى مطلع هذا القرن حتى لحظة تسلمه النظام ... معتبرا أن مـاحصل فى الماضى هو غلطة لن تتكرر أبدا ، ومتكفلا بالتكفير عن ذنوب أسلافه)[٣].

وقـد أعلن غورباتشوف أن سيـاسته وإصلاحاته ستكـون حقيقة لامجرد دعـوى حيـث قـال : (أصبحنـا على يقين مـن عـدم جدوى الإصلاحات التجميلية ومحاولات الترقيع ، وأن المطلوب هو إعادة تصنيع جدية تماما)[٤].

---

(١) انظـر عـن ذلـك : غـورباتشوف صـانع القـرار وضحيتـه (١٢٢-١٢٤) ، ميخـائيل غـورباتشوف سيرة ذاتيـة مفصلة (٣٦٤) ، الاتحاد السـوفييتى فى ظـل غـورباتشوف (١٢٥) .

(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٥) .

(٣) سادات الماركسية (٤٨) .

(٤) عملية إعادة البناء (٢٥) .

وأضاف (إن تصور الإشتراكية والمجتمع الإشتراكى كشىء جامد لايتغير هو تصور خاطىء وضار)[١].

فما هى السياسة الجديدة التى جاء بها غورباتشوف؟

عرفت سياسة غورباتشوف الجديدة :

(١) بالبيريسترويكا .

(٢) والغلاسنوست .

أولا : البيريسترويكا :

وهى ثورة ضد القديم .

ومن حيث اللغة : تعنى إعادة البناء .

ويبين غورباتشوف دلالتها ومعناها الذى يقصده فيقول : (إعادة البناء تعبير متعدد الدلالات ، واسع للغاية . ولكن ، إذا انتقينا من بين دلالاته المتعددة المحتملة ، الدلالة الرئيسية المعبرة أقرب مايمكن عن جوهر هذه العملية ، أمكننا القول إن إعادة البناء هى ثورة)[٢].

ويقول : (إن إعادة البناء عملية ثورية ، ذلك أنها قفزة فى تطور الإشتراكية ، فى تجسيد خصائصها الجوهرية . لقد أدركنا منذ البداية : لاوقت لدينا للتردد . ومن المهم جدا أن لا"نؤجل" لحظة الانطلاق ، أن لانتخلف ، وأن ننطلق من مستنقع العقلية المحافظة ، وأن نحطم قوة استمرار الركود . فلايمكن إنجاز ذلك بأسلوب الخطوة خطوة واللجوء إلى الإصلاحات الوجلة الزاحفة ببطء)[٣].

ثم يبين غورباتشوف أن التغيير يصل إلى كل شىء من القاع إلى القمة لأنها ثورة ضد كل قديم فيقول : (لايجوز الاستخفاف بإعادة البناء

---

(١) عملية إعادة البناء (٤٤) .

(٢) المرجع السابق (٤٩) .

(٣) المرجع السابق (٥٠) .

كما لايجوز الاستخفاف بأية ثورة . هنا لابد من المضى إلى النهاية وتحقيق النجاحات يوميا لكى تشعر الجماهير بالنتائج المفيدة ، ليدور الدولاب ، لتزداد سرعة الحركة ، وللنهوض ـ سواء بالمعنى المادى أم الروحى .

ونحن إذ نخلع على اجراءاتنا المتخذة صفة الثورية ، فإننا نعنى بذلك طابعها العميق الجذرى وغير المهادن ، وشمولها للمجتمع كله من القمة إلى القاعدة ومن علاقات الملكية حتى البنية الفوقية . إنها اجراءات تشمل كل مجالات الحياة ، تشملها بمجموعها بشكل متكامل . إنها ليست صباغة أو تنظيف بقعة على جسدنا الإجتماعى ، بل إنعاش للجسد كله ، وتجديد كامل له)[١].

ويرى غورباتشوف أن فكرة الإصلاح تعود إلى لينين فيقول : (إن لينين لم يخش استعمال هذه الكلمة ، لابل إنه علم البلاشفة ضرورة "الإصلاح" إذا اقتضاه ضرورة تطور الثورة ضمن الظروف المستجدة . ونحن اليوم بحاجة لتحقيق إصلاحات جذرية من أجل انجاز التحولات الثورية)[٢].

ويقول فى بيان أن عملية إعادة البناء هى إعادة تنظيم لكل شىء .

(يسعدنى أنه قد بدأ يتشكل الإدراك داخل الحزب والمجتمع ككل : إننا باشرنا قضية لاسابق لها ـ إعادة تنظيم السياسة والإقتصاد والمجتمع والأيديولوجيا . إلا أننا ، إذا كنا راغبين فى تنفيذ مخططنا فى الحياة ، فعلينا تنفيذ عمل سياسى وإجتماعى وإقتصادى وأيديولوجى لاسابق له على الصعيدين المحلى والخارجى ، وأن نتحمل قبل كل شىء مسؤولية لم يسبق لها مثيل . ونحن نأخذ فى اعتبارنا ضرورة العمل وضخامته وجرأته وخاصة فى المرحلة الأولى)[٣].

---

(١) عملية إعادة البناء (٥٣) .
(٢) المرجع السابق (٥١) .
(٣) المرجع السابق (٦٥) .

وبالتالى فإن إعادة البناء هى تغيير واستبدال الأفكار القديمة بأخرى جديدة سواء فى الإقتصاد أو السياسة أو الإجتماع أو مايتعلق بالأفكار الدينية(١).

ثانيا : الغلاسنوست :

إن جذور هذه الكلمة هو غلاس Glas ، غولوس Golos الصوت .

وفى القاموس الروسى لعام ١٨٦٣-١٨٦٦م تعنى هذه الكلمة "ماهو معروف ، شائع ، عام" .

والكلمة تعبر عن "الرأى" ، وعن الرغبة بالصراحة . وعن المداولات والنقاشات المفتوحة العامة(٢).

وفى قاموس عام ١٩٨١م أحال القارىء إلى الصفة المشتقة (غلاسنى) وتعنى (مايمكن أن يعرف ويناقش علنا)(٣).

وفى عام ١٩٨٧م يعطى مختصر القاموس السياسى الكلمة شرحا وافيا وفيه الغلاسنوست :

(هى أحد المبادىء الديمقراطية الكبرى . أنها تؤمن شفافية عمل الإدارات الحكومية ، وتسمح للناس بمعرفة ماتقوم به هذه الإدارات من نشاط ثم إن القاموس يكشف عن غائية الكلمة ـ الشعار الجديد ـ "تمثل الغلاسنوست الشكل الأفضل لضبط أجهزة السلطة ، المحلية منها خاصة ، من جانب الجماهير ، والشكل الأفضل للصراع ضد البيروقراطية")(٤).

ولايدخل (فى نطاق الغلاسنوست المعلومات التى تطال أسرار الدول والأسرار العسكرية ، والعلمية والتقنية والإنتاجية والحقوقية والطبية)(٥).

---

(١) لمزيد عن ذلك انظر : البيريسترويكا من منظور إسلامى (١١-١٢) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٦٩-١٧٠،١٩٦،٢٦١) .

(٢) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٣٥-١٣٦) .

(٣) انظر المرجع السابق (١٣٦) .

(٤)،(٥) المرجع السابق (١٣٦) .

وبعد هذا فإن أفكار التغيير والإصلاح كانت تراود الكثير من المفكرين وأعضاء الحزب[١]. إلا أن الخوف كان يقضى عليها ، أو يحجبها عن الظهور إلى أن برزت للعيان فى الآونة الأخيرة .

فظهورها على يد غورباتشوف لايعنى عدم وجودها من قبل[٢].

ولكنها اتخذت طابعا آخر فكانت المناقشات تتم بصورة علنية[٣]مما أدى إلى تطلع الشعب إلى السياسة الجديدة والوقوف معها ومع غورباتشوف فى تطبيقها ولولا ذلك لما استطاع غورباتشوف تحقيق شىء مما كان يهدف إليه[٤]. مضافا لذلك وجود كثير من أصحاب المناصب العليا يشاركون غورباتشوف أفكاره[٥].

كذلك كان الأمر بالنسبة لفكرة الغلاسنوست لم تكن حديثة وإن كانت أخذت فى عهد غورباتشوف طابعا آخر . وقد اعتبر بعض الكتاب والمفكرين السوفييت أن بدايتها كانت منذ وفاة ستالين وقد عملوا للحصول عليها كثيرا مما يدل على أن الشعب كان يرغب فى التخلص من ذلك الفكر الجاثم على قلبه ولكن الخوف والهلع الذى خلفته الحقبة الستالينية كان لهم بالمرصاد . يقول فتشينكو : (إن الغلاسنوست ليست شيئا منزلا من الأعلى ، إنها ليست هبة ، لقد عملنا بجد من أجلها ولقد كانت معركة طويلة ، منذ وفاة ستالين أحرزنا بعض الانتصارات ، ومنينا بالعديد من الهزائم ، وقد مررنا بأوقات كانت الغلاسنوست فيها غير معلنة ـ بدون صوت)[٦].

---

(١) انظر عن ذلك غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٤٧-٢٥٠) .

(٢) انظر عن ذلك : سادات الماركسية (٢٥-٢٧) ، البيريسترويكا من منظور إسلامى (٧) ، وفيه (لم تكن البيريسترويكا ـ فى الحقيقة ـ طرحا غورباتشوفيا وإنما كانت الطرح الأكثر وضوحا وصراحة من قبل غورباتشوف ...) .

(٣) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٨) .

(٤) انظر المرجع السابق (٢٥٢) ومابعدها .

(٥) انظر المرجع السابق (٢٢٧-٢٢٨) .

(٦) نقلا من كتاب ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢٨) .

إن العلاقة والاتصال مباشر بين سياسة إعادة البناء وسياسة الغلاسنوست . يقول فتشينكو : (إن العلاقة بين الغلاسنوست وإعادة بناء الإقتصاد هى كالعلاقة بين الهواء والتربة ، إن الهواء يمكن تجديده بسرعة ولكن التربة تحتاج لوقت طويل ليعاد تجديدها)(١).

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن السياسة الجديدة التى نادى بها غورباتشوف وجدت لديه من قبل أن يصل إلى رئاسة الحزب .

ثانيا : أن وجود بعض الشخصيات المؤيدة لهذه السياسة كان له تأثير كبير فى تقبل الناس لها .

أهداف البيريسترويكا :

لن نذهب بعيدا فى تحديد أهم الأهداف التى كان يرمى إليها غورباتشوف من سياسته الجديدة . وندعه يحدثنا عنها حيث قال :

(١) (إن إعادة البناء انتصار حاسم على الركود وكسر العمود الفقرى لآلية الفرملة "الكبح" ، وبناء آلية فعالة ومضمونة لتسريع النمو الإقتصادى الإجتماعى للمجمتع ، وتنشيط حيويته بشكل هائل) .

(٢) (كما تعنى إعادة البناء الاعتماد على إبداع الجماهير الحى . إنها التطوير الشامل للديمقراطية والإدارة الذاتية الإشتراكية ، وتشجيع المبادرات والنشاط الفردى وتوطيد الانضباط والنظام ، وتوسيع العلنية وممارسة النقد الذاتى فى كل مجالات حياة المجتمع . إنها السمو إلى احترام القيم والكرامة الذاتية) .

(٣) (وإعادة البناء تكثيف شامل فى الإقتصاد السوفييتى ، وإحياء وتطوير لمبادىء المركزية الديمقراطية فى إدارة الإقتصاد الوطنى وإدخال

---

(١) نقلا من كتاب ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢٩) .

الأساليب الإقتصادية الناجعة فى الإدارة فى كل مكان والتخلى عن الإدارة القائمة على إصدار الأوامر وتشجيع الابتكار والحرص الإشتراكى على جميع الجبهات) .

(٤) (وتأتى إعادة البناء تحولا حاسما نحو العلم وقدرة على توفير أساس علمى متين لكل مبادرة جديدة . إنها دمج إنجازات الثورة العلمية التكنولوجية بالتخطيط الإقتصادى) .

(٥) (وترمى إعادة البناء إلى إعطاء الأولوية لتطوير المجال الإجتماعى الموجه نحو إشباع حاجات الناس السوفييت بصورة أكمل من المسكن والراحة والتعليم والخدمات الطبية وتأمين ظروف عمل أفضل . إنها عناية دائمة بالثروة الروحية وبثقافة الأفراد والمجتمع بوجه عام) .

(٦) (إن إعادة البناء تخلص المجتمع من كل شائبة لحقت بالأخلاق الإشتراكية ، وتطبيق متواصل لمبادىء العدالة الإجتماعية فى الحياة . إنها وحدة القول والعمل ، الحقوق والواجبات ، وهى الاعلاء من شأن العمل الشريف المتقن ، والتخلص من نزعة التساوى فى المداخيل والنزعة الاستهلاكية)[١].

(٧) (إننى أستطيع القول ، من ناحية مبدئية ، أن الهدف النهائى لإعادة البناء واضح لنا . إنه التجديد العميق لكل جوانب الحياة فى البلاد ، وإضفاء أحدث أشكال التنظيم الإجتماعى على الإشتراكية ، والكشف التام عن طبيعتها الإنسانية فى كل المجالات الحاسمة ـ الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والأخلاقية . وأؤكد من جديد ، أن إعادة البناء ليست استعادة للرؤيا ، ولامجرد ضوء ؛ بل هى إدراك للضرورة الموضوعية ، ضرورة التجديد والتسريع التى ولدت من أعماق مجتمعنا)[٢].

---

(١) عملية إعادة البناء (٣٢-٣٣) .

(٢) المرجع السابق (٣٤) .

(٨) العمل على تحقيق الحرية . يقول غورباتشوف : يجب (أن نضع أمام أعيننا أهداف البروسترويكا ، التى تشمل الحرية السياسية ، والحرية الإقتصادية ، والحرية الثقافية . ويجب علينا أن نقف بثبات ونتمسك بتلك المبادىء ، وأن نكون متأكدين من أننا لن نفتح الطريق للستالينيين الجدد ، ومنهم المتقهقرون والمغامرون والمتطرفون ، وبالتالى يجب علينا أن نحافظ على "البروسترويكا" فى إطارها السلمى ، وإلا فإن "كل شىء سيعود إلى ماكان عليه الوضع فى الأيام السالفة")[١].
ويقول : (إن أهداف البروسترويكا هى : الحرية الإقتصادية والحرية السياسية ، والهروب من العزلة ودخول البلاد فى مجرى الحضارة ، وثمة مبدأ جوهرى - إذا مانظرنا إلى الأمر على الصعيد الفلسفى - يتمثل برفض أى نماذج جاهزة للمجتمع يمكن مجددا ، بصرف النظر عن حسن المقاصد ، فرضها على المجتمع لجلب السعادة إلى الشعب "من فوق" . الهدف هو تحرير القوى الحيوية داخل أفراد الشعب ، ومنحهم إمكانية بناء عافيتهم بحرية ، كل بمفرده والكل معا ، وتمهيد الطريق نحو مستقبلهم فى ظل القيم الإنسانية البسيطة العامة المتطورة عبر قرون من التقدم العالمى ، لاعلى أساس الطروحات والقوالب الجامدة)[٢].

(٩) من أهداف السياسة الجديدة القضاء على التسلط والجبروت ، وتحقيق الديمقراطية فعلا ، ورفع مستوى المعيشة للسكان[٣].

(١٠) التأثير على مجرى السياسة الدولية بكاملها حيث لم يعد المرء يسمع بأخطار حرب عالمية[٤].

---

(١) الإنقلاب (٥٨) وانظر مابعدها .
(٢) المرجع السابق (٦٩) .
(٣) انظر المرجع السابق (٧٧-٧٨) وانظر مابعدها .
(٤) انظر المرجع السابق (٦٦) ومابعدها .

ونظرا لبعض أقوال غورباتشوف التى تدعو إلى الإبقاء على النظرية الإشتراكية كان يرى البعض أن السياسة الجديدة إعادة البناء هى العودة إلى الإشتراكية حيث قال غورباتشوف (إذ يكمن جوهر إعادة البناء فى دمج الإشتراكية بالديمقراطية ، وفى إحياء المفهوم اللينينى للبناء الإشتراكى نظريا وعمليا . من هنا تستمد العملية عمقها وروحها الحقيقية وطابعها الكامل)[١].

أسباب ودوافع السياسة الجديدة :

إن السياسة التى انتهجها غورباتشوف لم تكن سهلة القبول أو التطبيق لولا وجود الأسباب والدوافع التى ساعدت بل التى من أجلها اتخذ النهج الجديد . ومن هنا أصبح السير على خلاف هذه السياسة هو الرجعية والنكوص عن التطور .

إن الوضع والحياةالمتردية التى كان يعيشها الاتحاد السوفييتى هو السب الجوهرى فى الإقدام على هذه السياسة . يقول غورباتشوف : (إن الحافز الرئيسى لعملية إعادة البناء ، هو إلى حد كبير ، عدم رضانا عن كيفية سير الأمور فى بلادنا خلال السنوات الأخيرة)[٢].

ويمكن إبراز أهم هذه الدوافع فى التالى :

أولا : أن التغيير كان مطلب الجماهير ولو حصل تأخير له لربما تفاقم الوضع إلى درجة الانفجار غير المنضبط ولو بدرجة معينة . يقول غورباتشوف : (إن إعادة البناء ليست نزوة من بعض الأفراد أو بعض المجموعات ، الذين انتابتهم فجأة حمى الطموح . فلو كان الأمر كذلك لما تمكنت النداءات ولاالإجتماعات الموسعة ولاحتى مؤتمر الحزب من إنهاض الشعب للإنخراط فى العملية التى بدأت عندنا الآن ، والتى ينضم إليها كل يوم أعداد أكبر من الناس السوفييت .

---

(١) إعادة البناء (٣٤) .
(٢) المرجع السابق (٩) .

إن عملية إعادة البناء متطلبات نضجت وتمت فى رحم عمليات التطور لمجتمعنا الإشتراكى . وقد آن الأوان لولادة الجديد ، بل يمكن القول إنها قد تسببت فى آلام المخاض . وكان ممكنا أن يؤدى التأجيل فى عملية إعادة البناء ، وفى أقرب وقت ، إلى تأزيم الوضع الداخلى الذى حمل ، وبصراحة ، خطر قيام أزمة اجتماعية إقتصادية وسياسية حادة)[١].

وقد أيد هؤلاء الإصلاحات الجديدة حتى تراكمت الرسائل على غورباتشوف المؤيدة له مما يدل على أن القوة الفعلية وراء التغير هم الشعب . ويورد غورباتشوف بعضا من هذه الرلسائل فى كتابه عملية إعادة البناء ويقول قبل ذلك : (وفيما يتعلق بالقيادة السوفيتية ، فإن من أهم وسائل التواصل مع الجماهير المعاشرة المباشرة مع المواطنين ورسائلهم . فالرسائل تصل إلى المجلات والجرائد اليومية "والكثير من هذه الرسائل يتم نشره" وكذلك الرسائل الموجهة إلى الحكومة ومجلس السوفييت الأعلى . كما ترد رسائل عديدة إلى اللجنة المركزية للحزب بشكل خاص .

وهنا تتسم الرسائل بصفة مميزة . فهى وإن كانت كثيرة كالسابق أو توجه إلى مختلف المراجع ، إلا أنها الآن تغيرت من حيث الجوهر . فقد تضاءل عدد من يكتبون الرسائل سعيا لتحقيق وحل مايسمى "قضايا شخصية" مثل المساعدة فى الحصول على شقة ، موضوع التقاعد ، إغاثة شخص محكوم خطأ ، إعادة للعمل ...الخ . صحيح أنه مازال يرد القليل من مثل هذه الرسائل ، ولكن المحتوى الرئيسى لأغلبية الرسائل قد بدأ يتغير ، فالأساس فيها الآن ، اهتمامات وآراء بشأن مصير البلاد . كأن حبل الصمت والاغتراب الذى جدل خلال سنين طويلة قد انقطع . فالأوضاع الجديدة تسمح بالكثير من الصراحة للناس . وهم راغبون فى تبادل الآراء والأفكار وبث همومهم ليس للآخرين ، بل لقادة البلاد . بعض هذه الرسائل يمثل

---

(١) عملية إعادة البناء (١٥) .

ببساطة صراخ الروح)[١].

ويقول غورباتشوف : (من بين كل خمسة عشر مواطنا سوفيتيا هناك أربعة عشر ولدوا بعد الثورة . ومع ذلك يستمرون فى دعوتهم لنا للتخلى عن الإشتراكية)[٢].

ويقول عن أهمية الرسائل : (هذه الرسائل ـ وهى بالآلاف ـ تمثل شهادة ثقة عظيمة بقيادة الحزب والدولة . بعث الثقة! وهذه قوة عظيمة ورأسمال لايقدر بثمن)[٣].

وتبين رايسا غورباتشوف أهمية هذه الرسائل وكثرتها وكون الشعب كان يرغب فى التغيير فتقول : (فى ١٩٨٥م كان زوجى يتسلم عشرة آلاف رسالة شخصية شهريا . وكان مجموع ماتسلمه عام ١٩٨٥م أكثر من أربعمائة ألف رسالة . وأكرر أن تلك هى الرسائل الشخصية فقط لاالرسائل الموجهة على العموم إلى اللجنة المركزية . فى ١٩٨٦م تسلم أكثر من ستين ألف رسالة شهريا . وأقول مرة أخرى أنها شخصية . فى عام ١٩٩٠م تسلم أربعين ألف رسالة شهريا . وفى يناير وفبراير وردت إليه ثلاثة وتسعون ألف رسالة .

إنى واثقة من أنه ليس هناك وثيقة تتصل بالبيريسترويكا أكثر كشفا وأشد نزاهة من تلك الرسائل . وتحتوى الرسائل على تاريخ إعادة البناء وتحليل للأفكار التى تسندها ، كما تحتوى على إرشادات واقتراحات وتأملات وعلى كل التوتر والدراما الموجودين فى البيريسترويكا .

لاموجب لإخفاء حقيقة أن هناك رسائل مشحونة بسوء الطوية

---

(١) عملية إعادة البناء (٦٧-٦٨) .
وأورد غورباتشوف مجموعة من الرسائل وكانت تطالبه بالاستمرار فى سياسته . انظر (٦٨-٧٢) .

(٢) المرجع السابق (٤١) .

(٣) المرجع السابق (٧٢) وانظر مابعدها .

والكراهية والحنق . ولكن الأغلبية رسائل دعم وأمل وعزم على التنفيذ)[١].

وبالعموم لو لم يكن غورباتشوف على رأس السلطة فإن ماحدث كان سيحدث نظرا لأن الشعب بلغ درجة من التردى يستحيل معها استمراره تحت وطأة هذا النظام . فغورباتشوف لم يكن إلا منفذا لإرادة الشعب .

ثانيا : التردى الإقتصادى العام ونقص الغذاء وانعدام السكن مضافا إلى ذلك أو بسببه تردى الأخلاق والقيم .

يقول غورباتشوف : (لم نتمكن من أن نستثمر ، بشكل كامل ، إمكاناتنا الإشتراكية فيما يتعلق بتلبية الاحتياجات المتنامية لتحسين ظروف المسكن ، ولتأمين المواد الغذائية كما وكيفا ، وكذلك لتنظيم عمل وسائط النقل وفق المستوى المطلوب ، ولتحسين الخدمات الطبية والتعليمية ومعالجة المشاكل الأخرى التى كان من الطبيعى أن تبرز أثناء مسيرة تطور المجتمع . وأخذ ينشأ وضع غير معقول . إنتاج ضخم من الفولاذ والمواد الخام والطاقة والوقود لامثيل له فى العالم ، وفى الوقت ذاته نقص فى هذه المواد بسبب التبديد وقصور الاستخدام . ومع أن بلدنا يشغل المركز الأول فى العالم . من حيث إنتاج حبوب الأعلاف ، إلا أنه مضطر لاستيراد ملايين الأطنان . من هذه المادة سنويا . لدينا أكبر عدد من الأطباء وأسرة المستشفيات بالنسبة لكل ألف مواطن ومع ذلك نعانى نواقص خطيرة وتدنيا فى مستوى العناية الصحية . وصواريخنا تشق طريقها بدقة متناهية نحو مذنب هالى ، وتسرع

---

(١) أملى (١١٧) .

وذكرت مقتطفات من عدة رسائل ونورد منها نحن هذه المقتطفات :

١ ـ "لاتنحرف عن الطريق الذى اخترته ولاتتراجع) .

٢ ـ (إذا كانت هناك عودة إلى الماضى فإنى أفضل عليها حبل المشنقة) .

٣ ـ (ليمنحك الله تعالى النصر العظيم ، أيها الشخص العظيم العزيز فى قلوبنا) .

٤ ـ (أريدك أن تعلم أننا مؤمنون بك وبما تعهدت بتنفيذه) .

٥ ـ (أنصحك نصيحة صديق أن تمضى فى الطريق الذى مددت يدك إليه والذى سيقود بلادنا كلها نحو المستقبل) .

لموعدها مع كوكب الزهرة ، ولكن رغم هذا النصر للفكر الهندسى والعلمى ـ فإننا نلاحظ تخلفا واضحا فى مجال استخدام المنجزات العلمية لتلبية الاحتياجات الإقتصادية ، وكذلك تخلفا فى الأجهزة المخصصة للاستخدام المنزلى بالنسبة للمستوى العصرى .

وهذا ليس كل مافى الأمر ، مع الأسف ، إذ راحت تتقهقر تدريجيا ، القيم الفكرية والأخلاقية . وعلى مرأى من الجميع ، هبطت وتأثر النمو بشكل حاد ، وتدهورت المؤشرات النوعية على كافة الصعد ، وبرزت ظاهرة عدم استيعاب الجديد فى العلم والتكنولوجيا ، وتباطؤ النمو فى مستوى المعيشة ، وظهرت مصاعب فى تأمين المواد الغذائية والمساكن والسلع الاستهلاكية ، والخدمات . أما قوى الفرملة التى استجمعت قواها فى مجال الأيديولوجيا ، أيضا فقد شددت المقاومة والمجابهة ضد الأفكار الجديدة الهادفة إلى تقديم حلول بناءة للمشاكل الناضجة . وسادت الدعاية للنجاحات سواء أكانت حقيقية أم وهمية ، وترسخت عادة التعامل باستخفاف مع المطالب والآراء العادلة للشغيلة البسطاء والأوساط الإجتماعية الأخرى . كما سادت فى العلوم الإجتماعية روح التنظير المدرسى ، وجرى استبعاد الأفكار الخلاقة من مجال النظرية الإجتماعية . وفى الوقت ذاته تحولت الحقائق الساطعة إلى مراجع للمعلقين ليس غير ، وإلى تقديرات وأحكام فوقية يتم انتقاؤها حسب المزاج ...)[١].

ويقول : (أعتقد أننى قلت مايكفى لكى نتصور كم كانت الأوضاع خطرة فى مختلف نواحى مجتمعنا ، وكم كان ضروريا أن نقدم على التحولات الجذرية . لقد وجد الحزب القوة والشجاعة لتقييم الوضع بوعى ، والاعتراف بضرورة الإصلاحات والتحولات الجذرية)[٢].

---

(١) عملية إعادة البناء (١٩-٢٠) .

(٢) المرجع السابق (٢٢) ، وانظر : مابعد الحرب الباردة (١٢١-١٢٣) ، سادات الماركسية (١٤٥) .

ومن هنا اهتم غورباتشوف بالإصلاح الإقتصادى وركز على أهمية العمل والتعديلات الإقتصادية داخليا وخارجيا ، وإعطاء الدول الأخرى الفرصة فى تحقيق مصالحها الإقتصادية فى روسيا ، ولاشك أنه بهذه الآراء والأفكار يريد تجاوز الأزمة التى قد تعصف بالإصلاح الجديد نظرا لعدم تحقق ماكان يصبو إليه الإنسان الروسى أو السوفييتى(١).

ثالثا : الأزمة السكنية والصحية التى كان يعانى منها الاتحاد السوفييتى .

إن من أبرز القضايا التى يعانى منها الفرد فى الاتحاد السوفييتى مسألة السكن وتوفير الرعاية الصحية . إلا أن هذه المعاناة تعتبر بالنسبة لنا نتيجة طبيعية لتردى الأوضاع الإقتصادية التى كان يعيشها الاتحاد السوفييتى . يقول حسين صبرا : (تأتى أزمة السكن فى الدرجة الثانية من الأزمات التى عانت وتعانى منها الغالبية المطلقة من المواطنين السوفييت ، حيث يعيش الملايين فى مساكن جماعية أو مساكن مشتركة . والمساكن الجماعية هى عبارة عن مبنى من عدة طوابق مبنية حسب نظام الغرف ، حيث تعيش كل عائلة فى غرفة واحدة مستقلة ، ويوجد فى الطابق الواحد عشرات الغرف يجمعها ممر واحد ومطابخها ودورات المياه وأماكن الاستحمام فيها مشتركة . أما المساكن المشتركة فهى عبارة عن شقة مؤلفة من بضع غرف تعيش فى كل منها عائلة واحدة . ونادرا ماتجد عائلة سوفيتية إلا وعاشت سنين عديدة فى مساكن جماعية أو مشتركة قبل أن تؤمن لها الدولة شقة مستقلة . وهناك من يبلغ به الأمر إلى حد الانتظار أكثر من عشر سنوات للحصول على مسكن شرعى مستقل)(٢).

أما الحالة الصحية فكانت متردية فمعدل الوفيات على صعيد الأطفال كان مرتفعا جدا ويمثل الاتحاد السوفييتى أعلى نسبة بين دول أوروبا الشرقية فى ذلك الجانب . كذلك كانت النفقات الصحية منخفضة بدرجة كبيرة .

---

(١) انظر عن ذلك الإنقلاب (٦٠-٦٢) .

(٢) سادات الماركسية (١٢٣-١٢٤) ، وانظر (١٥٦-١٥٧) .

بالإضافة إلى افتقار المستشفيات والمستوصفات الرعاية من تجهيز وأدوية وغيرها .

كما أن الأطباء أصبحوا يمارسون مهنة الارتشاء فى حين أن نفقات الاستشفاء مكلفة ، لأن الاتحاد السوفييتى يتعامل بمبدأ (الطب المجانى يجعل الناس يهملون صحتهم)[١].

ويقول حسين صبرا إن (المستشفيات والمستوصفات لاتتسع للمرضى ولاتفى بحاجاتهم ، ونسب كبيرة من المرضى توضع أسرتهم فى ممرات المستشفيات والمستوصفات نظرا لعدم اتساع الغرف . كما كانت تعانى أماكن الاستشفاء من نقص فى الميزانية والمعدات والأجهزة والأدوية . وكثير منها بنى فى العهد القيصرى وبعضها شيد منذ مائتى عام ، ولم يعد صالحا للاستخدام كمستشفى أو مستوصف نظرا لنسبة الرطوبة المرتفعة فيه ، إضافة إلى هندسة البناء التى لم تعد صالحة ليومنا هذا)[٢].

رابعا : الضغوط التى كان يواجهها غورباتشوف داخليا وخارجيا . يقول ماندل : (إن غورباتشوف يعمل انطلاقا من موقف ضعف مزدوج . إنه يخضع فى الوقت نفسه لضغط الإمبريالية المتنامى ولضغط الجماهير السوفيتية المتنامى أيضا)[٣].

خامسا : التأخر الذى يعانى منه الاتحاد السوفييتى فى جميع مجالات الحياة مقارنة بالدول الرأسمالية الغربية .

سادسا : قناعة غورباتشوف وأكثر مساعديه بأن الاتحاد السوفييتى لم يعد قادرا على الاستمرار فى مواجهة الولايات المتحدة ، فكان لابد من التغيير لإزالة التوتر بين البلدين .

---

(١) انظر : الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٩٦-٩٩) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٩٥-٢٩٦) .

(٢) سادات الماركسية (١٢٤) .

(٣) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٠٧) .

ومن هنا بدأت عملية التغيير ولم يكن بالإمكان التراجع فيها . يقول غورباتشوف : (إن التغييرات قد بدأت ، ومن المستحيل ، لذلك ، عودة المجتمع إلى مرحلة السبات)[١].

وهذا الإصرار من غورباتشوف ، لعلمه أن الشعب وراء هذه العملية وغورباتشوف وسيلة لتنفيذها . فعبر الشعب عن رغبته ومشاعره التى لن يقف أمامها شىء خاصة إذا كان المعارض لها أصلا فاسدا يتعارض مع فطرتهم وتوجهاتهم ، ومع السنن الربانية التى تحكم حياتهم .

التغيير زمن غورباتشوف :

لاشك أن السياسة الجديدة التى انتهجها غورباتشوف إعادة البناء وحرية النقد كانت المعول القوى الذى كسر الجمود العقائدى والسكوت الإجبارى لدى الناس بسبب الفكر الماركسى ويمكن أن نلتمس التراجع والتغيير الذى أحدثه غورباتشوف على المستويين الداخلى والخارجى فى النقاط التالية :

أولا : التغيير فى السياسة الإقتصادية .

إن أول ماتنصرف إليه السياسة الجديدة هو إصلاح الوضع الإقتصادى المتردى الذى يعيشه الاتحاد السوفييتى . يقول غورباتشوف : (كان اهتمامنا الرئيسى ومازال منصبا على الإقتصاد ، ولكننا فى الوقت ذاته شرعنا فى تغيير الخلفيات النفسية للأخلاق الإجتماعية)[٢].

---

(١) عملية إعادة البناء (٨) .
ولمزيد عن معرفة إصرار غورباتشوف على الاستمرار فى سياسته انظر المرجع نفسه (٢٣-٢٤) .
وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٩٢-٣٨١،٢٩٣) .

(٢) عملية إعادة البناء (٢٦) ، وانظر (٢٢) .

ويقول : (توقف الإقتصاد السياسى للإشتراكية عند المفاهيم الأولية ولذلك بات على غير وفاق مع جدلية الحياة ...)[١].

ويقول : (من الواجب القول بصراحة ، إن جميع جهودنا لتغيير بنية الإقتصاد الوطنى ، ونقله إلى مرحلة التطور المكثف ، وتسريع التقدم العلمى التكنولوجى ، أصبحت ترتكز وبشكل أكبر إلى ضرورة الإصلاح الجذرى للآلية الإقتصادية لعملية تغيير إدارة الإقتصاد بأنظمتها كافة .

تحتوى الإشتراكية والملكية العامة الكامنة فى جوهرها ، فى واقع الحال على إمكانيات غير محدودة لعمليات إقتصادية تقدمية . ولكن ولأجل إنجاز ذلك لابد من البحث عن أكثر أشكال الملكية الإشتراكية والتنظيم الإقتصادى فعالية . والأهم فى هذا الصدد أن يكون الإنسان هو المالك الحقيقى للإنتاج وليس بالكلام . بدون ذلك لا ولن يكون هناك اهتمام حقيقى لدى العامل أو فرق الإنتاج بنتائج عملهم)[٢].

ويبين غورباتشوف أن هذه السياسة الجديدة ستجعل المؤسسات والشركات ذات صلاحية واستقلالية فى خططها ولاتتلقى الأوامر من الجهات العليا إلا فى القضايا الأساسية . فيقول : (فعلى كل مؤسسة ، وانطلاقا من الحاجات الإجتماعية الواقعية ، أن تحدد خطتها الإنتاجية الواقعية وتنفذها . ولاتستند الخطة إلى مجموعة مفصلة من المهمات ضمن خطة حددتها الهيئات العليا ، وإنما إلى تنفيذ طلبيات الدولة ومؤسسات نظام المحاسبة الإقتصادى المستقل ، الذاتية ، والمؤسسات التجارية التى تحدد حجم الإنتاج ونوعيته . فالمؤسسات يجب أن توضع فى ظروف تسمح لها بالدخول فى مباراة إقتصادية فيما بينها لتحقيق أفضل تلبية لطلب المستهلكين ، أما دخل العاملين فهو وثيق الصلة بحصيلة الإنتاج النهائية ، وبالربح)[٣].

---

(١) عملية إعادة البناء (٤٨) .
(٢) المرجع السابق (٨٣-٨٤) .
(٣) المرجع السابق (٨٦) .

كما أولت الخطط الإقتصادية الجديدة الاهتمام بالغذاء والسكن اهتماما كبيرا نظرا للظروف التى تعيشها البلاد . يقول غورباتشوف : (نحن ننطلق من كون السياسة الإجتماعية الصلبة التى أعلنها المؤتمر السابع والعشرون للحزب ستؤمن النجاح لقضية إعادة البناء برمتها . يجب رفع مستوى معيشة السكان ورفع وتيرة عملية البناء المعد للسكن ، وإنتاج المزيد من المواد الغذائية وتحسين نوعية البضائع المنتجة . وتطوير قطاع الخدمات ، والصحة ، وإجراء إصلاح فى نظام التعليم العالى والمتوسط ، وحل المعضلات الإجتماعية العديدة الأخرى .

فى سياق معالجته للمهمات الآنية والمستقبلية ، أعار الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى فى حزيران ١٩٨٧م اهتماما خاصا لمسائل زيادة إنتاج المواد الغذائية ، والتوسع فى إنتاج السلع الاستهلاكية ، وزيادة بناء الشقق .

إن إجراءات واسعة النطاق يجرى تنفيذها . ويصار إلى بناء المزيد من المساكن ، وهذه هى مهمة الشعب بأسره . ويتم فى هذا المجال توظيف رؤوس أموال إضافية حيث يجب مساعدة الناس فى بناء مساكنهم وتحسينها سواء فى المدينة أم فى القرية .

يجب أن يحيا الإنسان حياة مطمئنة . وإذا ماحلت هذه المسائل فستستقر نفوس فرق الإنتاج . فالناس يثمنون التغييرات التى تطرأ على المدينة أو القرية ، والتبدلات فى الظروف المعيشية ، والإنتاج ، وطبيعة العمل نفسه ، بأفضل مما يثمنون سرعة تزايد رواتبهم)[١].

ومن هنا فيمكن إظهار تلك السياسة التراجعية فى التالى :

---

(١) عملية إعادة البناء (٩٩) .

(أ) الاعتراف بالملكية الفردية وإقرارها ، والعمل على تنمية القطاع الخاص .

يقول حسين صبرا : (كانت أول خطوة خطتها البيريسترويكا نحو تحويل النظام فى الاتحاد السوفييتى من نظام إشتراكى إلى نظام رأسمالى هى سماحها لكافة المواطنين فى مطلع عام ١٩٨٨م بإنشاء التعاونيات الخاصة "الكوبيراتيف"، بعد أن كان ممنوعا على المواطنين حسب القوانين السابقة العمل لحسابهم الخاص كأن يبيعوا ماينتجونه من أعمال يدوية على سبيل المثال ، أو أن يبيعوا بضائع من صنع محلى أو أجنبى ، أو أن يقوموا بخدمات عامة لحسابهم الخاص . الكوبيراتيف يعنى حسب لغتنا الدكاكين والمحال التجارية على أنواعها إما لبيع الملبوسات أو البوظة والمرطبات والسجائر أو الأدوات الكهربائية ، أو المواد الغذائية ، أو صالونات الحلاقة الشعر ...الخ ، إضافةإلى المطاعم والمقاهى والمحال المخصصة لتصليح الأدوات الكهربائية أو لتركيب الموكيت وورق الجدران ... وأيضا إنشاء المصانع والمعامل والشركات ووسائل الإعلام ...الخ)[١].

كما وضعت الدولة قانونا للعمل الخاص عام ١٩٨٧م ، ويسمح هذا القانون للأفراد بإقامة مشروعات خاصة . فظهرت آثار ذلك على الساحة السوفيتية من وجود سيارات الأجرة الخاصة ، والعيادات الطبية الخاصة ، بالإضافة إلى المهن الأخرى[٢].

إن إقرار الملكية الفردية وتشجيعها يعتبر قطيعة نهائية مع الفكرة الماركسية ، ولأجل ذلك وجد من عارض هذه السياسة من أولئك الذين أشربوا الفكر الماركسى . يقول العمارى : (إن الاتحاد السوفييتى الآن بدأ يخطو نحو تغييرات مهمة ، خاصة فى بنيته الإقتصادية ، والإقتصاد ـ كما هو معروف ـ هو محور الأيديولوجية الشيوعية ، فالشيوعية تنكر الملكية الفردية

---

(١) سادات الماركسية (١٣٣) .

(٢) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٣٦) .

ونرى الاتحاد السوفييتى الآن يعترف بدور القطاع الخاص فى التنمية من خلال ماسمى "بيروسترويكا" وقد عارض هذه الخطة أشخاص من القيادة فأزيحوا من مناصبهم بسبب معارضتهم ، وهؤلاء الذين عارضوا اعتبروا الاتجاه نحو التغيير خروجا عن الماركسية ، ووصفهم قادة التغيير بأنهم متحجرون وجامدون)[١].

(ب) تقوم السياسة الجديدة على أساس تحقيق العدالة ، وتطبيق المبدأ القائل من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله ، وهذا المبدأ هو الذى يتفق مع طبيعة الإنسان . يقول غورباتشوف : (وسياسة إعادة البناء تضع كل شىء فى وضعه الصحيح . إننا نحقق مبدأ الإشتراكية بمعناه الكامل : "من كل حسب قدرته ، ولكل حسب عمله" . نحقق العدالة الإجتماعية للجميع ، وحقوقا متساوية للجميع ، ونطبق قانونا واحدا على الجميع ، ونظاما واحدا للجميع وواجبات كبيرة على كل فرد . كما ترفع إعادة البناء ، من مستوى المسؤولية الإجتماعية لدى الفرد . أما من يحوز على كل مايلزم فهو يرفض التغيير . فلماذا يتوجب عليه أن يتغير؟! ولكن إذا كان الإنسان ذا ضمير ، ومهتما بخير شعبه ، فإنه لن يستطيع بل لايمكن أن يفكر بهذه الطريقة . إضافة لذلك ، فالعلنية تكشف للناس أن هناك من ينعم بامتيازات غير قانونية . ونحن لم يعد بمقدورنا التساهل مع الركود)[٢].

(ج) وعلى هذا الأساس فإن نظام الإقتصاد الجديد يقوم على تحقيق العدالة الإجتماعية والتساوى فى فرص العمل ، وإتاحتها أمام الجميع ولايعنى ذلك المساواة فى الدخول كما كان يقول المبدأ الشيوعى الذى لم يستطع أى زعيم من زعمائها تطبيقه . وفى هذا إلغاء لمبدأ المساواة .

يقول غورباتشوف : (طرحت مسألة العدالة الإجتماعية على بساط البحث فى المؤتمر السابع والعشرين للحزب على النحو التالى : إن العمل هو

---

(١) وسقطت الماركسية (٤٠-٤١) .

(٢) عملية إعادة البناء (٢٩) .

أساس العدالة الإجتماعية فى ظل الإشتراكية . وهو فقط الذى يحدد الموقع الحقيقى للإنسان فى المجتمع ، ووضعه الإجتماعى . ومادام الوضع على هذا النحو ، فإنه يستثنى "التساوى فى المداخيل" .

مازالت نفسية التساوى حتى الآن تفصح عن ذاتها . وفهم بعض المواطنين الدعوة إلى العدالة الإجتماعية على أنها المساواة بين الجميع . لكن المجتمع يطالب بالالتزام الصارم بمبدأ الإشتراكية فى الحياة . إن مايهمنا ، قبل كل شىء القسط الذى يسهم به الإنسان فى قضايا البلاد . توجب علينا تشجيع العمل المنتج الرفيع الإنتاجية ، وتشجيع الموهبة لدى الكتاب والعلماء وكل شخص شريف محب للعمل . هنا نحاول أن نكون واضحين تماما : الإشتراكية لاتعنى التساوى فى المداخيل ، ولاتستطيع ضمان متطلبات الحياة وتلبية الاحتياجات وفق مبدأ "من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته" . فهذا المبدأ سيسود فى ظل الشيوعية . أما فى ظل الإشتراكية فإن معيار توزيع الثروة الإجتماعية مختلف ويستند إلى مبدأ "من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله" . وفى ظل الإشتراكية ينعدم استغلال الإنسان للإنسان ، ويغيب تقسيم الناس إلى أغنياء وفقراء ، إلى أصحاب ملايين ومعدمين وتسود المساواة بين القوميات ، ويتمتع الجميع بحق التعليم العالى والمتوسط المجانى وبالرعاية الصحية المجانية ، وضمان الشيخوخة . وهكذا تتجسد العدالة الإجتماعية فى ظل الإشتراكية ...)[١].

ومن هنا فإن الاهتمام بالعامل ومسكنه وغذائه من الأولويات التى ستهتم بها هذه السياسة[٢]. يقول غورباتشوف : (إن للطبقة العاملة دورا فى كل شىء ، تلك البلاد هى بلادهم ، وهذا النظام هو نظامهم ، كما أن هذا المجتمع هو مجتمعهم : إنهم هم المسؤولون . إن المنظمة الحزبية وكوادرها جميعها فى خدمة هؤلاء الناس ، كما أن الحزب بكامله موضوع فى خدمتهم - وليس العكس)[٣].

---

(١) عملية إعادة البناء (١٠١) .

(٢) انظر المرجع السابق (١٠٢) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٠٩) .

(٣) نقلا من كتاب ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٦٧) .

(د) ويبين غورباتشوف أن الإقتصاد الجديد يقوم على الانسجام بين مصالح الدولة .

المبدأ المشترك (الملكية العامة) .

والمصلحة الذاتية (الملكية الخاصة) .

وهذا اعتراف بأن النظرية الماركسية لم تعد قادرة على أن تجد حظها على ألسنة قادة الكرملين .

يقول غورباتشوف : (جاءت قرارات اجتماع حزيران الموسع للجنة المركزية فى واقع الحال ، خاتمة لبناء نموذج عصرى لإقتصاد الإشتراكية يستجيب للمرحلة الراهنة من تطور بلدنا . فالإجتماع الموسع ، ودورة مجلس السوفييت الأعلى التى تلته جاءا تطويرا وتعزيزا لنهج يستند إلى المشاركة الفعالة للإنسان فى العمليات الإقتصادية والإنتاجية ، وإلى الانسجام العضوى بين مصالح الدولة ، والمصلحة الذاتية ، ومصلحة الفرق الإنتاجية ، وتحويل الشغيل السوفييتى ، عمليا ، إلى مالك حقيقى للإقتصاد)[١].

(هـ) الانتقال إلى إقتصاد السوق الحر وذلك بالاهتمام بالسلع الاستهلاكية ، ومنح الحرية الإقتصادية ، والملكية ، والتنافس ، والمكافآت .

جاء فى وثيقة الاتجاهات الأساسية نحو استقرار الإقتصاد الوطنى والانتقال إلى إقتصاد السوق ، التى أقرها البرلمان السوفييتى فى ١٩ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٩٠م .

(لامندوحة من الانتقال إلى علاقات السوق . فالخبرة العالمية بأسرها قد أثبتت حيوية إقتصاد السوق وفعاليته ، والانتقال إليه فى مجتمعنا تمليه تماما مصالح الإنسان ، وهو يستهدف إقامة إقتصاد ذى توجه إجتماعى وتحويل الإنتاج بأسره إلى تلبية طلبات المستهلك ووضع حد لشح السلع والقضاء على ظاهرة الطوابير المخزية وتوفير الحرية الإقتصادية الفعلية للمواطنين وتشكيل الظروف اللازمة لتشجيع حب العمل والابداع والمبادرة والإنتاجية العالية .

---

(١) عملية إعادة البناء (٨٧) .

وحددت الوثيقة أربع مراحل سيجرى خلالها حل مهام استقرار الإقتصاد والإنتقال إلى السوق وفى فترة تتراوح بين عام ونصف وعامين .

المرحلة الأولى هى مرحلة تطبيق القوانين اللازمة لترسيخ المبادىء الأساسية واتجاهات الإصلاح الإقتصادى عبر التدابير الآتية :

إنعاش الوضع المالى وتداول النقد عن طريق تقليص العجز فى ميزانية الدولة ووقف الإصدار النقدى وإعادة تشكيل منظومة البنوك وضبط مالية المؤسسات الإنتاجية .

حماية مدخرات السكان المالية عن طريق رفع نسب الفوائد فى بنوك الادخار والعمل على الموازنة بين مداخيل السكان ومصروفاتهم ، ودعم إنتاج سلع الاستهلاك الشعبى ، وإقامة السوق الاستهلاكية وتطبيعها على هذا الأساس .

العمل من أجل استقرار التوريدات المتبادلة والحؤول ماأمكن دون ركود الإنتاج .

إلغاء احتكار الدولة للملكية ، والتوسع فى أشكال الملكية الأخرى بما فيها الملكية الخاصة . وإجراء الإصلاح الزراعى .

ترسيخ استقرار العلاقات الإقتصادية الخارجية .

الحد من نمو أسعار الجملة وأسعار التوريد للدولة وزيادة الأسعار الحكومية لمواد الوقود والخامات ومواد البناء على مراحل وفرض الرقابة على مستوى الأسعار الحكومية لبيع السلع الاستهلاكية الشعبية بالمفرق . التفوق على عجز الميزانية المتزايد . إيقاف التضخم العفوى وفى آن واحد تحسين ظروف التوازن السلعى النقدى من أجل الانتقال السريع إلى السوق فيما بعد)[١].

(المرحلة الثانية هى مرحلة الإنتقال المطرد التدريجى إلى أسعار السوق بالنسبة لمجموعة واسعة من المنتجات المستخدمة فى الأغراض الإنتاجية

---

(١) نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣١١-٣١٢) .

والتقنية ومن السلع الاستهلاكية . ويجب أن تحول الاجراءات التى ستنفذ فى غضون المرحلة الأولى دون ارتفاع أسعار هذه المنتجات والسلع المفرط بعد ذلك ستكبح عمليات التضخم باللجوء إلى سياسة مالية وائتمانية تقشفية)[١].

(المرحلة الثالثة هى مرحلة التوصل إلى استقرار سوق السلع الاستهلاكية وسوق وسائل الإنتاج سواء بسواء وذلك بتوسيع مجال علاقات السوق وإقامة نظام جديد للعلاقات الإقتصادية . ستجرى فى الإقتصاد فى هذه الفترة عمليات متناقضة . فمن جهة يمكن انتظار امتلاء السوق بالسلع باطراد وستنمو بوتائر سريعة هياكل السوق الارتكازية وسيقوى تأثير المبادرة الحرة فى النشاطات الإقتصادية . ويجب أن يغدو استثمار الموارد المادية أكثر إقتصادية وستتقلص الموارد الإنتاجية غير المستثمرة . والموارد التى سيجرى توفيرها ستغنى سوق وسائل الإنتاج وستساعد على استقرارها .

وسيجرى فى هذه المرحلة التركيز على تكوين سوق المساكن وتنفيذ إصلاح نظام أجور العمل وإعادة صياغة العلاقات بين المؤسسات والسوفياتات "المجالس" المحلية فى المجال الاجتماعى وكذلك التوسع قدما فى اطلاق حرية الأسعار)[٢].

(المرحلة الرابعة هى مرحلة انتهاء فترة احلال الاستقرار والمهمات الأساسية لهذه المرحلة تحددت فى ترسيخ استقرار الإقتصاد والوضع المالى وتحسين السوق الاستهلاكية وبشكل خاص تسريع عملية تكوين الوسط التنافسى فى السوق ، هذا الوسط الضرورى لأجهزة التنظيم الذاتى التى تتميز بها السوق كى تعمل هذه الأجهزة بكامل امكانياتها .

وضرورى فى هذه الفترة احراز تقدم ملموس فى مجال إلغاء الاحتكار وفك الارتباط بالدولة وإشاعة التملك الخاص .

ويجب أن تتم صياغة المقدمات لتعزيز النشاط الإقتصادى وبشكل خاص فى الصناعة الخفيفة والغذائية وفى قطاع الزراعة وفروع الخدمات .

---

(١) نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣١٣) .

(٢) نقلا من المرجع السابق (٣١٤-٣١٥) .

وأن هيمنة الأسعار التى يحددها العرض والطلب بالتوافق مع ميزانية متوازنة يهيئان المقدمات لحل القضية الأساسية فى مجال الانتقال إلى إقتصاد السوق ألا وهى قضية جعل الروبل قابلا للتحويل حتى داخليا . وجوهر هذه القضية يتلخص فى ضرورة توفير الفرصة لكافة المؤسسات الوطنية والشركات الأجنبية العاملة فى الاتحاد السوفييتى لبيع وشراء العملة الصعبة الضرورية لتنفيذ عملياتها الإقتصادية الجارية بحرية حسب سعر السوق)[١].

ومن هنا فإن هذه السياسة ستحقق الملكية الفردية ، وتطرح ممتلكات الدولة للبيع ، وتسلم الأراضى الزراعية للمواطنين لتلافى الركود الذى أصابها التأميم .

(ز) العمل على إلغاء المخازن الخاصة بكبار المسئولين من الموظفين[٢]، وهذا فيه محاولة لكسر التميز الذى كان يستأثر به أعضاء الحزب بدون وجه حق .

(ح) الصرامة والنقد من أجل بيان الخلل والخطأ ومحاولة الإصلاح ، وهذا عنصر مهم فى الإقتصاد وغيره .

وقد أفصح غورباتشوف عن ذلك أمام المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى حيث ذكر أن العبر التى يمكن استخلاصها من تجربة التنمية فى المرحلة الماضية هى :

(١ ـ قول الحقيقة كما هى كاملة ودون أى تشذيب ، فالحقيقة الناقصة التى تتحاشى بخجل النقاط الحساسة تعرقل وضع السياسة الواقعية وتعرقل تقدم المجتمع السوفييتى .

٢ ـ العبرة الثانية تتعلق بوضوح الهدف والحزم فى اتخاذ الإجراءات المؤدية إليه . إذ أن نقل إقتصاد هائل كالإقتصاد السوفييتى إلى مرحلة جديدة عنوانها التنمية العمودية مسألة ليست سهلة وتتطلب جهودا ضخمة

---

(١) نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣١٥) .

(٢) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٥٩) .

ومسـؤولية كبيرة . ولايجوز الاكتفـاء بالإجراءات المجتزأة بعـد المباشرة فى التحولات ، بل ينبغى اتخاذ كافة التدابير بجرأة وحزم .

٣ ـ العبرة الثالثة وهى الرئيسية كما يعتبرها ، تشير إلى أن نجاح أية قضيـة يتحـدد بصورة أساسية بمدى النشـاط والوعى اللـذين يميزان مشـاركة الجمـاهير بهذه القضية . وأهـم الشروط للنجاح فى تسـريع التنمية هو إقناع الجمـاهير الواسعة من الشغيلة بصواب هذا الطريق وتشجيعهـا معنويا وماديا وتغيير نمط نفسية الكادرات)[١].

وبعد هذا العرض نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : الاعتراف والإقرار بالملكية الفردية وحمايتها .

ثانيا : الاستقلالية للمؤسسات والشركات وعدم فرض الخطط عليها من الأعلى .

ثالثا : تشجيـع الحافـز الفـردى والتنـافس مـن أجل الجودة ومستـوى الإنتاج .

رابعا : محاولـة القضـاء على التميز للطبقـة العليـا فى المجتمـع ، والتى كانت تستأثر بكل خيرات البلاد .

ثانيا : الاهتمام بالفرد والارتقاء به .

بالفعـل حققـت البيريسترويكـا إلى درجة لابأس بهـا الاهتمـام بالفـرد وحاولـت الارتقـاء به ، وذلـك ببعـض مـاحققته لـه سـواء كـان روحيـا أم إقتصاديا أم إجتماعيا .

وقـد اعتبر غـورباتشوف أن هـذه من الغايات التى اتخذت مـن أجلهـا السيـاسة الجديدة ، فقال : (إن مهمتنا الأساسية هى الارتقـاء بالإنسان روحيا واحترام عـالمه الداخلى وترسيـخ مواقفه الأخلاقية .ونحن نسعـى لوضع طاقة مجتمعنـا الفكـرية ، بكاملهـا ، وكـل الامكانيات الثقـافية ، فى خدمـة تكوين الشخصية الإجتماعية الفعالة ، الغنية روحيا ، والعادلة ، وذات الضمير الحى

---

(١) استراتيجية التنمية السوفيتية الجديدة (١٣٩) ، بسام خليل ، دار الفارابى ، بيروت لبنان ، ١٩٨٦م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

ولابد للإنسان أن يعرف ويحس بأن رأيه مطلوب وأن كرامته مصونة ، وأنه يعامل بثقة واحترام . وعندما يرى الإنسان كل هذا فإنه يستطيع إنجاز الكثير.

وبالطبع ، تؤثر عملية إعادة البناء على كل فرد فهى تنتشله من حالة الهجوع المألوف والرضى بنمط الحياة السائد ، وهنا ، أعتقد أن من المناسب أن ألفت انتباهكم إلى إحدى خصائص الإشتراكية : وأقصد بها تلك الدرجة العالية من الحماية الإجتماعية للفرد فى مجتمعنا . فمن جهة يعتبر هذا خيرا بالتأكيد ومن أعظم ماأنجزنا ، ولكن من جهة أخرى يتحول هذا الإنجاز إلى نفسية طفيلية لدى بعض الناس)[١].

وعن الاهتمام بالفرد يقول : (إذا ماتم العبث بالمصالح الفردية ، فلن ينجز شىء ، ولن يحصد المجتمع سوى الخسارة . يتوجب لذلك إحداث توازن بين المصالح ، وهو مايمكن تأمينه من خلال الآلية الإقتصادية الجديدة والعلنية ، والأشكال الديمقراطية وإشراك الناس فى جميع عمليات إعادة البناء)[٢].

ومن مظاهر الاهتمام التى لقيها الفرد الشيوعى فى ظل البيريسترويكا مكافحة الإدمان ، والبغاء والاهتمام بالرعاية الصحية .

فمن الإصلاحات التى أراد غورباتشوف أن يحققها مسألة مكافحة الإدمان على الخمور حيث قال : (سوف نستمر بثبات ، فى مكافحة الإدمان على الخمور . وتمتد جذور هذا الشر الإجتماعى فى أعماق القرون الماضية . وقد استشرت هذه الظاهرة وغدت عادة ليس من السهل مكافحتها . غير أن المجتمع نضج لتحقيق انعطاف حاد فى هذا المجال . إن حالات تعاطى الكحول والإدمان على تناولها قد ازدادت بشكل كبير ، ولاسيما فى العقود الأخيرة ، وأصبحت مصدر خطر على مستقبل الأمة نفسه . ويذكرنا الشغيلة

---

(١) عملية إعادة البناء (٢٨) .
(٢) المرجع السابق (٩٨) ، وانظر (٢٧) .

باستمرار ، بضرورة تشديد النضال ضد هذا الشر . حتى أن البعض يطالب بسن قانون يحرم بيع المشروبات الكحولية على نطاق الاتحاد السوفييتى . لكننا فى الوقت ذاته نعى أن تطبيق مثل هذا القانون على نطاق الدولة أمر غير مجد . كما أننا نجيب على هذا المطلب بما يلى : إذا رغبتم فطبقوا هذا القانون فى عائلاتكم وفى الحى ، وأخيرا على صعيد المنطقة . فى آلاف القرى أخذ الشغيلة على عاتقهم وقف بيع وتعاطى المشروبات الكحولية . والنضال يستمر . لقد تقلص معدل استهلاك الكحول للفرد الواحد إلى النصف ، عبر السنتين الماضيتين . غير أن نشاطا طرأ على صناعة الخمور البيتية . فالمشكلة لايمكن حلها عبر الإجراءات الإدارية . والطريق الوحيد الأكثر ضمانا للتخلص من شر الكحول ، يكمن فى تطوير مرافق التسلية واللياقة البدنية والرياضة والنشاطات الثقافية الجماهيرية ، وعبر إشاعة الديمقراطية)[١].

وبالفعل قامت وسائل الإعلام السوفيتية بنشر الأرقام والوقائع التى تبين الحجم الهائل الذى تأخذه هذه الظاهرة فى البلاد مع بيان فسادها وماتسببه من أضرار ودمار فى الصحة والإقتصاد[٢]. ولاغرابة فى ذلك حيث إن المدمنين يشكلون نسبة كبيرة بين السكان .

ومن مظاهر الاهتمام بالفرد :

الإصلاح فى التعليم :

ويقوم ذلك على أساس التطوير للتعليم وإدخال التكنولوجيا الحديثة فيه . والاهتمام بالإبداع وتطويره بالإضافة إلى المكافأة والحوافز الفردية التى كانت الشيوعية تحرم المبدعين والمفكرين منها .

يقول غورباتشوف : (إن انجازاتنا فى حقل التعليم معروفة للجميع ، وهى أكثر جوهرية بالقياس إلى أكثر البلدان تطورا . ومع ذلك نقوم بإجراء

---

(١) عملية إعادة البناء (١٠٣) .

(٢) انظر : نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٧١) ، سادات الماركسية (٣٣٥) ، الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٣١١،٣١٣) .

إصلاح التعليم العالى والمتوسط . فما هى ضرورات ذلك؟ إنها قبل كل شىء المتطلبات الجديدة ، التى يطرحها المجتمع المعاصر أمام الإنسان والتى تمليها علاوة على ذلك ظواهر الركود فى المجتمع والتى اعترت أيضا نظام التعليم . فهنا أيضا تم الركون إلى اللاابالية والرضى عما تحقق . الأمر الذى ترك تأثيره على كل شىء .

يتمثل الاتجاه الرئيسى لعملية الإصلاح الجذرى للتعليم العالى والمتوسط فى إعداد الجيل الفتى للعمل ، مع الأخذ بالاعتبار متطلبات التقدم العلمى والتكنولوجى ، والتلخص من الأمور الثانوية التى تثقل كاهل الإنسان ولاتعطيه إلا القليل . كما يجرى الآن تحديث جذرى لإعداد الطلبة فى حقل العلوم الإنسانية ، بما يخدم تربيتهم وتمكينهم من استيعاب منجزات الثقافة . ونعول فى المعاهد والمدارس على حفز الأساليب الإبداعية فى التدريس والتربية ، والاهتمام بتطوير استقلالية المعاهد والجماعات المدرسية وتشجيع النشاط الذاتى . وتتطلب المهمات الجديدة تغيير القاعدة المادية للتعليم ، والأهم من ذلك ، ترقية عمل المدرسين إلى مستوى جديد . كما سيتم اللجوء إلى الحوافز المادية لرفع الكفاءة)[1].

وهكذا غدت البيريسترويكا مهتمة بالفرد وتوجهه وحاولت تحقيق وتهيئة الجو المناسب الذى ينشده .

ومن العرض السابق أصل إلى التالى :

(أ) أن السياسة الجديدة عملت على زرع أفكار جديدة وحاولت جاهدة اجتثاث كثير مما علق بالأذهان من مخلفات الماضى الشيوعى .

(ب) أن من الأسباب الرئيسية فى تدنى مستوى الإقتصاد السوفييتى ـ سواء كان كمية أو نوعية ـ تفشى الفساد فى البلاد .

---

(١) عملية إعادة البناء (١٠٠) .

وعن السياسة الجديدة وموقفها من المرأة انظر نفس المرجع (١١٨-١١٩) .

(ج) أن الاهتمام بالفرد الشيوعى وتحقيق رغباته من إقرار الملكية له أو منحه حق الحياة الروحية ، أو حق ممارسة مايشاء من إنتاج كل ذلك يدل على بطلان الفكر الماركسى وعدم تحقيقه مايصبو إليه الفرد الشيوعى .

ثالثا : التراجع العقدى (الإقرار بالدين والحرية الدينية) .

إن أعظم مايميز فترة غورباتشوف عن سابقيه ويدل بكل قوة على تراجعه الحقيقى عن مبادىء الماركسية وأفكارها ، هو التراجع العقدى الذى أصبح يعترف فيه بالإله ويقر الآخرين على حرياتهم الدينية وممارسة شعائرهم العقدية وبصورة علنية وقد كتب اندريه امالريك (إن العقيدة الماركسية عملت على تأخير إنهيار الإمبراطورية الروسية) ، مضيفا : (ولكن ليس باستطاعتها أن تمنع ذلك)[١].

وقد أعلن بعض الكتاب والمفكرين السوفييت أنه لابد من رمى العقائد الجافة ، فقال الكسندرا ياكوفيلف : (علينا أن نرمى المومياءات المهترئة من العقائد الجافة والأساطير والصيغ الجامدة)[٢].

وأقرت رايسا غورباتشوف بهذا التراجع والتغيير فجاء فى لقاء معها التالى :

(ولكن فى الأيام الأخيرة يارايسا ماكسيموفنا صار الناس فى روسيا يتحدثون أكثر من قبل عن "إنقاذ الروح" وقد صار هناك اهتمام فعال أكثر بالكنيسة والأدب الدينى وبالتدريس الدينى والأفكار الدينية .

لعل أحد أسباب ذلك فقدان الاستقرار فى وجودنا المادى وشىء من التمزق العاطفى .

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٥٨) .
(٢) نقلا من المرجع السابق (٣٦١) .

نعم ، ربما ولكن لايمكن أن ننكر أن التغييرات التى جرت فى السنين الأخيرة فى المجتمع قد سمحت للكنيسة أن تكون أكثر جرأة فى الخروج من الظل وإنهاء غربتها التى دامت سنوات عديدة ، هذا من جهة ومن جهة أخرى سمحت هذه التغييرات للناس أن لايخفوا عقائدهم ولايستحوا منها بل حتى اهتماماتهم لم تعد محرجة لهم حتى إذا لم تكن منسجمة مع وجهة النظر الرسمية . على سبيل المثال ، خذ الاهتمام بالكنيسة . أنه ليست مسألة "ربما" لإن إعادة البناء (بيريسترويكا) ساهمت بالتأكيد فى إحياء الكنيسة وأزاحت ضغوطا معينة عن حياة الكنيسة اليومية . فالكنائس والجوامع القديمة تعاد اليوم واستجابة لذلك قمت بنفسى بالاشتراك فى تسليم بعض دور العبادة هذه إلى المؤمنين . ونسمع اليوم مرة أخرى أجراس الكنائس تدق فى أيام الأعياد والمواعظ الدينية تذاع وتنقل بالتلفزيون . إن الأفكار الدينية تنتشر اليوم بحرية أكبر .

نتذكر طبعا أنه حتى عام ١٩٨٥م كانت كتب مثل الانجيل والقرآن تعتبر نادرة الوجود . فكان من المستحيل العثور عليها أو شراؤها . أما اليوم فإننا منفتحون على عالم ثرى متعدد الألوان يسكنه كثير من المفكرين الذين كانوا منسيين أو مجهولين . بكلمة أخرى بدأ حوار فى المجتمع بين الكنيسة والدولة .

إن الستار الحديدى الذى كان موجودا بينهما قد أزيح مؤخرا .

هل تتذكر الاحتفالات التى جرت بمناسبة مرور ألف عام على المسيحية فى روسيا؟

إن الكنيسة تنضم الآن إلى الأعمال الرامية لإحلال السلام والأعمال الخيرية والأعمال الوطنية فى المجتمع . وهذا أمر فى غاية الأهمية لدينا . فمجتمعنا مجتمع متعدد القوميات ، فيه شعوب ذات عقائد مختلفة وأن الوفاق الإجتماعى يعتمد على كل القائمين على شؤون العقائد المتنوعة ... ونحن الآن نناقش معا كل المشاكل ذات الاهتمام المشترك . حين أزور الكنائس لاأتحدث مع رجال الدين فقط بل كذلك مع المؤمنين البسطاء .

أنت ترى أننى أتفهم أن الناس يجيئون إلى دور العبادة حاملين آلامهم وتمزقاتهم يتوسلون إلى الله أن يزيح عنهم الهموم .

ذات مرة زرت دير سفيانو دانيلوف وكانت هناك امرأة عجوز سألتها : "هل تؤمنين بالله؟" أجابت "نعم" . قلت "هذا حسن . أعتقد أن الإنسان لايمكن له أن يحيا دون إيمان ، فهذا مايجعله كائنا بشريا")[١].

ولنا هنا وقفة مع هذاالتراجع العقدى : دون شك أن المسلمين هناك قد حققوا بعض ماكانوا ينشدونه فى العقود السابقة سواء فى التخفيف من حدة التشديد عليهم من حيث ممارسة شعائرهم الدينية[٢]. أو افتتاح بعض المعاهد الدينية والمساجد هناك[٣]، إلا أنه مع ذلك فإن الحقيقة التى ينبغى أن لاتغيب عن أذهاننا هى أن الإسلام سيظل العدو الحقيقى لقوى الكفر من يهودية ونصرانية .

ولأجل ذلك كان التراجع أكثر مايكون فى تحقيق مايطلبه أصحاب الديانة اليهودية والنصرانية[٤].

يقول حسين صبرا : (منذ أواسط الثمانينات اشتدت الصحوة الإسلامية بين الشباب السوفييتى المسلم ، رغم محاولات السلطةلتشويه صورة الإسلام فى ذهن المسلمين . فالكتب والمقالات التى تهاجم الإسلام لاتعد ولاتحصى ، وقد ازدادت مع ظهور البيريسترويكا . إضافة إلى تضييق الخناق على المسلمين والمحاولات الساعية إلى جعلهم يرتدون عن دينهم . إلا أن أكبر دليل على اشتداد هذه الصحوة أن العديد من مسؤولى الحزب الشيوعى فى الجمهوريات الإسلامية فى ذلك الوقت كانوا يرسلون أطفالهم إلى كتاتيب تعلم القرآن والدين الإسلامى سرا تحت الأرض . فى حين أن كثيرا من

---

(١) أملى (١٢٩-١٣١) ، وانظر البيريسترويكا من منظور إسلامى (٢٠) .

(٢) انظر صحيفة الرياض ، العدد (٧٩٣) ١٤١٠/١/١٥هـ كلمة الرياض .

(٣) انظر صحيفة الشرق الأوسط العدد (٤٠١٣) ١٤١٠/٤/٢٥هـ ، وانظر مجد الأمم (١١٥-١١٦) .

(٤) انظر سادات الماركسية (٢١٩) .

الأعضاء اليهود فى الحزب الشيوعى السوفييتى كانوا يعلقون على صدورهم نجمة داود السداسية علنا ، ودون أن يتخذ أى إجراء بحقهم!

وجاء افتعال أحداث كاراباخ بين جمهوريتى أذربيجان وأرمينيا من قبل الدولة وبمساعدة اليهود ، بمثابة هز العصا للمسلمين فى كافة أنحاء الاتحاد السوفييتى . وقد أظهرت الدولة تحيزها علنا إلى جانب النصارى الأرمن وهزات وسائل الإعلام السوفيتية ، التى يسيطر عليها اليهود بالمسلمين واتهمتهم بالتخلف . فى حين أن الاتحاد السوفييتى كله يستهلك بترول أذربيجان وحدها!)[١].

ويقول : (لقد صار يسمح لليهود بالهجرة نهائيا من الاتحاد السوفييتى تنفيذا لرغباتهم الصهيونية ، بينما يزداد التضييق والضغط على المسلمين الراغبين فى الذهاب إلى الحج ، والذين يريدون تطبيق فريضة واجبة عليهم فى دينهم الحنيف . والمسيحية والكنيسة يرد لهما اعتبارهما رسميا وشعبيا ، فى حين مايزال المسلم يؤدى فرائض الصلاة سرا ، ويخشى دخول الجامع خشية أن يطرد من عمله . اليهود يقومون باجتماعات دورية غير مخفية على أحد وهى عبارة عن اجتماعات صهيونية بحتة ، ويؤلفون منظمة يطلق عليها "الاتحاد الديمقراطى" تهاجم السلطة والحزب الشيوعى علنا فى الشوارع وقاعات الاحتفالات ، ويكتب عنها فى الصحف وتعرض احتفالاتها فى التلفزيون ويصبح لها نواب فى البرلمانين الروسى والسوفييتى ، بينما نرى أن أى إمام يرى الويلات إذا ماحاول محاربة البدع وسعى إلى تعليم الإسلام على أصوله! ويعلن غورباتشوف أنه لن يسمح بتصاعد "الأصولية" الإسلامية فى بلاده ، فى الوقت الذى يسمح فيه بانتشار المنظمات اليهودية علنا فى كافة أنحاء الاتحاد السوفييتى ، أمثال المنظمتين الإرهابيتين "أرغون" و"بيطار" ، بل ويسمح لها بإنشاء ميليشيا عسكرية خاصة بها!)[٢].

---

(١) سادات الماركسية (٢٢٧-٢٢٨) .

(٢) المرجع السابق (٢٢٩) .

إن هذا الأمر ليس بمستغرب حتى فى ظل السياسة الجديدة والسبب هو أن هؤلاء القوم وغيرهم من الكفرة يخافون الإسلام ويخشون أهله إذا تمسكوا به وطبقوه كما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وإذا كان الإسلام يعتبر عند قادة الشيوعية الأوائل عقبة فى طريق الفكر الماركسى ، فإن غورباتشوف لم يخرج عن ذلك فقال : (إن تمسك شعوب وقوميات آسيا الوسطى بالتقاليد البالية والإسلام من شأنه أن يكبل الأرجل للتخلف عن السير فى طريق الإشتراكية)[١].

لقد كانت تصريحات غورباتشوف تتسم بالتهجم على الدين ولكن ماحدث بعد السياسة الجديدة يدل على أن غورباتشوف وجه ضربة قاصمة على مسألة القضاء على الدين وبالتالى للفكر الشيوعى وإن كانت هذه العودة والتراجع للدين المحرف غير أنها أزالت الإلحاد وأقرت الإيمان وإن كان بطريق الضلال[٢].

ومما يذكر هنا ـ ويدل دلالة واضحة أن الاتحاد السوفييتى استبدل الإلحاد بعقيدة أخرى منافية له هى الإيمان وإن كان على ضلال ـ ماأقرته جامعة موسكو من فتح المجال لكرسى الدراسات الإسلامية بالجامعة وهو مايعرف بكرسى الأمير نايف بن عبد العزيز . ولنا أن نتخيل جامعة قامت على الإلحاد ، ولم تدرس إلا هو ، ولم يعرف طلابها درسا واحدا دينيا يصبح حالها هكذا!!!

إن ذلك دليل على أن الفكر الماركسى قضى عليه كمبادىء دون النظر لبعض من هو باق عليه ويرى جدواه . إلا أن الواقع لايصدقه ويكذبه فى دعواه .

رابعا : إنكار مبدأ الدكتاتورية ، والعمل على التغيير فى سياسة الحزب.

إن الحزب الشيوعى هو المسيطر والمستأثر بكل شىء فإذا كان هناك من تراجع فلابد أن يكون للحزب نصيب منه لكى تستقيم الأمور .

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط العدد (٣٩٣٦) ١٤١٠/٢/٧هـ .

(٢) ولمزيد عن معرفة هذا التراجع العقدى انظر : نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٢٥،٣٥١) ومابعدها ، مجد الأمم (١٨٠) ومابعدها .

يقول غورباتشوف : (شملت عملية إعادة البناء جميع فئات المجتمع . أفقيا وعموديا ، واتسعت طولا وعرضا . إن عملية إعادة البناء تتطور وتحل المشاكل وتتخطى الصعاب . ويظهر الحزب الشيوعى السوفييتى كمبادر وكخلاق للأفكار وكمنظم وقائد ، ومن الممكن أن أقول ، كضمانة لعملية إعادة البناء لمصلحة تدعيم الإشتراكية ومصالح الشغيلة . وفى الحقيقة يتحمل حزبنا مسؤولية تاريخية . وفى عام ١٩١٧م قال لينين : بدأنا الثورة ويجب علينا أن نمضى حتى النهاية . وهذا ماسيتم مع عملية إعادة البناء ، فالحزب سيمضى حتى النهاية .

إن رصيد الحزب والثقة به ينموان . وبغض النظر عن كوننا لانزال نجتاز مرحلة انتقال من حالة نوعية إلى أخرى ، فإن أجهزة الحزب تحاول حسب الامكانيات ، ألا تضطلع بمهمات الأجهزة الإقتصادية والإدارية علما بأن هذا ليس سهلا : وذلك بحكم الطرق المجربة وهى الضغط بالأساليب الحزبية لتأمين تنفيذ الخطة . ولكن مهمة الحزب تنحصر فى شىء آخر ، وقبل كل شىء ، فى استيعاب العمليات نظريا وفى أن نلتقط فى الحال النقاط الحرجة فى تطور التناقض وإدخال التعديلات على الاستراتيجية والتكتيك ووضع السياسة ، وتحديد طرق وأشكال تحقيقها ، واختيار وتوزيع الكوادر وتأمين عملية إعادة البناء تنظيميا وأيديولوجيا ، كل هذا لاينهض به سوى الحزب .

أما أمور الإدارة والإقتصاد ، فيجب أن تمارسها المنظمات ذات الاختصاص ، الحكومية وغير الحكومية . وهذا توجه أملته التجربة التاريخية وهو ليس بدعة من أحد . يجب على الحزب أن يقوم بعمله ، وعلى الآخرين القيام بمهامهم وإلا فستضعف القيادة الحزبية والعمل الأيديولوجى ، ونشاط الكوادر الحزبية .

هكذا الأمور داخل مجتمعنا تاريخيا : فكل مايحدث فى الحزب ينعكس على حياة البلاد . ليس فى بلادنا معارضة رسمية . وهذا يلقى مسؤولية أكبر على عاتق الحزب الشيوعى السوفييتى كحزب حاكم . ولهذا السبب بالذات ،

فإن مهمتنا الأهم تنحصر فى التطوير المتواصل للديمقراطية الحزبية الداخلية ، وتدعيم مبادىء القيادة الجماعية فى العمل ، وتوسيع العلنية داخل الحزب . واللجنة المركزية تطلب من الأشخاص المنتخبين إلى المراكز القيادية التواضع والاستقامة والإخلاص والنزاهة وعدم التسامح إزاء التملق والتزلف . وفى الحزب لايمكن أن يوجد أفراد فوق النقد ، وبالمستوى نفسه ، لاتوجد وجوه محرومة من حق النقد .

كان واضحا لنا أنه يجب الشروع بإعادة البناء فى التفكير والنفسية ، وفى التنظيم وأنماط العمل ، والبدء من الناس ، وقبل كل شىء من الكوادر القيادية ...)[١].

وقد وجدت النداءات التى تطالب بمقاومة الفساد فى طبقة القيادة[٢]. وهذا ماجعل بعض الرجال الطاعنين فى السن الذين يعملون فى الحزب الشيوعى تقديم استقالاتهم إما رغبة فى البقاء على الفكر القديم أو لأنهم شعروا أن موجة التغيير لاحقتهم لامحالة فاختصروا الطريق[٣].

كما أن هذا التغيير فى الحزب يلزم منه التخلى عن الآراء العقدية البالية التى ترسخت على مدى عقود من السنين . يقول غورباتشوف : (إن على الحزب أن يتخلى عن الآراء المقولبة البالية فى السياسة الداخلية والنظرات التى تقادمت بالنسبة للعملية الثورية العالمية وبالنسبة للتطور العالمى بأكمله ...)[٤].

كما أعلن غورباتشوف ضرورة التخلص من كل مايربط الحزب بالنظام الاستبدادى البيروقراطى[٥].

---

(١) عملية إعادة البناء (١٢٣-١٢٤) ، وانظر الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٨٠-٨١)
(٢) انظر مجد الأمم (٢٤) .
(٣) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٨٩) .
(٤) من تقرير غورباتشوف فى الاجتماع الكامل للجنة الحزب المركزية فى ١٩٩٠/٢/٥م نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٨٤) .
(٥) انظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٨٤) .

وهـذا التجديد الذى صوره غـورباتشوف للحزب الشيـوعى يقوم على عدة محاور :

أولا : فيما يتعلق بعلاقة الحزب مع العالم الخارجى ، ثانيا : الحزب مع الشعـب السوفييتى ، ثالثـا : الحزب وحيـاته الداخلية[١]. ولاشك أن سيطـرة الحزب على كـل شـىء قـد زادت مـن حدة التردى فى الحيـاة الإقتصـادية والسياسية والإجتماعية ، ومن هنا فإنه من غير الممكن استمرار هذه السياسة الجديدة دون التغيير فى هـذا التسلـط والحد مـن صلاحيـاته لتسير عمليـة الإصلاح الجديدة[٢].

ومما يدل على التغيير الفعلى فى الحزب ، السماح باختلاف التـوجهات والآراء بداخلـه حتى وجدت عـدة اتجاهات ، وكل اتجاه يختلـف مع الآخر . وهـذا لم يكن بالإمكان وقوعه خلال العقود السابقة . ومـن هذه الاتجاهات :

(١) اتجاه علنى إشتراكى ديمقراطى .
(٢) اتجاه ديموقراطى (يلتسين) .
(٣) الغورباتشوفيون .
(٤) المحافظون وأتباعهم .
(٥) المحافظون المتطرفون .
(٦) أصحاب النزعات القومية[٣].

---

(١) انظر عن ذلك غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٨٧-٨٩) .
(٢) انظـر عـن ذلك غورباتشوف صـانع القرار وضحيته (٢٦١-٢٦٢، ٢٧٠-٢٧١، ٢٧٥) .
(٣) انظـر : الاتحاد السوفييتى فى ظـل غورباتشوف (٤٣١) ، غـورباتشوف صـانع القرار وضحيته (٣٢٠-٣٢٢) .
ومما يذكر هنا أن الأمر كان كذلك بالنسبة لتوجه السكان فى موسكو حيث أبرز بعـض علماء الاجتماع السوفييت فى مركز الأبحاث السوسيـولوجية النتائج التالية بالنسبة للقوى السياسية وإن كانت غير منظمة :
١ ـ الغـربيون وهم الذين يرون السير على غـرار الديمقراطيـة الغربية ، ويطالبون بالمزيد من الحرية وإقرار الملكية الفردية ، ويمثلون ١٥٪ . =

ومع هذا التشرذم والخلاف إلا أن غورباتشوف بعد كل فترة وأخرى يعلق أن الأمر بيد الحزب ، وأنه صاحب الصلاحية[١].

غير أن هذه الخطابات والكلمات كانت مخالفة لما عليه الواقع ، بل كانت تهدف إلى جعل الحزب مؤيدا لسياسة غورباتشوف الجديدة ، حيث قال : إن (كل الشعب السوفييتى وكل الحزب بما فى ذلك اللجنة المركزية ومكتبها السياسى ، والحكومة منخرطون فى عملية إعادة البناء . وخلال العمل الثورى ، نكدس نحن أعضاء المكتب السياسى الخبرات فى حل المشاكل التى تبرز أمام المجتمع ، وهكذا يحدث فى الجمهوريات والمقاطعات ، وفرق الإنتاج المشاركة فى عملية إعادة البناء . ومن خلال حل المعضلات الجديدة تنخرط دولتنا بأكملها فى تجربة إعادة البناء . والمهم أن الأجواء فى المجتمع قد تغيرت حيث تجرى ، الآن ، عملية تحرير النشاطات الإجتماعية والسياسية للناس السوفييت . فقد أصبح الناس أكثر إقداما ، وأخذ يتجلى ، وبإصرار أشد ، الموقف الوطنى لدى المواطنين . لقد تراكم الكثير الكثير خلال المدة المنصرمة مما أرادوا قوله دوما بدون أى مواربة)[٢].

= ٢ ـ اليسار الشعبى : يرون تحقيق إشتراكية ذات وجه إنسانى ومنح الفرد مزيدا من الحقوق ويتفقون مع الغربيين فى العديد من الأفكار ويرون أن يكون الإصلاح الإقتصادى فى حدود ضيقة . ويمثلون ١٧٪ .

٣ ـ اليمين الشعبى : ويقوم توجههم على الانتقاد لسياسة الاتحاد السوفييتى وتسلط البيروقراطية ، ويرون أن الفساد والسوق السوداء والإباحية من المشاكل الرئيسية فى المجتمع . ويمثلون ٢٥٪ .

٤ ـ الوطنيون القوميون : يرون إقامة دولة قوية يكون فيها الشعب الروسى المدافع الأول عن وحدة الاتحاد السوفييتى ، ويعادون الغرب الرأسمالى . ويمثلون ٥٪ .

٥ ـ أنصار الدولة : وهم لايهاجمون الحزب ولاالحكومة ويطالبون بتحقيق المزيد من الإستقرار . ويمثلون ٢٧٪ .

انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣١٩-٣٢٠) .

(١) انظر عن ذلك الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١١٥) .

(٢) عملية إعادة البناء (٦٦) .

بل إن غـورباتشوف يرى أنه لـولا حدوث التغيير فى القيـادة العليـا والثـورة من أعلى ، لما استطـاعت سياسته الجديدة أن تحقـق شيئا من غاياتها حيث قال : (ماكان بمقدور عملية إعادة البناء أن تكون عملية ثورية حقيقية أو أن تكتسـب هـذه الأبعاد ، أو أن تمتلـك فـرصا أكيـدة للنجـاح ، لـو لم تتداخل معها وتندمج فيها المبادرة من فوق مع الحركة الجماهيرية العريضة فى القاعدة ...)[١].

ومما يدل على هـذا التراجع فى سيطـرة الحزب ودكتـاتوريته مـوافقة اللجنـة المركـزية على إنهـاء احتكـار الحزب الشيـوعى فى الاتحاد السـوفييتى للسلطـة السياسية ، وبهذا يصبح الحزب الشيوعى كغيره فى الـدفاع عن نفسه وتحقيق موقعه[٢].

وابتـداء مـن ١٥ آذار/مارس ١٩٩٠م (لم تعـد الـدولـة السـوفيتية دولة الحزب الشيوعى وحده)[٣].

هـذا عـدا عملية التطهير التى شهـدها الحزب منـذ أصبـح غورباتشوف سكرتيرا أولا للجنة المركزية[٤].

ولكن كيف حقق غورباتشوف ذلك الانتصار مع وجود المعـارضين له؟

لقد لعب غورباتشوف بورقة التوازن كثيرا ليكسب المعارضين ويوظفهم فى خدمة سياسته الجديدة . حيث (عمد إلى تقريب الشيـوعيين المتشددين منه وتسليمهـم المراكز الكبرى فى القيادة الاتحادية ... [و]هـذه الخطوة كان هدفها من جهة ، الحد من اندفاعـة يلتسين للتغيير الجذرى والفـورى مـن النظـام الشيوعى إلى النظام الرأسمالى ، سياسة وإقتصادا وعقيـدة حكم ، ومن جهة

---

(١) عملية إعادة البناء (٥٦) .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٣٠-٣٣١) .

(٣) غـورباتشوف ونهـج التحول الكبير (٩٣) ، وعـن إلغـاء هيمنـة الحزب الشيـوعى وانفراده بالسلطة انظر ماجاء فى المرجع نفسه (٨٩-٩٢) .

(٤) انظـر الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٢١٦-٢٢٠) ، وقـد ذكر تلك العمليات وعلى من وقعت بالأسماء والأرقام .

ثانية هدف إلى تحميل الجناح المتشدد داخل الحزب الشيوعى السوفييتى مسؤولية مواجهة تحديات المرحلة المقبلة والمشاركة فى وضع الحلول للأزمة الإقتصادية الخانقة ، بحيث لايبقى داخل الحزب من يعارض القرارات المتخذة والتحولات المقررة)[١].

ولكن يمكن القول هنا أن أغلب رجال الحزب ليسوا كالشيوعيين التقليديين بل هم شيوعيون من نوع جديد[٢].

خامسا : ومن التغييرات التى أحدثتها السياسة الجديدة :

فتح باب التنقل والسفر بصورة كبيرة جدا وخاصة للمهاجرين اليهود وسمح للآلاف من السوفييت بالسفر إلى الخارج للقيام بزيارات عائلية وغيرها . كما اكتظت مكاتب خطوط الطيران بطلبات تأشيرات السفر إلى الدول الغربية[٣].

ومنها السماح بالعمل فى الخارج : حيث خففت القيود على الراغبين فى السفر إلى الدول الأخرى خاصة إذا كانوا شخصيات بارزة فى مجال الثقافة والرياضة والفنون ، كما سمح بأمور كثيرة تتعلق بالرياضة ، والفنون[٤]، مما يدل على أن التراجع قد وصل جميع مجالات الحياة .

فهذا الشق الأول من سياسة غورباتشوف وأهم التراجعات التى سجلتها فترة رئاسته من خلال هذه السياسة .

ثانيا : الغلاسنوست .

إن هذا الجانب من سياسة غورباتشوف غالبا مايتجه إلى إعطاء الحرية فى الرأى والتعبير ، والمشاركة الفعلية بالرأى فى القضايا السياسية . مضافا

---

(١) النار والجليد (١٣٤) ، وانظر : غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٢٦) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٨٨-٣٨٩،٣٩٤) ويرى أن توازن غورباتشوف وتوسطه فى الأمور هو الذى حقق له ذلك .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٠٩) .

(٣) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٣١-٢٣٢) .

(٤) انظر : المرجع السابق ، سادات الماركسية (١٦٦) .

إلى ذلك تحقيق العلنية فى النقد والتوجيه مما كان يفتقر له الشعب السوفييتى ، بل يفتقر له أعضاء الحزب الشيوعى أمام الدكتاتور الأول . حيث لم يتجرأ أحد أن ينتقد السياسة التى كان ينتهجها الحزب . وعندما كسر خروشوف هذا الخوف الذى كان فى نفوس الناس ـ وذلك بفضحه الحقبة الستالينية ـ فإنه بهذا يكون فتح الباب ولو بصورة بسيطة . ثم جاء غورباتشوف وأكمل فتحه ، وفتح معه أبوابا كثيرة أدت إلى التسارع فى تساقط الأفكار الماركسية ، حيث حقق غورباتشوف الحرية فى الرأى والتغيير إلى درجة كبيرة وعمل على إقرار سياسة المكاشفة والمصارحة والعلنية ، وبين أهمية تلك السياسة فقال : (باعتقادى أن المناخ الجديد يتجلى بأسطع مايمكن فى ظل العلنية الواسعة . ونحن نسعى لمزيد من العلنية فى شتى مجالات حياة المجتمع . وعلى الناس أن تعرف الجيد والسيء لكى يتسنى مضاعفة الجيد ومقاومة السيء . وفى ظل الإشتراكية يجب أن تسير الأمور هكذا .

من المهم رؤية كل شيء إيجابى ، والتسلح به ، وجعله فى حوزة جميع الشعب والحزب ، واستخدام غراس التوجهات الجديدة فى ظروف إعادة البناء ...

إن العلنية اليوم سمة ملازمة للمناخ الروحى والمعنوى الطبيعى فى المجتمع ، تسمح للإنسان أن يتفهم بعمق أكثر ماذا حل بنا ، وماذا يجرى اليوم ، ولأى شيء نسعى ، وماهى خططنا ، ولذلك فهى تسمح بالانخراط عن وعى فى إعادة البناء .

إن إشاعة الديمقراطية فى المجال الإجتماعى ، والسير فى طريق التحولات الإقتصادية والإجتماعية تستحث الخطى ، فى الدرجة الأولى ، بفضل تطوير العلنية بالذات . بالطبع إن سياسة الحزب هى التى تشكل أساس هذه العملية .ولكن إذا لم يتم توجيه النهج السياسى بحيث تفهمه الجماهير ، فإن القضية لن تتزحزح من مكانها . فالجماهير يجب أن تعرف الحياة بكل تناقضاتها وتعقيداتها . ويجب أن يملك الشغيلة معلومات كاملة وموثوقة عن الانجازات ، وعما يكبح التقدم ، ويعيق ، ويحرف عن الطريق.

الناس ، كما يقال ، ذاقوا طعم العلنية . وهذا مرتبط ليس فقط بالرغبة الطبيعية فى معرفة ماذا وأين يجرى ، ومن وكيف يعمل ، بل وبالقناعة المتزايدة فى أن العلنية هى شكل فعال للمراقبة الشعبية على نشاط جميع أجهزة القيادة بدون استثناء ، وهى ذراع فعال وقوى لإزالة النواقص.

فى هذا السياق تحركت الطاقة الروحية للمجتمع . وبدأالعقل والضمير يحتلان مواقع السلبية واللاأبالية المسممة للروح . لايكفى بالطبع معرفة الحقيقة والنطق بها ، فالجوهرى هنا هو التصرف والعمل طبقا لهذا الفهم ولهذه المعرفة .

توصلنا إلى إدراك الضرورة الملحة لردم الهوة المتأصلة بين الواقع وبين السياسة المعلنة . وهذه النقلة الهامة فى مجال الأخلاق تشكل لب ثورية الإشتراكية المعاصرة ونبع حماسها فى مجتمعنا)[١].

وهذه السياسة تحقق الكثير والكثير من مصالح الشعب ، ويمكن إبراز أهم التراجعات والتغييرات التى حققتها تلك السياسة فى التالى :

أولا : منح الحرية للإنسان والحفاظ عليها ، ويدخل فى ذلك جميع أنواع الحريات . وبهذا لم تعد الأفكار الماركسية ذات قدسية أو حتمية . حيث أخذ الإنسان الشيوعى يعبر عن رأيه بكل جرأة ويحترم ذلك الرأى الصادر عنه . وكانت وسائل الإعلام هى الطريق الأكثر إظهارا لهذه الحرية .

وبين غورباتشوف أهمية وسائل الإعلام ، ودورها فى السياسة الجديدة ولزوم سماع أصوات ونداءات الشعب فيقول : (لقد بدأ العمل فى صياغة الأحكام القانونية التى تضمن العلنية . ويتوجب عليها ضمان علنية نشاط المنظمات الحكومية والإجتماعية فى أقصى حدودها ، وتوفير إمكانية حقيقية للكادحين للتعبير عن آرائهم بدون وجل بصدد أى مسألة من مسائل الحياة الإجتماعية والنشاط الحكومى .

---

(١) عملية إعادة البناء (٧٥-٧٦) .

استندت اللجنة المركزية ، لدى الشروع فى عملية إعادة البناء ، إلى قوتين حقيقيتين جبارتين هما اللجان الحزبية ووسائل الإعلام الجماهيرى . ويمكننى القول أن الحزب لم يكن بمقدوره بلوغ المستوى ، الذى نشأ اليوم ، فى مناقشة كافة معضلات عملية إعادة البناء ـ وهى واسعة ومتناقضة ومتعددة الجوانب ـ لو لم تنخرط فى الحال وسائل الإعلام الجماهيرى بعد اجتماع نيسان الموسع للجنة المركزية فى هذه العملية ، وتمارس دورها بنشاط وبالشكل المطلوب واللائق .

إن اللجنة المركزية تقيم عاليا دور وسائل الإعلام فى عملية إعادة البناء . ولماذا؟ لأن كل شىء يتخذ مجراه عبر الإنسان . وهو الذى يتصدر النضال ، ومن خلاله تجرى عملية إعادة البناء كلها . وهذا يشير إلى أن أفكار الإنسان ومستوى وعيه الإجتماعى ، وموقفه الوطنى تتصف بأهمية حاسمة .

إن مجتمعنا الإشتراكى السائر بحزم على درب التجديد الديمقراطى معنى للغاية بأن ينخرط كل فرد ـ سواء أكان عاملا أم فلاحا أم مثقفا ـ بنشاط فى مناقشة الخطط وتنفيذها . وتلعب وستلعب وسائل الإعلام الجماهيرى فى ذلك دورا كبيرا . وهى ، بطبيعة الحال ، ليست القناة الوحيدة المعبرة عن إرادة الشعب ، وعن آرائه ومزاجه . والصحافة أكثر منابر العلنية جماهيرية وأوسعها تمثيلا . والحزب معنى بأن ينطلق صوت الجماهير بثقة من خلف هذا المنبر ، وبأن لايكتفى هذا الصوت بالابلاغ عن النقاشات الدائرة فى البلاد ، بل وليصبح صمام أمان ، تضمن بواسطته المراقبة الديمقراطية لصحة القرارات ، واستجابتها لمصالح واحتياجات الجماهير ، ومن ثم العمل على تنفيذها .

إن عملية إشاعة الديمقراطية الجارية فى البلاد ، لاتجد صداها فى المواد المنشورة وحسب ، بل وتطال أكثر فأكثر نشاط وسائل الإعلام الجماهيرى نفسها . وبالتدريج ، كما لو أنها تذيب الجليد الذى يلفها ، تطرق المجلات والصحف والراديو والتلفزيون ، مواضيع جديدة وجديرة . أحد الدلائل

على الانتعاش العام للصحافة يتمثل فى تفضيلها المواد الصحفية التى تعتمد الحوار المباشر إذ تخلى التقارير العامة والذاتية مكانها شيئا فشيئا لمقابلات صحفية متنوعة ، ولندوات حول "المائدة المستديرة" ، ولرسائل القراء)[١].

ثانيا : العمل على تقبل النقد والتوجيه لسياسة الحزب وقراراته ، وهذا كان حلما يراود أعضاء الحزب قبلا من أفراد الشعب .

ويرى غورباتشوف أن هذا النقد لابد وأن يكون مقيدا بالحقيقة حيث قال : (ممالاريب فيه أن النقد يجب أن يستند دائما إلى الحقيقة)[٢].

ويقول : (ويمكن للنقد أن يكون أداة فعالة فقط فى تلك الحالة التى يكون جوهره الحقيقة التامة والحرص المتناهى على العدالة)[٣].

وطالب الصحافة بكشف النقاب عن أولئك الذين يرفضون النقد أو يحاولون كبحه[٤].

ويرى غورباتشوف أن العلنية والنقد الذاتى ليست (حملة موسمية فقد تم الإعلان عنها ويجب أن تصبح قاعدة لنمط الحياة السوفييتى . وبدون ذلك يستحيل إحداث أية تغييرات جذرية . وبدون العلنية لا ، ولن تكون هناك ديمقراطية ، وبدون ديمقراطية لا ، ولن تكون هناك إشتراكية عصرية)[٥].

ويقول :(سنعمل كل مافى وسعنا حتى لايضيق الخناق على النقد ، أو يطال العقاب من يمارسونه)[٦].

ويقول : (النقد دواء مر ، ولكن الأمراض تجعل منه شيئا ضروريا ، تشمئز منه ولكنك تضطر لتناوله . والرفاق الذين يفترضون تقديم النقد على جرعات مخطئون تماما ، وكذلك يخطىء كل من يعتقد أن مظاهر الركود قد تلاشت ، وأن الوقت قد حان للرجوع إلى الوضع السابق . إن إبطاء دوران

---

(١) عملية إعادة البناء (٧٦-٧٧) .
(٢) المرجع السابق (٧٨) .
(٣) المرجع السابق (٧٩) .
(٤) انظر المرجع السابق (٧٩) ومابعدها .
(٥)،(٦) المرجع السابق (٨٠) .

عملية النقد يعنى إلحاق الضرر بعملية إعادة البناء)[١].

وأدت هذه السياسة إلى النقد العلنى للطبقة الحاكمة فى الحزب والدولة ووجد لهذا الاتجاه أنصاره ، وأصبح النقد اللاذع يستغل فى الغالب ضد هؤلاء كمتنفس لحالات الاستياء والسخط[٢].

ثالثا : منح وسائل الإعلام الحرية بعد أن كانت مكبلة بالقيود التى وضعها الحزب الشيوعى .

حيث بدأت الصحف بإظهار الفساد وندرة الكفاءة على المستوى الداخلى . فبدأت الصحف والمجلات تتحدث عن كثير من الفضائح والفساد الموجود فى الدولة ، وتقول رأيها صراحة فى أحداث أفغانستان وتطالب بالانسحاب ، وتنشر العديد من الكتابات ، والمقالات ، والقصائد الشعرية التى لم تكن تنشر أبدا فى الاتحاد السوفييتى[٣].

رابعا : فتح المجال للأحزاب السياسية بإعلان سياستها وتوجهها والتحاور مع الحزب الشيوعى ، واعتبار النظرية الماركسية - من قبل هذه الأحزاب - غير صحيحة ، وأن الثورة البلشفية قامت خطأ[٤].

خامسا : إدخال جملة من الإصلاحات السياسية والتخفيف من حدة التسلط البوليسى ال(كى.جى.بى) ، وإعادة النظر فى القانون الجزائى وإلغاء أجهزة التصنت ، وعقوبة الإعدام[٥].

---

(١) عملية إعادة البناء (٨١) ، وانظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٦٥-٣٦٦) .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٦٧-٢٦٨) .

(٣) انظر : ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢٦-٢٢٧) ، الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٢٠٩-٢١٢) .

(٤) انظر تفصيل ذلك فى كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٨١-٨٢) .

(٥) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٢١-٢٢٢) .

ومن الإصلاحات السياسية إعادة النظر فى مسألة الترشيح والانتخاب ، واشتراك الشغيلة فى تسيير الحكم فى البلاد[١].

سادسا : أدت هذه السياسة إلى احترام المفكرين والمثقفين ، ومنحهم الحرية فى القول والكتابة مما كان له أثره على مسيرة السياسة الجديدة لغورباتشوف ، حيث أصبحوا يؤيدونها ويدعون إليها .

ويبين ذلك غورباتشوف فيقول : (قدم المثقفون دعما حارا لعملية إعادة البناء . وهنا أسمح لنفسى بإلقاء نظرة للوراء . فالمثقفون المخلصون لقيم الإشتراكية هم جزء عضوى من مجتمعنا السوفييتى ووطنيون متحمسون لوطنهم الإشتراكى ...

إن لدى المثقفين طاقات وطنية هائلة وقد حملوا على كواهلهم ، وعن طيبة خاطر ، جزءا غير يسير من عملية إعادة البناء . لقد شرع مثقفونا المبدعون ، جنبا لجنب مع الحزب ، فى تنفيذ التغيرات وأخذت تنجلى بوضوح متزايد مواقفهم الوطنية ازاءها . ونحن معنيون بنشاط كهذا ، ونثمن الكيفية التى تجلى من خلالها اخراطهم فى العمل بعد نيسان ١٩٨٥م ، كما نثمن حماسهم وسعيهم للمساعدة فى تغيير المجتمع . وأملنا أن تزداد مساهمة المثقفين وهم يرتفعون إلى مستوى جديد من التفكير والمسؤولية . إن توجهاتهم تتطابق مع الخط السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى ومع مصالح الشعب)[٢].

وقد أثبت غورباتشوف عمليا ذلك التراجع مع المفكرين والمثقفين ومن أبرز الأمثلة استدعائه سخاروف[٣]و(لم يسبق لأمين عام للحزب الشيوعى

---

(١) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٢٣) ، ولمزيد عن معرفة تلك الإصلاحات انظر (٢٢٥-٢٣١) .

(٢) عملية إعادة البناء (٨١-٨٣) .

(٣) عالم فيزيائى نووى يعتبر أب القنبلة الذرية السوفيتية حظى بتقدير الجميع ونافح عن حقوق الإنسان والديمقراطية . نفى إلى غوركى واستمر فى منفاه يطالب الحكومة باحترام حقوق الإنسان . وحصل على جائزة نوبل للسلام .
انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣١١) .

السوفييتى أن استعاد منشقا. وكانت مثل هذه الخطوة حتى الآن أمرا لايمكن تصوره ...)[١].

وبعد عودته إلى موسكو طالب سخاروف الحكومة السوفيتية بالانسحاب من أفغانستان . وكانت آراؤه تتفق فى غالبيتها مع أفكار غورباتشوف[٢].

(ومع ذلك فإن إطلاق سراح سخاروف كان واحدا من سلسلة من اللفتات المماثلة ، فقد أطلق سراح المئات من الذين يقضون فترات سجنهم فى المخيمات والمنفى ، فى حملة وصلت إلى حد إعتبارها عفوا عاما عن الجرائم "السياسية" تتراوح بين إثارة إضرابات مزعومة معادية للسوفييت وتعلم العبرية ، وقد سمح للعديد من السجناء السياسيين البارزين بالهجرة بينما تابع الآخرون النشاطات التى كانت سببا فى زجهم بالسجن ...)[٣].

هذا بالإضافة إلى فتح المجال أمام الكتاب والأدباء للتعبير عن آرائهم وأفكارهم ، وإظهار نتاجهم الذى كانوا يخفونه من قبل[٤]. مما كان له أثر على تقدم البلاد فى عدة جوانب فكرية وإقتصادية وسياسية[٥].

سابعا : أن هذه السياسة قامت بزعزعة المجتمع السوفييتى فى جوانب عديدة من حياته سواء منها الفكرية أم الإجتماعية .

حيث أدى فتح الأبواب والنوافذ من وسائل إعلام وأدب وتحليل نقدى للحياة اليومية وللبنى الإجتماعية والسياسية عن طريق حرية التعبير والكتابة كل ذلك إلى زعزعة المجتمع بأكمله[٦].

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣١٣) ، وانظر غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢١) ومابعدها .

(٢) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢٢) ، وانظر نص المكالمة التى أجراها غورباتشوف مع سخاروف فى كتاب غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣١٢-٣١٣) .

(٣) ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢٣) .

(٤) انظر نشهوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٤٨-١٤٩) .

(٥) انظر المرجع السابق (١٦٢) .

(٦) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٥٣) .

ثامنا : التخفيف من حدةالرقابة التى كانت مفروضة على الشعب السوفييتى .

كانت الرقابة فى العقود السابقة صارمة على الفرد الشيوعى أيا كان توجهه أو عمله(١).

إلا أن سياسة غورباتشوف الجديدة قد خففت من حدة الرقابة وشدتها يقول ماندل : (كانت حرية الإبداع الثقافى والإعلام إحدى سمات الغلاسنوست "الشفافية" ، "إمكانية الرؤية" ، "العلنية" ، "حق الكلام" ، الأشد تأثيرا فى الرأى العام فى الاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية كما فى الغرب ، ففى الحال خلعت الأبواب الموصدة وسقطت هيئات رقابة بأكملها فيما عرضت أفلام فى صالات السينما والتلفزة كانت مهملة فى الأدراج طوال سنوات ، ونشرت مسرحيات كانت مجمدة فى الرقابة وتم عرضها . وجرى تحويل مخطوطات "ملعونة" إلى الطباعة . هذا ووضعت تجمعات كل من الكتاب وممثلى السينما والمسرح توجهات ليبرالية جديدة لنفسها فى أعقاب مؤتمرات واجتماعات موسعة صاخبة تميزت بصراعات كشفت للعلن . ثم برزت شخصيات أدبية تنتمى إلى مرحلة "إذابة الجليد" ...)(٢).

فأصبح الإنسان السوفييتى باستطاعته (قراءة ماكان بالأمس ممنوعا ، والاستماع إلى "أصوات" اعتبرت معادية ، والاطلاع على كل المصائب والكوارث التى أصابت الاتحاد السوفييتى فى زمن "العبادة")(٣).

تاسعا : تحرير المراسلين الأجانب فى الاتحاد السوفييتى مما يدل على إزالة القيود المفروضة سابقا على من يدخل الاتحاد السوفييتى .

يقول ميشيل هيلر : (يتمثل أحد أروع نجاحات الغلاسنوست فى أنها حررت المراسلين الأجانب العاملين فى الاتحاد السوفييتى من ضرورة التفتيش

---

(١) انظر : نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٧) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٨) .

(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٥٥) .

(٣) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٥٢) .

عن الأخبار . فكل "المستجدات" و"الأخبار المثيرة" تسقط عليهم مصنعة سلفا من قبل المصادر السوفيتيـة ، وذلـك مـن خلال وكـالة تاس ونوفـوستى ، و"اجتمـاعات التعليمات" "البريفنـك" فى الوزارات إثر أحاديث "بالأمـانات" مع القادة السوفييت . فليـس من حاجة بعد الآن لأية مصـادر غير رسميـة . كل شىء يأتى مباشرة ، كما يقـول الانجليز ، مـن "فـم الحصـان" . فلم يسبق أبدا ، حتى فى ظل الرقابة الأكثر تشددا ، أن مورس مثل هذا الضبط الهائل على الصحافة الأجنبية . وتكمن أهم العناصر التى تميز الغلاسنـوست أو أهم انتصـاراتها الجوهرية ، فى أنهـا نجحت باشراك الغرب فى عمليـة إعـادة قولبة الوعى الإجتماعى فى الاتحاد السوفييتى)[١].

عاشرا : فضح الستالينية .

مـن الأمور المهمة التى سجلتهـا السياسة الجديدة "الغلاسنـوست" فضح الحقبـة الستـالينية . وإذا كـان خروشوف قد سبق إلى ذلـك إلا أنه فى زمـن غورباتشوف اتخذ النقد طابعـا آخر وأشـد علانية . ولاشـك أن هـذه العملية (فضـح الستالينية) مهمة جدا حيـث إن الصدق فى الحديث عـن الماضـى قد يجعل الحديث مصدقا عن الحاضر .

يقول ماندل : (إن هذا الجانب يحتل مكانا بارزا ، وعن حق ، فى هذا النقـاش . إذ أنه يبدو بمعنى مـن المعانى بمثابة المحك الأكبر لمصـداقية سيـاسة الغلاسنـوست ، لالشىء إلا لأن جرائم ستـالين كانت تشكـل الستر الرئيسى والعيـب الأكبر بالنسبة للنظـام . فإذا لم يكن هذا النظـام مستعـدا لأن يقول كل شىء عن ماضيه ، فكيف يصدق الناس مايقوله عن حاضره؟)[٢].

وفضح الستالينية يدور على محورين :

(١) إعادة الاعتبار لجميع ضحايا (حملات التطهير) الستالينية .

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٥٠) .

(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٨٠) ، وانظر (٢٨٢) ، وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٢٤-١٢٥) .

(٢) الحكم العام على ستالين والستالينية[١].

يقول غورباتشوف عن الحقبة الستالينية : (يثار فى هذه الآونة الكثير من الكلام حول دور ستالين فى تاريخنا ، لقد كانت شخصية ذلك الرجل ذات تناقضات حادة . وإخلاصا منا للحقيقة التاريخية علينا أن ننظر إلى كل من مساهمة ستالين فى النضال الإشتراكى ، وفى الذود عن مكاسبه ، وإلى الأخطاء السياسية الفادحة والمساوىء التى ارتكبها هو وأولئك المحيطون به ، تلك التى كلفت شعبنا ثمنا باهظا ، والتى كان لها أوخم العواقب على الحياة فى مجتمعنا)[٢].

ويقول : (إن ذنب ستالين وأتباعه أمام الحزب والشعب لأجل كافة الإجراءات القمعية والتصرفات اللاشرعية التى قام بها لهو ذنب عظيم لايغتفر إنه درس لجميع الأجيال قاطبة)[٣].

إن الدكتاتورية الستالينية جعلت الكل يذعن ويصمت ولو كان فى قرارة نفسه يرى عدم صواب مايتخذه ذلك الدكتاتور . ومن تجرأ أو سولت له نفسه الحديث عن شىء يخالف أو يناقض مايريده ستالين فإن مصيره القتل والتعذيب أو النفى والتشريد على أقل الأحوال ، ومن هنا كانت حملات التطهير والتجسس التى ارتكبها ستالين صفحة سوداء فى تاريخه ، بل وتاريخ الاتحاد السوفييتى كله[٤].

وبالمقابل فإن بعض من أصابتهم اللوثة الستالينية أرادوا رد الاعتبار لستالين لأن فى ذلك استقرار لهم ، وبدأ ذلك منذ عهد خروشوف وكادت أن تنجح فى عهد تشرنينكو ولكنها فشلت فى اللحظة الأخيرة[٥].

---

(١) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٤٨) .
(٢) نقلا من كتاب ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٧٤-٣٧٥) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (٣٧٥) ، وانظر (١١١-١١٣) .
(٤) انظر بعض ماذكره ميشيل هيلبر عن القتل والنفى فى كتابه نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٢٢) .
(٥) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٩٢-٢٩٣) .

حيث قام بعض المفكرين بالتحذير من رد الاعتبار لستالين[١].

أما على الصعيد الخارجى : فإن غورباتشوف أيقن بأن التراجع والإصلاح الداخلى لايمكن أن يحقق نتائجه المرجوة منه إلا بالتراجع والتغيير فى سياسة الاتحاد السوفييتى على المستوى الخارجى . ويمكن إبراز أهم التراجعات التى سجلتها الحقبة الغورباتشوفية فى التالى :

أولا : التعايش السلمى مع القوى الرأسمالية والاندفاع فى ذلك بصورة لم يسبق لها مثيل ، وبهذا يكون غورباتشوف قضى على مسألة حتمية انتصار الإشتراكية أو زوال الرأسمالية .

يقول غورباتشوف : (يجب علينا أن نتعايش معا ، وأن نسعى لحل مشاكلنا جميعها بروح التعاون لاالعداء)[٢].

ومما شجع غورباتشوف على ذلك كثرة اللقاءات التى تمت بينه وبين زعماء كثير من الدول الرأسمالية وخاصة أولئك الذين شاركوا فى تشييع جثمان تشرنينكو[٣]. ثم ماأعقب ذلك من تصريحات لغورباتشوف حول التعايش السلمى ، والبيت الأوروبى ، ونزع السلاح[٤]، والاندماج فى المجتمع الدولى[٥].

ثانيا : التراجع عن مبدأ تصدير الثورة والتدخل فى شئون الدول الأخرى من أجل فرض الإشتراكية عليها ، وذلك تراجعا فكريا بالإضافة إلى تحقيق المصالح من ورائه . يقول غورباتشوف : (كانت مكانتنا هى مكانة القوة العسكرية وهيبة التهديد . كانت القوات السوفيتية تتخذ مواقعها فى

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٧) .

(٢) عملية إعادة البناء (٧) .

(٣) انظر - عن هذه اللقاءات وبعض الآراء حول شخص غورباتشوف من قبل المسئولين والرؤساء فى الدول الغربية - كتاب ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٠٥-٢٠٧) ، وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٨٧) .

(٤) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٤٠٢) .

(٥) انظر الإنقلاب (٩٠) .

أوروبا الشرقية وفى منغوليا ، وكان شبابنا يلقى حتفه فى أفغانستان . ومقابل ذلك كانت الآلة العسكرية التى صنعناها تقوض أسس إقتصادنا وتضعف أفرع الإقتصاد غير العسكرية وتحكم على مستوى المعيشة بالتراجع . وعلاوة على ذلك بدأت قدرتنا العسكرية فى الانحدار تدريجيا بسبب تزايد مستوى التخلف التقنى والنفقات التى تفوق قدراتنا . وكان من الممكن فى نهاية الأمر أن نواجه خيارين : إما تهديد العالم أجمع بقوة السلاح وإما الرضوخ أمام ظاهرة التخلف العسكرى . لقد كنا دولة عظمى ذات إقتصاد غير فعال ، وصرنا رافدا للمواد الخام التى نقدمها إلى الدول المتقدمة التى يتدنى مستوى معيشتنا عن المستوى الذى تعيشه هذه الدول عدة مرات . فهل كان من الوطنية فى شىء أن يشعر المواطنون الذين يناضلون من أجل مكانة الوطن بالحنين إلى كل ذلك؟ لقد وضعنا حدا لمثل هذه السياسة الخارجية التى كانت تخدم هدفا طوباويا حول نشر الأفكار الشيوعية فى العالم وأفضت بنا إلى طريق "الحرب الباردة" المسدود وألقت على كاهل الشعب بأعباء النفقات العسكرية التى لاتطاق ، وأخيرا ، ورطتنا فى المغامرات على غرار مغامرة أفغانستان . وهانحن ولأول مرة على مدى عقود طويلة ننتهج سياسة خارجية تخدم مصالحنا الوطنية و"تعمل" لصالح قضايانا الداخلية .

وقد حققنا لدى ذلك مكانة دولية راقية ، مكانة من نوع جديد تتمثل فى الثقة ورفعة سياستنا الخارجية التى تتسم بالوضوح والطابع البناء والأخلاقيات السامية والخالية من عنصر المغامرة . وكان تحرير البشرية من مخاوف الحرب النووية سبيلا إلى دعم أمن بلادنا . وجرى تشكيل القاعدة الوطيدة للاستمرار فى تدعيم مواقع السياسة الخارجية لدولتنا)[١].

ثالثا : الاعتراف بالأنظمة الأخرى وعلى رأسها الرأسمالية وهذا بحد ذاته اعتراف بعجز الإشتراكية أمامها . كما أنه يدل على تلاشى فكرة الحتمية التاريخية الماركسية القائلة بزوال الرأسمالية وهكذا سقط جزء كبير من فكر ماركس وبقى ماأسقطه ماركس بخياله .

---

(١) الإنقلاب (١٣٢) ، وانظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣٢-٣٣) .

يقـول غورباتشوف معترفا ببقاء الرأسمالية : (بصراحة نقـول : لايمكننا قبول إدعاءات الهيمنة وأطماع السيطرة الكونية من جانب الـولايات المتحدة ولاتعجبنـا أيضا بعض جوانب الحيـاة السياسية فى الولايات المتحـدة . ولكننا نقـر بحق شعـب الولايات المتحـدة ، وحق كل شعب آخر فى أن يحيـا طبقـا لقـوانينه وقواعده ، ووفقا لعـاداته وأذواقه . نحن نعـرف ونأخذ فى اعتبـارنا الـدور الكبير الـذى تؤديه الـولايات المتحدة فى عالم اليـوم ، ونقـدر الدور الـذى أسـداه الأمـريكيون للحضـارة العـالمية ، ونأخذ فى الحسبـان المصـالح القـومية المشروعة للولايات المتحـدة ، وندرك أنه بدون هـذه الـدولة يتعذر إبعاد خطر الكارثة النووية ، وتأمين السلام الوطيد . وليست لدينا أى نوايا سيئة تجاه الشعب الأمريكى . فنحن نريد ، وعلى استعـداد للتعاون فى جميع الجوانب والاتجاهات)[١].

ويقول : (حان الوقت للتخلص من الهيمنة فى السيـاسة الخارجية ، إذ لايمكن للاتحاد السوفييتى أن يملى موقفه على أحد ، وكـذلك الولايات المتحدة ويمكن لفترة محدودة ، ممارسة الضغط والإكراه والنسف واستمالة الآخرين . أمـا فى السياسة بعيدة النظر والرصينة فإن من غير الممكـن فرض التبعية على الآخرين . إذن بقى أمامنا شىء واحد . إقامة علاقات تكـافؤ . وهذا مايجب أن نعيـه جميعا . وهذه حقيقة أخرى تفرض علينا التعـامل باحترام متبادل ، حقيقـة تضـاف إلى ماسلف من حقـائق الأسلحة النووية والثـورة العلميـة ـ التكنيكية والبيئة والإعلام .

هـذا هو عالمنا .. معقد ولكـن يبعث على الأمل . وباعتقـادنا أنه يمكـن إيجاد حل لكل معضلة ولكن شريطة أن يعيد كل منا النظـر فى دوره فى هذا العالم وأن يتصرف بشكل طبيعى)[٢].

---

(١) عملية إعادة البناء (١١) .

(٢) المرجع السابق (١٤٢-١٤٣) .
ويبين غـورباتشوف أن سيـاسة الاتحادات الجديدة ستسير على هـذا النهـج وهـو التقـارب مـع الـرأسمالية والعمـل معهـا سـويا لصـالح البشـرية . انظـر الإنقلاب (٥٩-٦٠) .

بل الأكثر من ذلك وضوحا هو دعوة غورباتشوف على أن تبقى كل دولة على أيديولوجيتها الخاصة بها وأن يختار كل أحد ماينا سبه من تفكير فقال : (فى المؤتمر السابع والعشرين توصلنا إلى مفهوم التناقض والترابط والاعتماد المتبادل فى عالمنا المتكامل . وبناء على هذا المفهوم رحنا نكيف سياستنا الخارجية . نعم ، سنظل مختلفين من حيث خيارنا الإجتماعى وقناعاتنا الأيديولوجية والعقائدية ونمط حياتنا . وسيبقى الاختلاف بالطبع . إذن هل نطلق النار على بعضنا بعضا بسبب ذلك؟ أليس من الأجدر تجاوز مايفرق بيننا فى سبيل خدمة مصالح الإنسانية جمعاء والحياة على الأرض؟ فيما يتعلق بنا فقد حددنا خيارنا ، إذ أكدنا على تفكيرنا السياسى الجديد والتزامنا بما أصدرنا من بيانات ، وكذلك بتصرفاتنا وأفعالنا المحسوسة .

لقد أرهقت الشعوب من التوتر والمجابهة وهى ترنو لعالم آمن يركن إليه ، عالم يحافظ فيه كل إنسان على وجهات نظره الفلسفية والسياسية والأيديولوجية ، وعلى نمط حياته)[١].

ويقول : (يقوم الأمن الشامل فى عصرنا على مبدأ أساسى ... هو الإعتراف بحق كل شعب فى اختيار طريق تطوره الإجتماعى . إنه التخلى عن التدخل فى الشؤون الداخلية للدول الأخرى ، واحترام الآخرين فيما يتعلق بنظرتهم الموضوعية النقدية الخاصة كل تجاه مجتمعه . فقد يختار شعب ما الرأسمالية أو الإشتراكية . إن هذا حق من حقوق السيادة . ولايستطيع شعب ، بل لايجوز ، أن يتناغم مع عزف الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى . هذا يعنى ضرورة تحرير المواقف السياسية من التعنت الأيديولوجى .

لايجوز نقل الخلافات الأيديولوجية إلى مجال العلاقات بين الدول وفرضها على السياسة الخارجية . ذلك أن الأيديولوجيا يمكن أن تعنى الاستقطاب . أما المصلحة فى الحفاظ على الحياة ودرء خطر الحرب فهى أشمل وأسمى)[٢].

---

(١) عملية إعادة البناء (١٤٣) .

(٢) المرجع السابق (١٤٧-١٤٨) ، وانظر ماجاء فى بعض المراجع عن ذلك التراجع فى هذه المسألة : الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٨٩) ، سقوط الماركسية (٨٤-٨٥) .

رابعا : عدم التدخل فى شئون دول أوروبا الشرقية وترك الخيار لها فى اختيار السياسة والأيديولوجية التى تريدها . وهذا حكم بتهافت مبدأ انتصار الإشتراكية وانتشارها فى بلدان العالم ، حيث تراجعت فى الدول التى فرضت فيها بالقوة ، فما بالك بما عجزت عن الوصول إليه أساسا .

وقد أعلن غورباتشوف (أن كل تدخل سيكون غير مقبول ، من أى جهة أتى)(١).

ويلحق بذلك الانسحاب من أفغانستان مهما كانت الدوافع وراءه(٢).

خامسا : ومما يدل على التراجع والتغيير فى السياسة الخارجية الدعوة العريضة التى أطلقها غورباتشوف من أجل نزع السلاح تحقيقا للسلام والأمن(٣).

وفى هذا إمعان فى إبطال مبدأ الثورة والعنف الذى نعق به ماركس وطبل له لينين فى أول الأمر ، ثم أعلن فساده وعدم تحققه بعد أن اصطدم بالواقع .

وهذا ملخص لسياسة غورباتشوف الخارجية مأخوذة من خطابه الذى ألقاه فى اجتماع اللجنة المركزية ، أثر انتخابه أمينا عاما للحزب عام ١٩٨٥م حيث جاء فيه عما يخص السياسة الخارجية :

(* تعزيز الصداقة الأخوية مع أقرب إخواننا وحلفائنا بلدان الأسرة الإشتراكية العظيمة وتعزيزها الشامل ، وزيادة دور وتأثير الإشتراكية فى الشؤون العالمية .

* تأييد نضال الشعوب فى سبيل التحرر من ربقة الاستعمار والتعاطف مع بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التى تسير على طريق توطيد

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢١٨) .

(٢) سيأتى الحديث معنا عن ذلك فى الفصل الثالث من الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

(٣) سيأتى الحديث بشىء من التفصيل عن ذلك فى فصل الحرب الباردة (سباق التسلح) من الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

استقلالها وتجددها الإجتماعى . إنها لنا أصدقاء وشركاء فى النضال فى سبيل السلام الوطيد وفى سبيل قيام علاقات أفضل وعادلة بين الشعوب .

* نهج سياسة السلام والتعايش السلمى اللينينى فى العلاقات مع الدول الرأسمالية . وسوف نرد دائما على الإرادة الطيبة بالإرادة الطيبة وعلى الثقة بالثقة ... بيد أنه يجب أن يعرف الجميع أننا لن نتراجع أبدا عن مصالح وطننا وحلفائه .

* تثمين نجاحات الانفراج الدولى التى تحققت فى السبعينات والاستعداد للاشتراك فى مواجهة عملية إقامة التعاون السلمى المتبادل النفع بين الدول على أساس المساواة والاحترام المتبادل وعدم التدخل فى الشؤون الداخلية .

* الخطر النووى الرهيب الذى يحيق بالبشرية والذى لم تعرف له مثيلا من قبل . وتحديد المخرج المعقول من هذا الوضع باتفاق القوى المتجابهة على الوقف الفورى لسباق التسلح ولاسيما النووى على الأرض وعدم السماح به فى الفضاء . والاستعداد للاتفاق على أساس شريف ومتكافىء ومن دون محاولة التفوق على الطرف الآخر واملاء الشروط عليه ، على الاتلاف التام للسلاح النووى وحظره إلى الأبد وإزالة خطر الحرب النووية تماما .

* نحن لانسعى لتحقيق أفضليات وحيدة الجانب على الولايات المتحدة وعلى بلدان حلف الأطلسى والتفوق العسكرى عليها . إننا نريد وقف وليس مواصلة سباق التسلح . ولهذا نقترح تجميد الترسانات النووية ووقف مواصلة نصب الصواريخ . إننا نريد تخفيض الأسلحة المكدسة الفعلى والكبير وليس صنع منظومات جديدة سواء كان ذلك فى الفضاء أو على الأرض .

* انطلاقا من طبيعة الحزب الشيوعى السوفييتى الأممية ، فإنه سيتعاون تعاونا وثيقا كما هى الحال دائما مع الأحزاب الشيوعية والعمالية والديمقراطية الثورية الشقيقة ، وسوف يعمل من أجل وحدة القوى الثورية كافة وتعاونها النشيط .

* المحافظة على قدرة الوطن السوفييتى الدفاعية على مستوى بحيث يعرف المعتدون المحتملون حق المعرفة أن الاعتداء على أمن البلاد السوفيتية وحلفائها وعلى حياة السوفيتيين السلمية سوف يجابه بضربة جوابية ساحقة)[١].

وبعد هذاالتغيير والتراجع الذى سجلته السياسة الغورباتشوفية فإنها قد اصطدمت بعوائق كثيرة جعلت ثمارها بل نجاحها أحيانا غير متحقق . ومن ذلك :

أولا : وجود دعاة الفكر الماركسى الذين يرون الأصلح فى الإبقاء على القديم . يقول غورباتشوف إن (أكبر مانواجه من مصاعب فى طريق إعادة البناء ، هو تفكيرنا الذى تشكل خلال السنين الماضية . فعلينا جميعا ، بدءا بالأمين العام ، وانتهاء بالعامل ، أن نغير ذلك التفكير)[٢].

ثانيا : أن إصرار هؤلاء على المحافظة على القديم لكونه يحقق لهم المنافع والمصالح الذاتية[٣]. وهذا يجعل اقتناعهم بالسياسة الجديدة فى غاية الصعوبة خاصة إذا كانت هذه السياسة ستحرمهم من الكثير الذى كانوا يتمتعون به .

ثالثا : عدم حصول النتائج المرجوة من وراء السياسة الجديدة مما جعل دعاة الإبقاء على الماضى يستغلون ذلك ويشككون الناس فى جدواها ، وهذا بدوره أدى إلى استنفاذ طاقات هائلة من دعاة الإصلاح لإقناع الناس ولكن الواقع لم يكن يعمل لصالحهم .

رابعا : من أخطر ماواجهته عملية إعادة البناء وسياسة المكاشفة ، الإنقلاب الذى حدث ضد غورباتشوف وكان رد فعل لسياسة غورباتشوف

---

(١) نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣١-٣٢) ، وانظر البيرويسترويكا من منظور إسلامى (٢١-٢٢) .
(٢) عملية إعادة البناء (٦٤) ، وانظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣٠٤-٣٠٥) .
(٣) انظر عن ذلك غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٨٩-٢٩١) .

الداخلية والخارجية . وهؤلاء وصفهم غورباتشوف بأنهم (أصحاب الفكر الجامد المعكوس)[١].

وعندما فشل المعارضون للإصلاح من الإبقاء على الشيوعية عمدوا إلى استخدام القوة فى إيقاف عملية الإصلاح فكان الإنقلاب على غورباتشوف الذى تم فيه احتجازه لمدة ثلاثة أيام[٢]هزت العالم تحسبا لحرب مدمرة تشترك فيها الأسلحة النووية .

وكان هدف الإنقلابيين (الاستيلاء على السلطة ... واستغلالها بما يحقق أهدافهم)[٣].

إن الشعب السوفييتى قد قال كلمته واتخذ قراره بشأن أن لاعودة إلى عصر الكبت والظلم والقهر . ولاشك أن الشعب كان القوة الأولى التى منعت الإنقلابيين من الوصول إلى غاياتهم ، لأنه تنفس الحرية ، وشعر بالأمان إلى درجة ما وأيقن بأن المستقبل قد يكون أفضل ، ولأجل ذلك ماكان أحد يستطيع الوقوف فى إرادته ويقرر ذلك غورباتشوف ويبين أنه لو كان الأمر قد حدث قبل ذلك بسنة أو نحوها ربما نجح الإنقلابيون فى مبتغاهم فيقول : (تعتبر أيام أغسطس/آب الثلاثة فاصلا تاريخيا . وأقول أحيانا ، إن ماكان قبل الإنقلاب ، أشبه بما يمكن أن يقال بشأنه ماقبل الميلاد ، أما الآن فقد بدأ عصر جديد . وأعود لأكرر إننى وإلى حد ما تنبأت بأن ذلك يمكن أن يحدث وأن أياما عصيبة فى انتظارنا . وكان ذلك يمكن أن يحدث فى خريف العام الماضى . وتلخصت مهمتى الرئيسية فى التمسك بنهج الإصلاحات الجذرية للمجتمع والحفاظ على هذه العملية البالغة التعقيد بعيدا عن الالتواءات والاحباطات الكبيرة . وكرست لذلك كل الخطوات والتصرفات ذات الطابع التكتيكى .

---

(١) الإنقلاب (١٢١) وانظر مابعدها .

(٢) كانت فى شهر أغسطس/آب ١٩-٢١ عام ١٩٩١م .

(٣) الإنقلاب (٢٠) وانظر مابعدها .

ولربما كان مثل هذا الإنقلاب يمكن أن ينجح لو حدث منذ عام ونصف العام أو عامين . أما الآن فقد تغير المجتمع تماما . فمن كان عمره منذ خمسة أعوام ١٣-١٥ سنة بلغ اليوم ١٨-٢٠ عاما . ونشأ فى مناخ مختلف وهؤلاء هم الذين أصبحوا أكثر المدافعين عن الديمقراطية جسارة .

لقد تغير المجتمع وتغير الجيش بوصفه جزءا من هذا المجتمع . ورفض الضباط والجنود مواجهة شعبهم رغما عن أنه كانت تهددهم بمحاكمة عسكرية . كذلك فعل المسؤولون عن الحفاظ على الأمن ، حتى بعض أفراد القوات الخاصة . وفى هذا الموضوع تحديدا خاب ظن الإنقلابيين ، حيث إنهم لم يراعوا أن المجتمع لم يعد كما كان الحال عليه منذ عدة أعوام .

فقد استنشق المجتمع هواء الحرية ، ولايستطيع أى كائن كان أن يسلبه هذه الفرصة . نعم إن الشعب يريد الشرعية والاستقرار ، لكنه لايريد ذلك من خلال الدكتاتورية ، أو من خلال الطوارىء . نعم إن الشعب سئم انتظار تحسين أحواله المعيشية ، لكنه يريد أن يكون الخروج من الأزمة من خلال الأطر الديمقراطية وليس على حساب حريات وحقوق الإنسان ، أو عن طريق العنف . لقد أخطأ الإنقلابيون كثيرا فى تقديرهم لنوعية العلاقات الجديدة للاتحاد السوفييتى مع شركائه فى الغرب . وتجاهلوا التغيرات المبدئية الضخمة التى طرأت على الوضع الدولى لبلدنا ولاسيما فى العلاقات مع شعوب الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا . ولربما كان هناك بعض التردد فى تقدير الإنقلاب فى البداية ، لكن الغالبية الساحقة من حكومات البلدان الأجنبية سرعان ماقالت "لا" الحاسمة للإنقلابيين ورفضت أى تعاون معهم .

وقد حدد مسبقا هزيمة الإنقلابيين عاملان يرتبط كل منهما بالآخر وهما الإنجازات الديمقراطية للبيريسترويكا ، والعلاقات الجديدة مع العالم الخارجى.

وكنت على يقين دائم ، وحتى عندما طالبونى فى شكل إنذار بتسليم صلاحياتى إلى نائب الرئيس أو إعلان الاستقالة "من أجل إنقاذ الوطن" ، من أن المغامرة لن تنجح وأن الإنقلابيين سيلقون الفشل . لقد دفعوا البلاد

والشعب نحو الكارثة ولابد أن يحاسبوا على ذلك)[١].

لقد كان موقف الجيش السوفييتى ، ثم أفراد الشعب دليلاً على أن الإنسان ينزع إلى الأمور الفطرية ، ويبحث دوما عن الحرية ولايمكن أن يضحى بتطلعاته الإنسانية إلا تحت الضغط والقوة كما هو الحال فى الشيوعية إن الجيش السوفييتى والذى كان يتقاسم العالم مع الولايات المتحدة الأمريكية من حيث القوة عجز عن الوقوف أمام الإرادة الإنسانية . وبالعموم فرغم هذه الأحداث إلا أن غورباتشوف ظل متمسكا بالتغيير ونهج التحول الذى بدأه ، حيث قال : (إن ماحدث درس عصيب بالنسبة لى شخصيا . وهناك الكثير مما استوعبته وأعدت التفكير فيه خلال الأيام والأسابيع الماضية . وقد استخلصت العبر من المأساة التى لحقت بنا . قالوا إننى عدت إلى بلد آخر . وأنا أتفق مع ذلك . وأستطيع أن أضيف أيضا أنه عاد من القرم الإنسان الذى ينظر إلى كل شىء .. إلى الماضى والحاضر والمستقبل بعينين أخريين . وعلى أى حال فإننى لن أسمح بأى تردد أو تخاذل فى إجراء الإصلاحات مادمت رئيسا للبلاد . ولن يكون هناك أى حلول وسط مع أولئك الذين نبحث معهم عن إتفاق .

غير أننى اليوم وربما أكثر من أمس أتمنى أن يجرى كل مانقوم به فى إطار الديمقراطية وبدون دماء . وبوجه عام كان من الضرورى العمل . ولم يكن قد اتضح الكثير ، حيث كان عصر جديد يعلن عن بدايته)[٢].

إن الإنقلابيين أرادوا السير بعكس التيار ومن هنا عجزوا عن تحقيق غاياتهم أو مطالبهم[٣].

ومما يذكر هنا أن زعماء الإنقلاب لم يتحدثوا عن الماركسية ، أو الشيوعية بل طمأنوا الكل بأن السياسة الإصلاحية ستستمر[٤].

---

(١) الإنقلاب (٢٤-٢٥) ، وانظر (٢٦-٢٧،٤١-٤٢) .

(٢) المرجع السابق (٢٩) .

(٣) انظر عن ذلك النار والجليد (١٣٦-١٣٧) .

(٤) انظر على الطريق (٤٨١) ، طلال سلمان ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، المركز العربى للمعلومات .

كذلك لم يكن هناك أهدافا محددة للإنقلابيين . يقول طلال سلمان : (كان إنقلابا بلاقضية ، سياسيا وأيديولوجيا وإقتصاديا وعسكريا ، وعلى امتداد الساعات الأربع والعشرين الأولى التى حظى بها لم يفعل غير الإخفاق فى تحديد هويته وأهداف حركته .

لم يستجمع الحزب وأجهزته ، بل هو فشل فى جمع المكتب السياسى ليمنحه الشرعية المفتقدة حتى حزبيا ،

ولم يستقطب الجيش لأنه لم يربط وظيفته بمهام استراتيجية وبطموحات تليق بقدراته وعدده وتؤكد على الدور الكونى لدولة عظمى كالاتحاد السوفييتى ... بل لقد بدا وكأنه يضع هذا الجيش الذى يفتقد الدور فى مواجهة شعوب الاتحاد جميعا ، بمن فى ذلك الحزب .

وكان طبيعيا أن يرفض الجيش هذا الدور ، وأن تسحب المخابرات يدها ، فيتعرى الإنقلابيون ويكون سقوطهم عظيما حتى من قبل أن يتحرك أحد لإسقاطهم !

لقد كان الإنقلاب بمثابة صحوة الموت لقوى لم تعد مؤهلة لمواجهة شوق السوفييت إلى الديمقراطية وإلى الكرامة ...)[١].

وعن ردود الفعل خارجيا للسياسة الجديدة : يقول غورباتشوف : (يساور المراقبين الغربيين قلق حول ماهية النتائج التى ستفضى إليها عملية إعادة البناء ، فى حال استمرارها ، بالنسبة للاتحاد السوفييتى وللعالم بأسره . وهم يتساءلون : ماهو الأفضل بالنسبة للغرب ، نجاح العملية أم فشلها؟

إن مجال الإجابة على هذه الأسئلة واسع جدا ، ومفهوم تماما . والكثير من الخبراء الجادين يعترفون بإمكانية التسريع العالى للتطور الإقتصادى والإجتماعى للمجتمع السوفييتى ، ويؤكدون أن نجاحات إعادة البناء سوف تترك آثارا إيجابية على الصعيد الدولى . وحسب رأيهم السديد ، فلن يطال المجتمع الدولى سوى الفائدة نتيجة لنمو رفاه الملايين من المواطنين

---

(١) على الطريق (٤٨٢) .

السوفييت ، ومواصلة تطور الديمقراطية لاحقا . إن ضخامة حجم البرامج الإجتماعية - الإقتصادية بالذات والتى اتخذتها البلاد السوفيتية هى البرهان على النهج السلمى للسياسة الخارجية السوفيتية والضمان الفريد من نوعه لاستمراره . ومن هذه النقطة تنطلق التوصيات العملية الموجهة إلى قادة دول الغرب : لاتهابوا عملية إعادة البناء ، ولاتجعلوها مادة للحرب النفسية ، ولكن ساعدوا هذه العملية من خلال آلية العلاقات الإقتصادية والتبدلات الثقافية والإنسانية والتقبل الجاد لمبادرات الاتحاد السوفييتى حول مسائل نزع الأسلحة وتنقية الوضع الدولى ، والسير باتجاه الاتفاق على هذه المسائل .

ونحن إذ نطرح جانبا العديد من تقديراتهم وحساباتهم موضع الخلاف (من وجهة نظرنا) ، فإننا بصورة إجمالية نرى واقعية هذا الموقف ، ونحيى توجهه الهام البناء . فهو يستجيب لمهمات معافاة العلاقات الدولية ويعبر عن مزاج الرأى العام الواسع .

إنهم يرون أن الغرب كان سيرتكب خطأ تاريخيا لو لم يستجب للإيماءات الإيجابية الصادرة عن موسكو ، ولو لم يتحرر من التصورات الزائفة عن الاتحاد السوفييتى ، والأضاليل التى ينسجونها بأنفسهم .

غير أن مواقف متناقضة تماما يجرى ترويجها فى وسائل الإعلام الجماهيرية الغربية وفى المناقشات السياسية . ولم تضعف محاولات التشكيك بسياستنا ونوايانا فكم هى كثيرة التنبؤات المتشائمة والمرعبة تجاه دينامية سياستنا على الصعيدين الداخلى والخارجى . وهذا يبين ، مرة أخرى مقدار التأثير الذى ماتزال تمتلكه قوة استمرار "الحرب الباردة" ، وكم هى عميقة جذور العداء للسوفييت ، التى تغذيها المصالح الجشعة لدوائر معينة . ولو إقتصرت الأمور على المحاولات النظرية ، والقضايا الإعلامية ، لكان من الممكن إهمالها . ولكن فى النهاية ، ستظهر الحياة نفسها أين تكمن الحقيقة . إلا أن القضية تتمثل فى هدفهم من إثارة الرعب حول عملية إعادة البناء التى ستؤدى إلى تعزيز القدرة العسكرية الإقتصادية للاتحاد السوفييتى مما يعنى تعاظم "الخطر السوفييتى" . وبما أن الأمر كذلك ، فينبغى بناء الحسابات

فيما يتعلق بالاتحاد السوفييتى على فشل عملية إعادة البناء ، ووضع مهمة توجيه كبحها وإحباطها نصب الأعين مسترشدين فى ذلك بمبدأ غلاة المعادين للسوفييت : كلما ساءت الأمور بالنسبة للاتحاد السوفييتى ، كان أفضل بالنسبة للغرب)[١].

وهذا الاتجاه هو الذى يفسر مايحدث فى الاتحاد السوفييتى بمثابة العداء للغرب ، وهناك الطرف الآخر وهو الذى يدعو إلى دعم سياسة الإصلاح التى انتهجها غورباتشوف ويرى أن تلك السياسة هى القطيعة مع الأفكار الماركسية[٢].

ولكن ماالذى جعل هؤلاء ينتقدون سياسة غورباتشوف ويعارضونه؟ بدون أدنى شك أن محاولة التغيير لم تعط ثمارها فى المدة القصيرة التى كان فيها غورباتشوف وبالتالى كانت الأوضاع متردية إقتصاديا وإجتماعيا والحياة اليومية كما كانت أو أشد سوءا ، ومن هناكان لابد من النقد وإظهار فشل هذه السياسة ، ولكن - وهذا ليس دفاعا عن إصلاحات غورباتشوف - لايمكن أن يتحقق خلال سنوات معدودة نقيض مابنى فى عقود من الزمان وغرس فى النفوس بالقوة ، ومن هنا كانت مهمة غورباتشوف صعبة ، وأثر سياسته لم يكن ليظهر فى سنتين أو ثلاث فكان لابد من ردة الفعل تلك .

اخفاق البروسترويكا :

إذا كانت البروسترويكا تمثل نهج التحول الأخير عن النظرية الماركسية "حقيقة" فإنها لم تؤد الغرض المنشود منها ، ولعل لهذا أسباباً عديدة ومنها فى نظرى :

أولا : ترسبات الماضى التى أثرت فى نفوس الشعب مما كان له الأثر على عدم الاستجابة الكاملة من الشعب ، وقد مر معنا بعض الأحداث الداخلية التى كانت تناهض السياسة الجديدة .

---

(١) عملية إعادة البناء (١٢٧-١٢٩) .

(٢) انظر عن ذلك المرجع السابق (١٢٦-١٢٧،١٢٩-١٣٠) .

ثانيا : أن هذه السياسة كانت تسير فى خط معاكس تماما لما كانت تحكم به البلاد ، فلاشك أن ثمارها ستكون قليلة .

ثالثا : استعجال بعض الناس النتائج التى ستوصل إليها السياسة الجديدة وعندما لم يروا هذه النتائج على الوجه الذى كانوا يرغبون فيه حصل لدى هؤلاء ردة فعل ضدها . أو على الأقل عدم الثقة المطلقة والدعم المطلق لها ، مما كان له أثره السلبى على البيريسترويكا .

أبرز الأسباب التى أدت إلى عدم الوثوق بالبيريسترويكا هى :

أولا : التردى الإقتصادى الذى كانت تعانى منه البلاد حيث لم يحصل الارتقاء بها ، والشعب فى الغالب ماثار ضد النظام إلا لسوء الحياة الإقتصادية فالجوع هو الذى فجر الثورة ، ومع ذلك ظل الفرد تحت وطأة الحاجة والفاقة حتى زمن البيريسترويكا ، ومما فاقم الوضع وزاده سوءا :

(أ) الإبقاء على التنظيم القديم إلى درجة واضحة[١].

(ب) افتقار المحال التجارية لأبسط الحاجيات والضروريات[٢].

(ج) تردى الميزانية والعجز فيها ، ونقص أسعار النفط ، مما كان له دور بارز فى عدم الوثوق بالسياسة الجديدة أو الاندفاع خلفها[٣]، خاصة بعد أن عجزت عن ايجاد البديل الذى يمكن من خلاله إسكات الناس.

(د) الفساد والسوء المنتشر فى بعض الوزارات من حيث التبذير[٤].

(هـ) فشل الإصلاحات الزراعية وترديها حيث لم تحقق سياسة البيريسترويكا شيئا كبيرا فيها وذلك للاهتمام بالإصلاح السياسى[٥].

---

(١) انظر عن ذلك نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٨٨-١٨٩) .

(٢) انظر عن ذلك : المرجع السابق (١٩١) ، سادات الماركسية (٤٩) .

(٣) انظر عن ذلك غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٩١) ومابعدها .

(٤) انظر عن ذلك المرجع السابق (٢٩٥) .

(٥) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٩٦) .

ثانيا : وجود النظام الطبقى إلى حد ما . حيث تظهر فى بعض مجريات الحياة اليومية ولاشك أن هذا سيجعل الفرد الروسى يشعر بما كان موجودا من قبل ويعقد المقارنة بين الماضى والحاضر فيجد قدرا مشتركا بينهما ، وبالتالى يفقد الثقة فى الحاضر كما فقدها فى الماضى[١].

ثالثا : بعض التناقضات التى ترد من غورباتشوف بين لحظة وأخرى . وكذلك التى تحملها البيريسترويكا فتارة تعلن التغيير والثورة على كل شىء ، وتارة يعلن غورباتشوف التمسك باللينينية وعدم الخروج عليها ، وتارة يعلن أن هذه السياسة الجديدة تطوير للإشتراكية مع إدخال الديمقراطية عليها وهكذا ، ولاشك أن هذه التناقضات التى لاتعدو أن تكون حفاظا لماء الوجه فى نظرى تخالف الحقيقة وهى الابتعاد عن الفكر الإشتراكى واستبداله بفكر آخر .

وإذا كنا ذكرنا أن تناقض غورباتشوف كان سببا فى اختلاف وجهات نظر بعض المفكرين والكتاب فى حقيقة مايحدث فى الاتحاد السوفييتى وضربنا بعض الأمثلة على ذلك التناقض المتعلق بالتغيير[٢]، فإن هذا التناقض قد أحدث نوعا من عدم الثقة فى السياسة الجديدة وعدم ثباتها على طريقة محددة معينة ، فمن ذلك :

(أ) اعتراف غورباتشوف بالأخطاء فى طريق الإشتراكية[٣].

(ب) ثم يدعى تطويرها فى سياسته الجديدة[٤].

---

(١) انظر عن ذلك ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٦١-٢٦٤) ، وضرب مؤلفوه الأمثلة ومن ذلك التمايز فى المركوبات خاصة فى نهاية الثمانينات على عكس ماكان فى بداية سياسة البيريسترويكا .

(٢) راجع (٤٨٧) ومابعدها .

(٣) انظر عملية إعادة البناء (٣٧) .

(٤) انظر المرجع السابق (٥٤) ، وانظر (٣٥-٣٦،٥٧،٨٧) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٦٨-٢٦٩) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٠٤) ومابعدها ، ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٤٤-٢٤٥) .

(ج) ويعلن حينا آخر العمل على تعزيز الديمقراطية ويهزأ من أولئك الذين يظنون أن مايحدث فى الاتحاد السوفييتى هو تعزيز للشيوعية[١].

(د) وتارة يفخر بما حققته الشيوعية للاتحاد السوفييتى[٢].

ولاشك أن غورباتشوف يعتبر أكثر القادة تناقضا وذلك نظرا لما جاء عنه من أقوال ثم كانت الأفعال مناقضة تماما لها . وهذا يشكل صراعا داخليا لأفراد الشعب عامة ، والمثقفين والمفكرين منهم خاصة . مما يجعل السياسة الجديدة تفقد بريقها ، وليس بعيدا أن يثور الناس عليها ويستغل المخالفون لها ذلك وتكون الأفكار المتصارعة والويلات المدمرة .

خاصة وأن غورباتشوف يقول شيئا (ويفعل شيئا آخر ثم يعلن عن شىء ثالث)[٣].

ولأجل هذا التناقض حصل الخلاف فى تحديد مايحدث فى الاتحاد السوفييتى[٤].

فاستبعدت طائفة من المفكرين أن يكون هدف غورباتشوف من سياسته تلك إعادة الرأسمالية فى البلاد[٥].

واعتبر بعضهم تلك السياسة عملية تجميلية تجديدية للفكر الإشتراكى[٦].

---

(١) انظر عملية إعادة البناء (٦٤) .

(٢) انظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٤٢) ومابعدها .
ولمزيد عن هذه التناقضات والأقوال الواردة عن غورباتشوف انظر : غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٥١-٦٠) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦٣) .

(٣) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٤١٩-٤٢٠) .

(٤) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٦-٣٧) .

(٥) انظر : الإصلاح الإقتصادى فى الدول الإشتراكية (٧) المقدمة ، الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٩٩) .

(٦) انظر : نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٩٦) ، وانظر (٣٥٦) ، الإنقلاب (٣٥) .

ويرى بعضهم أن هذه السياسة ليست إلا حكما على فشل النظرية الماركسية ، التى أحالت الاتحاد السوفييتى إلى بلد مستورد للغذاء مفتقر للتكنولوجيا(١).

وبعد هذا يمكن القول بأن الحقيقة التى لامناص من الاعتراف بها هى أن الشيوعية استبدلت أفكارها بأفكار أخرى ، وأن ماصدر عن غورباتشوف من التمسك بالماركسية اللينينية ليس إلا كسبا لود المحافظين ، وحتى لايتصادم مع التيار الذى قد يؤخر عملية التغيير أو يعرقلها ولو لفترة قصيرة ومسألة التغيير والتراجع ليست جديدة بل هى قديمة قدم ظهور الفكر الإشتراكى فى الواقع مطبقا عمليا ، وأن القادة المتأخرين أكثر من السابقين فى رغبتهم فى التغيير ولكون غورباتشوف أدرك حجم المهمة كان لابد وأن يتظاهر بالسير فى خطى لينين (إن الأمين العام الجديد الذى أدرك أنه يقود شاحنة كبيرة على طريق جبلى كان يخشى المنعطفات الحادة فظل يؤكد فى بداية حكمه على "العودة إلى اللينينية" والإبقاء على الدولة الموحدة)(٢).

ومن هنا فليس هناك شك فى أن غورباتشوف حكم على النظرية الماركسية بالفشل وعدم امكانية التطبيق مهما قال أو قاله الشيوعيون .

إن غورباتشوف بسياسته هذه التى جمع فيها بين المتناقضات يكون قد كسب الأطراف لصفه(٣)، وضمن استمرار سياسته حتى يتمكن من تنفيذها ، ومن هنا كان لابد من الظهور بهذه التناقضات ليستجمع تحتها كل الأطراف .

رابعا : أن الإصلاح الإقتصادى لايمكن إنجازه إلا بتحقيق البيريسترويكا فى الجانب السياسى (والبيريسترويكا لايمكن تحقيقها فى هذا المجال قبل إحداث تغييرات جذرية فى ثقافة المجتمع ...)(٤).

---

(١) انظر مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (٤٦-٤٧) .
(٢) النار والجليد (١٠) .
(٣) انظر عن ذلك غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٥٦) .
(٤) غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٩٤) ، وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٢٥-٣٢٦) .

خامسا : وجود بعض أنصار التغيير والسياسة الجديدة الذين يرون تقييد هذه العملية وعدم إطلاقها ، ويرون أن غورباتشوف قد وسع كثيرا فى التغيير فى حين أنه لابد من التضييق فيه(١).

وبعد هذا العرض للأسباب الرئيسية لإخفاق البيريسترويكا نصل إلى التالى :

أولا : أن التغيير هو استبدال الأفكار القديمة والتحرر منها بعيداً عن كل ماقيل عن حقيقة مايجرى فى الاتحاد السوفييتى .

ثانيا : أن التناقض الذى جاء عن غورباتشوف كان لابد منه لتسير عملية التغيير وتعطى شيئا من ثمارها .

ثالثا : بدون أدنى شك أن غورباتشوف أعلن الثورة على الفكر الماركسى وإن كان ذكر أن الثورة من أجل الإشتراكية لكن حقيقة ماآل إليه الوضع تكشف ماذهب إليه غورباتشوف .

رابعا : أن غورباتشوف كان على قناعة تامة أن الإصلاح الإقتصادى لن يتأتى إلا بوجود تحول عميق فى النظام السياسى والإجتماعى ، وحتى لو آمن غورباتشوف بالإشتراكية ، فإنه يرى وجوب التغيير وأنه لاشىء غير التغيير (٢).

خامسا : فيما لو اعتبرنا أن غورباتشوف لم يكن فى نيته القضاء على الشيوعية وإنما أراد علاجها أو تحسينها فإن الأمر قد وصل إلى الإنهيار التام فى كل شىء حتى غورباتشوف نفسه أطيح به .

سادسا : أن غورباتشوف بسياسته تلك بين المد والجزر يجعل التغيير يسير بطريقة متدرجة دون وقوع أى اصطدام داخل الاتحاد السوفييتى .

يقول غيرد : (إن غورباتشوف يدرك فى كل حال أنه لايستطيع الذهاب بعيدا ودفعة واحدة ، فيما يطلبه من الحزب . كان بحاجة إلى دعم الآلة الحزبية والموظفين الذين ينتقدهم وفى الوقت عينه إلى تشديد عزائمهم

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٢٧) .

(٢) انظر المرجع السابق (٢١٢) .

وتحريك الشعور بالكرامة فيهم)[١].

هـذا مايتعلق بالجانب الأول مـن سياسة غورباتشـوف (البيريسترويكا) فماذا عن (الغلاسنوست)؟

إن سياسة النقـد والمكاشفـة لم تؤت ثمارها كاملـة وإن حققـت الكثير للشعـب السـوفييتى ، وبالتالى ظهـرت سلبيـاتها . ويمكـن إبرازهـا فى النقـاط التالية :

أولا : رغم مامنحته تلك السياسة من حرية فى الرأى والتعبير إلا أنها أبقت على الرقابة والتمييز بين أفراد الشعب .

(أ) وجود الأحكـام التعسفيـة حيـث وجدت الاعتقـالات بتهمـة خيـانة الوطن[٢].

(ب) بقـاء القـانون الجزائى الذى يرى تجريم المتهـم ، وتجديد الحكـم عليـه عشيـة مـوعد اطلاق سـراحه بشكـل آلى ، بالإضـافة إلى الإلـزام بالاعتراف[٣].

ثانيا : أن الغلاسنـوست كانت خطوة إلى الأمام من حيـث المقارنة مع ماسبقها ، أما بعد الانفتاح الحقيقـى وإحساس الناس بالحرية فـإنها لاتمثل كل التطلعات .

يقـول بوفين : (إن كـل شـىء نسبى . فقيـاسا على ١٩٨٥م تبـدو الغلاسنـوست مـدهشة ، أما بالنسبـة لما يتطلبه المجتمـع فهـى بالكاد نصف ـ غلاسنوست)[٤].

ثالثا : أن الغلاسنوست رغم اعتبارها أن النقد وحرية الـرأى والتعبير حق يمنح لكل أحد ، ويطال كل أحد ، حتى أعضاء الحزب إلا أن الحقيقة لم تصل إلى هذه الدرجة .

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢١٤) .
(٢) انظر عن ذلك الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٦٧) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٦٧) ومابعدها .
(٤) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٥٦) .

يقول كليامكين : (من الصعب أن تقال الحقيقة فى الاتحاد السوفييتى لأن مصدر الكذب القوى ، بقى دون أن يمسه أحد : إنه يكمن فى سلطة الحزب المطلقة)[١].

ومن هنا ولكون هذه السياسة لم تعط كل المطلوب ، فإن مطالب الشعب السوفييتى لم تنته ومحصلة تلك المطالب كالآتى :

(* دعم نقدى للغلاسنوست وللاتجاه نحو اللبرلة فى مجال وسائل الإعلام والثقافة والفنون ،

* دعم كلى وشامل لإعادة حرية التعبير والتعددية الأيديولوجية السياسية ، وتنامى الحقوق السياسية للمواطنين ، وحرية الصحافة ...الخ ؛

* دعم نقدى للاجراءات الخاصة بتحلل التخطيط المركز بيروقراطية ، ولكل اجراء ينمى قدرة الشغيلة والمستهلكين "فى الواقع جميع المواطنات والمواطنين" على المشاركة فى عملية اتخاذ القرار فى المجال الإقتصادى وفى جميع المجالات ؛

* دعم نقدى لكل اجراء يحسن من شروط حياة الجماهير الواسعة ، وتحديدا فى مجال الغذاء والتوزيع والإسكان والنقل المشترك ، والعناية الصحية والتعليم والحضانات والسياحة الشعبية ، ...الخ ؛

* دعم نقدى للمبادرات فى مجال نزع السلاح ، وفى مقدمتها نزع الأسلحة النووية الكامل والالغاء الكامل للأسلحة البيولوجية والكيمائية ؛

* رفض كل قمع سياسى ، حتى لو كان تدريجيا أو جزئيا .

* رفض جميع الاجراءات التى تنتقص من حقوق الطبقة العاملة المكتسبة ، وفى طليعتها الاجراءات التى تنمى حقوق المدراء ومدراء الأعمال وسلطاتهم فى المنشآت ، ورفض كل هجوم على حق العمل الكامل ؛

* رفض كل ماينمى التفاوت فى المجتمع السوفييتى ؛

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٦٣-١٦٤) وانظر مابعدها .

* رفض كل توسيع مفرط لتأثير السوق وإوالات السوق فى أى مجال آخر غير مجال الإنتاج الصغير الذى لايسعه إلا أن يخرب الاستخدام الكامل وينمى التفاوت الإجتماعى ؛

* رفض كل مبادرة حول "التعايش السلمى" مع البرجوازية فى مجال الصراع الطبقى العالمى الحالى ، أى كل مناورة مشتركة مع البرجوازية ضد ثورات أو نضالات عمالية جارية ، (الأمر الذى لايفترض بالطبع الاندفاع فى مغامرات خارج الاتحاد السوفييتى ، والتى لاتحتاجها البروليتاريا والشعوب المضطهدة على الإطلاق ولاترغب فيها) ؛

* رفض "التفكير الجديد" القائم على التعاون الطبقى العالمى)[1].

ومن هذه المطالب :

* إلغاء الرقابة والسماح بنشر الكتب والدوريات .

* إلغاء بعض المواد التى تحد من حرية التعبير .

* تحرير جميع السجناء السياسيين.

* منع تعسف الشرطة ، والسماح باستجواب المتهم فى غيابها .

* حق الانتخاب ، وضمان حريتها .

* حق المرشحين فى الدفاع عن برامجهم ولو تعارضت مع برنامج الحزب الشيوعى .

* إرساء حق الإضراب وحريةكل عمل مطلبى للعمال .

* مشاركة العمال فى الإدارة على نحو فعلى وليس شكلى .

* فتح دفاتر حسابات فى المنشآت كلها .

* سلم متحرك للأجور .

* وضع مؤشر شهرى لكلفة المعيشة تقوم بها لجان منتخبة من العمال وربات البيوت .

* زيادة الحضانات ورياض الأطفال .

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٣٨٩-٣٩٠) .

* تمديد إجازة الأمومة مع ضمان حق الأم فى عملها لاحقا .
* وضع خطة للانتقال السريع نحو أسبوع عمل الساعات فيه ٣٥ ساعة .
* تعزيز التفتيش المهنى .
* إنشاء بيوت مخصصة لقضاء العطل .
* زيادة فى الدخول المخصصة لبناء المستشفيات والصيدلة للارتقاء بالعناية الطبية .
* إلغاء الأقسام الخاصة فى المستشفيات ، والمطاعم ، ومؤسسات التعليم للطبقة الممتازة .
* إقرار حق الإدارة الذاتية وتقرير المصير للأقليات القومية(١).

وهكذا تغدو هذه المطالب من الأدلة على أن النظرية الماركسية لم تفلح فى تحقيق ماوعدت به الشعوب التى ستعيش فى كنفها . ولنا أن نضع فى اعتبارنا أن هذه المطالب صدرت من الشعب فى وقت كانت فيه القبضة الشيوعية - التى تخنق الشعب - تكاد تكون تلاشت أو خفت حدتها بشكل لم يشهده الاتحاد السوفييتى . فكيف سيكون حال هؤلاء لو سمح لهم بالتعبير عن مطالبهم فى العقود السابقة؟!!

إن هذه المطالب تدل دلالة واضحة على فساد النظرية الماركسية فكريا وسياسيا وإقتصاديا لأنها حدثت فى وقت فتحت فيه أبواب مغلقة ، وزيد من فتح أبواب كانت معدة للفتح .

حقيقة غورباتشوف وكون اليهود وراء البيريسترويكا :

إن هذا الأمر بحاجة إلى فترة زمنية كافية كى تتضح حقيقة هذا الرجل والزمن كفيل بإظهارها وهتك أستارها لكى تعلم حقيقة هذا الرجل ، وفى نظرنا أنه لايمكن استبعاد أن غورباتشوف دسيسة يهودية ، وإن لم يكن

---

(١) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٣٩٥-٣٩٩) .

فهو رجل عرفت حقيقته من قبل اليهود واستغلوه فى تحقيق أحد أهدافهم كما هو حال اليهود مع الأحداث والشخصيات . يقول عنه كارير دانكوس : (فى أصل مثل هذا العمى ، ومثل هذا الخطأ - إذ أن الفيدرالية تفرض مشاركة كل عناصرها فى القرارات التى تتعلق بالمجموع - كانت توجد بدون شك مشكلة رجل هو غورباتشوف . كل مافيه مما فتن العالم : عصريته ، ثقافته الأكبر من ثقافة كل من سبقوه ، مسلكه الأوروبى ، كل ذلك كان له وجه آخر : فهو روسى ولد فى أطراف الإمبراطورية ولكنه قدم مبكرا إلى موسكو ليتم تشكيله فيها . لم تكن له تجربة فى الحياة ولافى خارج الوسط الروسى فهو إذن أوروبى ويمثل الاتحاد السوفييتى المتطور ضد الاتحاد السوفييتى المتخلف ، الاتحاد السوفييتى المتجه إلى العالم الغربى ضد الاتحاد السوفييتى الذى يتمنى أن يعيد ارتباطه مع جذوره ، الاتحاد السوفييتى المسيحى ضد الاتحاد السوفييتى المسلم ...)[١].

ويقول سخاروف فى إجابته على سؤال ("ماهو رأيك بميخائيل غورباتشوف؟" : "من جهة أفهم أنه المبادر إلى البيريسترويكا ، وأنه كان ضرورة تاريخية . أما من جهة أخرى فلاأرى أن لديه موقفا ثابتا ... حتى إنه لدينا انطباع أن التغير الواقعى الوحيد هو وصوله إلى السلطة . ربما لايخلو هذا من مبالغة ، إلا أنه يوجد شىء من هذا النوع")[٢].

إن هذا الغموض فى هذه الشخصية ، وهذه المهام التى جمعها ، والطريق الغامض فى وصوله إلى السلطة ثم الفكر الجديد الذى جاء به ، كل ذلك جعل الكثيرين يتساءلون عن حقيقة هذا الرجل ومن جاء به؟ ولو نظرنا فى الأحداث على الساحة العالمية لوجدنا أن العنصر اليهودى هو أكثر العناصر تحقيقا للمصالح من وراء هذه السياسة ، وهذا ماجعلنى أعتقد أن اليهود خلف إسقاط الشيوعية ، والأيام القادمة ستكشف هذه الحقيقة وتبرزها بكل وضوح ، ولى الآن العديد من البراهين على هذه الحقيقة أضعها

---

(١) مجد الأمم (٢٠) .

(٢) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٩١) .

فى النقاط التالية :

أولا : غموض شخصية غورباتشوف .

إن هذا الأمر قد يبدو أمرا طبيعيا لأنه يوجد من القواد والزعماء من اختفت بعض الجوانب فى حقيقة شخصيته ، ولكن عندما يكون الأمر فى الدولة الشيوعية فإنه يختلف لما عرف عنهم من التشدد فى الزعامة وكذلك الشروط فى عضوية الحزب والتدرج فى الوصول إلى السلطة ، وأن يكون ذلك الرجل المختار قد بلغ من الكبر عتيا فى الأخذ بالأفكار الشيوعية .

ثانيا : أن أغلب رجال غورباتشوف من اليهود وقد أصبح لهم السيطرة على كثير من مجريات الأحداث فى الدولة السوفيتية فى عهد غورباتشوف . ولايفهم من ذلك أن تغلغل اليهود فى الاتحاد السوفييتى حادث بل هو قديم وكان منذ عهد القيصرية .

يقول حسين صبرا : (لسنا نقول أن النفوذ اليهودى فى الاتحاد السوفييتى وليد الساعة ، بمعنى أنه جاء مترادفا مع ظهور البروسترويكا . فالحركة اليهودية ـ ماسونية كانت أم عمالية أم صهيونية ـ تعود جذورها فى روسيا القيصرية العظمى إلى قرون عديدة سبقت قرننا هذا . بيد أن إتخاذ النشاط الصهيونى طابع العلنية "الشرعية" المستمدة من البروسترويكا يشكل مرحلة فريدة وخطيرة فى تاريخ الحركة الصهيونية المتأصلة فى الاتحاد السوفييتى ، شهد اليهود خلالها تعزيزا لمواقعهم ، وتكريما لهم وإسترضاء من قبل نظام "الإتجاه الإشتراكى" البيريسترويكى السوفييتى ، وقاموا بدورهم بإستغلال كل الإمكانات التى خلقتها لهم تلك الفرصة الذهبية ، فى السيطرة على معظم المراكز البالغة الأهمية والشديدة الحساسية فى الدولة والحزب و"المعارضة" ، وقناعهم اليوم هو البروسترويكا ـ إعادة البناء ، بعد أن كان قناعهم عام ١٩١٧م هو "البناء" ، حينما أوصلوا لينين إلى قمة العرش الشيوعى)[١].

---

(١) سادات الماركسية (٢٤٥) ، وعن بعض الشخصيات التى عينها غورباتشوف يقول : (لقد توج غورباتشوف نجمه حينما أنشأ فى ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٩١م ماسمى =

ثالثا : القرارات التى اتخذت بشأن الوكالات والمؤسسات الصحفية ، والوسائل الإعلامية من أجل وقف معاداة السامية أو "الصهيونية" ، والسماح لليهود بالسيطرة عليها . مما أدى إلى قيام عدة أحزاب ومنظمات تحارب الصهيونية .و من أبرز تلك المنظمات "منظمة الذاكرة باميت" ، "جمعية الوطن" ، "لجنة الرأى العام السوفييتى لمنع إعادة العلاقات الدبلوماسية السوفيتية مع إسرائيل" ، "الجبهة العالمية لمكافحة الصهيونية" ، "المنظمة الإجتماعية الوطنية" ، "جمعية الحفاظ على الثقافة والمتاحف التاريخية الروسية" ، "جمعية العدالة الروسية"(١).

= بـ"المجلس الاستشارى السياسى لدى الرئيس السوفييتى" ليكون أعلى هيئة حاكمة فى البلاد وبمثابة المكتب السياسى للحزب الشيوعى المنحل ، وعين فيه تسع شخصيات "بيرسترويكية" ، تبين أن ٦ منهم يهود وهم :

١ ـ الكسندر ياكوفليف ، "مهندس البروسترويكا" .

٢ ـ الأكاديمى يفغينى فيليخوف ، مدير معهد "كورتشاتوف" للطاقة الذرية ، وساهم بإنشاء أكبر وأهم مركز "ثقافى" يهودى فى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٨٨م وهو مركز "سولومون ميخائيل" .

٣ ـ الأكاديمى نيكولاى بيتراكوف ، مدير معهد السوق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية .

٤ ـ غافريل بوبوف ، حاكم موسكو.

٥ ـ أناتولى سوبتشاك ، حاكم لينغراد .

٦ ـ ايغور ياكوفليف ، رئيس الإذاعة والتلفزيون السوفياتيين ، وكان حتى تعيينه فى هذا المنصب فى آب/أغسطس ١٩٩١م يرأس تحرير صحيفة "أنباء موسكو" .

أما الثلاثة الباقون وهم : شيفارنادزه "وزير الخارجية الأسبق" وفاديم باكاتين "رئيس جهاز المخابرات الكى.جى.بى" ، ويورى ريجوف "رئيس لجنة مجلس السوفييت الأعلى فى الإتحاد السوفييتى لشؤون العلم والتكنولوجيا" ، فلايعرف عنهم ماإذا كانوا يهوداً أم لا .

وهكذا ... لم يدع غورباتشوف فى السلطة ولو معاد واحد للصهيونة ، وجلب مكانهم اليهود والصهاينة ، ليعيد التاريخ نفسه) .

سادات الماركسية (٤٣-٤٤) ، ولمزيد من الشخصيات التى تم تعيينها من قبل غورباتشوف انظر (٣٨-٤٣) ، وانظر الإنهيار (١/١٣١-١٣٢) .

(١) انظر سادات الماركسية (٣٢٨-٣٢٩) ، وعن أبرز الشخصيات المعادية للصهيونية انظر (٣٢٩-٣٣٠) ، وانظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٧٨-٣٧٩) .

وقد أصدر غورباتشوف عدة قرارات منها سحب المؤسسات الصحفية من تحت إشراف المعادين للصهيونية[١].

وطرد اليهود رئيس تحرير صحيفة ازفستيا وتسلموا رئاسة تحريرها . وسيطرت الصهيونية على مبنى اتحاد الأدباء الروس الذى أنشأه الأدباء المعادون للصهيونية[٢]. وأصبحت الصحافة السوفيتية تحت قبضة الصهيونية وظهر واضحا تحامل تلك الصحافة على العرب المسلمين فى أرض فلسطين واتهامهم بأنهم (هم العقبة الرئيسية فى طريق التسوية)[٣].

رابعا : تغلغل اليهود الواضح فى جميع مرافق الدولة وانشاؤهم المنظمات اليهودية وسيطرتهم على الجيش .

وكانت سيطرتهم على شكلين علنى ومباشر يتمثل فى النشاط الصهيونى عبر الجمعيات والحركات اليهودية .

غير مباشر : وهو التغلغل فى كافة مؤسسات وأجهزة الدولة والحزب[٤].

ويبرز الأمر الأول فى ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وإصدار صحف خاصة باليهود ، فتح مدارس تقتصر على الطلاب اليهود تدرس فيها اللغة العبرية والديانة اليهودية ، إنشاء المراكز اليهودية ، وبلغت أكثر من ٣٠٠ مركز موزعة على أكثر من ١٠٠ مدينة سوفيتية ، وكذلك انتشار المنظمات اليهودية ومنها "اتحاد الصهاينة"[٥]، و"منظمة بيطار" العسكرية[٦]، هذا بالإضافة إلى عقد أول مؤتمر يهودى فى الاتحاد السوفييتى منذ عام ١٩١٧م وذلك من ١٨-٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٩م شارك فيه ٤١٤ مندوبا يمثلون

---

(١) انظر سادات الماركسية (٤٢) .
(٢) انظر المرجع السابق (٤٢) .
(٣) المرجع السابق (٤٣) ، وانظر (٢٩٧) .
(٤) انظر عن ذلك المرجع السابق (٢٤٦) .
(٥) انظر المرجع السابق (٢٤٦-٢٤٧) .
(٦) انظر المرجع السابق (٢٤٨) .

١٩٨ منظمة ومؤسسة يهودية فى الاتحاد السوفييتى ، وحضر المؤتمر ٦٠ ممثلا عن المنظمات الصهيونية فى دول عديدة منها الولايات المتحدة ، كندا ، استراليا ، فرنسا ، بريطانيا وغيرها . ومن أبرز مقررات المؤتمر الدعوة إلى إعادة العلاقات بين الاتحاد السوفييتى وإسرائيل ، ودعوة الأمم المتحدة لإلغاء قرارها رقم ٣٣٧٩ والذى يعتبر الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية ، والغرض الأساسى من المؤتمر توحيد ٢٠٠ منظمة ومؤسسة يهودية فى الاتحاد السوفييتى فى إطار منظمة أطلق عليها (فاعاد) (وعد) والتى تريد السيطرة على سياسة الاتحاد السوفييتى الداخلية والخارجية(١).

كما أن المنظمات اليهودية تحظى بدعم مادى هائل حيث قدمت المنظمة الصهيونية العالمية وغيرها ٤٢٠ مليون دولار للمنظمات اليهودية السوفيتية . وخصصت (الوكالة اليهودية لإسرائيل) حوالى ٨ ملايين دولار لتمويل النشاط الصهيونى فى الاتحاد السوفييتى(٢).

خامسا : أن اليهود سروا كثيرا بفشل الإنقلاب الذى حصل فى الاتحاد السوفييتى . وهناك دلائل تشير إلى أن الإنقلاب كان هدفه إحباط محاولة اليهود إسقاط الشيوعية(٣).

سادسا : ومما يدل على أن البروسترويكا حققت بعض مصالح الصهيونية وعملت من أجلها كثرة الهجرات التى سمح بها الاتحاد السوفييتى بعد السياسة الجديدة(٤).

---

(١) انظر سادات الماركسية (٢٤٨-٢٤٩) .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٥٠) ، ولمزيد من المعلومات انظر (١٧٢-١٧٤ ، ٢٠٣-٢٠٤ ، ٢٥٣-٢٥٤) .

(٣) انظر عن ذلك المرجع السابق (٣١-٣٨) ، وقد أفاض فى الحديث عن الحقائق المذكورة أعلاه .

(٤) انظر عن ذلك : الإنهيار (١/٢٤٣، ٢٣٦-٢٣٧، ٢٨٢-٢٨٣) ، سادات الماركسية (٢٣٣) ، البيريسترويكا من منظور إسلامى (٥٤-٥٥) .

سابعا : أن البروستروبكا حققت العديد من المآرب اليهودية ، ومن ذلك :

١ - (أن البروستروبكا تدعى العداء للصهيونية ، أولا ، والتظاهر باستمرار النشاط المعادى للصهيونية فى الاتحاد السوفييتى على حاله دون أدنى تراجع ثانيا ، وذلك بإحلالها اليهود مكان المعادين الحقيقيين للصهيونية . خاصة وأن وسائل الإعلام السوفيتية تتعاطى بكل إيجابية مع هؤلاء اليهود وحدهم ، فتنشر مقالاتهم ومؤلفاتهم وبياناتهم وتصريحاتهم "الناقدة" للصهيونية ، دون أن تتعرض لهم بأى إفتراء)[١].

٢ - (تمويه حقيقة الصهيونية ، بحيث أن مدعى فضحها من هؤلاء اليهود ، لايكشفون فى كتاباتهم ، أيا من أسرارها وخططها ، ولايفضحون عريها ، بل يتناولون الصهيونية بهشاشة ، وهزالة ، مع إغراقها ، فى الوقت نفسه ، بالذم والقدح والشتائم ، لاغير!!)[٢].

٣ - (يدافع اليهود ، فى كتاباتهم ، عن إسرائيل بشكل غير مباشر[٣].

---

(١) سادات الماركسية (٣٥٠) .
(٢) المرجع السابق (٣٥٠) .
(٣) المرجع السابق (٣٥٠) .

٤ ـ (تصوير اليهود كـ"شعب" و"قومية" و"أمة" . وهذا هو إدعاء صهيونى بحت ، لابل أن الصهيونية نفسها قائمة على تلك الإدعاءات!)[١].

٥ ـ (إظهار أن ليس كل يهودى صهيونيا ، وذلك بخداع الرأى العام السوفييتى بوجود يهود "معادين" للصهيونية! وهذا أمر يتحدث عنه أولئك اليهود أنفسهم ، كقول غيرمان سموليانينوف فى تصريحه ضد "اتحاد الصهاينة" : "أن الصهاينة يحاولون ، منذ أمد بعيد ، وضع علامة المساواة بين اليهود والصهاينة ، الأمر الذى نرفضه رفضا قاطعا . ونحن نقول أن اليهود السوفييت هم فى غالبتيهم الساحقة مواطنون مخلصون لوطنهم "الاحاد السوفييتى ..."! وكقول الحقوقى اليهودى مارك كروبكين فى ندوة "نوفوستى" السالفة الذكر : "علينا أن نأخذ بالاعتبار جانبا معقدا يكتنفه الإلتباس ، وينتفع منه الصهاينة ، وهو أنه غالبا ماتوضع علامة المساواة بين مفهوم اليهودى ومفهوم الصهيونى ...")[٢].

٦ ـ (الدفاع عن هجرة اليهود فى الاتحاد السوفييتى ونزع صفة الصهيونية عن تلك الهجرة ، وذلك بحديث أولئك اليهود عن أن الغالبية الساحقة من المهاجرين اليهود لاتتجه إلى إسرائيل "كما تريد الصهيونية"!)[٣].

ثامنا : ومما يدل على أن اليهود وراء هذا الحدث أو سخروه من البداية لخدمة أهدافهم هو إعادة الاعتبار لضحايا ستالين وكانوا من اليهود والصهاينة[٤].

تاسعا : ومن أهم أسباب إسقاط الشيوعية هو أن اليهود رأوا أن المسلمين أخذوا فى الرجوع إلى دينهم وأصبحت الصحوة الإسلامية تنتشر فى

---

(١) سادات الماركسية (٣٥٠) .
(٢) المرجع السابق (٣٥٠) .
(٣) المرجع السابق (٣٥١) .
(٤) انظر المرجع السابق (٢٥٨-٢٦٠) وذكر مجموعة من الكتاب والشعراء وكذلك الصحف التى أوقفها ستالين .

شتى البقاع ، ومن هنا كان لابد من جمع شمل القوى المعادية وعدم تفرقها وجعل الأمر ينتهى إلى دولة واحدة فقط تسيطر على الساحة العالمية ويرجع الكل إليها ليتسنى لها نشر أفكارها ومبادئها ، وكذلك الضرب بقوة على كل من يرغب مخالفة اليهود أو عرقلة أطماعهم(١).

عاشرا : أن اليهود بعد أن كانوا خلف الثورة البلشفية عام ١٩١٧م وقد حققوا أهدافهم التى أرادواها من ورائها . رأوا أن الوقت قد حان للتخلص من هذا النظام بعد أن حققوا من خلاله المآرب التى هدفوا إليها ، وجعل العالم كله يتجه إلى قوة واحدة يسيطر عليها اليهود من خلال دولة تتمظهر بالحفاظ على حقوق الإنسان ، وتقيم يد العون لكل المضطهدين والمغلوبين . ولأجل هذا جاء الضغط من القوتين لجعل بعض الدول تترك الفكر الشيوعى وتقبل بالتغيير الجديد ، وعملت أمريكا على الدفاع عن هذه السياسة .

يقول الدلال : (إن أهداف اليهود التى أرادوا تحقيقها من خلال الشيوعية قد حققت أغراضها على كافة المستويات ، الفكرية والسلوكية والإقتصادية والإجتماعية وغيرها ، بحيث أصبح تآكل تلك الشعوب فى أتون المستويات المذكورة تآكلا ذاتيا مستمرا . أى أن الأهداف اليهودية ووسائلها قد أصبحت تقوم بمفعولها الذاتى تلقائيا ، وخاصة على المستوى الإقتصادى "إشاعة الربا والاحتكار" ، وعلى المستوى السلوكى "الإباحية والخمر والجريمة" ، وبسبب ذلك أصبح بذل الجهد فى مواصلة الضغط بالمطرقة الشيوعية لامبرر له طالما قد تحققت الأهداف الرئيسة لها . خاصة إذا لاحظنا أن التقدم التكنولوجى الهائل الذى أحرزه الغرب يستوجب الإسراع فى أن تستبدل بالثوب القديم ثوبا آخر جديدا يتناسب وطبيعة المرحلة)(٢).

---

(١) لمزيد عن ذلك انظر : الإنهيار (١/١٧٧-١٨٠) ، الفرصة السانحة (١٤٠) ومابعدها .

(١) الإنهيار (١/١٧٧) ، ولمزيد انظر (١٧٣-١٧٤،١٨٠-١٨١) ، وانظر سادات الماركسية (٤٤٨) .

الحادى عشر : دعم الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لعملية التغيير . وفى بعض الأحيان فرض هذه السياسة الجديدة على الدول الأخرى بالقوة . مما يدل على أن اليهود هم المستفيدون من هذه السياسة . خاصة وأن السياسة الأمريكية الداخلية والخارجية تسير حسب إرادة اليهود(١).

الثانى عشر : مما يؤكد هذه الحقيقة علاقة غورباتشوف بالغرب .

إن من المسلم به أن الغرب يسيطر عليه اليهود ، ونجد هذا الجزء من العالم يدعم هذه السياسة ويثنى على قائدها بشكل منقطع النظير سواء على ألسنة القادة والزعماء ، أو عبر وسائل الإعلام .

يقول ميتران : (إن غورباتشوف رجل بعيد النظر)(٢).

ووصفته الصحف الغربية ، بأنه (رجل أوروبا فى الكرملين ، وبالبرجوازى الأحمر)(٣).

كما أن الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة قامت بدعم الاتحاد السوفييتى ، بل إن غورباتشوف طلب المساعدة صراحة فقال : (نحن نأمل هنا فى الحصول على الدعم على طريقة "الإنتشار السريع")(٤).

ويقول : (إننا بحاجة إلى القروض الغربية نحتاج إلى عشرين مليار دولار ، وهذا لايمثل بالنسبة للأمريكيين واليابان والألمان مبلغا هائلا)(٥).

ودن شك أن الغرب يجنى من وراء هذه السياسة المصالح العديدة(٦)، حيث استبشر الغرب بوجود غورباتشوف على رأس السلطة ، ومتابعة

---

(١) انظر عن ذلك سادات الماركسية (٩٨-٩٩) ، وانظر (٥٤-٥٦،٢٣٩،٢٦٢) .
(٢) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٤٦) ، وانظر النار والجليد (١٠٤) .
(٣) نقلا من كتاب النار والجليد (١٠٢) .
(٤) الإنقلاب (٦٣) .
(٥) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٤٠٤) ، وانظر (٤٠٥) .
(٦) انظر على الطريق (٤٧١) .

الإصلاحات التى بوشر بتنفيذها وغياب الاضطرابات[١]، وحققت هذه السياسة الانفراج الكبير بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى[٢]، ومن هنا كانت الصحافة الغربية تطالب بالدعم السريع لغورباتشوف[٣].

ومن أهم المصالح التى ترغب الدول الغربية فى تحقيقها وخاصة الولايات المتحدة إشاعة الديمقراطية فى الاتحاد السوفييتى[٤]، ومن هنا اعتبر غورباتشوف أن الديمقراطية هى الضمانة الحقيقية لنجاح السياسة الجديدة[٥].

وأعلن غورباتشوف أن هذه المساعدة الغربية لابد وأن تكون لأناس محددين ينتهجون أسلوبا جديدا يرضى الغرب حتى يقدموا المساعدة المطلوبة منهم ، فقال : (من الممكن أن يساعدنا الغرب إذا استطعنا بلوغ التنسيق المتبادل حول الأشكال الجديدة واستمالة أجهزة جديدة وأناسا جدد . إنهم هناك ينظرون إلينا اليوم للتأكدمن هوية الذين يمكن التعامل معهم ...)[٦].

وبهذا يفهم أن المساعدة لاتقدم إلا لتحقيق المصلحة .

الثالث عشر : منح غورباتشوف الجوائز اليهودية واعطائه الألقاب العديدة ، لأنه خدم الأهداف الصهيونية .

فمنح غورباتشوف جائزة نوبل للسلام للعام ١٩٩٠م ، لدوره الحاسم فى تحرير دول أوروبا الشرقية ، ودفع الاتحاد السوفييتى والدول الإشتراكية فى طريق الإصلاحات[٧].

---

(١) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٥٠) .
(٢) انظر المرجع السابق (٣٩٧) .
(٣) انظر المرجع السابق (٣٩٦) .
(٤) انظر عن ذلك غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٦٤-١٦٥) .
(٥) انظر المرجع السابق (٦٦-٦٧) ، ولمزيد انظر (٦٧-٦٩) .
(٦) الإنقلاب (٤٧) .
(٧) انظر : النار والجليد (١٠٤) ، سادات الماركسية (٢٣١-٢٣٢) ، غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣٢٣-٣٢٥) .

وهـــذه الجائزة لاتمنـــح فى الأعـــم الأغلـــب إلا لمن يخدم الأهـــداف الصهيونية[١].

كما اختير غورباتشوف مرتين متتاليتين ليكون شخصية العام ١٩٨٧م ، و١٩٨٨م ، ثم بعـد سنة وقع عليـه الإختيار ليكون شخصيـة عقد الثمانينات بكامله[٢].

الرابع عشر : أن المتتبـع لتاريخ القادة السوفييت يجد العلاقـة واضحة بينهـم وبين اليهـود[٣]. ومـن شـذ عن هذه القـاعدة فـإن مصيره معـروف . فأصابع الاتهام تشير إلى أن أندروبوف كـــان أحد ضحـــايا الصهيـــونية لأنه عرف بشدة عدائه لها[٤]. وإذا كـان القادة السوفييت تربطهـم تلك الصلات باليهود ، وإذا كان اليهود قد حققوا الكثير من وراء الفكـر الشيوعى ، فإن اليهود جاؤا بغورباتشوف ليحقق المهمة الأخيرة فى وسـط ذهول العالم أجمع لما يحدث على الساحة السوفيتية .

وعلى هـذا فـإن البروسترويكـا فكـرة يهـودية ، طبقـــت على يد رجل روســى ، حتى يكون الأثر مقبولا ، والتحول سريعا . ولأجل ذلـك ليس فى حكـام الاتحاد السـوفييتى مـن كـان يعلن عن يهوديتـه مبـاشرة ، وذلـك لأن مصلحـة اليهـود تأبى ذلك ، بالإضـافة إلى خشيـة بنى يهـوذا مـن أن تعصف القـومية الروسية بكل آمال اليهـود خاصة فى الشرق ومـن هنا كان لابد من إيجاد الشخـص المناسب الذى يسير حسب ماتمليه عليه المنظمـات الصهيونية ، فكان غورباتشوف[٥]من وقع عليه الاختيار ليقوم بهذه المهمة .

---

(١) انظر سادات الماركسية (٢٣٢-٢٣٤) .
(٢) انظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣٢٣) .
(٣) انظر عن ذلك سادات الماركسية (٤٤٣-٤٤٤) .
(٤) انظر المرجع السابق (٤٤٦-٤٤٧) .
(٥) وقـد اتهـم غورباتشوف بالعمالة للغـرب ، وأنه دسيسة من المخـابرات الأمـريكية وكـان يدافـع عن نفسه بكلمات جوفـاء لايدعمهـا دليل . انظـر الإنقلاب (٩٧) .

(إن اليهود فى ظل البروسترويكا يعيشون عصرهم الذهبى! وهذا مايريده الغرب تماما ، وهو ماسارع غورباتشوف إلى تنفيذه على الأرض ، وهو المستعد مسبقا لذلك)[١].

وبعد هذه الحقائق والبراهين فليس بالإمكان إنكار مصلحة اليهود ودورهم البارز فى إسقاط الشيوعية ، ولربما كان من الأسباب الأساسية فى إسقاطها تحقيق مصالح اليهودية العالمية . غير أن السرية مازالت تحوط الحقائق حتى هذه اللحظة ، وأعتقد جازما بأن الأيام المقبلة ستكشف هذه الحقيقة خاصة أن الواقع بدأ يدل على ذلك حيث حقق اليهود قدرا لابأس به من المصالح من بعد سقوط الشيوعية وحتى وقتنا هذا ، وعلى رأس تلك المصالح أمن الدولة اليهودية فى الأرض الإسلامية ، والاعتراف بها ، وإقامة العلاقة معها . وهذا يذكرنا بما قلناه سابقا من أن الصهيونية كانت وراء قيام الشيوعية لتحقيق أهدافها وأطماعها فى أرض فلسطين[٢]. وهكذا وجدت دولة إسرائيل وأصبحت ذات كيان يعترف به ويقدر وبارك الجميع ذلك إلا من رحم ربك وقليل ماهم .

التغيير والتراجع وأثر ذلك فى سقوط الشيوعية :

إن الإشتراكية الماركسية التى طبقت فى الاتحاد السوفييتى مرت بعدة تغييرات بدءا من لينين وانتهاء بغورباتشوف . وقد كان لفساد النظرية الماركسية أثر بالغ فى إنهيارها وإنهيار النظام القائم عليها ، حيث إنكارها الألوهية ، ومصادمتها الفطرة الإنسانية ، واصطدامها بالواقع ، وانكشاف زيف نبؤاتها ، وعدم وثوق الناس بها ، مما أفقدها مصداقيتها ، ومحاولة الناس الخروج من ربقتها حيث لم يجنوا من ورائها إلا مصادرة إنسانيتهم ، والقضاء على غرائزهم . ومن هنا كان لزاما على الزعماء الشيوعيين وهم

---

(١) سادات الماركسية (٢٤٠) .

(١) راجع (٣٢٥) ومابعدها .

يطبقون فكر ماركس - وخاصة بعد أن اصطدموا بالواقع - أن يدخلوا التعديلات على ذلك الفكر وفى مبادئه الأساسية ، وافتتح لينين ذلك ، وسار على طريقه كل من جاء بعده لعدم تمكن القيادة الشيوعية من الاستمرار فى فرض المبادىء الماركسية ، وكان هذا التراجع والتغيير يبعد القادة والشعب خطوات تدريجية عن الوثوق أو التصديق بذلك الفكر ، إلى أن جاء غورباتشوف ، وفى ظل المتغيرات التى كانت تشهدها الساحة الدولية . فاختتم مابدأه أسلافه ، وحكم على الفكر بالزوال نهائيا من عالم التطبيق الإجبارى ، بل وباستبداله بفكر آخر مناقض له ، وهكذا غدت تلك التغييرات والتراجعات على مر الأيام دليلا على إفلاس الماركسية وعدم صلاحها . بالإضافة إلى أن هذه التغييرات كانت إسقاطا للفكر بصورة بطيئة حسب مايقتضيه الواقع ، وتستدعيه الضرورة . وسيزداد ذلك وضوحا بما نسجله فى هذه النقاط التى نختم بها هذا الباب .

أولا : أن الفكر الماركسى قد ثبت بطلانه منذ اللحظات الأولى لتطبيقه ولايعنى ذلك صحته قبل التطبيق ولكن نظرا لكثرة التنظير والوعود البراقة حينما كان فكرا مجردا . وعندما بدأ التطبيق وظهر الفساد الذى كانت تحمله النظرية اصطدم الفكر بالواقع فكان لابد وأن ينهار ذلك البنيان ولو بصورة تدريجية ، وقد وجد من الماركسيين من يرى عدم جدوى الماركسية وفساد الجوانب الأيديولوجية فيها .

ثانيا : لقد كشف الواقع زيف الحتميات التاريخية ، وأبان عدم تحققها ووقوعها فكانت الكارثة حينما أصبحت الحتمية بعيدة جدا عن الواقع ولانقول بأنها تراجعت فى بعض أجزائها بل فيها كلها فكانت هذه الحتميات وبالا على الفكر وأصحابه . يقول يكن ومنى حداد : (فضلا عن جنوح التوجه الجديد عن فلك النظام الأساسى للحزب الشيوعى فقد أكد من خلال تعهده بتحقيق المجتمع الشيوعى خلال العشرين سنة المقبلة - فشل الشيوعية خلال الأربعين سنة الماضية ، فى خلق الأساس المادى والتكنيكى للمجتمع الشيوعى . وهذا يعنى أن الشيوعية كفكرة قد فقدت القدرة على

مايسمى بالحتمية التاريخية فى الانتقال من الرأسمالية إلى الإشتراكية .. ويعود هذا العجز أساسا إلى أن الشيوعية - كنظرية وضعية - لاتقوم على أصول وقواعد عامة قادرة على استيعاب مشاكل الحياة المتجددة كما ونوعا ، مما عرضها مرارا إلى التبديل والتغيير الجذريين فى أصولها المنهجية والفكرية فى أقل من ربع قرن .. فمبدأ محو (الملكية الفردية) عدل عنه إلى حل وسط ، وهو الاحتفاظ للدولة بالصناعات الثقيلة والتجارة الخارجية والمصارف والمشاريع العامة ، وترك الصناعات الصغيرة والتجارة الوسطى للسعى الفردى .

وكذلك عدل عن مبدأ (توزيع السلع الاستهلاكية) .

فبدل أن كانت القاعدة (من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته) أصبحت كما نص عليها الدستور السوفييتى المعدل عام ١٩٣٦م "من كل حسب قدرته ، ولكل حسب مايؤديه من عمل ، ومن لاعمل له ليس له الحق أن يأكل" ثم يعود الحزب الشيوعى عام ١٩٦١م إلى طرح مشروعه الجديد والذى يقضى بالعودة إلى "مبدأ التوزيع حسب الحاجة" وهكذا دواليك!!)[١].

ثالثا : أن من أعظم ماأفقد النظرية الماركسية بريقها ، وأبان عدم صلاحها ووجوب التغيير فيها الواقع الذى كان لها بالمرصاد .

يقول الصدر : (من سوء الحظ أن قادة التجربة الماركسية ، حاولوا أن يخلقوا الجنة الموعودة على الأرض ففشلوا ، وظلت التجربة تتأرجح بين الإشتراكية والشيوعية ، حتى أعلنت بصراحة عجزها عن تحقيق الشيوعية بالفعل ، كما تعجز كل تجربة تحاول اتجاها خياليا يتناقض مع طبيعة الإنسان فقد اتجهت الثورة الإشتراكية فى بادىء الأمر اتجاها شيوعيا خالصا ، إذ حاول لينين أن يكون كل شىء شائعا بين المجموع ، فانتزع الأرض من أصحابها وجرد الفلاحين من وسائل إنتاجهم الفردية فتمرد الفلاحون

---

(١) البيريسترويكا من منظور إسلامى (٣٤-٣٥) .

وأعلنوا إضرابهم عن العمل والإنتاج ، فنشأت المجاعة الهائلة التى زعزعت كيان البلاد ، وأرغمت السلطة على العدول عن تصميمها ، فردت للفلاح حق التملك ، واستعادت البلاد حالتها الطبيعية ، إلى أن جاءت سنة (٢٨-٣٠) فحدث إنقلاب آخر أريد به تحريم الملكية من جديد ، فاستأنف الفلاحون ثورتهم وإضرابهم ، وأمعنت الحكومة فى الناس قتلا وتشريدا وغصت السجون بالمعتقلين ، وبلغت الضحايا ، على ماقيل - مائة ألف قتيل باعتراف التقارير الشيوعية ، وأضعاف هذا العدد فى تقدير أعدائها . وراح ضحية المجاعة الناجمة عن الإضراب والقلق سنة (١٩٣٢م) ستة ملايين نسمة باعتراف الحكومة نفسها ، فاضطرت السلطة إلى التراجع ، وقررت منح الفلاح شيئا من الأرض وكوخا وبعض الحيوانات للاستفادة منها، على أن تبقى الملكية الأساسية للدولة ، وينضم الفلاح إلى جمعية "الكلخوز الزراعية الإشتراكية" التى تتعهدها الدولة وتستطيع أن تطرد أى عضو منها متى شاءت)[١].

رابعا : أن بشرية الفكرة الماركسية كانت قاصرة عن أن تلبى رغبات الشعب أوتحقق لهم ماوعدت به لأنها قامت على مصادمة فطرهم وكانت فكرا بشريا لايعدو أن يكون فكرا وقتيا .

يقول يكن : (إن بشرية "الفلسفة الماركسية" جعلها تفقد عنصر ديمومتها وبقائها ، وجعلها تفقد القدرة على مواجهة مشاكل الحياة ، كما جعلها تصطدم بكثير من المبادىء الفطرية وتخرج عن الحقائق الكونية الثابتة...)[٢].

خامسا : نظرا لتصادم الفكر الشيوعى مع الفطرة وكبته لحريات الناس وتصادمه مع الحقائق العلمية كان - لابد والحال هذه أن تحصل التغييرات ووقعت فى الفكر على يد زعماء القيادة الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ولولا

---

(١) إقتصادنا (٢٣٤-٢٣٥) .
(٢) حركات ومذاهب (٣٧) .

هذا التغيير والتراجع لما استمرت الشيوعية كل هذه الفترة التى إذا ماقيست بفساد الفكر تعد كبيرة .

لقد كان لهذا التراجع أثره فى بقاء الزعماء الشيوعيين على مناصبهم فغيروا وبدلوا تحت سياط الواقع من أجل تحقيق المصالح والحفاظ على سلطتهم .

يقول دجيلاس : (إن كافة التغييرات التى قام بها الزعماء الشيوعيون قد فرضتها مصالح ورغبات الطبقة الجديدة ، التى هى ككل الطبقات والجماعات البشرية تعمل وتتفاعل وتسعى للدفاع عن ذاتها وتتقدم إلى الأمام لتحقيق أهدافها بإحكام قبضتها وفرض سيطرتها على الحكم ، غير أن هذه الدوافع لاتعنى مطلقا أنها غير ذات بال بالنسبة للآخرين . وبالرغم من أن هذه التغييرات الطارئة التى قامت بها البيروقراطية لاتعنى أبدا أنها تشكل تحويلا ماديا للنظام الشيوعى ، فيجب أن لايقلل المرء من قيمتها ، وإعطائها قدرها الصحيح . وأن من الضرورى دراسة طبيعة هذه التغيرات لتقدير مداها ولتقييم مغزاها وأهميتها)[١] .

وقد اعترف قادة الثورة البلشفية بالتغيير والتبديل فى الفكر ليتناسب مع الواقع الذى يعيشونه[٢].

سادسا : أن المتتبع لتاريخ هؤلاء القادة يجد العجب من كثرة الاختلافات فيما بينهم وكل واحد منهم أراد تحقيق الشيوعية فى عصره على الأقل ادعاء ، ولكن حقيقة الأمر أن كل واحد منهم ابتعد عن الفكر الإشتراكى أكثر من سابقه ، وهكذا إلى أن جاء غورباتشوف فكانت الآراء والأفكار النظرية تسير فى اتجاه والواقع يسير فى اتجاه معاكس تماما ، والشيوعية تطلب من الإنسان أن لايؤمن إلا بما يشاهده!!

لقد كانت كل طائفة فى الاتحاد السوفييتى تلعن سابقتها[٣].

---

(١) الطبقة الجديدة (٨٩-٩٠) ، وانظر (٩٦،٢٤٦) .

(٢) انظر مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٨٥-٨٧) .

(٣) انظر عن ذلك نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٧٠-٧١) .

يقول وحيد الدين خان : (ومن أغرب أمثلة التناقض الذى يعانى منه النظام الماركسى هو أن ستالين كان قد اتهم معارضيه فى صفوف الحزب الشيوعى ، بأنهم "يتآمرون مع الرأسماليين الأجانب" وذلك حين أراد أن يبطش بهم ؛ أما خلفه خروشوف فاتهم معارضيه فى صفوف الحزب - حين أراد التخلص منهم - بأنهم يعارضون "التعايش السلمى" مع البلاد الرأسمالية)[١].

سابعا : أن فساد الماركسية فكريا قد جعل الدول التى تأخذ بهذا الفكر تتجه إلى القوة السياسية أكثر منها قوة فكرية ، وماذلك إلا لأنها لاتملك ماتعتمد عليه أو تنطلق من خلاله . يقول وحيد الدين خان : (لاتقوم الشيوعية اليوم فى أى مكان على أساس فكرى ، بل هى قائمة ؛ لأن دولا قوية تحكم باسمها ، ويرتبط بها كثير من المصالح . إن شيوعى اليوم ليسوا مؤمنين بقوة الشيوعية الفكرية ، بل هم شيوعيون بالإكراه أو لمصلحة من المصالح . وقد لاحظ أحد دارسى الشيوعية ذلك ، فقال : إنه بالإمكان أن تكون شيوعيا بدون أن تكون ماركسيا)[٢].

ويقول : (روسيا لم تعد المختبر الأول للإشتراكية بل هى المقبرة الأولى حيث دفنت الإشتراكية للأبد ، وبقاء الإشتراكية فى بعض البلدان اليوم ليس كنظرية ، بل كنظام حاكم ، تماما كالأنظمة الجمهورية فى بلاد أخرى)[٣].

ثامنا : لقد ادعت الشيوعية بأنها ستحقق النعيم لشعوبها وأنهم سيعيشون فى جنان هذه الأرض هذا ماجاء فى نظرياتهم الفكرية ، ولكن عندما اصطدموا بالواقع ماكان منهم إلا أن صادروا حرية الفرد . وقطعوا صلاته بالدول الأخرى وضربوا من حوله سورا حديديا لكى لايرى

---

(١) سقوط الماركسية (٨٤) ، وانظر (١٠٩) .
(٢) المرجع السابق (١٤) .
(٣) المرجع السابق (١٢١) .

الآخرين ويعلم أنه فى جحيم مقارنة بهم ليوهموه أنه يعيش فى نعيم لايعرفه غيره . ضف على ذلك أن كل الوسائل التى من شأن المرء أن يعبر عن رأيه عن طريقها ، بيد الدولة .

ثم إن القهر والتسلط قد بلغ شأوا عظيما فى الدول الإشتراكية وخاصة الاتحاد السوفييتى . وكان لتخلف هذه الوعود الأثر الكبير فى عدم الثقة فى الفكر ومحاولة الخروج عليه ، والمطالبة بالحقوق ولاغرابة فى ذلك لأنها مطالبة بحق من الحقوق التى منحها الإنسان وفطر عليها .

تاسعا : من البدهيات أن الاتحاد السوفييتى اهتم بالدول الأخرى خاصة التى حاول فرض فكره الإشتراكى عليها ، وقدم لها الشىء الكثير من أجل تحقيق مآربه وأهدافه فأعطيت المساعدات ، وحظيت بكثير من الوقت للاهتمام بشئونها ، والتطوير فى إقتصادها ودعمها ، وكان كل ذلك على حساب الشعب فى الداخل ، وعندما أحس الشعب السوفييتى بذلك بدا متذمرا مطالبا بالتغيير فى هذه السياسة القائمة على الأفكار الماركسية .

عاشرا : ظهر من هذا العرض الذى كشف زيف الأفكار الماركسية ، وتصادمها مع الواقع أن ماركس وانجلز كانا يحلقان بعيدا عن الواقع وأنهما كانا طوباويين ، فوقعا فى نظير ماوصما به من سبقهما من أصحاب الفكر الإشتراكى ، وظلت الأفكار الماركسية خيالية - رغم فرض بعضها بالقوة - حيث سقطت دون أن يتحقق منها شىء . إلا الآثار السيئة التى خلفتها محاولة التطبيق بالقهر والقوة .

الحادى عشر : أن غورباتشوف ليس إلا حلقة فى سلسلة ممتدة إلى عهد لينين ، فإن الإصلاحات والتغيير والتراجع قد بدأ من عهده وإن كانت قد تختلف الآراء حول مقصود كل واحد من هذه التغييرات . وكذلك كثرتها ومدى تأثيرها على الفكر . والشاهد أن التغيير ليس مقصورا على حقبة غورباتشوف بل بدأ ذلك منذ زمن لينين .

الثانى عشر : أن مما زاد الناس تذمرا من الشيوعية وجود طبقة دكتاتورية مسكت بزمام الأمور وتصرفت كيف يحلو لها ، واستبدت بثروات

الـدولة فكان لابد من العمـل على إزالتها وإزالة الفكـر الذى سوغ لها هذه الأفعال .

يقـول دجيلاس : (إن تطور الأوضـاع العالمية فى المرحلـة الأخيرة قد أثبتـت بطلان النظرية الشيوعية التى تدعى إمكانية إقـامة مجتمع إشتراكى فى نطـاق دولة واحدة ، إذ لانرى أى مظهـر من مظاهر الإشتراكيـة لدى الدول الشيـوعية ، فـالحقيقة الثابتـة هـى أن هناك طبقة استبـدادية غـاشمة تتحكم بالشعـوب ، متوسلة الأساليب الإرهـابية للحكم الدكتاتورى المطلـق ، المكبل للحريات والخانق لفكر الحر ، إن ظهور الدول الشيوعية فى العالم لايقود إلا إلى العـزلة الخانقة لمجموعـة شعوب هذه الدول وانعـزالها عن منطق التطور التاريخى .. لكن ، إن استطاعت الأنظمة الشيوعية أن تؤخر من مسيرة ركب التطـور ، وإقـامة أنظمتها الـديكتاتورية الخانقة ، فلـن تستطيـع وقف المسيرة الإنسـانية فى طـريق توحدها وتآزرهـا وتعـاونها القومـى ، تلـك المسيرة التى ستجـرف فى طـريقها كـل القـوى المعيقـة مـن أشكـال التسلـط الاستعمـارى الإقتصـادى منـه والأيديولـوجى وعلى رأسهـا الأنظمـة الشيـوعية ، والدكتاتوريات العسكرية ، وقوى البغى والظلام .

إن عـالمنا الـراهن يتطـور باستمـرار وهـو يسير بصلابة فى اتجاهـاته المحتـومة نحو خلـق وحدة عـالميـة شـاملة لتسودها الحرية والإخاء ، ولطـالما كانت الحقائق وطاقات الحيـاة الـزاخرة أقـوى مـن كـل أنواع قـوى الظلم والعدوان ، كما أن الحقيقة وقوة الحياة هما دائما أكثر صوابا وألصق بالواقع من كل النظريات والمبادىء العقائدية الزائفة)[١].

الثالث عشـر : أن هـذه العمليات التغيرية التى خضعـت لهـا الشيوعية أحدثت صدمة هائلة فى نفوس المفكرين ، فاليوم يعلـن أن هذا الأمر صواب وحق ، وغدا يعلن أنه خطأ وكذب وهكذا .

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٤٦-٢٤٧) .

يقول كاونتس : (إن ماتعلنه اللجنة المركزية من آن إلى آن من تغير كبير فى عقائد الحزب وسياسته سيثير أسئلة كثيرة فى عقول الذين يستطيعون القراءة والتفكير ، والتذكر. فكم من مرة حدث فى تاريخ البلشفية أن ماأعلن بالأمس أنه حق وصحيح ، أعلن اليوم أنه كاذب مخطىء . ويحدث هذا فى العادة بطريقة مفاجئة تحدث بلاريب صدمة هائلة فى عقول المفكرين)[١].

إن ماحدث فى الاتحاد السوفييتى ليس مستغربا ومانراه ليس حديثا ، بل إن لينين قد افتتح ذلك بسياسة "النيب" (NEP) راميا كل الشعارات التى تدعو لبناء الإشتراكية فورا ، ومن بعده ستالين وهكذا دواليك . ونتيجة لذلك اعتبر بعض الكتاب أن هذا التغيير والعدولات عن المبادىء الماركسية سيؤدى إلى السقوط النهائى وهذا ماحدث فعلا .

يقول أنور الجندى : (ومن هنا فقد كان من الضرورى أن يسقط هذا النظام وأن تنهار هذه النظرية ، بعد أن مرت بمراحل متعددة من التعديل والحذف والإضافة الذى لم يغنها شيئا عن الانهيار الكامل)[٢].

ثم إن التغيير لايتم إلا بنبذ المبادىء البلشفية جميعها عقائدها وأساليبها وأهدافها . وهذا معناه نبذ لينين ومبادئه بقضها وقضيضها[٣]. وهذه النتائج لاتحدث إلا فى أعقاب ثورة جامحة .. وأعلن غورباتشوف أخيرا أن مايقدم عليه إنما هو ثورة . ثورة على كل شىء .

لقد كان النظام الشيوعى مصادما لكل شىء يدعم بقاء الفكر أو يشد من أزره . فكانت هذه المصادمة أحد المعاول التى عملت على الإطاحة بذلك النظام ، والتعجيل بانهياره وتفكك بنيانه ، وذلك لعدم صلاحه ، لأن الفطرة الإنسانية تصادمه ، والرغبات الشخصية تعارضه ، والواقع يرفضه ، ومن هنا

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤٢٥) .
(٢) مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (١٢٤) .
(٣) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢) .

كان لابد من الانهيار . يقول سيد قطب : (وقد تهلهلت :الماركسية" على كل حال "كنظرية" ـ تحت مطارق الواقع ، ودوافع الفطرة ، وحقائق الدوافع البشرية الأصلية ، واحتاجت إلى التعديلات المتوالية ، على يد لينين وستالين وخروشوف . وهم يسمونها تعديلات وهى فى الواقع "عدولات" عن أسس النظرية مع الاحتفاظ بالشارة والإطار . وهم يعللون هذه العدولات ، بأن الماركسية مذهب متطور .. على حين أن ليس هناك مذهب ، ولانظرية ، ولادين ، يحتشد بالحتميات احتشاد الماركسية الأولى ، كما وضعها ماركس وانجلز . فدعوى "التطور" بعد الماركسية دعوى جديدة جدا ، لمواجهة مطارق الفطرة ، ومطارق الواقع ، وجهاد "الذات الإنسانية" فى روسيا والصين ، وسائر البلاد التى أخضعتها الشيوعية ، لإثبات وجودها على الرغم من الثقل الساحق للنظام البوليسى الرهيب)[1].

وإذا كان هذا التطوير من أجل الإشتراكية وتحقيقها فإنها لم تتحقق على يد أحد من زعمائها .

ونختم حديثنا فى هذا الباب بقولنا :

إن من الحقائق المسلمة أنه لايبقى إلا الصحيح ، ولايدوم إلا الحق ، على مدار الأزمنة . وهذه الحقيقة والميزة لاتتوفر إلا فى دين الله تعالى فهو الصالح لكل زمان ومكان ، لأنه منه جل جلاله .

وعلى هذا الأساس فإن المذاهب الأرضية تتلاشى أمام الحقائق العلمية والسنن الربانية إذا عارضتها ، والتوجهات الفطرية إذا صادمتها ، والحياة الواقعية إذا عارضتها وخالفتها . وهذا ماحدث للشيوعية حيث صادمت الفطرة والعلم وفشل أصحابها فى تطبيقها فى عالم الواقع فكان لابد من الإنهيار المدمر للبنيان الذى قام عليها . ولاغرابة من أن يحدث هذا إذ أن الفكر الماركسى قام على إنكار الألوهية ، ومصادمة الفطرة الإنسانية ، والقضاء على

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة (٩٠) .

الحريات الشخصية ، وفشل فى تحقيق مايصبو إليه الإنسان فى حياته المعيشية نظرا لفشل نظرياته الإقتصادية ، ومعارضتها للتطلعات البشرية ، حيث كشف الواقع زيف نبؤاتها وكذبها فأصبحت أحلاما لم تر النور ولايمكنها أن تراه لأنها أفكار بشرية ، محدودة بغاية شخصية وفترة زمنية . مما جعلها تتناقض مع الحياة الواقعية ، وأدى ذلك إلى التعجيل فى سقوط ذلك الفكر ، وزوال النظام القائم عليه وهذه سنة ربانية فى كل نظام خالف ماأراده الخالق جل وعلا لهذا الكون وللإنسانية .

على أن هذه الأسباب التى أدت إلى سقوط الشيوعية ، وهى نابعة من الفكر مباشرة وتطبيقاته قد أضيف إليها مؤثرات خارجية سارعت بسقوط الشيوعية ونقلها إلى مثواها الأخير حتى وإن تشبث بعض أصحاب المصالح بغير هذه الحقيقة . وهذه الأسباب هى ماأطلقنا عليه الأسباب الخارجية لسقوط الشيوعية ، وهذا مانعرض له فى الباب التالى بحول الله تعالى وقوته.

الباب الثالث
أسباب سقوط الشيوعية (الخارجية)

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول .

التمهيد .

الفصل الأول : الحرب الباردة .

الفصل الثانى : الوفاق الدولى .

الفصل الثالث : الجهاد الأفغانى .

الفصل الأول
الحرب الباردة

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد

المبحث الأول : أسباب الحرب الباردة ومقدماتها .

المبحث الثانى : الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وأبرز أساليبها .

المبحث الثالث : آثار الحرب الباردة .

المبحث الرابع : إنهاء الحرب الباردة وآثار ذلك .

الباب الثالث
أسباب سقوط الشيوعية الخارجية

الفصل الأول
الحرب الباردة

تمهيد :

قلنا بأن الأسباب الخارجية هى تلك الأسباب التى عملت على تقويض الفكر الشيوعى وزعزعته من خارج بيئته التى عاش فيها . وقد تنوعت هذه الأسباب وإن كانت تصب فى الغالب فى بوتقة واحدة وهى التخلى عن الفكر ، وإنهاك اقتصاد الدولة الشيوعية الذى كان فاشلا نظريا وصعبا فى تطبيق مبادئه التى يقوم عليها واقعيا ، فازداد الأمر سوءا ، وعجلت هذه الأسباب بإنهيار النظام وسقوطه الفكرى . ولكن لو تتبعنا هذه الأسباب وبدايتها فإنها لم تكن فى مقدار الأسباب الداخلية تأثيرا ذلك أن التراجع والتغيير فى الفكر الداخلى قد سبق وجود تلك الأسباب بمراحل ، وبان فساد الفكر من سنوات تطبيقه الأولى ، ومابدأت هذه الأسباب بالظهور الفعلى إلا بعد أن حكم الشيوعيون على نظرياتهم بالفساد ، إما مباشرة كما كان من كفر بعض قادتها وزعمائها ، وإما بطريق غير مباشر وذلك بالتراجع الذى أحدثه القادة الشيوعيون . وهذه الأسباب غالبا ماكانت نتيجة التغيير فى الوضع الداخلى الذى أحدثه الشيوعيون فى الاتحاد السوفييتى . وبناء على هذا فإن الأسباب الخارجية كانت أسبابا مساعدة بتعجيل إنهيار الشيوعية أكثر منها أسبابا مباشرة فى سقوطها ، وربما يساند هذا الرأى الآتى :

أولا : أن المتتبع لسقوط الدول يجد أن الأسباب الرئيسة التى أدت لسقوطها الفساد الداخلى الذى كان موجودا فيها . فبداية السقوط تكون من الداخل ، إما لفساد الفكر - وإن كان صحيحا فلعدم التمسك به - أو

لانتشار الفساد داخل بنيان الدولة فتسقط من الداخل فتأتى بعد ذلك العوامل الخارجية لتقضى على ماتبقى ولتشعل النار فى الهشيم .

ثانيا : أن الأسباب الخارجية لسقوط الشيوعية ماحدثت إلا بعد ظهور الخلل فى الفكر وعدم إمكانية تطبيقه والتراجع فى كثير من مبادئه ، فالأثر نابع من الداخل . وهذه الأسباب نتيجة للفشل الداخلى ، كما أن العمل من أجل هذه الأسباب (كردة فعل) زاد من تعميق الجراح الداخلية وخاصة الجوانب الإقتصادية .

ثالثا : طالما أن الفكر فاسد وبانت صعوبة تطبيقه فى عالم الواقع ، وكفر به كثيرون آمنوا به فى فترة سابقة فإن إنهياره وإنهيار الدولة التى قامت عليه أمر محتوم حتى لو لم يكن هناك عدو خارجى أو عوامل خارجية تساعد على إزالته .

وقد كانت بداية هذه الأسباب الدخول فى صراع مع الدول التى تتبنى الفكر الرأسمالى فيما عرف (بالحرب الباردة) . وقبل أن نتحدث عن هذا العامل يجدر بنا فى هذا المقام التنبيه على أمر لكى لايكون سبيلا للاشكال .

وهو إذا كانت الحرب الباردة ضد الرأسمالية (اليهودية) فكيف يقال أن اليهود وراء الشيوعية ، وبتعبير آخر كيف يحارب اليهود أنفسهم بأنفسهم؟

فنقول :

أولا : أن من عرف تاريخ اليهود علم وأيقن أنه لاتعارض بين الأمرين طالما أن الغاية تبرر الوسيلة .

ثانيا : أن هذه الحرب إمعان فى تقسيم العالم إلى جبهتين وخاصة العالم الاسلامى حتى لايتحد تحت راية واحدة فى مقاومة الأعداء فيصبح جزء منه يتبع الرأسمالية وجزء الشيوعية ، ولو بقى جزء ثالث لاإلى هؤلاء ولاإلى هؤلاء لكان هذا أمرا مستحسنا لدى اليهود .

ثالثا : أن كثيرا من القادة السياسيين قد تنبهوا لمسألة أن الشيوعية خدعة وفكرة صهيونية يهودية إن حقيقة الأمر أنه لاتعارض بين الشيوعية والفكرة اليهودية .

رابعا : أن المخططات اليهودية لايستبعد عنها إشعال مثل هذه الحرب وتوجيهها لصالحها سواء كان إقتصاديا أم سياسيا . خاصة إذا ماوضعنا فى الحسبان أن اليهود يتحكمون فى الدول الغربية ، ويسيطرون على مجريات الأحداث فى الدول الشرقية . وقد برز ذلك للعيان فى دعمهم للسياسة الجديدة التى فجرها غورباتشوف بكل جرأة .

ومن هنا ومن أحداث سياسية كثيرة ، كما هو الحال فى مجلس الأمن والتصويت على القرارات ، وغير ذلك مما يدل على أن المصلحة واحدة ، والهدف يسير إلى طريق واحد .

ولكون المسلمين بدأوا بالرجوع إلى دينهم - كان لابد من اتحاد العدو - (عداء مزعوما) - ضد المسلمين .

لمحة تاريخية عن [الحرب]

إن الصراع بين أمم الأرض لايمكن أن ينكر ، ومن سنة الله تعالى أن الصراع بين الحق والباطل ، بين أولياء الله تعالى وأولياء الشيطان قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، والغلبة للحق {**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**}(١).

وحين أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض جعل ذلك الصراع بين الشيطان والإنسان ليميز الله الخبيث من الطيب ، وأرسل تعالى الرسل عليهم السلام ، وأنزل معهم الكتب كى لايكون للناس حجة على الله تعالى بعد إرسالهم وأمر الناس أن يتبعوا الأنبياء عليهم السلام ويكونوا فى حزبهم لأن حزب الله هو الغالب . قال تعالى : {**أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**}(٢) فما أرسل نبى عليه السلام إلا وكان له أعداء ، وأن فى قصص هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، وعداء أهل الباطل لهم ، لعبرة ومعرفة بهذه الحقيقة وسيظل هذا العداء إلى قيام الساعة إذ أنها سنة الله تعالى فى خلقه {**ولن تجد لسنة الله تحويلا**}(٣).

ولكن نظرا لكون النفس البشرية محبة للسيطرة والاستحواذ والانتقام ولوجود الحسد فيها نجد أن هذا الصراع قد وقع أيضا بين أهل الباطل بعضهم بعضا ويكمن ذلك فى أن الإنسان اتخذ له مناهج ليشبع غرائزه وشهواته ولو تعارض ذلك مع مصالح وشهوات الآخرين فكان لابد من الصدام . يقول د. أحمد نوفل :

---

(١) سورة الإسراء : آية (٨١) .
(٢) سورة المجادلة : آية (٢٢) .
(٣) سورة فاطر : آية (٤٣) .

"وقد شاء الله تبارك وتعالى أن تكون المعركة بين الحق والباطل ، بين جنـد الرحمن وجند الشيطان ، وأتباع النبيين وأتباع المفسـدين ، وأمر الله من آمن به وبأنبيائه وكلمـاته أن يتحشـدوا تحت لـواء الحق وأن يصـاولوا الباطل حتى يزهقوه ، واضطرمت المعركة منذ قيل اسجـدوا لأدم وقال عدوه وعدو ذريته لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، حتى وقتنا هذا وستبقى مضطرمة حتى يوم الدين .

ولكـن الصراع الإنسانى لم ينحصر فى هذه الدائرة التى فـرض الله على الإنسان أن ينحصر فيها ، بل توسع ليكون الصراع عبر التاريخ ، فى غالبه ، صراعا بين باطل وباطل . ذلـك أن الإنسان اصطنع لنفسـه منـاهج من وضعه واصطدم أتباع المناهج واستعرت بينهم الحروب . وكـذلك فإن البشر تجمعوا أعراقا وقوميات متنابذة بدل أن تتعارف كما شاء لها الله فوقع بينها التنافس والاحتراب وحل محل التعاون والتحاب ...)[١].

وعاشت المجتمعات الإنسانية فى ذلك الصراع الذى يحتدم أحيانا ويخف أخرى ، وقـد اتخذت الحروب أشكالا عدة وأساليب متنـوعة زاد تطورها مع مرور الزمن ، وزادت الآلة الحربيـة تطورا مع تقدم العلـوم والتكنولوجيا ، كذلك دخلت الحرب بعض الأمكنة التى لم تكن فى السابق كذلك .

يقول محمد أسد الله صفا :

(كـانت المحاربة ولاتزال حتى يومنا هذا تتبع نفـس القواعد والمبادىء التى عرفها الإنسان منذ أقدم العصور ، لكن هذه المحاربة ، حتى نهـاية الربع الأول مـن القـرن الميلادى العشـرين ، كانت تجرى فقـط على مسـاحتين هما اليـابسة والماء ، وكـان ميـدان المعركة لايزيد حجمـا عـن حجم ميدان كبير لسباق الخيل .

---

(١) الحرب النفسيـة (٦،٥) ، الطبعـة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، نشـر دار الفـرقان للنشر والتوزيع ، من المقدمة .

أما اليوم ، فقد صارت المحاربة تجرى على خمس مساحات هى : اليابسة ، والماء ، وتحت الماء ، ومتن الهواء ، والأجواء العليا ، وصار ميدان المعارك يضم مجمل المساحة الوطنية ، بل ويتعدى ذلك أحيانا ليشمل قارات بكاملها)[١].

وهكذا مر المجتمع الإنسانى بصراعات عديدة استخدمت فيها أسلحة متنوعة مابين بدائية إلى أن وصل الأمر إلى الأسلحة الكيماوية ، والقنابل الذرية ، والرؤوس النووية . وتظل فى هذا الوقت كما فى سالف الأزمان أهداف الحرب واحدة[٢].

ولكون الإنسان يخاف الإنسان فـ(هذا الخوف هو الذى أطلق وحرك أجهزة الاستعداد للدفاع ، ثم صناعة الأسلحة وانشاء الجيوش ... وليس الجنود هم الذين يسعون إلى الحرب ويحافظون عليها ، ولكن العكس هو الصحيح ، إذ أن الخوف من الآخرين هو الذى يخلق الحاجة إلى الأسلحة والجنود)[٣].

ونظرا لاشتداد الصراع واحتدامه (طمح الإنسان إلى الوسيلة التى يستطيع بها أن يحقق الغايات من عدوه بشكل مستمر وحاسم وبأدنى ثمن .

---

(١) الحرب ، الطبعة الثانية ، مقدمة الطبعة الأولى (٥) ، دار الرؤية العلمية للطباعة والنشر .

(٢) انظر عن تلك الأهداف المرجع السابق (١٠١-١٠٢) .

(٣) نقلا من كتاب الحرب العالمية الثالثة (الخوف الكبير) (١٢٥) ، ولأجل هذا اعتبر البعض (أن الحرب ظاهرة لاتستطيع الإنسانية أن تتخلص منها أبدا ... ويرى هؤلاء أن محاولات إقامة سلام دائم هى أضغاث أحلام ويوجزون رأيهم فى جملة واحدة : "لقد كانت هناك حروب دائما ، وستكون هناك حروب دائما" . و"يرى "سان اوغستان" أن الحرب قدر إلهى ، حالها فى ذلك حال الكوارث الإنسانية المرتبطة بإرادة الله . ولذا فمن الواجب قبولها ، لأنه من المستحيل الوقوف ضد إرادة الله) . نفس المرجع (٦٣) ، ويقول الجنرال فيكتور فرنر : "إن الحرب هى ظاهرة إجتماعية لايملك الإنسان فى يده أمر اطلاقها أو ايقافها حسب خياره" . (٦٠) .

لأنه كثيرا ماكان العدو يقع فى معركة ثم لاتلبث أن تطول أظفاره بعد تقليمها لتستعر الحرب من جديد ، فتوجهت جهود الإنسان ودراساته إلى العمق ، إلى منبع الصراع ودافعه وباعثه ، والإرادة التى تحركه وتديم أمده وتبعث الهمم من مرقدها فكان ماأطلق عليه الإنسان الحرب النفسية)[١].

وكان هذا المصطلح أو هذا النوع من الحرب معروفا منذ القدم ، ولكنه اتخذ فى العصر الحديث عمقا وانتشارا أكبر من ذى قبل ، وكانت أحد الحروب المؤثرة على العدو بل والمرهقة له ، والمكلفة له ، وإن كانت اتخذت هذه الحرب مسميات عديدة عرفت الحقبة الأخيرة منها وأصبح منتشرا فيها مصطلح الحرب الباردة .

---

(١) الحرب النفسية (٦/١) .

الحرب الباردة ومفهومها

قلنا إن الإنسان عرف هذا النوع من الحرب تحت مسمى الحرب النفسية ، وبقيت هذه الحرب حتى الآن ، وتظل منطلقات الحرب النفسية واحدة وأهدافها كذلك ، وإن كانت تختلف الأساليب والوسائل الحديثة عنها فى الأزمان الغابرة .

ومن هنا يمكن القول أن التاريخ الإنسانى لم يخل فى صراعه وحروبه من استخدام هذه الحرب أو بعض من جوانبها نظرا لفاعليتها ومقدار ماتحققه لصاحبها من نتائج بأقل تكلفة وإن كان تطورها وتعدد أساليبها فى الوقت الحاضر وخاصة من بعد الحرب العالمية الثانية قد يؤدى إلى استنزاف الطاقات وإهدار القدرات والموارد فى سبيلها(١).

بعض النماذج لهذه الحرب :

لقد كانت هذه الحرب معروفة فى المجتمع الإسلامى ، وقد جاءت لفتات فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تدلان على أهميتها وتأثيرها فى العدو . وذلك يتضح عندما يأتى الأمر بإعداد العدة والقوة من أجل إرهاب العدو ، وكذلك الرعب الذى أوتيه صلى الله عليه وسلم على الأعداء ، يقول تعالى : {**وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم**}(٢).

ومن الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : (بعثت بجوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، فبينما أنا نائم أوتيت مفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى

---

(١) انظر الحرب النفسية (١/١١١-١١٢) .
(٣) سورة الأنفال : آية (٦٠) .

يدى . قال أبو هريرة : وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تنتثلونها)[١].

كما كان صلى الله عليه وسلم إذا أراد الغزو ورى حتى لايعلم أين يتجه ، وأجاز عليه السلام الكذب فى مواضع ومنها الكذب فى الحرب لتضليل العدو وإيهامه ، وكل ذلك يدخل فى مجالات الحرب النفسية ، فالخداع ، والكذب ، جائز لتضليل العدو شريطة أن لايكون فى ذلك نقض عهد ، أو إخلال بأمان أعطيه العدو[٢].

كذلك استخدم الأعداء أساليب الحرب النفسية ضد المسلمين فى الصدر الأول ، ومن ذلك الاشاعات الكاذبة ، والدعاوى الباطلة ، من أجل إحداث الفرقة فى الصفوف ، كما استغل الأعداء بعض الأحداث التى وجدت فى العصر الأول ونفذوا من خلالها إلى إيقاع الفرقة والخصومة بين المسلمين . وهكذا يظهر لنا أن وسائل هذه الحرب وأساليبها كانت موجودة ومعروفة لدى المسلمين الأوائل .

كذلك كانت الحرب النفسية معروفة لدى بعض الشخصيات الحاكمة ، والدول المالكة ، فعرفها المغول حيث استخدموا الجاسوسية ، والإشاعة فى تضخيم عدد جنودهم ، وبأسهم فى القتال ، وكانوا يلقون على جواسيس الأعداء الشائعات التى ينشرونها فى صفوف قومهم من أجل توهينهم وادخال الرعب فى قلوبهم[٣].

---

(١) البخارى بفتح البارى (١٢٨/٦) ، كتاب الجهاد ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر ... رقم الحديث (٢٩٧٧) .
تنتثلونها : أى تستخرجونها .

(٢) انظر مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد (١٨/١٢) ، السنة الثالثة ، النصف من جمادى الأولى ١٤٠٦هـ ، وانظر العدد (٥٥/١١) النصف من صفر ١٤٠٦هـ (موضوع بعنوان إدارة عمليات الحرب النفسية) بقلم أحمد محمود سراج الدين .

(٣) انظر : الحرب النفسية (١١٣/١-١١٥) ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٥٥/١١) .

ومما يدل على استخدام هذه الحرب والاهتمام بها لدى التتار ماجاء فى الرسالة التى بعث بها هولاكو للسلطان قطز[١] حيث جاء فيها :

(من ملك الملوك شرقا وغربا القائد الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ، يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وماحولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن مانرحم من بكى ، ولانرق لمن شكر ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم الهرب ، وعلينا الطلب ، فأى أرض تؤويكم ، وأى بلاد تحميكم؟ فمالكم من سيوفنا خلاص ولامن مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق قلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالحصون عندنا لاتمنع ، والعساكر لقتالنا لاتنفع ، ودعاؤكم علينا لايسمع، فإنكم أكلتم الحرام ، وخنتم العهود والإيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا وأمرنا أطعتم فلكم مالنا وعليكم ماعلينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلاتهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد أعذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أنا نحن

---

(١) هو (الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزى ، كان فارسا شجاعا ، سائسا ، دينا محببا إلى الرعية . هزم التتار ، وطهر الشام منهم يوم عين جالوت ... قتل فى سادس عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وست مئة ولم يكمل سنة فى السلطنة رحمه الله) .
سير أعلام النبلاء (٢٣/٢٠٠-٢٠١) .

الكفـرة ، وقد ثبت عندنا أنكـم الفجرة ، وقد سلطنا عليكـم مـن له الأمور المقـدرة والأحكام المدبرة ، فكثيركـم عندنا قليل ، وعـزيزكم عنـدنا ذليل ، فلاتطيلـوا الخطاب ، وأسرعـوا برد الجواب ، قبل أن تضـرم الحرب نارهـا ، وترمـى نحوكـم شرارها ، فلاتجدون منـا جاها ولاعزا ، ولاكـافيا ولاحرزا ، وتدهـون منا بأعظم داهية ، وتصبـح بلادكم منا خاليـة ، فقـد أنصفناكم إذ راسلنـاكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكـم ، فما بقى لنا مقصـد سـواكم والسلام علينـا وعليكم ، وعلى من أطـاع الهدى ، وخشى عـواقب الـردى ، وأطاع الملك الأعلى)[١].

وهكـذا كان حال بقية الدول ، والسلطات التى فيهـا حيث استخدموا هذه الحرب ضد أعدائهم سواء كان بالتجسس ، أو الاشـاعة ، أو الإرهاب ، والتفريق[٢].

---

(١) السلـوك لمعرفة دول الملوك (٤٢٨/١-٤٢٩) ، أحمـد بن على المقـريزى ، صححـه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية ١٩٥٧م ، مطبعـة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) انظـر عن تجربة الصين ، والانجليز ، كتـاب الحرب النفسيـة (١٢٠-١٢٢) بمراجعـه .

أهمية الحرب النفسية وخطرها

إن هـذه الحرب تمثل خطراكبيرا ضد من تستخدم تجاهـه ، ولقد عانت منهـا الأمم كثيرا ، ولو تتبعنـا حال أمتنا الإسلامية لـوجدنا أنها عانت منها كثيرا فـولدت الخواء العقدى ، والانهزام المعنوى الذى تبعـه الانهزام المادى رغم وجود موارده . ووصل الحال إلى أنه وجد من أبنـاء المسلمين من علق تأخر المسلمين وضعفهـم بتمسكهـم بأحكام ربهم وسنة نبيهـم صلى الله عليه وآلـه وسلم . وبينما كان المسلم يقـدم روحه رخيصة فى سبيـل الله تعالى إذا بأبناء الأمة يتنصلون عن دينهم بتأثير من أعدائهم .

وهكـذا غـدت الآراء والأفكـار والشبهات التى يبثهـا أعـداء دين الله تعـالى أشـد فتكـا بالأمـة مـن الحروب العسكـرية ، وخلفـت آثارا سيئـة فى صفوفها ، وفى أفكار أبنائها .

إن هـذه الحرب مـن أخطر أنواع الحروب وأشـدها فتكـا لأنهـا تقتـل العزيمة والتضحية فى النفس ، وتغرس الضعف والذل فيها نتيجة لارتباطها بما يعتبره الإنسان أو الجيش مصدر قوته ومحور انطلاقته لملاقاة العدو .

(لقـــد أدت الحرب النفسيـــة ومـــازالت دورا بارزا وخطيرا فى إحراز النصـــر كمـا أدرك رجال العسكـرية ... خطـورة هـذا السلاح فـــوضعوه فى الصـدارة بين أسلحة الحروب ، لأن إخضـاع الدول بالحرب النفسيـة أرخص بكثير من إخضاعها بقوة السلاح .

فـالجندى مهما حصل على أفضـل السلاح وأرقى مستـويات التدريب ، فلـن يستغنى فى أى لحظـة عـن الـروح المعنـوية العاليـة والاستعـداد القتـالى الكـامل لمواجهـة أشـد الظـروف وأقسـى المواقف ، لأن الجنـدى دون أمـل ومعنوية كالسلاح دون ذخيرة)[1]. فما هى الحرب النفسية؟

---

(١) مجلة كلية الملك خالد العسكرية (١١٨/١٢) .

وعـن أهمية هذه الحرب وخطرها انظر الحرب النفسية (٢٩/١) ، مجلـة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد (٥٥/١١) ١٤٠٦هـ ، العدد (١٨/١٢) ١٤٠٦هـ .

تعريف الحرب النفسية

اختلفت الآراء فى تحديد مفهوم ومعنى الحرب النفسية ، ولعل لذلك أسبابه ودواعيه .

إذ أن هذا المصطلح عرف فى فترات تاريخية متباينة ومتباعدة ، واختلفت الأساليب والوسائل التى استخدمت فيها من عصر إلى آخر ، ثم إن الحرب النفسية ليست إلا جزءا من الحروب العديدة السياسية والإقتصادية.

زد على هذا أن الملاقاة العسكرية ليست إلا لخدمة الأهداف والأغراض النفسية . ومن هنا كان لابدمن التنوع والخلاف فى تعريف الحرب النفسية .

يقول صلاح نصر : (إن اصطلاح الحرب النفسية يحتاج إلى مدلول محدد ، وقد ظهر أنه ليس ثمة اتفاق عام على تحديد دلالة أى اصطلاح يغطى أوجه النشاط فى هذا الموضوع المتشعب ...)[١].

ومن التعاريف الواردة فيها :

(الحرب النفسية هى الاستخدام المخطط للدعاية والأعمال الأخرى التى يكون غرضها الرئيس التأثير على الآراء والمشاعر والاتجاهات والسلوك لمجموعات معادية أو محايدة أو صديقة ، بطريقة تساعد انجاز الأهداف والأغراض القومية)[٢].

ويعرفها الدكتور هارسى بأنها :

(ذلك العمل الموجه إلى العدو ، وإلى معنوياته وتماسكه ، وعزيمته والقادر على الدخول إلى المجالات كافة ، فى خدمة أيديولوجية معينة أو ضمن اطار استراتيجية دفاعية أو ضمن صدام أو أزمة معينة ، أو فى خلال

---

(١) الحرب الثورية الشيوعية (٢٤) ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م ، الوطن العربى ، وانظر الحرب النفسية (٣٢) ومابعدها) .

(٢) الحرب الثورية الشيوعية (٢٤) .

الحرب الباردة)[١].

ويعرفها الدكتور السبت بقوله :

(الحرب النفسية هى حرب تغيير السلوك ، ميدانها الشخصية، وهدفها عقل الإنسان لاجسده ، وهى سلاح فعال وشديد التأثير فى الحرب والسلم ، وفى تحقيق الانتصار بسرعة وبأقل الخسائر فى الأرواح والمعدات والتجهيزات وهى حرب باردة ، حرب أعصاب ، وحرب أفكار تهدف للحصول على عقول الرجال وإذلال إرادتهم ، وهى حرب أيديولوجية عقائدية ، وهى حرب كلمات وإشاعات ، وحرب تزلزل العقل وتغير السلوك)[٢].

وبعد عرض هذه التعريفات نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن الدعاية والإشاعة من الأصول فى هذه الحرب .

ثانيا : أن هذه الحرب تتجه إلى الأفكار والمعنويات فى بداية أمرها ، ثم مايلحق ذلك من خسائر عسكرية أو إقتصادية أو سياسية .

ثالثا : أن القصد من هذه الحرب انهاك العدو وجعله يعيش فى دوامة الخوف والرعب من خصمه .

بعض المصطلحات التى عرفت بها الحرب النفسية :

لقد وجدت عدة مصطلحات عرفت بها هذه الحرب ومن أهم هذه المصطلحات الشائعة :

((١) الحرب الباردة .

(٢) حرب الآراء .

(٣) الصراع فى سبيل عقول الرجال وإرادتهم .

(٤) الحرب فى سبيل عقول الرجال .

---

(١) نقلا من كتاب الحرب النفسية بيننا وبين العدو الاسرائيلى (٣-١٢) .

(٢) مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد (١٧/١٢) ١٤٠٦هـ .

ولمزيد من التعريفات انظر مانقله د. أحمد نوفل فى كتابه الحرب النفسية (٣٤-٣٥) .

(٥) حرب الأفكار .
(٦) الحرب العقائدية .
(٧) حرب الأعصاب .
(٨) الحرب السياسية .
(٩) المعلومات الدولية .
(١٠) المعلومات فيما وراء البحار .
(١١) حملة الصدق .
(١٢) الدعاية .
(١٣) الدعاية الدولية .
(١٤) حرب الدعاية .
(١٥) حرب الكلمات .
(١٦) العدوان غير المباشر .
(١٧) الإثارة .
(١٨) الاتصال الدولى)[١].
(٢٠) الحرب الصامتة ، وأكثر ماينصب ذلك إلى الجاسوسية .

لمحة عن مصطلح الحرب الثورية :

إن الشيوعية ثورة على الأنظمة الأخرى الرجعية من رأسمالية وغيرها ومن هنا فهى تعتبر أنه لابد من الثورة لكى تحقق أيديولوجيتها فى السيطرة على العالم ونشر الفكر الإشتراكى فى أرجاء المعمورة .

يقول صلاح نصر عن مصطلح الحرب الثورية :

إنه (أول مصطلح استخدم ليغطى تلك الأنشطة التى تقوم بها الشيوعية الدولية فى نطاق أيديولوجيتها لغزو العالم ...

---

(١) الحرب الثورية الشيوعية (٢٦) .

إن الحرب الثورية مرادفة لأسماء كثيرة ، مثل : الحرب النفسية عند الأمريكيين ، والحرب السياسية عند البريطانيين ، وغير ذلك من التسميات...)[١].

ويقول لينبارجر : (وبلاجدال ، فالحرب الثورية الشيوعية أداة للتوسع والتغلغل الماركسى ...)[٢].

ويعرفها صلاح نصر بقوله :

(إن الحرب الثورية هى تلك الأنشطة التى يمارسها الشيوعيون بهدف الاستيلاء على السلطة فى دولة معينة وتدعيم حكمهم فيها ، وتشمل تلك الجهود التى تهدف إلى نخر معنويات العدو وتقويض عقائده ، وتدمير كيانه . وذلك باستخدام المناورات السياسية والضغط الاقتصادى والمعلومات المضللة والإثارة والإرهاب ، والتخريب ...الخ ، على أن يتم ذلك فى إطار الأيديولوجية شاملة ، وأساليب ثورية محددة)[٣].

---

(١) الحرب الثورية الشيوعية (٩) .
(٢) نقلا من المرجع السابق (١٠) .
(٣) المرجع السابق (٣٢-٣٣) .

أهداف الحرب النفسية ووسائلها

إن للحرب النفسية أهدافا ترغب الأطراف المستخدمة لها تحقيقها والوصول إليها ويمكننا جعلها فى النقاط التالية :

أولا : فرض الإرادة على العدو ، والسيطرة عليه وإلحاق الهزيمة به .

ثانيا : ارهاق العدو فى مجالات شتى وخاصة منها الإقتصادية ، وذلك للرعب الذى جعله يظن عدوه على غير حقيقته .

ثالثا : ترويج الإشاعات فى صفوف العدو واظهارها كما لو كانت حقائق ، وبالمقابل تقوم ببث مامن شأنه رفع الروح المعنوية فى نفوس الشعب . أى العمل على الجبهتين الداخلية والخارجية .

رابعا : التأثير المباشر فى الأفكار والآراء والعقائد التى يعتنقها العدو ، وخاصة إذا كان العدو ممن يعتقد هذه الأفكار ويدافع عنها .

خامسا : إحداث الفرقة فى وحدة الأمة ، وإثارة الخلافات والنعارات التى تزيد من الفرقة وتؤدى إلى عدم توحيد الكلمة .

سادسا : التشكيك فى القيادات ، وإثارة الشعوب ضدها لتحدث الفوضى والخلافات .

أما وسائلها فهى كثيرة ومنها :

(١) الدعاية .
(٢) الإشاعة .
(٣) الخداع .
(٤) إثارة الرعب والقلق .
(٥) التظاهر بالقوة التى لاتقهر .
(٦) افتعال الأزمات .
(٧) التهديد والوعيد .
(٨) الإغراء والوعد .
(٩) الاستفادة من الخلافات والتناقضات .

(١٠) المفاجأة .
(١١) ايجاد العملاء والأنصار .
(١٢) الضغط الإقتصادى .
(١٣) الاغتيالات للزعماء .
(١٤) التجسس .
وغيرها[١].

---

(١) انظـــر : الحرب النفسيـــة (١/٨٠-٨١) بمراجعـــه ، الحرب (٦٣-٦٤) ، ويعتبر أن الـدعاية هى الشكل الأساسى فى هـذه الحرب ، مجلة كليـــة الملـك خالد العسكرية (١٢/١٨-٢٠) .
وعـن الـدعاية ، والإشـاعة خاصـة انظـر مجلة كلية الملك خالـد العسكـرية العـدد (٣٠/٨٦-٨٧) ، والعدد (٣٨/٨٤-٨٥) السنة العاشرة ١٤١٣هـ .
وعـــن مقـاومة الحرب النفسيـة انظـر مجلـة كليـة الملـك خالـــد العسكـرية العـدد (١٢/٢٠-٢١) بمراجعه .

مصطلح الحرب الباردة

يطلق على الحرب النفسية (الحرب الباردة) وقد شاع هذا المصطلح بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . ويتكون هذا المصطلح من جانبين :

أولهما : الحرب .

ويمكن تعريف الحرب بأنها (قتالا مسلحا بين الدول ، بهدف تغليب وجهة نظر سياسية ، وفقا لوسائل نظمها القانون الدولى)[١].

وضد الحرب السلم ، وقد عاشت الشعوب والكيانات الإجتماعية المختلفة على هذين المفهومين ، ولايعنى ذلك أنه إذا وجد أحدهما انتفى الآخر بالكلية بل يكون أحيانا بين حرب وسلم .

ويمكن اعتبار الحرب وسيلة لخدمة هدف سياسى ، كأن يريد الخصم فرض مالديه على عدوه أو خصومه بالعنف .

ثانيهما : الباردة .

والمقصود بذلك خلوها من اللقاء المباشر وإرهاق العدو دون الصراع معه مباشرة .

وكانت بداية استخدام المصطلح بعد نهاية الحرب العالمية الثانية[٢].

وقد كثرت التعاريف لهذا النوع من الحرب ومن ذلك :

أنها (تلك السلسلة المستمرة من الأزمات التى كان بإمكان أى منها أن تصعد من المواجهة العسكرية وتؤدى إلى خطر إفناء حضارتنا ـ ظلت قائمة بين الشرق والغرب لفترة تزيد على الأربعين عاما)[٣].

---

(١) نقلا من كتاب الثنائية الدولية (١٧٧) ، د. دعد بوملهب عطا الله ، ١٩٩١م ، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) انظر عن بداية استخدامه الثنائية الدولية (١٨٣-١٨٤) .

(٣) مابعد الحرب الباردة (١٣) ، روبرت مكنمارا ، ترجمة محمد حسين يونس ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

ويعرفها د. صفا بقوله :

(الحرب الباردة صراع بين خصمين ، فى مختلف المجالات ، عدا المجابهة العلنية بين الجيوش)[١].

ويعرفها د. أحمد نوفل فيقول :

(إن الحرب الباردة هى سياسة القيام بايقاع الشقاق فى العالم بكل الوسائل غير المستخدمة فى الحرب الفعلية مع عدم تورط الدول الكبرى فى صراع مع بعضها البعض)[٢].

وبناء على هذه التعريفات يمكن أن نقول بأن الحرب الباردة هى :

ادخال الرعب فى صفوف العدو ، وارهاقه واهدار موارده حتى يرى أنه غير قادر على مجاراة عدوه فيقع فى الهزيمة دون ملاقاة مباشرة .

وبدون شك إن لوسائل الإعلام الدور البارز فى هذه الحرب ، من حيث الدعاية لها وتأجيج أوارها وإظهار الأمور على غير وجهها بما يخدم المصلحة ويحقق الهدف ، ولأجل ذلك سميت (حرب الدعاية) .

ونختم حديثنا عن مصطلح الحرب الباردة بما جاء عن د.دعد حيث قالت:

(ماذا يعنى مصطلح الحرب الباردة فى العلاقات الدولية المعاصرة؟ ليس هناك تحديد واحد مسلم به ، إنما من شبه المتفق عليه ، أن أصل المفهوم المعاصر للمصطلح يعود إلى ظروف نهاية الحرب العالمية الثانية والتشنج الدولى الذى ميزها ، والتصرفات التى واكبتها وتلتها ، والمواقف المعلنة ، والنوايا الظاهرة والمزعومة . يمكن القول إن المصطلح يعنى ، فى هذه الحال ، التنافس والصراع بين النظامين الدوليين ، الإشتراكى والرأسمالى ، وبالأخص بين الدولتين اللتين أصبحتا ، مع نهاية الحرب ، القوتين العظميين فى العالم على الإطلاق . إن هذين التنافس والصراع يعودان إلى تنافر المصالح والأهداف بشأن النفوذ فى العالم انطلاقا من نزعة كونية لدى كل من

---

(١) الحرب (٦٢-٦٣) .

(٢) الحرب النفسية (١٤٤/١) .

الدولتين والنظامين ، لكن هذين التنافس والصراع وبالرغم من حدة التأزم الدولى الذى أفضيا إليه ، لم يؤديا إلى حال الاقتتال المباشر مابين الدولتين . لكن وإذا لم تحصل الحرب فعلا بين الدولتين ، فإنهما ، بعد سقوط تحالفهما ضد ألمانيا ، أصبحتا خصمين يتنازعان فى كل نقطة من العالم بدأ من أوروبا.

إن مفهوم الحرب الباردة يغطى حالة لايمكن تحديدها قانونيا كحالة حرب بين عدوين ، بالرغم من كون العداء والتأزم والخوف على المصير أمورا سيطرت على مواقف وتصرفات الدولتين . ولايمكن تشبيه هذا الواقع بالحربين العالميتين ، بالرغم من كون العداء والتأزم والخوف أمورا عمت معظم أنحاء العالم ، حيث تجسدت بأشكال مختلفة بما فيها الحرب الحقيقية ، وإن بحدود ضيقة جغرافيا وعسكريا بالنظر إلى شمولية الوضع المتأزم . وأتى فى الواقع مجال هذه الحرب الجغرافى متفقا بمعظمه مع مجال الحرب العالمية الثانية بما فيه مركزه المحورى الأوروبى . ويجب الأخذ بعين الاعتبار عدم وجود تحديد قانونى للمفهوم ، أو الفترة ، أو الحالة اللتين يغطيهما ، كما هى الحال بالنسبة لأية حرب . ويمكن أن يتوضح ويتحدد المفهوم أكثر بالعودة إلى عرض أهم مقوماته . وبالمناسبة يمكن جمع هذه المقومات فى ثلاثة : الانقسام والاقتسام ، العداء المعلن ، والتأزم العام)[١].

بداية الحرب الباردة ونهايتها :

لاشك أن تحديد بداية زمنية دقيقة للحرب الباردة يشكل أمرا عسيرا للكتاب والباحثين، ولاغرابة فى وجود هذا الإشكال ، وذلك لأن مصطلح الحرب الباردة ، قد اختلف مفهومه مابين الأزمنة ، وإن كانت أساليبها موغلة فى القدم . زد على هذا أن الحرب الباردة لاتنفرد بوقت معين بل توجد ويوجد معها السلم وخاصة فى القرن العشرين ، فمرة تكون على أوجها وسرعان ماتنفرج فى وقت آخر ثم تعود للزيادة فى وقت ثالث ،

---

(١) الثنائية الدولية (١٨٤) .

وهكذا دواليك . ومن هنا فالتحديد الدقيق لبداية الحرب الباردة يكاد يكون متعذرا إلا أن هناك فترة زمنية تكاد تكون هى الأقرب للصواب من حيث تحديد الوقت للحرب الباردة فى عصرنا هذا . وتكاد الكتابات تعتبر الأربعينات هى بداية الحرب هذه بين الجبارين وبالتحديد عام ١٩٤٧م .

وإذا كانت الحرب الساخنة تحدد زمنيا باندلاع شرارة المواجهة فإنه لايمكن تحديد البداية الدقيقة لهذه الحرب .

يقول د. نوفل :

(على الرغم من أن الحرب هى الحرب ، باردة كانت أم ساخنة باعتبارها استمرارا للسياسة بوسائل أكثر عنفا وتدميرا ، ولكن هناك فرقا ظاهرا بين الحرب الساخنة والحرب الباردة يظهر فى التحديد التاريخى لكل منهما ، هذا يعنى أن تحديد الحرب الساخنة تاريخيا يبدأ من يوم اندلاع شرارة المواجهة العسكرية وينتهى يوم توقفها ، أما فى الحرب الباردة فليس هناك يوم معين تبدأ وتنتهى فيه"[١].

وتتحدث الدكتورة دعد بشأن بداية الحرب الباردة ونهايتها فتقول :

(إن التحديد الزمنى للحقبة التى غطاها ، أو يغطيها مفهوم الحرب الباردة مايزال يشكل مشكلة بالنسبة للباحثين فى هذا الشأن . وهم ينقسمون فى هذا إلى أكثر من موقف وبرهان ، وبالتالى توجد أكثر من امكانية تحديد زمنى . أما السبب الرئيس فى هذا الاختلاف فهو يعود ، بخاصة ، إلى طبيعة الظاهرة نفسها ، ومضمون المفهوم وحدوده .

ليس للحرب الباردة تحديد قانونى يجزم بشأن بدايتها ونهايتها . فهنالك اختلاف حول تحديد بداية الحرب الباردة ، لكن الاختلاف الأهم يتعلق بتاريخ نهايتها فى حال اعتبار أنها انتهت)[٢].

---

(١) من الدبلوماسية إلى الاستراتيجية (٤٩-٥١) ، نقلا من كتاب الحرب النفسية (٤٢/١-٤٣) .

(٢) الثنائية الدولية (١٨٦) .

ولعل أبرز ماقيل فى بدايات الحرب الباردة :

* أنها كانت منذ بدأت الثورة البلشفية سنة ١٩١٧م .

* والقول الآخر أنها بعد نهايات الحرب العالمية الثانية وخاصة بعد اختلاف الحلفاء من بعد انتصارهم على ألمانيا ، حيث دخل الشقاق بينهم والخلاف على كثير من القضايا الدولية آنذاك .

ولعل هذا الرأى هو الأقرب والأصوب نظرا لما يدعمه من براهين وأحداث واقعية تسنده كما سيظهر لنا من استعراض لبعض الأحداث التى وجدت فى تلك الفترة عنيت مابعد الحرب العالمية الثانية .

تقول د. دعد عن بدايتها : (يمكن اعتبار سنة ١٩٤٧م منطلقا زمنيا للحرب الباردة نظرا للتطوارت والانجازات التى حصلت فيها ، بالإضافة إلى كون هذه السنة هى بمثابة تاريخ تأكد فيه الخصام إلى حد الاقتناع ، من قبل كل من الطرفين ، بأن الطرف الآخر عازم على تدميره إن هو استطاع .

ويمكن اعتبار سنة ١٩٤٨م البداية العملية التنفيذية لمرحلة الحرب الباردة ، لأنه تكرس فيها الخصام من خلال الاقتسام ، وبدأ العمل على رص الصفوف من الجانبين . لكن يجب الانتباه إلى أمر مهم ، وهو أنه ، بدءا من سنة ١٩٤٨م ، بدأ يتأكد أيضا أن الخصمين يريدان السيطرة على العداء بمظاهره وأساليبه وحجمه ، وكأن العالم أصبح أمام خصام منظم ، يراقب كل من الفريقين تطوراته بحزم ودقة بشكل يسمح له بالسيطرة على الأمر من جانبه .

يعتمد تحديد بداية الحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية على وجود المؤشرات والبراهين التى تسمح بالكلام عن هذه الحالة ، من اللاحرب واللاسلم ، على صعيد القوتين اللتين أصبحتا عظيميين على الساحة الدولية ككل . يترك جانبا ،أو بالأحرى ، يستبعد تاريخ سنة ١٩١٧م لعدم توفر البراهين الحسية الضرورية والكافية لوصف العلاقات الدولية ، وبالأخص الأمريكية السوفيتية ، بهذه الصفة . كما أن أيا من هاتين الدولتين لم تكن

تشكل دولة كبرى على الساحة الدولية ، أو هى لم تكن تتصرف على هذا الأساس ، هذا مع العلم أن فترة مابين الحربين لاتحمل دلائل ملموسة على وجود صراع بين هاتين الدولتين ، أو بين غيرهما ، أو بين الإشتراكية والرأسمالية عالميا بحيث إن الثورة توقفت عند حدود روسيا دون أن تشمل أى شعب أو دولة أخرى . يضاف إلى ذلك كون الدولتين ، الأمريكية والسوفيتية ، لم تكونا مهيأتين تاريخيا وجغرافيا للخصام فيما بينهما ، وأن الأولى أظهرت استعدادها للتعاون مع الأخرى التى كانت ، فى مطلق الأحوال ، منشغلة بمشاكلها الداخلية وببناء الاشتراكية فى الدولة الواحدة..).

وتقول : (وبالنسبة لتأريخ نشوء الحرب الباردة فى سنة ١٩٤٧م ، إن بوادر واضحة تدل على سيطرة جو التشنج والحذر . كما أن الظروف التى ساهمت فى حصول هذا التطور ، من التحالف باتجاه الخصام والحرب الباردة هى ظروف ملموسة من خلال أحداث وخطوات ، لاريب فى كونها شجعت على حصول مثل هذا التطور ...)[١].

وعلى هذا فإن عام ١٩٤٧م يعتبر التحديد الأقرب لبداية الحرب الباردة بين القطبين .

نهاية الحرب الباردة :

وقع الخلاف فى نهايتها كما هو الحال فى بدايتها .

فمن قائل أنها انتهت .

ورأى آخر يرى أن حدتها خفت فقط .

ورأى ثالث يرى أنها مازالت قائمة .

ولاغرابة فى هذا الخلاف نظرا للخلاف فى المفهوم والظاهرة .

تقول د.دعد عن الموقف من نهايتها :

---

(١) الثنائية الدولية (١٨٧-١٨٨) .

(السؤال الأول الذى يفرض نفسه ، بالنسبة لمفهوم الحرب الباردة ، هو هل فقد المفهوم أهميته ، أو هو مازال يحافظ عليها ، أو على بعضها؟ ويمكن أن يطرح السؤال بشكل ملموس أكثر مثل : هل انتهت الحرب الباردة؟ إن المفهوم هو مرادف لوضع أوحالة أوجو ... وبالتالى إنه مرادف لما يجسد هذه الحالة عمليا من أفعال وردود فعل ، لكونه يحوى المضمون الذى تنطلق منه ، وتتقيد به ، وتصب فيه هذه الأفعال والردود . وبالتالى إذا كانت الحرب الباردة مرحلة غطت حقبة زمنية معينة مضت ، يكون المضمون أو المفهوم قد فقد قيمته الواقعية بذلك ، دون أن يفقد ، فى الوقت ذاته ، قيمته الذهنية الفكرية ، ودون أن يزول بالطبع . لكن لايمكن الكلام عن قيمة المفهوم الواقعية إلا من خلال الواقع نفسه ، وبالتالى لايمكن أن يتوقف البحث عند المفهوم بحد ذاته بل يجب أن يتعداه إلى مايقابله عمليا وماديا .

هناك اختلاف ... حول موضوع نهاية الحرب الباردة ، كما بالنسبة للتحديد الزمنى . والتفسيرات والمواقف متعددة ومتباينة ، أهمها ثلاثة : انتهت ، لم تنته ، خفت حدتها (أى "فترت" أو أن "الجليد قيد الذوبان") .

[و]يمكن القول إن نية متبادلة ظهرت فى أوائل الخمسينات للحد من التأزم الحاصل على الساحة الدولية ، وبالأخص بين الاتحاد السوفياتى والولايات المتحدة الأمريكية .

لقد سنحت الظروف كذلك ، فى بداية الخمسينات ، لتتأمن المناسبة الفضلى لتليين المواقف . إن موت ستالين ، فى شهر آذار من سنة ١٩٥٣م ، كان تلك المناسبة حيث أسرع الفريقان ، السوفييتى والغربى (خاصة الأمريكيون) ، إلى اعتبار ستالين مسؤولا عن الجو المشحون بالخوف والحذر والخصام والصراع ، أى الجو المكهرب . لقد تجسدت هذه المواقف بأكثر من شكل ، منها المباشر ومنها غير المباشر ، كما هى الحال فى تعديل اللهجة فى موسكو ، أو فى التعبير عن الأمل فى غد أفضل ، فى كل من واشنطن ولندن بنتيجة موت ستالين . بالفعل توجد أكثر من دلالة على هذه المواقف ، يذكر

منهـا ، على سبيل المثال ، تليين لهجة الصحافة السوفيـاتية بشأن كل مايخص الغـرب فى الشهور الأولى لموت ستـالين : إن دراسة تحليليـة احصائية برهنت عن كون نسبة العبارات المشنعـة بالولايات المتحدة والـرأسمالية خفت بشكل ملحـوظ بعيد موت ستالين . كذلك لوحظت بعض الإجراءات والمواقـف التى اعتمـدها خلفاء ستالين ، وبالأخص فى الغرب . إن بعـض كبار المسؤولين فى الغرب أدلوا بتصريحات بهذا المغزى ، مثل : (إن عهدا انتهـى بموت ستالين) مع الرئيس الأمريكى ، وإن (الأحداث التى جرت بعـد مـوت ستالين يمكنها أن تؤدى إلى محادثات على أعلى المستـويات بين الدول الـرئيسة المعنيـة ...) مع الزعيم البريطانى تشرشل ، أمام مجلس العموم ، بعد أسابيع قليلةمن موت ستالين "[١].

وتقـول : (إن مثـل هـذه المبـادرات والمواقـف والتصـريحات جعلـت الكثيرين يخلصـون إلى القول بأن مفهـوم الحرب الباردة فقـد أهميتـه ، وإن العـالم أصبح جاهزا غداة غيـاب ستالين لأن يتخطى الحرب البـاردة ، لكن ، بالـرغم مـن هذه البوادر المشجعـة ، والتى كانت مؤهلـة لأن تؤثر فى أجواء العلاقـات الدولية ، ظل المفهـوم يحافظ على أهميته ، وكـذلك بقيـت الحرب الباردة سيدة الموقف ، وإن خفت حدتها أو برودتها بحيث أخذ البعض يتكلم عن (فتور) الحرب الباردة ، أو عـن (ذوبان الجليـد) ، خاصـة مـع حصـول مبادرات من قبل الطرفين . وبالرغم من رأى البعض بأن المفهـوم انطوى مع الخمسينـات ، بقى هذا المفهوم يحافظ على قوته مغطيا أزمـات بداية الستينات التى ، بالـرغم من شدتها وخطـورتها ، ساهمت فى إضعـاف المفهوم والبحث عن آخر يستطيع أن يكون أكثر ملاءمـة وتطابقا مع نزعـة إلى حصول المزيد من الانفراج والتعاون بما يخدم مصالح الدول والأنظمة .

ومـن الملاحظ أخيرا أن المفهـوم لم يختـف ، وإن بدا فى وقـت مـن الأوقـات وكـأنه فقد محتواه . فى الـواقع ، إن هذا المفهـوم ، أو على الأقـل

---

(١) الثنائية الدولية (١٨٨-١٨٩) .

المصطلح ربما مع بعض التعديل فى المضمون ، بقى فى الأذهان كحد أدنى ، بحيث أصبح مرادفا للتأزم الدولى وإن أتى بأشكال مختلفة . وربما أمكن الاستناد ، فى الكلام عن بقاء المفهوم مع بعض التعديل ، إلى كون المصطلح عاد مجددا للظهور بقوة فى أواخر السبعينات وبداية الثمانينات ، لكن أحيانا مع التنبيه إلى هذا التعديل أو التحديث فى المفهوم ، بحيث إن البعض أخذ يتكلم عن (حرب باردة حديثة) . أضف إلى كل هذا أن المفهوم والمصطلح احتفظا بقيمة وخاصة بوقع مهم فى النفوس ، حتى أنهما أصبحا ، إلى حد ما بمثابة أداة تهويل وتخويف (لما يحتويانه أو يرمزان إليه من خوف) يلوح بها فى بعض الحالات ، لأهداف مختلفة : منها فرض التهيب والانتظام على الحلفاء الذين رأوا ، أحيانا ، فى المسالمة والسلم فرصا للخروج على زعامة أو على خط معين ؛ ومنها أيضا لطبع مرحلة ، أو خطوة ، أو ظرف ، بالمزيد من الخطورة ، وجعل الغير مستعدا للمزيد من التنازل أو التفهم واللين .

لاالمفهوم زال مع الخمسينات ، ولاقيمته ولت نهائيا ، لكن التحول أو التحوير الحاصل فيه ، كما الأوضاع الدولية ، أمور تسمح بالقول إن المقومات التى قام عليها المفهوم لم تعد ذاتها ، بمعنى أنها لم تحافظ على قوتها . وبالتالى يكون المفهوم الأصيل قد فسح المجال أمام مفهوم متجدد معدل . وربما أمكن القول إن المصطلح هو المستمر دون أن يغطى المفهوم ذاته بقوته الأساسية .

إذن يمكن التوقف عند أواخر الخمسينات وأوائل الستينات بالنسبة للمفهوم الأساسى ، بالنظر إلى صعوبة تحديد درجة التحول الحاصل فى المفهوم ، وهذا لعدم الحصول على مايكفى من إثباتات تؤكد ، أو تدحض ، استمرارية المفهوم نفسه وراء المصطلح الواحد ، وذلك لكون البعد الزمنى مازال غير كاف للقيام بهكذا عمل بشكل موضوعى وجازم ونهائى ، وفى كل الأحوال ، يمكن فى حد أقصى اعتبار المصطلح والمفهوم قد خرجا من الإطار الأساسى والمحدد الذى قاما فى ظله وعبرا عنه ، إلى إطار أعم وأوسع ،

وأصبح بالتالى التعامل معهما ، أشمل وأقل دقة فى الوقت ذاته. هكذا مثلا ، إن العديدين يتكلمون عن الحرب الباردة فى السبعينات والثمانينات ، حتى أن المسؤولين السياسيين لايتورعون عن العودة إلى المصطلح ، على الأقل فى مناسبات مختلفة ، كما هى الحال ، عل سبيل المثال ، مع كلام غورباتشوف الزعيم السوفياتى ، فى آخر سنة ١٩٨٩م عن وصول إلى (نهاية الحرب الباردة)[١].

يقول أحد الباحثين الأوربيين :

(إن الحرب الباردة هى كل شىء ماعدا الحرب . لانستطيع أن نحدد اليوم أوالساعة اللذين بدأت فيهما . ولانعرف إذا كانت قد انتهت . ولاتدرس بالتالى جذورها كما هى حال حربى ١٩١٤م و١٩٣٩م)[٢].

وبعد هذا فإننا نعتقد الآتى بشأن بدايتها ونهايتها .

من حيث البداية فإن فترة ماقبل نهاية الحرب العالمية الثانية قد حدث فيها من الخلاف بين الدول المتحالفة التى خرجت منتصرة وعلى رأسها الاتحاد السوفييتى ، والولايات المتحدة ، وبريطانيا وفرنسا ، حدث بين هذه الدول خلافات عديدة بسببها فقدت الثقة فيما بينها ، وخاصة أمريكا والسوفييت وكانت الخلافات على أوجها فى عام ١٩٤٧م ، ومن هنا اعتبر هذا العام هو البداية الحقيقية للحرب الباردة أو بروزها على السطح بشكل ملحوظ[٣]. حيث أخذ كل فريق يجابه الفريق الآخر فى أكثر من مكان ، ولايعنى هذا عدم وجود الخلاف قبل ذلك .

---

(١) الثنائية الدولية (١٨٩-١٩٠) .

(٢) نقلا من المرجع السابق (١٨٦) .

(٣) على أن استخدام الحرب النفسية كان موجودا فى الحروب السابقة وكانت مستخدمة فى الحرب العالمية الأولى . انظر التاريخ العسكرى (٨٤٠-٨٤١) ، د. طلال عامر المهتار ، دونذكر لرقم الطبعة أو تاريخها أو دار النشر .

وأما النهاية فبدون شك أن سقوط الاتحاد السوفييتى قد جعل مصطلح الحرب الباردة يفقد الشىء الكثير من مضامينه ، وكانت السنوات التالية لهذا السقوط أشد فى إثبات أن هذه الحرب أخذت فى الانحسار الشديد بل وفى اختفائها من الساحة ، خاصة إذا ماوضعنا فى اعتبارنا أن اليهود وراء تلك الأحداث وأن الغرب يدعم التوجه الجديد فى روسيا وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، الطرف السابق فى الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتى .

وبحديثنا عن أسباب الحرب الباردة ومقدماتها فى المبحث التالى يثبت لنا ماذكرناه بشأن بدايتها .

المبحث الأول
أسباب الحرب الباردة ومقدماتها

إن الحرب العالمية الثانية قد كان لها آثارا كبيرة على مستوى دول العالم قاطبة حتى تلك التى لم تشارك فيها مباشرة .

ومن هنا فإن هذا التاريخ الذى تمثله الحرب العالمية الثانية يعتبر مغيرا لأوجه العلاقات بين الدول وكذلك السياسات والتطورات التى شهدها المجتمع الإنسانى بعد ذلك ، بل إن آثار تلك الحرب مازالت حتى الآن بجميع أشكالها ، وتعتبر الأحداث فى بدايات الأربعينات هى المقدمات التى تمخضت عنها الحرب الباردة فيما بعد ، وقد وجد من الأحداث مايدل على ذلك ويدعمه .

وتحديدا (تعتبر سنة ١٩٤٥م المنطلق الفعلى والتنظيمى للعالم فى النصف الثانى من القرن العشرين . فى هذه السنة تقرر حل المشاكل القائمة وتقررت صورة العالم ، وهذا من خلال مباحثات السلم وتصفية مايعود إلى الحرب العالمية الثانية ونتائجها المباشرة ، ومن خلال تحضير عالم المستقبل بوضع أسس التعامل مابين الشعوب والدول عبر منظمة الأمم المتحدة .. إن مجريات ماحصل فى لقاءات سنة ١٩٤٥م تدل على أن ميلا بدأ يتوضح عند المنتصرين فى الحرب إلى أن طريق التفاهم والتحالف لم يعد صالحا لإنجاز الأهداف . فبعض محللى مجريات هذه السنة يؤكد أنه فى صيف سنة ١٩٤٥م ، نظرا إلى القوى المتواجدة على الساحة الدولية ، وإلى الصراعات (الطبيعية) ، وإلى الحاجات السياسية والإقتصادية ، لم يعد على الزعماء الكبار سوى الانطلاق فى حالة عدائية فى علاقاتهم المتبادلة بالرغم من الغلاف السلمى الذى اعتمد لتغطية حقيقة هذه العلاقات .

ففى هذه السنة ، تبين لبعض هؤلاء الزعماء أن التحالف هو غير طبيعى بين القوى المتواجدة ولايمكن أن يستمر . وبالتالى كان لابد من أن يفرض ماهو طبيعى نفسه على العلاقات بين هذه القوى ، وبالتالى أن يحل الصراع مكان التحالف بين الأخصام الطبيعيين . ففى صيف سنة ١٩٤٥م ،

تأكد أمر أساسى وهو أنه أثناء الحرب لم يميز الفرقاء بين مفهومين وهدفين هما : النصر العسكرى المباشر وقواعد السلم . عند نهايةالحرب ، تبين أن السلم ليس النتيجة الطبيعية التلقائية للنصر العسكرى)[١].

ونظرا لهذه النتيجة كان لابد من إبرام الاتفاقات وتوقيع المعاهدات ، ولايغيب عن بالنا أن أمريكا والاتحاد السوفييتى وبريطانيا أثناء الحرب العالمية قد وقفوا جبهة واحدة ضد ألمانيا النازية .

وعقد هؤلاء عددا من الاجتماعات والاتفاقات والمؤتمرات كان من أهمها فى هذه الفترة مؤتمر يالطا . على أن هذه الفترة لم تخل من لقاءات واتفاقات كما ذكرنا ، ومن ذلك :

(أ) الاجتماع (فى طهران ٢٨ نوفمبر ـ أول ديسمبر ١٩٤٣م) لوضع الخطط التى تكفل كسب المعركة . واتفق الأقطاب الثلاثة على إنشاء منظمة عالمية فى القريب العاجل[٢]

(ب) وكذلك اجتماعات موسكو وبوتسدام على مستوى القمة[٣].

وكان مؤتمر موسكو متأثرا جدا منذ البداية بتصريح الرئيس ترومان الذى اقترح المساعدةالعسكرية لليونان وتركيا .. ولم يفلح المؤتمر فى التوصل إلى الحلول التى ترضى الأطراف كلها فى هذا المؤتمر .

وقد طالب مولوتوف بتعويض ١٠ مليارات دولار تقتطع من الإنتاج الألمانى الجارى ، ورفضت بريطانيا والولايات المتحدة ذلك . وطالبت فرنسا بأن تكون ألمانيا لامركزية وكانت روسيا ترغب فى دولة مركزية جدا ،

---

(١) R.Anon, Paix et 9uerre., op. cit. pp. 39-42 .
نقلا من كتاب الثنائية الدولية (٤٨-٤٩) .

(٢) التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٧) ، د. عبد الحميد البطريق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، وانظر : الثنائية الدولية (٤٩) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٨) ، كولن باون ، وبيترمونى ، تعريب صادق عودة ، الطبعة الأولى ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأدن ، دون ذكر لتاريخ الطبعة .

(٣) انظر : الثنائية الدولية (٤٩) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٣) .

وتطالب بقسط من الإشراف عليها ، كما طالب الروس بالتنازل عن كارتينا إلى يوغوسلافيا ، فرفض الغربيون ذلك(١).

يقول د. البطريق عن هذه المؤتمرات : (وفى آخر مؤتمر عقد زمن الحرب وهو مؤتمر بوتسدام ١٧ يوليه - ٢ أغسطس ١٩٤٥م حدد فيه الحلفاء اقرار الشروط التى ستطبق على ألمانيا ، كتجريدها من السلاح بصورة كاملة ، والقضاء على النزعة العسكرية فيها ، وعلى حل الحزب الوطنى الإشتراكى وغيره من الأحزاب المشابهة له فى ألمانيا ، وعلى تطبيق المبادىء الديمقراطية ومحاكمة مجرمى الحرب وفرض تعويضات عسيرة عليها ، وقد وافق الأقطاب الثلاثة على إنشاء مجلس لوزراء الخارجية تكون مهمته وضع معاهدات السلام وكان أول اجتماع لهذا المجلس فى لندن (سبتمبر ١٩٤٥م) ، ثم عقد فى موسكو من ٢٦ إلى ٢٧ ديسمبر ، واختتم أعماله دون الوصول إلى شىء نظرا لاختلاف الرأى بين الأعضاء على معظم المسائل المعروضة للبحث ، ولكن وزراء الخارجية توصلوا إلى عقد معاهدات سلام كانت على كل حال محدودة ومؤقتة)(٢).

(وكانت الغاية من هذه المؤتمرات هى الاتفاق على خطوط العمليات العسكرية من ناحية وتحديد المبادىء الكبيرة التى كان الحلفاء يقاتلون من أجلها ثم تسليط النور على أطماحهم ونواياهم)(٣).

ومع ذلك فقد كان مؤتمر يالطا هو الذى رسم السياسة لفترة مابعد الحرب العالمية الثانية وكانت تلك الفترة هى أنشط الفترات على الإطلاق (والتى سماها البعض بما بين يالطا (١٩٤٥) ومالطا (١٩٨٩) أو الفترة الممتدة من ظهور بوادر انقسام العالم إلى فريقين خصمين حتى بوادر زعزعة بعض

---

(١) انظر التاريخ الدبلوماسى (١٧٧-١٧٨) ، ج.ب. دروزيل ، تعريب د.نور الدين حاطوم ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الفكر ، دمشق ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٨) ، وانظر مابعدها .
وانظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٩) .

(٣) الحرب العالمية الثانية (٤٩٤) .

مقومات النظام الدولى المعاصر (١٩٤٥-١٩٩٠م))[١].

ويقول كولن وبيتر :

(كان مؤتمر يالطا وبوتسدام المرحلة البارزة فى تعاون الثلاثة الكبار...)[٢].

مؤتمر يالطا :

تعتبر محادثات يالطا حدثا مهما فى التاريخ بعد الحرب العالمية الثانية ويهم العالم بأكمله .

وقد اجتمع فى هذه المحادثات كل من :

* روزفلت عن الولايات المتحدة الأمريكية .
* وجوزيف ستالين عن الاتحاد السوفييتى .
* وونستون تشرشل[٣]عن بريطانيا العظمى .

وقد عقد المؤتمر فى عام ١٩٤٥م ، ودام المؤتمر من ٤-١١ شباط .

وقبل الحديث عن الموضوعات التى تم طرحها فى مؤتمر يالطا لابد من التنويه أن هناك نقاط ضعف تميزت بها هذه المباحثات . ومن ذلك :

(أ) عدم التركيز فى التحضير للإجتماع رغم أنه سبق بعدة إجتماعات ولكنها كانت تركز على حل المشاكل المباشرة المتعلقة بسير الحرب نفسها ، وإن تعرضت لما بعد الحرب . ومن هنا افتقرت مفاوضات يالطا للتحضير الشامل للقضايا المزمع بحثها بين الرؤساء[٤].

---

(١) الثنائية الدولية (١٣) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٠) .

(٣) ولد عام ١٨٧٤م ، وتدرج فى المناصب حتى أصبح رئيسا للوزراء ، استقال من منصبه سنة ١٩٥٥م ومات سنة ١٩٦٥م ، انظر مذكرات ونستون تشرشل (٥/١) تعريب خيرى حماد ، دار أسامة ، دمشق ١٩٦١م دون ذكر لرقم الطبعة .

(٤) انظر الثنائية الدولية (٥٠-٥١) .

(ب) اختلاف المواقف بين الحلفاء ، فالتحالف كان نسبيا بينهم[١].

فكل فريق يشعر بعدم الثقة فى الفريق الآخر من جهته ، وكذلك الثالث ينظر إليهما كما ينظران إليه ، فليس بالإمكان والحال هذه أن يحصل التفاهم العميق الذى سيزيل الإشكال والخلاف .

يقول كولن وبيتر :

(يجب أن لانقلل من قيمة عنصر عدم الثقة والعداء العقائدى بين الاتحاد السوفياتى والغرب . فقد توقع كل من الطرفين كل شر من الطرف الآخر ، لذلك فقد كان التعاون بين الحلفاء زمن الحرب تعاونا محدودا وحذرا بصورة دائمة"[٢].

(ج) عدم وجود الاتفاق على تفسير المصطلحات الأساسية التى وضعت فكل فريق يرغب فى تفسيرها حسب مايراه هو فى قاموسه الخاص ، ويرى كل منهم أنه الأقدر على التنفيذ للنقاط والنصوص التى طرحت[٣].

وبعد هذه النقاط التى شكلت بالفعل إشكالا كبيرا فى نتائج مؤتمر يالطا نعطى إلماحة عن الموضوعات التى تم طرحها فى القمة .

تقول الدكتورة دعد :

(عدد المواضيع الرئيسة أربعة وهى : ألمانيا ، وأوروبا ، وآسيا ، ثم العالم . يلاحظ أن قضية بولونيا احتلت القسم الأكبر من المناقشات العلنية ، وتلاها موضوع ألمانيا ثم موضوعا أوروبا عامة والعالم . أما موضوع آسيا فبحث على هامش الإجتماع وبصورةسرية بين روزفلت وستالين . تضاف إلى هذا ملاحظة مهمة ، وهى أن معظم المواضيع والقضايا التى طرحت بادر إلى طرحها ستالين .

---

(١) انظر الثنائية الدولية (٥١) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٥) ، وانظر (١٦) ، وانظر الحرب العالمية الثانية (٤٩٥) .

(٣) انظر الثنائية الدولية (٥٢) .

إن روزفلت اعتبر منذ البداية رئيس الاجتماعات والعنصر المعتدل بين ستالين وتشرشل . ولابد من ملاحظة ولو شكلية فى هذا الشأن ، وهى أن ستالين اقترح رئاسة روزفلت لتحييده على مايبدو ، أى لتخفيف تأثير منافسه الحقيقى فى المناقشات المباشرة ، فى الوقت الذى يظهر له بهذه الخطوة احتراما يساهم فى تحقيق الهدف)[١].

ونعرض الآن بشىء من التفصيل لهذه الموضوعات .

أولا : المانيا :

وبحثت موضوعاتها من جوانب ثلاثة :

(أ) الاستسلام .

(ب) التقسيم .

(ج) تعويضات الحرب .

فالاستسلام يتم دون قيد أو شرط[٢].

التقسيم : وهو أن يكون لكل دولة من دول الحلفاء نصيبها المحدد فى ألمانيا وذلك امعانا فى إذلال ألمانيا يقول مونتجمرى : (فى مؤتمر يالطه أصدر رئيس الوزراء والرئيس ترومان والمارشال ستالين فى ١١ شباط ١٩٤٥م التصريح الآتى :

---

(١) الثنائية الدولية (٥٢-٥٣) ، وانظر التاريخ الدبلوماسى (٧٩-٨٠) .

(٢) انظر مذكرات المارشال مونتغمرى ، ترجمة ن.البعلبكى ، دار القلم ، بيروت ، لبنان (٤١٣) ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
وانظر : مذكرات ونستون تشرشل (١٠٦٧/٢) ، الثنائية الدولية (٥٣) .

(وفقا لخطط الاتفاق المشترك الموضوعة ، تحتل قوات كل من الدول الثلاث فى ألمانيا منطقة مستقلة . وتفرض الخطط قيام إدارة ورقابة منسقتين بواسطة لجنة رقابة مركزية يكون أعضاؤها القواد الأعلون للدول الثلاث ولها مقر عام فى برلين .

(واتفق على أن تدعو الدول الثلاث فرنسا لأخذ منطقة احتلال إذا هى شاءت ، وإلى الإشتراك كعضو رابع فى لجنة الرقابة)[١].

واعتبر بعض الكتاب أن هذا التقسيم (من شأنه أن يؤمن شرعية الغزوات الروسية ويسدل ستارا من حديد على نصف أوروبا)[٢].

التعويضات : ومما نوقش بشأن المانيا مسألة دفعها للتعويضات ، وكان ستالين هو المطالب بهذه التعويضات ، وكان المتباحثون يرون أن تتم التعويضات عن طريق الممتلكات لاالأموال ، ولكن كيف لألمانيا أن تدفع التعويضات وكانت طاقتها الصناعية منخفضة انخفاضا كبيرا ، وأموالها مجمدة ولم تستأنف مبادلاتها الدولية . إن ستالين والروس لم يكن يعنيهم ذلك (ففى رأيهم أن علىألمانيا أن تدفع تعويضات سريعة على شكل آلات وعلى صورة عمل ، ذلك أن المانيا المستاءة المقطعة الوصال ستساعد على انتشار الشيوعية)[٣].

---

(١) المذكرات (٤١٤-٤١٥) .
وانظر الثنائية الدولية (٥٣) ، وذكرت أن الاتحاد السوفييتى اشترط أن لايكون الجزء الممنوح لفرنسا على حساب نصيبه فى المانيا ، بل يكون من نصيب الولايات المتحدة وبريطانيا وحصل ذلك .
التاريخ الدبلوماسى (٨٠) ، مابعد الحرب الباردة (٢٧) .

(٢) الأمريكيون (٧٢) ، ميشال جوبيرا ، ترجمة وجيه البعينى ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس .

(٣) مذكرات مونتغمرى (٤٢٥) ، وانظر : الثنائية الدولية (٥٣) ، وذكرت أن التعويضات المطلوبة كانت بقيمة عشرين مليار دولار يعود نصفها للاتحاد السوفييتى التاريخ الدبلوماسى (٨٠) .

ويذكر روبرت مكنمارا أن برنامج التعويضات (كان يستلزم فرضه على مناطق الاحتلال الأربع ، أو التفاعل بين تلك المناطق ، أو خطة الولايات المتحدة (١٩٤٥) "لرعاية" المانيا وتحويلها بالكامل إلى الإقتصاد المقتسم [Agraion Economy] وجد البريطانيون والفرنسيون والأمريكيون نقاط اتفاق محدودة للغاية مع نظرائهم السوفييت ، واستمرت تلك المشاكل تزيد من حدة المرارة وتغذى المناقشات التى كانت تثير الضغينة بينهم)[١].

وكذلك كان الخلاف فى المؤتمر حول شكل الحكومات الألمانية المحتملة وتعقدت المشكلة الألمانية بشكل كبير ولم تحل القوى المتحالفة منها إلا أقل القليل[٢].

ثانيا : أوروبا :

(كان وضع أوروبا بعد الحرب وكيانها كله يتطلبان إعادة النظر بشكل صارخ ...)[٣].

وكانت جهود الثلاثةالكبار ترمى إلى حل المشاكل السياسية والإقتصادية التى ستطرح على الساحة غداة الحرب ، وكانت قضية بولونيا من الأولويات التى رغبوا فى إيجاد الحل لها ، وفى الاتفاق الذى تم بين تشرشل وستالين قسم النفوذ فى بعض الدول الأوربية وحينها كانت الولايات المتحدة مشغولة بالانتخابات[٤].

ثالثا : آسيا والشرق الأقصى :

تشكل البحث بشكل خاص عن اليابان وذلك من أجل استمرار الحرب ضدها ، فقد التزمت روسيا بالدخول فى الحرب ضد اليابان بعد هزيمة

---

(١) مابعد الحرب الباردة (٢٧-٢٨) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٨) .
(٣) مذكرات تشرشل (١٠١٠/٢) .
(٤) انظر : الثنائية الدولية (٥٣-٥٤) ، مابعد الحرب الباردة (٢٠ ومابعدها) .

المانيا[١]. ولاشك أن روسيا كانت تطمح لبعض المصالح من وراء هذه المشاركة ، وبالفعل تنازلت أمريكا عن مصالح كثيرة لصالح السوفييت ، وجاء التعهد الأمريكى البريطانى (بالإبقاء على وضع منغوليا الخارجية ، والمساهمة مع الصين فى استغلال خطوط الحديد فى شرق الصين وفى منشوريا والتنازل عن جزر الكوريل ، وإعادة جنوبى جزيرة سكالين إلى الاتحاد السوفييتى ، وإعادة تأجيره مرفأ بورت ارتور ، وتدويل مرفأ دايرن . هكذا تكون التنازلات الأمريكية ، لقاء المشاركة السوفيتية فى الحرب ضد اليابان ، على حساب غير الامريكيين ، وعلى حساب الصينيين بشكل خاص)[٢].

وحرص روزفلت على مشاركة السوفييت ومعرفتها فى مؤتمر يالطا ولعل بروز المقاومة اليابانية ، والتقديرات التى أوصلها رؤساء الحرب إلى مليون جندى أمريكى كخسائر فى الأرواح وقدروا استمرار الحرب مع اليابان بعد الانتصار على أوروبا بثمانية عشر شهرا ، وعدم الانتهاء من تصنيع القنبلة الذرية كل ذلك كان دافعا فى الإصرار على هذه المشاركة والتنازلات العديدة المقابلة لها[٣].

ولاشك أن القاء القنبلتين على هيروشيما فى ٦ آب (أغسطس) ١٩٤٥م وعلى ناجازاكى فى التاسع منه سبب ردة فعل لدى السوفيتيين ، فى حين أن

---

(١) انظر : مذكرات تشرشل (١٠٨٣/٢) ، الثنائية الدولية (٥٤) .

(٢) الثنائية الدولية (٥٥) .
وانظر التاريخ الدبلوماسى (٨١-٨٢) ، وانظر ذلك موسعا (٤٩٨-٥٠٠) ، وذكر (أن تشرشل صرح بأنه يعارض اطلاقا بإرجاع هونغ كونغ إلى الصين) (ص٨٢) كما يؤيد ماذكرته د. دعد بأن التنازلات كانت على حساب الآخرين وخاصة الصين.
ويقول دروزيل إن (هذه الامتيازات لاتعتبر خرقا للسيادة الصينية وحسب بل هى تنكر عملى لمبادىء روزفلت والولايات المتحدة فيما يتعلق بسلامة التراب الصينى والأوروبى الشرقى وبالاستقلال السياسى لبلدان هاتين المنطقتين من العالم) . (٤٩٩-٥٠٠) .

(٣) انظر التاريخ الدبلوماسى (٤٩٩) .

هذا السلاح لم يكن له حاجة لظهور بوادر النصر من قبله[١].

ومن هنا فإن الولايات المتحدة لابد وأنها كانت تهدف من وراء تفجير هذه القنبلة ومرتين إلى عدة أمور ظهرت آثارها فيما بعد وخاصة فى التنافس بين الدولتين واشتداد التوتر والمواجهة الباردة بينهما . وذكر ميشال جوبير (أن ترومان كان يود أن يسجل هدفا خاطفا فى تنافسه مع السوفيات ، مثل غزوهم لمنشوريا ...)[٢].

رابعا : الأوضاع العالمية :

وعن الأوضاع العالمية ككل تقول د.دعد : (أما بخصوص العالم ككل ، فلقد اهتم المتباحثون بالتفاهم حول بعض النقاط العالقة بشأن إنشاء المنظمة الدولية التى من المفترض تكليفها بشئون عالم مابعد الحرب ، وهذا انطلاقا من نظرة روزفلت الكونية ، بحيث يأتى عالم مابعد الحرب عالما واحدا يسود فيه السلام تحت إشراف الدول الكبرى ، وبإشراك كل الدول التى ساهمت بتخليص العالم من النازية . وكان قد سبق يالطا فى بحث هذا الموضوع وبعض تفاصيله عدد من الاجتماعات ، منها : اجتماع القمة فى طهران فى أواخر سنة ١٩٤٣م ، واجتماع دامبرتون أوكس الخاص فى صيف وخريف سنة ١٩٤٤م ، اتفق فى يالطا على أن يكون الاجتماع التأسيسى للمنظمة قبل نهاية الحرب ، وذلك فى سان فرانسيسكو فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما اتفق على أن تكون الدول الداعية إلى الاجتماع خمسا ، أى بإدخال الصين وفرنسا إلى جانب الثلاثة "الكبار" . واتفق أيضا حول موضوعى العضوية والتصويت . بالنسبة للعضوية ، اتفق على أن يتمثل الاتحاد السوفياتى بثلاثة أعضاء ، أى الاتحاد السوفييتى ككل ، وكل من جمهوريتى

---

(١) انظر مذكرات تشرشل (١٠٨٤/٢) حيث قال : (من الخطأ الافتراض بأن القنبلة الذرية هى التى قررت مصير اليابان ، لقد كان المصير المحتوم بالهزيمة ينتظرها قبل القاء القنبلة الأولى) .

(٢) الأمريكيون (٧١) .

أوكرانيا وروسيا البيضاء (بيبلوروسيا) ، وأن تدعى إلى سان فرانسيسكو كل دولة أعلنت الحرب على المحور ، أو قطعت علاقاتها مع دوله ، قبل تاريخ ١٥ شباط . وبشأن التصويت ونظرا لموقف ستالين المتشدد والمحتقر تجاه الدول الصغيرة ، تقرر أن يكون للدول الخمس الداعية حق مميز (أصبح فيما بعد حق النقض) .

وبحث أيضا موضوع عام مهم هو مصير الشعوب الواقعة تحت نفوذ دول المحور . تقرر بهذا الشأن مبدأ الوصاية الدولية . كما تقرر أمر مهم جدا فى الإطار العالمى العام ، هو تأليف مجلس من الدول الثلاث المشاركة فى المباحثات ، على مستوى وزراء الخارجية يجتمعون ، على الأقل ثلاث مرات سنويا ، لبحث الشؤون المهمة والتى قد تعترض مسيرة السلام والتفاهم فى حال السلم مابين حلفاء الحرب . وفى هذا المجال ، اعتبر كثيرون من الباحثين أن الدول الكبرى الممثلة فى يالطا ادعت لنفسها حق إدارة النظام العالمى . لكن الأمور لم تسر تماما كما خطط لها مابين الرابع والحادى عشر من شباط سنة ١٩٤٥م فى شبه جزيرة القرم)[١].

---

(١) الثنائية الدولية (٥٥) .

وقد تحدثت كثير من المراجع عن هذا المؤتمر وموضوعاته ورأيت أن ماجاء فيها لايكاد يخرج عما ذكرناه من المراجع المثبتة بل أن ماجاء فيها مما وقعت عينى عليه إما تكرار لما جاء فيها ، أو اختصار لها ، أو اقتصار على موضوع دون غيره ومن ذلك التيارات السياسية المعاصرة (٤٤٣-٤٤٨) بشأن المانيا ، وكذلك بشأنها انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤١ ومابعدها) .

وانظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥م (٢٠-٢١) ، دانيال ، نورمان ، ترجمة عبد العليم الأبيض ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة .

وانظر الحرب العالمية الثانية عن المؤتمر عامة (٤٩٤-٥٠٢) وقال مؤلفه : "والواقع أن الجميع قد غادروا مؤتمر يالطا وهم يشعرون بأن تفاهم الكبار كان مرضيا جدا رغم المسائل الكثيرة التى بقيت معلقة بينهم ورغم الخلافات التى نجمت بين بعضهم والبعض الآخر" .

آثار المؤتمر :

لاشك أن هذا المؤتمر وغيره من الاجتماعات كان لها آثارا واضحة على الساحة الدولية وخاصة منها مؤتمر يالطا ، حيث اعتبر بعض الباحثين أن مؤتمر يالطا كان الهدف منه تقسيم العالم ، وبعضهم يرفض ذلك الرأى ، ورأى ثالث يرى أن هذا المؤتمر ساعد إلى حد ما فى سيطرة القوتين الكبريين على العالم(١).

وتتابعت المؤتمرات والاجتماعات غير أنها لم تؤت الثمرة التى كانت ترجى من ورائها(٢).

وهكذا كانت الأمور بين مد وجزر وخاصة بين الاتحاد السوفييتى من جهة والولايات المتحدة وبريطانيا من الجهة الأخرى .

لقد أفرزت السنوات التالية لعام ١٩٤٥م عدة أحداث كانت مقدمات وأسباب مباشرة فى الاتجاه للحرب الباردة ، وليس هدفنا هو السرد التاريخى لهذه الأحداث أو الاجتماعات واللقاءات التى حدثت بشأنها ولكننا نعتبرها وهى كذلك المؤثرات القوية فى ماتلاها من أحداث .

وإذا كانت الأربعينات وخاصة النصف الثانى منها قد وجدت فيها أحداث غيرت من مجرى الأوضاع السياسية والإقتصادية عالميا فإن هذه السنوات كانت بداية عصر جديد فى العلاقات الدولية .

ونتجاوز الأحداث إلى أن نصل إلى عام ١٩٤٧م وهى السنة التى اعتبرت البداية الحقيقية للحرب الباردة نظرا لما وجد فيها وماتلاها من أحداث كانت مقدمات وأسباب لها فى آن واحد .

ويمكن إبراز تلك الأسباب والمقدمات فى التالى :

---

(١) انظر الثنائية الدولية (٥٨-٦٠) .

(٢) انظر المرجع السابق (٦٢-٦٥) بمراجعها عن مؤتمر بوتسدام والذى لم يقرب الآراء بل زادها بعدا ، وقالت د. دعد : (يمكن القول فى نهاية المطاف ، أن مباحثات بوتسدام شكلت خطوة مهمة وأساسية باتجاه التباعد ...) .
وانظر مختصرا عنه من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٠-٢١) .

أولا : تراجعت بريطانيا عن سيطرتها ونفوذها نظرا لضعفها وبروز الاتحاد السوفييتى بجوار أمريكا ، ومن هنا بدأت الولايات المتحدة تعد نفسها للحقبة القادمة .

تقول د. دعد :

(إن سنة ١٩٤٧م هى سنة الانقسام والاقتسام الفعليين على أساس وجود دولتين كبريين فقط ، بحيث إن الدولة الكبرى الثالثة فى الحرب و(نصف) الدولة الكبرى عند نهاية الحرب ، أى بريطانيا ، انسحبت الآن ، أو هى قيد الانسحاب من الساحة ، آملة فى أن يسجل هذا الانسحاب لصالح حليفتها وصديقتها الأمريكية ، على الرغم من الخلافات التى حصلت بينهما)[١].

وأدى هذا التراجع البريطانى إلى أن تبذل أمريكا مافى وسعها من أجل تغطية الفراغ الذى سيحدثه أفول نجم القوة البريطانية وتحمل أمريكا التزامات جديدة تجاه بعض الأقطار .

يقول كولن ويبتر :

(وبحلول مطلع سنة ١٩٤٧م كانت المملكة المتحدة فى حالة سيئة وأصبح من الضرورى اتخاذ اجراءات إقتصادية صارمة إذا أريد لها أن تتفادى الإنهيار ، ولذلك قامت الحكومة البريطانية فى ٢١ شباط بإعلام الولايات المتحدة أنه لم يعد لديها خيار فى إنهاء معونتها ودعمها لليونان وتركيا . وقد كان هذا نقطة تحول فى التاريخ المعاصر لأنه أدى إلى دخول الولايات المتحدة فى تحمل التزامات تجاه أقطار أجنبية فى حالة السلم . وفى الثانى عشر من آذار أعلن ترومان مبدأ ترومان الذى كرس فيه الدعم الأمريكى "للعالم الحر")[٢].

---

(١) الثنائية الدولية (٨٣-٨٤) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٢) .

وزد على هـذا أن أمريكا قـامت بسحب قواتها مـن أوروبا ، وأصـاب هذا العمل تشرشل بالفزع فأرسل إلى ترومان ـ يعبر عن مخاوفه ـ برقية جاء فيها :

(إننى أشعـر بقلق عميق مـن جراء الوضع فى أوربا . وقـد علمـت أن نصف القوة الجوية الأمريكية فى أوروبا قد بدأ بالانسحاب إلى مسرح المحيط الهـادى ... ومن المحتمل أن تمر جيوشنا ، وفقا لترتيبـات سابقة ، فى مرحلة مماثلة من التخفيض الواضح ، وسينسحب الجيش الكنـدى بصورة مؤكدة ، أمـا الجيـش الفرنسى فضعيـف ، ومن الصعب التعامـل معـه . وفى وسع كل إنسـان أن يرى ، أنه بعـد وقـت قصير جدا ، ستختفـى قـواتنا المسلحـة من القـارة الأوربية ، باستثناء قـوات معتدلة ، يحتفظ بها للسيطـرة على المانيا ... ويجوز لى أن أتسـاءل ، ترى ، ماذا سيؤول إليه الوضـع بعد سنة أو سنتين عنـدما تذوب الجيوش البريطـانية والأمريكية من القـارة ، ولاتكون الجيوش الفرنسية قد نظمت أمرها بعد على نطاق واسع ، فلاتبقـى لنا سوى حفنة من الفـرق معظمها فرنسى ، تواجه مـائتين أو ثلاثمائة فرقـة آثرت روسيا الابقاء عليها فى الخدمة الفعلية . إن ستارا حديديا ينسدل الآن على الجبهـة الروسية فنحن نجهل مايدور وراء هذا الستار ...)[١].

وقـد (انخفضـت القـوات الأمـريكية فى أوروبا خلال عـام واحد مـن ٣,١٠٠,٠٠٠ رجل إلى ٣٩١,٠٠٠ رجل فقـط ، وانخفضت قـوات المملكة المتحدة من ١,٣٢٠,٠٠٠ رجل إلى ٤٨٨,٠٠٠ . وعـادت جميع القـوات الكندية وعددها ٢٩٩,٠٠٠ رجل إلى بلادها"[٢].

---

(١) مذكرات تشرشل (١٠٧٢/٢) .

(٢) فـن الحرب (٣٥٦) ، اميل وانتى ، تعريب اكرم ديرى ، الطبعـة الأولى ١٩٧٣م ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .
وانظـر تاريخ الـولايات المتحـدة منـذ ١٩٤٥م (٢٦-٢٧) ، وذكـر أن القـوات الأمريكية كانت تعود إلى الوطن بمعدل ٣٥ ألف جندى فى اليوم .

وقد اعتبر كثير من الأمريكيين حينها أن تشرشل كان مبالغا فى آرائه ولكن الأحداث التى تلت كانت تدل على حقيقة تخوفه ذلك ، يقول كولن وبيتر :

(إن كلمات تشرشل وجدت مايبررها كل التبرير كما أثبتت الأحداث فى شرق أوروبا سنة ١٩٤٧م)[١].

ويقول وانتى : (ومضى وقت طويل قبل أن يفهم من هم أقل منه وعيا وقدرة على الرؤيا حقيقة الموقف)[٢].

ثانيا : وكنتيجة بدهية لذلك الوضع وبداية التخوف الأمريكى ، مضافا إليه التحرك السوفييتى من أجل التوسع والسيطرة بدأت كل من الدولتين باستغلال الوقت لصالحها ، فالاتحاد السوفييتى يبذل قصارى جهده فى محاولة السيطرة على أكثر الدول ، فى حين أن أمريكا تحاول جاهدة فى احتواء المد الشيوعى والتقليل من انتشاره فى الدول الأوربية وغيرها . فبدأ كل من الطرفين بالتحرك ضد الطرف الآخر للحيلولة دونه دون تحقيق أهدافه ومآربه ، فبرزت الثنائية الدولية على الساحة بكل وضوح ، وأدى ذلك إلى زيادة التوتر واشعال لهيب الخلاف فيما بينهما .

يقول براور : (إن الفراغ فى السلطة الذى ترك فى أوروبا بعد إنهيار دول المحور فتح المجال أمام الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لأخذ ومد المبادرة والقيادة فى إعادة تنظيم العلاقات الأوربية .

فى أوروبا الشرقية ، تمت عمليات إعادة البناء بالوجه الذى أرادته السلطات السوفيتية والأهداف السياسية للأحزاب الشيوعية ، فى أوروبا الغربية ، جعل الخوف من السيطرة الشيوعية والإنهيار الإقتصادى هناك ، جعل تلك الدول تعتمد دبلوماسيا وإقتصاديا على الولايات المتحدة ... كان

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٤) .
(٢) فن الحرب (٣٥٦) .

للصراع الجديد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى مصطلحاته الكئيبة الخاصة به ، فقد أصبح مصطلح "الستار الحديدى" يمثل العوائق الدبلوماسية والسياسية التى فصلت بين المجتمعات الشيوعية وغير الشيوعية فى أوروبا . كان التفوق العسكرى والإقتصادى الأمريكى والسوفياتى كل فى نطاقه قد أدى إلى تسمية هاتين القوتين "بالقوى الأعظم" . إن مصطلح "الحرب الباردة" أظهر خصائص علامات العداء بين الدولتين اللتين لم تكونا فى حالة حرب ولكنها كانت على الدوام تحضر نفسها لدخول صراع جديد . كان موقع الخطوط الأمامية الوهمية فى المناطق السياسية والدبلوماسية للصراع بين الشيوعيين والدول التى تساندها أمريكا . إن هذه المواجهة العالمية واجهت القادة الأمريكيين ، الذين كانت خبرتهم فى سياسات القوة والعلاقات الدولية ضئيلة ، بأسئلة معقدة . ماذا كانت طبيعة هذا الصراع؟ إن كان الخطر هو الشيوعية أم القوة السوفياتية؟ ماهى المناطق التى تشكل المصالح الحيوية للولايات المتحدة وأين يجب توجيه الدعم الأمريكى؟

كانت ردة الفعل الأمريكية لهذه الظروف الجديدة هو اتباع استراتيجية التدخل فى إعادة البناء فى كل من آسيا وأوروبا . ثم الإطلاق على هذه السياسة الجديدة اسم (الكبح) ، ووضعت هذه السياسة الخطوط العريضة للسياسات السياسية والدبلوماسية الأمريكية للسنوات المقبلة)[١].

ويلحق بهذا أن القادة الغربيين والمسئولين العسكريين بدأوا يفسرون التحركات السوفيتية بأنها تنطلق من الأيديولوجية الشيوعية ، وكذلك الأمر بالنسبة للقادة السوفييت فى تصورهم للرأسمالية الغربية ، فزادت الخلافات الأيديولوجية من حدة التوتر بين الطرفين .

ثالثا : فشل المعاهدات والإجتماعات التى عقدت بين الحلفاء ، سواء فيما يتعلق بالسلم ، أو النتائج التى يرغب كل طرف فى تحقيقها بعد الحرب ، وبعضا من هذه المؤتمرات والإجتماعات والمعاهدات لم تؤت ثمارها المرجوة

---

(١) العالم فى القرن العشرين (٢٤٦-٢٤٧) .

من وراء عقدها[١]، مما كان له أكبر الأثر فى زيادة الخلاف ، وتوسع القضايا التى كانت تطرح وتشعبها . زد على هذا عدم الثقة بين الأطراف التى تعقد هذه الاجتماعات والمؤتمرات ، بل إن كلاً من أمريكا وبريطانيا وهما أقرب إلى الاتفاق فيما بينهما ، كان الشك وعدم الثقة فى النوايا قائم بينهما.

وبدون أدنى شك إن مثل هذا الأمر من عدم الثقة والشك بين الأطراف سيزداد مع الأيام ، وكذلك سيجعل كل طرف يفسر أدنى تحرك من الطرف الآخر بأن المقصود من ورائه بسط النفوذ أو العمل من أجل الحاق الضرر به . وهكذا كان لفقدان الثقة بين الأطراف أثره فى زيادة التوتر وكذلك العمل من أجل التحسب لأى أمر قد يصدر عن الطرف الآخر[٢].

رابعا : المعاهدات التى عقدها الاتحاد السوفييتى مع دول أوروبا الشرقية حيث كان لابد من رد فعل أمريكى تجاهها مما زاد الوضع سوءا .

يقول العسلى :

(كان الاتحاد السوفييتى أسبق من سواه فى اتخاذ الترتيبات لمواجهة الأزمات المحتملة . إذ كان ستالين قد أصدر تعليماته بعقد مجموعة من المعاهدات الدفاعية فى دول أوروبا الشرقية ، وتوثيق أسس التعاون بين هذه الدول . فكانت المعاهدات التالية :

---

(١) انظر ماذكره تشرشل فى مذكراته وخاصة الجزء (٢) فى مواضع كثيرة منه وعلى سبيل المثال (٧٠٧ ومابعدها ، ٨٥٨ ومابعدها ، ٩٨١-٩٨٩) .
وانظر التيارات السياسية المعاصرة (٤٤٠ ومابعدها) ، وذكر أن مجلس وزراء الخارجية عقد اجتماعاته أكثر من مائة مرة وكان أول اجتماع له فاشلا .
وانظر ستالين (٢٠٢ ومابعدها) وذكر أن المجلس الرباعى عقد اجتماعا فى يوم ١٠ آذار/مارس ١٩٤٧م واستمرت اجتماعاته إلى يوم ٢٥ نيسان/ ابريل وتم عقد أربعة وأربعين جلسة انتهت إلى فشل ذريع واختلاف تام فى وجهات النظر بشأن القضية الألمانية .

(٢) عن الخلاف بين الولايات المتحدة وبريطانيا انظر الحرب العالمية الثانية (٤٩٥-٤٩٦).

(١) المعاهدة السوفيتية ـ التشيكوسلوفاكية بتاريخ ١٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٣م .

(٢) المعاهدة السوفيتية ـ اليوغسلافية بتاريخ ١١ نيسان/ابريل ١٩٤٥م .

(٣) المعاهدة السوفيتية ـ البولونية بتاريخ ٢١ نيسان/ابريل ١٩٤٥م ...) .

(وهكذا وجد ستالين أن الاتحاد السوفييتى بات فى موقع القوة عندما تفاقمت الأزمة . فأخذ المبادأة فى أعقاب فشل مؤتمر مجلس وزراء خارجية الدول الأربع فى موسكو ، وأعلن إلغاء جميع بنود الاتفاقات المبرمة سابقا مع الحلفاء والتى كانت تقضى بتحديد حجم القوات المسلحة للدول التى كانت حليفة لقوى المحور فى الحرب العالمية الثانية ...) .

(وهبت عاصفة هوجاء فى الولايات المتحدة بصورة خاصة ، نتيجة الاحباط وخيبة الأمل التى منيت بها السياسة الأمريكية وظهر كأن ماأنفقته الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الثانية (والذى قدر بمبلغ ٣٤١ مليار دولار) بالإضافة إلى التضحيات التى وقع ثقلها على كاهل القوات الأمريكية ماكانت كلها إلا لتعطى أوروبا الشرقية هدية للاتحاد السوفييتى ...)[١].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بالنسبة للسوفييت ، بل قامت الدول التى أصبحت تحت سيطرتهم بعقد الاتفاقيات والمعاهدات فيما بينها[٢].

وكذلك كان الأمر بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية حيث عقدت عدة معاهدات وكانت تنص على حماية الدول بعضها بعضا حال العدوان عليها مضافا إلى ذلك العمل ضد الدعاية الشيوعية . ومن هذه المؤتمرات والمعاهدات التى وقعت بين أمريكا وبعض الأطراف الأخرى لدول أمريكا الجنوبية وغيرها :

---

(١) ستالين (٢٠٢-٢٠٥) ، وانظر التاريخ الدبلوماسى (٢٢٨) .

(٢) ولكى لايطول بنا المقام فى سرد هذه الاتفاقيات وتواريخها انظر ستالين (٢٠٣) ومابعدها .

(مؤتمر مكسيكو . وقد دام هذا المؤتمر من ٢١ شباط إلى ٨ آذار ١٩٤٥م ولم يكن جزءا من دورة المؤتمرات العادية . فقد انعقد مباشرة بعد مؤتمر يالطا للنقاش فى قضايا أثارتها الحرب والسلام ، ولم تدع الجمهورية الأرجنتينية للحضور إلى مكسيكو بسبب طابع حكومتها (الفاشى) ولم تعترف بها الولايات المتحدة . وكانت النتيجة الجوهرية للمؤتمر مايسمى (صك شابولتيبيك) باسم الحصن الواقع على ٥ كم من مكسيكو . وهذه الوثيقة المؤسسة على المساواة الحقوقية بين جميع الدول تنص على (أن أى اعتداء من دولة على سلامة دولة أمريكية وحرمة أرضها ، وسيادتها أو استقلالها السياسى ، يجب أن يعتبر عمل عدوان ضد الدول الموقعة على هذا التصريح) . وفى حالة عدوان أو تهديد بالعدوان تتشاور الدول الموقعة بالأمور التالية :

(١) بينما تدور رحى الحرب يعاقب العدوان بإجراءات مختلفة (يمكن أن تعتبر ضرورية) ، مثل قطع العلاقات الدبلوماسية ، العقوبات الإقتصادية وحتى استعمال القوة المسلحة .

(٢) يجب أن يبرم اتفاق إقليمى للحفاظ على هذا النظام واتمامه بعد إبرام الصلح .

وفى ريو - دو - جانيرو ، انعقد ، من ١٥ آب إلى ٢ أيلول ١٩٤٧م ، مؤتمر أمريكى جديد فوق العادة[١](للحفاظ على السلام القارى والأمن) وكان من الضرورى تنسيق نتائج مؤتمر مكسيكو مع شرعة الأمم المتحدة ووضع اتفاق دائم عوضا عن صك شابولتيبيك الموقت . وكانت النتيجة الأساسية إعداد (معاهدة معونة متبادلة أمريكية عرفت باسم (ميثاق ريو) . والتدابير الموضوعة هى تقريبا التدابير نفسها التى نص عليها صك شابولتيبيك تشاور فى حال عدوان أو تهديد بالعدوان ؛ وفى حال العدوان ، تقرر هيئة الاستشارة كافة العقوبات .

---

(١) (كانت نيكاراغوا الجمهورية الوحيدة ، من بين ٢١ جمهورية ، التى لم تدع إلى المؤتمر بسبب حدوث انقلاب فيها) .

وانعقد مؤتمر بوغوتا من ٣٠ آذار إلى ٢ أيار ١٩٤٨م . وهو المؤتمر الأمريكى التاسع النظامى . وكان مضطربا جدا بسبب محاولة عصيان فى العاصمة الكولومبية ، وفى مؤتمر صحفى نسب الجنرال مارشل إلى الشيوعيين مسؤولية هذا العصيان . وكانت نتائج المؤتمر رقيقة ، وبدا أن التوتر يزداد سوءا بين الولايات المتحدة والجمهوريات اللاتينية ، واشتد الهجوم على الدول الأوربية التى تملك أراضى فى أمريكا ... وتعهدت الدول الأمريكية بالإجماع على النضال ضد الدعاية والعمل الشيوعى)[١].

مضافا لذلك بعض التسهيلات العسكرية التى حصلت عليها الولايات المتحدة بشأن القواعد العسكرية[٢]إلى أن أقيمت الأحلاف العسكرية لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى .

خامسا : إعلان مبدأ ترومان كرد فعل تجاه السياسية السوفيتية مماكان له أثره على الوضع بين الدولتين وزيادة التوتر بينهما ، وقد ألقى الرئيس ترومان خطابا وصور فيه الوضع الدولى وذلك صبيحة الثانى عشر من آذار/ مارس سنة ١٩٤٧م ومما جاء فيه :

(فى هذه اللحظة من تاريخ العالم على كل أمة تقريبا أن تختار بين طرق بديلة فى الحياة . وكثيرا مايكون الاختيار قسريا ، فثمة طريقة للحياة قائمة على مشيئة الأكثرية وتتميز بمؤسساتها الحرة وحكومتها التمثيلية وانتخاباتها الحرة وضمان الحريات الفردية وحرية الكلام والدين والتحرر من الظلم السياسى . أما الطريقة الثانية فى الحياة فترتكز على مشيئة أقلية مفروضة بالقوة على الأكثرية . كما تعتمد على الإرهاب والظلم والصحافة والإذاعة الخاضعتين للمراقبة ، والانتخابات المقيدة وكبت الحريات الشخصية وأعتقد أن من واجب سياسة الولايات المتحدة دعم الشعوب الحرة التى تقاوم محاولاتها إخضاعها لأقليات مسلحة أو لضغوط أجنبية . كما أعتقد أن

---

(١) التاريخ الدبلوماسى (٢٢٠-٢٢٢) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٢٣) .

علينا مساعدة الشعوب الحرة فى تقرير مصائرها بأساليبها الخاصة)[١].

وهذا المشروع يقوم على وجوب مساعدة اليونان وتركيا ووافق الكونغرس على تخصيص مبلغ قدره أربعمائة مليون دولار مساعدة لهما ، ٣٠٠ مليون لليونان و١٠٠ مليون لتركيا[٢]. وقد خشيت أمريكا أن ينجح الشيوعيون فى قلب نظام الحكم فى اليونان ، ومن هنا أعلن ترومان وجوب المساعدة لهؤلاء وقال :

(أعتقد أن سياسة الولايات المتحدة يجب أن تتجه إلى مساعدة الشعوب الحرة التى تكافح الخضوع للأقليات المزودة بالسلاح أو الضغوط الخارجية)[٣].

ويقول كولن وبيتر :

(وعلى الأرجح فإن هذا الإجراء الأمريكى أنقذ اليونان وتركيا رغم أن التمرد الشيوعى فى اليونان لم ينته بصورة رسمية حتى صيف سنة ١٩٤٩م وكان مبدأ ترومان ردا ليس على النشاط الشيوعى فى شرق البحر المتوسط وحسب ، بل كذلك على النشاطات السوفياتية فى كل مكان بما فى ذلك أوروبا الوسطى والشرقية)[٤].

---

(١) Truman, op. cit. Vol.2, p.106 .
نقلا من كتاب الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٢) .
وانظر ستالين (٢٠٢-٢١٠) .

(٢) انظر : ستالين (٢٠٢-٢١٠) ، التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٧) ، موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٥٢) ، ألان نيفيتز ، هنرى ستيل ، ترجمة محمد بدر الدين خليل ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٢) ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥م (٤٥) ، التاريخ الدبلوماسى (١٧٦) .

(٣) التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٧) ، وانظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥م (٤٥) ، وكانت تهدف الولايات المتحدة إلى منع انتشار النظام الإشتراكى لأنها رأت أن النظم الجمعية فرضت على عدد من الدول . التاريخ الدبلوماسى (١٧٦).

(٤) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٢-٣٣) .

وبالفعل كان لمشروع أو نظرية ترومان أثرها على الدولتين المذكورتين حيث استمرتا (خارج نطاق النفوذ السوفييتى)[١].

لقد حدد مبدأ ترومان أن الدول التى تناضل من أجل استقلالها والتى تكافح من أجل ذلك جديرة بالمساعدة وتقديم المعونة العسكرية والإقتصادية لها ، ويقضى مبدأ ترومان (باحاطة الاتحاد السوفييتى بشبكة من القواعد البرية والبحرية والجوية الأمريكية المزودة بالرادارات والقاصفات السوقية الجبارة الحاملة للقنابل الذرية امتدت القواعد الأمريكية من الاسكا إلى غرب أوروبا وجنوبها ، وإلى اليونان وتركيا وإيران وباكستان والشرق الأقصى واليابان)[٢].

سادسا : إعلان مشروع مارشال[٣].

ولم تمض فترة وجيزة حتى جاء مارشال بمشروعه ، وكان المشروع يهدف إلى تقديم المساعدات للدول الأوربية فيما بينها ، ولتسهيل التعامل التجارى والإقتصادى بينها .

ومن هنا (أعلن الوزير مارشال السياسة التى اعتزمتها الولايات المتحدة ففى خطاب ألقاه فى جامعة هارفارد يوم ٥ يونيو سنة ١٩٤٧م ، تعهد بأن تبذل الولايات المتحدة مساهمات ضخمة نحو مشروع لإنهاض أوروبا تعاونيا وكان (برنامج الإنعاش الأوروبى) ، كما أصبح معروفا ، يتضمن تقديم الآلات والمخططات والخامات والخبراء المتمرسين فى التكنولوجيا الأمريكية ، وليس المال وحده . وكان على الدول الأوربية أن تعين كل منها الأخرى بالقروض ، وتبادل التسهيلات الخاصة ، وتعجيل سرعة التجارة الدولية . وكان لابد من إزالة الحواجز الجمركية أو تخفيضها تخفيضا كبيرا ، على الأقل

---

(١) تاريخ الولايات المتحدة (٤٥) .

(٢) حرب النجوم تكنلوجيا وآفاق (١٤) ، إعداد اللواء الركن عبد الله سيد أحمد ، العميد الركن طلعت نورى على ، الطبعة الثانية ١٩٨٨م ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

(٣) وزير خارجية أمريكا حينها .

فى كافة أرجاء العالم الحر . فكان المأمول أن يترتب على هذا البرنامج تقديم جديد نحو الحلم الذى لم يتحقق قط ، حلم ولايات متحدة أوربية . وقد أوضح مارشال أن على أوروبا أن تتكفل بالمبادرة التمهيدية والطاقة النشيطة.

فهل تستجيب أوروبا؟ وهل يفى الكونجرس بتعهد مارشال وهو الحريص على الإنفاق الأمريكى؟

كان الرد عن السؤال الأول سريعا . فإن وزيرى خارجيتى بريطانيا وفرنسا ، وجها الدعوة إلى جميع الدول الأوربية ، وبينها روسيا ، لحضور مؤتمر فى باريس لمناقشة برنامج موحد للتعمير وإعادة التنظيم . ولم تكتف روسيا بالامتناع ، بل إنها حرمت على بعثاتها الثمان أن تحضر المؤتمر[١]. غير أن ست عشرة دولة من أيسلندا حتى تركيا ، حضرت واتخذت فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٧م مشروعا تعاونيا لإعادة التعمير والإنشاء ، تطلب استخدام مايقرب من اثنين وعشرين بليونا من الدولارات فى السنوات الأربع التالية . وكان لابد لقسط من هذه الأموال أن يأتى من البنك الدولى للإنشاء والتعمير ، وقسط من متباين الدول ، ولكن القسط الأكبر كان من الولايات المتحدة . وقام المشروع على تعهد من الدول الست عشرة المشتركة (بقدر واسع النطاق من المساعدة المتبادلة الفعلية والممكنة) . وماكان من الممكن

---

(١) أعلنت تشيكوسلوفاكيا قبولها للمشروع ولكنها تحت الضغط الروسى عدلت عن الاشتراك فيه .

انظر : التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٨) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٥) وذكر أنها أبدت اهتماما بالمشروع ، مذكرات مونتغمرى (٥٤٦) وقال : (إن بعض البلدان الأوربية تستطيع أن تستفيد من هذه المساعدة وأن بعض البلدان الدائرة فى فلك الروس قد سبق لها أن رحبت بالمشروع . وإذن فقد كان موقف الروس الدليل الواضح على أنهم لايرغبون فى أن تنهض أوروبا بل يفضلون أوروبا مضطربة مقطعة الأوصال ذلك أن نهوضها قد يعرقل انتشار الشيوعية . وإنى لأعتبر هذا التاريخ ، أى شهر تموز ١٩٤٧م ، تاريخا هاما فى فترة مابعد الحرب إذ فيه كشف الروس عن وجههم الحقيقى بشكل لم يترك مجالا للريب) .

أن يكتمل المشروع فى أقل من أربع سنوات .. ولكن أوروبا تصبح - إذا ماكتمل - أكثر تقدما عن مرحلة التنمية الإقتصادية التى كانت فيها قبل الحرب بشوط كبير .

ولم يكن الكونجرس سريعا فى استجابته بهذه الدرجة . ففى إجتماعه فى أوائل سنة ١٩٤٨م ، قدر الوقت اللازم لدراسة المشروع بشهرين . ثم استحثه استيلاء الشيوعيين على الحكم فى تشيكوسلوفاكيا على العمل . وفى ٤ ابريل سنة ١٩٤٨م ، وقع ترومان قانون التعاون الاقتصادى ، الذى اعتمد للعام الأول ٦,٠٩٨,٠٠٠,٠٠٠ من الدولارات . وقد جاء فيه : (هذا هو الرد على التحدى الذى يواجه العالم الحر) . وبادر بأن أمر بتوفير بليون دولار للبدء فى البرنامج ، وعين لرئاسة دائرة التعاون الإقتصادى ، أحد أصحاب مصانع السيارات ومن الجمهوريين ، هوبول جى .هوفمان)[١].

---

(١) موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٥٤-٥٥٥) ، وانظر : التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٧-٤٥٨) ، وذكر المؤلف أن الولايات المتحدة أنفقت اثنا عشر مليارا من الدولارات من أجل بناء إقتصاد أوروبا الغربية .
وانظر ستالين (٢٠٢-٢١٠) ، وذكر أنه مما جاء فى المحاضرة (بالنظر إلى خطورة الأحداث الدولية ، وبغية تمكين أوروبا من النهوض بعد دمار الحرب فقد يتوجب على الولايات المتحدة الأمريكية تقديم عون مجانى وهام إلى الدول الأوربية) .
من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٥) وذكر أن المبلغ ١٣١٥٠ مليون دولار منحته أمريكا لستة عشر بلدا ، ومن بين من تلقى هذه المساعدة النمسا وبلجيكا والدانمرك والنرويج والسويد وأيسلندا وهولندا ولوكسمبورج وبريطانيا والبرتغال وسويسرا وايطاليا واليونان وتركيا وفرنسا وجمهورية ايرلندا . كما تلقت المناطق العسكرية الغربية الثلاث من المانيا قدرا من المعونة (الحاشية ص٣٥) .
تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٧) وذكر أن المبلغ قدره ١٢,٥ بليون دولار قدم لـ١٧ دولة أوربية وذهب أكثر من نصف المبلغ إلى أشد المناطق تأثرا بالحرب.

لقد (استهدف مشروع (مارشال) انعاش أوروبا المنهكة إقتصاديا (وعلى الأخص المانيا الغربية التى دمرت مدنها ومصانعها ومعاملها أثناء الحرب) وتحويلها إلى قاعدة صناعية وعسكرية جديدة وإلى شريكة تجارية للولايات المتحدة والاستفادة من طاقاتها وامكانياتها العلمية والتكنولوجية والإقتصادية والصناعية والبشرية لمواجهة التفوق السوفييتى فى مجال القوات والأسلحة التقليدية)[١]. (وبذلك تقضى على ظروف الحرمان واليأس التى يمكن أن تؤدى إلى نمو الشيوعية)[٢]

لقد وصفت مجلة (الايكونوميست) البريطانية المشروع بقولها (إنه أسخى شىء تقدمه دولة لأخرى)[٣].

(وعندما رفض الروس عام ١٩٤٧ مشروع مارشال ، اشتدت الحرب الباردة التى كانت مستمرة آنذاك منذ بعض الوقت . وأخذ القلق يستبد بمجموعة من دول أوروبا الغربية لهذا التهديد المتعاظم الآتى من الشرق ، وتجلت الحاجة إلى الوحدة بغية التمكن من صد هذا التهديد)[٤].

وذكر مارشال (إن الحالة العالمية خطيرة جدا)[٥].

وبهذين المشروعين تكون الولايات المتحدة قد أفصحت عن سياستها تجاه أوروبا .

يقول دروزيل : (إن الولايات المتحدة ، بمبدأ ترومان وبرنامج مارشال قد اختارت عن عزم وتصميم أوروبا الغربية واعتبرتها عنصرا حاسما فى التوازن العالمى)[٦].

---

(١) حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (١٤) .
(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٥) .
(٣) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٧) .
(٤) مذكرات مونتغمرى (٥٤٦-٥٤٧) .
(٥) التاريخ الدبلوماسى (١٧٩) .
(٦) المرجع السابق (١٨٠) .

سابعا : كان لابد من رد فعل تجاه هذا المشروع فقام ستالين بانشاء الكومنفورم[١] من أجل ضم الأحزاب الشيوعية بعضها إلى بعض ، وهذا ولاشك نظير ماأرادته أمريكا من تعديل الوضع فى أوروبا .

يقول العسلى :

(لم يقف ستالين موقف المتفرج من هذه التطورات ، بل تابع عمله السياسى ، فأوفد وزير خارجيته ، مولوتوف ، لحضور المؤتمر الثالث (فرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفييتى) والذى عقد فى باريس من ٢٧ حزيران/يونيو وحتى ٢ تموز/يوليو ١٩٤٧م حيث أعلن - مولوتوف - : (بأن العون الأمريكى فى مشروع مارشال لدعم أوروبا هو عون سينتقص من استقلال الدول التى تقبله) واقترح أن يكون العون مقتصرا على الدول الأوربية التى كانت ضحية العدوان الألمانى - أى دول أوروبا الوسطى وفرنسا - وأن لايشترط فى هذا العون تنسيقا بين الدول التى ستقبله . ولم تقبل فرنسا وبريطانيا مقترحات مولوتوف ، وفشل المؤتمر الثلاثى . قذف ستالين مرة أخرى قفاز التحدى فى وجه الغرب . عندما تم الإعلان فى شهر أيلول/سبتمبر ١٩٤٧ عن تشكيل (مكتب المعلومات السوفييتى - الكومنغورم) ليضم الأحزاب الشيوعية فى تسع دول منها فرنسا وايطاليا . وأعلن مبعوث ستالين لرئاسة أول مجلس لكومنفورم : (بأن العالم قد انقسم - للأسف - إلى كتلتين : الكتلة الامبريالية الرأسمالية والكتلة المناهضة للرأسمالية الامبريالية) .

هكذا عرف العالم رسميا ، ولأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية ، انقسام العالم إلى كتلتين متصارعتين ، فتم تسمية عام ١٩٤٧ (بعام الانفصال الدولى - أو عام التقسيم .

---

(١) وهى نفس المنظمة القديمة الكومنترن .
انظر : التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٨) ، التاريخ الدبلوماسى (١٨٢) .
والكومنترن (منظمة بروليتارية ثورية عالمية تمثل اتحاد الأحزاب الشيوعية فى مختلف بلدان العالم) . مدخل إلى علم العلاقات الدولية (٢٠٢) ، د. محمد خلف ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، المركز الثقافى العربى .

وانتهى ذلك العام بفشل مؤتمر (الفرصة الأخيرة - أو الخط الأخير -) لوزراء خارجية الدول الأربع والذى عقد فى لندن يوم ٢٥ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٤٧ إذ كان الخلاف كاملا فى وجهات نظر المؤتمرين ... وانصرف كل فى سبيله لتدشين عصر الخلاف الدائم ... وراح الغرب يعمل بعقليته الخاصة وأساليبه المميزة للحد من امتداد الشيوعية[١] وتسربها إلى غربى أوروبا وغيرها من بلدان العالم . كما راح الاتحاد السوفييتى يرد بأسلوب مماثل لتدعيم نفوذه فى أقطار أوروبا الشرقية . فأبرم مجموعة من المعاهدات)[٢].

ثامنا : تعتبر أزمة برلين أو أحداث ألمانيا بعمومها من الأسباب القوية فى تأجيج الحرب الباردة ولو استولى الاتحاد السوفييتى على برلين يكون بذلك قد ضرب الدول الغربية ضربة موجعة ، حتى قال كلاى Clay[٣]:

(عندما تسقط برلين سوف تعقبها ألمانيا الغربية فإذا أردنا أن نمنع عن أوروبا خطر الشيوعية وجب علينا ألانتزحزح عن مواقعنا)[٤].

وفعلا استطاع الغرب أن يصمد فى وجه الاتحاد السوفييتى ويفك الحصار عن برلين ، وقد اعتبر الغرب أنه حقق الانتصار فى هذه الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتى ، وقاموا بعد ذلك بإنشاء الحلف العسكرى للتصدى للأطماع السوفيتية .

---

(١) وهذا لايتعارف مع ماقررناه سلفا وذلك لينشغل العالم بالمعسكرين ويتبع كل واحد مجموعة فينقسم العالم وخاصة الاسلامى إلى طرفين وهذا ماحصل فتكسب اليهودية

(٢) ستالين (٢٠٦-٢٠٨) ، وانظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٥-٣٦) .

(٣) أحد القواد فى الجيوش الغربية .

(٤) التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٩) .

وبشأن هذه الأزمة انظر : من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤١) ومابعدها ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٧) مابعدها ، الثنائية الدولية (٣٢٩) ومابعدها ، وسيأتى الحديث عنها بشىء من التفصيل إن شاء الله تعالى .

تاسعا : ومما زاد الحال سوءا ، والتوتر حدة أحداث تشيكوسلوفاكيا ، حيث حدث الانقلاب فيها فى فبراير سنة ١٩٤٨ . و(كانت تشيكوسلوفاكيا الدولة الوحيدة من دول المجال السوفييتى التى ظلت محتفظة بنظامها الديمقراطى حتى آخر عام ١٩٤٧ ، على الرغم من أن جميع حكوماتها التى تولت الحكم فى أعقاب الحرب ظلت تحرص على علاقاتها الوثيقة بالاتحاد السوفييتى ، ولكن العلاقات الوثيقة لم تكن تكفى فى نظر الروس لاعتبار تشيكوسلوفاكيا دولة صديقة يؤمن جانبها ، لذلك صدرت الأوامر للشيوعيين التشيكيين بالقيام بالإنقلاب سنة ١٩٤٨ . وطبق النظام الشيوعى فى البلاد منذ هذا التاريخ)[١].

وكانت هذه خطوة شيوعية توسعية استثارت الغرب .

عاشرا : لم يكتف الاتحاد السوفييتى بأوروبا الشرقية ، بل مضى قدما إلى دول أخرى يبسط نفوذه[٢]عليها وماكان لأمريكا أن تسكت والوضع كذلك . حيث أدى توسيع نطاق الهيمنة إلى تأجيج حدة الحرب الباردة بين الطرفين .

الحادى عشر : ومما زاد حدة الخلاف دخول بعض الدول فى الصراع القائم بين الجبارين كما هو الحال فى قارة آسيا ، سواء مايتعلق بأحداث اليابان ، أو ظهور الشيوعية فى الصين بعد انتصارها فى الحرب الأهلية ، وكوريا ، وأحداث فيتنام (الهند الصينية) ، وشملت ثلاثة أجزاء فيتنام ، ولاوس ، وكمبوديا . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل دخل الشرق الأوسط ضمن تلك الحرب فى الصراع القائم بين الدولتين الكبريين .

الثانى عشر : ومما زاد الخلاف بين الدولتين وكادت بسببه تنشب الحرب الثالثة نشر الصواريخ السوفيتية فى كوبا ورد الفعل الأمريكى ثم

---

(١) التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٨) ، وانظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٩،٣٨) .

(٢) منطقة النفوذ : (هى منطقة تمارس فيها قوة أجنبية بعض السيطرة على شئونها الداخلية) . تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٢٠) .

الاجتياح الروسى لأفغانستان المسلمة . وبهذا يتبين لنا أن الطرفين قد اشتركا فى زيادة التوتر حدة بينهما ، وأن كل فعل يصدر من طرف كان الطرف الآخر يفسره حسب مايرى ، وهو لايرى إلا أنه يمثل فعلا المقصود منه تهديد الأمن الخاص به ، وفرض النفوذ على أكبر قدر ممكن من الدول التى قد تكون له مصالح فيها ، فكانت النتيجة الطبيعية أن تعيش هاتان الدولتان فى هذه الدوامة التى استمرت من نهاية الحرب العالمية الثانية فى صورتها التى هى عليها (دون العداء المفتعل مع الشيوعية من قبل الرأسمالية بعد تفجير الثورة البلشفية فى روسيا) إلى أن أزيلت بزوال الشيوعية .

وهكذا كان الوضع يسير من سىء إلى أسوأ ولابد أن نلاحظ هنا أن هذه الأسباب كان بعضها يعد حربا باردة فى ذاته ، ومن هنا فالتداخل قائم بين الحرب الباردة ومقدماتها لأنها تزداد حدة ببعض مايصدر من طرف تجاه الطرف الآخر ، وهى على هذا الأساس مترابطة .

لقد كانت هذه الفترة (مابعد الحرب العالمية الثانية) ذات آثار وأبعاد كبيرة على الساحة الدولية ، وخاصة فيمايتعلق بالعلاقات بين الدولتين العظميين . كما أن الحرب العالمية الثانية كانت ذات آثار على مستوى العلاقات الدولية بكاملها ، ناهيك عن تأثيرها المباشر على الدول المشاركة فيها فعليا ، ويمكن ابراز أهم الآثار فى التالى :

(أ) عدم الثقة بين دول التحالف وفشل الاتفاقيات ولم يكن مجرد التحالف لصد العدو كافيا فى تجاوز العقبات .

(ب)قضت على نظام الحكومات الأوربية القديم فأنهت فرنسا كدولة كبرى فى العالم ، وضعفت بريطانيا ولم يعد لها القوة التى تمكنها من حفظ التوازن فى العالم كما كانت[١].

---

(٢) انظر التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٦) .

(ج) ونتيجة للعنصر السابق (أصبحت الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتى هما الدولتين الوحيدتين اللتين ترسمان سياسة العالم وتتنافسان على السيطرة عليه بعد أن كانت هذه الصفة مقصورة على الدول الأوربية الغربية فقط . وزاد من قوة نفوذهما أنهما تزعمتا العالم فى أبحاث الذرة والتقدم التكنولوجى)[١].

(د) الاكتشافات العسكرية الجديدة التى قلبت موازين القوى[٢].

(هـ) الآثار الاجتماعية الكبيرة التى خلفتها الحرب والتى لايمكن للسنين أن تمحيها لأجيال عديدة نظرا لعمقها وشدة تأثيرها مضافا لذلك الخسائر الفادحة فى الأرواح ، والمساكن ، والزراعة ، والصناعة[٣].

فهذه أبرز مقدمات وأسباب الحرب الباردة وزيادة حدتها ، وبهذا العرض نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن العداء الأيديولوجى قد بدأ منذ تفجير الثورة البلشفية وإن كان عداء مزعوما فى غالب أحواله انخدع به عامة الناس فى كلا الدولتين . إلا أن حدة الخلاف وشدته كانت مع نهايات الحرب العالمية الثانية .

ثانيا : أن العداء بين الدولتين لم يكن مستحكما طيلة هذه السنوات ، بل كانت تأتى فترات من الإنفراج والهدوء النسبى بين الدولتين وتخف حدة التوتر بين فترة وأخرى مما جعل أحداث هذه السنوات متداخلة بين إنفراج وتوتر .

ثالثا : أن هذه الأحداث والحروب التى قامت سواء منها ماكان بين الحلفاء والقوات الألمانية ، أو ماكان لفرض الأنظمة على بعض الدول من

---

(١) التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٧) ، وانظر : الثنائية الدولية (٢٠) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٤-٢٦) .

(٢) انظر : التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٧) ، الثنائية الدولية (١٩) .

(٣) انظر عن ذلك التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٥-٤٣٦) ، الثنائية الدولية (١٩-٢٠) ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٢٨/٣٨-٤٤) السنة السابعة ، مقالا بعنوان دروس من الحرب العالمية الثانية ، بقلم بسام العسلى .

قبل دول الحلفاء فيما بعد الحرب العالمية الثانية كل ذلك كان مكلفا مرهقا لإقتصاد تلك الدول وخاصة الاتحاد السوفييتى الذى كان يرغب فى اللحاق بالولايات المتحدة الأمريكية نظرا لتفوقها التكنولوجى ، وأكثر مايبرز ذلك فى سباق التسلح(١).

رابعا : أن هذه الأحداث كانت مقدمات وأسباباً لما تلاها من اشتداد الحرب بين الطرفين بل إن بعض الأحداث اللاحقة كانت امتدادا لها . وهذا يوصلنا إلى الحديث عن الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى .

---

(١) يقول مكنمارا : (وقد تم احتواء التوسع السوفييتى ، على أى حال ، ولكن التكلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تحملتها أمتنا والعالم الغربى كانت باهظة ... أما خطر اشتعال مواجهة عسكرية فكان دائما أكبر بكثير مما أدركنا) . مابعد الحرب الباردة (١١) .

المبحث الثانى
الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة[١] وأبرز أساليبها

بعد أن مر معنا ماوصل إليه حال الدولتين من عدم ثقة كل منهما بالأخرى ، ورؤيتها لنفسها أنها صاحبة القرار الأول والأوحد ، كان لابد والحالة هذه أن يحصل التوتر فى العلاقة بين الدولتين ، وبالفعل هذا ماحدث ، ونظرا لمعرفة كل من الطرفين بالآثار المترتبة على المواجهة المباشرة فقد آثر كل منهما أن يقوم بإرهاق خصمه واستنزاف قدراته وموارده بهذه الحرب التى يتجنب كل منهما الصدام المباشر مع خصمه على خلاف ماعرف فى التاريخ سابقا حيث كان الخلاف والتوتر يحل بإعلان الحرب أما فى (منتصف القرن العشرين وبسبب قوة التدمير المرعبة للأسلحةالنووية ، والدقة التى وصلت إليها أساليب التوجيه والقذف ، أصبحت الحرب العلنية بين الدول القوية أو مجموعات من الدول محاولة لفرض غايات سياسية ، عبارة عن طريق انتحار متبادل مؤكد ، وذلك لأن نتيجتها قد تكون التدمير التام للحياة فى الدول المعنية . ولاتوجد بالطبع دول ترغب فى الانتحار . وفى جميع الحالات يلجأ المتنازعون إلى تضخيم مساوىء الخصوم باستخدام جميع وسائل التهويل والدعاية والتخريب وخلق المشاكل المحلية مع التحسب الشديد لعدم التورط فى عمليات حربية مباشرة . وهكذا نرى أنه عندما تتغلب رغبة عدم المجابهة على رغبة المجابهة يتحول التعايش إلى نوع من الحرب الباردة . هذا التعايش فى زمن السلم ينقلب هو نفسه إلى حرب باردة ويصبح البديل الحتمى الذى تفرضه الظروف)[٢].

---

(١) وقد أطلقت الحرب الباردة على النزاع بين الاتحاد السوفييتى والصين ، ولكنها كانت ألصق بما حدث بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة .

(٢) الحرب النفسية (١٤٣) .

وإذا كانت الحرب الباردة قد بلغت أوجها بين الطرفين ، وإذا كانت أساليبها قد تعددت وتنوعت ، فإن أبرز ماتمثلت فيه :

(١) التوسع .
(٢) سباق التسلح .
(٣) الجاسوسية .
(٤) الأحلاف .

وفى اعتقادنا أنها كانت تسير مع بعضها البعض ، وإن تقدم أحدها أو تأخر فإن بعض جوانب فى الآخر تقدمت جوانب فيه أو تأخرت عنه ، كما أن بعضها قد يكون فى حالة الذروة ، والآخر دونه ، وهكذا نظرا لأن ردود الأفعال كانت كثيرا ماتتحكم فى هذه الحرب .

وسوف نبدأ بالتوسع علما بأن بعض جوانب هذا الأسلوب كانت بعد أن بلغ سباق التسلح ذروته . ومختصر القول أن هناك تداخلا فيما بينها فلو أعيد بعض جوانب من أسلوب فى مكان آخر فلايعد ذلك من باب التكرار بل مما يقتضيه الحال .

التوسع والتدخل فى شئون الآخرين :

إن الرغبة فى السيطرة وتوسيع نطاق الملك مما فطر عليه الإنسان ، وإذا كانت الدولة تمثل مجموعة من الناس فلاغرابة أن تكون هذه السمة موجودة فيها .

ولكنها وبدون شك تختلف من دولة لأخرى ومن فئة لفئة أخرى ، فى المقصود منها والغاية التى تهدف إليها (عنيت السيطرة والتوسع) وهذا يجعلنا نلمح بإيجاز للمذهبية العسكرية ، أو الدافع الذى تنطلق منه هذه الفكرة .

وقبل ذلك نقول إن التوسع يحدث بطريقين :

الأول : التوسع المباشر وهو اخضاع الدولة تماما لسلطان الدولة المسيطرة وذلك باحتلالها عسكريا .

الثانى : التوسع غير المباشر : وهو بسط الهيمنة والنفوذ على تلك الدولة ، وجعلها تسير حسب ماتريد الدولة صاحبة السلطان عليها .

ولاشك أن هذه السياسة التوسعية تتصل اتصالا مباشرا بالمذهبية العسكرية لكل دولة . والمذهب العسكرى هو (مجموعة القواعد والمبادىء الأساسية المتناسقة التى توجه بها القوات المسلحة مختلف عناصرها القيادية والقتالية والإدارية والفنية نحو تحقيق هدف مشترك)(١).

والمذهب العسكرى يرتبط ارتباطا وثيقة بالعقيدة والمنهج الذى تسلكه الدول . يقول العسلى : (يتكون كل مذهب عسكرى من المذاهب وفقا لمجموعة من المبادىء والأسس التى تعطيه ظاهرته "الخصوصية" المميزة : ولعل أول مايميز هذه المذاهب بعضها عن بعض ، هو مدى ارتباطها بالعقيدة الدينية أو السياسية أو الأيديولوجية ـ الفكرية الموجهة لأنشطة الحرب وفعاليتها)(٢).

ومن هنا ولكون الفكر الماركسى يرى حتمية الصراع والثورة فإن قادة الثورة البلشفية اهتموا بقضايا الدفاع وبناء الجيش منذ زمن لينين(٣).

ثم جاء ستالين من بعده وبلغ الاهتمام بمسائل الدفاع ذروته وكان ذلك على حساب الشعب وإقتصاد الدولة ، وظهرت بوضوح المذهبية العسكرية السوفيتية . حيث (تشكلت مدرسة الحرب الروسية عبر الحروب التوسعية ، وإذا كانت الحروب الدفاعية قد احتلت حيزا هاما من فن الحرب الروسى ، إلا أن الحروب التوسعية هى التى كانت الأساس الراسخ والقاعدة

---

(١) مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٥٩/١١) ١٤٠٦هـ .
وانظر العدد (٣٠/١٦) السنة الرابعة ١٤٠٧هـ .

(٢) المذاهب العسكرية فى العالم (٩) ، وانظر : الحرب (٧٧) ومابعدها ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية (٣٠/١٦) .

(٣) انظر تفصيل بناء الجيش الأحمر والاهتمام به كتاب القوات المسلحة فى الاتحاد السوفييتى (١٦-١٧،٢٣-٢٤،٣٦-٣٨) .

الثابتة فى بناء الدولة الروسية وفى تشكيل مذهبها العسكرى ...)[١].

وهـذا يدعونا للحديث عن توسع الاتحاد السوفييتى حيث شكلت هذه السياسة التوسعية من الطرفين تربة خصبة لزيادة حدة التوتر والصراع بينهما.

---

(١) المذاهب العسكرية فى العام (١١٠) وانظر مابعدها .
وعن المذهب العسكرى الإسلامى انظر : المذاهب العسكرية فى العالم (١٨) ومابعدها ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية (٥٩/١١-٦٠) ، مقال اللواء الركن محمود شيت خطاب بعنوان (المذهب العسكرى الإسلامى) .
وعن المذهب العسكرى الأمريكى انظر : المذاهب العسكرية فى العالم (١٢١، ١٣٥-١٣٧) ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية (٥٨/١١) .
وعن المذاهب العسكرية عند اليونان والرومان والجرمان والعرب انظر التاريخ العسكرى :
اليونان (٣١) ومابعدها .
الرومان (٤٧) ومابعدها .
الجرمان (٧١) ومابعدها .
العرب (٧٨) ومابعدها . وانظر مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٤٦/١٢-٤٧) ، والعدد (٢٤/١٦-٣١) .

توسع الاتحاد السوفييتى

لاشك أن الاتحاد السوفييتى حقق مكاسب كثيرة من الحرب ومن أهمها: استيلاؤه على كثير من المناطق والدول ، وتحصينه لهذه المناطق ، وماكان هذا ليرضى أمريكا أو يدعها مكتوفة اليدين .

ولسنا هنا معنيين بتفاصيل الحرب وسيرها ، ولكن بقدر مايدلنا على سيطرة الاتحاد السوفييتى على هذه الدول وبسط نفوذه عليها (أوروبا الشرقية خاصة) ، ثم نتائج تلك المواجهات وآثارها .

يقول كولن ويتر :

(كان الاتحاد السوفياتى قد ألحق الهزيمة بألمانيا النازية وبذلك برهن لنفسه على صدق المقولة الماركسية اللينينية بأن الشيوعية أقوى من خصومها فى الأساس . لقد حارب جنود الاتحاد السوفييتى سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه ، ليس من أجل أمهم روسيا وحسب ، بل كذلك للمحافظة على النظام الستالينى وكل ماكان يمثله . وكان ستالين ينظر باحتقار إلى الأنظمة الديمقراطية التى كان يتعلق بها حلفاؤه الغربيون ...)[١].

ويقولان :

(وعندما قاربت الحرب على الانتهاء كان تشرشل قد أبدى قلقه حول مستقبل أوروبا الشرقية عندما تزايد احتمال تحرير هذه المنطقة على يد الجيش الأحمر ...

وقد تركت الحرب العالمية الثانية الجيش الأحمر يحتل شرق أوروبا ويسيطر تماما على تلك المنطقة باستثناء اليونان ويوغسلافيا والبانيا . غير أن البلدين الأخيرين كانا فى قبضة الأنصار الشيوعيين ، وضم الاتحاد السوفييتى دول البلطيق وأجزاء من فنلندا وبولندا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٦،٢٤) .

فاستولى بذلك على مساحة تقارب ١٨٠ ألف ميل مربع و٢٤ مليون من البشر وكان لابد من أن يؤدى وجود الجيش الأحمر والأحزاب الشيوعية المحلية التى تؤيدها موسكو إلى مد النفوذ السوفياتى إلى بولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر والبانيا وبلغاريا ويوغسلافيا والمنطقة السوفياتية من ألمانيا . ومساحة هذه الأقطار حوالى ٣٩٣٥٠٠ ميل مربع بها ٩٢ مليونا من السكان .

وكان المستقبل الذى يواجه الغرب سنة ١٩٤٥ قاتما لأنه إذا تجاهل الاتحاد السوفياتى وعوده بعقد انتخابات حرة فى هذه الأقطار ، واضطرت لأن تسير فى طريق الشيوعية فسوف يؤدى ذلك إلى زيادة كبيرة فى قوة الاتحاد السوفييتى . وقد تحقق ماخاضت بريطانيا الحرب من أجل منعه وهو سيطرة دولة واحدة على أوروبا الوسطى ، ولكن الدولة المسيطرة كانت الاتحاد السوفياتى وليس ألمانيا)[١].

وقد أفصح تشرشل عن ذلك وقال : (لم يكن الروس قد أتاحوا فرصة للعدو ، للاستراحة من النكسات المخيفة التى منى بها فى مطلع شتاء عام ١٩٤٣ فقد شن الروس فى منتصف شهر كانون الثانى عام ١٩٤٤ ، هجوما على جبهة طولها مائة وعشرون ميلا تمتد من بحيرة ايلمان إلى لينينغراد ، وتمكنوا من اختراق الخطوط الدفاعية التى أقامها العدو أمام المدينة ، وإلى الجنوب من هذه الجبهة ، صد الألمان فى نهاية شهر شباط ، إلى شواطىء بحيرة بيبوس وقد تحررت لينينغراد مرة وإلى الأبد ، وأصبح الروس يقفون على حدود دول البلطيق)[٢].

وقد أعلن تشرشل عن تخوفه من هذه السيطرة حيث أصبحت قوات الجيش الأحمر على مشارف وسط وشرق أوروبا ، ولاشك أن هذه الانتصارات التى حققها السوفييت ستجعل بقية دول الحلفاء تحد منها أو تتخذ اجراء لمنعها وصدها . يقول تشرشل :

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٣-٣٤) .
(٢) المذكرات (٩٣٩/٢) .

(أثار حجم هذه الانتصارات قضايا ذات أهمية بالغة . فقد أطل الجيش الأحمر الآن على أواسط أوروبا وشرقها . فماذا سيكون مصير بولندة والمجر ورومانيا وبلغاريا واليونان أيضا ، التى ضحينا من أجلها بالكثير . وعملنا المستحيل لمساعدتها؟ وهل ستدخل تركيا الحرب إلى جانبنا؟ وهل ستحاط يوغسلافيا بالفيضان الروسى؟ لقد بدأ أن أوروبا بعد الحرب . قد بدأت تتخذ شكلها ، وأصبح من الضرورى إعداد ترتيب سياسى مع السوفييت فى منتهى السرعة)[١].

ومما زاد الوضع تعقيدا أن الاتحاد السوفييتى قام بابرام بعض المعاهدات مع بعض تلك الدول[٢].

---

(١) المذكرات (٩٤٠/٢) .

(٢) انظر : الحرب العالمية الثانية (٤٨) ، النار والجليد (٢٩٤-٢٩٥) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٤) ، التاريخ الدبلوماسى (٧٢-٧٣) وذكر بأن هذه الهدنات لم تكن عسكرية (صرفة بل كانت تتضمن بنودا هاما سياسية وإقتصادية وحقوقية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أحمد بن عبد الله بن جمعان بن سرور الغامدي **كلية** : الدعوة وأصول الدين **قسم** : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير **في تخصص** : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((أسباب سقوط الشيوعية " الماركسية "))

==========

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ...

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه – والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤١٨/٢/٩هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرج العلمية المذكورة أعلاه ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الداخلي
الاسم : د. سليمان بن عبدا لله السلومي	الاسم : د. محمود محمد مزروعه	الاسم : د. عبد الله بن عمر الدميجي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم

الاسم :

التوقيع :

يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة

المملكة العربيه السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة ام القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

١٠١٨٩٦

أسباب سقوط الشيوعية
(الماركسية)

رساله مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

٠٠٠٤١٨

إعداد الطالب
أحمد بن عبد الله بن جمعان آل سرور الغامدي

إشراف الدكتور
سليمان بن عبد الله السلومي

المجلد الرابع
١٤١٦هـ - ١٤١٧هـ

الاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية

كانت سياسة الاتحاد السوفييتى تقوم على أساس التوسع ، ومن بعد الحرب العالمية الثانية مافتىء السوفييت يبحثون لهم عن مناطق يبسطون نفوذهم عليها ، وينشرون الفكر الشيوعى بها .

و(كان الانتصار السوفياتى على المانيا قد أعطى قادة الاتحاد دورا رياديا ومسيطرا فى تلك المناطق التى انتصر فيها الجيش الأحمر ...)[١].

وكان لستالين أهداف دنيا محددة ومنها الاعتراف بالمناطق السوفيتية التى تم الاستيلاء عليها فى ١٩٣٩ و١٩٤٠ والسيطرة الدبلوماسية على البلدان الواقعة على الحدود الروسية مع أوروبا ، وقدمت هذه السياسة ميزان قوى جديد فى أوروبا وآسيا وجعلت الدول الغربية تعيد النظر فى سياستها التى اتبعتها أثناء الحرب[٢].

وقد (أدت الحرب إلى معاناة أفراد الشعب الروسى ولكنها فى الوقت ذاته ثبت الأمل فى قلوبهم لتحقيق حياة أفضل وتحقيق نظام أكثر انسانية فى دولتهم . كانت الخسائر فى الأرواح فادحة إلى درجة أنه لم يتمكن أحد من احصاءها بدقة ، ويقدر عدد الضحايا بحوالى ٢٠ مليون قتيل من المدنيين والعسكريين ويوفر هذا الرقم دلالة على حجم المعاناة ثم تدمير مناطق واسعة فى روسيا الغربية حيث تحطمت المدن وأصبحت ركاما ، وتم تجريد المناطق الريفية من المواشى وفاضت المناجم بالمياه . كانت مصادر الغذاء ضئيلة إلى درجة أنه عندما فشل محصول عام ١٩٤٦ تفشت المجاعة فى المناطق الشرقية وكان على الحكومة السوفياتية طلب المعونة الغذائية من الغرب (حصلت على شحنات غذائية وفرتها الأمم المتحدة)[٣].

---

(١) العالم فى القرن العشرين (٢٦٠) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٦٠) .
(٣) المرجع السابق (٢٦٢) .

ومن هنا كان لابد من العمل على تحسين هذا الوضع ، فوجه ستالين مجموعة من الجيش من أجل إعادة البناء ، وكذلك استغلال موارد بعض الدول التى خضعت للسلطان السوفييتى ، أو كانت حليفة له . يقول دانييل:

(مارست السلطات السوفياتية سياسة الاستغلال الإقتصادى بغض النظر عما إذا كانت الدولة المستغلة عدوا سابقا مثل المانيا أو حليفة مثل بولندا ويوغسلافيا)(١).

وغدا التوسع السوفييتى من الأسباب الرئيسية فى ازدياد الارتياب من قبل الغرب فى نوايا السوفييت فلم تعد تثمر المؤتمرات أو المحادثات فأصبحت الشكوك سيدة الموقف(٢).

ونعرض الآن لبعض الأحداث التى وقعت فى دول أوروبا الشرقية وغيرها . والقصد من ذلك التدليل على مدى مابذله الاتحاد السوفييتى من أجل الاستيلاء على هذه الدول ، ومن ثم كون هذا التوسع أحد الأسباب التى أدت إلى تأجيج الحرب الباردة بين الطرفين ، وكون بعض هذه الأحداث أساسا حربا باردة بين الطرفين .

بولونيا :

إن مشكلة بولونيا كانت تكمن فى وجود حكومتين لها إحداها داخلية والثانية خارجية تتخذ من بريطانيا مقرا لها ، ومن هنا فلابد من حدوث الخلاف بين الحكومة البريطانية ، والدولة السوفيتية التى وصلت قواتها إلى هذه الأراضى . وقد كان الجيش البولونى يقاوم الاحتلال الألمانى وكان الاتحاد السوفييتى يرفض تقديم المساعدة لهذا الجيش بحجة أن هذا الجيش لم يرتبط مع القيادة العليا فى موسكو .

ويبين رمضان لاوند موقف السوفييت ذلك فى نقاط فيقول :

---

(١) العالم فى القرن العشرين (٢٦٣) .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٦٥-٢٦٦) .

(أولا : رفض الروس تقديم أية معونة للبولونيين الذين كانوا يخوضون حربا انتحارية ضد الألمان . وقد أطلقوا على الجيش الداخلى البولونى اسم (عصابة المغامرين) .

ثانيا : اعتبر الروس امتناعهم عن تقديم المعونة للجيش الداخلى عملا مشروعا بدعوى أن هذا الجيش لم ينسق ثورته مع القيادة السوفياتية العليا ، وأن هذه الثورة قد لعبت دورها لمصلحة الألمان بسبب ذلك .

ثالثا : رفض الروس السماح للطائرات الحليفة التى كانت تطير من قواعدها الايطالية على بعد ١١٠٠كلم لانزال المؤن إلى البولونيين بالنزول فى مطاراتهم للتزود بالوقود بدعوى أن المؤن كانت تسقط بين أيدى الألمان...)[١].

ويصور دروزيل وضع بولونيا فيقول :

(منذ ١٩٤٥ وضعت لبولونيا قضيتان هامتان ، على الصعيد الدولى وهما :

(١) قضية الحدود .

(٢) قضية الحكومة بسبب وجود حكومة منفية فى لندن ، و(لجنة التحرير الوطنية البولونية) فى لوبلن التى يرعاها الاتحاد السوفييتى .

ففى النقطة الأولى اتخذت القرارات الأساسية فى مؤتمر بوتسدام فى بدء آب ١٩٤٥ . إلا أن مايجب أن يبقى فى نظر الأنغلو ـ ساكسون مؤقتا اعتبر قطعيا فى نظر الحكومة الروسية والبولونية . فقد وقعت هاتان الحكومتان فى موسكو فى ١٧ آب اتفاقا على خط الحدود . فى الشرق تتخلى بولونيا إلى الاتحاد السوفييتى عن جميع أراضيها فى أوكرانيا وروسيا البيضاء ...)[٢].

---

(١) الحرب العالمية الثانية (٤٨٨) .

(٢) التاريخ الدبلوماسى (١٤٠-١٤١) .

وانظر الثنائية الدولية (٥٤) ، وذكرت أن تعديل الحدود كان لمصلحة الاتحاد السوفييتى .

وأما المسألة الثانية فهى موضوع الحكومة :

كان الاتحاد السوفييتى يقيم علاقات دبلوماسية مع حكومة بولونيا فى بريطانيا ووقع حادث وذلك بقتل مجموعة من الضباط البولونيين الأسرى واتهمت حكومة بولونيا فى لندن الاتحاد السوفييتى بأنه كان وراء هذا الحادث فانقطعت العلاقات فيما بينهما فى (٢٥-٢٦) نيسان ١٩٤٣م .

وفى هذه الأثناء تشكل فى الليل ٣١ كانون الأول إلى أول كانون الثانى ١٩٤٤ فى طى الكتمان والسر (مجلس وطنى داخلى) صرح هذا المجلس أنه يجبذ أن تكون الحدود البولونية تنطبق على خط كروزون . وفى ٢٢ تموز أحدث المجلس الوطنى (لجنة التحرير البولونية) وكان يرأسها الإشتراكى أوزوبكا - موراوسكى ، ثم انتقلت هذه اللجنة إلى لوبلن وتسمت فى ٣١ كانون الأول ١٩٤٤ اسم (الحكومة المؤقتة للجمهورية البولونية) وأقامت هذه فى فارسوفيا فى ١٨ كانو الثانى ١٩٤٥م . وهكذا وجدت الحكومتان واحدة يدعمها الانغلو - ساكسون فى لندن ، والأخرى الروس فى فارسوفيا[١].

ولايغيب عن أذهاننا أن بريطانيا قد دخلت الحرب دفاعا عن بولونيا وأبدى تشرشل قلقه عندما رأى روسيا تسيطر عليها وقال : (أما وقد امتشقنا الحسام للدفاع عن بولونيا التى هاجمها هتلر بفظاعة فلن نقبل أبدا بحل لايجعل من بولونيا دولة حرة ذات سيادة)[٢].

وقد بذل تشرشل جهودا كبيرة فى سبيل التوصل إلى الاتفاق فيما بين الحكومتين البولونيتين ولكن فشلت تلك الجهود[٣]نتيجة للتناقض بين موقف ستالين من جهة وتشرشل وروزفلت من جهة أخرى بشأن الحكومتين[٤].

---

(١) انظر التاريخ الدبلوماسى (١٤٢-١٤٣) باختصار وتصرف .
وانظر الثنائية الدولية (٥٤) .

(٢) Byrne, Cartes sur table (Spcakin, Frankly). p.74 .
نقلا من كتاب التاريخ الدبلوماسى (٨١) .

(٣) انظر الحرب العالمية الثانية (٥٠٠) .

(٤) انظر الثنائية الدولية (٥٤) .

وكانت بريطانيا تصر على الاعتراف بحكومة المنفى البولونية نظرا لدخول بريطانيا الحرب دفاعا عنها ، و(يضاف إلى ذلك أن ١٥٠ ألف جندى بولونى كانوا منخرطين فى مجموعة الجيوش البريطانية وأن عددا من الناخبين الأمريكيين من أصل بولونى يتراوح بين ٥ و ٦ مليون يجب أن يحسب حسابهم)[١].

إلا أن الاتحاد السوفييتى تمكن من إبرام معاهدة عون متبادل مع بولونيا فى ٢١ نيسان ١٩٤٥ يعمل بها لمدة عشرين عام . وهكذا دخلت بولونيا فى فلك الاتحاد السوفييتى . واعتبر ذلك انتصارا سوفيتيا على بريطانيا والولايات المتحدة .

رومانيا :

إن وضع الاتحاد السوفييتى التوسعى لنشر فكره وسيطرته كان السمة الغالبة عليه ومن الدول التى وقعت تحت ذلك التأثير وحقق السوفييت سيطرتهم عليها رومانيا .

وكانت رومانيا فى حكمها ملكية ، وجرت بها انتخابات ندد بها الغرب واعتبرها غير صحيحة .

وفى ١٩٤٧ تشرين الأول انحل حزب الفلاحين المعارض وحكم على زعيمه بالسجن مدى الحياة ، ووجه الضغط على الملك ميشيل حتى تنازل فى ١ كانون الثانى سنة ١٩٤٨ ، وتبع ذلك فراره من البلاد[٢].

وكانت رومانيا تشارك بقواتها فى الحرب ضد ألمانيا مشاركة بذلك الجيش الأحمر فى قتاله (على تحطيم المقاومة الألمانية فى البلاد ، كما ساعدت الروس على أسر عدد كبير من جنود العدو واحتلال الحقول البترولية فى بلووستى ، وموانىء البحر الأسود وشبكة الطرق الحديدية الرومانية التى لم

---

(١) الحرب العالمية الثانية (٥٠٠) وانظر مابعدها .

(٢) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٨) .

تصب بأذى . وبسبب ذلك حلت معضلات التموين لدى الروس . وقد تقرر بين شروط معاهدة الصلح الموقعة فى موسكو فى ١٢ أيلول أن يتنازل الرومانيون لروسيا عن المنطقة التى كان السوفيات قد استولوا عليها عام ١٩٤٠ ، كما تعهدوا بإعادة أملاك الحلفاء ودفع ٣٠٠ مليون دولار كتعويضات حرب خلال ستة أعوام وتسليم بحريتهم التجارية . مقابل ذلك اعتبر الرومانيون محاربين إلى جانب الروس ووعدوا بعد هزيمة المجر بتسليم قسم من ترانسلفانيا)[١].

وبعد أن أصبح النفوذ السوفييتى واضحا فى رومانيا ، اضطر تشرشل أن يوقع اتفاقية مع ستالين بشأن تقسيم النفوذ فيها وبقية بلاد البلقان ، واتخذ هذه الخطوة دون استشارة حلفائه لأنه كان مقتنعا بضرورة العمل قبل فوات الأوان لانقاذ مايمكن انقاذه ، ولم ينتظر مصاحبة روزفلت لانشغاله بالانتخابات الأمريكية[٢].

ولنستمع لتشرشل يحدثنا عن ذلك فيقول بعد أن وصل إلى موسكو : (قلت لستالين أن الفرصة متاحة للعمل ، "فدعونا نسوى جميع القضايا المتعلقة بالبلقان . فهاهى جيوشكم فى رومانيا وبلغاريا . ولنا فى البلدين مصالحنا وبعثاتنا ووكلاؤنا ، وعلينا أن لانقف متعارضين فى أهدافنا تجاه قضايا بسيطة . وبالنسبة إلى بريطانيا وروسيا ، ماقولكم فى أن يكون لكم التفوق بنسبة تسعين فى المائة فى رومانيا ، وأن يكون لنا التفوق بعين النسبة فى اليونان ، وأن نكون متعادلين فى يوغسلافيا؟)

---

(١) الحرب العالمية الثانية (٤٨٩-٤٩٠) ، وانظر التاريخ الدبلوماسى (١٣٤-١٣٦) ، وذكر أن مدة إعطاء التعويضات ثمان سنوات تبدأ من ١٢ أيلول ١٩٤٤ ، وأن يدخل الاتحاد السوفييتى فى حيازته الأموال الألمانية فى رومانيا ، وأن تكون الملاحة فى الدانوب حرة ومفتوحة لمغتربى جميع الدول ، على أن يعقد مؤتمر دولى لوضع نظام جديد للملاحة وكان الغرب يرى أن يظل الدانوب ذا طابع دولى ، والسوفييت يرون أن يعهد بنظام الملاحة إلى الدول الواقعة على ضفته . (١٣٦) . وانظر كذلك (١١٧) .

(٢) انظر التيارات السياسية المعاصرة (٤١٩-٤٢٠) .

وبينما كان المترجم ينقل ماقلته إلى الروسية ، كتبت على وريقة صغيرة مايلى :

رومانيا :

روسيا ٩٠٪

الدول الأخرى ١٠٪

اليونان :

بريطانيا بالاتفاق مع الولايات المتحدة ٩٠٪

روسيا ١٠٪

يوغسلافيا : ٥٠-٥٠٪

المجر : ٥٠-٥٠٪

بلغاريا :

روسيا ٧٥٪

الدول الأخرى ٢٥٪

ودفعت بالورقة إلى ستالين الذى كان آنذاك قد استمع إلى ترجمة حديثى الأول . وخيم الصمت علينا بعض الوقت . ثم أخذ قلمه الأزرق من جيبه ، ورسم علامة (صح) على الورقة ، وأعادها إلى . وهكذا تم إقرار كل شىء فى أسرع وقت ممكن)[١].

لقد كان تشرتشل (يحاول أن يفعل أفضل مافى استطاعته لشرق أوروبا لقد كان يدرك أن الغرب لن يستطيع منع ستالين من فعل مايريد فى البلقان لكنه كان يأمل أن الاتفاقيات على الورق ستحد من اجراءات ستالين)[٢].

وبهذا الاتفاق (حصل ستالين من تشرشل على منطقة نفوذ فى شرقى شبه جزيرة البلقان)[٣].

ومن جهة ثانية ساء الاتفاق الولايات المتحدة الأمريكية وانتقدته لأنها (كانت تصر على عدم عقد صفقات أثناء الحرب)[٤].

---

(١) المذكرات (٢/٩٨٢-٩٨٣) .

وانظر : الحرب العالمية الثانية (٤٩١-٤٩٢) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٣٣) ، التيارات السياسية المعاصرة (٤١٩-٤٢٠) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٣) .

(٣)،(٤) التيارات السياسية المعاصرة (٤٢١) .

وكـان تشرشل يظن أن هذه الاتفاقية ، والنسب المعطـاه ليست إلا من أجل أن يهـدأ الوضع ثم يعاود الحلفاء النظر فيها . يقـول تشرشل فى رسالة بعث بها إلى وطنه فى ١٢ تشرين الأول ١٩٤٤ :

(مـن الـواجب التـأكيد ، بأن هـذا الايضـاح العـام لمشـاعر بريطـانيا والسـوفيات تجاه البلاد المذكورة ، ليس إلا هاديا مؤقتـا بالنسبة إلى المستقبل الفـورى فى أوقـات الحرب ، وإن النظـر سيعـاد فيه ، عنـدما تجتمـع الدول العظمـى بعـد انتهاء الحرب على مـائدة الهـدنة أو الصلـح ، لإعـداد تسـوية أوروبية عامة)[١].

هذا ماكان يؤمله تشرشل ، إلا أن الاتحاد السوفييتى بقيادة ستالين كان محتفظا بحقه فى تلك الدول بل وزاد عليه حتى خضعت بعضها لنفوذه كاملة .

المجر :

كـذلك كان الأمر بالنسبة للمجر فقد (قام الحزب الشيـوعى فى أوائل سنـة ١٩٤٧ بمهاجمة حزب صغـار الملاكين ، وألقى القبـض على عـدد منهم . وجرت انتخـابات ... خرج الحزب الشيوعى منها أكبر الأحزاب رغـم أنه لم يتمتـع بأكثرية فى البرلمان . ومـع ذلـك فقد شكل الحزب الشيـوعى المجـرى حكـومة . وفى ١ تشرين الثـانى حلت جميع الأحزاب السيـاسية الأخرى)[٢].

وحكمـت الشيوعية البلاد إلى أن أراد الشعب الخروج ممـا هم فيه ، ولكـن كعادة الشيوعية فى قهرها للشعوب أرسلت إليهـا القوات ودكتها حتى عاد الشعب المجرى لسابق عهده ، يقول إبراهيم سعده :

(لـن ينسى التاريخ أبدا مـافعله الاتحاد السوفييتى بشعـب المجر فى سنة ١٩٥٦ . حاول الشعـب المجـرى أن يسترد سيـادته فـوق أرضـه ، وأن يقول

---

(١) المذكرات (٢/٩٨٧) .

(٢) من الوفاق حتى الحرب الباردة (٣٦-٣٨) .

(لا) للاتحاد السوفييتى فما كان من موسكو إلا أن أرسلت دباباتها ومدافعها وطائراتها لتدك العاصمة بودابست ، وتسحق الآلاف من المواطنين تحت الأنقاض .

ولم تتوقف الوحشية السوفيتية العسكرية إلا بعد أن هدأ كل شىء فى المجر ، وعاد الشعب المجرى ، مقهورا ، ذليلا ، إلى حظيرة الشيوعية السوفيتية مرة أخرى منذ هذا الوقت والعسكرية السوفيتية تقبض بيد من حديد على زمام الأمور فى المجر . وأصبح عدد القوة السوفيتية هناك نحو ٦٠ ألف رجل . ومركز القيادة العسكرية فى توكول ، بالقرب من العاصمة بودابست . والقوات تتكون من فرقتين مدرعتين ، وفرقتين للمشاه وقوة جوية تكتيكية ضاربة)[١].

بولندا :

تكتسب بولندا أهمية كبيرة بالنسبة للاتحاد السوفييتى ، حيث يمكن أن تكون بولندا مسؤولة بعض الشىء فى الحرب العالمية الثانية عن مضايقة الاتحاد السوفييتى والوقوف فى وجه بعض رغباته . كما أن بريطانيا هى الأخرى تنظر إلى هذه الدولة بعين الاهتمام .

يقول كولن وبيتر :

(فى ربيع سنة ١٩٣٩ ضمنت بريطانيا وفرنسا حدود بولندا . فأعلنتا الحرب على ألمانيا فى أيلول سنة ١٩٣٩ بعد غزو الألمان لبولندا . وبما أن بريطانيا كانت قد دخلت الحرب بسبب بولندا ، فقد كان من المتوقع جدا أن تولى بريطانيا أهمية كبرى لمستقبل ذلك البلد ، إلا أن الاتحاد السوفياتى كان له ذات الموقف أيضا وكانت بولندا طريق الغزو التقليدية لروسيا من الغرب وبالنسبة للزعامة السوفياتية كانت بولندا مسؤولة بعض الشىء عن اندلاع

---

(١) الروس قادمون (٤٧-٤٨) ، الطبعة الرابعة ، المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر بالاسكندرية ، وانظر التيارات السياسية المعاصرة (٤١٩) .

الحرب العالمية الثانية وذلك عندما اعترضت بنجاح تقديم العروض السوفياتية لمساعدة تشيكوسلوفاكيا ومنعت القوات السوفيتية من حق المرور سنة ١٩٣٨ . وخلال الحرب كان ستالين يوضح باستمرار أنه مهما كان مصير بولندا بعد الحرب فإن الاتحاد السوفييتى لن يقبل على حدوده وجود بولندا معادية لروسيا ...)[١].

(وكانت حكومة لوبلين البولندية التى يرعاها الروس ، والتى يطلقون عليها اسم حكومة "وارسو" ، تنظر إلى حكومة لندن البولندية ، بشعور من العداء المرير المتأصل)[٢].

ومن هنا ظلت (العلاقات بين الحكومة البولندية فى المنفى (فى لندن) وبين ستالين رديئة دائما بسبب الغزو السوفياتى لبولندا سنة ١٩٣٩ ، وازدادت سوءا عندما تسربت أنباء مذبحة غابة كاتين . ومنذ سنة ١٩٣٩ كانت الحكومة البولندية فى لندن تحاول دون جدوى أن تعرف ماذا حدث لعدد كبير من الضباط البولنديين الذين كان من المعتقد أنهم وقعوا فى أسر الروس . وفى نيسان سنة ١٩٤٣ كشف الجيش الألمانى النقاب عن عثوره على قبر جماعى فى غابة كاتين يحتوى على عشرة آلاف جثة للضباط ، وضباط الصف البولنديين ولم يتم إثبات الأمر بصورة قاطعة ، لكن من المحتمل فيما يبدو أن الروس وليس الألمان كانوا المسؤولين عن ذلك ، وبالتأكيد كان هذا التفسير هو الذى قبلته الحكومة البولندية فى لندن وطالبت هذه الحكومة البولندية بتحقيق يقوم به الصليب الأحمر فى الحادث . وفى نيسان سنة ١٩٤٣ قطع الكرملين علاقاته الدبلوماسية مع الحكومة البولندية فى لندن . وأقام فى تموز سنة ١٩٤٤ حكومة بولندية منافسة (وهى اللجنةالبولندية للتحرير الوطنى) أو لجنة لوبلين ، التى كان يسيطر عليها الشيوعيون ويعتمدون عليها فى

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٦-١٧) .
(٢) مذكرات تشرشل (١٠١٧/٢) .

تنفيذ السياسة السوفياتية)[١].

وعندما تقدمت الجيوش الألمانية لبولندا قام البولنديون بالدفاع عن بلادهم وقاتلوا الجيش الألمانى فى شوارع وارسو[٢]، ودامت هذه الانتفاضة أكثر من شهرين وكلفت البولنديين ٣٠٠ ألف قتيل ودمرت وارسو[٣]، وكانت هذه الأحداث تقع والجيش الأحمر على مقربة من وارسو ومع ذلك لم يقم بمساعدة البولنديين .

(وعندما حان الوقت المناسب للروس ، عبر الجيش الأحمر الحدود البولندية ... ولما دخل الروس وارسو كان الطريق ممهدا للشيوعيين البولنديين بعد أن أخمد الألمان حركة المقاومة وقتلوا معظم زعمائها)[٤].

(وعندما دخل الروس المدينة بعد ثلاثة أشهر ، لم يجدوا شيئا إلا شوارع محطمة وجثثا لم تجد من يلحدها ...)[٥].

وكانت القضية البولندية قضية ذات مشاكل عديدة وقديمة وحتمية . حتى قال تشرشل : (لاريب فى أن قضية بولندة ، كانت من أهم العوامل التى دعت إلى عقد مؤتمر يالطة ، وكانت من أولى القضايا الرئيسية التى أدت إلى إنهيار الحلف الأعظم)[٦]. وناقش مؤتمر يالطا مسألة بولندا . وكانت القضايا التى نوقشت بشأنها :

(* كيف يمكن تأليف حكومة بولندية مؤقتة واحدة .

* كيف ومتى تجرى الانتخابات الحرة .

* كيف تسوى الحدود البولندية فى الشرق والغرب .

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٧) .
وانظر التيارات السياسية المعاصرة (٤١٨) .

(٢) انظر التيارات السياسية المعاصرة (٤١٧) .

(٣) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٨) .

(٤) التيارات السياسية المعاصرة (٤١٨) .

(٥) مذكرات تشرشل (٩٥٢/٢) .

(٦) المرجع السابق (١٠١٨/٢) .

* كيف تؤمن مناطق المؤخرة وطرق المواصلات للجيوش السوفياتية الزاحفة)[١].

وجماع القول أنه حصل اتفاق بشأن الحدود[٢].

أما مايتعلق بالحكومة والانتخابات فإن السوفييت كانوا يرون أن الحكومة التى يؤيدها الشعب البولندى هى أحق من غيرها بهذا[٣]، ورضى الاتحاد السوفييتى بأن يكون ميكولاتشيك زعيم الحكومة البولندية فى لندن كنائب لرئيس الدولة البولندية ، ووافقت على اجراء الانتخابات الحرة أثناء الاجتماعات . أما الواقع فلم يشهد ذلك إذ أنه (بعد ثمانية عشر شهرا اضطر ميكولاتشك للهرب من بولندا من أجل أن ينجو بحياته ، وأصبح حزبه المسمى حزب الفلاحين محظورا وأصبحت بولندا فى قبضة قوية لحكومة شيوعية لاتعتمد على تأييد الناخبين البولنديين بل على وجود الجيش الأحمر بأعداد كبيرة وعلى الشرطة السرية السوفياتية)[٤].

وهكذا خضعت بولندا للاتحاد السوفييتى وأصبح فيها مايقارب ٤٥ ألف رجل[٥].

---

(١) مذكرات تشرشل (١٠١٨/٢) .

(٢) انظر المرجع السابق (١٠٢٠/٢) .

(٣) انظر مذكرات تشرشل (١٠٢٠/٢) ومابعدها ، وذكر سردا تاريخيا عن الاجتماع الذى دار بين الحلفاء وأقوالهم وردود أفعالهم .

(٤) من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٩) .
وانظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٢١) مابعدها ، وانظر (٤١) ، وذكر فيها أن مما زاد التوترات بعد الحرب عدم السماح لقيام حكومة فى بولندا من خلال انتخابات حرة .

(٥) انظر الروس قادمون (٤٨) .

يوغسلافيا :

أخضع الاتحاد السوفييتى يوغسلافيا تحت سلطانه وذلك بعد أن أصبح تيتو الشيوعى على سدة الحكم رغم الخلافات التى أبداها تيتو ضد الاتحاد السوفييتى فيما بعد .

وكانت يوغسلافيا ميدانا للخلافات والتناقضات بين أقلياتها الوطنية بالإضافة إلى الخلافات السياسية بين جمهوريين وملكيين وشيوعيين ومع ذلك هب الشعب اليوغسلافى فى مقاومة الألمان وكان تيتو الشخص البارز الذى سرعان ماغدا مسيطرا وكان معه من الشخصيات البارزة فى الساحة ميخائيلوفيتش ، وماليوفسكى ، وكانت العداوة شديدة بين أتباع هؤلاء(١).

(والواقع أن محاولات تيتو لفرض الشيوعية على البلاد وقسوته فى القضاء على خصومه السياسيين وتصرفاته العنيفة قد جعلت الحرب عنيفة ضارية بين أنصاره وأنصار فيمايلوفيتش . وعندما شعر فيمايلوفيتش بعجزه عن مواجهة الضربات التى كانت تأتيه من كل جانب ولاسيما من الألمان أنفسهم فقد سعى إلى تحقيق تسوية مع المحور)(٢).

وبعد هذا الموقف ، ولكون الطرفين لم يصلا إلى اتفاق منح تشرشل تأييده لتيتو وقال : (كانت شخصية ميخائيلوفيتش المشجية قد غدت العقبة الكأداء ، وكان علينا أن نحافظ على اتصالنا العسكرى بالأنصار ، ولذا تحتم علينا اقناع الملك بوجوب طرد ميخائيلوفيتش من منصبه كوزير للحربية ... وسحبنا تأييدنا الرسمى لميخائيلوفيتش ، واستدعينا البعثات البريطانية العاملة فى المناطق التى يشرف عليها)(٣).

---

(١) انظر : مذكرات تشرشل (٨٨١/٢) ، الحرب العالمية الثانية (٤٩٣) .
(٢) الحرب العالمية الثانية (٤٩٤) ، وانظر التاريخ الدبلوماسى (١٨-١٩) .
(٣) المذكرات (٨٨٥/٢) .

وعمل تيتو على مهاجمة القوات الألمانية المتقهقرة وقضى (على أنصار النازيين من الصربيين ، وعلى الزعماء الإرهابيين من الكروات . ولم يكن لتيتو منافس فى المستقبل سوى حكومة المنفى اليوغسلافية ، أما الملك وحكومته فقد صمم تيتو على ألا يعيرهم أى اهتمام . كذلك كان عازما على أن يتحرر مما فعله الزعماء الشيوعيون البولنديون الذين جعلوا من الجيش الأحمر سندا وعمادا لهم فى حكمهم البلاد بل رأى أن يقوم بنفسه بأداء الواجب عليه نحو يوغسلافيا ، ولكن لم يسلم الأمر من قبوله العون من الجيش الأحمر فى آخر مرحلة من مراحل التحرير ، وكان ذلك عندما اخترق الروس حدود بلاده من رومانيا فى طريقهم لمهاجمة الألمان فى المجر . والواقع أن تيتو ظل على عناده وحزمه فى كل مرحلة من مراحل خلافاته مع الاتحاد السوفييتى)[١].

مع أن السوفييت كانوا يطمعون فى أن يتولى مهمة الجبهة اليوغسلافية حيث كان زعيما للحزب الشيوعى اليوغسلافى منذ عام ١٩٣٧ وعاش فى الاتحاد السوفييتى وطور ثقافته السياسية بها[٢].

إلا أن الاتحاد السوفييتى منى بخيبة أمل (وذلك عندما شاءت يوغسلافيا عام ١٩٤٨ ألا تكون بلدا تابعا له) .

لقد زعم تيتو (أنه تلميذ أمين لماركس ولينين ، ولكنه لم يقبل بخضوع كلى لروسيا الستالينية . حتى أنه كان أقدر على المقاومة من الموجهين البلغاريين والرومانيين والبولونيين لأن هؤلاء فرضتهم موسكو ولايقبضون على السلطة إلا بدعم السوفياتيين ، فى حين أن تيتو فرض نفسه كزعيم

---

(١) التيارات السياسية المعاصرة (٤١٩) .
وانظر مذكرات تشرشل (٨٨٤/٢) . وقال أن تيتو عقد (مؤتمرا سياسيا لحركته فى ياسى فى البوسنة ، ولم يكتف بإقامة حكومة مؤقتة (لها وحدها السلطة المطلقة فى تمثيل الشعب اليوغسلافى) بل حرم الحكومة الملكية فى القاهرة أيضا من جميع حقوقها وتقرر منع الملك من العودة إلى البلاد إلا بعد تحريرها) .

(٢) انظر الحرب العالمية الثانية (٤٩٣) .

للمقاومة ويتمتع بشعبية شخصية واسعة لدى أعضاء الحزب الشيوعى ...)[١].

ولعل هذا من الأسباب التى منعت الاتحاد السوفييتى من السيطرة التامة على يوغسلافيا أو جعلها تسير حسب مايريده لها السوفييت ، هذا بالإضافة إلى أن يوغسلافيا قسمت مناصفة بين بريطانيا والاتحاد السوفييتى ، ومن هنا كانت يوغسلافيا من أوائل الدول التى أعلنت التمرد على ستالين .

تشيكوسلوفاكيا :

كانت المعاهدات التى عقدها الاتحاد السوفييتى مع كثير من الدول قد ساعدت على جعله صاحب السيادة فيما بعد على هذه الدول ومنها تشيكوسلوفاكيا فوقع رئيسها بينين معاهدة تحالف مع الاتحاد السوفييتى بعد أن أعاد العلاقة معه فى تموز ١٩٤١ ووقعت تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتى معاهدة تحالف فى ١٢ كانون الأول ١٩٤٣ ونصت على ألا توقع الدولتان على هدنة أو معاهدة سلاح منفردتين . وفى ٢٩ حزيران ١٩٤٥ وقعت تشيكوسلوفاكيا معاهدة مع الاتحاد السوفييتى تنازلت بموجبها عن روسيا الكارباتية وكانت هاتان المعاهدتان مقدمة لتطور سريع أغلق بانقلاب شباط ١٩٤٨ ، ووضع تشيكوسلوفاكيا فى عداد الدول التابعة للاتحاد السوفييتى[٢].

ويوضح دروزيل تلك الأحداث بعرضه إنقلاب براغ فيقول :

(لقد تبنى الزعيم الشيوعى غوتفالد موقفا معتدلا فى تشيكوسلوفاكيا ، وفى انتخابات أيار ١٩٤٦ ، حصل حزبه على ٣٨٪ من الأصوات ، وهذا أكبر نجاح سجله الشيوعيون فى انتخاب حر . وأقيمت حكومة ائتلافية . ولكن الرفض السوفياتى بالسماح لوفد تشيكوسلوفاكى بحضور مؤتمر باريس

---

(١) التاريخ الدبلوماسى (٢٣٢) ، ولمزيد عن أحداثها انظر العالم فى القرن العشرين (٢٦٤-٢٦٥) ، وانظر مابعدها .

(٢) انظر التاريخ الدبلوماسى (١٣٩-١٤٠) ، وانظر (٧٣-٧٤) وقد قال غوتفالد رئيس تشيكوسلوفاكيا أن بلاده (تتبنى السياسة الدولية الديمقراطية ، والمسالمة التى يسلكها الاتحاد السوفييتى والديمقراطيات الشعبية السلافية) .

فى مشروع مارشال (٨ تموز ١٩٤٧) ، أوجد توترا سياسيا استغله الشيوعيون بنشاط للاستيلاء على السلطة كليا . وفى ٢٥ شباط ١٩٤٨ ، بعد اضطراب دام عدة أيام ، تألفت حكومة شيوعية بكاملها تقريبا . وكان الرئيس بينيش مسنا ومريضا فاضطر للرضوخ . ووجد جان مازاريك وزير الخارجية ، وهو غير شيوعى ، ميتا فى ١٠ آذار ، على أثر انتحار ولاشك . وكان هذا الحادث إنقلابا حقيقيا . وفى الظاهر لم يكن فى كل هذا سوى حادث داخلى محض . وفى الواقع ، هنالك إمكان للتفكير فى أن هذا الإنقلاب جرى بأمر السوفيات وتحت حمايتهم لأن صحافتهم وإذاعتهم ناصرتا غوتفالد بشدة . وربما كان مجىء نائب وزير الخارجية السوفياتى ، السيد زورين ، فى عز الأزمة ، ظاهرة ملموسة لهذا التدخل .

وعلى الصعيد الدولى لم تستطع الدول الغربية أن تعمل شيئا . وحصلت بداية فى ٢٢ آذار ١٩٤٨ فى مجلس الأمن دون أى نتيجة . ومع هذا فإن (انقلاب براغ) الذى اتبع بعد قليل بحصار برلين ، ذهب بالحرب الباردة إلى درجة توتر مجهولة حتى ذلك الحين . ومن المؤكد أنه يوضح لحد كبير مفاوضة ميثاق الأطلسى)[١].

المجر والبانيا :

ومن الدول التى كانت أنظمتها شيوعيةالمجر والبانيا .

وبالنسبة للمجر فقدكان نصيب الاتحاد السوفييتى منها ٧٥٪ . وقال تشرشل : (ولما كانت الجيوش السوفيتية هى التى تحرز السيطرة على المجر ، فمن الطبيعى أن يعهد بالشطر الأكبر من النفوذ إليها، شريطة الاتفاق طبعا مع بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، اللتين على الرغم من عدم قيامهما بأى عمل عسكرى فى المجر ، يجب أن تنظرا إليها كدولة من دول أوربا الوسطى ، لادولة بلقانية)[٢].

---

(١) التاريخ الدبلوماسى (٢٣٢-٢٣٣) .
(٢) مذكرات تشرشل (٩٨٧/٢) .

أما البانيا فقد كانت العصابات الشيوعية موجودة بها ويقودها أنور خوجا وحاولت المانيا القضاء عليها فى حزيران ١٩٤٤ ، ولكنها فشلت . وفى كانون الأول ١٩٤٤ دخل أنور خوجا إلى عاصمة البانيا بتيرانا وشكل فيها الحكومة الشيوعية(١).

ومن تلك الدول بلغاريا وكانت (الجبهة الوطنية) تسيطر عليها وقوادها من الشيوعيين(٢). كما وصل التدخل السوفييتى إلى كل من اليونان وتركيا(٣).

وهكذا يتبين لنا أن الاتحاد السوفييتى استطاع أن يخضع أوروبا الشرقية وأن تكون السيادة له عليها فأصبحت دولها تسير فى فلكه ، وتعمل بآرائه ، ولاتخرج عن قراراته ، فأصبحت تلك الدول تمثل كتلة شيوعية تسير حسب إرادة الدولة الأم (الاتحاد السوفييتى) .

يقول دروزيل :

(لقد سيطر الاتحاد السوفييتى على أوروبه الشرقية سيطرة حقيقية امتدت فى ربيع ١٩٤٨ ، على ألمانيا الشرقية وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهونغاريا ويوغسلافيا والبانيا وبلغاريا ورومانيا . وارتبطت هذه البلاد به بمعاهدات ذات طابع سياسى وقعت أولياتها فى زمن الحرب . وفى الحقيقة كانت الرابطة الأساسية إقامة أنظمة شيوعية مخلصة لموسكو)(٤).

ويقول تشرشل لـ(قد هبط ستار حديدى على القارة الأوربية، ممتد من ستيتين على بحر البلطيق إلى تريستا على بحر الأدرياتيك . ووراء هذا الستار ، تقوم عواصم جميع الدول العريقة فى أواسط أوروبا وشرقها .

---

(١) انظر التاريخ الدبلوماسى (١٩-٢٠) بتصرف .

(٢) انظر المرجع السابق (١٣٦-١٣٧) .

(٣) انظر عن ذلك : مذكرات تشرشل (٢/٩٩٨-١٠٠٤) ، الحرب العالمية الثانية (٤٩٠-٤٩١) ، التاريخ الدبلوماسى (١٦٥-١٦٧) ، التيارات السياسية المعاصرة (٤٢١) .

(٤) التاريخ الدبلوماسى (٢٢٨) ، وانظر (٢٣١-٢٣٢) .

فوارشو وبرلين وبراغ وفيينا وبودابست وبلغراد وبوخارست وصوفيا ، أجل كل هذه المدن المشهورة وماحولها من سكان ، تقوم الآن ويقومون ، فى المنطقة التى ادعوها بالسوفياتية ، وكلها تتعرض بشكل أو بآخر ، لاللنفود السوفياتى فحسب ، بل إلى حد ضخم من إشراف موسكو وسيطرتها فى كثير من الحالات)[١].

ولم يقتصر الأمر بالاتحاد السوفييتى على أوروبا الشرقية بل توسع نفوذه العسكرى إلى غير دول أوروبا[٢]وماكان هذا التوسع ليرضى الولايات المتحدة فكما أن السوفييت أقاموا ذلك الحاجز الوهمى الذى عرف بالستار الحديدى على دول أوروبا الشرقية ، فإن الولايات المتحدة إتجهت إلى (الدخول فى معاهدات وانشاء الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة ، كما اتجهت إلى الحد من حجم القوات المسلحة بما تضمنه هذا من قضايا إقتصادية محلية ذات أبعاد سياسية ، كما اتجهت أيضا إلى إعادة تنظيم مؤسسات الدفاع والسياسة الخارجية)[٣].

ويوضح بروسترك اهتمام أمريكا بهذه الأحداث وردود الفعل تجاه السوفييت وتدخلها فى بعض مناطق من العالم لصد الاعتداء السوفييتى فيقول (كلها أحداث تمثل حركة توسعية فى قالب بطولى حقيقى . وقد اتسمت كلها بالخطورة ، كما تطلبت جميعها قدرات نادرة لاتخاذ القرار والتحرك كما تم

---

(١) مذكرات تشرشل (١٠٩٤/٢) .
وانظر التيارات السياسية المعاصرة (٤٤٩) وقال : (ونتيجة للنفوذ والتأثير الروسى تأسست فى تلك الدول حكومات تسير على النظام الشيوعى ، وتكون منها جميعا ـ فيما عدا يوغسلافيا ـ كتلة شيوعية تسير فى فلك الاتحاد السوفييتى) .

(٢) انظر الروس قادمون (٤٨) .

(٣) نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمريكية (٨٥) .

اتخاذ القرار السليم بصددها وتم تطبيقها بهمة ونشاط)[١].

وإذا كان حال السوفييت هو التوسع والتدخل فى شئون الغير ، فإن الولايات المتحدة بدورها كانت كذلك بل كانت تقوم بنشر فكرها و(حاولت دائما أن تفسر علاقاتها ببقية أجزاء العالم عل صورة مبادىء أيديولوجية تتخطى المصالح العسكرية والإقتصادية الضيقة)[٢].

ومع ذلك ومن بعد الحرب العالمية الثانية أصبحت نظرة الولايات المتحدة تتجه صوب الدول والمناطق ذات المصالح السياسية والإقتصادية ، وكذلك باتجاه الدول التى تخشى أن يكون للنفوذ الشيوعى فيها سلطان ، يقول ريتشارد بارنت : (وفى العادة فإن اندلاع أعمال العنف لدى الشعوب البعيدة لاتلاحظ إلا عندما يتبين وجود مصالح إقتصادية وعسكرية للولايات المتحدة متعلقة بها . وعلى وجه العموم ، فإن دولة صغيرة متخلفة تجد صعوبة كبرى فى لفت انتباه وزارة الخارجية إلا إذا كانت واقعة على أطراف (المعسكر السوفييتى ـ الصينى) ، أو ضحية انتفاضة ذات علاقة بالشيوعية ، أو قد أصبحت من أهداف الديبلوماسية السوفيتية أو الصينية)[٣].

وهكذا نجد الولايات المتحدة تقوم بنفس الأسلوب الشيوعى ، لنشر الأيديولوجية الرأسمالية ، والاستفادة من الموارد الإقتصادية ، والسيطرة على المواقع الاستراتيجية ، ومنع انتشار الفكرة الشيوعية ، ومن هنا كانت هذه السياسة التوسعية من الطرفين لها أكبر الأثر فى زيادة الخلاف وحدته ، واتساع الهوة فيما بينهما ، ناهيك عن فقدان الثقة وإساءة الظن بكل فعل

---

(١) نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمريكية (١٠٣-١٠٤) .
وقد عرض المؤلف للمبادىء السياسية للسياسة الأمريكية ووضح من خلالها الاهتمام بمجابهة السوفييت ، وعدم نقل الصراع إلى العالم الجديد والبحث عن نظام دولى جديد (٤٥-٤٦) .

(٢) حروب التدخل الأمريكية فى العالم (٤١) ريتشارد بارنت ، ترجمة منعم النعمان ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ، دار ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع .

(٣) المرجع السابق (٤١) .

يصدر من الطرف الآخر ، وقد واجهت كل من الدولتين هذه الأحداث ، ووجهت موارد البلاد ومصادرها الإقتصادية فى سبيل تحقيق الانتصار فيها ، فكلفت الكثير ، واستنزفت الطاقات البشرية والمادية ، ولاشك أن الأحداث تختلف فى حجمها ، وخطورتها ، ومدى تأثيرها .

ومن العرض السابق لمسألة التوسع نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن الاتحاد السوفييتى هو الأكثر توسعا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ولعل لذلك أسبابه ودوافعه فمن ذلك :

(أ) استيلاء الاتحاد السوفييتى على أكثر هذه الدول ودخوله لبعض المناطق عسكريا بمفرده .

(ب) الاتفاقيات والمعاهدات التى كان قد وقعها مع تلك الدول قبل وأثناء وبعد الحرب .

(ج) تحقيق الانتصارات فى أكثر الجبهات على يد قواته .

(د) امتداد أراضيه من قبل الحرب إلى مساحات شاسعة مما جعل الحلفاء ينظرون لبعض الدول على أنها دول مجاورة له وهو أحق بالنفوذ فيها من بقية دول الحلفاء .

ثانيا : أن دول الحلفاء كان همها فى بداية الحرب وأثنائها منصبا على دحر القوات الألمانية ، وفى هذه الأثناء كان الاتحاد السوفييتى يحصن الدول والمناطق التى دخل إليها . فما أن انتهت الحرب حتى غدت أكثر الدول فى أوروبا الشرقية وأوسطها تحت السيطرة السوفيتية .

ثالثا : أن الخلاف مابدأ بالظهور والبروز على الساحة إلا مع نهاية الحرب فبدأت الدول الحليفة بالشك فى بعضها، وعدم الثقة فى تصرفات وتصريحات بعضها بعضا وخاصة فيما بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى .

رابعا : أن الاتحاد السوفييتى قد أثبت بهذا التوسع والاستيلاء على دول أوروبا الشرقية أن لديه قوة لايمكن قهرها بسهولة وبدأ الغرب يتخوف ويحذر منها حتى قال تشرشل :

(ذهبت جيوشنا ، وسيمضى وقت طويل قبل أن نتمكن من جمع حتى ولو ستين فرقة لمواجهة القوات الروسية التى تتفوق علينا عدة وعددا)[١].

خامسا : أن التوسع كان سببا من أسباب زيادة التوتر بين الدولتين الكبريين ووقع بسببها عدد من الأحداث والأزمات والتى كانت فى الأعم الأغلب محاولة لبسط النفوذ من قبل إحدى الدولتين على دولة أو منطقة فتقوم الأخرى بالتدخل ابعادا لها وحيلولة دون تحقيق هدفها فى تلك المنطقة.

ونعرض الآن لهذه الأزمات التى كانت من الأسباب الرئيسية فى تأجيج الحرب الباردة بين الطرفين وكانت هى فى ذاتها حربا باردة بينهما .

---

(١) المذكرات (١٠٧٧/٢) .

الأزمات

لقد شكلت الأزمات بين الطرفين حربا باردة بينهما حيث كان كل طرف يسعى للحد من توسع الطرف الآخر ، وفى الوقت ذاته يسعى للاستفادة من هذه الأحداث وتوجيهها لمصلحته وجعلها تحقق أهدافه إن عسكرية ، وإن سياسية ، وإن إقتصادية ، وفى تصورنا أن أبرز الأزمات التى واجهتها القوتان الكبريان هى :

(١) أزمة برلين .
(٢) اقامة الأحلاف العسكرية .
(٣) أحداث الصين .
(٤) الأزمة الكورية .
(٥) الأزمة الفيتنامية .
(٦) الأزمة الكوبية .
(٧) الشرق الأوسط والسيطرة عليه .
(٨) الأزمة الأفغانية .

وسنتناول كل أزمة على حده على أن هذه الأزمات والأحداث ، قد ارتبطت بالقضية التى نتجت عن ذلك وهى سباق التسلح ، ومايلحق بوسائل الحرب الباردة وأساليبها .

أولاً : أزمة برلين

قلنا فيما سبق أن المانيا قد تم تقسيمها إلى أربعة مناطق عند نهاية الحرب العالمية الثانية فمنطقة تحتلها أمريكا ، والأخرى الاتحاد السوفييتى ، وثالثة بريطانيا ، والرابعة من نصيب فرنسا(١).

وكان الاتحاد السوفييتى يرى أن جوهر مستقبل المانيا مربوط بالمسألة الألمانية منذ نهاية الحرب العالمية (فاعتقد ... السوفييت ، أنه مالم تحل القضايا الخاصة بأمن المانيا بطريقة تتفق تماما مع المطالب السوفيتية فإن إعادة تسليح المانيا سيترتب عليه فى النهاية قيامها بالهجوم على الاتحاد السوفييتى)(٢).

لقد كان لهذا التقسيم أثره فى اشعال الموقف لحرص كل طائفة على نصيبها وتخوفها من الأطراف الأخرى ، ولكن لكون الثلاثة الأطراف (أمريكا وبريطانيا وفرنسا) قريبين من بعضهم فلربما يكون العداء بين طرفين اثنين هما أمريكا وتابعيها من جهة ، والاتحاد السوفييتى من الجهة الأخرى .

ولاشك أن هناك أسباباً أثارت الاتحاد السوفييتى وجعلته يقدم على محاولة الاستيلاء على برلين وفرض سيطرته عليها . ويعتبر مشروع مارشال الداعى إلى الوقوف مع أوروبا ودعمها إقتصاديا قد قضى على أمل السوفييت فى تمزيق أوروبا واستغلالها . ومن هنا أقدم الاتحاد السوفييتى على الاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا وكذلك حصار برلين مما جعل الحرب الباردة تزداد حدة . ويعلن ترومان البقاء فى المدينة ، فى حين كان يطالب ستالين بانسحاب الحلفاء منها .

يقول دانيال ونورمان :

"قبل أسابيع قليلة من تصويت الكونجرس بالموافقة على تحويل (مشروع مارشال) ، انتزع الشيوعيون السلطة من الحكومة التشيكوسلوفاكية

---

(١) راجع (١٤٧٢) .

(٢) نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمريكية (١٠٠) .

المتعاطفة مع الشيوعيين برغم استقلالها . وتحولت دولة ديمقراطية إلى دولة شمولية فى أقل من شهر ، وكان الإنقلاب الذى وقع فى تشيكوسلوفاكيا إنذارا إلى معظم العالم غير الشيوعى ، وذكر أوروبا الغربية بأهمية دفاعاتها والحاجة إلى اتخاذ قرار بشأن مستقبل المانيا ...

وكان الأمريكيون والبريطانيون والفرنسيون قد دخلوا فى محادثات لمدة شهور حول توحيد مناطق احتلالهم جمهورية ألمانية غربية تتمتع بالحكم الذاتى . وعارض ستالين مشروعات توحيد ألمانيا ، وعندما أعلن عن مشروع تكوين حكومة لألمانيا الغربية ، أعرب ستالين عن امتعاضه .

كانت برلين عاصمة ألمانيا السابقة تقع بالقرب من مركز منطقة الاحتلال السوفيتية . وتولت كل من الدول الأربع الكبرى حكم قطاع من قطاعات المدينة . وتضمنت القطاعات الأمريكية والبريطانية والسوفيتية ماعرف باسم برلين الغربية . وفى ٢٣ يوليو حاصر ستالين المدينة وقطع جميع الطرق والسكك الحديدية المؤدية إليها من الغرب .

وفجأة أصبح سكان برلين الغربية الذين بلغ عددهم ٢,٥ مليون نسمة رهائن فى الحرب الباردة . ولو اضطر الغرب إلى التخلى عن برلين فسوف تهتز ثقة أوروبا فى الولايات المتحدة اهتزازا كبيرا . وكان زعماء الولايات المتحدة يرغبون فى تجنب أى صدام مباشر مع الجيش السوفييتى ، غير أنهم عقدواالعزم على عدم التخلى عن المدينة ، وقد لخص ترومان الموقف الأمريكى بهذه الكلمات المقتضبة : "سوف نبقى فى المدينة . انتهى الأمر" . وللتدليل على أنه عنى ماقال ، أصدر أوامره إلى سربين من القاذفات من طراز (بى-٢٩) بالطيران إلى بريطانيا والمانيا . وكان هذا الطراز من

الطائرات هو وحده القادر على حمل القنابل الذرية)[١].

وكان للأوضاع الإقتصادية أثرها فى أزمة برلين وزيادة حدتها ، فقد تم الاتفاق فى بوتسدام أن يأخذ الاتحاد السوفييتى (التعويضات من منطقة احتلاله وأن يأخذ من المناطق الغربية المحتلة ٢٥٪ من جميع الآلات والمنشآت الصناعية التى لم تكن ضرورية لإقتصاد المانيا وقت السلم . وبدلا من ذلك يقوم الاتحاد السوفييتى بارسال الطعام والفحم والمواد الخام من منطقة احتلاله إلى المناطق المحتلة الغربية وذلك بقيمة ٦٠٪ مما تلقاه من الغرب ...)[٢].

إلا أن الروس أوقفوا (شحنات الأغذية والمواد الخام التى كانوا يرسلونها مقابل التعويضات وذلك بسبب الوضع الإقتصادى (السىء) فى أوروبا الشرقية)[٣].

فساء ذلك الأمر الولايات المتحدة فألقى وزير خارجيتها جيمس بيرنز خطابا جاء فيه الاعتراف الرسمى (بأن اتفاقيات بوتسدام الإقتصادية لم تكن تنفذ بشكل صحيح واقترح توحيد إقتصاد المنطقة الأمريكية مع أى من المناطق الأخرى أو معها جميعا)[٤].

---

(١) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٧-٤٨) .
وانظر موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٥٦-٥٥٧) ، وقال : (وكان المرتقب من هذا الحصار أن يؤدى إلى تسليم برلين للسيطرة الروسية ليتسنى إذا حان الحين جعلها عاصمة دولة ألمانية شيوعية قوية . وكانت حجة السوفييت أن الغرب انتهك بعض الاتفاقيات غير أن السبب الحقيقى هو أن الغرب كان يعمل لبعث ألمانيا إقتصاديا وسياسيا كجزء مهم من أوروبا جديدة أعيد تعميرها) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤٢) وانظر مابعدها ، وانظر : العالم فى القرن العشرين (٢٥١-٢٥٤) ، موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٤٨) .

(٣) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤٥) .

(٤) المرجع السابق (٤٥) .
وذكر أنه لم توافق إلا بريطانيا وانضمت المنطقتان من ١ كانون ١٩٤٧ ، ثم انضمت فرنسا إليهما فيما بعد سنة ١٩٤٩ . وهكذا قسمت ألمانيا إقتصاديا بين الشرق والغرب .
وانظر موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٤٨) وقال : (وكان هذا تطورا شغل بال الروس) .

أما الاتجاه السياسى فإن المانيا كان بها عدة أحزاب سياسية ، وكان من القضايا التى اتفق عليها بين الحلفاء (تسليم السلطة العليا فى ألمانيا لمجلس رقابة الحلفاء المؤلف من الحكام العسكريين لمناطق الاحتلال الأربع وقيادة تابعة لمجلس رقابة الحلفاء ... كمااتفق على أن تكون ألمانيا وحدة إقتصادية واحدة وأن تصبح مرة أخرى وحدة سياسية واحدة)[١].

غير أن الخلافات بين الحلفاء كانت أكبر من أن تقف الحكومة الرباعية صامدة أمامها وذلك نظرا لكثرة مااختلفوا عليه من قضايا وخاصة مايتعلق بألمانيا ، ووصلت الخلافات بينهما فى عام ١٩٤٧ بالمجابهة الدعائية[٢]

وكان الاتحاد السوفييتى أكثر الأطراف إثارة للخلاف ، إن الجهود الجبارة التى بذلت من أجل احلال السلام فى ألمانيا قد باءت بالفشل[٣]،

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤١) ، وذكر أن فرنسا رفضت قيام المانيا موحدة لأنها ترى أن ذلك تهديدا لها حيث غزت ألمانيا فرنسا ثلاث مرات خلال سبعين عاما .
وانظر التيارات السياسية المعاصرة (٤٤٧-٤٤٨) .
وذكر بعضا من الأحزاب السياسية الموجودة فى ألمانيا وكذلك الخلاف بين أعضاء هذه الحكومة ، وانسحاب المندوبين الروس من الاجتماع الرباعى .
كذا انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤٥-٤٧) ، وذكر الأحزاب السياسية ومنها الحزب الإشتراكى الذى جعل منه الروس قوة لابأس بها ، إلا أن الشعب الألمانى كان يتخوف من التوجه الشيوعى لأنه يربطه بالكرملين مباشرة ، وجاءت عدة دعوات تدعو إلى دمج الحزب الشيوعى الممالىء لروسيا بالحزب الإشتراكى الديمقراطى إلا أنها باءت بالفشل ، وأنشىء حزب جديد مندمج ولكن دون أن تستطيع روسيا السيطرة عليه وكانت ثمرته الوحيدة تقريبا ادخال الرعب فى قلوب أصحاب المناطق الغربية .

(٢) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤٧) .

(٣) انظر : التاريخ الدبلوماسى (١٨٥-١٨٧) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤٨) ، موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٤٦-٥٤٨) .
وأجمع هؤلاء على أن المؤتمرات كانت تنفض دون ما اتفاق على موضوع واحد ذى أهمية .

وكانت تلك الجهود تتبخر أمام الاصرار السوفييتى وعناده . غير أن فشل هذه المؤتمرات صعد من الحرب بين الدولتين ، وعرف الأمريكيون (أنه لاأمل لهم فى مفاوضة الروس إلا من مركز قوة . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا لم يكن أى من الجانبين كثير الاهتمام بالمصالحة)[١].

ويقول مونتغمرى : (اشترك وزراء خارجية الدول المحتلة لألمانيا فى مؤتمر انعقد فى لندن بشأن هذه البلاد (المانيا) وغدا واضحا أنه لايمكن الوصول إلى أى اتفاق مع روسيا)[٢].

وكنتيجة طبيعية لفشل هذه المحادثات ولإصرار السوفييت على مطالبهم وسياستهم تجاه ألمانيا[٣]كان لابد من الاتجاه إلى أسلوب آخر يضمن به ستالين تحقيق مطالبه ، وطالب الحلفاء بالجلاء عن ألمانيا غير أن ذلك لم يكن بالبساطة التى تصورها ستالين ، وقد قام السوفييت فى حزيران/يونيو ١٩٤٧ بتأسيس (إدارة إقتصادية لمنطقتهم وقطعوا بعنف الاتصال مع مناطق الاحتلال الأخرى)[٤].

وكرد فعل لهذه الخطوة ولضرب تشيكوسلوفاكيا من قبل السوفييت دعت الدول الثلاث الحليفة إلى عقد مؤتمر فى لندن حول تشكيل دولة المانيا الغربية .

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤٨) .

(٢) المذكرات (٥٣٨) .

(٣) (كانت سياسة روسيا هى أن تمتص من المانيا كميات كبيرة من السلع المصنوعة كتعويضات ، وأن تحول دون انتعاش المانيا أو أن ترجئه ، وأن تدفع الشعب إلى التحول إلى شيوعيين ، عن طريق توليد الفقر والفوضى بأساليب مرسومة . أما السياسة الأنجلو أمريكية فكانت على النقيض ، كانت ترمى إلى إعادة المانيا إلى العافية الصناعية ، وإعادة ارساء الرخاء ، وصون النظام ، وتدريب الشعب على الديمقراطية السياسية) .
موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٤٧-٥٤٨) .

(٤) مابعد الحرب الباردة (٢٨) .

وكـرد فعل من السوفييت انسحبـوا من مجلس مراقبـة القوى الأربع ، ثم أعلـن قـرار إنشاء دولة المانيـا الغربية وبعد أسبـوع أى فى ١٨ حزيران/ يونيـو ١٩٤٨ أعلنت القوى الغربية قرب ادخال العملة المعـدلة فى مناطقهم ، وتبعه رد فعل السوفييت بتعديل العملة فى منطقتهم وفى كل برلين(١).

وفى ٢٣ حزيران طـرحت القـوى الغـربية عملتهـا الجديدة فى برلين الغربية ، ورد السوفييت على ذلك باغلاق المناطق الغـربية من المدينة وسدوا الطرق البرية ، وقطعوا الإمداد بالكهرباء عنها(٢).

ثم لجأت القـوات السوفيتيـة إلى استخدام القوة فضـربوا الحصـار على برلين وكـان حصـارها (فى نظـر الـروس بديلا عن الحرب . إذ كـان هجـوما مدبرا على جميع الأوضاع الغـربية فى المانيـا وعلى الالتزام الأمـريكى تجاه أوروبا)(٣).

ولايغيب عنا أن برلين كانت تمثل منطقة مهمة للألمان والحلفاء(٤)، وقد بين ذلـك تشـرشل فى البرقية التى بعـث بهـا إلى ايزنهاور وجاء فيهـا : (إننى لأقـول بمنتهـى الصـراحة ، أن برلين مـازالت على جانب كبير مـن الأهميـة الاستراتيجية ، فلاشىء يمكن له أن يؤدى إلى التأثير نفسيا ، والإيحاء باليأس

---

(١) انظر مابعد الحرب الباردة (٢٨) .
وانظر مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٥٥/٢٨) .

(٢) انظر مابعد الحرب الباردة (٢٧) .
وكان ذلك بتاريخ ٢٤ حزيران/يونيو ١٩٤٨م .

(٣) Philip windwor, cc city on leave : History of Berlin (1945-1962)
(Chatto and windas, 1963) p.98 .
نقلا من كتاب من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤٨)
وانظر عن الحصار التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٩) .
وانظـر : الثنـائية الـدولية (٣٣٠) ، العـالم فى القـرن العشرين (٢٦٧) ، التـاريخ الدبلوماسى (١٨٧) ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٨) .

(٤) انظر فن الحرب (٣٢٨) .

لجميع قوات المقاومة الألمانية من سقوط برلين نفسها ... ولهذا فإنى أرى من الناحية السياسية أن علينا أن نسرع بالزحف شرقا فى المانيا بأقصى مالدينا من سرعة ، وأنه إذا وقعت برلين فى قبضتنا ، فإن علينا أن نستولى عليها ، ويبدو لى أن هذا القول سليم أيضا من الناحية العسكرية ...)[١].

وقال فى رسالة أخرى (إننى أرى من الأهمية بمكان عظيم ، أن نلتقى بالروس فى أبعد نقطة إلى الشرق ، ماأمكننا إلى ذلك سبيلا ...)[٢].

ونعود إلى الحصار فقد زاد الروس من قبضتهم وتضييقهم على المناطق الغربية ، وكانت القوات الروسية المتواجدة هناك تؤهلهم لذلك وكان أمام الغرب ثلاثة خيارات (إذ كان بوسعهم إرسال قوافل عسكرية على الطرق الرئيسية إلى برلين الغربية واختراق الحصار ، أو أن يستسلموا ويخرجوا قواتهم من المدينة ويسلموا برلين كلها للإدارة السوفييتية ، أو أن يتسلقوا من فوق الحصار بالمعنى الحرفى . وفكر الأمريكيون جديا فى الخيار الأول لكنهم تخلوا عنه لأنه ربما أدى إلى درجة عالية جدا من المخاطرة بخوض حرب . ولم يكن هناك سوى ٦ آلاف جندى غربى فى برلين مقابل ١٨ ألف جندى روسى داخل المدينة وعدة فرق فى مناطق مجاورة لها . ومع أن الولايات المتحدة كانت تتمتع باحتكار السلاح النووى فى ذلك الوقت إلا أن قواتها التقليدية كانت ضعيفة كما كانت قوات حلفائها فى أوروبا ولذلك لم يستطع الغرب المغامرة بإثارة حرب تقليدية كانوا سيخسرونها حتما فى المراحل الأولى على الأقل . أما الخيار الثانى فلم يفكر به أحد جديا لأنه إذا انسحب الغرب من برلين فإن مصداقيتهم فى العالم سوف تضعف بشكل مروع ولن يتوقع بعدها من الأنظمة المعادية للشيوعية فى العالم أن تصدق تأكيدات الأمريكيين بالمساعدة ضد العدوان الشيوعى ، ولذلك تم اللجوء إلى الخيار

---

(١) المذكرات (٢/١٠٣٥-١٠٣٦) .

(٢) المرجع السابق (٢/١٠٣٧) .

الثالث فتقرر أن يقوم الحلفاء الغربيون بتزويد برلين الغربية من الجو)[١].

وبالفعل بدأت الحركة الجوية إلى غرب برلين فـ(أقلعت الطائرات الأمريكية والبريطانية إلى الجو وكانت تحط فى برلين طائرة شحن من طراز (سى-٢٧) تحمل الطعام ، والفحم والضروريات الأخرى ، كل ثلاث دقائق بلاتوقف . وفى طريق عودتهم كان الطيارون ينقلون المرضى والأطفال الذين يعانون من سوء التغذية إلى حيث الأمان فى مستشفيات الغرب . وردد الطيارون قولا مأثورا نصفه شعار ، والنصف الآخر من قبيل الفكاهة : "نحن نؤدى الأمر الصعب على الفور . أما المستحيل فهو يستغرق وقتا أكثر قليلا)[٢].

وقد فشل الحصار فعلا بسبب الانتصار الذى حققه الجسر الجوى[٣].

وبعد هذا العرض المقتضب لهذه الأزمة نأتى لذكر أهم آثارها .

آثار أزمة برلين :

خلفت هذه الأزمة آثارا كثيرة على المستوى الداخلى للشعب الألمانى وكذلك على مستوى العلاقات الدولية ، وخاصة فيما بين الطرفين اللذين برزا كقوتين عظميين بعد الحرب العالمية الثانية ، ويمكن ابراز آثار تلك الأزمة فى التالى :

أولا : بدأت معاناة الشعب الألمانى منذ الحاق الهزيمة بجيشه ، ثم دخول قوات الحلفاء إلى أرضه ، وبالتالى اقتسام الأراضى الألمانية ، وفاقم من هذه المعاناة الحصار الذى ضرب على برلين من قبل السوفييت ، فعاش الشعب الألمانى ويلات الحرب ثم تجرع غضب الحلفاء ، إلى أن أصبح منقسما بين اتجاهين متصارعين ليدفع الشعب الألمانى ثمن هذا الصراع .

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤٩-٥٠) ، وانظر التاريخ الدبلوماسى (١٨٧) .

(٢) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٨) ، وانظر : مابعد الحرب الباردة (٢٩) ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية (٥٥/٢٨) .

(٣) انظر مذكرات مونتغمرى (٥٤٧) .

ثانيا : أدى الحصار إلى استنزاف كبير للحلفاء الغربيين ، وذلك لوجود الحامية الغربية مضافا إليها السكان الموجودين فى برلين الغربية . هذا مع الأخذ فى الاعتبار تلك التكاليف المدفوعة قبل الحصار لوجود الحاميات التابعة لكل دولة .

ثالثا : فشل القوات الروسية فى الحصول على مطالبها من الدول الغربية وذلك من جهة عدم التأثير بالحصار حيث (اضطر ستالين إلى فك الحصار بعد مرور ٢٣١ يوما و٢٦٤ و٢٧٧ طلعة جوية)[١].

رابعا : (لقد برهنت الولايات المتحدة للأوربيين الغربيين أنه باستطاعتها أن تقف بجانبهم إذا ماتأزمت الأمور ولم يجن الاتحاد السوفييتى إلا أقل القليل ، إذ لم تكن لديه القدرة على إفشال وحدة ألمانيا ، وخرجت إلى الوجود جمهورية ألمانيا الاتحادية فى ٢٣ مايو ١٩٤٩ ، واتخذت مدينة بون عاصمة لها ، ورد الاتحاد السوفييتى على ذلك فى شهر أكتوبر التالى بانشاء جمهورية ألمانيا الديمقراطية فى ألمانيا الشرقية)[٢].

وأصبحت المانيا مقسومة إلى جزئين الغربى وتمثله ألمانيا الاتحادية وشرقى وتمثله ألمانيا الديمقراطية ، وأقيم جدار برلين الذى كرس الانقسام وحرم السكان من التنقل ، مع أن ذلك يتعارض مع ماجاء فى مؤتمر بوتسدام القائل بحرية التنقل[٣].

---

(١) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٨-٤٩) .

(٢) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٩) ، وانظر : من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥٢-٥٣) ، الثنائية الدولية (٣٣٠) ، العالم فى القرن العشرين (٢٦٨) .

(٣) انظر الثنائية الدولية (٣٣٠-٣٣١) .
وانظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥٣) وذكر أن كلا من الطرفين رفض الاعتراف بالحكومة التى توالى ذلك الطرف .
وانظر : العالم فى القرن العشرين (٢٥٣-٢٥٤) ، موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٥٧) .

خامسا : زاد شعور العداء والمناهضة للسوفييت فى كافة أرجاء أوروبا الغربية ، وأصبحت مطالبها تقابل بالرفض[١] كما نجم عن ذلك الحصار (استمالة الغرب للرأى العام الألمانى وشحذه ضد الروس)[٢].

سادسا : أزال الحصار أية أوهام من عقول حكومات الدول الغربية حول الاتفاق مع الاتحاد السوفييتى بشأن المانيا[٣].

سابعا : أظهرت هذه الأزمة أهمية السلاح النووى فى التصدى للسوفييت وجعلت الولايات المتحدة الأمريكية تسير فى اتجاه مضاد لخفض الميزانية الدفاعية بعد الحرب[٤].

ثامنا : لقد كانت هذه الأزمة من أوائل الأزمات التى أشعلت الحرب الباردة بين الطرفين ، كما أنها جرت لأحداث تلتها ، وبدأ كل طرف يترقب الفرصة السانحة من أجل استنزاف طاقات العدو ، وكذلك إيقاع الرعب فى صفوفه ، حتى غدا مصطلح الحرب الباردة يردد على ألسنة السياسيين والكتاب . يقول دروزيل : (ووجد العالم آنذاك فى حالة سماها الكتاب والخطباء والسياسيون فى العالم أجمع (الحرب الباردة) وسخن وقع الخطب داخل الأمم المتحدة وخارجها . وتردد علنا امكان حرب عالمية جديدة...)[٥].

---

(١) انظر : موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٥٧) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥١) .

(٢) مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد (٥٥/٢٨) بقلم على المليجى على ، ماذا بعد هدم جدار برلين ، لقد كان الفرد فى المانيا الشرقية يريد النفاذ بأى طريق إلى المانيا الغربية وماأن تنفس الشعب الصعداء فى المانيا الشرقية حتى أخذ يتدفق أفواجا وبهجرات جماعية إلى ألمانيا الغربية التى كانت تمنحهم جوازات سفر المانية غربية لكونها ترى نفسها مسئولة عن الشعب الألمانى بأكمله .
انظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٥٦-٢٥٧) .

(٣) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥١) .

(٤) انظر المرجع السابق (٥١) .

(٥) التاريخ الدبلوماسى (١٨٨) .

وهكذا غدت أزمة برلين مزيدة فى حدة التوتر والخلاف بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة .

وبقى انشطار المانيا إلى دولتين يثير القلق والخوف لدى كل من الدولتين الكبريين ، وتترقب كل واحدة منهما تحركات وتوجهات الدولة الأخرى داخل الحدود التى تسيطر عليها أو تسير فى فلكها . ولقد أدت هذه الأزمة إلى إقامة الحلف الذى انضمت إليه الولايات المتحدة الأمريكية وضم مجموعة من الدول ، ثم بعد فترة من الزمن أعقبه الاتحاد السوفييتى بإقامة حلف ضم مجموعة من الدول التابعة له أو الواقعة تحت سيطرته ، وكانت هذه الأحلاف زيادة فى تعميق الهوة وفقدان الثقة والترصد للعدو .

لقد أدت سياسة ستالين تجاه المانيا (إلى تسارع التحالف بين دول غرب أوروبا وتكوين التحالف العسكرى الغربى (NATO))[١].

---

(١) العالم فى القرن العشرين (٢٦٨) .

ثانيا : التحالف

إن التحالف بادىء ذى بدء يقصد منه الحفاظ على توازن القوى ، وعدم تمكين العدو من التفوق ، واستدراك الضعف أو الاخفاق الذى قد يظهر على أحد الأطراف ، ولعل هذا بديلا عن الإنصياع لأوامر العدو أو المطالبة بالسلام ، ومن هنا يعقد التحالف حتى تكون تلك الكثرة مقابل ذلك العدو ، ولاشك أن هذا التحالف يشكل إرهاقا نفسيا للعدو . ومن هنا اعتبرنا التحالف أحد الأساليب التى عملت الدول الكبرى على إيجادها والانضمام إليها ، ارهابا للعدو ، وكسبا كذلك لأكبر عدد من الدول ، وضمان عدم قيام تلك الدول بمعاداتها والاستفادة بما لديها من قدرات متنوعة .

وسياسة التحالف ليست بالسياسة الجديدة بل عرفت منذ القدم بين الدول وكان الهدف منها الوقوف فى مواجهة الأعداء[١]، وقد يكون التحالف على احقاق الحق وابعاد الظلم ومن ذلك حلف الفضول الذى أقامته قريش[٢]وهكذا عرف التاريخ الإنسانى تلك الأحلاف وكلما ازداد الخلاف كانت الحاجة ماسة للتحالف ، وهذا ماعرفه العصر الحديث حيث كثرت الأيديولوجيات ، وزاد التصارع والتسابق على ضروريات الحياة فكان لابد والحال هذه من وجود التحالف .

---

(١) انظر بعضا من هذه الأحلاف فى كتاب التاريخ العسكرى (٣٦٢-٣٨٧) .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١٤١/١) ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، وذكر أن قبائل من قريش وهى بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة "تعاقدوا وتعاهدوا على أن لايجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول" .

وعندما كانت أوروبا مسرحا للنزاعات المستمرة فقد عرفت هذه القارة أنواعا عديدة بين أطرافها من التحالفات ، فعندما كانت المانيا تحاول السيطرة على أوروبا عقدت بعض الدول تحالفات فيما بينها وكانت فى غالبها ضد المانيا كما هو حال المعاهدة السوفيتية الفرنسية عام ١٩٤٤ ، والمعاهدة الفرنسية الانجليزية فى ٤ آذار ١٩٤٧[١] وغيرها[٢]. وبعد الخلاف الذى وقع بين الغربيين والاتحاد السوفييتى بدأت الأحلاف فى ازدياد فيما بين الدول الغربية[٣]، وكان من أشهر الاتفاقيات وأكبرها التوقيع على معاهدة حلف الأطلسى الذى ضم الولايات المتحدة ومجموعة من الدول التى كانت تسير فى وجهتها ، وقد كان هناك ارهاصات سبقت الإعلان عن هذا الميثاق وكان أهمها وجود القوة السوفيتية التى أخذت فى تهديد الأمن الأوربى بكامله[٤]، فكان لابد من الوحدة والانضمام تحت لواء واحد لمقاومة المد الشيوعى .

وفى ١١ يونيو سنة ١٩٤٨ صوت مجلس الشيوخ الأمريكى عل قرار (يخول الحكومة الاشتراك فى الأحلاف الجماعية الإقليمية ، ويخولها بصفة خاصة فتح باب المفاوضات لانشاء حلف الأطلنطى . وبعد ذلك بيومين بدأت فى واشنطون مباحثات بين وزارة الخارجية الأمريكية وسفراء دول الاتحاد الغربى الخمسة (بريطانيا ـ فرنسا ـ بلجيكا ـ هولندا ـ لكسمبورج) فضلا عن سفير كندا وانتهت بوضع المعاهدة فى مارس سنة ١٩٤٩ وأعلنت فى ١٨ مارس

---

(١) انظر التاريخ الدبلوماسى (٢٠٩) .
وانظر التنظيم الدولى (٢٧٥) ، ، د. الشافعى محمد بشير ، مكتبة الجلاء الجديدة ، المنصورة ، ذو الحجة ١٤١٠هـ/اكتوبر ١٩٨٠م دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) انظر الحلف الأطلسى والشرق الأوسط (٨) ، واعتبر أن اعلان ميثاق الأطلسى نشأ عن المعاهدة الانجليزية الفرنسية ١٩٤٧ ، ومعاهدة بروكسل سنة ١٩٤٨ .

(٣) انظر التاريخ الدبلوماسى (٢٠٩-٢١٠) .

(٤) انظر ماذكره دروزيل ـ بشأن الأفكار والدعوات التى سبقت إعلان ميثاق الأطلسى وألمح فيها إلى تخوف الغربيين من الخطر السوفييتى ـ فى كتابه التاريخ الدبلوماسى (٢١٠-٢١٢) . ويذكر ميشال خوبير بأن الأوربيين الخائفين كانوا يسترعون انتباه الولايات المتحدة إلى هذا الحلف . الأمريكيون (٧٩) .

قبل التوقيع عليها ، ثم أجريت احتفالات التوقيع الرسمية فى ٤ ابريل ودخلت المعاهدة دور التنفيذ فى ٢٤ أغسطس ١٩٤٩)[١]. وكان هذا التحالف (أول تحالف فى التاريخ يقوم وقت السلم . وعين الجنرال أيزنهاور ، قائد القوات الأمريكية فى أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية ، قائدا عاما لقوات المنظمة)[٢].

(وكانت أول خطوة اتخذها الحلفاء لتنظيم الدفاع ضد الشيوعية ...)[٣].

وقال ممثل الحكومة الفرنسية : (لقد حصلنا اليوم على ماكنا نأمله عبثا فى فترة مابين الحربين : وهو اعتراف الولايات المتحدة بأن لاسلام ولاأمن لأمريكا إذا كانت أوروبا فى خطر)[٤].

حلف شمال الأطلنطى (NATO) :

كان هناك عدة عوامل أدت إلى قيام حلف الناتو وأبرزها مجابهة السوفييت والوقوف ضد أطماعه فى أوروبا الغربية بعد أن أصبحت أوروبا الشرقية تحت قبضته .

يقول د. الشافعى : (ترجع العوامل المباشرة لإنشاء هذا الحلف إلى عدة تصرفات للاتحاد السوفييتى أفصحت عن نواياه العدوانية فى نظر الغرب ومن هذه التصرفات إبرامه العديد من اتفاقيات المساعدات المتبادلة مع دول أوروبا الشرقية وسيطرته على تشيكوسلوفاكيا وإغلاق برلين الذى بدأ فى شهر ابريل ١٩٤٨ ليزداد إحكاما فى شهر يونيو من نفس العام...)[٥].

---

(١) التنظيم الدولى (٢٧٧) .
وانظر موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٩٣) .

(٢) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٩) ، وانظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٩) .

(٣) التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٩) .

(٤) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٩) .

(٥) التنظيم الدولى (٢٧٦) .

ويقول اللواء على فهمى حامد : (نشأ الحلف بين دول غرب أوروبا ودول أمريكا الشمالية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث كانت معظم دول الحلف فى أوضاع سياسية وعسكرية وإقتصادية سيئة ، بينما اجتاح الغزو السوفييتى دول شرق أوروبا سياسيا وعسكريا ، وأصبح من المؤكد أن معظم دول أوروبا ستقع لامحالة تحت السيطرة السوفيتية . ولمنع هذا الاعتقاد وايقاف التيار السوفييتى ظهرت ضرورة انشاء هذا الحلف)[١].

(لقد أنشىء هذا الحلف من أجل تحقيق الأمن الجماعى الذى فشلت الأمم المتحدة فى توفيره ، كما أنه كان بمثابة اعتراف بوجود تهديد سوفييتى حقيقى لأمن أوربا بصفة عامة وللديمقراطية الغربية بصفة خاصة . فهذا الحلف جاء كنتيجة مباشرة للحرب الباردة ولمواجهة الحاجة إلى احتواء التوسع السوفييتى الهدام . فضلا عن أنه كان له تأثير هام على حدثين تاريخيين هامين هما : أولا بلورة فكرة وجود أوروبا كوحدة سياسية وإقتصادية وثقافية ، وثانيا المشاركة الدائمة للولايات المتحدة كقوة دولية فى الشئون السياسية لأوروبا التى تسبقها تاريخيا كقوة دولية)[٢].

والدول الأعضاء فى هذا الحلف هى بلجيكا ، كندا ، الدانمرك ، فرنسا المانيا الاتحادية ، اليونان ، ايسلندا ، ايطاليا ، لوكسمبورج ، هولندا ، النرويج ، البرتغال ، تركيا ، المملكة المتحدة ، الولايات المتحدة . ويطلق على هذا الحلف **الناتو (NATO)** .

وهى اختصار للكلمات :

North Atlantic Treaty Organization[٣].

---

(١) مجلة الدفاع (السعودية) العدد (١٤/٦٦) ، السنة الخامسة والعشرون ، رجب ١٤٠٧هـ/مارس ١٩٨٧ من مقال بعنوان أضواء على حلف الأطلنطى .

(٢) نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمريكية (١٧٢-١٧٣) .

(٣) انظر : مجلة الدفاع السعودية ، العدد (١٤/٦٦) ، التنظيم الدولى (٢٧٧) ، الحلف الأطلسى والشرق الأوسط (٨) ، التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٩-٤٦٠) .

ويبين دروزيل فقرات المعاهدة ومما جاء عنه : (تصر المقدمة على رغبة المتعاقدين فى السلام ، وتصميمهم على حماية النظام الديمقراطى ، من النموذج الغربى ، بالقوة ، وعلى حكم الحق . ولم تلمح المعاهدة إلا تلميحا سريعا (المادة ٢) إلى ضرورة تحسين الرخاء بتعاون متبادل . والشىء الأساسى فيها هو البنود العسكرية ، ويجب أن يميز التهديد والعدوان . ففى حالة "التهديد" (مادة ٤) ، تتشاور الأطراف . ويكفى ، لتعريف "التهديد" ، أن يصرح أحدها أنه موجود .

وفى حالة "عدوان" فى أوروبا ، فى أمريكا الشمالية ، فى الجزائر ، ضد إحدى جزر الأطلسى فى شمال مدار السرطان ، ضد سفينة أو جهاز طيران تابع إلى أحد المتعاقدين ، لاتكون المعونة العسكرية آلية تماما . وإذا حدث حادث من هذا القبيل ، فكل طرف ، فى حالة دفاع مشروع ، طبقا للمادة ٥١ من شرعة الأمم المتحدة ، يقوم "حالا بمفرده وباتفاق مع الأطراف الأخرى ، بالعمل الذى يراه ضروريا ، بما فى ذلك استعمال القوة المسلحة لتوطيد القوة وتأمين السلام فى منطقة شمال الأطلسى" (المادتين ٤و٥) . وهكذا يبقى كل طرف حر فى تقرير ماإذا كانت معونته عسكرية أى يقوم بالحرب .

والمادتان ٨،٧ تنصان على أنه لايوجد عدم تلاؤم بين ميثاق الأطلسى من جهة ، وشرعة الأمم المتحدة وكل تعهد سابق لأحد الحلفاء من جهة أخرى . وسينشأ مجلس قادر على الانعقاد سريعا ، وهيئات عون ومن بينها (لجنة دفاع) (المادة ٩) .

ولتدخل دولة أخرى فى هذا الميثاق يجب اتفاق المتعاقدين بالاجماع (المادة ١٠) . وتودع وسائل التصديق لدى حكومة الولايات المتحدة . وليوضع الميثاق موضع التنفيذ يجب تصديق أكثرية الموقعين بما فيهم الدول السبع الأولى المفاوضة . وبعد عشرة أعوام على الأقل يمكن إعادة النظر فيه (المادة ١٢) . وبعد عشرين عاما يمكن لأحد الأطراف أن ينهيه ، فيما يختص

به ، بعد عام على ابداء رغبته)[١].

وكانت الولايات المتحدة هى المتزعم لهذا الحلف وألقى على عاتقها أكبر جزء من تحملاته الإقتصادية والعسكرية ، وكان العدو الذى تجمع هؤلاء لمجابهته هو الاتحاد السوفييتى ، وكان هذا يدعم ويؤيد سياسة الاحتواء التى عملت بها الولايات المتحدة . وتقوم هذه السياسة على التدخل فى القرارات الإقليمية السياسية التى يمكن أن تؤثر فى دعم السوفييت ، وأدت هذه السياسة إلى تأجيج الحرب الباردة ، والانخراط فى سباق التسلح المحموم الذى عانت منه كلا الدولتين ، وبلغت سياسة الاحتواء كل دول العالم تقريبا[٢].

---

(١) التاريخ الدبلوماسى (٢١٢-٢١٣) .
وانظر : موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٦٠) ، التيارات السياسية المعاصرة (٤٦٠) وعن التخلى عن هذه المعاهدة بعد عشرين عاما انظر التنظيم الدولى (٢٧٧) .
ويقول اللواء على فهمى : (وتؤكد الدول أعضاء الحلف ثقتهم وإيمانهم بمبادىء وأهداف الأمم المتحدة ورغبتهم فى العيش فى سلام مع باقى الشعوب والحكومات وتصميم جميع دول الحلف على حماية الحرية والتقدم على أسس من الديمقراطية واحترام القانون الدولى .
ويحث الأعضاء جميع دول المنطقة على تنمية الاستقرار والسلام فى منطقة شمال الأطلنطى وصمموا على توحيد جهودهم وتوصياتهم للدفاع الجماعى) . مجلة الدفاع السعودية العدد (١٤/٦٦) .
وقد تم ادخال دولتين بناء على ماأقر فى الميثاق وهما اليونان وتركيا .
انظر : التاريخ الدبلوماسى (٢١٩) ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٩) ، التنظيم الدولى (٢٧٧) .
ولمزيد من المعلومات عن الحلف وتنظيماته وهيئاته انظر التاريخ الدبلوماسى (٢١٥-٢١٩) ، وانظر التنظيم الدولى (٢٨٣) ومابعدها .

(٢) ولمزيد عن هذه السياسة انظر : العالم فى القرن العشرين (٢٧٠-٢٧٣) ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٩) مختصرا .
وعن وصول هذه السياسة إلى الشرق الاوسط انظر الحلف الأطلسى والشرق الأوسط (٨) ، مروان بحيرى ، الطبعة الأولى ١٩٨٢م ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، لبنان .

ومن هنا توسعت الالتزامات الأمريكية بشكل كبير[١].

بعض الأهداف التى حققها الحلف :

يذكر بروستروك دينى بعض الأهداف التى حققها الحلف فيقول :

(لقد استطاعت منظمة حلف شمال الأطلنطى ومارتبط بها من مؤسسات للتعاون الأوروبى تحقيق الأهداف التالية : احتواء الاتحاد السوفييتى وتحقيق الأمن الجماعى للديمقراطيات الغربية ، وتدعيم التعاون الإقتصادى والثقافى الأوروبى وإلى حد ما التعاون السياسى الأوروبى ، والمشاركة الدائمة من جانب الولايات المتحدة فى الشئون الأوربية . لقد نجحت مؤسسات التعاون بالرغم من الضغوط الشديدة والتعقيدات الناجمة عن عدد الدول المشاركة واختلاف مصالحها . لقد نجحت منظمة حلف شمال الأطلنطى فى تنسيق المصالح الأمنية للغرب لأول مرة فى هذا القرن . وقد ساعد الردع المترتب على الأمن الجماعى فى المحافظة على السلم لأكثر من ثلاثين عاما)[٢].

لقد قام هذا الحلف ونظم على أساس يستطيع معه الوقوف فى وجه التوسع السوفييتى ، حتى لاتكون أوروبا الغربية لقمة سهلة للاتحاد السوفييتى وهى فى حال فرقتها وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن حلف شمال الأطلنطى قام كردة فعل على :

(أ) توسع الاتحاد السوفييتى وضم دول أوروبا الشرقية إليه .

(ب) كثرة المعاهدات التى أبرمها مع تلك الدول .

(ج) سيطرة الأحزاب الشيوعية فى كثير من دول أوروبا الشرقية وامساكها بزمام الأمور .

---

(١) انظر : موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٦٠-٥٦١) ، (٥٩٣-٥٩٤) ، العالم فى القرن العشرين (٢٧٠) .

(٢) نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمريكية (١٧٣) ، وانظر : مجلة الدفاع السعودية العدد (١٦/٦٦) وانظر مابعدها ، التنظيم الدولى (٢٧٩) ومابعدها .

(د) حصـار برلين ويعتبر الحدث الـذى كشـف عـن النـوايا السـوفيتية العدوانية الموجهة ضد الغرب .

ولكن هل وقف الاتحاد السوفييتى موقف المتفرج من هذا الحدث الذى جمع القوى الغربية؟

هذا ماسنعرض له الآن .

رد الفعل السوفييتى :

عنـدما قـامت أمريكا والدول الحليفـة لها بالتوقيـع على هـذه المعاهدة اعتبر الاتحاد السـوفييتى أنه المقصـود مـن وراء هذا التحـالف ، وأخذ يفسـر ماجاء فى نص الميثاق على هذا الأساس ، واعتبر أن هـذا الميثاق يتعارض مع نصوص هيئة الأمم المتحدة ، كما أنه يتعارض مع المعاهدات التى تم توقيعها بين الاتحاد السوفييتى وبعض دول ذلك الحلف من قبل .

ومن هنا قام السوفييت بالاحتجاج والمعارضة لهذا المشروع .

(وظهـرت هذه المعارضة مبـاشرة وغير مباشرة . بالـراديو والصحـافة . فقـد صرحت إذاعة روسية فى ٩ شبـاط باللغة الفرنسية ، تقـول : "إن فرنسا بالنظـر إلى إشتراكها فى الكتلة الأطلسية ... ترى نفسهـا مضطرة لرصد نفقات عسكـرية جسيمـة تثقل كاهل مـوازنة المكلف الفرنسى الضئيلـة . إن ميثـاق شمال ـ الأطلسى ضرب الضربة الأخيرة استقلال فرنسـا المعرض للخطر جدا إن فـرنسا بإشتراكها فى هذا الميثـاق تدوس بأقدامها ميثـاق الصـداقة والمعونة المبرم بين فرنسا والاتحاد السوفييتى) .

ومـن جهة أخرى قامت المنظمـات الشيوعية بحملات "لصـالح السلام" موجهة فى الواقع ضد الميثاق .

وفى آخر آذار قدم السوفيات للغربيين مذكرة احتجاج يتلخص ختامها بخمس نقاط :

(١) ميثاق الأطلسى عدوانى محض وموجه ضد الاتحاد السوفيتى .

(٢) الميثاق يتناقض تناقضا واضحا مع شرعة الأمم المتحدة .

(٣) الميثاق يتناقض مع معاهدة العون والصداقة لعام ١٩٤٢ بين بريطانيا العظمى وروسيا .

(٤) الميثاق يتناقض أيضا مع معاهدة العون والصداقة لعام ١٩٤٢ بين فرنسا والاتحاد السوفييتى .

(٥) الميثاق يتناقض مع جميع الاتفاقات والمعاهدات الموقعة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى فى يالطا وبوتسدام وغيرها)[١].

حلف وارسو :

قام الاتحاد السوفييتى فى السنوات اللاحقة من قيام حلف شمال الأطلسى بتجميع الكتلة الإشتراكية فى حلف قائم على وحدة المذهب فى مفهومه العام . وعرفت هذه المعاهدة بمعاهدة وارسو والتى وقعت فى ١٤ مايو ١٩٥٥ و(أشارت ديباجة هذه المعاهدة صراحة إلى أنها رد فعل للحلف العسكرى المتمثل فى اتحاد أوروبا الغربية الذى ضم ألمانيا الغربية وكذا لحلف الأطلنطى الذى ضم هذه الدولة أيضا التى يعاد تسليحها ...)[٢].

ولكن لماذا تأخرت المعاهدة لهذه السنوات بعد الإعلان عن قيام حلف شمال الأطلسى من قبل؟

فى اعتقادى أن هناك عدة أسباب ساعدت على هذا التأخر من أهمها :

أولا : أن المنظومة الإشتراكية التى وقعت المعاهدة فيما بعد كانت تسير فى فلك الاتحاد السوفييتى .

ثانيا : أن سيطرة الاتحاد السوفييتى على دول أوروبا الشرقية سواء السياسية أو الإقتصادية قد جعلت هذه الدول تظهر وكما لو كانت فى جبهة واحدة تسيرها جهة واحدة .

---

(١) التاريخ الدبلوماسى (٢١٤) ، وانظر ستالين (٢١٦-٢١٨) .

(٢) التنظيم الدولى (٣٩٣-٣٩٤) .

ومما يؤيد ذلك أن من الدوافع لقيام حلف شمال الأطلسى توسع الاتحاد السوفييتى وسيطرته على بلدان أوروبا الشرقية .

ثالثا : كثرة المعاهدات التى كانت موقعة بين الاتحاد السوفييتى وتلك الدول والتى كانت تربط تلك الدول ربطا مباشرا بالاتحاد السوفييتى .

فقام حلف وارسو كردة فعل على توحد الدول الغربية تحت منظومة دفاعية ، ووجود بعض الأحداث والأزمات فى ذلك الوقت منها الحرب الكورية ، وأحداث الصين ، ويضم (ثمانية بلاد الاتحاد السوفييتى ، بولونيا ، تشيكوسلوفاكيا ، المانيا الشرقية ، رومانيا ، بلغاريا ، البانيا ، هونغاريا)[١].

وتقوم هذه المعاهدة (الحلف) على حق الدفاع المشترك بين الدول ضد الاعتداء عليها ، وتنمية العلاقات الإقتصادية والثقافية فيما بينها ، ثم إن الدفاع الذى يقدمه الحلف للدول ليس فقط ضد العدو الخارجى بل كذلك ضد الحركات الداخلية التى تناوىء (الحكم الإشتراكى) وهذا ماذهب إليه الاتحاد السوفييتى[٢].

ويظهر جليا أن الحلف يقوم على وحدة أيديولوجية هى الإشتراكية التى يتزعمها الاتحاد السوفييتى ، وقد طبق الاتحاد السوفييتى ماأعلنه الحلف من أنه دفاع حتى ضد الجبهات الداخلية المعارضة للشيوعية فتدخل فى المجر سنة ١٩٥٦م ، وفى تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨م .

وقد جعل الحلف إمكانية العضوية مفتوحة لكل الدول الأوربية أيا كان نظامها السياسى والإجتماعى ، بشرط موافقة الدول الأعضاء موافقة جماعية ، غير أن العضوية كانت مفتوحة من الناحية النظرية أما الناحية العملية فمقصورة على دول أوروبا الشرقية[٣].

---

(١) التاريخ الدبلوماسى (٣٢٦) ، وانظر التنظيم الدولى (٣٩١) .
(٢) انظر التنظيم الدولى (٣٩٦-٣٩٧) .
(٣) انظر المرجع السابق (٣٩٥) .

آثار قيام التحالفات :

شكلت التحالفات التى قامت بين دول أوروبا بشقيها آثارا على مجريات الأحداث الدولية بعموم سواء كانت آثارا وقتية أم آثارا مستقبلية ، ويمكن إبراز أهم هذه الآثار فى التالى :

أولا : زادت هذه الأحلاف من حدة التوتر بين الدولتين الكبريين كما زادت من نطاق الحرب الباردة بينهما .

ثانيا : أدت هذه الأحلاف إلى التأثير على إقتصاد البلدين حيث كانت كل من الدولتين تعمل جاهدة على تغطية نفقات دول الحلف الخاصة به وتأمين القدرات الدفاعية لنفسها ولحليفاتها .

ثالثا : حرص كل حلف على الاستزادة من الأسلحة المتطورة ، ونشرها وخاصة حلف الناتو مما ساعد على إبراز أسلوب آخر من أساليب وأنواع الحرب الباردة وهو سباق التسلح والذى أدى إلى استنزاف القدرات والموارد وخاصة من قبل السوفييت ، مماجعل هذه الحرب أثرا قويا فى إنهيار الإقتصاد الشيوعى وبالتالى إنهيار الشيوعية ككل .

رابعا : حققت هذه التحالفات شيئا من التوازن والردع فيما بين الطرفين مضافا إلى احتدام الصراع بينهما . يقول مراد الدسوقى : (مثلت الأحلاف العسكرية التعبير المؤسس الرئيسى لظاهرة الصراع الدولى ، كما مثلت الأداة الرئيسية فى إدارة الصراع وحفظ التوازن والردع)[١].

---

(١) السياسة الدولية ، العدد (١٠٩/١٥٥) يوليو ١٩٩٢ السنة الثامنة والعشرون . وانظر التنظيم الدولى (١٤-١٦) وذكر أن كلا من الدولتين تحاول جاهدة فى تحقيق التوازن والحفاظ على أمنه وسلامته مع دول الحلف وقال : (وهكذا تعمل كل كتلة من الدول على المحافظة على توازن القوى مع الكتلة الأخرى حتى لاتؤخذ على غرة وتكون ضحية العدوان مثلما حدث فى الحرب العالمية الثانية) (١٦) .

على أن الخلاف بين الدولتين لم يكن مقصورا على الدول الأوربية بل تشعبت الأحداث وأخذت الحرب الباردة فى سرعة الانتشار حتى ماأصبحت دول العالم بكاملها تقريبا تسير فى فلك هذه الحرب وذلك عن طريق القوتين الكبريين ومن تلك الدول التى اتجهت إليها الحرب الباردة شرقا دولة الصين وكانت أحداثها واحدة من أبرز الأزمات التى شهدتها الساحة الدولية حينذاك .

ثالثا : أحداث الصين
اتجاه الحرب الباردة شرقا

كانت الصين تمثل منطقة مهمة بالنسبة للولايات المتحدة وذلك لما تتمتع به الصين من ثقافة وحضارة ، مضافا إلى ذلك مايمكن أن تحققه الولايات المتحدة من مكاسب إقتصادية فيها ، ومن هنا حرصت عليها وعلى استقرارها ولكن الأحداث التى وقعت فيها بعد ذلك واستيلاء الشيوعيين عليها وتحكمهم فى السلطة بها زاد من العداء بين القطبين ، ووسع من دائرة الحرب الباردة وأخرجها عن أوروبا الغربية .

ويبين كولن وبيتر أهمية الصين لأمريكا فيقولان :

(كانت الصين قطرا ذا طابع خاص بالنسبة لأمريكا . فقد كانت ذات ثقافة وحضارة عظيمة وكميات ضخمة من الطعام وجاذبية عظيمة . وحاولت أمريكا ولأسباب تتعلق بمصالحها الإقتصادية ، والحق يقال ، أن تحول دون تفتيت الصين إلى مناطق نفوذ أوروبية عند نهاية القرن التاسع عشر . كما أرسلت الولايات المتحدة مبشرين إلى الصين ... وساعدت أمريكا الصينيين وبالمقابل أحب الصينيون الأمريكيين ...)[١].

وقد تعرضت الصين لعدة حروب أرهقتها وأضعفتها وكان آخرها غزو اليابان لها .

واستطاع مجموعة من الصينيين بما فيهم (ماوتسى تونغ) تأسيس الحزب الشيوعى فى سنة ١٩٢١م ، واستفاد أولئك من الثورة الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى وبناء على نصيحة ستالين فقد اتحد الحزب الشيوعى الصينى مع حزب الكومنتانغ إلى أن هاجم تشانغ كاى تشك الشيوعية سنة ١٩٢٧م ودخلت الصين فى دوامة الحرب الأهلية ، منذ ذلك الوقت (أى عام ١٩٢٧)

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥٥) .
وانظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٦٥) .

١٩٢٧م) ولم يقطع استمراريتها إلا الوحدة المؤقتة من أجل صد الهجوم الياباني على الصين منذ ١٩٣٧ وحتى سنة ١٩٤٥[١].

(وقد اتفقت الطائفتان المتحاربتان على تنحية خلافاتهما جانبا من أجل طرد اليابانيين)[٢].

وفى هذه الحرب قامت الولايات المتحدة بتقديم المعونة لقوات شيانج ولكنها لم تعط الثمرة التى كانت ترجوها الولايات المتحدة ، لكون شيانج لم يستطع النصر على اليابانيين ، وأراد أن يستخدم هذه المعونات فى حربه مع الشيوعيين .

يقول دانيال ونورمان :

(وعندما دخلت الولايات المتحدةالحرب فى عام ١٩٤١ ، فقد أسهمت بملايين الدولارات من أجل الأسلحة والطعام والدواء . ولم تنجح هذه المعونة كثيرا فى رفع الروح المعنوية لقوات شيانج المنهوكة بالفعل . ووجدت بعض أموال المعونة طريقها إلى بعض المسئولين الوطنيين الفاسدين ولم يحرز شيانج أى نصر يذكر على اليابانيين . وبدلا من ذلك ، فقد أخفى الأسلحة الأمريكية لاستخدامها فى التحدى الوشيك مع الشيوعيين الذين سيطروا على معظم شمال الصين)[٣].

ومن المعروف أن أمريكا دخلت الأراضى اليابانية واحتلتها وقد كان الاتفاق بين أمريكا والسوفييت يقضى بأن يدخل الاتحاد السوفييتى الحرب ضد اليابان بمجرد استسلام المانيا وذلك مقابل حصول الاتحاد السوفييتى على جزر الكوريل فى شمال المحيط الهادى ويحتل الجزء الشمالى لشبه جزيرة كوريا ، وتسيطر الولايات المتحدة على اليابان ومعظم الجزر التابعة للإمبراطورية اليابانية سابقا .

---

(١) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥٦) .
(٢) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٦٢) .
(٣) المرجع السابق (٦٢-٦٣) .

وأما بشأن الصين فقد اتفقا على أن تبقى منطقة فاصلة بين مناطق النفوذ السوفيتية والأمريكية[١].

وتحاشى كل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة اتخاذ موقف ثابت من الصين منذ اقتراب نهاية الحرب .

فستالين فى محادثاته مع الدبلوماسيين الأمريكيين أعلن (استخفافه بالثوار الماويين ووصفهم بأنهم ليسواشيوعيين (حقيقيين) ومهما كانت دوافع الدكتاتور السوفييتى فقد كان مستعدا للترحيب بشيانج كزعيم للصين . فى الوقت الذى ذكر فيه الدبلوماسيون الأمريكيون فى الخارج أن الشيوعيين هم ديمقراطيون أصلاء ويتمتعون بثقة الشعب الصينى .

كانت إدارة ترومان على اقتناع بأن التخلى عن شيانج هو بمثابة تسليم الصين للشيوعيين ، ومن ناحية أخرى كان الرئيس مصرا على تحاشى التورط فى حرب برية فى آسيا مهما كان السبب ، إذ كان يرى أن ذلك سوف يتسبب فى إزهاق أرواح دون ماضرورة .

وبذلت الجهود العديدة لإغراء المتنافسين على تشكيل ائتلاف فيما بينهم وفى عام ١٩٤٥ قامت الولايات المتحدة بنقل ماو جوا إلى شونج كينج للاجتماع بشيانج . ولكن ماو أراد السيطرة على شمال الصين فى حين أصر شيانج على السيطرة على كل البلاد . وتشبث كل من الرجلين بموقفه .

وظل الجنرال جورج . سى . مارشال يعمل فى الصين فى الفترة من ديسمبر عام ١٩٤٥ حتى يناير ١٩٤٧ على تحاشى وقوع حرب أهلية ، ومع نجاحه فى التوصل إلى وقف اطلاق النيران بين الطرفين فقد تصلبت مواقف

---

(١) انظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٥٩) ، العالم فى القرن العشرين (٢٧٥) وانظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٦٢) بشأن انهاء الاحتلال الأمريكى لليابان مع بقاء القوات التى تحفظ أمن الدولتين إلى أجل غير مسمى .

شيانج وماو . وفى نهاية المطاف شجب مارشال الطرفين وعاد إلى بلاده)[١].

وبدأت الشكوك تظهر بوضوح بين الطرفين حيث بدأ الحزب الشيوعى فى الصين بالتوسع والسيطرة من جهة الشمال بينما كان نفوذ منافسه السياسى شيانغ كاى شك فى انحسار . ومن هنا عملت الولايات المتحدة على مد يد العون له من أجل دفع محاولاته لتوحيد الصين تحت قيادته ، وكذلك من أجل اعادة بناء الدولة التى كان يقطنها ٥٠٠ مليون شخص عانوا من مآسى الحرب لمدة ثمان سنوات[٢]. إلا أن منافسه ماو كان يسيطر على ثلاثين ألف ميل مربع فى شمال الصين ووسطها ويحكم مليونين من الناس عام ١٩٣٩ بينما أصبح يسيطر على أربعمائة ألف ميل مربع ويحكم مائة مليون ولديه جيش يبلغ تعداده ٤٧٠ ألف جندى نظامى مع مليون من رجال العصابات عام ١٩٤٥م[٣]مماجعل عملية ابعاد الحزب الشيوعى أو الانتصار عليه عملية غير سهلة خاصة إذا ماوضعنا فى الاعتبار دعم الاتحاد السوفييتى لماو .

مساعدات الولايات المتحدة لتشاينغ :

قامت الولايات المتحدة بمحاولات عديدة لمنع انتشار الوجود الشيوعى داخل الأراضى الصينية ، وكان سبيلها إلى ذلك دعم التوجه المناوىء للشيوعية ، وبعد أن أيقنت أمريكا بقوة الحزب الشيوعى الصينى ، عملت على إقامة حكومة ائتلافية فى الصين خاصة وأن نظام تشيانغ غير مؤهل لقيادة البلاد بسبب فساده وتذمر الشعب منه .

---

(١) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٦٣) .
وانظر : من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥٧) ، العالم فى القرن العشرين (٢٧٧) ، التاريخ الدبلوماسى (١٧٥) . وقال : (ويئس مارشال من هذه الحالة المضطربة فتنحى عن دوره كوسيط) .

(٢) انظر العالم فى القرن العشرين (٢٧٥) .

(٣) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥٦) .

وحاولت الولايات المتحدة وبريطانيا الحياد عند ذلك ووصل الأمر إلى حد حظر المساعدةالعسكرية عن تشيانغ فى محاولة لارغامه على قبول الحل السلمى[١]ومع ذلك فقد كانت الولايات المتحدة لاتقطع المساعدات عن النظام المناوىء للشيوعية . فنقلت الولايات المتحدة سنة ١٩٤٦ نصف مليون من جنود تشاينغ فى مختلف أرجاء الصين ، وقامت بعمليات استطلاع جوى لمصحلته وقدمت معونات إقتصادية وعسكرية بلغت ٣٠٨٧ مليون دولار بين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٤٩ . وهكذا أصبحت الولايات المتحدة متدخلة فى الحرب الأهلية الصينية وعلى الأقل فى نظر ماو زعيم الاتجاه الشيوعى[٢].

وبعد أن فشل تشاينغ فى تحقيق أهداف الولايات المتحدة فى الصين جاءت بعض الآراء التى تطالب بالتدخل المباشر للسيطرة على الوضع والحيلولة دون سيطرة الشيوعيين فقال وزير خارجية أمريكا مارشال : (إذا أريد تحقيق هدف تحطيم الشيوعيين الصينيين وجعلهم مجرد عامل مهمل فى الصين فى المستقبل القريب ، لابد للحكومة الأمريكية من أن تتولى بنفسها زمام الحكم فى الصين وإدارة شؤونها الإقتصادية والعسكرية والحكومية . وهذا سوف يورط الولايات المتحدة فى إلتزام مستمر سيكون من المستحيل عليها عمليا أن تتنصل منه . وسيؤدى على الأرجح إلى نتائج خطيرة بجعل

---

(١) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥٧) .
وقد كان لهذه السياسة أثرها فى تمكين الحزب الشيوعى وأعلن عضو الكونغرس جون كنيدى فى اجتماع سياسى ذلك بقوله : (لقد حصدت سياستنا فى الصين الزوابع ، فقد كان الاصرار المتواصل على منع المعونات إلا إذا شكلت حكومة ائتلافية ضربة قاصمة للحكومة الوطنية) . نفس المرجع (٥٧) .

(٢) انظر المرجع السابق (٥٧) .
وانظر العالم فى القرن العشرين (٢٧٥-٢٧٦) وذكر أن ترومان بعث مايقارب ٥٠ ألف من جنود البحرية إلى الساحل الشمالى من الصين ، وقال بأن الولايات المتحدة لم تكن متورطة فى أى دولة مزقتها الحرب مثلما حصل فى الصين .

الصين ميدانا للصراع الدولى)[١].

وهكذا نجد أن الولايات المتحدة فى سياستها الخارجية كانت ترى أن التدخل المباشر فى الصين سيكون الحل الأمثل للأزمة المتصاعدة ، والطريق الوحيد لإبعاد الشيوعيين عن السيطرة عليها ، إلا أن الشيوعيين بقيادة ماو كانوا يحققون الانتصار تلو الآخر .

وتتابع سقوط المدن فى أيديهم ، وحررت بكين عام ١٩٤٩م ، وفى العام نفسه أعلن ماو مولد جمهورية الصين الشعبية[٢].

(وبمجرد دخول الشيوعيين فى السلطة تناسوا مجهودات الولايات المتحدة فى حل مشكلة الصين سلميا ، ولم يتذكروا غير مساعدة الولايات المتحدة لعدوهم اللدود . وبدأوا فى العمل على طرد الأمريكيين من الصين)[٣].

وقد منيت الولايات المتحدة بالفشل فى سياستها تجاه الصين ، وكانت التساؤلات قائمة كيف عجزت الولايات المتحدة من نصرة شيانج ، وإذا كان نظاما فسادا فلماذا قدمت له إدارة ترومان ملايين الدولارات؟ لقد بدأ خوف الغرب يزداد وشعروا بالخطر الذى يهدد الدول الغربية من وجود تلك الدولة الشيوعية بل لقد بدأ القلق يساورهم بأن الشرق الأقصى كله سيتلقى المساعدة من الشيوعيين الذين سيطروا على الصين فكان ميلاد (دولة الصين الشعبية) من أخطر الحوادث التى تواجهها الولايات المتحدة والدول الغربية

---

(١) C.J.Bown "Revolution in China" 1911-49 (Heinemann Educational Books, 1974) Broadsheet 19, p.4 .
نقلا من كتاب من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥٨) .

(٢) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥٩) .
وانظر موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٤-٦٥) ومما جاء فيه قول وزير الخارجية الأمريكى دين اتشيسون : (إنه لم يكن فى استطاعة الولايات المتحدة وليس بامكانها الآن أن تفعل شيئا من شأنه أن يغير النتائج) .

(٣) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٦٥) .

غير أن موقف الدول الغربية كان مختلفا تجاه الصين الشعبية فاعترفت بها بريطانيا فى عام ١٩٥٠ ، ورفضت فرنسا الاعتراف بها بسبب ماكانت تقدمه الصين للثوار فى الهند الصينية ، وأما الولايات المتحدة فكان الرأى العام فيها ساخطا على النظام رغم أن فكرة الاعتراف بها قد راودت الولايات المتحدة فى فترة من الفترات فتأخر اعتراف الولايات المتحدة وتأخر معه منح عضوية هيئة الأمم المتحدة حتى تمت الانتخابات الأمريكية فى نوفمبر ١٩٥٠م(١).

ولكن تغير موقف الولايات المتحدة بشأن الاعتراف فى ذلك الوقت نظرا لبروز الحرب الكورية والتى كان لها أثر كبير فى مجريات الأحداث السياسية والعلاقات الدولية .

وهكذا حاولت الولايات المتحدة الإبقاء على الصين بعيدة عن الفكر الشيوعى ، وبذلت جهودا كبيرة فى محاولة الإبقاء عليها بعيدا عن الصراع ولكن سيطرة الحزب الشيوعى صعدت من تصارع القطبين ، فكانت محاولة أمريكا لبسط نفوذها فى الصين ، واختيار القيادة التى تريدها ، قد أثار السوفييت فأخذوا يعملون على محاولة كسب هذه الدولة لصفهم حتى لاتصبح منطقة خاضعة للسيطرة الأمريكية وبالتالى نقطة انطلاق لتهديد السوفييت ومصالحهم فى البلاد الأخرى .

السوفييت والصين :

وكنتيجة طبيعية لابد وأن يهتم الاتحاد السوفييتى بهذه المنطقة لأهميتها وكذا لمنع التغلغل الأمريكى فيها . وقد استطاع السوفييت الاستيلاء على منشوريا فى الوقت الذى أخفقت فيه اليابان من السيطرة على الصين ، مما أدى إلى ظهور تشانغ كاى شيك ، واسترجع (الأرض الصينية كلها منذ قبل ١٩٣٢ وجزيرة فورموزا أيضا . وفى الواقع مالبث أن عرف أن هنالك عقبتين

---

(١) انظر التيارات السياسية المعاصرة (٤٦١) .

تقفان فى وجه اعادة بناء الصين قوية : وهما عمل الاتحاد السوفييتى فى منشوريا وعودة الحرب الأهلية بين الشيوعيين والوطنيين الصينيين .

وسويت الحالة فى منشوريا بسلسلة اتفاقات صينية ـ سوفيتية فى ١٤ آب ١٩٤٥ ... كان أول هذه الاتفاقات حلفا موجها ضد اليابان وشبيها بالأحلاف التى أبرمها الاتحاد السوفييتى ضد المانيا فى أوروبة .

والاتفاق الثانى يتعلق بخط حديد شانغ ـ شون بين منشوريا وبور ـ آرثر . وذلك بأن يبقى هذا الخط الحديدى تحت السيادة الصينية على أن يدار من قبل شركة روسية ـ صينية رئيسها صينى .

والاتفاق الثالث والرابع يتعلقان ببور ـ آرثر ودايرن على أن تستخدم بور ـ آرثر كقاعدة بحرية من قبل الروس والصينيين معا . وأن تكون الإدارة المدنية صينية على أن يؤمن الاتحاد السوفييتى الدفاع . وأن يكون ميناء دايرن ميناء حرامفتوحا نظريا لتجارة جميع البلاد ، ولكن على أن يتمتع الاتحاد السوفييتى فيه بالإعفاء الجمركى ويساهم فى إدارة الميناء .

والاتفاق الخامس يتعلق بالأقاليم الثلاثة الشرقية فى الصين ، هذه الأقاليم التى تحتلها القوى السوفيتية ، ويسوى مختلف القضايا التى يضعها هذا الاحتلال . وأخيرا وضح تبادل المذكرات بأن تبقى منشوريا وسنكيانغ تحت السيادة الصينية ، وصرح تبادل مذكرات آخر بأن يسوى مصير استقلال منغوليا الخارجية باستفتاء ، فإذا أيد هذا الاستفتاء رغبة استقلال منغوليا الخارجية فى حدودها الحالية ، قبلت الصين هذا الاستقلال)[١].

(وكان بالإمكان أن تعطى هذه المعاهدات شيئامن توطيد السطة الصينية على الشمال ومنغوليا لو لم يقم الاتحاد السوفييتى فى وجهها مختلف الصعوبات فقد احتل الروس بسرعة منشوريا كلها وأسروا مايقرب من ٦٠٠٠٠٠ يابانى . واستقبل السكان المحليون هذا الاحتلال بادىء ذى بدء استقبالا حسنا ، ولكن سرعان ماأصبح غير شعبى ، وفوق ذلك صرحت

---

(١) التاريخ الدبلوماسى (١٧١-١٧٢) .

الحكومة السوفيتية فى مذكرة مؤرخة فى ٢١ كانون الثانى ١٩٤٦ بأنها تعتبر جميع المشاريع اليابانية التى كانت تشتغل فى منشوريا لحساب اليابان ، إنما هى غنيمة حرب خاصة بها ، وترى أن تنقلها إلى الاتحاد السوفييتى . وهذا التدبير ، الذى أثار عبثا احتجاجات الصين ، كان هدفه تعمير المعدات الروسية بل وأيضا تخريب صناعة ثقيلة قوية ، بالقرب من الحدود السوفيتية ، يمكن للصين أن تستخدمها فيما بعد ضد الاتحاد السوفييتى . وفى الوقت نفسه بدأت الجيوش الشيوعية الصينية منذ ١١ آب ١٩٤٥ بالتغلغل فى منشوريا واستطاعت ، وربما كان ذلك بالاشتراك مع الجيوش السوفيتية ، أن تستولى على كميات كبيرة من الأسلحة اليابانية من شأنها أن تسهل الكفاح ضد تشانغ كاى شيك . واستطاع الروس أن ينظموا فى كل مكان فى منشوريا (حكومات الشعب) المحلية ...) .

"وفى مؤتمر وزراء الخارجية الثلاثة فى موسكو ، فى كانون الأول ١٩٤٥ اقترح بيرنز أن تسجل قضيةنقل منشوريا إلى حكومة الصين الوطنية فى جدول الأعمال . فرفض مولوتوف وانتقد وجود الجيوش الأمريكية فى الصين الشمالية . ولم يتوصل إلى أى اتفاق على تاريخ الجلاء عن الصين . وفى آخر آذار ١٩٤٦ أعلن الروس أنهم سينهون الجلاء عن منشوريا فى ٢٣ نيسان . وفى هذا التاريخ استولى الشيوعيون الصينيون على جميع المدن فى شمال منشوريا ، ودخل الصينيون الوطنيون شانغ ـ شون فى أيار ، وذهب تشانغ كاى تشيك برحلة إلى موكدن . ومن الوجهة العملية ألفت منشوريا الشمالية دولة شيوعية مستقلة استقلالا ذاتيا ، ومن جهة أخرى كان الشيوعيون الصينيون يقومون بالعمليات فى أرياف منشوريا الجنوبية ويعرقلون سلطة الوطنيين على المدن وطرق الخط الحديدى)[١].

وإذا كنا قلنا بأن أمريكا دعمت الوطنيين فإن الاتحاد السوفييتى قد

---

(١) التاريخ الدبلوماسى (١٧٣-١٧٤) .
وارجع إلى : . F.C.Jones, op. cit. p.230 a 241

شجع الشيوعيين (وزود السوفييت قوات ماو فى منشوريا بالأسلحة التى استولوا عليها من اليابانيين)[١]. ولولا أن ستالين كان يشك فى مقدرتهم على الاستيلاء على السلطة لكان تدخل الاتحاد السوفييتى فى الأحداث أكبر من الحال الذى كان عليه تجاه مسألة الصين .

ومن هنا (لم يكن لقلق أمريكا من التورط السوفييتى فى الصين مايبرره لأن ستالين سنة ١٩٤٥ كان يعتقد أن تشيانغ كاى تشيك سوف يكسب الحرب ، بل ونصح ماو بالفعل أن يسعى إلى تسوية مؤقتة مع تشيانغ ...)[٢].

يبين مكنمارا أنه رغم الاعتقاد بوجود شبح الشيوعية فى كتلة واحدة ويمثل أكثر اضطرابا للدول الغربية إلا أن هذا الاعتقاد فى غير مكانه نظرا لوجود الخلاف بين الاتحاد السوفييتى والصين مما يدل على أن الشروخ كانت موجودة وبكثرة فى الكتلة الشيوعية[٣].

وبعد هذا العرض أصل إلى الحقائق التالية :

أولا : شكلت الصين منطقة مهمة بالنسبة للدولتين الكبريين ، فكانت أمريكا ترغب فى منع انتشار الشيوعية فى الصين ، كما ترغب فى تحقيق أكبر قدر من المصالح السياسية والإقتصادية من وراء بسط نفوذها عليها . فى حين كان الاتحاد السوفييتى يرغب فى تأمين منطقته الحدودية ، وكذلك تمكين الحزب الشيوعى من التأثير على أفراد الشعب وجعل الشيوعية معتقدهم الأساسى .

ثانيا : أدت هذه الرغبات والأطماع ـ زيادة على الخوف واتهام الطرف الآخر بالتوسع ـ إلى محاولة كل طرف الكسب فى هذه المواجهة غير المباشرة فأرسلت المساعدات الإقتصادية والعسكرية من قبل الدولتين وإن كانت من

---

(١) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٦٣) .
(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٥٨) .
(٣) انظر مابعد الحرب الباردة (٣١) .

جانب الـولايات المتحدة أكثر منهـا من جانب السوفييـت ، إلا أنهـا لم تحقق ماكانت تصبو إليه وأصبحت الصين دولة شيوعية .

ثالثا : أن حدة العـداء بين الصين والاتحاد السوفييتى كـانت أخف منها فيمـا بين الـولايات المتحـدة والصين ، وعلى الأقل فى خضـم هـذه الأحداث التى كـانت تمس الطـرفين فى الحقيقـة مبـاشرة . إذ أن الصينيين ينظـرون إلى الولايات المتحدة أنها كانت تدعم عدوهم بينما كان الاتحاد السوفييتى يشترك مع الصين على الأقل فى بعـض الخطـوط العـريضة للفكـر الإشتراكـى مضـافا لذلك الإمداد بالسلاح وبعـض المسـاعدات التى كـان يتلقـاها الشيـوعيون فى حربهم ضد الوطنيين .

رابعا : أن الخلاف الـذى وقع بين الصين والاتحاد السـوفييتى فيمـا بعد يدل دلالـة واضحـة على فساد الفكـر الشيـوعى ، وعدم ثبـاته وأنه لايمكـن تطبيقـه فى كل مجتمع ولأجل ذلك نبذت بعض الدول هـذا الفكر واستبدلت كثير مـن مبادئه بمبادىء أخرى تتعـارض مع أفكار مـاركس ، ومع تصورات الثورة البلشفية ، ولاأدل على ذلك من وجود الستالينية ، والماوية والتناقض فيما بينهما . مما يدل على فساد الفكر .

خامسا : كـان بالإمكان أن يهـدأ التوتر فيما بين الطـرفين (السوفييت والأمريكان) فيما لو تم اعتراف الولايات المتحدة بالصين الشيـوعية حينذاك غير أن انفجـار الأزمة الكـورية أشعل التوتر من جديد بين الطـرفين . وهذا ماسنعرض له الآن .

رابعا : الحرب الكورية

تعتبر أحداث كوريا مشابهة لأحداث المانيا وذلك لكون هذه الدولة قد انقسمت إلى قسمين شمالى وجنوبى ، وفى كل قسم يسيطر قوة تنظر إلى قوة القسم الآخر بالشك والريبة .

وكانت كوريا واقعة تحت السيطرة اليابانية بعد أن انتزعت تلك السيطرة من أسرة مانشو فى الصين ، وأثناء الحرب العالمية الثانية اتفق الحلفاء على منح كوريا الاستقلال التام فور تحريرها ، وفى سنة ١٩٤٥ فى الثانى عشر من شهر آب دخلت القوات السوفيتية كوريا الشمالية ووصلت خط العرض ٣٨ قبل أن تستسلم اليابان ، وفى ٢٨ آب كان جنوب كوريا تحت الاحتلال الأمريكى(١).

ولاشك أن (لكوريا أهمية استراتيجية عظمى لجيرانها ، روسيا ، واليابان ، والصين . ثم أصبح للولايات المتحدة بعد هزيمة اليابان مصالح هامة فى تلك المنطقة تجعلها تهتم أبلغ الاهتمام بمصيرها ...)(٢).

---

(١) انظر : من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦١) ، التيارات السياسية المعاصرة (٤٦٢) ، المذاهب العسكرية فى العالم (١٣٣) ، بسام العسلى ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥م (٧٨-٧٩) وفيه : (كانت هناك ثلاث دول آسيوية تهتم بكوريا منذ عقود . الدولة الأولى هى الصين ، التى سيطرت على كوريا حتى عام ١٨٩٥م ، والدولة الثانية هى روسيا حيث كانت لها مصالح فى كوريا الشمالية منذ التسعينات من القرن التاسع عشر ، والثالثة هى اليابان التى أقامت محمية لها هناك فى عام ١٩٠٥ (المحمية هى حكومة تسيطر عليها قوى خارجية) . واستمرت سيطرة اليابان على كوريا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية) .

(٢) التيارات السياسية المعاصرة (٤٦٢) .
ويقول مؤلف موجز تاريخ الولايات المتحدة :
(إذا تأملنا التغيرات العاصفة والتفاعل العام الذى كان يسرى فى آسيا ، نجد أن معظم الأمريكيين لم يكونوا يؤلون المنطقة الضئيلة المسماه كوريا اهتماما يذكر حتى سنة ١٩٥٠ . إذ أنهم كانوا منصرفين إلى الأجزاء الأكثر اجتذابا للأنظار فى الصورة الشاملة للقارة) . (٥٦٦-٥٦٧) .

وقد بدأ التفاوض بشأن كوريا بين أمريكا والسوفييت فى المؤتمرات التى عقدت فى يالطا وبوتسدام القائلة بتحرر كوريا من اليابان ، وأن يحتل الروس شمال كوريا والأمريكيون جنوبها . ولكن قبل استسلام اليابان بيومين دخل الروس الشمال وذلك فى ١٢ آب ١٩٤٥ . وفى ٨ أيلول استسلمت القوة اليابانية لأمريكا فى جنوب الخط ٣٨ .

وكان الرئيس روزفلت من عام ١٩٤٣ يفكر بوضعها تحت الوصاية الدولية ، وفى أيار ١٩٤٥ قبل ستالين بهذه الفكرة وتمارس هذه الوصاية أمريكا ، وبريطانيا ، والصين ، والاتحاد السوفييتى ، وجعل مؤتمر وزراء الخارجية المنعقد فى موسكو فى كانون الأول هذا القرار رسميا[١].

و(من هنا بدأ تاريخ الصعوبات : لقد قرر مؤتمر موسكو إحداث (لجنة مختلطة) روسية ـ أمريكية ، مكلفة بالاتصال مع الأحزاب الديمقراطية والهيئات الاجتماعية فى كوريا بغية المساعدة على تشكيل حكومة مؤقتة فى كوريا ، وعلى أن تكون هذه الحكومة موضوعة تحت وصاية الدول الأربع لمدة خمسة أعوام . فاحتجت الأحزاب الكورية كلها على فكرة الوصاية وطالبت بالاستقلال المباشر . إلا أن الحزب الشيوعى بدل موقفه فجأة وأصبح مناصرا للوصاية . وهذا التطور سمح للاتحاد السوفييتى بأن يطالب بألا تشاور (اللجنة المختلطة) إلا الأحزاب الراضية عن مقررات موسكو . وعلى العكس ، اقترحت الولايات المتحدة أن تشاور جميع الأحزاب التى لاتثير مظاهرات ضد اللجنة المختلطة . وكان من المستحيل الوصول فى هذه النقطة إلى اتفاق . وكذا الحال لإقامة الحكومة المؤقتة ، فقد اقترحت الولايات المتحدة الانتخاب ، بالتصويت العام ، والتشريعات المؤقتة فى كل

---

(١) انظر التاريخ الدبلوماسى (٢٨٧-٢٨٨) .

وارجع فى كل مايتعلق ببوادر النزاع إلى :

"L.C.Green, korea and the united -Natiohs" .

world Affairs, oct. 1950. p.414-437 .

وانظر التنظيم الدولى (٤٣) .

من المنطقتين . وانتخبت هاتان المنطقتان حكومة مؤقتة لكل كوريا . واقترح الاتحاد السوفييتى بالعكس عقد جمعية وحيدة لكل البلاد تسمى (جمعية الشعب) وتمثل الأحزاب والمنظمات الديمقراطية المشايعة لاتفاق موسكو وتضم أكثر من ١٠٠٠٠ عضو . على أن يكون للشمال والجنوب عدد متساو من الممثلين)[١].

ثم اقترحت الحكومة الأمريكية عرض القضية على موقعى اتفاق موسكو فوافقت الصين وبريطانيا ورفضت موسكو وادعت أن اللجنة المختلطة قادرة على القيام بعملها ، عندئذ أحالت الولايات المتحدة القضية إلى الأمم المتحدة فاحتج السوفييت أن هذه القضية ليست من صلاحيات الأمم المتحدة ثم قبل السوفييت بذلك وطالبوا بدعوة ممثلى كوريا الشمالية والجنوبية فعارضت الجمعية ، فقرر الاتحاد السوفييتى وتوابعه ألا يشتركوا فى المناقشة ولافى التصويت فقررت الجمعية العامة للأمم المتحدة بـ٤٣ صوتا ضد صفر وامتناع ٦ أصوات تشكل (اللجنة المؤقتة للأمم المتحدة فى كوريا) وتكلف بتسهيل حكومة قومية كورية بعد انتخابات وتعجيل جلاء قوات الاحتلال وتأليف اللجنة من ممثلى البلاد التالية :

كندا ، استراليا ، الصين ، فرنسا ، الهند ، الفلبين ، سان سلفادور ، سورية ، أوكرانيا ، ورفضت أوكرانيا المشاركة بالأعمال[٢].

إلا أن السوفييت رفضوا (اجراء انتخابات ديمقراطية فى منطقتهم وحولوا السلطة بالتدريج إلى كيم إيل سونغ الشيوعى . أما فى الجنوب فقد أجريت انتخابات للمجلس الوطنى تحت اشراف الأمم المتحدة فى أيار سنة ١٩٤٨ وفاز بالرئاسة الدكتور سنغمان رى المعادى للشيوعية . ولذلك فإنه بانتهاء سنة ١٩٤٨ أصبح فى كوريا نظامان متنافسان يدعى كل منهما السيادة على البلاد بأسرها ، وهما الجمهورية الشعبية الكورية الديمقراطية فى الشمال

---

(١) التاريخ الدبلوماسى (٢٨٨-٢٨٩) .

(٢) انظر : المرجع السابق (٢٨٩-٢٩٠) ، التنظيم الدولى (٤٣) .

وجمهورية كوريا فى الجنوب . وانسحبت القوات الروسية من كوريا فى كانون الأول سنة ١٩٤٨ وانسحب الأمريكيون فى حزيران سنة ١٩٤٩ ...)[١].

وكانت كل من الحكومتين السوفيتية والأمريكية تقوم بتقديم المساعدة للحكومتين كل للحكومة التى تواليها ، وقد زادت هذه المساعدات الحال سوءا وجعلت التصعيد بين الجانبين فى حال مستمرة ، فقامت كل دولة بتقديم المساعدات الإقتصادية والعسكرية حيث (قدمت الولايات المتحدة ماقيمته ٤٦٦ مليون دولار من المعونات المدنية والعسكرية ، ولكنها لم تقدم دبابات أو مدفعية أو طائرات لكوريا الجنوبية التى يقطنها ٢١ مليون نسمة بينما أنشأ الكوريون الشماليون جيش التحرير الشعبى لكوريا الشمالية وقوامه تسعون ألف جندى وجهزوه بالدبابات وقوة جوية مساندة . وهكذا فرغم أن سكان كوريا الشمالية البالغين تسعة ملايين نسمة كانوا أقل عددا بكثير من سكان كوريا الجنوبية ، إلا أن قواتهم المسلحة كانت أفضل جدا دون شك من جيش كوريا الجنوبية الذى لم يتجاوز عدده خمسة وستين ألف جندى)[٢].

وقد اعتبرت الولايات المتحدة أن لها (نطاق دفاعى) محدد فى المحيط الهادى ولم يذكر وزير خارجيتها دين اتشيسون كوريا الجنوبية ولعل الأمريكان كانوا يفترضون أن الصراع السوفييتى الأمريكى سيشمل العالم بكامله أو أن أوروبا هى مركز الصدام فى المستقبل وفى ذلك الوقت لم تكن كوريا منطقة بارزة فى كلا الحالتين[٣]. وكان لهذا الموقف آثاره حيث اعتقد

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦١) ، وانظر : التاريخ الدبلوماسى (٢٩١) ، موجز تاريخ الولايات المحتدة (٥٦٧) ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٧٩) وذكر أنه فى أثناء انسحابهما قاما بتكوين حكومتين منفصلتين . وانظر التنظيم الدولى (٤٤) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦١-٦٢) ، وانظر العالم فى القرن العشرين (٢٨٢-٢٨٣) .

(٣) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٢) .

السوفييت بأن الولايات المتحدة ستقبل بالتوحيد القسرى للكوريتين وبالفعل بدأ التحرك العسكرى من كوريا الشمالية على كوريا الجنوبية .

نشوب الحرب بين الدولتين :

قامت كوريا الجنوبية بتحذير الولايات المتحدة ولجنة الأمم المتحدة بأنها ستتعرض لهجوم من كوريا الشمالية ، وكانت المنطقة الحدودية عرضة للمناوشات ، وبالفعل (فى ٢٥ حزيران ، اجتازت قوى كوريا الشمالية خط العرض ٣٨ على طوله كله ، وبالرغم من أن الاتحاد السوفييتى صرح بأن العدوان كان من عمل كوريى الجنوب ، فإن سعة العمليات التى قام بها كوريو الشمال برهنت ، بما لايقبل الشك ، على أن هذه العمليات أعدت بعناية وعن سابق تصور وتصميم)[١].

وقد (اجتاحت ست فرق من قوات كوريا الشمالية خط العرض ٣٨ ، واندفعت بمدرعاتها ومدفعيتها نحو الجنوب . وأدى هذا الهجوم المباغت إلى انهيار مقاومة الجنوبيين . فتمكنت قوات الشمال من الوصول إلى عاصمة الجنوبيين (سيؤول) واحتلالها يوم ٢٨ حزيران (يونيو) ، ثم تابعت تحركها بتصميم وثبات نحو الجنوب ، بحيث لم يبق بيد القوات الأمريكية والقوات الجنوبية إلا قاعدة بوزان ومحيطها (حيث تجمعت فى هذه المنطقة فى نهاية شهر آب/أغسطس ١٩٥٠ مجموعة من خمس فرق أمريكية ـ تضم مائة ألف مقاتل ـ و٥٠٠ دبابة و٨ فرق من قوات كوريا الجنوبية) . وسيطر الشماليون بذلك على ٩٠٪ من التراب الكورى بينما لم يبق بيد الجنوبيين أكثر من ١٠٪ من

---

(١) التاريخ الدبلوماسى (٢٩١-٢٩٢) .
وانظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٢) وقال : (ويبدو من المستحيل أن يكون الكوريون الشماليون قد قاموا بالهجوم بناء على مبادرتهم الخاصة) .

مساحة كوريا ، وذلك بعد شهرين من بداية الحرب)[١].

وهنا بدأت أمريكا بتحركها ، وكان لابد من رد فعل لهذا الغزو الشمالى ، خاصة أن أمريكا ترى أن الاتحاد السوفييتى وراء هذا الهجوم ، يقول مكنمارا :

(ألجمت طبيعة الهجوم المفاجئة الأمريكيين وأصابتهم بالدهشة . وظهرت كما لو كانت الشكل الجديد لجوهر عدوان الشيوعيين . بالطبع ، ليس هناك أى شك فى أن الحرب الكورية كانت تمثل بالتأكيد نموذجا للعدوان السافر من جانب كوريا الشمالية ، وأنها تمت - على الأقل - بموافقة تكتيكية من جوزيف ستالين . ولكن الهجوم على كوريا الجنوبية لم يكن دليلا على أنه مقدمة للحرب العالمية الثالثة - كما اعتقد الكثير من الأمريكيين فى ذلك الوقت - ولم يكن أيضا خدعة سوفيتية فى آسيا مخططة لكى تسحب القوات الأمريكية بعيدا عن أوروبا .

الحرب الكورية كانت بشكل أو آخر حلقة أخرى من حلقات أخرى من حلقات الحرب الباردة نتجت عن نزاع طبيعى على الحدود السياسية غذته وهيجته الأحكام الخاطئة حول نوايا الطرف الآخر . وكمثال على ذلك نجد أن الكوريين الشماليين والقادة السوفييت قد وقعوا فى خطأ جوهرى عندما اعتمدوا على فهمهم الخاطىء لخطاب - يعتبر اليوم مشهورا - ألقاه الوزير اشيسون فى كانون الثانى/يناير ١٩٥٢ أمام أعضاء النادى القومى للصحافة فى واشنطن واشتم منه أن الولايات المتحدة قد لاتحمى كوريا الجنوبية فى حالة

---

(١) المذاهب العسكرية فى العالم (١٣٣) .
وانظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٧٨) .
موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٦٨) وفيه :
(أن جيش كوريا الشمالية ، قد اندفع عبر خط العرض ٣٨ ، بطائرات روسية ، ودبابات روسية ، وضباط مدربين على أيدى الروس) .
من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٢) .
العالم فى القرن العشرين (٢٨٢-٢٨٣) .

تعرضها للهجوم .. فى حين أنه - بلاشك - عندما صرح أو أورى بأن الدفاع عن كوريا الجنوبية فى حد ذاته غير هام ، كان فى الحقيقة يناقش المدى الدفاعى للولايات المتحدة فى حالة حدوث عالمية)[١].

وقد كان موقف الولايات المتحدة يتمثل فى أمرين :

(أ) عرض القضية على مجلس الأمن والحصول على تأييده فيما تنوى أمريكا اتخاذه .

(ب) مساعدة كوريا الجنوبية وامدادها بالسلاح لمقاومة كوريا الشمالية .

فقامت الولايات المتحدة فى ٢٥ حزيران (على ساعة نيويورك) فى ٢٦ حزيران فى كوريا بطلب ترجو فيه الأمم المتحدة أن تدعو مجلس الأمن للاجتماع وبالفعل اجتمع المجلس (على الفور وأدان الهجوم المسلح من جانب كوريا الشمالية ، وطالب بايقافه ، وانسحاب القوات المعتدية خلف خط عرض ٣٨ . وأهاب بالدول الأعضاء أن تساعد فى تنفيذ هذا القرار)[٢].

و(عارض الممثل اليوغسلافى وحده هذا القرار ، إلا فيما يتعلق بالكف المباشر عن الحرب . وتقدمت يوغسلافيا باقتراح يزع إلى دعوة ممثل عن كوريا الشمالية فرفض بـ٦ أصوات ضد ١ و٣ امتناع "مصر والهند والنرويج")[٣].

و"عندما اجتمع مجلس الأمن للأمم المتحدة فى نفس يوم الهجوم الكورى لاتخاذ موقف ، لم يكن المندوب السوفييتى موجودا لمقاطعته جلسات المجلس منذ كانون الثانى/يناير بناء على أوامر حكومته بسبب معارضة الولايات المتحدة وبلاد أخرى لاستبدال مندوب حكومة الصين الوطنية وإحلال ممثل جمهورية الصين الشعبية محله .. وكنتيجة لغياب المندوب

---

(١) مابعد الحرب الباردة (٤٠-٤١) .

(٢) التنظيم الدولى (٤٤) .

وانظر : التاريخ الدبلوماسى (٢٩٢) ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٨٠) .

(٣) التاريخ الدبلوماسى (٢٩٢-٢٩٣) .

السوفييتى أصرت الولايات المتحدة على أن تكون توصية المجلس هى اعتبار هجوم كوريا الشمالية "خرقا للسلام" .. الأمر الذى مهد الطريق لأن يمر قرار تشكيل قوات مسلحة تابعة للأمم المتحدة فى كوريا بالإجماع)[١].

و(كان هذا الاجراء هو أول علامة تبديها الولايات المتحدة عن نيتها فى الوقوف بحزم فى كوريا)[٢].

وقد نص القرار الذى اتخذ (على اختيار قائد للعملية من الولايات المتحدة . وفى اليوم التالى وقع اختيار ترومان على الجنرال ماك آرثر للقيام بهذا الدور . وعلق ماك آرثر على ذلك بقوله :

(إذا لم تعرقلنى واشنطن ، باستطاعتى أن أتعامل مع الموقف حتى لو قيدت احدى ذراعى خلف ظهرى) .

ومن هنا تدخلت أمريكا مباشرة فى الحرب تحت علم الأمم المحتدة فهى قائدة الحرب بدون شك وقد حاولت الولايات المتحدة التخفيف من حدة تدخلها فأعلن ترومان فى مؤتمر صحفى فى الأسبوع الأول للأزمة (أن الولايات المتحدة ليست فى حالة حرب . وعندما سأله مندوب صحفى عما إذا كان من الصواب تسمية القتال (بعمل بوليسى) ، فأجاب ترومان قائلا :

---

(١) مابعد الحرب الباردة (٤١) .
وانظر : التنظيم الدولى (٤٤) ، التاريخ الدبلوماسى (٢٩٢) ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٨٠) .

(٢) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٨٠) .
كانت الولايات المتحدة ترغب فى التدخل ورد العدوان الشمالى لأسباب من أهمها:
١ ـ أن القادة الأمريكيين أدركوا (أن تحول كوريا إلى دولة شيوعية سوف يؤدى إلى امتداد نطاق السيطرة السوفياتى إلى حدود قريبة من اليابان التى أرادت الولايات المتحدة أن تجعلها مركز للدفاعات الأمريكية فى شرق آسيا . الأهم من ذلك ، أن فشل الولايات المتحدة فى مقاومة الاعتداء الشيوعى كان سينقل رسالة إلى العالم بأن سياسة الاحتواء تخفى ضعفا عسكريا ...) .
العالم فى القرن العشرين (٢٨٣) .

(نعم إنه عمل بوليسى تماما")[١].

وقال ترومان : (نحن لانريد للقتال فى كوريا أن يتسع نطاقه ليصبح حربا عامة . ولن يتوسع نطاق القتال إلا إذا اجتذبت الامبريالية الشيوعية جيوشا وحكومات أخرى للقتال إلى جانب المعتدى ضد الأمم المتحدة)[٢].

فكأن ترومان بهذا يريد أن يبين أن أمريكا لم تدخل فى حرب مع السوفييت ولكن إنما هو الدفاع عن الاعتداء الذى تعرضت له كوريا الجنوبية .

وقال اتشيسون : (إن القوات الأمريكية وجدت فى كوريا (فقط من أجل إعادة جمهورية كوريا الجنوبية إلى وضعها قبل الغزو الذى جاء من الشمال")[٣].

وبعد معارك قوية دارت بين الطرفين على جبهات متفرقة نظم ماك آرثر فى ١٥ أيلول ١٩٥٠م (هجوما برمائيا ذكيا قامت به فرقة من مشاة البحرية على انشون (Inchon) على بعد ٢٠٠ ميل وراء خطوط العدو وعشرين ميلا فقط عن سيول وبسبب هذا الهجوم وعملية الانزال التى قام بها الكوريون الجنوبيون على يونغ دوك (Yong Dok) على الساحل الشرقى ، تمكنت القوات المتحالفة من قطع خطوط الامداد الممتدة من الشمال إلى الجنوب والخاصة بالقوات الكورية الشمالية وانهارت قوة العدو . وتم الوصول إلى سيول فى ٢١ أيلول . وبحلول نهاية ذلك الشهر كان مجموع خسائر الجيش الكورى الشمالى قد بلغ ٣٣٥ ألفا وأصبح واضحا أن القوة النارية الأمريكية قد كسبت الجولة"[٤].

---

(١) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٨١) .

(٢) Edmund Trayenso, "Korea and the limits of limited war" (Addison-wesley Readin, Mass, 1970) p. 27 .
نقلا عن كتاب من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٤) .

(٣) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٣-٦٤) .

(٤) المرجع السابق (٦٤) .

ورغب قائد القوات الأمريكية فى توحيد كوريا إلا أنه فى ٣ تشرين الأول تلقت الولايات المتحدة انذارا من شو ان لاى رئيس وزراء الصين عن طريق السفير الهندى جاء فيه : (إذا ماعبر الأمريكيون خط العرض الثامن والثلاثين فإن الصين ستضطر إلى التدخل فى كوريا" ، وكان صريحا فى توكيده بالقول أن الكوريين الجنوبيين ليسوا مصدر مشكلة ولكن الدخول الأمريكى إلى كوريا الشمالية سيقابل بمقاومة صينية)[١].

وبالفعل تدخلت القوات الصينية وتدفقت داخل الأراضى الكورية وحصل التصادم بين القوتين الأمريكية والصينية وتراجعت قوات الأمم المتحدة والقوات الأمريكية إلى خلف خط عرض ٣٨[٢].

(واستمرت الحرب ضارية بين القوات الصينية والكورية الشمالية من جانب وقوات الولايات المتحدة والأمم المتحدة من جانب آخر)[٣].

وقد (كان من رأى القائد الأمريكى جنرال ماك آرثر أنه لاأمل فى احراز أى نصر على القوات الصينية إلا بضرب قواعد الإمداد فى الأراضى الصينية نفسها . على أن الرئيس ترومان لم يوافق على هذا الرأى ، وحدث بينهما خلاف أدى إلى طرد ماك آرثر من قيادة الحملة "ابريل ١٩٥١م")[٤].

---

(١) نقلا من كتاب من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٤) .
وانظر التنظيم الدولى (٤٥) .

(٢) انظر : المذاهب العسكرية فى العالم (١٣٣-١٣٤) ، التنظيم الدولى (٤٥) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٥) .

(٣) التنظيم الدولى (٤٥) .

(٤) التيارات السياسية المعاصرة (٤٦٣) .
وانظر : من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٦) ، العالم فى القرن العشرين (٢٨٤) وقال بأن أحلامه لم تكن متصلة بواقع الامكانات المحدودة لاستراتيجية الحرب الباردة العسكرية . فى حين أن بعض الباحثين ذكر أن ترومان كان يفكر هو الآخر فى استخدام القنبلة الذرية ضد الصين الشعبية لانهاء الحرب الكورية . انظر التنظيم الدولى (٤٥) .

غير أن بعض القادة والسياسيين الأمريكيين رأوا أنه ليس هنا من فائدة كبيرة ترجوها أمريكا فى حربها ضد الصين وأنها ليست العدو الحقيقى فقد تقدم الجنرال عمر برادلى رئيس هيئة الأركان المشتركة فى عام ١٩٥١ فى شهر أيار بشهادة أمام الكونغرس جاء فيها :

(إن الصين الحمراء ليست أقوى دولة تحاول السيطرة على العالم . وبصراحة فإن هيئة الأركان المشتركة ترى أن هذه الاستراتيجية ستورطنا فى حرب غير مناسبة وفى المكان غير الملائم والوقت غير المواتى والعدو غير الحقيقى)(١).

ولهذا نظرا لكون هذه الحرب لم يتمخض عنها نصر واضح لأحد الطرفين بل بقيت بين مد وجزر جاءت الدعوة من أجل انهاء هذا الصراع . وقد بدأت هذه الدعوة من قبل الاتحاد السوفييتى ، إلا أن الولايات المتحدة فى أول الأمر غلبت جانب سوء الظن الذى تخفيه هذه الدعوة .

وقد جاء هذاالنداء لاحلال السلام فى كوريا على لسان مندوب الاتحاد السوفييتى فى الأمم المتحدةيعقوب مالك فبعد أن هاجم ميثاق الحلف الأطلسى والسيطرة الأمريكية على فورموزا ختم حديثه قائلا : (إن الشعوب السوفيتية تعتقد أنه يحسن القيام بمحادثات بين المتحاربين بغية وقف النار وبهدنه تنص على سحب متقابل للجيوش من جانبى خط العرض ٣٨ . فهل يمكن اتخاذ مثل هذا الاجراء؟ أعتقد بذلك شريطة أن توجد رغبة مخلصة فى انهاء الحروب الدامية فى كوريا)(٢).

فكان هذا الخطاب دعوة صريحة للمفاوضة ، وأعلمت الولايات المتحدة بأنها على استعداد لذلك رغم سوء الظن ، وصرحت الصحف الصينية بأنها تحبذ الايحاء الروسى(٣). وتم البدء فى المفاوضات غير أنها لم تؤت ثمارها

---

(١) Hudson, op. cit, p.92 .
نقلا من كتاب من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٦) .

(٢) التاريخ الدبلوماسى (٣٠٠) ، وانظر التنظيم الدولى (٤٦) ، (٥٩٤) .

(٣) انظر التاريخ الدبلوماسى (٣٠٠) .

وبقيت المناوشات بين الطرفين سواء منها القتالية ، أو الكلامية[١]، وزاد نمو الشعور المتذمر من الحرب لعدم الجدوى منها ولوفاة ستالين عام ١٩٥٣ أظهر الاتحاد السوفييتى والصين مرونة أكثر فى الميل إلى الصلح فاستؤنفت المفاوضات التى كانت قد قطعت .. وتم توقيع الهدنة فى ٢٧ يونيو سنة ١٩٥٣م[٢]. وانتهت الحرب إلا أن المشكلة بقيت قائمة فلم توحد كوريا وأصبح خط العرض ٣٨ فاصلا بين الكوريتين (وكان المفترض أن يعقب الهدنة فورا مؤتمر سياسى . فمعاهدة وصلح دائم ، بيد أن الأحداث أثبتت أن هذا كان سرابا)[٣].

وبقيت المشكلة الكورية فعقد مؤتمر جنيف فى سنة ١٩٥٤ لمناقشتها إلا أنه فشل فى إيجاد الحل لها وأزيحت المشكلة الكورية جانبا لاستحالة الاتفاق بشأنها[٤]. ثم استمرت جهود الأمم المتحدة بشأن توحيد كوريا وأنشأت لجنة خاصة لهذه المهمة استمرت حتى عام ١٩٧٣ . ثم قررت الجمعية العامة حلها بعد أن التقى ممثلوا كوريا الشمالية والجنوبية وأصدروا بيانا يتضمن المبادىء الأساسية لتوحيد كوريا[٥].

وبعد هذا العرض فما هى آثار الحرب الكورية؟

لقد كانت الحرب الكورية من أبشع الحروب التى شهدتها الخمسينات ، فكانت آثارها كبيرة سواء فى الأرواح أو فى الموارد الإقتصادية ، كما كانت آثارها ممتدة إلى مابعد وقتها حتى كانت من أخطر الأحداث المؤثرة فى سياسة الدولتين الكبريين ، وفى استمرار وازدياد حدة الحرب الباردة بينهما ويمكن ذكر بعض الآثار لهذه الحرب فى النقاط الآتية :

---

(١) انظر عن ذلك : التاريخ الدبلوماسى (٢٩٩-٣٠٣) ، موجز تاريخ الولايات المتحدة (٤٩٤-٤٩٥) .

(٢) انظر : موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٩٥) ، العالم فى القرن العشرين (٢٨٦) ، التنظيم الدولى (٤٦) .

(٣) موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٠٤) .

(٤) انظر : التنظيم الدولى (٤٦) ، موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٠٤) .

(٥) انظر : التنظيم الدولى (٤٦) ، محاضرات فى الندوة الدبلوماسية الثامنة (٢٢٨) .

أولا : أن هذه الحرب لم تتمخض عن نصر صريح لأحد من الطرفين وقد استقر الأمر فى نهاية المطاف على الابقاء على الكوريتين الشمالية والجنوبية ويفصل بينهما خط العرض ٣٨ .

ثانيا : لقد خسرت الولايات المتحدة الشىء الكثير من وراء هذه الحرب ، رغم بعض ماحققته من ورائها كالابقاء على كوريا الجنوبية بعيدة عن السيطرة الشيوعية حيث (كسب الغرب انتصارا ملموسا بثمن باهظ . إذ سكن القبور عشرات الآلاف من الأمريكيين والبريطانيين والكوريين الجنوبيين وغيرهم من الجنود ، ولقد شوه مئات الآلاف ، أو أعجزوا نتيجة الأمراض والمحن ، وبات معظم كوريا خرابا . ولكن الغرب حقق ، ماوصفه ونيستون تشيرشل بأنه (هزيمة تامة) ، فلقد هزم العدوان الشيوعى بأن حصره فى موقف لاحراك له منه . ولو أن الاتحاد السوفييتى نجح فى ضغطه التجريبى فى كوريا ، لأسرع فأردفها بحركات أخرى . إذ كان ستالين قد أعد جدوله الزمنى لغزو ماليزيا ، والهند الصينية ، وفورموزا ، ولو أنه أفلح ، لأعقبها بأوروبا الغربية . ولكنه أحبط ، بينما ازدادت سرعة التسلح الغربى . فباتت الجبهة العالمية ضد الشيوعية أشد مما كانت عندما شنت كوريا الشمالية هجومها بدرجة تفوق أى قياس)[١].

وعن الخسائر التى منيت بها كوريا الجنوبية وحلفائها يقول كولن وبيتر (خسرت كوريا الجنوبية من القتلى مليونا وثلاثمائة ألف عسكرى ومليونا من المدنيين . وخسرت الولايات المتحدة ١٤٢٠٠٠ والأمم المتحدة ١٧٠٠٠ "بما فيهم ٧٠٠٠ من مجموعة الأمم البريطانية")[٢].

---

(١) موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٩٥-٥٩٦) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٧) .
وانظر المذاهب العسكرية فى العالم (١٣٤) ، وقال إن أمريكا خسرت ١١٩ ألف قتيل ، و٢٦٥ ألف جريح ، و٩٣ ألف أسير . وقال ووقع القسم الأكبر من الخسائر المادية على الولايات المتحدة .
وقال عن خسائر كوريا الشمالية بأنها بلغت مليون وستمائة ألف قتيل .

ثالثا : كان من آثار الحرب الكورية جر الاتحاد السوفييتى إلى سباق التسلح الذى لم يكن قادرا على تحمل نفقاته نظرا لإنهيار الإقتصاد السوفييتى وكان هذا التسابق من الطرفين(١).

يقول كولن وبيتر : (من وجهة نظر الولايات المتحدة فإنه أمكن انقاذ كوريا الجنوبية وربما اليابان ومنى الاندفاع الشيوعى فى آسيا بنكسة وارتفعت موازنة الدفاع الأمريكية من ١٢ بليونا إلى ستين بليونا من الدولارات . وبذلك أجبرت الاتحاد السوفييتى على الدخول فى سباق للتسلح لم يكن قادرا على نفقاته بسهولة)(٢).

رابعا : رغم حذر الصين إلا أن الحرب الكورية ودخول الصين فيها قد أكسبها هيبة من أعدائها ، واحتراما من الأحزاب الشيوعية وعطفا من الدول الآسيوية . يقول كولن وبيتر : (زادت الحرب كثيرا من تفاقم العداوة بين الصين وأمريكا ، وربما رأى ستالين فى ذلك بعض الفائدة لروسيا إلا أن الصينيين كسبوا قدرا من الهيبة دون شك . لقد "أنقذوا" كوريا الشمالية من ماك آرثر ، وأوقعوا خسائر كبيرة بقوات الأمم المتحدة بهجماتهم التى كانت تعتمد على "الأمواج البشرية" ، وقطعوا جزءا من الطريق فى سبيل إقناع البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) بعدم توريط القوات الأمريكية فى البر الآسيوى الرئيسى مرة أخرى . واتحدت الصين ضد التهديد الأجنبى وتوسع جيش التحرير الشعبى الصينى واكتسبت الصين احترام الأحزاب الشيوعية الأجنبية وعطف الحكومات الآسيوية)(٣).

خامسا : ومن الآثار لهذه الحرب أن الاتحاد السوفييتى أجبر (الصين على الاعتماد على دولته فى الحصول على المساعدات العسكرية)(٤).

---

(١) انظر العالم فى القرن العشرين (٢٤٧) .
(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٨) ، وانظر العالم فى القرن العشرين (٢٨٦) .
(٣) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٦٨) .
(٤) العالم فى القرن العشرين (٢٨٦) .

وربما عمل هذا على الحد من الخلاف فيما بين الدولتين .

سادسا : كادت الحرب فى كوريا أن تؤدى إلى قيام حرب عالمية جديدة (كما وأنها عمقت من تقسيم العالم إلى معسكرات متنافسة مسلحة)[١].

سابعا : أن الحرب الكورية كان لها (انعكاسات دولية واسعة مثل الخوف ، فى أوروبا الغربية خاصة ، والمزيد من التعاون والتكتل ، فى أوروبا والغرب ، أو مثل دمج اليابان فى العالم الغربى ، أو كانت حتى كظرف مسرع لممارسة الاستقلالية الصينية تجاه موسكو)[٢].

ثامنا : أن هذه الحرب قد جعلت كلاً من الطرفين يزداد خوفا من الآخر ويفسر دخوله فيها بأنه محاولة لبث سيطرته على بقاع أخرى من العالم.

وينقل مكنمارا عن كينان أن كلاً من الطرفين رأى (أن الآخر يمثل مصدرا للبدء بالعدوان والخطط الهجومية . ففى واشنطن كانوا يقرأون الحرب الكورية على أساس أنها (بداية اندفاع السوفييت النهائية لقهر العالم) بينما فى موسكو اعتبروا رد أمريكا العسكرى النشط فى مواجهة التحرك السوفييتى المستفز هذا "كتهديد لوضع السوفييت فى كل من منشوريا وشرق سيبريا")[٣].

وبعد فإن هذا التقسيم الذى حصل لكوريا كان نتيجة للإرادة الدولية الكبرى الممثلة فى أمريكا والسوفييت سعيا من ورائه إلى تحقيق المصلحة التى تهم كل طرف من الأطراف[٤].

ونختم حديثنا عن الحرب الكورية بقول كولن وبيتر حيث قالا :

(كانت كوريا (بؤرة العاصفة) فى السياسة العالمية لمدة ثلاث سنوات فى بداية الخمسينات بينما أعادت الولايات المتحدة وأوروبا تسليح نفسها وأخذت تفكر هل سيغامر الروس بغزو المانيا الغربية من أجل إعادة توحيد

---

(١) العالم فى القرن العشرين (٢٨٦) .
(٢) الثنائية الدولية (٣٢٩) .
(٣) مابعد الحرب الباردة (٤١) .
(٤) انظر الثنائية الدولية (٣٢٨) .

ذلك البلد أيضا؟ وكما أن حصار برلين رسم خطا فاصلا فى الحرب الباردة فى أوروبا ، فإن الحرب الكورية بدأت أيضا فى رسم خط فاصل فى الحرب الباردة فى آسيا . واستمرت العاصفة فى أوائل الخمسينات فى الشرق الأقصى بينما كانت بريطانيا متورطة فى الملايو والولايات المتحدة مصممة على إحتواء الصين فشرعت لذلك فى تدخلها فى جنوب شرق آسيا)[١].

وهكذا كانت الحرب الكورية بين الطرفين قد زادت من حدة التوتر فيما بينهما وجعلت كلا منهما يستنفر طاقاته وموارده فى كسب الوقت باخراج أكبر قدر من السلاح الذى يمكنه من السيطرة والتغلب على خصمه وكانت الأحداث متلاحقة ، والأطماع من قبل الدولتين متعارضة ، ومن هنا كان لابد من التصادم من جديد . وكانت هذه المرة فى الهند الصينية .

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٧٠) .

خامسا : الأزمة الفيتنامية (الهند الصينية)

كانت الهند الصينية بأجزائها الثلاثة فيتنام ولاوس وكمبوديا خاضعة للفرنسيين ، ويصور كولن وبيتر باختصار السيطرة الفرنسية عليها ، ثم احتلال اليابان لها ، ثم عودتها إلى فرنسا مرة أخرى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فيقولان : (احتل الفرنسيون الهند الصينية (فيتنام ولاووس وكمبوديا) بين سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٩٧ وحسب قول الرئيس روزفلت سنة ١٩٤٤ "فقد قامت فرنسا بحلبها مدة مائة سنة . وإن أهل الهند الصينية يستحقون شيئا أفضل من ذلك" . وفى سنة ١٩٣٠ أنشأ هوتشى منه حزب الشعب فى الهند الصينية . ولكن فرنسا تمكنت بسهولة من الإبقاء على حكمها (الأبيض) إلى أن جاء اليابانيون (الصفر) وحطموا قدرة فرنسا الظاهرية وذلك باحتلال البلاد بعد سقوط فرنسا فى أوروبا سنة ١٩٤١ . وفى سنة ١٩٤١ أسس هوتشى منه عصابات الفيت منه بدعم من الحلفاء وذلك لمحاربة السيطرة اليابانية . ويفترض أنه كان يعتقد أن فرنسا بعد النصر سوف تقبل مبدأ استقلال الهند الصينية ضمن نطاق من نوع من (الكومونولث) الفرنسى . ولكن ديغول قال فى مؤتمر برازافيل سنة ١٩٤٤ (يجب استبعاد حصول المستعمرات على الحكم الذاتى حتى ضمن المستقبل البعيد")[١].

وفى عام ١٩٤٥ (أصدرت مجموعة فيتنامية وطنية تعرف باسم (فيت منه) إعلانا بالاستقلال ورفض الفرنسيون الاعتراف بذلك ...)[٢].

وفى العام نفسه (كانت فرنسا مصممة على إعادة هيبة قواتها المسلحة . فقد تقرر فى بوتسدام (مع عدم وجود ممثل فرنسى) إنه عند تسليم اليابان يجب أن تحتل القوات الصينية الوطنية شمال الهند الصينية مؤقتا وأن تحتل

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٧٦-٧٧) .
وانظر التاريخ الدبلوماسى (٢٨٣) .

(٢) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٠٨) .

القوات البريطانية الجزء الجنوبى . وفى أيلول سنة ١٩٤٥ أعلن هوتشى منه استقلال جمهورية فيتنام الديمقراطية . ولكن بريطانيا التى ربما ساورها القلق على وضع أختها الإمبراطورية الفرنسية سمحت للقوات الفرنسية بالدخول ثانية إلى جنوب فيتنام . وبوجود هذا العدد الكبير من القوات الأجنبية على أرض بلاده كان هوتشى منه مستعدا للتفاوض على نوع من الاستقلال . وفى سنة ١٩٤٦ بدا ممكنا أن تصبح فيتنام الشمالية مستقلة فورا (مع تركز القوات الفرنسية فى نقاط استراتيجية لمدة خمس سنوات) ، وأن تعقد استفتاءات فى الجنوب من أجل تقرير آراء الشعب . غير أن الاستفتاءات لم تخرج إلى حيز الوجود وأمرت فرنسا قوات الفيت منه بالخروج من هانوى وهايفونج فى تشرين الثانى سنة ١٩٤٦ . ورفض الأمر الفرنسى فقصف الفرنسيون المدينتين موقعين فيهما ستة آلاف إصابة . وهكذا بدأت أول حرب فى الهند الصينية)[١].

وبدأت المواجهة بين قوات الفيت منه والقوات الفرنسية حيث بدأ أربعون ألف من الفيتنامية مدربون جزئيا ورديئو التسليح سنة ١٩٤٦ حملتهم ضد ١٦٣ ألف من القوات الفرنسية المتمرسة على الحرب ، وكان الفرنسيون والاداريون الاستعماريون قد عقدوا العزم على التمسك بكنوز الأرز والمطاط فى فيتنام الجنوبية من خلال إيجاد دويلات تكون ألعوبة فى يد الفرنسيين فرفض هوتشى منه ذلك وبدأ الشمال ببرنامج شيوعى قوامه محاولات من رجال العصابات للسيطرة على الريف وخنق المدن وذلك بتدمير المواصلات بينها ، ثم تحولت مجموعة من رجال العصابات لتثقيف الفلاحين فى القرى وإعادة توزيع الأراضى ، وكان برنامجه يشابه برنامج ماو فى شمال الصين ، وبعد أن ظهرت الصين الشيوعية ، وأصبحت إمكانية إرسال المساعدة لقوات الفيت منه واردة اضطر الفرنسيون إلى إعطاء الاستقلال ضمن الاتحاد

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٧٧) .
وانظر : التاريخ الدبلوماسى (٢٨٣) ، حروب التدخل الأمريكية (١٧٨) .

الفرنسى للاوس وكمبوديا وإمبراطورية يحكمها آخر ملك فيتنامى وهو الإمبراطور باوداى وحينها قال الفرنسيون للأمريكيين إن حربهم الاستعمارية يجب النظر إليها على أنها جزء من مؤامرة شيوعية عالمية الهدف من ورائها السيطرة على الدول الحرة وحلفائها الغربيين ، وتقبل ترومان هذا القول خاصة بعد اندلاع الحرب الكورية ، وأرسل فريقاً عسكرياً استشارياً إلى فيتنام واعترفت الولايات المتحدة وبريطانيا بفيتنام مستقلة ، واعترفت الصين بفيتنام وهوتشى منه ، وكذلك اعترف بها السوفييت وكوريا الشمالية عام ١٩٥٠ ، وبعض دول أوروبا الشرقية .

وبحلول عام ١٩٥٤ كانت الولايات المتحدة تدفع ٧٨٪ من تكاليف القتال فى حرب فيتنام[١] حيث قامت الولايات المتحدة الأمريكية بمساعدة الفرنسيين فى حين كانت عقب الحرب العالمية الثانية معارضة للاستعمار الفرنسى ولكنها اعتبرت الحرب فى فيتنام جزء من الهجوم الشيوعى العالمى إذ أن (هوشى منه) زعيم الفيت منه كان شيوعيا صريحا[٢].

يقول روزفلت : (إن فرنسا قد استكملت البلاد ـ بسكانها الثلاثين مليونا ـ لحوالى مائة عام ، لكن الشعب فى وضع أسوأ مما كان عليه فى البداية)[٣].

لقد اكتسبت فيتنام (أهميتها المركزية بالنسبة للولايات المتحدة نتيجة

---

(١) انظر : من الحرب الباردة حتى الوفاق (٧٧-٧٨) ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٠٩) ، وانظر حروب التدخل الأمريكية فى العالم (١٨٣) وذكر أن نسبة التكاليف ٨٠٪ .

(٢) انظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٧٤) ، الأمريكيون (٢٧) ، حروب التدخل الأمريكية فى العالم (١٧٦) ، التاريخ الدبلوماسى (٢٨٥) وقال إن حرب الهند الصينية تحولت (من حرب استعمارية إلى حرب مناوئة للشيوعية وهذا التحول أدى إلى إنقلاب عميق فى السياسة الأمريكية) .

(٣) حروب التدخل الأمريكية فى العالم (١٧٤) .

انتصار الشيوعية فى الصين)[١].

واستمرت المواجهة بين القوات الفيتنامية والفرنسية ، وفى عام ١٩٥٤ استطاع الفيتناميون السيطرة على قلعة (ديان بيان فو) خلال حصار دام ٥٥ يوما واستطاع الجنرال غياب احضار الرجال والإمدادات على الدراجات الهوائية عبر مسالك الأدغال واستخدم المدافع الصينية والمدافع المضادة للطائرات ، وقتل ٧٢٠٠ جندى فرنسى وأسر الباقين وعددهم أحد عشر ألفا.

واقترح وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس والقائد رادفور رئيس هيئة الأركان المشتركة على الرئيس الأمريكى أيزنهاور استخدام قاذفات القنابل الذرية من القواعد فى الفلبين ، فرفض أيزنهاور ذلك ، وصوت البرلمان الفرنسى لصالح الخروج من فيتنام ، وحينها كان مؤتمر جنيف منعقدا من أجل تسوية القضية الألمانية وأوكل إليه مهمة تحقيق وقف اطلاق النار[٢].

وأنهيت الحرب فى تموز ١٩٥٤ ونصت إتفاقية جنيف على إجراء انتخابات حرة خلال عامين ، وبهذا غدت فيتنام منقسمة إلى دولتين فيتنام الشمالية (الشيوعية) وفيتنام الجنوبية المناهضة للشيوعية ، ومن هنا بدأ الصراع الدولى بين القطبين الاتحاد السوفييتى الداعم للإشتراكية فى الشمال والولايات المتحدة التى تدعم كل ماينا هض الشيوعية المتزايدة فى هذه الدولة فى الجنوب .

وعملت كل دولة من الدولتين الكبريين على مساعدة الطرف الذى يواليه فـ(قبل انتهاء عام ١٩٥٤ أقامت الولايات المتحدة منظمة معاهدة جنوب

---

(١) حروب التدخل الأمريكية فى العالم (١٧٣) ، وخشيت الولايات المتحدة أن تكون هذه المنطقة مصدرا للهجوم على المصالح الأمريكية فى المحيط الهادى ، انظر (٧٤) نفس المرجع .

(٢) انظر : من الحرب الباردة حتى الوفاق (٧٩) ، التيارات السياسية المعاصرة (٤٦٣) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٠٩-١١٠) ، حروب التدخل الأمريكية فى العالم (١٨٤) ومابعدها .

شرق آسيا (سياتو) ، وهو تحالف مناهض للشيوعية . وضمت المعاهدة استراليا ، وبريطانيا العظمى ، وفرنسا ، ونيوزيلاند ، وباكستان ، والفلبين ، وتايلاند ، والولايات المتحدة . وقد أعفت الولايات المتحدة فرنسا فى الوقت ذاته من دورها فى حماية وإمداد القوات المناهضة للشيوعية فى فيتنام)[١].

وكانت تشعر أمريكا بأن نصيبها فى فيتنام ليس كبيرا نظرا لما كان يتمتع به هوتشى منه قائد فيتنام الشمالية من سيطرة على مشاعر معظم الشعب الفيتنامى وقد اعترف أيزنهاور بذلك فقال :

(لم أتحدث مع أى شخص خبير بشؤون الهند الصينية أو أراسله إلا ووافقنى على أنه لو أجريت انتخابات سنة ١٩٥٦ فإن ٨٠٪ من الناخبين كانوا سيصوتون إلى جانب هوتشى منه الشيوعى)[٢].

وبعد أن انسحبت القوات الفرنسية من فيتنام قبل الانتخابات بثلاثة أشهر أرسل أيزنهاور إلى نغودين ديم رسالة بين فيها التزام الولايات المتحدة الأمريكية بالدفاع عن فيتنام الجنوبية . وحينها نظم دالاس حلف جنوب شرق آسيا من أجل تحقيق الاستقرار فى منطقة الحرب الباردة فى الشرق وقال (إن خسارة فيتنام ولاووس فى الغرب وكمبوديا فى الجنوب الغربى كانت ستؤدى إلى استسلام الملايين للاستعباد الشيوعى ، ومن الناحية المادية فإن ذلك كان سيعنى خسارة خامات الصفيح الثمينة وموارد الأرز والمطاط الهائلة كما كان سيعنى أن تايلند التى كانت تتمتع بوجود أرض عازلة بينها وبين الصين الحمراء ستعرض حدودها الشرقية بكاملها للتسلل والهجوم . وإذا ماسقطت الهند الصينية فإن تايلند وكذلك بورما والملايو ستتعرض للتهديد مع مخاطر إضافية تواجه باكستان الشرقية وجنوب آسيا وجميع

---

(١) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١١٠) ، وانظر حروب التدخل الأمريكية فى العالم (١٩٤) .

(٢) Eisenhower, op. cit. p.372 .
نقلا من كتاب من الحرب الباردة حتى الوفاق (٨١) .

أندونيسيا)[١].

ومن هنا وجدت سياسة أو نظرية الدومينو (النظرية القائلة بأنه إذا سقطت إحدى دول جنوب شرق آسيا فى أيدى الشيوعيين ، فإن كافة دول المنطقة حتى أقصاها ، أى أندونيسيا وماليزيا ، وحتى الهند كذلك ، ستتهاوى كقطع الدومينو)[٢].

ولأجل ذلك كانت الولايات المتحدة ذات يد طولى فى مساعدة فيتنام ، وكانت تحاول جاهدة فى منع سيطرة الشيوعيين . وللحد من توسعهم عملت الولايات المتحدة على التدخل المباشر فى أحداث فيتنام خاصة وأن المسيطرين على السياسة الخارجية قد اعتنقوا نظرية الدومينو وقد اقتنع بذلك الرؤساء الأربعة أيزنهاور ، وكيندى ، وجونسون ثم نيكسون[٣]. ومما زاد الوضع سوءا والولايات المتحدة اندفاعا ماذكرته المخابرات الأمريكية (فى عام ١٩٥٩ أن تأييد الفيتناميين الشماليين لرجال العصابات فى ازدياد مستمر وفى ٨ يوليو ١٩٥٩ ألقى أحد أفراد رجال العصابات قنبلة على قاعدة عسكرية فى فيتنام الجنوبية لقى على أثرها جنديان أمريكيان مصرعيهما ، وكانا أول ضحيتين أمريكيتين فيما أصبح ذلك حربا كبرى)[٤].

وحاول ايزنهاور أن يقاوم الضغوط التى استهدفت توريط الولايات المتحدة فى محاولة انقاذ القوات الفرنسية إلى أن استجاب لذلك وأيد الرئيس ديم وجاء من بعده كنيدى وسار فى نفس الطريق فكان تواجد القوات الأمريكية كبيرا فى فيتنام ، إلا أن المواجهة التى لقيتها من الشعب الفيتنامى كانت لها بالمرصاد وقد أحبطت كثيرا من محاولاتها وكذلك منعتها من الوصول إلى غاياتها شارك فى ذلك المتمردون فى الجنوب ، والدعم لهم من

---

(١) Eisenhower, op. cit. p.333 .
نقلا من كتاب من الحرب الباردة حتى الوفاق (٨٣-٨٤) .

(٢) موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٤٧) ، وانظر الثنائية الدولية (٣٣٣) .

(٣) انظر موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٤٧) .

(٤) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١١٠) .

قبل الشمال على شكل عصابات مسلحة وزادت أمريكا من معوناتها الإقتصادية والعسكرية وعندما جاء جونسون ازداد تورط الولايات المتحدة وازداد مع هذا التورط عمل المخابرات المركزية وغارات الكوماندوز لنسف الجسور ، وتدمير المنشآت(١).

وقد أدت إحدى العمليات إلى حادث خليج تونكين فى ٢٤ أغسطس من عام ١٩٦٤ فـ(بينما كانت إحدى المدمرات الأمريكية المسماة (مادوكس) Maddox تقوم بأعمال الدورية فى خليج (تونكين) هاجمتها ثلاث سفن حربية تابعة لفيتنام الشمالية ، وقد غرقت إحدى هذه السفن ...)(٢).

وبسبب ذلك اتخذ الكونغرس قرارا يخول الرئيس سلطة اتخاذ قرار الحرب فدفع الرئيس طبقا لهذا القرار بقواته المسلحة إلى فيتنام لتقديم يد المساعدة لأى إقليم فى هذه المنطقة يرغب فى الدفاع عن حريته ، وواصل الرئيس قصفه على الأهداف المدنية والعسكرية فى تلك المناطق الصناعية(٣).

(وقد بلغ ماأسقط من قنابل فوق فيتنام إبان حكم نيكسون الذى استمر ثلاث سنوات فقط .. كل ماأسقط من قنابل فوق آسيا وأوروبا مجتمعين فى الحرب العالمية الثانية . وضحت الحكومة بحياة ١٥ ألف أمريكى . وبلغت الخسائر ١١٠ ألف جريح وخمسين بليون دولار ذهبت كلها أدراج الريح . أما فيتنام الجنوبية فقد فقدت ٦٠٠ ألف مواطن بين قتيل وجريح من أجل أن تمضى الأمور بصورة "مشرفة" . وبشكل عام أدت هذه الحرب إلى فقد حياة ٥٥ ألفا أضيف إليها خسائر بلغت ٣٥٠ ألفا .. وفاقت نفقاتها ١٦٠ بليون دولار . أما الخسائر المعنوية والفكرية فلايمكن تقديرها بمال . وجاء فى تقرير اللجنة التى شكلها مجلس الشيوخ أن الضريبة التى دفعتها فيتنام الجنوبية بلغت النصف مليون مقاتل بينما بلغت خسائر الأعداء المليون قتيل

---

(١) انظر موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٤٨) .

(٢) فترة من الانفراج الدولى (٢٥) ، اندريه فونتين ، ترجمة موسى الزعبى ، ١٩٨٨م مطبعة الجاحظ ، دمشق .

(٣) انظر : موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٤٩) ، فترة من الانفراج الدولى (٢٦) .

هذا غير الخسائر التى بلغت المليون ونصف المليون مواطن . ولاحقت الحرب كمبوديا ولاوس فترة من الزمن وألحقت بها خسائر فى الأرض التى دكتها الغارات والدمار الذى لحق بالحياة فى القرى)[١].

وقد صور أحد مساعدى وزير الدفاع الأمريكى قوة ذلك القصف وعشوائيته بالفعل حين قال : (كنا نواصل القصف ملتزمين بشعار أنه لكى نقضى على قوات (الفيتكونج) فإنه يلزم دك كل القوى ... وسحق كل الغابات ... ثم يسوى بعد ذلك .. سطح أرض فيتنام كلها بالأسفلت)[٢].

وقد بذلت الجهود من أجل توقيع السلام مع فيتنام الشمالية وأفلح هنرى كيسنجر فى توقيع معاهدة للتسوية مع فيتنام الشمالية فى باريس ١٩٧٢ ونصت على أنه من حق هانوى وضع قوات لها فى فيتنام الشمالية ، ولكون رئيس فيتنام الجنوبية ثيو لم يستشر بشأن هذه المعاهدة فقد غضب من هذا البند ورفض التوقيع فقامت أمريكا بارغامه عندما قصفت فيتنام الجنوبية اثنى عشر يوما عام ١٩٧٢ ، ونجح الأمريكان فى ذلك ووقع ثيو على المعاهدة فى يناير ١٩٧٣ برغم أنه ثبت عدم جديته واحترامه لبنودها فيما بعد ، وطبقا لهذه المعاهدة تعهدت الولايات المتحدة بسحب قواتها من فيتنام وتسد احتياجات سايجون من السلاح والمعدات . وخلفت أمريكا وراءها عتادا كان يمكن أن يحيل فيتنام الجنوبية إلى واحدة من أكبر الدول البحرية فى العالم ورابع أكبر جيش ، وسادس قوة جوية فى العالم كله[٣].

وبدأ وقف اطلاق النار ودخل حيز التنفيذ إلا أن الرئيس الجنوبى (نجوبين فان ثيو) أعلن فى كانون الثانى فى الثامن والعشرين منه لمواطنيه (أن لاشىء قد تغير ... وأن الصراع ضد الشيوعية سيستمر ، فقاتلوا هؤلاء الذين يواجهونكم فى قطاعاتكم)[٤].

---

(١) موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٥٢) .
(٢) المرجع السابق (٦٤٩) .
(٣) انظر المرجع السابق (٦٥٢) .
(٤) نقلا من كتاب فترة من الانفراج الدولى (٤٣٧) .
وعن لجان المراقبة لوقف اطلاق النار وبعض ماصاحب ذلك من ضغوط على ثيو انظ (٤٣٧-٤٣٩) .

ولكن موقف الحكومة الأمريكية منه ورغبتها فى احلال السلام فى تلك المنطقة جعلته يذعن لمطالبها مضافا لذلك إعلان رئيس وزراء فيتنام الشمالية بعدم محاولتها (أى فيتنام الشمالية) إقامة نظام شيوعى فى سايغون ، ومن الغريب أنه رغم الاتفاق على وقف اطلاق النار إلا أن الولايات المتحدة كانت مستمرة فى هجومها واطلاق قنابلها فى حين أن فيتنام الشمالية ذكرت أن وقف اطلاق النار ليس أمرا صعبا . وقال الشيوعيون بأن القنابل التى ألقيت بعد وقف اطلاق النار وصلت إلى ٢٠٠,٠٠٠ ضحية وأجبرت القاذفات مئات الآلاف على الهجرة(١).

وقد (أثار استئناف القصف الجوى موجة استنكار فى كونجرس الولايات المتحدة . وأوقف بتاريخ ٢٥ حزيران كل اعتماد مالى من أجل هذه العمليات . إنه قرار ذو معنى ، بحيث أنهى بريجنيف ذلك اليوم تحديد الزيارة التى وقع خلالها اتفاقا حول الإحتياطات الوقائية من الحرب النووية رفض نيكسون القرار فى بداية الأمر ، لكن وجب عليه أخيرا أن يقبل بنوع من الحل الوسط ، إذ وعد فى أحد صيغه ، أن يوقف الغارات اعتبارا من ١٥ آب . وكتب بتاريخ ٣ آب إلى رئيس مجلس ممثلى الشعب ، كارل البرت ، وإلى رئيس الأغلبية الديمقراطية فى مجلس الشيوخ ، مايك مانسفيلد أن : فيتنام الشمالية ، سترتكب خطأ كبيرا إذا اعتبرت أن انتهاء القصف الجوى فى كمبودجيا هو من أجل التشجيع على ارتكاب عدوان جديد (...) وسيعرف الشعب الأمريكى كيف يرد على عدوان من هذا القبيل ، وبالوسائل المناسبة)(٢).

لقد كانت أحداث فيتنام متصلة بأحداث أخرى فى دول الجوار مثل كمبوديا ، ولاوس وكانت أجهزة المخابرات تلعب دورا بارزا فى أحداثها

---

(١) انظر فترة من الانفراج الدولى (٤٣٩) .
(٢) نقلا من المرجع السابق (٤٣٩-٤٤٠) .

على أن الأحداث لاتخلو مما يذكر من حرب بين الطرفين لمنع كل منهما الآخر فى تحقيق رغبته وبث سيطرته على تلك المنطقة[١].

وهكذا كانت فيتنام إحدى حلبات الصراع بين الدولتين وقد خلفت هذه الحرب آثارا على القطبين .

آثار الحرب الفيتنامية :

أولا : كانت الحرب الفيتنامية حربا من أجل بسط النفوذ ومنع الطرف الآخر من السيطرة والتوسع . فإنه وإن كانت الحرب على أرض فيتنام إلا أنها كانت بين الدولتين الكبريين .

ثانيا : عكست الحرب الفيتنامية النزاع الدولى الكبير الذى تجسد فى هذه البقعة من العالم[٢]، وزاد من حدة الخلاف والشك فى النوايا لكل التحركات بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة لايمكن أن تتراجع مجددا فى آسيا كما أعلنه بعض قادتها[٣].

ثالثا : أثبتت الحرب الفيتنامية عجز القوات الأمريكية فى حسم الخلاف الذى كانت تنفخ فيه الشيوعية ، ووصل الأمر إلى أن أصبحت فيتنام ضمن المجموعة الإشتراكية ، وبرغم توقيع المعاهدة سنة ١٩٧٣ إلا أن الحرب استمرت إلى سنة ١٩٧٥ ووجدت فيتنام كدولة تعتمد النظام الإشتراكى .

رابعا : استغل الاتحاد السوفييتى توظيف الحرب لصالحه إعلاميا وأيديولوجيا حيث أشغل العدو (الولايات المتحدة) والمنافس (الصين) بعضهما ببعض فى حين كان الوقت لصالحه يتحرك كيف شاء دوليا نظرا لانشغال الولايات المتحدة بفيتنام[٤].

---

(١) انظر بشأنها كتاب فترة من الانفراج الدولى (٢٦-٢٧) .

(٢) انظر الثنائية الدولية (٣٣٤) .

(٣) انظر حروب التدخل الأمريكية فى العالم (١٨٩) .

(٤) انظر الثنائية الدولية (٣٣٤-٣٣٥) ، وهذا لايعنى أن الولايات المتحدة لم تستغل الحرب الباردة فى بث أيديولوجيتها حيث تحالفت مع الكنيسة فى فيتنام .
انظر حروب التدخل الأمريكية فى العالم (٢٠١) .

خامسا : أثرت الحرب الفيتنامية على الولايات المتحدة الأمريكية سياسيا وإقتصاديا وعسكريا ونفسيا[١].

(جاء فى تقرير اللجنة العاملة فى مجلس الأمن القومى الذى قدم فى تشرين الثانى ١٩٦٤ (أن انتقال جنوب الفيتنام إلى الشيوعيين بأى شكل كان هو ضربة كبرى لسياستنا الأساسية . فسمعه الولايات المتحدة تعتمد إلى حد بعيد على ابقاء جنوب فيتنام غير شيوعية)[٢]. ولاشك أن هذا الاعتقاد زاد من شدة التمسك بالسياسة الأمريكية تجاه فيتنام ولأجل ذلك وبعد الانسحاب اعتبرت هذه الأزمة الجرح الدامى فى قوة الولايات المتحدة سياسيا وعسكريا. هذا عدا الخسائر المادية والإقتصادية التى منيت بها الدولتان وخاصة الولايات المتحدة وفى هذا إرهاق للإقتصاد وانفاق على حرب خارجية الهدف منها ابعاد سيطرةالعدو وذلك على حساب الشعب داخل الدولة التى وجهت اهتمامها بصد العدو على حساب شعبها . وهناك من مال إلى اعتبار الحرب الفيتنامية بمثابة مواجهة بين الصين وأمريكا أكثر منها مواجهة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ولكن اعتماد هذا الرأى لاينفى الدعم السوفييتى لفيتنام الشمالية[٣]. ويمكن القول أن فيتنام حظيت (بدعم مالى سوفياتى ودعم تسليحى من الصين الشعبية)[٤]. وهكذا لقد كانت فترة الخمسينات والستينات من أشد الأوقات توترا بين القوتين الجبارتين . وفى

---

(١) انظر عن ذلك : موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٨١-٦٨٢) ، الأمريكيون (٢٧-٢٩) .

(٢) حروب التدخل الأمريكية فى العالم (٢٢٤) .

(٣) انظر : الثنائية الدولية (٣٣٥) ، حروب التدخل الأمريكية فى العالم (٢٢٧) .

(٤) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٨١) .
ويؤيد هذا الرأى ماجاء عن كوسيغين حيث قال : (إن الصينيين يتكلمون كثيرا لكننا نحن الذين نقوم بالدفع) . النار والجليد (١٨٦) . واعترف بأن السوفييت زودوا فيتنام الشمالية بالأسلحة من النوع الممتاز ، وأن السوفييت أرسلوا الخبراء والفنيين إليهم ليعلمونهم كيفية استخدامها . انظر نفس المرجع (١٨٦) .

هذه الفترة أيضا وجد بعض إنفراج بين القوتين خاصة فى الستينات ، وبحق يمكن اعتبار هذه الفترة قد جمعت بين التأزم والإنفراج .

ومن أهم تلك الأحداث :

(١) الحرب الكورية .

(٢) أحداث الشرق الأوسط[١].

(٣) إعلان الولايات المتحدة عن سياستها الجديدة (الرد الشامل) وهى : (أن تقيم الولايات المتحدة دفاعها ـ والدفاع عن حلفائها على أساس الالتزام باستخدام الأسلحة النووية)[٢].

وقد تراجع الأوربيون عن هذه السياسة بعد وفاة ستالين والخوف من الحرب الشاملة ، إذا هى استمرت فيها .

وكان الهدف من هذه السياسة تطويق التوسع السوفييتى ومحاولة دحره عن الدول والمناطق التى سبق وأن استولى عليها .

(٤) قام السوفييت فى هذه الفترة بإحكام قبضتهم على الدول التى استولوا عليها أثناء الحرب وبعدها ، وكان الدرس الذى تلقته المجر جعل بقية الدول لاتفكر فى الخروج عن التوجيهات الصادرة من الاتحاد السوفييتى[٣].

(٥) أقدمت الولايات المتحدة على إبرام كثير من المعاهدات فى هذه الفترة حتى أن (دالاس) اتهم بأنه مصاب (بجنون المعاهدات) وكان دالاس يرى أنها أسلوب هام فى التصدى للتوسع الشيوعى .

زد على هذا استخدام المخابرات فى محاولة الاطاحة ببعض الحكومات الموالية للشيوعية[٤].

---

(١) سيأتى الحديث عنها بشىء من التفصيل إن شاء الله تعالى .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٨٧) ، وانظر (٨٨-٨٩) .

(٣) انظر : المرجع السابق (٩٤-٩٥) بمراجعه ، الروس قادمون (٢٥٠) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١١٧) .

(٤) انظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١١٥) .

(٦) وجدت فى هـذه الفترة دول عـدم الانحياز فى سنة ١٩٥٥م غير أن هـذا الحياد لم يساعد هذه الدول على التخلص من التورط فى الحرب الباردة وحصل بسببها الانقسام فيما بين دول عدم الانحياز . هـذا بالاضافة إلى أن الأمريكان ينظرون لعدم الانحياز نظرة عدائية(١).

كمـا أنه وجدت بعـض الأحداث التى كـانت سببا فى فترات الانفـراج والتخفيف من حدة التوتر بين الدولتين .

(١) وفـاة ستالين فى ٥ آذار ١٩٥٣ واعتبرهـا البعض نوعـاً من الانفراج فى حدة التوتر والتأزم بين الدولتين(٢).

يقول دانيال ونورمان :

(بينمـا استمـر شعـور القلـق البـالغ من الشيوعية ، فقـد بدرت بوادر (ذوبان) ممكـن لجليـد الحرب البـاردة . مـات جوزيف ستـالين ، الديكتاتور السوفييتى فى مارس ١٩٥٣ . وبدا أن خلفاءه حريصون على بدء سياسة جديدة . وشرعوا يتحدثون عن امكانية (التعايش السلمى) بين القوتين العظميين)(٣).

(٢) ومـن ذلك توقيع بعض المعـاهدات وعقد بعض المؤتمرات التى تم فيهـا بعـض التنازلات حيث كان خروتشـوف على نهج يخالـف فيه سلفه من القـادة الشيـوعيين ، وقـد بدأ بكسـر طـوق العـزلة السيـاسية للاتحاد السوفييتى فقام بعدة رحلات إلى خارج البلاد ، ووقع الاتحاد السوفييتى المعـاهدة مـع النمسـا بعـد مفـاوضات جرت فى ٥ أيار سنـة ١٩٥٥م

---

(١) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢١٨) .
وقـال دالاس : (باستثناء ظروف نادرة جدا ، فـإن الحياد فكـرة لاأخلاقيـة وقصيرة النظر) . نفسه (٢١٨) .

(٢) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٨٥-٨٧) .
وذكرا بعضا من الآثار الداخلية والخارجية فى السياسة السـوفيتية الناتجة عن موته.

(٣) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١١٥-١١٦) .

انسحبت بموجبها الدول الكبرى المحتلة للنمسا ، وتخلى السوفييت عن الأرض . غير أن هذه المعاهدة عادت على الكرملين بفائدة مفادها أن الاتحاد السوفييتى ممكن أن يكون مرنا ومعقولا[١].

ومن ذلك مؤتمر جنيف ١٩٥٥م[٢].

(٣) كذلك بدأت العلاقات بين الدولتين فى التحسن حيث قام الاتحاد السوفييتى بتخفيض جيشه بمقدار ستمائة ألف جندى ولاشك أن لهذه التبدلات آثارها فى التخفيف من الحدة التى وصلت اليها الدولتان فى الحرب الباردة .

(٤) ومن ذلك تراجع السوفييت فى سياسة ستالين الدكتاتورية ، وفضح الستالينية ، ومحاولة الانفتاح على العالم الخارجى حيث تشجعت بعض دول أوربا الشرقية للمطالبة بالتغيير والإصلاح .

أما الستينات فكانت كذلك مابين توتر حاد وتقارب وبدايات حقيقية فى التفاهم ، وكانت أهم أحداثها الصواريخ الكوبية ، وأزمة فيتنام . كما كانت أبرز أحداث الخمسينات الحرب الكورية ، وأحداث الشرق الأوسط التى سنتحدث عنها فى الصفحات المقبلة.

على أن هذه الأحداث متداخلة وبعضها ممتد إلى فترات زمنية سواء فى البداية أم فى النهاية . حيث يجتمع حدث مع حدث آخر أو مع آثاره والعكس .

---

(١) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٨٩-٩٠) .

(٢) انظر المرجع السابق (٩٢) وكانت محصلته فى نظر السوفييت أن الأربعة الكبار قد قبلوا الوضع الراهن فى أوروبا .
وأن هؤلاء الزعماء شرعوا فى الكلام حول وجود دولتين المانيتين .
وانظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١١٦) .

سادسا : الشرق الأوسط[١] والحرب الباردة

شكلت منطقة الشرق الأوسط أهمية كبرى للدول الاستعمارية منذ إنهيار الإمبراطورية العثمانية (التركية) وخضعت هذه المنطقة للسيطرة الأجنبية من بريطانيا ، وفرنسا ، ثم شكلت أهمية خاصة للولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، ولاغرابة فى هذه الأهمية نظرا لما تتمتع به هذه المنطقة من موارد إقتصادية هائلة ، وكذلك نواح دينية عديدة تتعارض مع توجهات الغرب والشرق على حد سواء .

وبعد أن أخلت بريطانيا المنطقة وتركت مسئوليتها فى فلسطين لهيئة الأمم بدأت القوتان فى التورط فى منطقة الشرق الأوسط بصورة كبيرة .

يقول كولن وبيتر : (مع اضمحلال النفوذ البريطانى فى الخمسينات ، حاولت كل من موسكو وواشنطن المطالبة بحقها فى فراغ القوة الناتج عن ذلك وبذلك أدخلتا خلافاتهما فى منطقة كانت مسرحا تقليديا لصراع القوى العظمى)[٢].

---

(١) تقول الدكتورة دعد عن مصطلح (الشرق الأوسط) : (أن أصل المصطلح غريب عن المنطقة نفسها وقد نشأ لأسباب محددة تعود إلى ظروف الحربين العالميتين وهى بالأخص أسباب استراتيجية عسكرية (ميدانية ولوجيستية) . إن ارتسام المصطلح على الخريطة تعدل منذ الحرب العالمية الثانية وبتأثير أمريكى خاصة ليشمل من ضمنه مصطلح الشرق الأدنى وليمتد غربا فى أفريقيا البيضاء ؛ وبالتالى ، بالرغم من الاختلاف فى التحديد اعتبر أحيانا الشرق الأوسط ممتدا من المغرب العربى غربا حتى أفغانستان شرقا ومن اليونان شمالا حتى بحر العرب والمحيط الهندى جنوبا ، واكتفى أحيانا بأن يشمل المنطقة التى تذهب من مصر حتى ايران ومن تركيا حتى بحر العرب والمحيط الهندى) . الثنائية الدولية (٣٤٠) .
ولمزيد عن ذلك انظر الحلف الأطلسى والشرق الأوسط (١٩-٢١) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢١٩) .
وانظر دور الماركسية فى الإشتراكية العربية (٥١-٥٤) وذكر أن هذه المنطقة كانت محط أنظار الروس من زمن القياصرة . وعن أهمية هذه المنطقة للسوفييت انظر السياسة السوفيتية فى قوس الأزمة (٤٩-٥٨) ، فردهاليداى ، ترجمة عفيف الرزاز الطبعة الأولى ١٩٨٢م ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، لبنان ، وقد أجاد مؤلفه فى ذلك .

ولاشك أن ظهور اسرائيل إلى الوجود زاد من حدة التوترات بينها وبين العرب وتحولت هذه التوترات إلى حرب عام ١٩٤٨م[١]. وكان الأمر كذلك فى السنوات اللاحقة ، وعملت الدول الكبرى على محاولة استغلال الأحداث لصالحها فنشأت الأزمات بين الأطراف وظن كل طرف أن الطرف الآخر يهدف إلى السيطرة على دول هذه المنطقة . فكان السباق والتأزم فى العلاقات الدولية ، هو المسيطر بسبب أحداث الشرق الأوسط .

فبدأت أمريكا تعمل من أجل مصلحتها ومصلحة إسرائيل وكان الغرب كله يهدف إلى إبعاد الاتحاد السوفييتى عن المنطقة وقامت أمريكا فى ١١ تشرين الثانى سنة ١٩٥١م بانشاء قيادة الشرق الأوسط بمشاركة المملكة المتحدة وفرنسا وتركيا ودعت الدول العربية إلى الانضمام إليها . وكأن الولايات المتحدة بهذه الدعوة تريد من العرب اعتبار أن عدوهم هو الاتحاد السوفييتى ونسيت أن العدو الحقيقى فى هذه المنطقة هو اسرائيل الدولة اليهودية . ان أم القضايا فى هذه المنطقة هى مسألة إستيطان اليهود الأرض الإسلامية فى فلسطين وتدنيس المسجد الأقصى ، ومن هنا كانت الأزمة وكان رد الفعل العربى تجاه القرارات التى اتخذت بشأن فلسطين والقدس .

وقد اعترف بأهمية هذه المنطقة الساسة والقادة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وغيرهم فجاء عن ترومان قوله :

(يشكل الشرقان الأدنى والأوسط منطقة ذات مشكلات خطرة ، وهى تحتوى على موارد طبيعية هائلة ذات قيمة فائقة . كما تقع فى المنطقة خطوط المواصلات البرية والجوية والمائية الفضلى ، والتى تربط بين الغرب والشرق فتتسم هذه المنطقة - بالتالى - بالأهمية الاستراتيجية الكبرى ،وفيها دول صديقة ذات سيادة ، وهى من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة . أنها ليست قوية بما فيه الكفاية للوقوف ، إفراديا أو جماعيا ، فى وجه العدوان المسلح

---

(١) انظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٣٤٤) .
كانت الحروب البارزة اللاحقة عام ١٩٥٦م ، و١٩٦٧م ، و١٩٧٣م .

من قبل أية قوة عظمى ، ولـذلك يسهل أن نرى كيف يمكـن للشرقين الأدنى والأوسـط أن يتحولا إلى مسرح لخصومة شديدة بين قـوى خارجية ، وكيف يمكن لهذه الخصومة أن تنفجر فى نزاع مسلح"(١).

ويقول جورج ماكفى مساعد وزير خارجية الولايات المتحدة فى تقرير له :

(اسمحـوا لى بأن أتكلم بصـراحة عـن هذه المسألـة . إن خسـارة هـذه المنطقة إلى الاتحاد السوفييتى ستشكل كارثة رئيسية ...)(٢).

وهكـذا يتبين لنا أن الولايات المتحدة كانت حريصـة على عدم تغلغل السوفييت فى هذه المنطقة ، كما أن هذه المنطقة شكلـت أهمية خاصة بالنسبة للسـوفييت ومـن هنـا كانت إحدى المنـاطق التى شهـدت الحرب البـاردة بين الطرفين(٣).

ونظرا لهذه الأهمية عمل الغرب على ابعاد السوفييـت عن هذه المنطقة وكانوا بفعلهم أو أفعالهم تلك يستحثون السوفييت للتدخل فيها حيث كانت بعض الأحداث داعية إلى تدخل الاتحاد السوفييتى فى منطقة الشرق الأوسط ، خاصـة التكتـل الغـربى ، والأحلاف التى عقـدت وكـان القصـد منهـا إبعـاد السـوفييت عـن المنطقـة ، فبـالإضافة إلى قيـادة الشرق الأوسـط ، (ظهـر إلى الـوجود حلـف دفـاعى جديد كـان مـوجها فى الـدرجة الأولى ضـد الاتحاد السوفييتى ، انضمت إليه تركيا وإيران والعراق وباكستـان وهو حلف بغداد الـذى اتخذ العـاصمة العـراقيـة مـركزا لـه . وقـد أثار ذلـك الحلـف الاتحاد السوفييتى فاحتجت عليه حكومته وهاجمته . ثم ازداد الموقف بالنسبة للشرق

---

(١) Reitzel, et al, United States Foreignpolcy 1955-1995, p.210 .

نقلا من كتاب الحلف الأطلسى والشرق الأوسط (١١) .

(٢) نقلا من المرجع السابق (١٩) .

(٣) انظـر بعض الاهتمامات بالمنطقـة من قبل الدول الكبرى فى كتـاب الحلف الأطلسى والشرق الأوسط (٩-١٠) .

الأوسط خطورة عندما انضمت بريطانيا إلى عضويته فى ابريل ١٩٥٥ ، وبدأ الضغط على مصر لكى تنضم إليه ، ورفض الرئيس جمال عبد الناصر الانضمام إليه رفضا باتا ، فأصبح الحلف بعد ذلك موجها ضد مصر أكثر منه ضد روسيا)[١].

(ومنذ سنة ١٩٥٥ كان من مصلحة موسكو السعى لإزالة هذا التهديد بمحاولة تخريب الحلف أو تبنى قضايا تلك الدول مثل مصر وسوريا التى كانت تعارض الحلف أكثر من غيرها . ولذلك كانت موسكو تعتمد عليها فى دعم المصالح السوفيتية من خلال العمل على توطيد مصالحها هى)[٢].

ومن هنا بدأ التوتر يزداد بشأن المنطقة ، فالسوفييت يرغبون فى ايجاد الأنظمة التابعة لهم ، والولايات المتحدة هى الأخرى تعمل لهذا ، وإن كان كلا الطرفين قد حققا أكثر مصالحهما فى المنطقة عن طريق دولة اسرائيل التى قامت على مساعدات هاتين الدولتين .

فكان الصراع العربى الاسرائيلى على أوجه ، ولعل السياسة اليهودية رأت أن من المصلحة أن تنساق احدى الدولتين الكبريين لتقديم المساعدات لبعض الدول العربية ليكسب اليهود مسألة عدم اتحاد الدول العربية فى جبهة واحدة فمنهم المشرق ومنهم المغرب ، وكلا الأمرين فيه من الهوان الشىء الكثير .

---

(١) التيارات السياسية المعاصرة (٤٦٤-٤٦٥) .
وانظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٢٠) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٢٠) .
يقول دروزيل : (ومن الواضح أن الاتحاد السوفييتى كان يحتج دوما على حلف بغداد الموجه ظاهرا ضده ، وفى ١٢ تشرين الأول ١٩٥٥ بصورة خاصة ، اعلم ايران بأن حلف بغداد لايتفق مع المعاهدة الإيرانية ـ السوفياتية لعام ١٩٢٧ . وكذلك الهند ، بطل الحياد ، انتقدت حلف بغداد بشدة . أما الولايات المتحدة ، فعلى العكس ، دعمت حلف بغداد بقوة وأخذت تعتبره بالتدريج مفتاح سياستها الدفاعية . وأرسلت مراقبين إلى اجتماعات مجلس الحلف وإلى لجنته الإقتصادية . وفى أوائل حزيران ١٩٥٧ ، قبلت الولايات التمحدة فى اللجنة العسكرية) . التاريخ الدبلوماسى (٣٧٣) ، وانظر (٣٧٠-٣٧١) .

لقد حقق إنشاء الحلف الدفاعى مكسبا للسوفييت وذلك بعودة مصر إليها ، وعقد الرئيس جمال عبد الناصر صفقة الأسلحة التشيكية والتى كانت بداية مساعدة عسكرية سوفيتية مستمرة(١).

حيث كانت (بمثابة أساس لتحالف جديد بين الاتحاد السوفييتى ومصر ، كما كانت فى الوقت نفسه بداية مرحلة جديدة من (الثقة) بين الفريقين ، إذ حتى ذلك الوقت كان الاتحاد السوفييتى لايزال يشكك فى مدى إخلاص مصر للنظام الإشتراكى بينما كانت مصر لاتزال تشكك فى نيات موسكو)(٢).

إن الدول الغربية كانت تهدف إلى ربط هذه الأحلاف التى استخدمتها لمصالحها ، وضد أهداف السوفييت ومطامعهم بحلف الناتو حتى تسير حسب سياستها وتوجهها كيفما شاءت(٣)، وجاء الإعلان الصريح من قادة تلك الدول بأن الاهتمام بالمنطقة وجعلها فى حالة قوة هو العمل الذى سيكون من شأنه ابعاد الاتحاد السوفييتى عنها .

يقول اتشيسون فى شباط/فبراير ١٩٥٠م :

(إن الطريقة الوحيدة للتعامل مع الاتحاد السوفييتى ... هى فى خلق حالات القوة)(٤).

وتقول تاتشر : (يجب أن يوضح الغرب للاتحاد السوفييتى ولحلفائه ، أنه قادر على حماية المصالح الجوهرية بالوسائل العسكرية إذا كانت هناك ضرورة لذلك ...)(٥).

---

(١) انظر النار والجليد (١٥٠-١٥١) .
(٢) المرجع السابق (١٥١) .
(٣) انظر ماذكره مروان البحيرى عن هذه التوجهات (٢٤-٢٥) فى كتابه الحلف الأطلسى والشرق الاوسط . وانظر (٢٢-٢٣) .
(٤) المرجع السابق (٢٢) .
(٥) نقلا من المرجع السابق (٣١) .
وانظر مزيدا من أقوالها فى نفس الصفحة .

وهكذا تكون الدول الغربية أعلنت من جانبها أهمية المنطقة بالنسبة لهم ، واستعدادها للتدخل عسكريا إذا رأت أن الاتحاد السوفييتى ينوى الوصول إليها ، وكانت الأحداث والصراعات العديدة مع العدو الصهيونى فى أرض فلسطين المسلمة فقامت كل دولة بما ترى أنه يناسب توجهها وسياستها فى المنطقة ولكن إلى درجة معينة بحيث تظل دولة إسرائيل فى مأمن وكذلك أن يدوم أمنها واستقرارها ، وكان هذا الأصل قدرا مشتركا بين الطرفين لاغبار عليه . أثبتته الأحداث والأقوال والوقائع التى شهدتها الساحة الفلسطينية كما شهدتها الساحة الدولية منذ قيام إسرائيل وحتى هذه اللحظة(١).

آثار أزمة الشرق الأوسط :

كانت منطقة الشرق الأوسط بؤرة من بؤر التوتر بين الطرفين إذ حاولت الولايات المتحدة منع النفوذ السوفييتى من الوصول أو السيطرة عليها . بينما كان السوفيت يسعون إلى إيجاد المكان المناسب لهم من أجل الاستغلال وتحقيق الأطماع والأهداف الأيديولوجية والإقتصادية .

ويمكن ابراز أهم الآثار فى التالى :

أولا : ازدياد النفوذ الأمريكى بشكل كبير فى منطقة الشرق الاوسط بحجة ابعاد المنطقة عن الشبح الشيوعى . وكان لتوجهات السياسة الأمريكية فى المنطقة ردود أفعال لدى كثير من الدول خاصة بعد أن أصبح التحايل الأمريكى على المنطقةواضحا ، كما كانت التوجهات فى حماية دولة إسرائيل

---

(١) ولمعرفة مزيد من الأحداث والتوترات فى منطقة الشرق الأوسط انظر : من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٢٠) ومابعدها ، التيارات السياسية المعاصرة (٤٦٧) ومابعدها ، التاريخ الدبلوماسى (٣٧٢) ومابعدها ، موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦١١) ومابعدها ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١١٤،٣٤٤-٣٤٥) ، النار والجليد (١٥١-١٥٢) ، الثنائية الدولية (٣٤١-٣٤٢) .

مكشوفة ، ومن هذه الردود قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة وكان هذا مسوغا استغلته الولايات المتحدة لصالحها .

يقول كولن وبيتر : (اعترضت مصر وسوريا على التورط الأمريكى فى الشرق الأوسط وزادتا قربا من الاتحاد السوفييتى لمقاومته وأعطتا بذلك مزيدا من التبرير لواشنطن . وزاد الاتحاد السوفييتى من معونته لمصر وأرسل ضباطا روسيين لتدريب القوات السورية . وأثار هذا مخاوف الغرب من أن تصبح سوريا شيوعية . وبذلك تعرض جناح حلف بغداد للخطر وتقوض النظم الحاكمة الموالية للغرب فى الأردن ولبنان والعراق . فزادت الولايات المتحدة من نسبة تسليم الأسلحة إلى الأقطار الثلاثة المهددة)[١].

ثانيا : كانت ردود الأفعال السوفيتية واضحة ردا على التحركات الأمريكية حيث قامت تركيا بمناورات على الحدود السورية ، ونددت الحكومة السوفيتية بالاستفزاز الغربى لسوريا ، وهددت بالقيام بأعمال عسكرية ضد تركيا[٢]. وقال دالاس إن تركيا (الآن تواجه خطرا عسكريا متزايدا من نمو الأسلحة السوفيتية المطرد فى سوريا)[٣].

وحذر خروشوف الولايات المتحدة من أنه (إذا نشبت الحرب فنحن قريبون من تركيا وأنتم لستم كذلك وعندما تبدأ المدافع فى الرماية فإن الصواريخ قد تبدأ تطير وعندئذ سيفوت الوقت للتفكير فى عواقب ذلك)[٤].

وهكذا كانت التوترات والشكوك قائمة بين الطرفين فى كل تحركاتهم تجاه منطقة الشرق الأوسط مما دفع كل منهما فى زيادة حدة العداء وسوء الظن بالطرف الآخر والعمل على الحد من توغله فى المنطقة وابعاده عنها ولو باستخدام القوة .

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٢٢) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٢٢) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (٢٢٢) .
(٤) نقلا من المرجع السابق (٢٢٢) .

ثالثا : من آثار أزمة الشرق الأوسط تحقيق هدف من أهداف اليهود وهو تمزيق المسلمين العرب والعمل على عدم اتحادهم أو وقوفهم فى صف واحد وظهر ذلك جليا فى أن بعض الدول العربية قطعت علاقاتها مع الولايات المتحدة ثم اتجهت إلى الشرق الشيوعى للحصول على المساعدات العسكرية والإقتصادية منه ظنا منها بأنها ستجد فى ذلك حلا للخروج من أزمتها فأضحى حالها كحال المستجير من الرمضاء بالنار .

ومع ذلك فقد استطاع الاتحاد السوفييتى أن يجعل بعض الدول تثق به وتواليه نظير المساعدات التى توهم الرعاع أن الهدف منها هو مساعدة العرب المسلمين على دولة إسرائيل اليهودية .

وبعد هذا العرض نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن تدخل القوى الكبرى فى منطقة الشرق الأوسط زاد من حدة التوتر والخلاف وقام بتمكين إسرائيل فى المنطقة ولم تؤد تدخلات الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى من انهاء الصراع العربى الاسرائيلى بل فاقمت منه وظلت الدولتان العظميان متورطتان فى الشرق الأوسط بصورة عميقة وبقيت الأزمة العسكرية مستمرة .

ثانيا : أن كلاالدولتين كانت تقوم بالحفاظ على أمن إسرائيل وسلامتها بل كانت هذه غاية الدولتين الكبريين مما يدل على أن التدخل كان للمصالح بشتى أنواعها من قبل الدولتين ، وإذا كانت السياسة الأمريكية مكشوفة بالنسبة للحرب ولوجود اسرائيل ، فإن الوجه الحقيقى للاتحاد السوفييتى كان يغيب عن كثير من الناس وذلك لكونه دافع وهدد ووعد بالسلاح والمدد وحقق شيئا من ذلك كان تسكيتا وذرا للرماد فى العيون .

(أ) فأما حرص موسكو على اسرائيل فيكفى أن العدوان الثلاثى وقع وموسكو تعلم به من قبل وقوعه .

فـ(فى ربيع سنة ١٩٦٩ سأل زاخاروف رئيسه المباشر سبيرونوف عن ظروف حرب ٥ يونيو بين مصر واسرائيل . وأعرب زاخاروف عن دهشته

البالغة لفشل إدارة المخابرات السوفيتية فى معرفة ترتيبات الحرب التى كانت إسرائيل تعدها . ولماذا لم يبلغ عملاء الإدارة عن موعد الهجوم الإسرائيلى حتى يمكن تفادى الكارثة التى لحقت بسلاح الطيران المصرى؟

ورد سبيرونوف بالحرف الواحد :

كلنا كنا نعلم أن إسرائيل تستعد للحرب . وكلنا كنا نعرف اليوم الذى قررته للهجوم والساعة التى تبدأ عندها توجيه ضربتها الجوية الأولى! وقد أبلغنا هذه المعلومات كلها ـ أولا بأول ـ إلى الإدارة فى موسكو ، وقبل ٥ يونيو بفترة كافية . ربما أنهم ، فى موسكو ، لم يصدقوا هذه المعلومات . أو ربما أنهم لم يتحركوا لقلة ثقتهم فى مصادر معلوماتنا)[١].

(ب) وأما كون الاتحاد السوفييتى لايرغب فى هزيمة إسرائيل عسكريا فلأنه كان يصدر عن قادته مايدل على أن الحل السلمى هو الذى تختاره حكومة موسكو .

يقول بريجنيف : (إن الاتحاد السوفييتى يتابع تطورات الاشتباكات العسكرية بين مصر وإسرائيل بقلق شديد . والاتحاد السوفييتى سيظل دائما ضد استخدام القوة لتحقيق السلام)[٢].

(ج) أما السلاح للعرب فإنه كان ذرا للرماد فى العيون وكسبا للود ، وإمعانا فى زيادة الفرقة بين الدول العربية ، حيث إن هذا السلاح لايساوى شيئا أمام مايملكه العدو ، وهذا السلاح يتصرف فيه السوفييت كما شاؤا هذا ، غير ماوعدت به الدول العربية وخاصة مصر من سلاح ومع ذلك فقد كان الكذب والخداع أكبر من أن يخفى فالاتحاد السوفييتى ساعد على إيجاد إسرائيل وساعد على أمنها ، ولن

---

(١) الروس قادمون (١٢٤) ، وانظر (٦٣-٦٦) .
وانظر فترة من الانفراج الدولى (١٢٣) وفيه : (لم يتردد سفير الاتحاد السوفييتى فى مصر أن يوقظ عبد الناصر الساعة الثالثة صباحا ليطلب منه وبالحاح شديد أن لايكون البادىء فى الأعمال الحربية) .

(٢) الروس قادمون (٩٤) .

يبذل شيئا يذكر فى القضاء عليها[١].

ثالثا : أفرزت الأحداث أمرا وهو أن الولايات التحدة كانت تسيطر على أكثر دول المنطقة وكان لمواقف السوفييت أثر فى ذلك ، كما أن العقيدة الشيوعية قد جعلت شعوب المنطقة تنفر منها . يقول كولن وبيتر :

(قدمت موسكو المعونات لمصر وسوريا والعراق . ولكنها واجهت مشكلة رئيسية مفادها أن عقائديتها لم تكن تنطبق على دول الشرق الأوسط المتخلفة كما أن الحادها لم يكن موضع ترحيب ...)[٢].

رابعا : من الحقائق التى ينبغى ألاتغيب عن بالنا أن دول المنطقة بما فيها إسرائيل طالبت بابعاد المنطقة عن الحرب الباردة[٣].

خامسا : أن الأمر الذى فجر الأحداث فى منطقة الشرق الاوسط هو إيجاد الدولة اليهودية فى أرض فلسطين الإسلامية وأن من مصلحة الدولتين الكبريين الإبقاء على هذه الدولة تحقيقا لمصالحهما التى توجه بمصالح اليهود أساسا . ومن هنا تظل الحقيقة الكبرى أن الشرق والغرب الكافر يظلان عدوان حقيقيان للمسلمين مهما قيل وكتب عن دعمهما أحيانا لقضايا المسلمين (نظريا لاعمليا) .

سادسا : أن الصراع مع العدو الإسرائيلى والذى أوجدته القوى الكبرى بدعم الأيدى اليهودية لن ينتهى إلا إذا تعاملنا مع هذا الصراع على أساس عقدى ، وماعدا ذلك من تعامل فإن مصيره إلى الزوال وقد يستبدل بغيره فى أى لحظة قادمة حسب ماتقتضيه الظروف ، ومن هنا فلاالشرق

---

(١) وعن حقيقة سلاح موسكو للعرب انظر الروس قادمون على سبيل المثال (٦١-٦٢) (٨١) ومابعدها ، (١٣٢،١٤٠،١٥٦- ١٥٧،١٥٨-١٥٩) .
وعن موقف أمريكا والسوفييت من الحرب عام ١٩٦٧ وتواطؤهما مع العدو انظر فترة من الإنفراج الدولى (١٤٣) ومابعدها ، وانظر (١٠٧،١٢٣،١٣٠) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٢٣) ، وانظر النار والجليد (١٥٠) .

(٣) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٢٣) .

ولاالغرب سيدعم المسلمين فى صراعهم مع إسرائيل من أجل التخلص منها أو حتى الضغط عليها من أجل أن ترتدع ، ولن يكون النصر إلا بالعودة إلى الله تعالى والقيام بأوامره ونواهيه ، والتعامل مع أحفاد قتلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أمرنا الله تعالى به . وهذا سيكون طريق النصر فليت قومى يعلمون .

سابعا : من الحقائق التى تسطر هنا هو أن الجبارين يخافان من تنامى الصحوة الإسلامية .

يقول الكولونيل كومارنا رايان[١] عن الدولتين الكبريين : (رغم تكتيكاتهما المتعارضة يبدو أن كلتاهما تقلقان من تصاعد الثورة الإسلامية)[٢].

لقد كانت الحرب بين الطرفين حربا عقائدية ، غير أنها تجتمع إذا ماكان العدو هو المسلمين وهذا ماأثبتته الأحداث التى تلت قيام الشيوعية ووجودها كقوة تصارع الرأسمالية . هذا بالإضافة إلى الأحداث التى تشهدها الساحة الدولية فى وقتنا الحاضر .

على أن الخلاف بين الطرفين والحرب بينهما كانت كذلك سياسية وإقتصادية ، ولأجل ذلك عرف العالم كله تقريبا هذا النوع من الحرب (الحرب الباردة) بين القوتين الكبريين . ومن هذا الصراع أيضا ماحدث فى احدى دول أمريكا اللاتينية (كوبا) وكان هذا الحدث سيؤدى إلى الحرب العالمية الثالثة ، وكان صراعا بين الشيوعية والرأسمالية على أرض تلك الدولة . وعرف هذا الصراع بالأزمة الكوبية أو أزمة الصواريخ الكوبية ، أو صواريخ أكتوبر .

---

(١) عضو المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية فى لندن ، عميد المعهد الهندى للدراسات الإسلامية .

(٢) نقلا من كتاب محاضرات فى الندوة الدبلوماسية الثامنة (٢٥٨) ، وكان عنوان محاضرته (الآمال والمخاوف فى غرب آسيا) .

أزمة كوبا

إن أحداث الحرب الباردة وأسبابها قد امتدت على مختلف قارات العالم ومن الدول التى بلغتها تلك الحرب وكانت تشكل خطرا كبيرا بين القوتين دولة كوبا فى أمريكا اللاتينية . وكانت أزمة كوبا أخطر ماواجهته الساحة الدولية بعد الحرب العالمية الثانية إذ بسببها كادت أن تقع حرب عالمية ثالثة يستخدم فيها السلاح النووى .

وكان للظلم الذى تعيشه البلاد تحت وطأة حكومة (باتيستا) دور فى تفاقم الوضع وحدته حيث كان هذا الزعيم دكتاتوريا طاغية ، وبدا أن الشعب يرغب الخروج من هذا الظلم الذى يعيشه فى ظل زعامة (باتيستا) ويرغب فى الثورة عليه ، ووجد بين القوم محام شاب يدعى فيدل كاسترو[١] حاول استغلال اندفاع الشعب وغضبته ضد الزعيم الحاكم من أجل الانقلاب عليه غير أنه لم يوفق فى بادىء الأمر وعاود الكرة إلى أن استطاع أن يحل محل باتيستا .

يقول كولن وبيتر : (فى ٢٦ تموز سنة ١٩٥٣م قام محام شاب اسمه فيدل كاسترو مع مائة وخمسين من أتباعه بمهاجمة ثكنات الجيش فى سنتياغو الكوبية فى عهد الدكتاتور الكوبى الجنرال باتيستا ، وقتل نصف الثوار وسجن كاسترو ثم نفى ، وفى كانون الأول سنة ١٩٥٣م عاد كاسترو مع ٨٢ عضوا من حركة ٢٦ تموز إلى جبال سيراما يسترا فى كوبا ، وبحلول كانون الأول سنة ١٩٥٨م كان كاسترو قد شرع فى حرب تقليدية ضد باتستا الذى

---

(١) عاش كاسترو فى عائلة جيدة الثراء وكان والده صاحب أراضى زراعية ، تلقى تدريبه فى المحاماة ودخل مجال السياسة سنة ١٩٤٠م كعضو فى الحزب الأرثوذكسى وفى عام ١٩٥٢م استعد لخوض الانتخابات التشريعية الوطنية .
العالم فى القرن العشرين (٤٤٤) .

إنهار نظامه قبل انتهاء شهر كانون الثانى سنة ١٩٥٩م)[١].

وقد حظى كاسترو بمساعدة الحزب الشيوعى فى وصوله إلى السلطة حيث بلغ عدد أعضاءه ١٥ ألف ، وكانت قيادة الحزب مركزية وشارك الحزب كاسترو فى معارضته للولايات المتحدة[٢]. وقد وجد عدة اتجاهات فى كوبا حاول كاسترو استغلالها كلها لصالحه ، ومن هنا كانت له عدة أهداف من أهمها (اندماج القوة ... إجراء الإصلاحات السريعة . من أجل رفع مستوى المعيشة للطبقات الفقيرة فى كوبا ... الاستقلال عن الولايات المتحدة)[٣].

وفى جميع هذه الأهداف أثبت أنه ناجح جزئيا ، ونتيجة لذلك غدت كوبا فى غضون أربع سنوات مجتمع إشتراكى يعتمد على التجربة السوفيتية ويحكم فيه حزب واحد يعتمد على الاتحاد السوفييتى[٤].

كان البرنامج الإقتصادى الذى أراده كاسترو قد أساء للولايات المتحدة مما جعلها تبدأ محاولات الإطاحة بكاسترو فزاد العداء للولايات المتحدة ، وزادت الروابط فى الوقت نفسه بالاتحاد السوفييتى .

وقام كاسترو بمصادرة مزارع السكر ومصانعه التى يملكها الأمريكيون ، وكانت كوبا تمثل منطقة مهمة بالنسبة لاستثمارات الولايات المتحدة حيث جاء فى تقرير رفع لوزارة التجارة الأمريكية سنة ١٩٥٣م :

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (١١٥-١١٦) .
وانظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٥٧) .
العالم فى القرن العشرين (٤٤٤) .
موجز تاريخ الولايات المتحدة (٤٦٠-٤٦١) .
وذكر أن الزعيم الجديد كان كذلك مستبدا ظالما قام بكبت الحريات ، وانتزع الممتلكات ، ومما زاد فى سخط الولايات المتحدة عليه وكذا الشعب الأمريكى هو اعتزامه إقامة دولة شيوعية فى كوبا .

(٢) انظر العالم فى القرن العشرين (٤٤٨) .

(٣) المرجع السابق (٤٤٨) .

(٤) المرجع السابق (٤٤٨) ومابعدها .

(إن الاستثمارات الأجنبية الهامة الوحيدة فى كوبا هى استثمارات الولايات المتحدة ،إذ تتجاوز مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية ٩٠٪ فى خدمات الهاتف والكهرباء ، وحوالى ٥٠٪ فى السكك الحديدية العمومية ، ومايقارب ٤٠٪ فى انتاج السكر الخام . وتأتى كوبا فى المرتبة الثالثة فى أمريكا اللاتينية من حيث قيمة استثمارات الولايات المتحدة المباشرة فيها . وقد أدت حركة كاسترو فى التأميم إلى اصطدامه مع الرئيس ايزنهاور الذى قطع العلاقات الدبلوماسية مع كوبا فى كانون الثانى سنة ١٩٦١م وخلال الانتخابات الرئاسية سنة ١٩٦٠م طالب كنيدى بدعم أمريكى (للقوات الديمقراطية المعادية لكاسترو سواء فى المنفى أو فى كوبا نفسها والتى توفر الأمل فى النهاية للإطاحة بكاسترو) . وورث كينيدى خطة تؤيدها وكالة المخابرات المركزية لدعم إدارى تموينى لغزو كوبا يقوم به المنفيون وينزلون فى منطقة خليج الخنازير فى نيسان سنة ١٩٦١م . وفشل الهجوم ودمرت قوات الغزو على الشاطىء ، وكان تورط الولايات المتحدة واضحا للعالم أجمع . وحمل كاسترو على الامبريالية الأمريكية فى وقت كان يوطد فيه علاقاته مع الاتحاد السوفييتى الذى كان قد وافق فى شباط سنة ١٩٦٠م على أخذ السكر الكوبى وتقديم مساعدة بعد المقاطعة الإقتصادية الأمريكية لكوبا ، وفى كانون الأول سنة ١٩٦١م أعلن كاسترو قائلا (إننى ماركسى لينينى) ، وفى تموز سنة ١٩٦٢م سافر راؤول كاسترو وتشى غيفارا إلى موسكو لتوثيق الروابط الإقتصادية وترتيب معونة دفاعية فى حالة حدوث مزيد من تدخل الولايات المتحدة فى كوبا ، ولم يكن هذا بالأمر المستحيل لأن كنيدى كان قد أعلن بعد حادث خليج الخنازير أنه : "إذا أخفقت دول نصف الكرة هذا فى الوفاء بالتزاماتها ضد التدخل الشيوعى الخارجى، فإن الحكومة لن تتردد عندئذ فى القيام بالتزاماتها الأولى وهو أمن هذه الأمة . وإذا ماجاء ذلك الوقت ، فإننا لانريد أن يلقى علينا الدروس أولئك الذين تركوا بصماتهم باستمرار فى شوارع بودابست الدامية ، وإننى عاقد العزم على بقاء نظامنا ونجاحه مهما

كانت التكاليف والثمن)[١].

الولايات المتحدة وكوبا :

كانت كوبا المنطقة الوحيدة التى لم تواجه فيها الولايات المتحدة أى تنافس دولى حتى العقد السادس من القرن العشرين ، وقد حاولت الولايات المتحدة كسب المساعدة فى سياسة الحرب الباردة ضد السوفييت فقامت بمد يد المساعدة بدورها إلى هذه الدولة فكانت تقدم لها المساعدات العسكرية فى الخمسينات .

كما اهتمت بالإصلاح الإجتماعى والحكم الداخلى للبلاد .

واعتقدت الولايات المتحدة أن حكام أمريكا اللاتينية سيطاوعون سياستها فى الحرب الباردة سواء كانوا دكتاتوريين ، أم محافظين ، أم وطنيين[٢].

الاتحاد السوفييتى والإشتراكية الكوبية :

كان الاتحاد السوفييتى يقدم المساعدات لكاسترو ونظامه وقد بدأ كاسترو فى إشتراكيته معتمدا على المثال السوفييتى ومتأثرا به ، ثم مالبث أن أعلن أن كوبا ليست بحاجة إلى أنماط إشتراكية من البلدان الأخرى ، إلا أن كاسترو بعد أن رأى تغلغل السوفييت فى دول أوروبا الشرقية وكذا غزوها لبعض الدول اضطر إلى تغيير سياسته تجاه السوفييت وقام بتمجيد الخدمات العظيمة التى يقدمها الاتحاد السوفييتى للإنسانية . ومقابل هذا التحول زاد الدعم العسكرى لكاسترو بعد ذلك شابهت كوبا دول أوربا الشرقية حيث

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (١١٦-١١٧) .

(٢) انظر العالم فى القرن العشرين (٤٣٦) ومابعدها .
وعن اهتمام أمريكا بخطط التنمية التطورية لأمريكا اللاتينية انظر نفس المرجع (٤٣٨-٤٣٩) .

كانت القيادة حرة فى ضمن النطاق الذى تسمح به الإشتراكية السوفيتية ويحقق مصالحها الدولية[١].

كوبا بين القوتين العظميين :

عندما قامت الثورة فى كوبا سعى أصحابها إلى نزع ومصادرة ممتلكات الأغنياء سواء من الكوبيين أو الأجانب ، وإلى إعادة توزيع الثروات والأراضى على الفقراء من الشعب . وصودرت جميع مزارع السكر الكبيرة . فأصبحت معظم المزارع تقع تحت التنظيم الجماعى الشيوعى (مزارع جماعية) وكانت هذه الأعمال محل سخط أمريكا وكان كاسترو على استعداد لتحديها .

وعمل الثوريون الكوبيون على زيادة دخلهم بزيادة بيع السكر إلى الدول الخارجية فطلبت كوبا من الولايات المتحدة أن تزيد من شرائها للسكر وفرضت كوبا زيادة ٢٠٪ على سعره ، زد على هذا أن كوبا كانت تنتقد السياسة الرأسمالية ، وبدأ الثوار يبعدون كوبا عن نطاق السيطرة الأمريكية . وقام ايزنهاور بدوره برفض ذلك الطلب وطالب كوبا بدفع التعويضات للرأسماليين الأمريكيين الذين تضرروا من مصادرة الأملاك فى كوبا . وهدد الأمريكيون بأنهم سيقطعون شراء السكر ، وبدأت الولايات المتحدة عام ١٩٦٠م تخطط سرا فى امداد المعارضين لنظام كاسترو بالأسلحة ، وهنا لجأت كوبا إلى الدول الشيوعية بحثا عن مساعداتها ، وفى شهر شباط ١٩٦٠م وافق الاتحاد السوفييتى على شراء السكر الكوبى بشكل مستمر بالإضافة إلى تمكين الكوبيين من شراء الآلات والنفط السوفييتى ، واستوردت كوبا النفط من الاتحاد السوفييتى وكان يجب عليها أن تكرره فى كوبا ، وأمر كاسترو شركات مصفاة البترول الأمريكية الخاصة الموجودة فى كوبا أن تقوم بالعملية ، وبعد النقاش بين هذه المصافى والولايات المتحدة رفض أصحابها الاستجابة لمطلب كاسترو . وفى حزيران ١٩٦٠م استولى عليها كاسترو .

---

(١) انظر العالم فى القرن العشرين (٤٦١-٤٦٣) .

وكانت هذه نقطة الفصل فى العلاقات الكوبية الأمريكية ، وحينها أوقفت الولايات المتحدة جميع مشترياتها للسكر من كوبا وفرضت حظرا تجاريا عليها ، وبدأت الولايات المتحدة حربا إقتصادية مع كوبا . ورد كاسترو على ذلك بأن استولى على جميع الممتلكات الأمريكية المتبقية فى كوبا وفى نهاية عام ١٩٦٠م أصبحت جميع التجارة والمصارف والبنوك ووسائل النقل وثلثى الأراضى الزراعية ملكا للدولة الكوبية ، وسارت كوبا فى طريقها الإشتراكى ، وعندما كانت كوبا دولة فقيرة ولم تستطع أن تحقق أهدافها الإقتصادية اضطرت إلى الاعتماد على المساعدات الخارجية فقامت بالاقتراض من الاتحاد السوفييتى مبالغ طائلة ، وأصبحت تعتمد على الاتحاد السوفييتى بشكل كبير نظرا لفقرها وللمقاطعة التجارية التى فرضتها الولايات المتحدة عليها . وبهذا جعل كاسترو من كوبا بلدا معتمدا على الاتحاد السوفييتى وجاء به إلى منطقة الكاريبى وبالتالى جاء بالحرب الباردة إليها .

وزادت الولايات المتحدة من رغبتها فى التخلص من هذا النظام ولجأت مرة أخرى إلى سياسة التدخل ، وهددت الولايات المتحدة على لسان رئيسها كنيدى بأنها سوف ترد على أى هجوم يقع على أى جزء من العالم الحر ، واستمرت الولايات المتحدة فى سياسة الاحتواء للأنظمة الشيوعية الموالية للاتحاد السوفييتى والصين واستخدمت فى تلك السنوات سياسة (الرد اللين) وضم هذا الرد إعطاء الثوار المناوئين لكاسترو المساعدات السرية . وعندما قدم رؤساء المخابرات الأمريكية اقتراحهم لكنيدى وافق على الدعم الموسع للثوار وظن كنيدى وجهاز مخابراته أن الشعب سيبدأ ثورة عارمة على كاسترو وقامت عملية الثورة من قبل ألف وأربعمائة كوبى غير أنها باءت بالفشل ، وقامت قوات البوليس بالقبض على أعداء كاسترو ، ومن هنا بدأ كاسترو يعتبر أن هذا الصراع هو صراع بين الإشتراكية العالمية والامبريالية . خاصة أن بعض ماقام به كاسترو موجود فى النظرية الماركسية مثل التأميم ، والعمل من أجل المصلحة الإجتماعية ، بالإضافة إلى الحاجة

الماسة للدعم ضد الولايات المتحدة ، وكان الاتحاد السوفييتى هو القوة القادرة على الوقوف أمامها . وفى شهر ديسمبر من عام ١٩٦١م أعلن كاسترو بأنه (ماركسى لينينى وأنه سيبقى كذلك حتى يوم وفاته) ، ويعتبر هذا تأكيدا لمعتقداته وكذلك نداء واضحا للدولة الشيوعية الأولى (الاتحاد السوفييتى) لمساندة كوبا(١).

فازداد العداء حدة وخشيت كل دولة من الدولتين الكبريين أن تفقد السيطرة على هذه الدولة فتحرك الاتحاد السوفييتى ليتدخل عسكريا ويرهب الولايات المتحدة من الاستمرار فى محاولة السيطرة على كوبا فأرسل صواريخه عابرة القارات إليها .

---

(١) انظر العالم فى القرن العشرين (٤٥١-٤٥٥) .
وانظر التيارات السياسية المعاصرة (٤٧٥) .
وذكر أن العداء لأمريكا من قبل كوبا ازداد بسبب الحظر الإقتصادى .
موجز تاريخ الولايات المتحدة (٤٦١-٤٦٢) .
وذكر أن كوبا ازدادت قربا من الاتحاد السوفييتى حيث زار مكبويان نائب رئيس الوزراء السوفييتى كوبا فى فبراير سنة ١٩٦١م لتدبير معونة إقتصادية وعسكرية . وقال : (لقد منى الغزو بفشل شنيع ، وصار كاسترو - الذى اتهم الأمريكيين فى البداية بـ"عدوان جبان" - قادرا على المجاهرة بتفوقه على الأمريكيين . وقد قبل على الفور جائزة لينين للسلام التى منحه الاتحاد السوفييتى إياها ، وعرض تبادل حوالى ١٢٠٠ أسير وقعوا فى يده ، مقابل نقود سائلة وآلات زراعية . وقد اضطرت الولايات المتحدة تحت حكم الظروف إلى أن تدفع حوالى ٥٣ مليون دولار . وكانت طريقة غير كريمة لمنح معونة خارجية) . (٤٦٢) .
وانظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٨٩-١٩١) ، (١٥٧) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (١١٦) ، فترة من الانفراج الدولى (٢٧٨) .
وكان سردهم للأحداث متشابه إلى درجة كبيرة ومتكرر .

صواريخ كوبا :

إن الذى فجر الأزمة الكوبية وجعلها تصل إلى درجة الغليان والتوتر الذى أصبح يرقبه العالم أجمع هى مشكلة الصواريخ السوفيتية التى أرسلت إلى كوبا حيث (اقترح خروشوف أن يضع صواريخ عابرة للقارات ذات المدى المتوسط فى كوبا وأن يتم تركيبها والإشراف عليها من قبل السوفييت وافق كاسترو على ذلك حيث إنه كان يعتقد بأن بلاده كانت تنال الحماية العسكرية فى صراعها ضد الإمبريالية العالمية)[١].

وبالفعل قام أسطول من مراكب الشحن السوفيتية بالاقتراب من جزيرة كوبا التى تبعد عن شواطىء أمريكا تسعين ميلا ، وكانت هذه المراكب تحمل أجزاء من قواعد الصواريخ والأطقم السوفيتية التى ستنصب فى الأرض الكوبية . وكان أحد أنواع القواعد يستطيع اطلاق الصواريخ البالستية متوسطة المدى بحيث يغطى قوسا من المدن الأمريكية يمتد من العاصمة (واشنطن) إلى هيوستون فى ولاية تكساس . وكان النوع الثانى يستطيع توجيه صواريخ متوسطة المدى على أهداف بعيدة تصل إلى ولاية مونتانا ، وشملت الصفقة أعدادا من الطائرات النفاثة تستطيع حمل الأسلحة النووية بالإضافة إلى أن المراكب كانت تحمل رؤوسا نووية . وقد استطاع الخبراء العسكريون الإبقاء على سرية هذه الخطة فترة قصيرة[٢].

اكتشاف قاعدة الصواريخ :

فى ١٤ أكتوبر قامت طائرةمن طراز (يو٢) (U2) فوق غرب كوبا قرب سان كريستوبال وأخذت صورا كشفت وجود بناء قاعدة صواريخ نووية . وفى ١٦ أكتوبر كشفت الرحلات الجوية أن عدد الصواريخ يتراوح بين

---

(١) العالم فى القرن العشرين (٤٥٥) .

(٢) انظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٩٧) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (١١٨) .

١٦-٣٢ صاروخا . وازدادت طلعات (يو٢) وكان الرئيس الأمريكى يتابع نتائج تلك الطلعات ويعقد الإجتماعات المتكررة مع كبار المسئولين فى البيت الأبيض ، وفى هذه الاثناء أظهرت طائرة (يو٢) وجود قواعد لاطلاق الصواريخ يجرى بناؤها بالقرب من هافانا فى وسط كوبا(١).

وبعد أن تم التأكد من وجود هذه الصواريخ وخطورتها وافق الرئيس الأمريكى كينيدى وأعضاء اللجنة التى عقدت لمناقشة هذه الأزمة على وجوب إزالتها . وتم الإعلان فى ٢٢ تشرين الأول عن اكتشاف قواعد الصواريخ فى كوبا ، وكان غروميكو فى السادس عشر من نفس الشهر قال إنه ليس لدى السوفييت أى صواريخ هجومية فى كوبا ، فذعر كينيدى وقال (إنه مالم يوضح للسوفييت أن تهديدا كهذا وخداعا كهذا لايمكن احتمالهما ، فإن أمريكا لن تشعر بالأمان فى التفاوض مع روسيا مرة أخرى)(٢).

وبدأت تطرح الحلول التى من شأنها اجبار السوفييت على سحب صواريخهم من كوبا وكانت الآراء التى طرحت تصب فى هذه الخيارات الثلاثة .

أولا :العمل على حل الأزمة دبلوماسيا غير أن اللجنة التنفيذية لمجلس الأمن القومى رأت أن فى هذا كسبا للسوفييت من جهة الوقت حيث سيتمكنون من إقامة مواقع الصواريخ .

ثانيا : العمل العسكرى ، وكان ذا شعبتين :

(أ) القيام بضربة جوية تكون بمثابة العملية الجراحية .

(ب) رأى آخر فضل القيام بغزو كوبا .

ولكن خشى المجتمعون من ردود الفعل السوفيتية وتصعيد الوضع فى برلين وتركيا وربما وصل الأمر إلى حرب عالمية ثالثة شاملة .

---

(١) انظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٩٧-١٩٨) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (١١٨) ، مابعد الحرب الباردة (٥٩) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (١١٧-١١٩) .

ثالثا : الأخذ بفكرة مكنمارا القائلة (بفرض حصار بحرى حول كوبا) وسمى هذا الحصار (الحجر الصحى)[١] لأنه سيتيح لخروشوف إعادة النظر فى الوضع .

وبعد الموافقة على رأى مكنمارا خشى الأمريكان من أن هذا الاختيار سيؤدى إلى منح السوفييت الوقت الكافى لنشر صواريخهم ولذلك صدرت الأوامر بإعداد الطائرات للاستعداد بضرب كوبا جويا فى أى وقت بعد ٢٣ تشرين الأول ، وقد كان الافتراض أن الصواريخ ستكون عاملة بحلول ٢٨ تشرين الأول ، وبدأت الاستعدادات لذلك الحصار فأرسلت البحرية ١٨٠ سفينة إلى البحر الكاريبى ، واستدعت وزارة الدفاع ٩٠ ألفا من مشاة البحرية واستمرت هذه العمليات السرية حتى يوم الاثنين ٢٢ أكتوبر . وفى مساء الاثنين ظهر كينيدى على التلفزيون ووصف التهديد السوفييتى وحذر منه ووعد بأن الهدف الذى لايغيب عنه هو تخليص نصف الكرة الغربى من التهديد النووى من خلال ذلك الحصار الصحى حول كوبا[٢].

ثم كان يوم ٢٣ أكتوبر ولم يصدر رد فعل من برلين أو كوبا بعد إعلان الرئيس الأمريكى الحصار وأنكرت حكومة السوفييت وضعها للصواريخ فى الأراضى الكوبية من أجل الأغراض العسكرية ، وقام سكرتير عام الأمم المتحدة حينها (يوثانت) بارسال الخطابات إلى كل من كينيدى وخروشوف يطالب بتأجيل شحنات السلاح من قبل السوفييت والحصار من قبل الولايات المتحدة ، ورد كينيدى بأنه لامجال لبحث القضية إذا لم يتم إزالة القواعد[٣].

---

(١) انظر : من الحرب الباردة حتى الوفاق (١١٩) ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٩٨) .

(٢) انظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٩٨) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (١١٩) .

(٣) انظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٩٩) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٢٠) .

وفى يوم ٢٤ أكتوبر بدأت قوة العمل الأمريكية فى سد الممرات أمام السفن السوفيتية من أجل منعها من دخول الكاريبى ، وكانت هناك سفينتان سوفيتيتان تجاريتان على بعد أميال قليلة من خط الحصار ثم مالبثت أن غيرت اتجاهها وانكسرت حدة التوتر ذلك اليوم ، وظل الخبراء السوفييت يعملون فى مواقع الصواريخ وقدمت بعض الحلول ولكن الولايات المتحدة رفضتها(١).

ثم جاء يوم ٢٥ تشرين الأول (ووصلت رسالة من خروشوف اتهمت كينيدى بأنه كان يلعب بالنار النووية بصورة متهورة ، واتهمه بالقرصنة (والعدوان) (وبالطبع ـ يمكن القول بأن الحصار فى عرض البحر أو الصعود إلى سفن أجنبية كان يشكل أعمالا حربية) . وبناء على أوامر كينيدى سمح لسفينة نفط سوفيتية اسمها (بوخارست) بعبور خط الحصار عندما نوديت وأجاب ربانها بأنها كانت تحمل نفطا فقط ...)(٢).

وفى هذا اليوم حصل مشادة كلامية بين سفيرى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لدى الأمم المتحدة حيث إن أمريكا تتهم السوفييت وتدينها لوضعها الصواريخ فى حين كان المسئول السوفييتى يرفض التسليم بوجود صواريخ على الأراضى الكوبية ، غير أن الأدلة والبراهين كانت ضد الاتحاد السوفييتى(٣).

ثم كان يوم ٢٦ أكتوبر ومنه بدأ التوتر يتسارع كما أن الانفراج فى الأزمة بدأ من هذا اليوم ، ونترك بيتر وكولن يتحدثان عن أحداث ذلك اليوم وماتبعه من التصعيد إلى الانفراج فى الأزمة فيقولان :

---

(١) انظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٢٠٠) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٢١-١٢٢) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٢٢) .

(٣) انظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٢٠١) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٢٢) .

(وفى يوم الجمعة الموافق ٢٦ تشرين الأول أمر كينيدى بتحليق الطائرات فوق مواقع الصواريخ مرة كل ساعتين على ارتفاع ٧٠٠ قدم وبالقاء ٥ ملايين نشرة ، باللغة الأسبانية (تفسر) أسباب غزو الولايات المتحدة لكوبا ولكن وصلت رسالة جديدة من خروشوف الساعة السادسة مساء وقد اقترح الزعيم السوفييتى الذى كان متوتر الأعصاب إن لم نقل مذعورا أن يتم سحب الصواريخ السوفيتية عن كوبا مقابل تعهد الولايات المتحدة بعدم غزو الجزيرة فى المستقبل ، وقد صمم كينيدى على اتخاذ جانب الحذر فطالب بتحليل لفحوى الرسالة فى الصباح التالى ولكن بما أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى يتبعان توقيتين مختلفين ، فإن هذا التأخير أعطى مجلس السوفييت الأعلى فرصة لاحلال عرض جديد محل مبادأة خروشوف الشخصية وقد تلقى كينيدى هذا العرض يوم السبت فى ١٠/٢٧ .

وطالبت الرسالة الثانية بإزالة صواريخ جوبتر الأمريكية (والتى كانت قد أصبحت متخلفة عن الزمن) من تركيا مقابل إزالة الصواريخ السوفياتية من كوبا ، وقد أوردت جريدة (التايمز) الصادرة فى ٢٩ تشرين الأول العرض : "إن صواريخكم موجودة فى ايطاليا ومصوبة ضدنا ، وصواريخكم موجودة أيضا فى تركيا ، وأنتم تقلقون من كوبا ، وتقولون أنها تقلقكم لأنها على بعد ٩٠ ميلا بحريا عن ساحل أمريكا ولكن تركيا محاذية لنا ، وحراسنا يتمشون جيئة وذهابا وينظرون إلى بعضهم البعض" .

واستشاط كيندى غضبا لعدة أسباب ، إذ كان قد أمر بإزالة صواريخ جوبتر منذ سنة ١٩٦١م ولأن تركيا وهى حليف قوى ، يجب أن لاتتعرض للخذلان . ولأنه أصبح لديه شكوك الآن حول من يحكم الاتحاد السوفييتى فعلا ، ولأن هجوما على كوبا سيؤدى بوضوح إلى مخاطر رد انتقامى سوفييتى ضد تركيا وبذلك يتورط حلف الأطلسى فى حرب أوروبية محتملة إن لم تكن حربا عالمية .

وكان يوما قاسيا ، ففى الساعة العاشرة والربع صباحا أسقطت طائرة (يو٢) التى كانت قد التقطت صورا فوتوغرافية يوم ١٤ تشرين الأول ، وفى

الساعة الثانية بعد الظهر (ضلت) طائرة (يو٢) أخرى طريقها فوق شبه جزيرة تشوكت (Chokut) الروسية مقابل الاسكا ، وكان كل من الزعيمين يحاول جاهدا السيطرة على الأمور والحيلولة دون أخطاء يرتكبها أتباعهما وقد تؤدى إلى كارثة لايمكن العودة عنها ، وقد أمر كينيدى بنزع الرؤوس عن الصواريخ الأمريكية وعدم إعادة تركيبها إلا بأمر محدد منه شخصيا ولكن سرت ثمة إشاعة تقول إن أفراد السفارة السوفيتية يحرقون سجلاتهم وهو عمل لايجرى فى العادة إلا عندما تكون الحرب وشيكة الوقوع ، وحوالى الساعة الثامنة مساء أقنع روبرت كينيدى الرئيس بتجاهل الرسالة التى بعث بها المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى والإجابة على اقتراح خروشوف ، فوافق الرئيس كينيدى ولكنه قال إن الجواب الأمريكى يجب أن يحتوى على طلب رد سوفييتى بحلول يوم الأحد ٢٨ تشرين الأول . وحسبما جاء فى قول أحد المؤرخين الأمريكيين "لم تقصر الحكومة الأمريكية فى إعلام الروس أن ١٤٤ صاروخ بولاريس و١٠٣ صواريخ أطلس و١٠٥ صواريخ ثور وجوبتر و٥٤ صاروخ تيتان كانت جاهزة لتحويل الاتحاد السوفييتى إلى كومة من النفايات المشعة خلال ثلاثين دقيقة ، يضاف إلى ذلك وجود ٦٠٠ صاروخ متوسط المدى عابر للقارات و٢٥٠ صاروخ أخرى متوسط المدى و١٦٠٠ قاذفة بعيدة المدى و٣٧ حاملة طائرات لديها جميعا قوة نيران تعادل ٣-٤ أضعاف قوة النيران التى يمكن للسوفييت وضعها فى الجو".

وكان كينيدى عازما على أنه إذا لم يأت جواب الروس على رسالته ، فإنه سيجرى غزو كوبا يوم الاثنين فى ٢٩ تشرين الأول ، وسيصبح العالم أقرب بكثير إلى حرب عالمية ثالثة .

وفى الساعة التاسعة من صباح ٢٨ تشرين الأول أذاع راديو موسكو جواب خروشوف وجاء فيه "من أجل الإسراع فى تصفية الصراع الخطر وخدمة قضية السلام ... وتهدئة الشعب الأمريكى ، فقد صدرت الأوامر لتفكيك الأسلحة التى يصفونها بأنها هجومية وتعبئتها وإعادتها إلى الاتحاد

السوفييتى ، وسرت إشاعات مفادها الجنرال كيرتيس لى مای من القيادة الجوية الاستراتيجية نصح الرئيس الأمريكى (بأن نهاجم يوم الاثنين على أية حال) .ولكن فى الساعة ١٢ ظهرا أذاع راديو صوت أمريكا أن كينيدى قبل عرض خروشوف الذى وصفه بأنه عرض (رجل دولة) ويروى عن وزير الخارجية الأمريكية دين رسك قوله (لقد نظرنا داخل فوهة المدفع فتراجع الروس) . وخلال شهرين لم يبق لصواريخ تشرين أى أثر وحرثت الأرض فوق مواقعها وعاشت الحرب الباردة أحمى أيامها . وفى آب سنة ١٩٦٣م وافق الروس والأمريكيون على معاهدة حظر جزئى للتجارب النووية ، وعلى إقامة خط تليفونى ساخن للاتصال بين واشنطن والكرملين ، وأصبح من الممكن رؤية أول علامة للوفاق ، ولكن قدر للأمريكيين أن يبددوا جزءا كبيرا من طاقاتهم خلال بقية الستينات فى عملية ضخمة لمكافحة العصيان والثورة فى فيتنام مما قد استنزف قواهم ولطخ ديمقراطيتهم وحال دون تطوير حوار مع الاتحاد السوفييتى)[١].

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٢٠-١٢٥) بمراجعهما .
وانظر : تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٢٠١-٢٠٣) وذكرت فيه الأحداث كما جاءت عندكولن وبيتر ، النار والجليد (١٢٢) ، وانظر (١٢٣-١٢٤) ، موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٤٣-٦٤٤) ، وقال إن (الموقف الحازم من الرئيس ، لقن الاتحاد السوفييتى احتراما جديدا لقوة الولايات المتحدة وتصميمها ، كما أنه أدى إلى تصفية الجو وتحسين فرص السلام فى الوقت ذاته ونتيجة لذلك شاب الحرب الباردة شىء من الدفء الذى يصهر جليدها) . (٦٤٤) .
وانظر التيارات السياسية المعاصرة (٤٧٥-٤٧٦) وقال : (ومع تظاهر كل من الفريقين بالعمل على منع التصادم بين الشرق والغرب ، فإن الأزمات السياسية لاتزال تفرض نفسها على العلاقات بين الكتلتين) .
مابعد الحرب الباردة (٩٣-٩٤) وذكر المؤلف أن رد الخيار العسكرى لأنهم كانوا يعلمون عن طريق المخابرات أن فى كوبا ١٠,٠٠٠ عسكرى سوفييتى ثم عرفوا فيما بعد أنهم ٤٠,٠٠٠ وعرفوا فيما بعد أيضا أن هناك ٢٧٠,٠٠٠ جندى كوبى ، وكان تقدير الخسائر لهذه الحرب قد تصل إلى ١٠٠,٠٠٠ ضحية ثم إذا كان الحال =

وقد انتهت الأزمة بسحب الصواريخ السوفيتية من كوبا مقابل سحب الصواريخ الأمريكية من تركيا وكذلك ضمان عدم غزو كوبا من قبل الولايات المتحدة .

ولكن ماهى الأسباب التى أدت بالاتحاد السوفييتى إلى نشر صواريخه فى كوبا؟

الأسباب التى أدت إلى نشر الصواريخ فى كوبا :

هناك عدة أسباب دفعت السوفييت لذلك ومن أهمها :

أولا : الشك فى سياسة الولايات المتحدة ونيتها تجاه كوبا خاصة بعد أن بدأت الثورة تتخذ من الفكر الإشتراكى سبيلا لها .

يقول خروشوف : (كان موقف الولايات المتحدة طبيعيا من ناحية واحدة ، لم تستطع تقبل فكرة كوبا شيوعية أمام ساحلها ، تضرب مثلا ثوريا لبقية أمريكا اللاتينية ، تماما كما نفضل أن تكون جاراتنا دولا إشتراكية لأن ذلك يلائمنا . بيد أننا نعالج هذه المشكلة بتفهم ، نرى أن المشكلات أمثالها لاتحل بالحرب بل بالقوى الداخلية ، وبكلمة أدق بالشعب والطبقة العاملة[١]. أما الولايات المتحدة ، فى الطرف الآخر ، فقد كانت تميل إلى التدخل المباشر فى شؤون كوبا الداخلية .

أراد الأميريكيون أن يبعدوا كوبا بالقوة عن طريق الإشتراكية ، ويجروها وراء سياستهم تماما كما كانت الحال قبل الثورة الكوبية ...

= كذلك فإن الاتحاد السوفييتى لن يتردد فى الرد العسكرى فى أى مكان من العالم . التاريخ العسكرى (١٤٦) .

وقال : (كانت هذه المجابهة المباشرة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية الأولى من نوعها) .

الوصية الأخيرة (٣١٢) .

(١) انظر الاعتراف الصريح بأن هذا الأسلوب هو الذى تنتهجه الشيوعية للسيطرة على الدول التى ترغب فى التأثير عليها عقائديا وسياسيا .

وأما نحن فقد أردنا بقاء كوبا ثورية وإشتراكية ، وعرفنا أنها تحتاج إلى المساعدة... [و]لولا صواريخنا فى كوبا لكانت الجزيرة فى وضع رجل ضعيف يهدده رجل قوى . لاأقول أنه كان لدينا دليل ثابت على أن الأميريكيين يعدون لغزوة ثانية . ولم نكن بحاجة إلى ذلك الدليل لأننا نعرف تبنى الولايات المتحدة الطبقى ، وعماها الطبقى ، وذلك كاف لجعلنا نتوقع أسوأ الأمور)[١].

ثانيا : ازدياد عدد الصواريخ الأمريكية ورفع الميزانية الدفاعية مما جعل الولايات المتحدة متفوقة جدا على السوفييت ، فشعر خروشوف بالقلق خاصة أن مصاعب برنامج الصواريخ العابرة للقارات مكلف بينما يمكن وضع هذه الصواريخ فى كوبا وتكون قد ضاعفت من قدرتها الضاربة ضد الولايات المتحدة .

ثالثا : سيتمكن الاتحاد السوفييتى من القفز من فوق حلف الأطلسى وتكون الصواريخ السوفيتية بالقرب من الساحل الأمريكى[٢].

رابعا : تحقيق بعض المكاسب للسوفييت منها إرهاب الأمريكيين وخاصة حول قضية برلين بالإضافة إلى ازدياد الهيبة السوفيتية بالنسبة للصين[٣].

وبعد هذا العرض أصل إلى الحقائق التالية :

أولا : خرجت كوبا منتصرة فى صراعها مع الولايات المتحدة حيث بقيت على استقلالها . ويقول كاسترو عن هذه الحادثة : (إنه حدث فيها نوع من المساومة على الصعيد العالمى بين القوتين الكبيرتين ، فقد سحبت أمريكا صواريخها من تركيا تبعه التراجع السوفييتى فى كوبا... وتمكنت كوبا أن تقف مستقلة فى قرارها وسط العملاقين وحصلت على ضماناتها الخمس وهى : وقف الحصار الإقتصادى ، والنشاطات المخربة ، والهجمات القرصنية ، وعدم

---

(١) الوصية الأخيرة (٣١١) .
(٢) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (١١٨) .
(٣) انظر المرجع السابق (١١٨) .

خرق الحرمة الجوية والبحرية الكوبية ، وتخلى أمريكا عن قاعدتها فى غوانتانامو)[١].

ثانيا : أن الاتحاد السوفييتى قد خسر فى مواجهة السوفييت النووية وسحب صواريخه تحت تهديد الحرب ، كما أن الولايات المتحدة بموافقتها على عدم غزو كوبا أو المساندة فيه تكون قد تنازلت تنازلا رئيسيا اعتبر هزيمة فى سياسة الحرب الباردة فى إبعاد الأحزاب الشيوعية والاتحاد السوفييتى عن أمريكا اللاتينية ، وبهذا تنتهى السيطرة الأمريكية على منطقة البحر الكاريبى [٢].

وساعد ذلك فيما بعد على الوفاق والتقارب .

ثالثا : أثرت الأزمة الكوبية على سمعة الولايات المتحدة حيث كانت الأقوى من الاتحاد السوفييتى ومع ذلك فقد بقيت كوبا على اتجاهها الإشتراكى ومن منطلق هذه القوة جاء الخيار الذى قال بضرب كوبا وغزوها عسكريا ، كما أن أمريكا أعلنت صراحة عدم غزوها لدولة أجنبية لأول مرة ، يقول خروشوف : (جاء حل الأزمة الكوبية نقطة تحول تاريخى . أول مرة فى التاريخ تعهد الأميركيون علنا ألا يغزو إحدى جاراتهم وألا يتدخلوا فى شؤونها الداخلية . كان ذلك قرصا مرا يصعب بلعه بل كان أسوأ من ذلك : اضطر الوحش الامبريالى الأمريكى إلى ابتلاع قنفذ بأشواكه الحادة ،و مازال ذلك القنفذ فى معدته ، لم يهضم ، ولن تزيله أى عملية جراحية مادامت الاتفاقية السوفيتية ـ الأميركية الخاصة بكوبا نافذة)[٣].

---

(١) فترة من الانفراج الدولى (٦) .
غير أن التوتر والمد والجزر بين كوبا والولايات المتحدة بقى مستمرا بعد ذلك إلى أن تم الانفتاح الشيوعى على البلدان الغربية .
انظر المرجع السابق (٨١) ومابعدها .

(٢) انظر العالم فى القرن العشرين (٤٥٦) .

(٣) الوصية الأخيرة (٣١٢) .

وقد افتخر خروشوف بهذه السياسة التى أرغمت الولايات المتحدة على الاعتراف بكوبا والتراجع عن غزوها(١).

رابعا : رغم نجاح الثورة الإشتراكية الكوبية فى السيطرة على كوبا إلا أن الشعب كان يرغب فى الانعتاق من جحيمها لأنها لم تحقق للشعب شيئا(٢).

خامسا : أن هذه الأزمة كانت أخطر الأزمات التى واجهتها الدولتان بعد الحرب العالمية الثانية (وأصبح العالم على شفا كارثة نووية)(٣).

ومع ذلك فقد كانت نهاية هذه الأزمة إيذانا ببدء عصر جديد بين الدولتين ، وأعلن كنيدى ذلك صراحة حيث قال : (التاريخ يعلمنا أن عداوة الشعوب وكذلك الأفراد لاتدوم للأبد .. ومهما بدا ثبات مانرغب ومانكره فحركة مد وجذر الزمن والأحداث تجلب معها تغيرات كثيرة مثيرة للدهشة فى علاقات الأمم وجيرانها ... كلانا يوجه من أجل التسليح قدرا هائلا من الأموال كان من الأفضل أن توجه لمجابهة الجهل والفقر والمرض .

وكلانا أصبح أسيرا لدائرة مفرغة خطرة ينمو فيها الشك على جانب لينتج عنه شكوك وأسلحة جديدة على الجانب الآخر لينجم عنها أسلحة مضادة ... إن اتفاقات الإنهاء لهذا (الحد من التسليح) ستكون فى صالح الاتحاد السوفييتى بنفس القدر الذى ستكون فيه لصالحنا ... وحتى أكثر الدول عدوانية يمكن الاعتماد على قبولها والتزامها بما فى تلك التعهدات ـ الإلتزام بالتعهدات فقط ـ إذا كانت فى صالحها .

لذلك نحن مطالبون بالمواظبة على البحث عن السلام ، على أمل حدوث تغيرات بناءة داخل الكتلة الشيوعية قد تجلب معها الوصول إلى حلول تبدو الآن بعيدة المنال .. وهكذا يجب أن نسوس أمورنا بشكل ما بحيث تصبح فى صالح الشيوعيين ليوافقوا على سلام حقيقى" .

---

(١) انظر الوصية الأخيرة (٣١٢) .

(٢) انظر عن ذلك : لا.. للرأسمالية ، لاللماركسية ، نعم للإسلام (١٠٩-١١١) ، وسقطت الماركسية (١٤١) ومابعدها .

(٣) مابعد الحرب الباردة (٩٢) .

بعد ستة أسابيع فقط من خطاب كينيدى وفى ٢٥ تموز/يوليو - ١٩٦٣م وقع كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا العظمى على ميثاق تحريم الاختبارات النووية المحدودة واتفقوا على عدم إجراء تجارب لأسلحة نووية فى الجو أو تحت الماء أو فى الفضاء ...)[١].

---

(١) مابعد الحرب الباردة (٦٠-٦١) .
وانظر العالم فى القرن العشرين (٤٥٦) .

سابعا : الاجتياح الروسى لأفغانستان

كانت هذه الأزمة فى وقت بدأت بوادر الانفراج واضحة بين المعسكرين . وقد حاولت أمريكا ألا تتدخل مباشرة فى الأزمة لتجنب المواجهة مع الاتحاد السوفييتى ، ولاستمرار التعايش السلمى ، وقد هبت الدول الإسلامية والعربية لمساعدة أفغانستان ومدها بالرجال والعتاد لمقاومة الاحتلال السوفييتى ، وسيأتى معنا الحديث تفصيلا عن الجهاد الافغانى وأثره فى سقوط الشيوعية .

وليست الأزمة الأفغانية هى خاتمة الأزمات كما أن ماذكرنا من أزمات ليست هى الوحيدة التى شهدتها الساحة الدولية بين القطبين ، وإن كانت أبرزها .

وبالعموم كانت مصالح الدولتين من أعظم الأسباب وراء هذه الحرب (الباردة) .

يقول ميشال جوبير : (إن مصالح القوى ذات السيادة تختلف عن مصالح الدول العادية . وهى محركات عامة ذات نزعة توسعية لاحدود لها)[١].

وقد تعددت حروب التدخل السوفيتية والأمريكية فى كثير من بلدان العالم سواء كان ذلك بعد الحرب العالمية الثانية أو فى فترات الحرب الباردة[٢] أو حتى بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط إحدى الدولتين الكبريين حيث بقيت الدولة التى ترى بأنها مسئولة عن قيادة العالم فى تدخلها ذلك!!!

ويكون تدخلها باسم هيئة الأمم المتحدة ، حتى ينخدع الناس ، كما يكون هذا التدخل بدعوى الحفاظ على الديمقراطية ، بينما الحقيقة هى

---

(١) الأمريكيون (٧) من مقدمة المؤلف للترجمة العربية .

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب حروب التدخل الأمريكية فى العالم ، ريتشارد بارنت .

استغلال هذه الدول ، ونهب ثرواتها[١].

وبعد هذا العرض لأبرز الأزمات والتدخلات من قبل الطرفين لبعض دول العالم نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن عدم الثقة بين الطرفين وتفسير تحركات بعضهم بعضا على أنها عداء وتحرك ضد مصالح الطرف الآخر فاقم من حدة الصراع بين الطرفين .

ثانيا : أن خروج أحد الطرفين من مواجهة باردة فى مكان ما منهزما جعله يفكر فى التدخل فى بقعة أخرى ليحقق فيها انتصارا ليعادل به ميزان القوى . وهكذا تعددت الأزمات والحروب التوسعية كردود أفعال بين الجانبين فى أغلب الأحيان .

ثالثا : أدى فشل المعاهدات والمؤتمرات التى وقعت بين الطرفين وكذلك ازدياد عدد المعاهدات بين كل طرف وحلفائه إلى التسارع فى ايجاد القوة الكافية التى يتمكن بها كل طرف وحلفائه من السيطرة أو الهجوم أو الردع وهذا بدوره أشعل فتيل التسابق فى مجال التسلح .

وهكذا غدت كل دولة توجه مواردها وثرواتها من أجل التصنيع العسكرى والتفوق فيه حتى أصبحت كل من الدولتين تعيش فى سباق مسلح مع الدولة الأخرى وكان ذلك على حساب إقتصادها وبالتالى على حساب شعبها فدخلت الدولتان فى سباق للتسلح بدأ الاندفاع فيه مع كثرة الأزمات والصراعات التى شهدتها الساحة الدولية .

واستمر هذا التسابق معها أو مع بعضها ونعرض الآن بشىء من التفصيل لهذا التسابق .

---

(١) انظر مانقله أبو الحسن الندوى فى كتابه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٢١٠-٢١١) من قول الأستاذ (جود) الانجليزى عن الأمم المتحدة .

سباق التسلح

بعد أن وصل الحال إلى ماذكرناه سابقا من احتدام الصراع بين الدولتين فى الحرب الباردة ، كان لابد والحال هذه أن تسعى كل دولة إلى التفوق على الدولة الأخرى . والتفوق الذى يكون معتبرا هنا ، هو التقدم فى المخترعات العسكرية ، وايجاد أكبر قدر من الرجال المدربين من أجل الحفاظ على الأمن المتعلق بالدولة أولا ، ثم الحفاظ على أمن الدول التى تسير فى دائرتها ، ومن ثم منع الدولة الأخرى من السيطرة على دول أخرى أو جرها إلى فلكها . إضافة إلى هذا مايحققه هذا الإعداد من ارهاب للعدو وتخويف له . فهناك ظروف الطوارىء والأزمات ، وهناك الظروف العادية ، ولكل واحدة منها أساليبها وماتحققه ، ويتحدث عن ذلك صبرى مقلد فيقول:

(لاخلاف على أن حماية الأمن القومى تعد بمثابة الهدف الاستراتيجى الأول فى السياسات القومية للدول ، ولذا تحاول كل دولة أن تخطط لنفسها الاستراتيجية التى تلائم مشكلاتها الأمنية ، وتتناسب من جهة أخرى مع طبيعة التحديات الخارجية التى تحس بتهديدها لمصالحها العليا)[١].

ثم يبين الأهداف التى ترمى من ورائها الدول لحماية أمنها والقيام بايجاد القوى النووية حال الطوارىء والأزمات ومنها :

((١) أن الهدف قد يتمثل فى العمل على ردع هجوم مباشر ، وهنا يتعين أن تكون الاستجابة فورية وعنيفة حتى يمكن احباط أهداف هذا الهجوم .

(٢) أن الهدف قد يتمثل فى ردع الاستفزازات العنيفة التى تصدر عن الخصم والتى تقف دون مستوى الهجوم المباشر ، ويتم ذلك أساسا عن

---

(١) العلاقات الأمريكية السوفيتية (٩) ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، الكويت .

طـريق التهديد باستخدام القـوات الاستراتيجية لـوضع حد لمثـل تلك الاستفزازات ...)[١].

وأمـا مسئـولية التخطيط للأمـن القومى فى غير الظـروف والطـوارىء فتشمل :

(أولا : الاحتفاظ بمقدرة عالية على القتال والردع .

ثانيـا : الاحتفـاظ بالقـدرة على خوض حرب طويلـة أو حرب ممتـدة (Protracted war) .

ثالثـا : العمـل على توفير ذلـك الحد الأدنى من المرونة اللازمـة لإدارة الحرب ، ويكـون ذلـك بالتـوصل إلى مجمـوعة مـن البـدائل والخيـارات (Options) التى يمكـن تنفيـذ أى منهـا فى اللحظـات الأولى لـوقوع الحرب ، وبالصـورة التى تتيح تأمين رد فعل مناسب يتفق مع طبيعـة وحجم الاستفزاز المعادى .

رابعـا : إيجاد نظـم مـوثوق بهـا (Reliable) مـن القيـادة والسيطـرة والمتابعة على تنفيذ الأوامر وسير العمليات ...)[٢].

---

(١) العلاقات الأمريكية السوفيتية (١٠) .
يقـول تومـاس شيلنـج : الردع هـو (براعـة تجنب استخدام القـوة العسكـرية) . ويقول الجنرال اندريه بوفر : (إن هدف الردع هو عدم تمكين أى قوة معادية من اتخاذ القرار باستعمال القوة العسكرية) . نفس المرجع (١٩) .
وانظـر مجلـة كليـة الملك خالـد العسكـرية العدد (١٦/٩٤-٩٥) مـوضوع بعنـوان (عواقب انفلات الردع النووى من عقاله) بقلم الهادى أحمـد خليفة ، ومما جاء فيـه : (الردع فكرة استراتيجيـة تبناها كل من المعسكرين كـوظيفة أساسية لقواته المسلحـة وسيـاسته العسكرية ويهـدف فى الأساس إلى ترهيـب المعتـدى المحتمل ، عسكريا كان أو سياسيا ، بأنه سيدفع الثمن غاليا إذا سولـت له نفسه بالاعتداء) . (٩٤) .
ويرى أن الردع يحافظ على التوازن والسلام .

(٢) العلاقات الأمريكية السوفيتية (١١-١٢) .

وإذا كانت الحروب القديمة قد عرفت أنواعا عديدة من الأسلحة البدائية[١]، ثم أخذت فى التطور التدريجى إلى أن وصلت إلى أسلحة الدمار الشامل التى لايمكن أن يكون فيها منتصر نظرا لأنها ستودى بالجميع . وإذا كنا قد ركزنا على التاريخ الحديث ، فإنه من بداية القرن العشرين أخذ التسلح يتطور بصورة أكبر من ذى قبل ، ومن بعد الحرب العالمية الأولى كان الاهتمام بأمر التسلح أكثر من الزمن السابق لها ، وقد بلغ أوجه بعد الحرب العالمية الثانية حيث برزت القوة السوفيتية كمنافس حقيقى وقوى للولايات المتحدة بعد أن تراجعت القوة الألمانية والبريطانية والفرنسية ، ولم تعد المنافسة بين الدول على سطح الأرض بل تجاوزتها إلى الفضاء الخارجى ، وظهرت المسميات العديدة للتسلح الجديد . ولعلنا لانقصد هنا ذكر أسماء الأسلحة وأعدادها بقدر مانريد أن نثبت أن هذا التسابق كانت له آثاره الإقتصادية الكبيرة على الجانبين . كما أنه ليس مقصودنا استعراض التطور الذى وقع للأسلحة الحربية من الدرع ، والسيف ، والبندقية ، والسهم ، والمنجنيق ، إلى الدبابة ، والطائرة ، والصاروخ ، والقنبلة ، ولكن المقصود هو أنه مع تطور المخترعات كان نصيب السلاح من هذا التطور الشىء الكثير وكان القرن العشرين أشد القرون تسابقا فيه ، فكانت الحرب العالمية الأولى واستخدمت فيها الدبابة والطائرة وجعلت كثير من الدول تفكر فى إعدادا نفسها تحسبا لأى طارىء قد يحدث ، ومرت السنوات إلى أن بدأت شرارة الحرب العالمية الثانية وشهدت تسابقا فى التسلح فى سبيل الوصول إلى تحطيم العدو وإرهاقه ، وأفرزت هذه الحرب عدة إفرازات كان من أهمها

---

(١) انظر مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد التاسع ، السنة الثالثة ، النصف من شعبان ١٤٠٥هـ (١٧٩) .
وانظر اللقاء الذى أجرته المجلة مع سعد الجنيدل أحد المهتمين بالأسلحة القديمة حيث ذكر أنواعا عديدة من الأسلحة التى استخدمت فى أرض الجزيرة العربية (١٧٩-١٨٣) .

ظهـور القوة السوفيتية كقوة قـاهرة للقوات النازية الهتلـرية ، وتربعت على كرسى السيطرة على العالم مـع الـولايات المتحدة ، واختراع القنبلـة الـذرية واستخدامها فى الحرب ضد اليابان .

واختلفـت هاتان الدولتان فيما بينهما فى قضايا عـديدة وتفاقمت حدة التـوتر بينهمـا فى ازدياد ونشـاط الحرب البـاردة بينهمـا إلى أن وصلـت إلى تسابق محموم لإنتاج الأسلحة والابداع فى اختراعها .

فـأصبحت القوى العظمى تعتمـد (فى ضمان أمنها على ترسـانات هائلة من الأسلحة النووية ، التى تشمـل أنواعا عديدة من الصـواريخ البـالستية ، القاذفات ، والصواريخ الجوالة ...)[١].

وكـانت كل دولة من بعد الحرب العـالمية الأولى تعـد نفسها ، غير أن أوج هـذا الاعدادا كان مع نهـايات الحرب العالمية الثـانية ، وكانت القوات الألمانيـة قـد استخدمت أسلحتهـا الانتقـامية ضد أعدائهـا وأسقطـت صاروخ (V1) على بريطـانيا وبالتحديد على عـاصمتها ، ومن بعـد ذلك صاروخا آخر من نوع (V2) وكـان هذا القصف الصـاروخى دليلا على نجاح التكنـولوجيا الألمانية ، وكذلك تذليل الصعوبات والتغلب على الجاذبية الأرضية والانطلاق إلى الفضـاء الخارجى وتحويلـه إلى ميدان جديد للحرب إضـافة إلى الميـادين التقليـدية البرية والجوية والبحـرية ، ومع ذلك لم تغير هـذه الصـواريخ من

---

(١) حرب الفضاء (٩) .
وانظـر حرب المائة ثانية (١١) ، بيير غالوا ، ترجمةجبرائيـل بيطار ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق .
بل لقـد وصـل الحال إلى استخـدام الـدخان فى العصـر الحديث حتى غـدا أحد الأسلحة الكيميائية فى الحروب الحديثة .
انظـر ماكتبه الدكتور فكرى عطـا الله عبد المهدى بعنوان الـدخان أحد الأسلحـة الكيمـائية فى الحروب الحديثـة فى مجلـة كلية الملك خالد العسكـرية ، العـدد (١١) (ص٦٨-٧٣) ، وذكـر فيه وسائل إنتـاج الدخان واستخدامـه فى المعـارك الحربية ضد العدو .

نتائج الحرب شيئا[١].

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية برز فى الساحة الدولية قوتان عظميان هما الولايات التمحدة ، والاتحاد السوفييتى ، و(كانت الكتلة الأولى تحتكر سلاحين رهيبين هما (القنابل الذرية) و(القاصفات السوقيةالعملاقة) .. أما الكتلة الثانية المتمثلة بالاتحاد السوفييتى وحلفائه فكانت تمتلك أعظم قوة برية فى العالم يستطيع الاتحاد السوفييتى عن طريقها اكتساح أوروبا الغربية التى أنهكتها الحرب العالمية الثانية وأحالتها إلى هدف سهل ومستساغ لولا المظلة الذرية الحمايوية الأمريكية .

تجاه هذاالموقف العصيب اتخذت الولايات المتحدة ثلاث خطوات جبارة غيرت مجرى التاريخ فى العالم وحولته إلى الوجهة التى نراها عليها اليوم . كانت الأولى (مشروع مارشال) ، والثانية (مبدأ ترومان) والثالثة (التقدم التكنولوجى العسكرى) وعلى الأخص فى مجال تكنولوجيا الفضاء)[٢].

وأدركت الولايات المتحدة أهمية الصواريخ والأسلحة الفضائية فجلبت الفنيين والمهندسين من بين أسرى الحرب الألمان وعاملتهم معاملة حسنة وأسندت إليهم بعض المراكز المرموقة من أجل الاستفادة منهم ، وبحلول ١٩٤٧م تم نقل أكثر من ١٠٠٠ عالم ومهندس وخبير نازى إلى الولايات المتحدة وبجوازات سفر مزورة ، وكان الاتحاد السوفييتى بدوره قد اعترض على مشروع مارشال ، وواجه مبدأ ترومان بتعزيز قواته البرية والجوية وتحديثها وجعلها على استعداد دائم للعمل والتهديد باستخدامها لمنع الولايات المتحدة من ضرب الاتحاد السوفييتى بالقنابل الذرية ، واستخدم كذلك بعضا من موارده لتطوير تكنولوجيا الفضاء[٣].

---

(١) انظر : حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (١٢-١٣) ، مجلة الفيصل العدد (٦٥/١٣٧) ، حرب الفضاء (١٩) .

(٢) حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (١٣-١٤) .

(٣) انظر : المرجع السابق (١٤-١٨) ، مجلة الفيصل (٦٥/١٣٧) ، حرب الفضاء (١٥) وذكر أن السوفييت استفادوا من الألمان كحال الولايات المتحدة .

وهكذا اتجهت الدول إلى اكتشاف الجديد فى السلاح ، وعندما لم تنته الحرب العالمية الثانية ، إلا والقنبلة الذرية قد استخدمت ، فإن الدولتين العظميين بعد ذلك بدأتا فى الاتجاه إلى الفضاء ، ومحاولة السيطرة من أعلى ، ومن هنا بدأ الانفاق على التسلح يتصدر الأولويات لدى كل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة فدخلت الدولتان فى سباق للتسلح لم يتوقف إلا فى الآونة الأخيرة ، التى ذهبت فيها الدولة السوفيتية . وقد كان التسابق على أوجه فى الأسلحة الأرضية من دبابات ، وصواريخ أرض أرض ، ومدفعية ، وكذلك الأسلحة البحرية ، غير أن الذى طغى على الساحة هو التسابق فى الأسلحة التى تستطيع الدول من خلالها السيطرة على الفضاء والتحكم فى الأرض التى يريدون عن طريق الجو.

وقد اهتمت الولايات المتحدة اهتماما كبيرا بهذا التسابق ، وأدخلت كثيرا من التعديلات والتنظيمات فى سياستها الدفاعية والعسكرية . يقول ألان نيفينز وهنرى كوماجر :

(أظهرت الحرب الباردة أنه لابد من زيادة التسلح الأمريكى . بل إن الأمريكيين كانوا قد بدأوا قبل ذلك بتوجيه كثير من العناية إلى تحسين كفاءة تخطيط الدفاع وإدارة مخططاته . فلقد كشفت الحرب عن حاجة ماسة إلى توحيد القوات وأركان الحرب . وأيدت حكومة ترومان الدعوة إلى هذه الغاية ، فوافق الكونجرس عليها أخيرا .

وفى ٢٦ يوليو ١٩٤٧م ، وقع ترومان مرسوم ضم الجيش والأسطول والسلاح الجوى إلى وزارة دفاع جديدة ... كانت الأسلحة الذرية والطاقة الذرية من أعظم المشكلات إقتضاء للاهتمام القومى والدولى ...)[١].

كما (أقر الكونجرس قانونا يقضى (بإنشاء لجنة للطاقة الذرية من خمسة رجال ، كهيئة مستقلة لم يلبث عدد مستخدميها أن وصل إلى خمسة آلاف خلال عام واحد . وكان من واجباتها الإشراف على صناعة الأسلحة

---

(١) موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٤٩-٥٥٠) .

الـذرية ، واستخدام القوة الـذرية عمليا فى مجموعة كبيرة مـن الاستعمـالات الأخرى ، كمحركات الغواصات ، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية ، والطب والزراعة ، وفى صيف ذلـك العام[١]فجـرت الولايات المتحدة قنبلتهـا الذرية الرابعة فى جزيرة بيكينى المرجانية فى المحيط الهادى ، وقنبلتهـا الخامسة تحت ماء المحيط . وكانت للسلاحين طاقة تدميرية لم يسبقها مثيل)[٢].

ومـاكانت هذه التدابير لترضى الاتحاد السوفييتى فكـان هو الآخر يقوم بإعداد نفسه والعمل على تطوير أسلحته والاهتمام بالسلاح النـووى والذرى فوقع التسابق بينهما وزاد الـوضع احتداما عندما تمكن الاتحاد السـوفييتى مـن اطلاق القمـر الصناعى سبتـونيك[٣]فى عـام ١٩٥٧م فكان الاتجاه إلى الفضـاء والسيطرة عليه .

ولاشك أن هناك أسبابا أدت إلى هذا التسابق ومن أهمها :

(١) آثار الحرب العالمية الثانية ، والتى جعلت كلاً من الأطراف يفقد الثقة فى الطـرف الآخر ، وأخذ كل طرف يفسر أفعال الطـرف الآخر بأسوأ التفسيرات فكـانت تلـك الآثار مـن أهم الدوافع فى اللجـوء إلى هـذا التسابق .

(٢) ظهور القنبلة الذرية واستخدامها من قبل أمريكا الطرف الآخر الأقوى على السـاحة الدولية حينهـا ، مما جعل السوفييـت يبـدأون فى العمل لإنتاجها وإنتاج غيرها .

(٣) الاحتيـاج الشديد للموارد الاقتصادية ، ومحاولة كـل دولة منع الدولة الأخرى من الوصول إلى مناطق هذه الموارد والسيطرة عليها ، فأرادت

---

(١) سنة ١٩٤٦م .

(٢) موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٥١) .

(٣) بالروسية يعنى رفيق السفر وهو أول قمر يدور فى الفضاء حول الأرض .
مـن عسكـرة الفضـاء (١٧) ، بول بى . ستيرز ، ترجمـة على مـوسى الكـاظمى ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، دار الشئون الثقافية العامة .
والمعلومات السابقة من كلام المترجم .

كل دولة أن تبرهن للآخرى مقدرتها وقوتها حتى لاتسول لها رغباتها فى الاقدام على شىء من ذلك .

(٤) زاد الأمر حدة بين الدولتين عندما أطلق الاتحاد السوفييتى القمر الصناعى (سبتونيك) مما جعل الولايات المتحدة تبدأ فى العمل لحيازة قصب السبق الحقيقى فى الفضاء . على أن الاهتمام بالفضاء بدأ قبل ذلك ، وعندما بدأ الاهتمام به كانت الأمم المتحدة قد أوجدت بعض القواعد والشروط المتعلقة باستخدام الفضاء ، فيما يتعلق بحدوده والأنواع التى تطلق فيه ، وهذا يجعلنا نصور موقفها فى معرض حديثنا عن الفضاء وتعريفه .

الفضاء والأمم المتحدة

قلنا بأن التسلح اتجه من الأرض إلى الفضاء وأصبح التسابق فى أسلحته ومايتم اكتشافه ، مع الاستمرار فى التسابق للأسلحة الأرضية ولكنه - أعنى التسابق فى الفضاء الخارجى - كان الأبرز والأشهر فى العالم منذ نهايات الحرب العالمية الثانية ، وتحديدا منذ أن أطلق السوفييت قمرهم الأول .

ونبدأ بتعريف الفضاء .

يقول اللواء أركان حرب خضر الدهراوى :

(هناك من يرى تعريف الفضاء الجوى بأنه المجال أو الوسط أو الفراغ الذى يعلو إقليم الدولة والذى تستطيع الطائرة أن تطير فيه بقوة رد فعل الهواء ، وأن هذا الفضاء ينتهى عندما تنعدم الديناميكية الجوية ولاتستطيع الطائرة أن تطير بخاصية الهواء ، وأنه بعد هذه النهاية يبدأ الفضاء الخارجى إلى مالانهاية . وهناك من يرى أن الفضاء الذى يعلو إقليم الدولة بأنه الفضاء الذى تستطيع فيه الدولة أن تمنع أية دولة من استخدامه لأية أغراض عسكرية قد يكون فيه تهديد لأمنها كما أنها تستطيع أن تمنع أعمال التجسس حتى ولو تمت فى نهاية الفضاء الجوى وفى داخل الفضاء الخارجى الذى يعلوه بواسطة الأقمار الصناعية .

وبالنسبة لتحديد المدى الذى يمتد إليه كل من الفضاء الجوى والفضاء الخارجى ظهرت آراء تأخذ باقتراح البروفسور فون كارمان Von Karman الذى أطلق عليه خط "فون كارمان" كحد فاصل بين الفضاء الجوى والفضاء الخارجى بناء على دراسة التكوين الطبيعى وإمكانية الحياة فى الفضاء من الناحية البيولوجية والفسيولوجية. وقد انتهى فون كارمان من هذا التحديد إلى أن الفضاء الجوى ينتهى عند إرتفاع حوالى ٢٨٥٠٠٠ قدم (٨٦٨٨٨ متر) فوق الأرض وأنه بعد هذا الارتفاع يبدأ الفضاء الخارجى إلى مالانهاية . ولم يلق هذا الرأى تأييدا ولكن أغلب الآراء اتفقت على أن الفضاء الخارجى

يبدأ من حيث ينتهى الفضاء الجوى)[١].

وقد اختلفت الآراء فى المدى الذى يحق للدولة أن تسيطر عليه .

(* رأى ينادى بالحرية المطلقة للفضاء الذى يمتد من الأرض إلى مالانهاية ويشمل ذلك الفضاء الخارجى ، ولايحق لأى دولة فرض سيادتها عليه ، على أساس أن هذا الفضاء يخضع للسيادة المشتركة للدول جميعا..." .

"* رأى آخر ينادى باخضاع الفضاء الجوى للسيادة المطلقة للدولة ويطالب بحق كل دولة فى السيادة على الفضاء الجوى الذى يعلو إقليمها..." .

"ثم ظهر رأى ينادى بالجمع بين السيادة المطلقة للدولة فى جزء من الفضاء الجوى والحرية المطلقة فى جزء آخر .

ويرى وأصحا بهذا الرأى تقسيم الفضاء إلى ثلاثة مناطق : المنطقة السفلى وتخضع خضوعا كاملا لسيادة دولة الإقليم ، ويعلو هذه المنطقة منطقة يكون للدولة فيها بعض مظاهر السيادة للتأكد من عدم استعمال الطائرات الأجنبية للإضرار بمصالحها وأمنها ، ويعلو ذلك منطقة يكون الطيران فيها حرا لطائرات جميع الدول شأنها فى ذلك شأن حرية أعالى البحار ولكن هذا الرأى لم يحظ بموافقة الدول نظرا لأنه لايحقق حماية كاملة لمصالح الدولة)[٢].

---

(١) الحرب فى الفضاء (١٩٥) ، دارالمريخ للنشر ، الرياض ، طبعة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م دون ذكر لرقمها .

(٢) المرجع السابق (١٩٦) ، وانظر (١٩٧-١٩٨) .

القانون الدولى للفضاء وتنظيم الأمم المتحدة لإستخدامه :

اهتمت الأمم المتحدة بالتطورات الجديدة التى شهدتها الساحة الدولية ، ومن ذلك استخدام الفضاء واطلاق الأقمار الصناعية إليه ، وعندما كانت الحدود السياسية الدولية موجودة فكان لابد من النظر فيما يعلو تلك الدولة فوضع القانون الدولى فارقا بين الفضاء الجوى والفضاء الخارجى .

(فالفضاء الجوى الذى يعلو اقليم الدولة يخضع لسيادتها ، ولها أن تمارس اختصاصات السيادة فيه ولها الحق فى منع الطائرات الحربية الأجنبية من التحليق فيه كماأن لها الحق فى منع المرور غير البرىء للطائرات فى هذا المجال بغرض تأمين أراضيها ضد أعمال التجسس والتصوير المعادية .

أما بالنسبة للفضاء الخارجى الذى يعلو الفضاء الجوى للدولة فليس لها الحق فى ممارسة اختصاصات السيادة فيه ، وليس لدولة ما أية سيادة على الفضاء الخارجى)[١].

وعملت الأمم المتحدة على إيجاد الأنظمة والمقترحات التى تخدم هذه العملية وتنظمها فقامت (بإنشاء اللجنة الخاصة بالاستخدامات السلمية للفضاء الخارجى فى دورتها الثالثة عشرة بموجب القرار رقم ١٣٤٨ فى ديسمبر سنة ١٩٥٨م وتشكلت هذه اللجنة من ممثلين لعدد ١٨ دولة . وفى الدورة الرابعة عشرة عام ١٩٥٩م أصدرت قرارها رقم ١٤٧٢ الذى شكلت بمقتضاه لجنة جديدة تتكون من ممثلين لأربعة وعشرين دولة تحل محل اللجنة الأولى .

ثم أصدرت هيئة الأمم المتحدة المبادىء التى تحكم استخدام الفضاء الخارجى وتتلخص هذه المبادىء فى النقط الآتية :

(١) مبدأ حرية الفضاء الخارجى والأجرام السماوية للاكتشاف والاستخدام من جانب الدول جميعا على أسس من المساواة واحترام القانون الدولى .

(٢) مبدأ عدم خضوع الفضاء الخارجى أو الأجرام السماوية للتملك من جانب دولة معينة .

---

(١) الحرب فى الفضاء (١٩٧) .

(٣) مبدأ احترام الدول عند قيامها بنشاط فى الفضاء الخارجى لقواعد القانون الدولى بما فيها ميثاق الأمم المتحدة مع المحافظة على السلم والأمن الدوليين وتدعيم التعاون والتفاهم الدولى الذى يمكن أن يطبق أيضا بالنسبة لإنقاذ ومساعدة رجال الفضاء والمركبات الفضائية عند الخطر فى أثناء ممارسة نشاطها فى الفضاء الخارجى .

(٤) اكتشاف الفضاء الخارجى واستخدامه يجب أن يكون لمصلحة الإنسانية وفائدتها .

(٥) تقرير مسئولية الدولة عن نشاطها فى الفضاء الخارجى .

(٦) تقرير حقوق الدولة على الأهداف التى تطلقها فى الفضاء الخارجى .

(٧) تقرير مبدأ مساعدة رواد الفضاء وإعادتهم إلى دولهم)[١].

ثم تتابعت اهتمامات الأمم المتحدة وآرائها تجاه هذه المسألة مع تطورها وتصاعدها فعقدت بعض المعاهدات التى من شأنها أن تنظم الفضاء واستخداماته[٢].

غير أن الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة لم يذعنا لتلك المعاهدات .

اهتمام الدولتين بالفضاء :

شكل الفضاء أهمية كبيرة لكل من الدولتين ، وكانت بداية استخدامه لأغراض علمية واستطلاعية ، ثم تحولت إلى أغراض عسكرية بالدرجة الأولى .

---

(١) الحرب فى الفضاء (١٩٩) ، وانظر (٢٠٥-٢٠٧) ، وانظر (١٥٨) وقال فيها : (وبتطبيق قواعد القانون الدولى بالنسبة للفضاء الخارجى نجد أنه لايحق لأية دولة أن تستخدم هذا الفضاء الخارجى فى توجيه الأسلحة أو الصواريخ التى تحمل الرؤوس المدمرة ضد دولة من أجل حل المنازعات معها أو التهديد بذلك باستخدام قدراتها العسكرية التى تستطيع أن توجهها من الفضاء الخارجى) .

(٢) انظر عن ذلك الحرب العالمية الثالثة (١٥٣-١٥٤) .

وكان لاطلاق الاتحاد السوفييتى قمره الصناعى (سبوتنيك-١) عام ١٩٥٧م أثره فى اهتمام الدولتين بالفضاء والعمل على محاولة السيطرة عليه . ومن هنا جرت الاطلاقات المختلفة من كل من الطرفين ومنها ماكتب له النجاح ومنها ماكان مصيره الفشل(١).

وكان الاتحاد السوفييتى يهدف إلى حماية أمنه وأمن الدول الإشتراكية بهذا التسابق . يقول الماريشال سوكولوفسكى : (إن من الواجب عمل هذا لضمان أمن بلدنا لصالح التعاون الإشتراكى الكلى للمحافظة على السلام فى العالم وسيكون من الخطأ السماح للمعسكر الإمبريالى أن يحقق تفوقا فى هذا المجال ...)(٢).

والولايات المتحدة هى الأخرى تحاول جاهدة فى الحفاظ على أمنها وأمن الدول التى تسير فى فلكها .

وقد كان إطلاق القمر السوفييتى (سبوتنيك-١) دافعا قويا بالنسبة للولايات المتحدة من أجل اللحاق بالاتحاد السوفييتى فى غزو الفضاء(٣)، كما أن الشعب الأمريكى قد طالب بمسايرة السوفييت فى مجال الفضاء(٤)، وقامت الولايات المتحدة بإنشاء الوكالة القومية لأبحاث الفضاء (ناسا) .

ووجهت كل من الدولتين مواردها فى سبيل التفوق على عدوتها حتى بلغت الاستثمارات لإسناد برامج الأقمار الصناعية بالنسبة للولايات المتحدة ٧٠ مليار دولار مابين ١٩٥٩-١٩٨٤م بينما لاتتوفر أرقام رسمية للاتحاد السوفييتى وكانت ميزانية الفضاء العسكرية للسنة المالية ١٩٨٤م ١٠,٥ مليار دولار والتى تقابل أكثر من نصف مجموع ميزانية الفضاء الأمريكية(٥).

---

(١) انظر عن ذلك : حرب الفضاء (١٤،١٦-١٧) ، عسكرة الفضاء (٢٢) ومابعدها ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٤٣) .
(٢) نقلا من كتاب عسكرة الفضاء (١٦٦) .
(٣) انظر المرجع السابق (٢٢) .
(٤) انظر المرجع السابق (٢١-٢٢) .
(٥) انظر المرجع السابق (١٢) .

إن الإنسان عندما علم أن القمر الصناعى أخذ يدور حول الأرض ، استبشر واعتبر ذلك انجازا علميا سيحقق من خلاله الكثير والكثير ، ولكن الصراع وحب الاستيلاء والسيطرة بدد تلك الأمانى ، وأصبحت تلك الأقمار تسير فى خدمة الأهداف العسكرية مع انكار كل من الدولتين ذلك أو اظهار جزء بسيط من حقيقة التوجه العسكرى لهذه الأقمار(١).

يقول الجنرال فيكتور فرنر :

(إن الاستعدادات للحرب الفضائية تجرى على قدم وساق . فسباق التسلح دخل مرحلة لم تعرف من قبل . وإذا ماكان هناك أدنى شك فى هذا الأمر ، فإن الكتمان الذى يحيط بالأبحاث الفضائية والمبالغ الضخمة التى تنفق على غزو الفضاء ، كافية لتثبت أن الأمر ليس بحثا علميا خالصا لمنفعة الانسانية جمعاء)(٢).

نعم لقد سخرت هذه المخترعات لإرهاب الناس لالحمايتهم .

يقول فيكتور فرنر : (هناك تداخل خطير بين البحث العلمى المدنى والبحث العلمى العسكرى . وتستخدم المكتشفات ، فى أغلب الأحيان ، من أجل تدمير الحياة أكثر من استخدامها من أجل حماية الحياة ، فهى تسمح بالقتل بطريقة تزداد سهولة أكثر فأكثر)(٣).

الصراع بين الدولتين :

بعد أن بدأت الأقمار الصناعية تستخدم فى الأغراض العسكرية وقد سبق للسوفييت أن أطلقوا (سبوتنيك) بدأت ردود الأفعال فى الأوساط الأمريكية ، ومن هنا كان التوتر والعمل على الدخول فى دوامة التسابق . يقول بول . بى : (جاء هذا الاهتمام المبكر بأسلحة الفضاء كنتيجة مباشرة

---

(١) انظر : عسكرة الفضاء (١٢) ، مجلة الفيصل العدد ١٣٧ (٦٣) .
(٢) الحرب العالمية الثالثة (الخوف الكبير) (١٨) .
(٣) المرجع السابق (٢٥٢) .

للمخاوف التى أججها اطلاق سبوتنيك .. فللكثيرين كان الانجاز السوفييتى يمثل تحديا لتفوق أمريكا التقنى ولمصداقيتها فى السياسة الدولية حول العالم . ووجد الآخرون فيه تهديدا أكثر لأمن أمريكا القومى المباشر ...)[١].

التوتر فى الأعوام ١٩٥٨-١٩٦٠م :

يقول مكنمارا : (استمر تصاعد التوتر بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى اعتبارا من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٧م ، عندما أصبح الاتحاد السوفييتى أول دولة تستطيع اطلاق قمر صناعى . لقد كان الأمريكان يعتبرون ـ لفترة طويلة ـ أن الاتحاد السوفييتى متخلف فى المجال التكنولوجى وغير قادر على تقديم أى انجازات هامة فى العلوم والهندسة .

وجاء إطلاق سبوتنيك ليغير بين عشية وضحاها من هذا التحامل ، ويحل محله زيادة الخوف من نوايا السوفييت وقدراتهم .

لقد جرب السوفييت عام ١٩٤٩م أولى قنابلهم الذرية ، وبعد ذلك بأربع سنوات فجروا القنبلة الهيدروجينية .. فإذا كانوا اليوم قادرين على اطلاق قمر صناعى فمعنى هذا ـ فى واشنطن ـ أنهم يستطيعون بنفس درجة السهولة اطلاق قذائف صاروخية عابرة للقارات من نوع (اى.سى.بى.ام) موجهة للولايات المتحدة)[٢].

وفى هذه الأثناء زاد الاتحاد السوفييتى من إنجازاته الفضائية[٣]مما أثار

---

(١) عسكرة الفضاء (١٧) ، وقد ذكر مجموعة من الانجازات التى تمت بسبب هذا التخوف من القمر السوفييتى.
وانظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (١٣٨-١٣٩) .

(٢) مابعد الحرب الباردة (٥٣) .

(٣) انظر عسكرة الفضاء (١٨) .
وانظر (٣٩-٤١) ، ونقل (ص٤٠) قول (جيمس كليان) عن تأثير سبوتنيك حيث قال : (خلق (سبوتنيك) عندما كان يطلق النبضات الصوتية فى السماء أزمة ثقة اجتاحت القطر كحريق غابة فى مهب الريح ، وبين عشية وضحاها تطور خوف =

قلق الأمريكيين ، وهنا زاد الصراع بين الدولتين خاصة وأن السوفييت قاموا باطلاق القمر الصناعى الثانى (سبوتنيك) وكان أكبر حجما مماجعل الناس يرون أن الانجاز ليس محض صدفة ، وزادت مخاوفهم بالتالى ولم تستطع الإدارة الأمريكية أن تتجاهل هذه المخاوف والمطالبة بإدراك السوفييت قبل أن يتمكنوا من السيطرة على الفضاء[١]. وبالفعل بدأ أيزنهاور فى توسيع برنامج الفضاء فأنشئت عام ١٩٥٨م (وكالة مشاريع خاصة ضمن البنتاغون للإشراف على جميع علماء البحث والتطوير المتقدمين لتقنية الفضاء ... أصبحت تعرف هذه رسميا بوكالة مشاريع البحث المتقدم (ARPA))[٢].

وقد طالب البعض بإنشاء وكالة فضاء منفصلة تعزز صورة الاستغلال السلمى للفضاء من قبل الولايات المتحدة ، ولكن ايزنهاور قاوم ذلك لأنه خشى من الإزدواجية[٣].

إلا أن الرئيس الأمريكى اخفى أمام الإصرار على هذا الفصل بين مايتعلق بالأغراض العسكرية والأغراض السلمية وتدعى الأخيرة (إدارة الملاحة الهوائية والفضاء القومية NASA)[٤].

أواخر الخمسينات والستينات :

تعتبر الفترة من ١٩٥٧م ومابعدها من أشد الفترات التى وقع فيها التنافس والصراع والتسابق فى مجال الفضاء ، ويمكن اعتبار الفترة التى أطلق

= واسع الانتشار من أن البلاد وقعت تحت رحمة الماكنة العسكرية الروسية وأن حكومتنا وذراعها العسكرى خسرا فجأة قدرة حماية أرض الوطن نفسها وأقل من ذلك كثيرا الحفاظ على هيبة وزعامة أمريكا فى الحلبة الدولية . لقد تبخرت فجأة الثقة بما هو أمريكى من علم وتقنية وتربية) .

(١) انظر عسكرة الفضاء (٤١-٤٢) .

(٢) المرجع السابق (٤٢) .

(٣) انظر المرجع السابق (٤٣) .

(٤) المرجع السابق (٤٣) .

فيها القمر السوفييتى (سبوتنيك) هى البداية للصراع فيما بين الجبارين ، وإن كانت الحدة زادت فى وقت متأخر عن الاطلاق الأول .

وكان الاعتقاد السائد لدى الجانبين وخاصة الولايات المتحدة أن السيطرة على الفضاء تعنى السيطرة على الأرض .

ومن هنا كان التسابق فى الستينات ومابعدها على أوجه فى هذا الجانب وجاءت التصريحات على ألسنة القادة بأهمية الفضاء والسيطرة عليه فقال كيندى فى معركته الانتخابية فى ١٠ تشرين الأول ١٩٦٠م : (إننا فى سباق فضاء استراتيجى مع الروس ... إذا سيطر السوفييت على الفضاء فبإمكانهم السيطرة على الأرض ، كما فى القرون الماضية حيث كانت الدول التى تسيطر على البحار تتحكم بالقارات)[١].

وطالب كينيدى بعدة أمور لرفع إقتصاد البلاد وتخفيف البطالة ، ومساعدة العاطلين عن العمل وإصلاح النظام الضريبى لدفع عملية النمو الإقتصادى ، وكان للفضاء والعسكرة النصيب الأكبر من ذلك . و(وافق الكونجرس على تحويل أكثر من نصف توصيات الرئيس فى عام ١٩٦١ و١٩٦٢م إلى قوانين . وساعد المشرعون الصناعة مساعدة كبيرة بموافقتهم على زيادة نفقات الدفاع وبرنامج الفضاء . وفى عام ١٩٦١م وافق الكونجرس على زيادة اعتمادات الأسلحة بمقدار ٦ بلايين دولار كما وافق على انفاق بلايين إضافية من الدولارات على تكنولوجيا الفضاء . وفى عام ١٩٦٢م خصص الكونجرس أكثر من نصف الميزانية الفيدرالية لهذين القطاعين من قطاعات الإقتصاد)[٢].

---

(١) حرب الفضاء (١٩) ، وانظر الجزء المذكور من الخطاب فى عسكرة الفضاء (٧٧) ، وانظر مزيدا من الأقوال (٥١-٥٢) .

(٢) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٢٠٧) ، وانظر عسكرة الفضاء (٦٣-٦٦) وذكر أن هذه الفترة اتسمت بحيرة جسيمة (حيرة حول استطاعة تثبيت مبدأ وممارسة الاستطلاع بالقمر الصناعى ، حيرة حول التوجيه المستقبلى لبرنامج الفضاء الأمريكى ، وبالأخص حيرة حول إمكانية تطور سباق للتسلح النووى فى الفضاء) . (٦٤) .

فكانت هذه الفترة من أكثر الفترات اهتماما بالفضاء واستخداما له فى الجانب العسكرى مقارنة بالجانب العلمى للأقمار الصناعية ، وقام الاتحاد السوفييتى باطلاق ١٠٠ قمر صناعى كل سنة ٧٠ منها لغايات عسكرية ، و١٥ لغايات عسكرية ومدنية معا ، وأما الولايات المتحدة فتطلق بشكل عام أقل من ٢٠ قمرا لغايات عسكرية بالسنة ، وهذا الفارق العددى لايقدم الصورة الصحيحة لأن الأقمار الأمريكية تتفوق بعمر أطول وبتعدد استعمالاتها(١).

وهكذا كانت الدولتان فى تسابق محموم وصراع مستمر بشأن التسلح .

ومن المعلوم أن القنبلة الذرية قد استخدمت فى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وبدأت كل دولة من الدول الكبرى (عنيت أمريكا والاتحاد السوفييتى) فى التصنيع بصورة أكبر من ذى قبل لتحاول كل دولة بسط سلطانها ، والحفاظ على ماورثته من الحرب وفى هذا الخضم كان من أخطر ماأنتجه الاتحاد السوفييتى القنبلة الهيدروجينية(٢). ثم تتابع التسابق فى هذا

---

(١) انظر حرب الفضاء (٥) .
وانظر الحرب فى الفضاء (٢٠٠) .

(٢) كان أول تفجير لها فى أغسطس/آب عام ١٩٥٣م وكان سخاروف هو الذى قام باختراعها وعمره حينذاك ٣٢ سنة .
وقد وقع نقاش بين خروشوف وسخاروف حيث كان يطلب الأخير عدم تفجيرها نظرا لأضرارها وأخطارها على البشرية ، غير أن خروشوف أصر على موقفه وقال (أيها الرفيق سخاروف ، يجب أن تفهم وضعى . إن مسئولياتى فى المنصب الذى أشغله لاتسمح لى بالغاء الاختبارات . لقد أوضح حزبنا وأوضحت حكومتنا تماما أننا لانود شيئا أفضل من وقف الاختبار النووى إلى الأبد . أوقفت قيادتنا من جانب واحد الاختبار النووى ، ودعت الولايات المتحدة والبلاد الأخرى إلى الاقتداء بنا لخير البشرية جمعاء لكن لم نتلق جوابا . لم يصغ الأمريكيون إلى اقتراحاتنا . لاريب أنك تعرف ، كعالم ، أنهم استمروا فى الاختبار ، فإذا لم نختبر قنابلنا كيف نعرف أنها صالحة أو غير صالحة؟
لم تغير حججى رأيه ، ولاحجته رأيى ...
واضح أنه كان له رأيا : أراد من جهة أن يساعد بلده فى الدفاع عن نفسه ضد العدوان الامبريالى ، ومن جهة أخرى خشى ، حين طور لنا القنبلة ، أن يراها تستعمل . أظن أنه كان يخاف أن يرتبط اسمه باستعمالها ...

.....

= وقررنا السير فى الاختبار . تفجرت القنبلة بقوة هائلة لم ير العالم أبدا متفجرة مثلها . حسب علماؤنا قوةالقنبلة سلفا وقدروها بما يعادل خمسين مليون طن من مادة (ت.ن.ت) كان هذا نظريا ، أما عمليا فقد بلغت قوة الانفجار مايعادل سبعة وخمسين مليون طن من (ت.ن.ت) . كانت جبارة ، شيئا لايصدق . وقد فسر لى خبراؤنا فيما بعد أننا إذا أدخلنا فى الحساب موجة الصدمة ، والتلوث الاشعاعى ، بلغت القوة المدمرة فى القنبلة مائة مليون طن ..) .

الوصية الأخيرة ، خروشوف (٦٩-٧١) .

ولاشك أن هذا يؤثر تأثيرا بليغا على إقتصاد الدولة ويجعل الاهتمام منصبا على سباق التسلح مع الولايات المتحدة على حساب أفراد الشعب مماكان للحرب الباردة أثره الكبير فى الإنهيار الإقتصادى للاتحاد السوفييتى .

وانظر تاريخ الولايات المتحدةمنذ ١٩٤٥ (١٠٥) ، وعن التسابق بين الدولتين فى تلك الفترة انظر (١٠٦-١٠٧) .

وعن الصواريخ التى قامت الدولتان بإنتاجها نضع هذه اللمحة :

(أ) أمريكا :

١ ـ (البرنامج الأمريكى لتحديث القذائف البالستيقية العابرة للقارات) .

حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (٦٢) .

وانظر شرحا مفصلا عنها وعن قدراتها ومداها (٦٢-٦٤) .

٢ ـ (قذائف منيوتمان البالستيقية العابرة للقارات العلامة ٢) .

حرب النجوم (٦٤) ويبلغ مداها (١١٢٥٠ كم) وسرعتها ٢٤٠٠٠ كيلو متر بالساعة ، وتحمل رأسا نوويا حراريا واحدا بقوة ٢ مليون طن .

٣ ـ (قذائف منيوتمان البالستيقية العابرة للقارات العلامة ٣) .

حرب النجوم (٦٤) ، وانظر مابعدها . ومدى القذيفة ١٣,٠٠٠ كم . وسرعتها ٢٤,٠٠٠ كيلو متر فى الساعة .

٤ ـ (قذائف تيتان البالستيقية العابرة للقارات العلامة ٢) .

نفسه (٦٤) ومداها ١٥,٠٠٠ كم وسرعتها ٢٤,٠٠٠ كم فى الساعة وقوة رأسها الحربى ٩ ملايين طن . =

.....

= ٥ ـ (منظومة القذائف البالستيقية للأسطول نوع (بوسيدون س-٣) .
حرب النجوم (٦٧) ، ومدى القذيفة ٤٦٣٠ كيلو متر . وانظر (٦٨) .
٦ ـ (منظومة الأسلحة الاستراتيجية نوع (ترايدنت سى٤)) .
حرب النجوم (٦٨) ، ومدى القذيفة يزيد على ٧٤٠٠ كيلو متر .
(ب) **الاتحاد السوفييتى** :
١ ـ (القذائف البالستيقية العابرة للقارات نوع اس اس-١١) .
حرب النجوم(٦٩) مداها من ١٠,٠٠٠-١٣,٠٠٠كم .
٢ ـ القذائف البالستيقية العابرة للقارات نوع اس.اس.١٣" .
حرب النجوم (٦٩) دخلت الخدمة عام ١٩٦٥م ويبلغ مداها من ٨٠٠٠-١٠,٠٠٠كم تحمل رأسا نوويا واحدا بقوة مليون طن .
٣ ـ (القذائف البالستيقية العابرة للقارات نوع اس.اس١٧) .
حرب النجوم (٧٠) ومداها ١١,٠٠٠ دخلت الخدمة عام ١٩٧٥م .
٤ ـ (القذائف البالستيقية العابرة للقارات نوع اس.اس١٨) .
حرب النجوم (٧٠) وجد منها عام ١٩٨٣م أربعة أنواع أعلى مدى لنوع منها ١٦,٠٠٠كم .
٥ ـ (القذائف البالستيقية العابرة للقارات نوع اس.اس١٩) .
حرب النجوم (٧٣) مداها ١٠,٠٠٠كم .
٦ ـ (القذائف البالستيقية العابرة للقارات اس.اس٢٤) .
حرب النجوم (٧٣) دخلت الخدمة العملية ١٩٨٥م ومداها ١٢-١٦ ألف كيلو متر ولاتوجد تفاصيل وافية عن هذه المنظومة .
٧ ـ (القذائف البالستيقية العابرة للقارات اس.اس٢٥) .
حرب النجوم (٧٣) .
٨ ـ (القذائف البالستيقية التى تطلق من الغواصات نوع اس.اس.ان٥) .
حرب النوم (٧٣) ، انظر (٧٤) ومداها ١٢٠٠-٢٤٠٠كم .
٩ ـ (القذائف البالستيقية التى تطلق من الغواصات نوع اس.اس.ان٦) .
حرب النجوم (٧٤) وبمقدور هذا النوع إصابة الأهداف داخل الولايات المتحدة . ودخلت هذه المنظومة الخدمة العملية عام ١٩٧٣م .
١٠ ـ (القذائف البالستيقية التى تطلق من الغواصات نوع اس.اس.ان٨) .
حرب النجوم (٧٤) وانظر (٧٥) ومداها٨٠٠٠ كم ، ودخلت الخدمة العملية عام ١٩٧٣م . =

الجانب ووجدت الدبابات والمدفعية وغيرها من المخترعات الحربية ، إلا أنه فى أواخر الخمسينات بدأ الالتفات إلى السلاح الذى يمكن كل طرف من السيطرة على الفضاء ، واعتباره المفتاح للنصر فى المعركة القادمة بين الطرفين ومن هنا ارتبط فى الغالب سباق التسلح بما كان ينتجه كل من الطرفين من أجل تلك الغاية مع الابقاء بالطبع على التصنيع الآخر . على أن كثيرا من تكاليف تلك الأسلحة ، وكذا سياسات الدولتين تجاهها كانت من الأسرار التى لم يكشف عنها حتى هذه اللحظة . ومن أهم ماأنتجته الدولتان وآثار بعضهما ضد بعض اطلاق الأقمار الصناعية بداية ، وكانت كل دولة تتذرع بأنها لأغراض سلمية واكتشافات علمية ، غير أن كلا منهما قد استغلها لخدمة أغراضه العسكرية . ونعرض الآن باختصار لشىء من هذه المخترعات على أن (سبوتنيك) كان الإنطلاقة فيما بين الدولتين .

= ١١ ـ (القذائف البالستيقية التى تطلق من الغواصات نوع اس.اس.ان١٨) . حرب النجوم (٧٥) ودخلت الخدمة أوائل عام ١٩٧٩م ومداها ٦٥٠٠كم .

١٢ ـ (القذائف البالستيقية التى تطلق من الغواصات نوع اس.اس.ان٢٠) . حرب النجوم(٧٥) وانظر (٧٨) ودخلت الخدمة عام ١٩٨٤م ومداها ٨٣٠٠كم .

١٣ ـ (القذائف البالستيقية التى تطلق من الغواصات نوع اس.اس.ان٢٣) . حرب النجوم (٧٨) ولايوجد عنها معلومات كافية .

وعن هذه الأسلحة بعينها وغيرها انظر ماجاء فى كتاب العلاقات الأمريكية السوفيتية (٨٢-٨٧) .

وللاستزادة انظر حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (٢١-٢٧) بشأن أسلحة الولايات المتحدة ، (٢٨-٣٠) بشأن أسلحة الاتحاد السوفييتى

وانظر عن الصواريخ البالستية من طراز ام.اكس وردود الأفعال تجاهها وقد تراوحت تكلفة المشروع المقدرة ٣٥ و٧٠ فى عهد الرئيس الأمريكى كارتر - كتاب العلاقات الأمريكية السوفيتية (٦٤-٦٩) .

وانظر عنها وعن غيرها كتاب حرب المائة ثانية (٤٥-٤٩) .

(أ) الأقمار الصناعية :

ومن السوفيتية : سبوتنيك ، (فوستوك ١) ، (فوستوك ٢) ، فوستوك (٦) ، (فوسكهود ١) ، (فوسكهود ٢) ، (سويوز ٦-٧-٨) .

ومن الأمريكية : كبسولة ميركورى ، (أبولو-١) ، (أبولو-٩) ، (أبولو-١٠) ، (أبولو-١١) ، (أبولو-١٢)[١].

(ب) الأسلحة المضادة للأقمار الصناعية :

ومن هنا وبعد أن رأى كل من الفريقين الأعداد الهائلة من الأقمار الصناعية لدى خصمه ، وكونه بدأ يستخدمها عسكريا فكركل من الطرفين فى إيجاد السلاح المضاد لها . يقول بول بى : لقد (حفزت الاختبارات السوفيتية من دون شك البرنامج الأمريكى لمضادات الأقمار الصناعية ...)[٢].

فقامت كل من الدولتين باختراع الأقمار والأنظمة القادرة على تدمير أهداف العدو فى الجو والأرض ، ومن هذه الأنظمة :

(١) أقمار القصف المدارى (فوبز FOBS) السوفيتية[٣].

(٢) الأقمار الصناعية المضادة للأقمار الصناعية[٤].

(٣) إدخال الأسلحة النووية على الأقمار الصناعية[٥].

(٤) استخدام أجهزة الإنذار المبكر[٦].

(٥) أجهزة المراقبة والاستطلاع ، وتعرف بأقمار التجسس[٧].

---

(١) انظر : عسكرة الفضاء (٧٩-٨١) ، حرب الفضاء (١٨-٢٠،٢٢-٢٣) .

(٢) عسكرة الفضاء (١٩٢) .

(٣) انظر : الحرب فى الفضاء (٢١٩) ، عسكرة الفضاء (١٠٨-١٠٩) .

(٤) انظر الحرب فى الفضاء (٢٢٠) ، وعن بعض ماأطلقه الاتحاد السوفييتى فى هذا المجال انظر حرب الفضاء (٦٥-٦٦) .

(٥) انظر عن ذلك : حرب الفضاء (٢٤-٢٦،٦١-٦٢) ، الحرب فى الفضاء (٢٢٠) ، عسكرة الفضاء (٨٧-٨٨،١٢٣،١٠٢-١٠٤) .

(٦) انظر حرب الفضاء (٣٤-٣٦) ، وعن الأنظمة السوفيتية خاصة انظر (٥٨-٥٩) .

(٧) انظر المرجع السابق (٣٧) ، وتملك كل دولة عدة أقمار للتجسس ، انظر عن الولايات المتحدة (٣٨-٣٩) ، وعن الاتحاد السوفييتى (٤٠-٤١) .

(٦) أقمار التجسس الإلكترونى[١].

(٧) أقمار الاتصالات[٢].

(٨) استخدام الليز فى حرب الفضاء[٣].

وهكذا غدت أسلحة الفضاء والسعى وراء السيطرة عليه محط اهتمام الدولتين الكبريين منذ نهاية الخمسينات إلى الثمانينات . وقد وجدت فى هذه الفترة بعض النداءات من أجل إيقاف هذا التسابق الذى لن تجنى منه الدولتان إلا الخسائر ، ولن يجلب للبشرية إلا الدمار ، إلا أن عدم الثقة بين الطرفين جعلهما يستمران فى هذا التسابق حتى جاءت الثمانينات وفجر ريغان الوضع حينما أعلن عن خطة جديدة عرفت بمبادرة الدفاع الاستراتيجى (حرب النجوم) ونعرض لها باختصار .

---

(١) انظر حرب الفضاء (٤٢) ، وتمتلك كل دولة عدد منها . انظر عن الولايات المتحدة (٤٣) ، وعن الاتحاد السوفييتى (٤٣-٤٤) ، وذكر المؤلف أن المعلومات نادرة عن أجهزة السوفييت .

(٢) انظر المرجع السابق (٤٥-٤٦،٤٩-٥٠) ، بشأن الولايات المتحدة ، وانظر بشأن السوفييت ومالديهم من أقمار إتصالات (٥٠-٥١) .

(٣) انظر حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (١٢٩-١٣٠) ، وعن استخدام الليزر فى الفضاء انظر : حرب الفضاء (٦٧-٦٨) ، عسكرة الفضاء (١٢٢-١٢٣) ، الحرب فى الفضاء (٢٠٠-٢٠٢) .

مبادرة الدفاع الاستراتيجى

خرج ريجان عام ١٩٨٣م بمشروع عسكرى فاجأ العالم كله به . ويعد هذا المشروع خروجا على أهداف ومبادىء الفضاء الخارجى التى عقدت سنة ١٩٦٧م تحت إشراف الجمعية العامة للأمم المتحدة والتى تمنع استخدام الفضاء الخارجى للأغراض العسكرية .

وتقوم فكرة المشروع على استخدام أشعة الليزر المكثفة كسلاح مضاد للصواريخ النووية(١).

يقول بروسترك دينى : (بحلول الثمانينات بدأت الحرب الباردة تشتعل من جديد . فقد اندلع بلامبرر سباق التسلح إلى المستوى شديد الدمار ، وبدأ الرئيس الأمريكى مرة ثانية فى استخدام أسلوب خطابى عنيف ساعد على اتفاق كلا الحزبين مرة أخرى على الالتزام الأمريكى . واتبع الاتحاد السوفييتى نفس السياسات التى أعطت فى الماضى مصداقية لهذا الأسلوب الدعائى . وعادت مرة أخرى موجة الاختبارات الأيديولوجية بالنسبة للعاملين فى مجال السياسة الخارجية)(٢).

وتستهدف هذه الحرب (تقليل التأثيرات العسكرية للأسلحة النووية بتطوير منظومات أمريكية قادرة على اعتراض (القذائف البالستيقية العابرة للقارات) فى جميع مراحل طيرانها ابتداء من الاطلاق ومرورا بالطيران وانتهاء بالوصول إلى الأهداف وكذلك اعتراض وتدمير الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية وقذائف الكروز ...) .

---

(١) انظر : العلاقات الأمريكية السوفيتية (٧١-٧٢) ، عسكرة الفضاء (٢٥٥-٢٥٦) . ودعا ريجان الوسط العلمى (لإعطائنا الوسائل الكفيلة بجعل السلاح النووى عقيمة ومهملة) . حرب الفضاء (٧) .

(٢) نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمريكية (٢٢٣) .
وانظر حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (١٠٣) ومابعدها .

كما (تتألف حرب النجوم من كيان دفاعى متكامل يشتمل على وسائط (الكشف والإنذار) و(منظومات عالمية للقيادة والسيطرة والمواصلات والاستخبارات) و(أسلحة متطورة للغاية) يمكن أن تطلق من قواعد فضائية أو جوية أو أرضية أو بحرية أو من تحت الماء مع الوسائل المساعدة الاعتيادية لشن الحروب كالملاحة ورصد الأحوال الجوية وغير ذلك من الأمور)[١].

وهذا البرنامج (يمهد الطريق لسباق جديد فى التسلح ، ويرتكز على تقنيات حديثة متطورة - وهو سباق لايستطيع الإقتصاد السوفييتى تحمله)[٢].

إن هذا المشروع قد (أثار جدلا حاميا وأصبح أحد أبرز القضايا العالقة فى السياسة الدولية بين الشرق والغرب - قبل إنهيار المعسكر الشرقى وزعيمه الاتحاد السوفييتى)[٣].

ولكن ماهى الأسباب التى دفعت ريغان إلى الإعلان عن هذا المشروع؟

السبب فى هذه المبادرة :

إن العداء بين الدولتين الكبريين قد جعل كلاً منهما تبذل مافى وسعها من أجل إخافة العدو وإرهابه والعمل على تحجيمه وقد كان هناك دوافع عدة وراء هذه السياسة ، ومن أهمها :

((١) تعاظم القدرة السوفيتية الضاربة التى ذكر أنها أصبحت تتفوق على الولايات المتحدة فى جميع المجالات العسكرية ، وهو مايحمل معه مخاطر أمنية فادحة لاتقدر حكومة مسؤولة على تجاهلها أو التهوين منها.

(٢) تخلف بعض عناصر الترسانة النووية الأمريكية من الناحية التقنية .

---

(١) حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (٨-٩) .
وانظر : عسكرة الفضاء (٢٥٢) ، حرب النجوم أوهام وأخطار (٢٢) .

(٢) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٤٠) .

(٣) حرب الفضاء (٧) .

(٣) أن تنفيذ الخطة الجديدة لايعنى التراجع عن التزام الولايات المتحدة المعلن بالسعى إلى تحقيق خفض متبادل للقوات النووية ، والتقليدية مع الاتحاد السوفييتى .

(٤) أن خطة إدارته تقوم على إحلال السلام من خلال التحرك على خطين متوازيين فى ذات الوقت وهما : الردع وخفض التسلح باعتبار أن محصلتهما هى وحدها التى توفر فى النهاية الأمل الحقيقى فى إقامة سلم دولى دائم ومستقر)[١].

(٥) (رأى البعض أنها يمكن أن تؤدى بالنهاية إلى امتلاك وسيلة تلغى خطر الإبادة النووية)[٢].

ردود الفعل لحرب النجوم لدى السوفييت :

يقول صبرى مقلد : (لقد أدان الاتحاد السوفييتى بشدة هذا المشروع ، وكما أشار الزعيم السوفييتى يورى أندروبوف وقت إعلان ريجان عن مبادرته أن المشروع بشكله هذا يعتبر انتهاكا سافرا لاتفاقيات عام ١٩٧٢م التى تعترف بالعلاقة الوثيقة بين الصواريخ الاستراتيجية ونظام الصواريخ المضادة للصواريخ العابرة للقارات . كما ذكرت أوساط الحكومة السوفيتية أن المشروع الأمريكى يخلو من أية صفة دفاعية بل هو عدوانى وهجومى فى دوافعه لأنه يهدف إلى حرمان الاتحاد السوفييتى من حقه المشروع فى الرد الفعال والدفاع عن نفسه فى حالة تعرضه لهجوم يشن ضده بالصواريخ النووية .

ثم تلاحقت موجة الهجوم السوفييتى على نظام ريجان المقترح والتى وصلت إلى حد اتهام الرئيس الأمريكى بأنه كان يسعى باقتراحه هذا إلى نزع سلاح الاتحاد السوفييتى ، وأنه كان يفتح الأبواب على مصراعيها أمام

---

(١) العلاقات الأمريكية السوفيتية (٦٩-٧٠) .

(٢) حرب الفضاء (٨) .

مرحلة جديدة وبالغة الخطورة فى مضمار التسلح النووى ، ولم تتوان هذه التصريحات فى استخدام أقسى العبارات فى نقدها للإدارة الأمريكية التى وصمتها بالخداع والتضليل فيما تروج له من مزاعم وافتراءات حول قوة الاتحاد السوفييتى العسكرية ودوافعها وأهدافها ...الخ)[١].

وعن ردود الفعل الأوربية يقول اللواء جبرائيل بيطار :

(أما فى ظل المبادرة الجديدة فسوف تجد الدول الأوربية نفسها أمام أحد خيارين : إما المساهمة فى أبحاثها ورصد الأموال الطائلة لذلك ، أو المجازفة بتخلف تكنولوجى هائل .

المبادرة بالتالى هى الانتقام الأمريكى من الحلفاء الأوربيين الذين لم ينصاعوا للحليف الأكبر .

من جهة أخرى أدى سعى الولايات المتحدة لشحذ سيوفها النووية ، بنشر صواريخها على أراضى حلفائها الغربيين ، إلى موجة عارمة من المقاومة لدى الشعوب الأوربية التى ذاقت ، بخلاف أمريكا ، مرارة الحروب . ونحن نسمع ونشاهد مظاهر الاحتجاج الذى كثيرا مابلغ مرحلة العنف .

ثم كانت معارضة رجال الدين على التسلح النووى المستمر . وإدانته إنسانيا وأخلاقيا ، ودعوتهم إلى نزع شامل له . ومعارضة علماء الذرة وعلماء البيئة وعلماء الإجتماع وسواهم)[٢].

ولكن ماذا تود أمريكا من هذه الاستراتيجية؟

---

(١) العلاقات الأمريكية السوفيتية (٧٥) .
وانظر حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (٢٣٨-٢٣٩) ، وانظر (١٠٨) .

(٢) حرب المائة ثانية (١٤) من مقدمته للكتاب .

(تأمل استراتيجية حرب النجوم الأمريكية تحقيق الظروف المناسبة لتجنب أخطار الضربة المباغتة النووية أو الحد من تأثيراتها فهى تركز على :

(أ) تأمين مراقبة محكمة ودقيقة ومستمرة تسمح باكتشاف أى هجوم نووى فى الوقت المناسب سواء أكان هذا الهجوم صادرا عن قواعد إطلاق برية أو بحرية أو جوية .

(ب) اكتشاف وتمييز الهجمات الحقيقية عن الهجمات الكاذبة المضللة والتى تهدف إلى تشتيت الجهود الرامية إلى تدمير الأسلحة الهجومية قبل وصولها إلى أهدافها .

(ج) الحد من أخطار أى هجوم مباغت بتوجيه الإنذار المبكر إلى الأسلحة القادرة على معالجة وتدمير الأسلحة وهى لاتزال فى طريقها إلى أهدافها .

(د) الإبقاء على فاعلية القيادة والسيطرة والمواصلات والاستخبارات ضد أعمال التشويش الالكترونية وضمان الاستمرار بإدارة الحرب بصورة نشطة)[١].

إمكانية تنفيذ مشروع الدفاع الإستراتيجى وسلبياته :

لقد صرح العلماء والخبراء فى حقل تكنولوجيا أشعة الليزر وأبحاث الفضاء أنه مايزال أمام الولايات المتحدة شوطاً طويلاً حتى تستطيع إخراج مثل هذه الأفكار إلى الواقع .

ومن نماذج الآراء التى يسوقها هؤلاء على هذه الصعوبة :

أولا : (أن نظام قواعد الليزر الفضائية المضادة للصواريخ العابرة للقارات ينطوى على تعقيدات هائلة وبصورة تجعله متعذر التحقيق كنظام دفاعى موثوق فيه ...) .

---

(١) حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (١٠٧) .

ثانيا : (أن المحطات الفضائية نفسها والتى هى ركائز تنفيذ هذا النظام الدفاعى معرضة لأخطار كبيرة ومحققة وذلك إذا ماأخذنا فى الحسبان أن هناك أقمارا صناعية انتحارية يمكنها أن تقترب من أهدافها ثم تنفجر ، مما يعنى أن محطات أشعة الليزر المضادة للصواريخ العابرة للقارات يمكن أن تدمر تماما بواسطة هذه الألغام الفضائية ...) .

ثالثا : (تبقى ناحية فنية هامة أخرى يركز عليها منتقدو مشروع ريجان وهو أنه إذا كان تنفيذ هذا النظام الدفاعى يقوم طبقا للفكرة المطروحة على تمكين أجهزة الليزر ـ المكثفة من إطلاق أشعتها على مرايا ضخمة منصوبة فى الفضاء الخارجى ، ثم تقوم تلك المرايا بدورها بعكس هذه الأشعة إلى الصواريخ المهاجمة ، فإن المشكلة تبدو فى أن أشعة الليزر وأثناء اختراقها للغلاف الجوى ستعمل على تسخين الهواء الذى تمر فيه ، ولهذا التحول تأثيره فى مجال التخفيف من درجة تركيز الشعاع وبالتالى تقليل فاعليته التدميرية قبل وصوله إلى منطقة الهدف)[١].

رابعا : صرف الاهتمام عن التفاوض مع السوفييت بالإضافة إلى أن السوفييت سيقومون بانتاج أسلحة جديدة خاصة بهم كرد فعل لذلك .

خامسا : أن هذا يمكن أن يعجل بمحاولة السوفييت تسديد ضربة وقائية ضد أمريكا ومن ثم تبدأ الحرب النووية .

سادسا : التكاليف المالية الباهظة حتى قال وزير الدفاع الأمريكى هارولد براون زمن كارتر أن تنفيذه سيتكلف حوالى مائة مليار دولار .

---

(١) العلاقات الأمريكية السوفيتية (٧٢-٧٥) ، وانظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٣٠) .
وعن النقطة الأخيرة انظر حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (٢٢٥) ، وذكر أن أشعة الليزر التى استخدمت فى تفجير أحد الصواريخ (كان يبعد بضعة مئات من الأمتار عن الجهاز الذى أطلق الشعاع وهذا لايعنى إطلاقا صلاحية مثل هذا الشعاع فى الدفاع ضد صواريخ سريعة تبعد عن شبكة الدفاع آلاف الكيلو مترات) .

سابعا : الآثار السلبية على دول أوروبا إذ أن أمريكا إذا شعرت بأمنها من السوفييت سوف يقل اهتمامها بشأن القارة الأوربية وبالتالى تواجه الدول الأوربية القوة السوفيتية بمفردها(١).

وقد ذكر العلماء عددا من السلبيات لهذا المشروع . كما وجه العلماء السوفييت انتقادهم للبرنامج وصرحوا بأن الاتحاد السوفييتى قادر على انتاج ماهو أقدر وأجدر(٢).

ومع هذا الاحتدام والصراع وجدت بعض النداءات التى تطالب بإبعاد الفضاء عن الصراع العسكرى فقام الاتحاد السوفييتى وعن طريق الأمم المتحدة بالمطالبة بابعاد الفضاء عن الأسلحة النووية وأعلن اندروبوف فى لقاء مع مجموعة من الشيوخ الأمريكيين خلال زيارتهم لموسكو استعداد الاتحاد السوفييتى (بأن لايكون البادىء فى وضع أى نوع من أنواع الأسلحة المعتادة للأقمار الصناعية فى الفضاء الخارجى أى أنه يفرض إيقافا أحادى الجانب على اطلاقات كهذه لكل الفترة التى ستمتنع خلالها الدول الأخرى بما فى ذلك الولايات المتحدة عن وضع أسلحة مضادة للأقمار الصناعية من أى نوع فى الفضاء الخارجى)(٣).

ويقول غروميكو : (ترى الحكومة السوفيتية من الضرورى التوصل إلى إتفاقية مع حكومة الولايات المتحدة لحظر نصب أشياء فى المدار حاملة أسلحة نووية . إننا على إدراك بأن حكومة الولايات المتحدة أيضا تتخذ

---

(١) انظر العلاقات الأمريكية السوفيتية (٧٦-٧٨) .
وانظر حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (٢٢٥) .
وذكر أن الرئيس الأمريكى دعا إلى انفاق ٢٦ مليار دولار على الأبحاث من ١٩٨٥-١٩٩٠م بينما التقديرات تشير إلى أن التكلفة تتراوح بين ٦٠-١٠٠ مليار دولار .

(٢) انظر حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (٢٣٣-٢٣٤) وانظر (٢٢٥-٢٢٧) .
ولمعرفة مزيد من ثغرات المشروع انظر (٢٢٧) ومابعدها .

(٣) عسكرة الفضاء (٢٦٢) وانظر مابعدها . وعن بعض الاقتراحات التى تقدم بها الاتحاد السوفييتى انظر حرب النجوم أوهام وأخطار (١٢) ومابعدها .

وجهة نظر ايجابية بصدد الحل لهذه المسألة... سيكون شيئا حسنا جدا إذا صار ممكنا التوصل إلى تفاهم وعقد اتفاقية حول هذه المسألة الحيوية . إن الحكومة السوفيتية مستعدة لذلك)[١].

وقال الرئيس كينيدى فى ٢٥ أيلول ١٩٦١م من خطاب أمام الأمم المتحدة : (يجب أن لاتصير تخوم الكون الباردة الحلبةالجديدة حتى لحرب أبرد)[٢].

ولاشك أن هناك أسبابا دعت إلى المطالبة بانهاء سباق التسلح فى الفضاء ومنها :

أولا : الاستفادة من هذه الأقمار فى تحقيق المصالح للطرفين[٣].

ثانيا : الإلتقاء فى أمور كثيرة بين الطرفين .

ثالثا : أن العلاقة السوفتيية الأمريكية فى هذه الأثناء كانت متراجعة عن التوتر الذى وصلت إليه كما فى أحداث كوبا وأدركت القوتان أن التعاون أفضل من المواجهة[٤]، خاصة وأن كلا من الطرفين قادر على وضع الأسلحة الحرارية النووية فى المدار فظهر من ذلك عدم وجود فوائد عسكرية حاسمة[٥].

رابعا : التكاليف الباهظة التى أنفقتها كل من الدولتين دون أن ترى المردود الحقيقى والمتمثل فى استسلام خصمهاأو تراجعه الواضح الفعلى .

حتى قدرت السفن والمراكب الفضائية بـ٤٤٢١ تدور حول الأرض ألفان منها على الأقل لأغراض حربية بحتة[٦].

---

(١) عسكرة الفضاء (٩٦-٩٧) .
(٢) المرجع السابق (٢٦٧) .
(٣) المرجع السابق (٢٦٨) .
(٤) انظر المرجع السابق (٢٧٠) .
(٥) انظر المرجع السابق (٢٧١) .
(٦) انظر المجلة العربية ، العدد (٧٦/١٠٥) .

يقول ايزنهاور : (لقد اضطررت إلى إقامة صناعات عسكرية دائمة على نطاق واسع ... ونحن ننفق سنويا على الأمن العسكرى أكثر من الدخل الصافى للشركات الأمريكية" .

وأضاف : "نحن ندرك حتمية الحاجة إلى هذا التطور . ومع ذلك علينا أن ندرك نتائجه الخطيرة" .

ثم حذر قائلا : "علينا فى مجالس الحكومة أن نحتاط من حصول المجمع العسكرى ـ الصناعى على نفوذ غير مشروع ، سواء سعت إليه أو لم تسع ...)[١].

ومن الملاحظ أن الاتحاد السوفييتى كان البادى فى المطالبة بإنهاء سباق التسلح وعدم الاستمرار فيه وهذا يدل على إقرار واحساس القادةالسوفييت أن هذه الحرب الباردة التى يخوضونها ضد الولايات المتحدة كانت مؤثرة عليهم إقتصاديا . وبالتالى فهم لايقدرون على الاستمرار فيها هذا مع وضعنا فى الاعتبار أن الإقتصاد السوفييتى كان مترديا أصلا بسبب فساده ومخالفته للفطرة الإنسانية .

خامسا : النداءات المتكررة من الدول الغربية والتخوف من هذا التسابق الرهيب بين الدولتين[٢].

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : مما لاشك فيه أن هناك نوعان من الأقمار الصناعية أحدهما العلمى والآخر العسكرى ودون شك أيضا أن الأقمار العلمية لها فوائدها التى تعود على المجتمع الانسانى بالخير إذا استغلت استغلالا حسنا فى صالح البشرية .

---

(١) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥م (١٧٣) من خطاب ألقاه فى ١٧ يناير ١٩٦١م .

(٢) انظر بعض ماجاء عن الأحزاب السياسية فى بعض الدول الأوربية بشأن سياسة الولايات المتحدة تجاه سباق التسلح ـ العلاقات الأمريكية السوفيتية (٥٣) .

وقد استخدم بعض هذه الأقمار لمعرفة الأرض والشمس والأفلاك وماإلى ذلك[١].

وعلى هذا الأساس وجب التفريق بين هذين النوعين[٢]، وخاصة فى المراحل الأولى من إطلاق تلك الأقمار .

ثانيا : أن هذا التسابق جعل الأطراف التى كانت خارجة عنه تدفع ثمنا لذلك إما إقتصاديا أو سياسيا فآثار سباق التسلح تجاوزت الدولتين إلى غيرهما .

ثالثا : أن هذا التسابق لم يؤد الغرض والهدف الذى من أجله قامت كل دولة باستنزاف ثرواتها وطاقاتها ، وإن كان قد حقق شيئامن التوازن مما جعل الطرفين يتخاوفان من الابتداء فى توجيه أى ضربة نووية ضد بعضهما بعضا أو ضد أى مصلحة من مصالح الدولة الأخرى .

رابعا : أن هذه الحرب التسابقية فى السلاح ونتيجة لكونها فى أغلب توجهاتها كانت سرية كان لابد والحال هذه من التصعيد فى جانب التجسس من أجل الحصول على معلومات أوفر وأدق عن مامتلكه كل دولة أو تحاول أن تفعله حتى ارتبطت الجاسوسية ارتباطا واضحا بالحرب الباردة وحان الوقت لنعطى إلماحه عن التجسس بين الطرفين . فقد كانت الحرب التجسسية قائمة بينهما على قدم وساق .

---

(١) انظر حرب الفضاء (٣١) .

(٢) انظر مجلة الدفاع السعودية العدد (٦٦/١١٩-١٢٠) السنة (٢٥) رجب ١٤١٧هـ/مارس ١٩٨٧م .

التجسس[١] [حرب المخابرات]

إن معرفة مالدى العدو من قدرات فى العدد أو العدة من أهم الأسباب التى قد تؤدى إلى النصر ، ولأجل ذلك كان الترقب والترصد ومحاولة كشف الثغرات والخطط التى ينوى العدو القيام بها من الأولويات التى اهتم بها القادة والساسة فى التاريخ الإنسانى .

وعرف الإسلام استخدام هذا الأسلوب من أجل تحقيق النصر ويتم ذلك بإرسال العيون إلى تجمعات الأعداء أو جيوشهم من أجل تقصى الأخبار وأخذ الحقائق ثم إبلاغها إلى قائد الجيش ليتصرف بناء عليها ... وعندما كان القرن العشرون قد شهد حربين عالميتين لم يشهد التاريخ مثلهما ، فإن هذه الحرب أعنى (حرب الجاسوسية) كان لها نصيبا كبيرا من الاهتمام وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية التى كان من إفرازاتها وجود دولتين كبريين تنظر كل منهما إلى الأخرى بالارتياب والشك .

فكانت الحرب الجاسوسية على أوجها بين الطرفين[٢]، وعملت كل دولة على إيجاد العملاء لها داخل الدولة الأخرى ، من أجل الوصول إلى معرفة آخر المبتكرات حول الأسلحة ، وكذا ماتنويه الدولة الأخرى وترغب فى تطويره لقواتها .

إن كلا الدولتين تعتبران العدو الأكبر لها من حيث محاولة فضح أسراره وكشفها هى الدولة الأخرى ، فلعبت حرب المخابرات دورا كبيرا فى جعل كل دولة على أهبة الاستعداد لملاقاة العدو ، وكذا لعبت دورا بارزا فى

---

(١) (التجسس مجموعة من الحيل الخبيثة والطرق الخفية للحصول على المعلومات) . الجاسوسية والجاسوسية المضادة (١٩١) ، بليدو فسكاوبلوخ ، ترجمة حكمت البعينى ، الطبعة الثانية ١٩٩٢م ، منشورات البحر المتوسط ، بيروت ، لبنان .

(٢) انظر حرب المخابرات بين المخابرات الأمريكية والروسية (٨/١) ، سيلينا بليدوسكا وجوناثان بلوتش ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، دار الرشيد ، دمشق .

توجيه الأحداث لصالح دولتها فى كثير من بلاد العالم . ومن هنا تزامنت الجاسوسية مع التوسع ومع محاولة كل دولة صد الدولة الأخرى أو إبعادها عن مناطق نفوذها أو المناطق التى ترغب فى السيطرة عليها .

وباختصار شديد يمكن القول بأن الأزمات والصراعات التى مرت معنا كان للمخابرات التابعة لكل من الدولتين أكبر الأثر فيها(١).

وأختم هذه اللمحة بهذه الحقائق :

أولا : أن حجم المخابرات فى الدولتين يدل دلالة واضحة على أهمية هذا الجهاز ، واعتماد كل من الدولتين عليه فى كثير من سياساتها الإقتصادية والحربية .

ثانيا : أن الانفاق على المخابرات من قبل الدولتين قد كلفهما كثيراً سواء من الناحية الإقتصادية ، أو من ناحية تذمر الشعب داخليا . خاصة حين فشل المخابرات فى مهماتها .

فالانفاق السوفييتى تقدره الدول الغربية بملياري دولار سنويا . وهذه القلة فى التكلفة تعود إلى أن رجال من الاستخبارات يأخذون رواتبهم من مؤسسات حكومية(٢).

---

(١) فعن دور المخابرات فى أحداث كوبا انظر : الاستخبارات السوفيتية فى العالم (٥٣٣) ، كريستوفر اندرو ، اوليغ غورديسكى ، ترجمة هنادى السمرا ، رينا شربل ، نادر عسيران ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ، حرب المخابرات بين المخابرات الأمريكية والروسية (١٠٩-١١٢،١١٧) ، نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمريكية (١٤٢-١٤٤) .

وعن دورها فى فيتنام انظر : حرب المخابرات بين المخابرات الأمريكية الروسية (١٩٢-١٩٣) .

وعن دورها فى لاوس وكمبوديا (٢٠٦-٢١٣) .

وعن دورها فى أفغانستان انظر : المخابرات السوفيتية من الداخل (٢٣٥) ، الاستخبارات السوفيتية فى العالم (٦٥١-٦٥٥) .

وعن دورها فى دول أمريكا الوسطى والجنوبية انظر : عالم الجاسوسية (١٤٩) ، مجموعة من المؤلفين ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، دار الحسام للطباعة والنشر والتوزيع حرب المخابرات (٧٣) .

(٢) انظر عالم الجاسوسية (١٨٧) .

أما الولايات المتحدة فإن (الموازنة السنوية تتراوح بين مليار ومليارين دولار ... وتزداد هذه الموازنة لتصل إلى خمسة مليارات دولار حسب أهمية عملياتها)[١].

ثالثا : أثر سقوط الشيوعية على المؤسسات العسكرية تأثيراكبيرا بما فى ذلك الK.G.B فأضحى المئات من رجالها (يتدافعون على أبواب السفارات الأجنبية فى أوروبا ليقدموا كل مالديهم من معلومات وسرد كل المهام التى كلفوا بها سابقا أو لعرض الجديد من خدمات ، وللإجابة عن كثير من الاستفسارات والتساؤلات عن عمليات مخابراتية سابقة تورطوا بها أو إيجاد حلول لألغازها"[٢].

وذلك نظير حفنة من الدولارات ، أو الطمع فى وظيفة مخابراتية له فى الغرب الأمريكى[٣]، ومع ذلك التراجع فإن روسيا لم تقف عن تطوير وتحسين أداء مخابراتها (فقامت بانشاء شبكة ريكلوم الروسية (انترنت روسيا) ويجزم الخبراء بأن الريكلوم الروسية ليست سوى واحدة من الشبكات المتفرعة من وكالة الاستخبارات السوفيتية السابقة الK.G.B وبالتحديد الشعبة الثامنة المكلفة بأمن الاتصالات والشيفرة)[٤].

وذكر بعض المسئولين عن هذه الشبكات أهميتها وخاصة عندما حدث الانقلاب عام ١٩٩١م حيث تسربت المعلومات الدقيقة إلى العالم الخارجى

---

(١) عالم الجاسوسية (١٤٨) على أن أقرب الأقوال أنها سرا وأن الكونجرس لايمانع ولايحاسب هذه الوكالة فى انفاقها .
وانظر نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمريكية (١٣٨) بشأن تذمر الشعب الأمريكى من مخابراته .

(٢) عالم الجاسوسية (٢٠٧-٢٠٨) .

(٣) انظر المرجع السابق (٢٠٨) .

(٤) صحيفة المدينة المنورة ، العدد (١١٩٣٦) (٩) الأحد ١٨ رجب ١٤١٦هـ الموافق ١٠ ديسمبر ١٩٩٥م .

لمتابعة الحدث أولا بأول[١].

رابعا : أنه لايمكن بحال من الأحوال استبعاد مشاركة المخابرات الأمريكية فى الأحداث التى شهدها الاتحاد السوفييتى .

وبهذا نصل إلى الحديث عن آثار الحرب الباردة .

---

(١) انظر صحيفة المدينة المنورة ، العدد (٩/١١٩٣٦) .
ولعل هذا يعرفنا لماذا لم تكن الشيوعية ترغب فى التكنولوجيا الحديثة وذلك حتى لايعرف الشعب السوفييتى العالم الخارجى فيطالب بحقوقه .

المبحث الثالث
آثار الحرب الباردة

أولا : التعجيل بسقوط الاتحاد السوفييتى وانهياره .

إن من أعظم الآثار التى خلفتها الحرب الباردة هو التعجيل بإنهيار الاتحاد السوفييتى وسقوطه ، ذلك أنه عمل على مجاراة الغرب فى سياسته التوسعية .

كما قام بتوجيه الموارد فى سبيل التغلب على الولايات المتحدة من حيث القوة الدفاعية ، ثم قام بالتسابق معها فى إنتاج الأسلحة النووية والعمل على استغلال الفضاء والسيطرة عليه ، وزد على هذا ماكان ينفقه على الاستخبارات التى كانت تمثل عصبا ممتدا بين موسكو وأكثر الدول التى يرغب السوفييت فى بسط نفوذه عليها . لقد كان الأثر الأكبر للحرب الباردة يكمن فى تردى إقتصاد البلدين وخاصة الاتحاد السوفييتى الذى كان يعانى من ضعف شديد نتيجة لفساد النظرية ، والمفارقة الكبيرة بينها وبين الواقع ، بالإضافة إلى الحروب التى خاضها السوفييت ... ومن قبلها الحروب الأهلية فى بداية قيام الثورة البلشفية . غير أن الإقتصاد الروسى كان يعانى من الضعف الشديد أيام القياصرة ، وعلى هذا كان الأثر الإقتصادى هو الأثر الأبرز للحرب الباردة ، وبالتالى كان تأثيره على الاتحاد السوفييتى وذلك بالإسراع به نحو النهاية .

ويمكن إبراز ذلك الأثر فى النقاط التالية :

(أ) أدت الحرب الباردة بكل أشكالها وأساليبها إلى تردى الوضع الاقتصادى للدولتين ، وإن كانت أكثر أثرا فى الاتحاد السوفييتى ذلك أن الاقتصاد كان منهارا فى الأساس لفساد البناء الذى قام عليه ، ولاشك أن الاقتصاد الرأسمالى أقوى من الاقتصاد الاشتراكى وهذا حق لاثناء لأن النظام الرأسمالى نظام كافر كذلك إلا أن سبب قوته أخذه عن الاسلام إقرار الملكية الفردية التى فطر عليها الخلق .

ويرى كينان (أن الاتحاد السوفييتى أكثر ضعفا من الولايات المتحدة وأن (المجتمع السوفييتى يضم داخله أسباب القصور التى ستضعف - مع مرور الزمن - كامل طاقته الكامنة) . وهو قد توقع - عن حق - سقوط الإقتصاد السوفييتى فى النهاية مقابل الصحة والحيوية التى تتوفر للدول الرأسمالية .. وأن هذا الأمر قد يقود الاتحاد السوفييتى تجاه التغيير ... كما ناقش أيضا أهمية أن يطور السوفييت إقتصادهم على الأقل ليقدموا للعالم النامى مثالا أفضل . "من الصعب رؤية الطريقة التى يمكن أن يصحح بها شعب مرهق مذل يعمل تحت مظلة الخوف والاكراه أسباب القصور هذه فى زمن مبكر . ومالم تهزم روسيا سيظل إقتصادها معلولا ، وستظل أمة واهنة وأن كانت بشكل معين - قادرة على تصدير حميتها واشعاع سحر غريب لحيوية سياستها البدائية .. فى نفس الوقت لاتستطيع أن تدعم سلعها المصدرة هذه بأدلة حقيقية تعبر عن القوة المادية والرفاهية" .

أسباب القصور الإقتصادى كما أشار كينان "أن سلطة السوفييت تحمل داخلها بذور فنائها ... هذه البذور فى حالة تفريخ متقدم للغاية" . وأن قوة إقتصاد الدول الرأسمالية النسبى قد يقدم للعالم مثالا يمكن أن يسبب اضمحلال نفوذ الشيوعية ، بالرغم مما تنبأ به غربان الميدان الأحمر بثقة مهذبة وكان له صدى عميق ذو أهمية فى طول العالم الشيوعى وعرضه عن الفشل الذى على الولايات المتحدة أن تتجرعه ككساد للإقتصاد المبكر)[١].

(ب) أن هذه الحرب قد كلفت الطرفين كثيرا وإذا كان الاقتصاد الأمريكى أقوى من السوفييتى حينها على الأقل[٢]فإنه سيكون أكثر استمرارا فى

---

(١) نقلا من كتاب مابعد الحرب الباردة (٣٤-٣٥) .

(٢) يظن كثير من الناس أن الاقتصاد الأمريكى من القوة بحيث لايمكن التقليل من شأنه أو القول بأن أمريكا منهارة إقتصاديا ، ونسى هؤلاء أن ديون الولايات المتحدة كبيرة حيث كانت عام ١٩٤٠م ٤٣ بليون دولار ، وفى عام ١٩٥٠م وبسبب تكاليف الحروب ارتفع الرقم إلى ٢٥٦ بليون دولار ، وبحلول عام ١٩٨٠م بلغت ديونها ٩٠٨ بلايين دولار ، وبلغت الديون من عام ١٩٨٠-١٩٨٦م ٢,٦ تريليون =

البقـاء ، أما الاقتصاد السوفييتى فقد أرهقته هذه التكـاليف حتى جعلت القادة والسياسيين ينددون بالحال الذى وصلت إليه دولتهم .

يقول مكنمارا : (إننا نقر بأن الخط الفاصل بين الإثنين يصعب التحرك عليه ، فضلا عن أن الفن الذى يمكنه تحديد هذا الخط فى حد ذاته لم يكتمل بعـد .. ولكننا مقتنعون على الأقل أن الولايات المتحـدة قد شردت بعيدا عن هذا الخط وشردت فى اتجاه أن عمل الكثير أفضل من القليـل . نحن مقتنعون أن مـن الممكـن أن نمتلك بالتسـاوى قدرة عسكرية إقتصـادية أكبر بإنفـاقات دفاعية أقل .

ولكن التخفيضات التى أوصينا بها لم تحدث .

فى فترة الثمـانى سنوات ١٩٨١-١٩٨٨م كـان إجمالى النفقـات الدفاعية تقريبا حوالى ٢,٤ ترليون دولار ، ولقد اتفق وزيران سابقان للدفاع على أنه كان من الممكن الحصول على اجراءات أمـن مساوية بتكلفـة تقل بحوالى من ٢٠٠-٢٥٠ بليون دولار .

وبالمقـابل كان الموقف فى الاتحاد السـوفييتى مختلفـا تماما عن ذلك الذى حدث فى الـولايات المتحدة .. وهناك كما سبق أن قلـت يمكن أن نطبق حقا منطـق بول كنيـدى . الأزمـة الاقتصـادية فى الاتحاد السـوفييتى أكثر حدة بما لايمكن لعديد منا فى الغرب التسليم به .

قـدر معدل زيادة الانتاج القومى فى الستينات بنسبـة ٦٪ سنويا ، وفى السبعينات ٤٪ سنويا ، وفى بداية الثمانينات ٢٪ سنويا ، ثم أصبحت خامدة خلال السنوات الماضية .

= وفى عـام ١٩٩٢م قـاربت ديون الـولايات المتحـدة مـاجمـوعه ٤ تريليـونات ، وإذامـااستمر الحال على هـذا الـوضع فـإن ديون الـولايات المتحـدة ستصـل إلى ماجموعه ١٠,٢ تريليون دولار قبـل عـام ٢٠٢٠م مما سيجعلهـا دولـة ضعيفة هزيلة أمام الدول الإقتصادية القوية .
انظر السقوط من الداخل (٨٩-٩١) ، محمد البشر .

تأثيرات هـذا الإقتصاد الخامد أصبح لها انعكاسها الـواضح على المعايير الأسـاسية للرفاهية الإجتماعيـة . لقد إنهار الأمل فى المستقبـل وارتفعت نسبة الوفيات بين الأطفال وزاد الإدمان الكحولى .

فى البريستـوريكا تكلم غـورباتشيف عن مجتمع فى أزمـة . وهـو قد سلم بأنه قـد يكـون مـن الصعـب ، إذا لم يكـن مستحيلا ، أن يجد تمويلا للاستثمـارات المطلوبة لتوسيـع الإنتاجية وجعل الاتحاد السـوفييتى منافسا قويا فى السـوق العـالمى فى القـرن الحادى والعشرين بدون تخفيـض المستـوى غير الطبيعى لارتفاع نفقات الدفاع .

على النقيـض من نسبة ال٦٪ مـن مجمل الإنتاج القـومى التى توجههـا الـولايات المتحـدة لأغـراض الـدفاع نجد أن السـوفييـت يوجهـون ـ حسـب تقـديرات وكالة المخابرات المركـزية ـ مايزيد عن ١٦٪ .. وبذلـك يجسـدون القـوة العظمـى التى تعانى مـن اختلال إتزان قدراتها الإقتصـادية ومتطلبـات أمنها .

فـإذا كـان هدف السوفييت تقـوية إقتصـادهم وإعـداده للقـرن الحادى والعشـرين فـإنه من المنطقـى أن يحاولوا تخفيض نفقـات الـدفاع للحد الذى يتنـاسب مع مجمل إنتاجهم القومى ... وهو مايأمل فيـه غورباتشيف بوضوح ويتحرك باتجاهه .

وهكـدا فبتسليمه بأنهم فى حاجة إلى هـذا التخفيـض ورغبته فى تحقيق أهـدافه دون الإخلال بأمنه تكـونت لديه ـ كما أعتقـد ـ الأسبـاب الرئيسية التى دفعته لأن يعيد تقديره لسياسة السوفييت الخارجية)[١].

وأمـا عـن تكاليف هذه الحرب (رقميـا) فـإنه من المعـروف أن الحرب الباردة قد اتسمت فى الإعداد لها والتخطيط للقيام بها بالسرية التامة وماظهر من المعلومات عنها إلا اليسير ، ولربما كان هذا اليسير ليـس هو عين الحقيقة فقد كانت موازنة بعض القطاعات التى عملت فى الحرب تتسـم بالسرية وعدم

---

(١) مابعد الحرب الباردة (٨٥-٨٧) .

التحديد أصلا[١].

(ج) اعتراف القادة السوفييت بأثر الانغماس فى التسلح وبناء الدفاع وأنه كان على حساب الإقتصاد واطعام الشعب وتوفير الغذاء والكساء ، ولاشك أن هذا من أعظم الآثار التى خلفتها الحرب الباردة وسباق التسلح مع الولايات المتحدة الأمريكية . وهذا الاعتراف هو الذى طبقه خروشوف عمليا حيث قام بتخفيض عدد الجيش وسحب كثيراً من الفرق التى كانت تعسكر فى دول أوروبا الشرقية .

يقول خروشوف[٢]:

---

(١) وقد كان الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة مقارنة بالدول الأخرى أكثر انفاقا فى سبيل التسلح والدفاع . فعن الدولتين الكبريين يقول روبرت مكنمارا :
(تسببت هذه الحرب فى أن تنفق الولايات المتحدة مبالغ طائلة على تجهيزات الدفاع ، زادت خلال السنوات الثمانى من ١٩٨٠-١٩٨٨ عن ٢,٠٠٠٠٠٠,٠٠٠٠٠٠ دولار ، بحيث شتت انتباهنا بعيدا عن مشاكلنا الداخلية وشوهت علاقتنا بالأمم الأخرى وأبعدتنا عن قيمنا التقليدية .
وعلى الجانب الآخر ، صرح السكرتير العام ميخائيل غورباتشيف فى خطاب عام ، أن تكلفة هذه الحرب بالنسبة للاتحاد السوفييتى وصلت - على الأقل - إلى نفس القدر من الضخامة ، وقد أبدى رغبته فى العديد من المناسبات فى انهاء هذا الصراع ، وقال إن الحرب بين (القوتين العظميين لم تعد تمثل الوسيلة المقبولة اليوم لإحداث التعديلات السياسية) . وكرر مرارا بأن المشاكل اليومية بين الشرق والغرب يجب أن تحل من خلال القنوات السياسية) .
مابعد الحرب الباردة (١٣) .
ولمزيد عن الاحصائيات انظر : مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٢٥/١٦) ١٩٨٧م ، حرب المائة ثانية (٩٩،٥٠) ، الحرب العالمية الثالثة (٢٥-٢٧) ، عسكرة الفضاء (٢٣٩،٢٣٧،٢٢٦) .

(٢) ينبغى لنا ملاحظة الأصل وهو أن عدد الجيش والتسابق فى التسلح أنهك الإقتصاد السوفييتى أما مايذكره من ثناء بعد ذلك على الاتحاد السوفييتى فذاك شأن آخر يتحمل مسئوليته خروشوف لوحده إذ أن التاريخ قد قال قولته .

(أود أولا أن أشرح خلفية قرارنا العام خفض قواتنا المسلحة ، ثم كيفية تنفيذ ذلك القرار بالنسبة إلى كل بلد بمفرده .

مضت فترة قبل أن وصلنا إلى نقطة شعرنا فيها أننا مستعدون لإجراء أى خفض . شعرنا بعد موت ستالين أننا معرضون لخطر شديد . ذلك بأن الولايات المتحدة كانت تتبع سياسة عدوانية رعناء نحونا ، لم تترك فرصة إلا وعرضت فيها تفوقها ، وأحاطت الاتحاد السوفييتى بقواعد عسكرية ، وظلت ترسل طائرات الاستطلاع إلى أعماق أرضنا فتصل أحيانا إلى كييف . كنا ننتظر هجوما عاما يوما ما ، لذلك لم يكن لناخيار سوى تخصيص موارد هائلة للدفاع كى نتفادى حربا عالمية ثالثة . كانت ذكرى الحرب العالمية الثانية لاتزال حية فى نفوس شعبنا ، ولم يكن فى مقدورنا التفكير فى تحويل شىء من أموال الدفاع إلى حقول أخرى حتى نتم تجهيز قواتنا المسلحة بأسلحة حديثة استغرق تجديد جيشنا سنوات من العمل وبلايين من الكلفة ، لكن حين جهزنا أنفسنا بالصواريخ والطائرات والغواصات والرؤوس النووية اللازمة لدفاعنا أمكننا أن نعيد النظر فى ميزانيتنا العسكرية)[١].

ويقول : (بعد تشكيل حلف وارسو شعرت أن الوقت قد حان للتفكير فى خفض قواتنا المسلحة . عرفت أن علينا ، حتى لو رفض الجانب الآخر توقيع إتفاقية لنزع السلاح ، أن نجد طريقة ما لخفض جيشنا دون أن نعرض دفاعنا للخطر طبعا . لماذا فعلنا ذلك من جانب واحد؟ لأننا أردنا ألانعطى عدونا فرصة ارهاقنا إقتصاديا دون حرب بحملنا على منافسته فى سباق التسلح الذى لانهاية له . حتى لو عجزنا عن اقناع أعدائنا بنزع سلاحهم ، ونبذ فكرة الحرب كوسيلة للضغط السياسى ، نستطيع على الأقل أن نظهر نوايانا السلمية ونحرر فى الوقت نفسه بعض مواردنا لتنمية صناعتنا ، وإنتاج بضائع الاستهلاك ، وتحسين مستويات المعيشة .

---

(١) الوصية الأخيرة (١٣٨-١٣٩) .

كان الحقل الاول الذى قررنا إجراء التخفيض فيه هو حقل الموظفين . إن قوة الجيش العصرى لاتقرر بعدد أفراده بل بقوة النار التى يطلقها ، وخصوصا قوة الصواريخ ، وقد حزنا كمية كبيرة من الأسلحة النووية فزادت قوتنا الضاربة أضعافا كثيرة واستطعنا أن نخفض عدد الجيوش الأرضية فنقص جيشنا تدريجيا من نحو خمسة ملايين إلى مليونين ونصف مليون)[١].

وعمل خروشوف على انقاص رواتب الجيش لأنه رأى أنها تصل إلى درجة الإسراف[٢].

كما عمل خروشوف على سحب كثير من جيوش الاتحاد السوفييتى من دول أوروبا الشرقية من أجل تخفيف النفقات فقال :

(كان علينا أن نقتصد فى نفقات جيشنا فى الخارج أيضا . إن إعالة فرقة فى الخارج - أى على أرض البلاد الإشتراكية - تكلف ضعف إعالة فرقة على أرضنا .

كانت هناك ، علاوة على الاعتبارات الإقتصادية ، أسباب سياسية ملحة حملتنا على سحب جيوشنا من البلاد الشقيقة . أردنا ألايظن أحد أننا لانثق بحلفائنا . كانوا يبنون الإشتراكية فى بلادهم لأن مصلحتهم اقتضت ذلك لالأن الجيوش السوفيتية مرابطة بينهم . كانت الماركسية - اللينينية الدولية الجاذب الرئيسى والقوةالموحدة بين شعوب البلاد الإشتراكية الأخرى . لايمكنكم أن تسوقوا الناس إلى الفردوس بالتهديد ثم تضعوا حراسا على الأبواب . على الناس أن يختاروا الأفضل لحياتهم الخاصة ، وإذا أعطوا الفرصة اختاروا . لذلك أردنا أن نزيل ورقة رابحة من يد دعاية العدو . أردنا أن نكذب قول العدو إن الهنغاريين والبولونيين والرومانيين وغيرهم

---

(١) الوصية الأخيرة (١٣٩) .

(٢) انظر المرجع السابق (١٣٩) .
ونسلم لخروشوف أن ذلك إسرافا بالنسبة لإقتصاد الاتحاد السوفييتى ، ولكن لايمكن مقارنة مايتقاضاه الجندى والضابط فى جيشه بما يأخذه نظيره فى دولة ثانية فالفارق لصالح الأخير .

من الشعوب الشقيقة إنما يساقون على طريق الإشتراكية برؤوس الحراب السوفيتية)[١].

ويبين خروشوف أثر هذه الحرب والتسابق مع الولايات المتحدة فيقول إن (الحرب قد أنهكت شعبنا ، فأصبح جائعا وبحاجة ماسة إلى الكساء...)[٢].

كما أن اتجاه الاتحاد السوفييتى إلى التصنيع وبتلك الصورة المذهلة قد كان له أثره على أفراد الشعب فى عدم وجود متطلبات حياتهم[٣]. كذلك كان لحرب الفضاء دور فى هذا الإنفاق[٤].

ويبين خروشوف أن الاتحاد السوفيتى كان يطالب بتخفيض الجيوش من البلاد الأجنبية وبالتالى الغاء القواعد العسكرية وهو الأمر الذى يعنى حل حلف الناتو ووارسو ، غير أن الولايات المتحدة كانت مصرة على الاستمرار فى طريق التوسع والتسلح فكان لابد من الاستمرار فى بناء القوة السوفيتية[٥].

يقول خروشوف : (ومما زادنى أسفا أن ماجرى لم يوجد أحوالا ملائمة لتحسين العلاقات بل زاد خطر الحرب الباردة ، فأزعجنى ذلك لأننا نحن الذين سنتأثر بالعودة إلى الحرب الباردة . سيبدأ الأميركيون انفاق المال فى السلاح فنضطر إلى مجاراتهم ، ويبدأ سباق تسلح جديد يفقر ميزانيتنا ،

---

(١) الوصية الأخيرة (١٣٩-١٤٠) .
وانظر (١٤١-١٤٢) عن توقيع المعاهدة مع فنلندا وسحب الجيش السوفييتى منها .

(٢) المرجع السابق (٢١) .

(٣) انظر بعضا مما ذكره خروشوف عن تلك الصناعات وتكاليفها الباهظة سواء ماديا أم بشريا وذلك نتيجة اجراء التجارب (٤٧) ومابعدها .
غير أن خروشوف قال : (بيد أنه لامفر من أخطاء وتضحيات كهذه فى تقدم التكنولوجيا) . (٥٠) .

(٤) انظر المرجع السابق (٥٦-٥٩) .

(٥) انظر ذلك فى المرجع السابق (٢٦٩-٢٧٠) .

ويضعف قدرتنا الإقتصادية ، ويخفض مستوى معيشة شعبنا)[١].

لقد اعترف خروشوف بأن الاتحاد السوفييتى قدم مسألة الدفاع والتسلح عن حاجات الشعب سواء الغذائية أم السكنية ، واعتبر أن الغرب كان يقصد زعزعة الإقتصاد السوفييتى من جره وراء سباق التسلح والحرب الباردة[٢].

فقال : (إن مستوى المعيشة فى بلدنا ينحط حين تحمل الميزانية مخصصات لفروع من الاستهلاك غير منتجة ، وأكثر النفقات غير المنتجة ، أمس واليوم ، هى نفقات القوات المسلحة)[٣].

ونظرا للظروف التى كان يعانى منها الاتحاد السوفييتى إقتصاديا بسبب التسابق فى النواحى الدفاعية كانت موسكو البادية فى الدعوة إلى إحلال السلام وكذلك تخفيض أعداد الجيوش وأيضا وضع رقابة على التسلح ، فيقول خروشوف : (إن قوى السلام أكثر من قوى الحرب ، فإذا استطعنا أن نشجع حركة السلام بالموافقة على المراقبة المتبادلة للتسلح ، حتى - إذا اقتضى الأمر - بخفض قواتنا المسلحة من جانب واحد . يجب أن يكون هدفنا النهائى التوصل إلى اتفاقية مع البلاد الأخرى لتحطيم كل الأسلحة ، ونزع السلاح كليا ، وحل الأحلاف العسكرية . أى قيادة تتبع سياسة الرقابة على التسلح ونزع السلاح تكون جريئة وحكيمة ...)[٤].

وهذا غورباتشوف يقول :

(لقد قام الاتحاد السوفييتى فعلا بجهود كبيرة ليلعب دور (القوة العظمى) . وقد أفلح فى ذلك من ناحية واحدة ، الناحية العسكرية . وكانت

---

(١) الوصية الأخيرة (٣٠٦) .
وذكر ذلك بعد فشل المحادثات بينه وبين كينيدى فى فيينا عن الأزمات القائمة حينذاك ومنها سباق التسلح .

(٢) انظر المرجع السابق (٣٢٥-٣٢٧) .

(٣) المرجع السابق (٣٣٠) .

(٤) المرجع السابق (٣٢٩-٣٣٠) .

هيبتنا الخوف والتهديد . وكانت القوات السوفيتية تعسكر فى أوروبا الشرقية ومنغوليا ، وكان شبابنا يموتون فى أفغانستان . وفى الوقت ذاته راحت الآلة العسكرية التى أنشأناها تضعف إقتصادنا وحكمت على فروع الإقتصاد غير العسكرية بالركود الخانق ، وعلى مستويات المعيشة بالتحدر . وبالإضافة إلى كل هذا ، بدأت قدرتنا العسكرية بالانحسار تدريجيا مع ازدياد تخلفنا التقنى وتعاظم الإنفاق . وفى النهاية كنا سنجد أنفسنا أمام خيارين : إما أن ننظر إلى العالم كله من خلال ماسورة مدفع أو الموافقة على التخلف من الناحية العسكرية . لقد كنا قوة عظمى بإقتصاد غير كفؤ وصرنا لانعدو كوننا شيئا ثانويا يجهز الدول المتقدمة بالمواد الخام ، فى حين تدنى مستوى العيش لدينا قياسا إلى تلك الدول . وهل من الوطنية فى شىء أن يحن المواطنون إلى كل هذا؟

لقد وضعنا حدا للسياسة الخارجية التى كرست لخدمة الهدف الحالم فى نشر الأفكار الشيوعية حول العالم وهى السياسة التى أوقفتنا عند نهاية طريق (الحرب الباردة) المغلق وألقت على عاتق الشعب العبء الذى لايطاق .. عبء الانفاق العسكرى ، وهى التى جرتنا إلى مغامرات مثل مغامرة أفغانستان . وللمرة الأولى فى عدة سنين وعقود لدينا سياسة خارجية تخدم مصالحنا الوطنية وتعمل لصالح تطورنا داخليا ...

إن الاتحاد السوفييتى كان وسيظل قوة عظيمة لايمكن بدونه اتخاذ قرار بشأن المسائل الدولية . لكن علينا أن نصبح أعضاء عاديين فى المجتمع العالمى وأن نتحد مع التيار العام للحضارة العالمية على أساس المساواة)[1].

(د) كثرة قوات وجيوش كل من الطرفين ، مع وجود القواعد العسكرية المنتشرة لهما فى مناطق متعددة من العالم ـ وقد كان وجود هذه

---

(١) الإنقلاب (٨٠-٨١) .

القواعد من أسباب التوتر بين الدولتين[١]. وكذلك قيام الأحلاف العسكرية الناتو ووارسو وهذه القواعد والأحلاف كان لها تبعات بالإضافة إلى مايلزم الدولة من تأمينه وتحقيقه لجيشها الأساسى .

فـ(فى نهاية عام ١٩٨٤م كان أكثر من أربعة ملايين ونصف بين رجل وامرأة تحت السلاح فى الاتحاد السوفييتى)[٢].

(هـ) مما جعل إقتصاد البلدين وخاصة الاتحاد السوفييتى يتأثر ويؤثر بالتالى فى ردود أفعال الشعوب الحروب التى خاضتها الدولتان ضد بعضهما فى بقاع مختلفة من العالم من أجل بسط النفوذ والتوسع واستغلال الموارد وكذا منع سيطرة الطرف الآخر ولاشك أن هذه الحروب كانت مرهقة للطرفين من الناحية الإقتصادية إرهاقا كبيرا . فهناك النفقات على الجيوش ، وهناك الامداد بالسلاح ، وهناك الاغراء بالمال للعملاء ، وهناك الحرص فى حيازة قصب السبق فى إنتاج الأسلحة الحديثة وكل هذا يدفع ثمنه الشعب فى الداخل ، وعندما كان الإقتصاد السوفييتى هو الأضعف فإن أثر هذه الحروب وجراحها به كانت أعمق .

---

(١) يقول خروشوف : (إن بقاء القواعد العسكرية فى البلاد الأجنبية لن يساعد إلا على تصعيد سباق التسلح ، وتقوية انفعالات الحرب الباردة) .
الوصية الأخيرة (١٤٦) .

(٢) الحرب العالمية الثالثة (٢٢٩) ، الجنرال جون هاكيت ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر .
وانظر نفس الكتاب عن قوات الاتحاد السوفييتى وأسلحته ومايتعلق بقدراته الدفاعية (٢٣٠-٢٣٤) ، (٢٣٩-٢٤٢) ، (٢٤٤-٢٥٠) ، وانظر إنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٣٩) .
وعن بعض القواعد العسكرية للقوتين الكبريين . انظر الروس قادمون (٣٩-٤٧).
وانظر محاضرات فى الندوة الدبلوماسية الثامنة (٢٢١-٢٢٣) ، وكان الحديث عن الأسطول البحرى السوفييتى .

(و) ومن الأمور التى فاقمت الكارثة بالإقتصاد السوفييتى إعلان الولايات المتحدة الأمريكية عن برنامج الدفاع الاستراتيجى والذى أرهق الاتحاد السوفييتى وجعله فى رعب من هذه المبادرة ، وهذا دعا السوفييت إلى الحفاظ والاستمرار على إنتاج بعض الصواريخ وخاصة العابرة للقارات مما أدى إلى زيادة الجراح بالإقتصاد السوفييتى ، وقد اعترف المسئولون الأمريكيون بتكاليف هذا المشروع وأثره الإقتصادى وزيادة التوتر بسببه بين البلدين ، فإذا كانت هذه الدولة المصنعة فإن الدولة الأخرى التى خافت من المشروع سيتطلب وضعها ماهو أقدر وأجدر منه .

ويرى الإشتراكيون أن الحرب الباردة (أرغمت الثورة على نفقات عسكرية هائلة بهدف إبطال احتكار الولايات المتحدة وبريطانيا للأسلحة النووية ؛ وأخيرا استمرار سباق الأسلحة الذى يقتضى تكاليف إجتماعية هائلة)[١].

وكان المنطق يدعو (القيادة السوفيتية إلى تقليص الانفاق العسكرى من أجل ايجاد حل نهائى للأزمة الإقتصادية التى تزداد تفاقما . ولكن لم يحدث أبدا ، أن إنقاد النظام السوفييتى لمنطق حاجات الفرد ، وبقى منطق السلطة هو السائد)[٢].

يقول فرانز فانون : (إن علينا أن نقول ونشرح للبلدان الرأسمالية أن المشكلة الأساسية فى عهدنا الراهن ليست الحرب بين النظام الإشتراكى وبينها . ينبغى وضع حد لتلك (الحرب الباردة) التى لاتؤدى إلى شىء ، وينبغى توقيف التسابق النووى فى العالم ، والإنفاق بسخاء وتقديم المساعدات التقنية للمناطق المتخلفة . ومصير العالم يرتبط بالجواب الذى سيعطى على هذا السؤال)[٣].

---

(١) الاشتراكية على مشارف القرن الواحد والعشرين (٢٢٣) .
(٢) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٤٢) .
(٣) نقلا من كتاب التحدى العالمى (١٥١) ، وانظر الإسلام وأزمة الغرب (١٤) .

ثانيا : الآثار السياسية للحرب الباردة :

لقد تمخضت الحرب الباردة عن زيادة الانقسام بين دول العالم ، فأصبحت بعض الدول شرقية والأخرى غربية ، بل أصبحت كثير من الدول يوجد فيها الاتجاهين وكل اتجاه يعاكس الآخر تماما وقد يصل إلى درجة الانقسام كما حدث ذلك فى فيتنام ، وكوريا ، والصين ، وإذا لم يصل حال الدولة إلى ذلك فتعيش فى صراع دائم بين الاتجاهين التابعين للدولتين ، وعلى أثر ذلك تقع الحروب والصراعات بين طوائف الشعب الواحد ، ويزكى نار هذه الصراعات الدولتان الكبريان .

ثالثا : تشوية القيم والأخلاق :

ويحدثنا مكنمارا عن ذلك فيقول :

(ماقدمناه نحن فى الولايات المتحدة من أسبقيات منهكة لأعمال كان هدفها مواجهة مارأيناه كعدوان سوفييتى .. شوه قيمنا فى المجالات الإقتصادية والإجتماعية ، كما شوه سياستنا الخارجية . وكذلك فى الاتحاد السوفييتى بتركيزهم على الإعداد للحرب الباردة ودعمها يبدو أنه قد حدث هناك - بنفس القدر - نفس التأثير . لم يكن التأثير فى الولايات المتحدة محصورا فى نفقات دفاع زائدة أو مسرفة ، ولكن ماهو أكثر أهمية أنه جعلنا نغمض أعيننا عن عمل الإجراءات المطلوبة لمواجهة العديد من مشاكلنا الداخلية الخطيرة بفاعلية . وهكذا أصبحنا فى مواجهة مستويات عالية غير مقبولة للبطالة وبالتحديد بين السود والمراهقين .. ونمو سريع (للسقوط الطبقى) .. إذ أصبح ٥٢٪ من مواليد أغنى عاصمة فى العالم أبناء غير شرعيين .. مع تزايد لمعدلات الإفراط فى استخدام العقاقير المخدرة والجرائم المتصلة بالمخدرات ، وفشل فى التوصل لصيغة مناسبة لتقدير مشاكل الفقراء والبنية التحتية الطبيعية الفاسدة الضارة ... وتشوه حاد فى نماذج نمو الأحياء أو الأقاليم ، وسياسات اقتصادية طائشة تجاه الأمم الأخرى فى كل من العالمين

المتقدم والنامى ...)[١].

وهكذا أدت الحرب الباردة إلى آثار إقتصادية عانت منها الدولتان وإن كان الاتحاد السوفييتى أكثر تضررا بها من الولايات المتحدة ، نظرا لتردى الحال الإقتصادى للبلاد لكونه يقوم أساسا على نظرية إقتصادية تتعارض مع الفطرة البشرية ، فكان الفرد يعانى من الجوع والدولة تريد تحقيق الانتصار فى الفضاء!!! إن المواطن لن يلتفت ولن يخلص لهذه الدولة مادام الحال كذلك ، وبالفعل كان للجوع الذى أصاب الشعب أثره الكبير فى الخروج على الشيوعية وتحطيم تماثيل قادتها ودوسها بالأقدام .

رابعا : من آثارها ونتائجها (الوفاق الدولى) :

تلك السياسة التى كانت هى الأخرى أحد الأسباب فى التعجيل بانهيار الشيوعية[٢].

وهكذا نرى أن هذه الأسباب متداخلة فيما بينها وبعضها مكمل لبعض.

وكان الوفاق إيذانا وإعلاما أنه بالإمكان التعايش دون حرب بين الدولتين ، وهذا يدعونا إلى الحديث عن نهاية الحرب الباردة .

---

(١) مابعد الحرب الباردة (٨٨-٨٩) ، وانظر (٩٥-٩٦) .

(٢) سيأتى الحديث عن ذلك تفصيلا إن شاء الله تعالى .

المبحث الرابع
إنهاء الحرب الباردة

قلنا عند حديثنا عن مصطلح الحرب الباردة بأن هناك خلافا فى مسألة نهايتها فقول يقول إنها انتهت ، وقول لم تنته ، وقول لم تنته ولكن خفت حدة التوتر بين الجبارين . ونحن بدورنا ونظرا لاعتبارنا أن الحرب الباردة كانت سببا من الأسباب الخارجية التى أدت إلى إنهيار الشيوعية فإن زوال القوة أو الطرف الذى كان يتسابق مع الولايات المتحدة جعل الحرب الباردة تتلاشى من الساحة الدولية .

وهناك مؤشرات تدل على هذا الرأى .

أولا : أن الاتحاد السوفييتى لم يكن قادرا على المواصلة والاستمرار فى هذه الحرب التى أنهكته وجعلته يعانى على المستوى الداخلى والخارجى ، ومن هنا وعندما كان جورباتشوف على قمة السلطة بدأ بالتفاوض مع الغرب والتقرب إليهم واستعداده بالتنازل ولو من طرف واحد ولأجل ذلك جاء ببعض المبادرات التى تعتبر أحادية الجانب . ورأى أنه لابد من التنازل من أجل الاستمرار فى تحقيق سياسته الاصلاحية(١).

ثانيا : تصريحات غورباتشوف الداعية إلى إيقاف سباق التسلح ، ونزع السلاح النووى الموجود ، والدعوة إلى العيش فى سلام وأمن وهذه دعوة من رئيس الاتحاد السوفييتى تلك الدولة التى كانت تنافس الولايات المتحدة.

حيث قال غورباتشوف : (على البشرية فى عصر الذرة أن تتبع تفكيرا سياسيا جديدا وتتبنى مفهوما جديدا للعالم يعطى ضمانا يركن إليه فى الحفاظ على البشرية . يريد الناس العيش فى عالم أكثر أمنا وعدلا . والبشرية جديرة

---

(١) انظر عن ذلك ميخائيل غورباتشوف ، سيرة ذاتية مفصلة (١٩-٢٢) .
وانظر (٢٢-٢٥) ، وذكر مؤلفوا الكتاب أن مرونة غورباتشوف جعلت الكونجرس يفكر بوضع القيود على مبادرة الدفاع الاستراتيجى .

بكل ماهو أفضل بدل أن تظل أسيرة الرعب النووى وآلامه . فلابد من تغيير الوضع القائم على الصعيد الدولى وبناء عالم خال من السلاح النووى ومن العنف والكراهية والرعب والشك)[١].

ويقول : (نريد لكل شعب ، ولكل بلد أن ينعم بالكفاية والإزدهار والسعادة . وليس سوى عالم خال من السلاح والعنف ، طريقا إلى هذا كله لقد سلكنا هذا الدرب ، وهانحن نناشد سائر شعوب العالم ودوله كى تسلك الدرب نفسه)[٢].

ويقول جورباتشوف فى معرض تحديده وتقويمه للعلاقات الأمريكية السوفيتية :

(إما سباق التسلح فى المجالات كافة وبالتالى تفاقم خطر الحرب ، وإما وقف سباق التسلح وبالتالى تعزيز السلامة العامة وسلام أوطد للجميع)[٣].

ويذكر للشعب الأمريكى قناعته تلك فيقول :

(لايسع بلدينا إيصال الأمر إلى حد المجابهة . وفى ذلك مصلحة الشعب السوفييتى والشعب الأميركى الحقيقية ، ولابد من التعبير عنه بلغة السياسة الفعلية ، ولابد من وقف سباق التسلح ومباشرة نزع السلاح توجيه العلاقات السوفيتية ـ الأميركية إلى المجرى الطبيعى . وأقولها كلمة حق إنه آن الأوان لجعل هذه العلاقات بين شعبين عظيمين جديرين بدورهما التاريخى إذ تتوقف على العلاقات بيننا فعلا مصائر العالم ومصائر الحضارة العالمية . ونحن على استعداد للعمل فى هذا الاتجاه)[٤].

---

(١) وكان هذا التصريح فى اعلان دلهى بشأن (عالم خال من السلاح النووى والعنف) والذى وقعه مع راجيف غاندى عام ١٩٨٦م خلال زيارة غورباتشوف للهند وذكر ذلك فى كتابه عملية إعادة البناء (١٤٨) ، وانظر : غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٨٠) ، إنهيار إمبراطورية شيوعية (٨٨-٨٩) .

(٢) عملية اعادة البناء (٢٦٨) من الخاتمة .

(٣) من حديث غورباتشوف لجريدة (البرافدا) فى ١٩٨٥/٤/٨م نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٧١) .

(٤) غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٧٦-١٧٧) .

إن غورباتشوف أدرك أنه لايمكن أن يحقق شيئا كبيرا من سياسته دون أن تكون الولايات المتحدة من ورائه ، ومن هنا قام بالعمل على فتح الجبهات السلمية كلها معها حتى تقدم بالتنازلات من طرف واحد فى سبيل الاستمرار فى تحقيق هذه السياسة الجديدة(١).

وقد تم بالفعل إعلان نهاية الحرب الباردة بين الطرفين عندما التقى بوش وغورباتشوف فى مالطا فى كانون الأول ١٩٨٩م(٢).

ثالثا : الواقع الدولى الذى أصبح يتحكم فيه قوة واحدة هى الولايات المتحدة بينما أضحت روسيا الوريثة الكبرى للاتحاد السوفييتى لاتقوى على مجابهة الولايات المتحدة لاسياسيا ولاإقتصاديا ولاعسكريا بل لو شئنا لقلنا إن الأحداث الروسية وكثيراً من شئونها تسير حسب ماتريده الولايات المتحدة ويحقق مصلحتها ـ لكان ذلك حقا ـ كما تشير وتدل الوقائع على الساحة الدولية.

رابعا : إنهيار حلف وارسو وكان ذلك عام ١٩٨٥م فى حين مازال حلف الناتو محافظا على قوته .

بل وبدأت بعض الدول التى كانت تشكل حلف وارسو تنوى الدخول فى هذا الحلف مما يدل على أن الأحلاف التى كانت إحدى الأساليب فى الحرب بين الطرفين قد زالت وبالتالى أثر ذهابها فى ذهاب الحرب الباردة .

يقول هاكيت : (ويمكن القول على كل حال ، إن الحرب العالمية الثالثة قد انتهت بإنهيار حلف وارسو فى أواخر شهر آب عام ١٩٨٥م)(٣).

---

(١) وقد كثرت تصريحاته ، ودعواته ، واقتراحاته من أجل العمل على انهاء سباق التسلح .
انظر مثلا : غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٧١-١٧٤) ، وانظر إنهيار إمبراطورية شيوعية (١٨١-١٨٣) ، (١٨٧-١٨٩) .

(٢) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٤٠٣) .

(٣) الحرب العالمية الثالثة (٥٨٧) (هاكيت) .

خامسا : أن سقوط الاتحاد السوفييتى من أكبر الأدلة على نهاية الحرب الباردة .

يقول هاكيت : (بعد كل حرب عالمية ، وعلى مدى القرن العشرين . برزت ظاهرة تاريخية واضحة ، ألا وهى فى نهاية كل حرب عالمية كبرى تختفى امبراطورية كبيرة . ففى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ اختفت الإمبراطورية الهنغارية ـ النمساوية ، وفى نهاية حرب ١٩٣٩-١٩٤٥ اندثرت الإمبراطورية المنتصرة فيها وهى بريطانيا العظمى ، وأخيرا بعد حرب ١٩٨٥ خسر الاتحاد السوفييتى الحرب)[١].

سادسا : الإنسحاب من أفغانستان .

كذلك كان هناك عدة دوافع لإنهاء الحرب الباردة ، ومنها :

(١) قناعة الدولتين بخطورة التسابق فيما بينهما فى التسلح .

إن ماوصلت إليه الدولتان من انتاج للاسلحة جعلهما يقتنعان بضرورة الحد منها وخاصة الاتحاد السوفييتى الذى أرهقه هذا التسابق ، بينما بقيت الولايات المتحدة تسير فى هذا التسابق المحموم إلى أن سقطت الدولة العدوة .

(٢) ومن الدوافع لإنهاء الحرب الباردة احساس الدولتين أن الحرب النووية لن يكون فيها منتصر لأنها ستأتى على الكل فإما البقاء معا وإما الهلاك معا ، ومن هذه القناعة انطلق الطرفان فى سبيل الوصول إلى انهاء أو توقيف هذا التسابق المحموم والتصارع على دول العالم[٢].

---

(١) الحرب العالمية الثالثة (٦٢٦) ، (هاكيت) .
ويورد روبرت مكنمارا اعتراضات القائلين بعدم امكانية انتهائها أو الانتقادات التى توجه ضد إنهائها ويرد ذلك التصور ويبين إمكانية إنتهائها وأن الأحداث تدعم الرأى القائل بإنتهائها . انظر مابعد الحرب الباردة (١٦٩-١٧٤) .

(٢) انظر : نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمريكية (٩٦-٩٧) ، غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٧٥-١٧٦) .
وعن أخطار الحرب النووية وآثارها انظر الشتاء النووى (١٣-١٤) ، مارك أهارول ، دار الرقى ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

إن (الحقائق المرعبة حول الخطر الرهيب الذى يهدد البشرية بأسرها جراء ماوصل إليه مخزون السلاح النووى من قدرات كمية ونوعية هائلة ، هى التى كانت الدافع الأساسى وراء توجه غورباتشوف شطر الولايات المتحدة الأميركية بتفكيره السياسى الجديد سعيا وراء حالة نوعية جديدة فى علاقات البلدين ترتكز إلى اتفاقهما على وقف سباق التسلح النووى وإزالة هذا السلاح من الوجود ...)[١].

(٣) وجود التفكير الجاد من قبل رؤساء الدولتين - خاصة من بعد الفترة الستالينية بالنسبة للسوفييت - فى تخفيف التسابق ، وعدم الإسراف فى إنتاج السلاح النووى ، وتحقيق التوازن بين الدولتين ووردت هذه الدعوات على ألسنة الزعماء الأمريكيين والسوفييت[٢].

هذا بالإضافة إلى نداءات القادة والساسة والمفكرين ، وكذا تذمر الشعوب من حالة الفزع التى يعيشونها بسبب الحرب .

وبعد هذا العرض أصل إلى التالى :

(١) أن الحرب الباردة ساعدت على إنهيار الشيوعية حيث فاقمت من تردى الإقتصاد السوفييتى

(٢) أن الحرب الباردة وهى تمثل عقيدة عسكرية لدى القادة الشيوعيين وخاصة ستالين جعلت الشعب ينفر من ذلك الفكر حيث كانت هذه العقيدة على حساب غذائه وتوفير حاجياته .

(٣) أن الحرب الباردة - بالوضع العالمى الحالى - قد زالت وأصبحت الولايات المتحدة بهذا الاعتبار هى الدولة الأولى فى العالم وهذا ماتثبته الأحداث الجارية على الساحة الدولية .

---

(١) غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢١٨) ، وانظر (٢١٩) .
وانظر عملية إعادة البناء (٢٢٧) ، وانظر (١٣٤-١٣٥) .

(٢) انظر محاضرات فى الندوة الدبلوماسية الثامنة (٢٠٧-٢٠٨) .

وهكذا غدت الحرب الباردة سببا من أسباب سقوط الشيوعية حيث استنزفت اقتصادها وجعلت كل اهتمام الدولة منصبا على ملاحقة الولايات المتحدة مما جعل الشعب يعيش أسوأ حالات الجوع والفقر ، وأصبح لايجد أبسط مقومات الحياة من غذاء أو كساء ورأى القادة أن الأمر إذا استمر على هذا الحال فإنه لامحالة سينعكس على حزبهم وطبقتهم فأعلنوا تراجعهم عن كثير من مبادئهم وأهدافهم أملا فى كسب الناس داخليا والدول خارجيا.

وأعلنوا أن نظامهم يؤيد التعايش ، ويرفض الحروب والقتال وأسلحة الدمار ، وابتدعوا سياسة التعايش السلمى مع الرأسمالية على خلاف ماتقول به النظرية الأم (الماركسية) وهذا يدعونا إلى الحديث عن ذلك التعايش والتقارب والتوافق بين الشيوعيين وأعدائهم (الرأسماليين) لنرى أثر ذلك التقارب فى تراجع الشيوعيين عن كثير من مبادئهم مما ساعد على سقوط فكرهم ودولتهم .

الفصل الثانى
الوفاق الدولى

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد .

المبحث الأول : بداية الوفاق وفكرته .

المبحث الثانى : أهدافه ونتائجه .

المبحث الثالث : أثر الوفاق فى تنازل الاتحاد السوفييتى عن كثير من مبادئه .

المبحث الرابع : الموقف من الوفاق .

الفصل الثانى
الوفاق الدولى

تمهيد :

إن من حكمة الله تعالى خلقه للخير والشر ، ومن ثم الصراع بينهما ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث نكدا .

والحق واحد ولايتعدد ، أما أصحاب الضلال والانحراف والباطل فهم طرق شتى ، ومذاهب عدة . وقد يعادى بعضها بعضا ، ويقاتل بعضها بعضا ، ولكن يجمعها العداء المستحكم للحق وأهله ، فسرعان ماتزول العداوة ، وتذهب الخلافات إذا كان العدو هو الحق ، ومن هنا يجتمع الأعداء فى خندق واحد يحدوهم أمل واحد وهو القضاء على هذا العدو الذى أقض مضاجعهم ، وعلموا أنه لو انتصر وتمكن أهله أو ظهروا عليهم لما قامت لهم قائمة ، والحق الذى نعنيه هو اتباع ماجاء عن الله تعالى وأمر به رسله عليهم الصلاة والسلام ، وآخرهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ودون الدخول فى تفصيل العداء بين الحق والباطل ، نجد أن اليهود والنصارى أصحاب الديانات المحرفة ، يعادون دين الله تعالى ، ويتربصون بأهله الدوائر ، على أن هؤلاء القوم قد يقع بينهم الخلاف ويعادى بعضهم بعضا إلا أنهم يد واحدة إذا كان العدو هو المسلمين وإسلامهم ، وينبغى أن لاينخدع المرء بما يسمع أحيانا أو يشاهده أحيانا أخرى من وجود الخلاف والفرقة بين اليهود والنصارى فإن تاريخهم يشهد باتفاقهم ، وكذا وقوفهم إلى جانب بعضهم بعضا ، وقد أخبر المولى جل وعلا بذلك .

وعلى هذا الأساس فلاغرابة من تقارب المعسكرين اليهودى والنصرانى واتفاقهم على الوقوف ضد العدو الوحيد لهم وهو الإسلام والمسلمين ، وإذاكان الغرب يمثل اليهودية ، والشرق (روسيا) وماتابعها تمثل النصرانية ، فإن اليهود وراء الأحداث فيهما ، وكلاهما يعملان ضد الإسلام والمسلمين .

وأعود وأقول ولاغرابة فى ذلك ، وأضع فى هذا التمهيد هذه الحقائق.

أولا : قال الله تعالى :

{**ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض**}(١).

وقال جل وعلا : {**ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم**}(٢).

وقال سبحانه وتعالى : {**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم**}(٣).

ثانيا : أن مواقف اليهود والنصارى من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مليئة بالحقد والحسد . ولأجل ذلك وقفوا فى طريق نشر الدعوة وحاولوا قتله صلى الله عليه وسلم ، وإدخال الفرقة بين أصحابه رضى الله عنهم ، وبثوا الفتن وأشاعوا الفرقة بين المسلمين ، وكل ذلك يعطى مؤشرا حقيقيا على نفسية اليهود والنصارى تجاه المسلمين ، ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ، وكذلك كان حالهم مع أنبيائهم عليهم السلام ففريقا قتلوا ، وفريقا كذبوا .

ثالثا : لو تتبعنا التاريخ فى العصر الحديث لوجدنا أن هؤلاء الأعداء يدا واحدة فى حرب المسلمين ، وإبعادهم عن دينهم فى كل بقاع الأرض . فهم وإن اختلفوا فى بعض قضايا - غير ذات بال - إلا أنهم سرعان مايتناسون ذلك الخلاف إذا كان الأمر يتعلق بالمسلمين وقضاياهم ، حيث يكونون جميعا وقلوبهم شتى من أجل حرب المسلمين . والقضايا الدولية التى واجهت المسلمين تدل على ذلك ومن آخر الأحداث وأكثرها دلالة ماحدث فى البوسنة والهرسك حيث حدث من المهاترات فى مجالس الأمم

---

(١) سورة المائدة : (٥١) .
(٢) سورة البقرة : (١٢٠) .
(٣) سورة البقرة : (١٠٩) .

المتحدة مايندى له الجبين ، فكم من تصويت على قضية ضد مصالح المسلمين فإذا أقر أمر من قبلها ، وأيدته إحدى الدولتين الكبريين ، فإذا بالأخرى وبناء على رغبة الطرف الآخر تستخدم حق النقض (الفيتو) .

ولاحجة حين ذلك لأحد لأن الدولة العظمى استخدمت حق النقض .

رابعا : إذا كانت هيئة الأمم المتحدة يهودية وفى خدمة مصالح اليهود فإن مايفعله الصليبيون بالمسلمين فى بقاع الأرض واضحاً للعيان ، وعلى مرأى ومسمع من هيئة الأمم المتحدة ، ومع ذلك فلم تحرك ساكنا فى سبيل نصرة المسلمين أو قضاياهم بحكم أنها أصبحت هى الحكم!!

وعلى هذا فإن الشرق والغرب بعضه أولياء بعض وإن كانت هناك بعض الخلافات التى قد توجد بينهما[1]. وغالبا ماتكون خلافات من أجل اقتسام بلدان العالم لاستغلال ثرواتها ، إن التقارب بين الأعداء لحرب المسلمين أكبر بكثير من الاختلاف الذى بينهما وخاصة إذا ماأحس الأعداء بأن المسلمين أخذوا فى العودة إلى دينهم ، والعمل بأوامر ربهم وكان من الالتقاء الذى تم بين الأعداء هو قرب الرأسمالية مع الإشتراكية وهما على طرفى نقيض من حيث الأيديولوجية إلا أنه تم التضحية بواحدة منهما من أجل الالتفات للخطر القادم والذى ربما كان القرن الواحد والعشرون لصالحه دون غيره ، ومن هنا كان لابد من الحديث عن هذا التقارب بين قوتين متصارعتين فى الظاهر لنلتمس تنازل إحداهما عن مبادئها من أجل العمل مع الطرف الآخر فى الوقوف فى وجه الخطر الذى أخذ يهددهم فى عقر دارهم .

إن العلاقة بين الشرق والغرب قد مرت بمراحل عديدة ، وتراوحت مابين توتر وإنفراج ، ولاغرابة فى ذلك خاصة مع تعدد العقائد والتوجهات

---

(١) انظر عن ذلك الاختلاف : أفغانستان والاجتياح الروسى (١٦٠) ومابعدها ، محمود المرداوى ، شركة الشعاع للنشر ، الكويت ، بدون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها ، دراسات متميزة فى العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور (١٣) ، د. يوسف بن على الثقفى ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، من المقدمة .

وتصادم المصالح حينا ، وتوافقها أحيانا أخرى ، وهذا ليس فى العصر الحديث فقط بل منذ القدم ، طالما أن المصالح أحيانا مختلفة ، وكذلك العقائد متباينة فلابد من التوتر والخلاف ، ثم إن الحال كذلك فيه مايقع فى دائرة الاتفاق وبالتالى تخف حدة التوتر ، وتلوح فى الأفق فكرة السلم وتغليبها على جانب الحرب والمواجهة .

وهذا ماحدث بين الشرق والغرب فى العصر الحديث فتارة كانت الحروب وأخرى كان السلم والرغبة فيه . وقد عرفت هذه الفترات بعدة مصطلحات اشتهر بعضها فى فترات محددة أكثر من غيره ، ومنها :

* التعايش السلمى .
* الانفراج الدولى .
* الوفاق الدولى .

وبامكاننا نظرا لما تعنيه هذه المصطلحات وخاصة الأخيرين منهما أن نقول عصر مابعد الحرب الباردة .

وهنا حقيقة لابد من التنبيه عليها وهى أن هذه المصطلحات ترمى إلى شىء واحد وهو التقارب بين الأنظمة المختلفة والتعايش فيما بينها رغم الخلاف الذى قد يسبب حالة من المواجهة فيما بينها . وإذا كانت أمريكا والاتحاد السوفييتى هما الدولتان الأبرز خاصة فيما بعد الحرب العالمية الثانية فإن هذه المصطلحات تنصرف بداية إليهما ، وماسبق ذلك فيمكن اعتباره منصرفا إلى الاتحاد السوفييتى حيث أن نظامه يرفض فكرة التعايش مع الأنظمة غير الشيوعية منذ تفجير الثورة البلشفية عمليا ، ومنذ أن أعلن ماركس ذلك نظريا ، ثم ينصرف إلى الجهة التى يرغب الاتحاد السوفييتى التعايش معها . ونصل الآن إلى اعطاء صورة مختصرة عن كل مصطلح .

أولا : التعايش السلمى :

إن هذا المصطلح فى أساسه مصطلح شيوعى ، وفى إعتقادنا أن لينين هو أول من جاء بهذه السياسة ، وذلك لأن الواقع الذى عجز لينين عن

تطبيق الشيوعية فيه ، قد أجبره على التراجع عن الأفكار الماركسية النظرية ، وذلك بعد أن رأى أن الخطر يداهم دولته وفكره فى آن واحد ، فتبين له أن الفكر الإشتراكى ليس من القوة بحيث تصبح دول العالم كلها إشتراكية ، وأقر الدول الأخرى على بقائها على فكرها كى تتركه على فكره فى دولته وهذا يخالف ماجاء عن ماركس من حتمية انتصار الإشتراكية ، وزوال الرأسمالية(١).

وكانت البداية التى أطلقها لينين هى الصلح مع المانيا صلح (بريست ليتومنسك)(٢).

وقد اعترف لينين بهذه السياسة التراجعية مع الأنظمة الأخرى فقال :

(لقد عقدت معاهدة الصلح مع استونيا بشكل اضطررنا فيه أن نقبل بسلسلة من التنازلات عن أراض كانت تابعة لبلادنا ، تنازلات لم تكن تنسجم تماما مع حق الأمم فى تقرير مصيرها . ولكننا برهنا بالفعل أن قضية الحدود هى ثانوية بالنسبة لنا ، فى حين أن قضية العلاقات السلمية والمهارة فى انتظار تطور أوضاع العيش عند كل شعب هى أهم القضايا كافة ، لابل هى التى مكنتنا من كسب ثقة الأمم المعادية لنا ...)(٣).

ويقول فى بيان الاعتماد على إقتصاديات الدول الأخرى :

(يستحيل علينا أن نركز إقتصادنا على أسس متينة إذا لم ننشىء بعض العلاقات مع الدول الرأسمالية . وقد أثبتت الأحداث أن مانقوله عن بلادنا ينطبق أيضا على تلك الدول .

---

(١) راجع البيان الشيوعى (٥٥) ومابعدها .

(٢) وعن الصلح وبعض آثاره على المسار الدولى انظر الصراع على السيادة فى أوروبا ١٨٤٨-١٩١٨م ، تأليف تايلير ، ترجمة د. كاظم هاشم نعمة والدكتور يونيل يوسف عزيز ، راجع النص العربى عبد الوهاب العدوانى ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) نقلا من كتاب الإشتراكية والحرب (٨٢) ، ادوارد كارول ، نقله إلى العربية موريس صقر ، الطبعة الأولى ١٩٦١م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

ولكن هل يمكن ، بصورة عامة ، أن تقوم جمهورية اشتراكية وسط عالم رأسمالى يطوقها من كل صوب؟ هذا ماكان يبدو محالا سواء من الناحية السياسية أو من الناحية العسكرية . وهاإننا نعطى الدليل على أن هذا الشىء ممكن من الناحيتين معا . وهذا الشىء هو واقع . ولكن فى حقل التجارة؟ وفى حقل المبادلات الإقتصادية؟ وفى حقل العلاقات والمعونة وتبادل الخدمات بين روسيا المتخلفة ، روسيا الزراعية التى اجتاحها الخراب ، وبين مجموعة من الدول الفنية والمتقدمة صناعيا ، هل هذا ممكن؟ ألم يهددوا بتطويقنا بالأسلاك الشائكة حتى لانتمكن من إقامة أية علاقة اقتصادية مع الخارج؟)[١].

تقول د. دعد : (إن البحث عن أصل المصطلح يدل على أن عبارة (التعايش السلمى) هى ذات أصل سوفييتى على الأخص ، لكن التعميم الرسمى مصدره صينى . إن هذا يعنى أن المصطلح وتعميمه ماركسى وإشتراكى الأصل)[٢]

وإن كان قد ورد بعبارات أخرى زمن لينين ومن ذلك (المساكنة) بين النظامين الخصمين[٣]إلا أن مؤداه واحد ، وأول من تكلم عن هذا المصطلح بتلك العبارة هو ستالين .

ونأتى الآن لتعريف التعايش السلمى .

من حيث العموم تعرفه د. دعد بالتالى :

(ظاهرة قديمة فى العلاقات بين الشعوب والدول ، ويصبح عندها أقرب إلى السلم منه إلى ماهو عليه التعايش السلمى المعاصر)[٤].

ويعرفه الشيوعيون بقولهم : (شكل من أشكال الصراع بين النظامين الاجتماعيين المتضادين فى المسرح العالمى)[٥].

---

(١) نقلا من كتاب الإشتراكية والحرب (٨٣) وانظر مابعدها .
(٢) الثنائية الدولية (١٩١) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٩١) .
(٤) المرجع السابق (١٩١) .
(٥) المعجم (١٤٤) .

وعلى هـذا الأساس فالتعـايش عندهم يمثل مرحلـة من مراحل الصراع بين الشيوعية والرأسمالية التى يرون حتمية زوالها .

و(الكلمة الروسية للانفراج Razriadka تعنى تخفيف التسلح أو تنقية الأجواء . وهنا يقترب تعبير الانفراج لها حيث غالبا ماتستعمل ضمن مجالات مباحثات نزع السلاح أو تحديده وتعنى بشكل عام تهدئة العلاقـات السياسية والعسكـرية المتوترة بين الدول أو الشعوب ، وذلك عـن طريق عقد مواثيق عدم الاعتداء وحظر التجارب النـووية ، وعقد مؤتمرات القمـة ومـاشابه)[١].

يقول خروشوف :

(مـاذا يعنى التعـايش السلمـى بين البلـدان الـرأسمـالية وبين البلـدان الإشتراكيـة؟ إنه يعنى الاحترام المتبـادل لـوحدة أراضـى كـل دولة وللسيادة المطلقـة ، وعـدم الإعتداء ، وعـدم التـدخل فى الشـؤون الـداخلية لأسبـاب إقتصادية ، سياسية وأيديولوجية ، ومساواة ومنفعة متبادلة ، وتعايش . وقد لاقت مبادىء التعايش السلمى استحسانا دوليا كبيرا)[٢].

إن المفهـوم لهـذا المصطلـح بين القوتين كان يعنى أن يعيـش كـل من النظـامين بدون حرب لأن النظـام الرأسمالى يحمل بين جنبـاته ، وفى أفكاره أسباب زواله وإنهياره كما ذكر ذلك كارل ماركس فى فلسفته .

وإذا كـان لينين هـو المطبـق لهـذه الفلسفة والأفكـار الماركسيـة ، فإنه وبعـد عجزه بدأ افتتاح تلك السيـاسة بعد أن أعلن أن الشيـوعية ثورة على الأفكـار الـرجعية من رأسماليـة وغيرها ، فقد عقد مـع النـازية صلحا أجبره عليـه الـواقع ، وقيل بأن المانيـا عنـدما احتضنت لينين وأعـادته إلى روسيـا اشترطت عليه عقد مثل هذا الصلح معها .

---

(١) القوى العظمى بين شريعة الغاب وصراع الفيلة (٢٤) ، د. حسـن البزاز ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، دار الشئون الثقافية العامة .

(٢) نقلا مـن كتاب الإشتراكية والحرب (١٥٣) مـن خطاب ألقـى فى اجتمـاع موسكو الخاص بالصداقة السوفيتية التشيكوسلوفاكية فى ١٢ تموز ١٩٥٨م .

فالواقع أجبر لينين على التراجع فى السياسة الثورية ، وعندما رأى أنه ليس بالإمكان مقارعة الرأسمالية والانتصار عليها عدل عن هذه السياسة إلى سياسة المساكنة والتعايش مع الأنظمة الأخرى وأقر العمل إلى حد ما بمبدأ الإقتصاد الرأسمالى (رأسمالية الدولة) فأدى ذلك إلى الاعتراف بأن التعامل الإقتصادى ممكن مع الرأسمالية ثم مالبث أن رأى إمكانية التعايش السياسى أيضا .

لقد كان لهذا المصطلح وقع على نفوس القادة من بعد لينين وقد اضطرت الأحداث الدولية - والقضايا المطروحة على ساحتها - ستالين إلى الاستمرار فى هذه السياسة والدعوة إليها .

وإذا كانت الفترة الستالينية فى التغيير والتراجع كانت أشد من السابق رغم الدكتاتورية ، فإنه من البدهى أن تكون سياسته تجاه الدول الرأسمالية كذلك .

حيث كان يتحتم على ستالين هذا التعايش ، ليتجه للإصلاح الداخلى أو بتعبير أدق إلى تكميم الأفواه ، ومصادرة العقول التى بدأت تتذمر من الفكر الشيوعى الذى زاد البلاد جوعا ، ومن هنا فإن ستالين قد أعلن التراجع عن كثير من المبادىء الشيوعية سواء داخليا أم خارجيا ، وعلى رأسها التعايش مع النظام الرجعى ، الرأسمالى ذلك النظام الذى كان لابد أن يدفن فى مزابل التاريخ كما قرر انجلز وماركس ذلك من قبل . ثم جاء من بعد ستالين خروشوف .

خروشوف والتعايش السلمى :

كان خروشوف أكثر الزعماء الشيوعيين السابقين انفتاحا على الغرب ، وحدث فى فترة حكمه تغيير كبير فى السياسة السوفيتية داخليا وخارجيا ، ويعتبر هو مرسى دعائم هذه السياسة . وقد حقق من ورائها المصالح ذات الجانبين ، له وللغرب .

يقول خروشوف : (التعايش السلمى ... ليس عملا تكتيكيا ،بل المبدأ الأساسى للسياسة الخارجية السوفيتية ...

وإذا قلنا أن النظام الاشتراكى هو الذى سينتصر فى المنافسة بين النظامين ـ الراسمالى والاشتراكى ـ فهذا لايعنى قط أن النصر سيحرز عن طريق التدخل المسلح للبلدان الاشتراكية فى القضايا الداخلية للبلدان الرأسمالية ...

إن مبدأ التعايش السلمى يحظى بمنزلة دولية تنمو باستمرار ، وهذا أمر سديد ، لأن مامن منفذ آخر فى الأوضاع العصرية . وفى الواقع ، ليس هناك غير طريقين : إما التعايش السلمى ، وإما أفظع حرب مدمرة فى التاريخ . وليس هناك طريق ثالث)[١]

وهكذا كان خروشوف مرسى دعائم هذا المصطلح ومفهومه بسياسته ، ثم سار على طريقه زعماء الشيوعية من بعده . على أن ذلك لايمنع من وجود التأزم والتوتر بين القوتين العظميين فى بعض الفترات .

الشيوعيون المتشددون والتعايش السلمى :

إن التعايش السلمى بين الشيوعية والرأسمالية ، يتعارض صراحة مع العقيدة الشيوعية القائلة بالثورة الدموية ، وتحطيم القوى الرجعية الرأسمالية ولأجل ذلك انتقد لينين فى توقيع الصلح مع المانيا واتهم بالتراجع عن مبادىء ماركس ، ثم كان الأمر كذلك زمن ستالين وحصلت الفرقة بين الدولتين الشيوعيتين الاتحاد السوفييتى والصين بسبب اتهام الأخيرة للاتحاد السوفييتى بأنه تراجع عن مبادىء الشيوعية بإقرار سياسة التعايش السلمى مع الرأسمالية ، وهكذا غدت هذه السياسة فى التعايش مع المعسكر الرأسمالى دليلا على التراجع فى تطبيق الفكر الماركسى الشيوعى .

ولكون هذه السياسة تتعارض مع الفكر الشيوعى فقد واجهت النقد الشديد من قبل الشيوعيين المتشددين فمثلا وجه الشيوعيون المتشددون فى

---

(١) نقلا من كتاب الإشتراكية والحرب (١٥٢) ، وانظر مابعدها .

الصين اللوم الشديد ليوغسلافيا وقالوا عنهم بأنهم تحريفيون "وتحريفهم صادر عن خوفهم من الامبريالية والحرب . وهذا الجبن هو الذى دفعهم إلى اتباع سياسة انتهازية ، سياسة تسويات مع البرجوازية والامبريالية . لذلك فإنهم هبطوا من موقف تصفية الرأسمالية بالطرق الثورية ، إلى موقف الإصلاح واعتنقوا نظرية الانتقال السلمى من الرأسمالية إلى الإشتراكية)[١].

ونظرا لوجود الاعتراض على هذه السياسة من قبل الشيوعيين أنفسهم (المتشددين) ماكان من الشيوعيين الذين هم دونهم أو الذين يريدون الدفاع عن فكرهم إلا أن أوجدوا المبررات لهذه السياسة[٢].

ومهما قال الشيوعيون أو نافحوا عن هذه السياسة (التعايش السلمى) فإن القبول بها يعد خرقا للفكر الماركسى وإعلانا لفساده وعدم تحققه . حيث أقر هؤلاء الشيوعيون عمليا بقاء الرأسمالية والتعايش معها وهذا يناقض الفكر الماركسى من أساسه .

الأسباب التى أدت لقبول سياسة التعايش :

أولا : الإقرار من قبل الطرفين بعدم إمكانية أحدهما فى القضاء على الخصم على الأقل فى هذه الفترة ، ومن هنا فـ(لابد من الانتظار لتحقيق هذا الهدف ، أو على الأقل ، لجعل الآخر يتأقلم بشكل ثابت مع السلم القائم على اختلاف الأيديولوجيات والأنظمة)[٣].

ثانيا : تحقيق التوازن بين الدولتين مما أدى إلى التفاعل والتجاوب مع مفهوم التعايش السلمى ، واعتبر هو الحل الوحيد للحرب ، ومن هنا اعتبر التوازن فى القوى هو المقوم الحقيقى للتعايش السلمى[٤].

---

(١) الإشتراكية والحرب (١٢) .
وانظر : المعجم (١٤٦) ، الثنائية الدولية (١٩٦) .
(٢) انظر عن ذلك : المعجم (١٤٥-١٤٧) ، الإشتراكية والحرب (٧٠) .
(٣) الثنائية الدولية (١٩٩) .
(٤) انظر المرجع السابق (٢٠٠) .

ثالثا : النية فى تفادى الحرب (إنطلاقا من اعتبارها غير حتمية . طالما أن العداء مستمر وكذلك المنافسة ، وطالما أن الحرب قد استبعدت ، إذن لابد من أن يكون التعبير عن الخلافات والمنافسة سياسيا وليس عسكريا...)[١].

رابعا : ماحدث للدولتين من ضعف إقتصادى بسبب الحروب ، وخاصة الاتحاد السوفييتى منذ قيام الثورة البلشفية حيث عانت الدولة من الحروب الأهلية مضافا لها الحرب العالمية الأولى .

خامسا : مصادمة النظرية الماركسية للواقع حيث عجز قادة الثورة البلشفية من تطبيقها ، فكان لزاما القبول بهذه السياسة رغم تعارضها مع الفكر الماركسى .

أهم ميزات التعايش السلمى :

كان للتعايش السلمى ميزات عدة ومن أهمها :

(١) (محاولة التفاهم وحل المشاكل سلميا .
(٢) عدم التعرض لمصالح الآخر الحيوية .
(٣) التقبل الضمنى للحروب الاقليمية والمحدودة .
(٤) التحادث والتفاوض .
(٥) الإنفراج)[٢].

ونختم الحديث عن التعايش السلمى بالآتى :

أولا : إذا اعتبرنا التعايش السلمى مبدأ أو عقيدة فإنه يعنى بالضرورة بعده الإشتراكى ، فهذا المبدأ سوفييتى لأن التعايش السلمى مع الرأسمالية غير وارد . ولأجل هذا كانت القطيعة بين موسكو وبكين إلى أن قبلت به

---

(١) الثنائية الدولية (٢٠٠) .
(٢) المرجع السابق (٢٠٤) .

الأخيرة وعلى طـريقتها . فـالتعايش استمـر بحسـب الحاجات والشـروط الإشتراكية(١).

ثانيا : أن التعـايش السلمى يشكـل فى الغرب حلقة أو مـرحلة تمر بها العلاقـات بين النظـامين الـرأسمالى والإشتراكـى ، وإن العمـل به لمصلحـة الليبرالية إجمالا .

وظهـرت عـدةنظريات تدعو إلى التعـايش السلمـى ليحـل محل سيـاسة الصد للمد الشيوعى ومنها (التساتل ، التآكل ، الجسر) .

التسـاتل : تعنى أن التعامـل الإقتصادى والتقنى بين الشـرق والغرب ، والتلاقى الحضـارى والثقـافى مـؤهل لأن يقـرب بين الأنظمـة الإجتمـاعية والإقتصـادية وحتى السيـاسية ، إلى أن ينتهـى النظامان إلى الالتقـاء فى ظـل ثقافة عالمية .

التـآكل : وهى تعنى أن الإشتراكية لاتحترم مبادئهـا الأساسية وهى قيد الخروج عنهـا ، وبالتـالى خسـارة بعـض ميزاتهـا الأصليـة ، والنتيجـة تلاقى النظامين .

الجسـر : أى مـد الجسور بين الـدول الـرأسمالية والـدول الإشتراكيـة وترى أن الاتصال بالدول الإشتراكية سيدخل الأفكار الغربية إلى مجتمعاتها . وبالتـالى التأثير عليها ، وبالتالى جعلها تضعف أو تنهـار من الداخل لمصلحة الغرب(٢).

ثالثا : أن التعايش السلمى لايمكن اعتباره السلم الحقيقى الشامل ولكنه يغطى مرحلة من التاريخ الإنسانى فى القرن العشرين . ولاشك أنه حقق نوعا من الوئام بين الأعداء(٣).

رابعا : أن القبـول بسياسة التعـايش السلمى يعد قطيعـة وتراجعـا عن الأخذ بالفكر الماركسى .

---

(١) انظر الثنائية الدولية (٢٠٥) .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٠٥-٢٠٦) .

(٣) انظر مجلة الفيصل العدد (١٢٧/١٩٤) شعبان ١٤١٣هـ/فبراير ١٩٩٣م ، مقـال بعنوان (التعايش السلمى) بقلم الأستاذ عبد العزيز السالم .

الإنفراج الدولى

من المصطلحات التى عرفت بها العلاقات الدولية فى القرن العشرين الإنفراج ، وقد يكون مرادفا للتعايش السلمى ، وإن كان يقصد به زوال حدة التوتر ، أو خفة حدته .

ويعرف الشيوعيون الإنفراج بأنه :

(مرحلة جديدة نوعيا فى تطور العلاقات بين الشعوب والدول التى تستند إلى مبدأ التعايش السلمى بين الدول على اختلاف أنظمتها الإجتماعية)[١].

ويعتبر باتريك واجمان أن الإنفراج :

(مجرد تخفيف للتأزم الذى كان سائدا بين الشرق والغرب فى الحرب الباردة)[٢].

وعند الشيوعيين أيضا أن الإنفراج يعنى (الانتقال فى العلاقات بين الدول ذات الأنظمة المختلفة من فترة (الحرب الباردة) ومايرافقها من تشديد للتوتر والضغط بالقوة والمجابهة إلى علاقات أهدأ بين البلدان وإلى توازن القوى والأمن المتساوى للطرفين والانتقال من العزلة إلى الاتصالات والمباحثات والتبادل ومراعاة التكافؤ فى الشؤون الدولية ، والبحث عن اتفاقيات وسط فى المسائل المختلف عليها)[٣].

وتقول د. دعد :

"بدأ استعمال المصطلح والتعامل مع المفهوم من قبل المسؤولين السياسيين منذ أوائل الستينات . إن الإنفراج ، مثل مفهومى الحرب الباردة والتعايش السلمى ، لم يفرض على العلاقات الدولية فكرا ودراسة وممارسة

---

(١) المعجم (٧٩) .
(٢) نقلا من كتاب الثنائية الدولية (٢٠٩) .
(٣) المعجم (٨٠) .

بإعلان عن ظهوره أو نشأته أوحلوله ، بل فرضته تطورات معينة فى هذه العلاقات ، إضافة إلى نظرة لحال هذه العلاقات ، وحتى لتحول نوعى ، أو على الأقل لحاجة ولو مؤقتة إلى هكذا تحول . وربما كان الحافز إليه بالأخص الحاجة إلى هكذا تطور فى العلاقات الدولية)[١].

ويرى الشيوعيون أن التعادل فى القوى هو الذى سيعزز من مسألة الإنفراج ويجعله شاملا ولأجل ذلك فإن التوصل إلى الحد من سباق التسلح سيوسع الإنفراج ويعززه فى الواقع .. ولهذا فهم يرون أنه لابد من التخفيف من حدة المجابهة مع الرأسمالية لأنهم يرون أن السياسة الحكيمة بين الدولتين أصبحت ضرورة للبشرية جمعاء[٢].

وعلى هذا الأساس فالإنفراج هو التخفيف من حدة التأزم بين الدولتين نظرا لما كانت تعانيه كل منهما من تذمر داخلى وتدهور إقتصادى وتسابق فى التسلح لم يحقق لهما شيئا إلا التوازن ومزيدا من الخوف والهلع لاندلاع حرب عالمية ثالثة ، ومن هنا ونتيجة لهذه الأوضاع كان لابد من الاهتمام بهذه السياسة والعمل لها .

التحديد الزمنى لفترة الإنفراج الدولى :

اضطربت الأقوال فى تحديد الفترة الزمنية لهذه الفترة ولاغرابة فى ذلك نظرا لتداخل المصطلح مع التعايش ولكون الحرب الباردة استمرت من الأربعينات إلى نهاية الثمانينات . ويمكن القول بأن الساحة الدولية وجدت عدة فترات من الإنفراج بعد التأزم ويمكن إبرازها فى التالى :

أولا : الإنفراج الدولى بعد موت ستالين .

ثانيا : يرى البعض أن الإنفراج حدث بعد نهاية أزمة كوبا وذلك عندما سحب السوفييت صواريخهم منها .

---

(١) الثنائية الدولية (٢٠٨) .

(٢) انظر المعجم (٨٢) .

ثالثا : ويحدد البعض فترة الإنفراج من أواخر الستينات وتحديدا سنة ١٩٦٩م إلى سنة ١٩٧٥م حيث عقدت بعض المعاهدات والمؤتمرات فى تلك الفترة(١).

والذى يترجح من خلال العرض السابق للحرب الباردة والأزمات التى شهدتها الساحة الدولية أن الرأى الثالث هو أقرب الآراء فى تحديد فترة الإنفراج الدولى ، حيث شهدت تلك الفترة توقيع المعاهدات بشأن عدم استخدام الأسلحة النووية .

ولأجل ذلك كان الإنفراج الدولى أكثر ماينصرف إلى تخفيف حدة التوتر بين الدولتين فى الجانب العسكرى بل لانبالغ إذا قلنا بأن من الأسباب القوية الدافعة إلى هذه السياسة ، هو وصول القوتين الكبريين إلى امتلاك الأسلحة النووية والذرية والكيماوية .

وفى نهاية حديثنا عن الإنفراج نضع الحقائق التالية :

أولا : أن اقتناع كل من الدولتين بفشل سياسته التوسعية والقمعية ، وتسابقه فى التسلح ضد الطرف الآخر قد جعل كل منهما يرغب فى إبعاد التوتر عن الساحة الدولية .

ثانيا : أن فشل الدولتين فى السيطرة على بعض بلدان العالم أثناء صراعهما ضد بعضهما فى الحرب الباردة قد جعل كلا منهما يرغب فى حصول الاتفاق بشأن تلك النزاعات ويود ذلك الإنفراج والابتعاد عن أسلوب المواجهة .

ثالثا : لقد كان للتوازن الذى حققه التسابق فى التسلح دوره البارز فى إحلال الإنفراج مكان التأزم .

رابعا : أن تردى الإقتصاد فى الدولتين بسبب التسابق المحموم فى السلاح ، والسيطرة على الدول الأخرى قد جعل كلا منهما تؤيد هذه السياسة .

---

(١) انظر عن ذلك : الثنائية الدولية (٢١٤-٢١٧) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢١٤) ، المعجم (٨١-٨٢) .

خامسا : من الحقائق أن الشعوب وخاصة داخل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى سئمت الحال الذى كانت تعيشه وهى ترى مئات الآلاف من شعوبها يزج بهم فى دول شتى من أجل المواجهة غير المباشرة مع الدولة الأخرى . ولأجل ذلك ورغم الصعوبات التى كانت تواجه سياسة الإنفراج إلا أنها قد أوجدت لها مكانا وآثاراً واضحة فى العلاقات الدولية(١).

وقد كانت هذه الإنفراجات التى حصلت فى أوقات متفرقة من الأسباب التى دعمت فكرة الوفاق وخاصة الإنفراجات السابقة عليه كموت ستالين ، وانفراج الأزمة الكوبية . ونتحدث الآن عن مصطلح الوفاق .

---

(١) جاء فى المعجم (الشيوعية العلمية) : (إن الإنفراج يواجه منذ بداية الثمانينات صعوبات كبيرة فإن جذوره فى العالم الحديث عميقة لدرجة كافية . وإن بالإمكان ومن الضرورى صيانة ومضاعفة مكتسبات الإنفراج . ويتلخص الأمر الرئيسى فى أن أنصار الإنفراج عموما أكثر من خصومه الذين يعوزهم الأهداف البناءة بخصوص المستقبل . إن القوى المنادية بالإنفراج ، رغم تنوعها ، موحدة بعدم وجود بديل معقول غير الإنفراج ، وبأن السلام والتقدم الاجتماعى لاينفصلان عن بعضهما البعض) .

الوفاق الدولى

من المصطلحات التى عرفت فى الفترة التى شهدت تنافسا دوليا بين المعسكرين (الوفاق الدولى) ، وقد اعتبره البعض من الإنفراج والتقارب بين الجبارين ، ولاشك فى وجودهما مع بعضهما البعض إلا أن استخدام مصطلح الوفاق شاع فى فترة السبعينات وأصبح أكثر شهرة من غيره[١].

ونأتى لتعريف الوفاق .

وردت عدة تعاريف ومفاهيم للوفاق الدولى بدءا من القادة والساسة والمفكرين فى الدولتين ، ومن ذلك ماجاء عن نيكسون حيث قال : (إن الوفاق هو محاولة لتوسيع عنصر التعاون لوضع بعض الحدود على المنافسة بين الدولتين) .

ويقول هنرى كيسنجر : (بأن الوفاق هو بناء هيكل للسلام يدوم بدوام المصالح المشتركة لجميع أطرافه) .

ويعرفه جورجى ارباتوف[٢] فيقول : (بأنه عملية انتقال من علاقات التوتر المحملة بخطر المواجهة إلى علاقات التعايش السلمى والتعاون)[٣].

ويمكن تعريف الوفاق بأنه :

---

(١) انظر الثنائية الدولية عن مسألة التداخل بين الوفاق والإنفراج (٢١٨-٢١٩) وذكرت المؤلفة أن الطرفين لم يعتبرا الإنفراج من الوفاق . ولعلها هى ترى ذلك أيضا .
والذى يظهر لى من خلال عرض الأحداث أن المصطلحين قد وجدا فى فترة من الفترات مع بعضهما فبداية كان الإنفراج فى بعض التوترات القائمة ، ثم بعد أن تم الوفاق حدثت بعض الأزمات وبناء على اتفاقهما حصل الإنفراج فيها . كما دلت عليه الأحداث اللاحقة فى فترة السبعينات ومابعدها .

(٢) مدير معهد الولايات المتحدة وكندا بموسكو .

(٣) نقلا من كتاب القوى العظمى (٢٦-٢٧) .

(التخفيف من حدة التوتر الدولى ، والسعى لخلق إمكانيات الوصول إلى إتفاقيات فهم بين الأطراف المعنية ، وبالتالى حصول حالة الاسترخاء فى العلاقات)[١].

أو (التخفيف من حدة التوتر الدولى لإمكانية الوصول إلى اتفاقات فهم بين الأطراف المعنية ، والتى بالنتيجة تقود إلى تجنب الصدام العسكرى الذى يمكن حدوثه بين القوتين العظميين)[٢].

أو (الاعتراف بالحقيقة القائلة بأن الاتحاد السوفييتى ونظامه قائم ، كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة ونظامها . وليس لأى منهما الإمكانية فى الهيمنة على الأخرى عسكريا أو فكريا . وأصبح الوفاق الحقيقة المجردة فى السياسة بين الدول التى تحمل معها دلالة التسمية ذاتها)[٣].

وعلى هذا الأساس فإن الإنفراج يعنى الوفاق عند من يأخذ بهذا التعريف . وبناء على ذلك يمكن القول إن المصطلح عرف بصورة شائعة فى السبعينات وربما ينصرف على هذا الأساس إلى المحادثات التى جرت بين الطرفين من أجل ابعاد شبح الحرب النووية على الساحة الدولية[٤]، وكذلك الاتفاق على مجموعة من المبادىء الاقتصادية والسياسية التى تخدم الطرفين .

وبحديثنا عن بداية الوفاق وفكرته فى المبحث التالى سيزداد الأمر وضوحا .

---

(١) القوى العظمى (٢١) .
(٢) المرجع السابق (٢٣) .
(٣) المرجع السابق (٢٣-٢٤) .
(٤) يقول بريجنسكى عن الوفاق : (بأنه من الأولويات الأساسية فى السياسة الخارجية الأمريكية لضمان ضرورة الحد من الأسلحة الاستراتيجية مع ربط ذلك بتحديات الاتحاد السوفييتى فى مناطق أخرى من العالم كافريقيا وأفغانستان مثلا) . القوى العظمى (٢٦) .

المبحث الأول
بداية الوفاق وفكرته

لقد عاش عالم مابعد الحرب العالمية الثانية فى أزمات عديدة منها الإقتصادى ، ومنها العسكرى ، ومنها السياسى ، وقد كان للدولتين الكبريين الدور الأبرز فى هذه الأحداث وزيادة التوتر فيها ، وذلك سعيا وراء استغلال الدول ونهب ثرواتها ، أو من أجل العمل على منع زيادة نفوذ كل منهما على حساب الأخرى ، وهكذا كانت سنوات مابعد الحرب العالمية الثانية سنوات صراع وتوتر ، ورغم هذا إلا أنها لم تخل من نداءات تدعو إلى إيقاف هذا الصراع والعمل من أجل إحلال السلام وإدخال الإنفراج على قضايا التأزم(١). وبالفعل تم توقيع عدة معاهدات ، وتم الاتفاق بشأن بعض القضايا القائمة وأدت إلى تخفيف حدة ماكان بين الطرفين ولكون الأمر الذى سيطر على الدولتين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية هو التنافس فى المجال العسكرى ومحاولة التفوق فى التسلح فإن الوفاق قد عنى كثيرا بنزع السلاح بالإضافة إلى الاتفاق بشأن بعض القضايا التى كانت من الأسباب الرئيسية فى الخلاف والتوتر ، ومنذ بداية الأربعينات وجدت المطالبة بإبعاد العالم عن شبح الحروب وويلات السلاح ، فهذا روزفلت يقول فى الثامن عشر من حزيران سنة ١٩٤٢م : (ليست أرضنا غير نجمة صغيرة فى الكون . إن فى وسعنا ، إذا أردنا ذلك ، أن نجعل منها كوكبا لاتقتله الحرب ، ولايضنيه الجوع والخوف ، والمنازعات بين العناصر والأديان وألوان البشرة لتكن لنا الجرأة الكافية بحيث نبدأ هذه المهمة منذ اليوم وليكون فى مكنة أطفالنا وأحفادنا أن يعتزوا باسم الإنسان)(٢).

---

(١) انظر موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٠٨-٦٠٩) ، ورغبة الأطراف فى الاتفاق بشأن المانيا ، ونزع السلاح منذ عام ١٩٥٥م .

(٢) الحرب العالمية الثانية (٥٨٧) .

إلا أن هـذه النـداءات كـانت ضعيفـة أمـام قـوة الصـراع القـائم بين الـدولتين وكثرة الأحداث التى كانت على الساحة الـدولية حينذاك ، وكانت الستينـات رغـم استمرار الأزمـات والصراعات قد شهـدت التـوجه الجاد من الطـرفين فى إنهـاء التوتر والحد مـن التسابق فى مجال التسلـح ، فبعـد عملية خليج الخنازير فى ابريل ١٩٦١م أرسل خروشوف رسالة إلى كينيدى جاء فيها إن (أعمال قطاع الطرق هذه لايمكنها انقاذ نظامك) .

وفى الوقت ذاته وفى رسالته تلك يقول :

(نحن نرجو أن نبنى مع الولايات المتحدة علاقة على أسـاس أن الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ـ أكبر قوتين عظميين فى العـالم ـ يجب أن يوقفا صلصلـة السيوف ويضعا فى المقـدمة صالح قوتهماالعسكـرية والاقتصادية)[١].

ويمكـن القـول بأن هناك مجمـوعة من الأعمال تحققـت فى هـذه الفترة كانت بمثابة الارهاصات والمقـدمات للـوفاق فى الفترة اللاحقـة ومـن بينهـا :

أولا : (تم توقيـع كـل مـن الـولايات المتحـدة ، والاتحاد السـوفييتى وبريطـانيا العظمـى فى موسكـو بتـاريخ ٥ آب عام ١٩٦٣م على معـاهدة تمنـع التجـارب النووية فى الفضاء الخارجى ، أو بواسطـة الغـواصات تحت الماء ، وبقيـت التجارب تحت الأرض مسمـوحا بها ، نظرا لقلـة الوسائل التى تسمح بالكشف عن خرق محتمل لتلك المعاهدة ، فى هذه النقطـة ، من أجل الالتزام بهـا ، وقـد انضمت مائة من مجمـوع (١٠٢) بلدا للمعـاهدة . ورفضـت فرنسا والصين الشعبية ، التوقيع على نص المعاهدة)[٢].

ثانيا : نجاح بعض الأعمال التى تمت بين الطرفين ومن ذلك :

(أ) حياد لاوس عام ١٩٦٢م .

(٢) انشاء الخط المباشر مابين موسكو وواشنطن عام ١٩٦٣م .

---

(١) نقلا من كتاب مابعد الحرب الباردة (٥٧) .

(٢) فترة من الإنفراج الدولى (٢٤٦) ، وانظر (٢٤) .

(ج) عقد المعاهدات بين الدولتين[١].

ثالثا : عقد معاهدة بين الدولتين تمتنع الدولتان بموجبها عن وضع أسلحة نووية فى الفضاء وذلك فى الواحد والعشرين من كانون الثانى عام ١٩٦٧م .

وفى نفس العام جرى التوقيع على معاهدة أخرى فى (تلاتيلوكو Tlateloco)[٢] وتنص على جعل أمريكا اللاتينية خالية من الأسلحة النووية ورفضت فرنسا وكوبا المعاهدة ، وتضمن المعاهدة نوعين من الالتزام :

(أ) على القوى المالكة للأسلحة النووية عدم تزويد من لايملكها .

(ب) القوى التى لاتملك هذه الأسلحة لاتسعى للحصول عليها[٣].

رابعا : أن عملية الحد من الأسلحة الاستراتيجية قد بدأ التفكير فيها والدعوة إليها من كانون الأول/ يناير ١٩٦٧م خلال رئاسة جونسون الذى كتب (لرئيس الوزراء السوفييتى كوسيجين يقترح اجراء لقاء ثنائى لمناقشة مسألة الحد من أسلحة الهجوم الاستراتيجية وأنظمة الدفاع .

وفى ٢ آذار/مارس أعلن جونسون أن كوسيجين قد أجاب على خطابه ووافق على عقد محادثات أمريكية سوفيتية لتحديد (طرق الحد من سباق التسليح بالنسبة للصواريخ الهجومية والدفاعية النووية) . وبعد بدايات صورية عديدة أشار وزير الخارجية السوفييتى جروميكو فى حزيران/يونيو ١٩٦٨م عن رغبة السوفييت فى بدء المفاوضات . ففى خطاب له أمام جمع من كبار السوفييت قال جروميكو :

واحدة من المسائل غير المطروقة فى موضوع نزع السلاح هى البحث عن فهم موحد لحدود متبادلة وخطوات تخفيض حجم العبوات الاستراتيجية لنقل الأسلحة النووية ـ هجومية ودفاعية ـ بما فى ذلك مضادات الصواريخ

---

(١) انظر مابعد الحرب الباردة (٦١-٦٢) .
وانظر فترة من الإنفراج الدولى (٧) .

(٢) أحد أحياء مدينة مكسيكو حيث توجد وزارة الخارجية .

(٣) انظر فترة من الإنفراج الدولى (٢٤٧-٢٤٨) .

والحكومة السوفيتية مستعدة لتبادل وجهات النظر حول هذا الموضوع)[١].

ورغم أن السوفييت قد قاموا بغزو تشيكوسلوفاكيا (فقد اقترح جونسون على موسكو عقد مؤتمر فى كانون الأول عام ١٩٦٨م فى جنيف لهذا الغرض . ولكن السوفييت فضلوا التعامل مع الإدارة الجديدة . ولم تبدأ بالمفاوضات التى أطلق عليها فيما بعد اسم "SALT أى محادثات الحد من انتشار الأسلحة الاستراتيجية" إلا بعد شهر تشرين الثانى عام ١٩٦٩م فى هلسنكى)[٢].

خامسا : ظهور بوادر تدل على أن الطرفين بدأ فى القبول بوضع المانيا منفصلة تلك المشكلة التى عانت أوروبا منها فترة طويلة ، فالمانيا ترغب فى الوحدة وخاصة من جانب بون إلا أن الدولتين الكبريين ولرغبتهما فى تخفيف حدة التوتر فيهما بدأ القبول الفعلى بوضعها على التقسيم إلى المانيا الشرقية والمانيا الغربية ، ورفض جونسون أن يكون توحيد المانيا شرطا للوفاق بل يكون نتيجة له فقال فى ٧ تشرين الأول سنة ١٩٦٦م (إن إعادة توحيد المانيا وأوروبا يجب أن تكون نتيجة للوفاق بين الشرق والغرب وليس شرطا مسبقا لذلك الوفاق)[٣].

(وقد أثار خطاب جونسون فى بون المخاوف الموجودة دائما وإن كانت نائمة فى العادة ـ من أن الولايات المتحدة قد تقع تحت إغراء عقد صفقة مع الاتحاد السوفييتى من وراء ظهر المانيا الغربية وربما على حسابها . وكان لهذا الخوف مايبرره إلى حد ما لأن أى تخفيف متبادل لحدة التوتر بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى قد يتضمن مزيدا من الاعتراف ـ وإن كان ضمنيا ـ بالوضع الراهن)[٤].

---

(١) مابعد الحرب الباردة (٦٢) .
وانظر فترة من الإنفراج الدولى (٢٤٩) .
(٢) فترة من الإنفراج الدولى (٢٤٩) .
(٣) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٠٢) .
(٤) المرجع السابق (٢٠٢) .

وزاد الأمر صعوبة أن (بون) رأت أنها ربما تعيش فى عزلة دبلوماسية بتقارب الولايات المتحدة مع السوفييت خاصة و(أن فرنسا الشريكة الكبرى لألمانيا فى الجماعة الإقتصادية الأوروبية كانت منهمكة فى البحث عن تفاهم أوثق مع الاتحاد السوفييتى . إذن كان هناك إمكانية سنة ١٩٦٧م لأن تجد ألمانيا الغربية نفسها معزولة دبلوماسيا نتيجة وفاق يحدث بين حليفيها الكبيرين إذا لم تحاول تحسين علاقاتها مع أوروبا الشرقية)[١].

سادسا : قام الاتحاد السوفييتى بتحسين علاقاته مع بعض دول أوروبا الغربية وقام بعقد عدة اتفاقيات إقتصادية معها فـ(إضافة إلى المفاوضات مع الولايات المتحدة حول القضايا النووية فقد أبرم إتفاقا تجاريا كبيرا مع ايطاليا . ووقع عقد بين الاتحاد السوفييتى وشركة ايني الايطالية لبناء خط أنابيب بين أوكرانيا وتريستا لنقل الغاز الطبيعى السوفييتى لايطاليا لمدة ٢٥ عاما مقابل تكاليف مقدارها ٤١٣ مليون دولار . كذلك فقد أوصى الاتحاد السوفييتى على صناعة سفن فى عدد من أحواض السفن الأوربية الغربية)[٢].

سابعا : تراجع المانيا الغربية فى سياستها ، ومحاولاتها التفاوض مع الاتحاد السوفييتى .

يقول كولن وبيتر : (وفى شباط سنة ١٩٦٨م افتتحت المانيا الغربية مركزا لبعثة تجارية فى تشيكوسلوفاكيا . وفى ذات الشهر بعثت بمذكرة إلى الاتحاد السوفييتى عبرت فيها بون عن رغبة فى تحسين العلاقات بين شطرى المانيا ...

وفى أيلول سنة ١٩٦٨م ، رفعت بون الحظر عن الحزب الشيوعى الألمانى الذى كان ممنوعا قانونا منذ سنة ١٩٥٥م .

وفى أثناء سنة ١٩٦٨م سمحت حكومة المانيا الشرقية لمزيد من المواطنين الألمان الشرقيين بزيارة المانيا الغربية - وكان عددهم يقارب ١,٥

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٠٢-٢٠٣) .

(٢) المرجع السابق (٢٠٤-٢٠٥) .

مليونا وكلهم تقريبا من المتقاعدين كبار السن ـ كما سمحت للألمان الغربيين بزيارة المانيا الديمقراطية بأعداد أكبر من السنوات الماضية .

وفى كانون ١٩٦٩م استأنفت موسكو وبون مفاوضاتهما الثنائية)[١].

كما وافقت المانيا فى ٢٨ تشرين الثانى ١٩٦٩م على توقيع معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية وجاء التوقيع دليلا على جدية بون فى دبلوماسيتها وأن نواياها كانت سليمة .

وفى أوائل عام ١٩٦٩م عقد مؤتمر قمة لحلف وارسو فى موسكو لتقرير موقف مشترك نحو سياسة بون الشرقية . وكان هدف قائد المانيا الشرقية (البرخت) الحصول على اعتراف دبلوماسى بالمانيا الشرقية قبل أن يكون هناك وفاق حقيقى . ورغم التنديد من قبله بالمانيا الغربية فيما بعد حيث وصفها بأنها (دولة رأسمالية من دول حلف الأطلسى ذات سيادة محدودة) .

إلا أنه أبدى تنازلا حيث أكد أن بلاده مستعدة للتفاوض مع بون . وقامت المانيا الشرقية بوضع الحواجز فى الطرق المؤدية إلى المانيا الغربية ولعلهم كانوا يريدون القول بأنهم لايرغبون فى التفاوض لأنهم ضعفاء . إلا أن رئيس الوزراء ولى شتوف وجه فى ١١ شباط الدعوة إلى ويلى براندت للاجتماع به .

وقبل ذلك بيوم واحد قبل السوفييت بالشروع فى محادثات للدول الأربع حول برلين .

وتم الاجتماع التاريخى بين رئيس الحكومتين فى ارفورت بالمانيا الشرقية فى ١٩ آذار . وقد تفاجأ الألمان الغربيين ، وأحرج الشرقيين حيث قامت الجماهير الغفيرة من الألمان الشرقيين تحيي براندت بالهتاف والحماس وتخطت حواجز الشرطة بالقوة تحييه[٢]ولم يتمخض هذا الاجتماع عن شىء

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٠٥-٢٠٦) .

(٢) لقد كانت شعوب دول المنظومة الإشتراكية تعانى من الاضطهاد وكبت الحريات ، وعزلها عن العالم الخارجى إلا أنها بدأت ترفض الخنوع والذل الذى فرضته عليها الأفكار الشيوعية مما أدى إلى الخروج عليها فى جميع دول أوروبا وخاصة بعد الإنفتاح على الدول الغربية .

سوى الاتفاق على عقد اجتماع بالمانيا الغربية فى ٢١ أيار ، وكانت أهمية الإجتماعات تكمن فى مجرد حدوثها فقد دلت على استعداد المانيا الشرقية للحديث ، وإن كان الإعتقاد السائد فى الغرب أن ذلك كان نتيجة لضغط السوفييت[١].

وقد أدت هذه السياسة إلى آثار حسنة لدى موسكو مما كان له أكبر الأثر فى الاستمرار فى طريق الوفاق .

ثامنا : مما ساعد على هذا التقارب رغبة نيكسون فى مواصلة التفاهم مع السوفييت والعمل معهم على التفاوض السلمى ، وقال بمناسبة تسلمه مهامه بتاريخ ٢٠ كانون الثانى ١٩٦٩م : (إننا سننتقل من عصر المجابهة إلى عصر المفاوضات)[٢].

إن هذه المفاوضات والمعاهدات قد أدت نتائجها فيما بعد حتى قال ريشيلو : (نتفاوض دون توقف سرا وعلانية فى كل مكان ، دون أن نتلقى ثمارا فى الوقت الحاضر ، ويمكننا توقعها فى المستقبل ، وتلك مسألة ضرورية وهامة لمصلحة الدول)[٣].

تاسعا : وقعت المانيا الاتحادية فى ١٢ آب سنة ١٩٧٠م مع الاتحاد السوفييتى فى موسكو معاهدة عدم اعتداء وقد سر بريجنيف بهذه المعاهدة لكونها فتحت مسالك جديدة للتجارة مع الغرب وحلت بعض مشكلات السياسة الخارجية للكرملين فى أوروبا .

وبالنسبة لألمانيا الاتحادية كانت المعاهدة بمثابة إذن بموافقة السوفييت على السياسة الشرقية[٤](أى ماحدث بين المانيا الغربية والشرقية من تقارب ولقاءات) .

---

(١) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٠٦-٢٠٨) .

(٢) نقلا من كتاب فترة من الإنفراج الدولى (٢٤٥) ، وانظر مابعد الحرب الباردة (٦٥) وذكر أن السوفييت بادلوه الرد بحماس .

(٣) فترة من الإنفراج الدولى (٢٤٥) .

(٤) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٠٨) .

عاشرا : كان من أهم الاتفاقات وأكثرها أهمية توصل الدول الأربع إلى اتفاق بشأن برلين وذلك فى ٣ أيلول ١٩٧١م (والذى اعترف فيه بالحقوق والمسؤوليات الفردية والمشتركة لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا وفرنسا دون أن يجرى أى تغيير فى هذه الحقوق والمسؤوليات . وتقرر بقاء الروابط بين برلين الغربية والجمهورية الاتحادية كما أعطى أهل برلين الغربية مزيدا من حرية الوصول إلى برلين الشرقية وإلى المانيا الديمقراطية ... وقد ضحى الاتحاد السوفييتى بما اعتبره الألمان الشرقيون إحدى مصالحهم الأساسية وذلك من أجل المصالح الوطنية السوفيتية الخاصة)[١].

الحادى عشر : القيام بتخفيض عدد الجيوش والصواريخ التى تملكها كل دولة وتنشرها فى أوربا حيث عمل خروشوف على إنقاص الجيوش والتخفيض من الإنفاق على الدفاع وشئونه ، وكذا كان حال الولايات المتحدة ، وقد وجد توجه كبير فى الرأى العام للكونجرس يحبذ سحب القوات الأمريكية من أوروبا وكان كل جانب يطالب التساوى فى هذا التخفيض ، وفى أثناء المطالبة بالتخفيض من الجانبين قام المستشار براندت فى أواسط أيلول سنة ١٩٧١م بزيارة للقرم وأجرى محادثات مع الرئيس بريجينيف ومما جاء فيها بشأن التخفيض المتوازن بين الجانبين للسلاح والرجال الآتى :

(أ) (يجب أن تتوافق التخفيضات فى القوات مع المصالح الأمنية الحيوية للتحالف ، ويجب أن لاتسبب أية أوضاع عسكرية غير ملائمة لأى من الجانبين مع الأخذ فى الحسبان الفروق الناشئة عن الاعتبارات الجغرافية والاعتبارات العسكرية الأخرى .

(ب) يجب أن تتم التخفيضات على أساس متبادل وأن تجرى على مراحل وبصورة متوازنة من حيث مجالها وتوقيتها .

(ج) يجب أن تحوى التخفيضات القوات المتمركزة وقوات البلاد المحلية (الوطنية) وأنظمة أسلحتها فى المنطقة المعنية .

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢١٠) ، وانظر مابعد الحرب الباردة (٦٤) .

(د) يجب اجراء تدقيق ومراقبة كافيين لضمان مراعاة الاتفاقيات حول التخفيضات المتبادلة والمتوازنة للقوات)[١].

ودخلت هذه المعاهدات حيز الجدية حينما وقع نيكسون فى ٢٦ أيار عام ١٩٧٢م مع بريجنيف معاهدة فى موسكو حول :

("تحديد منظومات الصواريخ البالستية المضادة"

La Limitation des Systemes de Missiles antibalistigues

"واتفاقية مؤقتة بخصوص" بعض الاجراءات الخاصة بتحديد الأسلحة الاستراتيجية الهجومية" فى وقت واحد)[٢].

(لقد كانت المرة الأولى التى يوقع فيها الأمين العام للحزب الشيوعى السوفييتى ورئيس الولايات المتحدة شخصيا معاهدة ثنائية . كذلك كانت المرة الأولى التى يتم بها التوصل إلى اتفاقات حقيقية حول تحديد الأسلحة النووية .

وليست هذه الاتفاقات وحدها التى وجدت فقط ، فقد أدلى كل من نيكسون وبرجينيف فى ٢٩ أيار ، فى موسكو بتصريح حول (المبادىء الاساسية للعلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى) وأعلنا عن قناعتهما المشتركة أنه (فى العصر النووى) مامن حل سوى إقامة علاقتهما المشتركة على أساس التعايش السلمى . وأكدا أنهما يقدران (الأهمية الرئيسية لتدارك رد الفعل لأوضاع قابلة لتعريض علاقتهما للخطر) ، وقد اعترف الطرفان أن كل جهد يبذل من قبل أحدهما من وجهات النظر بينهما وعن اتفاقهما ، وتعاونهما ، فى جميع المجالات)[٣].

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢١٢-٢١٣) .
وانظر فترة من الإنفراج الدولى (٢٥١) ومابعدها ، وقال : (يجب القول أن روح المسالمة فى تلك الفترة كانت مسيطرة على الكونجرس والرأى العام) .
وانظر : القوى العظمى (٣٢) ، ميخائيل جورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٨٠) .

(٢) فترة من الإنفراج الدولى (٢٥٢) .

(٣) المرجع السابق (٢٥٤) ، وانظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢١٣) .

ولايفوتنا هنا التنبيه على زيارة نيكسون للصين عام ١٩٧٢م وذلك قبل توقيع المعاهدة مع الاتحاد السوفييتى وحققت هذه الزيارة آثارا كبيرة على مستوى التقارب بين الدولتين (الاتحاد السوفييتى - وأمريكا) ويحدثنا عن هذه الزيارة وبعض آثارها الداخلية والخارجية بالنسبة للولايات المتحدة ألان وكوماجر فيقولان :

(فى زمن الحرب الباردة شجب نيكسون كل مساوىء الشيوعية ، ومع ذلك نادى بتجميد العداء مع الصين والاعتراف بنظام شيانج كاى - شيك فى تايوان وتأييده ، وحث الأمم المتحدة للاعتراف بتايوان على أساس أنها أرض الصين الأصلية . وقد بدت هذه السياسة غير قابلة للتنفيذ .. لكن اتباعا لما شاع فى ذلك الوقت حين تهادن دى فاليرا مع بريطانيا ، وأنهى أيزنهاور حرب كوريا ، وانسحب ديجول من الجزائر ، فقد قرر نيكسون التخلص عن تأييده لتايوان وبدأ سياسة التقارب مع الصين . ونحن لانعلم بالضبط إلى أى مدى اعتمد نيكسون على مستشاره الذكى الداهية المثابر هنرى كيسنجر فيما يتلعق بتغيير سياسته . عرف عن كيسنجر اتباعه لسياسة الوفاق معتمدا على وضوح الرؤية أمامه وقوة علاقاته . فقد عرف بدءا أنه لايمكن بالطبع زحزحة الصين وروسيا عن الخط الشيوعى ، ومن ثم فقد حان الوقت لتدرك الولايات المتحدة هذه الحقائق وتسعى إلى تسويات تحقق لها التوازن الكلاسيكى لتتبوأ مكانة أفضل . وقد أعلن نيكسون فى خطابه للعالم فى ٢٥ فبراير ١٩٧٣م أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت مهيأة الآن لكى تقوم جمهورية الصين الشعبية بدور بناء فى المجتمع الإنسانى . بعدها تلاحقت الأحداث بسرعة . فقد أوقفت الولايات المتحدة أعمالها التخريبية فى مضيق فورموزا ، وطار كيسنجر سرا إلى بكين لتحديد موعد ، ثم يعلن الرئيس أنه سيزور الصين قبل مايو ١٩٧٢م . وفى نوفمبر ١٩٧٢م وبعد أن أصبح جليا أن هناك أغلبية داخل الأمم المتحدة تسعى لعزل وفد تايوان وتحويل مقعدها إلى بكين ، أظهرت الولايات المتحدة مقاومة مظهرية لهذا الاتجاه وإن كانت فى حقيقة الأمر قد قبلت هذه الحقيقة المؤلمة .

كان لهذا الإنقلاب فى سياسة نيكسون جوانبه المثيرة أيضا . فقد أنهكت سياسة الدعم المستمر لنظام ثيو الفاسد قوى الحزب الجمهورى ومن ثم فإن رحلة سلام إلى بكين ستكون مفيدة جدا لإصلاح الأوضاع فى الداخل . هذه الرحلة كانت مجرد جزء من مخططات كيسنجر العالمية . فكان يسعى إلى تخفيف حدةالتوتر مع روسيا لإنعاش التبادل التجارى مع هذه الدول التى تنمو بسرعة ، مع تخفيف حدة سباق التسليح النووى . وفى سعيه من أجل تحقيق أهداف دولية عامة لإيجاد نوع من الاستقرار الدولى استطاع كيسنجر إقناع الرئيس بأنه يمكن تخفيف حدة التوتر مع الصين وروسيا بإظهار العطف عليهما بالتلويح بالإغراءات التجارية ، ثم التخلص من حصار هايفونج والقصف العنيف لهانوى ومحاولات سحق الخصوم فى آسيا .

وإلى جانب جدية المناورة التى تحققت لأمريكا . فإن هذا الإنقلاب فى السياسة كانت له مزايا أخرى .. فقد ساعد إلى حد كبير فى تخفيف حدة التوتر الدولى ، وتم التفاوض بين روسيا والولايات المتحدة بشأن التوسع فى تجارة القمح ، وضمنت كل منهما للأخرى حق عدم الاعتداء النووى طبقا لاتفاقية سولت المجددة . وتدفق رجال الأعمال الأمريكيون على موسكو بحثا عن مزيد من اتفاقيات الأعمال . أما الصين ، التى كانت يوما، جزءا من المخطط الشيوعى الشيطانى ، أصبحت الآن ينظر إليها كدولة صالحة لما تحققه من إنجازات إجتماعية وإقتصادية)[١].

---

(١) موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٥٦-٦٥٧) ، وانظر (٦٩٧) ومابعدها . وقال : (ساعدت هذه السياسة تجاه الصين فى رأب الجراح المتقيحة وبالتالى ساهمت فى احتمال انحسار التدخل الصينى فى شؤون كوريا ، كما ساعدت فى زيادة معدلات تصدير الحبوب والميكنة والتكنولوجيا بما يوحى بزيادة معدلات بيعها إلى السوق العالمى . لكنها فى نفس الوقت أنهت حدة توتر العلاقات مع الاتحاد السوفييتى وقضت على خطر أن تلعب الحكومة الأمريكية بورقة الصين) . (ص ٦٩٧) .

ومن هنا يمكن اعتبار عام ١٩٧٢م الانطلاقة الحقيقية الواضحة للوفاق ، ولاينفى ذلك ماذكرناه من تقارب واتفاق منذ بداية الستينات حيث كانت الارهاصات لما سيعقبها من معاهدات واتفاقيات أخرى . لقد كان لزيارة بكين من قبل رئيس الولايات المتحدة ، وكذا الذهاب إلى موسكو لتوقيع معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية أكبر الأثر فى اعلان سياسة الوفاق يقول دانييل:

(شكلت زيارة الرئيس الأمريكى لبكين عام ١٩٧٢م حدثا دبلوماسيا رئيسيا فى شرق آسيا ، ولم يماثل هذا الحدث فى أهميته أى شىء حتى الرحيل الأمريكى عن فيتنام أدى اهتمام الاتحاد السوفييتى بالعلاقات الصينية ـ الأمريكية إلى توقيع القادة الشيوعيين لمعاهدات جديدة مع الغرب (بما فى ذلك معاهدة برلين ومعاهدة الحد من الأسلحة النووية) وفتحت بذلك فترة جديدة من العلاقات الأمريكية ـ السوفيتية أطلق عليها (الوفاق) رغم أن التنافس بين الطرفين استمر ، إلا أنهما استطاعتا فى غضون بضع سنوات من تحسين علاقاتهما لدرجة أنه أصبح بالإمكان القول بأن فترة الحرب الباردة قد انتهت)[١].

ويقول مكنمارا : (ماأن هل عقد السبعينات حتى دخله السوفييت وهم شركاء متعاونون مع الولايات المتحدة وأوروبا الغربية فيما اصطلح على تسميته فورا بالوفاق Detente)[٢].

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن هذه الفترة التى بدأ فيها الوفاق يظهر على الساحة لم تخل من المجابهة بين الطرفين حيث بقيت مسألة التسابق فى التسلح قائمة رغم المعاهدات كما بقيت الخلافات قائمة على بعض القضايا وخاصة حول بلدان العالم الثالث .

---

(١) العالم فى القرن العشرين (٤٦٤) .
(٢) مابعد الحرب الباردة (٦٤) .

ثانيا : أن هذا الوفاق وخاصة فى بدايته وكما لاحظنا من خلال عرضنا السابق كان منصبا على الساحة الأوربية ، ومسألة الأسلحة التى يمتلكها كل من الطرفين وكانت مسألة المانيا من أهم القضايا التى حقق التفاهم عليها تقدما فى التقارب بين الدولتين ، ولولا الاتفاق بشأنها لما جرت الاتفاقيات الأخرى من بعدها(١).

ثالثا : من المسلم به أن هذه الاتفاقيات والمعاهدات كان لها أثر كبير على الأحداث اللاحقة والتقارب الأكثر بين الدولتين والذى كانت تطمح كل واحدة منهما فى تحقيق أهدافهما من ورائه وهذا يوصلنا للحديث عن أهداف الوفاق ونتائجه .

---

(١) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٠١) .

المبحث الثانى
أهدافه ونتائجه

لاشك أن هناك أهدافا عديدة كانت ترغب كل دولة فى تحقيقها ودون شك أن هذه الأهداف مرتبطة هنا بالدوافع التى جعلت الطرفين يوافقان على التقارب فيما بينهما . وفى اعتقادنا أن أهم هذه الدوافع هى :

أولا : وجود القوة النووية عند الدولتين حيث أصبحت كل دولة تنظر إلى الأخرى على أنها أقوى منها ، وأخذت تسابقها فى التسلح وبعد الاقتناع من الطرفين بفساد هذه السياسة اتجها إلى سياسة المهادنة والمصالحة ، حيث يرى الإشتراكيون أن قوة فكرهم وكذلك وجود التناسب بين القوى فى النظامين العالميين كان لصالح الإشتراكية ، وفى هذه الظروف لم يعد البرجوازيون يؤملون فى حل الخلاف التاريخى مع الإشتراكية بقوة السلاح (١).

ولأجل امتلاك هذه القوة الهائلة من الأسلحة المدمرة التى قد تحكم على الطرفين بالهلاك كان لابد من تخفيف حدة التوتر والتقارب ومحاولة

---

(١) انظر المعجم (٨٠) ، وانظر فترة من الإنفراج الدولى (٢٥٤) ، وانظر القوى العظمى (٣٧) وفيه :
(إن علاقات كل من الدولتين العظميين تجاه بعضهما البعض وتجاه بقية العالم ، كانت قد أخذت أشكالا وطفرات واسعة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وليومنا هذا . والتقارب أو التفاهم بين العملاقين ماهو إلا نتيجة طبيعية لعلاقة قوتين منفردتين ومتساويتين إلى حد ما . وأن كلا منهما يمتلك صفات متشابهة بعض الشىء لكونهما دولتين من طراز واحد . فقد أصبح مايجمع بين هاتين الدولتين هو أكثر بكثير مما يفرق بينهما ، وكما وصفها سترلينج Sterling بالقول ، يمكن لهما أن يكونا قوتين ومطمئنتين بدون الحاجة إلى الحصول على القوة الكاملة والمطلقة ، وأن كلا منهما يمتلك المقدرة غير المحدودة . وبما أن كلا منهما لايمكنه انهاء الطرف المقابل وكل منهما يمتلك الضمانات التى تؤكد عدم احتلاله من قبل الطرف الآخر . فإن هذا التوازن قادهم لإمداد سياساتهم بقبول بعضهم البعض وأيضا أطلق أيديهم إلى التحرك بعلاقات مقبولة فيما بينهم ، ومع القوى الأصغر فى السياسة الدولية) .

التنازل وجاءت الدعوات الكثيرة التى تطالب بالحد من سباق التسلح ، وعقدت كثير من المفاوضات بهذا الشأن حظر فيها استخدام الأسلحةالكيمائية والجرثومية .

وجماع القول أنه بعد أن أدرك الطرفان خطورة الحرب النووية وآثارها المدمرة بدأ كل منهما فى التفكير الجاد فى التوصل إلى الإتفاق بشأنها.

ثانيا : الفشل الذريع الذى منيت به الشيوعية من الداخل فأصبح القادة يفكرون فى تحجيم الخطر الخارجى ، وذلك بالتقارب معه ومحاولة أن يكون جانبه مأمونا خاصة وأن العداء معه قد كلف الاتحاد السوفييتى الإنهيار التام فى إقتصاده حيث وجه ستالين موارد البلاد للتصنيع الحربى من أجل مقاومة الرأسمالية الغربية .

وهذا لايعنى أن الولايات المتحدة كانت بمنأى عن هذه الأوضاع بل اشتركت مع الاتحاد السوفييتى فيها . يقول أندريه فونتين :

(ولعبت الأوضاع الاقتصادية دورا بارزا كمساعد على الإنفراج . فبعد ٤٧ سنة من ثورة أكتوبر بقى الإنتاج الزراعى فى الاتحاد السوفييتى ضعيفا نتيجة عدة عوامل منها طبيعية وفنية ، فلم تنجح إلى المستوى المطلوب عمليات استصلاح الأراضى فى كازاخستان ، لتكون مع أوكرانيا أضخم مخازن الحبوب فى العالم . ولم يلتفت خروتشوف لنصائح المهندسين الزراعيين السوفييت ، الذين قاموا بدراسة الآفات التى أصابت الزراعة الأمريكية لاتباعها نظام عمليات الزراعة الخفيفة ، وبهذا وجد الاتحاد السوفييتى نفسه مضطرا لشراء الحبوب من البلدان الأجنبية ، أمريكا وكندا ، واللجوء إلى الزراعة الكثيفة ومضاعفة إنتاجه من الأسمدة الكيماوية بمعدل ثمانية أضعاف ولتطبيق هذا البرنامج ألغى الاتحاد السوفييتى أبحاثا عديدة فى مجال الفضاء ، ونفقات التسلح ، وحذت أميركا حذو الاتحاد السوفييتى فأعلنت من جانبها عدة إجراءات إقتصادية بتخفيض الإنفاق العسكرى ، وإغلاق بعض معامل

إغناء الأورانيوم ...)[١].

ثالثا : اتفاق مصالح القوتين فى بعض الجوانب على الساحة الدولية مما جعلهما يفكران جديا فى التقارب والتعايش والوفاق من أجل مواجهة الأحداث العالمية ، وقد أعلن آرباتوف[٢] فيما بعد ذلك الأمر صراحة فقال : (نريد أن نرى فى الولايات المتحدة الأميركية شريكا ، على الرغم من كل الاختلافات القائمة بيننا ، ورغم كل ماينفرنا (كذا) فى هذا البلد وهذا المجتمع ، لسنا بحاجة على الإطلاق لولايات متحدة أميركية عدوة (...) ولاإلى أن نسجل نقاطا فى الصراع الدعاوى ، ولاإلى أن نهزم الطرف الآخر فى ساحة المعركة ، بل إننا بحاجة إلى أن نحل ، بالتعاون معه ، القضايا التى وضعها التاريخ على جدول أعمالنا . على هذه الشاكلة ننظر للوضع فى موسكو)[٣].

وبالفعل تم الإتفاق بينهما على عدد من القضايا القائمة على الساحة الدولية حينذاك[٤].

رابعا : تنامى الصحوة الإسلامية وانتشارها ، وخوف الغرب والشرق معا من الأصولية الإسلامية كما زعموا . فكان لابد من توحيد الجهود من أجل مقاومتها ومحاولة القضاء عليها . وقد اهتموا بدراسة هذه الصحوة ، وآثارها وتوجهها وكل ذلك من أجل القضاء عليها أو التقليل من آثارها ، ولاأدل على أن هذه الصحوة قد جذبت القطبين بعضهما إلى بعض مما جاء ، عن نيكسون فى كتابه (الفرصة السانحة) الذى رأى أن الخطر الحقيقى ليس فى الشيوعية بل فى الإسلام[٥].

---

(١) فترة من الإنفراج الدولى (٢٥) .
(٢) الناطق الرسمى بلسان فريق جورباتشوف .
(٣) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٩٣) .
(٤) انظر فترة من الإنفراج الدولى (٢٥) .
(٥) سيأتى شىء من أقواله وتقسيمه للعالم الإسلامى عند حديثنا عن الأهداف من الوفاق .

خامسا : رغبة اليهود فى وجود قوة واحدة تسيطر على العالم ، وتتحكم فى ثرواته ومقدراته ، بعد أن أدت الشيوعية الغرض المطلوب منها فى خدمة اليهود . فأرادوا التمهيد لإسقاط المعسكر الشرقى لينتقلوا إلى الخطوة الأخرى فى جعل العالم كله يدور فى فلك الولايات المتحدة الأمريكية اليهودية .

وبعد ذكر أهم الأسباب الدافعة لهذا الوفاق نأتى لنتبين أهم أهدافه .

أهدافه :

لاشك أن الطرفين كانا يهدفان إلى تحقيق عدة مصالح من وراء هذا الوفاق ، يشتركان فى بعضها وينفرد كل منهما بمصلحة وهدف يرمى إلى تحقيقه . ويمكن إبراز أهم الأهداف فى الآتى :

أولا : التخفيف من حدة التوتر فى سباق التسلح بين الدولتين والذى كلفهما موارد إقتصادية هائلة . وبالفعل كانت المعاهدات التى وقعت بين الطرفين كثيرة ومتنوعة بشأن الحد من انتشار الأسلحة . بل لانبالغ لو قلنا أن الوفاق أول ماينصب على مسألة التسلح والحد من انتشاره(١). ولاشك أن هذا يعتبر ضربا للأيديولوجية الشيوعية والتى ترى أنه لابد من الثورة ، ولابد من الصراع ضد الأنظمة الرجعية وعلى رأسها الرأسمالية ، هذا مع التنازلات التى قدمت من قبل السوفييت للغرب عامة وللولايات المتحدة الزعيمة الأولى للرأسمالية خاصة .

ثانيا : تحقيق مصلحة اليهود على المستوى العالمى من قبل الطرفين كل بطريقته إلى أن يصلوا فى نهاية المطاف إلى السلام الذى كانوا ينشدونه فى أرض فلسطين المسلمة . وإذا كانت ردود الفعل اليهودية فى بداية الأمر معارضة للوفاق الدولى فإنها سرعان ماإقتنعت بما جاء عن كيسنجر فى عرضه للمصالح التى سيجنيها اليهود من وراء هذا الوفاق .

---

(١) ذكر كولن وبيتر قسمين للوفاق (العسكرى ، والسياسى) .

فعداء اليهود للسوفييت له أسباب عديدة وأهمها :

(١) تزويد العرب بالسلاح .

(٢) وقوفهم فى بعض القضايا مع العرب فى فلسطين (على الأقل ظاهرا) .

(٣) فرض القيود على الهجرة اليهودية إلى إسرائيل[١].

ولأجل (هذه الأسباب وغيرها ، هاجمت الجالية اليهودية الأمريكية سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفييتى . وقد اجتمع هنرى كيسنجر مرات عديدة مع زعماء يهود أمريكا ، واستعرض معهم الأسباب القوية التى أدت إلى سياسة الوفاق .. ولعب كيسنجر دورا كبيرا فى محاولة اقناع هؤلاء الزعماء بأن الوفاق هو فى صالح إسرائيل قبل أن يكون فى صالح الولايات المتحدة الأمريكية!

وتتلخص وجهة نظر دكتور هنرى كيسنجر فى النقاط التالية :

* الاتحاد السوفييتى هو المصدر الوحيد ـ وقتذاك ـ لأسلحة القوات المسلحة المصرية . وإسرائيل تحصل على احتياجاتها من الأسلحة من الولايات المتحدة . ومصر فى حاجة إلى المزيد من الأسلحة الحديثة لمواجهة ماحصلت ـ وماستحصل ـ عليه إسرائيل . ومعنى عدم حصول مصر على المزيد من الأسلحة السوفيتية ، هو الإبقاء عليها عاجزة عن شن حرب جديدة ضد إسرائيل . وبالتالى يمكن تجميد الموقف فى الشرق الأوسط إلى أجل غير مسمى!

* فى مباحثات القمة بين الرئيس الأمريكى والزعيم السوفييتى ، تم الاتفاق على إتباع سياسة ثنائية تحقق عدم تدخل أية دولة من الدولتين فى أزمة الشرق الأوسط ، تدخلا يساعد على تجدد الاشتباكات العسكرية . أو بمعنى آخر وافق الاتحاد السوفييتى على عدم تزويد مصر بالأسلحة التى تحتاج إليها لشن الحرب الهجومية ضد إسرائيل!

---

(١) انظر الروس قادمون (٢٧١) .

* الاتحاد السوفييتى لايوافق على أن الحل العسكرى هو الحل الطبيعى لحل أزمة الشرق الأوسط . وفى هذا كسب كبير للولايات المتحدة ولإسرائيل فى نفس الوقت . لأن المطلوب هو الإبقاء على الحالة الراهنة بأية وسيلة . وكلما طالت الأزمة بلاحل ، رسخت أقدام الاحتلال الإسرائيلى ، ونسى العالم المشكلة ذاتها!

* لولا سياسة الوفاق بين موسكو وواشنطن ، لما وافقت الحكومة السوفيتية على إلغاء القيود المفروضة على هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل . لقد بذل كيسنجر - شخصيا - جهودا ضخمة لدى السلطات السوفيتية ، خلال زياراته المتعددة لموسكو ، حتى نجح فى اقناعها بفتح أبواب الهجرة أمام طلابها من اليهود . ليس هذا فقط ، بل إن كيسنجر حصل من القادة السوفييت على موافقتهم بخروج أعداد كبيرة من كبار العلماء اليهود ، الذين كانت موسكو ترفض هجرتهم لشدة احتياجها إلى علمهم وخبراتهم ، وبسبب المناصب الرئيسية والحساسة التى يشغلونها فى المصانع والمعامل والجامعات السوفيتية .

بهذه المبررات استطاع هنرى كيسنجر أن يقنع زعماء يهود الولايات المتحدة - من حيث المبدأ وانتظارا للتنفيذ - بسياسة الوفاق مع الاتحاد السوفييتى .

واتفق زعماء يهود أمريكا على عدم القيام بحملة عنيفة ضد سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفييتى انتظارا لما سيحدث مستقبلا بالنسبة لموقف السوفييت من مشكلة الشرق الأوسط ، من جهة ، وموقفها من هجرة اليهود إلى إسرائيل ، من جهة ثانية)[١].

وبالفعل حقق اليهود من وراء الوفاق الشىء الكثير ولو لم يكن إلا هجرة اليهود السوفييت وأكثرهم مفكرون ومخترعون مما سيكون له أثره على الدولة الإسرائيلية اليهودية ونموها الإقتصادى .

---

(١)

ثالثا : العمل على التصدى للتيار الإسلامى (الأصولى!) الذى أخذ يهدد الوجود اليهودى والنصرانى حيث أصبح الخطر الأكبر الذى يجب أن تتجه الجهود لمقاومته والعمل على إزالته . وإذا كانت سياسة الوفاق قد برزت فى عهد الرئيس نيكسون فلاغرابة أن يصرح أو يلمح بذلك الخطر فى كتابه (الفرصة السانحة بعد نهاية الحرب الباردة هل الإسلام هو الخطر) .

وهذا هدف يشترك فيه الأعداء مهما كانت انتماءاتهم أو توجهاتهم .

إن ماصرح به نيكسون فى كتابه لهو شديد الصلة بكونه الطرف الذى فجر الوفاق من جانب الولايات المتحدة وننقل بعض ماجاء عنه .

يرى نيكسون أن العالم الإسلامى ينقسم إلى ثلاثة أقسام من حيث الحركات السياسية فيه :

(١) الأصوليون :

ويرى نيكسون أن هؤلاء هم (الذين يحركهم حقدهم الشديد ضد الغرب ، وهم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضى ، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وينادون بأن الإسلام دين ودولة ...) .

(٢) الرجعيون :

ويقول عنهم : (هؤلاء هم الدكتاتوريون الذين يؤمنون بالحزب الواحد ، ويسبغون الشرعية على تصرفاتهم من خلال الأيديولوجية القومية المتعصبة ، وهم يسيطرون على بعض الدول الإسلامية ... وهم معادون للغرب كالأصوليين . وشعار الرجعيين هو محاربة الإمبريالية ، وذلك لكى يكسبوا تأييد الجماهير الشعبية ، وكانت تجمعهم مع الاتحاد السوفييتى الكراهية لأمريكا وحلفائها) .

(٣) التقدميون :

ويقول عنهم : (هذه المجموعة نشاطها محسوس ، ولكن قل أن تشعر بوجودها ، وهى تسعى إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضر من الناحية السياسية والإقتصادية ، وتتميز هذه المجموعة بالمرونة ، ولاينعتون الغرب

بأنه (ملحد) ولكن يطلقون عليهم اسم (أهل الكتاب) وبعض الدول التى يسودها التقدميون هى دول ديمقراطية ، كتركيا ، وباكستان ، وبعضها مثل مصر واندونيسيا ، بلاد مفتوحة ولكنها لاتصل فى ديموقراطيتها إلى المستوى الغربى ، وإن كان صندوق الانتخابات هو الطريق للشرعية السياسية فيها ، وهدف الزعماء التقدميين السياسى هو أن تستعين الدولة بأحدث تكنولوجيا غربية ، مع الاحتفاظ بعراقة وأصالة البلاد وتقاليدها الإجتماعية)[١].

وبعد أن حدد هذه الاتجاهات الثلاثة أخذ يبين أيها ينبغى على الولايات المتحدة أن تدعم فقال :

(يجب علينا أن نعاون التقدميين فى العالم العربى ، ففى ذلك مصلحتهم ومصلحتنا ، فهم محتاجون لأن يعطوا أنصارهم بديلا لأيديولوجية الأصوليين المتطرفين ، وانغلاق الرجعيين)[١].

ويقول : (إن مفتاح السياسة الأمريكية يكمن فى التهاون الاستراتيجى مع المسلمين التقدميين فقط ، ويقصر التعاون مع الأصوليين المتطرفين والرجعيين على الناحية التكنيكية فقط ، ولما كنا نشارك التقدميين فى أهدافنا فيجب أن يغطى تعاوننا جميع المجالات الإقتصادية والأمنية ، ونظرا لأننا نختلف مع الأصوليين والرجعيين فى قيمهم فيجب ألا تتعدى روابطنا معهم الاحتياجات العاجلة الوقتية ، علينا أن نعمل معهم ماداموا فى السلطة ، ولكن لاندخل معهم فى مشاركة واسعة المجال ، لاضرورة لأن نفرض عليهم - الأصوليين والرجعيين - حظرا شاملا للتجارة ، أو غير ذلك من الإجراءات الحادة ، ولكن علينا أن نبتعد عن التبريرات "المائعة" لتصرفاتهم ، أو عدم التدخل فى صراعاتهم مع جيرانهم . يجب ألا نسقطهم من حساباتنا ، ولكن بالقطع لايجب علينا ألا نساهم فى تقدمهم ، وعلينا أن نلتزم بسياسة العين بالعين والسن بالسن فى كل حالة معهم)[٣].

---

(١) الفرصة الساخة (١٤٠) .

(٢) المرجع السابق (١٤١) .

(٣) المرجع السابق (١٤٢)

ثم يبين نيكسون أن هناك من يحذر من تنامى الصحوة وزيادة عدد سكان المسلمين ويطالب هؤلاء بالاتحاد مع السوفييت لمواجهة المد الإسلامى إلا أنه يبين أن المسلمين من الخلاف بحيث لايمكنهم ذلك من فعل أى شىء يذكر(١).

ومع ذلك فهو لايهدف إلى أن الإسلام لاخطر منه ، أو إلى أنه لايجب الوفاق مع الاتحاد السوفييتى فقد ذكر تخوفه من زيادة عدد المسلمين فى الاتحاد السوفييتى ، وذكر أنهم يبلغون ٥٠ مليونا وقال : (وإذا استمر معدل تزايد السكان كما هو ، فسوف يزيد عدد السكان المسلمين فى روسيا على الروس أنفسهم فى القرن القادم)(٢).

وذكر أن الإسلام وقف فى وجه المد الشيوعى وأنه هو الذى منع الشيوعية من التغلغل فى العالم الإسلامى فقال :

(وقف الإسلام بصلابة ضد الشيوعية أقوى مما وقفت المسيحية ضدها وباستثناء اليمن الجنوبية ، سابقا ، فقد كان ترحيب العالم الإسلامى بالسوفييت راجعا إلى رغبتهم فى شراء السلاح منهم ، وليس لحبهم للشيوعية وقد كان للوازع الدينى فى الدول الإسلامية أكبر أثر فى عدم تغلغل السوفييت فى العالم الإسلامى)(٣).

ومن هنا يرى نيكسون توجيه العالم الإسلامى الوجهة الصحيحة ورسم السياسة طويلة المدى التى تؤدى لذلك التوجيه وقال : (وعلى الولايات المتحدة أن تساعده فى ذلك بطريقة بناءة)(٤).

لقد أصبح الغرب والشرق يتخوف من الصحوة الإسلامية ، ويرون امتدادها داخل دولهم ، ومن هنا فلابد من مقاومتها والعمل على منع

---

(١) الفرصة السانحة (١٣٥) .
(٢) المرجع السابق (١٣٦) .
(٣) المرجع السابق (١٣٨) .
(٤) المرجع السابق (١٣٩) .

انتشارها ورواجها(١).

وإذا أردنا معرفة بعضا من الأهداف التى ترغب كل من الدولتين تحقيقها فيمكن ابرازها فى الآتى :

(أ) **الولايات المتحدة الأمريكية :**

أولا : أن من المسلم به أن الولايات المتحدة أرادت تحقيق أهداف عديدة من وراء سياسة الوفاق خاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن اليهود هم وراء سياستها الداخلية والخارجية . ولاشك أن الشعب الأمريكى قد أعلن تخوفه من هذه السياسة خشية أن ينتشر الفكر الشيوعى والدعاية الشيوعية فى بلادهم وتسيطر الشيوعية بقيادة الإمبراطورية الشريرة على العالم . ولكن هذه المخاوف والاعتراضات التى صدرت لم تكن لتمنع الرئيس نيكسون من المضى فى سياسة الوفاق ، فالولايات المتحدة هدفت إلى تحقيق عدة مطالب سياسية : منها إبعاد موسكو عن التدخل فى فيتنام لتتمكن الولايات المتحدة من تحقيق أهدافها هناك ، جعل الاتحاد السوفييتى يقبل بالسياسة التى تريدها

---

(١) يقول صبحى محمد جبر إن (الأمر الذى لاجدال فيه أن "اليقظة الإسلامية" التى يقف المسلمون على أعتابها اليوم ، والتى شقت طريقها فى قلب وفى عقل كل مسلم بعد سنوات المعاناة التى عاشتها المجتمعات الإسلامية ، حقيقة لاينكرها أحد هذا الواقع يدل على أن الإسلام قوة لاتقهر ، وأن كل المخططات التى وضعت للقضاء عليه قد ذهبت أدراج الرياح وظهر خبثها للعيان ، وقد يظن بعضنا عن حسن نية أن المعركة بين الإسلام وأعدائه قد انتهت بانتصار الإسلام أو توقفت ، كلا . فالحقيقة أن أعداء الإسلام الذين يقول الله عنهم {ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا} - سورة البقرة : ٢١٧ - لم يكلوا ولن يملوا ، وكلما سقطت لهم راية رفعوا غيرها ، وكلما انكشفت وسيلة استبدلوا بها سواها وكلما خسروا معركة تحرفوا لموقع آخر يقاتلون فيه) .
مجلة الفيصل ، العدد (٩٦/١٩٤) من مقال بعنوان (الصحوة الإسلامية بين مخاوفة الغرب وطموحات الشرق) ، وقد ذكر عداء الغرب للمسلمين ومايبثه المستشرقون من سموم ، وأبان أنه لامجال للخوف من الإسلام لأن البشرية ماعرفت دينا مثله فى تسامحه مع الأعداء بشهادة الأعداء أنفسهم . انظر (١٩٥) .

الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط . السماح لليهود السوفييت بالهجرة إلى إسرائيل . وهذا بدعم من اليهود المسيطرين على سياسة الولايات المتحدة .

وقد (علقت صحيفة واشنطن بوست ـ الواسعة الانتشار والتأثير فى الولايات المتحدة ـ على هذا كله فقالت أن مكاسب أمريكا السياسية والاستراتيجية تفوق بكثير مكاسبها الإقتصادية إذا ماتحققت أهداف هنرى كيسنجر من وراء سياسة الوفاق الأمريكى السوفييتى . فكيسنجر يريد أن يبعد موسكو عن التدخل فى فيتنام . ويريد أن يجمد الموقف السوفييتى فى الشرق الأوسط . ويريد ـ أخيرا ـ أن يفتح أبواب الهجرة إلى إسرائيل أمام آلاف اليهود السوفييت . وهذه المكاسب السياسية كلها مقابل حفنة قليلة من المكاسب الإقتصادية تحصل عليها الحكومةالسوفيتية ..

وبالفعل تحققت أهداف هنرى كيسنجر .

..فقد توقف الدعم السوفييتى عن فيتنام الشمالية! وأصبحت موسكو أقل تأييدا وأكثر اعتدالا تجاه هانوى!

كما أن الاتحاد السوفييتى أعلن ـ صراحة ـ أنه لايحبذ أبدا الحل العسكرى بالنسبة لأزمة الشرق الأوسط! وأكد هذا الرأى بشكل قاطع عندما أوقف إرسال الأسلحة إلى مصر فى وقت ضاقت فيه جميع أبواب الحلول السلمية والسياسية فى وجه أنور السادات ولم يعد أمامه سوى الحل العسكرى وحده!)[١].

ولم يستمع نيكسون للاعتراضات التى واجهته فى سياسة الوفاق ومضى قدما فيها نظرا لما ستحققه للولايات المتحدة من أهداف .

يقول ابراهيم سعدة : (وكل هذه الاعتراضات الأمريكية ، لم ترجع الرئيس الأمريكى السابق نيكسون عن المضى فى تنفيذ سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفييتى .فقد آمن بأن الوفاق سيكون فى صالح بلاده ، وفى صالح الدول الحليفة مع الولايات المتحدة ، قبل أن يكون فى صالح الاتحاد

السوفييتى أو فى صالح الدول الصديقة والحليفة للاتحاد السوفييتى!

كما آمن هنرى كيسنجر أن التنازلات التى ستقدمها الولايات المتحدة ، من أجل تحقيق سياسة الوفاق ، أقل بكثير جدا من التنازلات التى سيقدم عليها الاتحاد السوفييتى . فحاجة السوفييت إلى الانفتاح على الغرب ، تفوق حاجة الولايات المتحدة إلى الانفتاح على الشرق!

وصدقت تنبؤات نيكسون وكيسنجر!

وقدمت الحكومة السوفيتية الكثير من التنازلات ، أهمها مايتعلق بموقفها من قضية الشرق الأوسط بصفة عامة ، وموقفها من هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائل ، بصفة خاصة!)[١].

ثانيا : رغبة الولايات المتحدة فى الالتفات إلى بعض القضايا الداخلية التى كانت تهدد الإقتصاد الأمريكى كالتضخم والانفاق على سباق التسلح ، وكذلك الابتعاد عن العداء الأيديولوجى مع الشيوعية ، يقول دانييل :

(فى الولايات المتحدة ، بدأت حكومة نيكسون الجديدة فى عام ١٩٦٦م أكبر عملية فى السياسة السوفيتية منذ بدء الحرب الباردة . ترجع أسباب بعض هذه التغييرات إلى الاعتراف بأن حدوداً خطيرة ظهرت للسيطرة الأمريكية فى العالم والتى سببتها مشاكل سياسية وإقتصادية فى الولايات المتحدة ـ التضخم وحرب فيتنام ـ وسبب الاتجاهات الجديدة فى العلاقات الدولية . ظهرت مراكز جديدة للقوة السياسية والإقتصادية بما فى ذلك غرب أوروبا ، اليابان والصين ، إضافة إلى ذلك ، كانت الولايات المتحدة على استعداد للاعتراف بالمصالح السياسية الضرورية للدول الشيوعية والتفاوض معهم على هذا الأساس . وقد جعل هنرى كسينجر (مستشار نيكسون الأمنى ، وفى وقت لاحق سكرتير الدولة) ذلك واضحا عندما ناقش عام ١٩٦٩م بقوله "ليس لدينا أى أعداء دائمين . سوف نقوم بالحكم على الدول الاخرى ، بما

---

(١) الروس قادمون (٢٧٦) .

فيهم الدول الشيوعية ، على أساس أعمالهم وليس على أساس الأيديولوجية المحلية ...)[١].

ثالثا : محاولة الولايات المتحدة الأمريكية استرداد هيبتها ، وتحقيق أكبر قدر من التأثير على الدول التى تتبعها خاصة دول العالم الثالث . فالولايات المتحدة منيت بهزيمة نكراء فى حربها ضد فيتنام وكذلك لم تستطع حسم النزاع فى كوبا لصالحها ، وأحداث الشرق الاوسط مازالت قائمة وعملية السلام فيها شائكة ، ومن هنا رأت أنه لابد من التقارب مع السوفييت ، ومحاولة الضغط عليهم ببعض مالديها من أجل فرض بعض القيود والشروط على السوفييت ليرى الرأى العام أن الولايات المتحدة مازالت هى القوة التى لاتقهر ولأجل ذلك كان القادة الأمريكان يهتمون بإعادة سمعة الولايات المتحدة إلى مكانتها وتحقيق الحياة التى ينشدها المواطن الأمريكى[٢].

لقد كانت مسألة الخروج من مأزق فيتنام من أبرز أهداف الولايات المتحدة من سياسة الوفاق . يقول مكنمارا : (كان هدف الولايات المتحدة الأساسى هو تشجيع السوفييت على دعم - أو على الأقل القبول السلبى - لجهود الولايات المتحدة لتخليص القوات الأمريكية من فيتنام ...) .

ويقول : (الهدف الإضافى الذى فكر نيكسون وكيسنجر فى تحقيقه كان خلق "شبكة علاقات" يمكن أن تكبح من خلالها تصرفات السوفييت ، والتى أشارا لها على أساس أنها تمثل "بنية السلام" . لقد كانا يأملان فى إمكان تكثيف إشراك الاتحاد السوفييتى فى أمور السياسة اليومية وضمه لإقتصاديات عالم حر متنام ، وبذلك سوف تتناقض بحدة دوافعهم لتعطيل آليات النظام العالمى)[٣].

---

(١) العالم فى القرن العشرين (٤٨٩-٤٩٠) .

(٢) انظر فى ذلك بعض الاتجاهات السياسية لبعض رؤساء الولايات المتحدة ، كتاب موجز تاريخ الولايات المتحدة (فورد ٦٨٤-٦٨٥) ، كارتر (٦٨٧) .

(٣) مابعد الحرب الباردة (٦٤-٦٦) .

رابعا : العمل على الوقوف ضد المد الشيوعى سواء الأيديولوجى أو العسكرى ، وهذا يتطلب التقارب مع السوفييت ، وكذلك محاولة مد الجسور مع دول أوروبا الشرقية وجعلها أكثر انفتاحا على الغرب(١).

(ب) **الاتحاد السوفييتى والوفاق** :

كان الاتحاد السوفييتى يرمى إلى تحقيق عدة أهداف من وراء الوفاق ومن أهمها :

أولا : (الخوف من الحرب النووية الحرارية Ther Mohauclear وتجنب أى حدث يقود إلى صدام ومواجهة مع الولايات المتحدة ، والتى يمكن أن تقود إلى الفناء الدولى)(٢).

ثانيا : الاهتمام بالأحداث الداخلية ، ومحاولة تحقيق النمو الاقتصادى للبلاد والذى كان منهارا ومن هنا كان لابد من تحقيق التقارب مع الولايات المتحدة خاصة وأن الاتحاد السوفييتى يرغب فى تأمين الحبوب التى تصله عن طريق الولايات المتحدة .

وقد قال خروشوف : (إنه عندما توجد كمية كافية من الحبوب فى مخازن بلادك ، عندها يكون بامكانك وبسهولة التكلم مع الأصدقاء والجدال مع الأعداء)(٣).

ثالثا : من المسلم به أن الاتحاد السوفييتى كان متأخرا تكنولوجيا عن الولايات المتحدة بمراحل عديدة فكان لابد من الاستفادة من التكنولوجيا الأمريكية . ويقرر هارى جيلمان أن أحد أهداف السوفييت من الوفاق :

---

(١) انظر القوى العظمى (٣٠-٣١) .

(٢) المرجع السابق (٣٧-٣٨) .
وانظر العالم فى القرن العشرين (٤٨٩) .

(٣) القوى العظمى (٣٧) ، وانظر (٣٨) الفقرة رقم ٤ .
وانظر العالم فى القرن العشرين (٤٨٩) .

(هو الاحتياج الملح للإقتصاد السوفييتى للضخ الغربى فى شراينه وخصوصا مايخص التكنولوجيا الأمريكية)[١].

رابعا : الحد من التسابق فى التسلح مع الولايات المتحدة من أجل تخفيف الضغوط على الإقتصاد السوفييتى وذلك بـ(وضع ضوابط على التكلفة المتزايدة لسباق التسلح مع الولايات المتحدة)[٢].

أو محاولة (البحث للوصول إلى التساوى العسكرى)[٣]معها .

خامسا : ومن أهم الأهداف التى يرغب الاتحاد السوفيتى فى تحقيقها من وراء الوفاق تخفيف حدة العداء مع الصين وجعلها تسير فى فلكه خاصة وأن الولايات المتحدة أخذت توليها الاهتمام .

فـ(فكروا فى تجنيد تعاون الولايات المتحدة معهم لصالح صراعهم مع الصين)[٤].

سادسا : من الأهداف التى يرغب الاتحاد السوفييتى فى الوصول إليها من وراء سياسة الوفاق أن تكون له فى منطقة الشرق الأوسط مكانة كالتى لأمريكا - ويلزم من ذلك إعادة العلاقة مع إسرائيل - وكذلك إقناع الولايات المتحدة بالتراجع قليلا فى ميلها مع إسرائيل ضد العرب . يقول إبراهيم سعدة :

(احتلت منطقة الشرق الأوسط جانبا كبيرا من مباحثات سياسة الوفاق السوفييتى الأمريكى . فبمقتضى هذا الوفاق ، تحاول كل دولة من الدولتين أن تضع لها سياسة جديدة تثبت بها أقدامها فوق منطقة الشرق الاوسط!

سمعنا الكثير جدا من أسباب ومبررات دفعت الاتحاد السوفييتى إلى مد يده ليصادق ويصافح اليد الأمريكية .

---

(١) مابعد الحرب الباردة (٦٥) .
وانظر : القوى العظمى (٣٨) ، العالم فى القرن العشرين (٤٨٩) .
(٢) مابعد الحرب الباردة (٦٥) ، وانظر العالم فى القرن العشرين (٤٨٩) .
(٣) القوى العظمى (٣٨) .

قالوا إن الأسباب إقتصادية . فالاتحاد السوفييتى يمر بأزمات زراعية ، وصناعية ، وتكنولوجية .

وقالوا إن الأسباب ليست إقتصادية فقط ، وإنما هى سياسية من الدرجة الأولى . فالاتحاد السوفييتى يريد أن يضع نهاية للحرب الباردة التى أرهقت المعسكرين معا : الشيوعى والرأسمالى .

ولكن أغرب تلك الأسباب ، تلك التى ذكرها الكاتب الفرنسى فرانسوا أونتى - فى صحيفة لوموند ديبلوماتيك الشهرية - وكيف أن الاتحاد السوفييتى يريد أن يحقق نجاحا سياسيا عالميا ،بعد سلسلة متصلة من الفشل ، والتراجع ، والانكسارات ، التى ميزت السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى طوال السنوات الطويلة الماضية!)[١]، وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط[٢].

سابعا : يرى بعض أصحاب التوجهات الشيوعية أن هذه السياسة من قبل السوفييت ، إنما هى استراتيجية لإضعاف الولايات المتحدة خاصة والغرب عامة .

يقول ايتو : (إن الاتحاد السوفييتى يطالب بالوفاق ولكن كثيرا من القطاعات ترى أن هذه المطالبة مجرد استراتيجية الهدف منها هو إضعاف الولايات المتحدة وأوروبا الغربية عسكريا ويصر بعض المحللين على أن الاتحاد السوفييتى ماض فى تطوير سلاحه مهما كان الثمن فإذا كانت الحالة هكذا فلابد من الحذر)[٣].

غير أن الواقع يرفض ماذكره ايتو حتى وإن كان القادة السوفييت يرغبون فى ذلك ، إذ أن آثار الوفاق كانت أكبر من التفكير فى الإبقاء على الفكر الإشتراكى .

---

(١) الروس قادمون (٢٧٧) .
(٢) انظر عن ذلك المرجع السابق (٢٧٨) ومابعدها .
(٣) محاضرات فى الندوة الدبلوماسية الثامنة (٢٣٣) .

ومع أن هذه الأهداف منها ماهو مشترك ومنها ماهو خاص إلا أنها ترمى إلى ابعاد الفكر الشيوعى عن الحياة الواقعية ، وكذلك خدمة التوجهات اليهودية . ولايفهم من ذلك أن الوفاق قد قضى نهائيا على الصراع بل أن الصراع والوفاق كانا يسيران مع بعضهما البعض . يقول البزاز :

(ومع ذلك نجد أن سمعة العلاقة الراهنة بينهما ، تتسم بتزاوج الوفاق والصراع فى آن واحد ، وكلاهما يعتبر الصراع هو الأصل والأساس ، وأن الوفاق هو صيغة ما من صيغ خوض الصراع . وبذلك يجب عدم وضع اللوم على أى من الطرفين ، حيث يجب الاعتراف - كما يرى البعض - بأن ليس الوفاق هو الذى يخلق السلام بل الموازنة النووية هى التى تدفع إلى الوفاق والسلام معا . ورغم غياب الفهم الكامل الأمريكى للنظرية - الماركسية - اللينينة من تصدير الثورات والأفكار ، إلا أنها أدركت من جانب آخر ، بأن السوفييت ، كلما زاد شأنهم الدولى كلما تخلوا عن مواقفهم الأيديولوجية ، وقد ظهرت هذه الحالة منذ زمن طويل عندما رفض ستالين دعم النظام الشيوعى اليونانى فى حينها . وأدركت الولايات المتحدة بأن بامكانها الحصول على دعم سياسى واقتصادى من خلال الوفاق أكثر مما تحصل عليه عن طريق سياسة الاحتواء Containment)[١].

وبعد عرضنا لأهم الأهداف التى يرغب الطرفان فى تحقيقها من وراء الوفاق يمكن أن نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن اجتماع أعداء الإسلام تحت لواء واحد إذا كان عدوهم المسلمين حقيقة مسلمة لالبس فيها ولاتقبل الشك أو التردد ذلك أن الله تعالى أخبر عنهم حيث قال تعالى : {**ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم**}[٢].

---

(١) القوى العظمى (٣٨) .

(٢) ... الآية ... (١٢٠)

فلاغـرابة أن تتحـد الـولايات المتحـدة والاتحاد السـوفييتى فى حرب المسلمين .

ثانيا : أن التسابق فى التسلح والتوتر الذى وصل إليـه حال الدولتين قد دفعا بهما أيضا إلى التقارب والاتفاق من أجل تخفيـف العبء على إقتصاد بلديهما .

ثالثا : أن تسـارع الأحداث التى تلـت الوفاق ينبىء عـن ترتيب دقيق لهذه المرحلة من التاريخ الإنسانى .

رابعا : لاشـك أن نتائج الوفـاق لم تكن واضحة منذ اللحظـة الأولى ، فقـد تأخرت وظهرت فى فترات لاحقـة عنه وكان الوفـاق المنطلـق لكثير من الأحداث التى وجدت فى السنوات اللاحقة له .

ونعرض الآن لبعض هذه النتائج .

أولا : الاستمـرار فى عقد المعـاهدات والمؤتمرات بين الطـرفين من أجل التخفيف من التسابق العسكرى . ونذكر بعضا من هذه المعـاهدات واللقاءات على أن هـدفنا ليس استعراض أحداثها بقدر مانود أن نبرهـن أن هذا الوفاق ومـن ثم هـذه المعـاهدات التى كـان لـه أكبر الأثر فى وجودهـا قـد أجبرت السـوفييت على التنـازل عن كثير مـن مبـادئهم سواء مـايتعلق بالإقتصـاد أو السياسة ، أو مايعود فى آثاره على سياسة الدولة الداخلية تجاه رعاياها . لقد كانت المعاهدات التى وقعت كثيرة ومتعـددة وكان يطغـى عليهـا محاولة إيجاد اتفـاق حول نزع السلاح ، وترك التسـابق فيـه ، والـدعوة إلى السلم ، والتحـذير من الحرب وبيان أخطارها . وهذه الدعوة إلى السلم ونبـذ السلاح كانت قديمة وربما استطاعت القـوة المنتصرة أن تحد من تسلح الفئـة المغلـوبة ، أو أن تصادر مالديها مـن سلاح[١]. إلا أنها اتخذت فى العصر الحديث طـابعا

---

(١) انظـر عن ذلك : نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمـريكية (١٧٥) ومابعدها ، وانظر معاهدة عدم إنتشار الأسلحة النووية الجائز والمستحيـل (٢١) ومابعدها ، د. عبد الرحمن مليبارى ، ١٤١٤هـ ، بدون ذكر لرقم الطبعة ، مطبعـة سفير ، الرياض.

آخر من حيث التنظيم وخضوعها لاعتبارات أخرى حيث إن دول السيادة قد امتلكت السلاح الذى يمكنها من تدمير عدوها ، وأصبحت القوى العسكرية إن لم تكن متساوية بينها فهى جد متقاربة فكان لابد والحال هذه أن تولى قضية السلاح الاهتمام من تلك الأطراف وخاصة الدولتين الكبريين اللتين تستطيعان تدمير العالم بل إن إحداهما تستطيع ذلك ، وبعد أن رأوا خطورة تلك الأسلحة واهدار موارد البلاد فى سبيلها اتجها إلى التفاوض بشأنها ، وعلى وجه الخصوص بعد أن دخلا مرحلة الوفاق .

وقد كانت معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية فى موسكو بداية فعلية للوفاق بين القوتين العظميين . يقول مكنمارا :

(بالرغم من اختلاف المدخل الفكرى السوفييتى والأمريكى لمسببات الوفاق وأهدافه ، إلا أن القوتين العظميين استطاعتا تحقيق إنجازات عديدة من خلال الالتزام الضيق بالوفاق .

أكثر هذه الإنجازات أهمية خصوصا على المدى البعيد كان توقيع اتفاقية الحد من إنتاج الصواريخ المضادة للصواريخ ABM فى اجتماع قمة أيار/ مايو - ١٩٧٢م .

أغلقت اتفاقية ABM باب التنافس على صناعة نظم مواجهة الصواريخ ، وبالتالى خفضت من نمو دوافع السلوك العدائى .. إن عالما تطلق فيه تكنولوجيا الدفاع الاستراتيجى كان ينتظره سباق تسلح محموم ومكلف لتطوير الأنظمة الدفاعية والهجومية)[١].

ومن أهم هذه المعاهدات بدءا معاهدة (سولت ١ . SALT 1)

وعقدت هذه المعاهدة فى موسكو فى ٢٦ مايو ١٩٧٢م .

وقد كان الوضع الدولى حينها يحتاج إلى مثل هذه المعاهدة نظرا لما وصل إليه حال الدولتين من سباق فى التسلح حيث ظهرت تطورات خطيرة من أبرزها :

---

(١) مابعد الحرب الباردة (٦٨) .
وانظر حرب الفضاء(٨٥-٨٨) ، العالم فى القرن العشرين (٤٩٠) .

(١) تقدم التكنولوجيا الخاصة باستخدام الصواريخ وذلك من حيث كفاءة التشغيل وتقليل احتمال الخطأ ، وضمانة أعلى درجة من الدقة فى اصابة الهدف .

(٢) قيام الاتحاد السوفييتى باختبار نظم اطلاق الصواريخ التى تصوب بأسلوب القصف المدارى الجزئء (FOBS) التى بمقدورها أن تطير على ارتفاعات منخفضة ، كما أنها أقل من غيرها من حيث التعرض للرصد والإصابة .

(٣) إنتاج كل من الطرفين الصواريخ ذات الرؤوس النووية المتعددة أو الصواريخ المعروفة بميرف (MIRV) والتى تشكل عاملا مهددا لعلاقات التوازن بين الطرفين ، لقوتها التدميرية والتى قد تجعل أحد الطرفين يشعر بتفوقه مما يجعله يبادىء بالحرب النووية(١).

وقال الرئيس نيكسون : (لدى كل منا القدرة على تدمير البشرية بكاملها . هذا الأمر والمصالح العالمية قد أوجدت نظرة مشتركة ونوعا من الاعتماد المتبادل من أجل البقاء)(٢).

يقول مكنمارا عن هذه المعاهدة :

(كان توقيع اتفاق SALT 1 انجازا آخر حد من إنشاء نظم إطلاق الصواريخ الهجومية وتسبب فى توقف الاتحاد السوفييتى عند مستوى إنتاج النظام ICBM . ومن المحتمل أن يكون قد حفز السوفييت أيضا على إنهاء

---

(١) انظر العلاقات الأمريكية السوفيتية (٢٦-٢٧) ، وانظر مابعدها .
وقال : (إن السبب الذى حدا بالولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى إلى الدخول فى حوار مكثف ومتواصل حول تنظيم سباق الأسلحة الاستراتيجية بينهما كان يتركز فى محاولة تجنب أى خلل قد يطرأ على معادلات الردع المتوازن والمتبادل مما ستكون نتيجته الحتمية تصعيد احتمالات الحرب النووية وتهيئة الظروف التى قد تغرى على المبادأة بها) . (٢٩) .
وانظر العالم فى القرن العشرين (٤٩٠-٤٩١) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٤٣) .

خدمة الطراز الأقدم من هذا النظام والتى كان من الممكن تحت ظروف أخرى تطويره .

إتفاق SALT 1 أوجد أيضا الوكالة الاستشارية الدائمة ، ذلك المنبر الذى جعل بإمكان الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى رفع أى شكوى حول القبول أو الرفض للموضوعات المختصة بالرقابة على التسليح أمامه . على أى حال ثمة أمل بسيط بأن يكون بإمكان الوفاق تحقيق أكثر مما تم تحقيقه)[١].

وكان لهذه المحادثات أثرها على الاتفاقيات التى أعقبتها . يقول صبرى مقلد :

(كانت النتائج التى أحرزها الطرفان فى الجولات الأولى من هذا الحوار التاريخى هامة بكل المقاييس . فاتفاقية موسكو للحد من الأسلحة الاستراتيجية التى هى إحدى ثمرات هذا الحوار والتى وقعها الطرفان فى عام ١٩٧٢م خلال زيارة الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون للاتحاد السوفييتى ، أكدت بشكل خاص أن تقييد سباق التسلح فى قطاع الدفاع بالصواريخ المضادة يمثل تقدما هاما نحو التخفيف من حدة سباق التسلح الاستراتيجى بمفهومه الشامل ، وأن الإجراءات التى تتضمنها هذه الاتفاقية ، وكذلك التدابير الأخرى الخاصة بتقييد سباق الأسلحة الاستراتيجية الهجومية ، هى مجرد خطوة أولى باتجاه خلق ظروف أفضل تساعد على استئناف المفاوضات المتعلقة بحل مشكلة الأسلحة الاستراتيجية التى تواجهها الدولتان وتحسان بخطورتها على أمنهما ، الأمر الذى قد يؤدى بدوره فى النهاية إلى نزع السلاح النووى ، بل وإلى النزع الشامل للأسلحة على الجانبين)[٢].

---

(١) مابعد الحرب الباردة (٦٨-٦٩) .

(٢) العلاقات الأمريكية السوفيتية (٢٩-٣٠) .

وانظر موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٩٧) وقال أن هذه المعاهدة (ختمت بالشمع الأحمر على تصنيع بعض أنواع الأسلحة النووية) . =

ومن هذه المعاهدات والمفاوضات :

سولت (٢) :

وقد جرت بين الدولتين فى ١٨ يونيو عام ١٩٧٩م ووقع عليها الرئيس كارتر وليونيد بريجنيف فى فيينا بشأن الحد من الأسلحة الاستراتيجية ، وقد تعهد الطرفان فيها بالعمل على تخفيف أسلحتهما الاستراتيجية الهجومية كما وكيفا(١).

ستارت : وهى امتداد لسولت .

وعقدت الجولة الأولى منها فى جنيف وكان الهدف منها تخفيض عدد الصواريخ النووية المتوسطة المدى فى أوروبا ، خاصة بعد أن قررت الولايات المتحدة نشر صواريخ بيرشنج -٢ وكروز ، وقرر السوفييت نشر صواريخ اس - اس - ٢٠ .

= ورحبت البرافدا بهذه الاتفاقية وجاء فيها : (تبين محادثات سالت (وهى معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية) بصورة مقنعة أنه رغم الاختلاف بين الأنظمة الإجتماعية لكل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية ، ورغم التمايز فى العقائديات ، والاختلاف المشهور بل والمتعاكس فى تناول بعض المشكلات فى السياسة العالمية ، تبين هذه المحادثات أن تحسنا فى العلاقات بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة لمصلحة كل من الدولتين ولدعم السلام والأمن الدولى أمر ممكن . ويجب أن تدعم الاتفاقيات حول الأسلحة الحد من الاندفاع نحو التسلح الذى يخلق نوعا من التهديد بالقتال الصاروخى النووى ، ويحول الكثير من الموارد عن أهدافها المنتجة الخلاقة ، وتقوم هذه الاتفاقيات على الاعتراف بالأمن المتكافىء فى الجانبين ولايعطى ميزة عسكرية لأى منهما) .

من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٣٢) .

وانظر مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٨٨/١١) .

(١) انظر عن هذه المعاهدة : العلاقات الأمريكية السوفيتية (٣٠-٣١) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٣٤) ، العالم فى القرن العشرين (٤٩١) ، موجز تاريخ الولايات المتحدة (٦٩٧) ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية (٨٨/١١) ، وعن أهميتها انظر عملية إعادة البناء (٢٢٠) .

وتقدم ريجان باقتراح أسماه خيار الصفر Zero Option ومضمونه أن تصرف الولايات المتحدة النظر عن نصب الصواريخ فى دول حلف الناتو وعددها ٥٧٢ صاروخا فى مقابل أن يقوم السوفييت بتفكيك عدد مماثل من صواريخهم من طراز اس - اس - ٢٠ ، اس - اس - ٥ ، اس - اس - ٤ . وعلى هذا الأساس لو تم الاتفاق فسوف يصل عدد الصواريخ متوسطة المدى المنصوبة على كلا الجانبين إلى الصفر(١). يقول مكنمارا : (يحقق برنامج المفاوضات على "ستارت" محدود الأهداف توازنا للقوى التقليدية فى أوروبا .. ويخفض من عدد الأسلحة النووية التكتيكية .. ويقوى من تدابير بناء الثقة وسيحسن لدرجة كبيرة من إتزان الأزمات ...)(٢).

مؤتمر جنيف فى ٢٠ نوفمبر ١٩٨٥م :

وعقد بين غورباتشوف وريغن حيث كان يرى غورباتشوف عقد مثل هذا المؤتمر خاصة فى ظروف إصرار الولايات المتحدة الأمريكية على برنامج مبادرة الدفاع الاستراتيجى .

يقول غورباتشوف : (إن عدد اللقاءات بلغ خمسة ، هذا عدا اللقاء القصير المكرس للوداع ، وخلال اللقاءات ، جرت حوارات صريحة ، متواصلة ، وحادة ، وفى بعض الأحيان حادة بدرجة كبيرة . وجدنا ، كما يخيل إلى ، أن هناك شيئا مشتركا يصلح كنقطة إنطلاق نحو تحسين العلاقات السوفيتية - الأمريكية ، وهذا الشىء هو الإدراك المشترك بأن الحرب النووية غير مسموح بها بتاتا ...)(٣).

---

(١) انظر : العلاقات الأمريكية السوفيتية (١٠٣-١٠٤) .
وعن هذه السياسة وردود الأفعال تجاهها انظر (١٠٧-١١٣) .
وعن المعاهدة انظر نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمريكية (١٧٩-١٨١) .
وانظر : مابعد الحرب الباردة (١٥٢) ومابعدها ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (١١/٨٨-٨٩) .

(٢) مابعد الحرب الباردة (١٦٠-١٦١) .

(٣) عملية إعادة البناء (٢٣٦) ، ولمزيد انظر مابعدها .

وقد أظهر غورباتشوف فى هذه المحادثات مرونة كبيرة حتى وصل الأمر إلى أن كانت التنازلات من طرف الاتحاد السوفييتى فى أغلب الأحيان إن لم يكن فيها كلها .

لقد كان غورباتشوف على استعداد بتقديم أكبر قدر من التنازلات ، وكذلك البدء فى التراجع عن سباق التسلح من أجل القضاء على الشيوعية ، وفسح المجال أمام الإمبريالية للسيطرة العالمية ، وهذا بدوره يعزز ماقلناه سابقا من أن غورباتشوف كان خادما لليهود فى تحقيق مآربهم . ولأجل ذلك تقدم بعد محادثات جنيف بمبادرة سلمية دعا فيها إلى تصفية السلاح النووى ويتحدث عن هذه المبادرة فيقول : (فى ١٥ كانون الثانى ١٩٨٦م ، تقدمنا ببرنامج لتصفية الأسلحة النووية على مراحل تمتد لمدة خمسة عشر عاما ، وتنتهى بنهاية القرن الحالى . وقد أعددنا هذا البرنامج بعناية ، وسعينا ، فى كل مرحلة ، إلى مراعاة المصالح المتبادلة المتوازنة ، بغية عدم الاخلال ، فى أية مرحلة ، بالمصالح الأمنية لأى بلد . وببساطة ، فإن أى توجه خلاف ذلك لن يتسم بالواقعية . وعلى قاعدة هذا البرنامج تقدم ممثلونا فى مباحثات جنيف بطائفة واسعة من مقترحات الحلول الوسط . وتطرقت هذه المقترحات إلى الصواريخ متوسطة المدى ، والأسلحة الاستراتيجية الهجومية ، والحيلولة دون عسكرة الفضاء .

اتسم البيان الصادر فى ١٥ كانون الثانى ١٩٨٦م بمزايا برنامجية . لقد أردنا ابراز الخطر الرئيسى الماثل أمام الحضارة الانسانية ، المرتبط بالأسلحة النووية ، وبالتفجيرات النووية مع عدم تجاهل مسائل حظر وتصفية الأسلحة الكيماوية ، والتقليص الكبير للأسلحة التقليدية . أن هذا البرنامج بمثابة جملة من الاجراءات التى لاتتناول التفاصيل . أن المبدأ الأساسى الذى يتمثله هذا البرنامج ، وعلى كافة مراحله ، فهو الحفاظ على التوازن الضرورى . هنا ، ليس اللعبة السياسية ولاالدهاء ، بل المسؤولية السياسية والفهم الواضح بأن أحدا ما لن يخدع الآخر ، وخاصة عندما يدور الحديث

حول موضوع هام كأمن الدولة ...)[١].

لقد (قمنا فى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى بصياغة مفهوم نظام عالمى شامل للأمن . وتقدمنا به اقتراحا للعالم أجمع ، إلى جميع الحكومات والأحزاب والمنظمات والحركات الاجتماعية القلقة فعلا على مصير السلام فى عالمنا . وفى تصورنا يقوم نظام عالمى شامل للأمن على أسس رئيسية هى :

(١) فى المجال العسكرى :

* امتناع جميع الدول الذرية عن شن الحرب ضد بعضها البعض أو ضد دولة ثالثة سواء أكانت دولة ذرية أم غير ذلك .

* عدم السماح بنقل سباق التسلح إلى الفضاء ، وحظر كافة التجارب على الأسلحة النووية ، والقضاء على هذه الأسلحة وحظر إنتاج الأسلحة الكيماوية وتدميرها ، والتوقف عن إنتاج أسلحة جديدة ذات التدمير الجماعى .

* تقليص حاد ، تحت مراقبة صارمة ، لمستوى القدرات العسكرية للدول لايصالها إلى المستوى المقبول .

* حل التكتلات العسكرية ، وكخطوة تمهيدية ، التوقف عن توسيع هذه الأحلاف ، أو إنشاء أحلاف جديدة .

* تقليص الميزانيات العسكرية بشكل متناسب ومتناسق .

(٢) فى المجال السياسى :

* الاحترام المطلق لحق كل شعب فى السيادة واختيار طرق تطوره وأشكالها ، وذلك ضمن الممارسة العملية للنشاط الدولى .

* التسوية السلمية العادلة للنزاعات الإقليمية والأزمات الدولية .

* وضع جملة من الإجراءات الهادفة لتعزيز الثقة بين الدول وإرساء ضمانات حقيقية لمنع أى عدوان خارجى ، والتأكيد على عدم المساس بالحدود المعترف بها .

---

(١) عملية إعادة البناء (٢٤٠) .

* القيام بإجراءات فعالة للقضاء على الإرهاب الدولى ، وضمان الأمن لوسائل النقل البرى والجوى والبحرى الدولية .

(٣) فى المجال الإقتصادى :

* القضاء على كافة أشكال التمييز فى الحياة العملية الدولية ، والامتناع عن سياسة الحصار الإقتصادى ، وفرض العقوبات إذا لم يكن قد نص عليها بتوجيهات مباشرة من المجتمع الدولى .

* البحث المشترك عن طرق لتسوية عادلة لقضايا الديون .

* بناء نظام إقتصادى عالمى جديد يضمن أمنا إقتصاديا متكافئا لجميع الدول .

* وضع المبادىء والأسس التى تبين كيفية استخدام الأموال التى يوفرها تقليص الميزانيات العسكرية بما يخدم خير المجتمع الدولى ، وقبل كل شىء مصلحة الدول النامية .

* توحيد الجهود فى سبيل استكشاف واستخدام الفضاء للأغراض السلمية ومن أجل حل القضايا الكونية والتى يعتمد على حلها مصير الحضارة.

(٤) فى المجال الإنسانى :

* التعاون فى مجال نشر أفكار السلام ونزع السلاح ، والأمن الدولى ورفع مستوى الإعلام الجماعى (الجماهيرى) الموضوعى ، وتعريف الشعوب بحياة بعضها البعض ، وتوطيد روح التفاهم والوفاق فيما بين الشعوب .

* تحريم إبادة الجنس ، والأبرتهيد ، وأشكال الفاشية وغيرها من أساليب التمييز العنصرى والقومى والدينى ، وأى تمييز بين البشر طبقا لتلك الأسس .

* توسيع التعاون الدولى فى سبيل إقرار حقوق الإنسان الفردية والسياسية والاجتماعية ضمن نطاق احترام قوانين كل بلد .

* حل قضايا لم شمل الأسر بشكل إنسانى وموضوعى وكذلك قضايا الزواج وتطوير الاتصال بين البشر والمنظمات .

* التوطيد والبحث عن أشكال جديدة للتعاون فى مجالات الثقافة والفن والعلم والتعليم والطب .

إننا لم نتراجع ، قيد أنملة ، عن أى من المقترحات التى تضمنها هذا البرنامج الذى أقره مؤتمرنا الحزبى . ونعلن أننا سندرس ، بعناية ، كل الأفكار التى تنسجم مع إقرار مبدأ التعايش السلمى باعتباره مبدأ ساميا وشاملا فى العلاقات بين الدول .

وتطرق المؤتمر كذلك إلى العلاقات السوفيتية ـ الأمريكية . وأود التذكير بما قلناه حول هذا الموضوع : "إن الاتحاد السوفييتى عاقد العزم ، وبقوة على تبرير أمانى شعبى بلدينا ، وجميع شعوب العالم ، التى تنتظر من قادة الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية خطوات عملية محددة ، واتفاقيات واقعية ترمى إلى محاصرة سباق التسلح . ويمكن تلخيص جوهر موقف المؤتمر من العلاقات السوفيتية ـ الأمريكية بكلمات معدودة : نعيش نحن والولايات المتحدة على كوكب واحد ، ودون مشاركتها لن يكون بمقدورنا

صيانة السلام على الأرض)[1].

لقد قام جورباتشوف بعدة تنازلات لم تكن متوقعة من دولة تملك قوة بامكانها تدمير العالم ، لقد تنازل ، ثم تنازل ، ثم تنازل ومن طرف واحد ، إن هذه التنازلات لايكفى فى تبريرها رغبة غورباتشوف فى السلام ، بل إن وراءها تدبيرا دقيقا وسوف تكشف السنوات القادمة ذلك التدبير .

---

(١) عملية إعادة البناء (٢٤١-٢٤٤) .
وانظر : العلاقات الأمريكية السوفيتية (١٣٤-١٣٥) ، غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٨٥-١٨٦)
ولمزيد من المعلومات عن هذه المعاهدات انظر : غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٨٣-١٨٥) ، (١٨٩-١٩٠) ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية (٨٩/١١) .

وواصل غورباتشوف تقديم تنازلاته ومبادراته السلمية

فكان مؤتمر ركيافيك(١):

وعقد هذا المؤتمر فى ١١-١٢ تشرين الأول عام ١٩٨٦م وكان عبارة عن مبادرة سلمية تقدم بها غورباتشوف . ولكنها لم تؤت ثمارها لإصرار ريغان على مبادرة الدفاع الاستراتيجى(٢).

قمة موسكو :

وعقدت فى ٢٩ مايو ١٩٨٨م بين الرئيسين ريغان وغورباتشوف .

وكرست هذه القمة لبحث مسألة الحد من الأسلحة ، ومسألة حقوق الإنسان والمسائل المتعلقة بالمجال الإنسانى وتسوية النزاعات الإقليمية والعلاقات الثنائية بين البلدين . وأكد الطرفان الحيلولة دون وقوع أى حرب بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة(٣).

قمة مالطا (لقاء العاصفة)(٤):

وكانت أحداث أوروبا الشرقية هى الدافعة وراء عقد هذه القمة فى كانون الأول ١٩٨٩م . وعقدت على متن الباخرة السوفيتية (ماكسيم جوركى) . وقال غورباتشوف فى ختام اللقاء : (بودى القول أن الحرب الباردة قد انتهت)(٥).

قمة واشنطن ١٩٩٠م :

وعقدت فى شهر يونيو ١٩٩٠م بين كل من غورباتشوف وبوش وقال عنها بأنها (بداية عهد جديد)(٦).

---

(١) عاصمة ايسلندا .

(٢) انظر ماذكره غورباتشوف عن ذلك المؤتمر مفصلا فى كتابه عملية إعادة البناء (٢٤٩-٢٥٠) .

(٣) انظر عن هذه القمة : عملية إعادة البناء (٢٥٨) ومابعدها ، غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٠٩-٢١١) .

(٤) سميت كذلك لمجىء عاصفة شديدة أخرت اللقاء بين الطرفين عدة ساعات .

(٥) نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٢١) .

(٦) نقلا من المرجع السابق (٢٢٨) وانظر مابعدها .

ولم تكن هذه الاتفاقيات والمؤتمرات والمعاهدات هى الوحيدة بين الطرفين بل لقد تعددت وتنوعت سواء قبل الوفاق أم بعده . غير أن ماذكرناه يكاد يكون الأكثر شهرة وتحقيقا للنتائج(١).

وبالنظر فى هذه المعاهدات واللقاءات نجد أن غورباتشوف قد قدم تنازلات كثيرة فى المجالات السياسية والعسكرية ، والتى تتطلب أساسا تنازلا فى الفكر خاصة وأن هاتين المسألتين (السياسية والعسكرية) تنبع من الفكر فإذا حدث فيها تراجعا فمعنى ذلك أنه سبقها تراجعا فى المبادىء الفكرية التى تحكم تلك المجالات .

ثانيا : أظهر الوفاق الدولى من خلال هذه المعاهدات والاتفاقيات ضعف المعسكر الإشتراكى ، سواء من الناحية الفكرية أو السياسية ، أو العسكرية ، أو الإقتصادية ، وبالتالى كان من نتائجه التعجيل بإنهيار المعسكر الشيوعى وفكره أى أصبح الوفاق سببامن أسباب سقوط الشيوعية ولو شئنا لقلنا (التعجيل بسقوطها) .

ثالثا : من أهم النتائج التى تمخض عنها الوفاق الدولى إعلان النظام العالمى الجديد فى هذه الفترة .

وقد أعلن جورج بوش فى لقائه مع الكونجرس الأمريكى بتاريخ ١١ أيلول ١٩٩٠م أى عشية حرب الخليج الثانية (إننا نتطلع إلى نظام عالمى جديد يصبح أكثر تحررا إزاء التهديد بالإرهاب ، وأكثر مناعة فى إقرار العدالة ، وأكثر أمنا فى السعى من أجل السلام ، إننا نتطلع إلى عالم جديد يسوده القانون بدلا من شريعة الغاب ، وتعترف فيه الأمم بمسؤولياتها المشتركة فى تحقيق الحرية والعدالة ...)(٢).

---

(١) ولمزيد عن معرفة هذه المؤتمرات والمعاهدات انظر : من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٢٩-٢٣٠) ، غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٢٢-٢٢٣) .

(٢) International Affairs, v.76 No.3, July 1991 .
نقلا من كتاب النظام العالمى الجديد ملامح وأخطار (٦٥) د. شفيق المصرى ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

وفى ١٣ يناير ١٩٩١م حدد بوش هذا النظام فقال : (إن النظام العالمى الجديد لايعنى تنازلا عن سيادتنا الوطنية أو تخليا عن مصالحنا . إنه ينم عن مسؤولية أملتها علينا نجاحاتنا . وهو يعبر عن وسائل جديدة للعمل مع الأمم الأخرى من أجل ردع العدوان ، وتحقيق الاستقرار والإزدهار ، وفوق كل شىء تحقيق السلام . إنه ينبع من التطلع إلى عالم مبنى على التزام مشترك بين الأمم ، كبراها وصغراها ، بمجموعة من المبادىء التى ترسو عليها علاقاتنا : التسوية السلمية للنزاعات ، والتضامن فى وجه العدوان ، وتخفيض ترسانات الأسلحة ومراقبتها ، والتعامل العادل مع الشعوب)[١].

هكذا حدد بوش النظام العالمى الجديد ، وقد حدده فى حين أن القوة العظمى الأخرى قد أفل نجمها وأصبحت الولايات المتحدة القوة الأولى فى العالم عسكريا ولكون هذا النظام نتيجة من نتائج الوفاق فقد اعتبر بعض الكتاب والمفكرين أن بعض الأحداث التى وقعت فى بداية التسعينات تمثل الاختبار الحقيقى لهذا الوفاق . وضرب بحرب الخليج الثانية مثلا لذلك .

لقد فتح الوفاق الباب - وعلى المدى الأبعد من سنواته الأولى - لإسقاط الشيوعية ثم الإعلان عن هذا النظام[٢]رغم الارهاصات السابقة التى مهدت له . وقد أعلن عن هذا النظام عقب غزو العراق للكويت وليس الأمر هنا هو للتبع مقدمات وتطورات ذلك النظام بقدر مانريد أن نبرهن أن هذا الوفاق والذى أدى إلى التعجيل بإنهيار الشيوعية ، قد أدى أيضا إلى اعلان النظام العالمى الجديد والذى غدت فيه الدولتان تتجهان اتجاها واحدا فى معالجة أكثر القضايا التى استجدت على الساحة الدولية ، بل والمشاركة فى تحقيق مايخدم مصلحتيهما سويا .

---

(١) نقلا من كتاب النظام العالمى الجديد ملامح وأخطار (٦٥-٦٦) .

(٢) انظر صحيفة الحياة العدد (١٨/١١٠٢٠) الخميس ١٥ نيسان/ابريل ١٩٩٣م الموافق ٢٣ شوال ١٤١٣هـ ، مقال لعبد الحميد البلوشى بعنوان (نحو نظام عالمى جديد مرحلة الحمل انتهت أو تكاد) .

وهكذا كان من نتائج الوفاق الدولى الإعلان عن النظام العالمى الجديد والذى تكون الخريطة السياسية فيه كالتالى :

سقوط الشيوعية ، وزوال الاتحاد السوفييتى ، وإنفراد أمريكا بالهيمنة وتبعية موسكو لها ، وقد وجدت الأحداث التى تدعم ماذكرناه من رأى ، على أنه بالإمكان - ومن خلال النظر فى الأحداث التالية التى شهدتها الساحة الدولية - القول بأن ذلك كان فى القضايا التى يكون المقصود منها المسلمين أما إذا كان المسلمون طرفا مع عدو يهودى أو صليبى فإن الوفاق والنظام العالمى يفقد مصداقيته وذلك بالاختلاف فى وجهات النظر واستخدام الحقوق داخل مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة حتى يظهر أن الوفاق والنظام العالمى الجديد فى رد المعتدى إنما يطبق على المسلمين فيما بينهم أما ماعدا ذلك فلا وأقرب مثال لذلك المسلمون فى يوغوسلافيا السابقة (البوسنة والهرسك) حتى ذهب البعض إلى أن أحداث يوغسلافيا هى الاختبار الحقيقى للنظام العالمى الجديد[١] حيث لم يتم الاتفاق بشأنها، ولكن الجواب على عدم الاتفاق هذا يكمن فى أن الصراع هنا فيه الطرف الإسلامى والذى لايملك أحيانا إلا الاسم من الإسلام ، بالإضافة إلى أن يوغسلافيا كانت تابعة للاتحاد السوفييتى وبالتالى لن تتخلى روسيا عنها أو توافق على ضربها فهى مدعومة بالقوة الروسية[٢].

---

(١) انظر صحيفة الشرق الأوسط العدد (٥١٣٥/٢١) السبت ١٩٩٢/١٢/١٩م مقالا بعنوان (الامتحان الحقيقى للنظام العالمى الجديد ليس الصومال بل يوغسلافيا) بقلم باسم الجسر .

(٢) انظر صحيفة المدينة المنورة العدد (١١٣٥١/١٥) الجمعة ١٨ ذو القعدة ١٤١٤هـ الموافق ٢٩ ابريل ١٩٩٤م ، مقال للدكتور محمد خضر عريف (النظام العالمى منطق الحق أم منطق القوة؟) وضرب مثالا بتمنع كوريا الشمالية من السماح للمفتشين الدوليين بالتفتيش على ترساناتها النووية فتحالف عليها الغرب من أجل ارغامها على ذلك ولو بالقوة ، فماكان من الصين إلا أن صرحت بالوقوف معها (وتعطل الحق والعدل اللذان نادى بهما الغرب لمجرد أن ظهر شريك قوى ذى شوكة) .

إن مما تجدر الإشارة إليه أن هذا النظام العالمى لم يأت بجديد فى قضايا المسلمين[١] إن لم يكن زادها جراحا باتفاق الجبارين فى الوقوف أمام الأصولية الإسلامية التى أخذت تهدد الغرب والشرق!!

رابعا : بوادر نهاية الحرب الباردة بين الطرفين حيث كان الوفاق الارهاص الأقوى فى الأحداث التى تلته وأدت بدورها إلى إنهاء الحرب الباردة وذلك بحل حلف وارسو ، وتفكك الاتحاد السوفييتى . وقد أعلن عن ذلك غورباتشوف فى مبادرته التى طرحها وصرح بحل الأحلاف العسكرية ومنع قيام أحلاف جديدة ولمح بترك الحرية لكل أحد فى أن يختار النظام الذى يريده - ولايغيب عن بالنا بأن الاتحاد السوفييتى كان فى أغلب الأحيان هو المبادر فى الدعوة إلى السلم - بينما كانت الولايات المتحدة مستمرة فيها من أجل الضغط على السوفييت ليقدموا أكبر قدر من التنازلات فأصبح إنهاء الحرب الباردة مشروطا بالتنازل . يقول طلال سلمان : (لكأنما كان "التحاق" الاتحاد السوفييتى بالغرب ، وتنازله عن نظامه السياسى وعن أيديولوجيته وحزبها القائد وعن استراتيجيته وعن دوره الكونى كقوة عظمى ثانية ، هو الشرط الغربى الفعلى لوقف الحرب الباردة ضده ،

ولكأنما لامكان فى النظام العالمى الجديد لمن لايأخذ بالرأسمالية والديموقراطية الغربية وباقتصاد السوق ولايسلم بعالم وحيد القطب معقود اللواء للقيادة الأميركية)[٢].

= ومن الأمثلة قضية البوسنة (حيث أن مجلس الأمن والنظام الدولى الجديد تراجع عن ضرب الصرب لتهديد روسيا بالوقوف معها فأصبح منطق القوة يرد الحق والعدل الذى إدعاه النظام العالمى الجديد فلايملك المرء إلا أن يرى ظلاما دامسا يحيق بالبشرية جمعاء فى ظل النظام العالمى الجديد الظالم!!) .
وانظر صحيفة عكاظ العدد (٩/١٠٣٨٧) الأحد ١٤ شعبان ١٤١٥هـ الموافق ١٥ يناير ١٩٩٥م مقال (هل هناك نظام عالمى جديد) بقلم نزار عبيد مدنى .

(١) انظر ماذكره محمد الأسعد فى صحيفة المدينة المنورة العدد (١١/١١٣١٤) الأربعاء شوال ١٤١٤هـ الموافق ٢٣ مارس ١٩٩٤م .

(٢) على الطريق (٤٧٨) .

خامسا : من نتائج الوفاق غياب الصراع الأيديولوجى (من سلوك القوتين العظميين كرد فعل تلقائى ومنطقى للتصاعد المستمر فى أخطار الحروب والمجابهات النووية)[١].

يقول حسين صبرا إن (تنازلات الاتحاد السوفييتى أدت إلى إنهاء ماسمى بعد الحرب العالمية الثانية بـ"الحرب الباردة" ، تلك التى نجمت عن الصراع بين مصالح الجبارين ومسحها الحزب الشيوعى السوفييتى بطابع أيديولوجى استنادا إلى مقولة صاحب النظرية الشيوعية كارل ماركس ، ومفادها : إن الصراع بين المعسكرين الشيوعى والرأسمالى سينطلق فى تصاعد لايعرف المسالمة ولاالمهاودة ، ومسحها المعسكر الرأسمالى بطابع "إيمانى" وهو مكافحة الإلحاد! فكان أن جاءت البيريسترويكا برئاسة غورباتشوف لتشن الصداقة على المعسكر الرأسمالى ، فاتحة كل أبواب التحالف والتعاون والتنسيق المشترك مع العالم الغربى وأميركا فى المقدمة ، مطيحة بأهم ركائز الماركسية ورامية بعرض الحائط كل التنظيرات التى ملأت الجدران وصفحات الكتب والصحف والخطب الملقاة على "الجماهير الكادحة" طوال عقود سبعة ، محرضة إياها ضد "الامبريالية .. عدو البروليتاريا اللدود"!)[٢].

ويقول آرنست ماندل : (لم يعد يتكلم غورباتشوف .. على دفن الرأسمالية ، ولو عن طريق المنافسة الإقتصادية السلمية . لابل إن البرنامج الجديد للحزب الشيوعى السوفييتى لم يعد يذكر زوال الرأسمالية)[٣].

سادسا : طالب الوفاق وعن طريق الدول الغربية بمزيد من الحريات الفردية إذا أريد له أن يكون وفاقا حقيقيا ، ولاغرابة فى هذه المطالبة إذ أن الاتحاد السوفييتى كان يقيد الحريات إلى درجة كبيرة حتى إن الفرد فيه لايتعلم

---

(١) القوى العظمى (٤٠) ، وانظر الثنائية الدولية (٤٢٥) .
(٢) سادات الماركسية (٤٧) .
(٣) الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٢٤٦) .

إلا ماتقرره الحكومة ، كما تحرم عليه الانتقال[١] إلى مكان آخر إلا بإذنها ، فكان الوفاق وعلى المدى المتأخر عنه محققا كثيرا من الحريات للفرد داخل الاتحاد السوفييتى .

سابعا : أدى الوفاق إلى ظهور قوى وتكتلات جديدة خاصة من الناحية الإقتصادية[٢]، وانتهت فترة الحروب الاستعمارية والثورات الوطنية[٣].

ثامنا : تجاوزت الدولتان بشكل كبير مرحلة التوتر التى شهدتها الأربعينات إلى نهاية الستينات وأصبح بالإمكان جلوس الطرفين للمفاوضات والتفاهم بشأن القضايا التى تطرأ على المجتمع الدولى . لقد حقق الوفاق مرحلة التفهم المشترك بين الطرفين على كثير من القضايا وإن كان ظهور ذلك كان متأخرا بعض الشىء .

تاسعا : حقق الاتحاد السوفييتى مكاسب عدة من وراء هذه السياسة ومن ذلك الإنفتاح على الغرب والإستفادة منه تكنولوجيا وإقتصاديا[٤].

عاشرا : قيام كل من الطرفين بالتخفيض من عدد جيوشه وأسلحته وإن كان هذا الأمر وخاصة من جانب السوفييت قد بدأ قبل ذلك فهو ارهاص للوفاق وماحدث بعده كان نتيجة طبيعية له .

كما قللت كل منهما التزاماتها الخارجية[٥] نظرا لتفاهم القوتين واتفاقهم على كثير من الحلول للصراعات الدولية ، وتحقيق كثير من التسويات عبر بوابة النظام العالمى الجديد .

---

(١) انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢١٤) .

(٢) انظر القوى العظمى (٤٠) ، وانظر صحيفة الشرق الأوسط العدد (١١/٥٦٠١) الأربعاء ١٩٩٤/٣/٣٠م مقال بعنوان (قضايا مرحلة الانتقال إلى نظام عالمى جديد) بقلم أحمد حمروش .

(٣) انظر العالم فى القرن العشرين (٤٦٤) .

(٤) انظر : القوى العظمى (٤٠) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٤٢) .

(٥) انظر : مابعد الحرب الباردة (٦٦-٦٧) ، النظام العالمى الجديد ملاح وأخطار (٤٠-٤١) .

وهكذا غدت نتائج الوفاق بين الطرفين من عقد المؤتمرات ، إلى تنازلات غورباتشوف ، إلى إعلان النظام العالمى الجديد والذى بمقتضاه يتفق الجباران على سياسة واحدة يواجهون بها الأحداث التى تطرأ على الساحة الدولية .

وبعد هذا العرض نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : لقد كانت فترة الوفاق وماتلاها فترة تحضيرية لإسقاط الشيوعية (السقوط النهائى) .

ثانيا : أن آثار هذا الوفاق أصبحت ظاهرة واضحة فى الأحداث التى تلته حتى وقتنا الحاضر .

ثالثا : أن تلاشى الاتحاد السوفييتى من على خارطة العالم ليدل دلالة واضحة على أن هذا الوضع قد رتب له من قبل إذ أن قوة فى مستوى القوة السوفيتية (وهى إمبراطورية) لايمكن أن يعلن عن نهايتها ، وأقول نهايتها (لاسقوطها) بهذه الصورة ، وهذا يجعلنا نبين آثار هذا الوفاق فى التعجيل بإسقاط الشيوعية وتلاشى الاتحاد السوفييتى من على الخارطة السياسية .

المبحث الثالث
أثر الوفاق فى تنازل الاتحاد السوفييتى عن كثير من مبادئه

إن سقوط الفكر الشيوعى وفساده ظهر للعيان منذ بدىء بتطبيقه على يد لينين ، وأخذ فى التراجع عن تطبيقه وهكذا دواليك من جاء من بعده من قادة الكرملين ، فأدخلت الإصلاحات على الفكر داخليا ، ثم مالبث القادة السوفييت أن أدخلوا الإصلاح والتغيير على المستوى الخارجى ، فكانت الأحداث على الساحة الدولية خارجيا بالنسبة للسوفييت تتطلب التراجع والتغيير حتى يتمكن هؤلاء من العيش بسلام فى وقت أخذت الجبهة الداخلية تنذر بثورة عارمة ضد النظام الشيوعى ، فأراد السوفييت العدول عن سياستهم الخارجية من أجل التفرغ للإصلاح الداخلى ، لكى لايواجهون جبهتين فى آن واحد . وقد بدأ هذا الانفتاح على الغرب والتفاهم معهم من فترة مبكرة على مستوى عال بين وخاصة بعد وفاة ستالين ، وكان أكبر قدر من الإنفتاح والتفاهم مع الغرب قد وقع بعد إعلان الوفاق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، والذى كان من شروط استمراره تنازل السوفييت وتراجعهم عن كثير من توجهاتهم السياسية والفكرية داخليا وخارجيا ، وهذا ماأثبتته الأحداث التى جاءت من بعد ، رغم أن السوفييت وعلى مستوى القيادة يرون أن الوفاق لايمس فكرهم بشىء .

يقول بريجنيف (إن الاتفاق لن يلغى ولو بأدنى قدر - بل ليس بالإمكان إلغاء أو تعديل - قانون الصراع الطبقى .. نحن لانخفى حقيقة رؤيتنا للوفاق كطريق لخلق ظروف أفضل من أجل الكيانات الإشتراكية الشيوعية المسالمة)[١].

---

(١) مابعد الحرب الباردة (٦٨) ، وانظر القوى العظمى (٣٩) حيث اعتبر الروس أن الوفاق عمل إيجابى فى صالح الإشتراكية .

ولأجل ذلك فإن السوفييت يعتقدون أن هذا الوفاق ماتم إلا لأن الولايات المتحدة لم تعد قادرة على مجابهة القوة المتنامية للاشتراكية[١].

غير أن هذا الموقف وكذا القول والتوجه لايدعمه دليل ولاتسنده حجة بل إن الأحداث التى ظهرت على الساحة ، وواقع الاتحاد السوفييتى ذاته دلل على أن الوفاق كان من شروطه تراجع السوفييت عن كثير من مبادئهم .

لقد شكل الوفاق الدولى أحد الأسباب الخارجية التى عجلت بإنهيار الشيوعية وتنازلها عن مبادئها وحتمياتها إذ أنه (فى سبيل الوفاق السوفييتى الأمريكى ، يمكن التنازل عن الكثير)[٢].

ومن هنا فقد أثر الوفاق على الفكر الشيوعى سلبا (بالنسبة لهم) كما أثر على حياة الشعب السوفييتى إيجابا ونتلمس ذلك التأثير الذى أحدثه الوفاق والتقارب مع الرأسمالية ويمكن إبراز أهم آثاره على الفكر الشيوعى فى التالى :

أولا : أن هذا التراجع والوفاق والتعايش مع الرأسمالية يعتبر ضربة موجهة فى صميم الفكر الماركسى الذى قام أساسا على محاربة الرأسمالية ، والنظر إليها على أنها نظام فاسد رجعى لابد من الثورة والقضاء عليه بالقوة.

وبهذا يكون الوفاق والتعايش السلمى مع الرأسمالية قد نقض فكرة حتمية انتصار الإشتراكية التى أعلنها ماركس ومن بعده لينين الذى قال إن مسألة انتصارها قضية مسلمة ، وإنما المسألة مسألة وقت .

لقد أعلن الوفاق فشل النظرية الماركسية ، فسقطت الإشتراكية وبقيت الرأسمالية كقوة مادية أولى فى العالم ، وسلمت الإشتراكية مقاليد الأمور

---

(١) انظر القوى العظمى (٢٥) ، وانظر مابعد الحرب الباردة (٦٧) .
(٢) الروس قادمون (٣٢٨) .

للدول الرأسمالية[١].

ثانيا : من آثار الوفاق على المبادىء الشيوعية التراجع فى مبدأ الدكتاتورية ، وفرض الفكر الإشتراكى على الآخرين بالقوة ، ويظهر ذلك فيما قام به خروشوف من سحب للقوات ، وتخفيض من الجيوش الموجودة فى دول أوروبا الشرقية ، هذا بالإضافة إلى مامنحته هذه السياسة للفرد الشيوعى من حرية وانفتاح على الغرب حينها . على أن القضاء على هذا المبدأ نهائيا حدث فى الفترة الغورباتشوفية .

ثالثا : من آثار الوفاق على الاتحاد السوفييتى وفكره هو الاعتراف بالرأسمالية وأهمية الاستفادة منها فى حين أن الإشتراكية ترفض فكريا هذا الالتقاء وترى أن الرأسمالية وفكرها هو سبب الشقاء للناس ، فكان الوفاق فاتحا للباب على مصراعيه للاستفادة من الرأسمالية ، ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل ذهب بريجنيف إلى الإعلان بأن الاتحاد السوفييتى لم يعد قادرا على السير دون الاستفادة منها تكنولوجيا وإقتصاديا وقام باضطهاد المتشددين الذين لايرون هذا الرأى[٢].

---

(١) يقول روتسكوى : (الدولار قد أصبح الآن عملة روسيا القوية ، والروبل أصبح مثل أوراق التبغ ، لقد أعطينا سيفنا لأمريكا ...) .
عن مجلة النيوزويك نقلا من صحيفة المدينة المنورة العدد (١١/١١٣٥٣) الأحد ٢٠ ذى القعدة ١٤١٤هـ الموافق ١ مايو ١٩٩٤م .

(٢) ولنا أن نتذكر أن لينين وستالين قد أجبرا الناس وأرغموهم على قبول الفكر الشيوعى بالقوة .
يقول خروشوف : (وضع لينين نفسه مبدأ التعايش السلمى بين الدول . ألم يكن هو الذى قال إنه يجب أن تكون هناك صلات متبادلة وتبادل فى الرأى بين الاتحاد السوفييتى وبين البلاد الرأسمالية؟ ألم يكن هو الذى قال أن الثورة ليست للتصدير؟ لذلك نقاوم تصدير الثورة المضادة كما نقاوم تصدير الثورة . علينا أن نتمسك بتوجيه لينين ونترك مهمة اسقاط الرأسمالية لشعب كل بلد . علينا أن نجعل عدم التدخل إلزاما) . الوصية الأخيرة (٣٢٤) .

وهـذا اعتراف صـريح بالتراجع العقـدى لدى الشيـوعيين حيـث انتقد بعـض المفكرين السوفييت هذا التقارب ومنهم شيليســت ومن رأيه (أن على الشعـب السوفييتى أن يتنبه إلى مـاوراء هذا الوفاق الـذى تلوح به الحكومة الأمـريكية . فالعدو اللدود لايمكـن أن يصبح صديقا أليفـا فى يوم وليلة)[١].

ولم يكن شيليست الوحيد الذى انتقد سياسة الوفـاق وخشى منها على الأيديولـوجية الشيوعية ، بل (بدأ العقائديون من السـوفييت يكتبون بشكل مكثـف عـن الخطر الأيديولوجى لسيـاسة الإنفـراج . وبدأ التحـذير مـن أن النمـو فى الاتصالات الدولية المرافقة لسياسة الإنفتـاح سوف يؤدى إلى زيادة احتمـالية تسـرب الأفكـار الغـربية والآراء والتعصـب القــومى إلى المواقـع الشيـوعية . واستمرت هذه المحـاولات خصوصا بالتــأكيد على موضوع خطر تأثر الشبـاب السوفييتى بهذا الانفتاح وانحرافهم عن التقليـد السائد خصوصا الأفكار البرجوازية فى ظل الإنفتاح .

وللتـأكيد على ذلك يقولـون بأنه : (ليس من باب الصـدفة بأن يكون ٧٠٪ مـن البرامج الإذاعيـة لكـل مـن صــوت أمـريكا Voice Of America والإذاعـة البريطـانية BBC والألمانيـة Detltsehe مـوجها بصورة مبـاشرة إلى الشبـاب والشـابات فى المعسكـر الشيـوعى وهـذا قـد يسبـب اختلافـا فكـريا داخليا)[٢].

ويرى هـؤلاء المعـارضون أن الـرأسمالية ، هــى العـدو اللـدود للفكر الشيوعى فكيف يحدث بينهما هذا الالتقاء ، إن ذلك يعتبر هـزة عنيفة للفكر الشيـوعى فى نفوس معتنقيه . و(أكـدوا أن هذا الوفاق مـع قمـم الرأسمالية البورجوازية لن يزعزع الثقة فى المذهب الشيوعى فحسب ، وإنما سيهزه هزا عنيفا داخل المجتمعات الإشتراكية ، والصديقة الأخرى)[٣].

---

(١) الروس قادمون (٢٤٥-٢٤٦) .
(٢) القوى العظمى (٣٢-٣٣) .
(٣) الروس قادمون (٢٤٩) ، وانظر (٢٥١) .

وهكذا كان الوفاق مؤثرا على الفكر الشيوعى حيث تم استبدال الثورة على الرأسمالية بالقرب منها ، والعمل معها ، والاعتراف بتفوقها بل واعترفوا ببقائها ، وهذا ماسيغضب ماركس فى قبره!!!

رابعا : اعترف قادة السوفييت بفشل نظامهم الإقتصادى القائم على مبدأ الملكية العامة ، حيث اتجهوا إلى دولة الإقتصاد صاحبة الملكية الخاصة للاستفادة منها وطلب معونتها مما يدل على فشل فكرهم الإقتصادى .

فقد نص الوفاق على التعامل الإقتصادى الذى لاحدود له وبمجرد عودة نيكسون إلى بلاده أرسل وزير التجارة الأمريكى[١]وقتذاك إلى موسكو وحاول الامريكان أن يحيطوا هذه الزيارة بالسرية وذلك باهمال الرحلة وعدم متابعتها من قبل الإعلاميين ولكن الذى لفت الانتباه وجود رجال سياسة ضمن هذه البعثة متخصصين فى العلاقات الأمريكية السوفيتية ، ومن هنا وجدت التساؤلات عن مهام هذه البعثة إلا أنهاكانت تعمل من أجل تنفيذ الاتفاقيات التجارية بين البلدين[٢]. وقد رغبت موسكو أن يكون سفير الولايات المتحدة لديها من رجال المال المعروفين ليتسنى لهم الاستفادة منه ووقع الاختيار على ديفيد روكفلر[٣]وقام بافتتاح عدة بنوك فى الاتحاد السوفييتى لكى تتولى إعمار السوفييت[٤].

وقد أدى هذا التعاون الإقتصادى إلى وجود المعارضة من قبل رجال الإقتصاد والتجارة نظرا لمخاوفهم .

حتى قال أحدهم : (هناك فى الاتحاد السوفييتى من يريد أن يقترض منا ذهبا ودولارات ، ثم يسدده لنا بالكافيار وبصناديق الفودكا!)[٥].

وكذلك كان أصحاب شركات البترول الأمريكية يأتون فى مقدمة

---

(١) بيتر بيترسون .
(٢) انظر الروس قادمون (٣٠٧-٣٠٩) .
(٣) وهو من رجال الأعمال الكبار وصاحب بنك تشيس مانهاتن .
(٤) انظر الروس قادمون (٢٣٠) ومابعدها .
(٥) نقلا من المرجع السابق (٣١٠) وانظر مابعدها .

عناصر المعارضة إلا أن الولايات المتحدة ولكونها ستحقق مكاسب سياسية من وراء هذا الدعم الإقتصادى لم تبال بهذه الاعتراضات وأعلن وزير التجارة استمرار الولايات المتحدة فى ذلك وقال : (إن هذا كله لايمنع قيام الرئيس الأمريكى باصدار أمر بمنح الاتحاد السوفييتى استثناء لايتمتع به أقرب الدول الأخرى الحليفة . فرئيس الولايات المتحدة من حقه إصدار مثل هذا القرار . فهو يوازن بين المكاسب الإقتصادية والمكاسب السياسية الاستراتيجية فإذا وجد أن المكاسب الأخيرة أكثر أهمية وأثقل وزنا من المكاسب الاولى ، فعليه ـ فى هذه الحالة ـ أن يتجاهل وجهة النظر الإقتصادية ، ويمنح الاتحاد السوفيتى التسهيلات المطلوبة ، ويرفع عن بضائعه الأعباء والقيود الجمركية الثقيلة!)[١].

ونصل بهذا إلى حقيقتين :

أولهما : أنه يستحيل أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بهذا الدعم الإقتصادى ، دون أن يكون لها من وراء ذلك مصالح .

ثانيهما : أن الاتحاد السوفييتى بموافقته على هذا الدعم والتنازل للولايات المتحدة بفتح أراضيها أمام رجال الرأسمالية دليل على أن الفكرة الإشتراكية أضحت فكرة باهتة لم يعد أصحابها الأصليون يرون حتمية بقاءها أو حتمية زوال خصمها وبالتالى ضربت الأفكار الشيوعية فى صميمها .

خامسا : حقق الوفاق والانفتاح على الغرب بعض الانعكاسات على حياة الفرد داخل الاتحاد السوفييتى ، هذا بالإضافة إلى ماقد حصل عليه من جراء تراجع القادة عن تطبيق بعض المبادىء الشيوعية . وقد جرت بعض المقارنات بين الشيوعى السوفييتى قبل الوفاق وبعده فكانت المحصلة أن (الشيوعى السوفييتى فى أوائل السبعينات لايمت بصلة للشيوعى السوفييتى القديم!

---

(١) نقلا من كتاب الروس قادمون (٣١٤) .

الشيوعى السوفييتى سنة ١٩٧٥م تغيرت مواصفاته . لم يعد الآلة التى تدور فى المصنع البشرى! لم يعد الكائن الذى يعبر عن المجموع! ولم يعد المخلوق الذى يردد مايقال له فقط ، ويؤمن بما يفرض عليه من مبادىء ، وآراء ، ومذاهب!

صورته تغيرت كثيرا ..

فالمواطن السوفييتى الجديد بدأ يهتم بنفسه . بأسرته . بحوافزه . بأحلامه برأيه الخاص فى سياسة بلاده الخارجية والداخلية . الرأى الذى يقرؤه فى "برافدا" ليس بالضرورة هو رأيه الشخصى أو الذى يجب أن يكون رأيه الشخصى أيضا! السياسة التى يعلنها مجلس السوفييت الأعلى بشأن مشكلة من مشكلات المجتمع السوفييتى ، لاتلزمه أبدا بتأييدها أو التهليل لها! الدول الصغيرة التى يستقبل قادتها استقبال الفاتحين فى موسكو ، يعتقد المواطن السوفييتى الجديد أن من حقه أن ينتقد هذه الدول . ومن حقه ألا يفتح ذراعيه لاستقبال قادتها . ومن حقه أن يطالب حكومته بقطع مساعداتها الإقتصادية والعسكرية عن عواصمها!)[١].

لقد فتح بريجنيف أبوابا كانت مغلقة من قبله رغم الجمود الذى تميزت به فترة حكمه .

لقد استبدل القيادة الفردية بالحكم الجماعى ، وظهر عليه التغير فى أموره الخاصة ، وأصبح يستقبل الضيوف فى غير صالونات قصر الكرملين .. وعلل ذلك بأن الزوار يكونون أكثر طلاقة فى أحاديثهم . وأصبح يتخذ القرارات دون الرجوع إلى موافقة المكتب السياسى الأعلى ، بل ودون الرجوع إلى النقاط التى كان يختارها المكتب لمناقشتها[٢]، هذا على مستوى القيادة ، وكذلك كان تأثير الوفاق على الفرد من حيث المطالبة بالملكية ، والتعلم ، ومعرفة الوسائل الحديثة والتكنولوجيا[٣].

---

(١) الروس قادمون (٢٣٣-٢٣٤) .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٣٤-٢٣٦) .

(٣) انظر عن ذلك ماذكره إبراهيم سعدة فى كتابه الروس قادمون (٢٣٨-٢٤١) .

سادسا : حقق الوفاق ضربة أخرى للفكر الشيوعى الإقتصادى من خلال إعلان بريجنيف أن الإقتصاد السوفييتى لايمكن أن ينمو إلا عن طريق الولايات المتحدة ، فلم يكتف بالمساعدة ، بل إن الإقتصاد السوفييتى لن يسير قدما إلا من خلال الاستفادة المباشرة من الإقتصاد الرأسمالى!!

وفى هذا اعتراف بأن الإقتصاد القائم على الملكية الفردية أفضل من إقتصادهم الإشتراكى ، وبالتالى فإن فكرة ماركس عن الرأسمالية وكذا الملكية تعتبر من الأفكار الرجعية التى لابد من طرحها فى مزبلة التاريخ لعدم صلاحيتها!! لقد فتح الوفاق الباب أمام إقرار الملكية الفردية ، وإعطاء الحافز الفردى لتحقيق النمو الإقتصادى ، هذا فى حين أن الاتحاد السوفييتى سيحصل على كميات كبيرة من المحاصيل الزراعية عن طريق الولايات المتحدة الزعيمة الرأسمالية!!!

يقول ابراهيم سعدة : (فى أغسطس ١٩٧٢م فقد الفلاحون والمشرفون الزراعيون البقية الباقية من أملهم الكبير . وصدرت "برافدا" لتعلن قرار الحكومة السوفيتية بتعبئة السكان العامة لانقاذ البلاد من الكارثة التى تتربص بها . ووعدت الصحيفة بحسن استقبال المتطوع لانقاذ المحصول . وتقديم وجبة ساخنة مجانية له ، طوال الأيام التى يشارك فيها فى انقاذ المحصول من الخراب الذى ينتظره .

.. وبدأ الزحف العظيم .

جمعوا ٦٠ ألف عربة نقل ، و٦ آلاف آلة حصد ، و١٢ ألف خبير . و١٨ ألفا من طلبة المدارس الفنية المتوسطة ، واتجهوا جميعا إلى كازاخستان للمساهمة فى انقاذ محصول الغلال .

وتقدم ليونيد بريجنيف ـ سكرتير عام الحزب الشيوعى وأقوى رجل فى الاتحاد السوفييتى الآن ـ هذا الزحف المقدس!

ونزل بريجنيف إلى الحقول ، وجلس بين الفلاحين ، وألقى عشرات الكلمات وقدم الوعود الجميلة ، البراقة . واعترف بوقوع أخطاء فاحشة . وأكد أن الأخطاء لن تتكرر بعد اليوم . وأن العقاب ينتظر المخطىء ، والثواب ينتظر المخلص .

وصارحهم بأن الوضع خطير .. خطير . ولايهم ـ الآن ـ أن الخطة الخمسية الزراعية لن تحقق المطلوب منها فى الزمن المحدد لها ، ولكن الأهم من الخطة الخمسية ـ فى الوقت الحاضر ـ هو أن توجه كافة الجهود لتوفير الخبز لكل فم .

وقال أن الأخطاء التى ارتكبها البعض ، بالاضافةإلى سوء الأحوال الجوية ، قد أحدث عجزا لايقل عن ٢٠ مليون طن فى احتياجات البلاد من القمح والذرة والشعير .

والعجز كبير ومخيف . ولابد من تغطيته وإلا أشرفت البلاد ـ فجأة ـ على حافة المجاعة!

وضرب بريجنيف ضربته المنتظرة ، التى أحسن اعدادها من قبل وأعلن أن إنقاذ البلاد لابد أن يمر عبر الولايات المتحدة الأمريكية! فقد نجحت الزراعة الأمريكية هذه السنة وقدمت محصولا هائلا من الغلال . فالقمح وحده حقق أكثر من ٥٠٠ مليون طن .

.. وبالتالى فإن الولايات المتحدة هى وحدها القادرة على ابعاد شبح المجاعة عن حدود الشعب السوفييتى! ...) .

ومن هنا (أعلن سكرتير عام الحزب الشيوعى السوفييتى استمرار الأخذ بسياسة الانفتاح على الغرب بصفة عامة ، وعلى الولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة ، حتى ولو اضطر إلى سحق كل من يعارضه أو يقف ضد سياسته!)[١].

ولاشك أن الاتحاد السوفييتى كان يعجز عن تحقيق الرفاهية الداخلية للشعب ، وفى نفس الوقت يساير أمريكا فى التسلح فكان لابد من التراجع والتقيد وكذلك التنكر للمبادىء الشيوعية ، القائمة على معاداة الرأسمالية . يقول ماندل : (يستحيل ماديا على الاتحاد السوفييتى أن يحسن ، مستوى معيشة الجماهير ، وأن يحسن مستوى الصناعة والبنية التحتية الإجتماعية ـ الإقتصادية وأن يضاهى القدرة العسكرية للامبريالية فى وقت واحد)[٢].

---

(١) الروس قادمون (٢٥٨-٢٦٠) ، وانظر (٢٥٤) .

(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشيف (٤٠٥) .

وهكذا يظهر لنا أن الوفاق قد عمل على إبعاد القادة عن الفكر الشيوعى كما عمل على جعل الفرد أكثر جرأة ، وأشد الحاحا فى المطالبة بالتغيير ، والحصول على ضروريات الحياة . واستمرت آثار الوفاق فى عهد بريجنيف ، وكانت التنازلات تقدم من المعسكر الشرقى للغربى فى سبيل الحصول على الدعم الإقتصادى بكافة أشكاله إلى أن جاء غورباتشوف أو (جىء به بتعبير أدق) فكانت الآثار أكثر وضوحا ، والتنازلات أشد أثرا فى البعد عن مبادىء الشيوعية . ونظرا للوضع الذى كان يعيشه الاتحاد السوفييتى فإن غورباتشوف قدم (المزيد من التنازلات للامبريالية التى يأمل بالحصول مقابلها على ابطاء عملية سباق التسلح وزيادة القروض الغربية بغية تضييق الهوة التكنولوجية . وهو مستعد للتضحية ليس بالحركات الثورية عبر العالم فحسب ، بل بزبائنه وبحلفائه الخاصين فى أوروبا الشرقية (بالطبع كان ستالين وخروتشيف مستعدين أيضا للقيام بالشىء نفسه ، ولكن بطريقة أكثر لؤما وضمن ظروف مماثلة . فلو أن ترومان لم يتهور فى خوض مغامرة فرض احتكار الولايات المتحدة للسلاح النووى على المدى الطويل ، وضمن بالتالى القروض الهائلة التى طلبها ستالين لعامى ١٩٤٥-١٩٤٦م بغية إعمار الاتحاد السوفييتى بعد مرحلة سياسة الأرض المحروقة فى الحرب مع النازية ، لما كان "الجدار الحديدى" ليقوم بين أوروبا الغربية وأوروبا الشرقية)[١].

لقدكان غورباتشوف يمثل (اختلافا عميقا مع ماضى السوفييت . فبالرغم من المشاكل المزمنة التى واجهها قادة السوفييت المتعاقبون لعقود عديدة ، والناجمة عن انخفاض الكفاءة الإقتصادية وعقم السياسة الخارجية وماصاحبها من مخاطر نجد أن غورباتشيف تصدى لإدخال تعديلات واسعة وعميقة على سياسات السوفييت الداخلية والخارجية)[٢].

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٤٠٥) .
(٢) مابعد الحرب الباردة (٩٩) .

لقد كانت المصاعب التى تواجه غورباتشوف كثيرة ومتعددة سواء على المستوى الداخلى أم الخارجى ، وكان يتوجب عليه إذا ماأراد الاستمرار فى سياسته الداخلية الإصلاحية ، أن يغير من سياسته الخارجية ليمضن النجاح الداخلى ، ومن هنا فقد جاءت سياسته معلنة التقارب مع الولايات المتحدة ، ونبذ الخلافات ، والسير فى طريق الوفاق والتفاهم ، فقدم العديد من التنازلات وضحى بالكثير من المبادىء والآراء الماركسية فى سبيل القرب من الرأسمالية ، والاستفادة منها إلى أن أعلن عن نهاية الشيوعية وسقوطها الأخير . ويمكن إبراز أهم التأثيرات التى أحدثتها سياسة الوفاق والتقارب مع الرأسمالية زمن غورباتشوف فى التالى :

أولا : ابطال مبدأ القضاء على الرأسمالية بالقوة .

كان فكر ماركس وانجلز يقوم على أنه لابد من (تنظيم البروليتاريين فى طبقة وهدم سيادة البرجوازية واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية)[١].

أما قواد الكرملين فتراجعوا عن ذلك شيئا فشيئا إلى أن جاء غورباتشوف واستبدل هذا الأسلوب بآخر .

يقول غورباتشوف : (نحن لاندعى لأنفسنا دور المعلم الذى يلقى الدروس على الآخرين . فنحن ، إذ سمعنا من الغير دروسا لاتنتهى ، فقد توصلنا إلى الإستنتاج بأن هذا أسلوب لاطائل من ورائه . فالحياة تعلم التفكير بنمط جديد . ونحن توصلنا إليه بالتدريج ، وبالتدريج استوعبناه ، وأخذنا نعيد التفكير بشكل جديد فى تصوراتنا السابقة لقضايا الحرب والسلم وبصدد العلاقات بين النظامين ، والتأمل فى القضايا الكونية .

كان الطريق طويلا . فمنذ أكثر من ثلاثين عاما ، وفى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى خرجنا باستنتاج جوهرى بصدد انعدام حتمية الحرب العالمية وإمكانية تفاديها . ولم يدر الحديث ببساطة آنذاك حول تأجيل اندلاع الصراع المقبل أو تمديد الفترة السلمية "لالتقاط الأنفاس" ،

---

(١) البيان الشيوعى (٥٦) .

كما لم يدر حول إمكانية التغلب على هذه الأزمة الدولية أو تلك بصورة سلمية . وأعلن حزبنا عن قناعته بإمكانية بل بضرورة القضاء على خطر الحرب ، وإلغاء الحروب من حياة البشرية . وخلال المؤتمر تم الإعلان بأن الحرب لاتشكل بتاتا ، شرطا لابد منه لإحداث الثورة الإجتماعية . وتم تطوير مبدأ التعايش السلمى بالاستناد إلى التغييرات التى حصلت نتيجة الحرب العالمية الثانية .

وفى سنوات الإنفراج بذلنا محاولات لإغناء هذا المبدأ بمضامين محسوسة ، على أساس التكافؤ فى الحوار الدولى والتعاون . وتميزت هذه الفترة بتوقيع العديد من المعاهدات الهامة ، والتى وضع توقيعها فى الحقيقة نهاية لفترة مابعد الحرب فى أوروبا ، وأسهم فى تحسين العلاقات السوفيتية ـ الأمريكية ، الأمر الذى انعكس على الوضع الدولى بصورة عامة .

إن منطق الإنفراج ذاته قد أملاه تزايد الوعى بعدم إمكانية الانتصار فى الحرب العالمية الثالثة . وانطلاقا من هذه الحقيقة بالذات ، وقبل خمس سنوات أعلنا على العالم أجمع بأننا لن نكون البادئين باستخدام السلاح النووى ضد طرف آخر)[١].

ويقول : (نحن أقوياء بما يكفى لمجابهة كل محاولات التطاول على أمن شعبنا وعلى عمله السلمى بالردع الماحق . ولكننا نعتقد أن البرهان على صحة الأيديولوجية وأفضليات النظام الذى اختاره كل شعب بارادته ينبغى ألا يحصل بقوة السلاح بل بقوة المثل وحدها ، ذلكم هو يقيننا الراسخ)[٢].

ثانيا : أبطل غورباتشوف فكرة الصراع بين النظامين والتى قال بها ماركس من قبل .

يقول مكنمارا إن (فكر غورباتشوف الجديد خالف كلاسيكيات الماركسية ـ اللينينية عندما أعلن أن (من الضرورى عدم اعتبار الصراع

---

(١) عملية إعادة البناء (١٤٩) .

(٢) نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٧٨-١٧٩) .

قاعدة فى النظام العالمى) . وأبطل مقولات ماركس ولينين عن تعارض مصالح الدول الرأسمالية والإشتراكية .. ففى نيسان/ابريل - ١٩٨٥م قال : (المواجهة لاتمثل قصورا خلقيا فى علاقاتنا ، إنها بالأحرى شذوذ واستكمالها ليس حتميا على الإطلاق)[١].

ثالثا : القضاء على مبدأ الدكتاتورية .

وظهر ذلك فى عدة أمور منها :

(أ) خفة حدة التسلط على الشعب داخليا والسماح لهم بما كان محرما عليهم من قبل قادة الكرملين باسم الفكر الشيوعى .

(ب) الدعوة إلى نزع السلاح والعمل باحلال السلام مكان الحرب ، وبيان خطورة التسلح ....

(ج) تخفيض أعداد الجيش والآليات العسكرية ، سواء من الاتحاد السوفييتى أو من دول أوروبا الشرقية . والتراجع فى سياسة السوفييت تجاه دول العالم الثالث حفاظا على إقتصاد الدولة السوفيتية[٢].

رابعا : إعلان نهاية الصراع الأيديولوجى مع الولايات المتحدة ، أى لاصراع بين الدولتين على أساس أيديولوجى .

يقول غورباتشوف : (لقد ورث ، جيلنا عن الماضى ، علاقات المجابهة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة . فهل هو قدرنا أن نستمر فى حمل راية العداء فى المستقبل كذلك؟

صحيح أننا ننعم بالسلام منذ سنوات بعيدة وبوجه عام . ولكن من الصعب أن نصف الوضع الدولى الراهن بأنه وضع مرض . فسباق التسلح ، وخاصة النووى يتواصل ، والنزاعات الإقليمية لم تخمد بعد ، وخطر الحرب يتعاظم ، ولامخرج من كل هذا إلا فى أنسنة العلاقات الدولية . حقا ، إنها

---

(١) نقلا من كتاب مابعد الحرب الباردة (١١٧-١١٨) .

(٢) انظر عن ذلك : عملية إعادة البناء (٢٢٤) ، مابعد الحرب الباردة (١٠٧-١١١) ، الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٢٥٦) .

قضيـة شائكة ، ونطرحها على النحـو التالى : ينبغى الارتفـاع فـوق الخلافات الأيديولوجية . ولتترك لكل منا حرية الاختيار وأخذ ذلـك بالاعتبار . وهذا يفـرض علينا ضرورة الالتزام بالتفكير السياسى الجديد ، التفكير الصـادر عن فهم لشبكة علاقات الاعتماد المتبادل والقائم على قاعـدة الحفاظ على الحضارة الإنسانية . ويعنى نجاحنا فى الاتفاق على معايير هذا التفكير ، أن نتـوصل إلى حلـول متوازنة للمشاكل القائمة فى المجتمـع الدولى . فـإذا أدرك السيـاسيون هذا الأمر وطبقوه فى الواقع فسيعنى ذلك انتصار العقل .

فى غمـرة سعينا الدؤوب من أجل وضع دولى سليم نلاحظ أن هنـالك سمتين تميزان السياسة الخارجية الواقعية وهما :

* إعتبار المصالح القومية الذاتية .
* إحترام مصالح الدول الأخرى .

هـذا هو الموقف القوى السـديد الواجب الدفاع عنـه بثبـات ... هكذا نفكر ، وفى هذا الاتجاه نريد أن نعمل)[١].

وبين غـورباتشوف أن أمريكا الرأسمالية حرة فى اختيـار ماينـاسبها من وضـع إجتماعى وسياسى فيقول : (النظـام السياسى والإجتمـاعى للـولايات المتحدة ، قضية خاصة بالشعب الأمريكى نفسه . فهو الذى يقرر الطريقة التى تدار بها بلاده وتنتخب بها قيادته وحكومته نحن نحترم هذا الحق فى السيادة . ولـو رحنـا نشكـك فى طريقة اختيـار الشعـب الأمريكى ، فـإلى أى النتـائج سنصل ؟)[٢]

ويقول أيضا : (لايمكن التوجه نحو بناء علاقات منسجمة بين بلدينا إذا بقينا ، فى الوقت ذاته فريسة الهواجس الأيديولوجية)[٣].

---

(١) عملية إعادة البناء (٢٣١) .
ومما يدل على أن الـوفاق كـان له آثار واضحة تخوف الشعـب الأمـريكى منه .
(٢) المرجع السابق (٢٢٤) .
وانظر الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٢٥٠) .
(٣) عملية إعادة البناء (٢١٩) .

خامسا : إعلان زوال مبدأ حتمية سيادة الإشتراكية ، نظرا لأن الوفاق قد أفرز التفوق الرأسمالى وجعل الفكر الإشتراكى يتراجع فى أهميته حتى فى نفوس أصحابه .

سادسا : العمل مع الرأسمالية على تحقيق الأمن وأن هذا الأمن لن يتحقق إلا بذلك أى مشاركة الطرف الرأسمالى .

يقول غورباتشوف : (إن بلدينا لايمكنهما أن ينجرا ، ببساطة ، إلى المجابهة . ففى هذا تكمن المصلحة الحقيقية لشعبينا . وهذا مايجب أن ينعكس بلغة السياسة الواقعية . ومن الضرورى وقف سباق التسلح والشروع بنزع السلاح ، وتطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية . أقول بصدق أن الوقت قد حان لجعل العلاقات بين الشعبين العظيمين منسجمة مع دورهما التاريخى . فعلى علاقتنا يعتمد مصير العالم ، ومصير الحضارة العالمية . ونحن على استعداد للسير فى هذا الاتجاه)[١].

ويقول : (الولايات المتحدة دولة محكوم علينا العيش ونسج العلاقات معها . هذه حقيقة . ورغم كل التناقض فى علاقتنا فمن البديهى أننا بدون الولايات المتحدة لانستطيع عمل أى شىء لضمان السلام ، كما أنها بدوننا لن تستطيع عمل شىء . لامناص من التعامل مع الولايات المتحدة ولامفر للولايات المتحدة من التعامل معنا . لذا يصبح من الضرورى قيام العلاقات وإجراء الحوار فيما بيننا ، والبحث المشترك عن سبل لتحسين العلاقات)[٢].

سابعا : التعاون فى حل الاشكالات الإقليمية والعالمية .

---

(١) عملية إعادة البناء (٢٢٠) . وكان ذلك فى معرض الإجابة عن تساؤلات (مجلة التايم) الأمريكية سنة ١٩٨٥م .
وانظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٧٦-١٧٧) .

(٢) عملية إعادة البناء (٢٢٤) .
وعن رغبة الولايات المتحدة فى هذا العمل المشترك مع السوفييت انظر نظرة شاملة على السياسة الخارجية الأمريكية (١٦٣-١٦٤) .

كان الاتحاد السوفييتى يرى أنه لايمكن تحقيق السلام والأمن فى هذا العالم إلا بمشاركته ، ثم مالبث أن أقر وطالب بمشاركة الولايات المتحدة ، ثم فى نهاية المطاف أعلن أنه ليس بالإمكان عمل شىء دون الرجوع إلى الولايات المتحدة الرأسمالية .

يقول غورباتشوف : (علينا أن نتعلم العيش فى العالم الواقعى ، العالم الذى فيه مصالح للاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا الاتحادية . كما توجد مصالح للهند والصين واستراليا وباكستان وتنزانيا وأنغولا والأرجنتين وغيرها من الدول ، وكذلك لكل من بولندا وفيتنام وكوبا . إن إنكار ذلك يعنى عدم الاعتراف بحق الشعوب فى حرية الاختيار ، حقها فى اختيار النظام الإجتماعى الذى تريد . وحتى إذا ماأخطأ الشعب فى اختياره ، فعليه هو نفسه إيجاد المخرج . نعم هذا من حقه .

تحدثنا حول هذا الأمر ، مرارا ، مع العديد من الأمريكيين بمن فيهم جورج شولتز . جرى ذلك فى ربيع ١٩٨٧م فى موسكو . وقد شمل الحديث مواضيع كثيرة ، ولكننى كنت دائما أمضى به إلى فكرة واحدة : دعنا نحاول العيش . فى عالم حقيقى ، دعنا نأخذ بعين الاعتبار مصالح الدولتين . وهذا غير ممكن دون مراعاة مصالح الأعضاء الآخرين فى المجتمع الدولى . فلن تتشكل العلاقات الدولية إذا استرشدنا بمصالح الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة فقط . إذن يجب إيجاد نوع من الموازنة .

فى كل مرحلة تاريخية تمثل هذه المهمة بشكل جديد . تتبدل المصالح فيتبدل التوازن . هنا ، يتوجب إيجاد مداخل جديدة . أكرر بأنه سيكون خطرا ومضرا فى نهاية القرن العشرين ، انتهاج سياسة مبنية على خطاب تشرشل فى فولتون أو على مبدأ ترومان . فقد حان الوقت ومنذ زمن بعيد للعمل بشكل جاد على إعادة بناء العلاقات السوفيتية الأمريكية . وإذا ماتم الاعتراف بذلك ، فلابد من نبذ سياسة إصدار الأوامر . إذ ليس بمقدور أى بلد ، سواء أكان الاتحاد السوفييتى أم الولايات المتحدة أو غيرهما من الدول النظر إلى العالم أو أى جزء منه كمادة للاستغلال ، ولو حتى بذريعة "المصالح القومية" .

بات الآن من الصعب تمرير محاولات بناء العلاقات على أسس الاملاء والعنف وإصدار الأوامر ، ومع مرور الوقت سيصبح ذلك مستحيلا . إن استيعاب الحقائق الجديدة عملية ليست بالبسيطة ، وهى تحتاج إلى وقت الجميع وجهودهم . ومادامت هذه العملية قد بدأت فستستمر . علينا أن نتعلم الإصغاء إلى بعضنا البعض وفهم بعضنا البعض . أثناء حديثى مع شولتز قلت له : نحن نساند التعاون المتبادل مع الولايات المتحدة ، التعاون البناء . وليس بمقدور أحد غيرنا تحمل المسؤولية الملقاة على عاتق بلدينا)[١].

ثامنا : أكثر من ذلك فإن غورباتشوف يرى أنه لم يعد هناك حاجة لتصوير الولايات المتحدة بأنها العدو اللدود للاتحاد السوفييتى .

- وأين هذا التفكير من نظريات ماركس التى مابنيت إلا على أساس القضاء على العدو اللدود لها (الرأسمالية) - حيث يقول غورباتشوف : (إننا لانحتاج إطلاقا إلى رسم وجه الولايات المتحدة على "صورة عدو" فلااحتياجاتنا الداخلية ولامصالحنا السياسية الخارجية تستدعى ابتكار هذه الصورة .

عادة، تبرز الحاجة إلى عدو مزعوم ، أو حقيقى ، عندما يكون هنالك إعداد لحالات من التوتر والمجابهة بدافع أهداف بعيدة المرمى . وأضيف أن مثل هذه الحالة محفوفة بمصاعب خطرة يصعب التنبؤ بها . أما نحن فإننا نهيىء أنفسنا لحالة مختلفة تماما .

وفيما يتعلق بنا فإن الاتحاد السوفييتى لاينشر دعاية الكراهية ولايروج لعدم الاحترام إزاء الولايات المتحدة . وهذا غير موجود فى سياستنا أو فى التعليم ، أو فى أى مجال آخر . نحن ننتقد السياسة التى لانتفق معها . ولكن هذه قضية أخرى وهى لاتعنى أننا لانكن مشاعر الاحترام تجاه الشعب الأمريكى)[٢].

---

(١) عملية إعادة البناء (٢٢٠-٢٢١) .

(٢) المرجع السابق (٢٢٥) .

تاسعا : التغير فى مجال الإقتصاد .

إن من نتائج الوفاق الدولى التغيير الإقتصادى الذى أدخل إلى البلاد وذلك من أجل الاتجاه نحو السوق الحرة واخراج السوفييت من العزلة الإقتصادية التى كانت مفروضة عليهم ، ولاننسى أن للفكر الشيوعى الذى يقوم على الملكية الجماعية دوراً فى هذه العزلة .

يقول غورباتشوف أن التحول التجارى بين أمريكا والسوفييت (تحول الآن إلى عامل مهم فى التطور السياسى الداخلى فى الاتحاد السوفييتى ، وهو العامل الذى يساعد على تحقيق التغييرات الإقتصادية الجذرية فى بلدنا . وكلما تعلق أحدنا بالآخر على صعيد العلاقات الإقتصادية كلما أصبحت علاقاتنا السياسية أكثر أهمية ومسؤولية)[١].

رغبة موسكو فى زيادة مشاركتها فى إقتصاد العالم .

(والسوفييت بالإضافة لفكرهم الجديد فى السياسة الخارجية والدفاعية يقومون بعمل تعديلات رئيسية ـ أيضا ـ فى سياستهم الإقتصادية العالمية .

إنهم يسلمون بوضوح بأن القرن الحادى والعشرين سيكون زمن تغير درامى للتكنولوجيا التى سوف تنتشر بسرعة بين الشعوب المشاركة فى اقتصاد العالم ، الذى ينضوون تحت لوائه حاليا . لذلك فكر غورباتشيف فى تطوير فرص السوفييت التجارية وتكامل الإقتصاد السوفييتى داخل إقتصاد العالم بأربعة طرق :

(١) إعادة توجيه جهاز التجارة السوفييتى ليسبح مع التيار .
(٢) تشجيع إنشاء شركات مشتركة مع رجال الأعمال الغربيين .
(٣) فتح طرق الإتصال مع المؤسسات المالية الغربية .
(٤) تواجد السوفييت فى عضوية المنظمات الإقتصادية العالمية بما فى ذلك التوقيع على الإتفاق العام للتعرفة والتجارة والإنضمام للبنك الدولى وصندوق النقد الدولى .

---

(١) نقلا من كتاب سادات الماركسية (١٢٨) .

فى اجتمـــاع قمـــة واشنطـــن فى كـــانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧م أدلى غورباتشيف بالتصريحات الآتية :

أمـا عن العلاقات الإقتصادية مـع أمريكا .. فأنا ببسـاطة لاأعرف كيف نصبر على هـذه الحالة التى أصبحـت عليها ارتباطاتنا الإقتصـادية والتجارية . يمكننا أن يصبح كل منا مفيدا للآخر ، نحن مقتنعون أنه من الممكن أن تبدأ الأعمـال الأمـريكية صفقات مفيـدة لهـا فى الاتحاد السـوفييتى . إذا عـزم أى شخـص على الانضمام لنا ليسـاعدنا ويستفيد فى نفس الـوقت ، فنحـن ندعوه لأن يفعـل هذا .. نحن ننتظـر المبادرات ونخلق الظروف الضـرورية لمثـل هذا التعاون .

كـل من يرغب فى المشاركة سيجد دعما من كل من الحكـومة والقيادة السياسية)[١].

عاشرا : حصل الفرد فى الاتحاد السوفييتى على كثير من حقوقه فى ظل سياسة غورباتشوف الإصلاحية والانفتاحية . يقول مكنمارا :

(إضـافة إلى تطبيـق فكـر غـورباتشوف الجديد على التعـاون السيـاسى والإقتصـادى نجد أنه قـد بدأ أيضـا فى تطبيقه على مجالات حقـوق الإنسـان .

وقـد تم تغطية بعض الحالات الرئيسية إعلاميا بشكـل واسع مثل إنهاء نفـى داعيـة حقوق الانسان المعـروف جيـدا أندريه زاخاروف والسمـاح لـه بالسفر للغرب . ولكن هناك أيضا تحركات على جبهات أخرى يجب طرحها .. فلقد تم الإفراج عن أكثر من ستمائة سجين (رأى) خلال العامين المنصرمين .. وتعهـد السوفييت على الملأ بوقـف المزاولة الوحشيـة بتعريض المخالفين فى الرأى للعلاج النفسى .

وبدأ تخفيف الحظر على تعلم الدين وأداء طقوسه .. وتم طرح أكثر من مائة ألف كتاب مقدس للبيع بين المواطنين السـوفييـت ، وفى نهـاية ١٩٨٨م أنهـت موسكو المنع السوفييتى لتعليم اليهـودية . ويتم الآن مـراجعة الـدستور

---

(١) نقلا من كتاب مابعد الحرب الباردة (١١٣-١١٤) .

السوفييتى لتنقيته من المواد التى تحظر مختلف النشاطات السياسية والأنشطة الأخرى .. ومراجعة القوانين التى تجرم "السلوك المضاد للسوفييت" والتى استخدمت فى الماضى للقضاء على المخالفين .. كما التزم الاتحاد السوفييتى بأحكام محكمة العدل الدولية فيما يخص تفسيرات وملابسات إتفاقيات حقوق الإنسان . وفى عام ١٩٨٧م زادت هجرة اليهود السوفييت لتصل إلى أكثر من تسعة أضعاف ١٩٨٦م (فى ١٩٨٦ كانت ٩١٤ حالة زادت فى ١٩٨٧م إلى ٨١٤٩ حالة) وفى عام ١٩٨٨م أصبحت ١٩٢٠٠ حالة ، أى أكثر من ضعف حالات ١٩٨٧م . ويقدر مسؤول إسرائيلى عدد اليهود الذين سيهاجرون من الاتحاد السوفييتى خلال ١٩٨٩م بأنه سيصل إلى أربعين ألفا .

وقد تعهد غورباتشيف فى خطابه أمام الأمم المتحدة فى كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٨م بأن يضاف إلى دستور الاتحاد السوفييتى عام ١٩٨٩م قوانين تضمن حرية التعبير وحرية العقيدة الدينية ، مضيفا بأن القانون الذى يمنع هجرة المواطن الذى لديه معلومات عن أسرار البلد سوف يعدل ليشمل على بند يحدد بدقة "زمن المنع" . من الصحيح أن نقول أن المواطنين السوفييت لازالوا يعيشون تحت عبء عدد ضخم من الموانع والقيود الثقيلة ، ولكن الخطوات الاولى لتخفيف هذه القيود أصبحت ذات مغزى خصوصا لو قورنت بعدم اعتبار السوفييت السابق لموضوعات حقوق الإنسان)[١].

الحادى عشر : كان من آثار الوفاق التى ظهرت زمن الحقبة الغورباتشوفية ، فرض البيريسترويكا بالقوة من قبل الجبارين على دول أوروبا الشرقية .

يقول حسين صبرا : (إن ماحصل من تغييرات ليس فى الاتحاد السوفييتى فحسب وإنما فى العالم قاطبة ، تم خلالها قلب الموازين والمعايير فى السياسة العالمية رأسا على عقب ، جدير بأن يدرج تحت لقب "بيريسترويكا دولية" ، وذلك بعد شيوع البيريسترويكا داخل أول بلد إشتراكى فى العالم

---

(١) مابعد الحرب الباردة (١١٤-١١٦) .

ومن ثم محاولة تعميمها فى معظم دول المنظومة الإشتراكية وغالبية دول العالم الثالث ، ضمن حملة تنازلات يقدمها "الجبار" السوفييتى لعدوه القديم صديقه الجديد الجبار الأميركى ، وهو الشىء الذى بدأ برسم خارطة جديدة للعالم تختلف أيما اختلاف عن الذى عهدناه فى العقود السابقة)[١].

ويقول : (والصداقة المستجدة بين الاتحاد السوفييتى وأميركا أدت إلى التحالف بين الطرفين فى العمل على قدم وساق لفرض "بيريسترويكا دولية" يكون نموذجها بيرويسترويكا غورباتشوف وذلك فى مختلف أنحاء العالم ، سواء منها مايخص هذا المعسكر أو ذاك . وبالنتيجة سعى الاتحاد السوفييتى بكل جهده لتعميم البيرويسترويكا فى دول المنظومة الإشتراكية إضافة إلى الدول الصديقة ، وأميركا من جهتها قامت بالدور نفسه فى مايخص الدول التابعة لها ، وهو الشىء الذى يعتبر "التنازل" المقابل للتنازلات التى يقدمها غريمها دون أن ننسى الإشارة إلى الدور الذى لايستهان به والذى لعبه أيضا المعسكر الرأسمالى فى الضغط على دول المعسكر الإشتراكى نفسها خصوصا تلك التى كانت رافضة أساسا لـ"البيرويسترويكا")[٢].

الثانى عشر : حقق الاتحاد السوفييتى شيئا من المصالح الإقتصادية نتيجة الوفاق زمن غورباتشوف فقدمت الولايات المتحدة المساعدات ولكنها المساعدات المشروطة بالتنازلات . وكانت جل الطلبات التى تقدم بها غورباتشوف تهدف إلى الإنماء الإقتصادى . ولكن كانت تلبية هذه المطالب مقرونة بالتنازلات من الطرف الذى تقدم بالطلب . يقول ممدوح لطفى :

(على الساحة الدولية انتهى عهد "جورباتشوف" بالانجازات الباهرة وأصبح يواجه صعوبات حقيقية فى علاقاته مع كبرى دول العالم .. فى واشنطن واجه الرئيس الأمريكى "جورج بوش" ضغوطا قوية من أجل رفض الطلب العاجل الذى تقدم به إليه الزعيم السوفييتى "ميخائيل جورباتشوف"

---

(١) سادات الماركسية (٤٧) .

(٢) المرجع السابق (٥٠) .

للحصول على مساعدات مالية .. وكان "جورباتشوف" قد بعث برسالة خطية فى مارس ١٩٩١م يطلب فيها الحصول على تسهيلات ائتمانية إضافية قدرها بليون ونصف البليون دولار لشراء الحبوب من الولايات المتحدة وأوضح "جورباتشوف" فى رسالته أن هذه الضمانات الإئتمانية ضرورية لمواجهة النقص الحاد والمزمن فى امدادات الغذاء فى الاتحاد السوفييتى ونصح كبار المسئولين فى وزارة الخارجية الأمريكية الرئيس "جورج بوش" بعدم تقديم أية تسهيلات ائتمانية أخرى إلى موسكو إلى أن يوافق "جورباتشوف" على فرض مزيد من الاصلاحات الإقتصادية)[١].

ولاشك أن غورباتشوف كان يهدف إلى الحصول على مساعدات إقتصادية ليدفع بها العملية الإصلاحية داخليا . ولاشك أن التأخر التكنولوجى والتردى الإقتصادى قد شجعا غورباتشوف على الإقدام على هذه السياسة[٢].

وهكذا يظهر جليا أن الوفاق الدولى قد عجل بإنهيار الشيوعية . حيث كان الفرد داخل النظام يتطلع إلى حياة أفضل وتتوق نفسه إلى الإنعتاق من النظام الشيوعى سواء سياسيا أو فكريا .

كما أن الزعماء الشيوعيين رأوا أنه ليس بالإمكان الاستمرار فى الحفاظ على المبادىء الماركسية ومعالجة الأزمات الداخلية ومن هنا حدث التراجع عن تطبيق الأفكار الماركسية نظرا للتذمر الشعبى ومطالباته ، والتردى الإقتصادى وتأخره ، فعملوا على التقارب مع الدول الرأسمالية الأكثر نماء للاستفادة منها ، وكانت هذه الاستفادة على حساب التخلى عن العقيدة الماركسية التى لم يجن منها الاتحاد السوفييتى إلا الويلات خلال العقود الماضية .

وإذا كان الوفاق قد حقق المصالح المشتركة لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، فإن ثماره كانت فى الأعم الأغلب منحصرة عليهم ، وكان المسلمون هم الأكثر ضررا من جراء توافق الشرق والغرب . وهذا يدعونا إلى الحديث عن الموقف من الوفاق .

---

(١) إنهيار إمبراطورية شيوعية (١٥٩) .

(٢) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٩٩) ومابعدها .

المبحث الرابع
الموقف من الوفاق

إن مسألة التقارب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى قد أدخلت السرور فى نفوس كثير من الناس سواء من المسلمين أم من غيرهم لأنهم نظروا إليها بمنظار واحد هو زوال الخطر النووى عن المجتمع البشرى ولو إلى حد ما ، بالإضافة إلى دخول الدولتين عالم التقارب والتفاهم والتفاوض ولكن تظل هناك حقائق ينبغى أن لاتغيب عن أذهان المسلمين خاصة ومن هنا وجب الحديث عن موقفنا من الوفاق .

ودون النظر فى بعض ماحققه الوفاق للدولتين من مصالح فإن العالم الإسلامى ودول العالم الثالث كانت متضررة من وراء هذا الوفاق ولو شئت لقلت "التوافق" . فبالنسبة لدول العالم الثالث اتفقوا على مصادرة مصالحها وإنهاكها ونهب ثرواتها ، وبالنسبة للعالم الإسلامى اتفقوا على الوقوف ضد التيار الإسلامى أى الأصولية الإسلامية كما يزعمون ، ويمكننا وضع هذه النقاط لنتبين مقدار ماحققه الوفاق من ويلات على العالم الإسلامى ، وغيره من دول العالم الثالث .

أولا : اشعال نار الحروب الصغيرة والمحدودة فى أجزاء متفرقة من العالم .

ولعل هذا الأمر غير موجود بالنص فى الوفاق ولكن الأحداث أثبتت صحته (فأحداث تيمور فى جنوب شرق آسيا والمعارك الطاحنة التى شهدتها لبنان ، والحرب المشتعلة فى أنجولا فى الجزء الغربى من أفريقيا ، والحرب بين الجزائر والمغرب حول الصحراء المغربية ، هذه الظواهر لايمكن أن تكون كلها عفوية .. بل إن الأمور تحمل الإنسان العادى على القناعة التامة بأن وراء اشتعال هذه الحروب تقف "سياسة الوفاق" الأمريكى السوفييتى .. بمعنى أن اشعال هذه الحروب للسوفييت ولأمريكا مصالح فيها)[١].

---

(١) أخبار العالم الإسلامى ، العدد (٣/٤٦٣) الاثنين ١٣٩٦/٢/٢هـ ، مقال بعنوان (هذه الحروب الاقليمية لمصلحة من؟) بقلم محمد محمود حافظ .

ثانيا : أن الولايات المتحدة ترغب فى الاستفادة من هذا الوفاق ومن آثاره ونتائجه لصالحها وخاصة ماعرف بالنظام الدولى . ومن هنا بدأت الولايات المتحدة أكثر تدخلا فى كثير من القضايا التى شهدتها الساحة الدولية ، وذلك من أجل تحقيق المصالح الاستراتيجية والإقتصادية وقد أعلن بوش ملامح تلك السياسة فى خطابه الذى ألقاه فى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠م حيث قال : ("مع عزم الولايات المتحدة تخفيض حجم قواتها خلال السنوات المقبلة ، فإنها ستركز على الاستعداد لمواجهة التهديدات الإقليمية فى أى مكان تقع فيه من العالم ، وسوف تتخلى عن اهتمامها التقليدى باحتمال وقوع هجوم سوفييتى فى أوروبا" هذا ماأعلنه بوش قبل عام من حدوث الإنهيار الشامل والنهائى فى السلطة السوفيتية وسقوط الاتحاد السوفييتى كدولة)[١].

فـ(بدأت الإدارة الأمريكية تعكف على وضع استراتيجية جديدة تقوم على أساس الاحتفاظ بقوات أمريكية كبيرة لمواجهة مايصفه مسؤولو البنتاجون بـ"الأوضاع الإقليمية الطارئة")[٢].

ويقول : (إن مانخطط له الآن يأخذ بعين الاعتبار وضعنا كقوة عظمى وكلاعب رئيس على المسرح العالمى ، له مسؤوليات ومصالح فى كل مكان من العالم)[٣].

ولو أردنا تتبع هذه السياسة لوجدنا أن الواقع يصدقها ويشهد بها ، ومثالا على هذه التدخلات :

---

(١) العالم الإسلامى والنظام الدولى (١٣٨) ، نبيل زكى سلسلة الدراسات السياسية والاستراتيجية (٨) ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامى .

(٢) المرجع السابق (١٣٨) ، وانظر النظام العالمى الجديد ملامح ومخاطر (٤٥) .

(٣) العالم الإسلامى والنظام الدولى (١٣٩) ، وانظر صحيفة عكاظ العدد (١١/٩٦٧٠) الاثنين ٢٥ رجب ١٤١٣هـ الموافق ١٨ يناير ١٩٩٣م ندوة شارك فيها مجموعة من الأساتذة .

التهجم على هاييتى[١]، التصدر لموضوع البوسنة والهرسك ، تهديد كوريا الشمالية ، وهى ثلاث قضايا أرهقت الرئيس كلينتون وترك ملفاتها مفتوحة[٢].

كذلك الصومال ، أحداث الخليج ، الشرق الأوسط (قضية فلسطين والسلام) ، وهكذا .

ثالثا : أن أكثر المناطق التى عانت من الغطرسة الأمريكية ، والتدخل فى شئونها هى منطقة الشرق الأوسط .

ومن أهم أهداف السياسة الأمريكية تجاهها (العمل على ضرب الصحوة الإسلامية والتيارات القومية والوطنية التى مازالت تتمسك بالثوابت العروبية والوطنية وترفض الاستسلام للنظام الدولى الجديد وفقا للمنظور الأمريكى)[٣].

---

(١) إحدى جزر البحر الكاريبى ، ويرى البعض أن التدخل فيها من قبل الولايات المتحدة لتحقيق مصالح سياسية ، وتكريس التوجه فى حل النزاعات الإقليمية ، وكذا لفت انتباه كوبا إلى ضرورة التوقف عن إثارة المتاعب ضد الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه المنطقة .
انظر صحيفة عكاظ العدد (٦/١٠٢٧٦) الاثنين ٢١ ربيع الآخرة ١٤١٥هـ الموافق ٢٦ سبتمبر ١٩٩٤م .

(٢) انظر صحيفة المدينة المنورة العدد (١٣/١١٤٠٢) الأحد ١٠ محرم ١٤١٥هـ الموافق ١٩ يونيو ١٩٩٤م عن التايم الاسبوعية .
وانظر بشأن كوريا الشمالية صحيفة الشرق الأوسط العدد (١١/٥٦٩٢) الاربعاء ١٩٩٤/٦/٢٩م .

(٣) العالم الإسلامى والنظام الدولى (١٥٣-١٥٥) ، وانظر (١٥٣-١٥٤) ، وانظر مجلة الإصلاح العدد (٣٥/٢٥٧-٣٦) الخميس ٢١ ربيع الآخر ١٤١٤هـ الموافق ٧-١٣ اكتوبر ١٩٩٣م وفيها أن الغرب يهدف من وراء هذه السياسة الجديدة :
أ ـ التجزئية ، حتى للقطر الواحد .
ب ـ تحريم امتلاك التكنولوجيا على عامة العالم الإسلامى .
ج ـ الهجرة اليهودية والتشجيع عليها .
د ـ المحاصرة الإقتصادية .
هـ ـ ممارسة الاعتراض ضد الحركات الإسلامية حتى لاتصل إلى السلطة . =

رابعا : أن الوفاق الدولى والنظام العالمى الجديد لايمكن بحال من الأحوال أن يكون خادما لمصالح المسلمين أو قضاياهم ، وقد أثبتت الأحداث مصداقية ذلك ، وفشل هذه السياسة مع قضايا المسلمين وأبرز الأمثلة على ذلك :

(أ) أحداث البوسنة والهرسك . (ب) الشيشان .

ونسجل الموقف الدولى من هذين الحدثين فى نقاط .

(أ) البوسنة والهرسك :

(١) أن الطرف الإسلامى يمثل العقبة فى اتخاذ الحل السريع لهذه المشكلة ، فالمسلمون هناك يمثلون الخطر الأكبر على أوروبا ومن هنا اتفقت الأهداف الشرقية والغربية فى ضرب المسلمين والتضييق عليهم وجعلهم فريسة سهلة أمام الحاقدين الصليبيين .

(٢) ونتيجة لذلك كان حظ القضية من المجتمع الدولى الشجب والإدانة ، وكل مايتخذ من قرارات توضع العراقيل أمام تنفيذه ، وإذا لزم الأمر استخدمت روسيا ضده حق النقض الفيتو . إن ماحدث فى البوسنة والهرسك ، وما(تقوم به القوات الصربية ينطوى على انتهاك صارخ لأحكام القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة ، واعلان حقوق الإنسان ، واتفاقيات جنيف ، والبروتوكولات الملحقة بها)[١].

= وانظر صحيفة المدينة المنورة العدد (٧/٩٤٢٣) الأربعاء ١٠ رمضان ١٤١٣هـ ، وفيها تصريحات وزير الخارجية الأمريكى كريستوفر (إن إدارة الرئيس كلينتون تولى قضية الشرق الأوسط أهمية خاصة .. فهذا الاهتمام الأمريكى لايجب أن يؤخذ فقط على أنه معبر عن مكانتها الدولية وموقعها كدولة عظمى تنفرد الآن به على الساحة الدولية ، ولكنه نابع أساسا من أن للولايات المتحدة دورا لابد وأن تمارسه فى المساهمة فى حل مشاكل المنطقة) .

(١) صحيفة عكاظ (الأمة الإسلامية) العدد (٢/٧٢) الجمعة ٦ ربيع الآخر ١٤١٣هـ الموافق ٢ أكتوبر ١٩٩٢م مقال بعنوان الموقف الدولى من محنة البوسنة والهرسك ثمانية أشهر بيانات شجب وادانة!! بقلم أحمد أبو الحسن زرد . =

ومع ذلك فلاغرابة لأن المتضررين هنا من المسلمين ..

(٣) ظهر من هذه الأحداث الحقد الصليبى الدفين على المسلمين بمساعدة روسيا ، ومباركة الغرب وعندما قامت الولايات المتحدة بغارةجوية لذر الرماد فى العيون تلقى كلينتنون مكالمة هاتفية من يلتسين جاء فيها (أكدت وأؤكد على أن مسائل معينة كتلك التى تتناول قصف مواقع الصرب لايمكن إقرارها من دون مشاورات مسبقة بين الولايات المتحدة وروسيا)[١].

= وانظر عاظ العدد (١١/١٠٠٣٣) الجمعة ١٠ شعبان ١٤١٤هـ الموافق ٢١ يناير ١٩٩٤م حيث ذكر بسام كمال أن روسيا تغض الطرف عن قتل المسلمين فى البوسنة رغم التقاء الرئيسين كلينتون ويلتسين وتشديدهما على مسألة مراعاة حقوق الإنسان .

(١) صحيفة الحياة العدد (٨/١١٣٧٨) الثلاثاء ١٢ نيسان/ابريل ١٩٩٤م الموافق ١ ذو القعدة ١٤١٤هـ . وقد كانت مواقف روسيا واضحة تجاه المسلمين هناك ، فمثلا : امتنعت روسيا عن التصويت على قرار بزيادة العقوبات على الصرب .
انظر صحيفةالحياة العدد (٦/١١٠٥٢) الاثنين ١٧ أيار/مايو ١٩٩٣م الموافق ٢٦ ذو القعدة ١٤١٣هـ .
وكذا عمل الروس على معارضة قرارات مجلس الأمن بشأن الغارات الجوية أو زيادة المحاصرة ووصل الأمر بها إلى إرسال قواتها إلى محيط العاصمة سراييفو .
انظر صحيفة المدينة المنورة العدد (١٠/١١٣٢١) الأربعاء ١٨ شوال ١٤١٤هـ الموافق ٣٠ مارس ١٩٩٤م .
ومما تجدر الإشارة إليه أن دول المجموعة الأوربية رفضت تسليح المسلمين .
انظر صحيفة عكاظ العدد (١٢/٩٧٦٥) السنة الرابعة والثلاثون الأربعاء ٧ ذو القعدة ١٤١٣هـ الموافق ٢٨ ابريل ١٩٩٣م .
ثم إن حلف الناتو بعد أن قرر سحب الأسلحة الثقيلة من الأطراف المتصارعة إلى خارج سراييفو فى دائرة نصف قطرها ٢٠كم فإن هذا القرار لم يطبق وخاصة فى أول الأمر إلا على السلمين حيث جردوا من سلاحهم وبقيت القوات الصربية محاصرة سراييفو ، وتم اجهاض القوات المسلمة بسحب الأسلحة الثقيلة التى كانت لديها بعد أن عجز الصرب طوال عامين عن كسرها .
انظر صحيفة المسلمون العدد (١/٤٧٢) وانظر (ص٤) الجمعة ٨ رمضان ١٤١٤هـ الموافق ١٨ فبراير ١٩٩٤م .
وانظر مجلة المجتمع العدد (٤٥/١٠٦٧) الثلاثاء ٥ ربيع الآخر ١٤١٤هـ الموافق ٢١ سبتمبر ١٩٩٣م .

(٤) إن الحرب فى البوسنة والهرسك كانت حربا عقدية ضد المسلمين ارتكبت المجازر تحت مسميات أخرى ولكنها حرب تريد وقبل كل شىء إبعاد كل ماله صلة بالإسلام من أوروبا وكان ديفيد أوين أعلن ذلك صراحة واعتبر أن هذه الحرب حرب دينية أو لابد من إضفاء هذا الطابع عليها (بالطبع من جهة المسلمين حتى يتسنى للأعداء استغلال ذلك) .

وقال أوين : (إن البوسنة لايمكن مطلقا أن تصبح دولة تتمتع فيها المجموعة السكانية الأكبر - وهم المسلمون - بسلطات ديمقراطية . إن هذا - ببساطة - أمر لايمكن قبوله)[١].

ولأجل ذلك اعتبر أوين أن عدم قبول المشروع بتقسيم البوسنة والهرسك يعتبر دليلا على عدم قبول السلام[٢].

لقد كشف الصراع فى البوسنة عن الأزمة الحقيقية التى يعيشها التجمع الدولى فى ظل الوفاق الدولى[٣]وبوابته الكبيرة التى فتحت فيما بعد النظام العالمى الجديد ، وأظهر أيضا أنه مادام أحد طرفى النزاع فيه العنصر الإسلامى فلابد من الخلاف حول القرارات والاجراءات التى تتخذ حتى لايقوم للمسلمين قائمة ولكن هيهات هيهات .

(ب) **الشيشان**[٤]:

---

(١) صحيفة الحياة العدد (١٥/١١٣٢١) الأحد ١٣ شباط/فبراير ١٩٩٤م الموافق ٣ رمضان ١٤١٤هـ .

(٢) انظر صحيفة الحياة العدد (٨/١٠٩٥٢) الجمعة ٥ شباط/فبراير ١٩٩٣م الموافق ١٤ شعبان ١٤١٣هـ .

(٣) انظر صحيفة عكاظ العدد (١٤/١٠٣٦٦) الأحد ٢٣ رجب ١٤١٥هـ الموافق ٢٥ ديسمبر ١٩٩٤م .

(٤) يقول يورى زينتين : الشيشان تقع شمال القفقاس ، ويحدها من الشمال اقليم ستافروبول الروسى ، ومن الجنوب جورجيا ، والجهات الأخرى تحيط بها أراضى قيودية - بلغاريا الكبرى - للقرواسيتيا الشمالية وداغستان . =

(١) إن العداء الذى يكنه الروس لسكان الجمهوريات ، والشيشان خاصة عداء عقديا . يخشاه الروس وكذا الغرب على حد سواء .

فبعد إنهيار الاتحاد السوفييتى ظهرت الجمهوريات الإسلامية إلى الساحة بوضوح ، وبدأت التراجعات تظهر التوجه الإسلامى ووقف الغرب والشرق ضد ذلك وتضافرت جهودهم على الحد من انتشار الأصولية الإسلامية كما يزعمون ، وعندما زار كلينتون موسكو ركز على مسألة التقارب بين الدولتين ، وقد اهتم كلينتون بهذا التقارب والدفاع المشترك بين الدولتين نظرا لموقع روسيا وأهميته حيث طبقت ذلك موسكو فقامت (تحارب المعارضة الإسلامية فى طاجكستان وفق مشروع "دولى" متكامل بوضع حاجز أمام زحف الأصولية المنبعثة من إيران وأفغانستان . ويلوح أن موسكو تنفذ هذه المهمة بحذافيرها . بل لعل قصف البرلمان الروسى بمباركة "الديمقراطيات الكبرى" لأنه عارض فيما عارض خطةكونية تجعل من روسيا عازلا بوجه زحف الحركات الأصولية والانبعاث القومى ، وهو دور لابديل لغير روسيا عنه وفق "مذهب كلينتون العسكرى" على الساحة الدولية)[١].

وأصبح الاهتمام من قبل روسيا والغرب بوضع حد لهذا المد الإسلامى واضحاً للعيان حتى حذر البرلمان الروسى السابق وبالذات

= مساحتها ١٩,٣ألف كم ، وعدد سكانها ١,٣ مليون نسمة وعاصمتها جروزنى ٤٠٠ ألف نسمة .

وقد وقعت عدة حروب بين الشيشانيين والقياصرة إلى أن ضمت إلى الإمبراطورية الروسية سنة ١٨٥٩م وبعد قيام الثورة البلشفية منحت الشيشان حق تكوين مقاطعة ذاتية ضمن إطار روسيا الاتحادية السوفيتية ، واحتلت المانيا جزءا منها فى الحرب العالمية الثانية ، وفى عام ١٩٤٤م حرر السوفييت الأرض من الألمان واتهم ستالين الشيشانيين بالتعاون مع الغزاة وقام بتهجير سكانها وإبعادهم آلاف الكيلومترات إلى آسيا الوسطى ، وفى عام ١٩٥٧م اعتبر الإبعاد عمل غير قانونى وبدأ السكان بالعودة إلى أراضيهم .

انظر صحيفة المسلمون العدد (٦/٤٢٧) الجمعة ١٨ شوال ١٤١٣هـ/ابريل ١٩٩٣م .

(١) مجلة الأسبوع العربى العدد (٢٤/٢٧) ١٩٩٤/١/٢٤م سلام مسافر .

حسبولاتوف بأن الغرب يريد توريط روسيا المسيحية فى حرب ضد تيار أخذ بالتعاظم لايمثل بالضرورة روحا عدائية ضد روسيا وكـذلك كان موقف كثير من نواب البرلمان تحذيريا من أجل منع روسيا من التورط فى حرب روسية - إسلامية بقرار من الدوائر الغربية[١].

وقد تعرضت هذه الجمهورية إلى نكبات عدة على يد القيـاصرة ، وعلى يد ستالين[٢]، وهاهى الآن على يد يلتسين بايعاز من الغرب وبحقد صليبى فى نفسـه ونفوس أذنابه تقع تحت وطـأة الحقد الصليبى مـرة أخرى ، ، ولاغرابة فى هـذا العـداء لها فإن معظـم سكـانها مسلمون ومن السنـة ، وقـد أعلنـت الشيشان استقلالها فى نوفمبر ١٩٩١م .

وبعـد محاولة الشيشان الإستقلال والإنفصال عن التبعيـة لروسيا اقتحم الجيش الروسى تلك الجمهورية الصغيرة فأوقع ماأوقـع فيها من خراب ودمار ناهيك عن القتل والتشريد .

(٢) أن روسيـا ونظرا لوضعها الـدولى الذى أصبحت فيـه قوة متأخرة عن الـولايات المتحدة وبمراحل لم يكن بمقدورها أن تقـوم بهذا التدخل فى ظل نظام عالمى جديد يطالب بتحرير الشعوب ، وحق تقرير المصير لها بنفسها ولكن لأن المعتدى عليه هنا هم المسلمون (فقد أغمض الرئيس بيـل كلينتـون عن أحداث الشيشـان تمامـا ، بل أعلـن أن الأمـر كله مسألة داخلية روسية)[٣]. وهذا يعنى أن الشرق والغرب ، ووفاقهما ،

---

(١) انظر مجلة الأسبوع العربى عدد ١٩٩٤/١/٢٤ (٢٧) .

(٢) سحقـت قوات القيصر الثورة الشيشـانية فى عام ١٨٥٩-١٨٦٠م وراح ضحيتهـا ٤٠٠ شيشـانى ، ورحل ستـالين نحو مليـون مسلم منها إلى سيبريا . انظـر صحيفـة عكاظ العدد (١٤/١٠٣٦٦) .

(٣) صحيفـة عكـاظ العـدد (١٤/١٠٣٦٦) الأحد ٢٣ رجب ١٤١٥هـ الموافـق ٢٥ ديسمبر ١٩٩٤م . ومما يدعم هذا الرأى أن الإقتصاد الروسى ليـس من القوة بحيث يفتح على نفسه هذه الجبهات كلها سواء فى طاجاكستان ، أو الشيشان أو غيرها لولا أن هنـاك مـن يدفعها لذلك ، فتكـاليف حرب الشيشان فى شهـر واحد تعـادل ميزانية الأبحاث الفضائية والعلمية فى عام . انظر صحيفة المدينة المنورة العدد (٧/١١٩٢٢) الأحد ٤ رجب ١٤١٦هـ الموافق ٢٦ نوفمبر ١٩٩٥م .

ونظامهما الجديد ليس للمسلمين فيه مكان .

(٣) أن إصرار المقاومة الشيشانية هناك على القتال وطرد القوات الروسية ولو بعد حين قد جعل الروس يضاعفون من ضرباتهم وحماسهم فى القضاء على هذه المقاومة ، زد على هذه الشجاعة أن قوادهم هناك يتحدثون عن الإسلام والعودة إليه .

لقد أبدى الشيشانيون مقاومة نادرة لهذه القوات المعتدية وقد استطاعوا أن يلحقوا الأضرار الفادحة بالقوات الروسية فقد أحرقوا ٤٠٠ مدرعة وقتلوا أكثر من ٦٠٠٠ روسى فى أول يوم حرب وذلك يوم ٣١ ديسمبر ١٩٩٥م كما صرح بذلك اصلان سخاروف[١] وقال إن الروس أرادوا التنزه فى أراضينا فأجبرناهم على البقاء حتى الموت . وهذا بعد أن فرضت روسيا التجويع لمدة ثلاث سنوات على الشيشان ونظرا لهذه القوة والشجاعة اتهم يلتسين وزير دفاعه بالجبن وغضب على الشيشان فزاد من الحرب بعنف[٢].

فأين هو النظام العالمى الجديد القائم على مراعاة حقوق الإنسان من قتل ٣٠,٠٠٠ من الشيشان؟[٣]. وأين هى الدعوة إلى حرية تقرير المصير وبقاء ٢٠٠٠-٦٥٠٠ مقاتل تحتفظ بهم روسيا فى الشيشان؟[٤]، إن هذه المعانى السامية سرعان مايضرب بها عرض الحائط ، وتصبح فى عالم النسيان ، إذا كان المسلمون طرفا فى النزاعات كما هو الحال فى البوسنة والشيشان ، وهذا يجعلنا نصور الموقف من الوفاق بالنسبة للمسلمين .

---

(١) قائد القوات الشيشانية ويعتبره الشيشانيون وزير الدفاع ، يرشحه الشيشانيون لقيادة البلاد ، يضع الخطط الحربية ضد الروس ، اعتبره جوهر دوداييف ذراعه اليمنى . لم يكتسب سمعة كالآخرين .

(٢) انظر صحيفة عكاظ العدد (٧/١٠٥٥٧) الأحد ١١ صفر ١٤١٦هـ الموافق ٩ يوليو ١٩٩٥م (شهادات بلون الدم من خط النار الاول ٢٥/٢٤) كتبها أيمن حبيب .

(٣) انظر صحيفة عكاظ العدد (١٤/١٠٤١٤) السبت ١٢ رمضان ١٤١٥هـ الموافق ١١ فبراير ١٩٩٥م .

(٤) انظر صحيفة عكاظ العدد (١٠/١٠٥٤١) الجمعة ٢٥ محرم ١٤١٦هـ الموافق ٢٣ يونيو ١٩٩٥م .

موقف الأمة المسلمة من الوفاق (النظام العالمى الجديد) :

يمكن إبراز موقف المسلمين من الوفاق فى النقاط التالية :

أولا : عدم الانخداع بهذا التقارب ، والتذكر الدائم أن هؤلاء الأعداء بعضهم أولياء بعض . قال تعالى : {**ولاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض**}(١).

ومن هنا لزم المسلمون أن يتعاملوا معهم وبشتى أصنافهم على أنهم أعداء لنا فى كل حين ، حتى ولو كانوا مختلفين فما بالك لو كانوا متفقين؟! فذلك من باب أولى .

ثانيا : اليقين بأن هذا الوفاق والتقارب ومانتج عنه من إعلان عن نظام عالمى جديد لايمكن أن يخدم قضايا المسلمين ، بل بالعكس هو ضدها ، وكان من الدوافع إليها الوقوف فى وجه المد الإسلامى المتنامى ، ومن هنا وجب على المسلمين الالتفاف حول كتاب ربهم ، والأخذ بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وترك الالتجاء للشرق أو الغرب فإنهم هم الأعداء وسيظلون كذلك إلى قيام الساعة {**ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم**}(٢).

والأحداث التى شهدتها الساحة الدولية تشهد بصدق ذلك .

ثالثا : العلم بأن الأعداء من شرقيين وغربيين بدأوا يستبدلون العداء لليهود الذى كان يعرف بـ(اللاسامية) بالعداء للمسلمين (اللاإسلامية)(٣) فقام الوفاق الدولى ومن ثم النظام العالمى على أساس ضرب الصحوة الإسلامية (وتقوية السيطرة اليهودية والصهيونية على العالم ككل وعلى العالم الإسلامى بصورة خاصة)(٤).

---

(١) سورة المائدة : (٥١) .

(٢) سورة البقرة : (١٢٠) .

(٣) انظر مجلة الإصلاح العدد (١٦/٢٤٨) الخميس ١٦ صفر ١٤١٦هـ الموافق ٥-١١ أغسطس ١٩٩٣م .

(٤) الرسالة الإسلامية (بيروت) العدد (٢٩/١٢٧) شوال ١٤١٣هـ ، نيسان/ابريل ١٩٩٣م (النظام الدولى الجديد مواجهة الصحوة الإسلامية) بقلم د. أحمد موصلى .

ومن هنا وجب الإعداد لمواجهة هذا العداء .

رابعا : العمل الجاد من قبل الدول الإسلامية فى إيجاد التقارب الحقيقى بينها واتخاذ القرارات التى تخدم مصلحة المسلمين فى كل مكان وتهدف إلى نشر الإسلام القائم على الكتاب والسنة ، ويكمن ذلك العمل فى إيجاد المنظمات والمؤتمرات ، والجمعيات ، وماشابه ذلك من أجل خدمة قضايا المسلمين ، ولكى يكون لهذه الدول كيان مستقل تستطيع به أن تفرض رأيها على المجتمع الدولى فهى تملك الثروات ، وتملك المواقع الاستراتيجية ، وتملك كل مسببات القوة المادية ، وفوق هذا كله ، وقبله كله ، تملك الإيمان بربها تعالى وبرسولها صلى الله عليه وسلم . تلك القوة الحقيقية التى تصغر أمامها كل قوة .

خامسا : ونظرا لأن الوفاق والنظام العالمى الجديد قد شغل حيزا كبيرا من وسائل الإعلام المختلفة سواء من غربية أو شرقية أو إسلامية فيتوجب أن يكون هناك حشدا إعلاميا كبيرا يبين حقيقة هذا الوفاق والغايات منه ، وماذا قدم للمسلمين ولقضاياهم .

سادسا : الاهتمام بالمجال الثقافى والحضارى . فإن هذه القوى تريد إبعاد المسلمين عن دينهم وفكرهم الأصيل المأخوذ من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا وجب الاهتمام بذلك لصد هذا العدوان .

وأخيرا ينبغى الاهتمام بصد خطر هذا الوفاق لأنه أخذ يكشر عن أنيابه ويعلن صراحة أن العدو القادم هو الإسلام ، وقد أطاح هذا الوفاق وذلك النظام بالمارد الشيوعى ليتخذ عدوا آخر له وهو الإسلام فحذار حذار أن نغفل عن هؤلاء الأعداء ، فما اتفقوا إلا لضرب المسلمين وتكميم أفواه المصلحين ، والعمل على سيطرة اليهود والصليبيين ، وبدأت هذه الأحقاد والآثار تظهر وماسيأتى بعدها أكبر .

وبعد هذا العرض نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن الدعوة إلى السلم وترك التسلح والنزاع وجدت منذ فترة أسبق على الوفاق[١].

ثانيا : أن التنازلات التى قدمها السوفييت كانت أكثر بكثير من تنازلات الولايات المتحدة . يقول حسين صبرا : (التنازل الذى يقدمه الجباران ليس متكافئا ، بحيث أن تنازلات الجبار السوفييتى كانت لصالح الجبار الأميركى ليس إلا . وأما ماقابلها من تنازلات أميركية فهى إنما صبت فى خانة المصالح الأميركية ذاتها . ومايطلق عليه "توافقا" بين الجبارين ليس سليما من الناحية الواقعية ، لأن غورباتشوف اتجه غربا وهو متمثل بالخصم الضعيف ، ويلمس ذلك من خلال جميع العروضات السخية التى قدمها للغرب . لذلك فإن مافعله غورباتشوف ليس سوى "استسلام" كامل للغرب وللجبار الأميركى بالتحديد ، وينتفى مع ذلك أى حديث عن "التوافق" أو "الوفاق" ، فليس هناك من اتفاق بين الجبارين سوى انسحاب الاتحاد السوفييتى من ساحة المواجهة ، لتبقى أميركا وحدها ولترتسم خارطة العالم المستقبلية بوجود جبار أوحد ومايعنيه ذلك من قيام إمبراطورية أمريكية تحكم العالم بمفردها ولايحدها حدود)[٢].

ثالثا : أن الوفاق أمر مرتب له وبدون شك وإذا كانت الحقائق والبراهين لاتسعف الكتاب والباحثين الآن لكونها فى نطاق الكتمان إلا أن التاريخ سيكشف ذلك .

ونذكر هنا قول نيكسون : (بأن مؤرخى المستقبل سيكتبون عن العام ١٩٧٢م ... الذى ساهمت أميركا فيه بقيادة العالم من الأراضى المنخفضة

---

(١) انظر الحرب العالمية الثالثة (الخوف الكبير) (١٣٨) ومابعدها وذكر أن سبب اخفاق الاجتماعات بشأن نزع السلاح تعود إلى :
أ ـ أن الإنسان هو الذى يقتل وليس السيف أو المدفع فلابد من نزع السلاح من القلوب والأفكار .
ب ـ عدم الصدق والإخلاص فى تلك الدعوات .

(٢) سادات الماركسية (٥٧) .

للحرب الدائمة نحو هضاب السلام العالية)[١].

وبالفعل سيكون الأمر كذلك ، بل إن نيكسون الذى دشن تلك السياسة بدأ يأخذ نصيبه من الاطراء والمديح[٢].

رابعا : أن الوفاق ظهر فى وقت كان فيه الرئيس ريغان أكثر اهتماما بالأيديولوجية بل اعتبره لورانس باريت أحد مؤرخى سنوات حكم ريجان أنه (أكثر الرؤساء فى تاريخ الأمة وضوحا فى أيديولوجيته)[٣].

ويقول دانيا ونورمان : (أصبحت معاداة الشيوعية عنصرا رئيسيا فى أيديولوجية ريجان)[٤].

وهذا يدل على أن ريجان لن يقدم تنازلا إلا إذا حصل على تنازل أيديولوجى كان يتعارض مع فكره .

خامسا : ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية كقوة أولى فى العالم عسكريا وأصبح الاتحاد السوفييتى متراجعا عنها بمراحل نتيجة للبعد عن أيديولوجيته ، وكذا للتنازل الكبير الذى قدمه الزعماء للغرب وخاصة غورباتشوف .

سادسا : كان للوفاق الدولى ـ ومن بعد آثاره التى ترتبت عليه ـ أثرا فى التعجيل بإنهيار الشيوعية واسقاطها السقوط النهائى ، وبالفعل أسقطت وأعلنت الولايات المتحدة قيام النظام العالمى الجديد والذى تنفذه كما تشاء وفى الوقت الذى تشاء .

سابعا : فى ضوء هذه المتغيرات خلفت روسيا الاتحاد السوفييتى ، وبقيت هى الأخرى تسير فى طريق الغرب وتستجدى منه العطف الإقتصادى ومن هنا فإن روسيا وريثة الاتحاد السوفييتى بعد إنهياره لاتقل ـ إن لم تكن أكثر وهذا الأصوب ـ تبعية عن الاتحاد السوفييتى سابقا .

---

(١) نقلا من كتاب الاستخبارات السوفيتية فى العالم (٦١٦) .

(٢) انظر ماذكره بول فيندلى : صحيفة المدينة المنورة العدد (١١٣٥٤) ١٥ ذو القعدة ١٤١٤هـ الموافق ٢ مايو ١٩٩٤م ، مقال بعنوان (ميراث نيكسون) ترجمة حسن ساتى

(٣) نقلا من كتاب تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٠٩) .

(٤) المرجع السابق (٤١٠) .

ثامنا : أظهرت هذه الأحداث المتلاحقة بين الشرق والغرب عدة قوى إقتصادية وسيكون السمتقبل لها إذا سارت الأمور على ماهى عليه الآن ونخص بالذكر الآن اليابان ، حيث قال الأستاذ زينشى يوشيدا بجامعة طوكيو (إذا كان القرن التاسع عشر هو القرن الأوروبى ، والقرن العشرون هو القرن الأمريكى .. فسيكون القرن الواحد والعشرون .. يابانيا)[١].

ومن هنا فلاغرابة فى العداء الذى يقع بين الولايات المتحدة واليابان بعد كل فترة إذ أن الأولى أصبحت تدرك هذه الحقيقة[٢].

تاسعا : أن من الحقائق التى سجلتها هذه الفترة أنه رغم الوفاق ، ورغم النظام العالمى الجديد ، ورغم سيطرة الولايات المتحدة عسكريا الآن ، إلا أن الصراعات والخلافات كانت موجودة وعلى مستوى مناطق العالم عامة تقريبا وكان من أخطر هذه الصراعات التدخل السوفييتى فى أرض أفغانستان المسلمة والذى لم يحرك الغرب تجاهه ساكنا يذكر فدل على فشل سياسة الوفاق فى معالجة القضايا التى يكون المسلمون طرفا فيها وهذا الفشل مقصود متعمد ، كما دل على أن الغرب وبقيادة الولايات المتحدة قد أرادت أن ترهق الاتحاد السوفييتى من جراء هذه الحرب فيقدم لها تنازلات أكثر وبقدر أكبر .

وكذا من جهة ثالثة أدى الجهاد الأفغانى إلى التعجيل بإسقاط الشيوعية وإزالة الرهبة الدولية من هذه القوة الكبرى وضرب الجهاد الأفغانى مثلا بأن القوة الحقيقية إنما هى فى التمسك بدين الله تعالى ونصرته لكى يتحقق النصر ، فغدا الجهاد الأفغانى سببا من أسباب إنهيار الشيوعية والتعجيل بإسقاطها .

---

(١) العالم الإسلامى والنظام الدولى (١٤٢) .

(٢) انظر صحيفة الحياة العدد (٣/١١٠٥٠) السبت ١٥ أيار/مايو ١٩٩٣م الموافق ٢٤ ذو القعدة ١٤١٣هـ .

الفصل الثالث
الجهاد الأفغانى

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد .

المبحث الأول : دراسة تاريخية موجزة عن العلاقة بين حكومة الاتحاد السوفييتى وأفغانستان .

المبحث الثانى : التدخل الروسى فى أفغانستان ، وإعلان الجهاد .

المبحث الثالث : الخسائر الفكرية والسياسية والإقتصادية للاتحاد السوفييتى وأثر ذلك فى سقوطه .

المبحث الرابع : موقف الدول الرأسمالية من الجهاد الأفغانى .

الفصل الثالث
الجهاد الأفغانى

تمهيد :

إن الصراع بين الحق والباطل كان موجودا منذ أن أهبط الله تعالى آدم إلى هذه الأرض ، وهذا الصراع سنة من سنن الله تعالى ، وقد سجل التاريخ أنواعا عديدة من الصراع والحروب ، والتى كانت دوافعها مختلفة ، وأساليبها متنوعة ، وقد أولى الدين الإسلامى مسألة القتال والحروب اهتماما كبيرا ، وكان الجهاد فى سبيل الله تعالى ذروة سنام الإسلام ، وأفضل من كثير من أعمال الخير والبر ، وامتدح الله تعالى المجاهدين ، وأثنى عليهم رسول رب العالمين صلى الله عليه وآله وسلم ، وجاهد بنفسه وماله ، ولاقى فى سبيل الله تعالى مالم يلاقه نبى مرسل عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، وقد ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على ذلك ، فقدموا أموالهم وأنفسهم رخيصة فى سبيل الله تعالى .

ثم سارت هذه القوافل من بعد الصحابة ممثلة فى التابعين وأتباعهم حتى وقتنا الحاضر ، فكان الجهاد لتبليغ دعوة الله تعالى للعباد وإخراجهم من الشرك والوثنية ، إلى نور التوحيد والعبودية ، فكانت الأمة فى عزها ومجدها ماقامت بسنة الجهاد ، فإذا ماتقاعست عنها أصيبت بتسلط الأعداء عليها ، وقد تعرضت الأمة الإسلامية فى تاريخها لهجمات عديدة منها اليهودية ، والصليبية ، ومنها العسكرية والفكرية ، ونتجاوز السرد التاريخى لذلك إلى أن نصل إلى زماننا هذا ، والذى تفنن الأعداء فى أساليبهم وأفكارهم الإلحادية الكفرية التى يبثونها بين شعوب المسلمين ، ومن أخطر هذه الأفكار الشيوعية ، وقد اكتوى بنارها وفسادها كثير من بلاد المسلمين ، وحاولت بسط نفوذها فكريا وعسكريا على كثير من البلاد الإسلامية والعربية كمصر ، والصومال واليمن وغيرها . ولاشك أنه يختلف من مكان لآخر فى

مقدار تغلغله وسيطرته ، ومن هذه الدول التى وقعت تحت التأثير الشيوعى فكريا وعسكريا دولة أفغانستان المسلمة ، والتى تشترك فى الحدود مع موطن الشيوعية الأول (الاتحاد السوفييتى) ، فقد قام بنشر الفكر الشيوعى فى الأراضى الأفغانية بإيجاد الخلايا الشيوعية ، والعملاء ، ثم عندما رأت أنها لن تفلح بهذه الطريقة أعقبتها بالتدخل العسكرى الآثم على هذه الأرض المسلمة.

فما كان من أهلها إلا أن هبوا فى وجه الإلحاد وأهله ، وأعادوا للأذهان سابق العهد بأن عز هذه الأمة فى جهادها لأعداء الله تعالى ، فضربوا أروع الأمثال ، وقدموا الأنفس والأموال ، وعجلوا بجهادهم هذا فى إنهيار الفكر الشيوعى وسقوط دولة الإلحاد .

وقبل أن نتبين تلك الحقائق أود أن أنبه على عدة مسائل يجدر بنا أن نضعها فى الحسبان عند حديثنا عن جهاد الأفغان :

أولا : أن الجهاد الأفغانى من الأسباب الخارجية التى أدت إلى إنهيار الشيوعية وسقوطها وهو من آخرها ، ومن هنا وجب الاعتدال عند الحديث عن الجهاد الأفغانى وأثره فى سقوط الشيوعية ، فلايقال بأنه السبب الأقوى أو السبب (الوحيد) فى سقوطها ، وكذلك لايتناسى أثره الفعال فى التعجيل بالإنهيار .

ثانيا : أن الجهاد الأفغانى قد جعل الجبارين يزيدان إصرارا على التقارب والوفاق ، لخوفهم من الأصولية الإسلامية! ، فاعتبروا المسلمين هم الأعداء الحقيقيين الذين ينبغى أن تتوحد القوى فى ضربهم ، ولأجل ذلك جاءت التصريحات والنداءات لمواجهة الأصولية الإسلامية والتى أخذت فى التنامى .

ثالثا : يمكن القول بأن الجهاد الأفغانى قد مر بعدة مراحل ومن هنا كانت وجهات النظر (الإسلامية) متباينة تجاهه ، ويمكن جعلها فى ثلاث مراحل :

الأولى : والتى قدمت فيها التضحيات ، وضربت فيها أروع الأمثال فى بذل النفس والمال فى سبيل الله تعالى .

الثانية : ظهور الأحزاب والاختلاف بينها وخاصة بعد أن بدأت تتساقط المدن الأفغانية فى يد المجاهدين .

الثالثة : انسحاب الروس من أفغانستان ، وبدء القتال بين فصائل المجاهدين والتناحر والخلاف فيما بينهم فوقع ذلك التفرق والتشرذم الذى كان الشرق والغرب يهدف إليه على السواء ، وذلك حتى الآن .

وبهذا تكون ثمرة الجهاد بالنسبة للمسلمين لم تقطف حتى الآن ، ومن هنا نضع هذه اللمحة عن فضل الجهاد فى الإسلام وبعض غاياته .

فضل الجهاد فى سبيل الله تعالى
وبعض من غاياته

إن ذروة سنام الإسلام ، هو الجهاد فى سبيل الله تعالى لإعلاء كلمته ، وقد أولى الإسلام الجهاد اهتماما كبيرا ، ومن هنا اهتم به العلماء والفقهاء لبيان أحكامه ، فألفت فيه الكتب الكثيرة ، وبينت العلاقة بين المسلمين وأعدائهم حال الحرب وحال السلم ، كما اهتمت كتب السير بذكر غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه ، ومن بعد غزوات الصحابة رضى الله عنهم ، ثم من بعد المعارك التى خاضها المسلمون فى تاريخهم ضد أعدائهم ، وضربت أروع الأمثلة فى التضحية بالنفس والمال ، مما يدل على أهمية الجهاد وكونه من أفضل الأعمال ، وقد وردت الآيات الدالة على فضله وأهميته ، ومن ذلك قوله تعالى :

{يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون}(١).

وقال تبارك وتعالى : **{يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين}**(٢).

وقال تبارك وتعالى : **{وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله}**(٣).

وقال سبحانه وتعالى : **{قل إن كان ءاباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجرة تخشون كسادها ومسكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفسقين}**(٤).

---

(١) سورة الصف : (١٠-١١) .
(٢) سورة التوبة : (١٢٣) .
(٣) سورة الأنفال : (٣٩) .
(٤) سورة التوبة : (٢٤) .

من غايات الجهاد الإسلامى :

إن الغايات التى فرض من أجلها الجهاد فى سبيل الله تعالى كثيرة جدا ومن أهمها :

أولا : تطبيق شرع الله تعالى ، ونشر منهجه فى الأرض .

يقول د. سعد المرصفى : (الجهاد فى سبيل الله ، لإقرار منهج الله فى الأرض ، وإعلان سلطانه على البشر ، وتحكيم شريعته فى الحياة ، لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس ...)[١].

ثانيا : إخراج الناس من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان . يقول محمود شاكر :

(والأمة الإسلامية منذ وجدت كانت غايتها إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، فانطلق أبناؤها إلى الجهاد فى سبيل الله . ومامن فتى إلا وكان همه القتال والغزو مع جيوش الفتح والخروج فى أرض الله يبلغ دعوة الله ، ومامن أحد إلا وكانت أمنيته تحقيق النصر بإمكاناته كلها وطاقاته كلها وفوق ذاك كان أكبر أمانيه أن يموت فى أرض المعركة وتكتب له الشهادة . فكان كل رجل فى هذه الأمة يصلح أن يكون قائدا لما يحمل من روح معنوية عالية ، وكان كل جندى مقداما شجاعا يخوض غمار الحرب مبتسما يطلب الفوز بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة لايبالى أقبلت الكتيبة أم أدبرت ، شد الأعداء أم تراخوا بل ربما كان شدهم أحب إلى نفسه لينال منهم ويحقق مايريد ، فكم من رجل تسلم القيادة ولم يسمع به من قبل ، فإذا به فى مصاف عظماء القادة . وبهذه الروح انتشرت الفتوحات ، وانطلق المسلمون فى أرجاء الأرض يحطمون الطواغيت ، ويزيلون دول الظلم ومعاقل الشرك من المناطق التى وصلوا إليها ، واجتاحتها جيوشهم)[٢].

---

(١) المادية والروحية فى الميزان (١٩) .

(٢) أفغانستان (٦) ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، دمشق ، وانظر الجهاد الأفغانى ودلالاته (١١) ، محمد قطب ، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، جدة .

ثالثا : القضـــاء على القـوى ، والعقبـات التى تمنـــع وصـول الحق إلى الناس.

ذلك أن الحق يحتاج إلى تبليغ وإيصال إلى الآخرين ، فـإذا ماوجدت القـوى الشيطـانية التى تمنع وصـوله إليهـم فلابد من إبعـادها ليتسنى لهـؤلاء الناس معرفته ومن ثم اتباعه .

فكانت هذه الحروب (لإزالة العقبات ، أيا كانت ، مـن طريق المصلحة البشرية الحقيقية ، أو من طريق الدعوة الربانية)[١].

رابعا : وعلى هذا الأساس فإن الجهاد فى سبيل الله تعالى ليس المقصود منـه إرغـام الناس على الدخول فى دين اللـه تبـارك وتعـالى ، قـال تعالى : {**لاإكراه فى الدين**}[٢].

فعقيدة الإسلام لاتفرض بالقوة . قال تعالى :

{**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**}[٣].

خامسا : مـن غـايات الجهاد القضـاء على التقـاعـس والكسـل ، ورفع الهمـم وشحـذها من أجل الابتعـاد عن ملذات الدنيا وشهـواتها وزخارفهـا .

---

(١) ماهى علاقة الأمة المسلمة بالأمم الأخرى (١٩-٢٠) ، وانظر (٣٣) ، أحمد محمود الأحمد ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ ، المكتب الإسلامى ، بيروت .
وانظـر الجهـاد الأفغانى ودلالاته (١٩) وقـال : (إن الجاهليـة لتعلم أن هنـاك فـارقا كبيرا بالنسبـة لأية دعوة أو عقيـدة حقة أو باطلة ، بين أن يكـون لها دولة قوية ممكنة فى الأرض أو لايكون لها دولة بهذا الوصف .. وتعلم أن هنـاك فارقا كبيرا بين أن تكون دولتها منتصرة غالبة وأن تكون دولتها هزيلة منهزمة) .

(٢) سورة البقرة : (٢٥٦) .

(٣) سورة يونس : (٩٩) .
وانظر عن كون دين الله تعالى لايفرض بالقوة وأنه لاإكراه فى الدين :
الجهاد الأفغانى ودلالاته (٢٣-٢٦) ، دروس تربوية من القرآن الكريم لمحمد قطب (٤٦-٤٧) ، وانظـر مجلـة العـربى ، العـدد (٤٤٣) جمـادى الأولى ١٤١٦هـ/أكتـوبر (تشرين الأول) ١٩٩٥م (٣٤-٣٥) من مقال للدكتور محمد عمـارة بعنوان (النظام العالمى الجديد "رؤية اسلامية") ، التاريخ العسكرى (٩١) .

وبفضل الله عز وجل ، فإن هذه الأمة لاتخلو من أولئك الرجال أصحاب الهمم العالية والتطلعات البعيدة ، التى يسمون بها عن هذه الدنيا وملذاتها وقد ضربت الأمة الإسلامية مثلا لذلك التوجه فى جهادها ضد أعدائها ، فى وقتنا الحاضر وكان من خير الأمثلة مافعله المجاهدون فى أرض أفغانستان المسلمة بأعدائهم الملاحدة وسوف نتبين تلك الحقائق من خلال دراستنا لبعض جوانب الجهاد الأفغانى ، وقبل من ذلك نضع هذه اللمحة التاريخية للتعريف بأفغانستان .

لمحة تاريخية عن أفغانستان

تقع دولة أفغانستان فى قلب آسيا فى منطقة بعيدة عن البحار وتمتد على مساحة تصل إلى ٦٥٠,٠٠٠ كيلو مترا مربعا[١]. ويحدها من الشمال الجمهوريات السوفيتية الإسلامية ، ومن الجنوب باكستان ، ومن الغرب إيران[٢]. وهى تقع (على مفترق طرق ، تاريخى وجغرافى ، لثلاثة عوالم حضارية : الشرق الأوسط بعربه وشعوبه الإيرانية ؛ آسيا الوسطى المقطونة بالأتراك والمغول ؛ وشبه القارة الهندية)[٣].

يقول ماركس وانجلز : (إن موقع أفغانستان الجغرافى وطبيعة شعبها الخاصة يضفيان على هذه البلاد أهمية سياسية فى شؤون آسيا الوسطى لايمكن المغالاة فيها)[٤].

ويقول تروتسكى : (الطريق إلى باريس ولندن يمر أولا بقرى الأفغان)[٥].

وهى ذات موقع استراتيجى نظرا لـ(ممراتها البرية الهامة التى تصل مابين وسط آسيا وشبه القارة الهندية حيث الموانىء الهامة وشبه الجزيرة العربية حيث منابع الطاقة وهما الهدفان الحيويان للطموحات الروسية)[٦].

---

(١) انظر أفغانستان (١٦) وانظر مابعدها .

(٢) انظر : بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٣١) ، أحمد بن عبد العزيز الحصين ، تقديم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م/١٤٠٧هـ ، مكتبة البخارى ، وذكر أن مساحتها ٧٢٠ ألف كيلو متر مربع . وانظر قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٢٥) .

(٣) تقرير من أفغانستان (١٩) ، جيرار شاليان ، ترجمة أميرة كيوان ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م ، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .

(٤) فى الاستعمار (١٥٢) .

(٥) مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد (١٤٠٦/١٢) (١١٤) .

(٦) أفغانستان والإجتياح الروسى (١) .

الشعب الأفغانى :

يزيد عـدد سكان أفغانستان على ثمانيـة عشر مليون نسمـة وينتمون إلى قبائل متعددة وأجناس مختلفة ، وأشهر هذه الأجناس :

الباشتون ، الطاجيك ، الأتراك ، الهزارة ، البالـوخ ، الكافير . وهذه لمحة موجزة عن كل واحدة منها . يقول محمود شاكر :

(١ ـ البوشتن Pushtuns : كما يطلق عليها أيضا البوختن ويشكلـون ٦٠٪ مـن مجموع السكان ، ويمثلـون خليطا من العناصر التركيـة والإيرانية ، كمـا أنهـم يتجمعـون فى المنـاطق الـواقعة جنـوب جبـال هنـدكوش ، كمـا يوجدون فى المنـاطق الـواقعـة فى شمـالها ، وهـم يعملـون فى الـزراعة كمـا يمتهنون الرعى ، ويمتازون بالقامة الطويلة ، ولون البشـرة الأسمر ، والشعر الأسـود المـوج ، وقد اعتـادوا تحمل المشاق بسبب طبيعـة بلادهـم ووعورة جبـالها . وتقيم بعض القبائل منهم فى باكستان أو أن الحدود الاصطنـاعية قد فصلـت مواطن هذه المجموعة بعضها عن بعض فجزأتها ويعـرفون هناك باسم قبـائل الباتان . ومن أشهر فـروع البوشتن فى أفغانستـان (الغلـزة) وهم من فرع الجنوب وبسبب ميل لـون هـؤلاء إلى البيـاض فقـد ظـن بعضهـم أنهـم مجموعة خاصة تختلف عن البوشتن .

٢ ـ الطاجيك : وهـم عنـاصر إيرانيـة ، يمتـازون بالقـامة المتـوسطة ، ويسكنـون الوديان العليا من إقليم (باداخشان) وفى السهـول العليا فى وسط البلاد حتى الغـرب حيـث يعمـرون السهـول الغـربية حول مـدينة هـراة ، ويشكلـون ٣٠٪ مـن السكان ، ويعملـون فى الزراعة والصنـاعة والتجـارة .

٣ ـ الأتراك : وهـم امتـداد لسكـان تركستـان الغربيـة ، حيـث نجد الأوزبك الـذين يشكلون ٥٪ من مجموع سكان أفغانستـان ، والتركمان وهم يقيمون على الضفة الجنوبية لنهر جيحون والقيرغيز الـذين ينتقلون فى هضبة بامير ويرعون الأغنام والماعز وحيوان الياك ، وبالقرب من هذه القبائل يقيم القوزاق أيضا وهم من المجموعة نفسها .

٤ ـ الهزارة : وقد انحدروا من أصل مغولى ، وعددهم قليل يقرب من ٦٠,٠٠٠ ساكن ، وموطنهم هو المرتفعات الوسطى ، وهم يتبعون المذهب الشيعى ، ويشتغلون فى الرعى والزراعة .

٥ ـ البالوخ : وهم فى الجنوب ، ويعتقد أنهم من أصل عربى ، والقليل من البالوخ يقيم فى أفغانستان ، وأكثرهم يقيم فى باكستان فى إقليم بلوخستان المجاور لأفغانستان .

٦ ـ الكافير : ويقيمون فى الشمال الشرقى ، ويعرفون باسم النوريين بعد أن تحولوا إلى الإسلام فى بداية هذا القرن وكانوا من قبل يتبعون البوذية .

وهناك مجموعات قليلة فى البلاد من العرب والهنود والصينيين .

والملحوظ أن هذه الأصناف من القبائل على اختلافها يوحد بينها الإسلام ، فأفغانستان تدين كلها به)[1].

---

(١) أفغانستان (٦٤-٦٧) .

وانظر تقرير من أفغانستان (٢٢-٢٣) وقال : (ينقسم شعب أفغانستان ، من الناحية العرقية ، إلى نوعين : النوع الأول ، هندو ـ أوروبى من النسق الشرقى متوسطى (ويشمل هذا النوع شعوب البوشتون ، التاجيك ، النوريستان ، البالوتشى) . والنوع الثانى تركو ـ مغولى (ويشمل هذاالنوع جماعات الهزارا ، التوركمان ، الأوزبك ، الأيمك ، والخيرجز) . وهناك مجموعة ثالثة تعرف بالبراهوز وتشمل جزءا ضئيلا من السكان) (٢٢) .

وانظر بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٣١-٣٢) .

وانظر مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (١١٥/١٢) .

وانظر مجلة المجلة العدد (٣٧/٨٣٤-٣٨) وجاء فيها : (ويشكل معظم الشيعة الإمامية ١٠٪ من سكان البلاد ويتركزون فى الولايات التى تقع وسط البلاد ، أى ولاية باميان وغرب كابل . وهناك نسبة ضئيلة من الشيعة الاسماعيلية أتباع أغاخان ، وكان لهم حوالى ١٠ أحزاب حظيت بدعم إيران فترة الاحتلال الروسى) .

وانظر قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٢٦) وذكر أن نسبة المسلمين فيها ٩٩٪ معظمهم من أهل السنة .

والأفغان شعب شديد البأس ، محب للاستقلال وعدم الرضوخ للأعداء.

يقول انجلز : (إن الأفغانيين عرق مقدام ، شديد البأس ، متعلق بالاستقلال)[١].

ويقول القضمانى : (والأفغانيون معروفون بتمسكهم بآداب الدين الإسلامى وحرصهم على أداء فرائضه ، وهم مشهورون بالكرم والشجاعة وحب الاستقلال)[٢].

اللغة :

تعتبر لغة البشتو هى اللغة الرسمية وقبائل البشتو هى أكثرية سكان البلاد . وتليهااللغة الفارسية لغة قبائل الطاجيك ، وتحتل اللغة العربية مركزا مرموقا فى الدراسة لأنها لغة القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، والفقه ، وتدرس اللغة العربية فى جميع المدارس على أنها جزء متمم لتدريس التفسير والحديث والفقه .

وكذلك هناك اللغة التركية ، واللغات المحلية مثل لغة الهزارة ، والبالوخ[٣].

الدين :

كانت البوذية هى الديانة السائدة فى أفغانستان قبل دخول الإسلام ، أما اليوم فإن نسبة المسلمين تصل إلى ٩٩٪ من السكان ومعظمهم من أهل السنة والجماعة ، ويوجد مجموعات شيعية ولكنها قليلة ، كما يوجد عدد

---

(١) فى الاستعمار (١٥٢) .

(٢) قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٢٦) .

(٣) انظر أفغانستان (٦٧-٦٨) .
وانظر تقرير من أفغانستان (٢٣) وقال : (إن اللغتين الأساسيتين فى أفغانستان هما البوشتونية والدارية) .
وانظر قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٢٦) وذكر أن اللغة العربية كانت لغة رسمية حتى القرن الرابع الهجرى .

قليل من الهندوس . وكان الدستور الأفغانى ينص على أن الدين الإسلامى هو المصدر الوحيد للتشريع ، ومتى وجد قانون يتعارض مع أصول الدين الإسلامى فهو ملغى ولايجوز العمل به[١].

الإسلام ودولة أفغانستان :

إن دين الله تعالى بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وذلك بفضل الله تعالى ، ثم بجهاد المسلمين لنشره وتبليغه ، وقد وصل الإسلام إلى أرض أفغانستان فى عصر الخلافة الراشدة[٢]، ولم يأت منتصف القرن الثانى الهجرى إلا والمنطقة كلها إسلامية .

ثم تتابعت الدول التى حكمت أفغانستان ، وحصل كثير من الاضطرابات والخلافات[٣]... وعندما كان موقع أفغانستان يعد استراتيجيا وغالبية سكانها من المسلمين . فإنها كانت محط أنظار الدول الاستعمارية ، فقام الانجليز بغزوها سنة ١٨٣٨-١٨٤٨م ولم يتمكنوا من السيطرة عليها . ثم عاود الانجليز الكرة عام ١٨٨٧-١٨٨١م وعام ١٩١٩م .

(وفى كل مرة كان يباد الجيش الانجليزى بكامله بعد أن يهب الشعب الأفغانى للقتال تحت راية الإسلام)[٤].

---

(١) انظر أفغانستان (٦٨-٦٩) ، حاضر العالم الإسلامى (١٤٢) ، وذكر (أنهم نحتوا تمثالا لبوذا فى جبل بارتفاع خمسين مترا) قديما .

(٢) انظر عن ذلك : الكامل فى التاريخ (٢/٤١٢-٤١٧،٤٣٤-٤٣٧،١٠٨-١١٣) ، البداية والنهاية (٤/١٢٣،١٢٥،١٣٠-١٣١) ، الحافظ ابن كثير ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، تحقيق مجموعة من الأساتذة ، دار الريان للتراث .

(٣) انظر عن ذلك التلخيص الجيد الذى ذكره محمود شاكر عن الدول التى حكمت تلك المنطقة فى كتابه أفغانستان (٤٧-٤٨) .

(٤) حاضر العالم الإسلامى (١٤٣) ، وانظر قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٢٧-١٢٨) .

(ومن سنة ١٩١٩م حتى سنة ١٩٧٩م تمتع الأفغانيون بستين سنة من الاستقلال والحياد ...)[١].

وهكذا كان الشعب الأفغانى يأبى الذل والاستكانة للأعداء ، وعرف بالشجاعة ، وحب الاستقلال ، ومن هنا عجز عنه الأعداء[٢]، فبذلوا فى سبيل السيطرة والتأثير عليه الكثير والكثير سواء عسكريا أو فكريا كما هو حال الاتحاد السوفييتى معهم ونأتى للحديث عن العلاقة بين أفغانستان والاتحاد السوفييتى .

---

(١) تقرير من أفغانستان (٣١) .

(٢) ولمزيد من المعلومات عن الشعب الأفغانى وعاداته وبعضا من تقاليده الإجتماعية من زواج وعزاء وغيرها انظر أفغانستان والإجتياح الروسى (١٠٧) ومابعدها .
وعن بعض العلماء الذين أنجبتهم أرض أفغانستان انظر (١٠٣-١٠٦) .
وعن طبيعة البلاد وتضاريسها انظر تقرير من أفغانستان (٢١) ومابعدها .
وكذلك موسكو فى طريقها إلى كابل (١٣٩) ومابعدها ، محمد مزمل ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، دون ذكر لرقم الطبعة ، ومجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٢/١١٥-١١٦) من مقال بقلم اللواء الركن حسن أحمد البدرى .

المبحث الأول
دراسة تاريخية موجزة
عن العلاقة بين حكومة أفغانستان وروسيا

شكلت أفغانستان منطقة مهمة واستراتيجية بالنسبة لروسيا سواء كان ذلك فى عهد القياصرة ، أم بعد قيام الثورة البلشفية . وقد جاء فى وصية[١] أحد القياصرة لحكام روسيا مايدل على ذلك حيث جاء فيها : (تقدم إلى أقرب مايمكن من اسطمبول أوالهند ، وأى شخص يحكم هناك سيكون سيد العالم الحقيقى! وهكذا عليك أن تثير الحرب المستمرة ، ليس فى تركيا فحسب وإنما فى أرض فارس وعند تدهور الفرس وانحطاطهم وسقوطهم ، اخترق وتسرب إلى أبعد مايكون فى الخليج الفارسى ، وأعد تأسيس التجارة القديمة مع الشرق إن كان ذلك ممكنا ، واقترب إلى أبعد مايمكن من الهند التى تعتبر مخزن العالم ، وعندما تصل إلى هذه النقطة أو البقعة من الأرض ، لن تكون فى حاجة إلى الذهب البريطانى)[٢].

وفى عام ١٨٦٤م يقول الكسندر غورتشاكوف[٣]: (فى بعض الأحيان تشارك قوة عظمى الحدود مع دولة قبلية غير متمدنة ، لذلك تفرض عليها الضرورات الأمنية ضم هذه الدولة)[٤].

وكان يأمل القياصرة أن يسيطروا عليها ، وبقى هذه الأمل يراودهم هم والانجليز . وقد حاول الانجليز السيطرة على أفغانستان مرات عديدة ولكنهم ردوا على أعقابهم ، وعندما كانت القوات الانجليزية موجودة هناك

---

(١) طبعت عام ١٩٧٥م .

(٢) نقلا من كتاب الأفغان الحمر (١٤) ، أحمد موفق زيدان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م مطابع اخوان ، جدة .

(٣) وزير خارجية روسيا حينذاك .

(٤) نقلا من كتاب الأفغان الحمر (١٤) ، وانظر (١٥،١٨) ، وانظر أفغانستان والإجتياح الروسى (٢١) .

فقد وقفت القوات الروسية (القيصرية) على حدود أفغانستان ولم تتقدم إليها لأنها أدركت أن هذا التقدم ليس فى صالحها حيث ستلتقى وجها لوجه مع القوات الانجليزية . بالإضافة إلى أن :

(١) (حكومة بريطانيا ستواصل معها حربا شرسة وذلك حرصا منها على بقائها فى القارة الهندية .

(٢) لو أن الروس هزموا الجيش البريطانى أو وافقت بريطانيا على ترك أفغانستان للروس ، فإن الشعب الأفغانى المانع الأول لن يقبل الوجود الروسى على أرضه ، فيواجه ماواجهه الانجليز .

(٣) أن المستهدف هو وصول الروس إلى بحر الهند وحيث كانت أفغانستان محاصرة بالبر فستضيع جهود الروس وتضحياته فيها هدرا) .

هذا بالإضافة إلى (أن التقدم نحو أفغانستان وتورط الروس فى الحرب كان يمكن للشعوب المحتلة فى آسيا المركزية أن تستغل تورط الروس فى أفغانستان لقيامها ومقاومتها فلذلك ترك الروس التقدم نحو الجنوب ، لتطبيع الشعوب المحتلة واستحكام سيطرتها عليها)[١].

فهذه الموانع كانت تجبر الروس على عدم التوغل المباشر فى أفغانستان رغم أنهم كانوا يطمعون فى ذلك ، ومن هنا أدرك بعض أمراء أفغانستان ذلك التوجه الاستعمارى فحذروا من التحالف أو إقامة علاقة مع روسيا ، فهذا الأمير عبد الرحمن بن الأمير محمد وست خان[٢] يقول :

---

(١) موسكو فى طريقها إلى كابل (١١-١٢) .
وانظر الأفغان الحمر (١٦-١٧) ، وقد ذكر عدة إتفاقيات وقعت بين الطرفين (الانجليز ، والروس) كانت فى معظمها تثبت أن أفغانستان خارج المدار السوفييتى.
أفغانستان والإجتياح الروسى (١) .

(٢) درس الأدب الفارسى فى مدارس خاصة وعين حاكما لبلخ ، ولم يظهر نجاحا إداريا ثم شجعه والده على التدريب القسرى فأرسله أبوه لاخضاع القبائل فى بدخشان وانتصر عليهم ، وبعد وفاة والده خلفه عمه شير على خان فشن عبد الرحمن حربا عليه فأقصاه ، ثم خلفه عمه أعظم خان فهرب عبد الرحمن إلى آسيا الوسطى وبقى فيها ١٢ عاما فى بخارى ورجع إلى أفغانستان عام ١٨٧٩م وأعلن نفسه أميرا على البلاد سنة ١٨٨٠م .

(على أفغانستان أن لاتتحالف مع روسيا مطلقا ، وحتى الأبد ، وستكون هناك فى المستقبل حرب ، وستفشل روسيا فى إخضاع المقاومة الأفغانية ، ونتيجة لذلك ستكون هناك صراعات مؤلمة للطرفين ، وإذا كانت روسيا حصيفة وعاقلة فلن تتدخل فى الشؤون الأفغانية مطلقا حتى ولو دعاهم حكام أفغانستان لذلك ، إذ أن أكثر التحديات التى تواجه أى حاكم أفغانى حساسية هو أن يستطيع ألا يثير روسيا ضده وفى نفس الوقت لايقيم أية علاقات حميمة معها)[١].

ويقول : (إنه من الممكن للروس فى أحد الأيام أن تكون لهم يد تسلب هذه الأرض الغنية ، (مشيرا إلى أفغانستان)[٢]. وعندما حضرته الوفاة خاطب ابنه حبيب الله الذى تولى الحكم من بعده فى الفترة الواقعة بين ١٩٠١-١٩١٩م قائلا له : (بنى إياك أن تثق بالروس!)[٣].

وقد خلف حبيب الله والده فى الحكم ، وعمل بوصيته فدفع ثمنا لذلك إهدار دمه . وقتل وظهر قوتان متنافستان على السلطة :

الأولى : محافظة بقيادة (نصر الله) شقيق حبيب الله .

والثانية : مجموعة عصرية تدعو للتحريف يقودها (أمان الله) الابن الأكبر لحبيب الله . وكانت تؤيده بعض القبائل القوية مما أهله إلى استلام السلطة فى ٢١ فبراير ١٩١٩م ، وقيد نصر الله وأتى به إلى كابل ومات سنة ١٩٢١م[٤].

---

(١) نقلا من كتاب الأفغان الحمر (١٧) .

(٢) Afghanistan From 1900-1923 p.25 .
نقلا من كتاب الأفغان الحمر (١٨) .

(٣) نقلا من المرجع السابق (١٨) .

(٤) انظر المرجع السابق (١٨-١٩) .

العلاقة بين الدولتين بعد الثورة البلشفية :

عندما حطمت الثورة البلشفية القيصرية الروسية سارت فى الطريق نفسه ، فى محاولة السيطرة على أفغانستان وبث الفكر الجديد فى أرجائها ، ورأت روسيا الشيوعية أن أفغانستان هى المفتاح الحقيقى لأطماع الاتحاد السوفييتى وحرص لينين على التقرب من ملوكها لإزعاج بريطانيا فى الهند[١].

وبالعموم يمكننا أن نصور العلاقة بين الاتحاد السوفييتى وأفغانستان من خلال النقاط التالية :

أولا : استغلال حكام أفغانستان وتوظيفهم لخدمة الأطماع الشيوعية .

ثانيا : إيجاد العملاء واستغلالهم لتحقيق الأهداف السوفيتية إن فكريا أو سياسيا أو إقتصاديا .

ثالثا : إنشاء المنظمات والأحزاب الشيوعية ودعمها .

رابعا : توقيع المعاهدات بين الطرفين ، والتى تصب فى صالح السوفييت ولاشك .

خامسا : التأثير المباشر فى الأصول والنظم التى يقوم عليها الحكم فى أفغانستان .

سادسا : تقديم المساعدات لأفغانستان .

---

(١) انظر عن ذلك : أفغانستان والاجتياح الروسى (٢١) .

أولا : استغلال حكام أفغانستان وتوظيفهم لخدمة الأطماع الشيوعية :

سواء فكريا أم سياسيا أم إقتصاديا ، والإتيان بمن يختارونه ويرون أنه سيحقق لهم أكبر قدر من مطالبهم .

وسيظهر ذلك جليا من خلال العرض المختصر لحكام أفغانستان .

أمان الله والسوفييت :

قلنا بعد وفاة الأمير عبد الرحمن خلفه ابنه حبيب الله[١]، ونظرا لعمله بوصية والده فى معاداة الروس أهدر دمه فقتل وبعد مقتله وجدت قوتان ، واحدة محافظة بقيادة شقيق حبيب الله وهو (نصر الله) .

والثانية تدعو للتحديث بقيادة (أمان الله) الابن الأكبر لحبيب الله . وتولى الحكم فى عام ١٣٣٧هـ/١٩١٦م . وبعد أن تحقق النصر على الانجليز واضطروا إلى الاعتراف باستقلال أفغانستان غر هذا الشاب الحكم والسلطان وخدعته الأبهة (وانصرف إلى الصيد وركوب الخيل ، وبهره تقدم أوروبا العلمى فأراد أن يحذو حذوها .و كان أكثر مافتنته المظاهر الخداعة من لباس واختلاط وسفور ومتعة ...)[٢].

فعاش أمان الله هذا الجو وأخذ يزدرى بنى قومه ، وضيق عليهم فى معاشهم ، بكثرة الضرائب ، فافتقر الشعب فى الوقت الذى كان يظهر الترف والبدخ فى قصر الملك وبيوت حاشيته .

ثم سافر إلى أوروبا ، ومن بعدها ذهب إلى بومباى وكان ذلك سنة ١٩٢٨م ، وهناك استقبال استقبالا فخما وظهرت نساؤه سافرات فى أحدث الملابس الأوربية مما جعل سفيره هناك[٣]يستقيل احتجاجا على ذلك المظهر ، وكان الانجليز قد روجوا لذلك للاستفادة منه .

---

(١) تولى الحكم سنة ١٩٠١م .

(٢) أفغانستان (٥١-٥٢) .

(٣) محمد نادر خان ، وهو من الأسرة المالكة .

وعـاد الملك أمان الله إلى قاعدة حكمه فى كابل وأصـدر أوامره باتخاذ الـزى الافرنجى ، وشجع على السفـور ، وأرسل الفتيات إلى تركيـا للـدراسة دون محارم . وعندما كان الشعب الأفغانى المسلم يرفض مثل هذه الأفعال كان لابد وأن يثـور ضـد أمان اللـه فـاندلعت الثورة وامتـد لهيبهـا على المنـاطق الشرقية كافة .

واستفـاد أحد قطـاع الطـرق مـن ذلك الوضع وهو باجى السقـا (ابن السقـا) واستولى على كابل وفـر منها أمان الله إلى قنـدهار ، وتنـازل لأخيه الأكبر عنـاية الله ، ولم يلبـث أن ترك الحكم نظرا لأن الفتنـة عارمة وسافر إلى بريطانيا وخلا الجو لابن السقا فأعلن نفسه ملكا لأفغـانستان باسم (حبيب اللـه غـازى) ، وتسلطـت زمـرته على البلاد والعبـاد ، وعـاثوا فى الأرض فسادا[١].

وقـد وجدت بعض الارهاصـات خلال حكم أمان اللـه مهـدت لنشوء الفكر الشيوعى ومن ذلك :

أولا : أن أمان الله أول زعيم أجنبى يزور موسكو عشية انتصار الثورة الشيوعية ، وقدم التهانى بانتصار ثورتهم .

وتعتبر المعـاهدة التى تم توقيعها بين الطرفين الـروسى والأفغانى فى ١٨ شبـاط ١٩٢١م الأولى مـن نوعهـا ، بعـد استقلال أفغـانستان . وقـد اعتبرت احتلالا لأفغـانستان مع وقف التنفيذ . وقدكان أمان اللـه يخاطب لينين بلقب رئيس الجمهورية الروسية العظمى .

ثانيا : وجود البعثات بين الطرفين ، وقد اعتبر حكـم أمان الله مرحلة خصبـة للتواجد السوفييتى التجارى ، ومن هنا (ثمنت روسيـا وعملاؤها فترة أمـان الله واعتبرت عهده بداية لترسيـخ العلاقات معهـا ، ففى رسالة رسمية بعثتهـا الخارجيـة السوفياتيـة إلى سفيرها فى كابل جاء فيهـا : (عليكـم بالجهد والإمعـان فى دعم توجهات الأمير أمان الله الإصلاحيـة ومساعدته فى تطبيق

---

(١) انظر : أفغانستان (٥٢-٥٤) ، الأفغان الحمر (٣١) .

برامجه التى بدأ ينفذها فى أفغانستان ، ونلفت نظركم إلى أن أفغانستان فى وضعها الحالى تشبه تماما روسيا فى القرن الثامن عشر ، ونحن مستعدون لمساندة أمان الله فى تطبيق برامجه التىبدأها وإن كانت بعض المحافل الأفغانية التى تقوم باسم الاتحادية الإسلامية بمنطقة أفغانستان خطيرة علينا حيث تقف بريطانيا وراءها ، ومن حقنا أن نمنع هذه المخططات ، ونحاول تحجيم خطرها لأن أفغانستان فى هذه الظروف ذات قيمة عالية لنا ، ومانريده يحتاج إلى زمن طويل ، وعلى هذا نذكركم بمسؤوليتكم الكبيرة فى أفغانستان) .

ويقول لينين فى رسالة بعث بها إلى الملك أمان الله : (إن حكومة العمال والفلاحين قد أمرت سفارتها فى أفغانستان بإجراء حوارات معكم ، ومعرفة آرائكم بخصوص الاتفاقيات التجارية وعلاقات الصداقة فيما بيننا ، وبذلك نقود نضالا مشتركا ضد أكبر قوة إمبريالية فى العالم ، ألا وهى بريطانيا العظمى .

نحن نعرف أن الشعب الأفغانى يرغب فى تلقى المعونات العسكرية من الشعب الروسى ، وحكومة العمال والفلاحين ستعمل على تقديم مثل هذه المساعدات ، كما تتطلع إلى مد آفاق الدعم لأمة الأفغان ، وإعادة ترميم مالحقكم من حيف من قبل حكومة القياصرة)[١].

ثالثا : عمل السوفييت على إرسال البعثات إلى أفغانستان لتوطيد العلاقات مع حكومة أمان الله بالإضافة إلى المهندسين والخبراء . يقول ارنود (فى منتصف العشرينات أقام الروس علاقات جيدة مع الملك الأفغانى أمان الله أدت إلى نقطة ذات أهمية تمثلت فى إرسال مجموعة من الطيارين والتكنيكيين لمساعدة الملك فى السيطرة على رجال القبائل ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٥م)[٢].

---

(١) الأفغان الحمر (٢٣) .

(٢) Afghanistan is two party communsm p.6 .
نقلا من كتاب الأفغان الحمر (٢٤) ، وانظر (٢٥) .

رابعا : قام أمان الله بفتح خمس قنصليات أفغانية فى الولايات الإسلامية المحتلة تأكيدا على متانة العلاقات بين الدولتين ، مقابل فتح ٦ قنصليات روسية فى أفغانستان ، كما منحت روسيا الملك مبلغا (نصف مليون دولار سنويا) . وإن إلتزام روسيا الصمت فى عهد أمان الله حيال الحدود التى رسمت عام ١٨٩٥م ومعارضتهم لرسمها قبل مجيئه لأمر يكتنفه الغموض وتثار حوله الشكوك ، مما يدل على وجود صفقة بين الطرفين .

وقد ترددت أخبار بأن أمان الله نفسه كان ينتمى إلى منظمة سرية لتحديث أفغانستان قبل تسلمه الحكم ، وقد كانت تصرفاته ترجح وجود مثل هذه المنظمة التى لم يعد يرى لها أثر بعد تسلمه السلطة . كما تردد أن وزير خارجيته (طرزى) كان من أعضاء تلك المنظمة السرية ، ولذلك حظى بثقة أمان الله فى فترة حكمه إذ جعله صلة الوصل بينه وبين روسيا ، ويعتبره بعض الكتاب الغربيين من أكبر الشخصيات القومية التحديثية فى آسيا الوسطى)[١].

ومما ينبغى التنبه له أن الشيوعيين تراجعوا عن فرض الشيوعية على أفغانستان لما رأوا من مقاومة الشعب للأفكار التحديثية ، مما جعل القادة الشيوعيين يعلمون أن تقبل فكرهم فى هذا الوقت (وبالقوة) غير ممكن فأوجدوا الخلايا السرية وبعض الدعاة لتهريب الفكر الشيوعى داخل أفغانستان .

وهكذا انقضى عصر أمان الله ، وعلاقات أفغانستان بالاتحاد السوفييتى وثيقة ، فوجدت العلاقات الدبلوماسية ، والزيارات بين البلدين وخاصة الجانب الأفغانى ، وارسال الخبراء من الجانب السوفييتى ، والبعثات من الجانب الأفغانى ، ولاشك أن التأثير من قبل الخبراء أو التأثر من قبل المبعوثين بالنسبة للفكر الشيوعى كان قائما وبصورة كبيرة دلت عليه الأحداث اللاحقة .

---

(١) الأفغان الحمر (٢٦) .

محمد ظاهر شاه[١]:

حينما تمكن ابن السقا من السيطرة على أفغانستان كان نادر خان[٢] يعد العدة من أجل العودة إلى بلاده ، وعندما رجع تمكن من القضاء على ابن السقا فى نهاية عام ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م وقد مضى على حكمه تسعة أشهر ، وسار نادر خان سيرة حسنة ، وقدم خدمات واسعة للبلاد ، وقام بالقضاء على الرشوة والفساد ، غير أنه اغتيل على يد أحد المعفين من مناصبهم لسوء تصرفاتهم ، واستلم الحكم من بعده ابنه محمد ظاهر شاه وكان عمره تسعة عشر عاما واستمر فى بداية حكمه على نهج والده ولكن بدأ طريق الانحراف عن الجادة يظهر فى سياسته وكانت زاوية هذا الانحراف تنفرج مع مرور الأيام[٣].

وحاول تطوير البلاد وترميم (جوانب الضعف فى الحياة الإقتصادية والعسكرية ، ولكن موارد البلاد المحدودة اضطرته إلى قبول المساعدات والقروض من روسية التى ظهرت بمظهر الصديق والمعين على مطامع الانكليز الأعداء التقليديين لأفغانستان . وشارك الروس فى إقامة بعض المنشآت للرى منذ عشرين عاما ، وبدأ الخبراء الفنيون يدخلون أفغانستان حتى صاروا يعدون بالألوف ، ثم بدأت المساعدات العسكرية بـ٢٥٠ دبابة وعدد من طائرات الميغ ٢١ التى استعملت بعد ذلك فى الإنقلاب العسكرى . وتسربت

---

(١) ولد فى كابل فى١٥ أكتوبر ١٩١٤م ، ودرس الابتدائية إلى الثانوية بمدرسة حبيبة ثم انتقل إلى المدرسة الأمانية سنة ١٩٢٢م ودرس اللغة الفرنسية ، وعندما عين أبوه محمد نادر خان سفيرا لبلاده فى فرنسا صحب ابنه ظاهر شاه وبدأ يدرس فى فرنسا وبعد عودة والده إلى أرض الوطن واستيلائه على الحكم عين وزيرا للدفاع عام ١٩٣٠م ، ثم وزيرا للتعليم ، ثم حكم بعد مقتل والده سنة ١٩٣٣م ، ثم أطيح به عام ١٩٧٣م أثناء خروجه للعلاج وأقام فى روما .
الأفغان الحمر (٦٢) .

(٢) كان سفيرا لبلاده فى فرنسا ، عاد إلى بلاده عام ١٩٢٩م واستطاع القضاء على ابن السقا ثم ولى حكم أفغانستان وبقى فيه حتى قتل عام ١٩٣٣م .

(٣) انظر : أفغانستان (٥٤) ، الأفغان الحمر (٢٨-٢٩) .

الأفكار الهدامة مع المساعدات القليلة والخبراء الشيوعيين والحفنة من الشباب الطلاب والضباط الذين أتموا دراستهم فى موسكو)[١].

وكان لبطانة السوء والخيانة دور كبير فى تحول محمد ظاهر شاه عن سياسة أبيه فأعلن فى عام ١٩٥٢م ثورته التى أسماها الثورة الثقافية .

(فنادى بنزع الحجاب وتغيير المناهج التربوية من إسلامية إلى أوروبية وفتحت وسائل الإعلام الفساد والدعارة والتحلل بالافلام والتمثيليات ...الخ وزج بالعلماء والدعاة والشباب المتدين فى السجون المظلمة بل وصل الأمر إلى أن فتح هذا الملك المستهتر للشيوعيين حرية تامة فى أفغانستان حتى وصل الأمر إلى أنهم يسبون الرسول عليه الصلاة والسلام وزوجاته الطاهرات ويثنون على طواغيتهم [ماركس - لينين - ستالين] فى جرائدهم الماركسية .

وعمل الملك اتفاقيات عسكرية وثقافية مع روسيا فاستفادت روسيا من هذه المنح على أن تغزو أفغانستان عقائديا وفكريا وسياسيا من خلال الخبراء والمبعوثين الطلاب إلى جامعات روسيا وتكونت تنظيمات شيوعية من الطلاب والجيش والفلاحين والعمال)[٢].

وهكذا كانت فترة محمد ظاهر شاه فترة خصيبة للفكر الشيوعى حيث وجدت الأحزاب الشيوعية فى أفغانستان ، وقام الملك بمنحها الحرية المطلقة ، فانتشرت الأفكار الماركسية واللينينية بين الشباب ، وأرسلت البعثات للتدريب العسكرى فى الاتحاد السوفييتى وأعدت إعدادا جيدا من أجل استلام الحكم هناك ، وقد أصبح التدريب العسكرى فى هذه الفترة روسيا بنسبة ١٠٠٪ ولاغرابة حينئذ أن تكون الإنقلابات العسكرية من أولئك الذين تدربوا فى روسيا[٣]. ومما زاد الحال سوء تعيين محمد داود زوج أخت الملك رئيسا للوزراء وذلك عام ١٩٥٣م .

---

(١) قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٢٨-١٢٩) .

(٢) بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٤١) ، وانظر : تقرير من أفغانستان (٣٣) ، المخابرات السوفيتية من الداخل (٢٣٥-٢٣٦) ، فلاديمير كوزيشكن ، ترجمة شركة أورينتال هاوس للخدمات الإعلامية ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، قبرص .

(٣) أفغانستان والإجتياح الروسى (٢٥) .

محمد داود[١]:

بدأ نشاط محمد داود العدائى للاسلام والمسلمين منذ أن كان رئيسا للوزراء ، وقد كانت تربطه علاقات واسعة مع الاتحاد السوفييتى حينما كان وزيرا حتى لقب بمهندس العلاقات الروسية الأفغانية .

وظهر فى عهده الحزب الشيوعى بفرعيه ، وهما تابعان لموسكو وبدأ فى تنفيذ المخطط السوفييتى فى إبعاد الخطر الإسلامى عن حدود روسيا ، وجعل الفكر الشيوعى يتغلغل داخل أفغانستان بين طبقات المجتمع المختلفة من طلاب الجامعات والضباط والعمال ، ووصل الأمر به إلى تنفيذ مخططات موسكو خارج أفغانستان فى الدول المجاورة فأعطى الروس قاعدة جوية تشرف على الحدود الباكستانية والايرانية[٢].

(وفى الوقت نفسه راح يهاجم الدين وعلماءه ، ويفرض السفور ويأمر بالاختلاط فى الجامعة وينشىء المدارس المختلطة من الجنسين . ثم أعفى من منصبه بعد أن افتضح أمره ، وطفح كيله)[٣].

وأخذ يعمل لنفسه وقام فى سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م بإنقلاب عسكرى على ابن عمه ظاهر شاه وخلعه وأعلن قيام الجمهورية الأفغانية وأطيح بالنظام الملكى فى أفغانستان[٤].

---

(١) ولد فى كابل سنة ١٩٠٩م وينتمى للأسرة الملكية ، تلقى تعليمه العسكرى فى كابل وأكمل دراسته العليا فى باريس وفى عام ١٩٣٢م عين حاكما فى قندهار ، وعندما أصبح عمره ثلاثين سنة أصبح قائدا عاما للقوات المسلحة ورئيسا لكل المدارس العسكرية فى أفغانستان وشغل عدة مناصب حيث عين سفيرا فى باريس لمدة أربع سنوات ، ثم وزيرا للدفاع سنة ١٩٥٠م . الأفغان المر (٦٤-٦٥) .

(٢) انظر حاضر العالم الإسلامى (١٤٣-١٤٤) ، وانظر قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٢٩) .

(٣) حاضر العالم الإسلامى (١٤٤) ، وانظر قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٢٩)

(٤) انظر : أفغانستان (٦٢) ، فترة من الإنفراج الدولى (٥٣٩) ، الأفغان الحمر (٧١) .

ولاشك أن حكومة ظاهر شاه مكنت الشيوعيين ومنحتهم الحرية مما ساعد بعد ذلك على تهيئة الجو الذى يريدونه[١]. زد على هذا أن الحكومة كانت فاسدة فى ذاتها ، مستبدة ، كدست ديونا أجنبية ضخمة ، وأصيبت البلاد بالجفاف ففاقم من المجاعة[٢]، فساعدت هذه الأوضاع على تحقيق ماكان يدور بخلد محمد داود من أطماع .

وبعد نجاح الانقلاب على الملك اتضح توجه محمد داود الماركسى بصورة قطعية ، فمنع نشر المجلات والصحف الإسلامية ، وأوقف مركز البحوث الإسلامية بالجامعة ، وخفض عدد الحجاج من سبعة عشر ألف إلى أربعة آلاف .

وأصدرت وزارة العدل تعليمات تؤكد أن الكشف عن مساوىء الشيوعية جريمة يعاقب عليها ، وتم تنفيذ أهداف روسيا التى كشف عنها الإسلاميون وهى :

(١) القضاء على الزحف الإسلامى بإشاعة الإلحاد والعلمانية .
(٢) الوصول إلى مياه الخليج .
(٣) سبق أمريكا فى السيطرة على قادة آسيا وأفريقيا .
(٤) الحيلولة دون أن تصبح الصين قوة كبرى .
(٥) تطويق الجزيرة العربية من الشمال والجنوب للسيطرة على النفط[٣].

وفى عام ١٩٧٥م وضع نظام دستور للبلاد يتكون من التالى :

(١) (القضاء على الإسلام باسم القضاء على الرجعية .
(٢) محاربة الإسلام من خلال الاهتمام البالغ بإحياء الآثار الوثنية والمجوسية والبوذية .
(٣) صرف الناس إلى الاهتمام بالفنون الشعبية .

---

(١) انظر الأفغان الحمر (٦٠) ومابعدها .
(٢) تقرير من أفغانستان (٣٣) .
(٣) انظر : حاضر العالم الإسلامى (١٤٥) ، الأفغان الحمر (٧٢) .

(٤) التركيز على الأيدلوجية القومية .
(٥) استخدام الإرهاب فى فرض الثورة على الشعب)[١].
وقد أعلن عقب الإنقلاب أنه لاعداء بين أفغانستان أو أى من الدول إلا مع الباكستان[٢].

أسباب الانقلاب :

(١) تنامى الحركة الإسلامية :

شعر الاتحاد السوفييتى بخطر الحركة الإسلامية وخاصة بعد اكتساحها الانتخابات التى جرت فى مجلس طلبة الجامعة فى كابل والتى حصل المسلمون فيها على ٤٤ مقعدا من أصل ٥٤ مقعدا مما زاد من نقمة الأعداء من شيوعيين ورأسماليين ومتفرنجين دعاة التقدمية . وقام المسلمون بتوحيد جهودهم وجمع قوتهم ، ودعم صفوفهم فتجمعوا فى جمعيات ثلاث :

(١) تجمع الشباب المسلم فى جامعة كابل .
(٢) جمعية العلماء المحمدية .

---

(١) بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٤٢) ، وانظر الأفغان الحمر (٧٣) .
وانظر حاضر العالم الإسلامى (١٤٥) وذكر أنه فى سبيل هذه المبادىء ارتكب الانقلاب الأول الارهاب والبطش ، الاستعانة بالفتيان والفتيات للتنصير ، الاستعانة بالخبراء الروس حتى وصل عددهم ٤ آفلا وبعضهم أعضاء فى ال .K.G.B
(٢) انظر الأفغان الحمر (٧١) .
وهذا دليل على التوجه الشيوعى وتأثيره على ذلك الزعيم! حيث نشرت البرافدا فى ١٣ فبراير ١٩٥٦م مقالا جاء فيه (على روسيا أن تساعد بشتى السبل والوسائل لمحو باكستان كلية من جذورها لأنها دولة عقائدية اسلامية تشكل خطرا دائما على المصالح السوفيتية ولاسيما بالنسبة لتركستان فى آسيا الوسطى) .
نقلا من كتاب الأفغان الحمر (٧٢-٧٣) .
ولمزيد من المعلومات عن هذا الإنقلاب انظر أفغانستان والإجتياح الروسى (٦) ومابعدها .

(٣) جمعية خدام الفرقان .

فشعر الشيوعيون بالخطر الذى يتهددهم فقام التخطيط للقضاء على الحركة الإسلامية باستبدال الحكومة رغم مساندتها للشيوعيين ضد المسيحيين[١].

وقال محمد داود فى تصريح له لصحيفة كيهان الايرانية : (إن الاخوان المسلمين لهم سابقة عريقة فى تاريخ أفغانستان إلا إننى سأقطع جذور هذه الجماعة وألقنها درسا يكفى لأولهم وآخرهم)[٢].

(٢) تردى الأوضاع الإقتصادية :

حيث وصلت البلاد إلى حالة كبيرة من الجفاف وقمع الفلاحين بقسوة وقاربت البلاد من حافة المجاعة[٣].

(٣) التعجيل بالثورة :

حيث بدأ الروس يشعرون أن الوقت قد حان لذلك فالأحزاب الشيوعية قد قويت ، والملك فى رحلة خارج البلاد ، وهناك من القواد من يمكن الاعتماد عليه فى هذه المهمة[٤].

بداية فقدان الثقة فى داود :

لقد عمل الروس على دعم داود ولكن لم تكن الخدمات التى قدمها تكفى هذا فى حين أن محمد داود قام بإيجاد حزب جديد أطلق عليه اسم (الحزب الوطنى الثورى) خاصة بعد أن بدأ الخلاف يدب بينه وبين حزب برشم حيث حصلت الفرقة بينهما عام ١٩٧٧م . وبدأ كل طرف يتربص بالآخر وشعر داود بأن الشيوعيين بدأوا يتربصون به وأنه ساقط لامحالة ،

---

(١) انظر : أفغانستان (٩٤) ، الأفغان الحمر (٦٣) .

(٢) نقلا من كتاب الأفغان الحمر (٦٣) .
وقال محمد داود : (إن أسباب التغير تعود إلى تفاقم الرجعية) .

(٣) انظر : فترة من الإنفراج الدولى (٥٣٩) ، الأفغان الحمر (٦٤) .

(٤) انظر الأفغان الحمر (٦٤) .

خاصة وأن الشعب قد انعزل عنه بسبب تحالفه الكبير مع الشيوعيين فبدأ بتصفية الخصوم وماجاء آخر سنة ١٩٧٧م إلا وقد عزل الوزراء الشيوعيين من حكومته ، وكرد فعل عمل الشيوعيون على القيام بأعمال تخريبية بإيعاز من الروس واقتنع داود حينها أن الروس وعملاءهم وراء هذه الاضطرابات فقام باعتقال قادة الحزب الشيوعى فى البلاد وزج بهم فى السجون وغير اتجاهه إلى أمريكا والدول الإسلامية(١).

ولكن لماذا غير داود اتجاهه؟

يمكن القول أن هناك عدة أسباب من أهمها :

(١) شعور داود أن الشعب لفظه وذلك بسبب تحالفه الفاضح مع الشيوعيين.

(٢) عثوره على وثائق لمؤامرة تحاك ضده وبالتعاون مع الكرملين فشعر بالخطر فأخذ فى إبعاد الشيوعيين .

(٣) التحول الأمريكى لكسب داود ورغبته هو فى ذلك(٢).

(٤) أن داود قال لبريجنيف فى نيسان ١٩٧٧م وذلك قبل سقوطه بأيام بعد أن قدم له بريجنيف قائمة بالشكاوى الروسية ضده :

(إننى أريد تذكيرك بأنك تتحدث مع رئيس دولة مستقلة وليس مع دولة أوروبية شرقية تدور فى فلكك ، وانك تريد التدخل فى الشؤون الداخلية لأفغانستان ولن أسمح لك بذلك)(٣).

---

(١) انظر : الأفغان الحمر (٧٥-٧٨) ، بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٤٢) ، فترة من الإنفراج الدولى (٥٤٠) ، المخابرات السوفيتية من الداخل (٢٣٦) وذكر أن هؤلاء الشيوعيين كانوا على اتصال بسفير الاتحاد السوفييتى فى كابل . وانظر تقرير من أفغانستان (٣٩-٤٠) .

(٢) انظر : الأفغان الحمر (٧٨-٧٩) ، فترة من الإنفراج الدولى (٥٤٠) .

(٥) الأفغان الحمر (٨٤) .

ولمزيد من تذمر الشيوعيين من حكومة داود انظر أفغانستان والإجتياح الروسى (٨) ومابعدها .

وبعد الضغط على الحزب الشيوعى وسجن بعض أفراده بدأ الحزب العمل على إعادة صفوفه ، واستدراك الوضع خاصة بعد إعلان داود رغبته الأكيدة فى التقارب مع الغرب ومع بعض الدول الإسلامية فقام أحد الشخصيات البارزة فى الحزب الشيوعى واسمه ميرخيبر[١] برأب الصدع الذى حدث فى الحزب الشيوعى وبذل جهودا جبارة فى توحيد صفوف الحزب الشيوعى ، ولكن سرعان ماقتل ووجه الاتهام إلى داود . وقد أحدث اغتيال ميرخيبر فرصة كبيرة للشيوعيين من أجل الإعداد والتحرك فى التعجيل بالإنقلاب ضد داود وحوصر فى قصره وقتل داود وعائلته[٢]. وأفرج عن طرقى ـ حيث كان معتقلا من قبل داود ـ وسلم رئاسة الدولة .

محمد نور تراقى[٣]:

لقد كان للفساد الإدارى ، والإنهيار الإقتصادى ، والكبت السياسى

---

(١) ولد سنة ١٩٢٥م ، سجن ست سنوات من عام ١٩٥٠م وبعد إطلاق سراحه عمل بالشئون التعليمية فى وزارة الداخلية ثم طرد من كابول بسبب اشتراكه فى عصيان ١٩٦٥م وعاد إليها بعد عشر نسوات ووكل إليه مهمة تجنيد البرشميين الشيوعيين فى الجيش الأفغانى .

(٢) انظر : تقرير من أفغانستان (٤٠) ، الأفغان الحمر (٨٢-٨٣) ، أفغانستان (٩٨) . ولمزيد من المعلومات انظر الأفغان الحمر (٨٤-٨٧) .

(٣) ولد نور محمد تراقى سنة ١٩١٧م فى مديرية (مقر) بولاية غزنى ، وينتمى للبشتون وهو من عائلة فقيرة معدمة ، وعمل بالهند كموظف فى شركة تجارية وأخذ عن عمال المرافىء الكثير من الفكر الإشتراكى ، التحق بجامعة كابل فى الفترة ١٩٣٨-١٩٤١م ، وفى نهاية الأربعينات غدا مسئولا عن وكالة الأنباء الأفغانية (بختار) ونفى إلى الولايات المتحدة فى أوائل عام ١٩٥٣م ، ثم رجع إلى بلاده عن طريق باكستان عام ١٩٥٦م ، وعلم داود بمجيئه ولم يسجنه ، وكان من مؤسسى الحزب الأفغانى الشيوعى عام ١٩٦٥م واعتقل فى آخر رئاسة داود ثم أفرج عنه فى إنقلاب ١٩٧٨م ليتولى رئاسة الجمهورية ثم قتل على يد رفيق دربه حفيظ الله أمين أواخر سنة ١٩٧٩م ، ويلقب تراقى فى أفغانستان بلينين لأنه أزاح الملكية كما أزاح لينين القياصرة وقام بتصفية المراكز الحكومية .
انظر : الأفغان الحمر (٩٤-٩٦) ، أفغانستان والإجتياح الروسى (٥١) ومابعدها .

الـذى بلـغ ذروته ، والخلاف بين شطـرى الحزب الشيـوعى وميـل داود عن الشيوعية كل ذلك كان دافعا للإنقلاب عليه ، فاتحد الحزبان الشيوعيان تحت قيـادة تراقى ، وفى ليلة الإنقلاب اتصـل بعض الضباط بمحمـد داود وأخبروه بقيـام مظاهرة فى الغد فاستـأذنوه بخروج بعض الدبابات لحمـاية القصـر فأذن بينمـا كانت فوهات المدافع مـوجهة إلى الخارج إذ جاء الموعـد المحدد الثانية عشرة وأربع دقائق إذ تحولت إلى القصر ودكته فوق رؤوس من فيه يوم ٢٧ ابريل ١٩٧٨م . وقيـل أن من قتـل من الرجال والنساء والـولدان بلغ ثمانين ألفا فى مقدمتهم العلماء وأعضاء الجماعات الإسلامية[١].

وأصبـح تراقى رئيسا لدولـة أفغانستان وبرئاسته (دخلـت أفغانستان فى قلب الماركسية فأصدر عدة قرارات منها :

(١) مصادرة الممتلكات .

(٢) أمر بتوقف البرامج الدينية فى الإذاعة والصحافة .

(٣) حذف المواد الـدينية فى المدارس والجامعات وحلت محلهـا آراء وأفكار فلسفية وشيوعية .

(٤) عمـل دورات للفلاحين والعمـال مـن رجال ونسـاء ثقافيـة إشتراكيـة شيوعية على طريق الماوية الصينية .

(٥) قتـل مـن المسلمين حوالى ثلاثين ألـف مسلم بل سحقهـم بالصـواريخ والمدفعية .

(٦) وكل هذا وشياطين الكرملين يباركون لهذا العمل الإجرامى ...

فهـب الشعب المسلم الأفغانى صاحب الغيرة على دينـه وعرضه بل هبت القبائل من أنحاء أفغانستان لحرب هذا الشقى .

فسلـط تراقى جيشه الشيطانى على الشعـب الثائر كـالبركان فقتـل مائتى ألف مسلم)[٢].

---

(١) انظـر قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامـى (١٢٩) ، وانظر أفغـانستان والاجتياح الروسى (١١) .

(٢) بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٤٣) .

وقد وقع طراقى معاهدة صداقة مع السوفييت (تأمينا لتكريس الحكم الشيوعى فى أفغانستان وتمهيدا لتدخل عسكرى سوفييتى فى الوقت المناسب . وفى ٤ من كانون الأول عشية عام ١٩٧٨م وفى أول زيارة له قام بها للخارج منذ توليه الحكم وقع الرئيس طرقى معاهدة للصداقة والتعاون وحسن الجوار بين أفغانستان والاتحاد السوفييتى مدتها عشرون عاما)[١].

وقد أفصح عن سياسته الماركسية من خلال جرائمه التى ارتكبها وخاصة ضد المسلمين ومن ذلك :

(١) نصب المشانق ضد الحركة الإسلامية خاصة .

(٢) تصفية مراكز الحكومة والوزارة ممن عليه مسحة دينية أو قبلية .

(٣) اعتقال العديد من قادة الحركة الإسلامية .

(٤) الغاء البرامج الدينية من وسائل الإعلام .

(٥) التهديد الفاضح للدول المجاورة .

(٦) تغيير علم البلاد إلى اللون الأحمر اقتفاء لأثر روسيا .

(٧) تقليص دور العلماء والمشايخ فى أفغانستان .

(٨) إرسال البعثات العسكرية والثقافية إلى روسيا بكثرة لم يسبق لها نظير لترويضها .

(٩) نزع الأراضى من مالكيها الحقيقيين دون تعويضهم[٢].

فزادت البلاد سوءا ، وازداد هياج الشعب المسلم ضد الفوضى والفساد الذى تعانى منه الدولة الأفغانية تحت سلطة تراقى وقد أحس أحد الزعماء الأفغان وهو حفيظ الله أمين أن تراقى اتفق مع الروس على اقصائه وجعل بابك كارميل يحل محله فقام بقتله[٣].

---

(١) أفغانستان والاجتياح الروسى (٥٨) .

(٢) انظر الأفغان الحمر (٩٦-٩٧) .

(٣) انظر : حاضر العالم الإسلامى (١٤٧) ، قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٢٩) ، فترة من الإنفراج الدولى (٥٤١) ، تقرير من أفغانستان (٤٦) ، وذكر أن كافة عناصر الشعب ساءها الوضع فمنها المعارضة الدينية ، ومنها السياسية ، ومنها القبلية .

حفيظ الله أمين[١]:

تولى عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م وعندما أصبح مسيطرا على رئاسة الدولة أدرك أن النظام مازال يعتمد على السوفييت فى المجالين الإقتصادى والعسكرى ورفض الإقرار بهذه النتائج ، وطلب من روسيا استدعاء سفيرها ، واتهمه بالتخطيط للإطاحة بالنظام فى كابل . واستبدل السفير بعد شهر من ذلك (أى فى ٦ تشرين الثانى ١٩٧٩م) . وخلال تلك الفترة حور زعماء خلق الوثائق التى تتهم الروس بالتواطؤ مع طرقى وأتباعه لإثارة الفتن وحينها فر عدد من أتباع طرقى إلى الاتحاد السوفييتى[٢].

قام حفيظ الله بتوسيع دائرة حكمه ، والتقرب إلى الأحزاب الدينية ، وانتقد طرقى لإنفراده بالسلطة ، ووعد بحماية المالكين الصغار ، لكن كان مجال المناورة ضيق إذ أن هناك آلاف قد أهرقت دماؤهم والشعوب القبلية لم تكن للتنازل عن ذلك بسهولة[٣].

وفى هذه الأثناء قام الاتحاد السوفييتى بجهوده للتأثير على النظام (فزار س.بابورتين المدير السوفياتى للشؤون الأمنية الدولية ، كابول ، وتبعه فريق من المستشارين السوفيات الذين حاولوا إعادة تنظيم البوليس الأفغانى السرى إلا أن أمين رفض السماح لهم بذلك ، فنما التوتر بين البلدين)[٤].

---

(١) ولد سنة ١٩٢٨م قريبا من كابل ، حصل على منحة دراسية وعاد وعين مدرسا فى الجامعة ، كان صلب الشخصية ، ولى عدة مناصب منها الأمين العام للجنة الحزب المركزية ، وزير الدفاع ، ورئيس الوزراء ، وبهذا سيطر سيطرة تامة على أجهزة الدولة وكان هذا زمن تراقى ثم قام بإلانقلاب عليه فى ١٦ سبتمبر ١٩٧٩م ثم قتله الروس لتنصيب كارمل فى نهاية عام ١٩٧٩م . الأفغان الحمر (١٠٨) .

(٢) انظر : تقرير من أفغانستان (٤٧) ، الأفغان الحمر (١٠١) ومابعدها .

(٣) انظر تقرير من أفغانستان (٤٨) .

(٤) المرجع السابق (٤٨) ، وانظر أفغانستان والاجتياح الروسى (٥٩-٦٠) .

وقد أوهمت روسيا أمين أن هناك إنقلابا يدبر ضده وقصدت بذلك كسب الرجل حتى يظل على ثقته فى السوفييت بينما هم كانوا يحاولون ابعاده[١].

وفى ٢٧ كانون الأول/ديسمبر تدخلت الفرق السوفيتية فحاصرت كابل وحدات مسلحة وأطيح بأمين ونفذ فيه حكم الاعدام على الفور مع أفراد عائلته وعين بابراك كارمل رئيسا للجمهورية ورئيسا للوزراء[٢].

بابراك كارمل[٣]:

نفى بابراك كارمل أيام حكومة تراقى ، بإيعاز من حفيظ الله أمين حيث عين سفيرا فى تشيكوسلوفاكيا فى يوليو عام ١٩٧٨م . وعزل بعد ثلاثة أشهر تقريبا واختفى فى أوروبا الشرقية ثم جىء به من قبل الروس ليتزعم

---

(١) انظر الأفغان الحمر (١٠٩) .

(٢) انظر : تقرير من أفغانستان (٤٨) ، حاضر العالم الإسلامى (١٤٧-١٤٨) وذكر أن الإنقلاب حدث بدعم سافر من الاتحاد السوفييتى حيث امتد جسر جوى لنقل الجنود والمعدات عبر أكثر من ١٥٠ طلعة جوية لطائرات (الأنتيونوف) الضخمة . وانظر : الأفغان الحمر (١١٧) ، قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٣٠) . وقد اختلف فى شخصية أمين فمن قائل بأنه كان عميلا شيوعيا ، ورأى أنه يميل إلى الغرب ، ورأى أنه كان شيوعيا متعصبا رغب أن يكون لينين آسيا مستقلا عن السوفييت . انظر ذلك فى كتاب الأفغان الحمر (١٠٦-١٠٧) .

(٣) كارمل يعنى (صديق العمل) ولد عام ١٩٢٩م تخرج من مدرسة (نجات) وتعلم فيها اللغة الألمانية ، ظهر كعضو نشيط فى اتحاد الطلبة الشيوعى عام ١٩٥٠م ، فى عام ١٩٦٠م تخرج من الجامعة وعمل بقسم الترجمة فى وزارة التعليم ، وفى عام ١٩٦٥م شارك فى تأسيس الحزب الأفغانى ، كان الرجل الثانى فى حكومة تراقى ثم عندما تم الانقلاب عليه أى على تراقى جاء الروس بكارمل على دبابة روسية وسلموه حكم أفغانستان فى ٢٨ ديسمبر . انظر الأفغان الحمر (١٢٣-١٢٤) .
وفى ٥ مايو ١٩٨٦م قدم استقالته بحجة ظروفه الصحية وخلفه نجيب الله فى رئاسة الدولة وفرض عليه إقامة جبرية . انظر الأفغان الحمر (١٢٤) .

الانقلاب الأخير[١] وبعد أن استولى على الأمر وبسرعة كبيرة أطلق سراح ٢٠٠٠ سجين سياسى ، ومنح الثوار عفوا غير مشروط وأعلن أنه حان توحيد البلاد بوسائل سياسية لاعسكرية ، وبدأ النظام بتوجيه خاص نحو المؤيدين المسلمين[٢].

فى هذه الأثناء كانت القوات السوفيتية تتزايد داخل أفغانستان حتى جاوزت مائة ألف جندى توزعوا فى المناطق التى كان يحتلها جنود الجيش الأفغانى الرسمى[٣].

(وبذلك وقعت البلاد تحت الاحتلال الشيوعى السافر ، وحققت روسية حلمها الذى كانت تعمل لتحقيقه منذ أمد بعيد ...)[٤].

ولما وجدت روسيا أن بابراك كارمل ضعيف تخلصت منه وجاءت فى مكانه بشخص آخر أشد ولعا وحبا لروسيا وهو نجيب الله[٥].

---

(١) انظر حاضر العالم الإسلامى (١٤٨) .

(٢) انظر : تقرير من أفغانستان (٤٩) ، فترة من الإنفراج الدولى (٥٤٢) .
جاء فى خطاب لكارمل : (اخوتى المسلمين الأفغان الذين عاشوا دهرا طويلا من المظالم ، عليكم ، أيها الرجال والنساء والأبطال من أبناء هذا البلد ، اسمحوا لى أن أعبر عن عميق أسفى لمعاناتكم المفرطة وللدماء التى أريقت منكم بسبب السجن والهجرة البربرية المفروضة عليكم ، والتعذيب الوحشى الذى تعرضتم له واستشهاد عشرات الألوف من الأشخاص ، وكل هذا حدث أيام حفيظ الله أمين وبأوامر مباشرة من هذا العميل للمخابرات الأمريكية هذا الخائن لقى جزاءه على يد المجلس الثورى لشعب أفغانستان بسبب أعماله الشيطانية) .
Red Flag over Afghanistan p.89 .
نقلا من كتاب الأفغان الحمر (١٢٣) .

(٣) حاضر العالم الإسلامى (١٤٨) .

(٤) قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٣٠) .

(٥) انظر : بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٤٤) ، حاضر العالم الإسلامى (١٤٨) .

نجيب الله[١]:

ويمكن القول بأن هناك أسبابا جعلت السوفييت يستبدلون كارمل بنجيب الله :

(١) اخفاق كارمل فى القضاء على الحركة الإسلامية الجهادية . فوقع الاختيار على شخص شرس يضرب بيد من حديد على الأعداء .

(٢) أن نجيب ينتمى لقبائل (البشتون) وهذا فى ظن الروس سيقرب بين الحزبين الشيوعيين (برشم وخلق) لأن حزب برشم أغلب أعضائه من البشتون المتعصبين ، ونجيب من أعضاء حزب خلق .

(٣) أن نجيب عمل فى المخابرات وبالتالى سيلعب دورا محوريا فى مستقبل أفغانستان[٢].

فكانت هذه الشخصية أضمن من غيرها لتحقيق المصالح[٣].

وأدرك المجاهدون الأفغان حقيقة ذلك الرجل فرفضوا رفضا قاطعا بقاءه ورفضوا الدعوة التى تنادى بالمصالحة الوطنية كما يزعم عملاء الشيوعية[٤].

---

(١) ولد عام ١٩٤٧م فى كابل ، درس بمدرسة حبيبة العالية وأتقن الفارسية مع اللغة الأم (البشو) وسنة ١٩٦٤م أنهى الدراسة الثانوية وسنة ١٩٧٥م تخرج من جامعة كابل طبيبا ، ويعتبر من المؤسسين للحزب الشيوعى عام ١٩٦٥م ، سجن مرتين لنشاطاته السياسية ، وفى عام ١٩٧٩م قام بالتخطيط لمؤامرة ضد خلق وتم نفيه إلى إيران سفيرا بها ثم سحبت منه الجنسية الأفغانية ، فغادر إلى تشيكوسلوفاكيا ليقابل كارمل ومنها إلى موسكو حتى دخول القوات الروسية أفغانستان ، وعندما عين كارمل رئيسا طار نجيب إلى كابل ليعمل رئيسا للمخابرات وترقى نجيب فى ١٩٨٢م إلى عقيد ، ثم إلى عميد فى ١٩٨٣م ، عين رئيسا لأفغانستان عام ١٩٨٥م وتعرض لعدة محاولات من أجل اغتيال .
انظر الأفغان الحمر (١٣١-١٣٣) .

(٢) انظر الأفغان الحمر (١٣٤-١٣٥) .

(٣) انظر مجلة الجهاد العدد (٨٥) (١٠-١١) شعبان ١٤١٢هـ ، فبراير ١٩٩٢م .

(٤) انظر أقوال قادة الجهاد عن ذلك فى كتاب الجهاد الأفغانى طريق إلى الخلافة الراشدة (١/٢٨-٢٩) أم القعقاع ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م بدون ذكر لدار النشر ، وانظر مجلة الموقف العدد (٦-٧) (٢٤-٢٧) وفيها بيان الاتحاد الإسلامى لمجاهدى أفغانستان .

وكان فكر قادة المجاهدين الأفغان متفقاً في رفض هذه المصالحة أو إشراك الأعداء في الحكومة وأعلن هؤلاء القادة طلباتهم التي تتلخص في :

(أ) خروج القوات الروسية الغازية من أرض أفغانستان بدون قيد أو شرط .

(ب) عدم الإشتراك في حكومة بها عناصر غير إسلامية .

(ج) رفض أي قرار لاتوافق عليه المنظمات الأفغانية .

(د) مواصلة الجهاد حتى اخراج آخر جندي روسي وإقامة الحكومة الإسلامية .

(هـ) حق الشعب الأفغاني في تقرير مصيره دون السماح بالتدخل الأجنبي .

(و) رأت المنظمات الأفغانية ضرورة وجود حكومة مؤقتة بإشراف المجاهدين لحين إجراء الانتخابات العامة[١].

وقد أعلن نجيب الله العميل عن مبادرة جديدة وتتلخص في النقاط التالية :

((١) وقف إطلاق النار لمدة ستة أشهر لوقف سفك الدماء في أفغانستان .

(٢) مشاركة جميع الأطراف في الشؤون السياسية والحياة الإقتصادية في البلاد .

(٣) الكف عن ملاحقة أي شخص بسبب نشاطه السابق وإصدار عفو عام عن الجميع بما في ذلك الجنود والضباط الفارين من الجيش .

(٤) عودة الوحدات العسكرية السوفيتية المحدودة إلى بلادها خلال ثلاث سنوات على أن يغادر القسم الأكبر منها أفغانستان خلال ستة أشهر إذا ماسارت الأمور على مايرام .

---

(١) انظر القصة الدامية للغزو السوفييتي لأفغانستان (١٠٠) ، عصام دراز ، دار الاعتصام دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٥) إجراء مفاوضات مباشرة مع أطراف النزاع وتشكيل حكومة يمثل فيها قادة الثوار بشكل متساو مع الأطراف الآخرين)[١].

وأعلن نجيب الله أن آخر هدف للحزب الديمقراطى الأفغانى هو (بناء الإشتراكية فى أفغانستان ، ولن يتخلى حزبنا عن هذا الهدف)[٢].

وهكذا وإلى آخر لحظة والشيوعية الحمراء تحاول إبقاء عملائها على رأس السلطة أو مشاركتهم فيها ، من أجل خدمة أهدافهم .

وقد كان هذا أحد الأساليب التى انتهجها زعماء الكرملين فى علاقتهم مع دولة أفغانستان المسلمة .

---

(١) الأفغان الحمر (١٣٥-١٣٦) .

(٢) المرجع السابق (١٣٨) .

ثانيا : إيجاد العملاء واستغلالهم لتحقيق الأهداف السوفيتية :

عملت الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى على نشر الفكر الإشتراكى كلما سنحت لها الفرصة فى أى بقعة كانت ، وقد كانت الدول الإسلامية الهدف الأول للشيوعيين من أجل نشر فكرهم الالحادى فيها وذلك لعلمهم بأن الإسلام هو الخطر الحقيقى على عقيدتهم المادية وأنه يأتى عليها من البنيان ، ومن هنا عملوا على إيجاد العملاء والخلايا السرية فى أكثر بلدان العالم الإسلامى ومن هذه الدول أفغانستان والتى وقعت عقودا من الزمن تحت وطأة هؤلاء العملاء . وكانت هذه الخطوة من الأولويات التى اتخذها العدو الأحمر ضد أفغانستان فقامت علاقة السوفييت بأفغانستان ظاهرا على الوعود بالمساعدة ، وعدم التدخل فى الشئون الداخلية لها بينما كان العملاء ينفذون السياسة الإلحادية بالطرق السرية . يقول محمد مزمل : (عندما جاءت ثورة أكتوبر ١٩١٧م فى الاتحاد السوفييتى وتسلم الشيوعيون قيادة الأمر اختارت قيادة الثورة سياسة النفاق والتحيز الصورى مع الشعوب الإسلامية المحتلة وذلك إخمادا لثأرها ومقاومتها فى الوقت الذى لم تغرس الحكومة فصيلة السلطة بعد ، ولم تمض سنة على ذلك والشيوعية بدأت بسحقها ، ولكن موقف القيادة الشيوعية بالنسبة لأفغانستان استمر على ماكان حيث اختارت سياسة المصادقة مع الحكام ، وعقد الصداقات معهم واستغلال نواياهم وذلك لما عرف الروس من مواقف الشعب الأفغانى تجاه الانجليز فأرادوا أن يأخذوا خطوتهم فى هذه المنطقة الخطرة ببطء وتأنى والتآخى فى الظاهر واستخدام الحكام العملاء لتبنى النظام الشيوعى فى الشعب الأفغانى لصالح السوفييت)[١].

وعمل السوفييت على إيجاد العملاء ، واستغلال تذمر الشعب من الانجليز فاندفع حكام أفغانستان تجاه الحكام الروس .

---

(١) موسكو فى طريقها إلى كابول (١٢) .

يقول أبو بشير الحامدى عن أمان الله الذى تولى السلطة فى أفغانستان (كان أمان الله على نقيض والده شديد النفور من الانجليز ، إذ كانوا يشكلون خطرا حقيقيا على استقلال أفغانستان فقد كانوا يتحكمون فى شؤونها الداخلية أيضا ، ورأى أمان الله نداءات "لينين" بالثورة على الاستعمار البريطانى ومساندته الظاهرية لقوى التحرير ، فصدق وعوده وأكاذيبه ، فأسرع يمد يده إلى لينين يطلب المساعدة والمساندة فى محاربة الانجليز ...)[١].

لقد ركب زعماء الكرملين من على أكتاف هؤلاء العملاء وحققوا لهم عدة أهداف وكثيراً من مطامعهم ولو لم يكن إلا سهولة دخول القوات السوفيتية إلى أرض أفغانستان المسلمة بعد أن استنفذوا طاقاتهم .

ثالثا : إنشاء المنظمات والأحزاب الشيوعية :

إنشاء المنظمات والأحزاب الشيوعية ودعمها ، وجعلها بأيدى هؤلاء العملاء ليوجهوها الوجهة التى تريدها منهم موسكو ، وعلى سبيل المثال من هذه المنظمات :

(أ) منظمة (ويخ زاليمان) (شباب اليقظة) :

وأنشئت عام ١٩٤٥م ومن أعضائها تراقى وكارمل ، ومن مجلاتها (انجاز) (الجمر) (السن) (أى الشعب)[٢].

(ب) اتحاد الطلبة الشيوعى :

وقام فى ١٩٥١م عندما أعلن ثلاثون طالبا من كلية القانون والسياسة بجامعة كابل تأسيس (اتحاد الطلبة) واعتقلت الحكومة فى نفس السنة أعضائه وكان منهم أعضاء فى حركة شباب اليقظة . وكان أفراد الاتحاد متحمسين

---

(١) مذكرة عن تاريخ أفغانستان (١٣) نقلا من كتاب الأفغان الحمر (٢٠) . وانظر أفغانستان (٥١) .

(٢) انظر الأفغان الحمر (٤٣) ومابعدها .

للفكـرة الشيوعية ومن بينهم بابرك كارمل وكان لهـا خمس صحف معارضة (الوطن ، الشعب ، اجمر ، صوت الشعب ، رسالة الافغـان) وطفقت تهاجم رجال الدين والحكومة بشكل واسع ثم أغلقت واتخذ قرارا يقضى بحظر كافة الصحف المعارضة[١].

(ج) الحزب الشيوعى الأفغانى :

بعـد أن صدرت الموافقة على قيـام الأحزاب السيـاسية حيث نفذ داود ماطلب منه الروس صدر الدستور عام ١٩٦٤م يقضى بالسماح لقيام الأحزاب السياسية وبالتالى أزيلت العقبة أمام الشيوعيين .

(فأصدر الشيوعيون صحيفتهم الأولى (خلق) أى (الشعب) ، وأعلنوا من خلالها عن ميلاد أول حزب شيـوعى فى أفغـانستـان أسمـوه (حزب ديموقراطيك خلقى أفغانستان) ، أى : (حزب الشعب الـديمقراطى الأفغانى) ، وذلـك فى ١٩٦٥/١/١م ، وكان الإجتماع الأول للحزب فى بيـت (نور الدين تراقى) وحضـر الاجتماع آنذاك ٢٧ عضوا ... واختير (تراقى) رئيسـا للحزب وكارمل نائبا له)[٢].

وقـد ركـز الحزب نشـاطه على سلـك التعليم وطلاب الجامعـة وانتقـد السيـاسة الأمريكية ، وكان من أهدافه تقوية الروابط والعلاقـات مع روسيا وبدأت أفكاره الشيوعية تخرج عن طريق صحيفته (خلق) التى لم يصـدر منها إلا ستة أعداد ثم أوقفت بأمر من الحكومة[٣].

وحصـل خلاف بين تراقى وكارمل وظهر بوضوح عـام ١٩٦٦م فانقسم الحزب إلى مجمـوعتين (خلـق) أى الشعب ، و(برشـم) أى الراية[٤]، وكان يهدف السوفييت إلى جعل هذه الأحزاب والخلايا الشيـوعية والعملاء داخل الأراضـى الأفغـانية وسيلـة لنشـر الفكـر الإشتراكـى فيهـا ، فـإذا مـافشلت

---

(١) انظر : الأفغان الحمر (٤٧) ، أفغانستان (٨٧) .
(٢) الأفغان الحمر (٤٩) .
(٣) المرجع السابق (٤٩-٥١) .
(٤) انظر عن ذلك : المرجع السابق (٥٢-٥٩) ، أفغانستان والإجتيـاح الروسى (١٥) .

فى ذلك تكون ممهده لهم الطريق العسكرى وهذا عين ماحصل .

رابعا : توقيع المعاهدات بين الطرفين :

وقد حرص الاتحاد السوفييتى منذ زمن لينين على تلك المعاهدات (وأول معاهدة مع روسيا يعود تاريخها إلى سنة ١٩٢١م ، أى بعد سنوات قليلة من الثورة . ثم تبع ذلك معاهدة ثانية فى سنة ١٩٢٦م : اتفاقية حياد وعدم اعتداء أقامت خطوطا جوية بين طشقند وكابول)[١].

وكذلك معاهدة سنة ١٩٣١م والتى أرست قواعد الصداقة وحسن الجوار[٢]، وقد أضحت المعاهدة التى وقعها طرقى مع الاتحاد السوفييتى فى ٥ ديسمبر عام ١٩٧٨م واضحة فى أن الاتحاد السوفييتى كان يمكر بأفغانستان منذ فترة طويلة وبالنظر فى بعض مواد هذه المعاهدة يتبين لنا أن موسكو كانت تدعى شيئا وتفعل شيئا آخر ، ففى عام ١٩٧٨م تعقد هذه المعاهدة - والتى كانت بالطبع مع عميلهارجل تربى على عينها - . وفى عام ١٩٧٩م تجتاح قواتها أفغانستان ولو سميت هذه المعاهدة بأنها مؤامرة لكانت أقرب إلى الصواب . وإليك بعض ماجاء فى موادها .

(المادة ١ : يعلن الطرفان المتعاهدان الساميان ابتهاج عن عزمهما توطيد وتعميق الصداقة التى لاتنفصم عراها بين البلدين ، وتطوير التعاون الشامل الجوانب على أساس المساواة فى الحقوق واحترام السيادة الوطنية ووحدة الأراضى وعدم التدخل فى الشؤون الداخلية لبعضهما البعض .

المادة ٢ : سوف يبذل الطرفان المتعاهدان الساميان الجهد لترسيخ وتوسيع التعاون الإقتصادى والعلمى الفنى المتبادل النفع فيما بينهما . وسوف يعملان تحقيقا لهذا الغرض على تطوير وتعميق التعاون فى مجال الصناعة والنقل والاتصالات والزراعة واستغلال الموارد الطبيعية وتطوير

---

(١) تقرير من أفغانستان (٣١) .

(٢) انظر الأفغان الحمر (٢٢٥) .

صناعة الطاقة وغير ذلك من مجالات الإقتصاد ، وتقديم العون فى إعداد الكوادر الوطنية وتخطيط تنمية الإقتصاد الوطنى وسوف يوسع الطرفان التجارة على أساس مبادىء المساواة والنفع المتبادل ونظام الأفضلية .

المادة ٣ : سوف يعمل الطرفان المتعاهدان الساميان على المساعدة فى تطوير التعاون وتبادل الخبرة فى مجال العلوم والثقافة والفنون والآداب والتعليم والرعاية الصحية والصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما والسياحة والرياضة ، وغير ذلك من المجالات .

وسوف يعمل الطرفان على توسيع التعاون بين أجهزة سلطة الدولة والمنظمات الإجتماعية والمنشآت والمؤسسات الثقافية والعلمية بهدف تحقيق التعرف الأكثر عمقا على حياة وكدح وخبرة ومنجزات شعبى البلدين .

المادة ٤ : إن الطرفين المتعاهدين الساميين إذ يعملان بروح تقاليد الصداقة وحسن الجوار وميثاق الأمم المتحدة ، سوف يتشاوران ويتخذان بموافقة الطرفين التدابير اللازمة لتحقيق الأمن والاستقلال ووحدة أراضى كل البلدين .

ولصالح تقوية القدرة الدفاعية للطرفين المتعاهدين الساميين سوف يواصلان تطوير التعاون فى المجال العسكرى على أساس الاتفاقيات المعنية المبرمة بينهما .

المادة ٥ : إن اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية يحترم السياسة التى تنتهجها جمهورية أفغانستان الديمقراطية من عدم الانحياز ، والتى تعد هامة للحفاظ على السلام والأمن الدولى .

وجمهورية أفغانستان الديمقراطية تحترم سياسة السلام التى ينتهجها إتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية ، والموجهة نحو توطيد الصداقة والتعاون مع كافة البلدان والشعوب .

المادة ٦ : يعلن كل من الطرفين المتعاهدين الساميين فى ابتهاج أنه لن يدخل فى أية أحلاف عسكرية أو المشاركة فى أى تكتلات للدول ، وكذلك فى الأعمال أو التدابير الموجهة ضد الطرف المتعاهد السامى الآخر .

المادة ٧ : سوف يبذل الطرفان المتعاهدان الساميان كافة الجهود مستقبلا أيضا لحماية السلام العالمى وأمن الشعوب ، ومن أجل تعميق عملية الإنفراج الدولى وبسطها على كافة مناطق العالم بما فى ذلك آسيا وتجسيدها فى أشكال محدودة للتعاون المتبادل النفع بين الدول وتسوية المسائل الدولية المتنازع عليها بالطرق السلمية .

وسوف يساعد الطرفان بفاعلية مسألة نزع السلاح التام والشامل بما فى ذلك الأسلحة النووية تحت الرقابة الدولية الفعالة .

المادة ٨ : سوف يعمل الطرفان المتعاهدان الساميان على تطوير التعاون بين الدول الآسيوية وإقامة علاقة السلام وحسن الجوار والثقة المتبادلة بينهما وإنشاء منظومة فعالة للأمن بآسيا على أساس الجهود المشتركة لكافة دول القارة .

المادة ٩ : سوف يواصل الطرفان المتعاهدان الساميان النضال الثابت ضد مخططات قوى العدوان ، ومن أجل القضاء المبرم على الاستعمار والعنصرية بكافة مظاهرهما وأشكالهما .

وسوف يتعاون الطرفان فيما بينهما ومع الدول الأخرى المحبة للسلام فى تأييد النضال العادل للشعوب من أجل حريتها واستقلالها وسيادتها وتقدمها الإجتماعى)[١].

خامسا : التأثير المباشر فى الأصول والنظم التى يقوم عليها الحكم فى أفغانستان :

إن مما حرص عليه الأعداء الملاحدة فى التأثير على الشعب الأفغانى المسلم هو جعل الأصول والبرامج التى يسير عليها الحكام تحاكى البرنامج الشيوعى السوفييتى ليضمنوا بذلك التبعية الفكرية والسياسية لهم .

---

(١) نقلا من كتاب الأفغان الحمر (٢٢٥-٢٢٧) .

فبرنامج الحزب الأفغانى لايخرج عن برنامج الأحزاب الشيوعية العالمية فى سياسته وتوجهاته الإقتصادية والإجتماعية[١].

ودستور الحزب يمثل التبعية الواضحة للشيوعية الحمراء فى موسكو ، وقد جاء فى المادة الخامسة منه وهى عن واجبات العضو :

(أ) (إظهار معرفته الأيديولوجية وتعلم النظريات السياسية الماركسية - اللينينية ، ومحاولة تقوية التضامن الأيديولوجى ، منظمة الحزب وصدق الحزب ، ومقاومة أى عمل مضر بسلام ومصالح الحزب مهما كان داخليا أو خارجيا ، ورفض أعداء العمال وحزب الشعب والأمة والنضال ضد الاستعمار وكل المصاعب القومية والإجتماعية .

(ب) الالتزام بدستور الحزب وقراراته وآدابه ونشر وتبليغ الأهداف العامة والراهنة والسياسات بين صفوف الشعب والنضال من أجل تحقيقها .

(ج) الإشتراك الدورى وبانتظام فى نشاطات المنظمات المعنية ، والعمل باخلاص وبحسم وبقوة وبدون التفات عن أهداف الحزب ومبادئه وغاياته حسب الأوامر . ويدفع العضو رسم الإشتراك بانتظام ، وعقد حفلات الصداقة بين الأعضاء وخلق روح الرفاقية بين الأعضاء وروح التعاون والأخوة .

(د) تبليغ الأفكار الإشتراكية العلمية وأفكار البروليتاريا الداخلية والخارجية فى صفوف الشعب .

(هـ) النضال من أجل تقوية وحدة الشعب ، والكادحين والإخوة القاطنين فى بلادنا الفريدة ، أفغانستان وذلك لهدف تحقيق التساوى الكامل فى الحقوق والتعاون الأخوى بين كل الشعب من قبائل ومجموعات عرقية فى أفغانستان كبارا وصغارا ومن أجل تضامنهم مع منظمات العمال من منظمات سياسية لضرب البروليتاريا الشامل لكل (أفغانستان) والعمال والفلاحين والنساء والشباب واتحادات الطلبة .

---

(١) انظر هذا البرنامج فى كتاب الأفغان الحمر (١٧٣-١٨٧) .

(و) توسيع علاقات الصداقة بين الأفغان والسوفييت ، وكذلك علاقات الصداقة بين أفغانستان والمعسكر الإشتراكى وحركة العمال الدولية وحركات الشعب التحررية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وإيفاء أفغانستان بواجباتها القومية والدولية)[١].

وكذلك بقية المواد تصب فى خدمة السلطة الحزبية والأهداف الإشتراكية ، وتطبيق الأيديولوجية الماركسية[٢].

كذلك كانت المبادىء الأساسية لجمهورية أفغانستان والتى أعلن عنها فى ١٤ ابريل ١٩٨٠م قد نصت على (أن جمهورية أفغانستان الديمقراطية توسع وتقوى الصداقة والتعاون الشامل التقليدى مع الاتحاد السوفييتى والتعاون والصلات الودية الشاملة مع بقية بلدان الأسرة الإشتراكية على أساس مبدأ التضامن الأممى)[٣].

سادسا : تقديم المساعدات لأفغانستان :

إن من المسلم به أن ماقدمه الاتحاد السوفييتى لأفغانستان إنما كان الهدف منه تحقيق المصالح الفكرية والسياسية من ورائه ، وبالفعل قام الاتحاد السوفييتى بتقديم المساعدات لدولة أفغانستان ، وخاصة بعد الانفتاح الذى شهدته السياسة السوفيتية زمن خروشوف[٤].

وقد فاق الاتحاد السوفييتى الولايات المتحدة فى تقديم المساعدات مما يدل على اهتمام السوفييت بهذه الدولة ومحاولة ابعاد الولايات المحتدة عنها فـ(بين سنتى ١٩٥٥ و١٩٦٥م ، تلقت كابول مايقارب ال٥٥٢ مليون دولار من موسكو (بالمقارنة مع ٣٥٠ مليون دولار من الولايات المتحدة) . وبعد سنة ١٩٦٥م ، تقلصت المعونة الأميركية أكثر ، فبلغت ١٥٠ مليون دولار فى السنة

---

(١) الأفغان الحمر (١٩٣-١٩٤) .
(٢) انظر هذه المواد فى المرجع السابق (١٩١-٢٠٨) .
(٣) المرجع السابق (٢٢٩) ، وانظر تلك المبادىء (٢٣١-٢٥٠) .
(٤) انظر أفغانستان (٨٩) .

خلال الفترة مابين عامى ١٩٦٥ و١٩٧٧م ، فيما إرتفع الرقم السوفياتى إلى ٧٥٠ مليون دولار)[١].

كما حصلت أفغانستان على قرض من تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٤م بمبلغ خمسة ملايين دولار[٢].

هذا بالإضافة إلى المعدات العسكرية من دبابات ومدفعية وطائرات وقطع غيار[٣].

زد على ذلك الدعم الإقتصادى من خلال التبادل التجارى وإقامة المشاريع المشتركة ومنها طريق يمتد من الحدود السوفيتية إلى كابل وهى الطريق التى استخدمتها الدبابات السوفتيية سنة ١٩٧٩م[٤].

كذلك إرسال البعثات الأفغانية لتتلقى التدريب العسكرى ، والتعليم فى الاتحاد السوفييتى ، بالإضافة إلى إرسال الخبراء والفنيين والمشغلين للأسلحة الحربية إلى أفغانستان . على أن هذه الإرساليات من قبل السوفييت لاتخلو من ضباط المخابرات فى ال .K.G.B والدعاة للفكر الشيوعى .

يقول فلاديمير كوزيتسكن : (تدفق الخبراء السوفيات على أفغانستان وتغلغلوا فى الآلة الحزبية وفى الوزارات الحكومية ، وأوكل إلى كل من ال كى.جى.بى. ومخابرات الجيش مهمة تنظيم الشرطة وأجهزة الأمن)[٥].

وبعد هذا العرض نصل إلى الحقائق التالية :

---

(١) تقرير من أفغانستان (٣٢-٣٣) .
وانظر : الأفغان الحمر (٤٣) .
فترة من الإنفراج الدولى (٥٣٨) وفيه أن الولايات المتحدة رفضت تسليحه لتحالفه مع اسلام أباد بينما الاتحاد السوفييتى قدم له كل مساعدة طلبها منه .

(٢) انظر الأفغان الحمر (٣٨) .

(٣) انظر المرجع السابق (٣٩-٤١) .

(٤) تقرير من أفغانستان (٣٢) .

(٥) المخابرات السوفيتية من الداخل (٢٣٧) ، وانظر (٣٨) .

أولا : أن زعماء الاتحاد السوفييتى قاموا بمحاولات عديدة لكسب دولة أفغانستان وذلك بتقديم المساعدات إليهم ، ومحاولة التأثير فيهم ليجعلوا من أفغانستان دولة تسير فى فلكهم فكريا .

ثانيا : بعد أن أدرك الزعماء السوفييت صعوبة السيطرة على الشعب الأفغانى ، وإصراره على تمسكه بدينه عمدت إلى زرع الخلايا والعملاء لنشر الفكر الشيوعى .

ثالثا : عندما أدرك زعماء الشيوعية فى موسكو أن هؤلاء العملاء لم يفلحوا فى تحقيق مآربهم عمدوا إلى محاولة إيجاد قواد بارزين ورؤساء يحققون لهم أهدافهم ، وخاصة من أولئك الذين زاروا موسكو أو تلقوا تدريبا عسكريا فيها ، أو كانوا ضمن المبتعثين إليها ، وبالفعل تمكنوا من ذلك .

رابعا : عمل الزعماء السوفييت على استبدال بعض الرؤساء الذين لم يقوموا بخدمة أهدافهم كما ينبغى بآخرين أكثر عمالة لهم .

خامسا : زاد ذلك الوضع المتردى الذى فجره الحزب الشيوعى من إصرار المسلمين على تمسكهم بدينهم وعقيدتهم مما جعل السوفييت يرون أن وجود العملاء والزعماء والمؤيدين لهم لايكفون فى التأثير خاصة وأن بعضهم (أى زعماء أفغانستان العملاء) كانوا يجابهون القيادة السوفيتية .

سادسا : أمام فشل كل هذه المحاولات فى جعل أفغانستان شيوعية ماكان من قادة الكرملين إلا أن قرروا التدخل العسكرى المباشر فى أرض أفغانستان من أجل القضاء على الحركة الإسلامية ونشر الفكرة الشيوعية ، وتحقيق الأهداف السياسية والإقتصادية بالقوة العسكرية .

المبحث الثانى
التدخل الروسى فى أفغانستان
وإعلان الجهاد

بعد الإنقلاب الأخير والذى كان الروس خلفه إما بطريق مباشر أو غير مباشر ، نودى بتراقى رئيسا لأفغانستان وقد كان مسجونا فأفرج عنه وقال فى خطابه الذى ألقاه عشية الإنقلاب : (إن النظام الجديد سيقوم بترشيد القومية الأفغانية الإجتماعية والإقتصادية والعدالة تحت ظل الإسلام وعدم الانحياز فى السياسة الخارجية)(١).

غير أن هذا كان إدعاء لم يصدقه أحد و(ظهر زيفه تماما من خلال المسلك السياسى لحكومة طرقى والمخطط التثقيفى الذى وضعته لتطويق الإسلام وتطويعه لقبول الماركسية للتلاميذ فى سن مبكرة ، كما أخذت تشجع المثقفين لدراسة اللينينية ليتأقلموا معها ...)(٢).

بالإضافة إلى تشجيع الخلاعة والفسق وتعاطى الخمر والاستخفاف بالصلاة مع الجماعة والقول بأنها تعطل العمل (مما أثبت بشكل قاطع ارتباط هذا النظام العميل بالشيوعية الدولية ، كما تأكدت مخططات الماركسية للسيطرة من خلاله)(٣).

قرار الغزو :

تباينت وجهات النظر فى غزو أفغانستان من قبل القادة السوفييت ،

---

(١) نقلا من كتاب الأفغان الحمر (٩٤) .
يقول السفير الأمريكى فى أفغانستان : (من الممكن ألا يكون السوفييت قد تدخلوا فى تفاصيل خطة الانقلاب ، لكن من المشكوك فيه أن يكون الشيوعيون الأفغان قاموا بانقلابهم دون اتصال وتحادث مع الروس فى ذلك) .
Red Flag over Afghanistan p.29 .
نقلا من كتاب الأفغان الحمر (٩٣) .

(٢) أفغانستان والاجتياح الروسى (٥٤) .

(٣) المرجع السابق (٥٤) .

ويرى يلتسين أن الغزو إنما كان بتخطيط أربعة أشخاص وهم (الرئيس الروسى برجنيف وديمترى استينوف وزير الدفاع وأندريه غيروميكو وزير الخارجية السابقة ، والمنظر الأيديولوجى سوسلوف)[١].

وقالت البرافدا فى ١٥ فبراير عام ١٩٨٩م : (ماهى الحكمة من التدخل الروسى فى أفغانستان ... إن مثل هذا القرار المهم والخطير إنما صمم من قبل عصابة ، ولم يوافق عليه برلمان منبثق من الشعب)[٢].

ولاشك أنه لم يبق أمام الاتحاد السوفييتى إلا التدخل العسكرى المباشر لفشل العملاء وعدم تمكنهم من تحقيق أحلام الكرملين فى القضاء على الحركة الإسلامية فى أفغانستان .

الرواية الروسية للغزو :

يحاول الروس أن يفسروا غزوهم لافغانستان بأنه إنما تم بناء على دعوة من حكومة كابل لمساعدتها فى صد العدوان عنها .

إلا أن هذا القول ينقضه الواقع ، ويفتقر إلى الدليل . يقول فرد هاليداى : (إن الرواية الروسية لاتقف على قدميها لأسباب عدة ، منها :

(١) أنها تتجاهل حقيقة أن القوات الروسية عندما وصلت استخدمت لاحلال مجموعة منافسة يقودها (بابراك كارمال) محل أمين .

(٢) أنها تلفق قصة خيالية مفادها أن أمين كان ، فى الواقع ، عميلا دائما لل سى.آى.اى. ،

(٣) أنها تبالغ فى مستوى المسؤولية الخارجية عن أزمة أفغانستان وتحول بالتالى اللوم عن حزب الشعب الديمقراطى ومستشاريه الروس ، والذين كانت سياستهم القمعية فى الأشهر الأولى من عام ١٩٧٩م

---

(١) نقلا من كتاب الأفغان الحمر (١١١-١١٢) .
مات بريجنيف وسوسلوف عام ١٩٨٢م واستينوف مات سنة ١٩٨٤م .

(٢) نقلا من كتاب الأفغان الحمر (١١٢) .

فعلت الكثير فى استعداء الشعب الأفغانى)[١].

(٤) أضف إلى ذلك لو صحت رواية السوفييت فإن أمين دعاهم كما يزعمون لمساعدته ولم يدعهم إلى إزاحته عن الحكم وقتله .

(٥) ومما تجدر الإشارة إليه أن أمين وقع إتفاقية فى ٥ ديسمبر ١٩٧٨م واشترط فيها :

(أ) (أن إرسال أية قوات سوفياتية يكون بطلب الحكومة الأفغانية ، إضافة إلى أن عمل هذه القوات يكون تحت إمرة ضباط أفغان) .

(ب) (عودتهم النهائية يجب أن تقرر طبقا لرغبات الدولة المضيفة)[٢].

وعلى هذا فقد كان تدخل القوات الروسية فى أفغانستان تدخلا سافرا انتهكت به حرمة ذلك البلد المسلم ، وكذلك انتهكت جميع الأعراف والقوانين الدولية ، ودللت على أن النظرية الشيوعية تقول شيئا وواقعها وفعلها يتجه نحو الصوب الآخر المخالف له تماما[٣].

أما الرواية الثانية للغزو فهى أن هذا التدخل الروسى فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩م كان غزوا واجتياحا لتلك الدولة المسلمة وكانت ترغب روسيا فى تحقيق أهدافها من ورائه كما دلت على ذلك الأحداث السابقة له واللاحقة .

ومما يدل على أن القصد هو السيطرة وفرض الهيمنة بالقوة أعداد وحجم القوات التى دخلت أرض أفغانستان .

---

(١) السياسة السوفتيية فى قوس الأزمة (١٠١-١٠٢) .

(٢) الأفغان الحمر (١١٥-١١٦) .

(٣) تنص المادة الثامنة والعشرون من الدستور السوفييتى لعام ١٩٧٧م على (دعم نضال الشعوب من أجل التحرر الوطنى والتقدم الإجتماعى ، ومنع حروب العدوان ، والتوصل إلى نزع شامل وتام للسلاح ، والتطبيق المستمر لمبادىء التعايش السلمى بين الدول ذات الأنظمة الإجتماعية المختلفة . وتمنع فى الاتحاد السوفييتى الدعاية للحرب) .
نقلا من كتاب السياسة السوفيتية فى قوس الأزمة (٤٠) .

فكان حجم القوات (١١٥,٠٠٠ مائة وخمسة عشر ألف جندى فى أفغانستان[١].

ورغم هذه الأعداد قالت صحيفة البرافدا بعد أن تم الاعتراف بالتدخل العسكرى من قبل السوفييت أن هناك (قوات عسكرية محدودة أرسلت لأفغانستان لصد الاعتداء الخارجى عليها ، وهذه القوات الضئيلة والمحدودة المقدرة بـ(٥) آلاف جندى ستنسحب تماما حينما تزول الدواعى التى دخلت من أجلها)[٢].

ثم أن القوات الروسية لم تكن وحدها التى قامت بالمعركة بل إن المخابرات السوفيتية وكذا الأفغانية (خاد)[٣]قد ساهمتا فى ذلك الغزو . وبهذا تكون روسيا قد انتهكت حرمة دولة مسلمة ، كما انتهكت الأعراف الدولية ، ومن قبل هذا أقامت لها العملاء داخل الأرض الأفغانية ، ولكن لم يكن الشعب الأفغانى ليستسلم لهذا الغزو وهو الذى لم يستسلم من قبل لكيد العملاء ، ولاللهجمات الانجليزية والقيصرية ، ومن هنا أعلن الشعب المسلم الجهاد فى سبيل الله تعالى ضد دولة الالحاد فـ(تفجرت ينابيع الثورة الإسلامية ضد الغزو بل الاستعمار الروسى .. وتشكلت فصائل وكتائب للمجاهدين ، وكونت منظمات للجهاد اتحدت غايتها وإن اختلفت أساليبها ووسائلها)[٤].

---

(١) انظر القصة الدامية للغزو السوفييتى الأفغانى (١٤٥) .
وانظر عن تمركز هذه القوات وفرقها (١٤٦-١٤٧) .
وانظر الأفغان الحمر (١١٦) .

(٢) نقلا من كتاب الأفغان الحمر (١١٦) .

(٣) تسمى بالخاد أى (خدماتى اطلاعاتى دولتى) أى خدمات الدولة للاستخبارات . ثم تحول اسمها مؤخرا إلى (واد) (وزارات أمنت دولتى) أى وزارة أمن الدولة وهى شريحة مصغرة عن ال .K.G.B . الأفغان الحمر (١٤٠) وانظر مابعدها .

(٤) أفغانستان والاجتياح الروسى (هـ) . من مقدمة الدكتور محمد سليم العوا .

إعلان الجهاد :

ظن السوفييت أن السيطرة على أفغانستان وعن طريق العملاء ستكون ميسرة وسهلة ، وعندما خاب ظنهم ذلك لجأوا إلى الغزو العسكرى لظنهم أيضا أن الشعب الأفغانى المسلم سيعلن استسلامه وخلال أشهر معدودة إلا أن المجاهدين الأفغان بإيمانهم وعقيدتهم الراسخة وقفوا فى وجه هذا العدوان سنين عديدة ، ضربوا فيها أروع الأمثال وأجلاها ، فى أنه لايوجد قوة فى الأرض تعادل أو تجابه قوة الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم والكتاب الذى أنزل عليه ، عليه الصلاة والسلام .

(إن التدخل العسكرى للسوفييت .. قد واجه من الشعب الأفغانى مقاومة أثبتت خلال هذه المدة وهى تحارب لوحدها أن الروس لن ينالوا من حرية هذا الشعب وأنهم لن يصلوا بهذه السهولة إلى آمالهم وأن الطريق أمامهم مملوء بالمصاعب والعقبات ...)[١].

وقبل أن نسجل بعض الدروس التى أبرزها الجهاد الأفغانى والتى من خلالها ندرك أهمية هذا الجهاد للأمة الإسلامية بعامة يحسن بنا أن نبين دوافع الغزو لأفغانستان .

الدوافع لغزو أفغانستان :

لاشك أن الاحتلال السوفييتى لأفغانستان وقرار غزوها كان له عدة دوافع ويمكن ابراز أهمها فيما يلى :

أولا : ضرب الحركة والصحوة الإسلامية فى دولة أفغانستان لأنها تشكل خطرا كبيرا للسوفييت من حيث كونها دولة مجاورة لهم ، وكذلك لكون أغلب سكان الجمهوريات التى يتكون منها الاتحاد السوفييتى من المسلمين . ونحن نعلم بأن الإسلام يكفر بالشيوعية ويعاديها فكان لابد من العمل على استبدال الحكم الشيوعى هناك بالحكم الإسلامى ليأمن الاتحاد السوفييتى على نفسه .

---

(١) موسكو فى طريقها إلى كابول (٥) .

يقول بريجنيف : (إننا لن نسمح بقيام نظام معاد للشيوعية فى أفغانستان التى تلاصق حزامنا الرخو)[١].

(إن غزو السوفييت لأفغانستان لايستهدف أفغانستان وحدها ، بل يستهدف الوجود الفاعل والمؤثر للصحوة الإسلامية المعاصرة على الساحة الإقليمية والدولية ...)[٢].

وباختصار فإن (الخطر ليس فى أفغانستان الصغيرة الفقيرة إقتصاديا وعسكريا .. الخطر فى "إسلام أفغانستان")[٣].

ثانيا : خشية الاتحاد السوفييتى من الدول المجاورة لأفغانستان مثل باكستان وإيران لوجود الحركة الإسلامية فيها وبقوة ، فإذا ماتم للسوفييت السيطرة على أفغانستان جعلوها خط الدفاع الأول ضد هاتين الدولتين ، وبالتالى تأمين الاتحاد السوفييتى والجمهوريات من آثار المد الإسلامى . وقد أفصحت جريدة (أزفيستيا) الروسية سنة ١٩٤٧م عن خطورة باكستان وقالت (إن القضاء على هذه الدولة التى أنشئت على العقيدة الإسلامية واجب من واجبات الحزب الشيوعى الروسى لأنها تشكل خطرا على الجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفييتى)[٤].

ثالثا : الموقع المتميز لأفغانستان والذى كان يعتبر المفتاح الحقيقى للخليج والجزيرة العربية لتحقيق الأطماع الاقتصادية . ففى سنة ١٩٤٠م قال فلاديمير مولوتوف مفوض الشئون الخارجية الروسية : (إن المنطقة الجنوبية للباتان والباتو باتجاه الخليج الفارسى هو مركز طموح الاتحاد السوفييتى)[٥].

---

(١) نقلا من كتاب القصة الدامية للغزو السوفييتى لأفغانستان (٦٠) .

(٢) أفغانستان الجرح والأمل (٧) ، د. عبد القادر طاش ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، دار حافظ للنشر والتوزيع ، جدة .

(٣) القصة الدامية للغزو السوفييتى لأفغانستان (٦٠) .
وانظر مجلة كلية الملك خالد العسكرية (١١٤/١٢) موضوع بعنوان أفغانستان بعد ست سنين من العدوان ، بقلم اللواء الركن حسن أحمد البدرى .

(٤) نقلا من كتاب حاضر العالم الإسلامى (١٤١) .

(٥) نقلا من كتاب الأفغان الحمر (١٤) .

يقـول الدلال : (كانت مطامح الروس أن يغسلوا أرجلهـم بمياه الخليج الدافئة ، وأن يكون لهم من بترول المنطقة نصيب . أى أنهـم كانوا يهدفون تحقيق مطمعين : الأول يصب فى الاستراتيجية الجغرافيـة . والآخر : يصب فى الاستراتيجية الإقتصادية)[١].

رابعا : فشـل العملاء والخلايا الشيـوعية فى جعـل المسلمين يتركـون دينهـم ، أو ينحـرفون عنـه إلى الإشتراكيـة ، فلم يفلـح العملاء ولاالأحزاب الشيـوعية فى إبعـاد المسلمين عـن شعائرهم وعقائدهم ، ممـا كـان له أثر فى عزم السوفييت على غزو أفغانستان .

يقول جيرار شاليان : (وربماكان الغزو سابقا اجراء دفاعيا ، أو مناورة محليـة هدفها الحؤول دون إنهيار التجربة الشيوعية فى أفغـانستان والاستعاضة عن النظام الضعيف بآخر أقوى ظاهريا)[٢].

خامسا : شعـور الاتحاد السـوفييتى بأنه أصبـح فى درجة متـأخرة عـن الـولايات المتحـدة ، خاصة وأنهـا قـد حققت كسبا كبيرا فى مجال التسلـح ، فأراد السوفييت شغل الولايات المتحدة وجعلها تقلل مـن صناعاتها العسكرية فكـأن حال السـوفييت يقـول للـولايات المتحـدة أن دولتهـم مـاتزال قـوية وبإمكـانها التـوسع فى دول المنطقـة الأكثر أهميـة وهـى الشـرق الأوسـط ، وخاصة بعد فشل الولايات المتحدة فى فيتنام .

سادسا : كـان يهدف السوفييت إلى تنمية إقتصادهـم ببعض مايوجد فى أفغـانستان . يقـول جيرار إن الاتحاد السـوفييتى يرغـب فى (جذب البلاد إلى دائرته الإقتصـادية والإفادة من مواردها الطبيعية غير المستثمـرة ، أوالمستثمرة على نحو ضئيـل كـالنفط واليـورانيوم والكروم والمنغنيز والنحـاس والفحـم والحديد والأحجـار شبـه الكـريمة . كمـا ينـوى أيضـا إيجاد أعمـال جديدة للشبـان العاطلين عن العمل فى المدن . وهكـذا ، أقـام السـوفيات بين عامى

---

(١) الإنهيار (١١٦/١) ، وانظر الشيوعية (٩) .
(٢) تقرير من أفغانستان (١٦) .

١٩٧٩ و١٩٨٠م عددا من المشاريع الإقتصادية لتقوية البيئة الصناعية فى أفغانستان وزيادة تجارتها مع روسيا . وسيستلزم عزل القوى الفدائية الأفغانية وتنمية الإقتصاد الأفغانى وقتا ، لكن الروس يأملون فى تكوين طبقة إجتماعية جديدة داخل أفغانستان ، تقبل بالنظام الجديد وتدعمه)[١].

ولكن بفضل من الله تعالى ، ثم بالجهاد فى سبيله وقف المجاهدون أمام أطماع الشيوعية الحمراء وجاء الجهاد الأفغانى محققا طموحات الأمة ، وتعالت صيحات الله أكبر ، ودوت فى جميع جبهات القتال ، وكانت كالرصاص القاتل بالنسبة للأعداء وأفزعتهم وجعلتهم يفرون هاربين أمام سلاح صغير بيد المجاهدين ، ولكن كانوا يملكون أكبر وأقوى سلاح ألا وهو الإيمان بالله تعالى ، فوقفوا بهذا السلاح فى وجه ثانى أكبر دولة فى العالم فى القوة العسكرية على أقل تقدير .

ومن هنا وجب علينا أن نصور ذلك الجهاد من خلال هذه النقاط :

أولا : أثبت الجهاد الأفغانى ، أن هذه الأمة هى أمة الجهاد ، وأن الجهاد ماض فيها إلى قيام الساعة وأنه الضمانة الحقيقية لهذه الأمة أمام دول الكفر والطغيان . كما أثبت أن المسلم لايبالى بتقديم روحه وماله فى سبيل مقاومة ومقارعة الكفر وأهله . وهذا ماأفرزته الساحة الأفغانية فقد سقط من القتلى الكثير والكثير ، وقدم من التضحيات مادل على أن المسلمين يرغبون فيما عند الله تعالى .

ثانيا : تحقق فى الجهاد الأفغانى سنة من سنن الله تعالى وهى أن القلة تغلب الكثرة بإذن الله ، وذلك إذا صدقت مع الله تعالى ، يقول جل جلاله {**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**}[٢].

---

(١) تقرير من أفغانستان (٧١) .

(٢) سورة البقرة : (٢٤٩) .

وعن ذلك انظر : بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٥٣-٥٥) ، أفغانستان الجرح والأمل (٣٩) ، الجهاد الأفغانى ودلالاته (٨٣) ومابعدها .

وعن أسلحة المجاهدين مقارنة بأسلحة العدو انظر : تقرير من أفغانستان (٧٥) ، القصة الدامية للغزو السوفييتى لأفغانستان (١٥٦-١٥٩) .

ثالثا : أن الجهاد الأفغانى قد جاء فى وقت أصبحت الأمور تقاس فيه بالكم المادى وبالقيم المادية ، ولكن الجهاد الأفغانى أبطل هذه التصورات التى تغفل جانب المولى جل وعلا . وبسبب هذه الانتصارات والتضحيات التى قدمت فى ساحة الجهاد الأفغانية ، رجع كثير من المتشككين عن شكهم ، وعاد كثير من أهل الضلال إلى ربهم ، ولاشك أن فى هذا الجهاد وماحققه عبرة[١] لأولى الأبصار ، كما أعاد هذا الجهاد كثيراً من الناس إلى النبع الأصيل الذى كانت الأمة قد انصرفت عنه فأصابها الذل والهوان بسبب بعدها ذلك[٢]. يقول عبد القادر طاش : (من بركات حركة الجهاد الإسلامى فى أفغانستان أنها أحيت فى نفوس الكثيرين من أبناء الأمة المسلمة روح الجهاد بعد أن ذبلت أو كادت)[٣].

رابعا : أن المعركة فى أفغانستان كانت بين الإيمان والكفر ومن هنا قامت الأمة المسلمة كلها للوقوف مع المجاهدين بدون تردد ونستثنى من ذلك الشواذ[٤]. فكانت الشعوب الإسلامية متفاعلة مع الجهاد داعمة له ، سواء فى المحافل الدولية ، أو بالدعم المباشر ، أو بالسماح للمتطوعين بالذهاب إلى ساحات القتال وذلك كله من أجل أن القضية ليست قضية الشعب الأفغانى بل قضية كل مسلم يقول لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالقتال بين المسلمين والملحدين . يقول الحصين : (إننا نعتقد جازمين بأن المعركة فى أفغانستان ... هى بين الإسلام والشيوعية كما أن المعركة فى فلسطين بين الإسلام واليهودية سواء بسواء . وأن المجاهدين فى أفغانستان يقاتلون لإعلاء كلمة الله عز وجل وإقامة حكومة إسلامية وماعلى المسلمين

---

(١) انظر ماذكره الأستاذ محمد قطب عن هذه المعانى فى كتابه الجهاد الأفغانى ودلالاته (٩٣-٩٦) .

(٢) انظر الجهاد الأفغانى ودلالاته (٨٣) .

(٣) أفغانستان الجرح والأمل (٥٠) .

(٤) سواء الدول التى تسير فى فلك الاتحاد السوفييتى أو الأفراد والجماعات التى تعتنق الفكر الشيوعى .

فى أنحاء الأرض إلا أن يساعدوهم لأن المعركة معركة الإسلام ، والإسلام لايعرف الحدود وانتصار المسلمين فى أفغانستان هو انتصار لكل المسلمين على الشيوعية الإلحادية عدوة هذا الدين وأبنائه ، وليعلم كل مسلم أن هزيمة المجاهدين فى أفغانستان لاسمح الله هى هزيمة لمسلمى العالم أجمع .. وهى الباب الذى سيدخل منه الشيوعيون إلى باكستان فيما بعد وهم فى طريقهم إلى المياه الدافئة فى الخليج ويبقى بعدها الهدف الكبير وهو الوصول إلى الحرمين الشريفين قلب العالم الإسلامى ...)[١].

لقد كان لدخول العدو بنفسه إلى أفغانستان ، ولكون المسلمين يعرفون حقيقة فكره ومعتقداته ، جعل القضية لصالح المجاهدين ووقفت الأمة كلها وراء الجهاد فسطرت أعظم معانى الأخوة والتضحية فى سبيل العقيدة . يقول محمد قطب : (دخل العدو الكافر بنفسه ، فحسمت القضية فى حس الشعب الأفغانى ، فقامت الأمة كلها تجاهد ، ولم تنفرد بالجهاد جماعة صغيرة منعزلة ، كما هو حادث فى أماكن كثيرة من العالم الإسلامى ، فتتهم بالتطرف والانحراف . ودخل العدو بمبادىء لاشبهة عند الناس فى كفرها ، ومعاداتها للدين كله جملة ، وللإسلام بصفة خاصة ، فلم تعد هناك شبهة فى طبيعة المعركة ، وأنها معركة الكفر والإيمان . وتبلورت القضية فى حس الشعب الأفغانى ، بفعل التوعية التى قام بها الدعاة إلى الجهاد ، فصارت القضية أن أفغانستان أرض إسلامية اغتصبتها الشيوعية الكافره ، وينبغى أن ترد للإسلام لالشخص بعينه، وللحكم الإسلامى ، لالأى حكم يقوم فيها بعد إخراج الغزاة ، فانتفى خاطر الدافع الوطنى أو القومى ، أو الحزبى ، أو الشخصى ، أو الدفاع عن التراب من أجل التراب .. وصارت القضية خالصة للإسلام)[٢].

---

(١) بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٤٥) .

(٢) الجهاد الأفغانى ودلالاته (٤٦-٤٧) ، وانظر (٧٧-٨٠) ، وانظر أفغانستان الجرح والأمل (١٦-١٧) .

خامسا : دلل الجهاد الأفغانى أنه ورغم هذا الواقع الحالك إلا أن المستقبل للإسلام رغم تجمع قوى الأرض ضد المسلمين ، فهذه الصحوة الإسلامية المباركة داخل بقاع العالم الإسلامى وآثارها ممتدة إلى دول أخرى بالإضافة إلى أن العالم اليوم لايملك إلا الحضارات التى لاتملك التصور الصحيح عن كثير من القضايا سواء بالنسبة للخالق ، أو المخلوق ، ومن هنا فإن هذه الحضارة لامحالة زائلة وسيبقى الإسلام هو الحل الوحيد والأمثل .

وقد دلل الجهاد الأفغانى على ذلك حيث سيبقى (فى جميع الأحوال هو نموذج المستقبل .. سواء من حيث تجمع الأمة للقضية ، أو من حيث درجة الصمود أمام قوى الكفر والطغيان . وحين تتجمع الأمة الإسلامية ذلك التجمع ، وحين تصمد ذلك الصمود ، فلن تغلبها قوة فى الأرض ، لأن انتصارها حينئذ يتم بسنة ربانية جارية ، وسنة الله لاتتخلف حين توجد شروطها التى بينها الله {**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**}[١])[٢].

لقد كان الجهاد الأفغانى مثالا رائعا فى وقتنا الحاضر ، أعاد للأذهان أن هذه الأمة لاتعرف الضعف والخور ، وإن وجد فيها فى بعض مراحلها التاريخية ، وقد قام الجهاد الأفغانى فى وقت تكالبت الأمم على هذه الأمة وتجمعت ضدها ، وغزتها عسكريا وفكريا ، واستولت على مواردها ، وبسطت نفوذها وسلطانها على كثير منها ، ومن هنا كان هذا الوقت غير مناسب لقيام هذا الجهاد من حيث الحسابات المادية ولكن الإيمان والروح المعنوية الإسلامية أكبر من أن تؤثر فيها هذه الماديات الزائلة ، أو أن تضعفها قوة الأعداء المادية[٣].

سادسا : أن عز هذه الامة وقوتها وخوف أعدائها منها يكون فى إيمانها وجهادها .

---

(١) سورة محمد : (٧) .

(٢) الجهاد الأفغانى ودلالاته (١٠٤-١٠٥) .

(٣) يمكن الرجوع إلى ماذكره محمد قطب بشأن قيام الجهاد فى هذا الوقت حيث اعتبره أعجوبة فى وقت كان الاستعمار فيه فى ذروة تأثيره (٤٨-٥٦) فى كتابه الجهاد الأفغانى ودلالاته .

إن الجهاد فى أفغانستان قد صور حقيقة المسلمين عندما يجاهدون ضد قوى الطغيان ، فهذه الشيوعية الملحدة التى حطمت دول أوروبا الشرقية ، وهددت دولها الغربية ، تقف عاجزة أمام هذه الفئة الفقيرة المعزولة إلا من إيمانها بالله تعالى . ولأجل ذلك سرعان ماأعلن شباب أفغانستان ومن ثم شباب الأمة الإسلامية رغبتهم فى خوض المعركة ضد الإلحاد وأهله ، فإما النصر وإما الشهادة ، فمنذ السنوات الأولى للجهاد ضرب المسلمون هناك أروع الأمثال وأعادوا للأذهان سيرة الأبطال الفاتحين فـ(جن جنون الروس حين رأوا هذا الشعب الباسل يستبسل فى القتال ولايبالى مايصيبه من ألوان الدمار التى يصبها العدو فوق رأسه ...)[١].

ورغم كثرة الخسائر ، وشدة العدو ، وقلة إمكانات المجاهدين فقد ظلوا (ماضين بثبات واطمئنان فى مسيرة الجهاد المبارك ، وأمام هذا الثبات والإصرار فقد استعصت أفغانستان على الشيوعيين الملحدين ولم تنفع الطائرات والدبابات والقاذفات وقنابل النابالم المحرقة فى إخضاعها ...)[٢].

تقول أم القعقاع : (ماأقلت الغبراء ولاأظلت الخضراء فى العصر الحاضر من أبطال أصدق من أولئك المجاهدين ، الذين تركوا زينة الحياة الدنيا ، واحتضنوا السلاح ، وقبعوا فى الخنادق ؛ يواجهون أعتى وأشرس دولة على وجه الأرض . أبطال صنعوا تاريخ أفغانستان ، وشيدوا حضارة إسلامية تسامت وارتفعت بالجماجم والدماء لابالحجارة والإسمنت ، حضارة إسلامية سادت وكان لها الغلبة بالإيمان والعقيدة وليس بالحديد والنار)[٣].

ولكن ماهو سبب انتصار المجاهدين وثباتهم ضد العدوان الشيوعى؟ إن الإجابة على هذا السؤال جد مختصرة إنها العقيدة فى الله .

---

(١) الجهاد الأفغانى ودلالاته (٦٥) وانظر مابعدها .
(٢) بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (١٣) .
(٣) الجهاد الأفغانى طريق إلى الخلافة الراشدة (٧) .

يقول الحصين : (إن هذا كله لم يكن ليحصل لولا عقيدة التوحيد وحرارة الإيمان ، العقيدة الإسلامية والاندفاع لإعلاء كلمة الله وتحكيم كتابه فى أرض الإسلام هو الواقع الوحيد الذى جعل من المجاهدين الأفغان حمما لاهبة على رؤوس الشيوعيين وعملائهم[١]

وبعد هذا فإن المجاهدين الأفغان قد وقفوا أمام دولة الإلحاد بعدتها وعددها ، وحققوا أروع الانتصارات ولو نظرنا إلى قواتهم مقارنة بقوة عدوهم فإن العجب سيكون مصيرنا ، ولكن يزول ذلك إذا عرفنا أن الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم لاتغلبه قوة مهما عظمت أو كبرت فكيف بهؤلاء القوم الفقراء العزل من السلاح والأكل أحيانا يقفون فى وجه هذه القوة الملحدة التى كانت تهابها كل الدول بما فى ذلك الولايات المتحدة؟

إنه الإيمان ، ثم تأييد الرحمن لهم كما أيد المؤمنين من قبل ، وقال تعالى : {**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وماجعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وماالنصر إلا من عند الله العزيز الحكيم**}[٢].

وقال تعالى : {**فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها**}[٣]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى قد أرسل المدد من عنده ، والعون لعباده ، والتثبيت لهم وحقق النصر لهم على أعدائهم رغم كثرتهم .

إن القاعدة الأساسية فى هذا أن يقوم المؤمنون بأمر الله تعالى ويجتنبون نهيه فيحقق لهم النصر {**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**}[٤].

---

(١) بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٤٧) ، وانظر موسكو فى طريقها إلى كابول (١٦٢).
(٢) سورة آل عمران : (١٢٣-١٢٦) .
(٣) سورة الأحزاب : (٩) .
(٤) سورة محمد : (٧) .

ومانحسب الجهاد الأفغانى إلا جهادا اسلاميا ضد دولة الكفر والإلحاد ، فلم يكن الله تعالى ليتخلى عن عباده ، وقد حدث فى الجهاد مايدل على ذلك وأيد الله تعالى المجاهدين بعدة خوارق ، وأجرى على أيديهم عدة كرامات وليس هناك مجال للإنكار لأن ذلك قد ثبت فى معارك حربية كثيرة (إن هذا العون الربانى سنة جارية تجرى كلما وجدت أسبابها .. وليست من الخوارق التى انتهت مع الأنبياء)[١].

وأختم حديثى هنا ببعض ماجاء عن سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حيث قال : (الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه .

أما بعد فبمناسبة فراغ الحجاج من أداء مناسكهم وتقديم هديهم وضحاياهم لله سبحانه ويسرنى أن أذكر المسلمين فى كل مكان بإخوان لهم يقدمون أنفسهم وأموالهم جهادا فى سبيل الله وإعلاء لكلمته وحماية لأوطان المسلمين إنقاذا لها من مكائد العدو الظالم الغاشم وهم إخواننا فى الله والمجاهدون فى سبيله من أبناء الأفغان ، ولبيان الحقيقة يسرنى أن أخبر اخوانى المسلمين أن هذا الجهاد قد أوشك على إنهاء عامه الثامن والشعب الأفغانى المجاهد يحمل سلاحه ، ويرفع رايته أمام أشرس قوى الأرض وأعتاها وهو ثابت لايتراجع، صلب لايتزعزع ولسان حاله ومقاله يردد قول الله {**قل ادعو شركاءكم ثم كيدون فلاتنظرون إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين**}[٢]، وقوله تعالى : {**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم**}[٣].

---

(١) الجهاد الأفغانى ودلالاته (٧٤) .
(٢) سورة الأعراف : (١٩٥-١٩٦) .
(٣) سورة آل عمران : (١٧٣-١٧٤) .

وهـم إذ يقفون كالجبال الـرواسى فإنهم بحمد اللـه لايزالون فى نشاط متزايد وهمم عالية وصبر ومصابرة فى مقارعة الأعداء لإخراجهـم من بلادهم بالقوة بدون قيد ولاشرط إن شاء الله ثقة بالله سبحانه واعتمادا عليه وإيمانا بما وعد به من النصر لمن نصر دينه وجاهد فى سبيلـه كما قال تعالى : {**يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**}(١).

ومـاكان أغلب الناس يتوقعـون أن يقف شعب أعزل فقير صغير أمـام دولتـه التى باعـت نفسها للكـافرين وأمـام الاتحاد السـوفياتى والعـالم الشـرقى والـدول التى تدور فى فلكـه . مـاكان الناس يظنون أن هـذا الشعـب الذى جعل الله جهاده مفخرة للأمة الإسلامية ـ سيقف طويلا طودا شامخا أمام هذه القـوى الكافرة الغاشمة وهـذا هو ظن روسيا التى كانت تحسبهـا نزهة مريحة وسفـرا قـاصدا . وظنهـا هـذا هـو الـذى أرداها فخسـرت وخابت وانزلقـت أقـدامها على سفوح جبال الجهـاد فى أرض الأفغان وكـانت تحسب أنها ستجد أمر الأفغان كأمر عدد من الدول التى انهارت أمامها فى يوم أو يومين ...) .

ويقـول : (ولقد شد الجهاد الأفغانى إليه أعصاب المؤمنين ولفـت أنظار العـالم أجمـع ، ومـازالت القلـوب والعيـون مبهـورة بما يجرى على أرض أفغانستان ويتابع الناس مسلمهم وكافرهم هذا الجهاد ، وهـم يترقبون نتيجته باهتمام بالغ ...) .

ويقـول : (ولقد حصلت كرامـات أثناء هذا الجهـاد حدث بهـا الثقات يصـل مجموعها إلى حد التواتر وعقيـدة أهل السنة والجمـاعة أن الكـرامات مستمرة فى المسلمين إما لإقامة حجة وإما لحاجة . ولاينكـر وقوعها إلا جاهل أو
مبتـدع . وإن صرف الزكاة للمجـاهدين عامة من أوجب الـواجبات وأعظم القربات ...) .

---

(١) سورة محمد : (٧) .

(فكيف يتردد مسلم بعد هذا فى مساندته ومعاونته للمجاهدين الأفغان؟

كما يجب على المجاهدين بذل مزيد من الجهد لتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم واصلاح ذات بينهم .

وختاما أسأل الله العلى العظيم أن يجمع كلمة المجاهدين على الحق وأن يوحد صفوفهم ، وأن يوفق المسلمين حكاما ومحكومين إلى مساندتهم ونصرتهم وأن ينصر دينه ويعلى كلمته ويصلح أحوال المسلمين فى كل مكان ويمنحهم الفقه فى الدين وينصرهم على عدوهم إنه ولى ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه)[١].

---

(١) مقدمة الشيخ لكتاب بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٧-١١) .

المبحث الثالث
الخسائر الفكرية والسياسية والاقتصادية للاتحاد السوفييتى وأثر ذلك فى سقوطه

إن غـزو الاتحاد السوفييتى لأفغانستان كان له آثارا متعـددة فاقمت من جراحه ، وعجلـت بإنهيـاره ، وزادته سمعـة سيئـة على المستـوى الـدولى ، جعلـت الدول تزداد منه نفورا ، وتتيقن بأن هذا النظـام نظام توسعى يقوم على القـوة والقهر والاستغلال . ومـن هنا فكان الغزو السـوفييتى لأفغانستان أحد الأسباب التى عجلت بإنهيار الفكر الشيوعى وسلطته السياسية .

ونذكـر الآن بعـض الخسـائر الفكـرية التى منى بهـا السـوفييت بسبـب غزوهم لأفغانستان واضعين فى أذهـاننا أن الشيـوعيين كـانوا يهـدفون إلى القضاء على الفكر الإسلامى هناك والاستعاضة عنه بالفكر الشيوعى .

الآثار الفكرية :

كان الفكر الشيوعى متصدعا ، وبدأت الأحزاب الشيـوعية المتفرقة فى دول أوروبا الشـرقية وغيرهـا تريد الخلاص من هذا المارد الـذى فرض نفسه عليها بالقوة ، وعندما قام الروس بغزو أفغانستان كان لهذه الخطوة أثر سلبى كبير عـل الفكر الشيوعى ممـا عجل بالتراجع فيه وإعلان إفلاسـه . ويمكـن ابراز تلك الحقيقة فى التالى :

أولا : التـأثير العميـق الـذى أحدثه الجنـدى المسلم فى نفـس المقـاتل الـروسى الشيـوعى ، حيث كان يرى المجـاهدين يقبلـون على الموت ولـربما حرصـوا عليـه كحـرص أولئـك على الحيـاة ، ثم الانتصـارات التى حققهـا المجـاهدون بسلاح لايصـل إلى أقـل مـايملكه العـدو ، إن هـذه البطـولات والانتصـارات ، وماكان يلاحظـه الجندى الشيوعى جعلتـه يتسـاءل عن ذلك الاندفاع والاستبسال .

وكـانت هـذه التساؤلات تولـد شـروخا غير بسيطـة فى نفسيـة أولئـك الجنود وبالتالى يتحول إلى حقيقة مايعتقده من فكر . ولاشـك أن كثيرا منهم

قد علم أن ذلك إنما حدث بعقيدة لاإله إلا الله والتى تحطمت أمامها عقيدة ماركس والشيوعية فى الاتحاد السوفييتى (لاإله والحياة مادة) .

(إن وضوح الجانب العقدى لدى المجاهد الافغانى قد بهر الجندى الروسى وجعله يتساءل ولو فى الخفاء عن عقيدة هؤلاء الذين يقاتلهم ، ذلك أن نتيجة المعارك كانت تجبره على طرح مثل هذا التساؤل . إذ كيف ينتصر - فى كل مرة - هؤلاء العزل على فرق الروس وعلى مدى عشر سنوات . لماذا يكون عدد القتلى من الروس فى كل معركة هائلا وكبيرا وعدد القتلى من المجاهدين قليلا؟! . لماذا يحتفظ قتلى المجاهدين بألوانهم وطراوة أجسامهم بعد استشهادهم بينما يتعفن قتلى الروس!! أليس ذلك فى حس الجندى الروسى الذى تكرر ذلك أمامه عشرات المرات أو مئات المرات يعتبر أمرا مثيرا للتساؤل وداعيا للاستغراب؟ لقد اتضح تماما للجندى الروسى أنه لايقاتل بشرا بالمعنى المتفق عليه!! . إذ كيف يستطيع الرصاص أن يواجه الدبابات والطائرات؟ إن اضطرابا نفسيا شديدا كان يتسلل إلى قلب الجندى الروسى بعد كل معركة . وكانت المشاهد غير الطبيعية تترك آثارها فى قلبه وفؤاده حتى أصبحت تلك الأحوال تسيطر على أحاديث الروس فيما بينهم . ولم يكن ذلك مقصورا على الجنود فقط بل تعداه إلى الضباط أنفسهم ماذا كان يروى هؤلاء الجنود من القصص لأهاليهم إذا رجعوا؟! لم تكن تلك المرويات فى البداية إلا همهمة . ولكن إذا اعتبرنا أن مدة خدمة الجندى فى أفغانستان حوالى ستة شهور . وأن العدد الكلى الدائم على مساحة المعركة هو ١١٥ ألف جندى حسب الإحصاءات الروسية الرسمية ، فمعنى ذلك أن عدد الذين يخدمون سنويا فى أفغانستان حوالى ٢٣٠ ألفا . وفى عشر سنوات هو مليونان وثلاثمائة ألف . إن الهمهمة التى بدأت بالعدد القليل قد تحولت إلى صوت عال مسموع بعد أن كبر العدد جدا وتضاعفت الحقائق الميدانية ، فكيف عندما يدعمها الخيال!! . إن التسلل العقدى شكل حجما لايستهان به فى كافة المرافق العامة فى الاتحاد السوفييتى .إذ أن الراجعين من الخدمة العسكرية لايلبثون أن يتوزعوا على مرافقهم الوظيفية التى كانوا يشغلونها

قبل خدمتهم . لاشك أن الحديث عن عقيدة المسلمين كان يحتل حيزا واضحا وكبيرا فى داخل المجتمع السوفييتى بعد مرور عشر سنوات من الحرب غير المبررة بالنسبة لتلك الشعوب . وهكذا استطاعت عقيدة "لاإله إلا الله" أن تحدث شروخا صغيرة فى عقيدة لاإله والحياة مادة - إن صح اعتبارها عقيدة - مالبثت أن اتسعت وكبرت فى حين فشلت عقيدة "لاإله والحياة مادة" فى إحداث أى شرخ معتبر فى عقيدة "لاإله إلا الله" متمثلة فى معتنقيها)[١].

ثانيا : استغل الشيوعيون هذا التدخل ومن بعد الهزيمة الشيوعية فى أفغانستان فى الاسهتزاء بالفكر وتحميله التبعية فى كل مايحدث للبلدان الشيوعية وعلى الأقل هذا التوجه العام دون النظر إلى متشددى الفكر ، فبعد دخول القوات الروسية إلى أفغانستان استغل ذلك علماء الصين وبعض الكوادر الموجودة فيها وقالوا كلمتهم التى لم يقولوها من قبل الاجتياح (ألا وهى أن الشيوعية أثبتت عدم كفاءتها فى حل مشكلات الصين وأنها فكرة غير علمية حيث أن رجال الشيوعية الأولون عاشوا ظروفا غير ظروفنا فلايوجد فى جعبة أفكارهم حلولا لمشاكل الجيل الحاضر ، وقالوا إن واقع الصين أكبر دليل على هذا)[٢]. ولم يكن الأمر مقتصرا على الصين بل إن دول أوروبا الشرقية حدث فيها ذلك الزلزال فى الفكر وعدم الوثوق به ، ومن ثم التمرد عليه خاصة بعد تحقق الانتصار والذى سبقه بفترة بسيطة إعلان غورباتشوف عن سياسته الجديدة . يقول الدلال : (لقد أحدثت عقيدة المسلمين المنطلقة من أفواه بنادق المجاهدين الافغان زعزعة عقدية هائلة فى التوازن العقدى المفروض بالقوة فى أعلى القيادات الحزبية فى الاتحاد السوفييتى ، مما أدى إلى خلخلة واضحة فى إمكان سيطرتها العقدية على دول أوروبا الشرقية . وبمجرد أن شعرت تلك الشعوب بهذه الخلخلة فى

---

(١) الإنهيار (١/١٢٠-١٢٢) .

(٢) موسكو فى طريقها إلى كابول (٨٩) .

المركز حتى خرجت عن بكرة أبيها لتطيح بعنف وبشدة بالأحزاب الشيوعية الحاكمة لها ...)[١].

و(لم يكن غريبا أن يشهد عام ١٩٨٩م وقوع المشهدين معا : انتصار المجاهدين فى أوائله وتمرد الشعوب المحكومة بالمارد فى أواخره)[٢].

ثالثا : إن من أعظم الضربات التى وجهها الجهاد الأفغانى بل الحركة الإسلامية فى أفغانستان للفكر الشيوعى هو تخوفه من الإسلام وذلك إعتراف صريح بأن مالديهم ليس هو الحق الذى يدعون أن الناس سيتقبلونه لأنه يحقق لهم السعادة ، ورغم أن الشيوعيين حاولوا فرضه بالقوة سواء عند قيام الثورة البلشفية ، أو كما حدث فى أفغانستان ومن قبل دول أوروبا الشرقية إلا أنهم فشلوا فى ذلك . فعندما أرادوا بثه عن طريق العملاء فى أفغانستان عجزوا عن تحقيق هدفهم .

وعندما جاءوا لفرضه بالقوة كذلك رجعوا دون تحقيق مطلبهم فـ(لم تستطع روسيا بعد عشر سنوات من الحرب المدمرة أن تفرض "عقائديا" أى فكر ماركسى يعتنقه الأفغان ويذودون عنه ، ودليل ذلك أن الجيش الذى يفترض أنه عقائدى فى كابل تناقص من ٧٠,٠٠٠ فى بداية الاحتلال إلى ١٠,٠٠٠ جندى عند بداية الانسحاب حسب الأخبار الموثوقة والمدارس التى يفترض أنها تعد الأجيال بدأت أعدادها فى تناقص سريع بدلا من الازدياد الكمى والنوعى والدوائر أخذت تخلو من موظفيها . فأين اذن يمكن للشيوعية أن تنمو ولعقيدة الكفر أن تزدهر؟)[٣].

لقد أرهقت هذه الدولة الفقيرة إلا من سلاح الإيمان تلك الدولة الكبرى وأقضت مضاجعها ومصدر ذلك الخوف هو إسلام هذه الدولة ،

---

(١) الإنهيار (١/١٢٢-١٢٣) .

(٢) المرجع السابق (١/١٢٤) .

(٣) مجلة الموقف ، العدد (٣/١٦) السنة الثالثة ، ذى الحجة ١٤٠٨هـ ، مقال بعنوان (تأملات فى مستقبل أفغانستان) بقلم عبد الرحمن محمود .

الـذى هـو الحق ، ودل ذلك على أن مـالدى هـؤلاء مـن فكـر لايستطيع أن يقاوم الحق لأنه باطل وفاسد ، وإلا لما فرضه أصحابه بالقـوة على الآخرين .

يقـول مزمل : (إن خوف القيادة السوفيتية عن قيـام حكومة إسلامية فى أفغـانستان ثم تبرير تدخلها العسكرى فى ديسمبر ١٩٧٩م بأنه كـان لحماية الحدود الـروسية عن الخطر والتصـدى للنفوذ الأمريكـى عـن طريق احتمال قيـام النظـام الموالى للبيت الأبيـض ـ المعادى للسوفييـت ـ فى أفغـانستان ثم مطالبة حكام موسكو تضمينات دولية خلال المفاوضات حول قضية أفغانستان والنظـام الجديد كـل ذلك يؤكـد خوف الروس لامن النفـوذ الأمـريكى كما يقـولون بل عن قيام حكومة إسلامية بجوارهم خوفا مـن تسرب المقاومة إلى شعوب ماوراء النهر وأن هذا الخوف والمبررات السوفيتيـة للتدخل العسكرى كلهـا توضـح نوعيـة وكيفية روابط الشعـوب المحتلـة مـع القيـادة الـروسية والفكـر الشيـوعى وعدم ثقة القيـادة الروسية بولاء هـذه الشعـوب لها كأن القيادة السوفيتية أدركت أن هذه الشعوب تتلصص الفـرص والفجوات للثأر والثورة)[١].

وقـد تذرعت روسيا بأنها تدخلت من أجل التصدى للنفـوذ الأمريكى فى أفغـانستان ولكـن حقيقة ذلـك التذرع أنه هروب مـن القـول بأن الخوف كان من القوة الإسلامية .

حيـث إن المعسكر الإشتراكى لايجد فى الرأسمالية القـوة التى تهدده فى الوقت الحاضر ، خاصة بعد الوفاق معها ، ولكونها خالية من الروح المعنوية شأنها شأن الشيوعية .

رابعا : مـن الآثار الفكـرية التى أوجدهـا الجهـاد الأفغـانى تأثيره فى مسلمى روسيا ، بل وإسلام بعض جنود الروس الشيوعيين .

لقـد عمـدت الحكـومة الشيـوعية إلى تفتيـت المسلمين ، حتى يصبحـوا أقليـات إسلامية مسحوقة منبـوذة فى وسط الكتل الروسيـة الملحـدة ، ولكن

---

(١) موسكو فى طريقها إلى كابول (٦٦-٦٧) .

بالرغم من كل مافعله الروس الشيوعيون بقى المسلمون هناك يحافظون على كثير من شعائرهم ، وحين أرسلت القوات الروسية إلى أفغانستان كان فيها من يحمل اسما إسلاميا وخاض هؤلاء الجنود المعركة ضد المجاهدين ، ورأوا صمود المجاهدين وصلاتهم تحت تساقط القنابل دون أن يؤثر ذلك فى خشوعهم أو إخباتهم فانضم فريق منهم إلى المجاهدين ، بل وأسلم بعض الجنود الشيوعيين وسرت روح التخاذل فى الجيش الروسى[١].

(وكان تصور الكرملين فى البداية أن دخول قوات عناصرها البشرية من جمهوريات إسلامية الأصل سوف تحسن شكل الغزو لدى الشعب الأفغانى .. وتجعل هناك نوعا من التقارب مما قد يسهل مهمة القوات السوفيتيية ..

لكن النتيجة حدثت عكس المتوقع تماما ... لقد ووجهت القوات السوفتيية بمقاومة عنيفة أدت إلى قتل الآلاف من الجنود .. كما هرب عدد كبير منهم وانضم إلى صفوف المجاهدين الأفغان .. أما من بقى منهم فى أفغانستان .. فقد ظهر تعاطفهم الشديد مع المجاهدين الأفغان . وأفادت التقارير بأنهم لم يقاتلوا بالشكل المطلوب ...)[٢].

وعندما كان الأمر كذلك باشر السوفييت باستبدال القوات ذات الأصول الإسلامية بأخرى روسية[٣].

وفى هذا عدة مؤشرات :

(أ) محافظة المسلمين على هويتهم الإسلامية رغم الوحشية الشيوعية .

---

(١) انظر الجهاد الأفغانى ودلالاته (٩٦-٩٧) .

(٢) القصة الدامية للغزو السوفييتى لأفغانستان (٦٣) .
وانظر بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٤٥-٤٦) .

(٣) انظر : تقرير من أفغانستان (٨٤) ، موسكو فى طريقها إلى كابول (١٦٠) ، القصة الدامية (٦٣) .
وانظر قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١١٢) ، وذكر أن سحب القوات (بدأ بعد ستة أسابيع من الغزو) .

(ب) بطلان الشيوعية كفكر حيث دخل بعض الجنود السوفييت فى دين الله تعالى .

(ج) تذمر الشعب السوفييتى من الشيوعية وظهر ذلك من خلال تصرفات وأفعال الجنود السوفييت فى جبهات القتال .

أما عن الجانب الآخر وهو تأثير المسلمين المجاهدين فى سكان الجمهوريات فهذه حقيقة لايمكن أن ينكرها أحد ، فإن سكان تلك الجمهوريات أصحاب أصول إسلامية هذا عدا عن كون كثير منهم بقى على الإسلام مطبقا لفرائضه حسب فهمه وعلى قدر علمه من الإسلام .

يقول جيرار : (من الخطأ الاستخفاف بالتهديد الذى تفرضه الأقليات الإسلامية على النظام فى الاتحاد السوفييتى ، فإن إحياءهم للدين ، واهتمامهم بالماضى ونموهم الديموغرافى المتزايد - جميع هذه العوامل تجعل المستقبل غير مؤكد . وليس هناك أى شك من نمو حركة وطنية . وبالفعل ، ربما شعرت شعوب جمهوريات آسيا الوسطى السوفياتية بأن التدخل فى أفغانستان قد قوى الوجود الإسلامى فى المدار السوفييتى ...)[١].

فأصبح الاتحاد السوفييتى كما يقول جيرار يخاف (من ثورة أصولية تنطلق من بين المسلمين فى روسيا ، وتنتشر عبر الحدود إلى الآخرين فى آسيا الوسطى فهناك مايقارب ال٤٥ مليون مسلم يعيشون داخل الاتحاد السوفييتى)[٢].

وبالفعل قامت بعض الأحداث فى الجمهوريات تدل على تعاطف أولئك المسلمين مع إخوانهم المجاهدين ، بالإضافة إلى مطالبتهم ببعض حقوقهم التى صادرتها الشيوعية منهم[٣].

---

(١) تقرير من أفغانستان (٨٣) .

(٢) المرجع السابق (٨٢) .

(٣) انظر القصة الدامية للغزو السوفييتى لأفغانستان (٩٦-٩٧) .
وانظر الجهاد الأفغانى ودلالاته (٩٨) .

و(قد اعترفت الصحافة السوفيتية ذاتها بأن التحقيقات قد أكدت وجود جذور "قومية" و"عرقية" لهذه الأحداث .. وهذا يعنى جذور عقائدية .. وقد اعترفت صحيفة برافدا السوفيتية فى أعقاب هذه الأحداث بوجود تشكيلات بين شعوب الجمهوريات الإسلامية)[١].

خامسا : كان الجهاد الأفغانى نقطة تحول فى التاريخ فقد كسر حاجز الرهبة والخوف الذى كان ينتاب المسلمين وغيرهم ، من الشيوعية ، ومن الحزب الشيوعى داخل الأراضى السوفيتية ، ولكن كان هذا النصر إيذانا بأفول ذلك الدب المتوحش ، وفقدانا للثقة فيه وفى سياسته التى ينتهجها وبالتالى فى الفكر الذى يسير عليه ، فأصبحت السلطة السياسية ضعيفة غير موثوق فيها ، كما أصبحت الفكرة التى تسير عليها السلطة السياسية فكرة باهتة لانتصار الفكر الإسلامى عليها والذى مثله حينذاك فئة قليلة ، وقد أدى ذلك الانتصار إلى التعجيل بعملية التغير فى الاتحاد السوفييتى ، ومن ثم التعجيل بسقوط الفكر الشيوعى ودولته . يقول العمارى : (إن الدرس الذى تلقاه الاتحاد السوفييتى فى أفغانستان من الشعب الأفغانى على يد المجاهدين كان له الفضل الأكبر فى ذلك ، بل وفى التغيير الذى حصل فى الاتحاد السوفييتى لأنه أحدث ردة فعل فى شعوب الاتحاد السوفييتى ضد عتاة الشيوعية من الحرس القديم الذين قاموا بالغزو ، وعرضوا شعبهم للإهانة ، وأبناءهم للقتل والتشويه فالهزيمة والفشل لم تكن فى الحسبان ، ولم يعتد عليها الاتحاد السوفييتى فأوجد ذلك تفاعلات عند الشعب خاصة عند المثقفين فإن كل الدول والشعوب تعيد حساباتها وتراجع نفسها وتمعن فى تفكيرها فيما ينتهجه قادتها فى سياسات البلاد الإقتصادية والعسكرية بعد أن يواجهوا صعوبات لاقبل لهم بها ، ومن هنا يجب أن تشكر كل الشعوب التى ابتليت بالشيوعية المجاهدين الأفغان الذين أعادوا للجبابرة صوابهم ، ومرغوا أنوفهم فى التراب ، وأعطوا الأمل للشعوب بأن فى إمكانها أن تتخلص من

---

(١) القصة الدامية للغزو السوفييتى لأفغانستان (٩٧) .

كل قوة تجثم على صدرها مهما عظمت)[١].

سادسا : فتح الجهاد الأفغانى المجال إلى وصول المصاحف وبعض الكتب الإسلامية إلى داخل الاتحاد السوفييتى لسكان الجمهوريات الإسلامية الذين كانوا يتحاشون تعليم القرآن لأبنائهم ناهيك عن امتلاك المصاحف .

وننقل ماذكره عصام دراز وهو فى احدى دور النشر بباكستان ودار هذا الحوار بينه وبين صاحب الدار فيقول : (لفت نظرى أثناء حديثى معه وجود مصحف مترجم .. تصفحت المصحف فوجدته مترجم إلى اللغة الروسية .. ومطبوع طباعة أنيقة .. سألت مدير دار النشر ضاحكا : "مصحف باللغة الروسية .. من ياترى سوف يشتريه منكم .. أو من يستطيع أن يشتريه؟

ابتسم الرجل ثم قال بعبارة واضحة قوية لم أفهمها فى البداية : ياأخى . لقد فتحت الأبواب؟.

سألت مبتسما : يعنى ذلك أن الروس يستوردون المصحف منكم؟

كرر الرجل عبارته فى يقين وقوة .. : "لقد فتحت الأبواب ياأخى؟

سكتت قليلا .. وشعر بأنى لم أفهم .. فقال مكررا : لقد فتحت الأبواب بواسطة الجهاد الأفغانى .. إن غزو روسيا لأفغانستان جاء خدمة كبيرة للدعوة للإسلام .. الآن ياأخى المصحف يباع فى موسكو .." .

سكت وأنا أتابع كلام الرجل ..

لقد وزعنا فى عام واحد أكثر من ثلاثين ألف مصحف داخل الاتحاد السوفييتى .. إن الروس المسلمين يقبلون على شراء المصحف مهما كان ثمنه!! قال الرجل وكأنه يحدث نفسه .. ويحدثنى أيضا : "من كان يصدق ذلك؟ الفضل يرجع للجهاد الأفغانى .. لقد فتح لنا الباب .. والمصاحف تنقل بواسطة المجاهدين الأفغان مثل الذخيرة .. إلى داخل روسيا عبر حدود أفغانستان)[٢].

---

(١) وسقطت الماركسية (١١٨-١١٩) .

(٢) القصة الدامية للغزو السوفييتى لأفغانستان (٥٨) .

سابعا : زاد الجهاد الأفغانى من الخواء الروحى الذى كان يعيشه الفرد الشيوعى ، حيث أصبح المقاتل الروسى يتساءل لماذا أقاتل؟ وماالهدف من هذا القتال ، وإلى متى يستمر فى ضوء هذه الحقائق التى أشاهدها؟ وكل ذلك جعل عقيدة لاإله والحياة مادة غير حية فى القلوب ، بل لكون الطرف الآخر يعتقد بأنه "لاإله إلا الله وحده لاشريك له" (المجاهدون) تكاد تكون هذه العقيدة (المادية) ميتة لامجال للتفكير فيها .

يقول مينسيك هيلد : (لم يكن الجنود السوفيات يدركون مايفعلونه فى أفغانستان . فالتفسيرات التى كانت تعطى لهم لم تكن مقنعة ، ليس فقط بسبب تغيرها الدائم ، بل أيضا لأن الواقع كان يدحضها عند كل خطوة . ثم إن أى تفسير يمكن أن يكون مقنعا ، بشرط الإيمان به . أما الجنود السوفيات فقد كان شعورهم أنهم "أيتام" ، وبأن الإيمان قد هجرهم . لم يكن الجنود السوفيات الوحيدون الذين يشعرون بأنهم أيتام ، وبأنهم قد أهملوا فالنقاش كان قائما حول "الإيمان الشيوعى")[١].

هذه بعض الآثار السلبية التى واجهت الشيوعية من الناحية الفكرية من جراء الاعتداء على أفغانستان المسلمة ، على أن الفكر أساسا قد دب إليه الضعف والتراجع من زمن أبعد من ذلك ورافق ذلك أن غورباتشوف كان على رأس السلطة فى الكرملين وهو صاحب الفكر الجديد . ولكون الاتحاد السوفييتى قد دخل فى الوفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وأصبح فى تعايش سلمى معها فإن تدخله فى أفغانستان قد أدى إلى خسائر أخرى أفقدته هيبته ، وزادت من عداوته ، وعجلت بالعمل على إنهياره ، وساعدت على توطيد أقدام أعدائه فى مناطق كان يرغب فى الوصول إليها من وراء اجتياحه لدولة أفغانستان المسلمة .

ونذكر الآن أهم الآثار السياسية التى ظهرت بسبب الغزو السوفييتى لأفغانستان مما جعل ذلك الغزو يزيد الوضع السوفييتى تفاقما ويعجل بإنهياره .

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٥٣) .

الآثار السياسية :

أحدث الغزو السوفييتى لأفغانستان ردود فعل على المستوى الدولى جعلته يخسر الكثير من علاقاته ، وكذلك يتخذ الحذر منه ، وخاصة من دول الجوار . وتبرز أهم هذه الآثار فى التالى :

أولا : استعداء الدول ، والتصويت شبه الكامل على وجوب انسحاب القوات الروسية من أرض أفغانستان ، دون قيد أوشرط .

يقول أندريه فونتين : (إن بريجنيف وجنرالاته لم يتمكنوا من تجاهل أن فعلتهم قد أثارت فى العالم ، ردود فعل عنيفة . فكان هناك ١٠٤ أصوات فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بتاريخ ١٤ كانون الثانى عام ١٩٨٠م تطالب بالانسحاب ، الفورى غير المشروط والشامل للقوات الأجنبية . مقابل ١٨ صوتا و١٨ امتنع عن التصويت)[١].

وكذلك كان الأمر فى المؤتمرات التى عقدتها الدول الإسلامية مثل منظمة المؤتمر الإسلامى ، وكان من أوائل تلك المؤتمرات مؤتمر اسلام أباد بتاريخ ٢٩ كانون الثانى ١٩٨٠م . وقد أجمع المؤتمر (على إدانة العدوان المسلح السوفياتى الموجه ضد الشعب الأفغانى وفى الخرق الفاضح لقواعد الاتفاقات ومعايير السلوك الدولى)[٢].

ثانيا : ردود فعل دول الجوار لأفغانستان والاتحاد السوفييتى وزيادة عداء هذه الدول للاتحاد السوفييتى وشكها فى أطماعه التوسعية ، وهذا سيترتب عليه مد يد الوفاق مع الولايات المتحدة وهذا مايخشاه الاتحاد السوفييتى وبالعموم إن هذا العداء لهذه الدول كان بحسبها . أى كل دولة تتعامل مع ذلك الوضع حسب توجهها ومصلحتها . ونعرض لبعض هذه الدول ، وسيكون ذلك فى نقاط .

---

(١) فترة من الإنفراج الدولى (٥٤٢) .
(٢) المرجع السابق (٥٤٣) .

(أ) **باكستان** :

ويمكن إبراز أهم الآثار فى التالى :

أولا : زيادة العداء للاتحاد السوفييتى وتأصله ومعرفة أن هذا الفكر يعادى الإسلام وأهله .

ثانيا : حصول باكستان على المساعدات الأمريكية من أجل الوقوف فى وجه المد الشيوعى لكى لايصل إلى منطقة الخليج حيث منابع النفط (أى لتحقيق المصالح الأمريكية) .

يقول الشيخ مفتى محمود[١]: (من البديهيات السياسية التى يفهمها المطلعون على الأوضاع السياسية فى العالم أن الدعم الأمريكى لباكستان وإيران يفرضه وصول روسيا لأفغانستان والتى كانت بشعبها المسلم الصلب فى دينه حاجزا بين الشيوعية وبين الوصول إلى باكستان أو إيران ومن ثم إلى منابع النفط التى تحرص عليها الولايات المتحدة ، وبالتالى فإن أى مساعدة تقدمها الولايات المتحدة لباكستان ينعكس بالضرورة على مصالحها السياسية فى العالم)[٢].

ثالثا : استثار هذا الغزو تضامن الشعب الباكستانى مع اخوانه فى دولة أفغانستان ، ولاشك أن مثل هذا التجمع والسير فى اتجاه واحد يشكل خطرا كبيرا على الشيوعية ، ولعل زعماء موسكو أرادوا تفريق ذلك التجمع وذلك بالاستيلاء على إحدى الدول لمقارعة الأخرى ، فلقوا نقيض ماأرادوا .

(ب) **الهند** :

وهى إحدى دول الجوار للدولتين ويمكن ومن خلال الوقائع والأحداث أن يقال بأن الهند قد مرت مع أفغانستان بأحوال ثلاثة :

أولا : العلاقة الحسنة مع السوفييت وتأثير الهند سلبا على دول الجوار لها مثل الباكستان وأفغانستان .

---

(١) رئيس التحالف الوطنى الباكستانى وأمين عام جمعية علماء الإسلام .

(٢) نقلا من كتاب أفغانستان والاجتياح الروسى (٧١) .

ثانيا : تذمر الهند وخوفها الشديد من الاتحاد السوفييتى وذلك بعد اجتياحه عسكريا لأفغانستان .

ثالثا : موقف الخائف المذعور بعد انسحاب القوات الروسية والعمل على منع قيام حكومة إسلامية فى أفغانستان .

أما عن علاقة الهند بالاتحاد السوفييتى فيقول غورباتشوف : (منذ زمن بعيد والعلاقات السوفيتية الهندية تسير بخطى موثوقة إلى الأمام .. يمكن وصف العلاقات السوفيتية ـ الهندية بأنها مثالية من وجهات نظر متعددة ، فهذه العلاقات غنية بمحتواها السياسى والاقتصادى والعلمى والثقافى ، وعميقة من حيث مستوى الاحترام والتعاطف السائد بين شعوب البلدين ، ومتناغمة بما تعكس من ثقة متبادلة وقناعة راسخة بضرورة علاقات الصداقة...)[١].

لقد كانت هذه العلاقة خير سلاح فى صراع الهند ضد أعدائها وخاصة مع الباكستان ، هذا بالإضافة إلى أن حكومات أفغانستان كانت شريكة مع حكومة الهند فى الولاء لطغاة الكرملين . لقد حافظت الهند على هذه العلاقة واستمرت الأوضاع كذلك إلى نهاية حكم حفيظ الله أمين ، حيث بدأ التحرك السوفييتى يتخذ طابعا آخر ثم حدث التغير فى سياسة الهند تجاه أفغانستان عندما هاجمتها القوات الروسية[٢].

التبدل فى هذه السياسة :

عندما اجتاحت القوات الروسية أفغانستان أخذت الهند فى التراجع من سياستها الحميمة مع السوفييت وبدأت فى محاولة التقرب من جاراتها كى لاتكون فريسة سهلة لها حال انشغالها بروسيا ومجابهتها ، فأدركت (خطورة وأبعاد الهجمة على أفغانستان للمنطقة والهند خاصة ، كما أنها تدرك بالضبط أن تعلق حكام موسكو برجال الهند إنما هو لمصالحهم فى الهند ، هذا

---

(١) عملية إعادة البناء (١٩٢) .

(٢) انظر موسكو فى طريقها إلى كابول (٧٩-٨٠) .

وقد مضت تجربة ظاهر شاه أمامها إلا أنها تعرف أن فشل الشعب الأفغانى فى إخراج الروس تعنى دخول السفن الروسية إلى بحر الهند الذى تتحرك الهند خلاله بمثابة البطل ، والذى يساوى قيمة الهند السياسية ، فإذن كيف ترضى حكومة الهند بحشد القوات البحرية الروسية فيه ، وهى تدرك أن استمرار الجيش فى أفغانستان تعنى نفس الهدف ، وهناك لن تبق حكومة باسم الهند ولاالوجاهة التى اكتسبتها الهند فى القرن الراهن وهى تحمل فى طياتها أديان وعروق متناحرة ومستعدة للتدخل الروسى)[١].

فأصبحت الدولة الصديقة بالأمس عدوة اليوم خوفا من الشيوعية أن تفرض عليها مالاترغبه ولاشك أن هذا الغزو لأفغانستان قد جعل الهند تخفف من عداوتها لدول الجوار ، وتود أن لاتتجاوز القوات السوفيتية أفغانستان بحال .

(ج) **الصين الشعبية** :

أثر الغزو السوفييتى على العلاقات الصينية السوفيتية وزادها توترا . وعملت الصين على :

(١) الاستنكار للغزو .

(٢) مساندة المجاهدين بالسلاح وإن كان ضعيفا أمام قوات العدو (السوفييت) .

(٣) منح المسلمين الذين يقطنون على الحدود الروسية شيئا من الحرية كسبا لودهم .

(٤) استمالت الصين الدول الرأسمالية إليها وخاصة الولايات المتحدة[٢].

---

(١) انظر موسكو فى طريقها إلى كابول (٨١-٨٢) .

(٢) ولمزيد من المعلومات انظر : المرجع السابق (٨٥-٨٨) ، أفغانستان والإجتياح الروسى (١٢٣،١٥٣) .

(د) إيران :

وقد أثر الغزو السوفييتى لأفغانستان على علاقته مع إيران :

(١) قدمت إيران المساعدة للمجاهدين الأفغان .

(٢) أبدت إيران ميلا شديدا إلى المصالحة مع الولايات المتحدة الأمريكية ولو مؤقتا[١].

(هـ) **دول الخليج والشرق الأوسط** :

يمكن القول أن الغزو قد جر إلى الآتى :

(١) إزالة الغشاوة على الأقل لدى بعض المتشككين فى نوايا السوفييت تجاه قضايا المسلمين .

(٢) التآخى والاندفاع فى الجهاد مع الأفغان سواء بالدعم المالى أو دعم القضية فى المحافل الدولية .

(٣) أخذ الحذر والحيطة وزيادة العداء من قبل الدول الإسلامية التى كانت أساسا لاتقيم علاقة مع دولة الإلحاد .

(٤) سعت الولايات المتحدة إلى كسب دول الشرق الأوسط والتمركز فيها وذلك بتخويف هذه الدول من الشيوعية وغطرستها فيكون الاتحاد السوفييتى بذلك خسر مواقع كثيرة فى دول الشرق الأوسط كان بحاجة لها إذا ماأراد بث نفوذه فيها .

(٥) أدركت بعض الدول خطورة ذلك الغزو فعملت على الانخراط التام فى أحضان الرأسمالية ، وهذا بدوره زاد من تغلغل أمريكا فى المنطقة العربية ، وزاد من حدة العداء للاتحاد السوفييتى .

---

(١) ولمزيد من المعلومات انظر : أفغانستان والإجتياح الروسى (٧٥-٧٦، ٨١، ١٢٢) ، المخابرات السوفيتية من الداخل (٢٥١، ٢٥٨-٢٥٩) ، موسكو فى طريقها إلى كابول (١٣٨) .

ثالثا : إن صمود الشعب الأفغانى فى وجه القوة الحمراء قد فتح المجال أمام الدول التى كانت ترتجف من ذكر هذه الدولة إلى أن تسول لها نفسها الخروج عليها وعدم الانصياع لها ، ولاشك أن أحداث أوروبا الشرقية فى الثمانينات قد كان لصمود المجاهدين أثر فيها إذ أن هذا الشعب الأعزل الفقير قد أحرج القوات الروسية ، بل هزمها فى مواطن كثيرة منذ اندلاع القتال على الجبهات المختلفة فى أفغانستان .

يقول مزمل : (إن مشاريع روسيا وخاصة مشروع هجمتها الحمراء فى أفغانستان هزت ثقة الأنظمة المتعاطفة معها نحو حكام موسكو ، وأكثر من ذلك أن تدخل جيشهم بعد حرب طويل ضد عملائهم فى أفغانستان أحيا الأمل فى قلوب أولئك المكبوتين والمكبلين الذين يعيشون تحت سيطرة الاستعمار الشيوعى فى البلاد المحتلة ودول أوروبا الشرقية وحرضهم بالقيام والمقاومة ضد الروس وأنها لحقيقة حية ، ولاشك إذ أن ضرورة إرسال ثم بقاء مائة وخمسين ألف جندى روسى مسلحين بأطور الأسلحة إلى أفغانستان الصغيرة المتاخمة مع الأراضى المحتلة ، وأفقر دول العالم ، أمر يوقف الإنسان الواعى أمام أسئلة كثيرة ، خاصة إذ يسمع تصريحات موسكو ، حول الفرق الروسية فى أفغانستان أنها وحدات عسكرية محدودة أرسلت إلى أفغانستان لقمع المتمردين ضد النظام ...)[١].

رابعا : أن فشل السوفييت عسكريا فى أفغانستان ، وفشلهم فى تبرير موقفهم من غزوها زعزع ثقة الفئات الموالية لها ، وهز كيانها النفسى . (كما إن الأمر بدوره خفف من ثقل الدبلوماسية فى الأجواء السياسية عالميا ومحليا وفعلا إن الدبلوماسيين الروس لايجيدون الإجابة على الأسئلة التى توجه لهم حول قضية أفغانستان وفئاتهم هناك لاللشعب الروسى ولاللأوساط الدولية . كما أن تفسير الروس لإرسال الجيش الأحمر إلى أفغانستان والقتال مع الشعب بأنه مساعدة ودية ـ قدمتها موسكو لشعب

---

(١) موسكو فى طريقها إلى كابول (٥٨) ، وانظر الإنهيار (١١٦/١) .

أفغانستان ـ أفهم الشعوب والأنظمة بأن تأخذ حذرها من تقديم الروس لها مساعدات مماثلة لأفغانستان)[١].

خامسا : ساعد الجهاد الأفغانى غورباتشوف فى إعلان سياسته والوقوف بقوة ضد خصومه (خصوم التغيير) إن هزيمة الروس فى أفغانستان قد فجرت (البركان السياسى فى أرجاء الكرملين . ولما تسلم غورباتشوف السلطة كان واضحا لديه أن استمرار الحرب فى أفغانستان على ذلك النحو سيقلب عليه ظهر المجن فكان لابد له من إيقاف ذلك التداعى السريع قبل أن ينتهى المشهد بواقع مريع!! . وهكذا تبلور قرار الانسحاب من أفغانستان منذ عام ١٩٨٦م . وكان قرارا صعبا . وليس هينا على الجنرالات الاعتراف بالهزيمة . لذلك تعهدوا أمام غورباتشوف بإنهاء المجاهدين خلال ستة شهور ، ووافق زعيمهم على المهلة ، ومرت المدة المقررة وفشل الجنرالات بعد أن استخدموا فى تلك الفترة حشودا هائلة . وأعطى هذا الفشل تبريرا قويا لغورباتشوف لإعلان قراره السياسى بالانسحاب من أفغانستان . وهكذا تحطم الجيش الأحمر على أعتاب السنن . إن للقرار السياسى الذى اتخذه غورباتشوف بالانسحاب من أفغانستان زخما سياسيا كبيرا كان فى أمس الحاجة إليه فى خضم التطبيق العملى لسياسة "إعادة البناء" و"المكاشفة")[٢].

وعمل غورباتشوف على استخدام ذلك الأسلوب والمناروات الدبلوماسية ليحول الهزيمة العسكرية إلى انتصار سياسى بالإشتراك مع الولايات المتحدة[٣].

---

(١) موسكو فى طريقها إلى كابول (٦١-٦٢) .
(٢) الإنهيار (١/١٢٤-١٢٥) .
(٣) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٣٨) .

الآثار الإقتصادية :

إن إقتصاد الاتحاد السوفييتى كان منهارا فى الأساس ، ثم زادته الحروب التى خاضها السوفييت تفاقما فمن الحروب الأهلية إلى الحرب العالمية الأولى ، ثم الحرب العالمية الثانية ، ثم الحرب الباردة ، ثم تدخلها فى أفغانستان . إن دولة تشارك فى هذه الحروب وتكون طرفا فيها مهما كانت قوة إقتصادها لابد وأن تتأثر ، فما بالك إذا كان الإقتصاد يقوم على أساس فاسد يصادم فطرة الانسان ويعاديها ، ويحرم الشعب من ملكيته ويصادرها ، فإن ذلك سيكون أبلغ فى التعجيل بانهياره وعدم استمراره وهذا ماحدث للسوفييت . وإذا تجاوزنا الحروب السابقة فإن حرب السوفييت فى أفغانستان البلد الأعزل من السلاح قد فاقمت من جراح ذلك النظام الإقتصادى وساعد على تفجير الوضع السىء الذى كانت تعانيه تلك الدولة ، فأنفقت من المال الكثير ومن السلاح الكم الهائل ، ومن الرجال ماجعل الشعب السوفييتى يطالب بالانسحاب والعودة من هذه الحرب الخاسرة . ولو أردنا أن نعرف حال الإقتصاد السوفييتى كله فى تلك الفترات أى من النصف الثانى من السبعينات والثمانينات فلننظر إلى ماقاله غورباتشوف حيث قال عن الأوضاع الصعبة التى تشكلت فى البلاد وجعلت الإصلاح أمرا ضروريا : (فى مرحلة معينة ـ وقد لوحظ هذا الأمر بوضوح فى النصف الثانى من السبعينات ـ حصل مايصعب تفسيره لأول وهلة . فقد بدأ بلدنا يفقد زخم حركته ، وتزايدت الاخفاقات فى النشاط الإقتصادى ، وتراكمت المصاعب واحدة إثر الأخرى وازدادت حدتها ، وتضاعفت المشاكل التى لم تحل ، وظهر فى الحياة الإجتماعية ماتعودنا أن نسميه ظواهر الركود وغيرها من الظواهر الغريبة عن الإشتراكية . وتشكل نوع من "آلية الفرملة" للتطور الإجتماعى ـ الإقتصادى . كل هذا يجرى فى ظروف فتحت فيها الثورة العلمية آفاقا جديدة أمام التطور الإقتصادى والإجتماعى .

لقد تكونت صورة غريبة إلى حد كبير . فالدولاب الضخم للآلة الجبارة يدور ، ولكن مسنناته إنزاحت عن أماكنها ، أو أن الأحزمة تراخت

لدى تحليل الوضع المشار إليه ، اصطدمنا أولا وقبل كل شيء بفرملة (كبح) النمو الإقتصادى . فوتائر زيادة الدخل الوطنى خلال الخطط الخمسية الثلاث الأخيرة قد تقلصت إلى أقل من النصف ، ومع بداية الثمانينات تدنت إلى مستوى اقترب فعلا من حالة الركود الإقتصادى . إن وطننا ، الذى تمكن فى السابق من اللحاق بقوة بأكثر بلدان العالم تطورا ، بدأ يتراجع بشكل واضح عن مواقعه واحدا فواحدا . هذا فى حين أخذت تتسع ، وفى غير صالحنا ، الفجوة بيننا وبين الدول المتطورة فى مجال رفع فعالية الإنتاج ، ونوعية المنتجات ، والتقدم العلمى ـ التقنى ، وإنتاج واستيعاب التقنية الحديثة والتكنولوجيا ...)[١].

ويقول : (لقد أصبح من سمات تفكير العديد من المسؤولين عن إدارة الإقتصاد ، عدم الاهتمام بزيادة الثروة الوطنية ، بل باستهلاك مقادير أكبر من المواد والجهد والوقت لصنع هذه المادة أو تلك ثم بيعها بسعر أعلى ، وكانت نتيجة الركض وراء الأرقام القياسية شحا فى السلع . لقد أنفقنا ومانزال ننفق حتى الآن مواد خام وطاقة ومصادر أخرى تزيد عما تنفق الدول المتطورة الأخرى لصنع وحدة منتجة . لقد أفسدنا غنى بلادنا بالمصادر الطبيعية والقوى البشرية . وبصراحة لاتخلو من فظاظة أقول أدارت رؤوسنا...)[٢].

ويضيف : (إن التناول الموضوعى الصادق هو الذى قادنا إلى الاستنتاج التالى الثابت : أن البلاد قد بلغت مرحلة ماقبل الأزمة ، وتم التوصل إلى هذا الاستنتاج أثناء الإجتماع الموسع للجنة المركزية المنعقد فى نيسان ١٩٨٥م ، والذى كان بمثابة انعطاف لصالح نهج استراتيجى جديد ،

---

(١) عملية إعادة البناء (١٧) .
(٢) المرجع السابق (١٨) .

باتجاه إعادة البناء ، وصياغة المبادىء الأساسية لهذه الاستراتيجية الجديدة)[١].

فإذا كان حال الإقتصاد السوفييتى كذلك فكيف يمكنه الدخول فى الحروب المتعددة ، زد على هذا أن موسكو كانت ترعى أكثر من مائة حزب شيوعى فى العالم ويتطلب ذلك مساعدتها سياسيا وماديا[٢]، هذا عدا الصراعات الإقليمية وكذا الدخول مع الولايات المتحدة فى سباق التسلح من خلال الحرب الباردة ، إن هذا الواقع يفرض على السوفييت عدم الإقدام على غزو أقل الشعوب مقدرة ، فكيف إذا كان الشعب الذى قامت موسكو بغزوه هو شعب أفغانستان المسلم الذى يحمل القوة الإيمانية التى تتصدع أمامها كل القوى .

ويمكن ابراز أهم الآثار فى النقاط التالية :

أولا : أن هذا الغزو تزامن مع فترة من أشد الفترات فى التسابق من أجل التسلح بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى ، وهذا كان من أعظم الأسباب التى أثرت فى تردى الوضع الإقتصادى للدولتين على حد سواء ، وإن كان على الجانب السوفييتى أشد منه بالنسبة لعدوته . كما كان السوفييت يعانون من التذمر الداخلى من قبل الشعب نظرا لتردى الأوضاع الإقتصادية . ولاشك أن المجاهدين قد جعلوا القواد السوفييت يوجهون اهتمامهم بأفغانستان ويتناسون الجبهات الأخرى .

يقول جيرار : (لايمكن للاتحاد السوفياتى أن يتمسك بسياسته العسكرية الهجومية وأن يستجيب فى الوقت نفسه للمطالب المحلية بالتقدم الإقتصادى وفى هذا المجال ، فإن التورط العكسرى المكلف فى أفغانستان سيسبب من دون شك مشكلات للنظام السوفياتى)[٣].

---

(١) عملية إعادة البناء (٢٢) .
(٢) انظر موسكو فى طريقها إلى كابول (٦٣) .
(٣) تقرير من أفغانستان (٩٥) .

ومن هنا زاد سخط الشعب على النظام وسياسته التوسعية والانفاق عليها وهو لايملك أحيانا مايأكله .

فأثر الجهاد الأفغانى على الإقتصاد الشيوعى ، ومن جانب آخر فتح المجال لأفراد الشعب للمطالبة بالتقليل من هذا الانفاق والالتفات إلى إطعامه ولاننسى أن الجوع الذى عانت منه شعوب الاتحاد السوفييتى كان من أبرز الأسباب فى ثورتها ضد النظام .

ثانيا : من المعلوم أن السوفييت أدخلوا أرض أفغانستان مايزيد على مائة ألف مقاتل مع أسلحتهم وعتادهم ، وكانت المقاومة الأفغانية بالمرصاد لهم ، ففرقت جموعهم ، واستولت على كثير من أسلحتهم ، مما جعل السوفييت يعجزون عن تلبية حاجات جنودهم وقوادهم باستمرار ، وإن حاولوا تلبيتها فعلى حساب أمور أخرى ، زد على هذا أن التوتر القائم بين موسكو وبكين ، ورفض الأخيرة غزو الأولى لأفغانستان قد جعل قادة الاتحاد السوفييتى يرصدون (مليونى جندى سوفييتى خلال التعبئة المستمرة على الحدود ...)[١].

فاستنفر الجهاد الأفغانى عدة جبهات وفتحها على الروس مما جعلهم مشتتين فى تغطية هذه الجبهات وكانت تتطلب منهم الدعم المستمر والمتواصل فى حين كان الإقتصاد يلفظ إن لم يكن لفظ أنفاسه الأخيرة .

ثالثا : الخسائر البشرية والعسكرية .

لقد كانت أفغانستان فيتنام[٢] السوفييت ، وقد كلفهم الغزو لأفغانستان

---

(١) موسكو فى طريقها إلى كابول (١١٤) .

(٢) إن الشيوعية الروسية لم تحصد (أى هزيمة يمكن أن تقارن بهزيمتها فى أفغانستان . فهذه الأخيرة أصبحت تعرف عند البعض بـ"فيتنام روسيا" تاركة على الجنود الروس تأثيرات نفسية ، فردية وعامة ، ومستوقفة المحللين الذين درسوا دورها فى التعجيل بإسقاط الشيوعية نفسها فى عقر دارها) .

الحياة العدد (١١٠٥٠) السبت ١٥ أيار/مايو ١٩٩٣م الموافق ٢٤ ذى القعدة ١٤١٣هـ

الشيء الكثير إن فى عدد الأرواح ، وإن فى الخسائر العسكرية من معدات وغيرها إما بتفجيرها وإما بالاستيلاء عليها ومن ثم استخدامها ضد العدو من قبل المجاهدين ، وزد على هذا أن القوات المرابطة فى أفغانستان والبالغة مائة وخمسة عشر ألفا كانت بحاجة إلى الكساء والغذاء وتأمين الاحتياجات وبالتالى زيادة التكاليف مع (مرور الوقت مما يشكل استنزافا مستمرا للإقتصاد السوفييتى الذى يعانى من متاعب عديدة)[١].

وهناك بعض الاحصائيات لبعض الفترات ومن ذلك أنه إلى بداية عام ١٩٨٨م كانت خسائر العدو (١٧٠٠٠ دبابة ، ٢١,٠٠٠ مدرعة وسيارة عسكرية ، إسقاط ٢٠٨٠ طائرة واستهلاك مثلها ، ٥٠٠٠٠ قتيل وجريح روسى ١٠٠,٠٠٠ قتيل وجريح من جند حكومة كابل ومثلهم أسرى ومستسلمون)[٢].

وبعد هذا فإن انسحاب القوات الروسية من أفغانستان قد دلل على هذه الآثار كلها مجتمعة إن فكريا أو سياسيا أو إقتصاديا .

---

(١) القصة الدامية للغزو السوفييتى لأفغانستان (٩٦-٩٧) .

(٢) الإنهيار (١١٨/١) .
وقد تحدثت كثير من الكتب والمجلات والصحف عن تلك الخسائر والمعارك ، وقد رأيت أن من أكثرها سردا لذلك فيما وقعت عينى عليه :
القصة الدامية (١٨٣-٢٣٤) .
الجهاد الأفغانى طريق إلى الخلافة الراشدة على سبيل المثال (٨٣-٨٤،٩٨،١٠٠،١٠٣، ١٦٦،١٧٠،١٨٦).
وانظر بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (٦٤-٦٥) .
وانظر مجلة المجاهد العدد (١٠/٨-١٢) السنة الأولى ذو الحجة ١٤٠٩هـ .
وانظر مجلة المجتمع العدد (٢٨/٦٤٣) الثلاثاء ٢٥ محرم ١٤٠٤هـ الموافق ١ نوفمبر ١٩٨٣م .

الانسحاب السوفييتى من أفغانستان :

وبعد أن وجد السوفييت أنفسهم فى موقف حرج ، كان لابد من الإبقاء على شىء من سمعتهم الدولية ، فبادروا بالإعلان عن الإنسحاب وماأقدموا على ذلك إلا بعد أن رأوا أن الهزيمة واقعة لامحالة ، وأن الأفغان ربما وصلوا إلى موسكو وحطموا أصنام الشيوعية والإلحاد هناك فكان قرار الانسحاب .

يقول محمد قطب : (إن الذى أفزع الروس وألجأهم أخيرا إلى الانسحاب لم يكن شيئا عاديا مما يحدث كل يوم .. وإن لم يكن فى الوقت ذاته خارقة من الخوارق التى لاتقع إلا مع الأنبياء!

إن الذى أفزعهم وألجأهم إلى الانسحاب شىء واضح محدد : إنهم ظلوا يضربون ويضربون ويضربون ، ثم يجدون عدوهم ثابتا لايتراجع ، بل على العكس من ذلك يتقدم بخطى حثيثة ، مهما أصابه من القتل ، ومهما أصابه من الجراح ...)[١].

ويقول : (إن انسحاب روسيا ذات القوة الباطشة أمام دولة من الدول الصغرى ، لاتملك شيئا يذكر من أدوات القتال بالنسبة للدب المتوحش .. كان له أثره الأكيد فى زلزلة النظام من جذوره . فقد آمن بالنظام من آمن به - أو رضى به من رضى على علاته ، أو خنع له من وقع تحت قهره - على أساس أنه ذو قوة لاتغلب! وأنه بسب أيديولوجياته وتطبيقاته قد رسخ وتمكن فى الأرض ، واستطاع أن يناجز النظم الأخرى ويتغلب عليها ، أو فى القليل يقفها عند حدها! ثم إذا هو يعجز عن اخضاع ذلك الشعب شبه الأعزل ، ثم يزداد عجزه ويزداد ، حتى يضطر إلى الانسحاب من الميدان!

عندئذ لم يعد الحديد والنار قادرين على حماية النظام من الإنهيار!.. لقد كان الجهاد الأفغانى من بين الأسباب الأكيدة التى عرضت النظام للاهتزاز

---

(١) الجهاد الأفغانى ودلالاته (٧٥-٧٦) .

وأغرت "المصلحين" أن يعجلوا بالقضاء عليه قبل أن يزيلهم من الوجود)[١].

وقد أعلن غورباتشوف أن (موسكو ليست لها رغبة فى البقاء فى أفغانستان) ولكنها تحتاج إلى ضمان فى أن تلك البلاد سوف تبقى "محايدة" بعد الانسحاب السوفييتى)[٢].

ويقول : (إننا متورطون فى هذا الموقف ، إنها كانت غلطة)[٣].

وقام وزير الخارجية السوفييتى شيفرنادزة بزيارة إلى كابول ليخبر القائد الأفغانى نجيب الله (نرغب أن يكون عام ١٩٨٨م آخر سنة للوجود السوفييتى فى بلدكم)[٤].

ولكن هل يعنى ذلك الانسحاب أن قادة الكرملين سيتخلون عن أفغانستان نهائيا؟ إن الإجابة البدهية لذلك لا .

حيث إن الروس أخذوا فى محاولة جر المجاهدين فى الحوار السياسى وإدخال العناصر العميلة فى الحكومة التى يمكن أن تتولى قيادة كابول .

كما حاول الروس أن يجعلوا الحرب تنتقل بين المسلمين أنفسهم ، ولاتزال أحداث أفغانستان الدامية حتى هذه اللحظة ، وإننى أعتقد بأن وراءها الولايات المتحدة وروسيا خوفا من قيام دولة إسلامية فيها .

ولكن ماهى دوافع الانسحاب السوفييتى من أفغانستان؟

دوافع الانسحاب :

كان هناك عدة أمور جعلت الاتحاد السوفييتى يتراجع وينسحب من أرض أفغانستان المسلمة .

أولا : الانتصارات التى حققها المجاهدون الأفغان ضد عدوهم ، وخشية القوى العالمية من قيام الدولة الإسلامية فى أفغانستان فآثر السوفييت الانسحاب حتى لايقال بأنهم أخرجوا بالقوة وليتسنى لهم الإبقاء على بعض

---

(١) الجهاد الأفغانى ودلالاته (٣-٤) .
(٢) ميخائيل جورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٤١) .
(٣) المرجع السابق (١٩٣) .
(٤) المرجع السابق (٣٦٢) .

الخلايات العملية داخل الأراضى الأفغانية وليكون التـأثير بطريق غير مباشر حتى لايعلم قادة الجهاد حقيقة الأمر .

يقول الدلال : (بعد الخسائر الفادحة التى منى بها الروس فى أفغانستان لم تبق لهم مندوحة من الانسحاب منها . ولكن من يرضى أن يكون البديل لذلك قيام "حكومة إسلامية" هناك . ولذلك تم الاتفاق الروسى - الأمريكى على عـدم التمكين للمجاهدين من قطف ثمرة جهادهم بإقـامة النظام الإسلامى على ربوع أفغـانستان . وتم بين "العظيمين"!! تقسيم الأدوار . فتكفلـت روسيا بالجانب العسكرى . وتكفلت أمريكا بالجانب السياسى)[١].

ثانيا : مطالبة الجماهير فى الاتحاد السوفييتى بالانسحاب من أفغانستان

لعلمهم بالخسائر الفادحة التى تكبدتها القوات السوفيتيـة هناك . جاء فى أنباء موسكو ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧م : (لقـد اعتمـد غـورباتشيف هـذا الحل فى أفغـانستان ليس فقـط من أجل الحد من النفقات المترتبـة على عملية تورط عسكـرى من دون أى أمـل بالانتصار ، وليس فقـط مـن أجل تسهيل المفـاوضات مع واشنطن وبكين ، إنما أيضا وعلى نحو خاص لأن هـذه الحرب بدأت تفقـد شعبيتها بشكل متزايد فى الاتحاد السـوفياتى فلقـد أظهـر استطلاع للـرأى أجرى حديثا أن ٥٥٪ مـن سكان الاتحاد السوفيـاتى يؤيدون انسحاب القوات السوفياتية)[٢].

ثالثا : التغير الكبير الذى حصل فى الأيديولوجية الشيوعية .

تقول ليلى ماركو : (إن الطريقة التى حاول بواسطتها الاتحاد السوفياتى إيقاف حرب أفغانستان تعبر بوضوح عن معنى التحولات الأيديولـوجية التى نلاحظها منذ وصول ميخائيل غورباتشيف إلى السلطة . هـذا مايؤكد بالوقائع أطـروحة التفكير الجديد . فـالأمر لايتعلق بهذا الصدد بتراجع تكتيكـى ، بل بتغيير استراتيجـى مـرتبط بالتحـول فى الاتحاد السـوفياتى بمجملـه . ويقـول

---

(١) الإنهيار (١٣٧/١) .

(٢) نقلا من كتاب الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٠٣) .

غورباتشيف فى إعلانه المتعلق بأفغانستان ، والذى أصبح من الآن وصاعدا إعلانا تاريخيا لأنه يشكل الحدث الأول من نوعه للخروج من أحد الصراعات : "كل نزاع مسلح بما فيه النزاع الداخلى ، يمكن أن يسمم الجو فى هذه المنطقة ، ويثير أجواء عدم الاستقرار والضيق لجيراننا هذا إذا شئنا ألا نتكلم عن آلام شعب هذا البلد وخسائره . لهذا فإننا نعارض أى نزاع مسلح)[١].

رابعا : انتفاء الغاية والهدف لدى المقاتل الشيوعى من هذه الحرب ، فبدأ يتذمر ويتمرد على أوامر أسياده حيث (يعانى الجنود السوفييت من انعدام الشعور بقيمة القضية التى يحاربون من أجلها ويدفعون حياتهم وشبابهم ثمنا لها .

كما أن نقص 'التعيين" "الطعام" والشعور بالعزلة وعدم جدوى الحرب وطولها . كل ذلك يؤدى إلى الشعور باليأس والكآبة .

أما الجنود الذين يشتركون فى معارك ويكون نصيبهم التواجد فى خطوط المواجهة فإن حالتهم المعنوية تكون أسوأ . بل هناك دلائل على وجود تعاطف بين عناصر من القوات السوفيتية ذاتها وأفراد الجهاد . وهذا التعاطف يكون موجودا بقوة عندما يكون هؤلاء الضباط والجنود السوفييت من أصل إسلامى)[٢]. وهذا بلاشك جعل الجندى الروسى يتقاعس عن القتال وبالتالى يدب الضعف فى الجيش وتلحق به الهزيمة ، ومن ثم رأت موسكو تلافى الأمر خاصة وأن بعض الجنود أخذوا يستبدلون مالديهم من أشياء شخصية مقابل الحصول على الأفيون والحشيش بل وصل الأمر إلى مبادلة أجزاء من مركباتهم العسكرية للحصول على مايستطيعون به الحصول على المخدرات[٣].

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٩٣-١٩٤) .
(٢) القصة الدامية (١٦٠) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٦٠-١٦١) .

مابعد الانسحاب :

إذا كان المجاهدون الأفغان قد حققوا الانتصار على العدو فإن هذه ليست نهاية المطاف ، وبكل أسف فإن ثمرة الجهاد الذى زاد على عشر سنوات وقدم فى سبيله مايفوق المليون انسان لم تظهر حتى الآن . إن الساحة الأفغانية مازالت مسرحا للأحداث ، والتنافس والصراع قائم فيها ، وهذه حقيقة لايمكن انكارها .

جاء فى كلمة مجلة المجاهد : (إن النصر فى سلم أهداف الجهاد لايعدو أن يكون الدرجة الأولى والأسهل ومابعدها أهم وأجل ، إن المسئولية الكبرى الآن هى المحافظة على ثمرات الجهاد بحيث لانهدم مابيننا ولانضيع ماوصلنا إليه ولانهدر الدماء التى أريقت ولاننسى الأموال والجهود التى بذلت .. إن مانطمح إليه الآن بعد أن ذقنا طعم النصر على روسيا أولا ثم على الشيوعية المدعومة بالعتاد والسلاح أن تستمر مسيرة الجهاد لتصل إلى غاياتها الكبرى وتقع الغاية المرتقبة من التمكين فى الأرض وإقامة شرع الله فى العالمين ويكون الدين كله لله أمرا ملموسا وحقيقة ماثلة للعيان .

بهذه النظرة الشاملة يجب أن يعتبر المجاهدون أن جهادهم بدأ من لحظة النصر ، ولابد من المجاهدة لشهوة المنصب وبريق المال ونزعة الاستعلاء .. إن الإعجاب بالنفس والاستكبار فى الأرض واساءة التصرف وعدم المحافظة على الثمرة .. كل هذه احتمالات بشرية متوقعة تحتاج إلى استغفار وتوبة ومالمجاهدون إلا بشر خلقوا من طين ويعتريهم التثاقل إلى الأرض ، وقد شاء الله لدينه أن يحمله البشر بضعفهم فليس عجيبا أن نرى بعض صور الضعف ، وليس قولنا هذا رضى وإنما نذكر بذلك حتى لايبدأ الهدم من داخل الصف ، وكلنا رجاء فى أن يصلح المجاهدون ماأفسده الجهل والهوى وأن يخفضوا جناحهم للمؤمنين وألا يخيبوا الآمال فيهم وأن يحافظوا على الولاء لله والبراء من أعدائه وأن يلتزموا منهج الكتاب والسنة فى إقامة دولتهم)[١].

---

(١) العدد (٤/٤٣-٥) السنة الرابعة ، ذو الحجة ١٤١٢هـ/يونيو ١٩٩٢م .

ولكون الأحداث لاتزال إلى الآن وآخرها بروز حركة الطالبان والتى تسيطر حتى هذه اللحظة على غالبية أراضى أفغانستان ، فإننا نكتفى القول : إن خلف هذه الأحداث أيد خفية تحركها وتوجهها لتحقق من ورائها المصالح المختلفة سواء كانت فكرية أم سياسية أم إقتصادية .

وإن من المتفق عليه أن قوى الكفر والطغيان أول ماتهدف إليه هو منع إقامة حكومة إسلامية على أرض أفغانستان الإسلامية ، ثم بعد ذلك تحقيق المصالح السياسية والإقتصادية التى يشترك فيها الروس والأمريكان ، ومن هنا وجه هؤلاء الأحداث فى تلك الدولة الإسلامية لصالحهم تحقيقا لمصالحهم .

وقد كثرت الأقوال عن توجه جماعة طالبان ولمصلحة من ، وبالعموم أياكان ذلك فإنها بدأت توظف لمصالح القوى الخارجية . يقول أحمد زكى يمانى إن (علاقة البترول بالسياسة الدولية ليست قاصرة على بترول الخليج ، بل نجدها واضحة كلما اكتشف البترول فى الدول النامية ، المستضعفة . وآخر مثل نضربه هو أفغانستان ، الدولة المسلمة التى عانت من احتلال السوفييت ، ثم عانت من حرب أهلية مدمرة ، يقتل فيها المسلم أخاه ، وتحركهم أصابع أجنبية خارجية ، تذكى بينهم العداوة المتأصلة فى أعراقهم وتمدهم بأسلحة الدمار ، حتى لاتقوم لها قائمة ، وتغير الوضع عندما حصلت الشركتان الأمريكيتان ، ديلتا ويونوكال على امتياز للبترول والغاز فى جمهورية تركمانستان الملاصقة لأفغانستان واكتشفتاه بكميات تجارية ، وبدأ البحث عن سوق تجارية ومنفذ على البحر للتصدير ، فلم تجد أفضل من باكستان سوقا ومنفذا . ودرس مشروع بناء أنبوب للغاز من حقل دوليتا باد إلى باكستان مارا بأفغانستان بتكلفة تتراوح بين بليونى دولار إلى ثلاثة بلايين وأنبوب آخر للبترول بتكلفة خمسة بلايين دولار ، ينتهى بناء الأول وتشغيله سنة ١٩٩٩م وينتهى بناء الثانى وتشغيله عام ٢٠٠٢م .

عندئذ فقط برزت الحاجة إلى استقرار أفغانستان وإنهاء حروبها الدامية وأسفر البحث عن ترسيخ طالبان للسيطرة على البلد الذى أنهكته الحروب

وجرى الاتصال بين شركة ديلتا وطالبان ، وأسفر عن اتفاق قاد إلى دعم وعون أديا إلى انتصارات كاسحة ، وكان المخطط الأول يقضى بعودة الملك ظاهر شاه ، ولكن لذة النصر ونشوته دفعت بعض عناصر طالبان إلى محاولة الاستئثار بلذة الحكم والانفراد به ، ولايزال الأمر محل بحث ونقاش . وروسيا التى تحرص على مرور بترول جمهوريات آسيا الوسطى من أراضيها وتصديره من ميناء روس فى البحر الأسود ، بدأت فى التحرك ضد طالبان ومساعدة الجنرال دوستم ، رغبة فى اجهاض المخطط الأمريكى ووأد المشروع الباكستانى ، ونشهد اليوم الصراع الدولى على بترول تركمانستان ، الذى قد يعيد الاستقرار إلى أفغانستان ، كما يقول المثل "فتش عن المرأة" فإن رجال السياسة وخبراء صناعة الزيت يقولون "فتش عن البترول")[١].

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن هزيمة الاتحاد السوفييتى فى أفغانستان تتفق مع السنن الربانية التى لاتتغير ولاتتبدل ، فبالنظر إلى قوة كل من الدولتين نجد أن الاتحاد السوفييتى أكثر قوة وعددا ، ولكن الفئة القليلة غلبت الفئة الكثيرة وهذه سنة ربانية تقع عندما تقوم الفئة القليلة بأمر الله تعالى وتنصره جل وعلا قال تعالى : {**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**}[٢].

كما تحقق فى الجهاد أمر آخر وهو أن الإيمان إذا التقى مع الكفر فإن النصر حليف الإيمان بإذن الله تعالى حتى وإن كانت بعض الأيام على الحق ودولته .

ثانيا : عجل الجهاد الأفغانى بإنهيار الشيوعية فكريا وسياسيا وإقتصاديا ومع ذلك فلايمكن المبالغة والقول بأن الجهاد الأفغانى كان هو السبب الأقوى

---

(١) مجلة الأموال العدد (١١/١) السنة الأولى ، أكتوبر - ديسمبر ١٩٩٦م .

(٢) سورة محمد : (٧) .

أو الوحيد فى إنهيار الشيوعية[١].

بل ساعد على الإنهيار وفاقم من سوء الحالة الإقتصادية ومن فقدان الثقة فى الفكرة الشيوعية ، وعجل بالاهتمام بالإصلاحات السياسية والإقتصادية فى البلاد السوفيتية ، وكذلك جدية التنازلات عن المبادىء الإشتراكية لصالح القوة الامبريالية ، ولايمكن اعتباره السبب الأول فى إنهيار الشيوعية ، وتفكك المنظومة الإشتراكية .

ثالثا : لقد أثار الانتصار موجة عنيفة من السخط لدى الدول الكافرة بعمومها واتخذت منه ذريعة لحرب المسلمين والوقوف ضدهم .

رابعا : حرصت دول الكفر على عدم قطف ثمرة الجهاد من قبل المجاهدين فاختلفت الأحداث ، واشتعلت نار الفتنة وتذرعت بالحلول الدبلوماسية ، وفض النزاعات بالطرق السلمية ، حتى وصلت الحالة التى نراها الآن على الساحة الأفغانية .

وهذا يجعلنا نلمح بشىء من التفصيل عن موقف الدول الرأسمالية من الجهاد الأفغانى .

---

(١) انظر الكلمة التى ألقاها حكمتيار بمناسبة الذكرى الثانية عشرة للغزو الروسى لأفغانستان فى مجلة الموقف العدد (٧٨/١١-١٤) رجب ١٤١٢هـ السنة الحادية عشرة ، وقام بترجمة الكلمة معين أحمد . ويرى أن الجهاد الأفغانى هو الذى أسقط الشيوعية .

وانظر مقال بصحيفة المسلمون العدد (٣٩١) بعنوان دور الجهاد الأفغانى فى إسقاط الشيوعية بقلم محمود مورو ، حيث يرى الكاتب أن الجهاد الأفغانى هو أقوى الأسباب التى أسقطت الشيوعية .

المبحث الرابع
موقف الدول الرأسمالية من الجهاد الأفغانى

إن الغرب الكافر لابد وأنه ينظر إلى الجهاد باتجاهين اثنين حتما ، أما الأول فيتعلق بالاتحاد السوفييتى واعتبارهم أن هذا خرقا للوفاق وعودة إلى سياسة التوسع ومد النفوذ على البلاد ، وتهديداً للمصالح الحيوية الغربية فى منطقة الخليج ، والجانب الآخر هو الخوف من هذا الجهاد ومحاولة إبعاد المسلمين عن فكرة الجهاد والدعوة إلى الله تعالى ، لأن هذا تهديد مباشر لهم فى عقر دارهم .

والجانب الأول لاشك أن الغرب بقيادة الولايات المتحدة قد وقفت (ولو ظاهرا) مع حق الشعب الأفغانى فى دفاعه عن نفسه وأرضه وأمدته بشىء من السلاح ، الذى لايقارن بسلاح العدو وتطوره .

كما كان موقف الدول الرأسمالية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية موقف الخائف من هذه البطولات التى تحققت على يد المجاهدين فى أفغانستان ، إن الولايات المتحدة والغرب عامة لايريدون النصر للمجاهدين الأفغان لأن ذلك سيعنى قيام حكومة إسلامية ، وهذا ماتأباه التوجهات الغربية ، التى سعت للحيلولة دون تحقيق قيام الدولة الإسلامية فى أفغانستان بعد انتصار المجاهدين على أعدائهم الملحدين . أما عن سلاح الولايات المتحدة للأفغان فهو ذر للرماد فى العيون ، لأن واقعها يخالف ماتدعيه وقد ظهر ذلك جليا بعد انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان .

يقول د. عبد القادر طاش : (كان من حظ هذه الحركة أن يتكالب عليها أعداء متناقضو الاتجاه فى ظاهر الأمر ولكنهم يتفقون جميعا على هدف واحد وهو الحيلولة دون قيام أى حركة إسلامية أصيلة وقوية فى العالم مهما كلفهم ذلك من ثمن ومهما تطلب منهم من تضحيات ، إن الغرب الاستعمارى ـ بزعامة أمريكا ـ لايريد لحركة الجهاد أن تنتصر ولذلك فهو يسعى ـ بكل الطرق ـ إلى محاولة استيعاب هذه الحركة واحتواء بعض

زعاماتها وتجيير مكاسبها لصالحه . ومن ثم لم يكن غريبا أن تتشدق أمريكا بمساعدة الأفغان فى نضالهم والإدعاء بإمدادهم بالأسلحة والصواريخ وهو إدعاء لايسنده الواقع ولاتؤيده البراهين!!

بل إن أمريكا تبذل جهودا خبيثة على المستوى الإعلامى للقضية الأفغانية إدراكا منها لأهمية هذا الجانب وخطورة تأثيره . وقد أفادت الأنباء مؤخرا أن "وكالة الإعلام الأمريكية" قد أقامت جهازا إعلاميا لتدريب الصحفيين الأفغان بالتعاون مع جامعة أمريكية وشركة إعلامية من القطاع الخاص وبأموال حكومية ، فقد قدمت الوكالة إلى جامعة بوسطن منحة قيمتها ١٨٠ ألف دولار لتدريب الصحفيين من اللاجئين الأفغان كما تعاقدت مع مؤسسة "كنغ فيتشرز سيندكت" لإنشاء وكالة أنباء أفغانية مقابل ٣١٠ آلاف دولار)[١].

ويمكننا ابراز هذه الحقائق وبيان موقف هذه الدول من خلال هذه النقاط :

أولا : الخوف من إقامة دولة اسلامية فى أرض أفغانستان الإسلامية .

إن أعظم مايهدد الشرق والغرب هو وجود الدولة الإسلامية التى تطبق شرع الله تعالى وتحتكم إليه ، وقد أعلن المجاهدون أن نيتهم بعد الانتصار هو إقامة الحكومة الإسلامية ، وماكان هذا الأمر ليرضى أعداء الله تعالى ، وقد بدأت المشاورات الدبلوماسية من عام ١٩٨٥م بين الأعداء من أجل وضع الحل المناسب للطرفين وهو فى نظرنا الحل الوحيد الذى أخبر الله تعالى عنه {**ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم**}[٢]، حيث قامت الولايات المتحدة بعدة ممارسات من أجل الضغط على المجاهدين وعدم تمكينهم من إقامة الدولة الإسلامية[٣].

---

(١) أفغانستان الجرح والأمل (١٤-١٥) .
(٢) سورة البقرة : (١٢٠) .
(٣) انظر عن ذلك الإنهيار (١/١٣٨-١٣٩) .

ولكن لماذا يخشى المعسكران الشيوعى والرأسمالى قيام هذه الدولة الإسلامية . يضع الدلال هذه الأسباب فيقول :

(١) (إن هذه الدولة ، بتبنى مفهوم الجهاد الشامل ، ستؤدى إلى إحداث تغييرات كبيرة فيما حولها وهذه التغيرات بالطبع مرفوضة من القوى المعادية للإسلام كافة لأنها ستكون فى صالح تدعيم قيام كيان إسلامى قوى فى منطقة الشرق الأقصى . وستكون الخطوة الأولى هى قيام هذه الدولة بدعم الجماعات الإسلامية فى تلك البلاد معنويا وماديا . كما أن نجاحا إسلاميا من هذا النوع سيشكل خطرا ماحقا على إسرائيل من جهة الشمال . وكذا خطرا كبيرا على أوروبا النصرانية من الجنوب الشرقى .

(٢) ستقوم هذه الدولة لامحالة بنقل الأعمال الجهادية إلى داخل روسيا نفسها ، وستكون الخطوة الأولى باتجاه الاستفادة من المسلمين فى الجمهوريات الجنوبية المتاخمة لأفغانستان . ولاينسى اليهود أن موسكو كانت يوما ما ولاية إسلامية ، ولذلك فهم يخشون من محاولة الامتداد الإسلامى لاستعادة المفقود التاريخى جغرافيا وعقديا وحضاريا فى تلك المناطق ، وهذه الخشية منطلقة من تحليل منطقى لفهم أهداف الجهاد فى الإسلام ومراميه . وفى حال استعادة بعض الولايات الإسلامية لحريتها الحقيقية فإنها ستبدأ بإحداث ضغط عقدى (أيديولوجى) وسياسى فى اتجاه الشرق الروسى وفى اتجاه الغرب (الأوربى الشرقى) بما يمكن أن يؤدى إلى اندلاع أحداث صدامية تعيد ترتيب الحدود السياسية فى تلك المنطقة فى غير صالح اليهود والنصارى .

(٣) لقد نجح اليهود خلال الأربعين عاما المنصرمة فى تحويل قضية فلسطين من بعدها الإسلامى إلى البعد العربى ، وهاهم الآن على وشك النجاح فى تعويم القضية وتخليها عن أى طابع أيديولوجى بإحداث التفرقة بين الصف العربى بل فى داخل الصف الفلسطينى نفسه ، إن قيام دولة إسلامية فى أفغانستان سيخلط هذه الأوراق من جديد ويعيد ترتيبها

الصحيح لتمثل قضية فلسطين مكانتها وبعدها الإسلامى الأول فى ترتيب الأولويات . ومن خلال تفاعلات الأحداث فى أفغانستان وتصريحات قادةالجهاد فيها نرى أن أقدامهم هناك وعيونهم على بيت المقدس ، واليهود يعلمون هذا تماما .

(٤) إن قيام دولة إسلامية فى أفغانستان تتبنى الطرح الجهادى لقضية فلسطين سيسحب البساط من تحت أقدام المتاجرين بتلك القضية ، الذين أجادوا فن التمثيل خلال العقود المنصرمة . وسيضعهم وأحزابهم أمام مفترق طرق صعب ، مما قد يؤدى إلى إنهيار لأنظمتهم وانكشاف الحدود الاسرائيلية أمام الزخم الجهادى المشتعل ، وسيكون الإقبال الشعبى على الجهاد فى أنفاسه منذ عشرات السنين .

(٥) فى حال قيام دولة إسلامية فى أفغانستان فإنها ستكون منطلقا للقيام بالأعمال الجهادية فى مختلف البقاع الإسلامية المحكومة بغير ماأنزل الله .

وسيكون لها أثر بارز جدا فى العمليات الجهادية فى اريتريا والفلبين وغيرها . كما أنها ستكون بمثابة الداعم المعنوى للتحركات الشعبية الإسلامية فى كثير من البلاد الإسلامية ، وستكون هذه الدولة أنموذجا يحتذى به فى طريقة التعامل الجهادى مع أعداء الإسلام . ومجمل ذلك سيؤدى إلى إحكام الطوق حول اليهود فى فلسطين حيث سيصبح وضعهم كحال جزيرة فى بحر تلاطمت أمواجه وارتفع ماؤه وأوشك أن يبتلع الجزيرة بما عليها . ويضع العراقيل أمام محاولات المد اليهودى للتغلغل داخل الشعوب المجاورة .

لهذه الأسباب وغيرها فلن يسمح يهود الكرملين وغيرهم من أعداء الإسلام بقيام دولة إسلامية فى أفغانستان . فهل ينجحون ؟!)[١].

---

(١) الإنهيار (١٤٠-١٤٣) .

وعندما لم تحقق الولايات المتحدة هدفها المرجو من ذلك عمدت إلى الأمم المتحدة لكى تضفى على توجهاتها الطابع الدولى المشترك ، وتنبه المجاهدون على أن إرسال المبعوث من قبل الأمم المتحدة وتدخلها فى أحداث أفغانستان لايقصد منه إلا إضاعة ثمرات الجهاد(١).

ثانيا : اتخذ الغرب الرأسمالى من الانتصارات التى حققها الجهاد الأفغانى ذريعة فى التشديد على المسلمين واعتبار الإسلام الخطر الحقيقى الذى يجب أن يوقف عند حده وأظهروا مسألة الأصولية الإسلامية وخطرها ، فأصبحت تصريحات الزعماء ووسائل الإعلام كلها تتجه هذه الوجهة .

ومن هنا جاءت الدعوة لتوحيد جهود الدول الغربية فى مواجهة الإسلام حيث جاء عن مجلس حماية الدستور فى المانيا : (إن الإسلاميين المتشددين وتأسيا بمايجرى فى الجزائر يفكرون بالقيام بحملات هجومية ضد ألمانيا وتهديد العالم الغربى ، وأن الغرب الذى انقسم بسبب الحرب الباردة عليه أن يتوحد باسم النصرانية للوقوف فى وجه الإسلام ...)(٢).

ثالثا : أن الدول الأوربية لايهمها من وراء هذا الجهاد إلا تحقيق مصالحها ومحاولة جعل الدولتين الكبريين فى صراعهما للاستفادة من دول الشرق الأوسط . إن الدول الأوربية (لاينتظر منها أى دعم مادى لحركة المجاهدين الأفغان لعدة اعتبارات أهمها رغبة هذه الدول فى تثبيت

---

(١) انظر أقوال قادة الجهاد وموقفهم من تحركات الأمم المتحدة : الجهاد الأفغانى طريق إلى الخلافة الراشدة (٢٥-٢٦،٣١-٣٢) ، أفغانستان الجرح والأمل (٦٠-٦١) ، مجلة الجهاد ، العدد (٩/٨٥) ، شعبان ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، الافتتاحية بقلم محمد يوسف عباس .

(٢) مجلة الجهاد العدد (٨/١١٨) .
ولمزيد من مواقف الغرب من الإسلام والمسلمين وتصوراتهم عنهم وكونهم سبب الأزمات والإشكالات والإرهاب انظر : مجلة الدعوة السعودية ، العدد (١٦٥٢/٣٠-٣١) ، دروس تربوية من القرآن الكريم (١٠١-١٠٢) ، مجلة الدعوة السعودية ، العدد (١٥٦٤/٢٤-٢٥) ١٢ جمادى الآخرة ١٤١٧هـ/٢٤ اكتوبر ١٩٩٦م . وفيه مطالبة المسلمين من فرنسا أن تعاملهم كما تعامل اليهود والنصارى .

العملاقين الروسى والأمريكى أحدهما بالآخر ليتسنى لها الانفراد بالمصالح الاستعمارية فى الشرق الأوسط ولذلك فهى لن تدعم أحدهما ضد الآخر مادامت التقارير تشير إلى نقطة التعادل فى القوة بين العملاقين . ولئن كان الوجود الروسى فى أفغانستان يعتبر ورقة رابحة فى يد الأمريكيين يمكنهم بواسطتها احتواء حكومات شرق أوسطية مذعورة من الزحف الشيوعى والقفز الروسى ، وبما أن هذه الحكومات ينبغى لها إن كانت مطمئنة على وصفها أن تكون صديقة للدول الأوربية التى عادت دولا من الدرجة الثانية أو الثالثة أو ربما دون ذلك كالمانيا فإن هذه الدول الأوربية أحرص على إنهاء القتال المسلح فى أفغانستان بانسحاب روسى وتكريس حكومة شيوعية محايدة فى كابل ، ولذلك فإن الدور الأوربى دور ديبلوماسى صرف يهدف إلى طمأنة دائرة منابع النفط لكى لايدفعها خوفها من الشيوعية أن تنحاز إلى الولايات المتحدة طلبا للأمن ولعل هذا أيضا سبيل آخر ينتهى أن سلك بمجرى الجهاد الإسلامى فى أفغانستان إلى الانسياب فى التيه والضياع فى نهاية اللانهاية)[١].

رابعا : التعتيم الإعلامى للقضية الأفغانية من قبل الدول الرأسمالية .

لقد كان هناك تعتيما إعلاميا رهيبا عمايحدث فى أفغانستان ، كما كان الرأى العام لدى الدول الغربية بعيدا عن التأثير على سياسة دوله .

يقول جيرار شاليان : (لم تستطع حركات المقاومة الأفغانية حتى الآن إستغلال الرأى العام فى أوروبا أو الولايات المتحدة . وهى على الأغلب ، تعرف القليل عن العالم خارج أفغانستان ، ولاتدرك مدى أهمية مثل هذا التعاطف الشعبى ، لكن ربما كان ذلك مسألة وقت فقط ، حتى يعترف الغربيون بالأفغانيين كشعب يناضل من أجل حريته . وهكذا ، فعلى حركات المقاومة الإستمرار فى نشر قضيتهم)[٢].

---

(١) أفغانستان والاجتياح الروسى (١٥٣-١٥٤) .

(٢) تقرير من أفغانستان (٧٦) .

وكانت وسائل الإعلام متجاهلة لهذا الجهاد (وربما كان ذلك بسبب استخفاف شعوب العالم بقدرة شعب فقير على ملاطمة دولة عظمى لايفصل فرقها المسلحة بأحدث ماأنتجته التكنولوجيا الحديثة من أنماط السلاح المدمر)[١].

ولكن الحقيقة هو أن الشعب المظلوم هناك شعب إسلامى ، وقد أراد الغرب ألاتتعاطف شعوبه مع هؤلاء المجاهدين .

غير أن النصر من عند الله[٢].

ومما يؤسف له أن وسائل الإعلام الإسلامية بعد أن أولت موضوع أفغانستان الاهتمام فى أيامه الأولى لم تعط الجهاد الأفغانى حقه مع أهمية هذه الوسائل .

ويقول الحصين : (مع الأسف الشديد لم يعط الجهاد حقه فى وسائل الإعلام فى الدول الإسلامية مثلما تعطيه لمباريات كرة القدم من قيمة وإهتمام ، وأن أحداث الجهاد هناك على أرض أفغانستان لم تسجل بكاملها بالرغم من أنها تكون تاريخ المسلمين الحديث)[٣].

خامسا : قامت الولايات المتحدة والدول الرأسمالية بتوظيف الجهاد لأغراضها الخاصة ومصالحها الذاتية ، حيث قامت ببذل بعض السلاح البسيط للمجاهدين وأرادت بذلك كسب ود بعض الدول العربية والإسلامية ، وقد حققت الشىء الكثير من جراء هذا العمل الذى كان ذرا للرماد فى العيون أكثر منه مقارعة للغزاة المعتدين إذ لايساوى شيئا أمام مايملكه السوفييت .

---

(١) أفغانستان والاجتياح الروسى (١٥٠) .

(٢) انظر ماذكره د. عبد القادر طاش فى كتابه (الجرح والأمل) (١١-١٢) عن الاهتمام بقضايا الشعوب المغلوبة على أمرها كفيتنام ، والسلفادور ، ونيكاراجوا ، والإشارة عن قضية أفغانستان .

(٣) بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان (١٣) .
وللمزيد انظر ماذكره د. عبد القادر طاش فى كتابه أفغانستان الجرح والأمل (١٣-١٦) .

يقول محمد قطب عن سلاح الولايات المتحدة للمجاهدين : (لقد أمدت أمريكا المجاهدين ببعض السلاح ، ولكن لالينتصروا ، إنما كان تمدهم به لهدفين ، كلاهما يحقق مصلحة لها . الأول : هو إجهاد روسيا بإطالة مدة القتال إلى أقصى درجة ممكنة (سواء كان ذلك ردا على الصفعة الروسية فى فيتنام ، أو لأى سبب آخر) والثانى : هو إتاحة الفرصة لروسيا ـ فى الوقت ذاته ـ لتقتيل أكبر عدد ممكن من المسلمين المجاهدين ، ليستريح الغريمان معا من العدو المشترك ، على طريقة المثل القائل : أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب! والغريب الذى يريد الطرفان معا قتله هو الإسلام .

من أجل ذلك أمدت أمريكا المجاهدين بالسلاح الذى أمدتهم به ، ولم تكن تتصور قط أن ينتصروا بذلك السلاح ، لأن كل الحسابات "البشرية" تقول إن هذا مستحيل!

ولقد فوجئت أمريكا ـ مفاجأة غير سارة ـ بذلك النصر ...)[١].

سادسا : عملت الولايات المتحدة بخبثها ودهائها على إثارة المشاعر الإسلامية والاستفادة منها لصالحها ، ودعت إلى الاستفادة من هذه المشاعر وعدم استثارتها ضد الغرب بل الاستفادة منها إيجابا فيما يحقق مصلحتها[٢](أى مصلحة أمريكا) .

---

(١) الجهاد الأفغانى ودلالاته (٦٢) .

(٢) انظر أفغانستان والاجتياح الروسى (٧٤-٧٥،٨١) .

أثر هذا الغزو فى موقف الدول الرأسمالية ودور ذلك فى سقوط الشيوعية

أولا : مكن الغزو السوفييتى الولايات المتحدة من عودتها إلى منطقة الشرق الأوسط بقوة وأصبح ذلك ذريعة لها ، هذا بالإضافة إلى أن بعض الدول العربية والإسلامية ارتمت فى أحضان الولايات المتحدة تطلب منها الحماية ضد العدوان السوفييتى أو خطره المحتمل فيما لو سقطت أفغانستان .

ثانيا : يعتبر الغزو السوفييتى لأفغانستان شرخا فى الوفاق والإنفراج الذى بدأ بين الدولتين الكبريين وأدى ذلك إلى قطع الولايات المتحدة بعض المساعدات التى كانت تقدمها للسوفييت ، وكذلك منع بيع الحبوب إليها مما كان له أثره على إقتصاد وتطور الاتحاد السوفييتى .

يقول دانيا ، ونورمان : (إن التحرك السوفييتى فى أفغانستان عام ١٩٧٩م قد دفع الرئيس كارتر إلى حظر مبيعات الحبوب الأمريكية للاتحاد السوفييتى .. وقد احتج المزارعون الأمريكيون لأن الحظر كلفهم غاليا . وتنفيذا لوعد قطعه على نفسه خلال الانتخابات ، رفع الرئيس ريجان الحظر عام ١٩٨١م . غير أنه طبق عقوبات جديدة فى العام التالى ... وفى هذه المرة حظرت العقوبات بيع معدات البترول والغاز التى يحتاج إليها السوفيت لمد خط أنابيب رئيسى جديد)[١].

وأدى هذا بدوره إلى فقدان الاتحاد السوفييتى روافد كثيرة كانت تدعم إقتصاده ، وبالتالى كانت الولايات المتحدة تزيد من الضغوط عليه من أجل القبول بالتنازلات الفكرية ، وكذلك الاسراع بالتراجع فى السياسة الخارجية .

---

(١) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥م (٤٣٢) .
وانظر تقرير من أفغانستان (٨٩) وقال : (إن التدخل السوفييتى فى أفغانستان يشير إلى انتهاء حقبة الإنفراج فى العلاقات الدولية المتوترة) .
وانظر (٩٣-٩٥) .

ثالثا : أدى الغزو السوفييتى لأفغانستان إلى إعادة السيطرة الأمريكية على الساحة الأوربية .

فهذا التدخل (نزع زمام السياسة الأوربية من يد القيادة الفرنسية لتسلمها الدبلوماسية الأمريكية فسرعان ماستجابت أكثر دول أوروبا الغربية بدرجات متفاوتة لعروض الولايات المتحدة تركيب قواعد الصواريخ النووية (بيرشنغ) على أراضيها)[١].

كما أن هذا التدخل (ربط دول أوروبا الغربية ثانية بالولايات المتحدة ودفع الشعب الأمريكى إلى تأييده لمواصلة الاتجاه التسلطى فى الدبلوماسية الأمريكية فى الوقت الذى عمل على عزلة الروس عالميا)[٢].

رابعا : فتح غزو أفغانستان جبهة جديدة ضد الاتحاد السوفييتى وذلك بتحسن العلاقة بين الولايات المتحدة والصين ، حيث بدأ وزير الدفاع الأمريكى حينها رولد براون الإتفاق مع الصينيين بشأن التصدى للعملية السوفيتية فى أفغانستان وحماية باكستان حليفة الصين ، مما أعطى التدخل الصينى فى الشرق الاوسط بعدا جديدا ، كمااستعدت الولايات المتحدة على تحديث الصين صناعيا[٣]. ولاشك أن هذا لم يكن ليترك السوفييت فى راحة بال من الخطر الذى قد يواجهونه من الصين .

خامسا : من المعلوم أن هذا الغزو قد جعل الولايات المتحدة تصعد من مسألة سباق التسلح بل ويعلن ريجان عن برنامجه حرب الفضاء عام ١٩٨٣م ، وكذلك نشر الصواريخ بيرشنج فى دول أوروبا فاستغلت ذلك الولايات المتحدة فى تبريرها لسياستها الجديدة نحو سباق التسلح ، وكذلك لنشر أسلحتها فى دول حلف الناتو ، وفى هذا جر للاتحاد السوفييتى نحو تسابق جديد وإرهاق إقتصادى آخر له ولأجل ذلك وتحت هذه الضغوط

---

(١) أفغانستان والاجتياح الروسى (٧٠) .
(٢) المرجع السابق (٧٩) .
(٣) المرجع السابق (٩٦) ، وأرجع إلى صحيفة الأنباء الكويتية فى ١٩٨٠/١/٧م .

قدم الاتحاد السوفييتى الكثير من التنازلات والتراجع فى سياسته التوسعية ، ولو أن الولايات المتحدة طلبت من السوفييت الخروج من أفغانستان مقابل سحب صواريخ بيرشنج أو التخلى عن برنامج الحرب الاستراتيجية لما تردد السوفييت فى ذلك ولكن الغرب لايود ذلك!!

ونعتقد جازمين أن الولايات المتحدة كانت ترغب فى الاستفادة من جانبين بالنسبة للجهاد الأفغانى :

(أ) بالنسبة للسوفييت .

(ب) بالنسبة للمجاهدين وتحقيق مصالحها .

أولا : إرهاق السوفييت وجعلهم يتورطون فى الهجمات التى سيشنها عليهم المجاهدون الأفغان ، وكذلك ليكون هذا التدخل مسوغا للولايات المتحدة من أجل تنفيذ مخططاتها الاستعمارية وتحقيق مصالحها . والفرض على السوفييت تقديم أكبر قدر من التنازلات إذا ماأصبحوا فى موقع الضعف .

ثانيا : مايتعلق بالمجاهدين فيمكن ابرازه فى عدة جوانب :

الجانب الأول : ضرب الصحوة الإسلامية والتوجه الإسلامى الموجود فى أفغانستان ، تلك الدولة المسلمة وهذا هدف يظل ملازماً للقوى اليهودية والنصرانية على حد سواء .

الجانب الثانى : كسب أكبر قدر من التأييد للولايات المتحدة والتعلق بها من قبل الدول العربية والإسلامية لأنها ستبرز على أنها مدافعة عن الحقوق الإسلامية وبالتالى تكسب ود تلك الدول وتظهر كما لو أنها الدولة الحريصة على المسلمين وقضاياهم .

الجانب الثالث : جعل التواجد الأمريكى فى المناطق التى كان يهدف إليها السوفييت من وراء غزوهم لأفغانستان أمرا مستساغا إن لم يكن أمرا مطلوبا منها .

بعض الآثار التى خلفها الغزو السوفييتى لأفغانستان

أولا : التدمير الهائل الذى لقيته البلاد الأفغانية ، والقتل والجرح والتشريد للملايين بسبب الهجمات الوحشية الشيوعية .

وقد قدم الجهاد أكثر من مليون ونصف قتيل و٣٠٠,٠٠٠ معاق وخمسة ملايين مهاجر من النساء والأطفال والشيوخ(١).

ثانيا : نقل الأطفال الأفغان إلى الاتحاد السوفييتى وذلك لبث الفكر الماركسى الشيوعى فى نفوسهم وبالتالى ارسالهم إلى وطنهم ليسيروا حسب ماكانوا قد تلقوه فى موسكو .

(وقد قام الاتحاد السوفييتى بنقل أكثر من ربع مليون طفل أفغانى إلى روسيا لتلقى التعليم هناك ويتم التركيز - بالطبع - على "مركسة" هؤلاء الأطفال وتحويلهم إلى دمى مطيعة للغازى الغاشم ليس بدافع الولاء السياسى فقط بل بدافع الولاء العقائدى وهو أكثر ثباتا وقوة من الولاء السياسى القائم على المصالح المتغيرة)(٢).

ثم بعد أن أرسل هؤلاء إلى الاتحاد السوفييتى وغيرهم من الشباب إما بالاختطاف ، أو موافقة أهلهم (فى معسكرات التدريب التى يشرف عليها مدربون يتقنون لغتى أفغانستان - البشتو والفارسية - كانت تتم عملية "غسيل مخ" مركزة لهؤلاء الأطفال اليافعين ، عملية رهيبة تقوم على أربعة مبادىء :

(١) لم يعد الاتحاد السوفييتى وأفغانستان سوى بلد واحد ، به شعب واحد

(٢) إنكم مسلمون ونحن كذلك وسنعلمكم كيف تصبحون مسلمين أفضل مما كنتم!!

---

(١) انظر الجهاد الأفغانى طريق الخلافة الراشدة (٩) .
وانظر عن اللاجئين تقرير من أفغانستان (٦٨-٦٩) .
وانظر الإنهيار (١/١١٧-١١٨) .

(٢) أفغانستان الجرح والأمل (٤٢) .

(٣) المجاهدون ليسوا مسلمين حقيقيين ، إنهم متمردون وخونة يريدون تدمير بلدكم ونحن نريد الدفاع عنه!!

(٤) إذا أجدتم فى عملكم وأطعتم وساعدتمونا فى الدفاع عن أفغانستان فإنكم ستصبحون عندما تبلغون سن الرشد أغنياء وأقوياء)[١].

ومن آثار الحرب على أفغانستان إنهيار الإقتصاد ، ومشاكل متعددة من الماء ، والكهرباء ، والمواصلات ، والألغام ، والإسكان ، والزراعة ، والطرق ، والتعليم .

بالإضافةإلى وجود كثير من الشباب عاش معظم حياته فى ظل الشيوعية ولايعرف من الدين شيئا فى حين أن المدارس والجامعات متوقفة[٢].

وذكر وزير الاسكان أحمد شاه أحمد أن الجامعات والمدارس مليئة بالسكان لعدم توفر السكن وقال : (أهم مشكلة تواجهنا حاليا فى وزارة الإسكان هو توفير سكن لأهل كابل تحديدا لأن نصفها دمرته الصواريخ واضطر سكان هذا النصف إما للهجرة خارجها أو إلى اللجوء للعيش فى النصف الآخر الذى يكتظ بالسكان ، إضافة إلى المدارس والمساجد والمستشفيات والمستوصفات . وقد جاءنى مؤخرا وزير التعليم والتربية وطلب منى اخلاء السكان من المدارس لبدء الدراسة وأجد نفسى عاجزا عن اتخاذ أى قرار بهذا الشأن لأننى لاأملك السكن البديل لهؤلاء)[٣].

---

(١) أفغانستان الجرح والأمل (٤٥) .
على أن السوفييت لم يكتفوا بذلك بل كانت الحرب الفكرية قائمة داخل الأراضى الأفغانية ، كتعيين المدرسين فى جامعة كابول أو العسكريين فى مجال التدريب . انظر نفس المرجع (٢٧) .

(٢) انظر ذلك وغيره فى اللقاء الذى أجرته مجلة الإصلاح مع ربانى العدد ٢٥٩ الخميس ٦ جمادى الأولى ١٤١٤هـ ، ٢١-٢٧ أكتوبر ١٩٩٣م ، السنة السادسة عشرة (٢٠-٢٢) ، وطالب المسلمين بمد يد العون للأفغان .

(٣) الإصلاح ، العدد (٢٣/٢٥٩) ، وانظر صحيفة الشرق الأوسط العدد (٤/٥٦٠٣) الجمعة ١٩٩٤/٤/١م .

ثالثا : العمل على إثارة الخلافات بين الأحزاب والطوائف الموجودة هناك وهذا ماحدث فعلا ومازالت أفغانستان حتى هذه اللحظة تئن من وطأة ذلك التناحر الذى كان الغرب وراءه وستكشف الأيام تلك الحقيقة .

وبعد هذا العرض نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن الاتحاد السوفييتى دولة شيوعية ملحدة لايمكن بحال من الأحوال اعتبارها صادقة فى تعاملها مع المسلمين إلا إذا كان لها مصلحة من وراء ذلك التعامل وتاريخه مع المسلمين ليس به خفاء .

ثانيا : أن هذا التدخل أثبت أن السياسة السوفيتية تقوم على الإرهاب والقمع والتوسع والتدخل فى شئون الآخرين (ومن وجهة النظر السوفياتية فإن السياسة الخارجية الهجومية هى التى تضمن الأمن الوطنى ، حيث بفضل قوتها العسكرية النامية ، تستطيع موسكو الآن السيطرة على مساحة أكبر مما كانت تستطيعه من قبل ، خاصة فى المناطق المجاورة للاتحاد السوفياتى نفسه)[١].

ثالثا : أظهر الغزو السوفييتى لأفغانستان أن الاتحاد السوفييتى عدو ماكر يظهر بثوب الصديق ويرفع شعارات العدل والمساواة ، ويتظاهر بمد يد العون لفريسته حتى إذا ماحان وقت الانقضاض تكون تلك الارهاصات مساعدة له على ارتكاب جرمه[٢].

رابعا : أن الأعداء لايكشفون عن هويتهم مباشرة إذا أرادوا الغدر فيكون ذلك العداء مستترا بستار المساعدات الإقتصادية ، والتبادل التجارى والثقافى ، والتأثير السياسى ، وهكذا حتى مايغدو المجتمع يسير فى ركاب ذلك العدو دون أن يشعر .

خامسا : يستفاد من جهاد الأفغان أن المسلمين أقوياء ماتمسكوا بدينهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام ، وأن قوى الكفر والطغيان الجبارة تنهار

---

(١) تقرير من أفغانستان (٧٩) .

(٢) انظر قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى (١٣٢-١٣٣) .

أمام هذه الحقيقة ، فقد انهارت فارس والروم ، ثم انهار الاتحاد السوفييتى وليست هذه النهاية ببعيدة عن الولايات المتحدة إذا ما اجتمع المسلمون ووحدوا صفوفهم فى التصدى لها ولمخططاتهاالشريرة ، ولن يكون ذلك إلا بالعودة إلى الله تعالى والتمسك بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

سادسا : من الدروس المستفادة من أفغانستان ومما ينبغى على المسلمين التنبيه إليه أن الأعداء سيظلون يعملون على بث العملاء والأذناب داخل الدول الإسلامية ، وبالتالى لابد من التنبه لهذا الأسلوب الماكر من أعداء دين الله تعالى ، والدور الآن سيكون للقوة الغربية الرأسمالية .

سابعا : دلل الجهاد الأفغانى على أن الدول العظمى سواء شرقيها أو غربيها كلها تعمل ضد الإسلام والمسلمين والأحداث التى ظهرت خلال هذه الفترة دلت على هذه الحقيقة وأن الجبارين يد واحدة ضد المسلمين وقضاياهم . ولاغرابة فى هذا التقارب والالتقاء ، لأن الأعداء يخافون من الجهاد ويعلمون أنه متى قام المسلمون به على وجهه الذى يرضى المولى جل وعلا فلن تقوم لهم قائمة ، وقد شهدت المحافل الدولية الأمثلة الكثيرة على هذا العداء .

ثامنا : ينبغى للمسلمين الحذر من وريثة الاتحاد السوفييتى وهى جمهورية روسيا حيث إنها تخشى من (وصول حكومة أصولية فى أفغانستان حتى لاتمتد العدوى إلى دول آسيا الوسطى المجاورة ل(طاجاكستان ، أوزباكستان تركمانستان) بالشكل الذى يهدد مصالحها ويشكل تهديدا لاستمرار العنصر الروسى المتحكم فى قرار معظم هذه الدول ...)[١].

تاسعا : من الدروس المستفادة من الجهاد الأفغانى والحقائق الساطعة أن الحرب إذا كانت دينية أى بسبب الدين فإن المسلمين كلهم شركاء فيها وكلهم معنيون بها . فالحرب هناك ليست من أجل القومية ، ولاالقبلية إنما هى وكما نحسب ذلك فى سبيل الله لدفع العدو عن أرض إسلامية جاء

---

(١) مجلة المجلة العدد (٣٩/٨٣٤) .

ليقضى على المسلمين فيها ، وعلينا أن نحرص مما يحاول الأعداء أن يلصقه بهذا الجهاد بأنه حرب تحريرية أو ثورة شعبية[١]، أو أنها كانت نتيجة للعادات والتراث القبلى والتقاليد القتالية[٢].

عاشرا : الاهتمام بمسألة التوجه الشيعى فى أفغانستان وعدم ترك الفرصة لهم ، فإن إيران لايمكن أن تقدم المساعدة أو الاهتمام إلا إذا كان لها مصلحة عقدية من ورائها ، وعقيدة تلك الدولة ليست خافية على أحد .

حيث يقوم حزب الوحدة الأفغانى بعدة أعمال محاولا الحصول له على مكان فى مناصب الحكم فى أفغانستان ، وهذا الحزب يضم ثمانية فصائل أفغانية شيعية تتخذ من إيران مقرا لها ، وتم توحيدها برعاية إيران . وقد حاول الحزب الاستفادة من الخلاف بين فصائل المجاهدين (الحزب الإسلامى والجمعية الإسلامية) ولكن باءت جهوده بالفشل بعد نجاح الوساطة السعودية الباكستانية فى إزالة هذا الخلاف[٣].

الحادى عشر : إن انهيار الشيوعية يعنى أن العالم الإسلامى وتحديدا الإسلام سيكون العدو الحقيقى الآن فى مواجهة الغرب خاصة إذا ماأخذنا فى الاعتبار أن بعض دول المنظومة الإشتراكية السابقة أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الانضمام إلى الولايات المتحدة والعمل بسياستها وتوجهاتها .

ومن هنا فلابد من أن يهتم المسلمون بهذه المواجهة مع الغرب الرأسمالى لأنها معركة لاتقل خطورة وقوة عن معركتهم مع الشيوعية الملحدة[٤].

---

(١) انظر تقرير من أفغانستان (٥٣) ومابعدها .

(٢) انظر نفس المرجع (٧٢) ومابعدها .

(٣) انظر مجلة المجتمع العدد (٢٣/١٠١١) السنة ٢٣ الثلاثاء ١٣ صفر ١٤١٣هـ الموافق ١١ أغسطس ١٩٩٢م .

(٤) وعن استغلال ذلك السقوط والعمل على مواجهة العدو الجديد انظر مجلة الجهاد ، العدد (٢٧/٩٢) جمادى الأولى ١٤١٣هـ/نوفمبر ١٩٩٢م فى إجابات الأسئلة التى أرسلتها مجلة الجهاد إلى عدد من المفكرين والعلماء ، وكانت هذه اجابة منير شفيق

الثانى عشر : أن أمريكا تدرك أن أفغانستان ليست مستعدة لأن تكون قاعدة أمريكية أو محطة لمصالحها وهم حسب رؤيتهم الاستعمارية يرون أن مستقبل أفغانستان إما أن يكون شيوعيا ، أو إسلاميا ، وكلا الأمرين بالنسبة لهم غير مقبول ومن هنا يرجحون بقاء الاصطدامات والاضطراب والوضع المتدهور فيها(١).

الثالث عشر : أن الولايات المتحدة حتى لو نظرت لاجتياح السوفييت لأفغانستان بالاعتبار فإن ذلك من خلال تحقيق مصالحها لامن أجل الدفاع عن المسلمين أو حقوقهم .

الرابع عشر : أن الصراع بين دولة الاتحاد السوفييتى وأفغانستان صراع قديم عمل السوفييت على إيجاد العملاء والخلايا له داخل الأراضى الأفغانية ولكنه فشل فى ذلك فاستبدلهم بالغزو العسكرى الذى فشل هو بدوره ، ثم عملت القوى الكافرة على إيجاد الحل الذى سيريح كل الأطراف ، وذلك بإثارة الخلافات والفرقة .

الخامس عشر : ومما يذكر هنا أن الدول الإسلامية ومنها المملكة العربية السعودية قد قدمت المساعدات للمجاهدين فكانت مصر تقدم السلاح الخفيف والسعودية ودول الخليج تقدم المال(٢).

السادس عشر : أن الجهاد الأفغانى قد ألحق خسائر كبيرة بالمعسكر الشيوعى السوفييتى ، وفسح المجال أمام الشعوب المضطهدة من قبل السوفييت إلى أن تخرج عن سكوتها وتنفجر فى وجه جلادها مما جعل الجهاد الأفغانى أحد الأسباب التى عجلت بإنهيار فكرها الشيوعى .

---

(١) انظر موسكو فى طريقها إلى كابول (١٤٧-١٤٨) .

(٢) انظر تقرير من أفغانستان (٧٦) .
وانظر عن بعض ماقدمته المملكة العربية السعودية جريدة عكاظ العدد (١٠/٩٦٣٦) الثلاثاء ٢١ جمادى الآخرة ١٤١٣هـ ، ١٥ ديسمبر ١٩٩٢م .

الخاتمة

(أ) النتائج :

أولا : إن أوروبا افتقرت لدين الله تعالى الصحيح وكانت وريثة للحضارتين الماديتين اليونانية والرومانية .

ثانيا : إن الكنيسة وهى تمثل الجانب الدينى فى أوروبا كان طغيانها ظاهرا وفساد رجالها واضحا ، ورفضها للحقائق العلمية مؤثرا فى النفسية الأوربية وبسببها رفض الدين الذى كانت تتسلط باسمه وعن طريقه .

ثالثا : إن اليهود كانوا خلف الأحداث التى شهدتها أوروبا فى وقت كانت شعوبها تنبذ الدين فاستغل اليهود تلك التوجهات ووظفوها لخدمة مصالحهم وتحقيق أهدافهم فكانوا خلف أكبر الثورات التى شهدتها أوروبا كالثورة الفرنسية ، والثورة البلشفية .

رابعا : إن الحياة الأوربية ـ وفى ظل الكنيسة المتحكمة بمصائر الشعوب ظلما وعدوانا باسم الدين ـ كانت تساعد على قيام المذاهب الإلحادية والمادية والتى تقدس المحسوس وتنكر كل أمر غيبى . وهذه البيئة هى التى نشأ فيها ماركس .

خامسا : إن قولنا هذا وهو أن البيئة الأوربية ساعدت على وجود الأفكار الإلحادية والمادية لاينفى وجود ذلك الفكر مسبقا أو وجود الدعوات المترتبة عليه من إباحية وغيرها .

سادسا : إن الفكرة الإشتراكية ليست وليدة العصر الحديث بل لها امتداد فى التاريخ الإنسانى كآراء وأفكار راودت أصحابها غير أنها اتخذت على يد ماركس مذهبا مدعوما بالأدلة بغض النظر عن صحة هذه الأدلة .

سابعا : ثبت أن الأفكار والمبادىء التى جاء بها ماركس واعتبرها المبادىء الأساسية لشيوعيته فى العصر الحديث لايمكن تطبيقها أو العمل بها لأنها تتعارض مع الفطرة الإنسانية ، والسنن الربانية وهيهات هيهات لمذهب أن يظل قائما وهو يخالف الإرادة الإلهية .

ثامنا : ثبت جلياً من خلال النظر فى سيرة حياة كارل ماركس والأحداث التى شهدتها الساحة الدولية منذ ذلك الوقت وحتى هذه اللحظةأن ماركس كان يهوديا ، وأن أفكاره الإلحادية وظفت لخدمة أطماع اليهود وتحقيق أهدافهم ، ففجرت الثورة البلشفية ، وقضى على الخلافة الإسلامية ، وأعطيت أرض الإسراء لليهود ليقيموا عليها الدولة الإسرائيلية .

تاسعا : ثبت من خلال استعراض الأحداث فى العصر الحديث أن اليهود وراء أكثر الأزمات والصراعات ، وإذا لم يكونوا كذلك فهم يوجهون الأحداث حين قيامها لتصب فى مصالحهم وتعمل على تحقيق أهدافهم . هذا بالإضافة إلى استغلالهم الأفكار والنظريات العلمية فى تبرير مسالكهم ومن تلك النظريات مذهب ماركس اليهودى .

عاشرا : تبين أن ماركس أقام مذهبه على الفلسفة المادية الإلحادية والتى تقوم على جانبين ، المادية الديالكتيكية ، والمادية التاريخية . غير أن الشرع ، والعقل ، والعلم ، والواقع ، أبطل كل تخرصات ماركس التى بناها على هذين الجانبين .

الحادى عشر : أن لله تعالى سننا يجريها فى هذا الكون وهى سنن ثابتة لاتتغير ولاتتبدل تقع متى وجدت أسباب وقوعها . ولكون أسباب حدوث السنة الربانية ـ بذهاب الريح وتفريق الجمع ـ توفرت فى النظام الشيوعى سواء من حيث فكره أم واقعه ، فإن سنة الله تعالى حقت عليه . فانهار الاتحاد السوفييتى وسقط فكره .

الثانى عشر : إن الفكر الشيوعى صادم الفطرة البشرية ، وخالف السنة الربانية ، وقضى على الحرية الإنسانية ، وعانت الشعوب التى حكمها من انعدام أبسط مقومات الحياة الضرورية ، وقام على نبؤات كذبها الواقع والحقائق العلمية ، مما لزم معه إدخال العدولات عليها منذ تفجير الثورة البلشفية إلى الحقبة الغورباتشوفية ، مما جعل هذا الفكر يفقد مصداقيته ويكفر به جماعات من أصحاب العقول السوية . ونظرا لكون هذا الفكر قد حمل كل ذلك فإن سنة الله تعالى حقت عليه وسقط ، وسقط النظام القائم عليه وزالت دولة الاتحاد السوفييتى من على الخارطة السياسية .

الثالث عشر : إن سقوط الاتحاد السوفييتى لم يكن سقوطا مفاجئا ، بل إن ذلك المصير هو المصير المحتوم لكل منهج أرضى أو مذهب وضعى خالف أمر الله تعالى وسننه ومافطر عليه خلقه ، حيث كان الفكر الماركسى باطل فى نظرياته فاشل فى تطبيقاته .

الرابع عشر : إن عوامل سقوط الشيوعية كانت من جانبين :

(أ) الجانب الداخلى : وذلك بفساد الفكر وتذمر الشعب منه ومطالبته بالانعتاق من وطأته .

(ب) الجانب الخارجى : وذلك الجانب أكثر مانمثل فى الحروب التى خاضها الاتحاد السوفييتى فى وقت كان فيها إقتصاده منهارا .

ولأجل ذلك لم يكن بامكان الشيوعية أن تعيش أكثر مما عاشت .

الخامس عشر : تبين لى أن الأسباب الخارجية لم تكن فى قوة الأسباب الداخلية من حيث التأثير فى سقوط الشيوعية ، وذلك لأن أسباب وقوع السنة الربانية كانت موجودة فى داخل النظام .

السادس عشر : إن الحروب التى خاضها الاتحاد السوفييتى قد أرهقته كثيراً وجعلته يوجه موارد البلاد إلى تصنيع السلاح وإنتاجه ، وكانت الحرب الباردة التى استمرت مايقارب أربعة عقود قد استنزفت ثروات البلاد ومواردها وانعكس ذلك على إقتصادها وبالتالى نفور الشعوب السوفيتية من الفكر الذى يحكم بلادها . حيث لايجد الإنسان الشيوعى حاجياته وضرورياته ودولته تعمل على قدم وساق فى امتلاك الفضاء فى تسابق محموم مع الولايات المتحدة الأمريكية .

السابع عشر : إن الصحوة الإسلامية المباركة قد أقضت مضاجع اليهود والنصارى ورأوا أنه لابد من مواجهة الخطر الداهم (الأصولية الإسلامية)!! فاتفقوا على توحيد صفوفهم وجهودهم من أجل التصدى لهذا العدو ، ومن الأمثلة الواقعية على هذا الاتفاق أحداث البوسنة والهرسك والشيشان ، فيما يعرف بسياسة التطهير العرقى .

الثامن عشر : ثبت لى أن الجهاد الأفغانى قد ساعد على إنهيار الشيوعية غير أنه ليس السبب الرئيس ولاالأول الذى أدى إلى إنهيارها بل ليس هو السبب الأقوى أو الأول بين الأسباب الخارجية التى عجلت بإنهيار الشيوعية.

التاسع عشر : إن اليهود بعد أن حققوا أهدافهم من وراء الشيوعية رأوا أنه لابد من إسقاطها وجعل العالم يتجه إلى وجهة واحدة تسيطر عليها اليهودية العالمية وبالتالى تتحكم بمصائر الشعوب ومقدراتها وهذا ماتشهد به الساحة الدولية فى وقتنا الحاضر .

العشرون : ثبت أن اليهود خلف الثورة البلشفية ، وخلف إسقاط الشيوعية وإن كانت المسألة الأخيرة تحتاج إلى فترة زمنية طويلة من أجل كشف الحقيقة كاملة عنها . شأنها شأن الأحداث التاريخية .

الحادى والعشرون : إن إنهيار الاتحاد السوفييتى وسقوط الشيوعية فيه دليل على بطلان الفكر الماركسى وعدم إمكان تطبيقه كما أن فيه أبلغ رد على أصحاب الأهواء والتوجهات الإشتراكية . حيث سقطت الدولة الأم لهذا الفكر فماذا بعد هذا البرهان لأصحاب الأهواء والظنون؟!!

الثانى والعشرون : ثبت بهذا السقوط للشيوعية أنه لايبقى إلا الحق وأن الظلم والطغيان مصيره إلى الزوال مهما طال أمده ، وأن الأنظمة الأرضية بمختلف أشكالها وتوجهاتها مصيرها إلى السقوط بما فى ذلك النظام الرأسمالى .

(ب) التوصيات :

أولا : يجب على الأمة الإسلامية استغلال ذلك الحدث فى إبراز محاسن الإسلام وأنه الدين الصالح لكل زمان ومكان .

ثانيا : إن على الأمة الإسلامية قيادة وشعوبا الاهتمام بالجمهوريات الإسلامية[١]، لنشر دين الله تعالى وتعليم أهلها العقيدة الصحيحة ، ونشر العلم بينهم ، وافتتاح المساجد لهم ، وترجمة كتب أهل السنة والجماعة بلغتهم ليتفقهوا فى دين الله تعالى ، ويعبدوه على بصيرة .

ثالثا : يضاف إلى ذلك الاستفادة الإقتصادية والعسكرية من الجمهوريات الإسلامية .

رابعا : على العالم الإسلامى فى خضم هذه المتغيرات الدولية والسيطرة اليهودية على الساحة العالمية التكاتف والتعاون فى مواجهة الأطماع والأهداف اليهودية .

خامسا : على المسلمين أن يتنبهوا لمكر الأعداء وخداعهم ولايظنون أن مايفعله هؤلاء الأعداء القصد منه رعاية قضايا المسلمين أو تحقيق أهدافهم ومصالحهم .

سادسا : على أولئك المهزومين نفسيا والذين تمتلكهم عقدة التقليد ومحاكاة الآخرين لضعف فى نفوسهم أن يعودوا إلى دينهم ، ويعلموا أن الإسلام هو الدين الصالح لكل زمان ومكان ، وأن عز المسلمين فى تمسكهم بدين ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، لافى الأخذ بالأفكار الإشتراكية ولاالأفكار الرأسمالية .

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين .

---

(١) جمعت مادة علمية لابأس بها عن الجمهوريات سواء مايتعلق بتاريخها ، أو إقتصادها ، أو أحداثها بعد مطالبتها بالانفاصل وأسأل الله تعالى أن يمكننى من إخراجها فى بحث أو كتيب مستقل .

الفهارس

(١) فهرس الآيات القرآنية .

(٢) فهرس الأحاديث الشريفة .

(٣) فهرس الأعلام .

(٤) فهرس الأديان والمذاهب والفرق .

(٥) فهرس بعض المصطلحات الشيوعية .

(٦) فهرس المصادر والمراجع .

(٧) فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات القرآنية

الآيــة		رقمها الصفحة
سورة البقرة		
ياأيها الناس اعبدوا ربكم	٢١	٤٩٨
الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بنا	٢٢	٤٩٨
وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة	٤٣	٥٦٥
وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة	٨٠	٩
ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم	٨٥	١٥
ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل	٨٧	٨
ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا	١٠٩	١٥٧٨
وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أونصارى	١١١	٩
ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم	١٢٠	١٧٧٣،٦٨٣، ١٦٢٤
أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى	١٤٠	٩
إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار	١٦٤	٥١٥،٥٠٣، ٧٤٠
وإذا قيل لهم اتبعواماأنزل الله	١٧٠	٧٠٧
ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب	١٧٩	٦٧٠
وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم	١٩٠	٧١٠
فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر	٢٤٩	١٧٣٣
تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض	٢٥٣	٩٣٢

الآيــة	رقمها	الصفحة
لاإكراه فى الدين	٢٥٦	٧٠٦، ٧١٠، ١٦٨٤
لله مافى السموات ومافى الأرض	٢٨٤	٥٢٦
آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه	٢٨٥	٥٣٥
لايكلف الله نفسا إلا وسعها	٢٨٦	ع
سورة آل عمران		
زين للناس حب الشهوات من النساء	١٤	٥٥٨، ٥٨٢، ٦٠٢
قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء	٢٦	٩٣٢
يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا	٣٠	٨٥٨
ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه	٨٥	١٥، ٥٢٨
ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته	١٠٢	ب
واعتصموا بحبل الله جميعا	١٠٣	١٣٦
ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير	١٠٤	٧٣٩، ٧٤١
ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة	١٢٣	١٧٣٨
إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة	١٢٤	١٧٣٨
بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم	١٢٥	١٧٣٨
وماجعله الله إلا بشرى لكم	١٢٦	١٧٣٨
ولله مافى السموات ومافى الأرض	١٢٩	١٠٤١
ولقد صدقكم الله وعده	١٥٢	١١٣٠
فبما رحمة من الله لنت لهم	١٥٩	٨٢٨
الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم	١٧٣	١٧٣٩

الآيــة		رقمها الصفحة
فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء	١٧٤	١٧٣٩
ولايحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم	١٧٨	٤٢٦
الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم	١٩١	٥١٥

سورة النساء

ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة	١	ب،٥٨٣،٥٨٦
ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل	٢٩	٦٧١
الرجال قوامون على النساء	٣٤	٩٧٩
ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول	٥٩	٨٢٢،٨٢٦
إناأنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس	١٠٥	٨٢٢
وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا	١٢٨	٥٥٨
وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما	١٥٦	١٠
وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم	١٥٧	١٠
بل رفعه الله إليه	١٥٨	١٠

سورة المائدة

ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله	٢	١٠٤٣
فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية	١٣	١٢،٧
وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه	١٨	٨
أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما	٥٠	١٠٤٠
ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء	٥١	١٥٧٨
وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس	١١٦	١٣
ماقلت لهم إلا ماأمرتنى به	١١٧	١٣

الآيـــة		رقمها الصفحة
سورة الأنعام		
فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء	٤٤	٤٢٦
فقطع دابر القوم الذين ظلموا	٤٥	٤٢٦
وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا	١٢٩	٤٢٣
وهو الذى جعلكم خلائف الأرض	١٦٥	٩٦٨
سورة الأعراف		
إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض	٥٤	٤٠٨
لقد أرسلنا نوحا إلى قومه	٥٩	٤١٣،٤٦٠
قال الملأ من قومه	٦٠	٤١٣
قال ياقوم ليس بى ضلالة	٦١	٤١٣
أبلغكم رسالات ربى	٦٢	٤١٣
أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم	٦٣	٤١٣-٤١٤
فكذبوه فأنجيناه والذين معه	٦٤	٤١٤
وإلى عاد أخاهم هودا	٦٥	٤١٥
قال الملأ الذين كفروا من قومه	٦٦	٤١٥
قال ياقوم ليس بى سفاهة	٦٧	٤١٥
أبلغكم رسالات ربى	٦٨	٤١٥
أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم	٦٩	٤١٥
قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده	٧٠	٤١٥
قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب	٧١	٤١٥
وإلى ثمود أخاهم صالحا	٧٣	٤١٦
واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد	٧٤	٤١٦
قال الملأ الذين استكبروا من قومه	٧٥	٤١٦

الآيــة	رقمها	الصفحة
قال الذين استكبروا	٧٦	٤١٦
فعقروا الناقة	٧٧	٤١٦
فأخذتهم الرجفة	٧٨	٤١٦
فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم	٧٩	٤١٦
وقال الملأ الذين كفروا من قومه	٩٠	٤١٨
فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين	٩١	٤١٨
فانتقمنامنهم فأغرقناهم فى اليم	١٣٦	٤١٩
وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر	١٣٨	٨
ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا	١٤٩	٤٣٠
الذين يتبعون الرسول النبى الأمى	١٥٧	١٢٦
وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم	١٧٢	٤٥٢،٤٥٦
أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض	١٨٥	٥١٣
هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها	١٨٩	٥٨٣
ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها	١٩٥	١٧٣٩
إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين	١٩٦	١٧٣٩

سورة الأنفال

إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم	٩	٥١١
ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول	٢٧	٨٦٦
ليميز الله الخبيث من الطيب	٣٧	١١٢
وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة	٣٩	٧١١،١٦٨٢
وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل	٦٠	١٣٤٢
وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم	٦٣	١٣٧

الآيـــة		رقمها الصفحة
سورة التوبة		
لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة	١٠	٦٨٣
قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم أحب إليكم من الله ورسوله	٢٤	١٦٨٢
وقالت اليهود عزير ابن الله	٣٠	٨
اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله	٣١	١٣
إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها	٦٠	٦٦٥
وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون	١٠٥	٨٦٦،٨٥٨
وماكان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة	١٢٢	٧٦٣
ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار	١٢٣	١٦٨٢
سورة يونس		
هو الذى يسيركم فى البر والبحر	٢٢	٤٦١،٤٥٢
ومايتبع أكثرهم إلا ظنا	٣٦	٦٧٣
ولو شاء ربك لأمن من فى الأرض كلهم جميعا	٩٩	١٦٨٤،٧٠٦
سورة هود		
وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة	٦٠	٤١٦
فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها	٨٢	٤١٧
مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد	٨٣	٤١٨،٤١٧
وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة	١٠٢	٤١٩
ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة	١١٨	٩٣٢
إلا من رحم ربك	١١٩	٩٣٢

الآيــة		رقمها الصفحة
سورة يوسف		
ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون	١٠٦	٤٥٣
لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب	١١١	٤١٠
سورة الرعد		
الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها	٢	٥١٣
له معقبات من بين يديه ومن خلفه	١١	٤٢٥
أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها	١٧	٤٢١
ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا	٣٨	٦٠١
وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك	٤٠	٧٠٧
سورة إبراهيم		
ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق	١٩	٥١٣
سورة الحجر		
إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون	٩	٥٣٠
سورة النحل		
ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا	٣٦	٤٦٠
والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق	٧١	٩٦٨
والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا	٧٢	٥٨٣
من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةطيبة	٩٧	٥٥٨
من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان	١٠٦	٦٧٣

الآيــة		رقمها الصفحة
سورة الإسراء		
ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك	٢٩	١٠٤٦
ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق	٣٣	٦٧٠
أو خلقا مما يكبر فى صدوركم	٥١	٤٥٠
وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن	٥٣	٧٤٣
ولقد كرمنا بنى آدم	٧٠	٧٤٠،٦٦٩
وقل جاء الحق وزهق الباطل	٨١	٥٥٤،٤٤٥، ١٣٣٨
سورة الكهف		
وقل الحق من ربكم	٢٩	٧٠٦
ومامنع الناس أن يؤمنوا	٥٥	٤١٠
وتلك القرى أهلكناهم	٥٩	٥٥٤
سورة مريم		
ماكان لله أن يتخذ من ولد	٣٥	١٣
سورة الأنبياء		
وماأرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون	٢٥	٤٦١
ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له	٧٦	٥١١
وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرنى فردا	٨٩	٦٠٢
سورة الحج		
أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا	٣٩	٧١٠

الآيــة		رقمها الصفحة
سورة المؤمنون		
ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين	١٢	٥٠٦
ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين	١٣	٥٠٦
ثم خلقنا النطفة علقة	١٤	٥٠٦
فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا	٢٧	٤١٥
سورة النور		
ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا	٢٧	٦٧٣
فإن لم تجدوا فيها أحدا فلاتدخلوها	٢٨	٦٧٣
سورة الفرقان		
والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا	٦٧	١٠٤٦،٥٦٣
سورة الشعراء		
فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون	١١٩	٤١٥
ثم أغرقنا بعد الباقين	١٢٠	٤١٥
كذبت ثمود المرسلين	١٤١	٤١٧
إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون	١٤٢	٤١٧
كذبت قوم لوط المرسلين	١٦٠	٤١٧
سورة النمل		
وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا	١٤	٤١٨،٤٥٣، ٤٦٠

الآيــة	رقمها	الصفحة
فانظر كيف كان عاقبة مكرهم	٥١	٤١٧
فتلك بيوتهم خاوية	٥٢	٤١٧
وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون	٥٣	٤١٧
سورة القصص		
وقال فرعون ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى	٣٨	٤١٩
وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة	٧٧	١٠٤٦
سورة العنكبوت		
أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل	٢٩	٤١٧
سورة الروم		
يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى	١٩	٥٠٦
ومن آياته أن خلقكم من تراب	٢٠	٥٠٦
ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا	٢١	٥٠٦، ٥٨٣، ٦٠١
ومن آياته خلق السموات والأرض	٢٢	٥٠٦
ومن آياته مناكم بالليل والنهار	٢٣	٥٠٦
ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا	٢٤	٥٠٦
ومن آياته أن تقوم السماء والأرض	٢٥	٥٠٦
وله من فى السموات والأرض	٢٦	٥٠٦
وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده	٢٧	٥٠٧
فأقم وجهك للدين حنيفا	٣٠	٤٥١، ٤٥٥، ٤٥٧

الآيــة		رقمها الصفحة
سورة لقمان		
وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه	١٣	٤٠٩
ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله	٢٥	٤٥٣،٤٥٨
سورة الأحزاب		
ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم	٩	١٧٣٨
إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات	٣٥	٥٨٦
سنة الله فى الذين خلوا من قبل	٦٢	٤٠٩،٤١٢
ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله	٧٠	ب
يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم	٧١	ب
سورة فاطر		
الحمد لله فاطر المسوات والأرض	١	٤٥٠،٤٥١
ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك	٢٨	٥٤٢،٧٦٠
إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا	٤١	٥١٣،١٠٧٨
استكبارا فى الأرض ومكر السىء	٤٣	٤٢٣،٥٥٥، ١٣٣٨
سورة يس		
لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر	٤٠	٤٠٨،٥٠٧، ٥١٥
وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله	٤٧	٥٦٢

الآيــة	رقمها	الصفحة
سورة الزمر		
ألا لله الدين الخالص	٣	٤٥٨
أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما	٩	٧٦١
ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون	٢٩	٥٤٥
سورة فصلت		
قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض	٩	٥١٣
من عمل صالحا فلنفسه ومن أساءفعليها	٤٦	٨٥٨
سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفهسم	٥٣	٥١٣
سورة الشورى		
ذلك الذى يبشر الله عباده	٢٣	١٣٣
والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة	٣٨	٨٢٨
سورة الزخرف		
بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون	٢٢	٣٥٩
وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال	٢٣	٣٥٩
أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم	٣٢	٩٦٨
سورة محمد		
ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم	٧	١٧٣٨، ١٧٤٠،
سورة الفتح		
لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة	١٨	٨٢٧

الآيــة		رقمها الصفحة
سورة الحجرات		
ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا	٦	٦٧٣
ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن	١٢	٦٧٣
ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى	١٣	٦١٩،٦٢٥، ٩٦٧
سورة الذاريات		
والذاريات ذروا	١	٥١٦
وفى الأرض آيات للموقنين	٢٠	٥٠٦
وفى أنفسكم أفلا تبصرون	٢١	٥٠٦
سورة الطور		
والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم	٢١	١٠٤٣
فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين	٣٥	٥٠٤
أم عندهم خزائن ربك أمهم المصيطرون	٣٧	٥٠٤
سورة النجم		
وأن ليس للإنسان إلا ماسعى	٣٩	١٠٤٣
سورة القمر		
وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر	٣	٤١٢
ولقد تركناها آية فهل من مدكر	١٥	٤١٥
كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر	١٨	٤١٦
فكيف كان عذابى ونذر	٢١	٤١٦

الآيـــة		رقمها الصفحة
سورة الواقعة		
أفرأيتم ماتمنون	٥٨	٥٠٦
أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون	٥٩	٥٠٦
أفرأيتم ماتحرثون	٦٣	٥٠٦
أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون	٦٤	٥٠٦
سورة الحديد		
هو الأول والآخر والظاهر والباطن	٣	١٠٧١
آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا	٧	٥٦٣
سورة المجادلة		
ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا	١١	٧٦٠
لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله	٢٢	١٣٣٨
سورة الصف		
ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم	١٠	١٦٨٢
تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله	١١	١٦٨٢
سورة المنافقون		
وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت	١٠	٥٦٢

الآيــة		رقمها الصفحة
سورة الملك		
هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها	١٥	٨٧١
ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير	١٩	٥١٣
سورة القلم		
ن . والقلم ومايسطرون	١	٧٦٠
سورة الحاقة		
وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية	٦	٤١٦
سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما	٧	٤١٦
فهل ترى لهم من باقية	٨	٤١٦
سورة المعارج		
والذين فى أموالهم حق معلوم	٢٤	٥٥٨
للسائل والمحروم	٢٥	٥٥٨
سورة نوح		
ومكروا مكرا كبارا	٢٢	٤١٥
وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتزرن ودا ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسرا	٢٣	٤١٥
سورة الإنسان		
إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا	٢٩	١١٣٠
وماتشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما	٣٠	١١٣٠

الآيــة		رقمها الصفحة
سورة النبأ		
ألم نجعل الأرض مهادا	٦	٥١٤
والجبال أوتادا	٧	٥١٤
وخلقناكم أزواجا	٨	٥١٤
وجعلنا نومكم سباتا	٩	٥١٤
وجعلنا الليل لباسا	١٠	٥١٤
وجعلنا النهار معاشا	١١	٥١٤
وبنينا فوقكم سبعا شدادا	١٢	٥١٤
وجعلنا سراجا وهاجا	١٣	٥١٤
وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا	١٤	٥١٤
لنخرج به حبا ونباتا	١٥	٥١٤
وجنات ألفافا	١٦	٥١٤
سورة الإنفطار		
إذا السماء انفطرت	١	٤٥٠
سورة البروج		
والسماء ذات البروج	١	٥١٦
سورة الغاشية		
فذكر إنما أنت مذكر	٢١	٧٠٧
لست عليهم بمصيطر	٢٢	٧٠٧
سورة الفجر		
وتحبون المال حبا جما	٢٠	٥٦٠

الآيـــة		رقمها الصفحة
سورة التين		
لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم	٤	٢٦٤
سورة العلق		
اقرأ باسم ربك الذى خلق	١	٧٦٠
خلق الإنسان من علق	٢	٧٦٠
اقرأ وربك الأكرم	٣	٧٦٠
الذى علم بالقلم	٤	٧٦٠
علم الإنسان مالم يعلم	٥	٧٦٠
سورة الزلزلة		
فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره	٧	٨٥٨
ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره	٨	٨٥٨

فهرس الأحاديث الشريفة
مرتبة على الحروف

الحديث	الصفحة
(أ)	
إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم	٨٢٤
الدين النصيحة	٧٤١
اسمعوا وأطيعوا	٨٢٦
السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره	٨٢٦
اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه	٦٧٢
أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله	٥٥٩
المسلمون شركاء فى ثلاث	٥٦٨
إن إخوانكم خولكم	٨٦٢
إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة	٤٥٢
(ب)	
بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا	٨٢٦
بعثت بجوامع الكلم	١٣٤٢، ١٣٤٣
(خ)	
خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش	٥٨٤
(ف)	
فمن رغب عن سنتى فليس منى	٥٨٤

الحديث	الصفحة
(ك)	
كل المسلم على المسلم حرام	٦٧٠
كلكم راع ومسئول عن رعيته	٨٦٤
كل مال نحلته عبدا حلالا	٤٥٤
(ل)	
لأن يأخذ أحدكم أحبلا فيأخذ حزمة من حطب فيبيع	٨٥٩
لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا	٥٦٠
(م)	
ماأكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده	٨٥٩
مامن مولود إلا يولد على الفطرة	٢٣٠
من رأى منكم منكرا فليغيره	٧٤١
من سلك طريقا يطلب منه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة	٧٦١
من قتل دون ماله فهو شهيد	٦٧١
من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية	٨٢٣
(ى)	
يامعشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج	٥٨٣

فهرس الأعلام المترجم لهم [١]

الاسم	الصفحة
(أ)	
ابيقور	٣٦٠
إسحاق نيوتن	٩٧
آسية بنت مزاحم	٥٣٧
أفلاطون	١١٤
اندروبوف	١٢١٨-١٢١٩
أوجست كومت	٢٤٩
(ب)	
بابك الخرمى	١٢٧
بابيف	١٤٥
بدماير	١٧٤
برنشتين	١٥٧-١٥٨
برونو	٩٦
بريجنيف	١٢١٤
بولس	١٠
بيكون	١٠٧

(١) اكتفيت بذكر رقم الصفحة التى وردت بها الترجمة .

الاسم	الصفحة
(ت)	
تروتسكى	٨٤
ترومان	٣٠٨
تشرشل	١٣٦٧
تشرنينكو	١٢٢٣-١٢٢٤
توماس مور	١٤١
تيودور هرتزل	٢٦٨
(ج)	
جاليليو	٩٧
جودين	٦٦٠
جون لوك	١٨٠
(خ)	
خروشوف	١١٩٩-١٢٠٠
(د)	
دارون	٢٥٧
ديكارت	١٠٢
ديموقريطس	٣٥٩
(ر)	
روبرت أوين	١٥١
روزفلت	٢٩٢

الاسم	الصفحة
ريكاردو	٢٥٤
(ز)	
زرادشت	١٣٦
(س)	
سان سيمون	١٤٨
سبنسر	٣٦٢
ستالين	١١٨١
(ش)	
شارل فوريه	١٥٠
شوبنهاور	٣٦١
شيلنج	٣٥٣
(ع)	
السلطان عبد الحميد	٢٧٤
عبد الرحمن بن عوف	٥٣٧
عثمان بن عفان	٥٣٧
(غ)	
غورباتشوف	١٢٢٦

الاسم	الصفحة
(ف)	
فردريك انجلز	٢٤٠-٢٤١
فيشته	٣٥٢
فيورباخ	٣٦٤
(ق)	
قسطنطين	١٦
قطز	١٣٤٤
(ك)	
كابتزا	٨٦٩
كالفن	٥٩
كامبانيلا	١٤٣
كامينيف	٢٩٣
كانت	١٠١
كاوتسكى	١٧٦
كوبرنيكوس	٩٦
كوجلمان	٢٤٦
كومت	١٠٥
(ل)	
لينين	١١٥٤

الاسم	الصفحة
(م)	
مابلى	١٤٤
مارتن لوثر	٥٦
مانى	١٣٦
محمد بن عبدالوهاب	٥٢٥
محمد داود	١٧٠٢
محمد ظاهر شاه	١٧٠٠
محمد وست خان	١٦٩٣
مورلى	١٤٣
ميخايلوفسكى	٣٧٧
(ن)	
نادر خان	١٧٠٠
نجيب الله	١٧١٣
نور محمد تراقى	١٧٠٧
نيتشه	٣٦٢
(هـ)	
هس	٦١
هوبز	٣٦٠
هيوم	٣٦١
(و)	
وكليف	٦١

فهرس الأديان والمذاهب والفرق

	الصفحة
البابكية	١٣٨
الباطنية	١٢٦
الشيوعية	١٦٢
الإشتراكية	١٩٤
الصهيونية	٢٧١
القرامطة	١٢٩
الماركسية	١٦٢
الماسونية	٢٩١-٢٩٢
المذهب التجريبى	١٠٦
المزدكية	١٢٠
المسيحية	١٠
اليهودية	٧

فهرس بعض المصطلحات الشيوعية

البروليتاريا	١٧٢
البيريسترويكا	١٢٤٢
الأممية	٢١٦
التأميم	٢٠٦
التحريفية	٢١٩
دكتاتورية البروليتاريا	١٧٢
الشوفينية	٢٢١
الطوباوية	١٤٠
الغلاسنوست	١٢٤٤
الفابية	١٥٩
الانتهازية	٢١٩

فهرس المراجع والمصادر

(١) القرآن الكريم .
(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ، مجموعة من العلماء الأمريكان ، ترجمة د. الدمرداش عبد المجيد سرحان ، دار العلم ، بيروت ، لبنان .
(٣) الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، د. جمعةالخولى ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .
(٤) أجنحة المكر الثلاثة ، عبد الرحمن الميدانى ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
(٥) أحجار على رقعة الشطرنج ، وليام غاى كار ، ترجمة سعيد جزائرى ، الطبعة الثانية عشرة ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .
(٦) احذروا الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام ، د. سعد الدين صالح ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع.
(٧) الأحكام السلطانية ، الماوردى ، دار الفكر .
(٨) الأخوة الزائفة ، جاك تنى ، ترجمة أحمد اليازورى ، الطبعة الخامسة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .
(٩) الأدلة والقواطع والبراهين فى إبطال أصول الملحدين ، عبد الرحمن الناصر بن سعدى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزئع .
(١٠) آراء غربية فى مسائل شرقية ، عمر فاخورى ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٥م بيروت .
(١١) أركان حقوق الإنسان ، د. صبحى المحمصانى ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩م ، دار العلم للملايين ، بيروت .
(١٢) أزمتنا الحضارية فى ضوء سنة الله فى الخلق ، د. أحمد كنعان ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ ، طبع رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر .

(١٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، ابن الأثير ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
(١٤) أسس الإقتصاد ، أبو الأعلى المودودى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .
(١٥) الاستخبارات السوفيتية فى العالم ، كريستوفر اندرو ، اوليغ غورديسكى ، ترجمة هنادى السمرا ، رينا شربل ، نادر عسيران ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار الحقيقة للطباعة والنشر .
(١٦) استرايتيجية التنمية السوفتيية الجديدة ، بسام خليل ، ١٩٨٦م ، دار الفارابى ، بيروت ، لبنان .
(١٧) الاستراتيجية الإسرائيلية ، د. غازى إسماعيل ربابعه ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، مكتبة المنار ، الأردن ، الزرقاء .
(١٨) استيقاظ آسيا ، لينين ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٠م .
(١٩) أسرار الإنقلاب العثمانى ، مصطفى طوران ، ترجمة كمال خوجه ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة .
(٢٠) إسرائيل إلى أين ، ناحوم غولدمان ، ترجمة د. نسيم الخورى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م/١٤٠٥هـ ، دار المشرق العربى الكبير ، بيروت .
(٢١) الأسرة فى الإسلام ، د. مصطفى عبد الواحد ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار البيان العربى ، جدة .
(٢٢) إسلام لاشيوعية، د. عبد المنعم النمر ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، دار غريب للطباعة ، القاهرة .
(٢٣) الإسلام أثره فى الحضارة وفضله على الإنسانية ، أبو الحسن الندوى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، دار المنارة للنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية .
(٢٤) الإسلام دين الفطرة ، إبراهيم الجبالى ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م مكتبة الهدى ، حلب .

(٢٥) الإسلام فى السنغال ، أحمد التيجانى سى ، دار مكتبة الحياة ، بيروت.
(٢٦) الإسلام فى جه الزحف الأحمر ، محمد الغزالى ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، صيدا .
(٢٧) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية ، البهى الخولى ، دار الفتح .
(٢٨) الإسلام وأزمة الغرب ، رجاء جارودى ، ترجمة د. رفيق المصرى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع .
(٢٩) الإسلام والمناهج الإشتراكية ، محمد الغزالى ، الطبعة الثانية ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .
(٣٠) الإسلام وحقوق الإنسان ، د. القطب محمد القطب ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار الفكر العربى .
(٣١) الإسلام ومشكلات الحضارة ، سيد قطب ، الطبعة التاسعة ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، دار الشروق .
(٣٢) الإسلام يتحدى ، وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، د. عبد الصبور شاهين ، الطبعة الأولى ، المختار الإسلامى .
(٣٣) الإسلام يرفض الشيوعية ، د. محمد عبد المنعم خفاجى ، دار المنار للنشر والتوزيع .
(٣٤) الإسلام يقينا لاتلقينا ، د. صابر طعيمة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، دار الجيل ، بيروت .
(٣٥) الإسلام ومبادىء نظام الحكم ، د. عبد الحميد متولى ، منشأة المعارف بالاسكندرية .
(٣٦) الأشباه والنظائر ، السيوطى ، الطبعة الأخيرة ، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م ، شركة مطبعة مصطفى الحلبى ، مصر .
(٣٧) إشتراكيتهم وإسلامنا ، بشير العوف ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٦م ، مؤسسة الإنتاج الطباعى ، بيروت .
(٣٨) الإشتراكية البناءة، هنرى ده مان ، ترجمة غياث حجار ، ١٩٦٢م ، دار الاتحاد ، بيروت .

(٣٩) الإشتراكية العربية ، يحي الجمل ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م ، دار المسيرة بيروت .
(٤٠) الإشتراكية على مشارف القرن الواحد والعشرين ، مجموعة من المؤلفين ترجمة منير غانم ، حسن خضر ، وليد الهليس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م ، دار البراق للنشر ، تونس .
(٤١) الإشتراكية فى التجارب العربية ، طائفة من المفكرين ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥م ، دار الكتاب الجديد .
(٤٢) الإشتراكية والحرب ، ادوارد كارول ، نقله للعربية موريس صقر ، الطبعة الأولى ، ١٩٦١م ، دار العلم للملايين ، بيروت .
(٤٣) أصل الأنواع ، تشارلز داروين ، ترجمة إسماعيل مظهر ، مكتبة النهضة ، بيروت .
(٤٤) إصلاح إجتماعى أم ثورة ، روزا لوكسمبورغ ، دار دمشق للطباعة والنشر .
(٤٥) الأصول الوثنية للمسيحية ، إدغارويند ، كارل غوستاف يونغ ، ترجمة سميرة عزمى الزين ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، منشورات المعهد الدولى للدراسات الإنسانية .
(٤٦) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، الإمام ابن القيم ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، لبنان .
(٤٧) الأعمال العربية الكاملة ، أمين الريحانى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
(٤٨) إغاثة اللهفان ، ابن القيم ، دار الفكر .
(٤٩) الأفعى اليهودية فى معاقل الإسلام ، عبد الله التل ، الطبعة الثانية ، المكتب الإسلامى ، بيروت .
(٥٠) أفغانستان ، محمود شاكر ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، المكتب الإسلامى ، بيروت .

(٥١) أفغانستان الجرح والأمل ، د. عبد القادر طاش ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار حافظ للنشر والتوزيع ، جدة .
(٥٢) الأفغان الحمر ، أحمد موفق زيدان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، مطابع اخوان ، جدة .
(٥٣) أفغانستان والإجتياح الروسى ، محمود المرداوى ، شركة الشعاع للنشر الكويت .
(٥٤) أفكار ماركسية فى الميزان ، طارق حجى ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، مطبوعات الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية .
(٥٥) إفلاس الأممية الثانية ، لينين ، ١٩٧٠م ، دار التقدم ، موسكو .
(٥٦) أفلاطون فى الإسلام ، د. عبد الرحمن بدوى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع .
(٥٧) إقتصادنا ، محمد باقر الصدر ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار التعارف للمطبوعات بيروت .
(٥٨) الإقتصاد الإسلامى مبادىء وأهداف ، د. عبد الله الطريقى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ ، توزيع مكتبة الحرمين .
(٥٩) الاكتساب فى الرزق المستطاب ، محمد بن الحسن الشيبانى ، تحقيق محمود عرنوس ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان .
(٦٠) الإمامة العظمى ، د. عبد الله بن عمر الدميجى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٩هـ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض .
(٦١) الإمبراطورية الرومانية ، النظام الإمبراطورى ومصدر الرومانية ، د. مصطفى العبادى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٨١م .
(٦٢) الأمريكيون ، ميشال جوبيرا ، ترجمة وجيه البعينى ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس .
(٦٣) أملى ، رايسا غورباتشوف ، كتاب الشرق الأوسط ، الشركة السعودية للأبحاث والنشر .

(٦٤) انتى دوهرنغ ، فردريك انجلز ، ترجمة فؤاد أيوب ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨١م ، دار دمشق للطباعة والنشر .
(٦٥) الإنسان بين المادية والإسلام ، محمد قطب ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، دار الشروق .
(٦٦) الإنسان ذلك المجهول ، اليكس كاريل ، تعريب شفيق أسعد ، ١٩٨٤م مكتبة المعارف ، بيروت .
(٦٧) الإنسان فى ظل الأديان ، د. عمارة نجيب ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م ، مكتبة المعارف ، الرياض .
(٦٨) الإنسان فى القرآن الكريم ، العقاد ، المكتبة العصرية ، بيروت .
(٦٩) الإنسان وحريته فى الإسلام ، د. محمود بابللى ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
(٧٠) الأنظمة السياسية المعاصرة ، د. يحيى الجمل ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت .
(٧١) الإنقلاب ، ميخائيل غورباتشوف ، ترجمة د. سامى عمارة ، الشركة السعودية للأبحاث والنشر .
(٧٢) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام ، د. سعد الدين صالح ، ١٩٨٩م ، دار الأرقم .
(٧٣) الإنهيار (إنهيار الشيوعية) ، سامى محمد الدلال ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، دار المؤتمن للنشر والتوزيع .
(٧٤) أوروبا فى بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، د. عبد المجيد نعنعى ، ١٩٨٣م ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت .
(٧٥) أوضاعنا السياسية ، عبد القادر عوده ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

(٧٦) بالسيف أمريكا وإسرائيل ، ستيفن غرين ، ترجم بإشراف محمود زايد الطبعة الثانية ، ١٩٨٩م/١٤٠٩هـ ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، لبنان .

(٧٧) البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، تحقيق مجموعة من الأساتذة ، دار الريان للتراث .

(٧٨) بروتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة محمد خليفة التونسى ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان .

(٧٩) بشائر الإيمان فى جهاد الأفغان ، أحمد بن عبد العزيز الحصين ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م/١٤٠٧هـ ، مكتبة البخارى .

(٨٠) بصدد الجملة الثورية ، لينين ، ١٩٦٨م ، دار التقدم ، موسكو .

(٨١) بطولة المرأة المسلمة ، بنت الهدى ، دون ذكر لمعلومات الطبع أو النشر .

(٨٢) بنية الثورات العلمية ، توماس كولين ، ترجمة شوقى جلال ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٦٨ ، الكويت .

(٨٣) بؤس الفلسفة ، نقله إلى العربية حنا عبود ، دار دمشق للطباعة والنشر.

(٨٤) الباين الشيوعى ، الشركة اللبنانية لكتاب بيروت ، لبنان .

(٨٥) البيريسترويكا من منظور إسلامى ، فتحى يكن ، منى حداد ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

(٨٦) بين الدين والعلم ، عبد الرزاق نوفل ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة .

(٨٧) تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر .

(٨٨) تاريخ الأمم والملوك ، ابن جرير الطبرى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

(٨٩) تاريخ الثورة الفرنسية ، ألبير سوبول ، ترجمة جورج كوسى ، الطبعة الرابعة ، منشورات البحر المتوسط ، بيروت ، باريس .

(٩٠) تاريخ الحضارة الإسلامية ، ف.بارتولد ، ترجمة حمزة طاهر ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٥م ، دار المعارف ، القاهرة .

(٩١) تاريخ الديالكتيك ، الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ، مجموعة من المؤلفين، ترجمة د. نزار عيون السود ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م ، دار دمشق للطباعة والنشر .

(٩٢) التاريخ الدبلوماسى ، ج.ب. دروزيل ، تعريب د.نور الدين ، حاطوم ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الفكر ، دمشق .

(٩٣) التاريخ العسكرى ، د. طلال عامر المهتار ، دون ذكر لمعلومات الطبع أو النشر .

(٩٤) تاريخ الفكر الإقتصادى ، د. شقير لبيب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر .

(٩٥) تاريخ الفلسفة اليونانية ، يوسف كرم ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٩٦) التاريخ اليونانى ، د. عبد اللطيف أحمد على ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦م .

(٩٧) تاريخ النظريات الإقتصادية ، مجموعة من المؤلفين السوفييت ، ترجمة ماجد البطح ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، دار دمشق للطباعة والنشر .

(٩٩) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥م ، دانيال دافيز ، نورمان لنجر ، ترجمة عبد العليم الأبيض ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، الدار الدولية للنشر والتوزيع .

(٩٩) التبيان فى أقسام القرآن ، الإمام ابن القيم ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .

(١٠٠) تجربة عربى فى الحزب الشيوعى ، قدرى قلعجى ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار الكتاب العربى ، بيروت .

(١٠١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف ، ارنست ماندل ، ترجمة بولا الخورى ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م ، دار الواحة ، بيروت ، لبنان .

(١٠٢) الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف ، ارنست ماندل ، ترجمة كميل داغر ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م ، دار الفارابى ، بيروت ، لبنان .
(١٠٣) التحالف بين العمال والفلاحين ، لينين ، دار التقدم ، موسكو .
(١٠٤) تحت راية الإسلام ، نجيب الكيلانى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .
(١٠٥) التحدى العالمى ، جان جاك شرايبر ، ترجمة فيكتور سحاب ، إبراهيم العريس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
(١٠٦) التضليل الإشتراكى ، د. صلاح المنجد ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥م ، دار الكتاب الجديد .
(١٠٧) التطور والثبات فى حياة البشرية ، محمد قطب ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الشروق .
(١٠٨) تعاليم الماركسية ، انجلز ، ترجمة فواز طرابلسى ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٧م ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .
(١٠٩) التعليم فى الاتحاد السوفييتى ، كاونتس ، ترجمة محمد بدران ، مكتبة الأنجلو المصرية .
(١١٠) تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ، دار الدعوة .
(١١١) تقرير من أفغانستان ، جيرار شاليان ، ترجمة أميرة ، كيوان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م ، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .
(١١٢) تكوين الصهيونية ، خالد الشقطينى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦م ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
(١١٣) تلبيس ابليس ، ابن الجوزى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
(١١٤) التملك فى الإسلام ، حمد الجنيدل ، عالم الكتب ، الرياض .

(١١٥) التنظيم الدولى ، د. الشافعى محمد بشير ، ١٤١٠هـ/١٩٨٠م ، مكتبة الجلاء الجديدة .

(١١٦) تهافت الفكر المادى التاريخى ، د. محمد البهى ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، متبة وهبة .

(١١٧) التوراة تاريخها وغاياتها ، ترجمة سهيل ديب ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار النفائس ، بيروت .

(١١٨) التيارات السياسية المعاصرة ، د. عبد الحميد البطريق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت .

(١١٩) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى ، ١٤١٠هـ ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .

(١٢٠) الثنائية الدولية ، د. دعد بوملهب عطا الله ، ١٩٩١م ، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان .

(١٢١) الجاسوسية والجاسوسية المضادة ، بليدو فسكاوبلوخ ، ترجمة حكمت البعينى ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢م ، منشورات البحر المتوسط ، بيروت لبنان .

(١٢٢) جامع بيان العلم وفضله ، ابن عبد البر ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .

(١٢٣) جاهلية القرن العشرين ، محمد قطب ، الطبعة الثانية عشرة ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، دار الشروق .

(١٢٤) جذور البلاء ، عبد الله التل ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

(١٢٥) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين، محمد على يوسف ، ١٩٦٦م ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

(١٢٦) جمهورية أفلاطون ، نقلها إلى العربية حنا خباز ، دار أسامة ، دمشق بيروت .

(١٢٧) الجهاد الأفغانى ودلالاته ، محمد قطب ، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، جدة .

(١٢٨) جهود المفكرين المسلمين المحدثين فى مقاومة التيار الإلحادى ، د. محمود عبد الحليم عثمان ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، مكتبة المعارف ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

(١٢٩) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق مجدى قاسم ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، توزيع مكتبة البلد الأمين .

(١٣٠) الأجور والأسعار والأرباح ، كارل ماركس ، دار التقدم ، موسكو .

(١٣١) حاضر العالم الإسلامى ، د. على جريشة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، جدة .

(١٣٢) الحجاب ، أبو الأعلى المودودى ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .

(١٣٣) حذار لاهم تقدميون ولاعلميون ولاموضوعيون ، مصطفى محمود ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .

(١٣٤) الحرب ، محمد أسد الله صفا ، الطبعة الثانية ، دار الرؤية العلمية للطباعة والنشر .

(١٣٥) الحرب الثورية الشيوعية ، صلاح نصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م ، الوطن العربى .

(١٣٦) الحرب العالمية الثالثة ، جون هاكيت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر .

(١٣٧) الحرب العالمية الثالثة ، الجنرال فيكتور فرنر ، ترجمة د. هيثم الكيلانى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

(١٣٨) الحرب العالمية الثانية ، رمضان لاوند ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية عشرة ، ١٩٨٨م .
(١٣٩) حرب الفلاحين فى المانيا ، فدردريك انجلز ، تعريب محمد أبو خضور دار دمشق للطباعة والنشر .
(١٤٠) الحرب فى الفضاء ، اللواء خضر الدهراوى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م دا رالمريخ للنشر ، الرياض .
(١٤١) حرب المخابارت بين المخابرات الأمريكية والروسية ، سيلينا بليدوسكا وجوناثان بلوتش ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، دار الرشيد ، دمشق .
(١٤٢) حرب المائة ثانية ، بيير غالوا ، ترجمة جبرائيل بيطار ، الطبعة الاولى ١٩٨٨م ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق .
(١٤٣) حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق ، اللواء الكرن عبد الله سيد أحمد ، العميد الركن طلعت نورى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .
(١٤٤) الحرب النفسية ، د. أحمد نوفل ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع .
(١٤٥) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام ، فتحى يكن ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .
(١٤٦) الحركات الباطنية فى العالم الإسلامى ، د. محمد أحمد الخطيب ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، مكتبة الأقصى للنشر والتوزيع .
(١٤٧) الحريات العامة فى الإسلام ، محمد سليم محمد ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع ، الاسكندرية .
(١٤٨) الحسبة فى الإسلام ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، دار الفكر ، بيروت .
(١٤٩) الحضارة الأوربية فى القرن التاسع عشر ، جيفرى برون ، ترجمة عبلة حجاب ، منشورات المكتبة الأهلية ، بيروت .
(١٥٠) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى ، ليونهارد ، نقله للعربية محمد شامه الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، مكتبة وهبة .

(١٥١) حقيقة الشيوعية ، إعداد أمين شاكر ، سعيد العريان ، على أدهم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر .
(١٥٢) الحقيقة الكاملة عن سقوط الثورات الإشتراكية ، إعداد محمد عبدالرؤوف ، محمد نصيرات ، سعيد كامل .
(١٥٣) حقيقة المواقف الشيوعية من القضية الفلسطينية ، عابد سليمان المشوخى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، مكتبة المنار ، الأردن ، الزرقاء .
(١٥٤) حقيقة اليهود ، فؤاد سيد الرفاعى ، دار صلاح الدين .
(١٥٥) حكم الإسلام فى الإشتراكية ، عبد العزيز البدرى ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م ، الكمتبة العلمية ، المدينة المنورة .
(١٥٦) حكومة العالم الخفية ، سبيريدوفيتش ، ترجمة مأمون سعيد ، الطبعة التاسعة ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع .
(١٥٧) الحلف الأطلسى والشرق الأوسط ، مروان بحيرى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، لبنان .
(١٥٨) حروب التدخل الأمريكية، ريتشارد بارنت ، ترجمة منعم النعمان ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤م ، دار ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع .
(١٥٩) حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون ، عبد الحليم خفاجى ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، دار القلم ، الكويت .
(١٦٠) حول الصحافة ، لينين ، جمع جولو فانوفا أوفسيبيان ، أعدها للعربية فخرى كريم ، دار الفارابى .
(١٦١) خرافة الإشتراكية الجيدة والرديئة ، د.جيرفوف ، تعريب أكرم سليمان ١٩٧٨م ، دار الفارابى .
(١٦٢) خصائص التصور الإسلامى ، سيد قطب ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية .
(١٦٣) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، عبد الله التل ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، المكتب الإسلامى .

(١٦٤) درء تعارض العقل والنقل ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم .

(١٦٥)دراسات فى تطور الرأسمالية ، مورس دوب ، تعريب د. رؤوف عباس حامد ، دار الكتاب الجامعى .

(١٦٦)دراسات فى الإقتصاد السياسى ، عيسى عبده ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م .

(١٦٧) دراسات قرآنية ، محمد قطب ، الطبعة السادسة، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار الشروق .

(١٦٨) دراسات متميزة فى العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور ، د. يوسف على الثقفى ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

(١٦٩) دروس تربوية من القرآن الكريم ، محمد قطب ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، المجموعة الإعلامية ، مكتبة المأمون .

(١٧٠)دعوة الرسل إلى الله تعالى ، محمد أحمد العدوى ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

(١٧١)دفاعا عن الماركسية ردا على مختلف منتقديها ، موريس كورنفورث ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م ، دار الفارابى ، بيروت .

(١٧٢) دوام حق الملكية ، د. عبد الرزاق فرج ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

(١٧٣) دور الدول الإشتراكية فى تكوين إسرائيل ، إبراهيم الشريقى ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

(١٧٤) دور الماركسية فى الإشتراكية العربية ، د. عمر حليق ، الطبعة الأولى ١٩٦٥م ، دار الكتاب الجديد .

(١٧٥) الدولة والثورة ، لينين ، ترجمة الياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو .

(١٧٦) الدين أو اللادينية ، د. محمد ناصر ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م الدار السعودية للنشر والتوزيع .

(١٧٧) الديموقراطية والحرية ، حافظ صالح ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م دار الفتح ، بيشاور ، باكستان .

(١٧٨) ديالكتيك الطبيعة ، فردريك انجلز ، ترجمة توفيق سلوم ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م ، دار الفارابى ، بيروت ، لبنان .

(١٧٩) رأس المال ، ماركس ، ترجمة محمد عيتانى ، ١٩٨١م ، مكتبة المعارف بيروت .

(١٨٠) الرأسمالية وموقف الإسلام منها ، د. حمود بن أحمد الرحيلى ، النشرة الأولى ، ١٤١٥هـ ، دار العاصمة للنشر والتوزيع ، الرياض .

(١٨١) الرد على الجهمية ، الإمام ابن منده ، تحقيق د. على ناصر الفقيهى ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة النبوية.

(١٨٢) رسائل حول التكتيك ، لينين ، ترجمة الياس شاهين ، دار التقدم ، ١٩٧٣م .

(١٨٣) رسائل فى العقيدة ، الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ، الرياض .

(١٨٤) روح الدين الإسلامى ، عبد الفتاح طبارة ، توزيع دار العلم للملايين بيروت ، لبنان .

(١٨٥) الروس قادمون ، إبراهيم سعده ، الطبعة الرابعة ، المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر بالإسكندرية .

(١٨٦) زاد المعاد فى هدى خير العباد ، الإمام ابن القيم ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، عبد القادر الأرناؤوط ، الطبعة الخامسة عشر ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

(١٨٧) سادات الماركسية ، حسين أحمد صبرا ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م ، منشورات الشراع .

(١٨٨) ستالين ، بسام العسلى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر .

(١٨٩) السرطان الأحمر ، د. عبد الله عزام ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، مكتبة الجيل الجديد بصنعاء ، الجمهورية العربية اليمنية .
(١٩٠) سقوط الماركسية ، وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م ، دار الصحوة للنشر .
(١٩١) السلوك لمعرفة دول الملوك ، أحمد بن على المقريزى ، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٧م ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(١٩٢) سنن أبى داود ، مراجعة محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الباز للنشر والتوزيع ، المروة ، مكة المكرمة .
(١٩٣) سنن الترمذى (الجامع الصحيح) ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، لبنان ، بيروت .
(١٩٤) سنن الله فى المجتمع من خلال القرآن ، محمد الصادق عرجون ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .
(١٩٥) السنن الإلهية فى الحياة الإنسانية (رسالة دكتوراه) ، د.شريف الشيخ صالح ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
(١٩٦) السوفييت وقضية فلسطين ، د. محمد ناصر المهنا ، دار المعارف .
(١٩٧) السياسة السوفيتية فى قوس الأزمة ، فردهاليداى ، ترجمة عفيف الرزاز ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م ، مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت ، لبنان .
(١٩٨) السياسة الصناعية لمجتمع الحرب الصهيونى ، إعداد قسم الدراسات ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م/١٤٠٢هـ ، منشورات فلسطين المحتلة .
(١٩٩) سير أعلام النبلاء ، الإمام الذهبى ، الطبعة السابعة ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .
(٢٠٠) سيرة حياة كارل ماركس ، مجموعة من المؤلفين السوفييت ، ١٩٧٨م ، دار الفارابى ، بيروت .

(٢٠١) السيرة النبوية ، ابن هشام ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان .
(٢٠٢) الشتاء النووى ، مارك أهارول ، دار الراقى ، بيروت .
(٢٠٣) صحيح مسلم بشرح النووى ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م .
(٢٠٤) الصراع على السيادة فى أوروبا ، تايلبير ، ترجمة د. كاظم هاشم نعمت ، د. يونيل يوسف عزيز .
(٢٠٥) الصهيونية والنازية ، دراسة مقارنة ، د. محمد الدسوقى ، عبد التواب سلمان ، ١٩٦٨م ، دار المعارف ، مصر .
(٢٠٦) الصهيونية وربيبتها إسرائيل ، عمر رشدى ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ، دار القلم ، الكويت .
(٢٠٧) صوت المنبر ، محمد الحجار ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦هـ ، دار الصابونى .
(٢٠٨) الشخصية اليهودية من خلال القرآن ، د.صلاح عبد الفتاح الخالدى الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق .
(٢٠٩) شرح العقيدة الطحاوية ، على بن أبى العز ، تحقيق شعيب الأرناؤوط الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، دار البيان ، دمشق .
(٢١٠) شفاء العليل ، ابن القيم ، دار التراث ، القاهرة .
(٢١١) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكه ، ترجمة فاروق بيضون ، كمال دسوقى ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت .
(٢١٢) شهادتى للتاريخ ، عبد القوى مكاوى ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩م .
(٢١٣) الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه فى مباحث العقيدة ، د. آمنة محمد نصير ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الشروق ، بيروت .
(٢١٤) الشيوعية خلاصة كل ضروب الكفر والموبقات والشرور والعاهات ، أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢١٥) الشيوعية فى موازين الإسلام ، د. لبيب السعيد ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
(٢١٦) الشيوعية العلمية (المعجم) ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٥م .
(٢١٧) الشيوعية منشأ ومسلكا ، دندل جبر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م مكتبة المنار، الزرقاء ، الأردن .
(٢١٨) الشيوعية والأديان ، طارق حجى ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، مطبوعات الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية .
(٢١٩) الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها ، د. عبد الباقى عطا الله ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، دار المنار للنشر والتوزيع .
(٢٢٠) ضمانات الحرية ، د.منيب محمد ربيع ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، مكتبة المعارف ، الرياض ، السعودية .
(٢٢١) ضوابط الملكية فى الفقه الإسلامى ، عدنان خالد التركمانى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار المطبوعات الحديثة للطباعة والنشر ، المملكة العربية السعودية .
(٢٢٢) الطبقة الجديدة ، ميلوفان دجيلاس ، دار الكتاب العربى للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، لبنان .
(٢٢٣) الطريق الروسى إلى الإشتراكية ، يوجين فارغا ، ترجمة جورج طرابيشى ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧م ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت .
(٢٢٤) الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبى ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق .
(٢٢٥) عاجلا أوآجلا ستزول إسرائيل ، بقلم ١٥ كاتبا فرنسيا ، ترجمة ريمون نشاطى ، منشورات دار الآداب .
(٢٢٦) عالم الجاسوسية ، مجموعة من المؤلفين ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م ، دار الحسام للطباعة والنشر والتوزيع .
(٢٢٧) العالم الإسلامى والنظام الدولى ، نبيل زكى ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م ، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامى .

(٢٢٨) العالم فى القرن العشرين ، دانييل براور ، مركز الكتاب الأردنى ، ١٩٩٠م .
(٢٢٩) العدالة الإجتماعية ، سيد قطب ، الطبعة الشرعية الحادية عشرة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، دار الشروق .
(٢٣٠) العدل فريضة إسلامية، د. أسعد السحمرانى ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .
(٢٣١) العرب وإسرائيل صراع أم صلح ، أحمد ديدات ، ترجمة محمد مختار ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/١٩٩١م ، مكتبة النور ، مصر .
(٢٣٢) عسكرة الفضاء ، بول بى ، ترجمة على موسى الكاظمى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، دار الشئون الثقافية العامة .
(٢٣٣) عصر الإلحاد ، محمد تقى الندوى ، ترجمة د. مقتدى حسن ، دار الصحوة للنشر والتوزيع .
(٢٣٤) عصر المفوض السامى الأمريكى ، نصر شمالى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م ، دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .
(٢٣٥) عقم المذهب التاريخى ، كارل بوبر ، ترجمة عبد الحميد صبره ، ١٩٥٩م ، منشأة المعارف بالإسكندرية .
(٢٣٦) العقيدة الإسلامية سفينة النجاة ، د. كمال عيسى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة .
(٢٣٧) على الطريق ، طلال سلمان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م ، المركز العربى للمعلومات .
(٢٣٨) العلاقات الأمريكية السوفيتية ، صبرى مقلد ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، الكويت .
(٢٣٩) العلمانية ، د. سفر الحوالى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، مطابع جامعة أم القرى .
(٢٤٠) العلوم الطبيعية فى القرآن ، يوسف مره ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م ، دار مكتبة الهلال ، بيروت .

(٢٤١) عملية إعادة البناء ، ميخائيل غورباتشوف ، مجموعة من المترجمين ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩م ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .
(٢٤٢) العهد الجديد ، الطبعة الثانية ، ١٩٩١م ، دار المشرق ، بيروت .
(٢٤٣) العهد القديم ، الطبعة الثانية ، ١٩٩١م ، دار المشرق ، بيروت .
(٢٤٤) الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام ، د. على عبد الحليم محمود ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، أشرف على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
(٢٤٥) غورباتشوف صانع القرار وضحيته ، غيردروغ ، ترجمة يوسف ضومط ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م ، مكتبة بيسان ، بيروت .
(٢٤٦) غورباتشوف ونهج التحول الكبير ، د. رزق رزق ، ١٩٩١م ، دار بلال بيروت .
(٢٤٧) فتاوى عن الشيوعية ، د. عبد الحليم محمود ، الطبعة الثانية ، دار المعارف .
(٢٤٨) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، الحافظ ابن حجر ، دار المعرفة بيروت ، لبنان .
(٢٤٩) فتح القدير ، الإمام الشوكانى ، بيروت .
(٢٥٠) الفتح بالإرهاب ، ليلاند ستاوى ، ترجمة عيسى سابا .
(٢٥١) فترة من الإنفراج الدولى ، اندريه فونتين ، ترجمة موسى الزعبى ، ١٩٨٨م ، مطبعة الجاحظ ، دمشق .
(٢٥٢) فجر الإسلام ، أحمد أمين ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٩٧٥م ، شركة الطباعة الفنية .
(٢٥٣) الفرد والمجتمع فى الإسلام ، محمود الشرقاوى ، مكتبة الأنجلو المصرية .
(٢٥٤) الفرصة السانحة ، ريتشارد نيكسون ، ترجمة أحمد صدقى مراد ، دار الهلال .

(٢٥٥) الفـرق بين الفـرق ، عبـد القـادر البغـدادى ، دار المعـرفة للطبـاعة والنشر.
(٢٥٦) الفـروق ، القرافى ، دار المعـرفة للطباعة والنشـر ، بيروت ، لبنـان .
(٢٥٧) الفشـل الكبير ، زبنجـو بربجسنكى ، ترجمة ميشيـل سليمـان ، مركز المكتب الأردنى .
(٢٥٨) الفكر الدينى فى مواجهة العصر ، د. عفت الشرقاوى ، الطبعة الثانية ١٩٧٩م ، دار العودة ، بيروت .
(٢٥٩) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغـربى ، د. محمد البهى ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الناشر مكتبة وهبة .
(٢٦٠) الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر ، بول هـازار ، ترجمة د. محمد غلاب ، الطبعـة الثـانية ، ١٩٨٥م ، دار الحداثة للطبـاعة والنشـر والتوزيع .
(٢٦١) الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ، د. محمود عتمان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ، الدار الإسلامية للطباعة والنشر .
(٢٦٢) الفكـر المادى فى ميزان الإسلام ، د. صـابر طعيمـة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير ، بيروت ، لبنـان .
(٢٦٣) الفكر الماركسى ، د. صفوت حامد مبارك ، الطبعـة الأولى ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، عالم الكتب ، القاهرة .
(٢٦٤) فلسفتنـا ، محمد باقر الصدر ، الطبعة الثانية عشـر ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، التعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .
(٢٦٥) فلسفـة الأنوار ، جورج بوليتزر ، ترجمـة جورج طـرابيشى ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧م ، دارالطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .
(٢٦٦) فلسفـة الثورة الفرنسيـة ، برنارغروتويزن ، ترجمـة عيسى عصفور ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢م ، دار منشورات عويدات ، بيروت .
(٢٦٧) الفلسفة الإغريقية ، محمد غلاب ، الطبعة الأولى ، ١٩٣٨م ، القاهرة.

(٢٦٨) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر ، جماعة من العلماء السوفييت ، ترجمة د. حسان صدر ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، دار الفارابى ، بيروت ، لبنان .

(٢٦٩) الفلسفة المعاصرة فى أوروبا ، بوشنسكى ، ترجمة د. عزت قرنى ، سلسلة عالم المعرفة ١٦٥ ، الكويت .

(٢٧٠) فن الحرب ، اميل وانتى ، تعريب أكرم ديرى ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .

(٢٧١) فوق أطلال الماركسية ، محمد عبد الله الخطيب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، دار المنار الحديثة .

(٢٧٢) الفهرست ، ابن النديم ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

(٢٧٣) فى الاستعمار ، كارل ماركس ، فردريك انجلز ، ترجمة فؤاد أيوب ، دار دمشق للطباعة والنشر .

(٢٧٤) فى تاريخ الفلسفة اليونانية ، عوض الله حجازى ، محمد السيد ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٤هـ ، المطبعة المنيرية بالأزهر .

(٢٧٥) فى سبيل موسوعة فلسفية ، د. مصطفى غالب ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م ، دار مكتبة الهلال ، بيروت .

(٢٧٦) فى ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت .

(٢٧٧) القاموس المحيط ، الفيروزآبادى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢٧٨) القانون الدستورى والنظم السياسية ، د. عبد الحميد متولى ، د. سعد عصفور ، د. محسن خليل ، منشأة المعارف بالإسكندرية .

(٢٧٩) قصة الفلسفة اليونانية ، أحمد أمين ، زكى نجيب محمود ، الطبعة السابعة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢٨٠) قصة الملكية ، على عبد الواحد وافى ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م ، مكتبة نهضة مصر .

(٢٨١) القصة الدامية للغزو السوفييتى لأفغانستان ، عصام دراز ، دار الاعتصام .
(٢٨٢) قضايا هامة فى حاضر العالم الإسلامى ، محيي الدين القضمانى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، المكتب الإسلامى .
(٢٨٣) القنبلة الموقوتة والاستيطان ، مازن النقيب ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥م ١٤٠٥هـ ، دار المشرق العربى الكبير ، بيروت .
(٢٨٤) القوى العظمى بين شريعة الغاب وصراع الفيلة، د. حسن البزاز ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م ، دار الشئون الثقافية العامة .
(٢٨٥) كارل ماركس وداعا ، أم خداعا ، فؤاد شاكر ، الطبعة الأولى ، مكتبة التراث الإسلامى .
(٢٨٦) الكامل فى التاريخ ، ابن الاثير ، تحقيق على شيرى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٩م ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان .
(٢٨٧) كفاحنا فى مقاومة الشيوعية ، محمود عبد الوهاب ، دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع .
(٢٨٨) كواشف زيوف ، عبد الرحمن الميدانى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق .
(٢٨٩) الكيد الأحمر ، عبد الرحمن الميدانى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، دار القلم ، دمشق ، بيروت .
(٢٩٠) لسان العرب ، ابن منظور ، الطبعة الأولى ، دار صادر ، بيروت .
(٢٩١) لاشيوعية ولااستعمار ، العقاد ، دار الهلال .
(٢٩٢) لاللرأسمالية لاللماركسية ، نعم للإسلام ، هادى المدرسى ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .
(٢٩٣) لماذا رفضت الماركسية ، مصطفى محمود ، دارالعودة ، بيروت .
(٢٩٤) لمحات من تاريخ العالم ، جواهر لال نهرو ، نقله إلى العربية مجموعة من الأساتذة الجامعيين ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان.

(٢٩٥) لانزاع بين الدين والعلم ، د. عبد الحليم عويس ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار النفائس ، بيروت .
(٢٩٦) لينين ، مصطفى طلاس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر .
(٢٩٧) لينيننا ، دار التقدم ، موسكو .
(٢٩٨) مابعد الحرب الباردة، روبرت مكنمارا ، ترجمة محمد حسين يونس ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .
(٢٩٩) المبين فى بعض أحوال الإسلام والمسلمين فى الاتحاد السوفييتى ، عبد الحميد داغستانى ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة .
(٣٠٠) المادية والروحية فى الميزان ، د.سعد المرصفى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، مكتبة المعلا ، الكويت .
(٣٠١) المادية والمثالية ، مهدى الحافظ ، ١٩٧٤م ، دار الفارابى ، بيروت .
(٣٠٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوى ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
(٣٠٣) الماركسيات بعد ماركس ، بيار فافر ، ترجمة انطوان نجيم ، ١٩٨١م ، المنشورات العربية .
(٣٠٤) الماركسية بين النظريةوالتطبيق ، د. عبد المنعم النمر ، دار الأندلس للإعلام .
(٣٠٥) الماركسية قضايا أساسية ، بليخانوف ، ١٩٨٣م ، دار التقدم ، موسكو.
(٣٠٦) الماركسية وحرب العصابات ، مجموعة من المؤلفين ، ترجمة إبراهيم العابد ، ماهر كيالى ، الطبعة الأولى ، ١٩٧١م ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .
(٣٠٧) الماركسية والنزعة التحريفية ، لينين ، منشورات مكتبة عائد ، دمشق.

(٣٠٨) الماسونية ، سعيد الجزائرى ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، دار الجيل ، بيروت .
(٣٠٩) ماهى سلطة السوفييت ، لينين ، ١٩٧٠م ، دار التقدم ، موسكو .
(٣١٠) ماهى علاقة الأمة المسلمة بالأمم الأخرى ، أحمد محمود الأحمد ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨هـ ، المكتب الإسلامى ، بيروت .
(٣١١) ماوراء التاريخ ، وليام هاولز ، ترجمة د. أحمد أبو زيد ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر .
(٣١٢) المثالية والمادية وأزمة العصر ، د. عبد المنعم الحفنى ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧م ، مكتبة مدبولى ، القاهرة .
(٣١٣) مجد الأمم ، هيلين كاريرد انكوس ، ترجمة يوسف شلب الشام ، دار الحقيقة .
(٣١٤) مجموع الفتاوى ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م ، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، الرياض .
(٣١٥) محاضرات فى الندوة الدبلوماسية ، إشراف د. إبراهيم الغيص ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، وزارة الخارجية ، الإدارة العامة للشئون السياسية ، قسم البحوث والمعلومات .
(٣١٦) محاضرات فى النصرانية ، محمد أبو زهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ، دار الفكر العربى .
(٣١٧) المخابرات السوفيتية من الداخل ، فلاديمير كوزيشكن ، ترجمة شركة اورنتيال هاوس للخدمات الإعلامية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م ، قبرص.
(٣١٨) مختارات هيغل ، ترجمة الياس مرقص ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩م ، المكتبة الفلسفية .
(٣١٩) مختار الصحاح ، محمد بن أبى بكر الرازى ، المركز العربى للثقافة والعلوم .
(٣٢٠) المختارات ، لينين ، ترجمة الياس شاهين ، ١٩٧٥م ، دار التقدم ، موسكو .

(٣٢١) المخططات التلمودية ، أنور الجندى ، دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع .
(٣٢٢) المخطط السوفييتى لهزيمة حزيران ، د. محمد عزت نصر الله ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠م ، مؤسسة دار فلسطين للتأليف والترجمة .
(٣٢٣) مدخل إلى علم العلاقات الدولية ، د. محمد خلف ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، المركز الثقافى العربى .
(٣٢٤) مدخل لدراسة التاريخ الأوروبى ، د. محمد مخزوم ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس ، لبنان .
(٣٢٥) المدخل إلى تطبيق الماركسية فى الواقع العربى ، إحسان حراش ، ١٩٧٥م ، دار الحقيقة ، بيروت .
(٣٢٦) المدخل للتشريع الإسلامى ، د. محمد فاروق النبهان ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م ، دار القمة ، بيروت .
(٣٢٧) مذابح وجرائم محاكم التفتيش فى الأندلس ، محمد على قطب ، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة .
(٣٢٨) مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
(٣٢٩) المذاهب الإقتصادية الكبرى ، جورج سول ، ترجمة راشد البراوى .
(٣٣٠) المذاهب العسكرية فى العالم ، بسام العسلى ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .
(٣٣١) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ، عبد الرحمن عميرة ، الطبعة الرابعة ،١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض.
(٣٣٢) مذكرات شيفرنادزه ، ترجمة مازن محمد نفاع ، ١٩٩٢م ، دار معد للنشر والتوزيع .
(٣٣٣) مذكرات مونتغمرى ، ترجمة ن.البعلبكى ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .

(٣٣٤) مذكرات ونستون تشرشل ، تعريب خيرى حماد ، ١٩٦١م ، دار أسامة ، دمشق .
(٣٣٥) مراسلات ماركس انجلز ، ترجمة جورج طرابيشى ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .
(٣٣٦) المرأة فى التصور الإسلامى ، عبد المتعال ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار غريب للطباعة ، القاهرة .
(٣٣٧) المرأة ومكانتها فى الإسلام ، أحمد الحصين ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الصحابة الإسلامية ، السالمية ، الكويت .
(٣٣٨) مرض نفسى اسمه الشيوعية ، نبيل خالد ، مطبعة دار الوفاء ، المنصورة .
(٣٣٩) مرضى حكموا العالم ، اقتباس رشاد جميل فياض ، ١٩٩٤م ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان .
(٣٤٠) مسائل بناء الإشتراكية ، لينين ، دار التقدم ، موسكو .
(٣٤١) مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية ، أنور الجندى ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار العمير للثقافة والنشر ، جدة .
(٣٤٢) المسلمون أمام التحدى العالمى ، د. إحسان حقى ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .
(٣٤٣) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى ، شانتال ، بينغيش ، تعريب إحسان حقى ، مؤسسة الرسالة .
(٣٤٤) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى عبر التاريخ ، د. محمد على البار ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة ، جدة .
(٣٤٥) المسلمون فى تاريخ الحضارة ، ستانوودكب ، ترجمة محمد فتحى عثمان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة .
(٣٤٦) المسيح الأحمر الدجال ، فؤاد كرم ، ١٩٧٠م .

(٣٤٧) المسيحية نشأتها وتطورها ، شارلز جينبير ، ترجمة د. عبد الحليم محمود ، المكتبة العصرية ، بيروت .
(٣٤٨) مصادر الماركسية الثلاثة وأقسامها المكونة الثلاثة ، دار التقدم ، موسكو .
(٣٤٩) معالم الإشتراكية العربية ، حسين أبو الحسن ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م دار المسير للصحافة والطباعة والنشر .
(٣٥٠) معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية ، د. عبد الرحمن مليبارى ، ١٤١٤هـ ، مطبعة سفير ، الرياض .
(٣٥١) المعبود الذى هوى ، مجموعة من المؤلفين ، ترجمة عباس حافظ ، دار الكتب الحديثة .
(٣٥٢) المغنى ، ابن قدامة المقدسى ، مكتبة الجمهورية العربية ، مصر .
(٣٥٣) مقال فى العدل الإجتماعى ، د. عماد الدين خليل ، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .
(٣٥٤) مقالات وخطابات بمناسبة أعياد ثورة أكتوبر ، لينين ، ترجمة دار التقدم ، موسكو .
(٣٥٥) المقدمة ، عبد الرحمن بن خلدون ، دار الجيل ، بيروت .
(٣٥٦) الملل والنحل ، الشهرستانى ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
(٣٥٧) ملحمة الجهاد الأفغانى ، د. عدنان على رضا النحوى ، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ/١٩٩١م ، دار النحوى للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
(٣٥٨) الملكية فى الشريعة الإسلامية ، عبد السلام العبادى ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م ، مكتبة الاقصى ، عمان ، الأردن .
(٣٥٩) الملكية وضوابطها فى الإسلام ، د. عبد الحميد البعلى ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلى .
(٣٦٠) الملكية ونظرية العقد فى الشريعة الإسلامية ، د. أحمد فراج حسين ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الثقافة الجامعية .

(٣٦١) مناهج الشريعة الإسلامية ، أحمد محيي الدين العجوز ، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، مكتبة المعارف ، بيروت ، لبنان .

(٣٦٢) منهاج السنة النبوية ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(٣٦٣) منهج المتكلمين والفلاسفة المنتسبين للإسلام فى الاستدلال على وجود الله تعالى ، رسالة دكتوراه ، يوسف محمد الأحمد ، ١٤١٠-١٤١١هـ/ ١٩٩٠-١٩٩١م .

(٣٦٤) من الحرب الباردة حتى الوفاق ، كولن باون، وبيتر مونى ، تعريب صادق عودة ، الطبعة الأولى ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

(٣٦٥) من يجرؤ على الكلام ، بول فندلى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، لبنان .

(٣٦٦) موجز تاريخ الولايات المتحدة ، ألان نيفنز ، هنرى كوماجر ، ترجمة محمد بدر الدين خليل ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة .

(٣٦٧) الموجز فى الأديان والمذاهب المعاصرة ، ناصر القفارى ، ناصر العقل الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، دار الصميعى للنشر والتوزيع ، الرياض .

(٣٦٨) موسكو وإسرائيل ، د. عمر حليق ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧م ، الدار السعودية للنشر ، جدة .

(٣٦٩) موسكو فى طريقها إلى كابول ، محمد مزمل ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، دار المجتمع للنشر والتوزيع .

(٣٧٠) موسوعة أعلام الفلسفة ، إعداد رونى ايلى ألفا ، مراجعة د. جورج نخل ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

(٣٧١) موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ ، د. أحمد العوايشة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، المكتبة الإسلامية ، عمان الأردن .

(٣٧٢) موقف الإسلام والكنيسة من العلم ، عبد الله المشوخى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، مكتبة المنار .

(٣٧٣) موقف الدين من العلم ، د. على فؤاد باشكيل ، ترجمة أورخان محمد على ، ١٩٨٥م ، دار الوثائق ، الكويت .

(٣٧٤) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية ، رمسيس عوض ، مكتبة الأنجلو المصرية .

(٣٧٥) ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة ، أعده محرروا مجلة التايم الأمريكية ، ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م .

(٣٧٦) النار والجليد ، مجموعة من المؤلفين ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م ، دار الحسام للطباعة والنشر والتوزيع .

(٣٧٧) نحو إقتصاد إسلامى ، د. محمد شوقى فنجرى ، دار الزايدى للطباعة والنشر .

(٣٧٨) ندوات علمية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان فى الإسلام ، ١٩٧٣م ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت .

(٣٧٩) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، د. على النشار ، الطبعة السابعة ، ١٩٧٧م ، دار المعارف ، القاهرة .

(٣٨٠) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية ، ميشيل هيلير ، ترجمة د. نظير جاهل ، حسن الصنيقة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م/١٤١٢هـ ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، لبنان .

(٣٨١) نصوص حول الإضرابات ، لينين ، ترجمة إسماعيل محمود ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٥م ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .

(٣٨٢) النضال الطبقى فى فرنسا ، كارل ماركس ، دار التقدم ، موسكو .

(٣٨٣) نظـام الحيـاة فى الإسلام ، أبو الأعلى المودودى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .
(٣٨٤) النظـام الإقتصادى فى الإسلام ، د. أحمـد محمـد العسـال ، د. فتحى أحمـد عبد الكريم ، الطبعـة الثالثة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، مكتبـة وهبـة .
(٣٨٥) نظـرة شـاملة على السيـاسة الخارجيـة الأمـريكيـة ، بروسترك دينى ، ترجمة د. ودوده عبد الرحمن بدران ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١م ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، مصر .
(٣٨٦) نظرات فى الإشتراكية الثورية ، معروف الدواليبى ، الطبعـة الثانية ، ١٩٦٦م ، دار الكتاب الجديد .
(٣٨٧) النظرية المادية فى المعرفة ، روجيه جارودى ، تعريب إبراهيم قريط ، دار دمشق للطباعة والنشر .
(٣٨٨) النظـم الإقتصـادية المعـاصرة ، د. صلاح الدين نامـق ، دار النهضـة العربية .
(٣٨٩) نقـد أصول الشيوعية ، صـالح اللحيدان ، الطبعـة الثانية ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .
(٣٩٠) نقد الثقافة الإلحادية ، د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم ، الطبعـة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان .
(٣٩١) نقـد العقل المحض ، عمـانويل كانط ، ترجمـة مـوسى وهبة ، مركز الإنماء القومى ، بيروت .
(٣٩٢) نقـد النظرية الماركسيـة ، هادى المدرسى ، الطبعـة الثـالثة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت .
(٣٩٣) نقـض أوهـام المادية الجدليـة ، د. سعيـد رمضـان البـوطى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا .
(٣٩٤) نقـض الإشتراكيـة الماركسيـة ، غـانم عبـده ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م ، دار الإيمان ، بيروت .

(٣٩٥) هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى ، ابن القيم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
(٣٩٦) هذا الدين ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت .
(٣٩٧) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام ، أنور الجندى ، دار الاعتصام .
(٣٩٨) هل تعود الشيوعية ، حميدى العبد الله ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م ، شركة الحقيقة للصحافة والإعلام .
(٣٩٩) واقعنا المعاصر ، محمد قطب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر .
(٤٠٠) وجاء دور المجوس ، عبد الله محمد الغريب ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
(٤٠١) وسقطت الماركسية ، عبد القادر العمارى ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، دار الثقافة ، الدوحة .
(٤٠٢) الوصية الأخيرة ، نيكيتا خروشوف ، ترجمة زهدى جار الله ، ١٩٧٥م ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت .
(٤٠٣) وضعية الدين عند ماركس وانجلز ، ميشال برتران ، ترجمة صلاح كامل ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، دار الفارابى ، بيروت ، لبنان .
(٤٠٤) يهود الأمس سلف سيء لخلف أسوأ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م مكتبة السوادى للتوزيع .
(٤٠٥) اليهودية ، أحمد شلبى ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٩٩٣م ، مكتبة النهضة المصرية .
(٤٠٦) اليهود فى المعسكر الشرقى ، داؤد سنقرط ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع(*).

(*) ملاحظة : لم أدخل فى هذه القائمة الصحف والمجلات .

فهرس الموضوعات

الصفحة

الباب الأول
الشيوعية الماركسية

المقدمة ..... ب-ع
تمهيد ١
أولا : خصائص الحضارة اليونانية ٣
ثانيا : خصائص الحضارة الرومانية ٥
ثالثا : اليهودية ٧
رابعا : النصرانية ١٠
التحريف : ١٢
أولا : التحريف العقدى ١٢
ثانيا : فصل العقيدة عن الشريعة ١٥
مجمع نيقيه ١٨
العقيدة التى أقرها المجمع ١٩
أهم قرارات المجمع ٢٠
النتائج ٢٢
طغيان الكنيسة ٢٤
أولا : الطغيان الاستعبادى ٢٥
ثانيا : الطغيان السياسى ٢٧
ثالثا : الطغيان المالى ٣٠
أساليب الكنيسة فى تنمية مواردها المالية ٣١
أولا : الأملاك الإقطاعية ٣١
ثانيا : الأوقاف ٣٢
ثالثا : العشور ٣٢

الصفحة

رابعا : الهبات والعطايا ٣٢
خامسا : العمل المجانى (السخرة) ٣٣
سادسا : صكوك الغفران ٣٤
أصل هذه البدعة ٣٥
رابعا : الطغيان العلمى ٣٧
الصراع بين العلم والكنيسة ٣٨
النظريات العلمية وردها ٣٨
محاكم التفتيش ٣٩
المسلمون ومحاكم التفتيش ٤١
صور من العذاب وآلات التعذيب ٤١
شاهد عيان على محاكم التفتيش ومابداخلها ٤٣
آثار الكنيسة على الحياة الأوربية ٤٩
حركات الإصلاح ٥٣
المسلمون وحركات الإصلاح ٥٤
حركة مارتن لوثر ٥٦
حركة جون كالفن ٥٩
حقائق عن حركة الإصلاح اللوثرية ٦١
عدم نجاح حركات الإصلاح ٦٢
بعض ايجابيات حركات الإصلاح ٦٤
وقفة أخيرة مع حركات الإصلاح الدينى ٦٦
الشيوعية وبعض العوامل التى أدت إلى قيامها ٦٨
الثورة البلشفية ٧١
أولا : الحركات الممهدة لقيام الشيوعية ٧٣
ثانيا : اليهود وراء النظام الإشتراكى ٧٤

الصفحة

ثالثا : اتفاق المذهبين فى حرب الإسلام ٧٧
رابعا : حال اليهود فى روسيا إبان حكم القياصرة ٧٩
خامسا : إيجاد العملاء داخل روسيا لتسهيل مهمة الثورة ٨٣
سادسا : إنهاك روسيا حربيا وإضعافها سياسيا ٨٦
سابعا : إعلان الثورة ٨٨
ثامنا : التمويل اليهودى للحركة الإشتراكية ٩٢
تاسعا : الثورات الإشتراكية خارج روسيا ٩٤
سابعا : النظريات العلميةوالمذاهب الفلسفية الإلحادية
التى سبقت ماركس ٩٥
سيادة الدين ٩٩
سيادة العقل ١٠٠
سيادة الحس ١٠٥
الفصل الأول : مراحل الإشتراكية ١١٢
تمهيد ١١٢
المبحث الأول : المرحلة الأولى : أفلاطون ١١٤
إشتراكية أفلاطون ١١٥
الأسرة فى جمهورية أفلاطون ١١٧
المبحث الثانى : المرحلة الثانية : المزدكية ١٢٠
المبحث الثالث : المرحلة الثالثة : القرامطة ١٢٦
البابكية (الخرمية) ١٣٨
المبحث الرابع : المرحلة الرابعة : الإشتراكيون الطوباويون ١٤٠
أولا : الإشتراكية الطوباوية ١٤٠
ثانيا : أساتذة ماركس (الطوباويون الأواخر) ١٤٧
سان سيمون ١٤٨
شارل فوريه ١٥٠

الصفحة

روبرت أوين ١٥١
المبحث الخامس : المرحلة الخامسة : ماركس ١٥٦
المبحث السادس : المرحلة السادسة : الشيوعيون بعد ماركس ١٥٧
أولا : التيار الإصلاحى ١٥٧
ثانيا : الإشتراكية الفابية ١٥٩
الخطوط العريضة فى مبادىء الإشتراكية الفابية ١٦٠
الفصل الثانى : الأهداف والمبادىء الأساسيةللشيوعية ١٦٢
تمهيد ١٦٢
المبحث الأول : القضاء على الملكية الفردية ١٦٥
رأى ماركس فى تطور الملكية ١٦٥
المبحث الثانى : إلغاء الطبقات وإقامة طبقة البروليتاريا . ١٧٢
ظهور البروليتاريا وصراعها الطبقى ١٧٥
معنى الدكتاتورية ١٧٦
الأهداف التى يرغب الشيوعيون فى تحقيقها من وراء هذا
المبدأ ١٨١
المبحث الثالث : كفالة الدولة لجميع المواطنين ١٨٤
أولا : الجانب السياسى ١٨٤
ثانيا : حق التربية والتعليم ١٨٧
المبحث الرابع : المساواة ١٩٠
المبحث الخامس : مبدأمن كل حسب كفاءته ولكل حسب
عمله ١٩٤
المبحث السادس : مبدأ من كل حسب كفاءته ولكل
حسب حاجته ١٩٧
المبحث السابع : إلغاء الدين ١٩٩
ماهى التربية الإلحادية ٢٠١

الصفحة

الاتحاد السوفييتى والتربية الإلحادية ٢٠١
المبحث الثامن : التأميم ٢٠٦
الأهداف التى يطمحون فى تحقيقها من وراء هذا المبدأ .. ٢٠٧
المبحث التاسع : زوال الدولة ٢٠٩
المبحث العاشر : الأممية ٢١٦
أولا : الأممية الأولى (الإشتراكية) ٢١٦
ثانيا : الأممية الثانية ٢١٧
ثالثا : الأممية الثالثة (الشيوعية) ٢١٨
رابعا : الأممية البروليتارية ٢٢٠
الفصل الثالث : الشيوعية وصلتها بالصهيونية ٢٢٤
المبحث الأول : حياة كارل ماركس ٢٢٨
والداه ٢٢٨
نشأته العلمية ٢٣١
فى باريس ٢٣٣
فى لندن ٢٣٧
المبحث الثانى : مصادر الماركسية ٢٤٤
أولا : الفلسفة الألمانية ٢٤٥
المصدر الثانى : الإشتراكية الفرنسية ٢٤٩
المصدر الثالث : الإقتصاد الانجليزى ٢٥٤
المصدر الرابع : نظرية التطور ٢٥٦
نظرية التطور ٢٥٧
أثر نظرية داورين فى الفكر الأوروبى ٢٥٩
الآثار العقدية ٢٦٠
أثر الداروينية فى الفكر الشيوعى ٢٦٢

الصفحة

موقف العلم من النظرية ٢٦٤
المبحث الثالث : الشيوعية وليدة الصهيونية ٢٦٧
العودة إلى صهيون بفلسطين عقيدة يهودية ٢٦٩
تعريف الصهيونية ٢٧١
الحركة الصهيونية الحديثة ٢٧٣
كيف ظهرت البروتوكولات ٢٧٥
الصهيونية واليهودية ٢٧٨
المبحث الرابع : البراهين الدالة على أن الشيوعية وليدة الصهيونية ٢٨٢
(أ) البراهين الدالة على أن الشيوعية وليدة الصهيونية ٢٨٣
(ب) دعم الشيوعية لدولة إسرائيل ٣٠٧
الفصل الرابع : المادة ٣٤٨
منشأ الخلاف ٣٤٨
فيشته ٣٥٢
هيغل ٣٥٣
ثناء الماركسيين على هيغل ٣٥٦
المادية وبعض فلاسفتها ٣٥٩
(أ) ديموقريطس الابديرى ٣٥٩
(ب) أبيقور ٣٦٠
(ج) هوبز ٣٦٠
(د) دافيد هيوم ٣٦١
(هـ) شوبنهاور ٣٦١
المبحث الأول : مادية ماركس ٣٦٤
تعريف المادة والمقصود بالمادية ٣٦٦
المبحث الثانى : المادية الجدلية (الديالكتيك) ٣٧٣

الصفحة

المادية الجدلية الماركسية ٣٧٦
المبحث الثالث : أزلية المادة وأبديتها وقوانينها عندهم... ٣٨٠
قوانين المادة ٣٨٢
أولا : الترابط ٣٨٢
ثانيا : قانون الحركة ٣٨٣
ثالثا : قانون التطور فى الطبيعة ٣٨٤
رابعا : قانون التناقض فى الطبيعة ٣٨٧
المبحث الرابع : المادية التاريخية ٣٩٠
المادية التاريخية ٣٩٢
الأسس التى يقوم عليها التفسير المادى للتاريخ ٣٩٤
التفسير المادى للتاريخ البشرى ٣٩٨
المبحث الخامس : التفسير المادى للدين والأخلاق والأسرة ٤٠٠
التفسير المادى للدين ٤٠٠
التفسير المادى للأخلاق ٤٠٣
التفسير المادى للأسرة ٤٠٥

الباب الثانى

أسباب سقوط الشيوعية الداخلية

تمهيد عن السنن الربانية ومفهوم السقوط ٤٠٨
السنن الإلهية ٤٠٩
الأمم السابقة والسنن الربانية ٤١٣
السنة الإلهية بالنسبة لمن تقع عليه ٤٢٠
مفهوم السقوط ٤٢٨
هل كان السقوط مفاجئا ٤٤٣

الصفحة

هل السقوط خاص بالفكر الشيوعى ٤٤٥
أقسام الأسباب ٤٤٥
أولا : الأسباب الداخلية ٤٤٦
ثانيا : الأسباب الخارجية ٤٤٦
الفصل الأول : مصادمة النظام الشيوعى للفطرة ٤٤٧
تمهيد ٤٤٧
المبحث الأول :مصادمة الشيوعية لفطرية التدين ٤٤٩
أولا : إثبات فطرية التدين شرعا وتاريخا ٤٥٠
(أ) فطرية التدين شرعا ٤٥٠
(ب) الدلالة التاريخية على أن البشر مفطورون على
التوحيد..... ٤٥٨
ثانيا : مصادمة الشيوعية للفطرة الدينية فى النفس البشرية ٤٦٤
أولا :إنكارهم وجود الخالق جل جلاله ٤٦٧
ثانيا :موقفهم من الدين وأقوالهم فيه ، نشأته وتطوره... ٤٧٢
ثالثا : تفسيرهم لنشأة الدين ٤٩٢
بيان بطلان مزاعمهم ٤٩٧
أولا : إنكارهم وجود الخالق جل وعلا ٤٩٧
ثانيا : إبطال مزاعمهم فى الدين وأنه أفيون الشعوب ... ٥٢١
ثالثا : رد مزاعمهم فى نشأة الدين ٥٢٩
أولا : قولهم إن الدين من اختراع الإنسان ٥٢٩
ثانيا : بطلان زعمهم أن الدين من اختراع الطبقة الحاكمة ٥٣٢
ثالثا : بطلان زعمهم أن الدين من اختراع الطبقة
المضطهدة..... ٥٣٤

الصفحة

رابعا : بطلان زعمهم أن الدين يتطور تبعا لتطور العامل الإقتصادى ٥٣٥
خامسا : بطلان زعمهم أن الإنسان اخترع الدين بسبب جهله ٥٤٢
سادسا : بطلان زعمهم بأن الدين متطور ٥٤٤
الشيوعيون والفطرة ٥٤٦
المبحث الثانى : مصادمة الشيوعية لفطرية التملك ٥٥٦
تعريف الملكية ٥٥٦
فطرية التملك ٥٥٧
الملكية فى الإسلام..... ٥٦٠
شروط التملك وقيود الملكية ٥٦١
خصائص الملكية فى الإسلام ٥٦٢
التصرف فى الملكية ٥٦٥
أنواع الملكية فى الإسلام ٥٦٦
الملكية العامة ٥٦٧
من صور الملكية العامة فى النظام الإسلامى ٥٦٨
الشيوعية ومصادمة فطرية الملكية الخاصة ٥٧٠
ملخص أقوال الشيوعيين فى الملكية الفردية ثم بيان بطلانها..... ٥٧١
بيان بطلان مزاعم الشيوعية عن الملكية الفردية ومصادمتها للفطرة الإنسانية ٥٧٣
الشيوعية وفطرية التملك ٥٨٠
المبحث الثالث : مصادمة الشيوعية لفطرية الزواج والحياة الأسرية ٥٨٢

الصفحة

بعض الآيات والأحاديث الدالة على فطرية الزواج وسكن الإنسان إليه ٥٨٣
الشيوعية وفطرية الزواج والحياة الأسرية ٥٨٨
الأسرة عند الشيوعيين ٥٨٩
الأسرة فى الإشتراكية ٥٩٢
نظرتهم للمرأة ٥٩٢
تربية الأطفال ٥٩٤
إبطال مزاعم الشيوعية وبيان مصادمتها للفطرة الإنسانية ٥٩٨
واقع الاتحاد السوفييتى ومصادمة فطرية الزواج والحياة الأسرية ٦١٥
المبحث الرابع : مصادمة الشيوعية لفطرية التجمع والانتماء ٦١٩
فطرية التجمع والانتماء ٦١٩
الشيوعية ومصادمة فطرية التجمع والانتماء ٦٢١
بطلان مزاعمهم من عدة وجوه ٦٢٥
مصادمة الفطرة وإنهيار الشيوعية ٦٣٤
الفصل الثانى : القضاء على الحريات ٦٣٧
تمهيد ٦٣٧
لمحة عن الحقوق والحريات ٦٤٠
لمحة تاريخية عن القوانين والدساتير وحقوق الإنسان ٦٤١
تعريف الحرية ٦٤٣
مقصودنا بالحرية وأهميتها وبيان أنها مقيدة وليست مطلقة ٦٤٥
أهمية الحرية وتقييدها ٦٤٧
مصدر هذه الحرية ٦٤٨

الصفحة

الحريات فى النظام الشيوعى ٦٥٠
المبحث الأول : الحرية الشخصية ٦٥١
(أ) الحرية الشخصية فى النظام الشيوعى ٦٥١
(ب) الحرية الشخصية فى الإسلام ٦٦٩
المبحث الثانى : الحرية الدينية ٦٧٦
(أ) الحرية الدينية فى النظام الشيوعى ٦٧٦
الشيوعية وحرية العقيدة بين النظرية والواقع ٦٨٠
(ب) الحرية الدينية فى الإسلام ٧٠٦
المبحث الثالث : الحرية الفكرية ٧١٥
(أ) الحرية الفكرية فى النظام الشيوعى ٧١٥
أثر القضاء على هذه الحرية ٧٣٤
(ب) الحرية الفكرية فى الإسلام ٧٣٩
حرية الرأى والفكر فى الكتاب والسنة ٧٤٠
واقع المسلمين وحرية الفكر والرأى ٧٤٢
المبحث الرابع : حرية التعلم والتعليم ٧٤٥
(أ) حرية التعلم والتعليم فى النظام الشيوعى ٧٤٥
اهتمام الاتحاد السوفييتى بالتربية والتعليم ٧٤٦
مصادر التربية والتعليم فى الاتحاد السوفييتى وأهدافها ٧٤٧
لمحة عن مناهج التعليم فى الاتحاد السوفييتى ٧٥٢
(ب) حرية التعلم والتعليم فى الإسلام ٧٦٠
واقع الأمة المسلمة مع حرية التعليم ٧٦٣
المبحث الخامس : الحرية السياسية ٧٦٥
(أ) الحرية السياسية فى النظام الشيوعى ٧٦٥
تقسيم الدولة عند الشيوعيين ٧٨١

الصفحة

الحرية السياسية الشيوعية بين النظرية والواقع ٧٨٢
بطلان مزاعمهم فى الدكتاتورية ٧٩٣
بطلان مزاعمهم فى دعوى تحقيق الانتخاب ٨٠٦
الرد على زعمهم توافر حق النقد فى الهيئات السياسية .. ٨١١
إبطال دعواهم فى الدفاع عن أنفسهم بانتقادهم
الديموقراطية الغربية ٨١٣
(ب) الحرية السياسية فى الإسلام ٨٢٢
الأصل الأول : يقوم الحكم فى الإسلام على عقيدة
لاإله إلا الله..... ٨٢٥
الأصل الثانى : وجوب تعيين الحاكم ٨٢٥
الأصل الثالث : البيعة ٨٢٧
الأصل الرابع : الشورى ٨٢٨
المبحث السادس : حرية العمل ٨٣٣
(أ) حرية العمل فى النظام الشيوعى ٨٣٣
النظام الشيوعى وحرية العمل والعمال ٨٣٨
(ب) حرية العمل فى الإسلام ٨٥٨
كفالة الإسلام حق العمل وحريته ٨٦٠
واقع الأمة المسلمة فى تحقيق الحرية للعمال ٨٦٦
المبحث السابع : حرية التنقل ٨٦٨
(أ) حرية التنقل فى النظام الشيوعى ٨٦٨
(ب) حرية التنقل فى الإسلام ٨٧١
مصادرة الحرية وسقوط الشيوعية ٨٧٣
الفصل الثالث : فشل النظام الإقتصادى الشيوعى ٨٨٠
تمهيد ٨٨٠

الصفحة

المبحث الأول : المذهب الإقتصادى الشيوعى وأهم مرتكزاته ٨٩٤
العامل الإقتصادى ٨٩٤
أهم مرتكزات النظام الإقتصادى الشيوعى ٧٩٧
المبحث الثانى : النظام الإقتصادى الشيوعى بين النظرية والواقع ٩٠٠
أولا : إلغاء الملكية الفردية ٩٠٠
بطلان زعمهم أن الملكية الفردية سبب الشرور والظلم.... ٩٠٥
ثانيا : بيان فساد مبدأ التأميم ٩٢٤
فساد مبدأ إلغاء الطبقات ٩٣٢
نقض دعواهم فى المساواة ٩٧٠
كفالة الدولة ٩٨٤
بطلان وفساد مبدأ (من كل حسب كفاءته ولكل حسب عمله) ٩٨٤
بطلان وفساد مبدأ (من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته) ٩٩٠
المبحث الثالث : نظرية القيمة وفائض القيمة ٩٩٥
القيمة وفائض القيمة ٩٩٧
القيمة عند ماركس ٩٩٧
نظرية فائض القيمة ٩٩٩
أولا : قانون تجمع رأس المال ١٠٠١
ثانيا : قانون التراكم الرأسمالى ١٠٠٢
ثالثا : قانون زيادة البؤس (الفقر) ١٠٠٤
بطلان هذه النظرية .....

الصفحة

(أ) القيمة ١٠٠٥
(ب) بطلان نظرية فائض القيمة ١٠١٣
بطلان قانون تجميع رأس المال ١٠٢٣
بطلان قانون تراكم رأس المال ١٠٢٤
بطلان قانون زيادة البؤس والفقر ١٠٢٥
بطلان قانون الصراع..... ١٠٢٦
أهم أسباب فشل النظام الإقتصادى الشيوعى ١٠٣٠
أثر فشل الإقتصاد الشيوعى فى إنهيار الاتحاد السوفييتى وفكره ١٠٣٤
المبحث الرابع : مميزات النظام الإقتصادى الإسلامى ١٠٤٠
مميزات الإقتصاد الإسلامى ١٠٤١
الفصل الرابع : فساد تنبؤات الشيوعية وبطلان نظرياتها ١٠٥٢
تمهيد ١٠٥٢
المبحث الأول : فساد نبؤات الماركسية ١٠٥٤
أثر فساد النبؤات ١٠٦٦
المبحث الثانى : إبطال العلم للأفكار الماركسية ١٠٦٩
أولا : وجود الإله ١٠٧١
ثانيا : أزلية المادة ١٠٧٢
المبحث الثالث : إبطال قوانين الجدل ١٠٨٣
أولا : قانون التناقض ١٠٨٣
ثانيا : قانون التطور ١٠٩١
ثالثا : قانون الحركة ١١٠٢
رابعا : قانون الترابط ١١٠٣
المبحث الرابع : بطلان المادية التاريخية ١١٠٨

الصفحة

المادية التاريخية باطلة وبيان بطلانها من وجوه ١١١٠
الفصل الخامس : مصادمتها للواقع والتغيير فى مبادئها ... ١١٤٩
تمهيد ١١٤٩
أثر ذلك التصادم ١١٥٣
المبحث الأول : التراجع والتغيير زمن لينين ١١٥٤
المبحث الثانى : التراجع والتغيير زمن ستالين ١١٨١
المبحث الثالث : التراجع والتغيير زمن خروشوف ١١٩٩
المبحث الرابع: التراجع والتغيير زمن بريجنيف ١٢١٤
المبحث الخامس : التراجع والتغيير زمن اندروبوف ١٢١٨
المبحث السادس : التراجع والتغيير زمن تشرنينكو ١٢٢٣
المبحث السابع : التراجع والتغيير زمن غورباتشوف ١٢٢٦
التغيير والتراجع وأثر ذلك فى سقوط الشيوعية ١٣٢٤

الباب الثالث

أسباب سقوط الشيوعية (الخارجية)

تمهيد ١٣٣٥
لمحة تاريخية عن الحرب ١٣٣٨
الحرب الباردة ومفهومها ١٣٤٢
بعض النماذج لهذه الحرب ١٣٤٢
أهمية الحرب النفسية وخطرها ١٣٤٦
تعريف الحرب النفسية ١٣٤٧
بعض المصطلحات التى عرفت بها الحرب النفسية ١٣٤٨
لمحة عن مصطلح الحرب الثورية ١٣٤٩
أهداف الحرب النفسية ووسائلها ١٣٥١

الصفحة

مصطلح الحرب الباردة ١٣٥٣
بداية الحرب الباردة ونهايتها ١٣٥٥
المبحث الأول : أسباب الحرب الباردة ومقدماتها ١٣٦٤
مؤتمر يالطا ١٣٦٧
أولا : المانيا ١٣٦٩
ثانيا : أوروبا ١٣٧١
ثالثا : آسيا والشرق الأقصى ١٣٧١
رابعا : الأوضاع العالمية ١٣٧٣
آثار المؤتمر ١٣٧٥
المبحث الثانى : الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتى
والولايات المتحدة وأبرز أساليبها ١٣٩٥
التوسع والتدخل فى شئون الآخرين ١٣٩٦
توسع الاتحاد السوفييتى ١٣٩٩
الاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية ١٤٠٢
بولونيا ١٤٠٣
رومانيا ١٤٠٦
المجر ١٤٠٩
بولندا ١٤١٠
يوغسلافيا ١٤١٤
تشيكوسلوفاكيا ١٤١٦
المجر والبانيا ١٤١٧
الأزمات ١٤٢٣
أزمة برلين ١٤٢٤
آثار أزمة برلين ١٤٣١

الصفحة

ثانيا : التحالف ١٤٣٥
حلف شمال الأطلنطى ١٤٣٧
بعض الأهداف التى حققها الحلف ١٤٤١
رد الفعل السوفييتى ١٤٤٢
حلف وارسو ١٤٤٣
آثار قيام التحالف ١٤٤٥
ثالثا : أحداث الصين اتجاه الحرب الباردة شرقا ١٤٤٧
مساعدات الولايات المتحدة لتشاينغ ١٤٥٠
السوفييت والصين ١٤٥٣
رابعا : الحرب الكورية ١٤٥٨
نشوب الحرب بين الدولتين ١٤٦٢
خامسا : الأزمة الفيتنامية (الهند الصينية) ١٤٧٤
آثار الحرب الفيتنامية ١٤٨٣
سادسا : الشرق الأوسط والحرب الباردة ١٤٨٨
آثار أزمة الشرق الأوسط ١٤٩٣
سابعا : أزمة كوبا ١٤٩٩
الولايات المتحدة وكوبا ١٥٠٢
الاتحاد السوفييتى والإشتراكية الكوبية ١٥٠٢
كوبا بين القوتين العظميين ١٥٠٣
صواريخ كوبا ١٥٠٦
اكتشاف قاعدة الصواريخ ١٥٠٦
الأسباب التى أدت إلى نشر الصواريخ فى كوبا..... ١٥١٣
ثامنا : الإجتياح الروسى لأفغانستان ١٥١٨
سباق التسلح ١٥٢٠

الصفحة

الفضاء والأمم المتحدة ١٥٢٨
القانون الدولى للفضاء وتنظيم الأمم المتحدة لاستخدامه ١٥٣٠
اهتمام الدولتين بالفضاء ١٥٣١
الصراع بين الدولتين ١٥٣٣
(أ) الأقمار الصناعية ١٥٤١
(ب) الأسلحة المضادة للأقمار الصناعية ١٥٤١
مبادرة الدفاع الاستراتيجى ١٥٤٣
السبب فى هذه المبادرة ١٥٤٤
ردود الفعل لحرب النجوم لدى السوفييت ١٥٤٤
إمكانية تنفيذ مشروع الدفاع الاستراتيجى وسلبياته ١٥٤٧
التجسس (حرب المخابرات) ١٥٥٣
المبحث الثالث : آثار الحرب الباردة ١٥٥٧
أولا : التعجيل بسقوط الاتحاد السوفييتى وإنهياره ١٥٥٧
ثانيا : الآثار السياسية للحرب الباردة ١٥٦٩
ثالثا : تشويه القيم والأخلاق ١٥٦٩
رابعا : من آثارها ونتائجها (الوفاق الدولى) ١٥٧٠
المبحث الرابع : إنهاء الحرب الباردة ١٥٧١
الفصل الثانى : الوفاق الدولى ١٥٧٧
تمهيد ١٥٧٧
أولا : التعايش السلمى ١٥٨٠
خروشوف والتعايش السلمى ١٥٨٤
الشيوعيون المتشددون والتعايش السلمى ١٥٨٥
الأسباب التى أدت لقبول سياسة التعايش ١٥٨٦
أهم ميزات التعايش السلمى ١٥٨٧

الصفحة

الإنفراج الدولى ١٥٨٩
التحديد الزمنى لفترة الإنفراج الدولى ١٥٩٠
الوفاق الدولى ١٥٩٣
المبحث الأول : بداية الوفاق وفكرته ١٥٩٥
المبحث الثانى : أهدافه ونتائجه ١٦٠٨
أهدافه ١٦١١
(أ) الولايات المتحدة الأمريكية ١٦١٧
(ب) الاتحاد السوفييتى والوفاق ١٦٢١
سولت ١٦٢٦
ستارت ١٦٢٩
مؤتمر جنيف ١٦٣٠
مؤتمر ركيافيك ١٦٣٥
قمة موسكو ١٦٣٥
قمة مالطا (لقاء العاصفة) ١٦٣٥
قمة واشنطن ١٦٣٥
المبحث الثالث : أثر الوفاق فى تنازل الاتحاد السوفييتى
عن كثير من مبادئه ١٦٤٣
أولا : إبطال مبدأ القضاء على الرأسمالية بالقوة ١٦٥٣
ثانيا : أبطل غورباتشوف فكرة الصراع بين النظامين والتى
قال بها ماركس من قبل ١٦٥٤
ثالثا : القضاء على مبدأ الدكتاتورية ١٦٥٥
رابعا : إعلان نهاية الصراع الأيديولوجى مع الولايات
المتحدة ١٦٥٥
خامسا : إعلان زوال مبدأ حتمية سيادة الإشتراكية ١٦٥٧

الصفحة

سادسا : العمل مع الرأسمالية على تحقيق الأمن ١٦٥٧
سابعا : التعاون فى حل الإشكالات الإقليمية والعالمية ١٦٥٧
ثامنا : لم يعد هناك حاجة لتصوير الولايات المتحدة
بأنها العدو اللدود للاتحاد السوفييتى ١٦٥٩
تاسعا : التغيير فى مجال الإقتصاد ١٦٦٠
عاشرا : حصول الفرد على كثير من حقوقه فى ظل سياسة
غورباتشوف الإصلاحية والإنفتاحية ١٦٦١
الحادى عشر : كان من آثار الوفاق التى ظهرت زمن
الحقبة الغورباتشوفية فرض البيريسترويكا بالقوة
من قبل الجبارين على دول أوروبا الشرقية ١٦٦٢
الثانى عشر : حقق الاتحاد السوفييتى شيئا من المصالح
الإقتصادية نتيجة الوفاق زمن غورباتشوف ١٦٦٣
المبحث الرابع : الموقف من الوفاق ١٦٦٥
موقف الأمة المسلمة من الوفاق (النظام العالمى الجديد) ١٦٧٤
الفصل الثالث : الجهاد الأفغانى..... ١٦٧٩
تمهيد ١٦٧٩
فضل الجهاد فى سبيل الله تعالى وبعض من غاياته ١٦٨٢
من غايات الجهاد الإسلامى ١٦٨٣
لمحة تاريخية عن أفغانستان ١٦٨٦
الشعب الأفغانى ١٦٨٧
اللغة ١٦٨٩
الدين ١٦٨٩
الإسلام ودولة أفغانستان ١٦٩٠

الصفحة

المبحث الأول : دراسة تاريخية موجزة عن العلاقة بين
حكومة أفغانستان وروسيا ١٦٩٢
العلاقة بين الدولتين بعد الثورة البلشفية ١٦٩٥
أولا : استغلال حكام أفغانستان وتوظيفهم لخدمة الأطماع
الشيوعية ١٦٩٦
أمان الله والسوفييت ١٦٩٦
محمد ظاهر شاه ١٧٠٠
محمد داود ١٧٠٢
أسباب الإنقلاب ١٧٠٤
بداية فقدان الثقة فى داود ١٧٠٥
محمد نور تراقى ١٧٠٧
حفيظ الله أمين ١٧١٠
بابراك كارمل ١٧١١
نجيب الله ١٧١٣
ثانيا : إيجاد العملاء واستغلالهم لتحقيق الأهداف
السوفيتية ١٧١٦
ثالثا : إنشاء المنظمات والأحزاب الشيوعية ١٧١٧
رابعا : توقيع المعاهدات بين الطرفين ١٧١٩
خامسا : التأثير المباشر فى الأصول والنظم التى يقوم
عليها الحكم فى أفغانستان ١٧٢١
سادسا : تقديم المساعدات لأفغانستان ١٧٢٣
المبحث الثانى : التدخل الروسى فى أفغانستان وإعلان الجهاد ١٧٢٦
قرار الغزو ١٧٢٦
الرواية الروسية للغزو ١٧٢٧

الصفحة

إعلان الجهاد ١٧٣٠
الدوافع لغزو أفغانستان ١٧٣٠
المبحث الثالث : الخسائر الفكرية والسياسية والإقتصادية
للاتحاد السوفييتى وأثر ذلك فى سقوطه ١٧٤٢
الآثار الفكرية ١٧٤٢
الآثار السياسية ١٧٥٢
(أ) باكستان ١٧٥٣
(ب) الهند ١٧٥٣
(ج) الصين الشعبية ١٧٥٥
(د) إيران ١٧٥٦
(هـ) دول الخليج والشرق الأوسط ١٧٥٦
الآثار الإقتصادية ١٧٥٩
الإنسحاب السوفييتى من أفغانستان ١٧٦٤
دوافع الإنسحاب ١٧٦٥
مابعد الإنسحاب ١٧٦٨
المبحث الرابع : موقف الدول الرأسمالية من الجهاد
الأفغانى ١٧٧٢
أثر هذا الغزو فى موقف الدول الرأسمالية ودور ذلك فى
سقوط الشيوعية ١٧٨٠
بعض الآثار التى خلفها الغزو السوفييتى لأفغانستان ١٧٨٣
الخاتمة ١٧٨٩
فهرس الآيات القرآنية ١٧٩٥
فهرس الأحاديث الشريفة مرتبة على الحروف ١٨١٢
فهرس الأعلام المترجم لهم ١٨١٤

الصفحة

فهرس الأديان والمذاهب والفرق ١٨١٩
فهرس بعض المصطلحات الشيوعية ١٨٢٠
فهرس المراجع والمصادر ١٨٢١
فهرس الموضوعات ١٨٥٣